

العون الهندي

عَنْ أَمَالِي فِي دِيْوَانِ الْكِنْدِيِّ

مَجَالِسُ أَدَبِيَّةٍ فِي دِيْوَانِ الْمَتْنِيِّ



تَأَلَّفَ

عَلَامَةُ حَضْرَوَاتٍ وَمُفْتِيهَا

السَّيِّدُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ السَّقَّافُ

رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى

قَدَّمَ لَهُ الدُّكْتُورُ عَائِضُ الْقُرْنِيِّ



مَجَالِسُ أَدَبِيَّةٍ فِي دِيْوَانِ الْمَتْنِيِّ



كَارِ الْمُنْتَهَا

العروة الوثقى

عن أمالي في ديوان الكندي

مجالس أبيه في ديوان المتنبى

تأليف

علامة حضرموت ومفتيها

السيد عبد الرحمن بن عبد الله السقاف

رحمة الله تعالى

(١٣٠٠-١٣٧٥هـ)

قدم له

فضيلة الشيخ

الدكتور عائض القرني

في ديوان المتنبى

العروة الوثقى
عن أمالي في ديوان الكندي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



دار المنهاج

لبنان - بيروت - فاكس : ٧٨٦٢٣٠

الطبعة الأولى

١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م

جميع الحقوق محفوظة للناشر

دار المنهاج للنشر والتوزيع

لصاحبها عملاً سنألم بأجحف
وقفه الله تعالى

المملكة العربية السعودية - جدة

حي الكندرة - شارع أبها تقاطع شارع ابن زيدون

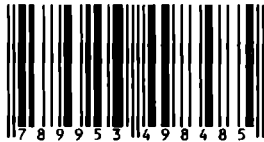
هاتف رئيسي 6326666 - الإدارة 6300655

المكتبة 6322471 - فاكس 6320392

ص. ب 22943 - جدة 21416

لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه، وبأي شكل من الأشكال، أو نسخه، أو حفظه في أي نظام إلكتروني أو ميكانيكي يمكن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه، وكذلك لا يسمح بالاعتباس منه أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبقاً من الناشر

ISBN: 978 - 9953 - 498 - 48 - 5



www.alminhaj.com

E-mail: info@alminhaj.com

الموزعون المعتمدون داخل المملكة العربية السعودية

مكتبة الشنقيطي - جدة هاتف 6893638	مكتبة دار كنوز المعرفة - جدة هاتف 6510421 - 6570628	دار المنهاج للنشر والتوزيع - جدة هاتف 6322471 - فاكس 6320392
مكتبة نزار الباز - مكة المكرمة هاتف 5473838 - فاكس 5473939	مكتبة الأسدبي - مكة المكرمة هاتف 5570506	مكتبة المأمون - جدة هاتف 6446614
مكتبة المزيني - الطائف هاتف 7365852	مكتبة الزمان - المدينة المنورة هاتف 8366666 - فاكس 8383226	دار البدوي - المدينة المنورة هاتف 0503000240
مكتبة الرشد - الرياض هاتف 4593451 - 4583712 فاكس 4573381	مكتبة المبيكان - الرياض وجميع فروعها داخل المملكة هاتف 2741578 - فاكس 2741750	مكتبة جرير - الرياض وجميع فروعها داخل المملكة وخارجها هاتف 2741578 - فاكس 2741750
مكتبة المتني - الدمام هاتف 8413000 - فاكس 8432794	دار أطلس - الرياض هاتف 4266104	دار التدمرية - الرياض هاتف 4924706 - فاكس 4937130



الموزعون المعتمدون خارج المملكة العربية السعودية

الجمهورية اليمنية مكتبة تريم الحديثة - حضرموت هاتف 417130 - فاكس 418130 دار القدس - صنعاء هاتف 0096777711881	دولة الكويت مكتبة دار البيان - حوكلي هاتف 2616495 - فاكس 2616490 دار الضياء للنشر والتوزيع - حوكلي هاتف 2658180 - فاكس 2658180	الإمارات العربية المتحدة مكتبة دبي للتوزيع - دبي هاتف 2211949 - فاكس 2225137 دار الفقيه - أبو ظبي هاتف 6678920 - فاكس 6678921
الجمهورية اللبنانية الدار العربية للعلوم - بيروت هاتف 785107 - فاكس 786230 مكتبة التمام - بيروت هاتف 707039 - جوال 03662783	الجمهورية العربية السورية دار السنابل - دمشق هاتف 2242753 - فاكس 2237960 مكتبة المنهاج القويم - دمشق هاتف 2235402 - فاكس 2235402	جمهورية مصر العربية دار السلام - القاهرة هاتف 2741578 - 2704280 مكتبة نزار مصطفى الباز - القاهرة هاتف 25060822 - جوال 0122107253
المملكة الأردنية الهاشمية دار محمد دنديس - عمان هاتف 4653390 فاكس 4653380	مملكة البحرين مكتبة الفاروق - المنامة هاتف 17272204 - 17273464 فاكس 17256936	دولة قطر مكتبة الأقصى - الدوحة هاتف 4437409 - 4316895 فاكس 2291135
جمهورية أندونيسيا دار العلوم الإسلامية - سوروبايا هاتف 60304660 - 006231	الجمهورية التونسية الدار المتوسطة للنشر - تونس هاتف 70698880 - فاكس 70698633	المملكة المغربية دار الأمان - الرباط هاتف 0537723267 - فاكس 0537200055

جمهورية داغستان
مكتبة دار الرسالة - محج قلعة
هاتف 0079285708188
هاتف 0079882010009

الجمهورية التركية
مكتبة الإرشاد - إسطنبول
هاتف 02126381633
فاكس 02126381700

اِسْمَاءُ الْجَنَّةِ الْعَلِيَّةِ لِكِتَابِهَا
العُودِ الْهِنْدِيِّ عَنِ اُمَامِي فِي دِيْوَانِ الْكِنْدِيِّ

مَقْفَه وَعَلَى عَلَيْهِ
مُحَمَّدُ مِصْطَفَى الْخَطِيبِ

فَرَجَ اَهْلِيئِهِ
اَلشَّيْخُ قَاسِمُ مُحَمَّدِ النُّوْرِيِّ

فَسَبَطَ وَزْنَ اَبْيَاتِهِ
اَحْمَدُ جَامِ اَلْمُحَمَّدِ

صَحَّحَهُ وَرَاجَعَهُ
اَلدُّكْتُورُ مُحَمَّدُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْاَهْدَلُ اَلشَّيْخُ اَحْمَدُ مُحَمَّدُ بَرَكَاتِ

تَشَرَّفَ بِمَنَابِعِهِ وَخَدَمَتْهُ رَئِيسَةُ الْجَنَّةِ
مُحَمَّدَةُ غَسَّانُ نَصُوحِ عَزْ فَوَلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

بقلم
فضيلة الشيخ
الدكتور عائض القرني

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه .
وبعد :

ففي يوم مُشرقِ الطَّلعاتِ أهدى لي أحدُ الأصدقاءِ وأنا في الكويتِ كتابَ « العودِ الهندي » للعلامةِ عبدِ الرَّحْمَنِ بنِ عبيدِ اللهِ السَّقَّافِ ، فأخذتُ الكتابَ وأنا في طريقي إلى المطارِ أتصفِّحُهُ ، فأسرني بسحره ، وسحرني بأسره ، وبهرني بنوره ، وأبهجني بجماله ، حتَّى صرْتُ في صالةِ المطارِ في شبهِ دُحولٍ ، كأنني خرجتُ من عالمي لا أحسُّ بأحدٍ بجانبِي ، ولا أدري أينَ أنا .

وكلِّما قلبتُ منه صفحةً . . زادني نشوةً وطرباً ، وملأني روعةً وعجباً ، فما تركتُ المجلدَ الأوَّلَ من يدي حتَّى ختمتهُ ، ثمَّ أتممتُ الكتابَ ، وأعدتُ النظرَ فيه أفليهِ ، أترنَّمُ به ، أذوقهُ ، أشمُّهُ ، أحسُّه ، أرفعُ عقيرتي بأبياته ، أبكي مع المؤلِّفِ وأضحكُ معه ، أسافرُ في زورقِ إبداعِهِ ، أعجبُ من اطلاعِهِ ، وحسنِ سبكِهِ ، وجميلِ صياغتهِ ، ولطيفِ إشارتهِ ، وعدويةِ عبارتهِ ، ورقَّةِ طبعِهِ ، وسيلانِ ذهنِهِ ، وحضورِ ذاكرتهِ ، وبراعةِ استدلالِهِ ، وقوَّةِ انتزاعِهِ ، وسلامةِ فطرتهِ ، وصفاءِ مشربِهِ .

ثمَّ هوَ مشبوبُ العاطفةِ ، جيَّاشُ الفؤادِ ، غزيرُ الدِّمعةِ ، خفيفُ الرُّوحِ ، ذو ذاكرةٍ وقَّادةٍ ، وطبيعةٍ منقادَةٍ ، يصيبُ المرميَ ويجيدُ التَّصويبَ ، مع علمٍ غزيرٍ ومادَّةٍ حاضرةٍ .

فهوَ علامةٌ ، فقيهٌ ، محدِّثٌ ، مفسرٌ ، أديبٌ ، شاعرٌ ، ينظُمُ عقودَ جواهرِهِ بأيةٍ محكمةٍ ، أو حديثٍ صحيحٍ ، أو بيتٍ لطيفٍ ، أو فائدةٍ شرويدٍ ، أو قصَّةٍ موحيةٍ ، أو حكايةٍ مشجيةٍ ، أو مثلٍ سائرٍ .

فهوَ يتأنَّقُ بكَ في روضاتِ ممرعاتِ دمثاتٍ ، وينزلُ بكَ في حدائقِ ذاتِ بهجةٍ منُ نصوصٍ مشرقةٍ ومحفوظاتٍ نافعةٍ ، وقد أحضرَ روحَهُ ، وسكبَ مع قلمِهِ نبوغَهُ ، وأفرغَ شآبيبَ عبقريتهِ مع براعتهِ ، وكأنني به وهو يكتبُ هذا السِّفرَ في وهادٍ حضرموتَ قد ودَّعَ نومهُ ، وفارقَ كراهُ ، وتصدَّقَ على النجومِ بنعاسِ أجفانهِ ، وتخيَّلتُ أنَّ دمعهُ مازجَ حبرهُ ، وأنَّ ضحكهُ صادقٌ صريفٌ أقلامِهِ ، وأنَّ تبسُّمهُ شابهُ بياضُ أوراقِهِ .

فللهِ هو!! كيفَ استطاعَ أن يقتحمَ معاقلَ قلوبنا ، وأن يستوليَ على ثكناتِ نفوسنا؟! .

ولكن صدقَ المعصومُ صلى الله عليه وسلم : « إنَّ منَ البيانِ لسِحراً » .

عشتُ مع السَّقَّافِ في « عودِهِ الهنديِّ » فنسيتُ كلَّ كتابِ أدبيٍّ أو ديوانِ شعريٍّ قرأتهُ ، مع العلمِ أنني من الصِّبا وأنا أبدي وأعيدُ في الموسوعاتِ الأدبيَّةِ ، حتَّى صرْتُ بمعالِمها أهدى من سربِ القطا إلى عشِّهِ ، فلما طالعتُ « العودَ الهنديَّ » . . صحتُ :

مَحَا حُبُّهَا حُبَّ الْأَلَى كُنَّ قَبْلَهَا وَحَلَّتْ مَحَلًّا لَمْ يَكُنْ حَلًّا مِنْ قَبْلِ

وَقَلْتُ : الْآنَ يَحِقُّ لِلْحَضَارِمِ خَاصَّةً وَالْعَرَبِ عَامَّةً أَنْ يُفَاخِرُوا بِهَذَا الْكِتَابِ .

وَقَلْتُ فِي نَفْسِي : لَيْتَ السَّقَّافَ صَبَرَ وَأَكْمَلَ لَنَا عَشْرَ مَجْلَدَاتٍ عَلَى نَفْسِ السِّيَاقِ وَعَيْنِ هَذَا الْمَسَاقِ ، لَكِنْ يَظْهَرُ أَنَّهُ أَدْرَكَ مَشْهَدًا : ﴿وَأَلْفَتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾ [القيامة : ٢٩] ، فغفر الله له ، وأكرم نزله .

وَلَوْ طَالَعَتِ مَجْلَدَاتِي مِنْ « الْعُودِ الْهِنْدِيِّ » . . لَوَجَدْتَهَا قَدْ تَفَضَّصَتْ عَرَاهَا ، وَنَحَلَّتْ أَوْرَاقُهَا ؛ مِنْ كَثْرَةِ التَّقْلِيلِ وَالتَّفْتِيشِ ، وَقَدْ سَاعَدَنِي السَّقَّافُ عَلَى اسْتِخْرَاجِ زَفْرَاتِ الْحَنِينِ الْمَدْفُونَةِ فِي جِوَانِحِي ، وَاسْتِزَافِ بَقَايَا مِنْ دُمُوعِ غَائِرَةٍ فِي مَحَاجِرِي .

قَدْ كُنْتُ أَشْفَقُ مِنْ دَمْعِي عَلَى بَصْرِي فَأَلْيَوْمَ كُلُّ عَزِيزٍ بَعْدَكُمْ هَنَا

كَنْتُ أَحَدْتُ النَّاسَ فِي الْمَجَالِسِ عَنِ الْكِتَابِ ، وَأَسْرِهِ وَسُحْرِهِ ، وَسَطْوَعِهِ وَلَمُوعِهِ ، وَشِوَارِدِهِ وَفَوَائِدِهِ ، فَلَا أَجْدُ إِلَّا الْوَاحِدَ أَوْ الْاِثْنَيْنِ يَفْهَمُنِي ؛ لِكثَافَةِ الطَّبْعِ ، وَثَخَانَةِ الْخَاطِرِ ، وَثِقَالَةِ الدَّمِ ، وَالانْهَمَاكِ فِي الْمَادِّيَّاتِ مِنْ مَطْعَمٍ وَمَشْرَبٍ وَمَلْبَسٍ وَمَرْكَبٍ ، حَتَّى صَارَ الْعَقْلُ كِتْلَةً مِنَ الْفُؤُولِ السُّودَانِيِّ الْمُدْمَسِ الْمَثْلَجِ تَحْتَ دَرَجَةِ الصُّفْرِ ؛ لِسُقُوطِ الْهَمَمِ ، وَبُرُودِ الْعِزَائِمِ ، وَجُمُودِ الْقَرَائِحِ ، وَخُمُودِ الذَّاكِرَةِ ، ﴿وَأَلْفَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ [ص : ٣٤] .

مَا فِي الْأَخِيَامِ أَخُو وَجَدِ نَظَارِحُهُ حَدِيثَ نَجْدٍ وَلَا خِلَّ نُجَارِيهِ

وَلَقَدْ أَمْتَعَنِي السَّقَّافُ بِدَعَابَاتِهِ وَفِيضِ تَعْلِيْقَاتِهِ ، فَمَرَّةً يَشِي عَلَى صَاحِبِهِ الْمُتَنَبِّي وَيَسِيلُ قَلَمَهُ مَعْجَبًا بِهَذَا النَّبُوعِ ، حَتَّى يَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنْهُ لِحِكْمَتِهِ وَبِرَاعَتِهِ ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيْهِ بِالذَّمِّ صَادِقًا لِهَزَالِ بَعْضِ آيَاتِهِ ، وَلَكِنْ بِصَدْمَاتٍ كَهْرِبَائِيَّةٍ لِأَذْعَةٍ ؛ كَقَوْلِهِ : (هَذِهِ الْآيَاتُ لَا تَحْصُلُ إِلَّا بِخِذْلَانِ مِنَ اللَّهِ) ، وَكَقَوْلِهِ : (هَذِهِ الْآيَاتُ مِنْ رُفَى الشَّيْطَانِ وَتَمَائِمِ إِبْلِيسَ) .

وَالسَّقَّافُ مَدْرَسَةٌ فِي الذَّائِقَةِ الْجَمَالِيَّةِ الْأَدَبِيَّةِ ، فَحَسْبُكَ بِهِ مَعْرِفَةٌ لَجَزْلِ الْقَوْلِ وَنَاصِحِ الْكَلَامِ وَخَالِصِ الْحَدِيثِ ، بَلْ هُوَ إِمَامٌ فِي النَّقْدِ الْأَدَبِيِّ ، وَهُوَ كَاتِبٌ سَاخِرٌ إِذَا أَرَادَ ، وَرَاوِيَةٌ مَلْهَمٌ ، وَقَاصِّ مَشْجٍ ، وَشَاعِرٌ لَا يَشْقُ لَهُ غَبَارٌ ، مَعَ حَفِظِهِ لِنَامُوسِ الشَّرِيعَةِ وَهَيْبَةِ الْمَلَّةِ وَمَقَامِ الدِّينِ ، وَهَذَا الَّذِي فَاقَ بِهِ عَلَى كُلِّ الْأَدْبَاءِ .

وَلَا أُدْرِي كَيْفَ اسْتَطَاعَ أَنْ يُؤَلِّفَ بَيْنَ الْقَرِينِ وَقَرِينِهِ مِنَ الشُّوَاهِدِ ، فَهُوَ يَنْثُرُ أَمَامَكَ الْمَصَادِرَ وَيَعْزُو إِلَيْهَا فِي الْغَالِبِ ، وَعِنْدَهُ مَلَكَةٌ الْأَصْطِفَاءِ وَمَوْهَبَةُ الْأَخْتِيَارِ ، فَلَا تَقَعُ عَيْنُهُ إِلَّا عَلَى الْأَجَلِّ الْأَجْمَلِ ، وَلَا يَصْطَفِي إِلَّا الْغَالِي النَّفِيسَ ، وَيَا لَهُ مِنْ مُؤَلِّفٍ مَوْهَبٍ يَضَعُ الْآيَةَ بِجَانِبِ الْأَثْرِ ، وَالْبَيْتَ فِي صَفِّ الْمَثَلِ ، وَالْقِصَّةَ تَلُو الْقِصِيدَةَ .

وَلَنْ تَمَلَّ مَعَ السَّقَّافِ أَبَدًا ؛ لِأَنَّهُ لَا يَتْرُكُكَ تَمَلُّ ، إِذْ يَشْجِيكَ وَيَبْكِيكَ ، وَيَضْحُكُكَ وَيَسْبِيكَ ، وَيَقْصُّ عَلَيْكَ وَيَنْعَشُكَ ، وَيَهْزُوكَ وَيَطْرُبُكَ .

وَكَلَّمَا سَافَرْتُ مَعَهُ فِي هَذَا الْكِتَابِ الْمَاتِعِ الذَّائِعِ الرَّائِعِ الشَّائِعِ . . صِحْتُ : أَيْنَ أَهْلُ الْأَدَبِ الْهَزِيلِ وَالشَّعْرِ الْهَشِّ وَالْقَوْلِ السَّاقِطِ مِنْ هَذَا الْفِيضِ الْوَجْدَانِيِّ وَالسُّحْرِ الْأَدَبِيِّ ؟!

وَأَيْنَ دَعَاةُ الْهَدْيَانِ مِنْ مَمْلَكَةِ الْإِبْدَاعِ وَإِيْوَانِ الْإِقْنَاعِ ، وَبِهَجَّةِ الْخَاطِرِ الَّذِي فَتَحَ لَنَا السَّقَّافُ أَفَاقَهُ وَسَكَبَ فِيهِ تَرِياقَهُ ، وَالْهَبْنَا بِأَشْوَاقِهِ وَإِشْرَاقِهِ ؟!

وليتَ أهلَ العلمِ والفقهِ والفتيا يَرتَّبونَ مشاعرَهُمُ بهذِهِ النَّفحاتِ الأديبَةِ ليعذبَ قولُهُمُ ، وتجمَلَ عباراتُهُمُ ، كما كانَ ابنُ عَبَّاسٍ والشَّعبيُّ والشَّافعيُّ وغيرُهُمُ مِنْ علماءِ الأُمَّةِ ، حيثُ يذوبُ كلامُهُمُ رِقَّةً وعذوبةً ، وحلاوةً وطلاوةً .

إنَّني أَرشُحُ كتابَ « العودِ الهنديِّ » للسَّقَافِ منهجاً دراسياً في الأدبِ ، ومورداً عذباً في النوادي والجامعاتِ والمدارسِ ، ونهراً صافياً لروادِ البيانِ ورموزِ الفصاحةِ وصنَّاعِ الحرفِ الجميلِ ، ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ [الإنسان : ٦] .

وسوفَ أجعلُ كتابَ « العودِ الهنديِّ » بمشيئةِ اللهِ مادتي في دروسِ الأدبِ والشَّعرِ ؛ لأنَّني وجدتُ فيه ضالتي بعدَ ثلاثينَ سنةً مِنَ التَّرحالِ في شعابِ الأدبِ وأوديةِ الشَّعرِ ، ﴿ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا ﴾ [الحج : ٣٦] .

ومِنْ حَسَنِ الطالِعِ أَنَّ السَّقَافَ حَضْرَمِيَّ وَالمَتَنَبِيَّ كَنْدِيَّ حَضْرَمِيَّ وَصاحبَ الدارِ حَضْرَمِيَّ ، ﴿ فَالْقَى الْمَاءَ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ [القمر : ١٢] .

وقد فَاحَ طيبُ « العودِ الهنديِّ » في إيوانِ أبي الطيبِ الكنديِّ ، وهذا ما ميَّزَهُ عندي .

يَكُونُ أَجَاجاً دُونَكُمْ فَإِذَا أَنتَهَى إِلَيْكُمْ تَلْقَى طيبِكُمْ فَيَطِيبُ

لقد فهمَ السَّقَافُ معجزةَ رسولنا صلى اللهُ عليه وسلم الخالدةَ القرآنَ الكريمَ ، وأنَّ مِنْ أعظمِ معالمِهِ البيانَ الآسرَ الَّذي أذعنَتْ لفصاحتهِ العربُ العُرباءُ ، وسلَّمتْ لبلاغتهِ فحولُ الشعراءِ ، فإنهُ دمعُ رؤوسِ الضلالةِ بهيبةِ جلالِهِ ، وأفحَمَ أساطينَ القولِ بسيلِ عرمرمٍ مِنَ الخطابِ المعجزِ ، ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ ﴾ [الأنبياء : ١٨] .

ولقد عرفَ السَّقَافُ أَنَّ الأدبَ الخلابَ والشَّعرَ الجذابَ أرفعُ مزايا العربِ أُمَّةِ اللَّفْظِ السَّاحِرِ والقولِ الآسرِ ، أهلِ سوقِ عكاظٍ وخطباءِ النوادي ، وفصحاءِ الحواضرِ والبوادي ، فأفرغَ علينا مِنْ ذاكرتهِ الموحيةِ وقلَمِهِ البارِعِ ما ملأَ قلوبنا رضاً ، ونفوسنا سروراً ، وضمائنا نوراً .

واللهِ دُرُّ الحضارمِ ، لا يرضونَ إلاَّ بالنُّجوميَّةِ حتَّى في التَّأليفِ ، كما قالَ المتنبِّي الكنديُّ الحضرميُّ :

إِذَا غَامَزْتَ فِي شَرَفِ مَرُومٍ فَلَا تَقْنَعُ بِمَا دُونَ النُّجُومِ

رحم الله السَّقَافَ ، وجمعنا به في جناتِ النعيمِ

وكتابه

الدكتور عاصم القرني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بين يديك الكتاب

بقلم

فضيلة الدكتور

محمد عبد الرحمن الأهدل

أحمدُكَ اللَّهُمَّ ، وَأَسْتَمِنُكَ السَّدَادَ ، وَأُصَلِّي وَأُسَلِّمُ عَلَى الْمَبْعُوثِ بِجِوَامِعِ الْكَلِمِ ، مَنْ مَدَّتْ عَلَيْهِ الْفِصَاحَةُ رِوَاقَهَا ، وَشَدَّتْ بِهِ الْبَلَاغَةُ نِطَاقَهَا ، ابْنِ الذَّبِيحِينَ ، وَخَيْرِ الثَّقَلَيْنِ ، وَعَلَى آلِ الْعُرِّ الْمِيَامِينَ ، وَصَحَابَتِهِ الدُّعَاةِ الْمَجَاهِدِينَ ، وَالْتَّابِعِينَ لَهُمْ فِي كُلِّ عَصْرِ وَحِينٍ .

وبعد :

فإني لا أقصدُ بهذه الكلمات كَشْفَ النَّقَابِ عَنِ الْمَزَايَا الْمَتَأَلِّقَةِ فِي سَمَاءِ الْبَيَانِ الَّتِي تَتَلَأَأُ بِهَا صَفْحَاتُ هَذَا السَّجْلِ الْأَدْبِيِّ الْحَافِلِ بِالذَّلَقَاتِ الْأَدْبِيَّةِ ، وَلَمْ أُعْنَ بِتَوْصِيفِ مَوَاهِبِ الْمُؤَلِّفِ وَبِلَاغَتِهِ الْهَاشِمِيَّةِ ، وَلَمْ أَصُمِّدْ إِلَى بَقْرِ مَحْتَوِيَّاتِ كِتَابِهِ عَلَى النَّحْوِ الْأَسْتِقْرَائِيِّ الَّذِي يَمْنَحُ الْمَتَأَهْلَ الْحَكْمَ الصَّائِبَ عَلَى هَذَا السَّفْرِ ، وَوَضِعِهِ فِي مَرْتَبَتِهِ الْأَدْبِيَّةِ الْأَثَقَةِ ؛ فَقَدْ أَضْطَلَعْتُ بِذَلِكَ الْمَقْدَمَةَ الرَّائِعَةَ الَّتِي نَسَجَ خِيوطَهَا الْمُحَقِّقُونَ .

وَعِنْدَ جُهَيْنَةَ الْخَبِيرِ الْيَقِينِ

نعم ، لقد نِعِمْتُ بِمِطَالَعَةِ أَجْزَاءِ مِنْهُ ، وَتَمَعْتُ الْفِكْرَ فِي رِيَاضِهَا ، وَأَسْتَنْشَقْتُ شِدْقَ أَدْبِيَّاتِهَا ، وَأَفَدْتُ مِنْ جِوَاهِرِهَا الْمَكْنُونَةَ ، وَقَطَفْتُ مِنْ أَزَاهِيرِهَا الْبَسَامَةَ كُلَّ مَعْنَى بَدِيعٍ .

فاجتمع لي بتصفح هذه الأجزاء الاستفادة العلمية ، والابتهاج الروحي ، والمزجان بالإمتاع الأدبي ، فكان لزاماً أن تتمحّض تلك المطالعة عن سيلان أحاسيسي بنعوت الإعجاب بهذا السفر البديع .

لذلك اعتقت يراعتي في ميدان الإشادة بالقيمة الأدبية لهذا السفر الممتع المفيد .

سَقَوْنِي وَقَالُوا لَا تُغْنِي وَلَوْ سَقَوَا جِبَالَ حُنَيْنٍ مَا سَقَوْنِي لَغَنَّتِ

وَإِذَا كَانَتِ الْكِتَابَةُ تَنْمُ عَنْ وُجْهِهِ الْكَاتِبِ ، وَالْمُؤَلِّفُ يُفْصِحُ عَنْ قُدْرَةِ جَامِعِهِ ، وَيُنْبِئُ عَنْ مَعَارِفِهِ ، وَيَحَدِّدُ مَكَانَتَهُ الْعِلْمِيَّةَ . . فَإِنَّا بِنِظَرَةٍ فَاحِصَةٍ فِي هَذَا الْكِتَابِ نَجْزِمُ مَطْمَئِنِّينَ بِأَنَّ الْفَلَسَفَةَ الْأَدْبِيَّةَ الَّتِي نَحَاهَا هَذَا الْإِمَامُ الْعَلَمُ ، وَالْتَّنُوعَ الَّذِي أَصْطَفَاهُ . . لَيَسْهَدَانِ بَعْلُو كَعْبِهِ فِي مَخْتَلَفِ الْمَعَارِفِ ، وَرُسُوحِ قَدَمِهِ فِي الْإِحَاطَةِ بِبِنْتِ عَدْنَانَ ، وَالْتَّشْبِيعِ بِلَطَائِفِهَا ، وَالْهَيْمَةِ عَلَى دَقَائِقِهَا ؛ فَقَدْ أَهَدَتْ إِلَى هَذَا السَّيِّدِ الْعَبْقَرِيِّ كُنُوزَهَا ، وَأَسْتَسَلَّمَتْ لَهُ شِوَارِدَهَا وَأَوَابِدَهَا ، هَذَا إِضَافَةً إِلَى مَا تَمَيَّزَ بِهِ مِنْ حَسَنِ اخْتِيَارِ لِمَا يَبْهَجُ الْأَنْفُسَ مِنْ أَدْبِيَّاتٍ ، وَمَا تَنْشِطُ بِهِ الْأَفْكَارَ مِنَ الْفِكَاهَاتِ .

أَمَّا تِلْكَ الْمَبَاحِثُ الْعُويصَةُ ، ذَاتُ الْمَسَالِكِ الصَّيْقَةِ ، الَّتِي يَطْرُحُهَا عَلَى الْبَسَاطِ الشَّرْعِيِّ ، ثُمَّ يَرْسِلُ عَلَيْهَا أَشْعَةَ تَحْقِيقَاتِهِ ، وَيَضَعُ الْهِنَاءَ عَلَى النَّقَبِ . . فَإِنَّهَا مَنْشُورَةٌ فِي ثِنَايَا هَذَا الْكِتَابِ ، وَإِلَى أَدْنَى مِنْهَا أَهْمِيَّةٌ يَرْحَلُ الْمُتَفَقِّهُونَ ،

ولا غرو.. فهو إمامٌ وقته ، ومفتي قُطره ، ما رأى في عصره مثل نفسه ، إلا أن كلَّ أحدٍ يُؤخذُ من قوله ويردُّ . . إلا من عصم .

ومع أن المؤلف قد جمع في كتابه بين الجِدِّ والهزل ، ومزج المعرفة بالإمتاع . . إلا أنه لم يُلحَقْ شأوه في نمطه ، ولم يسبق أحدٌ إلى طريقته ، ألم يُلَفَّعْ كتابه بمرط الجودة ، ويحليه بزينة الإتقان ؟! ولذا سألت منه حلاوة الجدة على قرب العهد .

وأما ما رُوِّج به المؤلف على النفوس لهزم جيوش السامة . . فليست إلا مفاكهايت يتسامرُ بأمثالها الفضلاء ، ويستملح لطانفها الكبراء ، مما لا يأنف المحتشمون من المُسامرة بأضرابها ، وهي طريقة الألباء ، ومُتَنَفِّسُ الأدباء في كلِّ عصرٍ ومصرٍ .

وهو بذلك لم يُقارَفْ ما يُخلُّ بالمروءة ، ولم يوضع في فحش المُجون ، ولم يصطدم بما يهزُّ آداب الشريعة ، بل اتسمت مفاكهاته بالملاحة ، وانتظمت في سلك الإمتاع واللطافة ، ومثل هذا القدر يستعذبه العلماء ، ويتندرُّ بخفته ألفتها ، ويلهجُ به عشاق الطُرفِ والملح ، وقلَّ أن يخلو كتابٌ أدبيٌّ من هذه المتعة وتلك المؤانسة .
وإني على يقين تامٍّ بأن هذا السفرَ البكرَ سترجعُ بعد نشره على منصبة القبول ، وسيكون منهلاً عذبا من مناهل الأدب .

وَالْمَنْهَلُ الْعَذْبُ كَثِيرُ الرَّحَامِ

بل سيكون مرجعاً وثيقاً لمن يُعنى بقواعد النقد ، أو يهتمُّ الوقوف على نكتِ البلاغة ، وطرقِ الفصاحة .

وما ذلك إلا لما حواه من أدب جمٍّ ، وتبيانٍ لدقائق ألفصحاء ، وإبرازٍ لمحاسن الموهوبين من الشعراء ، والإتيان بالأسباه والنظائر من المعاني التي تواطأ البلغاء على نظمها في سبط الدرر ، والمقارنة العادلة بين تلك النظائر ، وما أبرزته تحويراتهم من حُسن أو إساءة ، ولئن أطلقت في نعته عنان الكلام . . فما مرامي إلا أن أبلغ به ما يستحق من المكانة ، ولا سيما وهو لم يقرع من قبل أذان المتأدبين ، ولم يصفح أذهان المعنيين بالنقد الأدبي ، فليس صنيعي هذا خروجاً عن حدِّ الاعتدال ، ولا وقوعاً في ثبج الغلو .

بل لا أجدني مبالغاً إن اعترفت بأن قلّمي لم يقوَ على الإفصاح عن كلِّ خصيصة فيه ، ولم يثب بياني إلى تبيان جديده ، ولم يخض فكري فيما أفرعه المؤلف من أبقار الفوائد ، التي هي من نسج طبعه ، وسبك فهمه ، وصوغ ذهنه .

ولعل في مقدمة الناشر ما يرفع الأستار عن تلك الخصائص جميعها ، بيد أن الذي يستدعيني المقام أن أستهدفه في هذه الأحرف ، وأميط عنه لثام الحقيقة . . هو الإعلام بما يقاسيه الأدب العربي في العصر الحاضر من جفاء ، وما يعانیه من قطيعة من بني جلدته ، سواء في ذلك شعره ونثره ، وجده وهزله ، وقديمه وجديده ، بل زبما وقف ذو طبع غليظ وحس متبلد يهدم عمداً مآثر الشعر عامة ، فتراه يتابع الاستغفار والاستنكار معاً إن صكَّ سمعه بيت شعر ترنم به أديب ، أو تمثّل به أريب ، أو استدعته حادثه ، وهذا خلاف ما عليه القوم .

وكثيراً ما نسمع في مسامراتنا من يتأفف من إنشاد الأشعار ، ويعتصم بنص التنزيل الحكيم ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ

الْفَاوِنَ * التَّرَاتِيهِمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿١﴾ ، ثُمَّ يَنْقَطِعُ نَفْسُهُ فَلَا يَتَابِعُ إِلَّا سِتْنَاءَ الَّذِي يَرْفَعُ
الْمَلَامَ عَنِ مُؤْمِنِي الْأَشْعَرَاءِ ، فَيَكُونُ صَنِيعُ هَذَا الْمُسْتَشْهِدِ بِنَصِّ مَبْتَوْرٍ شَبِيهَا بِمَنْ يَقْرَأُ : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴾
وَيَقِفُ ، وَكِلَا الْوَقْفَيْنِ مَذْمُومٌ شَرْعاً .

وقد نتج عن هذا العداء وتلك الجفوة هذا الانكماش الملحوظ في الحركة الأدبية ، وإيجاد سدّ متين بين الناشئة
وترائهم الأدبي .

وأعان على تقوية هذا السدّ ذلك الهزال البين الذي يتخرّج في معارف الخريجين من الناحية اللغوية ، وحقّ لنا أن
نتمثّل بقول الأوّل (ضِغْتُ عَلَى إِبَالَةٍ)^(١) فاستحکم الداء ، وعزّ الدواء .

ولست ملزماً هنا بسرّد مزايا الأدب بسائر فنونه ؛ ففي المقدمة ما يكفي ويشفي ، وفي صحيح الأخبار ما يدهض
هذا الاستنكار .

بيد أنّي أذكرُ موقفاً خالداً من مواقف الفاروق رضي الله عنه ؛ فقد خرج على المسلمين في مسجد رسول الله صلى الله
عليه وآله وسلم ، وقام فيهم مستهتماً ، فقال : أيكم يعرف هذا الحرف ؟ ﴿ أَوْ يَأْخُذُهُرَّ عَلَى تَخَوُّفٍ ﴾ ما التَّخَوُّفُ ها هنا ؟
فأرّم القوم ، فقام شيخ من أخصريّ المسجد فقال : أنا أعرف ذلك ، التَّخَوُّفُ ها هنا : التَّنْقِصُ ، فقال له عمرُ : أَوْ
يَعْرِفُ الْعَرَبُ ذَلِكَ ؟ فقال له : نعم ، يقول شاعرنا :

تَخَوُّفَ الرَّحْلِ مِنْهَا تَامِكاً قَرِداً كَمَا تَخَوُّفَ عُوْدِ النَّبْعَةِ السَّفْنِ^(٢)

(تَخَوُّفَ) : تَنْقِصَ . (التَّامِكُ) : السَّنَامُ . (الْقَرِدُ) : كَثِيرُ الشَّعْرِ . (النَّبْعَةُ) : شَجَرَةٌ تُتَّخَذُ مِنْهَا السَّهَامُ .
(السَّفْنُ) : الْمِبْرَاءُ - فقال أمير المؤمنين : (عليكم بأشعار العرب ؛ فإن فيها معرفة كلام ربكم) . أو قال نحو
هذا .

وهناك صنف من الفضلاء تظهر عليهم سمات الاحتشام إذا ترامت إلى مسامعهم نوادر يترّوح بنسيمها المتأدّبون من
هَجِيرِ الْحَيَاةِ ؛ إذ تتجهّم وجوههم إن باسطهم أحدٌ بمزح مؤنس ، أو طرفة لطيفة ، ويعُدُّون هذا الهزل سخفاً يصفع
قفا الألباء ، وهذراً يستتر منه أولو الحشمة بسجاف المروءة ، حتّى وإن كان مزحاً لم يرتع في حماة الفحش ، ولم
يكلّم جسم الحياء ، ولم يسبح في يمّ المجون الممجوج .

وقد غاب عن هؤلاء أنّ الترويح عن الأنفس بما هو مباح . فيه استجمام للفكر من عناء الجدّ ، واستملاح يهفو إليه
الطبع ، وتفكّه بالمتع من النوادر ، ومجلبة لطيب الخاطر ، وموانسة تبعث على الصفاء .

وَتِلْكَ شِكَاةُ ظَاهِرٍ عَنْكَ عَارِهَا

ولا يزال الأكابر في كلِّ عصرٍ ومصرٍ يتعشّقون هذا الفنّ اللطيف ، وطالما جنحوا إلى ملاحظته ، والارتشاف من دنه .
وها هو الوزير أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان ، المتوفى مقتولاً سنة (٣٧٥ هـ) قال للإمام العلامة

(١) الضِّغْتُ : القبضة من الحشيش . الإِبَالَةُ : الحزمة من الحطب . وهو مثل عربي ، معناه : مصيبة على أخرى .

(٢) يصفه بأنّه من كثرة أسفاره على ناقته . . تنقّص رحلها من سنامها كما تنقّص السهم المبرأة .

أبي حيان التَّوْحِيدِيَّ^(١) : (تعالَ حَتَّى نَجْعَلَ لَيْلَتَنَا هَذِهِ مَجُونِيَّةً ، وَنَأْخُذَ مِنَ الْهَزْلِ بِنَصِيبٍ وَافِرٍ ؛ فَإِنَّ الْجِدَّ قَدْ كَدَّنَا ، وَنَالَ مِنْ قَوَانَا ، وَمَلَأْنَا قَبْضاً وَكِرْباً) ، فَانْدَفَعَ هَذَا الْإِمَامُ يُسَامِرُهُ بِأَخْبَارِ الْمُجَانِ ، وَأَحْوَالِهِمْ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ .

ولا زال العلماء - على تنوع اختصاصاتهم - يستملحون لأخذ بطرف من هذا الباب ، ولم يرموا المؤلِّفين في هذا الباب بالعظائم .

وها هو أحد أئمة الشافعية يملي في حلقة درسه على أتباعه حين سُئل : (هل يُقتل الحرُّ بالعبد ؟) وهي مسألة خلافية أغرق الخلاف فيها من القدام ، فأجاب مترنماً :

خُذُوا بِدَمِي هَذَا الْغَزَالَ فَإِنَّهُ رَمَانِي بِسَهْمِي مُقْلَتِيهِ عَلَى عَمْدٍ
وَلَا تَقْتُلُوهُ إِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ وَفِي مَذْهَبِي لَا يُقْتَلُ الْحُرُّ بِالْعَبْدِ

فجمع رحمه الله تعالى بين اللطف ، وجميل السبك ، وإصابة الغرض ، والجزم بالحكم يزهو في حلل الملاحاة وينضح بوابل من الرقة . بل ما تحرَّج الإمام الشافعي حين رفع إليه شاب سؤاله قائلاً :

سَلِ الْعَالِمَ الْمَكِّيَّ هَلْ فِي تَزَاوُرٍ وَضَمَّةٍ مُشْتَاقِ الْفُوَادِ جُنَاحُ

لَمْ يَتَحَرَّجِ الْإِمَامُ مِنْ إِجَابَتِهِ ، فَقَالَ لَهُ مَجِيباً :

فَقُلْتُ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يُذْهَبَ التُّقَى تَلَاصُقُ أَكْبَادٍ بِهِنَّ جِرَاحُ

ولولا خشية أن تطول ذيول هذه الأحرف ، ويؤوب التقديم بطيناً . . . لأعنت في هذا الميدان ملياً .

بل إن بعض الأدباء المتقدمين لم يتحرَّج من رواية أشعار المجون في مؤلفاته ، وجلُّها مغل في الإفحاش ؛ إبرازاً لاقتدار شعراء المجون على إيراد المعاني اللطيفة ، والتشبيهات البديعة ؛ إذ عدت منتظمة في سلك الملاحاة والبلاغية ، فرجحوا أن قيمتها الأدبية تسترُّ بثوبها السابغ فحشها ، وحسن نسيجها يُغطي قبحها :

وَتَحْتَ الرَّغْوَةِ اللَّبْنُ الصَّرِيحُ

بيد أن صنيعهم هذا محل نظر ، ومثالاً على ذلك العلامة المحقق مُحَمَّدٌ محيي الدين عبد الحميد لما أجمع العزم على تحقيق « يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر » للأديب المؤرِّخ أبي منصور عبد الملك بن مُحَمَّد بن إسماعيل النُّعَالِيَّ النَّيسَابُورِيَّ المتوفى سنة (٤٢٩ هـ) ، وهي مشحونة بأشعار الخلاعة والمجون . . . قال : (وَلَكِنَّا لَمْ نَشَأْ أَنْ نَحْذَفَ شَيْئاً مِمَّا فِي هَذَا الْكِتَابِ مِنَ الْمَجُونِ كَمَا يَفْعَلُ بَعْضُ النَّاسِ مِنَ النَّاشِرِينَ ؛ تَحْرُجاً مِنْهُمْ وَتَأْتِماً زَعَمُوا ، وَحِرْصاً عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ظَنُّوا ؛ لِأَنَّا لَا نُوَلِّفُ كِتَاباً نَخْتَارُ فِيهِ مَا نَشَاءُ ، وَنَدْعُ مَا نَشَاءُ ، وَإِنَّمَا نَحْقُقُ نَصّاً قِيْدَهُ صَاحِبُهُ فِي زَمَنِ كَانَ النَّاسُ فِيهِ أَشَدَّ تَحْرُجاً مِنْ هَذَا الزَّمَنِ الَّذِي نَعِيشُ فِيهِ . . .

إلى أن قال : (والله يعلم أننا لا نقل عن هؤلاء - المتأدبين الذين يفسدون كتب الناس - تحرجاً من المجون ،

(١) « الإمتاع والمؤانسة » (٥٠ / ٢) .

ولا حرصاً على مكارم الأخلاق ، وإنما الغرض من نشر الكتاب في رأينا إنما هو أن ندلل قراء الأدب العربي على الحياة الأدبية ، والحياة الاجتماعية والسياسية في هذه الحقبة التي كان الشعراء يعيشون فيها ، وأن نضع بين أيديهم النصوص التي تدلهم على ما يتوجهون إليه من مناحي البحث (١) .

فإذا كانت هذه الحال في المجون الممجوج شرعاً . فإننا نبرأ إلى الله تعالى من أن نصم أديباً كبيراً وعالماً نحريراً باللوم ، أو نغمزه بالخروج عن دائرة الآداب الشرعية ، وهو لم يزر في سفره هجرأ ، ولم يرتع في حماة المجون ، وما غرض هذا الشيخ العلامة إلا شحذ ذهن القارئ ، ودفع سامة الجذ ، ومحو عن كد الأفكار في المعاني الدقيقة ؛ ليعود إلى جده مرتاح الفكر خفيف الروح ، متجدد النشاط .

ودار المنهاج قد أضطلعت مشكورة باستخراج جواهر التراث من أعماق المكتبات المخطوطة ، ودأبت على إبراز كنوزنا الثمينة تتهدى في حلال التحقيق ، وها هي اليوم تهدي إلى عشاق الأدب العربي هذا السفر النافع ، وسوف ترحب به المكتبة العربية ، وتبسم له لغة الضاد .

وبعد :

فإن هذا الكتاب غزير المعاني ، رفيع الأسلوب ، عزيز المباحث ، رقيق الحواشي ، بطين المحتوى ، عظيم الفائدة ، جمع بين المتانة والحلاوة ، والسهولة والجزالة ، والغوص لانتقاء الجواهر الثمينة ، كيف لا ومؤلفه فرد دهره ، وشمس عصره ، ومفتي قطره .

وكسبه أبو عبد الباري عملاً فحماً

الدكتور محمد عبد الرحمن الأهدل

في (١٥) شعبان (١٤٢٢ هـ)

(١) المقدمة لـ « يتيمة الدهر » (٥ / ١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمته لتحقيق

بقلم
محمد مصطفى الخطيب

تمهيد

الحمد لله العليم العلام ، الرحيم الرحمن ، أنزل القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان .
والصلاة والسلام على نبيه الهادي ، أفصح من نطق بالضاد ، وعلى آله وصحبه ذوي الرأي والسداد .
أما بعد :

فقد قيل : راوحوا القلوب ساعة فساعة ؛ فإنها إذا كَلَّت . . عَمِيَتْ .

فكما أن الجسد يتعب ويطلب الراحة ، فكذلك الروح والنفس ، وخصوصاً في هذه الأيام التي كثرت فيها المشاغل والمنغصات ، وصارت الحاجة ملحة إلى ما يُستأنس به ويُستروح إليه بما لا يخرج عن الإطار الشرعي .
ولولا أن الإنسان من حين لآخر يسمع كلاماً حسناً يميّزه بعين عقله ، أو أنه يرى منظرًا جميلاً يراه بعين رأسه ، ثم ينعكس ذلك إيجاباً على مرآة فكره . . لتكالبت عليه الهموم والغموم ، ولعلته الكآبة والحزن .

وقد أوضح هذا المعنى الشاعر في قوله :

[من الطويل]

أفد طبعك المكدود بألهم راحة
ولكن إذا أعطيته المرح فليكن
بحزم وعلله بشيء من المرح
بمقدار ما تغطي الطعام من الملح

هذا هو المقياس .

وكتابتنا هذا كألواح لطلاب العلم ؛ فمؤلفه من العلماء البارزين وهو من هو في العالم الإسلامي . . ولعله من حُسن الحظ والطلاع أن يؤلف عالم مثله كتاباً في هذا الفن .

ومن مقاصد طباعة هذا الكتاب أن يكون حافزاً ومساعداً لحفظ الشواهد الشعرية ، والقصاص الأدبية والأمثال الحكمية . . التي يُستأنس بها ، ويعذب إيرادها عند المناسبات ، بل وبها تقوى الحجة . . كما أن في بعض القصص العظة والعبرة ، كيف والخالق سبحانه يقول : ﴿ وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فَوَدَّكَ ﴾ !؟

وإذا علمنا ذلك . . فنقول : إن الإسلام ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم قد أوجدا لنا الطريق والخلاص من معاناة الروح ، وتعب النفس ، وبينوا لنا كيفية صفاء القلب ، فجعلوا الطريق إلى تسلية الروح مباحاً ، ولكنهم وضعوا لها ضوابط .

فهذا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَمْزُحُ وَلَا يَقُولُ إِلَّا حَقًّا .

فراهَ عِنْدَمَا تَأْتِي إِلَيْهِ الْعَجُوزُ وَتَقُولُ لَهُ : ادْعُ اللهُ أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَقُولُ لَهَا : « يَا أُمَّ فُلَانٍ . . . إِنَّ الْجَنَّةَ لَا تَدْخُلُهَا عَجُوزٌ » فَوَلَّتِ الْمَرْأَةُ وَهِيَ تَبْكِي ، فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « أَخْبِرُونِي أَنَّهُ لَا تَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَهِيَ عَجُوزٌ ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَهُمْ إِنْشَاءً * جَعَلْنَاهُمْ أَجْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ » .

وَجَاءَتْهُ أَمْرَأَةٌ أُخْرَى ، فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللهِ . . . احْمِلْنِي عَلَى بَعِيرٍ ، فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « احْمِلُونَهَا عَلَى ابْنِ الْبَعِيرِ » ، فَقَالَتْ : مَا أَصْنَعُ بِهِ مَا يَحْمِلُنِي ؟! فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « هَلْ مِنْ بَعِيرٍ إِلَّا ابْنُ بَعِيرٍ » فَكَانَ يَمْزُحُ مَعَهَا .

وكذلك الأئمةُ الأعلامُ ما كانوا ليُخرجوا عَنِ الطَّرِيقِ الَّتِي رَسَمَهَا لَهُمْ سَيِّدُ الْأَنَامِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فهذا الإمامُ أَبُو عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا كَانَ يَقُولُ - إِذَا أَكْثَرُوا عَلَيْهِ فِي مَسَائِلِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ - : خُذُوا فِي الشُّعْرِ وَأَخْبَارِ الْعَرَبِ .

ونرى الإمامَ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ يَحُثُّ عَلَى تَعَلُّمِ الْأَدَبِ قَائِلًا :

إِنَّ فِي الْمَحَادَثَةِ تَلْفِيحًا لِلْعُقُولِ ، وَتَرْوِيحًا لِلْقُلُوبِ ، وَتَسْرِيحًا لِللِّهْمِّ ، وَتَنْفِيحًا لِلأَدَبِ .

[من الرجز]

وَأَنشَدَ أَبُو نُؤَاسٍ :

أُرْوَحُ الْقُلُوبَ بِبَعْضِ الْهَزْلِ تَجَاهُلًا مِنِّي بِغَيْرِ جَهْلِ
أَمْزَحُ فِيهِ مَزْحَ أَهْلِ الْفَضْلِ وَالْمَزْحُ أَحْيَانًا جَلَاءَ الْعَقْلِ

وَقَدْ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَمْزُحُونَ بِحَضْرَتِهِ وَلَا يُنْكِرُونَ عَلَيْهِمْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ .

رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي « الْأَدَبِ الْمَفْرَدِ » : كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَتَبَادَحُونَ - يَتَرَامُونَ - بِالْبَطِيخِ ، فَإِذَا كَانَتْ الْحَقَائِقُ . . . كَانُوا هُمُ الرُّجَالِ .

وَرَوَى أَنَّ رَجُلًا أَتَى بِرَجُلٍ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ : إِنَّ هَذَا زَعَمَ أَنَّهُ أَحْتَلَمَ عَلَى أُمِّي فَقَالَ : أَقِمَّهُ فِي الشَّمْسِ وَأَضْرِبْ ظِلَّهُ الْحَدَّ .

هذا وقد يَنْفَعُ الْمِزَاحُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ وَيُنْجِي مِنَ الشَّدَائِدِ فَقَدْ حُكِيَ : أَنَّ بَعْضَهُمْ أَهْدَى لِلْحَجَّاجِ تِينًا قَبْلَ أَوَانِهِ ؛ لِيَأْخُذَ مِنْهُ الْجَائِزَةَ ، فَلَمَّا قَرُبَ مِنْ دَارِ الْحَجَّاجِ . . . إِذَا بِالشُّرْطِيِّ قَدْ أَقْبَلَ وَمَعَهُ طَائِفَةٌ مِنَ اللَّصُوصِ وَقَدْ هَرَبَ مِنْهُمْ وَاحِدٌ فَأَخَذَ الشُّرْطِيُّ صَاحِبَ التِّينِ عَوْضًا عَنْهُ ، وَقَرَنَهُ مَعَهُمْ ، فَلَمَّا عَرَضَهُ عَلَى الْحَجَّاجِ . . . أَمَرَ بِضَرْبِ أَعْنَاقِهِمْ ، فَلَمَّا قُدِّمَ صَاحِبُ التِّينِ . . . صَاحٌ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ . . . لَسْتُ مِنْهُمْ فَقَالَ : مَا شَأْنُكَ ؟ فَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَّةَ فَقَالَ : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، كَادَ الْمَلْعُونُ يَهْلِكُ ظُلْمًا ، ثُمَّ قَالَ : مَا تَرِيدُ مِنَ الْجَائِزَةِ ؟ فَقَالَ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ . . . أُرِيدُ فَاسًا . قَالَ : وَمَا تَصْنَعُ بِهَا ؟ قَالَ : أَقَطَعُ بِهَا جِدْعَ الشَّجَرَةِ الَّتِي عَرَفْتُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ . فَضَحِكَ الْحَجَّاجُ وَأَجَازَهُ جَائِزَةً سَنِيَّةً .

وَالْكِتَابُ الَّذِي بَيْنَ أَيْدِينَا . . . هُوَ كِتَابٌ مِنَ الْأَدَبِ الرَّفِيعِ ؛ فَقَدْ اسْتَطَاعَ مُؤَلِّفُهُ بِمَا أَمْتَارَ بِهِ مِنَ الذِّكَايَةِ الْوَقَادِ . . . أَنْ يَقْسِمَهُ إِلَى أَبْوَابٍ وَفُصُولٍ ، حَتَّى يَصِلَ إِلَى فِكْرَةٍ وَاضِحَةٍ وَمَعْنَى مُحَدَّدٍ ، فَلَا تَسْمَعُ بِمَعْنَى مِنْ مَعَانِي الشُّجَاعَةِ ، وَالشَّهَامَةِ ، وَالْإِيثَارِ ، وَالْفِدَاءِ ، وَالْمَحَبَّةِ ، وَالْوَفَاءِ ، وَالْتَّضْحِيَّةِ عِنْدَ الْعَرَبِ . . . إِلَّا وَتَجَدُّ لَهُ فَصْلًا يَتَحَدَّثُ عَنْهُ فِي

هذا الباب يبرزه مؤلفه في أحسن صورة ، مع ما يتعلّق به من الجانب الشرعي . . . ولذلك ربّما تجد موضوعاً ما وقد انتقل به المؤلف من الجانب الشعري إلى الجانب الشرعي ، فتجده يغوص في التفسير والحديث والتاريخ بطريقة فريضة ، تستطيع من خلالها أن ترى الموضوع الواحد من زوايا متعدّدة ، ولهذا فنحن محظوظون بهذا المؤلف . . . وفي هذا العصر بالذات .

وفي تركيزنا على المزاح في واقع حياته صلى الله عليه وآله وسلم إضاءةً لجانب من جوانب الأدب الكثيرة ؛ حيث إنّ الأدب فنٌّ من الفنون ، يشمل أنواعاً كثيرة .

منها : المزاح .

ومنها : الكلام الثريّ البليغ .

ومنها : الشعر .

أمّا إذا أردنا الحكم الشرعي لكلّ نوع من هذا الفنّ . . . فعلياً أن نلجأ إلى المشرّع الحكيم صلى الله عليه وآله وسلم . فأما النوع الأوّل : فقد تكلمنا عنه بما فيه كفاية للموضوع .

وأما النوع الثاني : فقد سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عمرو بن الأهتم عن الزبير بن بدر ، فقال عمرو : مُطاع في أدنيّه ، شديد العارضة ، مانع لما وراء ظهره .

فقال الزبيران : والله يا رسول الله . . . إنّهُ ليعلم مني أكثر مما قال ، ولكنّه حسدني شرفي .

فقال عمرو : أمّا لئن قال ما قال . . . فوالله ما علمته إلاّ ضيق الصدر ، زمر المرأة ، أحمق الوالد ، لثيم الخال ، حديث الغنى .

فلما رأى أنّه خالف قوله الآخر قوله الأوّل ، ورأى الإنكار في عيني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . . . قال : يا رسول الله . . . رضيت . . . فقلت أحسن ما علمته ، وغضبت . . . فقلت أقبح ما علمت ، وما كذبت في الأولى ، ولقد صدقت في الأخرى .

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عند ذلك : « إنّ من ألبان لسحراً » .

وأما النوع الأخير : فنراه أحياناً يشدّد في المنع فيقول : « لأنّ يمتليء جوف أحدكم قيحاً . . . خير له من أن يمتليء شعراً » ، ويقول : « لأنّ يكون جوف ابن آدم مملوءاً قيحاً . . . خير له من أن يكون مملوءاً شعراً » .

بينما نراه في الحديث الآخر يقول : « إنّ من الشعر حكمة » .

وكذلك فإنّ الإسلام لم يهمل الشعر بل ثبت له مكانته التي كانت له في الجاهلية ، وأذكى جذوته على لسان سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حينما قال لحسان : « اهج المشركين ؛ فإنّ روح القدس معك » . بل إنّهُ صلى الله عليه وآله وسلم قد نصب لحسان منبراً في المسجد .

ثمّ ما كان فتح (مكة) إلاّ استجابةً لأبيات حرّكت الحبيب صلى الله عليه وآله وسلم حين أنشدّه عمرو بن سالم الخزاعي :

يَا رَبِّ إِنِّي نَاشِدُ مُحَمَّدًا حَلَفَ أَيُّهُ وَأَيُّنَا الْأَتْلَدَا

إِنَّ قُرَيْشًا أَخْلَفُواكَ الْمَوْعِدَاً وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمَوْكِدَاً
وَقَتَّلُونَا رُكْعَاً وَسُجَّادَاً^(١)

فَاهْتَزَّتْ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ قَائِلًا : « نُصِرْتَ يَا عَمْرُو بْنُ سَالِمٍ . . نُصِرْتَ يَا عَمْرُو » .

وَلَا يَغِيبُ عَنْ أَحَدٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَجَازَ بِيَرْدَتِهِ الشَّرِيفَةَ مِنْ أَبَاحِ دَمِهِ . . حِينَمَا أَنشَدَهُ مَفْتَحًا بِصَرِيحِ
الْغَزْلِ :

بَانَتْ سَعَادُ قَلْبِي الْيَوْمَ مَبْبُولٌ مُتَيِّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفَدَ مَكْبُولٌ^(٢)
وَمَا سَعَادُ غَدَاةِ الْبَيْنِ إِذْ رَحَلُوا إِلَّا أَغْرُنُ غَضِيضِ الطَّرْفِ مَكْحُولٌ^(٣)
هَيْفَاءَ مُقْبَلَةً عَجْزَاءَ مُدْبِرَةً لَا يُشْتَكِي قِصْرٌ مِنْهَا وَلَا طُولٌ^(٤)

وهكذا نجد أن الإسلام احتضن الشعر واهتم به لا سيما شعر الدعوة وما فيه حث على مكارم الأخلاق ، وأينعت هذه الثمرة في صدر الإسلام على لسان الصَّحْبِ الكرام ، أمثالِ حَسَّانِ بْنِ ثَابِتٍ ، وكعبِ بْنِ زُهَيْرٍ ، وعبدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ ، وغيرهم . . وَإِنْ كَانَ مِنْ أَمْثَالِ لَبِيدِ بْنِ رَبِيعَةَ أَنْ اسْتَنْقَلَ نَفْسَهُ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِالشَّعْرِ بَعْدَ أَنْ فَاضَتْ فِي رُوحِهِ مَحَبَّةُ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .

وَالْقَوْلُ الْحَقُّ فِي الشَّعْرِ هُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : سئِلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَنِ الشَّعْرِ فَقَالَ : « هُوَ كَلَامٌ فَحَسَنُهُ حَسَنٌ ، وَقَبِيحُهُ قَبِيحٌ » .

وإذا علمنا هذا . . فلا أروع ولا أحلى مِنَ الْأَدَبِ ؛ لَفِكَ عَقْدُ النَّفْسِ وَتَسْلِيَّتُهَا بِمَا يَفِيدُهَا ، وَدَفْعُ جِيوشِ الهمومِ وَتَشْحِيدُ الهممِ وَصَقْلُ المَوَاهِبِ الْأَدَبِيَّةِ وَيَرْحَمُ اللَّهُ الْقَاتِلَ :

ولولا خصال سنها الشعر ما درى بغات المعالي كيف تؤتى المكارم

وتأكيداً لما قدمنا أحببنا عقد فصلٍ مستقلٍ حولَ مفهومِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ وَأَدْوَارِهِ الَّتِي مَرَّ بِهَا .

* * *

(١) السيرة النبوية لابن هشام (٣٩٤/٢) .

(٢) مَبْبُولٌ : أَسْقَمَ الْحَبُّ وَأَضْنَاهُ . وَلَمْ يُفَدَ : لَمْ يَخْلُصْ مِنَ الْأَسْرِ . مَكْبُولٌ : مَقْبَدٌ .

(٣) الْأَعْرُنُ : الظبي الصغير الذي في صوته غَنَّةٌ . غَضِيضُ الطَّرْفِ : فَاتِرَةٌ .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (٥٠٤/٢) .

الأدب .. مفهومه وتاريخه

كلمة (أدب)^(١) من الكلمات التي تطوّر معناها بتطوّر حياة الأمة العربيّة ، من دور البداوة إلى أدوار المدنيّة والحضارة ، وقد تواردت عليها معاني متقاربة ، حتّى أخذت معناها الذي يتبادر إلى أذهاننا اليوم وهو : الكلام الإنشائيّ البليغ ، الذي يقصد به التأثير في عواطف القراء والسامعين ، سواء أكان شعراً أم نثراً .

وإذا ما عدنا إلى المعجم العربيّ للبحث عن معنى كلمة (أدب) .. فإننا نجد لفظ (أدب) بمعنى الداعي إلى الطعام ، ومن ذلك (المأدبة) بمعنى الطعام الذي يدعى إليه الناس . وأشتقوا من ذلك (أدب يأدب) بمعنى صنع مأدبة ، أو دعا إليها .

وهكذا فاصل الأدب الدعاء ، وبهذا المعنى وردت في الشعر الجاهليّ ؛ فقد جاء على لسان طرفة بن العبد : [من الرمل]
نَحْنُ فِي الْمَشْتَاةِ نَدْعُو الْجَفَلَى لَأَ تَرَى الْأَدَبَ فِينَا يَنْتَقِرُ^(٢)

ومع مرور الزمن انتقلت دلالة الكلمة من معناها الحسيّ إلى معناها المجرّد ، شأنها في ذلك شأن بقية الكلمات المعنويّة ، التي تستخدم أولاً في معنى حسيّ حقيقيّ . . . ثم تخرج منه إلى معنى ذهنيّ مجازيّ .

جاء في « تاج العروس » (الأدب) محرّكة : الذي يتأدّب به الأديب من الناس ، سميّ به ؛ لأنه يؤدّب الناس إلى المحامد ، وينهى عن القبائح .

وبهذا المعنى التهديبيّ وردت في حديث النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إذ يقول : « أدبني ربّي فأحسن تأديبي » . وقد حافظت الكلمة على معناها التهديبيّ في عصر بني أميّة ، وأضيف إليها معنى ثانٍ جديد ، وهو معنى تأديبيّ ؛ فقد وجد طائفة من المعلمين تسمّى بـ (المؤدّبين) ، كانوا يعلمون أولاد الخلفاء الشّعرا والخُطب ، وأخبار العرب وأسابهم ، وأيامهم في الجاهليّة والإسلام .

وأتاح هذا الاستخدام لكلمة (أدب) أن تصبح مقابلةً لكلمة (العلم) الذي كان يُطلق حينئذ على الشريعة الإسلاميّة ، وما يتصل بها من دراسة الفقه والحديث وتفسير القرآن الكريم .

وفي العصر العباسيّ تقارب المعنيان - التهديبيّ والتعلّيميّ - في استخدام الكلمة ؛ فقد سمى ابن المقفع رسالتين له تتضمّنان ضروباً من الحكّم والنصائح الخلقية والسياسيّة بأسم « الأدب الصغير » و « الأدب الكبير » .

ولم يمض وقتٌ طويلٌ حتّى صارت الكلمة تطلق على معرفة أشعار العرب وأخبارهم ، وقد ألفت كتبٌ بهذا المعنى ، سمّوها كتب أدب ، مثل « البيان والتبيين » للجاحظ المتوفى سنة (٢٥٥ هـ) .

ومثله كتاب « الكامل في اللغة والأدب » للمبرّد المتوفى سنة (٢٨٥ هـ) ، جاء في مقدّمه هذا الكتاب : (هذا

(١) اقتبسنا هذه المقدمة من كتاب « تاريخ الأدب العربي » للدكتور : شوقي ضيف ، و « تاريخ الأدب العربي » للامتاز : أحمد حسن الزيات .

(٢) الجفلى : الدعوة العامة . يتقر : أي يدعو دعوة خاصة وينتقي .

كتاب ألفناه ، يجمع ضروباً من الآداب ، ما بين كلامٍ منشورٍ ، وشعرٍ مرصوفٍ ، ومثلٍ سائرٍ ، وموعظةٍ بالغةٍ ، واختيارٍ من خطبةٍ شريفةٍ ورسالةٍ بليغةٍ (١) .

ومثل كتاب « الكامل » للمبرد كتاب « عُيون الأخبار » لابن قُتيبة المتوفى سنة (٢٧٦هـ) ، و« العقد الفريد » لابن عبد ربّه المتوفى سنة (٣٢٨هـ) ، و« زهر الآداب » للقيرواني المتوفى سنة (٤٥٣هـ) . وغيرها .

هذا ولم تقف الكلمة عند هذا المعنى التعليمي الخاص بصناعتَي النظم والنثر وما يتصل بهما من المُلح والنوادر ؛ فقد اتسعت أحياناً لتشمل كلّ المعارف غير الدينيّة التي ترقى بالإنسان من جانبيه الاجتماعي والثقافي .

وبهذا المعنى نجدُها عند (إخوان الصفا) في القرن الرابع للهجرة ؛ فقد دلّوا بها في رسائلهم إلى جانب علوم اللّغة والبيان والتّاريخ والأخبار . . على علوم السّحر والكيمياء والحساب والمعاملات والتّجارات .

ولا نصلُ إلى ابن خلدون المتوفى سنة (٨٠٨هـ) حتّى نجدُها تطلّق على جميع المعارف دينيّة وغير دينيّة ، يقول ابن خلدون :

الأدب هو حفظ أشعار العرب ، والأخذ من كلّ علمٍ بطرف .

وعلى العموم أخذت الكلمة تدلّ منذ أواسط القرن الماضي على معنيين اثنين :

أولاً : معنى عامّ : يتناول كلّ ما يُكتب في اللّغة ، سواء كان علماً أم فلسفةً أم أدباً خالصاً ؛ فكلّ ما ينتجُه العقل والشّعور يُسمّى أدباً .

ثانياً : معنى خاصّ : يشمل الأدب الخالص الذي لا يُرادُ به مُجرّد التّعبير عن معنى من المعاني ، بل يُرادُ به أيضاً أن يكون جميلاً بحيث يُؤثّر في عواطف القارئ والسّامع ، على نحو ما هو معروف في صناعتَي الشعر وفنون النثر .

تاريخ الأدب إنّ الاختلاف في تعريف (الأدب) يقودُ إلى الاختلاف في المقصود من (تاريخ الأدب) ، وفي المجال الذي تدورُ فيه مباحث التّاريخ الأدبيّ .

فإذا أخذنا بما قاله ابن خلدون من أن الأدب هو : (حفظ أشعار العرب ، والأخذ من كلّ علمٍ بطرف) . . كان على المؤرّخ الأدبيّ أن يُورّخ للحياة العقليّة والشّعوريّة للأمة العربيّة ؛ لأنّ الأخذ من كلّ علمٍ بطرف يعني : إغناء الأدب بعلوم العربيّة (نحو - صرف - بلاغة . . . إلخ) ، وبالعلوم الشرعيّة (حديث - تفسير . . . إلخ) ، وبالعلوم الإنسانيّة (فلسفة - اجتماع . . . إلخ) .

فهذه العلوم كلّها ترفدُ الأدب ، وتعينُ على فهمه . ولعلّ أهمّ من أرخ لأدبنا بهذا المعنى (بروكلمان) في كتابه « تاريخ الأدب العربيّ » .

وإذا أخذنا بالقول الذي يقول : (الأدب كلامٌ جميلٌ يُؤثّر في النّفس) . . كان على مؤرّخ الأدب أن يقصّر مباحثه على دراسة الأدب ، شعره ونثره ، فيعرف موضوعاته ، ويلاحق تطوّره ، ويبرز ملامحه وسماته في كلّ عصرٍ من العصور ، وكان عليه أن يلمّ بشخصيّاته دراسةً وتحليلاً ؛ ليكشف عمّا تأثروا به من أمور الثقافة والسياسة والعقيدة .

تقسيماتُ تاريخ الأدب وعصوره اتّجه معظم مؤرّخي الأدب العربيّ في تقسيمه إلى أعصرٍ تعادلُ الأعصر التّاريخيّة

وَالسِّيَاسِيَّةَ ، فَجَعَلُوا الْأَدْوَارَ الَّتِي مَرَّ بِهَا تَارِيخُ الْأَدَبِ خَمْسَةَ أَدْوَارٍ ، وَهِيَ :

١- العَصْرُ الْجَاهِلِيُّ : نَهَايَتُهُ ظَهُورُ الْإِسْلَامِ وَعَمْرُهُ قَرْنٌ وَنِصْفٌ .

٢- عَصْرُ صَدْرِ الْإِسْلَامِ : بَدَايَتُهُ ظَهُورُ الْإِسْلَامِ ، وَنَهَايَتُهُ سَقُوطُ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ سَنَةَ (١٣٢ هـ) .

وَمِنَ الْمُؤَرِّخِينَ مَنْ يَقْسِمُ هَذَا الْعَصْرَ إِلَى قَسْمَيْنِ .

أ- عَصْرُ صَدْرِ الْإِسْلَامِ : وَهُوَ إِلَى نَهَايَةِ عَصْرِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ .

ب- عَصْرُ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ .

٣- العَصْرُ الْعَبَّاسِيُّ : أَوَّلُهُ سَقُوطُ بَنِي أُمَيَّةَ ، وَآخِرُهُ سَقُوطُ (بَغدَادَ) بِأَيْدِي التُّتَارِ (٦٥٦ هـ) .

٤- عَصْرُ الدَّوْلِ الْمُتَتَابِعَةِ : أَوَّلُهُ سَقُوطُ (بَغدَادَ) ، وَنَهَايَتُهُ نَزْوُلُ الْحَمَلَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ بِ (مِصْرَ) سَنَةَ (١٢١٣ هـ) .

٥- عَصْرُ النَّهْضَةِ الْحَدِيثَةِ : الَّذِي يَمْتَدُّ إِلَى أَيَّامِنَا هَذِهِ .

وَالَّذِي يَخْضُنَا فِي كِتَابِنَا هَذَا هُوَ : الْعَصْرُ الْعَبَّاسِيُّ الَّذِي نَشَأُ فِيهِ الْمَتَنَّبِيُّ ، فَلْنَعْقِدْ لَهُ فَصلاً خَاصّاً مُسْتَعِينِينَ بِاللَّهِ .

العَصْرُ الْعَبَّاسِيُّ :

عَصْرُ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ هُوَ عَصْرُ الْإِسْلَامِ الذَّهَبِيُّ ، الَّذِي بَلَغَ فِيهِ الْمُسْلِمُونَ أَوْجَ الْقُوَّةِ وَاتسَاعِ الرِّقْعَةِ .

تَنَامَتْ فِيهِ الْفَنُونُ الْإِسْلَامِيَّةُ ، وَازْدَهَرَتْ آدَابُ الْعَرَبِيَّةِ ، وَنَقَلَتِ الْعُلُومُ الْأَجْنِبِيَّةُ ، وَنَضَجَ الْعَقْلُ الْعَرَبِيُّ ، فَوَجَدَ

سَبِيلاً إِلَى الْبَحْثِ ، وَمَجَالاً لِلتَّفَكِيرِ .

وَمَلُوكُ هَذِهِ الدَّوْلَةِ يَنْتَمُونَ إِلَى الْعَبَّاسِ عَمِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، قَامَتْ خِلَافَتُهُمْ إِثْرَ سَقُوطِ الدَّوْلَةِ

الْأُمَوِيَّةِ ، وَجَعَلُوا عَاصِمَتَهَا بِ (الْعِرَاقِ) ، وَمَلِكٌ مِنْهُمْ سَبْعَةٌ وَثَلَاثُونَ خَلِيفَةً فِي خَمْسَةِ قُرُونٍ وَبَعْضِ الْقُرُونِ ، حَتَّى

زَعَزَعَ ذَلِكَ الْعَرْشَ (هَوْلَاكُو) سَنَةَ (٦٥٦ هـ) .

وَتَخْتَلَفُ هَذِهِ الدَّوْلَةُ عَنِ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ بِأَحْوَالِ سِيَاسِيَّةِ وَعِمْرَانِيَّةِ ، كَانَ لَهَا الْأَثَرُ الظَّاهِرُ فِي آدَبِ اللُّغَةِ .

فَالدَّوْلَةُ الْأُمَوِيَّةُ : كَانَتْ عَرَبِيَّةً خَالِصَةً ، تَعْصَبَتْ لِلْعَرَبِ وَلِغَتِهِمْ وَآدَابِهِمْ ، وَجَعَلَتْ قَاعِدَتَهَا (دِمَشقَ) عَلَى حُدُودِ

بَادِيَّتِهِمْ .

وَكَانَ جَنُودُهَا وَقَوَادِمُهَا وَكُتَّابُهَا وَسَائِرُ عَمَّالِهَا مِنَ الْعَرَبِ ، فَلَمْ يَحْدُثْ فِي آدَبِ اللُّغَةِ تَأْثِيرٌ إِلَّا مَا أَقْتَضَاهُ التَّحَضُّرُ

وَاتسَاعُ الْعِمْرَانِ .

أَمَّا الدَّوْلَةُ الْعَبَّاسِيَّةُ : فَقَدِ اصْطَبَعَتْ بِصِبْغَةِ فَرَسِيَّةٍ ؛ لِأَنَّ الْفَرَسَ هُمُ الَّذِينَ أَوْجَدُوهَا وَأَيَّدُوهَا ، فَاتَّخَذَتْ قِصْبَتَهَا

(بَغدَادَ) - أَقْرَبَ الْأَمْصَارِ إِلَى بِلَادِهِمْ - وَأَطْلَقَ الْخُلَفَاءُ أَيْدِي الْمَوَالِي فِي سِيَاسَةِ الدَّوْلَةِ فَاسْتَقَلُّوا بِشُؤْنِهَا ، وَأَسْتَبَدُّوا

بِأُمُورِهَا ، وَكَالُوا لِلْعَرَبِ مِنَ الْحَقَارَةِ وَالْمَهَانَةِ صَاعاً بِصَاعٍ .

فَضَعَفَتِ الْعِصْبِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ ، وَعَلَا صَوْتُ الشُّعُوبِيَّةِ ، وَنَتَجَ مِنْ ذَلِكَ دُخُولُ الْعِنَاصِرِ الْفَارَسِيَّةِ وَالْتِزَامِ الشُّرْيَانِيَّةِ

وَالرُّومِيَّةِ وَالْبَرْبَرِيَّةِ فِي تَكْوِينِ الدَّوْلَةِ ، وَتَمَارُجُهُمْ بِالْتَّرَاوُجِ وَالْتَّنَاسُلِ ، وَأَخْتِلَاطُ الْمَدِينَةِ الْآرْيَةِ بِالْمَدِينَةِ السَّامِيَّةِ ،

وَلِكُلِّ مِنْهَا لُغَةٌ وَأَخْلَاقٌ وَعَادَاتٌ وَأَعْتِقَادَاتٌ أَثَّرَتْ فِي الْأُخْرَى .

ناهيك بما أمتازت به هذه الدولة من إطلاق الحرية في الدين وتعدد الفرق^(١) ، وشيوع المقالات المختلفة في الإلحاد والسياسة ، وتكاثر الجوارى والعلمان ، والاسترسال في الخلاعة والمجون ، والتأثت في الطعام واللباس ، والتنافس في البناء والرّياش .

وكل ذلك له أثر بيّن في اللغة وآدابها ، وسنعدّ الفصل التالي للدلالة على ذلك .

أثر الفتوح والسياسة والحضارة في اللغة : فتح المسلمون في أواخر الدولة الأموية أكثر المعروف حينئذ من الدنيا القديمة .

فامتد ملكهم من (الهند) و (الصين) شرقاً إلى (جبال بيرانس) غرباً ، وأبسط سلطانهم على تلك الشعوب ، وأستولى دينهم على الأفئدة ، ولغتهم على الألسنة ، فأسلمت هذه الأمم المختلفة ، وامتزجت تلك العناصر المتباينة .

وسارعوا إلى تعلم اللغة العربية والتكلم بها ؛ تقريباً من الفاتح ، وأستدراراً للرّزق ، وتفقهاً في الدين ، فكثرت اللحن ، وسرت عدواؤه إلى البادية ، وقد كان قاصراً على الحاضرة .

وبقي داء العجمة يستفحل بين العامة والصنّاع ، بالرغم من محاربة الأئمة وأولي الأمر لهذا ألواء بتدوين علوم اللسان ، وتقيح العامية ، ومقت المتكلمين بها ، حتى نشأ في كل إقليم لغة عامية مؤلفة من العربية ، ومن لغة الإقليم الوطنية .

وقد اتسعت دائرة اللغة بما اقتضاه تمدد الدولة ، ونقل العلوم عن الفارسية والهندية واليونانية من المصطلحات العلمية ، والألفاظ الإدارية والسياسية والاقتصادية والمنزلية .

وكان لـ (دار الحكمة) التي أنشأها المأمون الفضل الأكبر في تهذيب الكتب المترجمة ، وتوحيد الأسماء المعربة . ثم رقت الألفاظ ؛ لانغماس القوم في الحضارة ، وإخلاصهم إلى الترف ، وإيثار الموالى للكلم السهل والأسلوب اللين ؛ لأنهم حذقوا اللغة بالدراسة والصنعة ، لا بالتلقين والطبع . وأقتبس العربية من الفارسية غير الألفاظ كثيراً من الأساليب .

١- كالتبجيل في الخطاب .

٢- والاحتشام مع المخاطب .

٣- وإسناد الشيء إلى الحضرة والجناب والمجلس .

٤- وإحداث الألقاب والنوع للخلفاء والوزراء والكتّاب والقواد ، ك : (السّفاح والرّشيد وذي الرّئاستين وركن الدولة . . . إلخ) .

(١) نجمت في الأمة الإسلامية من غير أهل الشّنة فرق كثيرة ، يُكفر بعضها بعضاً ، وأنشبت كل فرقة إلى فرقة متعدّدة ، ترى كل واحدة منها الحقّ معها دون الأخرى .

ومن أشهر هذه الفرق : المعتزلة وهم عشرون فرقة ، والشيعنة وهم اثنتان وعشرون ، والخوارج وهم سبع فرق . وكل أولئك : منهم جبرية ، ومنهم مشبهة . . . ولكل شعبة لقب تُعرف به .

٥- والإسهاب في العهود والرّسائل .

٦- وتأديّة المعنى الواحد بألفاظ كثيرة ، وجُمَلٍ مترادفة .

وغير ذلك ممّا زان اللّغة من جهة وشانها من جهة أخرى .

وما زالت اللّغة تتسع وتنمو باتّساع الملّك ، وتقدّم العلم ونموّ الحضارة ، وتنتشر وتسمو في حمى الدّين وظلّ الخلافة وسلطان العرب ، حتّى خلافة المتوكّل على الله سنة (٢٣٢هـ) ؛ إذ استفحل أمر الأتراك الذين جلبهم المعتصم من (التّركستان) ، فأخذوا يغالبون العرب ، ويواثبون الفرس ، ويغتصبون السّلطان .

وكان الأمر للموالي بعد غلبة المأمون - وهم شيعة - فجاء المتوكّل فعضد الأتراك ، ونصر السّنة .

فقاتل العنصران ، وتنازل المذهبان ، وأبتغى كلّ منهما الفلج والفرز بقهر العرب ، وكبت الخلفاء ، حتّى ذهب جلال الخلافة من القفوس ، وزالت هيبتها من القلوب ، فاستشرّف ولادة الأطراف إلى الاستقلال .

وبدأ بنو بويه فوضعوا أيديهم سنة (٣٣٤هـ) على شؤون الدّولة في (بغداد) ، وأمتد نفوذهم إلى جلّ المماليك الشّرقية الإسلاميّة ، فأخذ سلطان العرب والعربيّة يتراجع في الشّرق ، وهبّ أحفاد الأكاصرة ، وأبناء الكدهاقين يستردّون مجدّ أجدادهم ، ويطاردون اللّغة ونفوذها في بلادهم .

وطلبوا إلى شعرائهم من أمثال (الدّققيّ والفردوسيّ)^(١) أن يُجدّدوا مفاخر الأسلاف بتأليف المنظومات القصصيّة ، والأناشيد القوميّة .

ومن العجيب أن تمّ لهم ذلك سريعاً ؛ فإنّ الممتنبيّ - وهو من رجال القرن الرابع - يقول وقد زار (شعب بوان) من بلاد الفرس :

مَغَانِي الشَّعْبِ طِيناً فِي الْمَغَانِي بِمَنْزِلَةِ الرِّبْعِ مِنَ الزَّمَانِ
وَلَكِنَّ الْفَتَى الْعَرَبِيَّ فِيهَا غَرِيبُ الْوَجْهِ وَالْيَدِ وَاللِّسَانِ
مَلَاعِبُ جِنَّةٍ لَوْ سَارَ فِيهَا سُلَيْمَانُ لَسَارَ بِتَرْجُمَانِ

ثمّ اقتدى بالفرس في ذلك الأتراك والأكراد .

ولكنّ العربيّة بقيت في حمى القرآن تدافع سيل الفارسيّة والتّركيّة الجارف .

وقد عزّ النّصير من أهلها ، حتّى غلب التّشار على (بغداد) فغلبت على أمرها ، وخضعت لقانون الطّبيعة القاهرة بعدما خلّفت في تلك البلاد شرائع وعلوم وأداباً لم تقو على محوها الأيّام .

* * *

(١) ألف الفردوسي كتاباً سمّاه : « شاه نامه » ، وهو سون ألف بيت من الشّعير ، يشتمل على تاريخ الفرس ، وهو قرآن القوم ، وقد أجمع فصحاؤهم على أنّه ليس في لغتهم أفصح منه .

ترجمته
مفخرة الأديب العربي، الشاعر الحكيم
أبي الطيب المتنبي
أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الكندي

رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى
(٣٠٣-٣٥٤هـ)

بِقَلَمِ
مُحَمَّدِ مِصْطَفَى الْخَطِيبِ

نشأته وحياته :

أبو الطَّيِّبِ أَحْمَدُ بْنُ الْحُسَيْنِ الْمُتَنَبِّيِّ ، وُلِدَ بِ(الْكُوفَةِ) مِنْ أَبْوَيْنِ فَقِيرَيْنِ .
كَانَ أَبُوهُ سَقَاءً بِالْكُوفَةِ ، ثُمَّ سَافَرَ بِهِ وَهُوَ صَغِيرٌ إِلَى (الشَّامِ) مُنْتَقِلاً مِنَ الْبَادِيَةِ إِلَى الْحَاضِرَةِ ، يُسَلِّمُهُ إِلَى الْمَكَاتِبِ ،
وَيُرَدِّدُهُ فِي الْقَبَائِلِ ، وَمَخَايِلُهُ نَوَاطِقُ بِفَضْلِهِ ، ضَوَامِنُ لِنُجْحِهِ . . حَتَّى تُوْفِيَ أَبُوهُ ، وَقَدْ تَرَعَّرَعَ الشَّاعِرُ ، وَنَالَ حَظَّهُ
مِنْ عُلُومِ اللَّغَةِ وَالْأَدَبِ ، فَأَخَذَ يَضْرِبُ فِي الْأَرْضِ ؛ أَبْتِغَاءً لِلرِّزْقِ وَأَكْسَاباً لِلْمَجْدِ .
وَكَانَ الْمُتَنَبِّيُّ مِنْذُ نَشَأَتِهِ كَبِيرَ النَّفْسِ ، عَالِي الْهِمَّةِ ، طَمُوحاً إِلَى الْمَجْدِ ، بَلَغَ مِنْ كِبَرِ نَفْسِهِ أَنْ دَعَا إِلَى بَيْعَتِهِ بِالْخِلَافَةِ
وَهُوَ لَذُنْ أَلْعُودِ ، حَدِيثُ أَلْسَنٍ .

وَحِينَ كَادَ يَتِمُّ الْأَمْرُ . . تَأَدَّى خَبْرُهُ إِلَى الْوَالِي الْبَلْدَةِ . . فَأَمَرَ بِجَبْسِهِ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ مِنَ السَّجْنِ قَصِيدَةً : [مِنْ الْمُتَقَارِبِ]

أَمَالِكَ رِقِي وَمَنْ شَأْنُهُ هِبَاتِ اللَّجَيْنِ وَعَثَقُ الْعَبِيدِ
دَعْوَتِكَ عِنْدَ انْقِطَاعِ الرَّجَا ءِ وَالْمَوْتُ مِنِّي كَحَبْلِ الْوَرِيدِ
دَعْوَتِكَ لَمَّا بَرَانِي أَلْبَلَى وَأَوْهَنَ رِجْلِي ثِقْلُ الْحَدِيدِ

فَأَطْلَقَهُ .

وَلَكِنْ حُبَّ الرِّيَاسَةِ لَمْ يَزَلْ مُتَمَكِّنًا مِنْ قَلْبِهِ إِلَى أَنْ أَخْلَقَ بُرْدَ شَبَابِهِ ، وَتَضَاعَفَ عَقُودُ عُمُرِهِ .
وَفِي سَنَةِ (٣٣٣هـ) أَدْعَى النُّبُوَّةَ فِي (الشَّامِ) ، وَفَتَنَ شِرْذِمَةً مِنَ النَّاسِ بِقُوَّةِ أَدْبِهِ ، وَسَحَرِ بَيَانِهِ .
وَصَنَّفَ كَلَاماً عَارِضَ بِهِ الْقُرْآنَ ، فَلَمَّا اشْتَهَرَ أَمْرُهُ . . قَبِضَ عَلَيْهِ لَوْلُوْهُ أَمِيرُ حِمَاصَ ، نَائِبُ الْإِخْشِيدِيَّةِ ، فَأَوْثَقَهُ ، ثُمَّ
أَطْلَقَهُ بَعْدَ أَنْ اسْتَبَابَهُ وَتَفَرَّقَ عَنْهُ أَصْحَابُهُ .

فَطَفِقَ يَتَجَسَّمُ أَسْفَاراً أَبْعَدَ مِنْ أَمَالِهِ ، وَلَا زَادَ إِلَّا صَبْرُهُ ، وَلَا عُدَّةَ إِلَّا بِأَسْهُ ، كَمَا يَتَجَلَّى ذَلِكَ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ : [مِنْ الطُّوِيلِ]

وَحِيدٌ مِنَ الْخُلَآنِ فِي كُلِّ بَلْدَةٍ إِذَا عَظُمَ الْمَطْلُوبُ قَلَّ الْمُسَاعِدُ

[مِنْ الْخَفِيفِ]

وقوله :

ضَاقَ صَدْرِي وَطَالَ فِي طَلَبِ الرِّزِّ قِيَامِي وَقَلَّ عَنْهُ قُعُودِي
أَبْدَأُ أَقْطَعُ الْبِلَادَ وَنَجْمِي فِي نُحُوسٍ وَهَمَّتِي فِي سُعُودِي

وَلَمْ يَزَلْ هَكَذَا حَتَّى اتَّصَلَ بِأَبِي الْعَشَائِرِ - وَالِي (أَنْطَاكِيَّة) مِنْ قِبَلِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ - وَأَمْتَدَحَهُ فَأَكْرَمَ مَثْوَاهُ ، وَقَدَّمَهُ إِلَى سَيْفِ الدَّوْلَةِ ، وَعَرَفَهُ بِمَنْزِلَتِهِ مِنَ الشُّعْرِ وَالْأَدَبِ .
فَضَّمَهُ الْأَمِيرُ إِلَيْهِ ، وَحَسَّنَ مَوْعِدَهُ عِنْدَهُ ، فَسَلَّمَهُ إِلَى الرُّوَّاصِ فَعَلَّمُوهُ الْفَرُوسِيَّةَ ، وَالطَّرَادَ ؛ حَتَّى لَا يَفَارِقَهُ فِي الْحَرْبِ وَلَا فِي السَّلْمِ .

وَدَرَّتْ لَهُ أَخْلَافُ الدُّنْيَا عَلَى يَدَيْهِ ، حَتَّى كَانَ مِنْ قَوْلِهِ فِيهِ :

[مِنْ الطُّوِيلِ]

تَرَكْتُ الشَّرِيَّ خَلْفِي لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ وَأَنْعَلْتُ أفرَاسِي بِنَعْمَاكَ عَسَجَدَا
وَقَيَّدْتُ نَفْسِي فِي هَوَاكَ مَحَبَّةً وَمَنْ وَجَدَ الْإِحْسَانَ قَيِّدًا . . تَقَيَّدَا

وَلَمْ يَزَلْ مَعَهُ فِي حَالِ حَسَنَةٍ حَتَّى حَدَّثَتْ بَيْنَهُمَا جَفْوَةٌ ، فَفَارَقَهُ إِلَى (مِصْرَ) فِي سَنَةِ (٣٤٦ هـ) .

وَمَدَحَ كَافُورًا الْإِخْشِيدِيَّ وَأَبَا شِجَاعٍ .

وَأَقَامَ فِي (مِصْرَ) خَمْسَ سِنِينَ يَرْقُبُ الْفُرْصَةَ مِنْ كَافُورٍ فَيَصْعَدُ الْمَجْدَ عَلَى كَاهِلِهِ .

فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ قَالَ :

[مِنْ الطُّوِيلِ]

أَبَا الْمِسْكِ هَلْ فِي الْكَأْسِ فَضْلٌ أَنَا لَهُ فَإِنِّي أَعْنَى مُنْذُ حِينٍ وَتَشْرَبُ

وَقَالَ :

[مِنْ الطُّوِيلِ]

وَهَلْ نَافِعِي أَنْ تُرْفَعَ الْحُجُبُ بَيْنَنَا وَدُونَ الَّذِي أَمَلْتُ مِنْكَ حِجَابُ
وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتٌ وَفِيكَ فَطَانَةٌ سُكُوتِي بَيَانٌ عِنْدَهَا وَخِطَابُ

حَتَّى أَوْجَسَ كَافُورٌ مِنْهُ خِيْفَةً ؛ لِتَعَالِيهِ فِي شَعْرِهِ ، وَطُمُوحِهِ إِلَى الْمُلْكِ ، فَزَوَى عَنْهُ وَجْهَهُ ، فَهَجَاهُ ، وَقَصَدَ (بَغْدَادَ) .

وَلَمْ يَمْدَحِ الْوَزِيرَ الْمُهَلَّبِيَّ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَتَرَفَّعُ عَنْ مَدْحِ غَيْرِ الْمُلُوكِ ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى الْوَزِيرِ ، فَأَشْلَى عَلَيْهِ شِعْرَاءَ (بَغْدَادَ) فَنَالُوا مِنْ عَرَضِهِ وَمِنْ شَعْرِهِ .

وَلَكِنَّهُ لَمْ يُجِئْهُمْ ، وَذَهَبَ قَاصِدًا (أَرْجَانَ) ؛ لِزِيَارَةِ الْفَضْلِ بْنِ الْعَمِيدِ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ الْوَزِيرُ الصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ يَسْتَرِيضُهُ (بِأَصْبَهَانَ) ؛ طَامِعًا أَنْ يَمْدَحَهُ . . فَلَمْ يَقُمْ لَهُ وَزْنًا ، وَأَمَّ عَضُدَ الدَّوْلَةِ (بِشِيرَازِ) .

فَأُوغِرَ عَلَيْهِ قَلْبُ الصَّاحِبِ ، وَأَخَذَ يَتَّبِعُ هَفْوَاتِهِ - وَهُوَ أَعْلَمُ النَّاسِ بِحَسَنَاتِهِ - وَشَنَّ عَلَيْهِ هُوَ وَأَشْيَاعُهُ حَرْبًا قَلَمِيَّةً ، وَأَلَّفَ الْكُتُبَ فِي نَقْدِهِ ، وَرَمَوْهُ بِالسَّرْقَةِ وَالْخُرُوجِ عَنِ الْأَسَالِبِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَهُوَ لَا يَأْبَهُ لَهُمْ ؛ ذَهَابًا بِنَفْسِهِ وَإِعْجَابًا بِشَعْرِهِ .

وَلَمَّا حَصَلَ عِنْدَ عَضُدِ الدَّوْلَةِ . . أَسْفَغَ عَلَيْهِ نِعْمَتَهُ ، وَوَصَلَهُ بِثَلَاثَةِ آلَافِ دِينَارٍ وَخِيُولٍ وَثِيَابٍ .

ثُمَّ دَسَّ مَنْ يَسْأَلُهُ : أَيْنَ هَذَا الْعَطَاءُ مِنْ عَطَاءِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ ؟ فَقَالَ لَهُ : هَذَا أَجْرٌ . . لَكِنَّهُ مُتَكَلِّفٌ ، وَسَيْفُ الدَّوْلَةِ يُعْطِي طَبْعًا .

فَغَضِبَ عَلَيْهِ عَضُدُ الدَّوْلَةِ مِنْ ذَلِكَ ، فَجَهَّزَ عَلَيْهِ فَاتِكًا الْأَسَدِيَّ ، وَلَمَّا بَلَغَهُ مَغَادِرَةُ الْمُتَنَبِّيِّ لِبِلَادِ فَارَسَ ، وَعَلِمَ أَجْتِيَازَهُ بِجَبَلِ دِيرِ الْعَاقُولِ . . تَتَبَعَ أَثَرَهُ .

وكان أبو الطيّب قد مرَّ بأبي نصرٍ مُحَمَّدٍ الحليِّ ، فأطلعه على حقيقة الأمر ، وما ينويه فاتك من الشرِّ له ، ونصحهُ بأن يصحب معه من يستأنس به في الطَّريق .

فلم يزد إلا أنفةً وعناداً ، وأبى أن يصحب معه أحداً قاتلاً : أنا والجُراز^(١) في عُنقي فما بي حاجةٌ إلى مؤنس . ثمَّ قال : والله لا أرضى أن يتحدث النَّاسُ بأنني سرتُ في خفارةٍ غيرِ سِيفي .

فحذَّره أبو النَّصرِ كثيراً ، فما كان منه إلا أن أجاب :

أبْجَوِ الطَّيْرَ تَخَوُّفِي ؟ وَمِنْ عبيدِ الْعَصَا تَخَافُ عَلَيَّ ؟ !! وَاللهِ لو أَنَّ مِخْصَرْتِي هَذِهِ مَلَقَاةٌ عَلَى شَاطِئِ الْفِرَاتِ ، وَبَنُو أَسَدٍ مَعْطَشُونَ لَحَمْسٍ ، وَقَدْ نَظَرُوا الْمَاءَ كَبُطُونِ الْحَيَاتِ . . مَا جَسَرَ لَهُمْ خُفٌّ وَلَا ظِلْفٌ أَنْ يَرِدَهُ ، مَعَاذَ اللهِ أَنْ أَشْغَلَ فِكْرِي بِهِمْ لِحِظَّةِ عَيْنٍ .

فقال له أبو نصرٍ : قل : إن شاء الله .

فقال : هي كلمةٌ مقولةٌ ، لا تدفعُ مقضياً ، ولا تستجلبُ آتياً .

ثمَّ ركبَ وسارَ ، فلقىهُ فاتكُ في الطَّريقِ فقتلهُ وقتلَ معه ولدهُ مُحسِّداً وغلَّامهُ مُفلحاً .

وكان مقتلهُ في (٢٨) رمضان سنة (٣٥٤ هـ) .

شعره :

الْمُتَنبِّيُّ شَاعِرٌ مِنْ شعراءِ الْمَعَانِي ، وَقَفَّ بَيْنَ الشُّعْرِ وَالْفَلَسَفَةِ ، وَجَعَلَ أَكْثَرَ عِنَايَتِهِ بِالْمَعْنَى ، وَأَطْلَقَ الشُّعْرَ مِنَ الْقِيُودِ الَّتِي قَيْدُهُ بِهَا غَيْرُهُ مِنَ الشُّعْرَاءِ ، وَخَرَجَ بِهِ عَنْ أَسَالِيبِ الْعَرَبِ التَّقْلِيدِيَّةِ ، فَهُوَ إِمَامُ الطَّرِيقَةِ الْإِبْتِدَاعِيَّةِ فِي الشُّعْرِ الْعَرَبِيِّ .

ولقد حظي في شعره بالحكم والأمثال ، وأختصَّ بالإبداع في وصف القتال ، والتشبيب بالأعرابيات ، وإجادة التشبيه ، وإرسال المثلين في البيت الواحد ، وحسن التخلُّص ، وصحة التقسيم ، وإبداع المديح ، وإيجاع الهجاء .

وأخصَّ ما يميِّزُ المتنبِّيَّ بروزُ شخصيته في شعره ، وصدقُ إيمانه برأيه ، وقوةُ اعتداده بنفسه ، وصحةُ تعبيره عن طبائع النفس ، ومشاعلِ النَّاسِ ، وأهواءِ القلوبِ ، وحقائقِ الوجودِ ، وأغراضِ الحياةِ . لذلك كان شعره في كلِّ عصرٍ مدداً لكلِّ كاتبٍ ، ومثلاً لكلِّ خاطبٍ .

نموذجٌ من بديع شعره :

قال يشكو الزَّمانَ :

[من ألسيطة]

شَيْئاً تَتِيَّمُهُ عَيْنٌ وَلَا جِيْدُ
أَمْ فِي كُوُوسِكُمْ هَمٌّ وَتَسْهِيْدُ ؟
هَلْ ذِي الْمُدَامِ وَلَا تِلْكَ الْأَنَاشِيْدُ ؟

لَمْ يَتْرُكِ الدَّهْرُ مِنْ قَلْبِي وَلَا كَبْدِي
يَا سَاقِيَّ أَحْمَرٍ فِي كُوُوسِكُمْ
أَصْخْرَةٌ أَنَا ! ؟ مَا لِي لَا تَغْيِرُنِي

(١) الجُرازُ : السيف .

إِذَا أَرَدْتُ كُمَيْتَ اللَّوْنِ صَافِيَةً
مَاذَا لَقَيْتُ مِنَ الدُّنْيَا؟ وَأَعْجَبَهَا

وقال :

وَجَدْتُهَا وَحَيْبُ النَّفْسِ مَفْقُودُ
أَنْتِي بِمَا أَنَا بِكَ مِنْهُ مَحْسُودُ

[مِنَ الْوَافِرِ]

نَصِيْبِكَ فِي حَيَاتِكَ مِنْ حَيْبِ
رَمَائِي الدَّهْرُ بِالْأَرْزَاءِ حَتَّى
فَصِرْتُ إِذَا أَصَابْتَنِي سِهَامٌ
وَهَانَ فَمَا أُبَالِي بِالرَّزَايَا

وقال :

نَصِيْبِكَ فِي مَنَامِكَ مِنْ خِيَالِ
فُؤَادِي فِي غَشَاءٍ مِنْ نِيَالِ
تَكَسَّرَتِ النَّصَالُ عَلَى النَّصَالِ
لَأَنْتِي مَا أَنْتَفَعْتُ بِأَنْ أُبَالِي

[مِنَ الْخَفِيفِ]

صَحِبَ النَّاسُ قَبْلَنَا ذَا الزَّمَانَا
وَمُرَادُ النَّفُوسِ أَصْغَرُ مِنْ أَنْ
غَيْرَ أَنْ أَلْفَتِي يُلَاقِي الْمَنَايَا
وَلَوْ أَنَّ الْحَيَاةَ تَبْقَى لِحَيِّ
وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَوْتِ بُدُّ

وقال :

وَعَنَاهُمْ مِنْ أَمْرِهِ مَا عَنَانَا
نَعَّادِي فِيهِ وَأَنْ نَتَفَّانِي
كَالِحَاتٍ وَلَا يُلَاقِي أَلْهُوَانَا
لَعَدَدْنَا أَضَلْنَا الشُّجْعَانَا
فَمِنَ الْعَارِ أَنْ تَمُوتَ جَبَانَا

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَأَتَعَبُ خَلَقَ اللَّهُ مَنْ زَادَ هُمُّهُ
فَلَا مَجْدَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ
وَفِي النَّاسِ مَنْ يَرْضَى بِمَيْسُورِ عَيْشِهِ

وقال :

وَقَصَرَ عَمَّا تَشْتَهِي النَّفْسُ وَجُدُّهُ
وَلَا مَالَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَجْدُهُ
وَمَرْكُوبُهُ رِجْلَاهُ وَالشُّوبُ جِلْدُهُ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَأَظْلَمُ أَهْلِ الظُّلْمِ مَنْ بَاتَ حَاسِداً

ومن أمثاله السَّائِرَةِ :

لِمَنْ بَاتَ فِي نَعْمَائِهِ يَتَقَلَّبُ

[مِنَ الْبَسِيطِ]

مَا كُلُّ مَا يَتَمَنَّى الْمَرْءُ يُدْرِكُهُ

تَجْرِي الرِّيَّاحُ بِمَا لَا تَشْتَهِي السُّفُنُ

[مِنَ الْوَافِرِ]

وَلَمْ أَرْ فِي عُيُوبِ النَّاسِ عَيْباً

ومنها أيضاً :

كَنَقْصِ الْقَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

أَعَزُّ مَكَانٍ فِي الدُّنْيَا سَرْجُ سَابِحٍ

ومنها :

وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي الْأَنَامِ كِتَابُ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَمَنْ لَمْ يَمُتْ بِالسَّيْفِ مَاتَ بغيرِهِ

تَعَدَّدَتِ الْأَسْبَابُ وَالْمَوْتُ وَاحِدٌ

وَالظُّلْمُ مِنْ شِيمِ النَّفُوسِ فَإِنْ تَجِدُ
ذُو الْعَقْلِ يَشْقَى بِالنَّعِيمِ بِعَقْلِهِ
وَالْهَمُّ يَعْتَرِضُ الْجَسِيمَ نَحَافَةً
ذَا عَفَّةٍ فَلِعَلَّةٍ لَا يَظْلِمُ
وَأَخُو الْجَهَالَةِ فِي الشَّقَاوَةِ يَنْعَمُ
وَيُشِيبُ نَاصِيَةَ الصَّغِيرِ وَيُهْرَمُ

* * *

ترجمة
علامة حضرموت ومفتيها
السيد عبد الرحمن بن عبد السقاف
رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى^(١)
(١٣٠٠-١٣٧٥هـ)

بِقَلَمِ
مُحَمَّدِ ابْنِ بَكْرِ بَازِيْبٍ

اسمه ونسبه :

هو : عبد الرحمن بن عبيد الله بن محسن بن علوي بن سقاف بن محمد بن عمر بن طه بن عمر بن الصافي ابن عبد الرحمن بن محمد بن علي ابن الشيخ الكبير عبد الرحمن السقاف بن محمد (مولى الدويلة) ابن علي بن علوي ابن الإمام الأستاذ الأعظم الفقيه المقدم محمد بن علي بن محمد (صاحب مرياط) ابن علي (خالع قسم) ابن علوي (صاحب بيت جبير) ابن محمد (مولى الصومعة) ابن علوي (صاحب سمل) ابن عبيد الله ابن المهاجر إلى الله أحمد بن عيسى بن محمد (النقيب) ابن علي (العريضي) ابن جعفر (الصادق) ابن محمد (الباقر) ابن علي (زين العابدين) ابن الإمام الشهيد السبط الحسين ابن أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب وابن سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء البتول ابنة سيدنا رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

نسبٌ تحسب العلاء بحلاه قلدتها نجومها الجوزاء

مولده ونشأته :

كان مولد نابغة حضرموت في السابع والعشرين من شهر رجب سنة (١٣٠٠هـ) ، في المحل المسمى (عَلم بَدْر)^(٢) ، بمدينة سيئون ، إحدى أشهر المدن الحضرمية .

ونشأ مترجماً نشأة صالحة في كنف أسرته ، وهي إحدى الأسر المرموقة المشهورة بالعلم والكرم ، وظهر منها علماء كبار ، وأعلام أفذاذ ، كانوا ولا زالوا بهجة العصر وزينة الوقت ، فاجتمع للمترجم طيبُ النجار ، وشرَفُ الدار .

فوالده العابد الصالح العالم الآتي ذكره لاحقاً ، وجده السيد الجليل الزعيم المصلح الحبيب محسن بن علوي السقاف المتوفى سنة (١٢٩١هـ) ، الرجل الذي ملأت شهرته ربوع الوادي في عصره ، وكانت له مواقف سياسية واجتماعية مشهورة ، إلى جانب زعامته الدينية والروحية .

شيوخه :

أولهم والده السيد عبيد الله ، الرجل الصالح العابد الزاهد الورع ، كانت ولادته في (١٢٦١هـ) ووفاته في (١٣٢٤هـ) ، وكان والده يصطحبه إلى رحاب شيخه الإمام الرباني العلامة عيدرروس بن عمر الحبشي صاحب

(١) هذه الترجمة اقتطفت من ترجمة حافلة موسعة للسيد السقاف . . هي قيد الإعداد والجمع والمراجعة وستصدر في كتاب مستقل إن شاء الله تعالى ، بقلم الأستاذ البحاثة محمد أبو بكر باذيب ، جزاه الله خيراً .

(٢) أصل هذه الكلمة أو المسمى هو (علي بن بدر) وإنما حرّفت عن أصلها لكثرة تداولها . . ويبدو أنه كان مسمى لأحد أمراء آل كثير في الماضي .

(الغرفة) ، المتوفى بها سنة (١٣١٤ هـ) ، فأخذ عنه أخذاً تاماً ، وهو دون سن البلوغ ، وكان تأثره وتعلقه به قوياً للغاية .

وكان ابتداء تعلمه القرآن الكريم وقراءته على يد المعلم الصالح الشيخ عبد القادر بن عبد الله باحميد .
وقرأ النحو وما تعلق به على العلامة المتفزن الشيخ محمد بن محمد باكثير (ت ١٣٥٥ هـ) .

وقرأ الفقه ، حقق مسائله على شيوخه العلامة الفقيه مفتي سيئون السيد علوي بن عبد الرحمن بن علوي السقاف (ت ١٣٢٨ هـ) .

وله جمع كبير من الشيوخ لا تتسع هذه العجالة لذكرهم .

ولقد كانت الاستعدادات الفطرية والمواهب الذاتية لدى المترجم له كبيرة جداً ، فقد رزقه الله عقلاً صافياً ، وفكراً نيراً ، وقريحة وقادة .

وكان قوي الذاكرة ، سريع الاستحضار والبديهة ، يغوص في العلم ومسائله حتى يستخرج اللآلئ والدرر ، وما مصنفاة إلا شاهدة على صحة هذا القول وهذه الدعوى .

فظرة على « صوب الركام » أو « العود الهندي » ترد ظرف الناظر حسيراً مملوءاً بالإعجاب والإكبار .

حتى إنه - رحمه الله تعالى - يقول : (كنت أيام شبابي أحياناً أضع يدي على الصفحة اليسرى خوفاً من أن تقع عيني عليها ويسبق حفظي لها) !!

وقد قال عنه الشيخ حمد الجاسر رحمه الله تعالى (ففضلاً عما لأسرته في (حضرموت) من المكانة وعلو المنزلة في نفوس أهل تلك البلاد . . . بلغ مرتبة من العلم أهله بينهم لأن يحل أرفع المقامات ، فُعرف بعالم (حضرموت) ومفتي الديار الحضرمية ، وكان ذا نفوذ قوي في الشؤون العامة في تلك البلاد ، وصلة قوية بحكام أقاليمها ، وإسهام بارز في السعي لتوحيد أجزائها واستقلالها ، ورفع كابوس الاحتلال البريطاني الذي كان جائماً عليها .

كما كان قوي الصلة بإمام (اليمن) يحيى حميد الدين ، بحيث كان يرجع إليه في معالجة بعض القضايا العامة المتعلقة بالخلافات التي تقع بين حكام تلك البلاد ، كما يتضح من إشارات وردت في بعض كتبه) . انتهى^(١) .

بهذه العبارات التي أوردها الشيخ الجاسر رحمه الله تعالى فقد لخص لنا صفحات وصفحات من سيرة هذا الرجل . فلقد كان له المواقف المذكورة والجهود المشكورة ، وصولات وجولات ، تركنا التوسع فيها للترجمة الموسعة التي ستصدر عنه إن شاء الله تعالى .

ولا بأس أن نذكر في هذه اللمعة موقفاً له مع الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله تعالى . فلقد كانت له مواقف رجولية وبطولية كان فيها المتحدث الناصح والخبير بالشؤون السياسية وأمور الإصلاح .

فما دار بينهما في مجلس عقد في موسم حج عام (١٣٥٢ هـ) . . ما حكاه ابن عبيد الله بنفسه حيث يقول : (. . . ولما اجتمعت أنا بابن السعود في ذلك العام ، بدأتي بالحديث عن قضية الصلح بينه وبين إمام اليمن ، فكان موافقاً لما تحدث به إليّ ابن الوزير سواءً بسواء ، وقال لي الملك عبد العزيز : إنني لما أبرقت إليّ ولدي فيصل بالجللاء عن

(١) مجلة العرب العددان ٦/٥ ، السنة (٢٦) تاريخ ذي القعدة وذو الحجة (١٤١١ هـ) .

الحديده . . أجبني بأن الانتحار أهون عليه من ذلك ، فأجبتني : بأن انتحارك لا يقلل من عدد أبنائي وقد يتفوا على الأربعين ، ثم هو هين عليّ في سبيل حقن دماء المسلمين . . . هذا نص كلامه لي بمرأى من ولده فيصل ومسمع^(١) .

وهكذا كانت تحركاته الواسعة داخل هذه الدائرة ، علت به إليها همته ، وحملته عزمته ونيته .

وهنا يبرز لنا سؤال يفرض نفسه في هذا المقام : وهو بأي صفة كان يتكلم هذا الإمام مع الملوك والزعماء في السياسة والحروب وكأنه واحد منهم ؟ وكيف يتبادلون معه الأحاديث السياسية وكأنه خبير أو مستشار وهو لا يمثل دولة ؟ وليس له صفة سياسية ؟! إنه ولا شك يمثل دولة العلم ، إنها قوة الشخصية الممثلة بالعلم والإيمان ، وبالحيوية والروح النورانية المكتسبة منذ الصغر من نظرات شيوخه العارفين^(٢) .

مؤلفاته :

صنف ابن عبيد الله مصنفات تشهد له بالبراعة وعلو الكعب ، وستحدث عن هذه المصنفات كدلائل وشواهد للجوانب العلمية التي حظي بها مترجمنا ، وكذلك لتنفض الغبار عن الكنوز العظيمة التي خلفها الرجل ، عسى ولعل أن تتاح الفرصة لنشرها وإظهارها ؛ ليعم النفع والانتفاع بها .

أولاً- مصنفاته الفقهية :

١- صوب الركام في شؤون القضاء والأحكام ، مجلدان ، وهو مطبوع .

٢- حاشية على كتاب (فتح الجواد بشرح الإرشاد) .

٣- حاشية على كتاب (منهاج الطالبين) للإمام محيي الدين النووي رحمه الله .

٤- حاشية على « تحفة المحتاج بشرح المنهاج » .

ثانياً- مصنفاته في الحديث :

١- بلابل التجريد فيما أفدناه أيام التجريد ، يقع في ثلاث مجلدات .

قال عنه الأستاذ الزركلي : هو أشبه بكتب الأمالي في ثلاثة أجزاء .

وقد صنّفه أيام تدرّسه للتجريد الصريح للجامع الصحيح « مختصر صحيح البخاري » للإمام العلامة الزبيدي الشرجي .

٢- حاشية على الشمائل النبوية للإمام الترمذي .

ثالثاً- مصنفاته التاريخية :

١- بضائع التابوت في نف من تاريخ حضرموت ، يقع في ثلاث مجلدات ضخام . قال عنه الزركلي : (وأتى فيه بعلم غزير في تاريخ حضرموت وبيوتها وحكامها وأعلامها ، إلى استطرادات في فنون مختلفة من أدب وحديث

(١) السيد عبد القادر الخرد من مقدمته على كتابه « صوب الركام » .

(٢) المصدر السابق .

وفقه ، إلى وثائق سياسية ومعاهدات وملحوظات (١) .

٢- « إدام القوت » أو « معجم بلدان حضرموت » ، وهو الكتاب الذي قام الشيخ حمد الجاسر - رحمه الله - بنشره في مجلة « العرب » طوال خمس سنوات ، وهو كتاب يعنى بتاريخ بلدان حضرموت مع ذكر لبعض أعيانها وقد اختصره من كتاب « بضائع التابوت » ، وقد صدر الكتاب محققاً عن دار المنهاج للنشر والتوزيع في مجلد ضخمة .

رابعاً- مؤلفاته الأدبية والنقدية :

الحديث عن الجانب الأدبي النقدي عند ابن عبيد الله حديث يطول ويطول ، فمن ذا يطاول قريع البلغاء وكبير الأدباء ، وحسبنا قبل أن ندلج إلى وصف وذكر مصنفاته الأدبية التي أحدها كتابنا هذا « العود الهندي » الذي نتشرف بنشره . . أن نبين إن استطعنا أننا أمام رجل غير عادي ، رجل صاحب فكر حر ، وذهن صافٍ ، وفهم صحيح ، وذكاء وقاد ، إلى غير ذلك من الصفات التي قلما تجتمع في رجل .

انظر معي إلى حسن استنباطاته ، ودقة فهمه ، ما جاء في مقدمة « ديوانه » حيث أنه فهم من قوله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ﴾ أنها تدل على فضيلة الشعر وعلو مقامه ، بعكس مفهوم المفسرين فيها .

قال رضي الله عنه : (ومن أنصح الأدلة على تفضيله - أي : الشعر - صرف سيد البشر صلى الله عليه وسلم عن سبيله ، لأنه وإن كان الذكر عالياً والفكر جلياً ، ويستحيل أن يشبه بلاغة القرآن غيره . . فإنه لا يمكن التشكيك إلا به عند من قل خيره ، فلو كان عليه السلام شاعراً . . لكان للشبهة مجاز ، فكونه أمياً لا يقرضه أبلغ في الإعجاز ، وأما ما ينسب إلى الشعر من المذام ، فراجع إلى العلة التي انتشرت بأهله كالجذام ، وهي التكسب القبيح بالغلو في المديح ، وقد صاننا الله عن ذلك ، فالساحة براء ، وبيننا وبين الذل - إلا الله وحده - سبل وعرة ، وأرض عراء . . إلخ .

كذلك تأمل معي المجلس الأول من كتابنا هذا ، والذي يدور حول بيتي المتنبى :

[مِنَ الْخَفِيفِ]

بأبي من وددته فافترقنا وقضى الله بعد ذاك اجتماعا
فاfterقنا حولاً ولما التقينا كان تسليمه عليّ وداعا

فيا ترى ، ما السبب الداعي للبدء بالكلام على هذين البيتين؟! ولم شعُر الفراق هو المقدم عند ابن عبيد الله . إن لذلك سبباً يرجع إلى حسن استنباطه أيضاً ، إنه الاستنباط الذي انطلق من قاعدة قوية هي هذه الشخصية الفذة ، لتحلق في أفق عالية لم يصل إليها أحد .

ولتوضيح ذلك : لننظر إلى هذا الحوار الذي دار بين ابن عبيد الله وشيخه العلامة النابغة السيد أبي بكر بن عبد الرحمن بن شهاب الدين رحمه الله .

لقد دار ذلك الحوار بين الشيخ وتلميذه ، وكان مداره حول اختيار أحسن مواضع الشعر ، وأيها أبلغ تأثيراً في النفوس .

قال الشيخ ابن شهاب : أحسنها الغزل والنسيب ، ولهذا كان شعراء العرب يقدمون النسيب والغزل في قصائدهم .
فاستوقفه تلميذه ابن عبيد الله السقاف قائلاً : أما أنا . فالذي أراه أن أحسن مواضيعه المؤثرة : شكوى الفراق ، ولي
دليل على ذلك من كتاب الله تعالى .

فسأله شيخه : ما هو دليلك ؟

فأجابه : دليلي عليه من سورة يوسف ، قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ . . ﴾ ،
وسورة يوسف كلها محتوية على شكوى الفراق .

فاستحسن الشيخ ابن شهاب هذا الجواب من تلميذه النقيب النابغة ، وقبّل بين عينيه .

أعتقد أن الحوار لا يحتاج إلى أي تعليق ، فلقد قطعت جهيزة قول كل خطيب ، وإنما أردنا بإيرادنا لهذين
الاستباطين التمهيد للقارئ الكريم ، للانطلاق والتحليق في أجواء كتابنا هذا .

نعود إلى متابعة ذكر مؤلفاته الأدبية والنقدية :

١- « العود الهندي عن أمالي في ديوان الكندي » .

وهو كتابنا الذي نقدمه للقارئ الكريم ، قال عنه الشيخ حمد الجاسر : (يعد كتاب « العود الهندي » من أحفل كتب
الأدب بالفوائد والفرائد من الأشعار والأخبار ، مما يدل على ما يتصف به مؤلفه من سعة الاطلاع ، مع رحابة الصدر
في إيراد ما قد يتحاشى البعض من إيراد من النكت والنوادر ، وقد يسوق بعد ما يورد من الشواهد طرائف من الشعر
أو القصص الحديثة) .

وقال الشيخ الجاسر أيضاً في موضع آخر : (ومع أن السيد السقاف لم يتلق العلم - فيما علمت عنه - خارج الجزيرة ،
إلا أن المرء حين يطالع أحد مؤلفاته ككتابه عن المتنبي . . يعجب من سعة اطلاعه ، وقوة استحضاره للشواهد
والنصوص عند الحاجة ، وسرعة بديهته) .

لقد اختار المؤلف تسمية كتابه هذا بـ « العود الهندي » ذلك المندل الزكي الرائحة ليتناسب مع كلمة (الطيب) في
كنيته المتنبي ، وكأنه يستنشق أريج أشعاره .

كما جعل لهذا الكتاب « مجالس » بدل « أبواب » أو « فصول » لأن الأشعار تتناسب معها مجالس الأدب والشعر ،
وكانه تخيل نفسه في مجالس مع المتنبي يستوحي ويستلهم من أشعاره الخالدة التي لا زالت الأقلام تأتي بالجديد
والمفيد في فهمها وتحليلها ، لأنها أشعار في غاية البلاغة والجزالة وقوة السبك في صياغة شعرية لم يأت أحد بمثلها
إلى المعاني التي تفرد بالكثير منها .

فتناول في مجالسه - هذه - جل مواضيع شعر المتنبي من : غزل ، ومديح ، وفخر ، ورناء وفراق ووفاق وغيرها .

وما دمنا نتكلم على اسم الكتاب فلا بأس أن نعرض إلى نسبة المتنبي إلى كندة :

أطلق ابن عبيد الله على كتابه الذي تذوق فيه ونقد بعض أبيات شاعر العربية الكبير المتنبي اسم « العود الهندي »
ليوافق سجة اللقب الذي أطلقه على المتنبي وهو « الكندي » .

إن الذين ترجموا للمتنبى أجمعوا أنه ولد بمحلة بالكوفة تسمى « محلة كنده » وهذه المحلة كانت خطة من خطط الكوفة نزلها في الصدر الأول جماعة من بطون كنده فسميت بهم .

فقد كان أهل اليمن وحضرموت يشكلون تعداداً قدره ستة آلاف دار في سنة (٣١٤هـ) نصيب كنده منها ثلاثة آلاف بيت^(١) .

وقد تحدث الشيخ محمود شاکر عن هذه المحلة وتطرق إلى الحديث عن نسب أبي الطيب المتنبى في كتابه (المتنبى) فليرجع إليه من أراد التوسع في الأمر .

٢- ديوان ابن عبيد الله :

ديوان حافل بأصناف وألوان القصائد ، وأرقها وأعذبها وأجزلها .

طبع الديوان في رمضان (١٣٧٨هـ) تحت نظر وتصحيح الشيخ حسنين مخلوف ، ومراجعة السيد حسن بن عبد الرحمن ابن المؤلف - رحمهما الله - وجاء مع فهارسه في (٥٥٢) صفحة . وتوجد مجموعة أخرى من شعره لم تأخذ طريقها للنشر بعد ، وتقع في حوالي (٥٠٠) صفحة وهو يعد الجزء الثاني لا يزال مخطوطاً .

وهو فعلاً كما قال عنه الشيخ حسنين مخلوف : (ديوان شعر وعلم وأدب وتاريخ وسير ودين وأخلاق) .

٣- « معارضة البردة » : طبعت بعدن سنة (١٣٦٧هـ) .

٤- « الرحلة الدوعنية » : وهي عبارة عن رحلة منظومة ، وقد قام ابن عبيد الله بهذه الرحلة سنة (١٣٦٠هـ) ، وهي تعد من روائع أدب الرحلات .

٥- « النجم المضي في نقد عبقرية الشريف الرضي » ، ويسمى « مفتاح الثقافة » ، اطلع عليه الزركلي فوصفه قائلاً : (انتقد به بعض ما جاء في « عبقرية الرضي » للدكتور زكي مبارك في جزء لطيف) . وهو مخطوط ويقع في مجلد متوسط .

٦- « النقد العلمي الذوقي في الجواب عن أبيات شوقي » :

وهو جزء لطيف يقع مخطوطاً في (٣٢) صفحة ومطبوعاً في (٢٢) صفحة .

خامساً - محاضراته وخطبه :

كان ابن عبيد الله السقاف - رحمه الله تعالى - خطيباً بارعاً ، مفوهاً مصقفاً ، ومع ما ترى له من المؤلفات إلا أنه يُدكر أنه في الخطابة أعظم منه في الكتابة ، فسبحان المعطي الوهاب .

وله مجموعة لا بأس بها من الخطب الجُمعية أو في مناسبات أخرى قيل إنها جمعت في مجلد . ولندكر في هذه العجالة بعض محاضراته :

١- محاضرة « تحقيق الفرق بين العامل بعلمه وغيره وما يتصل بذلك من حد الولاية وحكم الإلهام » . طبعه بمصر سنة (١٣٥٥هـ) في (٣٢) صفحة بتقريظ العلامة أحمد المطاع الصنعاني .

(١) المتنبى محمود شاکر (ص ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣) .

٢- كلمة عن العدالة والمساواة : ألقاها في درسه بسيئون في (٩) ربيع الثاني سنة (١٣٧٢هـ) بعد أن سئل عن حكم الإسلام في ذلك ، وكانت على البديهة ارتجالاً بدون تحضير سابق .

٣- كلمة حول « تحديد الملكية » ، وهي رد على مقال للشيخ محمد عرفة نشر بمجلة الأزهر ، وتاريخها (١٦) ربيع الثاني (١٣٧٢هـ) .

سادساً- الردود :

نذكر منها :

١- « النجم الدرري في الرد على السيد سالم الجفري » .

٢- « نسيم حاجر في تأكيد قولي عن مذهب المهاجر » .

٣- « السيف الحاد لقطع الإلحاد » ، طبع بعدن في شعبان (١٣٦٩هـ) في (١٣٨) صفحة . وهو رد على كتاب « توحيد الأديان » للأستاذ حسين الصافي من أهالي جيزان ، وقد رجع الصافي عن كتابه بعد ذلك^(١) .

تلاميذه :

سنذكر منهم ما تسمح به هذه العجالة فمنهم :

١- ابنه السيد الأديب الشاعر الأستاذ حسن بن عبد الرحمن ، المولود سنة (١٣٣٥هـ) والمتوفى سنة (١٤٠٦هـ) . كان والده شديد العناية به ، وكتب معظم مصنفاته ، ومنها هذا الكتاب « العود الهندي » من أجله كما في مقدمته . وللسيد حسن ديوان شعر حكيمي طبع مؤخراً .

٢- ابنه الآخر السيد عبد القادر (قيدان) بن عبد الرحمن ، ولد بسيئون وتوفي مهاجراً في سورابايا سنة (١٣٩٩هـ) ، وهو أكبر أبنائه ، كان فاضلاً أديباً ، درس في مدرسة النهضة بسيئون ، وكان له نشاط أدبي في مهجره ، رحمهما الله .

٣- السيد علوي بن عبد الله بن حسين بن محسن بن علوي السقاف (١٣١٥هـ - ١٣٩١هـ) عالم نحري ، فقيه محقق ، أجمع عليه أهل عصره واعتبروه زعيماً مخلصاً ، كما أجمعوا على أنه الثاني في الفقه بعد شيخه العلامة ابن عبيد الله .

٤- السيد محمد بن شيخ المساوي المتوفى سنة (١٤٠٥هـ) بسيئون . كان من تلامذة ابن عبيد الله النجباء النوايح ، نشأ مجدداً في الطلب حتى بزَّ الأقران ، وشغل وظيفة كبرى بمدرسة النهضة العلمية بسيئون وكان يقوم ببعض الدروس العلمية بمسجد طه .

٥- السيد سالم بن علوي بن عبد الرحمن خرد ، المتوفى بجدة سنة (١٣٩٨هـ) . وهو العالم الشاعر ، الحافظ لكتاب الله ، الخطيب المصقع ، الكثير السعي لخير الناس ، الصريح في آرائه ، الجريء في إبداء معلوماته ، مع رحابة صدر ، ولطف معشر . وقد أفرده بالترجمة ابنه السيد عبد القادر خرد في كتاب سماه (هذا أبي) .

(١) أخبرني بهذا تلميذ المترجم السيد جعفر بن محمد السقاف .

٦- السيد العلامة محمد بن سالم بن حفيظ ، المولود في (١٣٣١هـ) والذي اختطفه الشيوعيون الملاحدة في ذي الحجة (١٣٩١هـ) . كان عالماً نزيهاً صادقاً بالحق ، يتردد على ابن عبيد الله ، وقد استفاد منه .

٧- السيد عبد القادر بن سالم « الروش » السقاف ، المتوفى بسيتون في (١٤١٥هـ) . درّس في مدرسة النهضة العلمية بسيتون ، وتخرج منها ، ثم درّس فيها ، وكان مواظباً على حضور مجالس شيوخه ، عظيم الرغبة في الطلب والتحصيل والبحث والمطالعة ، رحل في شبابه إلى مكة المكرمة ، وأقام بها مدة ، لازم فيها شيخه السيد العالم الرباني عيدروس بن سالم البار وأخاه أبا بكر بن سالم .

٨- ومنهم خاتمة العقد ومسك الختام ، الإمام الجليل ، والحبر النبيل ، السيد الخليفة السند ، إمام العصر الحبيب عبد القادر بن أحمد السقاف . وكان من المترددين على مجالس ابن عبيد الله ، وأفاد من علمه وأدبه شيئاً جماً ، وكان يقول دائماً : إن النساء عجزن أن يلدن مثل ابن عبيد الله .

وهناك كثيرون وكثيرون جداً ، نذكر منهم :

٨- العلامة القاضي مبارك باحريش التريمي .

٩- السيد جعفر بن محمد السقاف .

- السيد الداعية الإمام أحمد مشهور الحداد (١٣٢٥هـ - ١٤١٦هـ) .

- السيد علي بن عبد الله بن حسين « القاضي » السقاف .

- السيد محسن بن علوي السقاف .

- السيد الشاعر صالح بن علي الحامد .

وليعدرنا من لم تتسع هذه النبذة المختصرة لذكرهم ، وإن شاء الله تعالى في ترجمة ابن عبيد الله الموسعة سنذكر الكثير والكثير الطيب عن ذلك وعن غيره .

وفاته :

لم يزل على حالة مرضية ، وطريقة سوية ، شعلة بل شمساً تضيء وتنير في ظلمات الجهل ، فلقد كان رحمه الله جبلاً من جبال العلم ، حتى توفي صباح الأربعاء (٢٦) جمادى الآخرة سنة (١٣٧٥هـ) ، فأصيب الناس بالذهول الشديد والحيرة والارتباك لوفاة هذا العلم .

وما كان قيس هلْكُهُ هَلْكُ واحدٍ ولكنّه بِنِيانِ قومٍ تَهَدَّمَا

وقد أقيمت بعد وفاته مجالس العزاء في حضرموت وأندونيسيا وكينيا وغيرها من بلدان العالم الإسلامي ، وقد رُئي بقصائد شعرية نكتفي منها بأبيات من مرثاة تلميذه الشاعر صالح بن علي الحامد :

بكت الطروس عليك والأقلام والشرق ناح عليك والإسلام
نعت المكارم حظهها وتنكست من أجل رزئك للعلا أعلام
وغدا نهارك للفجيرة قاتماً فكأنما أغشى عليه ظلام

والشمس عبرى في السماء كأنما
 وبكى عليك العلم والعلواء والشَّيْمُ العلى والنقض والإبرام
 ورثاك رواد المعارف والهدى
 قدر المصيبة عند قدر مصابها
 كم موقف لك في الخطابة خالد
 لهفي على الروح الخفيفة كم ورت
 تغذو المجالسَ بهجةً وفكاهة
 لا يعجب الأقران كيف سبقتهم
 أسرعَ في كسب الجميل وأبطؤوا
 فجمعتَ أوصاف الكمال وإنما
 فعلى الخطابة والبلاغة بعده
 فاذهب فإنك خالد بالذكر ما
 غطى مجياها الحزين لثام
 فاليوم بعدك كلهم أيتام
 ولذاك أرزاءُ العظامِ عظام
 حمدت براعته لك الأقسام
 فينا المسرة والزمان غلام
 فكأن بهجتها عليك لزام
 في كل ما قعدوا إليه وراموا
 وسهرتَ في طلب الكمال وناموا
 يغشى الخسوفُ البدرَ وهو تمام
 وعلى النبوغ تحية وسلام
 مضت القرون وكبرت الأعوام

وإلى هنا يقف القلم في ترجمة هذا العلم ، والمقصود أن نذكر تعريفاً ميسراً ، والمعروف كما قيل لا يعرف ،
 وحسب الإنسان أن ينظر في كتاب « الأعلام » للزركلي هذا الكتاب المشهور في التراجم ، فإننا نجد أن ترجمة أي
 علم فيه لا تتجاوز سطوراً ، وعندما أراد أن يذكره الزركلي في كتابه وكان الزركلي رحمه الله قد اجتمع بابن عبيد الله
 وعرفه واتصل به . . فإنه قد ذكره في عمودين^(١) . وما ذاك إلا لأهمية الرجل ، والخواطر تتدافع . ونسأل الله أن
 يتقبل منا ، وأن يغفر لنا ما شط به القلم ، والله أعلم .

* * *

(١) « الأعلام » (٣/٣١٦٣١٥) ، وتقع الترجمة في (٤٣) سطراً ، في عمود ونصف ، وهي طويلة جداً بالنسبة لغيرها من تراجم كبار الأعلام .

وقفترمع الأمالى والمجالس

بقلم
الناشر

كان المتنبى واحداً من أولئك العباقرة الذين تلمع مآثرهم فى صفحات الآداب العربىة ، ولقد كانت له يد طولى فى تفتىق المعانى ، وإثراء الأدب العربى ؛ إذ كشف اللثام عن مخدرات ما وقف عليها الأولون ، تستبىك خردّها ، وتسلب لبك جآذرها ، لوحة إثر لوحة ، وصورة تتبعتها صورة ، منها الجدىد المبتكر ، ومنها الملهم الأخاذ الذى يسحرك بىبانه ، ويذهلك بإحسانه .

فلا غرو أن ترى أبا العلاء ىنعت « دىوان المتنبى » بـ « معجز أحمد » ، وترى الأدباء مولعین بعجائبه ومبتكراته التى لىس وراءها مرمى ؛ ولذلك لم يأت بعده مثله ، ولم يلحق أحد شأوه .

على أنه فى بعض المواطن تخال بعض أبیاته قد انحطت عن مكانة المتنبى ؛ حتى لتظن أنها مختلفة علیه ، وهذا ما ستلحظه فى هذه الأمالى .

وفى جانب آخر ترى تنوع المطالعین فىه ، من شاعر وناثر وعابد وزاهد وملىك ومملوك وشرف وصعلوك ؛ كل یرى فىه طلبته ، وىستمع بتلك الأسالیب الشىقة التى ارتفعت عن الدون ، ولبست حلل الإبداع ؛ حتى أخذت بأزمة المشاعر إلیها .

وفى كتابنا هذا قام العلامة الأدىب الأربى مفتى حضرموت السىد عبد الرحمن بن عبىد الله السقاف بجمع مجالس كان قد عقدها ، مستلطفاً أبیاتاً من هذا « الدىوان » ، ىملى بها من عفو الخاطر ما تجىش به النفس تلك الساعة ، وما ثمّ من المراجع إلا كتاب « شرح العكبرى » ، ثم الفتوحات التى ىفتحها الله على الشىخ مستمداً من ذوقه العربى وحصلیته الأدىبة وحافظته الفذة ؛ ما جعله أهلاً لأن ىقارع كبىر الأدباء .

فعرّف بعرف « عوده الهندى » تلك المجالس ، وأعاد الرىّ لعود الشباب بإحیاء فنّ الأمالى الأدىبة ، التى كادت تنقرض لولا تلك الهمم القصیة .

وهذا هو الحافظ السىوطى یأسف لفوات حملة علم العربىة على طريقة الأمالى وعقد المجالس إذ ىقول : (وانقطع إملاء اللغة عن دهر مدید ، واستمر إملاء الحدیث ، ولما شرعت فى إملاء الحدیث سنة اثنتین وسبعین وثمان مئة ، وجددته بعد انقطاعه عشرین سنة ؛ من سنة مات الحافظ أبو الفضل بن حجر . . أردت أن أجدد إملاء اللغة وأحیه بعد دنوره ، فأملیت مجلساً واحداً ، فلم أجد له حملة ولا من یرغب فىه ، فتركته)^(١) .

الأمالى والمجالس الأدىبة

ولعل الناظر فى طريقة تدوین « العود الهندى » وأسلوب عرضه وطرافة مادته . . یدرك الأهمية البارزة فى إعادة الهیبة لمجالس العلماء وإحیاء طريقة الإملاء .

(١) المزهر فى علوم اللغة (٢/٣١٤) .

فهذا العود الهندي عن أمالي في ديوان الكندي « هو مجالس أدبية عقدت حول أبيات مختارة من هذا الديوان ، كان قد بيّضها مؤلفها بعد ما جمعها لتكون ذخيرة أدبية للمطالع فيها ؛ لما حوت من عفو الخاطر في إيراد مادتها ، بعيداً عن عنت التكلف الذي يقف معه المؤلفون .

والأمالي : جمع إملاء ، وهو أن يعقد عالم مجلساً وحوله تلامذته بالمحابر والقراطيس ، فيتكلم العالم بما فتح الله سبحانه وتعالى عليه من العلم ، ويكتبه التلاميذ ، فيصير كتاباً ، ويسمونه الإملاء والأمالي ، وكان هذا دأب السلف من الفقهاء والمحدثين وأهل العربية وغيرها من العلوم ، فاندurst لذهاب العلم والعلماء ، وإلى الله المصير^(١) .

فإذن ؛ ليست الأمالي وقفاً على مجالس الحفاظ والمحدثين ، بل كانت عامة في كل العلوم والفنون ، ولا بد وأن يكون المتصدر لها أحد الأفاضل من العلماء المبرزين والحفاظ المتقنين ، أو ممن تفرّد بمرويات انقطع حملتها ، فقصدته الرواة يحملون عنه .

يقول السيوطي مبيناً انتشار مجالس الإملاء عند اللغويين والأدباء : (وقد أملى حفاظ اللغة من المتقدمين الكثير ، فأملئ ثعلب مجالس عديدة في مجلد ضخمة ، وأملى ابن دريد مجالس كثيرة رأيت منها مجلداً ، وأملى أبو محمد القاسم بن الأنباري وولده أبو بكر ما لا يحصى ، وأملى أبو علي القالي خمسة مجلدات ، وغيرهم ، وطريقتهم في الإملاء كطريقة المحدثين سواء ، يكتب المستملي أول القائمة : « مجلس أملاه شيخنا فلان بجامع كذا في يوم كذا » ويذكر التاريخ ، ثم يورد المملي بإسناده كلاماً عن العرب والفصحاء ، فيه غريب يحتاج إلى التفسير ، ثم يفسر ، ويورد من أشعار العرب وغيرها بأسانيده ، ومن الفوائد اللغوية بإسناد وغير إسناد ما يختاره)^(٢) .

ثم قال : (وآخر من علمته أملى على طريقة اللغويين أبو القاسم الزجاجي ، له أمال كثيرة في مجلد ضخمة ، وكانت وفاته سنة تسع وثلاثين وثلاث مئة ، ولم أقف على أمال لأحد بعده)^(٣) .

قال ثعلب في « أماليه » : حضرت مجلس ابن حبيب ، فلم يمل ، فقلت : ويحك! أمل ، ما لك؟! فلم يفعل حتى قمت ، وكان حافظاً صدوقاً في الحق ، وكان يعقوب أعلم منه ، وكان هو أحفظ للأنساب والأخبار منه . قلت : في هذا توقيير العالم من هو أجل منه ، فلا يملني بحضرته)^(٤) .

والواقف على كتب الأمالي والمجالس يجد تعاوراً ملحوظاً في إطلاق اللفظين دون مراعاة تفريق بينهما ، اللهم إلا أن ترى ما دُونَ قد جمع روايات المملي وغيره ؛ ممن يداخله في كلامه ، أو يسأله ويستفصله ، أو يعقب أو يُشكل ، فهذا حري بإطلاق لفظ المجلس عليه ؛ لجمعه لكلام المملي وغيره ، أما المجالس التي اقتصر فيها على تدوين كلام المملي دون غيره . . فهي بإطلاق لفظ الأمالي عليها أقرب منها للفظ المجلس ، ومع هذا نرى بعض المرويات أطلق عليها اللفظان معاً ، كـ « مجالس ثعلب » كما سماها السيوطي وغيره ، و « أمالي ثعلب » كما سماها البغدادي في « خزائنه » مثلاً .

(١) كشف الظنون (١/١٦١) ، وزاد : (وعلماء الشافعية يسمون مثله التعليق) .

(٢) المزهر في علوم اللغة (٢/٣١٣) .

(٣) وهذا باعتبار إيراد الأسانيد فيما يحدث ، وإلا . . فالأمالي بعده كثيرة .

(٤) المزهر في علوم اللغة (٢/٣١٤) .

ثم إن وحدة الموضوع في المجلس - على كثرة التفاريع والاستطرادات - تتجلى واضحة أكثر منها في الإملاء ، وهذا ما نشهده بجلاء في « العود الهندي » ، ولذا نرى المملي العلامة السقاف يحيل على مجالس قديمة ، أو يعد بمجالس آتية في تبين أو تفصيل .

والله ولي التوفيق

وصف لنسخة النخبة

اعتمدنا في تحقيق هذا الكتاب على نسخة خطية نفيسة ، بخط المؤلف رحمه الله تعالى . وهي مسودة الكتاب الأصلية ، كان رحمه الله قد بيّض الكتاب وأرسله إلى (مصر) ليُطبع هناك . فلم يُطبع ولم تُرجع له المبيضة ، فاضطرَّ رحمه الله تعالى لإعادة النظر في المسودة - التي بين أيدينا - وإضافة ما قد فاته ، وتصحيح ما أخطأ فيه .

وقد ظهر ذلك جلياً بحيث كُتبت الإضافات بلونٍ مُغاير ، ونجدُه في بعض الأماكن قد حكَّ وشطب . تقع هذه النسخة في (٥١٦) صفحة ، وسطورها بين (٢٨) و (٣٠) سطراً ، وكلمات السطر بين (١٠) و (١٣) كلمة .

خطها نسخي مستعجل ، وضعت أبيات المتنبي التي تخصُّ موضوعاً معيناً يُبنى عليه البحث بلونٍ أحمر . وقد فرغ من كتابتها في (١٧) جمادى الأولى (١٣٥٢ هـ) .
وهذه النسخة من مقتنيات زوج أبنه المؤلف السيّد محسن بن علويّ السقّاف حفظه الله تعالى .

* * *

منهج العمل في الكتاب

- نسخ المخطوط .
- مقابلة المنسوخ على المخطوط .
- ترقيم الكتاب ، وترصيع أحرفه بالحركات الإعرابية ، وضبط ألقافية المشددة بشدة وسكون (-) ؛ لتدل على أن الحرف مشدّد ، مثل : (نبي) .
- عدم فك إدغام الحرف المشدّد إذا كان من البحر المدور ؛ الذي يكون مشتركاً بين آخر الصدر وأول العجز ، وجعل الحرف المشدّد تارة بآخر الصدر وتارة بأول العجز .
- تقسيم الكتاب إلى فقرات لتسهيل مطالعته .
- عنوانه الكتاب بعنوانات مناسبة ، وجعلها في صلب الكتاب .
- تخريج الآيات القرآنية .
- تخريج أكثر الأحاديث النبوية القولية والفعلية .
- ردّ معظم الآثار والأخبار وألقصص إلى مظانها من كتب الأدب والعربية والتاريخ .
- تخريج الأشعار وإحالتها إلى دواوين قائلها إن كان الدويون متوقفاً لدينا ، وإن لم يكن متوقفاً . . أحلنا إلى أمات كتب الأدب والعربية .
- جعلنا التخريج ضمن متن الكتاب بين معكوفتين [] ؛ وذلك تخفيفاً للكتاب من ثقل الحواشي .
- بحرنا الآيات الشعرية عقب تخريجها ضمن المعكوفتين .
- خرّجنا أبيات المتنبي من شرح العكبري بذكر رقم الجزء والصفحة .
- جعلنا الآيات التي جعلها المصنّف مطلعاً لبحث معين في رأس صفحة بخط مغاير .
- ميّرنا كلمتي (قال الناظم) و (قوله) حيث أراد بها المتنبي بحرف مغاير ، تمييزاً لأشعار المتنبي عن أشعار غيره .
- شرحنا الكلمات الغامضة والمبهمّة شرح مفردات ، وفي بعض الأحيان ذكرنا المعنى العام للبيت إذا كان مبهماً .
- أخذنا من كتب الأدب فنقلنا عنها بعض القصص والأخبار التي أشار إليها المؤلف ولم يذكرها ، أو ذكرها باختصار فأكملناها .
- قمنا بذكر أبيات بعض القصائد بالحاشية ، إذا كان له وقع وأثر في النفوس .
- أضفنا في بعض المواضع ما ارتأينا أن النص لا يقوم إلا به ، وجعلناه بين معكوفتين [] .

* * *

خاتمة

ومع الانتهاء من العملِ النفس في هذا الكتابِ . . لا بُدَّ للإنسانِ من أن يقفَ وقفَتينِ مهمتينِ :
أما الأولى :

فمعَ الله عزَّ وجلَّ : فأقولُ :

ياربِّ . . عقلي عاجزٌ عن التَّكبيرِ . . ولساني عاجزٌ عن التَّعبيرِ . . وقلمي عاجزٌ عن التَّسطيرِ .

فيا إلهي وسيدي ومولاي . . لك الحمدُ على ما أنعمتَ به عليَّ .

أينَ كانتُ قدرتي عندما كنتُ في الحشا ، تطعمني أنتَ وتسقيني !؟

أم أينَ كنتُ عندما تفضَّلتَ عليَّ وهديتني إلى الطَّريقِ الَّذي أسلكهُ للوصولِ إليك !؟

أم أينَ كنتُ عندما تفضَّلتَ وتكرَّمتَ عليَّ وجعلتني مُسليماً !؟

أم أينَ كنتُ عندما نورَّتَ قلبي وهديتني عقلاً أُميراً به بينَ الخيرِ والشَّرِّ !؟

ما أفضَّلَ الَّذي لي على غيري حتَّى وهبني كلَّ هذه النِّعمِ !؟

لا فضلَ لي ، لا حولَ لي !!

ولكنَّه كرمك وجودك ومَنك ، فياربِّ تَمِّمْ وأدِّمْ كرمك وجودك وفضلك .

ويا ربِّ . . عرَّفنا نعمك بدوامِها ، ولا تعرِّفنا النِّعمَ بزوالِها .

لك الحمدُ والشُّكرُ على ذلكَ يا ربَّ العالمينِ .

وأما الوقفةُ الثانيةُ :

فمعَ حديثِ سيدي رسولِ الله صلى الله عليه وسلم حيثُ يقولُ : « مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ . . لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ » .

وعليه : أتقدَّمُ بالشُّكرِ لكلِّ مَنْ ساهمَ في إنجازِ هذا العملِ الجليلِ .

فأتقدَّمُ بالشُّكرِ لوالديَّ اللَّذَيْنِ يَسَّرَا لي سبيلَ طلبِ العلمِ ، وسهَّرا عليَّ اللَّياليَ حتَّى وصلتُ إلى ما وصلتُ إليه .

وأتقدَّمُ بالشُّكرِ لشيوعي اللَّذِينَ رَبَّوْنِي وَأَدَّبُونِي بِأَدبِ الإِسْلامِ ، جزاهمُ اللهُ عني كلَّ خيرٍ .

وكذلكَ أتقدَّمُ بالشُّكرِ للإخوةِ الَّذِينَ بذلوا قُصاريَّ جهدهم لإِنجاحِ هذا العملِ . . لينُجَّحَ الكتابُ بأبهي حُلَّةٍ ، وأبهجِ

مظهرٍ .

وكذلكَ أتقدَّمُ بالشُّكرِ للجنودِ المجهولينَ الَّذِينَ تعبوا في هذا العملِ ، ولا أخصُّ منهم أحداً وأجرهمُ على الله .

وفي الختامِ :

إنَّ يَكُنْ مِنْ خَيْرٍ . . فَمِنْ اللَّهِ ، وَإِنْ يَكُنْ غَيْرَ ذَلِكَ . . فَمِنْ نَفْسِي .

ورحمَ اللهُ مَنْ أهدى إليَّ عيوبي ؛ فالإنسانُ ضعيفٌ ، والمرءُ مرآةُ أخيه .
وصلواتُ ربِّي وسلامُهُ على مَنْ قالَ : « كُلُّ أبنِ آدَمَ خَطَّاءٌ ، وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ . . التَّوَّابُونَ » .
ورحمَ اللهُ مَنْ قالَ :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

فَلَا بُدَّ مِنْ عَيْبٍ فَإِنْ تَجِدْنَهُ فَسَامِحْ وَكُنْ بِالسَّتْرِ أَعْظَمَ مُفْضِلٍ
فَمَنْ ذَا الَّذِي مَا سَاءَ قَطُّ وَمَنْ لَهُ أَلْمَحَاسِنُ قَدْ تَمَّتْ . . سِوَى خَيْرِ مُرْسَلٍ

* * *

كلمة شكر

الحمد لله الذي خلق الإنسان ، وعلمه البيان .
والصلاة والسلام الأتمان الأكملان ، على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان .

وبعد :

ومع الانتهاء من خدمة هذا الكتاب . . فهناك مواقف يشعر فيها المرء بأن السكوت أبلغ من الكلام ، وأن عدم الكتابة
كتابة .

فما عسى أن يكتب مثلي بين يدي هذا الكتاب .

وما دفعني للكتابة الآن . . إلا تسطير الشكر إلى من شارك في إخراج هذا الكتاب ، وخصوصاً من تفضلوا بقراءة
الكتاب قبل الطبع ، وأفادوا الكتاب بقراءتهم كثيراً ؛ تصحيحاً ؛ وتعليقاً .
أخص منهم :

الدكتور محمد عبد الرحمن شميلة الأهدل الذي قرأ الكتاب كاملاً . جزاه الله خيراً ، وأتحفنا بكلمة قيمة صدرنا بها
الكتاب .

وكذلك الدكتور بكري شيخ أمين الذي تفضل بقراءة بعض أجزاء متفرقة من الكتاب ، فجزاه الله خير الجزاء .

وفي النهاية :

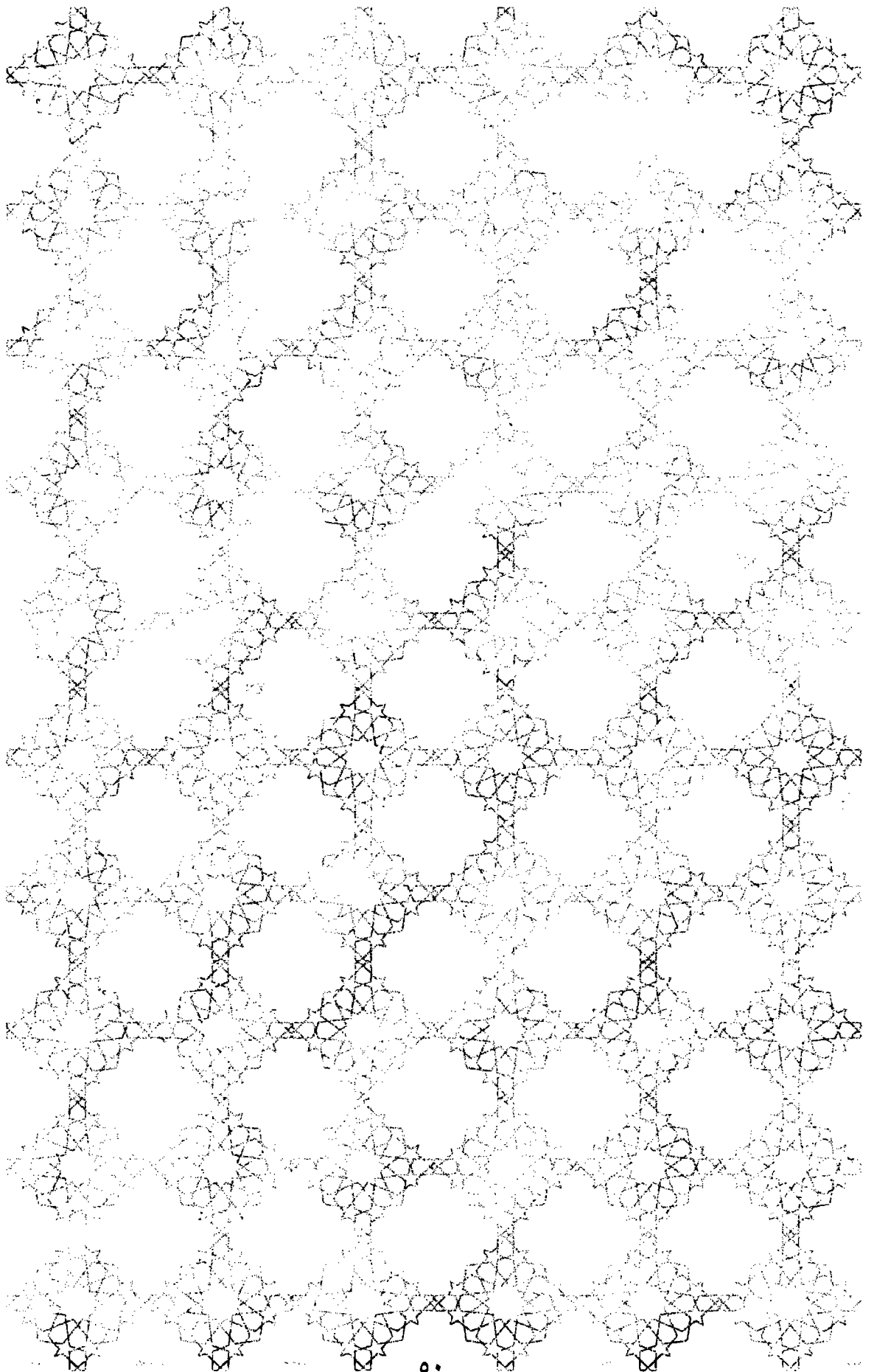
فإننا نرحب بأراء القراء الكرام وانطباعاتهم ، بل وانتقاداتهم ، فنحن نريد الخير لأمتنا ، وأن ينتفع طلاب الأدب بهذا
السفر الجليل ؛ لما تضمنه من مباحث شيقة ومعانٍ راقية وفوائد تسر طلاب المعرفة .

والله ولي التوفيق

وهو حسبنا ونعم الوكيل

الناسخ

صور من نسخ المعتبرة



العهد الهندي من قاضي ديوان الهندى السامى
تاليف وحفظ العلامة مفتى الديار المصرية الشيخ محمد رشيد رضا
الملك محمد رشيد رضا

جعل المستحقين والعلامة والسلام على نبيه وآله من بعده
فهذه مجالس في ديوانه النبوي كتبها من مؤلفات
وليس له القلم بل انما كانت روية ولا اوراق فذكر
ولا كتر في كره ولا اوراق خالصة ولا جارية على العلية
اردنا بها له حاضر ولا يمام النكر من مائة الف
لم نكتب بها التاليف ولا تلكه بها جليل الضيق
ولا نكتبها بدين امرنا من شرح المكارم ولا سلم به
ولا يحضر ساعة القراءة كتاب سواء ثم نفوس الجليل
بحرارة النظم ما علمت بها من سائر النظم في باب
فخيم اليه بله تسبق ولا ترسوخا ولا ترقية
وله تصفية وفي سرنا نأخذ اولى كبرياء ونحو
الاسباب موقفا منها التناهي بها من السجود
وتكون الحرم قريبا على سائر العمل فبها انما
فانكس الامل واستوفى الجهل وما ذكرناه من بعد العذر
للنقص والزيادة والتميز في الرواية ولا يفرق
كثيرا نلطف له نال من بعد الاجتهاد لم يقطع الا انما
في بعض نقطه ولا يما سبه ان قامت انا سببه
ولذا يريد ذكره في بعض الاله سطره لانه التصديق
المعصوم بانسبها لا يمانان على صفة الطريقة وانما هو

بعض النظم
من مؤلفات
الشيخ محمد رشيد رضا
الملك محمد رشيد رضا

اشارة ذلك
لأنه في بعض
النظم
بعض النظم

راموز الورق الأولى من نسخة الخطية

نيا كين من مثل هذا نور من خدم الله وشرح خاصها
 لا اله الا الله محمد نبي الله صلى الله عليه وسلم
 كما هو العادة كمنه المروءة والكلوم عليها بما عجزت
 ثم اخلو بيني ساعة من ليلاء احتيا منها ما يكون
 وحيداً وقد قرأت وردى واخذت صنعى وقد نظرت
 بالسماء وقد ضحا بالبحر من الزهره وياضها من لوابت
 ابا حره استقرت فكري واستجيم ذكره وانطلقت لاني
 بيت من ذكره في الحبس الذي ابيته بن يميم وهو قوله
 والفتري وهو قات الام ابنا كالتناك وهو قوله
 وحسنت من الرمت بطيب ومن لهام بخطيب فاستكان
 الثعب وانشرح الصدر وقن الشعر وصرق البت ونبط
 ارم وقرة العوى وعظمت الوجع وانتمت الزمر بانا حارة
 والساء وباشت في الناطريات منيتها ذلك البيت قد جده في
 موضعها من الليرتون غير انها حاله جاءت نرت والحدوت
 ساعة ثم امرت ولله الحمد اوطعها ونبي الصلي عليه وسلم
 وحسبهم وسلم عليهم سادتا ما كل

راموز الورق الاخير من نسخة الخطية



الْعَوْنُ الْمُنْتَبِيُّ

عَنْ أَمَالِي فِي دِيْوَانِ الْكِنْدِيِّ

مَجَالِسُ رَبِّي فِي دِيْوَانِ الْمُنْتَبِيِّ

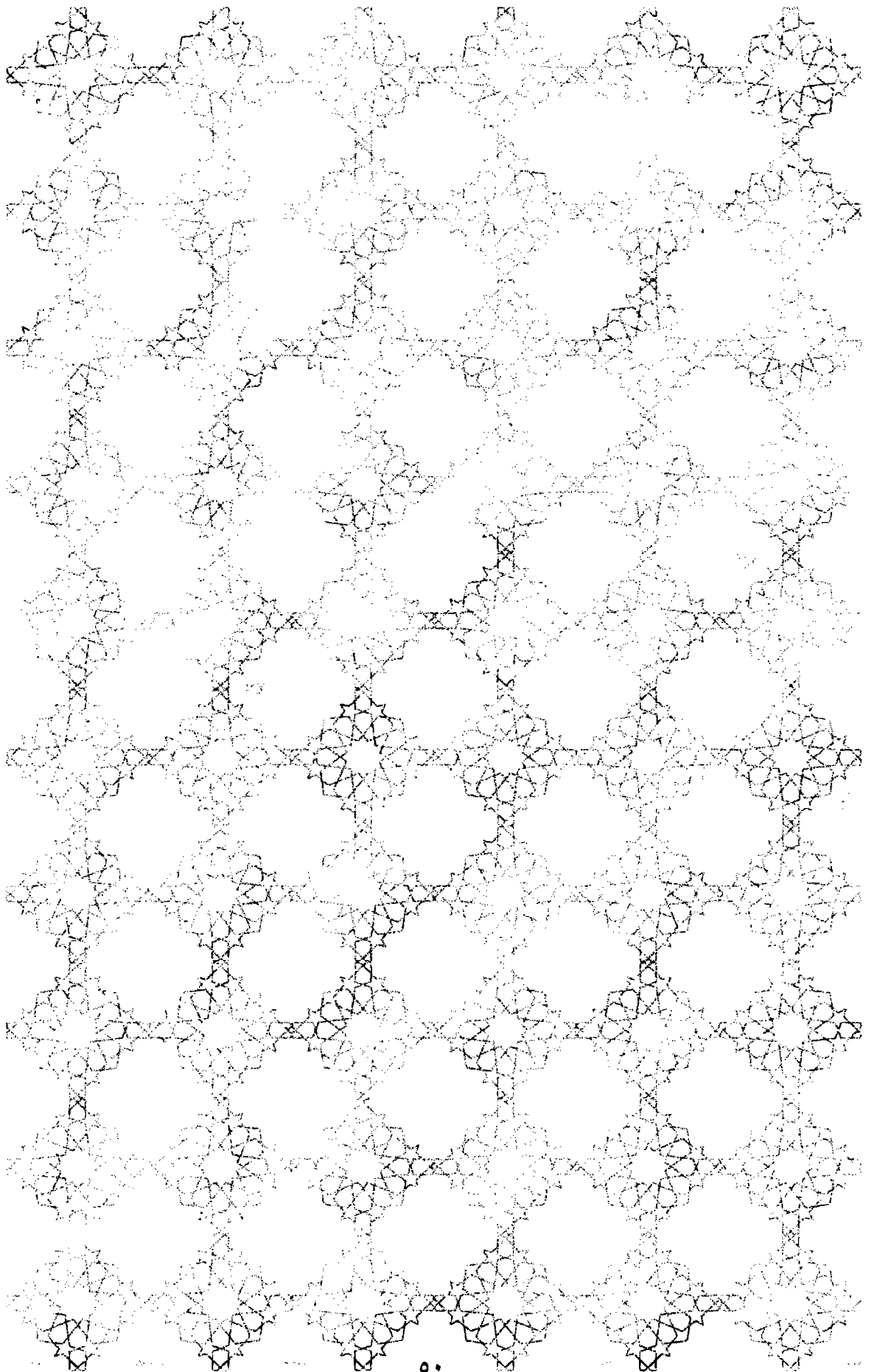
تَأَلَّفُ

عَلَّامَةُ حَضْرَمَوْتٍ وَمُفْتِيهَا

السَّيِّدُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ السَّقَّافِ

رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى

(١٣٠٠ - ١٣٧٥ هـ)



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[مقَدِّمَةُ الْمُؤَلِّفِ]

أما بعد :

حمداً لله مستحقَّ الحمدِ ، والصلاة والسلام على نبيِّه وآله من بعد .

فهذه مجالسُ في « ديوانِ المتنبي » ، كتبناها من عفوِ خاطرٍ ، ولسانِ القلمِ ، بلا إعناتِ رويَّةٍ ، ولا إرهاقِ فكرٍ ، ولا كدِّ قريحةٍ ، ولا إتعابِ خاطرٍ ، ولا جنائيةٍ على العينِ ، أردنا بها الإحماضَ^(١) وإجمامَ الفكرِ^(٢) من معاناةِ الفقهِ ، لم نقصد بها التأليفَ ، ولم نسلُكُ بها سبيلَ التصنيفِ ، وإنما نعدُّ لما بين أيدينا من « شرحِ العُكْبَرِيِّ »^(٣) ، فنلُمُ به ، ولا يحضرنا ساعةُ القراءةِ كتابٍ سواه ، ثم نعوِّجُ لما بقيَ بخزانةِ الحِفظِ ، ممَّا علَّقَ بها من سالفِ النظرِ في الأدبِ ، فنضيفُهُ إليه بلا تنسيقٍ ولا ترصيفٍ ، ولا ترتيبٍ ولا تصنيفٍ ، ومتى مرَّ بنا شيءٌ أو تذكَّرناه - وهو يُناسبُ موضعاً منها - ألحقناه بهامشِ المسوِّدةِ^(٤) .

من أمثلة ذلك : ما ذكرناه في أثناءِ المجلسِ السادسِ ، ممَّا اتَّفَقَ لنا به (مني) ، سنة (١٣٥٤ هـ) ، وكان العزمُ قوياً على مواصلةِ العملِ ، غيرَ أنَّ القارئَ ملَّ ، فانعكسَ الأملُ ، واستنوقَ الجملُ^(٥) ، وممَّا ذكرناه يتمهِّدُ العذرُ للنقصِ والزيادةِ ، والتحريفِ في الروايةِ^(٦) ، ولا بدعٍ إن كثرَ الغلطُ ؛ لأنَّا لم نعتدِ المراجعةَ له قطُّ ، إلاَّ مع التبييضِ في بعضِ نقطٍ ، ولا محاسبةٍ إن قلَّتِ المناسبةُ ، ولا إيرادٍ إن لم يعذبِ الاستطرادُ ؛ إذ التصنيفُ هو المخصوصُ بالنيقةِ^(٧) ، لا ما كان على هذه الطريقةِ ، وإنَّها مع الارتجالِ ، وعدمِ الاتِّساعِ في المجالِ . . لوعاءِ طرفٍ وأدبٍ ،

(١) الإحماضُ : الإفاضةُ فيما يُؤنسُ من الكلامِ والأخبارِ لما فيها من مَلْحٍ وحكاياتٍ .

(٢) إجمامُ الفكرِ : إراحتهُ وصلاحةُ ونشاطه .

(٣) العُكْبَرِيُّ : هو أبو البقاء عبد الله بن الحسين ، العُكْبَرِيُّ الأصلُ ، البغداديُّ المولدُ والدارُ النحويُّ الضريع . (عُكْبَرًا) التي ينسب إليها بليدة على (دجلة) ، ولد سنة (٥٣٨ هـ) ، وتوفي سنة (٦١٦ هـ) بـ (بغداد) .

قرأ علوم الدين والعربية على كبار مشيخة عصره بـ (بغداد) ، حتى حاز السبق في العربية والفقه الحنبلي والحساب والفرائض وصار فيها من الرؤساء المتقدمين ، كان ثقة صدوقاً ، غزير الفضل ، كثير المحفوظ ، حسن الخلق ، متواضعاً ، رقيق القلب ، ومؤلفاته زادت على الأربعين منها : « إملاء ما من به الرحمن في إعراب وجوه القراءات في القرآن » و« إعراب الحديث » و« شرح ديوان المتنبي » المسمى : « التبيان في شرح الديوان » ، وهي المعتمدة من المؤلف ومن فريق التحقيق في ضبط شعر المتنبي ، وبالله التوفيق .

(٤) المسوِّدةُ : الصحيفةُ تكتبُ أوَّلَ كتابةٍ ، ثم تُنقَعُ وتحرَّرُ وتبييضُ ، وسُمِّيت : مسوِّدةً ؛ لأنَّ الكاتبَ يسوِّدها بالشطبِ هنا مرَّةً وهناك مرَّةً أخرى إلى أن يستقرَّ به الأمرُ فينقلها على صحيفةٍ أخرى تسمَّى : (المبيضة) .

(٥) استنوقَ الجملُ : أي صار كالناقةِ ، مثلُ يُضربُ للرجلِ يكونُ في حديثٍ أو صفةٍ شيءٍ ثم يخلطُه بغيره وينقلُ إليه . وأصلُه : أنَّ طرفه بن العبدِ كان عند بعضِ الملوكِ ، والمسيَّبُ بنُ علسٍ يشدُّه شعراً في وصفِ جملٍ ، ثم حوَّله إلى وصفِ ناقةٍ ، فقال طرفه : (قد استنوقَ الجملُ) .

(٦) ويتوفيق الله تعالى فقد عدنا إلى غالب المصادر ، وضبطنا النصوص ما أمكن ، وإذا اقتضى الحال أردنا من المصدر ما يُحقِّقُ به قصد القصةِ ، أو الأبياتِ ، أو المناسبةِ . . وسيرى القارئ الكريم ذلك في ثنايا الكتاب . اهـ الناشر .

(٧) النيقةُ ، يقالُ : تنوَّقَ فلانٌ في مطعمِهِ وملبسِهِ وأموْرِهِ : إذا تجوَّدَ وبالغَ .

وَنُكَّتِ وَنُحِبِّ ، وَجِدُّ وَهَزَلِي ، وَوَقَشٍ وَجَزَلِي^(١) ، وَمَا ذَاكَ بِقَلِيلٍ مِنْ مِثْلِي عَلَى كَثْرَةِ إِضَاعَتِهِ ، وَقَلَّةِ بَضَاعَتِهِ^(٢) .
 وَقَدْ بَيَّضْتُهَا لَوْلَدِي حَسَنٍ - بَارَكَ اللَّهُ فِيهِ ، وَفِي إِخْوَانِهِ وَأَبِيهِ - رَجَاءً أَنْ تَكُونَ لَهُ فَاتِحَةً تَهْدِيهِ ، وَلاَئِحَةَ تَأْدِيهِ ،
 وَسَمِيرًا وَجَلِيسًا ، وَخَلِيطًا وَأَنْيسًا ، وَلِئِنْ اتَّخَذَهَا نَجِيًّا . فَلَنْ يَكُونَ بِهَا شَقِيًّا ؛ إِذْ هِيَ أَيْسَرُ مَوْوَنَةً ، وَأَكْثَرُ مَعُونَةً ،
 وَأَخْفُ رَوْحًا ، وَأَكْثَرُ فَتَوْحًا ، وَأَجْمَلُ قَشْرَةً ، وَأَحْسَنُ عِشْرَةً مِنْ أَوْلَيْكَ الْخُلَطَاءِ ، الَّذِينَ مَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ غُذِيَ مِنْ
 اللَّؤْمِ بِلَبَانٍ ، وَحَضَرَ شَرُّهُ فِي كُلِّ إِبَانٍ^(٣) ، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ وَالْمُسْتَعَانُ^(٤) .

* * *

-
- (١) الْوَقَشُ : صغائر الحطب الذي تُشعُّ به النارُ ، والجَزَلُ : ما عَظُمَ مِنَ الحطبِ وَيَسَّ . والمرادُ : أَنَّها حوت من أنواعِ الكلامِ سَهْلَةً وَصَعْبَةً .
 (٢) هذا من تواضعه رحمه الله تعالى ، وإلا فإنه قَلَّ في المتأخرين مثله جمعاً وحفظاً .
 (٣) إِبَانٌ : إِبَانُ الشَّيْءِ - بالكسرِ والتشديدِ - : وَقْتُهُ .
 (٤) وردَ في ذيلِ صفحةِ المخطوطِ : (تَنْبِيْهٌ : كُنْتُ بَيَّضْتُ هَذِهِ « الأماي » ، حَسَبَما ذَكَرْتُ فِي الخُطْبَةِ ، ثُمَّ بَعَثْتُ بِهَا إِلَى (مَصْرَ) ؛ لِنَطِيعِ بِمَعْرِفَةِ الفاضِلينِ
 الشَّيْخينِ : أَحْمَدَ باغْفَارَ ، وَعَلِيَّ باكثيرِ ، فلم يَتيسَّرَ الطبعُ ، ولم يرجع الكتابُ ، فاحتجتُ إلى استئنافِ العنايةِ ، مع إعادةِ النظرِ في المراجعِ ؛ إِذْ كانتُ
 حاضرةً بخلافها عندَ الأوَّلِ ، فجاءَ وفيه نقصٌ وفضلٌ ، وصحَّةٌ روائيةٌ ونضَلٌ - أي : ضعفٌ - فليَعْلَمَ ذَلِكَ ، وباللهِ التوفيقُ) .

المجلس الأول

[مِنَ الْخَفِيفِ]

قال أبو الطيب المتنبي في « المعكبري » ٢/ ٢٧٩ :

بأبي مَنْ وَدِدْتُهُ فَافْتَرَقْنَا وَقَضَى اللهُ بَعْدَ ذَلِكَ اجْتِمَاعَا
فَافْتَرَقْنَا حَوْلًا وَلَمَّا التَقِينَا كَانَ تَسْلِيمُهُ عَلَيَّ وَدَاعَا

[حلاوة اللقاء كمر النسيم]

يقول : أفدي بوالدي الحبيب الذي وددته فافترقنا ، وقضى الله الاجتماع بعد ذلك الافتراق ، غير أنها لم تطل مدة الاجتماع الثاني ، بل كانت متصلة بالوداع .

[دفع العتاب عن المتنبي]

ولا معابة عليه في الاقتصار على أبيه لتفدية محبوبه ؛ لأن العذر مهمّد بضيق الوزن ، وإلا فقد جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد ما بين أبويه الشريفين في يوم أحد ، فقال له : « إزم فذاك أبي وأمي »^(١) .

[جواز التفدية]

ومنه أخذ النواوي في « أذكاره » [ص / ٥٨٧] أن لا بأس أن يقول الإنسان لآخر : جُعِلْتُ فِداك ، أو فِداك أبي وأمي ، ولولا كثرة الأدلة فيه . . لكان قياساً مع الفارق ، غير أن الأصل عدم الخصوصية ، كما في « الفتح » [١٠/ ٥٦٩] ، وقد استوعب ما فيه من الأدلة ابن أبي عاصم^(٢) في أول كتابه : « آداب الحكماء »^(٣) وجرم بجواز ذلك .

[رد دليل منع التفدية]

ولا حجة على المنع ، فيما رواه مبارك بن فضالة : أن الزبير دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو شاك ، فقال : كيف تجدك جعلني الله فداك ؟ فقال : « ما تركت أعزائتك بعد »^(٤) ؛ لأنه لا يقاوم الأحاديث الصحيحة^(٥) ، ولأنه ليس فيه تصريح بالمنع . وغاية ما فيه الإشارة إلى ترك الأولى فيما يليق بمخاطبة المريض . وقد ترجم البخاري باباً للتفدية^(٦) .

(١) أخرجه البخاري (٢٩٠٥) ، ومسلم (٢٤١١) .

(٢) هو أحمد بن عمرو بن الضحاك الحافظ الكبير المتوفى سنة : (٢٨٧ هـ) .

(٣) أحد مصنفاته التي تزيد على الثلاث مئة .

(٤) رواه البيهقي في « الشعب » (٨٥٠١) عن فضالة عن الحسن .

(٥) كقول سيدنا أبي طلحة عندما عثر بالنبى صلى الله عليه وسلم ناقته : (يا نبي الله ، جعلني الله فداك ، هل أصابك من شيء) عند البخاري (٦١٨٥) ، وكقول سيدنا أبي بكر للنبى صلى الله عليه وسلم : (يا أبي أنت وأمي طيبت حياً وميتاً) عند البخاري (٣٦٦٧) وغيره الكثير .

(٦) انظر « صحيح البخاري » ، كتاب الأدب ، ١- باب قول الرجل : فداك أبي وأمي (١٠٣) . ٢- باب قول الرجل : جعلني الله فداك (١٠٤) .

وإنما المعتبة على الناظم من حيث اللفظ :

[كراهة التكرار]

أولاً : في تكريره (افرقنا) في البيتين بصيغة واحدة من غير كبير فائدة ، فإنه لا يسلم من الاستثقال والكراهة .

[متى يكون العطف قبيحاً]

وثانياً : في عطفه لفظة (افرقنا) من البيت الثاني على ما قبلها ، مع أنها مسوقة للتفسير ، والواجب الفصل حينئذ ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَوَسَّوْا لِلَّهِ الشَّيْطَانَ قَالَ يَتَّخِذُكُمْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ ﴾ [طه : ١٢٠] .
أو قوله - تقدست أسماؤه - : ﴿ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْئَلْكُمْ أَجْرًا ﴾ [يس : ٢٠-٢١] .
وإنما وجب الفصل ؛ لأن العطف يقتضي التغاير الكلي بين المتعاطفين ، وليس بالموجود .

[روعة التكرار في مكانه]

وقد وقع في نظيره من التكرار امرؤ القيس ، لكن مع السلامة من مذمة الوصل في غير محله ، وذلك حيث يقول [في ديوانه « ٨٧ »] :

تَقَطَّعُ أَسْبَابُ اللَّبَانَةِ وَالْهَوَىٰ عَشِيَّةَ جَاوَزْنَا حَمَاءَ وَشَيْرَا (١)
عَشِيَّةَ جَاوَزْنَا حَمَاءَ وَشَيْرَا أَخُو الْجَهْدِ لَا يَلْوِي عَلَيَّ مَن تَعَدَّرَا

[كثرة التندية عند المتنبي]

وقد أكثر الناظم في « ديوانه » من التندية ؛ فمنها قوله [في « العُكْبَرِيُّ » ٢ / ٣٨٠] :

[لَبِي نَدَاكَ لَقَدْ نَادَى فَاَسْمَعَنِي] يَفْدِيكَ مِنْ رَجُلٍ صَحْبِي وَأَفْدِيكََا

وقوله [في « العُكْبَرِيُّ » ٢ / ٣٨٥] :

فِدَى لَكَ مَنْ يُقَصِّرُ عَنْ مَدَاكََا فَلَا مَلِكُ إِذْنُ إِلَّا فِدَاكََا

وقوله [في « العُكْبَرِيُّ » ٣ / ١٠٨] :

فَدَتِكَ مُلُوكٌ لَمْ تُسَمَّ مَوَاضِيَا فَإِنَّكَ مَاضِي الشَّفَرَتَيْنِ صَقِيلُ (٢)

وقوله [في « العُكْبَرِيُّ » ١ / ٣١٨] :

فَاسْقِنِيهَا فِدَى لِعَيْنَيْكَ نَفْسِي مِنْ غَزَالٍ وَطَارِفِي وَتَلِيدِي (٣)

وقوله [في « العُكْبَرِيُّ » ٤ / ٣٨] :

رُوَيْدَ حُكْمِكَ فِينَا غَيْرَ مُنْصِفَا بِالنَّاسِ كُلِّهِمْ أَفْدِيكَ مِنْ حَكَمِ

(١) اللَّبَانَةُ : الحاجة من غير فاقة ، ولكن من نهمة . حماة وشيزر : بلدان معروفان في بلاد الشام .

(٢) المَعْنَى : فدتك ملوك تروم شبهك في المضاء فتحاكي اسمك ، وتعادل قدرك ؛ فإنك السيفُ اسماً وحقيقةً وتلقباً ، وحدك ماضي الشفرتين ، صقيل الصفحتين .

(٣) الطريفُ : ما استحدثت عندك من مالٍ . والتليدُ : ما كان عن إرث من الآباء . وبينهما طباق .

وقوله [في «المكبري» ١٥٥/٢] :

[من الطويل]

مُفَدَّى بِآبَاءِ الرَّجَالِ سَمِيدَعَا هُوَ الْكَرْمُ الْمَدُّ الَّذِي مَا لَهُ جَزْرٌ^(١)

وقوله [في «المكبري» ٢٨٦/٢] :

[من الطويل]

يُفَدُونَهُ حَتَّى كَأَنَّ دِمَاءَهُمْ لِحَارِي هَوَاهُ فِي عُرُوقِهِمْ تَقْفُو^(٢)

وقوله [في «المكبري» ١٨٦/١] :

[من الطويل]

وَأَيُّ قَيْلٍ يَسْتَحْفُفُكَ قَدْرُهُ مَعَدُّ بَنُ عَدْنَانَ فِدَاكَ وَيَعْرُبُ

وقوله [في «المكبري» ٥٥/٤] :

[من الطويل]

فِدَى مَنْ عَلَى الْعَبْرَاءِ أَوْلُهُمْ أَنَا لِهَذَا الْأَبِيِّ الْمَاجِدِ الْجَائِدِ الْقَرَمِ^(٣)

وقوله [في «المكبري» ٩١/٤] :

[من الطويل]

فَعِشْ لَوْ فَدَى الْمَمْلُوكُ رَبًّا بِنَفْسِهِ مِنْ الْمَوْتِ لَمْ تُفَقَدْ وَفِي الْأَرْضِ مُسْلِمٌ

وقوله [في «المكبري» ١٣٧/٤] :

[من الطويل]

فِدَى لِأَبِي الْمِسْكِ الْكِرَامُ فَإِنَّهَا سَوَابِقُ حَيْلٍ يَهْتَدِينَ بِأَدْهَمِ

وقوله [في «المكبري» ٥٦/١] :

[من الطويل]

فَدَيْنَاكَ مِنْ رَنْعٍ وَإِنْ زِدْتَنَا كَرْبَا [فَإِنَّكَ كُنْتَ الشَّرْقَ لِلشَّمْسِ وَالْغَرْبَا]

وقوله [في «المكبري» ٤٧/١] :

[من الطويل]

فَدَيْنَاكَ أَهْدَى النَّاسِ سَهْمًا إِلَى قَلْبِي وَأَقْتَلَهُمْ لِلدَّارِعِينَ بِلا حَرْبٍ^(٤)

وقوله [في «المكبري» ٧٠/١] :

[من الطويل]

أَلَا مَا لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ الْيَوْمَ غَاضِبَا فَدَاهُ الْوَرَى أَمْضَى الشُّيُوفِ مَضَارِبَا

وقوله [في «المكبري» ٩١/١] :

[من البسيط]

وَلَيْتَ عَيْنَ النَّبِيِّ أَبِي النَّهَارِ بِهَا فِدَاءَ عَيْنِ النَّبِيِّ آبَتِ وَلَمْ تَغِبِ^(٥)

(١) السَّمِيدُ : السيد الكريم ، والجمع : سَمَادِعُ . المدُّ : زيادة الماء . الجزرُ : نقصانه .

(٢) والمعنى : أنهم من محبتهم له يُفَدُونَهُ ، فكأن هواه جرى أولاً في عروقهم قبل الدم ، ثم تبعه الدَّمُ .

(٣) الجائِدُ : الفاعل ، مِنْ جَادَ يَجُودُ . الْقِرْمُ : السَّيْدُ .

(٤) المعنى : فديتك يا أقصد العالمين سهماً إلى قلبي ، يا من عينه تصيب بلحظها ولا تخطيء ، ويا أقتل الناس لأهل الدروع من غير حرب .

(٥) هكذا في «المخطوط» ، ويكون المعنى على هذه الرواية : لبت عين الشمس فداء عين هذه المرأة التي رجعت ولم تغب .

ولكن في «الديوان» :

وَلَيْتَ عَيْنَ النَّبِيِّ آبَتِ النَّهَارِ بِهَا فِدَاءَ عَيْنِ النَّبِيِّ زَالَتْ وَلَمْ تَغِبِ

فيكون المعنى على هذه الرواية : لبت عين الشمس فداء عين هذه المرأة التي فارقت ولم تغب .

والقصيدة قالها المتنبي في رثاء أخت سيف الدولة عندما توفيت . والله أعلم .

وقوله [في «العُكْبَرِيُّ» ١/ ١٢٢] :

[مِنَ الْكَامِلِ]

بِأَبِي الشُّمُوسِ الْجَانِحَاتِ غَوَارِبَا اللَّابِسَاتُ مِنَ الْحَرِيرِ جَلَابِبَا

وقوله [في «العُكْبَرِيُّ» ١/ ١٦٩] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

أَفْدِي ظِبَاءَ فَلَاقَةٍ مَا عَرَفْنَ بِهَا مَضُغَ الْكَلَامِ وَلَا صَبَغَ الْحَوَاجِبِ^(١)

وقوله [في «العُكْبَرِيُّ» ٢/ ١٨٨] :

[مِنَ الْبَسِيطِ]

يَفْدِي بَيْنِكَ - عَيْنِدَ اللَّهِ - حَاسِدُهُمْ بِجَبْهَةِ الْعَيْرِ يُفْدِي حَافِرُ الْفَرَسِ^(٢)

وقوله [في «العُكْبَرِيُّ» ٢/ ٢٠٢] :

[مِنَ الْكَامِلِ]

لَوْ جَادَتِ الدُّنْيَا فَدَتَكَ بِأَهْلِهَا [أَوْ جَاهَدَتْ كُتِبَتْ عَلَيْكَ حَبِيسًا]^(٣)

وغير ذلك .

[التفدية عند البحري]

ويعجبني قولُ البُحْرِيِّ [في «ديوانه» ١/ ٣٤] :

[مِنَ مَجْزُوءِ الْكَامِلِ]

نَفْسِي فِإِذَاؤُكَ إِنْ حَظَّيَ كَوْنُ نَفْسِي فِي فِدَائِكَ

وقوله [في «ديوانه» ٢/ ٧٥٦] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

بِأَنْفُسِنَا ، لَا بِالطَّوَارِفِ وَالثَّلْدِ نَعِيكَ الَّذِي تُخْفِي مِنَ الشُّكْرِ أَوْ تُبْدِي
بِنَا - مَعَشَرَ الْعَافِينَ - مَا بِكَ مِنْ أَدَى فَإِنْ أَشْفَقُوا مِمَّا أَقُولُ فَبِي وَحْدِي

[فداء كثير لعبد العزيز بن مروان]

[مِنَ الْكَامِلِ]

ودخل كثيرٌ عزةً يعودُ عبدَ العزيزِ بنَ مروانَ ، فقالَ [في «ديوانه» ٣١١] :

وَعُودُ سَيِّدِنَا وَسَيِّدَ غَيْرِنَا لَيْتَ التَّشَكِّي كَانَ بِالْعُودِ
لَوْ كَانَ يَقْبَلُ فِدْيَةَ لَفَدَيْتُهُ بِالْمُصْطَفَى مِنْ طَارِفِي وَتَلَادِي^(٤)

[فداء قس بن ساعدة لأخويه]

وقبلَ ذلكَ يقولُ قَسُ بْنُ سَاعِدَةَ فِي رِثَاءِ أَخْوِيهِ - اللَّذِينَ بَنِي لَهُ مَسْجِدٌ بِجَوَارِ قَبْرِيهِمَا يَتَرَهَّبُ فِيهِ - مِنْ جَمَلَةِ آيَاتِ [كما

[مِنَ الطَّوِيلِ]

في «الأغاني» ١٥/ ٢٣٨] :

فَلَوْ جُعِلَتْ نَفْسٌ لِنَفْسٍ وَقَايَةَ لَجِدْتُ بِنَفْسِي أَنْ تَكُونَ فِدَاكُمَا^(٥)

(١) يريدُ : تفضيلَ العريَّاتِ ، وَأَنْهَنَ فصيحاتُ ، لا يَمْضَغَنَّ الْكَلَامَ ، ولا يَصْبِغَنَّ حَوَاجِبَهُنَّ كَعَادَةِ نِسَاءِ الْحَضَرِ .

(٢) الْعَيْرُ : الْحَمَارُ .

(٣) المعنى : لو كانتِ الدُّنْيَا ذاتَ جودٍ وكرمٍ . . لفدتكَ بأهلِها ، وأبقتكَ خالدًا . ولو كانتَ غازيةً مجاهدةً . . لكانتَ وَقْفًا عَلَيْكَ .

(٤) الْمُصْطَفَى : الْمُخْتَارُ وَالْمُصْفَى .

(٥) قَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، لَقَدْ رَأَيْتُ مِنْ قَسٍّ عَجَبًا ، قَالَ : « وَمَا رَأَيْتُ ؟ » قَالَ : بَيْنَا أَنَا بِجَبَلٍ يُقَالُ لَهُ : سِمْعَانُ فِي يَوْمٍ شَدِيدِ الْحَرِّ . إِذَا أَنَا بِقَسٍّ بِنِ

مَاعِدَةَ تَحْتَ ظِلِّ شَجَرَةٍ عِنْدَ عَيْنِ مَاءٍ ، وَعِنْدَهُ سَبَاعٌ ، كُلَّمَا زَارَ سَبِعَ مِنْهَا عَلَى صَاحِبِهِ . . ضَرْبُهُ بِيَدِهِ ، وَقَالَ : كُفْتُ حَتَّى يَشْرَبَ الَّذِي وَرَدَ قَبْلَكَ ، قَالَ :

فَلَوْ أَخَذْتَ مِنِّي الْمَنِيَّةُ أَنْفُسِي فَدَيْتُكَ مِنْهَا بِالسَّوَامِ وَبِالْأَهْلِ (١)

[التفدية عند الصوفية]

وكم في التفدية الواقعية من حكايات جاءت عن السادة الصوفية بسلاسل الذهب من الأسانيد ، لا أطيل بذكرها ، مع إيماني بها والله الحمد .

[فداء آدم لداوود]

ويزيدني طمأنينة ما أخرجه الحاكم [في «المستدرک» ٣٢٥/٢] على شرط مسلم ، وصححه ، وأقره الذهبي : (أنه لما عرضت على آدم ذريته . . أعجبه ويص (٢) ما بين عيني داوود ، فسأل عن عمره ، فقيل : ستون سنة ، فقال : يارب ، زده من عمري أربعين ، فقال الله عز وجل : إذا يُكْتَبَ وَيُحْتَمَ ، فلا يُبدَلُ ، فلما انقضى عمر آدم . . جاءه ملك الموت يقبض روحه ، فقال : أولم يبق من عمري أربعون ؟ فقال له : أولم تجعلها لابنك داوود ؟ قال : فجحد . . فجحدت ذريته ، ونسي . . فنسيت ذريته ، وخطيء . . فخطئت ذريته) .

[فداء زيد بن الدثنة للنبي صلى الله عليه وسلم]

ومما يتصل به : أن قريشاً لما قدمت يزيد بن الدثنة للقتل . . قال له أبو سفيان : أنشدك الله يا زيد ، أتحب أن محمداً عندنا الآن تضرب عنقه مكانك ، وأنت في أهلِكَ ؟ قال : لا والله ، ما أحب أن محمداً في مكانه تصيبه شوكة تؤذيه ، وإنني جالس في أهلي ، ثم قتلوه (٣) .

[نماذج من فداء الصحابة له]

وقد وقاه صلى الله عليه وسلم سبعة من الأنصار يوم أحد ، حتى رزقوا الشهادة أجمعين (٤) .

= ففرغت ، فقال : لا تخف .

وإذا أنا بقبرين بينهما مسجد ، فقلت له : ما هذان القبران ؟ قال : هذان قبر أخوين كانا لي فماتا ، فاتخذت بينهما مسجداً أعبد الله جل وعز فيه حتى ألحق بهما ، ثم ذكر أيامهما ، فبكى عليهما ، ثم أنشأ يقول :

خَلِيلِي هَبَّ طَالَمَا قَدْ رَقَدْتُمَا أَجِدُّكُمْ لَأَقْضِيَانِ كَرَاكُمَا
أَلَمْ تَعْلَمَا أَنِّي بِسَمْعَانِ مُقَرَّرٌ وَمَالِي فِيهِ مِنْ حَيْبِ سَوَاكُمَا

الفصيذة . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « يَرْحَمُ اللهُ قُصَا ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يُبْعَثَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّهُ وَخَدَهُ » . أخرجه ضمن حديث طويل ابن شاهين عن ابن عباس رضي الله عنهما ، كما ذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في ترجمة قس من « الإصابة » (٢٨٦/٥) .

(١) السَّوَامُ والسَّائِمُ بمعنى ، وهو المال الراعي اهـ .

(٢) وَيَصُّ : يريقُ .

(٣) قصة سيدنا زيد بن الدثنة مع قريش يوم الرجيع أخرجه البخاري في « صحيحه » (٣٠٤٥) ، أمّا سؤال أبي سفيان لزيد وجوابه له . . فأخرجه ابن إسحاق في « المغازي » ، كما في « سيرة ابن هشام » (١٧١/٣) .

(٤) ذكر ابن سعد في « الطبقات » (٤٢/٢) بإسناده أن العصابة التي ثبتت مع النبي أربعة عشر رجلاً ؛ سبعة من المهاجرين فيهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وسبعة من الأنصار .

ووقاه أيضاً عليه [الصلاة] والسلام طلحة بن عبيد الله يومئذ ، حتى شلت يده^(١) .

وما زالت الصحابة - رضوان الله عليهم - تقول له عليه السلام : نحورنا دون نحرك ، وصدورنا دون صدرك^(٢) .
وفداه علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - بنفسه ليلة الهجرة ، وبات مع ذلك رخي البالي ، متلفعاً ببرده على فراشه ،
حتى يروى أن الله جل شأنه باهى به الملائكة .

وقد أخذ من هذا الفضل بالنصيب الأوفى الصديق ، ليالي الهجرة والغار .
وكان أبو طالب يفديه ببنيه ، كلما نام بادلُه بأحد أبنائه في مرقدِه ، طيلة ليالي الشعب .

[الأيام الحلوة تمر مسرعة عند المتنبئ]

ثم إن معنى الشطر الأخير من البيتين متكرر في « ديوان الناظم » ، فمنه قوله [في « العكبري » ٢/٢٣٨] :
فَمَا جَلَسْتُ حَتَّى انْتَنَتْ تَوْسِعُ الْخُطَا كَفَاطِمَةَ عَنْ دَرَّهَا قَبْلَ تَرْضِع^(٣)
ولا يبعدُ عنه قوله [في « العكبري » ٢/٦٩] :

تَفَضَّلْتُ الْإَيَّامَ بِالْجَمْعِ بَيْنَنَا فَلَمَّا حَمِدْنَا لَمْ تُدِمْنَا عَلَى الْحَمْدِ
وهو مشترك بين الشعراء .

[وكذلك عند الشعراء كل شيء يهون من أجل الحبيب]

قال العكوك [في « ديوانه » ٧٦] :
كَبَابِدَ الْأَهْوَالِ فِي زُورَتِهِ ثُمَّ مَا سَلَّمَ حَتَّى وَدَعَا^(٤)

وقال كشاجم [في « ديوانه » ٢٦٧] :
لَمْ أَسْتَتِمَّ عِنَاقَهُ لِقُدُومِهِ حَتَّى ابْتَدَأْتُ عِنَاقَهُ لِوَدَاعِهِ

وقال ابن الأحنف [في « ديوانه » ٢٣١] :
سَأَلُونَا عَنْ حَالِنَا كَيْفَ أَنْتُمْ ؟ فَفَرَرْنَا وَدَاعَنَا بِالسُّوَالِ
مَا حَلَلْنَا حَتَّى افْتَرَقْنَا فَمَا نَفْرُقُ بَيْنَ النَّزُولِ وَالْإِزْتِحَالِ

وقال أبو الشَّيْصِ [في « ديوانه » ٥٣] :
بَا حَبَّذَا الزُّورُ الَّذِي زَارَا كَأَنَّهُ مُقْتَبِسٌ نَارَا
نَفْسِي فِدَاءً لَكَ مِنْ زَائِرِ مَا حَلَّ حَتَّى قِيلَ قَدْ سَارَا

(١) أخرج الخبر البخاري (٣٨١١) .

(٢) ذكر ذلك البخاري (٣٨١٢) .

(٣) أي : هي في سرعة توديعها كمن فظمت ولدها قبل أن ترضعه .

(٤) المكابدة : المعاناة والمقاساة .

ولا يخرجُ عنه قولُ أبي عبادة البُحترِيِّ [في «ديوانه» ١/٥٢٩] :

[مِن الطويل]

كَفَى حَزْناً أَنَا عَلَى الْوَصْلِ نَلْتَقِي فَوَاقاً فَتَشِينَا الْعُيُونُ إِلَى الصَّدِّ (١)
فَلَوْ تُمْكِنُ الشُّكُوى لَحَبَّرَكَ الْبُكَأ حَقِيقَةً مَا عِنْدِي وَإِنْ جَلَّ مَا عِنْدِي

[سيدنا إبراهيم الخليل الإمام في ذلك]

وكلُّهُ مِنْ صُنْعِ الْخَلِيلِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَإِنَّهُ يَطْوِي الْبَيْدَ - كما في «الصحیح» [البخاري (٣٣٦٤)] - مِنْ (فلسطين) إِلَى (الحجاز) ؛ لِيُطَالَعَ تَرْكُتُهُ (٢) ، ثُمَّ لَا يَلْبُثُ أَنْ يَعُودَ مِنْ فُورِهِ .

[أيهما الأسعد نظام الملك أم البستاني !؟]

وفي «طبقات ابن السبكي» [٣٢١/٤] : أَنَّ نِظَامَ الْمُلْكِ اسْتَقْبَلَ وَلَدَهُ ، وَفَلَذَهُ كَبِدِهِ غَدَاةً يَوْمَ مَرْجِعِهِ مِنْ سَفَرِ دِرَاسَتِهِ ، وَوَدَعَهُ مِنَ الْعَشِيِّ إِلَى مَوْضِعِ عَمَلِهِ ، ثُمَّ بَكَى ، وَرَأَى أَنَّ الْبِسْتَانِيَّ أَسْعَدُ حَالاً مِنْهُ ، يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ ، وَيَتَمَتَّعُ بِأَهْلِهِ وَوَلَدِهِ .

[ابن حجاج وسرعة عزله عن عمله]

ومِمَّا يَنْخَرِطُ مِنَ النُّوَادِرِ فِي هَذَا السَّلْكِ : أَنَّ بَعْضَ الْأُمَرَاءِ قَلَّدَ ابْنَ حَجَّاجٍ عَمَلاً ، خَرَجَ إِلَيْهِ يَوْمَ الْخَمِيسِ ، فَتَبِعَهُ كِتَابُ الْعَزْلِ فِي يَوْمِ الْأَحَدِ ، فَقَالَ [في «تيممة الدهر» ٣/٩٤] :

[مِن مجزوء الكامل]

يَا مَنْ إِذَا نَظَرَ الْهَلَالَ لُ إِلَيَّ مَحَاسِنِهِ سَجَدُ
وَإِذَا رَأَتْهُ الشَّمْسُ كَمَا دَتَّ أَنْ تُمُوتَ مِنَ الْحَسَدِ
يَوْمَ الْخَمِيسِ بَعْتَنِي وَصَرَفْتَنِي يَوْمَ الْأَحَدِ
مَا قَامَ عَمْرُو فِي الْوَلَا يَةَ قَائِماً حَتَّى قَعَدُ

[تولية الرشيد لجعفر بن يحيى وعزله]

وقَبْلَ ذَلِكَ ، الرَّشِيدُ عَقَدَ لَجَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى عَلِيَّ (خُرَاسَانَ) ، فَهَنَّتْهُ الشُّعْرَاءُ ، وَمِنْهُمْ أَشْجَعُ بِقَوْلِهِ [في «ديوانه» ٨٠] :

[مِن المتقارب]

[٢٢٩] :

تُرِيدُ الْمُلُوكُ مَدَى جَعْفَرٍ وَلَا يَصْنَعُونَ كَمَا يَصْنَعُ
وَلَيْسَ بِأَوْسَعِهِمْ فِي الْغِنَى وَلَكِنَّ مَعْرُوفَهُ أَوْسَعُ
فَقُلْ لِحُرَّاسَانَ تَخِيًّا فَقَدْ أَتَاهَا ابْنُ يَحْيَى الْفَتَى الْأَزُوعُ

[مِن السريع]

ثُمَّ بَدَأَ لِلرَّشِيدِ ، فَعَزَلَهُ عَنْهَا ، فَوَجَمَ جَعْفَرٌ ، فَقَالَ أَشْجَعُ [في «ديوانه» ١٩٦] :

أَضَحَّتْ خُرَاسَانَ تُعَزِّي بِمَا أَخْطَأَهَا مِنْ جَعْفَرِ الْمُزْتَجَى
كَانَ الرَّشِيدُ الْمُعْتَلِي أَمْرُهُ وَلَّى عَلَيَّ مَشْرِقَهَا الْأَبْلَجَا

(١) الفواق: الفترة بين وقتي الحلاب ، ومنه قوله تعالى: ﴿ مَا لَهُمْ مِنْ فَوَاقٍ ﴾ [ص: ١٥] .

(٢) تَرْكُتُهُ : ابْنُهُ إِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأُمُّهُ هَاجِرٌ . كَمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادِعَ ذِي ذَرِّعٍ ﴾ [إبراهيم: ٣٧] .

ثُمَّ أَرَاهُ رَأَيْتُهُ أَنَّهُ أَمْسَى إِلَيْهِ مِنْهُمْ أَحْوَجًا^(١)

[توليته صلى الله عليه وسلم لسعد وعزله يوم الفتح]

ولا ننسى مع هذا ما كان من سرعة عزله صلى الله عليه وسلم لسعد بن عبادَةَ عن الراية يوم الفتح ، وجعل اللواء إلى ابنه قيس بن سعد بن عبادَةَ^(٢) .

[ما القول الفصل في هذه المسألة]

وبعد : فما يذكره الشعراء من تقليل وقت الوصال ، وتقارب حين النزول من حين الارتحال :
- إمَّا أَنْ يَكُونَ حَقِيقَةً ، كما ذكرنا عن الخليل عليه السلام .

- وإمَّا أَنْ يَكُونَ عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ ؛ لِأَنَّ مَدَّةَ الْوَصْلِ قَصِيرَةٌ عِنْدَ الْمُحِبِّ ، عَلَى حَدِّ قَوْلِ النَّازِمِ [فِي « الْعُكْبَرِيِّ »
[مِنَ الطَّوِيلِ] : [٥٩/٢]

نَسِيتُ وَمَا أَنْسَى عِتَابًا عَلَى الصَّدِّ وَلَا خَفَرًا زَادَتْ بِهِ حُمْرَةَ الْخَدِّ^(٣)
وَلَا لَيْلَةً قَصَّرَتْهَا بِقُصُورَةٍ أَطَالَتْ يَدِي فِي جِيدِهَا صُحْبَةَ الْعِقْدِ

والبيت الثاني هو الذي أريد ، وهو من قول المجنون [في « ديوانه » ٢٩٢] :

وَيَوْمٍ كَظَلِّ الرُّمَحِ قَصَّرَتْ ظِلَّهُ بَلَيْلِي فَلَهَّانِي وَمَا كُنْتُ لَاهِيَا

[معاني القصيرة والمقصورة]

والقصيرة والقصورة تحتل عدَّة معانٍ ؛ لِأَنَّهُ :

[١- قصر الخطو]

- إمَّا أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ مِنْهَا : قِصَرَ الْخَطْوِ ، وَمِنْهُ قَوْلُ الْقَحِيفِ الْعُقَيْلِيِّ : [مِنَ الطَّوِيلِ]

سَقَى وَرَعَى اللَّهُ الْأَوَانِسَ كَالدَّمَى إِذَا قَمَنَّ جُنْحَ اللَّيْلِ مُعْتَجِرَاتِ
إِذَا مَسَنَّ قُدَّامَ الْبُيُوتِ عَشِيَّةَ قِصَارِ الْخُطَى يَرْفُلْنَ فِي الْجِبَرَاتِ^(٤)
دَعْوَى بَحَبَاتِ الْقُلُوبِ فَاسْرَعَتْ إِلَيْهِنَّ بِالْأَهْوَاءِ مُبْتَدِرَاتِ

وقول أبي العتاهية [في « ديوانه » ٦١٢] :

بَدَتْ بَيْنَ حُورٍ قِصَارِ الْخُطَى تَجَاهِدُ بِالْمَشْيِ أَكْفَالَهَا

ويدخل فيه كلُّ ما يأتي في ثقل الروادف ، وعظم المآكم ، عندما تنتهي إليه النوبة إن شاء الله تعالى .

[قصر الخطو مذموم في الرجال]

وعلى استحسانه في النساء ، فهو مذموم في الرجال ، إذا جاوز الحد الذي رسمه لقمان في قوله لولده : ﴿ وَأَقْصِدْ فِي

(١) القصة في « الأغاني » (٢٣٤ / ١٨) .

(٢) الخبر عند ابن سعد في « الطبقات » (١٣٥ / ٢) ، وكذا عند ابن سيد الناس في « عيون الأثر » (١٧١ / ٢) .

(٣) الخَفَرُ : الحياءُ .

(٤) مَسَنَّ : تبخترن ، وكذلك : يَرْفُلْنَ . الْجِبَرَاتِ - جمع حَبْرَةٍ - : وهو ثوبٌ من قطنٍ أو كتَّانٍ أو حريرٍ مخططٍ ، يُصْنَعُ بِ(اليمين) .

مَشِيكَ ﴿ لقمان : ١٩ ﴾ ، ولا سِيَّماً إذا انتهى إلى التماوتِ الممقوتِ فاعلهُ .

[٢- قصر النظر]

- وإِذَا أَنْ يَكُونَ المرادُ منها : قَصَرَ النظرِ ، على حدِّ قوله تعالى : ﴿ قَصِرَتْ الظُّرُفُ أَنْزَابٌ ﴾ [ص : ٥٢] .

ومنهُ قولُ قيسِ بنِ ذَرِيحٍ [في « ديوانه » ٨٨] :

أذودُ سَوَامِ الظُّرْفِ عَنْكَ وَمَالَهُ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا عَلَيَّكَ طَرِيقُ^(١)

[٣- لزام الخدور]

- وإِذَا أَنْ يَكُونَ معناه : لِيَزَامَ الخُدُورِ ، ومنهُ قوله جَلَّ شأنُهُ : ﴿ حُرِّدَتْ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَارِ ﴾ [الرحمن : ٧٢] .

وقال كُثَيْبٌ [في « ديوانه » ٣٦٩] :

وَأَنْتِ اللَّيِّ حَبِيبَتْ كُلِّ قَصِيرَةٍ إِلَيَّ وَلَمْ تَشْعُرِي بِذَلِكَ الْقَصَائِرُ
عَنِيتُ قَصِيرَاتِ الْحِجَالِ وَلَمْ أُرِدْ قِصَارَ الْخُطَى ، شَرُّ النِّسَاءِ الْبَحَائِرُ^(٢)

وهذا لا يُخَالِفُ ما سبقَ عن القُحَيْفِ ؛ لِفَرْقِ ما بينَ البابينِ ؛ إذ المرادُ قِصْرُهَا ثُمَّ مِنَ الرُّوَادِفِ ، وهنا المذمومُ قِصْرُهَا مِنَ القِمَاءَةِ^(٣) .

وقال أبو قيسِ بنُ الأَسَلْتِ [كما في « الأغاني » ١٧/١٣٣] :

وَيُكْرِمُنَهَا جَارَاتُهَا فَيَزُرُنَهَا وَتَعْتَلُّ عَنْ إِيْتَانِهِنَّ فَتُعْذِرُ
وَلَيْسَ بِهَا أَنْ تَسْتَهِينِ بِجَارَةٍ وَلَكِنَّهَا مِنْ ذَلِكَ تَخِيَا وَتُخْفِرُ
وَإِنْ هِيَ لَمْ تَبْرُزْ لَهُنَّ أَتَيْنَهَا نَوَاعِمَ بِيضاً مَشِيهُنَّ التَّاطِرُ^(٤)

[أُنشِدُونَا بَيْتاً خَفِيراً]

وعن الهيثمِ بنِ عديٍّ ، قالَ : كُنَّا جُلُوساً عِنْدَ صالِحِ بنِ حَسَّانَ ، فقالَ : أُنشِدُونَا بَيْتاً خَفِيراً فِي امْرَأَةٍ خَفِيرَةٍ ، فقلنا قولَ الأَعشى [في « ديوانه » ٣٠٠] :

كَأَنَّ مَشِيَّتَهَا مِنْ بَيْتِ جَارَتِهَا مَرُّ السَّحَابَةِ لَا رَيْثُ وَلَا عَجَلُ
فقالَ : هذه خِراجَةٌ ولأَجَّةٌ ، لكنَّ المقبولَ قولُ ابنِ الأَسَلْتِ ، وأُنشِدَ الأبياتَ .

(١) أذودُ : أَمَعُ وَأَدْفَعُ . أسامُ إِلَيْهِ بِيصْرِهِ : رَمَاهُ بِهِ .

(٢) القَصائِرُ : جَمْعُ قَصِيرَةٍ وَقِصُورٍ ، وَهِيَ الْمَرْأَةُ الْمَحْبُوبَةُ الْمَحْبُوبَةُ الْمَصُونَةُ فِي الْبَيْتِ لَا تُتْرَكُ أَنْ تَخْرُجَ . قَصِيرَاتُ الْحِجَالِ : الْحَجَلَةُ : مِثْلُ الْقَبِيَّةِ تَزِينُ بِالثِيَابِ وَالْأَسْرَةِ وَالسُّتُورِ . الْبَحَائِرُ - جَمْعُ بَحْتَرَةٍ - وَهِيَ الْمَرْأَةُ الْقَصِيرَةُ الْمَجْتَمَعَةُ الْخَلْقِ . وَالْمَرادُ : أَنَّهَا حَبِيبَتْ إِلَيْهِ كُلِّ امْرَأَةٍ مَقْصُورَةٍ فِي خِدْرِهَا لَا الْقَصِيرَةَ فِي خَلْقِهَا .

(٣) القِمَاءَةُ ، يُقالُ : قَمَأَتِ الْماشِيَةُ : سَمِنَتْ . قالَ الشاعِرُ : [مِنَ الطَّوِيلِ]

تِييِنَ لِي أَنْ أَلْقَمَاءَةَ ذُلُّهُ وَأَنْ أَعَزَّاءَ الرُّجِجِ طِيالُها

(٤) التَّاطِرُ : الشَّيْءُ فِي الْمَشِيِّ .

وقال العتبي : خرجتُ إلى (المربد)^(١) ، فإذا بأعرابيٍّ غزلي ، فملتُ إليه ، وذكرْتُ النساءَ ، فتنفَّسَ ، ثمَّ قالَ : يا ابنَ أخي ، إنَّ منَ كلامهنَّ لَمَّا يقومُ مقامَ العذبِ على الظمِّ ، فقلتُ : كيفَ نساؤُكم ؟ فقالَ : [مِنَ الكامل]

رُجِحُ وَلَسَنٌ مِنَ اللَّوَاتِي بِالضَّحَى لِدُيُولِهِنَّ عَلَى الطَّرِيقِ غُبَارُ
يَأْتُنَّ عِنْدَ بُعُولِهِنَّ إِذَا خَلَوْا وَإِذَا هُمُومًا خَرَجُوا فَهِنَّ خِفَارُ

[نفي المحكوم عليه بانتفاء صفته]

وقوله : (لَسَنٌ . . . لِدُيُولِهِنَّ عَلَى الطَّرِيقِ غُبَارُ) كنايةٌ عن ملازمة البيوت ؛ لأنَّهم كثيراً ما يقصدون نفي المحكوم عليه بانتفاء صفته ، كما دلَّ عليه سياق البيت .

[مثاله من القرآن]

وكما في قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْأَلُونَكَ النَّاسَ بِالْحِكَامِ ﴾ [البقرة : ٢٧٣] ، فإنه ليس المعنى إثبات السؤال ، ونفي الإلحاف عنه ، وإنما الغرض نفي السؤال من أصله .

[مثاله من السنة]

وكما في قولهم عن مجلسه عليه السلام : (لا تُتَنَّى فَلَائِتُهُ)^(٢) ، فلا يُفهم منه أنَّ هناك فَلَائِتَ تَطَوَّى ولا تروى ، وَلَكِنَّ المراد أنَّ لا فَلَائِتَ أصلاً .

[مثاله من الشعر]

ومنه قولُ كعبِ بنِ سعدِ الغنويِّ [في « خزنة الأدب » ١٠/٤٣٥] :
أَخِي مَا أَخِي لَا فَاخِشُ عِنْدَ بَيْتِهِ وَلَا وَرِعُ عِنْدَ اللَّقَاءِ هَيُوبُ
فقد قصدَ فيه إلى نفي الفُخْشِ بتأ ، لا بقيد ما كان منه عند بيته .

[قول ابن الأثير في هذه المسألة]

ولقد أسرفَ على نفسه أبو الفتح ابنُ الأثيرِ [الجزري] ؛ إذ قالَ في مثلِ هذا المبحثِ^(٣) : مكثتُ زمناً أطوفُ على أقوالِ الشعراءِ ؛ لأظفرَ بما يجري هذا المجرى ، فلمَ أجدُ إلا قولَ امرئِ القيسِ :

عَلَى لِاحِبٍ لَا يَهْتَدِي بِمَنَارِهِ إِذَا سَافَهُ الْعَوْدُ النَّبَاطِيُّ جَرْجَرًا^(٤)

وَلِي فِيهِ بَيْتٌ مِنَ الشُّعْرِ ، وهو [في « المثل السائر » ٢/٦٢] :

أَذْنَيْنِ جَلَبَابِ الْحَيَاءِ فَلَا يُرَى لِدُيُولِهِنَّ عَلَى الطَّرِيقِ غُبَارُ

(١) المربد : قال الأصمعي : كلُّ شيءٍ جلست به الإبل والغنم ؛ ولهذا قيل : مربدُ النعم الذي بل المدينة) ، وبه سُمِّيَ مربدُ البصرة) ، وهو المقصود هنا .

(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١٥٤/٢٢) . وقوله : (لا تُتَنَّى فَلَائِتُهُ) . الفَلَائِتُ - جمعُ فَلَائَةٍ - : الزَّلَاتُ ؛ أي : لم يكن في مجلسه زَلَاتٌ فتُحفظ وتُحكى .

(٣) في « المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر » (٦٢/٢) .

(٤) لِاحِبٌ : طريقٌ واضح .

إذ لم يزد بهذا الانتحالِ على أن فضح نفسه بما يضيئُ عنه ذرعاً ، بشهادة التنافرِ بينَ القسَمينِ في بيتِهِ ، وتناسُبِهِما في بيتِ الأعرابيِّ .

أما الشواهدُ الشعريةُ عليه : فستأتي أوَّلَ المجلسِ الثالثِ ، بمناسبةِ قوله [في « العُكْبَرِيِّ » ١ / ٣٠٤] : [مِنَ المنسَرِحِ]
يُعْطِي فَلَا مَطْلُهُ يُكْدِرُهَا بِهَا وَلَا مَثُّهُ يُنْكَدُّهَا

[تشبيه ليلة القرب وليل الصد وكثرته عند الشعراء]

ثمَّ ما زالَ الشعراءُ يُشَبِّهونَ ليلَةَ القُربِ بِفِترِ الضَّبِّ ، وإبهامِ القِطَاةِ^(١) ، كما يَسْتَعِيرُونَ ليلِ الصِدِّ ظِلَّ الرُّمَحِ ، وما أشبه ذلك .

قالَ جريرٌ [في « ديوانه » ٢ / ٩٦٤] :

وَيَوْمٍ كإِبهَامِ القِطَاةِ مُزَيَّنٍ لَدَيْ صِبَاهِ غَالِبٍ لِي بَاطِلُهُ

[مِنَ البسيطِ] وقالَ الوليدُ بنُ يزيدَ [في « ديوانه »] :

لَا أَسْأَلُ اللهَ تَغْيِيرًا لِمَا صَنَعْتُ وَاللَّيْلُ أَطْوَلُ شَيْءٍ حِينَ أَفْقَدُهَا نَامَتِ وَقَدْ أَسْهَرَتْ عَيْنِي عَيْنَاهَا وَاللَّيْلُ أَقْصَرُ شَيْءٍ حِينَ أَلْقَاهَا

[مِنَ الخفيفِ] وقالَ آخرُ :

لَيْلَةٌ كَادَ يَلْتَقِي طَرْفَاهَا قِصْرًا وَهِيَ لَيْلَةُ الإِجْتِمَاعِ

[مِنَ الوافرِ] وقالَ غيرهُ :

ظَلَلْنَا عِنْدَ دَارِ أَبِي نَعِيمٍ يَوْمٍ مِثْلَ سَالِفَةِ الذُّبَابِ^(٢)

[مِنَ السريعِ] وقالَ ابنُ الأَحنفِ [في « ديوانه » ١٢٠] :

اليَوْمُ مِثْلُ الحَوْلِ حَتَّى أَرَى وَجْهَكَ وَالسَّاعَةَ كَالشَّهْرِ

[مِنَ الوافرِ] وقالَ الصَّمَّةُ بنُ عبدِ اللهِ [في « ديوانه » ٧٩] :

شُهُورٌ يَنْقُضِينَ وَمَا شَعَرْنَا فَأَمَّا لَيْلُهُنَّ فَخَيْرٌ لَيْلٍ بِأَنْصَافٍ لَهُنَّ وَلَا سِرَارٍ^(٣) وَأَقْصَرُ مَا يَكُونُ مِنَ النَّهَارِ

[مِنَ الطويلِ] وقد يشبههُ قولُ ابنِ الروميِّ [في « ديوانه » ٤ / ١٤٧٣] :

سَقَى اللهُ أَوْطَارًا لَنَا وَمَارِبًا لِيَالِي أَنْسَتَنِي حِسَابَ زَمَانِهَا تَقَطَّعَ مِنْ أَقْرَانِهَا مَا تَقَطَّعَا بُلْهِنِيَّةٌ أَقْضِي بِهَا الحَوْلَ أَجْمَعَا^(٤)

(١) يُضْرَبُ المَثَلُ في الأَشْيَاءِ القَصِيرَةِ التي هي كَالخيَالِ بِفَتْرٍ - شِبْرٍ - الضَّبِّ وإبهامِ القِطَاةِ ؛ لِأَنَّهُ لَا فَتْرَ لَهُ وَلَا إبهامَ لَهَا أصلاً .

(٢) سَالِفَةُ الذُّبَابِ : عُنُقُ السيفِ ، والمعنى : يَوْمُهُمْ قَصِيرٌ كَقَصْرِ عُنُقِ السيفِ .

(٣) السَّرَارُ - سَرَزُ الشَّهْرِ ، بِالتَّحْرِيكِ - : آخِرُ لَيْلَةٍ مِنْهُ .

(٤) البُلْهِنِيَّةُ : الرَّخَاءُ وَسَعَةُ العَيْشِ .

وقال الفقيه الشافعي أسعد بن يحيى السنجاري في « وفيات الأعيان » ١/ ٢١٦ : [من السريع]

لله أيامي على رامة وطيب أوقاتي على حاجر
تكد بالشرعة في مرها أولها يغتر بالآخر

[تمثل السيدة عائشة بشعر متمم بن نيرة]

ولا يخرج عنه قول متمم بن نيرة في « المفضليات » ٣/ ١١٧٧ - وقد تمثلت به عائشة عند قبر أخ لها^(١) - : [من الطويل]

وكنا كندماني جذيمة حفة من الدهر حتى قيل لن تصدعا^(٢)
فلما تفرقنا كآني ومالك لطول اجتماع لم نبث لئلة معا

وهما من قصيدة له شاعرة محركة ، يقول فيها [في « المفضليات » ٣/ ١١٨٧-١١٨٨] : [من الطويل]

وما وجد أظار ثلاث روائم رأين مجراً من حوار ومصرعا^(٣)
يذكرن ذا البث الحزين ببثه إذا حنت الأولى سجعن لها معا
بأوجع مني يوم فارقت مالك وقام به الناعي الرفيع فأسمعنا

وبعدها البيتان ، ثم قال [في « المفضليات » ٣/ ١١٧٨] :

وإن تكن الأيام فرقن بيننا فقد بان محموداً أخي حين ودعا
لقد كفن المنهال تحت ردايه فتى غير مبطن العشيات أزوعا

ويأتي ما يشبهها في تحريك الأشجان ، وإثارة البلابل ، عند شرح قوله [في « العكبري » ٢/ ٢٣٦] : [من الطويل]

ولو حملت صم الجبال الذي بنا غداة أفرقنا أو شككت تصدع

من آخر المجلس الخامس عشر إن شاء الله تعالى .

(١) تمثلت بهما السيدة عائشة - رضي الله عنها - عند قبر أخيها عبد الرحمن ابن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم . انظر : « الأغاني » (١٧/ ٣٦١) .

(٢) ندماني جذيمة : هما عقيل ومالك ابنا فالج ، وجذيمة : هو ابن مالك الأسدي أول ملوك الحيرة ، ولهما معا قصة حصلها كما في « الأغاني » (١٥/ ٣٠٢) :

أن جذيمة قال يوماً لجلسائه : قد ذكّر لي غلامٌ لخمى مقيمٌ في أحواله من إباد ، له ظرفٌ ولبٌ ، فلو بعثت إليه يكون في ندماني ، ووليتّه كاسي والقيام بمجلسي . . . كان الرأي ؟ فأيدوه ، فبعثت إليه ومكثت عنده مدةً طويلةً ، ثم أشرفت عليه يوماً رقاشٌ أخت جذيمة ، فلم تزل ترأسله حتى اتصل بينهما ، ثم قالت له : يا عدي ، إذا سقيت القوم . . . فامزج لهم ، واسق أخي صرفاً ، فإذا أخذت منه الخمر فاخطبني إليه ، فإنه يزوجك ، وأشهد القوم عليه إن هو فعل ، ففعل الغلام ذلك وانصرف إليها بالخبر ، فقالت : عرسٌ بأهلك ، ففعل ، فلما أصبح . . . غداً مضرّجاً بالخلوق ، فقال له جذيمة : ما هذه الآثار يا عدي ؟ قال : آثار العرس ، قال : أي عرس ؟!! قال : عرس رقاش ، فغضب جذيمة ، وهرب عدي ، فطلبه جذيمة فلم يدركه ، وسجن أخته في قصره ، واشتملت على حمل فولدت غلاماً وسمته عمراً ، وربته حتى كبر ، ثم دخل على خاله الملك بأبهي حلة ، فأحبه حباً شديداً ، وقرّبه إليه . ثم إن الجن اختلطت ، فلم يزل جذيمة يبحث عنه فلم يسمع له بخبر .

ثم أقبل رجلان - هما عقيل ومالك ابنا فالج - يريدان الملك بهدية ، فنزلا على ماء فيينا هما ياكلان إذ أقبل رجلٌ أشعثٌ أغبرٌ فناولاه شيئاً فأكله ، ثم سألاه عن اسمه ، فقال : إن تنكراني أو تنكرنا نسبي فإنني عمروٌ وعدي أبي ، فقاما إليه ، فحسنا هيتته ، وقالا : ما كنا لنهدي إلى الملك هديةً أنفسنا عنده من ابن أخته ، فبشرا الملك به ، فسُر سروراً عظيماً ، وقال لهما : احكما ، فلكما حككما ، قال : منادمتك ما بقيت وبقينا ، فمكنا عنده أربعين سنةً على تلك الحال ، حتى قتل الملك على يد الزبّاء في قصبة لا حاجة لذكرها .

(٣) أظار : جمع ظنر ، وهي المرضعة لغير ولدها من الناس والإبل . الروائم - جمع رائم - : وهي الناقة العاطفة على ولدها . المعجر : أحشاء الحوار .

والحوار : ولد الناقة من حين يرضع إلى أن يفطم ويفصل

وقال ابن ميادة «في ديوانه» ٢٠٦ :

[من الطويل]

تَمَّعَ بِذَا الْيَوْمِ الْقَصِيرِ فَإِنَّهُ رَهِينٌ بِأَيَّامِ الدُّهُورِ الْأَطْوَالِ

[من الكامل]

وقال أبو تمام «في ديوانه» ١٥١/٣-١٥٢ :

مَرَّتْ لَنَا أَعْوَامٌ وَضَلَّ بِالْحِمَى
ثُمَّ انْتَنَتْ أَيَّامٌ هَجَرَ بَعْدَهَا
ثُمَّ انْقَضَتْ تِلْكَ السُّنُونُ وَأَهْلُهَا
فَكَانَتْهَا مِنْ قُضْرِهَا أَيَّامٌ
فَكَانَتْهَا مِنْ طُولِهَا أَعْوَامٌ
فَكَانَتْهَا وَكَانَتْهُمْ أَحْلَامٌ

[من الطويل]

وأصل المعنى من قول امرئ القيس «في ديوانه» ١٥١-١٥٢ :

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ
فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِضُلْبِهِ
أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا انْجَلِ
عَلَيَّ بِأَنْوَاعِ الْهُمُومِ لِيَبْتَلِي
وَأَزْدَفَ أَعْجَازاً وَنَاءً بِكَلْكَلِ^(١)
بِصُبْحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ
بِكُلِّ مُغَارٍ الْفَتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ^(٢)

[من الوافر]

والأخير من قول خاله مهلهل :

فَإِنْ يَكُ بِالذَّنَائِبِ طَالَ لَيْلِي
كَأَنَّ الْجَدْيَ فِي مَثْنَاءِ رَبِّي
فَقَدْ أَنْكَبِي مِنَ اللَّيْلِ الْقَصِيرِ^(٣)
أَسِيرٌ أَوْ بِمَنْزِلَةِ الْأَسِيرِ^(٤)

والثاني هو الذي أعني .

[من البسيط]

وقال حندج المرئي «في ديوانه» :

لَيْلٌ تَحَيَّرَ مَا يَنْحَطُّ فِي جِهَةِ
نُجُومِهِ رُكَّذٌ لَيْسَتْ بِزَائِلَةٍ
مَا أَقْدَرَ اللَّهُ أَنْ يُدْنِي عَلَيَّ شَحَطُ
كَأَنَّهُ فَوْقَ مَتْنِ الْأَرْضِ مَشْكُولُ
كَأَنَّمَا هُنَّ فِي الْجَوِّ الْقَنَادِيلُ^(٥)
مَنْ دَارُهُ الْحَزْنُ مِمَّنْ دَارُهُ صَوْلُ^(٦)

[تنوع المتأخرين في هذا الموضوع]

[من البسيط]

ثم تعاورته أيدي المتأخرين ، فتنوعوا فيه ، وكان الإمام الرافعي كثيراً ما يُنشدُ غيره :

وَاللَّهِ مَا سَهَّرِي إِلَّا لِبُعْدِهِمْ
وَلَوْ أَقَامُوا لَمَا عُدْبْتُ بِالسَّهْرِ

(١) ناء : حَطَّ . الكلكل : الصدر من كل شيء .

(٢) مُغَارُ الْفَتْلِ : الحبلُ المفتولُ جيِّداً . يذْبُلُ : جيلٌ في بلاد نجد .

(٣) الذَّنَائِبُ : موضعٌ بنجد ، قال ابن بري : هو على يسار طريق مكة .

(٤) مَثْنَاءُ رَيْقٍ : حبلٌ تربط به صغار الغنم والمعز .

(٥) رُكَّذٌ : جمعُ رَاكِدٍ ، وهو الثابت الذي لا يتحرك .

(٦) الْحَزْنُ : طريق بين المدينة وخيبر . صَوْلُ : مدينة في بلاد الخزر ، في نواحي باب الأبواب .

عَهْدِي بِهِمْ وَرِدَاءُ الْوَصْلِ يَجْمَعُنَا
وَالآنَ لَيْلِي إِذْ ضُنُّوا بِرُؤُوسِهِمْ

وَاللَّيْلُ أَطْوَلُهُ كَاللَّمْحِ بِالْبَصْرِ
لَيْلُ الضَّرِيرِ فَنَوْمِي غَيْرُ مُتَنَطِّرٍ

وقال بعض أهل الأندلس^(١) :

وَمُرْتَجَّةِ الْأَعْطَافِ أَمَا قَوَامُهَا
أَلَمْتُ فَصَارَ اللَّيْلُ مِنْ قِصْرِ بِهِ
وَيْتٌ وَقَدْ زَارَتْ بِأَنْعَمِ لَيْلَةٍ
عَلَى عَاتِقِي مِنْ سَاعِدَيْهَا حَمَائِلٌ

فَلَدْنُ وَأَمَّا رَدْفُهَا فَرَدَاخٌ^(٢)
يَطِيرُ وَمَا غَيْرُ الشُّرُورِ جَنَاحُ
تَعَانِقِنِي حَتَّى الصَّبَاحِ صَبَاحُ
وَفِي خَصْرِهَا مِنْ سَاعِدَيَّ وَشَاحُ

[من الطويل]

[من الرَّمَل]

وقال ابن زيدون - من أبيات يودعُ بها ولادة مطلع الفجر من ليلة وصل - [في «ديوانه» ١٢] :

إِنْ يَطُلْ بَعْدَكَ لَيْلِي فَلَكُمْ
بِثُّ أَشْكَو قِصَرَ اللَّيْلِ مَعَكَ

[من البسيط]

وقال [في «ديوانه» ٥] :

حَالَتْ لَيْلِنَا أَيْامُنَا فَغَدَتْ
سُوداً وَكَانَتْ بِكُمْ بِيضاً لَيْالِينَا

[من السريع]

وقال أبو عبادَةَ [البُحْرِيُّ فِي «ديوانه» ١٢٥٧/٢] :

طَوَّلَ هَذَا اللَّيْلَ أَنْ لَا كَرِيَّ
يُريكَ مَنْ تَهَوَّى وَأَنْ لَا هُجُوعُ

[من الطويل]

وقال [في «ديوانه» ١٤٩٠/٣] :

لِقَاسِنِ لَيْلًا دُونَ (قَاسَانَ) لَمْ تَكُذْ
أَوَاحِرُهُ مِنْ بَعْدِ قُطْرِيهِ تَلْحَقُ^(٣)

[من الطويل]

وقال المعريُّ [في «سَفَطِ الرُّبْدِ» ٢٣٠-٢٣١] :

وَلَيْلَيْنِ : حَالٍ بِالْكَوَاكِبِ جَوْرُهُ
كَأَنَّ دُجَاهُ الْهَجْرُ وَالْفَجْرُ مَوْعِدُ
قَطَعَتْ بِهِ بِخِرَاءٍ يُعْبُ عُبَابُهُ
وَأَخَرُ مِنْ حَلِي الْكَوَاكِبِ عَاطِلُ
بِوَصْلِ وَضَوْءُ الصُّبْحِ حَبٌّ مُمَاطِلُ
وَلَيْسَ لَهُ إِلَّا التَّبْلُجُ سَاحِلُ^(٤)

[من الوافر]

وقال الواوَاءُ الدَّمَشْقِيُّ [في «ديوانه» ٧٦] :

وَلَيْلٍ مِثْلِ يَوْمِ الْبَيْنِ طُولاً
بَدَائِعُ نَوْمِهَا فِيهِ انْتِيَاةُ
إِذَا أَفَلَّتْ كَوَاكِبُهُ تَعُودُ
فَأَعْيُنُهَا مُفْتَحَةٌ رُقُودُ^(٥)

(١) وهو ابن الزقاق كما في «نفع الطيب» (٢٩٨/٤) .

(٢) اللدُنُّ : اللَّيْنُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ . وامرأةٌ رَدَلَجٌ : عجزاءٌ ثَقِيلَةُ الْأَوْرَاقِ تَأْمَةُ الْخَلْقِ .

(٣) قاسان - ويقالُ : قاشان وكاشان - بلدٌ في (إيران) ، بين (قَمْ) و(أصفهان) .

(٤) الليلان : هما الليلُ وفرسه الأدهم الذي يشبه الليل بسواده . حالٍ : أي ليل حالٍ من الحلية ، وحلية الليل : نجومه . جوزه : وسطه . عاطلٌ : ليس

حالياً ، وهو فرسه الأدهم . التبلُّجُ : إشرافُ الصبح .

(٥) في «الديوان» : (يدافع نومها) بدل (بدائع نومها) .

وقال أيضاً [في «ديوانه» ٨٦] :

[مِنَ الوافرِ]

وَلَيْلٍ مِثْلِ يَوْمِ الْحَشْرِ طُولاً
كَأَنَّ ظِلَامَهُ لَوْنُ الصُّدُودِ
كَأَثَرِ اللَّطْمِ فِي بَيْضِ الْخُدُودِ^(١)

وقال عليُّ بنُ الخليلِ :

[مِنَ الطَّويلِ]

يَقُولُونَ طَالَ اللَّيْلُ وَاللَّيْلُ لَمْ يَطُلْ
أَنَامُ إِذَا مَا اللَّيْلُ مَهَّدَ مَضْجَعِي
وَأُخْرَى أَلَا قِيَهَا بِوَصْلِ فَتَقْصُرُ
فَكَمْ لَيْلَةٍ طَالَتْ عَلَيَّ لِصَدَّهَا

وقال آخرُ :

[مِنَ البسيطِ]

سَهَرْتُ لَيْلَاتٍ وَصَلِي فَرْحَةً بِهِمْ
إِذَا تَقَضَّى زَمَانِي كُلُّهُ سَهَرًا
وَلَيْلَةَ الْهَجْرِ كَمْ قَضَيْتُهَا سَهَرًا
فَمَا أَبَالِي أَطَالَ اللَّيْلُ أَمْ قَصُرًا

[تفنن المتنبي في هذا الموضوع وكثرته عنده]

[مِنَ الخفيفِ]

والمعنى متكررٌ عند الناظم بكثرة ؛ فمنه قوله [في «المُعَبَّرِي» ٣٦٤ / ٢] :

فَصَّرْتُ مُدَّةَ اللَّيَالِي الْمَوَاضِي
فَأَطَالَتْ بِهَا اللَّيَالِي الْبَوَاقِي

[مِنَ الطَّويلِ]

وقوله [في «المُعَبَّرِي» ٥٨ / ١] :

ذَكَرْتُ بِهِ وَصْلاً كَانَ لَمْ أَفْزِ بِهِ
وَعَيْشاً كَأَنِّي كُنْتُ أَقْطَعُهُ وَتَبَا

[مِنَ الوافرِ]

وقوله [في «المُعَبَّرِي» ١٤٠ / ١] :

وَمَا لَيْلٌ بِأَطْوَلَ مِنْ نَهَارٍ
يَظَلُّ بِلِخْظِ حُسَّادِي مَشُوبَا

[مِنَ الطَّويلِ]

وقوله [في «المُعَبَّرِي» ٩٥ / ٣] :

لَيْالِي بَعْدَ الظَّاعِنِينَ شُكُورٌ
طَوَالَ وَلَيْلُ الْعَاشِقِينَ طَوِيلٌ^(٢)

[مِنَ الكاملِ]

وقوله [في «المُعَبَّرِي» ٢٦٨ / ٢] :

النَّوْمُ بَعْدَ أَبِي شَجَاعٍ نَافِرٌ
وَاللَّيْلُ مُعْيٍ وَالْكَوَاكِبُ ظَلْعٌ^(٣)

[مِنَ المنسرحِ]

وقوله [في «المُعَبَّرِي» ٧٢ / ٢] :

مَا بَالُ هَذِي النُّجُومِ حَائِرَةٌ
كَأَنَّهَا الْعُمِي مَا لَهَا قَائِدٌ

(١) في «الديوان» : (يَقَى الخدود) بدل (بيض الخدود) . واليقى : شديد البياض ناصعه

(٢) الشُّكُورُ : جمعُ شكول ، وشكلُ الشيء مثله . وجمعُ القلَّةِ : أشكال . وأتى ههنا بجمع الكثرة لأنه أبلغ في شكوى الحال .

(٣) الظَّلْعُ : العرج ، وقصد : أن النجوم بطيئة السير كنى به عن أرقه .

وقوله [في «العُكْبَرِيّ» ١١٨/٢] :

[مِنَ البسيطِ]

مِنْ بَعْدِ مَا كَانَ لَيْلِي لَا صَبَاحَ لَهُ كَأَنَّ أَوَّلَ يَوْمِ الْحَشْرِ آخِرُهُ

وقوله [في «العُكْبَرِيّ» ١٣٥/٢] :

[مِنَ الكاملِ]

تُذْمِي خُدُودَهُمُ الدُّمُوعُ وَتَنْقُضِي سَاعَاتُ لَيْلِهِمْ وَهَرْنٌ دُهُورُ

[مِنَ الخفيفِ]

وقد غَبَّرَ أبو نُوَاسٍ في وجوه الشعراء القائلين في الموضوع بقوله :

لَسْتُ أَدْرِي أَطَالَ لَيْلِي أَمْ لَا كَيْفَ يَسْذِرِي بِذَلِكَ مَنْ يَتَقَلَّى
إِنْ تَفَرَّغْتُ لِاسْتِطَالَةِ لَيْلِي وَلِرَعْيِ النُّجُومِ كُنْتُ مُخْلَاً

[المعتمد وإحدى حظاياها]

ومصدقاته ما حُكِيَ : أَنَّ المعتمدَ بْنَ عَبَّادٍ وَدَعَّ حظاياها مِنْ (قُرْطَبَةَ) ، لَمَّا عَزَمَ بِهِنَّ إِلَى (إِسْبِيلِيَّةَ) ، وما زال يسأيرُهُنَّ ، وهو مذهوبُ العقلِ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ ، حَتَّى بَرَقَ الفجرُ ، فَأَفَاقَ مِنْ غُشِيَّتِهِ ، وَرَجَعَ ، وَقَالَ في ذَلِكَ [كما في ديوانه ٣٦١] :

[مِنَ الكاملِ]

سَايَرْتُهُمْ وَاللَّيْلُ أَغْفَلَ نَوْبَهُ حَتَّى تَبَدَّى لِلنَّوَاطِرِ مُغْلِمًا
فَوَقَفْتُ ثُمَّ مُودَّعًا وَتَسَلَّمْتُ مَنِّي يَدَا الإِصْبَاحِ تِلْكَ الأَنْجُمَا

وقد سَنَحَ لي بمناسبةِ ذِكْرِ الوداعِ أَنْ أَتَكَلَّمَ على بعضِ ما جاءَ فِيهِ ، ثُمَّ رَأَيْتُ في الفرصِ الآتيةِ ما هوَ بِهِ أَمْسٌ ، فَأَخَّرْتُهُ إِلَيْهَا .

* * *

ولنختم المجلسَ بأبياتِ ثلاثةٍ للناظمِ تتصلُّ بما نحنُ فِيهِ ، وهيَ مِمَّا قَالَ في أَيَّامِ صِباهِ^(١) :

[مِنَ البسيطِ]

[قال أبو الطيبِ المتنبِّي في «العُكْبَرِيّ» ١٨٥/٤] :

أَبْلَى الهَوَى أَسْفَا يَوْمَ النَّوَى بَدَنِي وَفَرَّقَ الهَجْرُ بَيْنَ الجَفْنِ وَالْوَسَنِ

[الهوى المتلف]

يقولُ : إِنَّ الهوى أَتْلَفَ بَدَنَهُ يَوْمَ الفراقِ ، مِنْ شِدَّةِ الأَسْفِ ، وَأَكْثَرَ الشعراءِ يَدْعُونَ ذَلِكَ ، وهوَ مقبولٌ ؛ إِذ قَلَّ مَنْ سَلِمَ مِنَ البَيْنِ ومَرارَتِهِ ، وَلَمْ يَشْكَ مِنْ البُعدِ وحرارَتِهِ ، وَأَيُّ عَيْنٍ لَمْ تَذْرِفْ ؟ ! بل كُلُّ نَفْسٍ مفارقةٌ ، وَإِنْ لَمْ تَعْرِفْ .

[مِنَ المتقاربِ]

[قال أبو الطيبِ في «العُكْبَرِيّ» ٣٤٢/١] :

فَوَاحَسَرَتَا مَا أَمَرَ الفِرَاقُ وَأَغْلَقَ نَيْرَانَهُ بِالْكَبُودِ

(١) وهي مطالع الأبيات الثلاثة الآتية .

هو الذي ينطوي به من الأفراح بساطها ، ويتقطع من القلوب نياطها ، ويكثر من العقول اختلاطها ، فلا كبد إلا تفتت على ذاهب ، غير أن للناس فيما يعشقون مذاهب [كما قيل] : [من الطويل]

وَأَيُّ امْرِئٍ يَخْلُو مِنَ الْحُبِّ قَلْبُهُ أَلَمْ تَرَهُ حَتَّى الْجَمَادُ بِهِ اهْتَزَا
وَلَكِنَّهُمْ شَتَّى فَمِنْ هَابِطٍ بِهِ إِلَى الدَّرَكِ الْأَدْنَى وَمِنْ صَاعِدٍ عِزًّا
وَلَا عِزًّا إِلَّا فِي هَوَى اللَّهِ وَخَدَهُ وَحُبِّ الَّذِي هَانَتْ بِهِ اللَّاتُ وَالْعُرَى

[حقيقة العشق]

وقد اختلفوا في تعريف الهوى ، واختلفت عباراتهم ، وتفاوتت إشاراتهم ، وكلٌّ يشير إلى ذلك الجمال ، وحسبك أنه اجتمع بحضرة يحيى بن خالدٍ ثلاثة عشرَ حكيمًا ، فسألهم عن حقيقة العشق ، فكلُّ أتى بما عنده ، وكان فيهم أبو الهذيل ، فقال :

أَيُّهَا الْوَزِيرُ ، الْعَشْقُ يَخْتِمُ عَلَى النَّوَظِرِ ، وَيَطْبَعُ عَلَى الْأَفْنَدَةِ ، مَرْتَعُهُ الْأَجْسَامُ ، وَمَشْرَعُهُ فِي الْأَكْبَادِ ، وَصَاحِبُهُ مَتَصَرِّفُ الظُّنُونِ ، مَتَفَنُّنُ الْأَوْهَامِ ، لَا يَصْفُو لَهُ مَرْجُوٌّ ، وَلَا يَسْلَمُ لَهُ مَدْعُوٌّ ، تُسْرِعُ إِلَيْهِ النَّوَابِثُ ، وَتَحْلُو لَهُ الْمَصَائِبُ ، وَهُوَ جُرْعَةٌ مِنْ نَقِيعِ الْمَوْتِ ، وَنَقَعَةٌ مِنْ حِيَاضِ الثُّكَلِ ، غَيْرَ أَنَّهُ مِنْ أَرِيحِيَّةٍ تَكُونُ فِي الطَّبَعِ ، وَطَلَاوَةٌ تَوْجَدُ فِي الشَّمَائِلِ . اهـ

[كمون الحب في الحشا]

وهو - بالحقيقة - وصفٌ لبعض أعراضه ، لا له ، وإنما أشارت إلى وصفه الأعرابيُّ بقولها [كما في «مصارع العشاق» ١/١٧٥] : جَلَّ عَنْ أَنْ يَخْفَى ، وَخَفِيَ عَنْ أَنْ يُرَى ، فَهُوَ كَامِنٌ فِي الْأَحْشَاءِ ، كَمُونِ النَّارِ فِي الزَّنَادِ ، إِنْ قَدَحَتْهُ . . . ورى^(١) ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ . . . تَوَارَى .

وسيعادُ هذا أوائلَ المجلسِ التاسعِ قُبيلَ قَوْلِهِ [في «العُكْبَرِيِّ» ١/٣١٥] : [من الخفيف]

يَتَرَشَّفَنَّ مِنْ فَمِي رَشَفَاتٍ هُنَّ فِيهِ أَحْلَى مِنَ التَّوْجِيدِ^(٢)

[الهجر نفي النوم من العيون]

وقوله : (وَفَرَّقَ الْهَجْرُ بَيْنَ الْجَفْنِ وَالْوَسَنِ) كذلك من الإغراق الذي لا بأس له ، وهو متداولٌ كسابقه ، إلا أنه أقلُّ ابتداءً ، وأحسنُ منالاً منه قولُ الوزيرِ المهلبيِّ :

تَصَارَمَتِ الْأَجْفَانُ لَمَّا صَرَمْتَنِي فَمَا تَلْتَقِي إِلَّا عَلَى عَبْرَةِ تَجْرِي

وقال بشارٌ [في «ديوانه» ٣/٢٤٩] :

جَفَّتْ عَيْنِي عَنِ التَّغْمِيضِ حَتَّى كَأَنَّ جُفُونَهَا عَنْهَا قِصَارُ

(١) وري الزُّنْدُ : خرجت نازةً .

(٢) ولليبت رواية أخرى هي في «الديوان» :

هُنَّ فِيهِ حَلَاوَةٌ التَّوْجِيدِ

وَأَخَذَهُ التَّهَامِي ، فَقَالَ [في «ديوانه» ٤٧٠] :

[مِنَ الْكَامِلِ]

قَصُرَتْ جُفُونِي أَمْ تَبَاعَدَ بَيْنَهَا أَمْ مُقَلَّتِي خُلِقَتْ بِلَا أَشْفَارِ

وَمِمَّا يُنْظَرُ إِلَيْهِ مِنْ بَعِيدٍ : مَا تَغَنَّتْ بِهِ جَارِيَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، لَابِنِ أَبِي عَتِيقٍ - رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ -
وهو :

[مِنَ الْكَامِلِ]

بِهَوَاكَ صَيَّرَنِي الْعَذُولُ نَكَالًا وَرَأَى السَّبِيلَ إِلَى الْمَقَالِ فَقَالَ
وَنَهَيْتَ نَوْمِي عَنْ جُفُونِي فَانْتَهَى وَأَمَرْتَ لَيْلِي أَنْ يَطُولَ فَطَالَ

[تكرار لهذا المعنى عند المتنبي]

[مِنَ الْمُتَقَارِبِ]

والمعنى متكررٌ في «ديوان» الناظم ؛ منه قوله [في «العُكْبَرِيِّ» ٢٣/٣] :

كَأَنَّ الْجُفُونََ عَلَيَّ مُقَلَّتِي ثِيَابٌ شَقِقْنَ عَلَيَّ ثَاكِيلِ

[مِنَ الْبَسِيطِ]

وقوله [في «العُكْبَرِيِّ» ٢٢٠/٤] :

قَدْ عَلِمَ الْبَيْنُ مِنَّا الْبَيْنَ أَجْفَانَا تَدَمَّى وَأَلْفَ فِي ذَا الْقَلْبِ نِيرَانَا

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقوله [في «العُكْبَرِيِّ» ١٤٨/١] :

فَإِنَّ نَهَارِي لَيْلَةٌ مُذْلَهَمَةٌ عَلَيَّ مُقَلَّةٌ مِنْ بَعْدِكُمْ فِي غِيَاهِبِ
بَعِيدَةٍ مَا بَيْنَ الْجُفُونَِ كَأَنَّمَا عَقَدْتُمْ أَعَالِي كُلِّ جَفْنٍ بِحَاجِبِ

[المحب لا يعرف الراحة]

وَصَدَقَ وَاللَّهُ ، فَمَنْ نَالَهُ مِنَ الْحَبِيبِ شَفُونُهُ^(١) . . . يَسْتَحِيلُ أَنْ تَصْطَلِحَ جَفُونُهُ ، وَمَنْ ظَهَرَ لَدَى الْمَعْشُوقِ ذَنْبُهُ . . . فَلَنْ يَسْتَقَرَّ بِهِ جَنْبُهُ ، وَمَنْ بَعُدَ عَنْهُ رِيحَانُهُ . . . فَلَا يَدْعُ أَنْ يَطُولَ امْتِحَانُهُ .

[هَلَا السَّلَامَةَ]

هُوَ الْحُبُّ فَاسْلَمَ بِالْحَشَا مَا الْهَوَى سَهْلٌ فَمَا اخْتَارَهُ مُضْنَى بِهِ وَلَهُ عَقْلٌ
نَصَحْتُكَ عِلْمًا بِالْهَوَى وَالَّذِي أَرَى مُخَالَفَتِي فَاخْتَرْتُ لِنَفْسِكَ مَا يَخْلُو
إِذَا شِئْتَ أَنْ تَخِيَا سَعِيدًا فَمُتْ بِهِ شَهِيدًا وَإِلَّا فَالْغَرَامُ لَهُ أَهْلٌ^(٢)

* * *

(١) شَفُونُهُ : نظر إليه بمؤجر عينه بفضة أو تعجباً . وقيل : نظره نظراً فيه اعتراض .

(٢) الأبيات لابن الفارض في «ديوانه» من الطويل .

رُوحٌ نَرَدَّدُ فِي مِثْلِ الْخِلَالِ إِذَا أَطَارَتِ الرِّيحُ عَنْهُ الثُّوبَ لَمْ يَبِينِ^(١)
كَفَى بِجِسْمِي نُحُولاً أَنَّنِي رَجُلٌ لَوْلَا مُخَاطَبَتِي إِيَّاكَ لَمْ تَرْنِي

[في البيت سؤالان]

في البيت الثاني سؤالان :

[الأول : ما هو المصدر المؤول ؟]

أحدهما : أَنْ (أَنْ) المفتوحة مِنْ قولِهِ : (أَنَّنِي رَجُلٌ) تحتاجُ إِلَى أَنْ تُسَبِّكَ بِمصدرٍ ، فما تقديرُهُ ؟
وقد أجابَ الشارحُ [العكبري] : بأنَّهُ كَفَى بِجِسْمِي نُحُولاً انتفاءً رُويَ لَوْلَا مُخَاطَبَتِي .

[الثاني : الاسم الظاهر بمثابة الغائب فكيف الضمير]

والثاني : أَنْ الأسماءَ الظاهرةَ مِنْ قبيلِ الغائبِ ، فكانَ الأوفى أَنْ يقولَ : (أَنَّنِي رَجُلٌ لَوْلَا مُخَاطَبَتُهُ إِيَّاكَ لَمْ تَرَهُ) .
وأطالَ الشارحُ فِي الجوابِ ، والحاصلُ : أَنَّهُ مِنْ جنسِ قولِهِ جَلَّ شأنُهُ : ﴿ أَيُّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهْلُونَ ﴾ [النمل : ٥٥] ، فالخطابُ فِي ﴿ تَجْهَلُونَ ﴾ غيرُ مناسبٍ لقومٍ ، وَإِنَّمَا هُوَ أَنيسٌ بقولِهِ : ﴿ أَنْتُمْ ﴾ .

[الشواهد عليه]

[من الطويل]

ومثله قولُ الشاعرِ :

أَكْرَمُ مَنْ لَيْلَى عَلَيَّ فَتَبْتَعِي بِهِ الْجَاءَ أَمْ كُنْتُ أَمْرًا لَا أُطِيعُهَا

فقد أعادَ مِنْ (أُطِيعُهَا) ضميرَ متكلمٍ وفاقاً لـ (كنتُ) ، ولم يُعِدْ ضميرَ غائبٍ وفاقاً (لامرئ) ، والبيتُ لقيسِ بنِ المُلَوِّحِ فِي « شرحِ شواهدِ المغني » ١ / ٢٢١ ، أو لابنِ الدُّمَيْنَةِ فِي « ديوانه » ٢٠٦ ، أو للصَّمَّةِ بنِ عبدِ اللهِ القشيريِّ فِي « ديوانه » ١١٣ ، على اختلافِ الروايةِ فِي ذلكَ ، وقد أوردَهُ ابنُ هشامٍ شاهداً على اشتراطِ الصفةِ لِمَا وَطِئَ بِهِ مِنْ خَيْرٍ ، أو ، صفةٍ ، أو حالٍ ، وقبلَهُ فِي « ديوانِ الصَّمَّةِ » ١١٣ :

وَبُنْتُ لَيْلَى أَرْسَلْتُ بِشَفَاعَةِ إِلَيَّ فَهَلَّا نَفْسُ لَيْلَى شَفِيعُهَا

[قصة الصمة وربا]

وكانَ مِنْ خَبَرِها [كما فِي « الأغاني » ٦ / ١٢] : أَنَّ الصَّمَّةَ بنَ عبدِ اللهِ - على روايةِ أَنَّها لَهُ - كانَ يهوى ابنةَ عمِّ لَهُ تسمى رِبا ، فخطبها إِلَى عمِّهِ ، فزوجهَ على خمسينَ مِنَ الإبلِ ، فجاءَ إِلَى أبيهِ ، فسألهُ ، فساقَ عَنْهُ تسعاً وأربعينَ ، فقالَ : أكملها ، فقالَ : هُوَ عمُّكَ ، وما يناظرُكَ فِي ناقةٍ ، فقالَ : واللهِ ما قالَ هذا إلاَّ استخفافاً بابنتي ، واللهِ لا أقبلها إلاَّ كُملاً ، فلجَّ عمُّهُ ، ولجَّ أبوهُ ، فقالَ : واللهِ ما رأيتُ ألامَ منكمُ ، وأنا ألامُ منكمُ إن أقمْتُ معكمُ ، فرحلَ إِلَى

(١) الخلالُ : العودُ الدقيقُ الذي لا يُرى .

(الشام) ، فلفي الخليفة ، فأعجب به ، وفرض له ، وألحقه بالفرسان ، فكان يتشوق إلى (نجد) ، ويحن إليها ، وكان هذا الشعرُ فيما قاله . كذا رأيتُه ، وهو لا يلتئم مع البيتين ، وإنما يلتئم مع ما سيأتي عنه في المجلس الثاني .

[رد المؤلف على الشارح]

إذن : ففي البيت الذي نتكلم عليه نوعٌ من الالتفاتِ البديع ، ثم قال الشارح : إِنَّهُ مِنْ قَوْلِ الْأَخْطَلِ [في « ديوانه »] : [١٥٤] :

ضَفَادِعُ فِي ظَلْمَاءٍ لَيْلٍ تَجَاوَبَتْ فَدَلَّ عَلَيْهَا صَوْتُهَا حَيَّةَ الْبُحْرِ
وليس كذلك .

[أصل بيت المتنبي]

وإنما أصله قولُ الأعشى [في « ديوانه »] :

فَلَوْ أَنَّ مَا أَبْتَنِينَ مِنِّي مُعَلَّقٌ بِعُودِ ثَمَامٍ مَا تَأَوَّدَ عُودَهَا^(١)

وقد تلاعب به الناظم حتى أذاله ، فمن ذلك قوله [في « العكبري » ٢٨/٤] :

وَخِيَالٌ جِسْمٍ لَمْ يُخَلِّ لَهُ الْهَوَى جِسْمًا فَيُنْحِلُهُ السَّقَامُ وَلَا دَمًا^(٢)

وقوله [في « العكبري » ١٤٩/١] :

وَلَوْ قَلَمٌ أَلْفَيْتُ فِي شَقِّ رَأْسِهِ مِنْ السُّقْمِ مَا غَيْرْتُ مِنْ خَطِّ كَاتِبِ

وقوله [في « العكبري » ٥١/٤] :

بِرَائِي الشَّرِيَّ بَرِيَّ الْمُدَى فَرَدَدَنِي أَخَفَّ عَلَى الْمَرْكُوبِ مِنْ نَفْسِي جِرْمِي

وقوله [في « العكبري » ٢٢٣/٣] :

بِجِسْمِي مَنْ بَرْتَهُ فَلَوْ أَصَارَتْ وَشَاحِي ثَقَبَ لُؤْلُؤَةَ لَجَالًا

وقوله [في « العكبري » ٣٦٣/٢] :

حُلَّتْ دُونَ الْمَزَارِ فَالْيَوْمَ لَوْ رُزُ تَ لَحَالِ التُّحُولِ دُونَ الْعِنَاقِ

وقوله [في « العكبري » ٢٥٢/٣] :

دُونَ التَّعَانِقِ نَاحِلِينَ كَشَكَلَتِي نَضِبِ ، أَدَقَّهُمَا وَضَمَّ الشَّاكِلِ^(٣)

وقوله [في « العكبري » ١٤/١] :

وَشَكِيَّيْ فَقَدْ السَّقَامُ لِأَنَّهُ قَدْ كَانَ لَمَّا كَانَ لِي أَعْضَاءُ

(١) الثمام : نبتٌ معروفٌ في البادية ، ولا تأكله النعم إلا في الجُدوبة . تأوَّدَ عودها تأوَّدًا : إذا تننَّى .

(٢) في « العكبري » : (لَحْمًا) بدل (جِسْمًا) ، ولعله الصواب .

(٣) الشكلة : أراد هنا التي تكون في الإعراب وهي الفتحة ، وهي من قولهم : شكَلْتُ الدابةَ ؛ أي : ضبطتها ، والشكلة تضبط الحروف ، وضَمَّ الشاكل :

الكاَتِبُ ، يريد بالضم : القرب ، ولم يُردِ الضم الذي في الإعراب الذي يسمى رفعاً .

وقوله [في «العكبري» ١٩٢/٤] :

[من البسيط]

كَتَمْتُ حُبَّكَ حَتَّىٰ مِنْكَ تَكْرِمَةً ثُمَّ اسْتَوَىٰ فِيكَ إِسْرَارِي وَإِعْلَانِي
لَأَنَّهُ زَادَ حَتَّىٰ فَاضَ عَن جَسَدِي فَصَارَ سُقْمِي بِهِ فِي جِسْمِ كِتْمَانِي^(١)

[من الطويل]

وقد ألم في هذا بقول قيس بن الملوّح [في «ديوانه» ٢٩٤] :

لَقَدْ كُنْتُ أَغْلُو حُبَّ لَيْلَىٰ فَلَمْ يَزَلْ بِي النَّقْضُ وَالْإِبْرَامُ حَتَّىٰ عَلَانِيَا

[ذوبان النفس في العشق ليس حكراً على أحد]

[من الطويل]

وهو من المعاني المشتركة ، وقد تداوله المولّدون ، فمنه قول المعجون [في «ديوانه» ٨٠] :

أَلَا إِنَّمَا غَادَرْتَ يَا أُمَّ مَالِكِ صَدَىٰ أَيَّمَا تَذَهَبَ بِهِ الرِّيحُ يَذَهَبُ

[من السريع]

وقول المؤمّل :

يَكَادُ جِسْمِي مِنْ نُحُولِ السُّنَّانِ تَحْمِلُهُ أَنْفَاسُ عُوَادِي

[من البسيط]

وقول خالد الكاتب :

غَدَا خَلِيلِكَ نِضْوًا لَا حَرَكَ بِهٍ لَمْ يَيْتَقَ مِنْ جِسْمِهِ إِلَّا تَوَهُّمَهُ^(٢)

[من البسيط]

وقول ابن المعتز :

مُسَهَّدُ خَانَةِ التَّفْرِيقِ فِي أَمَلِهِ أَضْنَاهُ سَيِّدُهُ ظُلْمًا بِمُرْتَحِلِهِ
فَرَقَّ حَتَّىٰ لَوْ أَنَّ الدَّهْرَ قَادَ لَهُ حَتْفًا لَمَا أَبْصَرْتَهُ مُقَلَّتَا أَجَلِهِ

[من السريع]

وقول ابن دريد :

إِنِّي امْرُؤٌ أَبْقَيْتَ مِنْ جِسْمِهِ يَا مُتْلِفَ الصَّبِّ وَلَمْ يَشْعُرِ
صَبَابَةً لَوْ أَنَّهَا قَطْرَةٌ تَجُولُ فِي عَيْنَيْكَ لَمْ تَقْطُرِ

وما أحسن قوله : (لَوْ أَنَّهَا قَطْرَةٌ) إلخ ، كما لا أبقح من تعليقه البيت الثاني بالأول ، وحشوه بقوله : (يَا مُتْلِفَ الصَّبِّ) ؛ فإنّها ظلمات بعضها فوق بعض ، لولا ما تنفّس به من ذلك الفجر الصادق .

[ما هذه الخفة !؟]

[من الطويل]

وقال بعضهم :

وَلَوْ شِئْتُ فِي طَيِّ الْكِتَابِ لَزُرْتُكُمْ وَمَا شَعَرْتُ بِبِي أَحْرَفٌ وَسُطُورٌ

[القذى الذي لا يؤذي]

[من الكامل]

وقال ابن العميد :

لَوْ أَنَّ مَا أَبْقَيْتَ مِنْ جِسْمِي قَدَىٰ فِي الْعَيْنِ لَمْ يَمْنَعْ مِنَ الْإِغْفَاءِ

(١) في «العكبري» : (كَأَنَّهُ) بدل (لَأَنَّهُ) .

(٢) النَّضْوُ : البعير المهزول ، وقد يستعمل في الإنسان .

وأغارَ الوأواءُ الدمشقيُّ على أَوَّلِ البيتينِ اللَّذَيْنِ نحنُ بسبيلِهِما ، فقالَ [في «ديوانه» ١٨٩] :

وَمَا أَبْقَى الْهَوَى وَالشُّوقُ مِنِّي سِوَى رُوحٍ تَرَدَّدُ فِي خِيَالِ
خَفِيتُ عَلَى النَّوَائِبِ أَنْ تَرَانِي كَأَنَّ الرُّوحَ مِنِّي فِي مَحَالِ

وقالَ آخِرُ : [مِن الطويل]

بِرَانِي الْهَوَى بَرِي الْمُدَى وَأَذَانِي صُدُودُكَ حَتَّى صِرْتُ أَنْحَلَ مِنْ أَمْسِ
فَلَسْتُ أَرَى حَتَّى أَرَاكَ وَإِنَّمَا يَبِينُ هَبَاءُ الذَّرِّ فِي أَلْقِ الشَّمْسِ

[تأييد المؤلف للشارح في بعض ورده لبعض]

وقد قضى الشارحُ بالفضلِ لهذينِ البيتينِ ، وحكمهُ مقبولٌ بالنسبةِ للثاني ، ومردودٌ بالنسبةِ للأوَّلِ .

وقالَ الصنوبريُّ :

ذُبْتُ حَتَّى مَا يُسْتَدَلُّ عَلَيَّ أَنْتَ حَيٌّ إِلَّا يَبْعُضُ كَلَامِي

[أعذب الشعر أكذبه]

وقالَ الخابزُ أَرُزِّي :

ذُبْتُ مِنَ الشُّوقِ فَلَوْ زُجَّ بِي فِي مُقْلَةِ النَّائِمِ لَمْ يَتَّبِعْهُ
قَدْ كَانَ لِي فِيمَا مَضَى خَاتَمٌ وَالْيَوْمَ لَوْ شِئْتُ تَمَنَّقْتُ بِهِ

وهو من معاصري الناطم ، وبين بيتيه من التفاوت ما لا يخفى ؛ إذ كيف يتمنق من يكون القدي أكبر منه .

وقد أغارَ الوالدُ أبو بكرِ بنُ شهابٍ - رحمه الله - على الثاني منهما ، ولكنه أحسن الاتباع ، وذلك حيث يقولُ :

لَذُنُ الْقِيَامِ دَقِيقُ الْخَضِرِ خَاتَمُهُ لَوْ شَاءَ مِنْ غَيْرِ تَكْلِيفِ يُمَنَّقُهُ

[السابق في المعنى أبو تمام]

وقد سبق إلى أصلِ المعنى ، حبيبُ بنُ أوسٍ ، في قوله [في «ديوانه» ١١٥/٣] :

مِنَ الْهَيْفِ لَوْ أَنَّ الْخَلَاخِيلَ صِيرَتْ لَهَا وَشِحَاءَ جَالَتْ عَلَيْهَا الْخَلَاخِلُ

[سلطان العاشقين وإبداعه في هذه المسألة]

وقد تفوقَ في المعنى سلطانُ العاشقين ، وأفرغهُ في عدَّةِ قوالبٍ ، منها قوله [في «ديوانه» ٨] :

كَهَلَالِ الشُّكِّ لَوْلَا أَنَّهُ أَنَّ ، عَنِّي عَيْنُهُ لَمْ تَتَّأَيَّ^(١)

وقوله [في «ديوانه» ٣٧] :

كَأَنِّي هَلَالُ الشُّكِّ لَوْلَا تَأُوْهِي خَفِيتُ فَلَمْ تُهْدِ الْعُيُونُ لِرُؤْيِي

(١) هلالُ الشكِّ : الذي لم تثبت رؤيته . أَنَّ : مِنَ الْأَيْنِ . عيني : باصرتي . عينُهُ : ذاته . لم تتأيَّ : لم تقصد . والمعنى : أنه صارَ في خفائه كهلالِ الشكِّ ، فلولا أنيته . . لم يهتدِ إليه .

وقوله [في «ديوانه» ١٣٧] :

[من الطويل]

خَفِيتُ ضَنْيَ حَتَّى لَقَدْ ضَلَّ عَائِدِي وَكَيْفَ تَرَى الْعُوَادُ مَنْ لَا لَهُ ظِلُّ

وقوله [في «ديوانه» ١٧٣] :

[من الطويل]

تَحَكَّمْ فِي جِسْمِي التُّحُولُ فَلَوْ أَتَى لِقَبْضِي رَسُولٌ ضَلَّ فِي مَوْضِعِ خَالِي

وقوله [في «ديوانه» ١٤٤] :

[من البسيط]

وَحَبَّذَا فِيكَ أَشْقَامٌ خَفِيتَ بِهَا عَنِّي ، تَقُومُ بِهَا عِنْدَ الْهَوَى حُجْجِي

وقوله [في «ديوانه» ١٦٤] :

[من الطويل]

خَفِيتُ ضَنْيَ حَتَّى خَفِيتُ عَنِ الضَّنَى وَعَنْ بُرْءِ أَشْقَامِي وَبَرْدِ أَوَامِي^(١)

وقوله [في «ديوانه» ١٥٢] :

[من الكامل]

أَخْفَيْتُ حُبُّكُمْ فَأَخْفَانِي أَسَى حَتَّى لَعْمَرِي كَذْتُ عَنِّي أَخْفِي

وقوله [في «ديوانه» ٤٩] :

[من الطويل]

فَلَوْ هَمَّ مَكْرُوهُ الرَّدَى بِي لَمَا دَرَى مَكَانِي وَمِنْ إِخْفَاءِ حُبِّكَ خُفْيَتِي

ويعجبي قول ابن زيدون [في «ديوانه» ٢٥٨] :

[من البسيط]

لَوْ شَاءَ حَمَلِي نَسِيمُ الصُّبْحِ حِينَ جَرَى وَأَفَاكُمُ بَفْتَى أَضْنَاهُ مَا لَأَقَى

[من الخفيف]

وقول الآخر :

قَدْ سَمِعْتُمْ أَنِّيهِ مِنْ بَعِيدٍ فَاطْلُبُوا الشَّخْصَ حَيْثُ كَانَ الْأَيْنُ

[من الطويل]

وقول لسان الدين ابن الخطيب [في «ديوانه» ٣٩٥/١] :

فَلَوْلَا أَنِّي مَا اهْتَدَى نَحْوَ مَضْجَعِي خَيْالِكُمْ بِاللَّيْلِ حِينَ يَزُورُ

[المقبول من الغلو هو الذي يصدره الصوفية]

وجُلُّ ما في الموضوع من الغلو الذي ينبو عنه السمعُ ، ولا يقبله الخاطرُ ، إلا ما كان عن السادة الصوفية ؛ فإنه لا بأس به ، ووجهه أنها تتلاشى جسمانيَّتهم ، وتتغلب عليهم الروحانيَّةُ ، وينفكون عن قيود المادَّةِ ، ويطيرون بنفوسهم إلى حيث شاءوا ، ممَّا قَسِمَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهُ مِنْ عَوَالِمِ الْقُدْسِ ، على حَسَبِ مراتبهم ، وتفاوت درجاتهم .

[من الطويل]

وقد قال بعضهم :

نَحَلْتُ فَلَوْ عُلِّقْتُ فِي رِجْلِ ذَرَّةٍ لَطَارَتْ وَلَمْ تَشْعُرْ بِأَنِّي تَعَلَّقْتُ

[سماح الصوفية]

ولهذا قصةٌ ، حاصلها : أَنَّ جماعةً من الصوفية كانوا على سماح ليلةً ، فطرقهم شخصٌ عظيمُ الهامة ، طويلُ

(١) الأوامُ : شدَّةُ العطشِ وحرارتهُ ، وقيل : أن يَصِحَّ العطشانُ .

القامة ، عليه هيئة السفر ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : سماعٌ اجتمعَ عليه الإخوان ، فقال : إن أذنتم لي .. دخلت ، فألفى الحادي يقول :

خَلِيلِي لَا وَاللَّهِ مَا الْقَلْبُ سَالِمٌ وَإِنْ ظَهَرَتْ مِنِّي شَمَائِلُ صَاحٍ
وَالأَمَّا بِأَلِي وَلَمْ أَشْهَدِ الْوَعَى أَيْتُ كَأَنِّي مُنْخَنُ بِجِرَاحٍ
فَطَرِبَ ، وَرَكُضَ بِرَجْلِهِ الْأَرْضَ ، وَرَمَى لِلْحَادِي مَا كَانَ عَلَى رَأْسِهِ ، ثُمَّ انْدَفَعَ الْحَادِي يَقُولُ : [مِنَ الْبَسِيطِ]
يَا بَانَةَ الْجِرْعِ لَوْلَا رَنَّةُ الْحَادِي لَمَا تَنَقَّلْتُ مِنْ وَادٍ إِلَى وَادٍ
وَلَا سَلَكْتُ بِنَعْمَانِ الْأَرَاكِ وَلَا شَرِبْتُ مِنْ مَائِهِ مَا يُنْعَشُ الصَّادِي
فَصَعَقَ الشَّيْخُ ، وَتَدَلَّه^(١) ، وَرَمَى جَمِيعَ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الشَّيَابِ ، وَبَقِيَ عُرْيَانًا ، ثُمَّ غَتَّى الْحَادِي بِالْبَيْتِ الْمُشَارِ إِلَيْهِ ، فِي جُمْلَةِ آيَاتٍ ذَهَبَتْ عَنْ حِفْظِي ، فَصَاحَ الشَّيْخُ صَبِيحَةً خَرَجَتْ فِيهَا رُوحُهُ .

[ومن العشق ما قتل]

ونظيرها ما حكاه ابن دقيق العيد في مجلسٍ درسِه بجامعِ ابن طولون : أَنَّهُ حَضَرَ سَمَاعًا غَتَّى فِيهِ مُغْنٌ بِقَوْلِ ابْنِ الْخَيَّاطِ [مِنَ الطَّوِيلِ] : [ديوانه ١٧٠-١٧١] :

خُذَا مِنْ صَبَا نَجْدٍ أَمَانًا لِقَلْبِهِ فَقَدْ كَادَ رِيَّاهَا يَطِيرُ بِلُبِّهِ
وَإِيَّاكُمْ ذَاكَ النَّسِيمَ فَإِنَّهُ إِذَا هَبَّ كَانَ الْمَوْتُ أَيْسَرَ خَطْبِهِ
وَفِي الرَّكْبِ مَطْوِيٍّ الضَّلُوعِ عَلَى جَوَى مَتَى يَدْعُهُ دَاعِ الْغَرَامِ يَلْبَبُهُ

قَالَ : وَفِي الْقَوْمِ فَقِيرٌ أَخَذَ يَقُولُ : لِيكَ ، لِيكَ ، وَيَصِيحُ ، وَرَفَعَ رَأْسَهُ ، فَإِذَا هُوَ مَيِّتٌ .

[حكم ابن الأثير على بيت]

قَالَ ابْنُ الْأَيْثَرِ [فِي « الْمَثَلِ السَّائِرِ فِي أَدَبِ الْكَاتِبِ وَالشَّاعِرِ » : ٣٤٦/٢] : وَفِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ بَيْتٌ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ مَخْتَرَعٌ ، وَهُوَ [مِنَ دِيْوَانِ ابْنِ الْخَيَّاطِ ١٧١] :

أَعَارُ إِذَا آنَسْتُ فِي الْحَيِّ أَنَّنِي حَذَارًا عَلَيْهِ أَنْ تَكُونَ لِجِبِّهِ

وَالْحَالُ أَنَّهُ مِنْ قَوْلِ الْمُتَنَبِّيِّ [فِي « الْمُكْتَبِيِّ » ٦/١] :

لَوْ قُلْتَ لِلدَّنْفِ الْمَشُوقِ فَدَيْتُهُ مِمَّا بِهِ .. لِأَغْرَتَهُ بِفِدَائِهِ^(٢)

(١) تدلَّة : ذهب فواده من العشق أو نحوه .

(٢) الدَّنْف : الذي اشتد مرضه وأشرف على الموت . وأغرته : من الغيرة . وفي « الديوان » : (الْحَزِينِ) بَدَلُ (الْمَشُوقِ) . وَقَالَ ابْنُ الْأَيْثَرِ : (دَخَلَتْ مَدِينَةَ دِمَشْقَ فَوَجَدَتْ جَمَاعَةً مِنْ أَدْبَانِهَا يَلْهَجُونَ بِبَيْتٍ مِنْ شِعْرِ ابْنِ الْخَيَّاطِ فِي قَصِيدَةٍ لَهُ أَوْلَاهَا : خُذَا مِنْ صَبَا نَجْدٍ أَمَانًا لِقَلْبِهِ ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ مِنَ الْمَعْنِيِّ الْغَرِيبَةِ وَهُوَ :

أَعَارُ إِذَا آنَسْتُ فِي الْحَيِّ أَنَّنِي حَذَارًا عَلَيْهِ أَنْ تَكُونَ لِجِبِّهِ
فَقُلْتُ لَهُمْ : هَذَا الْبَيْتُ مَأْخُوذٌ مِنْ شِعْرِ أَبِي الطَّيِّبِ فِي قَوْلِهِ :

وَقُلْتُ لِلدَّنْفِ الْمَشُوقِ فَدَيْتُهُ مِمَّا بِهِ لِأَغْرَتَهُ بِفِدَائِهِ

وَقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ أَدَقُّ مَعْنَى ، وَإِنْ كَانَ قَوْلُ ابْنِ الْخَيَّاطِ أَرَقَ لَفْظًا ، ثُمَّ إِنِّي أَوْقَفْتُهُمْ عَلَى مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنْ شِعْرِ ابْنِ الْخَيَّاطِ قَدْ أَخَذَهَا مِنْ شِعْرِ الْمُتَنَبِّيِّ) . [الْمَثَلِ السَّائِرِ] (٣٤٦/٢) .

أَقُولُ : وَقَدْ سَبَقَ إِلَيْهِ الْعَبَّاسُ بْنُ الْأَحْنَفِ فِي قَوْلِهِ [فِي « دِيْوَانِهِ » ٣٤] :

[مِنْ الْكَامِلِ]

لَمْ أَلْقَ ذَا شَجْنٍ يُبُوحُ بِحُبِّهِ إِلَّا حَسِبْتُكَ ذَلِكَ الْمَحْبُوبَا
حَذْرًا عَلَيْكَ وَإِنِّي بِكَ وَائِقٌ أَنْ لَا يَنَالَ سِوَايَ مِنْكَ نَصِيْبَا

[لماذا لم يصعق الصحابة من السماع ؟]

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : إِذَا كَانَ الْمَوْتُ عَلَى مِثْلِ تِلْكَ الْحَالِ كَمَا لَمْ . . . فَهَلَّا كَانَ هُنَاكَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، وَرَضِيَ عَنْهُمْ ، وَهُمْ خَيْرُ الْقُرُونِ ؟

[بل صعق بعضهم عند سماع سورة الإنسان]

فَلَنَا : أَخْرَجَ الطَّبْرَانِيُّ [فِي « الْأَوْسَطِ » ١٦١/٢] ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ ، وَابْنُ عَسَاكِرَ : (أَنَّ بَعْضَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَضَى عِنْدَ سَمَاعِ سُورَةِ الْإِنْسَانِ سَاعَةً نَزَلَتْ فِيهَا) .
وَأَخْرَجَهُ أَحْمَدُ أَيْضًا بِصُورَةٍ لَا تَبَعُدُ عَنْهَا .

[قوا أنفسكم نارًا]

وَصَحَّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَتْ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِكُوا نَارًا ﴾ [التحریم : ٦] . . تلاها رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذاتَ ليلةٍ ، أو يومٍ ، فَخَرَّ فَتَى مَغْشِيًّا عَلَيْهِ ، فَوَضَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَدَهُ عَلَى فُؤَادِهِ ، فَإِذَا هُوَ يَتَحَرَّكُ ، فَقَالَ : « يَا فَتَى ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ » ، فَقَالَهَا ، فَبَشَّرَهُ بِالْجَنَّةِ ، وَمَاتَ مِنْ ذَلِكَ ^(١) .

[الأول يتلو والثاني يموت]

وَصَحَّ : أَنَّ مَنْصُورَ بْنَ عَمَّارٍ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ، فَسَمِعَهَا فَتَى يَصَلِّي ، فَتَفَطَّرَتْ مَرَارَتُهُ ، وَوَقَعَ مَيِّتًا ^(٢) .

[باح للنبي صلى الله عليه وسلم ومات]

وَأَخْرَجَ الْحَاكِمُ فِي « الْمُسْتَدْرَكِ » [٥٣٦/٢] ، وَابْنُ أَبِي الدُّنْيَا [فِي « الْخَائِفِينَ »] ، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ : (أَنَّ فَتَى مِنْ الْأَنْصَارِ دَخَلَتْهُ خَشِيَّةٌ مِنَ النَّارِ ، فَكَانَ يَبْكِي مِنْ ذِكْرِهَا ، فَذَكَرَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، فَجَاءَهُ إِلَى بَيْتِهِ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ . . . اعْتَنَقَهُ ، وَخَرَّ مَيِّتًا) .

[وأكثرهم راسخون كالجبال]

ثُمَّ لَا يُؤْتَرُ السَّمَاعُ ذَلِكَ التَّأْيِيرَ ، فَيَمْنُ بَلَّغَ وَقَارَ الْجِبَالِ مِنَ الصَّحَابَةِ ، وَإِنْ غَلَبَهُمُ الْخُشُوعُ ، وَاسْتَوْلَى عَلَيْهِمُ الْخُضُوعُ ، وَفَاضَتْ مِنْ مَحَاغِرِهِمُ الدَّمُوعُ ، وَإِنَّمَا يَبْلُغُ ذَلِكَ الْحَدَّ فَيَمْنُ خَفَّ نَسِيمُهُ ، وَلَمْ يَصِلْ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ سَيِّدُ الْبَشَرِ ، وَكَمَّلُ أَصْحَابِهِ ، مِنْ نَهَائِيَةِ الثَّبَاتِ وَالْوَقَارِ .

[رفقاً بالقوارير]

وَمَنْهُ تَعْرِفُ سِرَّ قَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَنْجَشَةَ : « رُؤَيْدُكَ يَا أَنْجَشَةُ ، رِفْقًا بِالْقَوَارِيرِ » ^(٣) ، فَإِنَّمَا أَمْرُهُ بِالرَّفْقِ بِالنِّسَاءِ لِضَعْفِهِنَّ ، مَعَ رِقَّةِ عَوَاطِفِهِنَّ ، وَصَفَاءِ قُلُوبِهِنَّ .

(١) أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي « الْمُسْتَدْرَكِ » (٣٨٢/٢) .

(٢) ذَكَرَهَا الذَّهَبِيُّ فِي « السِّيَرِ » (٩٧/٩) مَطْوَلَةً ، وَكَذَلِكَ أَبُو نُعَيْمٍ فِي « الْحَلِيَّةِ » (٣٢٩-٣٢٨/١) .

(٣) ذَكَرَهُ الْحَافِظُ فِي « فَتْحِ الْبَارِي » (٥٩٤/١٠) .

[الرجل أقوى]

أما الرجال : فقد وكلهم إلى ما أعطاهم الله من القوة والجلادة ، وكم انشقت بالوجد جيوب ، وذابت قلوب ، وسالت نفوس .

[همام والإمام عليه السلام]

وقد صبق همام من خطبة أمير المؤمنين في وصف المتقين ، حتى فاضت روحه ، فقال له قائل : ما بالك يا أمير المؤمنين ؟ فقال - كرم الله وجهه - : (إن لكل أجل وقتاً لا يعدوه ، وسبباً لا يتجاوزهُ ، فمهلاً لا تعد لمثلها ، فإنما نَفَثَ الشيطانُ على لسانك)^(١) .

[السبب في الموت عشقاً]

وإنما زجره عن ذلك ؛ لأنه لا يلزم من موت العاصي بوعظ العالم أن يموت ذلك العالم لوعظ نفسه ؛ لأن انفعال الأول بضعف نفسه ، وضيق حوصلته . . أشد بكثير من انفعال العارف الذي لا تحركه العواصف ، ولا ترزعغه القواصف ، ﴿ وَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَمَادَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ [النمل : ٨٨] .

[الأكوع : والبادي أظلم]

ويذكر : أن واعظاً يقال له : الأكوع ، كان يلحقه في الوعظ حال ، وتحمل بين يديه الجنائز ، وكان لامرأة شابة ولد أبيض السريرة ، منور القلب ، فكانت تحميه عن حضور مجلسه ، حتى انفلت عليها ذات مرة ، فشده ، فمات ، فما كان منها إلا أن أمهلته ، ثم استقبلته في يوم حفلة ، وقالت :

أَنْتَهْدِي الْأَنْهَامَ وَلَا نَهْتِدِي أَلَا إِنَّ ذَلِيلَكَ لَا يَنْفَعُ
فَيَا حَجَرَ الشَّخِذِ حَتَّى مَتَى تَسُنُّ الْحَدِيدَ وَلَا تَقْطَعُ
أَمَا تَسْتَحِي مِنْ خُشُوعِ الْقُلُوبِ بِ وَقَسْوَةِ قَلْبِكَ يَا أَكْوَعُ

فما كان من الشيخ إلا أن لبى مطيعاً ، وخر عن كرسيه صريعاً ، فقالت : هذبه بتلك ، والبادي أظلم ، أو ما يشبه ذلك ؛ فالرواية بالمعنى ، والعهد بالقصة - من شرح القصيدة للعلامة ابن الأمير - بعيد .

[موت ابن وهب]

وأخرج الحاكم : أن ابن وهب مات من سماع حديث في الأهوال^(٢) .

[موت النوري]

ولما سمع النوري حادياً يقول [في « الرسالة القشيرية » (٣٣٨)] :

مَا زِلْتُ أَنْزِلُ مِنْ وَدَادِكَ مَنْزِلاً تَتَحَيَّرُ الْأَلْبَابُ دُونَ نَزُولِهِ

(١) ذكره في « نهج البلاغة » (٢٢٧) . ونذكر مقطعاً من الخطبة التي نوه بها الشيخ المؤلف فنقول : قال الإمام رضي الله عنه - وهو يصف عباد الله المتقين - : يعفو عمن ظلمه ، ويعطي من حرمه ، ويصل من قطعته ، بعيداً فحشهُ ، ليئاً قوله ، غائباً منكروه ، حاضرأ معروفه ، مقبلاً خيرهُ ، مُدبرأ شرهُ ، في الزلازل وقور ، وفي المكاره صبور ، وفي الرخاء شكور ، لا يحيف على من يبغيض ، ولا يأنم فيمن يحب ، يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه ، لا يضع ما استحفظ ، ولا ينسى ما ذكر ، ولا ينايز بالألقاب ، ولا يضار بالجار ، ولا يشمت بالمصاب ، ولا يدخل في الباطل ، ولا يخرج من الحق . إن صمت لم يغمه صمته ، وإن ضحك لم يعل صوتهُ ، وإن بُغِيَ عليه صبر حتى يكون الله هو الذي ينتقم له ، نفسه منه في عناء ، والناس منه في راحة ، أتعب نفسه لآخرته ، وأراح الناس من نفسه ، بُعدهُ عن تباعد عنه زهد ونزاهة ، ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة ، ليس تباعدُهُ بكبر وعظمة ، ولا دنوه بمكر وخديعة . فصبق همام عندها صعقة كانت فيها نفسه .

(٢) أخرجه ابن رجب الحنبلي في « التخويف من النار » (٣٢/١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣٢٤/٨) .

.. اندهش و غاب ، وسكر وطاب ، ووقع في أجمة قصب جذاً^(١) ، وبقيت أصوله مثل المدي ، أخذ يجيء فيها ويروح ، ويكرز البيت ، والدّم يسيل منه ، حتى مات رحمه الله عليه .

[عبد الله بن طاهر والجارية الشاعرة]

ويحكي : أن عبد الله بن طاهر استعرض جارية أعجبته ، فاستنطقها ، فإذا هي شاعرة ، فقال لها : أجزبي^(٢) :

[من مخلص البسيط]

بَعِيدَ وَصَلٍ طَوِيلَ هَجْرٍ جَعَلْتُهُ فِي الْهَوَى مَلَاذًا

فَقَالَتْ مُسْرَعَةً :

فَعَاتَبُوهُ فَزَادَ شَوْقًا فَمَاتَ عِشْقًا فَكَانَ مَاذَا

فاشترها ، فماتت من الغد .

[الجاحظ وغريبا العشق]

والحوادث في مثل هذا وراء العد ، ومن أطفها : ما ذكره أبو عثمان الجاحظ ، قال : أرادني المتوكل العباسي لتأديب بعض ولده ، فلما رأي . . استبشع منظري ، فصرفني بعشرة آلاف درهم ، فركبت مع محمد بن إبراهيم في حرّاقته^(٣) ، فأمر بالغناء ، فغنت عوادة ، وقالت :

[من الخفيف]

كُلَّ يَوْمٍ قَطِيعَةٌ وَعِتَابُ يَنْقُضِي دَهْرُنَا وَنَحْنُ غَضَابُ
لَيْتَ شِعْرِي أَنَا خُصِصْتُ بِهِذَا دُونَ ذَا الْخَلْقِ أَمْ كَذَا الْأَخْبَابُ

[من مجزوء الكامل]

ثُمَّ غَنَّتِ الطَّنْبُورِيَّةُ بِإِشَارَتِهِ ، وَقَالَتْ :

وَارْحَمْتَنَا لِلْعَاشِقِينَ مَا إِن أَرَى لَهُمْ مُعِينًا
كَمْ يُهَجَّرُونَ وَيُضْرَمُونَ نَ وَيُقَطَّعُونَ فَيَصْبِرُونَ

قالت العوادة : فيصنعون ماذا ، فهتكت الطنبورية الستر ، وبرزت كأنها فلقة قمر ، وقالت : يصنعون هكذا ، وألقت بنفسها في الماء ، وعلى رأس محمد غلام لا ينقص عنها جمالاً ، فنظر إليها تتدافعها الأمواج ، وقال :

أَنْتِ الَّتِي أَغْرَقْتِنِي بَعْدَ الْقَضَا لَوْ تَعَلَّمِينَا

[لا خير في عشق بلا موت]

وألقى نفسه على إثرها ، فرأياهما على بُعد متعاقبين ، ثم غاصا ، وكان آخر العهد بهما ، فانكسف محمد ، وهاله الأمر ، وعظمت عليه الرزية ، وقال : لتحدثني بما يسليني ، أو لألحقنك بهما ، فذكرت يزيد بن عبد الملك ، وقد وعد للمظالم ، ومرت عليه بين القصص رقة فيها : إن رأى أمير المؤمنين أن يخرج إلي جاريته (نعمي) حتى تغنيني ثلاثة أصوات . . فعَل ، فاغتاظ ، وأمر بقتله ، ثم انثنى ، وأمر بإدخاله ، فقال له : ما حملك ؟ قال : الثقة

(١) جذاً : قطع .

(٢) الإجازة في الشعر : أن يأتي شاعر بشطر بيت أو بيت تام فينظم شاعر آخر في وزنه ومعناه ما يكون به تاماً .

(٣) الحرّاقة : ضرب من السفن ، فيها مرامي نيران .

بِحِلْمِكَ ، وَالانْتِكَالُ عَلَى عَفْوِكَ ، فَأَجْلَسَهُ ، حَتَّى خَرَجَ النَّاسُ ، فَأَمَرَ بِالْجَارِيَةِ ، فَأَخْرَجَتْ ، وَمَعَهَا عُودُهَا ، فَقَالَ
لَهَا الْفَتَى : غَنِّي بِهَذَا [مِنْ شِعْرِ امْرِئِ الْقَيْسِ فِي « دِيوانِهِ » ١٤٧] :

أَفَاطِمَ مَهْلًا بَعْضَ هَذَا التَّدْلِيلِ وَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَرْمَعْتِ صَرْمِي فَأَجْمِلِي
فغنته ، ثُمَّ قَالَ لَهُ يَزِيدُ : اقترح ، فقال : غنني بهذا :

تَأَلَّقَ الْبَرْقُ نَجْدِيًّا فَقُلْتُ لَهُ يَا أَيُّهَا الْبَرْقُ إِنِّي عَنْكَ مَشْغُولٌ
فغنته ، فقال له يَزِيدُ : قُلْ ، قَالَ : تَأْمُرُ لِي بِرِطْلِ مِنَ الشَّرَابِ ، فَمَا اسْتَمْتَمَ شَرْبُهُ حَتَّى قَامَ إِلَى أَعْلَى قَبَّةِ لِيَزِيدَ ، وَرَمَى
بِنَفْسِهِ ، فَانْتَشَرَ دِمَاعُهُ ، فَقَالَ يَزِيدُ : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، أَوْظَنَ الْأَحْمَقُ أَنِّي أُخْرِجُ إِلَيْهِ جَارِيَتِي ، ثُمَّ أَرَدُهَا ،
خُذُوا يَا غُلَمَانُ بِيَدِهَا ، وَاحْمِلُوهَا إِلَى أَهْلِهَا ، مَعَ مَا يُعَزِّبُهُمْ عَنْهُ مِنَ الْمَالِ ، فَلَمَّا تَوَسَّطَتِ الدَّارَ . نَظَرْتُ إِلَى بَيْتِ
هَنَّاكَ ، فَجَذَبْتُ يَدَهَا مِنْهُمْ ، وَقَالَتْ :

مَنْ مَاتَ عِشْقًا فَلَيْمُتَ هَكَذَا لَا خَيْرَ فِي عِشْقِي بِلَا مَوْتٍ
قال أبو عثمان [الجاحظ] : فسُرِّي عن محمد ، وأجزَلَ صِلتي ، ولَهَذِهِ الْقِصَّةِ تَمَامٌ يَأْتِي أَوَّلَ الْمَجْلِسِ السَّابِعِ .
أقول : وفي هذا تصديقٌ للخنساء في قولها

وَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي
وتكذيبُ لابن الرومي في قوله :
لَيْسَ تَأْسُو جُرُوحُ غَيْرِي جُرُوحِي مَا بِهِمْ مَا بِهِمْ وَمَا بِي مَا بِي
وفي « تَزِينِ الْأَسْوَاقِ »^(١) العجبُ العُجَابُ مِنْ ذَلِكَ ، وَفِي تَرَاجُمِ الصُّوفِيَّةِ الْكَثِيرِ الطَّيِّبِ مِنْهُ .

[لا تستعجل ما هو لك]

وبقولِ العَوَادَةِ السَّالِفِ ، وَهُوَ : (كُلُّ يَوْمٍ قَطِيعَةٌ وَعِتَابٌ) إِلَى آخِرِهِ ، تَذَكَّرْتُ قَوْلَ الْأَوَّلِ :
وَلَقَدْ عَلِمْتَ فَلَا تَكُنْ مُتَجَنِّيًا أَنْ الصُّدُودَ هُوَ الْفِرَاقُ الْأَوَّلُ
حَسْبُ الْأَحْبَةِ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَهُمْ رَبُّ الْمُنُونِ فَمَا لَنَا نَسْتَعْجِلُ
وقولُ سَعِيدِ بْنِ حَمِيدٍ [فِي « دِيوانِهِ »] :

أَقْلِلْ عِتَابَكَ فَالْبَقَاءُ قَلِيلٌ وَالذَّهْرُ يَعْدِلُ تَارَةً وَيَمِيلُ
وَلَعَلَّ أَيَّامَ الْحَيَاةِ قَصِيرَةٌ فَعَلَامَ يَكْثُرُ عَتَبْنَا وَيَطُولُ !؟
وقولُ مَعْنِ بْنِ أَوْسٍ [فِي « دِيوانِهِ »] :

لَعَمْرُكَ مَا أَذْرِي وَإِنِّي لَأَوْجَلُ عَلَى أَيْنَا تَعْدُو الْمَنِيَّةُ أَوَّلُ
وَإِنِّي أَخُوكَ الدَّائِمُ الْعَهْدِ لَمْ أَحُلْ أَبَارَاكَ حَصْمٌ أَوْ نَبَا بِكَ مَنَزَلُ ؟

(١) لداود الأنطاكي ، متداول .

[مِن الطويل]

وقول الأعرابي :

فَأَكْرِمَ أَخَاكَ الدَّهْرَ مَا عَشْتُمَا مَعَا كَفَى بِالْمَمَاتِ فُرْقَةً وَتَنَائِيَا

[مِن الطويل]

وقول الطغرائي :

رُوَيْدُكُمْ لَا تَسْبِقُوا بِقَطِيعَتِي صُرُوفَ اللَّيَالِي إِنَّ فِي الدَّهْرِ كَافِيَا

[كتاب سليمان بن عبد الملك إلى أخيه]

وقول سليمان بن عبد الملك في كتاب شفاعته إلى أخيه الوليد ، بشأن يزيد بن المهلب : فوالله يا أمير المؤمنين ، ما تدري ما بقائي وبقاؤك ، ولا متى يُفَرَّقُ الموتُ بيني وبينك ، فإن استطاع أمير المؤمنين - أدام الله سروره - أن لا يأتي علينا أجل الوفاة إلا وهو لي واهل ، ولحقي مؤد ، وعن مساءتي نازع . . فليفعل ، إلى آخر الكتاب .

[مِن الطويل]

وقول الناظم [في «المكبري» ١٤٨/٢] :

ذَرِ النَّفْسَ تَأْخُذُ وَسَعَهَا قَبْلَ بَيْنِهَا فَمَفْتَرِقٌ جَارَانِ دَارَهُمَا الْعُمْرُ^(١)

[مِن الخفيف]

وقوله [في «المكبري» ١٤٩/٣] :

وَصَلِينَا نَصْلِكَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْمَقَامَ فِيهَا قَلِيلٌ

[إذ لا تشرب نظماً]

[مِن الطويل]

وقال بشار شيخ المتأخرين [في «ديوانه» ٣٠٩/١] :

إِذَا كُنْتَ فِي كُلِّ الْأُمُورِ مُعَاتِبَا صَدِيقَكَ لَمْ تَلَقَ الَّذِي لَا تُعَاتِبُهُ
فِعِشْ وَاحِدًا أَوْ صِلْ أَخَاكَ فَإِنَّهُ مُقَارِفُ ذَنْبٍ مَرَّةً وَمُجَانِبُهُ
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَارًا عَلَى الْقَذَى ظَمِئْتَ وَأَيُّ النَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُهُ؟

[مِن الطويل]

وقال الرضي [في «ديوانه» ٧٦٩-٧٧٠] :

وَكَمْ صَاحِبٍ كَالرُّمْحِ زَاغَتْ كُعُوبُهُ أَبِي بَعْدَ طُولِ الْعَمْرِ أَنْ يَتَقَوَّمَا^(٢)
كَعْضُو رَمَتْ فِيهِ اللَّيَالِي بِفَادِحِ وَمَنْ حَمَلَ الْعُضْوَ الْأَلِيمَ . . تَأَلَّمَا
صَبَرْتُ عَلَى إِيْلَامِهِ خَوْفَ نَقْصِهِ وَمَنْ لَامَ مَنْ لَا يَزْعَوِي كَانَ أَلْوَمَا
أَرَاكَ عَلَى قَلْبِي وَإِنْ كُنْتَ عَاصِيَا أَعَزَّ مِنَ الْقَلْبِ الْمُطِيعِ وَأَكْرَمَا
حَمَلْتُكَ حَمْلَ الْعَيْنِ لَجَّ بِهَا الْقَذَى فَلَا تَنْجَلِي يَوْمًا وَلَا تَبْلُغِ الْعَمَى
إِذَا الْعُضْوُ لَمْ يُؤْلَمَكَ إِلَّا قَطَعْتَهُ

والكلام في الاستصلاح يطلبُ تفصيلاً مُقنعاً نوفيهِ حَقُّهُ إِنَّ شَاءَ اللهُ تَعَالَى فِي أَصْلِحِ الْمَوَاطِنِ لَهُ .

(١) بينها : بُعِثَهَا . جَارَانِ : الرُّوحُ وَالْجَسَدُ .

(٢) الْعَمْرُ : الْعَصْرُ بِالْيَدِ ؛ أَي : التَّلِينُ .

[صعقة أمير المؤمنين عمر لسماع القرآن]

ولئن قَلَّ بالوجدِ الموتُ في الصدرِ الأوَّلِ . . فكثيرٌ مَنْ يَصعقُ لسماعِ القرآنِ ؛ منهمُ عمرُ بنُ الخطَّابِ ، فلقد يمرضُ مِنَ الآيَةِ ، حتَّى يُعادَ .

[المحسن بن علوي ورقة قلبه]

ولقد كانَ جدِّي المُحسنُ بنُ علويٍّ مِنْ أرقِّ الناسِ عاطفةً ، وأسلمِهِم ذوقاً ، وإنَّ كانَ ليقومُ بالآيَةِ مِنَ القرآنِ يُكرِّرها ، حتَّى يصبَحَ بينَ القلبِ الواجبِ ، والدمعِ الذارفِ ، وسمعهُ الفاضلُ الأريبُ السيِّدُ شيخُ بنِ محمَّدِ الحبشيِّ - كما أخبرني - يترنَّحُ ليلةً بقولِ الحدَّادِ [في «ديوانه» (٤٧٤)]:

وَألى الزَّمانَ وَوَلَّتِ الأيَّامُ فَعَلَى المَنَازِلِ وَالتَّنَزِيلِ سَلامٌ
ويردُّهُ إلى أنْ كادَ يُغشى عليه ، وبيننا هوَ سائرٌ في بعضِ الأرقَّةِ ، إذ سمعَ منشداً ينشدُ قصيدةَ القطبِ الحدَّادِ ،
المستهلَّةَ بقوله [في «ديوانه»]:

تَفِيضُ عُيُونِي بِالدُّمُوعِ السَّوَائِبِ وَمَا لِي لَا أَبْكِي عَلَى خَيْرِ ذَاهِبِ
فَألقى عصاهُ تحتَ جبهتهِ ، ولم يزلْ يُذري الدموعَ ، حتَّى سقطَ مغشياً عليه .

[مواراة عبد الله بن عمر]

وحَدَّثني الفاضلُ الوجيهُ السيِّدُ حسنُ بنُ محمَّدِ بنِ إبراهيمَ بلفقيهِ ، عمَّنْ حضرَ مواراةَ سيِّدنا عبدِ الله بنِ عمرَ بنِ يحيى ، وكانَ يوماً مشهوداً ، لم يتأخَّرْ عنه أحدٌ مِنْ رجالِ (حضر موت) ، وهي إذ ذاكَ بهم ملائمةٌ ، قالَ : إنَّهُمْ لَمَّا انصرفوا مِنْ دَفنِهِ . . اجتمعوا في بيتهِ ، فأنشدهمُ بعضُ الحُداةِ بقصيدةِ الحدَّادِ المشارِ إليها ، فلا تَسَلْ عمَّا حَصَلَ مِنَ النَشيجِ ، وارتفعَ مِنَ الضجيجِ ، وسالَ مِنَ العَبْرَاتِ ، وتصاعدَ مِنَ الزفراتِ ، حتَّى لَقْدْ كادتْ تُحملُ الجنائزُ .

[عبيد الله بن محسن]

وكذلكَ كانَ والدي المغفورُ لهُ عبيدُ الله بنُ محسنٍ صحيحَ الشوقِ ، سليمَ الذوقِ ، غزيرَ الدمعةِ ، طويلَ الفكرةِ ، كلُّ آيةٍ تهزُّهُ ، وكلُّ صادحةٍ تُطربُهُ ، وكثيراً ما يمرُّ في مجالسِهِ مرورَ السهمِ ، ولا سيَّما في إشاراتِ القومِ ، فأتَمثلُ لهُ بالبيتِ يصيبُ محزَّةً ، فيدوبُ وَجداً ، ويأخذُهُ حالٌ شديدٌ جداً .

[الحداد وقوله : ولى الزمان]

وعلى ذكرِ قولِ القطبِ الحدَّادِ : (وَلى الزَّمانُ) إلى آخرِهِ . . أقولُ : إنَّهُ بيتٌ يكادُ يضيءُ مِنْ غيرِ زيتٍ ، ذكرتُ بهُ مطلعَ قصيدتينِ لفحلينِ مِنْ أمراءِ القريضةِ (١) :

أحدُهُما : أبو نُوَاسٍ في قوله [في «ديوانه» ٥٢١]:
يَا دَارُ مَا فَعَلْتَ بِكَ الأيَّامُ ! لَمْ تُبِقِ فِيكَ بِشَاشَةً تُسْتَامُ

والثاني : هوَ الباروديُّ في قوله [في «ديوانه» ٥٣٧]:

ذَهَبَ الصِّبَا وَتَوَلَّتِ الأيَّامُ فَعَلَى الصِّبَا وَعَلَى الزَّمانِ سَلامٌ

(١) القريضةُ : الشُّعْرُ .

ولنَ تنظُرَ فيهِمَا ملياً ، حتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الفَرْقُ جلياً ؛ إذْ بَيْتُ الحَدَّادِ أَجْمَلُ شارةً ، وأَعْدَبُ إشارةً ، وَأَصْفَى زُجاجةً ، وَأَنْصَعُ دِيباجةً ، وَأَرْقُ طبعاً ، وَأَعْدَبُ وضعاً ، أَوْلا ترى عَرَوْضَهُ استوفى مدحَ الماضي ، وذمَّ الحاضرِ ، بما لا تضبطُهُ العبارةُ ، ولا يدخُلُ تحتَ الحدِّ؟! وإِنَّمَا هُوَ مِنْ جِنْسِ قَوْلِهِ جَلَّ شَأْنُهُ : ﴿ فَعَشِيهِمْ مِنْ آلِيهِ مَا عَشِيَهُمْ ﴾ [طه : ٧٨] .

وقول الشاعر :

يَحْمِلُنْ كُلَّ سُؤْدَدٍ وَفَخْرٍ يَحْمِلُنْ مَا نَذَرِي وَمَا لَا نَذَرِي

وذلك ما عجزَ عن أَقلِّهِ حَكِيمُ الشعراءِ ، صاحبُ (المعرَّة) ، بشهادةِ قَوْلِهِ :

كَمْ أَرَدْنَا ذَاكَ الزَّمَانَ بِمَدْحٍ فَشَغَلْنَا بِذَمِّ هَذَا الزَّمَانَ

ولكنَّ الحدَّادَ لم يشغلهُ هذا عن الآخرِ ، بل أَصابَ الغرضينِ بسهمٍ واحدٍ ، وما زالتِ الأُدباءُ رافعةَ العقيرةِ بالثناءِ على قولِ أَبِي تَمَّامٍ [في « ديوانه » ١٦٦/٢] :

لَا أَنْتِ أَنْتِ وَلَا الدِّيَارُ دِيَارُ خَفَّ الهَوَى وَتَقَضَّتِ الأَوْطَارُ

وإنَّمَا هُوَ بعضُ معنى قولِ الحدَّادِ : (وَلَى الزَّمَانُ وَوَلَّتِ الأَيَّامُ) ؛ لِأَنَّهُ إِذَا وَلَّى الزَّمَانُ الطَّيِّبُ بعمومِهِ ، وَوَلَّتِ الأَيَّامُ الأَحْبَابُ بِخصوصِهَا - المرادُ كُلُّ هذا مِنْ شَطْرِ البَيْتِ .. فقد انقضى الهوى ، وخفَّتِ الأوطارُ ، ولم يبقَ ما يقتضي لزومَ الدِّيارِ ، ومواقفةَ الآثارِ ؛ إذْ لا هِيَ دِيَارُ الأَحْبَابِ ، ولا هُمْ سَكَانُهَا ، فالميزانُ راجحٌ ، والفضلُ في بيتِ الحدَّادِ واضحٌ ؛ إذْ ليسَ في بَيْتِ الحَكَمِيِّ^(١) سوى دارٍ واحدٍ ، يسألُهُ سؤالاً تقريرياً ، ينحصرُ معناهُ في أَنَّ الأَيَّامَ مَحَتْ بِشاشتهِ بأسرها ، إِنْ تَأَوَّلْنَا بِأَنَّهُ مِنْ نَفْيِ الشَّيْءِ بِإِيجَابِهِ ، أَوْ إِلاَّ النَزْرَ الذي لا يُستامُ منها ، إِنْ لم نجعلهُ منه ، وهو معنى ضئيلٌ ، إلى ما لا يخفى مِنْ استثقالِ لفظَةِ : (تُستامُ) ، وعدمِ الحاجةِ إليها .

وأما بيتُ الباروديِّ : فصورةٌ مصغرةٌ مِنْ بيتِ الحدَّادِ ، وكأنَّما هُوَ مأخوذٌ منه مع التَّقْصِيرِ ، فهو دونهُ بتفاوتٍ كبيرٍ في المعنى ؛ إذْ الباروديُّ لا يَحْنُ إِلاَّ إلى نزواتِ الصِّبا وخطواتِهِ ، بقرينةِ ذِكْرِهِ لَهُ في القسمينِ ، وَأَتْفَهُ بِذَلِكَ مِنْ مَبَكِّي عَلَيْهِ في جانبِ بيتِ الحدَّادِ ، ثُمَّ هل تجدُ لأحدِ البيتينِ شيئاً ممَّا لبيتِ الحدَّادِ - فوق اتِّساعِ المعنى ، وَبُعْدِ المرمى - مِنْ هِيبةِ النَّسْجِ ، وَرُوعَةِ اللَّفْظِ ، وَمائِيَّةِ الأَسْلُوبِ ، فَإِنَّهُ يَكادُ يَقَطُرُ ماءً ، وَيَنْصَعُ رُوءاً^(٢) ، وَيَسْتَحْلِبُ الدَّمْعَ ، وَيَدْخُلُ على القلبِ قَبْلَ السَّمْعِ ، إلى بُعْدِ عَنِ التَّعْمَلِ ، وَبراءةٍ عَنِ التَّكْلُفِ ، وَتناسُبِ ظاهرِ بَيْنِ الأَيَّامِ وَالزَّمَانِ ، وَالمنازِلِ وَالنَّزِيلِ ، فَهَذَا هُوَ السَّحْرُ الحَلالُ ، وَالعَذْبُ الزُّلالُ ، وَالْمَطْمَعُ المُرْسُ ، وَالسَّهْلُ المَمْتَنِعُ ، ثُمَّ إِنَّ الباروديَّ لَمْ يأخُذْ بيتهُ إِلاَّ مِنْ قولِ ابنِ المعتزِّ [في « ديوانه »] :

أَخَذَتْ مِنْ شَبَابِي الأَيَّامُ وَتَوَلَّى الصِّبَا عَلَيْهِ السَّلَامُ

ومع ذلك ، فلمْ يُحسِنِ الاتِّباعَ ، وَبَيْتُ الحدَّادِ هُوَ الرَّاجِحُ على الجميعِ ، ولا نزاعَ .

(١) أي : أبي نواس الشاعر .

(٢) الرُّوءُ : المنظرُ الحسنُ .

[حديث الشوق في الآخرين]

وإذ انتهى بنا حديث الشوق إلى هنا . . فلا ندحّة لنا عن ذكر أمثلة سمعتُ بها في الأخير ؛ لنلحِقَ التّالِدَ بالطّارِفِ :

[يا قرة العين]

منها : أن بعض الأئمة زوج ابنة من ابنة أخيه ، فانتسج بينهما من صادق الحب ، ما لا يتسع للمزيد ، غير أن الإمام سير ابنه بإثر ذلك إلى موضع عمله ، وبقيت المرأة بقاعدة الملك ، فكان يطالعها بأشواقه ، وتجيئه بمثل ذلك ، وكان من عادة الإمام أن يقبل يوم الجمعة بمنزل ولده ، فعثر منه مرة على قصيدة ، يشتكي لزوج البعد ، ويتوجع من الفراق ، ويصف ما عنده من الاحتراق ، يقول فيها :

يَا قُرَّةَ الْعَيْنِ يَا نُورَ الْبَصِيرَةِ يَا شَقِيقَةَ الرُّوحِ يَا مَنْ لَا أَسْمِيَهَا

فرق له أبوه ، ورسم بوصوله ، ولكن بعد ما سبق السيف العذل ، ولم يبق الحب على الرّمق ، فلما كان ليلة وصوله . . اشتدّ الشوق ، فطارت الروح إلى فوق - والله دُرّ الذي يقول :

[أبرح الشوق]

وَأَبْرَحُ مَا يَكُونُ الشُّوقُ يَوْمًا إِذَا دَنَتِ الدِّيَارُ مِنَ الدِّيَارِ

وقال التهامي [في ديوانه ٢٥٨] :

بَكَيْتُ فَحَنَّتْ نَاقَتِي فَأَجَابَهَا صَهِيلُ جَوَادِي حِينَ لَاحَتْ دِيَارُهَا

(وكان صلى الله عليه وسلم إذا أبصر درجات المدينة . . حرّك دابته من حُبها) (١) ، فهو أصل المعنى في ذلك - ولم يدخل الأمير بلده إلا وروحه حامدة ، وجثته هامدة ، ولما اتصل بالمرأة نعيه . . شخص بصورها وبرق ، واصفرّ جبينها وعرق ، وكانت القاضية .

[الشيخ حسين زايد وصناعة القهوة]

ومنها : أن الشيخ حسين زايد الشاعر ، اليافعي ، المشهور ، القريب العهد بـ (حضر موت) . . كانت له امرأة ملكت عقله ، وغلبت هواه ، وملاّت رضاه ، فبينما هو معها يوماً على قهوة . . قال : أتمنى عليك أمنية ، أحب أن توافقيني عليها ، قالت : نعم ، قال : كائنة ما كانت ؟ قالت : نعم ، وأخذ عهدها بذلك ، فقال : اصنعي القهوة عريانة ، فاستقالت ، فلم يقبل ، ففعلت ، ولما أدت الوظيفة . . قالت : وأنا أتمنى عليك أمراً ، أفنّطينيهِ ؟ قال : نعم . . قالت : كائناً ما كان ؟ قال : نعم ، وأخذت عليه ميثاقاً غليظاً ، قالت : تطلّقي بالثلاث في الحال ، ولما فشل في المراجعة ، ولجّت في التّصميم . . لم يسعه إلا الوفاء بما اقتطعه على نفسه ، وإن كان فيه حتفه ، ثم خرج هائماً على وجهه ، وأشار على أخيه أن يتزوجها إذا حلّت ، فامتثل ، وبعقب ذلك جاء لتهنئة أخيه ، فدخلت هي ، وألقّت جانب السّتر ، فأنشدها أبياتاً من شعره الحميني ، يزعم فيه : أنه رآها وإيائه مجتمعين على شرب قهوة في فراش واحد ، فأجابته من بحر وقافيته بما يقطع أمله ، ويخيّب رجاءه ، وكان ذلك في حين ذهاب أخيه لبعض شغله ،

(١) أورده الحافظ في «فتح الباري» (٣/٦٣٠) .

وَمُذْزَوْدَتُهُ الْيَأْسَ الْحَاضِرَ . . اسْتَوْلَاهُ الضَّعْفُ ، وَزَارَهُ السَّقَامُ ، وَلَزِمَتْهُ الْعِلَّةُ ، وَاشْتَمَلَ عَلَيْهِ الْفِرَاشُ ، وَلَمَّا اسْتَعَرَ بِهِ الْأَلَمُ ، وَاسْتَحَرَّ بِهِ الْوَجْدُ ، وَنَهَكَهُ الْمَرَضُ . . طَلَبَ مِنْ أَخِيهِ وَصُولَ الْمَرْأَةِ ؛ لِيَسْتَحِلَّهَا ، وَيَطْلُبَ الْعَفْوَ مِنْهَا ، وَرُبَّمَا خَطَرَ بِبَالِهِ مَا خَطَرَ بِبَالِ مَجْنُونٍ عَامِرٍ فِي قَوْلِهِ [مِنْ « دِيوانه » ٢٤٩] :

وَلَوْ شَهِدْتَنِي حِينَ تَأْتِي مَيِّسِي جَلًّا سَكَرَاتِ الْمَوْتِ عَنِّي ابْتِسَامُهَا

أَوْ قَوْلِ الْأَعْمَى [فِي « دِيوانه » ١٥٢] :

لَوْ أَسْنَدْتَ مَيِّئًا إِلَيَّ نَحْرَهَا عَاشَ وَلَمْ يُنْقَلْ إِلَيَّ قَابِرِ

فَأَشَارَ عَلَيْهَا أَخُوهُ بِالذَّهَابِ ، فَامْتَنَعَتْ ، وَقَالَتْ لَهُ : أَوْلَى لَكَ أَنْ لَا تَفْعَلَ ، فَأَلَحَّ عَلَيْهَا ، وَبِمَجْرَدِ دُخُولِهَا عَلَيَّ حُسَيْنٍ . . ازدهرت عيناه ، كأنهما سراجان ، واستأذنها أن يضع رأسه على فخذهما ، فأذنت ، ولحين ما وضعه فاضت نفسه ، ولم ينفعه ما سبق عن الأعشى والمجنون ، بل كان الأمر كما قال غيرهما :

وَلَمَّا رَأَيْتَنِي فِي السِّيَاقِ تَعَطَّفْتُ عَلَيَّ وَعِنْدِي مِنْ تَعَطُّفِهَا شُغْلُ
أَتَتْ وَحِيَاضُ الْمَوْتِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا وَمَنْتَ بِوَصْلِي حِينَ لَا يَنْفَعُ الْوَصْلُ

وَقَالَ جَرِيْرٌ [فِي « دِيوانه » ٦٦١/٢] :

إِذَا مَا رَجَا الظَّمَانُ وَرَدَّ شَرِيْعَةَ ضَرَبْنَ حِيَالَ الْمَوْتِ دُونَ الشَّرَائِعِ

ثُمَّ حَرَّكَوْهَا ، فَإِذَا هِيَ يَابِسَةٌ .

[ربما قتل الشيخ ابن زامل في هذا الطريق]

وَاخْتَلَفَتْ الرِّوَايَةُ عَنِ الشَّيْخِ عَلِيِّ بْنِ زَامِلٍ بِاجْرِيْرِ : فَقَدْ ذَكَرَ مَوْتَهُ وَمَوْتَ مَحْبُوبَتِهِ فِي تِلْكَ السَّبِيلِ . وَالْأُخْرَى : أَنَّ الْعَوَامِرَ قَتَلُوهُ ، وَلَمَّا لُفَّ فِي مِلْحَفَتِهِ . . أَصَابَتْهَا شَرَارَةٌ ، فَاشْتَعَلَتْ نَارًا ، وَاحْتَرَقَ ، وَمِنْ الْقِصَّةِ تَعْرِفُ مَا كَانَ عَلَيْهِ الْقَوْمُ مِنَ الشَّهَامَةِ ، وَكِرَمِ الطَّبَاعِ .

[عاشقة ابن عمها كيف تموت]

وَبِهَا ذَكَرْتُ مَا رَوَى عَنْ سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ : أَنَّ فَتَاةً مِنَ الْعَرَبِ عَلِقَتْ بِابْنِ عَمِّ لَهَا عَاقِلٍ ، أَدِيبٍ ، فَجَعَلَتْ تُكْثِرُ الْاِخْتِلَافَ عَلَيْهِ ، حَتَّى خَلَا لَهَا وَجْهُهُ ، فَتَعَرَّضَتْ لَهُ ، فَصَرَفَهَا ، فَتَغَيَّرَ حَالُهَا ، وَاعْتَلَّتْ ، وَلَمْ يَزَلْ بِهَا الْمَرَضُ حَتَّى سَقَطَتْ عَلَى الْفِرَاشِ ، فَأَخْبَرَتْهُ أُمُّهُ بِشَأْنِهَا ، فَقَالَ : عُودِيهَا ، وَقُولِي لَهَا : مَا شَأْنُكَ ؟ فَقَالَتْ : وَجَعٌ فِي فَوْادِي ، هُوَ أَصْلُ الْعَلَّةِ ، قَالَتْ : فَإِنَّ ابْنِي يَسْأَلُكَ عَنْهَا ، فَتَنْفَسْتُ ، وَقَالَتْ :

يَسْأَلُنِي عَنْ عَلَّتِي وَهُوَ عَلَّتِي عَجِيبٌ مِنَ الْأَنْبَاءِ جَاءَ بِهِ الدَّهْرُ

فَأَخْبَرْتُهُ بِحَالِهَا وَمَقَالِهَا ، فَقَالَ : أَتَحِبُّ أَنْ أَصِيرَ إِلَيْهَا ، أَوْ تَصِيرَ إِلَيَّ ، فَعَرَضْتُ عَلَيْهَا ذَلِكَ أُمُّهُ ، فَقَالَتْ :

وَيُبْعِدُنِي عَنْ قُرْبِهِ وَلِقَائِهِ فَلَمَّا أَذَابَ الْجِسْمَ مِنِّي تَعَطَّفَا
فَلَسْتُ بِأَتِ مَوْضِعًا فِيهِ قَاتِلِي بِحَسْبِي سِقَامًا أَنْ أَمُوتَ تَلَهُفَا

وَلَمْ تَزَلْ لِمَا بِهَا حَتَّى مَاتَتْ .

[يخرج روحه من نفسه ليعطيها لصديقه]

ومنها : ما بلغني أَنَّ اثْنَيْنِ مِنَ الْحُمُومِ^(١) ، كَانَ بَيْنَهُمَا وَدٌّ وَإِخَاءٌ ، فزَارَ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ مَرَّةً عَلَى بُعْدِ الدَّارِ ، وَشَخِطَ المزارِ ، وَعَلَيْهِ أَنَارُ الضَّنَى ، فَسَأَلَهُ عَمَّا بِهِ فَكْتَمَ ، حَتَّى أَلَحَّ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : إِنِّي اسْتَعْرَضْتُ النِّسَاءَ فِي قَدَمَتِي الْأُولَى عَلَيْكَ ، فَافْتَنَتْ بَواحدةٍ مِنْهُنَّ ، صَيَّرَنِي هَوَاهَا إِلَى مَا رَأَيْتَ ، قَالَ : هَلْ تَعْرِفُهَا لَوِ رَأَيْتَهَا ؟ قَالَ : نَعَمْ ، فَمَرَّ بِهِ عَلَى النِّسَاءِ ، فَأَشَارَ إِلَيْهَا ، فَقَالَ لَهُ : طَبِّ نَفْسًا عَنْهَا ، وَقَرَّ عَيْنًا بِزَوَاجِهَا ، وَلَمْ يَزَلْ يُعَلِّلُهُ ، وَيَسْتَمِهُلُهُ ، حَتَّى أَعْرَسَ لَهُ بِهَا ، وَزَفَّهَا إِلَيْهِ ، وَلَمَّا احْتَمَلَهَا إِلَى قَوْمِهِ . . أَخْبَرْتُهُ أَنَّهَا كَانَتْ زَوْجَةَ صَاحِبِهِ ، وَأَنَّهُ كَانَ مُحِبًّا لَهَا ، وَلَمْ يَطْلُقْهَا إِلَّا إِثَارًا لَهَوَاهُ ، فَسُقِطَ فِي يَدِهِ^(٢) ، وَأَعْظَمَ الْأَمْرَ ، وَشَاءَ أَنْ يَطْلُقَهَا ، لَوْلَا أَنَّهَا اشْتَمَلَتْ مِنْهُ عَلَى وَلَدٍ ، وَأَيَقَنَ بِالْهَلَاكِ إِنَّ هُوَ فَارِقَهَا ، ثُمَّ زَارَ صَاحِبَهُ بِإِثْرِ ذَلِكَ ، فَالْفَاءُ رَهِيْنَ الْفِرَاشِ ، فَسَأَلَهُ عَن عِلَّتِهِ ، وَهَلْ لَهَا مِنْ دَوَاءٍ ؟! فَقَالَ : لَقَدْ اسْتَوْصَفْتُ الْأَطْبَاءَ مِنْ أَهْلِ بَادِيَتِنَا ، وَكُلُّهُمْ أَشَارَ عَلَيَّ بِمَا لَا يُمْكِنُ وَجُودُهُ ، قَالَ : مَا هُوَ ؟ قَالَ : دَمٌ طِفْلٍ يَكُونُ وَحِيدَ أَبَوَيْهِ يَذْبَحَانِهِ بِأَيْدِيهِمَا ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى امْرَأَتِهِ . . قَالَ لَهَا : قَدْ عَلِمْتُ مَا أَثْقَلَنِي بِهِ صَاحِبِي مِنَ الْمِنَّةِ ، وَأَقْدَرَنِي اللَّهُ عَلَى مَكَافَأَتِهِ ، وَشَرَحَ لَهَا الْحَدِيثَ ، فَذَهَبَا بِالْوَلَدِ ، وَلَمَّا قَابَلَا الرَّجُلَ . . ذَبَحَاهُ ، وَأَفْرَغَا عَلَيْهِ دَمَهُ ، كَمَا وَصَفَ لَهُ الْأَطْبَاءُ فِي الْعِلَاجِ ، فَتَمَثَّلَ ، ثُمَّ بَرَأَ .

هَذَا مَا حَدَّثَنِي بِهِ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعَوَامِرِ وَالْحُمُومِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ الْحَالِ . وَلَا شَكَّ أَنَّهُ مِنَ النِّكَارَةِ وَالْأَشْنُوعَةِ وَالْفِظَاعَةِ بِالدرَجَةِ الْفَاحِشَةِ ، وَلَكِنْ لِلوَفَاءِ هِزَّةٌ مِنْ حَيْثُ كَانَ ، فَلَا حَرَجَ أَنْ أُعْجِبْنَا بِهِ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ ، كَمَا قَرَّرْنَاهُ عِنْدَ ذِكْرِ مَقْتَلِ أَبِي جَهْلٍ بْنِ هِشَامٍ ، مِنْ كِتَابِنَا : « بِلَابِلِ التَّغْرِيدِ » .

[هل أنت تذبح ابنك لتشفي خراج الملك !!؟]

وَشِبْهَةٌ بِهَذِهِ مِنْ نَاحِيَةٍ : مَا رَأَيْتُهُ فِي بَعْضِ الْكُتُبِ : أَنَّ مَلِكًا ظَهَرَ فِيهِ خُرَاجٌ أَعْمَى الْأَطْبَاءَ عِلَاجُهُ ، حَتَّى جَاءَهُ أَحَدُ النِّصَابِيِّينَ مِنْهُمْ ، فَقَالَ : لَا يَفِيدُ فِيهِ إِلَّا دَمٌ صَبِيٍّ بَلِغِ الْعَاشِرَةِ ، يَذْبَحُهُ أَبَوَاهُ بَيْنَ يَدَيْكَ ، بِحَيْثُ يَقَعُ دَمُهُ عَلَى الْخُرَاجِ ، وَاتَّفَقَ أَنَّ رَجُلًا كَلَّمَا بَلِغَ أَحَدُ أَبْنَائِهِ الْعَاشِرَةَ . . هَلَكَ ، وَكَانَ لَهُ ابْنٌ عَلَى رَأْسِهَا ، فَلَمَّا سَمِعَ بِمَا جَعَلَهُ الْمَلِكُ مِنَ الْمَالِ الْجَزِيلِ لِمَنْ يَبْذُلُ وَلَدَهُ فِي هَذَا السَّبِيلِ . . قَالَ لَامْرَأَتِهِ : قَدْ عَلِمْتُ مِنَ الْعَادَةِ الَّتِي لَا تَتَخَلَّفُ أَنَّ هَذَا الْوَلَدَ لَا بُدَّ أَنْ يَمُوتَ عَمَّا قَلِيلٍ ، فَلَأَنْ نَرَبِّحَ بِهِ هَذِهِ الثَّرْوَةَ الضَّخْمَةَ . . خَيْرٌ لَنَا مِنْ أَنْ يَذْهَبَ ضِيَاعًا ، فَوَافَقْتُهُ ، وَتَقَدَّمَ بِهِ إِلَى الْمَلِكِ ، وَلَمَّا اعْتَزَمَا ذَبَحَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ . . ضَحِكَ الصَّبِيُّ ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ : مِمَّ تَضْحَكُ عَلَى مَا أَنْتَ فِيهِ ؟ فَقَالَ : إِنَّ أَحَنَّ النَّاسِ عَلَى الصَّبِيِّ أَبُوهُ وَأُمُّهُ وَسُلْطَانُهُ ، وَإِذَا كَانَ الثَّلَاثَةَ يَرْتَكِبُونَ مِنِّي هَذَا الْأَمْرَ الَّذِي تَقْشَعُرُّ مِنْهُ الْأَبْدَانُ . . فَكَيْفَ يَرَحْمُهُمْ جِبَارُ السَّمَاءِ ؟! فَارْتَاعَ الْمَلِكُ لِقَوْلِهِ ، وَانْفَجَرَ جَرْحُهُ ، وَأَمَرَ بِالْكَفِّ عَنْهُ ، وَدَفَعَ لَهُمُ الْمَالَ ، وَعَاشَ الْوَلَدُ ، وَعُوفِيَ الْمَلِكُ ، وَالْعَهْدَةُ عَلَى الرَّوَايِ .

[أرى جسدًا عليلاً وعينين صحيحتين]

وَيَتَّصِلُ بِحَدِيثِ الْحُمُومِيِّ : مَا ذَكَرَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ عُمَيْرٍ ، قَالَ : كَانَ أَخْوَانٍ فِي ثَقِيفٍ مِنْ بَنِي كُنَّةَ ، بَيْنَهُمَا مِنَ الْوُدِّ مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ ، كُلُّ مِنْهُمَا يَرَى الْآخَرَ عَدْلًا نَفْسِهِ ، فَاتَّفَقَ أَنْ سَافَرَ الْأَكْبَرُ ، وَاعْتَمَدَ عَلَى الْأَصْغَرِ فِي حِفْظِ تَرْكِبَتِهِ ،

(١) قَبِيلَةٌ مِنْ قِبَاتِلِ (حَضْرَمَوْتِ) .

(٢) سُقِطَ فِي يَدَيْهِ : نَدَمَ .

وقضاء حاجة أهله ، فبينا هو في دار أخيه . . إذ مرت زوجته - وكانت من أجمل البشر - فوقع في قلبه حبها ، وجعل لونه يتغير ، وجسمه يذوب ، حتى قدم أخوه ، فسأله عن حاله ، فقال : لا شيء ، فدعا له الأطباء ، فعيوا بأمره ، ما سوى الحارث بن كلدة ؛ فإنه قال : أرى عينين صحيحتين ، وما أرى ما به إلا من العشق ، وسأسقيه شراباً ، وسيسين إن كان عاشقاً ، فجعل يسقيه ، فلما أخذ الشراب . . احتاج ، واستهل بأبيات تدل على صدق ما تفرسه الحارث ، غير أنه أجمل ، ولم يعين ، فقال له الأخ : أنت طبيب العرب ، فما الحيلة في التعيين ، حتى نقضي غرضه ؟ قال : سأعيد عليه الشراب ، حتى يُسمي ، فلم يزل يكرره عليه ، حتى سمى المرأة ، فطلقها أخوه لبتزوجها ، فقال المريض : علي كذا وكذا إن تزوجتها ، ولم يزل حتى قضى قتيل الغرام^(١) .

[المتنبي والرمادي]

وخاتمة المجلس : أن لبيت الناظم الذي نحن بسبيله . . قصة حاصلها : أنه لما سمع بقول الرمادي يمدح أبا علي القالي [في ديوانه] ١١١ :

[من الكامل]

فِي أَيِّ جَارِحَةٍ أَصُونُ مُعَذِّبِي سَلِمْتُ عَنِ التَّعْذِيبِ وَالتَّنْكِيلِ

. . قال : إن سلم من داء الحلاق . . فليجعله في استيه^(٢) . فانتهت مقالته للرمادي ، وكان قد سمع بقوله [من البسيط] :

كَفَى بِجِسْمِي نُحُولاً أَنَّنِي رَجُلٌ [لَوْلَا مُخَاطَبَتِي إِسَّاكَ لَمْ تَرَنِي]

فقال : ما أشبهه حينئذ بالضرطة ، فإنها تسمع ولا ترى ، والبيتان صحيحان ، غير أن من تكلف الانتقاد . . لم يعوز إليه الطريق ، إما سهلاً وإما وعراً ، إما سميناً وإما غثاً ، كصنيع الرجلين في البيتين ، وقد يكون الرمادي إنما انتقد قول الناظم الآتي عن قريب وهو :

[من البسيط]

وَصَاقَتِ الْأَرْضُ حَتَّى صَارَ هَارِبُهُمْ إِذَا رَأَى غَيْرَ شَيْءٍ ظَنَّهُ رَجُلًا

والأول أشبه ، والحفظ يخون ، واللفظ يزيد وينقص .

والله أعلم

* * *

(١) المستقصى في أمثال العرب ، (٣٩/١) .

(٢) الحلاق : الميتة .

المجلس الثاني

[مِنَ الْمُنْسَرِحِ]

قال أبو الطيب المتنبي في « العُكْبَرِيِّ » ١ / ٢٩٤ :

أَهْلًا بِدَارِ سَبَاكَ أَغْيَدَهَا أَبْعَدَ مَا بَانَ عَنْكَ خُرْدَهَا^(١)

[عادة الشعراء البكاء على الأطلال]

جرت عادة الشعراء بالسلام على ديار الأحاب ، والدعاء لآثارهم بالسُّقيا ، وما أشبه ذلك ، فقال امرؤ القيس [في ديوانه] :

أَلَا عِمَّ صَبَاحاً أَيُّهَا الطَّلُّ الْبَالِي وَهَلْ يِعْمَنُ مَنْ كَانَ فِي الْعُصْرِ الْخَالِي

[مِنَ الْبَسِطِ]

وقال القطامي [في ديوانه] ٢٣ :

إِنَّا مُحَيُّوكَ فَاسْلَمْ أَيُّهَا الطَّلُّ وَإِنْ بَلَيْتَ وَإِنْ طَالَتْ بِكَ الطَّيْلُ

[اقتداء المتنبي بهم]

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقد أحب الناظم أن يتسمت آثارهم ، كما في قوله [في « العُكْبَرِيِّ » ١ / ٥٦] :

فَدَيْنَاكَ مِنْ رَبْعٍ وَإِنْ زِدْتَنَا كَرْبَا فَإِنَّكَ كُنْتَ الشَّرْقَ لِلشَّمْسِ وَالْغَرْبَا

[مِنَ الْبَسِطِ]

وقوله [في « العُكْبَرِيِّ » ٢ / ٣٧٧] :

فَعِمَّ صَبَاحاً لَقَدْ هَيَّجَتْ لِي شَجْنَا وَارْدُدْ تَحِيَّتَنَا إِنَّا مُحَيُّوكَا^(٢)

[مِنَ الْبَسِطِ]

وقوله [في « العُكْبَرِيِّ » ٤ / ٣٦] :

فَمَا أَمْرٌ بِرَسْمٍ لَا أَسْأَلُهُ وَلَا بِذَاتِ خِمَارٍ لَا تُرِيْقُ دَمِي

[مخالفته لهم]

[مِنَ الْوَافِرِ]

غير أنه غايرهم في قوله [في « العُكْبَرِيِّ » ٢ / ٢٤٩-٢٥٠] :

مِلْتُ الْقَطْرِ أَعْطَشَهَا رُبُوعَا وَإِلَّا فَاسْقَهَا الشَّمَّ النَّجِيْعَا^(٣)

أَسْأَلُهَا عَنِ الْمُتَدَيِّرِيهَا فَلَا تُذْرِي وَلَا تُذْرِي دُمُوعَا^(٤)

(١) الأغيْدُ : الناعم .

(٢) عِمَّ صباحاً : كلمة تحية . وفي « الديوان » : (طَرَبَا) : بدل (شَجْنَا) .

(٣) في « الديوان » و « العكبري » : (الشَّمَّ النَّجِيْعَا) بدل (الشَّمَّ النَّجِيْعَا) . المِلْتُ : الدائم المقيم . النجيعُ ، يُقَالُ : نَجَعَ فِيهِ الدَوَاءُ وَأَنْجَعَ : إِذَا عَمِلَ .

(٤) المُتَدَيِّرِيهَا : أي متخذها داراً ، والأصلُ : المتديرين فيها ، فأضاف إلى الضمير .

ولقد بالغ المعرّي في قوله [في « سقط الزند » ١٩٦] :

[من الطويل]

تَحِيَّةٌ كَسَرِيٌّ فِي السَّنَاءِ وَتَبَّعَ لِرَبْعِكَ لَا أَرْضِي تَحِيَّةً أَرْبَعٌ^(١)

[شرح المطلع]

والناظم في البيت الذي نتكلم عليه يدعو للدار بأن تكون مأهولة ، وكان الواجب أن يقول : (أهلاً لدار) ؛ ليُتَّصَحَ معنى الدعاء للدار ؛ لأنَّ من معاني (اللام) بيان المدعوِّ له ، كما في قولهم : (سَقِيَا لَهُ) .
أمَّا (الباء) : فلا معنى لها ، وإن تكلف الشارح في تأويلها .
وأمَّا قوله : (أَبْعَدَ مَا بَانَ عَنْكَ خُرْدُهَا) . . ف (الخُرْدُ) : جمع خَرِيْدَةٍ ، وهي البِكْرُ التي لَمْ تُمْسَّ . و (أَبْعَدَ) : أَفْعَلُ تَفْضِيلٍ .

[صيانة المرأة عند العرب]

ومعناه : أنَّ أهل الدار قد بُعدوا كلَّهم ، غير أنَّ الخُرْدَ أَبْعَدُ . ثُمَّ لَا يَخْلُو أَنْ يُرِيدَ وَصْفَهُمْ بِالْبُعْدِ حَالِ الْإِقَامَةِ ، وفيه نظرٌ ؛ لأنَّ وصف الرجال بالبُعدِ قد يفهم منه الإشارةُ إلى تحلُّمهم^(٢) ، أو حال الارتحال ، وهو حينئذٍ ظاهرٌ ؛ لأنَّهم وإنَّ تحمَّلوا معاً ، فأولُّ مَنْ يُقَدِّمُ النساءُ ، ثُمَّ يزدنُ بعداً بالغيرة والصيانة ، وكثيراً ما يوجدُ ذِكْرُ بُعْدِهِنَّ فِي أَفَانِينَ الْقَوْلِ ، كما هو مُكْرَّرٌ فِي « دِيْوَانِهِ » مِنْهُ قَوْلُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢٢٥/١] :

[من الكامل]

سِرْبٌ مَحَاسِنُهُ حُرِمْتُ ذَوَاتِهَا دَانِي الصِّفَاتِ بَعِيدٌ مَوْصُوفَاتِهَا

[من الطويل]

وقوله [في « العُكْبَرِيِّ » ١١١/٤] :

دِيَارُ اللَّوَاتِي دَارُهُنَّ عَزِيْزَةٌ بِطُولِ الْقَنَا يُحْفَظْنَ لَا بِالثَّمَائِمِ^(٣)

[قريب المرأى بعيد المنال]

[من الطويل]

وهو من قول الطرماح [في « ديوانه » ٣٥٠] :

وَمَا مُنِعَتْ دَارٌ وَلَا عَزَّ أَهْلُهَا مِنْ النَّاسِ إِلَّا بِالْقَنَا وَالْقَنَابِلِ^(٤)

[من البسيط]

وقوله - أعني الناظم - [في « العُكْبَرِيِّ » ١١١/١] :

بِيضَاءَ تَطْمِعُ فِيمَا تَحْتَ حُلَّتِهَا وَعَزَّ ذَلِكَ مَطْلُوباً إِذَا طَلَبَا
كَأَنَّهَا الشَّمْسُ يُعْيِي كَفَّ قَابِضِهِ شُعَاهَا وَيَرَاهُ الطَّرْفُ مُقْتَرِبَا

[تكرار هذا المعنى عند الشعراء]

[من البسيط]

وقوله [في « العُكْبَرِيِّ » ٧٥/٣] :

مَتَى تَزُرُّ قَوْمَ مَنْ تَهْوَى زِيَارَتِهَا لَا يَنْحَفُوكَ بَعِيرِ الْبِيضِ وَالْأَسَلِ

(١) السناء : الرفعة . تُتَّبَعُ : مِنْ مَلُوكِ الْبَيْتِ ، جَمْعُهُ تَبَاعَةٌ : سُمُّوا بِذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ يَتَّبِعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، كَلَّمَا هَلَكَ وَاحِدٌ . . قَامَ مَقَامَهُ آخِرَ مَتَابَعًا لَهُ عَلَى مِثْلِ سِرْتِهِ . وَتَبَّعَ مَعْطُوفٌ عَلَى كَسْرِيٍّ ، أَي تَحِيَّةٌ كَسْرِيٌّ ، وَتَبَّعَ . . لِرَبْعِكَ .

(٢) النَّحْلَةُ : الْإِقَامَةُ .

(٣) فِي « الدِّيْوَانِ » : (بِطُولِي) بِدَلِّ (بِطُولِ) ، وَهُوَ مُؤَنَّثٌ أَطْوَلُ ، مِنْ إِضَافَةِ الصِّفَةِ إِلَى الْمَوْصُوفِ .

(٤) الْقَنَابِلُ - جَمْعُ قَنْبَلَةٍ - : وَهِيَ الطَّائِفَةُ مِنَ النَّاسِ وَمِنْ الْخَيْلِ ، قِيلَ : مَا بَيْنَ الثَّلَاثِينَ إِلَى الْأَرْبَعِينَ .

وقال كثير [في «ديوانه» ٩٧] :

[من الطويل]

مِن الصَّمِّ لَوْ تَمَشِي بِهَا العُصْمُ زَلَّتِ^(١)

كَأَنِّي أَنَادِي صَخْرَةً حِينَ أَعْرَضْتُ

وقال الطرماح [في «ديوانه» ٤٣٥] :

[من الطويل]

قَرِيباً وَلَا يَسْطِيعُهَا مَنْ يَرُومُهَا

تَرَاهَا عِيُونَ النَّاطِرِينَ إِذَا بَدَتْ

وقال ابن الأحنف [في «ديوانه» ٢٢١] :

[من المتقارب]

فَعَزَّ الفُؤَادَ عَزَاءً جَمِيلاً

هِيَ الشَّمْسُ مَسْكُهَا فِي السَّمَاءِ

وقال ابن عيينة :

[من الطويل]

قَرِيبٌ وَلَكِنْ فِي تَنَاوُلِهَا بُعْدُ

فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي : هِيَ الشَّمْسُ ضَوْؤُهَا

ولا يخرج عنه قول جرير :

[من الكامل]

كَطَبَاءِ مَكَّةَ صَيِّدُهُنَّ حَرَامُ
وَيَصُدُّهُنَّ عَنِ الخَنَا الإِسْلَامُ

حُورٌ حَرَائِرُ مَا هَمَمْنَ بِرِيبَةٍ
يُحْسَبْنَ مِنْ لِينِ الحَدِيثِ زَوَانِيَا

وما أحسن قوله مع نظره إلى ما نحن فيه من قريب :

[من الطويل]

بِقَوْلٍ يُحِلُّ العُصْمَ سَهْلَ الأَبَاطِحِ
وَخَلَفَتْ مَا خَلَفَتْ بَيْنَ الجَوَانِحِ

وَأَدْنَيْتَنِي حَتَّى إِذَا مَا سَبَيْتَنِي
تَجَافَيْتَ عَنِّي حِينَ لَأِي حِيلَةٌ

وفيه نظر إلى قوله جل شأنه : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ ﴾ [الحشر : ١٦] .

[من الطويل]

وفي معناه قول امرأة ابن الدُمَيْنَةِ [في «ديوانه» ٤٢] :

وَأَسْمَتُ بِي مَنْ كَانَ فِيكَ يَلُومُ
لَهُمْ غَرَضاً أَرْمَى وَأَنْتَ سَلِيمُ
بِجِسْمِي مِنْ قَوْلِ الوُشَاةِ كُلُّومُ

وَأَنْتَ الَّذِي أَخْلَفْتَنِي مَا وَعَدْتَنِي
وَأَبْرَزْتَنِي لِلنَّاسِ ثُمَّ تَرَكْتَنِي
فَلَوْ أَنَّ قَوْلًا يَكْلِمُ الجِسْمَ قَدْ بَدَا

وقال العباس بن الأحنف [في «ديوانه» ٨٤] :

[من البسيط]

حَتَّى إِذَا أَيْقَظُونِي لِلهَوَى رَقَدُوا
بِثِقَلِ مَا حَمَلُونِي عَنْهُمْ قَعَدُوا

أَبْكِي الَّذِينَ أَذَاقُونِي مَوَدَّتَهُمْ
وَاسْتَنْهَضُونِي فَلَمَّا قُمْتُ مُنْتَصِباً

[لقاء وعتاب]

وقال بعضهم [في «الأغاني» ٥٣/٢] : بينا أنا وصديق لي من قريش . . . إذا بطل نسوة في القمر ، فسمعت واحدة تقول :

[من البسيط]

أهو هو؟ فقالت الأخرى : نعم ، فدنت مني ، وقالت : قل لصاحبك :

لَيْسَتْ لِيَالِيكَ فِي خَاخِ بِعَائِدَةٍ كَمَا عَهَدْتَ وَلَا أَيَّامُ ذِي سَلَمٍ^(٢)

(١) الصَّمُّ : جمع صَمَاءَ ، وهي الصخرة الصلبة . العُصْمُ - جمع أعصم - : والأعصم من الظباء والوعول : الذي في ذراعيه بياض .

(٢) خَاخٌ : اسم مَوْضِعٍ بَيْنَ الحَرَمِينَ .

فلم يجر جواباً ، فقلتُ عنه :

[مِنَ الطويل]

فَقُلْتُ لَهَا : يَا عَزُّ كُلِّ مُصِيبَةٍ إِذَا وُطِنْتَ يَوْمًا لَهَا النَّفْسُ ذَلَّتْ

فدعني إلى بيتها ، وقالت : ما أفظَّ جوابك ، وبكت ، وشكت ما أضربها من هوى صاحبي ، فدعوتهُ لها ، فعاتبته

[مِنَ الطويل]

طويلاً ، ثمَّ تمثَّلتُ بأبياتِ امرأةِ ابنِ الدُّمَيْنَةِ ، ثمَّ سكتت ، فقالَ الفتى :

عَدَرْتِ وَلَمْ أَغْدُرْ وَخُنْتِ وَلَمْ أَخْنِ
جَزَيْتُكَ ضِعْفَ الْوُدِّ ثُمَّ صَرَمْتِنِي
وَفِي دُونِ هَذَا لِلْمُحِبِّ عَزَاءُ
فَحُبُّكَ فِي قَلْبِي أَدَى وَشَقَاءُ

[مِنَ الطويل]

فَقَالَتْ :

تَجَاهَلْتِ وَصَلِي حِينَ لَجَّتِ عَمَائِي
وَلِي مِنْ قُوَى الْحَبْلِ الَّذِي قَدْ قَطَعْتَهُ
فَهَلَّا صَرَمْتَ الْحَبْلَ إِذْ أَنَا مُبْصِرٌ
نَصِيبٌ وَإِذْ رَأَيْتِي جَمِيعٌ مُوقِفٌ
وَلَكِنَّمَا آذَنْتِ بِالْهَجْرِ بَعْتَهُ
وَلَسْتُ عَلَى مِثْلِ الَّذِي جِئْتَ أَقْدِرُ

[مِنَ الطويل]

فَقَالَ الْفَتَى :

لَقَدْ جَعَلْتَ نَفْسِي - وَأَنْتِ اجْتَرَمْتِيهِ
وَكُنْتِ أَحَبَّ النَّاسِ - عَنْكَ تَطِيبٌ^(١)

فبكت ، ثمَّ قالت : أما وقد جعلتُ نفسك تطيباً . . فما فيك بعدها خيرٌ ، والسلام .

[مِنَ الطويل]

وَقَالَ قَيْسُ بْنُ الْمُلُوحِ [فِي « دِيوانِهِ »] :

وَمَتَّيْتِي حَتَّى إِذَا مَا رَأَيْتِنِي
صَدَدْتِ وَأَشْمَتِ الْعَدُوَّ بِقُرْبِنَا
عَلَى شَرَفِ اللَّناظِرِينَ قَرِيبِ
أَثَابِكَ يَا لَيْلَى الْجَزَاءَ مُثِيبِي

[ما أصعب الفطام بعد الرضاع]

[مِنَ الطويل]

وَمَا يُنْسَبُ إِلَى سَيْفِ الدُّوَلَةِ قَوْلُهُ [فِي دِيوانِهِ] :

تَجَنَّى عَلَيَّ الذَّنْبَ وَالذَّنْبُ ذَنْبُهُ
وَأَعْرَضَ لَمَا صَارَ قَلْبِي بِكَفِّهِ
وَعَاتَبْتَنِي ظُلْمًا وَفِي شِقِّهِ الْعَتَبُ
فَهَلَّا جَفَانِي حِينَ كَانَ لِي الْقَلْبُ

[الباذلات المانعات]

[مِنَ الطويل]

وَأَشَدُّ الْأَصْمَعِيِّ لِبَعْضِ الْأَعْرَابِ :

وَمُسْتَخْفِيَاتٍ لَيْسَ يَخْفَيْنَ زُرْنَنَا
جَمَعْنَ الْهَوَى حَتَّى إِذَا مَا مَلَكَنَهُ
يُسْحَبْنَ أَذْيَالَ الصَّبَابَةِ وَالذَّلَّ
نَزَعْنَ وَقَدْ أَكْثَرْنَ فِينَا مِنَ الْقَتْلِ
تَأَلَّفْنَ أَهْوَاءَ الْقُلُوبِ بِلاَ بَدَلِ
بِقَتْلِ أَوْلِي الْأَلْبَابِ بِالْجِدِّ وَالْهَزْلِ^(٢)
مَرِيضَاتٍ رَجَعَ الطَّرْفِ حُرْسٍ عَنِ الْحَنَّا
مَوَارِقٍ مِنْ خَتْلِ الْمُحِبِّ عَوَاطِفِ

(١) اجترم: قطع .

(٢) يقال : مرق السهم من الرمية : إذا نفذ إلى الجانب الآخر .

يُعَنِّفُنِي الْعُدَّالُ فِيهِنَّ ، وَالْهَوَى
وقال المجنون [في « ديوانه » ١٨٣] :

[من الطويل]

يَعْرِضُنَ بِالِدَّلِّ الْمَلِيحِ وَإِنْ يُرِدُ
جَنَاهُنَّ مَشْغُوفٌ فَهِنَّ مَوَانِعُ
وقال ابن ميادة [في « ديوانه » ١٦٣-١٦٤] :

[من الطويل]

مَوَانِعُ لَا يُعْطِينَ حَبَّةَ خَرْدَلٍ
وَيَكْرَهُنَّ أَنْ يَسْمَعَنَّ فِي اللَّهْوِ رِيبةً
وَهُنَّ دَوَانٍ فِي الْحَدِيثِ أَوَانِسُ
كَمَا كَرِهَتْ صَوْتَ اللَّجَامِ الشَّوَامِسُ^(١)

[الكانزات الباخلات]

وأملى أبو بكر الأنباري في بعض مجالسه أبياتاً في بحرِها ، وقافيتها ، وبعض معناها ، وهي :

وَبِالْقَرْيَةِ الْبَيْضَاءِ إِنْ زُرْتَ أَهْلَهَا
خَرَجْنَ لِحُبِّ الرَّيْبِ مِنْ غَيْرِ رِيبةٍ
مَهَأْ مُهْمَلَاتٍ مَا عَلَيْنَهُنَّ سَائِسُ
عَفَائِفُ بَاغِي اللَّهْوِ مِنْهُنَّ آيسُ

[عمر بن أبي ربيعة وعبد الملك بن مروان]

ويروى : أَنَّ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ مَرْوَانَ اسْتَقْبَلَ عُمَرَ بْنَ أَبِي ربيعةَ ، فَقَالَ لَهُ : لَقَدْ عَلِمْتَ قَرِيشٌ أَنَّكَ أَطْوَلُهَا صَبوةً ،
وَأَبْعَدُهَا توبةً ، أَمَا لَكَ فِي نِسَاءِ قَرِيشٍ مَا يَكْفِيكَ عَنِ نِسَاءِ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ؟ أَلَسْتَ الْقَائِلَ [كما في « ديوانه » ٢٠٧-٢٠٨] :

[من الطويل]

نَظَرْتُ إِلَيْهَا بِالْمُحَصَّبِ مِنْ مِنيَ
فَقُلْتُ : أَصْبَحُ أَمْ مَصَائِيحُ رَاهِبٍ
وَلِي نَظَرٌ - لَوْلَا التَّحَرُّجُ - عَارِمٌ^(٢)
بَدَتْ لَكَ خَلْفَ السَّجْفِ أَمْ أَنْتَ حَالِمٌ^(٣)
بَعِيدَةٌ مَهْوَى الْقُرْطِ إِمَّا لِنَوْفَلٍ
أَبُوها وَإِمَّا عَبْدُ شَمْسٍ وَهَاشِمٌ^(٤)

[من الطويل]

فقال : يا أمير المؤمنين ، إنَّ بعدَ هذا قولي [كما في « ديوانه » ٢٠٩] :

طَلَبْنَ الْهَوَى حَتَّى إِذَا مَا وَجَدْنَهُ
فَاسْتَحْيَا مِنْهُ عَبْدَ الْمَلِكِ ، وَوَصَلَهُ ، وَقَضَى حَوَائِجَهُ .
صَدَرْنَ وَهَنَّ الْمُسْلِمَاتُ الْكَرَائِمُ

[الكاسيات العاريات]

[من الطويل]

وقال آخرُ في المعنى :

تَعَطَّلْنَ إِلَّا مِنْ مَحَاسِنِ أَوْجِهِ
كَوَاسٍ عَوَارٍ صَامِمَاتٍ نَوَاطِقُ
فَهُنَّ حَوَالٍ فِي الصِّفَاتِ عَوَاطِلُ^(٥)
بِعِيفٍ كَلَامٍ بَاخِلَاتٍ بَوَاذِلُ
وَشَيْبٍ بِحَقِّ الْقَوْلِ مِنْهُنَّ بَاطِلُ
وَهُنَّ عَنِ الْفَحْشَاءِ حِيدٌ نَوَاكِلُ
بَرْزَنَ عَفَافاً وَاحْتَجَبْنَ تَسْتُرًا
فَدُو الْجِلْمِ مُرْتَادٌ وَدُو الْجَهْلِ طَامِعُ

(١) الشوامس : من شمسِ الفرس : إذا منع ظهره .

(٢) عارمٌ : خارجٌ عن القصد .

(٣) السَّجْفُ والسَّجْفُ : السُّرُ .

(٤) بعيدة مهوى القرط : كناية عن طول عنقها .

(٥) حَوَالٍ : صاحباتُ حليةٍ . عَوَاطِلُ : خالياتٌ مِنَ الحليِّ .

[مِنَ الكَامِلِ]

وَلَمْ يَنْسَ حَظَّهُ الْبُحْتَرِيُّ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى ، فِي مِثْلِ قَوْلِهِ [فِي « دِيْوَانِهِ » ١١٥٠] :

مِنْ كُلِّ مُرْهَفَةِ الْقَوَامِ غَرِيرَةٍ جُعِلْتُ مَحَاسِنَهَا هَوَى لِبَلَاءِ نَفْسِ
تَبْدُو بِعَظْفَةِ مُطْمِعٍ حَتَّى إِذَا شُغِلَ الْخَلِيُّ ثَنَتْ بِصَدَّةٍ مُؤَيِّسِ

[الكلام الحق]

ولكنَّ الباري عزَّ شأنه يقولُ : ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ [الأحزاب : ٣٢] .

[إذا كنت ربحاً فقد واجهت إعصاراً]

وَبَصُرَ بَعْضُهُمْ بِامْرَأَةٍ فَتَانَةٍ عَلَى ضَفَّةِ (الرُّصَافَةِ) ، فَقَالَ : يَرْحِمُ اللهُ أَبَا الْجَهْمِ ، فَقَالَتْ لَهُ : يَرْحِمُ اللهُ أَبَا الْعَلَاءِ .

[مِنَ الطَوِيلِ]

أَرَادَ : قَوْلَ عَلِيِّ بْنِ الْجَهْمِ [فِي « دِيْوَانِهِ » ٢٢٠] :

عِيُونَ الْمَهَا بَيْنَ الرُّصَافَةِ وَالْجِسْرِ جَلَبَنَ الْهَوَى مِنْ حَيْثُ أَدْرِي وَلَا أَدْرِي

[مِنَ الطَوِيلِ]

وَأَرَادَتْ : قَوْلَ أَبِي الْعَلَاءِ - وَهُوَ مَوْضِعُ الْمُنَاسِبَةِ - :

فِيَا دَارَهَا بِالْخَيْفِ إِنَّ مَزَارَهَا قَرِيبٌ وَلَكِنْ دُونَ ذَلِكَ أَهْوَالُ

[أبو نواس يأكل الفتاة بعينه ووقوعه في شر أعماله]

وَذَكَرَ أَبُو نُوَّاسٍ : أَنَّ سَمَاءَ^(١) أَصَابَتْهُمْ فِي طَرِيقِ الْحَجِّ ، فَخَرَجَ يَتَنَزَّهُ فِي بَعْضِ غِيَاضِ الْعَرَبِ ، حَتَّى رُفِعَ لَهُ بَيْتٌ ،

فَإِذَا فِيهِ عَجُوزٌ عِنْدَهَا فَتَاةٌ مَبْرَقَةٌ ، سَحَرَتْهُ بِعَيْنَيْهَا النُّجْلَاوِينَ^(٢) ، فَاسْتَسْقَاهَا الْمَاءَ مَرَّتَيْنِ ، فَقَالَتْ الْعَجُوزُ : [مِنَ الطَوِيلِ]

هُمَا اسْتَسْقَيَا مَاءً عَلَى غَيْرِ ظَمَأَةٍ لَيْسْتُمْتَعَا بِاللَّحْظِ مِمَّنْ سَقَاهُمَا

[مِنَ الكَامِلِ]

- وَمِنْ هَذَا أَخَذَ الْبُرْعِيُّ قَوْلَهُ [فِي « دِيْوَانِهِ » ١٢٢] :

مَا الْمَاءُ مِنْ طَلْبِي وَلَكِنْ رُبَّمَا مَدَّتْ بِهِ فَتْنَالُ مِنْ يَدِهَا يَدِي -

[مِنَ الطَوِيلِ]

فَلَمَّا رَأَتْهُ الْعَجُوزُ يَكَادُ يَأْكُلُ بِعَيْنِهِ الْفَتَاةَ . . . قَالَتْ :

فَمَا لَكَ مِنْهَا غَيْرَ أَنَّكَ نَاكِحٌ بِعَيْنَيْكَ عَيْنَيْهَا ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعٌ ؟

[مِنَ الطَوِيلِ]

فَقَالَ :

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا تَعَلُّلُ سَاعَةٍ قَلِيلًا فَإِنِّي نَافِعٌ لِي قَلِيلُهَا

[مِنَ الْمُتَقَارِبِ]

وَلَمَّا اسْتَبَاهُ لِحَظِّهَا ، وَاسْتَهْوَاهُ لَفْظُهَا . . . قَالَ - يَسْتَطَعُمُهَا الشُّفُورَ - :

إِذَا بَارَكَ اللهُ فِي مَلْبَسِ فَلَا بَارَكَ اللهُ فِي الْبُرْزُوعِ

يُرِيكَ وَجُوهَ الدُّمَى غِرَّةً وَيَكْشِفُ عَنْ مَنْظَرِ أَفْطَحِ

(١) السماء هنا : المطرُ .

(٢) النُّجْلُ : سَعَةٌ تُشَقُّ الْعَيْنِ .

فنزعت بُرْقُعَهَا ، فإذا وجهٌ يستحي القمرُ مِنْ جَمَالِهِ ، ذَكَرَ مِنْ حُسْنِهِ ما لا يحضرُنِي لفظُهُ ، فقالَ عندَ ذَلِكَ : [مِنْ الطويل]

عَلَى وَجْهِ مَيِّ مَسْحَةٍ مِنْ مَلَاخَةٍ وَتَحْتَ الثِّيَابِ الْعَارُ لَوْ كَانَ بَادِيَا

فما كانَ منها إِلَّا أَنْ أَخَذَتْهَا هِرَّةٌ ، وخلعتُ ما كانَ عليها مِنَ الثيابِ ، ووقفتُ عُريانةً ، قالَ : فإذا صدرٌ كأنَّهُ صفيحةٌ مَرْمَرٍ ، فيه نهدانٍ كأنَّهُما حُفًا عاجٍ^(١) ، ثُمَّ أتى في وصفِ أعضائها ، بما ذهبَ عن حظي أكثرُهُ - وهو موجودٌ في «ديوانه» - عندَ ذَلِكَ قالَ :

[مِنْ الطويل]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَاءَ يَخْبُثُ طَعْمُهُ وَإِنْ كَانَ لَوْنُ الْمَاءِ أبيضَ صَافِيَا

فما كانَ منها إِلَّا أَنْ قطعتُ أَمَلَهُ ، وزودتُهُ اليأسَ .

وبعقبِ رجوعِهِم تعرَّضَ لها ، فألفاها بينَ أربعٍ لا تنقصُ عنها واحدةٌ منهنَّ في الحُسْنِ والجَمالِ ، فبقرتَ لهنَّ حديثها معه على مسمعٍ منه ، فعاتبَها في إعراضِها عنه ، مع تعلُّقِ بهواها ، وقلنَ لها : ما يضرُّكِ أَنْ تُنَوِّليهِ ، وما معكِ إِلَّا مَنْ يسترُ عليكِ؟! ولو أَنَّهُ علقَ بإحدانا هواهُ.. لما كانَ لها أَنْ تُخَيَّبَ رجاءُهُ ، فطمعَ فيها ، وواعدتُهُ إلى غارٍ ، دلَّتُهُ عليه ، فما هي إِلَّا ساعةٌ ، ودخلَ عليه عبدٌ أسودٌ ينعظُ بمثلِ ذراعِ البكرِ^(٢) ، فولَّى هارباً ، وما نجا فيما يقولُ إِلَّا بنفسِهِ بعدَ لأبي ما ، وما أحسبُهُ صادقاً في دعوى السلامةِ ، بل صرَّحَ ابنُ عبدِ ربِّهِ في «عقده»^(٣) بِعَدَمِها ، وما كانَ إِلَّا عُرْضةً ذلكَ ، ويا طالما شهرتُهُ عِنانٌ وغيرُها بمثلِ ذلكَ .

[قصة ذي الرمة ومي]

وبما أَنَّ جُلَّ أشعارِ الحكايةِ مِنْ كلامِ ذي الرِّمَّةِ.. فلا بُدَّ أَنْ لَهُ قِضيةٌ مِنْ نوعِها ، ثُمَّ رأيتُ ابنَ خَلْكانَ ذَكَرها باختصارٍ^(٤) ، وذكرَ قولَهُ في البرقعِ :

[مِنْ الوافر]

جَزَى اللهُ الْبَرَقِيعَ مِنْ ثِيَابِ عَنِ الْفَتِيانِ شَرًّا مَا يَقِينَا
يُوارِينِ الْمِلاحَ فَلَا نَرَاهَا وَيُخْفِينِ الْقَباحَ فَيَزْدَهِينَا

(١) الحُثُّ والحَقَّةُ - بالضم - : وعاءٌ منحوتٌ مِنَ الخشبِ والعاج وغير ذلكَ ، ممَّا يصلحُ أَنْ ينحتَ منه .

(٢) ينعظُ بمثلِ ذراعِ البكرِ : يُحركُ بِذَكَرِ كأنَّهُ مِنْ طولِهِ ذراعَ الفتى مِنَ الإبلِ .

(٣) وهو الكتابُ الشهيرُ : «العقدُ الفريدُ» .

(٤) ذَكَرَ ابنُ خَلْكانَ في «وفياتِ الأعيانِ» (١٢/٤) : أَنَّ ذَا الرِّمَّةَ لَمْ يَرِ مَيَّةً قَطُّ إِلَّا فِي برقعٍ فأحبَّ أَنْ ينظرَ إلى وجهِها فقالَ : [مِنْ الوافر]

جَزَى اللهُ الْبَرَقِيعَ مِنْ ثِيَابِ عَنِ الْفَتِيانِ شَرًّا مَا يَقِينَا
يُوارِينِ الْمِلاحَ فَلَا نَرَاهَا وَيُخْفِينِ الْقَباحَ فَيَزْدَهِينَا

فنزعتِ البرقعَ عَن وجهِها ، وكانت باهرةَ الحسَنِ ، فلمَّا رآها مسفرةً.. قالَ :

عَلَى وَجْهِ مَيِّ مَسْحَةٍ مِنْ مَلَاخَةٍ

البيتَ المتقدمَ ، فنزعتُ ثيابَها ، وقامت عُريانةً ، فقالَ :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْمَاءَ يَخْبُثُ طَعْمُهُ

البيتَ المتقدمَ ، فقالتُ لَهُ : أتَحبُّ أَنْ تذوقَ طعمَهُ؟ قالَ : إي واللهِ ، فقالتُ لَهُ : تذوقُ الموتَ قبلَ أَنْ تذوقَهُ .

وذكرَ الأصفهانيُّ في «الأغاني» (٣٠/١٨) : أَنَّ هَذِهِ الأبياتِ منحولةٌ عَلَى ذي الرِّمَّةِ وليستَ لَهُ . واللهُ أعلمُ بالصوابِ .

[وائل بن قاسط ووادي السباع]

وبينا وائل بن قاسط بوادٍ في طريقه إلى (الرقة) . . إذ بصُرَّ بأسماء بنت دريم القضاعية ، وكانت امرأة حسنة ، فيها بقية من الشباب ، فهم بها حين رآها مسفرة ، فقالت : والله ، لئن قصدتني بسوء . . لأدعون أسبجي ، فقال : ما أرى في الوادي أحداً ، فصاحت بينها : يا كلب ، يا ذيب ، يا فهد ، يا سرحان ، يا نمر ، يا حمار ، يا ضبع . . إلى آخرها ، فسأل الوادي رجالاً عشرين ، جاؤوا يتعادون بالسيوف ، كما قيل :

[من البسيط]

سَأَلْتُ عَلَيْهَا شِعَابُ الْحَيِّ حِينَ دَعَتْ أَنْصَارَهَا بِوُجُوهِ كَالدَّنَانِيرِ

فقالت لهم : أكرموا ضيفكم ، ولم تكشف لهم الحديد ، وإلا . . لتورعوا لحمه ، فعقروا ، وقال : ما أرى هذا الوادي إلا وادي السباع ، فأطلق عليه من يومئذ .

وفيه كان قتل الزبير بن العوام منصرفه من حادثة الجمال ، وقد ذكره في شعره سحيم بن وثيل الرياحي ، فقال :

[من الطويل]

مَرَزْتُ عَلَى وَاوِي السَّبَاعِ وَلَا أَرَى كَوَاوِي السَّبَاعِ حِينَ يُظْلِمُ وَاوِيَا

[وجوب التحفظ والحيطه على النساء]

وعلى ذكر عفة النساء وبُعدهن نقول : إنه لا يمكن للإنسان أن يكلهن إلى ما يثق به فيهن من ذلك ، فإن البعيد يقرب بالاحتياط ، والعصم تسهل بالاستنزال^(١) ، وقد قال بعضهم :

[من الكامل]

عُسْرُ النِّسَاءِ إِلَى مُيَاسِرَةٍ وَالصَّعْبُ يَسْهُلُ بَعْدَ مَا جَمَحَا

[من الطويل]

وقال أخو خثعم :

وَأَلَّتْ يَمِيناً كَالرُّجَاجِ رَقِيقَةً وَمَا حَلَفْتُ إِلَّا لِتَخَنَّتْ مِنْ أَجْلِي

[زوج الشهداء عاتكة بنت زيد]

وبهذا ذكرت قول عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل في رثائها لبعض أزواجها [كما في «خزانة الأدب» (١٠/٣٨٠)]:

[من الطويل]

فَأَلَيْتُ لَا تَنْفَكُ عَيْنِي حَزِينَةً وَأَلَيْتُ لَا يَنْفَكُ جِلْدِي أَغْبَرَا

فاستأذن عليها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صبيحة بناؤها على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وقال لها : أين قولك : (فأليت . . إلى آخره) ؟ فقالت : ما أكثر ما تنفسخ عزائم الرجال ، فضلاً عن عزائم النساء ، أو ما يقرب من هذا المعنى .

وكانت تحت عبد الله ابن أبي بكر الصديق ، فقتل عنها من سهم رمية في (الطائف) فتزوجها زيد بن الخطاب ، فقتل عنها ب (اليمامة) ، ثم كانت تحت عمر بن الخطاب ، فقتل وهي عنده ، ثم تزوجها الزبير بن العوام ، فقتله ابن جرموز ، وهي في عصمته ، ثم خطبها علي ، فقالت : أضنُّ بآبِنِ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ عَنِ الْقَتْلِ ، ولكنها تزوجت بآبِنِهِ

(١) العصم : هو الغزال ، والمقصود : أن المرأة ينبغي التحفظ عليها .

الحسين - كما روي - فقتل عنها ، فكان أهل المدينة يقولون بعد [كما في « الطبقات » ١١٢/٣] : مَنْ أَرَادَ الشَّهَادَةَ . . فليترج بعاتكة . وفي أحاديثها لطائف ، وفي أخبارها نوادر ، وفي أشعارها بدائع ، وبحسبنا في هذا الموضوع ما أشرنا إليه .

[كما تدين تدان]

وأولى ما يتوسل به المرء لتحسين أهله . . التلذم بالعفاف في نفسه ، والله ذر الخزاعي ، أو مسكين الدارمي في قوله :

مَا أَحْسَنَ الْغَيْرَةَ فِي حِينِهَا وَأَقْبَحَ الْغَيْرَةَ فِي كُلِّ حِينٍ
حَسْبُكَ مِنْ تَخْصِينِهَا ضُمَّهَا مِنْكَ إِلَى خُلُقِ كَرِيمٍ وَدِينٍ
لَا تَطَّلِعْ مِنْكَ عَلَى عَوْرَةٍ فَيَبُوعَ الْمُقْرُونُ حَبْلَ الْقَرِينِ

وفي الحديث : « عَفْوًا تَعَفَّ نِسَاؤُكُمْ »^(١) .

وقال بعضهم [الشافعي في « ديوانه »] :

[من الكامل]

عَفْوًا تَعَفَّ نِسَاؤُكُمْ فِي الْمَحْرَمِ وَتَجَنَّبُوا مَا لَا يَلِيقُ بِمُسْلِمٍ
إِنَّ الزَّنَا دَيْنٌ إِذَا أَفْرَضْتَهُ كَانَ الْوَفَاءُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ فَاغْلَمِ

فالفساد دين يؤخذ به من أهل الزاني وذريته لا محالة ، ولو كانوا أحمى من جبهات الأسود ، وأمنع من عقبان الجوّ ، والأخبار في ذلك كثيرة ، والعيان يؤكدها ، والله غيور على عباده ، وهو العدل في أحكامه^(٢) .

[العفة حتى في النوم]

كان ابن سيرين يقول : ما غشيت امرأة قط في نوم ولا يقظة ، غير أم عبد الله ، وإني لأرى المرأة لا تحل لي في المنام ، فأصرف نظري .

[الشعراء في هذا الموضوع]

[من الطويل]

فَأَلَمَ بِهِ النَّاطِمُ فِي قَوْلِهِ [في « المعبري » ٢٦٨/١] :

يَرُدُّ يَدَا عَن ثَوْبِهَا وَهُوَ قَادِرٌ وَيَعْصِي الْهَوَى فِي طَيْفِهَا وَهُوَ رَاقِدٌ

[من الطويل]

وقال المعري [في « سقط الزند » ٦٧] :

كَرِيمٌ حَلِيمٌ الْجَفْنِ وَالنَّفْسِ لَا يَرَى إِذَا هُوَ أَغْفَى مَا يَرَى النَّاسُ فِي الْحُلْمِ

[من الطويل]

وقال [في « سقط الزند » ٥٩] :

مَضَى طَاهِرَ الْجُثْمَانِ وَالنَّفْسِ وَالْكَرَى وَسَهْدِ الْمُنَى وَالْجَنِبِ وَالذَّيْلِ وَالرُّدْنِ^(٣)

(١) أخرجه عن عائشة الصديقة الطبراني في « الأوسط » (٨/٢) مطولاً .

(٢) لما أخرج ابن النجار في « ذيل تاريخ بغداد » عن أنس : « من زنى . . زني به ولو بحيطان داره » .

(٣) الكرى : النوم ، ونيضة : الشهد ، وقوله : شهد المنى : أي أنه إذا سهر في أمر يمتناه . . لم يسهر إلا فيما لا تبعه له . الرذن : الكم .

وقال ابن طباطبا :

[من الكامل]

يَقْظَاتُهُ وَمَنَامُهُ شِرْعٌ كُلُّ بِكُلِّ مِنْهُ مُشْتَبِهٌ
إِنْ هَمَّ فِي حُلْمٍ بِفَاحِشَةٍ زَجَرَتْهُ عِفَّتُهُ فَيَنْتَبِهُ

[من البسيط]

ولكنَّ التَّهاميَّ خضعَ لبعضِ القولِ ؛ إذ يقولُ « في ديوانه » [٣٣٦] :

إِنِّي لِأَصْرِفُ نَفْسِي عَنْ مَحَاسِنِهَا تَكْرُمًا وَأَكْفُفُ الْكَفَّ عَنْ لَمَمِ^(١)
وَلَا أَهْمُ وَلِي نَفْسٌ تُنَازِعُنِي أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ، إِلَّا سَاعَةَ الْحُلْمِ

[الضيف الأعمى]

نزل خارجي على بعض إخوانه منهم مستترا من الحجاج ، فشخص المنزول عليه لبعض شأنه ، وقال لزوجيه : يا طيبا ، استوصي بضيفي خيرا ، وكانت من أحسن الناس وجها ، ولما عاد بعد شهر . . قال لها : كيف كان ضيفك ؟ قالت : ما أشغله بالعمى عن كل شيء ، وكان أطبق جفنيه حتى لا يراها ، إلى أن عاد زوجها^(٢) .

* * *

[من المنسرح]

[قال أبو الطيب المتنبي في « العكبري » ٢٩٥ / ١] :

ظَلَّتْ بِهَا تَنْطَوِي عَلَى كَبِدٍ نَضِيجَةٍ فَوْقَ خَلْبِهَا يَدَهَا

(الخلب) : غشاء القلب ، أو الكبد .

[شرح المطلع]

قال الشارح : وجعل اليد نضيجة ، وأضافها إلى الكبد ؛ لأنها دام وضعها على الكبد ، فأنضجت بما فيها من الحرارة ، فلهذا جاز إضافتها إليها ، والعرب تسمي الشيء باسم غيره إذا طالت صحبته له ، والإضافة أهون . اهـ .

[رأي المؤلف]

وأقول : إنَّه أصاب في بعض ، وأخطأ في آخر ، أمَّا الذي أصاب فيه : فتوجيه إضافة اليد إلى الكبد بطول الملاسة والصحية .

وأما الذي أخطأ فيه : فزعمه أن الناظم جعل اليد نضيجة ، والحال أنه لم يتعرَّض لها بنضح ولا غيره ، وإنما تعرَّض للكبد ، فجعلها نضيجة ، وهو المعقول ، والمحزون كثيرا ما يضع يده على كبده ؛ خشية الانفطار مما يجده من حرارة الوجد ، ومثله كل من فوجيء بعظيم يهيل ، ولما فيه من الفوائد يقول جلَّ اسمه لموسى : ﴿ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ﴾ [القصص : ٣٢] .

(١) قال الشيخ عبد القادر القصاب الديرعاني في مواظبه :

من كف فكف ، وفك كفه . . فذباب الشر عنه كفه .

(٢) كذا في « المستطرف » (٣٤٩/٢) .

- وقال ابنُ الدُّمَيْنَةِ [في «ديوانه»] :
 عَشِيَّةَ أَثْنِي البُرْدَ ثُمَّ أَلْوَنُهُ عَلَى كَيْدِي مِنْ خَشِيَّةٍ أَنْ تَقَطَّعَا
 [مِنَ الطويل]
- وقال [في «ديوانه» ١٥] :
 لِيَهْنِكَ إِمْسَاكِي بِكَفِّي عَلَى الْحَشَا وَرَقْرَاقِ دَمْعِي رَهْبَةً مِنْ مَطَالِكِ
 [مِنَ الطويل]
- وقال الصَّمَّةُ بنُ عبدِ اللهِ القَشِيرِيُّ [في «ديوانه» ٩٦] :
 وَأَذْكَرُ أَيَّامَ الْحَمَى ثُمَّ أَثْنِي عَلَى كَيْدِي مِنْ خَشِيَّةٍ أَنْ تَقَطَّعَا
 [مِنَ الطويل]
- وقال عمرُ ابنُ أبي ربيعةَ في كتابِ منه إلى الثريَّا [في «ديوانه» ٤٩٠] :
 فَيُمْسِكُ قَلْبَهُ بِيَدِ وَيَمْسَحُ عَيْنَهُ بِيَدِ
 [مِنَ الطويل]
- وقال معاذُ بنُ كليبٍ :
 فَقَدْ طَالَ إِمْسَاكِي عَلَى الْكَبِدِ التِّي بِهَا مِنْ هَوَى لَيْلَى الْغَدَاةِ صُدُوعُ
 [مِنَ الطويل]
- وقال ابنُ مِيَادَةَ [في «ديوانه» ١٣٣] :
 عَشِيَّةَ أَثْنِي بِالرِّدَاءِ عَلَى الْحَشَا كَأَنَّ الْحَشَا مِنْ دُونِهِ أُسْعِرَتْ جَمْرًا
 [مِنَ الطويل]
- وغنى المهدِيَّ في قصِّةٍ تَطْفُلُهُ بِقِطْعَةٍ يَقُولُ فِيهَا :
 لَهُ يَدٌ تَسْأَلُ الرَّحْمَانَ عَافِيَةً مِمَّا بِهِ وَيَدٌ أُخْرَى عَلَى كَبِدِهِ
 [مِنَ البسيط]
- وقال عبدُ الصمدِ بنُ المُعَدَّلِ :
 مُكْتَبِبٌ ذُو كَيْدٍ حَرَرَى تَبْكِي عَلَيْهِ مُقْلَةً عَنَرَى
 يَرْفَعُ يُمْنَاهُ إِلَى رَبِّهِ يَدْعُو وَفَوْقَ الْكَبِدِ الْيُسْرَى
 [مِنَ السَّريع]
- وقال بعضُ الفقهاءِ عندَ خروجهِ إلى الحجِّ مِنْ (بغداد) ، كما ذكره ابنُ خَلِّكَانَ [في «فيات الأعيان» ٣/ ٢٦٠] :
 مَدَدْتُ إِلَى التَّوْدِيْعِ كَفًّا مَرِيضَةً وَأُخْرَى عَلَى الرَّمْضَاءِ فَوْقَ فَوْادِي
 فَلَا كَانَ هَذَا الْيَوْمَ آخِرَ عَهْدِنَا وَلَا كَانَ ذَا التَّوْدِيْعِ آخِرَ رَادِي
 [مِنَ الطويل]
- [تكرار لهذا المعنى عند المتنبي]
- وقد تَكَرَّرَ المعنى في «ديوانِ الناظم» غيرَ أَنِّي لا أَذكرُ منه إِلَّا ما أَشارَ إِلَيْهِ الشارِحُ ، وهو قولُهُ [في «المُكَبَّرِي» ٣٦/٢] :
 [مِنَ الخفيف]
- فِيهِ أَيَدِيكَمَا عَلَى الظَّفَرِ الحُلْمِ وَأَيَدِي قَوْمٍ عَلَى الأَكْبَادِ

[بيت للمؤلف في الموضوع]

[من الطويل]

وممَّا أبرَّ في الموضوعِ قولِي مِن قصيدةٍ [في «ديوان المؤلف» ق ٤٢] :

وَيَهْفُو بِقَلْبِي الْوَجْدُ لَوْلَا تَدَاوَلَتْ يَمِينِي فِي إِمْسَاكِهِ وَشِمَالِي

[اختلاف الإشارات في التعبير]

وربَّما وضعتِ المرأةُ يدها على رأسِها ، أو على وجهها من الخجل ، أو الوجع ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرِّ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ [الذاريات : ٢٩] .

[الملك المتواضع]

[من الطويل]

وقال رجلٌ من بني العنبرِ ، وكان مملكاً ، ورأته زوجته يطحنُ لضيفه :

تَقُولُ وَصَكَّتْ وَجْهَهَا بِيَمِينِهَا أَبْعَلِي هَذَا بِالرَّحَا الْمُتَقَاعِسِ !؟

[لا حياء في تعلم أمور الدين]

وفي «الصحیح» : أن امرأةً سألت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم : هل على المرأة من غسلٍ إذا هي احتلمت ؟ فنطت أم سلمة وجهها ، وقالت : أوحتلم المرأة ؟ فقال لها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « تَرَبَّتْ يَمِينُكَ ، وَبِمَ يُسْبِهُهَا وَلَدَهَا ؟ ! » ، ثم قال للسائلة : « نَعَمْ ، إِذَا رَأَتْ الْمَاءَ »^(١) . أو ما يقرب من هذا السياق .

والكلام في ماء المرأة إيجاباً وسلباً وصفةً . لا يليق بالاستطراد في هذا المجلس لاقضائه التطويل ، فله مكانه ، ورأيت فيه من زمان تأليفاً للسيد أحمد الحسيني المصري .

[النساء واختلاف التعبير عند الفزع]

ويروى : أن فزعا أدرك نساء ثلاثاً ، فوضعت يدها إحداهن على ثديها ، والأخرى على بطنها ، والثالثة على ركبها^(٢) ، فقال بعض أهل الأركان^(٣) : أمّا الأولى : فمرضعٌ ، وأمّا الثانية : فحُبلى ، وأمّا الثالثة : فبكرٌ . فكان كما قال .

* * *

[من المنسرح]

[قال أبو الطيب المتنبّي في «العُكْبَرِيّ» ٢٩٦/١] :

يَا حَادِيَنِي عَيْسَهَا وَأَحْسَبُنِي أَوْجَدُ مَيْتًا قُبَيْلَ أَفْقُدَهَا
قَفَا قَلِيلًا بِهَا عَلَيَّ فَمَا أَقَلَّ مِنْ نَظْرَةِ أَرْوُدَهَا

[شرح المطلع]

يقولُ لحدأة عيسها : قفوا بها عليّ قليلاً ؛ لأترودَ منها نظرةً ، وقد اعترضَ بينَ النداءِ والمنادي بقوله : (وأحسبني

(١) رواه عن أم سلمة البخاري (٢٨٢) في الغسل ، ومسلم (٣١٣) في الحيض .

(٢) الركبُ - بالتحريك - : العانة ، أو أصل الفخذين .

(٣) أهل الأركان : أهل الفراسة .

أَمُوتُ قُبَيْلَ تَحَرُّكِكُمْ بِهَا) ، وهذا يُؤَيِّدُ احتمالَ وصفِهِ حينَ الارتحالِ ، والجملةُ المعترضةُ المذكورةُ مأخوذةٌ مِنْ قولِ العربيِّ :

[مَنْ الخفيف]

لَيْسَ بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ إِلَّا أَنْ يَرُدُّوا جَمَالَهُمْ فَزَمَّا^(١)

[لِمَ العجلة ؟]

وقَدْ سمعَهُ عليُّ بنُ جعفرٍ مِنْ جارِيتهِ الشطباءِ ، فَطَرِبَ ، وصاحَ ، وقالَ : يا سبحانَ اللهُ ! ما هذهِ العجلةُ ؟ أَلَا يُوكُونَ قَرَبَةً^(٢) ، أَلَا يعلِّقُونَ سُفْرَةَ^(٣) ، أَلَا يسلِّمُونَ على جارٍ^(٤) !؟

[الشعراء والموت من الفراق]

والمعنى متكرِّرٌ عندَ الناظمِ ؛ منه قولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/٣٢٨-٣٢٧] :

[مَنْ الكامل]

الْيَوْمَ عَهْدِكُمْ فَأَيْنَ الْمَوْعِدُ ؟ هَيْهَاتَ لَيْسَ لِيَوْمٍ عَهْدِكُمْ غَدُ
الْمَوْتُ أَقْرَبُ مِخْلَباً مِنْ بَيْنِكُمْ وَالْعَيْشُ أَبْعَدُ بَعْدَكُمْ لَا تَبْعَدُوا^(٥)

[مَنْ الطويل]

ولقد أَجَادَ الحِلِّيُّ في قولِهِ [في « ديوانِهِ » ٦١٧] :

قَفِي وَدَعِينَا قَبْلَ وَشِكِ التَّقْرِقِ فَمَا أَنَا مَنْ يَحْيَا إِلَيَّ حِينَ نَلْتَقِي

[مَنْ الكامل]

وَأَلَمَ بِهِ البُرْعِيُّ في قولِهِ [في « ديوانِهِ » ١٤١] :

أَعِدِ الْوَدَاعَ فَمَا أَرَاكَ تَرَانِي وَأَطْلُبُ بِكَ لِيَبْنَ أَهْلُ الْبَانِ

[استيقاف العيس عند الشعراء]

وما أَكثَرَ استيقافَ العيسِ للترؤدِ بالنظرِ حينَ الوداعِ في أشعارِ العربِ ، منه قولُ عمرو بنِ كلثومٍ [في « ديوانِهِ » ٧٨] :

[مَنْ الوافر]

قَفِي قَبْلَ التَّقْرِقِ يَا ظَعِينَا نَحْبِرُكَ الْيَقِينِ وَتُخْبِرِينَا

[مَنْ الوافر]

وقولُ القُطاميِّ [في « ديوانِهِ » ٣١] :

[قَفِي] قَبْلَ التَّقْرِقِ يَا ضُبَاعَا وَلَا يَكُ مَوْقِفٌ مِنْكَ الْوَدَاعَا
قَفِي فَاذِي أَسِيرِكَ إِنَّ قَوْمِي وَقَوْمِكَ لَا أَرَى لَهُمْ اجْتِمَاعَا

[مَنْ المنسرح]

وقولُ قيسِ بنِ الخطيمِ [في « ديوانِهِ » ٥٤-٥٣] :

رَدَّ الْجِمَالَ الْخَلِيْطُ فَاَنْصَرَفُوا مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ أَنَّهُمْ وَقَفُوا^(٦)

(١) زَمَّ البعيرَ : إذا ألبسه الزمام ، وهو اللجام .

(٢) الوكاء : الخيط الذي يشد به الكيس وغيره .

(٣) الشفرة : طعامٌ يُتخذُ للمسافرِ ومنهُ سُمِّيَتِ السفرةُ التي يوعى فيها الطعامُ مجازاً .

(٤) كذا في « الأغاني » (٣٥٨/٢٤) .

(٥) في « الديوان » و « العُكْبَرِيِّ » : (أَبْعَدُ مِنْكُمْ) بدلَ (أَبْعَدُ بَعْدَكُمْ) .

(٦) الخليط : المخالط لهم في الدار .

لَوْ وَقَفُوا سَاعَةً نُسَائِلُهُمْ رَبِّكَ يُضَحِّي جَمَالَهُ السَّلْفُ^(١)

[أول من قال لفظه (السلف)]

وَأَوَّلُ مَا سُمِعَتْ لَفْظَةُ (السَّلْفِ) الَّتِي أَكْثَرَ النَّاسُ مِنْهَا الْآنَ مِنْ هَذَا الشَّعْرِ ، ثُمَّ مِنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ مُوَارَاةِ عَثْمَانَ بْنِ مِظْعُونٍ : « نِعَمَ السَّلْفُ »^(٢) .

[تفسير السلف]

وَفِي بَابِ الْأَذَانِ مِنْ « حَاشِيَةِ الْبَجِيرِيِّ عَلَى فَتْحِ الْوَهَّابِ » تَفْسِيرُ السَّلْفِ بِالصَّحَابَةِ ، وَالْخَلْفِ بِمَنْ بَعْدَهُمْ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : السَّلْفُ مَنْ قَبْلَ الْأَرْبَعِ مِئَةٍ ، وَالْخَلْفُ مَنْ بَعْدَهُمْ .

وَفِي بَابِ الْجَمَاعَةِ مِنْهَا : أَنَّ السَّلْفَ هُمْ أَهْلُ الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ الْأُولَى ، وَالْخَلْفُ مَنْ بَعْدَهُمْ .

وَالْبَيْتَانِ مِنْ كَلِمَةِ شَاعِرَةِ لَقَيْسٍ ، وَكَانَ رَجُلًا شَجَاعًا ، جَمِيلَ الْمَنْظَرِ ، بَرَّاقَ الثَّنَائِيَا ، مَا رَأَتْهُ حَلِيلُهُ رَجُلًا قَطُّ إِلَّا ذَهَبَ عَقْلُهَا ، وَتَمَنَّتْ أَنْ يَكُونَ لَهَا قِيَاضًا عَنْ صَاحِبِهَا ، وَكَانَ يَقْسِمُ أَيَّامَهُ ثَلَاثًا ، يَوْمًا : يَحْكُمُ بَيْنَ قَوْمِهِ ، وَيَوْمًا : يَنْشُدُ شِعْرَهُ ، وَيَوْمًا : يَنْظُرُ فِي الْمَرْأَةِ إِلَى جَمَالِهِ .

وَقَالَ ابْنُ الدُّمَيْنَةِ فِيمَا نَحْنُ بِسَبِيلِهِ [فِي « دِيْوَانِهِ » ١٣] :

[مَنْ الطويل]

فَقِي قَبْلَ وَشَكِّ الْبَيْنِ يَا ابْنَةَ مَالِكِ وَلَا تَحْرِمِينَا نَظْرَةَ مَنْ جَمَالِكِ
فَقِي يَا أُمَيْمَ الْقَلْبِ نَقْضِي لُبَانَةَ وَنَشْكُو الْهَوَىٰ ثُمَّ أَفْعَلِي مَا بَدَأَ لَكَ

[طلب وجهه]

قَالَ حَبِيبُ [أَبُو تَمَّامٍ فِي « دِيْوَانِهِ » ٢٤٢] :

[مَنْ الكامل]

مَا فِي وَقُوفِكَ سَاعَةً مِنْ بَاسٍ تَقْضِي ذِمَّامَ الْأَرْبَعِ الْأَدْرَاسِ

قَالَ أَبُو عِبَادَةَ :

[مَنْ الخفيف]

مَا عَلَى الرَّكْبِ مِنْ وَقُوفِ الرَّكَّابِ فِي مَغَانِي الصَّبَا وَرَسْمِ التَّصَابِي

وَلِئِنْ خَرَجَ هَذَا عَنْ خُصُوصِ الْاسْتِيقَافِ يَوْمَ الرَّحِيلِ . . . فَقَدْ دَخَلَ فِي عَمُومِهِ الشَّامِلِ ؛ لِقَوْلِ ذِي الرُّمَّةِ : [مَنْ الوافر]

تَمَّامُ الْحَجِّ أَنْ تَقِفَ الْمَطَايَا عَلَى خَرْقَاءَ وَاصِصَةَ اللَّثَامِ

[نرجو من الله تعالى]

وَقَالَ الْبَغْدَادِيُّ [ابْنُ زُرَيْقٍ فِي « دِيْوَانِهِ »] :

[مَنْ البسيط]

وَاعْطِفْ عَلَيَّ الْمَطَايَا سَاعَةً فَعَسَى مَنْ شَتَّ شَمَلَ الْهَوَىٰ بِالْبَيْنِ يَجْمَعُهُ

وَقَالَ الْأَنْدَلِسِيُّ [إِسْمَاعِيلُ بْنُ مُحَمَّدٍ الشَّقَنْدِيُّ فِي « نَفْحِ الطَّيْبِ » ٢٣٣/٣] :

[مَنْ البسيط]

اسْتَوْقِفِ الرَّكْبَ قَدْ لَاحَتْ لَكَ الدَّارُ وَاسْأَلْ بِرَبْعِ تَنَاءَتٍ عَنْهُ أَقْمَارُ
لَا خَفَّفَ اللَّهُ عَنِّي بَعْدَ بُعْدِهِمْ فَلِئِنِّي سِرْتُ وَالْأَحْبَابُ مَا سَارُوا

(١) يضحِّي : من الضحاه وهو أن ترعى الإبل ضحى . السلف : القوم الذين يتقدمون الطعن في السير .

(٢) ومثله في دعاء الميت : « واجعله لنا سلفاً » قيل : هو من سلف المال ، كأنه قد أسلفه وجعله ثمناً للأجر والثواب الذي يجازى على الصبر عليه .

[ما سبب التفات المسافر العربي؟]

وَمِنْ مَذَاهِبِ الْعَرَبِ : التَّفَاتُ الْمَسَافِرِ رَجَاءَ الْعُودِ .

قَالَ شَاعِرُهُمْ :

[مَنْ الطَّوِيلُ]

تَلَفَّتْ أَرْجُو رَجْعَةَ بَعْدَ نِيَّةٍ فَكَانَ التَّفَاتِي زَائِدًا فِي بَلَائِيَا

[مَنْ الْكَامِلُ]

وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّرِيفِ الرَّضِيِّ [فِي « دِيْوَانِهِ »] :

وَلَقَدْ مَرَزْتُ عَلَى طُلُوبِهِمْ وَرُسُومَهَا بِيَدِ الْبَلِي نُهْبُ
فَوَقَفْتُ حَتَّى ضَجَّ مِنْ لَغَبٍ نِضْوِي وَلَجَّ بَعْدَلِي الرَّكْبُ
وَتَلَفَّتْ عَيْنِي وَمُذْ خَفَيْتُ عَنِّي الطُّلُوبُ تَلَفَّتْ الْقَلْبُ

وقيل : إنَّه لم يقصد التفاؤل للرجوع ؛ إذ لا فائدة فيه ، وقد صارت نهباً بيد البلي ، وإنما حملة عليه فرط الوجد ، وألم التحسر .

[من بدائع الاتفاق]

وقد مرَّ بعضهم بديارِ الشَّرِيفِ الرَّضِيِّ ، فتمثَّلَ بِالْأَبْيَاتِ ؛ إِذ رَأَاهَا خَاوِيَةً عَلَى عُرُوشِهَا ، وَعَلَيْهَا سِمَةُ الشَّرَفِ ، وَأَثَارَةُ الْعِزِّ ، وَهُوَ لَا يَدْرِي بِصَاحِبِ الدِّيَارِ ، وَلَا بِأَنَّهُ قَائِلُ الْأَبْيَاتِ ، فَكَانَ مِنْ بَدَائِعِ الْإِتْفَاقِ .

[أنت مسكين يا صمة]

[مَنْ الطَّوِيلُ]

وَقَالَ الصَّمَّةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَشِيرِيُّ [فِي « دِيْوَانِهِ » ٩٤] :

تَلَفَّتْ نَحْوَ الْحَيِّ حَتَّى وَجَدْتَنِي وَجِغْتُ مِنَ الْإِضْغَاءِ لَيْتًا وَأَخْدَعَا^(١)

مِنْ قَصِيدَةٍ لَهُ فَخَمَةِ اللَّفْظِ ، مَنْقَحَةِ الْمَعْنَى ، قَالَهَا حِينَ تَعَنَّتَ عَلَيْهِ عُمُّهُ وَرَدَّهُ عَنْ بَنْتِهِ رِيًّا ، وَكَانَ قَدْ جَمَعَ الْإِبِلَ الْمَعْيِنَةَ لِحَاجَتِهَا ، فَلَمَّا آيَسَهُ عُمُّهُ . . أَطْلَقَ عَقْلَهَا ، وَضَرَبَهَا ، فَعَادَ كُلُّ بَعِيرٍ إِلَى أَهْلِهِ ، فَقَالَتْ مَخْطُوبَتُهُ : مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ رَجُلًا ضَيَّعَهُ قَوْمُهُ^(٢) !

[مَنْ الطَّوِيلُ]

وَمَطْلَعُ الْقَصِيدَةِ [فِي « دِيْوَانِهِ » ٩٤] :

حَنَنْتَ إِلَيَّ رِيًّا وَنَفْسُكَ بَاعَدَتْ مَزَارَكَ مِنْ رِيًّا وَشَعْبَاكُمَا مَعَا

ويأتي بعضها في غضون هذه المجالس بحسب المناسبات ، وهي من أعذب الشعر وأشجاءه ، وقد مرَّ في المجلس الأول ما يشير إلى بعض هذا .

[مَنْ الطَّوِيلُ]

وقال آخر :

لَحَظْنَاهُمْ حَتَّى كَأَنَّ عِيُونَنَا بِهَا لِقْوَةً مِنْ شِدَّةِ اللَّحْظَانِ^(٣)

(١) اللَّيْتُ : صفحة العنق . الأخدعان : عرقان خفيان في موضع الحجامة من العنق .

(٢) « ديوان الحماسة » (٦٢ / ٢) .

(٣) اللقوة : داء يكون في الوجه يغوج منه الشدق .

وأما الشكاية من ألم النوى ساعة الوداع : فمما لا يُحصى كثرة في أشعارهم ، ومنه قول امرئ القيس [في « ديوانه »
: [١٤٤] [من الطويل]

كَأَنِّي غَدَاةَ الْبَيْنِ يَوْمَ تَحَمَّلُوا لَدَى سَمُرَاتِ الْحَيِّ نَاقِفٌ حَنْظَلٍ^(١)

[من الطويل]

وهو متكرر عند الناظم ؛ منه قوله [في « المُكَبَّرِي » ٢/ ٢٣٥] :

حُشَاشَةٌ نَفْسٍ وَدَعَتْ يَوْمَ وَدَّعُوا فَلَمْ أَدْرِ أَيَّ الظَّاعِنَيْنِ أَشِيعُ

[من الكامل]

وقوله [في « المُكَبَّرِي » ٤/ ٨٧] :

قَدْ كُنْتَ تَهْزَأُ بِالْفِرَاقِ مَجَانَةً وَتَجُرُّ ذَيْلِي شِرَّةً وَعُورَامَ^(٢)

هُنَّ الْحَيَاةُ تَرَحَّلَتْ بِسَلَامٍ^(٣)

حَذْرًا مِنَ الرُّقَبَاءِ فِي الْآكَامِ^(٤)

مِنْ بَعْدِ مَا قَطَرَتْ عَلَى الْأَقْدَامِ

[من الكامل]

وقوله [في « المُكَبَّرِي » ٢/ ٢٥٩] :

أَرْكَائِبَ الْأَحْبَابِ إِنَّ الْأَذْمَعَا تَطِسُ الْخُدُودَ كَمَا تَطِسْنَ الْيَرَمَعَا^(٥)

وَأَمْسِينَ هَوْنًا فِي الْأَزْمَةِ خُضَعَا^(٦)

فَالْيَوْمَ يَمْنَعُهُ الْبُكََا أَنْ يَمْنَعَا

فَاعْرِفْنَ مَنْ حَمَلَتْ عَلَيْكَ النَّوَى قَدْ كَانَ يَمْنَعُنِي الْحَيَاءُ مِنَ الْبُكََا

والأخير من خالص الشعر ، ومختار الكلام ، وكنت أظنه من مخترعاته ، حتَّى رأيتُ أبا ذؤيب الهذلي سبقه إلى
بعضه في قوله [في « ديوانه » ١٤٦] :

[من الكامل]

وَلَقَدْ أَرَى أَنْ الْبُكَاءَ سَفَاهَةً وَلَسَوْفَ يُوَلَعُ بِالْبُكََا مَنْ يُفْجَعُ

[من الطويل]

واقفاه ابن مطير ، حيث يقول - من كلمة له مؤنقة - [في « ديوانه » ٤٩] :

وَكُنْتُ أَدُودُ الْعَيْنِ أَنْ تَرِدَ الْبُكََا فَقَدْ وَرَدَتْ مَا كُنْتُ عَنْهُ أَدُودَهَا

[من الطويل]

ولا يبعد عنه قول كثير [في « ديوانه » ٩٥] :

وَمَا كُنْتُ أَدْرِي قَبْلَ عَزَّةِ مَا الْبُكََا وَلَا مُوجَعَاتِ الدَّهْرِ حَتَّى تَوَلَّتْ

(١) غداة البين : صبيحة الفراق . السمرات : شجر في الحي ، جمع سمر . ناقف الحنظل : أشق الحنظل فتدمع عيناى ؛ لشدة مرارته ؛ لأن من يشقه يجد أثر مرارته في حلقه وأنفه وعينه .

(٢) المجانة : الخلاعة . الشرة : الحدة والنشاط . العرام : الشدة والقوة والشراسة .

(٣) القباب : الهودج . الركاب : الإبل .

(٤) السخ : السكب المتابع . الشؤون : جمع شأن ، وهو مجرى الدمع . الآكام : جمع أكمة ، وهي القف من حجارة واحدة ، وقيل : هو دون الجبال ، وفي « الديوان » : (نسخ) بدل (نسح) ، و (الأكام) بدل (الآكام) .

(٥) وطس الشيء : كسره ودقّه . اليرمع : حجارة بيض صغار رخوة .

(٦) الأزمة : جمع الزمام ، وهو الحبل الذي يجعل في البرة والخشبة ، وفي عنق البعير .

وقولُ المجنونِ :

[من الطويل]

وَأَبْكَيْتُمَانِي وَسَطَّ صَحْبِي وَلَمْ أَكُنْ
أَبَالِي دُمُوعَ الْعَيْنِ لَوْ كُنْتُ خَالِيَا

[من المنسرح]

ويأتي بعضُ ما يشبههُ في شرحِ قولِهِ [في «العُكْبَرِيِّ» ٣٠٨/١] :

أَصْبَحَ حُسَّادُهُ وَأَنْفُسُهُمْ
يُخْدِرُهَا خَوْفُهُ وَيُضْعِدُهَا

[من الطويل]

وقبيلُ قولِهِ [في «العُكْبَرِيِّ» ٣٤/٤] :

فَتِيبَ - وَائْتَأَ بِاللَّهِ - وَثَبَةَ مَا جِدَ
يَرَى الْمَوْتَ فِي الْهَيْجَا جَنَى النَّخْلِ فِي الْفَمِ

[من الكامل]

وفي الموضوعِ قولُهُ [في «العُكْبَرِيِّ» ٢٢٥/١] :

يَسْتَأَقُ عَيْسَهُمْ أُنَيْبِي خَلْفَهَا
تَتَوَهَّمُ الزَّفَرَاتِ رَجَعَ حَدَاتِهَا^(١)

[من الكامل]

وقولُهُ [في «العُكْبَرِيِّ» ٢٤٦/١] :

لَمَّا تَقَطَّعَتِ الْحُمُولُ تَقَطَّعَتْ
نَفْسِي أَسَى وَكَأَنَّهِنَّ طُلُوحُ^(٢)
وَجَلَّ الْوَدَاعُ مِنَ الْحَيِّبِ مَحَاسِنَا
حُسْنُ الْعِزَاءِ وَقَدْ جَلِينُ قَيْحُ

[من البسيط]

وقولُهُ [في «العُكْبَرِيِّ» ١١٥/٢] :

وَكَاتِمُ الْحُبِّ يَوْمَ الْبَيْنِ مُنْهَتِكَ
وَصَاحِبُ الدَّمْعِ لَا تَخْفَى سَرَائِرُهُ

[من الكامل]

وقولُهُ [في «العُكْبَرِيِّ» ١٦٢/٢] :

قَدْ كُنْتُ أَحْذَرُ بَيْنَهُمْ مِنْ قَبْلِهِ
لَوْ كَانَ يَنْفَعُ حَائِنًا أَنْ يَخْذِرَا^(٣)

[من الكامل]

وقولُهُ [في «العُكْبَرِيِّ» ١٩٤/٢] :

إِنْ كُنْتَ ظَاعِنَةً فَإِنَّ مَدَامِعِي
تَكْفِي مَزَاوِدَكُمْ وَتُرْوِي الْعَيْسَا^(٤)

[من الوافر]

وقولُهُ [في «العُكْبَرِيِّ» ٢٩٥/٢] :

نَظَرْتُ إِلَيْهِمْ وَالْعَيْنُ شَكْرِي
فَصَارَتْ كُلُّهَا لِلدَّمْعِ مَاقَا^(٥)

[من الطويل]

وقولُهُ [في «العُكْبَرِيِّ» ٣٠٨-٣٠٧/٢] :

وَلَمْ أَرَ كَالْأَلْحَاظِ يَوْمَ رَحِيلِهِمْ
بَعَثْنَ بِكُلِّ الْقَتْلِ مِنْ كُلِّ مُشْفِقِ

(١) في «الديوان» : (زَجَرَ) بدل (رَجَعَ) . الحُدَاة : هم المغنون خلف الإبل .

(٢) الطُّلُوحُ : جمعُ طَلْح ، وهي شجرةٌ حجازيةٌ ، جناتها كجناةِ السَّمْرَةِ ، ولها شوكٌ أَحَجَنُ ، ومنابتها بطونُ الأوديةِ ، وهي أعظمُ العِضَاءِ شوكاً ، وأصلها عوداً ، وأجودها صَمْنًا ، والطلح أيضاً : الموز .

(٣) المعنى : كنت أحذر فراقهم قبل وقوعه ، ولكن الهالك لا ينفعه الحذر ، وفي «الديوان» : (حَائِنًا) بدل (حَائِنًا) والصواب ما هو مثبت .

(٤) مَزَاوِدُكُمْ : جمع مَزَوِد ، وهو وعاءٌ يجعلُ فيه الزادُ ، أو وعاءُ الماءِ الذي يُتَرَوَّدُ للسفرِ ، وهو المرادُ هنا . وفي «الديوان» و«العكبري» : (مَزَادُكُمْ) بدل (مَزَاوِدُكُمْ) .

(٥) العينُ الشكرى : الممتلئةُ بالدمعِ . المَاقَا : طرفُ العينِ ممَّا يلي الأنفَ وهو مخرجُ الدمعِ مِنَ العينِ .

أَدْرَنْ عُيُوناً حَائِرَاتٍ كَأَنَّهَا
عَشِيَّةٌ يَغْدُونَا عَنِ النَّظْرِ الْبُكَاءِ

وقوله [في «المكبري» ٣٤١/٢] :

مُرَكَّبَةٌ أَحْدَاقُهَا فَوْقَ زُنْبُقِي
وَعَنْ لَذَّةِ التَّوْدِيْعِ خَوْفُ التَّمْرِقِ

[من الطويل]

وَيَا قَلْبُ حَتَّىٰ أَنْتَ مِمَّنْ أَفَارِقُ^(١)
فَرِيْقِي هَوِيٌّ : مِمَّا مَشُوقٌ وَشَائِقُ

[من الوافر]

وَحُسْنِ الصَّبْرِ زُمُوا لَا الْجَمَالَ
تَهَيَّبِي فَفَاجَأَنِي اغْتِيَالًا
مُنَاخَاتٍ فَلَمَّا تُرْنَ سَالًا

وقوله [في «المكبري» ٢٢١-٢٢٢/٣] :

بَقَائِي شَاءَ لَيْسَ هُمْ اِزْتِحَالًا
تَوَلَّوْا بَغْتَةً فَكَأَنَّ بَيْنَا
كَأَنَّ الْعَيْسَ كَانَتْ فَوْقَ جَفْنِي

[من الكامل]

يَوْمَ الْفِرَاقِ صَبَابَةٌ وَغَلِيَالًا^(٢)

وقوله [في «المكبري» ٢٣٤/٣] :

حَدَقُ الْحِسَانِ مِنَ الْغَوَانِي هَجَنَ لِي

[من البسيط]

تَدَمَّى وَأَلْفَ فِي ذَا الْقَلْبِ أَحْزَانَا

وقوله [في «المكبري» ٢٢٠/٤] :

قَدْ عَلِمَ الْبَيْنُ مِمَّا الْبَيْنَ أَحْجَانَا

[من الكامل]

أَلْوَانَنَا مِمَّا امْتُعِنَ تَلَوْنَا^(٣)
نَظْرًا فُرَادَى بَيْنَ زَفَرَاتِ ثَنَا

وقوله [في «المكبري» ١٩٦/٤] :

بَنَّا فَلَوْ حَلَيْتَنَا لَمْ تَذُرْ مَا
أَفْدِي الْمُوَدَّعَةَ الَّتِي أَتْبَعْتُهَا

[من المتقارب]

وَأَعْلَقَ نِيرَانَهُ بِالْكَبُودِ

وقوله [في «المكبري» ٣٤٢/١] :

فَوَاحَسَّرْتَا مَا أَمَرَ الْفِرَاقُ

[من الخفيف]

قَطَّعَ اللَّهُ قَلْبَ يَوْمِ الْوَدَاعِ

ويعجبي قول بعضهم في شكوى الفراق :

إِنَّ يَوْمَ الْوَدَاعِ قَطَّعَ قَلْبِي

[من الكامل]

أَوْلِي دَمٍ يَوْمَ الْفِرَاقِ يُرَاقُ!؟

وقول الآخر :

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّهُمْ نَذَرُوا دَمِي

[من الكامل]

أَلِمَ النَّوَى شَاهَدْتُ هَوْلَ الْمَوْقِفِ

وقول ابن الفارض [في «ديوانه» ١٥٢] :

وَبِمَا جَرَى فِي مَوْقِفِ التَّوْدِيْعِ مِنْ

(١) تَأَنَّى : تَمَهَّلَ وَتَرَفَّقَ . الْحَزَائِقُ : الْجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ .

(٢) الْغَلِيْلُ وَالْغُلَّةُ : شِدَّةُ الْعَطَشِ وَحِرَارَتُهُ .

(٣) حَلَيْتَنَا : وَصَفْنَا . امْتُعِنَ : تَغَيَّرَ لَوْنُهُ مِنْ حُزْنٍ أَوْ فِرَاقٍ أَوْ حَيَاءٍ . وَفِي «الديوان» : (بِئْسَا) بِدَل (بِنَا) ، وَ (اسْتُعِنَ) بِدَل (امْتُعِنَ) . وَمَعْنَى الْبَيْتِ :

تَفَرَّقْنَا ، فَلِعِظَمِ مَا نَالْنَا مِنَ أَلَمِ الْفِرَاقِ ، لَوْ أَرَدْتَ أَنْ تَصِفْنَا . مَا قَدَرْتَ ؛ لِتَغَيَّرِ أَوْصَافَنَا ، فَكُنْتَ لَا تَدْرِي بِأَيِّ لَوْنٍ تَصِفْنَا .

وقولُ ابنِ عبدِ ربِّهِ [في «ديوانهِ» ١٤٠] :

[من الخفيف]

وَدَّعْتَنِي بِزَفْرَةٍ وَاعْتِنَاكِ
إِنَّ يَوْمَ الْفِرَاقِ أَفْطَعُ يَوْمَ
ثُمَّ قَالَتْ مَتَى يَكُونُ التَّلَاقِي ؟
لِيَتَّبِعِي مِتُّ قَبْلَ يَوْمِ الْفِرَاقِ

[توديع ابن اللبانة للمعتمد بن عباد]

وَمِنْ أَرْقٍ مَا فِيهِ، وَأَبْعَثُهُ لِلأَشْجَانِ، وَتَحْرِيكِهِ لِلْبَلَابِلِ : قَوْلُ [ابْنِ] اللَّبَّانَةِ فِي تَوْدِيْعِ الْمَعْتَمِدِ بْنِ عَبَّادٍ، وَهُوَ : [مَنْ الْبَسِطِ]

تَبْكِي السَّمَاءُ بِدَمْعِ رَائِحِ غَادِي
عَلَى الْجِبَالِ الَّتِي هُدَّتْ قَوَاعِدُهَا
عَرِيْسَةٌ دَخَلَتْهَا النَّائِبَاتُ عَلَيَّ
وَكَعْبَةٌ كَانَتْ الْأَمَالَ تَخْدِمُهَا
يَا ضَيْفُ أَفْقَرَ بَيْتِ الْمَكْرُمَاتِ فَخُذْ
لَمَّا دَنَا الْوَقْتُ لَمْ تُخَلْفْ لَهُ عِدَّةٌ
إِنْ يُغْلَبُوا فَبَنُوا الْعَبَّاسِ قَدْ غَلِبُوا
نَسِيتُ إِلَّا غَدَاةَ النَّهْرِ يَوْمَ غَدَا
وَالنَّاسُ قَدْ مَلَكُوا الْعَبْرَيْنِ وَاعْتَبَرُوا
حَانَ الْوَدَاعِ فَضَجَّتْ كُلُّ صَارِخَةٍ
سَارَتْ سَفَائِنُهُمْ وَالنَّوْحُ يَتَّبِعُهَا
كَمْ سَالَ فِي الْمَاءِ مِنْ دَمْعٍ وَكَمْ حَمَلَتْ
عَلَى الْبَهَائِلِ مِنْ أَنْبَاءِ عَبَّادٍ
وَكَانَتْ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ذَاتَ أَوْتَادٍ
أَسَاوِدٍ مِنْهُمْ فِيهَا وَأَسَادٍ^(١)
وَالْيَوْمَ لَا عَاكِفَ فِيهَا وَلَا بَادِي
فِي ضَمِّ شَمْلِكَ وَاجْمَعْ فَضْلَةَ الزَّادِ
وَكُلُّ شَيْءٍ بِمِيقَاتٍ وَمِيعَادِ
وَقَدْ خَلَّتْ قَبْلَ حِمْلِ أَرْضِ بَغْدَادِ
فِي الْمُنْشَاتِ كَأَمْوَاتِ بِالْحَادِ
وَأَرْسَلُوا الدَّمَاعَ حَتَّى فَاضَ فِي الْوَادِي^(٢)
وَصَارِحٍ مِنْ مُفَدَّاتٍ وَمِنْ فَادِي
كَأَنَّهَا إِيلٌ يَخْدُو بِهَا الْحَادِي
تِلْكَ الْقَطَائِعُ مِنْ أَفْلَازِدِ أَكْبَادِ

[من الطويل]

وفي وصف ذلك اليوم بعينه يقول ابن حمديس [في «ديوانهِ» ٢٦٩] :

وَلَمَّا رَحَلْتُمْ بِالنَّدَى فِي أَكْفُكُمُ
رَفَعْتُ لِسَانِي بِالْقِيَامَةِ قَدْ دَنَتْ
وَقَلِقِلَ رَضْوَى مِنْكُمْ وَثَبِيرُ^(٣)
فَهَلْذِي الْجِبَالُ الرَّاسِيَاتُ تَسِيرُ

[من السريع]

وقد نظرَ فيه إلى قولِ ابنِ المعتزِّ في رِثَاءِ ابْنِ الْفِرَاتِ [في «ديوانهِ» ٣٢٦] :

هَذَا أَبُو الْعَبَّاسِ فِي نَعْشِهِ
قَوْمُوا انظُرُوا كَيْفَ تَسِيرُ الْجِبَالُ

[من الكامل]

وأغارَ عليه الناظمُ في قوله [في «المُعْجَبِيِّ» ١٢٩/٢] :

مَا كُنْتُ أَمَلُ قَبْلَ نَعْشِكَ أَنْ أَرَى
رَضْوَى عَلَى أَيْدِي الرَّجَالِ تَسِيرُ

[ابن دراج وزوجته]

وَمَنْ الَّذِي لَا تَهِيحُ أَشْجَانُهُ ، وَلَا تَضْطَرُّ أَحْزَانُهُ ، وَلَا تَضْطَرُّ نِيرَانُهُ عِنْدَمَا يَسْمَعُ قَوْلَ ابْنِ دَرَّاجٍ ، وَقَدْ عَزَمَ عَلَى

(١) العَرِيْسَةُ : ماوى الأسد .

(٢) العَبْرَيْنِ : طَرَفَا النَّهْرِ .

(٣) قَلِقِلَ : اضطرب . رَضْوَى : اسمُ جبلٍ (بـ) المَدِينَةِ ، وَثَبِيرُ : اسمُ جبلٍ بين (مكة) و(منى) ، ومنه قيل : اشرق ثبير كما نغير .

المسير ، وحنقه وزوجه الشهيق والزفير [في « ديوانه » ٢٥٠] :

[من الطويل]

تُرَاجِعُنِي عَهْدَ الْمَوَدَّةِ وَالْهَوَى
عِيِّي بِمَرْجُوعِ الْخِطَابِ وَإِنَّهُ
وَفِي الْمَهْدِ مَبْعُومُ النَّدَاءِ صَغِيرٌ^(١)
بِمَوْقِعِ أَهْوَاءِ [النَّفُوسِ] خَبِيرٌ

[الله درك يا بن زريق]

وقول ابن زريق [البغدادي في « ديوانه »] :

[من البسيط]

وَكَمْ تَشَبَّتَ بِي يَوْمَ الرَّحِيلِ ضَحَى
وَكَمْ تَشَفَّعَ بِي أَلَا أَفَارِقُهُ
وَأَذْمُعِي مُسْتَهْلَاتٍ وَأَذْمُعُهُ
وَلِلضَّرُورَاتِ حَالٌ مَا يُشَفِّعُهُ

[من الكامل]

ولا نبخسُ الشيخَ البرعيَّ حقَّه من الرقةِ والعدوبةِ في أمثالِ قوله [في « ديوانه » ١١١] :

بِأَبِي مُودَعَةً تَخَافَتْ صَوْتَهَا
قَالَتْ : تُوَدِّعَنَا ، فَقُلْتُ لَهَا : نَعَمْ
خَوْفَ الرَّقِيبِ وَعَيْنُهَا تَتَمَّالَا
قَالَتْ : فَتَنْسَانَا ، فَقُلْتُ لَهَا : لَا

[من الوافر]

وقال شيخنا العلامة أبو بكر بن شهاب من قصيدة تخلص فيها إلى مدح جدِّي المُحسن :

وَلَمْ أَنْسَ الْوَدَاعَ وَمَا جَرَى لِي
بَكَتْ خَوْفَ النَّوَى وَبَكَيْتُ قَهْرًا
تَبَّتْ إِلَيَّ شَكْوَاهَا فَأَشْكُو
وَقَالَتْ لِي : أَنْزِجْ عَن قَرِيبٍ ؟
غَدَاةَ الْبَيْنِ إِذْ عَزَّ الْمَقَامُ
دَمًا فِيهَا وَبِي لَعِبَ الْغَرَامُ
إِلَيْهَا وَالِدُمُوعُ لَهَا انْسِجَامُ
فَقُلْتُ : نَعَمْ وَلِلدَّهْرِ احْتِكَامُ

[قصيدة للمؤلف في الموضوع]

[من الطويل]

وكم لي فيه من مثيرِ غرام ، ومدججِ ضرام ، منه قولِي [في « ديوان المؤلف » ٥٢٥] :

تَذَكَّرْتُ شَرْقِيَّ الْحِمَى مَنِبَتِ الْأَثَلِ
مَشَارِفُ مَا فِيهِنَّ لِلْعَيْنِ مَنْظَرٌ
فَمَا زَرَعُهَا زَاكٌ وَلَا نَمَّ قَاطِنٌ
وَلَكِنَّ فِيهَا نَشَاتِي وَوِلَادَتِي
فَمَا فِي بِلَادِ اللَّهِ أَرْضٌ كَمِثْلِهَا
وَلَمْ أَنْسَ فِي يَوْمِ الْوَدَاعِ مَوَاقِفًا
تُرَاجِعُنِي فِيهَا الْهَوَى أُمَّ شَادِنِ
وَتَلْوِي بَلِيَّتَهَا مَخَافَةَ طِفْلَةٍ
وَمَا أَصْعَبَ الذُّكْرَى عَلَيَّ ذِي الْوَفَا مِثْلِي^(٢)
يَرُوقُ سِوَى شَيْءٍ مِنَ السِّدْرِ وَالنَّخْلِ
بِهَا غَيْرُ شَاكٍ قِلَّةَ الْأَمْنِ وَالْعَدْلِ
وَحَلَفْتُ فِيهَا صَبِيَّتِي وَبِهَا أَهْلِي
لَدَيَّْ عَلَيَّ تِلْكَ الْمَخَافِ وَالْأَزْلِ^(٣)
لَوَاعِجُهَا فِي الْقَلْبِ أَشْوَى مِنَ الثُّكْلِ
وَأَجْفَانُهَا تَجْرِي وَأَشْجَانُهَا تَغْلِي^(٤)
تَرَى مَا بِهَا مِنْ حَسْرَةِ الْبَيْنِ أَوْ طِفْلِ

(١) البعوم : الصوتُ الرخيمُ .

(٢) الأثل : نوعٌ من أجودِ الشجر .

(٣) الأزل : الضيقُ والشدةُ .

(٤) الشادن : من أولادِ الظباءِ الذي قويَ وطلعَ قرناه واستغنى عن أمه .

تَصُدُّ لِإِيَّاهُمَ الْأَطْيَفَالِ تَارَةً
وَيَمْنَعُهَا سَوْقَ الْمَقَالِ نَشِيجُهَا
تَقُولُ إِلَى أَيْنِ الشَّرَى بَعْدَمَا تَرَى
فَقُلْتُ : قَرِيباً تَنْطَوِي شُقَّةُ النَّوَى
وَتَقْبَلُ أَحْيَاناً بِفَوَارَتِي وَبَلِ^(١)
سَوَى كَلِمَاتٍ سَاقَطَتْهَا عَلَى رَسْلِ
فَلَيْسَ لَنَا دَرْعٌ عَلَى فُرْقَةِ الشَّمْلِ
وَيُعْقِبُهَا مِنْ فَضْلِهِ اللهُ بِالْوَصْلِ

[الخلافا في شأن التوديع]

ثُمَّ إِنَّ الْأُدْبَاءَ عَلَى اخْتِلَافٍ فِي شَأْنِ التَّوْدِيعِ :

[١- عصفور باليد أفضل من عشر على الشجر]

[من الطويل]

فمنهم : مَنْ أَحَبَّهُ لِتَقْرِيْبِهِ مِنَ الْعِنَاقِ وَالِاتِّصَالِ ، كَمَا قَالَ النَّازِمُ فِي « الْعُكْبَرِيِّ » ٢ / ٦٠ :

وَمَنْ لِي يَوْمٍ مِثْلِ يَوْمِ كَرِهْتُهُ
قَرُبْتُ بِهِ عِنْدَ الْوَدَاعِ مِنَ الْبُعْدِ

[من الطويل]

وَقَالَ الْأَنْدَلُسِيُّ [إِبْرَاهِيمَ الْحَجَارِي فِي « نَفْحِ الطَّيْبِ » ٣ / ٤١١] :

لِئِنْ كَرِهُوا يَوْمَ الْوَدَاعِ فَإِنِّي
أَصَافِحُ مَنْ أَهْوَاهُ غَيْرَ مُرَاقِبٍ
أَهِيْمُ بِهِ وَجَدّاً لِأَجْلِ عِنَاقِهِ
وَسِرُّ التَّلَاقِي مُودَعٌ فِي فِرَاقِهِ

[من الخفيف]

وَأَشَدُّ الْمَبْرُدُ :

مُتَّعَا بِالْفِرَاقِ يَوْمَ الْفِرَاقِ
وَأَظْلَّ الْفِرَاقُ فَالْتَقَا فِيهِ
مُسْتَجِيرَيْنِ بِالْبُكَاءِ وَالْعِنَاقِ
فِيهِ فِرَاقٌ أَتَاهُمَا بِاتِّفَاقٍ
كَيْفَ أَدْعُو عَلَى الْفِرَاقِ بِخُتْفٍ
وَعَدَاةِ الْفِرَاقِ كَانَ التَّلَاقِي

وَهِيَ آيَاتٌ بَارِدَةٌ مُتَكَلِّفَةٌ .

[٢- درء المفساد مقدم على جلب المصالح]

ومنهم : مَنْ كَرِهَهُ لِإِفْضَائِهِ إِلَى الْإِحْتِرَاقِ ، وَبَلَغَ الرُّوحِ التَّرَاقِ ، وَبَسَطَ مَا فِيهِ يُفْضِي إِلَى الْإِمْلَالِ ، فَلِنَدْعُهُ إِلَى فُرْصَةٍ أُخْرَى .

[المحب شقي على كل الأحوال]

[من الوافر]

وَقَالَ الْحَمَاسِيُّ فِي « دِيْوَانِ الْحَمَاسَةِ » ٢ / ١٢٤ :

وَمَا فِي الْأَرْضِ أَشَقَى مِنْ مُحِبِّ
تَرَاهُ بَاكِيَا فِي كُلِّ وَقْتٍ
وَيَبْكِي إِذَا نَأَوْا شَوْقاً إِلَيْهِمْ
وَإِنْ وَجَدَ الْهَوَى حُلُوَ الْمَذَاقِ
مَخَافَةَ فُرْقَةٍ أَوْ لِاشْتِيَاقِ
وَبَيْكِي إِذَا دَنَوْا خَوْفَ الْفِرَاقِ

[من المنسرح]

وَقَدْ نَظَرَ إِلَيْهِ النَّازِمُ فِي قَوْلِهِ فِي « الْعُكْبَرِيِّ » ٣ / ٢٦٦ :

وَاحْرَبَا مِنْكَ يَا جَدَايْتَهَا
مُؤَيَّمَةً فَاغْلَمِي وَمُرْتَحَلَةً!^(٢)

(١) فَوَارَتَا الْوَيْلِ : الْمُرَادُ بِهِمَا الْعَيُونَ الدَّامِعَةُ .

(٢) الْحَرْبُ : الْهَلَاكُ . الْجَدَايَةُ - بفتح الجيم وكسر هاء - الذكْرُ وَالْأُنثَى مِنْ أَوْلَادِ الطَّبَّاءِ . وَالْمَعْنَى : أَنَّهُ يَنْدُبُ حَظَّهُ مِنْ طَبِيبَةِ هَذِهِ الدَّارِ ، لِأَنَّهَا إِذَا أَقَامَتْ مَنَعَتْهُ مِنَ الْوَصُولِ إِلَيْهَا ، وَالسَّفَرُ حَائِلٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا ، فَحَرَبَهَا وَبَعْدَهَا سِيَانِ .

وقوله [في «المكبري» ٣٠٤/٢] :

[من الطويل]

وَيَبِينُ الرِّضَا وَالسُّخْطِ وَالقُرْبِ وَالنَّوَى

مَجَالٌ لِدَمْعِ العَاشِقِ المْتَرَفِّقِ^(١)

ويعجبي قول بعضهم :

[من الطويل]

حَبِيبِي غَدَاً لَا شَكَّ فِيهِ مُودَعٌ
فَيَا يَوْمٌ لَا أَدْبَرْتَ هَلْ لَكَ مَحْبِسٌ
إِذَا لَمْ أَشِيعْهُ تَقَطَّعْتُ حَسْرَةً

فَوَاللهِ مَا أَدْرِي بِهِ كَيْفَ أَصْنَعُ
وَيَا غَدَاً لَا أَقْبَلْتُ هَلْ لَكَ مُدْفِعٌ؟
وَوَاكِبِدَاً إِنْ كُنْتُ مِمَّنْ يُشِيعُ

وقال الناظم [في «المكبري» ١٤٨/٤] :

[من الوافر]

وَفَارَقْتُ الحَبِيبَ بِبِلَا وَدَاعٍ

وَوَدَّعْتُ البِلَادَ بِبِلَا سَلَامٍ

وقال مهبأر :

[من الكامل]

صَلْبُ الحَصَاةِ يُشَوِّرُ غَيْرَ مُرَوِّدٍ

مِنْ أَهْلِهِ وَيَسِيرُ غَيْرَ مُودِعٍ

[الافتناع باليسير من المحبوب عند الشعراء]

وأما الافتناع باليسير من المحبوب : فإنه كثير في الأشعار ؛ منه قول الناظم [في «المكبري» ٣/٣] :

[من الوافر]

وَجُودَكَ بِالمَقَامِ وَلَوْ قَلِيلاً

فَمَا فِيمَا تَجُودُ بِهِ قَلِيلاً^(٢)

وقوله [في «المكبري» ١٣٤/٢] :

[من الكامل]

وَقَنَعْتُ بِاللُّقْيَا وَأَوَّلِ نَظْرَةٍ

إِنَّ القَلِيلَ مِنَ الحَبِيبِ كَثِيرٌ

وقال ابن الطَّشْرِيَّةِ [في «ديوانه» ٩٧] :

[من الطويل]

أَلَيْسَ قَلِيلاً نَظْرَةً إِنْ نَظَرْتَهَا

إِلَيْكَ ؟ وَكَأَلَّا لَيْسَ مِنْكَ قَلِيلاً

وقال ابن أبي ربيعة [في «ديوانه» ٢٧٥] :

[من الخفيف]

لَيْتَ حَظِّي كَطَرْفَةِ العَيْنِ مِنْهَا
أَوْ حَدِيثِ عَلِيٍّ خَلَاءٍ يُسَلِّي
كَبُرْتُ رَبِّ نِعْمَةٍ مِنْكَ يَوْمًا

وَكَثِيرٌ مِنْهَا القَلِيلُ المُهَنَّأ
مَا يُجَنِّي الفُؤَادَ مِنْهَا وَمِنَّا
أَنْ أَرَاهَا قَبْلَ المَمَاتِ وَمِنَّا

وقال ذو الرُّمَّةِ [في «ديوانه» ٩١٣/٢] :

[من الطويل]

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا تَعَلُّلُ سَاعَةٍ

قَلِيلاً فَإِنِّي نَافِعٌ لِي قَلِيلُهَا

وقال ابن مُطَيْرٍ [في «ديوانه» ٥٤] :

[من الطويل]

كَلَامُكَ - يَا سَلْمَى - وَإِنْ قَلَّ نَافِعِي

فَلَا تَحْسَبِي أَنِّي وَإِنْ قَلَّ حَاقِرُهُ

(١) المترقق : الذي يجول في العين ولا ينحلر . وفي «الديوان» : (المقلّة) بدل (العاشق) .

(٢) أي : وجد جودك .

وقال إسحاق الموصليّ [في «معجم الأدباء» ٤٠/٦] :

[من الخفيف]

إِنَّ مَا قَلَّ مِنْكَ يَكْثُرُ عِنْدِي وَكَثِيرٌ مِمَّنْ تُحِبُّ قَلِيلٌ

[من الوافر]

وقال أبو نصر الميكاليّ :

قَلِيلٌ مِنْكَ يَكْفِينِي وَلَكِنْ قَلِيلُكَ لَا يُقَالُ لَهُ قَلِيلٌ

[وأجمله : عند سلطان العاشقين]

[من الطويل]

وقد تنوّق^(١) فيه سلطان العاشقين ، فقال [في «ديوانه» ٤٧] :

وَمُنِّيَ عَلَيَّ سَمْعِي بِ (لَنْ) إِنْ مَنَعْتَ أَنْ أَرَكَ فَمِنْ قَبْلِي لِغَيْرِي لَذَّتْ

[من الخفيف]

وقال [في «ديوانه» ١٥٧] :

ذَابَ قَلْبِي فَأَذَنْ لَهُ يَتَمَنَّا
وَإِذَا لَمْ تُنْعَشْ بِرُوحِ التَّمَنِّي
أَبْقَى لِي مُهْجَةً لَعَلِّي يَوْمًا
أَوْ مُرِ الغَمُضُ أَنْ يُمَرَّ بِجَفْنِي
كَ وَفِيهِ بِقِيَّةٌ لِرَجَاكَ
رَمَقِي وَافْتَضَى فَنَائِي بِقَاكَ
قَبْلَ مَوْتِي أَرَى بِهَا مَنْ رَأَا
فَكَأَنِّي بِهِ مُطِيعًا عَصَاكَ^(٢)

[من الطويل]

وقال [في «ديوانه» ٥٦] :

وَلِي مِنْكَ كَافٍ إِنْ هَدَرْتَ دَمِي وَلَمْ أَعُدَّ شَهِيدًا عِلْمٌ دَاعِي مَيِّبِي

[الروذباري والشاب الطريح]

وفي ترجمة الروذباري المتوفى سنة : (٣٢٠ هـ) من «طبقات ابن السبكي» [٤٩/٣] : أَنَّهُ مَرَّ بِشَابِّ طَرِيحٍ فَقَالُوا : إِنَّهُ اجْتَازَ بِهَذَا الْقَصْرِ وَجَارِيَةٌ تَغْنِي وَتَقُولُ :

[من مجزوء الرّمل]

كُبُرَتْ هَمًّا عَبْدٍ
أَوْ مَا يَكْفِينِي لِعَيْنِي
طَمَعَتْ فِي أَنْ تَرَكََا
أَنْ تَرَى مَنْ قَدْ رَاكََا

[من الطويل]

وَمِنَ الْغَايَاتِ فِي هَذَا الْبَابِ قَوْلُ ابْنِ الدَّمِينَةِ [في «ديوانه»] :

رَضِيْتُ بِسَعْيِ الْوَهْمِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا
وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْوَصْلِ مِنْهُ نَصِيبٌ

[من الطويل]

وقال آخرُ :

قِفِي نَوَّلِينِي نَظْرَةً إِنْ نَظَرْتُنْهَا
إِلَى الْحَوْلِ تَكْفِينِي عَنِ الْمَاءِ وَالزَّادِ

[من الخفيف]

وهو مثل قول الناظم [في «العكبري» ٤٧/٢] :

هَازِهِ النَّظْرَةَ الَّتِي نَالَهَا مِنْكَ إِلَى مِثْلَهَا مِنْ الْحَوْلِ زَادُهُ

(١) تنوّق فلان في أمره : إذا تجوّد وبالغ وأحكم .

(٢) الغمض : النوم .

[امراة في الطواف]

وقال بعضهم [كما في « المستطرف » ١/٤٤٢] : رأيتُ امراةً مستقبلةً البيتَ في الموسمِ ، وهي على غايةٍ من النحافةِ والضَّرِّ ، رافعةٌ يديها تدعو ، فقلتُ لها : هل لكِ من حاجةٍ؟ قالت : حاجتي أن تُنادي في الموقفِ بقولي : [من الخفيف] تَزَوَّدَ كُلُّ النَّاسِ زَادًا يُقِيمُهُمْ وَمَالِي زَادٌ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ نَفْسِي

فعلتُ ، فإذا أنا بفتىٍ منهوكِ القوى ، يقولُ : أنا واللهِ الزَّادُ ، فمضيتُ به إليها ، فما زادوا على النظرِ والتباكي ، ثمَّ قلتُ له : انصرفْ مصاحباً ، فقلتُ : ما علمتُ أن التَّقاءَ كما يكونُ قاصراً على هذا ، فقالتُ : أمسكْ يا فتى ، أما علمتُ أن ركوبَ العارِ ودخولَ النارِ شديدٌ !؟ .

وقال بعضهم :

[من الطويل]

أَقْلَبُ طَرْفِي فِي السَّمَاءِ تَرَدُّدًا
وَأَسْتَعْرِضُ الرُّكْبَانَ مِنْ كُلِّ وَجْهَةٍ
وَأَسْتَقْبِلُ الْأَزْوَاحَ عِنْدَ هُبُوبِهَا
لَعَلَّ نَسِيمَ الرِّيحِ عَنْكَ يُخَبِّرُ

[من الطويل]

لَو ابْصَرَهُ الْوَأَشِي لَقَرَّتْ بِلَابِلِهِ^(٢)
وَبِالْوَعْدِ ، وَالتَّسْوِيفِ قَدْ مَلَّ أَمْلُهُ
أَوْ أَحْرَهُ مَا نَلْتَقِي وَأَوَائِلُهُ

[من الوافر]

وَإِيَّانَا فَذَاكَ بِنَا تَدَانِي ؟
وَيَعْلُوهَا النَّهَارُ كَمَا عَلَانِي

[من البسيط]

تَزُورُهُ مِنْ رِيَّاحِ الشَّرْقِ مَا عَقْلًا

[من الخفيف]

لَمْ تَرُغْنِي ثَلَاثَةَ بَصُدُودٍ

وَأَنِّي لِأَرْضِي مِنْكَ يَا عَزَّ بِالَّذِي
بِلَا ، وَبِأَنَّ لَا أَسْتَطِيعُ ، وَبِالْمُنَى
وَبِالنَّظَرَةِ الْعَجَلَى ، وَبِالْحَوْلِ يَنْقُضِي

وقال كثيرٌ عزةً [في « ديوانه » ٤١٩] :

وَأَنِّي لِأَرْضِي مِنْكَ يَا عَزَّ بِالَّذِي
بِلَا ، وَبِأَنَّ لَا أَسْتَطِيعُ ، وَبِالْمُنَى
وَبِالنَّظَرَةِ الْعَجَلَى ، وَبِالْحَوْلِ يَنْقُضِي

وقال جحدراً [في « خزنة الأدب » ١١/٢٠٩] :

أَلَيْسَ اللَّيْلُ يَجْمَعُ أُمَّ عَمْرٍو
نَعَمْ ، وَأَرَى الْهَيْلَالَ كَمَا تَرَاهُ

ويأتي ما يتعلق به عند شرح قوله [في « المُكَبَّرِي » ٣/١٦٤] :

يُجِنُّ شَوْقًا فَلَوْلَا أَنْ رَائِحَةَ

من المجلس السابع .

وعند قوله [في « المُكَبَّرِي » ١/٣١٩] :

أَيَّ يَوْمٍ سَرَرْتَنِي بِوِصَالِ

وأخر المجلس التاسع .

* * *

(١) العَرَفُ : الرِّيحُ ، طَيِّبَةٌ كَانَتْ أَوْ خَبِيثَةً ، يُقَالُ : مَا أَطْيَبَ عَرَفَهُ .

(٢) الْوَأَشِي : النَّمَامُ . الْبَلَابِلُ : شِدَّةُ الْهَمِّ وَالْوَسْوَاسُ فِي الصُّدُورِ .

بَانُوا بِخُرْعُوْبَةٍ لَهَا كَفَلٌ يَكَادُ عِنْدَ الْقِيَامِ يُقْعِدُهَا ^(١)

[المرأة ممدوحة بكبر العجيزة]

يقول: ذهبوا بشابّةٍ بضّةٍ ^(٢) لها كَفَلٌ ، يكادُ يُقْعِدُهَا ما عليه مِنْ كَثْرَةِ اللحمِ ، وهذا أيضاً يُؤَيِّدُ الاحتمالَ الثاني ، وهوَ : وصفُهُمْ حالَ الارتحالِ ، والمرأةُ ممدوحةٌ بِكِبَرِ العجيزةِ ، وقد تَكَرَّرَ عِنْدَهُ ، فمنهُ قولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » : ٢١٠/٣] :

[من المنسرح]

يَجْذِبُهَا تَحْتَ خَضْرُهَا عَجُزٌ كَأَنَّهُ مِنْ فِرَاقِهَا وَجِلٌ

[من الكامل]

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢٣٤/٣] :

تَشْكُو رَوَادِفِكَ الْمَطِيئَةَ فَوْقَهَا شَكْوَى التِّي وَجَدَتْ هَوَاكَ دَخِيلاً

[من البسيط]

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ١١٧/٢] :

أَعَارَنِي سُقْمَ جَفْنَيْهِ وَحَمَلَنِي مِنْ الْهَوَى ثِقَلَ مَا تَحْوِي مَازِرُهُ

[جزء من حديث أم زرع]

وفي حديثِ أمِّ زرعٍ : (عَكُومُهَا رَدَاخٌ) ^(٣) ، وقد فَسَّرَهُ بعضُهُمْ : بانتفاجِ العجيزةِ ^(٤) ، وفيهِ أيضاً : (فَوَجَدَ امْرَأَةً لَهَا ابْنَانِ مِثْلُ الصَّقْرَيْنِ يَلْعَبَانِ مِنْ تَحْتِ خَضْرُهَا بِرُمَّانَتَيْنِ) ^(٥) ، وقد قِيلَ : إنَّ المرادَ بِالرَّمَّانِ الحَقِيقَةُ ، وَأَنَّهُمَا يَلْعَبَانِ بهما ، فلا يَمْسَانِ ظَهْرَهَا ؛ لارتفاعِهِ بِعَظْمِ المَآكِمِ .

[حلم معاوية رضي الله عنه]

وكانتْ هُنْدُ ابْنَةُ عْتَبَةَ مَضْرِبِ المِثْلِ فِي ذلكَ ، حتَّى لَقِدَ جوعِلٌ ^(٦) بعضُهُمْ على أنْ يذكَرَها لمعاويةَ ، فمَضْرَبَ على عَجِيزَتِهِ وهوَ يَصْلِي ، وقالَ : ما أَشَبَّهَها بعجيزةِ أُمَّكَ ، فلَمَّا سَلَّمَ . قالَ لَهُ : ما لَكَ ولِها ؟ إِنَّمَا كانَ يَليها أَبُو سَفيانَ . وحمَلُهُ معَ ذلكَ ، وكسأهُ ، ولكنْ - واللهُ أَعْلَمُ بِصَحَّةِ ذلكَ جَمِيعِهِ - دَسَّ مَنْ يَحْمِلُهُ على التَحَرُّشِ بِزيادٍ ؛ ليشيْطَ بِدَمِهِ ، فَذهبَ إِلى (العِراقِ) ، وسألَ زياداً عَن أُمَّهِ ، وهوَ يَخْطُبُ ، فقالَ لَهُ : يخبِرُكَ عنها هذا ، وَأشارَ إِلى شِراطِي ، ذهبَ بِهِ ، واحْتَزَّ الَّذِي فِيهِ عِناهُ .

(١) الخُرْعُوْبَةُ : الشَّابَّةُ الحَسَنَةُ الجَسِيمَةُ فِي قَوامِ ، وقالَ اللَّخَيَّانِيُّ : هِيَ الرَّقِيقَةُ العَظِيمُ ، الكَثِيرَةُ اللحمِ ، الناعِمَةُ .

(٢) البَضَّةُ ، يقالُ : امرأَةٌ باضَةٌ وَبَضَّةٌ كَثِيرَةُ اللحمِ .

(٣) أخرجه عن عائشة البخاري (٥١٨٩) في النكاح .

(٤) يقالُ امرأَةٌ نُفَّجٌ : إذا كانت ضخمة الأردافِ والمآكِمِ .

(٥) طرف من حديث عائشة السالف .

(٦) جوعِلٌ : أي أعطِيَ جُعلاً ، وهو المَالُ المؤدَّى لِلإنسانِ ليفعلَ شيئاً .

[الأحنف يقطع يد رجل بحلمه وذكائه]

ويهنده ذكرت ما رواه غير واحد : أَنَّ رجلاً جاءَ إلى الأحنفِ بنِ قيسٍ ، فلطمَ وجهَهُ ، فقالَ : ما شأنك يا ابن أخي ؟ وما دعاك إلى هذا ؟ قالَ : آليتُ أن أَلطمَ سيّدَ العربِ من بني تميم . قالَ : لِمَ تَبَرَّ يمينك ؟ فما أنا بسيّدِها ، إنّما ذلك حارثةُ بنُ قدامة ، فذهبَ الرجلُ ، فلطمَ حارثةُ ، فقامَ إليه حارثةُ بالسيفِ ، فقطعَ يمينَهُ ، فبلغَ الأحنفَ ، فقالَ : أنا - والله - قَطَعْتُهَا^(١) .

[السبب في كون كبر العجيزة ممدوحاً]

وأرادَ معاويةُ أن يعثَ بإحدى فضلياتِ العربِ ، وعيّرَها بشديها وكفلها ، فقالتَ : إنّما كان يُضربُ المثلُ في كبرِ هذينِ بأُمَّك ، فقالَ لها : إنّنا لم نُقلْ لك إلاّ خيراً!! إذا كَبُرَ ثديُ المرأةِ . . رويَ ولدها ، واتسعَ صدرُها ، وإذا انتفجَ كفلها . . حَسَنَ مجلسُها . قالتَ : أو ذاك ؟!!

[الثريا وانتفاج عجزها]

وأخرج الأصفهانيُّ بسننِهِ [كما في «الأغاني» ١/٢٢٥] : أنّ الثريا كانت تُصَبُّ جرةَ ماءٍ على بَدَنِها ، وهي قائمةٌ ، فلا يُصيبُ ظاهرَ فخذَيْها شيءٌ منه ؛ لارتفاعِ عَجْزِها .

وفيهَا أو في عائِشةَ بنتِ طلحةٍ يقولُ ابنُ أبي ربيعةَ [كما في «الأغاني» ١٧/١٣٣] :

تَنوُّ بِأَخْرَاهَا فَلأيا قِيَامُهَا وَتَمَشِي الهُوَيْنَا عَن قَرِيبٍ فَتَبْهَرُ^(٢)

[أخت الحجاج تنذر أن تعتمر ماشية]

ويروي : أنّ زينبَ ابنةَ يوسفَ ، أختَ الحجاجِ ، نذرتُ أن تعتمرَ ماشيةً من (الطائفِ) إنّ شُفيَ أبوها من شكْوِ ألمِّ بهِ ، ثمّ لم تصل (مكّة) [إلاّ] على شهرٍ ؛ من سَمِنها وامتلائها ، وتجاذبِ أطرافِها وروادِفِها ، وفي وجهِها ذلك يقولُ التَّميرِيُّ :

تَضَوَّعَ مِسْكَاً بَطْنُ نَعْمَانَ إِنْ مَشَتْ
يُخَبِّئْنَ أَطْرَافَ الْبِنَانِ مِنَ التَّقَى
وَكُنَّ رَأَتْ رَكْبَ التَّمِيرِيِّ أَعْرَضَتْ
بِهِ زَيْنَبُ فِي نِسْوَةِ خَفِرَاتِ^(٣)
وَيَخْرُجْنَ جُنْحَ اللَّيْلِ مُعْتَمِرَاتِ
وَكُنَّ مِنْ أَنْ يَلْقَيْنَهُ حَذِرَاتِ

وفي ذلك خبرٌ طويلٌ .

وممّن اشتهرَ بذلك ضباعةُ ابنةُ عامرِ بنِ صعصعةَ ، كما وصفها بعضُ الصحابةِ ، وقد رآها وهو غلامٌ يافعٌ تطوفُ بالبيتِ عُريانةً .

وحديثُ ذلكَ : أنّ عبدَ اللهَ بنَ جُدعانَ . . خطبها ، وكانت عندَ رجلٍ من قُرَيشٍ ، فخببها عليه^(٤) ، وأشارَ عليها أن

(١) القصة في «المستطرف» (٢٠٢/٢) .

(٢) تنوُّ : ناءٌ بحملي : نهضَ بجهدٍ ومشقةً ، والمرأة تنوُّ بها عَجِيزَتُها ؛ أي : تُثَقِّلُها ، وهي تنوُّ بعجيزتها ، أي تنهضُ بها مُثَقَّلةً . اللَّأْيُ : بَطءُ القيامِ . البُهْرُ : الإغْيَاءُ .

(٣) تَضَوَّعَ : فَاحَ . خَفِرَاتُ : حَيَّاتُ ، محفوظاتٌ من الفسادِ .

(٤) خَبَّبَها : أفسدها ، وفي الحديث عن أبي هريرة عند أبي داود (٥١٧٠) ، والحاكم (١٩٦/٢) وصححه : « من خبب على امرئ زوجته أو مملوكه فليس

منه » .

تَجَنَّى وَتَطَلَّبَ مِنْهُ الطَّلَاقَ ، فَأَجَابَهَا عَلَى شَرَطِ أَنْ لَا تَتَزَوَّجَ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ جُدَعَانَ ، فَإِنْ خَانَتْ . . فَعَلَيْهَا أَنْ تَنْحَرِمَ مِئَةَ بَدَنَةٍ ، وَتَنْسَجَ لَهُ ثَوْبًا فِي طَوْلِ مَا بَيْنَ الْأَخْشِيِّينَ ، وَتَطُوفَ بِالْبَيْتِ ضَحَى مَتَجَرِّدَةً عَنِ الثِّيَابِ ، فَقَبِلَتْ بِرَأْيِ مَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدَعَانَ ، وَلَمَّا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا . . تَزَوَّجَهَا ، وَأَعْطَاهَا الْبُذْنَ ، فَنَحَرَتْ ، وَنَسَجَ لَهَا إِمَاؤُهُ ثَوْبًا فِي ذَلِكَ الطَوْلِ ، بَعَثَتْ بِهِ لَزُوجِهَا الْأَوَّلِ ، وَطَلَبَ مِنْ قَرِيشٍ أَنْ تُخَلِّيَ لَهُ الْمَطَافَ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، فَطَافَتْ عَرِيانَةً ، وَلَمْ يَكُنْ لِلْمَسْجِدِ جِدَارٌ إِذْ ذَاكَ . قَالَ الرَّاوِي : فَكُنْتُ فِيمَنْ بَقِيَ حَوْلَ الْكَعْبَةِ لِصَغْرِ سِنِّي ، فَلَمْ أَرَ أَحْسَنَ مِنْهَا مَقْبَلَةً وَلَا مَدْبَرَةً ، وَإِنَّ رَكَبَهَا وَكَفَلَهَا لِمَرْتَفَعَانِ ، تَقُولُ فِي طَوَافِهَا :

الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ أَخْتَمَ مِثْلَ الْعُقَبِ بَادٍ ظِلُّهُ^(١)

إِنَّمَا قَالَتْ : (بَعْضُهُ) ؛ لِأَنَّهَا سَتَرَتْ بِيَدَيْهَا [بَعْضُهُ] الْآخَرَ .

[وَمِنْهُنَّ نَائِلَةُ الْكَلْبِيَّةِ]

وَكَانَتْ نَائِلَةُ الْكَلْبِيَّةِ ابْنَةُ الْفَرَاغِصَةِ مَمَّنْ تَدْخُلُ تَحْتَ الْوَصْفِ .

[الشعراء في هذا الموضوع]

وَنَقَلَ السَّيْوَيْطِيُّ ، عَنِ الْأَصْمَعِيِّ ، وَأَبِي عَمْرٍو ، وَغَيْرِهِمَا : أَنَّهُ أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي وَصْفِ امْرَأَةٍ عَجَزَاءَ خَمِيصَةَ قَوْلُ أَبِي وَجْزَةَ السَّعْدِيِّ :

أَدْمَاءُ فِي وَضَحٍ يَكَادُ رِدَاؤُهَا يَغْرَى وَيَصْنَعُ مَا أَحَبَّ إِزَارُهَا^(٢)

وَفِي الْمَوْضُوعِ يَقُولُ عَمْرٍو بْنُ كُلْثُومٍ [فِي « دِيْوَانِهِ » ٨٠] :

وَمَأْكَمَةٍ يَضِيقُ الْبَابُ عَنْهَا وَكَشْحٍ قَدْ جُنِنْتُ بِهِ جُنُونًا^(٣)

وَقَالَ عَرُوءَةُ بْنُ الْوَرْدِ^(٤) :

أَبَتْ الرَّرَوَادِفُ وَالْثُّدِيَّ لِقَمُصِهَا مَسَّ الْبُطُونِ وَأَنْ تَمَسَّ ظُهُورًا

وَقَالَ النَّابِغَةُ الذُّبْيَانِيُّ [فِي « دِيْوَانِهِ » ٢٣٥] :

تَلُّوْتُ بَعْدَ افْتِضَالِ الْبُرْدِ مَبْرَزَهَا لَوْثًا عَلَيَّ مِثْلَ دِعْصِ الرَّمْلَةِ الْهَارِي^(٥)

وَقَالَ حَسَّانُ [فِي « دِيْوَانِهِ » ٢٩] :

وَتَكَادُ تَكْسَلُ أَنْ تَجِيءَ فِرَاشَهَا فِي لَيْلِنِ خَرْعَبَةٍ وَحُسْنِ قَوَامِ

(١) الفرج الأحمم : متفخخ قصير السمك خنق ضيق ، والشطر الآخر يروى :

وما بدا منه فلا أجله

(٢) آدماء : سمراء .

(٣) الكشح : ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلفي .

(٤) البيت في « ديوان عمر ابن أبي ربيعة » (٤٩٢) .

(٥) تلوث : تمشي ببطء لسميتها . الدعص : كتيب من الرمل مجتمع .

وقال هذبةُ بنُ الخشرمِ [في «ديوانه» ١١٧] :

[من الطويل]

خَرَجْنَ بِأَعْنَاقِ الطَّبَّاءِ وَأَعْيُنِ الْأَجَّازِ وَارْتَجَّتْ لَهْنِ الرَّوَادِفِ^(١)

وقال توبةُ بنُ الحميرِ الخفاجيُّ [في «ديوانه» ٤٢-٤٣] :

[من الطويل]

كَوَاعِبَ مِنْ هَمْدَانَ بِيضاً نُحُورُهَا
تَسُوءُ بِأَعْجَازِ ثَقَالٍ وَأَسْوَاقِ
خِدَالٍ وَأَقْدَامِ لَطَافٍ خُصُورُهَا^(٢)

وقال نُصَيْبُ :

[من البسيط]

وَذِي رَوَادِفَ لَا يُلْفَى الْإِزَارُ بِهَا
يُلَوِي وَلَوْ كَانَ سَبْعاً حِينَ يَأْتِرُ

وقال ابنُ مِيَادَةَ [في «ديوانه» ١٧١] :

[من الطويل]

حَرَامِيَّةٌ أَمَّا مَلَاثُ إِزَارِهَا
فَوَعْتُ وَأَمَّا خَصْرُهَا فَلَطِيفُ^(٣)

[من الطويل]

وقال العَرَجِيُّ - وَهُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ [عَمْرِ بْنِ] عَمْرِو بْنِ عَثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ - [في «ديوانه» ١٥٥-١٥٦] :

أَسْأَلُ عَنْ أَسْمَاءَ فِي السَّجْنِ جَارَهَا
مِنَ الْبَيْضِ ، أَمَّا مَا يُوَارِي إِزَارَهَا
لَعْمُرُ أَبِيهَا إِنِّي لَمَكْلَفُ
فَفَعْمٌ وَأَمَّا مَا عَلَاهُ فَمُرْهَفُ^(٤)

[من الطويل]

وقال أبو دُلَامَةَ :

وَقَدْ حَاوَلْتُ نَحْوِي الْقِيَامَ لِحَاجَةٍ
فَأَنْقَلَهَا عَنْ ذَلِكَ الْكَفَلِ النَّهْدُ

[من المتقارب]

وقال أبو العتاهية [في «ديوانه» ٦١٢] :

بَدَتْ بَيْنَ حُورٍ قِصَارِ الْخُطَا
تُجَاهِدُ بِالْمَشْيِ أَكْفَالَهَا

[من الكامل]

وقال الحارثُ بنُ خالدٍ المخزوميُّ [في «ديوانه» ٦٨] :

غَرثَانُ سِمَطٌ وَشَاحِهَا قَلِقٌ
رِيَّانٌ مِنْ أَرْدَافِهَا الْمِرْطُ^(٥)

[من البسيط]

وما أحسن قولَ القُطاميِّ لو أرادَ النساءَ [في «ديوانه» ٢٦] :

يَمْشِينَ هُونًا فَلَا الْأَعْجَازُ خَاذِلَةٌ
وَلَا الصُّدُورُ عَلَى الْأَعْجَازِ تَكِلُ^(٦)

[مساجلة المؤلف مع رجل من (اليمين)]

وقد نظرتُ أنا إلى بيتِ عروة بنِ الوردِ السابقِ في قصيدةٍ ، سببها أَنَّهُ وردَ (حضر موت) رجلٌ يتشاعرُ من (اليمين) ،

(١) الجَائِزُ : جمعُ الجُوذُرِ ، وهي البقرة الوحشيَّةُ ، أو ولدُ البقرة .

(٢) الخُدُلُ : هو امتلاءُ السَّاقِ واستدارتها كأنما طويت طياتاً .

(٣) الحرامِيَّةُ : نسبة لبني حَرَامٍ . مَلَاثُ الإِزَارِ : الموقع الذي يشدُّ عليه الإِزار وهو العِجْز والكفَل . الوَعْتُ : العسرُ المرتفع .

(٤) الفَعْمُ والأَفْعَمُ : الممتلئُ ، وقيل : الفائضُ امتلاءً .

(٥) غرثانُ : جوعان . وشاحُ غرثانُ : لا يملؤه الخصرُ . المِرْطُ - جمعهُ مروِطٌ - : وهو كساءٌ من خَزٍّ أو صوفٍ أو كتانٍ أو غيره يُؤتزرُ بِهِ . والمرأةُ التي مرطها

رِيَّانٌ - أي ممتلئٌ - كنايةً عن ضخَمِ روادِفِها .

(٦) ومراد القُطامي النوق .

فهابهُ الناسُ ، حتَّى ضمَّنا وإيَّاهُ مجلسٌ اضطرُّونا فيه للمباراةِ ، وعيَّنوا البحرَ والقافيةَ والموضوعَ ، فجئتُ في نحوِ ساعةٍ وربعٍ بأربعينَ بيتاً . قلتُ في (ريمِ صنعا) منها [في «ديوانِ المؤلف» ٥٠٦] :

يَسِرْنَ الهُوَيْنَا عَانَةً بَعْدَ عَانَةٍ قِصَارَ الخُطَى أَرْدَاْفُهُنَّ قِيُودَهَا^(١)
تَدَاخَلُ مِنْ فَرَطِ النَحْيَا فِي رِبَاطِهَا فَتَأْبَى لَهَا أَرْدَاْفُهَا وَنُهُودَهَا^(٢)

وجاءَ هوَ بأربعةٍ وعشرينَ بيتاً لا تَسْفُلُ ولا تَعْلُو ، غيرَ أنَّها انعقدتْ بعدهُ مجالسٌ ندعى فيها إلى المباراةِ ، ويُقترحُ البحرُ والقافيةُ ، وفي كُلِّها يُحيلُ ، ونقولُ ، وَمَنْ رَنَا بعينِ المَعْدِلَةِ . . عرفَ أَنِّي أَحسنتُ الاتِّبَاعَ ، فكانَ لي الحقُّ في الأخذِ بخلافِ الناظمِ فقدَ أغارَ عليَّ بيتِ ابنِ الوردِ ، فأغثَّ ولمْ يجيءْ إلاَّ بالباردِ النَّاقِصِ الثَّقِيلِ ، وذلكَ حيثُ يقولُ [في «المُعْجَبِي» ٢٠١/٢] :

تُرْفَعُ ثُوبَهَا الأَرْدَاْفُ عَنْهَا فَيَبْقَى مِنْ وشَاخِيهَا شُوعَا^(٣)

[سؤال عبد الملك بن مروان للأخطل عن تمنييه قول قصيدة لأحد الشعراء]

وعلى ذكرِ بيتِ القُطاميِّ أقولُ : إِنَّهُ مِنْ قصيدةٍ لَهُ جزلةٍ بديعةٍ ، يُحكى : [كما في «الأغاني» ٢٦/١١ و ٤٩/٢٤] أَنَّ عبدَ الملكِ بنَ مروانَ قالَ للأخطلِ : هلْ تحبُّ أَنْ لكْ شِعْرَ أَحَدٍ مِنَ العَرَبِ قِياضاً بشِعْرِكَ ، أوْ تحبُّ أَنْكَ قلتَهُ ؟ قالَ : لا واللهِ ، إلاَّ أَنِّي وَدِدْتُ أَنِّي قلتُ أبيتاً قالها رجلٌ مِنَّا ، كانَ مَغْدَفَ القِنَاعِ^(٤) ، قَليلَ السَّماعِ ، قَصيرَ الذراعِ ، قالَ وما هيَ ؟ فَأَنشدَهُ [مِنْ قولِ القُطاميِّ في «ديوانِهِ» ٢٣-٢٤] :

إِنَّا مُحَيُّوكَ فَاسْلَمَ أَثَمَها الطَّلَلُ وَإِنْ بَلَيْتَ وَإِنْ طَالَتْ بِكَ الطَّيْلُ
لَيْسَ الجَدِيدُ بِهِ تَبَقَى بَشاشَتُهُ إلاَّ قَلِيلاً وَلا ذُو خِلَّةٍ يَصِلُ

[في «ديوانِ القُطاميِّ» ٢٦-٢٥] :

يَمُشِينَ رَهَواً فَلَا الأَعْجَازُ خَاذِلَةٌ وَلَا الصُّدُورُ عَلَيِ الأَعْجَازِ تَتَكَلُّ
يَتَّبَعْنَ سَامِيَةَ العَيْنِينَ تَحسَبُهَا مَجْنونَةً أوْ تَرى ما لا تَرى الإِبِلُ
وَالنَّاسُ مَنْ يَلتَقِ خَيْراً قائلُونَ لَهُ ما يَشْتَهِي وَلا مُمْخِطِيءِ الهَيْلُ^(٥)
قَدْ يُدْرِكُ المَتانِي بَعْضَ حاجَتِهِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ المُسْتَعْجِلِ الزَّلُّ

ومنها - وهوَ مِنْ حُرِّ القولِ وخالصِ المدحِ - [كما في «ديوانِ القُطاميِّ» ٢٩-٣٠] :

أهلُ المَدِينَةِ لا يَحزُنُكَ حالُهُمُ إِذا تَخَطَّأَ عَبدَ الوَاحِدِ الأَجَلُ
أَمَّا قُرَيْشٌ فَلَنْ تَلقاهُمْ أبداً إلاَّ وَهُمُ خَيْرٌ مَنْ يَحْفَى وَيَتَّعَلُ
مَنْ صالِحُوهُ رَأى فِي عَيْشِهِ سَعَةً وَلا أَرى مَنْ أَرادُوا ضَرَّهُ يَتَّعَلُ^(٦)

(١) العانة : الجماعة ، وأصلها القطعة من حمر الوحش .

(٢) رباطها - جمع ربطة - : وهي الملاءة التي كلها قطعة واحدة ونسج واحد .

(٣) الوشاحان : فلادتان تتوشح بهما المرأة ، وترسل إحداهما على الجانب الأيمن ، والأخرى على الأيسر . والشُّوعُ : البعدُ .

(٤) أي : مُرسل القناع . أغدفت عليه سترأ : أرسلته .

(٥) الهَيْلُ : التُّكُّلُ .

(٦) يَتَّعَلُ : ينجو ، ومنه الموتل وهو الملجأ .

وفيهما بيت يشبه فيه الآثار بالكتاب مسه البلل ، نظر فيه إلى قول لبيد (في «ديوانه» ٢٩٩) :

وَجَلَا السُّيُولِ عَنِ الطُّلُولِ كَأَنَّهَا زُبُرٌ تُجَدُّ مُتُونَهَا أَقْلَامُهَا^(١)

وإلى قول طرفة (في «ديوانه» ٦٦) :

لِخَوْلَةٍ أَطْلَالَ بِبُرْقَةِ نَهْمَدٍ تَلُوحُ كَبَاقِي الْوَشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ^(٢)

وكان الشعبي حاضراً ، فقال : إِنَّ لِلْقُطَامِيِّ أَحْسَنَ مِنْهَا ، وَأَنْشَدَ قَوْلَهُ (في «ديوانه» ١٠٥) :

طَرَقَتْ جَنُوبُ رِحَالِنَا مِنْ مُطْرِيقٍ مَا كُنْتُ أَحْسَبُهُ قَرِيبَ الْمُعْنِقِ

حتى أتى إلى آخرها ، فتحرك عبد الملك واهتز ، وقال : هذا - والله - الشعر ، ثكلت القطامي أمه ، فانكسر الأخطل ، وقال للشعبي : إِنَّ لَكَ فَنُونَاً فِي الْكَلَامِ ، وَإِنَّمَا لَنَا فَنٌّ وَاحِدٌ ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَلَّا تَحْمَلْنِي عَلَى أَكْتَاغِ قَوْمِكَ . . فَادْعُهُمْ حَرَضًا^(٣) ، قال الشعبي : لا أعرض لك في شيء من الشعر بعد هذا .

[تعليق المؤلف على القصة]

وعندي : أَنَّ الْقَصِيدَةَ الَّتِي اخْتَارَهَا الْأَخْطَلُ أَجْزَلُ وَأَفْحَلُ ، إِلَّا أَنَّ فِيهَا مِنْ صَرِيحِ الْمَدْحِ لِسَائِرِ قَرِيشٍ مَا يَنْقُلُ هُضْمُهُ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَيَسْهَلُ غَمَطُهُ^(٤) عَلَى الشَّعْبِيِّ ، وَلَا حِجَّةَ فِي سَكُوتِ الْأَخْطَلِ وَوَقُوفِهِ بِمَوْقِفِ الْعَاجِزِ عَنِ الْإِنْصَالِ ؛ لِمَكَانِ الْهَيْبَةِ ، وَإِثَارِ الْمَصَانِعَةِ ، وَاتِّبَاعِ مَرَاضِي السُّلْطَانِ .

وقول القطامي : (قَدْ يُدْرِكُ الْمُتَانِي . . إِنْخ) ، مأخوذ من قول عدي بن زيد العبادي [كما في «خزانة الأدب» ٣٥١/١] :

[من السريع]

قَدْ يُدْرِكُ الْمُبْطِئُ مِنْ حَظِّهِ وَالْخَيْرُ قَدْ يَسْبِقُ جُهْدَ الْحَرِيصِ

وبيت عدي مأخوذ من قول جمانة الجعفي [كما في «خزانة الأدب» ٣٥١/١] :

وَمُسْتَعْجِلٍ وَالْمُكْتُ أَدْنَى لِرُشْدِهِ وَلَمْ يَدْرِ فِي اسْتِعْجَالِهِ مَا يُبَادِرُ

وقال ابن الرومي في عكس المعنى [كما في «ديوانه» ١١٤٧/٣] :

عَيْبُ الْأَنَاةِ - وَإِنْ سَرَّتْ عَوَاقِبُهَا - أَنَّ لَا خُلُودَ وَأَنْ لَيْسَ الْفَتَى حَجْرًا

[رواية أخرى للقصة]

وفي القصة رواية غير هذه ، وهي : أَنَّ الْقُطَامِيَّ وَرَدَ (دمشق) فِي أَيَّامِ الْوَلِيدِ ، فَقِيلَ لَهُ : إِنَّهُ بِخَيْلٍ لَا يُعْطَى الشُّعْرَاءَ ، وَقِيلَ بَلْ قَدِمَهَا فِي أَيَّامِ عَمْرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، فَقِيلَ لَهُ : إِنَّ الشُّعْرَاءَ لَا يَنْفُقُ عِنْدَهُ ، فَامْتَدَحَ عَبْدَ الْوَاحِدِ بْنَ سُلَيْمَانَ بِقَصِيدَتِهِ تِلْكَ ، فَأَعْطَاهُ ثَلَاثِينَ نَاقَةً مَوْقَرَةً بُرًّا وَتَمْرًا وَثِيَابًا ، فَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ مَا حَرَّكَ مِنَ الْقُطَامِيِّ ، وَرَفَعَ مِنْ ذِكْرِهِ .

(١) الزُّبُرُ : الْكُتُبُ .

(٢) بُرْقَةُ نَهْمَدٍ : مَوْضِعٌ مَعْرُوفٌ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ ، وَقَدْ ذَكَرَهُ الشُّعْرَاءُ .

(٣) الْحَرَضُ : الْهَلَاكُ وَالْفَسَادُ . قَالَ تَعَالَى : ﴿ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا ﴾ [يوسف : ٨٥] .

(٤) الْغَمَطُ : الْاسْتِحْقَارُ .

ويروى : أَنَّ الأبياتَ الَّتِي تَمَنَّاها الأخطلُ لَيْسَتْ مِنْ تِلْكَ ، وَإِنَّمَا هِيَ قَوْلُهُ [كما في « ديوانِ القطامي » ٨] : [من البسيط]
يَقْتُلُنَّا بِحَدِيثِ لَيْسَ يَعْلَمُهُ مَنْ يَتَّقِينِ وَلَا مَكْنُونُهُ بِأَدِي
فَهَنْ يَنْبِذَنَّ مِنْ قَوْلِ يُصْبِنَنَّ بِهِ مَوَاقِعَ المَاءِ مِنْ ذِي الغُلَّةِ الصَّادِي (١)
وإنَّها لَعَرْضَةٌ ذَلِكَ نِصَاعَةٌ وَفِصَاحَةٌ وَبِلُوعِ مَرْمَى وَإِصَابَةِ مَحْزَنٍ ، وَهِيَ مِنْ قِصِيدَةٍ يَمْدُحُ بِهَا زُفَرُ بنَ الحَارِثِ ، وَقد مَنَّ عَلَيْهِ وَأَكْرَمَهُ يَقُولُ فِيهَا [في « ديوانِ القطامي » ٨٨-٨٤] :

إِنِّي وَإِنْ كَانَ قَوْمِي لَيْسَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ قَوْمِكَ إِلَّا ضَرْبَةُ الهَادِي
مُثْنٍ عَلَيْكَ بِمَا اسْتَبَقَيْتَ مَعْرِفَتِي وَقَدْ تَعَرَّضَ مِنِّي مَقْتَلُ بَادِي
فَلَنْ أُثْبِتَكَ بِالنِّعْمَاءِ مَشْتَمَةً وَلَنْ أَكْفِيءَ إِصْلَاحِي بِإِفْسَادِ
وَمَا نَسِيتَ مَقَامَ الوَزْدِ تَجْعَلُهُ بَيْنِي وَبَيْنَ حَفِيفِ الغَابَةِ العَادِي
إِذِ الفُؤَارِسُ مِنْ قَيْسِ بِشَكَّتِهِمْ حَوْلِي شُهُودٌ وَقَوْمِي غَيْرُ شُهَادِ (٢)
إِذْ يَغْتَرِبُكَ رِجَالٌ يَسْأَلُونَ دَمِي وَلَوْ أَطَعْتَهُمْ أَيْتَمَّتْ أَوْلَادِي
نَفْسِي فِدَاءُ بِنِي أُمِّي هُمْ خَلَطُوا يَوْمَ العَرُوبَةِ أَوْرَاداً بِأَوْرَادِ (٣)
فِي المَجْدِ وَالشَّرَفِ العَالِي ذَوِي أَمَلٍ وَفِي الحَيَاةِ وَفِي الأَمْوَالِ زُهَادِ
مَارَيْتُ قَوْمًا هُمْ شَرٌّ لِأَخْوَاتِهِمْ مِنِّي عَشِيَّةً يَجْرِي بِالدَّمِ الوَادِي

منها :

تَقْرِيهِمْ لَهْذِمَاتٌ تَقْدُ بِهَا مَا كَانَ خَاطَ عَلَيْهِمْ كُلُّ زَرَادِ (٤)

* * *

[من المنسرح]

[قال أبو الطيب المتنبّي في « العُكْبَرِيّ » ٢٩٨/١] :

يَا عَاذِلَ العَاشِقِينَ دَعِ فِتْنَةً أَضَلَّهَا اللهُ كَيْفَ تُرْشِدُهَا
بِئْسَ اللَّيَالِي سَهَدَتْ مِنْ طَرِبٍ شَوْقاً إِلَى مَنْ يَبِيتُ يَرْقُدُهَا

[نصيحة لمن يعذل العاشقين]

يقولُ فِي البَيْتِ الأوَّلِ : يَا عَاذِلَ العَاشِقِينَ عَلَى عَشِقِهِمْ ، دَعِ عَنكَ لَوْمَهُمْ ، فَإِنَّكَ لَا تُرْشِدُهُمْ ، وَقد أَضَلَّهُمُ اللهُ ،

(١) ذو الغلّة الصادي : العطشان شديد العطش .

(٢) الشكّة : السلاح ، وقيل : ما يلبس من السلاح .

(٣) يوم العروبة - بفتح العين وضمها - : الجمعة .

(٤) الّهذيمات - جمع لهذم - : ويقال سيف لهذم : حاد ، وكذلك السنان والناب . تقد : تقطع . الرزاد : صانع الدروع .

وأصل المعنى موجودٌ بكثرةٍ ، ولا سيّما في « ديوانِ سلطانِ العاشقين » ، فقد تصرّف فيه ما شاء ، فمنه قوله [في ديوانه « ١٢٤ »] :

يَا عَاذِلَ الْمُشْتَاقِ جَهْلًا بِالَّذِي يَلْقَى مَلِيًّا لَا بَلَغْتَ نَجَاحَا
أَتَعَبْتَ نَفْسَكَ فِي نَصِيحَةٍ مَنْ يَرَى أَنْ لَا يَرَى الْإِقْبَالَ وَالْإِفْلَاحَا
إِنْ رُمْتَ إِصْلَاحِي فَإِنِّي لَمْ أُرِدْ لِفَسَادِ قَلْبِي فِي الْهَوَى إِصْلَاحَا

[من الطويل] وقوله [في « ديوانه » ١٣٧] :

وَفِي حُبِّهَا بَعْتُ السَّعَادَةَ بِالشَّقَا ضَالًّا وَعَقْلِي عَنْ هُدَايَ بِهِ عَقْلُ

[من الطويل] وقوله [في « ديوانه » ١٦٢] :

وَمِنْ أَجْلِهَا طَابَ افْتِضَاحِي وَلَذَّلِي اطَّرَاحِي وَذُلِّي بَعْدَ عِزِّ مَقَامِي
وَفِيهَا حَلَا لِي بَعْدَ نُسْكِي تَهْتِكِي وَخَلَعُ عِذَارِي وَارْتِكَابُ أَثَامِي

[شرح البيت الأول من المطلع]

ثم إن كان الناظم يتوهم أن العشق ضلالٌ بسائر أنواعه . . فقد أخطأ ؛ لأنه لا يُدْمُ ما لم يُفَضِّ إلى الحرام ، بل ربّما تدرج به المرء في السلوك إلى سبيل السعادة ، كما قلت [في « ديوان المؤلف » ١٦٥] :

[من البسيط]

لِلَّهِ فِي الْحُبِّ سِرٌّ لَا يُكَيِّفُهُ الْإِنْسَانُ مَا دَامَ فِي ذَا الْقَالِبِ الطَّنِي
وَفِيهِ لِلْمَرْءِ بِالتَّوْفِيقِ مَدْرَجَةٌ إِلَى السَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَفِي الدِّينِ

[« من عشق فعف » ومدى الاحتجاج به]

ولولا ما أكثروا فيه من شأن سويد بن سعيد . . لصح ما يدور عليه من طُرُقِهِ ، وهو حديثٌ : « مَنْ عَشِقَ فَعَفَّ فَكَنَّمَفَمَاتٌ . . فَهُوَ شَهِيدٌ »^(١) ، ولكن رواه الزبير بن بكار ، فقال : حَدَّثَنَا عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ الْمَاجِشُونِ ، عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ ، عَنْ أَبِي نَجِيحٍ ، عَنْ مَجَاهِدٍ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « مَنْ عَشِقَ وَكَنَّمَف وَعَفَّ وَصَبَرَ . . غَفَرَ اللَّهُ لَهُ ، وَأَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ »^(٢) ، وكذلك رواه لعائديه محمد بن داوود ، لكن بسند فيه سويد بن سعيد ، ثم أنشدهم لنفسه بعد أن رواه لهم قوله :

[من البسيط]

أَنْظُرُ إِلَى السَّحْرِ يَجْرِي فِي لَوَاحِظِهِ وَأَنْظُرُ إِلَى دَعَجٍ فِي طَرْفِهِ السَّاجِي^(٣)
وَأَنْظُرُ إِلَى شَعْرَاتٍ فَوْقَ عَارِضِهِ كَأَنَّهُنَّ نِمَالٌ دَبَّ فِي عَاجِ

[من الخفيف]

وَأَنْشَدَ أَيْضًا لِنَفْسِهِ :

مَا لَهُمْ أَنْكَرُوا سَوَادًا بِخَدَّيْهِ وَلَا يُنْكِرُونَ وَرَدَ الْغُصُونِ
إِنْ يَكُنْ عَيْبٌ خَدَّهُ مَنَّبَتُ الشُّعْرِ فَعَيْبُ الْعُيُونِ شَعْرُ الْجُفُونِ

(١) أخرجه عن ابن عباس الخطيب في « تاريخ بغداد » في ترجمة محمد بن داوود الأصبهاني كما في « المقاصد الحسنة » (١١٥٣) ، وقد أطنب في ذكر طرقه والكلام عليه وأجاد ، وقد ألف فيه جزءاً أبو الفيض الغماري سماه : « درء الضعف عن حديث من عشق فعف » .

(٢) قال المناوي عن سنده في « فيض القدير » (٨٨٥٣) : (إنساده صحيح ، وقد ذكره ابن حزم في معرض الاحتجاج وقال : رواه ثقات) .

(٣) الدَّعَجُ : شدة سواد العين مع سعتها . وطرفٌ ساجٌ : ساكنٌ .

فَقَالَ لَهُ : نَفْطَوِيَه - وَكَانَ لَهُ صَدِيقًا - أَنْكَرْتَ الْقِيَاسَ فِي الْفَقْهِ ، وَأَثْبَتَهُ فِي الْغَزَلِ ؟! قَالَ : غَلْبَةُ الْهَوَى ، وَمَلَكَهُ الْوَجْدِ دَعَا إِلَيْهِ .

وقد ذكرَ الحديثَ ابنُ حزمٍ في معرضِ الاحتجاجِ ، فقالَ :

[من الوافر]

فَإِنْ أَهْلِكَ هَوَى أَهْلِكَ شَهِيدًا وَإِنْ تَمَنَّيْتُ بَقِيَّتُ قَرِيرَ عَيْنِ
رَوَى هَذَا لَنَا قَوْمٌ ثَقَاتٌ نَأُوا بِالصِّدْقِ عَنِ كَذِبِ وَمَيْنِ

وللقوم فيه كلامٌ معروفٌ يُؤخَذُ مِنْ مَرَاجِعِهِ ، إِذْ لَا حَاجَةَ إِلَى الْإِسْهَابِ ، وَيَأْتِي لَوْ أَنَّ مِنْهُ أَوَّلَ الْمَجْلِسِ النَّاسِ .

ولقد أَحْسَنَ أَبُو الْأَسْوَدِ الدُّوَلِيُّ ، وَأَجْمَلَ وَأَجَادَ ، إِذْ قَالَ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ [في «ديوانه» ١٥٤] :

[من الوافر]

فَإِنْ يَكُ حُبُّهُمْ رُشْدًا أَصْبَهُ وَلَسْتُ بِمُخْطِئٍ إِنْ كَانَ غِيَا

وما هوَ في شيءٍ مِنَ التَّشْكِكِ ، وَلَكِنَّهُ مِنْ بَابِ قَوْلِهِ تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ : ﴿ وَإِنَّا أَوْ لِيَاكُم لَعَلَّ هُدَى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

[سبأ : ٢٤] .

[شرح البيت الثاني من المطلع]

وَأَمَّا الْبَيْتُ الثَّانِي : فَقَدْ قَالَ الشَّارِحُ إِنَّ أَسْلَهُ : (بَسَّ اللَّيَالِي لِيَالِ سَهْرَتِهَا مِنْ طَرِبِي شَوْقًا إِلَى مَنْ بَيَّنْتُ يَرَقُدُ فِيهَا)

[حذف المخصوص بالذم]

وَأَقُولُ : أَمَّا حَذْفُ الْمَخْصُوصِ بِالذَّمِّ : فَجَائِزٌ عِنْدَ الْعَلَمِ بِهِ مِنَ الْقَرِينَةِ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ ﴾

[الأنفال : ٤٠] ، ﴿ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ٣٠] ، وَسَوَاءٌ كَانَتِ الْقَرِينَةُ لَفْظِيَّةً أَوْ مَعْنَوِيَّةً ، وَإِنْ اقْتَصَرَ فِي

« الْخِلَاصَةِ » عَلَى بَعْضِ أَفْرَادِ الْأَوْلَى فِي قَوْلِهِ [في باب : (نعم وبئس)] :

[من الرجز]

وَإِنْ يُقَدِّمَ مُشْعِرٌ بِهِ كَفَى كَالْعِلْمِ نِعَمَ الْمُقْتَنَى وَالْمُقْتَفَى

بَلْ كَثِيرًا مَا يُحَدِّثُ الْفَاعِلُ مَعَهُ لَهَا [أي : للقرينة] ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ النَّاسِخِ لَوْجُوبِ غُسْلِ الْجُمُعَةِ ، وَهُوَ :

« مَنْ تَوَضَّأَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ . . فِيهَا وَنِعَمْتُ ، وَمَنْ اغْتَسَلَ . . فَالْغُسْلُ أَفْضَلُ » ^(١) .

تَقْدِيرُهُ : وَنِعَمَتِ الْخَصْلَةِ الْوَضُوءُ خَصْلَةٌ ، أَوْ مَا يَشْبَهُ ذَلِكَ .

وَأَمَّا حَذْفُ عَائِدِ الصِّفَةِ : فَإِنَّهُ كَثِيرٌ ، وَمِنْهُ قَوْلُ امْرِئِ الْقَيْسِ [في «ديوانه» ٩٦] :

[من المتقارب]

فَأَقْبَلْتُ زَحْفًا عَلَى الرُّكْبَتَيْنِ فَثَوْبٌ لَيْسَتْ وَثَوْبٌ أَجْرٌ ^(٢)

[الرد على الشارح]

وَأَمَّا قَوْلُهُ : كَانَ الْوَجْهُ أَنْ يَقُولَ : (يَرَقُدُ فِيهَا) بَدَلًا مِنْ (يَرَقُدُهَا) . . فَعَلَطُ ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ يَأْتِيهَا الْمَرْمَلُ * فُرُ

الْبَلِّ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [المزمل : ٢-١] .

وقال امرؤ القيس [كما في «ديوانه» ١١٦] :

[من الطويل]

فَإِمَّا تَرْتِنِي لَا أَعْمَضُ سَاعَةً مِنْ اللَّيْلِ إِلَّا أَنْ أَكْبَبَ وَأَنْعَسَا

(١) أَخْرَجَهُ عَنْ سَمْرَةَ بْنِ جَنْدَبٍ أَبُو دَاوُدَ (٣٥٣) ، وَالتِّرْمِذِيُّ (٤٩٧) وَحَسَنُهُ ، وَالنَّسَائِيُّ (١٣٨٠) ، وَابْنُ مَاجَةَ (١٠٩١) .

(٢) هَذَا الْبَيْتُ مِنْ شَوَاهِدِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَهُوَ أَنَّهُ يَجُوزُ الْإِبْتِدَاءُ بِالنَّكْرَةِ (ثَوْبٌ) إِذَا كَانَ الْمَقْصُودُ بِهَا التَّنْوِيحُ .

والأمرُ أغنى عن التذليلِ بعدَ قولِهِم في المتونِ : إِنَّ كُلَّ وقتٍ يقبلُ النصبَ على الظرفيّةِ مُبهماً كانَ أو مُخصّصاً بوصفٍ ، أو عددٍ ، أو إضافةٍ ، بل إنَّ ما فعلهُ الناظمُ هوَ الأولى ؛ لِما فيه منَ الإشارةِ إلى استغراقِ المحبوبةِ الليلَ بالرقادِ ، وهوَ شاهدُ النعمةِ ، ودليلُ الترفِ ، وقد قالتْ أمُّ زرع : (فَعِنْدَهُ أَقولُ فلا أَفْبَحُ ، وَأزْقُدُ فَأَتَصَبَّحُ)^(١) ، فلا معابةَ على الناظمِ في شيءٍ منَ المحذوفاتِ الأربعةِ التي ذكرها الشارحُ ، وإنما العيبُ عليه منَ جهةِ المعنى ، فلو أَنَّهُ كانَ صحيحَ الهوى . . لَمَا تبرَّمَ بما لحقه منَ التعذيبِ فيه ، واللهُ دَرُّ ابنِ مُطَيرٍ في قولِهِ [في « ديوانه » ٦٠] : [من الطويل]

[البلوى المحببة]

وَحُبُّكَ بَلَوَى غَيْرَ أَنْ لَا يَسُرُّنِي وَإِنْ كَانَ بَلَوَى أَنَّنِي لَكَ مُبْغِضٌ
إِذَا أَنَا رَضْتُ النَّفْسَ فِي حُبِّ غَيْرِهَا أَتَى حُبُّهَا مِنْ دُونِهَا يَتَعَرَّضُ
فَيَا لَيْتَنِي أَقْرَضْتُ جَلْدًا صَبَابِي وَأَقْرَضَنِي صَبْرًا عَلَى الشُّوقِ مُقْرَضُ

[الكلام عن ديوان ابن الفارض]

أما « ديوان ابن الفارض » : فمن فاتحته إلى خاتمته في استعذاب العذاب من الأحباب ، من ذلك قوله [في « ديوانه » ١٤٤] : [من البسيط]

أَمْسَيْتُ فِيكَ كَمَا أَصْبَحْتُ مُكْتَبِيًّا وَلَمْ أَقُلْ جَزَعًا : يَا أَرْمَةَ أَنْفَرِجِي
وقولُهُ [في « ديوانه » ١٥٦] :

وَبِمَا شِئْتَ فِي هَوَاكَ اخْتَبِرْنِي فَاخْتَبِرِي مَا كَانَ فِيهِ رِضَاكَ
وقولُهُ [في « ديوانه » ٥٠] :

وَكُلُّ أَدَى فِي الْحُبِّ مِنْكَ إِذَا [بَدَا] جَعَلْتُ لَهُ شُكْرِي مَكَانَ شَكِّي
وَمَا حَلَّ بِي مِنْ مِحْنَةٍ فَهُوَ مِنْحَةٌ وَقَدْ سَلِمْتُ مِنْ حَلِّ عَقْدِ عَزِيمَتِي
وقولُهُ [في « ديوانه » ١١٩] :

هَلَّا نَهَاكَ نَهَاكَ عَنْ لَوْمِ امْرِئٍ لَمْ يُلَفَّ غَيْرَ مُنْعَمٍ بِشَقَاءٍ
وقولُهُ [في « ديوانه » ٣١] :

أَمْسَى بِنَارِ جَوِي حَشَتْ أَحْشَاءَهُ مِنْهَا يَرَى الْإِيقَادَ لَا الْإِنْقَادَا
وقولُهُ [في « ديوانه » ١٣٥] :

وَتَعَذِّبُكُمْ عَذْبُ لَدَيَّ وَجَوْرُكُمْ عَلَيَّ بِمَا يَقْضِي الْهَوَى لَكُمْ عَذْلُ
وقولُهُ [في « ديوانه » ١٨١٢] :

بَلْ أَسِيئُوا فِي الْهَوَى أَوْ أَحْسِنُوا كُلُّ شَيْءٍ حَسَنٌ مِنْكُمْ لَدَيَّ

(١) سلف قريباً . ومعنى : أرقد فأتصبح : أي أنام إلى وقت الضحى .

أَيُّ تَعْدِيْبٍ سِوَى الْبُعْدِ لَنَا

مِنْكَ عَذْبٌ حَبِّدَا مَا بَعْدَ أَيِّ

وقوله [في «ديوانه» ٣٥-٤١] :

[من الطويل]

تِيْحُ الْمَنَائِيَا إِذْ تِيْحُ لِي الْمُنَى
وَمَا عَدَرْتُ فِي الْحُبِّ أَنْ هَدَرْتُ دَمِي
وَكَمْ رَامَ سَلْوَانِي هَوَاكَ مُيَمَّمَا
وَقَالَ : تَلَّافَ مَا بَقِيَ مِنْكَ قُلْتُ : مَا
إِبَائِي أَبِي إِلَّا خِلَافِي نَاصِحَا

وَذَاكَ رَخِيصٌ مُنِيْبِي بِمِنِّيْبِي
بِشَرِّعِ الْهَوَى لِكِنْ وَفَتْ إِذْ تَوَقَّتِ
سِوَاكَ وَأَنْتَى عَنْكَ تَبْدِيلُ بِيْبِي
أُرَانِي إِلَّا لِلتَّلَافِ تَلَفْتِي
يُحَاوِلُ مِنْي شِيْمَةً غَيْرَ شِيْمَتِي

[التناقض عند المتنبي]

والأخيراً هو صدرُ بيتٍ لأبي عبادَةَ [في «ديوانه»] [من الطويل] عجزُهُ : (وَتَطْلُبُ مِنِّْي مَذْهَباً غَيْرَ مَذْهَبِي) ، ولكنَّ موقعَهُ مِنْ بَيْتِ الشَّيْخِ أَمَكْنُ وَأَعْدْبُ ، فَهُوَ بِهِ أَحَقُّ ، وَالنَّاطِمُ كَثِيراً مَا يَدْعِي أَنَّهُ مَعْشُوقٌ مُتَمَنِّعٌ كَمَا فِي قَوْلِهِ [في «العُكْبَرِيُّ» ٣٠٦/٢] :

[من الطويل]

وَأَشْنَبَ مَعْسُولِ الثَّنِيَّاتِ وَاصِحِ حَمِيْتُ فَمِي عَنْهُ فَقَبَّلَ مَفْرِقِي^(١)

[من البسيط]

وذاَتِ المرَّاتِ يَعْتَرِفُ بِأَنَّهُ مَبْغُوضٌ مَفْرُوكٌ^(٢) ؛ فَيَقُولُ [في «العُكْبَرِيُّ» ٣٦٢/٣] :

وَإِذَا حَرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شَبِيْمٌ وَمَنْ بِجِسْمِي وَحَالِي عِنْدَهُ سَقَمٌ^(٣)

[من البسيط]

ويقول [في «العُكْبَرِيُّ» ١٧٦/١] :

أَنْتَ الْحَيِيْبُ وَلَكِنِّي أَعُوذُ بِهِ مِنْ أَنْ أَكُونَ مُجِبًّا غَيْرَ مُحْبُوبِ

[من الطويل]

ويقول [في «العُكْبَرِيُّ» ٨١/٤] :

وَلَمَّا التَّقِيْنَا وَالنَّوَى وَرَقِيْنَا غَفُولَانَ عَنَّا ظَلْتُ أَبْكِ وَتَبَسُّمٌ

[من الطويل]

ويقول [في «العُكْبَرِيُّ» ٥٠/٤] :

جَفْتَنِي كَأَنِّي لَسْتُ أَنْطَقَ قَوْمَهَا وَأَطَعْنَهُمُ وَالشُّهْبُ فِي صُورَةِ الدُّهْمِ^(٤)

[من المنسرح]

ويقول [في «العُكْبَرِيُّ» ٢٧١/٤] :

نَبْلُ خَدِّي كُلَّمَا ابْتَسَمْتَ مِنْ مَطَرٍ بَرَقَهُ ثَنَائِيَا

وهذا يحتملُ معنيين ؛ لِأَنَّهُ إِمَّا أَنْ يَكُونَ المرادُ : أَنَّهُ يَبْكِي كُلَّمَا ضَحَكَتْ . . فيكونُ كقولِهِ : (. . ظَلْتُ أَبْكِ

(١) الْأَشْنَبُ : الثَغْرُ الْبَرَّاقُ ، وَيُقَالُ : الْمَحْدَدُ الرَّاضِعُ الْأَبْيَضُ .

(٢) مَفْرُوكٌ : لَا يَحْتَمِلُ عِنْدَ النِّسَاءِ .

(٣) السَّقَمُ : الباردُ ، وَالشَّبِيْمُ : البَرْدُ .

(٤) الشُّهْبُ : الخَيْلُ الَّتِي يَخَالُطُهَا الْبَيَاضُ وَالسَّوَادُ . الثُّمَمُ : السُّودُ . وَالْمَعْنَى : أَنَّهَا تَغَيَّرَتْ أَلْوَانُهَا مِنَ الدَّمَاءِ وَالْعَجَاجِ .

وَتَبَسُّمٌ) وَإِنَّمَا أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ : أَنَّ لِعَابَهَا يَسِيلُ ، وَأَنَّهَا تَتَفَلُّ فِي وَجْهِهِ ، وَكِلَاهُمَا لَا يَلْتَمِثُ مَعَ قَوْلِهِ قَبْلَ ذَلِكَ [في
«العُكْبَرِيُّ» ٤/ ٢٧٠] :

فَقَبَّلْتُ نَاطِرِي تَغَالِطِنِي وَإِنَّمَا قَبَّلْتُ بِهِ فَاهَا

[امرؤ القيس كان مفركاً]

وفي أخبار امرئ القيس : أَنَّهُ كَانَ مُفْرَكًا يُفْتَنُ بِجَمَالِهِ وَمَقَالِهِ النَّسَاءُ بَادِيًا ، ثُمَّ يَكْرَهُهُ بَعْدَ الْمَخَالَطَةِ ، فَيَحْتَمِلُ أَنْ
النَّاظِمَ مِثْلَهُ ، أَوْ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ كَبِيرًا فِي صَدْرِهِ . . أَحَبَّ أَنْ يَتَمَثَّلَ بِهِ فِيمَا زَانَ وَفِيمَا شَانَ ، حَتَّى لَوْ دَخَلَ جُحْرَ ضَبِّ
لِدَخَلِهِ ، وَكَثِيرًا مَا تُزَيِّنُ لَهُ الْأَحْمَقَةُ الْقَبِيحَ ، كَمَا سَتَأْتِي مِثْلُهُ فِي هَذِهِ الْمَجْمُوعَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، أَوْ أَنَّهُ لَمَّا لَمْ
يَكُنْ لَهُ قَدَمٌ رَاسِخٌ فِي الْحُبِّ . . قَاسَ حَالَهُ مَعَ النَّسَاءِ عَلَى حَالِ مَمْدُوحِيهِ ، فَإِنَّ شَأْنَهُمْ كَمَا وَصَفَ يُقْبَلُونَ عَلَيْهِ بَدَأً ،
وَيُعْرَضُونَ عَنْهُ عَوْدًا .

[التناقض العجيب]

وَالْبَيْتُ الَّذِي نَحْنُ بِسَبِيلِهِ نَاطِرٌ إِلَى قَوْلِ أَبِي نُوَّاسٍ [«الأغاني» ٦/ ٣٢٦] :

شَكُونَا إِلَى أَحْبَابِنَا طُولَ لَيْلِنَا فَقَالُوا لَنَا مَا أَقْصَرَ اللَّيْلَ عِنْدَنَا

وَلَا يَبْعُدُ عَنْهُ قَوْلُ الْعَرَبِيِّ ، وَقَدْ تَمَثَّلَ بِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ - كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ - فِي خُطْبَتِهِ الشَّقْشَقِيَّةِ^(١) [« نهج البلاغة » ١٥] :

[من السريع]

شَتَّانَ مَا يَوْمِي عَلَى كُورِهَا وَيَوْمُ حَيَّانَ أَخِي جَابِرِ

[عمر بن أبي ربيعة وعائشة بنت طلحة]

وَقَالَ عُمَرُ ابْنُ أَبِي رَبِيعَةَ يَذْكُرُ عَائِشَةَ ابْنَةَ طَلْحَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ [في «ديوانه» ٩٤-٩٥] :

رَأَتْ رَجُلًا أَمَّا إِذَا الشَّمْسُ عَارَضَتْ فَيَضْحَى وَأَمَّا بِالْعَشِيِّ فَيَخْصَرُ^(٢)
أَخَا سَفَرٍ جَوَابَ أَرْضٍ تَقَادَفَتْ بِهِ فَلَوَاتُ فَهَوَ أَشْعَثُ أَغْبَرُ
وَأَعْجَبَهَا مِنْ عَيْشَهَا ظِلُّ غُرْفَةٍ وَرَيَّانُ مُلْتَفِّ الْحَدَائِقِ أَخْضَرُ
وَوَالِ كَفَاهَا كُلَّ شَيْءٍ يَهْمُهَا فَلَيْسَتْ لِشَيْءٍ آخِرَ اللَّيْلِ تَسْهَرُ

فِي رُؤْيٍ [كما في «الأغاني» ١/ ٩٢] : أَنَّ حَالًا أَسْهَرَهَا لَيْلَةً مِنْ زَوْجِهَا ، فَقَالَتْ : لَيْتَ ابْنُ أَبِي رَبِيعَةَ يَرَى لَيْلَتِي هَذِهِ حَتَّى
يَرْجِعَ عَنْ بَعْضِ قَوْلِهِ .

[حال العاشق والمعشوق عند الشعراء]

[من الكامل]

وَقَالَ عَنْتَرَةُ [في «ديوانه» ١٩] :

تُمْسِي وَتُصْبِحُ فَوْقَ ظَهْرِ حَشِيَّةٍ وَأَبَيْتُ فَوْقَ سُرَاةِ أَذْهَمِ مُلْجَمِ^(٣)

(١) شَفَقَ الْكَلَامَ : أَخْرَجَهُ أَحْسَنَ مَخْرَجٍ .

(٢) يَضْحَى : يَتَعَرَّضُ لِلشَّمْسِ . يَخْصَرُ : يَصِيبُهُ الْبَرْدُ .

(٣) الْحَشِيَّةُ : الْفِرَاشُ الْمَحْشُورُ .

وقال :

[من الكامل]

أَبِي وَيَضْحَكُ مِنْ بُكَايَ وَلَنْ تَرَى
عَجَباً كَحَاضِرِ ضَخِكِهِ وَبُكَايَ

وقال قيسُ بنُ الملوِّحِ :

[من الطويل]

فَوَاكِدًا مِنْ حُبِّ مَنْ لَا يُحْيِي
وَمِنْ زَفَرَاتِ مَا لَهْنٌ فَنَاءُ

وقال :

[من البسيط]

أَطَعْتُهَا وَعَصَيْتُ النَّاسَ كُلَّهُمْ
فِي أَمْرِهَا وَهَوَاهَا وَهِيَ تَعَصِينِي

وقال نصيبُ :

[من الكامل]

وَذَكَرْتُ مَنْ رَقَّتْ لَهُ كَبِيدِي
وَأَبِي فَلَيْسَ تَرِقُّ لِي كَبِيدُهُ

وقال أبو عبادَةَ :

[من الخفيف]

وَمِنَ الضَّيْمِ فِي هَوَى الْبَيْضِ عِنْدِي
أَنْ يَوَدَّ الْمَبْتُولُ مَنْ لَا يَوَدُّهُ

[من الرَّمَلِ] :

وفي المجلسِ الأوَّلِ ذَرُوءٌ مِنَ الْقَوْلِ فِي طَوْلِ اللَّيْلِ ، وَمِنْهُ قَوْلُ بَشَّارٍ [في «ديوانه» ٤/١٦٦]

لَمْ يَطُلْ لَيْلِي وَلَكِنْ لَمْ أَنْمِ
وَإِذَا قُلْتُ لَهَا : جُودِي لَنَا
نَفْسِي يَا عَبْدُ عَنِّي وَاعْلَمِي
إِنَّ فِي بُرْدِي جِسْمًا نَاحِلًا
خَتَمَ الْحُبِّ لَهَا فِي عُنُقِي
وَنَفَى عَنِّي الْكَرَى طَيْفُ أَلَمِ
خَرَجَتْ بِالصَّمْتِ عَنِّي لَا وَنَعَمِ
أَتْنِي يَا عَبْدُ مِنْ لَحْمٍ وَدَمِ
لَوْ تَوَكَّأَتْ عَلَيْهِ لَأَنْهَدَمِ
مَوْضِعَ الْخَاتَمِ مِنْ أَهْلِ الدَّمِ

[رد على بشار بن برد]

وَأَخْطَأَ أَبُو مَعَاذٍ [بَشَّارٌ] فِي قَوْلِهِ : (خَرَجَتْ بِالصَّمْتِ عَنِّي لَا وَنَعَمِ) ، وَمَا أُوتِيَ إِلَّا مِنْ جَهْلِهِ بِحَدِيثِ مُسْلِمٍ [١٤٢١] فِي النِّكَاحِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : « إِنْ إِذْنَ الْبِكْرِ صَمَاتُهَا » .

[أعينوني على الليل]

[من الطويل]

وقال بعضهم :

تَعَالَوْا أَعِينُونِي عَلَى اللَّيْلِ إِنَّهُ
عَلَى كُلِّ عَيْنٍ لَا تَنَامُ طَوِيلُ

فَلَمْ يَشْعُرْ بَعْدَ أُمَّةٍ^(١) مِنَ الزَّمَانِ إِلَّا بِطَارِقٍ يَقْرَعُ بَابَهُ مِنْ نِصْفِ اللَّيْلِ ، فَانْتَبَهَ فَرِعَا مَرْعُوبًا ، وَقَالَ لَهُ : مَا سَأْنُكَ !؟ قَالَ : أَنْتَ دَعَوْتَنِي بِقَوْلِكَ : (تَعَالَوْا أَعِينُونِي . . . إِلَى آخِرِ الْبَيْتِ) ، فَقَالَ لَهُ : يَا ابْنَ أَخِي ، أَبْطَأْتَ بِالْإِجَابَةِ حَتَّى جَاءَ اللَّهُ بِالْفَرَجِ .

(١) أُمَّةٌ : حِينٌ ، أَوْ نِسْيَانٌ ، مِنْ أُمَّةٍ يَأْتُمُ أُمَّهًا ؛ أَي : نَسِيَ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَادَّكَّرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ [يوسف : ٤٥] .

وإنما قال ابن الفارض [في «ديوانه» ١٤٤] :

أَمْسَيْتُ فِيكَ كَمَا أَصْبَحْتُ مُكْتَبِيًّا [وَلَمْ أَقُلْ جَزَعًا : يَا أَرْزَمَةَ انْفِرْجِي]

[الأصل اجتماع الهموم على العشاق بالليل ومذاهب الشعراء في ذلك]

لأن الأصل اجتماع الهموم على المحبين بالليل ، وقد تفرقت عنهم نهاراً بما يُمارسون من الخلق والأشغال ، كما قال
قيس بن الملوّح أو ابن الدُمَيْنَةَ [في «ديوان ابن الدُمَيْنَةَ» ٨٨] :

أَقْضِي نَهَارِي بِالْحَدِيثِ وَبِالْمُنَى
نَهَارِي نَهَارُ النَّاسِ حَتَّى إِذَا بَدَأَ
لَقَدْ ثَبَّتْ فِي الْقَلْبِ مِنْكَ مَحَبَّةٌ
وَيَجْمَعُنِي وَالْهَمُّ بِاللَّيْلِ جَامِعٌ
لِي اللَّيْلُ هَزَّتْنِي إِلَيْكَ الْمَضَاجِعُ
كَمَا ثَبَّتْ فِي الرَّاحَتَيْنِ الْأَصَابِعُ

وقد سبق إلى أصله امرؤ القيس في قوله [في «ديوانه» ١٥٢] :

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا أَنْجِلِ
بِصُبْحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ

وأخذه الطَّرْمَاحُ فقال [في «ديوانه» ٩٦] :

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا أَصْبِحِي
بِفَجْرِ وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَرْوَحِ

وقال جميل بن معمر في عكس ما سبق عن ابن الدُمَيْنَةَ [في «ديوانه» ٥١] :

أَظَلُّ نَهَارِي مُسْتَهَامًا وَيَلْتَقِي
مَعَ اللَّيْلِ رُوحِي فِي الْمَنَامِ وَرُوحَهَا

وقال ذو الرُّمَّةِ [في «ديوانه»] :

أَيُّنُّ وَشَكْوَى بِالنَّهَارِ طَوِيلَةٌ
عَلَيَّ وَمَا يَأْتِي بِهِ اللَّيْلُ أَبْرَحُ

وقلت في رثاء ولدي بصري [كما في «ديوان المؤلف» ق/ ٩٥] :

فَقُلْتُ : اتْرُكِينَا نُطْفِ بِعُضِّ التَّهَابِنَا
يَطْوُلُ نَهَارِي بِالتَّجْلُدِ وَالدَّجَى
بِعَزْرِ مِنَ الْأَمَاقِ فِي اللَّيْلِ إِذْ يَسْرِي
بِهِ مِنْ بُرُودِ الدَّمْعِ شَيْءٌ مِنَ الْقَصْرِ

ومن أبلغ ما قيل في طول الليل قول النابغة الذبياني في «ديوانه» ٤٦] :

فَيْتُ كَأَنِّي سَاوَرْتَنِي ضَيْلَةٌ
مِنَ الرَّقْشِ فِي أَنْيَابِهَا السُّمُّ نَاقِعٌ^(١)

وقوله [في «ديوانه» ٥٥] :

تَقَاعَسَ حَتَّى قُلْتُ : لَيْسَ بِمُنْقَضِ
وَلَيْسَ الَّذِي يَزْعَى النُّجُومَ بِأَيْبِ

وأراد بـ (الذي يزعى النجوم) : الفجر ، وهي كناية عجيبة ، وقال علي بن هشام :

لَا أَظْلِمُ اللَّيْلَ وَلَا أَدْعِي
لَيْلِي كَمَا شَاءَتْ فَإِنْ لَمْ تَجِدْ
أَنَّ نُجُومَ اللَّيْلِ لَيْسَتْ تَغُورُ
طَالَ وَإِنْ جَادَتْ فَلَيْلِي قَصِيرُ

(١) ضَيْلَةٌ : الحية الدقيقة ، قليلة اللحم . الرقش : المنقطة . نافع : ثابت عتيداً كامن .

قَالَ الْحَرَّانِيُّ :

[مَنْ الْبَسِط]

جَاءَتْ تُسَائِلُ عَن لَيْلِي فَقُلْتُ لَهَا
لَيْلِي بِكَفَيْتِكَ فَاغْنِي عَن سُؤَالِكِ لِي
وَسُورَةُ الْهَمِّ تَمُحُو سَوْرَةَ الْجَدَلِ (١)
إِنْ بِنْتِ طَالَ وَإِنْ وَاصَلْتِ لَمْ يَطَّلِ

[أبلغ من قال في طول الليل]

وَيُرْوَى عَن ثَعْلَبٍ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : كُلُّ مَنْ تَكَلَّمَ فِي طَوْلِ اللَّيْلِ لَمْ يَبْلُغِ الدُّرُوءَ مِنَ الْإِجَادَةِ سِوَى خَالِدِ الْكَاتِبِ ، فَقَدْ
جَاوَزَ الْغَايَةَ ، إِذْ يَقُولُ :

[مَنْ الْمُتَقَارِب]

رَقَدَتْ وَلَمْ تَرَثِ لِلْسَّاهِرِ
وَلَمْ تَذُرِ بَعْدَ ذَهَابِ الرُّقَا
وَلَيْلُ الْمُحِجَّبِ بِلَا آخِرِ
دِمَا صَنَعَ الدَّمْعُ بِالنَّاطِرِ

[مَنْ الطَّوِيل]

وقال التهامي :

أَبَا الْفَضْلِ طَالَ اللَّيْلُ أَمْ خَانِي صَبْرِي
فَخَيْلَ لِي أَنَّ الْكَوَاكِبَ لَا تَسْرِي

[مَنْ الْبَسِط]

وقال ابن زريق [البغدادي في «ديوانه»] :

لَا يَطْمِئُنُّ بِجَنَابِي مَضْجَعٌ وَكَذَا
وَمَنْ يُقَطِّعُ قَلْبِي ذِكْرُهُ وَإِذَا
لَا يَطْمِئُنُّ بِهِ مُذْ غَبَّتِ مَضْجَعُهُ
جَرَى عَلَيَّ قَلْبِهِ ذِكْرِي يُقَطِّعُهُ

وهو خلاف بيت الناظم الذي نحن بسبيله غير أن «ديوانه» لا يخلو مما يشبهه كقوله [في «العكبري» ٢/٢٨٣] : [مَنْ الطَّوِيل]

هَرَاقَتْ دَمِي مَنْ بِي مِنَ الْوَجْدِ مَا بِهَا
مِنْ الْوَجْدِ بِي وَالشُّوقُ لِي وَلَهَا حِلْفُ

[مَنْ الْمُنْسَرِح]

وهو بالرقى أشبه منه بالأشعار ، وحاصل معناه قول الآخر :

وَجِدْتِ بِي مِثْلَ مَا وَجِدْتِ بِهَا
فَكِلَانَا مُغْرَمٌ دَنِفُ

[مَنْ الْمُنْسَرِح]

ولا يبعد عنه قول الأول ، وفيه لابن عائشة غناء ، وهو (٢) :

وَارْحَمْتَنَا لِلْغَرِيبِ فِي الْبَلَدِ النَّا
فَارَقَ أَحْبَابَهُ فَمَا انْتَفَعُوا
زِحَ مَاذَا بِنَفْسِهِ صَنَعَا
بِالْعَيْشِ مِنْ بَعْدِهِ وَلَا انْتَفَعَا

[من مجزوء الكامل]

وقال البهاء زهير :

يَا لَيْلُ مَا لَكَ آخِرُ
لِي فِيكَ أَجْرٌ مُجَاهِدُ
كَأَلَّا وَلَا لِلشُّوقِ آخِرُ (٣)
إِنْ صَحَّ أَنَّ اللَّيْلَ كَأَفْرُ

(١) سورة الشيء : شدته وجدته وهياجه . الجدَل : الفرع .

(٢) جاء في هامش المخطوط : ذكر ابن خلكان [كما في «وفيات الأعيان» ٣/٣٥٦] : أنه لما نزع ثياب علي بن الجهم بعد موته . . . وجدته فيها رقعة مكتوب عليها هذان ، لكنه لا يصح أن تكون لابن الجهم ، ويكون فيها غناء لابن عائشة ؛ لتقدم هذا على ابن الجهم بكثير .

(٣) وقد ورد هذا البيت أيضاً بلفظ :

يَا لَيْلُ طُلُّ أَوْ لَا تَطُلْ
إِنِّي عَلَى الْحَالِيَيْنِ صَابِرُ

وقال أبو العتاهية [في «ديوانه» ٥٤١-٥٤٢] :

[من البسيط]

إِنَّ الْمُحِبَّ إِذَا شَطَّتْ مَنَازِلُهُ عَنِ الْحَيِّبِ بَكَى أَوْ حَنَّ أَوْ ذَكَرَا
وَاللَّيْلُ أَطْوَلُ مِنْ يَوْمِ الْحِسَابِ عَلَيَّ عَيْنِ الشَّجِيِّ إِذَا مَا نَوْمُهُ نَفَرَا

* * *

قال أبو الطيب المتنبي في «العكبري» ٣٠١/١ :

[من المنسرح]

لَا نَاقَتِي تَقْبَلُ الرَّدِيفَ وَلَا بِالسَّوْطِ يَوْمَ الرَّهَانِ أَجْهَدَهَا

[شرح المطلع]

يقول : إن ناقته لا تقبل الرديف ، ولا تحتاج إلى أن تساق بالسوط ، وإنما يعني : نعله ، ولو قال لا تقبل الانفراد . . . لكان أولى بالمحاجة ؛ إذ لا تكون النعل إلا مشفوعة ؛ كما قال الآخر :

[من الطويل]

رَوَّاحِلْنَا سِتُّ وَنَحْنُ ثَلَاثَةٌ نَجْبُهُنَّ الْمَاءَ فِي كُلِّ مَنْهَلٍ

[خصائص النعال وأصل معنى بيت المتنبي]

فهو من خصائصها ، بخلاف غيرها من النوق ، فكثيراً ما تعجز عن الارتداف ، ويقال إن أصل المعنى قول عنترة [في ديوانه ٣٣] :

[من الكامل]

فَيَكُونُ مَرْكَبُكَ الْقَعُودَ وَرَحْلُهُ وَابْنُ النَّعَامَةِ يَوْمَ ذَلِكَ مَرْكَبِي
أراد بـ (ابن النعام) عرقاً يكون في باطن القدم ، يعني : أنه راكب أحمصه^(١) .

[من الطويل]

وقال أبو نؤاس [في «ديوانه» ٥٨٥] :

إِلَيْكَ أَبَا الْعَبَّاسِ مِنْ بَيْنِ [مَنْ] مَشَى عَلَيْهَا امْتَطَيْنَا الْحَضْرَمِيَّ الْمُلسِنَا^(٢)
فَلَا تَصُ لَمْ تَعْرِفْ حَيْنًا عَلَيَّ طَلَى وَلَمْ تَدْرِ مَا قَرَعُ الْفَيْقِ وَلَا الْهَنَا^(٣)

[ابن المطرز والشريف الرضي والجواب المفحم]

ومرّ ابن المطرّز - الشاعر ، وفي رجله نعل بالية - على الشريف الرضي ، فقال : أنشدني قصيدتك التي منها قولك :

[من الطويل]

إِذَا لَمْ تُبَلِّغْنِي إِلَيْكَ رَكَائِي فَلَا وَرَدَتْ مَاءً وَلَا رَعَتِ الْعُشْبَا

(١) الأحمص : الموضع المنخفض من باطن القدم .

(٢) الحضرميُّ المُلسِنُ : النعل الذي فيه طولٌ ولطافةٌ على هيئة اللسان ، أو النعل الذي جعل طرفٌ مقدّمها كطرف اللسان .

(٣) فلا تصُ : جمع قلوص ، وهي الناقة الشابة الفتيّة . الفيقُ : الفحل المكرّم من الإبل الذي لا يركب ولا يهان لكرامته عليهم . الهناء : القطران ، ويقال : منّا الإبل إذا طلاها بالقطران .

فَفَعَلَ ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى هَذَا الْبَيْتِ ، فَقَالَ لَهُ : أَهْذِهِ رَكَائِكَ ؟! وَأَشَارَ إِلَى نَعْلِهِ ، فَقَالَ : لَمَّا صَارَتْ هِبَاتُ مَوْلَانَا إِلَى مِثْلِ قَوْلِهِ :

[مَنْ الْخَفِيف]

فَخَذَ النَّوْمَ مِنْ جُفُونِي فَإِنِّي قَدْ خَلَعْتُ الْكَرَى عَلَى الْعُشَّاقِ

عَادَتْ رَكَائِي إِلَى مَا تَرَى ، فَإِنَّكَ قَدْ خَلَعْتَ مَا لَا تَمْلِكُ عَلَيَّ مِنْ لَا يَقْبَلُ ، فَأَعْجَبُهُ كَلَامُهُ وَأَجَازَهُ .

[كاد المتعل أن يكون راجباً]

وقالت ابنة الحُسن في محاجاتها المشهورة : كاد المتعل يكون راجباً .

وفي الثالثة والأربعين من « مقامات الحريري »^(١) ما يتصل بالموضوع .

[وفود أبي الشمقمق على يزيد بن المزيدي]

[مَنْ الْكَامِل]

وقال أبو الشمقمق - وقد وفد إلى (اليمن) على يزيد بن المزيدي - :

رَحَلَ الْمُطَيِّئِ إِلَيْكَ طُلَّابُ النَّدَى وَرَحَلْتُ نَحْوَكَ نَاقَةً نَعْلِيَّةَ
إِذْ لَمْ يَكُنْ لِي يَا يَزِيدُ مَطِيَّةٌ فَجَعَلْتَهَا لَكَ فِي السَّفَارِ مَطِيَّةَ
تَخْدِي أَمَامَ الْيَعْمَلَاتِ وَتَعْتَلِي فِي السَّيْرِ تَتْرُكُ خَلْفَهَا الْمَهْرِيَّةَ^(٢)
مِنْ كُلِّ طَاوِيَةِ الصُّوَى مُزَوَّرَةٌ قَطْعاً لِكُلِّ تَنْوَفَةٍ دَوْسِيَّةَ^(٣)
فَإِذَا رَكِبْتُ بِهَا طَرِيقاً لِأَجْبَأ تَنْسَابُ تَحْتِي كَانَسِيَابِ الْحَيَّةِ
لَوْلَا الشَّرَاكُ لَقَدْ خَشِيتُ جَمَاحَهَا وَرَمَامُهَا مِنْ أَنْ تَمَسَّ يَسْدِيَّةَ
تَنْتَابُ أَكْرَمَ وَائِلٍ فِي بَيْتِهَا حَسْباً وَقُبَّةً مَجْدِيَّةَ مَبْنِيَّةَ
أَعْنِي يَزِيداً سَيْفَ آلِ مُحَمَّدٍ فَرَاجَ كُلِّ شَدِيدَةٍ مَخْفِيَّةَ
يَوْمَاهُ : يَوْمٌ لِلْمَوَاهِبِ وَالنَّدَى خَضِلٌ وَيَوْمٌ دَمٌ وَخَطْفٌ مَنِيَّةَ^(٤)
وَلَقَدْ أَتَيْتُكَ وَاتَّقَا بِكَ عَالِماً أَنْ لَسْتُ تَسْمَعُ مِدْحَةَ بَنَسِيَّةَ^(٥)

فَقَالَ لَهُ يَزِيدُ : صَدَقْتَ ، وَأَطْلَقَ عَلَيْهِ أَلْفَ دِينَارٍ .

وَمِمَّا يُعْزَى لِلْكَسَائِيِّ قَوْلُهُ لِلرَّشِيدِ :

[مَنْ الْكَامِل]

قُلْ لِلْخَلِيفَةِ مَا تَقُولُ لِمَنْ أَمْسَى إِلَيْكَ بِحُرْمَةٍ يُذْلِي
مَا زِلْتُ مُذْ صَارَ الْأَمِيرُ مَعِي عَبْدِي يَدِي وَمَطِيَّتِي نَعْلِي

(١) اسم هذه المقامة : المقامة البكرية .

(٢) الْيَعْمَلَاتُ : جمعُ الْيَعْمَلَةِ مِنَ الْإِبِلِ ، وَهِيَ النَجِيَّةُ الْمَعْتَمَلَةُ الْمَطْبُوعَةُ عَلَى الْعَمَلِ . الْمَهْرِيَّةُ : إبِلٌ نَجَائِبُ تَسْبِقُ الْخَيْلَ ، مَنْسُوبَةٌ لِقَبِيلَةِ مُهْرَةَ بْنِ حِيدَانَ .

(٣) الصُّوَى : الطريق الوعر . مُزَوَّرَةٌ : معوجة ، وأراد أن حذاه عندما يسير إلى الأمير يسبق جميع الخيول السريعة . التَنْوَفَةُ : القفزُ مِنَ الْأَرْضِ . الدَوْسِيَّةُ :

الدَّوْسُ شِدَّةُ الْوَطْءِ بِالْأَقْدَامِ ، وَمِنْ هَذَا يُقَالُ : طَرِيقٌ مَدُوسٌ .

(٤) الْخَضَلَةُ : النعمة والرفاهية .

(٥) بَنَسِيَّةُ : أي بنسيتها ، وهو الدَّيْنُ الْمُؤَجَّلُ .

وحجَّ بعضُ نَسَاكِ أَرْضِنَا مَاشِيًا ، فَسُئِلَ : مِنْ أَيِّ الظَّهْرِ رَكُوبُكَ ؟ فَقَالَ : ذَلُولٌ ، كُنْتُ بِهَا عَنِ الْأَرْضِ مِنْ قَوْلِهِ جَلَّ شَأْنُهُ : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذَلُولًا ﴾ [الملك : ١٥] .

[وجهة نظر المؤلف في بعض أبيات النهائي]

وعلى ذكرِ النعلِ . . أقولُ : بينا أنا أطالعُ مرَّةً في كتابِ للنهائيِّ من عهدِ بعيدٍ . . إذا به يقولُ في ليلةِ الإسراءِ : [من الطويل]

عَلَى رَأْسِ هَذَا الْكَوْنِ نَعْلُ مُحَمَّدٍ سَرَتْ فَجَمِيعُ النَّاسِ تَحْتَ ظِلَالِهِ
لَدَى الطُّورِ مُوسَى نُودِي أَخْلَعُ وَأَحْمَدُ عَلَى الْعَرْشِ لَمْ يُؤْمَرْ بِخَلْعِ نَعَالِهِ

فلمْ يعجبني الكلامُ ، واطَّرحْتُ الكتابَ ، ولمَّا كَانَ اللَّيْلُ . . رأيتُ النهائيَّ ، أو بعضَ محبِّه فيما يرى النَّائمُ ، فاعترضتُ قولَهُ وأوسعتهُ ردًّا ، وقلتُ لَهُ : إِنَّ الْأَلِيْقَ بِمَدْحِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ مَا أَقُولُ ، وَأَشَدُّهُ : [من الطويل]

يَقُولُونَ : إِنَّ الْمُصْطَفَى لَيْلَةَ الشَّرَى إِلَى الْعَرْشِ لَمْ يَعَزِمِ بِخَلْعِ نَعَالِهِ
وَهَذَا مُحَالٌ لَا يَلِيْقُ بِحَالِ مَنْ تَوَاضَعُهُ اللهُ أَسْنَى خِلَالِهِ

في منامٍ طويلٍ ، لا حاجةَ إلى استيعابه ، إذ قد استوفيته مع ما يتعلَّقُ بِهِ مِنَ الْبَحْثِ فِي كِتَابِي « بِلَابِلِ التَّغْرِيدِ » ، وَمِنْهُ أَنَّهُ مَأْمُورٌ بِمَا أَدَّبَ اللهُ بِهِ مُوسَى عَلَيْهِمَا [الصَّلَاةُ وَ] السَّلَامُ بِنَصِّ قَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام : ٩٠] . وَلِئِنْ اعْتَرَضَ بِأَنَّ مُوسَى لَمْ يُؤْمَرْ بِخَلْعِ النَعْلِ إِلَّا لِنَجَاسَتِهِ . . فَجَوَابُهُ : أَنَّهُ قَوْلٌ لَا يَعْوَلُ عَلَيْهِ ، وَأَمَّا الصَّلَاةُ فِي النَعَالِ . . فَهِيَ مِنَ الرَّخِصِ ، كَمَا قَالَ ابْنُ دَقِيقِ الْعِيدِ ، لَا مِنَ الْمُسْتَحَبَّاتِ .

[أمره صلى الله عليه وسلم بمخالفة اليهود بالصلاة بالنعال]

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ [في « الفتح » ٤٩٤/١] : وَرَوَى الْحَاكِمُ [في « المستدرک » ٣٩١/١] وَأَبُو دَاوُدَ [في « سننه » ٦٥٢] مِنْ حَدِيثِ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ : « خَالِفُوا الْيَهُودَ فَإِنَّهُمْ لَا يُصَلُّونَ فِي نَعَالِهِمْ وَلَا خِفَافِهِمْ » ، فَيَكُونُ اسْتِحْبَابُ ذَلِكَ مِنْ جِهَةِ قَصْدِ الْمَخَالَفَةِ الْمَذْكُورَةِ ، وَوَرَدَ فِي كَوْنِ الصَّلَاةِ فِي النَعَالِ مِنَ الزِينَةِ الْمَأْمُورِ بِأَخْذِهَا فِي الْآيَةِ حَدِيثٌ ضَعِيفٌ جَدًّا ، أوردَهُ ابْنُ عَدِيٍّ فِي « الْكَامِلِ » ، وَابْنُ مُرْدَوَيْهِ فِي « تَفْسِيرِهِ »^(١) ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ . انْتَهَى .

[استحباب قلع النعل لدخول مكة]

وَقَدْ صَرَّحَ فَهَاهُؤُنَا بِاسْتِحْبَابِ نَزْعِ النَعْلِ لِدُخُولِ (مَكَّةَ) وَهُوَ مِمَّا يَرُدُّ كَلَامَ النَّهْيَانِيِّ ، وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ حَيْثُ الْفَقْهُ . وَأَمَّا مِنْ حَيْثُ الرِّوَايَةُ : فَقَدْ اعْتَرَفَ هُوَ نَفْسُهُ بِأَنَّهُ لَمْ يَرِدْ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ ، وَلِلَّهِ دَرْ الْمَعْرِيَّ فِي قَوْلِهِ [كما في « سقط الزند » ١٥٩] :

يَا شَاكِي الثُّوبِ انْهَضْ طَالِبًا حَلْبًا نُهَوِّضُ مُضْنَى لِحْسَمِ الدَّاءِ مُلْتَمِسًا^(٢)
وَإِخْلَعْ حِذَاءَكَ إِنْ حَاذَيْتَهَا وَرَعَا كَفْعَلِ مُوسَى كَلِيمِ اللهِ فِي الْقُدْسِ

وَيَتَّصَلُ بِهِ كَثِيرٌ مِمَّا يَأْتِي فِي الْآثَارِ مِنَ الْمَجْلِسِ الْحَادِي عَشَرَ .

(١) أوردته عنه ابن كثير في « تفسير القرآن العظيم » (٢/٢١٠) عن أنس مرفوعاً أنها نزلت في الصلاة بالنعال ، وقال : لكن في صحته نظر . والله أعلم .

(٢) الثوبُ : المصائبُ .

ثُمَّ إِنَّ النَّاطِمَ كَثِيرُ التَّلَوْنِ فِي أَحْوَالِهِ ، فَتَارَةً يَتَّصِلُكَ وَيَتَفَقَّرُ وَيَعْتَرِفُ بِالرَّجَلَةِ ، كَمَا فِي الْبَيْتِ ، وَكَمَا فِي قَوْلِهِ [في
«العُكْبَرِيِّ» ١/١٢٥] :

وَحَيْثُ مِنْ حُوصِ الرِّكَابِ بِأَسْوَدٍ مِنْ دَارِشٍ فَعَدَوْتُ أَمْشِي رَاكِبًا^(١)
(و) (الدارش) : جلدٌ أسودٌ تصنعُ منه الأحذيةُ ، وقوله [في «العُكْبَرِيِّ» ١/١٤٠] :

وَلَمَّا قَلَّتِ الْإِبِلُ امْتَطَيْنَا إِلَى ابْنِ أَبِي سُلَيْمَانَ الْخُطُوبَا
وقوله [في «العُكْبَرِيِّ» ٣/٢١١] :

وَمَهْمَهُ جُبْنُهُ عَلَى قَدَمِي بِصَارِمِي مُرْتَدٍ ، بِمَخْبَرَتِي تَعَجَزُ عَنْهُ الْعَرَامِسُ الذُّلُّ^(٢)
مُجْتَزِيءٌ ، بِالظَّلَامِ مُشْتَمِلٌ^(٣)
وقوله [في «العُكْبَرِيِّ» ١/٣٤٦] :

وَقَدْ كَانَ مَشِيهُمَا فِي النَّعَالِ فَقَدْ صَارَ مَشِيهُمَا فِي الْقِيُودِ
وقوله [في «العُكْبَرِيِّ» ٤/٢٩٠] :

وَعَبْرٌ كَثِيرٌ أَنْ يَزُورَكَ رَاغِلٌ فَيَرْجِعَ مَلَكًا لِلْعِرَاقَيْنِ وَالْيَا
وقوله [في «العُكْبَرِيِّ» ٣/٢٧٦] :

لَا خَيْلَ عِنْدَكَ تُهْدِيهَا وَلَا مَالٌ فَلْيُسْعِدِ النَّطْقُ إِنْ لَمْ تُسْعِدِ الْحَالُ
بيننا هو كذلك . . إذا به يتناولُ تارةً أخرى ، ويقول [في «العُكْبَرِيِّ» ١/٢٧٠] :

وَتُسْعِدُنِي فِي غَمْرَةٍ بَعْدَ غَمْرَةٍ سَبُوحٌ لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شَوَاهِدٌ^(٤)
ويقول [في «العُكْبَرِيِّ» ١/٣٦] :

وَلَقَدْ أَفْنَتِ الْمَفَاوِزُ خَيْلِي قَبْلَ أَنْ نَلْتَقِي وَزَادِي وَمَائِي
ويقول [في «العُكْبَرِيِّ» ١/٣٨] :

إِذَا فَزَعَتْ قَدَمَتَهَا الْجِيَادُ وَيَبِضُ الشُّيُوفِ وَسُمُرُ الْقَنَا
ويقول [في «العُكْبَرِيِّ» ١/١٧٣] :

وَجَدْتُ أَنْفَعَ مَالٍ كُنْتُ أَذْخَرُهُ مَا فِي السَّوَابِقِ مِنْ جَرِيٍّ وَتَقْرِبِ

(١) حَيْثُ : أُعْطِيَتْ . حُوصُ الرِّكَابِ : الْإِبِلُ الْمُتَعَبَةُ . وَالْمَعْنَى : أُعْطِيَتْ بَدَلَ الْإِبِلِ خِفَاءً أَسْوَدَ أَمْشِي فِيهِ .

(٢) الْمَهْمَةُ : الْمَفَازَةُ الْبَعِيدَةُ وَالطَّرِيقُ ، وَالْجَمْعُ الْمَهَامَةُ . جُبْنُهُ : قَطَعْتُهُ ، وَمَنْهُ : «جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ» [الفجر : ٩] . الْعَرَامِسُ : النَّوْقُ الصَّلَابُ الشَّدِيدَةُ الذُّلُّ : الْمَذَلَّةُ بِالْعَمَلِ ، الْمَرُوضَةُ بِالسَّيْرِ ، وَهِيَ جَمْعُ ذَلُولٍ .

(٣) الْمَعْنَى : أَنَا مُرْتَدٌ بِسُفْيِي ، مُتَقَلِّدٌ بِهِ ، مَكْتَفٍ بِعِلْمِي ، لَمْ أَحْتَجْ إِلَى دَلِيلٍ يَدُلُّنِي وَيَهْدِينِي الطَّرِيقَ ، لِابْنِ نُوْبِ الظَّلَامِ ، مُشْتَمِلٌ بِهِ كَمَا يَشْتَمِلُ الرَّجُلُ بِنُوْبِهِ .

(٤) السَّبُوحُ : الْفَرَسُ الشَّدِيدُ الْجَرِي .

ويقولُ [في «العُكْبَرِيّ» ١٥١/٢] :

[من الطويل]

عَلَيَّ لِأَهْلِ الْجَوْرِ كُلِّ طِمْرَةٍ
عَلَيْهَا غُلَامٌ مِلْءُ حَيْزُومِهِ غِمْرٌ^(١)

وقوله : (مِلْءُ حَيْزُومِهِ غِمْرٌ) مِنْ قَوْلِ امْرِئِ الْقَيْسِ : (تَحَمَّلَ فِي الْقُلُوبِ حَقًّا) .

[من الكامل]

وقولِ ربيعةَ بنِ مقرومِ الضبيِّ [في «خزانه الأدب» ٤٣٦/٨] :

وَأَلَدَّ ذِي حَنْقٍ عَلَيَّ كَأَنَّمَا
تَغْلِي عَدَاوَةَ صَدْرِهِ فِي مِرْجَلٍ

[من الطويل]

ويقولُ الناظمُ أيضاً [في «العُكْبَرِيّ» ١٧٩/١] :

وَعَيْنِي إِلَيَّ أُذْنِي أَغْرَ كَأَنَّهُ
مِنَ اللَّيْلِ بَاقٍ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَوَكْبٌ^(٢)

[من الطويل]

ويقولُ [في «العُكْبَرِيّ» ٢٨٥/٤] :

وَجُرْدًا مَدَدْنَا بَيْنَ آذَانِهَا الْقَنَا
فَبَتْنَ خِفَافًا يَتَّبِعْنَ الْعَوَالِيَا

[من الطويل]

ويقولُ [في «العُكْبَرِيّ» ٢٣/٢] :

وَفِي النَّاسِ مَنْ يَرْضَى بِمَيْسُورِ عَيْشَةٍ
وَمَرْكُوبُهُ رِجْلَاهُ وَالثَّوْبُ جِلْدُهُ

[من البسيط]

ويقولُ [في «العُكْبَرِيّ» ٣٩/٤] :

لَيْسَ التَّعَلُّلُ بِالْأَمَالِ مِنْ أَرِي
وَلَا الْقَنَاعَةُ بِالْإِقْلَالِ مِنْ شِيَمِي

[لا مجد إلا بمال]

وقد ألمَّ في هذا ، وفي قوله : (فَلَا مَجْدَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ) بقولِ قيسِ بنِ سعدِ بنِ عبادةَ [في «البيان والبيان» ٥٩٦/١] : اللَّهُمَّ هَبْ لِي حَمْدًا وَمَجْدًا ، لَا حَمْدَ إِلَّا بِفَعَالٍ ، وَلَا فَعَالَ إِلَّا بِمَالٍ ، اللَّهُمَّ إِنَّ الْقَلِيلَ لَا يُصْلِحُنِي ، وَلَا أَصْلِحُ عَلَيْهِ .

[تعريض الحمداني بالمتنبي ثم نفي المؤلف الذم عنه]

[من الكامل]

وما أظنُّ أبا فراسِ الحمدانيِّ في قوله [في «ديوانه» ١٩٦-١٩٧] :

وَتَعَاْفُ لِي طَمَعِ الْحَرِيصِ أُبُوتِي
وَمُرُوءَتِي وَقَنَاعَتِي وَعَفَافِي
مَا كَلُّ مَا فَوْقَ الْبَسِيطَةِ كَافِيَا
فَإِذَا قَنَعْتَ فَكُلُّ شَيْءٍ كَافٍ

إِلَّا وَيُعْرَضُ بِالنَّاطِمِ ، ويشيرُ إلى قولَيْهِ السَّابِقَيْنِ ، ولكن نفي عنهُ الذمَّ كلَّ النفي ما أشرنا إليه مِنْ دُعَاءِ قيسِ ، والثاني مِنْ أبياتِ الحمدانيِّ ، هو مِنْ قَوْلِ أَبِي ذُوَيْبٍ [في «ديوانه» ٥٦] :

[من الكامل]

وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَبَتْهَا
وَإِذَا تُرِدُّ إِلَيَّ قَلِيلٌ تَقْنَعُ

(١) الطمْرَةُ : الفرسُ العالِيَةُ المشرفَةُ . الحيزومُ : الصدرُ . الغمْرُ : الحقدُ . والمعنى أَنَّهُ يقولُ : أَنَا كَفَيْلٌ بخيلِ فرسانِها هؤلاءِ .

(٢) المعنى : أَنَّهُ كَانَ يَنْظُرُ إِلَى أُذُنِي فَرَسِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْفَرَسَ أَبْصَرَ شَيْءًا ، فَإِذَا حَسَّ بِشَخْصٍ مِنْ بَعِيدٍ نَصَبَ أُذُنِيهِ نَحْوَهُ . فَيَعْلَمُ الْفَارِسُ أَنَّهُ أَبْصَرَ شَيْئًا ، ثُمَّ وَصَفَ فَرَسَهُ بِأَنَّهُ قَطَعَهُ لَيْلٍ فِي وَجْهِهِ كَوَكْبٍ .

وبينا صاحبنا يعترف بقلّة العدّ ، ويشتكى من صُفورة اليد ، ويقول [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ٢٧٠] :

أَهْمُ بِشَيْءٍ وَاللَّيَالِي كَأَنَّهَا تَطَارِدُنِي عَنْ كَوْنِهِ وَأَطَارِدُ
وَحِيدٌ مِنَ الْخُلَانِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ إِذَا عَظُمَ الْمَطْلُوبُ قَلَّ الْمُسَاعِدُ

ويقول للمغيث العجليّ [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ١٢٠] :

لَمَّا أَقَمْتَ بِأَنْطَاكِيَّةَ اخْتَلَفْتَ إِلَيَّ بِالْخَبَرِ الرَّجْبَانَ فِي حَلْبَا
فَسِرْتُ نَحْوَكَ لَا أَلْوِي عَلَى أَحَدٍ أَحْتُ رَاحِلَتِي الْفَقْرَ وَالْأَدْبَا

إذا به ينتفش دماغه ، ويمتلئ فراغه ، ويعقص أنفه ، ويمدّ إلى النجوم كفه ، ولا يستحي أن يقول للمغيث في نفس

القصيدة [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ١٢٠-١٢١] :

وَإِنْ عَمِرْتُ جَعَلْتُ الْحَرْبَ وَالِدَةً وَالسَّمَهَرِيَّ أَخَا وَالْمَشْرَفِيَّ أَبَا^(١)
بِكُلِّ أَشْعَثَ يَلْقَى الْمَوْتَ مُبْتَسِمًا حَتَّى كَأَنَّ لَهُ فِي قَتْلِهِ أَرْبَا
فُحٌّ يَكَادُ صَهِيلَ الْخَيْلِ يَقْذِفُهُ عَنْ سَرِّجِهِ مَرَحًا بِالْعِزِّ أَوْ طَرَبَا^(٢)
فَالْمَوْتُ أَعْدَرُ لِي وَالصَّبْرُ أَجْمَلُ بِي وَالْبُرُّ أَوْسَعُ وَالذُّنْيَا لِمَنْ غَلَبَا

[امرؤ القيس وخالد السدوسي والإبل المسروقة]

فأنظر كيف يطمع في الملك الكبير ، وما يجد ما يتبلغ به من ناقة أو بعير ، فما أشبهه إذن بخالد بن سدوس النبهاني ، إذ أغارت بنو جديلة على امرئ القيس ، وأخذوا إبله ، وهو في جواره ، فقال له : أعطني رواحلك ؛ لألحق القوم ، فأردّ الإبل ، ففعل ، وركب خالد حتى أدركهم ، فقال : يا بني جديلة ، أغرمت على إبل جاري! قالوا : ما هو لك بجار ، قال : بلى ، وهذه رواحله معي ، قالوا : أذلك ؟ قال : نعم ، فأنزلوه عنها ، وأخذوها فوق الإبل ، فعاد خالد ينفض مذروبه^(٣) ، قال لامرئ القيس : لا تخف فسأرد عليك الجميع ، فقال امرؤ القيس

[في « ديوانه » ١٧٤] :

وَدَعَّ عَنْكَ نَهْبًا صِيحَ فِي حَجْرَاتِهِ وَهَاتِ حَدِيثًا مَا حَدِيثَ الرَّوَاحِلِ^(٤)

[نفي العذر عن المتنبي في تناقضه]

ولا يصح أن يعتذر عنه بما سبق من قوله [في « العُكْبَرِيّ » ٤/ ٢٩٠] :

(وَغَيْرُ كَثِيرٍ أَنْ يَزُورَكَ رَاجِلٌ . . . إِلَى آخِرِهِ) لفرق ما بين الحالين ؛ إذ هو ثمّ طالبٌ وهنا فاجرٌ .

(١) عَمِرْتُ : عشت طويلاً .

(٢) الْقُحُّ : الخالص .

(٣) الْمَذْرُوانِ : الجانبان من كل شيء ، تقول العرب : جاء فلان يضرب أضدريه ، ويهز عطفه ، وينفض مذروبه ، وهما منكباه .

(٤) القصة في « مجمع الأمثال » (١/ ٢٦٨) ، و« جمهرة الأمثال » (١/ ٤٥٢) . النهبُ : السلبُ وانتهاز الفرص لاختطاف الأشياء . حَجْرَاتُهُ : نواحيه ،

والمعنى : دع عنك حديث إبلي التي سطا عليها هؤلاء اللصوص ، وهات حدثني عن ذهاب رواحلك ، وكيف مكتهم من أخذها ، يا سئء الجوار ، ويا

ضعيف الدفع عن الجار !؟ .

ويقول الناظم أيضاً « في العُكْبَرِيَّ » [٤٤ / ٤] :

[من البسيط]

وَمَنْ عَصَى مِنْ مُلُوكِ الْعُرَبِ وَالْعَجَمِ ^(١)

مِعَادُ كُلِّ رَقِيقِ الشَّفَرَتَيْنِ غَدَاً

[من البسيط]

ويقول « في العُكْبَرِيَّ » [٤١ / ٤] :

وَالْحَرْبُ أَقْوَمُ مِنْ سَاقِي عَلِيٍّ قَدَمِ ^(٢)

لَأَتْرُكَنَّ وُجُوهَ الْخَيْلِ سَاهِمَةً
وَالطَّعْنَ يُحْرِقُهَا وَالزَّجْرُ يُقْلِقُهَا

حَتَّى كَأَنَّ بِهَا ضَرْباً مِنَ اللَّمَمِ ^(٣)

[من الطويل]

ويقول « في العُكْبَرِيَّ » [١٥٧ / ٢] :

وَمَا يُقْتَضِينِي مِنْ جَمَاجِمِهَا النَّسْرُ

وَجَنَّتِي قُرْبَ السَّلَاطِينِ مَقْتَهَا

[من الطويل]

ويقول « في العُكْبَرِيَّ » [٣٧٤ - ٣٧٣ / ١] :

كَأَنَّهُمْ مِنْ طُولِ مَا التَّمُّوا مُرْدُ ^(٤)

سَأَطْلُبُ حَقِّي بِالْفَنَاءِ وَمَشَايِخِ

كَثِيرٍ إِذَا شَدُّوا قَلِيلٍ إِذَا عُدُّوا

ثِقَالٍ إِذَا لَاقُوا خِفَافٍ إِذَا دُعُوا

رِجَالٌ كَأَنَّ الْمَوْتَ فِي فَمِهَا شَهْدُ

إِذَا شِئْتُ حَفَّتْ بِي عَلَى كُلِّ سَابِحِ

[من الطويل]

ويقول « في العُكْبَرِيَّ » [١٩٣ / ١] :

قَدِ انْقَصَفَتْ فِيهِنَّ مِنْهُ كِعَابُ ^(٥)

نُصْرَفُهُ لِلطَّعْنِ فَوْقَ حَوَادِرِ

ومهما اعتذرنا للناظم - في تقلبه بين الجزر والمد ، والصغر وصرع الخد ^(٦) بأن الإنسان عرضة ذلك ، ولهذا كان أكثر حلفه صلى الله عليه وسلم بمقلب القلوب ^(٧) - فإننا لا نقدر أن نؤلف بين ما سمعت من هفوي الدعوي الطويلة العريضة وبين قوله « في العُكْبَرِيَّ » [٣٤٤ / ٣] :

[من الخفيف]

لَيْتَ أَنَا إِذَا رَكِبْتَ لَكَ الْخَيْلُ وَأَنَا إِذَا نَزَلْتَ الْخِيَامُ

[اختلاف الأحوال والواردات على العارفين]

وَالْأ. . فالعارفون - وهم من هم - تضطرب أحوالهم ، وتتلون أمورهم ، ألا ترى إلى الشرف ابن الفارض بينا هو

[من الكامل]

يقول ، وفي السماء أنفه ، وعلى ناصية الثريا كفه « في ديوانه » [١٦٩] :

وَإِذَا سَأَلْتُكَ أَنْ أَرَاكَ حَقِيقَةً فَاسْمَحْ وَلَا تَجْعَلْ جَوَابِي لَنْ تَرَى

(١) رقيق الشفرتين : السيف الذي رقت مضاربه بكثرة الصقل .

(٢) ساهمة : متغيرة الوجه من هول ما ترى .

(٣) اللمم : الجنون .

(٤) أراد أنهم مجربون ، فلذلك جعلهم مشايخ ، وأراد أنهم لا يفارقون الحرب ، فلهمذا لا يفارقهم اللثم ، فكانهم مرّد لعدم رؤيته لحاهم .

(٥) الحوادير : الغليظ السمين من الخيل .

(٦) الصغر : إمالة الخد ، وهو كناية عن التكبر ، والشموخ ، والترفع ؛ تهاوناً بالمنظور إليه ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تُصَيِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ [لقمان : ١٨] . صرع الخد : إذلاله .

(٧) ولفظه : « يا مقلب القلوب » رواه عن ابن عمر البخاري ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، ومن دعائه صلى الله عليه وسلم كما في حديث أم سلمة عند ابن السني (٦٦٣) : « يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك » .

إِذَا بِهِ يَتَضَاءُ وَيَذُوبُ ، وَيَنْكَسِرُ وَيَتُوبُ وَيَقُولُ [في «ديوانه» ٤٧] :

[من الطويل]

وَمُنِّي عَلَى سَمْعِي بَلَنْ إِنْ مَنَعْتِ أَنْ أَرَكَ فَمِنْ قَبْلِي لِغَيْرِي لَذَّتْ

ويقول [في «ديوانه» ١٥٧] :

[من الخفيف]

ذَابَ قَلْبِي فَأَذَنْ لَهُ يَتَمَنَّأُ لَكَ وَفِيهِ بَقِيَّةٌ لِرَجَاكَ

ويقول [في «ديوانه» ١٤٧] :

[من البسيط]

وَارْحَمِ تَعَثَّرَ أَمَالِي ، وَمُرْتَجِعِي إِلَى خِدَاعِ تَمَنِّي الْوَعْدِ بِالْفَرْجِ

وبينا هو يقول [في «ديوانه» ١٥٣] :

[من الكامل]

وَإِنْ اكَتَمْتَنِي غَيْرِي بِطَيْفِ خَيْالِهِ فَأَنَا الَّذِي بِوَصَالِهِ لَا أَكْتَمِي

.. إِذَا بِهِ يَقُولُ [في «ديوانه» ١٢٦] :

[من الكامل]

وَأَيُّتُ سَهْرَانَا أَمِيلُ طَيْفَهُ لِلطَّرْفِ كَيْ أَلْقَى خَيَْالَ خَيْالِهِ

وهو خيرٌ من قول النَّاطِمِ [في «العُكْبَرِيِّ» ٥٣/٣] :

[من الكامل]

إِنَّ الْمُعِيدَ لَنَا الْمَنَامَ خَيْالَهُ كَانَتْ إِعَادَتُهُ خَيَْالَ خَيْالِهِ

وبينا الشَّرفُ ابنُ الفَارِضِ أيضاً يقولُ [في «ديوانه» ١٤٥] :

[من البسيط]

عَذَّبُ بِمَا شِئْتَ غَيْرَ الْبُعْدِ عَنْكَ تَجِدُ أَوْفَى مُحِبِّ بِمَا يُرْضِيكَ مُنْتَهَجِ

ويقولُ [في «ديوانه» ١٤٤] :

[من البسيط]

أَمْسَيْتُ فِيكَ كَمَا أَصْبَحْتُ مُكْتَبِباً وَلَمْ أَقُلْ جَزَعاً : يَا أَرْزَمَهُ أَنْفَرِجِي^(١)

ويقولُ [في «ديوانه» ١٥٦] :

[من الخفيف]

وَبِمَا شِئْتَ فِي هَوَاكَ اخْتَبِرْنِي فَاخْتِيَارِي مَا كَانَ فِيهِ رِضَاكَ

.. إِذْ بَطَلَ اخْتِيَارُهُ ، وَعَمِلَ اصْطِبَارُهُ ، وَبَكَاتُ دَرَّتُهُ^(٢) ، وَلَانَتْ مِرَّتُهُ ، وَصَارَ يَقُولُ [في «ديوانه» ١٥٨] :

[من الخفيف]

بِأَنْكَسَارِي بِذِلَّتِي بِخُضُوعِي بِأَفْتِقَارِي بِفَاقَتِي بِغِنَاكَ

لَا تَكْلِنِي إِلَى قُوَى جَسَدِ خَا نَ فَإِنِّي أَصْبَحْتُ مِنْ ضَعْفَاكَ

[دفع الإشكال بما ظاهره التناقض في القرآن الكريم]

وقامَ أَحَدُ الْمُلْحِدِينَ يَطْعَنُ فِي الْقُرْآنِ بِمَا ظَاهِرُهُ التَّنَاقُضُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ * وَلَا يُؤَدِّنُ لَهُمْ فَيَعْتَدِرُونَ ﴿

[المسلمات : ٣٦-٣٥] ، وَقَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَدْنَى لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبا : ٣٨]

(١) الجزعُ : عدم الصبر .

(٢) بكاتُ : قلت .

مع أمثال قوله تقدّست أسماؤه : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [الصفات : ٢٧] .

وأجابوا عن ذلك : بأنّ المنفيّ من الكلام .. النافع ، وبأنّ اليومَ طويلٌ تختلفُ فيه الأحوالُ ، فتارةً : يُمنعونَ عن التكلّمِ لتلاطمِ الأحوالِ ، وأخرى : يُؤذَنُ لهمُ فيه للتبكيّ والتقرّيع ، فالاعتراضُ مدفوعٌ من أصلِهِ ، وإنّما يكونُ التعارضُ مع اتّحادِ الزمانِ .

[المتنبي جزوع منوع]

والناظمُ يلبسُ لكلِّ حالةٍ لبوسها ، إذ لا يزالُ يعاني من الأيّامِ نعمتها وبؤسها^(١) ، غيرَ أنّا لم نره في الخيرِ إلّا منوعاً ، وفي الشرِّ إلّا جزوعاً^(٢) ، بعيداً من قولِ العربيّ :

[من البسيط]

لَا مُتْرَفَاً إِنْ رَخَاءُ الْعَيْشِ سَاعَدَهُ وَلَيْسَ إِنْ عَضَّ مَكْرُوهٌ بِهِ خَشَعَا

[من الطويل]

ومن قولِ حاتمِ [في «ديوانه» ٥٢] :

عُنِينَا زَمَاناً بِالتَّصَعُّلِ وَالْغِنَى كَمَا الدَّهْرُ مِنْ أَيَّامِهِ الْعُسْرُ وَالْيُسْرُ
فَمَا زَادَنَا شَأْواً عَلَى ذِي قَرَابَةِ غِنَانَا وَلَا أَرْزَى بِأَحْسَابِنَا الْفَقْرُ^(٣)

[من الطويل]

وقولِ ابنِ عبدِ الأَسَدِيِّ [في «الأغاني» ٨٤٤/٢] :

وَإِنِّي لِأَسْتَعْنِي فَمَا أَبْطَرُ الْغِنَى وَأَبْذُلُ مَيْسُورِي لِمَنْ يَتَّعِي قَرْضِي
وَأُعْسِرُ أَحْيَاناً وَتَشْتَدُّ عُسْرَتِي وَأُدْرِكُ مَيْسُورَ الْغِنَى وَمَعِي عِرْضِي

[من الطويل]

وقولِ كثيرٍ [في «ديوانه» ٢٣٩] :

إِذَا قَلَّ مَالِي زَادَ عِرْضِي كَرَامَةً عَلَيَّ وَلَمْ أَتَّبِعْ دِقَاقَ الْمَطَامِعِ^(٤)

[من الطويل]

وقولِ الآخرِ :

وَكَمَ أَرْمَى لِلدَّهْرِ أَلْقَتْ جِرَانَهَا عَلَيَّ فَلَمْ تَكْشِفْ مَذَلَّتُهَا سَتْرِي^(٥)

[كرم نفس أبي فراس الحمداني]

وَإِنِّي لكَثِيراً مَا أَعْجَبُ لِأَبِي فِرَاسٍ ، وَأَسْتَدِلُّ عَلَى أَكْرَمِيهِ وَطِيبِ أَرْوَمِيهِ^(٦) بقوله وهو في غياباتِ السجنِ [في «ديوانه»

[من الطويل]

٢٤٦-٢٤٧] :

أَيْضَحُكَ مَا سُورٌ وَتَبْكِي طَلِيقَةً وَيَسْكُتُ مَحْزُونٌ وَيَنْدُبُ سَالِي !!
لَقَدْ كُنْتُ أَوْلَى مِنْكَ بِالدَّمْعِ مُقَلَّةً وَلَكِنَّ دَمْعِي فِي الْحَوَادِثِ غَالِي

(١) لعله أخذه من قول الشافعيّ :

البسّ لكلِّ حالةٍ لبوسها إمّا نعيمها وإمّا بؤسها

(٢) اقتبس أسلوبه من قوله تعالى : ﴿ إِذَامَسَّهُ النَّرُّ جُرُوعًا ﴾ * وَإِذَامَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا [المعارج : ٢٠-٢١] .

(٣) شَأْواً : بُعْداً . أَرْزَى : عَابَ .

(٤) لَمْ أَتَّبِعْ دِقَاقَ الْمَطَامِعِ : أَي لَمْ أَتَّبِعِ الْمَطَامِعَ الدَّقِيقَةَ الصَّغِيرَةَ الَّتِي يَدْفَعُ إِلَيْهَا الْفَقْرُ أَحْيَاناً .

(٥) الْجِرَانُ : الْقُلُوبُ .

(٦) الْأَرْوَمَةُ - بفتح الهمزة وضمّها - : الْأَصْلُ ، وَالْجَمْعُ أَرْوَمٌ .

[عند الامتحان يكرم المرء أو يهان]

ولا نعدم من كلام الناظم ما يشبهه غير أنه في حال السعة ، وهذا يقوله في حين الضيق ، وكذلك الحرُّ الكريم ،
والعربيُّ الصميم لا تجدهُ أشدَّ ما يكون إلاَّ عند انقطاع الأسباب ، واستغلاق الأبواب ، كما أطلنا البحث فيه من كتابنا
« بلابل التفريد » .

[إلحاحه صلى الله عليه وسلم على ربه يوم العرش]

وحالُه صلى الله عليه وسلم أكملُ الأحوالِ في ذلك ، ولهذا اشتدَّ خوفُه ، وكثُرَ إلحاحُه على ربِّه يومَ العرشِ ،
والمهاجرونَ والأنصارُ بينَ يديه تدورُ حماليقُهُم^(١) أمثالَ الحياتِ .

[ثباته جأشه في الغار]

وثبتَ جأشُه ، وذهبَ إيحاشُه يومَ الغارِ ، ويومَ حنينٍ ، ويومَ أحدٍ ، وقد اصفرَّت الجباهُ ، وييسَّتِ الشفاهُ ، وغارتِ
العيونُ ، وظنَّتِ الظنونُ .

[والله يا عم لو وضعوا الشمس]

وهل سمعتَ بشدةِ أعظمٍ من شدَّتِه ، وقد ظنَّ أنَّ عمَّهُ سيُسَلِّمُهُ إلى قريشٍ ؛ إن لم يُجِبْهُ إلى خصليةٍ ممَّا عرَّضَ عليه ،
فقالَ : « والله لو وضعوا الشمسَ في يميني ، والقمرَ في شمالي ، على أن أتركَ هذا الأمرَ حتَّى يُظهِرَهُ اللهُ ، أو أهلكَ
دُونَهُ ، ما فعلتُ »^(٢) .

[تواضعه صلى الله عليه وسلم عند فتح (مكة)]

وهل بلغتكَ رِقَّةٌ أعظمُ من رِقَّتِه يومَ فتحِ (مكة) ؛ إذ دخلها على رَحْلِ مُطَاطِنًا رأسُه ، حتَّى ليكادُ يمسُّ مُقدَّمَ رَحْلِه ،
مُردِّفًا خلفه عبدًا في سوادِ الغرابِ ، وخلفه ثمانية آلافِ سيفٍ مُنتصاةٍ ، ومكَّنه اللهُ من رقابِ أعدائه الذين فعلوا به
الأفاعيلَ ، فما كان منه إلاَّ أن جمعهم حولَ البيتِ ، وقالَ : « ما تروني فاعلاً بكم ؟ » ، فقالوا : إن تُعذَّب . . فقد
أسأنا ، وإن تعف . . فخيرُ ابنِ وخَيْرُ أخٍ ، فقالَ لهم : « لا أقولُ لكم إلاَّ كما قالَ العبدُ الصالحُ : لا تُثريبَ عليكم
اليومَ ، يَغْفِرُ اللهُ لكم »^(٣) أو ما يقربُ من هذا المعنى^(٤) .

[سؤال عن عفوهِ وعن شدته]

وهل هنا سؤالٌ وهو : كيف عفا صلى الله عليه وسلم عن قريشٍ ، وقتل ما بين الصلاتين سبع مئةٍ من اليهودِ ، لم تأخذهُ

(١) وهذا تعبيرٌ فيه كنايةٌ عن شدةِ هولِ الموقفِ الذي كان يمرُّ فيه الصحابةُ آنذاك ، والحِملَاقُ : باطنُ أجنانِ العينِ ، وحملَقَ الرجلُ : إذا انقلبَ حِملَاقُ عينيه
من الفزع .

أخرج عن ابن عباس البخاري في « صحيحه » (٢٩١٥) في كتاب الجهاد والسير ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو في قبة يوم بدر : « اللهم إني
أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم » فأخذ أبو بكر بيده فقال : حبسك يا رسول الله ، فقد ألححت على ربك ، وهو [يشب] في
الدرع ، فخرج وهو يقول : ﴿ سَيِّئَرَمُ لَجْمَعٍ وَيَوْلُونَ الذُّبُرَ * بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ ﴾ [القمر : ٤٥-٤٦] يعني من المرارة .

(٢) « السيرة النبوية » (١٠١/٢) .

(٣) كما في سورة يوسف عليه السلام [الآية : ٩٢] .

(٤) قصة دخوله صلى الله عليه وسلم على الصفة والهيئة المذكورة في « السيرة النبوية » (٢٤/٤) ، ولكنه لم يذكر أنه صلى الله عليه وسلم كان مردفًا عبدًا .
والله أعلم .

بِهِمْ رَأْفَةٌ ، وَلَمْ تَعْطِفْهُ عَلَيْهِمْ رَحْمَةٌ ، مَعَ أَنَّهُ أَشْفَقَ النَّاسَ بِالنَّاسِ ، وَمَعَ أَنَّ ذَنْبَهُمْ لَمْ يَكُنْ مِثْلَ ذَنْبِ قَرِيشٍ ^(١) ؟
 والجواب : أن لا هواده عنده ، وقد قتل الفريقين ، إلا أن قريشاً لما كانوا أهل كرم ، وبُعد همم ، وطهارة شيم . .
 كان قتلهم بالعمو ، وأما اليهود : فإنهم لما اشتملوا على اللؤم ، واندمجوا على الخسة بآية أن ذنبهم كان الغدر . . لم
 يكن ليصلحهم الحلم ، ولا ليتداركهم العفو ، لا جرّم اضطرر إلى قتلهم بالسيف ، وقد قال ابن المعتز : [من الكامل]
 ضَرَابُ هَامِ الرُّومِ مُنْتَقِماً وَفِي أَعْنَاقِهِمْ مِنْ جُودِهِ أَعْبَاءُ
 لَوْلَا انْبِعَاثُ السَّيْفِ وَهُوَ مُسَلِّطٌ فِي قَتْلِهِمْ قَتَلَتْهُمْ النَّعْمَاءُ
 إلا أن عليه مؤاخذتين :

[اعتراض المؤلف على ابن المعتز]

إحداهما : أن الإحسان ذمّة ، فلا يليق بالكريم أن يؤذي غدي نعمته .
 والأخرى : أنه لا يُصار إلى القتل بالسيف إلا عند تعذره بالنعماء ، وإلا كان الحلم أليق ، والعفو أجدر ، كما فعل
 رسول الله صلى الله عليه وسلم .

[الصفح عند الشعراء]

وقال أبو عبادَةَ [في «ديوانه»] :

صَفُوحٌ عَنِ الْجَانِيِ وَصَفْحَةٌ سَيْفِهِ إِذَا هِيَ لَمْ تَقْتُلْهُ فَالْصَّفْحُ قَاتِلُهُ

[من الطويل] ووضحة أبو الطيّب في قوله [في «العُكْبَرِيّ» ٢٨٨/١] :

وَمَا قَتَلَ الْأَحْرَارَ كَالْعَفْوِ عَنْهُمْ وَمَنْ لَكَ بِالْحُرِّ الَّذِي يُحْفَظُ الْيَدَا
 إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكَتَهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّيْمَ تَمَرَدَا
 وَوَضِعُ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعُلَا مُضِرٌّ كَوْضِعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

[من الطويل] وقوله [في «العُكْبَرِيّ» ١٣٦/٤] :

وَأَحْلُمُ عَنْ خَلِيٍّ وَأَعْلَمُ أَنَّهُ مَتَى أَجْزِهِ حِلْمًا عَلَى الْجَهْلِ يَنْدَمِ

[من الكامل] وقوله [في «العُكْبَرِيّ» ١٨٥/٤] :

يَا مَنْ يُقْتَلُ مَنْ أَرَادَ بِسَيْفِهِ أَصْبَحْتُ مِنْ قَتْلِكَ بِالْإِحْسَانِ

[من الطويل] وقوله [في «العُكْبَرِيّ» ٣٧٩/١] :

وَيَصْطَنِعُ الْمَعْرُوفَ مُبْتَدِئاً بِهِ وَيَمْنَعُهُ عَنْ كُلِّ مَنْ ذَمُّهُ حَمْدٌ

[من الكامل] وقوله [في «العُكْبَرِيّ» ٣١٠/٣] :

لَا يَشْهَرُونَ عَلَيَّ مُخَالِفِهِمْ سَيْفًا يَقُومُ مَقَامَهُ الْعَدْلُ

وفي البحث طولٌ وقيناهُ حقّه في «بلايل التغريد» .

(١) «السيرة النبوية» (٢٥٩/٣) .

ولنعُدُّ إلى ما يتَّصلُ بتناقضِ الناظمِ ، فنقولُ :

[الأصمعي وبراذين الخلفاء]

حُكِي : أَنَّ الْأَصْمَعِيَّ رُئِيَ عَلَى حِمَارٍ أَعْجَفَ ، فَقِيلَ لَهُ : تَرَكَبُ هَذَا بَعْدَ بَرَاذِينَ الْخُلَفَاءِ ؟ فَقَالَ : [من الكامل]

وَلَمَّا أَبَتْ إِلَّا أَنْصِرَامًا لِيُودِّهَا وَكَدَّرَتِ الْمَاءَ الَّذِي كَانَ صَافِيَا
شَرِبْنَا بِرِيْقٍ مِنْ هَوَاهَا مُكْدَرٍ وَلَيْسَ يِعَافُ الرَّيْقَ مَنْ كَانَ صَادِيَا

[الضرورات تبيح المحظورات]

وَلِلنَّاطِمِ فِيمَا يَقْرُبُ مِنَ الْآخِرِ قَوْلُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢ / ٢٨١] : [من المنسرح]

غَيْرَ اخْتِيَارٍ قَبِلْتُ بِرَكَ بِي وَالْجُوعُ يُرْضِي الْأَسْوَدَ بِالْجِيفِ

ومثله قول بعضهم : [من مجزوء الكامل]

خُذْ مَا أَتَاكَ مِنَ اللَّثَا مَ إِذَا نَأَى أَهْلُ الْكَرَمِ
فَالْأَسْدُ تَفْتَرِسُ الْكِلَا بَ إِذَا تَعَدَّرَتِ الْغَنَمُ

[ابن الرومي يطلب حاجة لا يتوقع قضاءها]

وسأل ابن الرومي حاجة من بعض الرؤساء ، فقضاها له ، وما كان يتوقع ذلك منه ، فقال : [من الطويل]

سَأَلْتُكَ فِي أَمْرٍ فَجُدْتَ بِبَذْلِهِ عَلَيَّ أَنِّي مَا خِلْتُ أَنَّكَ تَفْعَلُ
وَأَلْزَمْتَنِي بِالْبَذْلِ شُكْرًا وَإِنَّهُ عَلَيَّ مِنَ الْحِرْمَانِ أَذْهَى وَأَعْضَلُ
وَمَا خِلْتُ أَنَّ الدَّهْرَ يَثْنِي بِصَرْفِهِ إِلَيَّ أَنْ أَرَى فِي النَّاسِ مِثْلَكَ يُسْأَلُ
لَئِنْ سَرَّنِي مَا نِلْتُ مِنْكَ فَإِنَّهُ لَقَدْ سَاءَنِي إِذْ أَنْتَ مِمَّنْ يُؤَمَّلُ

[ابن سناء الأيام بعد عبوسها]

وفيما يليق بموضوع البيت الذي نتكلم فيه ، يقول ابن الرومي أيضاً في أبي الصمقر [في « ديوانه » ٢ / ١٦٣٨] : [من الوافر]

غَدَا يَغْلُو الْجِيَادُ وَكَانَ يَغْلُو إِذَا مَا اسْتَفْرَةَ السَّبْتِ الرَّقَاقَا^(١)
أَعْنَتَهَا الشُّسُوعُ فَإِنْ عَرَاهَا حِفَاءُ الْكَدِّ أَنْعَلَهَا طِرَاقَا
فَزُوجَ بَعْدَ فَقْرٍ مِنْهُ نُعْمَى أَرَانِي اللَّهُ صُبْحَتَهَا طَلَاقَا

[رجل خفيف الحمل]

وقال آخر : [من الخفيف]

أَتَرَانِي أَرَى مِنَ الدَّهْرِ يَوْمًا وَبِمِلْكِ مِطِيَّةٍ غَيْرَ رَجْلِي
وَإِذَا كُنْتُ فِي أَنْاسٍ فَقَالُوا قَرَّبُوا لِلرَّجْلِ قَرَّبْتُ نَعْلِي
حَيْثُمَا كُنْتُ لَا أَخْلَفُ رَحْلًا مَنْ رَانِي فَقَدْ رَانِي وَرَحْلِي

(١) استفرة : تخير الجيد . السبت : النعال المصنوعة من الجلد المدبوغ . الرقاق : كناية عن الجديد من النعال ؛ لأنها لا رقعة فيها .

[اللهم مثلنا أو مثلهم]

وكان لبعض الفقراء من متأخري أهل بلادنا جيران أغنياء ، فكان يقول من آخر الليل : (اللهم مثلنا أو مثلهم) ؛ يريد أن يفتقروا مثله أو يثرى مثلهم ، وكأثما أخذه من قول بعضهم ، وهو من مناسبات الموضوع : [من المتقارب]

تَسَامَى الرَّجَالُ عَلَى خَيْلِهِمْ وَرَجَلِي مِنْ بَيْنِهِمْ حَافِيَهُ
فَإِنْ كُنْتَ حَامِلَنَا رَبَّنَا وَإِلَّا فَأَرْجِلُ بَنِي الزَّائِيَهُ

[لم يذهب إلا الفضول]

وذكروا : أن بعضهم رأى أحد بني هشام بن عبد الملك ، وعلى ظهره قرية ، فقال له : بعد الخلافة تكون على هذا الحال !؟ قال : لم يذهب إلا الفضول !!

[فخر الدولة ابن المعتمد يتعلم الصياغة]

ورأى ابنُ اللَّبَّانَةِ فخرَ الدولة ابنَ المعتمدِ بنِ عبادٍ ، وقد جلسَ في السوقِ ليتعلَّم الصياغةَ ، وهو ينفخُ الفحمَ بالقصبَةِ ، فقال [كما في « نفع الطيب » ٩٧/٤] :

شَكَاتُنَا لَكَ يَا فَخْرَ الْعُلَا عَظَمَتْ
طُوقَتْ مِنْ نَائِبَاتِ الدَّهْرِ مُخِيفَةً
صَرَفْتَ فِي آلَةِ الصَّوَاغِ أُنْمَلَةً
يَدٌ عَهْدُتُكَ لِلتَّمْيِيلِ تَبْسُطُهَا
يَا صَائِغًا كَانَتْ الْعُلَا تَصَاغُ لَهُ
لِلنَّفْخِ فِي الصُّورِ هَوًى مَا حَكَاهُ سَوَى
وَدِدْتُ إِذْ نَظَرْتُ عَيْنِي إِلَيْكَ بِهِ
مَا حَطَّكَ الدَّهْرُ لَمَّا حَطَّ عَنْ شَرَفِ
لُحْ فِي الْعُلَا كَوَكْبًا إِنْ لَمْ تَلُحْ قَمْرًا
وَاصْبِرْ فَرُبَّمَا أَحْمِدْتَ عَاقِبَةً
وَاللَّهِ لَوْ أَنْصَفْتِكَ الشُّهْبُ لَانْكَسَفَتْ
أَبْكَى حَدِيثُكَ - حَتَّى الدَّرَّ - حِينَ غَدَا

[تغير أحوال أم جعفر البرمكي]

ودخلت أم جعفر البرمكي - في يوم عيد - على بعض الهاشميين ، فقالوا لها : صفي لنا حالك ، قالت : لا أزيدكم على أنه مضى عليّ مثل اليوم في العام الماضي وعلى رأسي مئة وصيفة ، وعندي مئة ألف دينار ، وأنا أعدُّ ولدي مفضراً في حقّي ، واليوم أطلبُ درهماً أتبلغُ به في عيدي .

[قصة عجبية على تغير الأحوال]

وقال محمد بن يزيد الشاعر : دعاني الفضل بن يحيى ذات ليلة إلى دار له واسعة مؤثثة بأجمل الرياش ، وإذا هي

غَاصَّةٌ بِالْعُلَمَاءِ وَالشُّعْرَاءِ وَالْأُمَرَاءِ وَالْخَاصَّةِ وَالْأَعْيَانِ ، وَأُخْرِجَ مَوْلُودٌ عَنْ يَمِينِ الْفَضْلِ ، فُقِرِيَ الْقُرْآنَ حَتَّى انْتَهَوْا مِنْ
الْحَتْمَةِ ، فَقَامَ الشُّعْرَاءُ وَالْخُطَبَاءُ ، وَنُثِرَتِ الدَّنَانِيرُ وَلَمْ يَحْضُرْنِي غَيْرُ قَوْلِي : [مَنْ الطويل]

وَنَفْرَحُ بِالْمَوْلُودِ مِنْ آلِ بَرْمَكٍ وَلَا سِيَّمَا إِنْ كَانَ مِنْ وَلَدِ الْفَضْلِ
وَيُعْرِفُ فِيهِ الْخَيْرُ حَالَ وُجُودِهِ بِسِيَّمَا الْعُلَا وَالْمَجْدِ وَالْجُودِ وَالْبَذْلِ

فَأَمَرَ لِي بِعَشْرَةِ آلَافِ دِينَارٍ ، وَقَالَ : خُذْهَا يَا مُحَمَّدُ ، فَهِيَ أَوَّلُ حَقِّكَ ، فَخَرَجْتُ وَأَنَا مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ فَرِحًا ، وَتَأَثَّلْتُ
الْمَالَ وَالْعَقَارَ ، وَنَعَمَ عَيْشِي ، وَطَابَ لِي زَمَانِي ، ثُمَّ لَمْ تَطُلْ الْأَيَّامُ حَتَّى حَلَّتْ بِهِمُ النَّازِلَةُ . وَدَخَلْتُ الْحَمَّامَ بَعْدَ
ذَلِكَ ، فَأَشَارَ قِيَمُهُ عَلَى صَبِيٍّ حَسَنِ الْوَجْهِ مِنَ الْخَدَمِ أَنْ يَذُلَّكَ بَدْنِي ، فَتَذَكَّرْتُ الْبِرَامِكَةَ وَأَيَّامَهُمْ ؛ لِأَنَّهُمْ سَبُّ
نَعْمَتِي ، فَأَنْشَدْتُ الْبَيْتَيْنِ ، فَاذْهَبْ الصَّبِيَّ ، وَسَالَتْ دَمُوعُهُ ، وَسَقَطَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ ، فَظَنَنْتُ بِهِ الْجَنُونََ ، وَعَاتَبْتُ
الْقِيَمَ ، وَلَمَّا أَفَاقَ ، وَسَأَلَنَاهُ عَنْ أَمْرِهِ . . . امْتَنَعَ ، وَبَعْدَ الْإِلْحَاحِ قَالَ : أَنَا ذَلِكَ الْمَوْلُودُ الَّذِي أَنْشَدْتَ فِيهِ الشُّعْرَ ، وَقَدْ
صَرْتُ إِلَى مَا تَرَى ، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ أَنْ أَنْزِلَ لَهُ عَنْ جَمِيعِ مَالِي ؛ إِذْ لَا وَارثَ لِي عَلَيَّ أَنْ أَعِيشَ مَا بَقِيَ مِنْ حَيَاتِي فِي
كَنَفِهِ ، فَأَبَى ، وَقَالَ : مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ أَرْزَأَكَ شَيْئًا مِمَّا خَوَّلَكَ أَبِي ، وَكَانَ آخِرَ عَهْدِي بِهِ .

[النعمان بن بشير يخطب الرقة ابنة النعمان بن المنذر]

وَلَمَّا جَاءَ النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ يَخْطُبُ الرَّقَّةَ ابْنَةَ النُّعْمَانِ بْنِ الْمَنْذَرِ . . . رَدَّتْهُ ، وَقَالَتْ لَهُ : كَبِرْتَ عَنِ النِّكَاحِ ، وَإِنَّمَا أَرَدْتُ
بِنِكَاحِي الْفَخْرَ ؛ لِتَقَوْلِ : أَخَذْتُ مَمْلُوكَةَ النُّعْمَانِ ، وَتَزَوَّجْتُ بِنْتَهُ ، فَقَالَ لَهَا : صِفِي لَنَا مَا رَأَيْتِ ، فَأَنْشَدَتْ : [مَنْ الطويل]

فَبَيْنَا نَسُوسُ النَّاسَ وَالْأَمْرُ أَمْرُنَا إِذَا نَحْنُ فِيهَا سُوقَةٌ نَتَنَصَّفُ
فَأُفُّ لِدُنْيَا لَا تَدُومُ بِحَالَةٍ تَقَلَّبُ تَارَاتٍ بِنَا وَتُصَرَّفُ

[موسى بن نصير وتغير حاله]

وَيُرْوَى : أَنَّ مُوسَى بْنَ نَصِيرٍ فَاتَحَ (الْأَنْدَلُسَ) كَانَتْ تُرْفَعُ لَهُ الذَّخَائِرُ ، فِيرْمِي بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَلَا يَلْتَقِطُ إِلَّا
مَا كَانَ مِنَ الْجَوَاهِرِ الْمُثْمِنَةِ ، ثُمَّ آَلَ بِهِ الْحَالُ إِلَى أَنْ صَارَ يَتَسَوَّلُ^(١) بـ (الطَّائِفِ) ، وَإِذَا وَقَعَ لَهُ الدَّرْهَمُ . . . سُرَّ بِهِ ،
حَتَّى مَلَّهُ حَبِيبُهُ ، وَبَاعَدَهُ قَرِيبُهُ ، وَمَاتَ عَلَى ذَلِكَ .

[زوجة ملك تطلب الصدقة]

وَلَا حَاجَةَ لِلْبُعْدِ فِي اسْتِخْرَاجِ الْعِبْرَةِ ، وَقَدْ رَأَيْتُ زَوْجَ آخِرِ مَلُوكِ آلِ عُثْمَانَ تَطْلُبُ الصَّدَقَةَ فِي (سَنِكَافُورَةَ) ، فَسَبْحَانَ
مَنْ لَا يَزُولُ مَلِكُهُ .

[القصر الخرب]

وَرَأَيْتُ قَصْرَ الْأَمِيرِ الْخَطِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَلِيٍّ الْعَوَلْقِيِّ خَرَابًا يَبَابًا فِي (حَيْدَرَ أَبَادِ الدَّكْنِ) : [مَنْ الطويل]

أَمْسَى خَلَاءً وَأَمْسَى أَهْلُهُ احْتَمَلُوا أَخْنَى عَلَيْهِ الَّذِي أَخْنَى عَلَيَّ لُبْدٍ^(٢)

(١) وسببه : أنه لم يؤخر فتح (الأندلس) ليكون في عهد ولي العهد ، وهلكذا الأيام .

(٢) أخنى عليه : أهلكه . لُبْدٌ : تزعم العرب أن لقمان هو الذي بعثه عاد في وفدها إلى الحرم يستسقي لها فلما أهلكوا . . . خير لقمان بين بقاء سبع بعرات سمير
من أظف عفر في جبل وعمر لا يمسه القطر أو بقاء سبعة أنسر كلما هلك نسر . . . خلف بعده نسر ، فاختر النسور ، فكان آخر نسوره يسمى لبدا ؛ لبقائه ،
لأنه لبْدٌ فبقي لا يذهب ولا يموت ، ومنه المثل : طال الأبد على لبدا .

مَعَمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الثَّرْوَةِ وَضَخَامَةِ الْمُلْكِ ، وَمَا بِالْعَهْدِ مِنْ قَدَمٍ ؛ فَإِنَّمَا كَانَتْ وَفَاتُهُ سَنَةً : (١٢٨٤هـ) ، وَلَمَّا اقْتَرَبَ أَجَلُهُ . . قَالَ لِمَنْ حَضَرَهُ : اعْلَمُوا أَنِّي تَرَكْتُ لَوْلَدِي مُحْسِنٍ عَشْرِينَ أَلْفَ أَلْفِ رُوبِيَّةٍ نَقْدًا ، فَضِلًّا عَمَّا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْعَقَارِ وَالْأَثَاثِ وَالْمَجُوهَرَاتِ ، ثُمَّ إِنَّ كَانَ فَحَلًّا . . فَلَنْ يَحْتَاجَهَا ، وَإِنْ كَانَ فَسَلًّا . . فَلَنْ تَنْفَعَهُ : [مِنَ الطَّوِيلِ]

فَأُضْحَوْا حَدِيثًا كَأَلْمَنَامِ وَمَا انْقَضَى فِسِيَّانٍ مِنْهُ يَقْظَةٌ وَمَمْنَامٌ

[مِنَ الْكَامِلِ]

وَمَا كَانَ أَحَقَّهُ بِقَوْلٍ بَعْضِهِمْ :

يَا مَنْزِلًا عَبَثَ الزَّمَانُ بِأَهْلِهِ
أَيْنَ الَّذِينَ عَاهَدْتُهُمْ بِكَ مَرَّةً
فَأَبَادَهُمْ بِتَفَرُّقِي لَا يَجْمَعُ
كَانَ الزَّمَانُ بِهِمْ يَضُرُّ وَيَنْفَعُ !؟

[مِنَ الْبَسِيطِ]

وَقَوْلِ الْآخِرِ :

بِاللَّهِ رَبِّكَ كَمْ قَصِرَ مَرَزَتْ بِهِ
نَادَى غَرَابُ الْمَنَائِيَا فِي جَوَانِبِهِ
قَدْ كَانَ مَلَانٌ بِاللَّذَاتِ وَالطَّرِبِ
وَصَاحَ مِنْ بَعْدِهِ بِالْوَيْلِ وَالْحَرْبِ^(١)

[الصَّاحِبِ وَدَارِ ابْنِ الْعَمِيدِ]

وَيُحْكِي [كَمَا فِي « وَفِيَاتِ الْأَعْيَانِ » ١١٠/٥] : أَنَّ الصَّاحِبَ بْنَ عَبَّادٍ مَرَّ بِدَارِ ابْنِ الْعَمِيدِ بَعْدَ وَفَاتِهِ ، فَقَالَ : [مِنَ الْخَفِيفِ]

أَيُّهَا الرَّبُّعُ لِمَ عَلَكَ اكِتَابُ
أَيْنَ مَنْ كَانَ يَفْرَعُ الدَّهْرُ مِنْهُ
مَاتَ مَوْلَايَ فَاغْتَلَانِي اكِتَابُ
قُلْ بِلَا رَقَبَةٍ وَدُونَ احْتِشَامِ

[اعْجَبَ لَصَرْفِ الدَّهْرِ]

قَالَ ابْنُ خَلِّكَانَ [فِي « وَفِيَاتِ الْأَعْيَانِ » ١١٠/٥] : وَمِثْلُ هَذِهِ الْحِكَايَةِ مَا ذَكَرَهُ عَلِيُّ بْنُ سَلِيمَانَ ، قَالَ : رَأَيْتُ بَدَ الرَّيِّ (دَارَ قَوْمٍ لَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا رَسْمُ الْبَابِ مَكْتُوبٌ عَلَيْهِ : [مِنَ الْمُنْسَرِحِ]

اعْجَبَ لِصَرْفِ الدَّهْرِ مُعْتَبِرًا
عَهْدِي بِهَا وَالْمُلُوكُ زَاهِيَةً
فَهَذِهِ الدَّارُ مِنْ عَجَائِبِهَا
قَدْ سَطَعَ النُّورُ مِنْ جَوَانِبِهَا
مَا أَوْحَسَ الدَّارَ بَعْدَ صَاحِبِهَا
تَبَدَّلَتْ وَخَشَتْ بِسَاكِنِهَا

[قَصْرِ ابْنِ سَبْكْتِكِينَ]

وَاجْتَازَ بَعْضُ الْأَفَاضِلِ بِقَصْرِ ابْنِ سُبُكْتِكِينَ بَعْدَ مَوْتِهِ ، وَقَدْ تَشَعَّثَتْ فَأَنْشَدَ : [مِنَ الطَّوِيلِ]

عَلَيْكَ سَلَامٌ اللَّهُ مِنْ مَنْزِلِ قَصْرِ
عَاهَدْتُكَ مِنْ شَهْرِ جَدِيدًا وَلَمْ أَخْلُ
فَقَدْ هَجَّتْ لِي شَوْقًا قَدِيمًا وَمَا تَدْرِي
صُرُوفَ الرَّدَى تَبْلِي مَغَانِيكَ فِي شَهْرِ^(٢)

[مِنَ الْبَسِيطِ]

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ بَعْضِهِمْ :

إِنْ شِئْتَ أَنْ لَا تَرَى صَبْرًا لِمُصْطَبِرٍ
فَانظُرْ عَلَيَّ أَيَّ حَالٍ أَصْبَحَ الطَّلَلُ

(١) الْعَرَبُ : الْهَلَاكُ .

(٢) الْقِصَّةُ فِي « وَفِيَاتِ الْأَعْيَانِ » (١٧٦/٥) .

ويأتي ما يتصل بهذا في شرح قوله [في «العُكْبَرِيَّ» ٢/ ٣٣٤] :

[من الكامل]

أَيْنَ الْأَكَّاسِرَةِ الْجَبَابِرَةِ الْأَلَى كَنْزُوا الْكُنُوزَ فَمَا بَقِينَ وَلَا بَقُوا ؟

[أمير (كابل)]

وَأَذَكُرُ فِي الْكِتَابِ أَمِيرَ (كَابِلَ) الَّذِي بَحَثَ عَنِ حَتْمِهِ بِظَلْفِهِ^(١) ، وَجَدَعَ مَارِنَ أَنْفِهِ بِكَفِّهِ^(٢) ، وَبَاءَ بِالصَّفَقَةِ الْخَاسِرَةِ ، وَضَيَّعَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ، فَبَعْدَ أَنْ كَانَ يَغْبِطُهُ مَنْ رَأَاهُ ، أَوْ سَمِعَ بِنِعْمَتِهِ . تَبَرَّأَ مِنَ الْإِسْلَامِ ، فَطُرِدَ عَنِ الْمُلْكِ ، وَسُلِبَ الْمَالُ ، وَصَارَ يَرِي لُهُ كُلُّ مَنْ رَأَاهُ ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى .

[محمد علي باشا وأمان الله]

وَمَعَ هَذَا فَقَدْ أَخْبَرَنِي الْفَاضِلُ الثَّقِيُّ السَّيِّدُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ طَاهِرٍ ، عَنْ مُحَمَّدِ عَلِيِّ بْنِ تَوْفِيقِ بَاشَا خَدْيَوِيِّ (مِصْرَ) السَّابِقِ : أَنَّهُ قَالَ : بَيْنَا أَنَا أْتَمَشِيُّ فِي (بَارِيزَ)^(٣) . إِذْ جَاءَ أَمَانُ اللَّهِ - وَهُوَ وَلِيُّ عَهْدِ دَوْلَتِهِ - فِي أَتْبَاعِهِ وَحَشَمِهِ بِالْبَسْتِهِمُ الْوَطَنِيَّةِ وَشِعَائِرِهِمُ الْإِسْلَامِيَّةِ فَاسْتَلْفَتُوا الْأَنْظَارَ ، وَمَلَّؤُوا الصُّدُورَ ، وَاسْتَحْقَقُوا الْإِعْجَابَ ، وَكَانُوا مَوْضِعَ الْاحْتِرَامِ ، وَزَادَ الطَّيْنَ بَلَّةً أَنْ دَخَلَ وَقْتُ الْمَغْرَبِ . فَاسْتَهَلَّ مَوْذُنُهُ ثُمَّ أَقَامَ ، وَدَخَلُوا فِي الصَّلَاةِ ، فَبادَرَتْ رِجَالُ الْحُكُومَةِ بِالْحَرَسِ ؛ لَمَنْعِ النَّاسِ عَنِ الْمُرُورِ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ؛ احْتِرَامًا لَهُمْ وَلِدِينِهِمْ ، فَصَارُوا حَدِيثَ النَّوَادِي ، وَمَحَلَّ اسْتِحْسَانِ الْقَوْمِ وَإِعْظَامِهِمْ ، قَالَ مُحَمَّدٌ عَلِيٌّ : فَلَا تَسْلُ عَمَّا دَاخَلَنِي مِنْ حَسَدٍ لَهُمْ ، وَانْكَسَارٍ فِي نَفْسِي ، وَاحْتِقَارٍ لِزَيْبِ الْإِفْرَنْجِيِّ ، مَعَ أَنَّ بِلَادِي أَعْظَمُ سُلْطَانًا مِنْ بِلَادِهِمْ ، وَمَا رَفَعَهُمْ إِلَّا التَّمَسُّكُ بِتَقَالِيدِ بِلَادِهِمْ وَدِينِهِمْ .

ثُمَّ أَرْجَعُ النَّظَرَ فِي حَالِ أَمَانِ اللَّهِ خَانَ وَصِيورِ أَمْرِهِ ، فَلَقَدْ اتَّضَعَ مِنْ حَيْثُ ارْتَفَعَ ، وَانْدَفَعَ مِنْ حَيْثُ انْتَفَعَ ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَثْرَاتِ الشُّورِ^(٤) ، وَمِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكُورِ^(٥) .

[ركب النميري]

[من الطويل]

ثُمَّ إِنِّي ذَكَرْتُ بِنِعَاظِمِ النَّازِمِ عَنْ غَيْرِ حَقِيقَةِ قَوْلِ النَّمِيرِيِّ :
وَلَمَّا رَأَتْ رَكْبَ النَّمِيرِيِّ أَغْرَضَتْ وَكُنَّ مِنْ أَنْ يَلْقَيْنَهُ حَذِرَاتِ
فَقَدْ أَحْفَاهُ السُّؤَالَ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنُ مِرْوَانَ عَنْ ذَلِكَ الرَّكْبِ ، فَقَالَ لَهُ : لَا وَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنَا ضَالِعٌ .

[الجيش الكبير]

[من الطويل]

وَقَوْلَ لَيْلَى لِأَبِيهَا : أَرَأَيْتَ قَوْلَ أَبِيكَ :
بِجَيْشٍ تَظَلُّ الْبُلُقُ فِي حُجْرَاتِهِ بِيثْرِبِ أَخْرَاهُ وَيَالشَّامِ قَادِمُهُ
كَمْ كَانَ عَدْدُهُ ؟ قَالَ : أَنَا وَإِيَّاهُ وَأَخْوَكِ فَلَانٌ وَمَعْنَا اثْنَانِ .

(١) بظلفه : بقدمه ، وقال أحدهم بمعناه :

أرى قـدمـسي أراق دمـسي

إلى حنفي مشى قـدمـسي

(٢) قالت الزبياء : (لأمير ما جدع قصير أنفه) ، فضربت مثلاً .

(٣) أي : (باريس) عاصمة (فرنسا) .

(٤) الشور : الرؤى بالحضرمية ، وكأنه مأخوذ من المشورة .

(٥) الحور بعد الكور : نقصان بعد الزيادة .

وقول ابن الحجاج^(١) :

[من المنسرح]

أَنَا [ابن] مَنْ دَانَتْ الرَّقَابُ لَهُ مَا بَيْنَ مَخْرُومِهَا وَهَاشِمِهَا
تَأْتِي إِلَيْهِ الْأَنَامُ طَائِعَةً يَأْخُذُ مِنْ مَالِهَا وَمِنْ دَمِهَا

[ابن الفوال]

وقول ابن الفوال^(٢) :

[من الطويل]

أَنَا ابْنُ الَّذِي لَا يُنْزِلُ الدَّهْرُ قِدْرَهُ وَإِنْ نَزَلَتْ يَوْمًا فَسَوْفَ تَعُودُ

وقال ابن خلكان [في « وفيات الأعيان » ٥٧/٧] :

[القبران المتشامتان]

قال عوث بن الزرع : حدّثني مَنْ رَأَى ب (الشام) قبراً مكتوباً عليه : لا يَغْتَرَنَّ أَحَدٌ بِالدُّنْيَا ؛ فَإِنِّي ابْنُ مَنْ كَانَ يُطْلَقُ
الريح إذا شاء ، ويحبسها إذا شاء ، وبإزائه قبرٌ مكتوبٌ عليه : كَذَبَ الْمَاصِ بِظَرِّ أُمِّهِ ، لا يَظُنُّ أَحَدٌ أَنَّهُ ابْنُ سَلِيمَانَ بْنِ
داوودَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، إِنَّمَا هُوَ ابْنُ حَدَادٍ يَجْمَعُ الرِّيحَ فِي الرَّقِّ ، ثُمَّ يَنْفُخُ بِهَا الْجَمْرَ ، قَالَ : فَمَا رَأَيْتُ قَبْرَيْنِ قَبْلَهُمَا
بِشَاتِمَانِ .

[الكلام على النعل]

والكلام في النعل يطول ، وقد أُفِرِدَتْ بِالتَّأْلِيفِ . وفي « حاشيتي » على « الشمائل » جملةٌ صالحةٌ منه ، في ضمنه
قولُ « التحفة » : ووردَ : « امشوا حفاةً »^(٣) وفي رواية أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَشَى حَافِياً ، وَقَدْ يُؤْخَذُ مِنْهُ نَدْبُ
الْحَفَاءِ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ بِقَصْدِ التَّوَاضُعِ ، حَيْثُ أَمِنَ مُؤْذِيًا وَتَنْجِيسًا ، وَلَوْ اِحْتِمَالًا ، وَيُؤَيِّدُهُ نَدْبُهُ لِنَحْوِ دُخُولِ
(مَكَّةَ) بِهَذِهِ الشَّرُوطِ . انتهى .

وَمِنْ مَحَاسِنِ الشَّرِيعَةِ ، وَاعْتِنَائِهَا بِالْعَدْلِ : كِرَاهَةُ الْمَشْيِ فِي نَعْلِ وَاحِدَةٍ .

[من الممادح رقة النعال]

وَمِنْ مَمَادِحِ الْعَرَبِ رِقَّةُ النِّعَالِ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ [النَّابِغَةُ الذُّبْيَانِيَّةُ فِي « دِيوانه »] :

[من الطويل]

رِقَاقُ النَّعَالِ طَيِّبٌ حُجِرَاتُهُمْ يُحَيِّوْنَ بِالرَّيْحَانِ يَوْمَ السَّبَاسِبِ^(٤)

(١) الذي يحجم الناس .

(٢) الذي يبيع الفول .

(٣) ثبت عن أبي هريرة عند البخاري (٥٨٥٥) ، ومسلم (٢٠٩٧) قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يمش أحدكم في نعل واحد ، لينعلهما جميعاً ، أو
ليخلعهما جميعاً » .

(٤) الحجزة : العشيبة يحتجز بها ، أي يمتنع . ورجلٌ طيبٌ الحجزة عفيفٌ . السباسب : أيامُ السَّقَانِينِ ، وهو عيدٌ للنصارى ، وفي الحديث : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى
أَبْدَلَكُمْ يَوْمَ السَّبَاسِبِ يَوْمَ الْعِيدِ » .

[من الكامل]

وَلُبِسُ السَّبِيَّةِ مِنْهَا ، كَمَا قَالَ عَتَرٌ [في «ديوانه» ٦٥] :

بَطَلٍ كَأَنَّ ثِيَابَهُ فِي سَرْحَةٍ يَحْذَى نِعَالَ السَّبْتِ لَيْسَ بِتَوْأَمٍ^(١)

وَالسَّبْتُ : جلودُ البقرِ المدبوغَةِ الَّتِي لَا تَقْرُبُهَا الْكِلَابُ إِذَا ابْتَلَّتْ ؛ لِإِتْقَانِ دَبْغِهَا .

[رقة النعل كناية عن سلامتها]

وَأَمَّا رِقَّةُ النَّعْلِ : فَكِنَايَةٌ عَنِ سَلَامَتِهَا مِنَ الرَّقَاعِ ؛ لِأَنَّهَا مَلُوكٌ لَا تُخَصَفُ نِعَالُهُمْ ، وَإِنَّمَا تُخَصَفُ نَعْلٌ مِنْ يُكْثِرُ الْمَشْيَ ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُمْ : (فَلَانٌ مُسَمَّطُ النَّعْلِ) ؛ يَعْنُونَ أَنَّ نَعْلَهُ طَبَقَةٌ وَاحِدَةٌ غَيْرٌ مَخْصُوفَةٌ . قَالَ الْمَرَارُ الْفَقْعَسِيُّ :

[من الوافر]

وَجَدْتُ يَبِي حَفَاجَةَ فِي عَقِيلٍ كِرَامَ النَّاسِ مُسَمَّطَةَ النَّعَالِ

* * *

(١) مدحه بأربع خصال كرام : إحداهما : أَنَّهُ جَعَلَهُ بَطَلًا شَجَاعًا ، الثَّانِيَةُ : أَنَّهُ جَعَلَهُ طَوِيلًا ، شَبَّهَهُ بِالسَّرْحَةِ ؛ وَهِيَ : شَجَرٌ عِظَامٌ طَوَالٌ ، الثَّلَاثَةُ : أَنَّهُ جَعَلَهُ شَرِيفًا ؛ لِلبَّسِهِ نِعَالَ السَّبْتِ ، الرَّابِعَةُ : أَنَّهُ جَعَلَهُ مُتَفَرِّدًا لَا مِثِيلَ لَهُ .

المجلس الثالث

[من المنسرح]

قال أبو الطيب المتنبي في « العُكْبَرِيَّ » ١ / ٣٠٤ :

لَهُ أَيَادٍ عَلَيَّ سَابِقَةٌ أَعَدُّ مِنْهَا وَلَا أَعَدُّهَا

[شرح المطلع]

الأيادي : جمع يد ، وهي النعمة ؛ لأنها التي تجمع هذا الجمع بخلاف الجارحة ، فإنها لا تجمع عليه ، وزعم بعضهم أنها تجمع عليه أيضاً ، وذكروا له أمثلة لا يحضرني منها الآن شيء .

[الروايات في المطلع]

أما قوله : (أَعَدُّ) فيروى بفتح الهمزة [أَعَدُّ] ، وهو من قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم : ٣٤] ، ويروى بضمها مبنية للمفعول ، ونائب الفاعل مستتر تقديره (أنا) ؛ يعني : أن نفسه معدودة من جملة نعم الممدوح ، فهو كقول شاعر الحماسة :

[من السريع]

لَا تَتَّقُنِّي بَعْدَ أَنْ رِشْتَنِي فَإِنِّي بَعْضُ أَيَادِيكََا

[تلاعب المتنبي في معنى الجود]

[من البسيط]

وقد تلاعب بهذا المعنى في « ديوانه » فقال في « العُكْبَرِيَّ » ٢ / ٣٨٠ :

مَا زِلْتُ تَتَّبِعُ مَا تُولِي يَدَا بِيَدٍ حَتَّى ظَنَنْتُ حَيَاتِي مِنْ أَيَادِيكََا

[من الكامل]

وقال في « العُكْبَرِيَّ » ٤ / ٢٠٥ :

فَاغْفِرْ فِدَى لَكَ وَاحْيِنِي مِنْ بَعْدِهَا لِتُخَصِّنِي بِعَطِيَّةٍ مِنْهَا أَنَا

[من المتقارب]

وقال في « العُكْبَرِيَّ » ١ / ٣٤٧ :

وَفِي جُودِ كَفِّكَ مَا جُدْتَ لِي بِنَفْسِي وَلَوْ كُنْتُ أَشَقَى ثَمُودَ

[أن تكون واحدة من حسنات ممدوحك عند الشعراء]

[من البسيط]

وقال العتابي :

مَا زِلْتُ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ مُطَّرِحَا يَضِيقُ عَنِّي وَسِيعُ الرَّأْيِ مِنْ حِيَلِي
فَلَمْ تَزَلْ دَائِبَا تَسْعَى بِلُطْفِكَ لِي حَتَّى انْتَزَعْتَ حَيَاتِي مِنْ يَدَيَّ أَجَلِي

[من البسيط]

وقال غيره :

رَدَدْتَ مَالِي وَلَمْ تَبْخُلْ عَلَيَّ بِهِ وَقَبْلَ مَالِي قَدَمَا قَدْ حَقَنْتَ دَمِي

وقال أبو تمام :

[من البسيط]

رَدَدْتَ رَوْنَقَ وَجْهِي فِي صَحِيفَتِهِ
وَمَا أَبَالِي وَخَيْرُ الْقَوْلِ أَصْدَقُهُ
رَدَّ الصَّقَالِ بَهَاءَ الصَّارِمِ الْخَذِمِ
حَقَنْتَ لِي مَاءَ وَجْهِي أَوْ حَقَنْتَ دَمِي

[من الطويل]

وقال :

عَطَاؤُكَ لَا يَفْنَى وَتَسْتَعْرِقُ الْمُنَى
وَتَبْقَى وَجُوهُ الرَّاعِبِينَ بِمَائِهَا

[مصعب بن الزبير وجوده على بعض من حاربه]

ويروى [كما في « تاريخ بغداد » ١٣/١٠٦] : أَنَّ مَصْعَبَ بْنَ الزَّبِيرِ أَمَرَ بِقَتْلِ أَحَدٍ مِنْ حَارِبِهِ مَعَ الْمُخْتَارِ ، فَقَالَ : أَتَرْضَى أَنْ
أَتَعْلَقَ بِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَأَنْتَ عَلِيٌّ مَا نَرَى مِنْ هَذَا الْجَمَالِ الْبَاهِرِ ، وَأَقُولُ : سَلْ مَصْعَبًا فَيَمِّمْ قَتْلِي ؟ فَقَالَ :
أَطْلِقُوهُ ، قَالَ : اجْعَلْ مَا وَهَبْتَ لِي مِنْ عُمْرِي فِي عَيْشٍ طَيِّبٍ ، فَأَمَرَ لَهُ بِمِئَةِ أَلْفٍ ، قَالَ : بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ، أَشْهَدُكَ
أَنْ نَصَفَهَا لِقَيْسِ الرُّقِيَاتِ ؛ لِقَوْلِهِ فِيكَ [في « ديوانه » ٩١] :

[من الخفيف]

إِنَّمَا مُضْعَبٌ شِهَابٌ مِنَ اللَّوْنِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلْمَاءُ

فضحك مصعب ، وقال : لقد ألفت ، وإنَّ فيكَ لموضعاً للصنعة ، وأمر لقيس بخمسين ألفاً ، وترك مئة بحالها .

[إجارة معن بن زائدة على الخليفة المهدي]

ويُحكى [كما في « المستطرف » ١/٣٠١] : أَنَّ بَعْضَ الشَّيْخَةِ سَعَى لِلخُرُوجِ فِي أَيَّامِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ ، فَجَعَلَ الْخَلِيفَةَ فِيهِ مِئَةَ
أَلْفِ دَرَاهِمٍ ، فَأَخَذَهُ رَجُلٌ مِنْ (بَغْدَادَ) ، فَمَرَّ بِهِ مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ ، فَقَالَ : يَا أَبَا الْوَلِيدِ أَجْرَنِي . . . أَجَارَكَ اللَّهُ ، فَقَالَ
مَعْنُ لِلرَّجُلِ : خَلِّ عَنْهُ ، فَقَالَ : إِنَّهُ طَلَبُهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ : خَلِّ سَبِيلَهُ ، فَأَبَى ، فَخَلَّصَهُ مِنْهُ قَهْرًا ، وَأَرَدَفَهُ خَلْفَ
بَعْضِ أَعْوَانِهِ ، وَذَهَبَ الرَّجُلُ لِلْخَلِيفَةِ ، فَاسْتَدْعَى مَعْنًا ، وَلَمَّا حَضَرَ . . . قَالَ لَهُ : أَتَجِيرُ عَلَيَّ ؟ ! قَالَ : نَعَمْ ، قَتَلْتُ
فِي طَاعَتِكُمْ خَمْسَةَ عَشَرَ أَلْفًا بـ (حَضْرَمَوْتَ) فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ^(١) ، فَمَا تَرَوْنِي أَهْلًا لِأَنَّ أُجِيرَ وَاحِدًا عَلَّقَتْ بِي رِجَاءَهُ ؟
فَاسْتَحْيَا الْخَلِيفَةَ ، ثُمَّ قَالَ : قَدْ أَجْرْنَا مَنْ أَجْرْتَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ ، قَالَ : إِنْ رَأَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَصِلَ جَارِي ، فَأَمَرَ لَهُ
بِخَمْسِينَ أَلْفِ دَرَاهِمٍ ، فَقَالَ مَعْنُ : إِنْ ذَنْبُهُ عَظِيمٌ ، وَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ صَلَاتُ الْخُلَفَاءِ عَلَيَّ قَدْرَ الْجَرَائِمِ ، فَقَالَ : قَدْ
جَعَلْتُهَا مِئَةَ أَلْفٍ ، فَرَجَعَ مَعْنُ إِلَى مَنْزِلِهِ ، وَدَفَعَ الْمَالَ لِلرَّجُلِ ، وَحَدَّرَهُ مِنْ مَسَاخِطِ الْمُلُوكِ .

[إبراهيم بن سليمان يستجير عند رجل قد قتل أباه]

وَلَمَّا أَفْضَتِ الْخَلِيفَةُ إِلَى بَنِي الْعَبَّاسِ . . . اخْتَفَى بَنُو أُمَيَّةَ حَتَّى أَخَذُوا مِنَ السَّفَاحِ الْأَمَانَ ، فَحَضَرَ عِنْدَهُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ
سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَكَانَ عَالِمًا أَدِيبًا ، فَسَأَلَهُ السَّفَاحُ عَنْ أَعْجَبِ مَا مَرَّ بِهِ فِي تَغْيِيهِ ، قَالَ : بَيْنَا أَنَا بـ
(الْحِيرَةِ) . . . نَظَرْتُ الْأَعْلَامَ السَّوْدَ خَارِجَةً مِنَ (الْكُوفَةِ) ، فَوَقَعَ لِي أَنَّهَا تَرِيدُنِي ، فَخَرَجْتُ مُتَنَكِّرًا ، حَتَّى آتَيْتُ
(الْكُوفَةَ) لَا أَعْرِفُ أَحَدًا ، فَتَحَيَّرْتُ ، ثُمَّ ظَهَرَ لِي بَابٌ وَاسِعٌ ، وَإِذَا رَجُلٌ وَسِيمٌ حَسُنُ الْهَيْئَةِ ، فَقَالَ لِي : مَنْ أَنْتَ ؟
قُلْتُ : غَرِيبٌ خَائِفٌ مُسْتَجِيرٌ بِكَ ، قَالَ : ادْخُلْ ، وَلَكَ الْأَمَانُ ، فَدَخَلْتُ ، وَأَكْرَمَ مَثْوَايَ ، وَلَمْ يَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ مِنْ
أَمْرِي ، وَرَأَيْتُهُ يَرْكَبُ فِي كُلِّ غَدَاةٍ ، فَسَأَلْتُهُ ، فَقَالَ : ذُكِرَ لِي أَنَّ إِبْرَاهِيمَ بْنَ سُلَيْمَانَ مَخْتَفٍ بِهَذَا الطَّرْفِ ، وَقَدْ قَتَلَ

(١) وفي « المستطرف » : خمسة آلاف .

أبي صبراً^(١) ، فأنا أركبُ في طلبِ ثأري منه ، فأيقنتُ أنّ القدرَ ساقني إلى الهلاكِ ، وسألتُهُ عن اسمِ أبيه ، حتّى عرفتُ صحّةَ ما يقولُ ، فقلتُ له : قد وجبَ حقُّك عليّ ، وإنّ منه أن أدلّك على خصمِكَ ، ألا وإنّه الذي يكلمُك ، فافعل ما تحبُّ ، فقال : أحسبُ الزمانَ أضربُك ، فأحببتُ الراحةَ مِنَ الحياةِ ، فقلتُ : كلاً ، ولكن صدقتُك ، فلمّا استيقنَ الأمرَ . اربد^(٢) وجهُهُ وتغيّرَ لونهُ ، واحمرّتْ عيناهُ ، وأطرقَ مليّاً ثمّ قال : أمّا أنت ستلقين أبي عندَ حكَمِ عدلٍ ، يأخذُ بثأره منك ، وأمّا أنا فلا أخفرُ ذمتي ، ولكن لا آمنُ عليكِ نفسي ، فإن شئتُ أن تنصرفَ آمنّاً إلى حيثُ تحبُّ ، وأعطاني ألفَ دينارٍ ، فاعتذرتُ إليه من قبوله ، وانصرفتُ ، فهذا أكرمُ رجلٍ رأيتهُ بعدَ أميرِ المؤمنين .

[وفاء الحارث بن عباد للمهلل بعد قدرته عليه]

وأقولُ : إنّ في تأخّرِ معرفةِ إبراهيمَ بصاحبِ الدارِ لنعواً مِنَ النظرِ . والقصةُ أشبهُ بقصةِ الحارثِ بنِ عبادٍ ، وقد قدَرَ على مهلهلٍ ، وهو لا يعرفُهُ ، وطلبَ منه أن يدلّه على مهلهلٍ بشرطِ الأمانِ ، فاستعرفَ عليه ، فجزّ ناصيتهُ ، وأطلقهُ ، وهو قاتلُ ابنهِ بَجِيرٍ ، وقال في ذلك :

لَهْفَ نَفْسِي عَلَى عَدِيٍّ وَقَدْ أَسْقَبَ لِلْمَوْتِ وَاحْتَوَتْهُ الْيَدَانِ^(٣)

وعديّ هو اسمُ المهلهلِ .

إلا أن صاحبَ إبراهيمَ من غيرِ شرطِ بخلافِ الحارثِ ، وقصةُ ابنِ زائدةَ أيامَ اختفائه من بني العباسِ مع الجندي الذي أمسكهُ ، ثمّ منّ عليه وصغره في نفسه مشهورةٌ .

[المهلب يعفو عن مريد قتله]

وظفرَ المهلبُ بخارجي يُريدُ اغتياله ، فقال له : قد ثبتَ كيدُك لنا ، فاخترِ أيّ قتلةٍ تريدُ ، قال : سيفٌ ماضٍ لا يَبُوءُ ، أو عطفةُ كريمٍ تحتقرُ الضغائنَ ، قال : هل فيك موضعٌ للصنعةِ ؟ قال له : سينظرُ الأميرُ ما يسره بعدَ التجربةِ ، قال : فإنّها عطفةُ كريمٍ يحتقرُ الذنوبَ ، فخلّى سبيلَهُ ، وأكرمه ، فكان بعدَ ذلك من أوثقِ أصحابهِ عندهُ .

[لا أبرح حتى أعرف حديثك مع المأمون]

وذكرَ : أنّ المأمونَ استقدمَ رجالاً من (الشام) بعقبِ فتنةٍ اشتعلتْ فيها ، ثمّ اعتقلَهُم ، ودفعَ أكبرَ المتهمينَ في إنارتها لبعضِ خاصّتهِ ؛ ليأخذَهُ بأنواعِ العذابِ ، حتّى يتفرّغَ لقتله ، فأخذَ الرجلُ يُسائلُ أسيرَهُ عن (الشام) وأهلها ، وقال له : ما فعل فلانٌ ، لصديقٍ له بها ؟ قال : وما علمُك به ، قال : لا أقدرُ على مكافأتهِ ، وما نعمتي وحياتي إلاّ من حسناتهِ ، فلقد أهدرَ الخليفةُ دمي بإثرِ حوادثٍ طُنّتْ بي فيها الظنونُ ، ولصِقتْ بي فيها التُّهمُ ، فلجأتُ إليه عن غيرِ سابقِ معرفةٍ ، فأكرمَ ثوايي ، وحقنَ دمي ، وحفظَ عليّ ماءَ وجهي ، ثمّ جهّزني بأحسنِ الجهازِ ، كسا وحملَ ، وأغنى وأقنى ، ثمّ سالمَتني الأيامُ ، وصارتْ بي إلى ما ترى ، ولوددتُ أنّي أظفرُ به . فأكافئهُ ببعضِ ما طوّقني مِنَ النعمِ ، وأسدئُ إليّ مِنَ المننِ ، فقالَ الأسيرُ : لقد أظفركَ اللهُ بمطلوبِكَ من غيرِ بحثٍ ولا تعبٍ ، قال : وأين هو ؟ قال : نجيتُك ، وما زالَ يستعرفُ إليه بالذكرياتِ . . حتّى أثبتهُ معرفةً ، فأطلقَ وثاقَهُ ، وعرضَ عليه الذهابَ ،

(١) القتلُ صبراً : هو أن يُحبَسَ ويُرمى حتّى يموتَ .

(٢) اربد وجهه : تغيّرَ مِنَ الغضبِ وصارَ كلونِ الرماذِ .

(٣) أسقب : قُرب .

والتحكّم في أمواله ، فقال : لا أضركُ بنفعي ، ولكن اتتني بعبدي فلانِ حتّى أوصيه إلى أهلي ، وتلك أكبرُ مكافأة ، فقال : لا والله ، حتّى أبلغك مأمّنك ، وأوصلك إلى أهلِكَ قرير العين ، مع ما يُغنيكُم طولَ الحياة ، فقال : لا أبرحُ حتّى أعرفَ حديثك مع المأمون ، فإن نجوتِ كانتِ نجاتي ، وإلاّ وقيتك بنفسي ، ثمّ إنّ المأمون سألَ صاحبه عن أسيره . . فأخبره بقصّته ، فاغرورقت عيناه ، وقال : قد وجبت علينا مكافأته ؛ لأنّ وجودَ مثله قليلٌ ، وأكبرُ شيءٍ عدمُ إيثاره السلامة والانطلاق على نجاتك ، ثمّ استدعاه ، وبالغ في إكرامه ، وإسباغ الإلطافِ عليه ، وصرّفه موفور الكرامة ، وجعله موضع سرّه وأمانته بـ (الشام) ، فكانتِ كُتُبُهُ تَرُدُّ على المأمون بعد ذلك فيطالعُ بها صاحبه .
ولإبراهيمَ بنِ المهديّ في أيّامِ اختفائه ما لا يقلُّ من وجهِ عنها .

[النعمان بن المنذر ويوم بؤسه]

ويتصلُّ بها حديثُ النعمانِ وصاحبه شريكِ بن عمرو مع الطائيّ الذي قدّم نفسه للقتلِ وفاءً بوعدِهِ ، فكان من بركة ذلك إبطالُ النعمانِ لعادته السيئة في يوم بؤسه^(١) .

[يعود إلى السجن بعدما خرج منه وفاءً لمن هزّبه]

ونظيرها في زماننا : أنّ بعضَ اليافعيّين ارتكبَ في (المُكَلَّأ) جريمةً توجبُ قتله ، فاعتقله السلطانُ ، فطلبَ من السجّانِ أن يجمعه بالجليل السيّد حسين بن حامد ، ففعل ، فاستعطفه ليطلقه ليلة ليوصي ، ويؤدّي ودائعهُ ، ويُخبرَ أهله بدفائنِ أمواله قريباً من (الشَّحْر) على شرطِ أن يعودَ في الليلة الثانية ، فأخذَ عهدَهُ ، وأطلقه على ذلك ، وكان أعداءُ السيّد حسينٍ من بطانةِ السلطانِ غالبِ بنِ عوضٍ يراقبونَ ذلك ، فأخبروه ، فعاتبَ السيّد حسيناً ، فأنكرَ إطلاقَهُ ، واتَّعدوا على أن يُفتشوا عنه في السجنِ من اليومِ الثاني ، ولَمّا كانَ الليلُ . . عادَ إلى مكانِهِ منه ، وجاءَ السلطانُ على وعده ، فألفاه كما قال السيّد حسينٌ ، فعادَ على أصحابِهِ باللأئمة ، وأوسعَهُم تويحاً ، ولكنَّ السيّد حسيناً شرحَ له القصةَ بعد أن هدأت عنه سؤرَةُ غضبه ، فأطلقَهُ ، وعفا عنه ، وليستَ هذه بالقليلةِ من بلادنا على فسادِ الزمانِ ، وتنكّرِ الأيّامِ ! فلله الحمدُ والمنّةُ .

[عودٌ على شرحِ المطلع]

وقولُ الناظمِ : (وَلَا أَعِدُّهَا) مناسبٌ للمعنى الأوّلِ ، وهو ناظرٌ إلى قولِهِ صلى الله عليه وسلم : « سُبْحَانَكَ ! لَا نُخْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَيَّ نَفْسِكَ »^(٢) . وهو كثيراً ما يتأثّرُ السُّنَّةُ والقرآنُ ، ويستخرجُ منهما ما يجعلُهُ في غيرِ مكانِهِ ، وهو القائلُ [في « المُكَبَّرِي » ٣٨٨/٢] :

وَقَدْ حَمَلْتَنِي شُكْرًا طَوِيلًا ثَقِيلًا لَا أَطِيقُ بِهِ حِرَاكًا

[من البسيط]

وله [في « المُكَبَّرِي » ٨١/٣] :

وَقَدْ وَجَدْتُ مَكَانَ الْقَوْلِ ذَا سَعَةٍ فَإِنْ وَجَدْتَ لِسَانَ قَائِلًا فَقَلِّ

[من البسيط]

وله [في « المُكَبَّرِي » ١١٩/١] :

مَحَامِدٌ نَزَفَتْ شِعْرِي لِيَمْلَأَهَا فَآلَ مَا امْتَلَأَتْ مِنْهُ وَلَا نَضَبًا

(١) انظر خبره في « المستطرف » (٤٢٩/١) .

(٢) أخرجه عن عائشة الصديقة مسلم (٤٨٦) ، وابن خزيمة (٣٢٩/١) .

وله [في « العُكْبَرِيَّ » ٢/ ٢٦٧] :

[من الكامل]

وَمَتَى يُؤَدِّي شَرَحَ حَالِكَ نَاطِقٌ حَفِظَ الْقَلِيلَ النَّزْرَ مِمَّا ضَيَّعَا

وله [في « العُكْبَرِيَّ » ٢/ ١٢٦] :

[من الطويل]

لَهُ مِنْ تَفْنِي النَّاءِ كَأَنَّمَا بِهِ أَقْسَمْتُ أَنْ لَا يُؤَدِّي لَهَا شُكْرُ

وغير ذلك .

* * *

[قال أبو الطيب المتنبّي في « العُكْبَرِيَّ » ١/ ٣٠٤] :

[من المنسرح]

يُعْطِي فَلَا مَطْلُهُ يُكَدِّرُهَا بِهَا وَلَا مَنُّهُ يُنْكَدُّهَا

[شرح المطلع]

الضمائر في (يُكَدِّرُهَا) و (بِهَا) و (يُنْكَدُّهَا) تعود إلى الأيادي المذكورة في البيت قبله .

[نفي الشيء بنفي صفته والشواهد عليه]

يقول : إنّه يعطي الأيادي التي لا يكدرها المطل ، ولا ينكدها المن ، وليس المراد أن هناك مطلاً ومناً غير أن لا تكدير ولا تنكيد منهما ، ولكن المراد نفي المطل والمن ألبتة على حد ما سبق في المجلس الأول من قول امرئ القيس :

[من الطويل]

عَلَى لَاحِبٍ لَا يَهْتَدِي بِمَنَارِهِ [إِذَا سَافَهُ الْعُوْدُ النَّبَاطِيَّ جَرَجَرًا]

إذ لم يرد : أن له مناراً لا يهتدي به ، ولكنه عمد إلى نفي المنار من أصله .

[من السريع]

ومثله قول الآخر^(١) في وصف مفازة [في « خزنة الأدب » ١٠/ ١٩٢] :

لَا يُفْرَعُ الْأَرْزَبُ أَهْوَالَهَا وَلَا تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْجَحِرُ

وقد ذكره الزمخشري في « الكشاف » [١/ ٦٣٩-٦٤٠] عند قوله تعالى : ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ [آل عمران : ١٥١] ، وقال : (فَإِنْ قُلْتَ : كَأَنَّ هُنَاكَ حُجَّةٌ حَتَّى نَزَلَهَا تَعَالَى ، فَيَصْحُ لَهُمُ الْإِشْرَاكُ . . . قُلْتُ : لَمْ يَعْني أَنَّ هُنَاكَ حُجَّةٌ إِلَّا أَنَّهَا لَمْ تَنْزَلْ عَلَيْهِمْ ؛ لِأَنَّ الشَّرْكَ لَا يَسْتَقِيمُ أَنْ تَقُومَ عَلَيْهِ حُجَّةٌ ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ نَفْيُ الْحُجَّةِ وَنَزُولُهَا جَمِيعاً) ، وذكر عجز البيت . فإنه لم يرد : أَنَّ بِهَا أَرْبَاباً لَا تَفْرَعُ ، وَضَبّاً لَا يَنْجَحِرُ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ : نَفْيَ الْحَيَوَانِ رَأْساً ، وَهَذَا مِمَّا يَتَنَافَسُ فِيهِ أَهْلُ الْبَيَانِ ، وَيَسْمِيهِ الْبَدِيعِيُّونَ : (نَفْيَ الشَّيْءِ بِإِجَابِهِ) ، وَفَسَّرَهُ ابْنُ رَشِيْقٍ وَابْنُ أَبِي الْإِصْبَعِ^(٢) وَغَيْرُهُمَا بِأَنَّهُ : (الْكَلَامُ الَّذِي ظَاهِرُهُ إِجَابُ الشَّيْءِ ، وَبَاطِنُهُ نَفْيُهُ) .

(١) وهو : عمرو بن أحمر .

(٢) ابن أبي الإصبع : هو عبد العظيم بن عبد الواحد العدواني البغدادي المصري ، شاعر أديب توفي سنة : (٦٥٤ هـ) .

ومنه قوله جل ذكره : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلْمًا ﴾ [مريم : ٦٢] ، فليس المراد - على أصح الأقوال - : أن في الجنة لغواً إلا أنهم لا يسمعون ، ولكن المراد : نفي اللغو من أصله ، ومعاذ الله أن يكون فيها لغواً أو غولاً^(١) .
ومنه قول زهير :

[من الطويل]

بِأَرْضِ خَلَاءٍ لَا يُسَدُّ وَصِيدُهَا
عَلَيَّ وَمَعْرُوفِي بِهَا غَيْرُ مُنْكَرٍ^(٢)
فَأَبْتَتْ لَهَا وَصِيداً ، وَأَرَادَ : أن ليس لها وصيدٌ يسدُّ عليه .

[من الطويل]

ومنه قول الزبير بن عبد المطلب يذكر عميلة بن السباق بن عبد الدار ، وكان له نديماً :
صَبَحْتُ بِهِمْ طَلْقاً يُرَاحُ إِلَى النَّدَى
ضَعِيفاً بِحَثِّ الْكَأْسِ قَبْضُ بَنَانِهِ
فَظَاهِرُ كَلَامِهِ : أَنَّهُ يَخْمِسُ وَجْهَ النَّدِيمِ ، إِلَّا أَنَّهُ لَا يُؤْذِيهِ ؛ لِكَلَّةِ أَظْفَارِهِ ، وَمَا أَرَادَ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَعْرِبُدُ ، وَلَا يَمَسُّ وَجْهَ
النَّدِيمِ بِشَيْءٍ أَصْلاً .

[من الكامل]

مُتَغَلِّقٌ أَنْسَاؤُهَا عَنْ قَانِيءٍ
كَالْقَرْطِ صَاوٍ غُبْرُهُ لَا يُرْضَعُ^(٣)
فَإِنَّهُ لَمْ يَرِدْ : أَنَّ هُنَاكَ لَبْنَا لَا يُرْضَعُ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ : أَنَّ لَا لَبْنَ لَهَا حَتَّى يَرْضَعَ .

[من الكامل]

وقال أبو كبير الهذلي يصف هضبة [في «ديوان الهذليين» ٩٦-٩٧/٢] :
وَعَلَوْتُ مُرْتَقِباً عَلَى مَرْهُوبَةٍ
عَيْطَاءَ مُعْنَقَةٍ يَكُونُ أَيْسَهَا
يُرِيدُ : أَنَّ لَيْسَ بِهَا جَمِيمٌ حَتَّى يُؤْكَلَ ، كَمَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ فِي الْبَيْتِ الْأَوَّلِ (حَصَاءٌ) ؛ وَهِيَ الَّتِي لَا نَبْتَ فِيهَا .

[من البسيط]

لَا تُشْتَكِي سَقَطَةً مِنْهَا وَقَدْ رَقَصَتْ
بِهَا الْمَفَاوِزُ حَتَّى ظَهَرُهَا حَدْبٌ^(٤)
ومنه قول ذي الرمة [في «ديوانه» ٤٤/١] :
فَإِنَّهُ لَمْ يَرِدْ : أَنَّ لَهَا سَقَطَةً ، لَكِنَّهُ لَا يُشْتَكِي مِنْهَا ، وَإِنَّمَا أَرَادَ : نَفْيَ السَّقُوطِ رَأْساً .

[من البسيط]

لَا يَبْقُ الطَّيْبُ حَدْيِهِ وَمِفْرَقَهُ
وَلَا يُمَسِّحُ عَيْنَيْهِ مِنَ الْكُحْلِ
فَالْمَرَادُ : نَفْيُ الطَّيْبِ وَالْكَحْلِ مِنْ أَصْلِهِمَا ، لَا نَفْيُ الْعَبْقِ وَالْمَسْحِ فَقَطْ .

(١) غول : ما ينشأ عن الخمر من صداع أو سكر . قال تعالى : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا ﴾ [مريم : ٦٢] و : ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ [الصفوات : ٤٧] .

(٢) الوصيد : فناء الدار والبيت . قال عز وجل : ﴿ وَكَلْبُهُمْ بَسِيطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ [الكهف : ١٨] .

(٣) في «اللسان» (٣٢١/١٥) البيت لأبي ذؤيب ، والنسا : عرق يخرج من الورك فيستيطان الفخذين ، ثم يمر بالعرقوب حتى يبلغ الحافر ، فإذا سمت الدابة انفلقت فخذاها بلحمتين عظيمتين وجرى النسا بينهما واستبان . القانيء : الأحمر . الصاوي : الياس . العُبرُّ : بقية اللبن في الضرع . والمعنى : شبه الضرع بقرط المرأة ولم يرد أن هناك بقية لبن لا يرضع ، إنما أراد أنه لا غبر هناك فيهندي إليه .

(٤) العيطاء : الطويلة العنق . المعتقة : الطويلة . الجميم : ما نهض وانتشر من النبات ؛ وهو ما طال بعض الطول ولم يتم ؛ أي : لا يرقى فيها راقٍ ولا راعٍ ولا أحد فيأكل جميمها . وُزُقُ الحمام : الحمام الحضر ؛ وهي التي فيها سوادٌ وغبرة . والعرب تطلق الخضرة على السواد .

(٥) السقطة : العثرة والفترة . حتى ظهرها حدب : أي قد تقوس من الهزال .

ومثله : قول الناظم [في «العُكْبَرِيِّ» ١/١٦٩] :

[من البسيط]

أَفْدِي ظِبَاءَ فَلَاةٍ مَا عَرَفْنَ بِهَا مَضَغَ الْكَلَامِ وَلَا صَبَغَ الْحَوَاجِبِ
وَلَا بَرَزْنَ مِنَ الْحَمَامِ مَائِلَةً أَوْرَاكُهُنَّ صَقِيلَاتِ الْعَرَاقِبِ^(١)

فظاهرُ الكلام : نفِي بُرُوزِهِنَّ مِنَ الْحَمَامِ عَلَى تِلْكَ الْهَيْئَةِ ، والمرادُ : عدمُ دخولهنَّ الحَمَامَ أصلاً ، فَإِنَّهُنَّ بَدَوِيَّاتٌ كظبَاءِ الْفَلَاةِ ، لا يعرفنَّ شيئاً مِنْ ذَلِكَ .

[السبب في تكثير الأمثلة على هذه المسألة]

وإنما أكثرُ من الأمثلة ؛ لقولِ ابنِ الأثيرِ السابقِ في المجلسِ الأوَّلِ : إِنَّهُ طَافَ عَلَى أَقْوَالِ الشُعْرَاءِ فَلَمْ يَجِدْ مِنْهَا شَيْئاً حَتَّى اضْطَرَّ إِلَى مَا نَبَّهْنَا عَلَيْهِ مِنَ الْاِخْتِلاَسِ ، والحالُ أَنَّهَا عَلَى طَرَفِ ذِرَاعِهِ ، فسبحانَ مَنْ لا يسهو .

[الخلافاً في الوعد]

ثُمَّ اِخْتَلَفَ الْقَوْمُ فِي شَأْنِ الْوَعْدِ :

[١- صنف أحبه قبل العطية]

فمنهمُ : مَنْ أَحَبَّهُ قَبْلَ الْعَطِيَّةِ ؛ لِيَحْلُوَ مَوْقِعُهَا ، وتكتمَلُ بِهَا اللَّذَّتَانِ : (لَذَةُ الْإِعْطَاءِ ، وَلَذَةُ الْإِنْجَازِ) ، فَإِنَّ النَّفْسَ إِذَا تَعَلَّقَتْ بِالشَّيْءِ . . . حَصَلَ لَهَا وَلَوْلَا لَا تَزُولُ إِلَّا بِحَصُولِهِ ، وتلكَ الولولةُ لا تَحْطُّ مِنْ قَدْرِ الْعَطِيَّةِ إِذَا كَانَ الْوَعْدُ حَقًّا ، وَكَانَ صَاحِبُهُ مَنَاطَ الثَّقَةِ

[من أصحاب هذا المذهب يحيى بن خالد]

وعلى هذا الرأي : يحيى بنُ خالدٍ ، فقد كَلَّمَهُ مَنْصُورُ بْنُ زِيَادٍ فِي حَاجَةِ لِرَجُلٍ ، فَقَالَ : عِدُّهُ قَضَاءَهَا ، قَالَ مَنْصُورٌ : فَقُلْتُ لَهُ : أَصْلَحَكَ اللَّهُ ، وَمَا يَدْعُوكَ إِلَى الْعِدَّةِ مَعَ الْقُدْرَةِ ؟ قَالَ : هَذَا قَوْلٌ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ مَوَاقِعَ الصَّنَائِعِ مِنَ الْقُلُوبِ ، فَإِنَّ الْوَعْدَ تَطَعْمٌ ، وَالْإِنْجَازَ إِطْعَامٌ ، وَلَيْسَ مَنْ فَاجَأَهُ الطَّعَامُ كَمَنْ وَجَدَ رَائِحَتَهُ ، وَتَمَطَّقَ بِهِ ، وَتَطَعَّمَهُ ، ثُمَّ قُرَّبَ إِلَيْهِ ، فَدَعَّ الْحَاجَةَ تُخْتَمُ بِالْوَعْدِ ؛ لِيَكُونَ بِهَا عِنْدَ الْمُصْطَنَعِ إِلَيْهِ حُسْنُ مَوْقِعٍ ، وَلُطْفُ مَحَلٍّ ، فَإِنَّهَا إِذَا لَمْ يَتَقَدَّمْهَا مَوْعِدٌ يُنْتَظَرُ بِهِ نَجْحُهَا . . . لَمْ يَتَجَاذِبِ النَّفْسَ سُرُورُهَا .

[ومنهم أبو مسلم الخولاني]

وقال أبو مسلم الخولاني : أَوْقَعُ الْمَعْرُوفِ فِي الْقُلُوبِ ، وَأَبْرُدُهُ عَلَى الْأَكْبَادِ . . . مَعْرُوفٌ مُنْتَظَرٌ بِوَعْدٍ لَا يُكَدِّرُهُ مَطْلٌ .

[ومنهم المهدي]

[من مجزوء الكامل]

وقال المهدي :

أَلْوَعْدُ أَحْسَنُ مَا يَكُونُ نَ إِذَا تَقَدَّمَ لَهُ ضَمَانٌ

[من الرجز]

وقال غيره :

حَلَاوَةُ الْفَضْلِ بِوَعْدٍ يُنْجَزُ لَا خَيْرَ فِي الْعُرْفِ كَنَهَبٍ يُنْهَزُ^(٢)

(١) العَرَاقِبُ : جَمْعُ عَرَقُوبٍ ، وَهِيَ مَا يَكُونُ عِنْدَ الْكَعْبِ .

(٢) الْعُرْفُ : الْمَعْرُوفُ . وَالْمَرَادُ : أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِي مَعْرُوفٍ يُوْخَذُ كَالنَّهَبِ وَالسَّرْقَةِ .

[شاهده من القرآن الكريم]

وقد يتأكد هذا بأمثال قوله جل ذكره لموسى وهارون : ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا ﴾ [يونس : ٨٩] ، فإنه لم يظهر أثر الإجابة - كما يروى - إلا بعد أربعين سنة .

وقال الإمام الرازي في تأخر ظهور أثر الرؤيا الحسنة : (إن من رحمة الله الإعلام بالخير متقدماً على ظهوره بزمان طويل ، حتى تكون البهجة بتوقع حصوله أكثر وأتم) . انتهى بمعناه .

على أنه لا يبعد أن يكون الريث في المواعيد الإلهية بالدنيا من الامتحان الذي يحسن من الله لا من الخلق فيما بينهم .

[ومنهم الحارثي]

وقال الحارثي :

[من الطويل]

وَمَا رَوْضَةٌ دَارِيَّةٌ أَسَدِيَّةٌ مُنْمَمَةٌ زَهْرَاءُ ذَاتُ ثَرَى صَعْدِ
بِأَحْسَنَ مِنْ حُرٍّ تَضَمَّنَ حَاجَةً لِحُرٍّ فَأَوْفَى بِالنَّجَاحِ مَعَ الْوَعْدِ

[وكذلك ابن رشيقي]

وقال ابن رشيقي [في «ديوانه» ١٥٠] :

[من السريع]

أَحْسَنْتَ فِي تَأْخِيرِهَا مِنَّةً لَوْلَمْ تُؤَخَّرْ لَمْ تَكُنْ كَامِلَةً
وَكَيْفَ لَا يَحْسُنُ تَأْخِيرُهَا بَعْدَ يَقِينِي أَنَّهَا حَاصِلَةٌ
وَجَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ يُدْعَى بِهَا أَجَلَةٌ لِلْمَرْءِ لَا عَاجِلَةٌ

[٢- الصنف الثاني عكسهم واستدل لهم على ذلك]

وذهب آخرون إلى خلافه ، وأنه لا يحسن الاستناد إلى المواعيد إلا عند عدم القدرة ، وقد يدل له هديته صلى الله عليه وسلم (فقد كان لا يرُدُّ سائلاً ، وإن لم يجد شيئاً . . وعد) .

وقوله : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَجَاءَةِ الْخَيْرِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فَجَاءَةِ الشَّرِّ »^(١) ولا يخرج عنه قوله : « أَبِي اللَّهُ أَنْ يَرْزُقَ عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ إِلَّا مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ »^(٢) .

[أصحاب هذا المذهب كثير]

ولا يدخل تحت الحصر ما فيه من أقوال الشعراء . منه قول عبد الله بن مصعب الزبيري :

[من الطويل]

وَأَنْجَزَ خَلَقَ اللَّهُ مِنْ قَبْلِ وَعْدِهِ أَرَاكَ مِنْ مَطْلٍ وَمِنْ طُولِ كَدِّهِ

[تكرار هذا المعنى بكثرة عند المتنبي]

وقد تكرر عند الناظم منه قوله [في «العكبري» ٣٦٩/١] :

[من المتقارب]

وَمَالٍ وَهَبْتَ بِإِلَافٍ مَوْعِدِ وَقِرْنٍ سَبَقَتْ إِلَيْهِ الْوَعِيدِ^(٣)

(١) أورده عن أنس الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١١٥/١٠) وقال : رواه أبو يعلى وفيه يوسف بن عطية متروك .

(٢) أخرجه عن أبي هريرة القضاعي في «مسند الشهاب» (٣٤١/١) .

(٣) القُرْنُ - بالكسر - : هو الكفء في الشجاعة والمماثل ، والقُرْنُ - بالفتح - : هو مثلك في السن . والمراد الأول .

وقوله [في «العُكْبَرِيِّ» ١/ ٣٤٣] :

[من المتقارب]

وَحَالَتْ عَطَايَاهُ دُونَ الْوَعْدِ

لَقَدْ حَالَ بِالسَّيْفِ دُونَ الْوَعِيدِ

وقوله [في «العُكْبَرِيِّ» ١/ ٣٤٨] :

[من البسيط]

إِذَا فَقَدْنَاكَ يُعْطِي قَبْلَ أَنْ يِعْدَا

مُحَمَّدُ بْنُ زُرَيْقٍ مَا نَرَى أَحَدًا

وقوله [في «العُكْبَرِيِّ» ١/ ٣٧٧] :

[من الطويل]

شَمَائِلُهُ مِنْ غَيْرِ وَعْدٍ لَهَا وَعْدُ

تَوَالِي بِلَا وَعْدٍ وَلَكِنَّ قَبْلَهُ

وقوله [في «العُكْبَرِيِّ» ٤/ ٣٠] :

[من الكامل]

خَالَ السُّؤَالَ عَلَى النَّوَالِ مُحَرَّمًا^(١)

نَصَرَ الْفَعَالَ عَلَى الْمَطَالِ كَأَنَّمَا

وقوله [في «العُكْبَرِيِّ» ٣/ ١٨٨] :

[من الطويل]

فَلَيْسَ لَهُ إِجْزَاؤُ وَعْدٍ وَلَا مَطْلُ

وَحَالَتْ عَطَايَا كَفَّهُ دُونَ وَعْدِهِ

وقوله [في «العُكْبَرِيِّ» ٣/ ٢٧٧] :

[من البسيط]

مِنْ غَيْرِ قَوْلٍ وَنُعْمَى النَّاسِ أَقْوَالُ

وَأَجَزَ الْأَمِيرَ الَّذِي نِعْمَاهُ فَاجِئَةٌ

وقوله [في «العُكْبَرِيِّ» ٢/ ٢٨] :

[من الطويل]

نَظِيرُ فَعَالٍ الصَّادِقِ الْقَوْلِ وَعْدُهُ

وَوَعْدُكَ فِعْلٌ قَبْلَ وَعْدٍ لِأَنَّهُ

وقوله [في «العُكْبَرِيِّ» ٢/ ١٨٣] :

[من الخفيف]

عَنكَ جَادَتْ يَدَاكَ بِالْإِنْجَازِ

كُلَّمَا جَادَتِ الظُّنُونُ بِوَعْدِ

وقوله [في «العُكْبَرِيِّ» ٣/ ٢٩٧] :

[من الطويل]

كَرِيمَ السَّجَايَا يَسْبِقُ الْقَوْلَ بِالْفِعْلِ

وَأَهْدَتْ إِلَيْنَا غَيْرَ قَاصِدَةٍ بِهِ

وقوله [في «العُكْبَرِيِّ» ٣/ ٨٧] :

[من البسيط]

وَلَا مَطَالٍ وَلَا وَعْدٍ وَلَا مَذَلٍ^(٢)

أَنْتَ الْجَوَادُ بِلَا مَنْ وَلَا كَدَرٍ

وربما دخل بعض هذه الأبيات بتأويل في القسم الأول ، ولا مشاحة في ذلك ، فالخطبُ يسيرُ .

[الشعراء وهذا المعنى]

وقال البُحْتُريُّ [في «ديوانه» ١/ ٥٧٤] :

[من البسيط]

بِيضَ الْعَطَاءِ وَلَمْ يُوعِدْ وَلَمْ يِعِدْ

يُمِضِي الْمَنَايَا دِرَاكًا ثُمَّ يُتْبِعُهَا

(١) الْفَعَالُ - يَفْتَحُ الْفَاءَ - : الْفِعْلُ الْجَمِيلُ .

(٢) الْمَذَلُ : الْفِتْرَةُ وَالضَّجْرُ .

وقال [في «ديوانه» ١/٥٥٧] :

[من البسيط]

رَطْبُ الْعَمَامِ إِذَا مَا اسْتُمِطِرَتْ يَدُهُ جَاءَتْ مَوَاهِبُهُ قَبْلَ الْمَوَاعِيدِ

[من الطويل]

وقال المعريّ [في «سقط الزند» ١٢٩] :

فَيَا أَحْلَمَ السَّادَاتِ مِنْ غَيْرِ ذَلَّةٍ وَيَا أَجْوَدَ الْأَجْوَادِ مِنْ غَيْرِ مَوْعِدِ

[من الطويل]

وقال آخرُ :

عَلَى عُدْوَاءِ الدَّارِ جَاءَتْ هِبَاتُهُ لَدَيْي الْهَنِيِّءُ الْجَمُّ مِنْ فَوْقِ مَا أُثْنِيهِ

[من الطويل]

وأنصعُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ قَوْلُ أَبِي تَمَامٍ [في «ديوانه» ١/٢٩٣] :

يَرَى الْوَعْدَ أَخْزَى الْعَارِ إِذْ هُوَ لَمْ تَكُنْ فَلَوْ كَانَ مَا يُعْطِيهِ غَيْبًا لَأَمْطَرَتْ

[من البسيط]

وقال القاضي ظهير الدين :

جَوْدُ الْكَرِيمِ إِذَا مَا كَانَ عَنْ عِدَّةٍ وَقَدْ تَأَخَّرَ لَمْ يَسْلَمْ عَنِ الْكَدْرِ
إِنَّ السَّحَائِبَ لَا تُجْدِي بَوَارِقُهَا نَفْعًا إِذَا هِيَ لَمْ تُمِطِرْ عَلَى الْأَثَرِ

[كلمة رشيقة للخابز أُرزي]

[من الطويل]

وقال الخابز أُرزي في كلمة رشيقة لابأس باستيفائها ؛ لعدوبتها على ما فيها ممّا سننّبهُ عليه :

خَلِيلِي هَلْ أَبْصَرْتُمَا أَوْ سَمِعْتُمَا بِأَكْرَمِ مَنْ مَوْلَى تَمَشَّى إِلَى عَبْدٍ ؟
أَتَى زَائِرًا مِنْ غَيْرِ وَعْدٍ وَقَالَ لِي : أَجْلُكَ عَنْ تَعْلِيْقِ قَلْبِكَ بِالْوَعْدِ
فَمَا زَالَ نَجْمُ الْوَصْلِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ يَدُورُ بِأَفْلَاكِ السَّعَادَةِ وَالسَّعْدِ
فَطَوْرًا عَلَى تَقْيِيلِ نَرْجَسِ نَاطِرٍ وَطَوْرًا عَلَى تَعْضِيْضِ تَفَّاحَةِ الْخَدِّ

[ملاحظة المؤلف عليها من حيث المعنى]

والذي نلاحظه من حيث المعنى : بطلان الاستفهام الإنكاريّ في قوله : (. . هَلْ أَبْصَرْتُمَا أَوْ سَمِعْتُمَا) بما كان من هديه صلى الله عليه وسلم في زيارته لأصحابه وأخدامه ، حتّى لقد زار غلاماً نحاماً^(٢) من اليهود .

[ملاحظته عليها من حيث اللفظ]

ومن حيث اللفظ : جمعه بين السعادة والسعد ، وهل هما إلا كشيء واحد ؟ وجاء في الخبر : أن (عِدَّةُ الْكَرِيمِ دَيْنٌ) ، و : أن (لِي الْوَأَجِدِ ظَلْمٌ)^(٣) .

(١) عُدْوَاءِ الدَّارِ : الدورُ البعيدةُ النائيةُ ، والعُدْوَاءُ : البعدُ .

(٢) النَّحَامُ : المصابُ بالسعالِ .

(٣) أخرجه بنحوه عن الشريد أبو داود (٣٦٢٨) ، والنسائي (٤٦٨٩) و (٤٦٩٠) ، وابن ماجه (٢٤٢٧) ، وابن حبان (٥٠٨٩) بإسناد حسن ، ونحو معناه حديث أبي هريرة عند البخاري (٢٢٨٧) ومسلم (٤٦٨٨) بلفظ « مَطَّلُ الْغَنِيِّ ظَلْمٌ » .

وَمِنْ كَلَامِهِمْ : إِنَّ الْمَسْئُولَ حُرٌّ حَتَّى يَعِدَ .

وَمِنْ ثَمَّ ذَهَبَ أَكْثَرُ الْأَيْمَةِ إِلَى الْقَوْلِ بِوَجوبِ الْوَفَاءِ بِالْوَعْدِ ، وَهَلْ يَبِيعُ الْعُهُدَةَ^(١) الْمَعْرُوفُ بِأَرْضِنَا إِلَّا مَبْنِيٌّ عَلَيْهِ ؟ وَإِنِّي لِأَعْجَبُ مِنَ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ ؛ إِذْ لَا يَقُولُ بِوَجوبِهِ مَعَ صِحَّةِ الْأَحَادِيثِ فِيهِ ، وَكَثْرَةِ الْوَعِيدِ فِي الْخُلْفِ !

[وفاء سيدنا أبي بكر عداته صلى الله عليه وسلم]

وقد وثق أبو بكر الصديق سائر عداته صلى الله عليه وسلم من بيت المال ، ولو لم تكن ديناً لازماً . لما سددها منه . ودعوى الخصوصية به صلى الله عليه وسلم لا بد لها من دليل .

[وفاء عدات سعيد بن العاص]

وما كان دين سعيد بن العاص الذي بيع فيه داره من معاوية بثلاث مئة ألف إلا من هذا القبيل . منه صك لبعض قريش لا يؤنه له ، سألوه عن سببه ، فقال : مشيت معه مرة إلى داره حتى بلغها ، فقال : ما حاجتك ؟ قلت : لا شيء إلا أنني رأيتك تمشي وحدك ، فأحببت أن أصل جناحك ، فكتب لي هذا الصك ، واعتذر بعسرة إذ ذاك ، فقال له عمرو بن سعيد : لا جرم ، لا تأخذها إلا بالوفاء ، ولا تبرح مكانك حتى تقبضها^(٢) .

[قصيدة شاعرة لبعض شعراء الحماسة]

ولله در بعض شعراء الحماسة^(٣) في قوله [في شرح حماسة أبي تمام] « ٩٢٣-٩٢٥ » :

[من الطويل]

مَوَاعِيدُهُمْ صِدْقٌ إِذَا مَا تَكَلَّمُوا
وَهُوَ مِنْ كَلِمَةٍ شَاعِرَةٍ تَقْتَضِي الْجَزَالَهَ اسْتِيفَاءَهَا وَهِيَ :

إِلَى هَضْبَةٍ مِنْ آلِ شَيْبَانَ أَفْرَغَتْ
إِلَى النَّفْرِ الْبَيْضِ الَّذِينَ كَانَتْهُمْ
إِلَى مَعْدِنِ الْعِزِّ الْمُؤَيَّدِ وَالنَّدَى
عَذَابٌ عَلَى الْأَكْبَادِ مَا لَمْ يَذُقْهُمْ
عَلَيْهِمْ وَقَارُ الْجِلْمِ حَتَّى كَانَتْهَا
إِذَا اسْتَجْهَلُوا لَمْ يَعْرِبِ الْجِلْمُ عَنْهُمْ
هُمُ الْجَبَلُ الْأَعْلَى إِذَا مَا تَنَاكَرَتْ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْقَتْلَ عَالٍ إِذَا رَضُوا
بُحُورٌ تَلَاقِيهَا بُحُورٌ غَزِيرَةٌ

لَهَا الذُّرُوءُ الْعَلِيَاءُ وَالكَاهِلُ الْعَبْلُ^(٤)
صَفَائِحُ يَوْمِ الرَّوْعِ أَخْلَصَهَا الصَّقْلُ
هُنَاكَ هُنَاكَ الْفَضْلُ وَالْخُلُقُ الْجَزْلُ
عَدُوٌّ وَفِي الْأَفْوَاهِ أَسْمَاؤُهُمْ تَحْلُو
وَلِيَدُهُمْ مِنْ أَجْلِ هَيْبَتِهِ كَهْلُ
وَإِنْ آثَرُوا أَنْ يَجْهَلُوا كَثُرَ الْجَهْلُ
مُلُوكُ رِجَالٍ أَوْ تَخَاطَرَتْ الْبُزْلُ^(٥)
وَإِنْ غَضِبُوا فِي مَوْطِنٍ كَثُرَ الْقَتْلُ
إِذَا غَضِبَتْ قَيْسٌ وَإِخْوَانُهَا ذَهْلُ^(٦)

(١) ويسمى أيضاً بيع الإقالة : وهو مستجمع لشروط الصحة ، إلا أن المشتري يعد البائع أنه إذا جاء بمثل الثمن له . . أقاله ورد عليه المبيع .

(٢) راجع القصّة كاملة في « الأغاني » (٣٩ / ١) .

(٣) وهو : خلف بن خليفة مولى قيس بن ثعلبة .

(٤) الكاهل : أصل العتق ، وهو الحارك . العبل : الغليظ ، ولهذا مثل لشرفهم وعلوهم .

(٥) تناكرت : تجاحدت . تخاطرت : حركت أذنانها . البزل : حسان الإبل . والمعنى : أنهم بلغوا الذروة العليا من المكارم والشجاعة والدعاء قولاً وفعلاً على عكس غيرهم .

(٦) قيس وذهل : ابنا ثعلبة ، من بكر بن وائل . وشيبان من ذهل بن ثعلبة .

[ابن الزبيرى يمدح بني عبد مناف]

وقال ابن الزبيرى يمدح بني عبد مناف في حديث لا حاجة بنا إلى الاستطراد به [كما في «شعر ابن الزبيرى» ٥٤]: [من الكامل]

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُحَوَّلُ رَحْلَهُ هَلَا نَزَلْتَ بِآلِ عَبْدِ مَنَافٍ
الْخَالِطِينَ فَقِيرَهُمْ بِغَيْبِهِمْ حَتَّى يَعُودَ فَقِيرُهُمْ كَالْكَافِي
وَالْقَائِلِينَ بِكُلِّ وَعْدٍ صَادِقٍ وَالظَّاعِنِينَ لِرِحْلَةِ الْإِيلَافِ

[الحطينة يمدح آل شماس]

[من الطويل]

وقال الحطينة يمدح آل شماس بن لؤي [كما في «ديوانه»]:

وَأَوْلَيْكَ قَوْمٌ إِنْ بَنَوْا أَحْسَنُوا الْبِنَا وَإِنْ عَاهَدُوا وَفَّوْا وَإِنْ عَقَدُوا شَدُّوا
وَإِنْ قَالَ مَوْلَاهُمْ - عَلَى جُلِّ حَادِثٍ مِنَ الدَّهْرِ - رُدُّوا فَضْلَ أَخْلَامِكُمْ رَدُّوا
أَقْلَبُوا عَلَيْهِمْ - لَا أَبَا لِأَيْكُمُ - مِنَ اللُّومِ أَوْ سُدُّوا الْمَكَانَ الَّذِي سَدُّوا

[الشعراء والجمود]

[من البسيط]

وقال أيضاً [في «ديوانه» ٢٥٠-٢٦]:

قَوْمٌ إِذَا عَقَدُوا [عَقْدًا] لِحَارِهِمْ شَدُّوا الْعِنَاجَ وَشَدُّوا فَوْقَهُ الْكَرْبَا^(١)
أَوْلَيْكَ الْأَنْفُ وَالْأَذْنَابُ غَيْرُهُمْ وَمَنْ يُسَاوِي بِأَنْفِ النَّاقَةِ الذَّنْبَا^(٢)

[من البسيط]

ويروى للحسن السبط رضوان الله عليه:

وَلَا أَقُولُ نَعْمَ يَوْمًا فَاتَّبَعَهَا خُلْفًا وَلَوْ ذَهَبَتْ بِالْمَالِ وَالْوَالِدِ

[من الرمل]

فأخذه بعضهم ، وقال :

لَا تَقُولَنَّ إِذَا مَا لَمْ تُرِدْ أَنْ تُتِمَّ الْوَعْدَ فِي شَيْءٍ : نَعْمَ
فَإِذَا قُلْتَ : نَعْمَ فَاصْبِرْ لَهَا بِوَفَاءِ الْعَهْدِ إِنَّ الْخُلْفَ ذَمٌّ

[من الطويل]

وقال ابن أبي حاتم :

إِذَا قُلْتَ فِي شَيْءٍ : نَعْمَ فَاتَّمَّهُ فَإِنَّ نَعْمَ دَيْنٌ عَلَى الْحُرِّ وَاجِبٌ
وَإِلَّا فَقُلْ : لَا ، تَسْتَرِحْ وَتَرِحْ بِهَا لِئَلَّا يَقُولَ النَّاسُ : إِنَّكَ كَاذِبٌ

[من الكامل]

وقال أبو عبادة [في «ديوانه» ٦٩٩/٢]:

عَجَلٌ إِلَى نُجْحِ الْفَعَالِ كَأَتَمَّا يُمَسِّي عَلَى وَتَرٍ مِنَ الْمَوْعُودِ^(٣)

(١) يقول : إذا عقدوا عقداً لجارهم . . وفوا به وأحكموه ، وكنى عن ذلك بالعنّاج ، والعنّاج : حبل يشد تحت الدلو ويتصل طرفاه من أعلاها بما يتصل به أذناها . الكرْب : الحبل الذي يشد في وسط خشبة الدلو فوق الرشاء ليقويه .

(٢) أنْفُ الناقَةِ : قَصْدٌ بِهِ بَغِيضاً وَأَهْلُ بَيْتِهِ ، وَكَانُوا يَعِيرُونَ بِهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَلَمَّا قَالَ الْحَطِينَةُ هَذَا الْبَيْتَ . . صار مدحاً لهم . والأذنان : قصد بها الزبيران وأهل بيته .

(٣) الوتر : الثأر .

وقال [في «ديوانه» ٧٥٩/٢] :

[من الطويل]

كَأَنَّ سَنَاها بِالْعَشِيِّ لِصُبْحِها
تَبَسُّمُ عَيْسَى حِينَ يَلْفِظُ بِالْوَعْدِ

وقال [في «ديوانه» ٢٠١٢/٣] :

[من الطويل]

إِذَا وَعَدَ ازْفَضَّتْ عَطَاءَ عِدَاتِهِ
وَأَعْرَفُ مِنْهُمْ مَنْ يَحْزُؤُ وَلَا يُدْمِي^(١)

وقال [في «ديوانه» ٨٢٣/٢] :

[من الكامل]

شُكْرًا لِأَنْعَمِهِ الْجِسَامِ وَلَمْ تَضِعْ
يُورِيكَ فَضْلًا صَدْرُ قَاصِيهِ الْغِنَى
نِعْمَ مَلَأَن لَهُ الْبِلَادَ مَحَامِدًا
بِعَوَائِدِ قَدْ كُنَّ أَمْسٍ مَوَاعِدًا^(٢)

وقال [في «ديوانه» ١٥٣١/٣] :

[من الطويل]

مَوَاهِبُ أَعْدَادُ الْأَمَانِي وَيَعُدُّهَا
عِدَاتٌ يَكَادُ الْعُودُ مِنْهُنَّ يُورِقُ

[من الطويل]

وفي عكسه يقول بشار بن برد ، وقد وعده خالد بن برمك بجائزة ، فتأخرت [في «ديوانه» ٨٩/٤] :

أَظَلَّتْ عَلَيْنَا مِنْكَ يَوْمًا غَمَامَةٌ
فَلَا غَيْمُهَا يُجَلَى فَيَنَاسَ طَامِعٌ
أَضَاءَ لَهَا بَرْقٌ وَأَبْطَأَ رَشَاشُهَا
وَلَا غَيْثُهَا يَأْتِي فَتُرَوَّى عِطَاشُهَا

[أبو العتاهية وعمر بن العلاء]

[من الكامل]

وامتدح أبو العتاهية عمر بن العلاء بقوله [في «ديوانه» ٦٠٦-٦٠٥] :

إِنِّي أَمِنْتُ مِنَ الزَّمَانِ وَرَيْبِهِ
لَوْ يَسْتَطِيعُ النَّاسُ فِي إِجْلَالِهِ
لَمَّا عَلِقْتُ مِنَ الْأَمِيرِ حَبَالًا
لَحَدَّوْا لَهُ حُرَّ الْوُجُوهِ نِعَالًا
قَطَعْتَ إِلَيْكَ سَبَابًا وَرَمَالًا
وَإِذَا صَدْرُنَا بِنَا صَدْرُنَا ثِقَالًا
فَإِذَا وَرَدْنَا بِنَا وَرَدْنَا مُخَفَّفَةً

[من الطويل]

فرسم له بسبعين ألفاً ، فتأخرت ، فكتب إليه [في «ديوانه» ٥٥٧] :

أَصَابَتْ عَلَيْنَا جُودَكَ الْعَيْنُ يَا عُمَرُ
أَصَابَتْكَ عَيْنٌ فِي سَخَائِكَ صُلْبَةٌ
فَنَحْنُ لَهَا نَبْغِي التَّمَائِمَ وَالشُّرُ
وَيَا رَبَّ عَيْنٍ صُلْبَةٍ تَقَطَّعُ الْحَجَرَ
فَإِنْ لَمْ تُفِقْ مِنْهَا رَقِينَاكَ بِالسُّورِ
سَنَرَفِيكَ بِالْأَشْعَارِ حَتَّى تَمَلَّهَا

[من البسيط]

وقال أيضاً [في «ديوانه» ٥٦٨-٥٦٩] :

يَا ابْنَ الْعَلَاءِ وَيَا ابْنَ الْقَرَمِ مِرْدَاسِ
إِنِّي امْتَدَحْتُكَ فِي صَحْبِي وَجَلَّاسِي^(٣)

(١) اِرْفَضْتُ : تَفَرَّقَتْ وَذَهَبَتْ . الْعِدَاتُ : جَمْعُ الْعِدَّةِ ، وَهِيَ الْوَعْدُ .

(٢) الْمَعْنَى : أَنَّ مَنْ يَرْجِعُ مِنْ عِنْدِهِ . . . يَرْجِعُ مُتَحَقِّقُ الْوَعْدِ بِعَطَايَا صَبْرُهُ غَنِيًّا .

(٣) الْقَرَمُ : سَيِّدُ الْقَوْمِ .

أُنِّي عَلَيْكَ وَلِي حَالٌ تَكْذِبِي فِيمَا أَقُولُ فَاسْتَحْيِي مِنَ النَّاسِ
حَتَّى إِذَا قِيلَ مَا أَوْلَاكَ مِنْ مَنِّينَ طَأْطَأْتُ مِنْ سُوءِ حَالِي عِنْدَهَا رَاسِي
فَأَمَرَ حَاجِبُهُ أَنْ يَعْجَلَ لَهُ بِدَفْعِ الْمَالِ ، وَقَالَ : لَا تُدْخِلُهُ عَلَيَّ حَتَّى يَقْبِضَهَا ؛ فَإِنِّي مُسْتَحٍ مِنْهُ .
وقد جرت للعلامة ابن المقرئ قضيةٌ من نوعها مستوفاةٌ في « ديوانه » .

[من الهزج]

لَقَدْ كُنْتُ أَرْجِيكَ لِمَا أَخَشَى مِنَ الدَّهْرِ
فَقَدْ أَصْبَحْتَ مِنْ أَوْكَدِ أَسْبَابِي إِلَى الْفَقْرِ
وَقَدْ أَفْنَيْتُ مَا أَفْنَيْتُ فِي شُكْرِكَ مِنْ عُمْرِي
مَوَاعِيدُ كَمَا أَخْبَتْ سَرَابَ الْمَهْمَةِ الْقَفْرِ
فَمِنْ يَوْمٍ إِلَى يَوْمٍ وَمِنْ شَهْرٍ إِلَى شَهْرٍ
لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَصْنَعَ لِي مِنْ حَيْثُ لَا أُدْرِي

[دعبل وبعض الأمراء]

ووقف دعبل الخزاعي ببعض أمراء (الرقة) ، فقال : إِنِّي لَا أَقُولُ كَمَا قَالَ صَاحِبُ مَعْنٍ [في « تاريخ بغداد » ١٣/٢٣٩] :

[من الوافر]

بِأَيِّ الْخُلْتَيْنِ عَلَيْكَ أُنِّي فَإِنِّي عِنْدَ مُنْصَرَفِي مَسْئُولُ
أَبِالْحُسْنَى وَلَيْسَ لَهَا ضِيَاءُ عَلَيَّ فَمَنْ يُصَدِّقُ مَا أَقُولُ
أَمْ الْآخِرَى وَلَسْتَ لَهَا بِأَهْلٍ وَأَنْتَ لِكُلِّ مَكْرُمَةٍ فَعُولُ

[من الكامل]

ولكني أقول [كما في « ديوان دعبل » ٢٢٠-٢٢١] :

إِنْ قُلْتُ : أَعْطَانِي كَذَبْتُ وَإِنْ أَقُلُ : صَنَّ الْأَمِيرُ بِمَالِهِ . . لَمْ يَجْمُلِ
وَلَأَنْتَ أَعْلَمُ بِالْمَكَارِمِ وَالْعَلَا مِنْ أَنْ أَقُولَ : فَعَلْتَ مَا لَمْ تَفْعَلِ
فَاخْتَرْتُ لِنَفْسِكَ مَا أَقُولُ فَإِنِّي لَا بُدَّ مُخْبِرُهُمْ وَإِنْ لَمْ أَسْأَلِ

قَالَ لَهُ : فَاتْلِكَ اللَّهُ ، وَأَمَرَ لَهُ بِعَشْرَةِ آلَافِ دَرَاهِمٍ .

[الضيف يخبر أهله]

[من الكامل]

وقد سبق إلى المعنى حاتم في قوله :

وَاعْلَمَ بِأَنَّ الضَّيْفَ مُخْبِرُ أَهْلِهِ بِمَيِّتٍ لَيْلَتِهِ وَإِنْ لَمْ يُسْأَلِ

ونحنُ ذاكروه بما يتعلَّقُ به في غيرِ هذا الموضعِ إن شاء اللهُ تعالى .

[من روائع البحري في الاستهزاء والهجاء]

ومما يستحقُّ أَنْ يُذَكَرَ بِالْإِعْجَابِ - وَإِنْ خَلا عَنِ التَّصْرِيحِ بِالْإِقْتِضَاءِ ، فَلَنْ يَكُونَ إِلَّا مِنْ أَجْلِهِ ، وَهُوَ مَوْضِعُ الْمُنَاسِبَةِ -

وَأَصَيْدَ إِِنْ نَارَ عُنْتَهُ اللَّحْظَ رَدَّهُ
ثَاءُ الْعِدَا عَنِّي فَأَصْبَحَ مُعْرِضاً
وَقَدْ كَانَ سَهْلاً وَاضِحاً فَتَوَعَّرَتْ
أَلْسِنُ الْمُوَالِي فِيكَ غُرّاً قَصَائِدِ
وَلَوْ أَنَّنِي وَقَّرْتُ شِعْرِي وَقَارَهُ
لَأَكْبَرْتُ أَنْ أُوْمِي إِلَيْكَ بِإِصْبَعٍ
وَكَانَ الَّذِي يَأْتِي بِهِ الدَّهْرُ هَيْئاً
وَلَكِنِّي أُغْلِي مَحَلِّي أَنْ أَرَى
وَقَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ أُووبَ مُمْلَكاً

كَلِيلاً وَإِنْ رَاجَعْتُهُ الْقَوْلَ جَمْعاً^(١)
وَأَوْهَمَهُ الْوَأَشُونَ حَتَّى تَوْهَمَا
رُبَاهُ وَطَلَقاً وَاضِحاً فَتَجَهَّمَا
هِيَ الْأَنْجُمُ اقْتَادَتْ مَعَ اللَّيْلِ أَنْجُمًا ؟
وَأَكْرَمْتُ مَدْحِي فِيكَ أَنْ يُتَهَضَّمَا^(٢)
تَضَرَّعُ أَوْ أُذْنِي لِمَعْدِرَةٍ فَمَا
عَلَيَّ وَلَوْ كَانَ الْحِمَامَ الْمُقَدَّمَا
مُدِلاً وَأَسْتَحْيِيكَ أَنْ أَتَعَظَّمَا
فَأَصْبَحْتُ أَرْجُو أَنْ أُووبَ مُسَلَّمَا

[من روائع ابن الرومي في الموضوع]

فهذا والله الشعرُ يتفجَّرُ الحَجَرُ لمُسِّهِ ، وتهتزُّ القلوبُ لجرسِهِ ، ولا يقصرُ عنه قولُ ابنِ الرُّومِيِّ يُعَاتِبُ أبا الصَّقِرِ [كما في

عَقِيلَ النَّدَى أَطْلُقَ مَدَائِحَ جَمَّةً
وَكُنْتُ مَتَى تُنْشِدُ مَدِيحاً ظَلَمْتَهُ
عَذْرَتِكَ لَوْ كَانَتْ سَمَاءً تَقَشَّعَتْ
وَلَكِنَّهَا سُقْيَا حُرِمْتُ رَوِيَّهَا
فِيَا لَكَ بَخْرًا لَمْ أَجِدْ فِيهِ مَشْرَباً
خَوَاسِي حَرَى قَدْ أَبَتْ أَنْ تُسْرَحَا^(٣)
يَكُنْ لَكَ أَهْجِي كُلَّمَا كَانَ أَمْدَحَا
سَحَابِيَّهَا أَوْ كَانَ رَوْضٌ تَصَوَّحَا^(٤)
وَعَارِضُهَا مُلْقِي كَلَاكِلَ جُنْحَا^(٥)
عَلَى أَنْ غَيْرِي وَاجِدٌ فِيهِ مَسْبَحَا

غَيْرَ أَنْ الْأَوَّلَ أَفْخَمُ وَأَمْلَأُ لِلْفَمِ ، فما أَبْدَعَهُ مِنْ قَوْلٍ يَعَزُّ عَلَى الْفَصْحَاءِ فِي مِيدَانِهِ الْجَوْلِ .

[الشعراء في هذا الميدان]

يُطِيلُ تَسْوِيفَ وَعَدِي ثُمَّ يُخْلِفُهُ
عَمْداً وَيَمْطُلُ دَنِّي ثُمَّ يَلْوِيهِ^(٦)

(١) الْأَصَيْدُ : الرجلُ يرفع رأسه كبراً ، وقيل للملكِ : أصيدٌ ؛ لأنه لا يلتفتُ من الزهو يميناً ولا شمالاً . جمجم : لم يبيِّنْ كلامه .

(٢) يُتَهَضَّمُ : يُظْلَمُ ويُعْتَصَبُ حقُّه .

(٣) الإِبِلُ الْمُخَيَّسَةُ : هي الإِبِلُ المحبوسةُ للنحرِ أو القسمِ ولم تطلقْ ، وفي البيتِ استعارةُ ظاهرةٌ ، وهي تشبيهه المديحِ الذي هو أعلى الكلامِ كالإِبِلِ التي هي

أعلى شيءٍ عندَ العربِ . حَرَى - فعلى من الحرِّ - وهي تأنثُ حرَّانَ ، وهما للمبالغةِ ، يريدُ أنها لشدةِ حرِّها قد عطشتُ وبيستُ من العطشِ ، ومنه طرف

الحديثِ : « في كلِّ ذاتِ كبدٍ حرَّى أجرٌ » رواه عن مخلولِ البهزيِ ابنُ حبانٍ في « صحيحه » (٥٨٨٢) .

(٤) انقشع الغيمُ والسحابُ : إذا كشفتهُ الرِّيحُ . تصوَّحَ الرِّوضُ : إذا تمَّ بيبسُهُ .

(٥) الكَلَاكِلُ : الجماعاتُ .

(٦) مَطَّلُ : سوفَ الوعدُ مرَّةً بعدَ أخرى . لَوَى : بمعنى مَطَّلَ .

وقال :

لَيْسَ غَرَّنِي مَطْلُ الْبَحِيلِ لَقَبْلَهُ غُرِرْتُ بِإِسْعَافِ الْخَيْالِ الَّذِي يَسْرِي

[من الطويل]

وقال الناظم [في «المكبري» ٤١/٢-٤٢] :

[من البسيط]

أَمْسَيْتُ أَرْوَحَ مُثْرٍ خَازِنًا وَيَدَا أَنَا الْغَنِيُّ وَأَمْوَالِي الْمَوَاعِيدُ^(١)
إِنِّي نَزَلْتُ بِكَذَائِبِنَ ضَيْفُهُمْ عَنِ الْقِرَى وَعَنِ التَّرْحَالِ مَحْدُودُ
جُودُ الرَّجَالِ مِنَ الْأَيْدِي وَجُودُهُمْ مِنَ اللِّسَانِ فَلَا كَانُوا وَلَا الْجُودُ

وأبطأ رجلٌ بوعدِهِ لأبي العتاهية فقال :

[من المنسرح]

لَا جَعَلَ اللهُ لِي إِيْنِكَ وَلَا عِنْدَكَ مَا عِشْتُ حَاجَةً أَبَدَا
مَا جِئْتُ فِي حَاجَةٍ أَقْرَبَهَا إِلَّا تَثَاقَلْتُ ثُمَّ قُلْتُ غَدَا

[من الطويل]

وقال بشارٌ فيما يشبه الكلام [في «ديوانه» ٢١١/٤-٢١٢] :

وَلَا تَبْخَلَا بُخْلَ ابْنِ قَرْعَةَ إِنَّهُ مَخَافَةَ أَنْ يُرْجَى نَدَاهُ حَزِينُ
إِذَا جِئْتُهُ فِي حَاجَةٍ سَدَّ بَابَهُ فَلَنْ تَلْقَاهُ إِلَّا وَأَنْتَ كَمِينُ

[من الوافر]

وقال كثيرٌ [في «ديوانه» ٥٠٧] :

لَوْ أَنَّ الْبَاخِلِينَ وَأَنْتَ مِنْهُمْ رَأَوْكَ تَعَلَّمُوا مِنْكَ الْمَطَالَ

[من الطويل]

وقال [في «ديوانه» ١٤٣] :

قَضَى كُلُّ ذِي دَيْنٍ فَوْقِي غَرِيمَهُ وَعَزَّةٌ مَمْطُولٌ مُعْنَى غَرِيمَهَا^(٢)

[العبد الموفق هو الذي يعمل ما يرضي سيده]

فيحكى [كما في «الأغاني» ٣٦/٩] : أنه كان لكثيرٍ عبدٌ يبيع له الطيب من النساء ، وينسوهن بالثمن ، فجاء يتقاضاهن ، فأدبته إلا واحدة ، لم يعرفها لمكان البرقع ، فتمثل ببيت مولاة هذا ، فقلن له : أتدري من هذه ؟! قال : لا ، قلن له : إنها عزة ، قال : أشهدكم أنها في حلٍّ مما عندها ، وأخبر مولاة فسرت بصنيعه ، وأعتقه .

[فتوى في الحب]

ويحكى [كما في «الأغاني» ٣٦/٩] : أن عزة دخلت على أم البنين ، فقالت لها : ما الدائن الذي يتقاضاك كثيرٌ ؟ قالت : قبلت وعدت إياها ، قالت : أنجزه ما وعدت ، وإثم ذلك علي .

فكانت أم البنين تبكي كلما ذكرت فتواها هذه لعزة ، وأعتقت فيها رقاباً ، وتصدقّت .

(١) أَرْوَحَ : من الراحة .

(٢) المعنى : من الغنا ، وهو المشقة والتعب .

وقال بعضهم :

[من الطويل]

فإن تجمَع الآفات فالبُخلُ شرُّها وشرُّ من البُخلِ المَواعيدُ والمَطْلُ

[لا شيء أفضل من الصراحة]

وسأل بعضهم عدي بن حاتم حاجة ، فصرح بالمنع ، فقال له : كأنك لم تكن من حاتم ؟! فقال عدي : إن لم أكن في الشطر الثاني . . فإنني منه في الأول ، يعني قوله « في » شرح ديوان حاتم « ٥١ » :

[من الطويل]

أماويٍّ إمّا مانعٌ فمبيِّنٌ وإمّا عطاءٌ لا يُنهيههُ الزجرُ^(١)

[وصف لبخيل]

وقال أعرابي : فلان له وعدٌ عاقبته المَطْلُ ، وثمرته الخُلْفُ ، ومحصوله اليأسُ .

[أول من أخلف المواعيد]

وقال الثعالبي : أوّل من أخلف المواعيد ، ولم يف بشيء منها : إسماعيل بن صبيح ، كاتب الرشيد ، وما كانت الرؤساء قبله تعرف المواعيد الكاذبة .

[دواء ينفع مع اللثيم الحريص]

واشتهر أحد اللثام بشدة الحرص ، حتّى أيس منه المكّدون ، فتذاكروا غلظة كبدِهِ ، وتحجّر يديه ، فقال أحدهم : أنا له ، فقالوا : لن تقدّر منه على شيء ، وخاطروه^(٢) ، فغدا على بابهِ يقرعه قرعاً شديداً ، حتّى أضجره ، وألى أن لا ينصرف إلا بنوالٍ أو وعدٍ ، فوعده بدانيقٍ إلى سنة ، فبكر إليه من الغد ، وأقلق راحته ، وقال له : احسب فقد مضى من السنة يومٌ ، ولم يزل يباكره بمثل ذلك . . حتّى ضيق عليه أنفاسه ، فرأى التخلص بدفع الدانيق أهون عليه ، فنقده إياه ، فاستحقّ الخطر على أصحابهِ ، وما أظنّه اهتدى لهذِهِ الحيلة إلا من حيث فتح له بابها شيخ (المعرّة) في قوله « في » سقط الزند « ١٦٥ » :

[من الكامل]

إنّ البخيلَ إذا يمدُّ له المَدَى في الجودِ هانَ عليه وَعَدُ السَّائِلِ

[الوعد في الحب]

أمّا اقتناع المحبّين بالمواعيد : فإنّه حديث آخر ، ومنه قول سلطانهم « في » ديوان ابن الفارض « ١٣٨ » :

[من الطويل]

عديني بوصلٍ وأمطلي بنجازه فعندي إذا صحَّ الهوى حسن المَطْلُ

[من الرمل]

وقوله « في » ديوانه « ١١ » :

أوعدوني أو وعدوني وأمطلوا حُكمُ دينِ الحُبِّ دينُ الحُبِّ لي^(٣)

(١) يُنهيههُ : يكفه .

(٢) التخطر : التراهن ، وسمي الرهان : مخاطرة ؛ لما فيه من احتمال فقد ما يكون فيه أو سلامته .

(٣) أوعدوني : هددوني ، من الوعد . عدوني : من الوعد ، يريد : أن حُكم دين الحبّ يحلّل المماطلة في أداء دين المحبّ . قال الشاعر :

وانسي وإن أوعدته أو وعدته لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

وَيَأْتِي مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ فِي فُرْصَةٍ أَنْسَبَ لَهُ مِنْ هَذِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَمَا أَدْرِي أَصَحِّحُ مَا يُقَالُ : إِنَّ الْكُمُونَ يَعِيشُ بِالْمَوَاعِيدِ أَمْ لَا^(١) ؟ فِي ذَلِكَ يَنْشُدُونَ :

[مَنْ الْبَسِيطُ]

يَا لَيْتَنِي كُنْتُ كَمُونًا بِمَزْرَعَةٍ إِنَّ فَاتَهُ السَّقْيُ أَغْنَتْهُ الْمَوَاعِيدُ

[التنكيد والمن في العطاء في أصدق الكلام]

وَأَمَّا قَوْلُهُ : (وَلَا يُنَكِّدُهَا) . . فَنَظَرُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَى وَاللَّهُ عَنِّي حَلِيمٌ * يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَا يُبْطَلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ [البقرة : ٢٦٢-٢٦٤] .

ووجه مناسبة قوله : ﴿ والله غني ﴾ لِمَا قَبْلَهُ أَنَّ اللَّهَ يَتَلَقَّى الصَّدَقَةَ بِيَدِهِ كَمَا فِي « الصَّحِيحَيْنِ »^(٢) ، وَإِنَّمَا يَنَالُهُ مِنْ عِبَادِهِ التَّقْوَى ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَرَادِهِ .

[التنكيد والمن في العطاء عند الشعراء]

وَقَالَ الْحَطِيبَةُ [في « ديوانه » ٤١] :

[مَنْ الطَوِيلُ]

وَإِنْ كَانَتْ النَّعْمَاءُ فِيهِمْ جَزَؤًا بِهَا وَإِنْ أَنْعَمُوا لَا كَدَرُوهَا وَلَا كَدُوا

[مَنْ الْبَسِيطُ]

وَقَالَ الْأَعَشَى يمدحُ الممتشرَ :

مَنْ لَيْسَ فِي خَيْرِهِ مَنْ يُكَدِّرُهُ عَلَى الصَّدِيقِ وَلَا فِي صَفْوِهِ كَدَرٌ

[مَنْ الْوَافِرُ]

وَقَالَ الْقَطَامِيُّ [في « ديوانه » ٣٨] :

فَلَمْ أَرْ مُنْعِمِينَ أَقَلَّ مِنَّا وَأَكْرَمَ عِنْدَمَا اضْطَنَعُوا اضْطِنَاعًا
مِنَ الْبَيْضِ الْوُجُوهِ بَنِي نَفِيلٍ أَبَتْ أَخْلَافُهُمْ إِلَّا اتْسَاعًا

وقوله : (أَقَلَّ مِنَّا) شبيهة بما مرَّ القَوْلُ فِيهِ مِنْ نَفْيِ الشَّيْءِ بِإِيجَابِهِ ، وَالْمَرَادُ : عَدَمُ الْمَنِّ ، كَمَا فِي قَوْلِهِمْ عَنْ وَصْفِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (كَانَ يُقَالُ لِلْغَوِّ) ؛ إِذِ الْمَرَادُ مِنْهُ : أَنَّهُ لَا يَقُولُ لَغْوًا أَبَدًا .

[مَنْ الْبَسِيطُ]

وَقَالَ جَرِيرٌ يمدحُ بني أُمَيَّةَ :

أَعْطَوْا هُنَيْدَةَ يَحْدُوهَا ثَمَانِيَةَ مَا فِي عَطَائِهِمْ مَنْ وَلَا سَرْفٌ

[مَنْ الْبَسِيطُ]

وَقَالَ الْأَخْطَلُ [في « ديوانه » ١٧٢] :

بَنِي أُمَيَّةَ نِعْمَاكُمْ مُجَلَّلَةٌ تَمَّتْ فَلَا مِنَّةَ فِيهَا وَلَا كَدَرٌ

(١) يُقَالُ : إِنَّ الْكُمُونَ عِنْدَمَا لَا يَبْقَى مَاءٌ لِسُقْيَاهُ يَقُولُونَ لَهُ : سَنَسْقِيكَ غَدًا ، فَيَغْنِيهِ هَذَا الْكَلَامُ عَنِ السَّقْيَا ، قَالَ الشَّاعِرُ :

فَأَصْبَحَتْ كَالْكُمُونَ مَا تَتَّ عُرُوقُهُ وَأَغْصَانُهُ مِمَّا يُمْتَنُونَهُ خُضْرُ

(٢) وَذَلِكَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي (الزَّكَاةِ) (١٤١٠) وَمُسْلِمٌ فِي (الزَّكَاةِ) (١٠١٤) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « مَنْ تَصَدَّقَ بِعِدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ - وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ - فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُهَا بِيَمِينِهِ ثُمَّ يَرْبِّيُهَا لِصَاحِبِهَا كَمَا يَرْبِّي أَحَدَكُمْ فَلَوْةٌ أَوْ قَلْوَصَةٌ ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ » وَاللَّفْظُ لِلْبُخَارِيِّ .

[من البسيط]

وقال أبو قابوس يمدح يحيى بن خالد البرمكي :

يُنْسَى الَّذِي كَانَ مِنْ مَعْرُوفِهِ أَبَدًا إِلَى الرَّجَالِ وَلَا يَنْسَى الَّذِي يَعُدُّ

[لا تنس حاجتي أيها الأمير]

وقال رجل لمسلم بن قريش : لا تنس حاجتي أيها الأمير ، قال : لن أنساها إلا إذا قضيتها .

[من الطويل]

وقال أبو عبادَةَ [في «ديوانه» ١٣٩٧/٣] :

كَرُمْتَ فَمَا كَدَّرْتَ نَيْلَكَ عِنْدَنَا بِمَنْ وَلَا أَتْبَعْتَ وَعَدَكَ بِالْخُلْفِ

[تكرار هذا المعنى عند المتنبي]

[من المنسرح]

وأكثر الناظم في المعنى فمنه قوله [في «العُكْبَرِيِّ» ٦٥/٤] :

تَظُنُّ مِنْ فَقْدِكَ اعْتِدَادَهُمْ أَنَّهُمْ أَنْعَمُوا وَمَا عَلِمُوا

[من البسيط]

وقوله [في «العُكْبَرِيِّ» ١٧٣/١] :

إِلَى الَّذِي تَهَبُّ الدَّوْلَاتِ رَاحَتُهُ وَلَا يَمُنُّ عَلَى آثَارِ مَوْهُوبٍ^(١)

[من البسيط]

وقوله - وقد تقدّم - [في «العُكْبَرِيِّ» ٨٧/٣] :

أَنْتَ الْجَوَادُ بِلَا مَنْ وَلَا كَدَرٍ وَلَا مِطَالٍ وَلَا وَعْدٍ وَلَا مَذَلٍ^(٢)

[من الكامل]

وقوله [في «العُكْبَرِيِّ» ٢٥٨/٣] :

سَتَرُوا النَّدَى سَتَرَ الْغَرَابِ سِفَادَهُ فَبَدَا وَهَلْ يَخْفَى الرَّبَابُ الْهَاطِلُ؟^(٣)

[أم جعفر البرمكي تصف أولادها]

وقال بعض الهاشميين : كانت أم جعفر البرمكي تزورنا - وهي امرأة جَزَلَةٌ - فسألتها يوماً عن حال ولديها : (الفضل وجعفر) ، قالت : لا أزيدك على واقعة لهما وهما طفلان : عاد يحيى إلى البيت بعد فراغه من شغل السلطان ، فقال لجعفر : بلغني أنك تلعب الشطرنج ، قال : نعم ، قال : فهل لك أن تلعب مع أخيك ؟ قال : نعم ، فاعتذر الفضل ، فقال يحيى : أتلعب معه على المُقَامَرَةِ ، وأنا في جانبه ؟ قال : نعم ، فامتنع الفضل واستحيا ، فانصرف ، فترى أن جعفرًا أخطأ من جهات ، وعزم الله للفضل بالثبات .

ولما ظننا أنها قضت له على جعفر . . . قالت : فخلوت بجعفر ، وقلت له : تعرف أن أباك يكره اللعب ، وقد صارحتك بأنك تلعب ! قال : ذلك أهون علي من أن أكذبه . قلت له : وحرصت على أن تحجل أخاك بغلبته ! قال : أعرف نفوقه علي ، ولو ضعفت . . لانغلبت له . قلت : وأكبر من ذلك كله رضاك بالمُقَامَرَةِ ! قال : ما حملني عليها إلا أن

(١) الدُّوَالُ : تعريض سيف الدولة ، يريد : أنه ملك عظيم تصل عطايه إلى الدولت .

(٢) المَذَلُ : الفترة والضجر .

(٣) سَفَدٌ يَسْفَدُ سَفَادًا : هو نزو الذكر على الأنثى ، يقال ذلك في التيس والبعير والثور والطيور والسيب . والرباب : غيم يتعلق بأسافل السحاب إذا كثرت ماؤه . والمعنى : أنهم يكتمون معروفهم كما يكتم الغراب سفاده ، ثم ذلك لا يكتم كما لا يخفى السحاب الهاطل .

الرشيد أعطاني دواة من الجوهر ، ورأيت أخي يستحسنها ، وكرهت أن يرى لي منة عليه إن أنا أهديتها له ، فأحببت أن يأخذها بالغلبة ؛ لتكون أهنأ له . قلت له : وقاصمة الظهر ، رضاك بمغالبة أبيك!! قال : قد عرفت جوابها من انغلابي لا محالة ، وإنما أردت تشجيع أخي على اللعب حتى يستأثر بالدواة ، فصبرت للجراحة على أبي من أجل ذلك . قال الهاشمي : فقلت لها : أكان ذلك وقد بلغا الحلم ؟ قالت : أين يذهب بك؟! أما قلت لك : إنهما طفلان ، إن الصبي إذا بلغ عشرًا لم نمكنه أن يتبسّم بمحض الرجال .

[أصبحت بيوتنا كالأسواق]

وأقول : إن آخرها ليس بأكبر مما روي عن بعض أجدادنا العلويين أنه قال : جئت وأنا في التاسعة من عمري ، وأمي تسبّح الضحى ، فرأيت ما ارتفع له صوتي قليلاً بالضحك ، فما انفتلت أُمّي من صلاتها . . . إلا وقد بليت خمارها بالدموع تسترجع ، وتقول : لقد أصبحت بيوتنا شبيهة بالأسواق ، وما كان يُسمع فيها إلا ذكرُ الله ، وتلاوة القرآن ، فقلت لي أختي مريم : هل لك في التوبة ؟ قلت : نعم ، وتبت على يدها ، وأخذت ميثاقي على أن لا أعود إلى مثلها ، وبقي الخدم سنة يؤثّبوني ، ويقولون : توبة مقبولة .

[مديح البرامكة]

ولقد صدق أشجع في قوله عن البرامكة عامة ، وعن جعفرٍ خاصّة [في «ديوانه» ٢٢٠] :
سَادَ الْبَرَامِكُ جَعْفَرٌ وَهُمْ الْأَوْلَى بَعْدَ الْخَلَائِفِ سَادَةَ الْإِنْسِ

[قصائد للمؤلف في مدح العلويين]

وصدقتُ أنا في قولِي عن لهاميم^(١) السابقين من العلويين [في «ديوان المؤلف» ٢٢٦] :

مَلَائِكَةٌ فِي سَمْتِهِمْ وَلَدَى الْوَعَى لُيُوثٌ لَهُمْ فِي الْمَشْرِفِيَّةِ أَخْيَاسُ
عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَارِي وَقَارٌ لِأَنَّهُمْ بِأَرْوَاحِهِمْ فِي حَضْرَةِ الْقُدْسِ جُلَاسُ^(٢)

وقولي [كما في «ديوان المؤلف» ١٢١] :

وَمَنْ دَرَجُوا عَنْ وَكْرِهِمْ مِنْ أَيْمَةٍ بِبَاسِ مُلُوكٍ فِي لِبَاسِ مَلَائِكِ
نُجُومُ الْهُدَى مِنْ بَاسِهِمْ يَنْمُحِي الرَّدَى وَتَعْنُو الْعِدَا مِنْ فَتْكِهِمْ فِي الْمَعَارِكِ^(٣)

وقولي [كما في «ديوان المؤلف» ٢٥١] :

لِيَالِي كَانَ الْحَيُّ يَزْهُو بِجِيرَةٍ لَهُمْ حَلِيَّةُ التَّقْوَى إِلَى رِقَّةِ الطَّبَعِ

(١) لهاميم - جمع لهميم - : وهو السابق الجواد .

(٢) في «الديوان» (٢٢٦) :

مَلَائِكَةٌ فِي سَمْتِهِمْ وَلَدَى الْوَعَى لُيُوثُ الشَّرَى وَالْمَشْرِفِيَّاتُ أَخْيَاسُ
عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَارِي الْوَقَارُ وَكَيْفَ لَا وَهُمْ بِالنُّهَى فِي حَضْرَةِ الْقُدْسِ جُلَاسُ

الشَّرَى : جليل (به تهامة) كثير السباع . المشرفيات : سيوف معروفة . أخياس : ملنفة ، وأصله الشجر الملتف .

(٣) تعنوا : تخضع .

مَرَّاجِيحُ سَبَّاقُونَ فِي الْمَجْدِ لَمْ يُرِدْ بِهِمْ [رَبُّهُمْ] لِلْعَالَمِينَ سِوَى النَّفْعِ (١)
 فِي كَثِيرٍ مِنْ أَمْثَالِ ذَلِكَ .

[أبلغ ما روي في تعاضم السائل وسماحة المسؤول]

وَمِنْ أْبْلَغِ مَا سَمِعْنَا فِي تَعَاظِمِ السَّائِلِ ، وَسَمَاحَةِ نَفْسِ الْمَسْئُولِ ، مَا ذُكِرَ عَنْ بَعْضِهِمْ - وَأَظَنُّهُ الْمَهْلَبَ بْنَ أَبِي صُفْرَةَ
 بَعْدَ ذَهَابِ دَوْلَتِهِ ، وَزَوَالِ نِعْمَتِهِ - : أَنَّهُ تَحَمَّلَ أَلْفَ بَعِيرٍ فِي الْإِصْلَاحِ ، فَقَصَدَ مَلِكَ (الْعِرَاقِ) ، وَهُوَ الْكُوْثُرِيُّ بْنُ
 الصُّعْرِ - فِيمَا إِخَالُ - وَقَالَ لَهُ : الْأَمْلُ أَوْقَفَنِي بِبَابِكَ ، وَحُسْنُ الظَّنِّ سَاقَنِي إِلَيْكَ ، وَكَمَا لَمْ أَصُنْ وَجْهِي عَنْ
 سْؤَالِكَ . . صُنْ وَجْهَكَ عَنْ رَدِّي ، وَأَنْهَى لَهُ الْقِصَّةَ ، وَأَشَدَّ : [مَنْ الْوَافِر]

وَكُنْتُ خَبَأْتُ آمَالِي لِيَوْمٍ فَهَذَا الْيَوْمُ يَوْمُكَ وَالسَّلَامُ
 وَكُنْتُ أَطَالِبُ الدُّنْيَا بِحُرٍّ فَأَنْتَ الْحُرُّ وَانْقَطَعَ الْكَلَامُ

فَاهْتَزَّ ، وَأَمَرَ لَهُ بِهَا وَبِمَثَلِهَا مَعَهَا ، فَقَالَ : أَمَّا هِيَ . . فَمَقْبُولَةٌ ؛ لِأَنَّهَا الْمَطْلَبُ ، وَأَمَّا الْبَاقِي . . فَلَا حَاجَةَ لِي فِيهِ ،
 وَلَيْسَ الَّذِي أَعْطَيْتَنِي بِأَفْضَلِ مَنْ الَّذِي أَعْطَيْتَكَ - يَعْنِي مَاءَ وَجْهِهِ - فَمَا كَانَ مِنَ الْأَمِيرِ إِلَّا أَنْ نَزَلَ عَنْ تَكْرِمَتِهِ ، وَأَقْعَدَ
 الْمَهْلَبَ عَلَيْهَا ، وَتَوَسَّلَ إِلَيْهِ بِضِرَاعَةٍ وَإِلْحَاحٍ أَنْ لَا يَرُدَّ عَطِيَّتَهُ ، وَأَنْ لَا يَقْمَأَهُ (٢) بَعْدَ قَبُولِهَا ، ففَعَلَ وَمَا كَادَ .

[مديح المتنبي لطاهر بن الحسين وجلس الممدوح بين يدي الشاعر]

وَلَا يَبْعُدُ عَنْهَا مَا كَانَ مِنْ طَاهِرِ بْنِ الْحُسَيْنِ ، فَإِنَّ النَّازِمَ امْتَدَحَهُ بِطَلَبِ مَنْ أَبِي مُحَمَّدِ بْنِ طُنْجِجٍ ، ثُمَّ رَكِبَ إِلَيْهِ هُوَ
 وَإِيَّاهُ ، فَنَزَلَ طَاهِرٌ عَنْ سَرِيرِهِ ، وَأَجْلَسَ النَّازِمَ عَلَى مَرْتَبَتِهِ ، ثُمَّ أَنْشَدَهُ الْقَصِيدَةَ الْمُسْتَهْلَةَ بِقَوْلِهِ [فِي الْمَكْبَرِيِّ] ،
 [مَنْ الطَّوِيل] : [١٤٧/١]

أَعِيدُوا صَبَاحِي فَهَوَ عِنْدَ الْكَوَاعِبِ [وَرُدُّوْا رُقَادِي فَهَوَ لَحْظُ الْحَبَايِبِ] (٣)

فَخَلَعَ عَلَيْهِ خِلْعًا نَفِيسَةً ، قَالَ بَعْضُ مَنْ حَضَرَ : مَا رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ أَنَّ شَاعِرًا جَلَسَ الْمَمْدُوحُ بَيْنَ يَدَيْهِ مُسْتَمْعًا
 لِمَدْحِهِ سِوَى مَا كَانَ مِنْ طَاهِرٍ مَعَ أَبِي الطَّيِّبِ .

[العفة في السؤال وحفظ ماء الوجه]

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ أَبِي تَمَّامٍ [فِي « دِيْوَانِهِ » ٢/٣٥٣] : [مَنْ الْبَسِيط]

مَا مَاءٌ كَفَّفَكَ إِنْ جَادَتْ وَإِنْ بَخَلَتْ مِنْ مَاءٍ وَجْهِي إِنْ أَفْنَيْتُهُ عِوَضُ (٤)

وَقَوْلُهُ [فِي « دِيْوَانِهِ » ١/١٦٢] : [مَنْ الْبَسِيط]

أَعْطَى وَنُظْفَهُ وَجْهِي فِي قَرَارَتِهَا تَصُونُهَا الْوَجَنَاتُ الْغَضَّةُ الْقُشْبُ (٥)

(١) مَرَّاجِيحُ : حِلْمَاءُ .

(٢) يَقْمَأُهُ : يُصْفِرُهُ .

(٣) الْكَوَاعِبُ : جَمْعُ كَاعِبٍ ، وَهِيَ الْجَارِيَةُ الَّتِي قَدْ عَلَا نَهْدُهَا .

(٤) مَاءُ الْوَجْهِ : زَوْقُهُ ؛ أَي : إِنَّ كِرَامَتِي أَعْظَمُ مِنْ أَخْلَاقِكَ فِي حَالَتِي الدَّفْعِ وَالْمَنْعِ .

(٥) النُّظْفَةُ : الْمَاءُ الْقَلِيلُ ، اسْتَعَارَهَا لِمَاءِ الْوَجْهِ . الْقَرَارَةُ : الْمَطْمِئِنُّ مِنَ الْأَرْضِ . الْغَضَّةُ : الطَّرِيَّةُ . الْقُشْبُ : الْبَيْضُ .

لَا يَكْرُمُ الظَّفَرُ الْمُعْطَى وَإِنْ حَصَلَتْ بِهِ الرِّغَائِبُ حَتَّى يَكْرُمَ الطَّلَبُ

[من الطويل]

وقال أبو عبادة [في «ديوانه» ٢٠٩٤/٤] :

وَمَا خَطَرِي دُونَ الْغِنَى إِنْ بَلَغْتُهُ سُؤَالًا وَلَا عِرْضِي نَظِيرُ الدَّرَاهِمِ

[من الطويل]

وقال مهيار [في «ديوانه» ٣٤٦/٣] :

تَنَفَّسْتُ عَنْ عَتَبِ فُؤَادِي مُفْصِحٌ بِهِ وَلِسَانِي لِلْحِفَاظِ يُجْمَعُ^(١)
وَفِي فِي مَاءٍ مِنْ بَقَايَا وَدَادِكُمْ كَثِيرًا بِهِ مِنْ مَاءٍ وَجْهِي أَرْقُتُمْ

[جابر عثرات الكرام]

ويُحَكِّي : أَنَّ بَعْضَ الكِرَامِ أَمَلَقَ فِي العَهْدِ الأُمَوِيِّ ، وَارْتَكَبَتْهُ الدِّيُونُ فَقَبِعَ فِي كِسْرِ بَيْتِهِ ، وَلَمْ يَشْعُرْ فِي إِحْدَى اللَّيَالِي إِلَّا بِطَارِقٍ يَقْرَعُ بَابَهُ ، وَفِي يَدِهِ خَمْسَةُ آلَافِ دِينَارٍ دَفَعَهَا إِلَيْهِ ، فَسَأَلَهُ عَنِ اسْمِهِ ، فَلَمْ يَزِدْهُ عَلَى أَنْ قَالَ لَهُ : أَنَا جَابِرُ عَثْرَاتِ الكِرَامِ ، فَقَضَى الرَّجُلُ دَيْنَهُ ، وَأَصْلَحَ شَأْنَهُ ، وَتَجَهَّزَ لِلوَفَادَةِ عَلَى الخَلِيفَةِ ، فَوَلَّاهُ تِلْكَ النَّاحِيَةَ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ سَلْفَهُ بِمَا عِنْدَهُ ، وَأَنْ يَنَاقِشَهُ الحِسَابَ ، فَسَدَّدَ المَعزُومُ مَا فِي جِرَائِدِهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ عَجَزَ عَنِ خَمْسَةِ آلَافِ دِينَارٍ ، فَأَوْدَعَهُ السَّجْنَ مِنْ أَجْلِهَا ، فَأَرَادَتْهُ امْرَأَتُهُ عَلَى أَنْ يَسْتَعْرِفَ لِلأَمِيرِ ، فَلَمْ يَرْضَ ، فَمَا كَانَ مِنْهَا إِلَّا أَنْ رَكِبَتْ إِلَيْهِ بَعْدَ هِدَاةٍ مِنَ اللَّيْلِ ، وَقَالَتْ لَهُ : تَدْرِي مَنْ فِي سَجْنِكَ ؟ قَالَ : فَلَانٌ ، قَالَتْ : إِنَّهُ لَفَلَانٌ ، وَإِنَّهُ لَجَابِرُ عَثْرَاتِ الكِرَامِ ، فَاضْطَرَبَ ، وَاسْتَرْجَعَ ، وَكَادَ أَنْ يُعْشَى عَلَيْهِ ، وَذَهَبَ مِنْ سَاعَتِهِ ، وَأَطْلَقَ وَثَاقَهُ بِيَدِهِ ، وَرَفَعَ قَدْرَهُ ، وَأَكْرَمَ مَثْوَاهُ ، وَطَالَعَ الخَلِيفَةَ بِالحَالِ ، فَاسْتَسْنَى^(٢) قِيمَتَهُمَا ، وَبَالَغَ فِي الإِنْعَامِ عَلَيْهِمَا ، وَأَبْقَى العَمَلَ شَرَكَةً بَيْنَهُمَا فِي تِلْكَ النَّاحِيَةِ ، فَعَاشَا أَرْغَدَ عَيْشٍ وَأَهْنَاهُ ، فَرَحِمَهُ اللهُ عَلَى أَهْلِ الجُودِ وَالوَفَاءِ ، وَأَتَى بِهِمُ الآنَ^(٣) !؟

كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الحُجُوجِ إِلَى الصَّفَا [أَنِيسٌ وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرٌ]^(٤)
غَاصَ الوَفَاءُ وَفَاضَ العَدْرُ وَانْفَرَجَتْ مَسَافَةُ الخُلْفِ بَيْنَ القَوْلِ وَالعَمَلِ^(٥)

[الخلف أفتح من البخل]

وقالوا : إِنَّ الخُلْفَ أَفْحُ مِنَ البُخْلِ ؛ لِاشْتِمَالِهِ عَلَى ثَلَاثٍ مِنَ المَذَامِّ : الكَذِبُ ، وَاللُّؤْمُ ، وَتَخْيِيبُ الأَمَلِ .

[من مجزوء الكامل]

وقال زياد الأعجم [في «شعره» ١٦١] :

لَهُ دَرَكٌ مِمَّنْ فَتَى لَوْ كُنْتَ تَفَعَّلَ مَا تَقُولُ

(١) الحفاظ : المنعة والإباء . يجمجم : لا يبيّن الكلام من غير عي .

(٢) استسنى - مأخوذ من السناء - : وهو الرفعة . وأسناه : رفع قيمته .

(٣) قال بهذا المعنى أحدهم :

وماتت معهم تلك الكرامات
لو أنصروا طيف ضيف في الكرى ماتوا

مات الرجال ومضوا وانقضوا
وخلفونسي في قوم ذوي بخل

وقال آخر :

فصخفه ضيفاً فمات من الذعر

رأى الصيف مكتوباً على باب داره

(٤) البيت من الطويل .

(٥) هذا البيت من «لامية العجم» وهو من البسيط .

لَا خَيْرَ فِي كَذِبِ الْجَوَا دِ وَحَبَّذَا كَذِبُ الْبَخِيلِ

[كيف كانت البطيخة ؟ ؟]

وَمِنْ أَقْبَحِ مَا ذَكَرُوا فِي الْمَنْ : أَنَّ رَجُلًا أَهْدَى بِطِيخَةً إِلَى الْأَعْمَشِ ، فَلَقَاهُ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي ، وَقَالَ لَهُ : كَيْفَ كَانَتْ
الْبَطِيخَةُ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ ؟! فَقَالَ : طَيِّبَةٌ ، فَأَعَادَ عَلَيْهِ الْقَوْلَ ثَانِيًا ، فَقَالَ لَهُ : إِنَّ كَفَفْتَ وَإِلَّا قَتَيْتُهَا .

[أبو الهذيل والدجاجة المهداة]

وَأَنَّ أَبَا الْهَذِيلِ أَهْدَى إِلَى أُسْتَاذِهِ لَهُ دِجَاجَةً ، فَجَعَلَهَا تَارِيخًا لِكُلِّ كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ مِنْ شَأْنِهِ ، فَيَقُولُ : جَاءَ الْأَمِيرُ يَوْمَ
أَهْدَيْتُ الدِّجَاجَةَ ، وَمَاتَ الْقَاضِي بَعْدَ إِهْدَاءِ الدِّجَاجَةِ بِعَشْرَةِ أَيَّامٍ ، وَهَكَذَا .

وما أحسن قولَ البُحْتَرِيِّ [في « ديوانه » ١/ ٥١٠] :

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُنَاكِدُ حَتَّى

إِنَّ فَنَاءَ مِنَ النَّسِيئَةِ نَقْدُهُ^(١)

وقولَ الناظمِ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ٢٣٦] :

وَتَعْضَبُونَ عَلَيَّ مَنْ نَالَ رِفْدَكُمْ

حَتَّى يُعَاقِبَهُ التَّنْغِيصُ وَالْمِنَنُ

وهو أحدُ معاني قولِهِ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ١٨٥] :

وَأَظْلَمَ أَهْلَ الظُّلْمِ مَنْ بَاتَ حَاسِدًا

لِمَنْ بَاتَ فِي مَعْرُوفِهِ يَتَقَلَّبُ

وقالَ شاعرُ (المَعْرَةَ) [في « سقط الزند » ١٥٧] :

وَدَعَّ أَنْسَاءً إِذَا أَجْدَوْا عَلَيَّ رَجُلٍ

رَنَوْا إِلَيْهِ بِعَيْنِ الْمُغْضَبِ الْحَنِقِ^(٢)

* * *

قالَ أَبُو الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّيُّ فِي « الْعُكْبَرِيِّ » ١/ ٣٠٨ :

أَصْبَحَ حُسَّادُهُ وَأَنْفُسُهُمْ
يُحْدِرُهَا خَوْفُهُ وَيُضْعِدُهَا

[صفات الخائف]

لَا يُنْكِرُ أَنْ سَخَرَ^(٣) الْخَائِفِ كُلَّمَا انْتَفَخَ . . تَصَعَّدَ النَّفْسُ ، وَكَلَّمَا خَلَا . . انْحَدَرَ ، وَمِنْ لَازِمِ الْانْتِفَاحِ الضَّغْطُ عَلَى
الْقَلْبِ ، حَتَّى رُبَّمَا بَلَغَ الْحَنْجَرَةَ ، كَمَا فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ^(٤) . وَأَصْلُ الْمَعْنَى مِنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « نُصِرْتُ
بِالرُّعْبِ »^(٥) .

(١) النسبَةُ : التَّأخِيرُ ، وَالذِّبْنُ الْمُؤَجَّلُ ، وَمِنْهُ قَوْلُ ابْنِ عَوْفٍ : مَا بَعَثَ نَسِيبَةً ، وَلَا احْتَقَرْتُ رَيْحًا .

(٢) أَجْدَوْا عَلَى رَجُلٍ : أَنْعَمُوا عَلَيْهِ ، مِنْ الْجِدَا ، وَهُوَ الْعَطَاءُ . رَنَا : أَدَامَ النَّظَرَ . الْحَنِقُ : الْحَاقِدُ .

(٣) السَّخَرُ : الرُّتَّةُ ، تَقُولُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : (قَبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ سَاحِرِي وَنَحْرِي) .

(٤) كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذْ رَأَيْتَ الْأَبْصَرَ وَبَلَغْتَ الْفُلُوبَ الْحَنَاجِرَ ﴾ [الأحزاب : ١٠] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْذَرْتَهُمْ يَوْمَ الْآرْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ ﴾

[غافر : ١٨] .

(٥) رَوَاهُ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الْبَخَارِيُّ (٣٣٥) ، وَفِي الْبَابِ : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَ مُسْلِمٍ (٥٢٣) .

[ماذا يعمل الخوف]

ولمَّا سُئِلَ أميرُ المؤمنينَ [عليٌّ رضي الله عنه] عَمَّا غرسَ لَهُ الهيبَةَ في القلوبِ . . قَالَ : (إِنِّي أَعْمَدُ إِلَى الجَبَانِ فَأَصْرَعُهُ ، ثُمَّ لَا أَثْنِي إِلَى الشُّجَاعِ إِلَّا وَقَدْ ذَهَبَ نَصْفُهُ) ، وَهُوَ فِي هَذَا هَاضِمٌ لِنَفْسِهِ ، وَإِلَّا . . فَلَا مَرُّ مِنْ فَوْقِ ذَلِكَ .

[صور من شجاعة الإمام علي عليه السلام]

ولمَّا ارتدَّ عمروُ بنُ معدي كربَ الزبيديُّ معَ مَنْ ارتدَّ مِنْ (مذحج) . . وَجَّهَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم خالداً بنَ سعيدِ بنِ العاصِ ، وخالداً بنَ الوليدِ ، وعليهم عليُّ ابنُ أبي طالبٍ ، فيروى أَنَّهُ لَمَّا بَلَغَ عَمْرًا قُرْبَ مَكَانِهِمْ . . أَقْبَلَ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ ، وَقَالَ : دعوني آتي هؤلاءِ القومِ ؛ فَإِنِّي لَمْ أُسَمِّ لِأَحَدٍ قَطُّ إِلَّا هَابَتِي ، فَلَمَّا دَنَا مِنْهُمْ . . قَالَ : أنا أبو ثورٍ ، أنا عمروُ بنُ معدي كربَ ، فابتدره عليٌّ وخالداً [رضي الله عنهما] ، كلاهما يقولُ لصاحبه : دعني وإيَّاهُ ، ويفديه بأبيه وأُمَّه ، فقال عمروُ عندَ ذلكَ : العربُ تفرغُ مِنِّي ، وأراني جزراً لهؤلاءِ ، فانصرفَ عنهمُ ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الإسلامِ^(١) .

وَمِنْ هَذَا أَخَذَ مَهْيَارُ الدَيْلَمِيُّ قَوْلَهُ [في « ديوانه » ٣٢/٤] :

وَإِذَا رَأَوْكَ تَفَرَّقَتْ أَرْوَاحُهُمْ فَكَأَنَّمَا عَرَفْتِكَ قَبْلَ الْأَعْيُنِ
فَإِذَا أَرَدْتَ بِأَنْ تَقُلَّ كَتَيْبَةٌ لَأَقْتَتَهَا فَتَسَمَّ فِيهَا وَآكْتَنَ

وفي الجزء الثالث (ص ١٢٨) مِنْ « شرح نهج البلاغة » : أَنَّهُمْ اجتمعوا بموضعٍ يقالُ لَهُ : (كَسْرٌ) فاقتتلوا هناك ، وصمد^(٢) عمروٌ لعليٍّ ، فعابنَ منه ما لَمْ يَحْتَسِبُهُ ، ففرَّ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ هَارِباً بِحِشَاشَةٍ نَفْسِهِ ، وَفَرَّ مَعَهُ رُؤْسَاءُ (مذحج) وفرسانُهُمْ ، وَغَنِمَ المسلمونَ أَمْوَالَهُمْ ، وَسُبِّتَ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ رِيحَانَةٌ أُخْتُ عَمْرٍو .
وقولُهُ : بموضعٍ يقالُ لَهُ : (كَسْرٌ) لَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ المرادُ بِهِ (كَسْرُ قُشَاقِشَ) الذي مِنْ قُرَاهُ الْآنَ (هَيْنَ) ؛ فَإِنَّ أَرْضَ (مذحج) لَيْسَتْ بِالْبَعِيدَةِ مِنْهُ ، إِذْ مِيَاهُهَا تَصُبُّ إِلَى (حَضْرَمَوْتِ) .

ويقربُ ذلكَ أَنَّ فِرْوَةَ بنَ مُسَيْكٍ المراديَّ كَانَ أَسَاءَ السَّيْرَةِ ، وَطَلَبَ المَدَدَ مِنْ رَسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وَلَنْ يَسْتَجِيبَهُ إِلَّا وَهُمْ الغَازُونَ ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ الحَالِ .

[خوف المحارب من الالام عند الفرزدق]

ثُمَّ ذَكَرْتُ أَنَّ الفِرْزَدِقَ سَبَقَ إِلَى المَعْنَى ؛ إِذْ يَقُولُ فِي رِثَاءِ مَخْلَدِ بنِ يَزِيدِ بنِ المَهْلَبِ [في « ديوانه » ١٩٣/١] : [من الطويل]

أَبُوكَ الَّذِي تُسْتَهْزَمُ الحَيْلُ بِأَسْمِهِ وَإِنْ كَانَ فِيهَا قِيدُ شِبْرٍ مُطَرِّدٍ^(٣)
وَقَدْ عَلِمُوا إِذْ شَدَّ حَقْوِيهِ أَنَّهُ هُوَ اللَّيْثُ لَيْثُ الغَابِ لَا بِالمُعْرَبِ^(٤)

(١) في « شرح نهج البلاغة » (١٢٠/١٢) قَرِيبٌ مِنْ هَذَا اللَّفْظِ ، وَلَكِنَّ الَّذِي يَنَاسِبُ مَوْضِعَنَا هُوَ مَا جَاءَ فِي « شرح نهج البلاغة » (٢٥٩/١٠) أَنَّ سَيِّدَنَا عَمْرَ بنَ الخَطَّابِ كَتَبَ إِلَى عَمْرٍو بنِ مَعْدِي كَرَبٍ - وَهُوَ شُجَاعٌ العَرَبِ الَّذِي تَضْرِبُ فِيهِ الأَمْثَالُ - فِي أَمْرٍ أَنْكَرَهُ عَلَيْهِ :

أَمَّا اللهُ : لئن أَمَتَ عَلِيٌّ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ . . لِأَبْعَثَنَّ إِلَيْكَ رَجُلًا تَسْتَصَفِرُ مَعَهُ نَفْسَكَ ، يَضَعُ سَيْفَهُ عَلَى هَامَتِكَ ، فَيُخْرِجُهُ مِنْ بَيْنِ فَخْدَيْكَ . فَقَالَ عَمْرٌو - لَمَّا وَقَفَ عَلَى الكِتَابِ - : هَدَّنِي بَعْلِي وَاللهِ .

(٢) صَمَدٌ لَهُ : بَيَّتَ لَهُ .

(٣) مُطَرِّدٌ : طَوِيلٌ تَامٌ . وَالْمَعْنَى : أَنَّهَا تَخَافُ مِنْ ذِكْرِ اسْمِهِ وَلَوْ كَانَ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ المَسَافَاتِ الشَّاسِعَةِ .

(٤) العَرَبِيُّدُ : هِيَ الحَبِيَّةُ الَّتِي تَنْفُخُ وَلَا تُؤَدِّي ، وَمِنْهُ اشْتَقَّ اسْمُ المُعْرَبِ : لِلرَّجُلِ السَّكِرِ الشَّرِيرِ . وَالْمَعْنَى : أَنَّ مَدَّوْحَهُ مَمَّنَّ إِذَا قَالُوا فَعَلُوا .

[في تكرار هذا المعنى عند المتنبي]

والمعنى الذي نحن فيه متكررٌ عند الناظم ، فمنه قوله [في « العُكْبَرِيُّ » ٢/ ٣٦٤] :

[من الخفيف]

طَاعِنُ الطَّعْنَةِ النَّسِي تُوذِعِرُ الْفَيْسَلَقَ بِالذُّعْرِ وَالذَّمَّ الْمُهْرَاقِ^(١)

[من الكامل]

وقوله [في « العُكْبَرِيُّ » ٣/ ٢٤٣] :

تَلَفُ الَّذِي اتَّخَذَ الْجِرَاءَةَ خُلَّةً وَعَظَ الَّذِي اتَّخَذَ الْفِرَارَ خَلِيلًا

[من الخفيف]

وقوله [في « العُكْبَرِيُّ » ٣/ ١٣٩] :

مَا مَضَوْا لَمْ يُقَاتِلُوكَ وَلَكِنَّ الْقِتَالَ الَّذِي كَفَاكَ الْقِتَالَ

[من الكامل]

وقوله [في « العُكْبَرِيُّ » ٣/ ٢٤٣] :

سَمِعَ ابْنُ عَمَّتِهِ بِهِ وَبِحَالِهِ فَجَبَّ يَهْزُولُ مِنْكَ أَمْسٍ مَهُولًا

[من الخفيف]

وقوله [في « العُكْبَرِيُّ » ٢/ ٣٦٦] :

بَعَثُوا الرُّعْبَ فِي قُلُوبِ الْأَعَادِي فَكَأَنَّ الْقِتَالَ قَبْلَ الْقِتَالِ

[من البسيط]

وقوله [في « العُكْبَرِيُّ » ٣/ ٣٦٥] :

قَدْ نَابَ عَنْكَ شَدِيدُ الْخَوْفِ وَاضْطَنَعَتْ لَكَ الْمَهَابَةُ مَا لَا تَصْنَعُ الْبُهْمُ^(٢)

[من الطويل]

وقوله [في « العُكْبَرِيُّ » ٣/ ٢٩٣] :

فَإِنْ تَكُ مِنْ بَعْدِ الْقِتَالِ أَتَيْنَا فَقَدْ هَزَمَ الْأَعْدَاءَ ذِكْرُكَ مِنْ قَبْلِ

[من الكامل]

وقوله [في « العُكْبَرِيُّ » ٣/ ٥٩] :

وَيُمِيتُ قَبْلَ قِتَالِهِ وَيَيْشُ قَبْلَ نَوَالِهِ وَيُنِيلُ قَبْلَ سُؤَالِهِ

[من الخفيف]

وقوله [في « العُكْبَرِيُّ » ٣/ ١٤١] :

أَبْصَرُوا الطَّعْنَ فِي الْقُلُوبِ دِرَاكًا قَبْلَ أَنْ يُبْصِرُوا الرَّمَّاحَ خَيْالًا

[من الخفيف]

وقوله [في « العُكْبَرِيُّ » ٣/ ١٩٨] :

فَهُمْ لَا تَقَائِهِ الدَّهْرَ فِي يَوْمٍ نِزَالٍ وَلَيْسَ يَوْمَ نِزَالٍ

[من الطويل]

وقوله [في « العُكْبَرِيُّ » ٣/ ١١٦] :

فَخَافُوكَ حَتَّى مَا لِقَتْلِ زِيَادَةَ وَجَاؤُوكَ حَتَّى مَا تَرَادُ السَّلَاسِلُ^(٣)

(١) الفيلقُ : هو الجيش .

(٢) الْبُهْمُ - جمعُ بُهْمَةٍ - : همُ الأبطالُ الذينَ تناهتْ شجاعتُهُمْ .

(٣) المعنى : أبدو من مخافتك ما يزيد على القتل ، وجاؤوك طائعين ، حتى إنك لا تحتاج في أمرهم إلى السلاسل .

وقوله [في «العُكْبَرِيَّ» ٤/٥٦] :

[من الطويل]

لَقَدْ حَالَ بَيْنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ سَيْفُهُ
وَأَزْهَبَ حَتَّى لَوْ تَأَمَّلَ دِرْعَهُ
فَمَا الظَّنُّ بَعْدَ الْجِنَّ بِالْعُرْبِ وَالْعُجْمِ
جَرَتْ جَزَعاً مِنْ غَيْرِ نَارٍ وَلَا فَحْمِ

وقوله [في «العُكْبَرِيَّ» ١/٣٦٢] :

[من الوافر]

وَلَكِنْ هَبَّ خَوْفَكَ فِي حَشَاهُمْ
هُبُوبَ الرِّيحِ فِي رِجْلِ الْجَرَادِ

وقوله [في «العُكْبَرِيَّ» ٣/١٧٠] :

[من البسيط]

فَقَدْ تَرَكْتَ الْأَلَى لِأَقْيَتِهِمْ جَزَراً
وَقَدْ قَتَلْتَ الْأَلَى لَمْ تَلْقَهُمْ وَجَلّاً^(١)

وقوله [في «العُكْبَرِيَّ» ٢/٢٥٧] :

[من الوافر]

إِذَا مَا لَمْ تُسِرْ جَيْشاً إِلَيْهِمْ
أَسَرْتَ إِلَى قُلُوبِهِمُ الْهُلُوعَا

والقصيدة التي مُسْتَهْلَأَهَا (أَرَاعَ كَذَا كُلَّ الْأَنَامِ هُمَامٌ) تدورُ حولَ هذا المعنى .

[جبن الأخطل وقصته مع الجحاف]

وذكرتُ به : أَنَّ الْأَخْطَلَ اسْتَفْزَهُ الْقَرْبُ مِنَ الْخَلِيفَةِ ، فَقَالَ لِلْجَحَافِ وَكَانَ حَاضِراً [في «ديوانه» ٤٢٦] :

[من الطويل]

أَلَا سَائِلِ الْجَحَافِ هَلْ هُوَ نَائِرٌ
بِقَتْلِي أُصِيبَتْ مِنْ سُلَيْمٍ وَعَامِرٍ؟^(٢)

[من الطويل]

فقال الجحاف :

بَلَى سَوْفَ نُبَكِّهِمْ بِكُلِّ مُهَنَّدٍ
وَنُبَكِّي عُمَيْراً بِالرَّمَاكِ الشَّوَاكِرِ

فانخزل الأخطل ، وكأتما كان في نشوة فأفاق ، وأخذته الحمى من الفرق ، فقال له عبد الملك : ماذا عليك وأنت في جواربي ؟ قال : هَبَكَ أَجْرَتِي فِي الْبِقِظَةِ ، فَمَنْ يُجِيرُنِي مِنْهُ فِي الْمَنَامِ ؟ وَكَانَ عَارِفاً بِشِدَّةِ بَأْسِهِ ، وَأَصَابَهُ قَلْقٌ أَقْضَى مَضْجَعَهُ ، وَنَغَّصَ عَيْشَهُ ، حَتَّى أَوْقَعَ الْجَحَافُ وَقَعَتَهُ الْمَشْهُورَةَ بِبَنِي تَغْلِبِ رَهْطِ الْأَخْطَلِ ، فَقَالَ الْأَخْطَلُ [في «ديوانه» ٢٧٢] :

[من الطويل]

لَقَدْ أَوْقَعَ الْجَحَافُ بِالْبِشْرِ وَقَعَةً
لِئِنْ لَمْ تَغْيِرْهَا قُرَيْشٌ بِمِثْلِهَا
إِلَى اللَّهِ مِنْهَا الْمُشْتَكَى وَالْمُعَوَّلُ^(٣)
يَكُنْ عَنْ قُرَيْشٍ مُسْتَمَارٌ وَمَرْحَلُ^(٤)

قال عبد الملك : إلی آینِ اِذْنِ ؟ قال الأخطل : إلی النَّارِ ، قال عبد الملك : أولی لك ، أما والله لو قلت غيرها . . . لم تطرف عيناك^(٥) .

(١) الْجَزَرُ : ما ألقى للسياح ، ويقال : (ما كانوا إلا جزراً لسبوننا) أي : الذين نقتلهم فنلقاهم للسياح .

(٢) الْجَحَافُ : من السُّلَمِيِّينَ أَعْدَاءُ بَنِي تَغْلِبِ ، ولهُ يَوْمُ الْبِشْرِ الَّذِي أَوْقَعَ بِالْتغْلِبِيِّينَ شَرًّا وَقَعَةً .

(٣) الْمُعَوَّلُ : الاعتمادُ والمَفْرَعُ .

(٤) مُسْتَمَارٌ : مِنْ (ماز) رَحَلَ وَانْتَقَلَ مِنْ مَكَانٍ إِلَى آخَرَ .

(٥) تنظر القصة في «الأغاني» (١٢ / ٢٤٠) .

وقولُ الأخطلِ إلى النَّارِ عكسُ قولِ النَّابِغَةِ الجعديِّ إلى الجنَّةِ ، حينَ قالَ [في « ديوانه » ٧١] :

بَلَّغْنَا السَّمَاءَ مَجْدُنَا وَجُدُودُنَا وَإِنَّا لَنَبْغِي فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرَا

فقالَ له رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « إلى أين يا أبا ليلي ؟ » قالَ : إلى الجنَّةِ ، قالَ له النبيُّ [صلى الله عليه وسلم] : « فَنَعَمْ إِذَا »^(١) ، وهذا من قصيدة له منقحة اللفظ ، جزلة المعاني إلا أنَّها تداخلت مع قصيدة لزفر بن الحارث في

بحرهما وقافيتها ، وأولها [في « ديوان النَّابِغَةِ الجعدي » ٨٧] :

تَذَكَّرْتُ وَالذُّكْرَى تَهَيَّجُ لِلْفَتَى وَإِنِّي لِأَسْتَشْفِي بِرُؤْيَةِ جَارِهَا
وَمِنْ عَادَةِ الْمَحْزُونِ أَنْ يَتَذَكَّرَا إِذَا مَا تَلَقَّيْهَا عَلَيَّ تَعَدَّرَا

منها :

حَسِبْنَا زَمَانًا كُلَّ بَيْضَاءِ شَحْمَةٍ إِلَى أَنْ لَقِينَا الْحَيَّ بِكُرْبَنٍ وَإِئِلٍ فَلَمَّا قَرَعْنَا النَّبْعَ بِالنَّبْعِ بَعْضُهُ سَقَيْنَاهُمْ كَأْسًا سَقُونَا بِمِثْلِهَا بِنَفْسِي بِأَهْلِي عَضْبَةَ سَلْمِيَّةَ وَنُكِرُ يَوْمَ الرَّوْعِ أَلْوَانَ خَيْلِنَا وَقَالُوا لَنَا : أَحْيُوا لَنَا مَنْ قَتَلْتُمْ وَلَسْنَا نَرُدُّ الرَّوْحَ فِي جِسْمِ مَيِّتٍ مَلَكْنَا فَلَمْ نَكْشِفْ قِنَاعًا لِحِرَّةٍ وَلَوْ أَنَّنَا شِئْنَا سِوَى ذَلِكَ أَصْبَحَتْ

لِيَالِي إِذْ نَغْزُو جُدَامًا وَحَمِيرَا ثَمَانُونَ أَلْفًا دَارِعِينَ وَحُسْرَا بِيَعُضِ أَبْتِ عِيدَانُهُ أَنْ تَكْسُرَا وَلَكِنَّا كُنَّا عَلَى الْمَوْتِ أَصْبِرَا يُعِدُّونَ لِلْهَيْجَا عَنَاجِيحَ ضَمَّرَا^(٢) مِنْ الطَّعْنِ حَتَّى نَحْسَبُ الْجُونَ أَشْقَرَا^(٣) لَقَدْ جِئْتُمْ أَمْرًا مِنَ الْقَوْلِ مُنْكَرَا وَلَكِنْ نَسَلُ الرَّوْحَ مِمَّنْ تَنْشَرَا وَلَمْ نَسْتَلِبْ إِلَّا الْحَدِيدَ الْمُسَمَّرَا كَرَائِمُهُمْ فِينَا تَبَاعٌ وَتُشْتَرَى

منها :

وَلَا خَيْرَ فِي حِلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ وَلَا خَيْرَ فِي جَهْلِ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ
أَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ إِذْ جَاءَ بِالْهُدَى

فيروى [في « مجمع الزوائد » ١٢٦/٨] : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُ : « لَا يَفْضُضُ اللَّهُ فَاكًا » . فعاش مئة وستين سنة ، لم يُنْعَزْ لَهُ سِنٌ^(٤) .

(١) أورد الخبر بنحوه عن النَّابِغَةِ الهَيْمِيَّةِ فِي « مَجْمَعِ الزَّوَادِ » (١٢٦/٨) وَقَالَ : رَوَاهُ الْبَزَارُ وَفِيهِ يعلَى بن الأَشْدُقِ وَهُوَ ضَعِيفٌ . وَلَفْظُهُ عِنْدَهُ :

عَلُونَا الْعِبَادَ عَفَاةً وَتَكْرَمَا وَإِنَّا لَنَرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرَا

(٢) سَلْمِيَّةٌ : مِنْ بَنِي سَلَمٍ . الْعَنَاجِيحُ : جَمْعُ عَنَجُوجٍ ، وَهُوَ الرَّائِعُ مِنَ الْخَيْلِ . الْخَيْلُ الضَّمْرُ : الَّتِي ضَمَّرَ بَطْنُهَا ، وَهِيَ مِنْ أَسْرَعِ أَنْوَاعِ الْخَيْلِ .

(٣) الْجُونَ هُنَا : الْأَسْوَدُ .

(٤) لَمْ يُنْعَزْ : لَمْ يَكْسُرْ ، أَوْ لَمْ يَسْقُطْ .

[الجبن حتى في النوم]

وما أظنُّ أشجعَ السلميِّ إلا ناظراً إلى ما جرى للأخطلِ مِنَ الجَحَافِ ، حيثُ يقولُ للرشيديِّ مِنْ كَلِمَةٍ لَهُ خَالِصَةٌ [في ديوانه « ٢٥٣ »] :

وَعَلَى عَدُوِّكَ يَا ابْنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ رَصْدَانَ ضَوْءِ الصُّبْحِ وَالْإِظْلَامِ
فَإِذَا تَبَّبَهُ رُعْتَهُ وَإِذَا غَفَا سَلَّتْ عَلَيْهِ سِيُوفُكَ الْأَحْلَامِ

[المتنبي وهذا المعنى]

وَلَمْ يَنْسَ حَظَّهُ النَّاظِمُ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى إِلَّا أَنَّهُ يَغْتُ تَارَةً كَمَا فِي قَوْلِهِ [في « المُكَبَّرِيَّ » ٣٦٤/١] :

[من الوافر]

يَرَى فِي النَّوْمِ رُمُوحَكَ فِي كِلَاهُ وَيَخْشَى أَنْ يَرَاهُ فِي الشَّهَادِ

[من البسيط]

ويجيدُ أخرى كما في قَوْلِهِ [في « المُكَبَّرِيَّ » ٤٤٤/٤] :

مَنْ لَوْ رَأَى مَاءَ مَاتٍ مِنْ ظَمَأٍ وَلَوْ مَثَلْتُ لَهُ فِي النَّوْمِ لَمْ يَنْمِ

[من الوافر]

وقوله [في « المُكَبَّرِيَّ » ٤٤٥/٤] :

إِذَا امْتَلَأَتْ عُيُونُ الْخَيْلِ مِنِّي فَوَيْلٌ فِي التِّيَقُّظِ وَالْمَنَامِ

[من البسيط]

وقوله [في « المُكَبَّرِيَّ » ٢٢٩/٢] :

يُقَاتِلُ الْخَطُوءَ عَنْهُ حِينَ يَطْلُبُهُ وَيَطْرُدُ النَّوْمَ عَنْهُ حِينَ يَضْطَجِعُ

[من البسيط]

وقوله [في « المُكَبَّرِيَّ » ٨٣/٣] :

وَكُلَّمَا حَلَمْتُ عَذْرَاءَ عِنْدَهُمْ فَإِنَّمَا حَلَمْتُ بِالسَّبِيِّ وَالْجَمَلِ^(١)

[من البسيط]

وقال السريُّ الرَّفَاءُ [في « ديوانه » ٢٤٥] :

تَرُوعُ أَحْشَاؤُهُ بِالْكُتْبِ وَهُوَ لَهَا خَوْفَ الرَّدَى وَرَجَاءَ السُّلْمِ يَسْتَلِمُ
لَا يَشْرَبُ الْمَاءَ إِلَّا غَصًّا مِنْ حَذَرٍ وَلَا يَهَيِّئُ لَهَا رَاعَهُ الْحُلْمُ

[المعري في الموضوع]

[من البسيط]

وَأَلَّمَ بِهِ شَاعِرُ الْمَعْرَةِ إِلَّا أَنَّهُ غَيَّرَ الْمَوْضُوعَ ، فَقَالَ [في « سقط الزند » ١١١] :

وَأَنْتَ مَنْ لَوْ رَأَى الْإِنْسَانَ طَلَعْتَهُ فِي النَّوْمِ لَمْ يُمَسِّ مِنْ خَطْبٍ عَلَى خَطْرِ

[أبو الهيثم ورثاؤه لأخيه]

[من الطويل]

وقتلَ الرشيديُّ أخاً لأبي الهيثم ، فجاءَ في رثيهِ بما يشبهُ قولَ الجَحَافِ إذ يقولُ :

سَأَبْكِيكَ بِالْبَيْضِ الرَّقَاقِ وَبِالْقَنَا فَإِنَّ بِهَا مَا يَطْلُبُ الْمَاجِدُ الْوَتْرَا
وَلَسْتُ كَمَنْ يَبْكِي أَخَاهُ بِعَبْرَةٍ يُعَصِّرُهَا فِي جَفْنِ مُقْلَتِهِ عَصْرَا

(١) ذكرَ الجملَ مع السبي ؛ لأنَّ العربَ تحمِلُ السبايا على الجمالِ .

وَإِنَّا أَنَاسٌ مَّا تَفِيضُ عُيُونُنَا عَلَى هَالِكٍ مِنَّا وَإِنْ قَصَمَ الظُّهْرَا
وَلَكِنَّا نَشْفِي الْفُؤَادَ بِغَارَةٍ تَلَهَّبُ مِنْ قُطْرِي جَوَانِبَهَا جَمْرَا

[عبد الله بن أبي ربيعة ورتاؤه لعثمان بن عفان رضي الله عنه]

وقبل ذلك يقول عبدُ الله ابنُ أبي ربيعة أخو عيَّاشٍ عندما بلغه مقتلُ عثمان [ابن عفان رضي الله عنه] :

[من الطويل]

سَابِكِي أَبَا عَمْرٍو بِكُلِّ مُهَنَّدٍ وَيَبِيضِ [لَهَا فِي الدَّارِ عَيْنَ فُلُولِ]

ثُمَّ لَمْ يَزِدْ عَلَيَّ أَنْ خَرَجَ بَمَنْ مَعَهُ فَلَمَّا قَرَبَ مِنْ (مَكَّةَ) . . سَقَطَ عَنْ رَاحِلَتِهِ وَمَاتَ .

[عبد الملك بن مروان ينهى ولده عن البكاء]

ومما قاله عبدُ الملك بنُ مروان - عند موتِه - للوليد ، وقد رآه يبكي عند رأسِه ، يشجُّعُه ، وينهاه عن البكاء ، وحينئذِ

[من الطويل]

النساء لنفسه أو متمثلاً :

بُئِيَ الْحَرْبِ لَا تُعْنَى بِشَيْءٍ نُرِيدُهُ وَلَسْنَا عَلَيَّ مَّا أَحَدَتْ الدَّهْرُ نَجْزِعُ
جِلَادٌ عَلَيَّ رَيْبِ الزَّمَانِ فَلَنْ تَرَى عَلَيَّ هَالِكٍ عَيْنًا لَنَا الدَّهْرُ تَدْمَعُ

[هيبه سيدنا ابن عباس من سيدنا عمر رضي الله عنهم]

وكان ابنُ الخطَّابِ عظيمَ الهيبة ، ولهذا لم يقدر ابنُ عباسٍ عليَّ إظهارِ قولِه في العولِ حتَّى ماتَ ، فقيلَ له : هلاًّ قلتَ هذا في حياةِ عمرَ ؟ قالَ : (هَيْبَتُهُ ، وَكَانَ أَمْرًا مَهِيْبًا)^(١) .

[من هيبه سيدنا عمر رضي الله عنه تضع المرأة حملها]

ويروى : أَنَّهُ اسْتَدْعَى امْرَأَةً لِيَسْأَلَهَا عَنْ أَمْرِ ، وَكَانَتْ حَامِلًا ، فَلشَدَّةِ هَيْبَتِهِ أَلْقَتْ مَا فِي بَطْنِهَا مَيْتًا ، فَاسْتَفْتَى أَكَابِرَ الصَّحَابَةِ ، فَقَالُوا : لَا شَيْءَ عَلَيْكَ ، قَالَ لَهُ عَلِيٌّ : إِنْ كَانُوا رَاقِبُوكَ فَقَدْ غَشُوكَ ، وَإِنْ كَانَ هَذَا جُهْدَ رَأْيِهِمْ فَقَدْ أَخْطَؤُوا ، عَلَيْكَ غُرَّةٌ^(٢) ، فَرَجَعَ عَمْرٌو وَالصَّحَابَةُ إِلَى قَوْلِهِ^(٣) .

[نهي النساء عن رفع الصوت]

وَمِنْ ذَلِكَ سَكَوْتُ النِّسَاءِ لَمَّا دَخَلَ ، وَأَصْوَاتُهُنَّ عَالِيَةٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ لَهُنَّ : (يَا عَدَوَاتِ أَنْفُسِهِنَّ ، أَنْهَبْنِي ، وَلَا تَهَبْنِ رَسُولَ اللَّهِ ؟ قُلْنَ : أَنْتِ أَفْظُ وَأَعْلَطُ)^(٤) .

[الاستهزاء بالجبان عندما يهدد]

وفي عكسٍ معنى البيتِ الذي نتكلَّمُ فيه ، يقولُ جريرٌ [في « ديوانه » ٩١٦] :

[من الكامل]

زَعَمَ الْفَرَزْدَقُ أَنْ سَيَقْتُلُ مَرْبَعًا أَبْشِرْ بِطُولِ سَلَامَةٍ يَا مَرْبَعٌ^(٥)

(١) أخرجه البيهقي في « الكبرى » (٢٥٣/٦) ، وابن حزم في « المحلى » (٤٦٣/٩) ، وعبد الرزاق في « المصنف » (٢٥٤/١٠ و ٢٥٨) والعول : زيادة في سهام المسألة ونقص في مقاديرها .

(٢) الغُرَّةُ : دبة الجنين ؛ وهي عبد أو أمة ، وتقدرُ بنصفِ عشرِ الديةِ الكاملةِ ، والديةُ الكاملةُ : مئةٌ مِنَ الإبلِ .

(٣) أخرجه البيهقي في « الكبرى » (١٢٣/٦) .

(٤) أخرجه عن سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه البخاري (٣٢٩٤) في بدء الخلق .

(٥) مَرْبَعٌ : لقبُ راويةِ جريرِ المسمَّى (وَغَوْعَةٌ) ، وهو من بني أبي بكر بن كلاب ، وكان نَفَرًا بِأبي الفرزدقِ وضربهُ ، فيقالُ : إِنَّهُ مَاتَ فِي تِلْكَ الْعِلَّةِ ، فحلفَ الفرزدقُ ليقْتلَهُ .

وقال غيره :

[من الوافر]

تَوْعَّدَنِي لِتَقْتُلَنِي نُمَيْرٌ مَتَى قَتَلْتَ نُمَيْرٌ مَن هَجَاها ؟

[من البسيط]

وقال :

قَدْ هَبَّتِ الرِّيحُ طُولَ الدَّهْرِ وَاخْتَلَفَتْ عَلَى الجِبَالِ فَمَا نَالَتْ رَوَاسِيهَا

[من الكامل]

وقال ابن أبي عيينة :

فَدَعَ الوَعِيدَ فَمَا وَعِيدُكَ ضَائِرِي أَطِينُ أَجْنَحَةِ الذُّبَابِ يَضِيرُ ؟

[شجاعة بني عبد المطلب]

وكتب معاوية إلى عليّ يتهدّده ، فأجابهُ بما معناه - إن أخطأت لفظه - [في « نهج البلاغة » ٣٣٣] : وذكرت أنّه ليس لي ولأصحابي عندك إلاّ السيف ، فلقد أضحكت بعد استعمار^(١) ، متى ألفت بني عبد المطلب عن الهيجا ناكليين ، وبالسيوف مخوفين ، لبث قليلاً يلحق الهيجا حمل^(٢) ، وأنا مُرْقَل^(٣) نحوك في جحفل من المهاجرين والأنصار ، قد صحبتهم ذريّة بدريّة ، وسيوف هاشميّة ، عرفت مواقع نصالها في أخيك وخالك وجدك ، وما هي من الظالمين بعيدي .

[قصة امرئ القيس مع قتلة أبيه]

ولمّا أكثر امرؤ القيس الوعيد في قتل أبيه . . قدّم عليه قبيصة بن نعيم في أشياخ بني أسد ، يراجعونه في خطب أبيه ، فقال قبيصة [في « جمهرة خطب العرب » ٣٦/١ و « الأغاني » ١٢٤/٩] :

أمّا بعدُ : فإنّك من المحلّ والقدر والمعرفة بتصاريف الدهر بحيث لا تحتاج إلى تذكير مذكّر ، ولا تبصير مجرّب ، ولك من سوّد من نصيبك وشرف أعراقك وكرم أصلك . . مَحْتَد^(٤) يَحْمِلُ عَلَى إِقَالَةِ العِثْرَةِ ، وَاغْتِفَارِ الزَّلَّةِ ، وَإِنَّ الهمَمَ لا تتجاوز إلى غاية إلاّ رجعت إليك ، فوجدت عندك من فضيلة الرأي ، وبصيرة الفهم ، وكرم الصّبح ، ما يطوّل رغباتها ، وقد كان ما كان من الخطب الجليل ، الذي عمّت مصيبتُهُ العرب ، ولم تُخصَّ به (كندة) دوننا ؛ للشرف البارع كان لحجر ، ولو يُفدى هالك بنفس . . لَمَا بَخَلَتْ بِهَا كَرَامَتُنَا عَلَى مثله ، ولكن مضى به سبيل لا يرجع آخره على أوّله ، وأحمدُ الحالات أن تطلبنا في إحدى ثلاث خلال :

إمّا : أن تختار من بني أسد أشرفها بيتاً ، وأبعدها صيتاً ، فقدناه إليك بنسعة^(٥) ، يذهب مع شفات حسامك ، ونقول : عظيمٌ امتحن بمهلك عزيز له ، فلم تُستلَّ سخيمته صدره إلاّ بمكنته من الانتقام .

وإمّا : فداء بما يروح على بني أسد من نعمها ، فهي ألوف تكون فداءً ، رجعت به القضب إلى أجفانها .

(١) الاستعمار : البكاء .

(٢) لبث قليلاً يلحق الهيجا حمل : مثل عربي ؛ يعني : انتظر حتى يتلاحق الشبان ، والهيجاء : الحرب ، وحمل : قال في « التاج » : هو ابن سعادة الصحابي ، وفي « المحكم » : هو ابن بدر . قلت : وفيه نظر . اهـ كلام الزبيدي رحمه الله .

(٣) مُرْقَل ، يقال : أرقل القوم إلى الحرب أسرعوا .

(٤) المحتد : الأصل والطبع .

(٥) النسع : جبل يُضمر على هيئة أعة النعال تُشدُّ به الرحال .

وإِنَّمَا : أَنْ تَوَادِعَنَا إِلَى أَنْ تَضَعَ الْحَوَامِلُ ، وَتُسَدَّلَ الْأُزُرُ ، وَتُعَقَّدَ الْخُمُرُ فَوْقَ الرِّيَاطِ .

فَمَا كَانَ مِنْ أَمْرٍ الْقَيْسِ إِلَّا أَنْ أَطْرَقَ سَاعَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ ، وَقَالَ : لَقَدْ عَلِمَتِ الْعَرَبُ أَنْ لَا كَفْوَ لِحُجْرٍ بِدَمٍ ، وَأَنْتِي لَنْ أَعْتَاضَ بِهِ جَمَلًا ، وَلَا نَاقَةً ، فَأَكْتَسَبَ بِهِ سَبَّ الْأَبْدِيدِ ، وَفَتَّ الْعَضْدِ . وَأَمَّا النِّظْرَةُ : فَقَدْ أَوْجَبَتْهَا الْأَجْنَةُ فِي بَطُونِ الْأُمَهَاتِ ، وَلَنْ أَكُونَ سَبِيًّا لِعَظْبِهَا ، وَسَتَعْرِفُونَ طَلَائِعَ (كُنْدَةَ) بَعْدَ ذَلِكَ ، تَحْمَلُ فِي الْقُلُوبِ حَقَقًا ، وَفِي الْأَسِنَّةِ عَلَقًا :

[مَنْ الْمُتَقَارِبِ]

إِذَا جَاءَتِ الْحَرْبُ فِي مَازِقٍ تَصَافِحُ فِيهِ الْمَنَائِبُ التُّفُوسَا

أَتَقِيمُونَ أَمْ تَتَصَرَّفُونَ ؟ قَالُوا : بَلْ نَنْصَرِفُ بِأَسْوَأِ الْاِخْتِيَارِ ، وَأَبْلَى الْاجْتِرَارِ بِمَكْرُوهِهِ وَأَذْيَةِ ، وَحَرْبِ وَبَلِيَّةِ ، وَقَالَ نَبِيصَةُ يَتِمُّثَلُ :

[مَنْ الطَّوِيلِ]

لَعَلَّكَ إِنْ تَسْتَوْخِمِ الْوِرْدَ إِنْ عَدَّتْ كَتَائِبُنَا فِي مَازِقِ الْحَرْبِ تَمْطُرُ

فَقَالَ امْرُؤُ الْقَيْسِ : لَا وَاللَّهِ ، وَلَكِنْ أَسْتَعِذُّهُ ، فَرُويداً يَنْفِرُ لَكَ دُجَاهَا عَنْ فِرْسَانِ (كُنْدَةَ) وَكَتَائِبِ (حِمِيرِ) ، وَلَقَدْ كَانَ غَيْرُ هَذَا أَوْلَى بِي ؛ إِذْ كُنْتُ نَازِلًا بِرَبْعِي ، وَلَكِنَّكَ قُلْتَ فَأَوْجِبْتَ .

[تَعْلِيقُ الْمُؤَلِّفِ عَلَى الْقِصَّةِ]

وَفِي هَذَا الْكَلَامِ مِنَ الْجَزَالَةِ وَالْعَذُوبَةِ مَا يَأْخُذُ بِمَجَامِعِ الْقُلُوبِ إِلَى مَا يُشْفَى عَنْهُ مِنَ السُّؤْدِ الضَّخْمِ ، وَالكَرَمِ الْخَالِصِ ، وَالشَّمَائِلِ الرَّاقِيَةِ ، وَالْهَمَمِ الْعَالِيَةِ ، وَالنَّفُوسِ الْقَوِيَّةِ ، وَاحْتِرَامِ الْأَرْوَاحِ الْبَرِيئَةِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ .

[تَعْلِيقُ الْمُؤَلِّفِ عَلَى الْعَكْبَرِيِّ فِي شَرْحِ الْمَطْلَعِ]

وَمِنْ الْأَعَاجِبِ قَوْلُ الشَّارِحِ : إِنَّ الْبَيْتَ الَّذِي نَحْنُ بِسَبِيلِهِ شَبِيهُ بِقَوْلِهِ « فِي الْمَكْبَرِيِّ » ١ / ٣٣٥ :

[مَنْ الْكَامِلِ]

أَبْدَى الْعِدَاةِ بِكَ الشُّرُورَ كَأَنَّهُمْ فَرِحُوا وَعِنْدَهُمُ الْمُقِيمُ الْمُقْعِدُ

وَمَا هُوَ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ إِلَّا لَوْ أَرَادَ الْمُقِيمُ الْمُقْعِدُ مِنَ الْخَوْفِ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ الْمُقِيمُ الْمُقْعِدُ مِنَ الْحَزَنِ ؛ كَمَا تَشْهَدُ بِهِ فَحْوَى الطَّبَاقِ ، فَهُوَ مِنْ جَنْسِ قَوْلِ سُوَيْدِ بْنِ أَبِي كَاهِلٍ :

[مَنْ الرَّمْلِ]

وَيُحَيِّنُنِي إِذَا لَاقَيْتُهُ وَإِذَا يَخْلُوْ لَهُ لَحْمِي رَتَعُ

وَقَوْلِ سَدِيدِ :

ذُلُّهَا أَظْهَرَ التَّوَدُّدَ مِنْهَا وَبِهَا مِنْكُمْ كَحَزْنِ الْمَوَاسِي

وَقَوْلِ الْمُعَرِّيِّ « فِي سَقَطِ الزُّنْدِ » ١ / ٢٣٤ :

[مَنْ الْوَاوِرِ]

وَيُظْهِرُ لِي مَوَدَّتَهُ مَقَالًا وَيُبْغِضُنِي ضَمِيرًا وَاعْتَقَادًا

وَقَوْلِ النَّازِمِ « فِي الْمَكْبَرِيِّ » ١ / ٣٦٤-٣٦٣ :

[مَنْ الْوَاوِرِ]

فَلَا تَغْرُزُكَ أَلْسِنَةُ مَوَالٍ تُقْلِبُهُنَّ أَفْتِدَةَ أَعْيَادِي

فَإِنَّ الْمَاءَ يَجْرِي مِنْ جَمَادٍ وَإِنَّ النَّارَ تَخْرُجُ مِنْ زِنَادٍ

* * *

قَدْ أَجْمَعْتَ هَذِهِ الْخَلِيقَةَ لِي وَأَنْتَ بِالْأَمْسِ كُنْتَ مُحْتَمِلًا
أَنْتَ يَا ابْنَ النَّبِيِّ أَوْحَدَهَا شَيْخَ مَعَدٍّ وَأَنْتَ أَمْرُدَهَا

[ادعاء التفرد للممدوح عند المتنبّي]

أما البيت الأول : فقلماً تجدُ شاعراً إلاّ يدّعي لممدوحه التفرّد ، ومنه قوله لشجاع بن محمّد الطائيّ [في « العُكْبَرِيّ »
: [٣٣٦/١] [من الكامل]

كُنْ حَيْثُ شِئْتَ تَسِرْ إِلَيْكَ رِكَابُنَا فَالْأَرْضُ وَاحِدَةٌ وَأَنْتَ الْأَوْحَدُ

وقوله له [في « العُكْبَرِيّ » ٣ / ١٨٤] :

إِلَىٰ وَاحِدِ الدُّنْيَا إِلَىٰ ابْنِ مُحَمَّدٍ شُجَاعِ الَّذِي لَهِ لَكَ الْفَضْلُ

وقوله لبدر بن عمّار [في « العُكْبَرِيّ » ١ / ٣٧٢] :

فَأَنْتَ وَحِيدٌ بَنِي آدَمِ وَلَسْتَ لِفَقْدِ نَظِيرٍ وَحِيدًا

وقوله لعبيد الله بن يحيى [في « العُكْبَرِيّ » ٢ / ٣٧٩] :

فَكُنْ كَمَا أَنْتَ يَا مَنْ لَا شَبِيهَ لَهُ وَثَنَائِي فَاسْتَجْمَعْتَ أَحَادَهُ

وقوله لابن العميد [في « العُكْبَرِيّ » ٢ / ٥١] :

جَمَعَ الدَّهْرُ حَدَّهُ وَبَدَيْهِ أَنْتَ الْوَحِيدُ إِذَا ازْتَكَبْتَ طَرِيقَهُ

وقوله له [في « العُكْبَرِيّ » ٢ / ١٦٧] :

وَمَنْ الرَّدِيفُ إِذَا رَكِبْتَ غَضَنْفَرًا؟ وَلَيْسَ بِقَاضٍ أَنْ يُرَىٰ لَكَ ثَانِي

وقوله لكافور [في « العُكْبَرِيّ » ٤ / ٢٤٦] :

قَضَىٰ اللَّهُ يَا كَافُورُ أَنَّكَ أَوْلُ وَمَا زَالَ أَهْلُ الدَّهْرِ يَشْتَبِهُونَ لِي

وقوله له [في « العُكْبَرِيّ » ٢ / ٢٧] :

إِلَيْكَ فَلَمَّا لُحْتَ لِي لَاحَ فَرَدُّهُ وَجَرَى الخُلْفُ إِلَّا فِيكَ أَنْتَ وَاحِدٌ

وقوله له [في « العُكْبَرِيّ » ١ / ١٩٩] :

وَأَنْتَ لَيْتُ وَالْمَلُوكُ ذَتَابُ

وقوله لابن كيعلغ [في «العكبري» ٢/١٢١-١٢٢] :

[من البسيط]

مَنْ قَالَ لَسْتَ بِخَيْرِ النَّاسِ كُلِّهِمْ
أَوْ شَكَ أَنْكَ فَرَدُّ فِي زَمَانِهِمْ
فَجَهْلُهُ بِكَ عِنْدَ النَّاسِ عَازِزُهُ^(١)
بِلَا نَظِيرٍ فَنِي رُوحِي أَحَاطِرُهُ

وقوله في عضد الدولة [في «العكبري» ٤/٢٥٦] :

[من الوافر]

فَإِنَّ النَّاسَ وَالذُّنْيَا طَرِيقٌ
إِلَى مَنْ مَالَهُ فِي النَّاسِ ثَانِي

[من الطويل]

وقوله في يوم الأضحى لسيف الدولة [في «العكبري» ١/٢٨٦] :

فَذَا الْيَوْمِ فِي الْأَيَّامِ مِثْلَكَ فِي الْوَرَى
كَمَا كُنْتَ فِيهِمْ أَوْحَاداً كَانَ أَوْحَاداً

[من الكامل]

وقوله له [في «العكبري» ٤/١١] :

وَإِذَا امْتَحَنْتَ تَكَشَّفَتْ عَزَمَاتُهُ
عَنْ أَوْحَدِي النَّقْضِ وَالْإِبْرَامِ

[من الطويل]

وقوله له في رثاء ولده [في «العكبري» ٣/٥٠] :

وَيَلْقَى كَمَا تَلَقَى مِنَ السَّلْمِ وَالْوَعَى
وَيُمْسِي كَمَا تُمْسِي وَحِيداً بِلَا مِثْلِ

[من مجزوء الكامل]

وقوله في بستان لبعضهم [في «العكبري» ٢/١١] :

وَإِذَا رَجَعْتَ إِلَى الْحَقَا
نِيقِ فَهِيَ وَاحِدَةٌ لَأَوْحَدِ

[من الكامل]

وقوله في فرس بدر بن عمارة [في «العكبري» ٣/٢٤١] :

فِي سَرْجِ ظَامِنَةِ الْفُصُوصِ طِمْرَةٌ
يَأْبَى تَفَرُّدَهَا لَهَا التَّمْثِيلَا^(٢)

[شدة انتقاد المؤلف على المتنبي : إسرافه في المدح]

في كثير من أمثاله ، فكأنما التفرُّد حليَّة بيده ، يقلِّدها جيد كلِّ مَنْ يُنِيْبُ بِهِ أَمَلُهُ ، ويُعلِّقُ فِيهِ رِجَاءَهُ ، وما ذاك إلاَّ لِأَنَّهُ يَكِيلُ الْمَدْحَ جُزَافاً ، وَيُسْرِفُ فِيهِ إِسْرَافاً ، ولولا ذلك . . لَمَا احتاج إلى مثلِ قولِهِ [في «العكبري» ٤/٢١٣] : [من البسيط]

مَدَحْتُ قَوْمًا وَإِنْ عَشْنَا نَظَمْتُ لَهُمْ
قَصَائِدًا مِنْ إِنَاثِ الْخَيْلِ وَالْحُصْنِ

ولو أَنَّهُ اسْتَشْنَى فِي بَعْضِ الْقَوْلِ أَوْ عَلَّقَ . . لَانْحَفَظَ لَهُ حَظَّ الرَّجْعَةِ ، وَلَكِنَّهُ قَطَعَهُ عَلَى نَفْسِهِ ، فَقَدْ هَجَا كَافُورَ بَعْدَ قَوْلِهِ لَهُ [في «العكبري» ١/٢٠٠] :

[من الطويل]

وَإِنَّ مَدِيحَ النَّاسِ حَقٌّ وَبَاطِلٌ
وَمَذْحُكَ حَقٌّ لَيْسَ فِيهِ كِذَابٌ

[ثناء سيدنا عمر رضي الله عنه على ابن أبي سلمى]

وقد أثنى ابنُ الخطَّابِ على زهيرِ ابنِ أبي سلمى ، بأنَّهُ لا يُعَاظِلُ^(٣) الكلامَ ، ولا يمدحُ أحداً إلاَّ بما فيه على حدِّ

(١) في المخطوط : غَادِرُهُ .

(٢) الطِمْرَةُ : الفرسُ الوثابةُ ، وقيل : المرتفعةُ ، وظامِنَةُ الفصوص : عطاشٌ ، ليست برهلة رخوة ، وكذا خيولُ العربِ .

(٣) يُعَاظِلُ ، يعقد القول بالحوشي والغريب ورؤي عن عمر بن الخطَّابِ : أَنَّهُ قَالَ لِقَوْمٍ مِنَ الْعَرَبِ : (أَشْعُرُ شِعْرَاتِكُمْ مَنْ لَمْ يُعَاظِلِ الْكَلَامَ) أَي : لَمْ يَحْمَلْ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ ، وَلَمْ يَتَكَلَّمْ بِالرَّجِيعِ مِنَ الْقَوْلِ ، وَلَمْ يَكْرُرِ اللَّفْظَ وَالْمَعْنَى .

ما يُروى مِنْ قَوْلِهِ :

[مَنْ البسيط]

وَإِنَّ أَحْسَنَ بَيْتٍ أَنْتَ قَائِلُهُ بَيْتٌ يُقَالُ إِذَا أَنْشَدْتَهُ صَدَقَا

[إن من البيان لسحراً]

وَمِنْ هُنَا قَضِيَ لَهُ بِالتَّفْضِيلِ عَلَى الشُّعْرَاءِ أَجْمَعِ ، وَمَا أَحْسَنَ مَا تَخَلَّصَ بِهِ عَمْرُو بْنُ الْأَهْتَمِ ، وَقَدْ رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَشْمِزُّ مِنْ تَنَاقُضِ قَوْلِهِ فِي الزَّبْرَقَانِ بْنِ بَدْرِ ؛ إِذْ مَدَحَهُ بَادِئاً ، ثُمَّ ذَمَّهُ ثَانِياً ، فَإِنَّهُ قَالَ : لَقَدْ صَدَقْتُ فِي الْأَوْلَى ، وَلَمْ أَكْذِبْ فِي الثَّانِيَةِ ، وَلَكِنَّا قَوْمٌ إِذَا رَضِينَا . ذَكَرْنَا أَحْسَنَ مَا نَجَدُ ، وَإِذَا غَضِبْنَا . . جِئْنَا بِأَقْبَحِ مَا نَعْلَمُ ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا »^(١) ، أَوْ مَا هَذَا مَعْنَاهُ ، أَوْ مَا يَقْرَبُ مِنْهُ ، وَمَنْ لَا حَرَجَ لَهُ مِنَ الدِّينِ ، وَلَا زِمَامَ عِنْدَهُ مِنَ المَرُوءَةِ ، وَلَا رَقِيبَ عَلَيْهِ مِنَ الضَّمِيرِ ، وَكَانَ الحَامِلُ لَهُ عَلَى المَدْحِ مَجْرَدَ الطَّمَعِ ، أَوْ المَلَقِ . . فَلَنْ يَكُونَ مَا يَأْتِي بِهِ إِلَّا كَذِبًا صَرِيحًا ، وَغَلْوَاً قَبِيحًا ؛ وَلِهَذَا قَالَ ابْنُ عَبْدِ السَّلَامِ فِي « قَوَاعِدِهِ »^(٢) ، كَمَا نَقَلَهُ ابْنُ حَجْرٍ فِي « تَحْفَتِهِ » : لَا تَكَادُ تَجِدُ مَدَاحًا إِلَّا رَذَلًا ، وَلَا هَجَاءً إِلَّا نَذَلًا .

[المؤلف وهذا الزمان]

وَأَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ مَا ابْتُلِيَ بِهِ ذُنَابِي^(٣) الْبِلَادِ مِنْ إِهَانَةِ الْأَدَبِ ، وَبِذَلِكَ المَدِيحِ لِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ ، وَكثِيرًا مَا يَعْتَقِدُ المَادِحُ عَكْسَ مَا يَقُولُ ، فَتَرَاهُ يَمْدَحُ بِلِسَانِهِ مَنْ يَذْمُهُ بِقَلْبِهِ ، وَيَتَلَوَّنُ أَلْوَانًا ، وَيَتَّخِذُ لِكُلِّ حَالَةٍ وَجْهًا وَلِسَانًا : [مَنْ الطويل]

وَأَقْتَلُ شَيْءَ رُؤْيَةِ الْعَيْنِ ظَالِمًا يُسِيءُ وَيُتَلَى فِي المَحَافِلِ حَمْدُهُ

[عجابه بأشرف النفوس]

وَإِنَّهُ لِيَعْجِبُنِي تَرْفَعُ ابْنَ أَبِي رِبِيعَةَ وَجَمِيلَ وَالفَرَزْدَقِ وَأَضْرَابِهِمْ مِنْ أَشْرَافِ النُّفُوسِ .

[أشرف الفرزدق]

قَالَ يَزِيدُ بْنُ المَهَلَّبِ : مَا رَأَيْتُ أَشْرَفَ نَفْسًا مِنَ الفَرَزْدَقِ ، مَدَحَنِي سُوْقَةً ، وَهَجَانِي مَلِكًا .

[تلون المتنبّي]

وَإِنَّ المَتَنَبِّيَّ عَلِيٌّ مَا عِنْدَهُ مِنَ البَأْوِ^(٤) وَالرُّهْمِ ، وَمَعَ قَوْلِهِ [فِي « العُكْبَرِيِّ » ١٤٩/٢] : [مَنْ الطويل]

إِذَا الفُضْلُ لَمْ يَرْفَعَكَ عَنْ شُكْرِ نَاقِصٍ عَلَى هِبَةٍ فَالفُضْلُ فِيمَنْ لَهُ الشُّكْرُ

[أبو تمام يمدح ابن الزيات فيرد مديحه عليه]

. . لكَثِيرًا مَا يَخْضَعُ فِي القَوْلِ ، وَيُتَلَيَّنُ الجَانِبَ ، وَيُسِفُّ^(٥) إِلَى الأَرْضِ ، وَمَا ذَلِكَ مِنْ تَنَاقُضِهِ بِغَرِيبٍ ، وَمَا كَانَ أَحَقَّهُ فِي بَعْضِ أَطْوَارِهِ بِمَا فَعَلَ ابْنُ الزِّيَاتِ^(٦) مَعَ حَبِيبِ [أبي تمام] ، (فَقَدْ امْتَدَحَهُ بِقَصِيدَةٍ سَائِرَةٍ بِعَقْبِ مَا امْتَدَحَ بَعْضَ السَّقَاطِ ، فَوَقَعَ ابْنُ الزِّيَاتِ عَلَى ظَهْرِ قَصِيدَةِ حَبِيبٍ لَهُ بِهَذَا :

رَأَيْتُكَ سَمَحَ البَيْعِ سَهْلًا وَإِنَّمَا يُغَالِي إِذَا مَا ضَنَّ بِالشَّيْءِ صَاحِبُهُ

(١) أخرجه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما البخاري (٥١٤٦) في النكاح ، وانظر الخبر في « جمهرة خطب العرب » (١٦٥/١) .

(٢) وتماثل اسمه : « قواعد الأحكام في مصالح الأنام » .

(٣) الذَّنَابِيُّ : الأَنْبَاءُ .

(٤) البَأْوُ : العِظْمَةُ وَالكِبْرُ وَالفَخْرُ .

(٥) أَسَفَّ الطَائِرُ وَالسَّحَابَةُ وَغَيْرُهُمَا : دَنَا مِنَ الأَرْضِ . وَالطَائِرُ يُسِفُّ : إِذَا طَارَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ .

(٦) ابْنُ الزِّيَاتِ : هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ بْنِ أَبَانَ ، وَزَيْرُ المَعْتَصِمِ وَالمَوَاتِقِ ، قَوِيٌّ ، حَازِمٌ دَاهِيَةٌ .

فَأَمَّا إِذَا هَانَتْ بَضَائِعُ بَيْنِهِ فَيُوشِكُ أَنْ تَبْقَى عَلَيْهِ بَضَائِعُهُ
هُوَ الْمَاءُ إِنْ أَحْجَمْتَهُ طَابَ وَرُدُّهُ وَيَفْسُدُ مِنْهُ أَنْ تَبَّاحَ مَشَارِعُهُ^(١)

ويقال [في «الأغاني» ٦٢/٢٣] : إِنَّ أَبَا تَمَّامٍ أَجَابَهُ عَنْ ذَلِكَ بِقَصِيدَةٍ يَحْتَجُّ بِهَا عَلَيْهِ ، وَيَعْتَذِرُ مِنْ مَدْحِ غَيْرِهِ إِلَيْهِ^(٢) ، مِنْهَا [فِي «دِيوانه» ١/١٦٤-١٦٥] :

أَمَّا الْقَوَافِي فَقَدْ حَصَّنْتُ غُرَّتَهَا فَمَا يُصَابُ دَمٌ مِنْهَا وَلَا سَلْبُ
مَنْعْتُ إِلَّا مِنَ الْأَكْفَاءِ أَيْمَهَا إِذْ كَانَ مِنْكَ عَلَيْهَا الْعَطْفُ وَالْحَدَبُ^(٣)
وَلَوْ عَضَلْتُ وَلَمْ أَنْكُحْ عَقَائِلَهَا وَلَمْ يَكُنْ لَكَ فِي أَطْهَارِهَا أَرْبُ^(٤)
كَانَتْ بَنَاتٍ نَصِيبٌ حِينَ ضَنَّ بِهَا عَلَى الْمَوَالِي وَلَمْ تَقْنَعْ بِهَا الْعَرَبُ^(٥)

ولا شكَّ أَنَّهُ عَذِرٌ بِأَمِّ دَوْ ، فَقَدْ تَمَوْتُ الْحَرَّةُ وَلَا تَأْكُلُ بِثَدْيَيْهَا^(٦) ، وَذَكَرْتُ بِهِذَا - وَالشَّيْءُ يُذَكَّرُ بِمَا يَشْبَهُهُ ، وَلَوْ مِنْ بَعِيدٍ -

[مديح الشماخ لعبد الله بن جعفر]

أَنَّ الشَّمَاخَ امْتَدَحَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَعْفَرٍ بِقَوْلِهِ [فِي «دِيوانه» ٤٦٤-٤٦٧] :

إِنَّكَ يَا ابْنَ جَعْفَرٍ نِعْمَ الْفَتَى وَنِعْمَ مَا أَوْى طَارِقِي إِذَا أَتَى
وَجَارُ ضَيْفِ طَرِقِ الْحَيِّ سُرَى صَادَفَ زَادًا وَحَدِيثًا مَا اشْتَهَى

إِنَّ الْحَدِيثَ طَرَفٌ مِنَ الْقِرَى

[المبالغة في المديح ترفع الممدوح وتضع المادح]

وَامْتَدَحَ عُرَابَةَ الْأَوْسِيِّ إِزَاءَ حُمُولَةٍ مِنَ التَّمْرِ ، بِمَا تَحْسُدُهُ الثَّرِيًّا دُرَّرَ لَفْظُهُ ، وَجَمَالَ دِيبَاجَتِهِ ، كَقَوْلِهِ [فِي «الأغاني» ٣٢٨٨-٣٢٨٧/٩] :

رَأَيْتُ عُرَابَةَ الْأَوْسِيِّ يَسْمُو إِلَى الْخَيْرَاتِ مُنْقَطِعَ الْقَرِينِ
إِذَا مَا رَأَيْتُهُ رُفِعَتْ لِمَجْدِ تَلَقَّاهَا عُرَابَةُ بِالْيَمِينِ

(١) أورد الأصبهاني القصة في «الأغاني» (٦٢/٢٣) .

(٢) والذي في «الأغاني» (٦٢/٢٣) :

أَبَا جَعْفَرٍ إِنْ كُنْتُ أَصْبَحْتُ شَاعِرًا أَسَامِيحُ فِي تَيْعِي لَهُ مَنْ أَبَايَعُهُ
فَقَدْ كُنْتُ قَلْبِي شَاعِرًا تَاجِرًا بِهِ تُسَاهِلُ مَنْ عَادَتْ عَلَيْكَ مَنَافِعُهُ
فَصُرْتُ وَزِيرًا وَالْوَزَارَةُ مَكْرَعُ يَعْصُ بِهٖ بَعْدَ اللَّذَاذَةِ كَارِعُهُ
وَكَمِّ مِنْ وَزِيرٍ قَدْ رَأَيْتُنَا مُسَلِّطًا فَعَادَ وَقَدْ سُدَّتْ عَلَيْهِ مَطَالِعُهُ
وَلَهُ قَوْسٌ لَا تَطِيشُ سَهَامَهَا وَلَهُ سَيْفٌ لَا تَقْسِلُ مَقَاطِعُهُ

(٣) الأيمُ : التي لا زوج لها . الحدبُ : الإشفاقُ .

(٤) عضلُ المرأة عن الزواج : منعها وحبسها عنه . أطهارها - مفردُها طهرٌ - : جعلَ القوافي كالنساء ، فإذا طهرتِ المرأة احتجَّ إليها ، وتعتزلُ في الحيض .

(٥) نصيبُ : شاعرٌ أُمويٌّ ، كان أسودَ ، ومولى لآل مروان . وكان له بناتٌ يبخلُ بهنَّ على الموالي ، ولم تحفلُ بهنَّ العربُ لسوادِ أبيهنَّ .

(٦) مثل عربي ذكره الميداني في «مجمع الأمثال» (١٢٢/١) .

وقوله :

[من البسيط]

مِنْ بَيْتِ مَأْتِرَةٍ عِزٍّ وَمَكْرَمَةٍ سَبَّاقُ غَايَاتِ مَجْدٍ وَإِنَّ سَبَّاقِ
ضَخْمِ الدَّسِيعَةِ مِثْلَافٌ أَخُو ثِقَةٍ جَزَلُ الْمَوَاهِبِ ذُو قَيْلٍ وَمِضْدَاقٍ^(١)

فقد ارتفع غرابةً بذلك إلى الدرر ، وانحطَّ به الشماخُ - كما ذكره - إلى الحضيض ، وسيعادُ هذا في المجلس الحادي عشر غفلةً عمًا هنا .

[صغر نفس المتنبي]

وما رأيتُ الناظمَ أقلَّ حياءً ، ولا أصفقَ وجهًا^(٢) ، ولا أصغرَ نفساً في قوله - ممَّا يتعلَّقُ بالموضوع - [في «العُكْبَرِيّ»

[من الكامل]

: [١١/٤]

إِنْ كَانَ مِثْلَكَ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنٌ فَبَرِئْتُ حَيْثُذِ مِنَ الْإِسْلَامِ

لولا اعتذارهم عنه في ذلك بصباه ، كما سيأتي في موضعه بسطُ القول فيه إن شاء الله تعالى .

[التفرد بالكمال مقرون بالحرمان]

ثُمَّ إِنَّ التَّفْرُدَ بِالْكَامِلِ عَلَى عِزَّتِهِ مَقْرُونٌ فِي الْأَغْلِبِ بِالْحِرْمَانِ ، وَقَلَّ مَنْ تَقَدَّمَ فِي أَمْرِ إِلَّا حُرِمَ ثَمَرَتُهُ وَفَائِدَتُهُ ، وَالْقَوْلُ يَطُولُ فِي ذَلِكَ ، وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ الْحَمْدُونِيِّ :

[من البسيط]

إِنَّ الْمُقَدَّمَ فِي حَذْقِ بَصْنَعَتِهِ أَنْتَى تَوَجَّهَ فِيهَا فَهُوَ مَحْرُومٌ

[من الكامل]

وقول كُشَاجِمِ [في «ديوانه» ٣٨٦] :

مَا كَانَ أَحْوَجَ ذَا الْكَمَالِ إِلَى عَيْبِ يُوقِيهِ مِنَ الْعَيْنِ

[ترقب زوال الشيء إذا ما قيل : تم]

وحدَّث المعافى بنُ زكريَّا : أَنَّهُ لَمَّا بُويعَ ابْنُ الْمُعْتَزِّ بِالْخِلَافَةِ . . دَخَلُوا عَلَى شَيْخِنَا مُحَمَّدِ بْنِ جَرِيرِ الطَّبْرِيِّ ، فَقَالَ : مَا الْخَيْرُ ؟ قِيلَ : بُويعَ ابْنُ الْمُعْتَزِّ ، قَالَ : فَمَنْ ذِكْرٌ لِلْقَضَاءِ ؟ قَالُوا : الْحَسَنُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ الْمُثَنَّى ، أَوْ أَبُو الْمُثَنَّى ، قَالَ : فَمَنْ رُشِّحَ لِلْوِزَارَةِ ؟ قَالُوا : مُحَمَّدُ بْنُ دَاوُدَ ، فَقَالَ : هَذَا الْأَمْرُ لَا يَتِمُّ ؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ مُتَقَدِّمٌ فِي فَضْلِهِ ، وَالدُّنْيَا مُوَلِّيَةٌ ، فَمَا أَرَاهُ إِلَّا عَائِدًا إِلَى الْأَضْمَحَلَالِ ، فَكَانَ كَذَلِكَ .

[أول من أتى من داء الكمال في الإسلام سيدنا علي وصور من ذلك]

وغالبُ ظني أَنَّ أَوَّلَ مَنْ أَتَى فِي الْإِسْلَامِ مِنْ دَاءِ الْكَامِلِ هُوَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ - كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ - فَقَدْ كَانَ أَهْلُ (البصرة) يُبْغِضُونَهُ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ (الكوفة) وَأَهْلِ (المدينة) ، وَأَمَّا أَهْلُ (مَكَّةَ) : فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَكْرَهُونَهُ قَاطِبَةً ، وَكَانَتْ قَرِيشٌ بِأَسْرِهَا عَلَى خِلَافِهِ ، وَكَانَ جَمْهُورُ الْخَلْقِ مَعَ بَنِي أُمَيَّةَ عَلَيْهِ .

وروى عبدُ الملكِ بنُ عميرٍ ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ قَالَ [في «شرح نهج البلاغة» ١٠٣/٤] : سَمِعْتُ عَلِيًّا - عَلَيْهِ السَّلَامُ - يَقُولُ : مَا لَقِيَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ مَا لَقَيْتُ .

(١) الدسيعة : العطاء الجزيل .

(٢) أصفقُ وجهًا ، يقال : وجهٌ صفيقٌ بين الصفاقة : وقع .

وروى الشعبي عنه - عليه السلام - أنه يقول [في «شرح نهج البلاغة» ١٠٤/٤] : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعِيدُكَ عَلَى قَرِيشٍ ؛ فَإِنَّهُمْ قَطَعُوا رَحْمِي ، وَأَصْغَوْا إِنَانِي^(١) ، وَصَغَّرُوا عَظِيمَ مَنَزَلَتِي ، وَأَجْمَعُوا عَلَيَّ مَنَازِعَتِي .

وَرَوَى أَبُو عَمْرَانَ النَّهْدِيُّ قَالَ : سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ يَقُولُ [كما في «شرح نهج البلاغة» ١٠٤/٤] : مَا بَلَ (مَكَّةَ) (وَالْمَدِينَةَ) عِشْرُونَ رَجُلًا يَحْبُنَانَا .

وَاللَّهُ دُرُّ ابْنِ أَبِي الْحَدِيدِ فِي قَوْلِهِ [كما في «شرح نهج البلاغة» ١١٢/٤] :

[مَنْ الْخَفِيفِ]

طَأْمَنْتُ مَجْدَهُ قُرَيْشٍ فَأَعْطَنِيهِ إِلَى سِدْرَةِ السَّمَاءِ رُقِيًّا^(٢)
أَخْمَلْتُ صَيْتَهُ فَطَارَ إِلَيَّ أَنْ مَلَأَ الْأَرْضَ ضَجَّةً وَدَوِيًّا

[مَنْ الطَّوِيلِ]

وَقَالَ الْآخَرُ :

لَقَدْ كَتَمْتَ آثَارَ آلِ مُحَمَّدٍ مُجِبُّوهُمْ خَوْفًا وَأَعْدَاؤُهُمْ بُغْضًا
وَلَكِنْ فَشَتْ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ نَبْذَةٌ بِهِمَا مَلَأَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَا

وَمِنْ كَلَامِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ [في «نهج البلاغة» ٣٦] مَا مَعْنَاهُ : لَا تَرَالُ الرَّعِيَّةُ تَشْكُو ظُلْمَ الْمَلُوكِ ، وَلَكِنِّي أَشْكِي الظُّلْمَ مِنْ رَعِيَّتِي .

وَقَالَ لِأَصْحَابِهِ [في «نهج البلاغة» ٣٦] : لَقَدْ مَلَأْتُمْ قَلْبِي قَيْحًا ، وَشَحْتُمْ صَدْرِي غِيظًا ، وَجَرَّعْتُمُونِي نُعْبَ التَّهْمَامِ أَنْفَاسًا^(٣) ، حَتَّى قَالَتْ قَرِيشٌ : إِنَّ ابْنَ أَبِي طَالِبٍ رَجُلٌ شَجَاعٌ ، وَلَكِنْ لَا عِلْمَ لَهُ بِالْحَرْبِ - اللَّهُ أَبُوهُمْ - وَهَلْ أَشَدُّ لَهَا مِرَاسًا مِنِّي ؟! لَقَدْ دَخَلْتُ فِيهَا دُونَ الْعَشْرِينَ ، وَهَأَنَّا قَدْ ذَرَفْتُ فِيهَا عَلَى السَّيْنِ ، وَلَكِنْ لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ .

[صور من امتحان النبي صلى الله عليه وسلم بالمنافقين]

بَلْ إِنَّ الْأَمْرَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ ، فَسَيِّدُ أَهْلِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، وَأَفْضَلُ مَنْ يَشْرَبُ عَذْبَ الْمَاءِ . . . كَانَ مُمْتَحَنًا بِالْمَنَافِقِينَ بِشَهَادَةِ سُورَةِ ﴿ بَرَاءة ﴾ مِنْ فَاتِحَتِهَا إِلَى خَاتَمَتِهَا ، بَلْ لَمْ يَسْلَمْ مَعَ ذَلِكَ مِنَ التَّوَاءِ فَضْلَاءِ الصَّحَابَةِ عَلَيْهِ .

أَلَا تَرَى أَنَّهُمْ كَرِهُوا لِقَاءَ الْعَدُوِّ يَوْمَ بَدْرٍ حَتَّى أَنْزَلَ فِيهِمْ : ﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ [الأنفال : ٦] .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى أَيْضًا : ﴿ وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ [الأنفال : ٧] .
وَخَالَفُوا أَمْرَهُ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَأَسْلَمُوهُ حَتَّى أَلْقَتْهُ فَرَسُهُ بَيْنَ الْقَتْلَى ، وَاسْتَصْرَخَ فَلَمْ يُجِبْهُ غَيْرُ مَنْ اشْتَدَّ بِهِ اخْتِصَاصُهُ .

وَقَالَ اللَّهُ جَلَّ شَأْنُهُ فِيهِمْ : ﴿ إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُونُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرُّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجْتُمْ ﴾ [آل عمران : ١٥٣] .

وَعَصَوْا أَمْرَهُ فِي تَبُوكِ أَيْضًا ، حَتَّى قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قُلْتُمْ

(١) أَصْفَى الْإِنَاءَ : أَمَالَهُ لِيُفْرَغَ مَا فِيهِ .

(٢) طَأْمَنْتُ الْأَرْضَ : انْخَفَضْتُ .

(٣) نُعَبٌ : جِرْعَاتُ . التَّهْمَامُ : الْهَمُّ . أَنْفَاسًا : جِرْعَةٌ بَعْدَ جِرْعَةٍ .

إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿التوبة : ٣٨-٣٩﴾ .

فهذا عتابٌ للمؤمنين ، وشاهدٌ بأنه لم ينبج من خلافهم عليه ، وقد أشرنا في الفائدة الثامنة من « بلابل التفريد » إلى تفاعلهم ليلة الخندق عن استكناه خير القوم^(١) ، وقد ألح عليهم في ذلك ، وهو لا يخالف ما نقرُّه من امتلاء صدورهم بالإيمان ، وتقديهم بالنفوس المطمئنة إلى شفرات السيوف ؛ لأنه الأكثر من أحوالهم ، ولأن الامتحان يعشق الكمال ، فاقضى علي قدره صلى الله عليه وسلم أن تلتوي عليه الأمور ، وتعضِّب^(٢) له الأحوال ، وتتنكر له الأيام ، ويجمع عليه الزمان ؛ ليجاوز مدى أولي العزم من الرسل ، وتلك الغاية منوطة بالمحنة ؛ ولهذا قال له جل شأنه : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف : ٣٥] ، وكان يوعك كما يوعك الاثنان من عرض الناس^(٣) ، وكان يقول : « أشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياء ، ثمَّ الأئمُّلُ فالأئمُّلُ »^(٤) .

[الشعراء والتمام]

ولله درُّ أبي تمام في قوله :

مَا زِلْتُ أَرْمِي بِأَمَالِي مَطَالِبَهَا لَمْ يُخْلِقِ الْعِرْضَ مِنِّي سُوءَ مُطَلَّبِي
إِذَا قَصَدْتُ لِسَاؤِ خِلْتُ أَنِّي قَدْ أَدْرَكْتُهُ أَدْرَكْتَنِي حِرْفَةُ الْأَدَبِ^(٥)

وأخذه علي بن محمد بن بسام ، فقال في رثاء ابن المعتز : [في « ديوانه » ٢٧] :

لِلَّهِ دَرْكٌ مِنْ مَلِكٍ بِمَضِيْعَةٍ نَاهِيكَ فِي الْعَقْلِ وَالْآدَابِ وَالْحَسَبِ^(٦)
مَا فِيهِ لَوْ وَلَا لَيْتَ فَتَنْقِصُهُ وَإِنَّمَا أَدْرَكْتُهُ حِرْفَةُ الْأَدَبِ

وتلاعب به الشعراء بعد ذلك ، ويتصل بالموضوع قول بعضهم : [من الكامل]

عَابُوا الْجَهَالََةَ وَازْدَرَوْا بِحُقُوقِهَا وَتَهَاوَنُوا بِحَدِيثِهَا فِي الْمَجْلِسِ
وَهِيَ الَّتِي يَنْقَادُ فِي يَدِهَا الْغِنَى وَتَجِيئُهَا الدُّنْيَا بِرَغْمِ الْمَعْطَسِ

وقال أبو العتاهية [في « ديوانه » ٦٤٥] :

كَفَاكَ عَنِ الدُّنْيَا الدَّمِيمَةَ مُخْبَرًا غَنَى بِأَخْلِيبِهَا وَافْتِقَارُ كِرَامِهَا
وَأَنَّ رِجَالَ النَّفْعِ تَحْتَ مَدَاسِهَا وَأَنَّ رِجَالَ الضَّرِّ فَوْقَ سَنَامِهَا

(١) استكناه خير القوم : استقصاؤه .

(٢) يعصِّب ، يقال : اعصِّبَ اليومَ والشرُّ : اشتدَّ وتجمَّع .

(٣) أخرجه عن ابن مسعود البخاري (٥٦٤٨) في المرضي ، ومسلم (٢٥٧١) في البر والصلة . ولفظه عنده : « أجل إنني أوعك كما يوعك رجلان منكم » .

عرض الناس : عامتهم .

(٤) أخرجه الحاكم في « المستدرک » (١٠٠/١) .

(٥) حرفة الأدب هنا : الفقر .

(٦) ملك كذا في المخطوط ، وفي « الديوان » : (ميت) .

وقال آخر :

[من السريخ]

جُوعاً وَلَوْ كَانَ بَدِيعَ الزَّمَانِ
عَيْشاً رَخِيئاً فِي ظِلَالِ الأَمَانِ^(١)

مَنْ يَزُجُ بِالفَضْلِ نَوَالاً يُمُتْ
وَمَنْ يَقْدُ أَوْ يَتَمَسَّخِرُ يَعْشُ

ولابن نباتة السعدي :

[من الكامل]

حُلُوٌّ وَعِنْدَ مَعَاشِرٍ كَالعَلَقِمِ
لَا عَيْشَ إِلاَّ عَيْشُ مَنْ لَمْ يَعْلَمْ

مَا بَالُ طَعْمِ العَيْشِ عِنْدَ مَعَاشِرٍ
مَنْ لِي بِعَيْشِ الأَغْبِيَاءِ فَإِنَّهُ

وقلتُ في «لُزُومِيَّاتِي» :

[من الطويل]

مَجَالِ عِتَابٍ مُقْتَضٍ لِلتَّنَادِمِ
تَرَى حَيَّةَ الأَمَالِ رَهْنِ التَّقَدُّمِ^(٢)
وَمَبْنَى المَعَالِي أَخِذُ فِي التَّهْدِمِ

أَعَاتِبُ فِي التَّقْصِيرِ نَفْسِي فَلَا أَرَى
وَلَكِنْ شُفُوفِي خَانَ حَظِّي وَهَلْكَدَا
أَتَيْنَا وَدَهْرُ الشُّوءِ يَمْشِي إِلَى الوَرَى

[الكامل مقرون بعلو الهمة ولكن الأيام لا تساعد]

ومن دواعي تعب أهل الكمال . . أنه مقرون بعلو الهمة وكبر النفس ، والزمان معاندٌ والأيام لا تساعد .

وَإِذَا كَانَتِ النُّفُوسُ كِبَاراً تَعَبَتْ فِي مُرَادِهَا الأَجْسَامُ^(٣)

لأنها لا تقف عند غاية ، ولا تفضي إلى نهاية ، وقد قال الله جلَّ شأنه لأفضل الخلق عليه السلام : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ

* وَاللَّيْلُ نَفْسٌ فَارْتَبِطْ ﴾ [الشرح : ٨٧] .

[من الكامل]

لَا تَخْدُمُ الأَقْوَامَ مَا لَمْ تُخْدَمْ
قَالَتْ لَهُ الأُخْرَى : بَلَّغْتَ تَقَدَّمَ^(٤)

خَدَمَ العُلَى فَخَدَمْتَهُ وَهِيَ الَّتِي
فَإِذَا ارْتَقَى فِي قَلْبِهِ مِنْ سُؤْدِدِ

وقال الناظم [في «المكبري» ٧٢/٤] :

[من الوافر]

تَعَالَى الجَيْشُ وَانْحَطَّ القِتَامُ
لِرُتْبَتِهِ أَسَامُهُمُ المَسَامُ^(٥)

وَلَوْ لَمْ يَعْلُ إِلاَّ ذُو مَحَلِّ
وَلَوْ لَمْ يَزُجْ إِلاَّ مُسْتَحِقُّ

وقال [في «المكبري» ٧٣/٣] :

[من المتقارب]

لَبِئْتَ وَأَعْلَاكُمْ الأَسْفَلَ^(٦)

وَلَوْ بِثَمَا عِنْدَ قَدْرِكُمَا

(١) يَقْدُ : يعملُ قواداً .

(٢) النُّفُوسُ : نحولُ الجسمِ مِنَ الهَمِّ والوَجْدِ .

(٣) البيت من الخفيف .

(٤) القَلَّةُ : رأسُ كُلِّ شَيْءٍ .

(٥) القنم : العجاج . سامتِ السائمةُ : إِذَا رَعَتْ ، والمسامُ : الرعيَّةُ .

(٦) المعنى : لو بثما - النجم والممدوح - وموضع كل واحد منكما على حسب فضله ، ومكانه حيث يستحقُّ بقدره . . لَبِئْتَ في مواضع النجومِ وبانت في موضعك ، تعلوها أنت وتسفلُ منك ؛ لشرفِ قدرِك على قدرها .

وقال [في «المكبري» ١٠٨/٤] :

[من الطويل]

وَمَا الْجَمْعُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالنَّارِ فِي يَدِي بِأَصْعَبِ مِنْ أَنْ أَجْمَعَ الْجَدَّ وَالْفَهْمَا^(١)

[من الخفيف]

ومعيارُ العمومِ الاستثناءُ ، وقد قال لأبي العشائرِ [في «المكبري» ٣٦٤/٢] :

لَيْسَ إِلَّا أَبَا الْعَشَائِرِ خَلَقَ سَادَ هَذَا الْأَنْامِ بِاسْتِحْقَاقِ

[من الطويل]

أَمَا قَوْلُهُ لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ [في «المكبري» ٢٧٢/١] :

وَلَمَّا رَأَيْتُ النَّاسَ دُونَ مَحَلِّهِ تَبَيَّنْتُ أَنَّ الدَّهْرَ لِلنَّاسِ نَاقِدٌ

[صفات بني حمدان]

فَأَصَابَ فِيهِ مِنْ جِهَةٍ ، وَالْعَادَةُ قَدْ تَنَحَّرَتْ ، وَعَيْنُ الدَّهْرِ قَدْ تَنَامُ ، وَالطَّبِيعَةُ لَهَا فَلَائِتٌ ، وَبَنُو حَمْدَانَ - كَمَا قَالَ الْمُحَقِّقُ التَّفْتَازَانِيُّ^(٢) - مَلُوكٌ ، وَجُوهُهُمْ لِلصَّبَاحَةِ ، وَأَلْسِنَتُهُمْ لِلصَّبَاحَةِ ، وَأَيْدِيهِمْ لِلصَّبَاحَةِ .

[أوحد بني حمدان]

وَأَخْطَأَ مِنَ الْأُخْرَى ؛ فَإِنَّ أَوْحَدَ بَنِي حَمْدَانَ بِلَاغَةٍ وَبِرَاعَةٍ وَشَجَاعَةٍ . . . إِنَّمَا هُوَ أَبُو فِرَاسٍ ، وَقَدْ أَدْرَكَتْهُ حَرْفَةُ الْأَدَبِ ، وَأَصَابَتْهُ عَيْنُ الْكَمَالِ ، فَأَسْرَتْهُ الرُّومُ فِي بَعْضِ وَقَائِعِهَا ، فَازْدَادَتْ شَاعِرِيَّتَهُ رِقَّةً وَلَطَافَةً ، كَمَا سَبَقَ بَعْضُ قَوْلِهِ فِي غَيْرِ

[من الطويل]

هَذَا الْمَجْلِسِ ، وَهُوَ الْقَائِلُ [في «ديوانه» ١٤٤] :

أَسْرَتْ وَمَا قَوْمِي بِعَزْلٍ لَدَى الْوَعَى وَلَا فَرَسِي مُهْرٌ وَلَا رُبُّهُ غَمْرٌ^(٣)
وَلَكِنْ إِذَا حُمَّ الْقَضَاءُ عَلَى امْرِئٍ فَلَيْسَ لَهُ بَرٌّ يَفِيهِ وَلَا بَخْرٌ

[بدء الشعر بملك وختم بملك]

وقال صاحبُ بَنِي عَبَّادٍ [في «قرى الضيف» ٥٧/١] : بُدِيَءَ الشَّعْرُ بِمَلِكٍ ، وَخْتِمَ بِمَلِكٍ ؛ يَعْنِي : أَمْرًا الْقَيْسِ ، وَأَبَا فِرَاسٍ .

[من البسيط]

ومن أكبرِ بَيِّنَاتِهِ اعْتِرَاضُهُ عَلَى النَّازِمِ يَوْمَ أَنْشَدَ قَصِيدَتَهُ الْمُسْتَهْلَةً بِقَوْلِهِ [في «المكبري» ٣٦٢/٣] :

وَإِذَا حَرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شِبْمٌ [وَمَنْ بِجِسْمِي وَحَالِي عِنْدَهُ سَقَمٌ]

وملاحظتهُ عليها ، وتنبههُ على مواضع الاختلاسِ فيها ، بِمَا لَوْ رَوَى فِيهِ امْرُؤٌ . . . لَمَّا دُوْفِعَ فِي حَدِّهِ الْفَهْمِ ، وَإِصَابَةِ السَّهْمِ ، وَغِزَارَةِ الْعِلْمِ ، وَمَعْجَزَاتِ الْإِطْلَاعِ ، كَمَا سَنَفِيضُ فِيهِ عِنْدَمَا تَنْتَهِي إِلَيْهِ النَّوْبَةُ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

[عود على شرح البيت من المطلع]

وَأَمَّا الْبَيْتُ الثَّانِي : ف (أَنْ) فِيهِ مَخْفَفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ ، وَشَرْطُ اسْمِهَا أَنْ يَكُونَ ضَمِيرًا مَحذُوفًا ، وَرَبَّمَا ثَبِتَ كَقَوْلِهِ :

[من البسيط]

فَلَوْ أَنَّكَ فِي يَوْمِ الرَّخَاءِ طَلَبْتَنِي طَلَقَكَ لَمْ أَبْخُلْ وَأَنْتِ صَدِيقٌ

(١) الجَدُّ : الحظُّ والبَحْتُ .

(٢) التَّفْتَازَانِيُّ : هُوَ مَسْعُودُ بْنُ عَمْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، سَعْدُ الدِّينِ ، مِنْ أُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْبَيَانِ وَالْمَنْطِقِ ، لَهُ مَوْالِفَاتٌ ، تُوْفِيَ سَنَةَ : (٧٩٣ هـ) .

(٣) الْغَمْرُ : الَّذِي لَمْ يَجْرِبِ الْأُمُورَ .

وقول جنوبٍ ترثي أباها عمراً إذا الكلب :

[من المتقارب]

بأنك ربيعٌ وغيثٌ مريعٌ
وأنتك هناك تكونُ الثمّالاً^(١)
وهو مختصٌّ بحالِ الضرورةِ على الأصحّ .

[اقتباس البيت]

ومعناه^(٢) من قوله تعالى : ﴿وَمَا آتَيْنَهُهُ الْحُكْمَ صَبِيحًا﴾ [مريم : ١٢] .

[سيادة الصغير العمر عند المتنبّي]

وقد تلاعبَ به في « ديوانه » ، فقال [في « العُكْبَرِيّ » ١٧٠/١] :

[من البسيط]

ليسَ الحَدَاثَةُ مِنْ حِلْمٍ بِمَانِعَةٍ
قَدْ يُوجَدُ الحِلْمُ فِي الشُّبَّانِ وَالشُّيْبِ
تَرَعْرَعُ المَلِكُ الأُسْتَاذُ مُكْتَهَلًا
قَبْلَ اكْتِهَالِ أَدِييَا قَبْلَ تَأْدِيبِ

[من الكامل]

وقال [في « العُكْبَرِيّ » ١٠/٤] :

صَغَّرَتْ كُلَّ كَبِيرَةٍ وَكَبُرَتْ عَنْ
لَكَأَنَّهُ وَعَدَدَتْ سِنَّ غُلامِ

[من الوافر]

وقال [في « العُكْبَرِيّ » ٢٣٢/٣] :

وَأَعْجَبُ مِنْكَ كَيْفَ قَدَرْتَ تَنَشَا
وَقَدْ أُعْطِيَتْ فِي المَهْدِ الكَمَالَا

[من الطويل]

وقال [في « العُكْبَرِيّ » ٤٥/٣ و ٤٩] :

بِمَوْلُودِهِمْ صَمْتُ اللِّسَانِ كَغَيْرِهِ
وَلَكِنَّ فِي أَعْطَافِهِ مَنْطِقَ الفُضْلِ
وَقَدْ مَدَّتِ الخَيْلُ العِتَاقُ عِيُونَهَا
إِلَى وَقْتِ تَبْدِيلِ الرِّكَابِ مِنَ النُّعْلِ

[من البسيط]

وقال [في « العُكْبَرِيّ » ٨١/٢] :

نَفْسٌ تُصَغَّرُ نَفْسَ الدَّهْرِ مِنْ كِبَرِ
لَهَا نَهْيٌ كَهْلِهِ فِي سِنِّ أَمْرِهِ

[من الطويل]

وقال [في « العُكْبَرِيّ » ٨/٢] :

أَرَى القَمَرَ ابْنَ الشَّمْسِ قَدْ لَبَسَ العُلَا
رُؤْيَدَكَ حَتَّى يَلْبَسَ الشَّعَرَ الخَدُّ
وَبَاشَرَ أَبْكَارَ المَكَارِمِ أَمْرَدَا
وَكَانَ كَذَا آبَاؤُهُ وَهُمْ مُرْدُ

[من المتقارب]

وقال [في « العُكْبَرِيّ » ٣٤٥/١] :

سَعَوْا لِلْمَعَالِي وَهُمْ صَبِيَّةٌ
وَسَادُوا وَجَادُوا وَهُمْ فِي المُهُودِ

[من المنسرح]

وقال [في « العُكْبَرِيّ » ٦٤/٤] :

قَوْمٌ بُلُوغُ العُلامِ عِنْدَهُمْ
طَعْنُ نُحُورِ الكُمَّةِ لَا الحُلْمُ

(١) الربيع : الخصبُ الذي لا يقطع . الثمّال : الماء القليلُ يبقى في أسفلِ الحوضِ ، أو في أيِّ إناءٍ كان .

(٢) أي البيت الذي يتكلم عليه .

[بلوغ الغلمان عند يحيى بن زيد]

[من الطويل]

والأخيرُ مُتَتَرَعٌ مِنْ قَوْلِ يَحْيَى بْنِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ الْحُسَيْنِ رِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ :

خَرَجْنَا نَقِيمُ الدِّينِ بَعْدَ اغْوَجَاغِهِ سَوِيًّا وَلَمْ نَخْرُجْ لِجَمْعِ الدَّرَاهِمِ
إِذَا أَتَقَنَّ التَّنْزِيلَ وَالْعِلْمَ طِفْلُنَا فَإِنَّ بُلُوغَ الطِّفْلِ ضَرْبُ الْجَمَاجِمِ

هذا والله الشرف الذي يطأ بأخمصه النجوم ، ويغلب على النفوس عند ذكره الوجوم ، ويحاط دين الله منه بالرجوم ، ويعذب لمن سمعه على الموت الهجوم .

وما زالت الهاشمية نيران الحتوف ، وأرباب الأعلام والسيوف ، ومصايح النور ، وهداة العور ، ولئن قل في الأواخر الباس . . فسأذكر ما يناسب طهارتهم من الأدناس .

[تربية الأسياد أولادهم]

كثيراً ما سمعتُ والدي يقولُ : كَانَ لآلِ جَدِيدِ وَآلِ بَصْرِيِّ وَآلِ عَلَوِيِّ ثَلَاثَةُ دِيَارٍ ، عَلَيْهَا سُورٌ بِمَدِينَةِ (تَرِيمَ) ، يُقَالُ لَهَا : (الْحَوْطَةُ) ، كَانُوا يَحْوِطُونَ أَوْلَادَهُمْ فِيهَا بِالنَّظْرِ ، وَيَلَاظُونَهُمْ بِالتَّرْبِيَةِ حَتَّى لَا يَبْرَحُوهَا ، وَلَا يَطْرُقُ شَارِبُ الْغَلَامِ مِنْهُمْ إِلَّا وَقَدِ وَرَى زَنَادُهُ ، وَتَجَوَّهَرَ فِؤَادُهُ ، وَشَمِلَتْهُ الْأَسْرَارُ ، وَأَشْرَقَتْ عَلَيْهِ الْأَنْوَارُ ، وَالتَّحَقَّ بِالصَّالِحِينَ الْأَخْيَارِ ، فَلَا يَخَافُونَ عَلَيْهِ بَعْدَ مِنْ مَخَالِطَةِ الْأَعْيَارِ .

[أصحاب مشورة سيدنا عمر رضي الله عنه]

وَكَانَ أَصْحَابُ مَشُورَةِ عُمَرَ شَبَّانًا ، وَكَانَ يَدْنِي عَبْدَ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ، وَيَدْخُلُهُ مَعَ الْأَشْيَاخِ ، وَلَمَّا قَالُوا لَهُ : إِنَّ لَنَا أَبْنَاءَ مِثْلَهُ . . قَالَ : إِنَّهُ مِنْ حَيْثُ تَرُونَ .

وَلَا جَرَمَ ؛ فَإِنَّ الْفَارُوقَ لَمَّا قَاسَى النَّاسَ بِالْفَضِيلَةِ . . انبَعَثَ لَهَا النَّفُوسُ فَارْتَفَعَ الشَّانُ ، وَسَعِدَ الزَّمَانُ .

[تقديم الأسن عند الاستواء في الفضل]

أَمَّا قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « كَبْرُ كَبْرٍ » ^(١) فِي قَضِيَّةٍ حَوِيصَةٍ وَأَخِيهِ . . فَإِنَّمَا هُوَ لِاسْتَوَائِهِمْ فِي الْفَضْلِ ، وَبِمِثْلِهِ قَالُوا فِي قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « ثُمَّ لِيَوْمِكُمْ أَكْبَرُكُمْ » ^(٢) : فَإِنَّهُمْ اسْتَوَوْا فِي الْإِقَامَةِ لِتَلَقِّي الْعِلْمِ مَعَ انْتِفَاءِ التَّفَاوُتِ فِي الْأَفْهَامِ ، فَكَانُوا غَيْرَ مُتَفَاوِتِينَ فِيمَا تَلَقَّوهُ مِنَ الْفَقْهِ ، وَبَقِيَّتِ الْأَرْجَحِيَّةُ بِالسَّنِّ ، وَقَدْ بَحَثَ الْمُحِبُّ الطَّبْرِيُّ تَقْدِيمَ الْأَسَنِ فِيمَا إِذَا أَسْلَمُوا مَعًا ، وَاسْتَوَوْا فِقْهًا ؛ لِعُمُومِ هَذَا الْحَدِيثِ ، وَالْأَكْثَرُ عَلَى أَنَّ لَا اعْتِبَارَ لِلسَّنِّ فِي غَيْرِ الْإِسْلَامِ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ إِسْلَامَهُمْ مَعًا ، فَلَعَلَّ فِي الْأَكْبَرِ فَضِيلَةً زَادَ بِهَا عَلَيْهِمْ ، فَاسْتَحَقَّ التَّقْدِيمَ ، أَوْ لَعَلَّ الْمُرَادَ بِالْأَكْبَرِ الْأَكْبَرُ مَنْزِلَةً وَقَدْرًا ، فَيُرَادُ مِنْهُ الْأَفْقَةُ حَيْثُئِذٍ ، فَيَنْدَفِعُ مِنْ أَصْلِهِ الْإِشْكَالُ .

[سرعة بديهة يحيى بن أكثم]

وَلَمَّا وَلِيَ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمٍ قِضَاءَ (الْبَصْرَةِ) . . أَرَادُوا الْعَبَثَ بِهِ ، فَسَأَلُوهُ عَنْ سِنِّهِ ، وَلَمَّا تَجَاوَزَ الْعِشْرِينَ ، فَقَالَ : أَنَا أَكْبَرُ مِنْ عَتَّابِ بْنِ أَسِيدٍ ^(٣) حِينَ وَجَّهَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَاضِيًا عَلَى (مَكَّةَ) يَوْمَ الْفَتْحِ ، وَأَنَا أَكْبَرُ مِنْ

(١) أخرجه عن سهل بن أبي حثمة البخاري (٧١٩٢) في الأحكام ، ومسلم (١٦٦٩) في القسامة .

(٢) أخرجه عن مالك بن الحويرث رضي الله عنه البخاري (٦٠٠٨) في الأدب ، ومسلم (٦٧٤) في المساجد .

(٣) عتَّاب بن أسيد ابن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس ، أبو عبد الرحمن ، وإل صحابي قرشي أموي مكِّي ولد سنة : (١٣ ق.هـ) ومات سنة : (١٣ هـ) .

معاذ بن جبل^(١) حينَ وجَّهَ به النبيُّ صلى الله عليه وسلم قاضياً على (اليمين) ، وأنا أكبرُ من كعبِ بنِ سورٍ^(٢) حينَ وجَّهَ به ابنُ الخطابِ قاضياً عليكم ، فأفحَمهم ؛ إذ جعلَ كلامَهُ احتجاجاً وجواباً .

[المرء بأصغريه]

وقَدِمَ على عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ وفدٌ ، فيهم حَدَثٌ ، رَأَهُ يشرِئُتُ للكلامِ ، فقالَ لهُ : كَبَّرَ كَبَّرُ ، فقالَ : لو كانتِ بالسَّنِّ . . . لكانَ في مجلسِكَ هذا مَنْ هوَ أُولى منك بالخِلافَةِ ، إنَّما المرءُ بأصغريه ، فقالَ لهُ : تكلَّم ، فأجَادَ وشفى ، وأفادَ وكفى^(٣) .

[سيادة أبي جهل]

وسادَ أبو جهلِ ابنُ هشامٍ قبلَ أن يطرَّ عِذارُهُ^(٤) ، وكانتِ مشيخةُ قريشٍ تُدخِلُهُ معها دارَ الندوةِ ، ولا تقطعُ أمراً دونَهُ .

[سيادة عمرو بن كلثوم]

وسادَ عمرو بنُ كلثومٍ - صاحبُ المعلِّقةِ - لخمسَ عشرةَ سنةً ، ثُمَّ لَمْ يُمُتْ إلاَّ عن مئةٍ وخمسينَ ربيعاً ، وهو القائلُ [في «ديوانه» ١٠٠] :

إِذَا بَلَغَ الْفِطَامَ لَنَا صَبِيٌّ تَخِرُّ لَهُ الْجَبَابِرُ سَاجِدِينَا

[سيادة أخ الخنساء]

وقالتِ الخنساءُ [في «ديوانها» ١٥] :

طَوِيلُ النَّجَادِ رَفِيعُ الْعَمَا دِ سَادَ عَشِيرَتَهُ أَمْرَدَا^(٥)

[سيادة طرفة بن العبد]

وقالتِ أختُ طرفةِ بنِ العبدِ في رثائِهِ [كما في «خزانة الأدب» ٤٢٣/٢] :

عَدَدْنَا لَهُ سِتًّا وَعَشْرِينَ حِجَّةً فَلَمَّا تَوَفَّاهَا اسْتَوَى سَيِّدًا ضَخْمًا

[محمد بن القاسم بييد الأكراد وعمره سبع عشرة سنة]

ويروى : أَنَّ الْحِجَّاجَ وَلَّى مُحَمَّدَ بْنَ الْقَاسِمِ قِتَالَ الْأَكْرَادِ بـ (فارِس) ، فَأَبَادَهُمْ ، ثُمَّ وَاةُ (السُّنْدُ) و(الهند) ، فَأُحْمِدَ أَثَرُهُ ، وَسِنَّهُ إِذْ ذَاكَ سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً ، فَقَالَ فِيهِ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ [زياد الأعجم كما في «المستطرف» ٤٩٧/١] : [من الكامل]

قُدَّتِ الْجِيُوشُ لِسَبْعِ عَشْرَةَ حِجَّةً يَا قُرْبَ ذَلِكَ سُؤْدُداً مِنْ مَوْلِدِ

(١) معاذ : صحابي خزرجي ، أبو عبد الرحمن ، ولد سنة : (٢٠ ق . هـ) ومات سنة : (١٨ هـ) كان من أعلم الأمة بالحلال والحرام .

(٢) كعب بن سور بن بكر الأزدي ، تابعي من الأعيان المقدمين في صدر الإسلام توفي سنة : (٣٦ هـ) .

(٣) في «جمهرة خطب العرب» (٤١٩/٢) . فقال عند ذلك أمير المؤمنين : [من الطويل]

تَمَلَّلْتُمْ فَلَيْسَ الْمَرْءُ يُوَلَّدُ عَالِماً وَيُنْسَ أَخُو عِلْمٍ كَمَنْ هُوَ جَاهِلٌ
وَإِنْ كَبِيرَ الْقَوْمِ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ صَغِيرٌ إِذَا تَقَسَّتْ عَلَيْهِ الْمَخَافِلُ

(٤) العذار : ما طلع من وبرٍ جانبٍ لحيته .

(٥) النجاد : حمائل السيف ، وطويل النجاد : كناية عن طول القامة . رفيع العماد ، يقال : رجلٌ معمدٌ ؛ أي : طويلٌ .

وقال جرير لعمر بن عبد العزيز :

[من الوافر]

فَسَدَّتِ النَّاسَ قَبْلَ سِنِّي عَشْرٍ كَذَاكَ أَبُوكَ قَبْلَ الْعَشْرِ سَادَا

[من الكامل]

وقال الفرزدق يمدح يزيد بن المهلب [في «ديوانه» ١/ ٣٧٨] :

مَا زَالَ مُذْ عَقَدَتْ يَدَاهُ إِزَارَهُ وَسَمَا وَأَذْرَكَ خَمْسَةَ الْأَشْبَارِ
يُذْنِي كَتَائِبَ مِنْ كَتَائِبَ تَلْتَقِي فِي ظِلِّ مُغْتَبِطِ الْغُبَارِ مَثَارِ

وَمِمَّا أَصَابَ الْمَحْزَّ ، وَطَبَّقَ الْمِفْصَلَ ، قَوْلُ الْحَزِينِ الْكِنَانِيِّ فِي الْإِمَامِ زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ^(١) رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ : [من الطويل]

وَلَمَّا تَرَدَّيْ بِالْحَمَائِلِ وَانْتَنَى يَصُورُ بِأَطْرَافِ الْقَنَا وَالْقَنَابِلِ
تَبَيَّنَتْ الْأَعْدَاءُ أَنَّ سِنَانَهُ يُطِيلُ حَيْنَ الْأَمَّهَاتِ الشَّوَاكِلِ
تَبَيَّنَ فِيهِ مَلِيْمُ الْعِزِّ وَالتَّقَى وَلِيداً يُفَدِّي بَيْنَ أَيْدِي الْقَوَابِلِ

[من البسيط]

وقال العلوي صاحب الزنج :

إِنِّي وَقَوْمِي فِي أَنْسَابِ قَوْمِهِمْ كَمَسْجِدِ الْخَيْفِ فِي بَخْبُوحَةِ الْخَيْفِ
مَا عَلَّقَ السَّيْفُ مِنَّا بِأَبْنِ عَاشِرَةٍ إِلَّا وَهَمَّتْهُ أَمْضَى مِنَ السَّيْفِ

وَمِنْ خَالِصِ الشَّعْرِ ، وَمَخْتَارِ الْكَلَامِ ، قَوْلُ مِرْوَانَ بْنِ أَبِي حَفْصَةَ^(٢) يَمْدَحُ مَعْنَ بْنَ زَائِدَةَ^(٣) [في «ديوانه» ٦٤-٦٥] :

[من الطويل]

نَجِيبُ مَنْاجِيْبٍ وَسَيِّدُ سَادَةٍ ذَرَى الْمَجْدِ مِنْ فَرَعِي نِزَارٍ تَفَرَّعَا
لَبَانَتْ خِصَالُ الْخَيْرِ فِيهِ وَأُكْمِلَتْ وَمَا كَمَلْتُ خَمْساً سِنُوهُ وَأَرْبَعَا
لَقَدْ أَصْبَحَتْ فِي كُلِّ شَرْقٍ وَمَغْرِبٍ بِسَيْفِكَ أَعْنَاقُ الْمُرِيْبِيْنَ خُضْعَا
وَطُنَّتْ خُدُودَ الْحَضْرَمِيِّينَ وَطَاءَةً بِهَا مَا بَنَوْا مِنْ عِزَّةٍ قَدْ تَضَعُضَعَا
فَأَقْعَوْا عَلَيَّ الْأَسْتَاهُ إِفْعَاءَ مَعْشَرٍ يَرُونَ اتِّبَاعَ الدُّلِّ أَوْلَى وَأَنْفَعَا
فَلَوْ مُدَّتِ الْأَيْدِي إِلَى الْحَرْبِ كُلِّهَا لَكَفُّوا وَمَا مَدُّوا إِلَى الْحَرْبِ إِضْبَعَا

[من الوافر]

وما أحسن قول بعضهم :

إِذَا مَا أَوَّلُ الْخَطِّئِي أَخْطَا فَمَا يُرْجَى لِأَخِيْرِهِ انْتِصَارُ
وَإِنْ جَاَزَ الْفَتَى عِشْرِينَ عَامَاً وَمَا بَلَغَ الْمُرَادَ فَذَاكَ عَارُ

(١) زيد بن علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب ، الإمام ، أبو الحسين العلوي الهاشمي القرشي ، ويقال له : زيد الشهيد ، عدّه الجاحظ من خطباء بني

هاشم . توفي سنة : (١٢٢ هـ) . عن (٤٣) سنة .

(٢) هو مروان بن سليمان ابن أبي حفصة يزيد ، شاعر عالي الطبقة توفي سنة : (١٨٢ هـ) .

(٣) هو أشهر أجداد العرب وشجعانهم الفصحاء توفي سنة : (١٥١ هـ) .

ولكنَّ الإمامَ أبا حنيفةً أمهلهُ إلى خمسةٍ وعشرينَ عاماً ، فمتى بلغها . . دُفِعَ له مالهُ ، وإنَّ لمَ يستجمعَ رشدَهُ ؛ لليأسِ
من صلاحِهِ ، ولأنَّ السنَّ المذكورَ غايةً ما ينتهي إليه الاستواءُ .

[من الكامل]

وقال أبو عبادةٍ وقد أوفى على الإجابةِ [في «ديوانه» ٣/١٤١٤-١٤١٥] :

مُسْتَظْهَرٌ بِذَخِيرَةِ مَنْ رَأَيْهِ تُضِئِي الْأُمُورَ وَبَخْرُهَا لَمْ يُنْزَفِ
إِلَّا يَكُنْ كَهَلِ السَّيْنِ فَإِنَّهُ كَهْلُ التَّجَارِبِ فِي ضَجَاجِ الْمَوْقِفِ
تَبْدُو مَوَاقِعُ رَأْيِهِ وَكَأَنَّهَا غُرُرُ السَّوَابِقِ مِنْ يَفَاعِ مُشْرِفِ^(١)
وَإِذَا خِطَابُ الْقَوْمِ فِي الْخُطْبِ اعْتَلَى فَصَلَ الْقَضِيَّةَ فِي ثَلَاثَةِ أَحْرَفِ

[من الكامل]

ومما يعجبني من هذه القصيدة قوله [في «ديوانه» ٣/١٤١٧] :

قَاسَمْتَهُ أَخْلَاقَهُ وَهِيَ الرَّدَى لِلْمُعْتَدِي ، وَهِيَ النَّدَى لِلْمُعْتَمِي
فَلِذَا جَرَى مِنْ غَايَةِ وَجْرِيَّتِ مِنْ أُخْرَى النَّقَى شَأْوَكَمَا فِي الْمَنْصَفِ

[من الكامل]

وما زال الناسُ يُعجبونَ بقولِ ابنِ هانئِ الأندلسيِّ :

أَبْنِي الْعَوَالِي السَّمْهَرِيَّةِ وَالْمَوَا ضِي الْمَشْرِفِيَّةِ وَالْعَدِيدِ الْأَكْثَرِ
مَنْ مِنْكُمْ الْمَلِكُ الْمُطَاعُ كَأَنَّهُ تَحْتَ السَّوَابِغِ تُبْعُ فِي حَمِيرِ^(٢)

[من الكامل]

حتى وجدتُ بعضَ لفظِهِ مِنْ قولِ الْبُحْتَرِيِّ [في «ديوانه» ٢/١٠٢٩] :

وَتَنَاوَلَ الضَّحَّاكَ مِنْ خَلْفِ الْقَنَا وَالْمَشْرِفِيَّةِ وَالْعَدِيدِ الْأَكْثَرِ

[من الكامل]

وبعضُ المعنى مِنْ قولِهِ فِي الْقَصِيدَةِ الَّتِي نَوَّهْنَا بِهَا [في «ديوانه» ٣/١٤١٤-١٤١٣] :

يَهْدِيهِمُ الْأَسَدُ الْمُطَاعُ كَأَنَّهُ عِنْدَ اجْتِمَاعِ الْجَحْفَلِ الْمُتَضَايِفِ
عَمُرُوا الْقَنَا فِي مَذْحِجِ أَوْ حَاتِمٍ فِي طَيِّءٍ أَوْ عَامِرٍ فِي خِنْدِفِ

إِلَّا أَنَّ ابنَ هانئِ بتناسقِ قولِهِ ، وجزالةِ لفظِهِ ، واطِّرادِ سياقِهِ ، وحُسنِ اتِّباعِهِ . . كَانَ الْأَحَقُّ بِهِ .

[الإمام المتنبى بقول البحتري]

وقد ألمَّ الناظمُ بقولِ الْبُحْتَرِيِّ : (فَصَلَ الْقَضِيَّةَ فِي ثَلَاثَةِ أَحْرَفِ) ، وذلكَ حيثُ يقولُ [في «العُكْبَرِيِّ» ٢/٢٨٥] :

[من الطويل]

يَقُومُ مَقَامَ الْجَيْشِ تَقْطِيبُ وَجْهِهِ وَتَسْتَعْرِقُ الْأَلْفَاظَ مِنْ لَفْظِهِ حَرْفُ

[من الطويل]

وفي قولِهِ [في «العُكْبَرِيِّ» ٣/٣٩٧] :

حُرُوفٌ هِجَاءِ النَّاسِ فِيهِ ثَلَاثَةٌ : جَوَادٌ وَرُمُحٌ ذَابِلٌ وَحَسَامٌ

(١) اليفاعُ : ما ارتفعَ مِنَ الْأَرْضِ .

(٢) السمهريةُ : الرماحُ الصلبةُ الشديدةُ . السوابغُ ، يقالُ : سبغَ الشيءُ : طالَ واتَّسعَ ، وسبغتِ الدروعُ : فبهى السوابغُ .

[تألم المؤلف على ما آل إليه حال العلويين ونصحه لهم]

و بمناسبة ما سبق عن يحيى بن زيد ، وما قيل في أبيه ، وما ذكرته عن صاحب الزنج ، وما سقته في كرامة آبائنا ، وكون الممدوح في القصيدة التي بين أيدينا علوي النسب . . أنعي على العلويين انقسامهم وتخاذلهم وانحطاطهم ، حتى لقد نهب الصيغر^(١) اثنتين من الإمام مرة ، إحداهما لعلوي ، والأخرى لدلال . فأما الثاني : فلم يصل إلى (الريدة) لاستنفاذها إلا في أربع مئة من أبناء جنسه ، جاؤا مدداً له من نواحي (حضرموت) . وأما العلوي : فلم يلجأ أحد ، ولم يصل إلا وحده ، فما أحقه بأن يتمثل لهم بما سيأتي قبيل المجلس السابع : وكم لها من أخوات تعد بالميئات ، لم يجف بعضها بعد . ولولا ما في ذكرها من جرح العواطف بلا كبير فائدة . لسردنا منها ، فإننا نعد منها ولا نعددها :

[من البسيط]

لَوْ كُنْتُ مِنْ مَازِنٍ لَمْ تَسْتَبِحْ إِلَيَّ بَنُو اللَّقِيْطَةِ مِنْ ذُهْلِ ابْنِ شَيْبَانَ
لَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي عَدَدٍ لَيْسُوا مِنَ الْخَيْرِ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا

والعجب أنك لا ترى أحداً من الناس يتكلم في الأخلاق ومدح الاجتماع مثلهم ، ومع ذلك - ولا أحاشي - تجدهم من أكثر الخلق نفاقاً ، وأفسدهم أخلاقاً ، وإنك لتجد الحاكم ومن دونهم يفضلونهم في الهيئة الاجتماعية بدرجات ، فما أقل حياءهم ، وما أصفق وجوههم ؛ إذ يتبجحون بالانتساب إلى سادات الكون على بُعد ما بينهم من الفرق والبون ، والله درُّ القائل :

[من البسيط]

لَسْتُمْ بَيْنَهُمْ وَلَسْتُمْ مِنْ سُلَالَتِهِمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ أَمْرُكُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ أَمَّا

[من الطويل]

وما أحسن قول الناظم [في « العكبري » ١/١٥٦] :

إِذَا عَلَوِيٌّ لَمْ يَكُنْ مِثْلَ طَاهِرٍ فَمَا هُوَ إِلَّا حُجَّةٌ لِلنَّوَاصِبِ^(٢)

[من الطويل]

وهو من قول شاعر قبله ، يقول لبعض العلويين :

إِذَا الْغُضُنُّ لَمْ يُثْمِرْ وَإِنْ كَانَ شُعْبَةً مِنَ الْمُثْمِرَاتِ اعْتَدَهُ النَّاسُ فِي الْحَطَبِ

[متى يبلغ البيان التمام؟!]

ولما انحرقت سيرة الموسويين بـ (بغداد) . . كتب لهم أحد محبيهم - بما قومنا به الآن أحق منهم - وهو هذا :

[من الطويل]

يَعِزُّ عَلَيَّ أَسْلَافِكُمْ يَا بَيْيَ الْعُلَا إِذَا نَالَ مِنْ أَعْرَاضِكُمْ شَتْمُ شَاتِمٍ
بَنَوْا لَكُمْ مَجْدَ الْحَيَاةِ فَمَا لَكُمْ أَسَأْتُمْ إِلَيَّ تِلْكَ الْعِظَامِ الرَّمَائِمِ
إِذَا أَلْفُ بَانَ خَلْفَهُمْ هَادِمٌ كَفَى فَكَيْفَ بَانَ خَلْفَهُ أَلْفُ هَادِمِ

والمعنى موجود في قوله تعالى : ﴿ يَنْسَاءَ النَّبِيُّ مَنْ يَأْتِ مِنْكَ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ يُضْعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى

(١) الصيغر : قبيلة من قبائل (حضرموت) .

(٢) النواصب - جمع ناصب - : وهم الخوارج الذين نصبوا العداوة للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام .

اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٠]، وقوله: ﴿يسيراً﴾ ممّا يحقُّ به للأحزان أن تشمل رباطها^(١)، وللقلوب أن يتقطع نياطها^(٢)، فما لنبيّ معه إرادة، ولا بينه وبين أحدٍ من خلقه هواده، فأنتي ينجو المقصّر، أو يسعد الطالح، وقد قال الله تعالى لنوح عليه السلام: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦]، وما أحسن ما قلتُ من قصيد: [من الطويل]

إِذَا لَمْ يَسِرْ نَجَلِ النَّبِيِّ بِسَيْرِهِ فَلَا بَدْعَ إِنْ قَالَ الْعِدَا إِنَّهُ دَعِيَ

أَيُّ حَقٍّ نصره؟! وأيُّ باطلٍ أنكره؟! وأيُّ واحدٍ منهم تمعّر وجهه^(٣) في ذاتِ الله؟! مع عرضِ دعاويهم وطولها، وكثرة مواعظهم وفضولها، بل أيُّ رذيلةٍ بـ (حضر موت) و (جاوه)^(٤) لم يقرعوا مروءتها، ولم يصعدوا ذروتها؟!

[قصيدة للمؤلف في العلويين]

أَرْوَيْهِ امْرَأً مِنْهُمْ تَمَعَّرَ عِنْدَمَا	تَمَطَّى الْبَلَا فِي قُطْرِنَا بِظَلَامِهِ
وَقَامَ احْتِسَاباً يَوْمَ حَلَّتْ بِعُقْرِنَا	طَلَائِعُ كُفْرٍ هَمَّهَا فِي التَّهَامِهِ
أَيُّغْضِي عَلَيَّ هَذَا الْقَذَا جَفْنُ مُسْلِمٍ	يُؤَمِّلُ بِالْإِسْلَامِ مَحْوِ أُنَامِهِ؟
وَيَرْضَى بِتَحْرِيفِ الشَّرِيعَةِ طَامِعٌ	مِنَ اللَّهِ أَنْ يَحْظَى بِحُسْنِ خِتَامِهِ
وَيُذْهِنُ فِي ذَاتِ الْإِلَهِ وَلَوْ عَدَا	عَلَى شَاتِهِ لَمْ يَنْحِجْزْ عَن قِيَامِهِ
وَيَغْضَبُ فِي شَرَوَى نَقِيرٍ وَيُكْثِرُ	الضُّجَّاجَ إِذَا مَا زَادَ مِلْحُ طَعَامِهِ
وَيَخْطِرُ مِثْلَ الْفَحْلِ إِنْ قَصَرَ امْرُؤٌ	يُلَاقِيهِ فِي تَقْبِيلِهِ وَاحْتِرَامِهِ
إِذَا لَمْ يَكُنْ يَرْجُو وَإِلَّا فَإِنَّهُ	يُلَاقِيهِ مِنْ قَبْلِ رَدِّ سَلَامِهِ
فَهَيْهَاتَ مِمَّنْ كَانَ ذَا وَصْفِهِ التُّقَى	وَإِنْ زَادَ فِي تَسْبِيحِهِ وَصِيَامِهِ
فَزِيَّ صَالِحِ الْقَوْمِ مَا رَيْتُ مِثْلَهُ	مِنَ الشُّحْبِ إِلَّا خَالِيَاتِ جَهَامِهِ ^(٥)

[هل صحيح أن الإنسان الذي يبلغ التمام في أمر يُنفذ هذا الأمر من ذريته؟]

ولا أزال في وجَلٍ من مقالةٍ طرقتُ سمعي في « شرح النهج » [٤٥/١٢]، حاصلها: أن سيّدنا عمرَ بن الخطّابِ استفرغ عدلَ ذرّيته، فلم يتولّ منهم عادلاً إلا نادراً بطريقة الشذوذ؛ لأنّ الأمر في أسلافنا على مقربةٍ ممّا ذكّر عن ابن الخطّابِ في بلوغ الغايات من الفضائل، فنخاف أن يكون السابقون إلى عهد المُقدّم^(٦) استفرغوا ما لمن بعدهم من الجهاد والكفاح، وملاعبة الأسنّة والصفّاح، وأن يكون الفقيه ومن بعده استفرغوا ما لأهل عصرنا من خيرٍ وصلاح، وفوزٍ ونجاح، وتقوى وعبادة، وورع وزهادة، ورُبّما شهد الزمان، ودلّل العيان.

وَكَمْ سَفُتُ فِي آثَارِهِمْ مِنْ نَصِيحَةٍ وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الظَّنَّةُ الْمُتَنَصِّحُ^(٧)

(١) الرباط: الملاءة إذا كانت قطعة واحدة، وهو تشبيه للأحزان بما ذكرنا.

(٢) نياط القلب: عرق نبط به القلب إلى الوتين.

(٣) تمعّر الوجه: تعيّرّه واعتلاء الصّفرة عليه من الغيظ.

(٤) جاوه: وتعني (إندونيسية).

(٥) والأبيات من نظم المؤلف - رحمه الله - في «ديوانه» (٣٠٢-٣٠٣) من الطويل. الجَهَامُ: السحاب الذي لا ماء فيه، وقيل: الذي قد هراق ماءه مع الريح.

(٦) أي: إلى عهد الإمام شيخ الشيوخ الفقيه المُقدّم: محمّد بن عليّ الشريف الحسيني التريمي المتوفى سنة: (٦٥٣ هـ) بـ (تريم) رحمه الله تعالى.

(٧) البيت من الطويل، الظَّنَّة: التهمة.

ولكنهم قد وصلوا - من سوء الحالة - إلى حد أنهم يعدون للإنسان ذنباً كاملاً .

[قصيدة أخرى للمؤلف في نعي أسلافه وحث إخوانه]

ولا بأس أن نختم المجلس - على طوله - بذرو من القصيدة التي ختمت بها كتابي « صوب الزكام » ؛ لأن فيه مناسبة للمقام [في ديوان المؤلف « ١٩٧ »] :

[من الطويل]

وَقَدْ أَلْجَمَ الإِذْهَانَ آلَ مُحَمَّدٍ
كَأَنَّ لَمْ يَكُونُوا مِنْ عَلِيٍّ وَلَمْ يَمُتْ
وَيَا لَيْتَهُمْ كَانُوا كَفَافاً وَلَا جَنَى
وَلَوْلَا افْتِرَاقُ بَيْنَهُمْ عَمَّ شَرُّهُ
أَلْحُوا وَلَجُّوا فِي بَعَادٍ وَبِغَضَةٍ
وَفِي شِعْرِ حَدَادِ الْقُلُوبِ نَظِيرُ مَا
وَإِنْ خَاصَّ فِي الإِضْلَاحِ بَعْضُ فَإِنَّهَا
يُرِيدُونَهُ مِنْ غَيْرِ أُنْوَابِهِ وَهَلْ
يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ وَإِنْ تَشَمَّ
سِرَاعٌ إِلَى مَا فِيهِ ضَرٌّ بِقَدْرِ مَا
فَهُمْ فِي اضْطِرَابٍ مِنْ عُبَابِ مَذَاقِهِ
لِسُوقِ الْمَلَاهِي وَالسَّفَاسِفِ بَيْنَهُمْ
وَلَمَّا رَأَوْنِي رَافِعَ الصَّوْتِ بِالدُّعَا
يُقَرِّونَ بِالإِجْمَاعِ لِي بِتَقَرُّدِي
جَزَاءً قِيَامِي بِالنَّصِيحَةِ أَنَّنِي
يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفُوا بِضَغْنِ نَفُوسِهِمْ
وَيَهْوُونَ مَوْتِي وَهُوَ مَوْتُ لِعِزِّهِمْ
يَقُولُونَ لِي : وَارِبُ فَتَابِي أُبُوتِي
وَعَرَضُ كَعَيْنِ الدِّيكِ مَا فِيهِ نُكْتَةٌ
عَفَافٌ بِهِ فِي النَّاسِ أَعْطَسُ شَامِخاً

فَمَا رَيْتُ مَنْ لَلَّهِ يَرْضَى وَيَغْضَبُ
لَهُمْ فِي قِرَاعِ الْجَوْرِ جَدٌّ وَلَا أَبُ
عَلَى الدِّينِ مِنْهُمْ كَاشِحُونَ وَأَجْلَبُوا
لَأَوْشَكَ صَدْعُ الْقَطْرِ بِالْجَوْرِ يُشَعْبُ
فَقَدْ نَشَبُوا فِي حَبْلِ غِيٍّ وَأَنْشَبُوا^(١)
ذَكَرْتُ فَمَاذَا يُنْكَرُ الْمُتَحَرِّبُ؟^(٢)
أَمَانِي آرَاءَ بِهِمْ تَشَعَّبُ
مَعَ التَّرْكِ لِلْأَسْبَابِ يُزْجِي الْمُسَبَّبُ؟
وَمِيضَ وَعُودٍ مِنْهُمْ فَهِيَ خُلْبُ^(٣)
يَفْرُونَ عَمَّا فِيهِ نَفْعٌ مُرْتَبُ
أَجَاجٌ وَلَكِنْ لِلسَّفَاهِينِ يَغْدُبُ
رَوَاجٌ وَلَكِنْ لَيْسَ لِلْحَقِّ مَشْرَبُ
إِلَيْهِ تَحَامُونِي كَأَنِّي أَجْرَبُ
وَمَا لِي فِيهِمْ قَطُّ سَهْلٌ وَمَرْحَبُ
إِذَا شَدْتُ بُيَاناً مِنَ الْمَجْدِ خَرَبُوا
سِرَاجَ هُدًى يُزَكِّيهِ عِلْمٌ فَخَبُّوا
فَلَيْسَ لَهُمْ إِلَّا فِي اللَّيْلِ كَوَكْبُ
وَأَصْلِي وَطَبْعِي ، وَالطَّبِيعَةُ أَغْلَبُ^(٤)
وَسَلَّ هَلْ لَطَعِنِ صَادِقٍ فِي مَذْهَبُ؟
كَأَنِّي عَلَى حُسْنِ اعْتِدَالٍ مُشَدَّبُ^(٥)

(١) نَشَبُوا وَأَنْشَبُوا : تعلقوا بحبل الضلال .

(٢) حداد القلوب : هو الإمام عبد الله الحداد المتوفى سنة (١١٣٢ هـ) رحمه الله تعالى .

(٣) تَشَمَّ : تنظر ، من شام البرق إذا نظر إليه . خُلْبُ : كاذب ، ومنه قولهم : برق خُلْبُ .

(٤) في الأصل : أمومي ، وهو تصحيف . وَارِبُ : خادع .

(٥) مُشَدَّبُ : مُهذَّبٌ مُصَلِّحٌ .

عَلَى حِينٍ لَا عِرْضٌ بِلَا مَثْوِيَّةٍ
وَعَايَتُهُمْ أَنْ يَفْتَرُوا وَمَتَى افْتَرُوا
وَذَلِكَ تَارِيخِي نَقِيٌّ وَحُجَّتِي
وَمَنْ يَكُ فِي شَكِّ فَهَذَا أَنَا ذَا وَمَا
إِذَا لَمْ أُجِبْ عَنْ كُلِّ قَوْلٍ بِقَاطِعٍ

ومنها :

بَعُدْتُ بِفَضْلِي عَنْهُمْ قَدَرًا مَا دَنَا
وَمَا زَالَ لِي بِاللهِ جَلٌّ ثَنَاؤُهُ
عِلَاءٌ بِلَا جُنْدٍ وَلَا رِيحَ دَوْلَةٍ
سَأْمُضِي بِرَاحًا لَا ضِرَاءَ إِلَى الْعُلَى
وَلِي قَلَمٌ كَالْمَشْرِفِيِّ وَمِقْوَلٌ

رَفَاقُ الْخَنَا وَالشَّكْلِ لِلشَّكْلِ يَجْذُبُ
عَلَى هَامَةِ الشُّعْرَى خِبَاءً مُطَنَّبٌ^(٣)
عَلَى قَلْبِ الشُّمِّ الدُّرَى يَتَوَثَّبُ
وَفِي نَصْرِ دِينِ اللهِ لَا أَتَهَيَّبُ^(٤)
يُذِيبُ الصَّفَا آتَاءَ أُمْلِي وَأَكْتُبُ

والله أعلم

* * *

(١) بلا مَثْوِيَّةٍ : بلا استثناء .

(٢) في المخطوط و« الديوان » : أنسى ، ولعله قال : أخشى . والذي في « الديوان » :

وَعَايَتُهُمْ أَنْ يَكْذِبُوا وَمَتَى افْتَرُوا
يَعِيُونَنِي غَيْبًا وَفِي كُلِّ مَشْهَدٍ
أَقُولُ تَعَالَوْا قَابِلُونِي فَهَرُّوا
أَقُومُ وَلَا أَنْسَى التَّحَدِّيَ وَأَخْطُبُ .

(٣) الشُّعْرَى : كوكبٌ نيرٌ يَطْلُعُ عند شدة الحرِّ . خِبَاءٌ مُطَنَّبٌ : بناءٌ من وبرٍ مشدودٌ بالحبال .

(٤) البراح : الجهر . الضِرَاءُ : الاستخفاء .

المجلس الرابع

[من الطويل]

قال أبو الطيب المتنبي في «العكبري» ١٦٠/٣ :

مُجِئِي قِيَامِي مَا لِدَالِكُمُ النَّصْلِ بَرِيًّا مِنَ الْجَرْحِي سَلِيمًا مِنَ الْقَتْلِ

[نكوص أصحاب المتنبي عنه وتكليفهم إياه شيئاً ليس من شيمته]

إِذَا أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ : تُحِبُّونَ قِيَامِي عَلَى أَنْ أَبْقَى مَكْتُوفًا ، لَا يَجْرَحُ نَصْلِي ، وَلَا يَقْتُلُ ، وَهُوَ غَيْرُ شِيمَتِهِ الَّتِي يَتَحَدَّثُ
عنها في مثل قوله [في «العكبري» ١٤٨/٤] :

[من الوافر]

وَمَا فِي طَبِّهِ أَنِّي جَوَادٌ أَضَرَّ بِجِسْمِهِ طَوْلُ الْجَمَامِ^(١)

[من الوافر]

وَأَلَمَّ بِهِ الْمَعْرِيُّ فِي قَوْلِهِ [في «ديوانه» ٢٣٣] :

إِذَا مَا النَّارُ لَمْ تَطْعَمْ ضِرَامًا فَأَوْشِكُ أَنْ تَمُرَّ بِهَا رَمَادًا

وَأَمَّا أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ : كَيْفَ تُحِبُّونَ نُهوضي بالأمر ، وقيامي بالثورة ، والحالُ أَنَّ سِوْفَكُمْ الَّتِي تَعْدُونَهَا لِنَصْرَتِي لَمْ
تَعُوذْ عَلَى الْجَرْحِ وَالْقَتْلِ .

[تأمل الإمام من نكوص الأصحاب]

وبه تذكَّرتُ تَأَلَّمُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ نُكُوصِ أَصْحَابِهِ عَنِ الْحَرْبِ ، حَتَّى قَالَ [في «نهج البلاغة» ٣٤] : لَيْتَ مَعَاوِيَةَ صَارَ فَنِي
بِكُمْ صَرَفَ الدِّينَارِ بِالدِّرَاهِمِ ، فَأَعْطَيْتُهُ عِشْرِينَ ، وَأَخَذْتُ مِنْهُ وَاحِدًا . . وَقَالَ : يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ ، وَلَا رِجَالَ ، حُلُومُ
الْأَطْفَالِ ، وَعُقُولُ رِبَّاتِ الْحِجَالِ ، أَكُلَّمَا قُلْتُ لَكُمْ : انْفِرُوا لِقِتَالِ عَدُوِّكُمْ . . قُلْتُمْ : أَمِهْلُنَا حَتَّى تَنْسَلِخَ عَنَّا حَمَارَةٌ
الْقَيْظِ ، وَإِنْ اسْتَنْفَرْتُمْ فِي الشِّتَاءِ . . قُلْتُمْ : أَمِهْلُنَا حَتَّى تَذْهَبَ عَنَّا صَبَارَةٌ الْقَرِّ^(٢) ، أَكُلُّ هَذَا فِرَارًا مِنَ الْحَرِّ وَالْقَرِّ؟!
لَأَنْتُمْ - وَاللَّهِ - مِنَ السِّيفِ أَفْرُ .

وقال مرةً أخرى [في «نهج البلاغة» ٣٣] : لَيْتَ لِي بِكُمْ أَلْفَ رَأْسٍ مِنْ بَنِي فِرَاسٍ بِنِ غَنَمٍ .

هُنَالِكَ لَوْ دَعَيْتَ أَتَاكَ مِنْهُمْ فَوَارِسُ مِثْلُ أَرْمِيَةِ الْحَمِيمِ^(٣)

وقال أيضاً [في «نهج البلاغة» ٦٥] : الدَّلِيلُ مَنْ نَصْرْتُمُوهُ ، وَالْقَلِيلُ مَنْ كَثَّرْتُمُوهُ ، مَنْ رَمَى بِكُمْ . . فَقَدْ رَمَى بِأَفْوَقِ
نَاصِلِ^(٤) ، إِنَّكُمْ - وَاللَّهِ - لَكَثِيرٌ فِي الْبَاحَاتِ ، قَلِيلٌ تَحْتَ الرِّيَاطِ .

(١) الْجَمَامُ : أَنْ يُتْرَكَ الْفَرَسُ فَلَا يُرَكَبُ .

(٢) صَبَارَةٌ الْقَرِّ : شِدَّةُ الْبَرْدِ .

(٣) الْبَيْتُ مِنَ الْوَافِرِ ، الْأَرْمِيَةُ : السَّحَابُ الشَّدِيدُ الْوَقْعُ . الْحَمِيمُ : مَطَرُ الْقَيْظِ .

(٤) أَفْوَقِ نَاصِلٍ : الْفَوْقِ : مَيْلٌ أَوْ انْكَسَارٌ فِي النَّصْلِ ، وَهُوَ السَّهْمُ .

فكلُّ هذا نورِدُهُ بالمعنى ؛ لُبْعِدِ العَهْدِ ، ولعلَّوْ منالِ لهجَةِ الإمامِ ، وفصاحةِ أُسلوبِهِ . . يندفعُ الملامُ .

[مِنَ الطويلِ]

ويشبهُ بعضُهُ قولَ عُوَيْفِ القوافيِّ :

وَمَا أُمُّكُمْ تَحْتَ الْخَوَافِقِ وَالْقَنَا بِشَكْلِي ، وَلَا زَهْرَاءَ مِنْ نِسْوَةِ زُهْرٍ
أَلَسْتُمْ أَقَلَّ النَّاسِ عِنْدَ لَوَائِهِمْ وَأَكْثَرَهُمْ عِنْدَ الذَّبِيحَةِ وَالْقِدْرِ ؟

[البطء عن الضيف والسرعة إلى الطعام تستوجب الهجاء]

ومثلهُ في عكسِ قولِهِ - عليه السلام - لِلْأَنْصَارِ : « إِنَّكُمْ لَتَكْثُرُونَ عِنْدَ الْجَزَعِ ، وَتَقْلُونَ عِنْدَ الطَّمَعِ » . . قولُ الآخرِ :

[مِنَ الطويلِ]

صِغَارٌ مَقَارِيهِمْ عِظَامٌ جُعُورُهُمْ بِطَاءٍ عَنِ الدَّاعِي إِذَا لَمْ يَكُنْ أَكْلًا^(١)

[كثرة كغناء السيل]

وقولُ الحماسيِّ [في « شرح حماسة أبي تمام » ١٠٥٧/٢] : [مِنَ الطويلِ]

وَكَاثِرٌ بِسَعْدٍ إِنَّ سَعْدًا كَثِيرَةً وَلَا تَرْجُ مِنْ سَعْدٍ وَفَاءً وَلَا نَصْرًا
يَرُوعُكَ مِنْ سَعْدٍ بِنِ عَمْرٍو جُسُومَهَا وَتَزْهَدُ فِيهَا حِينَ تَقْتُلُهَا خُبْرًا^(٢)

[البرق الخليبي]

[مِنَ الطويلِ]

وقولُ قرادِ بنِ حَنْشِ [في « شرح حماسة أبي تمام » ١٠٣٥-١٠٣٦/٢] :

وَأَنْتُمْ سَمَاءٌ يُعْجِبُ النَّاسَ نَوْؤُهَا وَأَكْذَبُ شَيْءٍ بَرْقُهَا وَرُعُودُهَا^(٣)
فَوَيْلُ امَّهَا خَيْلًا بَهَاءً وَشَارَةً إِذَا لَاقَتِ الْأَعْدَاءَ لَوْلَا صُدُودُهَا^(٤)

وذكرتُ هنا ما لا يليقُ بالأدبِ ذكرُهُ معَ كلامِ الإمامِ في كتابِ فضلًا عنَ مجلسِ واحدٍ لولا سعةُ العُذْرِ ؛ بأنَّ مجالِسَنَا كالكشكولِ^(٥) .

[أبو العتاهية يهجو عبد الله بن معن بن زائدة]

وقد جاءَ عَنِ السَّلَفِ الطَّيِّبِ التَّرْخِيصُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ ، وَهُوَ مَا وَقَعَ مِنْ أَبِي العتاهيةِ معَ عبدِ اللهِ بنِ معنِ بنِ زائدةَ ،

[مِنَ البسيطِ]

وقولُهُ لَهُ [في « ديوانِهِ »] :

لَمْ تَنْدَ كَفَّاكَ مِنْ بَذْلِ النَّوَالِ كَمَا لَمْ يَنْدَ سَيْفُكَ مُذْ قُلِّدْتَهُ بَدَمَ

[مِنَ الهزجِ]

وقولُهُ [في « ديوانِهِ » ٦٠٨] :

فَصُغْ مَا كُنْتَ حَلَيْتَ بِهِ سَيْفَكَ خِلْخَالًا

(١) مقاربيهم جمع مقراة ، وهي القصعة التي يقرئ للضيف فيها . جُعُورُهُمْ : جمع جاعرة ، وهو حلقة الدبر ، وقصد بذلك كبرها عندهم من كثرة أكلهم .

(٢) العُخْبُرُ : العلمُ بالشيءِ .

(٣) نَوْؤُهَا : ضوؤها . وقيل عن النوء : إنه سقوط نجم في المغرب وطلوع رقيقه من ساعته في المشرق ، وذلك في كل ثلاثة عشر يوماً .

(٤) المعنى : أنهم في الهيئة والبهاء والمنظر فرسان ، إلا أنه لا خير فيهم عند ملاقات الأعداء .

(٥) الكشكول : وعاء المتسول يجمع فيه رزقه ، واسم كتاب لبهاء الدين العاملي . وأصل الكلمة آرامية .

فَمَا تَصْنَعُ بِالسَّيْفِ إِذَا لَمْ تَكُ تَقَالاً

[عبد الله يأمر غلمانه بارتكاب الفاحشة من أبي العتاهية]

وما زال يهجوهُ بمثل ذلك ، وبما هو أمضٌ منه . . حتَّى احتالَ عليه ، وأظهرَ لَهُ المصافاةَ ، ودعاهُ ، فأمرَ غلمانه أن يرتكبوا منه الفاحشةَ بمرآه ، وتصالحا بعقبِ ذلك^(١) .

[السيوف الممدوحة]

وفي عكسِ المعنى يقولُ السَّمَوِيُّ [في «ديوانه» ٤٩٠-٥٠] :

[من الطويل]

وَأَسْيَافُنَا فِي كُلِّ شَرْقٍ وَمَغْرِبٍ بِهَا مِنْ قَتَالِ الدَّارِعِينَ فُلُوقُ
مَعْوَدَةٌ أَنْ لَا تُسَلَّ نِصَالُهَا فَتَغْمَدَ حَتَّى يُسْتَبَاحَ قَتِيلُ

[هل عيب السيوف الفلول ؟]

والأوَّلُ : شبيهُ بقولِ النابغةِ الذبيانيِّ [في «ديوانه» ٦٠] :

[من الطويل]

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُوقٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

[معرفة عروة بن الزبير سيف أخيه]

ويروى [كما في «وفيات الأعيان» ٢٥٧/٣] : أَنَّ عُرْوَةَ بْنَ الزُّبَيْرِ قَدِمَ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ دُبُرَ مَقْتَلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ ، فَطَلَبَ سَيْفَ أَخِيهِ ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ عَبْدُ الْمَلِكِ سَيْوفاً كَثيرةً فِيهَا سَيْفُ عَبْدِ اللَّهِ ، فَأَخَذَ وَاحِداً مِنْهَا ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ : بِمَ عَرَفْتَهُ ؟ قَالَ : بِقَوْلِ النَّابِغَةِ ، وَأَنْشَدَ الْبَيْتَ .

[لا ينبغي لني لبس لأمة أن ينزعها حتى يقاتل]

وأما الثاني : فشبيهة بما صنعه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يومَ أُحُدٍ ، وذلكَ أَنَّهُ كَانَ مِنْ رَأْيِهِ أَنْ لَا يَخْرُجَ عَنِ (المدينة) فِي لِقَاءِ قُرَيْشٍ ، ثُمَّ لَمْ يَزَلْ بِهِ بَعْضُ أَصْحَابِهِ حَتَّى لَبَسَ لِأُمَّتِهِ^(٢) ، وَلَمَّا ظَنُّوا أَنَّهُمْ اسْتَكْرَهُوهُ . . سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ ، فَقَالُوا لَهُ ، فَقَالَ [صلى الله عليه وسلم] : « لَا يَنْبَغِي لِنَبِيِّ لِبْسَ لِأُمَّتِهِ أَنْ يَنْزِعَهَا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمِهِ »^(٣) .

[الشعراء وتلبية المنادي]

وقال الفرزدقُ [في «ديوانه» ١٣٩/١] :

[من الطويل]

بِأَيْدِي رِجَالٍ لَمْ يُشِيمُوا سُيُوفَهُمْ وَلَمْ يُكْثِرُوا الْقَتْلَى بِهَا حِينَ سَلَّتِ^(٤)

[من الطويل]

وقال بشارُ [في «ديوانه» ١٦٣/٤] :

إِذَا مَا غَضِبْنَا غَضِبَةً مُضَرِّيَةً هَتَكْنَا حِجَابَ الشَّمْسِ أَوْ قَطَرَتْ دِمَا

(١) ذكر القصة في «الأغاني» (٢٦/٤) .

(٢) لِأُمَّتِهِ : دِرْعُهُ ، وَقِيلَ : سِلَاحُهُ .

(٣) أخرجه عن جابر ابن الجارود في «المتقى» (٢٦٦) بلفظ : « حَتَّى يُقَاتِلَ » . وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠٧/٦) ، وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .

(٤) لم يشيموا : لم يغمدوا .

وقال البُحرِيُّ :

[من الوافر]

فَتَى هَزَّ الْقَنَا فَحَوَى سَنَاءَ بِهَا لَا بِالْأَحَاطِي وَالْجُدُودِ

[من الطويل]

وقال يزيدُ المهلبِيُّ :

سَعَيْتُمْ فَأَدْرَكْتُمْ بِصَالِحِ سَعْيِكُمْ وَأَدْرَكَ قَوْمٌ غَيْرُكُمْ بِالْمَقَادِرِ

[من الطويل]

وقال الناظمُ [في «المُكَبَّرِيَّ» ٤/٢٩١] :

وَمَا كُنْتَ مِمَّنْ أَدْرَكَ الْمُلْكَ بِالْمُنَى وَلَكِنْ بِأَيَّامِ أَشْبَنَ النَّوَاصِيَا

[من المنسرح]

وقال [في «المُكَبَّرِيَّ» ١/٧١] :

أَحْسَنُ مَا يُخْضَبُ الْحَدِيدُ بِهِ وَخَاضِيهِ النَّجِيعُ وَالْعَضَبُ^(١)

[يزيد بن المهلب والإمارة]

[من الطويل]

وسلمتُ إحدىَ حظايا يزيد بن المهلبِ بالإمارةِ عليه ، فقالَ متمثلاً بقولِ بشرِ بنِ قَطَنَةَ الأَسَدِيِّ :

رُوَيْدِكَ حَتَّى تَنْظُرِي عَمَّ تَنْجَلِي غَمَامَةٌ هَذَا الْعَارِضِ الْمُتَأَلَّقِي^(٢)

[مكان الأمور الحسيمة]

[من الطويل]

وقال العتَابِيُّ [في «الأغاني» ١٣/١٣٧] :

فَإِنَّ جَسِيمَاتِ الْأُمُورِ مَشُوبَةٌ بِمُسْتَوْدَعَاتِ فِي بَطُونِ الْأَسَاوِدِ

[لا بد دون الشهد من إبر النحل]

[من الطويل]

وقال الناظمُ [في «المُكَبَّرِيَّ» ٣/٢٩٠] :

ذَرِينِي أَنْلُ مَا لَا يُنَالُ مِنَ الْعُلَا فَصَعْبُ الْعُلَا فِي الصَّعْبِ وَالسَّهْلُ فِي السَّهْلِ
تُرِيدِينَ لُقْيَانَ الْمَعَالِي رَخِيصَةً وَلَا بُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إِبْرِ النَّحْلِ

[طعم الموت لا يتغير]

[من الوافر]

وقال [في «المُكَبَّرِيَّ» ٤/١١٩-١٢٠] :

إِذَا غَامَرْتَ فِي شَرَفِ مَرُومٍ فَلَا تَقْنَعْ بِمَا دُونَ النُّجُومِ
فَطَعْمُ الْمَوْتِ فِي أَمْرِ حَقِيرٍ كَطَعْمِ الْمَوْتِ فِي أَمْرِ عَظِيمٍ
وَكُلُّ شَجَاعَةٍ فِي الْمَرءِ تُغْنِي وَلَا مِثْلَ الشَّجَاعَةِ فِي الْحَكِيمِ
يَرَى الْجُبْنََاءُ أَنَّ الْجُبْنَ حَزْمٌ وَتِلْكَ خَدِيعَةُ الطَّبَعِ اللَّئِيمِ

[من الطويل]

وقال [في «المُكَبَّرِيَّ» ٢/١١٤] :

إِذَا لَمْ تَجِدْ مَا يَبْتَرُ الْفَقْرَ قَاعِدًا فَقُمْ وَاطْلُبِ الشَّيْءَ الَّذِي يَبْتَرُ الْعُمْرَا

(١) النَّجِيعُ : الدَّمُ .

(٢) الخبر مفصلاً في «وفيات الأعيان» (٣٠٣/٦) .

أَهْمُ بِشَيْءٍ وَاللَّيَالِي كَأَنَّهَا تُطَارِدُنِي عَنْ كَوْنِهِ وَأَطَارِدُ
وَحِيداً مِنَ الْخُلَانِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ إِذَا عَظَّمَ الْمَطْلُوبُ قَلَّ الْمُسَاعِدُ

ولا يُحصى كثرة ما لهُ في إثارة العزائم ، وتنبية الحفاظ ، وإذكاء الغيرة ، وإحماء المعاطس .

[شجاعة زيد بن علي]

ولما خرج زيد بن علي . . حذره بعض أبناء عمه ، وقال له : إن أهل (العراق) خذلوا آبائك ، فهم خاذلوك كما خذلوهم ، فتأهب للموت أودع ، فقال متمثلاً [الآيات لعنرة كما في «الأغاني» ٨/ ٢٤٨] :

[من الكامل]

بَكَرْتُ تَخَوُّفِي الْخُتُوفَ كَأَنِّي أَصْبَحْتُ عَنْ عَرْضِ الْخُتُوفِ بِمَعَزِلِ
فَأَجَبْتُهَا : إِنَّ الْمَيِّتَةَ مَنْهَلٌ لَا بُدَّ أَنْ أُسْقَى بِكَأْسِ الْمَنْهَلِ
فَأَقْنِي حَيَاءَكَ لَا أَبَا لِكَ وَاعْلَمِي أَنِّي امْرُؤٌ سَامُوثٌ إِنْ لَمْ أُقْتَلِ

[شجاعة داوود بن علي وابنه موسى]

ولما خرج داوود بن علي بن عبد الله وابنه موسى . . عدلهم بعض أصحابهم ، وقال لهم : ما تفعلون بشيخ العرب يزيد بن عمر بن هبيرة في فرسانه بـ (العراق) ؟ فقال أبو العباس السفاح - وكان حاضراً - : يا عم ، من أحب الحياة ذل ، ثم تمثّل بقول الأعمش [في «ديوانه» ٣١٧] :

[من الطويل]

فَمَا مَيِّتَةٌ إِنْ مِتُّهَا غَيْرَ عَاجِزٍ بَعَارٍ إِذَا مَا غَالَتِ النَّفْسَ غَوْلُهَا^(١)

فقال داوود لابنه موسى : صدق ابن عمك ، فلتنهض معه ؛ فإمّا أن نفوز ، وإمّا أن نموت كراماً .

[عبد الله بن الزبير وأمه]

ويروى [كما في «وفيات الأعيان» ٣/ ٧٣] : أن عبد الله بن الزبير دخل على أمه ، وقد أضرت^(٢) ، فسلم ، ودنا ، فقبل يدها ، قالت : هذا وداع فلا يبعد ، قال : إني لأرى لهذا اليوم آخر أيامي في الدنيا ، وإذا قتلت . . فاعلمي أنني لحم ودم ، لا يضرني ما عساهم بي صانعون ، قالت : صدقت يا بني ، فأقم على بصيرتك ، وامض أماً في شأنك ، وتنمّر لعدوك ، ولا تمكّن ابن أبي عقيل منك ، ثم استذنته لتودّعه ، فدنا منها ، فقبلته ، وعانقته ، فوجدت مسّ الدرع ، فقالت : ما هذا صنيع من يريد الشهادة ، فقال : إنّما لبسته لأشدّ منك ، قالت : لا يشدّ مني إلاّ الثابت على الحقّ ، فودّعها ، وخرج يحمل على صفوف الشاميين فيفرقها ، وأرسلت إليه إحدى أزواجه - وقد رأته تفرّق الناس عنه - فأخرج فأقاتل معك ؟ فقال : لا ، وأنشد :

[من الخفيف]

كُتِبَ الْقَتْلُ وَالْقِتَالُ عَلَيْنَا وَعَلَى الْغَايِبَاتِ جَرُّ الذُّيُولِ

فلما كان الليل . . قام يصلي إلى قريب السحر ، ثم احتبى^(٣) بحمائل سيفه ، وأغفى قليلاً ، ثم : قام فتوضأ ،

(١) غولها - بالرفع : ما يغتالها .

(٢) أضرت : أصبحت عمياء .

(٣) احتبى : جلس على آتيته وضمّ فخذه وساقه إلى بطنه بذراعيه ليستند ، واحتبى بالثوب : أداره على ساقه وظهره وهو جالس على نحو ما سبق ليستند ، وكذلك الاحتماء بالسيف .

وصلّى ، وقرأ : ﴿ ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [الْقَلَم : ١] ، ثُمَّ قَالَ بَعْدَ انْقِضَاءِ صَلَاتِهِ : مَنْ كَانَ عَنِّي سَائِلًا . . فَإِنِّي فِي الرِّعَالِ الْأَوَّلِ ، ثُمَّ أَنْشَدَ [في « شرح حماسه أبي تمام » ١/٣٤١] :

[من الطويل]

وَلَسْنَا بِمُبْتَاعِ الْحَيَاةِ سَبْبَةٍ وَلَا مُرْتَقِيٍّ مِنْ خَشْيَةِ الْمَوْتِ سَلْمًا

ثُمَّ حَمَلَ حَتَّى بَلَغَ (الْحُجُونَ) ، فَرُمِيَ فِي وَجْهِهِ ، فَلَمَّا وَجَدَ سَخُونَةَ الدَّمِ . . قَالَ [في « شرح حماسه أبي تمام » ١/٣١٦] :

[من الطويل]

وَلَسْنَا عَلَى الْأَعْقَابِ تَذْمَى كُلُّومَنَا وَلَكِنْ عَلَى أقدامِنَا تَقَطَّرُ الدَّمَا

ثُمَّ حَمَلَ عَلَى أَهْلِ (الشَّامِ) ، فغاصَ فِيهِمْ ، فاعتوروهُ بسيفِهم حَتَّى سَقَطَ ، وجاءَ الحَجَّاجُ فوقفَ عَلَيْهِ ، وهو مَيِّتٌ ، ومعه طَارِقُ بْنُ عَمْرٍو ، فقالَ : ما ولدتِ النساءُ أَذْكَرَ مِنْ هَذَا ! وكانَ قد انفضَّ مِنْ حوله عَامَّةُ أَصْحَابِهِ ، حَتَّى بعضُ أولادِهِ خرجوا إلى الحَجَّاجِ فِي الْأَمَانِ ، منهم : حمزةُ وَحُيَيْبٌ ، وعزمَ اللهُ لَهُ بالثباتِ كما شجعتُهُ عَلَيْهِ أُمُّهُ فِي كلامِها السابقِ بعضُهُ . وإِنَّهَا لأُمُورٌ تَفُفُّ لَهَا الشُّعُورُ ، وتذرفُ لَهَا العيونُ ، وتمتلئُ بِهَا القلوبُ .

[المفضل الضبي وإبراهيم بن عبد الله بن الحسن]

وَرَوَى أَبُو الفَرَجِ الْأصبهانيُّ [في « الأغاني » ١٩/٢٠٤] عَنِ الْمُفضَّلِ بْنِ أَحْمَدَ الضَّبِّيِّ قَالَ : خرجَ إبراهيمُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ الحَسَنِ ، فلَمَّا كانَ بِـ (المَرَبِدِ) . . استسقى ماءً ، فَأَتَى بِهِ ، فشرِبَ ، ثُمَّ تَمَثَّلَ بِأبياتٍ مِنْها [في « ديوان ضرار بن الخياط » ٧٦٧٥] :

[من المنسرح]

إِنِّي لِأَنْمِي إِذَا انْتَمَيْتُ إِلَى عَزَّ عَزِيزٌ وَمَعَشَرٍ صُدُقِ^(١)
بِيضٍ سِبَاطٍ كَأَنَّ أَعْيُنَهُمْ تُكْحَلُ يَوْمَ الْهِيَاجِ بِالْعَلَقِ^(٢)

فقلتُ : لِمَنْ هذه ؟ فقالَ : يقولها ضرارُ بْنُ الخَطَّابِ الفِهْرِيُّ يَوْمَ عَبَرَ الخندقَ عَلَى رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وتمثَّلَ بِهَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ يَوْمَ صَفِّينَ ، والحسينُ يَوْمَ الطَّفِّ ، وزيدُ بْنُ عَلِيٍّ يَوْمَ السَّبْحَةِ ، ويحيى بْنُ زَيْدٍ يَوْمَ الجوزجانِ ، فتنطَّرتُ مِنْ تَمَثُّلِهِ بِأبياتٍ لَمْ ينشدها أَحَدٌ إِلَّا قَتِلَ ، ثُمَّ سرنا إلى باخمرى ، فَأَتَاهُ نَعِيُّ أَخِيهِ مُحَمَّدٍ ، فتغيَّرَ لونهُ ، وَجَرَضَ بِرِيقِهِ^(٣) ، ثُمَّ أَجْهَشَ بِأَكْيَا ، وقالَ : اللَّهُمَّ إِن كُنتَ تَعْلَمُ أَنَّ مُحَمَّدًا خَرَجَ يَطْلُبُ مَرْضَاتِكَ ، وَيؤثرُ أَنْ تَكُونَ كَلِمَتِكَ العَلِيَا . . فاغفرْ لَهُ ، وارحمهُ ، وارضَ عَنْهُ ، ثُمَّ تَمَثَّلَ :

[من البسيط]

اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّي لَوْ خَشِيتُهُمْ لِأَنَّسَ الْقَلْبُ مِنْ خَوْفِ لَهُمْ فَزَعَا
لَمْ يَقْتُلُوكَ وَلَمْ أُسْلِمِ أَخِي لَهُمْ حَتَّى نَعِيشَ جَمِيعًا أَوْ نَمُوتَ مَعَا

قالَ الْمُفضَّلُ : فجعلتُ أُعزِّيهِ ، وأُعاتبه عَلَى ما أَظْهَرَ مِنْ جِزَعِهِ . فقالَ : إِنِّي - وَاللهِ فِي هَذَا - لَكَمَا قالَ دَرِيدٌ [في « ديوانه » ٦٣-٦٥] :

[من الطويل]

يَقُولُ أَلَّا تَبْكِي أَخَاكَ وَقَدْ أَرَى مَكَانَ الْبُكَاءِ لَكِنْ يُبَيْتُ عَلَى الصَّبْرِ

(١) أَنمي : أَنتمِي وَأَنْتَسِبُ .

(٢) العَلَقُ : الدَّمُ الغليظُ ، وصفهم بحمرةِ الأعينِ ؛ لِشِدَّةِ الغضبِ فِي الحربِ .

(٣) جَرَضَ بِرِيقِهِ : ابتلعَ ريقَهُ عَلَى هَمٍّ وَحزْنٍ بِالْجَهْدِ .

لَمَقْتَلِ عَبْدِ اللَّهِ وَالْهَالِكِ الَّذِي
فَإِمَّا تَرَيْنَا لَا تَزَالُ دِمَاؤُنَا
فَإِنَّا لِلْحُمِّ السَّيْفِ غَيْرَ نَكِيرَةٍ
يُغَارُ عَلَيْنَا وَإِيرِينَ فَيُشْتَمَى
بِذَاكَ قَسَمْنَا الدَّهْرَ شَطْرَيْنِ بَيْنَنَا

عَلَى الشَّرَفِ الْأَعْلَى قَتِيلِ أَبِي بَكْرٍ
لَدَى وَاتِرٍ يَسْعَى بِهَا آخِرَ الدَّهْرِ
وَنَلْحَمُهُ طَوْرًا وَلَيْسَ بِيذِي نُكْرٍ
بِنَا إِنْ أُصِيبْنَا أَوْ نُغِيرُ عَلَى وَثِرٍ
فَمَا يَنْقُضِي إِلَّا وَنَحْنُ عَلَى شَطْرِ

قَالَ الْمُفَضَّلُ: ثُمَّ ظَهَرَتْ لَنَا جِيوشُ أَبِي جَعْفَرٍ مِثْلَ الْجَرَادِ، فَأَنْشَدَ إِبْرَاهِيمُ^(١) مِثْمَثًا [في «الأغاني» ٢٠٤/١٩]: [مِنَ الطَّوِيلِ]

إِنْ يَقْتُلُونِي لَا تُصِيبْ أَرْمَاحُهُمْ
نُبِّئْتُ أَنَّ بَيْنِي جُذَيْمَةً أَجْمَعَتْ
أَرْمِي الطَّرِيقَ وَإِنْ رُصِدْتُ بِضَيْقَةٍ

ثَأْرِي وَيَسْعَى الْقَوْمُ سَعِيًّا جَاهِدًا
أَمْرًا تُدَبِّرُهُ لِتَقْتُلَ خَالِدًا
وَأَنْزِلُ الْبَطْلَ الْكَمِيَّ الْحَارِدًا^(٢)

فَقُلْتُ لَهُ: لِمَنْ هَذَا يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ؟ قَالَ: يَقُولُهُ خَالِدُ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ كِلَابٍ يَوْمَ (شِعْبِ جَبَلَةَ)، ثُمَّ انْغَمَسَ فِي الْحَرْبِ،
فَقُلْتُ لَهُ: أَتَبَاشِرُ الْقِتَالَ بِنَفْسِكَ، وَإِنَّمَا الْعَسْكَرُ مَنُوطٌ بِكَ؟! فَتَمَثَّلَ بِأَبْيَاتٍ لِعُوَيْفِ الْقَوَافِي، وَالتَّحَمَّتِ الْحَرْبُ، فَقَالَ:
أَحْكَنِي بِشَيْءٍ يَا مَفْضَلُ، فَذَكَرْتُ أَبْيَاتًا لِعُوَيْفٍ لَمَّا كَانَ هُوَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - قَدْ ذَكَرَهُ، فَأَنْشَدْتُهُ: [مِنَ الطَّوِيلِ]

أَبِي كُلُّ حُرٍّ أَنْ يَبِيَّتَ بِوَتْرِهِ
أَقُولُ لِغَيْثِيَانِ كِرَامٍ تَرَوَّحُوا
قِفُوا وَقَفَةً مَنْ يَحْيَى لَا يَخْزَ بَعْدَهَا
وَهَلْ أَنْتَ إِنْ بَاعَدْتَ نَفْسَكَ عَنْهُمْ

وَيُؤْمِنَعُ مِنْهُ النَّوْمُ إِذْ أَنْتَ نَائِمٌ
عَلَى الْجُرْدِ فِي أَفْوَاهِهِنَّ الشَّكَايِمُ^(٣)
مَنْ يُخْخَرَمَ لَا تَتَّبِعُهُ اللَّوَائِمُ
لِتَسْلَمَ فِيمَا بَعْدَ ذَلِكَ سَالِمٌ؟

فَقَالَ: أَعَدَّهَا عَلَيَّ، فَأَعَدْتُهَا، فَتَمَطَّيْتُ فِي رُكَايِهِ، فَقَطَعْتُهُمَا وَحَمَلْتُ، فَغَابَ فِي الْقَوْمِ يَفْرَقُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ
الشَّمَالِ، حَتَّى أَتَاهُ سَهْمٌ عَائِرٌ^(٤) فَقَتَلَهُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ^(٥).

[أَبُو تَمَامٍ وَالشُّجَاعَةُ]

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ أَبِي تَمَامٍ [في «ديوانه» ٣٠٣/٢-٣٠٤]: [مِنَ الطَّوِيلِ]

وَقَدْ كَانَ فَوْتُ الْمَوْتِ سَهْلًا فَرَدَّةً
وَنَفْسٌ تَعَافُ الضَّيْمَ حَتَّى كَانَهُ
فَأَبَّتْ فِي مُسْتَنْقَعِ الْمَوْتِ رِجْلَهُ
فَتَى مَاتَ بَيْنَ الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ مِيتَةً
تَرَدَّى يُثَابَ الْمَوْتِ حُمْرًا فَمَا دَجَى

إِلَيْهِ الْحِفَاظُ الْمُرُّ وَالْخُلُقُ الْوَعْرُ
هُوَ الْكُفْرُ يَوْمَ الرَّوْعِ أَوْ دُونَهُ الْكُفْرُ
وَقَالَ لَهَا مِنْ تَحْتِ أَحْمَصِكَ الْحَشْرُ
تَقُومُ مَقَامَ النَّصْرِ إِنْ فَاتَهُ النَّصْرُ
لَهَا اللَّيْلُ إِلَّا وَهِيَ مِنْ سُنْدُسٍ خُضْرُ

(١) هو إبراهيم بن عبد الله بن حسن العلوي . «السير» (٢١٨/٦) .

(٢) الكمي : الشجاع المقدم الجريء كان عليه سلاح أو لم يكن . الحارث : الغضبان .

(٣) الجرود - جمع أجرد - : الحصان . الشكائم : جمع شكيمة ، ما يلجم فم الفرس من الحديد .

(٤) سهم عائز : الطائش الذي لا يعرف راميه .

(٥) جاء في «الأغاني» (٢٠٥/١٩) .

فَتَى النَّكَبَاتِ مَنْ يَأْوِي إِذَا مَا
يُثِيرُ عَجَاجَةً فِي كُلِّ فَجٍّ
يُخْوِضُ مَعَ السَّبَاعِ الْمَاءَ حَتَّى
يُلْبِّي الْحَزْمَ إِنْ حَاوَلْتَ يَوْمًا
فَلَمْ يَرْكَبْ كَنَاجِيَةَ الْمَهَارِي
يُطْفَنَ بِهِ إِلَى خُلُقِي وَسَاعِ
بِهِمْ بِهَا عَدِيُّ بْنُ الرَّقَاعِ^(١)
لِتَحْسَبُهُ السَّبَاعُ مِنَ السَّبَاعِ
بِأَنْ يَسْطِيعَ غَيْرَ الْمُسْتَطَاعِ
وَلَمْ تَرْكَبْ هُمُومَكَ كَالزَّمَاعِ^(٢)

إِنَّ خَيْرًا مِمَّا رَأَيْتُ مِنَ الصَّفْحِ
عَزْمَةٌ تَقْتَدِي بِعَزْمَةِ قَيْسِ بْنِ
غَرَضِي نَكَبَتَيْنِ مَا فَتَلَا رَأَى
مَنْ أَبَنَّ الْبُيُوتَ أَضْبَحَ فِي نُو
وَالْفَتَى مَنْ تَعَرَّفْتَهُ اللَّيَالِي
كُلَّ يَوْمٍ لَهُ بِصَرْفِ اللَّيَالِي
عَنِ النَّائِبَاتِ وَالْإِغْمَاضِ
زُهَيْرِ وَالْحَارِثِ بْنِ مُضَاضِ^(٣)
يَا فَخَافَا عَلَيْهِ نَكَبَتْ أَنْتَقَاضِ
بِ مِنَ الْعَيْشِ لَيْسَ بِالْفَضْفَاضِ^(٤)
وَالْفِيَّافِي كَالْحَيَّةِ النَّضْنَاضِ^(٥)
فَتَكَّةٌ مِثْلُ فَتَكَّةِ الْبَرَّاضِ^(٦)

[تسهيل الصعب بم يكون ؟]

يَا نَدِيمِي بِالسَّوَاجِرِ مِنْ شَمْسِ بْنِ عَمْرٍو
أُطْلَبَا ثَالِثًا سِوَايَ فَإِنِّي
لَسْتُ بِالْعَاجِزِ الضَّعِيفِ وَلَا الْقَا
وَإِذَا اسْتَضَعَبَتْ مَقَادَةَ أَمْرِ
رَابِعُ الْعَيْسِ وَالذُّجَى وَالْيَيْدِ
ئِلَّ يَوْمًا : إِنَّ الْغِنَى بِالْجُدُودِ^(٨)
سَهَّلَتْهُ أَيْدِي الْمَهَارَى الْقُدُودِ^(٩)

(١) ذكر الاسم لمناسبه للقافية ، ولا علاقة له بالموضوع .

(٢) ناجية المهاري : الناقة الكريمة . الزماع : العزم على الرحيل ؛ أي : لم تضع الرجل على شيء يضاهاى الناقة الكريمة ، ولم تركب همومك على دابة مثل عزمك على الرحيل .

(٣) العزم : الصبر على الشدائد . وعزمة : خبر (إن) في البيت السابق . وقيس بن زهير العبسي مشهور ، حارب ذبيان وانتقل في البلاد كثيرا ، والحارث بن مضاض ينتسب في جزهم ، كان رئيسا في مكة (أيام كان قومه فيها .

(٤) ابن : أقام .

(٥) الحية النضناض : التي لا تثبت في مكانها لشرتها ونشاطها .

(٦) البراض بن قيس الكنانى توفي نحو (٣٥ ق . هـ) ، قتل عروة الرجال ، فاتك جاهلي ، يضرب بفتكه المثل ، كان فجر حرب الفجار التي وقعت بين قيس وكنانة .

(٧) السواجر : نهر مشهور من عمل (منبج) بـ (سوريا) .

(٨) الجدود : الحظوظ .

(٩) المهاري - جمع مهريّة - : وهي الناقة التي تسبق الخيل ، نسبة إلى بني مهرة بن حيدان ؛ وهم حي من العرب اشتهروا بإبلهم . القود - جمع قوداء - : وهي الطويلة الأعناق .

وما أحسن قول الناظم [في «العكبري» ١٤٨/٢-١٤٩] :

[من الطويل]

أطاعنُ خَيْلاً مِنْ فَوَارِسِهَا الدَّهْرُ
وَأَشْجَعُ مِنِّي كُلَّ يَوْمٍ سَلَامَتِي
تَمَرَّسْتُ بِالْأَيَّامِ حَتَّى تَرَكَتُهَا
وَأَقْدَمْتُ إِفْدَامَ الْأَيْيِ كَأَنَّ لِي
ذَرَّ النَّفْسَ تَأْخُذُ حَظَّهَا قَبْلَ بَيْنِهَا
وَلَا تَحْسَبَنَّ الْمَجْدَ زِقَاً وَقَيْنَةً
وَتَضْرِبُ هَامَاتِ الْمُلُوكِ وَأَنْ تُرَى
وَتَرْكُكَ فِي الدُّنْيَا دَوِيّاً كَأَنَّمَا
وَحِيداً ، وَمَا قَوْلِي كَذَا وَمَعِيَ الصَّبْرُ !؟
وَمَا ثَبَّتْ إِلَّا وَفِي نَفْسِهَا أَمْرُ
تَقُولُ : أَمَاتَ الْمَوْتُ أَمْ دُعِرَ الدُّعْرُ؟^(١)
سِوَى مُهْجَتِي أَوْ كَانَ لِي عِنْدَهَا وَتْرُ^(٢)
فَمُفْتَرِقُ جَارَانِ دَارُهُمَا الْعُمْرُ
فَمَا الْمَجْدُ إِلَّا السَّيْفُ وَالْفَتَكَةُ الْبِكْرُ
لَكَ الْهَبَوَاتُ الشُّوْدُ وَالْعَسْكَرُ الْمَجْرُ^(٣)
تَدَاوَلَ سَمْعَ الْمَرْءِ أَنْمَلُهُ الْعَشْرُ

[ابن المقرب والشجاعة]

وفي «ديوان ابن المقرب» الغثُ والسمينُ ؛ فَمِنْ سَمِينِهِ الَّذِي يَذْكِي الْحَمِيَّةَ ، وَيَهِيجُ الْغَيْزَةَ ، وَيَكَادُ يَقْدِفُ بِالْمَوْتُورِ مِنْ سَرَجِهِ إِلَى سَاحَةِ الْوَعْيِ . . . قَوْلُهُ :

[من الوافر]

تُخَوِّفُنِي ابْنَةُ الْعَبْدِيِّ فَتَكِي
وَتَعْدِلُنِي عَلَى إِنْفَاقِ مَالِي
فَقُلْتُ لَهَا وَقَدْ أَرَبْتِ وَزَادَتْ
أَأَخْشَى الْفَقْرَ وَالِدُنْيَا مَتَاعُ
وَلَمْ يَخْفَظْ مُضَاعَ الْمَجْدِ شَيْءُ
ذَرِينِي وَالْمُلُوكُ بِكُلِّ أَرْضٍ
فَمَا أَيْمَانُهُمْ تَعْلُو شِمَالِي
سَأَطْلُبُ حَقَّ آبَائِي وَحَقِّي
وَإِفْحَامِي الْمَهَالِكِ وَافْتِرَاعِي
وَتَزْعُمُ أَنَّهَ لِلْفَقْرِ دَاعِي
رُوَيْدِكَ لَا شَفِيَتْ فَلَنْ تَطَاعِي
وَرَبِّي بِالْكَرَامِ أَبْرُ رَاعِي
مِنْ الْأَشْيَاءِ كَالْمَالِ الْمُضَاعِ
أَكْبَلُهَا الرَّدَى صَاعاً بِصَاعِ
وَلَا أَبْوَاعُهُمْ تَعْلُو ذِرَاعِي^(٤)
وَلَوْ مِنْ بَيْنِ أَيْتَابِ الْأَفَاعِي

[سرقة الشعراء من بعضهم]

وقوله : (وَلَمْ يَخْفَظْ مُضَاعَ الْمَجْدِ شَيْءٌ . . . إلخ) مأخوذٌ بِرُمَّتِهِ مِنْ أَبِي تَمَّامٍ ، وَقَدْ أَخَذَهُ النَّازِمُ بِمَعْنَاهُ ، فَقَالَ لَبِي «العكبري» ١٨٥/٣] :

[من الطويل]

إِلَى رَبِّ مَالٍ كُلَّمَا شَتَّ شَمْلُهُ
تَجَمَّعَ فِي تَشْتِيَتِهِ لِلْعُلَا شَمْلُ

(١) في «العكبري» : (بِالْأَيَّامِ) بدل (بِالْأَيَّامِ) .

(٢) الأئبي : السيل المنذفع .

(٣) الهبوات : الغبار الكثيف . المَجْرُ ، يُقَالُ : جِيشٌ مَجْرٌ ، كَثِيرٌ جَدًّا .

(٤) أبواع - جمع باع وبيع : وهو وحدة قياس مقدارها ما بين الكفين حال بسطهما ، وتعاذل : (٢) متراً . والذراع : وحدة قياس مقدارها ما بين طرف العرفق إلى طرف الإصبع الوسطى . والبيع أيضاً عظم يلي إبهام الرجل .

أَبْدَأُ يُصَدِّعُ شَعْبَ وَفِرٍ وَفِرٍ وَيَلْمُ شَعْبَ مَكَارِمٍ مُتَّصِدَعًا^(١)
 إِلَّا أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يمدَحَ فذَمَّ ؛ وذلك لاقتضاء كلامه تصدُّع مكارمٍ ممدوحه .
 وقول أبي تمام السابق : (يَخُوضُ مَعَ السَّبَاعِ الْمَاءَ حَتَّى . . . إلخ) مأخوذٌ من قول عبد الله بن ثعلبة الأزدي :

تَرِدُ السَّبَاعُ مَعِيَ فَتَخْسِي السَّبَاعُ مِنَ السَّبَاعِ

[أجمل ما قيل في التحريض على الإباء]

والأشعارُ في التحريضِ على الإباءِ والأنفِ من احتمالِ الضيمِ أكثرُ من أن تُذكرَ ، ويأتي في هذه المجموعة الكثيرُ الطيبُ منها بحسبِ المناسباتِ ، ومن أحسنها ، أو أحسنها على الإطلاقِ عندي . . قولُ بعضِ الخوارجِ [في «شعرِ الخوارجِ» ١١٧-١١٨] :

وَمَنْ يَخْشَ أَظْفَارَ الْمَنَايَا فَإِنَّا
 وَإِنَّ كَرِيهَ الْمَوْتِ عَذْبٌ مَذَاقُهُ
 لَيْسِنَا لَهُنَّ السَّابِغَاتِ مِنَ الصَّبْرِ
 إِذَا مَا مَزَجْنَاهُ بِطَيْبٍ مِنَ الذُّكْرِ

* * *

[قال أبو الطيبِ المتنبي - في «العُكْبَرِيِّ» ٣/ ١٦٠] :

وَحُضْرَةُ نَوْبِ الْعَيْشِ فِي الْحُضْرَةِ الَّتِي
 تُرِيكَ اخْمِرَارَ الْمَوْتِ فِي مَدْرَجِ النَّمْلِ

[تشبيه المتنبي السيف]

شبهه صفيحة السيفِ بمدرجِ النملِ ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ آثَارِ الْفِرْنِدِ^(٢) ، وقالَ : إِنَّ خَفِضَ الْعَيْشِ وَطَيْبَهُ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي
 اسْتِعْمَالِ السِّيفِ الَّذِي يَمِيلُ صَفَاؤُهُ إِلَى الْحُضْرَةِ ؛ لِأَنَّهُ أَفْضَلُ السِّيُوفِ ، وَفِي الْمَعْنَى قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
 « وَجُبِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمُحِي »^(٣) .

[أفضل المكاسب المغانم]

وصرَّحَ الفقهاءُ : بِأَنَّ أَفْضَلَ الْمَكَاسِبِ الْمَغَانِمُ ، فَمَا جَاءَ بِهَا النَّاطِمُ مِنْ كَيْسِهِ ، وَلَا اسْتَنْزَلَهَا مِنْ سَمَائِهِ ، وَلَا يُحْصَى
 مَنْ افْتَحَرَ مِنَ الْعَرَبِ بِصُفُورَةِ الْيَدِ مِنَ الْمَالِ مَعَ الْاِحْتِفَاطِ بِالسَّلَاحِ .

(١) الشَّعْبُ : مصدرُ شَعَبْتُ الشَّيْءَ إِذَا لَأَمْتَهُ . الْوَفْرُ : الْغِنَى . وَالْمَعْنَى : يَفْرُقُ الْمَالُ وَيَجْمَعُ الْمَكَارِمَ .

(٢) الْفِرْنِدُ : مَا يُرَى فِي السِّيفِ مِنْ تَمُوجَاتِ الضَّوءِ . وَمَدْرَجُ النَّمْلِ : طَرِيقَةُ الَّذِي يَمْشِي فِيهِ .

(٣) طرف الحديث أورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٦٧/٥) وقال : رواه الطبراني ، وفيه عبد الرحمن بن ثابت ، وثقه ابن المديني وأبو حاتم وغيرهما ، وضعفه أحمد وغيره ، وبقي رجاله ثقات .

[من الطويل]

قال أبو الأبيض العنسيّ [في «ديوان الحماسة» ١/١٧٩] :

وَمَا لِي مَالٌ غَيْرَ دِرْعٍ وَمِغْفَرٍ
وَأَسْمَرَ خَطِيّ الْقَنَاةِ مُتَّقِفٍ
وَأَبْيَضَ مِنْ مَاءِ الْحَدِيدِ صَقِيلٍ
وَأَجْرَدَ عُرْيَانَ السَّرَاةِ طَوِيلٍ^(١)

[من الطويل]

وقال حاتم [في «ديوانه» ٤٧] :

مَتَى مَا يَجِيءُ يَوْمًا إِلَى الْمَالِ وَارِثِي
يَجِدُ فَرَسًا مِثْلَ الْعَنَانِ وَصَارِمًا
يَجِدُ جَمْعَ كَفِّ غَيْرِ مَلَأَى وَلَا صِفْرِ
وَأَسْمَرَ خَطِيًّا كَأَنَّ كُعُوبَهُ
نَوَى الْقَسْبِ قَدْ أَرْبَى ذِرَاعًا عَلَى الْعَشْرِ^(٢)
نَوَى الْقَسْبِ قَدْ أَرْبَى ذِرَاعًا عَلَى الْعَشْرِ^(٣)

هذا ما يقول أخو طي، أمّا صاحبنا: فقد شاء من ولعه بالغلو أن يزيد عليه، فقال [في «المكبري» ٤/٢٩٢] : [من الطويل]

وَأَسْمَرَ ذِي عَشْرِينَ تَرْضَاهُ وَارِدًا
وَيَرْضَاكَ فِي إِيْرَادِهِ الْخَيْلَ سَاقِيَا

[من الطويل]

وقال المجنّب بن جوين يمدح عمرو بن معديكرب الزبيديّ حينما أطلقه من الأسر :

فَتَى جُلٌّ مَا يَخُويهِ زَغْفٌ مَفَاضَةٌ
وَطَرْفٌ جَوَادٍ وَالرُّدَيْيَةُ السُّمْرُ^(٤)

[من البسيط]

وقال عبد الله بن عَمَمَةَ الضبيّ :

وَقَدْ أَرُوحُ أَمَامَ الْحَيِّ يَقْدِفُنِي
مُجَنَّبٌ مِثْلُ شَاطِطِي الرَّمْلِ مُخْتَفِرٌ
صَافِي الْأَدِيمِ كُمَيْتُ اللَّوْنِ مَكْسُوبٌ
بِالْعَقْرَتَيْنِ عَلَى أَوْلَاهُ مَضْبُوبٌ
إِلَى الْمُنُونِ هَفَا لِلرَّوْعِ سَرْحُوبٌ^(٥)
فَذَاكَ ذُخْرِي إِذَا مَا خَيْلُهُمْ رَكَضَتْ

[من الطويل]

وقال عمرو بن براق الهمدانيّ [في «الأغاني» ٢١/١٧٥-١٧٦] :

وَكَيْفَ يَنَامُ اللَّيْلَ مَنْ جُلٌّ مَالِهِ
كَذَبْتُمْ وَيَيْتِ اللَّهُ لَا تَأْخُذُونَهَا
حُسَامٌ كَلَوْنِ الْمِلْحِ أَبْيَضُ صَارِمٌ
مُرَاغَمَةٌ مَا دَامَ لِلسَّيْفِ قَائِمٌ
يَعِشُ مَاجِدًا أَوْ تَخْتَرِمُهُ الْخَوَارِمُ^(٦)
وَمَنْ يَطْلُبُ الْمَالَ الْمُمْنَعَ بِالْقَنَا

[الحجر الذي لا يعجبك يشجك]

وذكر الزبير بن بكار : أَنَّ نُهَيْكَ بْنَ أَسَافِ الْحَارِثِيِّ افْتَقَرَ ، فَقَدِمَ عَلَى مِصْعَبِ بْنِ الزَّبِيرِ ، حِينَ بَلَغَهُ أَنَّ أَهْلَ (الرَادَانِ) قَدْ خَلَعُوهُ ، فَندب الناسَ مراراً ، فلم يتدب له إلا نهيك ، قام محتزماً بجبل ، وعلى رأسه

(١) الأسمر المقتف : الرمح المسوي . السراة من كل شيء : أعلاه ، وسراة الفرس أعلى منته .

(٢) الهير : قطع اللحم .

(٣) القسب : نوع من التمور .

(٤) زغف مفاضة : درع واسعة . الرديية : الرماح ، وسميت بذلك ؛ نسبة إلى امرأة كانت تسوي الرماح .

(٥) السرحوب : الطويل الحسن الجسم ، وفرس سرحوب : طويلة على وجه الأرض .

(٦) في «الأغاني» : يعيش ذاغنى .

سَمَلٌ^(١) عمامةٌ مُتَنَكِّباً قوساً عربيّةً ، فقالَ : أنا لهم ، قالَ : ومنَ أنتَ ؟ فانتسبَ له ، فقالَ : اجلسْ ، وكأنّه ازدراه ، ثمَّ أعادَ القولَ فلمَ يَقُمْ غيرهُ ، فعَلَ ذلكَ مراراً ، فقالَ له مصعبٌ : ما عندك ؟ قالَ : عزمٌ إذا أبصرتُ ، ومشاورَةٌ إذا شككتُ ، قالَ : أنتَ لها ، وعقدَ له عليها ، وقالَ له : إن أظفركَ اللهُ بها . . أطعمتُكها سنةً ، فخرجَ وظفِرَ ، وبعثَ إلى أمِّه إبلاً مُحَمَّلَةً ، وكتبَ إليها يقولُ :

أَمَّ نُهَيْكَ إِزْفَعِي الظَّنَّ صَاعِدَا
سَأَكْسِبُ مَالاً أَوْ تَبَيِّنَنَّ لَيْلَةً
وَقَدْ عَلِمْتُ خَيْلٌ بِرَاذَانَ أَنْبِي
وَمَنْ يَطْلُبِ الْمَالَ الْمُمَنَّعَ بِالْقَنَّا
وَلَا تَيَاسِي أَنْ يُثْرِي الدَّهْرَ آيسُ
بِصَدْرِكَ مِنْ هَمِّ عَلَيَّ وَسَاوِسُ
شَدَدْتُ وَلَمْ يَبْقَ مِنَ الْقَوْمِ فَارِسُ
يَعِشُ مُثْرِيّاً أَوْ يُودَ فِيمَا يُمَارِسُ^(٢)

[الغلام القيسي]

وقال غلامٌ من قيسٍ :

إفْدِفِ السَّزَجَ عَلَى الْمُهْرِ وَقَرِّطُهُ اللَّجَامَا
ثُمَّ صُبِّ الدُّزْعَ فِي رَأْسِي وَنَاوِلِنِي الْحُسَامَا
فَمَتَّيْ أَطْلُبُ إِنْ لَمْ أَطْلُبِ الرِّزْقَ غُلَامَا
سَأَجُوبُ الْأَرْضَ أَبْغِيهِ حَلَالاً أَوْ حَرَامَا
فَلَعَلَّ الظُّغْنَ يَنْفِي الْفَقْرَ أَوْ يُدْنِي الْحِمَامَا

[رثاء هذبة البشكري]

وقال أيوبُ بنُ خولةٍ يرثي هذبةَ البشكريِّ ، وهو من الخوارجِ في أيامِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ [في « شعر الخوارج » ٧١] :

[من الطويل]

فِيَا هُذْبَ لِلْهَيْجَا وَيَا هُذْبَ لِلْفِدَا
تَزَوَّدَتْ مِنْ دُنْيَاكَ دِرْعَاً وَمَغْفِرَاً
وَأَجْرَدَ مَحْبُوكِ السَّرَاةِ كَأَنَّهُ
وَيَا هُذْبَ لِلْخَضَمِ الْأَلَدِّ تَحَارِبُهُ
وَعَضْباً حُسَامَا لَمْ تَخُنْكَ مَضَارِبُهُ
إِذَا انْقَضَ وَافِي الرِّيشِ حُمُشٌ مَخَالِبُهُ^(٣)

[القطامي والبدواة]

[من الوافر]

وقال القطاميُّ [في « ديوانه » ٧٦] :

فَمَنْ تَكُنِ الْحَضَارَةُ أَعْجَبْتُهُ
وَمَنْ رَبَطَ الْجِحَاشَ فَإِنَّ فِينَا
فَأَيَّ رَجَالٍ بَادِيَةَ تَرَانَا ؟
فَأُصْلَباً وَأَفْرَاساً حِسَانَا

(١) السَّمَلُ : الخَلْقُ مِنَ الثِّيَابِ .

(٢) الأبيات في « الأغاني » (١٤ / ٢٤) لعبد الله ابن أبي معقلٍ في غير هذا الموضوع .

(٣) وافي الريش : الجارح الذي كثر ريشه وتم . حُمُشٌ : شديدة .

[رثاء الوليد بن طريف]

وقالت ليلى بنت طريف ترثي أخاها الوليد [في « وفيات الأعيان » ٣٢/٦] :

فَقِيَ لَا يُحِبُّ الزَّادَ إِلَّا مِنَ التَّمْيِ وَلَا الْمَالَ إِلَّا مِنْ قَنَاءِ وَسُيُوفِ
وَلَا الذَّخَرَ إِلَّا كُلَّ جَزْدَاءِ صِلْدِمٍ مُعَاوِدَةٍ لِلْكَرِّ بَيْنَ صُفُوفِ^(١)

[المعري والمال المكتسب في الحروب]

وقد أغارَ على أولهما المعريُّ في قوله [في « سقط الزند » ١٢٥] :

رَأَيْتُكَ سَاخِطاً مَا جَاءَ عَفْوَاً وَلَوْ جَادَتْكَ بِالذَّهَبِ الْعِهَادُ^(٢)
فَمَا تَعْتَدُ مَالاً غَيْرَ مَالِ حَبَاكَ بِهِ طِعَانٌ أَوْ جِلَادُ^(٣)

[فقراء بني النطاح]

وقال بكر بن النطاح :

وَمَنْ يَفْتَقِرُ مِنَّا يَعْشُ بِحُسَامِهِ وَمَنْ يَفْتَقِرُ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ يَسْأَلُ

[صورة رائعة من شجاعة بكر بن النطاح]

فيروى [كما في « الأغاني » ١١٦/١٩] : أَنَّهُ وَفَدَ عَلَى أَبِي دُلْفِ الْعِجْلِيِّ ، فَقَالَ لَهُ : أَرَأَيْتَ تَتَظَاهَرُ بِالشَّجَاعَةِ فِي أَشْعَارِكَ ، وَمَا رَأَيْتُ لَهَا أَثْراً فِي أَفْعَالِكَ ، فَقَالَ : وَمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ مِنْ شَيْخٍ رَاجِلٍ أَعَزَلَ ، فَقَلَدَهُ سِيفاً ، وَأَعْطَاهُ فِرْساً ، فَخَرَجَ لُوجِهِهِ ، وَجَمَعَ مِنَ الدُّوبَانِ^(٤) وَالصَّعَالِكِ مَا أَلْفَ بِهِ جَمَاعَةً ، ثُمَّ عَرَضَ لِقَافِلَةٍ مِنْ قَوَافِلِ الْأَمِيرِ فَاسْتَأْفَاهَا ، وَقَتَلَ مِنْ فِيهَا ، وَأَغْدَى السَّيْرَ حَتَّى سَبَقَ الطَّلَبَ ، فَقَالَ أَبُو دُلْفٍ : أَنَا الَّذِي هَيْجَتُهُ ، ثُمَّ اسْتَدْعَاهُ ، وَسَوَّغَهُ مَا أَخَذَ .

[رواية أخرى للقصة]

ويروى : أَنَّ الْقِصَّةَ إِنَّمَا كَانَتْ مَعَ بَعْضِ بَنِي بَكْرِ لَا مَعَهُ ، وَأَنَّ أَبَا دُلْفٍ قَالَ لَهُ : أَتَسْتَمِيحُ وَأَبُوكَ الْقَائِلُ^(٥) ؟ ! فَقَالَ لَهُ : لَقَدْ أَوْدَعْتَهَا أَذْناً وَاعِيَةً ، ثُمَّ فَعَلَ فِعْلَتَهُ الَّتِي فَعَلَ ، وَهُوَ مِنَ الظَّالِمِينَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَيُّ ذَلِكَ كَانَ ، فَالرواياتُ تَخْتَلَفُ .

[مديح بشار]

وقال بشارٌ يمدحُ [في « ديوانه » ١٠٥/٤] :

إِذَا خَزَنَ الْمَالَ الْبَخِيلُ فَإِنَّمَا خَزَائِنُهُ خَطِيئَةٌ وَدُرُوعُ^(٦)
وَبِيضٌ بِهَا مِسْكٌ لِمَسَّ أَكْفَهُمْ عَلَى أَنَّهَا رِيحُ الدَّمَاءِ تَضُوعُ^(٧)

(١) جرداء : قصيرة الشعر ، وهو من علامات العناق والكرام في الخيل . الصلِّدِمُ : الشديد الحافر .

(٢) العِهَادُ : المطرُ .

(٣) الطعانُ والجلادُ : القتالُ والنباتُ في مقارعة الأعداء .

(٤) الدوبان : اللصوص ؛ وسُموا بذلك لأنهم كالذبان ، وأصله بالهمز لكنه خفف فانقلبت واواً .

(٥) أي : أحد أولاد بكر بن النطاح ، وقد قال أبوه : ومن يفتقر منا . . .

(٦) خطيةٌ : رماحٌ منسوبةٌ إلى بلدةٍ (خط) ، وهو موضعٌ بـ (اليمامة) .

(٧) تضوعٌ : تشتتٌ وتفوحٌ .

وهو معنى جليلٌ حسدهُ عليه ابنُ المعتزِّ ، فأحسنَ اتِّباعَهُ حيثُ يقولُ [في «ديوانه» ١/١٠٥] :
مُلُوكٌ إِذَا خَاضُوا الوَغَى فَسُيُوفُهُمْ مَقَابِضُهَا مِسْكَ وَسَائِرُهَا دَمٌ [مِنَ الطويلِ]

[إجادة المديح عند المعري]

عَلَى أَنَّهُ قَدْ يُوْخَذُ عَلَى بَشَارِ أَنْ الرَّائِحَةَ الْمَسْكِيَّةَ لَا تَكُونُ إِلَّا لِدِمَائِ الشَّهْدَاءِ ، فَكَيْفَ يُثْنِي عَلَى مَمْدُوحِهِ بِحَرْبِهِمْ ؟
وإنَّما أَصَابَ كَبَدَ الْمَعْنَى الْأَعْمَى الثَّانِي فِي قَوْلِهِ [أَيِ الْمَعْرِي فِي «سَقَطِ الزَّنْدِ» ١٦٦] :

كَأَنَّمَا الضَّرْبُ يَفْرِي مِنْ كُلِّوْمِهِمْ أَكْبَادَ سِرْبِ رَعَيْنِ النَّوْرِ فِي الْكُنْسِ (١)
سَأَلْتُ تَصَوُّعَ حَتَّى ظَنَّ جَارِحُهُمْ قَسِيمَةَ الْمِسْكِ جُرْحَ الْفَارِسِ النَّدْسِ (٢)

[الثناء والمديح عند الشعراء]

وقال مروانُ ابنُ أَبِي حفْصَةَ يرثي مَعْنَأَ فِيمَا نَحْنُ بِسَبِيلِهِ [في «ديوانه» ٨٠] :
وَلَمْ يَكْ كَنْزُهُ ذَهَباً وَلَكِنْ حَديدَ الْهِنْدِ وَالْحَلَقَ الْمُذَالاً (٣)

وقال البُحْتَرِيُّ [في «ديوانه» ٢/٨٨٠] :
قَلِيلُ فُضُولِ الزَّادِ إِلَّا صَوَاهِلًا ظَهَارِيٌّ طَعْنٍ أَوْ حَديدِ يُظَاهِرُهُ (٤)

وقال الناظمُ [في «المُعْجَبِيُّ» ٢/٢٧٠-٢٧١] :
كُنَّا نَظُنُّ دِيَارَهُ مَمْلُوءَةً وَإِذَا الْمَكَارِمُ وَالصَّوَارِمُ وَالْقَنَا
ذَهَباً فَمَاتَ وَكُلُّ دَارٍ بُلْقَعُ وَبَنَاتُ أَعْوَجَ كُلُّ شَيْءٍ يَجْمَعُ (٥)

وقال أبو المنيعِ قرواشُ معتمدُ الدُولَةِ [في «وفيات الأعيان» ٥/٢٦٤] :
لِلْمَالِ مِنْ آبَائِهِ وَجُدُودِهِ مَنْ كَانَ يَحْمَدُ أَوْ يَذُمُّ مُورِثاً
شُكْرًا كَثِيرًا جَالِبًا لِمَزِيدِهِ فَأَنَا امْرُؤٌ لِلَّهِ أَشْكُرُ وَحَدَهُ
يُعْطِيكَ مَا يُرْضِيكَ مِنْ مَجْهُودِهِ لِي أَشْقَرُ مِلءُ الْعِنَانِ مُغَاوِرُ
خَلَّتِ الْبُرُوقُ تَمْوجُ فِي تَجْرِيدِهِ وَمُهَنْدٌ عَضْبٌ إِذَا جَرَّدْتَهُ
أُمُّ الْمَنَائِبِ رُكِّبَتْ فِي عُودِهِ (٦) وَمُنْقَفٌ لَدُنْ السَّنَانِ كَأَنَّمَا
سَلَطْتُ جُودَ يَدِي عَلَى تَبْدِيدِهِ فَبَذَا حَوَيْتُ الْمَالَ إِلَّا أَنِّي

(١) النَّوْرُ : الزهر . الْكُنْسُ : جمعُ كُنَسٍ ، وهو ماوى الطيبي .

(٢) النَّمْسُ : الحاذقُ بالطعن .

(٣) الْحَلَقُ الْمُذَالُ : الدرْعُ المصنوعُ صناعةً جيدةً محكمةً .

(٤) الظَّهَارِيُّ : جمعُ ظَهْرِي ، وهو البعيرُ القويُّ الظَّهْرُ ، المُعَدُّ لوقتِ الحاجةِ .

(٥) راجع معنى الخيلِ الأعوجيةِ آخرَ هذا المجلسِ .

(٦) اللَّذْنُ : اللينُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، من عودٍ أو جبلٍ أو رمحٍ .

وَأَمَّا الْاِعْتِدَادُ بِالسَّلَاحِ وَالْكَرَاعِ وَمَجْرَدُ وَصْفِهِ : فَأَكْثَرُ وَأَكْثَرُ ، قَالَ الشَّدَاخُ : [مَنْ الطويل]

أَبِينَا فَلَا نُعْطِي مَلِيكَاً ظَلَامَةً وَلَا سُوقَةً إِلَّا الْوَشِيحَ الْمُقَمَّوَمَا
وَالْأَحْسَامَا يُبْهَرُ الْعَيْنَ لَمَحُهُ كَصَاعِقَةٍ فِي عَارِضٍ قَدْ تَبَسَّمَا

وقال مالك بن حزم الهمداني : [مَنْ الطويل]

وَكُنْتُ إِذَا قَوْمٌ غَزَوْنِي غَزَوْتُهُمْ فَهَلْ أَنَا فِي ذَا يَا آلَ هَمْدَانَ ظَالِمٌ ؟
مَتَى تَجْمَعُ الْقَلْبَ الذِّكْيَّ وَصَارِمَا وَأَنْفَا حَمِيماً تَجْتَنِيكَ الْمَظَالِمُ

وقال يحيى بن منصور الحنفي : [مَنْ الطويل]

وَلَمَّا نَأَتْ عَنَّا الْعَشِيرَةُ كُلُّهَا أَنْخَنَا مُخَالَفَنَا السُّيُوفَ عَلَى الدَّهْرِ
فَمَا أَسْلَمْتَنَا عِنْدَ يَوْمِ كَرِيهَةٍ وَلَا نَحْنُ أَغْضَيْنَا الْجُفُونَ عَلَى وَتْرِ

وقال عمرو بن معديكرب الزبيدي لسعد ابن أبي وقاص [في «ديوانه» ١٣٨] :

أَبُوعِدْنِي سَعْدٌ وَفِي الْكَفِّ صَارِمٌ سَيَمْنَعُ مِنِّي أَنْ أَذِلَّ وَأَخْضَعَا
فَوَاللَّهِ لَوْ لَا اللَّهُ لَأَشْيَاءَ غَيْرُهُ لَجَلَلْتُهُ الصَّمْصَامَ أَوْ يَتَقَطَّعَا^(١)

وقال دريد بن الصَّمَّةِ الجشمي [في «ديوانه» ٦٠] :

أَعَاذِلُ إِنَّمَا أَفْنَى شَبَابِي رُكُوبِي فِي الصَّبَاحِ إِلَى الْمُنَادِي
مَعَ الْفَتَيَانِ حَتَّى سَلَّ جِسْمِي وَأَقْرَحَ عَاتِقِي حَمْلُ النَّجَادِ
أَعَاذِلُ إِنَّهُ مَا لَطَرِيْفٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ مَالِ تِلَادِ
أَعَاذِلُ عُذَّتِي بِزِيٍّ وَسَرْجِي وَكُلُّ مَقْلَصٍ سَلِسِ الْقِيَادِ
وَيَبْقَى بَعْدَ حِلْمِ الْقَوْمِ حِلْمِي وَيَفْنَى قَبْلَ زَادِ الْقَوْمِ زَادِي

وقال امرؤ القيس يصف رُمحاً ، وهو من أبلغ الكلام ، ويستشهد به أهل البيان على تفصيل التشبيه [في «ديوانه» ٢١٧] :

حَمَلْتُ رُدْنِيّاً كَأَنَّ سِنَانَهُ سَنَا لَهَبٍ لَمْ يَتَّصِلْ بِدُخَانِ
[مَنْ الطويل]

وقال أبو الهول الحميري يصف سيفاً :

مَا يُبَالِي إِذَا الضَّرْبِيَّةُ حَانَتْ أَشْمَالُ سَطَطَتْ بِهِ أَمَّ يَمِينُ
وَكَأَنَّ الْفِرْنَندَ وَالرَّزْنَاقَ الْجَا رِي عَلَى صَفْحَتَيْهِ مَاءٌ مَعِينُ
نِعْمَ مِخْرَاقُ ذِي الْحَفِيظَةِ فِي الْهَيْ جَاءَ يَسْطُوبِ بِهِ وَنِعْمَ الْمُعِينُ

(١) جَلَلْتُهُ الصَّمْصَامَ : علوته بسيفي . الصمصام : السيف الصارم .

وقال ابن المعتز في ديوانه « ٦٣/٢ » :

وَلِي صَارِمٌ فِيهِ الْمَنَايَا كَوَامِنٌ
تَرَى فَوْقَ مَتْنِيهِ الْفِرْنِدَ كَأَنَّهُ
فَمَا يُتَنَضَّى إِلَّا لِسْفِكَ دِمَاءٍ
بِقِيَّةِ غَيْمٍ رَقٍّ دُونَ سَمَاءٍ

[من الطويل]

وقال أبو تمام يصف رماحاً في ديوانه « ٤٢٠/١ » :

مُتَفَقَّاتٍ سَلَبْنَ الرُّومَ زُرْقَتَهَا

[من البسيط]

وَالعُرْبَ أذْمَتَهَا وَالعَاشِقَ الْقَضَفَا^(١)

وقال مزرد :

وَمُطَرِدٍ لَدُنِ الْكُغُوبِ كَأَنَّمَا
أَصَمَّ إِذَا مَا هَزَّ مَارَتِ سَرَاتُهُ
لَهُ رَائِدٌ مَاضٍ الْفِرَارِ كَأَنَّهُ

[من الطويل]

تَغَشَّاهُ مِنْبَاعٌ مِنَ الزَّيْتِ سَائِلٌ^(٢)
كَمَا مَارَ تُعْبَانُ الرِّمَالِ الْمُوَائِلُ^(٣)
هَلَالٌ بَدَا فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ نَاجِلٌ

وقال البحتري يصف سيفاً في ديوانه « ١٧٤٧/٣ » :

مَاضٍ وَإِنْ لَمْ تَمُضِهِ يَدُ فَارِسٍ
يَغْشَى الْوَعْيَى فَالْثُرْسُ لَيْسَ بِجُنَّةٍ
مُضْغٍ إِلَى حُكْمِ الرَّدَى فَإِذَا مَضَى
مُتَوَقِّدٌ يَفْرِي بِأَوَّلِ ضَرْبَةٍ
وَإِذَا أَصَابَ فَكُلُّ شَيْءٍ مَقْتَلٌ

[من الكامل]

بَطَلٍ وَمَضْفُوقٌ وَإِنْ لَمْ يُضْقَلِ
مِنْ حَدِّهِ وَالذَّرْعُ لَيْسَ بِمَعْقِلِ
لَمْ يَلْتَقِثْ وَإِذَا قَضَى لَمْ يَعْدِلِ
مَا أذْرَكَتْ وَلَوْ أَنَّهُ فِي يَدْبُلٍ^(٤)
وَإِذَا أُصِيبَ فَمَا لَهُ مِنْ مَقْتَلِ

وقوله : (ماضٍ وإن لم تمضه... إلى آخره) غلو لا يقبل ، وقد ألم به المعري فأحسنه بالمقاربة إذ قال [في « سقط

[من الوافر]

الزبد » ١٠٠] :

تَكَادُ قَسِيئُهُ مِنْ غَيْرِ رَامٍ
تَكَادُ سُيُوفُهُ مِنْ غَيْرِ سَلٍّ

[من الكامل]

وقال ابن هاني الأندلسي ، وفيه مناسبة لما سبق من حاضرة السيف [في « ديوانه » ١٦١] :

فُتِقَتْ لَكُمْ رِيحُ الْجِلَادِ بَعْنِيرٍ
وَجَنِيئُهُمْ ثَمَرَ الْوَقَائِعِ يَانِعَا
وَأَمَدَكُمْ فَلَقُ الصَّبَاحِ الْمُسْفِرِ^(٥)
بِالنَّضْرِ مِنْ وَرَقِ الْحَدِيدِ الْأَخْضَرِ^(٦)

(١) المتفقات : الرماح المقومات ، ثم وصفهن بقوله : سلبن زرقه عيون الروم لاستنهن الزرق ، وسمره العرب لأعوادهن ، وأخذن من العاشق قضافته : أي لطافته .

(٢) المطرد : الفرس . لذن الكعوب : لئن المفاصل ، شبهه بالرمح لئن العقيد .

(٣) مار : تحرك وتدافع . السراة من الفرس : أعلى ظهره . الموائل : الذهاب إلى ملجئه .

(٤) يذبل : اسم جبل في (نجد) .

(٥) فتق المسك : استخرجت رائحته . الجلاذ : الحرب .

(٦) ورق الحديد : السيف .

وقوله : (فُتِفَتْ لَكُمْ . . . إِلَى آخِرِهِ) يَقْرَبُ مِنْ قَوْلِ النَّازِمِ [فِي « الْمُكَبَّرِيِّ » ٢٢٨/٤] : [مَنْ الْبَسِطُ]

كَأَنَّهُمْ يَرِدُونَ الْمَوْتَ مِنْ ظَمَأٍ أَوْ يَنْشَقُّونَ مِنَ الْخَطِيئِ رِيحَانَا

وقال الشريف الرضي [في « ديوانه » ٣٨٠/١] :

وَاسْتَنْزَلُوا أَرْزَاقَهُمْ بِسُيُوفِهِمْ فَغَنَّاؤُا بِغَيْرِ مَذَلَّةٍ وَصَغَارِ
نَزَلُوا بِقَارِعَةٍ تَشَابَهَ عِنْدَهَا ذُلُّ الْعَبِيدِ وَعِزَّةُ الْأَحْرَارِ

[الاعتداد بالسلاح عند المتنبى معنى متكرراً]

والبيت الذي نتكلم فيه مكرراً المعنى في « ديوانه » ، منه قوله [في « الْمُكَبَّرِيِّ » ٢٢٢/٢] :

أَطْرَحُ الْمَجْدَ عَن كِتْفِي وَأَطْلُبُهُ وَأَتْرِكُ الْغَيْثَ فِي غَمْدِي وَأَنْتَجِعُ^(١)
وَالْمُشْرِفِيَّةَ - مَا زَالَتْ مُشْرِفَةً - دَوَاءً كُلَّ كَرِيمٍ أَوْ هِيَ الْوَجْعُ

وقوله [في « الْمُكَبَّرِيِّ » ١٦٠/٤] :

مَنْ اقْتَضَى بِسِوَى الْهِنْدِيِّ حَاجَتَهُ أَجَابَ كُلَّ سُؤَالٍ عَن هَلِ بِلَمْ^(٢)

وقوله [في « الْمُكَبَّرِيِّ » ١٧٣/١] :

وَجَدْتُ أَنْفَعَ مَا لِي كُنْتُ أَذْخَرُهُ مَا فِي السَّوَابِقِ مِنْ جَزِيٍّ وَتَقْرِبِ

وقوله [في « الْمُكَبَّرِيِّ » ٧٨/٣] :

لَا أَكْسِبُ الذُّكْرَ إِلَّا مِنْ مَضَارِيهِ أَوْ مِنْ سِنَانِ أَصَمِّ الْكَعْبِ مُعْتَدِلِ

وقوله [في « الْمُكَبَّرِيِّ » ١٠٨/٤] :

وَلَكِنِّي مُسْتَنْصِرٌ بِذُبَابِهِ وَمُرْتَكِبٌ فِي كُلِّ حَالٍ بِهِ الْغُشْمَا^(٣)

وقوله [في « الْمُكَبَّرِيِّ » ٣٧٣/٢] :

كُن لُجَّةً أَثَّهَا السَّمَاخُ فَقَدْ أَمَنَهُ سَيْفُهُ مِنَ الْغَرَقِ

وقال [في « الْمُكَبَّرِيِّ » ٢٢/٤] :

هِنْدِيَّةٌ إِنْ تُصَغَّرَ مَعْشَرًا . . . صَغُرُوا بِحَدِّهَا أَوْ تُعْظَمُ مَعْشَرًا . . . عَظُمُوا

وقال [في « الْمُكَبَّرِيِّ » ٢٥/٤] :

مُقَلِّدًا فَوْقَ شُكْرِ اللَّهِ ذَا شُطْبِ لَا تُسْتَدَامُ بِأَمْضَى مِنْهُمَا النَّعْمُ

[تشبيه جوهر السيف بمدرج النمل عند الشعراء]

وَأَمَّا تَشْبِيهُ جَوْهَرِ السِّيفِ بِمَدْرَجِ النَّمْلِ : فَإِنَّهُ شَائِعٌ فِي أَشْعَارِهِمْ ، مِنْهُ قَوْلُ أَوْسِ بْنِ حَجْرٍ [فِي « دِيوانه » ٨٥] :

كَأَنَّ مَدَبَّ النَّمْلِ يَتَّبِعُ الرَّبِيَّ وَمَدْرَجٌ ذَرٌّ خِلْنٌ بَرْدًا فَأَسْهَلًا

(١) الانتجاعُ في الأصل : طلبُ الكلا ، ثم صار كلُّ طلبٍ انتجاعاً .

(٢) المعنى كما قاله الواحدي : من طلب حاجته بغير السيف . . . أجاب سائله عن قوله : هل أدركت حاجتك ؟ بقوله : لم أدرك .

(٣) ذبابُ السيفِ : طرفُهُ . الغشمُ : الظلمُ .

عَلَى صَفْحَتَيْهِ بَعْدَ حِينٍ جَلَّاهِ

كَفَى بِالذِّي أُبْلِي وَأَنْعَتْ مُنْصَلَاً^(١)

وقول ابن دريد :

[مَنْ الرَّجَز]

وَصَاحِبَايَ صَارِمٌ فِي مَتْنِهِ

مِثْلُ مَدَبِّ النَّمْلِ يَغْلُو فِي الرَّبِيِّ

[مَنْ الطَّوِيل]

وقال أبو العلاء المعريُّ يصفُ سيفاً [في « سقط الزند » ١٥٣] :

كَأَنَّ الْمَنَائِيَا جَيْشُ ذُرٍّ عَرْمَرَمٍ

تَخِذْنَ إِلَى الْأَرْوَاحِ فِيهِ مَسَارَا

[مَنْ الْوَافِر]

وقال أيضاً [في « سقط الزند » ١٠٥] :

سَلِيلُ النَّارِ دَقٌّ وَرَقٌّ حَتَّى

كَأَنَّ أَبَاهُ أَوْرَثَهُ الشُّلَالَاً^(٢)

مُحَلَّى الْبُرْدِ تَحْسَبُهُ تَرَدَّى

نُجُومَ اللَّيْلِ وَانْتَعَلَ الْهَلَالَاً

مُقِيمُ النَّضْلِ فِي طَرْفِي نَقِيضِ

يَكُونُ تَبَائِنٌ مِنْهُ اشْتِكَالَاً^(٣)

تَبَيَّنَ فَوْقَهُ ضَخْضَاحَ مَاءٍ

وَتُبْصُرُ فِيهِ لِلنَّارِ اشْتِعَالَاً

غَرَارَاهُ لِسَانَا مَشْرِفِي

يَقُولُ غَرَائِبَ الْمَوْتِ ازْتَجَالَاً

إِذَا بَصَرَ الْأَمِيرُ وَقَدْ نَضَاهُ

بِأَعْلَى الْجَوْظِ ظَنَّ عَلَيْهِ آلاً^(٤)

وَدَبَّتْ فَوْقَهُ حُمُرُ الْمَنَائِيَا

وَلَكِنْ بَعْدَمَا مُسَخَّتْ نِمَالَاً

[مَنْ الْبَسِيط]

وهذا موضعُ الشاهدِ ، وقد نظرَ فيه إلى البيتِ الذي نتكلَّمُ فيه ، وقال [في « سقط الزند » ١١٠] :

مَا كُنْتُ أَحْسَبُ جَفْنَا قَبْلَ مَسْكِنِهِ

فِي الْجَفْنِ يُطَوَّى عَلَى نَارٍ وَلَا نَهْرٍ^(٥)

وَلَا ظَنَنْتُ صِغَارَ النَّمْلِ يُمَكِّنُهَا

مَشْيِي عَلَى اللَّجِّ أَوْ سَعْيِي عَلَى الشُّعْرِ^(٦)

[تسمية السيف بالهندي أو المشرفي]

ومتى سُوِّي السيفُ بـ (الهندي) . . فهو مُهَنْدٌ وهنديٌّ وهندوانيٌّ ، وإذا عُمِلَ بـ (المشارفِ) ، وهي قرىٌ مِنْ أَرْضِ العربِ تدنو مِنَ الرِّيفِ . . فهو مُشْرِفِيٌّ .

* * *

(١) فأسهل : أتى السهل ، أي : أن النمل ترك أعلى الوادي وأتى السهل لشدة البرد . الجلاء : الصقل . المنصل : السيف .

(٢) سليل النار : السيف الذي رقى من النار . الشلال : داء السل .

(٣) طرفي نقيض هنا : الماء والنار .

(٤) آلاً : بزقاً .

(٥) الجفن : غمد السيف .

(٦) صغار النمل : كناية عن تموجات الضوء على صفحة السيف . اللج : الماء . الشعر : النار المشتعلة .

أَمِطَ عَنْكَ تَشْبِيهِ بِمَا وَكَأَنَّهُ فَمَا أَحَدٌ فَوْقِي وَلَا أَحَدٌ مِنِّي

[الفخر والاعتداد بالنفس عند المتنبي]

يقولُ : لا تُشَبِّهني بِأَحَدٍ ، ولا تَقُلْ كَأَنَّهُ فُلَانٌ ، أو ما أشبههُ بِفُلَانٍ ، وهي حماقةٌ فاحشةٌ ، وغرورٌ مستهجنٌ ، ومثلهُ قولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ١٠٧] :

[من الطويل]

تَغَرَّبَ لَا مُسْتَعْظِمًا غَيْرَ نَفْسِهِ وَلَا قَابِلًا إِلَّا لِخَالِقِهِ حُكْمًا

[من الخفيف]

وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٣٢٣] :

إِنْ أَكُنْ مُعْجَبًا فَنَيْرٌ عَجِيبٌ لَمْ يَجِدْ فَوْقَ نَفْسِهِ مِنْ مَزِيدٍ

[تعظيم أبي جهل]

ويشبهه بعضُهُ قولَ أبي جهلِ ابنِ هشامٍ : وهل فوقَ رجلٍ قتلتموه^(١) .

[مقالة كتبها المؤلف يوم تأمير شوقي]

وذكرتُ بهذا مقالةً كتبْتُها يومَ تَعَالَمَ النَّاسُ بِتَأْمِيرِ شَوْقِي غِبَّ فَشَلَّ مُؤْتَمِرِ الْخِلاَفَةِ ، وذكُرْتُ أَنَّ الْمِيزَانَ الْعَادِلَ فِي اسْتِحْقَاقِهِ التَّأْمِيرَ عَدْمُهُ . . هو ما سيقولُهُ في ذلكِ الحَفْلِ ؛ لِأَنَّهُ سَيَتَأَنَّقُ لَهُ بِطَبِيعَةِ الْحَالِ ، فَلَمْ تَأْتِ الْأَهْرَامُ^(٢) إِلَّا بِقَصِيدَةٍ تُسْتَهْلُ بِقَوْلِهِ [في « ديوانه » ١/ ٥٨٥] :

[من الخفيف]

مَرْحَبًا بِالرَّبِيعِ فِي رَيْعَانِهِ وَبِأَنْوَارِهِ وَطِيبِ زَمَانِهِ

أحصينا عليها بباديء النظر جملة ملاحظات لا يتسع لها الموضوع ، منها : عدمُ التناسبِ ، ومنها : أَنَّهُ شَبَّهَ الرَّبِيعَ بِمَشْيِ فِي السَّهْلِ بِالْأَمِيرِ فِي الْبَسْتَانِ .

فإنِّي بعدَ أَنْ طَرَدْتُ نَظْرِي فِي مَسَارِحِ التَّشْبِيهِ . . لَمْ يَظْهَرْ لِي غَيْرَ أَنَّهُ أَرَادَ تَشْبِيَهُ الرَّبِيعِ بِمَا لَا غَايَةَ بَعْدَهُ ، فَلَمْ يَجِدْ أَكْبَرَ مِنْ نَفْسِهِ يَتَمَشَّى فِي بَسْتَانِهِ ، فَكَأَنَّهُ شَبَّهَ الرَّبِيعَ بِنَفْسِهِ ، وهو حينئذٍ مِنْ قَوْلِ النَّازِمِ السَّابِقِ لَمْ يَجِدْ فَوْقَ نَفْسِهِ مِنْ مَزِيدٍ . وبعثَ بتلكِ المَقَالَةِ أَحَدُ رِفَاقِنَا لِبَعْضِ الصُّحُفِ ، فضاقتُ عنها .

[الفخر متكرر عند المتنبي]

وطالما تَكَرَّرَ مَعْنَى الْبَيْتِ الَّذِي بَيْنَ أَيْدِينَا فِي « دِيْوَانِ النَّازِمِ » مِنْهُ قَوْلُهُ يَفْتَحُرُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ١٤٣] :

[من الطويل]

وَنَفْسٍ لَا تُجِيبُ إِلَّا حَسِيسٍ وَعَيْنٍ لَا تُدَارُ عَلَيَّ نَظِيرٍ

(١) قالها أبو جهل أثناء مصرعه في بدر عندما سأله ابنا عفراء : أنت أبو جهل ؟ فقالها ليدل على أنه لا رجل فوقه .

(٢) الأهرام : صحيفةٌ مصريةٌ مشهورةٌ .

- وقوله [في «المكبري» ١٠/٤] :
- صَغَرْتَ كُلَّ كَبِيرَةٍ وَكَبُرْتَ عَن
لَكَأَنَّهُ وَعَدَدَتْ سِنَّ غُلَامٍ^(١)
- [من الطويل]
- وقوله [في «المكبري» ٨٤/٤] :
- يَجِلُّ عَنِ التَّشْبِيهِ لَأَ الْكَفِّ لَجَّةٌ
وَلَا هُوَ ضِرْغَامٌ ، وَلَا الرَّأْيِيُّ مِخْدَمٌ^(٢)
- [من الطويل]
- وقوله [في «المكبري» ١١٦/٤] :
- وَلَوْلَا احْتِقَارُ الْأَسَدِ شَبَّهْتُهَا بِهِمْ
وَلَكِنَّهَا مَعْدُودَةٌ فِي الْبَهَائِمِ
- [من الوافر]
- وقوله [في «المكبري» ٢٢٦/٣] :
- بِإِذَا مِثْلٍ وَإِنْ أَنْصَرْتَ فِيهِ
لِكُلِّ مُغَيَّبٍ حَسَنِ مِثَالًا
- [من الطويل]
- وقوله [في «المكبري» ١٢٧/٢] :
- بِمَنْ أَضْرِبُ الْأَمْثَالَ أَمْ مَنْ أَقْبِسُهُ
إِلَيْكَ وَأَهْلُ الدَّهْرِ دُونِكَ وَالِدَّهْرُ ؟
- [من البسيط]
- وقوله [في «المكبري» ٣٧٩/٢] :
- فَكُنْ كَمَا أَنْتَ يَا مَنْ لَا شَبِيهَ لَهُ
أَوْ كَيْفَ شِئْتَ فَمَا خَلَقَ يُدَانِيكََا
- [من الخفيف]
- وقوله [في «المكبري» ١٣٣/٣] :
- فَإِذَا مَا اشْتَهَى حَيَاتِكَ دَاعٍ
قَالَ لَا زُلْتَ أَوْ تَرَى لَكَ مِثْلًا
- [من البسيط]
- وقوله [في «المكبري» ٢٧٩/٣] :
- كَفَاتِكَ وَدُخُولُ الْكَافِ مَنْقَصَةٌ
كَالشَّمْسِ قُلْتُ : وَمَا لِلشَّمْسِ أَمْثَالُ
- [من المنسرح]
- وقوله [في «المكبري» ٢٢٠/٣] :
- مِثْلُكَ يَا بَدْرُ لَا يَكُونُ وَلَا
تَصْلُحُ إِلَّا لِمِثْلِكَ الدُّوَلُ
- [من السريع]
- وقوله [في «المكبري» ٢١٧/١] :
- وَلَمْ أَقُلْ مِثْلُكَ أَغْنِي بِهِ
سِوَاكَ يَا فَرْدًا بِإِذَا مُشْبِهِهِ
- [من الخفيف]
- وقوله [في «المكبري» ١٧٧/٢] :
- وَتَمَنَيْتُ مِثْلَهُ فَكَأَنِّي
طَالِبٌ لِابْنِ صَالِحٍ مَنِ يُوَازِي
- [من الوافر]
- وقوله [في «المكبري» ٢٢٩/٣] :
- جَوَابُ مُسَائِلِي أَلَّهُ نَظِيرٌ
وَلَا لَكَ فِي سُؤَالِكَ لَا ، أَلَا لَا^(٣)

(١) عَدَدَتْ سِنَّ غُلَامٍ : قصد أنه لا زال في سنّ الشباب .

(٢) المِخْدَمُ : السيفُ القاطعُ . والمعنى : أنه أعظم من أن يشبه كفةً بالبحر ، ونفسه بالأسد ، ورأيه بالسيف القاطع ؛ لأن ذلك كله دونه .

(٣) المعنى : إذا سألتني سائلًا ، فقال : هل له نظير ؟ فجوابه لا ، ولا لك نظير في سؤالك عن هذا ؛ لأنَّ أحدًا لا يجهل هذا غيرك ، فانت في جهلك بلا نظير ، وكزّر النفي بقوله : (ألا ، لا) إشارة إلى أنَّ جهل هذا السائل يوجب إعادة الجواب عليه .

وأصل البيت الذي نحنُ بسبيله من قول الأَوَّلِ : [من الطويل]

تَعَالَيْنَ عَنِّ وَصَفٍ فَلَسْتُ بِذَاكِرٍ (كَأَنَّ) لَدَى تَشْبِيهِهَا وَ (كَأَنَّمَا)

وَمِنْ قَوْلِ أَبِي نُوَّاسٍ [في «ديوانه»] : [من الطويل]

خُلِقْتَ بَدِيعاً لَا يُقَالُ كَأَنَّهُ تَعَالَى وَلَا يَسْمَعُ بِمِثْلِكَ سَامِعٌ

وَقَالَ الْبُحْتَرِيُّ [في «ديوانه» ٣/١٦٥٩] : [من الكامل]

لَا تَطْلُبَنَّ لَهُ الشَّيْبَةَ فَإِنَّهُ قَمَرُ التَّأْمِلِ مُزْنَةُ التَّأْمِيلِ^(١)

[تكذيب المؤلف لهذه الأشعار]

وجلُّها دعاوي مَكْذُوبَةٌ ، ومبالغات مردودةٌ ، فَإِنَّ الَّذِي فِي السَّمَاءِ عَرْشُهُ ، وَفِي الْأَرْضِ بَطْشُهُ . . يُقَرَّبُ الْمَنَالَ ،

وَيَضْرَبُ لِنَفْسِهِ الْأَمْثَالَ ، وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ حَبِيبٍ [في «ديوانه» ١/٣٦٩] : [من الكامل]

لَا تُتَكْرَمُوا ضَرْبِي لَهُ مَنْ دُونَهُ مَثَلًا شَرُودًا فِي النَّدَى وَالْبَاسِ
فَاللَّهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَقْلَّ لِنُورِهِ مَثَلًا مِنَ الْمَشْكَاةِ وَالنَّبْرَاسِ^(٢)

[تفسير : ﴿الله نور السماوات والأرض﴾ عند الجاحظ]

وَمِنْ مَحَاسِنِ الْجَاحِظِ قَوْلُهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : أَنَّهَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللَّهُ جَلَّ شَأْنُهُ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَإِنَّ تَقَاسِيمَ

وَجْهِهِ ، وَأَسَارِيرَ جَبِينِهِ . . تَنَطَّقُ بِنَبْوَتِهِ ، وَتَشْهَدُ بِصَدَقِ رِسَالَتِهِ ، فَمَا أَصْدَقَ فِيهِ قَوْلَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ [في «ديوانه»

: [٩٥] : [من البسيط]

لَوْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُبَيَّنَةٌ لَكَانَ مَنَظَرُهُ يُنْبِئُكَ بِالْخَبَرِ

[تفسير : ﴿ليس كمثل شيء﴾]

أَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] :

فِيهِ بِمَعْنَى النَّفْسِ وَالذَّاتِ وَهُوَ شَائِعٌ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ . قَالَ أَوْسُ بْنُ حَجْرٍ : [من مُخَلَّعِ الْبَسِطِ]

لَيْسَ كَمِثْلِ الْفَتَى زُهَيْرٍ خَلَقَ يَوَازِيهِ فِي الْفَضَائِلِ

وَمِنْهُ مَا سَبَقَ مِنْ قَوْلِ النَّازِمِ : (وَ لَمْ أَقُلْ مِثْلَكَ أَعْنِي بِهِ سِوَاكَ . . . إِلَى آخِرِهِ) .

فَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . . . نَظِيرٌ (لَيْسَ كَذَاتِهِ شَيْءٌ) إِلَّا أَنَّهَا لَا تَوْجَدُ فِي الثَّانِي مَبَالَعَةَ النَّفْيِ الْمَوْجُودَةِ فِي الْأَوَّلِ ؛ لِمَا فِيهِ

مِنْ الْكِنَايَةِ الَّتِي لَا يُجْهَلُ مَكَانُهَا فِي حُسْنِ الْكَلَامِ ، وَكَثِيرًا مَا تَقُولُ الْعَرَبُ : (مِثْلُكَ لَا يَبْخَلُ) ؛ لِتَمَكِينِ انْتِفَاءِ الْبُخْلِ

عَنْهُ مِنْ نَفْسِ السَّامِعِ ، فَإِنَّ تِلْكَ الْجُمْلَةَ تَفِيدُ مَا لَا يَفِيدُهُ قَوْلُهُمْ : (أَنْتَ لَا تَبْخَلُ) .

(١) المُرْنَةُ : السحابة البيضاء .

(٢) وَ الْمَثَلُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ اللَّهُ نُورٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِثْلِهِ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي مِصْبَاحٍ الرَّجَاحَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَرَكَةٍ ﴾ [النور : ٣٥] .

وَمَا : أَنْ يُجْعَلَ (المِثْلُ) بمعنى الصفة إشارة إلى أَنَّهُ وَإِنْ وُصِفَ جَلَّ شَأْنُهُ ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ بِمَا يُوصَفُ بِهِ الْبَشَرُ مِنْ نَحْوِ : السَّمْعِ وَالْبَصْرِ وَالْعِلْمِ وَالْإِرَادَةِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ . . فليست صفاته عزَّ وجلَّ كمثلي صفات المخلوقين إلا في مجرد الأسماء ، وإلا . . فالبون بعيدٌ ، والفرق عظيمٌ .

وَلِلْبَازِيِ وَلِلرُّبُورِ أَيْضًا لَدَى الطَّيْرَانِ أَجْنَحَةٌ وَخَفَقٌ
وَلَكِنْ بَيْنَ مَا يَصْطَادُ بَازٍ وَمَا يَصْطَادُهُ الرُّبُورُ فَرْقٌ^(١)

وَمَا : أَنْ يُجْعَلَ (المِثْلُ) بمعنى الذات والصفة ، فيكون استعماله فيهما من باب استعمال المشترك في معنيه إن قلنا إن المثل حقيقة في كل من الذات والصفة ، أو من استعماله في حقيقته ومجازه إن قلنا إنه حقيقة في أحدهما مجاز في الآخر ، فينتج حينئذ أنه لا يماثله شيء مطلقاً لا في الذات ولا في الصفات ولا في الأفعال .

أما القول بزيادة الكاف لتأكيد التشبيه في نفي المثلية كما في قول الشاعر :
بِالْأَمْسِ كَانُوا فِي رَحَاءِ مَأْمُونٍ فَأَصْبَحَتْ مِثْلَ كَعَصْفِ مَأْكُونٍ
فإنه داخل في الاحتمال الأول .

[تفسير الغزالي ل : إن الله خلق آدم على صورته]

وقال الغزالي في معنى « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ »^(٢) : المراد بالصورة المعنوية ، كما يقال : صورة المسألة كذا ، وآدم بهذا الاعتبار على صورة ربه في الذات والأفعال والصفات :

أما في الذات : فلأن الروح ليست بجسم ، ولا عرض ، ولا جوهر متحيز ، ولا تحل المكان والجهة ، ولا هي متصلة بالبدن والعالم ، ولا منفصلة عنهما ، وكذلك ذات الباري عز وجل .

وأما الصفات : فلأنه حي عالم ، قادر مريد ، سميع بصير متكلم ، والله تعالى كذلك .

وأما في الأفعال : فإن الإنسان إذا أراد الكتابة في غرض . . فأول فعله إرادة يظهر أثرها في القلب ، ثم يصعد إلى الدماغ ، ثم إلى الأعصاب ، ثم إلى الأصابع ، وبها يتحرك القلم بما ارتسم في خزانة الخيال . فالقلب كالعرش ، والدماغ الكرسى ، والحواس كالملائكة ، والأعصاب كالسماوات ، والقدرة في الأصابع كالطبيعة المركوزة في الأجسام ، والقرطاس والقلم والمداد كالعناصر ، ومرأة التخيل كاللوح المحفوظ .

ومن هذه الموازنة تعرف أن الله خلق آدم على صورته ، ولولا المضاهاة المذكورة لم يقدر الإنسان على الترقى من معرفة نفسه إلى معرفة ربه ، كما قال عليه السلام : « مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ . . فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ »^(٣) كذا رأيت في سياق له ، ومثله في ذهني عن « مفاتيح الغيب » للإمام الرازي ، وقد قف شعري^(٤) ، وضاق صدري منه بادي الأمر إلا أنه

(١) البيتان من الوافر .

(٢) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه البخاري (٢٥٥٩) مقتصراً على الشطر الأول في الاستئذان ، وأحمد (٢٤٤/٢) ، ومسلم (٢٦١٢) (١١٥) في البر والصلة ، ولفظ مسلم : « إذا قاتل أحدكم أخاه فليجنب الوجه ، فإن الله خلق آدم على صورته » .

(٣) انظر « المقاصد الحسنة » (١١٤٩) .

(٤) قف الشعر : قام من الفزع .

يهون الخطبُ بما قرّناه في الاحتمالِ الثاني ، واستشهدنا عليه بما بينَ البازي والزنبورِ مِنَ الفرقِ الكبيرِ ، والعهدُ عليهم ، ولولا جلالَةُ مقاديرهم . . لَمَا تجاسرتُ على حكايتِهِ عنهم ، وأولى ما يكونُ بالقبولِ في الموضوعِ الَّذي نتحدّثُ فيه قولُ شاعرٍ (المعرّة) :

ضَرِيْبُكَ فِي بَنِي الدُّنْيَا كَثِيْرٌ وَعَزَّ اللهُ رَبُّكَ مِنْ ضَرِيْبِ
وَمَا العُلَمَاءُ وَالْجُهَلَاءُ إِلَّا قَرِيْبٌ مِنْ قَرِيْبٍ مِنْ قَرِيْبِ

* * *

[من الطويل]

[قال أبو الطيّب المتنبي في « العُكْبَرِيّ » ١٦٢ / ٣] :

وَدَزَنِي وَإِيَّاهُ وَطَرْفِي وَذَابِلِي نَكُنْ وَاحِدًا نَلْقَ الْوَرِيَّ وَانظُرْنِ فِعْلِي

[ادعاء المتنبي الشجاعة]

الطَّرْفُ : الفرسُ الكريمُ ، والدَّابِلُ : ما لَانَ واهتزَّ مِنَ الرماحِ ، يقولُ : دعني وهذا السيفَ وفرسي ورمحي نجتمعُ ، فنكونُ واحداً في رأيِ العينِ . يلقي الوريُّ : أي يحاربُهُم ثُمَّ انظرِ إلى ما أفعَلُهُ فيهم .

[من أين أخذ المتنبي بيته]

[من الطويل]

قال ابنُ جنِّي وقد لاذَ في هذا البيتِ بقولِ ذي الرُّمَّةِ [في « ديوانه » ١١٠٨/٢ - ١١٠٩] :

وَلَيْلٍ كَجَلْبَابِ العَرُوسِ اذْرَعْتُهُ بِأَرْبَعَةٍ وَالشَّخْصُ فِي العَيْنِ وَاحِدٌ
أَحْمٌ غُدَافِيٍّ وَأَبْيَضٌ صَارِمٌ وَأَعْيَسُ مَهْرِيٍّ وَأَرْوَعٌ مَاجِدٌ^(١)

[من الطويل]

أقولُ : ومثله قولُ السلاميِّ [في « خزنة الأدب » ٢٩٥ / ٢] :

فَكُنْتُ وَعَزَمِي فِي الظَّلَامِ وَصَارِمِي ثَلَاثَةٌ أَشْبَاحٍ كَمَا اجْتَمَعَ النُّسْرُ

[شجاعة الإمام]

وقوله : (يلقي الوريُّ) ناظرٌ إلى قولِ أميرِ المؤمنينَ [في « نهج البلاغة » ٣٥٩] : (والله لو تظاهرتِ العربُ بأسرها على قتالي . . لما ولّيتُ عنها ، وأنا من رسولِ الله كالصُّنُو مِنَ الصُّنُو ، والدَّرَاعِ مِنَ العَضْدِ) .

[تعليق المؤلف على المتنبي]

والناظم كثيراً ما يزعمُ غيرَ ما شِيبتهِ ، ويحطِبُ في حبلِ غيره ، وقلتُ في عكسِ قولِ ذي الرُّمَّةِ من قصيدةٍ أصِفُ بها فرسي :

[من الطويل]

إِذَا اعْتَرَضْتُ بِي قَالَ قَوْمٌ ثَلَاثَةٌ وَمَا نَمَّ غَيْرِي لَكِنِ الذُّيْلُ وَالرَّاسُ

(١) الأحمُ الغدافيُّ : الفرسُ الشديدُ السوادِ . أروعُ ماجدٌ : فارسٌ شجاعٌ من خيرة الناسِ .

وتجدُ أن لا مخالفة عند إمعان النظر ؛ لأنِّي أصفُ فرسي مُعترضةً ، وهو يصفُ بعيره مقبلاً أو مدبراً ، وقد قال في نظيره الناظم [في «العكبري» ٢١٤/٣] :

[من المنسرح]

إِنْ أَذْبَرْتُ قُلْتُ : لَا تَلِيلَ لَهَا أَوْ أَقْبَلْتُ قُلْتُ : مَا لَهَا كَفَلٌ^(١)

[من الطويل]

وَمِمَّا جَاءَ فِي وَصْفِ الْخَيْلِ قَوْلُ أَمْرِئِ الْقَيْسِ [في «ديوانه» ١٥٣-١٥٥] :

وَقَدْ أَغْتَدِي وَالطَّيْرُ فِي وَكُنَاتِهَا بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الْأَوَابِدِ هَيْكَلٍ^(٢)
مَكْرٌ مَفْرٌ مُقْبِلٌ مُذْبِرٌ مَعَا كَجُلْمُودٍ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّبِيلُ مِنْ عَلٍ^(٣)
لَهُ أَيُّنَاطٌ ظَنِي وَسَاقَا نَعَامَةٍ وَإِرْخَاءُ سِرْحَانٍ وَتَقْرِيْبٌ تَنْفَلٍ^(٤)

[أول من جعل الحصان قيداً للأوابد]

وكاد الإجماع ينعقد على أنه السابق إلى جعله الحصان قيداً للأوابد ، وعندي أنه مخالفت لقولهم : إِنَّ (زَادَ الرَّكْبِ) فرسٌ معروفٌ من الخيل التي وصفها الله بـ : ﴿ الصَّيْنَتُ الْجِيَادُ ﴾ [ص : ٣١] ، سُمِّيَ بذلك ؛ لأنه كان يلحقُ الصيدَ ، فكان الوفدُ إذا نزلوا . . ركبهُ أحدُهم ، فصادَ لهم ما يكفيهم ، وهو من سليمان عليه السلام ، أعطاه للأزدِ لَمَّا وفدوا عليه ، فكيف يكون امرؤ القيس السابق إليه مع هذا ؟! ولكنه تنوع فيه وأفرغه في عدّة قوالب ، منها قوله [في «ديوانه» ٥٣] :

[من الطويل]

إِذَا مَا رَكِبْنَا قَالَ وُلْدَانُ أَهْلِنَا تَعَالَوْا إِلَيْنَا يَا تَنَا الصَّيْدُ نَحْطِبُ^(٥)

[الشعراء وجعلهم الحصان قيداً للوحوش]

[من الخفيف]

وقال عمارة بن عقيل [في «خزانه الأدب» ١٥٨/١] :

وَأَرَى الْوَحْشَ فِي يَمِينِي إِذَا مَا كَانَ يَوْمًا عِنَانُهُ بِشِمَالِي

[من البسيط]

وقال ابن مقبل :

لَا يَنْفَعُ الْوَحْشَ مِنْهُ أَنْ تَحَذَّرَهُ كَأَنَّهُ مُعَلَّقٌ مِنْهَا بِخُطَافٍ^(٦)

[من الطويل]

وقال الناظم [في «العكبري» ٢٩٤/٣] :

وَخَيْلٍ إِذَا مَرَّتْ بِمَرْجٍ وَرَوْضَةٍ أَبَتْ رَعِيهَا إِلَّا وَمِرْجَلُنَا يَغْلِي^(٧)

(١) التليل : العنق .

(٢) وكُنَاتِهَا : أوكارها . المنجرد : الفرس القصير الشعر . الأوابد : الوحوش . وقيلها : إمساكها بقوة ، فكانها لم تبرح مكانها . الهيكل : الفرس الطويل المتين الخلق .

(٣) الجلمود : الصخر الأصم . من عل : من مكان عال .

(٤) أَيُّنَاطٌ ظَنِي : خاصرتا ظني ؛ لضمورهما . وساقا نعامة : شبه ساقيه بساقي النعام ؛ لصلايتهما وقصرهما . وإرخاء سرحان : سرعة ذنب في لين . وتقريب : تفل : وجري تفل ؛ وهو ولد الذئب .

(٥) نَحْطِبُ : نجمع الحطب ؛ للشواء والطبخ .

(٦) الخُطَافُ - بضم الخاء - : هو الحديدة المعوجة .

(٧) في «العكبري» : (بَوْحَشٍ) بدل (بِمَرْجٍ) . المرجل : القدر ؛ أي : وخيلنا الكريمة تأتي أن ترتع في الرياض والكلأ إذا رأيت الوحوش ، حتى تجعل قدرتنا تغلي ، وتأكل من لحمها .

مُتَمَيِّينَ ظِلَالٍ كُلُّ مُطَهَّهِمْ أَجَلِ الظَّلِيمِ وَرَبَقَةِ السَّرْحَانِ^(١)

[وصف البحري للخيال]

وقال البُحْرِيُّ - وكان وصافاً للخيال - [في «ديوانه» ٣/ ٢٧-٢٨-٢٠٢٧] :

أَرَا جَعْتِي يَدَاكَ بِأَعْوَجِيٍّ كَقَدْحِ النَّبْعِ فِي الرَّيْشِ اللُّؤَامِ؟^(٢)
بِأَذْهِمٍ كَالظَّلَامِ أَغْرَّ يَجْلُو يَغْرَّتْهُ دِيَا جِيرَ الظَّلَامِ
تَرَى أَحْجَالَهُ يَصْعَدْنَ فِيهِ صُعُودَ الْبَرْقِ فِي جَوْنِ الغَمَامِ^(٣)

وقال [في «ديوانه» ٣/ ١٩٨٥-١٩٨٨] :

أَمَّا الْجَوَادُ فَقَدْ بَلَوْنَا يَوْمَهُ وَكَفَى يَوْمٍ مُخْبِرًا عَن عَامِهِ
جَارِي الْجِيَادِ فَطَارَ عَن أَوْهَامِهَا سَبَقًا وَكَأَدَ يَطِيرُ عَن أَوْهَامِهِ
جَذْلَانٌ تَلَطَّمُهُ جَوَانِبُ غُرَّةٍ جَاءَتْ مَجِيءَ الْبَدْرِ عِنْدَ تَمَامِهِ^(٤)
وَاسْوَدَّ ثُمَّ صَفَّتْ لِعَيْنِي نَاطِرٍ جَنَبَاتُهُ فَأَصْأَاءَ فِي إِظْلَامِهِ
مَالَتْ جَوَانِبُ عُرْفِهِ وَكَأَنَّهَا عَذَبَاتٌ أَنَلِ مَالَ تَحْتَ حَمَامِهِ^(٥)
وَكَأَنَّ فَارِسَهُ وَرَاءَ قَذَالِهِ رَذْفٌ فَلَسْتُ تَرَاهُ مِنْ قُدَامِهِ^(٦)
لَأَنْتَ مَعَاظِفُهُ فَتَحَسَّبُ أَنَّهُ لِلْخَيْزُرَانِ مُنَاسِبٌ بِعِظَامِهِ
فِي شُعْلَةٍ كَالشَّيْبِ لَاحٍ بِمُفْرَقِي غَزَلٍ لَهَا عَن شَيْبِهِ بِغَرَامِهِ
وَكَأَنَّ صَهْلَتَهُ إِذَا اسْتَعْلَى بِهَا رَعْدٌ تَقَعَقَعُ فِي اذْدِحَامِ غَمَامِهِ
مِثْلُ الْغُرَابِ مَشَى يُبَارِي صَحْبَهُ بِسَوَادِ صِبْغَتِهِ وَحُسْنِ قَوَامِهِ

وقال [في «ديوانه» ٣/ ١٧٤٠-١٧٤٤] :

وَأَعْرَفِي فِي الزَّمَنِ الْبَهِيمِ مُحَجَّلٍ قَدْ رُحْتُ مِنْهُ عَلَى أَغْرٍ مُحَجَّلٍ
كَالْهَيْكَلِ الْمَيْنِيِّ إِلَّا أَنَّهُ فِي الْحُسْنِ جَاءَ كَصُورَةٍ فِي هَيْكَلِ
ذَنْبٌ كَمَا سَحِبَ الرِّدَاءُ يَذُبُّ عَن عُرْفِي ، وَعُرْفٌ كَالْقِنَاعِ الْمُسْبَلِ
جَذْلَانٌ يَنْفُضُ عُذْرَةَ فِي غُرَّةٍ يَقْقِي تَسِيلُ حُجُولَهَا فِي جَنْدَلِ^(٧)

- (١) في «العكبري» : (يَقْلَبُونَ) بدل (مُتَمَيِّينَ) . الْمُطَهَّهْمُ : الفرسُ النَّامُ ، كُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ عَلَى حَدِيثِهِ . وَالظَّلِيمُ : ذكرُ النعام . وَالرَّبَقَةُ : ما يَكُونُ فِي رِقَبَةِ الشاةِ ، تَحْبِسُهَا مِنَ التَّصَرُّفِ . السَّرْحَانُ : الذنْبُ .
(٢) القَدْحُ : السهمُ قَبْلَ أَنْ يَنْصَلَ وَيَرِيشَ . النَّبْعُ : شَجَرٌ تَتَخَذُ مِنْهُ السهامُ وَالْقَسِيُّ . اللُّؤَامُ ، يُقَالُ : سَهْمٌ لَأَمٌ ؛ أَي عَلَيْهِ رَيْشٌ .
(٣) الْأَحْجَالُ : بِياضٌ فِي قَوَائِمِ الْفَرَسِ . الْجَوْنُ هُنَا : الْأَسْوَدُ .
(٤) جَذْلَانٌ : فَرِحَانٌ .
(٥) الْعَذْبَةُ : طَرَفُ الشَّيْءِ . الْأَنْلُ : شَجَرٌ كَثِيرُ الْأَغْصَانِ .
(٦) قَذَالُ الْفَرَسِ : مَعْقِدُ سَيْرِي اللَّجَامِ ، خَلْفَ النَّاصِيَةِ .
(٧) الْعُدْرَةُ : الشَّعْرُ عَلَى كَاهِلِ الْفَرَسِ . الْيَقْقُ : شِدَّةُ الْبِياضِ . جَنْدَلٌ : مَكَانٌ فِي مَجْرَى النَّهْرِ يَشْتَدُّ فِيهِ التَّيَّارُ .

تَوَهَّمُ الْجُوزَاءَ فِي أَرْسَاغِهِ
فَكَأَنَّمَا نَفَضَتْ عَلَيْهِ صِبْغَهَا
وَتَخَالُهُ كُسَيِّ الْخُدُودِ نَوَاعِمًا
وَتَرَاهُ يَسْطَعُ فِي الْغُبَارِ لَهَيْئُهُ
هَزَجُ الصَّهِيلِ كَأَنَّ فِي نَعْمَاتِهِ
مَلَكَ الْعُيُونِ إِذَا بَدَا أَعْطَيْنَهُ
وَالْبَدْرَ غُرَّةَ وَجْهِهِ الْمُتَهَلِّلِ
صَهْبَاءُ لِلْبَرْدَانِ أَوْ قَطْرُبُلِ^(١)
مَهْمًا تَوَاصِلَهَا بِلِخْظِ تَخَجَلِ
لَوْنًا وَشَدًّا كَالْحَرِيقِ الْمُشْعَلِ
نَبْرَاتٍ مَعْبَدَةٍ فِي الثَّقِيلِ الْأَوَّلِ^(٢)
نَظَرَ الْمُحِبِّ إِلَى الْحَيِّبِ الْمُقْبَلِ

[وصف أبي تمام للخيل]

[من السريع]

وقال حبيب [في «ديوانه» ١/٣٨٠] :

إِنْ زَارَ مَيْدَانًا سَبَى أَهْلَهُ
تَرَى رِزَانَ الْقَوْمِ قَدْ أَسْمَحَتْ
كَأَنَّمَا لَاحَ لَهُمْ بَارِقٌ
عَوْدُهُ الْحَاسِدُ ظَنًّا بِهِ
أَوْ نَادِيًا قَامَ إِلَيْهِ الْجُلُوسُ
عُيُونُهُمْ فِي حُسْنِهِ وَهِيَ شُوسُ^(٣)
فِي الْمَخَلِّ أَوْ زُفَّتْ إِلَيْهِمْ عَرُوسُ
وَرَفَرَفَتْ خَوْفًا عَلَيْهِ الثُّفُوسُ

[وصف ابن المعتز للخيل]

[من الكامل]

وقال ابن المعتز [في «ديوانه» ١/٥١] :

وَلَقَدْ يَشُقُّ بِي الْكَتِيْبَةَ قَارِحٌ
ذُو غُرَّةٍ فِي دَهْمَةٍ فَكَأَنَّهُ
حَتَّى أَخْضَبَ بِالدَّمَاءِ سِلَاحِي
لَيْلٌ تَبْرَقَعُ وَجْهَهُ بِصَبَاحِ

[وصف المتنبى للخيل]

[من الطويل]

وقال الناظم [في «المكبري» ١/١٧٩-١٨٠] :

وَعَيْنِي إِلَى أَدْنَى أَعْرَ كَأَنَّهُ
لَهُ فَضْلَةٌ عَنِ جِسْمِهِ فِي إِهَابِهِ
شَقَقْتُ بِهِ الظَّلْمَاءَ أَدْنَى عِنَانِهِ
وَأَصْرَعُ أَيَّ الْوَحْشِ فَقَيْئُهُ بِهِ
مِنَ اللَّيْلِ بَاقٍ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَوَكْبُ
تَجِيءُ عَلَى صَدْرِ رَحِيبٍ وَتَذْهَبُ
فَيَطْفَأُ وَأَرْجِيهِ مِرَارًا فَيَلْعَبُ
وَأَنْزَلُ عَنْهُ مِثْلَهُ حِينَ أَرْكَبُ
وَإِنْ كَثُرَتْ فِي عَيْنٍ مَنْ لَا يَجْرِبُ
وَمَا الْخَيْلُ إِلَّا كَالصَّديقِ قَلِيلَةٌ

[من الطويل]

وقوله : (وَأَصْرَعُ أَيَّ الْوَحْشِ . . . إِلَى آخِرِهِ) مِنْ قَوْلِ امرئ القيس [في «ديوانه» ١٥٦] :

فَعَادَى عِدَاءَ بَيْنِ ثُورٍ وَنَعَجَةٍ
وَعَادَ فَلَمْ يَنْضَحْ بِمَاءٍ فَيُغْسَلِ

(١) قَطْرُبُلٌ : اسم قرية بين (بغداد) و(عكبري) ينسب إليها الخمر ، وما زالت منتزهاً للبطالين وحانة للخمارين ، وقد أكثر الشعراء من ذكرها . البردان : اسم بلد قريية من (عكبري) و(قطربل) و(بغداد) .

(٢) مَعْبَدٌ : رجلٌ من أئمة الغناء . الثَّقِيلِ الْأَوَّلِ : ضرب من ضروب الإيقاع يبحث في علم الموسيقى .

(٣) أَسْمَحَتْ : ذَلَّتْ وانقادت . الْأَشُوسُ : الذي ينظر بطرف عينه تكبراً .

وحديث امرىء القيس ، وما قضت عليه فيه زوجته لعلقمة الفحل مشهور^(١) .

[وصف المعري للخيل]

وقال المعريّ [في « سقط الزند » ٢٣٠] :

[من الطويل]

وَقَدْ أَغْتَدِي وَاللَّيْلُ يَبْكِي تَأْسُفًا عَلَى نَفْسِهِ وَالنَّجْمُ فِي الْعَرَبِ مَائِلُ
بَرِيحٍ أُعِيرَتْ حَافِرًا مِنْ زُمْرُدٍ لَهَا التَّبَرُّ جِسْمٌ وَاللَّجِينُ خَلَاحِلُ^(٢)
كَأَنَّ الصَّبَا أَلْقَتْ إِلَيَّ عِنَانَهَا تَحُبُّ بِسَرْجِي تَارَةً وَتُنَاقِلُ^(٣)
إِذَا اشْتَاكَتِ الْخَيْلُ الْمَنَاهِلَ أَعْرَضَتْ عَنِ الْمَاءِ فَاشْتَاكَتِ إِلَيْهَا الْمَنَاهِلُ

[الشعراء والخيل]

[من الكامل]

وَيُعْجِبُنِي قَوْلُ بَعْضِهِمْ :

فَكَأَنَّمَا لَطَمَ الصَّبَاحُ جَبِينَهُ فَاغْتَاطَ مِنْهُ فَدَاسَ فِي أَحْشَائِهِ

[من البسيط]

وقال مهذب الدين :

سُودٌ حَوَافِرُهَا بِيضٌ جَحَافِلُهَا صَبْعٌ تَوَلَّدَ بَيْنَ الصُّبْحِ وَالْعَسَقِ
مِنْ طُولِ مَا وَطِئَتْ ظَهَرَ الدُّجَى خَبِيًّا وَطُولِ مَا كَرَعَتْ مِنْ مَنَهْلِ الْفَلَقِ^(٤)

[من الطويل]

وهلها وفعة ؛ فَإِنَّ امرأ القيس يقول عَنْ فرسه [في معلقته] :

كُمَيْتٍ إِذَا اسْتَدْبَرْتَهُ سَدَّ فَرْجَهُ بِضَافٍ فُوَيْقَ الْأَرْضِ لَيْسَ بِأَعَزَلِ

[من المتقارب]

ويقول [في « ديوانه »] :

لَهَا ذَنْبٌ مِثْلُ ذَيْلِ الْعَرُوسِ تَسُدُّ بِهِ فَرْجَهَا مِنْ دُبُرِ

[من الوافر]

والطَّرِمَاحُ يقولُ فِي صِفَةِ فَرَسٍ لَهُ ذَيْالٌ^(٥) [كما في « ديوانه » ٥٣٣] :

فَسَدَّ بِمَضْرَحِي اللَّوْنَ جَنَلِ خَوَايَةَ فَرْجٍ مِقْلَاتٍ دَهِينِ^(٦)

[المحمود من الخيل]

وكُلُّهُ مُشْكَلٌ ؛ لِأَنَّ الْمَحْمُودَ فِي الْخَيْلِ إِنَّمَا هُوَ أَنْ تَشُولَ بِأَذْنَابِهَا ، وَتَبَالِغَ فِي رَفْعِ رُؤُوسِهَا ، حَتَّى تُظَنَّ ثَلَاثَةً إِذَا

- (١) وقصة علقمة : أنه خلف على امرأة امرىء القيس لما حكمت له على امرىء القيس بأنه أشعر منه في صفة فرسه ، فطلقها امرؤ القيس ، فخلفه عليها ، وما زالت العرب تسميه بالفحل لذلك . « الأغاني » (١٠ / ٢٠٦) .
- (٢) الحافر من زمرود : أي حافر أخضر صلب ، التبر : الذهب . اللجين : الفضة .
- (٣) تحب : من الحب ؛ وهو من ضروب السير . النقال : من المناقلة ؛ وهي المشي اللين الرقيق .
- (٤) الفلق : الصبح .
- (٥) ذيال : هو الفرس الطويل الجسم الطويل الذيل . فإن كان قصير الجسم طويل الذيل قيل له : ذائل ، أو ذيال الذنب ، فيذكرون الذنب .
- (٦) مضرحي اللون : الأبيض من كل شيء . الجنل : الكثير الشعر ، الطويل الملتصق . الخوابة : الفرجة بين فخذي الناقة التي يسدها ذنبها . المقلات : الناقة التي تلد واحداً ثم لا تحمل ؛ وذلك أقوى لها . الدهين : الناقة القليلة اللبن ؛ وهو أقوى لها أيضاً .

اعترضت بالراكب ، كما سبق في قولي عن فرسي ، وكما قال بشارٌ [في « ديوانه » ٢٤/٤] : [من الكامل]

وَالْخَيْلُ شَائِلَةٌ تَشُقُّ عُبَابَهَا مِثْلَ الْعَقَارِبِ رَفَعَتْ أذْنَابَهَا

وكما قال الناظم في غارته عليه [في « المُكَبَّرِي » ٩٩/٣] : [من الطويل]

شَوَائِلَ تَشْوَالِ الْعَقَارِبِ بِالْقَنَا لَهَا مَرَحٌ مِنْ تَحْتِهِمْ وَصَهِيلٌ

وقد سبقت العربُ إلى ذلك ، فقال أحدُ بني تميمِ الله بنِ ثعلبة [في « ديوان الحماسة » ٣٥/١] : [من الكامل]

وَلَقَدْ رَأَيْتُ الْخَيْلَ شُلْنَ عَلَيْكُمْ شَوْلَ الْمَخَاضِ أَبَتْ عَلَى الْمُتَعَبِرِ^(١)

وقال غنيُّ بنُ مالكٍ : [من الوافر]

دَفَعْنَا الْخَيْلَ شَائِلَةً عَلَيْهِمْ وَقُلْنَا بِالضُّحَى فَيَحَى فَيَاحِ^(٢)

وقال الحطيئة [في « ديوانه » ١٥٣] : [من الطويل]

عَوَاسِرَ بَيْنَ الطَّلْحِ يَزْجُمْنَ بِالْقَنَا خُرُوجَ الطَّبَاءِ مِنْ حِرَاجِ قِطَانِ

إذ العواسيرُ هي التي ترفعُ أذنانها لقوتها ، شبه الخيلَ بالطباءِ الخوارجِ مِنَ الحِرَاجِ ، جمعُ حَرَجَةٍ ؛ وهي ما التفتَ من الشجرِ ، وقِطَانٌ : موضعٌ معروفٌ ، إلا أن يقالَ : إنَّ الأوَّلِينَ أرادوا وصفها قائمةً في مرابطها ، فقد يكونُ على شيءٍ فيه من البعدِ ، ثمَّ إنَّ قولَ التيمي : (شَوْلُ المخاضِ) ، وقولُ بشارِ ، والناظمِ : مثلُ العقاربِ . . لا يخلو من الملاحظة ؛ لأنَّ المحمودَ في الخيلِ إنما هو أن ترفعَ أذنانها ثم تردّها إلى الوراءِ ، كهيئةِ الرسومِ الواقعةِ بالدنانيرِ الإنكليزية^(٣) ، لا أن تبالغَ في رفعها إلى ما ذكره أولئك ، غيرَ أنَّه يمكنُ أن يردَ إليه ما سبقَ عن الطرمّاحِ ، وعن امرئِ القيسِ ، ولا سيّما ما كانَ في بيته الثاني ؛ إذ لا يبعدُ أن يكونَ المرادُ : أنَّها تشولُ بها ، ثمَّ تردّها حتّى تسدَّ به فروجها ، فيجتمعُ حينئذٍ المدحُ بالطولِ والشولانِ .

[توجيه قول للبحرّي]

أمّا قولُ البحرّيِّ السابقُ [في « ديوانه » ١٧٤٢/٣] : [من الكامل]

ذَنْبٌ كَمَا سُحِبَ الرِّدَاءُ يَذْبُ عَنْ عُرْفٍ وَعُرْفٌ كَالْفِنَاعِ الْمُسَبَّلِ

فلا شكَّ أنَّه يصفه قائماً ، وإلّا . . كانَ فيه عيبُ الإرخاءِ وعيبُ التَّحْرِيكِ ؛ فإنَّه لا يُخمدُ من الخيلِ ، وإنما يُخمدُ من

الإبلِ ، كما قال أبو نؤاسٍ [في « ديوانه » ٢٩٧] : [من الكامل]

تَنِّي عَلَى الْحَاذِينَ ذَا خُصَلٍ تَعْمَالُهُ الشُّدْرَانُ وَالْخَطَرُ^(٤)

(١) شُلْنَ عَلَيْكُمْ : من شالَ الفرسُ بذنبه يشولُ شولاً ؛ أي : رفعه عندَ الجري . المخاضُ : النوقُ الحواملُ . الغبرُ : البقيةُ مِنَ اللبنِ في الضَّرعِ . والمعنى : لقد رأيتمُ منهنَّ من الخيلِ تعدو عليكم رافعةً أذنانها رفعَ النوقِ الحواملِ لها إذا طُلبَ حلبٌ غيرَ لبنِها .

(٢) فيحى فَيَاحِ : انتشري واتسعي أَيْتَهَا الغارةُ .

(٣) المراد الليرة الذهبية الإنكليزية المعروفة الآن .

(٤) الحاذان - مثنى الحاذي - : وهو ظاهرُ الفخذِ . ذا خُصَلٍ : يريدُ به ذنبُ الناقةِ . التعمالُ : الاضطرابُ . الشدرانُ : جمعُ الناقةِ قُطْرِيها وَرَفَعُها ذَنْبِها . الخَطَرُ : أن تضربَ الناقةَ بذيلها يميناً ويساراً .

أَمَّا إِذَا رَفَعْتَهُ شَامِئَةً فَتَقُولُ : رَنَّ قَ فَوْقَهَا نَسْرٌ^(١)
أَمَّا إِذَا وَضَعْتَهُ خَافِئَةً فَتَقُولُ : أَرْخِي دُونَهَا سَتْرٌ

[هل معقول أن سرعة الخيل الأعوجية تعادل سرعة القطا؟]

والكلام في الخيل يطول ، وسنسير عليه في الفصول ، كلما سنحت فرصة . نذكر منه حصّة ، وهي ممّا أفردت بالتأليف العديدة ، ومن أشهرها (الأعوجية) منسوبة لفحلّ كريم كان لكندة ، ثم أخذته سليم ، ثم صار لبني عامر ، ثم لبني هلال ، ركب ربطاً ، فاعوجت أرساغه ، قيل لصاحبه : ما رأيت من شدة عدوه ؟ قال : عطشت في الفلاة ، ولا أعرف منها ، فما كان بأسرع من سرب قطا وارد ، فأجريت في إثره ، فوافينا الماء معاً ، وكنت أغض من عنانه .

وفيه مبالغت ؛ لأن القطا من أشد الطير طيراناً ، وإذا أراد الماء . . اشتد . وما كفاه ذلك حتى قال : أغض من لجامه .

[أول من ركب الخيل]

وأول من ركب الخيل : إسماعيل - عليه السلام - وكانت قبل ذلك وحشية ، كما سيأتي بيانه في غير هذا المجلس .

والله أعلم

* * *

(١) الشامة : الناقة التي تشيل ذنبها نشاطاً .

المجلس الخامس

قال أبو الطيب المتنبّي في « العُكْبَرِيّ » ٢٩/٤ :

[من الكامل]

غُضِنُ عَلَى نَقَوَا فَلَاةٍ نَابِتٌ شَمْسُ النَّهَارِ ثِقْلٌ لَيْلًا مُظْلَمًا

[وصف المتنبّي لحبيته]

بصف حبيبته فيقول : هي (غصن) يعني : قامتها . (نابت) على كثيب رملي - يعني : رديها . ووجهها شمس تحمل ليلًا مظلمًا - يعني : فرعها . و (نقوا) - تثنية نقأ - وهو : الكثيب من الرمل . و (الفلاة) : المفاضة ، وتشبيه الكفل بالنقا شائع ذائع مرمي في مدارج الطرق ، غير أن التثنية قد تخرج عن الابتدال ، والمرأة لها مأكمتان ، فشبّه كل واحد بنقا من الرمل نابت عليهما غصن القامة ، وذكر الفلاة من الفضول ؛ إذ لا معنى له غير الاسترفاد ، ما لم تكن المرأة أعرابية ، فيكون من بيان الواقع . وقوله : (نابت) من الحشو أيضاً ؛ إذ لا يزيد شيئاً على قوله : (غصن على نقوا) ، وتشبيه المآكم بكثبان الرمل على ما ذكرنا من الشيوخ .

[تشبيه المآكم بكثبان الرمل عند الشعراء]

[من البسيط]

ومما جاء مُحْكَمًا فِيهِ قَوْلُ أَبِي تَمَّامٍ [في ديوانه ١٠٣/١] :

كَمْ أَحْرَزْتَ قُضْبُ الْهِنْدِيِّ - مُضْلَتَةٌ تَهْتَزُّ - مِنْ قُضْبٍ تَهْتَزُّ مِنْ كُثْبٍ^(١)

[من الكامل]

وقول البُحْتَرِيِّ [في ديوانه ١٩٥٤/٣] :

أَيْنَ الْغَزَالِ الْمُسْتَعِيرُ مِنَ النَّقَا كَفَلًا ، وَمِنْ نَوْرِ الْأَقَاحِيِّ مَبْسَمًا^(٢) ؟

ومرّ كثيرٌ ممّا يتصل به في المجلس الثاني عند قوله [في « العُكْبَرِيّ » ٢٩٧/١] : (بانوا بخرعوية لها كفل . . .) ، ولكنّ

[من الطويل]

الإجادة كلّ الإجادة ما فعل ذو الرّمة من عكسه التّشبيّه في قوله [في ديوانه ١١٣١/٢] :

وَرَمَلٍ كَأَوْرَاكِ الْعَذَارَى قَطَعْتُهُ وَقَدْ جَلَلْتُهُ الْمُظْلِمَاتُ الْحَنَادِسُ^(٣)

[كثرة استعمال التشبيه تبليه إلا إن خرج عن بابه مع نظريف]

وكذلك تشبيه الوجه بالشمس والبدر ، والفرع بالليل^(٤) ، فإنه ممّا أذالته الابتدال ، فلم يعد يحسن إلا مع نظريف

(١) القُضْبُ - مفردا قضيب - وهو السيف اللطيف القطاع . مُضْلَتَةٌ : مسلوقة ؛ والمعنى : أنّ تلك السيوف الهنديّة إذا اهترت . . . سبّت الذراري ، وأحرزت النساء اللاتي تهتز كالقضببان في كثبان الرمل .

(٢) النقا : الرمل . والأقاحي : جمع أقحوان ، وهو نبت طيب الريح .

(٣) الحنادس : ثلاث ليالٍ من الشهر لظلمتهنّ .

(٤) الفرع : الشّعْرُ .

يُغْرِبُهُ فَيُخْرِجُهُ عَنِ الْاِمْتِهَانِ ؛ كَقَوْلِ طَرْفَةَ [في « ديوانه » ١١] :

وَوَجْهٍ كَأَنَّ الشَّمْسَ حَلَّتْ رِداءَهَا

وقول قيس :

لَوْ أَنَّ لَيْلَى حَاكَمَتْ شَمْسَ الضُّحَى

وقول البُحْتَرِيِّ [في « ديوانه » ٤ / ٢٤١٠] :

فِي طَلَعَةِ الشَّمْسِ شَيْءٌ مِنْ مَلَاَحَتِهَا

وقول الآخر :

تَرَاءَى وَمِرَاةَ السَّمَاءِ صَقِيلَةً

وقول بعض قدماء المولدين^(٢) :

قَدْ قُلْتُ لِلْبَدْرِ وَاسْتَعْبَرْتُ حِينَ بَدَا
تُبْدِي لَنَا كَلِمًا شِئْنَا مَحَاسِنَهَا

وقول حبيب [في « ديوانه »] :

فَرُدَّتْ عَلَيْنَا الشَّمْسُ وَاللَّيْلُ مُظْلِمٌ
فَوَاللَّهِ مَا أَذْرِي أَحْلَامَ نَائِمٍ

وإلى مثله يُشيرُ أبو العلاء في قوله :

وَيُوشِعُ رَدًّا يَوْمًا بَعْضَ يَوْمٍ

وما أَحْسَنَ قَوْلُهُ :

وَقَدْ حَلَفْتُ أَنْ تَسْأَلَ الشَّمْسَ حَاجَةً

وقوله [في « سقط الزند » ١٦١] :

أَرَى جَيْبِكَ هَلْذِي الشَّمْسُ خَالِقَهَا

وقول بديع الزمان [في « ديوانه » ٣٤] :

يَكَادُ يَحْكِيكَ صَوْبُ الْغَيْثِ مُسْكِبًا

[مِنَ الطَّوِيلِ]

عَلَيْهِ تَقِيُّ اللَّوْنَ لَمْ يَتَّخِذْ^(١)

[مِنَ الْكَامِلِ]

فِي الْحُسْنِ عِنْدَ مُوَفَّقِي . . لَقَضَى لَهَا

[مِنَ الْبَسِيطِ]

وَلَلْقَضِيبِ نَصِيبٌ مِمَّنْ تَشِيَّهَا

[مِنَ الطَّوِيلِ]

فَأَثَرَ فِيهَا وَجْهَهُ صُورَةَ الْبَدْرِ

[مِنَ الْبَسِيطِ]

مَا فِيكَ يَا بَدْرُ لِي مِنْ وَجْهَهَا خَلْفٌ
وَأَنْتَ تَنْقُصُ أَحْيَانًا وَتَنْخَسِفُ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

بِشَمْسٍ لَهُمْ مِنْ جَانِبِ الْخِذْرِ تَطْلُعُ
أَلَمْتُ بِنَا ، أَمْ كَانَ فِي الرِّكْبِ يُوشِعُ^(٣)

[مِنَ الْوَافِرِ]

وَأَنْتَ مَتَى سَفَرْتَ رَدَدْتَ يُوحَا^(٤)

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَأِنْ سَأَلْتُكَ الْيُسْرَ بَرَّتْ يَمِينُهَا

[مِنَ الْبَسِيطِ]

وَقَدْ أَنْارَتْ بِنُورٍ عَنْهُ مُنْعَكِسٍ

[مِنَ الْبَسِيطِ]

لَوْ كَانَ طَلَقَ الْمُحَيَّا يُمَطِّرُ الذَّهَبَا

(١) الوجه المتخددُ : المتجددُ .

(٢) المولدين : المُخَدَّثِينَ ، والمولَّد لغة : المُخَدَّثُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، واصطلاحاً : هو العربيُّ غيرُ المحضِ ، وُلِدَ عِنْدَ الْعَرَبِ ، وَنَشَأَ مَعَ أَوْلَادِهِمْ ، وَتَأَدَّبَ بِأَدَابِهِمْ ، فَهُوَ مَوْلَدٌ وَلَيْسَ بَعْرَبِيٌّ صَرِيحٌ .

(٣) والمعنى : شبهَ سفورَ محبوبته ليلاً كأنها شمسُ النهارِ عادت ليلاً ، ثم يستغربُ ويشكُّك فيما رأى فيظنه تارةً حُلماً وتارةً يظنُّ أنَّ يوشعَ بنَ نونٍ معَ الركبِ ، حيثُ إنَّ يوشعَ استوقفَ الشمسَ عندما كانَ يقاتلُ الجبارينَ يومَ الجُمُعَةِ ، فلما أدبرتِ الشمسُ . . خافَ أنَّ تغيبَ قبلَ أنْ يفرغَ مِنَ الْقِتَالِ ويدخلُ السبتُ ، فلا يحلُّ لَهُ الْقِتَالُ ، فدعا اللهَ ، فردَّ لَهُ الشمسَ حَتَّى قَرَعَ مِنْ قِتَالِهِمْ .

(٤) سفرت : برزت من غيرِ حجابٍ . يوحا : اسمٌ مِنْ أسماءِ الشمسِ .

وَاللَّيْثُ لَوْ لَمْ يُصَدِّ وَالْبَحْرُ لَوْ عَذَبَا

وَالدَّهْرُ لَوْ لَمْ يَخُنْ وَالشَّمْسُ لَوْ نَطَقَتْ

وقول ابن المعتز في «ديوانه» ١٥١/٢ : [مِن الطَّوِيلِ]

شَبِيهَةٌ خَدَّيْهَا بَعِيرِ رَقِيبٍ
وَشَمْسَيْنِ مِنْ خَمْرِ وَخَدَّ حَبِيبِ

سَقَتْنِي فِي لَيْلٍ شَبِيهِ بِشَعْرِهَا
فَأَمْسَيْتُ فِي لَيْلَيْنِ فِي الشَّعْرِ وَالذَّجِي

[الرشيد وعلي بن الخليل]

ويروى [كما في «الأغاني» ١٧٤/١٤] : أَنَّ شَيْخًا حَسَنَ الْهَيْئَةِ قَامَ فِي مَجْلِسِ الرَّشِيدِ لِلْمِظَالِمِ بَرُوقَةٍ ، فَأَمَرَ بِأَخْذِهَا ، فَقَالَ الشَّيْخُ : إِنْ رَأَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَأْذَنَ لِي بِقِرَاءَتِهَا ؛ فَإِنِّي أَعْرِفُ بِخَطِّي ، قَالَ : أَقْرَأُ ، فَأَنْشَدَهُ قَصِيدَةً مِنْهَا : [مِنَ الْكَامِلِ]

سَجَدْتُ لِوَجْهِكَ طَلَعَةُ الشَّمْسِ
فِي يَوْمِكَ الْغَادِي وَفِي أَمْسِ
عَفَّ السَّرِيرَةَ طَاهِرِ النَّفْسِ

لَمَّا رَأَتْكَ الشَّمْسُ طَالِعَةً
خَيْرُ الْبَرِيَّةِ أَنْتَ كُلَّهُمْ
لِللَّهِ يَا هَارُونَ مِنْ مَلِكِ

حَتَّى أَتَى عَلِيَّ آخِرَهَا . قَالَ الرَّشِيدُ : مَنْ الشَّيْخُ ؟ قَالَ : عَلِيُّ بْنُ الْخَلِيلِ ، الَّذِي يُقَالُ إِنَّهُ زَنْدِيقٌ ، قَالَ : أَنْتَ آمِنٌ ، وَأَمْرُهُ بِخَمْسِ مِئَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ^(١) .

[المتنبي وإغرابه في التشبيه]

وما أكثر في «ديوان الناظم» من استعارة الشمس بتكيت ^(٢) تارة ، وبدونه أخرى .

[مِن الطَّوِيلِ]

مِن ذَلِكَ قَوْلُهُ فِي «الْعُكْبَرِيِّ» ١٢٣/٢ :

فَقُلْنَا : نَرَى شَمْسًا وَمَا طَلَعَ الْفَجْرُ

رَأَتْ وَجْهَ مَنْ أَهْوَى بِلَيْلِ عَوَازِلِي

[مِنَ الْكَامِلِ]

وقوله في «العكبري» ٣١/١ :

إِلَّا بِوَجْهِ لَيْسَ فِيهِ حَيَاءٌ

لَمْ تَلَقْ هَذَا الْوَجْهَ شَمْسُ نَهَارِنَا

[مِنَ الْكَامِلِ]

وقوله في «العكبري» ١٣٠/١ :

يَغْشَى الْبِلَادَ مَشَارِقًا وَمَعَارِبًا

كَالشَّمْسِ فِي كِبِدِ السَّمَاءِ وَضَوْءِهَا

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقوله في «العكبري» ٨٢/٤ :

وَوَجْهُ يُعِيدُ الصُّبْحَ وَاللَّيْلُ مُظْلِمٌ ^(٣)

بِفَرْعِ يُرِيكَ اللَّيْلَ وَالصُّبْحُ نَيْرٌ

[مِنَ الْبَسِيطِ]

وقوله في «العكبري» ١١٣/١ :

وَدُرٌّ لَفَظِ يُرِيكَ الدَّرُّ مَخْشَلَبًا ^(٤)

بَيَاضُ وَجْهِ يُرِيكَ الشَّمْسَ حَالِكَةً

(١) وجاء في «الأغاني» : أَنَّهُ أَعْطَاهُ خَمْسَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ .

(٢) النكتة : المسألة العلمية الدقيقة ، يتوصل إليها بدقة وإنعام فكر .

(٣) الباء في قوله : (بِفَرْعِ) متعلقة بمحذوف تقديره : تَقْبَلُ .

والمعنى : قد جُمِعَتْ فِيهَا الْأَصْدَادُ ، فَهِيَ تَجْمَعُ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، تُرِيكَ النَّهَارَ لَيْلًا بِشَعْرَاهَا ، وَاللَّيْلَ نَهَارًا بِوَجْهِهَا .

(٤) الْمَخْشَلَبُ وَالْمَخْشَلَبُ : لُغْتَانِ ، وَلَيْسَتْا عَرَبِيَّتَيْنِ ، وَإِنَّمَا هُمَا لُغْتَانِ اللَّبْطِ ، وَهُوَ : حَرَزٌ مِنْ حِجَارَةِ الْبَحْرِ ، وَلَيْسَ بِدُرٍّ .

وقوله [في «المكبري» ٨١/٢] :

[من البسيط]

شَمْسٌ إِذَا الشَّمْسُ لَاقَتْهُ عَلَى فَرَسٍ تَرَدَّدَ النُّورُ فِيهَا مِنْ تَرَدُّدِهِ

وقوله [في «المكبري» ٩٩/٢] :

[من البسيط]

تَكَسَّبُ الشَّمْسُ مِنْكَ النُّورَ طَالِعَةً كَمَا تَكَسَّبَ مِنْهَا نُورُهُ الْقَمَرُ

وقوله [في «المكبري» ١١٠/٢] :

[من الوافر]

كَأَنَّ شُعَاعَ عَيْنِ الشَّمْسِ فِيهِ فَفِي أَبْصَارِنَا عَنْهُ انْكَسَارُ

وقوله [في «المكبري» ٤/٤] :

[من الطويل]

فَلَا زَالَتِ الشَّمْسُ الَّتِي فِي سَمَائِهِ مُطَالِعَةَ الشَّمْسِ الَّتِي فِي لثَامِهِ
وَلَا زَالَ تَجْتَازُ البُذُورُ بِوَجْهِهِ تَعَجَّبُ مِنْ نُقْصَانِهَا وَتَمَامِهِ

[وصف السيدة فاطمة الزهراء]

وأفضل ما في الموضوع : ما أخرجه الحاكم [في «المستدرک» ١٧٦/٣] عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : سَأَلْتُ أُمِّي عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَتْ : كَانَتْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ، أَوْ الشَّمْسِ إِذَا خَرَجَتْ مِنَ السَّحَابِ ؛ بِيضَاءَ مَشْرَبَةِ حُمْرَةٍ ، لَهَا شَعْرٌ أَسْوَدٌ ، مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ شَبْهًا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، هِيَ - وَاللَّهِ - كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

[من الكامل]

بِيضَاءُ تَسْحَبُ مِنْ قِيَامِ شَعْرَهَا وَتَغَيَّبُ فِيهِ وَهُوَ جَنَلٌ أَسْحَمُ^(١)
فَكَأَنَّهَا فِيهِ نَهَارٌ مُشْرِقٌ وَكَأَنَّه لَيْلٌ عَلَيْهَا مُظْلِمٌ

[وصف سيد الأنام صلى الله عليه وسلم]

وقال كعب بن زهير يمدح سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم :

[من البسيط]

تَجْرِي بِهِ النَّاقَةُ الْأَدْمَاءُ مُعْتَجِرًا بِالبُّرْدِ كَالْبَدْرِ جَلِي لَيْلَةَ الظُّلَمِ^(٢)
وهو تشبيه بليغ مع وجود الأداة ، وعدم الإغراب ، وقلّة النكات ، وما وقع من القبول بما هو عليه إلا من حيث إنه صادف محله ، وكان قبل ابتدال المعنى إلى جزالة تركيب ، وفخامة لفظ ، وتناسق سبك ، واتفاق جناس ، وسلاسة تعبير ، ولا كذلك بيت الناظم الذي نتكلم فيه ؛ لخلوه من الإغراب الذي لا يزال يتصيده ، وبيت كعب هذا أحد بيتين أجمع أهل العلم بالصناعة على تقديمهما ، وقد شطرتهما بما امتزج بهما امتزاج الماء بالراح ، واختلط بهما اختلاط الأجسام بالأرواح ، فقلت :

[من البسيط]

تَجْرِي بِهِ النَّاقَةُ الْأَدْمَاءُ مُعْتَجِرًا فِي الغَزْوِ مَخْضُوبَةً أَخْفَأُهَا بِدَمٍ

(١) الجنل : الكثير الملتف . أسحم : أسود .

(٢) الأدماء : السوداء .

وَالْيَوْمُ بِالنَّقْعِ لَيْلٌ وَهُوَ مُتَشِحٌ
وَفِي عِطَافَيْهِ أَوْ أَتْنَاءِ رِبَطِيهِ
وَيَبْنُ جَنِيَّتِهِ قَلْبٌ مِْلٌ حَبِيْبِهِ
بِالْبُرْدِ كَالْبُدْرِ جَلِي لَيْلَةَ الظُّلَمِ
جَلَالَةُ الْوَحْيِ فِي مُسْتَحْسَنِ الشِّيمِ^(١)
مَا يَعْلَمُ اللهُ مِنْ دِينٍ وَمِنْ كَرَمِ

[التوغل والاستغراق في المديح عند المتنبي]

وقد ألمَّ الناظمُ بالأخيرِ في قوله [في «المكبري» ١/٣٤٠] :
يَفْنَى الْكَلَامُ وَلَا يُحِيطُ بِوَصْفِكُمْ
[مِنَ الْكَامِلِ]

وقوله [في «المكبري» ١/٣٥٢] :
[مِنَ الْبَسِيطِ]

لَمْ أُجْرِ غَايَةَ فِكْرِي مِنْكَ فِي صِفَةٍ
وَتَحَيَّرْتُ فِيهِ الصِّفَاتُ لِأَنَّهَا
وقوله [في «المكبري» ١/٣٣٣] :
[مِنَ الْكَامِلِ]

وَتَحَيَّرْتُ فِيهِ الصِّفَاتُ لِأَنَّهَا
وَمَا حَارَتْ الْأَفْهَامُ فِي عَظَمِ شَأْنِهِ
وقوله [في «المكبري» ٢/٢٨٧] :
[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَمَا حَارَتْ الْأَفْهَامُ فِي عَظَمِ شَأْنِهِ
وقوله - وقد أساء الأدب - [في «المكبري» ٤/٢٠١] :
[مِنَ الْكَامِلِ]

تَنَقَّصَرُ الْأَفْهَامُ عَنِ إِذْرَاكِهِ
مِثْلُ الَّذِي الْأَفْلَاكُ فِيهِ وَالذُّنَا^(٢)

[التوغل والاستغراق في المديح عند الشعراء]

وقال بعضهم :
[مِنَ الْوَافِرِ]

مُرَامٌ شَطٌّ مَرَمَى الْوَصْفِ فِيهِ
فَدُونٌ مَدَاهُ يَبِيدُ لَا تَبِيدُ
وقال ابنُ هانئٍ [في «ديوانه» ٩١] :
[مِنَ الْبَسِيطِ]

أَتَبَعْتُهُ فِكْرَتِي حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ
أَبْصَرْتُ مَوْضِعَ بُرْهَانِ يُلُوحٌ وَمَا
غَايَاتِهَا بَيْنَ تَصْوِيبٍ وَتَضْعِيدِ
أَبْصَرْتُ مَوْضِعَ تَكْيِيفٍ وَتَحْدِيدِ

وَمَا أَلِيقَ هَذَا بِالْجَنَابِ الْأَقْدَسِ ، غَيْرَ أَنَّ هَذَا لَا يُوَزَعُونَ^(٣) عَنِ الْغُلُوِّ فِي الْمَخْلُوقِينَ .

وقال العجاجُ فيما يُشَبِّهُ قَوْلَ كَعْبٍ [في «ديوانه» ٣٩٧] :
[مِنَ الرَّجْزِ]

يَحْمِلُنَ كُلَّ سُودِدٍ وَفَخْرٍ
يَحْمِلُنَ مَا نَذْرِي وَمَا لَا نَذْرِي

(١) الربطة : الملاءة إذا كانت قطعة واحدة ولم تكن لفقين .

(٢) مثل : الرواية الصحيحة بالرفع ، ويكون على تقدير : هو مثل ؛ يعني : أن الأفهام تنقاصر عن هذا الممدوح في معرفة حقيقته ، فهو مثل علم الله تعالى .

(٣) لا يوزعون : لا يرتدعون .

قَالَ الْأَصْمَعِيُّ - وَأَصْلُهُ قَوْلُ الْحَارِثِ بْنِ حِلْزَةَ - :

[مِنَ الْخَفِيفِ]

وَفَعَلْنَا كَمَا عَلَّمَ اللَّهُ وَمَا إِنَّا لِلْخَائِبِينَ ذَمَاءٌ^(١)

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقالت الخنساء [في «ديوانها» ٢٩] :

أَلَا نِكَلْتُ أُمَّ الَّذِينَ مَضَوْا بِهِ إِلَى الْقَبْرِ مَاذَا يَحْمِلُونَ إِلَى الْقَبْرِ !؟

وفي الذكر الحكيم منه الكثير الطيب ، كقوله جلَّ اسمه : ﴿ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ [طه : ٧٨] ، وقوله : ﴿ إِذْ يَنْشَى السِّدْرَةَ مَا يَعْتَنِي ﴾ [النجم : ١٦] ، وقوله : ﴿ وَفَعَلْتَ فَعَلْتَكِ الْتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩] .

[المؤلف ومفاضلته بين بيت البوصيري وبيت لابن الفارض في أحد المجالس]

واتفق أن حضرنا مجلساً جرى فيه ذكر قول البوصيري [في «برده» ١٦] : [مِنَ الْبَسِيطِ]

فَمَبْلَغُ الْعِلْمِ فِيهِ أَنَّهُ بَشَرٌ وَأَنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ اللَّهِ كُلِّهِمْ

[مِنَ الْكَامِلِ]

فقلت : ما زالت الأدياء تفاضل بينه وبين قول ابن الفارض [في «ديوانه» ١٥٤] :

وَعَلَى تَفَنُّنٍ وَاصِفِيهِ بِوَصْفِهِ يَفْنَى الزَّمَانَ وَفِيهِ مَا لَمْ يُوصَفِ

ومنهم من يرجح الأول ؛ لاقتضائه أن العلم لا يصل كنه صفته عليه السلام ؛ إذ صار كأنه استجمع فضيلة كل فاضل ، وزاد .

والحال : أن ذكر فضل سائر الفضلاء بلبه الزيادة عليه لا يحصى في أزمته ، فضلاً عن الزمان الواحد ، فالأمر أكثر من

[مِنَ الْكَامِلِ]

قول الناظم [في «العكبري» ٢/٢٦٧] :

لَوْ نَيْطَتِ الدُّنْيَا بِأَخْرَى مِثْلَهَا لَعَمَّمَنَهَا وَخَشِينُ أَنْ لَا تَقَنَّعَا^(٢)

[إتمامه صلى الله عليه وسلم بيتاً للبوصيري في المنام]

ويحكون فيه مناماً ، حاصله : أن البوصيري وقف بعد الشطر الأول من البيت ، ولم يدرك ما يقول ، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم يئمه له كما هو ، ولكن بيت ابن الفارض أفخم ، وأملأ للفم ، وأرق ديباجة ، وألطف حاشية ، وأجمل سبكاً ، ولأسيماً من شطر بيت البوصيري الأخير ، على أن (أل) في المفرد من صيغ العموم ، فيساوي بيت البوصيري حينئذ في المعنى ، ويبقى له التفرُّد بفصاحة الألفاظ ، وهي التي لا تتفاوت الدرجات وتمايز المقادير إلا بها .

[المعاني موجودة حتى عند العامة ولكن الفضل في نظمها]

أمَّا المعاني : فقد تجد في كلام العامة ما لا تجد مثله منها في أشعار الفحول ؛ ولهذا قال أبو تمام : لما نظمت

قصيدتي المستهلة بقولي [في «ديوانه» ١/١٤٨-١٤٩] : [مِنَ الطَّوِيلِ] (عَلَى مِثْلِهَا مِنْ أَرْبَعٍ وَمَلَاعِبٍ) ، ووصلت إلى قولي

منها :

(١) الذمَاءُ : بقية الروح في المذبح ، أو قوة قلبه .

(٢) لَعَمَّمَهَا : أَيْ هَمَّتْكَ وَعَزَمَتْكَ وَسَعَتْ صَدْرَكَ .

بَرَى أَفْبَحَ الْأَشْيَاءِ أَوْبَةَ آمِلٍ كَسْتُهُ يَدُ الْمَأْمُولِ حُلَّةَ خَائِبِ

(وَأَحْسَنُ مِنْ نَوْرِ يُفْتَحُهُ الصَّبَا) . . تَبَلَّدْتُ وَلَمْ أَقْدِرْ عَلَى شَيْءٍ ، حَتَّى قَامَ سَائِلٌ بِالْبَابِ يَقُولُ : مِنْ بِيَاضِ عَطَايَاكُمْ فِي سَوَادِ مَطَالِبِنَا ، فَأَتَمَّمْتُ الْبَيْتَ هَكَذَا : (بِيَاضُ الْعَطَايَا فِي سَوَادِ الْمَطَالِبِ) .

عَلَى أَنَّ الشَّيْخَ ابْنَ الْفَارُضِ لَمَّا فُتِحَ عَلَيْهِ بِالْبَيْتِ الْمَذْكُورِ . . رَقَصَ طَوِيلًا ، وَتَوَاجَدَ وَجَدًا عَظِيمًا ، وَتَحَدَّرَ مِنْهُ عَرَقٌ كَثِيرٌ ، حَتَّى سَالَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ ، وَخَرَّ إِلَى الْأَرْضِ ، وَاضْطَرَبَ كَمَا يَضْطَرِبُ الْعَصْفُورُ ، قَالَ وَلَدُهُ : ثُمَّ سَكَنَ حَالُهُ ، وَسَجَدَ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَقَالَ : فُتِحَ عَلَيَّ بِمَعْنَى لَمْ يَفْتَحْ عَلَيَّ بِمِثْلِهِ ، وَأَنْشَدَ الْبَيْتَ . . . هَذَا مَا قَلْتُهُ بِمَعْنَاهُ إِنْ تَعَدَّرَ لَفْظُهُ .

[اعتراض بعض الحاضرين على المؤلف ورد المؤلف عليه]

وَفِي الْمَجْلِسِ بَعْضُ مَنْ يَدَّعِي الْعِلْمَ فَأَعَادَ بَعْضَ كَلَامِي عَنْ بَيْتِ الْبُوصَيْرِيِّ بِعِبَارَةٍ عَامِّيَّةٍ مُبْتَدَلَةٍ ، وَقَضَى لَهُ ، وَقَالَ : كَيْفَ لَا يَكُونُ أَبْلَغَ مِنْ بَيْتِ ابْنِ الْفَارُضِ ، وَقَدْ أَمْلَأَهُ عَلَيْهِ سَيِّدُ الْبَشَرِ؟! قُلْتُ لَهُ : ذَلِكَ أَدْنَى لِتَفْضِيلِ بَيْتِ ابْنِ الْفَارُضِ عَلَيْهِ ؛ فَاللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ يَقُولُ : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ ﴾ [يس : ٦٩] .

وَمِنْ هُنَا نَجِدُ فِي الْقِسْمِ الثَّانِي الَّذِي ذَكَرَ أَنَّهُ أَمْلَأَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ضِعْفًا يَزِيدُنَا إِيمَانًا وَطَمَئِينَةً بِصِدْقِ رِسَالَتِهِ ، وَحَقِيقَةِ وَجْهِهِ ، فَانْقَطَعَ الرَّجُلُ عَنِ الْحِجَّةِ غَيْرَ أَنَّهُ لَجَّ فِي الْمَكَابِرَةِ ، وَأَبَى لَهُ أَصْحَابُهُ إِلَّا الْغَلْبَ ، وَإِلَى النَّاطِرِينَ الْحُكْمَ فِيمَا شَجَرَ ، وَيَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ نَظَرَ بَعَيْنِ الْمَعْدَلَةِ ، وَتَكَلَّمَ بِلِسَانِ الْإِنصَافِ .

ثُمَّ ذَكَرْتُ : أَنَّ الْأَخْطَلَ كَمَا فِي « مَعَاهِدِ التَّنْصِيصِ » يَقُولُ :

[مَنْ الطَّوِيلِ]

رَأَيْنَا بِيَاضًا فِي سَوَادِ كَأَنَّهُ بِيَاضُ الْعَطَايَا فِي سَوَادِ الْمَطَالِبِ

فَغَلَبَ عَلَى الظَّنِّ أَنَّ الطَّائِيَّ^(١) إِنَّمَا انْتَحَلَ حَدِيثَ السَّائِلِ لِيُؤَارِي مِنْ سَوْءَتِهِ ، وَيُعْفِي عَلَى سَرِقَتِهِ .

وَاللَّهُ أَعْلَمُ

* * *

[مَنْ الْكَامِلِ]

[قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ الْمُنْتَبِي فِي « الْعُكْبَرِيِّ » ٢٩/٤] :

لَمْ تَجْمَعْ الْأَضْدَادَ فِي مُتَشَابِهِهِ إِلَّا لِتَجْعَلَنِي لِغُرْمِي مَغْنَمًا

[تشبيه المنتبي ما يلزم من العشق بالدين]

يَقُولُ : إِنَّ مَا لَزِمَهُ مِنْ عَشْقِ الْحَبِيبَةِ بِمِثَابَةِ الدِّينِ الثَّابِتِ ، وَهِيَ لَمْ تَجْمَعْ الْأَوْصَافَ الضَّدِّيَّةَ فِي شَخْصِهَا الْمَتَمَثِّلِ حُسْنًا إِلَّا لِتَجْعَلَنِي غَنِيمَةً لِلْمَغْرَمِ الَّذِي لَزِمَنِي مِنْ هَوَاهَا .

[شرح البيت]

قَالَ الشَّارِحُ : أَيُّ لَتَسْتَعْبِدَنِي وَتَرْتَهَنَ قَلْبِي ، وَأَقُولُ : إِنَّ الْأَوْلَى : لِتَقْتَلَنِي إِذَا غَلَقَ رَهْنُ قَلْبِي بِمَا فِيهِ ؛ لِأَنَّهُ الْأَقْرَبُ الْمَتَبَادِرُ مِنْ لَفْظِ الْبَيْتِ .

(١) هو الشاعر المعروف ، أبو تمام ، حبيب بن أوس الطائي .

و(أَل) في الأضداد للعهد المذكور في البيت قبله من الهيف في القد ، والضخامة في الكفل ، والضياء في الوجه ، والظلام في الفرع .

[معنى التشابه]

والتشابه ؛ وهو : التساوي ، وقد يراد به المؤدّي للالتباس ، ومنه قوله تعالى : ﴿ تَشَبَهتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [البقرة : ١١٨] ، وقوله جلّ ذكره عن بني إسرائيل : ﴿ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا ﴾ [البقرة : ٧٠] وقوله تقدّست أسماؤه : ﴿ مُشَبِّهًا وَعَيْرَ مُتَشَبِّهِ ﴾ [الأنعام : ٩٩] ، ويدخل في التشابه التشبيه المعكوس ، وهو : أن يُشبّه كلٌّ من الشئين بالآخر ، كقول الصّاحب (في ديوانه) [١٧٦] :

رَقَّ الزُّجَاجُ وَرَاقَتِ الْخَمْرُ فَتَشَابَهَا وَتَشَاكَلَ الْأَمْرُ
فَكَأَنَّمَا خَمْرٌ وَلَا قَدْحٌ وَكَأَنَّمَا قَدْحٌ وَلَا خَمْرٌ

[تناسب الأعضاء إلى بعضها هو معيار الحسن]

والمراد من التشابه هنا - كما أسلفنا الإشارة إليه - : التّساوي في الحُسن والجمال والتّناسب فيه ؛ إذ لكلّ عضوٍ من الأعضاء جمالٌ يخصّه حسب ما هو مشروحٌ في مواضعه ، ولكنها لا تغلو قيمة ذلك الجمال في العضو إلا إذا ناسبته الأعضاء بأسرها ، وذلك هو الجمال المتناصف الممدوح ، بخلاف المتفاوت ، فإنه مذمومٌ ؛ ولذا قال جلّ شأنه : ﴿ مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَوتٍ ﴾ [الملك : ٣] .

[ذكرني فوها حماري أهلي]

ولقد ذكّر عن بعض العرب^(١) : أنه خرج يمتار^(٢) لأهله على حمارين ، فرأى امرأة مبرقة استهوت به بعينها النجلاوين ، فندّله ، وولّهُه حسنها ، حتّى انفلت عليه الحماران من حيث لا يشعر ، فلمّا سمرت عن وجهها . . رأها فوها لا يتناسب سحر عينيها بسعة فيها ، فأفاق من غشيتها وانتبه من حيرته ، وقال : ذكرني فوها . . حماري أهلي ، وقال :

[من الكامل]

لَيْتَ النَّقَابَ عَلَى النِّسَاءِ مُحَرَّمٌ كَيْ لَا تَغَرَّ قَيْحَةً إِنْسَانًا

ولو كانت تلك السّعة في غير ذلك الوجه المفرط الجمال . . لاحتملت ، ولم تشنه إلى تلك الغاية .

[سعة الفم مدوحة في الرجال لا النساء]

وقد أشكل على بعضهم معابدة سعة الفم ، مع ما جاء في وصفه صلى الله عليه وسلم بأنّه كان واسع الفم ، يفتح الكلام ويختتمه بأشداقه ، والجواب : أنّ سعته من الرجال مدوحة ؛ لدالتها على اللسن وجهارة الصوت ، بخلافها في النساء ، فإنها مذمومة ؛ لأنها تدلّ على سعة أخرى لا تحمد^(٣) .

(١) الخبير في « مجمع الأمثال » (٢٧٥/١) .

(٢) يمتار : يشتري الطعام .

(٣) كبداءة الألفاظ واستطالتها .

[الجمال يكون بسواد أربعة]

ثم إن جمال المرأة بسواد أربعة ، هي : شعر الرأس ، والحاجبين ، والأشفار ، والحدقتين .

[وبياض أربعة]

وبياض أربعة ، هي : اللون ، وبياض العينين ، والشعر ، والظفر .

[وحمرة أربعة]

وحمرة أربعة ، هي : الكوجتان ، والشفتان ، واللثة ، واللسان .

[وكبير أربعة]

وكبير أربعة ، هي : الثديان ، والركبتان ، والعجيزة ، والركب .

[وصغر أربعة]

وصغر أربعة ، هي : الأذنان ، واليدان ، والرجلان ، والفم .

[وسعة أربعة]

وسعة أربعة ، هي : الجبين ، والعينان ، والشرة ، وأصول الثديين .

[وضيق أربعة]

وضيق أربعة ، وهي : المنخران ، والأذنان ، والحصر ، والفرج .

ولكل واحد ما يخصه من كلام العرب ، ولا بد من الإلمام به مجموعاً في غير هذا المجلس .

[المراد من حمرة الشفة]

وليس المراد بحمرة الشفة حقيقة الحمرة ، إنما المراد : الشمرة ؛ لأنها المحمودة في الشفا ، ويقال لها : اللعس ،

[من البسيط]

كما في قول الناظم [في «العكبري» ٢/١٨٧] :

صَرِيحَ مُقْلَتِهَا سَأَلَ دِمْتِيهَا قَتِيلَ تَكْسِيرِ ذَاكَ الْجَفْنِ وَاللَّعْسِ^(١)

[من الوافر]

وقال أحيحة بن الجلاح :

وَلَا عَيْنِي عَلَى الْأَنْمَاطِ لُعْسٌ عَلَى أَفْوَاهِهِنَّ الزَّنَجِيلُ^(٢)

[من البسيط]

وقال ذو الرمة [في «ديوانه» ١/٣٢] :

لَمِيَاءُ فِي شَفْتَيْهَا حُوَّةٌ لُعْسٌ وَفِي اللَّثَاتِ وَفِي أَنْيَابِهَا شَنْبُ

واللمي والحوة واللعس شيء واحد ، وهو : الحمرة في الشفة .

[الملاحة والخلاف فيها]

وقال بعضهم : إن تساوي الأعضاء وتشابهها في الجمال هو الملاحة .

(١) الدمعة : آثار الديار .

(٢) الأنماط - جمع نمط - وهو ضرب من البسط ، له حمل رقيق .

وقال آخرون : إِنَّمَا الْمَلَاةُ أَثَرُ ذَلِكَ التَّنَاسُبِ لَأَنْفُسُهُ ، فَهِيَ فِيهِ : إِمَّا حَقِيقَةٌ ، وَإِمَّا مَجَازٌ .
ويَتَحَصَّلُ مِنْهُ : أَنَّ كُلَّ مَلِيحٍ جَمِيلٌ ، وَلَا عَكْسَ .

[الفرق بين المليح والجميل والخلاف فيه]

وقيلَ : إِنَّ الْجَمِيلَ الَّذِي يَأْخُذُ بِبَصْرِكَ عَلَى الْبَعْدِ ، وَالْمَلِيحَ : الَّذِي يَأْخُذُ بِقَلْبِكَ عَلَى الْقُرْبِ .
وقيلَ : إِنَّ الْجَمِيلَةَ الَّتِي تَعْجَبُكَ بَعِيدَةً ، فَإِذَا دَنْتِ . . لَمْ تَكُنْ عِنْدَ ذَلِكَ ، وَالْمَلِيحَةَ : الَّتِي تَأْخُذُ بِمَجَامِعِ الْقُلُوبِ عَلَى الْحَالِيْنَ ، وَفِي الْقُرْبِ أَكْثَرَ .

[مواضع الحُسن]

وقال قومٌ : الْحُسْنُ فِي الْوَجْهِ صَبَاحَةٌ ، وَفِي الْبَشْرَةِ وَضَاءَةٌ ، وَفِي الْأَنْفِ جَمَالٌ ، وَفِي الْعَيْنَيْنِ حِلَاوَةٌ ، وَفِي الْفَمِ مَلَاةٌ ، وَفِي اللِّسَانِ ظَرْفٌ ، وَفِي الْقَدِّ رَشَاقَةٌ ، وَفِي الشَّمَائِلِ لِبَاقَةٌ .
وقد يتوسَّعونَ فِي إِطْلَاقِ بَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ .

[الجمال عند العرب]

وقال آخرون : الْجَمَالُ عِنْدَ الْعَرَبِ فِي اعْتِدَالِ الْقَامَةِ ، وَطُولِ الْجِيدِ ، وَبُرُوزِ النَّهْدِ ، وَذُبُولِ الْعَيُونِ الشُّوْدِ ، وَاحْمِرَارِ الْخُدُودِ ، وَابْيَاضِ الصُّدُورِ ، وَثِقَلِ الرِّوَادِفِ ، وَنَحُولِ الْخُصُورِ .

[الحُسن عند علي بن عبيد]

وقال عليُّ بنُ عبيدِ الرِّيحَانِيّ : الْحُسْنُ تَنَاسُبُ الصُّورَةِ ، وَزِينَتُهُ اعْتِدَالُ الْحَرَكَةِ ، ثُمَّ مَا لَا يُحَسِّنُ اللِّسَانُ التَّرْجَمَةَ عَنْهُ مِنْ خَفَةِ الرُّوحِ وَالْقَبُولِ ، وَبِمَقْدَارِ هَذَا يَتِمَّكَّنُ مِنَ الْقُلُوبِ ، وَيَسْتَحْكِمُ سُلْطَانَ الْهَوَى عَلَى الْعَقُولِ ، وَأَحْسَنُهُ مَا لَمْ يُجْلِبْ بِتَزْيِينٍ وَتَضْيِيقٍ ، وَتَحْلِيَةٍ وَتَزْوِيقٍ ؛ وَلِهَذَا قَالَ النَّازِمُ (فِي « الْمُكَبَّرِي » ١/١٦٨) :

حُسْنُ الْحَضَارَةِ مَجْلُوبٌ بِتَطْرِيَةٍ وَفِي الْبَدَاوَةِ حُسْنٌ غَيْرُ مَجْلُوبٍ

وقال (فِي « الْمُكَبَّرِي » ١/١١١) :

هَامَ الْفُؤَادُ بِأَعْرَابِيَّةٍ سَكَنَتْ بَيْتاً مِنَ الْقَلْبِ لَمْ تَمُدُّ لَهُ طُنْباً^(١)

وقال (فِي « الْمُكَبَّرِي » ١/٣٢٩) :

عَدْوِيَّةٌ بَدْوِيَّةٌ مِنْ دُونِهَا سَلَبُ النَّفُوسِ وَنَارُ حَرْبٍ تُوقَدُ

وقال (فِي « الْمُكَبَّرِي » ٣/٣٠٠-٣٠١) :

الْحُسْنُ يَرْحَلُ كُلَّمَا رَحَلُوا مَعَهُمْ وَيَنْزِلُ حَيْثُمَا نَزَلُوا
فِي مُفْلَتِي رَشَأُ تُدِيرُهُمَا بَدْوِيَّةٌ فُتِنَتْ بِهَا الْحُلُلُ^(٢)

(١) الطنبُ : الجبل الذي تشدُّ به الخيمةُ .

(٢) الرشأُ : ولدُ الظبيةِ الصغيرِ . الحُلُلُ : جمعُ حُلَّةٍ ، وهي القومُ المجتمعونَ فِي بيوتِ مجتمعةٍ للنزولِ .

ولمَّا أرسَلَ الحارثُ بنُ عمرو - مَلِكُ (كِنْدَةَ) - امرأَةً مِنْ قومِهِ ؛ لِتَخْبِرَ لَهُ جَمَالَ ابْنَةِ عوفِ بنِ محمَّدِ الشَّيبَانِيِّ ولَبَاقَتِهَا . . رجعتُ إليه ، فقالَ : ما وراءكِ يا عصامُ ؟ - فذهبتُ مثلاً - فقالتُ : صرَّحَ المَخضُ عَنِ الزُّبْدِ ، رأيتُ جبهةَ كالمِرآةِ المصقولَةِ ، يزيئُهَا شَعْرٌ حالكٌ ، إنَّ أرسَلتُهُ . . خِلتُهُ السلاسلُ ، وإنَّ مَشَطَّتُهُ . . قلتُ : العناقيدُ جَلَّأها الوابلُ^(١) ، وحاجبينِ كأنَّما خُطَّ بالقلمِ الأسودِ ، تقوَّسَا علىِ مثلِ عيونِ الظبيَةِ ، بينهما أنفٌ في حدِّ السيفِ ، حُفَّتْ بهِ وجناتُ كالأرجوانِ^(٢) ، في وجهِ كالبدرِ ، سُوقٌ فيه فمٌ كالحاتِمِ ، لذيدُ المبسمِ ، فيه الثنايا الغرُّ ، يزيئُهَا الأشُرُّ^(٣) ، تَقَلَّبَ فيه لسانٌ ذو فصاحَةٍ وبيانِ ، بعقلٍ وافرٍ ، وجوابٍ حاضرٍ ، تلتقي فيه شفتانِ حمراوانِ ، تتحلَّبانِ ريقاً كالشَّهيدِ ، في جيدِ كإبريقِ الفضةِ ، رُكِّبَتْ فوقَ صدرِ كأنَّهُ تمثالُ دميةِ ، وعضُدَيْنِ مدمَجينِ ، يتَّصَلُ بهما ذراعانِ ، ليسَ فيهما عظمٌ يَمَسُّ ، ولا عِرْقٌ يَجِسُّ ، رُكِّبَتْ فيهما كَفَّانِ ، دقيقٌ قَصَبُهُما ، لِيِنَّ عَصَبُهُما ، تكادُ تُعَقِّدُ منهما الأناملُ ، في ذلكَ الصِّدرِ ثديانِ كالرُّمَّانَتينِ يخرقانِ عليها ثيابها ، تحتَ ذلكَ بطنٍ طويِّ القباطي المدمَجَةِ^(٤) ، يتكسَّرُ عَكنًا^(٥) كالقراطيسِ المدرجَةِ ، تحيطُ بها سرَّةٌ كالمُدَّهِنِ^(٦) المجلوِّ ، خلفَ ذلكَ ظهرٌ فيه مثلُ الجدولِ ، ينتهي إلىِ خصرٍ لولا رحمةُ الله . . لا تَبْتَرُ ، لها كَفَلٌ يُقَعِّدُها إذا نهَضَتْ ، ويُنهضُها إذا قعدتْ ، كأنَّهُ دِعْصُ الرَّمْلِ لَبَدَّةُ سَقِيطِ الطَّلِّ^(٧) ، يَحْمِلُهُ فَخِذانِ كأنَّما قَلِبا علىِ نَضِيدِ جُمانِ^(٨) ، تحتها ساقانِ خَدَلَتانِ^(٩) ، يَحْمِلُنِ قَدَمينِ كحدوِ اللِّسانِ ، فتباركُ اللهُ معَ صغريهما كيفَ يطيقانِ حملَ ما فوقهما^(١٠) .

[عزَّة الميلاء تخطب وتصف]

وحكى أبو الفرج الأصفهانيُّ [كما في «الأغاني» ١١/١٨٢] : أَنَّ مُضَعَبَ بنَ الزُّبَيْرِ لَمَّا عَزَمَ علىِ زواجِ عائشةِ بنتِ طلحةَ . . جاءَهُ هوَ وعبدُ اللهِ بنُ عبدِ الرحمنِ بنِ أبي بكرِ الصِّدِّيقِ ، وسعيدُ بنُ العاصِ إلىِ عزَّةِ الميلاءِ - وكانت مِنْ أظرفِ الناسِ وأعلمهم بأُمورِ النساءِ ، وكانت تَأَلَّفُها الأشرافُ - فقالوا لها : إِنَّا خَطَبْنَا فانظري لنا ، فقالتُ لمصعبِ : يا بنَ أبي عبدِ اللهِ وَمَنْ خَطَبْتُ ؟ قالَ : عائشةُ بنتُ طلحةَ ، قالتُ : فَأنتَ يا بنَ أُحِيحَةَ ؟ قالَ : عائشةُ بنتُ عثمانَ ، قالتُ : فَأنتَ يا بنَ الصِّدِّيقِ ؟ قالَ : أُمُّ الهيثمِ بنتُ زكريَّا بنِ طلحةَ ، فقالتُ : يا جاريةُ ، هاتي مِنقَلِي - تعني : خُفِّيها - فلبستُهُما ، وخرجتُ ، ومعها خادمٌ لها ، فبدأتُ بعائشةَ بنتِ طلحةَ ، فقالتُ : فديتُكِ ، كُنَّا في مَأْدُبَةٍ - أو مَأْتَمٍ - لقريشِ ، فتذاكروا جَمَالَ النساءِ ، فذكرتُكِ فلمَ أدرِ كيفَ أَصْفُكِ ، فديتُكِ ، فألقي ثيابكِ ، ففعلتُ ، وأقبلتُ

(١) جَلَّأها الوابلُ : بلَّلها المطرُ .

(٢) الأرجوانُ : شجرٌ له زهرٌ شديدُ الحمرة ، حسنُ المنظرِ ، ليست له رائحةٌ .

(٣) الأشُرُّ : هو تحزيرُ الأسنانِ .

(٤) القباطي المدمجة : ثيابٌ من كتانٍ منسوبةٍ إلىِ القبطِ .

(٥) المَكْنُ : ما انطوى وتثنى مِنْ لَحْمِ البَطْنِ سِمًا .

(٦) المُنْهَنُ : آلةُ الدُّهْنِ .

(٧) لَبَدَةُ سَقِيطِ الطَّلِّ : لَزَقٌ بعضه ببعضِ هطولِ المطرِ .

(٨) نَضِيدُ الجِمانِ : اللؤلؤُ في سلكِهِ .

(٩) خَدَلَتانِ : ممتلئتانِ .

(١٠) انظر تمام الخبر في «جمهرة خطب العرب» (١/١٤٢) ، و«مجمع الأمثال» (٢/٢٦٣) .

وأدبرت ، فارتجَّ منها كلُّ شيءٍ ، فقالت لها عزةٌ : خذي ثوبك ، فقالت : قد قضيت حاجتك ، وبقيت حاجتي ، قالت عزةٌ : وما هي فديتك ؟ قالت : تغنيني صوتاً ، فاندفعت تغني لحنها لجميل بن عبد الله بن معمر العذري (في ديوانه « ١٧١-١٧٢ ») :

[من الطويل]

خَلِيلِي عُوْجَا بِالْمَحَلَّةِ مِنْ جُمَلِ وَأَتْرَابَهَا بَيْنَ الْأَصْفَرِ وَالْحَبْلِ^(١)
 نَقِفْ بِمَعَانٍ قَدْ مَحَا رَسْمَهَا الْبَلِي تَعَاقِبَهَا الْأَيَّامُ بِالرِّيْحِ وَالْوَبْلِ
 فَلَوْ دَرَجَ النَّمْلُ الصَّغَارُ بِجِلْدِهَا لِأَنْدَبَ أَعْلَى جِلْدِهَا مَدْرَجُ النَّمْلِ^(٢)
 وَأَحْسَنُ خَلَقِ اللَّهِ جِيداً وَمُقَلَّةً تُشَبِّهُ فِي النَّسْوَانِ بِالشَّادِنِ الطَّفْلِ^(٣)

فقبلت عائشة ما بين عينيهما ، ودعت لها بأثوابٍ وطرائفٍ من الفضَّة ، فدفعته إلى مولاتها ، وأتت النسوة على مثل ذلك تقول لهنَّ ، ثمَّ عادت إلى القوم ، فقالوا : ما صنعتِ ؟ فقالت : يا بن أبي عبد الله ، أمَّا عائشة - فلا والله - ما رأيت مثلها مُقبلَةً ، ولا مُدبرَةً ، محطوبةً المتنين ، عظيمةً العجيزة ، ممتلئةً الترائب ، نقيَّةً الثغرِ وصفحةً الوجه ، فرعاءً الشعرِ ، ممتلئةً الصدرِ ، خميصةً البطنِ ، ذات عكِن ، ضخمةً السرةِ ، مسرولةً الساقِ ، يرتجُّ ما بين أعلاها إلى قدميها ، وفيها عيبان ، يوارى أحدهما الخمارُ ، ويسترُ ثانيهما الخفُّ ؛ كبرُ الأذنِ والقدمِ ، وكانت عائشة بنتُ طلحة كذلك .

وأمَّا أنت يا بن أحيحة : فإنِّي - والله - ما رأيت مثلَ خَلْقِ عائشة بنتِ عثمانَ لامرأةٍ قطُّ ، ليس فيها عيبٌ ، ولكأنما أفرغت إ فراغاً ، إلاَّ أنَّ في الوجهِ ردةً^(٤) ، وإن استشرتني . . أشرتُ عليك ، قال : هاتِ ، قالت : عليك بوجهٍ تستأنسُ به .

وأمَّا أنت يا بن الصديق - فوالله - ما رأيت مثلَ أمِّ الهيثمِ ، كأنها خوطُ بانه^(٥) تشنَّى ، أو كأنها خشف^(٦) ينسابُ على الرملِ ، لو شئت أن تعقدَ أطرافها . . لفعلت ، ولكنها شختة^(٧) الصدرِ ، وأنت عريضُ الصدرِ ، فإذا كان كذلك . . كان قبيحاً ، لا - والله - حتَّى يملأ كلُّ شيءٍ مثله ، قال : فوصلها الرجالُ والنساءُ ، وتزوجوهنَّ .

[تشكك المؤلف في القصة]

وأقول : إنَّ عندي في القصة نظراً ؛ لأنَّ أبا الفرج نفسه روى [في « الأغاني » ١١/١٨٦] : أنَّ عائشة بنتَ طلحة لم تتزوج مصعباً إلاَّ بعد عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكرٍ ، وأنه^(٨) مات وهي عنده ، اللهمَّ إلاَّ أن يكون مصعبٌ خطبها قبل ذلك فتزوجت بعبد الله وتركتهُ .

(١) الأصيفر - لعله تصغيرُ أصفر - وهو موضع . الحبل : الرملُ المستطيل .

(٢) أندب : ترك ندوباً ، أي آثار جراح .

(٣) الشادن : ولدُ الظبية . الطفلُ : الناعمُ .

(٤) وجه رديد : فيه قبح .

(٥) خوطُ بانه : الخوط هو الغصن الناعم ، والبان : شجر معروف ، واحده بانه ، وامرأة خوطُ بانية : مشبهة بالخوط .

(٦) الخشف : الظبي ساعة ولادته .

(٧) الشختة : نحيفة الجسم ، دقيقته .

(٨) أي : عبد الله .

وكيفما كان.. فالفصّة لا تلتئم ، والاستطراد لا يحتاج إلى إمعان النظر ، ومعاودة البحث .

[مِن الطويل]

والبيت الذي نتكلم فيه لا يبعد عن قول امرئ القيس [في «ديوانه» ١٤٨] :

فَمَا ذَرَفَتْ عَيْنَاكَ إِلَّا لِتَضْرِبِي بِسَهْمَيْكَ فِي أَعْشَارِ قَلْبٍ مُّقْتَلٍ^(١)

* * *

[مِن الكامل]

قال أبو الطيّب المتنبي في «العكبري» ٢٩/٤ :

كَصِفَاتِ مَوْلَانَا أَبِي الْفَضْلِ التِّي بَهَرَتْ فَأَنْطَقَ وَاصِفِيهِ وَأَفْحَمًا^(٢)

[جمع الأضداد في الصفات يستهوي المتنبي]

(بَهَرَ) : غلب ، ومنه : الشمس تبهرُ النجوم ، يقول : إِنَّ حَبِيْبَتَهُ اسْتَبْتَهُ بِمَا جَمَعَتْ مِنْ تَنَاسُبِ الْأَضْدَادِ فِي جَمَالِهَا ، وكذلك مولاهُ أبو الفضل استهواه بما جَمَعَ منها في الشرف ؛ فقد كان حُلُوًّا لِلْأَوْلِيَاءِ ، مُرًّا لِلْأَعْدَاءِ ، هَشًّا لِلضُّيُوفِ ، عَبُوسًا إِذَا اسْتَجَرَتِ السُّيُوفُ^(٣) ، وَمِمَّا يُشْبَهُ ذَلِكَ مَا ذَكَرَهُ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ [في «العكبري» ٧٨/٤] : [مِن الوافر]

نُصِرُّعُهُمْ بِأَعْيُنِنَا حَيَاءً وَتَنْبُو عَن وُجُوهِهِمُ السَّهَامُ^(٤)

[مِن الطويل]

وقوله [في «العكبري» ١١٦/٤] :

حَيِّوْنَ إِلَّا أَنَّهُمْ فِي نِزَالِهِمْ أَقْلُ حَيَاءٍ مِنْ شِفَارِ الصَّوَارِمِ

[مِن البسيط]

وقوله [في «العكبري» ١٨٩/٢] :

دَانٍ بَعِيدٍ مُجِبِّ مُبْغِضٍ بِهِجٍ أَغَرَّ حُلُوِّ مُمِرِّ لَيْلِنِ شَرَسِ

[مِن الخفيف]

وقوله [في «العكبري» ٢٠١/٣] :

أَنْتَ طَوْرًا أَمْرٌ مِنْ نَاقِعِ الشُّبْمِ وَطَوْرًا أَحْلَى مِنَ السَّلْسَالِ^(٥)

[مِن البسيط]

وقوله [في «العكبري» ١١٥/١] :

تَحَلُّوْ مَذَاقَتُهُ حَتَّى إِذَا غَضِبَا حَالَتْ فَلَوْ قَطَرَتْ فِي الْبَحْرِ مَا شُرِبَا^(٦)

(١) أَعْشَارُ الْقَلْبِ : أَجْرَاؤُهُ .

(٢) في «العكبري» : (أَوْحَدِنَا) بدل (مَوْلَانَا) .

(٣) اسْتَجَرَتِ السُّيُوفُ : تَدَاخَلَتْ وَوَقَّتِ الطُّعَانِ .

(٤) نُصِرُّعُهُمْ : يَرِيدُ : صَرَعْنَاهُمْ ؛ أَي : قَدَرْنَا عَلَيْهِمْ . تَنْبُو : تَرْتَفِعُ وَلَا تَصِيبُ .

(٥) السَّلْسَالُ : الْمَاءُ الْعَذْبُ الَّذِي يَتَسَلَّلُ فِي الْحَلْقِ .

(٦) الْبَحْرُ : الْمَكَانُ الْوَاسِعُ ، وَمِنْهُ سُمِّيَ الْبَحْرُ بَحْرًا ، وَأَرَادَ بِالْبَحْرِ هُنَا الْعَذْبَ مِنْهُ ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴾ [الرحمن : ١٩] ؛ يَرِيدُ الْمَلْحَ وَالْعَذْبَ ، وَأَهْلُ (مِصْرَ) يَسْمُونُ النَّيْلَ بَحْرًا .

وقوله [في «المكبري» ١/ ١٤٢] :

[من الوافر]

قَسَا فَالْأَسْدُ تَفْرَعُ مِنْ قُؤَاهُ وَرَقٌّ فَفَحْنُ نَحْشَى أَنْ يَدُوبَا

وقوله [في «المكبري» ٤/ ٥٥] :

[من الطويل]

لَهُ رَحْمَةٌ تُحْيِي الْعِظَامَ وَغَضَبُهُ بِهَا فَضْلَةٌ لِلْجُزْمِ عَنْ صَاحِبِ الْجُزْمِ

وقوله [في «المكبري» ١/ ٢٥] :

[من الكامل]

مُتَفَرِّقُ الطَّعْمَيْنِ مُجْتَمِعُ الْقَوَى فَكَأَنَّهُ السَّرَاءُ وَالضَّرَاءُ

[الشعراء وجمع الأضداد]

[من الرمل]

فالمعنى متكرر عنده ، وهو عند غيره أكثر ، قال لبيد [في «ديوانه» ١٩٧] :

مُمَقَّرٌ مُرٌّ عَلَى أَعْدَائِهِ وَعَلَى الْأَذْيَانِ حُلُوٌّ كَالْعَسَلِ^(١)

[من الطويل]

وقال النابغة الجعدي [في «ديوانه» ١٨٨] :

فَتَى تَمَّ فِيهِ مَا يَسُرُّ صَدِيقَهُ عَلَى أَنْ فِيهِ مَا يَسُوءُ الْأَعَادِيَا

[من الطويل]

وقال المرار الفقعي :

فَإِنِّي إِذَا أَحْلَوَيْتُ حُلُوًّا مَذَاقَتِي وَمُرٌّ إِذَا مَا رَامَ ذُو إِخْنَةٍ هَضْمِي^(٢)

[من الطويل]

وقال قيس بن الخطيم [في «ديوانه» ١٠٨] :

أَمْرٌ عَلَى الْبَاغِي وَيَغْلُظُ جَانِبِي وَذُو الْقَصْدِ أَحْلَوْلِي لَهُ وَأَلِينُ^(٣)

وفي سيرة ابن الخطاب - رضوان الله عليه - أنه كان يقول : لان قلبي حتى هو ألين من الزبد ، وخشن حتى لهو أشد من الحجارة .

[من الخفيف]

وقال أبو تمام [في «ديوانه» ٢١٢/١] :

قَدْ بَنَيْتُمْ غَرْسَ الْمَوَدَّةِ وَالشَّخْنَاءِ فِي قَلْبِ كُلِّ قَارٍ وَبَادِي^(٤)

أَبْغَضُوا عِرْزَكُمْ وَوَدُّوا نَدَاكُمْ فَفِرَاكُمْ مِنْ بَغْضَةٍ وَوَدَادٍ

لَا عَدِمْتُمْ غَرِيبَ مَجْدٍ رَبَقْتُمْ فِي عُورَاهُ نَوَافِرَ الْأَضْدَادِ^(٥)

[من الكامل]

وقال أبو نؤاس :

حَذَرَ امْرِئٍ نَصِرْتَ يَدَاهُ عَلَى الْعِدَا كَالذَّهْرِ فِيهِ شَرَّاسَةٌ وَلَيَانُ

(١) أمقر الشيء فهو مُمَقَّرٌ إذا كان مرّاً ؛ أي : شديد على أعدائه ، رحيمٌ عطفٌ على أقاربه .

(٢) أحن عليه : حقد عليه .

(٣) أمرٌ : أصير مرّاً .

(٤) القاري : النازل القرى . البادي : النازل البادية .

(٥) ربقتم : شددتم .

[أبو تمام يتكلف تأليف بيت من الشعر]

فذكر بعضهم : أنه استأذن عليّ أبي تمام ، وكان لا يستترُّ عنه ، فألفاه في بيتٍ مُصهَّرَج^(١) ، يتقلَّبُ شمالاً ويميناً في الماء ، فقال له : بلغ بك الحرُّ مبلغاً شديداً؟ قال : لا ، ولكن غيرُهُ ، ومكث ساعةً كذلك ، ثمَّ قام كأنَّما أُطلقَ من عقالي ، فقال : الآن بلغت ما أردتُ ، وكتبَ شيئاً ، ثمَّ قال : تدري ما كنتُ فيه مُدِّ الآن ؟ قلتُ : لا ، قال قولَ أبي نُؤاسٍ : (كالدَّهْرِ فِيهِ شَرَّاسَةٌ وَلَيَانٌ) ، فقد أردتُ معناه ، فشُمِّسَ عليّ^(٢) ، فلمْ أزلُ على تلك الحالِ حتَّى أمكنني اللهُ منه ، فقلتُ :

[مِن البسيطِ]

شَرَّسْتَ بَلْ لِنْتَ بَلْ قَانَيْتَ ذَاكَ بِذَا فَأَنْتَ لَا شَكَّ فِيكَ السَّهْلُ وَالْجَبَلُ

[استهزاء المؤلف به]

ولعمري إنَّه لبيتٌ ساقطٌ ، ينادي على نفسه بالخذلانِ ، لو تجسَّم . . لكان مِعولاً لتكسيرِ الحجارَةِ ، وهذا هو الشعرُ المتكلَّفُ البارِدُ .

[عودة إلى جمع الأضداد عند الشعراء]

وقال سلمُ الخاسرُ - كما رأيتهُ في « المحاسن والمساوىء » للبيهقي معزواً إليه - :

[مِن الكاملِ]

شُدَّتْ مَنَاكِبُ مُلْكِهِمْ بِخَلِيفَةٍ كَالدَّهْرِ يَخْلِطُ لِنِنِّهِ بِشِمَاسٍ

وسيعادُ هذا البيتُ أوائلَ المجلسِ الرابعِ عشرِ .

[مِن الطَّويلِ]

وقال أبو الشَّيْصِ الخزاعيُّ [في « ديوانه » ١٠٤] :

وَكَالسَيْفِ إِنْ لَا يَنْتَهُ لَأَنَّ مَتْنَهُ وَحَدَاهُ إِنْ خَاشَتَهُ حَشِينَانِ

[مِن الكاملِ]

وقال أبو عُبَادَةَ [في « ديوانه » ١٨٣٧/٣] :

أَحْكَمْتَ مَا دَبَّرْتَ بِالتَّقْرِيبِ وَالتَّجْعِيدِ وَالتَّضْعِيبِ وَالتَّسْهِيلِ
لَوْلَا التَّبَائِنُ فِي الطَّبَائِعِ لَمْ يَقُمْ بُنْيَانُ هَذَا الْعَالَمِ الْمَجْبُولِ
قَوْلٌ يُتْرَجُّهُ الْفَعَالُ وَإِنَّمَا يُتَفَهَّمُ التَّنْزِيلُ بِالتَّأْوِيلِ
مَاذَا نَقُولُ وَقَدْ جَمَعْتَ شَتَائِئًا وَأَتَيْنَا بِالْعَدْلِ وَالتَّعْدِيلِ؟

[وصف الشريف الرضي للإمام]

وقال الشريفُ الرضيُّ : ما زلتُ أستخرجُ العجبَ مِنَ الإخْوَانِ بِكلامِ الإمامِ في الزهدِ ؛ لَأَنَّ مَنْ سَمِعَهُ لَا يظنُّهُ إِلَّا كَلامَ منقطعٍ في سَفْحِ جَبَلٍ ، أو قابعٍ في كِسْرِ بَيْتٍ ، ولا يحسبُ أنَّه كلامٌ مَنْ يَنغمَسُ في الحروبِ ، وينثني وسيفُهُ يسيلُ دماً ، ويقطرُ مُهْجاً ، أو ما يُشَبِّهُ هذا ، وكنْتُ معجباً بهِ إلى حدِّ الافتتانِ . . حتَّى تبيَّنْتُ سَبْقَ الذِّكْرِ الحكيمِ إلى هذا المعنى الشريفِ في كَثْرٍ مِنَ الآيَاتِ مِنْهَا قولُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْرَفَةٌ عَلَى الْكٰفِرِينَ ﴾ [المائدة : ٥٤] ، وقولُهُ : ﴿ أَيْدِيَهُمْ عَلَى الْكٰفِرِينَ رِحْمًا بَيْنَهُمْ رَبُّهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ [الفتح : ٢٩] ،

(١) الصَّهْرِيُّ : حوضٌ يجتمعُ فيه الماءُ .

(٢) شُمِّسَ عليّ : استغلَّقَ وتأتَّى .

وَكَمْ فِيهِ مِنْ آيَاتِ الزَّهْدِ الَّتِي تَسِيلُ رِقَّةً حَتَّى لَتَكَادُ تَذُوبُ لَهَا الْحَجَارَةُ ، وَمِنْ آيَاتِ الْحَرْبِ الَّتِي تَأْخُذُ بِأَنْوْفِ الْجُبْنَائِ إِلَى عِنَانِ السَّمَاءِ .

[مديح أب لابنه]

ويعجبني قولُ عكرشةَ بنِ أربدَ في ولده :

[مِن الطَّوِيلِ]

رَأَيْتُ رِيَاطاً حِينَ تَمَّ شَبَابُهُ وَوَلَّى شَبَابِي لَيْسَ فِي بَرِّهِ عَثْبُ
إِذَا كَانَ أَوْلَادُ الرَّجَالِ حَرَارَةً فَأَنْتَ الزُّلَالُ الْخُلُوُّ وَالْبَارِدُ الْعَذْبُ
لَنَا جَانِبٌ مِنْهُ دَمِيثٌ وَجَانِبٌ شَدِيدٌ عَلَى الْأَعْدَاءِ مُتَمَنِّعٌ صَعْبٌ^(١)
وَتَأْخُذُهُ عِنْدَ الْمَكَارِمِ نَشْوَةٌ كَمَا اهْتَزَّتْ تَحْتَ الْبَارِحِ الْغُصْنُ الرَّطْبُ^(٢)

[هجاء أب لابنه]

وفي عكسِ هذا المعنى يقولُ الحصينُ بنُ المنذرِ - أحدُ بني عمرو بنِ شيبانِ الذهليِّ وكان صاحبَ الرأيةِ مع عليِّ بنِ (صقِّين) - في ولده عَيَّاطاً :

[مِن الطَّوِيلِ]

نَسِيٌّ لِمَا أَوْلَيْتُ مِنْ صَالِحِ مَضَى وَأَنْتَ لِتَأْدِيبِ عَلَيَّ حَفِيزُ
تَلِيْنٌ لِأَهْلِ الْغِلِّ وَالْعَمَزُ مِنْهُمْ وَأَنْتَ عَلَيَّ أَهْلُ الصَّفَاءِ غَلِيْظُ
وَسُمِّيتَ غَيَّاطاً وَلَسْتَ بِغَائِظٍ عَدُوًّا وَلَكِنْ لِلصَّديقِ تَغِيْظُ
فَلَا حَفِظَ الرَّحْمَنُ رُوحَكَ حَيَّةً وَلَا وَهِيَ فِي الْأَزْوَاجِ حِينَ تَغِيْظُ
عَدُوِّكَ مَسْرُورٌ وَذُو الْوَدِّ بِالَّذِي يُرَى مِنْكَ مِنْ غَيْظِ عَلَيْكَ كَظِيْظُ^(٣)

[أنت ومالك لأبيك]

وأخرج البيهقي في « الدلائل » ، والطبراني في « الأوسط » [٣٤٠/٦] و« الصغير » [٩٤٨] بسندٍ فيه مَنْ لا يُعرف عن جابر ، قال : جاء رجلٌ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسولَ الله ، إنَّ أبي أخذَ مالي ، فقال له : اذهب فأتني بأبيك ، فنزل جبريلُ ، فقال إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقرئك السلامَ ، ويقولُ : إذا جاءك الشيخُ . . فسأله عمَّا قاله في نفسه ، ولم تسمعه أذناه ، فلما جاء . . قال له النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « مَا بَالُ ابْنِكَ يَشْكُوكَ ، تَأْخُذُ مَالَهُ ؟ » قال : سلُّهُ هَلْ أَنْفَقْتَهُ إِلَّا عَلَى عَمَّاتِهِ وَخَالَاتِهِ ، أَوْ عَلَى نَفْسِي ؟ فقال : « أَخْبِرْنِي عَنْ شَيْءٍ قُلْتَهُ فِي نَفْسِكَ وَمَا سَمِعْتَهُ أَذْنَاكَ ؟ » فقال الشيخُ : والله ما يزالُ اللهُ يزيِدُنَا بك يقيناً ، لقد قلتُ في نفسي شيئاً ما سمعتهُ أُذُنِي ، فقال : « مَا هُوَ ؟ » فقال : قلتُ :

[مِن الطَّوِيلِ]

غَدَوْتُكَ مَوْلُوداً وَمُتُّكَ يَافِعاً تَعَلُّ بِمَا أَجْنِي عَلَيْكَ وَتَنَهَلُ^(٤)
إِذَا لَيْلَةٌ صَافَتْكَ بِالسُّقْمِ لَمْ أَبْتُ لِسُقْمِكَ إِلَّا سَاهِراً أَتَمَلَّمُ

(١) دميثٌ ، يقالُ : دَمِتَ دَمْتاً ، فهو دَمِيثٌ ودَمِيثٌ ، لأنَّ وسَهْلَ .

(٢) البارحُ - جمعه بوارح - : وهي الرياحُ الشدائدُ التي تحملُ الترابَ في شدَّةِ الهبواتِ ، وقيلَ : هي الرِّيحُ الحارَّةُ في الصَّيفِ .

(٣) الكظيظُ : الممتلئُ غيظاً .

(٤) مُتُّكَ : كصيتك مُوتك وحاجتك .

كَأَنِّي أَنَا الْمَطْرُوقُ دُونَكَ بِالَّذِي
تَخَافُ الرَّدِّيَ نَفْسِي عَلَيْكَ وَإِنَّهَا
فَلَمَّا بَلَغْتَ السَّنَّ وَالغَايَةَ الَّتِي
جَعَلْتَ جَزَائِي غِلْظَةً وَفَطَاظَةً
فَلَيْتَكَ إِذْ لَمْ تَرَ حَقَّ أُبُوتِي
تَرَاهُ مُعِدًّا لِلْخِلَافِ كَأَنَّهُ
طُرِقْتَ بِهِ دُونِي فَعَيْنَايَ تَهْمُلُ
لَتَعْلَمُ أَنَّ الْمَوْتَ شَيْءٌ مُؤَجَّلٌ
إِلَيْهَا مَدَى مَا كُنْتَ فِيهَا أَوْمَلُ
كَأَنَّكَ أَنْتَ الْمُنْعِمُ الْمُتَمَضِّلُ
فَعَلْتَ كَمَا الْجَارُ الْمُجَاوِرُ يَفْعَلُ
بِرَدِّ عَلَى أَهْلِ الصَّوَابِ مُوَكَّلُ

[بطلان قصة الحديث]

قَالَ : فحِينَئِذٍ أَخَذَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِتَلَابِيحِ ابْنِهِ ، وَقَالَ : « أَنْتَ وَمَالِكَ لِأَبِيكَ » (١) . وهذا الحديث موجودٌ في سورة الإسراءِ مِنَ « الكَشَافِ » ، وبلفظٍ يقربُ منه ، والقصةُ باطلةٌ مِنْ حَيْثُ الروايةُ كما علمتْ ؛ وَلَمَّا جَاءَ أَنَّ الشَّعْرَ لِأُمِّيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ .

ومن حيث الطبيعة ؛ إِذْ يستحيلُ أَنْ يقولَ الشاعرُ شيئاً فيصبرَ عَنْ أَنْ يتغنىَ بِهِ ذاتَ المَرَّاتِ .

[هل يجوز قول الرجل لغيره : يا مولاي ؟]

أما قولُ الرجلِ لغيره : (يا مولاي) . . ففيهِ للفقهاءِ كلامٌ :

قالَ أبو جعفرِ النَّحَّاسُ : لا نعلمُ خلافاً بينَ العلماءِ أَنَّهُ لا ينبغي أَنْ يُقالَ لِأَحَدٍ مِنَ المخلوقينَ (مولاي) .
وقالَ ابنُ حجرٍ : مرَّ جوازُ إطلاقِ (مولاي) .

[القول في التسيّد]

ولا مخالفةَ بينهُ وبينَ هذا ، فَإِنَّ النَّحَّاسَ تكلَّمَ فِي المولى بِالْألفِ وَاللَّامِ . ولذا قالَ النَّحَّاسُ : يُقالُ : سيِّدٌ لغيرِ الفاسقِ ، ولا يُقالُ : السيِّدُ ، لغيرِ اللهِ تعالى . والأظهرُ : أَنَّهُ لا بأسَ بِإطلاقِ المولى والسيِّدِ بِالْألفِ وَاللَّامِ بشرطِهِ السابقِ . انتهى كلامُهُ .

وما أشارَ إِلى مروره : هوَ ما ساقَهُ عَنِ النواويِّ [في « الأذكار » ص ٥٧٣] - فِي الجَمعِ بينَ الأحاديثِ الواردةِ فِي التَّسيِّدِ وما صحَّ مِنْ قولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لا تَقُولُوا لِلْمُنافِقِ سيِّدٌ ؛ فَإِنَّهُ إِنْ يَكُنْ سيِّداً . . فَقَدْ أَشْخَطْتُمْ رَبَّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ » (٢) - مِنْ قولِهِ : لا بأسَ بِإطلاقِ (فلانُ سيِّدٌ ، ويا سيِّدي ونحو ذلك) إِذا كانَ المُسوِّدُ فاضلاً خيراً لعلمِ أو صلاحِ أو غيرِهِما ، وَإِنْ كانَ نحوُ فاسقٍ أو متهمٍ فِي دينِهِ . . كَرِهَ أَنْ يُقالَ لَهُ سيِّدٌ (٣) . انتهى .

ولا شكَّ أَنَّ سيِّدي أو السيِّدَ أَشَدُّ كراهةً ، وممَّا عمَّ الابتلاءُ بِهِ أَنَّ الجُهاَلَ وأهلَ المَلَقِ لا يتورعونَ أَنْ يُطلقوا الأوصافَ الإلهيةَ على مَنْ يدعونَ لَهُ الولايةَ أو يُعظَّمونَ مِنْ أبناءِ الدُّنيا .

(١) وقد أخرج الحديث المرفوع فقط عن عائشة ابن حبان في « صحيحه » (٤٢٦٢) بإسناد صحيح ، وكذا عن جابر أخرجه ابن ماجه (٢٢٩١) في التجارات ، والطحاوي في « معاني الآثار » (١٥٨ / ٤) في القضاء . .

(٢) أخرجه عن بريدة أبو داود (٤٩٧٧) ، والنسائي في « الكبرى » (٧٠ / ٦) بنحوه ، والبخاري في « الأدب المفرد » (٢٦٧ / ١) بنحوه .

(٣) وعقب بقوله : وقد روينا عن الإمام أبي سليمان الخطابي في « معالم السنن » في الجمع بينهما نحو ذلك .

ثم أورد أيضاً خبر أبي هريرة عند البخاري (٢٥٥٢) ، ومسلم (٢٢٤٩) عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يقل أحدكم : أطعم ريك ، وضىء ريك ، اسق ريك ، وليقل : سيدي ومولاي ، ولا يقل أحدكم : عبدي أمتي ، وليقل : فتاي وفتاتي وغلامي » .

[مِن الطَّوِيلِ]

ويعجبني قولُ عليِّ بنِ محمَّدِ الكوفيِّ مِنْ قصيدةٍ :

كَأَنَّ نَذِيرَ الشَّمْسِ يَخْكِي بِبِشْرِهِ عَلِيٌّ بِنَ دَاوُدَ أَخِي وَنَسِيبي
وَلَوْلَا اتَّقَائِي عَتَبُهُ قُلْتُ سَيِّدِي وَلَكِنْ يَرَاهَا مِنْ أَجَلِّ ذُنُوبِي
نَسِيبُ إِخَاءٍ وَهُوَ غَيْرُ مُنَاسِبٍ قَرِيبُ صَفَاءٍ وَهُوَ غَيْرُ قَرِيبٍ

[خضوع البعض لمدوحه]

ومما يلاحظُ عليَّ شيخنا ابنِ شهابٍ خضوعُهُ في بعضِ القولِ لمدوحِهِ ؛ فقد قالَ من قصيدةٍ هي في الاعتبارِ الأوَّلِ مِنْ الفصاحةِ والبلاغةِ وجمالِ الدِّياجةِ ورقَّةِ الانسجامِ ، للأميرِ أحمدَ فضلِ العبدليِّ :

[مِن الطَّوِيلِ]

فَيَا أَيُّهَا الْمَوْلَى وَمَا غَيْرُكَ امْرُؤٌ نُسَمِّيهِ مِنْ بَعْدِ الْوَصِيِّ بِمَوْلَانَا^(١)

ثُمَّ لَمْ يَقِفْ عِنْدَ ذَلِكَ ، بَلْ حَنَثَ فِي قَوْلِهِ ، وَخَاطَبَ بَعْدَ ذَلِكَ غَيْرَهُ بِمِثْلِهِ .

ولو أَنِّي أَخَذْتُ بَيْتَ شَيْخِنَا لِمَخَاطَبَةِ الْحَضْرَةِ الْمُتَوَكَّلِيَّةِ . . لَكُنْتُ أَحَقَّ بِهِ ؛ لِأَنِّي لَمْ أَسْمَحْ بِذَلِكَ لِأَحَدٍ مِمَّنْ عَاصَرَتْهُ سِوَاهُ وَسِوَى سَيِّدِي الْأُسْتَاذِ الْأَبْرَّ عِيدْرُوسِ بْنِ عُمَرَ الْمُتَوَفَّى مِنْ نَحْوِ سَبْعٍ وَثَلَاثِينَ عَامًا ، وَيَأْتِي مَا لَهُ تَعَلُّقٌ بِهَذَا قُبَيْلَ الْمَجْلِسِ الْحَادِي عَشَرَ .

[الممدوح التي توجد في الممدوح هي التي تنظم نفسها شعراً عند المتنبئ]

[مِن البسيطِ]

وَأَمَّا قَوْلُهُ : (فَأَنْطَقَ وَاصْفِيهِ) . . فَإِنَّهُ مُتَكَرِّرٌ عِنْدَهُ ، مِنْهُ قَوْلُهُ [فِي « الْعُكْبَرِيِّ » ٨١/٣] :

وَقَدْ وَجَدْتُ مَكَانَ الْقَوْلِ ذَا سَعَةٍ فَإِنْ وَجَدْتَ لِسَانًا قَائِلًا فَقُلِ

[مِن الخفيفِ]

وقوله [في « العُكْبَرِيِّ » ١٤٦/٢] :

إِنَّمَا أَحْفَظُ الْمَدِيحَ بِعَيْنِي لَا بِقَلْبِي لِمَا أَرَى فِي الْأَمِيرِ
مِنْ خِصَالٍ إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهَا نَظَّمْتُ لِي غَرَائِبَ الْمَنْشُورِ

[مِن المنسرحِ]

وقوله [في « العُكْبَرِيِّ » ٦٨/٤] :

أَبَا الْحُسَيْنِ اسْتَمِعْ فَمَذْحُكُمْ فِي الذُّهْنِ قَبْلَ الْكَلَامِ يَنْتَظِمُ^(٢)

[مِن الطَّوِيلِ]

وقوله [في « العُكْبَرِيِّ » ١٨١/١] :

وَأَخْلَاقُ كَافُورٍ إِذَا شِئْتُ مَذَحَهُ وَإِنْ لَمْ أَشَأْ تُمَلِّئْ عَلَيَّ وَأَكْتُبْ

[مِن الطَّوِيلِ]

وقوله [في « العُكْبَرِيِّ » ١٥٨/٢] :

وَمَا أَنَا وَحْدِي قُلْتُ ذَا الشُّعْرِ كُلَّهُ وَلَكِنْ لِشُعْرِي فِيكَ مِنْ نَفْسِهِ شِعْرُ

(١) الْوَصِيُّ : لَعَلَّ الْمُرَادَ سَيِّدُنَا الْإِمَامَ الْهَمَامَ ، عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

(٢) فِي « الْعُكْبَرِيِّ » : (الْفِعْلُ) بَدَلَ (الذُّهْنِ) .

وقوله [في «المكبري» ٣/ ٣٩١] :

[من الطويل]

لَكَ الْحَمْدُ فِي الدَّرِّ الَّذِي لِي لَفْظُهُ
فَإِنَّكَ مُعْطِيهِ وَإِنِّي نَاطِمٌ

وقوله [في «المكبري» ٢/ ٥٥] :

[من الخفيف]

غَمَّرْتَنِي فَوَائِدُ شَاءَ فِيهَا
أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ مِمَّا أَفَادَةَ

وقوله [في «المكبري» ٤/ ٢٧٥] :

[من المنسرح]

تَقْوُدُ مُسْتَحْسَنَ الْكَلَامِ لَنَا
كَمَا تَقْوُدُ السَّحَابَ عُظْمَاهَا

[وكذلك عند الشعراء]

[وقال أبو تمام [في «ديوانه» ٧] :

[من البسيط]

تَغَايِرَ الشُّعْرِ فِيهِ إِذْ أَرِقْتُ لَهُ
حَتَّى تَكَادَ قَوَافِيهِ سَتَقْتَبِلُ

وقال ابن الرُّومِي [في «ديوانه» ٦/ ٢٢٩٣] :

[من الوافر]

وَدُونِكَ مِنْ أَقَاوِيلِي مَدِيحًا
غَدَا لَكَ دُرَّةٌ وَلِي النَّظَامُ

وقال :

[من الكامل]

خُذْ مِنْ فَوَائِدِكَ الَّتِي أَعْطَيْتَنِي
فَالدَّرُ دُرٌّ وَالنَّظَامُ نَظَامِي

وقال [في «ديوانه» ٢/ ٦٠٢] :

[من الطويل]

كَرُمْتُمْ فَجَاشَ الْمُفْحَمُونَ بِمَدْحِكُمْ
إِذَا رَجَزُوا فِيكُمْ أَيُّتُمْ فَقَصَّادُوا^(١)
كَمَا أَزْهَرَتْ جَنَاتُ عَدْنٍ وَأَثْمَرَتْ
فَأَصْحَتْ وَعَجْمُ الطَّيْرِ فِيهَا تُغْرَدُ

وقال أحمدُ ابنُ أبي طاهرٍ :

[من الطويل]

إِذَا نَحْنُ حُكْنَا الشُّعْرَ فِيكَ تَسَهَّلَتْ
عَلَيْنَا مَعَانِيهِ وَذَلَّتْ صِعَابُهَا

وقال أحمدُ بنُ إسماعيلَ :

[من الطويل]

وَإِنِّي وَإِنْ أَحْسَنْتُ فِي الْقَوْلِ مَرَّةً
فَمِنْكَ وَمِنْ إِحْسَانِكَ امْتَارَهَا لَفْظِي^(٢)

وقال آخرُ :

[من الخفيف]

مَا لَقِينَا مِنْ جُودِ فَضْلِ بْنِ يَحْيَى
تَرَكَ النَّاسَ كُلَّهُمْ شَعْرَاءَ

وأصلُ المعنى قولُ عمرو بنِ معديكربَ [في «ديوانه» ٧٣] :

[من الطويل]

فَلَوْ أَنَّ قَوْمِي أَنْطَقْتَنِي رِمَاحُهُمْ
نَطَقْتُ وَلَكِنَّ الرِّمَاحَ أَجَرَتْ

(١) المفعولُ هنا : العبيُّ الذي لا يقولُ الشعرَ .

(٢) امْتَارَهَا : اجْتَلَبَهَا .

وقال ابن الفارض [في «ديوانه» ١٤٢] :

[من الطويل]

مَحَاسِنُ تَهْدِي الْمَادِحِينَ لِوَضْفِهَا فَيَحْسُنُ فِيهَا مِنْهُمْ النَّثْرُ وَالنَّظْمُ

وقال أيضاً [في «ديوانه» ١٢٦] :

[من الكامل]

تَفْدِيهِ مُهْجَتِي الَّتِي تَلَفْتُ وَلَا مَنْ عَلَيْهِ لَأَنْتَهَا مِنْ مَالِهِ

وهو من قول الناظم :

[من الكامل]

كَالْبَحْرِ يُمَطِّرُهُ السَّحَابُ وَمَالَهُ مَنْ عَلَيْهِ لَأَنْتَهَا مِنْ مَائِهِ

وقال ابن طباطبا :

[من الكامل]

لَا تَنْكِرَنَّ إِهْدَاءَنَا لَكَ مَنْطِقًا مِنْكَ اسْتَفَدْنَا حُسْنَهُ وَنِظَامَهُ

وهو من باب شبيهه بقول الحسن بن محمد بن علي بن أبي الضوء العلوي الحسيني ، نقيب مشهد باب التين ، المتوفى (بغداد) سنة : (٥٣٧ هـ) ، أو شاعر آخر من معاصري البحتري ، يقال له : أبو العباس الخثعمي على اختلاف في الرواية :

[من الخفيف]

إِذْهَبَا بِي إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ عَقْرٌ إِلَى جَنْبِ قَبْرِهِ فَاغْرِانِي
وَأَنْضَحَا مِنْ دَمِي عَلَيْهِ فَقَدْ كَا نَ دَمِي مِنْ نَدَاهُ لَوْ تَعْلَمَانِ

[من الطويل]

وهما أصل معنى قول الزمخشري في رثاء شيخه أبي مضر :

وَقَائِلَةٌ مَا هَذِهِ الدُّرُّ الَّتِي تَسَاقَطَهَا عَيْنَاكَ سِمَطَيْنِ سِمَطَيْنِ^(١)
فَقُلْتُ لَهَا الدُّرُّ الَّذِي كَانَ قَدْ حَسَا أَبُو مُضَرَ أُذُنِي تَسَاقَطَ مِنْ عَيْنِي

[من الكامل]

وقال القاضي الأرجاني - وأبدع وألطف ما شاء - [في «ديوانه» ٤٠/٢] :

لَمْ يُبَكِّنِي إِلَّا حَدِيثَ فِرَاقِكُمْ لَمَّا أَسْرَّ بِهِ إِلَيَّ مُوَدَّعِي
هُوَ ذَلِكَ الدُّرُّ الَّذِي أُوذَعْتُمْ فِي مَسْمَعِي أَلْقَيْتُهُ مِنْ مَدْمَعِي

[من الطويل]

وقال المعري [في «سقط الزند» ١٩٨] :

وَأَلْقَيْتَنِي لِي دُرًّا فَلَمَّا عَدَدْتُهُ غِنَى مَسَخْتُهُ شِقْوَةَ الْحِطِّ أَدْمَعِي^(٢)

[من الطويل]

وقال بعضهم :

تَعَلَّمْتُ مِمَّا قُلْتَهُ وَفَعَلْتَهُ فَأَهْدَيْتُ حُلُومًا مِنْ جَنَائِي لِفَارِسِ

(١) السُّمَطُ : هو الخيط ما دام اللؤلؤ فيه منظوماً ، فإذا كان فارغاً . سُمِّيَ سِلْكَاً .

(٢) يقول : إن تلك الخيالات لما طرقت في النوم . أعطيتُه عقوداً أو دراً ، فانتبه من نومهِ فرحاً ، لكنه لم ير شيئاً ، فنافت دموعُه حسرةً على ما فاتهُ ، وأول الدُرِّ بالدمع الذي تناصر من عينه عند البكاء .

وقال آخرُ :

[مِنَ البسيطِ]

إِنْ رَاقَ مَعْنَى فَمِنْ جَدْوَاهُ مُعْتَصِرٌ أَوْ رَقَّ لَفْظاً فَمِنْ عَلَيَاهُ مُهْتَصِرٌ^(١)

[تعجز لغة الكلام عن التعبير في كثير من الأحيان]

[مِنَ الوافرِ]

وَأَمَّا قَوْلُهُ : (وَأَفْحَمًا) . . فَمِنْ قَوْلِ أَشْجَعٍ [في « ديوانه » ٢٤٨] :

مَدَحْنَاهُمْ فَلَمْ نُذَرِكْ بِمَدْحِ مَائِرُهُمْ وَلَمْ نَتْرُكْ مَقَالاً

[مِنَ الطَّويلِ]

وقوله [في « ديوانه » ١٨٨] :

جَهَدْتُ فَلَمْ أَبْلُغْ مَدَاكَ بِمَدْحَةٍ وَلَيْسَ عَلَيَّ مَنْ كَانَ مُجْتَهِداً عَنُتُبُ

[مِنَ الطَّويلِ]

وقد اختلسه الماكيُّ فقالَ :

جَهَدْتُ وَلَمْ أَبْلُغْ مَدَاكَ بِمَدْحَةٍ وَلَيْسَ مَعَ التَّقْصِيرِ عِنْدِي سِوَى العُذْرِ

[مِنَ الطَّويلِ]

وقال ابنُ الحجَّاجِ :

هُوَ البُخْرُ إِنْ حَدَّثْتُ عَنْ مُعْجَزَاتِهِ ضَعُفْتُ عَنْ اسْتِغْرَاقِ تِلْكَ العُجَائِبِ
وَإِنْ رَامَ شِعْرِي أَنْ يُحِيطَ بِوَصْفِهِ أَحَاطَ بِشِعْرِي العَجْزُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

[إفحام أبي نواس للشعراء]

وفي يوم إِملاك^(٢) الرضا بابنة المأمونِ قامَتِ الشُّعراءُ والخطباءُ ، وأبو نَواسٍ ساكُتٌ ، فَعُوتَبَ ، فألقى الأبيات الآتية -
التي كانت بمثابة عصا موسى عليه السَّلامُ ، تَلَقَّفَتْ ما كانوا يصنعونَ - وهي :

[مِنَ الخفيفِ]

قِيلَ لِي : أَنْتَ أَفْصَحُ النَّاسِ طُرّاً فِي المَعَانِي وَفِي الكَلَامِ النَّبِيهِ
لَكَ مِنْ جَيْدِ القَرِيضِ مَدِيحٌ يَنْشُرُ الدُّرَّ مِنْ يَدَيِ مُجْتَنِيهِ
فَلِمَاذَا لَمْ تَمْتَدِحْ نَجَلَ مُوسَى وَالصَّفَاتِ الَّتِي تَحَكَّمَنَّ فِيهِ
قُلْتُ : لَا اسْتَطِيعُ مَدْحَ إِمَامٍ كَانِ جَبْرِيلُ خَادِماً لِأَبِيهِ

[شدة القرب حجاب]

[مِنَ الوافرِ]

وقد نظرَ الناظمُ إلى قولِ الأعرابيِّ :

تَكَاثَرَتِ الطُّبَاءُ عَلَيَّ خِدَاشٍ فَمَا يَذْرِي خِدَاشٌ مَا يَصِيدُ

وَمِنْ سُدَّةِ الظُّهُورِ الخِفاءُ ، وَمِنْهُ أَحْجَمَ فحولُ الشُّعراءِ عَنْ مَدْحِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ لِأَنَّهُ لَا يُسْتَطَاعُ ؛ إِذْ هُوَ فَوْقَ
كُلِّ كَلَامٍ ، وَمِنْ وَرَاءِ كُلِّ عِبَارَةٍ ، وَكُلُّ مَدْحٍ فِيهِ تَقْصِيرٌ .

(١) الهَضْرُ : الجذبُ والإمالةُ ، تقولُ : هَضَرْتُ الغصنَ إِذَا أملتَهُ إِلَيْكَ .

(٢) الإِمْلَاقُ : التزويجُ .

وما أحسن ما يُروى للناظم في غير « الدَّيوانِ » حينما عُوْتَبَ على ترك امتداح أهل البيت وهو قوله : [مِنَ الكَامِلِ]

وَتَرَكْتُ مَدْحِي لِلْوَصِيِّ تَعْمُدًا إِذْ كَانَ نُورًا مُسْتَطِيلًا شَامِلًا
وَإِذَا اسْتَطَالَ الشَّيْءُ قَامَ بِنَفْسِهِ وَصِفَاتُ ضَوْءِ الشَّمْسِ تَذْهَبُ بِاطِلًا

وقال [في « المُكَبَّرِي » ٢٠ / ٢٣٢] :

مَنْ كَانَ فَوْقَ مَحَلِّ الشَّمْسِ مَوْضِعُهُ فَلَيْسَ يَرْفَعُهُ شَيْءٌ وَلَا يَضَعُهُ

وقال [في « المُكَبَّرِي » ٣ / ٢٥٩] :

وَلَقَدْ عَلَوْتَ فَمَا تُبَالِي بَعْدَ مَا عَرَفُوا أَيَحْمَدُ أَمْ يَدُمُ الْقَائِلُ
أُنِّي عَلَيْكَ وَلَوْ تَشَاءُ.. لَقُلْتَ لِي : قَصَّرْتَ فَاإِمْسَاكَ عَنِّي نَائِلُ

وقال [في « المُكَبَّرِي » ٢٠ / ٣٧٩] :

وَعُظْمُ قَدْرِكَ فِي الْآفَاقِ أَوْهَمَنِي أَنِّي بِقِلَّةِ مَا أَثْنَيْتُ أَهْجُوكَا

وقال [في « المُكَبَّرِي » ١ / ١٩٤] :

تَجَاوَزَ قَدْرَ الْمَدْحِ حَتَّى كَانَهُ بِأَبْلَغِ مَا يُثْنَى عَلَيْهِ يُعَابُ

وهو مِن قولِ البُحْتَرِيِّ [في « ديوانه » ١٥] :

جَلَّ عَنِ مَذْهَبِ الْمَدِيحِ فَقَدْ كَا نَ يَكُونُ الْمَدِيحُ فِيهِ هِجَاءٌ

وللهِ دَرُّ البوصيرِيِّ في قوله :

مَاذَا عَسَى الشُّعْرَاءُ الْيَوْمَ قَائِلَةٌ مِنْ بَعْدِ مَا مَدَحْتَ (حَامِيمٌ تَنْزِيلُ)

* * *

قال أبو الطَّيِّبِ المَتَنِيّ في « المُكَبَّرِي » ٤ / ٣٢ :

كَبَّرَ الْعِيَانُ عَلَيَّ حَتَّى إِنَّهُ صَارَ الْعِيَانُ مِنَ الْيَقِينِ تَوْهَمًا

[عندما يرى الإنسان شيئاً يكذب عينيه والمنتبي أول من أوضح هذا المعنى]

يقول : إنَّ شأنَ الممدوحِ عظيمٌ ، لم يستقلَّ على عقله ثبوته ؛ لاستعظامه إيَّاهُ ، فكَبَّرَ عليه حتَّى تشكَّك فيه مِنْ كِبَرِهِ مع المشاهدة ، وهو معنى شريفٌ ، يجدهُ مِنْ نفسه كلِّ مَنْ فوجيءَ بِنعمةٍ عظيمةٍ ، أو مصيبةٍ كُبرىٍ ، وينحلُّ به إشكالٌ ما يوهِمُ تشكُّكَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فيما فاجأهُ مِنْ أمرِ الوحي لأوَّلِ وهلةٍ ، كما قرَّرناه ، وأكثرنا مِنْ مثله في كتابنا « بلبابلِ التَّغْرِيدِ » ، وهو وإنَّ كَانَ مغروراً في النفوسِ ، متداولاً بينَ الشُّعْرَاءِ ، جارياً في الخِطَابِ ما بينَ

الطُّبَقَاتِ . . فللناظم على الإطلاق فضيلة التَّوضِيحِ ؛ إذ جلاؤه في أجمل صورةٍ ، وأفرغهُ في أبداعِ قالبٍ ، وأكثرَ منه ، ولكن لا في مثل تنقيحه من هذا البيت ، فقال [في «المكبري» ١/٣٦٦] :

[من المتقارب]

أَحْلَمًا نَرَى أَمْ زَمَانًا جَدِيدًا أَمْ الْخَلْقُ فِي شَخْصٍ حَيٍّ أُعِيدًا

[من الكامل]

وقال [في «المكبري» ٣/٣٤٩] :

وَمِنْ احْتِقَارِكَ كُلِّ مَا تَخْبُو بِهِ فِيمَا الْأَحْظَةُ بَعَيْنِي نَائِمٌ^(١)

[قول الشعراء في هذا المعنى]

[من الطويل]

وقال أبو نؤاس [في «ديوانه» ٤٩٢] :

أَلَا لَا أَرَى مِنْبِلِي امْتَرَى الْيَوْمَ فِي رَسْمٍ تَعَصُّ بِهٍ عَيْنِي وَيَلْفِظُهُ وَهَمِي^(٢)

[من الطويل]

وقال أبو عبادة [في «ديوانه» ١٥٣٠-١٥٣١] :

وَزُورَ أَتَانِي طَارِقًا فَحَسِبْتُهُ أَقْسَمُ فِيهِ الظَّنَّ طَوْرًا مُكْذَبًا
أَخَافُ وَأَزْجُو بُطْلَ ظَنِّي وَصِدْقُهُ وَقَدْ ضَمْنَا وَشُكَّ التَّلَاقِي وَلَفْنَا
فَلَمْ تَرَ إِلَّا مُخْبِرًا عَن صَبَابَةٍ فَأَحْسِنَ بِنَا وَالذَّمْعُ بِالذَّمْعِ وَاشِجُ

[من المنسرح]

وقال :

فَرِحْتُ حَتَّى اسْتَحَفَّنِي فَرَحِي أَمْسَحُ عَيْنِي مُسْتَشْتِيًا نَظْرِي
أَحَالِنِي حَالِمًا وَلَمْ أَنْمِ فَشَبْتُ عَيْنَ الْيَقِينِ بِالْوَهْمِ

[من الطويل]

وقال [في «ديوانه» ١٠٥٢] :

حَيِّبُ سَرَى فِي خُفْيَةٍ وَعَلَى ذُعْرِ تَشَكَّكْتُ فِيهِ مِنْ سُرُورٍ وَخَلْتُهُ
خَيَالًا أَتَى فِي النَّوْمِ مِنْ طَيْفِهِ يَسْرِي يَجُوبُ الدُّجَى حَتَّى التَّقَيْنَا عَلَى قَدْرِ

[من الكامل]

وقال العلامة ابن المقري :

أَعْطَى فَظَنَّ الْوَافِدُونَ بِأَنَّهَا وَيَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : أَنْتُمْ
يَقْظَى ، وَهَذَا كُلُّهُ هِبَةٌ لَنَا رُؤْيَا فَظَلُّوا يَمَسْحُونَ الْأَعْيُنَا

[من الطويل]

ويقرب منه - وليس به - قول أبي تمام :

تُجَاوِزُ غَايَاتِ الْعُقُولِ رَغَائِبُ تَكَادُ بِهَا لَوْلَا الْعِيَانُ تُصَدِّقُ

(١) المعنى : أنت عظيم القدر ، تحقر الأشياء العظيمة ، فإذا رأيت كثرة مواهبك التي تحتقرها . . ظننتُ أنني في نومٍ ؛ لأن العادة لم تجر بذلك في اليقظة .

(٢) امترى : شك .

(٣) أفرق : أجزع ويشتد خوفي .

وقولُ البُحترِيِّ [في «ديوانه» ١٣١٦/٢] :

[مِنَ الكَامِلِ]

وَحَدِيثُ مَجْدٍ عَنكَ أَطْرَبَ حُسْنُهُ
حَتَّى ظَنَّنَا أَنَّهُ مَوْضُوعٌ

[مِنَ الكَامِلِ]

وقولُ النَّاطِمِ^(١) :

لَمَّا كَرُمْتَ أَتَيْتُ فِيكَ بِمَنْطِقٍ
وَلَوْ ائْتَدَحْتُ سِوَاكَ كُنْتُ مَتَى يَضِقُ
صِدْقِي فَلَمْ أَكْذِبْ وَلَمْ أَتَحَوَّبْ
عَنِّي لَهُ صِدْقُ الْمَقَالَةِ أَكْذِبِ

[مِنَ الكَامِلِ]

وقوله [في «العُكْبَرِيِّ» ١٢٦/١] :

كَرَمًا فَلَوْ حَدَّثْتُهُ عَن نَفْسِهِ
بِعَظِيمِ مَا صَنَعْتَ لظَنِّكَ كَاذِبًا

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقولُ البديعِ [الهمذاني في «ديوانه» ١٢٠] :

مَحَاسِنُ يُبْدِيهَا الْعِيَانُ كَمَا تَرَى
وَإِنْ نَحْنُ حَدَّثْنَا بِهَا دَفَعَ الْعَقْلُ

وهو من قصيدة خالصة يهيج أشجاني منها قوله عن أبيه :

إِذَا وَرَدَ الرَّكْبَانُ وَأَفَى رِكَابُهُمْ
يُسَالِلُهُمْ أَيْنَ ابْنُهُ ، أَيْنَ دَارُهُ ،
بِفَوَارَتِي دَمَعُ هَمَا السَّجْلُ وَالنَّجْلُ^(٢)
إِلَامَ انْتَهَى ، لِمَ لَمْ يَعُدْ ، هَلْ لَهُ شُغْلُ !؟

[الحديث عن كتاب الشكوك]

وهو لا يشبه شيئاً من مذاهب اللادريّة^(٣) المنادي بإنكار حقائق الأشياء ، الذي وضع فيه صالح بن عبد القدوس كتاب «الشكوك» ، ثم مات عليه ولد ، فحزن عليه حزناً شديداً ، وقال لأبي الهذيل العلاف : إنه لم يشتدّ وجدي عليه إلا لأنني أقرأته كتاب «الشكوك» فأتقنه ، قال له : وما كتاب «الشكوك» ؟ قال : من قرأه . . يشك في الموجود حتى كأنه معدوم ، وفي المعدوم حتى كأنه موجود ، قال له : الخطب هين إذن ، فشك في ولدك أنه لم يمت ، فانقطع .

[ما يجده المؤمن من الوسوسة في صدره ليس من هذا القبيل]

وما يجده أهل الإيمان من الوسوسة مع التّصميم وصحة عقود القلوب لونها آخر - أيضاً - منه : ما جاء في «مصابيح البغوي» عن جابر قال : جاء ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النبي ، فسألوه : إننا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلّم به ، قال : «أوقد وجدتموه ؟» ، قالوا : نعم ، قال : «ذاك صريح الإيمان»^(٤) .
إذ الأكثر على أن المدح إنما جاء من جهة تعاطفهم له ، لا من حيث وجوده .

والله أعلم

* * *

(١) بل هو من قول أبي تمام في «ديوانه» .

(٢) السّجّل : الدّلل العظيّم . النّجّل : الماء السائل .

(٣) وهم طائفة من الفلاسفة يترددون بين إثبات حقائق الأشياء وإنكارها ، وهم : فريق من السفطائيين ، ولهم اسم آخر : (الشكّاكون) .

(٤) أخرجه عن جابر مسلم (١٨٨) في الإيمان ، وأبو داود (٤٤٤٧) .

المجلس السادس

[مِن الطَّوِيلِ]

قال أبو الطَّيِّبِ المَتَنَبِّيُّ فِي « العُكْبَرِيِّ » ٤ / ٣٣ :

إِلَى أَيِّ حِينٍ أَنْتَ فِي زِيٍّ مُحْرِمٍ ؟ وَحَتَّى مَتَى فِي شِقْوَةٍ وَإِلَى كَمِ ؟

[متى يتسم الدهر ؟]

يقولُ : إلى متى وأنتَ صِفْرٌ مِنَ المَالِ ، فِي زِيٍّ المُحْرِمِ المَتَجَرِّدِ عَنِ اللَّبَاسِ ؟ وَحَتَّى مَتَى هَذَا الشَّقَاءُ بِالفَقْرِ ؟ وَإِلَى أَيِّ أَمَدٍ مِنَ الزَّمَانِ يَنجَلِي البُؤْسُ وَيَتَسَمُّ الدَّهْرُ العَبُوسُ ؟
ويمكنُ أَنْ يَكُونَ المرادُ : إلى متى وأنتَ مِثْلُ المُحْرِمِ لَا تَقْتُلُ وَلَا تَصِيدُ ؟
وهذا أحلى موقِعاً .

وكانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَعِيدُ مِنَ الفَقْرِ ، وَيَقُولُ : « كَادَ الفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا »^(١) .

[استعاذته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الدَّيْنِ وَالفَقْرِ]

وَمِنْ دَعَائِهِ بِاللَّيْلِ - كَمَا عِنْدَ « مُسْلِم » [٢٧١٣] فِي الذِّكْرِ وَالدَّعَاءِ وَغَيْرِهِ - : « اَللّٰهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَ[رَبَّ] الْأَرْضِ ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ ، مُنَزَّلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَالْقُرْآنَ ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ ، أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ أَحَدٌ قَبْلَكَ ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ أَحَدٌ بَعْدَكَ ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ أَحَدٌ فَوْقَكَ ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ أَحَدٌ دُونَكَ ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ ، وَأَغْنِنَا مِنَ الفَقْرِ »^(٢) .

[أصول النعم]

وقالوا : أصولُ النِّعَمِ أَرْبَعَةٌ : الإِيْمَانُ ، وَالأَمَانُ ، وَالعَنِي ، وَالعَافِيَةُ .

[فِي أَيْدِينَا لَا فِي قُلُوبِنَا]

وقالَ سَفِيَانُ : كَانَ مِنْ دَعَائِهِمْ : اَللّٰهُمَّ زَهِّدْنَا فِي الدُّنْيَا ، وَوَسِّعْهَا عَلَيْنَا ، وَلَا تَذُدْهَا عَنَّا ، وَتُرْعِّبْنَا فِيهَا .

[ارحموا ثلاثة]

وَيُرَوَّى عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : « اِرْحَمُوا ثَلَاثَةً : عَزِيزَ قَوْمٍ ذَلَّ ، وَعَنِيَّ قَوْمٍ افْتَقَرَ ، وَعَالِمًا بَيْنَ جُهَالٍ »^(٣) .

(١) أَخْرَجَهُ عَنِ أَنَسِ القَضَاعِيِّ فِي « مَسْنَدِ الشَّهَابِ » (١/٣٤٢) ، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي « الحَلِيَّةِ » (٣/٥٣ و١٠٩) ، وَالعَقِيلِيُّ فِي « الضَّعْفَاءِ » (٤/٢٠٦) ، وَابْنُ الجَوْزِيِّ فِي « الحَلَلِ المَتْنَاهِيَّةِ » (٢/٣٢٠) .

(٢) وَأَخْرَجَهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَيْضاً أَبُو داوودَ (٥٠٥١) ، وَالتِّرْمِذِيُّ (٣٤٠٠) ، وَالنَّسَائِيُّ فِي « عَمَلِ اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ » (٧٩٠) ، وَابْنُ ماجهَ (٢٨٧٣) . وَفِي بَعْضِ رِوَايَاتِهِ : شَيْءٌ بَدَلَ أَحَدٍ ، وَبَدَلَ عَنَّا : عَنِي ، وَبَدَلَ أَغْنِنَا : أَغْنِنِي .

(٣) أَخْرَجَهُ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ القَضَاعِيُّ فِي « مَسْنَدِ الشَّهَابِ » (١/٤٢٧) بِالْفَاظِ مُتَقَارِبَةً .

وقيل : جَهْدُ الْبَلَاءِ أَنْ تَزُولَ النِّعْمَةُ ، وَتَبْقَى الْعَالَةُ ، ثُمَّ لَا تَعْدَمُ صَدِيقًا مُؤْتَبًا ، وَعَدُوًّا شَامِتًا .

[الفقر مجمع العيوب]

وكان يُقال : الْفَقْرُ مَجْمَعُ الْعُيُوبِ .

[مِنَ الْخَفِيفِ]

قالَ حَسَّانُ [في «ديوانه» ٤٠] :

رُبَّ جِلْمٍ أَضَاعَهُ عَدَمُ الْمَا لِ ، وَجَهْلٍ غَطَّى عَلَيْهِ النَّعِيمُ

[مِنَ الْوَافِرِ]

وقالَ عروَةَ [في «ديوانه» ٩١] :

ذَرِينِي لِلْغِنَى أَسْعَى فَإِنِّي رَأَيْتُ النَّاسَ شَرُّهُمْ الْفَقِيرُ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقالَ جريرٌ [في «ديوانه» ٢٦] :

تَرَادَفَهُمْ فَقْرٌ قَدِيمٌ وَذِلَّةٌ وَشَرُّ الرَّدِيفَاتِ الْمَذَلَّةُ وَالْفَقْرُ

[الصفة الواحدة للغني مدح وللفقير ذم]

وما مِنِ حَصلَةٍ تَكُونُ لِلغَنِيِّ مَدْحًا . . إِلَّا كَانَتْ لِلْفَقِيرِ ذَمًّا ، فَإِنِ كَانَ حَلِيمًا . . قِيلَ : بَلِيدٌ ، أَوْ شَجَاعًا . . قِيلَ : أَهْجُ ، أَوْ لَسِنًا . . قِيلَ : مِهْدَارٌ ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ .

[كم لك من الأصدقاء]

وقيلَ لِبَعْضِ أَهْلِ الْحِجَا : كَمْ لَكَ مِنْ صَدِيقٍ ؟ قَالَ : لَا أُدْرِي ؛ لِأَنَّ الدُّنْيَا مَقْبَلَةٌ ، وَالْأَمْوَالُ عِنْدِي مَوْجُودَةٌ ، وَإِنَّمَا يُعْرَفُ ذَلِكَ لَوْ وُلَّتْ . أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَ طَرِيحٍ !؟

[مِنَ الْكَامِلِ]

وَالنَّاسُ أَغْدَاءٌ لِكُلِّ مُدَقِّعٍ صِفْرِ الْيَدَيْنِ وَإِخْوَةٌ لِلْمُكْتَبِرِ

[الناس مع صاحب الدنيا]

ولَمَّا اسْتَوَزَرَ عَلِيُّ بْنُ عَيْسَى ، وَرَأَى اجْتِمَاعَ النَّاسِ حَوْلَهُ . . تَمَثَّلَ بِقَوْلِ أَبِي الْعَتَاهِيَةِ [في «ديوانه» ٢٢] :

[مِنَ الْبَسِيطِ]

مَا النَّاسُ إِلَّا مَعَ الدُّنْيَا وَصَاحِبِهَا فَكَيْفَمَا انْقَلَبَتْ يَوْمًا بِهِ انْقَلَبُوا

يُعْظَمُونَ أَحَا الدُّنْيَا فَإِنِ وَثِبَتْ يَوْمًا عَلَيْهِ بِمَا لَا يَشْتَهِي وَتَبَّوْا

وقديماً قيلَ : إِذَا أَيْسَرْتَ . . فَكُلُّ رَحِلٍ رَحْلُكَ ، وَإِذَا أَعْسَرْتَ . . أَنْكَرَكَ حَتَّى أَهْلَكَ .

[ما أكثر الإخوان حين تعدهم]

وكانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ رَجُلٌ حَسَنُ الْحَالِ ، يَخْتَلِفُ إِلَيْهِ إِخْوَانُهُ وَبَنُو عَمِّهِ ، فَيُعْطِيهِمْ ، وَيُوَاسِيهِمْ ، ثُمَّ اخْتَلَّتْ أَمْرُهُ ، فَجَفَوْهُ ، فَعَادَ إِلَى مَنْزِلِهِ كَثِيبًا ، فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ : مَا شَأْنُكَ ؟ فَقَالَ : دَعَيْتُ عَنكَ ، وَأَنْشَأَ يَقُولُ [الآيات فِي

[مِنَ الطَّوِيلِ]

«المستطرف» ٩٦/٢] :

دَعِي عَنكَ عَدْلِي مَا مِنَ الْعَدْلِ أَعْجَبُ وَلَا بُدَّ حَالٍ بَعْدَ حَالٍ تَقَلَّبُ

وَكَانَ بَنُو عَمِّي يَقُولُونَ : مَرْحَبًا فَلَمَّا رَأَوْنِي مُقْتِرًا مَاتَ مَرْحَبُ

كَأَنَّ مُقْلًا حِينَ يَغْدُو لِحَاجَةٍ إِلَى كُلِّ مَنْ يَلْقَى مِنَ النَّاسِ مُذْنِبُ

ومرَّ رجلٌ مِنَ الأَغْنِيَاءِ بِرَجُلٍ مِنَ أَهْلِ العِلْمِ ، فَتَحَرَّكَ لَهُ ، وَأَكْرَمَهُ ، فَقِيلَ لَهُ : هَلْ كَانَتْ لَكَ إِلَيْهِ حَاجَةٌ ؟ قَالَ : لَا ، وَلَكِنَّ ذَا المَالِ مَهِيَّبٌ ، وَقَدْ قِيلَ فِيهِ :

[مِن الطَّوِيلِ]

أَرَى كُلَّ ذِي مَالٍ يُجَبِّلُ لِمَالِهِ وَمَنْ لَيْسَ ذَا مَالٍ يُهَانَ وَيُحْقَرُ
وَيُخَذَلُ الإِخْوَانُ ، إِنْ زَارَهُمْ جَفَا وَلَمْ يَسْأَلُوا إِنْ غَابَ بَلْ هُوَ يُهَجَرُ
سَاقَنُ بِالمَالِ القَلِيلِ تَكْرُمًا لِأَغْنَى بِهِ عَمَّا لَدَيْهِمْ وَأَصْبَرُ

[خسة العالم الذي يتواضع لغني]

وهذا العالمُ لا شكَّ أَنَّهُ مِنْ صِغَارِ الثُّغُوسِ ، وَزُمنَاءِ المَرْوَةِ^(١) ، وَضعفاءِ الدِّينِ ، وَإِلَّا . . . فَقَدْ كَانَ الأَغْنِيَاءُ يَتَمَنَّوْنَ أَنْ لَوْ كَانُوا فقراءَ فِي مَجْلِسِ سَفِيانِ الثُّورِيِّ ؛ لِمَا يَرُونَ مِنْ إِثَارِهِ إِثَابِهِمْ ، وَذَلِكَ هَدْيُ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لَا يُنْزَلُ النَّاسَ إِلَّا عِنْدَ مواضِعِهِمْ فِي الفَضْلِ وَالدِّينِ ، وَحَدِيثُ عَمْرٍ مَعَ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ وَسَهيلِ بْنِ عَمْرٍو ، وَتَأخِيرُهُ مَجالسَهُمْ لِرَفْعِ المَهاجِرِينَ الأَوَّلِينَ عَلَيْهِمْ . . . معروفٌ .

[الإمام يحب المساكين]

وفي وصفِ الإمامِ عليٍّ - كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ - أَنَّهُ يَحِبُّ المَساكِينَ ، وَيُقَدِّمُ أَهْلَ الدِّينِ .

[إكرام العلماء عند أهل (اليمن)]

وما زالَ الحالُ فِي بلادِنَا - حرسها اللهُ - على ما كانَ عَلَيْهِ السَّلْفُ الصَّالِحُ مِنْ إِثَارِ أَهْلِ الدِّينِ ، حَتَّى لَقَدْ أَخْبَرَنِي الثَّقَةُ عَمْرُ حَضَرَ اجْتِمَاعَ الأَعْيَانِ بِمَحْضَرِ الإمامِ حَسَنِ بْنِ صَالِحِ البَحْرِ لِلْمُشاوِرَةِ فِي غَرَضٍ مِنَ الأَغْرَاضِ : أَنَّ السَّيِّدَ الجَلِيلَ أَحْمَدَ الجَنيدَ - وَكانَ بصيرًا^(٢) - سَبَقَ إِلى مَجْلِسٍ يَقْرُبُ مِنَ الصِّدْرِ ، فَأقامَهُ الشَّهْمُ الهَمَامُ السَّيِّدُ حَسِينُ بْنُ سَهْلِ ، وَقَالَ لَهُ : إِنَّمَا الصِّدْرُ لِلصِّدورِ مِنَ أَهْلِ العِلْمِ ، وَأَمَّا مَجْلِسِي وَإِيَّاكَ وَمَنْ لَفَنَّا مِنْ أَهْلِ الثَّرْوَةِ فَإِنَّمَا يَكُونُ فِي الأَخْرِياتِ ، نَعَمْ وَاللهِ ما زالَ عِنْدنَا الأَمْرُ كَذَلِكَ حَتَّى هَدَمَ شَرَفَ الدِّينِ بُناتُهُ ، وَأَضاعَهُ حُماتُهُ ، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ .

[الكلام في الغنى والفقير]

والكلامُ فِي الغنَى وَالفَقْرِ معروفٌ ، وَالمَفاضِلَةُ بَيْنَ الفَقيرِ الصَّابِرِ ، وَالغَنِيِّ الشَّاكِرِ طَوِيلَةُ الذِيلِ ، وَعَمامَةُ الصُّوفِيَّةِ على تَفْضيلِ الأَوَّلِ ، وَأَياتُ القُرْآنِ أَكثَرُ دِلالةً عَلَيْهِ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْها إِلَّا قَوْلُهُ تَقَدَّسَتْ أَسماؤُهُ : ﴿ وَلَوْ لَأَنَّ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُثِيبَهُمْ سُقُوطًا مِّنَ السَّمَاءِ وَنَعَّاجًا لِّعَلَّيْها يَظْهَرُونَ ﴾ * وَبِأُيُوبَهِمْ أَتَوَّابًا وَسُرْرًا عَلَيْها يَتَكَبَّرُونَ * وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُنَّ ذَلكَ لَمَّا مَتَّعَ الحَيَوةَ الدُّنْيا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف : ٣٣-٣٥] .

[وصف الإمام للنبي صلى الله عليه وسلم]

ومما يَنسَبُ لِأَميرِ المُؤمِنينَ - كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ - فِي وصفِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْلُهُ [في «نَهجِ البِلاغَةِ» ١٨٧] : وَقَدْ

(١) زَمَناءُ المَرْوَةِ : أَصابَ مَرْوَةَهمُ المَرَضُ .

(٢) قَصِدُ أَنَّهُ أَعْمَى ، وَهُوَ مِنْ قَبيلِ تَسْمِيَةِ الشَّيْءِ بِضَدِّهِ تَفَاوُلًا .

زُوِيَتْ^(١) عَنْهُ أَطْرَافُهَا^(٢) - وَوُطِّئَتْ لِغَيْرِهِ مِنَ الْجَبَابِرَةِ أَكْنَافُهَا^(٣) - فليَنْظُرْ نَازِرٌ بِعَقْلِهِ ، هل أَكْرَمَ اللهُ مُحَمَّدًا بِذَلِكَ أَوْ أَهَانَهُ ؟ فَإِنْ قَالَ : أَهَانَهُ . . . فَقَدْ جَاءَ بِالْإِفْكِ الْعَظِيمِ ، وَإِنْ قَالَ : أَكْرَمَهُ . . . فليَعْلَمْ أَنَّ اللهَ أَهَانَ غَيْرَهُ مَمَّنْ بَسَطَ الدُّنْيَا لَهُ .

[تواضعه صلى الله عليه وسلم]

وقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعُمَرَ حِينَ لَمْ يَمْلِكْ عَيْنَهُ ، وَقَدْ رَأَى أَثَرَ الْحَصِيرِ فِي جَنْبِهِ ، وَلَمْ يَرِ مَا يَرِدُ الطَّرْفَ فِي بَيْتِهِ غَيْرَ القَرَطِ^(٤) والأُهْبِ ، وَذَكَرَ حَالَ كَسْرِيٍّ وَقَيْصَرَ : « أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ ؟ ! »^(٥) .

[تفضيل أهل الحديث الغنى على الفقر]

وقَالَ أَهْلُ الْحَدِيثِ : بِتَفْضِيلِ الثَّانِي^(٦) ؛ لِأَنَّهُ الآخِرُ مِنْ أَحْوَالِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَمَّا سَبَقَ مِنْ اسْتِعَاذَتِهِ مِنَ الْفَقْرِ ، وَقَرْنِهِ إِيَّاهُ بِالْكَفْرِ ، وَلَا يُشْكَلُ هَذَا بِمَوْتِهِ وَدَرَعُهُ مَرهُونَةٌ ؛ فَإِنَّ الْبِلَادَ قَدْ افْتَحَتْ ، وَأَغْنَى الأَرْضِ - وَهِيَ (الْيَمَنُ) - تَجِبِي إِلَيْهِ ، إِلَّا أَنَّ دَابَّةَ الإِيثَارُ ، فَلَا بَأْسَ أَنْ يَحْصَلَ ذَلِكَ مَعَ اتِّصَافِهِ بِالْغِنَى بِلا تَغَايِرٍ .

[من خصائص النبي صلى الله عليه وسلم]

وَمِنْ خِصَائِصِهِ : أَنَّهُ لَا بَيْتَ عِنْدَهُ دَرَاهِمٌ ، إِلَّا دَرَاهِمٌ يَرِصُدُهُ لِذَيْنِ ، وَفِي « الصَّحِيحِ » [البخاري ١٢٢١] : أَنَّهُ انْصَرَفَ وَقَدْ أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ ؛ لِتَذْكَرِهِ تَبْرًا فِي بَيْتِهِ ، وَلَمْ يُعَدِّ حَتَّى تَبْرًا مِنْهُ إِلَى مَنْ يَسْتَحِقُّهُ ، فَهُوَ الأَحَقُّ بِقَوْلِ جُوبَةَ بْنِ النُّضْرِ : [مِنَ البِطِ]

إِنَّا إِذَا اجْتَمَعَتْ يَوْمًا دَرَاهِمُنَا ظَلَّتْ إِلَى طُرُقِ المَعْرُوفِ تَسْتَبِقُ
لَا يَأْلَفُ الدَّرَاهِمُ المَضْرُوبُ صُرَّتَنَا لَكِنْ يُمِرُّ عَلَيْهَا وَهُوَ مُنْطَلِقُ

وَالْأَ . . . فَأَيُّ غِنَى يَقْدَرُ أَنْ يَقُولَ مِثْلَهُ ؟ : « مَنْ مَاتَ وَتَرَكَ مَالًا . . . فَلِوَرَثَتِهِ ، وَمَنْ مَاتَ وَتَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضِبَاعًا . . . فَعَلَيْنَا »^(٧) .

[أفضل الأحوال الكفاف]

وَالكَلَامُ فِي ذَلِكَ يَسْتَدْعِي طَوْلًا ، وَمَعَ اخْتِلَافِهِمْ فِيهَا ذَكَرَ ، فَقَدْ اتَّفَقُوا عَلَى تَفْضِيلِ الْكِفَافِ ، وَلِهَذَا سَأَلَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَهْلِ بَيْتِهِ ، فَقَالَ : « اللّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوْتًا »^(٨) .

[استشكال حديث : اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً]

وَفِيهِ إِشْكَالٌ ؛ لِأَنَّ المُشَاهِدَ مِنْ آلِ الْبَيْتِ أَنَّهُمْ كَسَاتِرِ النَّاسِ ، فِيهِمُ الْغِنَى وَالْفَقِيرُ وَالْمَسْكِينُ وَالْمَتَوَسِّطُ الْحَالِ ، حَتَّى لَقَدْ ذَهَبَ بِهَا الْقَطْبُ

(١) زُوِيَتْ : نُخِيت ، وَبُوْعِدَتْ .

(٢) شَيْءٌ طَرِيفٌ : طَيِّبٌ ، وَالْمَعْنَى : أَنَّ اللهَ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى أَبْعَدَ نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ طَيِّبَاتِ الدُّنْيَا ؛ لِيُدْخِرَهَا لَهُ فِي الآخِرَةِ .

(٣) أَكْنَافُهَا : نَوَاحِيهَا وَجَوَائِزُهَا .

(٤) القَرَطُ : وَرَقٌ شَجَرٍ يَدْبِغُ بِهِ الأُهْبُ وَهِيَ الْجُلُودُ .

(٥) أَخْرَجَهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا الْبَخَارِيُّ (٤٩١٣) فِي التَّفْسِيرِ ، وَأَحْمَدُ فِي « مَسْنَدِهِ » (١٣٩/٣) .

(٦) أَيُّ : الْغِنَى .

(٧) أَخْرَجَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مُسْلِمٌ (١٦١٩) فِي الْفَرَاغِ بِالْفَاظِ مُتَقَابِرَةٍ . الضِبَاعُ : كُلُّ مَنْ تَلَزَمَهُ نَفَقَتُهُمْ وَيُضِيعُونَ بِضِيعَهُ وَفَقَدَهُ .

(٨) أَخْرَجَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مُسْلِمٌ (١٧٤٧) فِي الزَّكَاةِ .

الحدّاد - مع جلاله قدره ، وغزارة علمه ، وبعده نظيره - عريضةً ، فنشكك في نسب من يُثري من أهل البيت ، ويلزمه نظيره فيمن يُعِدُّم ، وأحسن الأجوبة أن يُقال : إن المراد من أهل البيت في الحديث : إنّما هم الموجودون إذ ذاك ، لا سائرهم في كل زمان .
والأجاء ما قاله الحدّاد ، أو تبيّن عدم قبول الدُّعاء ، ويدخل في الموضوع كل ما جاء في ذم الدنيا ومدحها ، وفي ذلك إشكالٌ عظيم ، يأتي حله في المجلس الثالث عشر بما يشفي ويكفي ، إن شاء الله تعالى .

[خير الغنى]

وقال أوس بن حارثة : خير الغنى القنوع ، وشر الفقر الخضوع ؟

[الشعراء والغنى والفقر]

وقال سالم بن وابصة : [من الطويل]

غنى النفس ما يكفيك من سدّ حاجة
فإن زاد شيئاً عاد ذاك الغنى فقراً

وقال الأصبط بن قريع : [من المنسرح]

إرض من الدهر ما أتاك به
من قر عيناً بعيشه نفعه

وقال الجرهمي : [من البسيط]

العيش لا عيش إلا ما قنعت به
قد يكثر المال والإنسان مُفتقراً

والم به الناظم في قوله [في «الكبرى» ٢/١٥٠] :

ومن أنفق الساعات في جمع ماله
مخافة فقر فالذي فعل الفقر

وأشد الأصمعي : [من البسيط]

فألهم فضل وطول العيش منقطع
والرزق آت وفضل الله منتظر

ومما يروى للشافعي : [من البسيط]

لكسرة من جريش الخبز تشبيني
وقطعة من غليظ القطن تسترني
ونَهْلَةٌ من زلال الماء تُرويني
حيّاً وإن متت تكفيني لتكفيني^(١)

ويروى له : [من الخفيف]

أمطري لؤلؤاً جبال سرنديب وفضي جبال تكور تبراً
أنا إن عشت لست أعدم قوتاً وإذا مت لست أعدم قبراً

وكان القاضي يحيى بن أكرم كثيراً ما ينشد : [من البسيط]

حتّى متى أنا في حطّ وترحال
ولو قعدت أتاني الرزق في دعة
وطول سغي وإدبار وإقبال
إنّ القنوع الغنى لا كثرة المال

(١) أي : للوقت الذي ألبس فيه الكفن .

وكان بعض أصحابه ينال من فضل معروفه ، غير أنه يلقى عنتاً في الوصول إليه ، ودلاً في الوقوف ببابه ، فأخذه الأنف من ذلك ، وانجمع في بيته ، فعاتبته امرأته ، فقال :

[من الطويل]

تَكَلَّفَنِي إِذْ لَالَ نَفْسِي لِعِزِّهَا وَهَانَ عَلَيْهَا أَنْ أَهَانَ لِتُكْرَمَا
تَقُولُ : سَلِ الْمَعْرُوفَ يَخِيئُ بِنَ أَكْثَمِ فَقُلْتُ : سَلِيهِ رَبِّ يَخِيئُ بِنِ أَكْثَمَا

[من السريع]

وقال بعضهم :

مَنْ كَانَ ذَا مَالٍ كَثِيرٍ وَلَمْ يَقْنَعْ فَذَاكَ الْمُوسِرُ الْمُعْسِرُ
الْفَقْرُ فِي النَّفْسِ وَفِيهَا الْغِنَى وَفِي غِنَى النَّفْسِ الْغِنَى الْأَكْبَرُ

[القناعة هي الحياة الطيبة]

ويروى عن الحسن في قوله تعالى : ﴿ فَلَنَجْزِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل : ٩٧] : إنها القناعة .

[كيف تصبح ملكاً ؟]

وقيل لمحمد بن واسع : أوصني ، فقال : كُنْ ملكاً في الدنيا وفي الآخرة ، فقيل له : وكيف ؟ قال : ازهد في الدنيا ، واقنع .

[من البسيط]

أخذ بعضه الطغرائي فقال :

مُلْكُ الْقِنَاعَةِ لَا يُخْشَى عَلَيْهِ وَلَا يُخْتَاجُ فِيهِ إِلَى الْأَنْصَارِ وَالْخَوَلِ

[القليل الكافي خير من الكثير الملهي]

وصح من حديث أبي الدرداء مرفوعاً : « مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ إِلَّا بَعَثَ بِجَنَّتِيهَا مَلَكَانِ يُنَادِيَانِ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ ، فَإِنَّ مَا قَلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَالْهَي » (١) .

[الغنى غنى القلب]

وصح من حديث أبي ذر يرفعه : « إِنَّمَا الْغِنَى غِنَى الْقَلْبِ ، وَالْفَقْرُ فَقْرُ الْقَلْبِ » (٢) .

[عودة إلى الشعراء]

[من الهزج]

وقال أبو فراس الحمداني [في «ديوانه» ٢٤٨] :

غِنَى النَّفْسِ لِمَنْ يَعْقِلُ خَيْرٌ مِنْ غِنَى الْمَالِ وَفَضْلُ النَّاسِ فِي الْأَنْفُسِ لَيْسَ الْفَضْلُ فِي الْمَالِ

[من الوافر]

وقال نابغة ذبيان [في «ديوانه» ٢٣٢] :

وَلَسْتُ بِخَابِيءٍ لِعَدِ طَعَامِ حِدَارٍ غَدٍ لِكُلِّ غَدٍ طَعَامِ

(١) أخرجه عن أبي الدرداء أحمد في «مسنده» (١٩٧/٥) ، والحاكم في «المستدرک» (٣٦٦٢) .

وتمام الحديث : « ولا آبت شمس قط إلا بعث بجنتيها ملكان يناديان ، يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين : اللهم . . أعط منفقاً خلفاً ، وأعط ممسكاً ملأً تلعفاً . »

(٢) أخرجه عن أبي ذر الحاكم في «المستدرک» (٣٦٣/٤) ، وابن حبان في «صحيحه» مطولاً (٦٨٥) بإسناد صحيح .

وقال قيسُ بنُ الحَظِيمِ [في ديوانه ١٠١] :

غَنَاءَ النَّفْسِ مَا عَمِرَتْ غَنَاءُ وَفَقْرُ النَّفْسِ مَا عَمِرَتْ شَقَاءُ

[وجهة نظر الخليل الفراهيدي إلى الغنى والفقير]

وقال النَّضْرُ بنُ شميلٍ : أقامَ الخليلُ في حُصْرٍ مِنْ أخصاصِ (البصرة) ، لا يقدرُ على فُلْسٍ ، وأصحابُهُ يكسبونَ بعلمِهِ الأموالَ ، ولقد سمعته يقولُ : إنِّي لأغلقُ عليَّ بابي ، فما يجاوزُهُ همِّي ، وكتبَ إليه سليمانُ بنُ حبيبِ بنِ المهلبِ ، وهو والي (الأهوازِ) و(فارسَ) ، يستدعيه ، فكتبَ الخليلُ في جوابِهِ :

[مِن البسيطِ]

أَبْلَغُ سُلَيْمَانَ أَنِّي عَنْهُ فِي سَعَةٍ وَفِي غِنَى غَيْرَ أَنِّي لَسْتُ ذَا مَالٍ
شَحًّا بِنَفْسِي أَنِّي لَا أَرَى أَحَدًا يَمُوتُ هَزْلًا وَلَا يَبْقَى عَلَى حَالٍ
وَالرِّزْقُ عَن قَدَرٍ لَا الضَّعْفُ يُنْقِصُهُ وَلَا يَزِيدُكَ فِيهِ حَوْلٌ مُخْتَالٍ
وَالفَقْرُ فِي النَّفْسِ لَا فِي المَالِ تَعْرِفُهُ وَمِثْلُ ذَاكَ الغِنَى فِي النَّفْسِ لَا المَالِ

[خير الرزق ما كان مياومة]

[مِن الوافرِ]

وأغارَ البُحترِيُّ على بيتِ النابغةِ السَّابِقِ فقالَ :

إِذَا مَا كَانَ عِنْدِي قُوتٌ يَوْمٍ طَرَحْتُ الهَمَّ عَنِّي يَا سَعِيدُ
وَلَمْ تَخْطُرْ هُمُومٌ غَدٍ بِبَالِي لِأَنَّ غَدًا لَهُ رِزْقٌ جَدِيدُ

[مِن البسيطِ]

وقالَ آخَرُ :

مَنْ كَانَ لَمْ يُعْطَ عِلْمًا فِي بَقَاءِ غَدٍ مَاذَا تَفَكَّرُهُ فِي رِزْقِ بَعْدِ غَدٍ

[مِن البسيطِ]

وقالَ غَيْرُهُ :

لَأُضْبِرَنَّ عَلَى عُسْرِي وَمَيْسَرَتِي يَوْمًا يَيَّومُ كَمَا تَجِبِي العَصَافِيرُ^(١)

[الطمع هو الفقر والقناعة هي الغنى]

رصحَ أَنَّهُ عليه السَّلَامُ قالَ : « عَلَيْكَ بِالِإِيَّاسِ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ ، وَإِيَّاكَ وَالطَّمَعِ ؛ فَإِنَّهُ الفَقْرُ الحَاضِرُ ، وَصَلُّ صَلَاتِكَ وَأَنْتَ مُودَّعٌ ، وَإِيَّاكَ وَمَا تَعْتَدِرُ مِنْهُ »^(٢) .

[مِن الوافرِ]

وقالَ أبو العتاهيةِ [في ديوانه ١٤١] :

أَطَعْتُ مَطَامِعِي فَاسْتَعْبَدْتَنِي وَلَوْ أَنِّي قَنِعْتُ لَكُنْتُ حُرًّا

(١) لما أخرجته عن الخليفة الراشدي عمر رضي الله عنه ابنُ حبان في « صحيحه » (٧٣٠) بإسناد جيد وغيره ، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لو أنكم تؤكلون على الله حقَّ تؤكله ؛ لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً . خماصاً : جيعاً . وتروح بطاناً : ترجع شباعاً ممتلئة البطون .

(٢) أخرجه عن سعد ابن أبي وقاص الحاكم في « المستدرک » (٣٦٢ / ٤) ، وفي الباب :

عن جابر رضي الله عنه رواه بنحوه الطبراني في « الأوسط » (٣٧٠ / ٧) .

وقد سبق في غير هذا المجلس تعريضُ أبي فراسٍ بالنَّاطِمِ في قوله : [مِن البسيط]

لَيْسَ التَّعَلُّلُ بِالْأَمَالِ مِنْ أَرَبِي
وَلَا الْقَنَاعَةُ بِالْإِقْلَالِ مِنْ شِيَمِي

وقال المعريُّ [في «ديوانه» ١٢٣] : [مِن الوافر]

أَأَخْمَلُ وَالنَّبَاهَةُ فِي لَفْظُ
وَأَقْتَرُ وَالْقَنَاعَةُ لِي عَتَادُ

وقال [في «ديوانه» ٢٢٥] : [مِن الطويل]

وَإِنِّي لَمُثَرِّبَانِ أَحْرَ لَيْلَةٍ
وَإِنْ قَلَّ مَالٌ فَالْقُنُوعُ ثَرَاءُ^(١)

وقال [في «ديوانه» ١٩٠] : [مِن الطويل]

وَإِنَّ الْغِنَى وَالْفَقْرَ فِي مَذْهَبِ النَّهْيِ
فَمَا نِلْتُ مَالًا قَطُّ إِلَّا وَمَالَ بِي
لَسِيَّانِ بَلْ أَعْفَى مِنْ الثَّرْوَةِ الْعُذْمُ
وَلَا دِرْهَمًا إِلَّا وَدَرَّ بِي الْهَمُّ

وقال [في «ديوانه» ٢١١] : [مِن البسيط]

وَالْمَوْتُ أَحْسَنُ بِالنَّفْسِ الَّتِي أَلْفَتْ
عِزَّ الْقَنَاعَةِ مِنْ أَنْ تَسْأَلَ الْقُوتَا

وقال [في «ديوانه» ٢٥٢] : [مِن الوافر]

وَمَا يَنْفَكُ ذُو مَالٍ عَتِيدٍ
فَتَى جَعَلَ الْقُنُوعَ لَهُ عَتَادًا

وقال [في «ديوانه» ٢٦٩] : [مِن الطويل]

سَيْطَلْبِي رِزْقِي الَّذِي لَوْ طَلَبْتُهُ
لَمَا زَادَ وَالذُّنْيَا حُظُوظٌ وَإِقْبَالُ

وهو من قول عروة بن أذينة :

لَقَدْ عَلِمْتُ وَمَا الْإِسْرَافُ مِنْ خُلُقِي

وقال المعريُّ أيضاً :

وَهَلْ يَذْخَرُ الضَّرْعَامُ قُوتًا لِيَوْمِهِ
إِذَا ادَّخَرَ النَّمْلُ الطَّعَامَ لِعَامِهِ

وفي هذا يطول الكلام ، وقد وقَّيناهُ حقَّه من التَّفصيلِ في كتابنا « بلباب التَّعريفِ » .

[علم ابن ميادة أن عنده ناقة حلوباً فاستغنى عن الملوك]

وأزمع ابن ميادة الوفادة على المنصور ؛ ليمدحه بقصيدته التي يقول فيها [في «شعره» ١٠] :

قَوْمٌ إِذَا جَلِبَ الثَّنَاءُ إِلَيْهِمْ
يَبِيعُ الثَّنَاءَ هُنَاكَ بِالْأَزْبَاحِ

فَأَرَّاحَ عَلَيْهِ خَادِمُهُ بَلَبَنَ لَقَحَةٍ لَهُ^(٢) ، فشربَ حتَّى رُئِيَ الرَّيُّ يَخْرُجُ مِنْ أَظْفَارِهِ ، وصارت بطنه مثل القدح ، فقال :
أبوجدُ معنا هذا كلَّ يومٍ ؟ قال له : نعم ، فثنى عزمه ، وحلَّ رحله .

(١) ابنُ آخرٍ ليليةٌ : هو الذي حملت به أمه في آخر ليلةٍ من طهرها ، وفي اعتقاد العرب أن الولد الذي حمل به على هذا النحو ولدٌ ذميمٌ .

(٢) اللقحة : الناقة الحلوب الغزيرة اللبن .

يُلْحِي عَلَى الْبُخْلِ الشَّحِيحِ بِمَالِهِ
أَكْرِمَ يَدَيْكَ عَنِ السُّؤَالِ فَإِنَّمَا
وَلَقَدْ أَضْمُ إِلَيَّ فَضَلَ فَنَاعَتِي
وَأَرِي الْعَدُوَّ عَلَى الْخِصَاصَةِ حَالَةً
وَإِذَا امْرُؤٌ أَفْنَى اللَّيَالِي حَسْرَةً
أَفَلَا تَكُونُ بِمَاءِ وَجْهِكَ أَبْخَلَ؟
قَدَرُ الْحَيَاةِ أَقْلٌ مِنْ أَنْ تُسْأَلَ
وَأَيُّتُ مُشْتَمِلًا بِهَا مُتَزَمِّلاً
تَصِفُ الْغِنَى فَيَخَالِنِي مُتَمَوِّلاً
وَأَمَانِيًا . . أَفَنَيْتُهُنَّ تَوَكُّلاً

[الإخلاص في التوكل]

غير أن القول الجامع قوله صلى الله عليه وسلم : « لَوْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ . . لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرْجُوحُ بِطَانًا »^(١) ، فلم يُثنِ على القعود ولزوم البيوت ، وإنما أشار بالعمل ، ونهى عن الالتفات إليه ، وحث على الأسباب ، وأمر بالاعتماد على مسيئها .

[صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إن من الشعر لحكمة]

ويعجبني ما ذكر ابن الشبكي [في «طبقاته» ٢٣١/٤] عن الإصطخري : أن أبا إسحاق الشيرازي أنشده ، ولم يُسمِ قائلاً ، وهو :

صَبَرْتُ عَلَى بَعْضِ الْأَذَى خَوْفَ كُلِّهِ
وَجَرَّعْتُهَا الْمَكْرُوهَةَ حَتَّى تَدْرَبَتْ
فِيَا رَبِّ عِزُّ جَرِّ لِلنَّفْسِ ذِلَّةٌ
وَمَا الْعِزُّ إِلَّا خَيْفَةُ اللَّهِ وَحُدُّهُ
سَأَصْدُقُ نَفْسِي إِنْ فِي الصُّدْقِ حِكْمَةٌ
وَأَهْجُرُ أَبْوَابَ الْمُلُوكِ فَإِنِّي
إِذَا مَا مَدَدْتُ الْكَفَّ أَلْتَمِسُ الْغِنَى
إِذَا طَرَقْتَنِي النَّائِبَاتُ بِنَكْبَةٍ
وَمَا نَكْبَةٌ إِلَّا وَاللَّهُ مِنْنَةٌ
تَبَارَكَ رِزَاقُ الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا
فَكَمْ عَاقِلٍ لَا يَسْتَيْتُ وَجَاهِلٍ
وَكَمْ مِنْ جَلِيلٍ لَا يُرَامُ حِجَابُهُ
تَشُوبُ الْقَدَى بِالصَّفْوِ وَالصَّفْوُ بِالْقَدَى

وَأَلْزَمْتُ نَفْسِي صَبْرَهَا فَاسْتَقَرَّتْ
وَلَوْ حُمَلَتْهُ جُمْلَةً لَأَشْمَأَزَتْ
وَيَا رَبِّ نَفْسٍ بِالتَّذَلُّلِ عَزَّتْ
فَمَنْ خَافَ مِنْهُ خَافَهُ مَا أَقَلَّتْ
وَأَرْضَى بِدُنْيَايَ وَإِنْ هِيَ قَلَّتْ
أَرَى الْحِرْصَ جَلَابًا لِكُلِّ مَذَلَّةٍ
إِلَى غَيْرِ مَنْ قَالَ اسْأَلُونِي فَشَلَّتْ
تَذَكَّرْتُ مَا عُوفِيْتُ مِنْهُ فَقَلَّتْ
إِذَا قَابَلْتَهَا أَدْبَرْتُ وَأَضْمَحَلَّتْ
عَلَى مَا أَرَادَ لَا عَلَى مَا اسْتَحَقَّتْ
تَرَقَّتْ بِهِ أَخْوَالُهُ وَتَعَلَّتْ^(٢)
بِدَارِ غُرُورٍ أَدْبَرْتُ وَتَوَلَّتْ
وَلَوْ أَحْسَنْتُ فِي كُلِّ مَالٍ لُمَلَّتْ

* * *

(١) أخرجه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه الحاكم في «المستدرک» (٣٥٤/٤) ، وسلف في التعليق .

(٢) لا يستيئ : أي ليس له بيت ليلة ، والبيت : القوت .

وَلَا تَمُتْ تَحْتَ الشُّبُوفِ مُكْرَمًا تَمُتْ وَتُقَاسِي الدُّلَّ غَيْرَ مُكْرَمٍ

[حث المتنبي على الإقدام]

يحثُّ على الإقدام ؛ لطلبِ العزِّ ، ويقولُ : إِنَّ الموتَ لا بدَّ منه ، فإِذَا : تحتَ بارقةِ الشُّبُوفِ على الشَّرَفِ ، وإِذَا : حتفَ الأنفِ على الدُّلِّ والمهانةِ .

[الشعراء تشجع الجبان وتحث على الإقدام]

وما زالتِ الشُّعراءُ تشجِّعُ الجبانَ بمثلِ هذا ، وأحسنُ الخلقِ قولاً فيه الخوارجُ .

[مِنَ الوافرِ]

قالَ قَطْرِيٌّ بنُ الفجاءةِ [كما في « حياته وشعره » ٦٨] :

أَقُولُ لَهَا وَقَدْ طَارَتْ شَعَاعًا مِّنَ الأَبْطَالِ وَنَحَكِ لَا تُرَاعِي^(١)
فَإِنَّكَ لَو سَأَلْتِ بَقَاءَ يَوْمٍ عَلَى الأَجَلِ الَّذِي لَكَ لَمْ تُطَاعِي
فَصَبْرًا فِي مَجَالِ المَوْتِ صَبْرًا فَمَا نَيْلُ الخُلُودِ بِمُسْتَطَاعِ
سَبِيلُ المَوْتِ غَايَةٌ كُلِّ حَيٍّ وَدَاعِيِيهِ لِأَهْلِ الأَرْضِ دَاعِ
وَمَا لِلْمَرْءِ خَيْرٌ فِي حَيَاةٍ إِذَا مَا عُدَّ مِنْ سَقَطِ المَتَاعِ

[مِنَ الكاملِ]

وقالَ [في « ديوانه » ٦٩-٧٠] :

لَا يَزْكُنُن أَحَدٌ إِلى الإِجْحَامِ يَوْمَ الوَغَى مُتَخَوِّفًا لِجَمَامِ^(٢)
فَلَقَدْ أَرَانِي لِلرَّمَاكِ دَرِيَّةً مِّنْ عَن يَمِينِي مَرَّةً وَأَمَامِي^(٣)
حَتَّى خَضَبْتُ بِمَا تَحَدَّرَ مِنْ دَمِي سَرَجِي وَسَائِرَ شِكَّتِي وَلِجَامِي^(٤)
وَرَجَعْتُ مَوْفُورَ الكَرَامَةِ فَائِزًا جَذَعُ البَصِيرَةِ قَارِحَ الأَقْدَامِ^(٥)

[لي عندك بديا أمير المؤمنين]

وقدمَ أحدُ العربِ على معاويةَ في يومِ حِفْلِهِ ، فقالَ : لي عندكَ يَدُّيا أميرِ المؤمنينَ ، قالَ : وما هي ، قالَ : أَمَا تذكُرُ (بـ) صَفِينَ) يومَ انتفخَ سَحْرُكُ^(٦) ، واحولَّتْ عيناكُ ، ووضعتَ رجلَكَ في الرِّكَابِ ؛ لتفَرَّ ، وقد لاحَ الظَّفَرُ لِأهلِ (العراقِ) ، فأخذتُ بيدِكَ ، وقلتُ لك : إِنَّ العربَ أعطتكُ قيادَها ، وقلدتكُ أزمَتَها ، وأعطتكُ مِنْ أنفُسِها

(١) طَارَتْ شَعَاعًا : تفرَّقت وانتشرت من الخوفِ .

(٢) يَزْكُنُن : يميلُ . الإِجْحَامُ : النكوصُ والرجوعُ .

(٣) الدَّرِيَّةُ : العلامةُ التي توضعُ للرماةِ ؛ ليتدربوا على الرمايةِ ، وتسمى أيضاً : دريئةً .

(٤) شِكَّتِي : سلاحي . في الديوانِ : أَكْتَأَفَ سَرَجِي أَوْ عَنَانَ لِجَامِي .

(٥) الجَذَعُ : القرئِيُّ الفَتِيُّ . قَارِحُ الأَقْدَامِ : مجروحها .

(٦) انتفخَ سَحْرُكُ : تعبيرٌ استخدمته العربُ لمن ملاً الخوفَ جوفه .

شهرين ، فأعطها مِنْ نَفْسِكَ سَاعَةً ، ووالله لو كانتْ هِنْدُ بِنْتُ عَتَبَةَ مَكَانَكَ . . ما فَرَّتْ ، ولا خَتَارَتْ أَنْ تَمُوتَ كَرِيمَةً ،
فَقُلْتُ لِي : اخْفِضْ صَوْتَكَ لِأُمَّ لَكَ ، فتماسكتْ ، وتراجعتْ إِلَيْكَ نَفْسُكَ ، وتمثلتْ بِشَعْرِ أَحْفَظْ مِنْهُ : [مِنَ الْوَاغِرِ]
وَقَوْلِي كُلَّمَا جَآشَتْ وَجَآشَتْ مَكَانَكَ تُخَمِّدِي أَوْ تَسْتَرِيحِي^(١)
فَقَالَ مَعَاوِيَةُ : صدقتْ ، ولَوَدِدْتُ أَنَّكَ الْآنَ خَفَضْتَ مِنْ صَوْتِكَ ، يا غِلاَمُ ، أَعْطِيهِ خَمْسِينَ أَلْفَ دَرْهَمٍ ، ولو كُنْتَ
أَحْسَنْتَ الْأَدَبَ . . لَكُنَّا أَحْسَنًا فِي الزِّيَادَةِ . والروايةُ بِالْمَعْنَى ، وَاللَّفْظُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ^(٢) .

[ثلاثة من الفرسان جزعوا ثم صبروا]

وقالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ : جَزِعَ ثَلَاثَةٌ مِنْ فِرْسَانِ الْعَرَبِ ثُمَّ صَبَرُوا ، وَهُمْ :

عَمْرُو بْنُ مَعْدِيكَرِبَ فِي قَوْلِهِ : [مِنَ الطَّوِيلِ]

فَجَآشَتْ إِلَيَّ النَّفْسُ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَرُدَّتْ عَلَيَّ مَكْرُوهَهَا فَاسْتَقَرَّتْ

وَأَبْنُ الْأَطْنَابَةِ فِي قَوْلِهِ : [مِنَ الْوَاغِرِ]

وَقَوْلِي كُلَّمَا جَآشَتْ . . . [البيت السابق] .

وَعَتَّرْتُ فِي قَوْلِهِ [في «ديوانه» ٢٩] :

إِذْ يَتَّقُونَ بِي الْأَسِنَّةَ لَمْ أَحِمْ عَنْهَا وَلَكِنِّي تَضَايِقَ مُقَدِّمِي^(٣)

[وثلاثة لم يجزعوا أصلاً]

وَأَمَّا ثَلَاثَةٌ . . فَلَمْ يَجْزِعُوا أَصْلًا ، وَهُمْ :

فَيْسُ بْنُ الْخَطِيمِ فِي قَوْلِهِ [في «ديوانه» ١٠٠] :

وَإِنِّي فِي الْحَرْبِ الضَّرُوسِ مُوَكَّلٌ بِإِقْدَامِ نَفْسِي مَا أُرِيدُ بَقَاءَهَا

وَعَامِرُ بْنُ الطَّفِيلِ فِي قَوْلِهِ [في «حياته وشعره» ٩٩] :

أَقُولُ لِنَفْسِي مَا أُرِيدُ بَقَاءَهَا أَقْلِي اخْتِرَاسًا إِنِّي غَيْرُ مُذْبِرٍ

(١) جَآشَتْ نَفْسُهُ : ارتفعتْ من حزنٍ أو فزعٍ . جَآشَتْ نَفْسُهُ : هَمَّتْ بِالْفِرَارِ .

(٢) وساق القصة في «المزهر» (٢/٢٦٦) ، و«المستظرف» (١/١٣٩) من كتب الأدب على النحو التالي :

قالَ ثعلبٌ في «أماليه» : أَخْبَرَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَيْبَةَ قَالَ : حَدَّثَنِي ثَابِتُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ : كَتَبَ مَعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ إِلَى زِيَادٍ : إِذَا جَاءَكَ كِتَابِي . . فَأَوْفِدْ إِلَيَّ ابْنَكَ عبيدَ اللَّهِ ، فَأَوْفِدْهُ عَلَيَّ ، فَمَا سَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَفْذَهُ لَهُ ، حَتَّى سَأَلَهُ عَنِ الشَّعْرِ فَلَمْ يَعْرِفْ مِنْهُ شَيْئًا ، قَالَ : فَمَا مَنَعَكَ مِنْ رِوَايَتِهِ ؟ قَالَ : كَرِهْتُ أَنْ أَجْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ وَكَلَامَ الشَّيْطَانِ فِي صَدْرِي ، فَكَتَبْتُ إِلَى أَبِيهِ : بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي ابْنِكَ ، فَأَرَوِهِ الشَّعْرَ فَقَدْ وَجَدْتُهُ كَامِلًا ، وَإِنِّي سَمِعْتُ عَمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ : ارْوُوا الشَّعْرَ ؛ فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى مَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ ، وَيَقِي مَسَاوِيَهَا ، وَتَعَلَّمُوا الْأَنْسَابَ ، فَرَبُّ رَحِمٍ مَجْهُولَةٍ قَدْ وَصَفَتْ بِعَرِيَانِ النَّسَبِ ، وَتَعَلَّمُوا مِنَ النُّجُومِ مَا يَدُلُّكُمْ عَلَى سُبُلِكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ .

ولقد هممتُ بالهَرَبِ يَوْمَ صَفَيْنَ فَمَا ثَبَّتَنِي إِلَّا قَوْلُ ابْنِ الْأَطْنَابَةِ :

وَقَوْلِي كُلَّمَا جَآشَتْ وَجَآشَتْ مَكَانَكَ تُخَمِّدِي أَوْ تَسْتَرِيحِي

(٣) الْغَيْمُ : الْجَبِينُ .

والعبّاسُ بنُ مرداسٍ في قوله :

[مِنَ الوافرِ]

أَشَدُّ عَلَى الْكَتِيْبَةِ لَا أَبَالِي أَخْتَفِي كَانَ فِيهَا أَمٌ سِوَاهَا

[الرجال لا تفر من القتال]

[مِنَ الطَّويلِ]

ومما يروى للأعورِ السلميِّ ، قاله في (صفين) :

إِذَا مَا فَرَرْنَا كَانَ شَرُّ فِرَارِنَا صُدُودَ خُدُودٍ وَالتَّوَاءَ مَنَاقِبِ
نُشِيحٌ قَلِيلاً وَالقَنَا مُشَاجِرٌ وَلَا تَبْرَحُ الأَقْدَامُ عِنْدَ التَّضَارِبِ

[مِنَ الطَّويلِ]

وقد سبق في غير هذا المجلس قولُ أبي تمامٍ [في «ديوانه» ٢/٣٠٣] :

وَقَدْ كَانَ فَوْتُ المَوْتِ سَهْلاً فَرَدَّهُ إِلَيْهِ الحِفَاطُ المُرُّ وَالخُلُقُ الوَعْرُ^(١)

[مِنَ الطَّويلِ]

وهو مِن قولِ الأعرابيِّ :

أَبُوا أَنْ يَفِرُّوا وَالقَنَا فِي نُحُورِهِمْ وَلَمْ يَبْتَغُوا مِنْ حَشِيَةِ المَوْتِ سَلَمًا
وَلَوْ أَنَّهُمْ فَرُّوا لَكَانُوا أَعَزَّةً وَلَكِنْ رَأَوْا صَبْرًا عَلَى المَوْتِ أَكْرَمًا

[مكتوب على ذي الفقار]

[مِنَ البسيطِ]

ويروى بضعفٍ : أَنَّهُ كَانَ مَكْتُوبٌ عَلَى ذِي الفِقَارِ^(٢) هَذَا البَيْتُ :

فِي الجُبْنِ عَارٌ وَفِي الإِقْدَامِ مَكْرَمَةٌ وَالْمَرْءُ بِالجُبْنِ لَا يَنْجُو مِنَ القَدْرِ

[قصة الحصين بن الحمام وبني جوشن]

[مِنَ الطَّويلِ]

وقال الحصينُ بنُ الحمام :

تَأَخَّرْتُ أَسْتَبْقِي الحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْ لِنَفْسِي حَيَاةً مِثْلَ أَنْ أَتَقَدَّمَ

وسببهُ : أَنَّ بني جوشن - مِنْ غطفان - قتلَتْ جَاراً لبني سهم ، رهطِ الحصينِ وعقيلِ بنِ علقمة ، وكان عقيلٌ غائباً ، فبعثَ بأبياتٍ يحرضُ أمائل^(٣) بني سهم على غسلِ العارِ بالدم ، فقالَ الحصينُ : إِيَايَ عَنَى ، وبِي نَوْهٌ ، وامتنقِ الحُسامَ ، وأبلى أحسنَ البلاءِ ، وقالَ البيتَ السَّابِقَ ، مِنْ قصيدةٍ سبقَ بعضُ أبياتِها في خلالِ المجالسِ ، ومنها [في

[مِنَ الطَّويلِ]

« شرح الحماسة » ١/٣١٦-٣٤٠-٣٤١] :

فَلَسْنَا عَلَى الأَعْقَابِ تَدْمَى كُلُّومُنَا وَلَكِنْ عَلَى أَعْقَابِنَا تَقَطَّرُ الدَّمَا
نُفَلِّقُ هَاماً مِنْ كِرَامِ أَعَزَّةٍ عَلَيْنَا وَهُمْ كَانُوا أَعَقَّ وَأَظْلَمَا
وَلَمَّا رَأَيْنَا الصَّبْرَ قَدْ حِيلَ دُونَهُ وَقَدْ كَانَ يَوْماً ذَا كَوَاكِبِ مُظْلِمَا
صَبْرُنَا وَكَانَ الصَّبْرُ مِنَّا سَجِيَّةً بِأَسْيَافِنَا يَقْطَعْنَ كَفًّا وَمِعْصَمَا

(١) الحِفَاطُ المُرُّ : الذَّبُّ الشَّدِيدُ عَنِ المَحَارِمِ . الخُلُقُ الوَعْرُ : الشَّدَّةُ عِنْدَ المِنَازَعَةِ .

(٢) ذُو الفِقَارِ : اسمُ سَيْفٍ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَسُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ لظَهْرِهِ مِثْلَ فِقَارِ الظَّهْرِ .

(٣) الأَمَائِلُ : الأَخْيَارُ .

وَلَمَّا رَأَيْتُ الْوُدَّ لَيْسَ بِنَافِعِي عَمَدْتُ إِلَى الْأَمْرِ الَّذِي كَانَ أَحْزَمًا
فَلَسْتُ بِمُبْتَاعِ الْحَيَاةِ بِسَبِّهِ وَلَا مُرْتَقِي مِنْ خَشْيَةِ الْمَوْتِ سَلَمًا

[الموت آت على كل حال]

وقيل للمهلب بن أبي صفرة: إِنَّكَ لَتُلْقِي نَفْسَكَ فِي الْمَهَالِكِ ، فقال: إِنْ لَمْ آتِ الْمَوْتَ مُسْتَرَسَلًا . . . أَنَا نِي مُسْتَعَجَلًا ، إِنِّي لَسْتُ آتِي الْمَوْتَ مِنْ حُبِّهِ ، وَلَكِنِّي آتِيهِ مِنْ بُغْضِهِ ، ثُمَّ تَمَثَّلَ بِقَوْلِ الْحَصِينِ :
تَأَخَّرْتُ أَسْتَبْقِي الْحَيَاةَ . . . الْبَيْتِ

[المدح بالقتل]

وما زالت العربُ تَمَادِحُ بِالْقَتْلِ ، وَتَهَاجَى بِالْمَوْتِ عَلَى الْفَرَاشِ ، فَتَقُولُ : فُلَانٌ مَاتَ عَبْطَةً^(١) ، وَمَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ .

[لا يموت السيد في فراشه]

وقال السَّمَوِيُّ [في «ديوانه» ٤٦٠-٤٧]:

[من الطويل]

وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ فِي فِرَاشِهِ وَلَا طُلَّ مِنَّا حَيْثُ كَانَ قَتِيلٌ^(٢)
تَسِيلٌ عَلَى حَدِّ الطُّبَاتِ نَفُوسُنَا وَلَيْسَتْ عَلَى غَيْرِ الطُّبَاتِ تَسِيلٌ^(٣)

وقد أَيْفَ عَامِرُ بْنُ الطَّفِيلِ أَنْ يَمُوتَ عَلَى فِرَاشِهِ ، فَرَكِبَ ظَهَرَ دَابَّتِهِ .

وَتَوَجَّعَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ مِنْ مَوْتِهِ عَلَى الْفَرَاشِ ، وَمَا مِنْ مَوْضِعٍ أَرْبَعَةَ أَصَابِعٍ مِنْ بَدَنِهِ إِلَّا فِيهِ طَعْنَةٌ بِرِمْحٍ ، أَوْ ضَرْبَةٌ بِسِيفٍ ، وَقَالَ : وَيْلٌ لِلْجِنَاءِ!

[نعي المصعب بن الزبير إلى أخيه عبد الله]

وَذَكَرَ الْأَصْفَهَانِيُّ [كما في «الأغاني» ١٩٠/١٤٠]: أَنَّهُ لَمَّا جَاءَ نَعْيُ الْمُصْعَبِ بْنِ الزُّبَيْرِ إِلَى (مَكَّةَ) . . . أَضْرَبَ عَبْدُ اللَّهِ أَيَّامًا عَنِ الْكَلَامِ ، حَتَّى تُحَدِّثَ بِهِ فِي الطَّرْقَاتِ ، فَصَعَدَ الْمَنْبَرِ ، وَجَلَسَ مَلِيًّا لَا يَتَكَلَّمُ ، وَالْكَأْبَةُ عَلَيْهِ بَادِيَةٌ ، وَالْعِرْقُ بِتَرَشُّحٍ مِنْ جَبِينِهِ ، فَقَالَ وَاحِدٌ لآخرَ : مَا لَهُ لَا يَتَكَلَّمُ ، وَهُوَ وَاللَّهِ الْخَطِيبُ الْمِضْقَعُ^(٤) .

قَالَ الْآخَرُ : أَرَاهُ يَرِيدُ أَنْ يَذَكَرَ سَيِّدَ الْعَرَبِ الْمُصْعَبَ ، فَهُوَ يَتَصَعَّدُ بِهِ^(٥) ، حَتَّى قَالَ :

أَلْحَمْدُ لِلَّهِ ، الَّذِي لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، مَلِكِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، يُعَزُّ مَنْ يَشَاءُ ، وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ ، أَلَا وَإِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ كَانَ الْحَقُّ مَعَهُ وَإِنْ كَانَ ضَعِيفًا مَفْرَدًا ، وَلَا يَعَزُّ مَنْ كَانَ عَلَى الْبَاطِلِ وَإِنْ اسْتَظْهَرَ عُدَّةً وَعَدَدًا ، أَلَا وَإِنَّهُ أَتَانَا خَبِيرٌ مِنْ (العراقِ) فِسَاءَنَا وَسَرَّنَا . أَتَانَا أَنْ مُصْعَبًا قُتِلَ ، فَأَمَّا الَّذِي أَحْزَنَنَا . . . فَإِنَّ لِفِرَاقِ الْحَمِيمِ لِدَعَةً وَلَوْعَةً ، يَجِدُهَا حَمِيمُهُ عِنْدَ الْمَصِيبَةِ ، ثُمَّ يَرَعُوهُ أَوْلُو الرِّأْيِ إِلَى الصَّبْرِ ، وَأَمَّا الَّذِي سَرَّنَا مِنْهُ . . . فَإِنَّ قَتْلَهُ كَانَ لَهُ شَهَادَةٌ ، وَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ لَنَا وَلَهُ فِي ذَلِكَ الْخَيْرَةَ ، أَلَا وَإِنَّ أَهْلَ (العراقِ) أَهْلُ الْغَدْرِ وَالشَّقَاقِ ، بَاعَوْهُ بِأَقْلِّ الْأَثْمَانِ وَأَخْسَرِهَا ، وَأَسْلَمُوهُ إِسْلَامَ

(١) الْعَبْطَةُ: الصَّحِيحُ الشَّابُّ .

(٢) الْمَعْنَى: لَمْ يَمُتْ مَنَّا سَيِّدٌ دُونَ أَنْ يَأْخُذَ بِثَأْرِهِ . وَطُلَّ دَمٌ فُلَانٍ: هَدَرَ وَلَمْ يُبْأَرْ لَهُ .

(٣) الطُّبَاتُ- جَمْعُ طَبٍّ- : وَهِيَ الشُّيُوفُ .

(٤) الْمِضْقَعُ: الْبَلِغُ .

(٥) يَتَصَعَّدُ بِهِ- أَي ذَكَرَ مُصْعَبَ- : يَتَعَبُّ تَعَبًا شَدِيدًا .

النَّعَمِ الْمُخْطَمَةِ^(١) ، حَتَّى قُتِلَ ، وَلِئِنْ قُتِلَ . . . فَقَدْ قُتِلَ أَبُوهُ وَعَمُّهُ وَأَخُوهُ ، وَكَانُوا الْخِيَارَ الصَّالِحِينَ ، وَإِنَّا وَاللَّهِ مَا نَمُوتُ حَتْفَ أَنَا فِنَا ، وَلَكِنْ قَعَصًا^(٢) بِالرَّمَا حِ ، وَضَرْبًا بِالسُّيُوفِ ، لَا كَمَا تَمُوتُ بَنُو مِرْوَانَ ، وَاللَّهِ مَا قُتِلَ مِنْهُمْ رَجُلٌ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ ، وَإِنَّمَا الدُّنْيَا عَارِيَةٌ مِنَ الْمَلِكِ الْجَبَّارِ الَّذِي لَا يَزُولُ سُلْطَانُهُ ، وَلَا يَبِيدُ مَلِكُهُ ، فَإِنْ تَقَبَّلَ الدُّنْيَا عَلَيَّ . . . لَا أَخْذَهَا أَخْذَ اللَّثِيمِ الْبَطْرِ ، وَإِنْ تَدْبِرْ عَنِّي . . . لَا أَبْكِي عَلَيْهَا بِكَاءِ الْخَرَفِ الْمَهْتَرِ^(٣) ، ثُمَّ نَزَلَ .

[آل الزبير أعرق الناس في القتل]

وَقَدْ قَالَ ابْنُ دَرِيدٍ : أَعْرَقَ النَّاسَ فِي الْقَتْلِ آلَ الزُّبَيْرِ ، فَقَدْ قُتِلَ عِمَارَةُ بْنُ حَمزَةَ وَأَبُوهُ بِ(قُدَيْدٍ) ، وَقُتِلَ عَبْدُ اللَّهِ بِ(مَكَّةَ) ، وَقُتِلَ مَصْعَبُ وَابْنُهُ بِ(العراقِ) ، وَقُتِلَ الزُّبَيْرُ بِ(وادي السَّبَاعِ) ، وَقُتِلَ الْعَوَّامُ فِي يَوْمِ الْفِجَارِ ، وَقُتِلَ خُوَيْلِدُ بْنُ أَسَدٍ فِي حَرْبِ خَزَاعَةَ ، عَدَا مَنْ قُتِلَ مِنْ أَبْنَائِهِمْ وَأَحْفَادِهِمْ ، وَكَانَ قُتِلَ عَمْرُو بْنُ الزُّبَيْرِ عَلَيَّ يَدِ أَخِيهِ عَبْدِ اللَّهِ ، كَانُوا يَضْرِبُونَهُ ، وَالْقَيْحُ يَنْضَحُ مِنْ ظَهْرِهِ وَأَكْتَفَاهِ ، ثُمَّ أَرْسَلُوا عَلَيْهِ الْجُعْلَانَ^(٤) ، فَأَكَلَ مِنْهُ ، وَهُوَ مَقِيدٌ مَغْلُولٌ ، يَسْتَعِيثُ فَلَا يَغَاثُ ، حَتَّى مَاتَ عَلَيٌّ تِلْكَ الْحَالَةَ .

فَبِحَقِّ مَا يَقُولُ عَبْدُ اللَّهِ ، وَمَا يَقُولُ فِيهِمُ الشَّاعِرُ ، وَنَضُّهُ :

وَأَلَّ الزُّبَيْرِ بُو حُرَّةَ
يُمُوتُونَ وَالْقَتْلُ دَاءٌ لَهُمْ
إِذَا فَرَجَ الْقَتْلُ مِنْ عَيْصِهِمْ
مَرَوْا بِالسُّيُوفِ صُدُوراً حِنَاقًا^(٥)
يُغِيثُونَ يَوْمَ السَّبَاقِ السَّبَاقَا
أَبَى ذَلِكَ الْعَيْصُ إِلَّا اتَّفَاقًا^(٦)

فَمَا كَانَ أَحَقَّهُمْ بِقَوْلِ السَّمُوعِ [في «ديوانه» ٤٦] :

يُقَرَّبُ حُبُّ الْمَوْتِ آجَالَنَا لَنَا
وَتَكَرَّهُهُ آجَالُهُمْ فَتَطْوُلُ

وَاللَّهِ دُرُّ أَبِي تَمَّامٍ فِي قَوْلِهِ [كما في «ديوانه» ٣٠٧/٢] :

فِيمَ الشَّمَاتَةِ إِعْلَانًا بِأَسَدٍ وَعَيٍّ
أَفْنَاهُمُ الصَّبْرُ إِذْ أَبَقَاكُمْ الْجَزَعُ

[قول ماوية لزيد الخيل عندما أراد خطبتها]

وَلَمَّا انْتَدَبَ لِخِطْبَةِ مَاوِيَةَ ، حَاتِمٌ ، وَأَوْسُ بْنُ حَارِثَةَ بْنِ لَامٍ ، وَزَيْدُ الْخَيْلِ . . . قَالَتْ لَزَيْدٍ : أَمَّا أَنْتَ يَا زَيْدُ ، فَقَدْ وَتَرْتَ الْعَرَبَ بِأَسْرِهَا ، وَبِقَاوِكَ مَعَ الْحُرَّةِ قَلِيلٌ^(٧) ، فَيَا بَرْدَ ذَلِكَ الْكَلَامِ عَلَيَّ قَلْبِهِ ، وَمَا أَرْفَعَهُ لِرَأْسِهِ ، وَأَشْمَحَهُ لِأَنْفِهِ ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ رُدُّهُ ، وَفِي الْقِصَّةِ طَوْلٌ ، وَلَوْلَا خَشْيَةُ الْإِمْلَالِ . . . كُنْتُ أَمَلَلْتُهَا بِحِذَائِهَا ؛ فَإِنَّهَا مِنْ طَرَائِفِ الْأَخْبَارِ ، وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي «أَمَالِي الزُّجَاجِيِّ» [ص/ ١٠٦-١٠٩] .

(١) الْمُخْطَمَةُ : الَّتِي وَضِعَ فِي أَنْفِهَا الزَّمَامُ أَوْ الْمُلْجَمَةُ .

(٢) قَعَصًا : طَعْنًا ، وَوَرَدَتْ فِي الْمَخْطُوطِ : قَعَصًا ، وَهُوَ تَصْحِيفٌ .

(٣) الْمَهْتَرُ : الْمَخْطِيُّ فِي كَلَامِهِ .

(٤) الْجُعْلَلُ : دَابَّةٌ سُودَاءُ مِنْ دَوَابِّ الْأَرْضِ .

(٥) مَرَوْا بِالسُّيُوفِ : زِينُوا .

(٦) عَيْصُ الرَّجُلِ : مَنِبْتُ أَصْلِهِ ، وَالْمَعْنَى : كَلَّمَا حَاوَلَ الْقَتْلَ تَشْتَيْتَ شَمْلَهُمْ . . . التَّمَاوَا .

(٧) وَتَمَامُ قَوْلِهَا : وَأَمَّا أَنْتَ يَا أَوْسُ فَرَجَلٌ ذُو ضِرَائِرٍ ، وَالصَّبْرُ عَلَيْهِمْ شَدِيدٌ ، وَأَمَّا أَنْتَ يَا حَاتِمَ فَمَرْضِي الْخِلَاقِ ، مُحَمَّدُ الشَّيْمِ ، كَرِيمُ النَّفْسِ وَقَدْ زَوَّجَكَ نَفْسِي .

وقال الطرمح [في ديوانه ٣٣٣-٣٣٥] :

[من الطويل]

وَإِنِّي لَقَيْتَادٌ جَوَادِي فَكَادِفٌ
لَأَكْسِبَ مَالاً أَوْ أُؤُوبَ إِلَى غِنَى
فَيَا رَبِّ إِنِّ حَانَتْ وَفَاتِي فَلَا تَكُنْ
وَلَكِنَّ قَبْرِي بَطْنٌ دَوْ مَقِيلُهُ
وَأُمْسِي شَهِيداً ثَاوِيّاً فِي عَصَابَةِ
فَوَارِسُ أَشْتَاتٍ يُؤَلَّفُ بَيْنَهُمْ
بِهِ وَبِنَفْسِي الْيَوْمَ إِحْدَى الْمَتَالِفِ
مَنْ اللَّهُ يَكْفِينِي امْتِنَانَ الْخَلَائِفِ
عَلَى شَرْجَعٍ يُكْسَى بِخُضْرِ الْمَطَارِفِ^(١)
بَجَوْ سَمَاءٍ فِي نُسُورِ عَوَائِفِ^(٢)
يُصَابُونَ فِي فَجٍّ مِنَ الْأَرْضِ خَائِفِ^(٣)
هُدَى اللَّهِ نَزَالُونَ عِنْدَ الْمَوَاقِفِ

[لم يتحقق حلمه ومات على عكس ما أراد]

قال ابن شبرمة : بينا أنا في بعض شوارع (الكوفة) . . إذا جنازة عليها مطرف خز أخضر ، فسألت عن صاحبها ، فقيل : الطرمح ، فعلمت أن الله تعالى لم يستجب له .

[الشعراء والشجاعة]

وقالت أم معدان الأعرابية عن بيها :

[من البسيط]

كَانَتْ لَهُمْ هَمٌّ فَرَّقَنَ بَيْنَهُمْ
فَعَلُ الْجَمِيلِ وَتَفْرِيجُ الْجَلِيلِ وَإِسْدَاءُ الْجَزِيلِ الَّذِي لَمْ يُسَدِّهِ أَحَدٌ
إِذَا الْقَعَادِيدُ عَنَ أُمَّثَالِهَا قَعَدُوا^(٤)

[من الطويل]

وقال عترة [في ديوانه ١١٤] :

فَيَا رَبِّ لَا تَجْعَلْ حَيَاتِي دَنِيَّةً
وَلَكِنَّ صَرِيحاً بَيْنَ أَرْمَاحِ فِتْيَةٍ
وَلَا مِيتِي يَا رَبِّ بَيْنَ النَّوَاحِ
طَوَالِ الْقَنَا مِنْ فَوْقِ أَجْرَدِ سَابِحِ

وقد سبق قول أبي تمام في غير هذا المجلس (فتى مات بين الضرب والطعن . . .) إلى آخر الأبيات .

[من البسيط]

وقال [في ديوانه ٢٤٤] :

قَلُّوا وَلَكِنَّهُمْ طَابُوا فَأَنْجَدَهُمْ
إِذَا رَأَوْا لِلْمَنَائِيَا عَارِضاً لَبَسُوا
نَاوَأَ عَنِ الْمُصْرِيخِ الْأَذْنَى فَلَيْسَ لَهُمْ
جَيْشٌ مِنَ الصَّبْرِ لَا يُحْصَى لَهُ عَدَدٌ
مِنَ الْيَقِينِ دُرُوعاً مَا لَهَا زَرْدٌ^(٥)
إِلَّا السُّيُوفُ عَلَى أَعْدَائِهِمْ مَدَدٌ^(٦)

(١) الشَّرْجَعُ : السريز يحمل عليه الميت ، وهو النعش . المطارف - جمع مطرف - : وهو ثوب مربع من خز .

(٢) الدُّؤُ : الفلاة الواسعة . النُسُورُ العوائف : التي تدور حول الشيء تريد الوقوع عليه .

(٣) طريق خائف : أي مخيف يخيف الناس .

(٤) القَعَادِيدُ مِنَ الرِّجَالِ : الجبناء القاعدون عن الحرب والمكارم .

(٥) العارض : ما اعترض في الأفق فسدّه . الزرد : حلق المغفر والدرع .

(٦) المصريح : المغيث .

أَبَا غَانِمِ أَرْدَى بَيْنَكَ اغْتِقَادُهُمْ
مَضَوْا يَسْتَلِدُونَ الْمَنَايَا حَفِظَةً
وَمَا طَعَنُوا إِلَّا بِرُمَحٍ مُوَصَّلٍ
دَعَتْهُمْ أَفَانِينُ الرَّدَى فَتَابَعُوا
سَلَامٌ عَلَيَّ تِلْكَ الْخَلَائِقِ إِنَّهَا
مَسَاعٍ عِظَامٌ لَيْسَ يَبْلَى جَدِيدُهَا
أَحَبُّ بَنُوكِ الْمَكْرَمَاتِ فَفَرَّقَتْ
تَدَانَتْ مَنَايَاهُمْ بِهِمْ وَتَبَاعَدَتْ
فَكُلٌّ لَهُ قَبْرٌ غَرِيبٌ بِيَلْدَةٍ
قُبُورٌ بِأَطْرَافِ الْبِلَادِ كَأَنَّمَا

بَانَ الرَّدَى فِي الْحَرْبِ أَكْبَرُ مَغْنَمٍ
وَحَفِظًا لِذَلِكَ الشُّؤْدُودِ الْمُتَقَدِّمِ
وَلَا ضَرْبُوا إِلَّا بِسَيْفٍ مُثَلَّمِ
تَتَابَعُ مُبْتَتِ الْفَرِيدِ الْمُنْظَمِ^(١)
مُنْزَهَةٌ مِنْ كُلِّ عَارٍ وَمَأْنَمٍ
وَإِنْ بَلَيْتَ مِنْهَا رَمَائِمُ أَعْظَمِ
جَمَاعَتَهُمْ فِي كُلِّ دَهْيَاءٍ صَيْلَمِ^(٢)
مَضَاجِعُهُمْ عَنْ تَرْبِكَ الْمُتَسَّمِ
فَمِنْ مُنْجِدِ نَائِي الضَّرِيحِ وَمُتَمِّمِ
مَوَاقِعُهَا مِنْهَا مَوَاقِعُ أَنْجَمِ

وقال بعض شعراء الحماسة [في شرح الحماسة ١٢/ ١١٣-١١٥] :

سَأَغْسِلُ عَنِّي الْعَارَ بِالسَّيْفِ جَالِبًا
وَأَذْهَلُ عَنْ دَارِي وَأَجْعَلُ هَذْمَهَا
وَيَضْغُرُ فِي عَيْنِي تِلَادِي إِذَا انْتَنَتْ
فَلِنْ تَهْدِمُوا بِالْغَدْرِ دَارِي فَإِنَّهَا
أَخِي عَزَمَاتٍ لَا يُطِيعُ عَلَيَّ الَّذِي
إِذَا هَمَّ أَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزْمَهُ
إِذَا هَمَّ لَمْ تُرْدَعْ عَزِيمَةُ هَمِّهِ
وَلَمْ يَسْتَشِرْ فِي شَأْنِهِ غَيْرَ نَفْسِهِ

عَلَيَّ قَضَاءُ اللَّهِ مَا كَانَ جَالِبًا
عَرْضِي مِنْ بَاقِي الْمَذَلَّةِ حَاجِبًا
يَمِينِي بِإِذْرَاكِ الَّذِي كُنْتُ طَالِبًا^(٣)
تُرَاثُ كَرِيمٍ لَا يُبَالِي الْعَوَاقِبَا
يَهُمُّ بِهِ مِنْ هَائِلِ الْأَمْرِ عَاتِبَا
وَنَكَّبَ عَنْ ذِكْرِ الْعَوَاقِبِ جَانِبَا
وَلَمْ يَأْتِ مَا يَأْتِي مِنَ الْأَمْرِ هَائِبَا
وَلَمْ يَرْضَ إِلَّا قَائِمَ السَّيْفِ صَاحِبَا

وقال ابن هانئ الأندلسي [في ديوانه ١٤٤] :

وَلَمْ أَجِدِ الْإِنْسَانَ إِلَّا ابْنَ سَعِيهِ
وَبِالْهَمَّةِ الْعَلِيَاءِ تَرْقَى إِلَى الْعُلَا
وَلَمْ يَتَأَخَّرْ مَنْ أَرَادَ تَقَدُّمًا

فَمَنْ كَانَ أَسْعَى كَانَ بِالْمَجْدِ أَجْدَرَا
فَمَنْ كَانَ أَعْلَى هَمَّةً كَانَ أَظْهَرَا
وَلَمْ يَتَقَدِّمْ مَنْ أَرَادَ تَأَخَّرَا

وقال أبو نصر بن نباتة :

وَمَنْ لَمْ يَمُتْ بِالسَّيْفِ مَاتَ بِغَيْرِهِ
تَعَدَّدَتِ الْأَسْبَابُ وَالْمَوْتُ وَاحِدٌ

(١) الفريدُ : اللؤلؤ المنظوم . المنبتُ : الذي انقطع . والمعنى : أنهم يتابعون كما هو حال العقيد إذا انقطع ، وهو كناية عن شدة سرعتهم إلى ما رموا إليه .
(٢) الدهيَاءُ : ما يصيب الإنسان من نوائب الدهر . الصيْلَمُ : الأمر الشديد .
(٣) التلادُ : المال القديم الموروث .

وقال أبو فراس [في «ديوانه» ٢٩٢] :

مَتَى مَا يَذُنُ مِنْ أَجَلِي كِتَابِي أَمْتُ بَيْنَ الْأَسِنَّةِ وَالْأَعِنَّةِ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقال الموسوي :

وَيَسْتَقْبِحُونَ الْمَوْتَ وَالْمَوْتُ رَاحَةٌ وَأَتَعَبُ مَيِّتٍ مَنْ يَمُوتُ بِدَاءِ

[مِنَ الْخَفِيفِ]

وقال بكر بن عبد العزيز :

إِنَّ مَوْتَ الْفِرَاشِ ذُلٌّ وَعَارٌ وَهُوَ تَحْتَ الشُّيُوفِ فَضْلٌ شَرِيفٌ

[الشهداء أحياء]

وهنا ذكرت قوله جل ذكره : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩] .

[أمنية الشهيد]

وقوله صلى الله عليه وسلم : « لَوَدِدْتُ أَنِّي أَقْتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، ثُمَّ أَحْيَا ، ثُمَّ أَقْتُلُ ، ثُمَّ أَحْيَا ، ثُمَّ أَقْتُلُ » (١) .

[شجاعة الإمام]

وقول ابن أبي طالب - كرم الله وجهه [في «نهج البلاغة» ١٤٢] - : (والله لآلفُ ضربةً بالسيفِ أهونُ عليَّ من ميتةِ علي الفراسِ) .

[تقديم النبي صلى الله عليه وسلم آل بيته في القتال عند إحجام الشجعان]

وقوله - رضوان الله عليه - [في «نهج البلاغة» ٣١٤] : (وكان صلى الله عليه وسلم إذا اشتدَّ البأسُ ، وأحجمَ الناسُ . . . قَدَّمَ أَهْلَ بَيْتِهِ ، فَوَقَى بِهِمْ أَصْحَابَهُ حَرَّ الْأَسِنَّةِ وَالشُّيُوفِ ، فَقُتِلَ عُبَيْدَةُ [بنُ الحارثِ] يَوْمَ بَدْرٍ ، وَقُتِلَ حَمْرَةُ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَقُتِلَ جَعْفَرُ يَوْمَ مُوتَةَ ، وَأَرَادَ مَنْ لَوْ شِئْتُ . . . ذَكَرْتُ اسْمَهُ مِثْلَ الَّذِي أَرَادُوا مِنَ الشَّهَادَةِ ، غَيْرَ أَنَّ مَنَائِمَهُمْ عَجَّلَتْ ، وَمَيْتَهُ أُجِّلَتْ) .

والمراد بالناس في قوله عليه السلام : (وَأَحْجَمَ النَّاسُ) هم مراجيحُ الأبطالِ ، ولهاميمُ الرِّجالِ ، فأهلُ البيتِ حينئذٍ كما قال أبو تمام :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

فَتَى كُلَّمَا ارْتَادَ الشُّجَاعُ مِنَ الرَّدَى مَفْرَأً غَدَاةَ الْمَازِقِ ارْتَادَ مَضْرَعَا

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وفيهم أقول [كما في «ديوان المؤلف» ٨٨] :

مَسَاعِيرُ لَا يَقْضُونَ حَتْفَ أَنْوْفِهِمْ وَلَكِنْ كِرَاماً فِي مَجَالِ الْوَعَى جُرْزَا

[بكاء زين العابدين]

ويروى : أَنَّ زَيْنَ الْعَابِدِينَ السَّجَّادَ كَانَ لَا تَرَفًا لَهُ دَمْعَةً (٢) ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ : كَيْفَ ؟ وَقَدْ رَأَيْتُ ثَمَانِيَةَ عَشْرَ مِنْ آبَائِي وَإِخْوَانِي يُنْحَرُونَ كَمَا تُنْحَرُ الْإِبِلُ فِي غَدَاةٍ وَاحِدَةٍ ، وَهُوَ هَاضِمٌ لِنَفْسِهِ فِي مَقَالَتِهِ ، وَإِلَّا . . . فالمعروفُ مِنْ

(١) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه البخاري (٣٦) في الإيمان ، ومسلم (١٨٧٦) في الإمارة .

(٢) لا ترفاً : لا تهدأ .

حالِهِ فِي كَثْرَةِ بَكَائِهِ الْخَشِيئَةَ مِنَ الْبَارِي عَزَّ وَجَلَّ ؛ وَلِهَذَا كَانَ يَصْفَرُّ كُلَّمَا دَخَلَ فِي الصَّلَاةِ ، وَيُغْشَى عَلَيْهِ عِنْدَمَا يَشْرَعُ فِي التَّلْبِيَةِ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَالْبَكَاءُ عَلَى نَجْمِ الْأَرْضِ دَاخِلٌ فِي الْبَكَاءِ مِنْ خَشِيئَتِهِ تَعَالَى ؛ لِأَنَّ مَصَائِبَهُمْ ثَلُومُ الْإِسْلَامِ :

عَلَى مِثْلِهِمْ فَلْتَلْطُمِ الْعَيْنُ خَدَّهَا بِسَبْعٍ مِنَ الْحُمْرِ الْقَوَانِي عَلَى سَبْعٍ
 وَقَدْ رَخَّصَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا كَانَ مِنْ دَمْعِ الْعَيْنِ ، وَحَزَنِ الْقَلْبِ^(١) ، وَالسَّجَادُ لَا مُحَالَةَ وَاقِفٌ عِنْدَ مَا رَسَمَ لَهُ جَدَّهُ مِنْ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ يَقُولُ فِيهِمْ أَبُو أُوسٍ :

فَلَمَّا دُعُوا لِلْمَوْتِ لَمْ تَبْكِ مِنْهُمْ عَلَى حَادِثِ الدَّهْرِ الْعُيُونِ الدَّوَامِعُ

[ربما يكون البكاء دواء عند الشعراء]

وقد قال الملك الضليل :

وَأَنَّ شِفَائِي عَبْرَةٌ لَوْ سَفَحْتُهَا وَهَلْ عِنْدَ رَسْمِ دَارِسٍ مِنْ مُعْوَلٍ ؟
 وَقَالَتِ الْخَنَسَاءُ :

إِنَّ الْبَكَاءَ هُوَ الشِّفَاءُ مِنْ الْجَوَى بَيْنَ الْجَوَانِحِ
 وَقَالَ ذُو الرُّمَّةِ [في «ديوانه» ٢/ ٣٣٣] :

لَعَلَّ انْحِدَارَ الدَّمْعِ يُعْقِبُ رَاحَةً مِنْ الْوَجْدِ أَوْ يَشْفِي نَجِيَّ الْبَلَابِلِ
 وَقَالَ أَبُو عُبَادَةَ :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَنْضَحْ جَوَاكَ بِعَبْرَةٍ غَلَا فِي التَّمَادِي أَوْ قَضَى فِي التَّسْعِرِ
 وَقَالَ :

تَعَوَّدُ عَوَائِدُ الدَّمْعِ الْمُرَاقِ عَلَى مَا فِي الْقُلُوبِ مِنْ اخْتِرَاقِ
 وَقَالَ [في «ديوانه» ٣/ ١٧٦٣] :

عَلَّ مَاءَ الدَّمْعِ يُخِمِدُ نَارًا مِنْ جَوَى الْقَلْبِ أَوْ يُبَلِّغُ غَلِيلاً
 وَقَالَ [في «ديوانه» ١/ ١٩٠] :

فَإِنَّ أَبْنِكَ لَا أَشْفِي الْعَلِيلَ وَإِنْ أَدَعِ أَدَعِ حُرْقَةَ فِي الصَّدْرِ ذَاتَ تَلْهَبِ

[الأنفة والإباء عند المتنبي]

وبعض ما يناسب هذا مع الإحالة على ما هنا ، أوائل المجلس الثاني ، ثُمَّ إِنَّهَا تَدَاخَلَتْ عَلَيْنَا الشَّوَاهِدُ فِي

(١) وذلك في الحديث الذي رواه عن أنس رضي الله عنه البخاري (١٣٠٣) في الجنائز ، قال : دخلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي سيف القين ، وكان ظنراً لإبراهيم عليه السلام ، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم إبراهيم فقبله وشمه ، ثم دخلنا عليه بعد ذلك ، وإبراهيم يجود بنفسه ، فجعلت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تدرقان ، فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : وأنت يا رسول الله ؟ فقال : « يا بن عوف ، إنها رحمة » . ثم أتبعها بأخرى ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إن العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإننا بفراقك - يا إبراهيم - لمحزونون » .

الموضوع ، وكلّما خرجنا عن مبحثٍ . . رجعنا إليه بحكم تداعي الأفكار ، ولا معابة مع اتحاد الجنس في اضطراب الفروع ؛ إذ كلّها تندد حول الأنفة والإباء ، والابتعاد عن مواقع الذلّ ، ومرامي الهوان ، وجُلّ « ديوان الناظم » من هذا القبيل منه قوله [في « المُكَبَّرِي » ٢٦١/١] :

يَأْنَفُ مِنْ مَيْتَةِ الْفِرَاشِ وَقَدْ
وَمِثْلُهُ أَنْكَرَ الْمَمَاتِ عَلَى
حَلَّ بِهِ أَضْدَقَ الْمَوَاعِيدِ
غَيْرِ سُرُوجِ السَّوَابِحِ الْقُودِ^(١)

[مِنَ الْخَفِيفِ]

وقوله [في « المُكَبَّرِي » ٢٤١/٤] :

وَلَوْ أَنَّ الْحَيَاةَ تَبَقَّى لِحَيٍّ
وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَوْتِ بُدًّا
لَعَدَدْنَا أَضْلَنَّا الشُّجْعَانَ
فَمِنَ الْعَجْزِ أَنْ تَكُونَ جَبَانًا

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقوله [في « المُكَبَّرِي » ٢٤٣/٤] :

فَنَالَ حَيَاةً يَشْتَهِيهَا عَدُوُّهُ
وَمَوْتًا يُشْهِي الْمَوْتَ كُلَّ جَبَانٍ

[مِنَ الْبَسِيطِ]

وقوله [في « المُكَبَّرِي » ٢١٣/٤] :

كَمْ مَخْلَصٍ وَعُلَا فِي خَوْضٍ مَهْلَكَةٍ
وَقَتْلَةٍ قُرِنَتْ بِالذَّمِّ فِي الْجُبْنِ

[مِنَ الْوَافِرِ]

وقوله [في « المُكَبَّرِي » ١٢٠-١١٩/٤] :

فَطَعْمُ الْمَوْتِ فِي أَمْرِ صَغِيرٍ
يَرَى الْجُبْنَ أَنْ الْعَجْزَ عَقْلٌ
كَطَعْمِ الْمَوْتِ فِي أَمْرٍ عَظِيمٍ
وَتَلْكَ خَدِيدَةَ الطَّبَعِ اللَّئِيمِ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقوله [في « المُكَبَّرِي » ٢٧١/١] :

وَأُورِدُ نَفْسِي وَالْمُهَنْدُ فِي يَدِي
مَوَارِدَ لَا يُضْدِرُنَ مَنْ لَا يُجَالِدُ

[مِنَ الْخَفِيفِ]

وقوله [في « المُكَبَّرِي » ٣٢٢-٣٢١/١] :

عِشْ عَزِيزًا أَوْ مُتًا وَأَنْتَ كَرِيمٌ
أَطْلُبِ الْعِزَّ فِي لَطْفِي وَدَعِ الذُّلَّ
بَيْنَ طَعْنِ الْقَنَا وَخَفَقِ الْبُنُودِ
وَلَوْ كَانَ فِي جِنَانِ الْخُلُودِ

[مِنَ الْكَامِلِ]

والأخير من قول عترة [في « ديوانه » ١٩٨] :

مَاءَ الْحَيَاةِ بِذِلَّةٍ كَجَهَنَّمَ
وَجَهَنَّمَ بِالْعِزِّ أَطِيبُ مَنْزِلِ

[لا عز في طريق النار ولا ذل في طريق الجنة]

وهو من فاحش الغلط ، لولا جهل الأول ، وجاهليّة الثاني ؛ إذ لا ذلّ في طريق الجنة ، ولا عزّ في طريق النار ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : ٨] ، وما هذا إلا من امتحان الإسلام بمن لا يفهم أسرارَهُ ، وإلا فهو دينُ العزِّ والشرفِ ، ودينُ المجدِّ والأنفِ ، لقد حَظَرَ على الإنسان أن يذلَّ نفسه ، وجعلهُ حرّاً في سائرِ أطواره ، مع

(١) السَّوَابِحُ - جمع سَابِحٍ - : وهو الشديّد الجري ، كأنه يسبح في جريهِ . الْقُودُ : الطوال من الخيل ، وفرس أقود ؛ أي : طويل الظهر والعنق .

الاعتراف بالعبودية لخالقه بأداء الفرض ، ومع التلزم بقانونه المفضي إلى سعادة الدارين ، وعمارة الأرض ، وسيأتي ما يتعلّق به في محله من الكلام على البيت المذكور .

* * *

[من الطويل]

[قال أبو الطيّب المتنبي في « العكبري » ٣٤ / ٤ :

فَنَبْ وَإِنْقَابِ بِاللَّهِ وَثَبَّةَ مَا جَدِ بِرَى الْمَوْتَ فِي الْهَبْجَا جَنَى النَّخْلِ فِي الْقَمِ

[تحريض المتنبي على القتال]

يقول لصاحبه أو لنفسه على سبيل التجريد : قم مبادراً للحرب مبادرة كريم شريف ، يجد في طعم الموت حلاوة العسل ، وكثيراً ما يدعي الناظم ذلك لنفسه ، ولعسكره الخيالي ، كما في قوله [في « العكبري » ٣٧٤ / ١] : [من الطويل]

إِذَا سِتَتْ حَفَّتْ بِي عَلَى كُلِّ سَابِحِ رِجَالٌ كَأَنَّ الْمَوْتَ فِي فَمِهَا شَهْدُ

[شجاعة الإمام عليه السلام]

وهذه الدعوى الضخمة لا نعرف صدقها إلا لعلي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - إذ قام بورده من الصلاة (ليلة الهرير)^(١) ، والسهم كالمطر حافية^(٢) ، حتى عدله في ذلك أحد الحسنين ، فقال له : لا يبالي أبوك وقع على الموت ، أو وقع الموت عليه ، فهو الذي له في قتله أرب ، وهو الذي يرى قتاله أفضل القرب ، وهو الأولى بقول الحماسي [حارثة بن بدر الغداني في « شرح الحماسة » ٤٢٢ / ١] :

وَأَنَا لَتَسْتَحْلِي الْمَنَايَا نَفُوسَنَا وَتَتْرِكُ أُخْرَى مَرَّةً مَا نَذُوقُهَا

[من الوافر]

وقول الآخر :

رَخِيصٌ عِنْدَهُ مَهْجُ الْعَوَالِي كَأَنَّ الْمَوْتَ فِي فَكَيْهِ شَهْدُ

[من الوافر]

وقول المزيبي :

دَعَوْتُ بِنِي قَحَافَةً فَاسْتَجَابُوا فَقُلْتُ : رِدُوا فَقَدْ طَابَ الْوُرُودُ

[من البسيط]

وقول أبي تمام [في « ديوانه » ٩ / ٢] :

يَسْتَعْدِبُونَ مَنَايَاهُمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَخْرُجُونَ مِنَ الدُّنْيَا إِذَا قَتَلُوا

[تمييزه بين العسل الطائفي وغيره في أحلك الظروف]

بل هو أكبر من ذلك وأجل ، ولقد استسقى ليلتد ، فأناه بعض الهاشميين بماء فيه عسل ، فقال له : عسلك هذا طائفي ، فقال : يا عم ، في مثل هذا الموقف الذي شخصت فيه الأبصار ، وذهلت العقول ، وطاشت الأحلام ،

(١) ليلة الهرير : اسم واقعة حدثت بين سيدنا علي ومعاوية بظاهر (الكوفة) وسميت بالهرير ؛ لأنهم لما عجزوا عن القتال صار بعضهم يهرئ على بعض .

(٢) حافية : محيطة من كل جانب .

وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ، تَفَرَّقُوا بَيْنَ الْعَسَلِ الطَّائِفِيِّ مَمْرُوجاً ، وَبَيْنَ غَيْرِهِ ؟! فَقَالَ لَهُ : يَا بَنَ أَخِي ، لَمْ يَمَلَأْ صَدْرَ
عَمَّكَ هَوْلٌ قَطُّ ، فَمَا كَانَ أَحَقَّهُ بِقَوْلِ الْأَعْرَابِيِّ :

[مِنَ الْبَسِيطِ]

لَا يَمَلَأُ الْهَوْلُ صَدْرِي قَبْلَ مَوْقِعِهِ وَلَا أَضْيِيقُ بِهِ ذَرْعاً إِذَا وَقَعَا

[مِنَ الْكَامِلِ]

وقول مهيار :

جَبَلُ الْعَلَاءِ سَعْيُ الْهُمُومِ فُوَاذُهُ وَتَنَاطُ مِنْهُ بِقَارِحِ مُتَعَوِّدِ

[معرفة أبي العلاء ماء وطنه وقد مزج بماء الفرات وهو بالعراق]

وَنظِيرُهَا مَا حُكِيَ : أَنَّ أَبَا الْعَلَاءِ لَمَّا وَرَدَ (الْعِرَاقَ) . . تَشَوَّقَ إِلَى وَطَنِهِ ، فَقَالَ مِنْ أَثْنَاءِ قَصِيدَةٍ [كَمَا فِي « دِيوانِهِ » ٢٨٥] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

فِيَا بَزْقُ لَيْسَ الْكَرْخُ دَارِي وَإِنَّمَا رَمَانِي إِلَيْهِ الدَّهْرُ مُنْذُ لِيَالِي
فَهَلْ فِيكَ مِنْ مَاءِ الْمَعْرَةِ قَطْرَةٌ تَبْلُ بِهَا ظَمَّانَ لَيْسَ بِسَالِي

[الإمام أنس بالموت من الطفل بثدي أمه وتفصيل هذا الكلام]

يُقَالُ : إِنَّ الْأَمِيرَ اسْتَدْعَى مَاءَ عَلِيٍّ خَيْلَ الْبَرِيدِ مِنْ مَعْرَةِ التُّعْمَانِ ، وَقَدَّمَهُ لَهُ مَمْرُوجاً بِمَاءِ الْفِرَاتِ ، فَقَالَ : هَذَا
مَائُهَا ، فَأَيْنَ هَوَاؤُهَا ؟ وَلَكِنْ هِيَهَاتَ هِيَهَاتَ ! فَهَذَا يَقُولُهَا فِي رِخَاءِ الْبَالِ ، وَسَعَةِ الْحَالِ ، وَالْإِمَامُ يَقُولُهَا وَقَدْ
تَقَلَّصَتِ الْخُصْيُ^(١) ، وَتَقَاصَرَتِ الْخُطَا ، وَشَتَّانَ مَا بَيْنَ الْمَقَامَيْنِ ، وَبِصَدْقِ يَقُولُ : وَاللَّهِ لَا بِنُ أَبِي طَالِبٍ أَنْسُ
بِالموتِ مِنَ الطِّفْلِ بِثَدْيِ أُمَّهِ .

وهذا أبلغ مما يشبه الناظم وغيره الموت بالعسل ، وأصدق من وجوه :

أحدًا : مطابقته للواقع وتظاهر البيئات به .

ثانيها : أَنَّ اللَّبْنَ أَفْضَلُ مِنَ الْعَسَلِ ، كَمَا صرَّحَ بِهِ فَفَهَاؤُنَا ، وَلِهَذَا كَانَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْمَدُ اللهُ كَلِّمَا تَنَاوَلَ
شَيْئاً ، وَيَسْأَلُهُ خَيْراً مِنْهُ إِلَّا اللَّبْنَ ، فَإِنَّهُ يَحْمَدُ اللهُ عَلَيْهِ ، وَيَسْتَرِيدُهُ مِنْهُ^(٢) .

ثالثها : أَنَّ التَّذَاذَ الطِّفْلِ بِاللَّبَنِ أَكْثَرُ مِنْ غَيْرِهِ ، بَلْ لَا لَذَّةَ لَهُ سِوَاهُ ، وَلَا صِلَاحَ لَهُ بِغَيْرِهِ .

رابعها : أَنَّ ثَدْيَ الْأُمِّ أَنْسُ لِطِفْلِهَا مِنْ سَائِرِ الثَّدْيِ وَالْأَلْبَانِ .

خامسها : الْإِشَارَةُ إِلَى مَا جَاءَ فِي « الصَّحِيحِ » : « مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ . . أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ »^(٣) ؛ وَلِذَا قَالَ آخِرُهُ سَيِّدُ

(١) تَقَلَّصَتِ الْخُصْيُ : تَشَعَّرَتْ إِلَى أَعْلَى مِنْ شِدَّةِ الْهَوْلِ وَالْفَزَعِ .

(٢) كَمَا فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عِنْدَ أَبِي دَاوُودَ (٣٧٣٠) ، وَالتِّرْمِذِي (٣٤٥٥) وَحَسَنَهُ وَقَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِذَا أَكَلَ
أَحَدُكُمْ طَعَاماً . . فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ وَأَطْعِمْنَا خَيْرَ أَمْنِهِ ، وَمَنْ سَقَاهُ اللهُ تَعَالَى لَبِناً . . فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِيهِ وَزِدْنَا مِنْهُ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ يَجْزِيءُ مِنَ
الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ غَيْرَ اللَّبَنِ » .

(٣) أَخْرَجَهُ عَنْ عِبَادَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الْبُخَارِيُّ (٦٥٠٧) فِي الرَّقَاقِ ، وَفِيهِ قَوْلُ عَائِشَةَ ، وَمُسْلِمٌ (٢٦٨٣) فِي الذِّكْرِ وَالِدَعَاءِ . وَفِي الْبَابِ : عَنْ عَائِشَةَ عِنْدَ مُسْلِمٍ
(٢٦٨٤) ، وَالتِّرْمِذِي (١٠٦٧) ، وَالنَّسَائِيُّ (١٠/٤) وَابْنُ مَاجَةَ (٤٢٦٤) .

المرسلين : « الرَّفِيقَ الْأَعْلَى »^(١) ، ففي الكلام من البدائع ما لا تتسع لها المدارك ، ولا تستقر لها العقول .
ولا غرابة في صدورها عن باب مدينة علم^(٢) من لا ينطق عن الهوى .
هذا والله الكلام الذي تزلُّ العُصْمُ عَنْ صِفَاتِهِ ، وتختلجُ الفصحاءُ عَنْ مِرْقَاتِهِ ، فلو أَنَّ قلباً تقطَعَ ، أو حجراً تصدَّعَ
لعذوبة هذا الكلام وحلاوته وجزالته وطلاوته . . . لكانَ محقوقاً بذلك ، فيا سبحانَ المانع ! .

[استعذاب الموت في طلب العز عند الشعراء]

ومما يتصلُّ بما الكلام فيه من استعذاب الموت في طلب العز . قولُ عليِّ بنِ محمدِ الصُّليحيِّ القائمِ بـ (اليمنِ) :

[من الكامل]

وَأَلْدُ مِنْ قَرْعِ الْمَنَائِي عِنْدَهُ فِي الْحَرْبِ أَلْجَمُ يَا غُلَامَ وَأَسْرِجِ
خَيْلٌ بِأَقْصَى حَضْرَمَوْتَ مَغَارُهَا وَصَهِيلُهَا بَيْنَ الْفُرَاتِ وَمَنْبِجِ

[من الكامل]

وَقَوْلِ الْعَلَوِيِّ صَاحِبِ الزَّنْجِ : وَإِذَا تَنَازَعْنِي أَقُولُ لَهَا قِرِي
مَا قَدْ قُضِيَ سَيَكُونُ فَاصْطَبِرِي لَهُ وَلَكِ الْأَمَانُ مِنَ الَّذِي لَمْ يُقْدِرِ

[شدة ثبات جاش عبد الله بن الزبير]

وسُئِلَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّبِيرِ ، فَقَالَ : مَا رَأَيْتُ أَثْبَتَ مِنْ نَفْسِهِ ؛ مَرَّ حَجْرُ الْمَنْجَنِيْقِ بَيْنَ جَنْبِهِ وَصَدْرِهِ ،
وهو قائمٌ يصلي ، فما اضطربَ لَهُ ، ولا خشعَ بصرُهُ ، ولا قطعَ قراءتَهُ ، ولا ركعَ دُونَ الرُّكُوعِ ، فكأنَّما عنَاهُ أَبُو تَمَّامٍ
بقوله [في « ديوانه » ١٢٢/٢] :

[من الطويل]

يَرَى الْعَلَقَمَ الْمَادُومَ بِالْعِزِّ أَرْيَةً يَمَانِيَّةً وَالْأَزْيَ بِالذُّلِّ عَلَقَمًا^(٣)

[تشبيه الموت بالعدل اليماني]

وفي هذا البيت مضرِبُ المثلِ بالعدلِ اليمانيِّ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ أَفْضَلَهُ عَسَلُ (حَضْرَمَوْتَ) ، فَلَهُ أَكْبَرُ شَرَفِ الْبَيْتِ ،
وهو شبيهة بما سبق عن بعضِ الخوارجِ قبيلَ قَوْلِ النَّاظِمِ [في « العُكْبَرِيِّ » ١٦٠/٣] :

[من الطويل]

وَحُضْرَةُ ثَوْبِ الْعَيْشِ فِي الْحُضْرَةِ الَّتِي تُرِيكَ أَحْمِرَارَ الْمَوْتِ فِي مَدْرَجِ النَّمْلِ

[الأحق بهلذه الأشعار هو ابن الزبير]

[من الطويل]

وَابْنُ الزَّبِيرِ أَحَقُّ مِنْ ابْنِ أَبِي عُيَيْنَةَ بِقَوْلِهِ : وَإِنِّي مِنْ قَوْمٍ كَأَنَّ نَفْسَهُمْ
بِهَا أَنْفٌ أَنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ وَالذَّمَا

[من البسيط]

وَقَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ أَيْضاً [في « ديوانه » ٢٣٣/٢] : وَحَنَّ لِلْمَوْتِ حَتَّى ظَنَّ مُبْصِرُهُ
بِأَنَّهُ حَنَّ مُشْتَاقاً إِلَى وَطَنِ

(١) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها البخاري (٦٥٠٩) في الرقاق و (٣٦٦٩) ، ومسلم (٢٤٤٤) في فضائل الصحابة .

(٢) كما جاء في حديث علي رضي الله عنه عند الترمذي (٣٧٢٥) قال : « أنا دار الحكمة وعلي بابها » .

(٣) الْأَزْيُ : الْعَسَلُ .

لَوْ لَمْ يَمُتْ تَحْتَ أَسْيَافِ الْعِدَا كَرَمًا لَمَاتَ إِذْ لَمْ يَمُتْ مِنْ شِدَّةِ الْحَزَنِ

[مِنَ الْكَامِلِ]

وقوله [في «ديوانه» ١٦٩/٢] :

لِحِيَاضِهَا مَتَوَرِّدٌ وَلِخَيْطِهَا مُتَعَوِّدٌ وَيَدْرَهَا مَلْبُؤُونَ

[الجمال لا ينافي الشجاعة]

[مِنَ الْكَامِلِ]

ولله درُّ القائل :

عُقْبَانُ رَوْعٍ وَالشُّرُوجُ وَكُورُهَا وَلِيُوثُ حَرْبٍ وَالْقَنَّا آجَامٌ^(١)
وَبُدُورٌ تَمٌّ ، وَالشَّوَائِكُ فِي الْوَعَى هَالَاتُهَا وَالسَّابِرِيُّ غَمَامٌ^(٢)
جَادُوا بِمَمْنُوعِ التَّلَادِ وَجَوْدُوا ضَرِبًا تَحَدُّ بِهِ الطَّلَا وَالْهَامٌ^(٣)
وَتَجَاوَرَتْ أَسْيَافُهُمْ وَجِيَادُهُمْ فَالْأَرْضُ تُمَطَّرُ وَالسَّمَاءُ تُغَامُ

[يستعمل السجان كي يتم لعبة الشطرنج]

وما زالت العرب تسيروا إلى الموت بالخطا الواسعة ، وتلقاها بالصدور الرحبة ، أو ما رأيت هدية بن الخشرم لم ينزعج لما دعي للقتل! ؟ ولكنه استعمل السجان ريثما يتم لعبته بالشطرنج ، فهو والله صادق إن أراد نفسه في قوله [في

[مِنَ الطَّوِيلِ]

شعره» ١٠٩] :

أخو الحرب من لا يجتويها إذا اجتوت ولا يظهر الشكوى وإن كان موجعا

ونسنتوفي حديثه في مجلس آخر .

[شجاعة أبي نعامة]

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وصدق أيضاً أخو الشراة أبو نعامة في قوله :

لَمَوْتِي أَنْ يَذْنُو لِطُولِ قِرَاعِيَا وَلَوْ قَرَّبَ الْمَوْتَ الْقِرَاعُ لَقَدْ أَنْى
عَلَى الْعَسَلِ الْمَازِي أُصْبِحُ غَادِيَا^(٤) أَغَادِي قِتَالِ الْمُعْلِمِينَ كَأَنْنِي

[شجاعة ابن محكان]

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وأمر مصعب بن الزبير رجلاً من بني أسد بقتل مرة بن محكان ، فتقدم بجأش رابط ، وأنشأ يقول :
بَيْيَ أَسَدٍ إِنْ تَقْتُلُونِي تُحَارِبُوا تَمِيمًا إِذَا الْحَزْبُ الْعَوَانُ اشْمَعَلَّتِ^(٥)
وَلَسْتُ وَإِنْ كَانَتْ إِلَيَّ حَيِيَّةٌ بِيَاكِ عَلَى الدُّنْيَا إِذَا مَا تَوَلَّتْ

ولو روى في هذا الشعر صاحب دعة . . لما نقحه هذا التثحيح وأبدعه .

(١) الأجام : الشجر الكثير الملتف ، وهو كناية عن كثرة الرماح .

(٢) السابري : الدرع .

(٣) الطلا : الأعناق .

(٤) المازي : الأبيض الرقيق .

(٥) العوان اشمعلت : الحرب اتسعت وتكررت معاركها .

[عبد بن يغوث بنوح على نفسه قبل قتله بقصيدة شعرية رائعة]

ولمَّا أُسِرَ عَبْدُ بَنُ يَغُوثَ ، وَشَدُّوا لِسَانَهُ مَخَافَةَ الْهَجَاءِ . . التَّمَسَ مِنْهُمْ أَنَّ يُطْلَقُوهُ ؛ لِيُنَوِّحَ عَلَيَّ نَفْسِهِ ، وَعَاهَدَهُمْ
أَلَّا يَهْجَوْهُمْ ، فَأَطْلَقُوا لِسَانَهُ^(١) ، فَقَالَ :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

أَلَا لَا تَلُومَانِي كَفَى اللَّوْمَ مَا بِيَا
أَيَا رَاكِبًا إِذَا عَرَضْتَ فَبَلَّغْنِي
جَزَى اللَّهُ قَوْمِي بِالْكَلَابِ مَلَامَةً
أَبَا كَرِبٍ وَالْأَيْهَمِينَ كِلَاهُمَا
أَقُولُ وَقَدْ شَدُّوا لِسَانِي بِسِنْعَةٍ
فَإِنْ تَقْتُلُونِي تَقْتُلُونِي بِخَيْرِكُمْ
وَتَضْحَكُ مِنِّي شَيْخَةً عِبْشَمِيَّةً
وَقَدْ عَلِمْتَ عِرْسِي مُلَيْكَةً أَنْتِي
وَكُنْتُ إِذَا مَا الْخَيْلُ سَمَّمَهَا الْقَنَا
وَعَادِيَةَ سَوْمِ الْجِرَامِ وَزَعْتُهَا
كَأَنِّي لَمْ أَزَكَبْ جَوَادًا وَلَمْ أَقُلْ
وَلَمْ أَسْبَأِ الرُّقَّ الرُّوِّيَّ وَلَمْ أَقُلْ

فَمَا لَكُمْ فِي اللَّوْمِ خَيْرٌ وَلَا لِيَا
نَدَامَايَ مِنْ نَجْرَانٍ أَنْ لَا تَلَاقِيَا
صَرِيحَهُمْ وَالْآخِرِينَ الْمَوَالِيَا
وَقَسَا بِأَعْلَى حَضْرَمَوْتَ الْيَمَانِيَا
أَمْعَشَرَ تَيْمٍ أَطْلَقُوا مِن لِسَانِيَا^(٢)
وَإِنْ تَطْلُقُونِي تَحْرُبُونِي بِمَالِيَا^(٣)
كَأَنَّ لَمْ تَرَى قَبْلِي أَسِيرًا يَمَانِيَا^(٤)
أَنَا اللَّيْثُ مَعْدُوًّا عَلَيْهِ وَعَادِيَا
لِيَقَا بِتَعْرِيفِ الْقَنَاةِ بَنَانِيَا
بِكَمِّي وَقَدْ أَنْحُوا إِلَيَّ الْعَوَالِيَا^(٥)
لِخَيْلِي : كُرِّي مَرَّةً عَن رَجَالِيَا
لَأَيَّسَارِ صِدْقٍ : أَعْظَمُوا ضَوْءَ نَارِيَا^(٦)

وعرض عليهم ألف ناقة في فدايه ، فلم يقبلوا ، وإنها لعزة باهرة وشهامة ظاهرة .

[شجاعة طرفه بن العبد]

أَمَّا طَرَفُ بَنِ الْعَبْدِ . . فلم يَتَجَلَّجْ^(٧) عِنْدَ الْقَتْلِ ، غَيْرَ أَنَّهُ خَضَعَ فِي بَعْضِ الْقَوْلِ ؛ إِذْ أُنشِدَ حِينَئِذٍ [فِي « دِيوانه »
: [١٧٣-١٧٢]

[مِنَ الطَّوِيلِ]

أَبَا مُنْذِرٍ كَانَتْ غُرُورًا صَحِيفَتِي
أَبَا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَبَقَ بَعْضَنَا
وَلَمْ أُعْطِكُمْ فِي الطَّوْعِ مَالِي وَلَا عِرْضِي
حَنَانِيكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ

[عبيد بن الأبرص يخاف الموت]

وَأَمَّا عَبِيدُ بَنِ الْأَبْرَصِ . . فتلعثمت لسانه خوف القتل ، ولمَّا قَالَ لَهُ النُّعْمَانُ يَوْمَ بُؤْسِهِ : أُنشِدْنِي . . قَالَ : حَالُ
الْجَرِيضِ دُونَ الْقَرِيضِ^(٨) .

(١) انظر الأبيات والقصة في « الأغاني » (١٦/٣٦١-٣٦٢) .

(٢) النَّسْعُ : حبلٌ مضمفورٌ يجعلُ زماماً للبعير وغيره .

(٣) تحربوني : تسلبوني جميع ما أملك .

(٤) عبشمية : أي من بني عبد شمس .

(٥) العادية : الخيلُ تعدو . السوم : سرعة المرمع قصد الصوب ، وسوم الرياح : مؤها . الجزم : ألواح الجسد وجمائته . وزعتها : فرقتها .

(٦) سبأ الخمر : إذا حملها من بلد إلى بلد واشتراها ليشربها . الرق : هو وعاء من جلد تنقل فيه الخمر .

(٧) الجليج : الفلق والاضطراب .

(٨) الجريض : الغصة بالريق من هم أو نحوه . القريض : الشعر ، وهو مثل عربي ، أصله : أن رجلاً كان له ابنٌ نبغ في الشعر ، فنهاه أبوه عن ذلك ، فجأش به .

[تميم بن جميل يتكلم خطبة حال قتله يعجز عنها من هو في الدعة]

وَمِنْ خَيْرِ مَا فِي الْمَوْضُوعِ : حَدِيثُ تَمِيمِ بْنِ جَمِيلٍ ، فَقَدْ جَاشَ خَاطِرُهُ حِينَ قَدَّمَهُ الْمُعْتَصِمُ لِلْقَتْلِ بِأَبْيَاتٍ^(١) ، لَوْ رَوَى شَاعِرٌ فِي مِثْلِهَا حَوْلًا . . لَمَا بَلَغَ أَصْغَرَ آيَتِهِ ، وَهَذَا مَا بِالذَّهْنِ مِنْهَا :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

أَرَى الْمَوْتَ بَيْنَ السَّيْفِ وَالنَّطْعِ كَامِنًا
وَأَيُّ امْرِئٍ يُدْلِي بِعُذْرٍ وَحُجَّةٍ
يَعِزُّ عَلَى الْأَوْسِ بْنِ تَغْلِبَ مَوْقِفُ
وَمَا جَزَعِي مِنْ أَنْ أَمُوتَ وَإِنِّي
وَلَكِنْ خَلْفِي صَبِيَّةٌ قَدْ تَرَكَتْهُمْ
فَإِنْ عَشْتُ عَاشُوا خَافِضِينَ بِيغْطَةَ
وَكَمْ قَائِلٍ : لَا يُبْعِدُ اللَّهُ دَارَهُ
يُلَاحِظُنِي مِنْ حَيْثُ مَا أَتَلَفْتُ^(٢)
وَسَيْفُ الْمَنَائِيَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ مُضَلَّتْ
يُسَلُّ عَلَيَّ السَّيْفُ فِيهِ فَأَسْكُتُ
لَأَعْلَمُ أَنَّ الْمَوْتَ شَيْءٌ مُوقَّتُ
وَأَكْبَادُهُمْ مِنْ حَسْرَةٍ تَتَفَقَّتُ
أَذُودُ الرَّدَى عَنْهُمْ وَإِنْ مِثُّ مُوتُوا^(٣)
وَأَخْرَجَ جَذْلَانُ يَسْرُ وَيَشْمَتُ

[علي بن الجهم يصلب وهو حي عريانا]

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْجَهْمِ ، وَقَدْ صَلَبُوهُ وَهُوَ حَيٌّ عُرِيَانًا [في «ديوانه» ١٧١-١٧٢] :

[مِنَ الْكَامِلِ]

لَمْ يَنْصَبُوا بِالشَّاذِيَاخِ عَشِيَّةَ الْإِثْنَيْنِ مَغْلُوبًا وَلَا مَجْهُولًا^(٤)
نَصَبُوا بِحَمْدِ اللَّهِ مِلءَ عُيُونِهِمْ حُسْنًا وَمِلءَ صُدُورِهِمْ تَبْجِيلًا
مَا ضَرَّهُ أَنْ بُزَّ عَنْهُ لِبَاسُهُ فَالسَّيْفُ أَهْوَلُ مَا يُرَى مَسْلُوبًا

[نجدة القرآن وشهامته]

وَمِنْ مَفَاخِرِ الْعَرَبِ إِجَابَةُ الصَّوْتِ ، وَإِغَاثَةُ الصَّرِيخِ ، وَالِاسْتِهَانَةُ بِالْمَوْتِ فِي سَبِيلِ ذَلِكَ ، حَتَّى لَقَدْ قَامَ أَحَدُ عِظَمَاءِ الْأَدَبِ الْمَصْرِيِّينَ بِمَنْىَ عَامِ حَجَّجْنَا ، فَقَالَ :

إِنِّي تَأَمَّلْتُ الْقُرْآنَ . . فَوَجَدْتُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَقَىءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [الحجرات : ٩] ، مَا يَشْبَهُ قَانُونَ جَمْعِيَّةِ الْأُمَمِ ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيَّ الْقَوْلُ . . تَعَرَّضْتُ لِمَقَالِهِ ، مِنْ إِعْجَابِي بِمَوْضُوعِهِ ، وَقُلْتُ : أَمَّا نَجْدَةُ الْقُرْآنِ وَشِهَامَتُهُ ، وَتَمَكِينُهُ لِلسَّلَامِ بِالْعَدْلِ ، وَالِانْتِصَافِ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ قِيَاسٍ . . لَا يَوْزُنُ بِهِ الْيَوْمَ شَيْءٌ مِنْ أَحْوَالِ النَّاسِ ، لَكِنْ بَيْنَ أَيْدِينَا مِثَالٌ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ الْجَهْلَاءِ ، يَزِيدُ عَلَيَّ مَا فِي قَانُونِ تِلْكَ الْجَمْعِيَّةِ ، مِنْ وَجْهِ ذَلِكَ ، الْمِثَالُ هُوَ حَلْفُ الْفَضُولِ ، الَّذِي يَقُولُ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَقَدْ شَهِدْتُ حِلْفًا فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَدْعَانَ ، مَا أَحْبَبُّ أَنْ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ ، وَلَوْ دُعِيتُ بِهِ فِي الْإِسْلَامِ . . لِأَجْبِتُ »^(٥) .

= صدره ومريض حتى أشرف على الهلاك ، فأذن له أبوه في قول الشعر فقال هذا القول .

(١) انظر خبره في «جمهرة خطب العرب» (١٤٥/٣) .

(٢) النطع : بساط من الجلد يقتل عليه المحكوم بالقتل .

(٣) خافضين : من الخفض ، وهو الدعة .

(٤) الشاذياخ : ضاحية من ضواحي (نيسابور) .

(٥) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٣٦٧/٦) عن طلحة بن عبيد الله ، ومحمد بن إسحاق الفاكهي في «أخبار مكة» (١٩١/٥) بنحوه .

وأما وجوه فضله :

فمنها : أن قانون تلك الجمعية لا يتعهد بنصر من لم ينضم إليها ، وإنما هو مقصور على أهلها فقط - فيما إخال - بخلاف حلف الفضول ، فقد اقتطع على نفسه نصرة المظلوم ، أياً كان ، من غير شرط ولا قيد .

[السرعة في إجابة المنادي دون أي سؤال]

ومنها : أن نصر جمعية الأمم ضمارة^(١) ووعده ، ونصر هذا خلاصاً ونقده ، وما بين المظلوم وبينه إلا أن ينادي يا آل حلف الفضول ، فتبادره السيوف ، ثم لا تنحجز عنه حتى تستخرج له حقه ممن كان ، والله درُّ بشامة بن حزن إذ يقول [في « الكامل » ١/١٤٦] :

إِنَّا لَمِنَ مَعْشَرٍ أَفْنَىٰ أَوَائِلِهِمْ قَبِيلُ الْكُمَاةِ إِلَّا أَيَّنَ الْمُحَامُونََا
لَوْ كَانَ فِي الْأَلْفِ مِنَّا وَاحِدٌ وَدَعَا : مَنْ فَارِسٌ ؟ خَالَهُمْ إِيَّاهُ يَعْنُونَا
وَلَا تَرَاهُمْ وَإِنْ جَلَّتْ مُصِيبَتُهُمْ مَعَ الْبُكَاءِ عَلَىٰ مَنْ مَاتَ يَبْكُونَا

وقال طرفة [في « ديوانه » ٢٧] :

إِذَا الْقَوْمُ قَالُوا : مَنْ فَتَىٰ ؟ خِلْتُ أَنَّنِي عُنَيْتُ فَلَمْ أَكْسَلْ وَلَمْ أَتَبَلَّدِ

وقال بعض العرب :

إِذَا مَا دُعُوا لَمْ يَسْأَلُوا مَنْ دَعَاهُمْ لِأَيَّةِ حَرْبٍ أَمْ بِأَيِّ مَكَانٍ

وقال سلامة بن جندل [في « ديوانه » ١٢٥] :

إِنَّا إِذَا مَا أَتَانَا صَارِحُ فَرِحُ كَانَ الصُّرَاخُ لَهُ قَرَعِ الظَّنَابِيهِ^(٢)

وقال الحطيئة :

إِذَا مَا دُعُوا لَمْ يَسْأَلُوا مَنْ دَعَاهُمْ وَلَمْ يُمَسِّكُوا فَوْقَ الْقُلُوبِ الْخَوَافِي
أَحَلُّوا حِيَاضَ الْمَوْتِ فَوْقَ جِبَاهِهِمْ مَكَانَ النَّوَاصِي مِنْ وُجُوهِ السَّوَابِقِ

وقال الكلبة [في « المفصليات » ١/١٤٤] :

وَقُلْتُ لِكَأْسٍ : أَلْجَمِيهَا فَإِنَّمَا نَزَلْنَا الْكَيْبَ مِنْ زُرُودٍ لِنَفْزَعَا^(٣)

وقال الراعي :

إِذَا مَا فَزَعْنَا أَوْ دُعِينَا لِنَجِدَةَ لَبَسْنَا عَلَيْهِنَّ الْحَدِيدَ الْمُسَرَّدَا^(٤)

(١) الضُّمَارُ : ما لا يُرجى من الدِّين والوَعْدِ ، وكلُّ ما لا تكون منه على ثَقَةٍ .

(٢) الظَّنْبُوبُ : حرفُ السَّاقِ الْيَابِسِ ، وَعَنَىٰ بِذَلِكَ سُرْعَةَ الْإِجَابَةِ ، وَجَعَلَ قَرَعَ السَّوِطِ عَلَىٰ سَاقِ الْخَفِّ فِي زَجْرِ الْفَرَسِ قَرَعًا لِلظَّنْبُوبِ .

(٣) كَأْسٌ هُنَا : اسْمُ ابْتِهٍ . زُرُودٌ : اسْمُ مَكَانٍ . الْكَيْبُ : الرَّمْلُ الْمَجْتَمِعُ .

(٤) السَّرْدُ : اسْمٌ جَامِعٌ لِلدَّرُوعِ وَغَيْرِهَا مِنْ سَائِرِ الْحِلَقِ .

وقال قُرَيْطٌ [في «شرح الحماسة» ٣٥٨/١٢] :

[مِنَ السَّيْطِ]

لَا يَسْأَلُونَ أَحَاهُمْ حِينَ يَنْدُبُهُمْ
فِي النَّائِبَاتِ عَلَيَّ مَا قَالَ بُرْهَانَا
قَوْمٌ إِذَا الشَّرُّ أَبْدَى نَاجِذِيهِ لَهُمْ
طَارُوا إِلَيْهِ زَرَاقَاتٍ وَوُحْدَانَا

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقال الحماسيُّ [سعد بن مالك بن ثعلبة في «شرح الحماسة» ١٩٩/١] :

دَعَوْتُ بِنِي قَيْسٍ إِلَيَّ فَشَمَّرَتْ
خَنَازِيدُ مِنْ سَعْدٍ طَوَالَ السَّوَاعِدِ^(١)
إِذَا مَا قُلُوبُ الْقَوْمِ طَارَتْ مَخَافَةً
مِنَ الْمَوْتِ أَرْسَوْا بِالنُّفُوسِ النَّوَاجِدِ^(٢)

[مِنَ الْكَامِلِ]

ويعجبني قولُ أبي حويةَ ، وهو ابنُ عمِّ الأميرِ قرواشِ بنِ المقلِّدِ - صاحبِ (الموصلِ) - :

قَوْمٌ إِذَا التَّحَمَ الْعَجَاجُ رَأَيْتَهُمْ
أُسْدًا وَخِلْتِ وَجُوهُهُمْ أَقْمَارًا
لَا يَبْخُلُونَ بِرِفْدِهِمْ عَنْ سَائِلٍ
عَدَلِ الزَّمَانِ عَلَيْهِمْ أَوْ جَارًا
وَإِذَا الصَّرِيخُ دَعَاهُمْ لِمِلْمَةٍ
بَذَلُوا النُّفُوسَ وَأَرْخَضُوا الْأَعْمَارًا
وَإِذَا زِنَادُ الْحَرْبِ أُخْمِدَ نَارُهَا
قَدَحُوا بِأَطْرَافِ الْأَسِنَّةِ نَارًا

[سرعة النبي إلى إجابة الصوت]

تلك هي شمائلُ العربِ ، التي كانَ بعضها يأكلُ الميتاتِ ، ويدفنُ البناتِ على قيد الحياةِ ، ثمَّ جاءَ الإسلامُ بإتمامِ مكارمِ الأخلاقِ^(٣) ، وكانَ صاحبُ شريعةِ الإسلامِ صلى الله عليه وسلم أسرعَ النَّاسِ إلى الصَّوْتِ ، حتَّى لقد كانَ فرغَ (بِ) المدينةِ) ، فركبَ على فرسٍ عُزْريٍّ لأبي طلحةَ ، وسبقَ النَّاسَ إلى الصَّريخِ ، وقالَ : « إِنْ وَجَدْنَاهُ - يعني : الفرسَ - لَبَجْرًا »^(٤) .

[السبب في شجاعة الصحابة رضوان الله عليهم أنها جبلَّة ودين وملة]

وما بالكِ بقومٍ علمتَ مِنْ أَنفِهِمْ وَحَمِيَّتِهِمْ وَحِفَاطَتِهِمْ ما علمتَ ، وأكرمَهُمُ اللهُ بالإسلامِ ، حتَّى خالطَ قلوبَهُمْ ، وامترجَ بلحومِهِمْ ودمائِهِمْ ، ثمَّ أنزلَ اللهُ عليهم أمثالَ قولِهِ : ﴿ يَتَأَيَّبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذْكَرٌ عَلَى تَجَرُّقِ نَجِيحِكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ * تَوَمِّنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَنَجْهَدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكَنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ * [الصف : ١٠-١٣] ، وقولِهِ : ﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * [التوبة : ٤١] ، وقولِهِ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَدِّلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوَّابَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * [التوبة : ١١١] .

فإنَّهُم بعدَ أَنْ كَانَتْ حَمِيَّتُهُمْ جَبِلَّةً صَارَتْ دِينًا وَمِلَّةً ، فلا جرمَ على قَلَّةِ الْعَدَدِ ، وضعفِ الْعَدَدِ ، انكفروا على عروشِ

(١) الْخَلْيَدُ : هُوَ الشَّجَاعُ الَّذِي لَا يُهْتَدَى لِقِتَالِهِ .

(٢) النَّوَاجِدُ : الشَّجَعَانُ .

(٣) لما ورد عن أبي هريرة عند أحمد والحاكم والبيهقي قوله صلى الله عليه وسلم : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

(٤) أخرجه عن أنس رضي الله عنه البخاري (٢٦٢٧) في الهبة ، ومسلم (٢٣٠٧) في الفضائل .

الملوك ، وأبلوا ما يشهدُ به التاريخُ في القادسيّة واليرموك ، والله درُّ القائلِ فيهم : [مِن الرمل]

قِفْ عَلَى الْيَرْمُوكِ وَأَخْضَعْ جَائِيَا
تُرْبِيَّةً طَيِّبَةً طَاهِرَةً
يَا قُبُوراً مُجِيحَتْ وَأَنْدَرَسَتْ
هَاهُنَا مَثْوَى الصَّنَادِيدِ الْأَلَى
دَوَّخُوا الرُّومَ وَنَلُّوا عَرْشَهَا
وَدَوَّخُوا الْكُفْرَ بِيضِ الْمَشْرِفِيَّةِ
وَطَوَّوْا حُمْرَ الْبُنُودِ الْفَارِسِيَّةِ
وَتَيَّمَمْ مِنْ صَعِيدِ الْقَادِسِيَّةِ
وَقُبُورٌ مِنْ حَيَا النَّقْعِ نَدِيَّةِ
أَنْتِ نِبْرَاسُ الْهُدَى وَالْوَطَنِيَّةِ

فحدث ولا حرج عنهم ، فإنَّ لهم في إرخاصِ النفوسِ ، واستعدادِ البؤسِ ، وإغاثَةِ الصَّريحِ ، ونصرِ المظلومِ ، وكسبِ المعدومِ . . ما صغَرَ كلَّ عظيمٍ ، وحثَّ في وجهِ كلِّ مُقرِّمٍ^(١) ، وغبَّرَ في قبلةِ كلِّ شجاعٍ ، ولقد ألقى بعضهم تمراتٍ في يدهِ استعجالاً للشهادة^(٢) .

وقال آخرُ : إني لأشتمُّ رائحةَ الجنةِ من جهةِ أحدٍ ، في كثيرٍ من تلك الأمثالِ .

[الصحابه الكرام أحق بجميع الأشعار المادحة والثناء البالغ]

فما أحقَّهم بقولِ أبي تمامٍ [في « ديوانه » ٧٨] :

مُتْرَسِّلِينَ إِلَى الْحُتُوفِ كَأَنَّمَا
بَيْنَ الْحُتُوفِ وَبَيْنَهُمْ أَرْحَامُ

وقولِ البُحترِيِّ :

مُتْرَسِّلِينَ إِلَى الْحُتُوفِ كَأَنَّمَا
وَفَرُّ بِأَرْضِ عَدُوِّهِمْ يُنْتَهَبُ^(٣)

وقوله أيضاً [في « ديوانه » ١٧٨/١] :

تَسْرَعُ حَتَّى قَالَ مَنْ شَهِدَ الْوَعَى
لِقَاءَ أَعَادٍ ، أَمْ لِقَاءَ حَبَائِبٍ ؟!

وقولِ بعضهم :

قَوْمٌ شَرَابُ سُيُوفِهِمْ وَرِمَاحِهِمْ
يَتَحَنَّنُونَ إِلَى لِقَاءِ عَدُوِّهِمْ
وَيُبَاشِرُونَ طَبَا السُّيُوفِ بِأَنْفُسِهِمْ
فِي كُلِّ مُعْتَرِكٍ دَمِ الْأَشْرَافِ
كَتَحَنَّنُوا مِنَ الْأَلْفِ لِـلْأَلْفِ
أَمْضَى وَأَقْطَعُ مِنْ طَبَا الْأَسْيَافِ

وقولِ النَّازِمِ [في « العُكْبَرِيِّ » ١٤٨/٢] :

وَأَقْدَمْتُ إِقْدَامَ الْأَيْبِيِّ كَأَنَّ لِي
سِوَى مُهْجَتِي أَوْ كَانَ لِي عِنْدَهَا وَتَرُ^(٤)

(١) المُقرِّمُ : السيِّدُ العظيم ، المقدمُ في المعرفةِ وتجاربِ الأمور .

(٢) وذلك في الحديث الذي أخرجه مسلم (١٩٠١) في الإمارة ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر : « قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض ، قال : يقولُ عميرُ بنُ الحُمامِ الأنصاريُّ : يا رسول الله ، جنة عرضها السماوات والأرض ؟ قال : نعم ، قال : يخُ يخُ ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما يحملُك على قولِ يخُ يخُ ؟ قال : لا والله يا رسول الله إلا رجاءة أن أكون من أهلها ، قال : فإنك من أهلها ، فأخرج تمراتٍ من قرنه فجعل يأكلُ منهنَّ ، ثم قال : لئن حبيبتُ حتى أكلُ تمراتي هلذتُ إنها لحياةٌ طويلةٌ ، قال فرمى بما كان معه من التمرِ ، ثم قاتل حتى قُتل .

(٣) الوَفْرُ : الكثير الواسع من المال والمتاع .

(٤) الأَيْبِيُّ : السيلُ الذي لا يُرَدُّ .

وقوله [في «العكبري» ١/١٢١] :

[من البسيط]

بِكُلِّ أَشْعَثَ يَلْقَى الْمَوْتَ مُبْتَسِمًا حَتَّى كَأَنَّ لَهُ فِي قَتْلِهِ أَرْبَا

وقول أبي فراس [في «ديوانه» ٣٩] :

[من الطويل]

صَبُورٌ وَلَوْ لَمْ تَبْقَ مِنِّي بَقِيَّةٌ قَوْوُلٌ وَلَوْ أَنَّ الشُّيُوفَ جَوَابُ
وَقُورٌ وَأَحْدَاثُ اللَّيَالِي تُوْشِنِي وَلِلْمَوْتِ حَوْلِي جَيْئَةٌ وَذَهَابُ

[أجمع الآيات في النجدة]

وَمِنْ أَجْمَعِ الْآيَاتِ فِي النُّجْدَةِ وَالْوَفَاءِ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ أَسْتَضْرُّوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ﴾ [الأنفال : ٧٢] ، فَلَقَدْ صَحَّ أَنَّ الْيَمَانَ وَابْنَهُ حَذِيفَةَ لَمَّا قَامَا فِي الصَّفِّ يَوْمَ بَدْرٍ . قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ بَعْضَهُمْ أَخَذَ عَلَيْنَا الْعَهْدَ بَعْدَمَا مَنَّ عَلَيْنَا أَلَّا نَشْهَرَ السَّلَاحَ عَلَيْهِ ، فَعَسَى أَلَّا يَكُونَ فِي حَرْبِهِمْ عَلَيْنَا حَرْجٌ ، فَأَخَذَ بِأَيْدِيهِمَا ، وَقَالَ لِهَمَا : « فَوَا لَهُمَّ . . »^(١) .

فَأَيُّ وِفَاءٍ بِرَبِّكَ يَشْبَهُ هَذَا الْوِفَاءِ مَعَ الْحَاجَةِ ؟! وَأَيُّ صَدَقٍ كَمَثَلِ هَذَا الصَّدَقِ ؟! وَقَدْ ارْتَفَعَتِ الْعَجَاجَةُ .

[تمهيد المؤلف العذر لنفسه في هذا الاستطراد]

[من الرجز]

وقد كان بعض هذا المقال أولى بالتأخير إلى عند مثل قول الناظم [في «العكبري» ٤/١٧٣] :

إِنْ تَدْعُ يَا سَيْفُ لِنَسْتَعِينَهُ يُجِبُّكَ قَبْلَ أَنْ تُتِمَّ سِينَهُ

[من المتقارب]

أوقوله [في «العكبري» ١/١٠٢] :

سَبَقَتْ إِلَيْهِمْ مَنَائِيهِمْ وَمَنْفَعَةُ الْغَوْثِ قَبْلَ الْعَطَبِ

[من الوافر]

أوقوله [في «العكبري» ٢/٢٩٩-٣٠٠] :

وَإِنْ نَقَعَ الصَّرِيخُ إِلَى مَكَانٍ نَصَبْنَا لَهُ مُؤَلَّلَةً دِقَاقًا^(٢)
فَكَانَ الطَّغْنُ بَيْنَهُمَا جَوَابًا وَكَانَ اللَّبْثُ بَيْنَهُمَا فَوَاقًا^(٣)

غَيْرَ أَنَّ الْحَدِيثَ شُجُونٌ ، وَالِاسْتِطْرَادَ جُمُوحٌ ، وَالْفَائِدَةَ صَيْدٌ ، وَالْحَزْمَ فِي اسْتِعْجَالِ الْقَيْدِ ، وَإِذْ ذَكَرْنَا بَعْضَ مَا يَهْرُ الرُّؤُوسَ ، وَيَحْمِي الْأَنْوَفَ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ فِي الْمَوْضُوعِ ، وَاعْتَرَفْنَا بِالْعِجْزِ عَمَّا لِلصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَنْهُمْ فِيهِ ؛ لِأَنَّهُ الْفَضَاءُ الْوَاسِعُ ، الَّذِي لَا تَأْتِي عَلَى أَطْرَافِهِ النَّسُورُ . فَلْتَبَرِّكْ بِذِكْرِ شَيْءٍ مِمَّا قَالَهُ السَّادَةُ الصُّوفِيَّةُ فِي اسْتِعْذَابِ التَّعْذِيبِ ، وَاخْتِيَارِ الْمَوْتِ فِي مَرْضَاتِ الْحَبِيبِ ، وَكَلِّئِ اخْتِلَافِ الْأَلْوَانِ . فَالْجَامِعُ قَوْلُ مُسْلِمِ بْنِ الْوَلِيدِ : [من البسيط]

يَجُودُ بِالنَّفْسِ إِذْ ضَنَّ الْجَوَادُ بِهَا وَالْجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الْجُودِ

(١) أخرجه عن حذيفة الطبراني في «الكبير» (٣/١٦٥) ، والسيوطي في «الجامع الصغير» وتمامه : « ونستعين الله عليهم » ونسبه لأحمد .

(٢) النَّقْعُ : رَفْعُ الصَّوْتِ وَبُعْدُهُ . الصَّرِيخُ : الْمَسْتَعِيثُ . الْمَوْلَلَةُ : الْمَحْدَدَةُ . الدَّقَاقُ : الرِّقَاقُ ، وَهِيَ صِفَةٌ لِلأَذَانِ ، وَأَذَانُ الْخَيْلِ تَوْصَفُ بِالذَّقَّةِ .

(٣) الْفَوَاقُ : قَدْرٌ مَا بَيْنَ الْحَلْبَتَيْنِ ، وَيَضْرِبُ مَثَلًا لِلسَّرْعَةِ .

[كل شيء من العيب حبيب]

[مِنَ المَدِيدِ]

قَالَ أَبُو حَامِدٍ الْغَزَالِيُّ كَمَا ذَكَرَهُ ابْنُ السُّبُكِيِّ فِي « طَبَقَاتِهِ » [٢٢٢/٢] :

سَقَمِي فِي الْحُبِّ عَافِيِي وَوُجُودِي فِي الْهَوَى عَدَمِي
وَعَذَابٌ تَرْتَضُّونَ بِهِ فِي فَمِي أَحْلَى مِنَ النَّعْمِ
مَا لِضُرِّ فِي مَحَبَّتِكُمْ عِنْدَنَا وَاللَّهِ مِنْ أَلَمِ

[سلطان العاشقين يستعذب العذاب]

[مِنَ الكَامِلِ]

وقال ابن الفارض [في «ديوانه» ٢٦] :

إِنْ كَانَ فِي تَلْفِي رِضَاكَ صَبَابَةٌ وَلَكَ الْبَقَاءُ وَجَدْتُ فِيهِ لَذَاذًا

[مِنَ الكَامِلِ]

وقال [في «ديوانه» ١٥١] :

مَا لِي سَوَى رُوحِي وَبَاذِلُ نَفْسِهِ فِي حُبِّ مَنْ يَهْوَاهُ لَيْسَ بِمُسْرِفِ
فَلَيْتَن رَضِيَتْ بِهَا فَقَدْ أَسْعَفْتَنِي يَا خَيِّبَةَ الْمَسْعَى إِذَا لَمْ تُسْعِفِ

[مِنَ الكَامِلِ]

وقال [في «ديوانه» ١٥٢] :

لَوْ أَنَّ رُوحِي فِي يَدِي وَوَهَبْتَهَا لِمُبَشِّرِي بِقُدُومِكُمْ لَمْ أَنْصِفِ

[مِنَ الخَفِيفِ]

وقال [في «ديوانه» ١٥٦] :

وَتَلَا فِي إِنْ كَانَ فِيهِ ائْتِلَافِي بِكَ ، عَجَّلَ بِهِ جُعِلْتُ فِدَاكَ

[مِنَ البَسيطِ]

وقال [في «ديوانه» ١٤٥] :

مَنْ لِي بِإِتْلَافِ رُوحِي فِي هَوَى رَشِيًّا حُلُو الشَّمَائِلِ بِالْأَرْوَاحِ مُنْتَزِحِ^(١)

[مِنَ البَسيطِ]

وقال [في «ديوانه» ١٤٤] :

مَا بَيْنَ مُعْتَرِكِ الْأَحْدَاقِ وَالْمُهَاجِ عَيْنَايَ مِنْ حُسْنِ ذَلِكَ الْمُنْظَرِ الْبَهِجِ
وَدَعْتُ قَبْلَ الْهَوَى رُوحِي لِمَا نَظَرْتُ

[مِنَ البَسيطِ]

وقال [في «ديوانه» ١٢٩] :

وَهَذِهِ سُنَّةُ الْعُشَاقِ مَا عَلِقُوا بِشَادِنِ فَخَلَا عُضُؤُ مِنْ الْأَلَمِ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقال [في «ديوانه» ١٣٤-١٣٧] :

وَلَكِنْ لَدَيَّ الْمَوْتُ فِيهِ صَبَابَةٌ حَيَاةً لِمَنْ أَهْوَى عَلَيَّ بِهَا الْفَضْلُ
فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَحْيَا سَعِيداً فَمُتْ بِهِ شَهِيداً وَإِلَّا فَالْغَرَامُ لَهُ أَهْلُ

(١) الرَّشَاءُ : ولد الغزالي .

فَمَنْ لَمْ يَمُتْ فِي حُبِّهِ لَمْ يَعِشْ بِهِ
وَقُلْ لِقَيْلِ الْحُبِّ : وَفَيْتَ حَقَّهُ
فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فِي حُبِّ نَعْمٍ بِنَفْسِهِ

وقال [في «ديوانه» ٥٠-٥١] :

وَمَا حَلَّ بِي مِنْ مِخْنَةٍ فَهُوَ مِنْحَةٌ
فَكُلُّ أَدَى فِي الْحُبِّ مِنْكَ إِذَا بَدَأَ
نَعْمَ وَتَبَارِيحُ الصَّبَابَةِ إِنْ عَدَّتْ
وَمِنْكَ شَقَائِي بَلْ بِلَايِي مِنْهُ
فَحَلَّيْتُ لِي الْبَلْوَى وَحَلَّيْتُ بَيْنَهَا

وقال [في «ديوانه» ٥٤-٥٧] :

وَدُونَ اجْتِنَاءِ النَّحْلِ مَا جَنَّتِ النَّحْلُ^(١)
وَلِلْمُدْعَى هَيْهَاتَ مَا الْكَحْلُ الْكُحْلُ^(٢)
وَلَوْ جَادَ بِالذُّنْيَا إِلَيْهِ انْتَهَى الْبُخْلُ^(٣)

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَقَدْ سَلِمْتُ مِنْ حَلِّ عَقْدِ عَزِيمَتِي
جَعَلْتُ لَهُ شُكْرِي مَكَانَ شِكْيَتِي
عَلَيَّ مِنَ النَّعْمَاءِ فِي الْحُبِّ عُدَّتِي^(٤)
وَفِيكَ لِبَاسُ الْبُؤْسِ أَسْبَغُ نِعْمَةَ
بَيْتِي فَكَانَتْ مِنْكَ أَجْمَلُ زِينَةٍ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

تَصَدَّتْ عَمِيًّا عَنْ سَوَاءِ مَحَجَّتِي
وَلَكِنَّهَا الْأَهْوَاءُ عَمَّتْ فَأَعَمَّتِ
وَإِنِّكَ وَصَفَاءُ مِنْكَ بَغْضُ أَدْلَتِي
وَلَمْ تَفْنِ مَا لَمْ تُجْتَلَى فِيكَ صُورَتِي
فُوَادَكَ وَادْفَعْ عَنْكَ غَيْكَ بِأَلَّتِي^(٥)
وَمَا أَنْتَ حَيٌّ إِنْ تَكُنْ صَادِقًا مُتَّ
إِلَيْكَ وَمَنْ لِي أَنْ تَكُونَ بِقُبْضَتِي
وَشَأْنِي الْوَفَا تَأْبَى سِوَاهُ سَجِيَّتِي^(٦)
فَلَانَ هَوَى مَنْ لِي بَدَأَ وَهُوَ بُغْيَتِي
وَلَا وَضَلَّ إِنْ صَحَّتْ لِحُبِّكَ نَسِيَّتِي
لِعِزَّتِهَا حَسْبِي افْتِخَارًا بِتُهْمَتِي
أَسَأْتُ بِنَفْسِي بِالشَّهَادَةِ قَرَّتْ
أَعَدَّ شَهِيدًا ، عَلِمُ دَاعِي مَيِّتِي
لَدَيَّ لِبُؤْنٍ بَيْنَ صَوْنٍ وَبِذَلَّةٍ^(٧)

فَقَالَتْ : هَوَى غَيْرِي قَصَدَتْ وَدُونَهُ أَقْ
وَنَهَجُ سَبِيلِي وَاضِحٌ لِمَنْ اهْتَدَى
حَلِيفُ غَرَامٍ أَنْتَ لَكِنْ بِنَفْسِهِ
فَلَمْ تَهَوِّنِي مَا لَمْ تَكُنْ فِيَّ فَانِيًّا
فَدَعُ عَنْكَ دَعْوَى الْحُبِّ وَادْعُ لِغَيْرِهِ
وَجَانِبَ جَنَابِ الْوَصْلِ هَيْهَاتَ لَمْ يَكُنْ
فَقُلْتُ لَهَا : رُوْحِي لَدَيْكَ وَقَبْضُهَا
وَمَا أَنَا بِالشَّانِي الْوَفَاةَ عَلَى الْهَوَى
وَمَاذَا عَسَى عَنِّي يُقَالُ سِوَى قَضَى
أَجَلُ أَجَلِي أَرْضَى انْقِضَاهُ صَبَابَةً
وَإِنْ لَمْ أَفْزُ حَقًّا إِلَيْكَ بِنِسْبَةٍ
وَدُونَ انْتَهَامِي إِنْ قَضَيْتُ أَسَى فَمَا
وَلِي مِنْكَ كَافٍ إِنْ هَدَرْتَ دَمِي ، وَلَمْ
وَلَمْ تَسَوْ رُوْحِي فِي وَصَالِكَ بِذَلَّتِهَا

(١) ما جنت : أي ما ارتكبت من جناية ، وهي لسعها لمن يجني عليها .

(٢) الكحل : سواد طرف أصفان العين خلقة .

(٣) نعم : اسم المحبوبة .

(٤) التباريح : الشدة .

(٥) في الكلام اكتفاء ، إذ المقصود ظاهر ؛ أي : بالتالي هي أحسن .

(٦) الشاني : المبغض . شأني : عادي .

(٧) تسو : من قولنا : لهذا المتاع يسوى ديناراً مثلاً . البؤن : البعد . البذلة : من الابتذال والامتهان .

فَإِنْ صَحَّ هَذَا الْفَأَلُ مِنْكَ رَفَعْتَنِي وَأَعْلَيْتَ مِقْدَارِي وَأَعْلَيْتَ قِيَمَتِي
فَهَا أَنَا مُسْتَدْعٍ قَضَاكَ وَمَا بِهِ رِضَاكَ وَلَا أَخْتَارُ تَأْخِيرَ مُدَّتِي

[ذم وهجاء من يبطن في إجابة الصوت]

وفي عكس ما سبق من إجابة الصوت يقول قُرَيْطٌ [في «شرح الحماسة» ١/١٥٧-١٥٩]: [من البسيط]

لَوْ كُنْتُ مِنْ مَازِنٍ لَمْ تَسْتَبِحْ إِلَيَّ بُنُو اللَّقِيْطَةِ مِنْ ذُهْلِ بْنِ شَيْبَانَ^(١)
لَكِنَّ قَوْمِي وَإِنْ كَانُوا ذَوِي عَدَدٍ لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ فِي شَيْءٍ وَإِنْ هَانَا

وقال أبو عمرو بن العلاء: [من الطويل]

دَعَا قَوْمَهُ حَوْلِي فَجَاؤُوا لِنَصْرِهِ وَنَادَيْتُ قَوْمِي بِالمُسْنَاءِ غِيْبًا^(٢)
وَرُبَّ بَقِيْعٍ لَوْ هَتَمْتُ بِخَوْهِ أَتَانِي كَرِيْمٌ يَنْفُضُ الرَّأْسَ مُغْضَبًا^(٣)

وقال أبو علي الضريُّ: [من البسيط]

كَأَنِّي يَوْمَ أَدْعُوهَا لِنَائِبَةٍ أَدْعُو لَهَا مِنْ بَطُونِ الْأَرْضِ أَمَوَاتَا

وقد سبق أوَّل المجلس الرابع قول الحماسيِّ [في «شرح الحماسة» ٢/١٠٥٧]: [من الطويل]

وَكَاثِرٌ بِسَعْدٍ إِنَّ سَعْدًا كَثِيْرَةً وَلَا تَرْجُ مِنْ سَعْدٍ وَفَاءً وَلَا نَصْرًا^(٤)

مع جملة من أمثاله .

ولما سُئِلَ خَالِدُ بْنُ صَفْوَانَ عَنْ حَالِ ابْنِهِ . . . أَشَدَّ : [من الطويل]

أَبُو مَالِكٍ جَارٌ لَهُمْ وَابْنٌ مَرْتَدٍ فَيَا لَكَ جَارِي ذَلَّةٍ وَصَعَارٍ

وقال إبراهيم بن العباس: [من الطويل]

وَإِنِّي إِذَا أَدْعُوكَ عِنْدَ مُلَمَّةٍ كَدَاعِيَةٍ بَيْنَ الْقُبُورِ نَصِيْرُهَا

وقال ريقان: [من الطويل]

فَمَا دَارُ عَمِّي لِي بِدَارِ خَفَارَةٍ وَلَا عَهْدُ عَمِّي لِي بِعَهْدِ جَوَارٍ

وقال الحطيئة: [من البسيط]

لَمَّا بَدَأَ لِي مِنْكُمْ ذَاتُ أَنْفُسِكُمْ وَلَمْ يَكُنْ لِجِرَاحِي فِيكُمْ أَسِي^(٥)

(١) بنو مازن: حيٌّ من تميم، وهو مازن بن مالك بن عمرو بن تميم، وهم أشراف ولد عمرو بن تميم، فلذلك تمنى الشاعر أن يكون منهم. وذهل بن شيبان: حيٌّ من بكر بن وائل، وكانت الحرب بين تميم وبكر. واللقيطة: المنبوذة الملقوطة، وجعلها كذلك مبالغة في الهجو.

(٢) المُسْنَاءُ: بلدة.

(٣) بخوّه: بفضائه.

(٤) المكاثرة: المباهاة بالكثرة، أي: عددهم كثير، وغنائهم قليل، وهم: سعد بن زيد مناة بن تميم، وهم أكثر تميم وأعزها.

(٥) الآسي: هو المداوي والمعالج. قال المتنبي يصف الأسد:

أَزْمَعْتُ يَأْسًا مُبِينًا عَنِ جِوَارِكُمْ وَلَنْ تَرَى طَارِدًا لِلْحُرِّ كَالْيَاسِ

[مِنَ الْبَسِيطِ]

وقال الناظم [في «العكبري» ٤/٢٣٦]:

رَأَيْتُكُمْ لَا يَصُونُ الْعِرْضَ جَارِكُمْ وَلَا يَدِرُّ عَلَيَّ مَرْعَاكُمْ اللَّبَنُ
جَزَاءُ كُلِّ قَرِيبٍ مِنْكُمْ مَلَلٌ وَحَظُّ كُلِّ مُجِيبٍ مِنْكُمْ ضَعْفٌ^(١)

[السبب في حرب البسوس]

[مِنَ الطَّوِيلِ]

ولمّا طعن كليبٌ وائلٌ ناقةَ الجرهمي الذي كان في جوارِ البسوسِ حالةَ جَسَّاسٍ . . . قالت :

لَعَمْرِي لَوْ أَصْبَحْتُ فِي دَارِ مُنْقِذِ لَمَّا ضِيمَ سَعْدُ وَهُوَ جَارٌ لِأَيَاتِي
وَلَكِنِّي أَصْبَحْتُ فِي دَارِ غُرْبَةٍ مَتَى يَعُدُّ فِيهَا الذَّيْبُ يَعُدُّ عَلَيَّ شَاتِي
فَيَا سَعْدُ لَا تَغْرُرْ بِنَفْسِكَ وَارْتَحِلْ فَإِنَّكَ فِي قَوْمٍ عَنِ الْجَارِ أَمْوَاتِ

[ذم القرآن الكريم للمنافقين]

فحميَ عندَ ذلكَ أنفُ جَسَّاسٍ ، ولم يَزَلْ يترصدُ غزاةَ كليبٍ . . . حتَّى قتلهُ ، ودامتِ الحربُ أربعينَ سنةً ، وكانَ ذلكَ قبلَ مبعثِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم بستينَ سنةً ، واللهُ جلَّ شأنه يقولُ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِنَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُؤْتِكُنَّ الْأَوتَارُ ثُمَّ لَا يَصُرُونَ ﴾ [الحشر : ١١-١٢] .

[أصعب السهام التي تأتيك من أخيك وأشد الألام النزيف الداخلي]

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وفي لونٍ آخرٍ من هذا البز^(٢) يقولُ ابنُ الرُّومِيّ [في «ديوانه» ٥/١٩١١]:

تَخَذْتُمْ دِرْعًا حَصِينًا لِتَدْفَعُوا نِيَالَ الْعِدَا عَنِّي فَكُنْتُمْ نِصَالَهَا
وَقَدْ كُنْتُ أَرْجُو مِنْكُمْ خَيْرَ نَاصِرٍ عَلَيَّ حِينَ خِذْلَانِ الْيَمِينِ شِمَالَهَا
فَإِنْ كُنْتُمْ لَا تَحْفَظُونَ مَوَدَّتِي ذِمَامًا فَكُونُوا لَا عَلَيْهَا وَلَا لَهَا^(٣)
قِفُوا وَقِفَةَ الْمَعْذُورِ عَنِّي بِمَعْزِلِ وَخَلُّوا نِيَالِي لِلْعِدَا وَنِيَالَهَا

[مِنَ الْكَامِلِ]

وقال آخر :

أَعَدَدْتُكُمْ لِدِفَاعِ كُلِّ مُلِمَّةٍ عَوْنًا فَكُنْتُمْ عَوْنُ كُلِّ مُلِمَّةٍ
وَتَخَذْتُمْ لِي جُنَّةً فَكَأَنَّمَا نَظَرَ الْعَدُوُّ مَقَاتِلِي مِنْ جُنَّتِي^(٤)
فَلَا تَنْفُضَنَّ يَدِيَّ يَأْسًا مِنْكُمْ

فكانه أسٍ يجسُّ عليه لا

بطأ الثرى مترفقاً من تيهو

(١) الضَّعْفُ : الحِفْدُ .

(٢) البزُّ : السِّلْبُ .

(٣) الدَّمَامُ : كلُّ حرميةٍ تلزمك إذا ضيَّعتها المدممةُ .

(٤) جُنَّةٌ : أي سائرًا .

وقال ابن الرُّومِيّ أيضاً :

[مِنَ الْخَفِيفِ]

خَلْتُكُمْ عُدَّةً لِيَصْرَفَ زَمَانِي فَإِذَا أَنْتُمْ صُرُوفُ زَمَانِي^(١)

وقال آخرُ :

[مِنَ الرَّمَلِ]

رُبَّ مَنْ تَرَجُّو بِهِ دَفْعَ الْأَذَى سَوْفَ يَأْتِيكَ الْأَذَى مِنْ قَبْلِهِ

وقال غيرهُ :

[مِنَ الْخَفِيفِ]

كُنْتُ مِنْ كُرِّيْتِي أَفْرُ إِلَيْهِمْ فَهُمْ كُرِّيْتِي فَأَيْنَ الْفِرَارُ

[الجدار القصير تقفز عليه الكلاب]

وقدمت (مكة) امرأةً وضيئةً ، فاستهام بها ابنُ أبي ربيعة ، وأخذَ يتعرَّضُ لها ، ويؤذيها في المطافِ ، فقالت لبعضِ رجالِها : طُفْ معي ، فلما رآه معها . . انزجر . فقالت :

[مِنَ الْبَسِيطِ]

تَعْدُو الذُّنَابُ عَلَيَّ مَنْ لَا كِلَابَ لَهُ وَتَنَقِّي صَوْلَةَ الْمُسْتَأْسِدِ الْحَامِي

[واحسرتا علي من ليس له أحد]

وللهِ درُّ القائلِ :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَغْضَبْ لَهُ حِينَ يَغْضَبُ فَوَارِسُ إِنْ قِيلَ : اِرْكَبُوا الْمَوْتَ يَرْكَبُوا
وَلَمْ يَخْبُهُ بِالنَّصْرِ قَوْمٌ أَعَزَّةٌ مَقَاحِيمُ فِي الْأَمْرِ الَّذِي يُتَهَيَّبُ
تَهَضَّمَهُ أَدْنَى الْعَدُوِّ وَلَمْ يَزَلْ وَإِنْ كَانَ عَضْبًا بِالظَّلَامَةِ يُضْرَبُ^(٢)

[ثاني اثنين في التنور]

وقيلَ للجاحظِ : لِمَ خذلتَ ابنَ الزياتِ ، وهربتَ منه لما أصابته المِحنةُ ؟ فقالَ : خشيتُ أن يُقالَ : ثانيَ اثنين إذ هما في التَّنُورِ ، وكانت عقوبةُ ابنِ الزياتِ أن عُدَّ في التَّنُورِ الذي كان يُعَدَّبُ به مَنْ شاءَ أن يَنْتَقِمَ منه ، ولحديثِ امرئِ القيسِ مع جاره السَّابِقِ في غيرِ هذا المجلسِ اتصالٌ بالموضوعِ .

واللهُ أعلمُ

* * *

(١) صَرَفُ الزَمَانِ : نَوَابِئُهُ . وقال أحدهم نحوه :

فكانوا لها ولكن للأعادي
فكانوا لها ولكن في فؤادي
فقلت نعم ولكن من ودادي

وإخوان حبيتهم دروعاً
وخلتهم سهاماً صائبات
وقالوا قد صفت منا قلوب

(٢) الْأَعْضَبُ مِنَ الرِّجَالِ : الَّذِي لَا ناصِرَ لَهُ ، وَالْعَضْبُ : السِّيفُ الْقاطِعُ .

المجلس السابع

[قال أبو الطيب المتنبي في « العكبري » ١٦٢ / ٣ :

[من البسيط]

أَحْيَا! وَأَيَسْرُ مَا قَاسَيْتُ مَا قَتَلَا وَالْبَيْنُ جَارَ عَلَيَّ ضَعْفِي وَمَا عَدَلَا

[العجب من الحياة مع قسوة وعسر معاناة أسبابها]

يتعجب من نفسه ؛ إذ بقي على قيد الحياة ، وأيسر ما يلاقيه قاتلٌ ، وإذا كان أيسره قاتلاً . . فما بالك بأعسره ، ثم ذكر أن البين جار على ضعفه وما عدل .

ومن المعلوم أن من جار . . لم يعدل ، غير أنه يريد التأكيد ، ويدعي أنه جار عليه في سائر أحواله ، ولم ينصفه وقتاً ما ، فيمكن أن يدخل إذا تحت قوله جل ذكره : ﴿ أَمَوْتُ غَيْرَ أَحْيَاءٍ ﴾ [النحل : ٢١] ؛ إذ من البدهي أن الميت غير حي ، ولكن المعنى : أموات لا حياة لهم أبداً .

وإسناد الجور إلى البين يحتمل أن يكون حقيقة ، ويحتمل أن يكون مجازاً عقلياً باعتبار جانبه .

[الفراق مر المذاق]

وكيفما كان الأمر . . فالفراق مرُّ المذاق .

[من الكامل]

ولله درُّ القاتل :

يَوْمُ الْفِرَاقِ مِنَ الْقِيَامَةِ أَطْوَلُ وَالْمَوْتُ مِنَ أَلَمِ التَّفَرُّقِ أَجْمَلُ
قَالُوا الرَّحِيلُ ، فَقُلْتُ : لَسْتُ بِرَاحِلٍ لَكِنَّ مُهَجَّتِي الَّتِي تَرَحَّلُ

[الشاب العاشق]

وقد سبق في المجلس الأول عن أبي عثمان الجاحظ حديث الشاب الذي اقترح على يزيد بن عبد الملك أن يسمع غناء جاريته نعمى . ومن تتمته : أن ذلك الشاب كان من أوفر الناس حظاً في المال والجمال ، وأنه اشترى تلك الجارية من (بغداد) بمئة ألف ، وأن الحجاج اغتصبها منه ؛ ليختص بها ، ولما استجهره^(١) جمالها . . استيقن أن سيرتفع أمرها للخليفة ، فوجه بها إليه من ليلته ، فتولاه الشاب ، وانكفاً إلى (الشام) ، وبقي بها مُنكَّد العيش ، مُفَرَّق البال ، مذهب العقل ، يمشي بين الناس في الأسواق مُتمثلاً بقول عبد الله بن عجلان - الآتي ذكره - وهو في « الأغاني » ٢٣٧ / ٢٢ :

[من الطويل]

غَدَا يَكْثُرُ الْبَاكُونَ مِنَّا وَمِنْكُمْ وَتَزْدَادُ دَارِي عَنْ دِيَارِكُمْ بُعْدَا

إلى أن سؤلت له نفسه ما سبق اقتصاصه .

(١) استجهره : كشفه وفضحه .

وَكَمْ نَفْسٍ مِنْ حَرِّهِ مَذَابَةٌ ؟ وَمُهَجَاتٍ حَرَّى^(١) تُقَاسِي عَذَابَهُ ؟

[قصيدة للمؤلف في الموضوع]

وما أحسن ما قلتُ من مرتيةٍ لبعضِ الهلكى في تلكِ السبيلِ^(٢) [في «ديوانِ المؤلفِ» ٥٣٤] : [من الطويل]

ضَعِيفٌ تَوَلَّاهُ الْغَرَامُ بِمِثْلِهِ فَأَسْوَاهُ مِنْ فَرَطِ الْجَفَا بِالضَّنَا الْحُبِّ^(٣)
وَمَاتَ ذَلِيلًا فِي الطَّرِيقِ وَهَكَذَا يَمُوتُ الشَّجِيُّ الْقَلْبِ وَالْوَالِيَهُ الصَّبِّ
وَكَمْ مِنْ قَتِيلٍ نَحْوَهُ فِي سَبِيلِهِ ذَوَى تَحْتَ تَأْيِيرِ النَّوَى غُضْنُهُ الرُّطْبِ^(٤)
مَسَاكِينُ أَهْلِ الْعِشْقِ مَاذَا تَجَرَّعُوا مِنْ الْعِشْقِ ؟ لَكِنْ مُرَّةٌ عِنْدَهُمْ عَذْبُ

[جميل وبشينة]

ولقد سألَ عبدُ المَلِكِ بنُ مروانَ يوماً كثيراً عنَ حالِ جميلٍ وبشينةَ ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ . . سايرتهُ يوماً إليها حتَّى
قربنا منهم ، فأقبلتُ معَ نسوةٍ ، فلَمَّا رأينهُ . . ولَّينَ ، ووقفنا يتحدَاثانِ مِنْ أوَّلِ اللَّيْلِ حتَّى طَلَعَ الفجرُ ، ولمَّا أزمعَ
الرَّحِيلَ . . استدنتهُ ، وساررتُهُ ، فخرَّ مغشياً عليه ، ولمَّا أفاقَ . . أنشدَ [في «ديوانهِ» ١٥٦] : [من الطويل]

فَمَا مَاءٌ مُزِنَ فِي جِبَالٍ مُنِيفَةٍ وَلَا مَا أَكْنَتَ فِي مَعَادِنِهَا النَّحْلُ
بِأَشْهُيَ مِنْ الْقَوْلِ الَّذِي قُلْتِ بَعْدَمَا تَمَكَّنَ مِنْ حَيْزُومِ نَاقَتِي الرَّحْلِ^(٥)

[مصعب بن الزبير يقلد جميلاً]

ودخلَ مُصعبُ بنُ الزُّبَيْرِ يوماً علىَ عائشةَ بنتِ طلحةَ وهيَ طلحةَ وهيَ تمتشطُ وتمثلُ بقولِ جميلٍ [في «ديوانهِ» ٧٠] : [من البسيط]

مَا أَنَسَ ، لَا أَنَسَ مِنْهَا نَظْرَةٌ عَرَضَتْ بِالْحَجْرِ يَوْمَ جَلَّتْهَا أُمُّ مَنْظُورِ

وكانتُ أُمُّ مَنْظُورِ هذهَ موجودةً في سلطانهِ ، فاستحضرها ، واستخبرها عنَ شأنِ البيتِ ، فقالتُ :
كنتُ ماشطةً بئينةَ ، فزيتنتُها يوماً ، وجميلٌ مُقبلٌ علىَ بعيرٍ لهُ ، وموارٍ عليه^(٦) ، فراها بمؤخَّرِ عينهِ ، فأنشدَ البيتَ ،
فأمرها مُصعبٌ أنَ تصنعَ بعائشةَ ما فعلتهُ ببئينةَ ، وصنعَ هوَ مثلَ ما صنعَ جميلٌ .

[جميل يبكي من حب قاتلته]

وفي وجههِ ذلكَ يقولُ جميلٌ [في «ديوانهِ» ١٧٥-١٧٨] : [من الطويل]

لَقَدْ فَرِحَ الْوَأْشُونَ أَنْ صَرَمَتْ حَبْلِي بئينةَ ، أَوْ أَبَدَتْ لَنَا جَانِبَ الْبُخْلِ^(٧)

(١) حرَّى : عطشى .

(٢) الأبيات قالها على سبيل المداعبة عندما رأى كلباً ميتاً على قارعة الطريق .

(٣) أسواه : أحرقه وأهلكه .

(٤) فوى : ذبل .

(٥) الحيزوم : الصدر . الرحل : مركب للبعير والناقة ، والمراد بقوله : (تمكَّنَ مِنْ حَيْزُومِ نَاقَتِي الرَّحْلِ) . . وقت السفر .

(٦) موار : يقال : بعير موار وناقة مواراة ؛ إذا كانت سهلة سريعة السير .

(٧) صرمت : قطعت .

يُقُولُونَ : مَهْلًا يَا جَمِيلُ وَإِنِّي
 إِذَا مَا تَشَاذْنَا الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا
 كِلَانَا بَكَى ، أَوْ كَادَ يَبْكِي صَبَابَةً
 فَيَا وَيْحَ نَفْسِي حَسْبُ نَفْسِي الَّذِي بِهَا
 آيِسْتُ مَعَ الْهَلَاكِ ضَيْفًا لِأَهْلِهَا
 خَلِيلِي فِيمَا عَشْتُمَا هَلْ رَأَيْتُمَا
 لِأَقْسِمُ مَا لِي عَنْ بُيْنَتِهِ مِنْ مَهْلٍ
 جَرَى الدَّمْعُ مِنْ عَيْنِي بُيْنَتَهُ بِالْكُحْلِ
 إِلَى الْفِيهِ فَاسْتَعَجَلْتُ عَبْرَةَ قَلْبِي
 وَيَا وَيْحَ أَهْلِي مَا أَصِيبَ بِهِ أَهْلِي
 وَأَهْلِي قَرِيبٌ مُوسِعُونَ أَوْلُو فَضْلٍ (١)
 قَتِيلًا بَكَى مِنْ حُبِّ قَاتِلِهِ قَلْبِي (٢)

[عفة جميل وقصة موته وموت بئينة]

وعن العباس بن سهل الساعدي [كما في «مصارع العشاق» ١/٣١١] قَالَ : قَالَ لِي رَجُلٌ : هَلْ لَكَ فِي عِيَادَةِ جَمِيلٍ ؛ فَإِنَّهُ مَرِيضٌ ؟ فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ ، فَإِذَا هُوَ يَجُودُ بِنَفْسِهِ ، فَنظَرُ إِلَيَّ ، وَقَالَ : مَا تَقُولُ فِي رَجُلٍ لَمْ يَزِنْ ، وَلَمْ يَشْرَبْ خَمْرًا ، وَلَمْ يَسْفِكْ دَمًا ، يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، مِنْذُ خَمْسِينَ سَنَةً ؟ فَقُلْتُ : مَنْ هَذَا ؟ فَإِنِّي لَا أَرَاهُ إِلَّا نَاجِيًا . قَالَ : أَنَا ، قُلْتُ : وَكَيْفَ ! وَأَنْتَ تُشَبِّبُ (٣) بِبُيْنَتِهِ طِيلَةَ هَذِهِ الْمُدَّةِ ؟ ! قَالَ : أَنَا فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنَ الدُّنْيَا ، لَا نَالَتْنِي شِفَاعَةُ مُحَمَّدٍ . . . إِنْ كُنْتُ وَضَعْتُ يَدِي عَلَيْهَا لَرَبِيَّةٍ ، وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ مِنِّي أَنْ أُسِنِدَ يَدَهَا إِلَى قَلْبِي ، أَسْتَرِيحُ بِهَا سَاعَةً ، ثُمَّ أُغْمِي عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : مَنْ يَنْعَانِي إِلَى بُيْنَتِهِ ، وَلَهُ هَذِهِ الْحُلَّةُ ؟ فَرَأَى رَجُلٌ حَتَّى جَاءَ الْحَيَّ ، فَأَنْشَدَ مَا أَمَرَهُ جَمِيلٌ ، وَهُوَ [في «ديوانه» ١١٩] :

بَكَرَ النَّعِيُّ وَمَا كُنْتُ بِجَمِيلٍ
 قَوْمِي بُيْنَتُهُ فَاَنْدُبِي وَتَهْتِكِي
 وَتَوَى بِمِضْرَ ثَوَاءَ غَيْرِ قُفُولٍ (٤)
 وَأَبْكِي خَلِيلِكَ دُونَ كُلِّ خَلِيلٍ

[مِنَ الطُّوَيْلِ] : [في «مصارع العشاق» ٢/٥٩] :

وَإِنْ سُلُوِي عَنْ جَمِيلٍ لَسَاعَةً
 سَوَاءٌ عَلَيْنَا يَا جَمِيلُ بَنَ مَعْمَرٍ
 مِنَ الدَّهْرِ لَا حَانَتْ وَلَا حَانَ حِينُهَا
 إِذَا مِتَّ بِأَسَاءِ الْحَيَاةِ وَلِينُهَا

ثُمَّ قَالَتْ لِلنَّاعِي : يَا هَذَا ، إِنْ كُنْتَ صَادِقًا . . . فَقَدْ قَتَلْتَنِي ، وَإِنْ كُنْتَ كَاذِبًا . . . فَقَدْ فَضَحْتَنِي ، فَقَالَ لَهَا : وَاللَّهِ إِنِّي لَصَادِقٌ ، وَأَطَّلَعَهَا عَلَى الْحُلَّةِ ، وَكَانَتْ رَأَتْهَا مَعَ جَمِيلٍ ، فَصَرَخَتْ ، وَصَكَّتْ وَجْهَهَا ، وَأَقْبَلَ مَعَهَا النِّسَاءُ يَبْكِينَ ، حَتَّى خَرَّتْ مَغْشِيًا عَلَيْهَا ، وَمَا زَالَتْ تَرَدُّدُ قَوْلَهَا : (وَإِنْ سُلُوِي . . .) الْبَيْتَيْنِ ، حَتَّى مَاتَتْ . لَمْ يُسْمَعْ مِنْهَا سَوَاهُمَا .

[الخلاف في اسم المجنون]

وَأَمَّا الْمَجْنُونُ : فَقَدْ اخْتَلَفَ فِي اسْمِهِ وَنَسَبِهِ .

(١) الْهَلَاكُ : الْفَقْرَاءُ وَالصَّعَالِكُ الَّذِينَ يَنْزِلُونَ بِالنَّاسِ طَلِبًا لِمَعْرِفَتِهِمْ مِنْ سُوءِ الْحَالِ .

(٢) الْفِصَّةُ فِي «الْأَغَانِي» (١١٩/٨) .

(٣) شَبَّ بِالْمَرَاةِ : تَغَزَّلَ بِهَا وَوَصَفَ حُسْنَهَا .

(٤) مَا كُنِّي : مَا سَتَرَ وَلَا تَكَلَّمَ بِصُورَةِ الْكِنَايَةِ . غَيْرِ قُفُولٍ : غَيْرِ رَجُوعٍ .

[قصة حبه ليللي]

والصحيح : أنه عامر بن مُلوح بن مُزاحم ، أحد بني عامر .

وكان إلى أبيه أحبّ بنيه ، ولم يزل في نعمة وثروة ، ونشأ مع ليللي ، فتداخلت بينهما المحبة من الحداثة ، كما قال :

[من الطويل]

تَعَلَّقْتُ لَيْلَى وَهِيَ غِرٌّ صَغِيرَةٌ وَلَمْ يَبْدُ لِلْأْتْرَابِ مِنْ ثَدْيِهَا حَجْمٌ
صَغِيرَيْنِ نَزَعَى الْبُهْمَ يَا لَيْتَ أَنَا إِلَى الْآنَ لَمْ نَكْبُرْ وَلَمْ تَكْبُرِ الْبُهْمُ

[سبب جنونه]

ولم يزل يحادثها . . حتى اشتهر بحبها ، فحجّبوها عنه ، ومنعوه منها ، فخطبها ، ودفع له أبوه خمسين بغيراً وراعيها في مهرها ، فأبى أبوها ؛ لأنفة العرب من تزويج من اشتهر الخاطبُ بهواها ؛ لئلا يصدق الظنُّ ، ويقول الناسُ : إنما أراد ستر ما أخذ من عُذرتها . ولما يئس منها . . قلق قلقاً ذهب بعقله ، فهام على وجهه ، وجزعت هي لذلك جزعاً أدّى إلى سُقمها ، فحجّ بها أهلها ، وزوجوها من ثقيفي خطبها هناك ، بعد أن تكاثرت عليها الخطابُ ، وردّوهم . ولما

[من الطويل]

اتصل به الخبر . . قال [في «ديوانه» ٢٢٧] :

أَلَا إِنَّ لَيْلَى الْعَامِرِيَّةَ أَصْبَحَتْ تَقَطَّعُ إِلَّا مِنْ ثَقِيفِ حِبَالِهَا
هُمُ حَبَسُوهَا مَخْبَسَ الْبُذْنِ وَابْتَغَى بِهَا الْمَالَ أَقْوَامٌ أَلَا قَلَّ مَالُهَا
خَلِيلِي هَلْ مِنْ حِيلَةٍ تَعْلَمَانِهَا فَيُذْنِي بِهَا تَكْلِيمَ لَيْلَى اخْتِيَالِهَا
فَإِنْ أَنْتَمَا لَمْ تَعْلَمَاهَا فَلَمْ أَكُنْ بِأَوَّلِ بَاغِ حَاجَةٍ لَا يَنَالُهَا
كَأَنَّ مَعَ الرَّكْبِ الَّذِينَ اغْتَدَوْا بِهَا غَمَامَةَ صَيْفِ زَعَزَعَتَهَا شَمَالُهَا
إِذَا التَّفَقَّتْ مِنْ خَلْفِهَا وَهِيَ تَعْتَلِي عَلَى الْعَيْسِ جَلَى عَبْرَةَ الْعَيْنِ حَالِهَا^(١)

[لحوقه بالوحوش]

ولما اشتد هيمانه بها . . أشار قومُه على أبيه أن يذهب به (مكة) ؛ علَّ الله يخفف عنه بعض ما به ، فذهبوا به ، وجرت له في حجّه غرائب ، ثم انفلت عليهم ، والتحق بالوحوش ، وأنست به لما طالَّت شعورُه وأظافرُه ، فكان يردُّ معها الماء ، ويأكلُ الشجر ، ويكثرُ من ذكرِ جبل ، كان يرعى به الغنم هو وليلي ، يقال له : (التوبادُ) ، فتارة يشرف على (الشام) ، ويرى ناساً لا يعرفهم ، فيقول لهم : أين (التوبادُ) ؟ فيقولون له : وأينك منه ؟ ويدلونه عليه بالنجوم ، فيشرف على (اليمن) ، ويقع له مع أهله مثل ما وقع له به (الشام) ، إلى أن لاح له (التوبادُ) ،

[من الطويل]

فعرفه ، فقال [في «ديوانه» ٢٧٥] :

وَأَجْهَشْتُ لِلتُّوبَادِ حِينَ رَأَيْتُهُ وَكَبَّرَ لِلرَّحْمَانِ حِينَ رَأَيْتَنِي
وَأَذْرَيْتُ دَمْعَ الْعَيْنِ لَمَّا عَرَفْتُهُ وَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ فَدَعَانِي

(١) القصة في «الأغاني» (٤٤/٢) .

فَقُلْتُ لَهُ قَدْ كَانَ حَوْلَكَ جِيرَةٌ وَعَهْدِي بِذَلِكَ الصَّرْمِ مُنْذُ زَمَانٍ
وَقُلْتُ لَهُ أَيْنَ الَّذِينَ عَاهَدْتَهُمْ بِقُرْبِكَ فِي خَفْضِ وَطِيبِ أَمَانٍ !؟
فَقَالَ : مَضَوْا وَاسْتَوْدَعُونِي دِيَارَهُمْ وَمَنْ ذَا الَّذِي يَتَقَى عَلَى الْحَدَثَانِ (١)
وَإِنِّي لِأَبْكِي الْيَوْمَ مِنْ حَذْرِي غَدًا فِرَاقِكَ وَالْحَيَّانِ مُؤْتَلِفَانِ (٢)

[استثناس المجنون بواحد يروي أشعاره]

ولم يزل كذلك حال عامرٍ مع الوحشِ ، لا يألفُ أحداً مِنَ النَّاسِ ، كما قال ابنُ الفارضِ [في «ديوانه» ٤٠] : [مِنَ الطَّوِيلِ]

وَأَبْعَدَنِي عَنَ أَرْبَعِي بَعْدُ أَرْبَعِ شَبَابِي وَعَقْلِي وَأَرْتِيحِي وَصِحْتِي (٣)
فَلِي بَعْدَ أَوْطَانِي سُكُونٌ إِلَى الْفَلَا وَبِالْوَحْشِ أَنْسِي إِذْ مِنَ الْإِنْسِ وَحْشِي

إِلَّا واحداً ، تَأَلَّفُهُ [أي : المجنون] لنقل أخباره وأشعاره ، فيروى : أَنَّهُ قَالَ لَهُ يَوْمًا : يرحمُ اللهُ قيساً [ابن ذريح] في قوله

[في «ديوانه» ١٠٥] :

تَبَيْتُ وَتَضَحِي كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ عَلَيَّ مَنَهَجٌ تَبْكِي عَلَيْهِ الْقَبَائِلُ
فَقِيلَ لِلْبُنَى صَدَعَ الْحُبُّ قَلْبَهُ وَفِي الْحُبِّ شُغْلٌ لِلْمُحِبِّينَ شَاغِلٌ

فقال أنا أشعرُ منه في قولي :

سَلَبْتُ عِظَامِي لِحَمَّهَا فَتَرَكْتَهَا مُعَرِّقَةً تَضْحَى إِلَيْهِ وَتَضْحَرُ (٤)
وَأَخْلَيْتَهَا مِنْ مُحُّهَا فَكَأَنَّهَا قَوَارِيرُ فِي أَجْوَاهِهَا الرِّيحُ تَصْفُرُ
إِذَا سَمِعَتْ ذِكْرَ الْفِرَاقِ تَقَطَّعَتْ عَلائِقُهَا مِمَّا تَخَافُ وَتَحْذَرُ
خُذِي بِيَدِي ثُمَّ انْهَضِي بِي تَبِينِي بِي الضَّرِّ إِلَّا أَنَّنِي أَنَسَّرُ

وَأَنَّهُ حَرَّكَهُ يَوْمًا بِذِكْرِ شَيْءٍ مِنْ شِعْرِ قَيْسٍ ، فقال له : أنا أشعرُ منه في قولي [كما في «المستطرف» ٨٦/٢] :

فَمَا وَجِدْتُ مَغْلُوبٍ بِصَنْعَاءِ مُوْتِي بِسَاقِيهِ مِنْ ثِقَلِ الْحَدِيدِ كُبُولُ
قَلِيلِ الْمَوَالِي مُسْتَهَامٌ مُرَوِّعٌ لَهُ بَعْدَ نَوْمَاتِ الْعِشَاءِ عَوِيلُ
يَقُولُ لَهُ الْحَدَّادُ : أَنْتَ مُعَذَّبٌ غَدَاةَ غَدٍ أَوْ مُسْلَمٌ فَفَقَيْلُ
بِأَعْظَمَ مِنِّي لَوْعَةَ يَوْمٍ رَاعَنِي فِرَاقُ حَيِّبٍ مَا إِلَيْهِ سَبِيلُ

[موت المجنون]

وَأَنَّهُ قَالَ : لَمْ أَزَلْ أَعَاوِدُهُ إِلَى أَنْ وَجَدْتَهُ يَوْمًا مَيْتًا بَيْنَ الْأَحْجَارِ .

(١) الحدَثَانِ : الليل والنهار .

(٢) القصة في «الأغاني» (٤٩/٢) .

(٣) أَرْبَعِي : جمع رَبْع ، المتزَلُّ .

(٤) المعروفُ : هو عَظْمٌ أُكِلَ اللحم الذي عليه .

وأما عبدُ الله بنُ عجلانٍ . . فإنه من قضاة ، وقد علّقَ بهندُ ابنةَ كعبِ بنِ عمرو بنِ ليثِ النهديّ ؛ وذلك أنه خرج يوماً إلى شُعْبِ مِنْ شُعَابِ (نجد) ينشدُ ضالّةً له ، فشارفَ ماءً يُقالُ له : (نهرُ غسان) ، تقصدهُ بناتُ العربِ وتغتسلُ فيه ، فرأهنَّ من ربوةٍ تشرفُ عليه من بعيدٍ ، فمكثَ ينظرُ إليهنَّ مستخفياً حتّى صدرنَ ، وبقيتَ هندُ تمسّطُ شعرها ، وترسلُهُ على بدنِها ، وكانَ طويلاً جثلاً^(١) ، وهو يتأمّلُ شفوفَ بياضِ جسمِها من خلالِ سوادِ شعرِها ، ولما نهضَ ليركبَ راحلتهُ . . عَجَزَ ، وأقعدَ ساعةً ، وكانَ مِنَ الأيْدِ^(٢) بحيثُ يَصْفُ أربَعِ رواحلَ ، يثبُ الثلاثُ ، ويركبُ الرابعةَ ، فقالَ :

لَقَدْ كُنْتُ ذَا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَهَمَّةٍ إِذَا شِئْتُ لَمَسًا لِلثَّرِيَّا لَمَسْتُهَا
أَتَتْنِي سِهَامٌ مِنْ لِحَاظٍ فَأَرَشَقْتُ بِقَلْبِي وَلَوْ أَسْطِيعُ رَدًّا رَدَدْتُهَا^(٣)

ثمّ قالَ : هذا واللهِ الضالّةُ التي لا تردُّ ، ثمّ عادَ ، وقد تمكّنَ الهوى منه ، فأخبرَ صديقاً له ، فقالَ : اكنم واخطبها إلى أبيها ، فإنه مزوّجك ما لم يشتهر حبك لها ، وإلا . . حُرِمَتْهَا ، ففعلَ وتزوَّجها ، وأقامتَ عندهُ ثماني سنينَ ، لا يزدادُ فيها إلا غراماً وكلفاً ، غيرَ أنّها لم تحمِلْ ، وكانَ أبوهُ ثرياً ، فأقسمَ عليه ليتزوَّجَنَ أُخرى للولدِ ، فأبَتْ مِنَ الضَّرَةِ ، فألحَّ عليه في طلاقِها ، فلم يفعلْ ، حتّى سكرَ ، فأرسلَ إليه يدعوهُ ، فمَنَعَتْهُ هندُ ، وقالتَ : واللهِ لا يدعوكَ لخيرٍ ، وما أراهُ إلا عرفَ سكرِكَ ، فدعاكَ للطلاقِ ، فأبى إلا الخروجَ ، فجادبتهُ ، ويدها مخلقةٌ بالزّعفرانِ ، فأثرتَ في ثوبِهِ ، ولما جلسَ مع أبيهِ ، وعندهُ أكابرُ العربِ . . أخذوا يعنّفونهُ ، ويتناوشونهُ باللّومِ من كلِّ مكانٍ ، حتّى استحيا فطلّقها ، فاحتجبتَ منه فوجدَ وجداً شديداً كادَ يقضي منه ، وعندما أرادتُ أن تتحمّلَ عنهم قالَ [كما في الأغاني « ٢٤٣/٢٢ »] :

خَلِيلِي زُورًا قَبْلَ شَحْطِ النَّوَى هِنْدًا وَلَا تَأْمَنَّا مِنْ دَارِ ذِي لَطْفٍ بُعْدًا^(٤)
وَلَا تَعْجَلَا لَمْ يَدْرِ صَاحِبُ حَاجَةٍ أَعْيَا يُلَاقِي فِي التَّعْجَلِ أَمْ رُشْدًا
وَمُرًّا عَلَيْنَهَا بَارَكَ اللَّهُ فِيكُمَا وَإِنْ لَمْ تَكُنْ هِنْدٌ لِيُوجِهِيكُمَا قُصْدًا
وَقَوْلًا لَهَا لَيْسَ الضَّلَالُ أَجَازَنَا وَلَكِنَّا جُزْنَا لِنَلْقَاكُمْ عَمْدًا
غَدًا يَكْثُرُ الْبَاكُونَ مِنَّا وَمِنْكُمْ وَتَزْدَادُ دَارِي عَن دِيَارِكُمْ بُعْدًا

[موته وموت هند متعاقبين]

ثمّ إنّ هنداً تزوّجتُ في بني نُميرٍ ، وعبدُ الله ينمو شوقهُ ، ويتضاعفُ وجدُه ، وكانتَ بينهم ثاراتٌ ودماءٌ ، فحدّرهُ أبوهُ من الخروجِ إليهم ، فخرجَ سراً ، حتّى أتاهُ ، وهي جالسةٌ على حوضٍ ، وزوجها يسقي إبلًا له ، فلما تعارفا . . شدَّ كُلُّ منهما على صاحبه ، واعتنقا ، وسقطا إلى الأرضِ ، فجاءَ زوجها ، فوجدَهُما ميتينِ .

(١) الجثلُ : هو الضخمُ الغليظُ .

(٢) الأيْدُ : القوّةُ .

(٣) الرّشَقُ : الرميُّ .

(٤) الشحطُ : البعدُ ، اللطفُ : اسم فعل البرِّ والترفق .

[عشق ابن عجلان يضرب به الأمثال]

وكان موته قبل عام الفيل بأربعة أعوام ، وهو ممن تضرب بهم الأمثال في الهوى ؛ ولهذا يقول قيس بن ذريح [في ديوانه ١٢٢] :

فَمَا وَجِدَتْ وَجِدِي بِهَا أُمَّ وَاحِدٍ
وَلَا وَجِدَ الْعُذْرِيَّ عُرْوَةَ فِي الْهَوَى

وقال أبو عيينة :

فَمَا وَجِدَ النَّهْدِيَّ إِذْ مَاتَ حَسْرَةً
وَلَا عُرْوَةَ الْعُذْرِيَّ إِذْ طَالَ وَجْدُهُ
عَشِيَّةً بَانَتْ مِنْ حَبَائِلِهِ هِنْدُ
بِعَفْرَاءَ حَتَّى شَفَّ مُهَجَّتَهُ الْوَجْدُ
وَقَدْ طَارَ عَنْهَا بَيْنَ أَتْرَابِهَا الْبُرْدُ

وقال آخر :

وَقَبْلِي مَاتَ مِنْ وَجْدٍ بِهِنْدٍ
وَعُرْوَةَ وَالْمُرْقَشُ هَامَ دَهْرًا
أَخُو نَهْدٍ وَصَاحِبُهُ جَمِيلٌ
بِأَسْمَاءٍ فَلَمْ يُغْنِ الْعَوِيلُ

فأما النهدي . . فقد اقتضنا حديثه .

[عروة بن حزام وعفراء]

وأما عروة بن حزام . . فإنه عذري ، توفي أبوه ، وله من العمر أربع سنين ، وكفله أبو عفراء ، فنشأ معاً ، فلما استوى . . خطبها إلى عمه ، فوعده ، ثم أخرجته إلى (الشام) في غير له ، وجاء ابن أخ له - يقال له : أئانه بن سعيد بن مالك - يريد الحج ، فرأى عفراء ، فأصابت حبه قلبه ، فخطبها من عمه ، فزوجها إياها ، ولما احتملها . . أقبل عروة ، فعرفها من بعيد ، فقال [في ديوانه ٢٤٤-٢٥] :

بِنَا مِنْ جَوَى الْأَحْزَانِ وَالْبُعْدِ لَوْعَةً
عَشِيَّةً لَا عَفْرَاءَ مِنْكَ بَعِيدَةً
تَكَادُ لَهَا نَفْسُ الْجَلِيدِ تَذُوبٌ^(١)
فَتَسَلُّوْا وَلَا عَفْرَاءَ مِنْكَ قَرِيبُ

وبإثر ذلك اشتد قلقه ، وكثر تعبهُ ، وزاد ضنائه ، وجفاه نومهُ ، وامتنع عليه طعامهُ ، ومرَّ به ابن أبي عتيق ، وهو نضو ، تلاطفهُ أمُّهُ ، فسألها عن شأنه ، فأخبرته ، فقال : ارفعي عنه الغطاء ، فإذا به مثل الخيال ، فرق عليه ، واستنشدهُ ، فأنشدهُ بعض أبياتهِ النونية ، التي يصرِّح فيها بأنَّ عمه اشتطَّ عليه في المهر ، وذلك حيث يقول [في ديوانه ٤٤] :

يُكَلِّفْنِي عَمِّي ثَمَانِينَ نَاقَةً
وَمَالِي وَالرَّحْمَانَ غَيْرُ ثَمَانِ

[موت عروة وعفراء]

ولما أيس من الشفاء . . حمل إلى (البلقاء) ، حيث يشم رائحة عفراء ، ويسارقها النظر في مظان ورودها ، ولم يزل

(١) الجوى : شدة الوجد من العشق أو الحزن .

هناك حتى عرفه رجلٌ من عذرة ، فجاء إلى زوج عفراء ، وقال له : متى قدم عليكم هذا الكلب الذي فضحككم بنسيبه فيكم ، قال : ومن تعني ؟ قال : عروة بن حزام ، قال : والله لأنت أحمق بما قلت فيه ، وأسرع في طلبه حتى لقيته ، وأقسم عليه بالمحرّجات ألا ينزل إلا عنده ، فأجابته ، وأضمر في نفسه أن يركب الليل ، فمضى ، واشتد به الألم ، ومات بـ (وادي القرى) ، ولما اتصل موته بعفراء . . استأذنت زوجها في نديه والخروج إلى قبره ، فأذن لها ، وعندما وصلت إليه تمرّغت عليه ، وقالت :

[من الطويل]

ألا أيّها الركبُ المُخبئون ويحكّم
فإن كان حقاً ما تقولون فأعلموا
فلا لقي الفتيان بعدك راحة
ولا وضعت أنثى تماماً بمثله
بحق نعيثم عروّة بن حزام^(١)
بأن قد نعيثم بدر كل ظلام
ولا رجعوا من غيبة سلام
ولا انفرجت من بعده بسلام

[الشجرتان المتعانقتان]

وما فرغت من شعرها إلا وألقت بنفسها على القبر ، فحرّكها أصحابها ، فإذا هي ميتة ، فدفنوها إلى جانبه ، فنبت من القبر شجرتان ، التفتا لما صارتا على حدّ القامة بهيئة المتعانقتين^(٢) .

[رواية للأصفهاني عن عروة]

وأخرج أبو الفرج [في «الأغاني» ١٣٧/٢٤] من طريق الكلبي عن أبي صالح قال :

كنت مع ابن عباس بـ (عرفة) ، فحمل إليه فتى لم يبق إلا خياله ، فقالوا : ادع له ، قال : وما به ؟ قالوا : الهوى ، ثم خفق في أيديهم ، فما رأيت ابن عباس في عشيتي يسأل الله إلا العافية ممّا ابتلي به الفتى ، وسألت عنه ، فقالوا : عروة بن حزام ، وهذه الرواية تناقض التي قبلها ، والأولى أثبت ، وأذكر في الناس .

[المرقش والخلاف في اسمه وشجاعته]

وأما المرقش : فالمراد به الأكبر ، واسمه عمرو ، وقيل : عوف بن سعد بن مالك ، ينتهي نسبه لبكر بن وائل ، وإنما سمّي المرقش ؛ لقوله [كما في «البيان والتبيين» ١٩٦/١] :

[من الكامل]

الدار وحش والرُسوم كما
رقش في ظهر الأديم قلم^(٣)

أو لأنه قتل نمرأ وأسداً ومرّ بالحيّ ملتجفاً جلدئيهما فسمّوه .

[عشقه لأسماء بنت عوف]

وله ذكر في حرب وائل ومكان فيها ، وبأس وشجاعة ونجدة ، وكان من خبره [كما في «مصارع العشاق» ٢٢٧/١] : أنه عشق ابنة عمّه أسماء بنت عوف ، فخطبها ، فقال : لا أزوجك حتى تعرف بالأس ، وأعطاه الموائيق ، فانطلق

(١) المخبئون : المضطربون ، ولهذا نتيجة الخبب ، وهو ضرب من العذو .

(٢) القصّة بنحوها في «مصارع العشاق» (٣١٧/١) .

(٣) الرقش : الكتابة والتنقيط .

المرقش إلى بعض الملوك ، وأقام عنده زماناً يمدحُه ، فأكرم مثواه ، وأجازَه ، وأصاب عوفاً محلّ وجهد ، فأتاه رجلٌ من مراد ، فزوجه أسماء على مئة من الإبل ، ثم تنحى عن بني سعد بن مالك ، وأخذ امرأته معه ، وجاء المرقش ، وانتقأ أهله على أن لا يخبروه بزواجها ، وأجمعوا على أن يقولوا له : ماتت ، وبقي الأمر على ذلك مدة ، وأثر الضنى يظهر عليه ، حتى استيقن دخلة^(١) الأمر من بعض الصبيان ، فدعى بوليدة له وزوج لها من بني عقيل ، واحتملوا معاً إلى (اليمين) ، واشتد به المرض في الطريق ، فأنزلوه بكهف يقرب من أرض مراد ، ثم انصرفا عنه ، وقالوا : مات ، ولم يزل بذلك الكهف ، حتى أقبل عليه راعي غنم ، فسأله عن شأنه ، فقال : أنا من مراد ، وأنت راعي من ؟ قال : راعي فلان - لزوج أسماء - قال : هل تستطيع أن تكلم امرأة صاحبك ؟ قال : لا ، ولا أدنو منها ، غير أن جارتها تأتيني كل ليلة فأحلب لها ما تشاء ، فقال له : خذ خاتمي هذا ، فإذا حلّبت . فاجعله في اللبن ، فإنها ستعرفه ، وستصيب به خيراً لم يصبه راع قط ، وفعل ، وانطلقت الجارية باللبن ، وتركته بين يدي أسماء ، فلما سكنت الرغوة . . أخذته ، فشربته ، وكذلك كانت تصنع ، ففرع الخاتم ثنتيها ، فأخذته ، وعرفته ، فسألت عنه الجارية ، فقالت : لا علم لي به ، فاستدعت زوجها ؛ ليستفهم العبد عن الخاتم ، فأخبرهم بمن دفعه له ، وأنه في الكهف بأخر رمق ، فركبت مع زوجها في الخيل ، حتى طرفاه ، واحتملاه إلى الحي ، ومات عندهم في أرض مراد .

[هناك مرقش آخر هو عم طرفة بن العبد]

ولهم مرقش آخر : هو ابن أخي الأول ، وهو عم طرفة بن العبد ، وهو من عشاق العرب أيضاً ، كان يهوى فاطمة بنت المنذر الملك ، وكان يُشَبَّبُ بها ، وكانت له في حرب وائل مواقف لا تقل عن مواقف عمه^(٢) .

[حالة الحديث عن ابن ذريح إلى مكان آخر]

وأما قيس بن ذريح . . فسترك حديثه إلى الكلام على قول الناظم (في «المكبري» ١٦٥/٣) :

عَلَّ الْأَمِيرَ يَرَى ذُلِّي فَيَشْفَعُ لِي إِلَى الَّتِي تَرَكَتْنِي فِي الْهُوَى مَثَلًا
فَإِنَّ لَهُ بِهِ اتِّصَالًا قَوِيًّا ، وما ذكرناه هنا كافٍ لمناسبة تعجبه من العيش مع كثرة ما يجورُ البين ، ويقتل الهوى ،
وما أحسن قول عروة (في «ديوانه» ٢٦) :

وَمَا عَجَبِي مَوْتُ الْمُحِبِّينَ فِي الْهُوَى وَلَكِنْ بَقَاءُ الْعَاشِقِينَ عَجِيبٌ
وقول قيس بن ذريح أو ابن الدُمَيْنَةِ على اختلاف الرواية (في «ديوان قيس بن ذريح» ٤٣) :

وَفِي عُرْوَةِ الْعُذْرِيِّ إِنْ مُتُّ أَسْوَةٌ
فَبِي مِثْلُ مَا قَدْ نَابَهُمْ غَيْرَ أَنَّنِي
وَفِيضُ دُمُوعِ الْعَيْنِ بِاللَّيْلِ كُلَّمَا
وَعَبْدٍ بِنِ عَجْلَانَ الَّذِي قَتَلْتُ هِنْدُ
إِلَى أَجَلٍ لَمْ يَأْتِنِي وَقْتُهُ بَعْدُ
بَدَا عَلَمٌ مِنْ أَرْضِكُمْ لَمْ يَكُنْ يَبْدُو

* * *

(١) الدخلة : باطن الأمر وحقيقته .

(٢) كما في «الأغاني» (١٣٦/٦) .

وَالْوَجْدُ يَقْوَى كَمَا تَقْوَى النَّوَى أَبْدًا وَالصَّبْرُ يَنْحَلُ فِي جِسْمِي كَمَا نَحَلًا

[من دلائل صدق الهوى ذوبان الجسم في الحب]

يقول : إِنَّ الْوَجْدَ يَقْوَى ، وَالنَّوَى يَزِيدُ ، وَالصَّبْرَ يَذْهَبُ ، وَالْجِسْمَ يَنْحَلُ ، وَهَذَا دَلِيلُ صِحَّةِ الْهَوَى وَصِدْقِ الْحَبِّ .

قال المجنون [في «ديوانه» ٩٨-٩٧] :

وَلَمْ يَنْقُ إِلَّا الْجِلْدُ وَالْعَظْمُ عَارِيًا وَلَا عَظْمَ لِي إِنْ دَامَ مَا بِي وَلَا جِلْدُ
أَقْلَبُ بِالْأَيْدِي وَقَوْمِي تَعُولُنِي يُفَدُونَنِي لَوْ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَفْدُوا^(١)

[أيزيد أم ينقص الحب ؟]

وقال [في «مصارع العشاق» ٩١/٢] :

ذَكَرْتُ عَشِيَّةَ الصَّدْفَيْنِ لَيْلِي وَكُلَّ الدَّهْرِ ذَكَرَاهَا جَدِيدُ^(٢)
عَلَيَّ إِلِيَّةٌ إِنْ كُنْتُ أَذْرِي أَيَنْقُصُ حُبُّ لَيْلِي أَمْ يَزِيدُ^(٣)

وقال قيس بن ذريح [في «ديوانه» ٦٦] :

وَلِلْحُبِّ آيَاتٌ تَبَيَّنُ لِلْفَتَى سُحُوبٌ وَتَبْرَى مِنْ يَدَيْهِ الْأَشَاجِعُ^(٤)

وقال جميل [في «ديوانه» ٦٤-٦٣] :

عَلِقْتُ الْهَوَى مِنْهَا وَلَيْدًا وَلَمْ يَزَلْ إِلَى الْيَوْمِ يَنْمُو حُبُّهَا وَيَزِيدُ
وَأَفْنَيْتُ عُمْرِي فِي انْتِظَارِ نَوَالِهَا وَأَفْنَتْ بِذَلِكَ الدَّهْرَ وَهُوَ جَدِيدُ

[الحب النامي]

وقال هو أو قيس [كما في «ديوان قيس بن ذريح» ١٢٣] :

تَعَلَّقَ رُوحِي رُوحَهَا قَبْلَ خَلْقِنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا كُنَّا نَطَافًا وَفِي الْمَهْدِ
فَزَادَ كَمَا زِدْنَا وَأَصْبَحَ نَامِيًا وَلَيْسَ إِذَا مِتْنَا بِمُنْفِصِمِ الْعَفْدِ
وَلَكِنَّهُ بَاقٍ عَلَيَّ كُلِّ حَادِثٍ وَإِنَّا لَنَرْجُو الْوَصْلَ فِي ظِلْمَةِ اللَّحْدِ

(١) الإعالة : المساعدة .

(٢) الصدفان : جبلان متلاقيان ، كثر عن بعدها .

(٣) الألية : الحلقة واليمين .

(٤) الأشاجع : هي أصول الأصابع التي تتصل بعصب ظاهر الكف .

وقال كثيرٌ [في «ديوانه» ١٠٢] :

[مِن الطَّوِيلِ]

بِعَزَّةٍ كَانَتْ غَمْرَةً فَتَجَلَّتِ^(١)

فَلَا يَحْسَبِ الْوَأْشُونَ أَنَّ صَبَابِي

وقال ذو الرُّمَّةِ [في «ديوانه» ١١٩٥/٢] :

[مِن الطَّوِيلِ]

نَصِيكَ مِنْ قَلْبِي لِغَيْرِكَ يُمْنَحُ
وَحُبُّكَ عِنْدِي يَسْتَجِدُّ وَيَرْجَحُ

تَصَرَّفُ أَهْوَاءُ الْقُلُوبِ وَلَا أَرَى
فَبَعْضُ الْهَوَىٰ بِالْهَجْرِ يُمَحَىٰ فَيَنْمَحِي

وقال المجنونُ أو غيرهُ [في «ديوانه» ٢٤٨] :

[مِن الطَّوِيلِ]

تِلْمٌ وَلَا يُنْسِيكَ عَهْدًا تَقَادُمُهُ^(٢)

أَجْدَكَ لَا تُنْسِيكَ لَيْلَىٰ مُلْمَةٌ

[الحب الصادق لا يبلى مدى الدهر]

[مِن الْوَافِرِ]

أما قولُ زهيرِ بنِ جَنَابٍ :

فَأَكْمِرْ دُونَهُ عَدَدَ اللَّيَالِي
وَلَا أَبْلَىٰ جَدِيدًا كَأَبْتِذَالِ

إِذَا مَا شِئْتَ أَنْ تَنْسَىٰ حَبِيبًا
فَمَا سَلَىٰ حَبِيبًا مِثْلُ نَأِي

[مِن الطَّوِيلِ]

فقد رَدَّ عليه جميلُ بنُ معمرٍ في قوله [في «ديوانه» ٢٩٣] :

وَجَدْنَا طَوَالَ النَّأِي لِلْحُبِّ شَافِيَا

لَحَا اللَّهُ أَقْوَامًا يَقُولُونَ : إِنَّا

[مِن الطَّوِيلِ]

وهذا البيتُ موجودٌ أيضاً في قصيدةِ المجنونِ المشهورةِ ، وبعدهُ [في «ديوانه» ٢٩٣] :

تَرُدُّ عَلَيْنَا بِالْعَشِيِّ الْمَوَاشِيَا^(٣)
وَأَعْلَاقُ لَيْلَىٰ فِي فُوَادِي كَمَا هِيََا^(٤)

وَعَهْدِي بِلَيْلَىٰ وَهِيَ ذَاتُ مُؤَشَّرِ
فَشَبَّ بُنُو لَيْلَىٰ وَشَبَّ بُنُوَائِنَهَا

[القلب العاشق لا يعرف الملل]

[مِن الْبَسِيطِ]

وقال ابنُ زيدونٍ [في «ديوانه» ٦٥] :

إِنْ طَالَمَا غَيَّرَ النَّأِي الْمُحِبِّينَا
مِنْكُمْ وَلَا انصَرَفَتْ عَنْكُمْ أَمَانِينَا

لَا تَحْسَبُوا نَأْيَكُمْ عَنَّا يُغَيِّرُنَا
وَاللَّهِ مَا طَلَبْتَ أَهْوَاؤُنَا بَدَلًا

[مِن الْوَافِرِ]

وقد نظرَ فيه إلى قولِ الحارثِ بنِ كلدةٍ يعاتبُ أصحابه :

فَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ لَهَا جَوَابُ
وَطَوَّلَ الْعَهْدِ أَمْ مَالًا أَصَابُوا
وَفِيهِ حِينٌ يَغْتَرِبُ انْقِلَابُ

كَتَبْتُ إِلَيْهِمْ كُتُبًا مِرَارًا
فَمَا أَذْرِي أَعْيَرَهُمْ تَنَاءً
فَمَنْ يَكُ لَا يَدُومُ لَهُ وَصَالُ

(١) الغمرة: الشدة .

(٢) أجدك: سبقت ، ومن معانيها أجدك بالتخفيف ، أو ما لك ؟ .

(٣) المؤشَّر: المرَّقق . وفي الديوان : (ذات مؤصد) ، وهو : القميص الصغير الذي يلبس تحت الثوب . والمعنى : أنها صغيرة .

(٤) أعلاق : جمع علق ، وهو ما تعلق به القلب .

فَعَهْدِي دَائِمٌ لَهُمْ وَوُدِّي عَلَى حَالٍ إِذَا شَهِدُوا وَغَابُوا

وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ إِسْحَاقَ^(١) - وَهُوَ مَوْلَى بَنِي مِرَّةَ بْنِ عَوْفٍ - :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

بِقَلْبِي بَلَاءٌ لَسْتُ أَحْسِنُ وَصَفَهُ تَمُرٌ بِهِ الْأَيَّامُ تَسْحَبُ ذَيْلَهَا
عَلَى أَنَّهُ مَا كَانَ فَهُوَ شَدِيدٌ قَتَبَلَى بِهِ الْأَيَّامُ وَهُوَ جَدِيدٌ

[قصائد للمؤلف في رثاء ولده]

[مِنَ الْوَافِرِ]

وَيَنْخَرِطُ فِي السَّلِكِ قَوْلِي مِنْ رِثَاءِ وَلَدِي بَصْرِيِّ ، فِي اللَّامِيَّةِ [كما في «ديوان المؤلف» ق ٩٦] :

وَعِنْدَ الصَّدَمَةِ الْأُولَى تَرَانِي فَكَذَّبْتُ الَّذِي قَدْ قَالَ قَبْلِي
صَبَرْتُ وَبَعْدَهَا قَلَّ اخْتِيَالِي وَقَرَّبَ لِي الْبَعِيدَ مِنَ الْمُحَالِ
(إِذَا مَا شِئْتُ أَنْ تَنْسَى حَبِيبًا فَأَكْثِرُ دُونَهُ عَدَّ اللَّيَالِي)

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَقَلْتُ فِي الرَّائِيَّةِ [كما في «ديوان المؤلف» ق ٩٥] :

وَحَدٌّ لَيْدٍ فِي الْبُكَاءِ لِمِثْلِهِ وَلِي نَوْعٌ سَلَوْتُ بِاعْتِقَادِي نَجَاتَهُ
مِنَ الشَّيْبِ أَمَا ذَا . . . فَمُبْكِي إِلَى الْحَشْرِ وَمَا أَنَا رَاجٍ فِي اخْتِسَابِي مِنَ الدُّخْرِ
فَمَا زَالَ مَلَانًا بِتَمَثِيلِهِ سِرِّي وَعَيْنِي وَمِنْ رِيَاءٍ فِي الْأَنْفِ كَالْعَطْرِ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَقَلْتُ مِنَ اللَّزُومِيَّةِ :

لِحَوْلَيْنِ مَرًّا مِنْ فِرَاقِكَ يَا بَصْرِي فَبِتْنَا وَمَا زَلْنَا إِلَى الْيَوْمِ فِي أَسَى

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَقَلْتُ فِي الدَّالِيَّةِ [كما في «ديوان المؤلف» ق ١٠٠-١١٠] :

شُجُونٌ عَلَى الْأَحْشَاءِ ذَاكَ وَقُودُهَا تَمُرٌ اللَّيَالِي وَهِيَ تَزْدَادُ جِدَّةً
تَكَادُ حَصَاةُ الْقَلْبِ تَنْشَقُّ لَوْعَةً كَأَنَّ فَضَاءَ اللَّهِ فِي ثَقَبِ إِبْرَةِ
كَأَنَّ خَرِيْقَ الرِّيحِ يَهْفُو بِمُهْجَتِي مُصَابٌ لَهُ دَمْعِي عَزَاءً وَمَخْجَرِي
فِيَا طَلَعَةً كَانَ الْوَيْثُرُ فِرَاشَهَا وَإِنْ قَدَّمْتَ أَسْبَابَهَا وَعُهُودُهَا
كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ إِلَّا قَرِيْبًا وَجُودُهَا لِلْعَاجِ أَحْزَانٌ طَوِيلٌ خُلُودُهَا^(٢)
عَلَيَّ فَأَنْفَاسِي شَدِيدٌ صُعُودُهَا لِتَذْكَارِ بَصْرِي مِنْ هُمُومِ تَعُودُهَا
قَرِيْحٌ وَأَشْجَانِي تَوَالِي وَفُودُهَا^(٣) تَوَسَّدَتِ الصَّخْرَ الْأَصَمَّ خُدُودُهَا^(٤)

(١) وهي عند الجاحظ لأبي يعقوب الخريمي كما في «البيان والتبيين» (١٢٦/١) .

(٢) اللعج : الهمُّ المحرقُ من الحبِّ .

(٣) المَخْجَرُ : العينُ .

(٤) الفراشُ الوَيْثُرُ : المحشُوُّ المريحُ .

وقلتُ في خطابِ جيرانه - وهم أجدادُهُ لأُمَّه - مِنَ الميميةِ [في «ديوانِ المؤلفِ» ق ١٠٣] :

فَهَلْ كَانَتْ وَدِيعَتَنَا لَدَيْكُمْ مَكْرَمَةً بِرَعْيِي وَاخْتِرَامِ
فَبَيْنَ جَوَانِحِي مِنْهَا لَهَيْبٌ وَمِنْ جَفَنِي صَوْبُ الدَّمْعِ هَامِي
كَأَنَّ حَشَاءَنَا فِيهِنَّ سُمَّ يُقَطِّعُهُنَّ أَوْ وَخَزُ السَّهَامِ
أَرَدْنَا مِنْ خَوَاطِرِنَا سُلوًا فَقُلْنَا لَنَا : السُّلوُ مِنْ الحَرَامِ
وَإِنْ غِيَّى لَهْ حَوْلًا لِيِيْدُ فَرَأَى أَحْيى هُذَيْلٍ لِلْقِيَامِ

أرذتُ قولَ ليبيدٍ :

إِلَى الحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيَكُمَا وَمَنْ يِيْكَ حَوْلًا كَامِلًا فَقَدِ اعْتَذَرُ

وقولُ أبي صخرِ الهذليِّ [في «ديوانِ الحماسة» ٦٦/٢] :

وَيَا حُبَّهَا زِدْنِي جَوَى كُلِّ لَيْلَةٍ وَيَا سَلْوَةَ الأَيَّامِ مَوْعِدِكَ الحَشْرُ

وَإِنِّي لأَكَاثِرُ التَّهَامِيَّ بِمَا قُلْتُهُ فِي رثَاءِ وَلَدِي بَصْرِيٍّ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ عَن ذَوْقِ سَلِيمٍ ، وَلذَعِ فِي الصَّمِيمِ ، وَلَا يَظْهَرُ صَدْقُ قَوْلِي إِلَّا لِمَنْ بَرُمَتْهَا رَأَاهَا ، إِذِ القَدْرُ الَّذِي كَانَ مَحَلَّ الشَّاهِدِ هُنَا لَيْسَ مِنْ ذُرَاهَا ، وَإِنِّي لَكَمَا قَالَ أَبُو تَمَّامٍ [في «ديوانه» ١٧١/٢] :

وَيْسِيءُ بِالإِحْسَانِ ظَنًّا لَا كَمَنُ هُوَ بِإِيْنِهِ وَبِشَعْرِهِ مَفْتُونُ

غَيْرَ أَنَّ الحَقَّ لَا يَتَلَمَّسُ ، وَالصَّدَقَ مَنْ قَالَهُ لَا يَتَأَمَّمُ .

[بيت من الشعر يخرج الأحوص من السجن]

وقالَ الزُّهْرِيُّ : دَعَانِي يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ ، وَقَدْ غَنَّتْهُ حَبَابَةٌ بِهَذَا [في «ديوانِ الأحوص» ٢٤٩/٢] :

إِذَا رُمْتَ عَنْهَا سَلْوَةَ قَالَ شَافِعُ مِنْ الحُجْبِ مِيعَادُ السُّلوُ المَقَابِرُ
سَبَيْقِي لَهَا فِي مُضْمَرِ القَلْبِ وَالْحَشَا سَرِيرَةٌ وَذُو يَوْمٍ تُبْلَى السَّرَائِرُ

وقالَ : لِمَنْ هَذَا ؟ فَقُلْتُ : لِلأَحْوَصِ ، وَهُوَ فِي سَجْنِكُمْ ، فَأَمَرَ بِإِطْلَاقِهِ ، وَأَنْ تُدْفَعَ لَهُ أَرْبَعُ مِئَةِ دِينَارٍ ، ثُمَّ اسْتَقْدَمَهُ ، وَأَحْسَنَ جَائِزَتَهُ . وَإِنَّهُ لِأَهْلٍ لِمَا صَنَعَ بِهِ فِي هَذِهِ الرِّقَّةِ وَالإِحْسَانِ .

[ومن العجيب أن البيت نفسه يكون سبباً في حرمانه العفو]

وَمِنَ العَجَبِ ! أَنَّ هَذَا البَيْتَ كَانَ سَبَبَ حِرْمَانِهِ العَفْوِ مِنْ عَمْرِ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَشَبُّ بِنِسَاءِ ذَوَاتِ أَخْطَارٍ مِنَ المَدِينَةِ ، فَرُفِعَ أَمْرُهُ إِلَى سَلِيمَانَ بْنِ عَبْدِ المَلِكِ ، فَنَفَاهُ إِلَى (دَهْلَك) ، فَأَقَامَ بِهَا سُلْطَانَهُ ، وَلَمَّا وَلى عَمْرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ . . . كَتَبَ إِلَيْهِ يَسْتَعِظِفُهُ ، وَيَقُولُ لَهُ [كما في «الأحوص - حياته وشعره» ١٨٤] :

وَكَيْفَ تَرَى لِلْعَيْشِ طِيْبًا وَكَدَّةً وَخَالِكَ أَمْسَى مُوثِقًا فِي الحَبَائِلِ

وَكَلَّمَهُ فِيهِ رِجَالٌ مِنَ الأَنْصَارِ ، فَقَالَ لَهُمْ : مِنَ القَائِلِ : (سَبَيْقِي لَهَا فِي مُضْمَرِ القَلْبِ وَالْحَشَا) . . . البَيْتَ ؟ قَالُوا :

هو ، قَالَ : إِنَّهُ عَنْهَا يَوْمئِذٍ لَمَشْغُولٌ ، وَاللَّهِ لَا أَرُدُّهُ مَا كَانَ لِي سُلْطَانٌ^(١) .

[تعليق المؤلف على القصة]

والذي فعله يزيدُ أدنى إلى الصواب ، وأشبهُ بسيرة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، فقد تَمَنَّى أَنْ لو كَانَ النَّضْرُ حَيًّا . فوهبه لقتيلة ؛ لَمَّا اهْتَزَّ مِنْ شَعْرِهَا الْمَعْرُوفِ^(٢) ، مَعَ أَنَّ قَتْلَهُ لَمْ يَكُنْ إِلَّا عَدْلًا ، وَلَكِنَّهُ أَرَادَ لو لَمْ يَسْبِقِ السِّيفُ الْعَدْلَ^(٣) أَنْ يَغْمِرَهُ فَضْلًا .

[متى يجوز العفو عن التعزير ؟]

وقالَ فقهاؤُنَا : بجوازِ العفوِ عَنِ التعزيرِ إِذَا عفا صاحِبُهُ ، أَوْ كَانَ لِحَقِّ اللهِ تَعَالَى ؛ عَلَيَّ أَنَّ الْأَحْوَصَ قَدْ تَجَوَّزَ بِهِ حَدُّ الْعُقُوبَةِ ، فَمَا سَبِيلُهُ إِلَّا أَنْ يَتَمَثَّلَ لِابْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بِقَوْلِ أَبِي عُبَادَةَ :

[مِنَ الْبَسِيطِ]

إِذَا مَحَاسِنِي اللَّاتِي أَدَلُّ بِهَا صَارَتْ ذُنُوبًا فَقُلْ لِي كَيْفَ أَعْتَذِرُ

[شكوى الفراق وحفظ العهد]

وَمِمَّا يُعْجِبُنِي فِي شِكْوَى الْفِرَاقِ ، وَحَفْظِ الْعَهْدِ ، قَوْلُ جَمِيلِ بْنِ مَعْمَرٍ [فِي « دِيْوَانِهِ » ١٥٢-١٥٣] :

[مِنَ الْخَفِيفِ]

مَنَعَ النَّوْمَ شِدَّةَ الْإِشْتِيَاقِ وَادَّكَارَ الْحَيْبِ يَوْمَ الْفِرَاقِ
لَيْتَ شِعْرِي إِذَا بُيِّنَتْ بَانَتُ هَلْ لَنَا بَعْدَ بَيْنَهَا مِنْ تَلَاقِي
وَلَقَدْ قُلْتُ يَوْمَ نَادَى الْمُنَادِي مُسْتَحِجًّا بِرِحْلَةٍ وَأَنْطِلاقِ
لَيْتَ لِي الْيَوْمَ يَا بُيِّنَتْ مِنْكُمْ مَجْلِسًا لِلْوَدَاعِ قَبْلَ الْفِرَاقِ
حَيْثُ مَا كُنْتُمْ وَكُنْتُ فَإِنِّي غَيْرُ نَاسٍ لِلْعَهْدِ وَالْمِيثَاقِ

[البين يفتت الأكباد]

وَإِذَا كَانَ الْبَيْنُ بِمَجْرَدِهِ يُذِيبُ الْجَمَادَ ، وَيَفْتَتُّ الْأَكْبَادَ . . . فَمَا بِاللَّكِّ بِالْبَيْنِ الَّذِي لَا يَرْجِعُ صَدَاهُ ، وَلَا يَنْتَهِي مَدَاهُ ؛ وَلِهَذَا قَالَ النَّازِمُ [فِي « الْمَكْبَرِيِّ » ٣ / ٧٥] :

[مِنَ الْبَسِيطِ]

فَمَا صَبَابَةٌ مُشْتَقِي عَلَيَّ أَمَلٍ مِنْ اللَّقَاءِ كَمُشْتَقِي بِلَا أَمَلٍ

[كثير وقبر عزة]

وقالَ كَثِيرٌ ، وَهُوَ وَاقِفٌ عَلَيَّ قَبْرِ عَزَّةَ [فِي « دِيْوَانِهِ » ٤٦٤] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَقَفْتُ عَلَيَّ قَبْرِ لِعَزَّةَ نَاقَتِي وَفِي الْبُرْدِ رَشَاشٌ مِنَ الدَّمْعِ يُسْفَحُ
فَيَا عَزُّ أَنْتِ الْبَدْرُ قَدْ حَالَ دُونَهُ ثُرَابٌ وَوَارَاهُ الصَّفِيحُ الْمُضْرَحُ
وَقَدْ كُنْتُ أَبْكِي مِنْ فِرَاقِكَ حَيَّةً وَأَنْتِ لِعَمْرِي الْيَوْمَ أَنْأَى وَأَنْزَحُ

(١) القصة في « طبقات فحول الشعراء » (٢/ ٦٥٧) ، و« الأغاني » (٤/ ٢٤٤) .

(٢) والنضْرُ هو ابنُ الحارثِ ، وكانَ مِنْ أَكْثَرِ الْمُؤَذِّنِينَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَقَتْلَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، بَعْدَ أُسْرِهِ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ .

(٣) الْعَدْلُ : هُوَ قَبُولُ اللُّومِ وَالاعْتِنَادِ ، وَقَوْلُهُ : سَبَقَ السِّيفُ الْعَدْلَ ، مِثْلُ يُضْرَبُ لِمَا قَدْ فَاتَ ، وَأَصْلُ ذَلِكَ : أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ ظَالِمٍ ضَرَبَ رَجُلًا قَتَلَهُ ، فَأَخْبِرَ بَعْدَهُ فَقَالَ : سَبَقَ السِّيفُ الْعَدْلَ .

فَلَا زَالَ رَمْسٌ ضَمَّ عَزَّةَ سَائِلًا بِهِ نِعْمَةً مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تُسْفَعُ^(١)

[القلب الخافق]

[مِن الطَّوِيلِ]

وقال قيسُ [بنُ ذريح في «ديوانه» ٦٤-٦٥] :

وَلَوْلَا رَجَاءُ الْقَلْبِ أَنْ تَعْطِفَ النَّوَى لَهُ وَجَبَاتُ إِثْرِ لُبْنَى كَأَنَّهَا
لَمَّا حَمَلَتْهُ بَيْنَهُنَّ الْأَصَالِعُ شَقَائِقُ بَرْقٍ فِي سَحَابٍ لَوَامِعُ^(٢)

[لا ينفع الوطن بلا سكن]

[مِن البسيطِ]

وقال الشريفُ أبو جعفرٍ ، مسعودُ بنُ عبدِ العزيزِ بنِ المحسنِ بنِ الحسنِ البياضيِّ في مجردِ الرثاءِ :

خَلَّ الْوُقُوفَ عَلَى الْأَطْلَالِ وَالذَّمَنِ
أَمَّا تَرَانِي لَا أَتْنِي عَلَى طَلَلٍ
وَكَيْفَ يَأْتِسُّ قَلْبِي بِالذِّيارِ وَقَدْ
إِنَّ الَّذِينَ أَذَاقُونِي فِرَاقَهُمْ
لِلَّهِ مَنْ لَعِبَتْ أَيْدِي الْمُنُونِ بِهِ
جَعَلْتُ رُوحِي لَهُ مِنْ رُوحِهِ عَوْضًا
فَصَارَ كَالْحَيِّ إِذْ رُوحِي تُحِيطُ بِهِ
فَلَيْسَ يَنْفَعُ مَسْكُونٌ بِلَا سَكَنِ
بَعْدَ الْفِرَاقِ وَلَا أَوْيَ إِلَى وَطَنِ
أَصَابَ فِيهَا الرَّدَى مَنْ كَانَ يُؤَسِّنِي
أَفْنَيْتُ بَعْدَهُمْ دَمْعِي مِنَ الْحَزَنِ
ضَنًّا بِمَا فِيهِ أَنْ يَتَّقَى عَلَى الزَّمَنِ
مُقِيمَةً مَعَهُ فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ
وَصِرْتُ كَالْمَيْتِ إِذْ لَا رُوحَ فِي بَدَنِي

يقولها في جارية لبنتِ فخرِ الدولة هامَ بها ، حتَّى شاعَ أمرُهُ ، فمرضتُ . . فمرض ، ولمَّا ماتتُ . . لمَ يعيشَ بعدها إلاَّ أياماً يسيرةً .

[خمرة العاشق ريق الحبيب]

وأوردَ ابنُ حَلِّكَانَ [في «وفيات الأعيان» ١٩٨/٥] لَهُ قَصِيدَةٌ لَا بَأْسَ بِإِيرَادِ شَيْءٍ مِنْهَا ؛ لِأَنَّهَا لَا تَخْرُجُ عَنْ مَوْضِعِ الْبَحْثِ

[مِن الْكَامِلِ]

في الْجُمْلَةِ ؛ إِذْ هِيَ فِي شَكْوَى الْفِرَاقِ ، قَالَ :

إِنْ غَاضَ دَمْعُكَ وَالرَّكَابُ تَسَاقُ
لَا يَبْعُدُنْ زَمَنٌ مَضَتْ أَيَّامُهُ
أَيَّامَ نَرْجِسِنَا الْعُيُونُ وَوَرْدُنَا
وَلَنَا بِزُورَاءِ الْعِرَاقِ مَوَاسِمُ
فَلَيْنَ بَكَتْ عَيْنِي دَمًا شَوْقًا إِلَى
أَيِّنَ الْمَصَابِيحِ الْأَلَى لَوْلَاهُمْ
شَنُّوا الْإِغَارَةَ فِي الْقُلُوبِ بِأَعْيُنِ
وَاسْتَعَذَّبُوا مَاءَ الْعُيُونِ فَعَذَّبُوا
وَنَمَى الْحَدِيثُ بِأَنَّهُمْ نَذَرُوا دَمِي
أَوَّلِي دَمَ يَوْمِ الْفِرَاقِ يُرَاقُ !؟
مَعَ مَا بِقَلْبِكَ : فَهُوَ مِنْكَ نِفَاقُ
وَعَلَى مُتُونِ غُصُونِهِ أَوْرَاقُ
خَمْرُ الْخُدُودِ وَخَمْرُنَا الْأَرْيَاقُ
كَانَتْ تَقَامُ لِطَيْبِهَا الْأَسْوَاقُ
ذَلِكَ الزَّمَانِ فَمِثْلُهُ يُشْتَرَقُ
مَا كَانَ طَعْمُ هَوَى الْجَمَالِ يُذَاقُ
لَا يُرْتَجَى لِأَسِيرِهَا إِطْلَاقُ
عُشْرَاقٍ حَتَّى دَرَّتِ الْأَمَاقُ

(١) الرمس : القبر .

(٢) وجب القلب : اضطرب .

وَمِنَ الْقِحَّةِ (١) مَا رُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ : أَنَّ مِنَ الْأَدَبِ أَلَّا يُعْزَى الرَّجُلُ فِي زَوْجَتِهِ . وَمَا رُوِيَ : أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ زِيَادٍ سَأَلَ أَبَا بَكْرَةَ عَنْ مَوْتِ الْأَهْلِ ، فَقَالَ : مَوْتُ الْأَبِ قَاصِمَةُ الظَّهْرِ ، وَمَوْتُ الْوَالِدِ صَدْعٌ فِي الْفؤَادِ ، وَمَوْتُ الْأَخِ قَصُّ الْجَنَاحِ ، وَمَوْتُ الزَّوْجَةِ حَزْنٌ سَاعَةٌ . . . فَإِنَّهُ أَنْكَرُ وَأَقْبَحُ مِمَّا سَبَقَ مِنْ قَوْلِ زَهِيرِ بْنِ جَنَابٍ ، وَمُخَالَفٌ مَعَ ذَلِكَ لِفُحْوَى قَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم : ٢١] ؛ إِذْ كَيْفَ السُّلْوَانُ يَكُونُ لِمَنْ ذَهَبَ مَعَ الْفِهِ السُّكُونُ ؟

[شدة وفاء النبي صلى الله عليه وسلم للسيدة خديجة]

وَلَقَدْ كَانَ حَزْنُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَلَى خَدِيجَةَ شَدِيدًا ، بَايَةً أَنَّهُ سَمَّى عَامَ مَوْتِهَا عَامَ الْحَزَنِ ، وَكَانَتْ لَا تَخْرُجُ عَنْ لِسَانِهِ مَدَّةَ حَيَاتِهِ ، حَتَّى غَارَتْ عَائِشَةُ مِنْ ذَلِكَ ، فَقَالَتْ يَوْمًا : مَا تَذَكَّرُ مِنْ عَجُوزِ حَمْرَاءِ الشُّدْقِيِّنَ ، قَدْ هَلَكَتْ فِي غَابِرِ الدَّهْرِ ، وَأَبْدَلَكَ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهَا ، قَالَ : « مَا أَبْدَلَنِي اللَّهُ خَيْرًا مِنْهَا ، لَقَدْ آمَنْتُ بِبِي إِذْ كَفَرَبِي النَّاسُ ، وَصَدَّقْتَنِي حِينَ كَذَّبَنِي النَّاسُ ، وَأَشْرَكَتَنِي فِي مَالِهَا حِينَ حَرَمَنِي النَّاسُ ، وَرَزَقَنِي اللَّهُ مِنْهَا الْوَالِدَ ، وَحَرَمَنِي وَلَدَ غَيْرِهَا » (٢) .

وَإِنْ كَانَ لِيَذْبُحُ الشَّاةَ فَيَبِيعُ بِهَا فِي خِلَائِلِهَا ، وَتَدْخُلُ عَلَيْهِ الْعَجُوزُ الشَّوَاهَاءَ فَيَنْعَمُ الْإِقْبَالَ عَلَيْهَا ، وَالتَّفْتِيحَ لَهَا ، وَيَسْأَلُهَا عَنْ كُلِّ كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ مِنْ شَأْنِهَا ، وَيَقُولُ : « إِنَّهَا كَانَتْ تَأْتِينَا فِي أَيَّامِ خَدِيجَةَ ، وَإِنَّ حُسْنَ الْعَهْدِ مِنَ الْإِيمَانِ » (٣) .

وَكَانَتْ لَهُ عِيَّةٌ نُصِحَ (٤) ، وَوَزِيرَةٌ صَدِيقٍ ، وَكَانَ لَا يَسْمَعُ مَا يَسُوءُهُ . . . إِلَّا فَرَّجَ اللَّهُ بِهَا عَنْهُ ، فَتَشَبَّهُهُ وَتَصَدَّقَهُ ، وَتَخَفَّفَ عَنْهُ ، وَتَهَوَّنَ عَلَيْهِ مَا يَلْقَى مِنْ قَوْمِهِ ، وَتَشَجَّعَهُ عَلَى الْمَضِيِّ فِي سَبِيلِ مَا هُوَ بِصَدْدِهِ .

عَلَى أَنَّنَا لَا نَدْعِي أَنْ جِنْسَهَا سَوَاءٌ فَفَرَّقَ بَيْنَهُنَّ بَعِيدُ
فَمِنْهُنَّ جَنَاتٌ تَفِيءُ بِظِلِّهَا وَمِنْهُنَّ نَيْرَانٌ لَهُنَّ وَقِيدُ (٥)

[رثاء المؤلف لزوجته الأولى]

وَمَا أَحْسَنَ مَا قَلْتُ مِنْ قَصِيدَةٍ رَثَيْتُ بِهَا أَوَّلَ زَوْجٍ لِي مَاتَتْ : [مِنَ الْكَامِلِ]

فَقَدْ الْأَلَيْفِ هُوَ الْغَرَامُ وَإِنَّمَا يَذْرِي بِهِ أَهْلُ الْوَفَا أُمَّثَالِي

وَذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَتَأَثَّرُ بِالْفِرَاقِ إِلَّا أَهْلُ النُّفُوسِ الْكَرِيمَةِ ، أَلَا تَرَى أَنَّكَ لَوْ رِبَطْتَ حَمَارًا بِجَانِبِ فَرَسٍ ، ثُمَّ فَرَّقْتَ بَيْنَهُمَا فَإِنَّ الْحَمَارَ لَا يَتَأَثَّرُ وَلَكِنَّ الْفَرَسَ تَكْثُرُ الْحَنِينَ .

[الأم بيت قالته العرب]

وَقَدْ قَالُوا : إِنَّ الْأُمَّ بَيْتَ قَالَتْهُ الْعَرَبُ . . . قَوْلُ إِبرَاهِيمَ بْنِ الْعَبَّاسِ الصَّوَلِيِّ ، أَوْ مُسْلِمِ بْنِ الْوَالِدِ ، عَلَى اخْتِلَافٍ فِي

(١) الْقِحَّةُ : الْعَيْبُ الشَّدِيدُ ، أَوْ الْوَقَاحَةُ .

(٢) أَخْرَجَهُ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي « مَسْنَدِهِ » (٢٤٨٦٤) وَالطَّرِيقَانِي فِي « الْكَبِيرِ » (٢٢/٢٣) ، وَبَنُوهُ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ (٣٨٢١) تَلْقِيفًا ، وَمُسْلِمٌ (٢٤٣٧) فِي فِضَائِلِ الصَّحَابَةِ . حَمْرَاءُ الشُّدْقِيِّنَ : أَي سَقَطَتْ أَسْنَانُهَا لِكَبَرِ سِنِهَا حَتَّى ظَهَرَتْ الْحَمْرَةُ فِي شَدْقِهَا .

(٣) أَخْرَجَهُ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الْحَاكِمُ فِي « مُسْتَدْرَكِهِ » (٦٢/١) وَالْبَيْهَقِيُّ فِي « شُعْبِ الْإِيمَانِ » (٩١٢٢) .

(٤) الْعِيَّةُ : أَصْحَابُ السَّرِّ .

(٥) الْبَيْتَانِ مِنَ الطَّوِيلِ .

لَا يَمْنَعَنَّكَ خَفْضَ العَيْشِ فِي دَعَاةٍ
تَلْقَى بِكُلِّ بِلَادٍ إِنْ أَقَمْتَ بِهَا
نُزُوعُ نَفْسِي إِلَى أَهْلِ وَأَوْطَانِ
أَهْلًا بِأَهْلِ وَجِيرَانًا بِجِيرَانِ

[اقتداء المتنبّي به]

ولئن اقتفاه الناظم في مثل قوله [في «العكبري» ٢/٣٢٠] :

وَمَا بَلَدُ الْإِنْسَانِ غَيْرُ الْمُوَافِقِ
[وَلَا أَهْلُهُ الْأَذْنُونَ غَيْرُ الْأَصَادِقِ]

وقوله [في «العكبري» ٣/٢١٢] :

فِي سَعَةِ الْخَافِقِينَ مُضْطَرَبٌ
وَفِي بِلَادٍ مِنْ أُخْتِهَا بَدَلٌ

وقوله [في «العكبري» ١/١٩١] :

غَنِيٌّ عَنِ الْأَوْطَانِ لَا يَسْتَفْرِزُنِي
إِلَى بَلَدٍ سَافَرْتُ عَنْهُ إِيَابُ

[تكفيره عن نفسه]

. . . فقد كَفَرَ عن كلِّ سَيِّئَةٍ زَلَفَهَا فِي هَذَا السَّبِيلِ بَيْتَهُ الَّذِي هُوَ كَالغُرَّةِ الشَّادِخَةِ مِنَ الْكَمْتِ^(١) ، أَوِ الْقَرْحَةِ^(٢) الواضحة

مِنَ الدُّهْمِ ، أَلَا وَهُوَ قَوْلُهُ [في «العكبري» ٤/٢٨٤] :

حُلِقْتُ أَلُوفًا لَوْ رُدِدْتُ إِلَى الصَّبَا
لَفَارَقْتُ شَيْبِي مُوجِعَ الْقَلْبِ بَاكِيًا^(٣)

[الحكمة عند أمية بن أبي الصلت]

وقال أمية بن عبد العزيز ابن أبي الصلت الداني الأندلسي :

إِذَا كَانَ أَصْلِي مِنْ تَرَابٍ فَكُلُّهَا
وَلَا بُدَّ لِي أَنْ أَسْأَلَ الْعَيْسَ حَاجَةً
بِلَادِي وَكُلُّ الْعَالَمِينَ أَقَارِبِي
تَشُقُّ عَلَيَّ شُمُّ الذَّرَى وَالْغَوَارِبِ^(٤)

فَأَصَابَ فِي الثَّانِي ، وَأَخْطَأَ فِي الْأَوَّلِ .

[من لزوميات المؤلف]

ومن لزومياتي [كما في «ديوان المؤلف» ق ٤٦-٤٥] :

مَا إِنْ تَذَكَّرْتُ مِنْ دَهْرِي الَّذِي أَنْصَرَمَا
وَلَوْ مَضَى رَعْدٌ فِي الْعَيْشِ أَنْدُبُهُ
إِلَّا وَأَذَكَيْ بِأَحْشَائِي الْجَوَى ضَرَمَا
أَوْ لَوْ عَلِمْتُ الَّذِي أَرْتِي فَلَا جَرَمَا
لَكِنِّي لَمْ أَزَلْ مُذْ كُنْتُ فِي مَحْنٍ
قَبْلَ الْكُهُولَةِ سَاقَتْ لِلْقَوَى الْهَرَمَا

(١) الغرّة الشادخة : البيضاء الواسعة . الكمت : الفرس الذي لونه بين الأحمر والأسود .

(٢) الأقرح : الذي في جبهته بياض بقدر الدرهم فما دونه .

(٣) قال الواحدي في شرح «ديوان المتنبّي» : هذا البيت رأس في صحّة الألف ، وذلك أنّ كلّ واحد يتمنّى مفارقة الشيب . أما هو فيقول : لو فارقت شيبتي إلى الصبا . . . لبيك عليه ؛ لالفي إيّاه إذ حُلِقْتُ أَلُوفًا .

(٤) الغوارب : جمع غارب ، وهو الأعلى من كلّ شيء .

فَكَرْتُ فِي مُقْتَضَى هَذَا الْحَيْنِ فَلَمْ
 إِنَّ الْكَرِيمَ حَنُونٌ كَيْفَ كَانَ كَمَا
 وَرَبَّمَا اسْتَشَعَرْتُ نَفْسُ اللَّيْبِ عَلَيَّ
 جَاءَتْ مِنَ الْمَلَأِ الْأَعْلَى مُدْبِرَةً
 أَعْرِفُهُ لَأَهْمٌ إِلَّا الْإِلْفَ وَالْكَرَمَا^(١)
 أَنَّ اللَّيْمَ إِذَا اسْتَعْنَى امْتَلَى وَرَمَا
 غِلْظِ الْحِجَابِ بِأَنَّ قَدْ فَارَقْتُ حُرْمَا
 لِلْجِسْمِ وَالْعُودُ مَضْمُونٌ إِذَا انْخَرَمَا

ولا أضجُرُ بما لي في هذا الموضوعِ مِنَ الأشعارِ ، فإنَّها كثيرةٌ جداً .

[دموع الأسف في ديوان السيد الحداد]

وما أرقُّ نسيمَ مولانا عبد الله بن علويِّ الحدادِ ؛ فإنَّ « ديوانه » ممتلئٌ بدموعِ الأسفِ على فراقِ الأحبابِ ، حتَّى لقد
 كانَ جدِّي المحسنُ يسمِّيهِ : النائحةَ الثكلِي ، ومِن ذلك قولُهُ في رثاءِ زوجِهِ :

وَلَا تَنْسَ مَا بَيْنَ الْقُبُورِ بِزَنْبِلِ
 تَضَمَّنَ إِلْفًا صَالِحًا وَمُبَارَكًا
 دَفَنْتُ بِهِ مَنْ فِيهِ رُوحِي وَرَاحَتِي
 فَيَا رَحْمَةَ الرَّحْمَانِ زُورِيهِ وَاعْكُفِي
 وَقُولِي لَهُ : إِنَّا عَلَى الْعَهْدِ وَالْوَفَا
 لِقَبْرِ بَقْلِي ذِكْرُهُ قَطُّ لَا يُنْسَى
 فَأَكْرِمْ بِهِ قَبْرًا وَأَكْرِمْ بِهِ رَمْسًا
 فَعَادَ أَغْضُ الْعَيْشِ مِنْ بَعْدِهِ يَبْسَا
 عَلَيَّ قَبْرِهِ حَتَّى تَطْيِيْبِي لَهُ نَفْسًا
 وَإِنَّ الْفَنَاءَ قَدْ عَمَّ الْجَنِّ وَالْإِنْسَا

[قصائد للمؤلف في رثاء ولده بصري والبكاء عليه]

وَلَا أَلُومُ سَلِيمَانَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ ، إِذْ لَادَ بِالْدموعِ حِينَ كَادَ يَنْفَطِرُ قَلْبُهُ عَلَيَّ وَلِدِهِ أَيُّوبَ ، فَقَدْ دَفَنْتُ مِثْلَهُ عَلَيَّ وَلَدِي
 بَصْرِي ، وَأَكْثَرْتُ فِيهِ مِنَ الْمَرَاثِي ، كَمَا عَلِمَ مَرًّا ، وَقُلْتُ [كما في « ديوان المؤلف » ق ٩٦] :

وَمَا زَالَ حَرْبٌ بَيْنَ صَبْرِي وَرَحْمَتِي
 وَقَدْ أَنْكَرُوا فِعْلَ الْفُضَيْلِ وَمَشِيَهُ
 وَخَيْرُ الْوَرَى فِي غَيْرِ مَا مَوْقِفِ ذَرَى
 لَهُ وَالْأُمُّ الْمُؤْمِنِينَ وَصَهْرِهِ
 وَإِنِّي لَرَاجٍ فِيهِمَا كَامِلَ الْأَجْرِ
 لِدَفْنِ ابْنِهِ فِي جَبْرَةِ ضَاِحِكَ الثَّغْرِ^(٢)
 وَبَلَّ الثَّرَى دَمْعًا يُفُوقُ عَلَيَّ الدَّرَّ
 وَسِبْطِيهِ وَالزَّهْرَا صَلَاةً بِلَا حَضْرٍ

[من الكامل]

ولا أزالُ أتمثلُ بقولِ ديكِ الجنِّ [في « ديوانه » ٩٣] :

لَوْ كَانَ يَذْرِي الْمَيْتُ مَاذَا بَعْدَهُ
 غُصَصٌ تَكَادُ تَفِيضُ مِنْهَا نَفْسُهُ
 بِالْحَيِّ مِنْهُ بَكَى لَهُ فِي قَبْرِهِ
 وَيَكَادُ يَخْرُجُ قَلْبُهُ مِنْ صَدْرِهِ

[من الطويل]

وقولِ العُدْرِيّ [عروة بن حزام في « ديوانه » ٣٩] :

كَأَنَّ قَطَاةً عُلِقَتْ بِجَنَاحِهَا
 عَلَيَّ كَبِدِي مِنْ شِدَّةِ الْحَفَقَانِ

(١) لَأَهْمٌ : لغة في (اللَّهْم) .

(٢) الْفُضَيْلُ : هو الفضيل بن عياض ، والأمر الذي أنكره عليه هو ما رواه القشيري في « الرسالة » (٨٥ / ١) قال :

قال أبو علي الرازي : صحبت الفضيل ثلاثين سنة ، ما رأيته ضاحكاً ، ولا مبتسماً . . إلا يوم مات ابنه علي ، فقلت له في ذلك !! فقال : إن الله أحبُّ أمراً فأحببت ذلك الأمر .

وقول الآخر :

[مِن المنسرح]

كَأَنَّ قَلْبِي إِذَا تَدَكَّغَرُهُ فَرِيَسَةٌ يَبْنَسَاعِدِي أَسَدٍ

[مِن الوافر]

وإني وإن كنتُ قليلَ الزَّيَارَةِ لَهُ كَمَا قُلْتُ مِنَ اللَّامِيَةِ [كما في «ديوان المؤلف» ق ٩٨] :

بِوُدِّي أَنْ أُوْرِكَ كُلَّ يَوْمٍ فَقَلَّ عَلَيَّ زِيَارَتِكَ اِخْتِمَالِي
إِذَا عَايَنْتُ قَبْرَكَ كَادَ قَلْبِي يَطِيرُ فَأَنْثَنِي لَا عَن مَلَالٍ

[مِن الطويل]

فكلما رأيتُه تمثلَ لي قولُ المعريِّ [في «سقط الزند» ٦٥] :

فَوَأْ قَبْرُ! وَاهٍ مِنْ تُرَابِكَ لَيْنًا عَلَيْهِ وَآهٍ مِنْ جَنَادِلِكَ الْخُشْنِ^(١)
لَأَطْبَقْتَ إِطْبَاقَ الْمَحَارَةِ جَفْنَهَا بِلُؤْلُؤَةِ الْمَجْدِ الْجَدِيدَةِ بِالْخَزْنِ

[مِن البسيط]

وقول الآخر [مقاتل بن عطية كما في «المستطرف» ٥٩٢/٢] :

كَانَ الْوَزِيرُ نِظَامَ الْمَلِكِ جَوْهَرَةً مَكْنُونَةً صَاغَهَا الْبَارِي مِنَ الشَّرَفِ
عَزَّتْ فَلَمْ تُذْرِكِ الْأَيَّامُ قِيَمَتَهَا فَرَدَّهَا غَيْرَةً مِنْهُ إِلَى الصَّدْفِ

[مِن الطويل]

وشيءٌ من هذا لا يخالف قولَ معنِ بنِ أوسٍ يمدحُ ابنَ عَبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُمَا [في «شعره وحياته» ١٦٧] :

وَإِنَّكَ فَرَعٌ مِنْ قُرَيْشٍ وَإِنَّمَا تَمْجُ النَّدَا مِنْهَا الْبُحُورُ الْفَوَارِعُ
ثَوْرًا قَادَةً لِلنَّاسِ بِطَحَاءِ مَكَّةَ لَهُمْ وَسِقَايَاتُ الْحَجِيجِ الدَّوَائِعُ
وَلَمَّا دُعُوا لِلْمَوْتِ لَمْ تَبِكِ مِنْهُمْ عَلَى حَادِثِ الذَّهْرِ الْعُيُونِ الدَّوَامِعُ

[مِن الطويل]

ولا ما سبقَ في المجلسِ الثالثِ مِنْ قولِ أَبِي الهَيْدَامِ :

وَإِنَّا أَنْاسٌ مَا تَفِيضُ عُيُونُنَا عَلَى هَالِكٍ مِنَّا وَإِنْ قَصَمَ الظُّهْرَا

[مِن البسيط]

ولا ما مرَّ أواخرَ المجلسِ السادسِ مِنْ قولِ بَشَامَةَ بنِ حَزْنٍ :

وَلَا تَرَاهُمْ وَإِنْ جَلَّتْ مُصِيبَتُهُمْ مَعَ الْبُكَاءِ عَلَى مَنْ مَاتَ يَبْكُونَا

[مِن الطويل]

وقولِ الأميرِ تَمِيمِ بنِ الْمُعِزِّ :

وَبِي كُلِّ مَا يُبْكِي الْعُيُونَ أَقْلُهُ وَإِنْ كُنْتُ مِنْهُ دَائِمًا أَنْبَسَمُ

وإنما هو من قبيل التداوي بإرسال الدموع في الخلا ، حسبما قررناه ، وذكرنا الشواهد عليه في المجلس السادس .

[التداوي بإرسال الدموع]

وما زالت الأشرافُ تنفثُ بما لا بأسَ فيه خشيةً أَنْ تنفطرَ القلوبُ ، وتتقطعَ الأكبادُ ، ولكنها تحرِّصُ جهدها على أَنْ

[مِن الطويل]

لا يشعرَ الناسُ بذلكَ ؛ ولهذا يقولُ امرؤُ القيسِ [في «ديوانه» ٧٣] :

ظَلَلْتُ رِدَائِي فَوْقَ رَأْسِي حَاسِرًا أَعْدُ الْحَصَى مَا تَنْقِضِي عَبْرَاتِي

(١) الجناديلُ : الحجارةُ .

وَقَالَ أَبُو فِرَاسٍ [في «ديوانه» ١٤٢] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

إِذَا اللَّيْلُ أَضْوَانِي بَسَطْتُ يَدَ الْهَوَىٰ
وَأَذَلَّتْ دَمْعًا مِنْ خَلَائِقِهِ الْكِبْرُ^(١)

[الحرص على التكتّم بالبكاء]

وَمِمَّا يُوَكِّدُ حِرْصَهُمْ عَلَى التَّجَلُّدِ وَالتَّكْتُمِ بِالْبِكَاءِ مَتَى اضْطُرُّوا إِلَيْهِ . . . قَوْلُ الْمَجْنُونِ [في «ديوانه» ٢٩٦] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَأَبْكَيْتُمَانِي بَيْنَ صَخْبِي وَلَمْ أَكُنْ
أَبَالِي دُمُوعَ الْعَيْنِ لَوْ كُنْتُ خَالِيَا

فَإِنَّهُ مَعَ مَضْرِبِ الْمَثَلِ بِهِ فِي الْوَجْدِ وَالْهَيْامِ لَا يَزَالُ يُؤَثِّرُ التَّسْتُرَ ، وَيَتَكَلَّفُ التَّجَلُّدَ .

وَخَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ . . . مَا اقْتَصَّهُ اللَّهُ جَلَّ ذِكْرُهُ عَلَيْنَا مِنْ حَالِ سَيِّدِ الْمَفْجُوعِينَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا سَفِيحَىٰ

يُوسُفَ وَأَبْيَضْتَ عَيْنَاهُ مِنْ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [يوسف : ٨٤] فَقَدْ أَبَتْ لَهُ الشَّهَامَةُ أَنْ يَظْهَرَ أَمَامَ وَلَدِهِ بِمَظْهَرِ الْحُزْنِ حَتَّى

فَارَقَهُمْ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ .

[الفناء عن الناس عند السادة الصوفية]

أَمَّا مَا يُؤَثِّرُ عَنِ السَّادَةِ الصُّوفِيَّةِ مِنَ الْفَنَاءِ فِي الْمَحَبَّةِ عَنِ النَّاسِ . . . فَإِنَّهُ لَوْنٌ آخَرٌ ، وَمِنْهُ قَوْلُ سُلْطَانِ الْعَاشِقِينَ [في

[مِنَ الطَّوِيلِ]

«ديوانه» ٤٦] :

فَأَبْتَشْتُهَا مَا بِي وَلَمْ يَكْ حَاضِرِي
رَقِيبٌ بَقَا حَاظٍ بِخَلْوَةٍ جَلْوَةٍ^(٢)

[الفرزدق يرثي ولده وأم ولده]

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَأَمَّا قَوْلُ الْفِرْزَدِقِ [في «ديوانه» ٨٩٤/٢] :

وَجَفَنَ سِلَاحٍ قَدْ رُزِنْتُ فَلَمْ أَنْحِ
عَلَيْهِ وَلَمْ أَبْعَثْ لَدَيْهِ الْبَوَاكِيَا

وَفِي جَوْفِهِ مِنْ دَارِمٍ ذُو حَفِيفَةٍ
لَوْ أَنَّ الْمَنَايَا أَمْهَلَتْهُ لِيَايَا^(٣)

. . . فَلَا يَخْلُو مِنَ الْقَسْوَةِ ؛ إِذْ لَمْ يَذْكَرِ الْحُزْنَ وَلَا دَمْعَ الْعَيْنِ جَمَلَةً ، وَإِنْ لَمْ يُصْرِّحْ بَانْتِفَائِهِمَا وَلَكِنَّ الشُّعْرَ نَظِيرَ الْخَلْوَةِ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

يَبَاحُ فِيهِ مَا يَبَاحُ فِيهَا ، كَمَا قُلْتُ [في «ديوان المؤلف» ٦٩] :

وَمَا فِي اقْتِصَاصِي وَاقِعَ الْحَالِ وَصَمَّةٌ
لَدَى عَارِفِي سِرِّ الْإِحَالَةِ فِي الشُّعْرِ

[القلب هو قبر الحبيب]

وَمِنْ أَرْقِ الرِّثَاءِ وَأَبْعَثِهِ لِلْأَشْجَانِ ، قَوْلُ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ الزِّيَّاتِ فِي أُمِّ وَلَدِهِ [في «الأغاني» ٥٨/٢٣] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

يَقُولُ لِي الْخُلَّانُ : لَوْ زُرْتَ قَبْرَهَا
فَقُلْتُ : وَهَلْ غَيْرُ الْفُؤَادِ لَهَا قَبْرُ ؟!

[البكاء هو الدواء]

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقوله :

فَلَا تُلْجِحَانِي إِنْ بَكَيْتُ فَإِنَّمَّا
أُدَاوِي بِهِذَا الدَّمْعِ مَا تَرَيَانِي

(١) أضواني : أتاني .

(٢) حَاظٍ : اسمُ فاعِلٍ مِنْ حَظِي ؛ أَي : صَاحِبِ حَظٍ . الْجَلْوَةُ : مِنَ جَلْوَةِ الْعُرُوسِ ، وَهِيَ : عَرَضُهَا عَلَى زَوْجِهَا مَجْلُوءَةً .

(٣) دَارِمٌ : هُوَ ابْنُ مَالِكِ بْنِ حَنْظَلَةَ أَبُو حَيٍّ مِنْ تَمِيمٍ وَهُوَ جَدُّ الْفِرْزَدِقِ .

لَقَدْ كَانَ مِنْ قَلْبِي بِكُلِّ مَكَانِي
جَلِيدٌ فَمَنْ بِالصَّبْرِ لَابِنِ ثَمَانٍ ؟
وَلَا يَأْتِسِي بِالنَّاسِ فِي الْحَدَثَانِ
لِعَثْرَةِ أَيَّامِي وَحَرْبِ زَمَانِي
وَإِنْ غَبْتُ عَنْهُ حَاطِنِي وَرَعَانِي

وَإِنَّ مَكَاناً فِي الثَّرَى خُطَّ لَحْدُهُ
وَهَبْنِي عَزَمْتُ الصَّبْرَ عَنْهَا لِأَتْنِي
ضَعِيفُ الْقُوَى لَا يَعْرِفُ الْأَجْرَ حُسْبَةً
أَيَا مَنْ أَمْنِيهِ الْمُنَى وَأَعُدَّهُ
وَيَا مَنْ إِذَا مَا جِئْتُ أَكْرَمَ مَجْلِسِي

[الفوادح تجفف الدموع]

[مِنْ الطَّوِيلِ]

وَفَادِحَةٌ لَمْ تَبْقِ لِلْعَيْنِ مَدْمَعَا
فَلَلَّاهِ هَمٌّ مَا أَشَدَّ وَأَوْجَعَا
وَإِلَّا فَلَيْتَ الْمَوْتَ أَذْهَبَنَا مَعَا

وَقَالَ عَزُّ الْمَلِكِ الْأَمِيرُ الْمُخْتَارُ الْمَسْبُحِي يَرِثِي أُمَّ وَلَدِهِ :

أَلَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَلْبٌ تَقَطَّعَا
أَصْبِرْ أَوْ قَدْ حَلَّ الثَّرَى مِنْ أَوْدُهُ ؟
فَيَا لَيْتَنِي قُدِّمْتُ لِلْمَوْتِ قَبْلَهَا

[مِنْ الطَّوِيلِ]

فَمُنْنَا جَمِيعاً أَوْ لَقَّاسَمَنِي عُمْرِي

وَالْأَخِيرُ شَبِيهٌ بِقَوْلِ التَّهَامِيِّ [في «ديوانه» ٤٧٩] :

فَوَاللَّهِ لَوْ أَسْطِيعُ قَاسَمْتُهُ الرَّدَى

وَمَا أَدْرِي أَيُّهُمَا أَخَذَ عَنِ الْآخِرِ ؛ فَإِنَّهُمَا مُتَعَاصِرَانِ .

[حياة عزيزة وموت مشرف]

[مِنْ الطَّوِيلِ]

بُطُونُ الثَّرَى وَاسْتُودِعَ الْبَلَدُ الْقَفْرُ
وَإِنْ أَجْدَبْتَ يَوْماً فَأَيْدِيهِمُ الْقَطْرُ
وَمَوْتُهُمْ لِلْفَاحِرِينَ بِهِمْ فَخْرُ
وَصَارُوا بِبَطْنِ الْأَرْضِ فَاسْتَوْحَشَ الظُّهْرُ

وَيَعْجِبُنِي قَوْلُ بَعْضِهِمْ وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو عَلِيٍّ الْقَالِي عَنِ ابْنِ دُرَيْدٍ عَنْ أَبِي حَاتِمِ السَّجِسْتَانِيِّ [في «أماله»] :

أَلَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَاذَا تَضَمَّنْتَ
بُدُورٌ إِذَا الدُّنْيَا دَجَّتْ أَشْرَقَتْ بِهِمْ
حَيَاتُهُمْ كَانَتْ لِأَعْدَائِهِمْ عَمَى
أَقَامُوا بِظَهْرِ الْأَرْضِ فَاخْضَرَ سَهْلُهَا

[قصيدتان لتبهيح العواطف]

ومما يحركُ البلايلَ ، ويهيجُ العواطفَ ، ويشيرُ الأشجانَ ، ويبعثُ الأحزانَ قصيدةُ ابنِ زريقِ الكاتبِ ، ونونيةُ ابنِ زيدونَ ، وهما مشهورتان .

[ابن زيدون يصبرُ أمه]

[مِنْ الطَّوِيلِ]

أَلَمْ تُرِكَ الْأَيَّامُ حُرّاً قَضَى قَبْلِي (١)
طَوْتُ بِالْأَسَى كَشْحاً عَلَى مَضْضِ الثُّكْلِ (٢)
إِلَى الْيَمِّ فِي التَّابُوتِ فَاعْتَبِرِي وَاسْلِي

وُشَجِينِي مَا وَقَعَ لَابِنِ زَيْدُونَ مَعَ أُمِّهِ ، وَقَدْ زَارَتْهُ فِي سَجْنِهِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ [في «ديوانه» ١١٣] :

أَمَقْتُوَلَةَ الْعَيْنَيْنِ مَا لَكَ وَالْهَاءُ
أَفَلَيْ بُكَاءٍ لَسْتُ أَوْلَ حُورَةٍ
وَفِي أُمِّ مُوسَى عِبْرَةٌ إِذْ رَمَتْ بِهِ

(١) والهاءُ : الشديدةُ الحزنِ على فقدِ ولدها .

(٢) طوى كشحهُ : أضمرَ واسترَ ما في قلبه .

وَللهِ فِينَا عِلْمٌ غَيْبٍ وَحَسْبُنَا بِهِ عِنْدَ جَوْرِ الدَّهْرِ مِنْ حَكْمٍ عَدْلٍ

[إشارة إلى مرثي الشيخ محمد عبده]

ورأيت ما قيلَ في رثاءِ العلامَةِ الجليلِ محمدِ عبده ، ولم يبقَ لشيءٍ منه على كثرته طينٌ بأذني سِوَى مرثيةِ حافظٍ ،
ومطلعِ قصيدةٍ لغيره ، لا أزالُ أمرُ بعضَ الحداةِ بتكريره ، حتَّى نستفرغَ الدمعَ ، وهو :

[من الكامل]

لِمَ لَا تُجِيبُ وَقَدْ دَعَوْتُ مِرَاراً يَكْفِي سَكُوتُكَ أَرْبَعِينَ نَهَاراً

[من الطويل]

وكثيراً ما يتندى خدي من قولِ حافظٍ :

[الخطوب تعقد الألسنة]

دَعَانِي رِفَاقِي وَالْقَوَافِي مَرِيضَةٌ وَقَدْ عَقَدَتْ هُوجُ الخُطُوبِ لِسَانِي
مَلَلْتُ وَقُوفِي بَيْنَكُمْ مُتَمَلِّلاً عَلَي رَاحِلٍ فَارَقْتُهُ فَشَجَانِي
أَفِي كُلِّ يَوْمٍ يَقْطَعُ الحُزْنَ قِطْعَةً مِنْ القَلْبِ إِنِّي قَدْ فَقَدْتُ جَنَانِي
تَفَرَّقَ أَصْحَابِي وَأَهْلِي وَأَخْرَجْتَ يَدُ المَوْتِ وَقَتِي فَانْتَهَرْتُ زَمَانِي
فَمَالِي صَدِيقٌ إِنْ عَشَرْتُ أَقَابِنِي وَلَا لِي حَيْبٌ إِنْ قَضَيْتُ بَكَانِي

[الوحدة صعبة]

[من مجزوء الكامل]

والأخيرُ يُشبهُ قولَ عمرو بنِ معديكربَ الزُّبيديّ [في «ديوانه» ٨٢] :

ذَهَبَ الأَذِينَ أَحْبُّهُمْ وَبَقِيَتْ مِثْلَ السَّيْفِ فَرْدًا

[المفاضلة بين الشيخ أبي بكر ابن شهاب وحافظ إبراهيم]

وعلى ذكرِ حافظٍ . . تذكَّرتُ أَنِّي قلتُ مرَّةً لشيخنا أبي بكرِ ابنِ شهابٍ - رحمةُ اللهِ عليه - : أَلَسْتَ أشعرَ منه ؟ قال :

[من البسيط]

لولا قولُهُ [في «ديوانه» ١٦١/٢] :

إِنِّي أَرَى وَفُؤَادِي لَيْسَ يَكْذِبُنِي رُوحاً يَحْفُ بِهَا الإِجْلَالُ وَالْعِظْمُ
أَرَى جَلالاً أَرَى نُوراً أَرَى مَلَكاً أَرَى مُحَيَّاً يُحَيِّنُنَا وَيَبْسِمُ
اللهُ أَكْبَرُ هَذَا الوَجْهَ نَعْرِفُهُ هَذَا فَتَى النِّيلِ هَذَا المُفْرَدُ العَلْمُ

[من البسيط]

وقولُهُ [في «ديوانه» ٢٦٩/١] :

كَمْ غَادَةٌ فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ بَاكِيةً عَلَي أَلِيفٍ لَهَا يَهْوِي بِهِ الطَّلَبُ
لَوْلا طِلابُ العُلا لَمْ يَتَّعُوا بَدلاً مِنْ طِيبِ رِيَّاكٍ لَكِنَّ العُلا تَعَبُ

[استهزاء المؤلف ببعض الثقلاء]

ثمَّ ذَكَرتُ هذا بعدَ أُمَّةٍ مِنَ الزَّمانِ لجماعةٍ مِنَ الإِخوانِ ، وفي المجلسِ ثَقيلٌ اعترضَ فَضَلَ القِطْعَةِ الأخيرةِ ، وزعمَ
أَنَّها كلامٌ عاديٌّ لا توضعُ اليَدُ عليه ، ولا تُعقدُ الخناصِرُ لَهُ .

فقلت للحاضرين - وإلى غيره يساق الحديث - : أرأيتم لو أن رجلاً مجذوراً قبيح المنظره ، أخيفس^(١) ، كثيف اللحية - وهي صفة المعترض - وجدتموه يبكي - ولو على ضوء النهار - ويتألم ، ويشتكى ويتظلم ، ألا تترطب له خدودكم ، وتهتز عواطفكم وتشفق قلوبكم؟! قالوا : بلى .

قلت : فما بالكم لو أنها عادة بضه ، كأنما صيغت من فضة ، تغبطها الحور ، ويحسدها الثور ، وقد شاهدتموها باكيةً بعبرة مسفوحة ، وكبدٍ مقروحة ، وحشى رجاف ، وقلبٍ وجاف ، ألا يكون أبعث لخشوعكم ، وأذرف لدموعكم؟ قالوا : بلى .

قلت : هذا مع عدم العلم بالسبب ، فأما إذا علمتم بأن ما عندها من الاحتراق . . نشأ عن الافتراق ، وأنه هو الذي أفضر مهدها ، وبلغ جهدها ، وأذاقها الصاب^(٢) ، وجرعها الأوصاب^(٣) ، ما مبلغ حنانكم يكون؟! فأنتي تؤفكون؟ فأكثروا من الاسترجاع ، وظهرت عليهم الأوجاع .

قلت : وأيضاً ، فإنها تقاسي الآلام في جنح الظلام ، بلا جليس يبئل لوعة ، ولا أنيس يسئل روعة ، وأعظم من ذلك كله اعتلاج جوفها بين رجائها وخوفها ، فالأمل ينشتر ، واليأس يطوي ، إذ الطلب لا يزال بصاحبها يهوي ، لم يقر له فراز بعد ، ولم تدر ماذا يتلقاه ، نحس أو سعد ، فكأنما ذلك القلب الحائر معلق في جناح طائر . فقالوا : رويدك ، فإن الحزن تأثّل ، والخيال تمثّل ، وشملتهم الهزة^(٤) ، وأخذت صاحبنا العزة . فقلت لهم : هذا كله في بيت حافظ ، ما له من لافظ .

ثم إن على البيت سمة مما ذكرناه في غير هذا المجلس لأبي عبادة وهو قوله [في ديوانه] ٣/ ١٩٤١ : [من الطويل]

تَدَانَتْ مَنَايَاهُمْ بِهِمْ وَتَبَاعَدَتْ مَضَاجِعُهُمْ عَنْ تَرْبِكَ الْمُتَنَسِّمِ

[من محاسن البحري]

وذكرت به بيتاً آخر لأبي عبادة لا يناسب الموضوع كثيراً ، ولكنه معدود من محاسن البحري ، وهو قوله : [من البسيط]

قَلْبٌ يُطِلُّ عَلَى أَفْكَارِهِ وَيَدُّ تَمْضِي الْأُمُورَ وَنَفْسٌ لَهَا هُوَا التَّعَبِ^(٥)

[الناس في الفراق]

والحاصل مما مرّ في شأن الفراق : أن الناس على قسمين :

(١) الأخفش : هو الذي يبصر بالليل دون النهار ، أو هو فساد في الجفون بلا وجع .

(٢) الصاب : عصارة شجر مر ، إذا أصابت العين أتلفتها .

(٣) الوصب : الوجع والمرض .

(٤) الهزة - بالكسر - : النشاط والارتياح .

(٥) عدّوا هذا البيت من محاسن البحري ؛ لأن قوله : (قلب يطل على أفكاره . .) من الكلمات الجوامع ، ومراده بذلك : أن قلبه لا تملؤه الأفكار ولا تحيط به ، وإنما هو عال عليها . يصف بذلك عدم احتفاله بالقوادح ، وقلة مبالاته بالخطوب التي تحدث أفكاراً تستغرق القلوب . « المثل السائر » (٦٦/١) .

[١- قسم ينسى مع الزمن]

منهم : مَنْ يَنْسَى حَبِيْبَهُ لِمُرُوْرِ الْاَيَّامِ .

[٢- قسم لا ينسى]

ومنهم : مَنْ لَا يَنْسَاهُ اِلَى يَوْمِ الْقِيَامِ .

[٣- قسم متردد]

ويبقى قسم ثالث على شك من أمرهم ، منهم ابن ميادة في قوله [في «ديوانه» ٧٢-٧٣] :

وَأَشْفَقْتُ مِنْ وَشَكِ الْفِرَاقِ وَإِنِّي
فَوَاللَّهِ مَا أَذْرِي أَيَّغْلِبُنِي الْهُوَى
أَظُنُّ لَمَحْمُولٌ عَلَيْهِ فَرَاقِبُهُ
إِذَا جَدَّ جَدُّ الْبَيْنِ أَمْ أَنَا غَالِبُهُ

وكثير في قوله [في «ديوانه» ٤٠٥] :

فَوَاللَّهِ مَا يَذْرِي كَرِيْمٌ مُمَاطِلٌ
أَيْتَسَاكَ إِذْ بَاعَدْتَ أَمْ يَتَصَدَّعُ

وأخذه ابن أبي أمية فزاده إحساناً ، إذ يقول :

فَدَيْتُكَ لَمْ تَشْبِعْ وَلَمْ تَزَوْ مِنْ هَجْرِي
أَرَانِي سَأَسْأَلُو عَنْكَ إِنْ دَامَ مَا أَرَى
أَيْسْتَحْسَنُ الْهَجْرَانَ أَكْثَرَ مِنْ شَهْرٍ
بِلَا ثِقَةٍ لَكِنْ أَظُنُّ وَلَا أَذْرِي

[لا يحل هجر فوق ثلاث]

وقوله : (مِنْ شَهْرٍ) ممّا تفرّد به ، وما حملهُ على ذلك إلاً مجيئهُ في طريقِ القافية ، وإلاً فقد اقتصرَتِ الشَّئْنَةُ^(١) على ثلاثٍ إذا كانَ لغيرِ سببٍ ، وإلاً فالإِلى ما شاء اللهُ ، وعليه تُحمَلُ مُهاجرةُ السلفِ الطيبِ ، على أَنَّ الهَيْتَمِيَّ يقولُ في «تحفته» قال بعضُ سُراخِ «البخاري» : « وَإِنَّمَا يَحْرُمُ هَجْرٌ أَكْثَرَ مِنْ الثَّلَاثِ . . إِنْ وَاجَهَهُ وَلَمْ يَكَلِّمُهُ - حَتَّى بِالسَّلَامِ - أَمَا لَوْ لَمْ يُوَاجِهَهُ . . فَلَا حُرْمَةَ ، وَإِنْ مَكَثَ سَنِينَ ، وَهُوَ ظَاهِرٌ أَاه .

وفيه سعةٌ كبرى لِمَا يَقَعُ بَيْنَ السلفِ الصالحِ رضوانِ اللهُ عليهم .

وما أشبه هذا الشاعرَ في قوله : (أَكْثَرَ مِنْ شَهْرٍ) بذلك الخطيبِ الذي قالَ : إِنْ اللهُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَشْهُرٍ ، فَقَالُوا لَهُ : إِنَّهَا سِتَّةُ أَيَّامٍ ، فَقَالَ : أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ قَلْتُهَا وَأَنَا أَنْقَالُهَا ، ففَرَّجْتُمْ عَنِّي .

[شعراء من القسم الثاني]

وممّا يتعلّقُ بالقسمِ الثاني مِنَ النَّاسِ قولُ ابنِ مُطَيْرٍ [في «ديوانه» ٦٠] :

قَضَى اللهُ يَا أَسْمَاءُ أَنْ لَسْتُ بِأَرْحَا
أُحِبُّكَ حَتَّى يُغْمِضَ الْعَيْنَ مُغْمِضٌ

وقولُ بشارٍ [في «ديوانه» ٤/١٢٠] :

وَكَيْفَ تَنَاسَى مَنْ كَانَ حَدِيثُهُ
بِأَذْنِي وَإِنْ غُيِّبْتُ قَرْطُ مُعَلَّقُ؟

(١) وذلك كما في الحديث الذي رواه عن أبي أيوب رضي الله عنه البخاري (٦٠٧٧) في (الأدب) ، ومسلم (٢٥٦٠) في (البر والصلة) ، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « لا يحلُّ لرجلٍ أن يهجرَ أخاه فوق ثلاثِ ليالٍ ، يلتقيان فيعرض هذا ، ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ صاحبه بالسلام » .

وقال الأعمى الثاني [في «سقط الزند» ١٥٩] :

[مِنَ البسيطِ]

وَكَمْ حَيْبٍ تَمَادَى عَهْدُهُ فَنَسِي^(١)

لَا أَنْسِيَنَّكَ إِنْ طَالَ الزَّمَانُ بِنَا

[مِنَ الطَّويلِ]

وقال ابنُ حَيُّوسٍ :

وَلَمْ تَذْكَرَا كَيْفَ السَّيْلِ إِلَيْهِمَا

وَحَسَّتُمَا لِي سَلْوَةً وَتَنَاسِيَا

[مِنَ الطَّويلِ]

وقال المعريُّ أيضاً [في «سقط الزند» ٢١٤-٢١٥] :

فَإِنْ تَقْضِيَاهَا فَالْجَزَاءُ هُوَ الشَّرْطُ
أَبْتَوْهُمَا حَتَّى مَفَارِقُهُمْ شَمَطُ^(٢)
بِهِ الرَّكْبُ لَمْ يَعْرِفْ أَمَاكِنَهُ قَطُّ

وَلِي حَاجَةٌ عِنْدَ الْعِرَاقِ وَأَهْلِهِ
سَلَا عَلَمَاءَ الْجَانِبَيْنِ وَفِتْيَةَ
أَعْنَدَهُمْ عِلْمُ السُّلُوِّ لِسَائِلِ

* * *

[مِنَ البسيطِ]

[قال أبو الطَّيِّبِ المَتَنَبِيُّ في «العُكْبَرِيِّ» ٣/١٦٣] :

لَوْلَا مُفَارَقَةُ الْأَحْبَابِ مَا وَجَدَتْ لَهَا الْمَنَابِيَا إِلَيَّ أَرْوَاحِنَا سُبْلًا

[شرح بيت الناظم والأقوال فيه]

فيل : إنَّ المراد بـ (اللَّهَا) جمعُ (لهاة) ، وقيل : هو جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقٌ بـ (وَجَدَتْ) ولا حشو في ذلك ؛ لأنَّكَ تقولُ : ما وجدتُ سبيلاً إلى كذا ، وتقولُ : ما وجدتُ لي سبيلاً إلى كذا ، كلاهما جارٍ في استعمالِ الفصحاءِ وأهلِ النِّيَقَةِ^(٣) في الكلام ، غيرَ أنَّ ابنَ هشامٍ يقولُ [في «المغني» ١/٢٨٤] : إنَّ فيه تعديَّ فعلِ الظاهرِ إلى ضميره المتَّصلِ ؛ كقولك : (ضربته زيدٌ) وذلك ممتنعٌ ، فينبغي أن يُقدَّرَ صفةٌ في الأصلِ لـ (سُبْلًا) ، فلمَّا قُدِّمَ عليه صارَ حالاً منه ، كما أنَّ قوله : (إلى أرواحنا) كذلك ؛ إذ المَعْنَى سُبْلًا مسلوكةً إلى أرواحنا . انتهى .

وأقولُ : لا مانعٌ من تعلُّقها بـ (المنابيا) ، لإشارتها إلى معنى الفعلِ وتقدُّمها رتبةً ويسقطُ ذلك التكلُّفُ .

[الفراق هو الطريق إلى الموت والدليل عليه]

والبيتُ من خالصِ الشَّعرِ ومختارِ الكلامِ ، وإنَّ كان مأخوذاً من قولِ أبي تمامٍ [في «ديوانه» ٢/٣١] :

[مِنَ الكاملِ]

لَوْ جَاءَ مُرْتَادُ الْمَنِيَّةِ لَمْ يَجِدْ إِلَّا الْفِرَاقَ عَلَى النَّفُوسِ دَلِيلًا^(٤)

(١) في المخطوط : تمادى عهدي .

(٢) شرح لصاحبه حاجته وهي : أن يسألا علماء (بغداد) هل يعلمون له دواء من الشوق الذي غلب عليه ، والذي لم يهتد إليه . والجانبان : جانباً (بغداد) . وأبتوهُمَا : من ابن بالمكان : أي أقام به . والشَّمَطُ : بياض الشعر في السواد .

(٣) أهل النيقة : هم المبالغون في تجويد الكلام .

(٤) مرتادُ المنية : طالب الموت .

وقد أخذهُ أَبُو تَمَّامٍ مِنْ قَوْلِ قَيْسِ بْنِ الْمَلُوحِ :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَلَوْلَا الْهُوَى مَا نَحَّ بِاللَّيْلِ آلِفُ

لَعَمْرُكَ لَوْلَا الْبَيْنُ مَا مَاتَ عَاشِقُ

وَقَالَ قَيْسُ بْنُ ذَرِيحٍ [فِي « دِيوانِهِ » ١٤٨] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

حِذَارَ الَّذِي قَدْ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنُ
فِرَاقُ حَبِيبٍ لَمْ يَبِينْ وَهُوَ بَائِنُ
بِكَفِّئِكَ إِلَّا أَنَّ مَا حَانَ حَائِنُ

وَإِنِّي لَمُفْنٍ دَمَعٌ عَيْنِيَّ بِالْبُكَاءِ
وَقَالُوا غَدَاً أَوْ بَعْدَ ذَلِكَ بِلَيْلَةٍ
وَمَا كُنْتُ أَخْشَى أَنْ تَكُونَ مَنِيَّيْ

وَقَالَ أَبُو عُبَادَةَ [فِي « دِيوانِهِ » ٢٠٨١/٤] :

[مِنَ الْكَامِلِ]

تَهْدَى إِلَيْهَا مِنْ مُعْنَى مُغْرَمٍ
فِي الْجَمْرَتَيْنِ وَلَا سُقُوا مِنْ زَمَزَمٍ
سَلِمُ الشَّهَادِ وَحَرْبُ نَوْمِ النَّوْمِ

هَلْ رَكِبُ مَكَّةَ حَامِلُونَ نَجِيَّةً
إِنْ لَمْ يُبَلِّغْكَ الْحَجِيجُ فَلَا رَمَوْا
وَمُتُوا بِرَائِعَةِ الْفِرَاقِ فَإِنَّهُ

فَالْفِرَاقُ بَرِيدُ الْحِمَامِ ، وَفَاتِحَةُ الْأَسْقَامِ ، وَحَسْبُكَ مَا اتَّفَقَ لِيَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

[ما هي صورة الفراق لو تجسّم !!؟]

وَقَالَ ابْنُ خَلِّكَانَ [فِي « فَيَاتِ الْأَعْيَانِ » ٣٧٥/٤] : كَانَ الشَّهْرِسْتَانِيُّ يَرُوي بِسَنَدِهِ الْمُتَّصِلِ إِلَى النَّظَّامِ الْبَلْخِيِّ - الْعَالِمِ الْمَشْهُورِ وَاسْمُهُ إِبْرَاهِيمُ بْنُ سَيَّارٍ [ت : ٢٣١ هـ] - أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : لَوْ كَانَ لِلْفِرَاقِ صُورَةٌ . . لَارْتَاعَتْ لَهَا الْقُلُوبُ ، وَانْهَدَتْ مِنْهَا الْجِبَالُ ، وَلَجَمْرُ الْغَضَى أَقْلٌ تَوْهَجًا مِنْ حَمَلِهِ ، وَلَوْ عَذَّبَ اللَّهُ أَهْلَ النَّارِ بِالْفِرَاقِ . . لاسْتَرَحَوْا إِلَى مَا قَبْلَهُ مِنَ الْعَذَابِ .

[قصة الصمة بن عبد الله وصاحبه ربا]

وَكُلُّ مَا أَسْلَفْنَاهُ مِنْ مِصَارِعِ الْعِشَاقِ ، وَشُهَدَاءِ الْأَشْوَاقِ ، فِي شَرْحِ الْبَيْتَيْنِ قَبْلَهُ . . يَدْخُلُ فِي الْكَلَامِ عَلَى هَذَا ، وَنَزِيدُ عَلَيْهِ : حَدِيثَ الصَّمَّةِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رِقَاشِ التَّغْلِبِيِّ وَصَاحِبَتِهِ رَيًّا بِنْتِ مَسْعُودِ بْنِ رِقَاشِ ، وَقد مرَّ ذَرُؤُ^(١) مِنْهُ فِي الْمَجْلِسَيْنِ الْأَوَّلِ وَالثَّانِي ، وَتَمَامَهُ [كَمَا فِي « الْأَغَانِي » ١١/٦] : أَنَّهُ لَمَّا ذَهَبَ إِلَى الْعِرَاقِ بَعْدَ لُجَاجِ عَمِّهِ وَأَبِيهِ فِي الْبَعِيرِ ، وَقَوْلُ رَيًّا : مَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَضَاعَهُ أَبُوهُ وَعَمُّهُ بَبَعِيرٍ إِلَّا الصَّمَّةَ . . أَضْرَبَهُ النَّوَى ، وَأَضْنَاهُ الْجَوَى ، وَكَانَ شَهْمًا أَدْبِيًا شَجَاعًا عَارِفًا بِأَيَّامِ الْعَرَبِ ، وَيُذَكَّرُ أَنَّهُ أَدْرَكَ أَوَائِلَ الْإِسْلَامِ ، فَمَنْعَتْهُ الشَّهَامَةُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ بِغَيْرِ طَلَبٍ مِنْهُمْ ، وَلَمْ يَزَلْ حَتَّى أَضْنَاهُ السُّقْمُ ، وَأَعَيْتَهُ الْحَيْلَةُ ، وَقَدَّمَ أَحَدًا مَذْحِجَ عَلِيٍّ مَسْعُودٍ ، فَخَطَبَ رَيًّا بَثْلًا مِثَّةَ نَاقَةٍ بُرْعَاتِهَا ، فَزَوَّجَهُ بِهَا فَحَمَلَهَا إِلَى مَذْحِجٍ ، فَبَلَغَ الصَّمَّةَ الْخَبِيرُ فَاشْتَمَلَ عَلَيْهِ الْفِرَاشَ ، وَقَالَ قَصِيدَتَهُ الَّتِي سَبَقَ شَيْءٌ مِنْهَا ، وَمِنْهَا [فِي « دِيوانِهِ » ٨٧ وما بعد] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

مَزَارَكَ مِنْ رَيًّا وَشَعْبَاكُمْ مَعَا
وَلَمْ تَرَ شَعْبِي صَاحِبِينَ تَقَطَّعَا

حَنَنْتَ إِلَيَّ رَيًّا وَنَفْسُكَ بَاعَدَتْ
كَأَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ وَدَاعَ مُفَارِقِ

(١) ذَرُؤُ : قَلِيلٌ .

عَنِ الْغَيِّ بَعْدَ الرُّشْدِ أُسْبَلَتَا مَعَا^(١)
 وَجَالَتْ بَنَاتُ الشُّوقِ تَحْتِي نُرْعَا^(٢)
 وَجِغْتُ مِنَ الإِصْغَاءِ لَيْتَا وَأَخْدَعَا^(٣)
 عَلَى كَبِدِي مِنْ خَشْيَةٍ أَنْ تَصَدَّعَا
 كَذِكْرَاكِ مَا نَهْنَهْتُ لِلْعَيْنِ مَدْمَعَا^(٤)
 تَضَمَّنَهُ صُمُّ الصَّفَا لَتَصَدَّعَا^(٥)

بَكَتْ عَيْنُكَ الْيُمْنَى وَلَمَّا زَجَرْتَهَا
 وَلَمَّا رَأَيْتُ الْبِشْرَ أَعْرَضَ دُونَنَا
 تَلَفَّتْ نَحْوَ الْحَيِّ حَتَّى وَجَدْتُنِي
 وَأَذْكَرَ أَيَّامَ الْحِمَى ثُمَّ أَنْتَنِي
 أَمَا وَجَلَالَ اللهُ لَوْ تَذَكَّرْتَنِي
 فَقَالَتْ : بَلَى وَاللهِ ذِكْرًا لَوْ أَنَّهُ

وقال [في «ديوانه» ١٣٩] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَلِلْجَمْعِ مَا بَيْنَ الْمُحِبِّينَ آيَا
 خُلِقْتُ وَإِيَّاهُ نَطِيلُ التَّعَادِيَا

أَرَى الدَّهْرَ بِالتَّقْرِيقِ وَالْبَيْنِ مُوَلَعَا
 فَأُفُّ عَلَيْهِ مِنْ زَمَانٍ كَأَنِّي

[موته وموتها من العشق]

ولم يزل يشتدُّ به البأسُ ، ويتجاذبه اليأسُ . . إلى أن سمعَ امرأةً تنادي بتألُّها وتقولُ : يا ربِّا . . فخرَّ مغشىاً عليه ، ثمَّ أفاق وقال [في «ديوانه» ٨٢] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

بُيُوتَ الْحِمَى إِحْدَى اللَّيَالِي الْغَوَابِرِ
 وَأَهْلَ الْحِمَى يَهْفُو بِهِ رِيَشُ طَائِرِ^(٦)

تَعَزَّ بِصَبْرِ لَا وَرَبِّكَ لَا تَرَى
 كَأَنَّ فُؤَادِي مِنْ تَذَكُّرِهِ الْحِمَى

ولم يزل يرددُهَا . . حتَّى فاضتْ نفسه^(٧) .

ولمَّا اتَّصَلَ نعيه برَبِّا . . داخلَهَا مِنَ الْوُجُدِ مَا مَنَعَهَا عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، وجعلتْ تبكي حتَّى ماتت .

وقولُهُ : (تَلَفَّتْ نَحْوَ الْحَيِّ) شبيهٌ بقولِ الآخرِ :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

بِهَا لَقْوَةٌ مِنْ شِدَّةِ اللَّحْظَانِ^(٨)

لَحَظْنَاهُمْ حَتَّى كَأَنَّ عُيُونَنَا

[مشابته للمجنون]

وما سمعته من دعاءِ المرأةِ بنتها شبيهٌ بما نذكره أوائلَ المجلسِ السادسِ عشرٍ من قولِ المجنونِ [في «ديوانه» ١٦٣] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

فَهَيَّجَ أَشْوَاقَ الْفُؤَادِ وَمَا يَذْرِي

وَدَاعٍ دَعَا إِذْ نَحْنُ بِالْخَيْفِ مِنْ مَنَى

(١) أُسْبَلَتَا : انهمرت الدمعُ مِنهما بغزارة .

(٢) الْبِشْرُ : جبلٌ في أطرافِ (نجد) من جهةِ (الشام) .

(٣) اللَّيْتُ : صفحةُ العنقِ . الأخدعانُ : عِرْقَانِ فِي جَانِبِي الْعنقِ .

(٤) النَّهْنَةُ : الكَفُّ .

(٥) الصُّمُّ : الحجرُ الصَّلْبُ . الصفا : العريضُ الأملسُ من الحجارةِ .

(٦) هَفَا الطَّائِرُ بِجَنَاحِهِ : أي خَفَقَ وَطَارَ .

(٧) انظر «الأغاني» ٨/٦ .

(٨) اللَّقْوَةُ : داءٌ يصابُ بِهِ الشَّلَقُ فيعوجُّ .

دَعَا بِاسْمِ لَيْلَىٰ غَيْرَهَا فَكَأَنَّمَا أَطَارَ بِلَيْلَىٰ طَائِرًا كَانَ فِي صَدْرِي

[وفاة العباس بن الأحنف عشقاً]

وقال أبو بكر الصولي [كما في «وفيات الأعيان» ٢٦/٣]: قال أبو زكريا البصري: حدثني رجل من قريش قال: خرجتُ حاجاً مع رفقة لي، فمِلنا عن الطريق لنصلي، فجاء غلامٌ يقول: هل فيكم أحدٌ من أهل البصرة؟ قلنا كلنا من أهلها، فقال: إن مولاي يدعوكم فقمنا إليه، فإذا مريضٌ بأخر رمي، منعنا ضعفه أن نساله عن اسمه، فلما أحس بنا.. رفع طرفه وما كاد، وأنشأ يقول [في «ديوان العباس بن الأحنف» ٢٨٧]:

[من المديدا]

يَا بَعِيدَ الدَّارِ عَن وَطْنِيهِ مُفْرَدًا يَبْكِي عَلَيَّ شَجْنِيهِ
كَلَّمَا جَدَّ الرَّحِيلُ بِهِ زَادَتِ الأَسْقَامُ فِي بَدْنِيهِ

ثم أغمى عليه طويلاً ونحن حوله، إذ أقبل طائرٌ، فوقع على شجرة كان تحتها، وجعل يغرد، ففتح عينيه، وجعل يستمع تغريد الطائر، ثم أنشأ يقول [في «ديوانه» ٢٧٨]:

[من المديدا]

وَلَقَدْ زَادَ الفُؤَادَ شَجَا طَائِرٌ يَبْكِي عَلَيَّ فَنِيهِ
شَفَّهُ مَا شَفَّنِي فَبَكََا كُنَّا يَبْكِي عَلَيَّ سَكْنِيهِ

ثم تنفس نفساً عالياً فاضت معه روحه، فجهزناه ثم سألنا عنه الغلام، فقال: إنه العباس بن الأحنف، وكانت وفاته سنة: (١٩٣ هـ).

[رواية أخرى في تاريخ وفاته]

وهذا يعارض ما يروى [في «خزانة الأدب» ٤٢٥/١] من موته وموت الكسائي وهشيمة الخمارة في يوم واحد، وأن الرشيد أمر المأمون أن يصلي عليهم، وأنه قدّم العباس لقوله [في «ديوانه» ٨١]:

[من الكامل]

وَسَعَوْا إِلَيَّ بِهَا وَقَالُوا إِنَّهَا لَهِيَ الَّتِي تَشْقَى بِهَا وَتُكَابِدُ
فَجَحَدْتُهُمْ لِيَكُونَ غَيْرَكَ ظَنُّهُمْ إِنِّي لِيُعْجِبِي المُحِبُّ العَجَاحِدُ

[الدنو يفضح الأحاب]

[من الكامل]

وهو مثل قوله أيضاً [في «ديوانه» ٧٤]:

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا أَرَدْتُ بِهَجْرِكُمْ إِلا مُصَانَعَةَ العَدُوِّ الكَاشِحِ
وَعَلِمْتُ أَنَّ تَبَاعُدي وَتَسْتُرِي أَذْنِي لِوَصْلِكَ مِنْ دُنُو فَاصِحِ

[من المتقارب]

وقوله [في «ديوانه» ٩٩]:

سَأَهْجُرُ إِنْ فِي وَهْجِرَانُهُ إِذَا مَا التَّقِينَا صُدُودَ الخُدُودِ
كِلَانَا مُحِبُّ وَلَكِنَّا نُدَافِعُ عَن حُبَّنَا بِالصُّدُودِ

[من الطويل]

وقوله [في «ديوانه» ١٩٥]:

كَذَبْتُ عَلَيَّ نَفْسِي فَحَدَّثْتُ أَنِّي سَلَوْتُ لِكَيْلَا يُنْكِرُوا حِينَ أَصْدُقُ

وَمَا عَن قَلِي مَنِي وَلَا عَن مَلَآةٍ
عَظْفَتْ عَلَيَّ أَسْرَارِكُمْ فَكَسَوْتُهُمَا
وَلَكِنِّي أَبْقِي عَلَيْكَ وَأُشْفِقُ
قَمِيصاً مِنَ الْكِثْمَانِ لَا يَتَخَرَّقُ

[كتمان الحب مخافة الواشين]

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وهو معنى متداول بين الشعراء ، منه قول جميل [في ديوانه « ٩٠ »] :

وَطَرَفَكَ إِذَا جِئْنَا فَاحْسِنَهُ
وَأَعْرِضْ إِذَا لَاقَيْتَ عَيْنَا نَخَافُهَا
فَقُلْتُ لَهَا : يَا بِنْتُ أَوْصِيْتِ حَافِظاً
سَأَمْنَحُ طَرْفِي حِينَ أَلْفَاكِ غَيْرِكُمْ
فَزَيِّغِ الْهَوَى بَادِ لِمَنْ يَبْصُرُ
وَوَظَاهِرُ يَبْغِضُ إِنْ ذَلِكَ أَسْتَرُ
وَكُلُّ أَمْرِيءٍ لَمْ يَزْعَهُ اللهُ مُغَوَّرُ
لِكَيْمَا يَرَوْا أَنَّ الْهَوَى حَيْثُ أَنْظَرُ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقال [في ديوانه « ٦٤ »] :

وَيَحْسَبُ نِسْوَانَ مِنَ الْحَيِّ أَنَّنِي
فَأَقْسِمُ طَرْفِي بَيْنَهُنَّ فَيَسْتَوِي
إِذَا جِئْتُ إِيَّاهُنَّ كُنْتُ أُرِيدُ
وَفِي الصَّدرِ بَوْنٌ بَيْنَهُنَّ بَعِيدُ

[مِنَ الوَافِرِ]

وقال مجنون عامر :

كِلَانَا مُظْهِرٌ لِلنَّاسِ بَغْضاً
وَأَسْرَارُ الْمَلاحِظِ لَيْسَ تَخْفَى
وَكُلُّ عِنْدَ صَاحِبِهِ مَكِينُ
وَقَدْ تُغْرِي بِذِي اللَّحْظِ الْعُيُونُ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقال هو ، أو غيره [في ديوان المجنون « ٥٥ »] :

أَلَا أَيُّهَا الْبَيْتُ الَّذِي لَا أَرُورُهُ
هَجَرْتُكَ إِشْفَاقاً وَرَزْتُكَ خَافِئاً
وَإِنْ حَلَّه شَخْصٌ إِلَيَّ حَيْبُ
وَفِيكَ عَلَيَّ الدَّهْرَ مِنْكَ رَقِيبُ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقال [في ديوانه « ٥٩ »] :

وَأَحْسِبُ عَنكَ النَّفْسَ وَالنَّفْسُ صَبَّةٌ
مَخَافَةٌ أَنْ يَسْعَى الْوُشَاةُ بِظَنَّةٍ
بِذِكْرَاكِ وَالْمَمَشَى إِلَيْكَ قَرِيبُ
وَأَحْرُسُكُمْ أَنْ يَسْتَرِيبَ مُرِيبُ

[مِنَ البَسيطِ] :

وقال بعضهم في قصبة ذكرها أبو العباس المبرد

غُضِي جُفُونُكَ عَنِّي وَأَنْظُرِي أَمَّا
فَإِنَّمَا افْتَضِحَ الْعُشَّاقُ بِالْمَقَلِ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقال ابن مطير [في ديوانه « ٤٢ »] :

سَلَامٌ عَلَيَّ الْبَيْتِ الَّذِي لَا نَزُورُهُ
وَلَوْلَا حِذَارُ الْكَاشِحِينَ لَقَادَنِي
مِنَ الْخَوْفِ إِلَّا بِالْعُمُيُونِ اللَّوَامِحِ
إِلَيْهِ الْهَوَى قَوْدَ الْجَنِيْبِ الْمُسَامِحِ^(١)

(١) الكاشحُ : العدوُّ المبعضُ . الجنيبُ : الطائعُ المتقادُ .

أَتَهْجُرُ بَيْتًا بِالْحِجَازِ تَكَنَّفَتْ جَوَانِبَهُ الْأَعْدَاءُ أَمْ أَنْتَ زَائِرَةٌ^(١)
فَإِنْ آتَاهُ لَمْ أَنْجُ إِلَّا بِظَنَّةٍ وَإِنْ يَأْتِهِ غَيْرِي تَنْطُ بِِي جَرَّائِرُهُ

وَهَيْفَاءَ لَا أَضْغِي إِلَيَّ مَنْ يَلُومُنِي إِلَيْهَا وَيُغْرِبُنِي بِهَا أَنْ أَعِيبَهَا
أَمِيلُ بِإِحْدَى مُقَلَّتِي إِذَا بَدَتْ إِلَيْهَا وَيَالْأُخْرَى أُرَاعِي رَقِيبَهَا
وَقَدْ غَفَلَ الْوَأْسِي وَلَمْ يَذِرْ أَنْنِي أَخَذْتُ لِعَيْنِي مِنْ سُلَيْمَى نَصِيبَهَا

رَاقِبْتَنِي فِيكَ الْعُيُونُ فَأَشْفَقْتُ وَلَمْ أَخْلُ قَطُّ مِنْ إِشْفَاقِ
وَرَأَيْتُ الْعَدُوَّ يَحْسُدُنِي فِيكَ مُجْدَاً يَا أَنْفَسَ الْأَعْلَاقِ
فَمَنْيْتُ أَنْ أَكُونَ بَعِيداً وَالَّذِي بَيْنَنَا مِنَ الْوَدِّ بَاقِي
رُبَّ هَجْرٍ يَكُونُ مِنْ خَوْفِ هَجْرٍ وَفِرَاقٍ يَكُونُ خَوْفَ فِرَاقِ

قال ابن خلكان [في «وفيات الأعيان» ٤٠٢/٣] : والأبيات بعينها في ديوان عبد المحسن الصوري .

[نفي الشيء بإيجابه]

فإن قيل : إن جحود العباس لا لإيهام الرقيب التنصل من الهوى ، ولكن لإحالة الشقاء على ما سواه ، فبين كلامه وبين ما سردته من الشواهد بون كبير . قلت : لا يقول ذلك إلا من لم يعرف أنه قريب من نفي الشيء بإيجابه ، وإلا . . . فجحود المسبب جحود للسبب ، فلا تباين .

[سؤال عن الأحباب]

أَبْنُ لِي أَيْهَا الطَّلُّ عَنِ الْأَحْبَابِ مَا فَعَلُوا
تُرَى سَارُوا؟ تُرَى نَزَلُوا؟ بِأَرْضِ الشَّامِ أَمْ رَحَلُوا؟

فقال له : بل ماتوا ، فأخذ الأعرابي يردد قوله : بل ماتوا حتى فاض .

[الضيف مبلغ الرسائل وموت العشاق]

ومن أغرب ما في الموضوع ، ما أخرجه الحافظ مغلطاي في «الواضح»^(٢) عن الأصمعي وقد قال له الرشيد : حدثني بأعجب ما رأيت ، قال أخبرني الشميدع بن عمرو الكلابي - وقد جاوز المئة - قال : كنت كثير الأسفار فمررت في قصدي إلى (اليمامة) ، وقد قرب الليل بييت ، فأردت المبيت عنده ، فقالت امرأة عنده : أضيف أنت ؟

(١) تكنتت : أحاطت .

(٢) «الواضح المبين فيمن استشهد من المجيبين» ومغلطاي هو ابن قليج المصري الحنفي الحافظ المؤرخ سنة : (٧٦٢ هـ) .

قلتُ : نعم ، فقالت : على الرَّحْبِ والسَّعةِ ، وعيَّنتُ لي مكاناً أجلسُ فيه ريثماً يأتي صاحبُ المنزلِ ، وحملتُ لي معَ جاريتها تمراً وثريراً ، وقالت : تعلَّلْ بهذا ، فقلتُ : في دونه الكفايةُ ، فأكلتُ ، وتوسَّدتُ ذراعَ ناقتي ، وأخذتني عيني ، فلم أفرِّ إلاَّ وشابُّ على أحسنِ ما يكونُ ، معه عبيدٌ أقبلوا بحطبٍ ونازٍ ، فأضرموها ، وجأؤوا بكبشٍ فذبحَ وكشطَ وطبخوا وثرَدوا ، وقُدِّمَ إلينا . . فأكلنا ، ولَمَّا أشرَفَ الصُّبحُ . . فعلَ كما فعلَ في الليلِ ، وقالَ : أَمِّمِ عندنا اليومَ ، فقلتُ : سمعاً وطاعةً ، وركبَ هوَ لبعضِ شأنه وبقيتُ ، فدعتني ربَّةُ المنزلِ وأرختَ جانبَ السِّترِ ، وقالتُ : أينَ تريدُ ؟ قلتُ : (اليمامةُ) ، قالتُ : فاحفظْ عني هذهَ الرسالةَ وأعدْ عليَّ جوابها ، قلتُ : وما هي ؟ قالتُ : إذا جئتَ (الحضرمَةَ) . . فتغنَّ بهذهَ الأبياتِ :

[مِنَ الخفيفِ]

أَعْلَى الْعَهْدِ مَالِكُ بِنِ سِنَانِ
 إِنْ يَكُنْ خَانَ أَوْ تَسَلَّى فَإِنِّي
 مَا أَلَمَّ الرَّقَادُ مُذْ بِنْتِ إِلَّا
 فَعَلَيْكَ السَّلَامُ مَا ابْتَسَمَ النُّو
 أَمَّ سَقَاهُ أَفَاوِقَ الْعَدْرِ سَاقِي^(١)
 لَعَلَى الْعَهْدِ لَمْ أُحْنِ مِثَاقِي
 بِجُنُودِ قَرِيحَةِ الْأَمَاقِ
 رُ وَمَا أَبَّ فِي الثَّرَى عِرْقُ سَاقِ^(٢)

فلَمَّا خرجتُ في اليومِ الثاني . . سارَ في توديعي صاحبَ المنزلِ ، وقالَ : يا ابنَ عمِّي ، هل أنتَ مبلغٌ رسالتي وعائِدٌ بجوابها إذا انصرفتُ ؟ فقلتُ : نعم ، ونعمةُ عينٍ ، قالَ : قِفْ بقِرَّانِ بني سُحيمٍ ، ثُمَّ تغنَّ بقولي :

[مِنَ الطَّويلِ]

أَيَا سَرْحَتِي قَرَّانَ بِاللَّهِ خَبِّرَا
 فَلَوْ أَنَّ فِيهَا مَطْمَعاً لِمُنِّيَمِ
 لَهَانَ عَلَيْهِ جَوْبُ كُلِّ تَنُوفَةٍ
 تَعَرَّبْتُ عَنْ نَفْسِي وَأَيَقَنْتُ أَنَّهَا
 عَنِ النَّاقَةِ الْعَيْسَاءِ كَيْفَ نِزَاعُهَا ؟
 نَأَتْ دَارُهَا عَنْهُ وَخِيفَ امْتِنَاعُهَا
 يُخَافُ عَلَيْهَا جَوْرُهَا وَضِيَاعُهَا^(٣)
 تُرِيدُ وَدَاعاً يَوْمَ جَدِّ وَدَاعُهَا

فلَمَّا وصلتُ (اليمامةَ) . . وقفتُ حيثُ وصفَ ، ورفعتُ عَقيرتي^(٤) بأبياته . . فما كانَ بأسرعَ منَ جاريةٍ حاسرةٍ ، كأنها مُهرةٌ عربيَّةٌ تقولُ :

[مِنَ الطَّويلِ]

تَحَمَّلْ رَعَاكَ اللَّهُ مِنِّْي تَجِيَّةً
 وَخَبِّرْ عَنِ الْعَيْسَاءِ أَنْ قَدْ تَوَخَّمَتْ
 لَقَدْ قَطَعَ الْبَيْنَ الْمُشْتَّتُ أَلْفَةً
 إِلَيْهِ جَدِيدٌ كُلُّ يَوْمٍ سَمَاعُهَا
 عَلَيْهَا مَرَاعِيهَا وَطَالَ نِزَاعُهَا
 عَزِيزٌ عَلَيْنَا أَنْ يُحَمَّ انْقِطَاعُهَا^(٥)

ثُمَّ شَهَقَتْ شهقةً ، كانتُ فيها نفسها ، ولَمَّا جئتُ (الحضرمَةَ) . . تغنيتُ بأبياتِ المرأةِ ، فإذا فتى كَنصلِ السيفِ يجاوبني بقوله :

[مِنَ الخفيفِ]

لَمْ يَحُلْ عَنْ وَفَائِهِ ابْنُ سِنَانِ
 لَا وَلَا زَالَ وَجُدُهُ بِالْفِرَاقِ

(١) الْأَفَاوِقُ : ما اجتمع من السحاب من ماءٍ ، فهو يُمطرُ ساعةً بعدَ ساعةٍ .

(٢) الْأَبُّ : ما أنبت الأرضُ .

(٣) التَّنُوفَةُ : الفلاة التي لا ماءَ فيها ولا أنيسَ .

(٤) العَقِيرَةُ : صوتُ المغنيِّ والباكيِّ والقاريءِ .

(٥) حُمُّ الْأَمْرِ : قُضِيَ .

إِنَّ بَيْنَ الْحَشَا لِهَيْبَ اشْتِيَاقٍ لَيْسَ يُطْفِي جَوَاهُ إِلَّا التَّلَاقِي
 إِنَّمَا أَبْقَتِ الْهُمُومُ خَيْالاً بَالِيَا مُمَسِكاً يَبَاقِي رِمَاقِي

ثُمَّ تَنَفَّسَ نَفْساً عَالِياً ، اقْتَضَبَ حَيَازِيمَهُ^(١) ، فَكَانَ آخَرَ أَنْفَاسِهِ ، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى الْحَيِّ . . أَخْبَرْتُ الْمَرْأَةَ بِجَوَابِ صَاحِبِهَا ، فَلَمْ أَسْتَتِمَّ الْكَلَامَ إِلَّا وَهِيَ هَامِدَةٌ ، فَارْتَفَعَتِ الْأَصْوَاتُ ، وَأَقْبَلَ صَاحِبُهَا الشَّابَّ ، فَقَالَ لِي : مَا شَأْنُهَا ؟ فَبَقَرْتُ لَهُ الْحَدِيثَ عَلَى وَجْهِهِ ، ثُمَّ أَنْشَدْتُهُ جَوَابَ آيَاتِهِ ، فَقَالَ : هَذَاذَا مَيْتٌ ، ثُمَّ اضْطَجَعَ فَكَأَنَّهَا كَانَتْ نَفْسُهُ فِي يَدِهِ .

[يجود بنفسه وكأنها في يده]

وَيُسَبِّهُ هَذِهِ الْقِصَّةَ ، مَا ذَكَرَهُ الْعَتَبِيُّ قَالَ : تَذَاكَرْنَا الْهَوَى يَوْمًا ، وَعِنْدَنَا شَيْخٌ سَاكِتٌ ، فَقُلْنَا لَهُ : أَلَا تَحَدَّثُنَا بِمَا عِنْدَكَ فِي هَذَا ، قَالَ : جَلَسْنَا يَوْمًا لِلشَّرْبِ ، وَمَعَنَا قَيْنَةٌ ، فَغَنَّتْ :

عَلَى الْعَاشِقِينَ الْبُكََا عَلامَةُ ذُلِّ الْهَوَى
 وَلَا سِيَمَاءَ عَاشِقٍ ذَا لَمْ يَجِدْ مُشْتَكِي

فَقَالَ شَابٌّ فِي الْمَجْلِسِ : أَحْسَنْتِ وَاللَّهِ ، أَفْتَأْدُنِينَ لِي أَنْ أَمُوتَ ؟ فَقَالَتْ : مُتْ رَاشِدًا إِنْ كُنْتَ صَادِقًا ، وَكَانَ يَهُوَى الْقَيْنَةَ ، فَاضْطَجَعَ فَإِذَا هُوَ مَيْتٌ ، فَتَنَعَّصَ الْمَجْلِسُ عَلَيْنَا ، ثُمَّ دَخَلْتُ إِلَى أَهْلِي ، فَأَخْبَرْتُهُم بِالْقِصَّةِ ، وَكَانَتْ لَنَا ابْنَةٌ تَهْوَى ذَلِكَ الشَّابَّ - وَنَحْنُ لَا نَدْرِي - فَلَمَّا سَمِعَتِ الْخَبَرَ . . قَامَتْ إِلَى خَلْوَةِ لَهَا ، وَأَبْطَأَتْ عَنَّا ، فَإِذَا هِيَ مَيْتَةٌ عَلَى الْهَيْئَةِ الَّتِي مَاتَ عَلَيْهَا الشَّابُّ ، وَلَمَّا خَرَجْنَا بِجَنَازَتِهَا وَخَرَجَ أَهْلُ الشَّابِّ بِجَنَازَتِهِ . . إِذَا جِنَازَةٌ ثَالِثَةٌ لِلْقَيْنَةِ الَّتِي كَانَتْ تَغْنِيْنَا ، وَذَلِكَ أَنَّهَا كَانَتْ تَهْوَى ابْنَتَنَا ، فَلَمَّا اتَّصَلَ بِهَا نَعِيْهَا . . سَقَطَتْ مَيْتَةً .

هَذَا وَالشُّوْطُ بَطِينٌ ، وَالْبَابُ وَاسِعٌ ، وَقَدْ أُفْرِدَ بِالْمُؤَلَّفَاتِ ، وَنَحْنُ ذَاكِرُونَ فِي هَذِهِ الْمَجَالِسِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى مَا تيسَّرَ بِحَسَبِ الْمُنَاسَبَاتِ .

[المتنبي يتكلم في الفراق]

وقد قال الناظم فيما يشبه البيت الذي نحن بطريقه [في «المكبري» ٣/ ٢٦٤-٢٦٥] :

لَا تَحْسَبُوا رَبْعَكُمْ وَلَا طَلْلَكُمْ أَوَّلَ حَيٍّ فِرَاقُكُمْ قَتْلَكُمْ
 قَدْ تَلَقَّتْ قَبْلَهُ التُّفُوسُ بِكُمْ وَأَكْثَرَتْ فِي هَوَاكُمُ الْعَذْلَكُمْ

[كل البلاء من الفراق]

فَالْفِرَاقُ - كَمَا قُلْنَا - مَرُّ الْمَذَاقِ ، لَا كَبِدَ إِلَّا بِهِ تَفَتَّتْ ، وَلَا عَظِيمَةَ إِلَّا مِنْهُ تَأْتَتْ ، وَيَا لَهُ ، كَمْ فِي الْمَحْبِبِينَ مِنْ حَيْفٍ ، وَجُورٍ أَشْوَى مِنْ وَقَعِ السِّيفِ ، لَا يُحْصَى مَنْ اشْتَمَلَ عَلَيْهِ التَّرَابُ مِنْ قِتْلَاهُ ، وَلَا يَخْلُصُ مَنْ اعْتَصَمَ بِالْأَجْلِ مِنْ سُوءِ بِلَاةٍ :

وَمَا كُلُّ نِيرَانِ الْجَوَى تُحْرِقُ الْحَشَا وَلَا كُلُّ أَدْوَاءِ الصَّبَابَةِ يَقْتُلُ

(١) الحيزوم : ما اكتنف الحلقوم من جانب الصدر .

وَأَنْفَعُ مَا يَبْلُغُ بِهِ الْمَرْءُ غَلِيلَ الْجَوَى ، وَيَتَعَلَّلُ بِهِ الْمَنْكُوبُ إِذَا أَضْرَبَ بِهِ النَّوَى . . . تَحَقُّقُ أَنَّ الْحَيَاةَ لَيْسَ لَهَا بَقَاءٌ ، وَأَنَّ الْإِفْرَاقَ لَيْسَ إِلَّا إِلَى الْمُلْتَقَى ، وَقَدْ قَالَ الْأَوَّلُ :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَهَوْنٌ بَعْضَ الْوَجْدِ عَنِّي أَنِّي أَجَاوِرُهُ فِي دَارِهِ الْيَوْمَ أَوْ غَدَا

[مِنَ الْبَسِيطِ]

وقال ابن زريق :

وَإِنْ تَنَلَّ أَحَدًا مِنَّا مَيِّتُهُ لَا بُدَّ فِي غَدِهِ الثَّانِي سَيَبْعُهُ

[مِنَ الْوَافِرِ]

وقلت [كما في « ديوان المؤلف » ق ٦٩-٧٠] :

وَلَوْلَا أَنَّ هَذَا الْيَوْمَ صَغَبْتُ تَحُفُّ بِهِ الْمَخَافُفُ وَالصَّعَابُ

لَكَانَ أَجَلٌ مَرْغُوبٌ لَدَيْنَا فَوَأَشَوْقَاهُ لِأَحْبَابِ غَابُوا

[مِنَ الْوَافِرِ]

وقلت [كما في « ديوان المؤلف » ق ٣٢] :

وَلَوْلَا نَوْعُ سَلْوَى بِالْتَمَنِّي لِأَهْلِكَ كُلِّ مَنْ عَشِقَ التُّرُوحُ

وَلَكِنْ فِي التَّعَلُّلِ بَعْضُ طِبِّ وَإِنْ زَمَّتْ عَلَيَّ الْخَلَلِ الْقُرُوحُ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقلت [كما في « ديوان المؤلف » ق ٣٢] :

إِذَا كُنْتُ أَلْقَى مَنْ أَحَبُّ هُنَالِكَا فَالَيْتُ أَنْ لَا أَبْكِي الدَّهْرَ هَالِكَا

وَلَكِنِّي لَا عِلْمَ لِي بِالَّذِي لَهُ السَّمَابُ مِنَ الدَّارَيْنِ مِنْ بَعْدِ ذَلِكََا

سَلَكْنَا وَلَمْ نَأْخُذْ دَلِيلًا مُضِيعَةً فَكَيْفَ النَّجَا وَاللَّيْلُ قَدْ كَانَ حَالِكَا ؟

لَقَدْ فَازَ مَنْ كَانَتْ لَهُ مِنْ يَقِينِهِ مَطَايَا تَعَوَّذَ الشَّرِّ وَالْمَسَالِكَا

تَلَوَّتْ عَلَيْنَا الْحَالُ وَاعْصُوصَبَ الْبَلَا فَحُلٌّ بِفَضْلِ مِنْكَ عَنَّا الشَّبَائِكَا

وَفَرَّجْ عَلَيْنَا وَاكْفِنَا كُلَّ مَخْنَةِ وَهَبْنَا الرِّضَى وَالطُّفَّ بِنَا فِي قَضَائِكَا

وُروى : أَنَّ يوسفَ عليه السلامُ ، عاتبَ أباهُ على فَرْطِ ما انقَادَ لَهُ مِنَ الْأَحْزَانِ ، وَقَالَ لَهُ : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْمَوْقِفَ يَجْمَعُنَا ؟ قَالَ لَهُ : بلى ، وَلَكِنْ حَشِيتُ أَنْ تَمُوتَ على غيرِ دينِ آبائِكَ ، فيُذهَبَ بِكَ إلى غيرِ طريقِهِمْ . نَسَأَلُ اللهَ الثَّبَاتَ عِنْدَ نَزُولِ الْمَمَاتِ .

[العاشق المعتكف على القبر]

ومما يتصلُّ بهذا المعنى وسابقه . . ما رُوِيَ [كما في « مصارع العشاق » ٢٦/١ بتصرف] عن ابنِ دريدٍ عن بعضهم - [عبيد النعماني غلام أبي الهذيل] - قال : اشتدَّت بي الهاجرةُ ، فملتُ إلى ظلِّ أتفيأُ به ، فسمعتُ صوتاً أطرَبني ، فطرقْتُ البابَ أستسقي ، فأذن لي ، فإذا شابٌّ على أحسنِ صورةٍ ، ما خلا أَنَّ العلةَ لم تبقِ إلا رسمهُ ، فأمرَ جاريتَهُ فسقتني ، ثُمَّ أدخلني إلى منزلٍ مؤثِّثٍ بأفخرِ الرياشِ ، وأقبلَ يضحِكُني حتَّى حضرَ الطعامُ ، فأكلَ معي متغصِّصاً مُختنفاً

بالعبرات ، ثمَّ قامَ بي إلى بيتٍ لطيفٍ فيه قبرٌ ، فشربَ وسقاني ثمَّ أنشدَ : [مِنَ الكاملِ]

أَطَأُ التُّرَابَ وَأَنْتِ رَهْنُ حُفَيْرَةٍ هَالَتْ يَدَايَ عَلَيَّ صَدَاكِ تُرَابَهَا؟^(١)
إِنِّي لِأَعْذُرُ مَنْ مَشَى إِنْ لَمْ أَطَأْ يُجْفُونَ عَيْنِي مَا حَيْثُ جَنَابَهَا

ثمَّ أكبَّ على القبرِ مغشياً عليه ، فجاءتِ الجاريةُ ترشُ عليه الماءَ . . حتَّى أفاقَ ، فشربَ وسقاني ، وأنشدَ : [مِنَ الكاملِ]

اليَوْمَ ثَابَ لِي السُّرُورُ لِأَنَّي أَيَقَنْتُ أَنِّي عَاجِلًا بِكَ لِأَحِقُّ
فَعَدَا أَقَاسِمُكَ الْبَلَاءَ وَيَسُوقُنِي طَوْعاً إِلَيْكَ مِنَ الْمَنِيَّةِ سَائِقُ

ثمَّ قالَ لي : قد وجبَ عليكَ حقِّي ، فاحضُرْ غداً جنازتي ، فدعوتُ له بطولِ البقاءِ ، فقالَ : عققنتي إن لم تقل لي :

[مِنَ الكاملِ]

جَاوَزَ خَلِيلَكَ مُسْعِداً فِي رَمْسِهِ كَيْمَا يَنَالَكَ فِي الْبَلَى مَا نَالَهُ

فانصرفتُ عنه ولم أعرفِ النَّوْمَ حتَّى أصبحتُ ، فأتيْتُ ذلكَ المنزلَ ، فإذا هوَ مَيِّتٌ ، فشهدتُ دفنَهُ بجانبِ ذلكَ القبرِ ، ثمَّ سألتُ عن خبره ؟ فقالوا : إنَّه كانَ يهوى ابنةَ عمِّه ، فدفعهُ أبوها ، ولمَّا مات . . تزوجها ولم تقم معه إلا ثلاثَ ليالٍ ، ثمَّ حُمَّتْ وماتتْ ، وأقامَ بعدها كما رأيتَ ، إلى أن ماتَ بعدها بثلاثةَ عشرَ يوماً .

[مِنَ الطويلِ]

ثمَّ ذكرتُ أنَّ عروةَ بنَ حزامٍ يقولُ في نونيتهِ المشهورةِ [في «ديوانه» ٤١] :

وَإِنِّي لِأَهْوَى الْحَشَرَ إِذْ قِيلَ إِنَّي وَعَفْرَاءَ يَوْمِ الْحَشْرِ مُلْتَقِيَانِ
ويأتي ما له اتصالٌ بهذا أوائلَ المجلسِ الثالثِ عشرِ^(٢) .

* * *

[مِنَ البسيطِ]

قالَ أبو الطَّيِّبِ الممتنبي في «العكبريِّ» ١٦٣/٣ :

بِمَا بَجَفَنِيكَ مِنْ سِحْرِ صِلِي دِنْفَا يَهْوَى الْحَيَاةَ ، وَأَمَّا إِنْ صَدَدْتَ فَلَا

[الحياة من أجل الأجاب]

يُقَسِّمُ عَلَيْهَا بِسِحْرِ أَجْفَانِهَا . . إِلَّا مَا وَصَلَتْ مَرِيضاً قَدْ أَدْنَفَ ، يَهْوَى الْحَيَاةَ إِنْ وَصَلَتْهُ ، وَأَمَّا إِنْ صَدَدْتَ عَنْهُ . . فلا يَهْوَى الْحَيَاةَ ، بَلْ يُفَضِّلُ عَلَيْهَا الْمَمَاتَ ، وَهُوَ قَرِيبٌ مِنْ قَوْلِهِ [في «العكبريِّ» ٣٤٦/٣] :

[مِنَ الخفيفِ]

كُلُّ عَيْشٍ مَا لَمْ تَطْبُهُ حِمَامٌ كُلُّ شَمْسٍ مَا لَمْ تَكُنْهَا ظِلَامٌ

(١) هالَ التراب : صبهُ . صدك : جئتكَ .

(٢) وللممتنبي فيما له اتصال بالموضوع :

إنني لأجبن من فراق أحبتي وتحسُّ نفسي بالحمام فأشجع

والأصل قول الحطيطية في مديح علقمة بن علاثة :

[مِن الطَّوِيلِ]

فَمَا فِي حَيَاةٍ بَعْدَ مَوْتِكَ طَائِلٌ^(١)

فَإِنْ تَخَيَّ لَا أَمْلُلُ حَيَاتِي وَإِنْ تَمُتْ

وقال دِعْبِلُ [في «ديوانه» ٢١٧] :

[مِن السَّرِيعِ]

أَنْ لَا أَرَى وَجْهَكَ يَوْمًا فَلَا

مَا أَطْيَبَ الْعَيْشَ فَأَمَّا عَلَيَّ

[مِن الطَّوِيلِ]

وقال بعضُ الأقدمين [معقل بن عيسى كما في «الأغاني» ١٠٤/١٠] :

لَقَدْ سَخِنْتَ بِالْبُعْدِ عَنكَ عُيُونٌ^(٢)
مَكَانُكَ مِنْ قَلْبِي عَلَيْكَ مَضُونٌ
وَمَا أَحْسَنَ الدُّنْيَا بِحَيْثُ تَكُونُ

لَعَمْرِي لَيْسَ قَرَّتْ بِقُرْبِكَ أَعْيُنٌ
فَسِرُّ أَوْ أَقِمْ وَقِفْ عَلَيْكَ مَوَدَّتِي
فَمَا أَوْحَشَ الدُّنْيَا إِذَا كُنْتَ نَازِحًا

[مِن الطَّوِيلِ]

، منه قوله [في «ديوانه» ٤٧٦] :

ولم ينسَ حَظَّهُ القَطْبُ الحَدَادُ مِنْ هَذَا المعْنَى ، بل أَكثَرَ مِنْهُ فِي « دِيوانِهِ » ،
وَأَحْسَنُ عَيْشٍ لَيْسَ فِيهِ وُجُودُكُمْ
وَإِنْ كَانَ مُلْكُ الأَرْضِ فَهُوَ ذَمِيمٌ

[مِن الكَامِلِ]

وقوله [في «ديوانه» ٥٢٨] :

أَنَّ المَمَاتَ أَسْرُ مِنْهَا وَالفَنَا

وَأَرَى الحَيَاةَ إِذَا خَلَّتْ عَن وَصْلِكُمْ

[من شاء بعدك فليمت]

وقال إبراهيم بن العباس الصولي - في صبي مات عليه ، وبعضهم يروونها لأحد الصحابة ، وأنه قالها بعقب موته
صلى الله عليه وآله وسلم ، والأول أثبت - : [في «وفيات الأعيان» ٣٣٩/٦] :

[مِن مجزوء الكَامِلِ]

كُنْتَ السَّوَادَ لِنَاطِرِي فَعَمِي عَلَيْكَ النَّاطِرُ
مَنْ شَاءَ بَعْدَكَ فَلَيْمْتَ فَعَلَيْكَ كُنْتَ أَحَادِرُ

وجه اتصال هذا بذلك . . بغض الحياة في بيت الناظم ، وعدم المبالاة بالمصائب في هذا .

[حكمة من أعرابية]

ولقد مات ابن لأعرابية فجزعت عليه ، ثم قالت : لقد سلاني عنه أنني أمنت مس المصائب من بعده .

[ذهب الغالي . . لا أسف على الرخيص]

[مِن الطَّوِيلِ]

وقال أبو نؤاس يرثي الأمين [في «وفيات الأعيان» ٣٣٩/٦] :

فَلَمْ يَبْقَ لِي شَيْءٌ عَلَيْهِ أَحَادِرُ

وَكَنْتُ عَلَيْهِ أَحَادِرُ المَوْتِ وَحَدَهُ

[مِن الوَافِرِ]

وقال [أبو موسى] التيمي في يزيد بن مزيد الشيباني [في «الأغاني» ٥٧/٢٠] :

فَرِيْسٌ لِلْمَيِّتَةِ أَوْ طَرِيْدُ

فَإِنْ يَهْلِكُ يَزِيدُ فَكُلُّ حَيٍّ

(١) انظر خبر الحطيطية مع علقمة في «الأغاني» (٣١٨/١٦) .

(٢) سُخُونَةُ العَيْنِ : بَكَوْهَا . قَرَّتْ العَيْنُ : هَدَأَتْ وَاسْتَقَرَّتْ .

لَقَدْ عَزَى رَيْبَعَةَ أَنَّ يَوْمًا

عَلَيْهَا مِثْلَ يَوْمِكَ لَا يَعُودُ

وقال فيه أيضاً [كما في «ديوان الحماسة» ٣٧٦/١] :

[مِن الطَّوِيلِ]

أَلَا فَلَيْمُتْ مَنْ شَاءَ بَعْدَكَ إِنَّمَا

عَلَيْكَ مِنَ الْأَيَّامِ كَانَ حِذَارِيَا

وقال مُتَمَّمُ بْنُ نُؤَيْرَةَ فِي أَخِيهِ مَالِكٍ [في «وفيات الأعيان» ١٩/٦] :

[مِن الطَّوِيلِ]

أَقُولُ لِهِنْدٍ حِينَ لَمْ أَرْضَ خُلُقَهَا
أَمِ الصَّرَمِ تَهْوِينِ فَكُلُّ مُفَارِقِ

أَهْلَذَا دَلَالُ الْعِشْقِ أَمْ أَنْتِ فَارِكُ^(١)
عَلَيَّ يَسِيرٌ بَعْدَ مَا مَاتَ مَالِكُ

[مِن السَّرِيعِ]

وقال مطيعُ بنُ إياسِ يرثي يحيى بنَ زيادِ الحارثيَّ [كما في «تاريخ بغداد» ١٠٦/١٤] :

أَقُولُ لِلْمَوْتِ حِينَ نَازَلَهُ
أَذْهَبَ بِمَنْ شِئْتَ إِذْ ذَهَبَتْ بِهِ

وَالْمَوْتُ مِقْدَامَةٌ عَلَى الْبُهِمِ^(٢)
مَا بَعْدَ يَخْيِي فِي الرُّزْءِ مِنْ أَلَمِ

[مِن الطَّوِيلِ]

وقال ابن المقفَّعِ [في «ديوان الحماسة» ٣٥٧/١] :

رُزِينَا أَبَا عَمْرٍو وَلَا حَيٍّ مِثْلُهُ
فَإِنْ تَكُ قَدْ فَارَقْتَنَا وَتَرَكْتَنَا
لَقَدْ جَرَّ نَفْعًا فَقَدْنَا لَكَ أَنَّنَا

فَلِلَّهِ دَرُّ الْحَادِثَاتِ بِمَنْ تَقَعُ
عَلَى خَلَّةٍ مَا فِي انْسِدَادِ لَهَا طَمَعُ
أَمَّنَّا عَلَى كُلِّ الرَّزَايَا مِنَ الْجَزَعِ

[مِن البسيطِ]

وقال إسحاقُ بنُ خَلَفِ يرثي بنتاً لَهُ - ولكنَّهُ تصرَّفَ في المعنى - :

قَدْ كُنْتُ أَخْشَى عَلَيْهَا أَنْ تَقْدَمَنِي
فَالآنَ نِمْتُ فَلَا هَمٌّ يُورِّقُنِي

إِلَى الْحِمَامِ فَيَيْدِي وَجْهَهَا الْعَدَمُ
تَهْدَا الْعُيُونُ إِذَا مَا أودَتِ الْحُرْمُ^(٣)

[مِن الطَّوِيلِ]

وقال آخرُ [عقيلُ بنُ عُلقَةَ في «ديوان الحماسة» ٤١٠/١] :

لِتَعْدُ الْمَنَايَا حَيْثُ شَاءَتْ فَإِنَّهَا
فَتَى كَانَ مَوْلَاهُ يَحُلُّ بِنَجْوَةٍ

مُحَلَّلَةٌ بَعْدَ الْفَتَى ابْنِ عَقِيلِ^(٤)
فَحَلَّ الْمَوَالِي بَعْدَهُ بِمَسِيلِ^(٥)

[مِن الطَّوِيلِ]

ولَا يَخْرُجُ عَنْهُ قَوْلٌ جَمِيلٌ :

فَيَا رَبِّ إِنْ تَهْلِكُ بَيْتِنَا لَا أَعِشْ

فَوَاقَا وَلَا أَفْرَحَ بِمَالِي وَلَا أَهْلِي^(٦)

[مِن الطَّوِيلِ]

وقد وُطِئَ عَلَى هَذِهِ الْأَعْقَابِ حَافِظٌ فِي قَوْلِهِ [في «ديوانه» ١٤٤/٢] :

لَقَدْ كُنْتُ أَخْشَى عَادِي الْمَوْتِ قَبْلَهُ

فَأَصْبَحْتُ أَخْشَى أَنْ تَطُولَ حَيَاتِي

(١) المرأة الفاركة : المبغضة لزوجها .

(٢) البهم : هم الشجعان الذين لا يهتدئ لقتالهم .

(٣) أودت : هلكت . الحُرْمُ : نساء الرجل وأهل بيته .

(٤) لتعد : لتصب . محللة : مطلقه . والمعنى : لم يبق صعوبة للمنايا بعد الفتى ابن عقيل ، فلتذهب إلى من شاءت .

(٥) النجوة : ما علا من الأرض . المسيل : ما انخفض منها . والمعنى : لم يبق لأحد من أقاربه عز بعده ، فتحولوا من العز إلى الذل .

(٦) الفواق : هو المدة بين الحلبتين ، والمراد الكتابة عن قصر عمره .

ثُمَّ كُلُّ نَفْسٍ تُحْسِنُ بِأَلَمِ الْفِرَاقِ ؛ لِانْفِصَالِهَا عَنْ عَالَمِ الْقُدْسِ ، لِهَذَا لَا تَزَالُ تَحْنُ وَتَتِنُّ ، شَعَرْتَ بِذَلِكَ السَّبَبِ أَمْ لَمْ تَشْعُرْ ، وَالْأَغْلَبُ عَدَمُ الشُّعُورِ ، لِانْحِجَابِهَا بِالْمَادَّةِ ، فَلَا يَخْطُرُ لَهَا أَنْ شَوْقَهَا إِلَيْهِ ، بَلْ تَنْظُهُ إِلَى غَيْرِهِ ، إِلَّا أَنَّهَا كَلَّمَا كَلَّفَتْ (١) بِشَيْءٍ . . . لَمْ تَنْظَفِ حَرَارَتُهَا بِإِدْرَاكِهِ ، بَلْ تَبْقَى تِلْكَ اللَّوْعَةُ الَّتِي لَا بَدَّ وَأَنْ تَظْهَرَ مَهْمَا خَفِيَتْ ، وَلَا سِيَّمَا عِنْدَ تَنَاشُدِ الْآثَارِ ، وَذِكْرِ الدِّيَارِ ، وَالتَّغْنِي بِمَا فِي شَكْوَى الْفِرَاقِ مِنَ الْأَشْعَارِ ، فَدَلَّ بِقَاوُضِهَا عَلَى أَنَّ الْمَطْلُوبَ غَيْرُ ذَلِكَ الَّذِي حَصَلَ ، وَإِلَى هَذَا الْإِشَارَةَ بِقَوْلِ الْقَطْبِ الْحَدَّادِ :

[مِنَ الْوَافِرِ]

مُحِبُّ لَيْسَ يَذْرِي مَنْ يُحِبُّ وَلَا مَاذَا يُحِبُّ أَيَسْتَتَبُّ
إِذَا سَجَعَتْ حَمَامَاتُ الْعَالِي عَلَى أَغْصَانِهِنَّ تَرَاهُ يَضْبُو
وَإِنْ مَرَّتْ أَحَادِيثُ الْغَوَانِي بِهِ يَبْكِي بِلَا دَمْعٍ يُغِيبُ

وَلَا يَزَالُ أَهْلُ الْهَمِّ الْعَالِيَةِ يَتَدَرَّجُونَ فِي مَعَارِجِ الشُّوقِ . . . حَتَّى يَحِلُّقَ بِهِمْ إِلَى فَوْقَ ، فَهُمْ فِي سَلُوكِهِمْ كَمَا قَالَ حَبِيبٌ [فِي « دِيْوَانِهِ » ١٣١/٢] :

[مِنَ الْكَامِلِ]

فَإِذَا ارْتَقَى فِي قُلُوبِهِ مِنْ سُؤْدَدٍ قَالَتْ لَهُ الْأَخْرَى : بَلَّغْتَ تَقَدَّمَ (٢)

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ لِسَانِ الدِّينِ بْنِ الْخَطِيبِ :
جَزَى اللَّهُ عَنِّي زَاجِرَ الشَّيْبِ خَيْرَ مَا جَزَى نَاصِحًا فَازَتْ يَدَاهُ بِخَيْرِهِ
سَلَكْتُ طَرِيقَ الْحُبِّ حَتَّى إِذَا انْتَهَى تَعَوَّضْتُ حُبَّ اللَّهِ عَنِ حُبِّ غَيْرِهِ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَطَالَمَا قَرَرْنَا هَذَا الْمَعْنَى نَظْمًا وَنَثْرًا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ ، وَمِنْهُ قَوْلُنَا [كَمَا فِي « دِيْوَانِ الْمُؤَلِّفِ » ٤٨] :

يَقُولُونَ : مَا مِنْ عَاشِقٍ قَطَعَ النَّوَى حَشَاهُ وَأَضْنَاهُ الْجَوَى وَكَوَاهُ
وَأَضْرَمَ فِيهِ الْوَجْدُ إِلَّا وَتَنْظَفِي - إِذَا دَامَ طِيبُ الْوَضْلِ - نَارُ هَوَاهُ
وَلَكِنَّ فِي الْإِنْسَانِ سِرًّا تَفْسَخَتْ قَوَائِمُهُ مِنْ حَمْلِهِ وَقُوَاهُ
إِذَا مَا تَنُوشِدُنَ الْمَآثِرَ هَزَّهُ لِمَوْطِنِهِ الْأَعْلَى الْقَدِيمِ جَوَاهُ
فَمَا مِنْ جَمَالِ حَادِثٍ هَامٍ وَامِقٍ بِرُؤْيَاهُ إِلَّا وَالْمُرَادُ سِوَاهُ (٣)

غَيْرَ أَنَّ كَلَامَنَا فِي الْمَوْضُوعِ خَالَ عَنِ الدُّوقِ ، وَأَحْمَدُهُ تَعَالَى إِذْ أَوْجَدَ لِي إِلَيْهِ نَوْعًا مِنَ الشُّوقِ .
أَمَّا الْقَطْبُ الْحَدَّادُ وَأَمْثَالُهُ . . . فَإِنَّمَا يَعْبُرُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ عَمَّا يَجِدُونَهُ مِنْ بَوَاطِنِهِمْ ، وَعَمَّا سَارُوا عَلَيْهِ بِكَشْفِهِمْ وَإِلْهَامِهِمْ ، إِذِ الظَّنُّ بِمِثْلِهِ أَنَّهُ لَمْ يَقْرَأْ عَنْهُ شَيْئًا ، وَإِنَّمَا مَشَى عَلَيْهِ بِحَالِهِ .

[لَا قِيَمَةَ لِلْحَيَاةِ إِلَّا بِاجْتِمَاعِ الْأَحْبَابِ]

وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ مَا سَبَقَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَجْلِسِ عَنِ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ وَأَنْسَهُ بِالْمَوْتِ ، وَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ :

(١) الْكَفُّ : هُوَ حُبُّ الشَّيْءِ وَشِدَّةُ تَعَلُّقِ الْقَلْبِ بِهِ .

(٢) الْقُلَّةُ : رَأْسُ كُلِّ شَيْءٍ .

(٣) الْوَامِقُ : الْمُحِبُّ .

- وقد خيَّرهُ مَلَكُ المَوْتِ - «اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى»^(١) ، وما قَصَّ اللهُ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِ يَوْسُفَ الصِّدِّيقِ ؛ فَإِنَّهُ لَمَّا انْقَطَعَتْ بِهِ الْأَمَانِيُّ . . لم يَرِغِبْ إِلَّا فِي كَمَالِ الْأَنْسِ بِانْفِصَالِ النَّفْسِ عَنِ عَالَمِ الْحَسَنِ ، وَالتَّحَاقُّهَا بِعَالَمِ الْقُدْسِ فَقَالَ ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ [يوسف : ١٠١] .

وَلَمَّا تَذَاكَرُوا المَوْتَ عَلَى عَهْدِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ . . قَالَ أَحَدُ أَصْحَابِهِ - وَظَنِّي أَنَّهُ أَبُو الدَّرْدَاءِ - : (حَبِيبُ جَاءَ عَلَى فَاقَةٍ)^(٢) .

وَقَالَهَا أَحَدُ أَصْحَابِ القُطْبِ الحَدَّادِ ، فَانْتَهَرَهُ وَقَالَ : لَا يَقُولُهَا إِلَّا مَنْ صَدَّقَ دَعْوَاهُ بِعَمَلٍ يَشْبَهُ عَمَلِ أَبِي الدَّرْدَاءِ .
وَقَدْ كَانَ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ مَزْهُوًّا قَبْلَ الخِلَافَةِ ثُمَّ اخْشَوْشَنَ ، وَلَمَّا قِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ . . قَالَ : إِنَّ لِي نَفْسًا ذَوَاقَةً تَوَاقَةً ، كَلَّمَا حَصَلَتْ عَلَى شَيْءٍ . . طَمَعَتْ فِيمَا وَرَاءَهُ ، وَلَمْ يَبْقَ لِي طَمَعٌ فِي غَيْرِ الجَنَّةِ^(٣) .

وَلَا شَوْقَ إِلَّا فِيمَا يَقْرَبُ مِنْهَا ، فَالِدُنْيَا قَبِيحَةٌ ، وَكفَاهَا المَوْتُ فَضِيحَةٌ ، وَهِيَ دَارُ تَرْحٍ لَا دَارُ فَرْحٍ - لَوْلَا أَنَّهَا طَرِيقٌ إِلَى الْأَنْسِ الدَائِمِ وَالسَّعْدِ المَقِيمِ - وَمَا يَجِدُ طَالِبُ ذَلِكَ مَعَ إِفْرَاقِ الجُهْدِ وَصَدَقِ القَصْدِ مِنْ وَعْثَاءِ الطَّرِيقِ . . هُوَ أَقْلٌ مِمَّا يَجِدُهُ المَسَافِرُ فِي طَلَبِ الفَوْزِ المَحْقُوقِ وَالنَّجَاحِ المَضمُونِ ، وَإِنَّ لَهُ فِي خِلَالِ ذَلِكَ مِنْ مَسَامِرَاتِ الْأَمَانِيِّ ، وَمَنَاغَاتِ الْأَمَالِ مَا يَنْسِيهِ كُلُّ أَلَمٍ ، وَيَهْوُونَ عَلَيْهِ كُلُّ تَعَبٍ ، بَلْ مَا يَجِدُ مَعَهُ ، التَّعَبَ لَذَّةً ، وَالمَشَقَّةَ نِعْمَةً ، وَتَحْمُلُ المَكْرُوهَ لَيْسَ بِضَائِرٍ مَا كَانَ وَاسِطَةً إِلَى مَحْمُودٍ .

وَفِيمَا نَقَرَّرُهُ مِنْ أَحْوَالِ المَحْبِينِ - وَلَا سِيَمَا مَا نَسُوْقُهُ مِنْ كَلَامِ سُلْطَانِ العَاشِقِينَ - شَاهِدٌ عَدْلٌ عَلَى ذَلِكَ ؛ إِذِ المَحْبُوبُ خَيْرٌ مِنَ الحَيَاةِ ، وَالمَكْرُوهُ بِالطَّبِيعَةِ شَرٌّ مِنَ المَوْتِ .

أَمَّا الْأَنْسُ بِالفَانِيِّ . . فَلَوْلَا حِكْمَةُ اللهِ الَّتِي تَسْتَنْزِلُ عَنْ قَضَايَا العُقُولِ لِمَا أَرَادَ مِنْ عِمَارَةِ الدُّنْيَا . . لَمَّا عَدَّ إِلَّا مِنْ صَرِيحِ الجَنُونِ ، لَا سِيَمَا وَقَدْ قَالَ النَّاظِمُ [فِي «العُكْبَرِيِّ» ٢٢٤/٣] :

أَشَدُّ الغَمِّ عِنْدِي فِي سُرُورٍ تَيَقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُهُ انْتِقَالًا

[لَا يَسْتَأْسِرُ العَاقِلُ المَوْفِقُ بِالفَانِيِّ]

نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بُنْيِ لَهُ صَغِيرٍ . . أَعْجَبَهُ حَسَنُهُ ، وَشَدَّهُهُ جَمَالُهُ ، وَرَاقَهُ بِلَهْوِهِ وَخَفَّةِ رُوحِهِ ، فَقَالَ : لَوْلَا المَوْتُ . . لَعَلَّقْتُ قَلْبِي بِكَ .

وَالْتَفَتَ ابْنُ مَطِيحٍ إِلَى دَارِهِ ، فَأَعْجَبَهُ حَسَنُهَا ، فَبَكَى ثُمَّ قَالَ : لَوْلَا أَنِّي أَتَمَثَّلُ خُرُوجَ جَنَازَتِي عَنْهَا . . لَكُنْتُ بِهَا مَسْرُورًا ، وَلَوْلَا مَا أَصِيرُ إِلَيْهِ مِنْ ضَيْقِ القَبْرِ . . لَقَرَّتْ بِهَا عَيْنِي ، ثُمَّ ارْتَفَعَ نَحْبُهُ .

وَقَالَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ : وَمَا أَصْنَعُ بِفَدِّكَ ، وَغَيْرِ فَدِّكَ^(٤) ؟ وَالنَّفْسُ مِطَانُهَا فِي غَدِ جَدَّتْ^(٥) تَنْقَطِعُ فِي ظِلْمَتِهِ آثَارُهَا ،

(١) أَخْرَجَهُ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا البَخَارِيُّ (٤٤٦٣) فِي كِتَابِ المَغَازِي ، وَلِلمُسْلِمِ (٢١٩١) نَحْوَهُ فِي السَّلَامِ .

(٢) أوردته الهندي في « كنز العمال » عن حذيفة (٣٦٩٧٤) ونسبه إلى ابن أبي شيبة .

(٣) الخبر في « وفيات الأعيان » (٣٠١/٢) ، و« المدهش » (٢٢٨) .

(٤) فَدِّكَ : قَرِيْبَةٌ بِالحِجَازِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ خَيْبَرَ (٤٠ كم) ، أَفَاءَهَا اللهُ عَلَى رَسُوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ سَنَةَ سَبْعٍ صَلْحًا .

(٥) الجَدَّتْ : القَبْرُ .

وتغيب أخبارها ، وحفرة لو زيد في فسحيتها ، وأوسعت يدا حافرها . . لأصغطها الحجر والمدر ، وسد فرجها التراب المتراكم^(١) .

هُوَ الْمَوْتُ لَا مَنْجَى مِنَ الْمَوْتِ لِلْفَتَى وَمَا هُوَ بَعْدَ الْمَوْتِ أَدَهَى وَأَصْعَبُ^(٢)

[مِن الطويل]

غيره :

فَهِنَّ الْمَنَائِيَا أَيَّ وَاذِ سَلَكَتُهُ عَلَيْهَا طَرِيقِي أَوْ عَلَيَّ طَرِيقَهَا

[لا يستأنس من هو على خطر الفراق]

ولئن خرج بنا الاستطراد عن موضوع البيت فالمناسبة بحالها ؛ إذ حاصله أن لا قيمة للحياة إلا باجتماع شمل الأحباب ، وأنى يكون الأنس باجتماع الشمل المهدد في كل طرفه عين بالافتراق ؟!

إذن : فلا أنس إلا فيما أشرنا إليه ، مما يشبه ما جاء بمناسبة علاج ثوبان^(٣) مما خالطه من فراقه صلى الله عليه وآله وسلم . . ألا وهو قوله تقدست أسماؤه ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء : ٦٩] .

[مِن الكامل]

[قال الإمام الحداد في « ديوانه » ٣٦٥] :

يَا رَبِّ وَاجْمَعْنَا وَأَحْبَابَنَا فِي دَارِكَ الْفِرْدَوْسِ أَطِيبِ مَوْضِعِ

* * *

[مِن البسيط]

[قال أبو الطيب المتنبي في « العكبري » ١٦٤/٣] :

إِلَّا يَشِبُّ فَلَقَدْ شَابَتْ لَهُ كَيْدٌ شَيْئاً إِذَا خَضَّبْتَهُ سَلْوَةٌ نَصَلًا^(٤)

[حرقة الكبد وحرارة الفؤاد سبيل الهرم]

يقول : إن لم يشب ذلك المدنف . . فقد شابت كبده ، فإن أنس ساعة سلوا . . يخضب شيب كبده نصل ذلك الخضاب ، لأن السلوان سرعان ما يزول وقلما يلبث ، وهو من قول أبي تمام [في « ديوانه » ٢٠٨/١] : [مِن الخفيف]

شَابَ رَأْسِي وَمَا رَأَيْتُ مَشِيبَ الرَّأْسِ إِلَّا مِنْ فَضْلِ شَيْبِ الْفُؤَادِ

(١) شرح نهج البلاغة (٢٠٨/١٦) .

(٢) البيت من الطويل .

(٣) كان سيدنا ثوبان رضي الله عنه شديد الحب لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، قليل الصبر عنه ، فأتاه ذات يوم وقد تغير لونه ، ونحل جسمه ، يعرف في وجهه الحزن ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « يا ثوبان ؛ ما غير لونك ! » فقال : يا رسول الله . . ما بي ضر ، إلا أنني إذا لم أرك اشتقت إليك ، واستوحشت وحشة شديدة حتى أفاك ، ثم ذكرت الآخرة ، وأخاف ألا أراك هناك ؛ لأنني عرفت أنك ترفع مع النبيين ، وأني إن دخلت الجنة . . كنت في منزلة هي أدنى من منزلتك ، وإن لم أدخل . . فذلك حين لا أراك أبداً ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء : ٦٩] . القرطبي (٢٧١/٥) .

(٤) السلوة : ذهاب المحبة . النصل : ذهاب الخضاب .

فنقل الناظم شيب الفؤاد إلى الكبد ، قال الشارح : وهو قبيح ، وعندِي أن لا قبح في تلك الاستعارة ؛ لأن لكل من القلب والكبد اتصالاً بالشيب من حيث تعلُّقه بالدم ، فللكبد طبعه ، وللقلب تفرُّقه على العروق ، فمتى قصر أحدهما في وظيفته . . لحق بالإنسان الضعف ، وتبع ذلك الهرم والشيب لا محالة ، فأحدهما من الآخر كالصنو^(١) من صنو يقتسمان العمل ، ويشتركان في النتيجة ، وما أكثر ما تسمع حرقه الكبد بدلاً من حرارة الفؤاد ، وكل ذلك إلى الهم طريق ، وهو إلى الهرم سبيل ، وقد قال الناظم [في «العكبري» ١٢٤/٤] :

وَالْهَمُّ يَخْتَرِمُ الْجَسِيمَ نَحَافَةً وَيُشِيبُ نَاصِيَةَ الصَّبِيِّ وَيُهْرِمُ

[الشعراء والشيب وأسبابه عندهم]

وأكثر ما يقع أثر الهم على ذنك العضوين ، والشيب في الأغلب إنما هو أثر الانفعال الواقع على أحدهما ، ومنه يتبين أن لا قبح في استعارة الناظم ، والله درّ التهامي في قوله [في «ديوانه» ٤٧١] :

وَتَلْتَهُبُ الْأَحْشَاءُ شَيْبَ مَفْرَقِي هَذَا الشَّعَاعُ شَوَاطِئُ تِلْكَ النَّارِ^(٢)

وكثيراً ما يدعي العشاق على المعشوقين أنهم أشابوهم ، ثم نفروا عنهم من أجل الشيب .

قال أبو عبادة [في «ديوانه» ٨٤/١] :

عَيَّرْتَنِي الْمَشِيبَ وَهِيَ بَدَتُهُ فِي عِذَارِي بِالصَّدِّ وَالْاجْتِنَابِ

وقال [في «ديوانه» ١٢٩/١] :

وَحَمَلْتَنِي ذَنْبَ الْمَشِيبِ وَإِنَّهُ لَذَنْبُكَ إِنْ أَنْصَفْتَ فِي الْحُكْمِ لَا ذَنْبِي

وقال كشاجم [في «ديوانه» ٤٥] :

أَوْ تُتَكْرِمُنِ الشَّيْبَ أَنْتِ جَلِيَّتِي بِجِنَايَةٍ وَقَطِيعَةٍ وَعِتَابِ
لَوْلَمْ تَرُوْعِي بِالْغُرُورِ وَبِالنَّوَى طَوْرًا لَطَالَ تَمْتَعِي بِشَبَابِي

[مسألة الدور عند الشعراء]

وقال بعضهم - وكأنه من الفقهاء ، ويشبه أن يكون ابن سريج^(٣) ، فإنه صاحب مسألة الدور في الطلاق - :

[من مجزوء الرجز]

مَسْأَلَةُ الدَّوْرِ أَتَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ مَنْ أَحَبَّ^(٤)
لَوْلَا مَشِيئِي مَا جَفَا لَوْلَا جَفَاهُ لَمْ أَشِبْ

(١) الصنو : الشبيه ، أو الأخ الشقيق .

(٢) الشواطئ : اللهب الذي لا دخان فيه .

(٣) ابن سريج : هو أحمد بن عمر أبو العباس ، أخذ عن الأنماطي صاحب المزني ، ونشر مذهب الشافعي في (بغداد) ، وهو الفقيه القاضي ، توفي سنة :

(٣٠٦ هـ) ، وله مصنفات كثيرة قيمة .

(٤) الدور : هو توقف الشيء على ما يتوقف عليه ، وله أنواع : فمنه الدور المصرح ، والدور المضمحل . صرح في البيت : أن سبب شيبه جفاء محبوبه ، ولولم

يكن جفافه لم يشب .

ولا يبعدُ عنه قولُ الناظم [في «المكبري» ٣٢٨/١] :

[مِنَ الكَامِلِ]

قَالَتْ وَقَدْ رَأَتْ أَصْفِرَارِي : مَنْ بِهِ ؟
وَتَنَهَّدَتْ فَأَجَبْتُهَا : الْمُتَنَهَّدُ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقولُ أبي فراسٍ [في «ديوانه»] :

فَقَالَتْ : لَقَدْ أَرَزَى بِكَ الدَّهْرُ بَعْدَنَا
فَقُلْتُ : مَعَاذَ اللَّهِ بَلْ أَنْتِ لَأَ الدَّهْرُ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقالَ محمدُ بنُ يحيى بنِ حزمٍ [في «نفع الطيب» ٤٥٣/٣] :

أَتَجَزَعُ مِنْ دَمْعِي وَأَنْتِ أَسَلْتَهُ
وَمِنْ نَارِ أَحْشَائِي وَمِنْكَ لَهِيئَهَا

[مِنَ البَسيطِ]

وقولُ مالكِ بنِ أسماءَ بنِ خارِجَةَ [في «البيان والتبيين» ٤٧٤/١] :

عَيَّرْتَنِي خَلْقًا أُبْلَيْتِ جِدَّتَهُ
وَهَلْ رَأَيْتِ جَدِيدًا لَمْ يَعُدْ خَلْقًا؟^(١)

[استعجال الشيب من حرقة الهوى]

وأما دعوى استعجالِ الشيبِ من حرِّ الهوى . . فلن يُحصى كثرةُ في أقوالِ الشعراءِ قديماً وحديثاً ، ومنه قولُ الناظم [في

[مِنَ البَسيطِ]

«المكبري» ٣٦٤/٤] :

بُحْبٌ قَاتَلْتِي وَالشَّيْبُ تَغْذِيَّتِي
هَوَايَ طِفْلاً وَشَيْبِي بَالِغَ الحُلْمِ

[مِنَ الكَامِلِ]

وقولُ القيروانيِّ :

وَلَرُبَّ بَاكِئَةٍ رَأَتْ فِي لِمَّتِي
وَحَزَّ المَشِيبِ تَأَلَّقَتْ ضَحِكَاتُهُ

زَهَرَ الرِّيَاضِ وَنَوَّرَتْ وَرَفَاتُهُ^(٢)

صَرَفَ الزَّمَانَ وَهَلِيزِهِ نَكَبَاتُهُ

وللشعراءِ في البكاءِ على الشَّبَابِ الكلامُ الطَّوِيلُ العريضُ ، وسنذكرُ ما يليقُ فيما يناسبُ مِنَ المَجَالِسِ ، كما سنذكرُ

عندَ الفرصَةِ ما يقلُّهُ النَّاسُ مِنْ أَوَاقَاتِ الصَّفَاءِ ، وما اختلفَ فِيهِ أَهْلُ الأَدَبِ مِنَ المِطَالِبَةِ وَعَدَمِهَا ، بمآلِهِمْ عِنْدَ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

المحبوبينَ مِنَ الدخولِ ، الذي من أرقِّ ما فِيهِ قولُ المَجْنُونِ [في «ديوانه» ٢٢٦] :

[المطالب العاشق والعاني المشفق]

أَقُولُ لِأَلْفِ ذَاتِ يَوْمٍ لَقِيْتُهُ
بِمَكَّةَ وَالْأَنْضَاءُ مُلْقَى رِحَالِهَا^(٣)

بِرَبِّكَ خَبَّرْنِي أَلَمْ تَأْتِ التِّي
أَصْرَرَ بِجِسْمِي مِنْ زَمَانٍ خَيَالِهَا!؟

فَقَالَ : بَلَى وَاللَّهِ سَوْفَ يَمْسُهَا
عَذَابٌ وَبَلَوَى فِي الحَيَاةِ تَنَالِهَا

عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ذَنْبَهَا وَأَقَالَهَا
وَإِنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا قَلِيلاً نَوَالِهَا

(١) الخَلْقُ : القديمُ البالي .

(٢) وَرَفَّ النَّبَاتُ : إذا رأى الناظرُ لخصرته بهجةً مِنْ رَبِّهِ وَنِعْمَتِهِ .

(٣) الْأَنْضَاءُ : جمعُ نَضْوٍ ، وهو البعيرُ المهزولُ .

وقوله [في «ديوانه» ٦٨] :

[من الطويل]

حَلَالٌ لِّئَلَى شَتْمَنَا وَانْتِقَاصَنَا هَيْئاً وَمَغْفُوراً لِّئَلَى ذُنُوبِهَا

وقول كثير [في «ديوانه» ١٠٠] :

[من الطويل]

هَيْئاً مَرِيئاً غَيْرَ دَاءٍ مُخَامِرٍ لَعَزَّةٍ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتِ^(١)

* * *

[قال أبو الطيب المتنبى [في «العكبري» ١٦٤/٣] :

[من البسيط]

يُجَنُّ شَوْقاً فَلَوْلَا أَنَّ رَائِحَةَ نَزُورُهُ فِي رِيحِ الشَّرْقِ مَا عَقَلَا

[رائحة الأحياء تطفئ نار العذاب]

يُروى (يَجَنُّ) بالحاء المهملة ، و(يُجَنُّ) بالمعجمة من أسفل ، والمعنى : أن هذا الدنف يطولُ حينه ، أو يعتاده جنونه ، ولولا أنه يجدُ رائحةً شرقيةً من قبلِ أحبائه . . كما عادَ إليه عقله ، ولكنه إذا وجدَ ریحَ الشرقِ تهبُّ من جهة أحبائه . . كان له فيها نوعٌ من الوصالِ فحفَّ جنونه ، وضربَ البيتِ يؤكدُ روايةَ الجيم ، وقد نظرَ فيه إلى قولِ ابن الدمينية :

[من الطويل]

وَأَسْتَنْشِقُ النَّسْمَاءَ مِنْ نَحْوِ أَرْضِكُمْ كَأَنِّي مَرِيضٌ وَالنَّسِيمُ طَيِّبٌ

وقول المجنون [في «ديوانه» ٩٧] :

[من الطويل]

لَقَدْ عَارَضْتَنَا رِيحٌ لَيْلَى بِهِبَةٍ عَلى كَبِدِي مِنْ طيبِ أَرْوَاحِهَا بَرْدٌ فَمَا زِلْتُ مَغْشِيّاً عَلَيَّ وَقَدْ مَضَتْ أَنَاةٌ وَمَا عِنْدِي جَوَابٌ وَلَا رَدُّ^(٢)

وقوله أو قيس [بن ذريح]^(٣) :

[من الطويل]

تَمُرُّ الصَّبَا صَفْحاً بِسَاكِنِ ذِي الْعَضَا إِذَا هَبَّتِ الرِّيحُ الشَّمَالُ فَإِنَّهَا قَرِيْبَةٌ عَهْدٍ بِالْحَيِّبِ وَإِنَّمَا وَيَضِدُّ قَلْبِي أَنْ يَهْبُّ هُبُوبُهَا جَوَابِي بِمَا يُهْدِي إِلَيَّ جُنُوبُهَا هَوَى كُلِّ نَفْسٍ حَيْثُ حَلَّ حَبِيْبُهَا

وقولُ ذِي الرُّمَّةِ [في «ديوانه» ٦٩٤-٦٩٥/٢] :

[من الطويل]

إِذَا هَبَّتِ الأَرْوَاحُ مِنْ نَحْوِ جَانِبِ بِهِ أَهْلُ مَيِّ . . هَاجَ قَلْبِي هُبُوبُهَا

(١) مخامرٌ : مخالطٌ .

(٢) أناةٌ : مدَّةٌ .

(٣) الأبيات للمجنون في «ديوانه» ٦٩ ، وليست لقيس بن ذريح .

(٤) الصبا : الریح التي تهبُّ من مطلعِ الشمسِ إذا استوى الليلُ والنهارُ .

هَوَى تَذْرِفُ الْعَيْنَانِ مِنْهُ وَإِنَّمَا

هَوَى كُلِّ نَفْسٍ حَيْثُ حَلَّ حَبِيبُهَا

وقولُ المجنونِ :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَلَا هَبَّتِ الرِّيحُ الْجَنُوبُ لِأَرْضِهَا

مِنَ اللَّيْلِ إِلَّا بِثُ لِلرِّيحِ جَانِيَا

وقوله [في «الأغاني» ٥/ ٢٤٣] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

أَيَا جَبَلِي نَعْمَانَ بِاللهِ خَلِيَا

نَسِيمَ الصَّبَا . . يَخْلُصُ إِلَيَّ نَسِيمُهَا

فَإِنَّ الصَّبَا رِيحٌ إِذَا مَا تَنَسَّمْتُ

عَلَى نَفْسٍ مَحْزُونٍ تَجَلَّتْ هُمُومُهَا

وفي هذا لطيفتان :

[المجنون يخرج في طلب الميرة]

حاصلُ الأولى : أَنَّ المجنونَ خرجَ في أصحابه ليمتاروا من وادي القُرى ، فمرُّوا بجبلي نعمان ، فقالوا له : هذان جبلا نعمان ، وقد كانت ليلتي تنزلهما ، قال : فأئني ريح تجري من نحو أرضها إلى هذا المكان ؟ قالوا : الصبا ، قال : والله لا أبرح حتى تهب ، فأقام في ناحية ، وذهب أصحابه فامتاروا لهم وله ، ثم رجعوا إليه ، فحبسهم بعد رجوعهم ثلاثة أيام ، حتى هبت ، فرحل معهم وقال البيتين ، وبعدهما : [من الطويل]

وَيَا رِيحُ مُرِّي بِالذِّبَارِ فَجَبَّرِي

أَلَا إِنَّ أَدْوَانِي بِلَيْلِي قَدِيمَةٌ

أَبَاقِيَةٌ أَمْ قَدْ تَعَفَّتْ رُسُومُهَا ؟

وَأَقْتُلُ أَدْوَاءَ الرَّجَالِ قَدِيمُهَا

[ابن الجوزي الواعظ وزوجته نسيم]

وأما الثانية : فهي أَنَّ ابنَ الجوزيَّ^(١) الواعظَ الشهيرَ ، كانت له امرأة يقال لها (نسيم) فحصلَ منها حالٌ أمضه ، فظلمها ، ثم تبعثها نفسه ، وكانت تحضرُ مجلسَ وعظه ، فرآها من بين امرأتين كبيرتين ، فجعل يتخلل بكلامه ، ويهدر في مقاله ، ويخبُّ في مجاله ، حتى انتهى إلى موضوع يحسن أن يتمثل عنده بهما ، فأنشدهما - وهو إياها يعني وبها ينوه - فعرفت الإشارة ، وانسلت من بين الناس .

[الشعراء ورياح الأحاب]

ويدخل في المعنى قولُ الصمّةِ بنِ عبيدِ الله [في «ديوانه» ٣١] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

إِذَا مَا أَتْنَا الرِّيحُ مِنْ نَحْوِ أَرْضِكُمْ

أَتْنَا بِرِيَاكُمْ فَطَابَ هُبُوبُهَا^(٢)

وقال غيره :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

إِذَا هَبَّ عَلُوِي الرِّيحِ وَجَدْتِنِي

كَأَنِّي لِعُلُوِي الرِّيحِ نَسِيبُ

وقال كلابُ بنُ عقبة :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

بِنَفْسِي وَأَهْلِي مَنْ تَجَنَّبْتُ دَارَهُ

وَمَنْ لَا أَرَى لِي مِنْ زِيَارَتِهِ بُدَا

(١) هو عبد الرحمن بن علي ، أبو الفرج ، جمال الدين ، الحافظ ، صاحب المؤلفات الكثيرة النافعة في الفقه والتفسير والحديث والأخبار والوعظ والتاريخ والطب ، توفي سنة : (٥٩٧ هـ) .

(٢) رثا كل شيء : طيب رائحته .

وَمَنْ رَدَّنِي إِذْ جِئْتُ زَائِرَ بَيْتِهِ
وَمَنْ لَا تَهْبُ الرِّيحُ مِنْ نَحْوِ أَرْضِهِ

وقال عليُّ بنُ علقمة ، أو مجنونُ عامرٍ [في «ديوانه» ١١٩] :

وَلَوْ زَارَ بَيْتِي مَا أَهَيْنَ وَلَا رُدًّا
فَتَبَلَّغُنِي إِلَّا وَجَدْتُ لَهَا بَرْدًا

[مِنَ الطَّوِيلِ]

إِذَا الرِّيحُ مِنْ نَحْوِ الْحَبِيبِ تَسَمَّتْ
عَلَى كَبِدٍ قَدْ كَادَ يُبَدِي بِهَا الْجَوَى

وقال عبيدُ الله بنُ قيسِ الرقيّاتِ [في «ديوانه» ١٨٢]

وَجَدْتُ لِمَسْرَاهَا عَلَى كَبِدِي بَرْدًا
نُدُوبًا وَبَعْضُ الْقَوْمِ يَحْسِبُنِي جَلْدًا

[مِنَ الْمُنْسَرِحِ] :

هَبَّتْ رِيحٌ مِنْ جَانِبِ السَّنَدِ
جَاءَتْ بِرِيًّا الْحَبِيبِ تَحْمِلُهَا

وقال أسيدُ بنُ الحارثِ :

فَقُلْتُ : يَا بَرْدَهَا عَلَى كَبِدِي^(١)
مِنْ بَلَدٍ نَازِحٍ إِلَى بَلَدٍ

حَسِبْتُ الْغَضَا يَشْفِي هَيَامِي فَلَمْ أَجِدْ
بَلَى لَوْ أَتَيْتُ الرِّيحَ تَذْرُجُ مَوْهِنًا

[مِنَ الطَّوِيلِ]

شَمِيمَ الْغَضَا يَشْفِي غَلِيلَ فُؤَادِيَا^(٢)
بِرِيحِ الْخُزَامِي كَانَ أَشْفَى لِمَا بِيَا^(٣)

وقال غيرهُ :

وَإِنِّي لِأَسْتَشْفِي بِكُلِّ غَمَامَةٍ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

يُهْبُ بِهَا مِنْ نَحْوِ أَرْضِكُمْ رِيحٌ

وقال آخرُ :

أَلَا يَا نَسِيمَ الصُّبْحِ مَا لَكَ كُلَّمَا
كَأَنَّ سُلَيْمَى نُبِئَتْ بِسِقَامِنَا

[مِنَ الطَّوِيلِ]

تَقَرَّرْتِ مِّنَّا فَاحِ نَشْرُكَ طَيِّبًا ؟
فَأَعْطَتْكَ رِيَّاهَا فَجِئْتَ طَيِّبًا

وقال أبو عبادة :

يُذَكِّرُنَا رِيًّا الْأَحِبَّةِ كُلَّمَا

[مِنَ الطَّوِيلِ]

تَنْفَسَ فِي جُنْحِ مِنَ اللَّيْلِ بَارِدٍ

وقال غيرهُ :

وَمُغْتَرِبٍ بِالْمَرْجِ يَبْكِي لِشَجْوِهِ
إِذَا مَا أَتَاهُ الرَّكْبُ مِنْ نَحْوِ أَرْضِهِ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَقَدْ غَابَ عَنْهُ الْمُسْعِدُونَ عَلَى الْحُبِّ
تَنْفَسَ يَسْتَشْفِي بِرَائِحَةِ الرَّكْبِ

وقد قال امرؤ القيسِ قبلَ ذلك [في «معلقته»] :

نَسِيمُ الصَّبَا جَاءَتْ بِرِيًّا الْقَرْنَفَلِ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

(١) السَّنَدُ : ما قابلكَ مِنَ الجبلِ .

(٢) الغضا : شجرٌ صلب ينبتُ في الصحراءِ ، وخطبه من أجودِ الوقودِ عندَ العربِ . الهَيَامُ : أشدُّ العطشِ . شَمِيمُ الغضا : شديدُ اجتذابِ رائحةِ تلكِ الأشجارِ . الغليلُ : حرارةُ العطشِ .

(٣) تَذْرُجُ : تمرُّ مرًّا ليسَ بالقويِّ ولا الضَّعيفِ . مَوْهِنًا : الوقتُ المتأخِّرُ مِنَ اللَّيْلِ . الْخُزَامِي : شجرٌ طيِّبُ الريحِ .

[القول الحق هو قوله تعالى]

وخيرٌ من الجميع قوله جلّ ذكره : ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِمْرُ قَالَتْ أَبُوهُمَ إِنِّي لِأَجْدُرِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ * قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ * فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْفَنَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف : ٩٤-٩٦] .

وجاء في بعض طرق حديث إبراهيم الطويل : أن إسماعيل لما عاد من قنصه . . اشتم رائحة أبيه .

[أمية بن الأشكر يطالب الفاروق برد ولده كلاب]

وكان أمية بن الأشكر من فضلاء الصحابة ومن خيار المسلمين ، وكان له ولدٌ من أبطال العرب يدعى كلاباً ، فسيرة عمر إلى (الشام) ، وكان برأ بوالده ، وكان أبوه قد عمي وعمي ، فاشتد عليه بعهده ، وأخذ يطالب عمر برده ، فلم يجبه ؛ لما كان من غناء^(١) كلاب في فتوح (الشام) ، فما كان منه إلا أن استقبله في المسجد بأبيات يتشوق بها إلى ولده ، ويخرج فيها إلى عمر يعاتبه وهي :

أما وأبيك ما باليتُ وجدي
وإنقائي عليك إذا شتونا
فلو فلقت الفؤاد شديدٌ وجدٍ
سأستعدي على الفاروق رباً
وأدعو الله مُجتهداً عليه
إن الفاروق لم يزد كلاباً
ولا شغفي عليك ولا اختراقِي
وضمك تحت صدري واعتناقِي
لهم سواد قلبِي بانفلاقِ
له دفع الحجاج إلى بساق^(٢)
ببطن الأخشيين إلى دُفَاقِ^(٣)
على شخين هاهما زواقِي^(٤)

[أمية يشتم رائحة ولده]

فاستكان لها عمرٌ ، ودمعت عيناه ، واستقدم كلاباً على البريد ، ولما حضر . . خبأه ، واستدعى أباه - وكان أمره أن يحلب ناقةً فحلبها - وقدم إليه اللبن عمرٌ ، فقال : إني لأجد منه ريح كلاب ، واختنفته العبرة ، فقلن له نسوة كن هنالك : لقد كبرت ، وخرفت ، وذهب عقلك ، كلابٌ بظهر (الشام) وتزعم أنك تجد ريحه ، فقال : والله إني لأجد ريحه من هذا اللب ، وإن لم تردّه عليّ يا عمر . . لأجائتك بين يدي الله ، وأعاد الأبيات السابقة ، فأشار ابن الخطاب بعد ذلك على كلاب أن يخرج فخرج ، وحصل بينه وبين أبيه ما يبكي الطير ، ويذيب الحجارة^(٥) .

[حسان بن ثابت يشتم رائحة آل جفنة وقصة جيلة بن الأيهم]

وقد جاء [في « الأغاني » ١٥/١٦٣] : أن حسان بن ثابت اشتم رائحة آل جفنة لما جاء إلى عمر - وعنده رسول الروم -

(١) الغناء : النفع .

(٢) البساق : جبل بل عرفات .

(٣) دُفَاق : موضع قرب (مكة) .

(٤) هاهما : رأسهما . زواقِي : من قولهم : أزيقتُ هامةً فلان إذا قتلته .

(٥) انظر القصة في « الإصابة » (١/١٣٧) .

وكان لاقى جبلة بن الأيهم هناك ، وتحمل عنه هديّة لحسان ، فأنشأ يقول [في « ديوانه » ١/ ٤٣٩] :

إِنَّ ابْنَ جَفْنَةَ مِنْ بَقِيَّةِ مَعْشَرٍ لَمْ يَغْذُهُمْ آبَاؤُهُمْ بِاللُّومِ
لَمْ يَنْسِنِي بِالشَّامِ إِذْ هُوَ رَبُّهَا كَلًّا وَلَا مُتَّصِرًا بِالرُّومِ

في خبر طويل وحكاية مشهورة ، أنكر بعضها ابنُ الشجري ، وذكرها المؤرخون^(١) .

وأشار إليها المعري في قوله [في « سقط الزند » ١٢٤] :

بُؤِ أَمْلاكِ جَفْنَةَ قَرَبَتْهُمْ إِلَى الرُّومِ اللَّجَاجَةَ وَالْعِنَادُ^(٢)
أَرَادَتْ أَنْ تُقِيدَهُمْ قُرَيْشٌ وَكَانُوا لَا يُنَالُ لَهُمْ قِيَادُ^(٣)

[القبر يدل على المقبور]

وعرف قيسُ بنُ ذريحِ قبرِ لُبْنَى ، وكانوا عمّوه عليه كما في رواية ، فما زالَ يتشمّمُ القبورَ حتّى اهتدى إليه فقال : [من الطويل]

أَرَادُوا لِيُخْفُوا قَبْرَهَا عَنْ مُحِبِّهَا وَلَكِنَّ طِيبَ الْقَبْرِ دَلَّ عَلَى الْقَبْرِ

[قبور العاشقين]

وعرف بعضهم قبر ابن الفارض بطيبة ، وآثار الذلّ الغرامي عليه ، فقال :

مَسَاكِينُ أَهْلِ الْعِشْقِ حَتَّى قُبُورِهِمْ عَلَيْهَا تُرَابُ الذَّلِّ بَيْنَ الْمَقَابِرِ

[كل ما يتصل بالحبيب حبيب]

ومما يتصلُ بمعنى البيت الذي نتكلّم عليه . . قولُ قيسِ بنِ ذريحِ أو المجنون ، فقد عُزِيَ إلى كلِّ منهما ، أو هي آياتُ لهما ، تداخلت في بعضها فكانت من أرقّ النسيبِ ، وهي [في « ديوان المجنون » ٥٢-٥٣] :

جَرَى السَّيْلُ فَاسْتَبَكَانِي السَّيْلُ إِذْ جَرَى وَفَاضَتْ لَهُ مِنْ مُقْلَتَي غُرُوبِ^(٤)
وَمَا ذَاكَ إِلَّا جِئِنَ أَتَقَنَّتُ أَنَّهُ يَكُونُ أَجَاجًا دُونَكُمْ فَإِذَا انْتَهَى
يَكُونُ أَجَاجًا دُونَكُمْ فَإِذَا انْتَهَى إِلَيْكُمْ تَلَقَّيْ طَيْبِكُمْ فَيَطِيبُ
فِيَا سَاكِنِي أَكْنَافِ نَخْلَةٍ كُلُّكُمْ إِلَى الْقَلْبِ مِنْ أَجْلِ الْحَبِيبِ حَبِيبُ
أَظَلُّ غَرِيبَ الدَّارِ فِي أَرْضِ عَامِرٍ إِلَى كُلِّ مَهْجُورٍ هُنَاكَ غَرِيبُ

ويشبهها قولُ الناظم [في « العكبري » ٣/ ٩٦-٩٧] :

إِذَا كَانَ شَمُّ الرِّيحِ أَدْنَى إِلَيْكُمْ فَلَا بَرِحْتَنِي رَوْضَةً وَقَبُولُ

(١) انظر « الأغاني » (١٦٣/١٥) ، و« البداية والنهاية » (٦٦/٨) .

(٢) اللجاجة : التمادي في العناد .

(٣) تُقِيدُهُمْ : تقتصُّ منهم .

(٤) الغروب : جمعُ غرب ، وهو الدلو العظيمة .

وَمَا شَرَقِي بِالْمَاءِ إِلَّا تَذَكُّرًا لِمَاءِ بِهِ أَهْلُ الْحَبِيبِ نُزُولٌ^(١)

[الخلافة في مسألة القناعة في الحب]

وَكَأَنِّي بِمَنْ يَنْكُرُ تَبَايِنَ مَا سَقْنَا مِنَ الشَّوَاهِدِ لِذِكْرِ الرِّوَايَةِ وَالنِّسَائِمِ مِنْ حَيْثُ إِنَّ بَعْضَهُمْ يَتَعَلَّلُ بِهَا وَيَتَسَلَّى ، وَيَحْصُلُ لِدَاءِ غَرَامِهِ بَعْضُ الشِّفَا ، وَتَزِيدُ آخَرِينَ وَجِدًا وَغَرَامًا وَتَبَلًا^(٢) وَاضْطِرَامًا ، وَنَقُولُ لَا مُشَاحَّةَ مَا دَامَتْ نَوْعًا مِنَ الْوَصَالِ الْمَخْتَلَفِ فِيهِ أَيْضًا ؛ إِذْ لَا يَقْتَنَعُ بَعْضُهُمْ حَتَّى تَمْتَرَجَ الْأَرْوَاحُ - كَمَا سَيَأْتِي فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ - وَيَقْتَنَعُ بَعْضُهُمْ بِأَدْنَى شَيْءٍ ، كَمَا سَبَقَ فِي الْمَجْلِسِ الثَّانِي حَيْثُ ذَكَرْنَا قَوْلَ ابْنِ الدُّمَيْنَةِ :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

رَضِيْتُ بِسَعْيِ الْوَهْمِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْوَضَلِ مِنْهُ نَصِيبٌ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقول كثير [في « وفيات الأعيان » ٣٦٨/١] :

وَإِنِّي لِأَرْضَى مِنْكَ يَا عَزُّ بِالَّذِي لَوْ ابْصَرَهُ الْوَأَشِي لَقَرَّتْ بِلَابِلُهُ

... الأبيات .

[مِنَ الْوَافِرِ]

وقول جحدر [في « البداية والنهاية » ١٢٥/٩] :

أَلَيْسَ اللَّيْلُ يَجْمَعُ أُمَّ عَمْرُو وَإِنَّا فَذَاكَ بِنَا تَدَانِي

والذي بعده .

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقال قيس بن ذريح فيما يشبه قول جحدر [في « ديوانه » ٦٠-٦١] :

أَلَيْسَتْ لُبِّي تَحْتَ سَفْفِ يَكْنُهَا
وَيَلْبَسُنَا اللَّيْلُ الْبُهَيْمُ إِذَا دَجَا
تَطَا تَحْتَ رِجْلَيْهَا بِسَاطًا وَبَعْضُهُ
وَإِنِّي ؟ هَذَا إِنْ نَأَتْ لِي نَافِعُ^(٣)
وَيُبْصِرُ ضَوْءَ الصُّبْحِ وَالْفَجْرُ سَاطِعُ
أَطَاهُ بِرِجْلِي لَيْسَ يَطْوِيهِ مَانِعُ

[مِنَ الْكَامِلِ]

وقال [في « ديوانه » ١٤٣] :

وَيَقَرُّ عَيْنِي وَهِيَ نَازِحَةٌ
أَنِّي أَرَى وَأَظُنُّهَا سَتَرِي
مَا لَا يَقَرُّ بِعَيْنِ ذِي الْحُلْمِ
وَضَحَّ النَّهَارِ وَعَالِي النُّجْمِ

[ذكر زيارة الطيف وإمام الشعراء به]

وكثيرٌ مَنْ يَتَمَتَّعُ بِالْخِيَالِ ، وَيَتَعَلَّلُ بِالْأَمَالِ ، وَأَوَّلُ مَنْ ذَكَرَ زِيَارَةَ الطَّيْفِ - فِيمَا يُرْوَى - جِرَانُ الْعُودِ فِي قَوْلِهِ [في

[مِنَ الْبَسِيطِ]

« ديوانه » ٥٥] :

سَقِيَا لِزَوْرِكَ مِنْ زُورِ أَتَاكَ بِهِ حَدِيثُ نَفْسِكَ عَنْهُ وَهُوَ مَشْغُولُ^(٤)

(١) الشَّرْقُ : الاحتناق بالماء أو الريق أو النفس .

(٢) تَبَلُ الْحَبِّ الْإِنْسَانُ : أسقمه وأفسده وذهب بعقله .

(٣) الْكِنُ : وقاء كل شيء وستره .

(٤) الزُّورُ : الزائر . والزُّورُ : الكذب .

ثُمَّ اقْتَفَاهُ الْعَبَّاسُ بْنُ الْأَحْنَفِ ، وَتَلَقَّاهُ أَبُو تَمَّامٍ ، وَأَكْثَرَ التَّصَرُّفَ فِيهِ أَبُو عُبَادَةَ ، وَمِنْ أَحْسَنِ مَا لَهُ فِيهِ قَوْلُهُ [فِي « دِيوانه »]

[۱۵۰۴/۳] :

فَكَمْ غُلَّةٌ لِلشُّوقِ أَطْفَأَتْ حَرَّهَا بَطِيفٍ مَتَى مَا يَطْرُقِ اللَّيْلُ يَطْرُقِ

[مِنَ الطُّوِيلِ]

وقوله [في « ديوانه » ۱۰۰۴/۲] :

وَكَمْ فِي الدُّجَا مِنْ فَرْحَةٍ بِلِقَائِهَا إِذَا اللَّيْلُ أَعْطَانَا مِنَ الوَصْلِ بُلْغَةً
وَلَمْ أَنْسَ إِسْعَافَ الْكَرَى بِدُنُوقِهَا وَأَخْذِي بِعِطْفِيهَا وَقَدْ مَالَ رِذْفُهَا
عِنَاقُ يُرْوِي غُلَّتِي وَهُوَ بَاطِلٌ وَوَزَنَهَا بَعْدَ الْهُدُوِّ وَمَا تَذْرِي
بَطِيعَةَ الْعِطْفَيْنِ مَهْضُومَةَ الْخَضْرِ وَلَوْ أَنَّهُ حَقُّ شَفَى لَوْعَةَ الصَّدْرِ

[مِنَ الْكَامِلِ]

وقوله [في « ديوانه » ۱۴۷۵/۳] :

وَلَرُبَّمَا كَانَ الْكَرَى سَبَبًا لَنَا بَعْدَ الْفِرَاقِ إِلَى اللَّقَاءِ فَنَلْتَقِي
مَتَذَكِّرَانَ عَلَى الْبِعَادِ فَمَا يَنِي يُهْدِي الْغَرَامَ مُعَرَّبٌ لِمُشْرِقِ^(١)

[مِنَ الطُّوِيلِ]

وقوله [في « ديوانه » ۱۲۳۷/۳] :

فَلَا وَصَلَ إِلَّا أَنْ يَطِيفَ خَيَالُهَا بِنَا تَحْتَ جَوْشُوشٍ مِنَ اللَّيْلِ أَسْفَعِ^(٢)
أَلَمْتُ بِنَا بَعْدَ الْهُدُوِّ وَسَامَحْتُ بِوَصْلِ مَتَى نَطْلُبُهُ فِي الْجِدِّ تَمْنَعِ

[مِنَ الْكَامِلِ]

وقوله [في « ديوانه » ۱۹۸۴/۳] :

أَهْلًا بِزَائِرِهِ الْمُلِمِّ لَوْ أَنَّهُ عَرَفَ الَّذِي يَعْتَادُ مِنْ إِمَامِهِ^(٣)
جَذْلَانٌ يَسْمَحُ فِي الْكَرَى بِعِنَاقِهِ وَيَضُرُّ فِي غَيْرِ الْكَرَى بِسَلَامِهِ

[مِنَ الطُّوِيلِ]

وقوله [في « ديوانه » ۱۶۰۸-۱۶۰۷/۳] :

وَلَيْلَةٌ هَوَمْنَا عَلَى الْعَيْسِ أَرْسَلَتْ بَطِيفِ خَيَالٍ يُشْبَهُ الْحَقَّ بَاطِلُهُ
فَلَوْلَا بَيَاضُ الصُّبْحِ طَالَ تَشْيِي بِعِطْفِي غَزَالٍ بَثٌّ وَهْنَا أَعَازِلُهُ^(٤)
وَكَمْ مِنْ يَدٍ لِلَّيْلِ عِنْدِي حَمِيدَةٌ وَلِلصُّبْحِ مِنْ حَظْبٍ تَذَمُّ غَوَائِلُهُ^(٥)

[مِنَ الْبَسِيطِ]

وقد أَعَارَ النَّازِمُ عَلَى الْأَخِيرِ فِي قَوْلِهِ [فِي « الْعَكْبَرِي » ۱۶۱/۱] :

أَزُورُهُمْ وَسَوَادُ اللَّيْلِ يَشْفَعُ لِي [وَأَتْنِي وَيَبَاضُ الصُّبْحُ يُغْرِي بِي]

(١) بني : يتوانى .

(٢) الجَوْشُوشُ : الصدرُ . أَسْفَعُ : الشَّفْعَةُ ، السَّوَادُ الْمَشْرَبُ بِالْحَمْرَةِ .

(٣) يعتاد : يتاب . إِمَامُ الطَّيْفِ : زيارته .

(٤) الوهن : حين إِدْبَارِ اللَّيْلِ .

(٥) غَوَائِلُهُ : عَوَابِئُهُ .

وقوله [في «المكبري» ١/١٧٨] :

[من الطويل]

تُحَدِّثُ أَنَّ الْمَانَوِيَّةَ تَكْذِبُ^(١)

وَكَمْ لظَلَامِ اللَّيْلِ عِنْدِي مِنْ يَدِ

وَقَالَ الحُطَيْئَةُ :

[من الطويل]

خَيَالٌ يُوَافِي الرَّكَبَ مِنْ أُمَّ مَعْبِدٍ^(٢)

وَفِي كُلِّ مَمْسَى لَيْلَةٌ وَمَعْرَسٍ

[من الطويل]

لَعَلَّ لِقَاءَ فِي الْمَنَامِ يَكُونُ
فَيَا لَيْتَ أَحْلَامَ الْمَنَامِ يَقِينُ

وَقَالَ قيسُ بنُ ذريحٍ [في «ديوانه» ١٥٠] :

وَإِنِّي لِأَهْوَى النَّوْمَ مِنْ غَيْرِ نَعْسَةٍ
تُجَبِّرُنِي الْأَحْلَامُ أَنِّي أَرَاكُمْ

[من الطويل]

لَعَلَّ خَيَالًا مِنْكَ يَلْقَى خَيَالِيَا^(٣)
أَحَدْتُ عَنْكَ النَّفْسَ بِالسَّرِّ خَالِيَا

وَقَالَ المَجْنُونُ [في «ديوانه» ٢٩٩-٣٠١] :

وَإِنِّي لِأَسْتَعْشِي وَمَا بِي نَعْسَةٌ
وَأَخْرَجُ مِنْ بَيْنِ الْبُيُوتِ لَعَلَّنِي

[من المتقارب]

وَالْأَخَيَالُ يُوَافِي خَيَالًا
وَيَأْبَى مَعَ الصُّبْحِ إِلَّا زَيْلًا

وَقَالَ عمرو بنُ قميئةٍ [في «الأغاني» ١٨/١٤١] :

نَأْتِكَ أَمَامَةً إِلَّا سُؤَالَ
يُوَافِي مَعَ اللَّيْلِ مِعَاذَهَا

[من الكامل]

وَلَّيْ وَحُسْنُ حَدِيثِهِ لَمْ يُسَامِ
لِمَبِيتِ شَعْبِ كَالْأَسِنَّةِ سُهَمِ^(٤)

وَقَالَ عبدُ الله بنُ الزبيرِ الأَسَدِيُّ :

سَفِيًّا لِطَيْفِكَ مِنْ خَيَالِ طَارِقِ
أَنْتَى اهْتَدَيْتِ وَأَنْتِ غَيْرُ خَيْرَةٍ

[من الكامل]

وَمِنْ الْكَرَى لِعِيُونِنَا كُحْلُ
خَرَقَاءَ يُعْرِقُ نَيْهَا الرَّحْلُ^(٥)
وَتَعَلَّلْتُ بِصَرِيفِهَا الْبُزْلُ^(٦)

وَقَالَ النظَّارُ الفقعسيُّ [في «الأغاني» ١٩/٢٤٤] :

أَنْتَى اهْتَدَتْ لِمَنَاخِنَا جُمْلُ
طَرَقَتْ أَخَا سَفَرٍ وَتَاجِيَةٍ
فِي مَهْمِهِ هَجَعَ الدَّلِيلُ بِهِ

[من الكامل]

فِي النَّوْمِ غَيْرَ مُصَرَّدٍ مَحْسُوبِ^(٧)

وَقَالَ قيسُ بنُ الأَسَلْتِ أَوْ قيسُ بنُ الخَطِيمِ [بل لقيس بنِ الخطيم كما في «ديوانه» ١٦] :

مَا تَمْنَعِي يَقْظَى فَقَدْ تَوُؤِنِنَهُ

(١) المانوية: قوم يُنسبون إلى (ماني)، وهو رجل يقول: الخير من النهار، والشر من الليل، وانتحل هذا المذهب.

(٢) المعرّس: آخر الليل.

(٣) غشاء كل شيء: غطاؤه.

(٤) الأشعث: المغبر الرأس. سُهَمٌ: ضامر، متغير اللون، ذابل الشفتين، عابس من شدة الهم.

(٥) الخرقاء: هي الدابة التي في أذننها ثقب. يُعْرِقُ: من التعرّق. نَيْهَا: شحمها.

(٦) تعللت: أي شربت المرة بعد الأخرى. الصريف: الحليب حين يعلب. البزل: أي النوق.

(٧) مُصَرَّدٌ: مقلّب. محسوب: قال الشريف المرتضى: تحتل في البيت معنيين: أحدهما: من الحساب وهو العد؛ لأن الشيء القليل يوصف بأنه معدود

ومحسوب، والثاني: أن يكون «محسوب» من الحساب وهو أنه غير متوقع.

[الخلاف في اسم أول من وصف الطيف]

وقد اختلف في جرانِ العودِ الذي قيلَ : إنه أولُ من وصفَ الطيفَ ، فقيلَ : إنه جاهليٌّ ، ولا إشكالَ حينئذٍ ، وقيلَ : إنه إسلاميٌّ وبه وجهٌ من النظرِ ، لما مرَّ بك من شعرِ الجاهليينَ فيه ، وقيلَ : إنهما اثنانِ .

[ليس الغنم بالغرم]

وكثيرٌ من أهلِ الأدبِ من يخافُ أن يحميَ معشوقه المنامَ ، كما يأتي في شرحِ قوله [في «العُكْبَرِيّ» ٣١٩/١] : [من الخفيفِ]
أَيُّ يَوْمٍ سَرَزْتَنِي بِوَصَالٍ لَمْ تَرُعْنِي ثَلَاثَةَ بَصُودٍ

[التناوم من أجل رؤيا خيال الحبيب]

ومنهم : من يتطلَّبُ الإغفاءَ لكي يصطادَ به الخيالَ ، كما سيأتي من قولِ مهيارٍ [في «ديوانه» ٣٢٨/٣] : [من الرَّمَلِ]
وَابْعَثُوا أَشْبَاحَكُمْ لِي فِي الْكَرَى إِنَّ أَدْنَتْكُمْ لِحُفُونِي أَنْ تَنَامَا

وقولِ سلطانِ العاشقينَ [في «ديوانه» ١٥٧] : [من الخفيفِ]
أَوْ مُرِ الْعُمُضَ أَنْ يُمَرَّ بِحُفْنِي فَكَأَنِّي بِهِ مُطِيعاً عَطَاكَ

[زيادة النار حطباً]

أمَّا قولُ نديمِ المتوكِّلِ عليِّ بنِ النجمِ [في «وفيات الأعيان» ٣٧٤/٣] : [من المديدي]
زَارَنِي طَيْفُ الْحَيِّبِ فَمَا زَادَ أَنْ أَغْرَى بِبِي الْأَرْقَا
فليسَ بأغربَ ممَّا يأتي عن أهلِ المحبةِ الصادقةِ أوائلِ المجلسِ السادسِ عشرِ .

* * *

[قال أبو الطَّيِّبِ المتنبي في «العُكْبَرِيّ» ١٦٥/٣] : [من البسيطِ]

عَلَّ الْأَمِيرَ يَرَى ضَعْفِي فَيَشْفَعُ لِي إِلَى الَّتِي تَرَكْتَنِي فِي الْهُوَى مَثَلًا

[الذل في الهوى والشفاعة فيه]

يقولُ : علَّ الأميرَ الممدوحَ يطلعُ على ذلِّي وضعفي في الهوى ، فيشفعَ لي إلى التي تركتني مضربَ المثلِ في الغرامِ ، لتواصلني بشفاعتهِ ، وهو من قولِ أبي نُوَاسٍ [في «ديوانه» ٥٨٥] : [من الطويلِ]

سَأَشْكُو إِلَى الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ هَوَاهَا لَعَلَّ الْفَضْلَ يَجْمَعُ بَيْنَنَا

وقولُ أبي نُوَاسٍ أحسنُ ؛ لأنَّ الجمعَ قد يكونُ بأن يعطيه ما يتوصلُ به إلى المحبوبةِ ، وأمَّا الشفاعةُ فاللسانِ وذلك نوعٌ من القيادةِ ، كذا قالَ الشارحُ .

[تعصب الفضل بن يحيى على أبي نواس]

ولم يكنِ السبُّ في الزرايةِ على هذا إلاَّ أنَّ الفضلَ بنَ يحيى كانَ متعصباً على أبي نُوَاسٍ ، يفضلُ عليه مسلمَ بنَ

الوليد ، حتّى لقد استؤذَنَ له يوماً فأعظمه ، وأكرمه ، واستنشدّه ، وخلعَ عليه ، وأجازهُ ، فما انصرفَ حتّى جاءَ أبو نُوَاسٍ ، فامتنعَ مِنَ الإِذْنِ لَهُ ، حتّى سألَهُ بعضُ مَنْ حضرَ أنْ يُأذِنَ لَهُ ، ففعلَ على تَكَرُّهِ مِنْهُ ، فلمَّا دخلَ . . سلّمَ ، قالَ الراوي : فما علمتُ أَنَّهُ رَدَّ عليه ولا أمرهُ بالجلوسِ ، ولا رفعَ إليه رأسهُ ، فلمَّا طالَ عليه الوقوفُ . . قالَ معيَ آيَاتُ أَفأُنشِدُهَا ؟ قالَ : نَعَمْ ، فقالَ [في «ديوانه» ٥٨٤] :

طَرَحْتُمْ عَلَى التَّرْحَالِ أَمْراً فَعَمَّنَا وَلَوْ قَدْ فَعَلْتُمْ صَبَحَ الْمَوْتُ بَعْضَنَا

حتّى بلغَ قوله : (سأشكوكو إلى الفضل بن يحيى بن خالد) . . البيت ، فقطبَ وجهَ الفضلِ ، وقالَ لأبي نُوَاسٍ : أمسِكْ ، عليك لعنةُ اللهِ ، وأمرَ بإخراجهِ محروماً ، والتفتَ الفضلُ إلى أنسِ ابنِ أبي شيخٍ وقالَ : ما رأيتُ مثلَ هذا الرجلِ ، ولا أقلَّ تمييزاً في كلامهِ ، قالَ أنسٌ : إنَّ اسمَهُ كبيرٌ ، فقالَ : عندَ مَنْ ؟ وبلكَ ! ليسَ إلَّا عندَ مَنْ يُشاكلُهُ مِنَ الشُّقَاطِ ، قالَ أنسٌ : وأينَ هوَ مِنْ مُسلمٍ ، فقالَ الفضلُ : واللهِ لأحجبتُكَ ثلاثاً ، ولا كَلَمْتُكَ سبعاً ؛ إذ كانَ هذا مبلغَ علمك ، ونهايةَ تمييزك ، واللهِ إنَّ مُسلماً ليفضُلُ عندي الطبقةَ المتقدِّمةَ .

[ليست الشفاعة من باب القيادة]

والحقُّ : أن لا غضاضةَ في شيءٍ ممَّا فعلهَ المتنبيُّ وأبو نُوَاسٍ ؛ إذ للسلفِ مِنْ مثلهِ الكثيرُ الطَّيِّبُ .

[شفاعته صلى الله عليه وسلم لمغيث عند بريرة]

وهذا رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يشفَعُ لمغيثٍ عندَ بريرةَ أن تستديمَ نكاحه بعد أن عتقت ، فلم تقبل^(١) ، فهل مِنْ غضاضةٍ في رجوعِ مغيثٍ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وتشفُّعهِ بهِ إلى بريرةَ ؟ لا واللهِ .

[ابن أبي عتيق يسعى في طلاق لبني لتعود إلى قيس]

وهذا ابنُ أبي عتيقِ يسعى في طلاقِ لبني مِنْ زوجها ؛ ليرجعَ إلى قيسٍ ، وفيهِ يقولُ [في «ديوانه» ٨٥] :

جَزَى الرَّحْمَنُ أَفْضَلَ مَا يُجَازِي عَلَى الإِحْسَانِ خَيْراً مِنْ صَدِيقِ
فَقَدْ جَرَّبْتُ إِخْوَانِي جَمِيعاً فَمَا أَلْفَيْتُ كَابِنِ أَبِي عَيْتِقِ
سَعَى فِي جَمْعِ شَمْلِي بَعْدَ صَدْعِ وَرَأَيْ حِدْتُ فِيهِ عَنِ الطَّرِيقِ^(٢)
وَأَطْفَاءَ لَوْعَةٍ كَانَتْ بِقَلْبِي أَغْصَنِي حَرَارَتَهَا بِرِيقِي^(٣)

[قصة ابن ذريح ولبني]

وقيسٌ هذا : هوَ ابنُ ذريحٍ مِنْ بني عُذْرَةَ ، وكانَ رضيعَ الحسينِ بنِ عليٍّ - رضيَ اللهُ عَنْهُمَا - أَرْضَعَتْهُمَا أُمُّ قَيْسٍ ، وكانَ خرجَ لبعضِ حاجتهِ ، فمرَّ بخيامِ بني كعبِ بنِ خزاعةَ ، والحيُّ خُلوف^(٤) ، فوقفَ يستسقي ببابِ خيمةٍ ،

(١) وذلك لما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند البخاري (٥٢٨٣) في الطلاق أن زوج بريرة كان عبداً ، يقال له : مغيثٌ ، كأنِّي أنظرُ إليه يطوفُ خلفها يبيكي ، ودموعُه تسيلُ على لحيتهِ ، فقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لِعَبَّاسٍ : « يَا عَبَّاسُ ؛ أَلَا تَمَجَّبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثِ بَرِيرَةَ ، وَمِنْ بَغْضِ بَرِيرَةَ مُغِيثاً ؟ » فقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ « لَوْ رَأَيْتَهُ » قالتُ : يا رسولَ اللهِ . . أتأمرني ؟ قالَ : « إِنَّمَا أَنَا شَافِعٌ » ، قالتَ : لا حاجةَ لي فيه .

(٢) صَدْعٌ : تَفَرُّقٌ .

(٣) انظر «خزانة الأدب» (١/٣٣٢) .

(٤) أي : والحيُّ خالٍ مِنَ النَّاسِ ، قد ذهبوا يستقونَ ، وخلفوا أنقالهم ، ويُقالُ : هُم خُلوفٌ ، أي : غُيِّبٌ .

فخرجت إليه لُبْنَى بنتُ الحُبابِ الكعبيَّةُ ، وكانتِ امرأةً مديدةَ القامةِ ، شهلاء^(١) ، حلوةَ المنظرَةِ والكلامِ ، فوقعتْ في نفسه ، وعرضتْ عليه القُرْبَى ، فنزلَ وأكرمهُ أبوها ، ثمَّ انصرفَ وفي قلبه حرٌّ لا يُطفئُ ، فجعلَ ينطقُ بالشعرِ فيها ، حتَّى شاعَ ورواهُ الناسُ ، ثمَّ أتاها يوماً آخرَ وقد اشتدَّ وجدهُ بها فسلمَ ، فظهرتْ له وردتْ سلامه ، فشكا إليها ما يجدُ من حبِّها ، فبكتْ وشكَّتْ إليه مثلَ ذلكَ ، وعرفَ كلُّ منهما ما لصاحبه عندَ الآخرِ .

وانصرفَ إلى أبيه وسأله أن يخطبها له ، فأبى عليه ، وقالَ له : بناتُ عمِّك أحقُّ بك ، وكانَ موسراً كثيرَ المالِ ، فكرة أن يخرجَ ابنه إلى الغريبةِ ، فشكا إلى أمِّه ما لقيَ من والدهِ ، واستعانَ بها على أبيه ، فلمَ يجدْ عندها الذي يحبُّ ، فأتى الحسينَ بنَ عليٍّ - رضيَ اللهُ عنهُما - وشكا إليه ما بهِ ، وما ردَّ عليه أبوهُ ، فقالَ : أنا أكفيك ، ومشى معه إلى والدِ لُبْنَى ، فلما بصُرَّ بهِ . . أعظمهُ ، ووثبَ إليه ، وقالَ : يا ابنَ رسولِ اللهِ ما جاء بك ؟ ألا بعثتْ إليَّ فأتيتُك ، قالَ : إنَّ الذي جئتُ فيه يوجبُ قصدكَ ، جئتُكَ أخطبُ ابنتكَ لبنيَ لقيسِ بنِ ذريحِ ، فقالَ : يا ابنَ رسولِ اللهِ ، ما كنتُ لنعصيَ لكَ أمراً ، وما بنا رغبةٌ عنِ الفتى ، وأحبُّ الأمرِ إلينا أن يُشركَ أبوهُ في الخطبةِ ؛ لئلاً يكونَ عاراً وسبَّةً علينا ، فأتى الحسينُ ذريحاً وهو في قومه ، فقاموا إليه إعظاماً له ، فقالَ لذريحِ : أقسمتُ عليكِ إلا أخطبتِ لُبْنَى على قيسِ ، قالَ : السمعُ والطاعةُ لأمرِكِ ، فخرجَ معه في وجوهِ قومه حتَّى أتوا حيَّ لُبْنَى ، فخطبها ذريحٌ على ابنه إلى أبيها ، وبنتى عليها ، وأقامَ معها مدَّةً ، فمرضَ ، فقالتْ أمُّه لأبيهِ : لقد خشيتُ أن يموتَ قيسٌ ولا يتركَ خلفاً ، وقد حرِّمَ الولدُ من هذِي المرأةِ ، وأنتَ ذو مالٍ فيصيرَ مالكَ إلى الكلالَةِ ، فزوَّجهُ بغيرِها ، علَّ اللهُ أن يرزقه الولدُ ، وألحَّتْ عليه في ذلكَ ، فعرضَ عليه ذلكَ ذريحٌ ، فقالَ : لستُ متزوَّجاً بغيرِها أبداً ، قالَ : فتسرَّ بالإماءِ ، قالَ : ولا أسوؤُها بشيءٍ أبداً ، قالَ : فإنِّي أقسمُ عليكِ إلا ما طلقْتها ، فأبى ، وقالَ : الموتُ أسهلُ عندي من فراقِها ، قالَ : لا أرضى أو تطلقها ، وحلفَ أنه لا يكنهُ سقفاً أبداً أو يطلِّقَ قيسَ لُبْنَى ، فكانَ يقفُ في حرِّ الشمسِ ، فيجيءُ قيسٌ إلى جانبهِ يظلهُ بردائه ، ويصلِّي هو بحرِّها حتَّى يفِيءَ الفِيءُ فينصرفَ عنه إلى لُبْنَى ، ويعانقها ويكي وتبكي معه ، وتقولُ له : لا تطعْ أباك ؛ فتهلكَ وتهلكني معك ، فقالَ : ما كنتُ لأطيعَ فيك أحداً أبداً ، فيقالُ : إنَّهُ مكثَ سنةً كذلكَ ؛ ثمَّ طلقها ، فلما بانَتْ منه . . استطيرَ عقلُهُ ، وذهبَ لبُّهُ ، وخالطهُ مثلُ الجنونِ ، وقالَ في ذلكَ أشعاراً كثيرةً ، منها قوله [في « ديوانه » ٢٧] :

وَكُلُّ مُصِيَّاتِ الزَّمَانِ وَجَدْتُهَا سَوَى فُرْقَةِ الْأَحْبَابِ هَيْئَةَ الْخَطْبِ^(٢)

[من الطويل]

وقوله [في « ديوانه » ٨٣-٨٤] :

وَدِدْتُ - وَبَيْتِ اللهِ - أَنِّي عَصَيْتُهُمْ وَحَمَلْتُ فِي رِضْوَانِهَا كُلَّ مُوبِقِ
كَأَنِّي أَرَى النَّاسَ الْمُجِبِّينَ بَعْدَهَا عَصَاةَ مَاءِ الْحَنْظَلِ الْمُتَقَلِّقِ^(٣)
فَتُنَكِّرُ عَيْنِي بَعْدَهَا كُلَّ مَنْظَرٍ وَيَكْرَهُ سَمْعِي بَعْدَهَا كُلَّ مَنْطِقِ

(١) الشهلاء : هي المرأة التي في عيناها زرقة .

(٢) انظر « الأغاني » (٢١٤-٢١٢/٩) .

(٣) الفلقة : شجرة مرّة بل (الحجاز) و (تهامة) ، والحبشة تسمُّ بها السلاح فيقتل من أصابه .

وقوله لَمَّا تَحَمَّلْتُ [في «ديوانه» ٧٩-٨٠] :

[مِنَ البسيطِ]

قَدْ كُنْتُ أَخْلِفُ جُهْدِي لَا أَفَارِقُهَا أَفْ لِكثْرَةِ زَيْفِ الْقَوْلِ وَالْحَلْفِ
هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ قَدْ أَمْسَتْ مُجَاوِرَةً أَهْلَ الْعَقِيقِ وَأَمْسَيْنَا عَلَى سَرَفٍ^(١)
حَيِّ يَمَانُونَ وَالْبَطْحَاءُ مَنْزِلُنَا هَذَا لَعَمْرُكَ شَمْلٌ غَيْرُ مُؤْتَلَفِ

وعن عمرو بن دينار قال [في «الأغاني» ٢١٥/٩] : قال الحسن رضي الله عنه لذريح : أحل لك أن تفرق بين قيس ولبنى ، وقد قال عمر بن الخطاب : ما أبالي أفرقت بين الرجل وامرأته ، أم مشيت إليهما بالسيف !

[لا عيب في الحبيب في نظر العاشق]

ويروى [في «الأغاني» ٢٢٦/٩] : أن أمه أو الطيب أرسلوا له من يعيب لبنى ، وقالوا : لا ينفعه إلا ذكر مساوئها ، فقال [في «ديوانه» ٥٢] :

[مِنَ الطويلِ]

إِذَا عَيْبَتْهَا شَبَّهْتُهَا الْبَذْرَ طَالِعَا وَحَسْبُكَ مِنْ عَيْبِ لَهَا شَبَّهُ الْبَذْرِ
لَقَدْ فَضَّلْتُ لُبْنَى عَلَى النَّاسِ مِثْلَمَا عَلَى أَلْفِ شَهْرٍ فَضَّلْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ

[زواج لبنى]

ثم إن لبنى تزوجت بـ (المدينة) ، فقصدها قيس ومعه إبل ، باع ناقه منها لرجل لا يعرفه ، فقال له : وافني بالثمن غداً إلى دار كثير بن الصلت ، فجاء وطرق الباب ، فأدخله وقد صنع له طعاماً ، وقام لبعض شأنه ، فقالت المرأة لخدمتها : سليه ما لوجهه متغيراً شاحباً ؟

[حال من فارق الأحباب]

فتنفس الصعداء ، وقال : هكذا حال من فارق الأحبة ، فقالت : استخبريه عن أمره ؟ فشرع يحكي لها ، فرفعت الحجاب ، وقالت : حسبك ، قد عرفناك ، فبهت ساعة لا ينطق ، ثم خرج على وجهه ، فاعترضه الرجل ، فلم يكلمه ، فعرف أنه قيس^(٢) .

[شفاعة ابن أبي عتيق لقيس]

ولما اشتد به الأمر . . . قصد ابن أبي عتيق في ذلك ، وكان من أكثر أهل زمانه مروءة ، فجاء ابن أبي عتيق إلى الحسنين وقال لهما : لي إليكما حاجة ، قالاً : ما هي ؟ قال : تسعداني على فلان - لزوج لبنى - في حاجة لي عنده ، فمضوا إليه ، وكلموه ، فقال : سلوا ما شئتم ، قال ابن أبي عتيق : ما كان بلا استثناء ، قال : نعم ، قال : نريد أن تطلق لبنى ولك ما شئت عندي ، قال : أشهدكم أنها طالت ثلاثاً ، فاستحيوا منه ، وعرضه الحسن مئة ألف درهم ، وقال : لو علمت الحاجة ما جئت ، وانتقلت لبنى إلى العدة ، ثم اختلفت الرواة :

[الأقوال في عودة لبنى لقيس]

فمن قائل : أنها أكملت عدتها وأن قيساً تزوجها وأقامت معه إلى الموت .

(١) سَرَفٌ : اسم موضع يبعد ستة أميال عن مكة . والمعيق : وإدب اليمامة . ومكان آخر بجوار (المدينة المنورة) .

(٢) انظر «الأغاني» (٩/٢٣٧) .

ومن قائلٍ : أَنَّهَا مَاتَتْ فِي الْعِدَّةِ ، وَأَنَّهُ أَكَبَّ عَلَى قَبْرِهَا بِيَكِي حَتَّى أُغْمِيَ عَلَيْهِ ، فَرَفَعَهُ أَهْلُهُ وَهُوَ لَا يَعْقِلُ ، فَلَمْ يَزَلْ عِيلًا لَا يَفِيقُ وَلَا يَجِيبُ مَكْلَمًا حَتَّى مَاتَ بَعْدَ ثَلَاثِ .

ومن قائلٍ : أَنَّهُمْ أَخَفَوْا عَنْهُ قَبْرَهَا فَعَرَفَهُ بِرَائِحَتِهِ ، كَمَا سَبَقَ ذَكَرُ ذَلِكَ^(١) .

[المعروف من ابن أبي عتيق الظرف]

فَإِنْ قِيلَ : قَدْ صَحَّ أَنَّ ابْنَ أَبِي عَتِيقٍ قَالَ لَقَيْسٍ [كما في «المثل السائر» ٢/٢٥٩] : كَفَّ عَنْ بَعْضِ شُكْرِكَ لِي عَلَى هَذَا الصَّنِيعِ ؛ لِثَلَا يَظُنُّ مَنْ سَمِعَهُ أَنِّي قَوَّادٌ^(٢) . وَهَذَا يَنَافِي مَا سَبَقَ مِنْكَ فِي تَبْرِيرِ النَّاطِمِ وَأَبِي نُوَّاسٍ ، وَدَفْعِ الْمَعْرَةَ عَمَّا زَعَمَ بَعْضُهُمْ لَصَوْقِهَا بِهِ مِنْ كَلَامِهِمْ . فَالْجَوَابُ مَا عَرَفَ مِنْ حَالِ ابْنِ أَبِي عَتِيقٍ وَظَرْفِهِ وَنَادِرَتِهِ وَلِيْنِ جَانِبِهِ وَدِمَائِهِ أَخْلَاقِهِ ، فَأَخْرَجَهَا مَخْرَجَ التَّنْدُرِ وَالتَّمْلِيحِ ، لَا يَرِيدُ بِهَا حَقِيقَةً ، وَلَا يَخْشَى مِنْهَا لَوْمًا ، عَلَى أَنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ مِنْهَا هُضْمَ النَّفْسِ ، وَتَلْطِيفَ الصَّنِيعَةِ ، فَإِنَّهَا صَالِحَةٌ لِذَلِكَ ، وَالصَّنِيعَةُ عَظِيمَةٌ ، وَهُوَ مِنْ سَادَاتِ التَّوَاضِعِ ، وَإِلَّا فَقَدْ فَعَلَ مَا هُوَ أَدْنَى إِلَى اللَّوْمِ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَمْ يَبَالِ :

[من رسولي إلى الثريا؟]

فَإِنَّهُ لَمَّا سَمِعَ قَوْلَ ابْنِ أَبِي رَيْبَعَةَ [في «ديوانه» ١/١٠٦] :
[مِنَ الْخَفِيفِ] مَن رَسُولِي إِلَى الثَّرِيَّا فَإِنِّي ضِيقْتُ دَرْعًا بِهَجْرِهَا ، وَالْكِتَابِ^(٣)

.. قَالَ إِيَّايَ عَنِي ، وَبِي نَوْءَ ، وَمَا حَلَاوَةُ الْحَيَاةِ إِذَا تَكَدَّرَ مَا بَيْنَ الثَّرِيَّا وَعَمْرٍ ؟ وَشَخَّصَ مِنْ فُورِهِ إِلَى (مَكَّةَ) (وَ الطَائِفِ) ، وَأَصْلَحَ بَيْنَهُمَا ، وَلَمْ يَخْلُطْ عَمَلَهُ ذَلِكَ بِنَسِكٍ قَطُّ^(٤) .

[طلحة الطلحات]

وَيَذَكُرُ [كما في «النهاية» ٣/١٣١] : أَنَّ طَلْحَةَ الطَّلْحَاتِ إِنَّمَا أُطْلِقَ عَلَيْهِ ذَلِكَ اللَّقْبُ ؛ لِأَنَّهُ جَمَعَ بَيْنَ مَثَّةٍ عَرَبِيٍّ وَمَثَّةٍ عَرَبِيَّةٍ بِأَكْمَلِ الْجَهَازِ وَالصَّدَاقِ ، وَوُلِدَ لِكُلِّ وَوُلِدَ سَمَاءُ طَلْحَةَ .

[أمنية الفاروق]

وَيُرْوَى [كما في «مصارع العشاق» ١/٣٢٠] : أَنَّ عَمْرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَالَ : لَوْ أَدْرَكْتُ عَرُوءَ وَعَفْرَاءَ . لَجَمَعْتُ بَيْنَهُمَا . وَبَعْضُ مَا ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْأَخْبَارِ لَا يَسَاعِدُ عَلَيْهِ التَّارِيخُ ، وَالْعَهْدَةُ عَلَى الرَّوَاةِ ، وَلَا حَاجَةَ إِلَى الْبَحْثِ ؛ لِاتِّخَالِ الصَّحَةِ ؛ لِأَنَّهَا غَيْرُ مَقْصُودَةٍ بِالذَّاتِ .

[الحسين يتزوج امرأة ليعيدها إلى زوجها]

وَقَدْ فَعَلَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مَا لَا يَخْرُجُ عَنْ هَذَا الْمَوْضُوعِ ؛ إِذْ تَزَوَّجَ عَلَى زَيْنَبَ^(٥) - أَرَادَ زَيْنَبَ بِنْتَ إِسْحَاقَ ، مُطْلَقَةً عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ - وَقَالَ : مَا أَرَدْتُ إِلَّا أَنْ أُحَلِّلَهَا لَهُ ، كَمَا فِي رِوَايَةٍ عَنْهُ بِذَلِكَ .

(١) انظر «الأغاني» (٩/٢٥٢-٢٥٤) .

(٢) القَوَّادُ : سَنَسَارُ النِّسَاءِ .

(٣) أَي : أَقْسِمُ بِالْكِتَابِ .

(٤) فِي «الْأَغَانِي» (١/٢٢٣) .

(٥) فِي بَعْضِ الْمَصَادِرِ «أَرِينَب» .

[ثواب من جمع بين اثنين]

وفي الحديث « مَنْ جَمَعَ بَيْنَ اثْنَيْنِ . . . كُنْتُ أَنَا وَإِيَّاهُ فِي الْجَنَّةِ كَهَاتَيْنِ ، وَأَشَارَ إِلَى أَصْبُعَيْهِ الْوُسْطَى وَالسَّبَّابَةِ » (١) .

[شفاة زبيدة زوجة الرشيد لعاشقين في حجبها وافتخارها بذلك]

وقد أخذت بهذا زبيدة ابنة جعفر زوج الرشيد في حديثها المشهور ، وهو : « أَنَّهَا رَأَتْ عَلَى حَائِطٍ فِي طَرِيقِ (مَكَّة) هَلْذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ :

أَمَا فِي عِبَادِ اللَّهِ أَوْ فِي إِمَائِهِ كَرِيمٌ يُجَلِّي الْهَمَّ عَن ذَاهِبِ الْعَقْلِ
لَهُ مُقْلَةٌ ، أَمَا الْمَاقِي فَفَرْحَةٌ وَأَمَا الْحَشَا فَالنَّارُ فِي طَيْهَا تَغْلِي

فندرت أن تجد في طلب فائلهما ؛ حتى تسري عنه فإنها لب (المزدلفة) إذ سمعت من ينشدهما ، فاستدعت به ، فرعم أن له بنت عم يهواها ، وقد حلف أهله على أن لا يزوجه منها ، فوجهت إليهم ، وأرعبتهم بالمال ، حتى أطلبوه ، وإذا المرأة أعشقت من الرجل له ، فكانت زبيدة تعد ذلك من أعظم حسناتها ، وتقول : ما سررت بشيء من نفسي في حجب ، سروري بالجمع بين الفتى والفتاة .

[من أفضل الشفاعات]

وبعد هذا تذكرت أن السيوطي أخرج في « جامعہ » مرفوعاً : « إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ الشَّفَاعَاتِ . . . أَنْ تَشْفَعَ بَيْنَ اثْنَيْنِ فِي نِكَاحٍ ، حَتَّى تَجْمَعَ بَيْنَهُمَا » (٢) .

[لكل مقام مقال]

ثم للقرائن الحالية حكمها في تخصيص الأحكام ، كما هو مقرر في مواضع من الأصول والبيان ، ولولا اعتبار ذلك . . . لفسد الكلام ، وشمل الملام ، فلا أشنوعة فيما قاله الناظم ، ولا فيما قاله أبو نؤاس ، مع بياض أعراض الممدوحين ، أمّا لو كان أحدهم مغموصاً عليه ، أو متهماً بشيء من القاذورات . . . فإنه يلحق القائل في ذلك من العيب ما لصق بأبي النجم في قوله لهشام [في « خزنة الأدب » ١ / ٢١] :

صَفْرَاءُ قَدْ كَادَتْ وَلَمَّا تَفَعَّلْ كَأَنَّهَا فِي الْأُنْقِ عَيْنُ الْأَحْوَالِ

فلم ينله الملام إلا من سوء تحفظه في مخاطبة الأحوال ، بما يقتضي التعريض به ، فاستحق الحرمان من هذه الجهة ، لا من جهة قوة التشبيه وغبابه ، فإنه بديع .

[الخطأ في التقدير قد لا يحرم الثواب]

ويروى : أن بعض الشعراء تقدم إلى زبيدة زوج الرشيد فقال : [من مجزوء الكامل]

أَزْبِيْدَةُ ابْنَةُ جَعْفَرٍ طُوبَى لِرِجَالِكِ الْمُثَابِ
تُعْطِيْنَ مِنْ رِجْلِيكَ مَا تُعْطِي الْأُكْفُ مِنَ الرَّغَابِ

(١) لم نقف له على أصل فيما بين أيدينا من مصادر .

(٢) أخرجه أبو بكر ابن أبي عاصم في « الأحاد والمثاني » (٩٦ / ٥) .

فتبادره العبيد ليقوعوا به ، فقالت زبيدة : كَفُّوا عَنْهُ ، فلم يرد إلا خيراً ، وإنما سمع قولهم : قفاك أحسن من وجه غيرك ، وشمالك أندى من يمين سواك .

فقدّر أنّ هذا مثله ، فأعطوه ما أمل ، وعرفوه ما جهل ، وما قالت ذلك ؛ إلا لبراءة ذيلها من التهم ، ولو علقت بها ريبة . . لما تأخرت عن إراقة دمه .

[أمسك أيمن من يومه]

وأصله : من قول النابغة للنعمان بن المنذر : أَيْفَاخِرُكَ ذُرٌّ فَائِشٍ - وَأَنْتَ سَائِسُ الْعَرَبِ ، وعروة الحسب والأدب ؟ لأمسك أيمن من يومه ، وعبدك أكرم من قومه ، وقفاك أحسن من وجهه ، ويسارك أندى من يمينه ، وظنك أصدق من يقينه ، ووعدك أتلج من رفته ، وخالك أشرف من جدّه ، ونفسك أمتع من جنده ، ويومك أزهر من دهره ، وفترك أبسط من شبره .

[قفاك خير من وجهه]

وقول حسان لعمر بن الحارث بن أبي شمر الغساني [في « جمهرة خطب العرب » ١/ ٣٢] : أَيْفَاخِرُكَ ابْنُ الْمُنْذِرِ اللَّخْمِيُّ ، وقفاك خير من وجهه ، وشمالك خير من يمينه ، وأمك خير من أبيه ، ولطمتك خير من كلامه ؟ في خطبة طويلة قال في آخرها [في « الأغاني » ١٥/ ١٥٨] :

[من المتقارب]

قَدَّالُكَ أَحْسَنُ مِنْ وَجْهِهِ وَأَمُّكَ خَيْرٌ مِنَ الْمُنْذِرِ^(١)
وَيُسْرَى يَدَيْكَ إِذَا أَعْسَرَتْ كَيْمَنْئَى يَدَيْهِ فَلَا تَمْتَرِي

[الشعراء وهذا المعنى]

وقال أبو نؤاس :

[من الخفيف]

بِأَبِي أَنْتَ مِنْ غَزَالٍ غَرِيرٍ بَدُّ حُسْنِ الْوُجُوهِ حُسْنٌ قَقَاكَ^(٢)
وَلَا شَكَّ أَنَّ فِيهِ ضَمِيرًا مُسْتَرًّا ، يُعْرَفُ مِمَّا اشتهر به أبو نؤاس .

[من المتقارب]

وقال الناظم [في « المكبري » ٤/ ١٥٣-١٥٤] :

فَأَجْوَدُ مِنْ جُودِهِمْ بِخُلُهُ وَأَحْمَدُ مِنْ حَمْدِهِمْ ذَمُّهُ
وَأَشْرَفُ مِنْ عَيْشِهِمْ مَوْتُهُ وَأَنْفَعُ مِنْ وُجْدِهِمْ عُدْمُهُ

[ابن الأثير ينتقد أبا نؤاس]

[من الكامل]

وها هنا فائدة : وهي أنّ ابن الأثير انتقد قول أبي نؤاس [في « ديوانه » ٥٢٢] :

أَصْبَحْتَ يَا ابْنَ زُبَيْدَةَ ابْنَةَ جَعْفَرٍ أَمَلًا لِعَقْدِ حَبَالِهِ اسْتِحْكَامٌ

[من الوافر]

وقوله :

وَلَيْسَ كَجَدَّتَيْهِ أُمُّ مُوسَى إِذَا نُسِبَتْ وَلَا كَالْخَيْرِ زُرَانَ

(١) القَدَّالُ : جماع مؤخر الرأس .

(٢) بَدُّ : فاق .

[ذكر الأم في الشعر القبلي]

وقال: إن ذكر الأم هنا قبيحٌ ، وما أوقعه في تلك العثرة إلا قول جرير :

وتبني المجد يا عمر ابن ليلى وتكفي الممجل السنة الجمادا

وأما قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « بشر قاتل ابن صفيته بالنار »^(١) . فإنما نسبه إليها رفعا بقدره في قرب نسبه .

[رد المؤلف على ابن الأثير وميزان المسألة عنده]

وأقول : إن الأمر اختلط عليه ، وكثيراً ما كان يخلط الحابل بالنابل ، ولو تدبر . . لعرف أن المدار على براءة العرض ، وشرف الحسب ، فمتى كانت شريفة عفيفة . . لم يقبح ذكرها ، وقد قال هارون عليه السلام : ﴿ يَبْنُوهُمْ لَا تَأْخُذُ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ﴾ [طه : ٩٤] .

وكثيراً ما ينسبه مُدَّاحُه - عليه الصلاة والسلام - إلى أمته ، مع أنها ليست كعبد الله في الشرف ، ولكن الميزان ما ذكرنا ، ثم لم يكتب مُدَّاحُه بنسبه إلى امرأة واحدة حتى نسبه إلى عدّة نساء ، فقالوا : يا ابن العواتك ، وما زال آل إلياس فاخرين بالانتساب إلى خندف ، وأولاد فاطمة به إليها ، وكذلك الأنصار به إلى قيلة ، وقال سلم الخاسر يمدح الأمين في حفل الرشيد :

قَدْ بَايَعَ الثَّقَلَانَ مَهْدِيَّ الْهُدَى لِمُحَمَّدِ ابْنِ زَيْدَةَ ابْنَةَ جَعْفَرٍ
وَلَيْتَهُ عَهْدَ الْأَنْامِ وَأَمْرُهُمْ فَدَمَغَتْ بِالْمَعْرُوفِ رَأْسَ الْمُنْكَرِ

فاستحق بذلك مئة ألف درهم .

[من الكامل]

وقال أشجع يمدح الأمين أيضاً [في «ديوانه» ١٩٦] :

مَلِكٌ أَبُوهُ وَأُمُّهُ مِنْ نَبْعَةٍ فِيهَا سِرَاجُ الْأُمَّةِ الْوَهَّاجُ
شَرِبَتْ بِمَكَّةَ فِي رَبِي بِطَحَاتِهَا مَاءَ النَّبُوَّةِ لَيْسَ فِيهِ مِرْزَاجُ

فاستحق مثل سلم .

فلا معابة في ذكر الأم على ما شرطناه من الطهارة ، إنما يكره أن ينسب إلى أمته من كان على مثل حال زياد^(٢) . حتى لقد أرادت عائشة - حبيبة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورضي عنها - أن تكتب إليه في غرض عن لها ، فلم تدر ما تقول ، وتحيرت في ذلك زماناً ، حتى انحط رأيها على أن تقول [في «الكامل» ٣/٣٠٢] : من أم المؤمنين إلى ابنها زياد ، فلما ورده الكتاب . . قال : لقد لاقت أم المؤمنين عناء من هذا العنوان .

وأنا في إشكال بعد من إضراب الفرزدق عن رثاء زوجته ، حتى اضطررنا لرائية جرير في امرأته ، وهي المستهلة بقوله

(١) أخرجه من قول علي المرتضى أحمد في «المسند» (٦٨١) بإسناد حسن ، وابن سعد (١٠٥/٣) ، وابن أبي شيبة (٩٣/١٢) وابن أبي عاصم في «السنن» (١٣٨٨) . وأورده ابن عبد البر في «التمهيد» (٣١/١٨) . وابن صفية : هو الزبير بن العوام ابن عمته صلى الله عليه وسلم .

(٢) زياد : يعرف بـ : ابن أبيه ، أمير من الدهاة والقادة الفاتحين من أهل (الطائف) والدته سمية جارية الحارث بن كلدة ، واختلفوا في أبيه ، فقيل : عبيد الثقفي ، وقيل : أبو سفيان ، وأدرك النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولم يره ، توفي سنة : (٥٣هـ) .

لَوْلَا الْحَيَاءُ لَهَاجَنِي اسْتِعْبَارُ وَلَزُزْتُ قَبْرَكَ وَالْحَيِيبُ يُزَارُ
 ثُمَّ إِنَّ عَلْتَهُ بالتجلد وإظهار الشدة . . فَإِنَّمَا يَكُونُ عَذْرًا عَمَّا لَا يَحْسُنُ ، كَالجَزَعِ فِي الْمَلَأِ ، بِخِلَافِ الشُّعْرِ الَّذِي يَجُوزُ
 وَيَحْسُنُ فِيهِ مَا لَا يَجُوزُ وَلَا يَحْسُنُ فِي غَيْرِهِ - حَسَبًا قَرَّرْنَاهُ أَوَائِلَ الْمَجْلِسِ - وَإِنَّ عَلْتَنَا بِالْقَسْوَةِ كَمَا أَسْلَفْنَا الْقَوْلَ فِيهِ
 ثُمَّ عِنْدَ إِيرَادِ قَوْلِهِ :

وَجَفَنَ سِلَاحٌ قَدْ رُزِزْتُ فَلَمْ أَنْحَ عَلَيْهِ وَلَمْ أَنْبَعثْ لَدَيْهِ الْبَوَاكِيَا
 . . فَكثيراً ما يختلفُ حالُ الأزواجِ ، بقرينةِ أَنَّهُ بعثَ هُنَا البواكي ، ولا يصحُّ أَنْ نعلِّلهُ بِالغَيْرَةِ عَلَى اسْمِهَا لِمِنَاقِضَتِهِ
 بِمِثْلِ قَوْلِهِ :

نَدِمْتُ نَدَامَةَ الْكُسْعِيِّ لَمَّا غَدَتْ مِنِّي مَطْلَقَةً نُوَارُ
 وَكَانَتْ جَتِّي فَخَرَجْتُ مِنْهَا كَادَمَ حِينَ أَخْرَجَهُ الضُّرَارُ
 مع أَنَّ الحنينَ فِي إِثْرِ الْمَطْلَقَةِ أَلْوَمٌ ، وَأدُلُّ مِنْهُ عَلَى الضَّعْفِ فِي إِثْرِ الْقَاضِيَةِ .
 وَهَلْ مِنْ مَانِعٍ أَنْ نَعْلَلَّ سَكَوَتَهُ بِفَرْطِ الْوَجْدِ ؟ فَكثيراً ما يتصعَّدُ معه الكلامُ ، وَقَدْ قَالَ النَّاظِمُ [في «العُكْبَرِيِّ» ١٩٥/٤] :

الْحُبُّ مَا مَنَعَ الْكَلَامَ الْأَلْسُنَا

وقال ذو الرُّمَّةِ :

عَشِيَّةَ مَا لِي حِيلَةٌ غَيْرَ أَنْبِي بِلِقْطِ الْحَصَى وَالْغَطِّ فِي الثَّرْبِ مُوَلَعُ
 وَمِنْهُ الْبَيْتُ الْآتِي أَوَائِلَ الْمَجْلِسِ السَّادِسِ عَشَرَ ، عِنْدَ قَوْلِهِ [في «العُكْبَرِيِّ» ٢٣٨/٢] :

تَدَلُّ لِمَنْ تَهَوَّى عَلَى الْقُرْبِ وَالنَّوَى فَمَا عَاشِقٌ مَنْ لَا يَذِلُّ وَيَخْضَعُ

[الحزن يخرس الألسنة]

وَلَكُمْ أَحْرَسَ الْحُزْنَ مِنْ مَقَاوِلَ ، مِنْهُمْ ابْنُ الزُّبَيْرِ يَوْمَ نَعَى إِلَى النَّاسِ الْمُصْعَبِ .

[الثناء على جرير]

أَمَّا ابْنُ الْمَرَاغَةِ^(١) : فَقَدْ أَخَذَ بِأَطْرَافِ الْكَمَالِ فِي قَوْلِهِ : (لَوْلَا الْحَيَاءُ . .) ؛ إِذْ لَمْ يَمْنَعُهُ الْحَيَاءُ عَنْ مُجَرَّدِ إِرْسَالِ
 الدَّمُوعِ ، وَإِنَّمَا مَنَعَهُ عَنِ الْاِخْتِنَاقِ بِالْعَبْرَاتِ .
 وَالْكَلامُ فِي الْمَوْضُوعِ يَطُولُ ، فَإِلَى آوِنَةِ أُخْرَى .

[المراد من هذا البحث نفي مذمة الشفاعة عند العاشقين]

وَبَعْدُ : فَإِنِّي لَا أُرِيدُ بِشَيْءٍ مِمَّا أَطَلْتُ فِيهِ الشَّاءَ عَلَى بَيْتِ النَّاظِمِ الَّذِي بَيْنَ أَيْدِينَا ، فَإِنِّي أَعْتَرَفُ بِأَنَّهُ كَلَّاحِقِهِ مِنْ أَنْفِهِ
 الشُّعْرِ وَأَرْدَلِهِ ، وَلَكِنِّي أَحَاوَلْتُ دَفْعَ مَا زَعَمُوهُ مِنْ مَذْمَةِ الشَّفَاعَةِ فِي مِثْلِهِ ، لِأَنَّهُ بِاللَّازِمِ غَضٌّ مِنْ هَدْيِ سَيِّدِ

(١) ابْنُ الْمَرَاغَةِ : جَرِيرُ الشَّاعِرُ ، وَالْمَرَاغَةُ : لَقَبٌ لَقَّبَ الْفَرَزْدَقُ بِهِ أُمَّ جَرِيرٍ ؛ لِأَنَّهَا وُلِدَتْ فِي مَرَاغَةَ ، وَالْمَرَاغَةُ هِيَ الْمَكَانُ الَّذِي تَتَمَرَّغُ - تَرَعَى - فِيهِ الْإِبِلُ .

المرسلين ، وأقدس الطاهرين صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، ولا تَعْلُ^(١) مِنْ ذَلِكَ تَحْمِي الْأَنْوْفِ ، وترَعْفُ الْأَقْلَامِ
والسُّيُوفِ .

[السجال بين ابن حجر والإمام العيني]

وقد أفتى شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر العسقلاني بتعيين مؤاخذه الإمام العيني مؤاخذه عظيمة لما هو أدنى بكثير
منه .

ولا بأس باقتصاصه ، وهو : أَنَّ الْمَلِكَ الْمُؤَيَّدَ بْنِي جَامِعاً بـ (مصر) ، وَأَعْلَى مَنَارَتَهُ ، فَسَقَطَتْ ، فَقَالَ الْحَافِظُ
مُعْرِضاً بِالْعَيْنِي : لِمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ مِمَّا يَكُونُ بَيْنَ الْمُتَعَاصِرِينَ :

[مِن الطَّوِيلِ]

لِجَامِعِ مَوْلَانَا الْمُؤَيَّدِ رَوْنَقٌ مَنَارَتُهُ تَزْهُو مِنَ اللَّطْفِ وَالزَّيْنِ
تَقُولُ وَقَدْ مَالَتْ عَلَيْنَا : تَعَجَّبُوا فَلَيْسَ عَلَيَّ حُسْنِي أَضْرُّ مِنَ الْعَيْنِي

قَالَ ابْنُ حَجَّةٍ : وَلَمْ يَكُنِ الْعَيْنِيُّ يُحْسِنُ النَّظْمَ ، فَدَفَعَ لِلنَّوَاجِيِّ دِرَاهِمَ ، فَنَظَّمَ لَهُ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ :

[مِن الْبَسِيطِ]

مَنَارَةٌ كَعَرُوسِ الْحُسْنِ إِذْ جَلَيْتْ وَهَدْمُهَا بِقَضَاءِ اللَّهِ وَالْقَدْرِ
قَالُوا : أُصِيبَتْ بِعَيْنٍ ، قُلْتُ : ذَا خَطَأٌ مَا أَفَةُ الْهَدْمِ إِلَّا خِسَّةُ الْحَجْرِ

نفذم الحافظ بفتواه ، وقال : إِنَّهُ أَنْكَرَ مَا أَبْتَهَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ : « إِنْ الْعَيْنَ حَقٌّ »^(٢) .

والحال أن العيني لم يرد إنكار أحقية العين ، وإنما أنكر خصوص انهدام المنارة بها ، ولا حرج في ذلك .

[ليس الإفراط من الدين]

وأكبر من ذلك ما ادّعه أبو بكر ابن العربي من إفتائه بقتل رجل كرهه الأحمري ، وقال : لَأَنَّهُ كَرِهَ لِبِسَةِ لِبْسِهَا رَسُولُ اللَّهِ
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ^(٣) ، وَذَكَرَ أَنَّهُ قَتَلَ بَفْتَوَاهُ ، مَعَ أَنَّ فِي الْمَسْأَلَةِ تَفْصِيلاً ، وَلَا يُحْصَى كَثْرَةُ مَنْ قَالَ بِكِرَاهَةِ
الْأَحْمَرِ الْبَحْتِ ، وَحَمَلُوا حِمْرَةَ حُلَّتْهُ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - عَلَى التَّخْطِيطِ .

نعوذ بالله من الإفراط والتفريط .

[الإمام المتنبى بالموضوع]

والحاصل : أَنْ لَا اعْتِرَاضَ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى عَلَى النَّظْمِ ، وَلِئِنْ أَعْتَّ وَأَخَلَّ بِالْبَلَاغَةِ فِي هَذَا الْبَيْتِ . . فقد أجاد في

[مِن الطَّوِيلِ]

بعض المعنى ؛ إذ يقول [في « العكبري » ٣/ ١٨٣] :

أَحِبُّ الَّتِي فِي الْبَدْرِ مِنْهَا مَشَابَهُ وَأَشْكُو إِلَيَّ مَنْ لَا يُصَابُ لَهُ شَكْلٌ^(٤)

وهذا هو الذي يشبه بيت أبي نواس السابق ، وكان من واجب الشارح التثنية عليه ، ففاته .

(١) تَعْلٌ : تَبَقَى وَتَنَظَّلٌ .

(٢) القصة بنحوها في « شذرات الذهب » (٤/ ١٤٥) ، والحديث أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه البخاري (٥٧٤٠) في الطب .

(٣) لحديث البراء بن عازب عند البخاري (٥٠٩١) في اللباس ، قال : (ما رأيت أحداً من الناس أحسن في حلة حمراء من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ
وَسَلَّمَ) والترمذي في « الشمائل » (٦٥) ، والنسائي (٥٠٦٠) في الزينة .

(٤) الشُّكْلُ : الشَّيْبَةُ وَالنَّظِيرُ .

ومن غرائب الناظم في تناقضه ، أنه بينما هو يطلب الشفاعة إلى المحبوب . . . إذ انقلب عليه الموضوع ، فصار شافعاً ، ونصب ممدوحه للريبة ، وسلك مسلك القيادة في قوله [في « العكبري » ٣/٣٠٢-٣٠٣] :

[من الكامل]

لَوْ أَنَّ فَنَّاخُسْرَ صَبَحَكُمُ وَبَرَزْتَ وَخَدِكَ عَاقَهُ الْغَزَلُ^(١)
وَتَفَرَّقَتْ عَنْهُ كَتَائِبُهُ إِنَّ الْمِالَاحَ خَوَادِعُ قُتُلُ^(٢)
مَا كُنْتَ فَاعِلَةً وَضَيْفُكُمْ مَلِكُ الْمُلُوكِ وَشَأْنُكَ الْبَخْلُ
أَفْتَمَنَعِينَ قَرِيًّا فَتَفْتَضِحِي أَمْ تَبْذِلِينَ لَهُ الَّذِي يَسَلُ
بَلْ لَا يَحُلُّ بِحَيْثُ حَلَّ بِهِ بُخْلٌ وَلَا جَوْرٌ وَلَا وَجَلُ

[من الطويل]

فهو إذاً على عكس قول المجنون [في « ديوانه » ١٩٢] :

مَضَى زَمَنٌ وَالنَّاسُ يَسْتَشْفِعُونَ بِي فَهَلْ لِي إِلَيَّ لَيْلَى الْغَدَاةَ شَفِيعُ ؟

* * *

[من البسيط]

قال أبو الطيب المتنبي في « العكبري » ٣/١٦٦ :

أَيَقْنْتُ أَنْ سَعِيداً طَالِبٌ بِدَمِي لَمَّا بَصُرْتُ بِهِ بِالرُّمَحِ مُعْتَقِلاً^(٣)

[إن سفتك الحبيبة دم العاشق أخذ له بثاره]

[من البسيط]

نقل الشارح عن الواحدي أنه من قول المؤمل [في « الأغاني » ٢٢/٢٥٤] :

لَمَّا رَمَتْ مُهَجَّتِي قَالَتْ لِجَارَتِهَا إِنِّي قَتَلْتُ قَتِيلاً مَا لَهُ خَطَرُ^(٤)
قَتَلْتُ شَاعِرَ هَذَا الْحَيِّ مِنْ مُضَرٍ وَاللَّهِ وَاللَّهِ مَا تَرْضَى بِذَا مُضَرُ

أقول : وشتان ما بينهما ، فإنهما وإن اتفقا في جنس المعنى . . . فقد اختلفا في نوعه ، ومن هنا جاء تفاوت القيمة ؛ إذ المؤمل يدعي أنها قالت ذلك ، وهو جميل ، والناظم يقول ذلك من قبل نفسه ، وهي حطة وقلّة أدب ، غير أنها لا تنكر مع مثل قوله [في « العكبري » ١/٣٤١] :

[من المتقارب]

أَيَا خَدَّدَ اللَّهُ وَرَدَ الْخُدُودِ وَقَدَّ قُدُودَ الْحَسَانِ الْقُدُودِ^(٥)

(١) فَنَّاخُسْرَ : من أسماء الديلم ، وهو اسم عضد الدولة .

(٢) في « العكبري » : (عَنكُمْ) بدل (عَنهُ) .

(٣) الاعتقَالُ : هو أن يحمل الرجل رمحه بين ساقه وركابه .

(٤) الخطرُ : الدية والعوض .

(٥) خَدَّدَ : شَقَّقَ . قَدَّ : قطع . القُدُودُ : جمع قَدَّ ، وهو القامة . والمعنى : أنه دعا على ورد الخدود أن يشققه الله ويزيل حسنه ، وأن يقطع قدود الحسنان ، وهو دعاء على التعجب والاستحسان .

وقد أنكروا على الفرزدق قوله [في «ديوانه» ٧٧٨/٢] :

[من الكامل]

يَا أَخْتِ نَاجِيَةَ بِنِ سَامَةَ إِنِّي
أَخْشَى عَلَيْكَ بِنِيَّ إِنْ طَلَبُوا دَمِي

وقول الآخر :

[من الطويل]

خَلِيلِيَّ إِنْ حَانَتْ وَفَاتِي فَاطَلْبَا
دَمِي مِنْ سُلَيْمَى وَاطَلْبَا بِجَمِيلِ

وقول قيس بن ذريح [في «ديوانه» ٤٦٤] :

[من الطويل]

خُذُوا بِدَمِي إِنْ مِثُّ كُلِّ خَرِيدَةٍ
مَرِيضَةٍ جَفْنِ الْعَيْنِ وَالطَّرْفِ فَاتِرُ

وقول جميل [في «ديوانه» ٥٣] :

[من الطويل]

رَمَى اللَّهُ فِي عَيْنِي بُيُوتَةَ بِالْقَذَى
وَفِي الْغُرِّ مِنْ أَنْيَابِهَا بِالْقَوَادِحِ^(١)

[قتيلنا لا يودئ]

وقال عبد الله بن جندب : خرجت مرة فرأيت جماعة بينهم فتاة ، كأنها منحوتة من فضة ، فتمثلت بقول قيس بن ذريح : (خذوا بدمي إن ميث) . . . البيت ، فقالت المرأة يا ابن جندب : إن قتلنا لا يودئ ، وأميرنا لا ينفدي .

[قتيل الهوى هدر]

وقال ابن عباس : (قتل الهوى هدر ، لا عقل ولا قود)^(٢) .

[ما هي دية قتيل العشق عند الشعراء !؟]

قال أبو حية الثميري [في «ديوانه» ٨٩٨٦] :

[من الطويل]

رَمَيْنَ فَأَقْصَدَنَ الْقُلُوبَ وَمَا نَرَى
وَلَكِن لَعَمْرُ اللَّهِ مَا طَلَّ مُسْلِمًا
وَأَنَّ دَمًا لَوْ تَعَلَّمِينَ جَنَّتِيهِ
دَمًا مَائِرًا إِلَّا جَوَى فِي الْحَيَازِمِ^(٣)
كَغَرِّ النَّيَابِ وَأَضْحَاتِ الْمَلَاغِمِ^(٤)
عَلَى الْحُرِّ جَانِي مِثْلِهِ غَيْرُ سَالِمِ

وقال جميل [في «ديوانه» ٦٢-٦٧] :

[من الطويل]

إِذَا قُلْتُ : مَا بِي يَا بُيُوتَةَ قَاتِلِي
وَأَنْ قُلْتُ : رُدِّي بَعْضَ عَقْلِي أَعِشْ بِهِ
جَزَتْكَ الْجَوَازِي يَا بُيُوتَةَ سَلَامَةً
يَقُولُونَ : جَاهِدْ يَا جَمِيلُ بَغْرُوةَ
لِكُلِّ حَدِيثٍ بَيْنَهُنَّ بِشَاشَةً
مِنَ الْحُبِّ قَالَتْ : ثَابِتٌ وَيَزِيدُ
مَعَ النَّاسِ قَالَتْ : ذَاكَ مِنْكَ بَعِيدُ
إِذَا مَا خَلِيلٌ بَانَ وَهُوَ حَمِيدُ
وَأَيَّ جِهَادٍ غَيْرُهُنَّ أَرِيدُ
وَكُلُّ قَتِيلٍ بَيْنَهُنَّ شَهِيدُ

(١) الغُرُّ : البيض . الأنيابُ : الأسنان . القوادحُ : السواد الذي يظهر في الأسنان أو آفات الأسنان .

(٢) لم أقف عليه . العقلُ : الدية . القودُ : القصاصُ .

(٣) المائرُ : السائلُ .

(٤) الملاغمُ من كل شيء : الأنفُ والفمُ والأشداقُ .

ولقد أحسنَ مسلمُ بنُ الوليدِ في قوله [في «مصارع العشاق» ٣٧/١] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

أَدِيرَا عَلَيَّ الْكَأْسَ لَا تَشْرَبَا قَبْلِي
وَلَا تَطْلُبَا مِنِّي عِنْدَ قَاتِلَتِي ذَخْلِي (١)
إِذَا مَا عَلَتْ مِنَّا ذُؤَابَةٌ وَاحِدٍ
تَمَشَّتْ بِهِ مَشْيَ الْمُقَيَّدِ فِي الْوَحْلِ (٢)

[مِنَ الْوَافِرِ]

وقالَ الحسينُ بنُ الضحاكِ :

غَزَالٌ مَا اجْتَلَاهُ الطَّرْفُ إِلَّا
تَحَيَّرَ فِي مَلَاخَةِ وَجْتِيهِ
خُذُوا بِدَمِي مَحَاسِنَهُ وَخُصُّوا
مُقَبَّلَهُ وَبَرِّدْ نُيْتِيَهُ

[عذاب الحب للعشاق عذب]

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وممَّا يشبهُ هذا النوعَ - وليسَ بهِ - قولُ أحمدَ بنِ يوسفَ :

وَلَكِنِّي أَخْشَى نَدَامَتَهَا بَعْدِي

وَفِي الْمَوْتِ لِي مِنْ لَوْعَةِ الْحُبِّ رَاحَةٌ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقالَ المعنونُ [في «ديوانه» ٤٧] :

أَلَا حَبَّذَا ذَاكَ الْحَيِّبُ الْمُعَذِّبُ
يَقُولُونَ : لَيْلَى عَذَّبَتْكَ بِحَبِّهَا

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقالَ [في «ديوانه» ١١٦] :

تَحَمَّلْتُ مَا أَلْقَاهُ مِنْ بَيْنِهِمْ وَخَدِي
فَلَمْ يَلْقَهَا قَبْلِي مُحِبٌّ وَلَا بَعْدِي
تَشَكَّى الْمُحِبُّونَ الْغَرَامَ وَلَيْتَنِي
فَكَانَتْ لِنَفْسِي لَذَّةُ الْحُبِّ كُلِّهَا

[مِنَ الْوَافِرِ]

وقالَ إبراهيمُ بنُ العباسِ :

وَمَنْ إِحْسَانُهُ مِنْ غَيْرِ عَمْدٍ
فَعَارِضَ فِي الْجَفَاءِ بِمِثْلِ جُهْدِي
بِنَفْسِي مَنْ إِسَاءَتُهُ اعْتِمَادُ
وَمَنْ أَصْفَيْتُهُ فِي الْوُدِّ جُهْدِي

[مِنَ الْبَسِيطِ]

وقالَ أبو العتاهيةُ [في «ديوانه» ٤٩٩] :

هَامَ اشْتِيَاقًا إِلَى لُقْيَا مُعَذِّبِهِ
وَلِي فُؤَادٌ إِذَا طَالَ الْعَذَابُ بِهِ

[مِنَ الْمُجَنَّبِ]

وقالَ ابنُ وكيعٍ :

وَأَنْتَ بِي لَا تَبَالِي
وَصِرْتَ فِي مِثْلِ حَالِي
تَفْدِيكَ نَفْسِي وَمَالِي
عَلَيْكَ ثُمَّ بَدَا لِي
إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ مَا بِي
فَصَارَ قَلْبُكَ قَلْبِي
بَلْ عَشْتُ فِي طَيْبِ عَيْشٍ
دَعَوْتُ إِذْ ضَاقَ صَدْرِي

[مِنَ مَجْزُوءِ الرَّمْلِ]

وقالَ آخرُ :

عَنْ خَطَابِي وَجَوَابِي
أَيُّهَا الْمُغْرَضُ صَفْحًا

(١) الذَّحَلُ : النَّارُ .

(٢) الذُّؤَابَةُ من كلِّ شيءٍ : أَعْلَاهُ .

لَا أَرَانِي اللَّهَ مَوْتِي أَوْ يُرِينِي بِكَ مَا بِي
رَبِّ فَاجْعَلْهُ دُعَاءً خَائِباً غَيْرَ مُجَابٍ
رَقِّ قَلْبِي أَنْ يَرَى قَلْبَكَ فِي مِثْلِ عَذَابِي

وقال الناظم [في «العُكْبَرِيِّ» ٣/٢] : [مِنَ الطَّوِيلِ]

سُهَادُ أَتَانَا مِنْكَ فِي الْعَيْنِ عِنْدَنَا رُقَادٌ ، وَقَلَامٌ رَعَى سِرُّكُمْ نَدُّ^(١)

وقال [في «العُكْبَرِيِّ» ٢/٢٨٤] : [مِنَ الطَّوِيلِ]

ضَنَى فِي الْهَوَى كَالشَّمِّ فِي الشَّهْدِ كَامِنًا لَدِذْتُ بِهِ جَهْلًا وَفِي لَدَّتِي حَتْفُ

وقال [في «العُكْبَرِيِّ» ٦/١] : [مِنَ الْكَامِلِ]

وَالْعَشْقُ كَالْمَعْشُوقِ يَغْدُبُ قَرْبُهُ لِلْمُبْتَلَى وَيَنَالُ مِنْ حَوَائِثِهِ^(٢)

وقال ابن الفارض [في «ديوانه» ١٤٤] : [مِنَ الْبَسِيطِ]

مَا بَيْنَ مُعْتَرِكِ الْأَحْدَاقِ وَالْمُهَجِّ أَنَا الْقَتِيلُ بِلَا إِثْمٍ وَلَا حَرَجِ

[أقسام الناس في النار]

وحاصل ما سقناه من الأشعار ، أَنَّ النَّاسَ أَقْسَامٌ :

[١- قسم بطلبون]

منهم : من ضلَّ وغوى ، وطلب النار في الهوى ، وفي مقدِّمتهم النَّاطِمُ وشاعرُ (المعرَّة) في قوله [في «سقط الزند»

[مِنَ الطَّوِيلِ] : [٢٥٧-٢٥٦]

أَسْرَتِ أَخَانَا بِالْخِدَاعِ وَإِنَّهُ يُعَدُّ إِذَا اشْتَدَّ الْوَعْغَى بِقَبِيلِ
فَإِنْ تَطَلَّقِيهِ تَمْلِكِي شُكْرَ قَوْمِهِ وَإِنْ تَقْتَلِيهِ تُؤْخِذِي بِقَتِيلِ

[٢- قسم رضي بالمقام الذي هو فيه]

ومنهم : مَنْ عَرَفَ رَقَّةً ، وَوَقَى الْأَدَبَ حَقَّةً ، وَاعْتَرَفَ أَنَّ جَنَائِثَهُ جُبَارٌ^(٣) ، وَرَضِيَ لِدَمِهِ بِالْإِهْدَارِ ، لِأَنَّهُ بِالْحَقِيقَةِ إِنَّمَا
جَنَى عَلَى نَفْسِهِ بِطَرَفِهِ ، وَقَطَعَ مَارَنَ أَنْفِهِ بِكَفِّهِ .

[القتيل القاتل !!]

وللهِ دَرُّ النَّاطِمِ فِي قَوْلِهِ [«العُكْبَرِيِّ» ٣/٢٥٠] :

وَأَنَا الَّذِي اجْتَلَبَ الْمَنِيَّةَ طَرْفُهُ فَمَنْ الْمُطَالِبُ وَالْقَتِيلُ الْقَاتِلُ !؟

(١) الْقَلَامُ : نَبَتْ خَيْبُ الرَّاغَةِ . النَّدُّ : عَوْدُ طَيْبِ الرَّاغَةِ يُبَخَّرُ بِهِ . وَالْمَعْنَى : السَّهَادُ إِذَا كَانَ لِأَجْلِكُمْ . . . رُقَادٌ عِنْدَنَا ، وَالْقَلَامُ عَلَى حُبِّ رِيحِهِ إِذَا رَعَنَتْ
إِبْلَكُمْ . . . صَارَ كَالنَّدِّ عِنْدَنَا ، وَرَوَايَةٌ «الديوان» (ورد) .

(٢) الْحَوْبَاءُ : النَّفْسُ .

(٣) جُبَارٌ : هَدْرٌ ، وَمِنْهُ حَدِيثٌ : «جرح العجماء جبار» . العجماء : الدابة .

[٣- قسم يطالب ثم يعفو]

ومنهم : مَنْ جاشت نفسه فأنت ، ثم رجعت إلى معروفها فاطمأنت .

[٤- قسم يستعذب العذاب]

ومنهم : مَنْ استعذب العذاب ، وتحمل الكلف حتى انذاب ، وهؤلاء هم الجماء الغفير^(١) كما سبق ، ويأتي منه الطيب الكثير .

[أحوال سلطان العاشقين]

أما سلطان العاشقين : فتارة يستعذب غير البعد ، كما في قوله [في ديوانه «١٤٥»] :

[من البسيط]

عذب بما شئت غير البعد عنك ترى أوفى محب بما يرضيك مبهج

[من الطويل]

وأخرى يستلين ما سوى القلي والبغض ، فيقول [في ديوانه «١٣٥»] :

وما الصّد إلا الود ما لم يكن قلى وأصعب شيء غير إغراضكم سهل

[من الطويل]

وقد تتلاشى الأغراض ، فيسهل عنده حتى الإعراض ، كما في قوله [في ديوانه «٧٩»] :

فكل الذي ترضاه والموت دونه به أنا راض والصبا به أراضت

[ذو النون المصري يقدم العراق ليأخذ بثأر أحد تلاميذه]

ومما يتصل بحديث البيه ما ذكره ابن خلكان [في «وفيات الأعيان» ١/٣١٦-٣١٧] : أن أحد تلاميذ ذي النون المصري^(٢) جاء إلى (بغداد) ، وحضر بها سماعاً طاب فيه القوم ، فدار ذلك التلميذ ، ثم صرخ صرخة فاضت فيها نفسه ، فارتفع للشيخ خبره ، فقدم (العراق) في أصحابه واستدعى ذلك الحادي ، واستفسره عن القصة فساقها ، فلم يزد على التبريك ، ثم شرع هو وأصحابه في السماع ، ولما رق وراق ، وهاجت الأشواق . . صاح الشيخ في وجه الحادي الأول فوق مينا ، فقال : قد أخذنا ثأراً صاحبنا ، وتجهز من فورهِ للرجوع .

[الحب طريق مسلوك]

وقد سبق في المجلس الأول حديث المرأة مع الأكوخ ، والشوط بطين ، والله في خلقه شؤون ، وكم في الإنسان من العجائب ، ولو أن الناظم ومن على شاكلته انبروا للثأر بالوجد المثار . . لأمنوا العثار ، لأنها طريق مسلوك ، لا هودة فيه للشوق ولا الملوك .

[المالك الظالم]

ويعجني قول ديك الجن بعد أن فعل فعلته التي فعل - وهو من الكافرين - [في ديوانه «١٨٨»] :

[من البسيط]

كيف الدعاء على من جار أو ظلمنا ومالكي ظالم في كل ما حكما

لا آخذ الله من أهوى بجفوته عني ولا اقتص لي منه ولا أثما

(١) الجماء الغفير : مجتمعون كثيرون .

(٢) واسمه : ثوبان بن إبراهيم الإخميمي أبو الفياض ، أحد الزهاد والعباد المشهورين بـ (مصر) توفي سنة : (٢٤٥ هـ) .

[مِنَ البسيطِ]

وقول المازنيّ [في « النجوم الزاهرة » ١٢٩/٣] :

كَأَنَّما الشَّمْسُ مِنْ أَعْطافِهِ لَمَعَتْ
مُسْتَقْبَلُ بِالَّذِي يَهْوَى وَإِنْ كَثُرَتْ
حُسْنًا أَوْ البَدْرُ مِنْ أَرْزَارِهِ طَلَعَا
مِنْهُ الذُّنُوبُ وَمَعْدُورٌ بِمَا صَنَعَا
فِي وَجْهِهِ شَافِعٌ يَمْحُو إِسَاءَتَهُ
مِنَ القُلُوبِ وَجِيهَةٌ حَيْثُما شَفَعَا

* * *

[مِنَ البسيطِ]

قال أبو الطيب المتنبّي في « العُكْبَرِيّ » ١٦٦/٣ :

قِيلَ بِمَنْبِجٍ مَثْوَاهُ ، وَنَائِلُهُ فِي الأَفْتَى يَسْأَلُ عَمَّنْ غَيْرَهُ سَأَلًا

[الجود يسأل عن طلابه ممن يطلبون من غير صاحبه]

يقول : إِنَّهُ مَقِيمٌ بـ (منبج) مِنْ أَرْضِ (الشام) ، وَنَائِلُهُ يَطُوفُ فِي الأَفَاقِ ، يَسْأَلُ عَنِ العُفَاةِ^(١) الَّذِينَ يَسْأَلُونَ غَيْرَهُ .
والقصدُ أَنَّهُ اشتهرَ بالجودِ حتّى صرفَ العافينَ عن سائرِ الناسِ إليه ، و (القيلُ) - بلغةِ حمير - : المَلِكُ العَظِيمُ ، كذا
قاله الشارحُ ، وَأَشْكَلَ عَلَيَّ قَوْلُهُ : (العَظِيمُ) عَلَيَّ حِينَ لَمْ يَحْضُرْنَا شَيْءٌ مِنْ مَعْجَمِ اللُّغَةِ . وَمِنْشَأُ الإِشْكَالِ مِنْ
حُجْرِ بْنِ وائِلِ الحَضْرَمِيِّ ، فَقَدْ كَانَ قَيْلًا مِنْ أَقْبَالِ (اليَمَنِ) .

وجرى لَهُ مع ذَلِكَ ما لا يَلِيقُ بِأَدْنَى رِياسَةٍ - فَضلاً عَنِ العَظَمَةِ - وَذَلِكَ أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَمَرَ مَعَاوِيَةَ أَنْ يَنْطَلِقَ
بِهِ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الأَنْصارِ يَنْزِلُهُ عَلَيْهِ ، قَالَ : فَاَنْطَلَقْتُ مَعَهُ ، وَهُوَ عَلَيَّ نَاقَتِهِ ، وَأَنَا أَمْشِي فِي يَوْمِ صَائِفٍ ، فَقُلْتُ :
احْمِلْنِي ، قَالَ : لَسْتُ مِنْ أَرْدافِ المَلُوكِ ، قُلْتُ : أَنَا ابْنُ أَبِي سَفِيانَ ، قَالَ : قَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ يَقُولُ ذَلِكَ ،
قُلْتُ : فَأَلْقِ إِلَيَّ نَعْلَكَ ، قَالَ : لا تُقْلُهُمَا قَدَمَاكَ ، وَلَكِنْ اَمْشِ فِي ظِلِّ نَاقَتِي ، وَكفَاكَ شِرفاً بِذَلِكَ ، ثُمَّ لَمْ يُوْزَعْ أَنْ
قَدِمَ عَلَيَّ مَعَاوِيَةَ فِي سُلْطَانِهِ . . فَأَكْرَمَ وَفادَتُهُ ، وَقَضَى حوائِجَهُ^(٢) . وَبَعِيدٌ ما يروى مِنْ تَنْزُهُهِ عَنِ قَبُولِ جَائِزَتِهِ ، ثُمَّ إِنَّهُ
كَانَ مِنْ أَصْحابِ عَلِيٍّ فَفارقَهُ وَرَضِيَ بَعْدُ أَنْ يَكُونَ شَرِطِيّاً لِزِيادِ ، فَقَدْ بَعَثَهُ بِحِجْرِ بْنِ عَدِيٍّ وَرِفاقِهِ إِلَى مَعَاوِيَةَ فِي أَحَدِ
عَشَرَ رَاجِياً ، فَمِنْ أَيْنَ تَأْتِي العَظَمَةُ لِمَنْ هَذَا وَصْفُهُ ؟

وقد يستنتجُ مِنْهُ مَتَأَهَّلُ الحَضْرَمَةِ فِي الألقابِ وإِطلاقِ الإِمارةِ ، أَوْ ما هُوَ أَكْبَرُ مِنْها عَلَيَّ مَنْ لا يَسْتَحِقُّ مِمَّنْ لا طَوْلَ لَهُ
ولا حَوْلَ .

[متى يقال : (ملك) ومتى يقال (سلطان)]

وقد قال ابنُ السبكيّ في ترجمةِ السُلْطانِ محمودِ بنِ سُبُكْتِكِينَ [كما في « الطبقات » ٣١٤/٥] : ولا أَسْتَطِيعُ أَنْ أُسَمِّيَ نَورَ
الدينِ الشَهِيدِ سُلْطاناً ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَسَمَّ بِذَلِكَ ، وَسَبَبُهُ أَنَّ مُصْطَلَحَ الدُولِ أَنَّ السُلْطانَ مَنْ مَلِكٌ إِقْلِيمِينَ فِصاعِداً ، فَإِنْ كانَ

(١) العُفَاةُ : جَمْعُ عافٍ ، وَهُوَ طالِبُ المَعروفِ .

(٢) أَنْظَرَ القِصَّةَ بِنَحْوِها فِي « سِيرِ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ » (٥٧٤/٢) ، وَالصَّحَابِيُّ هُوَ : وائِلُ بْنُ حُجْرٍ وَليسَ حُجْرُ بْنُ وائِلِ .

لا يملك إلا إقليماً واحداً . سمي بالملك ، وإن اقتصر على مدينة واحدة . . لم يسم بالملك ولا بالسلطان بل بأمر البلد وصاحبها ، ومن ثم تعرف خطأ كتاب زماننا حيث يسمون صاحب (حماة) سلطاناً ، ولا ينبغي أن يسمي سلطاناً ولا ملكاً ؛ لأن حكمه لا يعدوها . انتهى .

[المتنبي وسريان جود المدوح إلى محتاجه]

والمعنى متكرر عند الناظم فمنه قوله [في « العكبري » ٧/٢] : [من الطويل]

وَأَنْفُسُهُمْ مَبْذُولَةٌ لَوْفُودِهِمْ وَأَمْوَالُهُمْ فِي دَارٍ مَنْ لَمْ يَفِدْ وَفَدُ^(١)

وقوله [في « العكبري » ١١٦/٤] : [من الطويل]

سَرَى النَّوْمُ عَنِّي فِي سَرَايَ إِلَى الَّذِي مَوَاهِبُهُ تَسْرِي إِلَيَّ كُلَّ نَائِمٍ

وقوله [في « العكبري » ١٢٠/٣] : [من الطويل]

وَمَنْ فَرَّ مِنْ إِحْسَانِهِ حَسَدًا لَهُ تَلَقَّاهُ مِنْهُ حَيْثَمَا سَارَ نَائِلٌ

[أصل بيت المتنبي]

وأصله من قول أبي جويرية العبدي : [من الطويل]

وَيُذَلِّجُ فِي حَاجَاتِ مَنْ هُوَ نَائِمٌ وَيُورِي كَرِيمَاتِ النَّدَى حِينَ يَفْدَحُ

[سريان الجود والشعراء]

وقد تمثل به أبو تمام لبعض الأمراء فاستجاده - كما سنقتض خبره في غير هذا المجلس - ولما رآه استحسنة أكثر منه فقال [في « ديوانه » ٨٤] :

فَأُضْحَتْ عَطَايَاهُ نَوَازِعَ شُرْدَا تَسَائِلُ فِي الْآفَاقِ عَن كُلِّ سَائِلٍ^(٢)

وقال : [من الكامل]

وَفَدَتْ إِلَى الْأَقْطَارِ مِنْ مَعْرُوفِهِ نَعَمٌ تَسَائِلُ عَن ذَوِي الْإِقْتَارِ

وقال : [من الطويل]

فَإِنْ لَمْ يَفِدْ يَوْمًا إِلَيْهِنَّ طَالِبٌ وَقَدَنْ إِلَيَّ كُلَّ امْرِيءٍ غَيْرِ طَالِبٍ

وقال أبو العتاهية [في « ديوانه » ٦٤٨] :

وَإِنْ نَحْنُ لَمْ نَبْغِ مَعْرُوفَهُ فَمَعْرُوفُهُ أَبَدًا يَبْتَغِينَا

[الإمام الهمام والجود الساري]

وقال أمير المؤمنين كرم الله وجهه [في « شرح النهج » ٩٩/١٩] : يا كميلُ مر أهلك بالمكارم ، ويفدوا في قضاء حاجة من

(١) الوفود : جمع وفد ، وهم الذين يقدمون على الملوك .

(٢) نوازع : من نزع إليه إذا اشتاق له .

مَوَانِمٌ ، فوالذي وَسَعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ ، مَا مِنْ أَحَدٍ يَدُوعُ قَلْبًا سُرُورًا . . إِلَّا وَخَلَقَ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ السُّرُورِ لُطْفًا ، حَتَّى إِذَا نَزَلَتْ بِالْمَحْسَنِ نَازِلَةً ، أَوْ جَاءَتْهُ جَائِحَةٌ . . كَانَ ذَلِكَ السُّرُورُ أَسْرَعَ إِلَيْهَا مِنَ الْمَاءِ إِلَى انْحِدَارِهِ ، حَتَّى يَطْرُدَهَا كَمَا تَطْرُدُ الْغَرِيبَةُ مِنَ الْإِبِلِ عَنِ الْحَوْضِ . أَوْ مَا هَذَا مَعْنَاهُ .

[عودة إلى الشعراء]

وقال مروان ابن أبي حفصة يمدحُ عبدَ الله بنَ طاهرٍ ، وقد وافاهُ نائِلُهُ على البعدِ [في «ديوانه» ١١٨] : [مِن الطَّوِيلِ]

لَعَمْرِي لِنَعْمِ الْغَيْثُ غَيْثٌ أَصَابَنَا
فَكُنَّا كَحَيِّ صَبَّحَ الْغَيْثُ أَهْلَهُ
بِغَدَادٍ مِنْ أَرْضِ الْجَزِيرَةِ وَابِلُهُ
وَلَمْ تَزْتَحِلْ أَظْعَانُهُ وَرَوَّاحِلُهُ^(١)

وقال أبو عبادة : [مِن الطَّوِيلِ]

جَزَى اللَّهُ خَيْرًا وَالْجَزَاءُ بِكْفِهِ
هُمُ وَصَلُونِي وَالْمَهَامُ بَيْنَنَا
بَيْنِي السَّمُطِ أَخْدَانَ السَّمَاحَةِ وَالْمَجْدِ
كَمَا ارْفَضَ غَيْثٌ مِنْ تِهَامَةٍ فِي نَجْدِ

وفي التلميح إلى هذا يقولُ المعريُّ [في «سقط الزند» ٢١٨] :

شَكَرْتُهُمْ شُكْرَ الْوَلِيدِ بِفَارِسِ
رَجَالًا بِحِمْنِ كَانَ جَدَّهُمُ السَّمُطُ^(٢)

وقال ابنُ الروميِّ : [مِن الْكَامِلِ]

يَسْرِي السَّحَابُ إِلَى الْبَعِيدِ بِغَيْثِهِ
وَلَأَنْتَ أَوْلَى أَنْ تَجُودَ لِمُجْدِبِ
فَيَظْلُ مِنْهُ وَادِعَاءٌ وَيُجَادُ^(٣)
عَفْوًا وَلَمْ تُشَدِّدْ لَهُ أَقْتَادُ^(٤)

ولا يبعدُ عنه قولُ الناظمِ [في «المكبري» ١٣٠/١] :

كَالسَّمْسِ فِي كِبِدِ السَّمَاءِ وَضَوْوُهَا
كَالْبَحْرِ يَلْفِظُ لِلْقَرِيبِ جَوَاهِرًا
يَغْشَى الْبِلَادَ مَشَارِقًا وَمَغَارِبًا
جُودًا وَيَبْعَثُ لِلْبَعِيدِ سَحَابًا

وقوله [في «المكبري» ٢٩٤/٣] :

وَلَيْسَ الَّذِي يَبَّعُ الْوَبْلَ دَائِمًا
كَمَنْ جَاءَهُ فِي دَارِهِ رَائِدُ الْوَبْلِ^(٥)

وما أحسنَ قوله [في «المكبري» ١٣٢/١] :

وَعَطَاءُ مَالٍ لَوْ عَدَاهُ طَالِبٌ
أَنْفَقْتَهُ فِي أَنْ تُلَاقِي طَالِبًا

وقال بعضُ شعراءِ «اليتيمة» [كما نقله في «وفيات الأعيان» ٤١٨/٥] :

وَلِي صَدِيقٌ مَا مَسَّنِي عُدْمٌ
مُذْ وَقَعَتْ عَيْنُهُ عَلَيَّ عُدْمِي

(١) الأظمانُ والرواحلُ : المطايا .

(٢) شكرُ الوليدِ : أرادَ بالوليدِ البُحترِيَّ . السَّمُطُ : جماعةٌ مِنْ آلِ حِمصَ كَانَ الْبُحترِيُّ يمتدحُهم ويشكرُهم .

(٣) وادعاً : ساكناً . يُجَادُ : مِنَ الْجُودِ .

(٤) عفواً : ابتداءً مِنْ غَيْرِ طَلَبٍ . الْأَقْتَادُ : خَشَبَاتُ الرَّحْلِ ، وَالْمَعْنَى : أَنْتَ كَرِيمٌ تَعْطِي الْإِنْسَانَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ إِلَيْكَ وَيَطْلُبُ مِنْكَ .

(٥) الرائدُ : الَّذِي تَرْسَلُهُ الْقَوْمُ فَيَطْلُبُ لَهُمُ الْكَلَأَ .

أَغْنَى وَأَقْنَى وَمَا يُكَلِّفُنِي تَقْبِيلَ كَفِّ لَهْ وَلَا قَدَمِ
قَامَ بِأَمْرِي لَمَّا قَعَدْتُ بِهِ وَنَمْتُ عَنْ حَاجَتِي وَلَمْ يَنْمِ

وهو ناظرٌ إلى البيتِ الذي أنفذه سيفُ الدولة للناظمِ لِيُجِيزَهُ ، وكان من شعرِ الصوليِّ إبراهيمَ شَكَرَ به عمرو بن سعدةَ
عن صنيعةَ أسداها إليه ، وهو [في «ديوان الحماسة» ٢/٢٦٦] :

[المسارعة في قضاء الحاجة]

رَأَى خَلَّتِي مِنْ حَيْثُ يَخْفَى مَكَانَهَا فَكَانَتْ قَدَى عَيْنَيْهِ حَتَّى تَجَلَّتْ^(١)

[تقسيم المعطين في العطاء]

والناسُ على مراتب :

[١- قسم سبق ذكرهم]

فمنهم : مَنْ سَبَقَ وَصَفُهُمْ .

[٢- قسم يكتفون بالسلام عن السؤال]

ومنهم : مَنْ يَسْتَعْنِي عَنِ السُّؤَالِ بِالسَّلَامِ .

[مِنَ الْوَافِرِ]

قَالَ أُمِيَّةٌ [في «ديوانه» ٣٣٣-٣٣٤] :

أَأَذْكَرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي حَيَاؤُكَ إِنَّ شِيَمَتَكَ الْحَيَاءُ
إِذَا أَتَيْتُ عَلَيْكَ الْمَرْءُ يَوْمًا كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الشَّاءُ

[مِنَ الْكَامِلِ]

وَقَالَ ابْنُ الرَّومِيِّ [في «ديوانه» ٢/٥٣٩] :

يَأْمَنُ إِذَا التَّعْرِيفُ صَافَحَ نَفْسَهُ أَعْنَى الْعَفَاةَ بِهِ عَنِ التَّضْرِيحِ

[مِنَ الْكَامِلِ]

وَقَالَ آخَرُ [في «روضة العقلاء» ١/٢٥١] :

وَإِذَا طَلَبْتَ إِلَيَّ كَرِيمَ حَاجَةٍ فَلَقَاؤُهُ يَكْفِيكَ وَالتَّسْلِيمُ
وَإِذَا رَأَى مُسْلِمًا عَرَفَ الَّذِي حَمَلْتَهُ وَكَأَنَّه مَلْزُومُ

[مِنَ الْوَافِرِ]

وَقَالَ الرِّبَاشِيُّ :

وَحَسْبُكَ مِنْ تَقَاضِي الْمَرْءِ يَوْمًا لِحَاجَتِكَ ، الزِّيَارَةُ وَالْحَدِيثُ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَقَالَ النَّازِمُ [في «المكبري» ١/١٩٨] :

أُخِفْتُ سَلَامِي حُبِّ مَا خَفَّ عِنْدَكُمْ وَأَسْكُتُ كَيْمَا لَا يَكُونُ جَوَابُ
وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتٌ وَفِيكَ فَطَانَةٌ سُكُوتِي بَيِّنٌ عِنْدَهَا وَخِطَابُ

(١) الخَلَّةُ : الحاجةُ والفقرُ . فكانت قدَى عينيه : أي لم يصبِرْ عنها كما لا يصبِرُ الرَّجُلُ على قدَى عينيه .

[٣- قسم يحتاج إلى إعادة السؤال]

ومن الناس : مَنْ يَحْتَاجُ إِلَى إِعَادَةِ السُّؤَالِ ، قَالَ أَبُو تَمَّامٍ [في «ديوانه» ١/١٢٢] :

لَوْ رَأَيْنَا التَّأَكِيدَ خُطَّةَ عَجَزٍ مَا شَفَعْنَا الْأَذَانَ بِالشَّوَيْبِ^(١)

[مِنَ الخَفِيفِ]

وقال بشارٌ [في «ديوانه» ٤/٢٢٨] :

هَزَزْتُكَ لَا أَنِّي وَجَدْتُكَ نَاسِيَا لِأَمْرِي وَلَا أَنِّي أَرَدْتُ التَّقَاضِيَا^(٢)
وَلَكِنْ رَأَيْتُ السَّيْفَ مِنْ بَعْدِ سَلِّهِ إِلَى الْهَزِّ مُحْتَاجَا وَإِنْ كَانَ مَاضِيَا

[٤- وشرهم من لا يستفتح إلا بالإلحاح]

وشرهم من لا يستفتح إلا بالإلحاح ؛ ولهذا قال أشجعٌ [في «ديوانه» ١٩٧] :

لَيْسَ لِلْحَاجَاتِ إِلَّا مَنْ لَهُ وَجْهٌ وَقَاحُ

[مِنَ الوَافِرِ]

وقال أبو تَمَّامٍ [في «ديوانه» ٢/٣٤١] :

وَأُخِذْهُمْ بِالرُّقَى إِنَّ الْمَهَارِي يُهَيِّجُهَا عَلَى السَّيْرِ الحُدَاءِ^(٣)

[ما يلحق بالقسم الثاني]

[مِنَ الوَافِرِ]

ويلتحق بالقسم الثاني قولُ ابنِ الروميِّ :

نُذِّكِرُ بِالرُّقَاعِ إِذَا نَسِينَا وَنَذُكِرُ حِينَ تَمْطَلُنَا الكِرَامُ
فَإِنَّ الأُمَّ لَمْ تُرْضِعْ صَبِيَا مَعَ الإِشْفَاقِ لَوْ سَكَتَ الغُلامُ

[ومن البلية أن تحب ومن تحب يحب غيرك]

وقولُ الناظمِ : (يَسْأَلُ عَمَّنْ غَيْرَهُ سَأَلًا) يشبهُ في الجوهْرِ - وإنْ خالفَ العَرَضَ - قولَ الأعشى [في «ديوانه» ٣٠٣] :

[مِنَ البَسيطِ]

عُلِقَتْهَا عَرَضًا وَعُلِقْتَ رَجُلًا غَيْرِي وَعُلِقْتُ أُخْرَى ذَلِكَ الرَّجُلُ

[مِنَ الكَاملِ]

وما أنشدَهُ الأصمعيُّ لِبَعْضِ العَرَبِ [في «معجم البلدان» ٥/٢٢٩] :

قَتَلْتِكَ أُخْتُ بِنِي لُؤَيٍّ إِذْ رَمَتْ وَأَصَابَ نَبْلِكَ إِذْ رَمَيْتَ سِوَاهَا
وَأَعَارَهَا الحَدَثَانِ مِنْكَ مَوَدَّةً وَأَعَارَ غَيْرَكَ وَدَّهَا وَهَوَاهَا

(١) التَّوْبِيْبُ : الدعاءُ إلى الصلاة وغيرها ، وأصله : أن الرجل إذا جاء مستصرخاً . لَوْحٌ بثوبه ليُرَى ويشتهر ، فكان ذلك كالدعاء ، فسمي الدعاء تويباً ، أو هو تنية الدعاء مطلقاً .

(٢) التَّقَاضِي : طلبُ قضاءِ الدين .

(٣) الرُّقَى : جمع رُقِيَّة - وهي العُوْدَةُ ، والمقصودُ : أتُلُّ عليهم من أشعارك التي تعملُ فيهم عملَ التَّعاوِذِ والسَّحْرِ ؛ حيثُ إنَّ كلامَكَ عليهم يؤثِّرُ فيهم ما لا تؤثِّره تلك الرُّقَى ، ثُمَّ يأتي بِدليلٍ حَسْبِيٍّ مشاهدٍ ، وهو : أَنَّ الإِبِلَ إِذَا سَمِعَتِ الأشعارَ . . طَرِبَتْ وَأَسْرَعَتْ فِي مَشِيهَا .
المهاريُّ : الإِبِلُ المنسوبةُ إلى مهرةِ بنِ حيدانٍ .

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وخَيْرٌ مِنَ الْجَمِيعِ قَوْلُ الْآخِرِ [في « البداية والنهاية » ٣١٩/٨] :

جُنُبًا بِلَيْلِي وَهِيَ جُنْتُ بَغِيرِنَا وَأُخْرَى بِنَا مَجْنُونَةٌ لَا نُرِيدُهَا
فالعافي في بيت الناظم سأل غير الممدوح ، ولم يأتيه النائل إلا من جهته ، وحاصل الأخرى : أنه عشق امرأة ،
فعشقت غيره ، وزدّن عليه بأن أخرى عشقته فلم يلتفت إليها ، فالجامع بينها ظاهرٌ وإن اختلف الوجه .

[السمي في حاجات النيام والشعراء]

[مِنَ الْكَامِلِ]

وعلى ذكر السعي في حاجة النيام . . ذكرت قول بعض الشعراء :

وَيَظَلُّ يَحْفَظُنَا وَنَحْنُ بِغَفْلَةٍ وَيَبِيتُ يَكَلُّونَا وَنَحْنُ نِيَامُ
وكذب الله ، إنما ذلك الملك الجبار ﴿ قُلْ مَنْ يَكَلُّوكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ [الأنبياء : ٤٢] .

[مِنَ الْكَامِلِ]

وقال البُحْتُريُّ [في « ديوانه » ٢٢٥٣/٤] :

لَمْ تَكْرَ عَنْ قَاصِي الرَّعِيَّةِ عَيْنُهُ فَتَنَامَ عَنْ وَتْرِ الْقَرِيبِ الدَّانِي
وقال [في « ديوانه » ١٩٧١/٣] :

[مِنَ الْبَسِطِ]

طَرَفٌ مُطِلٌّ عَلَى الْآفَاقِ يَكَلُّوْهَا بِنَاطِرٍ لَمْ يَنَمَ عَنْهَا وَلَمْ يُنَمِ
وقال [في « ديوانه » ٥٤٦/١] :

[مِنَ الْكَامِلِ]

يَسْتَقْصِرُ اللَّيْلَ التَّمَامَ إِذَا انْتَحَى بِالْحَيْلِ نَاحِيَةَ الْعَدُوِّ الْأَبْعَدِ
لَا نَاهِلُ الْأَجْفَانِ إِنْ كَانَ الْكَرَى خِمْسًا لِصَادِيَةِ الْعُيُونِ الْوَرْدِ^(١)

[مِنَ الْبَسِطِ]

وقال :

مَا غَابَ عَنْ عَيْنِهِ فَالْقَلْبُ يَكَلُّوْهُ وَإِنْ تَنَمَ عَيْنُهُ فَالْقَلْبُ يَقْظَانُ
وكذب أبو عبادة ؛ إنما ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؛ (تنام عينه ، ولا ينام قلبه)^(٢) .

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقال مروان ابن أبي حفصة [في « ديوانه » ٣٨] :

يَكُونُ غِرَارًا نَوْمُهُ مِنْ حِدَارِهِ عَلَى بَيْضَةِ الْإِسْلَامِ وَالْخَلْقُ رَاقِدٌ^(٣)
وهو من كلمة له مختارة ، يقول فيها للمهدي [في « ديوانه » ٣٧] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

إِلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ تَجَادَبَتْ بِنَا أَلْيَدِ خُوصٍ كَالْقِسِيِّ شَوَارِدُ^(٤)

(١) ناهلٌ : شاربٌ . خِمْسًا : من إظماء الإبل ، وهو أن ترعى ثلاثة أيام ، وتردّ الرابع على الماء . الصادي : الشديد العطش .

وفي البيت : مجازٌ شبه الشاعر فيه النوم بالماء ، والاستسلام له بعد التعب بالإخماس الذي هو للإبل . وشدة حصول النعس والحاجة إلى النوم بذلك الإنسان الشديد العطش الذي اشتدّت حرارته عنده حتى ألهبت صدره .

والمعنى : أن ممدوحه هذا إنسانٌ عظيم ، يقوم الليل عندما يكون غيره مستلماً استسلاماً شديداً للنوم . والله أعلم .

(٢) أخرجه عن عائشة البخاري (١١٤٧) في التهجد ، ومسلم (٧٣٨) (١٢٥) في صلاة المسافرين ولفظه : « يا عائشة إن عينيّ تنامان ولا ينام قلبي » .

(٣) الغرأ : النوم القليل .

(٤) تجادبت : أسرع واندفعت . الخوص : النوق الضامرة . الشوارد : جمع شرود ، وهي الناقة النافرة المستعصبة الذاهبة على وجهها .

إِلَىٰ مَلِكٍ تَنْدَىٰ إِذَا يَيْسَ الثَّرَىٰ
 أَيَادِي بَنِي الْعَبَّاسِ بِيضٌ سَوَابِغُ
 وَهُمْ يَعْدِلُونَ السَّمَكِ مِنْ قُبَّةِ الْهُدَىٰ
 سَوَاعِدُ عِزِّ الْمُسْلِمِينَ وَإِنَّمَا
 يَكُونُ غِرَارًا نَوْمُهُ مِنْ حِذَارِهِ
 كَانَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّداً

بِنَائِلٍ كَفَيْهِ الْأَكْفُفُ الْجَوَامِدُ
 عَلَىٰ كُلِّ قَوْمٍ بَادِيَاتٌ عَوَائِدُ
 كَمَا تَعْدِلُ الْبَيْتَ الْحَرَامَ الْقَوَاعِدُ^(١)
 تَنْوُّهُ بِصَوْلَاتِ الْأَكْفُفِ السَّوَاعِدُ
 عَلَىٰ بَيْضَةِ الْإِسْلَامِ وَالْخَلْقُ رَاقِدُ
 لِرَأْفَتِهِ بِالنَّاسِ لِلنَّاسِ وَالِدُ

[المتنبي والإسراع في حاجات النيام]

وتلاعب بالمعنى الناظم فقال [في «العكبري» ٢٦/٤] :
 نَفَتْ رُقَادَ عَلِيٍّ عَنِ مَحَاجِرِهِ
 [مِنَ الْبَسِيطِ]
 وَقَالَ [في «العكبري» ٢١٥/٤] :
 غَضُّ الشَّبَابِ بَعِيدٌ فَجَرُّ لَيْلَتِهِ
 [مِنَ الْبَسِيطِ]
 وَقَالَ [في «العكبري» ٢٢١/١] :
 لَنَا مَلِكٌ لَا يَطْعُمُ النَّوْمَ ، هَمُّهُ
 [مِنَ الطَّوِيلِ]
 وَقَالَ [في «العكبري» ١٢٦/٢] :
 كَثِيرُ سَهَادِ الْعَيْنِ مِنْ غَيْرِ عِلَّةِ
 [مِنَ الطَّوِيلِ]
 وَقَالَ [في «العكبري» ٢٨٥/٢] :
 قَلِيلُ الْكُرَىٰ لَوْ كَانَتِ الْبِيضُ وَالْقَنَا
 [مِنَ الطَّوِيلِ]
 وَقَالَ [في «العكبري» ١٠٤/١] :
 وَأَنْتَ مَعَ اللَّهِ فِي جَانِبِ
 [مِنَ الْمُتَقَارِبِ]
 قَلِيلُ الرُّقَادِ كَثِيرُ التَّعَبِ

[مدح العرب للساري في حاجات النيام]

وما زالت العرب تمادح بذلك ، فمنه قول بعضهم :
 وَتَغْدُو عَلَيْنَا مُشْرِقاً غَيْرَ وَاجِمِ
 [مِنَ الطَّوِيلِ]
 وَقَالَ تَابُطْ شَرَّاً [في «ديوانه» ٢٩٢] :
 قَلِيلُ غِرَارِ الْعَيْنِ أَكْبَرُ هَمِّهِ
 [مِنَ الطَّوِيلِ]
 دَمُ الشَّارِ أَوْ يَلْقَىٰ كَمِيّاً مُدَجَّجَا

(١) الشُّكُّ : السَّقْفُ .

(٢) السَّهَادُ : هُوَ السَّهْرُ ، وَلَكِنْ لَا يَسْتَعْمَلُ إِلَّا فِي السَّاهِرِ فِي الشَّدَةِ .

(٣) الرِّزْفُ : الدَّرُوعُ اللَّيْنَةُ .

وقال أبو كبير يمدحُه [كما في «ديوان الهدليين» ٩٢/٢] :

[من الكامل]

فَأَتَتْ بِهِ حُوشَ الْفُوَادِ مُبْطَنًا سُهْدًا إِذَا مَا نَامَ لَيْلُ الْهُوجَلِ^(١)

[سيدنا الفاروق والمعجوز]

ويروى : أَنَّ عَجُوزًا أَضَلَّتْ نَاقَةً عَلَى عَهْدِ ابْنِ الْخَطَّابِ ، فَجَاءَتْ تَسْأَلُهُ عَنْهَا ؟ فَقَالَ : وَهَلْ كُنْتُ عِنْدَهَا ؟ قَالَتْ : مَا ظَنَنْتُ أَنَّ شَاءَةَ تَضِيعُ عَلَى جَانِبِ الْفِرَاتِ إِلَّا أَنْتَ عَنْهَا مَسْئُولٌ ؟ وَلَمْ تَكُونَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَنْ ؟

[إسراؤه في الرعية]

فَسَاقَتْ حِفَاظَهُ ؛ لِمَا بِهِ الْحِرْصُ عَلَيْهِ مِنْ حَيَاةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَتَفَقُّدِ أحوالِهِمْ ، فَكَانَ عِلْمُهُ بِمَنْ نَأَى مِنْ رَعِيَّتِهِ وَأُمْرَائِهِ . . كَعِلْمِهِ بِمَنْ بَاتَ مَعَهُ عَلَى فِرَاشٍ وَاحِدٍ . وَكَانَتْ الْأَخْبَارُ تَرِدُهُ فِي كُلِّ مَمْسَى وَمَصْبِحٍ .

[من المقتدين به]

وَتَسَمَّتُهُ^(٢) مَعَاوِيَةَ فِي ذَلِكَ فَانْتَضَمَ أَمْرُهُ .

[أنا أعرف بك منك]

وَجَرِي فِي آثَارِهِمْ زِيَادُ ابْنِ سَمِيَّةَ^(٣) ، فَبَثَّ الْأَرْصَادَ وَالْعُيُونَ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ ، وَاسْتَطَلَعَ أحوالَ النَّاسِ وَاسْتَظْهَرَ أَخْبَارَهُمْ . . حَتَّى إِنْ رَجَلًا اسْتَعْرَفَ إِلَيْهِ وَقَالَ لَهُ : أَنَا فُلَانٌ بَنُ فُلَانٍ فَتَبَسَّمَ ، وَقَالَ تَعَرَّفْتُ إِلَيَّْ وَأَنَا أَعْرَفُ بِكَ مِنْكَ ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْرِفُ أَبَاكَ وَجَدَّكَ ، وَأُمَّكَ وَجَدَّتَكَ ، وَأَهْلَ بَيْتِكَ ، وَهَذَا الْبَرْدُ الَّذِي عَلَيْكَ ، وَهُوَ لِفُلَانٍ . . فَبَهَتَ الرَّجُلُ حَتَّى كَادَ أَنْ يُغْشَى عَلَيْهِ^(٤) .

وَهِيَ سِيَاسَةُ أَرْدَشِيرِ^(٥) بِنِ بَابِكِ مِنْ مُلُوكِ الْأَعَاجِمِ ، وَأَخَذَ بِهَا جَمَاعَةٌ مِنَ الْأُمَرَاءِ فَكَانُوا مِنْ أحوالِ النَّاسِ عَلَى بَصِيرَةٍ .

[متى تكون سياسة بث الأرصاد والعيون ناجحة ؟]

وإنما تكون وسيلة للنجاح عند كرم الطباع وغلبة الصدق ، وإلا فقد تدسَسَ منها في الأخطاء الفاحشة جملة من الملوكة ، منهم : السلطان عبد الحميد ؛ إذ سلكها مع انتشار اللؤم ، وغلبة الكذب ، وفيوض الغش ، فكانت الجواسيسُ تبيعُ الضمائرَ ، وتفسدُ ما بينه وبين رجالات الأعمال ، حتى آل الأمرُ إلى ما لم تحمدُ عقباهُ ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا بالله .

[المهلب ابن أبي صفرة والحجاج]

ولمَّا قَدِمَ الْمُهَلَّبُ ابْنُ أَبِي صُفْرَةَ بَعْدَ فِرَاغِهِ مِنَ الْأَزَارِقَةِ عَلَى الْحَجَّاجِ . . أَكْرَمَهُ وَأَظْهَرَ بَرَّهُ ، وَأَجْلَسَهُ إِلَى جَانِبِهِ ،

(١) حوشُ الفؤادِ : ذكيُّ الفؤادِ . المبطنُ : الخبيصُ البطنِ . الشهدُ : السهرُ . الهوجلُ : الثقبُ الكسلانُ .

(٢) تسمتُهُ : سارَ على سننِهِ وطريقِهِ .

(٣) هو زيادُ ابنُ أبيه .

(٤) في «المستطرف» (٢٠٨/٢) .

(٥) أَرْدَشِيرُ : اسمٌ أطلقَهُ الْعَرَبُ عَلَى مُلُوكِ الْفَرَسِ مِنَ الْأَسْرَةِ السَّاسَانِيَّةِ . وَالْمَقْصُودُ بِهَا هُنَا : وَاحِدٌ مِنْهُمْ .

وقال : يا أهل (العراق) ، لقد طوّقتكم المهلب من الفضل ما جعلكم به عبيد قن له ، أنتم والله كما قال لقيط [في

[من البسيط]

ديوانه « ٨٦٨٥ » :

فَقَلِّدُوا أَمْرَكُمْ لِهَذَا دَرْكُكُمْ
لَا يَطْعَمُ النَّوْمَ إِلَّا رَيْثٌ يَبْعَثُهُ
لَا مُتْرَفًا إِنْ رَحَاءَ الْعَيْشِ سَاعَدَهُ
مَا زَالَ يَخْلُبُ هَذَا الدَّهْرَ أَشْطَرُهُ
رَحْبَ الذَّرَاعِ بِأَمْرِ الْحَرْبِ مُطْلَعًا
هَمٌّ يَكَادُ حَشَاهُ يَقْضِبُ الضَّلْعَا (١)
وَلَا إِذَا عَضَّ مَكْرُوهٌ بِهِ خَشَعَا
يَكُونُ مُتَّبِعًا طَوْرًا وَمُتَّبَعًا (٢)
حَتَّى اسْتَمَرَّتْ عَلَيَّ شَزْرٌ مَرِيرَتُهُ
مُسْتَحْكِمَ الرَّأْيِ لَا قَحْمًا وَلَا ضَرَعًا (٣)

[من هو الفتى ؟]

[من الكامل]

وجاء جماعة إلى حسّان فقالوا من الفتى ؟ فقال :

إِنَّ الْفَتَى لَفَتَى الْهَوَاجِرِ وَالشَّرَى
ذَلِكَ الْفَتَى إِنْ كَانَ كَهَلًا أَوْ فَتَى
وَفَتَى الطَّعَانِ وَمِذْرَةَ الْحَدَثَانِ (٤)
لَيْسَ الْفَتَى بِمُنْعَمِ الشُّبَّانِ

[المتنبي الشجاع]

[من البسيط]

ومن خير ما في الموضوع قول الناظم [في « العكبري » ٣/ ٣٦٩] :

الْحَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِي
وَالسَّيْفُ وَالرُّمْحُ وَالْقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ (٥)

[مدح الكرام وذم اللثام]

[من الطويل]

وفي عكس ذلك يقول بعض المتأخرين :

إِذَا مَا قَطَعْتُمْ لَيْلَكُمْ بِمُدَامِكُمْ
فَمَنْ [ذَا] الَّذِي يَرْجُوكُمْ فِي مُلْمَةِ
رَضِيْتُمْ مِنَ الدُّنْيَا بِأَيْسَرِ بُلْغَةٍ
وَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ اللِّسَانَ مُوَكَّلٌ
وَأَفْنَيْتُمْ أَيَّامَكُمْ بِمَنَامٍ
وَمَنْ ذَا الَّذِي يَغْشَاكُمْ بِسَلَامٍ
بِشُرْبِ مُدَامٍ أَوْ بِلَثْمِ غَلَامٍ
بِمَدْحِ كِرَامٍ أَوْ بِذَمِّ لَثَامٍ
يَغْرُونَكُمْ زُورًا بِيَعِ ذِمَامٍ
وَلَكِنَّ رَأْسَ الشَّرِّ تَلِيْسُ قَادَةٍ

[العيش والموت السواء]

[من الطويل]

وقال آخر :

إِذَا كُنْتَ لَا تُرْجَى لِدَفْعِ مُلْمَةٍ
وَلَمْ يَكْ فِي الْمَعْرُوفِ عِنْدَكَ مَطْمَعٌ

- (١) الريث : المقدار .
- (٢) حلب فلان المحر أشطره : مرّت عليه ضروب من خيره وشره حتى صار ذا خيرة ومعرفة .
- (٣) الشز : قتل الحبل مما يلي اليسار ، وهو أشد لفته . مريرته : طاقة الحبل . القحم : الشيخ النكد الكبير . الضرع : الغمر الضعيف من الرجال . والقصة بنحوها عند ابن الأثير في « الكامل » (٤ / ١٨٣) .
- (٤) المذرة : السيد الشريف ، والمقدم في اللسان واليد عند الخصومة والقتال .
- (٥) في « العكبري » : (وَالضَّرْبُ وَالطَّعْنُ) بدل (وَالسَّيْفُ وَالرُّمْحُ) .

وَلَا أَنْتَ مِمَّنْ يُسْتَعَانُ بِجَاهِهِ
فَعَيْشُكَ فِي الدُّنْيَا وَمَوْتُكَ وَاحِدٌ
وَتَعَرَّضْتَ لِلْمَنْصُورِ امْرَأَةً فَلَمْ يَعْطِهَا شَيْئاً ، فَقَالَتْ :
إِذَا لَمْ يَكُنْ فَيَكُنْ ظِلٌّ وَلَا جَنَى

* * *

وَلَا أَنْتَ يَوْمَ الْحَشْرِ مِمَّنْ يُشَفَّعُ
وَعُودُ خِلَالٍ مِنْ وَصَالِكَ أَنْفَعُ^(١)

[مِنَ الطَّوِيلِ]

فَأَبْعَدُكَ اللَّهُ مِنْ شَجَرَاتِ

(١) عُودُ الْخِلَالِ : هُوَ الْعُودُ الَّذِي يُتَخَلَّلُ بِهِ ؛ أَي : يَزِيلُ الْإِنْسَانَ بِهِ مَا عُلِقَ مِنَ الطَّعَامِ بَيْنَ الْأَسْنَانِ . وَالْمَقْصُودُ بِهِ هُنَا : الشَّيْءُ النَّافِعُ الَّذِي لَا قِيَمَةَ لَهُ .

المجلس الثامن

[مِنَ البسيطِ]

قال أبو الطيب المتنبّي في «العُكْبَرِيّ» ١٦٧/٣ :

يَلُوحُ بَدْرُ الدُّجَى فِي صَخْنِ غُرَّتِهِ وَيَحْمِلُ المَوْتَ فِي الهَيْجَاءِ إِنْ حَمَلًا^(١)

[الممدوح الجميل الشجاع]

يقول : إن وجهه مشرقٌ كبدرِ الدُّجَى ، وإذا حملَ على أعدائه . حملٌ إليهم الموتَ الزُّوَامَ^(٢) ، ولفظة (الدُّجَى) ليست من الحشوِ المردودِ ، وإن كان القمرُ لا يُسمَّى بَدْرًا إلا في الدُّجَى ؛ لأنَّ المرادَ منها التأكيدُ . ثم إنَّه لا مناسبة بين الإضاءةِ والشجاعةِ إلا بتأويلِ أنَّ الحربَ كانَ ليلاً ، وادَّعى إشراقَ وجهِ الممدوحِ ، أو أنَّ اليومَ أظلمَ من ارتفاعِ الغبارِ فاستضاءَ الناسُ بحياته ، ويحتملُ أن يكونَ لبيانِ الواقعِ ، فلا تثريبُ .

[كثرة التشبيه بالشمس والقمر]

وقد أشرنا في أولِ المجلسِ الخامسِ لكثرة ما يشبهُه النَّاسُ الوجوهَ بالأقمارِ والشموسِ ، بتفاوتِ بينَ مقاديرِ الكلامِ ، فمن قويٍّ وورثٌ ، وسمينٍ وغثٌ ، وقالَ بعضُ كِنْدَةَ يمدحُ عمروَ بنَ هِنْدٍ :

[مِنَ الطَّويلِ]

هُوَ الشَّمْسُ لآحَتْ يَوْمَ سَعْدٍ فَأَفْضَلَتْ عَلَى كُلِّ ضَوْءٍ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ

[مِنَ الطَّويلِ]

فأخذَه النابغةُ وقالَ [في «ديوانه» ٧٨] :

بِأَنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوَاكِبُ

[مِنَ السَّريعِ]

وقالَ مهلهلُ بنُ ربيعةَ عن أخيه كليبٍ :

تَنْفَرُجُ الظُّلْمَاءُ عَن وَجْهِهِ كَاللَّيْلِ وَلَّى عَن صَدِيعِ أُنَيْقِ

[مِنَ البسيطِ]

وقالَ بعضُ العربِ

لَوْ عَارَضَ الشَّمْسَ أَلْفَى الشَّمْسَ مُظْلِمَةً أَوْ زَاخَمَ الضَّمَّ أَلْجَأَهَا إِلَى المَيْلِ

[مِنَ الطَّويلِ]

وقالَ حاتمُ الطَّائِيّ يصفُ زوجتهَ ماويَّةَ [في «ديوانه» ٨١] :

يُضِيءُ لَهَا البَيْتُ الظِّلِيلُ خِصَاصَهُ إِذَا هِيَ يَوْمًا حَاوَلَتْ أَنْ تَبَسَّمَ^(٣)

(١) الفُرَّةُ : هي غرَّةُ الوجهِ ، وأصلها البياضُ الذي يكونُ في وجهِ الفرسِ .

(٢) هذا هو المعنى الذي رآه المؤلفُ - رحمه الله - وهو لا يكونُ إلا بنصبِ كلمة (الموت) ، أمَّا العُكْبَرِيّ : فيقولُ عندَ شرحِ البيتِ : « وإذا لقيَ الأعداءَ . . فإنَّ الموتَ يحملُ معه ، ويصوِّلُ عليهم فيقتلُهم ، فالموتُ من أعوانه » وهذا يكونُ برفعِ (الموت) .

(٣) الخِصَاصُ : الفُرْجُ في البناءِ وغيره .

وقال أبو جويرية العبدي :

[مِن الطويل]

إِذَا عَتَمَ بِالْبُرْدِ الْيَمَانِي خِلْتَهُ هَلَالاً بَدَا مِنْ جَانِبِ الْأُفْقِ يُلْمَحُ

[مِن الوافر]

أَمَّا قَوْلُ الْآخِرِ [وهو الفرزدق في « الأغاني » ١٠/٣٢٣] :

تَرَى الثُّغْرَ الْجَحَاجِحَ مِنْ قَرَيْشٍ إِذَا مَا الْأَمْرُ فِي الْحَدَثَانِ عَالَا^(١)
فِيَاماً يَنْظُرُونَ إِلَيَّ سَعِيدٍ كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ بِهِ هَلَالاً

[الافتنان في المديح]

. . فقد جمع فيه إلى الوسامة اهتمام الناس بالنظر إليه ؛ لتعويلهم عليه ، واعتدادهم به في المهمات ، فهو قريب من قول البحريّ [في « ديوانه » ٢/١٠٧٢] :

[مِن الكامل]

وَأَفْتَنَ فِيكَ النَّاطِرُونَ فَاصْبَعْ يَوْمِي إِلَيْكَ بِهَا وَعَيْنٌ تَنْظُرُ

[مِن الطويل]

وقول الناظم [في « العكبري » ٥/٢] :

بِمَنْ تَشَخَّصُ الْأَبْصَارُ يَوْمَ رُكُوبِهِ وَيُخْرِقُ مِنْ زَحْمٍ عَلَى الرَّجْلِ الْبُرْدُ
وَتَلْقِي وَمَا تَدْرِي الْأَكْفُ سِلَاحَهَا لِكَثْرَةِ إِيْمَاءِ إِلَيْهِ إِذَا يَبْدُو

[إضاءة الوجوه والشعراء]

[مِن الطويل]

وَمِنْ أَحْسَنِ مَا جَاءَ فِي إِضَاءَةِ الْوَجْهِ . . قَوْلُ أَبِي الطَّمْحَانِ الْقَيْنِيِّ :

أَضَاءَتْ لَهُمْ أَحْسَابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ دُجَى اللَّيْلِ حَتَّى نَظَّمَ الْجَزْعَ ثَاقِبُهُ^(٢)

[مِن المنسرح]

وقد ألمَّ به الناظم إذ يقول [في « العكبري » ٤/٦٦] :

تُشْرِقُ أَعْرَاضُهُمْ وَأَوْجُهُهُمْ كَأَنَّهُا فِي نَفْسِهِمْ شِيَمٌ^(٣)

[مِن الطويل]

وقال ابن أبي السَّمَطِ :

فَتَى لَا يُيَالِي الْمُدْلِجُونَ بِنُورِهِ إِلَى بَابِهِ أَلَّا تُضِيءَ الْكَوَاكِبُ^(٤)

[مِن الوافر]

وقال القاسمُ بنُ حنبلٍ [في « ديوان الحماسة » ٢/٣٠٤] :

مِنْ الْبَيْضِ الْوُجُوهِ بَيِّ سِنَانٍ لَوَانِكَ تَسْتَضِيءُ بِهِمْ أَضَاؤُوا

[مِن البسيط]

وقال الحطيطيَّةُ [في « الأغاني » ٢/١٥١] :

نَمْسِي عَلَى ضَوْءِ أَحْسَابٍ أَضْأَنَ لَنَا مَا ضَوَّاتُ لَيْلَةَ الْقَمَرَاءِ لِلْسَّارِي

(١) الجَحَاجِجُ : الأسياد ، جمع جَحَاجِحٍ . عالٌ : شقٌّ على الرجالِ إتيانُهُ .

(٢) الْجَزْعُ : ضرب من العقيق .

(٣) عَرْضُ الرَّجْلِ : هو موضعُ الدَّمِّ والمدح منه .

(٤) المدلج : الذي يسير من الليل .

وقال غيره :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

مُحَيَّاكَ أَخْفَى ضَوْؤُهُ كُلَّ شَارِقٍ^(١)

سَرِينَا وَنَجْمٌ قَدْ أَضَاءَ فَمُذْ بَدَا

[مِنَ مَجْزُوءِ الْكَامِلِ]

وقال أشجعُ [في «ديوانه» ٢٦٢] :

نَسْرِي وَيَحْرُ اللَّيْلِ طَامِي^(٢)

مَلِكٌ بِحُسْنِ جَبِينِهِ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقال مسلمٌ [في «وفيات الأعيان» ٢٢٦/٦] :

كَأَنَّ دُجَاهَا مِنْ قُرُونِكَ يُنْشَرُ
كَغَرَّةٍ يَحْيَى حِينَ يُذْكَرُ جَعْفَرُ

أَجِدْكَ هَلْ تَذَرِينَ إِنْ بَتَّ لَيْلَةً
صَبَرْتُ لَهَا حَتَّى تَجَلَّتْ بِغَرَّةٍ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقال العُقَيْلِيُّ [في «البيان والتبيين» ٥٠٧/١] :

صَدَعْنَ الدُّجَى حَتَّى تَرَى اللَّيْلَ يَنْجَلِي^(٣)

وُجُوهٌ لَوْ أَنَّ الْمُذَلِّجِينَ اعْتَشَوْا بِهَا

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقال أبو تَمَّامٍ [في «ديوانه» ١٢٦/١] :

تَوَقَّدُ لِلسَّارِي لَكَانُوا كَوَاكِبًا

وُجُوهٌ لَوْ أَنَّ الْأَرْضَ فِيهَا كَوَاكِبٌ

[مِنَ الْكَامِلِ]

وقال أبو عُبَادَةَ [في «ديوانه» ٧٢٢/٢] :

نَسْرِي بِبَدْرِ فِي اللَّيَالِي الشُّوَدِّ

نَجَلُّو بِغُرَّتِهِ الدُّجَى فَكَأَنَّا

[مِنَ الْكَامِلِ]

وقال [في «ديوانه» ١٥٩٨/٣] :

قَمَرُ السَّمَاءِ السَّعْدُ لَيْلَةً يَكْمُلُ

وَرَأَوْكَ وَضَّاحَ الْجَبِينِ كَمَا يُرَى

[مِنَ الْكَامِلِ]

وقال [في «ديوانه» ١٧٥٠/٣] :

وَأَضَاءَ فِيهَا بِبَدْرِهَا الْمُتَهَلَّلُ

أَلْيَوْمَ أُظْلِعَ لِلْخِلَافَةِ سَعْدُهَا

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقال [في «ديوانه» ١٦٣٠/٣] :

تَبَلَّجَ فِيهِ الْبَدْرُ بَعْدَ أَقْوَلِهِ^(٤)

فَأَسْفَرَ وَجْهَ الشَّرْقِ حَتَّى كَانَمَا

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقال [في «ديوانه» ٨٤٥/٢] :

سَنَاهُ وَأَخْلَاقِي هِيَ الْأَنْجُمُ الزُّهْرُ
مَشَاهِدُهُ مَا لَا يُكْشِفُهُ الْفَجْرُ

بِوَجْهِ هُوَ الْبَدْرُ الْمُئِيرُ نَفَى الدُّجَى
أَضَاءَ لَنَا أَفْقَ الْبِلَادِ وَكَشَفَتْ

(١) المحيا : الوجه .

(٢) بحر طام : أي ممتلئ .

(٣) اعتشوا : ساروا وقت العشاء .

(٤) أسفر : أضاء . بلج الصبح : أضاء .

وقال [في «ديوانه» ١٩٢٩/٣] :

يُضَاهِي جُودُهُ جُودَ الثَّرِيَّا وَيَحْكِي وَجْهَهُ بَدْرَ التَّمَامِ

[أجمل ما في الموضوع]

[من البسيط]

وقال العرجي يتغزل :

مَحْجُوبَةٌ سَمِعْتُ صَوْتِي فَأَرْقَهَا
تُدْنِي عَلَيَّ جِيدَهَا ثِنْيِي مُعْضَفَرَةً
فِي لَيْلَةِ النُّصْفِ لَا يَدْرِي مُضَاجِعُهَا
مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ حَتَّى بَلَّهَا السَّحَرُ
وَاللُّحْلِيَّ عَلَيَّ لَبَاتِهَا خَصَرُ^(١)
أَوْجُوهَهَا عِنْدَهُ أَبْهَى أَمِ الْقَمَرُ

[من الطويل]

وقال عمرو بن شأس - وله صحبة - [في «ديوانه» ١٠٧] :

إِذَا نَحْنُ أَذْلَجْنَا وَأَنْتِ أَمَامَنَا
كَفَى لِمَطَايَانَا بِوَجْهِكَ هَادِيَا

[من الطويل]

وقال الناظم [في «المكبري» ٣٤٤/٢] :

وَلَيْلٌ دَجُوجِيٌّ كَأَنَّ جَلَّتْ لَنَا
مُحَيَّاكَ فِيهِ فَاهْتَدَيْنَا السَّمَالِقُ^(٢)

[إشراقه وجهه الشريف صلى الله عليه وسلم]

وقد جاء في نعتي صلى الله عليه وآله وسلم [كما في «الجامع» لمعمر بن راشد ٢٥٩/١] : (أَنْ ضَوْءَهُ يَتَلَأَلُ فِي الْجُدْرَاتِ إِذَا مَشَى بَيْنَهَا فِي الظَّلامِ)

فَأَغَارَ عَلَيْهِ صَاحِبُنَا ، وَكَانَ كَمَا قُلْتُ - غَيْرَ مَرَّةٍ - : لَا يَدْعُ شَاذَةً وَلَا فَاذَةً إِلَّا نَظَمَهَا فِي أَسْلَاقِ شِعْرِهِ ، وَذَلِكَ حَيْثُ يَقُولُ [في «المكبري» ٨١/٢] :

[من البسيط]

شَمْسٌ إِذَا الشَّمْسُ لَاقَتْهُ عَلَيَّ فَرَسٍ
تَرَدَّدَ النُّورُ فِيهَا مِنْ تَرَدُّدِهِ

وقبل هذا في ديوانه بيت اضطرَبَ الشارح في تفسيره ، وتخبَّطَ في معناه ، ونصَّه [في «المكبري» ٨٠/٢] :

[من البسيط]

ذَمَّ الزَّمَانَ إِلَيْهِ مِنْ أَحَبِّهِ
مَا ذَمَّ مِنْ بَدْرِهِ فِي حَمْدِ أَحْمَدِهِ

والذي أراه : أَنَّ المعنى ظاهرٌ ، وإنَّما ضربَ الشارحُ عريضةً في تأويله ، وحاصلُ ما فهمته منه : أَنَّ الضميرَ في (إليه) وفي (أحبَّته) عائدٌ إلى الشخصِ الذي جرَّدهُ من نفسه ، فكأنَّه يقولُ : وجوهُ أحبَّتي أقمارٌ ، ولكنَّ الزمانَ ذمٌّ إليَّ من أنوارها بالنسبةِ إلى نورِ (أحمد) الممدوحِ وثنائه ، كما أنَّ الزمانَ ذمٌّ أيضاً مِنَ القمرِ الطَّالِعِ بالنسبةِ لإشراقِ (أحمد) الممدوحِ وحمده . واللهُ أعلمُ .

[وصف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لرسول الله صلى الله عليه وسلم]

ويروى عن عائشة رضي الله عنها [كما في «الاستيعاب» ٣٤١/١] : أَنَّهَا وَصَفَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

(١) اللَّبَّةُ : المنحَرُ . العَصْرُ : البرْدُ .

(٢) دَجُوجِيٌّ : مظلمٌ . جَلَّتْ : كشفت وأظهرت . المحيَّا : الوجهُ . السَّمَالِقُ : جمعُ سَمَلَقٍ ، وهي الأرض البعيدة ، وهو مرفوعٌ على الفاعلية لـ : (جلت) .

قَالَتْ : كَانَ وَاللهِ كَمَا قَالَ شَاعِرُهُ حَسَّانَ [في « ديوانه » ١/٤٦٥] :

[من الطويل]

مَتَى يَبْدُ فِي الدَّاجِي الْبُهِيمِ جَبِينُهُ يَلُخْ مِثْلَ مِصْبَاحِ الدُّجَى الْمُتَوَقِّدِ
فَمَنْ كَانَ أَوْ مَنْ قَدْ يَكُونُ كَأَحْمَدِ نِظَامٌ لِحَقِّ أَوْ نِكَالٌ لِمُلْحَدِ !؟

وَيُحْكِي أَنَّهَا قَالَتْ : أَدَخَلْتُ الْخَيْطَ فِي الْإِبْرَةِ عَلَى ضَوْءِ جَبِينِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، وَأَنَّهَا تَمَثَّلَتْ عِنْدَ ذَلِكَ بِقَوْلِ

[من الكامل]

أَبِي كَبِيرٍ [في « ديوان الهدليين » ٢/٩٤] :

وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَى أَسْرَةٍ وَجْهِهِ لَمَعَتْ كَبْرَقِ الْعَارِضِ الْمُتَهَلِّلِ^(١)

وَهُوَ مِنْ قَصِيدَةِ لَأَبِي كَبِيرٍ الْهُدَلِيِّ .

[تأبط شراً وزوج أمه]

وَكَانَ مِنْ حَدِيثِهَا [في « ديوان الحماسة » ١/٢٠] : أَنَّهُ كَانَ نَاكِحاً أُمَّ تَأْبَطَ شَرّاً ، فَلَمَّا بَلَغَ مَبْلَغَ الرِّجَالِ . . سَاءَهُ دَخُولُهُ عَلَى أُمِّهِ ، فَقَالَ لَهَا : إِنِّي لِأَعْرِفُ الشَّرَّ فِي عَيْنِ الْغَلَامِ مِنْ دَخُولِي عَلَيْكَ ، فَقَالَتْ : عَرَضَهُ لِلْقَتْلِ حَتَّى نَسْتَرِيحَ ، فَعَزَابَهُ ، وَلَمَّا قَارَبَ حَيَّ عَدُوَّهُ . . أَمَرَهُ أَنْ يِقْتَبِسَ مِنْهُمْ نَاراً ، وَتَأْبَطَ شَرّاً لَا يَدْرِي أَنَّ لَهُمْ وَتِراً عِنْدَ أَبِيهِ يَطْلُبُونَهُ بِثَأْرِهِ ، فَلَمَّا رَأَوْهُ . . اسْتَلُّوا لِقَتْلِهِ ، فَسَبَقَهُمْ وَأَرْدَى مِنْهُمْ اثْنَيْنِ ، وَعَادَ إِلَى أَبِي كَبِيرٍ رَابِطَ الْجَأْشِ هَادِيءَ الْبَالِ كَأَنَّمَا صَادَ عَصْفوراً ، وَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ ، فَاشْتَدَّ خَوْفُ أَبِي كَبِيرٍ ، فَتَمَلَّقَهُ وَمَدَحَهُ بِقَصِيدَةٍ سَائِرَةٍ - مِنْهَا هَذَا الْبَيْتُ - وَفَارَقَ أُمَّهُ خَوْفاً مِنْ شَرِّهِ .

[ابن الزبير يطلق أمه من زوجها]

وَبِهِ ذَكَرْتُ مَا رُوِيَ [كما في « البداية والنهاية » ٨/٣٤٦] : أَنَّ عَبْدِ اللهِ بْنَ الزُّبَيْرِ طَلَعَ عَلَى أَبِيهِ وَفِي يَدِهِ الْحَسَامُ صَلْتاً ، وَقَالَ لَهُ : مِثْلِي لَا تَوَطُّأُ أُمَّهُ ، فَطَلَّقَهَا ، وَإِلَّا فَهَوَّ عَلَى رَأْسِكَ ، فَمَا كَانَ مِنَ الزُّبَيْرِ غَيْرِ الْامْتِثَالِ .

[مكاتبة عمرو بن مسعدة لأحد الملوك وقد تزوجت أمه]

وَذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ [كما في « وفيات الأعيان » ٣/٤٧٦] : أَنَّ بَعْضَ الرُّؤَسَاءِ تَزَوَّجَتْ أُمَّهُ ، وَمِنْ عَادَاتِهِمُ التَّرَاسُلُ فِيمَا يَشْبَهُ ذَلِكَ مِنَ الْحَوَادِثِ ، فَحَارَتِ الْمُلُوكُ فِيمَا تَكْتَبُ إِلَيْهِ ، وَتَصَعَّدَهَا الْكَلَامُ ، حَتَّى فَرَّجَ عَنْهُمْ عَمْرُو بْنُ مَسْعَدَةَ - كَاتِبُ الْمَأْمُونِ ، أَوْ أَبُو الْفَضْلِ ابْنُ الْعَمِيدِ - وَكَتَبَ مَا مَعْنَاهُ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ أَنْقَذَ مِنَ الْحَيْرَةِ ، وَجَدَعَ بِالذِّبْنِ أَنْفَ الْغَيْرِ ، وَمَنَعَ مِنْ عَضْلِ الْأَمْهَاتِ^(٢) ، كَمَا مَنَعَ مِنْ وَادِ الْبِنَاتِ ؛

(١) أَسْرَتُهُ : طَرِيقُهُ . الْعَارِضُ : هُوَ الَّذِي يَجِيءُ مَعَارِضاً فِي السَّمَاءِ . الْمُتَهَلِّلُ : الْمَمْطُرُ . وَالْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا الْبَيْهَقِيُّ فِي « الْكَبْرِيِّ » (٤٢٢/٧) بِغَيْرِ هَذِهِ الصِّيغَةِ وَلَفْظُهُ عِنْدَهُ :

قَالَتْ : كُنْتُ قَاعِدَةً أَغْرُلُ ، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَخْصِفُ نَعْلَهُ ، فَجَعَلَ جَبِينَهُ يَعْرِقُ ، وَجَعَلَ عِرْقُهُ يَتَوَلَّدُ نُوراً . . فَبُهِتْتُ ، فَنَظَرْتُ إِلَيَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ : « مَا لَكَ يَا عَائِشَةُ بُهِتٌ ؟ ! » قُلْتُ : جَعَلَ جَبِينُكَ يَعْرِقُ ، وَجَعَلَ الْعِرْقُ يَتَوَلَّدُ نُوراً ، وَلَوْ رَأَى أَبُو كَبِيرٍ الْهُدَلِيُّ . . لَعَلِمَ أَنَّكَ أَحَقُّ بِشَعْرِهِ . قَالَ : « وَمَا يَقُولُ أَبُو كَبِيرٍ ؟ » قَالَتْ : قُلْتُ : يَقُولُ :

وَمُبَرَّراً مِنْ كُلِّ غُبْرٍ حَيْضَةً وَفَسَّادٍ مُرْضِعَةً وَدَاءٍ مَغِيلاً
فَإِذَا نَظَرْتُ إِلَى أَسْرَةٍ وَجْهِهِ بَرَقَتْ كَبْرَقِ الْعَارِضِ الْمُتَهَلِّلِ

قَالَتْ : فَقَامَ إِلَيَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، وَقَبَّلَ بَيْنَ عَيْنَيْ ، وَقَالَ : « جَزَاكَ اللهُ يَا عَائِشَةُ عَنِّي خَيْراً ، مَا سُرِرْتِ مِنِّي كَسُرُّوْرِي مِنكَ » .

(٢) عَضْلُ الْأَمْهَاتِ : مَنَعُهَا مِنَ الزَّوْجِ .

استنزالاً للنفوس الأبيّة عن حميّة الجاهليّة ، ثمّ استرسل فيما يليق بالمقام ، واقتفى الكتاب أثره ، ووطنوا عقبه :

[من الكامل]

وَالذَّيْبُ يَغْسِلُ فِي طَرِيقِ الضَّيْنَمِ

[الإمام زين العابدين ونور وجهه]

ورأيتُ في مطالعتي من زمانٍ بعيدٍ ، أنّ بعضهم جاء في الحرمِ عشاءً إلى مقربةٍ من سيّدنا عليّ بن الحسين ، وأخذ يتأمّل في شيءٍ معه ، فسُئِلَ عن شأنه ؟ فذكر أنّ عنده كتاباً استعلقت عليه قراءته في ضوء السراج ، فجاء يقرؤه على غرّة زين العابدين - الذي اجتمع في أساريه الجمال الفارسيّ ، والشهامة الهاشميّة ، والوقار الإلهي ، والأشعة النبويّة ، ولا أذكرُ اسم الكتاب الذي بقيَ بذهني منه هذا .

[هشام بن عبد الملك والإمام زين العابدين في الطواف]

ولا غرو ؛ فقد تواتر [كما في «الأغاني» ١٠/٣٨٠] : أنه لما حجّ . . استجهرَ الناسَ بجماله حتّى أفرجوا له عن الحجر ، عندما عجزَ عن الوصولِ إليه هشامُ بن عبد الملك - وهو وليُّ العهدِ يومئذٍ - فقالَ الناسُ : من هذا ؟ فقالَ هشامُ : لا أعرفه ، فقالَ الفرزدقُ : ولكنّي أعرفه ، فقالوا : من هو يا أبا فراسٍ ؟ فقالَ [في «ديوانه» ١٧٨-١٧٩] : [من البسيط]

هَذَا ابْنُ خَيْرِ عِبَادِ اللَّهِ كُلِّهِمْ هَذَا ابْنُ خَيْرِ عِبَادِ اللَّهِ كُلِّهِمْ
هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ وَطَأْتَهُ هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ وَطَأْتَهُ
وَلَيْسَ قَوْلُكَ : مَنْ هَذَا ؟ . . بِضَائِرِهِ وَلَيْسَ قَوْلُكَ : مَنْ هَذَا ؟ . . بِضَائِرِهِ
إِذَا رَأْتَهُ قُرَيْشٌ . . قَالَ قَائِلُهَا إِذَا رَأْتَهُ قُرَيْشٌ . . قَالَ قَائِلُهَا
يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضِي مِنْ مَهَابَتِهِ يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضِي مِنْ مَهَابَتِهِ

في قصّةٍ معروفةٍ لا حاجة بنا إلى سردها - مع شهرتها - وهي من أكبر الأدلّة على شهامة الفرزدق ، وقوّة نفسه ، وصحّة دينه ، وقد تداخلت في القصيدة أبياتٌ يرويها بعضهم للحزين الكناني ، ويرويها آخرون للحزين الليثي .

[هل إثبات العقل للجماد ومعرفته للمدوح جائز ؟!]

[من البسيط]

وقوله : وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ ، وقوله [في «ديوانه» ١٧٩] :

يَكَادُ يُمَسِّكُهُ عِرْفَانُ رَاحَتِهِ يَكَادُ يُمَسِّكُهُ عِرْفَانُ رَاحَتِهِ
رُكْنُ الْحَطِيمِ إِذَا مَا جَاءَ يَسْتَلِمُ رُكْنُ الْحَطِيمِ إِذَا مَا جَاءَ يَسْتَلِمُ

[من الكامل]

يشبه قولَ عروة بن أُذينة [في «ديوانه» ٨٣] :

وَأَهْنُ بِالْبَيْتِ الْعَيْتِ لَبَانَةٌ وَأَهْنُ بِالْبَيْتِ الْعَيْتِ لَبَانَةٌ
لَوْ كَانَ حَيًّا قَبْلَهُنَّ ظَعَائِنًا لَوْ كَانَ حَيًّا قَبْلَهُنَّ ظَعَائِنًا
وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُنَّ لَوْ يَتَكَلَّمُ^(٤) وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُنَّ لَوْ يَتَكَلَّمُ^(٤)
حَيِّ الْحَطِيمِ وَجُوهُهُنَّ وَزَمَزَمُ^(٥) حَيِّ الْحَطِيمِ وَجُوهُهُنَّ وَزَمَزَمُ^(٥)

(١) العَلَمُ : سيّد القوم .

(٢) البطحاء : مسيل واسع فيه دقاق الحصى ، ويطلق على الأرض المحيطة بـ (مكة) .

(٣) يغضي : يخفضُ بصره من الحياء .

(٤) اللَّبانة : الحاجة التي يهيمُ الشخصُ قضاؤها .

(٥) الظعائنُ : النساءُ في الهودج . الحطيم : حجر إسماعيل .

[اشتياق البقاع إلى أحبابها]

ثم تلاعب به المتأخرون ، فقال أبو تمام [في ديوانه ١٧٩/٢] :

لَوْ سَعَتِ بُقْعَةٌ لِإِعْظَامِ حَيٍّ لَسَعَى نَحْوَهَا الْمَكَانُ الْجَدِيدُ

وقال البحتري [في ديوانه ١٠٧٣/٢] :

فَلَوْ أَنَّ مُشْتَاقًا تَكَلَّفَ فَوْقَ مَا فِي وَسْعِهِ لَمَشَى إِلَيْكَ الْمُنْبَرُ

[افتنان المتنبي في الموضوع]

وافتنن فيه الناظم فقال [في العكبري ٢٠٣/٤] :

لَوْ تَعَقَّلَ الشَّجَرُ الَّتِي قَابَلْتَهَا مَدَّتْ مُحَيِّةً إِلَيْكَ الْأَعْضَا

وقال [في العكبري ٣٨٤/٢] :

وَإِذَا لَمْ تَسِرْ إِلَى الدَّارِ فِي وَفْقِكَ دَا . . خِفْتُ أَنْ تَسِيرَ إِلَيْكَ

وقال [في العكبري ٢٢٢/٤] :

يَضُمُّهُ الْمِسْكُ ضَمَّ الْمُسْتَهَامِ بِهِ حَتَّى يَصِيرَ عَلَى الْأَعْكَانِ أَعْكَانًا^(١)

وقال [في العكبري ٢٣٤/١] :

أَعْجَبْتَهَا شَرْفًا فَطَالَ وَقُوفُهَا لِتَأْمُلِ الْأَعْضَاءَ لَا لِأَذَاتِهَا^(٢)

وقال [في العكبري ١٤٦/١] :

فَلِمَ يَهَابُكَ مَا لَا حِسَّ يَزِدُّعُهُ ؟ إِنِّي لِأُبْصِرُ مِنْ شَأْنَيْهِمَا عَجَبًا !

وقال [في العكبري ٧/٣] :

فَلَوْ قَدَّرَ السَّنَانُ عَلَى لِسَانٍ لَقَالَ لَكَ السَّنَانُ كَمَا أَقُولُ

وقال [في العكبري ٩٨/٤] :

طَالَ غَشِيَانُكَ الْمَكَارَةَ حَتَّى قَالَ فِيكَ الَّذِي أَقُولُ الْحَسَامُ

[من أكبر مفاخر قريش . . معرفة البطاح]

ومعرفة البطاح من أكبر مفاخر قريش ؛ لأنه لا يتدبرها إذ ذاك إلا صميمها ، وأما لهازمها . . فالظواهر .

وما أحسن ما قال بعض العلويين :

وَحَلَلْتُ مُعْتَلِجَ الْبَطَاحِ إِذَا غَدَا

كَجِبَالِهَا شَرْفِي ، وَمِثْلُ سُهُولِهَا خُلُقِي ، وَمِثْلُ ظَبَائِهِنَّ مَجَاوِرِي

(١) الأعكان : جمع عكنة ، وهو ما يتكسر أسفل البطن من الشحم .
 (٢) الضمير في (أعجبتها) عائد على (الحصى) في البيت قبله .
 (٣) الأرض المعتلجة : هي التي استأسد نباتها والتفت وكثر . ومعتلج البطاح : بطن مكة .



وقال الكُمَيْتُ يمدحُ هشامَ بنَ عبدِ الملكِ [في «ديوانه» ١/١٧٣] :

[مِنَ الخفيفِ]

لَمْ تَجْهَمْ لَهُ الْبَطَاحُ وَلَكِنْ وَجَدْتَهَا لَهُ مَعَانَاً وَدُوراً^(١)

وقال له أيضاً [في «ديوانه» ١/١٨٩] :

[مِنَ مجزوءِ الكاملِ]

وَحَلَلْتِ مُعْتَلِجَ الْبِطَاحِ وَحَلَّ غَيْرُكَ بِالظَّوَاهِرِ

[مِنَ المديدِ]

ولم ينسَ حظَّهُ القُطْبُ الحدَّادُ بل أخذَ بمجاميعِ الفخرِ في قوله [مخمساً في «ديوانه» ٥١٣] :

نَعْرِفُ الْبَطْحَا وَتَعْرِفُنَا وَالصَّفَا وَالْبَيْتُ يَأْلُفُنَا
وَلَنَا الْمَعْلَا وَخَيْفٌ مِنِّي فَاغْلَمَنَ مَا قُلْتُ وَاسْتَكِنَ^(٢)

[مِنَ الكاملِ]

ويعجبني قولُ بعضهم في مراعاةِ النَّظِيرِ يمدحُ أهلَ البيتِ [في «خزانةِ الأدب» ١/٢٩٤] :

أَنْتُمْ بَنُو طَلَّةَ وَنُونِ وَالضُّحَى وَبُنُو تَبَارَكَ وَالْكِتَابِ الْمُحَكَّمِ
وَبُنُو الْأَبَاطِحِ وَالْمَشَاعِرِ وَالصَّفَا وَالرُّكْنِ وَالْبَيْتِ الْعَتِيقِ وَزَمَزَمِ

[علي الرضا ودخوله خراسان]

وعلى ذكرِ الوضَاءِ.. . نلّمُ بحديثِ عليِّ الرِّضَا ، فقد دخلَ (خراسان) وعليه غشَاءٌ . . فتلقاهُ الناسُ ، وفي مقدّمَتِهِم الحافظانِ أبو زرعَةَ ومحمدُ بنُ أسلمَ الطُّوسِيُّ ، فتوسَّلا إليه أَنْ يكشفَ لَهُمَ عَنْ وَجْهِهِ ، وَأَنْ يرويَ حديثاً عَنْ آبَائِهِ ، فَحَسَرَ اللثامَ عَنْ وَجْهِهِ كالبدرِ انكشفَ عنه الغمامُ ، فمن صارخٍ وبالكِ وممرِّغٍ خدَّه بالأرضِ ، وأخذَ من ترابِ حافرِ بغلَّتِهِ ، وقالَ : حدَّثني أبي ، موسى الكاظمُ ، عن أبيه جعفرِ الصَّادِقِ ، عن أبيه محمدِ الباقرِ ، عن أبيه عليِّ زَيْنِ العابدينِ ، عن أبيه - شهيدِ كربلاءَ - حسينِ بنِ عليِّ وابنِ فاطمةَ ، عن أبيه عليِّ ابنِ أبي طالبٍ ، عن رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، عن جبرائيلَ ، عن رَبِّ العزَّةِ ، قالَ : « لا إلهَ إلا اللهُ حِضْنِي ، فَمَنْ دَخَلَ حِضْنِي . . أَمِنَ مِنْ عَذَابِي »^(٣) فابتدرتهُ الأَقْلَامُ - وكانتْ أَكْثَرَ مِنْ اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَاً - وصاروا يكتبونَ ذلكَ الإسنادَ للمرضى ، فيعاجلُهُم اللهُ بالشِّفاءِ ، وكيفَ لا؟! وَهُمَ كَمَا قِيلَ :

[مِنَ السَّريعِ]

سَبَعَةُ آبَاءِ هُمْ مَنْ هُمْ أَفْضَلُ مَنْ يَشْرَبُ صَوْبَ الْغَمَامِ

[ابن معايا يمدح الخليفة الأندلسي]

ولقد أذكرني توسُّلَ الحافظينِ إلى الرِّضَا بأنَّ يُسرِّيَ عَنْ وَجْهِهِ اللثامَ.. . بقولِ ابنِ معايا يمدحُ إدريسَ بنَ حمُودِ الخليفةِ بـ (الأندلسِ) [كما في «نَفْحِ الطَّيْبِ» ١/٢١٤] :

[مِنَ الرَّمَلِ]

أَنْظُرُونََا نَقْتَبِسُ مِنْ نُورِكُمْ إِنَّهُ مِنْ نُورِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

(١) تَجْهَمُ : تنكُرُ . المَعَانُ : المحلُّ .

(٢) وعجز البيت كما جاء في «ديوانه» (ص ٢٨٦) :

فَاعْلَمَنَّ هَذَا أَوْ كُنْ وَكُنْ

(٣) حديث قدسي أورده عن ابن عساكر من حديث علي المتقي الهندي في «كنز العمال» (١٥٨) و(١٧٦٩) ، وابن النجار (٢٣٥) . وفي الباب نحوه عن أنس عند ابن النجار من حديث أنس كما في «كنز العمال» (١٦٨) و(٢٣٥) .

وكان من وراء سبعة أستار حال الإنشاد ، فلما بلغ هذا البيت : أمر برفعها حتى نظر إليه ، وكانت العادة عند خلفاء (المغرب) أن لا يسمعون الإنشاد إلا من وراء الحجاب .

[ورود كلمة (أذين) في اللغة]

ورأيت بعضهم ينتقد لفظة (الأذين) من قوله في هذه القصيدة [كما في «نفتح الطيب» ٢١٤/١] :
وَأَسْقِنِيهَا قَبْلَ تَكْبِيرِ الْأَذِينِ

وقال : إنها لا توجد في كتب اللغة ولا في أشعار العرب ، ولا يحضرنا شيء منها الآن ، ولا أراه إلا وهما في انتقاده ؛ فقد استعملها المولودون بكثرة ، ومنهم أبو العلاء المعري في قوله [في «سقط الزند» ٢٧٥] : [من الوافر]

فَلَيْتَ أَذِينَ يَوْمِ الْحَشْرِ نَادَى فَأَجْهَشَتِ الرَّمَامُ إِلَى الرَّمَامِ^(١)

[تلثم الجميل بدمراً من إتلاف المهج]

وأما تلثم الرضا . . فذكرت عنده قول الناظم [في «المكبري» ٣٤٩/٢] :

خَفِ اللهُ وَاسْتُرْ ذَا الْجَمَالِ بِبُرْقِعِ فَإِنْ لُحِتَ ذَابَتْ فِي الْخُدُورِ الْعَوَاتِقُ^(٢)

[من الطويل] وإنه والله لأكبر من ذلك ، وما كان أحقه بأن يقال فيه :

خَفِ اللهُ وَاسْتُرْ ذَا الْجَمَالِ بِبُرْقِعِ جَلالٌ إِلَى فَرْطِ الْجَمَالِ عَلَيْهِمَا
مِنْ اللهِ نُورٌ فِي الدُّجْنَةِ شَارِقُ^(٣)

[من الوافر] وما أحسن قول بعضهم [كما في «البيان والتبيين» ٤٣٨/١] :

إِذَا لَبَسُوا عَمَائِمَهُمْ طَوَّوْهَا عَلَى كَرَمٍ وَإِنْ سَفَرُوا أَنْارُوا

[الابتسام في ساحات القتال والشعراء]

ثم يحتمل أن في البيت إشارة إلى أن الممدوح لا يشينه العبوس . . إذا شبت الحرب الضروس ، وهو مثل قوله [في «المكبري» ٣٨٧/٣] :

تَمُرُّ بِكَ الْأَبْطَالُ كَلْمَى هَزِيمَةً وَوَجْهَكَ وَضَاحٌ وَتَغْرُكَ بِاسِمِ^(٤)

[من المنسرح] وقوله [في «المكبري» ٢٨١/٤] :

مُبْتَسِمٌ وَالْوُجُوهُ عَابِسَةٌ سَلِمُ الْعِدَا عِنْدَهُ كَهَيْجَاهَا

(١) أجهش : خاف أو هرب . الرمام : البالي .

(٢) البرقع : نقاب للعرب ، يغطى به الوجه والجبين ، ولا يكون فيه إلا ثقبان للعينين نظرانٍ منهما . والعواتق : الجوارى اللاتي قاربن الحلم . والخدور : جمع خدر ، وهو الكفن ، والبيت الذي يستتر فيه العواتق .

(٣) الدُّجْنَةُ : الظلمة . الشارق : القمر .

(٤) كَلْمَى : جرحى . هزيمة : مهزومة .

فَلَا تَسْتَنْكِرَنَّ لَهُ ابْتِسَاماً إِذَا فَهَقَ الْمَكْرُ دَمًا وَضَاقاً^(١)

كَأَنَّهُ - بَعْدَ صِدْقِ الْقَوْمِ أَنْفُسَهُمْ بِالْيَأْسِ - تَلَمَّحُ مِنْ قُدَامِهِ الْبَشْرُ^(٢)

كَأَنَّ دَنَايِرًا عَلَى قَسَمَاتِهِمْ وَإِنْ كَانَ قَدْ شَفَّ الْوُجُوهَ لِقَاءً^(٣)

أَزْدَى فَوَارِسَ لَمْ يَكُونُوا نُهْزَةً ثُمَّ اسْتَمَرَّ كَأَنَّهُ لَمْ يَفْعَلِ^(٤)
مُتَهَلِّلاً تَبَدُّو أَسْرَةً وَجْهَهُ مِثْلَ الْحُسَامِ جَلَّتْهُ كَفُّ الصِّقْلِ^(٥)

إِذَا التَّقَتِ الْأَبْطَالُ أَبْصَرَتْ وَجْهَهُ مُضِيئاً وَأَعْنَاقُ الْكُمَاةِ خُضُوعُ

يُمْنِضِي أَسِنَّهُ وَيُسْفِرُ وَجْهَهُ فِي الرَّوْعِ عِنْدَ تَغْيِيرِ الْأَلْوَانِ
جَلَبَ الْجِيَادَ مِنَ الْعِرَاقِ عَوَابِساً قُبَّ الْبُطُونِ يُقَدِّنَ بِالْأَرْسَانِ^(٦)
حَتَّى أَغْرَنَ بِخَضْرَمَوْتَ شَوَازِباً مُفَوَّرَةً كَكَوَأَسِرِ الْعُقْبَانِ^(٧)

يَفْتَرُّ عِنْدَ افْتِرَارِ الْحَرْبِ مُبْتَسِماً إِذَا تَغَيَّرَ وَجْهَ الْفَارِسِ الْبَطْلِ

ضَحُوكٌ إِلَى الْأَبْطَالِ وَهُوَ يَرُوعُهُمْ وَلِلسَّيْفِ حَدٌّ حِينَ يَسْطُو وَرَوْتُقُ

لَا أَبْعَدُ اللَّهُ عَنِّي غَطَارِفَةً إِنْ سَأَ إِذَا نَزَلُوا جِنّاً إِذَا رَكِبُوا^(٨)

(١) فَهَقَ : امتلاً . الْمَكْرُ : مجالُ الضربِ وساحةُ القتالِ .

(٢) لِمَعَانِ الْجَسِدِ : بريقِ لونه . الْبَشْرُ : ظاهرُ الجلدِ .

(٣) الْقَسَمَاتُ : مجاري الدموعِ . شَفَّ : أهرَلَّ من شدَّةِ الهمِّ .

(٤) النُّهْزَةُ : الشيءُ المعرَّضُ لكِ كالغنيمةِ .

(٥) الصِّقْلُ : شحاذُ السيفِ وجلأؤها الذي يزيلُ عنها الصدأَ .

(٦) العَوَابِسُ : الشديدةُ الجادةُ . قُبَّ الْبُطُونِ : ضوامرُها .

(٧) الشَوَازِبُ : جمعُ شازِبٍ ، وهو الضامرُ . الْمُفَوَّرَةُ : الضامرةُ . الكاسرُ من العقبانِ : هي التي تكسرُ جناحيها وتضمُّها إذا أرادتِ السقوطَ ، وهي من أقوى

العقبانِ .

(٨) الغَطَارِفَةُ : جمعُ غطريفٍ ، وهو السيِّدُ الشريفُ السخيُّ .

ويقول ابن ميادة [في ديوانه « ٦٠ » :

[من البسيط]

الطَّيُّونَ إِذَا طَابَتْ نُفُوسُهُمْ شُوسُ الْحَوَاجِبِ وَالْأَبْصَارِ إِنْ غَضِبُوا^(١)

[من الكامل]

ويقول الفرزدق [في « طبقات فحول الشعراء » ٣٦٣/٢ :

أَحْلَامُنَا تَزِنُ الْجِبَالَ رَكَانَةً وَتَخَالُنَا جِنًّا إِذَا مَا نَغَضَبُ^(٢)

[من الكامل]

ويقول نصيب :

يَخَيُونَ بَسَّامِينَ طُوراً وَتَارَةً يَخَيُونَ عَبَّاسِينَ شُوسَ الْحَوَاجِبِ

[من الخفيف]

ويقول بكر بن النطاح :

يَتَلَقَّى النَّدَى بِوَجْهِ حَيِّي وَصُدُورَ الْقَنَا بِوَجْهِ وَقَاحِ

[المتنبي وعدم المبالاة بملاقاة الأعداء]

[من الوافر]

وقد أغارَ عليه صاحبنا ؛ لأنه يتلَقَّفُ^(٣) كلَّ ما صنعوا . . فقال [في « العكبري » ٧٨/٤ :

نُصِرُّعُهُمْ بِأَعْيُنِنَا حَيَاءً وَتَنْبُو عَن وُجُوهِهِمُ السَّهَامُ

[من الطويل]

وقال [في « العكبري » ١١٦/٤ :

حَيْثُونَ إِلَّا أَنَّهُمْ فِي نِزَالِهِمْ أَقْلُ حَيَاءٍ مِنْ شِفَارِ الصَّوَارِمِ^(٤)

[من الطويل]

وقال [في « العكبري » ٦٢/٢ :

وَلَيْسَ حَيَاءُ الْوَجْهِ لِلذَّيْبِ شِيَمَةً وَلَكِنَّهُ مِنْ شِيَمَةِ الْأَسَدِ الْوَرْدِ

[من الطويل]

وهو من قول أبي تمام [بل البحرني في « ديوانه » :

وَمَا الْكَلْبُ مَحْمُوماً وَإِنْ طَالَ عُمُرُهُ وَلَكِنَّمَا الْحُمَى عَلَى الْأَسَدِ الْوَرْدِ

غير أنه حرَّفَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ؛ لِيَسْتَرَ اخْتِلَاسَهُ عَنِ الْعِيُونَ .

[حياء وشجاعة النبي صلى الله عليه وسلم]

(وقد كان صلى الله عليه وآله وسلم أشدَّ حياءً مِنَ الْعَدْرَاءِ فِي خَدْرِهَا)^(٥) ، وهو أشجعُ النَّاسِ بِالِاتِّفَاقِ .

[الشجاعة والحياء]

[من الطويل]

وقد قالت ليلي الأَخْيَلِيَّةُ [في « ديوانها » ٨٠] :

فَتَى كَانَ أَحْيَى مِنْ فَتَاةٍ حَيَّةٍ وَأَجْرًا مِنْ لَيْثٍ بِخِفَانِ خَادِرِ^(٦)

(١) الشُّوسُ : النظرُ بمؤخِّرةِ العينِ تكبُّراً وتغيُّطاً .

(٢) الأحلامُ : المقولُ . الرِّكَانَةُ : القُلُ .

(٣) لقف : تناول بسرعة أو ابتلع .

(٤) الشفائرُ : جمع شفرة . الصوارمُ : جمع صارم ، وهو السِّيفُ القاطعُ .

(٥) أخرجه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه البخاري (٣٥٦٢) في المناقب ، ومسلم (٢٣٢٠) في الفضائل .

(٦) الخِفَانُ : مأسدةٌ قرب الكوفة . الخَادِرُ : المقيمُ في عَرَبِهِ .

ولئن لم يكن في الأمثلة الأخيرة تصريح بالتبسم في حال القتال الذي نتكلم فيه . فإنه موجودٌ فيها باللازم ؛ إذ الحياء من لازمه الابتسام ، والأسد من طبيعته الاتيحام ، فلم نخرج عن موضع الكلام .

[احذر من تبسم الليث]

ومِمَّا يتردّد بين القسمين - مع القرب من الثاني - قولٌ عنترَةَ [في «ديوانه» ٦٤] :

لَمَّا رَأَيْتُ قَدْ نَزَلْتُ أُرِيدُهُ أَبْدَى نَوَاجِذَهُ لِغَيْرِ تَبَسُّمٍ

وتسوّرَ عليه أبو تمام فقال [في «ديوانه» ٨٥/٢] :

قَدْ قَلَصْتُ شَفْتَاهُ مِنْ حَفِيزَتِهِ فَخِيلَ مِنْ شِدَّةِ التَّعْيِيسِ مُبْتَسِمًا^(١)

وأجاد - والله - الناظم في قوله [في «المكبري» ٣٦٨/٣] :

إِذَا رَأَيْتَ نُيُوبَ اللَّيْثِ بَارِزَةً فَلَا تَظُنَّنَّ أَنَّ اللَّيْثَ يَتَّبِسُّمُ

* * *

[قال أبو الطيب المتنبي في «المكبري» ١٧٠/٣] :

كَمْ مَهْمَةٍ قُذِفَ قَلْبُ الدَّلِيلِ بِهِ قَلْبُ الْمُحِبِّ ، قَضَانِي بَعْدَ مَا مَطَّلَا

[شجاعة المتنبي وثبات جأشه]

(المَهْمَةُ) الفلاة الواسعة و(القُدْفُ) البعيدة ؛ كأنها تتقاذف بمن يسلكها ، يقول : كم من فلاة بعيدة يدلني فيها رجلٌ خائفٌ قلبه كقلب المحب في الاضطراب . . قطعها بعد طول السير فيها ، ولهذا هو المراد من قوله : (قضاني بعد ما مطلاً) وهي استعارةٌ مليحة ؛ لأنَّ المَهْمَةَ بطوله . . كالغريم المماطل بالقضاء .

وفي البيت نكتة لا أظنُّ أحداً تعرّضَ لها ، وهي : أنه كثيراً ما يمتدح بالجرأة وقوة القلب ، والاستغناء بذلك عن الأدلة ، وهو محلُّ ذلك غير مُنازع ؛ ولهذا أبى أن يسير في خفارة^(٢) غير سيفه ، ولم يأخذ في ذلك لومٌ ولا تفنيدٌ ، وقال : أنا والجرار^(٣) في عنقي لا أخاف إلا الله ، فهو ثابت الجأش في تلك المهامه ، وإنما وصف الدليل بالضعف والجبن ، واضطراب القلب ، وإذا كان الدليل بهذه المثابة . . فكأنه لا شيء ، فلم تنخرق عاداته ، ولم تنخرم شهامته ، ولم يخالف قوله [في «المكبري» ١٤٢/٤-١٤٤] :

مَلُومُكُمْ مَا يَجِلُّ عَنِ الْمَلَامِ وَوَقِعُ فَعَالِهِ فَوْقَ الْكَلَامِ
ذَرَانِي وَالْفَلَاةَ بِلَا دَلِيلِ وَوَجْهِي وَالْهَجِيرَ بِلَا لِيَامِ

(١) الحفيظة : الغضب .

(٢) الخفارة : العهد والذمة أو الجوار .

(٣) الجرار : السيف القاطع .

فَأِنِّي أَسْتَرِيحُ بِذَا وَهَذَا
فَقَدْ أَرَدُ الْمِيَاهَ بِغَيْرِ هَادٍ
يُذِمُّ لِمُهَجَّتِي رَبِّي وَسَيْفِي
وَأَتَعَبُ بِالْإِنَاخَةِ وَالْمَقَامِ
سَوَى عَدِّي لَهَا بَرْقُ الْغَمَامِ^(١)
إِذَا أَحْتَاجَ الْوَحِيدُ إِلَى الذَّمَامِ^(٢)

* * *

[مِنَ الْبَسِيطِ]

قال أبو الطيب المتنبي في «العكبري» ٣/ ١٧٠ :

عَقَدْتُ بِالنَّجْمِ طَرْفِي فِي مَفَاوِزِهِ
وَحُرَّ وَجْهِي بِحَرِّ الشَّمْسِ إِذْ أَفَلَا

[لماذا سميت الصحراء مفازة؟]

(المفازُ) الفلوات المهلكة ، وسموها كذلك تفاؤلاً ، من مجاز الضد ، كما قالوا : للأعمى (البصير) ،
(الطرف) العين ، و(حُرَّ الوجه) أشرف مكان منه ، و(أَفَلَّ) غاب .

[من الممادح كثرة ركوب الليل ، واجتياز الصحراء ، وحرق الوجه من حر الشمس]

يقول : إنه يسير ليلاً ونهاراً ، ففي الليل يعقد طرفه بالنجم ، وإذا جاء النهار . نصَّبَ وجهه للشمس ، يهتدي نهاراً كما
يهتدي بالنجوم ليلاً ، وما زالت العرب تمدح بركوب الليل وكثرة الأسفار ، قال الأعشى في رثاء المنتشر : [مِنَ الْبَسِيطِ]

مُهْفَهْفٌ أَهْضَمُ الْكَشْحَيْنِ مُنْحَرِقٌ
عَنْهُ الْقَمِيصُ ، لِسَيْرِ اللَّيْلِ مُخْتَبِرٌ^(٣)

وما أثنى عليه بانخراق القميص . . إلا لطول أسفاره حتى تشققت ثيابه .

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقال ذو الرمة يصف مسافراً أغفى إغفاءة ثم انتبه سريعاً [في «ديوانه» ٣/ ١٦٩١-١٦٩٢] :

طَوَى طِيَّةً فَوْقَ الْكَرَى جَفَنَ عَيْنِهِ
قَلِيلًا كَتَحْلِيلِ الْأَلَى ثُمَّ قَلَصَتْ
عَلَى رَهَبَاتٍ مِنْ جَنَانِ الْمَحَاذِرِ
بِهِ شِيْمَةٌ رَوْعَاءُ تَقْلِيصَ طَائِرٍ^(٤)

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقال مضر بن ربيعي :

وَيَوْمٍ مِنَ الشُّعْرَى كَأَنَّ ظِبَاءَهُ
تَدَلَّتْ عَلَيْهَا الشَّمْسُ حَتَّى كَانَتْهَا
نَصَبْتُ لَهُ وَجْهِي وَكَلَّفْتُ حَمِيَهُ
وَلَيْلٍ يَقُولُ الْقَوْمُ مِنْ ظُلْمَاتِهِ
كَوَاعِبُ مَقْصُورٍ عَلَيْهَا سُتُورُهَا^(٥)
مِنَ الْحَرِّ يَزْمِي بِالسَّكِينَةِ نُورُهَا
أَفَانِينَ حُرْجُوجٍ بَطِيءٍ فُتُورُهَا^(٦)
سَوَاءً بَصِيرَاتُ الْعُيُونِ وَعُورُهَا

(١) قال ابن السكيت : إذا عدت العرب للسحاب مئة برقة . . لم تشك بأنها ماطرة قد سفت ، فتبعها على الثقة بالمطر .

(٢) يُذِمُّ : أي يعطيني الذمام ، وهو المهد والخفارة .

(٣) المهفهف : الدقيق الخصر . الأهضم الكشحين : لطيفهما .

(٤) الألى - جمع آلية - وهي اليمين . قلصت به شيمة : أي أشخصته طبيعة روعاء عن المقام . روعاء : أي رانعة .

(٥) الأبيات للأعشى في «ديوانه» (١٧٠/ ١٧١) . الشعري : كوكب نيز يطلع في شدة الحر .

(٦) الحرجوج : الريح الباردة .

كَأَنَّ لَنَا مِنْهُ بِيُوتاً حَصِينَةً
تَجَاوَزْتُهُ فِي لَيْلَةٍ مُدْلِهَمَّةٍ

مُسُوحٌ أَعَالِيهَا وَسَاجٌ كُسُورُهَا^(١)
يُنَادِي صَدَاهَا نَاقَتِي يَسْتَجِيرُهَا

وقال :

وَفَيْئَانِ بَنَيْتُ لَهَا خِبَاءً
كَأَنَّآ رَابِطُونَ بِهِ فُلُؤًا
نَقُومُهُ وَتَهْتِكُهُ عَلَيْنَا

عَلَى قَوْسَيْنِ خَفَّاقاً مَرُوحَا
شَدِيدَ النَّزْوِ قَمَّاصاً رَمُوحَا^(٢)
سُهُومٌ تَسْفَعُ الْوَجْهَ الْوَضُوحَا^(٣)

[مِنَ الْوَاغِي]

[مِنَ الْمُتَقَارِبِ]

وقالت جنوبُ ابنة العجلان ؛ ترثي أختها عمراً إذا الكلبِ [في «خزانة الأدب» ٣٠٣/٢] :

وَخَرَقِي تَجَاوَزْتَ مَجْهُوْلَةً
فَكُنْتِ النَّهَارَ بِهِ شَمْسَهُ
وَخَيْلِ سَمْتِ لِكَ فُرْسَانُهَا
وَكُلِّ قَيْلٍ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ

بَوَجْنَاءَ حَرْفٍ تَشْكِي الْكَلَالَا^(٤)
وَكَنْتِ دُجَى اللَّيْلِ فِيهِ الْهَلَالَا
فَوَلَّوْا وَلَمْ يَسْتَقْبَلُوا قِبَالَا
أَرَدْتَهُمْ مِنْكَ بَاتُوا وَجَالَا

[مِنَ الْبَسِطِ]

وقال بعضُ العربِ :

وَسَمَحَةَ الْمَشِيِّ شِمْلَالٍ ، قَطَعْتُ بِهَا
مَهَامِهَا وَحُزُونًا لَا أَنْيَسَ بِهَا

أَرْضاً يَحَارُ بِهَا الْهَادُونَ دَيْمُومَا
إِلَّا الصَّوَائِحَ وَالْأَصْدَاءَ وَالْبُومَا^(٥)

[مِنَ الْوَاغِي]

وقال الفرزدقُ [في «ديوانه» ٢٩١-٢٩٢] :

وَعَيَّرَ لَسُونَ رَاحِلَتِي وَلَسُونِي
أَقُولُ لَهَا إِذَا ضَجَّتْ وَعَضَّتْ
عَلَامَ تَلْفَتَيْنِ وَأَنْتِ تَحْتِي ؟

تَرَدِّي الْهَوَاجِرَ وَاعْتَمَامِي
بِمَوْرِكَةِ الْوَرَاكِ مَعَ الزَّمَامِ^(٦)
وَخَيْرُ النَّاسِ كُلَّهُمْ أَمَامِي

[مِنَ الْبَسِطِ]

وقال [في «ديوانه» ٢١٣/١] :

مُسْتَقْبِلِينَ رِيَّاحَ الشَّامِ تَضْرِبُنَا
عَلَى عَمَائِمِنَا تَلْقَى وَأَرْحَلِنَا

بِحَاصِبِ كَنْدِيفِ الْقُطْنِ مَثُورِ^(٧)
عَلَى زَوَاحِفَ نُزْجِيهَا مَحَاسِيرِ^(٨)

(١) السَّاجُ : ضرب عظيم من الشجر . الكسر : جانب البيت .

(٢) الْفُلُؤُ : المهرُ . الرَّمَاحُ : الذي يضربُ الحصَى برجله .

(٣) تَسْفَعُ : تُلْفَحُ وتغيَّرُ لون بشرته .

(٤) الْخَرَقُ : الأرض القفراء الواسعة . الْوَجْنَاءُ : الضخمة . الْحَرْفُ من الإبل : النجبية الماضية التي أمضتها الأسفارُ . الْكَلَالُ : الإعياءُ .

(٥) الْحُزُونُ : التلال المرتفعةُ .

(٦) الْمَوْرِكَةُ : المرفقة التي تكون عند قادمة الرجل ، يضع الراكبُ رجله عليها ؛ ليسترخ من وضع رجله في الركابِ . وَالْوَرَاكُ : ثوبٌ يُزَيَّنُ بِهِ الْمَوْرِكُ .

(٧) الْحَاصِبُ : الريحُ الشديدةُ تحملُ الحصاةَ .

(٨) الزَوَاحِفُ : النياقُ المعيبةُ . نُزْجِيهَا : نسوقُها . مَحَاسِيرُ : جمعُ محصورٍ ، وهو الكليلُ .

[مِنَ الطَّوِيلِ]

بَدَأْنَا بِهَا مِنْ سَيْفِ رَمْلِ كُهَيْلَةٍ
فَمَا بَلَغَتْ حَتَّى تَقَارَبَ حَطُّوْهَا
وَحَتَّى قَتَلْنَا الْجَهْلَ عَنْهَا وَغَوْدِرَتْ
وَحَتَّى مَشَى الْحَادِي الْبَطِيءُ يَسُوقُهَا
وَحَتَّى بَعَثْنَاهَا وَمَا فِي يَدِ لَهَا

وَفِيهَا نَشَاطٌ مِنْ مِرَاحٍ وَعَجْرَفٌ^(١)
وَبَادَتْ ذُرَاهَا وَالْمَنَاسِمُ رُغْفٌ^(٢)
إِذَا مَا أُبِيحَتْ وَالْمَدَامِعُ ذُرْفٌ
لَهَا بَخْصٌ دَامٌ وَدَائِيٌّ مُجْلَفٌ^(٣)
إِذَا حُلَّ عَنْهَا رُمَّةٌ وَهِيَ رُسْفٌ^(٤)

[مِنَ الطَّوِيلِ]

من قصيدة طويلة أغار على كثير من معانيها مروان بن أبي حفصة إذ يقول [في «ديوانه» ١٦-١٧] :

إِلَى وَاحِدِ الدُّنْيَا تَخَطَّتْ رِكَابُنَا
كَأَنَّ دَلِيلَ الْقَوْمِ بَيْنَ سُهْوِبِهَا
بَدَأْنَا عَلَيْهَا وَهِيَ ذَاتُ عَجَارِفِ
فَمَا بَلَغَتْ صَنْعَاءَ حَتَّى تَبَدَّلَتْ
إِلَى بَابٍ مَعْنٍ يَنْتَهِي كُلُّ رَاغِبٍ
جَرَى سَابِقاً مَعْنُ بِنُ زَائِدَةَ الَّذِي
مُحَالِفٌ صَوْلَاتٍ تُمِيتُ وَنَائِلٌ

تَنَائِفَ فِيمَا بَيْنَهَا الرِّيحُ تَلْغَبُ^(٥)
طَرِيدُ دَمٍ مِنْ حَشِيَةِ الْمَوْتِ يَهْرُبُ
تَقَاذِفٌ كَبِيراً فِي الْبُرَى حِينَ تُجَذِبُ^(٦)
حُلُوماً وَقَدْ كَانَتْ مِنَ الْجَهْلِ تَشْغَبُ
يُرْجِي النَّدَى أَوْ خَائِفٍ يَتَرَقَّبُ
بِهِ يَفْخَرُ الْحَيَّانُ بِكُرٍّ وَتَغْلِبُ
يَرِيشُ فَمَا يَنْفَكُ يُرْجَى وَيُزْهَبُ^(٧)

وإنما استوفيتها لعدوبتها وإن خرج بعضها عن الموضوع ، وقوله : - (كَأَنَّ دَلِيلَ الْقَوْمِ) إِلَى آخِرِ الْبَيْتِ - يناسب بيت الناظم الذي قبل هذا .

[مِنَ الْوَافِرِ]

وقال لبيد [في «ديوانه» ٧٦] :

عُدَا فِرَّةً تَقْمَصُ بِالرُّدَافِي

تَخَوَّنَهَا نُزُولِي وَارْتِحَالِي^(٨)

[مِنَ الْكَامِلِ]

وقال المؤمل بن أميل [في «البيان والتبيين» ٤٣٢/١] :

كَانَتْ تَقْيِيدُ حِينَ تَنْزِلُ مَنْزِلًا
وَالْقَوْمُ كَالْعِيدَانِ يَفْضُلُ بَعْضُهُمْ

فَالْيَوْمَ صَارَ لَهَا الْكَلَالُ قِيُودًا
بَعْضًا كَذَاكَ يَفُوقُ عُوْدُ عُوْدًا

- (١) الشيف : الساحل . كهيلة : موضع . مراح وعجرف : الأشر والاختيال .
- (٢) ذراها : أعالي أسنمتها . المناسم : جمع منسم ، وهو خف البعير . رُغْفٌ : ترعف دماً .
- (٣) البحص : لحم الخف . الدأي : فقار الظهر . مجلف : مقشّر .
- (٤) الرمة : القطعة من الحبل . رُسْفٌ : مشية المقيد .
- (٥) تَلْغَبُ : تتعب .
- (٦) العجارف : جمع عجرفة ، وهي السرعة في المشي . البرى : جمع برية ، وهي الصحراء .
- (٧) راش : أعطى .
- (٨) العُدَا فِرَّةٌ : الضخمة القوية . تَقْمَصُ : تنزوي به . الرُدَافِي : راكبها الذي يرتد خلف الراكب ، وإنما ذلك من نشاطها ومرحها . تَخَوَّنَهَا : تنقصها وذهب بلحمها .

وقال الأخطل [في «ديوانه» ٢٦٧] :

[من الطويل]

عَرَائِكُهَا مِمَّا تَحُلُّ وَتَرْحَلُ^(١) فَمَا زَالَ عَنْهَا السَّيْرُ حَتَّى تَوَاضَعَتْ

[من الطويل]

وقال جرير [في «ديوانه»] :

ظَلَلْنَا بِمُسْتَنْ الْحَرُورِ كَأَنَّا
أَعْرُ مِنْ الْبُلُقِ الْعِتَاقِ يَشْفُهُ
وَوَظَلَّتْ قَرَايِرُ الْفَلَاةِ مُنَاخَةَ
أَنخَنَ لِتَغْوِيرٍ وَقَدْ وَقَدَ الْحَصَى
لَدَى فَرَسٍ مُسْتَقْبِلِ الرِّيحِ صَائِمِ^(٢)
أَذَى الْبُقِّ إِلَّا مَا اخْتَمَى بِالْقَوَائِمِ^(٣)
بِأَكْوَارِهَا مَعْكُوسَةً بِالْحَزَائِمِ
وَذَابَ لُعَابُ الشَّمْسِ فَوْقَ الْجَمَاجِمِ

[من الكامل]

وقال الطائي [أبو تمام في «ديوانه»] :

وَأَبُوهُمْ سَامٌ أَبُوهُمْ حَامٌ^(٤) سَفَعَ الدُّوْبُ وَجُوهُهُمْ فَكَأَنَّهُمْ

[من الكامل]

وقال [في «ديوانه»] :

مَا أَيْضَ وَجْهَ الْمَرْءِ فِي طَلَبِ الْعَلَا
حَتَّى يُسَوِّدَ وَجْهَهُ فِي الْيَدِ

[من الطويل]

وقال [في «ديوانه»] :

سَلِي هَلْ عَمَزْتُ الْفَقْرَ وَهُوَ سَبَاسِبُ
وَعَرَبْتُ حَتَّى لَمْ أَجِدْ ذِكْرَ مَشْرِقِ
وَعَادَزْتُ رَبْعِي مِنْ رِكَابِي سَبَاسِبَا^(٥)
وَشَرَقْتُ حَتَّى قَدْ نَسِيتُ الْمَغَارِبَا

[من الطويل]

فأغار عليه الناظم في قوله [في «العكبري» ١٨٧/١] :

فَشَرَّقَ حَتَّى لَيْسَ لِلشَّرْقِ مَشْرِقُ
وَعَرَّبَ حَتَّى لَيْسَ لِلْغَرْبِ مَغْرِبُ

[من الطويل]

وقال الأخطل يمدح بشر بن مروان [في «ديوانه» ٢٢٣] :

وَمُسْتَقْبِلِ لَفْحِ الْحَرُورِ بِحَاجَةِ
إِلَيْكُمْ أَبَا مَرْوَانَ شُدَّتْ رَوَاحِلُهُ

[الشجاع لا يثني عزمه عن الخروج النساء الجميلات]

[من الطويل]

وقال الحطيئة فيما لا يخرج عنه يمدح سعيد بن العاص [في «ديوانه» ٨٣] :

إِذَا هَمَّ بِالْأَعْدَاءِ لَمْ يُثْنِ عَزْمَهُ
كَعَابٍ عَلَيْهَا لَوْلُوٌّ وَشُنُوفُ^(٦)

- (١) عرائكها : جمع عريكة ، وهو السنام .
- (٢) مستن الحرور : مشتد حرها . صائم : أي قائم على قوائمه الأربع من غير أن يطعم شيئا .
- (٣) البلق : السوداء في البياض .
- (٤) سفعت الشمس وجهه : لفحته لفحا شديداً وغيرت لون بشرته وسودته . الدؤوب : المبالغة في السير . سام وحام : ابنا سيدنا نوح عليه السلام ، اللذان تفرغ من نسلهما البشر ، ففرغ من حام العرق الأسود ، ومن سام العرق الأبيض .
- (٥) السبب : الففر والمفازة .
- (٦) الكعاب : جمع كاعب ، وهي التي بدا نهدها . الشنوف : جمع شنف ، وهو القزط .

حَصَانٌ لَهَا فِي الْبَيْتِ زَيٌّْ وَبَهْجَةٌ وَمَشْيٌ كَمَا تَمْشِي الْقَطَاةُ قُطُوفٌ^(١)
وَلَوْ شَاءَ وَارَى الشَّمْسَ مِنْ دُونِ وَجْهِهِ حِجَابٌ وَمَطْوِيُّ السَّرَاةِ مَيِّفٌ^(٢)

[مناشدة عاتكة بنت يزيد لعبد الملك بن مروان في عدم الخروج لمصعب بن الزبير]

ولمّا اعترَمَ عبدُ الملكِ بنُ مروانَ لقتالِ مصعبِ بنِ الزبيرِ . . ناشدتهُ عاتِكةُ بنتُ يزيدِ بنِ معاويةَ - وكانتُ زوجتهَ - أنْ لا يخرجَ بنفسِهِ ، وأمسكتُ بثوبِهِ فلمْ يُجِبْ ، فبكتُ عندَ ذلكَ ، وبكتُ حشْمُها وخدمُها لبكائها ، فقالَ : قاتلَ اللهُ ابنَ أبي جمعةَ ، فلكاننما نظرَ إلينا في قولِهِ :

إِذَا مَا أَرَادَ الْغَزْوَ لَمْ تَثْنِ هَمَّهُ حَصَانٌ عَلَيْهَا عِقْدُ دُرٍّ يَزِينُهَا
نَهْتُهُ فَلَمَّا لَمْ تَرَ النَّهْيَ عَاقَهُ بَكَتُ فَبَكَى مِمَّا شَجَّاهَا قَطِينُهَا^(٣)

غيرَ أنَّه يؤخذُ عليه ما أخذَ على قيسِ بنِ الحَظيمِ في قولِهِ [في «ديوانه» ٧٠] :

وَجِيدٌ كَجِيدِ الرَّثْمِ صَافٍ يَزِينُهُ تَوَقُّدٌ يَأْقُوتُ وَفَضْلٌ زُمُرْدٌ^(٤)
كَأَنَّ الثُّرَيَّا فَوْقَ ثَغْرَةِ نَحْرِهَا تَوَقُّدٌ فِي الظَّلْمَاءِ أَيُّ تَوَقُّدِ

[مَنْ يُزَيِّنُ مِنْ !؟]

وإنما الأليقُ بالمقامِ ما كانَ من نوعِ ما تمثَّلَ به خالدُ بنُ عبدِ اللهِ العنبريُّ لعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ لمَّا وليَ الخلافةَ ، وهو قولُ الشاعرِ [في «البيان والتبيين» ١١٢/١] :

وَإِذَا اللَّدْرُ زَانَ حُسْنًا وَجُوهٍ كَانِ لِلدَّرِّ حُسْنٌ وَجْهَكَ زِينًا

وقد يُنَوَّلُ لهما بأنَّ الحليَّ كما يزدانُ بالجمالِ ، كذلكَ يزينُهُ ، وقد قالَ ابنُ الروميِّ [في «ديوانه» ٧٨٢/٢] :

أَنْتِ زَنْتِ الْقَلَائِدَ الزُّهْرَ قَدَمَا ضِعْفَ مَا زَانَتِ الْقَلَائِدُ جِيدَكَ

وبه ينتفي المقالُ ، وينحلُّ الإشكالُ .

[الرباب بنت مصعب بن الزبير تفضح اللؤلؤ بجمالها]

ويُذكرُ [في «المنتظم» (حتى سنة ٢٥٧) ١٧٦/٧] : أنَّ سَكينةَ ابنةَ الحسينِ كانتَ لها ابنةٌ مِنْ مصعبِ بنِ الزبيرِ ، قد سمَّتها على اسمِ أمِّها بالربابِ ، وكانتُ تلبسُها اللؤلؤَ وتقولُ : إِنَّمَا أَلْبَسُهَا إِتْيَاهُ لَتَفْضَحَهُ بِجَمَالِهَا .

[من الثناء بالضرب في الأرض : إيلاف قريش]

ويدخلُ في الثناءِ بالضربِ في الأرضِ إيلافُ قريشِ ، فقد أهلكَ اللهُ أصحابَ الفيلِ ؛ لينتظمَ لقريشِ إيلافُهُم رحلةَ الشتاءِ والصيفِ ، وليزيدَ احترامُهُم وتهيُّبُهُم في نفوسِ العربِ ، فيمتارونَ في رحلتِهِم آمِنينَ مطمئنِّينَ ، بينما غيرُهُم يُحْتَطَفُونَ ، ويُغارُ عليهم وهم آمنونَ ، ولا سيَّما بعدَ مهلكِ أصحابِ الفيلِ ، وفي هذهِ السورةِ مِنَ الشَّرَفِ لآلِ عبدِ

(١) الحصانُ : الشريفةُ العفيفةُ . القُطُوفُ : البُطءُ في المشي .

(٢) مطويُّ السَّرَاةِ : مدعجُ الأعلى .

(٣) القصةُ في «طبقات فحول الشعراء» (٥٤٣/٢) .

(٤) الرثمُ : ظبيٌّ خالصُ البياضِ .

مَنَافٍ مَا يَنْحَدِرُ عَنْهُ السَّيْلُ ، وَلَا يَرْتَقِي إِلَيْهِ الطَّيْرُ ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ أَخَذُوا الْعَصَمَ مِنَ الْمُلُوكِ لِتَسْهِيلِ السَّبِيلِ ، فَالْإِيْلَافُ إِيْلَافُهُمْ عَلَى الْخُصُوصِ ، لَا إِيْلَافُ قَرِيْشٍ إِلَّا بِطَرِيقِ التَّبَعِيَّةِ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ جَلَّ شَأْنُهُ شَرَّفَ قَدْرَهُمْ فَجَعَلَهُمُ الْكَلَّلَ ، وَسَائِرُ قَرِيْشٍ ضَمَائِمٌ إِلَيْهِمْ ، عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « الْحَجُّ عَرَفَةُ » (١) .

وَبَيْتُ النَّاطِمِ الَّذِي نَحْوُضُ فِيهِ نَاطِرٌ إِلَى قَوْلِ حُمَيْدٍ :

[مِنَ الْبَسِيطِ]

تَيْهَاءُ لَا يَتَخَطَّاهَا الدَّلِيلُ بِهَا إِلَّا وَنَاطِرُهُ بِالنَّجْمِ مَعْقُودٌ

[المتنبي وكثرة مدحه في الضرب في الأرض]

وَمَا أَكْثَرَ مَا يَذْكُرُ النَّاطِمُ الرَّحْلَةَ وَالتَّجْوُلَ فِي الْبِلَادِ ، وَيَمْدَحُ بِهِ ، فَلَا نَقْدَرُ أَنْ نَحْصِيَ مَا لَهُ فِي ذَلِكَ ، وَلَكِنْ نَذْكُرُ بَعْضَهُ ، فَمِنْهُ قَوْلُهُ يَمْدَحُ سَيْفَ الدَّوْلَةِ [فِي « الْعُكْبَرِيِّ » ٣/ ٣٤٤] :

[مِنَ الْخَفِيفِ]

كُلَّ يَوْمٍ لَكَ اِحْتِمَالٌ جَدِيدٌ وَمَسِيرٌ لِلْمَجْدِ فِيهِ مُقَامٌ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقوله [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ١٠٧] :

يَقُولُونَ لِي : مَا أَنْتَ ؟ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ وَمَا تَبْتَعِي ؟ مَا أَبْتَعِي جَلَّ أَنْ يُسْمَى

[مِنَ الْكَامِلِ]

وقوله [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ١٩٧] :

وَقَطَعْتُ فِي الدُّنْيَا الْفَلَاحَ وَرَكَابِي فِيهَا وَوَقْتِي الضَّحَى وَالْمَوْهِنَا (٢)

[مِنَ الْوَافِرِ]

وقوله [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ١٤٢] :

أَعْرَضُ لِلرَّمَّاحِ الضَّمِّ نَخْرِي وَأَسْرِي فِي ظَلَامِ اللَّيْلِ وَخَدِي وَأَنْصِبُ حُرَّ وَجْهِي لِلْهَجِيرِ كَأَنِّي مِنْهُ فِي قَمَرٍ مُبِيرِ

[مِنَ الْخَفِيفِ]

وقوله [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ١٥١] :

صَحِبْتَنِي عَلَى الْفَلَاةِ فَتَاءُ عَادَةُ اللَّوْنِ عِنْدَهَا التَّبْدِيلُ (٣)

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقوله [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٣٢٦] :

تَوَهَّمَهُ الْأَعْدَاءُ سَوْرَةَ مُتْرَفٍ تَذَكَّرُهُ الْيَدَاءُ ظِلَّ السُّرَادِقِ (٤)

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقوله [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ١٥١] :

بِأَيِّ بِلَادٍ لَمْ أَجْرَ ذَوَائِي وَإَيِّ مَكَانٍ لَمْ تَطَّأهُ رَكَابِي كَأَنِّي عَجِيبٌ فِي عَيْونِ الْعَجَائِبِ إِلْسِي لَعْمَرِي قَصْدُ كُلِّ عَجِيْبَةٍ

(١) أخرجه عن عبد الرحمن بن يعمر الدبلي أبو داود (١٩٤٩) ، والترمذي (٨٨٩) ، والنسائي (٣٠٤٤) ، وابن ماجه (٣٠١٥) ، والحاكم في « المستدرک » (٦٣٥/١) ، وابن خزيمة في « صحيحه » (٢٥٧/٤) ، والبيهقي (١٥٢/٥) بألفاظ متقاربة ، قال النواوي في « المجموع » (٩٩/٨) :

صحيح .

(٢) الموهن : آخر الليل .

(٣) الفتاة : الشمس ، وجعلها فتاة ؛ لأن الزمان لا يؤثر فيها .

(٤) السَّوْرَةُ : الوبئة . المترف : المتنعم . السرادق : ما يكون حول الفسطاط .

وقوله [في «العُكْبَرِيَّ» ١٤ / ١٩٢ و ٢٠٠] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَعَيْرُ بُدَايِ لِلغَوَانِي رَمِيَّةٌ
وَمَا كُنْتُ لَوْلَا أَنْتِ إِلَّا مُهَاجِرًا

وَعَيْرُ فُوَادِي لِلغَوَانِي رَمِيَّةٌ
وَمَا كُنْتُ لَوْلَا أَنْتِ إِلَّا مُهَاجِرًا

وقوله [في «العُكْبَرِيَّ» ٢٠ / ٢٣] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

عَلَيْقِي مَرَاعِيهِ وَزَادِي رُبْدُهُ^(٢)

يُكَلِّفُنِي التَّهْجِيرَ فِي كُلِّ مَهْمَةٍ

وقوله [في «العُكْبَرِيَّ» ٤٤ / ٥٢-٥١] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

أَخَفَّ عَلَى المَرْكُوبِ مِنْ نَفْسِي جِزْمِي^(٣)
إِذَا نَظَرْتُ عَيْنَايَ شَاءَ هُمَا عِلْمِي^(٤)
كَأَنِّي بَنَى الإسْكَندَرُ السَّدَّ مِنْ عَزْمِي^(٥)

بِرَانِي الشَّرِي بَزِي المُدَى فَرَدَدَنِي
وَأَبْصَرَ مِنْ زَرْقَاءِ جَوْ لَأْتِنِي
كَأَنِّي دَحَوْتُ الأَرْضَ مِنْ خُبْرَةٍ بِهَا

وقوله [في «العُكْبَرِيَّ» ٤٤ / ١٣٤] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

عَنِ الصَّيْمِ مَرْمِيًا بِهَا كُلُّ مَخْرِمٍ^(٦)

سَجِيَّةٌ نَفْسٍ لَا تَزَالُ مُلِيحَةً

وقوله [في «العُكْبَرِيَّ» ٣٢ / ٣٦٩ و ٣٧٢] :

[مِنَ البَسيطِ]

حَتَّى تَعَجَّبَ مِنِّي القُورُ وَالْأَكَمُ^(٧)
وَالسَّيْفُ وَالرُّمْحُ وَالقِرْطَاسُ وَالقَلَمُ
لَا تَسْتَقِلُّ بِهَا الوَخَادَةُ الرَّسْمُ^(٨)

صَحِبْتُ فِي الفَلَوَاتِ الوَحْشَ مُفْرِدًا
فَالخَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبِيدَاءُ تَعْرِفُنِي
أَرَى النُّوَى يَفْتَضِصِنِي كُلَّ مَرْحَلَةٍ

وقوله [في «العُكْبَرِيَّ» ٣١ / ٢٢٤-٢٢٥] :

[مِنَ الوَافِرِ]

قُودِي وَالغُرَيْرِيَّ الجِلالَا^(٩)
وَلَا أَرْمَعْتُ عَنْ أَرْضِ زَوَالَا
أَوْجُوهَهَا جُنُوبًا أَوْ شَمَالَا

أَلْفَتْ تَرَحُّلِي وَجَعَلْتُ أَرْضِي
فَلَا حَاوَلْتُ فِي أَرْضٍ مَقَامًا
عَلَى قَلْبِي كَأَنَّ الرِّيحَ تَخْتِي

(١) رميَّةٌ : هي الطريدة التي ترمى . والمعنى : اني لست غزلاً زيراً ، ولا أحب الخمر . فبناني لا يركبها الزجاج ؛ لاني لا أحمل كأس الخمر بيدي .

(٢) الرُبْدُ : النعام الذي خالط سوادها بياض . والمعنى : أن قلبي يكلفني السير في كل هاجرة ، وفي كل فلاة بعيدة ، لا لفرسي عليق إلا نبتها ولا زاد لي إلا النعام أصيدها فأكلها .

(٣) المُدَى : جمع مذبة ، وهي السكين . جزمي : جسمي .

(٤) جَوْ : قصبية اليمامة . زرقاء : اسم امرأة من أهل جَوْ ، حديدة البصر ، كانت تدركُ بصرها الشيءَ البعيد ، فضربت العربُ بها المثل .

(٥) دَحَوْتُ : بسطتُ . الإسْكَندَرُ : هو ذو القرنين .

(٦) المَلِيحَةُ : المشفقة من أن تضام ، والتي أصابها الخوف . المَخْرِمُ : الطريق في الجبل .

(٧) القُورُ : جمع قارة ، وهي الأكمة .

(٨) النُّوَى : البعدُ . الوَخْدُ والرَّسْمُ : ضربان من السير .

(٩) قُودِي : جمع قَتْدٍ ، وهو خشبُ الرِّحْلِ . والغُرَيْرِيُّ : فحلٌّ كان في الجاهليَّةِ تنسبُ إليه كرامُ الإبلِ . والجِلالُ : ما يوضعُ على الدابةِ . والمعنى : أنا كثيرُ الأسفارِ ، ومن شدَّةِ ما أسافرُ فكانتُ الأرضُ بالنسبةِ لي خشباتُ الرِّحْلِ ، وكأنَّ فرسي غطاءً ذلكَ الرِّحْلِ . والله أعلم .

وَلِي كَيْدٌ مِنْ رَأْيِ حِمَّتِهَا النَّوَى
أَخُوهِمْ رَحَّالَةٌ لَا تَزَالُ بِي
وَمَنْ كَانَ عَزْمِي بَيْنَ جَنْبَيْهِ حَتَّى

فَتُرَكِّبُنِي مِنْ عَزْمِهَا الْمَرْكَبَ الْوَعْرَا
نَوَى تَقَطَّعَ الْبَيْدَاءَ أَوْ أَقْطَعَ الْعُمْرَا
وَحَيَّلَ طُولَ الْأَرْضِ فِي عَيْنِهِ شَبْرَا

وقوله [في «العُكْبَرِيُّ» ٤/ ١٥٥-١٥٦] :

حَتَّامٌ نَحْنُ نَسَارِي النَّجْمِ فِي الظُّلَمِ
تُسَوِّدُ الشَّمْسُ مِنَّا بِيضَ أَوْجِهِنَا
طَرَدْتُ مِنْ مِضْرٍ أَيْدِيهَا بِأَرْجُلِهَا
تُبْرِي لَهْنَ نَعَامِ الدَّوِّ مُسْرَجَةً

وَمَا سُرَاهُ عَلَيَّ خُفٌّ وَلَا قَدَمٌ
وَلَا تُسَوِّدُ بِيضَ الْعُذْرِ وَاللَّمَمِ (١)
حَتَّى مَرَقَنَ بِنَا مِنْ جَوْشٍ وَالْعَلَمِ (٢)
يُعَارِضُ الْجُدْلَ الْمُرْخَاةَ بِاللُّجْمِ (٣)

[المفاضلة بين بيت المتنبي وبيت للطغرائي]

وقد سُئِلْتُ مرَّةً عَنِ الْبَيْتِ الْأَخِيرِ ، وَعَنْ قَوْلِ الطُّغْرَائِيِّ [وهو من قصيدته المعروفة بلامية العجم ، في « وفيات الأعيان » ٢/ ١٨٧] :

فَادْرَأْ بِهَا فِي نُحُورِ الْبَيْدِ جَافِلَةً
مُعَارِضَاتٍ مَثَانِي اللَّجْمِ بِالْجُدْلِ

وقيل لي : أَيُّهُمَا أَفْضَلُ ؟ فَقُلْتُ : شَبَّهَ النَّاطِمُ خَيْلَهُ بِنَعَامِ الدَّوِّ ، وَزَعَمَ أَنَّهَا انْبَرَتْ تَعَارِضُ أَرْمَةِ الْإِبِلِ بِأَعْتِثِهَا ،
(وَالْجُدْلُ) فِي الْبَيْتَيْنِ جَمْعُ (جَدِيلٍ) وَهُوَ الزَّمَامُ .

وَالطُّغْرَائِيُّ جَعَلَ الْإِبِلَ مُعَارِضَةً وَجَرَّدَ مِنْ نَفْسِهِ شَخْصًا قَالَ لَهُ : اذْرَأْ بِهَا - يَعْنِي الْعَيْسَ الْمَعْلُومَةَ مِنَ الْمَقَامِ ، بِقَطْعِ
النَّظَرِ عَمَّا قَبْلَ الْبَيْتِ فَإِنِّي لَا أَذْكَرُهُ - وَهِيَ جَافِلَةٌ فِي نُحُورِ الْبَيْدِ ، وَدَعَّهَا تَعَارِضُ بِأَرْمَتِهَا مَثَانِي لُجْمِ الْخَيْلِ فَهَمَا سَوَاءٌ
فِي أَصْلِ الْمَعْنَى .

وَكُلٌّ مِنَ الْخَيْلِ وَالْإِبِلِ يَصْلُحُ لِأَن يَكُونَ الْأَصْلَ فِي وَصْفِ السَّيْرِ بِالسَّرْعَةِ وَالْجِدِّ ؛ لِأَنَّ الْخَيْلَ مَعْرُوفَةٌ بِشِدَّةِ عَدْوِهَا ،
وَالْإِبِلَ مَعْرُوفَةٌ بِأَنَّهَا أَصْبَرُ مِنْهَا عَلَى قَطْعِ الْمَسَافَاتِ الْبَعِيدَةِ ، فَكَلَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَخْصَرَ كَلَامًا أَحَدَهُمَا بِنَوْعٍ مِنَ الْقَلْبِ ،
وَالخُرُوجِ عَنْ مَقْتَضَى الظَّاهِرِ . . رَدَّنِي الْآخِرُ إِلَيْهِ ، غَيْرَ أَنَّ فِي بَيْتِ النَّاطِمِ عَلَى التَّشْبِيهِ الْبَلِيغِ لِلْخَيْلِ بِالنَّعَامِ ثَلَاثَةَ
أَشْيَاءَ :

أَحَدُهَا : أَنَّ الْمَبَارَاةَ وَالْمُعَارِضَةَ شَيْءٌ وَاحِدٌ .

ثَانِيهَا : أَنَّ لَفْظَةَ (الْمُرْخَاةُ) لَا تَخْلُو عَنِ الرِّخَاوَةِ .

ثَالِثُهَا : أَنَّ الْبَيْتَ مُتَعَلِّقٌ بِمَا قَبْلَهُ غَيْرٌ مُسْتَقِلٌّ بِنَفْسِهِ ، وَلَفْظَةُ (لَهْنٌ) فِيهِ لَا تُعْرَفُ مِنَ الْمَقَامِ ، فَلَيْسَتْ مِثْلَ لَفْظَةِ (بِهَا)
فِي بَيْتِ الطُّغْرَائِيِّ ، كَمَا قَرَّرْنَاهُ .

(١) الْعُدْرُ : جَمْعُ عَذَارٍ ، وَالْأَصْلُ عُدْرٌ وَسَكَنَ الدَّالَ ضَرْوَرَةً . وَاللَّمَمُ : جَمْعُ لَمَةٍ ، وَهِيَ الشَّعْرَةُ الَّتِي يَلْمُ بِهَا الْمَنْكَبُ .
(٢) جَوْشٌ وَالْعَلَمُ : مَوْضِعَانِ ، وَهُمَا جِلَانٌ . وَمَرَقَنَ : شَبَّهَهَا بِالسَّهْمِ ؛ لِلسَّرْعَةِ سِيرِهَا فَاسْتَعَارَ لَهَا الْمَرْوَقَ .
(٣) تُبْرِي : تَعَارِضُ . الدَّوُّ : الْفَلَاةُ الْمَسْتَوِيَّةُ . وَأَرَادَ بِنَعَامِ الدَّوِّ الْخَيْلَ ، شَبَّهَهَا بِالنَّعَامِ لِسُرْعَتِهَا وَطُولِ أَعْنَاقِهَا .

وَيَمْتازُ بَيْتُ الطُّغْرَائِيِّ بِأُمُورٍ :

أحدها : قيامه بذاته .

ثانيها : التجريدُ وهو حسنٌ .

ثالثها : (نَحْوُ البَيْدِ) فَإِنَّهُ بَدِيعٌ .

رابعها : (المِثَالِي) فَإِنَّهَا مِنْ فَرَائِدِ الْأَلْفَاظِ .

خامسها : ما يَحْتَمِلُ مِنَ الاستِعارةِ البليغةِ في لفظِ (اذْرَأْ) ؛ إذ لا مانعَ أَنْ يستعارَ فيها مَسِيلُ الأَرْضِ البعيدةِ للعيسِ المتراميةِ في المراميِ السحيقةِ ، وعلى كُلِّ حالٍ . . فِكَلَا البَيْتَيْنِ تَرْكيبُهُ جَزَلٌ ، ومعناهُ ضخمٌ ، غيرَ أَنَّ بَيْتَ الطُّغْرَائِيِّ أَبْلَغُ وَأَفْخَمُ وَأَمْلَأُ لِلْفَمِ ، وللناظِمِ فضيلةُ السبقِ ، واللهُ أَعْلَمُ .

وأما قولُهُ : (تَسْوَدُ الشَّمْسُ مَنَا بِيضَ أَوْجُهِنَا . . . إِلَى آخِرِهِ) فَقَدْ عَكَسَ فِيهِ بَعْضَ قَوْلِ أَبِي عِبَادَةَ [في « ديوانه »
[مِنَ البَسيطِ] : [١٧٥٩/٣]

رَدَّ الهَجِيرُ لِحَاهُم بَعْدَ شُعْلَتِهَا سُوْدًا فَعَادُوا شَبَابًا بَعْدَ مَا اكْتَهَلُوا

[أفضل مراكب العرب الإبل وسبب ذلك]

وعلى ذكرِ الإبلِ نقولُ : إِنَّهَا أَفْضَلُ مَرَاكِبِ العَرَبِ ، وَإِنَّمَا اخْتاروها لِكثرتها ، وصبرها على التعبِ والعطشِ ، ومنهُ قَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ « مَعَهَا سِقَاؤُهَا »^(١) ، وَلِهَدَايَتِهَا إِلَى الطَّرِيقِ ، وَلِأَنَّ عُنُقَهَا سَلَّمَ إِلَيْهَا ، وَلِكَمَالِ انْقِيَادِهَا ، وَحَسَنِ تَسْخِيرِهَا ، حَتَّى إِنْ الصَّبِيِّ الصَّغِيرِ يَأْخُذُ بِزِمَامِهَا ، فَيَذْهَبُ بِهَا حَيْثُ شَاءَ فَتَتَّبِعُهُ ، قَالَ الحَظِيئَةُ [في « ديوانه » ٦٠] :

[مِنَ الطَّويلِ]

وَتَشْرَبُ بِالقَعْبِ الصَّغِيرِ وَإِنْ تَقْدُ بِمِشْفَرِهَا يَوْمًا إِلَى الرَّحْلِ تَنْقِدُ^(٢)

[وصف ابنة الحُسِّ للإبل]

قَالَتْ ابْنَةُ الحُسِّ [في « المستطرف » ٢/٢١٤] : مَا خَلَقَ اللهُ خَيْرًا مِنَ الإِبِلِ ، إِنْ حَمَلَتْ أَثْقَلَتْ ، وَإِنْ سَارَتْ أَبْعَدَتْ ، وَإِنْ حُلِبَتْ أَرَوَتْ ، وَإِنْ نُجِرَتْ أَشْبَعَتْ .

[من عجائب الإبل]

وَمِنْ عَجَائِبِهَا : التَّأَثُّرُ بِالْحَدَاءِ ، إِلَى حَدِّ أَنْهَا تَهْلِكُ نَفْسَهَا بِطَيِّ المِهَامِهِ الشَّاسِعَةِ ، فِي المَدَّةِ القَرِيبَةِ ، بِالأَحْمَالِ الثَّقِيلَةِ .

[عجبية أخرة في هدايتها الطريق]

وَمِنْ هَدَايَتِهَا : مَا حَكَاهُ الإِمَامُ الرَّازِيُّ قَالَ [في « تفسيره » ٣١/١٥٧] :

كُنْتُ مَعَ جَمَاعَةٍ فَضَلَّلْنَا الطَّرِيقَ ، فَقَدَّمُوا جَمَلًا وَتَبِعُوهُ ، فَكَانَ ذَلِكَ الجَمَلُ يَنْعَطِفُ مِنْ تَلٍّ إِلَى تَلٍّ ، وَمِنْ جَانِبٍ إِلَى

(١) أخرجه عن زيد بن خالد الجهني البخاري (٩١) في العلم ، ومسلم (١٧٢٢) ، وأبو داود (١٧٠٤) في اللقطة .

(٢) القَعْبُ : القَدَحُ . المِشْفَرُ : شَفَةُ البَعِيرِ الغليظة .

جانِبٍ ، حتَّى وصلَ بنا إلى الطريقِ بعدَ زمانٍ طويلٍ ، وقد كدنا نَهلكُ لولاهُ ، فتعجَّبنا من قوَّةِ تخيُّلهِ وانحفاظِ الطريقِ له من مرَّةٍ ، بما فيها من المعاطفِ .

[ذكرها في القرآن الكريم وعند العرب]

وَمِنْ أَوْبَارِهَا تُتَخَذُ الْأَكْسِيَةُ الْفَاخِرَةُ ، وحسبُك ما أشارَ إليه اللهُ مِنْ عَجَائِبِهَا فِي مِثْلِ قَوْلِهِ : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿ [الغاشية : ١٧-٢٠] ولولا كثرةُ عجائبِها . . لَمَا قرنَها اللهُ جَلَّ شأنُه بهذهِ المخلوقاتِ العظيمةِ ، فوجهُ التناسبِ بينَ هذهِ المعطوفاتِ . . كثرةُ الآياتِ ، إلى ما للعربِ بها من دوامِ الملايساتِ ؛ إذ العربيُّ لا يزالُ في سفرٍ ، أو انتجاعِ مطرٍ ، وحيثُ لا يرى إلاَّ جملةً ، والسماةِ من فوقه ، والأرضَ من تحتهِ ، والجبالَ حوَالَيْهِ ، وفي كلِّ مِنْهَا الآياتُ الواضحةُ ، والبراهينُ الراجحةُ ، وكم للعربِ فيها من أشعارٍ .

وحسبُك أن كعبَ بنَ زهيرٍ استغرقَ طائفةً من قصيدتهِ - التي أدركَ بها خيرَ الدارينِ - في وصفِ ناقتهِ ، فلا أحبَّ إليهم منها ، ولذا كانتَ أذكَرَ مِنَ الخيلِ في أخبارِهِم - مع كثرةِ الخيلِ لديهم أيضاً ، واعتنائِهِم بها ومعرفَتِهِم بأحوالِها - وقد أفردَ جميعُ ذلكَ بالتأليفِ ، وسبقَ في غيرِ هذا المجلسِ تناقضُ الناظمِ ، وأدعاؤه الفروسيةَ بكثرةِ ، واعترافه بالرجلةِ ذاتِ المرآتِ ، وبالبيتِ الذي نتكلَّمُ فيه ذكرْتُ قولَ البوصيريِّ :

يَتَّقِي حُرًّا وَجِهِي الشَّمْسِ وَالْبُرِّ دَ وَقَدْ عَزَّ مِنْ لَظَى الْإِنْقَاءِ

[تعرض النبي صلى الله عليه وسلم للشمس يوم عرفة]

وَأَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : تعرَّضَ للشمسِ بـ(عرفة) ، عامَ حجةِ الوداعِ ، ولم يثبتْ أَنَّهُ استظلَّ بِهَا مَعَ شِدَّةِ الحرِّ ، وطولِ الوقتِ .

وقد حجَّ بعضهم فأرادَ أن يتعرَّضَ للشمسِ - على ضعفِهِ وكِبَرِ سِنِّهِ - فقالَ لَهُ أصحابُهُ : لو أخذتَ بالتوسعةِ . . فقالَ : [من الطويل]

ضَحَيْتُ لَهُ كَيْ أَسْتَظِلَّ بِظِلِّهِ إِذَا الظِّلُّ أَضْحَى فِي الْقِيَامَةِ قَالِصًا^(١)
فَوَا أَسْفَا إِنْ كَانَ سَعِيكَ بَاطِلًا
وَوَاحَسَرْتَا إِنْ كَانَ حَجُّكَ نَاقِصًا

* * *

[من البسيط]

[قال أبو الطيب المتنبي في « العكبري » ٣ / ١٧١] :

أَنْكَحْتُ ضُمَّ حَصَاهَا خُفَّ يَغْمَلَةٌ نَعْشَمَرْتُ بِي إِلَيْكَ السَّهْلَ وَالْجَبَلَ

[شرح المطلع]

(أَنْكَحْتُ) كنايةٌ عن شدَّةِ الإيطاءِ كما تنكحُ المرأةُ . (الضَّمُّ) الصَّلابُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، والضميرُ في (حَصَاهَا) عائِدٌ

(١) ضحى : خرجَ للشمسِ وبرزَ لها . قلصَ الظلُّ : انقبضَ ونقصَ .

إلى المفازة . (تَعَشَّمَرَتْ) تَعَسَّفَتْ ، يقولُ : أَوْطَأْتُ خُفَّ يَعْملُتي - أي : ناقتي القويّة - حصا تلك المفازة ،
وتفحمت بي ناقتي إليك الحزن والسهل .

[من عادة العرب ذكر ما يلاقون في أسفارهم لمددوحيهم]

ومن عادة العرب أن يذكروا في أشعارهم ما يلاقون من وعثاء السفر ، ونكد الطريق ، ليجب حقهم على الممدوحين
وتعظم منتهم عليهم ، فقد أخرج ابن سعد [في « طبقاته » ١/ ٣٥٠] : عن هشام بن محمد عن عمرو بن مهاجر الكندي
قال : قدم من (حضرموت) على النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كُلبُ بن أسد فقال حين لاقاه : [من البسيط]

مِنْ وَشَرِّ بَرَاهُوتَ تَهْوِي بِي عُدَا فِرَّةُ
إِلَيْكَ يَا خَيْرَ مَنْ يَخْفَى وَيَتَّعِلُ^(١)
شَهْرَيْنِ أَعْمَلْتُهَا نَصًّا عَلَيَّ وَجَلِي
أَرْجُو بِذَلِكَ ثَوَابَ اللَّهِ يَا رَجُلُ

وقال مروان ابن أبي حفصة للمهدي [في « ديوانه » ٩٤] :

قَصَرْنَا إِلَيْكَ النُّصْفَ مِنْ صَلَوَاتِنَا
مَسِيرَةَ شَهْرٍ بَعْدَ شَهْرٍ نَوَاصِلُهُ
ولا يُحصى كثرة ما في كلامهم من مثله ، فهو أظهر من أن يُستظهر عليه بالشواهد والأمثال ؛ لأنه كله من هذا القبيل .

[ورود ابن نباتة على ابن العميد]

وقال ابن خلكان [في « وفيات الأعيان » ٥/ ١٠٦٤] : ورد ابن نباتة السعدي على ابن العميد في (الري) ، فمدحه
بقصيدة يقول فيها :

بَرَحُ اشْتِيَاقِي وَادِّكَارِ
وَلَهَيْبُ أَنْفَاسِ حِرَارِ
وَمَدَامِعُ عَبْرَاتِهَا
تَرْفَضُ عَنْ نَوْمِ مُطَارِ^(٢)
لِلَّهِ قَلْبِي مَا يُجِرُّ
مِنَ الْهُمُومِ وَمَا يُوَارِي
لَقَدْ انْقَضَى سُكْرُ الشَّبَا
بِ وَمَا انْقَضَى وَصْبُ الْخُمَارِ^(٣)
وَكَبِرْتُ عَنْ وَضَلِ الصَّغَارِ
وَمَا سَلَوْتُ عَنِ الصَّغَارِ
سَقِيًّا لِتَغْلِيْسِي إِلَيَّ
بَابِ الرُّصَافَةِ وَابْتِكَارِي
أَيَّامَ أَخْطَرُ فِي الصَّبَا
نَشْوَانَ مَسْخُوبِ الْإِزَارِ
حَجَّي إِلَيَّ حَجْرَ الصَّارَا
ةٍ وَفِي حَدَائِقِهَا اعْتِمَارِي^(٤)
وَمَوَاطِنُ اللَّذَاتِ أَوْ
طَانِي وَدَارُ اللَّهِ وَدَارِي

منها :

وَإِذَا اسْتَهَّـلَ ابْنُ الْعَمِيدِ تَضَاءَلَتْ دِيْمُ الْقَطَارِ^(٥)

(١) الوشز : ما علا وارتفع من الأرض . برهوت : اسم بئر في (حضرموت) . المدافرة : الناقة العظيمة الشديدة ، الوثيقة الخطو .

(٢) ارفض الدمع : سال وتتابع سيلانه . مطار : منفي .

(٣) الوصب : الوجع والمرض . الخمار : الم الخمر وصداعها وأذاها .

(٤) الصرأة : نهر بـ (العراق) .

(٥) استهل : تبيّن . ديم : جمع ديمة ، وهي المطر الذي ليس فيه رعد ولا برق ، وأقله ثلث النهار أو ثلث الليل . القطار : المطر .

خِرْزُقٌ صَفَفْتَ أَخْلَاقَهُ صَفَوِ السَّيِّبِكَ مِنَ النَّضَارِ (١)
وَكَلَّانٌ نَشَرَ حَدِيثَهُ نَشَرَ الْخُزَامِيَّ وَالْعَرَارِ (٢)

[تأخر الصلة عن ابن نباتة وتبينه لوجوب حقه على ابن العميد والسجال بينهما]

فتأخّرت صلته عنه ، فشفع القصيدة بأخرى ، وأتبعها برقعة ، فلم يزد ابن العميد إلا إهمالاً واطراحاً ، فتوسّل إليّ أن دَخَلَ عليه في مجلسٍ حفلَ بأربابِ الدّولةِ ، وأعيانِ الديوانِ ، فوقفَ وقالَ :

إني لزمك لزوم الظلِّ ، وذللتُ لك ذلَّ النعلِ ، وأكلتُ النوى المحرّقةَ ؛ انتظاراً لصلتك ، وما بي من الحرمانِ ، ولكن شمانة الأعداءِ ، وهم قومٌ نصّحوني فأغششتهم ، وصدّقوني فاتهمتهم ، فبأيّ وجهٍ ألقاهم ؟ ولم أحصل من مديحٍ ، بعد مديحٍ ، ونثرٍ بعد نظمٍ إلا على الندمِ المؤلمِ ، والبأسِ المسقمِ !!

فحارَ رُشدُ ابنِ العميدِ ، ولم يدرِ ما يقولُ ، ثم رفعَ رأسه وقالَ : إنّ الوقتَ يضيقُ عنكَ في الاستزادةِ ، وعني في الإطالةِ المعذرةُ ، وإذا تواهبتنا ما دفعنا إليه . . استأنفنا ما نتحامدُ عليه .

فقال ابنُ نباتةَ : هذه نفثةٌ مصدورٍ من زمانٍ ، وفضلةٌ لسانِ خرسٍ منذُ دهرٍ ، والمطلُّ لؤمٌ .

فاستشاط ابنُ العميدِ وقالَ : والله ما أستوجبُ هذا العتبَ من أحدٍ ، ولست وليّ نعمتي فأحتملك ، ولا صنيعتي فأغفني عنك ، وبعضُ ما قرّرتَه في مسامعي ينغصُ مرّةَ الحليمِ ، ويبدّدُ صبرَ الوقورِ ، هذا : وما استقدمتُك بكتابٍ ، ولا استدعيْتُك برسولٍ ، ولا سألتُك مدحي ، ولا كلفتك تقريظي .

فقال ابنُ نباتةَ : صدقتَ ، ولكنك جلستَ في صدرِ ديوانِكَ بأبْهتِكَ ، وقلتَ : لا ينازعني خَلْقٌ في السياسةِ ، ولا يخاطبُني أحدٌ إلا بالرياسةِ ، فإني زعيمُ الحضرةِ ، وكاتبُ رُكنِ الدولةِ ، فكأنك دعوتني بلسانِ الحالِ ، فثارَ ابنُ العميدِ مغضباً ، وتقوَّضَ المجلسُ ، وماجَ الناسُ .

وخرجَ ابنُ نباتةَ يقولُ : والله لَسَفُّ الترابِ ، والمشْيُ على الجمرِ ، أهونُ من هذا ، فلعنَ اللهُ الأَدبَ ، إذا كانَ بائعُهُ مهيناً ، ومُشْتَرِيهِ مُمّاكساً ، ولَمّا سَكَنَ غَيْظُ ابنِ العميدِ ، وثابَ إليه حِلْمُهُ . . التَمَسَهُ مِنَ الغَدِ ليكرِمَهُ ، فكأنما غاصَ بينَ سمعِ الأرضِ وبصرِها ، فكانتَ حَسرةً في قلبِ ابنِ العميدِ ، حتّى ماتَ .

قالَ ابنُ خَلْكَانَ [في «وفيات الأعيان» ١٠٧/٥] : ثمَّ وجدتُ صورةَ المجلسِ لغيرِ ابنِ نباتةَ ، وكشفتُ «ديوانه» فما وجدتُ القصيدةَ ، وإنّما وجدتُها بعدُ في كتابِ لأبي حَيَّانَ التوحيدِيّ معزوةً لأبي محمّدِ عبدِ الرزاقِ بنِ الحسنِ ، المعروفِ بابنِ السبابِ البغداديّ اللغويّ المنطقيّ الشاعرِ ، ووجدتُ هذه المخاطبةَ لشاعرٍ من أهلِ الكرخِ يعرفُ بمَمُويه ، وإليّ هنا انتهى كلامُ ابنِ خَلْكَانَ بنوعٍ مِنَ الاختصارِ .

[قدوم بشار على خالد بن برمك]

وبمناسبة قولِ ابنِ العميدِ : ما استقدمتُك بكتابٍ . . إلخ ذكرتُ [ما روي في «الأغاني» ١٩٩/٣] : أنّ بشارَ بنَ بُرْدِ قَدَمَ

(١) الخِرْزُقُ : السيد السخي الكريم . السيبك بمعنى المسبك ، وهو المصبوب من الذهب . النَّضَارُ : الذهبُ .

(٢) الْخُزَامِيُّ وَالْعَرَارِيُّ : نباتان طَيِّبانِ الرَّائِحَةِ .

على خالد بن برمك بفارس ، فأشده قوله [في «ديوانه» ٤٩٤٧]

[من الطويل]

أَخَالِدُ لَمْ أَهْبِطْ عَلَيْكَ بِذِمَّةٍ سِوَى أَنْبِي عَافٍ وَأَنْتَ جَوَادُ^(١)
أَخَالِدُ إِنَّ الْأَجْرَ وَالْحَمْدَ حَاجَتِي فَأَيُّهُمَا تَأْتِي فَأَنْتَ عِمَادُ
فَإِنْ تُعْطِنِي أَفْرِغْ عَلَيْكَ مَدَائِحِي وَإِنْ تَابَ لَمْ تُضْرَبْ عَلَيَّ سِدَادُ^(٢)
رِكَابِي عَلَى حَرْفٍ وَقَلْبِي مُشَيِّعٌ وَمَالِي بِأَرْضِ الْبَاخِلِينَ بِبِلَادُ^(٣)
إِذَا أَنْكَرْتَنِي بَلَدَةٌ أَوْ نَكْرَتْهَا خَرَجْتُ مَعَ الْبَازِي عَلَيَّ سَوَادُ^(٤)

[إكرام خالد لبشار]

فدعا خالد بأربعة آلاف ، في أربعة أكياس : ووضع واحداً عن يمينه ، وآخر عن شماله ، والثالث بين يديه ، والرابع من خلفه ، وقال : هل استقلَّ العمادُ يا أبا معاذٍ ؟ قال : إي والله .

[ابن زريق البغدادي يقصد بعض الملوك طالباً معروفه]

وذكر غير واحدٍ [منهم ابن السكبي في «طبقاته» ١/٣١١] : أَنَّ ابْنَ زُرَيْقِ الْبَغْدَادِيِّ الْكَاتِبَ أَقْشَعَ^(٥) بِهِ وَطَنُهُ ، وَحَدَّثْتُهُ نَفْسَهُ ، وَنَاجَتْهُ أَمَالُهُ ، فَانْتَجَعَ^(٦) بَعْضَ الْمُلُوكِ فِي أَرْضِ نَائِيَةٍ ، وَلَمَّا وَرَدَهُ . . . امْتَدَحَهُ بِقَصِيدَةٍ ، فَأَعْطَاهُ شَيْئاً يَسِيراً ؛ لِتَعَلَّلَ بِهِ رِيْشَمَا يَتَفَرَّغُ لِإِكْرَامِهِ وَمَكَافَأَتِهِ ، فَظَنَّهُ آخِرَ سَهَامِ الْكِنَانَةِ ، فَانْكَسَرَتْ نَفْسُهُ وَقَالَ :

[خيبة أمله وموته كمداً]

تَكَبَّدْتُ الْمَشَاقَّ ، وَقَطَعْتُ الصَّعَابَ ، وَخَضْتُ الْبَحَارَ ، وَتَرَامْتُ بِي الْقَفَارُ إِلَى هَذَا الْأَمِيرِ ، ثُمَّ لَمْ يُعْطِنِي إِلَّا هَذَا التَّرَّ الحَقِيرَ ، وَلِزِمْتُهُ الْعَلَّةُ حَتَّى مَاتَ ، فَاتَّبَعْتُهُ الْأَمِيرُ لِشَأْنِهِ ، وَاسْتَدْعَاهُ فَوَجَدُوا بَابَ بَيْتِهِ مَغْلَقاً مِنْ دَاخِلٍ ، فَانْتَحَمُوهُ . . . فَأَلْفَوْهُ مَيْتاً وَتَحْتَ رَأْسِهِ الْقَصِيدَةُ الْمُسْتَهْلَّةُ بِقَوْلِهِ :

[من البسيط]

لَا تَعْذِلِيهِ فَإِنَّ الْعَذْلَ يُوَلِّعُهُ قَدْ قُلْتِ حَقًّا وَلَكِنْ لَيْسَ يَسْمَعُهُ

فَتَحَرَّكَ لَهَا الْأَمِيرُ ، وَاهْتَزَّ ، وَفَاضَتْ عَبْرَتُهُ ، وَقَالَ : وَدِدْتُ أَنْ لَوْ كَانَ حَيًّا . . . فَأُشَاطِرُهُ مُلْكِي ، ثُمَّ طَالَعَ أَهْلَهُ بِحَالِهِ ، وَبَعَثَ لَهُمْ بِأَرْبَعَةِ آلَافِ دِينَارٍ .

[سكينة بنت الحسين تفاضل بين الشعراء]

وَقَدَّمَ الْفَرَزْدَقُ عَلَى سَكِينَةَ بِنْتِ الْحُسَيْنِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، فَقَالَتْ لَهُ [كما في «المتنظم» (حتى سنة ٢٥٧) ٧/١٧٦] : مَنْ أَسْعَرُ النَّاسِ ؟ قَالَ : أَنَا ، قَالَتْ : كَذِبْتَ ، أَسْعَرُ مِنْكَ الَّذِي يَقُولُ [جرير في «ديوانه»] :

[من الوافر]

بِنَفْسِي مَنْ تَجَبَّبَهُ عَزِيزٌ عَلَيَّ وَمَنْ زِيَارَتُهُ لِمَامُ^(٧)

(١) العافي : طالبُ المعروفِ والرزقِ .

(٢) السدأُ : ما يُسَدُّ به فمُ القارورةِ .

(٣) الحرفُ : الناقةُ الضامرةُ . مشيِّعٌ : شجاعٌ .

(٤) البازي : الصقرُ ، وهو أكبرُ الطيورِ خروجاً . السوادُ : المقصودُ به سوادُ الليلِ .

(٥) القشعُ : ييوسُ الجلدِ ، والمرادُ به الفاقةُ التي أصابتهُ في وطنِهِ .

(٦) انتجعَ : أتى إنساناً يطلبُ معروفتهُ .

(٧) لِمَامٌ : أي في الأحايينِ .

وَمَنْ أَمْسَى وَأَصْبَحَ لَا أَرَاهُ وَيَطْرُقُنِي إِذَا هَجَعَ النَّيَامُ

ثمَّ عادَ مِنَ الغَدِ ، فقالتُ : مَنْ أشعُرُ الناسِ ؟ قالَ : أنا ، قالتُ : كذبتُ ، أشعُرُ منك الذي يقولُ [الأحوص في « وفيات الأعيان » ٢٠ / ٢٩٧] :

يَا دَارَ عَاتِكَةَ الَّتِي أَنْعَزَلُ حَذَرَ العِدَا وَبِهِ الفُؤَادُ مُوَكَّلُ

فقالَ : يا ابنةَ رسولِ الله . . إنَّ لي حقاً بإقبالي عليكِ مِنْ (مَكَّةَ) ، فلمَ تسمعي شِعْري ، ولمَ تزيديني على التَّكْذِيبِ ، معَ أَنِّي لأخافُ لما أصابني أنْ أموتَ ، فإذا مِتُّ . . فحاجتي إليكِ . . تُكفِّني في هذهِ الشَّبابِ - وأشارَ إلى جاريةٍ لَهَا - فقالتُ : هيَ لكِ ، وضمتَ إليها كسوةً وجائزةً .

وموضعُ الشاهدِ مِنْ هذا . . قولهُ : إنَّ لي حقاً عليكِ إلى آخره ، وصدقَ في ذلكَ ، فإنَّ مَنْ علَّقَ رجاءَهُ بإنسانٍ ، وقطعَ إليه السهوبَ ، واجتازَ المهالكِ يختبُطُ الدُّجَى ، ويعتلجُ صدرُهُ اليأسُ والرجاءُ . . لجديرٌ أنْ تعجَّلَ أوبتَهُ ، وتُجزَلَ مثوبتُهُ .

[قبول النبي صلى الله عليه وسلم الشعر والأئمة الأعلام]

وَمِنْ هديه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : قبولُ الشَّعرِ ، وإِجْزَالُ الثَّوَابِ عَلَيْهِ ، وحديثُهُ معَ كعبِ مشهورٌ ، فلقد حقنَ دمه ، وكساهُ بردتَهُ ، وأكرمَهُ - كما في رواية - بمئةٍ مِنَ الإِبِلِ ، واقتفاهُ الخلفاءُ ، والأمرأُ ، وآلُ البيْتِ ، وغيرُهُمْ مِنَ الناسِ .

[الفاروق يمنع الحطيئة من قول الشعر]

غيرَ أنْ ابنَ الخَطَّابِ منعَ الهجاءَ ، فاضطرَّ الحُطَيْئَةُ أنْ يقولَ :

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الَّذِي أَمَسَتْ لَهُ
وَمَلِيكُهَا فَجَبَاتُهَا عَنْ أَمْرِهِ
أَشْكُو إِلَيْكَ بِلَيْتِي مِنْ صِيبَةٍ
وَبُعِثْتَ لِلشُّعْرَاءِ مَبْعَثَ دَاحِسٍ
وَمَنْعَتِي شَتْمَ البَخِيلِ فَلَمْ يَخَفْ
بُصْرِي وَغَزَّةَ سَهْلَهَا وَالْأَجْرِعُ^(١)
تُعْطِي النَّوَالَ لِمَنْ تَشَاءُ وَتَمْنَعُ
لَا يَشْبَعُونَ وَأُمَّهُمْ لَا تَشْبَعُ
أَوْ كَالْبَسُوسِ بِرَدْعِهَا تَتَكَوُّعُ^(٢)
ضُرِّي وَأَصْبَحَ آمِنًا لَا يَفْزَعُ

[عمر بن عبد العزيز والأحوص]

ولمَّا توقَّفَ ابنُ عبدِ العزیزِ عَن إعطاءِ الشعراءِ . . ذَكَرَهُ الأحوصُ ، وأشارَ إلى ما سبقَ من روايةِ أَنَّهُ عليه السلامُ أعطى كعباً مئةَ ناقةٍ ، بقوله [في « المنتظم » ٧ / ٤١] :

وَقَبْلَكَ مَا أَعْطَى هُنَيْدَةَ جُلَّةً
رَسُولُ الإِلَهِ المُسْتَضَاءُ بِنُورِهِ
عَلَى الشَّعْرِ كَعْبًا مِنْ سَدِيسٍ وَيَازِلِ^(٣)
عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالصُّحَى وَالْأَصَائِلِ

وهذهِ قد تغايرُ ما سبقَ من ثَوَاءِ الأحوصِ بالسجنِ طيلةَ خلافةِ ابنِ عبدِ العزیزِ .

(١) الأَرْضُ الجَرَعَةُ : هي الأَرْضُ الطيبةُ المنبتِ لا وعرثةٌ فيها .

(٢) الرَدْعُ : تَلطِيطُ الدَّمِ . تَتَكَوُّعٌ : تَمشي على كوعها من شِدَّةِ الحَرِّ وهي مَشِيَةُ الكَلْبِ ، والكوعُ طرفُ الزنْدِ ممَّا يلي الرَسْعَ .

(٣) السَدِيسُ مِنَ الإِبِلِ : ما دَخَلَ فِي الثَّامِنَةِ ، وَالبَازِلُ : ما دَخَلَ فِي التَّاسِعَةِ وَبعدها .

[سبب اتصال مروان بن أبي حفصة بالعباسيين]

وسبب اتصال مروان ابن أبي حفصة بخلفاء بني العباس . . . أَنَّ المنصورَ سَمِعَ شعراً له في بعضِ الرؤساءِ يذكرُ فيه وراثَةَ بني العباسِ ، فاستحضرهُ ، فوافاهُ في علَّةِ الموتِ ، فقالَ له الربيعُ : الحَقُّ بالمهديِّ ، فقدَمَ عليه ، وقد مدحه بأربعِ قصائدَ : مطلعُ الأولى [في «ديوانه» ٩٤] :

صَحَا بَعْدَ جُهْدٍ فَاسْتَرَاحَتْ عَوَاذِلُهُ وَأَقْصَرَ عَنْهُ حِينَ أَقْصَرَ بَاطِلُهُ

والثانية [في «ديوانه» ١٠٤] :

طَافَ الْخَيَالُ فَحَيَّهِ بِسَلَامٍ أَنَّى أَلَمَّ وَلَيْسَ حِينَ لِمَامٍ

والثالثة [في «ديوانه» ٧٠] :

إِعْصِ الْهُوَى وَتَعَزَّ عَن سُعْدَاكَ فَلِمِثْلُ حَلِيمِكَ عَن هَوَاكَ نَهَاكَ

والرابعة [في «ديوانه» ٣٩] :

مَرَى الْعَيْنَ شَوْقُ حَالِ دُونَ التَّجَلُّدِ فَفَاضَتْ بِأَسْرَابٍ مِنَ الدَّمْعِ حُشْدٌ^(١)

فأعطاه ثلاثين ألفَ درهمٍ ، فانصرفَ إلى (اليمامة) ، ثمَّ عادَ بعدَ مدَّةٍ واتصلَ بـيعقوبَ بنِ داوودَ ، فاتفقَ أن غضِبَ المهديُّ على يعقوبَ ، واعتقلهُ ، فتوسَّلَ مروانُ بالحسنِ الحاجبِ ، فتحمَّلَ عنه قصيدتينِ ، في إحداهما استعطافٌ للمهديِّ ، وفي الأخرى هجاءٌ ليعقوبَ ، ووضعَهما في يدِ المهديِّ ، فاستحسنَهما وضربَ له موعداً يومَ الخميسِ ، فجاءَ . . . فإذا وجوهُ بني العباسِ يدخلونَ ، فلما تتأمَّ المجلسُ . . . دُعي ، فدخلَ فسلمَ ، فردَّ السلامَ ، وقالَ : إنَّما حبسك عن الدخولِ انقطاعك إلى الفاسقِ ابنِ داوودَ ، فافتتحَ النشيدَ بما قالَ في يعقوبَ : ثمَّ أنشدهُ قوله فيه :

طَرَقَتْكَ زَائِرَةٌ فَحَيَّ خَيَالَهَا

فاهتزَّ المهديُّ ، وتحركَ ، وقالَ : جزاك اللهُ خيراً ، فقالَ مروانُ : اشهدوا ، وهذا واللهِ الشرفُ ، يقولُ لي أميرُ المؤمنينَ : جزاك اللهُ خيراً ، ثمَّ أنشدهُ قصيدته التي يقولُ في أولها :

أَعَادَكَ مِنْ ذِكْرِ الْأَحْيَةِ عَائِدٌ

وقد سبقَتْ طائفةٌ منها في غيرِ هذا المجلسِ ، وهي من مختارِ الكلامِ ، فلما انتهى إلى قوله منها :

كَأَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّداً لِرَأْفَتِهِ بِالنَّاسِ لِلنَّاسِ وَالِدُ
عَلَى أَنْ مَنْ قَدْ خَالَفَ الْحَقَّ مِنْهُمْ سَقَتْهُ بِهِ الْمَوْتَ الْخُتُوفُ الرَّوَاصِدُ
يَزِينُ بَنِي سَاقِي الْحَجِيجِ خَلِيفَةً عَلَى وَجْهِهِ نُورٌ مِنَ الْحَقِّ شَاهِدُ

. . . أشارَ عليه فأمسك ، فقالَ المهديُّ : يا بني العباسِ ، هذا شاعرُكم المنقطعُ إليكم ، المعادي فيكم ، ففرضَ له أهلُ بيته أربعين ألفَ درهمٍ في كلِّ سنةٍ ، سوى صلواته هوَ وبرِّه .

(١) مرى : استدرَّ . حُشْدٌ : غزيرةٌ .

وأقول: إِنَّ اللَّهَ غَارَ لَمْرَوَانَ ابْنِ أَبِي حَفْصَةَ فِي وَفَاةِ الْمَنْصُورِ قَبْلَ اجْتِمَاعِهِ بِهِ ، وَإِلَّا . . . لِحَرَمَةِ أَوْ قَلَلِ عَطَاءَهُ ، فَكَانَتْ سُنَّةً مِنْ بَعْدِهِ .

فقد شخصَ المؤملَ [كما في «الأغاني» ٢٢/٢٤٨]: إلى المهديِّ بـ(الريِّ) فامتدحه ، فأمرَ له بعشرين ألفَ درهمٍ فرفعَ الخبرُ إلى المنصورِ فاستقدمه فقال: أتيتَ غلاماً غراً فخدعتهُ ، فقالَ المؤملُ: بل غلاماً كريماً ، مدحتهُ فأكرمني ، فقالَ: ما قلتَ فيه؟ فأشدهُ:

[مِن الوافر]

هُوَ الْمَهْدِيُّ إِلَّا أَنْ فِيهِ	مَشَابِهَ صُورَةِ الْقَمَرِ الْمُتَبَيَّرِ
تَشَابِهَ ذَا وَذَا فَهُمَا إِذَا مَا	أَنَارًا يُشْكِلَانِ عَلَى الْبَصِيرِ
فَهَذَا فِي الظُّلَامِ سِرَاجٌ لَيْلِ	وَهَذَا بِالنَّهَارِ سِرَاجٌ نُورِ
وَلَكِنْ فَضَّلَ الرَّحْمَانُ هَذَا	عَلَى ذَا بِالْمَنَابِرِ وَالسَّرِيرِ
لَقَدْ مَلَكَ الْمُلُوكَ أَبُوكَ حَتَّى	تَرَاهُمْ بَيْنَ كَابِ أَوْ أُسِيرِ ^(١)
وَجِئْتَ وَرَاءَهُ تَجْرِي حَيْثَا	لِغَايَاتِ الْكَمَالِ بِلا فُتُورِ
فَقَالَ النَّاسُ: مَا هَذَا إِلَّا	بِمَنْزِلَةِ الْخَلِيقِ مِنَ الْجَدِيرِ
وإن بَلَغَ الصَّغِيرُ مَدَى كَبِيرِ	فَقَدْ خَلِقَ الصَّغِيرُ مِنَ الْكَبِيرِ

[استكثار المنصور للإجازة وتنقيصه منها]

فقال المنصورُ: ما أحسنَ ما قلتَ! إلا أَنَّهُ لا يساوي ما أخذتَ ، فحُذِ مِنْهُ يا ربيعُ ستَّةَ عشرَ ألفاً ، وسوَّغهُ الباقي ، فلَمَّا ماتَ المنصورُ واستخلفَ المهديُّ . . . رفعَ المؤملُ قصَّتَهُ إلى والي المظالمِ ، فعرضها على المهديِّ ، فضحكَ حتَّى استلقى ، وقالَ: هلذهِ مظلمتُهُ؟! ردُّوا عليه مالَهُ ، وزيدوهُ عشرين ألفاً .

وقد عرفتَ من فريضةِ المهديِّ لمروانَ ورسمِهِ بردُّ ما رزاهُ أبوهُ على المؤملِ . . . أَنَّهُم يرونَ ذلكَ حقاً لازماً ، وديناً ثابتاً .

[الجود بعدي]

ويروي [في «ديوان الحماسة» ٢/٢٨٨]: أَنَّ ابْنَ الْخَيْطِ دَخَلَ عَلَى الْمَهْدِيِّ فَمَدَحَهُ ، فَأَمَرَ لَهُ بِخَمْسِينَ أَلْفَ دَرَاهِمٍ ، فَلَمَّا قَبَضَهَا . . . فَرَّقَهَا عَلَى النَّاسِ ، وَأَنْشَأَ يَقُولُ:

[مِن الطُّول]

لَمَسْتُ بِكَفِّي كَفَّهُ أَبْتَغِي الْغِنَى	وَلَمْ أَدْرَ أَنَّ الْجُودَ مِنْ كَفِّهِ يُعْدي
فَلَا أَنَا مِنْهُ مَا أَقَادَ أَوْلُو الْغِنَى	أَفَدْتُ وَأَعْدَانِي فَفَرَّقْتُ مَا عِنْدِي ^(٢)

فَأغَارَ عَلَيْهِ الْبُحْتَرِيُّ إِلَّا أَنَّهُ أَحْسَنَ الْاِتِّبَاعَ ، وَذَلِكَ حَيْثُ يَقُولُ [في «ديوانه» ٤/٢٢٢٧]:

[مِن الكامل]

مَلَأْتُ يَدَاهُ يَدِي وَشَرَّدَ جُودُهُ	بُخْلِي فَأَفْقَرَنِي كَمَا أَغْنَانِي
--	--

(١) الكامي: من الكبوة وهي العثرة ، ورجلٌ كابي اللون: عليه غبرة ، وفرسٌ كابي: الذي إذا أعيأ قام فلم يتحرك من الإعياء .

(٢) أفاد: استغاد .

[وكذلك الحلم]

وقد سبقه أبو تمام إلى أخذه ، غير أنه غير الموضوع ، وذلك حيث يقول [في «ديوانه» ٢٩١/١] : [من الطويل]
وَلَوْ لَمْ يَزْعَمِي عَنْكَ غَيْرُكَ وَازِعٌ لَأَعْدَيْتَنِي بِالْحِلْمِ إِنَّ الْعُلَا تَعْدِي^(١)

[أصل المعنى]

وأصل المعنى قوله عليه الصلاة والسلام : « الْمَرْءُ مِنْ جَلِيبِهِ »^(٢) .

وقد يدخل فيه قول الناظم [في «المكبري» ١٨٢/١] : [من الطويل]

إِذَا لَمْ تَنْطُ بِبِي ضَيْعَةً أَوْ وِلَايَةً فَجُودُكَ يَكْسُونِي وَعَدْوَاكَ تَسْلِبُ^(٣)
إن كانت الرواية (وَعَدْوَاكَ) كما ذكرت ، أو ما يشبهها وإلا خرج عنه .

[فطانة شاعر مع المهدي]

ويروى : أنه دخل على المهدي (المدينة) أربعة ، وهم : المغيرة بن عبد الرحمن المخزومي ، وابن أخت الأحوص ، وأبو السائب ، وابن لؤلؤ الرطب ، وكلهم أنشده شعراً - لا أذكر منه شيئاً - فأجاز الثلاثة الأول : بعشرة آلاف دينار ووعده الرابع ، فسايره . . حتى مرّا بدار ، فقال : لِمَنْ هذه الدار ؟ قال : للأحوص الذي يقول [في «ديوانه» ١٥٢] :

يَا دَارَ عَايَكَةَ التِّي أَنْعَزَلُ حَذَرَ الْعِدَا وَبِهِ الْفُؤَادُ مُوَكَّلُ
وَأَرَاكَ تَفْعَلُ مَا تَقُولُ وَبَعْضُهُمْ مَذِقُ اللِّسَانِ يَقُولُ مَا لَا يَفْعَلُ

فقال له : لا جرم ، لأعجلن جازتكَ ، فقد أبلغت ، ودفع له عشرة آلاف دينار ، وأمر الربيع أن يدفع له مثلها ، فقبضها في يوم واحد .

[الأثبت أن القصة لأبي بكر الهذلي مع المنصور]

والأثبت أن الذي تمثّل بهذا البيت . . إنمّا هو أبو بكر الهذلي للمنصور ، وكان أمر الربيع أن يوجّه إليه بجمارية لها أدب وظرف وهيئة ومعرفة ، تسليه عن امرأة له ماتت ، وكانت أمّ ولده والقيّمة على أمره ، فوجد عليها ، ولمّا تأخرت وحجّ معه . . تمثّل به ، فقال المنصور : وفي الدنيا من يعدّ ولا ينجز ، ويقول ولا يفعل ، قال : نعم ، قال أمير المؤمنين للربيع : أعطه ما وعدناه ، وضاعف له ما وعدته به .

وقد اختلفت الروايات في حديث هذا البيت اختلافاً كثيراً ، وروي على ألوان شتى ، ولا مانع من تعدّد الوقائع .

[جود معن بن زائدة]

وذكر الخطيب في « تاريخه » [٢٣٦/١٣] : عن حاجب معن بن زائدة قال : بينما أنا على رأسه . . إذا هو براكب

(١) يزهنى : يكفني .

(٢) لم نجده بهذا اللفظ وهو بمعنى ما أخرجه عن أبي هريرة الهندي في « كنز العمال » (٢٤٧٣٣) ونسبه لمالك وأحمد وابن أبي الدنيا في كتاب « الإخوان » والحاكم : « المرء على دين خليله . . . » .

(٣) في « العكبري » : (وَشَغْلُكَ) بدل (وَعَدْوَاكَ) .

يوضع ، فقال معنٌ : ما أحسبُ الرجلَ يريدُ غيري ، فلا تحجبوه ، فلما مثلَ بينَ يديه . . أنشدَ : [مِنَ المنسرحِ]

أُضْلِحَكَ اللهُ قَلَّ مَا بِيَدِي فَمَا أُطِيقُ الْعِيَالَ إِذْ كَثُرُوا
أَلَحَّ دَهْرٌ رَمَى بِكُلِّكِلِهِ فَأَرْسَلُونِي إِلَيْكَ وَانْتَظَرُوا

فقال معنٌ - وأخذته الأريحيةُ - : أما والله لأعجلنَّ أوبتك ، ثمَّ قالَ : يا غلامُ ، ناقتي الفلانيَّةُ وألفُ دينارٍ ، فدفعها إليه وهو لا يعرفه .

[لا نعلمُ مركوباً غيرَ هذا]

وقدمَ عليه مرَّةً أعرابيٌّ ، فقالَ له [في « قرى الضيف » ٢٢٨/٣] : قصدتُكَ مِن بعيدٍ ، فاحمِلني أَيْها الأميرُ ، فأمرَ له بناقةٍ وفرسٍ وبغلٍ وحمارٍ وجاريةٍ ، وقالَ : لو علمتُ مركوباً غيرَها . . لحملتُكَ عليه .

[وكذلك لا نعلمُ لباساً غيرَ هذا]

ونظيرُها [في « قرى الضيف » ٢٢٨/٣] : أنَّ الزعفرانيَّ استكسىَ الصاحبَ بنَ عبَّادٍ بقوله : [مِنَ المتقاربِ]

أَيَا مَنْ عَطَايَاهُ تُهْدِي الْغِنَى إِلَي رَاحَتِي مَنْ نَأَى أَوْ دَنَا
كَسَوَتْ الْمُقِيمِينَ وَالزَّائِرِينَ بِمَا لَمْ يُخَلْ مِثْلُهُ مُمَكِنَا
وَحَاشِيَةَ الدَّارِ يَمْشُونَ فِي ضُرُوبٍ مِنَ الْخَزْرِ إِلَّا أَنَا

فأمرَ له مِنَ الخزْرِ بجَبَّةٍ ودُرَاعَةٍ^(١) وقميصٍ وسراويلٍ وعمامةٍ ومنديلٍ ومِطْرَفٍ^(٢) ورداءٍ وجوربٍ ، وقالَ : لو علمتُ لباساً آخرَ يتخذُ مِنَ الخزْرِ . . لأعطيتهُ .

[احطط رحالك وقوِّ آمالك]

ودخلَ رجلٌ على معاويةَ ، فقالَ له : هَزَزْتُ ذَوَائِبَ الرِّحَالِ إِلَيْكَ ؛ إِذْ لَا مَعْوَلَ إِلَّا عَلَيْكَ ، أمتطي إِلَيْكَ الليلَ والنهارَ ، وأسيمُ في طريقي إِلَيْكَ المجاهِلَ بالآثارِ ، يقودُني نحوكَ رجاءً ، ويسوقُني إِلَيْكَ بلاءً ، والنفسُ مستعجلةٌ ، والاجتهادُ عاذرٌ إِذْ بلغتُكَ ، فقالَ له معاويةُ : احططُ رِحَالِكَ ، وقوِّ آمالكَ ، وكُنْ على ثقةٍ مِنَ الإنصافِ والإسعافِ .

[الحذاقة في كلام بني تميم]

وقدمَ وفدُ بني تميمِ على عبدِ الملكِ ، وفيهم عمرو بنُ عتبةَ ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ، نحنُ من تعرفُ ، وحنُّنا لا ينكرُ ، جئناكَ من بعيدٍ ، نمثُّ إِلَيْكَ بالقربِ ، وما تُعطينا من خيرٍ . . فنحنُ أهلُه ، وما ترى من جميلٍ . . فأنتَ أصلُه ، فضحكَ عبدُ الملكِ وقالَ : يا أهلَ الشامِ ، هلؤلاءِ قومي ، وهذا كلامُهُم .

[رجل يقصد أبان بن الوليد]

ودخلَ رجلٌ على أبانِ بنِ الوليدِ فقالَ : أصلحَ اللهُ الأميرَ ، أحفيتُ إِلَيْكَ الرِّكَابَ ، وقطعتُ العُقَابَ^(٣) ، وأخلفتُ الثيابَ ، فقالَ أبانُ : ما دعاكَ إِلى ذلكَ ؟ أقرابةٌ ، أم جِوارٌ ، أم عشرةٌ متقدِّمةٌ ، أم وُصلةٌ متأكَّدةٌ ؟ فقالَ : لم يكن

(١) دُرَاعَةٌ : جبَّةٌ مشفوقةٌ من قدام .

(٢) المِطْرَفُ : ثوبٌ مربعٌ من خزٍّ له علمانِ في طرفيه .

(٣) العُقَابُ : العرقى في عرضِ الجبلِ .

شيء من ذلك ، وَلِكُنِّي سمعتُ الناسَ ينشدونَ لك بيتاً ، قَالَ : ما هُوَ ؟ قَالَ : قولك : [مِنَ الطَّوِيلِ]

وَمَا شِيمَ لِي بَرَقَ وَإِنْ كَانَ نَازِحاً فَيُخْلِيفُ إِذْ بَعْضُ الْبَوَارِقِ خُلْبُ

[العود أحمد]

هذا يشبه ما سبق من حديث ابن العميد مع صاحبه وما بعده ، وقريب منه ما ذكره ابن خلكان [في « وفيات الأعيان » ٢٨٥/٦] : أَنَّ رجلاً قدمَ عليَّ مخلد بن يزيد بن المهلب فقال له : ألم تكن أتيتنا فأجزناك ؟ فقال : بلى ، قَالَ : فما الذي ردك إلينا ؟ قَالَ قول الكميِّ فيك [في « ديوانه » ١٤١/١] :

[مِن الوافر]

فَأَعْطَى ثُمَّ أَعْطَى ثُمَّ عُذْنَا فَأَعْطَى ثُمَّ عُذْتُ لَهُ فَعَادَا
مِرَاراً مَا أَعُوذُ إِلَيْهِ إِلَّا تَبَسَّمَ ضَاحِكاً وَنَسَى الْوَسَادَا

فأضعف للرجل ما كان أعطاه .

[ابن نباتة يضمن لأحد الشعراء لأنه غشه بقول له في فخر الدولة]

وامتدح فخر الملك بن عضيد الدولة بن بويه أحد الشعراء ، فلم يُرضِهِ ، فعمد إلى عبد العزيز بن نباتة وقال له : أنت الذي غششتني بقولك فيه :

[مِن الوافر]

لِكُلِّ فَتَى قَرِيْنٍ حِينَ يَسْمُو وَفَخْرُ الْمُلْكِ لَيْسَ لَهُ قَرِيْنُ
أَنْخَ بِجَنَابِهِ وَاحْكُمَ عَلَيْهِ بِمَا أَمَلْتَهُ وَأَنَا الضَّمِيْنُ

فأرضاه ابن نباتة من عنده ، ثم انتهى الخبر إلى فخر الملك . . فسير لابن نباتة العطايا الطائلة ، وأول بيتيه مسروق من قول الشماخ السائر في عرابة^(١) .

[يا يزيد بن يزيد]

ومن هذا النوع ، ما ذكره ابن خلكان [في « وفيات الأعيان » ٣٣٧/٦] : أيضاً عن بعضهم قال : كنت بالليل مع يزيد بن يزيد ، فإذا صائح يهتف باسمه ، فقال : علي به ، فلما مثل بين يديه . . قال : ما حملك علي ما فعلت ؟ قال : نعت^(٢) دأبتي ، ونفدت نفقتي ، وسمعت قول الشاعر :

[مِن الطَّوِيلِ]

إِذَا قِيلَ مَنْ لِلْمَجْدِ وَالْجُودِ وَالنَّدَى فَنَادِ بِصَوْتِ يَا يَزِيدُ بَنَ مَزِيدِ

فهش لكلامه فأجزل عطيته .

[الثقة بالعطاء من الممدوح عند الشعراء]

وقال ذو الرمة يمدح بلال بن أبي بردة [في « ديوانه » ١٥٣٤/٣] :

[مِن الوافر]

سَمِعْتُ النَّاسَ يَتَّجِعُونَ غَيْثَا فَقُلْتُ لَصَيْدَحَ انْتَجِعِي بِرِئَا^(٣)

(١) « وفيات الأعيان » (١٢٤/٥) .

(٢) نعت : نحررت . والقيعة من الإبل : ما يصنع منه الطعام للقادم من السفر .

(٣) انتجعنا فلاناً : إذا أتينا نطلبُ معروفه . الصيْدَحُ : اسم ناقه ؛ سميت بذلك لشدة صوتها .

وقال أبو نؤاس [في «ديوانه» ٢٩٨]:

[من الطويل]

تَقُولُ الَّتِي مِنْ بَيْنِهَا خَفَّ مَحْمَلِي
عَزِيزٌ عَلَيْنَا أَنْ نَرَكَ تَسِيرُ
أَمَّا دُونَ مِضْرٍ لِلْغَنَى مُتَطَلَّبُ
بَلَى إِنَّ أَسْبَابَ الْغَنَى لَكَثِيرُ
دَعِينِي أَكْثَرَ حَاسِدِيكَ بِرِحْلَةٍ
إِلَى بَلَدٍ فِيهِ الْخَصِيبُ أَمِيرُ^(١)

وقال المازني [في «فيات الأعيان» ١/٢٨٥]: أشخصني الواثق، فلما دخلت عليه سألتني عن اسمي، فأخبرته، فقال: هل لك من ولد؟ قلت: نعم، بنية، قال: فما قالت لك حين فارقتها؟ قلت: أنشدتني قول الأعشى [في

[من المتقارب]

«ديوانه» ٤١٠]:

فَيَا أَبْتَا لَا تَرِمْ عِنْدَنَا
فَإِنَّا بِخَيْرٍ إِذَا لَمْ تَرِمْ^(٢)
أَرَانَا إِذَا أَضْمَرْتَكِ الْبِلَادُ
نُجْفَى وَيُقَطَّعُ مِنَّا الرَّحِمُ^(٣)

[من الوافر]

قال: فيم أجبتها؟ قلت: بقول جرير:

ثِقِي بِاللَّهِ لَيْسَ لَهُ شَرِيكَ
وَمِنْ عِنْدِ الْخَلِيفَةِ بِالنَّجَاحِ^(٤)

[من الوافر]

ويعجبني قول الناظم [في «المكبري» ٢/٢٩٧-٢٩٨]:

تَرْكْنَا مِنْ وَرَاءِ الْعَيْسِ نَجْدًا
وَنَكَبْنَا السَّمَاءَ وَالْعِرَاقَا^(٥)
فَمَا زَالَتْ تَرَى وَاللَّيْلُ دَاجٍ
لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ الْمَلِكِ اثْتِلاقًا^(٦)
وَلَوْ سَرْنَا إِلَيْهِ فِي طَرِيقِ
مِنَ النَّيْرَانِ لَمْ نَخَفِ اخْتِرَاقَا

[من الكامل]

وقوله [في «المكبري» ٢/١٦٤ و ١٦٩ و ١٧٠]:

أُمِّي أَبَا الْفَضْلِ الْمُبَرِّ أَلْيَّي
لَأَيِّمَمَنَّ أَجَلَ بَخْرِ جَوْهَرًا^(٧)
أَرَأَيْتَ هَمَّةَ نَاقَتِي فِي نَاقَةٍ
نَقَلْتُ يَدَا سُرْحًا وَخَفَا مُجْمَرًا^(٨)
تَرَكَتُ دُحَانَ الرَّمْثِ فِي أَوْطَانِهَا
طَلَبًا لِقَوْمٍ يُوقِدُونَ الْعَنْبِرًا^(٩)
وَتَكَرَّمَتْ رُكْبَاتُهَا عَنْ مَبْرَكِ
تَقَعَانِ فِيهِ وَلَيْسَ مِسْكَأَ أَذْفَرًا^(١٠)

(١) الخصيب: اسم الممدوح.

(٢) رمت: برحت وزلت، وأكثر ما يستعمل في النفي.

(٣) أضمرت البلاد: غيبته إما بموت وإما بسفر.

(٤) فقال له الواثق: على النجاح، وأمر له بألف دينار، وردة إلى أهله مكرماً.

(٥) العيس: الإبل البيضاء. السماوة: فلاة بين (الشام) و(العراق).

(٦) الداجي: المظلم. الاثلاق: البريق واللمعان.

(٧) أمي: اقصدي. والمعنى: يقول: لما حلفت أني أقصد أجلاً بحري. برت يميني بقصده؛ لأنه أجل من يقصد.

(٨) السرح: السهولة السير. الخف المجرم: الشديد الصلب.

(٩) الرمث: نبت يوقد به، وهو من مراعي الإبل، وهو من الحمض.

(١٠) ركباتها: جمع ركة. الأذفر: الشديد الرائحة.

فَأَتَتْكَ دَامِيَةَ الْأَظْلَى كَأَنَّمَا حُدَيْتَ قَوَائِمُهَا الْعَقِيْقَ الْأَحْمَرَ^(١)

[مِنَ الْكَامِلِ]

وقوله [في «المكبري» ١/٣٣٦]:

كُنْ حَيْثُ شِئْتَ تَسِرْ إِلَيْكَ رِكَابًا فَالْأَرْضُ وَاحِدَةٌ وَأَنْتَ الْأَوْحَدُ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقوله [في «المكبري» ٤/٥٧]:

وَتَفَنَّا بِأَنْ تُعْطِيَ فَلَوْ لَمْ تَجِدْ لَنَا لَخِلْنَاكَ قَدْ أُعْطِيتَ مِنْ قُوَّةِ الْوَهْمِ

[المجاعة في عهد هشام بن عبد الملك]

ويروى [كما في «المستطرف» ١٠٨]: أنها أصابت الناس مجاعة في أيام هشام بن عبد الملك ، فوفدت عليه أحياء العرب من كل ناحية ، فدخل عليه وجوههم ، وفيهم درواس بن حبيب الفجلي ، فكأنه ازدراه ؛ لشمليته وسمل عبايته^(٢) ، فاستنكف من دخوله عليه ، وأحس بذلك درواس ، فقال : إن دخولي عليك شرف من قدرتي ، ولم يضع من شأنك ، وقد رأيت الناس دخلوا لأمر فسكتوا عنه ، فإن أذنت . . تكلمت قال : هات ما عندك ، فما أرى لهم غيرك .

[فطانة درواس بن حبيب في الطلب]

قال : يا أمير المؤمنين ، تابعت على الناس سنون ، أمّا الأولى : فأذابت الشحم ، وأمّا الثانية : فأكلت اللحم ، وأمّا الثالثة : فأنقت المعخ ومصت العظم ، وفي أيديكم - والله الحمد - فضول الأموال ، فإن تكن لله . . فاعطفوا بها على عباده ، وإن كانت لهم . . فعلام تحبسونها عنهم بعد الحاجة ؟ وإن كانت لكم . . فتصدقوا بها عليهم ؛ فإن الله يجزي المتصدقين .

[عطاء هشام]

فقال هشام : لله أبوك ما تركت لنا في واحدة من الثلاث ، وأمر بمئة ألف [دينار] ، فقسمت في الناس ، وأمر لدرواس بمئة ألف [درهم] ، فأبى إلا أن يكون مثل الناس وردّها ، فأعادها إليه ، فقسم تسعين ألفاً في تسعة من أحياء العرب ، واحتبس لنفسه منها عشرة آلاف فقط ، فبلغ ذلك هشاماً ، فقال : لله درّه ، إن صنيع مثله ليبعث على الاصطناع .

[رحم الله من تصدق]

ونظيرها في بديع التقسيم . . ما روي [في «المثل السائر» ٢/٢٨٩] عن أعرابي وقف على حلقة الحسن البصري فقال : رحم الله من تصدق من فضل ، أو واسى من كفاف ، أو أثر من قوت ، فقال الحسن : لم يترك البدوي أحداً إلا وقد سأل ، وأوجب عليه .

[ما الذي يناله ابن آدم من الدنيا]

وخير من ذلك كله في الباب . . قوله صلى الله عليه وآله وسلم « وهل لك يا بن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت »^(٣) .

(١) الأظلى : باطن الخف الذي يلي الأرض . حُدَيْتَ : جعل لها حذاءً ، وهو النعل .

(٢) الشملة : كساء من صوف يكتف به . سمل الثوب : إذا صار خلقاً بالياً .

(٣) أخرجه عن أبي مطرف مسلم (٢٩٥٨) في الزهد والرقائق ، والترمذي (٢٣٤٢) ، والنسائي (٢٣٨/٦) ، وأحمد (٢٤/٤) .

وبعدُ : فقد استرسل الكلامُ ؛ إذ ألقينا حبله على غاربه - حَسَبَمَا يَلِيقُ بِالْأَمَالِي - ومع ذلك فلم يخرج عن العطاء والاستعطاء ، والرَّفْدِ والاسترفادِ ، والوفادةِ والانتجاعِ .

[العرب تصف أحوالها ولكنها تميل إلى المبالغة]

والعربُ - كما قررنا - تصفُ شؤونها ، وتشرحُ خبرها ، وتقتصُّ وقائعَ أحوالها ، غيرَ أنَّها قد تميلُ إلى المبالغةِ أحياناً بما اقتضتهُ ضمايرُها من البلاغةِ ، وساقتهُا إليه غرائزُها من البيانِ ، وكذلك الناظمُ فيما يصفُ من اقتحامِ العقابِ الكأداءِ وافتراعِ الجبالِ الشَّمَاءِ ، والسهوبِ الفيحاءِ [كما في «المكبري» ١٨/١] :

وَعَقَابُ لُبْنَانٍ وَكَيْفَ بَقَطِهَا وَهُوَ الشِّتَاءُ ، وَصَيْفُهُنَّ شِتَاءُ . . فإنه في ذلك بارٌّ راشدٌ ، إنما العجبُ ممَّن يذكُرُ العيسَ والمهاري ، والبيدَ والصَّحاري ولعلَّه لم يركبِ الجمَلَ ، ولم يعرفِ الفلاةَ ، فذلك عنوانُ العجزِ ، وبرهانُ الضعفِ ، ودليلُ التبلُّدِ ، وشهيدُ التكلفِ .

[تلميذ المؤلف يهديه قصيدة فيردها عليه]

ومنه قولُ بعضِ الدَّرَسَةِ - مِنْ قَصِيدَةٍ تَقَدَّمَ بِهَا إِلَيَّ عَلَى قُرْبِ الْجَوَارِ ، وَتَلَاصُقِ الدِّيَارِ ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا رَمِيَةٌ بِحَجَرٍ - وهو :

وَلَقَدْ أَرَحَّلُ فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ أَنْضَاءَ الْمُطِيِّ بِهَا أَجُوبُ السَّبَبَا^(١)
فَيَقُولُ أَصْحَابِي وَقَدْ مَلُّوا الشَّرِي : مَاذَا تَوْؤُمُ أَمْشِرِقَا أَمْ مَغْرِبَا ؟
فَأَقُولُ : كَلَّا ، إِنَّمَا أَزَجَّيْتُهَا كَيْمَا تَبْلُغْنَا الْفِنَاءَ الْأَرْجَبَا^(٢)

فما أبغضه وما أثقله ، ولا سيَّما في قوله : (أَمْشِرِقَا) أم (مغربا) ؛ إذ لا يمكنُ أن تخفى على أصحابهِ الجهةَ بعدَ الشروعِ في السيرِ ، فضلاً عن الإمعانِ فيه ، حتَّى ولو كانوا في بلادِ الحميرِ .

وما أراه إلا سمعَ بقولِ مُسلمِ بنِ الوليدِ الَّذِي سَرَقَهُ أَبُو تَمَّامٍ^(٣) . . فَأَحَبُّ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلُهُ وَهُوَ قَوْلُهُ [كما في «وفيات الأعيان» ٨٤/٣] :

أَمْطَلِعَ الشَّمْسِ تَبْغِي أَنْ تَوْؤُمَ بِنَا ؟ قُلْتُ : كَلَّا ، وَلَكِنْ مَطَّلِعَ الْجُودِ

غيرَ أَنَّا نَبْطُ لَهُ مِنَ الْعُدْرِ مَا بَسَطْتَهُ زُبَيْدَةُ ، بما سقناه عنها في شرحِ قولِ النَّاطِمِ [في «المكبري» ١٦٥/٣] :

عَلَّ الْأَمِيرَ يَرَى ذُلِّي فَيَشْفَعُ لِي إِلَى الَّتِي تَرَكْتَنِي فِي الْهَوَى مَثَلًا

فَلْيَسَعُ صَاحِبَنَا مَا وَسِعَ صَاحِبَهَا .

(١) السببُ : المفازة والأرضُ المستوية .

(٢) أزجيتها : سقتها .

(٣) وهو حَسَبَمَا قَالَ ابْنُ خَلِّكَانَ فِي «وفيات الأعيان» (٨٤/٣) :

وَالْحَيْنَلُ تَنْتَنُ بِالرُّجْبَانِ فِي اللَّجْمِ
قُلْتُ : كَلَّا ، وَلَكِنْ مَطَّلِعَ الْكُورِ

يَقُولُ صَخْبِي وَقَدْ جَدُّوا عَلَيَّ عَجَلِ
أَمْطَلِعَ الشَّمْسِ تَبْغِي أَنْ تَوْؤُمَ بِنَا ؟

[بعض قصص الخائنين]

وإذ ذكرنا بعض مَنْ نَجَحَ طَلَبُهُ ، وَأَثَمَرَ تَعَبُهُ ، وَأَكْرَمَتْ وِفَادَتُهُ ، وَأَجْرَلَتْ رِفَادَتُهُ . . فلا بأسَ أَنْ نَذْكُرَ شَيْئاً مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِتَقْضِيهِ ، علاوةً على ما سبقَ مِنَ الإِشَارَةِ إِلَى بَعْضِهِ فِي صَنِيعِ الْمَنْصُورِ مَعَ الْمُؤَمَّلِ .
ثمَّ نَحْنُ بِالْخِيَارِ ، إِنْ اتَّسَعَ الْوَقْتُ . . توسَّعنا ببعض أخبارِ البخلاءِ ونوادِرِهِمْ ، وإلَّا . . أَخْرناها لموضعٍ آخَرَ .
نفوّل :

[حسن الظن بالبخل لا يقع إلا بخذلان الله ، والطمع فيه بسوء التوكل على الله]

كُتِبَ بَعْضُهُمْ إِلَى صَاحِبٍ لَهُ يَسْتَشِيرُهُ فِي الْقُدُومِ عَلَى ذِي ثَرَوَةٍ ، فَكُتِبَ إِلَيْهِ فِي الْجَوَابِ : لا تَفْعَلْ ، فَإِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ بِهِ لا يَوقِعُ إِلَّا بِخِذْلانِ اللَّهِ ، وَالطَّمَعُ فِيهِ لا يَخْطُرُ إِلَّا بِسُوءِ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ ، وَالرَّجاءَ لِمَا فِي يَدِهِ لا يَنْبَغِي إِلَّا بَعْدَ اليَأْسِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، فَإِنَّهُ يَرى أَنَّ التَّقْتِيرَ هُوَ التَّبْذِيرُ ، وَأَنَّ الاقْتِصَادَ هُوَ السَّرْفُ ، وَأَنَّ بني إِسْرَائِيلَ لَمْ يَسْتَبْدِلُوا البَصَلَ بِالسُّلُوبِ إِلَّا لِفَضْلِ أَحْلَامِهِمْ ، وَيَرى أَنَّ الصَّنِيعَةَ مَرْفُوعَةٌ ، وَالصَّلَةَ مَوْضُوعَةٌ ، وَالسَّخَاءَ مِنْ هَمْزاتِ الشَّيَاطِينِ ، وَأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لا يَغْفِرُ أَنْ يُوَثِّرَ المرءُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ بِالْمَعْرُوفِ إِلَّا فِي الَّذِينَ قَطَعَ اللَّهُ أَدْبَارَهُمْ ، وَنَهَى عَنِ اتِّبَاعِ آثارِهِمْ ، فَهُوَ يَرجو الثَّوابَ فِي الإِقْتارِ ، وَيَخشى العِقابَ فِي إِقالَةِ العِثارِ ، فَأَتَمَّ رَحْمَتَ اللَّهِ بِمَكَانِكَ ، وَاصْبِرْ عَلَى عَسْرِكَ ، عَلَّ اللَّهُ أَنْ يَبْدِلَنَا وَإِيَّاكَ خَيْراً مِنْهُ ، وَأَقْرَبَ رُحْماً !!! .

[يحب أن يحمد بما لم يفعل]

وَفِي قَرِيبٍ مِنْهُ - وَمَا أَلْيَقَهُ بِمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُحْمَدَ بِمَا لَمْ يَفْعَلْ مِنْ أَهْلِ زَمَانِنَا - يَقُولُ بَعْضُهُمْ :

[مِنَ البَسيطِ]

إِنِّي لِأَعْجَبُ مِنْ قَوْلِ غُرَزْتُ بِهِ
لَوْ تَسْمَعُ العُضْمُ فِي صَمِّ الجِبَالِ بِهِ
كَالْحَمْرِ وَالشَّهْدِ يَجْرِي فَوْقَ ظَاهِرِهِ
وَكَالسَّرَابِ شَبِيهاً بِالغَدِيرِ وَإِنْ
حُلُو يَلْدُ إِلَيْهِ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ
ظَلَّتْ مِنَ الرَّاسِيَّاتِ العُضْمُ تَنَحْدِرُ
وَمَا لِبَاطِنِهِ طَعْمٌ وَلَا خَبَرُ
تَأْتِي السَّرَابَ فَلَا عَيْنٌ وَلَا أَثَرُ

[أعطوه بكرة يدخلها]

وَقَدَّمَ عَلَى خالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيِّ أَعْرَابِيٌّ ، فَأَلْحَفَ وَأَبْرَمَ ، فَقَالَ خالِدٌ : أَعْطُوهُ بَدْرَةَ^(١) يُدْخِلُها فِي حِرِّ أُمَّهِ ، فَقَالَ الأَعْرَابِيُّ : وَأُخْرى لاسْتِها يا سَيِّدِي ، لا تَبْقَى فارِغَةً ، فَضَحِكَ ، وَقَالَ : وَأُخْرى لاسْتِها .

[لقد أسمعت لو ناديت حياً]

وَاجْتَمَعَ بَشَّارٌ وَيَحْيَى بْنُ زِيادٍ وَحَمَّادٌ عَجْرِدٌ عَلَى الطَّعامِ ، فَوَقَفَ سائِلٌ بِالبابِ ، وَقَالَ : يا مُسْلِمِينَ ، فَقَالَ يَحْيَى : ﴿فَلَا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون : ١٠١] فَقَالَ : ارحموني ، فَقَالَ حَمَّادٌ : قد رَحِمناكَ ، فَقَالَ : اسمعوا قولي : قال بَشَّارٌ :

[مِنَ الوافِرِ]

لَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا وَلَكِنْ لا حَيَاةَ لِمَنْ تُنادِي

(١) البدره : عشرة آلاف درهم .

[أفلاطون والرجل البخيل]

وكتب أفلاطون إلى رجل في رجل ليواسيه بشيء ، فاعتل ولم يعطه شيئاً ، فكتب إليه ثانية يقول له : إن كنت أردت أن تعطيه فلم تقدر . . فمعدورٌ ، وإن كنت قدرت فلم تفعل . . فسأيتك يوم تريد فيه فلا تقدر .

[ارفق يا حبيب بتيسك]

وقدم على عبد الله بن الزبير جماعة - فيهم معن بن أوس - فلم يحسن قراهم فقال معن :

[من الطويل]

نَزَلْنَا بِمُسْتَنِّ الرِّيَّاحِ غُدِيَّةً إِلَى أَنْ تَعَالَى الْيَوْمُ فِي شَرِّ مَحْضَرٍ
لَدَى ابْنِ الزُّبَيْرِ جَالِسِينَ بِمَنْزِلِ مِنْ الْخَيْرِ وَالْإِحْسَانِ وَالْبُرِّ مُقْفَرٍ
رَمَانَا أَبُو بَكْرٍ وَقَدْ طَالَ مُكُنَّا بِتَيْسٍ مِنَ الشَّاءِ الْحِجَازِيِّ أَغْفَرِ (١)
فَقَالَ : اطْعَمُوا مِنْهُ وَنَحْنُ ثَلَاثَةٌ وَسَيُّونَ إِنْسَانًا فَيَا لَوْمْ مُخْبِرِ (٢)
فَقُلْنَا : ابْتَعِدْ عَنَّا فَإِنَّ أَمَانَا جَفَانُ ابْنِ عَبَّاسِ الْعُلَا وَابْنِ جَعْفَرِ
وَكُنْ آمِنًا وَارْفُقْ بِتَيْسِكَ إِنَّهُ لَهُ أَغْنَزُ يَنْزُو عَلَيْهَا وَأَيْسِرِ (٣)

[لعن الله ناقة حملتني إليك]

وقدم عليه آخر فلم يرضه ، فقال : لعن الله ناقة حملتني إليك ، قال ابن الزبير : إن ، وَرَاكِبَهَا (٤) . و (إن) هذه بمعنى نعم .

وقد قال بعضهم : بمثله في قوله تعالى : (إن ، هذان لساحران) .

وأعجب به إسحاق ، كما قاله صاحب « الكشاف » .

(فساحران) خبر مبتدأ محذوف ، و (اللام) داخله على الجملة ، تقديره : (لهما ساحران) وفيه تكلف لا يخفى ، وقعا فيه إذ بعدوا باللام فقدروا لها مبتدأ محذوفاً ، والأولى أن يبقى (ساحران) على أصل ما كان عليه من الخبرية ، وإنما دخلت عليه اللام لشبهه إن التي قبل المبتدأ بالمؤكدة ، وهو ظاهرٌ ، ونظائره موجودة .

[اضربوا أهل الصفة]

وكان زياد بن عبد الله الحارثي والياً على (المدينة) - وفيه بخل - فأهدي له طعام وكان قد تغدئ ، فغضب ، وقال : علام يبعث أحدهم الشيء في غير وقته ؟ ودعا له أهل الصفة ، فلما حضروا . . كشف عن سلال الطعام . . فإذا فيها ما لا يظنه من أخبصة وحلو وفراخ وجداء ، فقال : ارفعوها ، واضربوا كل واحد من أهل الصفة عشرة أسواط ، فإنه بلغني أنهم يفسون في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

[بخلاء العرب أربعة]

وكان يقال [كما في « الأغاني » ١٥٥/٢] : بخلاء العرب أربعة : الحطيئة ، وحميد الأرقط ، وخالد بن صفوان ، وأبو الأسود الدؤلي .

(١) الأعفر : الذي يشبه لونه لون التراب .

(٢) في « الأغاني » : ثلاثة وسبعون .

(٣) « الأغاني » (٧٤ / ١٢) .

(٤) « مجمع الأمثال » (١١٣ / ١) .

أَمَّا الْحُطَيْئَةُ : فقد مرَّ به بعضهم فقال له [كما في «الأغاني» ١٦٣/٢] : السلامُ عليكم ، قال : قلت ما لا يُنكر ، فقال :
إني خرجتُ من أهلي بغير زاد ، قال : لم أضمن لأهلك قراك ، فقال : أفتأذن لي أن أستظلَّ بفيء بيتك ؟ قال : فيء
الجبيل أوسع ، قال : أنا ابن الحمامة ، قال : انصرف وكُن أيَّ طائرٍ تريدُ ، واعترضه رجلٌ وهو يرعى غنمه ويديه
عصا فرفعها ، فقال الرجلُ : إنما أنا ضيفٌ ، قال : للضيفانِ أعددتُها .

وَأَمَّا حَمِيدُ الْأَرْقُطِ : فكان [كما في «المستطرف» ٣٧٧/١] هجاءً للضيفانِ ، وكان لا يُقبلُهُم^(١) إلا حيثُ لم يجد بُدًّا
منهم ، وهو القائلُ :

لَا مَرْحَبًا بِوُجُوهِ الْقَوْمِ إِذْ نَزَلُوا كَأَنَّهُمْ إِذْ أَنَاخَوْهَا الشَّيَاطِينُ
فَأَصْبَحُوا وَالنَّوَى عَالِي مَعْرَسِهِمْ وَلَيْسَ كُلَّ النَّوَى تَلْقِي الْمَسَاكِينُ

وَأَمَّا خَالِدُ بْنُ صَفْوَانَ : فكان إذا أخذ جائزته . . قال للدرهم : بأبي أنت وأمي ، كم أرضٍ قطعْتَ ، وكيسٍ خرقتَ ،
وخاملٍ رفعتَ ، ورفيعٍ أحملتَ ، لك عندي أن تعرى ولا تضحى ، لأطيلنَّ حبسَكَ ، وأديمنَّ لُبْنَكَ .

وَأَمَّا أَبُو الْأَسْوَدِ الدُّؤَلِيُّ : فقد بلغ به الشحُّ أن أعرابياً وقفَ عليه وهو يأكلُ ، فلم يعرضَ عليه الأكلَ ، فقال الأعرابيُّ :
أما إني مررتُ بأهلك ، قال : كان ذاك طريقك ، قال : وهم صالحون ، قال : كذلك تركتُهُم ، قال : وامرأتك
حبلى ، قال : كذلك عهدِي بها ، قال : ولدتَ ، قال : ما كان لها بدٌّ من الولادة ، قال : غلامين ، قال : كذلك
كانت أُمُّها ، قال : مات أحدهما ، قال : ما كانت تقوى على إرضاع اثنين ، قال : ثمَّ مات الآخرُ ، قال : ما كان
ليقبى بعد أخيه ، قال : ثمَّ ماتت الأُمُّ ، قال : حزناً على ولديها ، ووالله لا ذقتُ من طعامي شيئاً!!

ونظيرُها : أنَّ الحجاجَ بعثَ بأحدِ رجالِهِ إلى أرضٍ بعيدةٍ ليعملَ فيها ، فجاءهُ إنسانٌ من بلادِهِ بعدَ مدَّةٍ طويلةٍ ،
انقطعَتْ فيها عنه أخبارُ أهلهِ ، فسألهُ عنهم ، وقال : هل لك علمٌ بكلبنا (نفاع) ؟ قال : قد ملأَ الحيَّ نباحاً ، قال :
وما فعلَ ولدي عميرٌ ؟ قال : قد ملأَ الحيَّ أولاداً ، قال : فأُمُّ عميرٍ ؟ قال : لا تدخلُ من البابِ إلا منحرفةً ، قال :
وجملنا (زريقٌ) قال : ما أعظمَ سنامهُ ، وأكثرَ منفعتهُ ، قال : وما حالُ الدارِ ؟ قال : عامرةٌ بأهلها ، ثمَّ قامَ عنه
وأكلَ ، ولم يدعُه ، ولما فرغَ من أكلِهِ . . أقبلَ عليه ، وقال : أعد عليَّ خبرك يا مباركَ الناصيةِ ، وقد مرَّ كلبٌ ،
فقال : أين كلبنا (نفاع) من هذا ؟ قال : وأينك من (نفاع) ؟ قال : ألم تقل لي : إنه ملأَ الحيَّ نباحاً ؟ فقال :
كلاً ، ولكنه قد مات ، قال : وما سببُ موتهِ ؟ قال : اختنقَ بعظمٍ من عظامِ زريقٍ ، قال : وماتَ زريقٌ ؟! قال :
نعم ؛ من كثرةِ ما يحملونَ عليه الماءَ إلى قبرِ أمِّ عميرٍ ، قال : وماتتْ أمُّ عميرٍ ؟! قال : نعم ؛ حزناً على ولديها
عميرٍ ، قال : وماتَ عميرٌ ؟! قال : نعم ؛ سقطتْ عليه الدارُ .

(١) لا يُقبلُهُم : لا يسقيهم اللبن في منتصفِ النهارِ .

وإني لأتعجب كثيراً مما يصفون به أبا الأسود من البخل ، مع طول صحبته لأمير المؤمنين ، والمرء من جلسه ، وذلك من لا تزن عنده الدنيا ورقة خضراء في فم جرادة تقضمها ، وهو الذي يقول فيه معاوية : أما والله لو كان له بيت من تبن وبيت من ذهب . . . لنفد بيت ذهبه قبل أن ينفد بيت تبنه ، غير أن الطبيعة أغلبت ، والأحوال تختلف ، والعادة تنخرق ، والمسببات كثيراً ما تختلف ، فضلاً عن هذا .

ولقد أراد بعضهم أن يتصدق ، فغلبه طبعه ، فلم يقدر ، مع حرورة^(١) على نفسه .

[مثل البخل والمنفق من الحديث النبوي]

وفي « الصحيح » : « مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالْمُنْفِقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ مِنْ تُدْيِهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا ، فَأَمَّا الْمُنْفِقُ : فَلَا يُنْفِقُ إِلَّا سَبَقَتْ عَلَيْهِ جِلْدُهُ ، حَتَّى تُخْفِيَ بَنَانَهُ وَتَعْفُو أَثَرَهُ ، وَأَمَّا الْبَخِيلُ : فَلَا يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئاً إِلَّا لَزِقَتْ كُلُّ حَلَقَةٍ مَكَانَهَا ، فَهُوَ يُوسِعُهَا فَلَا تَتَّسِعُ »^(٢) .

[مثل المنفق]

ولله درُّ ابن الرومي إذ يقول في معنى الشقِّ الأوَّلِ [في « ديوانه » ١/ ٣٩٣] :

سَجَايَا إِذَا هَمَّتْ بِخَيْرٍ تَسْرَعَتْ إِلَيْهِ وَإِنْ هَمَّتْ بِشَرٍّ تَنَاءَتْ

[مثل البخل]

وفي معنى الشقِّ الثاني يقول الآخر :

يُعَالِجُ نَفْساً بَيْنَ جَنِيهِ كَزَّةً إِذَا هَمَّ بِالْمَعْرُوفِ قَالَتْ لَهُ مَهْلًا^(٣)

وقال بعض العرب :

وَدُونَ النَّدَى فِي كُلِّ قَلْبٍ نَيْبَةٌ لَهَا مَضَعْدٌ حَزْنٌ وَمُنْحَدَرٌ سَهْلٌ^(٤)

[وجوب إكرام الوافد]

وَمِمَّا يَتَعَلَّقُ بِوَجوبِ إِكْرَامِ الْوَافِدِ ، وَلِزومِ حَقِّهِ عَلَى مَنْ قَصَدَهُ . . ما بلغنا أَنَّ بعضَ طلبةِ الحديثِ سافرَ إلى بلدٍ بعيدٍ للسمعِ عن بعضِ المشايخِ ، فلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ . . تشاغلَ عنه بِإِلقاءِ الخبزِ لكلِّبٍ كانَ عندهُ ، فوقعَ في نفسه ، فلَمَّا فرغَ من إطعامِ الكلِّبِ ، أَقبلَ عَلَيْهِ وقالَ لَهُ : ما مَنَعَنِي أَنْ ألتفتَ إِلَيْكَ قَبْلُ ، إِلَّا أَنَّ هَذَا الْكَلْبَ عَلَّقَ أَمْلَهُ بِي ، فَكَرِهْتُ أَنْ أَقْطَعَهُ ، وَرَوَى لَهُ بِسندِهِ حَدِيثٌ : « مَنْ قَطَعَ رَجَاءً مِنْ أَرْجَاءِهِ . . قَطَعَ اللَّهُ مِنْ الْجَنَّةِ رَجَاءَهُ »^(٥) .

(١) الْحَرُورَةُ : حرقَةٌ فِي الْحَلْقِ وَالصَّدرِ وَالرَّأْسِ مِنَ الْوَجَعِ وَالغَيْظِ .

(٢) أَخْرَجَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِنَحْوِهِ الْبَخَارِيُّ (٥٧٩٧) فِي الْلبَّاسِ ، وَمُسْلِمٌ (١٠٢١) فِي الزَّكَاةِ .

(٣) كَزَّةٌ : صَلْبَةٌ .

(٤) النَّيْبَةُ : الْعَقْبَةُ .

(٥) ذَكَرَهُ الْإِمَامُ الْعَجْلُونِيُّ فِي « كَشْفِ الْخَفَاءِ » (٢٥٧٣) وَقَالَ : عَزَاهُ بَعْضُهُمْ لِلْإِمَامِ أَحْمَدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعاً ، لَكِنْ قَالَ السَّخَاوِيُّ : هُوَ مُخْتَلَقٌ عَلَى الْإِمَامِ أَحْمَدَ .

[جوده صلى الله عليه وسلم]

والله أعلم بحال هذا الحديث ، ولكنه صلى الله عليه وآله وسلم يكرم الوفود ، ويقول : « أَجِيزُوا الْوَفْدَ بِمِثْلِ مَا كُنْتُمْ أَجِيزُهُ »^(١) .

[تأثير الأخفاف والحوافر في الحصى عند الشعراء]

أما ما يذكره الشعراء من تأثير الأخفاف والحوافر بالحصى . فإنه لا يُحصى كثرة ، ومنه قول امرئ القيس [في ديوانه « ٨٨ »] :

كَأَنَّ الْحَصَى مِنْ خَلْفِهَا وَأَمَامِهَا إِذَا نَجَلْتَهُ رِجْلَهَا خَذَفُ أَعْسَرًا^(٢)
كَأَنَّ صَلِيلَ الْمَرْوِ حِينَ تُشَدُّهُ صَلِيلُ زُيُوفٍ يُتَّقَدْنَ بِعَبَقَرًا^(٣)

وقول عنترة [في « ديوانه » ٥٩] :

خَطَّارَةٌ غِيبَ الشَّرِيِّ زَيَّافَةٌ تَطْسُ الْإِكَامَ بِذَاتِ خُفِّ مِثْمٍ^(٤)

وقول الحطيئة [في « ديوانه » ٦٠] :

وَتَرْمِي يَدَاهَا بِالْحَصَى خَلْفَ رِجْلِهَا وَتَرْمِي بِهِ الرَّجْلَانِ دَابِرَةَ الْيَدِ^(٥)

وقول شريح بن الحارث يمدح حبيب بن مسلمة الفهري صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورضي الله عنه :

أَلَا كُلُّ مَنْ يُدْعَى حَبِيبًا وَلَوْ بَدَتْ هُمَامٌ يَقُودُ الْخَيْلَ حَتَّى كَانَمَا مُرُوءَتُهُ يَفْدِي حَبِيبَ بَنِي فَهْرِ
يَطَّانَ بِرَضْرَاضِ الْحَصَى حَاجِمَ الْجَمْرِ^(٦)

وقول أبي حزره :

يَدَعُ الرِّضِيمَ إِذَا جَرَى فَلَقَا بَتَوَائِمٍ كَمَا وَسِمَ سَمُرٍ^(٧)

وقول طفيل الغنوي [في « ديوانه » ٣٦] :

وَهَضَنَ الْحَصَى حَتَّى كَانَتْ رِضَاضُهُ ذُرَى بَرْدٍ مِنْ وَابِلٍ مُتَحَلِّبٍ^(٨)

وقول الفرزدق [في « ديوانه » ٥٧٠ / ٢] :

تَنْفِي يَدَاهَا الْحَصَى فِي كُلِّ هَاجِرَةٍ نَفْيِ الدَّرَاهِيمِ تَنْقَادُ الصَّيَارِيفِ

(١) أورده المباركفوري في « تحفة الأحوذى » (٢٥٨ / ٦) .

(٢) نَجَلْتُهُ : رَمْتَهُ بِمَنَاسِمِهَا . الخَذَفُ : الرمي . الأَعْسَرُ : الذي يعمل بيده اليسرى .

(٣) صليل المرو : صوت الحجارة . تُشَدُّهُ : نظيره . الزيوف : الدراهم الزائفة التي لا فضة فيها . عبقر : وإذ زعموا أنه كثير الجن ، وإليه تنسب نفائس الأشياء وبدايع الفكر ، فيقال : لهذا بساط عبقرى ، ولهذا رأي عبقرى .

(٤) خطارة : تخطر بذنبها وتحركه وترفضه . زفافه : سريعة . الوطن : الضرب الشديد . ميثم : عداء .

(٥) دابر اليد : موضع الحافر من اليد .

(٦) الرضراض : الحصى الصغير .

(٧) الرضيم : الصخور العظام . السم : شجر الطلح .

(٨) الوهص : شدة الوطء . رضاضه : ما انكسر منه . ذرى برد : أعاليه .

وقول أبي الطمحان :

[مِن الطَّوِيلِ]

تَرْضُ حَصَى مَعزَاءَ جَوْشٍ وَأَكْمَةٍ

بِأَخْفَائِهَا رَضَّ النَّوَى بِالْمَرَضِ^(١)

وقول أبي الشَّيْبِ [في «ديوانه» ٧٣] :

[مِن الكَامِلِ]

وَعَصَابَةٍ صَرَفَتْ إِلَيْكَ وَجُوهَهَا

نَكَبَاتٌ دَهْرٍ لِلْعَلَا عَضَّاضِ

شَدُّوا بِأَعْوَادِ الرَّحَالِ مَطِيَّهُمْ

مِنْ كُلِّ أَهْوَجٍ لِلْحَصَى رَضَّاضِ

يَرْمِينَ بِالْمَرْوِ الطَّرِيقَ وَتَارَةً

يَحْدِفْنَ وَجْهَ الْأَرْضِ بِالرَّضْرَاضِ

وقول ابن دريد :

[مِن الرَّجَزِ]

يَرْضُ بِالْيَيْدِ الْحَصَا فَإِنْ رَقَى

إِلَى الرَّيِّ أَوْرَى بِهَا نَارَ الْحَبَا

وقول ابن المعتز :

[مِن الكَامِلِ]

وَكَأَنَّمَا نَقَّشَتْ حَوَافِرُ طَرْفِهِ

لِلنَّاطِرِينَ أَهْلَةً فِي الْجَلْمَدِ^(٢)

وقول أبي تمام [في «ديوانه» ٢٦٧/٢] :

[مِن البَسِطِ]

فَلَوْ تَرَاهُ مُشِيحاً وَالْحَصَى فَلَقْ

تَحْتَ السَّنَابِكِ مِنْ مَثْنَى وَوُحْدَانِ^(٣)

[تأثيرها عند المتنبي]

[مِن المُنْرَحِ]

وقد تكرر المعنى وما يقاربه في «ديوان الناظم» ، فمنه قوله [في «العُكْبَرِيِّ» ٢٦٦/١] :

أَوَّلَ حَرْفٍ مِنْ اسْمِهِ كَتَبَتْ

سَنَابِكُ الْخَيْلِ فِي الْجَلَامِيدِ^(٤)

وقوله [في «العُكْبَرِيِّ» ١٧٦/٣] :

[مِن الطَّوِيلِ]

إِذَا اللَّيْلُ وَارَانَا أَرْتَنَا خِفَائِهَا

بِقَدْحِ الْحَصَى مَا لَا تُرِينَا الْمَشَاعِلُ

وقوله [في «العُكْبَرِيِّ» ١٧/٣] :

[مِن الوَافِرِ]

مَشَى الْأَمْرَاءُ حَوْلَيْهَا حُفَاةً

كَأَنَّ الْمَرْوَ مِنْ زَفِّ الرَّثَالِ^(٥)

وقوله [في «العُكْبَرِيِّ» ٢٨٥/٤] :

[مِن الطَّوِيلِ]

تَمَاشَى بِأَيْدٍ كَلَّمَا وَافَتْ الصَّفَا

نَقَّشْنَ بِهِ صَدْرَ الْبُرَاةِ حَوَافِيَا^(٦)

وقوله [في «العُكْبَرِيِّ» ٢٢٩/٣] :

[مِن الوَافِرِ]

إِذَا وَطَّئَتْ بِأَيْدِيهَا صُخُوراً

يَفْتِنَنَّ لِوَطْءِ أَرْجُلِهَا رِمَالاً^(٧)

(١) المراضع : جمع مريض ، وهو الحجر الذي يرضع - أي يكسر - به النوى . معزاء : أرض معزاء ؛ أي : شديدة صلابة .

(٢) الطَّرْفُ : بكسر الطاء : الكريمة مِنَ الخيل . الْجَلْمَدُ : الصخر .

(٣) السنايك : مفردة سنبك ، طرف الحافر . المشيح : أشاح بوجهه عرض متكرهاً .

(٤) الجلاميد : الصخور والحجار .

(٥) المرؤ : حجارة براقعة ، يكون فيها النار . الرث : صغار الريش . الرثال : جمع رثال ، وهو ولد النعام .

(٦) الصفا : الصخر . البراة : جمع باز . حوافياً : جمع حاف .

(٧) يفتنن : يعدن .

وقوله [في «العكبري» ٢٠/٢٥٩]:

[من الكامل]

أَرْكَائِبَ الْأَحْبَابِ إِنَّ الْأَذْمَعَا تَطْسُ الْخُدُودَ كَمَا تَطْسُنَ الْيَرْمَعَا^(١)

وقوله [في «العكبري» ٢٠/٣٢٥]:

[من الطويل]

وَمَلْمُومَةٌ سَيْفِيَّةٌ رِبْعِيَّةٌ يَصِيحُ الْحَصَى فِيهَا صِيَاحَ اللَّقَالِقِ^(٢)

[القول في تأثير أقدامه صلى الله عليه وسلم في الصخر]

وإذا انتهى الكلام إلى هنا في الموضوع . . فقد يُسألُ عما يأتي ذكره في المدائح النبوية بكثرة ، من لين الصخر لأقدامه صلى الله عليه وآله وسلم ، وتأثيرها فيه إذا مشى عليه ، وأرجو أن لا يُعدَّ من سوء الأدب على حضرته الشريفة ومقامه الكريم . . قرنه إلى ما سبق ، لاختلاف الألوان والجهات ، ولأنَّ القصد الفائدة ليس غير ، فنقول في الجواب عنه : ما قاله الشيوطي : من أنه لم يقف له على أصل ولا سنَد ، ولا رأى من خرَّجه في شيء من كتب الحديث .

[أثر قدمي إبراهيم عليه الصلاة والسلام في الحجر]

وأما أثر قدمي إبراهيم [عليه الصلاة والسلام] في الحجر الذي كان يبني عليه البيت ، وأنه المقام : فقد ورد ذلك ، أخرجه الأزرق في « تاريخ مكة » من طريق أبي سعيد الخدري ، عن عبد الله بن سلام - رضي الله عنهما - موقوفاً عليه بسند صحيح .

وأخرجه عبد بن حميد في « تفسيره » عن قتادة . وأخرجه أيضاً عن عكرمة ، وقد أفضت القول فيما يتعلَّق به في « حاشيتي على الشمايل » ، وبما أن ما بقي من أوراقها عن الأرض^(٣) . . مُبعثراً ، فاستثناهُ النَّظْرُ فيها يُكلِّفُ تعباً ، ويستغرق وقتاً ، وفيما ذكرناه الكفاية .

* * *

[قال أبو الطيب المتنبي في «العكبري» ٣/١٦٨]:

[من البسيط]

وَضَاقَتِ الْأَرْضُ حَتَّى إِنَّ هَارِبَهُمْ إِذَا رَأَى غَيْرَ شَيْءٍ ظَنَّهُ رَجُلًا

[الدفاع عن المتنبي]

أكثرُ الناسِ على استهجانِ هذا البيتِ ، وما يكثرونَ به في انتقادهِ ليسَ عندي بالمقبولِ ، ووجهُ الأخذِ عليه أن غيرَ الشيءِ معدومٌ ، والمعدومُ ليسَ بشيءٍ ، وهو أخذٌ يسيرٌ ، يمكنُ دفعه :
أولاً : بأنَّ طائفةً من المعتزلةِ والفلاسفةِ . . ذهبوا إلى أنَّ المعدومَ شيءٌ بمعنى أنه حقيقةٌ متقررةٌ في الخارجِ بحجتين :

(١) تَطْسُ : تدقُّ . اليرمُعُ : حجارةٌ بيضٌ صغارٌ رخوةٌ .

(٢) الملمومةُ : الكتيبةُ المجتمعةُ . سيفيَّةٌ : منسوبةٌ إلى سيفِ الدولةِ . رباعيَّةٌ : منسوبةٌ إلى ربيعةَ ، وهي قبيلةُ سيفِ الدولةِ . اللقائلُ - جمع لقلبي - : وهو طائرٌ كبيرٌ ، يسكنُ العمرانَ في أرضِ (العراق) .

(٣) الأرضةُ : نوعٌ من الدودِ الصغارِ تأكلُ الأشياءَ ، ومنها الأوراقُ .

بقوله جلَّ شأنه : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [النحل : ٤٠] ، وبأنَّ المعدوم معلومٌ متميزٌ ، وكلُّ متميزٍ ثابتٌ ، فالمعدومٌ ثابتٌ .

وثانياً : بأنَّ المرادَ مِنَ الرُّؤيةِ التَّوَهُّمُ ، فكثيراً ما تتراءى لِلخائفِ وغيرِه أشباحٌ من غيرِ حقيقةٍ ، وذلك الذي يريدُه أبو الطيّبِ ، وقد ألمَّ فيه بقولِ جريرٍ :

مَا زَالَ يَحْسَبُ كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَهُمْ خَيْلاً تَكْرُرُ عَلَيْهِمْ وَرَجَالاً

[الخوف يقطع الجوف]

وهو من قوله تعالى : ﴿ يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ﴾ [المنافقون : ٤] كذا قلتهُ - والله - من أوَّلِ وهلةٍ عندَ اقتراءِ البيتِ ، ثم رأيتُ الشارحَ ذكرَ مثلهُ عن الأخطلِ ، فسرتني من نفسي ، وقد تكرَّرَ ما يشبههُ في « ديوانه » منه قوله [في « العكبري »] : [٣٤٤/١] :

يَرُونَ مِنَ الدُّعْرِ صَوْتَ الرِّيَّاحِ صَهِيلَ الجِيَادِ وَخَفَقَ البُنُودِ

وقال أبو تمام [في « ديوانه » ٤١٩/٢] :

حَيْرَانَ يَحْسَبُ سَجْفَ النَّعْجِ مِنْ دَهْشِ طُوداً يُحَادِثُ أَنْ يَنْقُضَ أَوْ جُرْفاً^(١)

وقال يصفُ جباناً [في « ديوانه » ١٠٢/١] :

مُوكَّلٌ يَبْفَاعِ الأَرْضِ يَشْرَفُهَا مِنْ خِيفَةِ الخَوْفِ لَأَمِنْ خِيفَةِ الطَّرَبِ^(٢)

وقال الآخرُ :

لَقَدْ خِيفْتُ حَتَّى لَوْ تَمُرُّ حَمَامَةٌ لَقُلْتُ : عَدُوٌّ أَوْ طَلِيعَةٌ مَعْشَرِ

وقال لبيدٌ [في « ديوانه »] :

كَأَنَّ بِلَادَ اللهِ وَهِيَ عَرِيضَةٌ عَلَى الخَائِفِ المَطْلُوبِ كِفَّةُ حَابِلِ^(٣)

[قصة المنزوف ضرطاً]

وكان من حديث المنزوفِ ضرطاً [كما في « مجمع الأمثال » ١٨٠/١] : أَنَّ امرأةً مِنَ العربِ تزوجتَ برجلٍ ينأمُ إلى الضُّحَى ، فكانت تأتبه مع صواحبٍ له بصبحهِ^(٤) فتقولُ له : قُمْ فاصطَبِّحْ ، فيقولُ : لو لعاديةٍ تنبّهيني ، فنبهته مرةً وقالتُ له : هذه نواصي الخيلِ ، فجعلَ يقولُ : (الخيلُ الخيلُ) ويضربُ حتى ماتَ فرَقاً ، فضربَ به المثلُ .

[رواية أخرى للقصة]

وقيلَ [كما في « مجمع الأمثال » ١٨٠/١] : إِنَّمَا هِيَ دَخْتَنُوسُ بِنْتُ لَقِيظِ بْنِ زَرارةٍ كانتَ تحتَ عمرو بنِ عمرو وهو شيخُ أبرصٍ ، نامَ يوماً في حجرِها ، فجحف^(٥) ، وسألَ لعابهُ ، فرفعَ رأسَهُ وهي تُوقِفُ ، فقالَ : تحبينَ أن أطلقَكَ ؟

(١) سَجْفُ النَّعْجِ : سترُ الغبارِ . الطُودُ : الجبلُ . اللَّهْشُ : الخوفُ . الجُرْفُ : ما تجرهُ السيولُ وتأكلُهُ مِنَ الأَرْضِ .

(٢) البَفَاعُ : ما ارتفعَ مِنَ الأَرْضِ . يَشْرَفُ : يعلوهُ .

(٣) الكِفَّةُ : جبالُ الصائِدِ . الحَابِلُ : الذي يصيدُ بالحبالِ .

(٤) الصُّبُوحُ : اللبنُ الذي يُحلبُ بالغدَاةِ .

(٥) الجحيفُ : صوتٌ يخرجُ مِنَ الجوفِ ، أشدُّ مِنَ الغَطِيطِ .

قالت : نعم ، فنكحها رجلٌ جسيمٌ جميلٌ ، واسمه عميرُ بنُ عمارَةَ بنِ معبدِ بنِ زرارةَ ، وبعقبِ ذلكَ أغارتَ بكرٌ عليّ بني دارمِ ، وكانَ زوجها نائمًا فنبهتهُ تظنُّ بهِ خيراً ، فلم يزلْ يحيقُ^(١) حتّى مات خوفاً ، وأخذتْ دختنوسَ فركبَ في أثرها عمرو بنُ عمرو ولحقَ بالقومِ ، وأنخنَ فيهمِ ، قتلَ أربعةً أو ثلاثةً ، واسترجعَها منهمِ ، وقالَ لها :

أَيُّ خَلِيلَيْكَ وَجَدْتَ خَيْرًا أَلْعَظِيمُ فَيْشَةَ^(٢) وَأَيُّرًا

أَمِ الَّذِي يَأْتِي الْعُدُوَّ سَيْرًا !!؟

[القتال في النوم]

وقالَ الحجاجُ لحميدَ الأرقطِ - وقد أنشدَ قصيدةً يصفُ فيها الحربَ - : يا حميدُ ، هل قاتلتَ قطُّ ؟ قالَ : نعم ، مرّةً في النومِ ، قالَ : وكيفَ كانتَ وَقَعَتُكَ ؟ قالَ : انتبهتُ وأنا منهزمٌ .

[أسرع من الغزال في الفرار]

وقالَ بعضهم :

[مِن الوافر]

وَفِي الْهَيْجَاءِ مَا جَرَّبْتُ نَفْسِي وَلَكِنْ فِي الْهَزِيمَةِ كَالْغَزَالِ

وكفىَ بذلكَ تجربةً ، إذ كيفَ يصيرُ للهيجاءٍ مَنْ كانَ بتلكَ المثابَةِ من فراغِ الجوفِ .

[العطب مقرون بالشجاعة]

وقالَ أبو الغمرِ :

[مِن البسيط]

بَاتَتْ تُشَجِّعُنِي عِرْسِي وَقَدْ عَلِمْتُ
لِلْحَرْبِ قَوْمٌ أَضَلُّ اللَّهُ سَعِيَهُمْ
وَإِذَا دَعَتْهُمْ إِلَى مَكْرُوهِهَا وَتَبُّوا
لَا الْجِدُّ يُعْجِبُنِي مِنْهُمْ وَلَا اللَّعْبُ

[قتلة واحدة خير]

وأبى الحجاجُ برجلٍ من أصحابِ ابنِ الأشعثِ فقالَ لهُ : أسألكَ أن تقتلني وتخلصني ، فقالَ لهُ الحجاجُ : لِمَ ؟ فقالَ : إنِّي أرى كلَّ ليلةٍ في المنامِ أنك تقتلني ، وقتلُ واحدةٍ خيرٌ ، فضحكَ وخلقى لهُ سبيلهُ .

[الغضب في الحياة خير من الرضا في الممات]

وقيلَ لأسلمَ بنِ زرعةَ : إن انهزمتَ من أصحابِ مرداسٍ .. غَضِبَ عَلَيْكَ عبيدُ اللهِ بنُ زيادٍ ، قالَ : لأن يغضبَ عليّ وأنا حيٌّ ، خيرٌ من أن يرضى عني وأنا ميتٌ .

[ليس لي غير رأسي]

قالَ بعضهم [كما في « ديوان الحماسة » ٢١ / ٣٩٤] :

[مِن الوافر]

يَقُولُ لِي الْأَمِيرُ بَعِيرٌ نَضِحٌ
وَمَا لِي إِنْ أَطَعْتُكَ مِنْ حَيَاةٍ
تَقَدَّمَ حِينَ جَدَّ بِنَا الْمِرَاسِ^(٣)
وَمَا لِي بَعْدَ هَذَا الرَّأْسِ رَاسٌ

(١) حَيْقٌ : أخرجَ رِيحَ الحَدَثِ مع صوتٍ .

(٢) الْفَيْشَةُ : رَأْسُ الذِّكْرِ .

(٣) الْمِرَاسُ : الشَّدَّةُ فِي الْقِتَالِ .

[روح بن عدي يأمر أبا دلامة للخروج في القتال]

وَأَلَى الْمَنْصُورِ لِيُخْرِجَنَّ أَبَا دُلَامَةَ لِلْحَرْبِ ، وَالْحَقُّهُ بِرُوحِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمِ الْمَهْلَبِيِّ لِقِتَالِ الشُّرَاةِ (١) ، فَلَمَّا التَقَى الْجَمْعَانِ . . خَرَجَ وَاحِدٌ مِنْ صَفِّ الشُّرَاةِ يَطْلُبُ الْبِرَازَ ، فَقَالَ لَهُ رُوحٌ « كَمَا فِي « وَفِيَاتِ الْأَعْيَانِ » ٣٢٣/٢ : أَخْرَجَ إِلَيْهِ ، فَقَالَ :

[مِنَ الْبَسِيطِ]

إِنِّي أَعُوذُ بِرُوحٍ أَنْ يُقَدِّمَنِي إِلَى الْقِتَالِ فَتَخْزِي بِي بَنُو أَسَدٍ
إِنَّ الْبِرَازَ إِلَى الْأَقْرَانِ أَعْلَمُهُ مِمَّا يُفَرِّقُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ
إِنَّ الْمُهَلَّبَ حُبِّ الْمَوْتِ أَوْرَثَكُمْ وَمَا وَرِثْتُ اخْتِيَارَ الْمَوْتِ عَنْ أَحَدٍ
لَوْ أَنَّ لِي مُهْجَةً أُخْرَى لَجِدْتُ بِهَا لِكِنَّهَا خُلِقْتُ فَرْدًا فَلَمْ أَجِدْ
فَضْحَكَ وَأَعْفَاهُ . وَفِي الْقِصَّةِ طَوْلٌ وَنَادِرَةٌ مَشْهُورَةٌ (٢) .

[إياك أن تفرط بالغالي]

وقال زفر بن الحارث :

[مِنَ الطُّوِيلِ]

أَلَا لَا تَلُومَانِي عَلَى الْجُبْنِ إِنِّي أَخَافُ عَلَى فَخَّارَتِي أَنْ تَحْطَمَا
وَلَوْ أَنَّي أَبْتِاعُ فِي السُّوقِ مِثْلَهَا إِذَا شِئْتُ مَا بَالَيْتُ أَنْ أَتَقَدَّمَا

[ليس الإقدام شجاعة في كل حين]

وقال معاوية يوماً : لقد علم الناس أن الخيل لا تجري بمئلي ، فكيف قال النجاشي :

[مِنَ الطُّوِيلِ]

وَنَجَّى ابْنَ حَزْبٍ سَابِحٌ ذُو عُلَالَةٍ أَجَشُّ هَزِيمٌ وَالرَّمَّاحُ دَوَانِي (٣)

فقال له ابن العاص : أعياني ، شجاع أنت أم جبان ؟ فقال :

[مِنَ الطُّوِيلِ]

شُجَاعٌ إِذَا مَا أَمَكَّنْتَنِي فُرْصَةً فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لِي فُرْصَةً فَجَبَانٌ

[من بلاغة العرب تحسينهم كل شيء حتى الفرار]

ومن بلاغة العرب : أَنْ حَسَنُوا كُلَّ شَيْءٍ ، حَتَّى الْفِرَارَ ، وَمَهَّدُوا عَنْهُ الْاِعْتِدَارَ ، وَفِي « بِلَابِلِ التَّغْرِيدِ » جُمْلَةٌ صَالِحَةٌ مِنْهُ ، اسْتَطَرَدْنَا بِهَا فِي حَدِيثِ بَدِءِ الْوَحْيِ ، بِمُنَاسَبَةِ سُؤَالِ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ عَنْ كَيْفِيَّتِهِ .

وقال نعيم التميمي :

[مِنَ الطُّوِيلِ]

فإِنْ يَكُ عَارًا يَوْمَ فَلَجٍ أَنْتَهُ فِرَارِي فَذَلِكَ الْجَيْشُ قَدْ فَرَّ أَجْمَعُ (٤)

(١) الشُّرَاةُ : وَيُقَالُ : الشُّرَى : اسْمٌ اتَّصَلَ بِالْخَوَارِجِ ، حَيْثُ قَالُوا : نَحْنُ الشُّرَاةُ لِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَبَرَكْنَا لِقَائِ الْفَارِسِيِّ مِمَّنْ يَشْرِي نَفْسَهُ أَتَيْكَاءَ مَرْضَكَاتِ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢٠٧] ، وَهُوَ عِنْدَهُمْ لِقَبِّ جَمَاعَةٍ تَتَأَلَّفُ مِنْ أَرْبَعِينَ رَجُلًا أَوْ أَكْثَرَ تَكُونُ إِلَى جَانِبِ الْأَيْمَةِ ؛ مَهْمَّتُهَا بَادِيءُ الْأَمْرِ امْتِحَانُ الْأَيْمَةِ بِمَا يَسْتَدِلُّونَ بِهِ عَلَى سِرَائِرِهِمْ وَخَفَايَاهُمْ ، فَيُرْجِحُونَ لِلْإِمَامَةِ مَنْ هُوَ أَهْلٌ لَهَا ، وَبَعْدَ الْبَيْعَةِ يَفْرُضُونَ عَلَى الْإِمَامِ رِقَابَتَهُمْ ، وَيُسْتَدُونَ لَهُ النَّصِيحَةَ ، وَيُشِيرُونَ عَلَيْهِ بِاتِّخَاذِ مَا يَرُونَهُ مُنَاسِبًا مِنْ الْفِرَارَاتِ ، فَهُمْ أَهْلُ حَلِّ وَعَقْدٍ ، وَهُمْ أَيْضًا أَصْحَابُ سُورَى .

(٢) وَالْقِصَّةُ ذَكَرَهَا ابْنُ خُلِّكَانَ فِي « وَفِيَاتِ الْأَعْيَانِ » (٣٢٣/٢) .

(٣) السَّابِحُ : الْفَرَسُ الشَّدِيدُ الْعَدْوِ . الْعُلَالَةُ : بَقِيَّةُ سَبْرِ الْفَرَسِ ، وَهِيَ أَشَدُّ مَا يَكُونُ مِنْ عَدْوِهِ . الْأَجَشُّ : الْغَلِيظُ الصَّهْبِيلِ ، وَهُوَ مِمَّا يُحْمَدُ فِي الْخَيْلِ . الْهَزِيمُ : الشَّدِيدُ الصَّوْتِ .

(٤) فَلَجٌ : اسْمٌ مَوْضِعٌ بِلَاةِ الْيَمَنِ مِنْ مَسَاكِنِ عَادِ .

وقال ثعلبة الباهلي :

[من الطويل]

فَلَا تَعْدُلَانِي فِي الْفِرَارِ فَإِنَّمَا فَرَزْتُ لِمَا قَدْ فَرَ قَبْلِي عَامِرُ
فَإِن لَمْ أَعُوذْ نَفْسِي الْكَرَّ بَعْدَهَا فَلَا وَأَلْتِ نَفْسٌ عَلَيْهَا أَحَاذِرُ^(١)

[صور عن الذين فروا]

وقوله : (قد فرّ قبلي) يعني به : عامر بن الطفيل ، فقد فرّ عن أخيه يوم الرقم .
كما هرب عيينة والسيوف تنوش أباه يوم السناير .

وتولّى بسطام بن قيس عن قومه وقد أثختهم الحرب يوم العطالي .

ولم ينج عتيبة بن الحارث بن شهاب يوم ثبرة إلا بجريعة الذقن ، وكان قد هرب عن ابنه حزره - وهو بكره - فقتلته بنو نغلب .

وما من شجاع إلا ذكرت له فرّة ، وأحصيت عليه هفوة ، لا أستثني أحداً بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .
إلا علي بن أبي طالب رضوان الله عليه .

[عوانة بن زيد يراود جارية عن نفسها ، ولكنها تربطه بوتر قوسه]

وخرج عوانة بن زيد يوماً يتصيد على فرسه ، فعرضت له جارية تحمل وطبا^(٢) من لبن ، فهمم بها ، ودنا منها ، وقال : تمكني طائعة أو مكرهة ، قالت : لا يكون شيء من ذلك ، فلما رأت منه الجد . أخذت ساعديه نصرهما ، لا يدفع عن نفسه ، حتى تركته لا يستطيع أن يحركهما ، ثم كتفته بوتر قوسه ، وشدت حبل الفرس في جيده ، وأقبلت به تقوده ، حتى شارف الحي ، فبصر بجندب بن العنبر - وهو له منافس - فناداه : أيها المرء . أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، فأطلقه معها ، وقال لها : اذهبي لطيبك^(٣) ، في حديث طويل استوفاه الميداني [في مجمع الأمثال ٢٠/٢٣٤] في الكلام على قوله (أنصر أخاك) إلى آخره .

[حين امرأة إلى زوجها الأول ورجولته]

ويذكر : أن بعض العرب تزوج امرأة ، فبينما هو معها في ذلك العمل من بطن واد ، إذ عن لهم فأرّ أزعجه ، واندش له ، ثم قام يطارده حتى أعياه ، ولم يقدر عليه ، ثم عاد إلى المرأة فلم ينتفع بنفسه ، فتأوهت حتى كادت تنقذ أضلاعها ، كما عاناها ذو الرمة بقوله [في «ديوانه» ١/٣٨١] :

[من البسيط]

يَعْتَادُنِي زَفَرَاتٍ حِينَ أذْكُرُهَا تَكَادُ تَنْقُدُ مِنْهُنَّ الْحَيَازِيمُ

فسألها عن ذلك فلم تخبره ، حتى ألح عليها ، فقالت : كنت مع زوجي الأول على مثل ما كنت معك عليه قبل ، إذ طلع أسد ، فهض له وقده نصفين ، ثم عاد لعملي ، وأتم وطره ، كأن لم يزعجه شيء .

(١) وألت : لجأت وطلبت النجاة .

(٢) الوطب : سقاء اللبن ، وهو جلد الجذع فما فوقه .

(٣) الطيب : الوطن والمنزل .

ويروى [بنحوه في « فصل المقال في شرح كتاب الأمثال » ١ / ٢٠١] : أَنَّ أَعْرَابِيَّةً نَزَلَتْ مَعَ زَوْجِهَا فِي ظِلِّ سَرْحَةٍ مِنْ بَطْنِ وَادٍ ، فَتَأَوَّهَتْ ، فَقَالَ : مَهِيمٌ^(١) ؟ قَالَتْ : كُنْتُ مَعَ سَابِقِكَ هُنَا ، فَإِذَا لَيْثٌ يَزُورُ قَدْ كَثَّرَ عَنْ أَنْيَابِهِ ، فَمَا زَالَ يَصَاوِلُهُ حَتَّى أَرَدَاهُ ، ثُمَّ عَادَ وَشَمَّنِي شَمَّةً ، وَضَمَّنِي ضَمَّةً ، فَيَا لَيْتَنِي كُنْتُ مِثَّ ثَمٍّ ، فَمَا كَادَتْ تُتِمُّ كَلَامَهَا . . حَتَّى أَقْبَلَ الْأَسَدُ ، فَهَضَّ لَهُ ، وَصَنَعَ بِهِ مِثْلَ مَا صَنَعَ الْأَوَّلُ ، عَلَى حَدِّ قَوْلِ أَبِي عَبَادَةَ [في « ديوانه » ١ / ٢١٠] :

حَمَلْتَ عَلَيْهِ السَّيْفَ لَا عَزْمُكَ انْتَنَى وَلَا يَدُكَ ارْتَدَّتْ وَلَا حَدُّهُ نَبَا

ثُمَّ عَادَ وَشَمَّنَهَا وَضَمَّنَهَا ، وَقَالَ لَهَا : أَيْنَ هَذِهِ مِنْ تَلْكَ ؟ فَقَالَتْ : مَاءٌ وَلَا كَصَدَاءِ^(٢) ، وَمَرْعَىٌ وَلَا كَالسَّعْدَانِ^(٣) ، فَطَلَّقَهَا .

* * *

(١) مَهِيمٌ : كَلِمَةٌ تُقَالُ فِي الْاسْتِفْهَامِ ، وَتَعْنِي : مَا حَالِكٌ وَمَا شَانُكَ .

(٢) صَدَاءٌ : اسْمٌ بِثَرٍّ مِنْ أَعْدَبِ الْأَبَارِ ، وَقَوْلُهَا هَذَا أَضْحَى مِثْلًا لِلْإِنْسَانِ الَّذِي يُحَمَدُ أَمْرُهُ أَوْلًا ثُمَّ تَنْطَفِئُ بَعْدَ ذَلِكَ شَمْعُهُ . ذَكَرَهُ الْمِيدَانِيُّ فِي « الْأَمْثَالِ » (٣٨٤٢) .

(٣) السَّعْدَانُ : نَبْتُ مَنْ أَفْضَلَ مِرَاعِي الْإِبِلِ ، وَهُوَ مِثْلُ أَيْضًا عَنِ الْعَبْدِيِّ فِي « تِمَثَالِ الْأَمْثَالِ » (٥٥٩ / ٢) ، وَ« الْمُسْتَقْصَى » (١٢٥٩) .

المجلس التاسع

قال أبو الطيب المتنبي في « العُكْبَرِيِّ » ٣١٣ / ١ :

[مِن الخفيف]

كَمْ قَتِيلٍ - كَمَا قُتِلْتُ - شَهِيدٍ
بِيَّاضِ الطَّلِيّ وَحُمْرِ الخُدُودِ

[الميت عشقاً شهيداً]

يقول : كَمْ قَتِيلٍ مِثْلِي بِيَّاضِ الأَعْنَاقِ وَتورُودِ الخُدُودِ . . . كَانَ قَتْلُهُ شَهَادَةً ، وَ(الطَّلِيّ) : الأَعْنَاقُ ، قَالَ الواحدِيُّ : وَجَعَلَ قَتِيلَ العَشَقِ شَهِيداً . . . مِنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ عَشِقَ ، وَعَفَّ ، وَكَتَمَ . . . كَانَ شَهِيداً » ، وَقَدْ سَبَقَ - فِي المَجْلِسِ الثَّانِي - بَعْضُ مَا يَتَعَلَّقُ بِهَذَا الحَدِيثِ فِي شَرْحِ قَوْلِ النَّاظِمِ [فِي « العُكْبَرِيِّ » ٢٩٨ / ١] : [مِن المَسْرُوحِ] يَا عَاذِلَ العَاشِقِينَ دَعِ فِتْنَةَ أَصْلَهَا اللهُ كَيْفَ تُرْشِدُهَا وَنَزِيدُ هُنَا ، أَنَّ الحَافِظَ علاءَ الدِّينِ أبا عَبْدِ اللهِ مغلطاي قَالَ : هَذَا حَدِيثٌ إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ ، وَإِنْ كَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ العُلَمَاءِ أَعْلَوْهُ بِمَا لَيْسَ بِعَلَّةٍ يُرَدُّ بِهَا .

[الاختلاف في قتيل العشق عند الفقهاء]

وقد اختلفت كلام الفقهاء في شهيد العشق :

فمنهم : من أطلق الشهادة عليه من غير قيد .

ومنهم : من اشترط ما في الحديث ، وما دام مستندهم الحديث : فالمطلق منهم محمول على المقيّد ، وعبارة « النحفة » : وميت عشقاً لمن يحل نكاحها ، بشرط العفة والكتم ، كما في الخبر ، ولا يبعد في عاشق غيرها اضطراراً أنه شهيد أيضاً ، بل واختياراً أيضاً إذا عفّ وكتّم . انتهى .

[لا ينافي الكتم ما ينفث به الشاعر من شكوى الصدود]

ثُمَّ إِنَّهُ لَا يُنَافِي الكَتْمَ مَا يَنْفِثُ بِهِ الشَّاعِرُ مِنْ شَكْوَى الصَّدُودِ وَمَا أَشْبَهُهُ ، وَلَا سِيَّماً إِذَا خَرَجَ الأَمْرُ عَنْ اخْتِيَارِهِ ، مَا لَمْ يَعْزِنْ ، قَالَ فِي « النَحْفَةِ » : مَا لَمْ يَعْرِضْ بِأَمْرَةٍ مَعِيْنَةٍ ، بِأَنْ يَذَكَرَ صِفَاتِهَا مِنْ نَحْوِ طَوْلٍ وَحُسْنٍ وَصُدُغٍ^(١) . . . فَيَحْرُمُ ؛ لِمَا فِيهِ مِنَ الإِيْدَاءِ ، وَهَتِكِ السِّتْرِ ، إِذَا وَصَفَ الأَعْضَاءَ البَاطِنَةَ . وَمَحَلُّهُ فِي غَيْرِ حَلِيلَتِهِ ، أَمَا هِيَ : فَإِنْ ذَكَرَ مِنْهَا مَا حَقُّهُ الإِخْفَاءُ . . . حُرْمٌ كَمَا فِي « شَرْحِ مُسْلِمٍ » ، لَكِنْ جَزْماً بِكِرَاهَتِهِ ، وَإِلَّا . . . فَلَا ؛ فَقَدْ شَبَّ كَعْبٌ بِزَوْجِهِ ، وَلَمْ يَنْكُرْ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ^(٢) .

(١) الصُدُغُ : هُوَ الشَّعْرُ المَتَدَلِّي عَلَى مَا بَيْنَ العَيْنِ وَالأُذُنِ .

(٢) وَذَلِكَ فِي قَصِيدَتِهِ المَشْهُورَةِ :

بَانَتْ سَعَادٌ قَلْبِي اليَوْمَ مَيِّبُولُ
وَمَا سَعَادُ غَدَاةِ اليَمِينِ إِذْ رَحَلُوا
مَنْنِيَمٌ إِنْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ
إِلَّا أَعْنُ غَضِبُضُ الطَّرْفِ مَكْحُولُ

ويقع لبعض فسقة الشعراء نصب قرائن تدل على التعيين ، وهذا لا شك أنه معين . انتهى ما أردت من الكلام باختصار ، وفيه شبه تناقض ، إذ أوله قاض بحرمه التشبيب بالمعينة مطلقاً ، سواء وصف الأعضاء الباطنة أم اقتصر على الظاهرة ، من نحو ما مثل به من الطول والحسن والصدغ ، وقوله بعد ذلك : إذا وصف الأعضاء الباطنة . . قد يخصص الحرمه بحالتيه . إلا أن يقال : إن تحريم التشبيب بالمعينة إن كان بالأوصاف الظاهرة . . فلعله الإيذاء فقط ، وإن كان بالأوصاف الباطنة . . فلعله الإيذاء وهتك الستر .

[القتلى الشهداء عند الشعراء]

وقد قال أبو الوليد الباجي [كما في « تلخيص الحبير » ١٤٢/٢] :

إِذَا مَاتَ الْمُحِبُّ جَوَى وَعَشَقَا قَتْلِكَ شَهَادَةٌ يَا صَاحِحًا حَقًّا
رَوَاهُ لَنَا ثِقَاتٌ عَنْ ثِقَاتٍ إِلَى الْحَبْرِ ابْنِ عَبَّاسٍ تَرَقَّى

وقال الحسن بن هانئ [أبو نواس] :

وَلَقَدْ كُنَّا رَوَيْنَا عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ
عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ قَالَ مَنْ مَاتَ مُحِبًّا
كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّهَادَةِ

ويعجبني قول بعضهم :

لَأُمُّوا عَلَيْنَا وَمَا دَرَوَا أَنَّ الْهَوَى سَبَبُ السَّعَادَةِ
إِنْ كَانَ وَضَلُ فَالْمُنَى أَوْ كَانَ هَجَرُ فَالشَّهَادَةِ

[أصل بيت المتنبي من قول جميل]

وبيت الناظم مأخوذ من قول جميل [في « ديوانه » ٦٤] :

لِكُلِّ حَدِيثٍ بَيْنَهُنَّ بَشَائِئُهُ وَكُلِّ قَتِيلٍ بَيْنَهُنَّ شَهِيدُهُ

وهو البيت الذي فضلته به سكينه بنت الحسين على أقرانه ، في الحكاية المشهورة^(١) .

[المتنبي وقتلى العشق]

وقد تكرر معناه في « ديوان » الناظم ، منه قوله [في « العكبري » ٣٤٢/١] :

وَكَمْ لِلْهَوَى مِنْ فَتَى مُذْنَفٍ وَكَمْ لِلنَّوَى مِنْ قَتِيلٍ شَهِيدٍ^(٢)

وقوله [في « العكبري » ٦/١] :

إِنَّ الْقَتِيلَ مُضَرَّجًا بِدُمُوعِهِ مِثْلُ الْقَتِيلِ مُضَرَّجًا بِدِمَائِهِ

[الكلام على ديوان ابن الفارض]

أمَّا « ديوان ابن الفارض » : فممن فاتحته إلى خاتمته يدور على هذا المحور ، ويؤندن حول هذا المقصود .

(١) والقصة في « الأغاني » (١٧٠/١٦) .

(٢) المدنف : الذي لازمه المرض .

[من فوائد الحب]

وأدنى ما يكون من فوائد الحب : أنه يُلطّفُ ويُنظّفُ ويُظرفُ ، ومتى رقت طبيعة الإنسان . . استعدّ لقبول المواعظ الحسنة ، ومتى قبلها . . تدرّج في معارج السعادة إلى أن ينتهي إلى الغاية التي لا أمد وراءها . . وهي : محبة الله عز وجل ، كما أشرنا إلى ذلك في غير موضع .

[العشق محمود]

فالعشق بأنواعه محمود العاقبة ، ما لم يقترن بمحظور شرعي .

[درء المفسد مقدم على جلب المصالح]

على أن بعض الفقهاء أفتى بأنه يجوز للعاشق أن ينال ما دون الفرج إذا تعيّن طريقاً لشفائه ؛ فقد سئل الرملي عمّن عشق أجنبية ، لو لم يقبلها . . أدّى إلى هلاكه ، فهل يجوز له تقبيلها ؟ ويجب عليها تمكينه ؟ وهل الأمر كذلك ؟ فأجاب بأنه : يجوز تقبيلها ، بل يجب عليه حيث قدر ؛ إبقاء لمهجته ، كما يجب على من غصّ بلقمة إساعتها بالخمير إذا لم يجد غيرها ، وكما يجب على من انتهى به العطش إلى الهلاك . . شربها حيث لم يجد غيرها ، وكما يجب على المضطرّ أكل الميتة .

وقد قال ابن عبد السلام : أجمعوا على دفع أعظم المفسدتين بارتكاب أدونيهما ، ويجب عليها تمكينه ، وحكم الأمر كذلك ، انتهى كلامه باختصار .

وهو ظاهر إلا في وجوب المساعدة على المعشوق ، فإنه محل نظر ؛ لما في الأمر من الخطر ، والرخصة باليقين منوط ، وبالشهادة من الأطباء مشروطة ، وإلا في تقييده . . الإباحة بخشية الهلاك ، ولعلّه بالنسبة لما هو أكبر من القبله مما دون الفرج ، وإلا . . فإنه ليس بأكبر من نظر الطبيب إلى بدن المريضة وجسه .

وقد قال ابن حجر في « تحفته » : يعتبر في الوجه والكف أدنى حاجة ، وفيما عداها مبيح تيمم ، إلا الفرج وقريبه . . فيعتبر زيادة على ذلك ، وهي أن تشتدّ الضرورة ، حتّى لا يعدّ الكشف لذلك هتكاً للمروءة . انتهى .

[سلوا المفتي المكي]

وذكر ابن خلكان أو غيره^(١) : أن سائلاً سأل عطاء ابن أبي رباح عن مثله ، فأجاب بنحوه ، فقال الشاعر : [من الطويل]

سَلُوا الْمُفْتِيَ الْمَكِّيَّ هَلْ فِي تَزَاوُرٍ وَضَمَّةٍ مُشْتَقِ الْفَوَادِ جُنَاحُ ؟
فَقَالَ : مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يُذْهَبَ التُّقَى تَلَاصُقُ أَكْبَادُ بِهِنَّ جِرَاحُ

[إحياء عبد من الناس واجب]

وقال إسحاق بن معاذ المعري [في « روضة المحبين » ١٠٩] :

[من الطويل]

سَأَلْتُ إِمَامَ النَّاسِ نَجَلَ ابْنِ حَنْبَلٍ عَنِ الضَّمِّ وَالتَّقْيِيلِ هَلْ فِيهِ مِنْ بَاسٍ
فَقَالَ : إِذَا جَلَّ الْعَزَاءُ فَوَاجِبٌ لِأَنَّكَ قَدْ أَحْيَيْتَ عَبْدًا مِنَ النَّاسِ

(١) ذكر ذلك ابن قيم الجوزية في كتابه « روضة المحبين » (١٠٧) ، ولم نجدها عند ابن خلكان .

وذكرَ الحاكمُ في « مناقبِ الشافعي » ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْجَهْمِ ، أَنَّهُ قَالَ : سَمِعْتُ الرَّبِيعَ يَقُولُ : حَضَرْتُ الشَّافِعِيَّ بِ(مَكَّةَ) ، وَقَدْ دُفِعَ إِلَيْهِ رُقْعَةٌ فِيهَا :

[مِنَ الطُّوِيلِ]

أَقُولُ لِمُفْتِي خَيْفِ مَكَّةَ وَالصَّفَا
وَهَلْ فِي صَمُوتِ الْحَجَلِ مَهْضُومَةِ الْحَشَا
لَكَ الْخَيْرُ هَلْ فِي وَصْلِهِنَّ حَرَامٌ ؟
عَذَابِ الثَّنَائِيَا إِنْ لَثَمْتُ حَرَامٌ ؟ (١)

[مِنَ الطُّوِيلِ]

فَوَقَّعَ عَلَيْهَا :

فَقَالَ لِي الْمُفْتِي وَفَاضَتْ دُمُوعُهُ
أَلَا لَيْتَنِي قَبَلْتُ تِلْكَ عَشِيَّةً
عَلَى الْخَدِّ مِنْ عَيْنِيهِ وَهِيَ تُؤَامُ (٢)
يَبْطِنُ مِنِّي وَالْمُخْرِمُونَ قِيَامُ

[سؤال ابن نباتة لأبي الفتح السبكي]

وفي « طبقاتِ ابنِ السبكي » [١٨٦/٩] : أَنَّ ابْنَ نَبَاتَةَ سَأَلَ أَبَا الْفَتْحِ السَّبْكَيَّ عَمَّا يَشْبَهُهُ ، فَأَجَابَهُ بِقَرِيبٍ مِمَّا رَوَى عَنْ سَبْكَ (٣) .

[فِيمَ بقاءِ المعشوقِ بعدِ العاشقِ]

وقالَ الجاحظُ : بَلَّغَنِي أَنَّ عَاشِقًا مَاتَ عَاشِقًا بِالْهِنْدِ ، فَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ بَعَثَ إِلَى الْمَعشُوقِ . . فقتلَهُ .

- (١) الْحَجَلُ : الخِلخال . صَمُوتُ الْحَجَلِ : لا يسمعُ لخلخالِها صوتٌ لامتلاءِ ساقِها .
- (٢) تُؤَامٌ : متشابكةٌ .
- (٣) كَتَبَ ابْنُ نَبَاتَةَ إِلَى الشَّيْخِ أَبِي الْفَتْحِ - رَحِمَهُ اللهُ - اسْتِغْنَاءَ صُورَتِهِ :

بَا إِمَامًا قَالَ الْمُقْلَدُ وَالْعَمَا
مَا عَلَى عَائِشِي يَقُولُ عَلَى حُكْمِ
وَأَفْرِ السُّدَيْنِ مَعَ بَسِيْطِ افْتِدَارِ
لَا كَمَنْ يَتَّحِي بِمَعْنَى وَقْفِهِ النَّخْ
لِيْمُ فِيهِ بِوَأَجِبِ التَّضْيِيلِ
مِ التَّدَاوِي بِالضَّمِّ وَالشَّيْبِ
حَلِيزٍ مِنْ عِقَابِ يَوْمِ طَوِيلِ
وَفِيْمَنْ فَعَاءِلِ وَمِنْ مَفْعُولِ

فَأَجَابَهُ :

بَا مَلِيًّا بِكُلِّ فَضْلٍ جَزِيلِ
وَجَمًّا لَا تَجْمَلُ الْعِلْمُ مِنْهُ
جَاءَنِي دُرُّكَ الَّذِي قَلَّدَ النَّخْ
فَتَعَجَّبْتُ نَوْمًا قَلْبُتُ : وَمَنْ يَقُ
جَاءَ فِي صُورَةِ السُّؤَالِ قَقْلُ فِي
فَتَشَمَّمْتُ مِنْهُ رِيحَ شَمَالِ
وَأَتَانِي وَقَدْ فَرَّغْتُ عَنِ الْأُ
فَتَوَقَّعْتُ عَنْ جَرَابٍ وَلَكِنْ
وَجَوَابُ الْهُوَى التَّسَامُحُ فِي الْأُمُ
إِنَّ مَنْ يَدْعِي الْغَرَامَ بِطَبْطَبِي
قَدْ أَسْأَلَ السُّدُورِ مِنْهُ عِذَارُ
كَامِلٌ قَدُهُ بِشَفْرِ مَدِيدِ
لَجْدِيدِ بِكُلِّ عُذْرٍ بَسِيْطِ
وَعَلِيًّا بِكُلِّ وَصْفٍ جَمِيلِ
بِصَفَاتِ زَيْنٍ بِمَجْدِ أُثْمِيلِ
رَبِّعْفِدِ مُضْفِدِ التَّكْلِيبِ
ذِفُ بِاللُّدْرِ غَيْرَ بَخْرٍ أَصِيلِ
سَائِلِ فَضْلُهُ عَلَى الْمَسْئُولِ
وَتَرَشَّفْتُ مِنْهُ طَعْمَ الشُّمُولِ
دَابِ وَالْحُبِّ مِنْ زَمَانِ طَوِيلِ
أَمْرُ مَوْلَايَ وَاجِبُ بِاللَّذِيلِ
رِ فَقُلْ إِنْ أَحْبَبْتَ بِالشَّهِيلِ
صَادَ أَهْلُ الْهُوَى بِطَرْفِ كَجِيلِ
سَائِلِ فِي رِيَاضِ خَدِّ أُبَيْلِ
وَأَفْرِ رِدْفُهُ بِخَضْرِ نَجِيلِ
فِي التَّدَاوِي بِالضَّمِّ وَالشَّيْبِ

[هل من سبيل إلى خمر؟ والفاروق ونصر بن الحجاج]

وكانَ ابْنُ الخَطَّابِ لَيْلَةً يَعْسُ بِـ (المدينة) [كما في «مصرع العناق» ٢/٢٦٦]. . . فسمعَ امرأةً - هِيَ الفارعةُ أُمُّ الحجاجِ ، وكانتَ إِذْ ذاكَ تحتَ المغيرةِ بنِ شعبةٍ - تُغني وتقولُ :

هَلْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى خَمْرٍ فَأَشْرَبَهَا أَمْ هَلْ سَبِيلٌ إِلَى نَصْرِ بْنِ حَجَّاجٍ ؟
فقالَ : أَمَا وعمرُ حيٍّ . . فلا ، فلَمَّا أصبحَ . . بعثَ إلى نصرِ بنِ حجاجٍ ، فإذا رجُلٌ جميلٌ ، فحلَّقَ رأسَهُ ، فظهرَ لَهُ وجهُهُ كأنَّهُ فلقةُ قمرٍ .

وللهِ دُرُّ القائلِ :

حَلَقُوا رَأْسَهُ لِيَكُضُوهُ قُبْحًا خَيْفَةً مِنْهُمْ عَلَيْهِ وَشَحًّا
كَانَ مِنْ قَبْلِ ذَاكَ لَيْلًا وَصُبْحًا فَمَحَوْا لَيْلَهُ وَأَبَقُوهُ صُبْحًا
فقالَ عمرُ لَهُ : اخرج ، لا تُساكِنِي بِـ (المدينة) ، فخرجَ إلى (البصرة) .

[تعلق امرأة مجاشع بن مسعود بنصر بن الحجاج وتعلقه بها]

وكانَ يَدْخُلُ على مجاشعِ بنِ مسعودٍ [كما في «مصرع العناق» ١/٢٧٩] ، وكانتَ لَهُ امرأةٌ جميلةٌ ، فأعجبَها نصرٌ ، وأحبتَهُ وأحبَّها ، فبينما هُم جالسونَ . . كتبَ نصرٌ في الأرضِ ، فقالتِ المرأةُ : وأنا ، فعلمَ مجاشعٌ أَنَّها جوابُ كلامٍ ، وكانَ لا يكتبُ ، فكفأَ عليها إناءً ، ودعا كاتباً ، فإذا هُوَ : إِنِّي لأُحِبُّكَ حبًّا ؛ لو كانَ فوقَكَ . . لأظَلِّكَ ، ولو كانَ تحتَكَ . . لأنلِّكَ ، وبلغَ نصرًا ما فعلَ مجاشعٌ ، فاستحيا ، ولزَمَ البيتَ ، واعتلَّ ، ووضيَ جسمُهُ حتَّى صارَ كالفرخِ ، فقالَ مجاشعٌ لامرأتهِ : اذهبي إليهِ ، فأسندِيهِ إلى صدْرِكَ ، وأطعمِيهِ الطعامَ بيدِكَ ، فأبَتْ ، فعزمَ عليها ، فأنتَهُ ، وأسندتهِ إلى صدرِها ، وأطعمتهُ بيدها ، فدبَّ البرءُ فيه من وقتِهِ ، حتَّى قالَ بعضُ مَنْ حضرَ : قاتلَ اللهُ الأَعشى إِذْ يقولُ [في ديوانِهِ] ١٥٢ :

لَوْ أَسْنَدَتْ مَيْتًا إِلَى صَدْرِهَا عَاشَ وَلَمْ يُنْقَلِ إِلَى قَابِرِ
ثمَّ اختلفتِ الروايةُ ، فقيلَ : إِنَّهُ تماثلَ وخرجَ مِنَ (البصرة) ، وقيلَ : إِنَّهُ عاودهَ المرضُ بعدَ انصرافِها ، ولم يزلَ لِمَا بِهِ حتَّى ماتَ ، وفي الخبيرِ طولٌ ، وموضعُ الشاهدِ منه : هُوَ أَنَّهُ يباحُ مثلُ ما فعلَهُ [مُجاشعٌ] بنُ مسعودٍ عندَ الضرورةِ ، إِذا تَعَيَّنَ طريقًا للدواءِ ، كما مرَّ .

[بعض أهل الأدب والإمام مالك]

وجاءَ بعضُ أهلِ الأدبِ إلى إمامِ دارِ الهجرةِ ، فقالَ لَهُ : اجعلني في حلٍّ مِنْ آياتِ قلتُها وذكرْتُكَ فيها ، فتغيَّرَ وجهُ الإمامِ وظنَّ أَنَّهُ هجاهُ ، وأحلَّهُ معَ ذلكَ ، ثمَّ استنشدَهُ الأبياتَ ، فإذا هِيَ تشبهُ ما سبقَ عنِ الشافعيِّ لفظاً ومعنىً ، فسُرِّيَ عنه^(١) .

(١) الرجلُ الذي أتى الإمامَ مالكاَ - رحمه اللهُ تعالى - هُوَ : ابنُ سرحونَ السلميِّ .

[حكم الإحلال من الغيبة قبل العلم بتفصيلها]

وفي الإحلال من الغيبة ، قبل العلم بتفصيلها . . خلاف ، وعبارة « التُّخْفَةِ » : ولا أثر لتحليل وارث ، ولا مع جهل المُعْتَابِ بما تحلّل منه ، كما في « الأذكار » . انتهى .

ثم رأيت ابن السبكي - بعد أن استوفى القصة وذكر الآيات في الكلام على ابن الفركاح^(١) - يقول [كما في « الطبقات » ٣٢٧/٩] : وفي هذا من مالك دليل على جواز الإبراء عن الكلام في العرض ، وإن كان مجهولاً ، وأنه كان يرى التحليل من هذا أولى من عدمه .

ونقل أبو الوليد ابن رُشد^(٢) أن مذهب الشافعي . . أن ترك التحليل من الظلمات والتبعات أولى ؛ لأن صاحبها يستوفى يوم القيامة بحسنات من هي عنده ، وبوضع سيئاته على من هي عنده ، كما شهد به الحديث ، وهو لا يدري هل يكون أجره على التحليل موازياً ما له من الحسنات في الظلمات ، أو يزيد أو ينقص ، وهو محتاج إلى زيادة حسناته ونقصان سيئاته ؟

قال : ومذهب غيره : أن التحليل أفضل مطلقاً ، قال : ومذهب مالك التفرقة بين الظلمات فلا يحلّل منها ، والتبعات فيحلّل منها ؛ عقوبة لفاعل الظلمات ، وهو تفصيل عجيب . انتهى .

وفي أواخر الغيبة من كتاب آفات اللسان من « الإحياء » [٣/١٥٠] و« شرحه » . . ما يتعلق بذلك ، فليرجع إليه من لم يكتف بهذا .

[الفضيل بن عياض يمتنى الدعاء للعشاق]

وكان الفضيل بن عياض يقول : لو أن لي دعوة مجابة . . لدعوتُ الله أن يغفر للعشاق ؛ لأن حركاتهم اضطرارية لا اختيارية .

[الدعاء للعشاق أفضل من عمرة]

ورئي أبو السائب المخزومي متعلقاً بأستار الكعبة ، وهو يقول [كما في « روضة المحبين » ١٣٤] : اللهم ، ارحم العاشقين ، وقو قلوبهم ، وعطف عليهم قلوب المعشوقين ، فليل له في ذلك : فقال : والله للدعاء لهم . . أفضل من عمرة من (الجعرانة)^(٣) ، ثم أنشد :

يَا هَجْرُ كُفِّ عَنِ الْهَوَىٰ وَدَعِ الْهَوَىٰ
مَآذَا تُرِيدُ مِنَ الَّذِينَ جُفُونُهُمْ
لِلْعَاشِقِينَ يَطِيبُ يَا هَجْرُ
مِمَّا تَجِرُ قُلُوبُهُمْ صُفْرُ
قَرَحَىٰ وَحَشَوُ قُلُوبِهِمْ جَمْرُ ؟
دُرَّرَ تَفِيضُ كَأَنَّهَا قَطْرُ
وَسَوَابِقُ الْعَبْرَاتِ فَوْقَ خُدُودِهِمْ

(١) ابن الفركاح : هو عبد الرحمن بن إبراهيم ، مؤرخ من علماء الشافعية ، توفي سنة : (٦٩٠هـ) .

(٢) ابن رشد : هو محمد بن أحمد ، قاضي الجماعة بـ (قرطبة) ، من أعيان المالكية ، الحافظ الناقد ، توفي سنة : (٥٢٠هـ) .

(٣) الجعرانة : موضع بين (مكة) و (الطائف) على سبعة أميال من (مكة) .

[تفسير : لا تحملنا ما لا طاقة لنا به]

وقال بعضهم [كما في « روضة المحبين » ١٣٥] : في تفسير قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] : إنه العشق .

[تفسير : خلق الإنسان ضعيفاً]

وقال عبيد بن طاووس في قوله تعالى : ﴿ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء : ٢٨] : يعني : أنه لا يصبر أن ينظر إلى النساء .

[حكم النظر إلى الأجنبية]

وفي مجرّد النظر . . . كلام يطول ، وقيناه حقه من التحقيق في كتابنا « بلابل التفريد » حينما تكلمنا على ما جرى للفضل بن العباس مع الخثعمية ، وهو رديف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم^(١) .

ومنه قول الإمام الرافعي : النظر إلى وجه الأجنبية وكفها حرام مع خوف الفتنة ، وإلا . . . فوجهان :

[الأول] : قال أكثر الأصحاب - لا سيما المتقدمون - : يحل ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ [النور : ٣١] وهو مفسّر بالوجه والكفين ، لكن يكره ، قاله الشيخ أبو حامد .

والثاني : يحرم ، قاله الإصطخري وأبو علي الطبري ، واختاره الشيخ أبو محمد ، وبه قطع صاحب « المهدب » .

[الجمع بين العاشقين]

ويروى : أن معاوية ابن أبي سفيان اشترى جارية من (البحرين) ، فأعجب بها إعجاباً شديداً ، ثم سمعها يوماً تقول :

وَفَارَقْتُهُ كَالْغُصْنِ يَهْتَزُّ فِي الثَّرَى طَرِيراً وَسِيماً بَعْدَ مَا طَرَّ شَارِبُهُ^(٢)

فسألها من هو ؟ فقالت : ابن عم لي ، فردّها إليه ، وفي قلبه منها حرّ النار .

وما أحسن قول بعضهم - [البحتري في « ديوانه » ٣/١٧٦٢] [من الخفيف] وسعاد عند ذكر الآثار من المجلس الحادي عشر ؛ لأنه بها أنسب - وهو :

قِفْ مَشُوقاً أَوْ مُسْعِداً أَوْ حَزِيناً أَوْ مُعِيناً أَوْ عَاذِراً أَوْ عَاذُولا^(٣)

ويروى : أن زبيدة استمعت في حجّها لصب يترنم بأبيات ، فجمعت بينه وبين عشيقته ، واعتدت ذلك من أفضل أعمالها ، كما سبق ذلك في المجلس السابع .

(١) أخرجه عن جابر بن عبد الله أحمد في « المستد » (٢١٧/٣) ، والبخاري (١٥٥٧) ، ومسلم (١٢١٨) ، وفيه : (وأردف الفضل بن عباس ، وكان رجلاً حسن الشعر أبيض وسيماً ، فلما دفع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرت به طعن يجرين ، فطفق الفضل ينظر إليهن . . .) .

وعند الترمذي (٨٨٥) عن علي قال صلى الله عليه وآله وسلم : « رأيت شاباً وشابة فلم آمن الشيطان عليهما » .

(٢) الطري : ذو الهيئة الحسنّة .

(٣) المُسعد : المعين ، وقيل : المعين على البكاء .

أَمَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْعَفَافِ : فَمِنْ خَيْرٍ مَا فِيهِ حَدِيثُ الشَّيْخَيْنِ ، فِي الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ انطَبَقَ عَلَيْهِمُ الْغَارُ^(١) .

[بشر الأسدي وهند الجهنية وموتهما]

وحديثُ بَشْرِ الْأَسَدِيِّ وَهَنْدِ الْجَهَنِّيَّةِ ، وَكَانَتْ بِ(الْمَدِينَةِ) عَلَى مَرِّ بَشْرِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، فَعَلَّقَتْهُ وَتَعَرَّضَتْ لَهُ ، فَلَمْ يُجِبْهَا إِلَى مَا تَرِيدُ ، وَلَمَّا رَأَى إِلْحَاحَهَا . . . تَرَكَ تِلْكَ الطَّرِيقَ وَعَادَ يَأْتِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَيْرِهِ ، فَاشْتَمَلَ عَلَيْهَا الْفَرَّاشُ ، وَهَمَّ زَوْجُهَا أَنْ يَتَطَبَّبَ لَهَا ، فَقَالَتْ لَهُ : لَا تَفْعَلْ ، وَأَنَا أَعْرِفُ بَعَلَّتِي ، وَاحْتَالَتْ عَلَى زَوْجِهَا حَتَّى انْتَقَلَ بِهَا إِلَى مَوْضِعٍ يَشْرَفُ عَلَى الطَّرِيقِ الَّتِي يَمُرُّ فِيهَا بِشْرٌ ، فَكَانَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ كُلَّمَا اجْتَازَ ، فَتَمَاتَلَتْ ، ثُمَّ أَفْضَتْ بِشَأْنِهَا إِلَى عَجُوزٍ ، فَوَعَدَتْهَا أَنْ تَجْمَعَهَا بِهِ ، ثُمَّ تَعَرَّضَتْ لَهُ وَقَالَتْ : إِنَّ مَعِيَ كِتَابًا أُرِيدُ أَنْ تَقْرَأَهُ لِي ، فَقَرَأَهُ لَهَا ، وَهَنْدٌ تَسْمَعُ كَلَامَهُ ، ثُمَّ مَا زَالَتْ الْعَجُوزُ تَحْتَيِّنُ الْفُرْصَ . . . حَتَّى خَرَجَ زَوْجُ الْمَرْأَةِ لِبَعْضِ شَأْنِهِ ، فَاحْتَالَتْ عَلَى بَشْرِ حَتَّى جَاءَتْ بِهِ إِلَى عِنْدِ الْجَهَنِّيَّةِ ، وَأَغْلَقَتْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ ، فَجَاءَ زَوْجُ الْمَرْأَةِ وَطَلَّقَهَا بِمَجْرِدِ مَا رَأَى الْوَاقِعَ ، ثُمَّ رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ لَهُ : سَلُهُ لِمَ دَخَلَ دَارِي بِلَا اسْتِذْنَانٍ ؟ فَقَالَ بَشْرٌ : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ ، مَا كَفَرْتُ مِنْذُ أَسْلَمْتُ ، وَلَا زَيْتُ مَذْعَرْتُكَ ، وَلَكِنَّ الْحَالَ كَذَا ، وَبَقَرُ لَهُ الْحَدِيثُ . . . فَأَدَّبَ الْعَجُوزَ ، وَقَالَ لَهَا : أَنْتِ أَصْلُ الْبَلِيَّةِ ، وَانصَرَفُوا ، وَلَمْ يَلْبَثْ بِشْرٌ أَنْ ابْتَلَى بِمَحَبَّةِ هِنْدٍ ، وَرَاسَلَهَا فَامْتَنَعَتْ ، فَلَمْ يَزَلْ حَتَّى مَاتَ ، فَجَاءَتْ لِتَشْهَدَ جَنَازَتَهُ ، وَعِنْدَمَا رَأَتْهَا . . . سَقَطَتْ مَيِّتَةً ، وَدُفِنَا مَعًا ، فَجَاءَتْ الْعَجُوزُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ تَعْتَذِرُ إِلَيْهِ ، وَتُخْلِصُ فِي التَّوْبَةِ ، هَذَا حَاصِلُ الْخَبَرِ فِيهِ طَوَّلٌ ، وَهُوَ مَشْهُورٌ ، ذَكَرَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ ، وَلَا مَخَالَفَةَ فِي أَخْذِ هَذَا بِالْعَزِيمَةِ لشيءٍ مِمَّا سَبَقَ .

[في النساء صباحة وفي الفتيان عفة]

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ عَقَبَةَ لِأَعْرَابِيٍّ [كَمَا فِي «مِصَارِعِ الْعِشَاقِ» ٢/١٨٦] : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : مِنْ قَوْمٍ إِذَا عَشِقُوا . . . مَاتُوا ، قَالَ : عَذْرِيَّ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ ، قَالَ : وَلِمَ ؟ قَالَ : لِأَنَّ فِي نَسَائِنَا صَبَاحَةً ، وَفِي فِتْيَانِنَا عَفَّةً .

[مرضئ ليس لهم داء إلا الحب]

وَقَالَ رَجُلٌ لِعُرْوَةَ بْنِ حِزَامٍ : أَصَحِّحٌ مَا يُقَالُ : إِنَّكُمْ أَرَقُّ النَّاسِ قُلُوبًا ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَلَقَدْ تَرَكْتُ فِي الْحَيِّ ثَلَاثِينَ شَابًا خَامَرَهُ الْمَوْتُ ، وَمَا لَهُمْ دَاءٌ غَيْرُ الْحَبِّ .

[لورا يتم النواظر الدعج]

وَقَالَ رَجُلٌ مِنْ فِزَارَةَ لِرَجُلٍ مِنْ عَذْرَةَ [كَمَا فِي «مِصَارِعِ الْعِشَاقِ» ١/٢٠٤] : إِنَّكُمْ تَعْدُونَ الْمَوْتَ بِالْحَبِّ مَزِيَّةً وَفَضِيلَةً ، وَإِنَّمَا هُوَ ضَعْفٌ وَخَوْرٌ فِي طَبَاعِكُمْ ، فَقَالَ لَهُ : أَمَا وَاللَّهِ لَوْ رَأَيْتُمْ النَّوَاطِرَ الدُّعْجَ^(٢) ، فَوْقَهَا الْحَوَاجِبُ الزُّجُ ، تَحْتَهَا الْمَبَاسِمُ الْفُلُجُ ، وَالشَّفَاهُ السُّمُرُ . . . لَا تَخَذُّمُوهَا اللَّاتَّ وَالْعَزَى ، ثُمَّ أَشَدَّ : [مِنَ الطَّوِيلِ]

تَبَعْتُ مَرْمَى الْوَحْشِ حَتَّى رَمَيْتَنِي مِنْ النَّبْلِ لَا بِالطَّائِشَاتِ الْخَوَاطِفِ^(٣)

(١) أخرجه عن ابن عمر رضي الله عنهما البخاري (٢٢٧٢) و(٣٤٦٥) ، ومسلم (٢٧٤٣) .

(٢) النواظر : العيون . الدعج : سواد العينين مع سعتهما .

(٣) السهم الطائش : الذي يحيد عن الهدف . الخواطف : السهام التي تقع على الأرض .

ضَعَائِفُ يَفْتُلْنَ الرَّجَالَ بِلَا دَمٍ قِيَا عَجَبًا لِلْقَاتِلَاتِ الضَّعَائِفِ

[عفة الرشيد]

وعشق الرشيدُ جاريةً ، فلَمَّا رَاوَدَهَا عن نَفْسِهَا . . . قَالَتْ لَهُ : إِنَّ أَبَاكَ قَدْ أَلَمَّ بِي ، فَكَفَّ عَنْهَا حَتَّى كَادَتْ تَتَلَفُ نَفْسَهُ ، فَقَالَ [في «ديوانه» ٣٠] :

أَرَى مَاءً وَيَبِي عَطَشٌ شَدِيدٌ وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى الْوُرُودِ

فَقَالَ لَهُ بَعْضُ الْقَضَاةِ : أَوْ كَلِّمَا قَالَتْ جَارِيَةٌ شَيْئًا صَدَّقَتْهَا !؟

قَالَ بَعْضُهُمْ : فَتَعَجَّبَ مِنْ وَرَعِ الْجَارِيَةِ ، وَعَفَّةِ الرَّشِيدِ ، وَسُوءِ نِيَّةِ الْقَاضِي ، وَسُقُوطِ نَفْسِهِ .

[المتنبي والعفاف]

وما زالت العربُ تفتخرُ بالعفافِ ، ومن أحسنِ ما فيه قولُ الناظمِ [في «المكبري» ٣/٢٩٨] :

عَفِيفٌ تَرُوقُ الشَّمْسُ صُورَةً وَجِهَةً فَلَوْ نَزَلَتْ يَوْمًا لَحَادَ إِلَى الظِّلِّ^(١)

وقوله [في «المكبري» ٢/٣٠٦] :

وَمَا كُلُّ مَنْ يَهْوَى يَعْفُ إِذَا خَلَا عَفَافِي وَيُضِضِي الْحَبَّ وَالْخَيْلُ تَلْتَقِي^(٢)

وقوله [في «المكبري» ١/٢٦٨] :

يَرُدُّ يَدَا عَن ثُوبِهَا وَهُوَ قَادِرٌ وَيَعْصِي الْهَوَى فِي طَيْفِهَا وَهُوَ رَاقِدٌ

وقوله [في «المكبري» ١/٢٢٧-٢٢٦] :

وَتَرَى الْفُتُوَّةَ وَالْمُرُوَّةَ وَالْأُبُوَّةَ فِي كُلِّ مَلِيحَةٍ ضَرَاتِهَا
إِنِّي عَلَى شَغْفِي بِمَا فِي خُمْرِهَا لِأَعْفُ عَمَّا فِي سَرَائِلَاتِهَا^(٣)

ومرَّ بعضُ ما يشبهُ ذلكَ في أوائلِ المجلسِ الثاني .

[المرأة المتعرضة لطاووس]

وتعرَّضتْ لطاووسِ امرأةٌ ، فواعدَها المسجدَ ، فلَمَّا حضرتْ إليه والرحبةُ ملآنةٌ . . . قَالَ : هَلْهَنَا ، قَالَتْ : أَلَا تَرَى النَّاسَ ؟ قَالَ : إِنَّ مَوْلَاهُمْ يَرَانَا حَيْثُمَا كُنَّا ، فَاقشَعَرَتِ الْمَرْأَةُ ، وَتَابَتْ وَانزَجَرَتْ .

[لا يرانا إلا الكواكب]

وقالَ أعرابيٌّ : خرجتُ في لَيْلَةٍ حَالِكَةٍ ، فَإِذَا بِجَارِيَةٍ كَأَنَّهَا عَلِمٌ . . . فَرَاوَدْتُهَا ، فَقَالَتْ : أَمَا لَكَ زَاجِرٌ مِنْ عَقْلِ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ نَاهٍ مِنْ دِينٍ ؟ فَقُلْتُ : إِنَّهُ لَا يَرَانَا إِلَّا الْكَوَاكِبُ ، قَالَتْ : وَأَيْنَكَ عَنْ مُكْوَبِهَا !؟

(١) ترُوقُ : تعجبُ .

(٢) يقولُ : ليسَ كُلُّ عاشِقٍ شجاعاً مثلي ، يعني : أَنَّهُ يَشْجَعُ فِي الْوَعْدِ ، وَيَعْفُ عِنْدَ الْهَوَى .

(٣) خُمْرُهَا : جمعُ خُمَارٍ ، وَهُوَ مَا تَغْطِي بِهِ الْمَرْأَةُ رَأْسَهَا . . . وَالسَّرَائِلَاتُ - جمعُ السَّرْبَالِ - : وَهُوَ الْقَمِيصُ ، وَالْمَعْنَى : أَنِّي مَعَ حُبِّي لَوَجْهِهِنَّ أَعْفُ عَنْ أَسْرَائِلِهِنَّ .

[يجب أن تكون عالماً بالمساحة]

واجتمع بعض الأعرابِ بامرأةٍ ، فلمَّا قعدَ مِنْهَا مقعدَ الرجلِ مِنَ المرأةِ . . ذكرَ الآخرةَ فاستعصمَ وقامَ عَنهَا ، وَقَالَ :
إِنَّ مَنْ بَاعَ جَنَّةَ عَرْضِهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ بِمِقْدَارِ أَرْبَعَةِ أَصَابِعٍ لِقَلِيلِ الْعِلْمِ بِالْمِسَاحَةِ .

[تساوي النساء في البضاعة]

وانقطعَ بعضُ أولادِ الملوكِ عن أصحابِهِ ، ودخَلَ منزلَ امرأةٍ أعجبتُهُ فراودَهَا ، فقَالَتْ : حَتَّى تَتَغَدَّى ، وَقَدَّمَتْ لَهُ
خُواناً^(١) عَلَيْهِ عَشْرُونَ سُكَّرُجَةً^(٢) كُلُّهَا بِطَعْمٍ وَاحِدٍ ، فَفِطِنَ إِلَى أَنَّهَا تُشِيرُ إِلَى تَسَاوِي النِّسَاءِ ، وَأَنَّ الَّذِي مَعَهَا مِثْلُ
الَّذِي مَعَ زَوْجَتِهِ فَانكَفَتْ عَنهَا .

وفي « الصحيح » : ما معناه : « أَيُّمَا رَجُلٍ أَعْجَبْتُهُ امْرَأَةٌ . . فَلْيَذْهَبْ إِلَى امْرَأَتِهِ ؛ فَإِنَّ مَعَهَا مِثْلَ الَّذِي مَعَهَا »^(٣) .

[الخلوة والعفة]

وقال بعضهم :

[مِن الطويل]

خَلَوْتُ بِهَا لَيْلًا وَلَمْ أَقْضِ حَاجَةً وَلَسْتُ عَلَى ذَاكَ الْعَفَافِ بِنَادِمٍ

[مِن الطويل]

وسمعت امرأة رجلًا ينشد :

وَكَمْ لَيْلَةٍ قَدْ بَتُّهَا غَيْرَ آئِمٍ بِمَهْضُومَةٍ الْكَشْحَيْنِ رِيَانَةَ الْقَلْبِ

فقالت له : أخزأك الله ، ألا أكرمت مثواها ، وجبرت خاطرها ، لَمَا وَقَعَتْ فِيهِ مِنَ الْإِثْمِ . . شَرًّا مِمَّا تَرَكْتَهُ .

[هذا مهري فاخطبني]

وافتننت امرأة من العرب بفتى ، فدعاها يوماً . . فأجابته ، فغنى مغن عندهما بهذا :

[مِن الوافر]

مِنَ الْخَفِرَاتِ لَمْ تَفْضَحْ أَحَاهَا وَلَمْ تَرْفَعِ لِوَالِدِهَا شَنَارًا^(٤)

فقالت : معاذ الله أن أتدنس بما يجلب المذمة بعد هذا ، ثم بعثت للفتى بألف دينار ، وقالت : هذا مهري ، فإن
أردتني . . فاخطبني من أهلي .

[شهادة عمر ابن أبي ربيعة على نفسه عند وفاته]

ولمَّا اشتدَّ المرضُ بعمرِ ابنِ أَبِي رِبِيعَةَ . . بكى أخوه ، ورفع إليه طرفه ، وقال : لعلك تُشْفِقُ عَلَيَّ مِمَّا تَنْظُرُ ؛ بِسَبَبِ
مَا تَسْمَعُ مِنْ شِعْرِي ، قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : مَا أَمْلِكُ عِتْقَ إِنْ كُنْتُ وَطِئْتُ امْرَأَةً حَرَامًا قَطُّ ، فَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ ، لَقَدْ
هُونَتْ عَلَيَّ الْأَمْرَ .

(١) الخوان : ما يؤكل عليه .

(٢) السكُّرُجَةُ : إناءٌ صغيرٌ يؤكل فيه الشيء القليل من الأدم .

(٣) أخرجه عن جابر رضي الله عنه ابن حبان في « صحيحه » (٥٥٧٢) ولفظه :

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ رَأَى امْرَأَةً ، فَدَخَلَ عَلَى زَيْنَبَ ، فَقَضَى حَاجَتَهُ ، وَقَالَ : « إِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا أَقْبَلَتْ . . أَقْبَلَتْ فِي صُورَةِ شَيْطَانٍ ، فَإِذَا رَأَى
أَحَدَكُمْ امْرَأَةً أَعْجَبْتَهُ . . فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ ؛ فَإِنَّ مَعَهَا مِثْلَ الَّذِي مَعَهَا » . بإسناد صحيح ، وينحوه عند مسلم (١٤٠٣) ، وأبي داود (٢١٥١) ، والترمذي
(١١٥٨) .

(٤) الشنار : الفضيحة والعار .

[العفة في العشق]

وقال أبو زيد : كان الرجل إذا عشق امرأة ، فراسلها سنة . رضي بأن تمضغ علكاً فتبعته إليه .

[الأحوص يشبب بأمر جعفر وهو لا يعرفها]

ولمّا أكثر الأحوص التشبيب بأمر جعفر الخطميّة . . انتقبت وجاءته ، وهو في نادي قومه ، فقالت : ادفع ثمن الأغنام التي ابتعت مني ، قال : ما ابتعت منك شيئاً ، فقالت لقومه : قولوا له : لا يجحد الحق ، فقالوا له : إن كان حقاً ما تقول . . فلا ينبغي الجحود ، قال : والله ما عرفتها قط ، فارتفع الشجار ، واشتدّ الخصام ، وكشفت عن وجهها ، وقالت : لعله لم يستبني ، فلينعم النظر ، فقال : والله ما عرفتها ولا رأيتها منذ خلقني الله تعالى ، فقالت : ما بالك تشبب بي وتفضحني ؟! فخرج وانزجر ، وكذبت عشيرته .

وقد ذكرنا في « بلابل التغريد » جملةً صالحةً من أشعار العرب في العفاف ، لا بأس إن أعدنا منها ما يقتضيه الاستطراد في مجلس آخر .

يعجني قول الرضيّ [في « ديوانه » ٢/٦٥٠] :

[من البسيط]

دُونَ الْقَبَابِ عَفَافٌ مِنْ خَلَاتِقِهَا وَالصَّوْنُ يَحْفَظُ مَا لَا تَحْفَظُ الْخِيَمُ

[العاشقون في الطواف والعاشق المأجور]

وسمع بعض الشّاك امرأةً في المطاف تقول لأختها كما في « مصارع العناق » (٢/٢١٧) :

[من البسيط]

لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ مَعْشُوقَةٍ عَمَلًا يَوْمًا وَعَاشِقُهَا غَضَبَانٌ مَهْجُورٌ

[من البسيط]

فَقَالَتِ الْأُخْرَى :

وَلَيْسَ يَأْجُرُهَا فِي قَتْلِ عَاشِقِهَا لَكِنَّ عَاشِقَهَا فِي ذَلِكَ مَاجُورٌ

فقال لهنّ : في مثل هذا الموطن تقلن هذا ؟ فقالت له إحداهنّ : إليك عنا ، فإنه الحبّ ، قال : وما هو ؟ قالت - كما سبق في المجلس الأوّل - : جلّ عن أن يخفى ، وخفي عن أن يرى ، فهو كامن في الأحشاء كمن النار في الزناد ، إن قدحت وري ، وإن تركته توارى ، ثمّ أنشدت قول جرير - السابق مع ما يناسبه أوائل المجلس الثاني - وهو [في « ديوان بشر » ٤/١٩٢] :

[من الكامل]

حُورٌ حَرَائِرُ مَا هَمَمْنَ بِرِيَّةٍ كَطَبَاءِ مَكَّةَ صَيْدُهُنَّ حَرَامٌ
يُحْسِبْنَ مِنْ لِينِ الْحَدِيثِ زَوَانِيًا وَيَصُدُّهُنَّ عَنِ الْخَنَا الْإِسْلَامُ

[اللهم لا تعذب هذه الوجوه المليحة بالنار]

ويروي [بنحوه في « بغية الطلب في تاريخ حلب » ٩/٤١٣٣] : أنّ ابن أبي حازم سمع امرأتين ترفثان في المطاف ، وكانتا على غاية من الجمال ، ولمّا عاتبتهما . . قالت له إحداهنّ : دعنا عنك ، فإننا ممّن قيل فيهنّ :

[من الطويل]

أَمَاطَتْ رِذَاءَ الْحَزِّ عَن حُرِّ وَجْهِهَا وَأَلْقَتْ عَلَى الْمَتْنَيْنِ بُرْدًا مُهْلَهَلًا^(١)
هُنَّ اللَّاءُ لَمْ يَحْجُجْنَ يَبْغِينَ قُرْبَةً وَلَكِنْ لِيَقْتُلْنَ الْبَرِيءَ الْمُغْفَلًا

(١) ثوب مهلهل : سخيف السج .

فلم يكن منه إلا أن رفع يديه إلى السماء ، وقال : اللهم لا تعذب هذه الوجوه المليحة بالنار ، فانتهي الخبر إلى الشعبي ، فقال : ما أرق نسيم أهل الحجاز ، أما لو كان أحدنا مكانه . . قال لهن : اخزين يا عدوات أنفسهن ، عليكن كذا وكذا .

* * *

[من الخفيف]

[قال أبو الطيب المتنبي في « العكبري » ٣١٥/١] :

يَتَرَشَّفْنَ مِنْ فَمِي رَشَفَاتٍ هُنَّ فِيهِ أَحْلَى مِنَ التَّوْحِيدِ

[الأقوال والتأويلات في شرح المطلع]

قال بعضهم : (التوحيد) نوع من التمر ، وهو المراد ، وهذا كلام بارد ، لا يقوله إلا ثقیل ، ولا يقبله إلا أثقل منه ، وقيل : إن المراد من التوحيد الأفراد ، ومعناه أن الرشفات المتعدّات . . أحلى من الواحدة ، وهذا أبرد وأثقل وأقبح ، والصحيح : أن المراد بالتوحيد كلمته ، فإن قالوا هذا إفراط . . قلنا : لا - وإن كان المتنبي لا يبالي بالإفراط - ولكن هذا ليس منه ، والجواب من وجوه :

أحدها : أن أفعل التفضيل هنا للمقاربة في التشبيه ، لا للتفضيل ، وهو ما ذكره الشارح .

ثانيها : أنه أخبر بحاله ، وأن الشهوات عنده أحلى من العبادات ، وهي حال الجماء الغفيرة من الناس ، ولولا لَمَّا شرع التوب في أذان الصبح ، وهو أمر طبيعي ، لا يؤخذ به المكلف . ومتى جعل المتنبي كلمة التوحيد مضرب المثل في الحلاوة ؟! إلا أن الرشفات عنده أحلى منها ، فحلاه ذم ؛ وإن ذلك لكثير منه .

وقد قال السبكي : ليس من التنقيص قول من سُئل عن شيء : لو جاءني جبريل أو النبي . . ما فعلته ؛ لأن هذه العبارة تدل على تعظيمه عنده .

وما أرى الناظم يريد هذا المعنى ؛ لأنه لا يناسب حاله ، وإنما أراد أن الرشفات عنده . . أحلى من كلمة التوحيد عند العارفين ، ومع ذلك فأبي واعظ لا يقول : ما للشهوات أحب إليكم من الصلوات ؟ وقد شملتكم القساوة حتى صار اللهو عندكم ألد من التلاوة ، والله جل شأنه يقول : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ [البقرة : ٤٥] .

ولو كان الناظم ممن يجد للتوحيد أدنى حلاوة . . لنفعه ذلك ، فقد أخرج أحمد [في « مسنده » ٤٤٧/٢] : بسند جيد عن أبي هريرة ، أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم : إن فلانا يُصلي ، فإذا كان من آخر الليل . . سرق ، فقال له صلى الله عليه وآله وسلم : « أما إنه سيئها ما تقول » أو ما هذا معناه .

[ليس التسبيح مشابهاً لحالك]

وذكرت به ما روي : أن عبد الله بن جعفر ، مرَّ بامرأة مُزَيَّنَةٍ مطيَّبة ، جالسة على باب دارها ، تسبح الله وتذكره ، فقال لها : ما التسبيح بمشابه لحالك ، فأشدت :

[من الطويل]

وَلِلَّهِ عِنْدِي جَانِبٌ لَا أُضِيعُهُ وَاللَّهُ مِنِّي وَالْبَطَالَةَ جَانِبٌ

وَأِنَّمَا يَنْصَبُ اللَّوْمُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ . . عَلَى مِثْلِ قَوْلِ أَبِي عِبَادَةَ « فِي « دِيْوَانِهِ » ٢٢٥٠/٤ : [مِنَ الْبَسِيطِ]

إِنِّي أَعُدُّكُمْ رَهْطِي وَأَجْعَلُكُمْ أَحَقَّ بِالصَّوْنِ مِنْ عِرْضِي وَمِنْ دِينِي

[العفو عن حديث النفس]

فَإِنَّ مَا يَجِدُهُ الْإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ ، مِنْ اسْتِمْرَاءِ الشَّهَوَاتِ أَكْثَرَ مِنَ الْعِبَادَاتِ . . فَغَيْرُ مَلُومٍ فِيهِ مَتَى جَاهَدَ نَفْسَهُ ، وَاحْتَرَمَ دِينَهُ .

[صور من تناقض المتنبي]

ثُمَّ إِنَّ النَّازِمَ كَثِيرُ التَّنَاقُضِ - كَمَا قَرَّرْنَاهُ غَيْرَ مَرَّةٍ - وَمِنْ تَنَاقُضِهِ قَوْلُهُ هُنَا : (يَتَرَسَّفَنَّ) وَفِحْوَاهُ : أَنَّهُ لَا يَتَرَسَّفُ هُوَ مِنْهُمْ ؛ لِتَعَاظُمِهِ فِي نَفْسِهِ ، وَأَنَّهُ مَعْشُوقٌ لَا عَاشِقٌ ، وَمَطْلُوبٌ لَا طَالِبٌ ، وَمَا هِيَ سَبِيلُ الْكِرَامِ ، وَلَا سَجِيَّةُ أَوْلِي الْأَذْوَابِ السَّلِيمَةِ ، كَمَا سَنَفِيضُ فِيهِ عِنْدَ شَرْحِ قَوْلِهِ « فِي « الْعُكْبَرِيِّ » ٢٣٨/٢ : [مِنَ الطَّوِيلِ]

تَذَلَّلَ لِمَنْ تَهَوَّى عَلَى الْقُرْبِ وَالنَّوَى فَمَا عَاشِقٌ مَنْ لَا يَذِلُّ وَيَخْضَعُ^(١)

ويزعمُ مَرَّةً أُخْرَى أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُهُنَّ مِنْ رَشْفِ ثَغْرِهِ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ « فِي « الْعُكْبَرِيِّ » ٣٠٦/٢ : [مِنَ الطَّوِيلِ]

وَأَشْنَبَ مَعْسُولِ الثَّنِيَّاتِ وَاصِحَ حَمِيئُ فَمِي عَنْهُ فَقَبَّلَ مَفْرَقِي^(٢)

وَفِي مَوَاضِعَ يَظْهَرُ بِالْوَاوِ أُخْرَى ، فَيَقُولُ « فِي « الْعُكْبَرِيِّ » ٧/٤ : [مِنَ الْكَامِلِ]

وَلَطَّالَمَا أَفْنَيْتُ رِيْقَ كَعَابِهَا وَأَفْنَيْتُ بِالْعِتَابِ كَلَامِي^(٣)

وَيَقُولُ « فِي « الْعُكْبَرِيِّ » ٢٧٢-٢٧٠/٤ : [مِنَ الْمُنْرَحِ]

وَقَبَّلْتُ نَازِرِي تَغَالِطِنِي وَإِنَّمَا قَبَّلْتُ بِهِ فَاهَا^(٤)

حَيْثُ التَّقَى خَدَّهَا وَتَفَاحُ لُبْنَانَ وَتَغْرِي عَلَى حُمَيَّاهَا^(٥)

وَيَقُولُ « فِي « الْعُكْبَرِيِّ » ٣٧/٤ : [مِنَ الْبَسِيطِ]

قَبَّلْتُهَا وَدُمُوعِي مَزَجُ أَدْمُعِهَا وَقَبَّلْتَنِي عَلَى خَوْفٍ فَمَا لِفَمٍ

[لا يكون التعارض إلا باتحاد الزمان والمكان]

وَقَدْ سَبَقَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَجْلِسِ مَا يَعْرِفُ مِنْهُ أَنَّ التَّعَارُضَ لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بِاتْحَادِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ ؛ لِأَنَّ الْأَوْقَاتَ تَخْتَلِفُ ، وَالْأَحْوَالَ تَضْطَرِّبُ ، وَظُرُوفَ الْوَقَائِعِ تَتَلَوَّنُ ، غَيْرَ أَنَّ الْإِفْرَاطَ وَالتَّفْرِيطَ اللَّذَيْنِ لَا يَزَالُ النَّازِمُ يَتَكَسَّعُ^(٦)

(١) فِي « الْعُكْبَرِيِّ » : (تَذَلَّلَ لَهَا وَاخْضَعَ) بَدَلَ (تَذَلَّلَ لِمَنْ تَهَوَّى) .

(٢) الْأَشْنَبُ : الثَّغْرُ الْبَرَّاقُ .

(٣) الْكَعَابُ : الْكَعَابُ ، وَهِيَ الْجَارِيَةُ الَّتِي كَعَبَ نَهْدُهَا . وَالْهَاءُ فِي قَوْلِهِ : كَعَابِهَا : عَائِدَةٌ إِلَى الدَّمَنِ فِي الْبَيْتِ الَّذِي قَبْلَهُ .

(٤) النَّازِرُ : مَوْضِعُ الْبَصَرِ مِنَ الْعَيْنِ ، كَالْمَرَاةِ ، إِذَا قَابَلَهُ شَيْءٌ أَذَى صَوْرَتَهُ ؛ أَي : أَوْهَمْتَنِي أَنَّهَا قَبَّلَتْ عَيْنِي ، وَإِنَّمَا قَبَّلْتُ فَاهَا الَّذِي رَأَيْتُهُ فِي نَازِرِي .

(٥) لُبْنَانُ : جَبَلٌ مَعْرُوفٌ فِي (الشَّامِ) ، مِنْ جِبَالِ (بَعْلَبَكْ) ، وَهُوَ كَثِيرُ الْجَنَانِ وَالْمِيَاءِ . الْحُمَيَّا : الْخَمْرُ .

(٦) يَتَكَسَّعُ : يَذْهَبُ فِي ضَلَالِهِ .

بينهما ، ممّا لا سبيلَ إلى الاعتذارِ عنه ، وإنْ شئت . . . فقارنْ بينَ تعاطُفِهِ وترقُّعِهِ عن مغازلةِ العقائِلِ في كثيرٍ من أشعارِهِ ، وبينَ قولِهِ [في «العُكْبَرِيّ» ٨/٤] :

لَيْتَ الَّذِي خَلَقَ النَّوَى جَعَلَ الْحَصَى
لِخِفَافِهِنَّ مَفَاصِلِي وَعِظَامِي
ثمّ انظرْ إلىِ تفديتهِ المطايا بالعواني في قولِهِ [في «العُكْبَرِيّ» ٣٦/٢] :

أَلَا كُلُّ مَاشِيَةِ الْخَيْزَلِيِّ
فَدَا كُلُّ مَاشِيَةِ الْهَيْدَبِيِّ^(١)
تجدِ الشَّوْءَ بَعِيداً ، والفرقَ كبيراً ، والجمعَ مُحالاً ، والتأليفَ مُتعدراً ، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء : ٨٢] .

[الإِنكَارُ عَلَى جَمِيلِ]

وقد أنكَروا علىِ جميلٍ قولُهُ [في «ديوانِهِ» ٢١٠] :

وَلَسْتُ وَإِنْ عَزَّتْ عَلَيَّ بِقَائِلٍ
لَهَا بَعْدَ صَرْمٍ : يَا بُئِيسُ صِلِينِي^(٢)
أنحى ابنُ أبي عتيقٍ علىِ عمرِ ابنِ أبي ربيعةَ في قولِهِ [في «ديوانِهِ» ١٥١] :

بَيْنَمَا يَنْعَتَنِي أَبْصَرَنِي
قَالَتِ الْكُبْرَى : أَتَعْرِفَنَ الْفَتَى ؟
مِثْلَ قَيْدِ الْمَيْلِ يَعْذُو بِي الْأَغْرَ^(٣)
قَالَتِ الْكُبْرَى : أَتَعْرِفَنَ الْفَتَى ؟
قَالَتِ الصُّغْرَى وَقَدْ تَيَّمَّتْهَا :

[تذلل لمن نهوى]

وقالَ لَهُ : إِنَّمَا نَسَبْتَ بِنَفْسِكَ ، وكانَ نَوْلَكَ أَنْ تَقُولَ : قلن لي : ضِعْ خَدَّكَ بِالْأَرْضِ ، فوضعتُهُ ، فوطِئَنَ عليه .
ويأتي في غيرِ هذا المجلسِ ، ما كانَ منِ ابنِ المعتزِّ ، ثمَّ منِ سلطانِ العاشقينِ في ترسُّمِ ما ذكرَهُ ابنُ أبي عتيقٍ .

[القائِلَةُ الْمُتَجَبِّرَةُ]

وما أرقَّ نسيماً أبي فراسٍ في مراجعتهِ التي يقولُ فيها [في «ديوانِهِ» ١٤٣] :

تَسَائِلُنِي مَنْ أَنْتَ ؟ وَهِيَ عَلِيمَةٌ
فَقُلْتُ : كَمَا شَاءَتْ وَشَاءَ لَهَا الْهَوَى
وَهَلْ بَفَتَى مِثْلِي عَلَى حَالِهِ نُكْرُ ؟!
فَقُلْتُ لَهَا : لَوْ شِئْتَ لَمْ تَتَعَتِّي
فَقِيلَ ، قَالَتْ : أَيُّهُمْ ؟ فَهُمْ كَثُرُ
وَلَمْ تَسْأَلِي عَنِّي وَعِنْدَكَ بِي خُبْرُ

[انتقاد كثير على عمر ابن أبي ربيعة]

وانتقدَ كثيرٌ علىِ عمرِ ابنِ أبي ربيعةَ - أيضاً - قولُهُ [في «ديوانِهِ» ١٤٥] :

قَالَتْ لَهَا أَخْتُهَا تَعَاتِبُهَا :
لَا تَفْسِدَنَّ الطَّوْفَ فِي عَمَرِ

- (١) الخيزلي : مشية فيها استرخاء ، من مشية النساء . الهيدبي : مشية فيها سرعة ، من مشي الإبل ، والمعنى : فدت كل امرأة تمشي الخيزلي كل ناقة تمشي الهيدبي ، يريد أنه ليس من أهل الغزل ، ولا يميل إلى النساء ، وإنما هو من أهل السفر يحب مشي الجمال .
- (٢) الصرم : الهجر والقطعة .
- (٣) الأغر : أراد به فرسه الذي في جبهته بياض .

قَوْمِي تَصَدَّيْ لَهْ لِأَبْصِرَهْ ثُمَّ اغْمِزِيهْ يَا أُخْتُ فِي خَفْرِ
قَالَتْ لَهَا : قَدْ غَمَزْتُهُ فَأَبَى ثُمَّ اسْبَطَرَتْ تَشْتَدُّ فِي أَثْرِي (١)

وقال له : أهكذا يقال للمرأة ؟ إنما توصف بأنها مطلوبة متمنعة . كما هي عادة العرب ؛ نتيجة غيرتهم عليهم .

ومما يُعَابُ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ عَلَيْهِ - أَيْضاً - قَوْلُهُ [فِي « دِيوانِهِ » ٤٨٨] :

فَتَنَاوَلْتُ رَأْسِي لِتَعْلَمَ مَسَّهُ بِمُخَضَّبِ الْأَطْرَافِ غَيْرِ مُشْنَجِ (٢)

[المرأة الأدبية عاشقة عمر ابن أبي ربيعة التي ترسل جاريتها في طلبه]

وهذا مِنْ قِطْعَةٍ لَهُ فِيهَا قِصَّةٌ عَجِيبَةٌ ، حَاصِلُهَا كَمَا أَخْرَجَهَا الْأَصْفَهَانِيُّ بِسَنَدِهِ [فِي « الْأَغَانِي » ١/١٩٧] : أَنَّ ابْنَ أَبِي رِبْعَةَ كَانَ جَالِسًا لَيْلَةً بِمَنْى فِي مَضْرِبِهِ ، وَحَوْلَهُ غُلَمَانُهُ ، إِذْ أَقْبَلَتْ امْرَأَةٌ بَرَزَةٌ (٣) ، عَلَيْهَا أَثَرُ النِّعْمَةِ ، فَسَلَّمَتْ ، وَقَالَتْ : أَبِنْ عُمَرُ ؟ قَالَ : هَا أَنَا هُوَ ، قَالَتْ : هَلْ لَكَ فِي مُحَادَثَةِ أَحْسَنِ النِّسَاءِ وَجْهًا ، وَأَتَمَّهِنَّ خَلْقًا ، وَأَكْمَلِهِنَّ أَدْبًا ، قَالَ : مَا أَحَبُّ ذَلِكَ إِلَيَّ ، قَالَتْ : عَلَى شَرْطٍ ، قَالَ : اشْتَرِطِي مَا شِئْتِ ، قَالَتْ : تُمْكِّنِي مِنْ عَيْنِكَ حَتَّى أَشْدَهُمَا ، وَأَوْدُكَ ، حَتَّى إِذَا وَصَلْتَ الْمَوْضِعَ الَّذِي أَعْنِي . . . حَلَلْتُ الشَّدَّ ، ثُمَّ أَفْعَلُ بِكَ ذَلِكَ عِنْدَ عَوْدِكَ ، قَالَ : شَأْنُكَ ، ففَعَلْتُ ، قَالَ : فَلَمَّا انْتَهَيْتُ إِلَى الْمَضْرِبِ الَّذِي أَرَادَتْ ، وَحَصَلْتُنِي فِي دَاخِلِهِ . . . كَشَفْتُ عَنْ وَجْهِهِ ، فَإِذَا بامرأة عَلَى كَرْسِيٍّ ، لَمْ أَرْ مِثْلَهَا جَمَالًا وَكَمَالًا ، فَسَلَّمْتُ وَجَلَسْتُ ، فَقَالَتْ : أَنْتَ عُمَرُ ابْنُ أَبِي رِبْعَةَ ، قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَتْ : أَنْتَ فَاضِحُ الْحَرَايِرِ . قُلْتُ : وَمَا ذَاكَ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ ؟ قَالَتْ : أَلَسْتَ الْقَائِلَ [فِي « دِيوانِهِ » ٤٨٨] : [مِنْ الْكَامِلِ]

قَالَتْ : وَعَيْشِ أَبِي وَعِدَّةِ إِخْوَتِي لِأُنْبَهَنَّ الْحَيَّ إِنْ لَمْ تَخْرُجْ
فَخَرَجْتُ خَوْفَ يَمِينِهَا فَتَبَسَّمَتْ فَعَلِمْتُ أَنَّ يَمِينَهَا لَمْ تَخْرُجْ
فَتَنَاوَلْتُ رَأْسِي لِتَعْلَمَ مَسَّهُ بِمُخَضَّبِ الْأَطْرَافِ غَيْرِ مُشْنَجِ
فَلْتَمْتُ فَاهَا آخِذًا بِقُرُونِهَا شُرْبَ النَّزِيفِ بِبَرْدِ مَاءِ الْحَشْرَجِ

فَمَ فَاخْرَجُ ، ثُمَّ قَامَتْ ، وَجَاءَتْ الْمَرْأَةُ ، فَشَدَّتْ عَيْنِي ، وَأَخْرَجْتُنِي ، حَتَّى انْتَهَتْ بِي إِلَى مَضْرِبِي ، وَانصرفت ، فَحَلَلْتُ عَيْنِي ، وَقَدْ دَخَلْتَنِي مِنَ الْحَزَنِ وَالْكَآبَةِ مَا بِهِ اللَّهُ أَعْلَمُ مِنِّي ، وَبِثُّ لَيْلَتِي ، فَلَمَّا كَانَتْ اللَّيْلَةُ الثَّانِيَةَ . . . إِذَا أَنَابَهَا ، فَقَالَتْ : هَلْ لَكَ فِي الْعُودِ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ الْحَالِ ؟ فَقُلْتُ : نَعَمْ ، فَفَعَلْتُ مَعِي كَمَا فَعَلْتُ فِي اللَّيْلَةِ الْمَاضِيَةِ ، وَإِذَا بَتَلَكَ الْفَتَاةَ عَلَى كَرْسِيٍّ ، فَقَالَتْ : إِيهًا يَا كَاشِفَ الْأَسْتَارِ ، وَمُبِيحَ الْأَسْرَارِ ، أَلَسْتَ الْقَائِلَ [فِي « دِيوانِهِ » ٤٩٠] :

وَنَاهِدَةَ الثَّدْيَيْنِ قُلْتُ لَهَا : انْكَبِي عَلَى الرَّمْلِ مِنْ جَبَانَةٍ لَمْ تَوَسَّدِ
فَقَالَتْ : عَلَى اسْمِ اللَّهِ أَمْرُكَ طَاعَةٌ وَإِنْ كُنْتُ قَدْ كَلَّفْتُ مَا لَمْ أُعَوِّدْ
فَلَمَّا دَنَا الْإِصْبَاحُ قَالَتْ : فَضَخْتَنِي فَقُمْ غَيْرَ مَطْرُودٍ وَإِنْ شِئْتَ فَازْدِدْ

(١) اسبَطَرَتْ : أَسْرَعَتْ .

(٢) الْمُخَضَّبُ : الْمَصْبُوغُ بِالْحَنَاءِ . الْأَطْرَافُ : رُؤُوسُ الْأَصَابِعِ . الْمُشْنَجُ : الْمَتَّجَعِدُ .

(٣) بَرَزَةٌ : تَبَرَّزَ لِلْقَوْمِ يَجْلِسُونَ إِلَيْهَا وَيَتَحَدَّثُونَ وَهِيَ عَفِيفَةٌ .

قُمْ فَأَخْرِجْ عَنِّي ، فَخَرَجْتُ ، ثُمَّ رُدِدْتُ ، فَقَالَتْ : لَوْلَا وَشْكُ الرَّحِيلِ ، وَخَوْفُ الْفَوْتِ ، وَحَبِي لِمُنَاجَاتِكَ ، وَالِاسْتِكْثَارِ مِنْ مُحَادَثَتِكَ . . . لِأَقْصَيْتِكَ ، هَاتِ الْآنَ حَدِيثِي وَأَنْشُدْنِي ، فَكَلَّمْتُ أَدَبَ النَّاسِ وَأَعَلَمْتَهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ ، ثُمَّ نَهَضْتُ ، فَإِذَا بِتَوْرٍ^(١) فِيهِ خَلُوقٌ^(٢) ، فَأَدْخَلْتُ يَدِي فِيهِ ، ثُمَّ خَبَأْتُهَا فِي رِذْنِي ، ثُمَّ جَاءَتِ الْعَجُوزُ ، فَشَدَّتْ عَيْنِي ، وَنَهَضَتْ بِي تَقْوُدُنِي ، حَتَّى إِذَا صَرْتُ عَلَى بَابِ الْمَضْرِبِ . . . أَخْرَجْتُ يَدِي ، فَضَرَبْتُ بِهَا عَلَيْهِ مِنْ خَارِجٍ ، ثُمَّ دَعَوْتُ غِلْمَانِي ، وَقُلْتُ لَهُمْ : أَيُّكُمْ يَقْفُنِي عَلَى بَابِ مَضْرِبٍ عَلَيْهِ خَلُوقٌ كَأَنَّهُ أَثْرُ كَفِّ . . . فَهُوَ حَرٌّ ، وَلَهُ خَمْسُ مِئَةِ دِرْهَمٍ فَلَمْ أَلْبَثُ حَتَّى جَاءَ بَعْضُهُمْ ، فَقَالَ : قُمْ ، فَنَهَضْتُ فَإِذَا أَثْرُ يَدِي فِي مَضْرِبِ فَاطِمَةَ بِنْتِ عَبْدِ الْمَلِكِ تَتَأَهَّبُ لِلرَّحِيلِ ، وَلَمَّا نَفَرْتُ . . . نَفَرْتُ مَعَهَا ، وَلَمَّا عَرَفْتُ مَكَانِي . . . أَرْسَلْتُ تَنَاشِدُنِي الرَّحِمَ أَنْ لَا أَتْبِعَهَا ، وَقَالَتْ : لَا تَفْضَحْنِي وَتَشِيطَ بِدَمِكَ ، فَأَبَيْتُ أَوْ تَوَجَّهَ إِلَيَّ بِقَمِيصِهَا الَّذِي يَلِي جِلْدَهَا فَوَجَّهْتُ بِهِ ، فزَادَنِي ذَلِكَ شَغْفًا وَهِيَامًا ، وَلَمْ أَزَلْ أَتْبِعُهَا . . . حَتَّى إِذَا صَارُوا عَلَى أَمْيَالٍ مِنْ (دِمَشْقَ) . . . انصرفتُ ، وَقُلْتُ فِي ذَلِكَ [فِي « دِيْوَانِهِ » ١٥٣] :

[مِنَ الْكَامِلِ]

وَيَسْتُتُّ بَعْدَ تَقَارُبِ الْأَمْرِ	ضَاقَ الْغَدَاةَ بِحَاجَتِي صَدْرِي
عَرَضًا فَيَا لَحَوَادِثِ الدَّهْرِ	وَذَكَرْتُ فَاطِمَةَ الَّتِي عُلِقْتُهَا
تَجْرِي عَلَيْهِ سُلَافَةُ الْخَمْرِ ^(٣)	فَكَأَنَّ فَاهَا بَعْدَ مَا رَقَدَتْ
خَفَقَ الْفَوَاذُ وَكُنْتُ ذَا صَبْرِ ^(٤)	لَمَّا رَأَيْتُ مُطِيئَهَا حِرْقًا
وَأَنهَلَّ مَذْمَعَهَا عَلَى الصَّدرِ	فَتَبَادَرَتْ عَيْنَايَ بَعْدَهُمْ
طُرًّا وَأَهْلَ الْوُدِّ وَالصُّهْرِ	وَلَقَدْ عَصَيْتُ أُولِي قَرَابَتِهَا
أَجْنَيْتَ أُمَّ بِكَ نَفْثَةَ السُّحْرِ	حَتَّى إِذَا قَالُوا وَمَا كَذَّبُوا

وتروى على غير هذا النحو ، وأبعد شيء من هذه الرواية . . . اتباعه لهم إلى أميال من (دمشق) .

[إشكال وحله في بيت المطلع]

ثُمَّ إِنَّ قَوْلَ النَّازِمِ : (هُنَّ فِيهِ أَحْلَى . . . إِلَى آخِرِهِ) - وَالْحَالُ أَنَّ الضَّمِيرَ فِي فِيهِ عَائِدٌ إِلَى فِيهِ - لَا يَخْلُو مِنَ الْإِشْكَالِ ؛ إِذْ كَيْفَ يَذُوقُ الْحَلَاوَةَ إِذْنَ ، وَهُنَّ الْمَتْرَشَفَاتُ دُونَهُ ، وَالْجَوَابُ عَنْ ذَلِكَ مِنْ وَجْهَيْنِ :

الْأَوَّلُ : أَنَّهُ كَانَ يَجِدُ لِمَتْرَشِفِهِنَّ مِنْ فِيهِ بَرْدًا عَلَى كَبِدِهِ ، وَسُرُورًا عَلَى صَدْرِهِ ، وَحَلَاوَةً عَلَى لِسَانِهِ ، فَهُوَ مِنْ جِنْسِ قَوْلِ الْوَأْوَاءِ الدَّمَشَقِيِّ [فِي « دِيْوَانِهِ » ٢٦٦-٢٦٧] :

[مِنَ الْبَسِيطِ]

بِاللَّهِ صِفُهُ وَلَا تَنْقُصْ وَلَا تَزِدْ	قَالَتْ لِطَيْفِ خِيَالِ زَارِنِي وَمَضَى
وَقُلْتُ : قِفْ عَنَّا وَرُودِ الْمَاءِ لَمْ يَرِدْ	فَقَالَ : خَلَفْتُهُ لَوْ مَاتَ مِنْ ظَمَأٍ
يَا بَرْدَ ذَلِكَ الَّذِي قَالَتْ عَلَى كَبِدِي	قَالَتْ : صَدَقْتَ الْوَفَا بِالْعَهْدِ شِيمَتُهُ

وَالثَّانِي : يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ يَتْرَشَفَنَّ مِنْ فَمِي ، وَأَتْرَشَفُ مِنْ أَفْوَاهِهِنَّ رَشَفَاتٍ ، هُنَّ أَحْلَى فِي فَمِي مِنَ التَّوْحِيدِ ،

(١) التَّوْرُ : الْإِنَاءُ الَّذِي يَشْرَبُ بِهِ .

(٢) الْخَلُوقُ : ضَرْبٌ مِنَ الطَّيْبِ ، تَغْلُبُ عَلَيْهِ الْحَمْرَةُ وَالصَّفْرَةُ .

(٣) سُلَافَةُ الْخَمْرِ : أَفْضَلُهَا وَأَحْسَنُهَا بِتَحَلُّبٍ مِنْ غَيْرِ عَصْرِ .

(٤) الْحَرْقُ : شِدَّةُ الرِّبْطِ .

ويندفعُ حينئذٍ بعضُ ما دلَّلنا به على تعاضمه ، قبل نفيه إيجازَ الاختزالِ ، وهو نوعٌ قريبٌ من الاحتباكِ والاكتفاءِ ، وليس بواحدٍ منهما ؛ لأنَّ الاحتباكُ هو : أنْ تُذكرَ جملتانِ في كلِّ منهما متقابلانِ ، فيحذفُ من كلِّ واحدٍ منهما ضدُّ ما يذكرُ في الأخرى ، ومثَّلوا له بقوله تعالى : ﴿ فَمَنْ تَقَاتَلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ ﴾ [آل عمران : ١٣] وتقديرُهُ : فئةٌ مؤمنةٌ تقاتلُ في سبيلِ الله ، وأخرى كافرةٌ تقاتلُ في سبيلِ الشيطانِ ، ولا تضادُّ هنا في بيتِ الناظمِ . حتى ينطبقَ عليه ما ذكره في حدِّ الاحتباكِ المذكورِ ، غيرَ أنَّ التغييرَ وهو أخوه غدته أمُّه بليانه . . موجودٌ في البيتِ ، وأمَّا قربه من الاكتفاءِ : فواضحٌ أيضاً ؛ لأنَّه ذكرَ ترشُّفه من ريقه ، وسكتَ عن التعريفِ بمقدارِ التذاهنِّ به ، إمَّا لأنَّه لا يعلمُ ما عندهنَّ له ، وإمَّا اكتفاءً بما يعرفُ من قوله : (هُنَّ فِيهِ أَحْلَى مِنَ التَّوْحِيدِ) ؛ لأنَّ عندهنَّ له مثلَ الذي عنده لهنَّ ، كما قال ابنُ أبي ربيعة [في «ديوانه» ١٣٤] :

وَلَمَّا تَلَقَيْنَا وَجَدْتُ الَّذِي بِهَا كَمِثْلِ الَّذِي بِي حَذُوكَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ

وحذفَ ذَكَرَ ترشُّفه من أفواههنَّ ، اكتفاءً بما نصبه علامةً عليه من مبلغِ لذته عنده ، ومثَّلوا للاكتفاءِ بقوله جلَّ ذكره : ﴿ سَرِيلٌ تَفِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرِيلٌ تَفِيكُمُ بَأْسَكُمْ ﴾ [النحل : ٨١] :

وقولُ أبي ذؤيبٍ [في «ديوانه» ٣٠] :

عَصَيْتُ إِلَيْهَا النَّاسَ إِنِّي لِأَمْرِهَا مُطِيعٌ وَمَا أَذْرِي أَرُشِدُ طِلَابُهَا

[استعذاب ريق المحبوب عند الشعراء]

أمَّا استعذابُ ريقِ المحبوبِ : فما أكثرُهُ في أشعارِهِمْ ، قال امرؤ القيسِ [في «ديوانه» ٩٦] :

كَأَنَّ الْمُدَامَ وَصَوْبَ الْعَمَامِ وَنَشَرَ الْخُزَامَى وَرِيحَ الْعَطْرِ^(١)
يَعْلُ بِهِ بَرْدٌ أَنْيَابُهَا إِذَا غَرَّدَ الطَّائِرُ الْمُسْتَحِرُّ^(٢)

وعزى إليه - والله أعلم بصحة ذلك - أَنَّهُ قَالَ :

وَتَغَرَّ لَهَا طَيْبٌ وَاضِحٌ وَبِالظَّنِّ يُفْضَى عَلَيَّ مَا اكْتَمَّ

وقال النابغة [الذبياني في «ديوانه» ٣٧] :

زَعَمَ الْهُمَامُ وَلَمْ أَذُقْهُ بِأَنَّهُ عَذْبٌ مُقْبَلُهَا شَهِيٌّ الْمَوْرِدِ^(٣)

وقال أيضاً [في «ديوانه» ٢٣٥] :

كَأَنَّ مَشْمُولَةً صِرْفًا بِرِيقَتِهَا مِنْ بَعْدِ رَقْدَتِهَا أَوْ شَهْدَ مُشْتَارِ^(٤)

(١) صوبُ العمام : ماءُ السحابِ . الخُزَامَى : نباتٌ طيبٌ الرائحة . نَشَرَ الخُزَامَى : ما يصدرُ من طيبٍ رائحته .

(٢) الطائرُ المستحِرُّ : الذي يغرَّدُ وقتَ السحرِ .

(٣) الهمامُ : الملكُ ، وهو السَّيِّدُ ، وإنما سمِّيَ بذلكَ لأنَّه إذا همَّ بأمرٍ . أمضاهُ ، ويقالُ : لبعده همتَه .

(٤) المشمولةُ : الخمرُ الباردةُ .

وقال عنترَةُ [في «ديوانه» ٥٥] :

[مِنَ الكَامِلِ]

عَذِبَ مُبْتَلًى لَذِيذُ الْمَطْعَمِ^(١)
سَبَقَتْ عَوَارِضَهَا إِلَيْكَ مِنَ الْفَمِ^(٢)

إِذْ تَسْتَبِيكَ بِذِي غُرُوبٍ وَاضِحٍ
وَكَأَنَّ فَارَةَ تَاجِرٍ بِقَسِيمَةٍ

وقال عبيدُ بنُ الأبرصِ [في «ديوانه» ٣٤] :

[مِنَ البَسيطِ]

مِنْ مَاءٍ أَدَكْنَ فِي الْحَانُوتِ فَضَّاحٍ
أَوْ مِنْ أَنْبَابِ رُمَّانٍ وَتَفَّاحٍ

كَأَنَّ رِيْقَتَهَا بَعْدَ الْكِرَى اغْتَبَقَتْ
أَوْ مِنْ مُشْعَشَعَةٍ كَالْمَسْكِ نَشْرَتُهَا

وقال كُثَيْبٌ [في «ديوانه» ٢٩٠] :

[مِنَ الطَّويلِ]

إِذَا سُكِبَتْ مِنْ دَنِّهَا مَاءٌ مَفْصَلِ^(٣)
وَعَاهُ صَفَا فِي رَأْسِ عِنْقَاءٍ عَيْطَلِ^(٤)
وَقَدْ لَاحَ ضَوْءُ النَّجْمِ أَوْ كَادَ يَنْجَلِي

وَمَا قَرَقَفٌ مِنْ أَدْرِعَاتٍ كَأَنَّهَا
يُصَبُّ عَلَى نَاجُودِهَا مَاءٌ بَارِقٍ
بِأَطْيَبِ مِنْ فِيهَا لِمَنْ ذَاقَ طَعْمَهُ

إِلَّا أَنَّ المؤاخِذَةَ ظَاهِرَةً عَلَيْهِ فِي قَوْلِهِ : (لِمَنْ ذَاقَ طَعْمَهُ) مَا لَمْ يَعْزِ صَاحِبُهَا فَقَطْ ، كَمَا سَبَقَ عَنِ النَّابِغَةِ .

[المجنون وزوج ليلى]

ومن أخبارِ المجنونِ : أَنَّهُ مَرَّ بِزَوْجِ لَيْلَى فِي حَيِّ بَنِي عَامِرٍ عِنْدَ صَاحِبٍ لَهُ يَصْطَلِي ، فَقَامَ عَلَى رَأْسِهِ ، وَقَالَ لِي [في «ديوانه» ٢٨٦] :

[مِنَ الوَافِرِ]

فَبِيلَ الصُّبْحِ أَوْ قَبَّلْتَ فَاهَا
رَفِيفَ الْأَفْحُوانَةِ فِي نَدَاهَا^(٥)

بِرِّكَ هَلْ ضَمَمْتَ إِلَيْكَ لَيْلَى
وَهَلْ زُقْتَ عَلَيْكَ قُرُونُ لَيْلَى

فَقَالَ [كما في «ديوان المجنون» ٢٨٦] : أَمَا إِذْ حَلَفْتَنِي . . فَنَعَمْ ، فَصَاحَ المَجْنُونُ ، وَأَمْسَكَ الجَمْرَ بِكِلْتَا يَدَيْهِ ، ثُمَّ سَقَطَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ .

[عودة إلى الشعراء]

وقال سليكُ بنُ سُلَيْكَةَ [في «ديوانه» ٦٩] :

[مِنَ الطَّويلِ]

خَلِيقِ النَّيَا بِالْعُدُوبَةِ وَالْبَرْدِ^(٦)
كَمَا شِيمَ مَاءٌ فِي السَّحَابَةِ مِنْ بُعْدِ

تَبَسَّمُ عَنْ أَلْمَى اللِّثَاتِ مُفْلَجٍ
وَمَا ذُقْتُهُ إِلَّا بِعَيْنِي تَفْرُسًا

- (١) تستبيك : تذهبُ بعقلِكَ . نغزُ ذو غروبٍ : ذو أسنانٍ واضحةٍ بيضاءَ .
- (٢) الفارةُ : أرادَ بها فارةَ المسكِ ، وهي ما تفورُ منه رائحةُ المسكِ . التاجرُ هنا : العطَّارُ .
- (٣) قرقفٌ : الخمرُ . أدرعَاتُ : بلدٌ بديارِ الشامِ ، يضربُ المثلُ بجودةِ خمرِها . مفصلٌ : الشقُّ بين صخرتينِ من الجبلِ ، وماءُ المفصلِ يكونُ في غايةِ الصفاءِ . وفي المخطوطِ : سَلَبَتْ .
- (٤) الناجودُ : زقُ الخمرِ . العنقاءُ : الهضبةُ المرتفعةُ الطويلةُ . العيطلُ : الطويلةُ السامقةُ .
- (٥) الرفيفُ : تحريكُ الريحِ .
- (٦) اللَّمَى : سُمرَةٌ في الشفةِ تُستحسنُ عندَ العربِ . مُفْلَجٌ : مُنْفَرِجٌ ما بينَ الأسنانِ . الخَلِيقُ من الأسنانِ : الأملَسُ .

وقال نصيب ، أو قيسُ بنُ الملوِّح [في «ديوانِ قيسٍ» ٢٠٣] :

كَأَنَّ عَلَيَّ أَنْيَابَهَا الْخَمْرَ شَجَّهَا
وَمَا ذُقْتُهُ إِلَّا بِعَيْنِي تَفْرُسًا

وقال النمريرئ [في «ديوانه» ٥٠] :

كَأَنَّ رِيْقَتَهَا وَاللَّيْلُ مُعْتَكِرٌ
صَهْبَاءُ صَافِيَةٌ أَغْلَى التَّجَارُ بِهَا

وقال سُحَيْمٌ [في «ديوانه» ٤٠] :

كَأَنَّ عَلَيَّ أَنْيَابَهَا بَعْدَ هَجْعَةٍ

وقال أبو صعترَةَ البولانيُّ :

فَمَا نُظْفَةُ مِنْ حَبِّ مُزْنٍ تَقَادَفَتْ
فَلَمَّا أَفْرَتَهُ اللَّصَابُ تَنَفَّسَتْ
بِأَطْيَبِ مَنْ فِيهَا وَمَا ذُقْتُ طَعْمَهُ

وقال بشارٌ :

يَا أَطْيَبَ النَّاسِ رِيْقًا غَيْرَ مُخْتَبَرِ

وقال ابنُ الروميِّ :

وَقَبَلْتُ أَفْوَاهًا عَذَابًا كَأَنَّهَا

وقال [في «ديوانه» ٩٠٧/٣] :

وَمَا سِرُّ عِيدَانِ الْأَرَاكِ بِرِيْقَتِهَا
لِئِنْ عَدِمْتَ سُقْيَا الثَّرَى إِنَّ رِيْقَهَا
وَمَا ذُقْتُهُ إِلَّا بِشَيْمِ ابْتِسَامِهَا
بَدَأَ لِي وَمِيضٌ شَاهِدٌ أَنَّ صَوْبَهُ

وقال المتوكِّلُ الليثيُّ [في «ديوانه» ٢٧٠-٢٧١] :

كَأَنَّ مُدَامَةَ صَهْبَاءِ صِرْفًا

[مِنَ الطَّوِيلِ]

بِمَاءِ النَّدَى مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ غَابِقُ
كَمَا شِيمَ فِي أَعْلَى السَّحَابَةِ بَارِقُ

[مِنَ البَسيطِ]

بَعْدَ الرُّقَادِ وَقَدْ مَالَتْ بِهَا الوُسْدُ
مِنْ خَمْرِ عَانَةٍ يَطْفُو فَوْقَهَا الزَّبْدُ^(١)

[مِنَ الطَّوِيلِ]

مِنَ اللَّيْلِ نَامَتَهَا سُلَافًا مُبَرِّدًا

[مِنَ الطَّوِيلِ]

بِهِ جَنَّبَا الْجُودِيَّ وَاللَّيْلُ دَامِسُ
شِمَالٌ بِأَعْلَى مَائِهِ فَهَوَ قَارِسُ^(٢)
وَلَكِنِّي فِيمَا تَرَى الْعَيْنُ فَارِسُ

[مِنَ البَسيطِ]

إِلَّا شَهَادَةُ أَطْرَافِ الْمَسَاوِيكِ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

يَنَابِيعُ خَمْرِ حُصْبَتِ لُؤْلُؤِ الْبَحْرِ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

تَنَاوُحُهَا فِي أَيُّكُهَا تَهَضُّرُ^(٣)
لَأَعْدَبُ مِنْ هَاتِيكَ سُقْيَا وَأَخْضَرُ
وَكَمْ مَخْبَرٍ يُنْدِيهِ لِلْعَيْنِ مَنظَرُ^(٤)
غَرِيضٌ وَمَا عِنْدِي سِوَى ذَاكَ مُخْبَرُ^(٥)

[مِنَ الوَافِرِ]

تُصَفِّقُ بَيْنَ رَاوُوقٍ وَدَنَّ^(٦)

(١) الصهباء : الخمر ، وسميت بذلك للونها ، والصبغة : الصفرة . عانة : بلد مشهورة بين (الرقة) و (هيت) ، وتنسب العربُ إليه الخمر .

(٢) اللصاب : الشعب الصغير في الجبل . أضيُّق من اللهب وأوسع من الشعب .

(٣) الهضُّر : التكلُّر .

(٤) المخبر : خلاف المنظر .

(٥) الغريض : ماء المطر .

(٦) الراووق : المصفاة .

تَعَلُّ بِهَا ثَنَايَا أُمَّ سَلَمَى فِرَاسَةً مُقَلَّتِي وَصَحِيحُ ظَنِّي

[مِنَ الْكَامِلِ]

وقال الناظم [في «المكبري» ٣/ ٣٠١] :

مَا أَسَارَتْ فِي الْقَعْبِ مِنْ لَبَنِ تَرَكَتْهُ وَهُوَ الشَّهْدُ وَالْعَسَلُ^(١)

هذا بعض ما قيل في استعذاب الرقيق ، وقد امتزج علينا فيه الكلام ، بين من تحدث عن ذوق ، وبين من تحدث عن شيم صادق ، ولا حرج ؛ إذ الظن المؤكّد . له حكم اليقين ، حتى في الأحكام الشرعية ، أمّا ما جاء في الشواهد من طيب النكهة . فإنما هو ضميمة إليه ؛ لأن لها بخصوصها ، وللطيب بعمومه مواضع غير هنا ، ولندكر بعض ما قال فقهاؤنا فيما يتصل بالبحث : فنقول :

[أقوال الفقهاء في الريق وحكمه]

صرّحوا بحرمة تناول البصاق^(٢) ، قال ابن حجر في الأئمة : وهو ما يرمى من الفم ، بخلاف الريق ، وهو ما فيه ، فلا يحرم ؛ لأنه غير مستقذر ما دام فيه ، ومن ثمّ : (كان صلى الله عليه وآله وسلم يمصّ لسان عائشة)^(٣) . وصحّ في الحديث : « هَلَا بِكَرَأ تَلَاعِبُهَا وَتَلَاعِبُكَ ، مَا لَكَ وَلِعَابُهَا »^(٤) - بضم اللام - فالإغراء على ريقها صريح في حلّ تناولها ، انتهى .

وقال في الصيام : ولا يفطر بيلع ريقه من معدنه ، فلو ابتلع ريق غيره . . أفطر جزماً ، وما جاء : (أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يمصّ لسان عائشة وهو صائم) واقعة حال فعلية محتملة أنه يمصّه ثم يمجه ، أو يمصّه ولا ريق فيه ، انتهى .

ومنّة تعرف قبح ما يتعاطاه المترسمون من النفث بالريق في الماء ؛ ليتبرك به الناس ، وحق ما صرّحوا به من حرمة إعادة ماء المضمضة إلى الخوابي ؛ لأنه يقدّر لها .

[لا تعذليني يا أختي]

وعذلت عائشة أختها في اشتغالها بإحدى حظاياها^(٥) عن باقي أزواجها ، فقال لها : لا تعذليني يا أختي ، فوالله لكأنما أترشفت برؤسابها^(٦) حبّ الرمان .

[رقية النبي صلى الله عليه وسلم]

ولا ننسى ما جاء في « الصحيحين » : أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول في الرقية : « بِاسْمِ اللَّهِ تُرْبَةُ أَرْضِنَا ، بِرِيقَةِ بَعْضِنَا ، يُشْفَى سَقِيمُنَا ، بِإِذْنِ رَبِّنَا »^(٧) ومعناه : أنه يأخذ من ريق نفسه على إصبعه السبابة ، ثم يضعها

(١) أسارت : أبقث ، والسور : ما يتركه الشارب لغيره .

(٢) كالنخامة لقدارتها ؛ لأن المحرمات من المطاعم ، يتناولها أحد أمور : إما لضررها ، أو لقدارتها ، أو حرمتها ، أو نجاستها .

(٣) أورده عن عائشة رضي الله عنها الهندي في « كنز العمال » (١٨٣٤٨) وعزاه إلى الترقفي في « جزئه » .

(٤) طرف حديث أخرجه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما سعيد بن منصور (٥١٠) ، والبخاري (٥٠٨٠) في النكاح ، ومسلم (١٤٦٦) م (٥٧) في الرضاع ، وأبو داود (٢٠٤٨) ، والترمذي (١١٠٠) ، والنسائي (٣٢١٩) ، وابن ماجه (١٨٦٠) في النكاح .

(٥) إحدى حظاياها : أي إحدى نسايتها التي تحظى بمتزلة أسعى من غيرها عند زوجها .

(٦) الرؤساب : الريق المرشوف .

(٧) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها البخاري (٥٧٤٥) في الطب ، ومسلم (٢١٩٤) في السلام ، وأبو داود (٣٨٩٥) وغيرهم .

بالتراب ، فيعلقُ بها منه ما يعلقُ ، ثمَّ يمسحُ بهِ على موضع الوجعِ مِنَ المريضِ ، وقد اختلفَ في قوله : (تربةُ أرضنا) هل المرادُ أرضُ (المدينة) خاصةً ، أو سائرُ الأرضِ ؟ والأكثرُ على الثاني ، وفيه كلامٌ طويلٌ لا يليقُ بالموضوع استقصاؤه .

وفيها أيضاً عن عائشة رضي الله عنها : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : (كَانَ يَنْفُثُ عَلَيَّ نَفْسِي فِي الْمَرَضِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ بِالْمَعْوَذَاتِ ، فَلَمَّا ثَقُلَ . . كُنْتُ أَنْفُثُ عَنْهُ بِهِنَّ ، وَأَمْسَحُ بِيَدِ نَفْسِي ؛ لِبِرْكَتِهَا)^(١) .

[كيفية النفث الوارد في الحديث]

قال معمرٌ : فسألتُ الزهريَّ ، كيفَ ينفثُ ؟ قال : كَانَ يَنْفُثُ عَلَيَّ يَدِيهِ ، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ .

وفي « الصحيح » عن عائشة قالت : (كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِذْ أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ نَفَثَ فِي كَفِيهِ بِ « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ » وبالمعوذتين جميعاً ، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ ، وَمَا بَلَغَتْ يَدَاهُ مِنْ جَسَدِهِ ، قَالَتْ : فَلَمَّا اشْتَكَى . . كَانَ يَأْمُرُنِي أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ بِهِ)^(٢) .

[ما هو النفث المراد بالحديث ؟]

وقد اختلفوا في النفثِ ، فقال بعضهم : إِنَّهُ لَا رِيْقَ فِيهِ أَلْبَتَّةَ ، وَصَوَّبَ الْحَافِظُ ابْنَ حَجْرٍ أَنَّ فِيهِ رِيْقًا خَفِيْفًا .

[الحكمة الطيبة من النفث والريق]

وقال البيضاويُّ كما نقله عنه في « الفتح » [٢٠٨ / ١٠] : قد شهدتِ المباحثُ الطيبةُ علىَّ أَنَّ للريقِ مدخلاً في النضجِ ، وتعديلِ المزاجِ ، وترابِ الوطنِ له تأثيرٌ في حفظِ المزاجِ ، ودفعِ الضررِ ، فقد ذكروا أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلْمَسَافِرِ أَنْ يَسْتَصْحَبَ تَرَابَ أَرْضِهِ إِنْ عَجَزَ عَنِ اسْتِصْحَابِ مَائِهَا ، إِذَا وَرَدَ الْمِيَاهَ الْمُخْتَلِفَةَ . . جَعَلَ مِنْهُ شَيْئًا فِي سِقَائِهِ ؛ لِئَامَنَ مِنَ الْمَضْرَةِ ، ثُمَّ إِنَّ الرِّقِيَّ وَالْعَزَائِمَ لَهَا آثَارٌ عَجِيبَةٌ ، تَتَقَاعَدُ الْعُقُولُ عَنِ الْوَصُولِ إِلَى كُنْهَهَا ، انْتَهَى .

وَمَتَى صَحَّ فِي الْحَدِيثِ بِأَنَّ الرِّيقَ لِلْمُذْنَقِينَ فِيهِ دَوَاءٌ
فَرِضَابُ الْحَبِيبِ أَوْلَى بِصَبِّ تَرَامِي بِقَلْبِهِ الْأَهْوَاءِ^(٣)

* * *

[قال أبو الطيب المتنبي في « العكبري » ٣١٧ / ١] : [من الخفيف]

هَذِهِ مُهَجَّتِي لَدَيْكَ لِحَيْنِي فَانْقُصِي مِنْ عَذَابِهَا أَوْ فَرِيدِي

[شرح المطلع]

(المُهَجَّةُ) : دَمُ الْقَلْبِ ، وَيُرَادُ بِهَا الرُّوحُ ، وَ(الْحَيْنُ) : الْمَوْتُ ، يَقُولُ : هَذِهِ رُوحِي بَيْنَ يَدَيْكَ لِهَاكِي ، فَانْقُصِي إِنْ شِئْتَ مِنْ عَذَابِهَا ، وَزَيْدِي فِيهِ . . إِنْ شِئْتَ .

(١) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها البخاري (٥٠١٦) في فضائل القرآن و(٥٧٣٥) في الطب ، ومسلم (٢١٩٢) (٥١) في السلام .

(٢) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها البخاري (٥٠١٧) في فضائل القرآن و(٥٧٤٨) في الطب ، ومسلم (٢١٩٢) في السلام .

(٣) البيتان من الخفيف .

وفيه أشياء :

منها : أن البيت بدون لفظة (لِحْنِي) أَجْمَلُ مِنْهُ مع وجودها ؛ إذ لا فائدة منها ، فهي بالحشو أشبه ، ما لم يدع مدح أن المعنى : هذه مهجتي لَدَيْكَ لهلاكي بالعشيق ، وفيه ما فيه .
ومنها : أن الأنسب بقوله : (هذه مهجتي لَدَيْكَ) أن يقول : فتقبليها بسلام ، أو رديها بلا ملام .

[الاستسلام للحبيب الأعظم]

وما أجمل قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في دعائه عند المنام : « اللَّهُمَّ إِنْ أَمْسَكَتَ نَفْسِي . . فَارْحَمَهَا ، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا . . فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ »^(١) .

[الاستسلام للمحبيب سجية الكرام]

وما زال الاستسلام للمحبيب سجية الكرام ، ويدخل فيه كل ما سبق في الكلام على قوله [في « العكبري » ٢٩٨/١] :
[من المنسرح]

يَا عَاذِلَ الْعَاشِقِينَ دَعُ فِتْنَةً أَضَلَّهَا اللهُ كَيْفَ تُرْشِدُهَا

وما استطرَدنا إليه قبيل المجلس السابع ، وفي شرح قوله [في « العكبري » ١٦٤/٣] :
[من البسيط]

إِلَّا يَشِبُّ فَقَدْ شَابَتْ لَهُ كَبِدٌ شَيْئاً إِذَا خَضَّبْتَهُ سَلْوَةٌ نَصَلًا^(٢)

[إعجاب المؤلف بأبيات لأبي نواس]

ويعجبني قول أبي نواس [في « ديوانه » ١٤٠] :

ظَبْيٌ كَانَ الثَّرِيًّا دُونَ مَفْرِقِهِ وَالْمُشْتَرِي وَضِيَاءَ الشَّمْسِ وَالشُّرْجَا
مُحَكِّمُ الطَّرْفِ يُذِمِّي لِحْظُ نَاطِرِهِ إِذَا انْتَضَاهُ لِفَتْكَ قَالَ : لَا حَرْجَا
لَا فَرَجَ اللهُ عَنِّي إِنْ مَدَدْتُ يَدِي إِلَيْهِ أَسْأَلُهُ مِنْ حُبِّهِ فَرَجَا

وموضع الإعجاب : الأخير على ما فيه من مخالفة الهدى النبوي ، كما سيأتي ، وكما في قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ ، وَسَلُّوْا اللهُ الْعَافِيَةَ »^(٣) .
أما الأوَّل . . ففيه ما فيه ، ولو لم يكن إلا ذكره السرج بعد ضياء الشمس .

[أعاصير الحب وبراكينه وامتحاناته]

وقال بعضهم :

تَمَنَّتْ سُلَيْمَى أَنْ أُمُوتَ صَبَابَةً وَأَهْوَنَ شَيْءٍ عِنْدَنَا مَا تَمَنَّتْ

(١) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه البخاري (٦٣٢٠) في الدعوات ، ومسلم (٢٧١٤) .

(٢) النصول : ذهاب الخضاب .

(٣) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه البخاري (٢٩٦٦) في الجهاد ، ومسلم (١٧٤٢) .

وقال جميلٌ [في «ديوانه» ١٠٣] :

[مِن الطَّوِيلِ]

وَلَوْ سَأَلْتُ مِنِّي حَيَاتِي بَدَلْتُهَا
وَجَدْتُ بِهَا إِنْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ أَمْرِي

وقالت بثينةٌ [كما في «مصارع العشاق» ٥٩/٢] :

[مِن الطَّوِيلِ]

سَوَاءٌ عَلَيْنَا يَا جَمِيلُ بِنَ مَعْمَرٍ
إِذَا مِتَّ بِأَسَاءِ الْحَيَاةِ وَلِينَهَا

وقال العباسُ بنُ الأحنفِ :

[مِن الطَّوِيلِ]

نُسِبْتُ إِلَى ذَنْبٍ وَلَمْ أَكُ مُذْنِبًا
وَمَا طَلَبِي لِلْوَصْلِ حِرْصًا عَلَى الْبَقَا
وَحَمَلْتَنِي فِي الْحُبِّ مَا لَا أُطِيقُهُ
وَلَكِنَّهُ أَجْرٌ إِلَيْكَ أُسْوِقُهُ

وقالت عليَّةُ بنتُ المهديِّ [في «ديوانها» ٧٢-٧٣] :

[مِن الرَّمَلِ]

جُبَلِ الْحُبِّ عَلَى الْجَوْرِ فَلَوْ
لَيْسَ يُسْتَحْسَنُ فِي شَرِّعِ الْهَوَى
أَنْصِفَ الْمَخْجُوبُ فِيهِ لَسَمَّجُ
عَاشِقٌ يُحْسِنُ تَأْلِيفَ الْحَجَجِ

وقالت هيَ أيضاً ، أو العباسُ بنُ الأحنفِ ، فقد اختلفتِ الروايةُ [كما في «ديوان» العباسِ بنِ الأحنفِ ٦٢-٦٣] :

[مِن الطَّوِيلِ]

وَأَحْسَنُ أَيَّامِ الْهَوَى يَوْمُكَ الَّذِي
إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحُبِّ سُخْطٌ وَلَا رِضَا
تُرَوِّعُ بِالْهَجْرَانِ فِيهِ وَبِالْعَتَبِ
فَأَيْنَ حَلَاوَاتِ الرِّسَائِلِ وَالْكَتُبِ ؟

وقال جميلٌ [في «ديوانه» ١١٩] :

[مِن البسيطِ]

لَا خَيْرَ فِي الْحُبِّ وَقَفَا لَا تَحَرَّكُهُ
لَوْ كَانَ لِي صَبْرُهَا أَوْ عِنْدَهَا جَزَعِي
عَوَارِضُ الْيَأْسِ أَوْ يَرْتَاخُهُ الطَّمَعُ
لَكُنْتُ أَمْلِكُ مَا آتِي وَمَا أَدَعُ

وقال آخرُ :

[مِن الخفيفِ]

رَاحَتِي فِي مَقَالَةِ الْعُدَّالِ
لَا يَطِيبُ الْهَوَى وَلَا يَحْسُنُ الْحُجْرُ
وَشَفَائِي فِي قَوْلِهِمْ : لَا يَبَالِي
بَسْمَاعِ الْأَذَى وَعَدْلِ نَصِيحِ
وَعَتَابِ وَكَاشِحِ وَمِطَالِ^(١)

وقال ابنُ النبیهِ [في «ديوانه» ١٤٩] :

[مِن الكاملِ]

مَنْ لَمْ يَذُقْ ظُلْمَ الْحَبِيبِ كَظْلَمِهِ
حُلُوا.. فَقَدْ جَهَلَ الْمَحَبَّةَ وَادَّعَى^(٢)

وقال الناظمُ [في «العكبريِّ» ٧٢/٢] :

[مِن المنسرحِ]

زَيْدِي أَدَى مُهَجَّتِي أَرْدُكَ هَوَى
فَأَجْهَلُ النَّاسِ عَاشِقٌ حَاقِدٌ

(١) الكاشحُ : الذي يضيِّرُ لك الأذى . المِطَالُ : التسويْفُ والمدافعةُ بالعِدَّةِ .

(٢) الظلمُ : الرينُ .

وقال [في «المكبري» ٣٠٤/٢] :

وأحلى الهوى ما شك في الوصل ربه

وقال غيره :

شرط المحبة عند أرباب الهوى

وقال ابن الفارض [في «ديوانه» ١٥٦] :

وبما شئت في هواك اختبرني

وقال [في «ديوانه» ١٤٧] :

وإن هددوا بالهجر ماتوا مخافة

وقال [في «ديوانه» ٥٧] :

فها أنا مستدع قضاك وما به

وقال بعض الأعراب :

شكوت فقالت : كل هذا تبرأ

ولما كتمت الحب قالت : لشد ما

وأذنو فتقصيني فأبعد طالبا

فشكواي تؤذيها وصبري يسوءها

وقال ابن الدمينه [في «ديوانه» ١٣-١٥-١٦-١٧] :

ففي قبل وشك البين يا ابنة مالك

ففي يا أميم القلب نقض لبانة

تعاللت كي أشجى وما بك علة

وقولك للعود : كيف ترونه ؟

لئن ساءني أن نلتني بمساءة

ليهنك إمساكي بكفي على الحشا

فلو قلت : طأ في النار أعلم أنه

لقدمت رجلي نحوها فوطئتها

أبيني أفي يمني يدك جعلتني

وقال بكر بن النطاح :

عرضت عليها ما أرادت من المني

[من الطويل]

وفي الهجر فهو الدهر يخشى ويتقي^(١)

[من الكامل]

أن المليح على التجني يعشق

[من الخفيف]

فاختياري ما كان فيه رضاكا

[من الطويل]

وإن أوعدوا بالقتل حنوا إلى القتل

[من الطويل]

رضاك ولا أختار تأخير مدتي

[من الطويل]

يحبي . . أراح الله قلبك من حبي

صبرت وما هذا بفعل شج صب

رضاها فتعدت التباعد من ذبي

وتغضب من بعدي وتفر من قربي

[من الطويل]

ولا تحرمينا نظرة من جمالك

وشكوا الهوى ثم فعلني ما بدا لك

تريدين قتلي قد ظفرت بذلك

فقالوا : قتيلا قلت : أيسر هالك

فقد سرنني أني خطرث ببالك

ورقراق دمعي رهبة من مطالك

رضا لك أو مذن لنا من وصالك

هدى منك لي أو ضلة من ضلالك

فأفرح أم صيررتني في شمالك

[من الطويل]

لترضى ، فقالت : قم فجنني بكوكب

(١) في «المكبري» : (يرجو) بدل (يخشى) .

فَقُلْتُ لَهَا : مَاذَا التَّعَنْتُ كُلُّهُ ؟

فَلَا تَذْهَبِي يَا هِنْدُ بِي كُلَّ مَذْهَبٍ

وقال العباس بن الأحنف [في «ديوانه» ٢٤٣] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

تَحَمَّلَ عَظِيمَ الذَّنْبِ مِمَّنْ تَحِبُّهُ
فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَحْمِلِ الذَّنْبَ فِي الْهَوَى

وَإِنْ كُنْتَ مَظْلُومًا فَقُلْ : أَنَا ظَالِمٌ
يُفَارِقُكَ مَنْ تَهْوَى وَأَنْفُكَ رَاغِمٌ

وقال المجنون [في «ديوانه» ٤٧] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

يَقُولُونَ : لَيْلَى عَذَّبَتْكَ بِحُبِّهَا

أَلَّا حَبَّذَا ذَاكَ الْحَيِيبُ الْمُعَذَّبُ

ومما ينسب إلى أبي فراس [في «ديوانه» ٤٧] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

أَسَاءَ فَزَادَتْهُ الْإِسَاءَةُ حُظْوَةً
يَعُدُّ لِي الْوَأَشُونَ فِيهِ ذُنُوبَهُ

حَيِيبٌ عَلَيَّ مَا كَانَ مِنْهُ حَيِيبٌ
وَمِنْ أَيْنَ لِلْوَجْهِ الْمَلِيحِ ذُنُوبُ ؟!

وقال الطغرائي [في «ديوانه» ٣٠٥] :

[مِنَ الْبَسِيطِ]

لَا أَكْرَهُ الطَّعْنََةَ النَّجْلَاءَ قَدْ شُفِعَتْ

بِرَشْقَةٍ مِنْ نِبَالِ الْأَعْيُنِ النَّجْلِ

وصدق في ذلك ؛ إذ برهن بفعاله على صحته ما ادعى في مقاله .

[الطغرائي يهوى غلاماً فيقتله ذلك الغلام]

وذلك : أنه أحب مملوكاً لمؤيد الدين ، كان يهواه أيضاً ، فحين بلغه . . . نقم على الطغرائي ، فأراد قتله ، وتحين له الفرص ، وتطلب له العثرات ؛ كراهية أن يشتهر خبر الغلام ، فلم يجد حيلة في غير اتهامه بالإلحاد ، فشدته إلى شجرة ، وأمر بتفويق السهام إليه ، وكان الغلام ممن حضر فيهم ، فقال [في «ديوانه» ٢٤٩-٢٥٠] :

[مِنَ الْكَامِلِ]

وَلَقَدْ أَقُولُ لِمَنْ يُسَدُّ سَهْمَهُ
وَالْمَوْتُ فِي لَحْظَاتِ أَحْوَرَ طَرْفِهِ
بِاللَّهِ فَتَشْ فِي فُؤَادِي هَلْ يُرَى
أَهْوَنُ بِهِ لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي طَيْهِ

نَحْوِي وَأَطْرَافِ الْمَنِيَّةِ شُرْعٌ
دُونِي وَقَلْبِي دُونَهُ يَتَقَطَّعُ
فِيهِ لِعَيْرِ هَوَى الْأَجْبَةِ مَوْضِعٌ ؟
عَهْدُ الْحَيِيبِ وَسِرُّهُ الْمُسْتَوْدَعُ

وفيه يقول قبل ذلك [في «ديوانه» ١٤١] :

[مِنَ الْكَامِلِ]

إِنِّي لِأَذْكُرْكُمْ وَقَدْ بَلَغَ الظَّمَا
وَأَقُولُ : لَيْتَ أَحَبِّي عَايِنْتُهُمْ

مِنِّي فَأَشْرَقُ بِالزُّلَالِ الْبَارِدِ^(١)
قَبْلَ الْمَمَاتِ وَلَوْ يَوْمَ وَاحِدٍ

وقد ألم في الأول ، بما مضى في غير هذا المجلس من قول الناظم [في «المكبري» ٩٧/٣] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَمَا شَرَقِي بِالْمَاءِ إِلَّا تَذَكُّرًا

لِمَاءِ بِهِ أَهْلُ الْحَيِيبِ نُزُولُ

(١) الشَّرْقُ : الاختناق بالماء أو الريق أو بالنفس .

وقال آخرُ :

[مِنَ البسيطِ]

لَقَدْ صَبَرْتُ عَلَى الْمَكْرُوهِ أَسْمَعُهُ مِنْ مَعْشَرٍ فِيكَ لَوْلَا أَنْتَ مَا نَطَقُوا
وَفِيكَ دَارَيْتُ قَوْمًا لَا خَلَاقَ لَهُمْ لَوْلَاكَ مَا كُنْتُ أَذْرِي أَنَّهُمْ خُلِقُوا

[الصدق في الرضا عند الصوفية]

وللسادة الصوفية الكثير الطيب من مثل ذلك ، حتى لقد زعم بعضهم - كما ذكره القشيري في « الرسالة » [١٥٢] - : أن بلغ به صدق الرضا ، إلى حد أنه استوى لديه الأمر بدخول الجنة والنار ؛ لأن كل ما يفعل المحبوب محبوب . وقد استعظمها بعضهم ، فقال ابن تيمية : وهل قال ذلك وهو يساق إلى جهنم ؟! كلاً ، وإنما هي عزيمة قويت في حالة شريفة ، سرعان ما تنسخ في حال الضيق .

[فليتك تحلو والحياة مريرة]

[مِنَ الطويلِ]

وقال أبو فراس [في « ديوانه » ٤١] :

فَلَيْتَكَ تَحْلُو وَالْحَيَاةُ مَرِيرَةٌ وَلَيْتَكَ تَرْضَى وَالْأَنَامُ غَضَابُ
وَلَيْتَ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَامِرٌ وَبَيْنِي وَبَيْنَ الْعَالَمِينَ خَرَابُ

ولقد أوفى على الإجابة ، غير أنه أساء الأدب ؛ إذ لا يليق هذا إلا بخطاب الباري عز وجل ، ومن ثم استعملها في مناجاته جلّة من العلماء ، منهم سلطان الدين ابن عبد السلام . . لما اشتد الأمر بينه وبين الجراكسة^(١) . ودخلت مرة على شيخنا أبي بكر بن شهاب في منزله الخاص به ، فإذا هو يناجي ربه بهلذين البيتين ، وكان ذلك بعد صلاة المغرب .

[مِنَ الطويلِ]

وبعضهم يزيد فيها بيتاً ليس منها ، وإنما هو للنّاظم فيما أعرف ، وهو هذا [في « العكبري » ٢٠٠/١] :

إِذَا نِلْتُ مِنْكَ الْوُدَّ فَالْمَالُ هَيْئٌ وَكُلُّ الَّذِي فَوْقَ الثَّرَابِ تُرَابُ

ثم إن هذا البيت . . لا يشبه بظاهره ما عرف من جشع النّاظم ، وشدة حرصه ، وهو القائل في القصيدة التي بين أيدينا [في « العكبري » ٣٢٠/١] :

[مِنَ الخفيفِ]

أَيْنَ فَضْلِي إِذَا قِنَعْتُ مِنَ الدَّهْرِ بِعَيْشٍ مُعْجَلٍ التَّنْكِيدِ
ضَاقَ صَدْرِي وَطَالَ فِي طَلْبِ الرِّزِّ قِي قِيَامِي وَقَلَّ عَنْهُ قُعُودِي
أَبْدَأُ أَقْطَعُ الْبِلَادَ وَنَجْمِي فِي نُحُوسٍ وَهَمَّتِي فِي سُعُودِ
فَلَعَلِّي مُؤَمَّلٌ بَعْضَ مَا أَبْلُغُ بِاللُّطْفِ مِنْ عَزِيزِ حَمِيدِ

[طلب سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام السجن]

وذكر القرطبي [في « تفسيره » ١٦١/٩] : أن يوسف عليه السلام لما قال : ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ [يوسف : ٣٣] أوحى الله إليه : يا يوسف أنت جنيت على نفسك ، ولو قلت : رب العافية أحب إلي . . لعوفيت ؛ ولذلك ردّ

(١) الجراكسة : اسم أطلقه العرب على سكان إقليم القوقاز المعروفين باسم : ديقه ، وهم من البطون التركية وكان لطبيعة البلاد القوقازية أثر كبير في تاريخهم السياسي والاجتماعي ، بدأ دخولهم في الإسلام في عهد سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه . وفي بعض المصادر : شراكس .

رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَلَى مَنْ كَانَ يَسْأَلُ الصَّبْرَ ، فَقَدْ أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ [فِي «سِنِّهِ» (٣٥٢٤)] : عَنْ
مَعَاذِ بْنِ جَبَلٍ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ : اللَّهُمَّ ، إِنِّي أَسْأَلُكَ الصَّبْرَ ، فَقَالَ لَهُ صَلَّى اللهُ
عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « سَأَلْتَ اللَّهَ تَعَالَى الْبَلَاءَ ، فَسَلَّهُ الْعَافِيَةَ » .

[طلب سيدنا أيوب عليه الصلاة والسلام البلاء]

وَأَخْرَجَ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ [كَمَا فِي «الْمُسْتَدْرَك» ٦٤١/٢] : وَأَقْرَهُ الذَّهَبِيُّ « أَنَّ أَيُّوبَ قَالَ : يَا رَبِّ ، إِنَّ الْخَيْرَ كُلَّهُ قَدْ ذَهَبَ
بِهِ آبَائِي الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِي ، فَأَعْطِنِي مِثْلَ مَا أَعْطَيْتَهُمْ ، وَافْعَلْ بِي مِثْلَ مَا فَعَلْتَ بِهِمْ ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ : إِنَّ أَبَاءَكَ
ابْتَلَوْا بِبِلَايَا لَمْ تُبْتَلْ بِهَا أَنْتَ ، ابْتَلَيْ إِبْرَاهِيمَ بِذَبْحِ ابْنِهِ ، وَابْتَلَيْ إِسْحَاقُ بِذَهَابِ بَصَرِهِ ، وَابْتَلَيْ يَعْقُوبُ بِحُزْنِهِ عَلَى
يُوسُفَ ، وَإِنَّكَ لَمْ تُبْتَلْ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، قَالَ : يَا رَبِّ ابْتَلِنِي بِمِثْلِ مَا ابْتَلَيْتَهُمْ بِهِ ، وَأَعْطِنِي مِثْلَ مَا أَعْطَيْتَهُمْ ، قَالَ :
فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ ، إِنَّكَ مَبْتَلَى ، فَاحْتَرَسْ . . . » وَذَكَرَ حَدِيثًا طَوِيلًا .

[مدة ابتلائه]

وَفِي آخِرٍ : أَنَّ مَدَّةَ ابْتِلَائِهِ كَانَتْ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً ، أَوْ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً .

[حوار بين فرعون وامرأته]

وَأَخْرَجَ الْحَاكِمُ - أَيْضًا - وَصَحَّحَهُ [كَمَا فِي «الْمُسْتَدْرَك» ٦٢٨/٢] ، وَلَمْ يُوَافِقْهُ الذَّهَبِيُّ عَلَى تَصْحِيحِهِ ، قِصَّةً طَوِيلَةً :
يَذَكُرُ فِيهَا أَنَّ امْرَأَةً فَرَعُونَ لَمَّا قَالَتْ لَهُ : عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا ، قَالَ لَهَا : عَسَى أَنْ يَنْفَعَكَ أَنْتِ ، فَأَمَّا أَنَا . . . فَلَا أُرِيدُ نَفْعَهُ ،
فَالَ وَهَبُ : قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : لَوْ أَنَّ عَدُوَّ اللهِ قَالَ فِي مُوسَى كَمَا قَالَتْ امْرَأَتُهُ : عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا . . . لِنَفْعِهِ اللهُ بِهِ ، وَلَكِنَّهُ
أَبَى ؛ لِلشَّقَاءِ الَّذِي كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ .

[دعاء سيدنا أبي بن كعب على نفسه]

وَصَحَّحَ أَنَّ أَبِيَّ بْنَ كَعْبٍ دَعَا عَلَى نَفْسِهِ أَلَّا يَفَارِقَهُ الْوَعَكُ ، حَتَّى يَمُوتَ ، بَعْدَ أَلَّا يَشْغَلُهُ عَنْ حُجٍّ ، وَلَا جِهَادٍ فِي
سَبِيلِ اللهِ ، وَلَا صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ فِي جَمَاعَةٍ ، فَمَا مَسَّ رَجُلٌ جِلْدَهُ بَعْدَهَا . . . إِلَّا وَجَدَ حَرَّهُ ، حَتَّى مَاتَ ، وَذَلِكَ لَمَّا سَمِعَ
مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ الْأَمْرَاضَ كَفَّارَاتٌ ، وَإِنْ قَلَّتْ ، شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا » (١) .

[هدى النبي محمد صلى الله عليه وسلم]

وَلَكِنْ هَدِيَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ . . . غَيْرُ ذَلِكَ ، فَقَدْ صَحَّحَ عَنْهُ : « لَا تَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعُدُوِّ ، وَسَلُّوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ » (٢) .
وَصَحَّحَ أَنَّهُ قَالَ لِعَمِّهِ : « أَكْثَرُ الدُّعَاءِ بِالْعَافِيَةِ » (٣) .

وَأَنَّ أَبَا بَكْرٍ أَرَادَ أَنْ يَخْطُبَ . . . فَخَفَقَتْهُ الْعَبْرَةُ ، ثُمَّ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، عَلَى هَذَا الْمَنْبَرِ يَقُولُ
عَامَ أَوَّلٍ : « سَلُّوا اللَّهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ ، وَالْيَقِينَ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ ، فَإِنَّهُ مَا أُوتِيَ الْعَبْدُ بَعْدَ الْيَقِينِ خَيْرًا مِنَ الْعَافِيَةِ » (٤) .

(١) أَخْرَجَهُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ النَّسَائِيُّ فِي «الْكَبْرِ» (٧٤٨٩) فِي الطَّبِّ ، وَالْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَك» (٣٠٨/٤) وَصَحَّحَهُ ، وَابْنُ حِبَانَ فِي
«صَحِيحِهِ» (٢٩٢٨) بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ بِلَفْظٍ : أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، أَرَأَيْتَ هَذِهِ الْأَمْرَاضَ الَّتِي تَصِيْبُنَا مَاذَا لَنَا مِنْهَا ؟ فَقَالَ :
« كَفَّارَاتٌ » ، فَقَالَ : أَيُّ رَسُولِ اللهِ . . . وَإِنْ قَلَّتْ ؟ قَالَ : « وَإِنْ شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا » قَالَ ابْنُ حِبَانَ : وَالَّذِي دَعَا عَلَى نَفْسِهِ هُوَ أَبِي بِنُ كَعْبٍ .

(٢) مَرَّتْخَرِيحَهُ .

(٣) أَبِي الْعَبَّاسِ ، أَخْرَجَهُ بِنَحْوِهِ التِّرْمِذِيُّ (٣٥٠٩) ، وَالْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَك» (٧١١/١) ، قَالَ التِّرْمِذِيُّ : حَسَنٌ صَحِيحٌ .

(٤) أَخْرَجَهُ أَبُو عَبْدِ اللهِ الْمُقَدِّسِيُّ فِي «الْأَحَادِيثِ الْمُخْتَارَةِ» (١٥٧/١) .

[حسن العشرة مع الأهل من هدي النبي صلى الله عليه وسلم وشدة احتماله لأزواجه]

وَيَتَّصِلُ بِمَوْضِعِ الْبَيْتِ الَّذِي نَحْنُ بِطَرِيقِهِ حَسَنُ الْعَشْرَةِ مَعَ الْأَهْلِ ، وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي » (١) .

وفي « الصحيح » : فوالله إن أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم . . . ليراجعنه ، وإن إحداهنَّ لتهجُرهُ اليوم إلى الليل (٢) ، وهذا كافٍ في احتماله عليه السلام لتجني أزواجه ، وهو ما نتحدث فيه .

ومنه : أنه صلى الله عليه وآله وسلم خرج ذات ليلة من عند ميمونة ، فأغلقت دونه الباب ، فجاء يستفتح فأبث أن تفتح له ، حتى أقسم عليها ، فقالت : لم تذهب إلي بعض أزواجك في ليلتي ؟ فقال : « ما فعلت ، ولكنني وجدتُ حُقناً من بُولٍ » (٣) .

ومنه : أنه لما نزلت براءة عائشة . . . قالت لها أمها : قومي إليه ، قالت : والله لا أقومُ إليه ، ولا أحمدُ إلا الله (٤) .
ومنه : ما ذكر غير واحد ، أنه لما أتى بالجونية (٥) . . . دخلت عليها عائشة وحفصة أوّل ما قدمت ، فمسططها وخضببائها ، وقالت لها إحداهما : إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعجبهُ من المرأة إذا دخل عليها أن تقول : أعوذُ بالله منك ، وذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : فتحملهُ ولم يزد على قوله : « إنهنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ ، وَكَيْدُهُنَّ » (٦) .

وإلا . . . فما أعظمها من جنابة ، لو لم تُحطُ بها العناية ، قد حرمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم زوجته ، وأعدنه على أدراجهِ ، وكان جاء ماشياً على قدميه ، فأحبطن مسعاه ، وأكبرن من ذلك الكذب عليه صلى الله عليه وآله وسلم وجرمان الجونية من سعادة الدنيا والآخرة في قربه ، والاتصال به ، فأئى قلب يتحمل هذه المشقات العظمتى ؟ لولا أخذهُ صلى الله عليه وآله وسلم بمجامع الفضائل ، وحلول الصديقة رضوان الله عليها بالمحل الأقصى من محبته ، فالأمر كما قيل :

وَيَقْبُحُ مِنْ سِوَاكَ الْفِعْلُ عِنْدِي فَتَفَعَّلُهُ فَيَحْسُنُ مِنْكَ ذَاكَ

[تمنع ودلال عائشة بنت طلحة على ابن الزبير]

وبلغ من تمنع عائشة بنت طلحة على مصعب بن الزبير . . . أنه وجدها نائمة ضحوً ، فأنبهها بعقد رماها به من اللؤلؤ ، اشتراه بعشرين ألف دينار ، فقالت له : لقد كانت نومتي أحب إلي من هذا .

[المعلم الجاهل]

[من الطويل]

وقال بعضهم :

وَعَلَّمْتَنِي كَيْفَ الْهَوَى وَجَهَلْتَهُ وَعَلَّمَكُم صَبْرِي عَلَى ظُلْمِكُمْ ظُلْمِي

(١) أخرجه عن ابن عباس رضي الله عنهما ابن حبان في « صحيحه » (٤١٨٦) بإسناد صحيح .

(٢) أخرجه عن ابن عباس البخاري (٥١٩١) ، ومسلم (١٤٧٩) (٣٤) في الطلاق ، والترمذي (٣٣١٥) ، والنسائي (١٣٧/٤) .

(٣) أخرجه الحاكم في « المستدرک » (٣٤/٤) .

(٤) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها البخاري (٢٦٦١) من حديث الإفك في الشهادات وغيره .

(٥) واسمها : أميمة بنت النعمان بن شراحيل ، وقيل : فاطمة بنت الضحاك كما في « المعارف » لابن قتيبة (ص ١٤٠) وغيره .

(٦) طرف حديث ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم عند وفاته كما في البخاري (٣٣٨٤) في الأنبياء ، والترمذي (٣٦٧٣) في المناقب ، وابن ماجه (١٢٣٢)

في إقامة الصلاة .

هَوَايَ إِلَى جَهْلِي فَأَرْجِعْ عَنِّ عِلْمِي

وَأَعْلَمُ مَا لِي عِنْدَكُمْ فَيَرُدُّنِي

وهو معنى عجيب ، وأسلوبٌ مليحٌ غريبٌ .

[مِنَ البسيطِ]

وقال العباسُ بنُ الأحنفِ :

إِذَا تَجَدَّدَ حُزْنٌ هَوَّنَ الْمَاضِي
حَتَّى رَجَعْتُ بِقَلْبِي سَاحِطِ رَاضِي

كَمْ قَدْ تَجَرَّعْتُ مِنْ غَيْظٍ وَمِنْ حَنْقٍ
وَكَمْ سَخِطْتُ وَمَا بَالَيْتُمْ سَخِطِي

* * *

[مِنَ الخفيفِ]

قال أبو الطيبِ المتنبي في « العُكْبَرِيُّ » ٣١٨/١ :

كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الدَّمَاءِ حَرَامٌ شُرْبُهُ مَا خَلَا دَمَ الْعُنُقُودِ

[شرح المطلع]

المرادُ من (دَمِ الْعُنُقُودِ) : الخمرُ ، وحققتها : المسكرُ من عصيرِ العنبِ ، وإن لم يقذف بالزَّيْدِ .

[ملاحظات على المطلع]

وفي البيتِ أشياء :

[١- حكم الخمر]

أحدها : إنَّ الخمرَ حرامٌ بالإجماعِ ، إلَّا أن يرادَ بها المطبوخُ ، فقد روي عن ابنِ الخطَّابِ أنَّه كتبَ إلى عبدِ الله بنِ يزيدِ الخطميِّ :

أما بعدُ : فاطبُحُوا شرابكم حتَّى يذهبَ منه نصيبُ الشيطانِ .

وروي : أنَّ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ ، كتبَ لبعضِ عمَّالِهِ : ألا تشرَبوا الطلاءَ حتَّى يذهبَ ثلثاهُ ، ويبقى ثلثهُ ، وكلُّ مسكرٍ حرامٌ .

وقد علمتَ أنَّ ما لا يُسكرُ من ماءِ العناقيدِ لطبخِ أو غيرهِ ، لا يسمَّى خمرًا ؛ إذ لا ينطبقُ عليه الحدُّ السابقُ ، وفي « الصحيحين » : « كُلُّ شَرَابٍ أَسْكَرَ . . فَهُوَ حَرَامٌ »^(١) . وصحَّ خبرُ « أَنَّهَا كُمْ عَنْ قَلِيلٍ مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ »^(٢) ، وخبرُ : « مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ . . قَلِيلُهُ حَرَامٌ »^(٣) ، لكن لا يكفرُ مستحلُّ المسكرِ من عصيرِ غيرِ العنبِ ؛ للخلافِ فيه ، أي : من حيثِ الجنسِ ؛ لحلِّ قليله على قولِ جماعةٍ .

(١) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها البخاري (٥٥٨٥) ، ومسلم (٢٠٠١) في الأشربة .

(٢) أخرجه أبو عبد الله المقدسي في « الأحاديث المختارة » (١٨٣/٣) ، ونحوه عن عائشة : « ما أسكر منه الفَرْقُ فملاء الكف منه حرام » رواه أحمد (٧٢/٦) ، وأبو داود (٣٦٨٧) ، والترمذي (١٨٦٧) وحسنه .

(٣) أخرجه عن جابر رضي الله عنه أبو داود (٣٦٨١) ، والترمذي (١٨٦٦) وحسنه ، وابن ماجه (٣٣٩٣) ، وابن حبان في « صحيحه » (٥٣٨٢) ، والحاكم في « المستدرک » (٤١٣/٣) (٤٦٦) .

أَمَّا الْمَسْكُورُ بِالْفِعْلِ : فَإِنَّهُ حَرَامٌ إِجْمَاعًا ، كَمَا حَكَاهُ الْحَنْفِيَّةُ فَضْلًا عَنْ غَيْرِهِمْ ، وَهَذَا كُلُّهُ بِمَعْنَاهُ مِنْ « التَّحْفَةِ » لِلْهَيْتَمِيِّ .

[حكيم الخمر عند أبي نواس]

[من الطويل]

وَلَقَدْ ظَرَفَ أَبُو نُؤَاسٍ أَوْ ابْنُ الرَّومِيِّ - قَاتَلَهُ اللَّهُ - فِي قَوْلِهِ :

أَحَلَّ الْعِرَاقِيُّ النَّيِّدَ وَشُرْبَهُ وَقَالَ : الْحَرَامَانِ الْمُدَامَةُ وَالسُّكْرُ
وَقَالَ الْحِجَازِيُّ : الشَّرَابَانِ وَاحِدٌ فَحَلَّلْتُ لَنَا بَيْنَ اخْتِلَافِهِمَا الْخَمْرُ
سَأَخُذُ مِنْ قَوْلَيْهِمَا طَرَفَيْهِمَا وَأَشْرَبُهَا حِلًّا وَلِلْوَازِرِ الْوِزْرُ

أَرَادَ : أَنَّهُ سَيَأْخُذُ مِنْ قَوْلِ أَبِي حَنِيفَةَ ، قَوْلُهُ : النَّيِّدُ حَلَالٌ ، وَيَتْرُكُ قَوْلَهُ : إِنَّ الْخَمْرَ وَالسُّكْرَ حَرَامٌ ، وَيَأْخُذُ مِنْ قَوْلِ الشَّافِعِيِّ : النَّيِّدُ وَالْخَمْرُ سَوَاءٌ ، وَيَتْرُكُ قَوْلَهُ فِي الْحَرَمَةِ ، وَكَذَبَ فِي قَوْلِهِ :

[من البسيط]

مَنْ ذَا يُحَرِّمُ مَاءَ الْمُزْنِ خَالَطَهُ فِي بَطْنِ خَابِيَةِ مَاءِ الْعِنَاقِيدِ
إِنِّي لَأَكْرَهُ تَشْدِيدَ الرُّوَاةِ لَنَا فِيهَا ، وَيُعْجِبُنِي قَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ

[من الطويل]

وَجَاوَزَ الْغَايَةَ فِي التَّهْتُكِ وَخَلَعَ الْعَذَارِ حَيْثُ يَقُولُ [أَبُو نَوَاسٍ فِي « دِيْوَانِهِ »] :

أَلَا فَاسْقِنِي خَمْرًا وَقُلْ لِي : هِيَ الْخَمْرُ وَلَا تَسْقِنِي سِرًّا إِذَا أُمُكِنَ الْجَهْرُ

وَقَالَ بَعْضُهُمْ فِي مَعْنَاهُ : إِنَّ الْغَرَضَ مِنْ قَوْلِهِ : (وَقُلْ لِي : هِيَ الْخَمْرُ) التَّذَادُ سَمِعَهُ بِذِكْرِهَا .

وَقَالَ آخَرُونَ : إِنَّهُ تَأْوِيلٌ بَارِدٌ ثَقِيلٌ ، وَإِنَّمَا عَمِدَ إِلَى الْمَجَاهِرَةِ وَالِاسْتِعْلَانِ وَقَلَّةِ الْحَيَاءِ ، حَتَّى لَقِدَ عَابَ الْمَأْمُونُ وَهَوَى عَلَى الْمَنْبِرِ عَلَى أَحِيهِ ، وَقَالَ : إِنَّهُ صَحْبٌ مُدْمِنًا سَكِّيرًا ، بَلَغَ مِنْ اسْتِهْتَارِهِ أَنْ يَقُولَ : وَذَكَرَ الْبَيْتَ .

وَعِنْدِي : إِنَّهُ أَرَادَ - مَعَ قَصْدِهِ الْاسْتِعْلَانَ - أَنْ يَكُونَ الْحَدِيثُ كُلُّهُ فِي الْخَمْرِ ، كَمَا يَفْسِّرُهُ قَوْلُهُ مِنَ الْآخِرَى [بِ] « دِيْوَانِهِ » [٣٣٨] :

[من الكامل]

وَإِذَا جَلَسْتَ إِلَى الْمُدَامِ وَشَرِبَهَا فَاجْعَلْ حَدِيثَكَ كُلَّهُ فِي الْكَاسِ

[عينية بن حصن وعمرو بن معد يكرب ومنادتهما]

وَكَانَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ عَمِيرٍ يَحْدُثُ : أَنَّ عَيْنَةَ بْنَ حَصْنِ الْفَزَارِيِّ قَدِمَ (الْكُوفَةَ) ، فَأَقَامَ بِهَا أَيَّامًا ، ثُمَّ قَالَ لِغَلَامِهِ : أَسْرَجَ لِي ، فَقَدَّمَ لَهُ فِرْسًا ، فَقَالَ : وَيْحَكَ ، أَعَلِمْتَنِي رَكِبْتُ أَشْيَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَأَرْكَبُهَا فِي الْإِسْلَامِ ؟ فَاسْرَجَ لَهُ حَصَانًا أَقْبَلَ عَلَيْهِ إِلَى مَحَلَّةِ بَنِي زَيْدٍ ، فَسَأَلَ عَنْ مَكَانِ عَمْرِو بْنِ مَعْدِ يَكْرِبَ ، فَأُرْشِدَ إِلَيْهِ ، فَوَقَفَ بِيَابِهِ وَنَادَى : أَيُّ أَبَا ثَوْرٍ ، أَخْرَجَ إِلَيْنَا ، فَخَرَجَ مُؤْتَرِرًا ، كَأَنَّمَا كُسِرَ ثُمَّ جُبِرَ ، وَقَالَ : أَنْعِمَ صَبَاحًا أَبَا مَالِكٍ ، قَالَ عَيْنَةُ : أَوْ لَيْسَ اللَّهُ قَدْ أَبَدَلْنَا بِهِذَا ، قَالَ : دَعْنَا مِمَّا لَا نَعْرِفُ ، انزَلْ ، فَإِنَّ عِنْدِي كِبْشًا سَاحًا^(١) ، فنزل ، فعمد إلى الكبش فذبحه ، ثم كشط جلدَه عنه ، وعضاه^(٢) ، وألقاه في قدر جماع ، وطبخه ، حتى إذا أدرك . . . جاء بجفنة عظيمة ، فثرد فيها ، ثم ألقى عليها القدر بما فيه ، وقعدا فأكلاه ، ثم قال له : أَيُّ الشَّرَابِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ، اللَّبْنُ أَمْ مَا كُنَّا نَتَنَادَمُ عَلَيْهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ؟

(١) سَاحٌ : نَادِرٌ ، سَمِينٌ .

(٢) عَضَاهُ : فَرْقُهُ .

قال : أو ليس قد حرّمها الله عزّ وجلّ علينا في الإسلام ؟ قال : أنت أكبر سنّاً أم أنا ؟ قال : أنت ، قال : فأنت أقدمُ إسلاماً أم أنا ؟ قال : أنت ، قال : فإنّي قد قرأتُ ما بين دفتي المصحفِ ، فوالله ما وجدتُ لها تحريماً ، إلاّ أنّه قال : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْفِكُونَ ﴾ [المائدة : ٩١] قلنا : لا ، فسكتَ عنّا وسكتنا عنه .

فجاء بها ، وجلسا يتنادمان ويشربان^(١) ، ويذكران أيامَ الجاهليّةِ ، حتّى أمسيًا ، فلما أرادَ عُيينةُ الانصرافَ . . قال عمرو : لئن انصرفَ أبو مالكٍ بغيرِ حياءٍ^(٢) . . إنّها لو صمّةٌ عليّ ، فأمرَ بناقَةَ له أرحبيّةً^(٣) ، كأنّها جبيرةٌ لُجينٍ ، فحمله عليها ، ثمّ قال : يا غلامُ ، هاتِ المزودَ ، فإذا فيه أربعةُ آلافِ درهمٍ ، فوضعها بين يديه ، فقال : أمّا المالُ فوالله لا قبلتهُ ، قال : إنّهُ لَمِنْ حياءٍ عمرَ بنِ الخطّابِ ، فلم يقبله ، وانصرفَ وهو يقولُ : [مِن الطويل]

جُزيتَ أبَا ثورٍ جزاءَ كرامَةٍ فَنِعَمَ الْفَتَى الْمُرْدَارُ وَالْمُتَضَيِّفُ
قَرَيْتَ فَأَجَزَلْتَ الْقِرَى وَأَفْدَتْنَا خَيْبَةَ عِلْمٍ لَمْ تَكُنْ قَطُّ تُعْرِفُ
وَقُلْتَ : حَلَالًا أَنْ نُدِيرَ مُدَامَةً كَلَّوْنَ ابْتِغَاءَ الْبَرْقِ وَاللَّيْلُ مُسَدِّفُ
وَقَدَّمْتَ فِيهَا حُجَّةَ عَرِيَّةٍ تَرُدُّ إِلَى الْإِنْصَافِ مَنْ كَانَ يُنْصَفُ
وَأَنْتَ لَنَا وَاللَّهِ ذِي الْعَرْشِ قُدْوَةٌ إِذَا صَدَدْنَا عَنْ شُرْبِهَا الْمُتَكَلِّفُ
نَقُولُ : أَبُو ثورٍ أَحَلَّ حَرَامَهَا وَقَوْلُ أَبِي ثورٍ أَسَدٌ وَأَعْرَفُ

[تعليق المؤلف على الخبر]

وفي هذا الخبرِ غضُّ من إيمانِ عمرو بنِ معدٍ يكربَ ، ولا سيّما في إنكارِهِ تحيّة الإسلامِ ، والله أعلمُ بالحقّيقَةِ .

[نقل السيوطي عن عثمان بن مظعون وعمرو بن معد يكرب]

وقال السيوطي في « الإِتقان » [٨٨/١] : وحكي عن عثمان بن مظعون وعمرو بن معد يكرب أنّهما كانا يقولان : الخمرُ مباحةٌ ، ويحتجّانِ بقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا ﴾ [المائدة : ٩٣] ، ولو علما سببَ نزولها . . لم يقولوا ذلكَ ، وهو : أنّ ناساً لما حرّمتِ الخمرُ . . قالوا : كيف بمن قتل في سبيلِ الله ، وكانوا يشربون الخمرَ وهي رجسٌ؟! فنزلتْ . أخرجهُ أحمدُ [٤٤١/٤] والنسائيُّ [في « الكبرى » (١١١٥١)] عن ابن عباس رضي الله عنهما بإسناد حسنٍ وغيرهما . اهـ كلامه .

[تعليق المؤلف على السيوطي]

وأخطأ في ذلكَ أبو بكر [السيوطي] ؛ إذ إنّ الذي مرَّ عن عمرو بن معد يكرب إنّما يدلُّ على احتجاجِهِ بغيرِ هذه الآية . والأشبهُ أنّ يكونَ الثاني قُدامةَ بنَ مظعونٍ لا عثمانَ بنَ مظعونٍ كما يعرفُ ممّا يأتي ، وأيضاً فإنَّ عثمانَ بنَ مظعونٍ توفي قبلَ تحريمِ الخمرِ ؛ لأنّه ماتَ بعقبِ واقعةِ بدرٍ بأشهرٍ ، وهي كانت في السنةِ الثانيةِ للهجرةِ ، ولم تحرّمِ الخمرُ إلاّ في شهرِ ربيعِ الأوّلِ من السنةِ الرابعةِ للهجرةِ ، وأوّلُ ما نزلَ فيها (بـ مكة) : ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ نَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ [النحل : ٦٧] .

(١) القصة غير ثابتة ، والمؤلف نفسه في آخرها تشكك في صحتها .

(٢) الحياءُ : العطاءُ .

(٣) أرحبيّةٌ : منسوبةٌ إلى أرحبٍ ، وهو اسمُ قبيلةٍ تنسبُ إليها النجائبُ الأرحبيّاتُ .

فَكَانَتِ الصَّحَابَةُ تَشْرِبُهَا وَهِيَ حَلٌّ لَهُمْ ، ثُمَّ نَزَلَ فِيهَا بِ(المدينة) قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِتْمَامٌ كَثِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا آكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ [البقرة : ٢١٩] فتركها قومٌ للإثم ، وشربها آخرون للمنافع . . . إلى أن صنع عبد الرحمن بن عوفٍ طعاماً ، ودعا ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وأتاهم بخمرٍ فسكروا ، وحضرت الصلاة ، فقدموا واحداً ليصلي بهم ، فقرأ : قل يا أيها الكافرون أعبدوا ما تعبدون ، بحذف (لا) فأنزل الله : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء : ٤٣] فقال ابن الخطّاب : إن الله جلّ شأنه . . . تقارب في النهي عن الخمر ، وما أراه إلا سيحرمها ، ثم نزلت آية التحريم البتة ، بالتاريخ السابق ، وهي قوله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ ﴾ [المائدة : ٩١] .

[رواية أخرى في نزول آية تحريم الخمر]

ويروى : أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي شَأْنِ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ^(١) ، وَكَانَ مِنْ خَبْرِهِ ، مَا اسْتَوْفَاهُ الشَّيْخَانِ فِي « الصَّحِيحَيْنِ » ، وَقَدْ عَلِمْتَ مَا قَالَهُ أَبُو ثَوْرٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ ﴾ [المائدة : ٩١] .

[سؤال عن الخمر وحكمها والإجابة على ذلك من القرآن والحديث]

وَيُذَكَّرُ : أَنَّ حَامِدَ بْنَ الْعَبَّاسِ سَأَلَ عَلِيَّ بْنَ عِيْسَى بِمَشْهَدٍ مِنَ النَّاسِ عَنْ دَوَاءِ الْخَمَارِ ؟ فَأَعْرَضَ عَنْهُ ، وَقَالَ : مَا لِي وَلِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ، فَخَجَلَ حَامِدٌ ، وَالتَفَتَ إِلَى قَاضِي الْقَضَاةِ أَبِي عَمْرٍو الْمَالِكِيِّ ، وَأَعَادَ عَلَيْهِ السُّؤَالَ ، فَتَنَحَّحَ لِيُصَلِّحَ مِنْ صَوْتِهِ وَقَالَ :

أَمَّا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ : فَقَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَمَا ءَاتَيْنَاكَمُ الرُّسُولَ فَخُذُوهُ ﴾ [الحشر : ٧] .

وَأَمَّا مِنَ السُّنَّةِ : فَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « اسْتَعِينُوا عَلَيَّ كُلَّ صَنْعَةٍ بِصَالِحِي أَهْلَهَا »^(٢) ، وَالْمَشْهُورُ بِهَذَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ الْأَعْسَى وَهُوَ الْقَائِلُ [كما في « ديوانه » ٣٤] :

وَكَأْسٍ شَرِبْتُ عَلَيَّ لَذَّةً وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

وفي الإسلام أبو نؤاس ، وهو الذي يقول [في « ديوانه » ٢٧] :

دَعَّ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءٌ وَدَاوِنِي بِأَلْتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ

فَأَسْفَرَ وَجْهَهُ حَامِدٌ ، وَقَالَ لِعَلِيِّ بْنِ عِيْسَى : مَا ضَرَّكَ أَنْ تَجِيبَ بَعْضُ مَا أَجَابَ بِهِ قَاضِي الْقَضَاةِ ، وَقَدْ اسْتَظْهَرَ فِي الْجَوَابِ بَكْتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ؟ فَكَانَ خَجَلُ عَلِيِّ بْنِ عِيْسَى وَانْكَسَارُهُ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ . . . أَكْثَرَ مِنْ خَجَلِ حَامِدٍ حِينَ ابْتَدَأَهُ بِالسُّؤَالَ ، كَذَا رُوِيَ الْقِصَّةُ عَنْ غَيْرِ وَاحِدٍ .

(١) قال في « الفتح » (٢٧٩/٨) : والوقت الذي وقع فيه ذلك زعم الواحدي : أنه عقب قول حمزة رضي الله عنه : إنما أنتم عبيد لأبي ، وحديث جابر يرد عليه ، والذي يظهر أن تحريمها كان عام الفتح سنة ثمان .

(٢) أورده العجلوني في « كشف الخفاء » (٣٤٠) ونقل عن الأصل للسخاوي : قد يستأنس له بقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « ما كان من أمر دنياكم فإليكم » .

[لا ينبغي الانكسار في الحق]

وما كان لعلِّي بن عيسى أن ينكسر لو تعمَّد الحقَّ ، واستظهر بالصدق ، إنما المؤاخذه على أبي عمرو في تنفقه بالباطل ، والتيسير في معاقرة العقار ، ولعلَّه إنما أخرج ذلك الكلام مخرجَ التظرف والتندر ، وإلا . . . كان من المخطئين ، ومقام أبي عمرو أجلُّ من ذلك ، والشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وحبُّ الزلفى لدى الكبراء داءٌ عُضالٌ .

وحامد بن العباس هذا ، هو وزيرُ المقتدر ، وهو الذي أراق دمَ الحلاج بفتوى القاضي أبي عمرو المذكور سنة : (٣٠٩ هـ) .

[غناء تصغي له الوحوش]

وبيت الأعشى السابق ، وهو : (وكأسٍ شربتُ على لذةٍ) إلخ . . ذكرتُ ما رواه غيرُ واحدٍ : من أنَّ الأمينَ كان لا يشربُ وهو مخمورٌ ، حتَّى غناه إبراهيمُ بنُ المهديِّ بهذا ، فشرَّب ، وإبراهيمُ يغني ، حتَّى أصغتُ إليه الوحشُ ومدَّتْ أعناقها ، ولم تزل تَدنو منه حتَّى وضعتُ رُؤوسها على الدكان الذي كانوا عليه ، والأمينُ يتعجبُ من ذلك .

[كيفية تداوي شارب الخمر]

وغاب عن القاضي أبي عمرو أنَّ المجنونَ يقولُ فيما بين الأعشى وأبي نواسٍ [في «ديوانه» ١٦٠] : [من الطويل]
تَدَاوَيْتُ مِنْ لَيْلَى بِلَيْلَى مِنَ الْهَوَى كَمَا يَتَدَاوَى شَارِبُ الْخَمْرِ بِالْخَمْرِ

[قياس في الخمر]

وفي نظير ما سبق من قياس ابن الرومي ، أو أبي نواس ، يقول بعضهم : إنَّ أهلَ الحرمين حرَّموا النبيذَ وأحلُّوا الغناء ، وأهلُ (العراق) حرَّموا الغناءَ وأباحوا النبيذَ ، فأوجدونا السبيلَ إلى الرخصةِ فيهما عندَ اختلافِهما إلى أن يقعَ الاتفاقُ ، وقال في ذلك بعضُ الشعراءِ :

رَأَيْتُهُ فِي السَّمَاعِ رَأْيِي حِجَازِي وَفِي الشَّرْبِ رَأْيِي أَهْلِ الْعِرَاقِ

وقال ابنُ الروميِّ :

أَنَا أَهْوَى ذَاتَ الْخَمَارِ عَلَى الْجَيْبِ وَذَاتَ الْوِشَاحِ وَالذُّمْلَجِينَ^(١)
وَأَرَى فِي النَّبِيذِ رَأْيِي صَوَابٍ لِشُيُوخِ الْعِرَاقِ بِالْكَوْفَتَيْنِ
وَإِذَا مَا الْغِنَاءُ خَاضَ ذُو الْأَلْبَابِ فِيهِ اعْتَصَمْتُ بِالْحَرَمَيْنِ
كُلَّمَا جَاءَتِ الرَّخَائِصُ فِيهِ كَانَ أَخْذِي لَهُ بِكُلْتَا الْيَدَيْنِ

[الإمام النعمان يقطع كلام ابن أبي ليلى]

وقال ابنُ أبي ليلى لأبي حنيفة : أَيْحَلُّ النَّبِيذُ ، وَشَرَاؤُهُ ، وَبَيْعُهُ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : أَفَيْسُرُكَ أَنْ أُمَّكَ نَبَاذَةٌ ؟ فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : أَيَحَلُّ الْغِنَاءُ وَسَمَاعُهُ ، قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : أَفَيْسُرُكَ أَنْ أُمَّكَ مَغْنِيَّةٌ ؟

(١) الجيبُ : جيبُ القميص ، ومنه قولُ تعالى : ﴿ وَليَصْرَيْنَ يَجْمَعْنَ عَلَى جَيْبَيْنِ ﴾ [النور : ٣١] . الوشاحُ : من حُلِيِّ المرأة ، من جوهرٍ ولؤلؤٍ منظومان ، مخالفٌ بينهما ، معطوفٌ أحدهما على الآخر . الدمْلجُ : المعصمُ من الحلْيِ .

[جواب لإياس بن معاوية عن الخمر]

وقيل لإياس بن معاوية: ما تقول في التمر والعنب والماء، حلال هي، أم حرام؟ فقال: حلال، فقيل له: ولم يحرم الخمر، وإنما هو من ذلك؟ فقال: أرأيت لو أصابك ماء أو تراب أو تبن أكان يوجعك؟ قال: لا، قال: فلو جمع ذلك كله وجعل لبنه، ثم سقط على رأسك، أما كان يوجعك؟

[من الذين شربوا الخمر قدامة بن مظعون واستدلاله على ذلك ورد ابن عباس عليه]

ويروى [بنحوه في «سير أعلام النبلاء» ١/١٦١]: أن قدامة بن مظعون سكر، وكان عامل عمر على (البحرين)، فقال له: إني جالدك، فقال: كيف تجلدني، وبينك كتاب الله تعالى؟ قال: وأية تريد؟ قال: إنه يقول: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [المائدة: ٩٣] وقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بدرأ وأحدأ والخندق والمشاهد، فأكثر بذلك عملاً صالحاً، فقال عمر: ألا تردون عليه قوله؟ فقال ابن عباس: إن هؤلاء الآيات أنزلن عذراً للماضين قبل تحريم الخمر، وحجة على الباقين، فعذر الماضين أنهم لقوا الله قبل أن تحرم، وحجة على الباقين؛ لأنه تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا اتَّخَفْتُمُ الْمَيْسِرَ...﴾ [المائدة: ٩٠] ثم اقتراً الآية إلى آخرها، وقال: إن كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ثم اتقوا وآمنوا، ثم اتقوا وأحسنوا... فإن الله قد نهى أن تشرب الخمر، فقال عمر: صدقت.

[٢- وجود بعض الدماء الحلال]

والثاني: من الأشياء التي ذكرناها في البيت، تسويره القضية في حرمة الدماء (كل)، والحال أن الله قد أحل لنا دميين، هما: الكبد والطحال، بنص الحديث^(١)، إلا أن يجاب بأن كلامه مفروض في الدم المسفوح.

[٣- أيهما أشد حرمة الخمر أم الدم؟]

والثالث: أن حرمة الخمر أشد من حرمة الدم؛ ولهذا فرض فيها الحد ولم يفرض فيه، وقد حد ابن الخطاب قدامة بن مظعون [كما في «السيرة» ١/١٦١]، وكان تحته صفيئة بنت الخطاب أخت عمر، وكان خال حفصة وعبد الله بن عمر، وهو ممن شهد بدرأ.

[النعيمان من الذين شربوها]

وفي «الصحيح»: (أن النعيمان كان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد شهد بدرأ، وكان يشرب الخمر، فيؤتى به فيضرب بالنعال والجريد، ولما قال بعض أصحابه عليه السلام: لعنة الله، ما أكثر ما يؤتى به.. نهاه عن ذلك)^(٢).

[ومنهم: أبو محجن الثقفي]

وكان أبو محجن الثقفي شربياً^(٣)، حدّه عمر بن الخطاب فيها مراراً، وحدّه سعد ابن أبي وقاص فيها غير مرة، وكان

(١) أخرجه عن ابن عمر رضي الله عنهما عبد بن حميد (٨٢٠)، وابن ماجه (٣٢١٨) و(٣٣١٤)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢٥٤/١) والدارقطني (٢٧٢/٤).

(٢) أخرجه عن عقبه بن الحارث رضي الله عنه البخاري (٢٣١٦) في الوكالة. بلفظ: (جاء بالنعيمان شارباً، فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من كان في البيت أن يضربوه، قال: فكنت أنا فيمن ضربه، فضربناه بالنعال والجريد) وينظر طرفاه: (٦٧٧٤) و(٦٧٧٥).

(٣) كما في «الإصابة» (١٧٣/٤).

يومَ القادسيَّةِ في سجنِ سعدٍ ، فأطلَقَتْهُ امرأةٌ سعيدٍ وكانتَ لَهُ فارِكاً ، وأعطتْهُ فرسَهُ ، فأبلىَ بلاءَ حسناً ، ظهرتْ فيه على يدهِ آثارُ الفتحِ ، ولَهُ في حديثهِ أشعارٌ ، نترُكُها صيانةً لمنصبِ سعدٍ ، فقد أقذعَ لَهُ في بعضها .

[توبته عن شربها]

ويروى [كما في «الإصابة» ٤/١٧٤] : أَنَّ ابْنَ الخَطَّابِ رَفَعَ الحدَّ عَنْهُ بعدَ ذلكَ ، فحلفَ ألاَّ يشربَها بعدُ ، وقالَ [في ديوانهِ «٤١-٤٢»] :

إِنْ كَانَتْ الخَمْرُ قَدْ عَزَّتْ وَقَدْ مُبِعَتْ وَحَالَ مِنْ دُونِهَا الإِسْلَامُ وَالْحَرَجُ
فَقَدْ أَبَاكَرُهَا صَهْبَاءَ صَافِيَةً طَوْرًا فَأَشْرَبَهَا صِرْفًا وَأَمْتَزَجُ
وَقَدْ تَقَوُّمٌ عَلَيَّ رَأْسِي مُغْنِيَةٌ فِيهَا إِذَا رَفَعْتُ مِنْ صَوْنِهَا غَنَجُ
فَتَخْفِضُ الصَّوْتِ أَحْيَانًا وَتَرْفَعُهُ كَمَا يَطْنُ ذُبَابُ الرِّوْضَةِ الهَزِجُ^(١)

[إذا مت فادفنوني إلى جنب كرمه]

وأشدَّ رجلٌ بحضرةِ عبدِ اللهِ بنِ مسلمِ بنِ قتيبةٍ قولَ أبي محجنٍ [في «ديوانهِ» ٢٣] :

إِذَا مِتُّ فَادْفِنِّي إِلَى جَنْبِ كَرْمَةٍ تَرَوِّي عِظَامِي فِي الثَّرَابِ عُرُوقُهَا
وَلَا تَدْفِنُونِي فِي الفَلَاةِ فَلِإِنِّي أَخَافُ إِذَا مَا مِتُّ أَلَّا أَذُوقَهَا

فقالَ : حدَّثني مَنْ رأى قبرَهُ بـ(أرمينية) بينَ شجراتِ كرمٍ يخرجُ إليهِ الفتیانُ ، ويشربونَ عندهُ ، ويتناشدونَ الأشعارَ ، ويروونَ شِعْرَهُ ، وإذا جاءتْ كأسُهُ . . صبُّوها عليهِ ، وهذا لا يناقضُ ما سلفَ من توبتهِ ؛ لاحتمالِ أَنَّهُ قالَ هذينِ البيتينِ قبلَها .

وقد استطرَدنا لتمهيدِ عذرِ التائبينَ عَنِ الطَّلَا ، في الحنينِ إلى أَيَّامِها ، بما فيهِ مقنعٌ في الفائدةِ (٢٤) مِنْ «بلابلِ التفرید» .

[ومن الذين حُدُوا فيها الوليد بن عقبة]

وَمَنْ حُدَّ فِيهَا [كما في «الأغاني» ٥/١٣٤] : الوليدُ بنُ عقبةَ بنِ أبي مُعيطٍ ، وكانَ أخوا عثمانَ بنِ عفَّانَ لأُمَّهِ ، شهدَ عليهِ أهلُ (الكوفةِ) أَنَّهُ صَلَّى بِهِمُ الصَّبْحَ ثلاثَ ركعاتٍ^(٢) ، وهوَ سكرانٌ ، ثُمَّ التفتَ إليهِم ، وقالَ : إِنْ شئْتُمْ . . زدْتكم ، فجلدهُ عبدُ اللهِ بنُ جعفرٍ بينَ يدي عثمانَ وعليٍّ حاضرٌ ، وفيه يقولُ الحُطَيْثُ :

شهِدَ الحُطَيْثُ يَوْمَ يَلْقَى رَبَّهُ أَنَّ الوَلِيدَ أَحَقُّ بِالعُذْرِ
نَادَى وَقَدْ تَمَّتْ صَلَاتُهُمْ لِيَزِيدَهُمْ خَيْرًا وَلَا يَذْرِي
كَبَحُوا عِنَانَكَ إِذْ جَرَيْتَ وَلَوْ تَرَكَوا عِنَانَكَ لَمْ تَزَلْ تَجْرِي

وكادَ عثمانُ أَنْ يدرأَ الحدَّ عن أخيهِ ، ولكنَّ عائِشةَ نادَتْ والناسُ مجتمعونَ لصلاةِ العصرِ : أَلَا إِنَّ عثمانَ عَطَّلَ الحدودَ ، وتهدَّدَ الشهودَ ، فلم يسعُه بعدَ ذلكَ . . إلاَّ أَنْ استقدمَهُ ، ثُمَّ أقامَ عليهِ الحدَّ كما مرَّ .

(١) الهَزِجُ : صوتُ الرعدِ ، وضربُ من الأغاني ، وفيه ترنُّمٌ .

(٢) في «الأغاني» أربع ركعات .

[ومنهم : عبيد الله بن عمر بن الخطاب]

ومن المحدودين فيها - أيضاً - : عبيد الله بن عمر بن الخطاب ، شرب بـ (مصر) ، فحدّه عمرو بن العاص سرّاً ، فاستقدمه عمرو على قتب^(١) ، وأقام عليه الحدّ ثانياً علانية .

[ومنهم : عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب]

ومنهم : عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب ويُعرف بأبي شحمة ، حدّه أبوه في الخمر وفي الزنا . . حتّى مات ، كما رواه الطبراني .

[ومنهم : عاصم بن عمر بن الخطاب]

ومنهم [كما في « العقد الفريد » ٦/٣٤٩] : عاصم بن عمر بن الخطاب ، وحدّه بعض ولاة (المدينة) .

[ومنهم : العباس بن عبد الله بن عباس]

ومنهم : العباس بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهم ، وكان ممّن اشتهر بالشراب ، وحدّه فيه ، وكان ينادم الأخطل ، وفيه يقول [في « ديوانه » ٣٢٨] :

لَبَّاسُ أَرْدِيَةِ الْمُلُوكِ يَرُوقُهُ مِنْ كُلِّ مُرْتَقِبٍ عُيُونُ الرَّبْرِ

[ومنهم : عبد الله بن عروة بن الزبير]

ومنهم : عبد الله بن عروة بن الزبير ، وحدّه هشام بن إسماعيل المخزومي .

[ومنهم : يزيد بن معاوية]

ومنهم كان يشربها : يزيد بن معاوية ، فعابه المسور بن مخرمة ، فأمر بضربه حدّها ، فقال مسورٌ :

أَيْشَرِبُهَا صِرْفاً بِطِينِ دِنَانِهَا أَبُو خَالِدٍ وَالْحَدَّ يُضْرَبُ مِسُورٌ

[تهديد الحسن بن زيد لابن هرمة إن شرب الخمر]

ولمّا ولي الحسن بن زيد (المدينة) . . قال لابن هرمة : لست كمن باع دينه رجاء مدحك ، أو خوفاً من ذمك ، فقد رزقني الله بولادة نبيّه صلى الله عليه وآله وسلّم الممدوح ، وجنّبي المقابح ، وإنّ من حقّه عليّ ألاّ أغضيّ عليّ تقصير في حقّ الله ، وأنا أقسم : لئن أتيت بك سكراناً . . لأضربنّ للشكر ، ولأزيدنك لموضع حرمتك بي ، فليكن تركك إيّاها لله تعالى . . تعنّ عليه ، ولا تدعها للناس . . فتوكل إليهم ، فقال ابن هرمة [في « ديوانه »

: [١٥٢-١٥١]

[من الوافر]

نَهَانِي ابْنُ الرَّسُولِ عَنِ الْمُدَامِ وَأَدْبَيْتَنِي بِأَدَابِ الْكِرَامِ
وَقَالَ لِي اصْطَبِرْ عَنْهَا وَدَعَهَا لِخَوْفِ اللَّهِ لَا خَوْفِ الْأَنْامِ
وَكَيْفَ تَصْبُرِي عَنْهَا وَحُبِّي لَهَا حُبٌّ تَمَكَّنَ فِي عِظَامِي؟!

(١) القتب : الربط والشد .

فضاق ذرعهُ ، وشخصَ إلى المهديّ ، وامتدحهُ بشعره الذي يقولُ فيه « ديوانه » ١٦٧-١٦٩ : [مِن الطويل]

لَهُ لَحَظَاتٌ فِي حَفَافِي سَرِيرِهِ يُقَلِّبُهَا فِيهَا عَقَابٌ وَنَائِلٌ^(١)
لَهُمْ طِينَةٌ بَيِّضَاءُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ إِذَا اسْوَدَّ مِنْ لُؤْمِ الثَّرَابِ الْقَبَائِلُ
إِذَا مَا أَتَى شَيْئاً مَضَى كَالَّذِي أَتَى وَإِنْ قَالَ : إِنِّي فَاعِلٌ فَهُوَ فَاعِلٌ

[طلبه من المهدي أن يكتب له كتاباً إلى الحسن ألا يقيم الحد عليه وحيلة المهدي في ذلك]

فامتزَّ المهديُّ لشعره ، وقال [في « الأغاني » ٣٦٩/٤] : سَلْ حَاجَتَكَ ، قَالَ : تَأْمُرُ لِي بِكِتَابٍ إِلَى عَامِلِ (الْمَدِينَةِ) أَلَّا يَحْذَنِي عَلَى شَرَابٍ ، فَقَالَ لَهُ : وَيَلِكُ ، كَيْفَ نَأْمُرُ بِذَلِكَ؟! ثُمَّ قَالَ لوزرائه : مَا عِنْدَكُمْ مِنَ التَّلَطُّفِ فِي حَاجَةِ ابْنِ هَرْمَةَ؟ قَالُوا : إِنَّهُ يَطْلُبُ مَا لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ مِنْ تَعْطِيلِ الْحُدُودِ ، قَالَ الْمَهْدِيُّ : إِنَّ عِنْدِي حِيلَةً إِذَا أَعَيْتُكُمْ حِيلَتُهُ . . . اكْتُبُوا إِلَى عَامِلِ (الْمَدِينَةِ) ، مَنْ أَتَاكَ بِابْنِ هَرْمَةَ سَكَرَانَ . . . فَاضْرِبِ ابْنَ هَرْمَةَ ثَمَانِينَ ، وَاضْرِبِ الَّذِي يَأْتِيكَ بِهِ مِئَةً ، فَكَانَ ابْنُ هَرْمَةَ بَعْدَ ذَلِكَ يَمْشِي فِي أَزْقَةِ (الْمَدِينَةِ) ، وَيَقُولُ : مَنْ يَشْتَرِي مِئَةً بِثَمَانِينَ .

غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَلِيْقُ الْإِغْضَاءَ عَلَيْهِ بِالْحَسَنِ إِنْ اسْتَمَرَ فِي وِلَايَتِهِ ، مَعَ مَا سَبَقَ مِنْ تَصَلُّبِهِ فِي دِينِ اللَّهِ ، فَمَا عَدَا مِمَّا بَدَأَ .

[عتاب لزياد في حارثة بن بدر الغداني]

وَكَانَ حَارِثَةُ بْنُ بَدْرِ الْغَدَانِيُّ مِنَ الْمَشْهُورِينَ بِالشَّرَابِ ، وَكَانَ غَالِباً عَلَى زِيَادٍ ، فَعَوَّتَبَ فِيهِ ، فَقَالَ : كَيْفَ لِي بِاطِّرَاحِ رَجُلٍ يَسَائِرُنِي مُدَّ دَخَلْتُ (العراق) ، وَلَمْ تَصْطَلِكْ رِكَابُهُ بِرِكَابِي ، وَلَا تَقَدَّمَنِي . . . فَنَظَرْتُ إِلَى قَفَاهُ ، وَلَا تَأْخَرُ عَنِّي . . . فَلَوِيتُ عُتْقِي لَهُ ، وَلَا أَخَذَ عَلَيَّ الشَّمْسَ فِي الشِّتَاءِ ، وَلَا الظِّلَّ فِي الصَّيْفِ ، وَلَا سَأَلْتُهُ عَنْ عِلْمٍ إِلَّا ظَنَنْتُهُ لَا يَحْسُنُ غَيْرَهُ؟

[جفاء ابن زياد لحارثة وطلبه منه ترك الخمر]

فَلَمَّا مَاتَ زِيَادٌ . . . جَفَّاهُ ابْنُهُ عَبِيدُ اللَّهِ ، فَقَالَ لَهُ : مَا هَذَا الْجَفَاءُ أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، وَقَدْ عَرَفْتَ مَكَانِي مِنْ أَبِي الْمَغِيرَةِ؟ فَقَالَ : أَمَّا أَبِي . . . فَقَدْ بَرَعَ بِرَوْعاً لَمْ يَلْحَقْهُ مَعَهُ عَيْبٌ ، وَأَمَّا أَنَا . . . فَحَدَّثْتُ ، وَلَا أَمْنُ أَنْ أُتَهَمَ بِمُجَالَسَتِكَ ، فَاتْرَكَ الْخَمْرَةَ ، وَكُنْ أَوَّلَ دَاخِلٍ وَأَخْرَجٍ خَارِجٍ .

[الصدق في الترك أن يكون لله]

فَقَالَ : أَفَأَتْرُكُهَا لَكَ ، وَلَمْ أَتْرُكْهَا لِمَنْ يَمْلِكُ ضَرْبِي وَنَفْعِي؟ قَالَ : فَاخْتَرِ مَا شِئْتَ مِنْ أَعْمَالِي ، قَالَ : فَإِنِّي أَخْتَارُ (سُرُقاً)^(٢) ، فَقَدْ وُصِفَتْ لِي بِهَا الْكُرُومُ ، فَوَلَّاهُ إِيَّاهَا ، فَوَدَّعَهُ إِيَّاسُ بْنُ إِيَّاسٍ بِأَبْيَاتِهِ الْمَشْهُورَةِ الَّتِي يَقُولُ لَهُ فِيهَا :

[مِن الطويل]

أَحَارِ بِنَ بَدْرِ قَدْ وَايَلَيْتَ وَوَايَلَيْتَ فَكُنْ جُرْدَاً فِيهَا تَخُونُ وَتَسْرِقُ
وَلَا تَحْقِرَنَّ يَا حَارِ شَيْئاً تَخُونُهُ فَحَظُّكَ مِنْ مُلْكِ الْعِرَاقَيْنِ سُرُقُ

(١) حَفَافُ الشَّيْءِ : جَانِبُهُ .

(٢) سُرُقٌ : نَهْرٌ مِنْ كَوْرِ الْأَهْوَازِ .

وَبَاهِ تَمِيمًا بِالْغَنَى إِنَّ لِلْغَنَى
فَإِنَّ جَمِيعَ النَّاسِ إِمَّا مُكَذِّبٌ
يَقُولُونَ أَقْوَالًا وَلَا يَفْهَمُونَهَا

لِسَانَ بِهِ الْمَرْءُ الْهُيُوبَةَ يَنْطِقُ
يَقُولُ بِمَا يَهْوَى وَإِمَّا مُصَدِّقٌ
وَلَوْ قِيلَ : هَاتُوا حَقَّقُوا لَمْ يُحَقِّقُوا

فَقَالَ لَهُ : لَا بَعْدَ عَنكَ الرَّشْدُ . وَقِيلَ : إِنَّهُ إِنَّمَا اسْتَقْبَلَهُ بِهَا فِي مَحَلِّ عَمَلِهِ ، وَقِيلَ : إِنَّ الْأَبْيَاتَ لِأَبِي الْأَسْوَدِ الدَّوْلِيِّ
يَخَاطِبُهُ بِهَا^(١) .

وَمِنْ شَعْرِ حَارِثَةَ وَقَدْ عَذَلَهُ مَخَارِقُ بْنُ صَخْرِ قَوْلُهُ [فِي « الْأَغَانِي » ٤٣٠ / ٨] :

غَدَا نَاصِحًا لَمْ يَأُلْ جُهْدًا مُخَارِقٌ
فَقُلْتُ : أَبَا صَخْرِ دَعِ النَّاسَ يَجْهَلُوا
تَرَاهَا إِذَا مَا الْمَاءُ خَالَطَ جِسْمَهَا
لَهَا أَرْجٌ كَالْمِسْكِ يُذْهَبُ رِيحُهَا
وَكَمْ لِأَنْتُمْ فِيهَا بِصِيرٍ بِفَضْلِهَا
يَعِيبُ عَلَيَّ الشُّرْبَ وَالشُّرْبُ هُمُّهُ

يَلُومُ عَلَيَّ شُرْبِ السُّلَافِ الْمُعْتَقِ
وَدُونَكَهَا صَهْبَاءَ ذَاتِ تَأَلَّقِ
تَخَايَلُ فِي كَفِّ الْوَصِيفِ الْمُمْنَطِقِ
عَمَايَةَ حَاسِيهَا بِحُسْنِ تَرْفُقِ
رَمْتُهُ بِسَهْمِ صَائِبٍ مُتَزَلِّقِ
لِيُخَسِبَ ذَا رَأْيٍ أَصِيلٍ مُوَفَّقِ

وَقَوْلُهُ [فِي « الْأَغَانِي » ٤٢٣ / ٨] :

يَعِيبُ عَلَيَّ الرَّاحَ مَنْ لَوْ يَذُوقُهَا
فَدَعَهَا أَوْ ائْمَدَحَهَا فَإِنَّا نُحِبُّهَا
عَلَامٌ تَذُمُّ الرَّاحَ وَالرَّاحُ كَاسِمَهَا
فَلَمَنِي فَإِنَّ اللَّوْمَ فِيهَا يَزِيدُنِي
وَبِاللَّهِ أُولِي صَادِقًا لَوْ شَرِبْتَهَا
وَإِنْ شِئْتَ جَرِبْتَهَا وَذُقْتَهَا عَتِيقَةً
فَإِنَّ أَنْتَ لَمْ تَخْلَعْ عِدَارَكَ فَالْحَنِي
وَقَبْلَكَ مَا قَدْ لَأْمَنِي فِي اصْطَبَاحِهَا

لَجُنَّ بِهَا حَتَّى يُعَيَّبَ فِي الْقَبْرِ
صَرَاحًا كَمَا أَغْرَاكَ رَبُّكَ بِالْهَجْرِ
تُرِيحُ الْفَتَى مِنْ هَمِّهِ آخِرَ الدَّهْرِ
غَرَامًا بِهَا إِنَّ الْمَلَامَةَ قَدْ تُغْرِي
لَأَقْصَرْتَ عَنِّ عَذْلِي وَمِلْتَ إِلَيَّ عُدْرِي
لَهَا أَرْجٌ كَالْمِسْكِ مَحْمُودَةَ الْخُبْرِ
وَقُلْ لِي لِحَاكَ اللَّهُ مِنْ عَاجِزِ غَمْرٍ^(٢)
وَفِي شُرْبِهَا بَدْرٌ فَأَعْرَضْتُ عَن بَدْرِ

وَهُنَا فَوَائِدُ :

[قوة الإيمان حتى عند الفساق]

الأولى : تعرف ما عليه القوم حتى فسأقهم من قوة الإيمان ، والبعد عن التصنع والرياء والملق ، وحسبك ذليلاً
عليه . . ما سبق من قول حارثة بن بدر : لو شئت أن أتركها . . لتركتها لمالك ضري ونفعي ، ومن قول أبي نواس
[في « ديوانه » ٣٣٨] :

وَإِذَا جَلَسْتَ إِلَى الْمُدَامِ وَشَرِبْتَهَا
فَاجْعَلْ حَدِيثَكَ كُلَّهُ فِي الْكَاسِ

(١) في « ديوانه » (١٧٧) . والقصة في « معجم البلدان » (٢١٤ / ٣) .

(٢) فالحنى : لمني . لحاك الله : قبحك الله .

وَإِذَا نَزَعْتَ عَنِ الْغَوَايَةِ فَلْيَكُنْ
وَأَدُلُّ مِنْ ذَلِكَ عَلَى قُوَّةِ دِينِهِ قَوْلُهُ [في «ديوانه» ٥٢١]:

[مِنَ الْكَامِلِ]

وَلَقَدْ نَهَزْتُ مَعَ الْغَوَانِ بِدَلْوِهِمْ
وَبَلَّغْتُ مَا بَلَغَ امْرُؤٌ بِشَبَابِهِ
وَأَسَمْتُ سَرْحَ اللَّهْوِ حَيْثُ أَسَامُوا^(١)
فَإِذَا عَصَارَةُ كُلِّ ذَلِكَ أَثَامٌ^(٢)

[دع عنك لومي]

[مِنَ الْبَسِيطِ]

الثانية: كُنْتُ أَتَوْهَمُ أَنَّ أَبَا نُؤَاسٍ هُوَ السَّابِقُ إِلَى قَوْلِهِ [في «ديوانه» ٢٧]:
دَعْ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللَّؤْمَ إِغْرَاءُ وَدَاوِنِي بِأَلَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ
.. حَتَّى سَمِعْتُ مَا سَبَقَ مِنْ قَوْلِ حَارِثَةَ: (فَلَمُنِي فَإِنَّ اللَّؤْمَ فِيهَا يَزِيدُنِي) . . . إِلَى آخِرِهِ .

[رد المؤلف على من يطنب في وصف أبيات لابن الرومي]

[مِنَ الْكَامِلِ]

الثالثة: مَا زَالُوا يَتَوَاصَفُونَ مَعَ الْإِطْنَابِ قَوْلَ ابْنِ الرَّومِيِّ [في «ديوانه» ٥٥٣/٢]:
تَاللَّهِ مَا أَدْرِي بِأَيِّ عِلَّةٍ يَدْعُونَ هَذَا الرَّاحَ بِاسْمِ الرَّاحِ
أَلرِّيحِهَا وَلرَّوْحِهَا تَحْتَ الْحَشَا أَمْ لِإِزْتِيَاكِ نَدِيمِهَا الْمُرْتَاكِ
وَإِذَا عَادَ الْإِنْسَانُ إِلَى نَفْسِهِ ، وَأَنْعَمَ النَّظْرَ . . وَجَدَ فِيهَا مِنَ الْغَثَائَةِ مَا لَا تَسَاوِي مَعَهُ حَبْلًا مِنْ شَعْرِ ، وَلَا سِيَّمَا مَا كَانَ
مِنْ قَافِيَةِ الْبَيْتِ الثَّانِي ، وَأَيُّهَا مِنْ قَوْلِ حَارِثَةَ السَّابِقِ : (عَلَامٌ تَدُمُّ الرَّاحَ وَالرَّاحُ كَأَسْمِهَا) . . . الْبَيْتُ ؟

[أجمل ما قيل في رقة الخمر ورقة كؤوسها]

[مِنَ الْكَامِلِ]

الرابعة: لَمْ يَعْجِبْنِي شَيْءٌ فِي وَصْفِ رِقَّتِهَا وَرَقَّةِ كُؤُوسِهَا . . . مِثْلُ قَوْلِ الْبُحْتَرِيِّ [في «ديوانه» ٧/١]:
يُخْفِي الرُّجَاغَةَ لَوْنُهَا فَكَأَنَّهَا فِي الْكَأْسِ قَائِمَةٌ بِغَيْرِ إِنَاءٍ
وقول الناجم:

[مِنَ الْبَسِيطِ]

وَقَهْوَةَ كَشْعَاعِ الشَّمْسِ صَافِيَةٍ مِثْلَ السَّرَابِ تُرَى مِنْ رَقَّةِ شَبْحَا
إِذَا تَعَاطَيْتَهَا لَمْ تَدْرِ مِنْ لُطْفِ رَاحًا بِلَا قَدْحٍ أُعْطِيَتْ أَمْ قَدْحَا

[مِنَ الْكَامِلِ]

وقول الصاحب [في «ديوانه» ٧٦]:
رَقُّ الرُّجَاغِ وَرَقَّتِ الْخَمْرُ وَتَشَابَهَهَا فَتَشَاكَلَ الْأَمْرُ
فَكَأَنَّ مَا خَمْرٌ وَلَا قَدْحٌ وَكَأَنَّ مَا قَدْحٌ وَلَا خَمْرُ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقول ابن الفارض [في «ديوانه» ١٤٢]:
يَقُولُونَ لِي: صِفْهَا فَأَنْتَ بِوَصْفِهَا خَيْرٌ أَجَلَ عِنْدِي بِأَوْصَافِهَا عِلْمٌ
صَفَاءٌ وَلَا مَاءٌ وَلُطْفٌ وَلَا هَوَى وَنُورٌ وَلَا نَارٌ وَرُوحٌ وَلَا جِسْمٌ

(١) نهزت بدلوهم: ضربت بها لتملأه. السرح: المال السائمه.

(٢) الأثام: الإثم والخطيئة. ذ.

[ولع يزيد بن عبد الملك بقيتيه وتخلفه عن الجمعة بسبب حبهما]

ولمَّا استهترَ يزيدُ بنُ عبدِ الملكِ بقِيَّتَيْهِ^(١) ، وتخلَّفَ عنِ الجمعةِ . . عدَلُهُ أخوهُ مسلمَةُ فارعوى ، فبعثتُ سلامَةً إلى الأحوصِ ليضعَ شعراً تغنيَ فيه ، فقالَ [الأحوصُ في «ديوانه» ٥٣-٥٤] :

وَمَا الْعَيْشُ إِلَّا مَا تَلَدُّ وَتَشْتَهِي وَإِنْ لَمْ فِيهِ ذُو إِخَاءٍ وَفَنَّدَا
بَكَيتُ الصَّبَا جُهْدِي فَمَنْ شَاءَ لَأَمْنِي وَمَنْ شَاءَ آسَى فِي الْبُكَاءِ وَأَسْعَدَا
وَإِنِّي لَأَهْوَاهَا وَأَهْوَى لِقَاءَهَا كَمَا يَشْتَهِي الصَّادِي الشَّرَابَ الْمَبْرَدَا
عَلَامَةٌ حُبِّ لَجِّ فِي سَنَنِ الصَّبَا فَأَبْلَى وَمَا يَزْدَادُ إِلَّا تَجَدُّدَا

فلمَّا غَنَّتْهُ بِهِ . . طربَ ، وفحصَ بِرِجْلِهِ الأَرْضَ ، وقالَ : صدقتِ ، صدقتِ ، فبَحَّ اللهُ مسلمةَ وما جاء به ، وعادَ إلى غِيَّهِ^(٢) .

[إنكار ابن خلدون ما ينسب إلى الرشيد من معاقرة العقار]

وأنكرَ ابنُ خلدونَ [كما في «مقدمته» ١٧] : ما ينسبُ إلى الرشيدِ من مُعَاقِرَةِ العُقَارِ^(٣) .
وأما المأمونُ . . فإنه من المشهورينَ بها ، وله فيها أخبارٌ .

[المأمون من المشهورين بها وأخباره فيها]

من ذلكَ : أَنَّهُ أشارَ إلى رَجُلٍ بالكأسِ ، فقالَ الرَّجُلُ : يا أميرَ المؤمنينَ ، لم أشرَبها ناشئاً ، فلا تسقنيها شيخاً ، فردَّه إلى عمرو بن مسعدة ، وقالَ : لقد آليتُ في جوفِ الكعبةِ ألا أشرَبها ، ففكرَ المأمونُ طويلاً ثمَّ قالَ [كما في «ديوان أبي نواس» ١٨٢] :

رَدًّا عَلَيَّ الكَأْسِ إِنَّكَمَا لَأَتَعَلَّمَنَّ الكَأْسَ مَا تُجَدِي
لَوْ ذُقْتُمَا مَا ذُقْتُ مَا مُزِجَتْ إِلَّا بِدَمْعِكُمَا مِنَ الوُجْدِ
مَا مِثْلُ نَعْمَاهَا إِذَا اشْتَمَلَتْ إِلَّا اشْتَمَالَ فَمِ عَلَيَّ خَدُّ
خَوَّفْتُمَا نَبِيَّ اللهِ رَبِّكُمَا وَكَخِيفَتِيهِ رَجَاؤُهُ عِنْدِي
إِنْ كُنْتُمَا لَا تَشْرَبَانِ مَعِي خَوْفَ العِقَابِ شَرِبْتُمَا وَحْدِي

ومنها : أَنَّهُ شَرِبَ ومعهُ القاضي يحيى بنُ أكرمٍ وعبدُ اللهِ بنُ طاهرٍ ، فتواطؤوا على القاضي . . حتَّى أسكروه ، وعندهم رِزْمٌ من الوردِ والريحانِ دَفَنُوهُ فيها ، وعملَ المأمونُ بيتينَ ، ودعا قَيْنَةً تُغْنِي بهما على رأسِ يحيى وهما : [من البسيط]

دَعَوْتُهُ وَهُوَ حَيٌّ لَا حَيَاةَ بِهِ مُكْفَنًا فِي ثِيَابٍ مِنْ رِياحِينِ
فَقُلْتُ : قُمْ ، قَالَ : رِجْلِي لَا تَطَاوِعُنِي فَقُلْتُ : خُذْ ، قَالَ : كَفِّي لَا تَوَاتِينِي

(١) وهما : حياة وسلامة .

(٢) «الأغاني» (١٥/١٢٩-١٣٢) .

(٣) العُقَارُ : الخمرُ ، وسُمِّيتَ بذلكَ لأنها عقرتِ العقلَ ، والمعاقرةُ : إدمانُ الشربِ من الخمرِ .

فانتبه يحيى لصوتها ولرثته العود ، وقال :

[مِن البسيط]

يَا سَيِّدِي وَإِمَامَ النَّاسِ كُلِّهِمْ قَدْ جَارَ فِي حُكْمِهِ مَنْ كَانَ يَسْقِينِي
لَقَدْ غَفَلْتُ عَنِ السَّاقِي فَصَيَّرَنِي كَمَا تَرَانِي سَلِيبَ الْعَقْلِ وَالذِّينِ
فَانظُرْ لِنَفْسِكَ قَاضٍ إِنَّنِي رَجُلٌ الرَّاحُ تَقْتُلُنِي وَالرَّوْحُ يُخَيِّنِي

والسياق يقتضي : أَنَّ يحيى لا يتناول إلا القدر الذي لا يسكر ، وهو موضع الخلاف ، وإنما غفل تلك المرة . . حتى وقع فيما وقع فيه ، فلا يحط من قدره على جلالته .

[الخلاف في يحيى بن أكرم]

وقد اختلف فيه ^(١) ، فأخرج له الترمذي والبخاري - في غير « الصحيح » - وذكر لأحمد ما يرميه به الناس ، فقال [كما في « الأعلام » ١٣٨/٨] : سبحان الله ، مَنْ يَقُولُ هذا ؟ وأنكره إنكاراً شديداً ، وذكر : أَنَّهُ كَانَ يُحَسِّدُ حَسِداً شديداً ، وذكر عند القاضي إسماعيل بن إسحاق فَعَظَّمَهُ ، وقال : كَانَ لَهُ يَوْمٌ فِي الإِسْلَامِ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ مِثْلُهُ ، وذكر هذا اليوم ، وهو الذي عارض المأمون فيه ؛ إذ نادى بتحليل المتعة ، وما زال به حتى أفتعه بحرمتها ، فذكر رجل ما يقال فيه ، فقال إسماعيل : معاذ الله أن تزول عدالتك بتكذيب باغ وحاسد .

[قول يحيى عن نفسه]

وكان يحيى يقول : كنت قاضياً وأميراً ووزيراً ، وما ولج سمعي أحلى من قول المستملي : رضي الله عنك .

[تحريم بعض أهل الجاهلية الخمر على أنفسهم]

وحرم الخمر على نفسه كثير من أهل الجاهلية ؛ محافظة على شرف العقل :
منهم : عبد المطلب بن هاشم ، وعبد الله بن جدعان ، وقيس بن عاصم ، وعامر بن الظرب العدواني ، وورقة بن نوفل ، والوليد بن المغيرة ، وصفوان بن أمية بن محرت الكتاني ، وعفيف بن معد يكرّب الكندي ، والأسلوم بن نامي الهمداني ، ومقيس بن عدي السهمي ، وخلق سواهم .

[التقرب إلى السلطان بالعقل]

وحضر نصيب عند عبد الملك بن مروان . . فدعاه إلى الشراب فقال : إِنِّي لَمْ أَصِلْ إِلَيْكَ بِنَفْسِي وَلَا بِحَسَنِ صَوْرَتِي ، وَإِنَّمَا قَرَّبْتُ مِنْكَ بِعَقْلِي ، فَإِنْ رَأَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَلَّا يَحُولَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ . . فَعَلَّ .

[الوليد والحجاج]

وقال الوليد للحجاج : هل لك في الشراب ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، ليس بحرام ما أحللته ، ولكني أمتنع أهل عملي منه ، وأخاف أن أخالف قول العبد الصالح : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَيْكُمْ عَنْهُ ﴾ [هود : ٨٨] فأعفاه .

[أشرب نساؤكم هذا !!؟]

ومرت أعرابية بقوم يشربون نبيذاً ، فسقوها ، فلما شربت أقداحاً أخذتها هزة . . فقالت : أشرب نساؤكم هذا ؟ قالوا : نعم ، قالت : إذا يزنين ، فوالله ما يدري أحدكم من أبوه .

(١) أي : في يحيى بن أكرم القاضي ، فقيه صدوق إلا أنه رمي بسرقة الحديث ، ولم يقع ذلك له ، وإنما كان يرى الرواية بالإجازة والوجادة ، مات سنة : (٢٤٣ هـ) وله ثلاث وثمانون سنة ، ولم يذكر في « التقريب » روايته عند البخاري .

أَمَّا النّازِمُ . . فقد اعترفَ على نفسه بشربها في عدّة مواضعٍ من « ديوانه » ، ولا مؤاخذهَ عليه بما جرى فيه على طريق الشعراء من مدحها ، كما في البيت الذي بين أيدينا ، وإِنَّمَا نُوَاخِذُهُ بما قالَهُ من صريح الإقرار ، كقولهِ [في « العُكْبَرِيُّ » : [٣٥١/٢ : [مِن الوافر]

سَقَانِي الخَمْرَ قَوْلِكَ لِي بِحَقِّي وَوَدُّ لِمَ تَشْبُهُ لِي بِمَذْقِ^(١)

وقولهِ [في « العُكْبَرِيُّ » ٣٥٠/٢ : [مِن المتقارب]

وَقَدْ مُتُّ أَمْسٍ بِهَا مَوْتَةٌ وَمَا يَشْتَهِي المَوْتَ مَنْ ذاقَهُ

وقولهِ [في « العُكْبَرِيُّ » ٤٦/٤ - ٤٧ : [مِن الكامل]

وَأَخْ لَنَا بَعَثَ الطَّلَاقَ أَلِيَّةً لأَعْلَلَنَ بِهَذَا الخُرْطُومِ^(٢)
فَجَعَلْتُ رَدِّي عِرْسَهُ كَفَّارَةً عَنْ شُرْبِهَا وَشَرِبْتُ غَيْرَ أَيِّمٍ

وقولهِ [في « العُكْبَرِيُّ » ١١٨/٤ : [مِن الكامل]

وَإِذَا طَلَبْتُ رِضَا الأَمِيرِ بِشُرْبِهَا وَأَخَذْتُهَا فَلَقَدْ تَرَكْتُ الأَحْرَمَا

وقولهِ [في « العُكْبَرِيُّ » ١٢/٢ : [مِن مخلع البسيط]

مَالٍ عَلَيَّ الشَّرَابُ جِدًّا وَأَنْتَ بِالمَكْرُمَاتِ أَهْدَى

وقولهِ [في « العُكْبَرِيُّ » ١٤٥/٢ : [مِن الطويل]

شَرِبْتُ عَلَى اسْتِحْسَانِ ضَوْءِ جَبِينِهِ وَزَهْرٍ تَرَى لِلْمَاءِ فِيهِ خَرِيرًا

وكثيراً ما تَرَفَّ بِشربها ممدوحيه ، من ذلك قولُهُ عن سيفِ الدولة [في « العُكْبَرِيُّ » ١٨٥/٢ : [مِن الوافر]

أَلَا أَدْنُ فَمَا أَذْكَرْتَ نَاسِي وَلَا لَيْنَتَ قَلْبًا وَهُوَ قَاسِي
وَلَا شُغْلَ الأَمِيرِ عَنِ المَعَالِي وَلَا عَن ذِكْرِ خَالِقِهِ بِكَاسِ

وقولُهُ - أيضاً عنه - [في « العُكْبَرِيُّ » ٣٠١/٢ : [مِن الوافر]

تَعَجَّبَتِ المُدَامُ وَقَدْ حَسَاهَا فَلَمْ يَسْكُرْ وَجَادَ فَمَا أَفَاقَا

وقولُهُ لبدرِ بنِ عمّارٍ [في « العُكْبَرِيُّ » ١٤٠/٢ : [مِن الكامل]

فَخَرَّ الزُّجَاجُ بَأَن شَرِبْتُ بِهِ وَزَرَّتْ عَلَيَّ مَنْ عَافَهَا الخَمْرُ

وقولُهُ عن عضدِ الدولة [في « العُكْبَرِيُّ » ٢٧٦/٤ : [مِن المنسرح]

لَا تَجِدُ الخَمْرُ فِي مَكَارِمِهِ إِذَا انْتَشَى خَلَّةً تَلَافَاهَا

(١) بمذق : أي بود غير خالص ، وأصل المذق : المزج .

(٢) الخرطوم : من أسماء الخمر .

أما قولُ أبي نُوَاسٍ [في «ديوانه» ٢٩٧] :

[مِنَ الكَامِلِ]

فِي مَجْلِسِ ضِحْكَ الشُّرُورِ بِهِ عَنِ نَاجِذِيهِ وَحَلَّتِ الخَمْرُ

[مِنَ البَسِيطِ]

.. فيمكنُ أن يكونَ جرى فيه على خُبثِ مذهبه مِن انتهاكِ الحرمةِ ، وقلةِ المبالاةِ ، كما في قوله :

لَا تَسْقِنِي الدَّهْرَ أَمَا كُنْتُ لِي سَكْنًا إِلَّا الَّتِي نَصَّ بِالتَّخْرِيمِ جَبْرِيلُ
إِنْ كَانَ حَرَمَهَا الفُرْقَانُ بَعْدُ فَقَدْ أَحَلَّهَا قَبْلُ تَوْرَاةً وَإِنْجِيلُ

[تحريم العرب الخمر على أنفسها حتى تأخذ بثأرها]

ويمكنُ أن يكونَ جرى فيه على سُنَّةِ العربِ مِن تحريمِ الخمرِ على أنفسها إذا وَتَرَتْ حَتَّى تأخذَ بثأرها ، قالَ شاعرُهُم :

[مِنَ الكَامِلِ]

اليَوْمَ حَلَّ لِي الشَّرَابُ وَمَا كَانَ الشَّرَابُ يَحِلُّ لِي قَبْلُ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقالَ قيسُ بنُ الخطيمِ [في «ديوانه» ٤٦٤-٤٤٤] :

وَمِنَّا الَّذِي آلَى ثَلَاثِينَ حِجَّةً عَنِ الخَمْرِ حَتَّى زَارَكُم بِالْكَتَائِبِ
وَلَمَّا هَبَطْنَا السَّهْلَ قَالَ أَمِيرُنَا حَرَامٌ عَلَيْنَا الخَمْرُ مَا لَمْ نُضَارِبِ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقالَ البُخْتَرِيُّ [في «ديوانه» ١٠٤٨/٢] :

حَرَامٌ عَلَيَّ الرَّاحُ بَعْدَكَ أَوْ أَرَى دَمًا بِدَمٍ يَجْرِي عَلَى الأَرْضِ مَائِرَةٌ^(١)

[تحريم إدارة القهوة على نحو ما تدار الخمر]

وأنتى ابنُ حجرِ الهيتميُّ : تبعاً لجماعةٍ مِن علماءِ (اليمين) ، بحرمةِ إدارةِ القهوةِ على نحوِ ما تدارُ الخمرُ بينَ الشَّرْبَةِ .

غيرَ أنه قالَ بعدُ : لم يتحرَّرْ عندنا في تلكَ العادةِ المخصوصةِ بِهِم ما يقتضي التشابهَ بينها وبينَ ما يفعله الناسُ في القهوةِ ، ويأتي بعضُ ما يتعلَّقُ بالشايِ في شرحِ قوله [في «المكبري» ١٨٦/٢] :

[مِنَ البَسِيطِ]

وَلَا وَقَفْتُ بِجِسْمِ مُسَيِّ ثَالِثَةٍ ذِي أَرْسَمِ دُرْسٍ فِي الأَرْبَعِ الدُّرْسِ^(٢)

* * *

(١) مَارَ : جرى .

(٢) المِسيُّ : هو المساءُ . الرسمُ : الأثرُ . الدُّرْسُ : جمعُ دارسٍ .

شَيْبُ رَأْسِي وَذِلَّتِي وَنُحُولِي وَدُمُوعِي عَلَى هَوَاكَ شُهُودِي !؟

[شهود الحب كثر]

[مِنَ الكَامِلِ]

هُوَ مِنْ قَوْلِ أَبِي عُبَادَةَ [في « ديوانه » ٤/ ٢٢٥٢] :

أَوْ مَا كَفَاكَ بِدَمْعِ عَيْنِي شَاهِدًا بِصَبَابِي وَمُخْبِرًا عَن شَانِي !؟

[مِنَ الطَّرِيفِ]

وقوله [في « ديوانه » ٣/ ١٥٠٤] :

وَأَبْنَيْتُهَا شَكْوَى أَبَانَتْ عَنِ الْجَوَى وَدَمْعًا مَتَى يَشْهَدُ بِيَتْ يُصَدِّقُ

[مِنَ الكَامِلِ]

وقوله [في « ديوانه » ١/ ٧٢] :

سَأَعِدُّ مَا أَلْقَى فَإِن كَذَّبْتَنِي فَسَلِي الدُّمُوعَ فَإِنَّهَا لَا تَكْذِبُ

[مِنَ مِخْلَعِ البَسِطِ]

وقال أبو تمام :

أَلَيْسَ دَمْعِي وَفَرْطُ شَوْقِي وَطُولُ سُقْمِي شُهُودَ حُبِّي ؟

[هل تقبل شهادة الدموع ؟]

ثمَّ كَيْفَ تَقْبَلُ شَهَادَةَ الدَّمْعِ مَعَ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَجَاءَ آبَاَهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾ [يوسف : ١٦] !؟

وأخرج ابن المنذر عن الشعبي قال : جاءت امرأة إلى شريح تخاصم في شيء ، فجعلت تبكي ، فقالوا : يا أبا أمية ، أما تراها تبكي ؟ قال : قد جاء إخوة يوسف أباهم عشاءً يبكون .

وقال الأعمش : لا يصدق بك بعد إخوان يوسف .

وقد يجاب بأن بكاءهم كان ليلاً من غير دمع ، ولو جاؤوا بالعشي . . لافتضحوا ، وإنما اعتمدوا الليل ليُمَوِّهوا على أيهم بتلك الحيلة التي لم تنطلي عليه ، ولم يصدقهم فيها .

[مِنَ الوَافِرِ]

وقد قال الناظم [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ٣٩٤] :

إِذَا اشْتَبَكَتْ دُمُوعٌ فِي خُدُودِ نَبِيْنٍ مَن بَكَى مِمَّنْ تَبَاكَى

غَيْرَ أَنَّهُ يَأْتِي إِشْكَالٌ آخِرٌ بِمَا جَاءَ فِي الْأَثْرِ - أَوِ الْخَبْرِ - مِنْ أَنَّهُ : « إِذَا تَمَّ فُجُورُ الْمَرْءِ . . بَدَرَتْ دَمْعَتُهُ » ^(١) .

[التعنت في الحب]

[مِنَ الطَّرِيفِ]

وقد قال سبط ابن التعاويذي يمدح الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة [في « ديوانه » ٣٤٤] :

إِذَا قُلْتُ : قَدْ أَنْحَلْتُ جِسْمِي صَبَابَةً تَقُولُ : وَهَلْ حُبٌّ بغيرِ نُحُولِ

(١) أوردته في « كثر العمال » (٨٤٧) عن عقبة بن عامر بلفظ : « إذا تم فجور العبد . . ملك عينه ، فبكى منهما متى شاء » . وعزاه لابن عدي في « الكامل » .

وَأَنْ قُلْتُ : دَمَعِي بِالْأَسَىٰ فِيكَ شَاهِدٌ تَقُولُ : شُهُودُ الدَّمْعِ غَيْرُ عُدُولٍ

[ارحم شبابك من عدو . . . ترحم]

[مِنَ الْكَامِلِ]

وَقَالَ النَّازِمُ [فِي « الْمُكَبَّرِيِّ » ٤/ ١٢٥] :

لَا يَخْدَعَنَّكَ مِنْ عَدُوِّ دَمْعُهُ وَأَرْحَمَ شَبَابِكَ مِنْ عَدُوِّ تُرْحَمِ

[تعلیق المؤلف على الحديث]

وَيُجَابُ أَوَّلًا : بِأَنْ لَا أَصْلَ لِلْخَبَرِ ، كَمَا فِي « فِتَاوَى الْجَمَالِ الرَّمْلِيِّ » .

[تعليقه على المتنبي]

وَنَائِيًا : بِأَنَّ النَّازِمَ لَمْ يَكْتَفِ بِالدمعِ وَحدهُ حَتَّى ضَمَّهُ إِلَى الدَّلَّةِ وَالنَّحْوِ ، وَفِي اجْتِمَاعِهَا مَا يَكْفِي لِلْحُجَّةِ ، وَقَدْ قَالُوا : لَا يُحْتَجُّ بِمَراسيلِ كِبَارِ التَّابِعِينَ . . . حَتَّى تَنْعَضِدَ بضعيفٍ ، أَوْ قِيَّاسٍ ، أَوْ عَمَلٍ ، أَوْ مَرَسَلٍ ، فَيَكُونُ المَجْمُوعُ حُجَّةً عِنْدَ الشَّافِعِيِّ ، لَا مَجْرَدُ المَرَسَلِ ، وَلَا العَاضِدِ ، وَهَذَا نَظِيرُهُ .

[دموع الحب]

[مِنَ الرِّوَاغِ]

وَمِنْ لَطِيفِ شَعْرِ أَبِي الشَّيْصِ الخَزَاعِيِّ [فِي « دِيوانِهِ » ٢٤-٢٥] :

وَقَائِلَةٌ وَقَدْ بَصُرْتُ بِدَمْعِ عَلَى الْخَدَّيْنِ مُنْخَدِرِ سَكُوبِ
أَتَكْذِبُ فِي الْبُكَاءِ وَأَنْتِ خَلُودٌ؟! قَدِيمًا مَا جَسَرْتَ عَلَى الدُّنُوبِ
فَمِيصُكَ وَالذُّمُوعُ تَجُولُ فِيهِ وَقَلْبُكَ لَيْسَ بِالْقَلْبِ الْكَيْبِ
نَظِيرُ فَمِيصِ يُوسُفَ حِينَ جَاؤُوا عَلَى لَبَّاتِهِ بِدَمِ كَذُوبِ^(١)
فَقُلْتُ لَهَا : فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي رَجَمْتَ بِسُوءِ ظَنِّكَ فِي الْغُيُوبِ
أَمَا وَاللَّهِ لَوْ فَتَشَّتْ قَلْبِي لَسَرَّكَ بِالْعَوِيلِ وَبِالنَّحِيبِ
دُمُوعُ العَاشِقِينَ إِذَا تَلَاقَوْا بَظَهْرِ الْغَيْبِ أَلْسِنَةُ الْقُلُوبِ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَقَالَ جَمِيلُ بْنُ مَعْمَرٍ [فِي « دِيوانِهِ » ٦٢] :

خَلِيلِي مَا أَخْفِي مِنَ الْوَجْدِ بَاطِنٌ وَدَمَعِي بِمَا قُلْتُ الْعَدَاةَ شَهِيدٌ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَقَالَ قَيْسُ بْنُ المَلُوحِ [فِي « دِيوانِهِ » ٧٩-٨٠] :

وَشَاهِدُ وَجْدِي دَمْعُ عَيْنِي وَحُبُّهَا بَرَى اللَّحْمَ عَنِ أَحْنَاءِ عَظْمِي وَمَنْكِبِي^(٢)
أَلَا إِنَّمَا غَادَرْتِ يَا أُمَّ مَالِكِ صَدَى أَيْنَمَا تَذْهَبُ بِهِ الرِّيحُ يَذْهَبُ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَقَالَ [فِي « دِيوانِهِ » ٢٩٤] :

فَإِنَّ الَّذِي أَمَلْتُ مِنْ أُمَّ مَالِكِ أَشَابَ قَدَالِي وَاسْتَهَامَ فُؤَادِيَا^(٣)

(١) اللَّبَّةُ : مَوْضِعُ المَنْعَرِ .

(٢) أَحْنَاءُ الجِسْمِ : أَطْرَافُهُ وَنَوَاحِيهِ .

(٣) القَدَالُ : جَمَاعُ مَوْخَرِ الرِّاسِ .

وقال [في «ديوانه» ٢٩٨] :

[من الطويل]

فَمَا لِي أَرَى الْأَعْضَاءَ مِنْكَ كَوَاسِيَا
وَتَخْرَسَ حَتَّى لَا تُجِيبَ الْمُنَادِيَا

إِذَا مَا شَكَوْتُ الْحُبَّ قَالَتْ : كَذَّبْتَنِي
فَلَا حُبَّ حَتَّى يَلْصَقَ الْجِلْدُ بِالْحَشَا

وقال ديك الجنّ [في «ديوانه» ١٨٣] :

[من الطويل]

فَلِمَ ذَرَفْتَ عَيْنِي ؟ وَلِمَ شَابَ مَفْرِقِي ؟

زَعَمْتُمْ بِأَنِّي قَدْ سَلَوْتُ وَصَالَكُم

وقال [في «ديوانه» ٧٩٣] :

[من الكامل]

مُتَكَفِّلٌ بِهِمَا حَشَاً وَشُؤُونٌ^(١)

سِمَةٌ الصَّبَابَةِ زَفْرَةٌ أَوْ عَبْرَةٌ

وقال خالد الكاتب :

[من البسيط]

فَاسْتَشْهَدَ الْعَاذِلُونَ الدَّمَاعَ وَالنَّفْسَا

مَا زِلْتُ أَنْكِرُ مَا أَلْقَى وَأَجْحَدُهُ

وقال آخر :

[من الكامل]

وَشُهُودٌ كُلُّ قَضِيَّةٍ إِثْنَانِ
وَتُحُولٌ جِسْمٍ وَاعْتِقَالٌ لِسَانِ

لِي فِي مَحَبَّتِهِ شُهُودٌ أَرْبَعُ
خَفَقَانُ قَلْبٍ وَاضْطِرَابُ جَوَارِحِ

وقال ابن جابر :

[من الطويل]

فَقُلْتُ لَهَا : هَلْذِي دُمُوعِي فَاسْأَلِي

أَرَادَتْ عَلَيَّ دَعْوَى الْمَحَبَّةِ شَاهِدًا

وقال كثير [في «ديوانه» ٤٣٧] :

[من الطويل]

بِمَا لَا يَرَى مِنْ غَائِبِ الْحُزْنِ يَشْهَدُ

أَقُولُ لِدمَعِ الْعَيْنِ أَمَعِنَ لِأَنَّهُ

وقال غيره :

[من الكامل]

لَيْسَ اللِّسَانُ وَإِنْ تَلَفْتُ بِمُخْبِرِ

خَبْرِي خُدُوهُ عَنِ الضَّنَا وَعَنِ الْأَسَى

[قلة الدمع .. من شدة الوله وجور الصبابة]

وجاء : أَنَّ قَلَّةَ الدَّمَاعِ قَدْ تَكُونُ مِنْ شِدَّةِ الْوَلَهِ وَجَوْرِ الصَّبَابَةِ ، وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ قَوْلُ عَائِشَةَ [كما في حديث الإفك عند البخاري ٢٦٦١] : فَقَلِّصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أَحْسُ مِنْهُ قَطْرَةً .

ومنه ما يعزى إلى يزيّد [في «ديوانه» ٥٧] :

[من البسيط]

مَا اسْتَطِيعُ بِهِ تَوَدِيْعَ مُرْتَجِلِ
وَلَا مِنَ الدَّمَاعِ مَا أَبْكِي عَلَى الطَّلَلِ

لَا تَرَحَّلَنَّ فَمَا أَبْقَيْتَ مِنْ جَلْدِي
وَلَا مِنَ النَّوْمِ مَا أَلْقَى الْخِيَالَ بِهِ

وقول بعضهم [في «ديوان أبي حية النميري» ١٤٧] :

[من الطويل]

وَلَا دَمْعَتِي مِنْ مَكْمَدِ الْوَجْدِ تَقْطُرُ

فَلَا مُقْلَتِي مِنْ غَابِرِ الْمَاءِ تَنْجَلِي

(١) الشؤون : مجرى الدمع .

وهذا البيت ، ثالثُ بيتينِ لأبي حَيَّةَ النميريِّ من خالصِ القولِ ، وهما [في «ديوانه» ١٤٧] :

نَظَرْتُ كَأَنِّي مِنْ وَرَاءِ زُجَاجَةٍ إِلَى الدَّارِ مِنْ فَرْطِ الصَّبَابَةِ أَنْظُرُ
بِعَيْنَيْنِ طَوْرًا يَغْرَقَانِ مِنَ البُكََا فَأَعَشَى وَطَوْرًا يُخَسِرَانِ فَأُبْصِرُ

وهو مثل قولِ ذي الرُّمَّةِ [في «ديوانه» ٤٦٠/١] :

وَإِنْسَانَ عَيْنِي يَخْسِرُ الْمَاءَ تَارَةً فَيَبْدُو وَأَحْيَانًا يَجْمُ فَيَغْرُقُ^(١)

وقال العباسُ بنُ الأحنفِ [في «ديوانه» ١١٦] :

نَزَفَ البُكَاءُ دُمُوعَ عَيْنِكَ فَاسْتَعِرَ عَيْنًا لِغَيْرِكَ دَمْعُهَا مِذْرَارُ

وقال الأبلهُ :

قَدْ كُنْتُ ذَا دَمْعٍ وَذَا جَلَدٍ فَبَقِيْتُ لَا جَلَدًا وَلَا دَمْعًا

وقال ابنُ الفارضِ :

ذَابَتِ الرُّوحُ اشْتِيَاقًا فَهِيَ بَعْدَ نَفَادِ الدَّمْعِ أَجْرَى عَبْرَتِي
فَهُوَ عَيْنِي مَا أَجْدَى البُكََا عَيْنَ مَاءٍ فَهِيَ إِحْدَى مُنْيَتِي

[الإشارات والكناية في الحب]

وقال بعضهم :

وَقَائِلَةٌ : مَا بَالُ دَمْعِكَ أَخْضَرَ فَقُلْتُ لَهَا : هَلْ تَفْهَمِينَ إِشَارَتِي ؟
أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّ الدُّمُوعَ تَجَفَّفَتْ فَأَجْرِيئُهَا يَا مُنْيَتِي مِنْ مَرَارَتِي

ولا يخفى ما في هذينِ مِنَ الانحطاطِ ، ولكنْ قد يقبلُ قولُ الآخرِ :

وَقَائِلَةٌ : مَا بَالُ دَمْعِكَ أَسْوَدًا وَقَدْ كَانَ مُحْمَرًّا وَأَنْتَ نَحِيلُ ؟
فَقُلْتُ لَهَا : إِنَّ الدُّمُوعَ تَصَرَّمَتْ وَهَذَا سَوَادُ الْعَيْنِ فَهُوَ يَسِيلُ

[أجمل ما قيل في الدموع]

وأما الَّذِي تُعَقِّدُ الخَنَاصِرُ عَلَيْهِ . . فَإِنَّمَا هُوَ قَوْلُهُ :

وَقَائِلَةٌ : مَا بَالُ دَمْعِكَ أَيْضًا ؟ فَقُلْتُ لَهَا : يَا عَلُوْ هَذَا الَّذِي بَقِيَ
أَلَمْ تَعْلَمِي أَنَّ البُكََا طَالَ عُمُرُهُ فَشَابَتْ دُمُوعِي مِثْلَ مَا شَابَ مَفْرِقِي
وَعَمَّا قَلِيلٍ لَا دُمُوعِي وَلَا دَمِي تَرِينَ وَلَكِنْ لَوَعَتِي وَتَحَرَّقَتِي

وقولُ ابنِ الخياطِ [في «ديوانه» ٤٤] :

وَكُنْتُ إِذَا مَا اشْتَقْتُ عَوَّلْتُ فِي البُكََا عَلَيَّ لُجَّةَ إِنْسَانٍ عَيْنِي غَرِبَقُهَا

(١) بجم : يكثرُ ويجمعُ .

فَلَمْ يَبْقَ مِنْ ذَا الدَّمْعِ إِلَّا نَشِيجُهُ
فَيَا لَيْتَنِي أَبْقَى لِي الدَّهْرُ عَبْرَةً

وقال ابنُ اللَّبَّانَةِ [في « نفع الطب » ٢٥٨/٤] :

وَمِنْ كَبِدِ المُشْتَاقِ إِلَّا خُفُوقَهَا
فَأَقْضِي بِهَا حَقَّ النَّوَى وَأْرِيقُهَا

[مِنَ الطُّوِيلِ]

بَكَيْتُكَ حَتَّى لَمْ يُخَلِّ لِي الْأَسَى

وَمِنْ مَحَاسِنِ البَارُوْدِيِّ [في « ديوانه » ٤٩] :

دُمُوعاً بِهَا أَبْكِي عَلَيْكَ وَلَا دَمَا

[مِنَ الوَافِرِ]

فَزِعْتُ إِلَى الدُّمُوعِ فَلَمْ تُجِنِّي
وَمَا قَصَّزْتُ فِي جَزَعٍ وَلَكِنْ

وَيَأْتِي عِنْدَ ذِكْرِ بَكَاءِ الحِمَامِ بَعْضُ مَا يَتَّصِلُ بِهِ .

وَقَفَّدُ الدَّمْعِ عِنْدَ الحُزْنِ دَاءً
إِذَا غَلَبَ الْأَسَى ذَهَبَ البُكَاءُ

[مِنَ الطُّوِيلِ]

وقال الناظِمُ [في « العُكْبَرِيُّ » ١/٥٤] :

وَرُبَّ كَيْبٍ لَيْسَ تَنْدَى جُفُونُهُ
وَرُبَّ كَثِيرِ الدَّمْعِ غَيْرُ كَيْبٍ

[أجود بدمعي والدموع على الخد]

[مِنَ الطُّوِيلِ]

وقال القطبُ الحِدادُ [في « ديوانه » (١٥٦)] :

أَجُودُ بِدَمْعِي وَالدَّمُوعُ عَلَى الخَدِّ
أَحْسُّ بِقَلْبِي حَسْرَةً وَكَأَبَةً
إِذَا رُمْتُ مِنْ نَجْدٍ دُنُوءًا تَزَاحَمَتْ
وَعَنْ جِيرَةِ الحَيِّ الْأَلَى حَلَّ حُبُّهُمْ
مَحَبَّتُهُمْ دِينِي وَفَرَضِي وَسُنَّتِي
وَمَهْمَا سَرَتْ لِي نَسْمَةٌ مِنْ رُبُوعِهِمْ
وَرِيحُ الخُزَامِي وَالْأَرَاكِ يُهَيِّجُ لِي
فَمَا حِيلَتِي وَالْعُمُرُ وَلَى وَلَمْ أَنْلِ
وَإِنِّي مُقِيمٌ فِي مَوَاطِنِ غُرْبَةٍ
قَرِيبٌ بَعِيدٌ بَائِسٌ غَيْرُ بَائِسٍ
أُمُورٌ وَأَحْوَالٌ تَعِنُّ وَلَمْ أَجِدْ

شُهُودٌ عَلَى الْأَشْوَاقِ وَالْحُزْنِ وَالوَجْدِ
لِمَا نَالَنِي مِنْ وَخْشَةِ البَيْنِ وَالصَّدِّ
عَلَيَّ أُمُورٌ تَقْتَضِي البُعْدَ عَنْ نَجْدِ
فُؤَادِي فَأَلْهَانِي عَنِ القَبْلِ وَالبُعْدِ
وَعُرُوتِي الوَثْقَى وَأَفْضَلُ مَا عِنْدِي
يُخَالِطُهَا عَزْفُ البِشَامَاتِ وَالرَّزْدِ^(١)
شُجُونِي حَتَّى لَا أُعِيدُ وَلَا أُبْدِي
لِقَاهُمْ وَمَا لِلْعُمُرِ إِنْ فَاتَ مِنْ رَدِّ
عَلَى كَثْرَةِ الْأَلْفِ فِي جَانِبِ وَحْدِي
وَحِيدٌ فَرِيدٌ فِي طَرِيقِي وَفِي قَضِي
عَلَيْهَا مُعِيناً وَهِيَ تَقْعُدُ بِالفَرْدِ

وهذه الأبيات وإن لم تتصل كلها بالموضوع . . فإن رقتها وانسجامها ، ووخزها للأكباد ، وتحريكها للأشجان ،
وصدورها عن قلب وامق ، وحب صادق ، كل ذلك . . هز البنان ، وأطلق العنان ، ويعجني فيما يتصل بالموضوع
قوله - أيضاً - [في « ديوانه » ٣٩٩] :

[مِنَ الطُّوِيلِ]

سَأَبْكِي عَلَيْهِمْ مَا حَيْثُ بِعَبْرَةٍ
لَهَا مَدْمَعٌ فِي الخَدِّ تَشْهَدُ بِالثُّكُلِ

(١) البشامات : شجرٌ عطِرٌ الرائحة ، ورَفُّهُ يسودُّ الشَّعْرَ ، ويُستاكُ بقضبه . الرِّزْدُ : عودٌ لطيفٌ ، طيبٌ الرائحة .

وقد سبق قبيل شرح قوله : (فَثِيبٌ وَاثِقًا بِاللَّهِ وَثَبَّةٌ مَّاجِدٌ) .

[من البسيط]

وفي شرح قوله [في «العكبري» ١٦٣/٣] :

وَالْوَجْدُ يَقْوَى كَمَا يَقْوَى النَّوَى أَبَدًا وَالصَّبْرُ يَنْحَلُ فِي جِسْمِي كَمَا نَحَلًا

[البكاء من خشية الله مطلوب]

.. بعض ما يتعلّق بالبكاء ، وهو من خشية الله مطلوب ، وما لا يتجاوز الدمع غير محظور مطلقاً ، ولكن قال ابن الفارض :

[من الطويل]

وَيَحْسُنُ إِظْهَارُ التَّجَلُّدِ لِلْعَدَا وَيَقْبُحُ غَيْرُ الْعَجْزِ عِنْدَ الْأَجْبَةِ

[من الكامل]

وقال الناظم [في «العكبري» ٢٠١/٢٦٩٤٢٦٨] :

الْحُزْنُ يُقْلِقُ وَالتَّجْمُلُ يَزْدَعُ
إِنِّي لِأَجْبُنُ مِنْ فِرَاقِ أَحِبِّي
وَالدَّمْعُ بَيْنَهُمَا عَصِيٌّ طِيْعُ
وَتَحْسُنُ نَفْسِي بِالْحِمَامِ فَأَشْجَعُ
وَيَزِيدُنِي غَضَبُ الْأَعَادِي قَسْوَةً
وَيَلِمُ بِي عَتَبُ الصَّدِيقِ فَأَجْزَعُ

[من الطويل]

وقال أبو تمام [في «ديوانه» ١٠/٢٩٠] :

جَلِيدٌ عَلَى عَتَبِ الْخُطُوبِ إِذَا عَرَّتْ
وَلَسْتُ عَلَى عَتَبِ الْأَخْلَاءِ بِالْجَلِيدِ

[أسباب الشيب كثيرة]

ثم إن في البيت الذي نتكلّم عليه .. إشارة إلى أنّ الذي شيبه هو الهوى ، ومثله لا يحصى كثرة في أشعار الناس .
أما سيّد البشر صلى الله عليه وآله وسلم .. فقد قال : « شَيْبَتْنِي هُوْدٌ وَأَخَوَاتُهَا »^(١) .

وأما عبد الملك بن مروان فقال [في «الكامل» ٤/٢٣٩] : شَيْبَنِي ارْتِقَاءُ الْمَنَابِرِ ، وَاتِقَاءُ اللَّخْنِ .

[من الطويل]

وأما البُحْتُريُّ : فقد أهان نفسه ؛ إذ اعترف بأن شيبه من كثرة السؤال في قوله [في «ديوانه» ٤/٢٠٩٤] :

وَشَيْبَنِي أَلَا أزالَ مُجَدِّدًا
سَرَايِلَ تَسْأَلِ كَثِيرَ الْمَغَارِمِ

[من الكامل]

وكل ذلك داخل تحت قول الناظم [في «العكبري» ٤/١٢٤] :

وَالهَمُّ يَخْتَرِمُ الْجَسِيمَ نَحَافَةً
وَيُشِيبُ نَاصِيَةَ الصَّبِيِّ وَهُرْمًا

[من مجزوء الرمل]

وزعم بعض الأقدمين : أنّ الذي شيبه الطيب فقال :

إِنَّمَا شَيْبَنِي الطَّيْبُ وَأَنْفَاسُ الْغَوَازِي
وَأَهْتَمَّ امِّي بِنَزِيلِ
أَوْ بِضَيْفِ أَوْ بِعَانِ^(٢)
قُصِرَتْ عَنْ جَانِبِ الْحَذَانِ لَهْ مِنِّْي الْيَدَانِ

(١) أخرجه عن عقبة بن عامر الطبراني في «المعجم الكبير» (١٤٨/٦) ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما رواه الترمذي (٣٢٩٣) في التفسير ، وقال : غريب . وأورده العجلوني في «كشف الخفاء» (١٥٧٢) وسرد أقوال أهل العلم فيه .

(٢) العاني : الأسير .

وقال الآخر :

[مِن الطَّوِيلِ]

جَلَا الْأَذْفَرُ الْأَحْوَى مِنَ الطَّيِّبِ فَرَقَهُ وَطِيبِ الدَّهَانِ رَأْسَهُ فَهَوَ أَنْزَعُ^(١)

[أكثر العرب على أن الشيب من الوقائع]

وأكثر العرب . . تزعمُ الشيبَ مِنَ الأَهْوَالِ والوقائعِ ، وقالَ شاعرُهُم [كما في « شذرات الذهب » ١/١١٨] :

[مِن الطَّوِيلِ]

فَمَا شَابَ رَأْسِي مِنْ سِنِينَ تَتَابَعَتْ عَلَيَّ وَلَكِنْ شَيْبَتْنِي الْوَقَائِعُ

[مِن الطَّوِيلِ]

وقال الرضي [في « ديوانه » ٩٨٢] :

وَمَا شِبْتُ مِنْ طُولِ السِّنِينَ وَإِنَّمَا غَبَارُ حُرُوبِ الدَّهْرِ غَطَى سَوَادِيَا

وقد قال عزَّ اسمُهُ : ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾ * السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ ﴿ [المزمل : ١٧-١٨] . وللشيبِ وما يتعلَّقُ به غيرُ هذا المكانِ .

* * *

[مِن الخفيفِ]

[قال أبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكْبَرِيُّ » ١/٣١٩] :

أَيَّ يَوْمٍ سَرَزْتَنِي بِوِصَالٍ لَمْ تَرُعْنِي ثَلَاثَةً بِصُدُودٍ!؟

[مسكين المتنبِّي بيتي الريح من الحبيب!! إن هذا لشيء عجاب]

يقولُ : لَمْ تُسْرَنِي بِالْوِصَالِ يَوْمًا ، إِلَّا رُعْتَنِي بِالصُّدُودِ ثَلَاثًا . ف (أَيَّ) : استفهاميَّةٌ ، يرادُ مِنْهَا النفيُّ ، وهذا طمعٌ شديدٌ مِنَ الناظمِ ، وإلَّا . . فالعشاقُ - كما سبقَ في عدَّةِ مواضعَ ، مِنْهَا المجلسُ الثاني ، وَمِنْهَا ما قُبِّلَ الكلامُ على قولِهِ : (عَلَّ الْأَمِيرَ يَرَى ضَعْفِي فَيَشْفَعُ لِي . . إلخ) - كانوا يَتَّقِنُونَ باليسيرِ مِنْ أنواعِ الوِصَالِ .

[لم تكن راحة القلب يوماً بدون القناعة باليسير من المحبوب والشعراء تشهد بذلك]

[مِن الطَّوِيلِ]

قال قيسٌ [في « ديوانه » ٩٨] :

عِدِينِي - بِنَفْسِي أَنْتِ - وَعَدَا فَرَبَّمَا جَلَا كُرْبَةَ الْمُخْزُونِ عَن قَلْبِهِ الْوَعْدُ

[مِن الطَّوِيلِ]

وقال ابنُ الفارضِ [في « ديوانه » ١٣٨] :

عِدِينِي بِوِصَالٍ وَأَمْطَلِي بِنَجَاةِ عِدِينِي إِذَا صَحَّ الْهَوَى حَسَنَ الْمَطْلُ

[مِن الطَّوِيلِ]

وقال قيسٌ [في « ديوانه » ١٠٢-١٠٣] :

وَإِنْ تَكُ لُبْنَى قَدْ أَتَى دُونَ قَرْبِهَا حِجَابٌ مَنِيْعٌ مَا إِلَيْهِ سَبِيلُ
فَإِنَّ نَسِيمَ الْجَوِّ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَنُبْصِرُ قَرْنَ الشَّمْسِ حِينَ تَزُولُ

(١) الْأَذْفَرُ : التَّنُّ الرَّائِحَةُ . الْأَحْوَى : الْأَسْوَدُ . النَّزَعَةُ : الْمَوْضِعُ مِنْ رَأْسِ الْأَنْزَعِ ، وَهِيَ نَزْعَتَانِ تَرْتَفِعَانِ فِي جَانِبِي النَّاصِيَةِ .

وَأَزْوَاحَنَا بِاللَّيْلِ فِي النَّوْمِ تَلْتَقِي
وَتَجْمَعُنَا الْأَرْضُ الْقَرَارُ وَفَوْقَنَا
إِلَى أَنْ يَعُودَ الدَّهْرُ سِلْمًا وَتَنْقُضِي

وَتَعْلَمُ أَنَّهَا بِالنَّهَارِ نَقِيلُ
سَمَاءً نَرَى فِيهَا التُّجُومَ تَجُولُ
تِرَاتٍ يَرَاهَا عِنْدَنَا وَذُحُولُ^(١)

وقال [في «ديوانه» ١٩٤] :

[من الطويل]

إِذَا طَلَعَتْ شَمْسُ النَّهَارِ فَسَلِّمِي
فَإِنِّي يُسَلِّنِي عَلَيْكَ طُلُوعَهَا

ألا وإن اجتماع الأبصار على رؤية نحو الهلال . . لنوع من الوصال ، غير أنه لا يتيسر لكل مفارق مع بعد الشقة ، وتفارط البعد ؛ إذ لا يحصل كله لمن كان مثلاً بـ (جاوا)^(٢) وأهله بـ (حضر موت) ، غير أنهم شركاء بعد في التمني ، الذي يعول بعضهم عليه في بل غلة الجوى ، وتسكين حرّ النوى .

قال أبو حية النميري [في «ديوانه» ١٥٨] :

[من الطويل]

وَدَاوَيْتُ جُرْحَ الْقَلْبِ مِنْهُنَّ بِالْمُنَى
وَبِاللَّحْظِ - لَوْ يَبْدُلْنَهُ - الْمُسْرَقِ

[من الطويل]

أَمَانِيٍّ مِنْ لَيْلِي حَسَانٌ كَأَنَّمَا
مُنَى إِنْ تَكُنْ حَقًّا تَكُنْ أَحْسَنَ الْمُنَى
وَالْأَقْدَقُ عِشْنَا بِهَا زَمَانًا رَغْدًا

وقال غيره [وهو البستي كما في «النجوم الزاهرة» ٢٢٩/٤] :

[من الوافر]

وَأَعْلَمُ أَنَّ وَضْلِكَ لَا يُرَجَّى
وَلَكِنْ لَا أَقَلَّ مِنَ التَّمْنَى

[من الطويل]

وَهَبْكُمْ مَنَعْتُمْ أَنْ أَرَاهَا بِنَاظِرِي
فَهَلْ تَمْنَعُونَ الْقَلْبَ أَنْ يَتَمَنَّاها؟!

وقال مهيأ [في «ديوانه» ١٨٤/٤] :

[من الطويل]

فَهَلَّا مَنَعْتُمْ إِذْ مَنَعْتُمْ كَلَامَهَا
سَقَى اللَّهُ أَطْلَالَ بِأَكْثِيَةِ الْحَمَى
لَقَالَ الصَّدَى يَا صَاحِبِي انزِلَا بِيَا
مَنَازِلُ لَوْ مَرَّتْ بِهِنَّ جَنَازَتِي

وهو قريب مما أملاه أبو بكر الأنباري عن بعض العرب [وهو توبة الخفاجي] :

[من الخفيف]

وَعَنْتُ إِحْدَى حَظَايَا مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ بِمَا يَلِي [في «الأغاني» ١٩٤/٢٣] :
حَجَبُوهَا عَنِ الرَّيَّاحِ لِأَنِّي
لَوْ رَضُوا بِالْحِجَابِ هَانَ وَلَكِنْ
فَتَنَفَّسْتُ ثُمَّ قُلْتُ لِطَيْفِي :

(١) الذُّحُولُ : التَّارُ وَالْعِدَاوَةُ وَالْحَقْدُ .

(٢) جاوا : من بلاد (أندونيسيا) .

(٣) الْأَكْبَةُ : جمع كتيب ؛ وهو : ما اجتمع من الرَّمْلِ .

حَيْهًا بِالسَّلَامِ سِرًّا وَإِلَّا مَنَعُوهَا لِشِقْوَتِي أَنْ تَنَامَا

وقال ابن قاضي (مَيْلَة) مِنْ قَصِيدَةٍ لَهُ شَائِقَةٌ - أوردَهَا ابْنُ خَلِّكَانَ (١) فِي تَرْجُمَةِ يَحْيَى بْنِ أَكْثَمٍ - : [مِنَ الطَّوِيلِ]

وَأَيْسَنِي مِنْ وَضْلِهِ أَنْ دُونَهُ مَتَالِفَ تَسْرِي الرِّيحِ فِيهَا فَتَتَلَفُ
وَعَيْرَانُ يَجْفُو النَّوْمَ كَيْ لَا يَرَى لَنَا إِذَا نَامَ شَمَلًا فِي الْكَرَى يَتَأَلَفُ

والأولُ مِنْ قولِ مروانِ ابنِ أبي حفصةَ السابقِ فِي شرحِ قولِهِ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣ / ١٧٠] : [مِنَ البَسيطِ]

عَقَدْتُ بِالنَّجْمِ طَرْفِي فِي مَفَاوِزِهِ وَحُرًّا وَجْهِي بِحَرِّ الشَّمْسِ إِذْ أَفَلَا

مِنَ المجلسِ الثامن ، وَهُوَ قولُهُ : [مِنَ الطَّوِيلِ]

إِلَى وَاحِدِ الدُّنْيَا تَخَطَّتْ رِكَابُنَا تَنَائِفَ فِيمَا بَيْنَهَا الرِّيحُ تَلْغُبُ

وقال ابنُ زيدونَ : [مِنَ الكَامِلِ]

يُدْنِي مَزَارِكَ حِينَ شَطَّ بِهِ النَّوَى أَمَلٌ أَكَادُ بِهِ أَقْبَلُ فَأَكْ

وقال ابنُ الفارضي [في « ديوانه » ١٤٩] : [مِنَ الكَامِلِ]

يُدْنِي الحَبِيبَ وَإِنْ تَنَاءَتْ دَارُهُ طَيْفُ المَلَامِ لِطَرْفِ سَمْعِي السَّاهِرِ

وقال الناظمُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣ / ٢] : [مِنَ الطَّوِيلِ]

مُمْتَلَةٌ حَتَّى كَأَنَّ لَمْ تَفَارِقِي وَحَتَّى كَأَنَّ اليَأْسَ مِنْ وَضْلِكِ الوَعْدُ
وَحَتَّى نَكَادِي تَمْسُحِينَ مَدَامِعِي وَيَعْبَقُ فِي ثَوْبِي مِنْ رِيحِكَ النَّدَى

هَذَا بعضُ ما يُقالُ فِي تَمَنِّي الوَصَالِ ، وَأَمَّا مَطْلَقُ التَّمَنِّي ، وما قِيلَ فِيهِ مَدْحًا وَذَمًّا : فَلهِ مَكَانٌ آخَرٌ إِنْ شاءَ اللهُ تَعَالَى .

[الرضا والسخط والكلام على ذلك]

ويعجبتني قولُ بعضِ المغاربةِ [وهو الحافظ أبو الربيع ابن سالم كما في « نفع الطيب » ٤ / ٣٣٢] : [مِنَ الطَّوِيلِ]

إِذَا بَرَمْتَ نَفْسِي بِحَالِ أَحْلَتْهَا عَلَيَّ أَمَلٌ نَاءٍ فَفَقَرْتَ بِهِ النَّفْسُ
وَإِنْ أَوْحَشْتَنِي مِنْ أَمَانِي جَفْوَةٌ فَلِي فِي الرِّضَا بِاللَّهِ وَالْقَدْرِ الْأَنْسُ

وصدقَ اللهُ ، فالمتسخطُ ضيقُ العَطَنِ (٢) ، جَوْي (٣) الوَطَنِ ، كثيرُ الهمومِ ، مَنزورُ السرورِ ، لا يلدُّ لَهُ النومُ ، ولا

يصفو لَهُ اليومُ [قال الناظم في « العُكْبَرِيِّ » ٢ / ٣٦٠] : [مِنَ البَسيطِ]

كَرِيشَةٌ بِمَهَبِّ الرِّيحِ سَاقِطَةٌ لَا تَسْتَقِرُّ عَلَيَّ حَالٍ مِنَ القَلَقِ

بخلافِ الراضي . . فَإِنَّهُ رَابِطُ الجَأْشِ ، ذاهِبُ الإيْحاشِ ، رَخِيٌّ البَالِ ، سعيْدُ الحَالِ ، جَمُّ الانشراحِ ، كثيرُ

الارتياحِ .

(١) في « وفيات الأعيان » ١٥٩ / ٦ .

(٢) العَطَنُ : مبركُ الإبلِ ، وَهُوَ كنايةٌ عن ضيقِ الأرضِ على اتساعها في عيني المتسخطِ .

(٣) الجَوْيُّ : ضيقُ الصدرِ .

وَللهِ دَرُّ الْقَطَبِ الْحَدَّادِ فِي قَوْلِهِ [في «ديوانه» ٥٠٣] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَإِنْ تَرَضَ بِالْمَقْسُومِ عِشْتَ مُنْعَمًا وَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَضَى بِهِ عِشْتَ فِي حَزْنٍ

وقوله [في «ديوانه» ٤٨٩] :

أَنْتَ وَالْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ عَيْدٌ وَالْإِلَهِ فِينَا يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ
فَكَرُّكَ وَاخْتِيَارُكَ وَيَحْكُ مَا يُفِيدُ الْقَضَا تَقَدَّمَ فَاغْنَمِ الشُّكُونَ

لَا يَكْثُرُ هَمُّكَ مَا قُدِّرُ يَكُونُ

الَّذِي لِيغَيِّرِكَ لَا يَصِلُ إِلَيْكَ وَالَّذِي قَسِمَ لَكَ حَاصِلُ لَدَيْكَ
فَاشْتَغَلْ بِرَبِّكَ وَالَّذِي عَلَيْكَ فِي فَرَضِ الْحَقِيقَةِ وَالشَّرْعِ الْمَصُونِ

لَا يَكْثُرُ هَمُّكَ مَا قُدِّرُ يَكُونُ

[التوكل والتواكل والفرق بينهما]

ومن قوله : (فاشتغل بربك والذي عليك) . . تعرف أنه لا يصح التوكل إلا بعزم صحيح ، ورأي راجح ، وسعي نجيح ، وحزم وثيق ، وتدبير دقيق ، فقد جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال له : أعقل ناقتي ، أم أتوكل ؟ قال : « اغفلها وتوكل »^(١) .

ومر الشعبي برجل في إبل له فشا فيها الجرب ، فقال له : أما تداوي إبلك ؟ قال : إن معنا عجوزاً نتكل على دعائها ، قال : اجعل مع دعائها شيئاً من القطران .

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وما أحسن قول أبي عبادة يمدح [في «ديوانه» ١٩٨/١] :

فَتَى لَمْ يُضَيِّعْ وَقْتَ حَزْمٍ وَلَمْ يَبِثْ يُلَاحِظُ أَعْجَازَ الْأُمُورِ تَعَقُّبًا

[مِنَ الْبَسِيطِ]

وقال غيره :

وَالْمَرْءَ تَلْقَاهُ مِضْيَاعًا لِفِرْصَتِهِ حَتَّى إِذَا فَاتَ أَمْرٌ عَاتَبَ الْقَدْرًا

وقال [أبو] عبادة [ابن الجراح] لعمر - رضي الله عنهما - لما كره طاعون (الشام) [كما في «تاريخ الطبري» ٤٨٦/٢] : أتفر من قدر الله ؟ قال : نعم ، إلى قدر الله ، فقال له : أينفع الحذر من القدر ؟ فقال : لسننا هناك ، ولكن الله لا يأمر بما لا ينفع ، ولا ينهى عما لا يضر ، وقد قال : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة : ١٩٥] ، وقال : ﴿ خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ [النساء : ٧١] .

وليس هذا موضع البحث حتى نفيض فيه ، ولنا إليه عودة عند إفضاء النبوة ، نتناولها فيها من أطرافه إن شاء الله تعالى .
ويعجبني قول عمر بن ذر - منصرفه من دفن ابنه ذر - : ما بنا بعدك من خصاصة ، ولا إلى أحد مع الله حاجة ، ومن توكل على الله . . كفاه ، ومن اتكل على غيره . . وكله إليه .

(١) أخرجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه الترمذي (٢٥١٩) وقال : هذا حديث غريب ، وعن عمرو بن أمية الضمري عند ابن حبان في «صحيحه» (٧٣١) بإسناد حسن .

وفي حِفْظِي عَن « مَفَاتِيحِ الْغَيْبِ » لِلرَّازِي أَنَّهُ يَقُولُ - مَا مَعْنَاهُ - : اعْلَمْ أَنَّنِي وَقَدْ نَبَّأْتُ الْآنَ عَلَى الْخَمْسِينَ ، جَرَّئْتُ نَفْسِي ، فَمَا مِنَّ أَمْرٍ اعْتَمَدْتُ فِيهِ عَلَى اللَّهِ وَحْدَهُ . إِلَّا انْفَتَحَتْ أَبْوَابُهُ ، وَتَسَرَّتْ أَسْبَابُهُ ، وَمَا مِنَّ أَمْرٍ التَّفْتُ فِيهِ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ . إِلَّا التَّوْتُ أُمُورُهُ ، وَاعْصُوصَبَتْ أَحْوَالُهُ .

[قصة للغزالي في الرضا]

وَمِنْ خَيْرٍ مَا جَاءَ فِي الرِّضَا : مَا ذَكَرَهُ الْإِمَامُ الْغَزَالِيُّ - أَوْ غَيْرُهُ^(١) - عَنِ امْرَأَةٍ حَسَّانَةٍ رُئِيَتْ تَطُوفُ ، وَتَكَادُ يَقْطُرُ مِنْ وَجْتِيهَا مَاءُ النُّعْمَةِ وَالشَّبَابِ ، فَقِيلَ لَهَا : مَا هَذِهِ النَّضَارَةُ ؟ قَالَتْ : مَا سَمَّنِي إِلَّا حُبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ ، وَإِلَّا . . فَلَوْ عَلِمْتُمْ حَدِيثِي ؟! قَالُوا : مَا هُوَ ؟ قَالَتْ : كُنْتُ وَصَاحِبِي فِي يَوْمٍ عِيدٍ عَلَى ذَبْحِ شَاةٍ ، فَبَيْنَا نَحْنُ فِي فَرَحِنَا . . إِذْ خَرَجَ ابْنَانَا يَلْعَبَانِ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلْآخِرِ : أَتَحِبُّ أَنْ أُرِيكَ كَيْفَ ذَبَحَ أَبِي الشَّاةَ قَالَ : نَعَمْ ، فَذَبَحَهُ ، وَلَمَّا رَأَهُ يَتَشَحَّطُ فِي دَمِهِ^(٢) . . هَرَبَ فَأَكَلَهُ الذُّئْبُ ، وَكَانَ زَوْجِي ذَهَبَ فِي أَثَرِهِ لِيرَدَّهُ ، فَمَاتَ مِنَ الْعَطَشِ ، وَعَلِمْتُ بِذَلِكَ ابْنَةٌ لَنَا عِنْدَ زَوْجِهَا . . فَأَلْقَتْ نَفْسَهَا مِنْ رَأْسِ الدَّارِ ، وَمَا أَمْسَيْتُ إِلَّا وَقَدْ خَرَبَ بَيْتِي ، وَهَلَكَ زَوْجِي ، وَاصْطَلَيْتُ بِنَارِ الثُّكُلِ ، وَلَكِنِّي صَبَرْتُ عَلَى بِلَائِهِ ، وَرَضِيْتُ بِقَضَائِهِ .

[حكمة للجنيد في الرضا]

وَقَالَ الْجَنِيدُ : أَصَلْتُ فِي نَفْسِي أَلَّا أَنْتَظِرَ مِنَ الْإِيَّامِ غَيْرَ الْمَكَارِهِ ، فَإِنْ جَاءَتْ . . كُنْتُ وَطَّئْتُ عَلَيْهَا نَفْسِي ، وَإِنْ جَاءَ غَيْرُهَا . . عَدَدْتُهُ مِنَ الْأَرْبَاحِ وَالصُّدْفِ .

[الشعر والرضا]

وهو مثل قول أبي ذؤيب [في « جمهرة خطب العرب » ٣/٣٥٦] :
 [مِنَ الطَّوِيلِ] وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يُوْطَنُ نَفْسُهُ
 عَلَى نَائِيَاتِ الدَّهْرِ حِينَ تَنُوبُ

وقول كثير [في « ديوانه » ٩٧] :
 [مِنَ الطَّوِيلِ] فَقُلْتُ لَهَا : يَا عَزُّ كُلِّ مُصِيبَةٍ
 إِذَا وَطَّئْتَ يَوْمًا لَهَا النَّفْسُ ذَلَّتْ

وقال ابن الرومي [في « ديوانه » ٦/٢٢٥٤] :
 [مِنَ الطَّوِيلِ] وَمَا أَحَدَتْ الْعُضْرَانِ شَيْئًا نَكَرْتُهُ
 هُمَا السَّالِبَانِ الْوَاهِبَانِ هُمَا هُمَا

وقال ابن الراوندي :
 [مِنَ الْكَامِلِ] مِخْنُ الزَّمَانِ كَثِيرَةٌ مَا تَنْقُضِي
 وَسُرُورُهُ يَأْتِيكَ كَالْأَعْيَادِ

وقال أبو العتاهية [في « البيان والتبيين » ١/٤٩٠] :
 [مِنَ الْكَامِلِ] تَأْتِي الْمَكَارَهُ حِينَ تَأْتِي جُمْلَةٌ
 وَأَرَى السُّرُورَ يَجِيءُ فِي الْفَلَتَاتِ

(١) بل الغزالي بنحوها كما في « الإحياء » (٤٨٩/٤) .

(٢) يتشحط : يضطرب .

وقال البُحترِيُّ [في «ديوانه» ١٣٢٥/٢] :

[مِنَ البسيطِ]

يَأْتِي نِظَاماً وَيَأْتِي صَفْوَهُ لَمَعاً^(١)
فَلَيْسَ يُزْتَاعُ مِنْ خُطْبِ إِذَا طَلَعَا
مُسْتَقْبَلاً وَانْقِضَاءَ الرُّزْءِ أَنْ يَقَعَا

تَنَكَّرَ العَيْشُ حَتَّى صَارَ أَكْدَرُهُ
وَأَنَسْتُ مِنْ خُطُوبِ الدَّهْرِ كَثْرَتَهَا
صُعُوبَةُ الرُّزْءِ تَلْغِي فِي تَوْقَعِهِ

وقال [في «ديوانه» ١٢٧٠/٢] :

[مِنَ الطَّويلِ]

وَأَبْرَحُ مِمَّا حَلَّ مَا يُتَوَقَّعُ^(٢)

أَجِدُكَ مَا الْمَكْرُوهُ إِلَّا ارْتَقَابُهُ

وقال [في «ديوانه» ٩٦٥/٢] :

[مِنَ الطَّويلِ]

وَأَرْزَاءُ فَجَعٍ قَدَحُهَا فِي الضَّمَائِرِ

أُسَى كَثُرَتْ حَتَّى اطْمَأَنَّ لَهَا الْجَوَى

وقال الخُزَيْمِيُّ [في «ديوانه» ٤١] :

[مِنَ الطَّويلِ]

لِنَازِلَةٍ مِنْ رَبِّهَا أَتَوَجَّعُ^(٣)

لَقَدْ وَقَرْتَنِي الْحَادِثَاتُ فَمَا أَرَى

وقال آخَرُ :

[مِنَ الخفيفِ]

إِنْ تَفَكَّرْتَ مِنْ صُرُوفِ الزَّمَانِ ؟
وَالْبَلَايَا تَكْأَلُ بِسَالِقُفْرَانِ

أَيُّ شَيْءٍ يَكُونُ أَعْجَبَ أَمْرًا
عَارِضَاتُ الشُّرُورِ تُوزَنُ فِيهِ

[أبو العتاهية في السجن]

ويروى [كما في «الأغاني» ٩٦/٤] : أَنَّ أَبَا العتاهيةَ لَمَّا حُبِسَ عَلَى تَرْكِ الشُّعْرِ . . . سَمِعَ إِنْسَانًا فِي السِّجْنِ يَنْشُدُ [كما في

[مِنَ الطَّويلِ]

«ديوان أبي العتاهية» ١٧٥] :

وَأَسْلَمَنِي حُسْنُ العِزَاءِ إِلَى الصَّبْرِ
لِحُسْنِ صَنِيعِ اللَّهِ مِنْ حَيْثُ لَا أَدْرِي

تَعَوَّدْتُ مَسَّ الضَّرِّ حَتَّى أَلْفَنُهُ
وَصَيَّرَنِي بِأَسِي مِنَ النَّاسِ رَاجِيًا

فَقَالَ لَهُ : أَعِدْهَا أَعْرَكَ اللَّهُ ، فَقَالَ لَهُ : وَبِلكَ مَا أَسْوَأَ أَدْبَكَ ، وَأَقَلَّ عَقْلَكَ ، دَخَلْتَ عَلَيَّ فَمَا سَلَّمْتَ تَسْلِيمَ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ ، وَلَا سَأَلْتَ مَسْأَلَةَ الْحَرِّ لِلْحَرِّ ، وَلَا تَوَجَّعْتَ تَوَجُّعَ الْمَبْتَلَى لِلْمَبْتَلَى ، حَتَّى إِذَا سَمِعْتَ بَيْتَيْنِ مِنَ الشُّعْرِ - الَّذِي لَا فَضْلَ لَكَ فِيهِ - لَمْ تَصْبِرْ عَنِ اسْتِعَادَتِهِمَا ، وَلَمْ تَقْدِّمْ عِذْرًا فِيمَا فَعَلْتَ ، فَقَالَ : يَا أَخِي ، إِنِّي دُهَشْتُ لِهَذَا الْحَالِ ، فَاعِذْرَنِي مَتَفَضُّلاً مُمْتَنًّا ، فَقَالَ : أَنَا أَوْلَى مِنْكَ بِالْحَيْرَةِ وَالدَّهْشَةِ ؛ لِأَنَّكَ حُبِسْتَ عَلَى الشُّعْرِ ، وَإِذَا قُلْتَهُ . . . أَمَنْتَ ، أَمَّا أَنَا . . . فَمَاخُودٌ بِأَنَّ أَدَلَ عَلَى ابْنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لِيُقْتَلَ أَوْ أُقْتَلَ دُونَهُ ، وَوَاللَّهِ لَا أَدُلُّ عَلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ أَبُو العتاهيةَ : لَأَنْتَ أَوْلَى ، وَلَوْ عَلِمْتُ أَنَّ هَذِهِ حَالُكَ . . . مَا سَأَلْتُكَ ، فَقَالَ : لَا نَبْخُلُ عَلَيْكَ إِذْنِ ، فَأَعَادَهُنَّ عَلَيْهِ حَتَّى حَفِظَهُمَا ، ثُمَّ سَأَلَهُ عَنِ اسْمِهِ فَقَالَ : أَنَا خَاصُ دَاعِيَةِ عَيْسَى بْنِ زَيْدٍ ، وَابْنِهِ أَحْمَدَ ، وَلَمْ نَبْلَثْ أَنَّ سَمِعْنَا صَوْتَ السِّجْنِ يَفْتَحُ ، فَقَامَ ، وَتَوَضَّأَ ، وَلَبَسَ أَحْسَنَ ثِيَابِهِ ، وَدَخَلَ الْحَرَسَ . . . فَأَخْرَجُونَا جَمِيعًا ، وَقَدَّمَ قَبْلِي

(١) اللُّمْعُ : يَأْتِي خَلْسَةً ، أَوْ كَوْمِيضِ الْبَرَقِ .

(٢) أَبْرَحُ : أَفْعَلُ تَفْضِيلٍ مِنَ الْبِرْحَاءِ ، وَهِيَ شِدَّةُ الْأَذَى وَالْمَشَقَّةِ .

(٣) وَقَرْتَنِي : جَعَلْتَنِي وَقُورًا لَا أَضْجُ وَلَا أَنْضَجُرُ .

إلى الرشيد ، فسأله عن أحمد بن عيسى ، فقال : لا تسألني عنه ، وافعل ما بدا لك ، فوالله لو كان تحت ثوبي ما كشفت عنه ، فأمر به . . فضربت عنقه ، ثم قال لأبي العتاهية : أظنك ارتعت يا إسماعيل ، فقال : من دون ما رأيته تسيل النفوس ، فقال : ردوه إلى محبسه ، فانتحل البيتين وزاد فيهما [في ديوانه « ١٧٥ »] : [من الطويل]
 إذا أنا لم أقبل من الدهر كل ما تكررته منه طال عتبي على الدهر

[كم صفا من أيام المأمون !؟]

وحسبك أن المأمون العباسي - على اتساع ملكه - لم يصف له عيشه إلا أياماً معدودة ، قضاها في فم الصلح حينما أعرس فيها بـ (بوران) .

[توجيه السؤال إلى عبد الرحمن الناصر]

وإن عبد الرحمن الناصر كتب في وصيته : حكمت (الأندلس) خمسين سنة ، لم أنتسم فيها روح الحياة ، وأتذوق طعام العيش . . إلا في أربعة عشر يوماً فقط ، منها يوم استرجاعي (سمورة) ؛ بما حفظت على المسيحية البائسة رضيعها ، بعد أن نفضت يدها منه ، فكادت تقضي من فزط السرور والفرح به .

[المتنبي القنوع الراضي !!]

والمعنى متكرر عند الناظم منه قوله [في « العكبري » ٣ / ٢٥٤] : [من الكامل]

جَمَحَ الزَّمَانُ فَمَا لَدِيدُ خَالِصٍ مِمَّا يَشُوبُ وَلَا سُرُورٌ كَامِلٌ

وقوله [في « العكبري » ٤ / ١٠٤] : [من الطويل]

عَرَفْتُ اللَّيَالِي قَبْلَ مَا صَنَعْتَ بِنَا فَلَمَّا دَهْتَنِي لَمْ تَزِدْنِي بِهَا عِلْمًا

وقوله [في « العكبري » ٣ / ٣٣٢] : [من الطويل]

وَمَا اسْتَعْرَبْتَ عَنِّي فِرَاقًا رَأَيْتُهُ وَلَا عَلَّمْتَنِي غَيْرَ مَا الْقَلْبُ عَالِمُهُ

وقوله [في « العكبري » ٤ / ٢١٢] : [من البسيط]

قَدْ هَوَّنَ الصَّبْرُ عِنْدِي كُلَّ نَائِبَةٍ وَهَوَّنَ الْعَزْمُ حَدَّ الْمَرْكَبِ الْخَشِينِ

وقوله [في « العكبري » ٣ / ٩] : [من الوافر]

رَمَانِي الدَّهْرُ بِالْأَرْزَاءِ حَتَّى فَوَادِي فِي غِشَاءٍ مِنْ نِبَالٍ^(١)
 فَصِرْتُ إِذَا أَصَابْتَنِي سِهَامٌ تَكَسَّرَتِ النَّصَالُ عَلَى النَّصَالِ^(٢)

[عودة إلى الشعراء والرضا والتسليم]

قال ابن خلكان [في « وفيات الأعيان » ٥ / ٣٠٤] : ومما أنشده ابن المنجم لمؤرج السدوسي قوله : [من البسيط]

رُوِّعْتُ بِالْبَيْنِ حَتَّى مَا أَرَاغُ لَهُ وَبِالْمَصَائِبِ مِنْ أَهْلِي وَجِيرَانِي

(١) الأرزاء : المصيبات . الغشاء : ما يغطي الشيء ويشمله .

(٢) النصال : جمع نصل ، وهو الحديد التي في السهم .

لَمْ يَتْرُكِ الدَّهْرُ لِي عِلْقاً أَضِنُّ بِهِ إِلَّا اضْطَفَّاهُ بِنَسَائِي أَوْ بِهِجْرَانِ (١)

قال ابن المنجم : وهذا من أملح ما قيل في معناهما ، ومثلهما قول بعض المحدثين : [مِن الطَّوِيلِ]

وَفَارَقْتُ حَتَّى مَا أَرَاعُ مِنَ النَّوَى وَإِنْ غَابَ جِيرَانُ عَلَيَّ كِرَامُ
فَقَدْ جَعَلْتَ نَفْسِي عَلَى النَّأْيِ تَنْطَوِي وَعَيْنِي عَلَى فَقْدِ الصَّدِيقِ تَنَامُ

ومن هنا ، أخذ ابن التعاويذي قوله [في ديوانه « ٧٩ »] : [مِن الطَّوِيلِ]

وَهَا أَنَا قَلْبِي لَا يُرَاعُ لِفَائِبِ فَيَأْسَى وَلَا يُلْهِبُهُ حَظٌّ فَيَفْرَحُ

[توجه ابن التعاويذي على ذهاب بصره]

وهو من قصيدة طويلة ، يتوجع فيها لذهاب بصره ، فمنها يشير إلى زوجته [في ديوانه « ٧٩-٨٠ »] : [مِن الطَّوِيلِ]

وَبَاكِئَةٍ لَمْ تَشْكُ فَقَدَاً وَلَا رَمَى بِجِيرَتِهَا الْأَذْنَيْنِ بَيْنَ مَطْوُوحٍ (٢)
رَمَتْهَا يَدُ الْأَيَّامِ فِي لَيْثِ غَابِهَا بِفَادِحِ خَطْبٍ وَالْحَوَادِثِ تَفْدَحُ
رَأَتْ جَلالاً لَا الصَّبْرُ يَجْمُلُ بِالْفَتَى عَلَى مِثْلِهِ يَوْمًا وَلَا الْحُزْنُ يُفْبِحُ
فَلَا غَرَوْ أَنْ تَبْكِي الدَّمَاءَ لِكَاسِبِ لَهَا كَانَ يَسْعَى فِي الْبِلَادِ وَيَكْدَحُ
عَزِيزٌ عَلَيْهَا أَنْ تَرَانِي جَائِمًا وَمَا لِي فِي الْأَرْضِ الْبَسِيطَةِ مَسْرَحُ
وَأَلَّا أَقْوَدَ الْعَيْسَ تَفْنَحُ فِي الْبُرَى وَجُرْدُ الْمَذَاكِي فِي الْأَعْنَةِ تَمْرَحُ (٣)
أَظْلُ حَيْسًا فِي قَرَارَةِ مَنْزِلِ رَهِينِ أَسَى أُنْسِي عَلَيْهِ وَأَصْبِحُ
مَقَامِي مِنْهُ مُظْلِمُ الْجَوْ قَاتِمُ وَمَسْعَايَ ضَنْكَ وَهُوَ صَمْحَانُ أَفْبِحُ (٤)
أُقَادُ بِهِ قَوْدَ الْجَنِيْبَةِ مُسْمِحًا وَمَا كُنْتُ لَوْلَا غَدْرَةُ الدَّهْرِ أَسْمَحُ (٥)
كَأَنِّي مَيِّتٌ لَا ضَرِيحَ لَجَنِبِهِ وَمَا كُلُّ مَيِّتٍ - لَا أَبَا لَكَ - يُضْرَحُ
وَهَا أَنَا قَلْبِي لَا يُرَاعُ لِفَائِبِ فَيَأْسَى وَلَا يُلْهِبُهُ حَظٌّ فَيَفْرَحُ
فَلَلَّهِ نَضْلٌ فَلَّ مَنْي غَرَارُهُ وَعُودُ شَبَابٍ عَادَ وَهُوَ مُصْوَحُ (٦)
وَسَقِيًا لِأَيَّامِ رَكِبْتُ بِهَا الْهُوَى جَمُوحًا وَمِثْلِي فِي هَوَى الْغَيْدِ يَجْمَحُ
وَمَاضِي صَبَاً قَضَيْتُ مِنْهُ لُبَانِي خِلَاسًا وَعَيْنُ الدَّهْرِ زَرْقَاءُ تَلْمَحُ (٧)
لِيَالِي لِي عِنْدَ الْعَوَانِي مَكَانُهُ وَالْحَاظُّهَا تَرْنُو إِلَيَّ وَتَطْمَحُ

(١) الملقن : النفس من كل شيء .

(٢) مطووح : مهلك .

(٣) الجرد : جمع أجرد ؛ وهو : الفرس القصير الشعر . المذاكي من الخيل : التي أتى عليها بعد قروحها سنة أو سنتان .

(٤) صمحنان : واسع غليظ . الأفبوح : كل موضع واسع .

(٥) الجنيب : الغريب . مسمحاً : موافقاً .

(٦) المصووح : اليباس المتشقق .

(٧) لبانتي : حاجتي . وخص العين الزرقاء بالذكر لأن زرقه العين مما يشاء منه العرب .

وَلَيْلَىٰ بِهَا أَضْعَافُ مَا بِي مِنَ الْهَوَىٰ أَعْرَضُ بِالشُّكْوَىٰ لَهَا فَتُصَرِّحُ^(١)

ولا لومَ في الإطالة بهذه القطعة منها ؛ فإنَّ عذوبتها ، وحسن انسجامها ، وبديع اتساقها ، وأخذها بمجامع القلوب . . تمهّد العذْرَ في ذلك .

[رد قول المتنبي بقوله]

وَمَعَ مَا أَطَلْنَا فِيهِ الْجَوْلَ ، وَاخْتَرْنَا لَهُ مِنْ أَفَانِينَ الْقَوْلِ ، كَيْفَ يَلِيْقُ بِالنَّاظِمِ أَلَّا يَقْنَعَ بِالْوِصَالِ فِي كُلِّ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ يَوْمًا ؟ وَهُوَ مِنْ أَكْبَرِ الشُّعْرَاءِ بَلَوَى ، وَأَكْثَرِهِمْ مِنْ زَمَانِهِ شَكْوَى ، أَوْ لَيْسَ الْقَائِلُ [في «العُكْبَرِيُّ» ١/١٨٠-١٨١] ؟! : [مِنَ الطُّوَيْلِ]

لَحَا اللهُ ذِي الدُّنْيَا مُنَاخَا لِرَاكِبٍ فَكُلُّ بَعِيدِ الْهَمِّ فِيهَا مُعَذَّبٌ
أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَقُولُ قَصِيدَةً وَلَا أَشْتَكِي فِيهَا وَلَا أَتَعَبُ
وَبِي مَا يَذُودُ الشُّعْرَ عَنِّي أَقْلُهُ وَلَكِنَّ قَلْبِي يَا ابْنَةَ الْقَوْمِ قَلْبُ

أَوْلَيْسَ يَقُولُ [في «العُكْبَرِيُّ» ٢/١٩] ؟! : [مِنَ الطُّوَيْلِ]

أَوْدٌ مِنَ الْأَيَّامِ مَا لَا تَوَدُّهُ وَأَشْكُو إِلَيْهَا بَيْنَنَا وَهِيَ جُنْدُهُ
يُبَاعِدُنْ حَبًّا يَجْتَمِعُنْ وَوَصْلُهُ فَكَيْفَ بِحَبِّ يَجْتَمِعُنْ وَصَدُّهُ^(٢) ؟!
أَبَى خُلُقِ الدُّنْيَا حَبِيْبًا تَدِيْمُهُ فَمَا طَلَبِي مِنْهَا حَبِيْبًا تَرُدُّهُ ؟!

أَمَا وَاللهِ : لقد اشتط في الرغبة ، وأبعد في النجعة ، وإلّا . . فما دون ذلك يعدُّ من حسن الحظ ، وتبسم الدهر الفظ .

[التماس العذر للمتنبي]

إِلَّا أَنْ يُقَالَ : إِنَّهُ لَمْ يَطْلُبِ الْمَطْلَبَ الْحَسِيمَ إِلَّا وَقَتَّمَا كَانَتِ الْأَيَّامُ سِلْمًا لَهُ ، لَمْ تَسْقِهِ بَعْدُ أَجَاجَهَا ، وَلَا أَرْتُهُ اعْوِجَاجَهَا ، عَلَى أَنِّي مَا أَطَرْتُ الدَّهْرَ سَالِمَهُ وَقَتًا ، وَلَا أَرَاهُ إِلَّا مَقْتًا ، وَالرَّجْعُ فِي ذَلِكَ إِلَى تَارِيخِ حَيَاتِهِ ، وَالإِنْسَانُ - كَمَا ذَكَرْنَا غَيْرَ مَرَّةٍ - كَثِيرُ التَّقَلُّبِ ، وَلَقَدْ أَلْفَطَ التَّهَامِيُّ فِي سَوَالِهِ ، مَعَ نَظَرِهِ إِلَى بَيْتِ النَّازِمِ ، فَقَالَ وَأَجَادَ [في «ديوانه» ١٦٥] : [مِنَ الْخَفِيْفِ]

لَا تَقُولِي لِقَاؤُنَا بَعْدَ عَشْرِ لَسْتُ مِمَّنْ يَعْيشُ بَعْدَكَ عَشْرًا

[الذكاء منه في بيته]

ثُمَّ فِي بَيْتِ النَّازِمِ سُرٌّ ، يَظْهَرُ مِنْهُ أَنَّ مَحْبُوبَهُ عَلَى جَانِبِ مِنَ الْعِلْمِ بِالسَّنَةِ ، وَالْعَمَلِ بِهَا ، فَتَمَّتْ وَصَلَهُ قَبْلَ انْتِهَاءِ الْيَوْمِ الثَّلَاثِ . . خَرَجَ عَمَّا جَاءَ فِي الْوَعِيدِ عَلَى الْهَجْرَةِ فَوْقَ الثَّلَاثِ ، وَلَقَدْ ظَرُفَ بَعْضُهُمْ فِي قَوْلِهِ : [مِنَ السَّرِيْعِ]

يَا سَيِّدِي عِنْدَكَ لِي مَظْلَمَةٌ فَاسْتَفْتِ فِيهَا ابْنَ أَبِي خَيْثَمَةَ
فَإِنَّهُ يَرْوِيهِ عَن جَدِّهِ وَجَدُّهُ يَرْوِيهِ عَن عَكْرِمَةَ

(١) إلى هنا من «وفيات الأعيان» (٣٠٥/٥) .

(٢) وصله وصده : اسمان معطوفان على الضمير من (يجتمعن) على رأي الكوفيين ، وهو عند البصريين ممتنع إلا إذا ذكر ضمير الرفع ظاهراً .

نَبِيَّنا الْمَبْعُوثِ بِالْمَرْحَمَةِ
فَوْقَ ثَلَاثِ رَبُّنَا حَرَمَهُ
أَمَا تَخَافُ اللهُ فِينَا فَمَهُ

[مِنَ الْبَسِيطِ]

لَهَا الْمَنَايَا إِلَى أَرْوَاحِنَا سُبُلًا

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ الْمُصْطَفَى
إِنَّ انْقِطَاعَ الْخَلِّ عَنْ خَلِّهِ
وَأَنْتَ مُذْ شَهْرٍ لَنَا هَاجِرٌ

ومرّ قبيل قوله [في «العكبري» ٣/١٦٣] :

لَوْلَا مُفَارَقَةُ الْأَحْبَابِ مَا وَجَدْتِ

مَالُهُ بِهِ تَعَلُّقٌ .

* * *

المجلس العاشر

[مِنَ الْخَفِيفِ]

قال أبو الطيّب المتنبّي في « العُكْبَرِيّ » ١ / ٣١٩ :

مَا مُقَامِي بِأَرْضِ نَخْلَةَ إِلَّا كَمُقَامِ الْمَسِيحِ بَيْنَ الْيَهُودِ

[هل تنبأ أبو الطيب حقيقة ؟]

يقول : إنَّ أهلَ (نَخْلَةَ) - وهي قريةٌ بقربِ (بعلبك) - أعداءُ لي ، كعداوةِ اليهودِ للمسيحِ ، قال الواحديُّ : وبهذا مع تشبيهه نفسه بصالح - عليه السلام - لُقّبَ المتنبّي .
وليس بصحيح . . . وَلَكِنَّهُ تَنبَأُ حَقِيقَةً فِي بَادِيَةِ (السَمَاوَةِ) . . . حَتَّى حُبِسَ ، ثُمَّ أُطْلِقَ بَعْدَ الْاِسْتِثَابَةِ .

[الكلام داء الحسد]

وما ذكره ليس بغريب ؛ إذ لا يخلو عظيمٌ عن الحسد والامتحان ، فإن خلا عن ذلك . . . فليس بعظيم ، إلا على سبيل الفلتات والشذوذ ، وأصله قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا ﴾ [الأنعام : ١١٢] .

[مِنَ الْكَامِلِ]

ولله درُّ أبي تمام في قوله [في « ديوانه » ١ / ٢٢٣] :

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ خَفِيَتْ أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حُسُودِ
لَوْلَا اشْتَعَالَ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ مَا كَانَ يُعْرِفُ طِيبُ نَفْحِ الْعُودِ

وقال الغزالي في بعض كتبه : إنِّي لأستحقرُّ من لم يُتَّهَمَ بالكفرِ ، وأستصغرُّ من لم يُلمَزْ بالفُسُوقِ ، أو ما يشبه هذا القول .

وقال المنصورُ لمعين بن زائدة [في « وفيات الأعيان » ٥ / ٢٤٧] : ما أكثرُ وقوعِ الناسِ فيكَ وفي قومِكَ ، فأنشد : [مِنَ الْبَسِيطِ]

إِنَّ الْعَرَانِينَ تَلَقَّاهَا مُحَسَّدَةٌ وَلَنْ تَرَى لِلنَّاسِ حُسَّادًا^(١)

[مِنَ الْكَامِلِ]

وقال قيسٌ [في « ديوانه » ١١٧] :

مَوْسُومَةٌ بِالْحُسْنِ ذَاتُ حَوَاسِدِ إِنَّ الْجَمَالَ مَظِنَّةٌ لِلْحُسَّادِ

وقالت أمُّ رومان^(٢) لعائشة - كما في « الصحيح » - : هوئي عليك يا بنتي ، فقلما كانت امرأةٌ وضيئةٌ قطُّ عندَ رجلٍ ولها ضرائرُ . . . إِلَّا أَكْثَرْنَ عَلَيْهَا^(٣) .

(١) العرانيين : سادة الناس وأشرفهم ، والعرنين : الأنف .

(٢) أمُّ رومان : زوجةُ سيدنا أبي بكر الصديق ، وأمُّ السيدة عائشة رضي الله عنهم .

(٣) أخرجه البخاري (٤١٤١) من حديث الإفك في المغازي .

وانتهى إلى أبي حنيفة أَنَّ ابْنَ شُبْرُمَةَ وَابْنَ أَبِي لَيْلَى يَنَالَانِ مِنْهُ ، فَأَنْشَدَ [كما في « طبقات الحنفية » ١/٤٩٨] : [مِنَ البسيطِ]

إِنْ يَخْسُدُونِي فإِنِّي غَيْرُ لَائِمِهِمْ
قَبْلِي مِنَ النَّاسِ أَهْلُ الْفَضْلِ قَدْ حُسِدُوا
فَدَامَ لِي وَلَهُمْ مَا بِي وَمَا بِهِمْ
وَمَاتَ أَكْثَرُنَا غَيْظًا بِمَا يَجِدُ

وقال غيره [محمد بن الحسن في « طبقات الحنفية » ١/٤٩٨] :

مُحْسَدُونَ وَشَرُّ النَّاسِ مَنْزِلَةٌ
مَنْ عَاشَ يَوْمًا سَلِيمًا غَيْرَ مَحْسُودٍ

وقال أبو عبادة [في « ديوانه » ١/٦٢٥] :

وَلَنْ تَسْتَيِّنَ الدَّهْرَ مَوْضِعَ نِعْمَةٍ
إِذَا أَنْتَ لَمْ تُدَلِّ عَلَىهَا بِحَاسِدٍ

وقال [في « ديوانه » ١/٥٥٧] :

مُحْسَدٌ ، وَكَأَنَّ الْمُكْرَمَاتِ أَبَتْ
أَنْ تُوجَدَ الدَّهْرَ إِلَّا عِنْدَ مَحْسُودٍ

وقال [في « ديوانه » ١/٤٩٦] :

مُحْسَدٌ بِخِلَالٍ فِيهِ فَاضِلَةٌ
وَلَيْسَ تَفْتَرِقُ النَّعْمَاءُ وَالْحَسَدُ

وقال [في « ديوانه » ١/٦٠٠] :

حَسَدٌ فِي الْعُلَى وَمَا فِي جَمِيعِ النَّاسِ
أَبْلَى بِذِي عُلا مِنْ حُسُودِهِ

وقال [في « ديوانه » ١/٦١١] :

[وَكَمْ] أَنْفَاتٌ مِنَ الْأَبْنَاءِ مُكْرَمَةٌ
مَشْهُورَةٌ تَدْعُ الْأَبَاءَ حُسَادًا!

وقال [في « ديوانه » ٣/١٧٦٦] :

وَكَفَّانِي عَلَى الَّذِي يُوجَدُ الْفَضْلُ
لَدَيْهِ بِالْحَاسِدِينَ دَلِيلًا

[الأئمة والعلماء والافتراء عليهم]

وما أتى الخليفة الرابع وأهل بيته . . . إلّا مِنْ هَذَا الْبَابِ .

ولا يخفى ما قاساه أبو حنيفة .

وما كان مِنْ اخْتِفَاءِ الْإِمَامِ مَالِكٍ فِي بَيْتِهِ رُبْعَ قَرْنٍ .

وما جرى عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ حَنْبَلٍ مِنَ الضَّرْبِ وَالْحَبْسِ وَالْإِهَانَةِ .

وما عاناهُ الْبَخَارِيُّ حَتَّى ضَاقَتْ بِهِ الْأَرْضُ فَدَعَا بِالمَوْتِ .

وَنُفِيَ أَبُو يَزِيدَ الْبَسْطَامِيُّ سَبْعَ مَرَّاتٍ بِوَشَايَاتِ عِلْمَاءِ السُّوءِ .

وشيعوا ذَا النُّونِ الْمَصْرِيَّ مَقِيدًا مَغْلُولًا مِنْ (مِصْرَ) إِلَى (بَغْدَادَ) ، وَسَارَ مَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمَصْرِيِّينَ يَشْهَدُونَ بِالزُّنْدَقَةِ

عَلَيْهِ .

وكان آخرُ سهمٍ في كنائِنِ الحَسَادِ لِسُخْنُونَ أَنْ اسْتَأْجَرُوا بَغِيًّا تَدَّعِي عَلَيْهِ أَنَّهُ يَأْتِيهَا هَوَ وَأَصْحَابُهُ ، حَتَّى اضْطُرَّ إِلَى الانْجِمَاعِ فِي بَيْتِهِ .

وَكَفَرُوا سَهْلًا التُّسْتَرِي ، وَنَسَبُوهُ إِلَى الْقَبَائِحِ حَتَّى طَرَدُوهُ مِنْ بِلَادِهِ .

وَرَمَوْا أَبَا سَعِيدِ الْخِرَازَانَ بِالذَّوَاهِي .

وَشَهِدُوا عَلَى الْجُنَيْدِ بِالْإِلْحَادِ ذَاتَ الْمَرَّاتِ .

وَلَمْ يَنْجُ الشُّبَلِيُّ مِنَ التَّكْفِيرِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَدْخَلَهُ أَصْحَابُهُ الْبِيْمَارِسْتَانَ^(١) مَدَّةً ، رِيثَمَا انْكَفَتْ عَنْهُ النَّاسُ ، وَحَرَّشُوا سُلْطَانَ (مِصْرَ) عَلِيَّ أَبِي بَكْرِ النَّابِلِسِيِّ . . حَتَّى أَمَرَ بِسُلْخِ جُلْدِهِ حَيًّا ، فَصَارَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ بِتَدْبِيرٍ وَخَشْوَعٍ ، وَهُمْ يَسْلُخُونَهُ ، حَتَّى كَادَتْ تَقَطُّعُ الْقُلُوبَ مِنْ مَرَأَةٍ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ .

وَأَخْرَجُوا أَبَا مَدِينٍ مِنْ (بِجَايَةَ) بِتَهْمَةِ الزُّنْدَقَةِ .

وَشَهِدُوا بِهَا عَلَى أَبِي الْحَسَنِ الشَّاذِلِيِّ ، حَتَّى نَفِيَ مِنْ (مِصْرَ) .

وَأَخْرَجُوا وَاحِدَ عَصْرِهِ وَسَيِّدَ وَقْتِهِ ، أَبَا عَثْمَانَ الْمَغْرِبِيَّ مِنْ (مَكَّةَ) ، وَضَرَبُوهُ ضَرْبًا مَبْرَحًا ، وَطَافُوا بِهِ عَلَى جَمَلٍ ، فَأَقَامَ بِ(بَغْدَادَ) إِلَى أَنْ مَاتَ .

وَهَيَّجُوا السُّلْطَانَ عَلِيَّ عَزَّ الدِّينَ بِنِ عَبْدِ السَّلَامِ ، وَعَقَدُوا مَجْلِسًا لِرَمِيهِ بِالْكَفْرِ ؛ مِنْ أَجْلِ كَلِمَةٍ قَالَهَا فِي عَقِيدَتِهِ .

وَكَتَبُوا [كَمَا فِي «وَفِيَاتِ الْأَعْيَانِ» ٣/٢٩٤] مُحَضَّرًا بِ(مِصْرَ) عَلِيَّ أَبِي الْحَسَنِ الْأَمْدِيِّ ، يَنْسَبُونَهُ إِلَى التَّعْطِيلِ وَفَسَادِ الْعَقِيدَةِ ، وَوَضَعُوا عَلَيْهِ خُطُوطَهُمْ ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى رَجَلٍ مِنْهُمْ فِيهِ عَقْلٌ وَدِينٌ ، فَكَتَبَ :

[مِنْ الْكَامِلِ]

حَسَدُوا الْفَتَى إِذْ لَمْ يَنَالُوا سَعْيَهُ فَالْقَوْمُ أَعْدَاءُ لَهُ وَخُصُومُ

كُتِبَهُ فُلَانٌ بِنُ فُلَانٍ .

وَرَمَوْا عَبْدِ الْوَهَّابِ السَّبْكَيَّ بِالْكَفْرِ ، وَشَرَبَ الْخَمْرَ ، وَالْفَوَاحِشَ ، وَلَبَسَ الزَّنَارَ بِاللَّيْلِ ، وَجَاؤُوا بِهِ مَقِيدًا مَغْلُوبًا مِنْ (الشَّامِ) إِلَى (مِصْرَ) ، حَتَّى خَرَجَ جَمَالُ الدِّينِ الْإِسْنَوِيُّ يَتَلَقَّاهُ فِي الطَّرِيقِ ، وَلَوْلَاهُ لِأُرَيْقَ دُمُهُ .
وَالْبَابُ وَاسِعٌ ، وَالشُّوْطُ بِطِينٍ^(٢) .

[أول ذنب عُصِي بِهِ اللهُ تَعَالَى هُوَ الْحَسَدُ]

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَعُدُّ الْحَسَدَ أَوَّلَ ذَنْبِ عُصِي بِهِ الْبَارِي عَزَّ وَجَلَّ ؛ لِأَنَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَمْتَنِعْ عَنِ السُّجُودِ لِآدَمَ . . إِلَّا مِنْ أَجْلِ مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنْهُ لَهُ .

[الجدار المنخفض تقفز عليه الكلاب]

ثُمَّ لَمْ يَكُنْ مَا كَانَ مِنْ ابْنِ آدَمَ إِلَى أَخِيهِ . . إِلَّا عَنْ نَتِيجَتِهِ ، وَسَوْءِ مَغْبِتِهِ ، وَوَلَّهِ فِي خَلْقِهِ شَوْوُنٌ ، فَإِنَّ مَدْنِيَّةَ الْإِنْسَانِ

(١) البيمارستان : لفظٌ فارسيٌّ مركَّبٌ مِنْ : (بِيمَار) وَمَعْنَاهَا مَرِيضٌ ، وَ(اِسْتَانَ) بِمَعْنَى مَحَلٍّ . وَتَعْنِي هَذِهِ الْكَلِمَةُ : الْمَكَانَ الْمَعْدَّ لِمُعَالَجَةِ الْمَرِيضِ ، وَأَوَّلُ مَنْ أَقَامَ الْبِيْمَارِسْتَانَ مِنَ الْخُلَفَاءِ : الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَجَاءَ ذِكْرُهَا فِي بَعْضِ الْمَصَادِرِ بِلَفْظِ (مَارِسْتَانَ) .

(٢) البطين : المَلَانُ .

بطبعه.. تقتضي التآلف والتراحم؛ إذ لا يستتب للإنسان أمره إلا ببقاء نوعه، ولا يمكن له قضاء رغباته إلا بمساعدتهم، فكان من حقه أن يحبهم ويألفهم؛ لما له من المصلحة في بقائهم، فلن يحب نفسه إلا بحبهم؛ لأن صلاحه في صلاحهم، غير أن حب الذات قد يزيد فيخرج عن حده، وكل ما خرج عن حده.. رجع إلى ضده، فساد التخاصم عن منبت التراحم، ووقع التناهب في موضع التواهب، ومنه تتبع الملوك عثرات رجالاتهم، وابتغواهم الغوائل لعظماء أتباعهم؛ لأن أولئك الفحول لا بد وأن يذلوا بعضائهم أعمالهم، ويعصمهم الشرف والأنف عن الملق والخضوع، وتأبى نفوس المستبدين أن ترى لأحد فضلاً، وإنما تميل بطبيعتها للمتصاعرين المطبوعين على الخيانة، الذين لا ينفعون عند ارتباك الأحوال، واضطراب الأهوال؛ ولهذا يسرع تقوؤض ممالكهم في الأوساط الحرة، وإنما تطول في الأمم الميتة التي ألفت الذل وأخذت عليه، ورثمت الهوان^(١) واستنامت إليه، فهؤلاء الساقطون نعمة على المستبدين من ملوك الجور، ولقمة سائغة لكل آكل.

[الذي ألف الذل والهوان مذموم، ذمه في الشرع]

ولكنهم مذمومون في عين الشرع والعقل.

أما الشرع: فالباري جل شأنه يقول: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصُرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩].

ويقول أيضاً: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمْ أَمْلاكَهُمْ ظَالِمِينَ أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجَرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَا وَهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧].

[ذمه في العقل وعزة الشعراء]

وأما العقل: فقد قال المتلمس في «ديوانه» ١٤٠: [مِن الطويل]

وَكُنَّا إِذَا الْجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ أَقْمَنَا لَهُ مِنْ خَدِّهِ مَا تَصَعَّرَا

وقال الفرزدق في «ديوانه» ٢٤٠/١: [مِن الطويل]

وَكُنَّا إِذَا الْجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ ضَرَبْنَاهُ حَتَّى تَسْتَقِيمَ الْأَخَادِعُ^(٢)

وقال بشار في «ديوانه» ٣١٧/١: [مِن الطويل]

إِذَا الْمَلِكُ الْجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ مَشِينَا إِلَيْهِ بِالسُّيُوفِ نَخَاطِبُهُ

وقال ابن ظبيان في «الكامل» ١٠٧/٤: [مِن الطويل]

نُعَاطِي الْمُلُوكَ الْحَقَّ مَا قَسَطُوا لَنَا وَلَيْسَ عَلَيْنَا قَتْلُهُمْ بِمَحَرَّمٍ

وقال نهار بن توسعة في «الكامل» ٣٠٣/٤: [مِن الوافر]

إِذَا لَمْ يُعْطِنَا نِصْفًا أَمِيرٌ مَشِينَا نَخْوَهُ مَشِي الْأَسْوَدِ^(٣)

(١) رثم الهوان: ألقه وأحبه ولزمه.

(٢) الأخادع، هما الأخدعان: عرقان في صفحة العنق.

(٣) النصف: شئ الشيء، أي تعطي من نفسك ما يستحق من الحق كما تأخذه.

وقال الشدّاحُ :

[مِن الطَّوِيلِ]

وَلَا سُوقَةَ إِلَّا الْوَشِيحَ الْمُقَمَّوَمَا^(١)
كَصَاعِقَةٍ مِنْ عَارِضٍ قَدْ تَبَسَّمًا

أَبَيْتًا فَلَا نَعْطِي مَلِيكَاً ظَلَامَةً
وَالْأَحْسَامَ يَبْهَرُ الْعَيْنَ لَمَحُّهُ

وقال آخرُ [عبيدُ بنُ الأبرصِ في «ديوانه» ٨٦] :

[مِن البسيطِ]

مَا يَشْتَهُونَ وَلَا يُثْنُونَ إِنْ خَمَطُوا^(٢)

إِذَا تَخَمَّطَ جَبَّارٌ ثَنُوهُ إِلَيَّ

وقال الضَّبِّيُّ - أبو الشعرِ - :

[مِن الطَّوِيلِ]

جَعَلْنَا الْقَنَا وَالْمُرْهَفَاتِ لَهُ نَزْلاً

وَكُنَّا إِذَا الْجَبَّارُ بِالْجَيْشِ صَافِنَا

وأخرج مسلمٌ [في «صحيحه» ٢٨٩٨] : عن المستورد القرشيّ أَنَّهُ قَالَ : سمعتُ رسولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « تَقَوْمُ السَّاعَةِ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ » . فقالَ لَهُ عمرو بنُ العاصِ : أَبْصِرْ مَا تَقُولُ ، قَالَ : أَقُولُ مَا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ . . إِنْ فِيهِمْ لَخِصَالٌ أَرْبَعًا : إِنْ تَبَّهَمَ لِأَحْلَمِ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ ، وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مَصِيْبَةٍ ، وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ ، وَخَيْرُهُمْ لِمَسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ ، وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ ، وَأَمْنَعُهُمْ مِنْ ظَلَمِ الْمَلُوكِ . وَهَذَا هُوَ مَوْضِعُ الشَّاهِدِ .

[لا يجلس تحت المحمل إلا الجمل ولا يرضى بالدون إلا الدون]

وقال بعضُ العربِ :

[مِن السريعِ]

وَيَلْتَوِي بِالْمَلِكِ الْقَادِرِ

يُعْطِي زَمَامَ الطَّوْعِ إِخْوَانَهُ

[مِن الطَّوِيلِ]

شَبَا الْحَرْبِ خَيْرٌ مِنْ قَبُولِ الْمَظَالِمِ^(٣)

وَحَارِبٌ إِذَا لَمْ تُعْطَ إِلَّا ظَلَامَةً

وقال بشارٌ [في «ديوانه» ١٧٣/٤] :

[مِن الخفيفِ]

مُذْرِكٌ أَوْ مُحَارِبٌ لَا يَنَامُ

لَا افْتِخَارٌ إِلَّا لِمَنْ لَا يُضَامُ

غِذَاءُ تَضْوَى بِهِ الْأَجْسَامُ^(٤)

وَاحْتِمَالُ الْأَذَى وَرُؤْيَا جَانِيهِ

رُبَّ عَيْشٍ أَخْفَتْ مِنْهُ الْجِمَامُ^(٥)

ذَلَّ مَنْ يَغِيْطُ الذَّلِيلَ بَعِيْشٍ

مَا لِحَرْجٍ بِمَيِّتٍ إِيْلَامُ

مَنْ يَهْنُ يَسْهَلُ الْهَوَانُ عَلَيْهِ

وقال [في «المكبري» ٢١٣/٤] :

[مِن البسيطِ]

وَهَلْ تَرُوقُ دَفِينًا جَوْدَةُ الْكَفَنِ^(٦) !؟

لَا يُعْجِبُنَّ مَضِيْمًا حُسْنُ بَرَزِهِ

والكلامُ فِيهِ يَطْوُلُ ، فَلنَقِفْ بِهِ عِنْدَ حَدِّهِ .

(١) الوشيحُ : شجرُ الرُّمَّاحِ .

(٢) خمط الرجلُ : غضبَ وتكبرَ وثارَ .

(٣) شبا : جمعُ شِباةٍ ، وهي طرفُ السيفِ .

(٤) تضوى : تهزلُ .

(٥) الغبطةُ : تمنى أن يكونَ لك مثلُ الخيرِ الذي عندَ الغيرِ من غيرِ أن تتمنَّى زواله عنه ، والمعنى : أنه يتمنى مثل حاله . الجِمَامُ : الموتُ .

(٦) المضميمُ : المظلومُ . البرزةُ : اللباسُ الحسنُ .

ولنعدُّ على البدء ، فنقول : ما أشدَّ ضیاع العالمِ بین الجهَّالِ ، حتَّى قال بعضهم في قوله تعالى : ﴿لَا تُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [النمل : ٢١] : لأحبسَنَّهُ مع غير جنسِهِ ، والفاضلُ بین الحَسَادِ والمستبَدِّينَ . . أضيعُ مِنَ العالمِ بین الجهَّالِ بكثيرٍ ، فلا حرجَ على أبي الطَّيِّبِ ؛ إذا تألَّم من أهلِ زمانِهِ إلى هذا الحدِّ ، ثُمَّ إِنَّكَ لا تجدُ أذِيَّةَ الأحرارِ في الأكثرِ الأغلبِ . . إلَّا مِنْ أولي قِرابَتِهِمْ ، وعبیدِ نعمَتِهِمْ ، واللهِ دُرُّ الناظِمِ في قوله [في «المُكَبَّرِيَّ» ١/١٨٥] : [مِنَ الطَّوِيلِ]

وَأَظْلَمُ أَهْلِ الظُّلْمِ مَنْ بَاتَ حَاسِدًا لِمَنْ بَاتَ فِي نَعْمَائِهِ يَتَقَلَّبُ

[أصل العداوة اصطناع المعروف إلى غير أهله]

وَيُؤَيِّدُهُ مَا يُرَوَى عَنْ سَفِيانَ مِنْ قَوْلِهِ : ما وجدنا أصلَ كلِّ عداوةٍ . . إلَّا في اصطِناعِ المعروفِ إلى اللئامِ ، ومرَّ بعضُ ما يتصلُّ بهذا البحثِ أو آخرَ المجلسِ الثاني ، وسيعادُ ذرُّو منه أو آخرَ المجلسِ السادسِ عشرِ .

[الحكم الشرعي في التشبيه الذي في بيت المطلع]

والحاصلُ : أن لا أشنوعةَ على الناظِمِ في تشبيهِهِ مقامَهُ - بأرضِ قومِهِ على الهزيمة والاضطهاد - بمُقامِ المسيحِ بين اليهودِ ، ومُقامِ صالحِ في ثمودَ ؛ لأنَّ المشبَّهَ لا يكونُ مثلَ المشبَّهِ بهِ من سائرِ جهاتِهِ ، وقد قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لعائشةَ : « كُنْتُ لَكَ كَأَبِي زَرْعٍ لِأُمِّ زَرْعٍ »^(١) مع أَنَّهُ لَمْ يُحْمَدِ بَيْنَ الأَخِيرِينَ المَالَ .

وجزمَ ابنُ حجرِ الهيتميُّ : بأنَّهُ لا يكفُرُ معلِّمُ صبيانٍ قال : اليهودُ خيرٌ مِنَ المسلمِينَ بكثيرٍ ؛ لأنَّهُمْ يَقْضُونَ حقوقَ معلِّمِي صبيانِهِمْ ، إلَّا إِنْ أَرَادَ الخيريَّةَ المطلقةَ ، واستقرَّبَ عدمَ الكُفْرِ في حالةِ الإِطلاقِ . وذكرَ في « تحفته » : أنَّ الكِتابيَّةَ أَوْلَى بالتزوُّجِ مِنَ المُسَلِّمَةِ التي لا تصلي .

وثبت [كما في « البداية والنهاية » ٧/١٥٣] : أنَّ عثمانَ [بن عفان رضي الله عنه] تزوَّجَ [ناثلة] بنتَ الفرافصةِ الكلبيَّةِ - وهيَ على نصرانيَّتِها - ثُمَّ أَسْلَمَتْ وحسنَ إسلامُها ، وكانَ مِنْ وفائِها لَهُ ما يحفظُهُ التاريخُ .

قالَ ابنُ جريرٍ [في « تفسيره » ٢/٣٧٨] : وأمَّا القولُ الذي رُوِيَ عَنْ شهرِ بْنِ حَوْشِبٍ ، عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ ، عَنْ عَمْرِو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمُ : مِنْ تَفْرِيقِهِ بَيْنَ طَلْحَةَ وامرَأَتِهِ اليهوديَّةِ ، وَبَيْنَ حذيفةَ بْنِ اليمانِ وامرَأَتِهِ النصرانيَّةِ . . فقولُ لا معنى لَهُ ؛ لَخِلافِهِ ما أَجمَعَتْ على تحليلِهِ الأُمَّةُ بكتابِ اللهِ تعالى ، وحديثِ رسولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، وقد رُوِيَ عَنْ عَمْرِو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - مِنْ القولِ بخلافِهِ ما هُوَ أَصَحُّ مِنْهُ إِسنادًا .

ويأتي أو آخرَ المجلسِ الثالثِ عشرَ ما يصحُّ أَنْ يُتمَثَّلَ بِهِ هُنَا ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ اختيارِ الوحشِ على البَشَرِ ، فَمِنْ أَيْنَ يَنْفَذُ الانتقادُ على الناظِمِ بعدَ ما ثَبَّتَ بلسانِ الفقهاءِ تفضيلُ بعضِ الكِتابيَّاتِ على بعضِ المسلماتِ ؟ فلا يتسرَّعَ بمعاتبتهِ في ذلكِ . . إلَّا مَنْ لا حِجَّةَ لَهُ ، ولا رويَّةَ عندهُ .

ثُمَّ أَلَّا تَرَى أَنَّ القاضيَ عبدَ الوهَّابِ المالكيَّ : لَمَّا نَبَأَ بِهِ (العراقُ) ، وَجَفَتَهُ (بغدادُ) ، وَضاقَتْ حالُهُ فِيهِ ، وَبَكَاتُ^(٢) عَلَيْهِ مَجاري الرِّزْقِ بِهِ . . قالَ [في « وفيات الأعيان » ٣/٢٢١] :

[مِنَ البسيطِ]

بَغْدَادُ دَارٌ لِأَهْلِ المَالِ طَيِّبَةٌ وَلِلْمَفَالِيسِ دَارُ الضَّنْكِ وَالضُّيْقِ

(١) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها البخاري (٥١٨٩) في النكاح ، ومسلم (٢٤٤٨) في فضائل الصحابة .

(٢) بكأت : ضاقت ورقت .

ظَلَلْتُ حَيْرَانَ أَمْشِي فِي أَرْقَتِهَا كَأَنِّي مُصْحَفٌ فِي بَيْتِ زَنْدِيقِ

فتشبيهُه إِيَّاهَا بَدَارِ الزَنْدِيقِ ، مَعَ مَنْ فِيهَا مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ . . لَا يَخْرُجُ عَمَّا قَالَهُ النَّاطِمُ .

ويروى : أَنَّ الْقَاضِيَّ الْمَذْكُورَ اجْتَازَ فِي وَجْهِهِ ذَلِكَ إِلَى (مِصْرَ) بِـ (مَعْرَةَ النِّعْمَانِ) ، فَقَالَ فِيهِ صَدِيقُهُ أَبُو الْعَلَاءِ [فِي
« سِقَطِ الزَنْدِ » ٢٩١-٢٩٢] :

وَالْمَالِكِيُّ ابْنُ نَضْرٍ زَارَ فِي سَفَرٍ بِلَادَنَا فَحَمِدْنَا النَّأْيَ وَالسَّفَرَ
إِذَا تَفَقَّهَ أَحْيَا مَالِكًا جَدَلًا وَنَشُرُ الْمَلِكَ الضَّلِيلَ إِنْ شَعَرَ^(١)

وذكره أيضاً في غير هذا الموضع من « ديوانه » . ويُذكرُ أَنَّهُ لَمَّا وَرَدَ (مِصْرَ) . . انثالت^(٢) عليه البركاتُ ، ودرت له
الخيراتُ ، وَلَكِنْ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ عَاجَلَتْهُ الْمَنِيَّةُ ، مِنْ أَكَلَةِ أَكَلِهَا .

وَهُوَ صَاحِبُ الْجَوَابِ عَنِ سِوَالِ صَاحِبِهِ الْمَعْرِيِّ ، وَنَصُّ السِّوَالِ :

يَدُّ بِخَمْسٍ مِثِينَ عَسَجِدٍ وَوَدَيْتِ مَا بَالِهَا قَطَعَتْ فِي رُبْعِ دِينَارٍ^(٣)

وَنَصُّ الْجَوَابِ :

عِزُّ الْأَمَانَةِ أَغْلَاهَا ، وَأَرْخَصَهَا ذُلُّ الْخِيَانَةِ ، فَافْهَمْ حِكْمَةَ الْبَارِي^(٤)

* * *

[قال أبو الطيب المتنبّي في « العُكْبَرِيُّ » ٣١٩/١] :

مَفْرَشِي صَهْوَةَ الْحِصَانِ وَلَكِ نَّ قَمِيصِي مَسْرُودَةٌ مِنْ حَدِيدِ

[حكم المدح بما يشبه الذم عند المؤلف]

يقول : موضعُ فِرَاشِي ظَهْرُ الْحِصَانِ ، وَ (الصَّهْوَةُ) : مَقْعَدُ الْفَارِسِ مِنْ ظَهْرِ الْفَرَسِ ، وَ (الْمَسْرُودَةُ) : الدَّرْعُ ،
وَالاسْتِدْرَاكُ لَا يَخْلُو مِنَ الْبُرُودَةِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَخْلُو مَكَانُهُ إِلَّا إِذَا كَانَ ظَاهِرُهُ عَدَمَ التَّنَاسُبِ بِمَا قَبْلَهُ ، وَرُكُوبُ الْحِصَانِ
يُنَاسِبُ لُبْسَ الدَّرْعِ ، فَانْتَفَى عَنْهُ الْبَدِيعُ بِانْتِفَاءِ مَا يَشْبَهُ مِنْهُ الذَّمُّ ، وَبَعْضُهُمْ لَا يَشْتَرِطُ ذَلِكَ ، مُسْتَدَلًّا بِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « أَنَا أَفْصَحُ الْعَرَبِ ، بَيْدَ أَنِّي مِنْ قُرَيْشٍ »^(٥) .

(١) مالكا : أي مالك بن أنس إمام دار الهجرة صاحب المذهب المشهور ، الملك الضليل : امرؤ القيس .

(٢) انثالت : انصبّت .

(٣) العسجد : الذهب . ومعنى السؤال : لو أن إنساناً قطع يدَ إنسانٍ . . كان عليه نصف الدية ، فيكون ثمن اليد خمس مئة دينار . ولو أن إنساناً سرق ربع دينارٍ
لآخر - وهو نصاب السرقة - قطعت يدهُ ، فيكون الثمن للربع دينارٍ ؟ ويعادل قيمة غرام ذهبي خالص .

(٤) وقد لخص بعض الفضلاء ذلك بقوله :

لَمَّا كَانَتْ أَمِينَةً . . كَانَتْ ثَمِينَةً ؛ فَلَمَّا خَانَتْ . . هَانَتْ .

(٥) قال العجلوني في « كشف الخفاء » (٦٠٩) : أورده أصحاب الغرائب ، ولا يعلم من أخرجه ولا إسناده ، وإن ذكره المحلي في شرح « جمع الجوامع »
والأخذون منه .

والصحيحُ [كما في « مغني اللبيب » ١/١٥٥] : أَنَّ (بِيَدَ) هُنَا . . لَيْسَتْ بِمَعْنَى (غَيْرَ) ، وَإِنَّمَا هِيَ بِمَعْنَى مِنْ أَجْلِ ، فَلَا شَاهِدَ لِذَلِكَ الْبَعْضِ فِيهِ ، فَاَلْمَقْبُولُ فِي الْمَوْضِعِ - كَمَا سَيَأْتِي تَوْضِيحُهُ فِي الْمَجْلِسِ السَّادِسَ عَشَرَ - إِنَّمَا هُوَ مَا كَانَ مِنْ جِنْسِ قَوْلِ النَّابِغَةِ [الذُّبْيَانِي فِي « دِيْوَانِهِ »] :

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سِيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُوكَ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

وقول ابن الرومي :

وَلَا عَيْبَ فِيْنَا غَيْرَ أَنَّ سَمَاحَنَا أَضْرَّ بِنَا وَالْبَاسُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ
فَأَفْنَى الرَّدَى أَرْوَاحَنَا غَيْرَ ظَالِمٍ وَأَفْنَى النَّدَى أَمْوَالَنَا غَيْرَ عَائِبِ
أَبُونَا أَبٌ لَوْ كَانَ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ أَبٌ مِثْلُهُ أَغْنَاهُمْ بِالْمَنَاقِبِ

وقول الآخر [في « خزانة الأدب » ٢/٣٩٩] :

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ ضِيُوفَهُمْ تُعَابُ بِنِسْيَانِ الْأَجْبَةِ وَالْوَطْنِ

وقول بعضهم فيما يُشبه المدح من تأكيد الذم ، وقد أَلطَفَ فِيهِ وَهُوَ :

هُوَ الْكَلْبُ إِلَّا أَنَّ فِيهِ مَلَائِكَةٌ وَسُوءَ مُرَاعَاةٍ وَمَا ذَاكَ فِي الْكَلْبِ

[أصل بيت المتنبي]

وبيت الناظم ناظرٌ إلى قول عنترة [في « ديوانه » ٥٨] :

تُمْسِي وَتَضْبِحُ فَوْقَ ظَهْرِ حَشِيَّةٍ وَأَبِيْتُ فَوْقَ سَرَاةٍ أَدْهَمَ مُلْجَمٍ^(١)
وَحَشِيَّتِي سُرْجٌ عَلَى عَبْلِ الشَّوَى نَهْدٌ مَرَاكِلُهُ نَيْلُ الْمُحْزَمِ^(٢)

[الخيل والمديح فيها]

وقد ذكرنا في غير هذا المجلس كثرة ما يفتخر الناظم بالفروسية والخيل ؛ لِمَا لَهَا مِنَ الْهَيْبَةِ ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْجَمَالِ ، وَهِيَ أَفْضَلُ ذَوَاتِ الْأَرْبَعِ صُورَةً ، وَأَشْبَهَهَا بِالْإِنْسَانِ فِي كَرَمِ الطَّبَعِ ، وَعِلْوِ النَّفْسِ .

وقد أتى الله عليها في القرآن فقال : ﴿ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

قيل : عني به الشياطين ، وأنها لا تدخل بيتاً فيه فرسٌ ، كما لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلبٌ .

وأقسم الله بخيل الغزاة فقال : ﴿ وَالْعَدِيَّتِ صَبْحًا * فَالْمُورِيَّتِ قَدْحًا * فَالْمُعِيرِيَّتِ صَبْحًا ﴾ [العاديات : ١-٣] . وكفاها بذلك شرفاً .

ونسيت - وما أنساني إلا الشيطان - أن أذكر قوله عز اسمه : ﴿ فَالْمُورِيَّتِ قَدْحًا ﴾ [العاديات : ٢] عندما تكلمت على

(١) الحنيفة : الفرائس . سراة كل شيء : أعلاه .

(٢) عبلي الشوى : غليظ القوام والعظام ، ملتفت العصب . الشوى : القوائم . النهدي : النافر الضخم . المراكيل ، جمع مركل وهو : حيث تبلغ رجل الرجل من الدابة . المحزم : موضع الحزام .

أُنْكَحْتُ صُمَّ حَصَاهَا حُفًّا يَعْمَلُهُ تَعَشَّمَرْتُ بِي إِلَيْكَ السَّهْلَ وَالْجَبَلَ

فإنَّهُ أشرفُ مِن كلِّ معنى سقناه هُنَاكَ .

وصحَّ قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « أَلْخَيْلُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا الْخَيْرُ - الْأَجْرُ وَالْمَنْعَمُ - إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ »^(١) .

وهل هنا دقيقةٌ ، وهي أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : قد أَنبَأَ عَن اختراع الطَّيَّارَاتِ وَالسِّيَّارَاتِ ، بما أَخْرَجَهُ عَنْهُ مُسْلِمٌ بِنُ الْحَجَّاجِ فِي

« صحِيحِهِ » [(١٥٥) (٢٤٣)] : مِن طَوَافِ الْمَسِيحِ فِي الْأَرْضِ ، مَعَ اسْتِغْنَائِهِ عَنِ الْقِلَاصِ^(٢) ، وَلَكِنَّهُ أَشَارَ بِالْحَدِيثِ

السَّابِقِ إِلَى أَنْ لَا غِنَى عَنِ الْخَيْلِ مَا اخْتَلَفَ الْمَلَوَانِ^(٣) ، وَذَلِكَ مِمَّا يَزِيدُ الْإِيمَانَ ، لِأَنَّهُ الْمُؤَكَّدُ بِالْحَسَنِ وَالْعِيَانِ .

وَمِن فَضِيلَةِ الْخَيْلِ . . أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَشْهَمَ لَهَا سَهْمِينَ ، وَلَمْ يَجْعَلْ لِلْمُسْلِمِ إِلَّا سَهْمًا وَاحِدًا^(٤) .

وَيُرْوَى : أَنَّهُ - صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ - أَمْرَعُ^(٥) فَرَسًا لَهُ ، ثُمَّ جَعَلَ يَمْسُحُهُ بِرَدَائِهِ ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ . . فَقَالَ :

« بَيْتُ الْبَارِحَةِ وَجِبْرِيلُ يُعَاتِبُنِي فِي سِيَّاسَةِ الْخَيْلِ »^(٦) .

وَصَحَّ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « مَنِ اخْتَبَسَ فَرَسًا فِي سَبِيلِ اللهِ إِيمَانًا بِاللَّهِ ، وَتَصَدَّقًا بِمَوْعُودِ اللهِ . .

كَانَ شِبَعُهُ وَرِيئُهُ وَرَوْثُهُ وَبَوْلُهُ حَسَنَاتٍ فِي مِيزَانِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »^(٧) .

وَصَحَّ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : « مَا مِنْ فَرَسٍ عَرَبِيٍّ ، إِلَّا يُؤَدِّنُ لَهُ كُلَّ يَوْمٍ بِدَعْوَتَيْنِ ، يَقُولُ : اللَّهُمَّ ، كَمَا خَوَّلْتَنِي مَنْ خَوَّلْتَنِي ،

فاجْعَلْنِي مِنْ أَحَبِّ مَالِهِ وَأَهْلِهِ إِلَيْهِ »^(٨) .

وَكَانَتْ الْعَرَبُ لَا تُهْنِيءُ إِلَّا بِالْوَلَدِ ، فيقولون : لَيْهِنَكَ الْفَارِسُ .

وَبِالشَّاعِرِ : يقولون : لَيْهِنَكَ مَنْ يَذُبُّ عَن عَرَضِكَ .

وَبِالمُهْرِ : يقولون : لَيْهِنَكَ مَا تَدْرِكُ بِهِ الثَّارَ .

وَلَهُمْ فِي تَرْبِيَّتِهَا وَمَزِيدِ الْاعْتِنَاءِ بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ مَا تَنطِقُ بِهِ صَوَادِقُ الْأَشْعَارِ .

(١) أَخْرَجَهُ عَن عُرْوَةَ الْبَارِقِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الْبُخَارِيُّ (٣١١٩) فِي الْخُمْسِ . قَالَ الْخَطَّابِيُّ : فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْمَالَ الَّذِي يَكْتَسِبُ بِاتِّخَاذِ الْخَيْلِ مِنْ خَيْرِ وَجْهِ

الْأَمْوَالِ وَأَطْيَبُهَا . وَقَالَ عِيَّاضٌ : فِي الْحَدِيثِ مَعَ وَجِيزٍ لَفْظُهُ مِنَ الْبَلَاغَةِ وَالْعَذُوبَةِ مَا لَا مَزِيدَ عَلَيْهِ فِي الْحَسَنِ ، مَعَ الْجِنَاسِ السَّهْلِ بَيْنَ الْخَيْلِ وَالْخَيْرِ .

(٢) وَلَفْظُهُ عِنْدَ مُسْلِمٍ : « وَلِتُرَكَّنَ الْقِلَاصُ فَلَا يُسْعَى عَلَيْهِ . . » مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ . وَالْقِلَاصُ : جَمْعُ قُلُوصٍ ، وَهِيَ مِنَ الْإِبِلِ كَالْفَتَاةِ مِنَ النِّسَاءِ .

(٣) الْمَلَوَانِ : اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ .

(٤) أَخْرَجَهُ عَن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا الْبُخَارِيُّ (٢٨٦٣) ، وَمُسْلِمٌ (١٧٦٢) فِي الْجِهَادِ : (أَنْ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَسَمَ فِي النَّقْلِ لِلْفَرَسِ سَهْمِينَ وَلصاحبه سَهْمًا) . النَّقْلُ : الْغَنِيْمَةُ .

(٥) أَمْرَعٌ : قَلْبُهُ فِي التُّرَابِ .

(٦) الْخَبِيرُ لَمْ نَقْفِ عَلَيْهِ ، وَالسِّيَّاسَةُ : الْقِيَامُ عَلَى الشَّيْءِ بِمَا يَصْلَحُهُ .

(٧) أَخْرَجَهُ عَن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الْحَاكِمُ فِي « الْمُسْتَدْرَكِ » (١٠١/٢) ، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي « السَّنَنِ الْكُبْرَى » (١٦/١٠) فِي السَّبْقِ ، وَبَنَحُوهُ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ

(٢٣٧١) فِي الْمَسَاقَاةِ ، وَمُسْلِمٌ (٩٨٧) فِي الزَّكَاةِ ، وَطَرَفُهُ : « الْخَيْلُ ثَلَاثَةٌ : هِيَ لِرَجُلٍ . . » .

(٨) أَخْرَجَهُ عَن أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الْحَاكِمُ فِي « الْمُسْتَدْرَكِ » (١٠١/٢) ، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي « السَّنَنِ الْكُبْرَى » (٣٣٠/٦) .

- قال طفيلُ الغنويُّ [في «ديوانه» ٤٩] :
 وَلِلْخَيْلِ أَيَّامٌ فَمَنْ يَصْطَبِرْ لَهَا
 وَيَعْرِفْ لَهَا أَيَّامَهَا الْخَيْرَ يُعْقَبِ
 [مِنَ الطَّوِيلِ]
- وقال رجلٌ من قريشٍ :
 أَتَّقِي دُونَهُ الْمَنَائِيَا بِنَفْسِي
 وَهُوَ يَغْشَى بِنَا صُدُورَ الْعَوَالِي
 فَإِذَا مِثُّ كَانَ ذَاكَ تُرَائِي
 وَسِخَالًا مَحْمُودَةً مِنْ سِخَالِي
 [مِنَ الطَّوِيلِ]
- وقال بعضُ بني عامرٍ :
 بَيْسِي عَامِرٍ ، إِنَّ الْخَيُْولَ وَقَايَةَ
 أَهِينُوا لَهَا مَا تُكْرِمُونَ وَبَاشِرُوا
 مَتَى تُكْرِمُوهَا يُكْرِمُ الْمَرْءُ نَفْسَهُ
 [مِنَ الطَّوِيلِ]
- وقال لبيدٌ [في «ديوانه» ٣٥١] :
 مَعَاقِلُنَا الَّتِي نَأْوِي إِلَيْهَا
 بَنَاتُ الْأَعْوَجِيَّةِ وَالشُّيُوفُ^(١)
 [مِنَ الوَافِرِ]
- وقال ابنُ عباسٍ مُنْشِئًا أَوْ مُتَمَثِّلًا [كما في «المستطرف» ٢/٢٤٠] :
 أَجْبُوا الْخَيْلَ وَاصْطَبِرُوا عَلَيْهَا
 فَإِنَّ الْعِزَّ فِيهَا وَالْجَمَالَ
 إِذَا مَا الْخَيْلُ ضَيَّعَهَا أَنْاسُ
 حَفِظْنَاهَا فَأَشْرَكَتِ الْعِيَالَ
 [مِنَ الوَافِرِ]
- وقال أعشى بكرِ بنِ وائلٍ - يصفُ حسنَ اعتنائه بفرسه - :
 وَقِيَامِي عَلَيْهِ غَيْرُ مَضِيعٍ
 دَائِمًا بِالْغُدُوِّ وَالْأَصَالِ
 [مِنَ الخَفِيفِ]
- وممَّا قاله كعبُ يومَ الخندقِ :
 خَيُْولٌ لَا تَضَاعُ إِذَا أُضِيعَتْ
 يُنَازِعْنَ الْأَعْنَةَ مُضْغِيَاتٍ
 [مِنَ الوَافِرِ]
- وقال حسَّانٌ يذكُرُ الحارثَ بنَ هشامٍ ، وفرارهَ عن أخيه في يومِ بدرٍ :
 وَرَاكِضْنَا تَحْتَ الْعَجَاجَةِ حَارِثُ
 يُقَلِّبُهَا طُورًا وَطُورًا يَحْتُهَا
 عَلَى ظَهْرِ جَرْدَاءٍ كَبَاسِقَةِ النَّخْلِ
 وَيَعْدِلُهَا بِالنَّاسِ وَالْمَالِ وَالْأَهْلِ
 [مِنَ الطَّوِيلِ]
- ولم ينسَ حظُّهُ الناظمُ من مثلِ هذا المعنى ، فقال [في «العكبري» ٣/٢٩٤] :
 وَلَوْ لَمْ تَسِرْ سِرْنَا إِلَيْكَ بِأَنْفَسِ
 غَرَائِبِ يُؤْثِرْنَ الْجِيَادَ عَلَى الْأَهْلِ^(٢)
 [مِنَ الطَّوِيلِ]

(١) الخيلُ الأعوجيةُ : منسوبةٌ إلى فرسٍ كان في الجاهليةِ .

(٢) غرائبُ : جمع غريبةٍ ؛ وهي : الغريبةُ من الناسٍ بما حازت من الأخلاقِ التي لا توجدُ في سواها .

وقال القحيفُ العجليُّ - أو رجلٌ من بني تميم - وقد سأله فرسهُ بعضُ الملوكِ [كما في «ديوان الحماسة» ١/٦٧] : [مِن الوافرِ]

أَبَيْتَ اللَّعْنَ إِنْ سَكَابِ عِلْقُ
نَفِيسٌ لَا يُعَارُ وَلَا يُيَاعُ^(١)
مُقَدَّاةٌ مُكَرَّمَةٌ عَلَيْنَا
تُجَاعُ لَهَا الْعِيَالُ وَلَا تُجَاعُ
سَلِيلَةٌ سَابِقِينَ تَنَاجَلَاهَا
إِذَا نُسِبَا يَضُمُّهُمَا الْكُرَاعُ^(٢)
فَلَا تَطْمَعُ - أَبَيْتَ اللَّعْنَ - فِيهَا
وَمَنْعَكَهَا بِشَيْءٍ مُسْتَطَاعُ

وقال شاعرُ المعرَّةِ [في «سقط الزند» ٢٣٧] :

[مِن الوافرِ]

وَيَغْبِقُ أَهْلَهُ لَبَنَ الصَّفَايَا
وَيَمْنَحُ قُوتَ مُهَجَّتِهِ الْجَوَادَا^(٣)

[مِن الطويلِ]

وقال أيضاً [في «سقط الزند» ١٥٢] :

غَذَاهُنَّ مُخَمَّرَ النَّجِيعِ قَوَارِحَا
كَمَا كُنَّ يُغْذَيْنَ الضَّرِيبَ مَهَارَا^(٤)

[مِن الوافرِ]

وقال [في «سقط الزند» ١٢٠] :

ذَكَبِي الْقَلْبِ يَخْضِبُهَا نَجِيعَا
بِمَا جَعَلَ الْحَرِيرَ لَهَا جِلَالَا

[مِن الوافرِ]

وقال [في «سقط الزند» ١٢٠] :

وَأَعْظَمُ حَادِثِ فَرَسٍ كَرِيمٍ
يَكُونُ مَلِيكُهُ رَجُلًا شَحِيحَا

وهي أشرفُ المراكبِ .

وأخرج النَّسَائِيُّ [في «سننه» ٦/٢١٤] من حديثِ سلمةَ بنِ نُفَيْلِ السَّكُونِيِّ : (أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَن إِذَالَةِ الْخَيْلِ) ؛ وَهُوَ امْتِهَانُهَا فِي الْحَمْلِ عَلَيْهَا .

[مِن الخفيفِ]

وقال بعضهم :

أَطْيَبُ الطَّيِّبَاتِ قَتْلُ الْأَعَادِي
وَرَسُولٌ يَأْتِي بِوَعْدِ حَيْبِ
وَرُكُوبٌ عَلَى ظُهُورِ الْجِيَادِ
وَحَيْبٌ يَأْتِي بِأَيِّ بِلَا مِيعَادِ

[مِن الكاملِ]

وقال ابنُ عَقَبَةَ :

وَقَسَمْتُ حَالَاتِي ثَلَاثًا مِثْلَمَا
كَرَّمُ تَدِينُ لَهُ الْأَنَامُ وَحَالَةٌ
قَدْ كَانَ قَسَمَهَا أَبِي الشَّهْمُ السَّرِي
لَمْ أَخْشَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْمُ وَيَقْتَرِي
ظَهَرُ الْحِصَانِ وَحَالَةٌ لِلْمَنْبَرِ
وَتَخَذْتُ أَصْحَابًا إِذَا نَادَمْتُهُمْ

(١) أبيت اللعن: تحية كانت تقال للملوك في الجاهلية. سكاب: اسم فرسه. العلق: الشيء النفيس. يقول: إن فرسي متاع نفيس لا يعرض للبيع ولا يبدل للإعارة.

(٢) الكراع: هو في الأصل أنف يتقدم في الجبل، فسمي بهذا الفحل لعظمه.

(٣) الغبوق: الشراب بالعشي. الصفايا: جمع صفيّة، وهي الناقة الغزيرة اللبن. والمعنى: يؤثّر فرسه على نفسه بالقوت.

(٤) النجيع: دم الجوف. القوارح: المنتهية أسنانها. الضريب: اللبن الذي يخلط حلوه بحامضه. يقول: إنمّا غذاها بالضريب بسبب قلة اللبن.

عَلِمِي وَحِلْمِي وَالْحِصَانُ وَصَارِمِي

وَنَدَى يَمِينِي وَالْعَفَافُ وَدَفْتَرِي

وقال الناظم [في «العُكْبَرِيَّ» ١٧٥/٤] :

[مِنَ الْكَامِلِ]

تَخَذُوا الْمَجَالِسَ فِي الْبُيُوتِ وَعِنْدَهُ

أَنَّ الشُّرُوجَ مَوَاضِعَ الْفِتْيَانِ

وقال [في «العُكْبَرِيَّ» ٢٣٠/١] :

[مِنَ الْكَامِلِ]

فَكَأَنَّهَا نَتَجَتْ قِيَاماً تَحْتَهُمْ

وَكَأَنَّهَمْ وُلِدُوا عَلَى صَهَوَاتِهَا

وقال [في «العُكْبَرِيَّ» ١٩٣/١] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

أَعَزُّ عَزِيزٍ فِي الدُّنْيَا سَابِحٌ

وَخَيْرٌ جَلِيسٍ فِي الزَّمَانِ كِتَابٌ

ولا يبعدُ عنه قوله [في «العُكْبَرِيَّ» ١٧٩/٤] :

[مِنَ الْكَامِلِ]

مُتَقَيِّبِينَ ظِلَالَ كُلِّ مُطَهَّمٍ

أَجَلِ الظَّلِيمِ وَرَبَقَةِ السَّرْحَانِ^(١)

ورأيتُ بعضَ أهلِ (اليمينِ) يقولُ :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

رَكَبْنَا الْمَطَايَا وَالْجِيَادَ فَلَمْ نَجِدْ

أَلَدَّ وَأَشْهَى مِنْ رُكُوبِ الْمَوَاتِرِ^(٢)

وفيه أشياء :

أحدُها : أَنَّهُ بَيْتٌ قَدِيمٌ يَعْزَى لِلْجَنِّ بِلَفْظِهِ ، إِلاَّ الْمَوَاتِرَ ، فَفِي بَيْتِ الْجِنِّ مَكَانَهَا الْأَرَانِبُ ، وَهُوَ مُشْكَلٌ بِأَنَّ الْجَنِّ تَجَنَّبُهَا مِنْ أَجْلِ الْحَيْضِ ، وَلِهَذَا كَانَتْ الْعَرَبُ تَعْلُقُ كَعْبَهَا فِي رِجْلِ الطِّفْلِ ، كَالْمَعَاذَةِ ، ثُمَّ رَأَيْتُهُ فِي « شَرْحِ الْقَامُوسِ » - رَوَاهُ عَنْ ثَعْلَبٍ - بِإِبْدَالِ الْأَرَانِبِ بِالْثَعَالِبِ ، وَهُوَ ظَاهِرٌ إِذَنْ .

ثانيها : أَنَّ مَرَاجِيحَ الْأَبْطَالِ وَالْعَجَائِزِ سِوَاهُ فِي رُكُوبِ الْمَوَاتِرِ ، وَلَا كَذَلِكَ فِي عِتَاقِ الْخَيْلِ ، وَقَدْ قَالَ النَّازِمُ [فِي «العُكْبَرِيَّ» ٣٧٣/٣] :

[مِنَ الْبَسِيطِ]

وَشَرُّ مَا قَنَصْتَهُ رَاحَتِي قَنَصٌ شُهْبُ الْبُرْزَةِ سِوَاهُ فِيهِ وَالرَّخْمُ^(٣)

وقد يجابُ عنه : بِأَنَّ الْيَمَانِيَّ قَالَ : أَلَدَّ وَأَشْهَى ، وَهَذَا قَدْ يَكُونُ ، وَإِنَّمَا يَأْتِي الْإِنْتِقَادُ لَوْ قَالَ : أَعَزَّ وَأَعْلَى .

ثالثُها : أَنَّ هَذِهِ الْمَلَا حِظَةَ مِنْ جِنْسِ مَلَا حِظَتِنَا عَلَى الْإِمَامِ الْعَيْنِيِّ قَوْلُهُ - فِي حَدِيثٍ : « فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النَّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ »^(٤) ، مَا مَعْنَاهُ - : إِنَّ هَذَا بِالنِّسْبَةِ لِذَلِكَ الْعَهْدِ ، أَمَّا الْآنَ . فَقَدْ أَحْدَثُوا مِنَ الْأَخْبِصَةِ ، وَالْحَلْوَيَاتِ ، وَالْمَطَاعِمِ ، مَا قَدْ يُسْتَقَلُّ مَعَهَا الثَّرِيدُ . وَقُلْنَا : دَاخِلَتْهُ عَجْمَةٌ - رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ - وَإِلَّا فَالْبُرُّ أَفْضَلُ

(١) الْمُطَهَّمُ : الْفَرَسُ التَّامُ ، كُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ عَلَى حَدِّهِ ، فَهُوَ بَارِعُ الْجَمَالِ . الظَّلِيمُ : ذَكَرَ النَّعَامُ . السَّرْحَانُ : الذَّنْبُ . الرِّبْقَةُ : مَا يَكُونُ فِي رِقْبَةِ الشَّاةِ تَحْبِسُهَا مِنْ التَّصَرُّفِ .

(٢) الْمَوَاتِرُ : كَلِمَةٌ عَامِيَّةٌ يَمِينِيَّةٌ ؛ الْمَقْصُودُ بِهَا السِّيَارَاتُ .

(٣) الرَّخْمُ : طَائِرٌ أَبْعَغُ ، يَشْبَهُ النَّسْرَ فِي الْخَلْقِ ، وَهُوَ طَائِرٌ دُنْيَا .

(٤) أَخْرَجَهُ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْبُخَارِيُّ (٥٤١٨) فِي الْأَطْعِمَةِ ، وَمُسْلِمٌ (٢٤٤٦) فِي فَضَائِلِ عَائِشَةَ . وَفِي الْبَابِ : عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ (٣٩٤/٤) ، وَالْبُخَارِيُّ (٣٤١١) ، وَمُسْلِمٌ (٢٤٣١) ، وَالنَّسَائِيُّ (٦٨/٧) .

الطعام ، واللحم أفضل الإدام ، لا يزالان كذلك إلى يوم القيام ، وما الثريدُ غيرُ البرِّ مأدوماً باللحم ؟! قال الشاعرُ
[في « تحفة الأحوذى » ١٠/ ٢٦١] :

إِذَا مَا الْبُرُّ تَأْدِمُهُ بِلَحْمٍ فَذَاكَ أَمَانَةُ اللَّهِ الثَّرِيدُ

وكان البرُّ يلبك لبابه بالشهاد^(١) في عهده صلى الله عليه وآله وسلم . فلم يفضلهُ على الثريدِ ، فلا فضلَ في المواترِ على
عناجيج الخيل^(٢) . . . إلا عند من أعشى التمدنُ الممقوتُ بصره ، وغطى على بصيرته ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

[قول الجاحظ في الكتاب]

وعلى ذكرِ مجالسةِ الكتابِ في بعض ما جاء عن الناظم . . . ذكرتُ قولَ الجاحظِ : ما أعلمُ جاراً أبرَّ ، ولا خليطاً
أنصفَ ، ولا رفيقاً أطوعَ ، ولا معلماً أخضعَ ، ولا صاحباً أظهرَ كفايةً ، وأقلَّ جنائيةً ، ولا أقلَّ إبراماً ، ولا أنزرَ
إملاً ، ولا أنزةً عن ربيتهِ ، ولا أبعدَ عن غيبتهِ ، ولا أكثرَ تصرُّفاً ، ولا أقلَّ تكلفاً ، ولا أترك للشغبِ ، ولا أزهدَ في
الجدالِ ، ولا أحسنَ مواتاةً ، ولا أعجلَ مكافأةً ، ولا أحضَرَ معونةً ، ولا أيسرَ مؤنةً . . . من كتاب .

[قول المؤلف في الكتاب]

وصدق والله فيما قال ، فلقد جرَّبتهُ في نفسي ، ووجدتُ من الأنسِ به تعلُّةً عن الذهابِ ، وسلوةً من الغائبِ ، وزهداً
في الخائنِ ، وعزاءً عن الحائِنِ ، وقلتُ من قصيدةٍ [في « ديوان المؤلف » ٣٨٨] :

[من البسيط]

لِي غُنِيَةٌ بِمُنَاجَاةِ الدَّفَاتِرِ عَنْ مَنْ لَا يُنَاسِبُنِي مِنْ جُمْلَةِ النَّاسِ
فَدُ قُلْتُ نَاساً وَلَكِنْ رُبَّمَا مُسْخُوا فِي عَيْنِ كُلِّ بَصِيرٍ جِيلٍ نَسَنَاسِ

[من الكامل]

وقال غيري :

نِعْمَ الْمُحَدِّثُ وَالْجَلِيسُ كِتَابُ تَلْهُوٍ بِهِ إِنْ خَانَكَ الْأَصْحَابُ
لَا مُفْشِيَاءَ سِرّاً إِذَا اسْتَوْدَعْتَهُ وَتَفَادُ مِنْهُ حِكْمَةٌ وَصَوَابُ

[من الخفيف]

وقال الجرجاني :

لَمْ أَجِدْ لَذَّةَ السَّلَامَةِ حَتَّى صِرْتُ لِلْبَيْتِ وَالْكِتَابِ جَلِيساً

[من الطويل]

وقد سبق بعض ما يتعلَّق بالخيلِ في المجلسِ الرابعِ ، عند الكلامِ على قولهِ [في « المُكَبَّرِي » ٣/ ١٦٢] :

وَدَرَزِي وَإِبَاهُ وَطِرْفِي وَذَابِلِي نَكُنُّ وَاحِداً يَلْقَى الْوَرِيَّ وَانظُرَنَّ فِعْلِي^(٣)

ويأتي - بحسب كلِّ فرصة - ما يليقُ بها من أحوالها إن شاء الله تعالى .

ولتَقِيَّ الدينِ السبكيَّ جواباً عن زَمَانِ خَلِقِهَا ، وما يتعلَّقُ به ، أضربتُ عنه ؛ لأنَّ صدري لم ينشرح لما ذكرَ في
أدلِّتهِ ، وهو موجودٌ برمتِهِ في « حياة الحيوان » [١/ ٢٨٠-٢٨٦] للدميريِّ .

* * *

(١) الشهاد : العسل ما دام لم يُعصر من شمعِهِ .

(٢) عناجيج الخيل : جياذها .

(٣) الطرْفُ : الفرسُ الكريمُ ، وجمعه ، طرفٌ . الذابلُ : ما اهتزَّ ولانَ من الرماحِ .

عِشْ عَزِيزاً أَوْ مُتْ وَأَنْتَ كَرِيمٌ بَيْنَ طَغْنِ الْقَنَا وَخَفَقِ الْبُؤَدِ

[الحياة السعيدة أو الموت العزيز]

(البنود) : الأعلام الكبيرة ، والباقي معروف ، والمعنى متداول بين الشعراء ، جاهليّة وإسلاماً ، فمنه قول
الحُصَيْنِ بْنِ حُمَامِ الْمُرِّيِّ ، وقد سبق في غير هذا المجلس [كما في « الأغاني » ١٤ / ١١] :

[من الطويل]

وَلَسْتُ بِمُبْتَعِ الْحَيَاةِ بِذَلِكَ وَلَا مُرْتَقٍ مِنْ خَشْيَةِ الْمَوْتِ سَلَمًا

[من الطويل]

وقال ابن ميادة [في « ديوانه » ٢١٣] :

فَلَلَمْتُ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ ذَمِيمَةٍ وَلَلْبُخْلِ خَيْرٌ مِنْ عَنَاءٍ مُطَوَّلِ

[من الطويل]

وقال سليمان بن قثة :

وَأَنَّ الْأَلَى بِالطَّفِّ مِنْ آلِ هَاشِمٍ تَأَسَّؤًا فَسْتَوْا لِلْكَرَامِ التَّأَسِّيَا^(١)

وقد تمثّل به مصعبُ بنُ الزبيرِ يومَ زاحفَهُ عبدُ الملكِ بنُ مروان^(٢) ، وكان من حديثه [كما في « الكامل » ١٠٧ / ٤ بنحوه] :
أَنَّهُ لَمَّا خَذَلَهُ أَصْحَابُهُ ، وَتَقَاعَدَ عَنْهُ عَسْكَرُهُ ، وَخَفَّ عَنْهُ رِجَالُهُ . . أَرْسَلَ إِلَيْهِ عَبْدُ الْمَلِكِ أَخَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ مَرْوَانَ يُعْرِضُ
عَلَيْهِ الْأَمَانَ ، وَوَلَايَةَ (الْعِرَاقَيْنِ) أَبَدًا مَا دَامَ حَيًّا ، وَأَلْفِي أَلْفَ دِرْهَمٍ صَلَّةً ، فَأَبَى ، وَقَالَ : إِنَّ مِثْلِي لَا يَنْصَرِفُ عَنْ
هَذَا الْمَكَانِ إِلَّا غَالِبًا ، أَوْ مَقْتُولًا ، فَشَدَّ عَلَيْهِ أَهْلُ الشَّامِ ، حَتَّى طَعَنَهُ زَائِدَةُ بْنُ قَيْسِ بْنِ قَدَامَةَ السَّعْدِيَّةُ ، وَنَادَى
يَا لثَارَاتِ الْمُخْتَارِ ، فَنَزَلَ إِلَيْهِ ابْنُ ظَبْيَانَ ، وَاحْتَزَّ رَأْسَهُ ، وَحَمَلَهُ إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَبَكَى ، وَقَالَ : لَقَدْ كَانَ أَحَبَّ
النَّاسِ إِلَيَّ ، وَأَشَدَّهُمْ مَوَدَّةً لِي ، وَلَكِنَّ الْمُلْكَ عَقِيمٌ .

وقال عبد الملك مرةً لجلسائه : مَنْ أَشْجَعُ النَّاسِ ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ : قَطْرِيٌّ ، وَقَالَ بَعْضٌ : شَيْبٌ ، وَقَالَ آخَرُ :
فَلَانٌ ، قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : بَلْ رَجُلٌ جَمَعَ بَيْنَ سَكِينَةَ بِنْتِ الْحُسَيْنِ ، وَعَائِشَةَ بِنْتِ طَلْحَةَ ، وَأَمَةَ الْحَمِيدِ بِنْتِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ
عَامِرِ بْنِ كَرِيزٍ ، وَقِلَابَةَ ابْنَةِ رِيَّانِ بْنِ أُنَيْفِ الْكَلْبِيِّ ، وَعُرْضَ عَلَيْهِ الْأَمَانُ ، وَوَلَايَةُ (الْعِرَاقَيْنِ) مَا دَامَ حَيًّا ، وَمَا فِي
بَيْتِ الْمَالِ كُلِّهِ فَأَبَى ، وَمَشَى بِسَيْفِهِ إِلَى الْمَوْتِ ، حَتَّى قَتِلَ ، ذَلِكَ مِصْعَبُ بْنُ الزَّبِيرِ ، لَا مَنْ قَطَعَ الْجَسورَ مَرَّةً إِلَى
هُنَا ، وَأُخْرَى إِلَى هُنَاكَ .

[من الوافر]

ولمّا وُضِعَ رَأْسُهُ بَيْنَ يَدَيْهِ . . أَنشَدَ [كما في « تاريخ بغداد » ١٣ / ١٠٧] :

لَقَدْ أَرَدَى الْقَوَارِسُ يَوْمَ حِسِّي غَلَامًا غَيْرَ مَنَّا عِ الْمَتَاعِ^(٣)

(١) الطَّفُّ : موضع قرب (الكوفة) ، فيه قتل سيدنا الحسين رضي الله عنه .

(٢) في وقعة (دير الجالينق) .

(٣) حِسِّي : اسم موضع .

وَلَا فَرِحَ بِخَيْرٍ إِنْ أَتَاهُ وَلَا هَلِيعَ مِنَ الْخَدَثَانِ لَآعٍ^(١)
وَلَا وَقَافَةَ وَالْخَيْلُ تُزْدِي وَلَا خَالَ كَأُبُوبِ الْيَرَاعِ^(٢)

[بالهاشميين الأبطال تشجع أنفسها]

وحسبك بالهاشميين ذكراً وشرفاً وفخراً.. أَنَّ الأبطال تشجعُ بهم نفوسها ، وتذكُرُ أحوالهم ؛ لتفرحَ بهم بؤسها ،
ومما يستدرُّ إعجابي ، ويمتليءُ به إهابي ، قولُ أبي عبادة [في « ديوانه » ١٩٥٢/٣] :

وَمِنْ إِزْنِكُمْ أَعْطَتْ صَفِيَّةٌ مُضْعَباً جَمِيلَ الْأَسَى لَمَّا اسْتُحِلَّتْ مَحَارِمُهُ
وَتُكَلُّ أَيْنَهُ مُوفٍ عَلَى تُكْلِ نَفْسِهِ فَمَا كَانَ إِلَّا صَبْرُهُ وَعَزَائِمُهُ
وَعُرْوَةٌ إِذْ لَا رَجُلُهُ انصَرَفَتْ بِهِ وَقَدْ خَرِمَتْهُ فِي بَيْنِهِ خَوَارِمُهُ^(٣)
بَكَى أَقْرَبُوهُ شَجْوَهُ وَهُوَ ضَاحِكٌ يُعَزِّيهِمْ حَتَّى تَحْيَرَ لِأَيْمُهُ

وللهِ درّه في قوله [في « ديوانه » ١٩٤٢/٣] :

دَعَاهَا الرَّدَى بَعْدَ الرَّدَى فَتَتَابَعَتْ تَتَابَعُ مُنْبَتُّ الْفَرِيدِ الْمُنْتَظَمِ^(٤)

وهو مثل قول كثيرِ ابنِ أبي وداعة [في « أخبار مكة » ٦٠/٤] :

أَهْلُ بَيْتٍ تَتَابَعُوا لِلْمَنَائِيَا مَا عَلَى الْمَوْتِ بَعْدَهُمْ مِنْ عِتَابِ

[صور من شجاعة الشجمان على مر الزمان]

وكان أنسُ بنُ النضرِ مِمَّنْ وَفَى لَهِ ، فلقد أخرج « البخاري » (٢٨٠٥) في (الجهاد) أنه : ثبت في يومِ أُحدٍ حَتَّى اسْتُشْهِدَ ،
وأصابه يومئذٍ بضعٌ وستون - ما بين طعنةٍ برمحٍ وضريةٍ بسيفٍ - ولم يعرفه إِلَّا أختهُ بَيْنَانَهُ .

ويعجبني قولُ بعضهم - وأظنني قد سقتهُ فيما سبقَ مِنَ الْمَجَالِسِ - :

يَلْقَى الشُّيُوفَ بِوَجْهِهِ وَبِنَحْرِهِ وَيُقِيمُ هَامَتَهُ مَقَامَ الْمِغْفَرِ
وَيَقُولُ لِلطَّرْفِ : اصْطَبِرْ لِسَبَا الْقَنَا فَعَقَرْتَ رُكْنَ الْمَعْجِدِ إِنْ لَمْ تُعْقِرِ
وَإِذَا تَأَمَّلَ شَخْصَ ضَيْفٍ مُقْبِلِ مُتَسَرِّبِ لِأَنْوَابِ عَيْشِ مُقْفَرِ
أَوْ مَا إِلَى الْكُدْمَاءِ هَذَا طَارِقُ نَحَرْتِنِي الْأَعْدَاءُ إِنْ لَمْ أَنْحَرِ^(٥)

وذكرتُ به أَنَّ عتبةَ بنَ ربيعةَ التَّمَسَ يومَ بدرٍ بيضةً يدخلها في رأسِهِ ، فلم يوجد في الجيـشِ - مع كثيرته - بيضةٌ تسعُ
هامتهُ من كبرها ، فأقامَ هامتهُ مقامَ المِغْفَرِ ، واعتَجَرَ^(٦) ببردٍ له على رأسِهِ ، وخرجَ إلى ميدانِ المبارزةِ .

(١) لآع : متوجع .

(٢) الوقافة : المحجم عن القتال . واليراع : مفردها يراعة ، وهي القصة التي يكتب بها قبل القلم .

(٣) خوارمه : خوارم الدهر مصائبه .

(٤) المنبتُّ : المقطوع . الفريدُ المنظمُ : العقدُ .

(٥) الكدماؤُ : النعجةُ كثيرةُ اللحم .

(٦) اعتَجَرَ : لفَّ العمامةَ على رأسِهِ .

ويعجبني قولُ الشَّريفِ الرَّضِيِّ فيما يتعلَّقُ بمصعبِ بنِ الزُّبيرِ [في «ديوانه» ٨٥٧/٢] : [مِنَ الطَّوِيلِ]

وَقَدْ حَلَقْتُ خَوْفَ الْهَوَانِ بِمُصْعَبٍ قَوَادِمُ آبَاءِ كِرَامِ الْمَقَادِمِ^(١)
عَلَى حِينَ أَعْطَوْهُ الْأَمَانَ فَعَافَهُ وَخَيْرَ فَاخْتَارَ الرَّدَى غَيْرَ نَادِمٍ

وقال يزيدُ بنُ المهلَّبِ يذمُّ بعضَ الهاربيينَ : هَبُوهُ غُلَبَ عَلَى الْمَلِكِ ، فَمَنْ غَلَبَهُ عَلَى الْمَوْتِ ؟ فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْعَقْرِ ،
وامتري الناسُ في قتله . . قَالَ مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ : مَا كَانَ وَاللَّهِ لِيَفِرَّ يَزِيدُ ، فَالْتَمَسُوهُ فِي الْقَتْلِ ، وَمَا كَادُوا
يعرفونه إِلاَّ بعدَ لأبي ما مِنْ كَثْرَةِ مَا أَصَابَهُ .

ولمَّا قِيلَ لَهُ : هَلَّا تَبَنَيْ لَكَ قَصْرًا . . قَالَ : هُوَ مَبْنِيٌّ ، قَالُوا : أَيُّنُهُ ؟ قَالَ : إِمَّا دَارُ الْإِمَارَةِ ، وَإِمَّا السَّجْنُ ، وَإِمَّا
القَبْرُ .

فأخذهُ أبو فراسٍ الحمدانيُّ في قوله [في «ديوانه» ١٤٥] :

وَإِنَّا أَنْاسٌ لَا تَوَسُّطَ عِنْدَنَا لَنَا الصَّدْرُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ أَوْ الْقَبْرِ

ويعجبني فيه قولُ الرَّضِيِّ [في «ديوانه» ٨٥٧/٢] :

وَهَذَا يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ نَافَرَتْ بِهِ الدُّلُّ أَعْرَاقُ الْجُدُودِ الْأَكَارِمِ
فَقَالَ وَقَدْ عَنَّ الْفِرَارُ أَوْ الرَّدَى لَحَا اللَّهُ أَحْزَى ذُكْرَةَ فِي الْمَوَاسِمِ
وَمَا غَمَرَاتُ الْمَوْتِ إِلاَّ انْغِمَاسَةٌ وَلَا ذِي الْمَنَايَا غَيْرُ تَهْوِيمِ نَائِمِ
رَأَى أَنَّ ضَرْبَ السِّيفِ أَهْوَنُ مَحْمَلًا مِنْ الْعَارِ يَبْقَى وَسَمُهُ فِي الْمَخَاطِمِ^(٢)
فَعَافَ الدَّنَايَا وَامْتَطَى الْمَوْتَ شَامِخًا بِمَارِنٍ عِزًّا لَا يَذِلُّ لِحَاطِمِ^(٣)

ولله قولٌ بعضهم :

وَلَا بُدَّ أَنْ أَسْعَى لِأَشْرَفِ رُتْبَةٍ وَأَمْنَعِ عَيْنِي عَنْ لَذِيذِ مَنَامِي
وَأَقْتَحِمَ الْأَمْرَ الْجَسِيمَ بِحَيْثُ أَنْ أَرَى الْمَوْتَ خَلْفِي تَارَةً وَأَمَامِي
فِيمَا مَقَامًا يَضْرِبُ الْمَجْدُ وَسَطَهُ سُرَادِقُهُ أَوْ بَاكِيًا لِحِمَامِ
وَإِنْ أَنَا لَمْ أَبْلُغْ مَقَامًا أَرْوَمُهُ فَكَمْ حَسْرَاتٍ فِي نَفْسِ كِرَامِ

وقولُ أبي عُبَادَةَ [في «ديوانه» ٧٤٥/٢] :

سَأَحْمِلُ نَفْسِي عِنْدَ كُلِّ مُلَمَّةٍ عَلَى مِثْلِ حَدِّ السِّيفِ أَخْلَصَهُ الْهِنْدُ
فَإِنْ عِشْتُ مَحْمُودًا فَمِثْلِي بَعَى الْغِنَى لِيَكْسِبَ مَالًا أَوْ يَنْتَ لَهُ حَمْدُ^(٤)
وَإِنْ مِتُّ لَمْ أَظْفِرْ فَلَيْسَ عَلَى امْرِئٍ غَدًا طَالِبًا إِلاَّ تَقْصِيهِ وَالْجُهْدُ

(١) المقادِم : جمعُ مَقْدَمٍ ، وهو مصدرُ (قَدِمَ) .

(٢) المَخَاطِمُ : الأنوفُ .

(٣) المَارِنُ : ما لَانَ مِنَ الْأَنْفِ . الخاطِمُ : القَائِدُ .

(٤) النُّتُ : نشرُ الحديثِ .

[هدبة بن خشرم يستمهل السجان ليم لعبته ثم يساق إلى القتل وسبب حبسه وقتله]

وقد سبق في غير هَذَا المجلس ذكرُ هَدْبَةَ بْنِ الْخَشْرَمِ ، وَأَنَّهُ قَالَ لِلسَّجَانِ - لَمَّا جَاءَ يُؤْذِنُهُ بِعِزْمِهِمْ عَلَى قَتْلِهِ - : رويدَكَ حَتَّى أْتَمَّ لُعبَتِي ، وَكَانَ يلعبُ الشطرنجَ ، فما انزعَجَ ، وَلَا اندهَشَ ، وَلَا تَغَيَّرَ .

وَكَانَ مِنْ حَدِيثِهِ : أَنَّهُ قَتَلَ زِيَادَةَ بْنَ زَيْدِ الْعَدْرِيِّ ؛ لِأَنَّهُ سَبَّ بِأَخْتِهِ فَاطِمَةَ ، وَقَالَ :

[مِنَ الرَّجْلِ]

عُوجِي عَلَيْنَا وَارْبِعِي يَا فَاطِمَا أَمَا تَرَيْنَ الدَّمْعَ مِنِّي سَاجِمَا

فُرِعَ إِلَى سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ ، وَكَانَ أَمِيرَ (الْمَدِينَةِ) ، وَكَانَ الَّذِي رَفَعَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ أَخُو زِيَادَةَ ، فَكِرَهُ الْحُكْمَ فِي الْقَضِيَّةِ سَعِيدٌ ، وَأَرْسَلَهُمَا إِلَى معاويةَ ، فَلَمَّا صَارَا بَيْنَ يَدَيْهِ . . قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَشْكُو إِلَيْكَ مَظْلَمَتِي ، وَقَتَلَ أَخِي ، فَقَالَ معاويةُ : قُلْ يَا هَدْبَةُ ، قَالَ : إِنْ شِئْتَ أَنْ أَقْصَرَ عَلَيْكَ كَلَامًا ، أَوْ شعراً ؟ قَالَ : لَا ، بَلْ شعراً ، فَقَالَ [في «ديوانه» ٩٥-٩٧] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

أَلَا يَا لِقَوْمِي لِلنَّوَابِ وَالذَّهْرِ وَلِلأَرْضِ كَمِ مِنْ صَالِحٍ قَدْ تَلَاءَمَتْ
وَلَلْمَرْءِ يُرْدِي نَفْسَهُ وَهُوَ لَا يَذْرِي فَلَا ذَا جَلَالٍ هِبْنَهُ لِجَلَالِهِ
عَلَيْهِ وَوَارَتْهُ بِلَمَّاعَةٍ قَفْرٍ وَلَا ذَا ضِيَاعٍ هُنَّ يُتْرَكْنَ لِلْفَقْرِ^(١)

[مِنَ الطَّوِيلِ]

إِلَى أَنْ قَالَ [في «ديوانه» ٩٧-٩٨] :

فَلَمَّا رَأَيْتُ أَنَّمَا هِيَ ضَرْبَةٌ مِمَّنْ رَأَيْتُ لَأَمْرٍ لَا يُعَيَّرُ وَالِإِدِي
مِنَ السَّيْفِ أَوْ إِغْصَاءِ عَيْنٍ وَعَلَى وَتِرِ رُمِينَا فَرَامِينَا فَصَادَفَ سَهْمُنَا
خِرَايَتُهُ حَيًّا وَلَا وَهُوَ فِي الْقَبْرِ وَأَنْتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا لَنَا
مَيَّةَ نَفْسٍ فِي كِتَابٍ عَلَى قَدْرِ فَإِنْ تَكُ فِي أَمْوَالِنَا لَمْ تَصِقْ بِهَا
وَرَاءَكَ مِنْ مَعْدٍ وَلَا عَنْكَ مِنْ قَصْرِ^(٢) ذِرَاعًا وَإِنْ صَبْرٌ فَصَبْرٌ لِلصَّبْرِ

فَقَالَ لَهُ معاويةُ : أَرَأَيْكَ قَدْ أَقْرَزْتَ يَا هَدْبَةُ ، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ : أَقْدُنِي ، فَكِرَهُ ذَلِكَ معاويةَ ، وَضَنَّ بِهِدْبَةَ عَنِ الْقَتْلِ ، وَقَالَ : أَلزِيَادَةَ وَوَلَدًا ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : أَصَغِيرٌ أَمْ كَبِيرٌ ؟ قَالَ : بَلْ صَغِيرٌ ، قَالَ : يَحْبَسُ هَدْبَةَ إِلَى أَنْ يَبْلُغَ ابْنُ زِيَادَةَ ، فَأَرْسَلَهُ إِلَى (الْمَدِينَةِ) . . فَحُبِسَ بِهَا سَبْعَ سِنِينَ ، فَلَمَّا بَلَغَ ابْنُ زِيَادَةَ . . عُرِضَ عَلَيْهِ عَشْرُ دِيَّاتٍ ، فَكَادَ أَنْ يَرْضَى ، فَقَالَتْ أُمُّهُ : أَعْطِيَ اللَّهُ عَهْدًا ، لِيُنْ لَمْ تَقْتُلَهُ . . لِأَتَزَوَّجَهُ ، فَيَكُونُ قَدْ قَتَلَ أَبَاكَ ، وَنَكَحَ أُمَّكَ ، وَكَانَ مِمَّنْ عُرِضَ عَلَيْهِ الدِّيَّاتِ : الْحَسِينُ بْنُ عَلِيٍّ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ ، وَعَبِيدُ اللَّهِ بْنُ الْعَبَّاسِ ، وَسَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ ، وَمِرْوَانُ بْنُ الْحَكَمِ ، وَغَيْرُهُمْ ، وَلَمَّا ذُهِبَ بِهِ إِلَى (الْحِرَّةِ) لِيُقْتَلَ . . لَقِيَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ حَسَّانَ ، فَقَالَ لَهُ : أَنشُدْنِي ، فَقَالَ :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَلَسْتُ بِمُفْسِرٍ إِذَا الذَّهْرُ سَرَّرَنِي وَلَا جَازِعٍ مِنْ صَرَفِهِ الْمُتَقَلِّبِ
وَلَا أَتَمَّنِي الشَّرُّ وَالشَّرُّ تَارِكِي وَلَكِنْ مَتَى أَحْمَلُ عَلَى الشَّرِّ أَرْكَبِ

(١) الضياعُ : العيالُ ، وهو في الأصلِ : مصدرُ ضاع الشيءُ ، فسَمَّاهُ بِهِ .

(٢) مِنْ مَعْدٍ : مِنْ مُتَجَاوِزٍ إِلَى غَيْرِكَ .

وقال [الآبيات لأبي الطمحن القيني كما في «ديوان الحماسة» ٨٣/٢] :

[من الطويل]

أَلَا عَلَّانِي قَبْلَ نَوْحِ النَّوَائِحِ
وَقَبْلَ غَدِي يَا لَهْفِ نَفْسِي عَلَى غَدِي
وَإِذَا رَاحَ أَصْحَابِي وَلَسْتُ بِرَائِحِ
وَعُودِرْتُ فِي لَحْدِ ثَقِيلِ الصَّفَائِحِ
وَمَا الْقَبْرِ فِي الْأَرْضِ الْفَضَاءِ بِصَالِحِ

[من الطويل]

ونظر إلى امرأته وهي تبكي . . فقال :

أَقْلِي عَلَيَّ اللَّوْمَ يَا أُمَّ بَوَزَعَا
وَلَا تَنكِحِي إِنْ فَرَّقَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا
وَلَا تَجْزَعِي مِمَّا أَصَابَ فَأَوْجَعَا
أَعَمَّ الْقَفَا وَالرَّأْسَ لَيْسَ بِأَنْزَعَا^(١)

فسألت القوم أن يمهله، ثم أتت جزاراً، فأخذت منه مديّة، فجدعت أنفها، ثم أتته مجدوعة الأنف، وقالت : أهذا فعل من لها حاجة بالرجال ؟ قال : أمّا الآن . . فقد طاب الموت ، والتفت إلى أبيه وهما يبكيان ، فقال : [من الرمل]

أَبْلِيَانِي الْيَوْمَ صَبْرًا مِنْكُمْ
مَا أَظُنُّ الْمَوْتَ إِلَّا هَيْئًا
إِنَّ حُزْنَكَ مِنْكُمْ الْيَوْمَ لَشَرٌّ
إِنَّ بَعْدَ الْمَوْتِ دَارَ الْمُسْتَقَرِّ

[من الطويل]

ثم قال :

أَذَا الْعَرْشِ إِنِّي عَائِدٌ بِكَ مُؤْمِنٌ
وَإِنِّي وَإِنْ قَالُوا : أَمِيرٌ مُسَلِّطٌ
لَأَعْلَمُ أَنَّ الْأَمْرَ أَمْرُكَ إِنْ تُدِنُ
مُقِرٌّ بِزَلَاتِي إِلَيْكَ فَفَقِيرٌ
وَحَجَّابُ أَبْوَابٍ لَهْنٌ صَرِيرٌ^(٢)
فَعَدْلٌ وَإِنْ تَغْفِرَ فَأَنْتَ غَفُورٌ

[من الطويل]

ثم التفت إلى ابن زيادة وقال :

فإِنْ تَقْتُلُونِي فِي الْحَدِيدِ فَإِنِّي
قَتَلْتُ أَبَاكُمْ مُطْلَقًا لَمْ يُقَيِّدِ

ثم ضربت عنقه ، وكان أرسل إلى أم سلمة - زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم - أن تستغفر له ، فلما قتل . . استغفرت له .

وكانت دزع علي بن أبي طالب صدرًا لا ظهر لها ، فقيل له : أمّا تخاف أن تؤتى من قبل ظهرك ؟ قال : إذا أمكنت عدوي من ظهري . . فلا أبقى الله علي ، فهو الأحق ، بقول الحصين بن الحمام [في «ديوان الحماسة» ١/٦١] : [من الطويل]

وَلَسْنَا عَلَى الْأَعْقَابِ تَدْمِي كُلُّومَنَا
وَلَكِنْ عَلَى أَقْدَامِنَا تَقْطُرُ الدَّمَا

[من البسيط]

وقال البحتري أو البيضا [البيضا في «قرى الضيف» ٣٢٧/١] :

يَلْقَى الرَّمَاحَ بِصَدْرٍ مِنْهُ لَيْسَ لَهُ
ظَهْرٌ وَهَادِي جَوَادٍ مَا لَهُ كَفَلُ

(١) أَعَمَّ الْقَفَا - من الغم - : وهو سيلان الشعر للجهة . الأترج : هو الذي انحسر شعره عن جانبي وجهه وموضعه .

(٢) الصَّرِيرُ : صوت الباب ، وهو كناية عن البخل ؛ لأن الباب الذي لا يفتح إلا بين الحين والآخر يكون له هذا الصرير ، أمّا الكريم . . فلا صوت لبابه .

وقال العلوي :

[مِن الطَّوِيلِ]

مُحَرَّمَةٌ أَكْفَالُ خَيْلِي عَلَى الْقَنَا وَتَنَدَّقُ مِنْهُ فِي الصُّدُورِ صُدُورَهَا

[مِن الطَّوِيلِ]

وأخذه الناظم فقال [في «المكبري» ٢٧١/١] :

مُحَرَّمَةٌ أَكْفَالُ خَيْلِي عَلَى الْقَنَا مُحَلَّلَةٌ لَبَاتُهَا وَالْقَلَائِدُ

[مِن الطَّوِيلِ]

وقال [في «المكبري» ١٥٣/١] :

رَمَوْا بِنَوَاصِيهَا الْقِسِيَّ فَجِئْتَهَا دَوَامِي الْهُوَادِي سَالِمَاتِ الْجَوَانِبِ^(١)

[جحدر بن مالك وأسد الحجاج ورياطة جأشه]

وذكر ابن كثير في «البدية والنهاية» ١٢٥/٩ [أنه] : كَانَ جَحْدَرُ بْنُ مَالِكٍ فَتَاكًا شَجَاعًا ، فَأَغَارَ عَلَى أَهْلِ (حَجْرٍ) وَنَاحِيَّتِهَا ، فَبَلَغَ ذَلِكَ الْحَجَّاجَ ، فَكَتَبَ إِلَى عَامِلِهِ بِالْيِمَامَةِ يُوَبِّحُهُ بِتِلَاعِبِ جَحْدَرٍ عَلَيْهِ ، وَيَأْمُرُهُ بِالاجْتِهَادِ فِي طَلْبِهِ ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِ الْكِتَابُ . . . أَرْسَلَ إِلَى فِتْيَةٍ مِنْ بَنِي يَرْبُوعَ ، وَجَعَلَ لَهُمْ جُعْلًا عَظِيمًا . . . إِنْ هُمْ قَدَرُوا عَلَيْهِ ، فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ يُظْهِرُونَ أَنَّهُمْ خَارِجُونَ لِاحْتِقَانِ بِهِ ، فَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِمْ ، وَوَثِقَ بِهِمْ ، فَلَمَّا أَصَابُوا مِنْهُ غِرَّةً . . . شَدُّوه كِتَافًا ، وَقَدِمُوا بِهِ عَلَى الْعَامِلِ ، فَوَجَّهَ بِهِ مَعَهُمْ إِلَى الْحَجَّاجِ ، فَلَمَّا أُدْخِلَ عَلَيْهِ . . . قَالَ لَهُ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : جَحْدَرُ بْنُ مَالِكٍ ، قَالَ : مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ ؟ قَالَ : جَفَاءُ السُّلْطَانِ ، وَجِرَاءُ الْجَنَانِ ، وَكَلْبُ الزَّمَانِ ، قَالَ : وَمَا بَلَغَ مِنْ جِرَاتِكَ ؟ قَالَ : لَوْ بَلَانِي الْأَمِيرُ . . . لَوَجَدَنِي مِنْ صَالِحِي الْأَعْوَانِ ، قَالَ لَهُ : فَإِنَّا قَازِفُونَ بِكَ فِي حَائِرٍ فِيهِ أَسَدٌ ضَارٍ عَاقِرٌ ، فَإِنْ هُوَ قَتَلَكَ . . . فَقَدْ كَفَانَا مَوْؤُنَتَكَ ، وَإِنْ أَنْتَ قَتَلْتَهُ . . . خَلَيْنَا سَبِيلَكَ ، قَالَ : لَقَدْ عَظَمْتَ الْمَنَّةَ ، وَقَوِيْتَ الْمَحْنَةَ ، وَأَرْسَلَ وَهُوَ فِي مَحْنَتِهِ إِلَى (الْيَمَنِ) بِقَصِيدَتِهِ النُونِيَّةِ المشهورة ، التي يقول فيها - كما سبق - :

[مِن الْوَافِرِ]

أَلَيْسَ اللَّيْلُ يَجْمَعُ أُمَّ عَمْرٍو وَإِنَّا فَذَاكَ لَنَّا تَدَانِي

ثُمَّ إِنَّ الْحَجَّاجَ أَجَاعَ الْأَسَدَ أَيَّامًا ، وَأَرْسَلَ إِلَى جَحْدَرٍ ، فَأَتَيْتُ بِهِ مِنَ السَّجْنِ ، وَيَدُهُ الْيَمْنَى مَغْلُولَةٌ إِلَى عُنُقِهِ ، وَأَعْطَيْتُ سَيْفًا ، وَقُدِفَ بِهِ إِلَى حَائِرِ الْأَسَدِ^(٢) ، وَالْحَجَّاجُ وَجَلَسَاؤُهُ فِي مَنْظَرَةٍ لَهُمْ تَشْرَفُ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا نَظَرَ جَحْدَرٌ إِلَى الْأَسَدِ . . . قَالَ :

[مِن الرَّجَزِ]

لَيْتُ وَلَيْتُ فِي مَجَالِ ضَنْكِ كِلَاهُمَا ذُو شِدَّةٍ وَمَحْكِ^(٣)
وَقُوَّةٍ فِي نَفْسِهِ وَفَتْكِ إِنَّ يَكْشِفُ اللَّهُ قِنَاعَ الشَّاكِّ

فَهُوَ أَحَقُّ مَنْزِلٍ بِتَرْكِ

فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيْهِ الْأَسَدُ . . . زَارَ زَارَةً شَدِيدَةً ، وَتَمَطَّى ، وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ حَتَّى صَارَ عَلَى قَيْدِ الرُّمْحِ ، فَوَثَبَ وَثَبَةً هَائِلَةً ، تَلَقَّاهَا جَحْدَرٌ بِالسَّيْفِ ، فَضْرِبُهُ حَتَّى خَالَطَ ذُبَابُ السَّيْفِ لَهَوَاتِهِ ، فَخَرَّ الْأَسَدُ كَأَنَّهُ فُسْطَاطٌ تَرَدَّى بِالرِّيحِ ، وَسَقَطَ جَحْدَرٌ عَلَى

(١) القسي : جمع قوس . الهوادئ : الأعناق . النواصي : جمع ناصية ، وهو مقدم شعر الرأس ، ونواصي الناس : أشرافهم .

(٢) الحائر : الحوض الذي يُسبَّبُ إِلَيْهِ مَسِيلُ الْمَاءِ .

(٣) المحك : التماذي في اللجاجة عند المساومة والغضب .

فناه من شدّة وثبة الأسد ، وثقل الكُبول ، فكبر الحجاج والناسُ أجمعون ، وأطلق جحدراً ، وأحسن جائزته ، وخلق سبيله .

وقيل : إنه اصطفاه ، وجعله من سُمّاره ، ثم لم يلبث أن ولّاه (اليمامة) .

ونظر بعضهم إلى المهلب بن أبي صفرة ركباً في أبنائه ، وكلّهم فارسٌ ، فقال : آسن الله الإسلام بتلاحقكم ، أشهد بالله لئن لم يكن هؤلاء أسباط نبوة . . فإنهم أسباط حرب ، ومات المهلب بعد تعرّضه للحتوف على فراشه ، وكذلك كانت وفاة ابنه المغيرة ، وهو الذي يقول فيه زياد الأعجم [في «ديوانه» ٨٩] :

مَاتَ الْمُغِيرَةُ بَعْدَ طُولِ تَعَرُّضٍ لِلْقَتْلِ بَيْنَ أَسِنَّةٍ وَصَفَائِحِ

وأما يزيد . . فقد سبق أنه قتل ، وكان قتله في جماعة من أهله يوم العقر ؟ ولهذا كان يقال [كما في «فيات الأعيان» ٣٠٨/١] : ضحى بنو أمية بالدين يوم كربلاء ، وبالشجاعة يوم العقر ، وقتل تسعة منهم في واقعة قنديل ، وقتل بائهم صبراً ب (الشام) ، وما أحسن ما قاله كعب الأشقر في المهلب وبنيه [كما في «الأغاني» ٢٧٨/١٤] : [من الوافر]

بَرَكَ اللهُ حِينَ بَرَكَ بَخْرًا
بُؤُوكَ السَّابِقُونَ إِلَى الْمَعَالِي
كَأَنَّهُمْ نُجُومٌ حَوْلَ بَدْرِ
مُلُوكٌ يَنْزِلُونَ بِكُلِّ ثَغْرِ
رِزَانٍ فِي الْخُطُوبِ تَرَى عَلَيْهِمُ
نُجُومٌ يُهْتَدَى بِهِمْ إِذَا مَا
وَفَجَّرَ مِنْكَ أَنْهَارًا غِزَارًا
إِذَا مَا أَعْظَمَ النَّاسُ الْخُطَارًا
تَكَمَّلَ إِذْ تَكَمَّلَ فَاسْتَدَارًا
إِذَا مَا الْهَامَ يَوْمَ الرَّوْعِ طَارًا
مِنَ الشَّيْخِ الشَّمَائِلِ وَالْوَقَارَا
أَخُو الْغَمْرَاتِ فِي الظُّلْمَاتِ حَارَا

ونظر عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس [كما في «الأغاني» ٣٣٨/٤] : إلى فتى عليه أبهة الشرف ، يحارب مستقلاً ، فناداه : يا فتى ، لك الأمان ولو كنت مروان بن محمد ، فقال : إلا أكنه . . فليست بدونه ، فقال له : لك الأمان كائناً من كنت ، فأطرق ثم أنشد :

أَذُلُّ الْحَيَاةِ وَكُرْهُ الْمَمَاتِ ؟
وَإِنْ لَمْ يَكُنْ غَيْرُ إِحْدَاهُمَا
وَكُلًّا أَرَاهُ طَعَامًا وَيِيلاً^(١)
فَسَيْرًا إِلَى الْمَوْتِ سَيْرًا جَمِيلاً

ثم لم يزل يقاتل حتى قتل ، فإذا هو ابن مسلمة بن عبد الملك .

[متى يكون الإقدام نافعاً ؟]

ثم إن الإقدام ليس بمحمود إلا حيث كان نافعاً ، وإلا كان من التهور المذموم ، وقد سبق رأي معاوية حينما سأله ابن العاص عن حاله في قوله [في «ديوانه» ١٣٧] :

شَجَاعٌ إِذَا مَا أَمَكَّنْتَنِي فُرْصَةً
فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لِي فُرْصَةً فَجَبَانٌ

وقال بعضهم : جسم الحرب الشجاعة ، وقلبها التدبير ، ولسانها المكيدة ، وجناحها الانقياد للقائد ، ورائدها الرفق ، وسائقها النصر .

(١) وييل : ثقيل وخم .

الرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ الشُّجْعَانِ هُوَ أَوْلُّ وَهِيَ الْمَحَلُّ الثَّانِي
فَإِذَا هُمَا اجْتَمَعَا لِنَفْسٍ مَرَّةً بَلَغَتْ مِنَ الْعَلِيَاءِ كُلَّ مَكَانٍ
وَلَرُبَّمَا طَعَنَ الْفَتَى أَقْرَانَهُ بِالرَّأْيِ قَبْلَ تَطَاعَنِ الْأَقْرَانِ
لَوْلَا الْعُقُولُ لَكَانَ أَدْنَى ضَيْغَمٍ أَدْنَى إِلَى شَرْفٍ مِنَ الْإِنْسَانِ^(١)
وَلَمَّا تَفَاضَلَتِ النَّفُوسُ وَدَبَّرَتْ أَيَدِي الْكُمَاةِ عَوَالِي الْمُرَانِ^(٢)

وقد مرَّ في المجلس السادس بعض ما يناسب البيت الذي نتكلَّم فيه ، ممَّا تماذَّح به العربُ من المَوْتِ تحتَ بارقةِ
السيوفِ ، وذلك في الكلام على قوله [في «العكبري» ٤/ ٣٤] :

وَإِنْ لَا تَمُتْ تَحْتَ السُّيُوفِ مُكْرَمًا تَمُتْ وَتَقَاسِي الدُّلَّ غَيْرَ مُكْرَمٍ

* * *

قال أبو الطَّيِّبِ المُنَبِّيُّ في «العكبري» ١/ ٣٢٢ :

فَاطْلُبِ الْعِزَّ فِي لَظْيٍ وَدَعِ الدُّ لَّ وَلَوْ كَانَ فِي جِنَانِ الْخُلُودِ

[شرح المطلع]

(لَظْيٌ) : من أسماء جهنم ، نسأل الله منها السلامة ، والبيت من قول عنترة [في «ديوانه» ١٧٨] :

مَاءَ الْحَيَاةِ بِذَلِكَ كَجَهَنَّمَ وَجَهَنَّمَ بِالْعِزِّ أَطْيَبُ مَنْزِلٍ

[لا يجوز تحقير ما عظم الله]

وفيه تصغيرٌ لما عظم الله من أمرها ، فقد قال جلُّ شأنه : ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان : ٦٥] ، وقال : ﴿لَهُمْ مِنْ
جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف : ٤١] .

ويعجبني قول ابن حجر الهيثمي في «زواجره» : ولما بعد عن العلم أقوامٌ . . لاحظوا أعمالهم ، واتفق لبعضهم من
الألطف ما يشبه الكرامات ، فانبسطوا في الدعاوى ، وخالفوا سيرة السلف في الابتعاد عنها ، حتَّى نُقِلَ عَنْ بَعْضِهِمْ
أَنَّهُ قَالَ : وَدِدْتُ أَنْ الْقِيَامَةَ قَدْ قَامَتْ ؛ حَتَّى أَنْصِبَ خِيَمَتِي عَلَى جَهَنَّمَ ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : وَلِمَ ذَلِكَ ؟ قَالَ : إِنِّي أَعْلَمُ
أَنَّ جَهَنَّمَ إِذَا رَأْتَنِي تَخْمُدُ ، فَأَكُونُ رَحْمَةً لِلْخَلْقِ ، وَهَذَا مِنْ أَقْبَحِ الْكَلَامِ وَأَفْحَشِهِ ؛ لِأَنَّهُ يَتَضَمَّنُ تَحْقِيرَ مَا عَظَّمَ اللَّهُ
شَأْنَهُ مِنْ أَمْرِ النَّارِ ، فَإِنَّهُ تَعَالَى بِالْبَعْغِ فِي وَصْفِهَا فَقَالَ : ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة : ٢٤] وقال :
﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان : ١٢] .

وفي الحديث الصحيح عند مسلم [٢٨٤٣] وغيره [الترمذي (٢٥٨٩) بلفظ : «جزء واحد»] : «نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي تُوقِدُونَ ،

(١) الضيغُم : السبع .

(٢) المران : الفنا اللينة .

جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ جَهَنَّمَ» قَالُوا : وَاللَّهِ إِنْ كَانَتْ نَارُنَا لِكَافِيَةٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : « فَإِنَّهَا فَضُلْتُ عَلَيْهَا بِتِسْعَةِ وَسْتَيْنَ جُزْءًا ، كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا » .

وفي « الصحيح » [عند « مسلم » ٢٨٤٢] أيضاً : « يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا » .

ثُمَّ إِنَّ مَا جَاءَ عَنِ النَّاطِمِ ، وَعَنْ عنترة العسبي في بَيِّنَتَيْهِمَا - كما قد أشرنا إليه قُبَيْلَ الكلام - عَلَى قَوْلِهِ [في « المُكَبَّرِي »] : [٣٤/٤]

فَثِبَ - وَاثِقاً بِاللَّهِ - وَثِبَةً مَاجِدٍ يَرَى الْمَوْتَ فِي الْهَيْجَا جَنَى النَّحْلِ فِي الْفَمِّ

.. كلامٌ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ مِنَ الْإِسْلَامِ سِرَّهُ ، وَإِلَّا .. فَإِنَّهُ لَا عِزَّ إِلَّا فِيهِ ، وَلَا شَرَفَ إِلَّا بِهِ ، فَهُوَ سَنَامُ الْمَجْدِ ، وَمِعْرَاجُ السُّعْدِ ، وَقَدْ قَالَ عَمْرٌ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لِلْعَرَبِ : أَلَمْ تَكُونُوا أَذَلَّ النَّاسِ ، وَأَحْقَرَ النَّاسِ ، وَأَفْقَرَ النَّاسِ .. فَأَعَزُّكُمْ اللَّهُ ، وَرَفَعَكُمْ ، وَأَغْنَانُكُمْ بِالْإِسْلَامِ ؟ فَإِذَا طَلَبْتُمْ ذَلِكَ بغيرِهِ .. دَلَلْتُمْ ، وَهُوَ مِنْ قَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ الْإِنْسَانُ فَأَوْسُكُمْ وَأَيْدِيكُمْ بَصَرُهُ - وَرَدَّكُمْ مِنَ الطَّيِّبَتِ لَمَّا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٦] ، وَمَنْهُ تَعْرِفُ أَنَّ النَّاطِمَ لَا يَعِشُقُ إِلَّا مَظَاهِرَ الزَّيْنَةِ الْكَادِبَةِ ، وَلَا يَرِغِبُ إِلَّا فِي عِزِّ الْبَاطِلِ الْمَمُوءِ .

[المجد المموء المزعوم]

نظيرَ ذَلِكَ الْمَغْرُورِ الَّذِي سَمِعَ وَاعظاً يَقُولُ : مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ مُتَعَمِّدًا .. كَانَ فِي النَّارِ مَعَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَأَبِي بَنِي خَلْفٍ ، فَقَالَ : وَمَنْ لَنَا بِمَجَالِسَةِ هَؤُلَاءِ الْمُلُوكِ ، وَمَجَاوِرَتِهِمْ فِي دَارٍ وَاحِدَةٍ .

وَيُحْكِي [في « الأغاني » ٢٦٧/١١] : أَنَّ بَعْضَ الْمَجُوسِ أَعَانَ الْأَقْيِشِرَّ - الشَّاعِرَ - عَلَى مَوْؤُونَةِ نِكَاحِهِ ، فَقَالَ [في « ديوانه »] : [١١٧-١١٦]

كَفَّانِي الْمَجُوسِيَّ مَهْرَ الرَّبَابِ فِدَاً لِلْمَجُوسِيَّ خَالَ وَعَمَّ
شَهَدْتُ عَلَيْكَ بِطَيْبِ الْأُرُومِ وَأَنْتَ كَ بَحْرٍ جَوَادٍ خَضَمَ
وَأَنْتَ سَيِّدُ أَهْلِ الْجَحِيمِ إِذَا مَا تَرَدَّيْتُ فِيمَنْ ظَلَمَ
تُجَاوِرُ هَامَانَ فِي قَعْرِهَا وَفِرْعَوْنَ وَالْمُكْتَنَى بِالْحَكَمِ

فَقَالَ لَهُ : مَنْعَكَ قَوْمُكَ ، وَأَعْطَيْتَكَ ، ثُمَّ تَجْعَلُنِي فِي الْجَحِيمِ ؟! قَالَ لَهُ : أَمَا تَرْضَى أَنْ جَعَلْتُكَ مِنْ أَصْحَابِ الْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ .

[لم ولن ولا يكون العز إلا في الإسلام والشواهد على ذلك]

فَالعِزُّ الَّذِي يَتَوَهَّمُهُ أَبُو الطَّيِّبِ .. لَيْسَ إِلَّا مِنْ جِنْسِ مَا دَعَا بِهِ الْأَقْيِشِرُّ لِلْمَجُوسِيَّ ، وَرَغِبَ فِيهِ الْمَائِقُ قَبْلَهُ ، وَإِلَّا فَالْعِزُّ كُلُّهُ لَيْسَ إِلَّا فِي الْإِسْلَامِ ، الَّذِي رَفَعَ السُّوقَةَ إِلَى الْمُلُوكِ ، وَقَاسَى الْغِنَى بِالصُّعْلُوكِ ، وَأَجْرَى كُلَّ إِنْسَانٍ فِي حَرِّيَّتِهِ بِإِلَاءِ رَسَنِهِ ، لَا يُشْرَطُ عَلَيْهِ إِلَّا تَسَمُّتُ الْأَنْظَمَةِ الْعَادِلَةِ ، وَمِرَاعَاةُ الْقَوَانِينِ الصَّالِحَةِ ، الَّتِي تَسَوِّغُ لِأَدْنَى النَّاسِ مَنْزِلَةَ أَنْ يَطْلُبَ حَقَّهُ مِنْ أَعْظَمِهِمْ قَدْرًا ، وَإِنَّ فِي خَبْرِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَعَ سَوَادِ بْنِ غَزِيَّةَ - يَوْمَ بَدْرٍ ^(١) - وَمَعَ عَكَّاشَةَ بْنِ

(١) وَكَانَ مِنْ خَبَرِ سَيِّدِنَا سَوَادِ بْنِ غَزِيَّةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - كَمَا رَوَاهُ ابْنُ هِشَامٍ (٢/٦٢٦) : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَدَلَ صَفُوفَ أَصْحَابِهِ يَوْمَ بَدْرٍ ، =

مُخَصَّنٍ قَبِيلَ مَوْتِهِ . . لَمَّا يَمْلَأُ الْأَنْوْفَ شَمَمًا ، وَيَأْخُذُ بِأَعْتَيْهَا إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ ؛ إِذْ يَجْعَلُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَلَكًا فِي نَفْسِهِ ، لَا سُلْطَانَ فَوْقَهُ إِلَّا لِلْعَدْلِ - يَحْرُسُهُ حُمَاتُهُ مِنْ خَدَامِ الْأُمَّةِ كَمَا قَرَّرْنَا - وَإِلَّا اللَّهُ الَّذِي لَا عَزَّ إِلَّا فِي الدُّلِّ لَهُ ، وَلَا غَنَى إِلَّا فِي الْفَقْرِ إِلَيْهِ .

[مِنَ الْكَامِلِ]

وَاللَّهُ دُرُّ الْقَائِلِ :

وَإِذَا الرَّجَالُ تَذَلَّلَتْ بِرِقَابِهَا طَمَعًا إِلَيْكَ فَعِزُّهَا فِي ذُلِّهَا

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَدُرُّ أَبِي عِبَادَةَ - لَوْ أَرَادَ رَبُّهُ - فِي قَوْلِهِ [فِي « دِيْوَانِهِ » ٢/ ٨٤٧] :

وَيُعْجِبُنِي فَقْرِي إِلَيْكَ وَلَمْ يَكُنْ لِيُعْجِبْنِي لَوْلَا مَحَبَّتُكَ الْفَقْرُ

[مِنَ الْبَسِيطِ]

وَقَوْلُ تَقِيِّ الدِّينِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ :

فَالْفَقْرُ لِي وَصَفُ ذَاتِ لَازِمٍ أَبَدًا كَمَا الْغِنَى لَكَ وَصَفُ لَازِمٍ ذَاتِي

وَيُرْوَى [كَمَا فِي « نَفْحِ الطَّيْبِ » ١/ ٢٤] : أَنَّ مِنْدَرَ بْنَ سَعِيدِ الْبَلُوطِيِّ - وَعَظَمَ (الْأَنْدَلُسِ) - قَامَ خَطِيبًا فِي النَّاسِ يَوْمَ الْإِسْتِسْقَاءِ ، وَقَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، وَأَخَذَ يَكْرُرُهَا ، حَتَّى ظَنَّ بَعْضُهُمْ أَنَّهُ أُرْتِجَ عَلَيْهِ ، وَمَا هِيَ لَهُ بِعَادَةٍ ؛ إِذْ قَلَّمَا قَامَ إِلَّا تَفَتَّحَ عَنْ نِجٍّ^(١) بَحْرِ زَاخِرٍ ، وَفِي الثَّلَاثَةِ أَوْ الرَّابِعَةِ قَالَ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [فَاطِر : ١٥-١٧] ، ثُمَّ أُنْدَفَعَ فِي مِضْمَارِهِ كَالْمَاءِ يَجْرِي فِي أَنْحَادِهِ ، فَلَا تَسْلُ عَمَّا سَالَ مِنَ الْعَبْرَاتِ ، وَارْتَفَعَ مِنَ الزَّفَرَاتِ ، وَحَرِيٌّ بِذَلِكَ ، وَالْمَلِكُ عَظِيمٌ ، وَالْمَالِكُ حَكِيمٌ ، وَالرَّجْعُ إِلَيْهِ لَازِمٌ ، وَهُوَ بِالْخَفِيَّاتِ عَالِمٌ .

وَمَا أَحْسَنَ مَا كَانَ يَدْعُو بِهِ أَبُو الْمَظْفَرِ السَّمْعَانِيُّ مِنْ قَوْلِهِ : اللَّهُمَّ اجْعَلْ قَلُوبَنَا خَزَائِنَ تَوْحِيدِكَ ، وَأَلْسِنَتَنَا مَفَاتِيحَ تَمَجِيدِكَ ، وَجَوَارِحَنَا خَدَمَ طَاعَتِكَ ، فَإِنَّهُ لَا عَزَّ إِلَّا فِي الدُّلِّ لَكَ ، وَلَا غَنَى إِلَّا فِي الْفَقْرِ إِلَيْكَ ، وَلَا أَمْنٌ إِلَّا فِي الْخَوْفِ مِنْكَ ، وَلَا قَرَارٌ إِلَّا فِي الْقَلْقِ نَحْوِكَ ، وَلَا رُوحٌ إِلَّا فِي النَّظْرِ إِلَى وَجْهِكَ ، وَلَا رَاحَةٌ إِلَّا فِي الرِّضَا بِقَسْمِكَ ، وَلَا عَيْشٌ إِلَّا فِي جَوَارِ الْمُقَرَّبِينَ عِنْدَكَ .

وَبِمُنَاسَبَةٍ مَا أَشْرْنَا إِلَيْهِ مِنْ عَزِّ التَّقْوَى ، وَارْتِفَاعِ التَّمَايُزِ بَيْنَ النَّاسِ إِلَّا بِهِ . . نَذَكُرُ قَوْلَ ابْنِ الْخَطَّابِ لِعَامِلِهِ بِ(مِصْرَ) :

مَتَى اسْتَعْبَدْتُمُ النَّاسَ ، وَقَدْ وَلَدْتُهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ أَحْرَارًا ؟

وَحَدِيثُهُ مَعَ جَبَلَةَ بِنِ الْأَيْهَمِ : فَقَدْ عَزَمَ أَنْ يُقَيِّدَ الْفَرَازِيَّ مِنْهُ فِي لَطْمَةٍ لَطْمُهُ إِيَّاهَا ، فَقَالَ : أَتَقِيْدُهُ مِنِّي ، وَأَنَا مَلِكٌ ، وَهُوَ سَوْقَةٌ ؟ قَالَ : قَدْ جَمَعَكَ وَإِيَّاهُ الْإِسْلَامُ ، فَمَا تَفْضَلُهُ إِلَّا بِالْعَافِيَةِ .

= وَفِي يَدِهِ سَهْمٌ يُعَدُّلُ بِهِ الْقَوْمَ ، فَمَرَّ بِسَوَادِ بْنِ غَزِيَّةَ - وَهُوَ مُتَقَدِّمٌ مِنَ الصَّفِّ - فَطَعَنَ فِي بَطْنِهِ بِالسَّهْمِ ، وَقَالَ : « اسْتَوِ يَا سَوَادُ » ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَوْجَعْتَنِي ، وَقَدْ بَعَثَكَ اللَّهُ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ . . فَأَقْدَنِي - دَعَنِي أَقْصَصُ مِنْكَ - فَكَشَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَنْ بَطْنِهِ ، وَقَالَ : « اسْتَقْدُ » ، قَالَ : فَاعْتَقَهُ ، فَكَبَّلَ بَطْنَهُ ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا يَا سَوَادُ ؟ » قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، حَضَرَ مَا تَرَى ، فَأَرَدْتُ أَنْ يَكُونَ آخِرَ الْعَهْدِ بكَ . . أَنْ يَمْسَ جِلْدِي جِلْدَكَ ، فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لَهُ بِخَيْرٍ ، وَقَالَ لَهُ .

(١) النَّجْجُ : السَّيْلَانُ .

ويعجبني ما ذكره الطرطوشي وغيره ، عن الفضل بن الربيع ، قال [كما في « حلية الأولياء » ١٠٦/٨] : حجَّ الرشيدُ ، فبينما أنا نائمٌ ذاتَ ليلةٍ . . سمعتُ قرعَ البابِ ، فقلتُ : مَنْ ؟ فقيلَ : أجبَ أميرَ المؤمنينَ ، فخرجتُ مسرعاً ، فوجدتُ الرشيدَ ، فقلتُ : لو أرسلتَ إليَّ ، قالَ : ويحكُ ، قد حاكُ في نفسي ما لا يخرجُهُ إلاَّ عالمٌ فانظرهُ لي ، فقلتُ : هل هنا سفيانُ بنُ عيينةَ ، قالَ : فامضِ بنا إليه ، فأتيناهُ . . فقرعنا عليه بابهُ ، فقالَ : مَنْ هَذَا ؟ قلتُ : أجبَ أميرَ المؤمنينَ ، فخرجَ مسرعاً ، وقالَ : لو أرسلتَ إليَّ . . أتيتك ، قالَ : جدِّ لِمَا جئنا لهُ ، فحادثهُ ساعةً ، ثمَّ قالَ لهُ : أعليك دينٌ ؟ قالَ : نعم ، قالَ : اقضِ دينهُ يا فضلُ .

ثمَّ انصرفنا ، فقالَ الرشيدُ : ما أغنى عني شيئاً صاحبك ، فانظرْ لي غيره ، قلتُ : هل هنا عبدُ الرزاقِ واعظُ (العراقِ) ، فقالَ : امضِ بنا إليه ، فجرى لنا معه مثلُ الأوَّلِ .

فقالَ الرشيدُ : انظرْ لي غيره ، فقلتُ : هل هنا فضيلُ بنُ عياضٍ ، قالَ : امضِ بنا إليه ، فأتيناهُ . . فإذا هو قائمٌ يصلي ، يرددُ آيةً من كتابِ الله ، فقرعْتُ البابَ . . فقالَ : مَنْ هَذَا ؟ فقلتُ : أجبَ أميرَ المؤمنينَ ، فقالَ : مالي ولأميرِ المؤمنينَ ؟ فقلتُ : سبحانَ الله! أما تجبُّ عليك طاعتهُ ، فقالَ : أو ليسَ قد رويَ عنَ النبيِّ صلى اللهُ عليه وآله وسلمَ أَنَّهُ قالَ : « لَيْسَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ »^(١) .

وفتحَ البابَ ، ثمَّ ارتقى مسرعاً إلى أعلى الغرفةِ ، وأطفأَ السراجَ ، والتجأَ إلى زاويةٍ من زوايا الغرفةِ ، فجعلنا نجولُ عليه بأيدينا ، حتَّى سبقتُ إليه كفتُ الرشيدِ ، فقالَ : أوأه ما أليتها من يدٍ . . إن نجتَ من عذابِ الله ، فقلتُ في نفسي : ليكلمتهُ الليلةَ بكلامِ نقيٍّ ، من قلبِ نقيٍّ ، فقالَ : جدِّ لِمَا جئناك لهُ ، قالَ : وفيمَ جئتُ ؟ حملتَ على نفسك ، وجميعُ من معك حملوا عليك ، حتَّى لو سألتهم عندَ انكشافِ الغطاءِ أن يحملوا عنك شقصاً من ذنبٍ . . ما فعلوا ، ولكانَ أشدُّهم حباً لك . . أشدَّ هرباً منك .

إنَّ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ ، لمَّا وليَ الخلافةَ . . دعا سالمَ بنَ عبدِ الله ، ومحمَّدَ بنَ كعبِ القرظيَّ ، ورجاءَ بنَ حيوةَ ، وقالَ لهم : قد ابتليتُ بهَذَا البلاءِ ، فأشيروا عليَّ ، فعدهُ بلاءٌ ، وعددتهُ أنتَ وأصحابكُ نعمةً .

فقالَ لهُ سالمٌ : إن أردتَ النجاةَ من عذابِ اللهِ غداً . . فصمِّ عَنِ الدُّنْيَا ، وليكنْ إفطارُكَ على الموتِ .

وقالَ لهُ محمَّدُ بنُ كعبٍ : إن أردتَ النجاةَ . . فليكنْ كبيرُ المسلمينَ لكُ أبا ، وأوسطهمُ لكُ أخاً ، وأصغرهمُ لكُ ابناً ، فبرِّ أباك ، وارحمْ أخاك ، وتحنَّنْ على ولدك .

وقالَ لهُ رجاءُ بنُ حيوةَ : إن أردتَ النجاةَ غداً . . فأحبِّ للمسلمينَ ما تحبُّ لنفسك ، واکرهْ لهم ما تكرهْ لنفسك ، ثمَّ متى شئتَ فمُتْ ، وإني لأقولُ لكُ هَذَا ، وإني لأخافُ عليكُ أشدَّ الخوفِ ، يومَ تزلُّ الأقدامُ ، فهل معكُ من يأمرُكَ بمثلِ هَذَا ؟ فبكى الرشيدُ بكاءً شديداً ، فقلتُ لهُ : ارفُقْ بأميرِ المؤمنينَ .

فقالَ : يا ابنَ الربيعِ ، قتلتَهُ أنتَ وأصحابكُ ، وأرفُقْ بهِ أنا ، ثمَّ أفاقَ الرشيدُ ، فقالَ : زدني ، قالَ : بلغني أنَّ عاملاً

(١) أخرجه عن حذيفة رضي الله عنه الترمذي (٢٢٥٥) بلفظ : « لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه ، قالوا : وكيف يذل نفسه ، قال : يتعرض من البلاء لما لا يطيق » وقال الترمذي : هذا حديث حسن ، وابن ماجه (٤٠١٦) في الفتن .

لعمر بن عبد العزيز . . شكاً إليه السهر ، فكتب إليه عمر يقول : اذكر يا أخي سهر أهل النار في النار ، وخلود الآباد فيها ، فإن ذلك يطرد بك إلى ربك نائماً ويقظان ، وإياك أن تزل قدمك عن هذا السبيل ، فيكون آخر العهد بك ، ومنقطع الرجاء منك ، والسلام ، فلما قرأ كتابه . . طوى إليه البلاد ، فقال له عمر : ما أقدمك ؟ قال : خلعت قلبي بكتابك ، لا وليت لك ولاية أبداً ، حتى ألقى الله .

فبكى هارون ، ثم قال : زدني ، فقال : إن جدك العباس جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال : أمرني على إمارة ، فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « يا عم ، نفس تُنجيها . . خيرٌ من إمارة لا تُخصيها ، إن الإمارة حسرةٌ وندامةٌ يوم القيامة ، فإن استطعت أن لا تكون أميراً . . فافعل » (١) .

فبكى هارون بكاءً شديداً ، ثم قال : زدني يرحمك الله . فقال : يا حسن الوجه ، أنت الذي يسألك الله عن هذا الخلق ، فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار . . فافعل . وإياك أن تصبح أو تمسي وفي قلبك غشٌ لرعيك ، فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم : « من أصبح لهم غاشاً . . لم يرح رائحة الجنة » (٢) ، فبكى هارون ، ثم قال : عليك دينٌ ؟ قال : نعم ، لربي يحاسبني عليه فالويل لي إن سألني ، والويل لي إن لم يلهمني حجتني ، فقال هارون : إنما أعني دين العباد ، فقال : إن ربي لم يأمرني بهذا ، وإنما أمرني أن أصدق وعدة ، وأطيع أمره ، فقال جل اسمه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ [الذاريات : ٥٦-٥٨] ، فقال له الرشيد : هذه ألف دينار . . أنفقها على عيالك ، وتقو بها على عبادة ربك ، فقال فضيل : أنا أدلك على النجاة وتكافئي بمثل هذا ، ثم صمت ، فلم يكلمنا ، فخرجنا من عنده ، فقال الرشيد : إن دلتني على رجلٍ . . فدلتني على مثل هذا ؛ فإن هذا سيد المؤمنين اليوم .

ويروى [في «الحلية» ١٠٧/٨] : أن امرأة من نساءه دخلت عليه بعد خروجهم ، وقالت له : يا هذا ، ألا ترى ما نحن فيه ، ثم ترد المال ، فقال لها : إن مثلي ومثلكم . . كمثل قوم كان لهم بعيرٌ ، يأكلون من كسبه ، فلما كبر . . نحروه ، موتوا جوعاً ولا تنحروا فضيلاً ، فلما سمع الرشيد مراجعتها له . . طمع في قبوله ، فجاء فجلس إلى جنبه ، فلم يكلمه ، فبينما نحن كذلك . . إذ جاءت جارية سوداء فقالت : يا هذا ، لقد آذيت الشيخ منذ أتيت ، فانصرف يرحمك الله ، فانصرفنا ، وهذا آخر القصة .

وكم من شاهدٍ فيها لما تقرر من عز الإسلام ، ومساواته ، مع السلامة من غش الأحرار والرهبان ، الذي اجتته الله من أصله ، بمثل قوله جل ذكره : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [التوبة : ٣١] .

ومعلوم أنهم لم يعبدوهم ، ولكنته يحذر من تقليديهم في كل ما يقولون ، ومن المغالاة في الاعتقاد بهم ، ومن تصديقهم فيما يدعون من غفران الذنوب ، وتكفير الخطايا ، وما أشبه ذلك ، من الضلالات التي لا يزال يترسها

(١) أخرجه عن العباس رضي الله عنه مختصراً البيهقي في «السنن الكبرى» (٩٦/١٠) . وقال : هذا هو المحفوظ مرسل . وقيل : إنه عن ابن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال العباس : يا رسول الله ، ألا توليني ؟ فذكره ، ثم ذكره موصولاً ، والأول أصح ، تفرد به هذا السلمي البصري . وقال العراقي في «تخريج الإحياء» (٣٤٤/٢) : رواه ابن أبي الدنيا هكذا معضلاً بغير إسناد .

(٢) أخرجه نحوه عن معقل بن يسار أحمد (٢٧/٥) ، والبخاري (٧١٥٠) في الأحكام ، ومسلم (١٤٢) (٢٢٩) في الإمارة (٥) باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر بلفظ : « ما من أمير يلي أمور المسلمين ، ثم لا يجهد لهم وينصح لهم . . إلا لم يدخل معهم الجنة » .

مَنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ مِنْ أَهْلِ مِلَّتِنَا ، تَصَدِيقًا لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنْ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ » ، فَقَالُوا : الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ ؟ ! قَالَ : « فَمَنْ إِذْنٌ » (١) .

[الإمام زين العابدين في الطواف]

ولا يتجافى عن الموضوع الذي نتكلم فيه ، ما ذكره صاحب « المستطرف » [١٤٩/١] عن الأصمعي ، قال : بينا أنا أطوف ليلةً بالبيت . . إذ رأيت شاباً متعلقاً بأستاره ، يقول :

يَا مَنْ يُجِيبُ دُعَا الْمُضْطَرِّ فِي الظُّلَمِ يَا كَاشِفَ الضُّرِّ وَالْبَلْوَىٰ مَعَ السَّقَمِ
قَدْ نَامَ وَفَدُكَ حَوْلَ الْبَيْتِ وَانْتَبَهُوا وَأَنْتَ يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ لَمْ تَنَمْ
أَدْعُوكَ رَبِّي حَزِينًا خَائِفًا قَلْبًا فَارْحَمْ بُكَائِي بِحَقِّ الْبَيْتِ وَالْحَرَمِ
إِنْ كَانَ جُودُكَ لَا يَرْجُوهُ ذُو سَفَهٍ فَمَنْ يَجُودُ عَلَى الْعَاصِيْنَ بِالنَّعْمِ

ثم ارتفع نحيبه ، وطاف أسبوعاً آخر ، ثم أمسك بوصائل البيت ، وتصرع بأبيات أخرى - لا أذكرها الآن (٢) - ثم سقط مغشياً عليه إلى الأرض ، فدنوت منه ، فإذا هو زين العابدين : علي بن الحسين ، فوضعت رأسه على حجري ، وبكيت ، ففطرت مني دمعاً على خده ، ففتح عينيه وقال : من هذا الذي يتهجم علينا ؟ قلت : عبيدك الأصمعي ، يا سيدي ما هذا البكاء والجزع ، وأنت من أهل بيت النبوة ؟ أليس الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٣] ؟ فقال لي : هيهات هيهات ، إن الله خلق الجنة لمن أطاعه ، ولو كان عبداً حبشياً ، وخلق النار لمن عصاه ، ولو كان حراً قرشياً ، أليس الله جل شأنه يقول : ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠١] ؟

كذا في حفظي عن « المستطرف » ، ولا يصح أن يكون صاحب القصة الأصمعي ؛ لتأخر زمانه ، فلعله الفرزدق ، أو غيره ، ثم إن في الشعر الذي رواه - وبالأخص ما نسيته منه - انحلالاً قد يشتبه منه الافتعال ، أمّا موضع الشاهد منه . . فشدّة تواضع زين العابدين ، وخوفه من الله تعالى - كما هو المعروف من حاله - مع أنه أعز الناس نفساً ، وأشمخهم أنفاً ، وأبعدهم همّة ، حتى لقد كان يخرج أيام الموسم ، في جمال شارته ، وحسن هيئته ، وفاخر لباسه . . فلا يزيد جموع الأعيان على السلام ، ولقد قال له قائل : ما هذا التيه يا ابن بنت رسول الله ؟ قال : ليس بتيه ترى ، ولكنّها العزة التي يقول الله : ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : ٨] .

ويروى مثل هذا عن الحسن ، كما سيأتي في المجلس السادس عشر .

(١) أخرجه عن أبي سعيد رضي الله عنه البخاري (٣٤٥٦) في الأنبياء ، وفيه : « سلكوا ، سلكتموه » ، وفي مسلم (٢٦٦٩) في العلم بلفظ : « في حجر ضب لا تبعتموهم » .

(٢) والأبيات هي :

أَلَا أَيُّهَا الْمُقْضُودُ فِي كُلِّ حَاجَةٍ شَكَاؤُكَ إِلَيْكَ الضُّرُّ . . فَارْحَمْ شِكَايَتِي
أَلَا يَا رَجَائِي أَنْتَ تَكْشِفُ كُرْبَتِي فَهَبْ لِي ذُرْبِي كُلَّهَا وَأَقْضِ حَاجَتِي
أَنْتَ بِأَعْمَالِ قَبَاحِ رَدِيئَةٍ وَمَا فِي الْوَرَىٰ عَيْدُ جَنَىٰ كَجَنَائِي
أُنْحَرِفُ فِي النَّارِ يَا غَايَةَ الْمُنَى فَأَيُّنَ رَجَائِي ؟ ثُمَّ أَيُّنَ مَخَافِي

[تواضع السلطان سليم العثماني]

وبلغني عن السلطان سليم العثماني ، ما ذكرني بقول الناظم [في «المكبري» ١٧٩/٤] :
مُتَّصِعِلِكِينَ عَلَى ضَخَامَةِ مُلْكِهِمْ مُتَّوَاضِعِينَ عَلَى عُلوِّ الشَّانِ

إذ كتب - في محله الخاص على قطعة من الرُخَامِ - هَذَا بِنِ الْبَيْتَيْنِ [في «شذرات الذهب» ١٤٤/٤] :
الْمُلْكُ لِلَّهِ مَنْ يَظْفَرُ بِنَيْلِ مَنْى يَرْدُدُهُ قَهْرًا وَيَضْمَنُ بَعْدَهُ الدَّرَكََا
لَوْ كَانَ لِي أَوْ لِعِغْرِي قَيْدُ أُنْمَلَةٍ فَوْقَ الثَّرَابِ لَكَانَ الْأَمْرُ مُشْتَرَكَا

[تواضع السلطان عبد الحميد]

وأخبرني السيد الثقة عبد الله بن عبد الرحمن بن طاهر ، عن السلطان عبد الحميد ، أنه قلما خرج في مواكبهِ الرِّسْمِيَّةِ الضَّخْمَةِ ، الَّتِي يَتَنَافَسُ النَّاسُ فِيهَا عَلَى اسْتِطْلَاعِ غَرَّتِهِ ، وَيَسَافِرُونَ لِذَلِكَ مِنَ الْجِهَاتِ الْبَعِيدَةِ - عَلَى حَدِّ قَوْلِ المومِيَّ - :

وَكَمْ عَيْنٍ تُؤَمِّلُ أَنْ تَرَانِي وَتَفْقِدُ بَعْدَ رُؤْيَايَ السَّوَادَا
.. إلّا وقام في صدر عربته أحد العلماء ، يُنادي بأعلى صوته ، مِنْ حِينِ يَرْكَبُ إِلَى حِينِ يَنْزِلُ : الْمَلِكُ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْفَهَّارِ ، لَا تَتَكَبَّرْ ، وَمَنْ فَوْقَكَ أَكْبَرُ . وَهَذَا - وَاللَّهِ فِي ذَلِكَ الْمَوْقِفِ الَّذِي يَمَلَأُ الْعْيُونَ بِجَمَالِهِ ، وَيَمْلِكُ الْأَفْتَدَةَ بِجَلَالِهِ - لِمِمَّا تَتَنَدَّى لَهُ الْخُدُودُ ، وَتَتَفَطَّرُ مِنْهُ الْقُلُوبُ .

ويعجبني فيما يشبه بيت الناظم الذي نتكلم عليه ، قول أبي عبادة [في «ديوانه» ١٩٤٢/٣] :
وَلَمَّا رَأَوْا بَعْضَ الْحَيَاةِ مَذَلَّةً عَلَيْهِمْ وَعِزَّ الْمَوْتِ غَيْرَ مُحَرَّمِ
أَبَوْا أَنْ يَذُوقُوا الْعَيْشَ وَالذَّمَّ وَاقِعٌ عَلَيْهِ وَمَاتُوا مَيْتَةً لَمْ تُذَمَّ

[أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وشهاب بن جمره !!]

ولا بأس على ذكر (لَظِي) في البيت .. أَنْ نَذَكُرَ حَدِيثَ ابْنِ الْخَطَّابِ مَعَ الْجَهْنِيِّ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [في «الإصابة» ٣٨٨/٣ بنحوها] : خَرَجَ إِلَى (حَرَّةِ وَاقِمِ) ، فَلَقِيَ رَجُلًا مِنْ جَهِينَةَ ، فَقَالَ لَهُ : مَا اسْمُكَ ؟ قَالَ : شَهَابٌ ، قَالَ : ابْنُ مَنْ ؟ قَالَ : جَمْرَةَ ، قَالَ : وَمِمَّنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : مِنَ الْحَرَقَةِ ، قَالَ : ثُمَّ مِمَّنْ ؟ قَالَ : مِنْ بَنِي ضِرَامِ ، قَالَ وَأَيْنَ مَنزَلُكَ ؟ قَالَ : بـ (حَرَّةِ لَيْلَى) ، قَالَ : وَأَيْنَ تَرِيدُ ؟ قَالَ : (ذَاتَ لَظِي) ، فَقَالَ عَمْرُ : أَدْرِكُ أَهْلَكَ ، فَمَا أَرَاكَ تَدْرِكُهُمْ إِلَّا وَقَدْ احْتَرَقُوا ، قَالَ الرَّاوِي : فَأَدْرَكَهُمْ وَقَدْ أَحَاطَتْ بِهِمُ النَّارُ .

[التشاؤم بالاسم القبيح]

ونظيرها : أَنَّهُ لَمَّا وَقَعَ الطَّاعُونَ بـ (مَصْرَ) فِي وِلَايَةِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مِرْوَانَ .. هَرَبَ مِنْهَا ، فَنَزَلَ قَرْيَةً مِنَ الصَّعِيدِ ، فَقَدَّمَ عَلَيْهِ رَسُولٌ مِنْ أَخِيهِ حِينَ نَزَلَهَا ، فَقَالَ لَهُ : مَا اسْمُكَ ؟ قَالَ : طَالِبُ بْنُ مَدْرِكِ ، فَقَالَ : أَوْهَ ، مَا أَرَانِي رَاجِعًا إِلَى (الْفُسْطَاطِ) ، وَمَاتَ فِي تِلْكَ الْقَرْيَةِ .

ولمَّا خَرَجَ صَلَاحُ الدِّينِ بِنِ ابْنِ أَبِي يُوْبَ مِنْ (مِصْرَ) . . سَمِعَ قَوْلَ ابْنِ يَسْدُ فِي «كِتَابِ الرُّوْضَتَيْنِ فِي أَخْبَارِ الدُّوْلَتَيْنِ» ٣/ ١٠٤ : [مِنْ الوَافِرِ]

تَمَتَّعَ مِنْ شَمِيمٍ عَرَارٍ نَجْدٍ فَمَا بَعْدَ الْعِشْيَةِ مِنْ عَرَارٍ^(١)

فَتَطَيَّرَ مِنْ ذَلِكَ ، وَكَانَ كَمَا تَطَيَّرَ ، فَإِنَّهُ اشْتَغَلَ بِ(الشَّامِ) ، وَقَاتَلَ الْإِفْرَنْجَ ، وَلَمْ يَعُدْ إِلَى (مِصْرَ) حَتَّى مَاتَ بَعْدَ طَوِيلِ الْمَدَّةِ . وَالحِكَايَاتُ فِي مِثْلِهِ كَثِيرَةٌ .

[التفاؤل بالاسم الحسن]

وعكسه : أَنَّ سَعْدَ ابْنَ أَبِي وَقَّاصٍ وَجَّهَ إِلَى ابْنِ الْخَطَّابِ بِرَسُولٍ ، فَقَالَ لَهُ [كَمَا فِي «الْمَتَزَمِّمِ حَتَّى سَنَةِ (٢٥٧ هـ)» ٤/ ٢٧٠] : مَا اسْمُكَ ؟ قَالَ : ظَفَرٌ ، قَالَ : ابْنُ مَنْ ؟ قَالَ : ابْنُ قَرِيبٍ ، فَقَالَ عُمَرُ : ظَفَرٌ قَرِيبٌ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

ولمَّا هَاجَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَقَارَبَ (الْمَدِينَةَ) . . سَمِعَ مَنَادِيًا يُنَادِي أَخَاهُ وَيَقُولُ : يَا سَالِمُ ، يَا سَالِمُ ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ : « سَلِمْنَا » ، فَلَمَّا دَخَلَهَا . . سَمِعَ آخَرَ يُنَادِي : يَا غَانِمُ ، قَالَ : « غَنِمْنَا » ، فَلَمَّا نَزَلَ . . أَتَى بَرُطَبَ ، قَالَ : « حَلَّا لَنَا الْبَلَدُ »^(٢) .

وفي يومِ الْحَدِيثِ لَمَّا أَقْبَلَ سَهِيلٌ . . قَالَ : « سَهْلٌ لَنَا الْأَمْرُ »^(٣) .

وَرَبَّمَا يَأْتِي مَوْضِعٌ آخَرٌ يَقْتَضِي اسْتِيفَاءَ مَا يُقَالُ فِي الطَّيْرَةِ وَالْفَأْلِ^(٤) ، أَمَا هَذَا . . فَلَا أَكْثَرَ لَهُ مِمَّا ذُكِرَ .

واللهُ أَعْلَمُ

* * *

[مِنْ الخَفِيفِ] قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ الْمَتَنَبِيُّ فِي « الْعُكْبَرِيِّ » ١/ ٣٢٢ :

لَا بِقَوْمِي شَرُفْتُ بَلْ شَرُفُوا بِي وَبِنَفْسِي فَخَزْتُ لَا بِجُدُودِي

[فخر الإنسان بقومه ، ولن يكون غير ذلك وإن أبي]

لَوْ اقْتَصَرَ النَّاطِمُ عَلَى هَذَا الْبَيْتِ . . لَكَانَ أَلَامَ النَّاسِ نِسْبًا ، غَيْرَ أَنَّهُ شَفَعَهُ بِقَوْلِهِ [فِي « الْعُكْبَرِيِّ » ١/ ٣٢٣] :

وَبِهِمْ فَخَرْتُ كُلَّ مَنْ نَطَقَ الضَّا دَ وَعَوُذَ الْجَانِي وَغَوُثَ الطَّرِيدِ

إِلَّا أَنْ هَذَا كَانَ بَارِدًا ، فَانْحَطَّ وَخَمَلَ ، حَتَّى كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ بِخِلَافِ الْأَوَّلِ ، فَقَدْ كَانَ حُلُوهَ اللَّفْظِ ، مَلِيحَ الْمَعْنَى فِي

(١) الشَّمِيمُ : مِصْدَرُ (شَمَّ) . وَالْمَعْنَى : تَمَتَّعَ مِنْ طَيِّبٍ رَائِحَةٍ عَرَارٍ (نَجْدٍ) ؛ فَهَذَا أَوَانُهُ ، وَهُوَ لَا يُوْجَدُ بَعْدَ الْعِشْيَةِ .

(٢) لَمْ نَجِدْهُ .

(٣) أَخْرَجَهُ عَنِ الْمَسُورِ بْنِ مَخْرَمَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الْبَخَارِيُّ (٢٧٣١) وَ(٢٧٣٢) فِي الشَّرْطِ بِلَفْظِ : « سَهْلٌ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ » ، وَعِنْدَ أَحْمَدَ فِي « الْمَسْنَدِ » (٣٣٠/٤) بِلَفْظِ : « سَهْلٌ مِنْ أَمْرِكُمْ » .

(٤) لَمَّا أَخْرَجَ عَنْ أَنَسِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَحْمَدُ (١٥٤/٣) ، وَابْنُ خَالِي (٥٧٥٦) فِي الطَّبِّ ، وَمُسْلِمٌ (٢٢٢٤) (١١٢) فِي السَّلَامِ ، وَأَبُو دَاوُدَ (٣٩١٦) فِي الطَّبِّ ، وَالتِّرْمِذِيُّ (١٦١٥) فِي السِّيَرِ ، وَابْنُ مَاجَةَ (٣٥٣٧) فِي الطَّبِّ أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « لَا عُدُوِّي وَلَا طَيْرَةَ وَأَحَبُّ الْفَأْلِ » قِيلَ : يَا رَسُولَ اللهِ ، وَمَا الْفَأْلُ ؟ قَالَ : « الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ » . وَفِي الْبَابِ : عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عِنْدَ أَبِي دَاوُدَ (٣٩١٠) فِي الطَّبِّ ، وَالتِّرْمِذِيُّ (١٦١٤) فِي السِّيَرِ وَقَالَ : حَسَنٌ صَحِيحٌ ، وَغَيْرُهُ : « الطَّيْرَةُ شَرٌّ - وَمَا مَنَّا - وَلَكِنَّ اللهُ يَذْهَبُ بِالتَّوَكُّلِ » وَهُوَ مَعْدُودٌ مِنَ الْكِبَائِرِ .

بابه ، فسار وانتشر ، وهو من قول الفرزدق :

وإن تميماً كلها غير سغدها زعانف لولا عز سعاد لذلت

ومثله قول علي بن جبلة :

وما سؤدت عجلاً مائراً غيرهم ولكن بهم سادت على غيرهم عجل

وكثيراً ما يشق كلام الناظم عن انحطاط نسبه وزمانه حسبه ، كما في قوله [في «العكبري» ٦٠/١] :

ولست أباي بعد إذراكي العلاء أكان ترائاً ما تناولت أم كسبا

وقوله [في «العكبري» ٢٦٧/٣] :

وإنما يذكرو الجود لهم من نفروه وأنفدوا حيلة^(١)

[تفضيل الفرع على الأصل عند المتنبي]

وتراه من أجل ما يجد من ذلك في نفسه . . يفضل الفرع دائماً على الأصل ، لا في نفسه فقط ، بل حتى في

ممدوحيه ، ألا تراه يقول لسيف الدولة [في «العكبري» ٢٠/٣] :

وإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعرض دم الغزال

ويقول له - أيضاً - [في «العكبري» ١١١/٣] :

[وَالْعَادِلِينَ فِي النَّدَى الْعَوَادِلًا] قَدْ فَضَلُوا بِفَضْلِكَ الْقَبَائِلًا

ومن ذلك قوله [في «العكبري» ١٧٩/٢] :

نفسه فوق كل أصل شريف ولواني له إلى الشمس عازي

وقوله [في «العكبري» ٣٧٨/٣] :

كل آبائه كرام يبي الذنوبيا ولكنة كريم الكرام

وقوله [في «العكبري» ٣٨٠/١] :

فإن يك سيار بن مكرم انقضى فإنك ماء الورد إن ذهب الورد

وقوله [في «العكبري» ٩١/١] :

وإن تكن تغلب العلباء عنصرتها فإن في الخمر معنى ليس في العنب

وقوله [في «العكبري» ١٠٩/٣] :

ففيها وفخراً تغلب ابنة وائل فأنت لخير الفاخرين قبيل

(١) نافرني ففترته : أصل المنافرة أن الرجلين من العرب كانا يحتكما في الجاهلية إلى من عرف بالرياسة والفضل والصدق ، فيقولان له : أي نفرنا أفضل ؟ فإذا فضل أحدهما على الآخر ، فالمغلوب منفور ، والغالب نافر . أنفدوا : أنفوا .

وقوله [في «العكبري» ٧٠/٤] :

[من الوافر]

وَمَا أَنَا مِنْهُمْ بِالْعَيْشِ فِيهِمْ
وَلَكِنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرَّغَامُ^(١)

وقوله [في «العكبري» ١٠٧/٤] :

[من الطويل]

وَلَوْ لَمْ تَكُونِي بِنْتَ أَكْرَمِ وَالِدِ
لَكَانَ أَبَاكَ الضَّخْمَ كَوْنُكَ لِي أُمًّا

وقوله [في «العكبري» ٢٣١/٢] :

[من البسيط]

تَمْشِي الْكِرَامُ عَلَى آثَارِ غَيْرِهِمْ
وَأَنْتَ تَخْلُقُ مَا تَأْتِي وَتَبْتَدِعُ

وقوله [في «العكبري» ١٨٦/١] :

[من الطويل]

وَيُغْنِيكَ عَمَّا يَنْسُبُ النَّاسُ أَنَّهُ
إِلَيْكَ تَنَاهَى الْمَكْرُمَاتُ وَتَنْسَبُ

وقوله [في «العكبري» ٣٩١/٣] :

[من الطويل]

تَشْرَفَ عَدْنَانٌ بِهِ لَا رَيْعَةً
وَتَفْتَخِرُ الدُّنْيَا بِهِ لَا الْعَوَاصِمُ

وقوله [في «العكبري» ١٨٥/٤] :

[من الكامل]

أَنْسَابُ فَخْرِهِمْ إِلَيْكَ وَإِنَّمَا
أَنْسَابُ أَصْلِهِمْ إِلَيَّ عَدْنَانِ

وكذب والله وافتري ، إنما ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولكن ما أحسن قول ابن الرومي [في «ديوانه»

: [٢٤٢٥/٦]

[من البسيط]

قَالُوا أَبُو الصَّقْرِ مِنْ شَيْبَانَ قُلْتُ لَهُمْ :
كَمْ مِنْ أَبِي قَدْ عَلَا بِابْنِ ذُرِّي شَرْفِ
كَأَنَّ لَعْمَرِي وَلَكِنْ مِنْهُ شَيْبَانَ
كَمَا عَلَا بِرَسُولِ اللَّهِ عَدْنَانُ

[لم تذق حلاوة الآباء]

ويذكر : أن هاشمياً دخل على المنصور ، فسأله عن أبيه ، فقال : مات رحمه الله ، وترك كذا رحمه الله ، وفعل كذا رحمه الله ، وأوصى بكذا رحمه الله ، فقال له الربيع - وكان قائماً على رأس المنصور - : أحرز عن أمير المؤمنين ، فقد أصجزته بأبيك ، قال له : لا لوم عليك ، فإنك لم تذق حلاوة الآباء ، وكان الربيع دعياً ، فاستلقى المنصور من كثرة الضحك .

[من بيته من زجاج . . لا يرمي الناس بالحجار]

ويروي [بنحوه في «بغية الطلب في تاريخ حلب» ٨٣٠/٦] : أن قتيبة بن مسلم الباهلي ، لما فتح (سمرقند) . . أفضى إلى أتابك لم يعرف مثله ، فأمر بدار ففرشت ، وفي صحنها قدور لا يرتقى إليها إلا بالسلام ، فأقبل الحصين^(٢) بن المنذر بن الحارث بن وعلة الرقاشي - والناس على مراتبهم - وهو شيخ كبير ، فلما رآه عبد الله بن مسلم - أخو قتيبة - قال لقتيبة : أتأذن لي في معاتبته ؟

(١) الرغام : التراب .

(٢) في «بغية الطلب» : (الخصين) بدل (الخصين) .

قَالَ : إِنَّهُ خَبِيثٌ لَا يُطَاقُ ، فَأَبَى عَبْدُ اللَّهِ إِلَّا أَنْ يَأْذَنَ لَهُ ، وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ قَدْ تَسَوَّرَ حَائِطًا إِلَى امْرَأَةٍ ، فَقَالَ لِلْحَصِينِ :
أَمِنَ الْبَابِ دَخَلْتَ يَا أَبَا سَاسَانَ ؟

قَالَ : نَعَمْ ، أَسَنَّ عُمُكَ ^(١) عَنِ تَسْوِيرِ الْحَيْطَانِ .

قَالَ : أَرَأَيْتَ هَذِهِ الْقُدُورَ ؟

قَالَ : هِيَ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ لَا تُرَى .

قَالَ : مَا أَحْسَبُ بَكَرَ بْنَ وَاثِلٍ رَأَى مِثْلَهَا ، قَالَ : لَا وَلَا عِيْلَانُ ، وَلَوْ رَأَاهَا . . . لَسَمِّيَ شَبْعَانَ ، فَقَالَ لَهُ : يَا أَبَا
سَاسَانَ ، أَتَعْرِفُ الَّذِي يَقُولُ :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

عَزَلْنَا وَأَمْرْنَا وَيَكْرُبُنْ وَاثِلِ تَجَرُّ خُصَاهَا تَبْتَغِي مَنْ تَحَالِفُ

[مِنَ الْوَافِرِ]

قَالَ : نَعَمْ ، أَعْرِفُهُ ، وَأَعْرِفُ الَّذِي يَقُولُ :

وَوَخِيئَةُ مَنْ يَخِيْبُ عَلَيَّ غَنِيٍّ وَبَاهِلَةَ بِنِ يَعْضُرَ وَالرَّيَابِ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

قَالَ : أَتَعْرِفُ الَّذِي يَقُولُ :

كَأَنَّ فِقَاحَ الْأَزْدِ حَوْلَ ابْنِ مَسْمَعٍ وَقَدْ عَرِقَتْ أَفْوَاهُ بَكَرِ بْنِ وَاثِلِ ^(٢)

[مِنَ الْكَامِلِ]

قَالَ : أَعْرِفُهُ ، وَأَعْرِفُ الَّذِي يَقُولُ :

قَوْمٌ قُتِيْبَةٌ أُمُهُمْ ، وَأَبُوهُمْ لَوْلَا قُتِيْبَةٌ أَصْبَحُوا فِي مَجْهَلِ

قَالَ أَمَّا الشُّعْرُ فَأَرَاكَ تَرْوِيهِ ، وَلَكِنْ هَلْ تَقْرَأُ شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ ؟ قَالَ : الْكَثِيرَ الطَّيِّبَ : ﴿ هَذَا أَقَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ يَمُوتُ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ
يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا ﴾ [الإنسان : ١] ، فَغَضِبَ عَبْدُ اللَّهِ بِنُ مُسْلِمٍ ، وَقَالَ : لَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ امْرَأَةَ الْحَصِينِ تَزَوَّجَتْ بِهِ وَهِيَ حَبْلَى
مِنْ غَيْرِهِ ، فَلَمْ يَتَحَرَّكَ الشَّيْخُ عَنِ هَيْئَتِهِ ، وَقَالَ - عَلَى رِسْلِهِ - : وَمَا يَكُونُ تَلِدُ غَلَامًا عَلَى فِرَاشِي ؟ ! فَيُقَالُ : ابْنُ
الْحَصِينِ ، كَمَا يُقَالُ : عَبْدُ اللَّهِ بِنُ مُسْلِمٍ ؟ ! فَاقْبَلْ قُتِيْبَةً عَلَى أَخِيهِ وَقَالَ : لَا يَبْعُدُ اللَّهُ غَيْرَكَ ، لَيْتَكَ سَكَتَ ؛ إِذْ لَمْ
تَقْدِرْ .

[أَتَكُونُ بَاهِلِيًّا خَلِيفَةً ؟ !]

وَيُذَكَّرُ [كَمَا فِي « سِيرِ أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ » ٤/ ٤١١] : أَنْ قُتِيْبَةٌ هَذَا مَا زَحَّ أَعْرَابِيًّا فَقَالَ : أَيَسُرُّكَ أَنْ تَكُونَ بَاهِلِيًّا خَلِيفَةً ؟ قَالَ :
لَا وَاللَّهِ ، وَلَوْ أَنَّ لِي مَا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ ، قَالَ : أَيَسُرُّكَ أَنْ تَكُونَ بَاهِلِيًّا فِي الْجَنَّةِ ؟ فَأَطْرَقَ ثُمَّ قَالَ : نَعَمْ ، عَلَى
شَرْطِ أَنْ لَا يَعْلَمَ أَهْلُ الْجَنَّةِ أَنِّي بَاهِلِيٌّ .

[لَا يَبْعَا اللَّهُ بِالْبَاهِلِيِّ أَبَدًا !!!]

وَلَمَّا حَجَّ أَبُو جَزْءٍ - وَكَانَ قَوْمُهُ يُعَظِّمُونَهُ - سَأَلَهُ عَنْ نَسَبِهِ بَعْضُ بَنِي سَعْدِ ؟ فَذَكَرَ أَنَّهُ بَاهِلِيٌّ ، فَاتَّحَمَتْهُ عَيْنُهُ ^(٣) ، فَقَالَ

(١) أَسَنَّ : كَبَّرَ وَصَارَ مُسِنًا .

(٢) الْفِقَاحُ : جَمْعُ فِقْحَةٍ ، وَهِيَ حَلَقَةُ الدُّبْرِ .

(٣) اتَّحَمَتْهُ عَيْنُهُ : أَزْدَرَتْهُ .

لَهُ فَائِلٌ : إِنَّهُ أَمِيرٌ ابْنُ أَمِيرٍ ابْنُ أَمِيرٍ . . . حَتَّىٰ عَدَّ خَمْسَةً بِأَسْمَائِهِمْ ، فَقَالَ السَّعْدِيُّ : وَاللَّهِ لَوْ عَدَدْتَ لَهُ مِنْ بَيْتِ النُّبُوَّةِ أَضْعَافَ مَا عَدَدْتَ لَهُ فِي الْإِمَارَةِ ، ثُمَّ كَانَ باهلياً . . . مَا كَانَ اللهُ لِيُعَبَّأَ بِهِ .

[ما كانت إهانة الله لك بجعلك باهلياً في الدنيا . . . إلا ليعوضك يوم القيامة]

ويُحكى [كما في « سير أعلام النبلاء » ٤/٤١١] : أَنَّ أَعْرَابِيًّا لَقِيَ شَخْصًا فَسَأَلَهُ مَنْ أَنْتَ ؟ فَقَالَ : مِنْ باهلة ، فَرَقَّ لَهُ ، فَقَالَ ذَلِكَ الشَّخْصُ : وَأَزِيدُكَ أَنِّي لَسْتُ مِنْ صَمِيمِهِمْ ، وَلَكِنْ مِنْ مَوَالِيهِمْ ، فَأَقْبَلَ الْأَعْرَابِيُّ يَقْبَلُ يَدَيْهِ وَرَجْلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ : وَلِمَ هَذَا ؟ فَقَالَ : لِأَنَّ اللهُ جَلَّ شَأْنُهُ مَا ابْتَلَاكَ بِهَذِهِ الْمَهَانَةِ فِي الدُّنْيَا . . . إِلَّا لِيَعُوْضَكَ فِي الْآخِرَةِ .

[السبب في اتضاع باهلة]

وَمَا كَانَ السَّبَبُ فِي اتِّضَاعِ غَنِيٍّ وَبَاهِلَةٍ - عَلَى مَا لَهْمَا مِنَ الْغِنَاءِ وَالشَّرَفِ - إِلَّا شَفُوفَ أَخَوَيْهِمَا فِزَارَةَ وَذُبْيَانَ ، وَتَقَدُّمَهُمَا عَلَيْهِمَا بِالْمَأْتِرِ ، فَانْحَطَّ بِالنِّسْبَةِ لِذَلِكَ ، كَمَا ذَكَرَهُ ابْنُ خُلِّكَانَ [في « فيات الأعيان » ٤/٩١] وَغَيْرُهُ .
وَفِي الْمَثَلِ [كما في « مجمع الأمثال » ٢/٣٣١] : كُنْ عِصَامِيًّا ، وَلَا تَكُنْ عِظَامِيًّا .

[أعصامي أم عظامي !!؟]

ويُحكى [كما في « مجمع الأمثال » ٢/٣٣١] : أَنَّ الْحِجَّاجَ أَرَادَ أَنْ يَخْتَبِرَ رَجُلًا . . . فَقَالَ لَهُ : أَعِصَامِيٌّ أَنْتَ أَمْ عِظَامِيٌّ ؟ فَقَالَ : أَنَا عِصَامِيٌّ وَعِظَامِيٌّ ، فَقَضَىٰ حَوَائِجَهُ ، ثُمَّ اسْتَنْطَقَهُ ، فَوَجَدَهُ مِنْ أَجْهَلِ النَّاسِ ، فَقَالَ : لَتَصُدَّقَنِي ، أَوْ لِأَتَلَنَّاكَ ، كَيْفَ أَجَبْتَنِي بِمَا قُلْتَ لَمَّا سَأَلْتُكَ ؟ فَإِنِّي لَمْ أَجِدْكَ حَيْثُ زَعَمْتَ ، قَالَ : إِنِّي وَاللَّهِ لَا أَعْرِفُ الْعِصَامِيَّ وَلَا الْعِظَامِيَّ مَا هُوَ ، فَخَشِيتُ أَنْ أَقُولَ أَحَدَهُمَا فَيُضْرَبَنِي . . . فَقُلْتُ : كِلَيْهِمَا ، وَتَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ ، فَقَالَ الْحِجَّاجُ : أَلَا إِنَّ الْمَقَادِيرَ تَجْعَلُ الْعِيَّ حَظِيًّا .

وَكَانَتْ الْعَرَبُ تُسَمِّي مَنْ كَرَّمَ أَبْوَاهُ : طَرْفًا ، وَمَنْ شَرَّفَ أَبُوهُ وَلَمْ تَكُنْ أُمُّهُ هُنَاكَ هَجِينًا ، وَمَنْ شَرَفَتْ أُمُّهُ وَلَمْ يَشْرَفْ أَبُوهُ مُذْرَعًا ، وَهُوَ وَالْمَقْرِفُ شَيْءٌ وَاحِدٌ .

وَأَشَدُّ الْأَزْهَرِيِّ فِي « التَّهْذِيبِ » :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

إِذَا بِبَاهِلِيٍّ عِنْدَهُ حَنْظَلِيَّةٌ لَهَا وَلَدٌ مِنْهُ فَذَلِكَ الْمُذْرَعُ

[مِنَ الْبَسِيطِ]

وَقَالَ ذُو الرُّمَّةِ [في « ديوانه » ١/٢٩] :

تُرِيكَ سُنَّةَ وَجْهِ غَيْرِ مُقْرِفَةٍ مَلْسَاءَ لَيْسَ بِهَا خَالٌ وَلَا نُدَبٌ

[من هو العصامي ؟ ومن هو العظامي ؟]

وَحَيْثُمَا قَالُوا عِصَامِيٌّ . . . فَإِنَّمَا يَرِيدُونَ قَوْلَ النَّابِغَةِ [الذُّبْيَانِي] يَمْدُحُ عِصَامًا حَاجِبَ النُّعْمَانِ [كما في « مجمع الأمثال » ٢/٣٣١] :

[مِنَ الرَّجَزِ]

نَفْسُ عِصَامٍ سَوَّدَتْ عِصَامًا وَعَلَّمْتُهُ الْكُرَّ وَالْإِقْدَامَا

[مِنَ الْوَافِرِ]

. . . فَقَدْ أَرَادُوا قَوْلَ الْآخِرِ [كما في « فصل المقال في شرح كتاب الأمثال » ١/١٣٨] :

إِذَا مَا الْحَيِّ عَاشَ بِعِظَمِ مَيْتٍ فَذَلِكَ الْعِظْمُ حَيٌّ وَهُوَ مَيْتٌ

[مِن الطَّوِيلِ]

وقال بعضهم [كما في « المثل السائر » ١/ ١٠٠] :

لَعَمْرُكَ مَا الْإِنْسَانُ إِلَّا ابْنُ يَوْمِهِ
عَلَى مَا تَجَلَّى يَوْمُهُ لَا ابْنَ أَمْسِهِ
وَمَا الْفَخْرُ بِالْعَظْمِ الرَّمِيمِ وَإِنَّمَا
فَخَارُ الَّذِي يَبْغِي الْفَخَارَ بِنَفْسِهِ

[مِن الْكَامِلِ]

وقال أبو نعمان [كما في « المستطرف » ١/ ٨٠] :

لَا تَنْظُرَنَّ إِلَى امْرِئٍ مَا أَصْلُهُ
وَانظُرْ إِلَى أَفْعَالِهِ ثُمَّ احْكُمْ

[مِن الْبَسِطِ]

ويحسن أن يستأنس بقول الناظم [كما في « العكبري » ٣/ ٨١] :

خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئاً سَمِعْتَ بِهِ
فِي طَلْعَةِ الشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَن زُحَلِ

[الفخر بالنفس والآباء]

[مِن الْوَافِرِ]

ومما اجتمع فيه الطريف والتالذ ، والتقى عليه الولدُ والوالدُ . قولُ أُمَيَّةَ [في « ديوانه » ٥٠٥] :

وَرِثْنَا الْمَجْدَ عَن كُبْرَى نِزَارٍ
وَأَوْرَثْنَا مَآثِرَهُ بَيْنَنَا

[مِن الطَّوِيلِ]

وقولُ عامرِ بنِ الطُّفَيْلِ [في « ديوانه » ١٣] :

وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ ابْنُ سَيِّدِ عَامِرٍ
فَمَا سَوَّدَتْنِي عَامِرٌ عَن وِرَاثَةِ
وَلَكِنِّي أَحْمِي حِمَاهَا وَأَتَقِي
وَفَارِسَهَا الْمَشْهُورَ فِي كُلِّ مَرْكَبِ
أَبَى اللَّهِ أَنْ أَسْمُو بِأُمَّمْ وَلَا أَبِ
أَذَاهَا وَأَرْمِي مَنْ رَمَاهَا بِمَنْكَبِ

[مِن الْكَامِلِ]

وقوله - أو هي للمتوكل الليثي - [في « ديوان الحماسة » ٢/ ٢٦٥] :

لَسْنَا وَإِنْ أَحْسَابُنَا كَرُمَتْ
نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا
يَوْمًا عَلَى الْأَحْسَابِ نَتَكَلُّ
تَبْنِي وَنَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا

[مِن الطَّوِيلِ]

ويقربُ منه قولُ زهيرٍ - وهو ممَّا أجمع أهلُ العلمِ على تقديمه - [في « ديوانه » ٤٢-٤٤] :

وَفِيهِمْ مَقَامَاتٌ حَسَانٌ وَجُوهَهَا
إِذَا جِئْتَهُمْ أَلْفَيْتَ حَوْلَ بِيوتِهِمْ
عَلَى مُكْثِرِيهِمْ حَقٌّ مَنْ يَغْتَرِيهِمْ
وَمَا كَانَ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا
وَأَنْدِيَّةٌ يَنْتَابُهَا الْقَوْلُ وَالْفِعْلُ
مَجَالِسَ قَدْ يُشْفَى بِأَحْلَامِهَا الْجَهْلُ
وَعِنْدَ الْمُقْلِينَ السَّمَاخَةُ وَالْبَذَلُ
تَوَارِثُهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ
وَهَلْ يُنْبِتُ الْخَطِيئَةَ إِلَّا وَشِجْهُ ؟
وَتَغْرَسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا النَّخْلُ ؟^(١)

[مِن الْبَسِطِ]

وقوله [في « ديوانه » ٢٢٨] :

لَوْ كَانَ يَقْعُدُ فَوْقَ الشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ
قَوْمٌ بِأَوْلِيهِمْ أَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوا

(١) الخطيئ : الريح . الوشيج : القنا الملتف في منبته . يقول : لا تنبت القنات إلا القنات ، ولا تغرس النخل إلا بحيث تنبت وتصلح ، وكذلك لا يولد الكرام إلا في موضع كريم .



قَوْمٌ سِنَانٌ أَبُوهُمْ حِينَ تَسْبُهُمْ طَابُوا وَطَابَ مِنَ الْأَوْلَادِ مَا وَلَدُوا
إِنْسٌ إِذَا آمَنُوا جِنٌّ إِذَا فَرَعُوا مُرَرُّوْنَ بِهَالِيلٍ إِذَا جُهِدُوا^(١)

[الإعطاء عند القلة . . أمدح ما يكون بالجود]

وبعدُ : فقوله في القطعة الأولى : (وَعِنْدَ الْمُقْلِينَ السَّمَاحَةُ وَالْبَذْلُ) وقوله في الثانية : (بهَالِيلٍ إِذَا جُهِدُوا) . . أمدح ما يكون بالجود ، وأبلغ ما يمكن من الثناء بالسخاء ؛ لأنَّ معناه : أَنَّهُمْ يَبْذُلُونَ وَيَجُودُونَ عَلَى الْفَاقَةِ وَالْجَهْدِ .

ومنه قول عقيل بن العرنديس يمدح بني عمرو الغنوي [كما في « ديوان الحماسة » ٢/٢٦٩] : [مِنَ الْبَسِيطِ]

إِنْ يُسْأَلُوا الْخَيْرَ أَعْطَوْهُ وَإِنْ جُهِدُوا فَالْجَهْدُ يُخْرِجُ مِنْهُمْ طَيْبَ أَخْبَارِ

وقول المقنع الكندي [كما في « ديوان الحماسة » ٢/٣٤٣] : [مِنَ الْكَامِلِ]

لَيْسَ الْعَطَاءُ مِنَ الْفُضُولِ سَمَاحَةً حَتَّى تَجُودَ وَمَا لَدَيْكَ قَلِيلُ

وقال عمرو بن الأهم^(٢) [كما في « لسان العرب » ٩/٢٥٣] : [مِنَ الْبَسِيطِ]

إِنَّا بَنُو مَنَقَرٍ قَوْمٌ ذُوو حَسَبِ فِينَا سَرَاةٌ بِنِي سَعْدِ وَنَادِيهَا^(٣)
جُرْثُومَةٌ أَنْفٌ يَعْتَفُّ مُقْتَرُهَا عَنِ الْخَبِيثِ وَيُعْطِي الْخَيْرَ مُثْرِيهَا^(٤)
وَالْبَذْلُ مِنْ مُعْدِمِهَا إِنْ أَلَمَّ بِهَا حَقٌّ وَلَا يَشْتَكِيهَا مَنْ يُنَادِيهَا

وهو دون الأولين ؛ إذ تجود فقرأؤهم بلا شرط ولا قيد ، وهؤلاء إنما يبذل مقترؤهم إذا وجبت الحقوق ، فهم أقرب إلى قول أبي الجويرية العنزي :

عَلَى مُوسِرِيهِمْ حَقٌّ مَنْ يَعْتَرِيهِمْ وَعِنْدَ الْمُقْلِينَ اتَّسَاعُ الْخَلَائِقِ

فهو داخل تحت السعة التي أشار إليها الناصح الحكيم [صلى الله عليه وآله وسلم] في قوله : « إِنَّكُمْ لَنْ تَسْعُوا النَّاسَ بِأَرْزَاقِكُمْ ، وَلَكِنْ تَسْعُونَهُمْ بِأَخْلَاقِكُمْ »^(٥) . وخير ما في الأول . . قوله تقدست أسماؤه : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر : ٩] .

[الفخر بالأباء]

ولنعُد إلى حيث انحرف بنا الاستطراد ، فنقول : ذكر ابن خلكان [في « وفيات الأعيان » ٥/١٩١] عن شراحيل بن معن بن زائدة ، أنه قال : إني لأسير تحت قبة يحيى بن خالد البرمكي ، وعديله فيها القاضي أبو يوسف . . إذ عرض له رجل

(١) البهلول : العزيز الجامع لكل خير .

(٢) واسمه عمرو بن سنان ، توفي سنة : (٥٧ هـ) .

(٣) السراة : وسط الشيء وأعله .

(٤) الجرثومة : الأصل . أنف : أيون ، من الأنفة .

(٥) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه الحاكم في « المستدرک » (١/١٢٤) وصححه بلفظ : « وَلَيْسَ عَنْهُمْ مِنْكُمْ بَسْطُ الْوَجْهِ ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ » ، وأبو يعلى في « مسنده » (٦٥٥٠) بلفظ : « وَلَكِنْ يَسْعُهُمْ مِنْكُمْ بَسْطُ الْوَجْهِ » .

من بني أسدٍ في شارةٍ حسنةٍ ، وأنشده شعراً لم يرضه ، ثم قال له : يا أخا بني أسد ، إذا قلت الشعر . . فقل مثل هذا ، وأنشد قولَ مروان بن أبي حفصة [في «ديوانه» ٨٨-٨٩] :

بُوَ مَطَرٍ يَوْمَ اللَّقَاءِ كَأَنَّهُمْ
بِهَالِيلٍ فِي الْإِسْلَامِ سَادُوا وَلَمْ يَكُنْ
هُمُ الْقَوْمُ ، إِنَّ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دُعُوا
وَمَا يَسْتَطِيعُ الْفَاعِلُونَ فِعَالَهُمْ
أَسْوَدٌ لَهُمْ فِي بَطْنِ خُفَّانٍ أَشْبُلُ
كَأَوْلِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَوْلُ
أَجَابُوا وَإِنْ أَعْطُوا أَطَابُوا وَأَجْزَلُوا
وَإِنْ أَحْسَنُوا فِي النَّائِبَاتِ وَأَجْمَلُوا

فاهتز القاضي ، وأعجبته الأبيات كثيراً ، وقال : من قائلها يا أبا الفضل ؟ قال : مروان بن أبي حفصة في والد هذا الفتى . قال شراحيل : فرمقني أبو يوسف بعينه - وأنا على فرس لي عتيق - وقال لي : من أنت يا فتى - حيالك الله تعالى وقربتك ؟ - قلت : أنا شراحيل بن معن بن زائدة الشيباني ، ثم قال شراحيل : والله ما أتت علي ساعة قط . . كانت أقر لعيني من تلك الساعة ارتياحاً وسروراً .

وقال ابن ميادة [في «ديوانه» ٢٧٢] :

بُوَ الصَّالِحِينَ الصَّالِحُونَ وَمَنْ يَكُنْ
فَمَا الْعُودُ إِلَّا نَابِتٌ فِي أَرْوَمَةٍ
لَأَبَاءِ سُوءٍ يَلْقَهُمْ حَيْثُ سَيَّرَا
أَبَى شَجَرُ الْعَيْدَانِ أَنْ يَتَغَيَّرَا^(١)

وقال الكمي [في «ديوانه» ١٤٧/١] :

تَجْرِي أَصَاغِرُهُمْ مَجْرَى أَكَابِرِهِمْ
وَفِي أَرْوَمَتِهِ مَا يَنْبُتُ الشَّجَرُ

وقال أبو تمام [في «ديوانه» ٨٣/٢] :

فُرُوعٌ لَا تَرِفُ عَلَيْكَ إِلَّا
وَفِي الشَّرَفِ الْحَدِيثِ دَلِيلُ صِدْقِ
شَهَدَتْ بِهَا عَلَي طِيبِ الْأَرْوَمِ
لِمُخْتَبِرِ عَلَي الشَّرَفِ الْقَدِيمِ

وقال أبو عبادة :

وَمَا بِي مِنْ خَيْرٍ وَشَرٌّ فَإِنَّهَا
هُمُ الْقَوْمُ فَرَعِي مِنْهُمْ مُتَفَرِّعٌ
سَجِيَّةُ آبَائِي وَفَعَلُ جُدُودِي
وَعُودُهُمْ عِنْدَ الْحَوَادِثِ عُودِي

وقال [في «ديوانه» ٨٣٦/٣] :

نَسَبٌ كَمَا اطَّرَدَتْ كُعُوبٌ مُتَقَفِّفٌ
لَدُنِ يَزِيدُكَ بَسْطَةً فِي الطُّولِ^(٢)

وقال [في «ديوانه» ٢٤٨٢٤٧/١] :

شَرَفٌ تَتَابَعُ كَابِرًا عَن كَابِرِ
وَأَرَى النَّجَابَةَ لَا يَكُونُ تَمَامُهَا
كَالرُّمَحِ أَنْبُوبًا عَلَي أَنْبُوبِ
لِنَجِيبِ قَوْمٍ لَيْسَ بِإِبْنِ نَجِيبِ

(١) العيدان : جمع عيدانة ، وهي أطول ما يكون من النخل ، ولا تكون عيدانة حتى يسقط كرتبها كله ويصير جذعها مجرد من أعلاه إلى أسفله .

(٢) اللدن : اللين .

وقال [في «ديوانه» ١/٥١٠] :

[من الخفيف]

وَهُوَ الْمَجْدُ لَيْسَ يَخْوِيهِ مَنْ لَمْ يَتَقَدَّمَ فِيهِ أَبُوهُ وَجَدُّهُ

وقال [في «ديوانه» ٤/٢٤٠٥] :

[من الكامل]

لَا عُذْرَ لِلشَّجَرِ الَّذِي طَابَتْ لَهُ أَغْرَاقُهُ أَنْ لَا يَطِيبَ جَنَاهُ

وفي أصدق الكلام : ﴿ قَالُوا يَمْرَيْمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا * يَتَّخِذَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴾ [مريم :

٢٨٢٧] .

وقال الناظم [في «المكبري» ١/١٥٢] :

[من الطويل]

فَتَى عَلَّمْتَهُ نَفْسَهُ وَجُدُوهُ قِرَاعَ الْأَعَادِي وَابْتِذَالَ الرَّغَائِبِ

وقال [في «المكبري» ٣/٢٩٩] :

[من الطويل]

فَلَا قَطَعَ الرَّحْمَنُ أَضْلًا أَتَى بِهِ فَإِنِّي رَأَيْتُ الطَّيِّبَ الطَّيِّبَ الْأَصْلِ

وقال [في «المكبري» ٤/١٣٢] :

[من الكامل]

أَفْعَالٌ مَنْ تَلِدُ الْكِرَامُ كَرِيمَةً وَفَعَالٌ مَنْ تَلِدُ الْأَعَاجِمُ أَعْجَمٌ^(١)

[صلاح الآباء يسري إلى الأبناء]

وَلَا شَكَّ أَنَّ لِأَحْوَالِ الْآبَاءِ عِلَاقَةً قَوِيَّةً بِأَحْوَالِ الْأَبْنَاءِ - صلاحاً وفساداً - مِنْ الْأَبِّ السَّابِعِ فَمَنْ دُونَهُ ، كَمَا فَصَّلْتُ ذَلِكَ وَدَلَّلْتُ عَلَيْهِ بِالشَّرْحِ وَأَقْوَالِ أَهْلِ الْأَدَبِ فِي رِسَالَةٍ لِي فِي عِلْمِ الْأَخْلَاقِ ، غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ كَثِيرٌ أَمَا يَتَخَلَّفُ لِأَسْبَابٍ عَادِيَّةٍ ، وَأُمُورٍ خَارِجِيَّةٍ ، فَكَمْ مِنْ جَلِيلٍ ذَهَبَ أَبْنَاؤُهُ فِي غَيْرِ طَرِيقِهِ ، كَمَا يَحْكِي عَنْ بَعْضِ أَوْلَادِ سَيِّدِي عَبْدِ الْقَادِرِ الْجِيلَانِيِّ . وَخَرَجَ أَحَدُ أَبْنَاءِ إِمَامِ دَارِ الْهَجْرَةِ وَمَعَهُ الْحَمَامُ يَلْعَبُ بِهِ - وَقَدْ طَرَّ عِذَارُهُ - فَتَغَامَزَ أَصْحَابُ الْإِمَامِ . . . فَفُطِنَ لِذَلِكَ وَقَالَ [في «الديباج المذهب» ١٨] : الْأَدَبُ أَدَبُ اللَّهِ لَا آدَابُ الْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ .

ويحكي : أَنَّ ابْنَ عِرْفَةَ حَضَرَ عَقْدَ نِكَاحِ شَيْخِهِ ابْنِ عَبْدِ السَّلَامِ لَوْلِيهِ ، وَكُتِبَ خَطُّ الصَّدَاقِ ، وَوَضَعَ أَهْلُ الْمَجْلِسِ شَهَادَتَهُمْ فِيهِ ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى ابْنِ عِرْفَةَ لِيَكْتُبَ شَهَادَتَهُ . . . وَجَدَ فِيهِ : تَرْوِجَ الْعَالِمِ الْفَاضِلِ ، فَامْتَنَعَ مِنْ كِتَابَةِ شَهَادَتِهِ ، وَقَالَ : لَمْ أَعْرِفْ لَهُ عِلْمًا حَتَّى أَشْهَدَ بِهِ ، فَقَالَ لَهُ شَيْخُهُ : إِنَّكَ جَاهِلٌ ، إِنَّمَا أَنْتَ تَشْهَدُ عَلَى النِّكَاحِ لَا الْعِلْمِ .

ويستتج منه : أَنَّ ابْنَ الشَّيْخِ لَمْ يَكُنْ عَالِمًا ، وَهُوَ مَوْضِعُ الشَّاهِدِ ، وَأَنَّهُمْ تَسَامَحُوا بِذِكْرِ الْعِلْمِ فِي الْوَثِيقَةِ مَعَ عَدَمِ وَجُودِهِ ، وَأَنَّ الشَّيْخَ أَغْضَبَهُ انْتِزَاعُ صِفَةِ الْعِلْمِ عَنْ وَلِيِّهِ ، وَإِلَّا . . . فَمَا كَانَ لَهُ أَنْ يَخَاطَبَ الْإِمَامَ ابْنَ عِرْفَةَ بِقَوْلِهِ : يَا جَاهِلٌ ، وَإِنْ كَانَ تَلْمِيزًا لَهُ .

أما حكم المسألة : فقد قررناه في المسألة (٩٤٠) من كتابنا « صوب الركام » .

(١) الأعجم عند العرب : هو اللثيم .

وعبارة « الجَمْع » لابن السبكي : وموردُ الصّدقِ والكذبِ النسبةُ التي تضمّنّها ؛ أي : الخيرُ ليسَ غيرُ ، كقائِمِ في (زيدُ بنُ عمرو قائمٌ) لا بنوّةُ زيد ، ومن ثمَّ قالَ مالِكٌ وبعضُ أصحابنا : الشهادةُ بتوكيلِ فلانِ بنِ فلانٍ فلاناً ، شهادةٌ بالوكالةِ فقط ، والمذهبُ بالنسبِ ضمناً ، والوكالةُ أصلاً . انتهت . وما ذكره أخيراً هو الذي لاحظهُ ابنُ عرفة ، واعتمدهُ ابنُ حجرٍ في « تحفته » .

[وقبل كل شيء السعادة الأزلية]

وفي « تفسيرِ البَغَوِيِّ » [٢٢٩/٣] : أنّ السامريّ - الذي عبدَ العجلَ - كانَ اسمُهُ موسى ، وأَنَّهُ لَمَّا ولدتهُ أمُّهُ في السنةِ التي يقتلُ فيها الأبناءُ .. وضعتُهُ في كهفٍ من خَوفِها عليه ، فأمرَ اللهُ عزَّ وجلَّ جبرائيلَ بتربيتهِ ؛ لما سبقَ في الأزلِ لهُ وبه من الفتنَةِ ، انتهى بمعناه .

[قد تخلف الوردة شوكاً]

وفي ذلك يقولُ بعضهم :

إِذَا الطُّفْلُ لَمْ يُكْتَبْ سَعِيداً تَخَلَّفَتْ ظُنُونٌ مُرَيَّبَةٌ وَخَابَ المُوَمَّلُ
فَمُوسَى الَّذِي رَبَّاهُ جَبْرِيْلُ كَافِرٌ وَمُوسَى الَّذِي رَبَّاهُ فِرْعَوْنُ مُرْسَلٌ

وقالَ حسانُ بنُ ثابتٍ - في هجاءِ أبي سفيانَ بنِ الحارثِ - :

أَبُوكَ أَبٌ حُرٌّ وَأُمُّكَ حُرَّةٌ وَقَدْ يَلِدُ الحُرَّانِ غَيْرَ نَجِيبِ

وقالَ بعضهم يهجو شقيقه [كما في « الاغاني » ١٣/١١١] :

أَبُوكَ أَبِي وَأَنْتَ أَحْيَى وَلَكِنْ تَفَاضَلَتِ الطَّبَائِعُ وَالظُّرُوفُ
وَأُمُّكَ حِينَ تَنْسَبُ أُمُّ صِدْقٍ وَلَكِنْ ابْنَهَا طَبِيعٌ سَخِيفٌ^(١)

وقالَ آخرُ :

لَيْتَنِ فَخَرْتَ بِآبَاءِ لَهُمْ نَسَبٌ لَقَدْ صَدَقْتَ وَلَكِنْ بِسَمَا وَلَدُوا

وقالَ غيرهُ :

إِذَا انْتَسَبُوا فَفَرِّعْ مِنْ فَرِيشِ وَلَكِنَّ الفِعَالَ فِعَالٌ عَكْلِ

وقالَ الحارثيُّ :

شَرِيفٌ بِجَدِّيهِ وَضِيعٌ بِنَفْسِهِ لَيْتِمُ مُحَيَّاهُ كَرِيمُ المُرَكَّبِ^(٢)

وقالَ أبو تمامٍ [في « ديوانه » ٢/٢٢٩] :

يَا أَكْرَمَ النَّاسِ آبَاءٌ وَمُفْتَحَرَا وَالْأَمَّ النَّاسِ مَبْلُوءَا وَمُخْتَبَرَا

(١) الطَّبِيعُ : الكَسِيلُ .

(٢) المُحَيَّاهُ : الوجهُ . المُرَكَّبُ : الأصلُ ، تقولُ : فلانٌ كريمٌ المُرَكَّبِ ؛ أي : كريمٌ أصلٌ مَنْصِبِهِ في قومِهِ .

ونظر خالد بن صفوان إلى لثيم نفس كريم الأبوين . . فقال : سبحان من قال : يُخْرِجُ الخبيثَ من الطَّيِّبِ ، ثمَّ أشدَّ
لِحَسَانٍ في أبي سفيان - أيضاً - :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

فَمَا خَبَتْ مِنْ فَضَّةٍ بِعَجِيبِ فَلَا يَعْجَبَنَّ النَّاسُ مِنْكَ وَمِنْهُمَا

[مِنَ الوَافِرِ]

وقال الناظم [في « العكبري » ١٤٤/٤] :

أَرَى الأَجْدَادَ تَغْلِبُهَا كَثِيرًا عَلَى الأَوْلَادِ أَخْلَاقُ اللُّثَامِ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

ويقال فيمن لؤم أبواه :

أَبٌ غَيْرُ مَحْمُودِ السَّجِيَّاتِ سَفَلَةٌ وَوَالِدَةٌ فِيهَا الحَدِيثُ يَطُولُ

وسمع بعض الصالحين ولده يفتخر ، فقال له : أمَّا أُمَّكَ : فقد اشتريتها بثلاثين درهماً ، وأمَّا أبوك : فلا أكثر الله
مثلهُ في المسلمين .

[أبو دلامة وبنته]

[مِنَ الوَافِرِ]

وقال أبو دلامة - في بنت له بالث عليه - [في « ديوانه » ٩٥] :

بَلَلْتِ عَلَيَّ - لَأَحْيَيْتِ - ثَوْبِي فَبَالَ عَلَيْنِكَ شَيْطَانٌ رَجِيمٌ

[مِنَ الوَافِرِ]

ثم قال للسيد الحميري : أجز ، فقال من غير تلبث [كما في « ديوان أبي دلامة » ٩٥] :

صَدَقْتَ أَبَا دُلَامَةَ لَمْ تَلِدْهَا مُطَهَّرَةً وَلَا فَخْلٌ كَرِيمٌ
وَلَكِنْ قَدْ حَوَتْهَا أُمُّ سُوءٍ إِلَيَّ لِبَاتِهَا وَأَبٌ لَيْثِيمٌ

فقال أبو دلامة : لعنة الله عليك ، ما دعاك إلى هذا كله .

[خسة الأم تودي بالأبناء إلى الحضيض]

أمَّا خِسةُ الأُمِّ . . فكثيراً ما تأخذُ بأبنائها إلى الحضيضِ ، وإن كرمتِ الآباءُ ، قال بعضُ العربِ [وهو رافعُ بنُ هُرَيمٍ في
لسان العرب « ٢٠١/٦] :

[مِنَ الوَافِرِ]

وَلَوْ كُنْتُمْ لِمُكَيْسَةَ لَكَيْسْتُمْ وَكَيْسُ الأُمِّ يَظْهَرُ فِي البَيْنَا^(١)

[مِنَ الوَافِرِ]

وقال آخر [وهو أوس بن حجر في « ديوانه » ٥٦] :

وَرِثْنَا المَجْدَ عَن آبَاءِ صِدْقٍ أَسَأْنَا فِي دِيَارِهِمُ الصَّنِيْعَا
إِذَا الحَسَبُ الصَّمِيمُ تَدَاوَلَتْهُ بَنَاتُ السُّوءِ أَوْشَكَ أَنْ يَضِيْعَا

[مِنَ المِتْقَارِبِ]

وقال خفاف بن ندبة [في « ديوانه » ١٠٨] :

كَلَانَا يَسُودُهُ قَوْمُهُ عَلَيَّ ذَلِكَ النَّسَبِ المُظْلِمِ

يعني : أَنَّهُ هُوَ والعبَّاسُ بنُ مرداسٍ يسودُهُما قومُهُما ، مع أَنَّهُمَا مِن جَارِيَتَيْنِ .

(١) مُكَيْسَةُ : تَلدُ الأَكْيَاسَ ، والأَكْيَاسُ : هُمُ الأَدْكِيَاءُ المِتْوَقِدُونَ .

وقال الأعورُ الشنئي [كما في «لسان العرب» ١٠/٤٤٩]:

[مِن الطَّوِيلِ]

وَمَا يَسْتَوِي الْمَرَّانُ هَذَا ابْنُ حُرَّةٍ
قَعْدَانٌ بِهِ خَالَاتُهُ فَخَذَلْنَاهُ
وَهَذَا هَجِيْنٌ بَضَعَهُ مُشْرَكٌ^(١)
أَلَا إِنَّ عِرْقَ الشُّوءِ لَا بُدَّ يُدْرِكُ

[مِن الطَّوِيلِ]

وقال الحصينُ بنُ الحُمَامِ [بل يزيد بن الحكم كما في «ديوان الحماسة» ١/٧٨]:

دَفَعْنَاكُمْ بِالْحِلْمِ حَتَّى بَطَرْتُمْ
فَلَمَّا رَأَيْنَا جَهْلَكُمْ غَيْرَ مُتِّهِ
وَمَا قَدْ مَضَى مِنْ حِلْمِكُمْ غَيْرَ رَاجِعٍ
إِلَى حَسَبٍ فِي قَوْمِهِ غَيْرُ وَاضِعٍ
فَلَمَّا بَلَّغْنَا الْأُمَهَاتِ وَجَدْتُمْ
بَيْنِي عَمَّكُمْ كَانُوا كِرَامَ الْمُضَاجِعِ^(٢)

[اختيار الأم من الدين]

فَتَخَيَّرُ الْأُمَهَاتِ مِنْ وَاجِبَاتِ الشَّرْعِ ، وَقَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « تَخَيَّرُوا لِنُطْفِكُمْ ؛ فَإِنَّ الْعِرْقَ دَسَّاسٌ »^(٤) .

[مِن الطَّوِيلِ]

وقال الشاعرُ :

وَأَوَّلُ إِحْسَانِي إِلَيْكُمْ تَخَيَّرِي
لِمَاجِدَةِ الْأَعْرَاقِ بَادٍ عَفَافَهَا

[مِن الطَّوِيلِ]

وقال أبو عبيدة العنبريُّ :

وَأَوَّلُ حُبِّهِ الْمَرْءِ حُبُّ تَرَابِهِ
وَأَوَّلُ لُؤْمِ الْقَوْمِ لُؤْمُ الْحَلَائِلِ

وقال الزُّبَيْرُ بنُ العَوَّامِ [متمثلاً بكلام سيدنا أبي بكر رضي الله عنه كما في «المتنظم حتى سنة : (٢٥٧ هـ) « ٤/٣٤٥] : مَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَزَوَّجَ امْرَأَةً . . . فَلْيَنْظُرْ إِلَى أَبِيهَا وَأَخِيهَا ، فَإِنَّهَا تَجِيءُ لَهُ بِمِثْلِ أَحَدِهِمَا .

ويروى [كما في «لسان العرب» ١/٩١] : أَنَّ قَيْسَ بْنَ عَاصِمِ الْمَنْقَرِيِّ - سَيِّدَ أَهْلِ الْوَبْرِ - : قَامَ يُرْقِصُ وَلَدًا لَهُ مِنْ نَفُوسَةِ ابْنَةِ زَيْدِ الْفَوَارِسِ . . . فَقَالَ لَهُ :

[مِن الرَّجَزِ]

أَشْبَهُ أَبَا أُمَّكَ أَوْ أَشْبَهُ حَمَلٍ
وَأَزَقًا إِلَى الْخَيْرَاتِ زَنَاءُ فِي الْجَبَلِ^(٥)

(١) البَضْعَةُ : القطعة والجزء . مُشْرَكٌ : اشترك فيه كثيرون .

(٢) الْبَطْرُ : قَلَّةُ احتمال النعمة .

(٣) المضاجع : كناية عن الأزواج ، أي : نظرنا فإذا نحن وأنتم سواء في شرف الآباء ، ولكننا أكرم أمهات منكم .

(٤) هذا طرف من حديثين : عن عائشة رضي الله عنها أخرج الشطر الأول منه ابن ماجه (١٩٦٨) والحاكم في «المستدرک» (٢٦٨٧) ، بلفظ : « تَخَيَّرُوا لِنُطْفِكُمْ ، وَأَنْكَحُوا الْأَكْفَاءَ . . . » .

وأخرج الشطر الثاني منه أبو عبد الله القضاعي في «مسند الشهاب» (٦٣٨) بلفظ : « . . . وَأَنْظُرْ فِي أَيِّ نِصَابٍ تَضَعُ وَلَدَكَ ، فَإِنَّ الْعِرْقَ دَسَّاسٌ » .

(٥) الزنأ : الصعود . ولكن هذا البيت متداخل من بيتين وهما :

أَشْبَهُ أَبَا أُمَّكَ أَوْ أَشْبَهُ حَمَلٍ
يُضْبِحُ فِي مَضْجِعِهِ قَدْ أَنْجَدَلْ
وَلَا تُكْرَمُونَ كَهَلْزَفٍ وَكَوَلٍ
وَأَزَقًا إِلَى الْخَيْرَاتِ زَنَاءُ فِي الْجَبَلِ

فَأَخَذَتْهُ نَفُوسُهُ ، وَقَالَتْ :

[مِنَ الرَّجْزِ]

أَشْبَهُ أَخِي أَوْ أَشْبَهَنُ أَبَاكَ أُمَّأَ أَبِي فَلَنْ تَنَالَ ذَاكَ
تَقْصِرُ أَنْ تَنَالَهُ يَدَاكَ

[مِنَ الْكَامِلِ]

وَمِنْ أَمْدَحٍ مَا يَكُونُ بِالْخَوْوَلَةِ . . . قَوْلُ أَبِي عُبَادَةَ [فِي « دِيْوَانِهِ » ٢١/١] :

وَخَوْوَلَةٍ فِي هَاشِمٍ وَدَّ الْعِدَا أَنْ لَمْ تَكُنْ وَلَهُمْ بِهَا مَا شَاؤُوا
بَيْنَ الْعَوَاتِكِ وَالْفَوَاطِمِ مُتَمَمَى تَزْكُوا بِهِ الْأَحْوَالُ وَالْآبَاءُ

[أَخْتٌ لِقَمَانَ تَأْتِي بَوْلِدٍ مِنْهُ]

وَيُذَكَّرُ [كَمَا فِي « الْبَيَانِ وَالْتَبْيِينِ » ١٠٨/١] : أَنَّ أُمَّتَ لِقَمَانَ كَانَتْ تَحْتَ رَجُلٍ لَا يُنْجِبُ ، فَالْتَمَسَتْ مِنْ زَوْجِهِ أَنْ تَدَعَ لَهَا فِرَاشَ أَخِيهَا لَيْلَةً - مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ - فَاسْتَمَلَّتْ مِنْهُ عَلَيَّ وَلِدٍ بِاسْقَةِ ، يَقُولُ فِيهِ النَّمِرُ بْنُ تَوْلَبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - [فِي « دِيْوَانِهِ » ١٠٦-١٠٧] :

[مِنَ الْمُتْقَارِبِ]

لَقَيْتُمُ بِنُ لِقَمَانَ مِنْ أُخْتِهِ وَكَانَ ابْنُ أُخْتٍ لَهُ وَابْنَمَا
لِيَالِي حُمَّقَ فَاسْتَحْضَنْتُ إِلَيْهِ فَجَامَعَهَا مُظْلَمًا
فَأَحْبَلَهَا رَجُلٌ نَابَهُ فَجَاءَتْ بِهِ رَجُلًا مُحْكَمًا

(وَحُمَّقٌ) : مَبْنِيٌّ لِلْمَفْعُولِ مُشَدَّدٌ ، وَالْمَرَادُ : لِيَالِي شَرِبَ الْخَمْرَ ، وَلَيْسَ هَذَا بَلِقَمَانَ الْحَكِيمِ ، وَإِنَّمَا هُوَ غَيْرُهُ عَلَى الْأَشْهَرِ .

[حَاتِمُ الطَّائِي يَخْطُبُ امْرَأَةً فَتَرَدُّهُ]

وَيُرْوَى : أَنَّ حَاتِمًا الطَّائِيَّ خَطَبَ هِنْدَ ابْنَةَ عَتَبَةَ . . . فَرِغَتْ عَنْهُ ، وَلَمَّا عَدَلَهَا أَهْلُهَا . . . قَالَتْ : إِنَّهُ لَا يَنْجِبُ ، فَتَزَوَّجَ أُخْرَى وَوَلَدَتْ لَهُ غُلَامًا ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ سِنَّ التَّمْيِيزِ . . . خَرَجَ بِهِ أَبُوهُ يَسْتَعْرِضُ النَّعَمَ ، فَرَأَى عِجْلَةً صَغِيرَةً أَعْجَبَتْهُ ، فَقَالَ : يَا أَبَتِ مَنْ أَيْ الْخَيْلِ هَذِهِ ؟ قَالَ : صَدَقْتَ هِنْدُ إِذْ زَعَمْتَ أَنِّي لَا أَنْجِبُ .

وَقَدْ أَنْكَرَ بَعْضُ الْمُتَحَدِّثِينَ هَذَا مَرَّةً عَلَيَّ ، وَقَالَ : فِيهِ حُطٌّ مِنْ مَقَامِ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، فَقُلْتُ لَهُ :

أَوَّلًا : إِنَّهُ لَمْ يَتَّعِنَ فِي الرِّوَايَةِ ، وَإِنْ كَانَ أَكْثَرَ الظَّنِّ أَنَّ الْمَرَادُ .

وَأَمَّا ثَانِيًا : فَإِنَّهُ غَيْرُ مَدَافِعٍ فِي شَرَفِ صَحْبَتِهِ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، وَحَسَنٍ وَفَائِهِ لِعَلِيِّ رِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ، وَمَعَ ذَلِكَ . . . فَقَدْ دَفَعَهُ عَنِ النَّجَابَةِ مَنْ لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ، وَقَالَ لَهُ : « إِنَّكَ لَعَرِيضُ الْقَفَا » (١) .

وَأَمَّا شَرَفُ الْأُمِّ : فَقَلَمًا يَفِيدُ إِلَّا بِمَسَاعِدَةٍ مِنْ جِهَةِ الْأَبِ .

[مِنَ الطَّوِيلِ]

قَالَ غَسَّانُ بْنُ وَعَلَةَ [فِي « دِيْوَانِ الْحِمَاسَةِ » ٢٠١/١] :

إِذَا كُنْتَ فِي سَعْدٍ وَأُمَّكَ مِنْهُمْ شَطِيرًا فَلَا يَنْغُرُكَ خَالِكَ مِنْ سَعْدٍ
وَإِنْ ابْنُ أُخْتِ الْقَوْمِ مُضْغَى إِنَاؤُهُ إِذَا لَمْ يُزَاحَمْ خَالُهُ بِأَبٍ جَلْدٍ

(١) أَخْرَجَهُ الْبَخَارِيُّ (٤٥١٠) فِي التَّفْسِيرِ ، عَرِيضُ الْقَفَا : كَثِيرُ النَّوْمِ ، وَذَلِكَ دَلِيلُ الْغَبَاوَةِ .

[قد يستفرغ الآباء الشرف والمجد ولا يبقون لأعقابهم شيئاً]

وكثيراً ما يستفرغ الآباء فروع المجد والشرف ، ولا يبقون لأعقابهم منه إلا النزرَ الحقيق ، كما رأيته في « شرح النهج » [٤٥/١٢] عن حال سيدنا عمر بن الخطاب ، وقد ذكرَ آباؤنا من العلم والعبادة والورع والزهادة . . ما تكاد تنخرقُ به العادة ، يشهدُ ببعضه النقل ، ويدلُّ له العيان ، وإن دَفَعَ العقل ، وقد حصلَ لأعقابهم من الانحطاطِ ما أخشى أن يكونَ مصداقاً ما أثارَ عن ابن الخطاب .

[متى ينفع الحسب والنسب الابن]

ثُمَّ إِنَّ شَرَفَ الْآبَاءِ لَا يَنْتَفِعُ بِهِ الْأَبْنَاءُ إِلَّا إِذَا كَانُوا مِنْهُ عَلَى طَرَفٍ صَالِحٍ ، بِشَهَادَةِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الطور : ٢١] .

وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقَهُوا » (١) .
وللهِ دَرُّ سَيِّدِنَا الْجَدَّادِ فِي قَوْلِهِ :

[مِنَ الْمَدِينِ]

لَا وَلَا تَقْنَعُ بِكَانَ أَبِي وَاتَّبِعْ فِي الْهَدْيِ خَيْرَ نَبِي

[مِنَ الطُّوَيْلِ]

وَقَالَ عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ :

وَوَارِثِ مَجْدٍ لَمْ يَنْلُهُ وَمَاجِدٍ أَصَابَ بِمَجْدٍ طَارِفٍ غَيْرِ مُتَلَدٍ
فَلَا تَعْقِرَنَّ عَنْ سَعْيٍ مَنْ قَدْ وَرِثَتْهُ وَمَا اسْطَغَتْ مِنْ خَيْرٍ لِنَفْسِكَ فَازْدَدِ

[مِنَ الْكَامِلِ]

وَقَالَ كِشَاجِمُ [فِي « دِيْوَانِهِ » ٢٨٥] :

وَإِذَا افْتَخَرْتَ بِأَعْظَمِ مَقْبُورَةٍ فَالنَّاسُ بَيْنَ مُكَذِّبٍ وَمُصَدِّقٍ
فَأَقِمِ لِنَفْسِكَ فِي انْتِسَابِكَ شَاهِدًا بِحَدِيثِ مَجْدٍ لِلْقَدِيمِ مُحَقَّقِ

[مِنَ الْكَامِلِ]

وَقَالَ آخَرُ [الْفَرَزْدَقِيُّ فِي « دِيْوَانِهِ » ٣٥٠/٢] :

زَانُوا قَدِيمَهُمْ بِحُسْنِ حَدِيثِهِمْ وَكَرِنِمَ أَخْلَاقِي بِحُسْنِ وُجُوهِ

[مِنَ الْكَامِلِ]

وَقَالَ غَيْرُهُ :

قَدْ زَيَّنُوا أَحْسَابَهُمْ بِسَمَاحِهِمْ لَا خَيْرَ فِي حَسَبٍ بَغَيْرِ سَمَاحِ

[مِنَ الْمُنْسَرَجِ]

وَقَالَ الْبُحْتَرِيُّ [فِي « دِيْوَانِهِ » ٢٧٩/١] :

وَلَسْتُ أَعْتَدُ لِلْفَتَى حَسَبًا حَتَّى يُرَى فِي فَعَالِهِ حَسْبُهُ

[مِنَ الطُّوَيْلِ]

وَقَالَ ابْنُ الرَّومِيِّ [فِي « دِيْوَانِهِ » ١٥٠/١] :

وَمَا الْحَسَبُ الْمَوْزُوتُ لَا دَرَّ دَرُّهُ لَمْحْتَسَبُ إِلَّا بِأَخَرٍ مُكْتَسَبِ (٢)
إِذَا الْغُصْنُ لَمْ يُثْمِرْ وَإِنْ كَانَ شُعْبَةً مِنَ الْمُثْمِرَاتِ اعْتَدَهُ النَّاسُ فِي الْحَطَبِ

(١) أخرجه البخاري (٣٤٩٣) في المناقب .

(٢) مُحْتَسَبٌ : مِنَ الْعَدِّ ؛ أَي : مُحْسَبٌ وَمَعْدُودٌ فِي مَفَاخِرِكَ .

وقال البَغَا :

[مِن الطَّوِيلِ]

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَبْنِ افْتِخَاراً لِنَفْسِهِ
وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَكُونُ طَرِيقُهُ

وقال آخرُ [كما في « سير أعلام النبلاء » ٤/٤١١] :

[مِن المتقاربِ]

وَمَا يَنْفَعُ الْأَصْلُ مِنْ هَاشِمٍ
إِذَا كَانَتِ النَّفْسُ مِنْ بَاهِلَةٍ

[مِن الطَّوِيلِ]

وقال الناظِمُ [في « المُكَبَّرِي » ١/١٥٦] :

إِذَا عَلَوِيٌّ لَمْ يَكُنْ مِثْلَ طَاهِرٍ
فَمَا هُوَ إِلَّا حُجَّةٌ لِلنَّوَاصِبِ^(١)

[مِن الطَّوِيلِ]

وقال الخزيميُّ [في « ديوانه » ٥٠] :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَحْمِ الْقَدِيمَ بِحَادِثٍ
مِنَ الْمَجْدِ لَمْ يَنْفَعَكَ مَا كَانَ مِنْ قَبْلُ

وما أكثر ما يقول المهلبُ ابنُ أبي صفرةَ لبيته : لا تتكلموا على ما سبق من فعلي ، وافعلوا ما يُنسبُ إليّ ، ثمَّ ينشدُ
متمثلاً [البيت لقيس بن عاصم كما في « الأغاني » ١٤/٨٢] :

[مِن الخفيفِ]

إِنَّمَا الْمَجْدُ مَا بَنَى وَالِدُ الصُّدِّ
قِ وَأَخِيًّا فَعَالَهُ الْمَوْزُودُ^(٢)

[مِن المنسرحِ]

وسمع ابنُ أبي ربيعةَ إنساناً يقولُ :

كُنِ ابْنٌ مَن شِئْتَ وَاکْتَسَبَ أَدْبَاً
يُغْنِيكَ مَحْمُودُهُ عَنِ النَّسَبِ

[مِن المنسرحِ]

فقالَ له : اسكتْ ، لا فخرَ لك في ذلكَ ، ثمَّ أنشأ يقولُ :

لَا فَخْرَ إِلَّا فَخْرًا مُنْتَحَبِ
يَسْمُوبِ بِأُمِّ كَرِيمَةٍ وَأَبِ

[مِن الطَّوِيلِ]

وقال الشريفُ الرضيُّ [في « ديوانه » ١/١٦٥] :

فَخَرْتُ بِنَفْسِي لَا بِقَوْمِي مُوقِّراً
عَلَى نَاقِصِي قَوْمِي مَآثِرَ أُسْرَتِي

(١) النواصبُ : الخوارجُ ، وسُمُّوا بذلك لنصبتهمُ العداوةَ لعليِّ رضي الله عنه .

(٢) هذا البيتُ قاله قيسُ بنُ عاصمٍ حينَ كان يُحتَضِرُ ، وهو منَ ضمِنَ وصيِّ له وهي :

يا بَنِي إِذَا مِتُّ . . فَسُودُوا كِبَارَكُمْ ، وَلَا تَسُودُوا صِغَارَكُمْ ؛ فَيُسْفَهُ النَّاسُ كِبَارَكُمْ ، وَعَلَيْكُمْ بِإِصْلَاحِ الْمَالِ ؛ فَإِنَّهُ مُنْبَهُةٌ لِلْكَرِيمِ ، وَبِهِ يُسْتَفْنَى عَنِ اللَّثِيمِ ، وَإِذَا
مِتُّ . . فَادْفَنُونِي فِي ثِيَابِي الَّتِي كُنْتُ أُصَلِّي فِيهَا وَأَصُومُ . . . ثُمَّ جَمَعَ ثَمَانِينَ سَهْمًا وَرَبَطَهَا بِوَتَرٍ ، ثُمَّ قَالَ : اكسروها فلمَ يستطيعوا ، ثُمَّ قَالَ : فَرَّقُوا ،
فَرَّقُوا ، فَقَالَ : اكسروها سَهْمًا سَهْمًا فَكسروها ، ثُمَّ قَالَ : هكذا أنتم في الاجتماعِ وفي الفُرقةِ ، ثُمَّ قَالَ :

إِنَّمَا الْمَجْدُ مَا بَنَى وَالِدُ الصُّدِّ
وَتَمَامُ الْفَضْلِ الشُّجَاعِ وَالْحِلْ
قِ وَأَخِيًّا فَعَالَهُ الْمَوْزُودُ
يَبْلُغُ الْجَنَّتِ الْأَضْعَفُ الْمَجْهُرُ

ثمَّ ماتَ ، فقالَ عبدةُ بنُ الطَّيِّبِ يرثيه :

عَلَيْكَ سَلَامٌ اللَّهُ قَيْسَ بْنَ عَاصِمٍ
تَحِيَّةً مِّنْ أَوْلِيَّتِهِ مِنْكَ نِعْمَةً
وَرَحْمَتُهُ مَا شَاءَ أَنْ يَتَرَحَّمَا
فَمَا كَانَ قَيْسٌ هُلُكُهُ هُلُكُ وَاحِدٍ
إِذَا زَارَ عَن شَخْطِ بِلَادِكَ سَلَمًا
وَلَكِنَّهُ بَيْنَهُمَا قَوْمٌ تَهْدُ

إِلَّا أَنَّهُ وَاللَّهِ أَسَاءَ الْأَدَبِ ؛ إِذِ الْإِنْتِسَابُ إِلَى سَادَةِ الْكُونِ لَا يُوَازِيهِ فَخْرٌ ، وَلَا يَدَانِيهِ مَجْدٌ ، وَلَوْ أَنَّهُ افْتَرَشَ الثَّرِيًّا ، وَأَوْطَأَ قَدَمَهُ السَّمَاءَ .

وقال أبو عبادة [كما في «ديوانه» ٨/١] :

أَغْنَى جَمَاعَةَ طَيِّءٍ عَمَّا ابْتَنَتْ أَبَاؤُهَا الْقَدَمَاءُ لِالْبَتْنَاءِ
فَإِذَا هُمْ افْتَخَرُوا بِهِ لَمْ يَبْجَحُوا بِقَدِيمِ مَا وَرِثُوا مِنَ الْعَلْيَاءِ^(١)

وقال لبعض العلويّة وقد أكرمه [كما في «ديوانه» ٣/١٩٦٣] :

لَا تُوجِبُنْ لِكَرِيمٍ أَصْلِكَ مِنْةً لَوْ كُنْتَ مِنْ عُكْلِ لَكُنْتَ كَرِيمًا

وقال دعبل [في «ديوانه» ٦٨] :

لَوْ لَمْ تَكُنْ لَكَ أَجْدَادٌ تَنْوؤُ بِهِمْ إِلَّا بِنَفْسِكَ نَلْتَ النَّجْمَ مِنْ كَثَبِ

وكان الأحرى بالرضي أن يقول ما قال أبو المظفر الأبيوردئي ، الفقيه الشافعي ؛ لأنه الأحق به ، وهو [في «طبقات ابن

السبكي» ٨٣/٦] :

يَا مَنْ يُسَاجِلِنِي وَلَيْسَ بِمُذْرِكٍ شَأْوِي وَأَيْنَ لَهُ جَلَالَةٌ مَنْصِبِي؟!
لَا تَتَعَبَنَّ فَدُونَ مَا حَاوَلْتَهُ خَرُطُ الْقَتَادَةِ وَامْتِطَاءُ الْكُوكَبِ
وَالْمَجْدُ يَعْلَمُ أَئِنَّا خَيْرٌ أَبَا فَاسْأَلْهُ يَعْلَمُ أَيُّ ذِي حَسَبِ أَبِي؟
جَدِّي مُعَاوِيَةَ الْأَعْرُ سَمَتْ بِهِ جُرْثُومَةٌ مِنْ طِينِهَا خُلِقَ النَّبِيُّ
وَوَرِثْتُهُ شَرَفًا رَفَعْتَ مَنَارَهُ فَبَنُوا أُمِّيَّةً يَفْخَرُونَ بِهِ وَبِي

[الفخار والمجد الذي لا يبید]

ويروى : أَنَّ الْحُسَيْنَ دَخَلَ عَلَى يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ ، فَجَعَلَ يَزِيدُ يَفْتَحُرُهُ وَيَقُولُ : نَحْنُ وَنَحْنُ ، وَالْحُسَيْنُ سَاكِتٌ ، حَتَّى أَذَّنَ الْمُؤَدِّنُ ، فَلَمَّا قَالَ : أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ . . . قَالَ لَهُ : أَبُو مَنْ هَذَا يَا يَزِيدُ ؟ وَلَعَلَّ الدَّاحِلَ غَيْرَ الْحُسَيْنِ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ ، أَوْ الْمَدْحُولَ عَلَيْهِ مُعَاوِيَةَ .

وَمِنْ هَذِهِ الْقِصَّةِ أَخَذَ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ جَعْفَرٍ قَوْلَهُ :

لَقَدْ فَاخَرْتَنَا مِنْ قُرَيْشٍ عِصَابَةٌ بِمَاطٍ خُدُودٍ وَامْتِدَادٍ أَصَابِعِ
فَلَمَّا تَنَازَعْنَا الْفَخَارَ . . . قَضَى لَنَا عَلَيْهِمْ بِمَا نَهَوَى نِدَاءَ الصَّوَامِعِ

وهو القائل - أيضاً - :

بَلَّغْنَا السَّمَاءَ بِأَنْسَابِنَا وَلَوْلَا السَّمَاءُ لَجُزْنَا السَّمَاءَ
يَطْيِبُ الثَّنَاءُ لِأَبَائِنَا وَذَكَرُ عَلِيٍّ يَزِينُ الثَّنَا

(١) يَبْجَحُوا : يَفْخَرُوا .

وقال ابن ميادة [في «ديوانه» ٢٠٦] :

إِذَا حَلَّ بَيْتِي بَيْنَ بَدْرِ وَمَازِنِ

وقال إسحاق الموصلي [في «صبح الأعيان» ٤٣٠/١] :

إِذَا مُضِرُّ الْحَمْرَاءِ كَانَتْ أُرُومَتِي
عَطَسْتُ بِأَنْفِي شَامِخًا وَتَنَاوَلْتُ

وقال زهير [في «ديوانه» ٢٢٨] :

لَوْ كَانَ يَقْعُدُ فَوْقَ الشَّمْسِ مِنْ كَرَمِ

وقال النابغة الجعدي [في «ديوانه» ٧١] :

بَلَّغْنَا السَّمَاءَ مَجْدُنَا وَجُدُودُنَا

وقال الفرزدق :

فَلَوْ أَنَّ السَّمَاءَ دَنَتْ لِمَجْدِي

وقال تميم بن مقبل :

نَالُوا السَّمَاءَ فَأَمْسَكُوا بِعِنَانِهَا

وقال ابن الرومي [في «ديوانه» ٢٢٦٧/٦] :

تَدَلُّوا عَلَيَّ هَامِ الْمَعَالِي إِذَا ارْتَقَى

فأغار عليه صاحبنا فقال [في «العكبري» ٣١٠/٣] :

فَوْقَ السَّمَاءِ وَفَوْقَ مَا طَلَبُوا

وقال [في «العكبري» ٢٢٨/٣] :

وَقَالُوا : هَلْ يُبَلِّغُكَ الثَّرِيًّا ؟

ومن غلوّه قوله [في «العكبري» ٣٥/٣] :

وَعَزْمَةٌ بَعَثَتْهَا هَمَّةٌ ، زُحَلٌ

(١) قال صاحب «العقد الفريد» (٢٥٦/١) :

وفد الشاعر على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأنشده البيت ، فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «إلى أين يا أبا ليلى؟» قال : إلى الجنة . قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «إن شاء الله» . فلما انتهى إلى قوله :

وَلَا خَيْرَ فِي جِلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ

بِوَادِرٍ تَخِيْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكَلِّمَنَا

.. قال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «لا يقضض الله فاك» فعاش مئة وثلاثين سنة لم تقضض له سنٌ .

(٢) زحل : اسم كوكب .

وسمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رجلاً يُنشدُ [كما في « خزائن الأدب » ٨٦/١] :

إِنِّي امْرُؤٌ حَمِيرِيٌّ حِينَ تَنْسِيَنِي
لَا مِنْ رَيْبَعَةَ أَبَائِي وَلَا مُضَرٍ

. . فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « ذَلِكَ أَلَامُ لَكَ ، وَأَبْعَدُ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ »^(١) .

وَمِمَّا يَرَوِي لِلْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ [كما في « المستطرف » ٢٩٠/١] :

إِنَّ الْقَبَائِلَ مِنْ قُرَيْشٍ كُلِّهَا
وَتَرَى لَنَا فَضْلاً عَلَى سَادَاتِهَا
لَيَرُونَ أَنَّ هَامَ أَهْلِ الْأَبْطَحِ
فَضَلَ الْمَنَارِ عَلَى الطَّرِيقِ الْأَوْضَحِ

[لا يجوز الافتخار بأهل الشرك]

ثُمَّ النَّهْيُ عَنِ الْفَخْرِ بِالْأَنْسَابِ إِنَّمَا يَنْحَطُّ عَلَى مَنْ افْتَخَرَ بِأَهْلِ الشَّرِكِ أَوْ الْفَسَقِ ، أَوْ أَرَادَ الْبَاطِلَ ، أَوْ أَفْضَى إِلَى الْغُلُوِّ ، وَإِلَّا . . لَمَا اعْتَبِرَتِ الْأَنْسَابُ فِي نَحْوِ الْإِمَامَةِ وَالْكَفَاءَةِ .

ويروى : أَنَّ الْعَبَّاسَ مَرَّ بِنَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ ، يَقُولُونَ : إِنَّمَا مِثْلُ مُحَمَّدٍ فِي أَهْلِهِ كَمِثْلِ نَخْلَةٍ نَبَتَتْ فِي كُنَاسَةٍ ، فَلَبَّغَهُ ذَلِكَ ، وَأَحْفَظُهُ حَتَّى قَامَ خَطِيْبًا ، وَقَالَ : « أَيُّهَا النَّاسُ ، مَنْ أَنَا ؟ » قَالُوا : أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ، قَالَ : « فَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ ، وَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ خَلْقَهُ فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِ خَلْقِهِ ، ثُمَّ جَعَلَ الْخَلْقَ الَّذِي أَنَا مِنْهُمْ فِرْقَتَيْنِ ، فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِ الْفِرْقَتَيْنِ ، ثُمَّ جَعَلَهُمْ شُعُوبًا ، فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِهِمْ شُعْبًا ، ثُمَّ جَعَلَهُمْ بِيُوتًا ، فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِهِمْ بَيْتًا ، فَأَنَا خَيْرُكُمْ بَيْتًا وَوَالِدًا ، وَإِنِّي مُبَاهٍ ، ثُمَّ قَالَ : « فَمَا عَنَّا يَا عَبَّاسُ » فَقَامَ عَنَّا يَمِينَهُ ، ثُمَّ قَالَ : « قُمْ يَا سَعْدُ » فَقَامَ عَنَّا يَسَارِهِ ، ثُمَّ قَالَ : « هَذَا عَمِّي فَلْيُرِنِي امْرُؤًا عَمًّا مِثْلَهُ ، وَهَذَا خَالِي فَلْيُرِنِي امْرُؤًا خَالًا مِثْلَهُ »^(٢) . أَوْ مَا هَذَا مَعْنَاهُ .

وقد افتخر صلى الله عليه وآله وسلم يومَ تَقَاصَرَتِ الْخُطَى ، وَتَقَلَّصَتِ الْخُصَى فِي حَنِينٍ ، بِقَوْلِهِ : « أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ »^(٣) .

وَاحتجَّ بِهِ الْإِمَامُ الرَّازِيُّ : عَلَى إِيمَانِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ؛ لِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكُنْ لِيَنْتَسِبَ فِي مَوْضِعِ الْفَخْرِ إِلَى غَيْرِ مُؤْمِنٍ .

وقد أخرج البيهقي في « شعب الإيمان » [بنحوه (٥١٣٣) و(٥١٣٤)] : من حديث أبي بن كعبٍ ومعاذ بن جبلٍ : أَنَّ رَجُلَيْنِ انْتَسَبَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا : أَنَا فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ ، وَقَالَ الْآخَرُ : أَنَا فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « انْتَسَبَ رَجُلَانِ عَلَى عَهْدِ مُوسَى ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا : أَنَا فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ إِلَى تِسْعَةٍ ، وَقَالَ الْآخَرُ : أَنَا فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ بِنِ بْنِ الْإِسْلَامِ ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى مُوسَى : أَنْ قُلْ لِهَذَيْنِ الْمُتَنَسِّبِينَ : أَمَا أَنْتَ أَيُّهَا الْمُتَنَسِّبُ إِلَى تِسْعَةِ آبَاءٍ فِي النَّارِ . . فَأَنْتَ عَاشِرُهُمْ فِي النَّارِ ، وَأَمَا أَنْتَ أَيُّهَا الْمُتَنَسِّبُ إِلَى اثْنَيْنِ . . فَأَنْتَ ثَالِثُهُمَا فِي الْجَنَّةِ » .

(١) لم نثر عليه .

(٢) أورد نحوه عن ابن مسعود رضي الله عنه في « كنز العمال » (٣٧٣٢٣) عند ابن النجار ، وعن جابر رضي الله عنه (٣٣٣١) ، ونسبه للترمذي والحاكم ، وعن أنس رضي الله عنه (٣٧٠٨٤) عند الطبراني والحاكم ، وعن جابر رضي الله عنه (٣٧٠٨٥) عند الترمذي والطبراني والحاكم وأبي نعيم .

(٣) أخرجه عن البراء البخاري (٢٨٦٤) في الجهاد .

وأخرج البيهقي - أيضاً - [بنحوه في « الشعب » ٥١٣٢] عن أبي ریحانة ، عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « مَنْ انْسَبَ إِلَى تِسْعَةِ آبَاءٍ كُفَّارٍ يُرِيدُ بِهِمْ عِزًّا وَشَرَفًا . فَهُوَ عَاشِرُهُمْ فِي النَّارِ » .

وأخرج - أيضاً - [بنحوه في « الشعب » ٥١٢٩] عن ابن عباس : أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « لَا تَفْتَحِرُوا بِآبَائِكُمُ الَّذِينَ مَاتُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَمَا يَدْهُدُهُ الْجُعْلُ^(١) بِأَنْفِهِ خَيْرٌ مِنْ آبَائِكُمُ الَّذِينَ مَاتُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ » .

وأخرج - أيضاً - [بنحوه في « الشعب » ٥١٢٦] عن أبي هريرة ، عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « إِنَّ اللهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عِيَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخَرَهَا بِالْآبَاءِ ، لِيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ يَفْخَرُونَ بِرِجَالٍ إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ . أَوْ لِيَكُونَنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللهِ مِنَ الْجُعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ التَّنَّ بِأَنْفِهَا » .

فما وردَ مِنَ النَّهْيِ عَنِ مَطْلَقِ الْإِفْتِحَارِ مَحْمُولٌ عَلَى هَذَا التَّقْيِيدِ ، أَوْ عَلَى مَا سَبَقَ مِنَ الْعُلُوِّ ، أَوْ إِرَادَةِ الْبَاطِلِ ، وَلَسْنَا بِصَدَدِ الْبَحْثِ عَمَّا تَقْتَضِيهِ الْأَحَادِيثُ الْمَذْكُورَةُ مِنْ عَذَابِ أَهْلِ الْفِتْرَةِ ؛ لِأَنَّ لَهُ مَوْضِعًا يَخْصُهُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى ، نَجْمَعُ بِهِ أَطْرَافَ الْكَلَامِ فِيهِ ، وَلَا أُطِيلُ بِمَا لِي فِي مَعْتَبَةِ قَوْمِي عَلَى التَّخَلُّفِ عَنِ آبَائِهِمْ وَمَبَايَتِهِمْ فِي أَعْمَالِهِمْ ، وَلَا بِمَا لِي مِنَ الْفَخْرِ يَنْسَبِي الَّتِي يَنْقَطِعُ عَنْهَا النَّظِيرُ ، كَمَا قُلْتُ لَوْلَدِي [في « ديوان المؤلف » ٢٨٤] : [مِنَ الْبَسِطِ]

وَأَنْتَ يَا ابْنِي لِحِذْمٍ طَابَ مَغْرِسُهُ
أُرُومَةٌ لَوْ تَجَلَّى نُورُ عُنْصُرِهَا
وَسَبَبَةٌ كَالنُّجُومِ الزُّهْرِ مُنْقَطِعٌ
يُسْقَى بِمَاءٍ مِنَ الْفُرْقَانِ دَفَاقٍ^(٢)
فِي جُنْحِ دَاجِيَةٍ هَمَّتْ بِإِشْرَاقِ
عَنْهَا النَّظِيرُ - يَدُ الْمَوْلَى - بِإِطْلَاقٍ^(٣)

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَيُعْجِبُنِي قَوْلُ النَّازِمِ [في « العُكْبَرِيِّ » ١٢١/٣] :

وَكُلُّ أَنْبِيبِ الْقَنَا مَدَدٌ لَهُ
وَمَا يَنْكُتُ الْفُرْسَانَ إِلَّا الْعَوَامِلُ^(٤)

[مِنَ الْوَافِرِ]

وقوله [في « العُكْبَرِيِّ » ٢٢٦/٣] :

سِنَانٌ فِي قَنَاةِ بَيْتِي مَعَدٌ
بَيْتِي أَسَدٌ إِذَا دَعَا نَزَالًا

[مِنَ الْكَامِلِ]

وهو من قول أبي عبادة [في « ديوانه » ٥٤٨/١] :

كَالرَّمْحِ فِيهِ بَضْعَ عَشْرَةَ فِقْرَةً
مُنْقَادَةٌ تَحْتَ السَّنَانِ الْأَصِيدِ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقال النامي [في « قرى الضيف » ٢٨٥/١] :

قَنَاةٌ مِنَ الْعَلِيَاءِ أَنْتَ سِنَانُهَا
وَتِلْكَ أَنْبِيبٌ إِلَيْكَ وَأَكْعُوبُ

[مِنَ الْخَفِيفِ]

والمعنى موجودٌ في قولِ بشارٍ [في « ديوانه » ٢١٢/٤] :

خُلِقُوا سَادَةً فَكَانُوا سَوَاءً
كَكُعُوبِ الْقَنَاةِ تَحْتَ السَّنَانِ

* * *

(١) يدلُّهُ : يدحرجُ .

(٢) الحِذْمُ وَالْأُرُومَةُ : الْأَصْلُ . دَفَاقٌ : عَظِيمُ الدَّفْقِ وَالْإِنْدِفَاعِ لكَثْرَتِهِ .

(٣) يد المولى : أي هي يد المولى ونعمته علينا ، والجملة معترضة .

(٤) النكتُ : الوخزُ . الأنبيبُ : جمعُ أنبوبٍ ، وهو العقدة الناشئة في القنا . العواملُ : جمعُ عاملٍ ، وهو صدرُ الرمحِ ، وهو ما يلي السنانِ .

وأهدى إليه بعضهم هديّة فيها صورة سَمَكٍ مِنْ لَوْزٍ وَسَكَّرَ فِي عَسَلٍ ، فقال [في « المُكَبَّرِي » ١ / ٣٢٥] : [مِنَ الكَامِلِ]

أَقْصِرْ فَلَنْتَ بِرِزَائِدِي وَدَا بَلَغَ الْمَدَى وَتَجَاوَزَ الْحَدَا

[شرح المطلع]

(أَقْصَرَ عَنِ الشَّيْءِ) : إِذَا كَفَّ عَنْهُ مَعَ الْقَدْرَةِ عَلَيْهِ ، وَقْصَرَ عَنْهُ : إِذَا عَجَزَ ، وَقْصَرَ فِيهِ : إِذَا لَمْ يَبَالِغْ .
يقول : إِنَّ التَّوَدُّدَ لَا يَزِيدُ فِي وَدِّي لَكَ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ بَلَغَ الْغَايَةَ ، فَهُوَ يَصِفُ وَدَّ نَفْسِهِ لِلْمَمْدُوحِ ، لَا وَدَّ الْمَمْدُوحِ لَهُ ،
وَفِي الْبَيْتِ أَشْيَاءٌ :

[ما زاد على حده انقلب إلى ضده]

أَحَدُهَا : أَنَّ مَا جَاوَزَ حَدَّهُ انْقَلَبَ إِلَى ضَدِّهِ ؛ وَلِهَذَا جَاءَ الْأَمْرُ بِالْاِقْتِصَادِ فِي الْمَحَبَّةِ ، فَفِي الْخَبَرِ : « أَحَبُّ حَبِيبِكَ
هُوناً مَا ، فَعَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمَ مَا ، وَأَبْغَضُ بَغِيضِكَ هُوناً مَا ، فَعَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمَ مَا » (١) .
وقال أَرُسْطَاطَالِسُ : لَا يَمْلَأَنَّ قَلْبَكَ مَحَبَّةً شَيْءٍ ، وَلَا يَسْتَوْلِيَنَّ عَلَيْكَ بَغْضُهُ ، وَاجْعَلْهُمَا قِصْداً ، فَإِنَّ الْقَلْبَ كَاسِمِهِ
يَتَقَلَّبُ . وَفِي النَّفْسِ شَيْءٌ مِنْ صِحَّةٍ هَذَا ؛ لِأَنَّ النِّكْتَةَ الَّتِي ذَكَرَهَا مِنْ تَقَلُّبِ الْقَلْبِ كَاسِمِهِ إِنَّمَا تَتَمُّ لَوْ كَانَ الْقَائِلُ يَتَكَلَّمُ
بِالْعَرَبِيَّةِ ، أَوْ كَانَ اسْمُهُ فِي لُغَتِهِ يَدُلُّ عَلَى مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ بِلِسَانِ الْعَرَبِ ، فَلْيُنْتَأَمَلْ .

[هل يقف الحب عند حد معين؟!]

ثانيتها : اختلف أهل الأدب والمحبة في حدها ، أيقف عند غاية ، أم تجري إلى ما لا نهاية ؟

وبيت الناظم من الأول ، وهو من قول ذي الرِّمَّةِ [في « ديوانه » ٢ / ١٢٣٠] :

وَمَا زَالَ يَغْلُو حُبُّ مِيَّةٍ عِنْدَنَا وَيَزْدَادُ حَتَّى لَمْ نَجِدْ مَا يَزِيدُهَا

وقد قال كُنَيْزٌ [في « ديوانه » ٤٤١] :

اللَّهُ يَغْلَمُ لَوْ أَرَدْتُ زِيَادَةَ فِي حُبِّ عَزَّةٍ مَا وَجَدْتُ مَزِيدًا

وقال عمرُ ابنُ أبي ربيعةَ [في « ديوانه » ٢ / ٢٧٩] :

لَيْسَ حُبٌّ فَوْقَ مَا أَحْبَبْتُمْ غَيْرَ أَنْ أَقْتُلَ نَفْسِي أَوْ أُجَنِّ

وقال عبيدُ اللهُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عتبةَ [في « الأغاني » ٩ / ١٧٦] :

أَكَادُ إِذَا ذَكَرْتُ الْعَهْدَ مِنْهَا غَنِيْتُ النَّفْسِ أَنْ أَزْدَادَ حُبًّا

وقال أبو العتاهيةَ [في « ديوانه » ٦٥٢] :

مَا فَوْقَ حُبِّكَ حُبًّا لَسْتُ أَعْلَمُهُ فَلَا يَضُرُّكَ أَنْ لَا تَسْتَزِيدِنِي

(١) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه الترمذي (١٩٩٨) وقال : حديث غريب .

وقَالَ الْحَيْصَ بِيصَ :

[مِنَ الْوَافِرِ]

تَقَرُّطُكَ أَوْ تَمَنُّطُكَ أَوْ تَقَبُّبَا
تَمَلَّكَ بَعْضُ حُبِّكَ كُلَّ قَلْبِي
فَلَنْ تَزْدَادَ عِنْدِي قَطُّ حُبًّا^(١)
فَإِنْ تُرِدِ الزِّيَادَةَ هَاتِ قَلْبَا

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقال بالثاني آخرون : منهم جميل بن معمر في قوله [في «ديوانه» ٦٤] :

عَلِقْتُ الْهَوَى مِنْهَا وَوَلِيداً وَلَمْ يَزَلْ
إِلَى الْيَوْمِ يَنْمُو حُبُّهَا وَيَزِيدُ

[مِنَ الْبَسِيطِ]

وقد مر هذا - مع جملة من الشواهد تصلح له ولسابقه - في الكلام على قوله [في «العكبري» ١٦٣/٣] :

وَالْوَجْدُ يَقْوَى كَمَا يَقْوَى النَّوَى أَبْدأ
[وَالصَّبْرُ يَنْحَلُ فِي جِنْمِي كَمَا نَحَلًا]

مِنَ الْمَجْلِسِ السَّابِعِ .

[مِنَ الْكَامِلِ]

ويتعلّق به بعض ما يأتي آخر الكلام على قوله [في «العكبري» ٣٣٢/٢] :

[أَرْقُ عَلَى أَرْقٍ وَمِثْلِي يَأْرُقُ]
وَجَوَى يَزِيدُ وَدَمَعَةٌ تَتَرَقَّرُقُ

مِنَ الْمَجْلِسِ الثَّانِي عَشَرَ .

والثاني هو الأنسب بما ذكره الإمام الغزالي وابن مسكويه عن الروح ، وقد سبق عن الأول ما يناسب ذلك في المجلس الرابع ، وقال الثاني - ما معناه - : إننا نجد النفوس تقبل الصور المختلفة من المحسوسات والمعقولات على وجه التمام ، من غير مفارقة ولا معاقبة ، ولا انمحاء رسم ، بل لا تزال تقبل الرسوم بعد الرسوم ، والصور بعد الصور ، بل تزداد قوة على القبول ، كلما ارتاضت بكثرة المعلومات ، ولهذا العلة يزداد الإنسان فهماً كلما ازداد علماً ، فليست النفس إذا جسماً - إلى آخر ما أطال فيه - ولخصناه في «رسالة الأخلاق» ، ولا شك أن هذا هو مذهب السادة الصوفيّة ، وما أحسن ما قال بعضهم :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَكُنْتُ أَرَى أَنْ قَدْ تَنَاهَى بِي الْهَوَى
فَلَمَّا تَلَاقَيْنَا وَعَايَنْتُ حُسْنَهَا
إِلَى غَايَةِ مَا فَوْقَهَا لِي مَطْلَبُ
تَبَيَّنْتُ أَنَّي إِنَّمَا كُنْتُ أَلْعَبُ

[فوائد الهدية تثبيت وتقوية المحبة]

ثالثها : أن في البيت ما لا غاية بعده في المناسبة لجواب الهدية ؛ إذ قد جاء في حديث عائشة : يا نساء المؤمنين ، تهادوا ولو فرسين شاة^(٢) ؛ فإنه يُنبئ المودّة ، ويذهب الضغائن ، ذكره الحافظ في «الفتح» [باب الهبة : ١٩٨/٥] وغيره .

وروجه : أنه لما أشار النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى أن الغرض من الهدية تثبيت المحبة في القلوب . . قال الناظم : إن محبتي لك لا تحتاج إلى تثبيت ؛ لأنها من القوة بحيث لم تعد تقبل الزيادة بعد ، فليله درّه ما أدق نظره ، وأبعد غوره ، إن أراد هذا .

(١) تَقَرُّطُكَ : البس القُرْطَقَ ، وهو القباء . تمنطق : ضع النطاق على وسطك .

(٢) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه الهندي في «كنز العمال» (٢٤٨٩٠) ونسبه لأحمد والبخاري ومسلم بلفظ : «يا نساء المسلمات ، لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسين شاة» . الفرسن : العظم القليل اللحم ، وهو خف الشاة .

وذكر غير واحد : أَنَّ المنصورَ قَالَ يوماً للربيعِ بنِ يونسَ : سَلْ حاجتَكَ ، قَالَ : حاجتي أَنْ تُحِبَّ الفضلَ ابني ، فقالَ له : ويحكُ إِنَّ لِلْمَحَبَّةِ أسباباً ، فقالَ له : قد أمكنك اللهُ مِنْ إيقاعِ سببِها ، قَالَ : وما ذلكُ ؟ قَالَ : تُنعمُ عليه ، فَإِنَّكَ إِذَا أَنْعمتَ عليه . . أَحَبَّكَ ، وَإِذَا أَحَبَّكَ . . أَحَبَّتَهُ .

* * *

[مِنَ الكَامِلِ]

قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ المَتَنِّيُّ فِي « العُكْبَرِيِّ » ١ / ٣٢٥ :

أَرْسَلْتَهَا مَمْلُوءَةً كَرَمًا فَرَدَّذْتُهَا مَمْلُوءَةً حَمْدًا

[أصل معنى بيت المطلع وشرحه]

أصلُ المعنى : أَنَّ إحدى نساءِ الأنصارِ بعثتْ مع ابنتِها طبَقاً لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مملوءاً مِنَ الخضرَاتِ ، فرَدَّه مملوءاً حُلِيّاً .

وكذلكَ فعلَ اللَّيْثُ بنُ سعدٍ [كما في « شذراتِ الذهبِ » ١ / ٢٨٥] : فقد أهدى إليه إمامُ دارِ الهجرةِ صِينِيَّةً مملوءةً تمرّاً ، فأعادها مملوءةً ذهباً .

وقوله : (فَرَدَّذْتُهَا مَمْلُوءَةً حَمْدًا) إمَّا أَنْ يُرِيدَ ما كتبه مِنَ الأبياتِ اللّواتي مِنْها هذانِ ، وإمَّا أَنْ يُرِيدَ ما يَظْهَرُ مِنْ أثرِها بينَ النَّاسِ ؛ لأنَّها لا تخفى صنيعتهُ إليه مع نباهتهِ وبعْدِ صِيتهِ ، فلا بُدَّ وَأَنْ تَسِيرَ أخبارُها ، ولا سِيماً إِذا تحدّثَ بِها ، فيكونُ قد أدمجَ التَّمَدُّحَ بالنِّبَاهَةِ وانتشارِ الذِّكْرِ فِي جَوَابِ الهديةِ ، وهو إِذا قَرِيبٌ مِنْ قولِهِ فِي الأخرى [في « العُكْبَرِيِّ » ٤ / ٢٦٤] :

[مِنَ المنسرحِ]

تَشِيدُ أَثْوَابًا مَدَائِحَهُ بِاللُّسَنِ مَا لَهُنَّ أَفْوَاهُ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقولِ نصيبٍ [في « البيانِ والتبيينِ » ١ / ٥٨] :

فَعَاجُوا فَأَثْوُوا بِالذِّي أَنْتَ أَهْلُهُ وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنَتْ عَلَيْكَ الحَقَائِبُ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقولِ الأعشى [في « ديوانهِ » ٢٥٠] :

وَإِنَّ عِتَاقَ العِيسِ سَوْفَ تَزُورُكُمْ نِثَاءً عَلَيَّ أَعْجَازِهِنَّ مُعَلَّقُ

لأنَّ المرادَ مِنَ النِّثَاءِ المُعَلَّقِ عَلَى الأَعْجَازِ . . هُوَ الغِنَاءُ الَّذِي يترنَّمُ بِهِ الرُّدَافُ مِنَ أشعارِ الشُّكْرِ والنِّثَاءِ عَلَى المَزُورِ ، عَلَى حدِّ قولِ الرَّاعي :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَخُودٍ مِنَ اللَّائِي تَسْمَعُنَ بِالضُّحَى قَرِيضَ الرِّدَافِي بِالغِنَاءِ المَهُودِ

ولا يبعدُ أَنْ يقومَ ما يتعالَمُ بِهِ النَّاسُ - مِنْ خبرِ الهديةِ لشيوعِها - مقامَ ما يُشاهدُ مِنَ امتلاءِ الحَقَائِبِ فِي بيتِ نصيبٍ ، فلا إِشْكَالَ ، وَقَدْ قَالَ الشَّمْرَدَلِيُّ :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

أَيَادِيكَ لَا يَخْفَى مَوَاقِعُ صَوْبِهَا فَتَعْفُو إِذَا مَا ضَيَّعَ الحَمْدُ والشُّكْرُ

وَهَلْ تَسْتَطِيعُ الْأَرْضُ مِنْ بَعْدِ مَا انْطَوَتْ

عَلَى رِيِّهَا إِنْكَارَ مَا فَعَلَ الْقَطْرُ ؟

وقال الرضوي [في «ديوانه» ٩٢٦/٢] :

وَلِسَانُ نِعْمَتِكَ الَّتِي قَلَّدْتَنِي
فَإِذَا سَكَتُ فَإِنَّ أَنْطَقَ مِنْ فَمِي

بِالشُّكْرِ أَبْلَغُ مِنْ لِسَانِ بَيَانِي
عَنِّي يَدُ الْمَعْرُوفِ وَالْإِحْسَانِ

[الثناء يبقى وتذهب الهدية]

وفي البيت رائحة تعاضم وامتنان على المهدي ؛ إذ الحمد أفضل من تلك الهدية ، بل ومما هو أكبر منها ؛ فقد قال ابن الخطاب لأحد بني هريم بن سنان [بنحوه في «مجمع الأمثال» ١٨٩/١] : ما فعلتم بزهير ؟ قالوا : حملنا ، وكسونا ، وأكرمنا ، وأفضلنا ، فقال : لكن ما كساكم به زهير لا يفنى الدهر .

وقال أبو عبادة [في «ديوانه» ١٥٤٤/٣] :

حَفِظَ الْقَرِيضُ فَلَمْ يُضَيِّعْ حَقَّهُ
هَذَا إِنَّهُ وَعَطَاءُكَ الْجَمَّ اللَّهُيَّ

أَبْدَأُ وَأَنْتَ لَهُ مِنَ الْعُشَّاقِ
أَخْوَانٍ : ذَا فَإِنْ ، وَهَذَا بَاقِي^(١)

وقال [في «ديوانه» ١٠٦٩/٢] :

وَأَلْطَفُ مِنْهُ فِي الْفُؤَادِ مَحَلَّةٌ

ثَنَاءٌ تَبَقِّيهِ الْقَصَائِدُ أَوْ شُكْرٌ

وقال [في «ديوانه» ٦٢٦-٦٢٥/١] :

وَكَائِنٌ لَهُ فِي سَاحَتِي مِنْ صَنِيعَةٍ
وَإِنِّي لَمُحَقَّقٌ بِأَنْ لَا يَطْوِلَنِي
يُحَكِّنُ لَهُ حَوْكُ الْبُرُودِ لِزِينَةٍ
وَحَسْبُ أَحْيِ النُّعْمَى جَزَاءً إِذَا امْتَطَى

قَطَعْتُ لَهَا عَقْلَ الْقَوَافِي الشُّوَارِدِ^(٢)
نَدَاهُ إِذَا طَاوَلْتُهُ بِالْقَصَائِدِ
وَيُنْظَمْنَ عَنْ جَدْوَاهُ نَظْمَ الْقَلَائِدِ
سَوَائِرَ مِنْ شِعْرِ عَلَى الدَّهْرِ خَالِدِ

وقال [في «ديوانه» ١٣٨/١] :

وَلَمْ يُبْقِ كَرُّ الدَّهْرِ غَيْرَ عَلائِقِ

مِنَ الْقَوْلِ تَرْضِي سَامِعِينَ وَتَغْضِبُ

ويروى [كما في «المعجم الأوسط» للطبراني ٥٠/٤] : أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَثِيرًا مَا يَقُولُ لِعَائِشَةَ - رَضْوَانُ اللهِ عَلَيْهَا - : « كَيْفَ بَيْتُكَ ؟ » ، فَتُسَيِّدُهُ :

يَجْزِيكَ أَوْ يُنْيِي عَلَيْكَ وَإِنْ مَنْ

أَثْنَى عَلَيْكَ بِمَا فَعَلْتَ كَمَنْ جَزَى

فبصدها .

وقال محمود الوراق :

فَمَا بَلَغَتْ أَيْدِي الْمُنْيِلِينَ بَسْطَةً

مِنَ الطَّوْلِ إِلَّا مِنْهُ الشُّكْرِ أَطْوَلُ

(١) اللهي : العطايا .

(٢) العقل : جمع عقال ، وهو الحبل الذي يشد به البعير في وسط ذراعه .

وَلَا رَجَحَتْ فِي الْوِزْنِ يَوْمًا صَنِيعَةٌ عَلَى الْمَرْءِ إِلَّا مِنْهُ الشُّكْرُ أَثْقَلُ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقال ابنُ الجَزَّارِ السَّرْقَسْطِيُّ [كما في « نفع الطب » ٤٤٦/٣] :

ثَنَاءُ الْفَتَى يَبْقَى وَيَفْنَى ثَرَاؤُهُ فَلَا تَكْتَسِبُ بِالْمَالِ شَيْئًا سِوَى الذِّكْرِ
فَقَدْ أَبْلَتِ الْأَيَّامُ كَغَبًا وَحَاتِمًا وَذَكَرُهُمَا غَضُّ جَدِيدٍ إِلَى الْحَشْرِ

[كفران النعم يستوجب الوعيد]

وما أَكْثَرَ ما وردَ في كفرانِ النِّعمِ مِنَ الوَعِيدِ ، وقد قالَ جَلَّ شأنُهُ : ﴿ قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ ﴾ [عبس : ١٧] ، وقالَ : ﴿ وَقِيلَ
مِنَ عِبَادِي الشُّكُورُ ﴾ [سبا : ١٣] ، وقالَ : ﴿ لِيَن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلِيَن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧] .
وفي الفائِدةِ السَّابِعةِ مِن « بلايلِ التَّغْرِيدِ » مبحثُ جميلٌ ، ما أَظنُّني سُبِقْتُ إليه .

[لم يشكر الله . . من لم يشكر الناس]

ويقالُ : « مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ . . لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ »^(١) فأخذَهُ البُحْتَرِيُّ وقالَ [في « ديوانهِ » ١٦٣/١] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

فَمَنْ لَا يُؤَدِّي شُكْرَ نِعْمَةِ خَلِّهِ فَأَنْتَى يُؤَدِّي شُكْرَ نِعْمَةِ رَبِّهِ

وخطبَ نصرُ بنُ سَيَّارٍ فقالَ [في « المستطرف » ٥٠٧/١] : قالَ رسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ أَنْعَمَ عَلَيَّ قَوْمٌ
فَلَمْ يَشْكُرُوهُ ، فَدَعَا عَلَيْهِمْ . . اسْتَجِيبَ لَهُ فِيهِمْ »^(٢) . وَإِنِّي قَدْ أَحْسَنْتُ إِلَى آلِ سَامٍ ، فَلَمْ يَشْكُرُونِي ، فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ حَرَّ
الْحَدِيدِ ، فَمَا دَارَ عَلَيْهِمُ الْحَوْلُ حَتَّى قُتِلُوا جَمِيعًا .

وقالَ تعالى : ﴿ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر : ٧] .

[كفران النعم من اللؤم]

[مِنَ الْكَامِلِ]

وقالَ زهيرٌ :

وَالْكَفْرُ مَخْبِئَةٌ لِنَفْسِ الْمُنْعِمِ

[مِنَ الْبَسِيطِ]

وقالَ أبو تَمَّامٍ [في « ديوانهِ » ١١٥/٢] :

لَيْنُ جَحَدْتُكَ مَا أَوْلَيْتَ مِنْ نِعْمٍ إِنِّي لَفِي اللُّؤْمِ أَحْظَى مِنْكَ فِي الْكِرَمِ

[شكران النعم من الكرم]

[مِنَ الْبَسِيطِ]

وقالَ يزيدُ المَهَلَّبِيُّ :

إِنْ يُعْجِزِ الدَّهْرُ كَفِّي عَنْ جَزَائِكُمْ فَإِنِّي بِالْهَوَى وَالشُّكْرِ مُجْتَهِدٌ

[مِنَ الْبَسِيطِ]

أخذَهُ الناظِمُ فقالَ [في « المُكَبَّرِيُّ » ٢٧٦/٣] :

لَا خَيْلَ عِنْدَكَ تَهْدِيهَا وَلَا مَالَ فَلْيُسْعِدِ التُّطْقُ إِنَّ لَمْ تُسْعِدِ الْحَالَ

(١) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه الترمذي في « سننه » (١٩٥٥) ، وأحمد في « مسنده » (١٨٤٧٢) .

(٢) أخرجه عن ابن عباس رضي الله عنهما بنحوه أبو شجاع الديلمي في « الفردوس بمأثور الخطاب » (٥٧١/٣) ، وهو في « كنز العمال » (٦٤٤٩) ،
(٦٤٧٥) ونسبه للقبلي وابن لال والشيرازي في « الألقاب » بلفظ : « من أنعم على أخيه نعمة فلم يشكرها فدعا عليه . . استجيب له » . وفي الأول :
« من أسدى » .

وقال البُحترِيُّ [في «ديوانه» ٩٢٧/٢]:

[مِن الطَّوِيلِ]

فَلَا نَلْتُ نِعْمَى بَعْدَهَا تُوجِبُ الشُّكْرَا

فَإِن أَنَا لَمْ أَشْكُرْكَ نَعْمَاكَ جَاهِدَا

وقال بعضهم [كما في «المستطرف» ٥٠٦/١]:

[مِن الطَّوِيلِ]

لِسَانَا يُطِيلُ الشُّكْرَ كُنْتُ مُقْصِرَا

وَلَوْ أَنَّ لِي فِي كُلِّ مَنبِتِ شَعْرَةٍ

وقال أبو الوفا:

[مِن الطَّوِيلِ]

وَلَوْ أَنَّ أَغْضَائِي جَمِيعَا تَكَلَّمُ

أَيْدِي لَا أَسْطِيعُ كُنْهَ صِفَاتِهَا

وقال آخر:

[مِن الطَّوِيلِ]

وَلَمْ أَرَ مِثْلِي مُفْحَمًا وَهُوَ مُقُولٌ^(١)

وَأَسْكَتَنِي نِعْمَى كَأَنِّي مُفْحَمٌ

وقال بعضهم [وهو ابن سُرَيْجٍ كما في «الأغاني» ٢٥٦/١]:

[مِن الطَّوِيلِ]

وَمَا كُلُّ مَنْ أَوْلَيْتَهُ نِعْمَةً يَقْضِي

شَكَرْتُكَ إِنَّ الشُّكْرَ دَيْنٌ عَلَى الْفَتَى

وقال أبو نُوَاسٍ [في «ديوانه» ٣٩١]:

[مِن الْكَامِلِ]

أَوْهَتْ قُوَى شُكْرِي فَقَدْ ضَعُفَا
حَتَّى أَقْوَمَ بِشُكْرِ مَا سَلَفَا

أَنْتَ امْرُؤٌ جَلَلْتَنِي نِعْمَا
لَا تُسَدِّدَنَّ إِلَيَّ عَارِفَةً

وقال أبو تَمَّامٍ [في «ديوانه» ٤٣٥/١]:

[مِن الْبَسِيطِ]

بِهِ مِنَ الشُّكْرِ لَمْ تُحْمَلْ وَلَمْ تُطَقِ
فَإِنِّي خَائِفٌ مِنْهَا عَلَى عُنُقِي^(٢)

كَمْ مِنْ يَدٍ لَكَ لَوْلَا مَا أَحْفَفُهَا
فَادْفَعْ بِرَبِّكَ عَنِّي ثِقَلَ فَادِحَهَا

وقال أبو عُبَادَةَ [في «ديوانه» ٢٠-٢١/١]:

[مِن الْكَامِلِ]

مَا بَيْنَنَا تِلْكَ الْيَدُ الْبَيْضَاءُ
مُتَخَوِّفٌ أَنْ لَا يَكُونَ لِقَاءُ
عَجَبٌ وَبِرٌّ عَادَ وَهُوَ جَفَاءُ

أَخْجَلْتَنِي بِنَدَى يَدَيْكَ فَسَوَّدَتْ
وَقَطَعْتَنِي بِالْجُودِ حَتَّى إِنِّي
صِلَةٌ غَدَتْ فِي النَّاسِ وَهِيَ قَطِيعَةٌ

وقال [في «ديوانه» ١٢٠-١٢١/١]:

[مِن الْبَسِيطِ]

أَقْصِرْ فَمَا لِي فِي جَدْوَاكَ مِنْ أَرْبِ
شُكْرِي وَلَوْ كَانَ مُسَدِّدِي إِلَيَّ أَبِي
أَبْقَى عَلَى حَالِهِ مِنْ حَالَةِ النَّشْبِ

إِيهًا أَبَا الْفَضْلِ شُكْرِي مِنْكَ فِي نَصَبِ
لَا أَقْبَلُ الدَّهْرَ نَيْلًا لَا يَقُومُ بِهِ
لَأَشْكُرَنَّكَ إِنَّ الشُّكْرَ نَائِلُهُ

والأخيرُ يشبهُ ما سبقَ ممَّا سقناه له .

(١) الْمُفْحَمُ : الذي لا يستطيع قول الشعر .

(٢) امرٌ فادحٌ : صعبٌ ثقيلٌ .

وقال الناظم [في «المكبري» ٤/١٣٣] :

[من الوافر]

وَلَمْ نَمَلِّ نَفَقْدَكَ الْمَوَالِي وَلَمْ نَذُمَّمُ أَيَادِيكَ الْجَسَامَا
وَلَكِنَّ الْعُيُوثَ إِذَا تَوَالَتْ بِأَرْضِ مُسَافِرٍ كَرِهَ الْعَمَامَا

[من المتقارب]

وقال العثماني في الصحاح بن عباد :

وَفَدْنَا لِنَشْكُرَ كَافِي الْكُفَاةِ وَتَسْأَلُهُ الْكَفَّ عَنْ بَرْنَا

فقال له العلوي - وكان حاضراً - : قد كُفيت المؤنة ، فإنَّ الصَّاحِبَ صَارَ لَا يُعْطِي شَيْئاً . وسيعاد الكلام في مثل هذا أوائل المجلس الخامس عشر .

[اشكر لمن أنعم عليك ، وأنعم علي من شكرك]

ويروى عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « اشْكُرْ لِمَنْ أَنْعَمَ عَلَيْكَ ، وَأَنْعِمْ عَلَيَّ مِنْ شَكَرِكَ ، فَإِنَّهُ لَا زَوَالَ لِلنُّعْمَةِ إِذَا شُكِرَتْ ، وَلَا بَقَاءَ لَهَا إِذَا كُفِرَتْ » (١) .

[من الوافر]

وقال ابن سقلاب : رأيت البُحْتَرِيَّ فَقُلْتُ لَهُ : ما الخبرُ ؟ فَأَنْشَدَ بديهاً :

يَزِيدُ تَفْضُلاً وَأَزِيدُ شُكْرًا فَذَلِكَ دَأْبُهُ أَبَدًا وَدَأْبِي

[سيد الشاكرين صلى الله عليه وسلم]

وقام صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حَتَّى تَفَطَّرَتْ قَدَمَاهُ ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ ؟ فَقَالَ : « أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا ؟ » (٢) .

[إذا صنعت معروفًا . فليكن إلي مثل هؤلاء]

[من البسيط]

وروى الأبيهي في «المستطرف» ١/٥٠٩ أنه [جاء رجل من الأنصار إلى ابن الخطاب وقال :

أَذْكَرُ صَنِيعِي إِذْ فَاجَاكَ ذُو سَفِهِ يَوْمَ السَّقِيفَةِ وَالصُّدَيْقُ مَشْغُولُ

فقال عمرُ بأعلى صوتِهِ : ادنُ مِنِّي ، فدنا منه ، فأخذَ بذرَاعِهِ حَتَّى اسْتَشْرَفَهُ النَّاسُ ، وقال : أَلَا إِنَّ هَذَا رَدَّ عَنِّي سَفِيهَا مِنْ قَوْمِهِ يَوْمَ السَّقِيفَةِ ، ثُمَّ حَمَلَهُ عَلَيَّ نَجِيبٌ ، وزاد في عطائِهِ ، وولاهُ صَدَقَاتِ قَوْمِهِ ، وقال : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾ [الرحمن : ٦٠] .

وقال رجلٌ [كما في «المستطرف» ١/٥٠٩] لسعيد بن العاص وهو أمير (الكوفة) : لي عندك يدٌ ، قال : وما هي ؟ قال : كَبْتُ بِكَ فَرَسُكَ ، فتقدَّمتُ إِلَيْكَ قَبْلَ غَلْمَانِكَ ، فأخذتُ بيدَكَ وَأَعْتَمْتُكَ عَلَى الرُّكُوبِ ، قال : فأين كنتِ حَتَّى الآنَ ؟ قال : حُجِبتُ عَنُ الوُصُولِ إِلَيْكَ ، قال : قد أمرنا لك : بِمِئْتِي أَلْفِ دِرْهَمٍ ، وبما يملكُهُ الحاجِبُ ، عقوبةً لَهُ عَلَيَّ حُجْبِكَ عَنَّا .

(١) هذا ليس حديثاً ، بل هو حكمة كما في كتاب «الزهد» لابن أبي عاصم (٣٦٨) ، وبمعناه الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه : « من لم يشكر الناس لا يشكر الله » . أيضاً عن الأشعث وأسامة وابن مسعود .

وفي كنز العمال : (٦٤١٣) بلفظ « أشكروا الناس لله أشكروهم للناس » عند أحمد والطبراني والبيهقي والضياء وغيرهم . كما في « كنز العمال » (٦٤٤٣) عند أحمد والترمذي .

(٢) أخرجه البخاري (١١٣٠) في التهجد .

وَكَانَ الْحَجَّاجُ مَنْ عَلَى عَمْرَانَ بْنِ حَطَّانٍ - أَبْعَدَهُ اللَّهُ - فَقَالَ لَهُ قَطْرِيُّ بْنُ الْفَجَاءَةِ : عُدْ إِلَى قِتَالِ عَدُوِّ اللَّهِ ، فَقَالَ :

[مِنَ الْكَامِلِ]

أَفَاتِلُ الْحَجَّاجِ عَن سُلْطَانِهِ يَدِ تَقْرُ بِأَنَّهَا مَوْلَاتُهُ
مَاذَا أَقُولُ إِذَا وَقَفْتُ إِزَاءَهُ فِي الصَّفِّ وَاحْتَجَّجْتُ لَهُ فَعَلَاتُهُ ؟
أَقُولُ جَارَ عَلَيَّ لَا إِنِّي إِذَا لِأَحَقُّ مِنْ جَارَتِ عَلَيْهِ وَلَاتُهُ
وَتَحَدَّثَ الْأَقْوَامُ أَنَّ صَنَائِعَاءَ غُرِسَتْ لَدَيَّ فَحَنَظَلْتُ نَخْلَاتُهُ^(١)

[مِنَ الْمَدِيدِ]

وَمَرَّ أَبُو ذُلْفٍ - الشاعِرُ - بِقَوْمٍ فَقَالَ بَعْضُهُمْ : هَذَا الَّذِي يَقُولُ فِيهِ الشاعِرُ :

إِنَّمَا الدُّنْيَا أَبُو ذُلْفٍ بَيْنَ بَادِيهِ وَمُخْتَضِرِهِ
فَإِذَا وَلَّى أَبُو ذُلْفٍ وَلَّتِ الدُّنْيَا عَلَيَّ أَثَرِهِ

فبَكَى حَتَّى جَرَتْ دَموعُهُ ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ : لِمَاذَا ؟ قَالَ « كَمَا فِي « الْمَتَمِّمِ » حَتَّى سَنَةِ (٢٥٧ هـ) / ١٠ / ٢٥٧ : لِأَنِّي لَمْ أَفْضِ حَقَّ هَذَا الشاعِرِ ، قَالُوا : أَوْلَمْ تَعْطِهِ مِئَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ ؟ قَالَ : وَاللَّهِ مَا فِي نَفْسِي إِلَّا أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ مِئَةَ أَلْفِ دِينَارٍ .

[المتنبي والشكر]

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَلِلنَّاطِمِ فِي مَطْلَقِ الشُّكْرِ قَوْلُهُ [فِي « الْمُكْبَرِيِّ » ٢ / ١٢٦] :

لَهُ مِنْ تَفْنِي النَّاءِ كَأَنَّمَا بِهِ أَقْسَمْتُ أَنْ لَا يُؤَدِّي لَهَا شُكْرُ

[مِنَ الْوَافِرِ]

وقولُهُ [فِي « الْمُكْبَرِيِّ » ١ / ٧٨] :

أُثْبِيكَ بِالَّذِي أَوْلَيْتَ شُكْرًا وَأَيُّنَ مِنَ الَّذِي تُوَلِّي الثَّوَابُ !؟

[مِنَ الْوَافِرِ]

وقولُهُ [فِي « الْمُكْبَرِيِّ » ٢ / ٣٨٨] :

وَقَدْ حَمَلْتَنِي شُكْرًا طَوِيلًا ثَقِيلًا لَا أُطِيقُ بِهِ حِرَاكًا

[مِنَ الْبَسِيطِ]

وقولُهُ [فِي « الْمُكْبَرِيِّ » ٣ / ٨٥] :

يَا أَيُّهَا الْمُحْسِنُ الْمَشْكُورُ مِنْ جِهَتِي وَالشُّكْرُ مِنْ قِبَلِ الْإِحْسَانِ لَا قِبَلِي

[الشعراء والشكر]

[مِنَ الطَّوِيلِ]

ويعجبني قولُ بعضهم [كما في « تاريخ بغداد » ١٣ / ٢٥٨] :

سَأَشْكُرُ مَا عَشْتُ السَّدُوسِيَّ بِرَّهْ وَأَوْصِي بِشُكْرِ السَّدُوسِيَّ مِنْ بَعْدِي

[مِنَ الْكَامِلِ]

وَأَطَالَ بَعْضُهُمْ فِي شُكْرِ الصَّاحِبِ بْنِ عَبَّادٍ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ عَلَيْهِ إِلَّا مِئَةُ سِيرَةٍ ، فَقَالَ :

وَإِذَا الصَّديقُ أَدَامَ شُكْرِي لِلَّتِي لَمْ آتِهَا إِلَّا عَلَى التَّقْصِيرِ
أَيَقْنَتْ أَنَّ الْعُتْبَ بَاطِنُ أَمْرِهِ فَسَكْتُ مُحْتَشِمًا عَلَى التَّقْصِيرِ

(١) « المستطرف » (١ / ٥٠٩) .

وقال دِعْبِلُ [في «ديوانه» ١٨٤] :

[مِنَ الكَامِلِ]

لَا يَقْبَلُونَ الشُّكْرَ مَا لَمْ يُنْعَمُوا نِعْمًا يَكُونُ لَهَا الثَّنَاءُ تَبَعًا
وقال أنوشروان : مَنْ أَتَيْتُ عَلَيْكَ بِمَا لَمْ تَوْلِهِ . . فغَيْرُ بَعِيدٍ أَنْ يَذُمَّكَ بِمَا لَمْ تَفْعَلْهُ .

[يباح ذم المقصر . . كما يجب شكر المنعم]

وكما يجبُ شكرُ المنعم . . فَإِنَّهُ قَدْ يَبَاحُ ذَمُّ الْمَقْصِرِ ؛ إذ [روى القرطبي في «تفسيره» ١/٦ أنه] : جاء في تفسيرِ قوله تعالى : ﴿ لَا يَحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ﴾ [النساء : ١٤٨] ، إِنَّهَا فِي الضَّيْفِ يَنْزِلُ بِالْقَوْمِ فَلَا يَحْسُنُونَ قِرَاءَهُ ، فيجوزُ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ بِقَدَرٍ مَا قَصَّرُوا فِيهِ مِنْ حَقِّهِ ، وقد سبق - في غيرِ هَذَا المَجْلِسِ - ذَكَرُ قَوْلِ حَاتِمٍ :

[مِنَ الكَامِلِ]

وَأَعْلَمُ بِأَنَّ الضَّيْفَ مُخْبِرٌ أَهْلِهِ بِمَيِّتِ لَيْلَتِهِ وَإِنْ لَمْ يُسْأَلِ
مع ما يناسبُهُ مِنَ الكَلَامِ .

[المتوكل يريد أن يختص أبا العيناء للمنادمة]

واعترَمَ المتوَكِّلُ على اختصاصِ أَبِي العَيْنَاءِ للمنادمة ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : لَوْلَا حِدَّةٌ فِي لِسَانِكَ ، فَقَالَ : إِنْ تَوَهَّمِ الخَلِيفَةُ أَنِّي مِثْلُ العَقْرَبِ تَلَدَّغُ النَّبِيِّ وَالذَّمِيَّ . . فَقَدْ صَانَ اللهُ عَبْدَهُ عَنْ ذَلِكَ ، وَإِنْ لَمْ عَلَى ذَمِّ المُسِيءِ ، وَشَكَرَ المحْسَنَ ؛ فالباري جَلَّ شَأْنُهُ يَقُولُ في المدح : ﴿ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ٤٤] . ويقولُ في الذمِّ : ﴿ هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَعِيمٍ ﴾ * مَنَاجِجُ الخَيْرِ مُعْتَدِ أَثِيمٍ * عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ رَنِيمٍ * [القلم : ١١-١٣] .
ثُمَّ أَنشَأَ يَقُولُ :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

إِذَا أَنَا لَمْ أَشْكُرْ عَلَى الخَيْرِ أَهْلَهُ وَلَمْ أَشْتَمِ الجَبَسَ اللَّئِيمَ المُذَمَّمَا^(١)
فَفِيمَ عَرَفْتُ الخَيْرَ وَالشَّرَّ بِاسْمِهِ وَشَقَّ لِي اللهُ المَسَامِعَ وَالْفَمَا

[مُدَحَّ سَعِيدِ بْنِ سَلَمِ بَيْتَيْنِ وَلَا أَجْمَلَ مِنْهُمَا]

ويروى عن سعيد بن سلم بن قتيبة بن مسلم الباهلي قال : مدحني رجلٌ من العربِ ببيتينِ لم أسمعَ لهما نظيراً في المدح ، فقال :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

أَقُولُ لِسَارِي اللَّيْلِ : لَا تَخْشَ ظُلْمَةَ سَعِيدُ بْنُ سَلَمٍ ضَوْءُ كُلِّ بِلَادِ
لَنَا مُقَرَّمٌ أَرْبَى عَلَيَّ كُلِّ مُقَرَّمِ جَوَادٌ حَثَا فِي وَجْهِ كُلِّ جَوَادِ^(٢)

[ثم هجى بيتين ولا أمضَّ منهما]

[مِنَ الطَّوِيلِ]

ثُمَّ هَجَّانِي بَعْدَ ذَلِكَ بَيْتَيْنِ لَمْ أَرَأَمْضَ مِنْهُمَا ، فَقَالَ :
لِكُلِّ ثَنَاءٍ مَا عَلِمْتَ كَرَامَةً وَلَيْسَ لِمَدْحِ البَاهِلِيِّ ثَوَابُ
مَدَحْتُ ابْنَ سَلَمٍ وَالْمَدِيحُ مَهْرَةٌ فَكَانَ كَصَفْوَانَ عَلَيْهِ تُرَابُ

(١) الجَبَسُ : الجامدُ الثقيلُ الروح ، والفاسقُ ، والرديءُ ، والجبانُ واللئيمُ .

(٢) المُقَرَّمُ : السَّيِّدُ الجَوَادُ المعظَّمُ ، يعني : أَنَّهُ سَبَقَ فِي الجُودِ ، والسَّابِقُ يَحْتَوِ التُّرَابَ بِحَافِرِ فَرَسِهِ فِي وَجْهِ المَسْبُوقِ .

وامتدَحَ ابنُ الروميِّ بعضَ الكتابِ فمأطَلُهُ بالجائِزَةِ ، ثُمَّ رَدَّ إِلَيْهِ مَدْحَهُ وَقَالَ : امدَحْ بِهِ مَنْ شِئْتَ غَيْرِي ، فَقَالَ [في ديوانه « ٦٠٤-٦٠٣/٢ »] :

رَدَدْتَ عَلَيَّ شِعْرِي بَعْدَ مَطْلٍ وَقَدْ دَنَسْتَ مَلْبَسَهُ الْجَدِيدَا
وَقُلْتَ : امدَحْ بِهِ مَنْ شِئْتَ غَيْرِي وَمَنْ ذَا يَقْبَلُ المَدْحَ الرَّدِيدَا
وَمَا لِلْحَيِّ فِي أَكْفَانِ مَيِّتٍ لَبُوسٌ بَعْدَ مَا امْتَلَأَتْ صَدِيدَا

وقال لآخر - وقد حرّمه - [كما في « ديوانه » ٤/١٦٢٩]

[من الكامل] :

رُدُّوا عَلَيَّ صَحَائِفًا سَوَدَتْهَا فَيُكْمُ بِلاَ حَقٍّ وَلَا اسْتِحْقَاقِ

[من البسيط]

وقال [في « ديوانه » ١/٢٤٤] :

إِنْ كُنْتُ مِنْ جَهْلٍ حَقِّي غَيْرَ مُعْتَذِرٍ وَكُنْتُ مِنْ رَدِّ مَدْحِي غَيْرَ مُتَّيِّبٍ^(١)
فَأَعْطِنِي ثَمَنَ الطَّرْسِ الَّذِي كُتِبَتْ فِيهِ الْقَصِيدَةُ أَوْ كَفَّارَةَ الْكُذِبِ^(٢)

[هن بناتي أزوجهن من أريد]

ويُذَكِّرُ : أَنَّ النَّاطِمَ كَانَ أَعَدَّ قَصِيدَتَهُ - الَّتِي يَقُولُ فِي مَطْلَعِهَا [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/١٦٠] :

بَادِ هَوَاكَ صَبَرْتَ أَمْ لَمْ تَصْبِرَا وَيُكَأَكِ إِنْ لَمْ يَجْرِ دَمْعُكَ أَوْ جَرَى
لَابِنِ الْفِرَاتِ ، ثُمَّ لَمَّا لَمْ يُرْضِهِ . . قَلَبَهَا لابن العميد ، وَلَمَّا عَوَيْتَ فِي ذَلِكَ . . قَالَ : هُنَّ بَنَاتِي أَرْوَجُهُنَّ عَلَيَّ مِنْ شِئْتِ .

[صور من الهجاء لمن لم يشكر النعم]

وكان عيسى بن فرخان يتيه على أبي العيْناء في أيام وزارته ، فلما صُرفَ عنها . . لقي أبا العيْناء في بعض السُّككِ ، فسَلَّمَ عليه سلاماً خفيفاً ، فقال لِقَائِهِ : مَنْ هَذَا ؟ قَالَ : أَبُو موسى ، فدنا منه حتَّى أخذَ بعنانِ بَغْلَتِهِ ، وقال : لقد كنتُ أفتَحُ بِإِمَائِكَ دُونَ بَنَاتِكَ ، وبلحظك دُونَ لفظك ، فالحمدُ لله على ما آلتَ إليه حالُك ، فلئن أخطأتُ فيك النعمة . . فلقد أصابتُ فيك النِّقْمَةُ ، ولئن كانت الدنيا أبدتُ صفحاتها بالإقبالِ عليك . . لقد أظهرتُ محاسنها بالإدبارِ عنك ، والله المنةُ إذ أعاننا عن الكذبِ عليك ، ونزّهنا عن قولِ الزُّورِ فيك ، وقد - والله - أسأتُ حملَ النِّعْمَةِ ، وما شكرتُ حقَّ المنعمِ ، ثُمَّ أطلقَ يدهُ من عنانِهِ ، ورجعَ إلى مكانِهِ ، فقيلَ لَهُ : يا أبا عبدِ الله ، لقد بالغتَ في السَّبِّ ، فما كان الذُّنْبُ ؟ قَالَ : سألتُهُ حاجةً أقلَّ من قيمتهِ . . فردّني عنها بقولٍ أقبحَ من خِلقَتِهِ .

ويروى [بنحوه في « الأغاني » ١٦/٢٧٢] : أَنَّ ربيعةَ الرقيّ امتدَحَ يزيدَ بنَ أسيدِ السلميّ ، فقصرَ يزيدُ في حقِّهِ ، ثُمَّ امتدَحَ يزيدُ بنَ حاتمِ بنِ قبيصةَ المهلبيّ ، فلم يلتفتْ إليه ، فقال [في « شعره » ٩٥] :

[من الطويل]

أَرَانِي - وَلَا كُفْرَانَ لِلَّهِ - رَاجِعَا بِحُقِّي حُنَيْنٍ مِنْ نَوَالِ ابْنِ حَاتِمٍ^(٣)

(١) مَتَّيَّبٌ : راجعٌ .

(٢) الطَّرْسُ : الصحيفةُ .

(٣) حُنَيْنٌ : اسمُ رجلٍ . وهذا مثلُ أصلُهُ : كما ذكره الميداني في « مجمع الأمثال » (١/٢٥٧) : أَنَّ حُنَيْنًا كَانَ مِنْ أَهْلِ (دَوْمَةِ الْكُوفَةِ) فَدَعَاهُ قَوْمٌ إِلَى =

فَعَادَ فَعَطَفَ عَلَيْهِ وَأَرْضَاهُ ، وَبَالَغَ فِي الْإِحْسَانِ إِلَيْهِ ، فَقَالَ يَمْدَحُ يَزِيدَ بْنَ حَاتِمٍ ، وَيَذُمُّ يَزِيدَ بْنَ أُسَيْدٍ [فِي « شِعْرِهِ »

[مِنَ الطَّوِيلِ]

: [٩٨٩٧]

لَشَّتَانِ مَا بَيْنَ الْيَزِيدَيْنِ فِي النَّدَى
فَهَمُّ الْفَتَى الْأَزْدِيِّ تَفْرِيقُ مَالِهِ
يَزِيدَ سُلَيْمٍ وَالْأَغْرَ بْنَ حَاتِمِ
وَلَكِنِّي فَضَّلْتُ أَهْلَ الْمَكَارِمِ^(١)

ويزيدُ ابنُ حاتمٍ هذا هو جدُّ الوزيرِ أبي محمدٍ المهلبِيِّ المشهورِ .

وشبيهٌ بهذا الحديثِ [كما في « شذرات الذهب » ٣١٢/٢] : أَنَّ ابْنَ عَيْنَانَ الدَّمَشَقِيَّ قَدِمَ (الْيَمَنَ) عَلَى الْمَلِكِ الْعَزِيزِ طَغْتَكِينَ بْنِ أَيُّوبَ وَامْتَدَحَهُ بِغُرْرِ الْقَصَائِدِ ، فَأَجَزَلَ صَلَاتَهُ ، وَأَكْسَبَهُ أَمْوَالًا طَائِلَةً ، فَلَمَّا وَصَلَ الدِّيَارَ الْمَصْرِيَّةَ - وَسُلْطَانَهَا يَوْمَئِذٍ ابْنُ أُخِيهِ الْعَزِيزُ عَثْمَانُ بْنُ صَالِحِ الدِّينِ بْنِ أَيُّوبَ - أَلْزَمَهُ أَرْبَابُ دِيْوَانِ الزَّكَاةِ بِدَفْعِ صَدَقَةِ التِّجَارَةِ عَنْهَا ، فَقَالَ :

[مِنَ السِّبْطِ]

مَا كُلُّ مَنْ يَتَسَمَّى بِالْعَزِيزِ لَهَا
بَيْنَ الْعَزِيزَيْنِ بَوْنٌ فِي فِعَالِهِمْ
أَهْلٌ ، وَلَا كُلُّ بَرَقٍ سُحْبُهُ غَدِقَةٌ^(٢)
هَذَاكَ يُعْطِي ، وَهَذَا يَأْخُذُ الصَّدَقَةَ

وذكرَ غيرُ واحدٍ [منهم الأصفهاني في « الأغاني » ٢٧٤/١٦] : أَنَّ رِبْعَةَ الرَّقِيَّ - الْآيْفَ الذَّكْرَ - امْتَدَحَ الْعَبَّاسَ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ بِقَوْلِهِ [فِي « شِعْرِهِ » ٨٧] :

[مِنَ الْكَامِلِ]

لَوْ قِيلَ لِلْعَبَّاسِ : يَا ابْنَ مُحَمَّدٍ
مَا إِنْ أَعَدُّ مِنَ الْمَكَارِمِ خِصْلَةً
قُلْ : لَا وَأَنْتَ مُخَلَّدٌ مَا قَالَهَا
إِلَّا وَجَدْتُكَ عَمَّهَا أَوْ خَالَهَا
كَانُوا كَوَاكِبِهَا وَكُنْتَ هِلَالَهَا
حَتَّى حَلَلْتَ بِرَاحَتَيْكَ عِقَالَهَا
إِنَّ الْمَكَارِمَ لَمْ تَزَلْ مَعْقُولَةً

[مِنَ الْوَاقِعِ]

فلم يُرِضْهِ ، فَقَالَ [فِي « شِعْرِهِ » ٦٧] :

هَزَزْتُكَ هِزَّةَ السَّيْفِ الْمُحَلَّى
فَهَبَهَا مِدْحَةً ذَهَبَتْ ضِيَاعًا
فَلَمَّا أَنْ ضَرَبْتُ بِكَ انْتَشَيْتُ
كَذَبْتُ عَلَيْكَ فِيهَا وَافْتَرَيْتُ
كَأَنِّي إِذْ مَدَحْتُكَ قَدْ زَنَيْتُ
فَأَنْتَ الْمَرْءُ لَيْسَ لَهُ وَفَاءٌ

فَرَفَعَهُ إِلَى الرَّشِيدِ - وَكَانَ أَثِيرًا^(٣) عِنْدَهُ ، وَقَدْ هَمَّ أَنْ يَخْطُبَ إِلَيْهِ ابْنَتَهُ - فَأَحْضَرَ رِبْعَةَ ، وَقَالَ : يَا مَاصَّ بَطْرُ أُمَّهُ ، تَهْجُو عَمِّي ؟ قَالَ : لَقَدْ مَدَحْتُهُ بِشِعْرِ مَا قِيلَ مِثْلُهُ فِي الْخُلَفَاءِ ، وَأَنْشَدَهُ لَهُ ، فَاسْتَجَادَهُ ، وَقَالَ لِلْعَبَّاسِ : كَمْ أَثْبَتَهُ ؟

= الصَّحْرَاءُ لِيغْتَبِيَهُمْ ، فَمَضَى مَعَهُمْ ، فَلَمَّا سَكَّرَ . . . سَلَبُوهُ ثِيَابَهُ ، وَتَرَكُوهُ غُرْبَانًا فِي خُفْيِهِ ، رَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ ، وَأَبْصَرُوهُ بِتِلْكَ الْحَالَةِ . . . قَالُوا : جَاءَ حَيْنُ بَخْفِيهِ . فَعَدَّتْ مِثْلًا لِكُلِّ إِنْسَانٍ خَائِبٍ وَخَاسِرٍ .

(١) التَّمَتُّمُ : إِشَارَةٌ إِلَى تَمَتُّعِهِ كَانَتْ فِي لِسَانِ يَزِيدَ بْنِ أُسَيْدٍ .

(٢) غَدِقَةٌ : مُمِطْرَةٌ .

(٣) الْأَثِيرُ : التَّابِعُ ، وَفُلَانٌ أَثِيرِي : أَيُّ مِنْ خُلَصَانِي .

لوالله ما قيلَ في أحدٍ مثلهُ ، فسَكَتَ العَبَّاسُ وِغَصَّ بِرِيقِهِ ، فَقَالَ رِيبَعَةُ : أَثَابَتِي عَلَيْهِ بَدِينَارِينَ ، قَالَ الرَّشِيدُ : بِحَيَاتِي لَا تَكْذُبُ ، فَقَالَ : وَحَيَاتِكَ لَا أَكْثَرُ مِنْهُمَا ، فَغَضِبَ الرَّشِيدُ أَشَدَّ الْغَضَبِ عَلَى الْعَبَّاسِ ، وَأَوْجَعَهُ تَأْنِيبًا ، ثُمَّ اشْتَرَى عَرْضَهُ مِنْ رِيبَعَةَ بِثَلَاثِينَ أَلْفَ دَرَاهِمٍ ، وَخَلَعَهُ ، وَحَمَلَهُ عَلَى بَغْلَةٍ ، وَرَجَعَ عَمَّا كَانَ هَمَّ بِهِ مِنَ الْخِطْبَةِ إِلَيْهِ .

[مِنَ الْبَسِيطِ]

وفي العباسِ هَذَا يَقُولُ بِشَارًا [في «ديوانه» ١٢٧/٣ : ١٢٨]

ظَلَّ الْيَسَارُ عَلَى الْعَبَّاسِ مَمْدُودٌ وَقَلْبُهُ أَبَدًا بِالْبُخْلِ مَعْقُودٌ
إِنَّ الْكَرِيمَ لِيُخْفِي عَنْكَ عُسْرَتَهُ حَتَّى تَرَاهُ غَنِيًّا وَهُوَ مَجْهُودٌ
وَلِلْبَخِيلِ عَلَى أَمْوَالِهِ عِلَلٌ زُرُقُ الْعُيُونِ عَلَيْهَا أَوْجُهُ سُودٌ^(١)
إِذَا تَكَرَّمْتَ عَنِ بَذْلِ الْقَلِيلِ وَلَمْ تَقْدِرْ عَلَى سَعَةٍ لَمْ يَظْهَرْ الْجُودُ
أُورِقُ بِخَيْرٍ تُرَجَّى لِلنَّوَالِ فَمَا تُرَجَى الثَّمَارُ إِذَا لَمْ يُورِقِ الْعُودُ

وقد أَلَمَّ فِي الْآخِرِ بِقَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « إِنْ اللهُ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَنْتَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ »^(٢) .

[عبث ربيعة الرقي بالعباس بن محمد في حضرة الرشيد]

وفي حِفْظِي عَنْ بَعْضِ الْكُتُبِ [كما في «الأغاني» ١٦/٢٧٤] : أَنَّ رِيبَعَةَ الرَّقِيَّ مَا زَالَ يَعْثُ بِالْعَبَّاسِ - وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ إِلَّا عَنْ رِضَى مِنَ الرَّشِيدِ فِي بَاطِنِ الْأَمْرِ ، كَمَا هِيَ عَادَةُ الْمُلُوكِ ، وَكَمَا يُعْرَفُ جَلِيًّا مِنَ الْفِصَّةِ الْآتِيَةِ ، فَلَقَدْ جَاءَ الْعَبَّاسُ بِغَالِيَةٍ أَهْدَاهَا لِلرَّشِيدِ^(٣) ، وَطَفِقَ يُطِنُّ فِي وَصْفِهَا ، فَاعْتَرَضَهُ رِيبَعَةُ وَقَالَ : تَصِفُهَا بِحُضْرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، الَّذِي تُجِبِّي لَهُ نَفَائِسَ الدُّنْيَا مِنْ شَرْقِهَا إِلَى غَرْبِهَا ، وَمَا قَدَرُ غَالِيَتِكَ هَذِهِ عِنْدَهَا ؟ ثُمَّ التَفَّتْ إِلَى الرَّشِيدِ وَقَالَ : بِحَيَاتِكَ إِلَّا مَا جَعَلْتَهَا لِي بِنِصْبِي مِنَ الْعَطَاءِ إِلَى سَنَةِ ، فَقَالَ : خُذْهَا ، فَدَهَنَ إِنْطِيَهُ وَأَسْتَهَ وَمَذَاكِيرَهُ ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ لِعَلَامِهِ فَدَخَلَ ، فَقَالَ لَهُ : اذْهَبْ إِلَى فُلَانَةٍ ، وَقُلْ لَهَا : اذْهَبِي بِمَا بَقِيَ فِي الْحُقِّ اسْتِكِ وَإِنْطِكِ وَسَائِرِ بَدَنِكَ ، فَلَاتِيَنَّكَ السَّاعَةَ ، فَضَحِكَ الرَّشِيدُ حَتَّى اسْتَلْقَى .

وما كَانَ رِيبَعَةُ لِيَفْعَلَ هَذَا . . . إِلَّا عَنْ إِشَارَةِ مِنَ الرَّشِيدِ ، أَوْ عَنْ عِلْمِ بِطَبِيعَتِهِ وَمَوَاقِعِ رِضَاهُ ، وَلَا يُنْكَرُ هَذَا مَعَ رِكَانَةِ الرَّشِيدِ ، فَإِنَّ طِبَاعَ الْمُلُوكِ أَشْبَهُ بِطِبَاعِ الصَّبِيَانِ ، وَكَثِيرًا مَا تَرَكَبُ الصَّعْبَ وَالذَّلُولَ فِي سَبِيلِ شَهْوَاتِ الْإِنْتِقَامِ ، وَقَدْ نَعَذَّرَ عَلَيْهِ ؛ لِمَكَانِ قَرَبِ الْعَبَّاسِ مِنْهُ ، وَاحْتِرَامِهِ لَهُ فِي الظَّاهِرِ ، إِلَّا مِنْ هَذَا الطَّرِيقِ .

[مِنَ أَخْبَارِ الْعَبَّاسِ مَعَ الرَّشِيدِ]

وَمِنْ أَخْبَارِهِ مَعَ الْعَبَّاسِ هَذَا - وَلَا إِخَالَهُ إِلَّا قَبْلَ نَفَرَتِهِ عَنْهُ - أَنَّهُ قَالَ لَهُ [كما في «الأغاني» ١٨/٢٣٧] : لَقَدْ أَكْثَرَ الشُّعْرَاءُ فِي الْأَمِينِ ، وَأَحِبُّ أَنْ أَسْمَعَ فِي الْمَأْمُونِ ، فَذَكَرَ الْعَبَّاسُ ذَلِكَ لِأَشْجَعِ ، فَقَالَ [في «شعره» ٢٣٨] :

[مِنَ الْمَدِيدِ]

يَبْعَةُ الْمَأْمُونِ آخِذَةٌ بَيْنَانِ الْحَقِّ فِي أَفْقِهِ
لَنْ يَفُكَّ الْمَرْءُ رِبْقَتَهَا أَوْ يَفُكَّ الدِّينَ مِنْ عُنُقِهِ
وَلَهُ مِنْ وَجْهِهِ وَالِدِهِ صُورَةٌ تَمَّتْ وَمِنْ خُلُقِهِ

(١) خَصَّ الْعُيُونَ الزَّرْقَاءَ بِالذِّكْرِ هُنَا ؛ لِأَنَّهَا مِمَّا تَكْرَهُهُ الْعَرَبُ وَتَشَاءُ بِهِ ، وَلِأَنَّ صَاحِبَهَا يَكُونُ مَلِيئًا بِالْأَصْغَانِ .

(٢) أَخْرَجَهُ الْحَاكِمُ فِي «الْمُسْتَدْرَكِ» (٤/١٥٠) .

(٣) الْغَالِيَةُ : وَعَاءٌ يُوَضَعُ فِيهِ الطَّيِّبُ ، وَأَوَّلُ مَنْ سَمَّاهَا بِذَلِكَ سَلِيمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ .

فَأَتَى بِهَا الْعَبَّاسُ إِلَى الرَّشِيدِ ، فَاسْتَحْسَنَهَا ، وَقَالَ : لِمَنْ ؟ قَالَ : هِيَ لِي ، قَالَ : الْآنَ سَرَّتَنِي مِنْ جِهَتَيْنِ ؛ لِإِصَابَتِهَا مَا فِي نَفْسِي ، وَلِأَنَّهَا لَكَ ، وَأَعْطَاهُ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ ، فَاحْتَقَبَهَا وَلَمْ يُعْطِ أَشْجَعَ مِنْهَا إِلَّا خَمْسَةَ آلافٍ ، عَلَى أَنَّ الْخَمْسَةَ كَثِيرٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا سَبَقَ مِنْ لُؤْمِهِ .

[حبس أمير المؤمنين ابن الخطاب للحطيئة]

[وروى الأصفهاني في «الأغاني» ١٧٨/٢ أنه] : لَمَّا أَكْثَرَ الْحُطَيْئَةُ مِنَ الْهَجَاءِ ، وَاسْتَعْدَى عَلَيْهِ الزُّبَيْرِقَانُ ابْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . . . حَبَسَهُ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ مِنَ السَّجْنِ [في «ديوانه» ١٩١] :

مَاذَا تَقُولُ لِأَفْرَاحِ بِيذِي مَرَّخٍ حُمْرِ الْحَوَاصِلِ لَا مَاءَ وَلَا شَجَرٍ
أَلْقَيْتَ كَاسِبَهُمْ فِي فَعْرِ مُظْلِمَةٍ فَاْمُنُّنْ عَلَيْهِمْ هَذَاكَ اللَّهُ يَا عَمْرُ

فَأَطْلَقَهُ ، وَشَرَطَ عَلَيْهِ أَنْ يَكْفَى لِسَانَهُ عَنِ النَّاسِ ، فَتَقَدَّمَ إِلَى عَمْرٍ بِالْأَبْيَاتِ الَّتِي سَبَقَ بَعْضُهَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَجْلِسِ وَمِنْهَا قَوْلُهُ [في «ديوانه» ٢٧٧] :

أَشْكُو إِلَيْكَ بَلِيَّتِي مِنْ صَبِيَّةٍ لَا يَشْبَعُونَ وَأُمُّهُمْ لَا تَشْبَعُ
وَبُعِثْتُ لِلشُّعْرَاءِ مَبْعَثٌ دَاحِسٍ أَوْ كَالْبَسُوسِ بِرُدْعِهَا تَتَكَوَّمُ

يَقُولُ لَهُ : لَقَدْ كُنْتَ شَوْمًا عَلَى الشُّعْرَاءِ كَشَوْمِ دَاحِسِ عَلَى عُنُسٍ وَذَبْيَانٍ ، وَكَشَوْمِ الْبَسُوسِ عَلَى بَنِي وَائِلٍ .

[ذهاب الحطيئة إلى علقمة بن علاثة بعد خروجه من السجن وإذا به قد مات !!]

وَبَعَثَ مَرَاجِعَاتٍ طَوِيلَةً كَتَبَ لَهُ إِلَى عُلْقَمَةَ بْنِ عَلَاثَةَ ، فَصَادَفَهُ قَدْ مَاتَ وَالنَّاسُ مَنْصَرِفُونَ مِنْ قَبْرِهِ ، وَابْنُهُ حَاضِرٌ ، فَأَنشَدَ قَصِيدَتَهُ اللَّامِيَّةَ الْمَشْهُورَةَ ، الَّتِي يَقُولُ فِيهَا [في «ديوانه» ٣٨٣٥] :

إِلَى الْقَائِلِ الْفَعَّالِ عُلْقَمَةَ النَّدَى رَحَلْتُ قَلْوِصِي تَجْتَوِيهَا الْمَنَاهِلُ
يَدَاهُ خَلِيجُ الْبَحْرِ إِحْدَاهُمَا دَمًا تَفِيضُ وَأُخْرَى بِخَرِّ جُودٍ وَنَائِلُ
فَإِنْ نَحْيِي لَا أَمْلُلُ حَيَاتِي وَإِنْ تَمُتْ فَمَا فِي حَيَاةٍ بَعْدَ مَوْتِكَ طَائِلُ
وَمَا كَانَ بَيْنِي لَوْ لَقَيْتُكَ سَالِمًا وَيَبِينُ الْغِنَى إِلَّا لِيَالٍ قَلَائِلُ

فَقَالَ ابْنُهُ : كَمْ تَظُنُّ أَبِي يَعطيك لو وجدته حياً ؟ فقال : مئة ناقة يتبعها أولادها ، فقال له : هِيَ لَكَ ^(١) .
وَيُرْوَى : أَنَّ عُلْقَمَةَ كَانَ أَوْصَى لَهُ بِمِثْلِ نَصِيبِ أَحَدِ أَوْلَادِهِ .

[اجود الأبناء]

قَالَ ابْنُ خَلِّكَانَ [في «وفيات الأعيان» ١٩١/٥] : وَمِثْلُ قِصَّةِ الْحُطَيْئَةِ مَعَ ابْنِ عُلْقَمَةَ ، أَنَّ ابْنَ مِرْوَانَ ابْنَ أَبِي حَفْصَةَ دَخَلَ عَلَى شَرَاخِيلَ بْنِ مَعْنِ بْنِ زَائِدَةَ ، فَقَالَ لَهُ :

أَيَا شَرَاخِيلُ بْنُ مَعْنِ بْنِ زَائِدَةَ يَا أَكْرَمَ النَّاسِ مِنْ عُجْمٍ وَمِنْ عَرَبِ
أَعْطَى أَبُوكَ أَبِي مَالًا فَعَاشَ بِهِ فَأَعْطِنِي مِثْلَ مَا أَعْطَى أَبُوكَ أَبِي

(١) «الأغاني» (٣١٨/١٦) ، وكنا قد ذكرنا هذه القصة في حاشية غير هذا المجلس برواية تقرب من هلذه فليتبته .

مَا حَلَّ قَطُّ أَبِي أَرْضَا أَبُوكَ بِهَا إِلَّا وَأَعْطَاهُ قِنْطَاراً مِنَ الذَّهَبِ .
نَاعُطَاهُ شِرَاحِيلُ بْنُ مَعِينٍ قِنْطَاراً مِنَ الذَّهَبِ .

[هَذَا الشِّبْلُ مِنْ ذَاكَ الْأَسَدِ]

لِإِنِّي لِأَتَعَجَّبُ مِنَ الْقَاضِي إِذْ نَسِيَ أَنْ يُشِيرَ إِلَى قِصَّةِ ابْنِ حَيْوَسٍ - مَعَ أَنِّي لَمْ أَعْرِفْهَا إِلَّا مِنْهُ - وَحَاصِلُهَا [كَمَا فِي « وَفِيَاتِ الْأَعْيَانِ » ٤/٤٣٩] : أَنَّ ابْنَ حَيْوَسٍ هَذَا امْتَدَحَ الْأَمِيرَ مُحَمَّدَ بْنَ نَصْرِ بْنِ صَالِحِ بْنِ مَرْدَاسِ الْكِلَابِيِّ صَاحِبَ (حَلْبِ) ، ثُمَّ امْتَدَحَ ابْنَهُ نَصْرًا بَعْدَهُ بِقِصِيدَةٍ يَقُولُ فِيهَا [فِي « دِيوانِهِ » ١/٢٤٨] :

تَبَاعَدْتُ عَنْكُمْ حِرْفَةً لَا زَهَادَةً وَجِئْتُ إِلَيْكُمْ حِينَ مَسَّنِي الضُّرُّ
فَلَأَقِيتُ ظِلَّ الْأَمْنِ مَا عَنْهُ حَاجِرٌ يَصُدُّ وَيَبَابُ الْعِزُّ مَا دُونَهُ سِتْرٌ
وَطَالَ مُقَامِي فِي إِسَارِ جَمِيلِكُمْ فَدَامَتْ مَعَالِيكُمْ وَدَامَ لِي الْأَسْرُ
وَجَادَ ابْنُ نَصْرِ لِي بِالْفِ تَصَرَّمَتْ وَإِنِّي عَلِيمٌ أَنْ سَيُخْلِفُهَا نَصْرُ

فَقَالَ : أَمَا وَاللَّهِ ، لَوْ قَالَ : سَيُضْعِفُهَا نَصْرُ . لِأَضْعَفْتُهَا لَهُ ، وَأَعْطَاهُ أَلْفَ دِينَارٍ فِي طَبِقٍ مِنْ فِضَّةٍ ، وَكَانَ اجْتَمَعَ عَلَى بَابِ نَصْرِ جَمَاعَةٌ مِنَ الشُّعْرَاءِ ، فَتَأَخَّرَتْ جَوَائِزُهُمْ ، فَاتَّفَقُوا عَلَى تَقْدِيمِ رِقَّةٍ إِلَيْهِ كَتَبُوا فِيهَا :

عَلَى بَابِكَ الْمَخْرُوسِ مِنَّا عِصَابَةٌ مَفَالَيْسُ فَنَنْظُرُ فِي أُمُورِ الْمَفَالَيْسِ
وَقَدْ قَنَعَتْ مِنْكَ الْجَمَاعَةُ كُلُّهَا بَعْشِرِ الَّذِي أَطْلَقْتَهُ لِابْنِ حَيْوَسٍ
وَمَا بَيْنَنَا هَذَا التَّمَاوُتُ كُلُّهُ وَلَكِنْ سَعِيدٌ لَا يُقَاسُ بِمَنْحُوسٍ

فَلَمَّا وَقَفَ عَلَيْهَا الْأَمِيرُ نَصْرٌ . . . أَطْلَقَ لَهُمْ مِثَّةَ دِينَارٍ ، وَقَالَ : وَاللَّهِ لَوْ قَالُوا : بِمِثْلِ الَّذِي أَطْلَقْتَهُ لِابْنِ حَيْوَسٍ . . . لِأَعْطَيْتُهُمْ مِثْلَهُ .

[كِرْمِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ]

أَمَّا سَيْفُ الدَّوْلَةِ بْنُ حَمْدَانَ : فَقَدْ زَادَ عَلَى مَا صَنَعَ هَهُؤَلَاءِ إِذْ [رَوَى ابْنُ خَلْكَانَ فِي « وَفِيَاتِ الْأَعْيَانِ » ٣/٤٠٤ أَنَّهُ] : دَخَلَ عَلَيْهِ الْقَاضِي أَبُو نَصْرِ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ النِّسَابُورِيِّ فَطَرَحَ مِنْ كُمِّهِ كَيْسًا فَارِعًا ، وَأَنْشَدَ قِصِيدَةً يَقُولُ مِنْهَا :

حَبَاؤُكَ مُعْتَادٌ وَأَمْرُكَ نَافِذٌ وَعَبْدُكَ مُخْتَجِجٌ إِلَى أَلْفِ دِرْهَمٍ

فَضَحَكَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ حَتَّى اسْتَعْرَبَ^(١) ، وَأَمَرَ لَهُ بِأَلْفِ دِينَارٍ^(٢) ، جُعِلَتْ فِي الْكَيْسِ .

وَأَقْرَأُ الْقَاضِي بِالْعَبُودِيَّةِ لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ أَكْبَرَ مِمَّا كَانَ يَتَعَاطَمُ أَبُو حَيَّانَ [كَمَا فِي « طَبَقَاتِ ابْنِ السَّبْكِ » ٥/٢٠٩] مِنْ قَوْلِ إِمَامِ الْحَرَمِيِّ فِي خُطْبَةٍ بَعْضِ كُتُبِهِ يَخَاطِبُ نِظَامَ الْمُلْكِ :

وَمَا أَنَا إِلَّا دَوْحَةٌ قَدْ غَرَسْتَهَا وَسَقَيْتَهَا حَتَّى تَمَادَى بِهَا الْمَدَى
فَلَمَّا اقْشَعَرَ الْعُودُ مِنْهَا وَصَوَّحَتْ أَتَتْكَ بِأَغْصَانِ لَهَا تَطْلُبُ النَّدَى^(٣)

(١) اسْتَعْرَبَ : سَالَ دَمْعُهُ .

(٢) وَفِي « وَفِيَاتِ الْأَعْيَانِ » : أَلْفُ دِرْهَمٍ .

(٣) صَوَّحَتْ : بَيَسَتْ أَغْصَانَهَا .

وقد كان أبو حيان يقولُ : كيف يرضى الإمامُ أن يخاطبَ النظامَ بهذا الخطابِ ؟ ثمَّ يذمُّ الدنيا التي تحوجُ مثلَ الإمامِ إلى ذلك .

ومرَّ ما يناسبُ هذا - معَ الإحالةِ على ما هُنا - في المجلسِ الخامسِ في الكلامِ على قولِ الناظمِ [في « المُكَبَّرِي » ٤ / ٢٩] :
[مِن الطَّوِيلِ]

كَصِفَاتِ مَوْلَانَا أَبِي الْفَضْلِ الَّتِي بَهَّرَتْ فَأَنْطَقَ وَاصْفِيهِ وَأَفْحَمَا

* * *

المجلس الحادي عشر

[قال أبو الطيب المتنبي في « العكبري » ١٧٢/٣ :

[من المنسرح]

تَمَثَّلُوا حَاتِمًا وَلَوْ عَقَلُوا لَكُنْتَ فِي الْجُودِ غَايَةَ الْمَثَلِ

[شرح المطلاع]

يقول : إنَّ النَّاسَ يَضْرِبُونَ المَثَلَ فِي الجُودِ بِحَاتِمٍ ، وَلَوْ عَقَلُوا . . لَتَمَثَّلُوا بِكَ ؛ لِأَنَّكَ أَكْرَمُ وَأَجُودُ مِنْهُ ، أَوْ لِأَنَّهُ غَائِبٌ وَأَنْتَ حَاضِرٌ ، فَيَكُونُ حِينَئِذٍ كَقَوْلِهِ [في « العكبري » ٨١/٣]

[من : البسيط]

خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئًا سَمِعْتَ بِهِ فِي طَلْعَةِ الشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَن رُحْلِ

[لو سبقت حاتمًا بيوم لما ذكره الناس !!]

ويروى [في « المستطرف » ٣٥٠/١] : أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ جَاءَ إِلَى عبيدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فَقَالَ لَهُ : يَا ابْنَ عَمِّ الرَّسُولِ ، وَوُلِدَ لِي فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ مَوْلُودٌ ، سَمَّيْتُهُ بِاسْمِكَ تيمُّنًا بِكَ ، وَإِنَّ أُمَّهُ مَاتَتْ ، فَقَالَ لَهُ : بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي الْهَيَّةِ ، وَأَجْرَكَ فِي الْمَصِيبَةِ ، ثُمَّ دَعَا بِوَكِيلِهِ وَقَالَ لَهُ : انْطَلِقِ السَّاعَةَ فَاشْتَرِي لِلْمَوْلُودِ جَارِيَةً تَحْضُنُهُ ، وَادْفَعِ لِأَبِيهِ مِثِّي دِينَارًا لِيُنْفِقَهَا عَلَيَّ تَرْبِيَتَهُ ، وَقَالَ لِلْأَنْصَارِيِّ : عُدْ إِلَيْنَا بَعْدَ أَيَّامٍ ، فَقَدْ جِئْتَنَا وَفِي الْعَيْشِ بَيَّسٌ ، وَفِي الْمَالِ قَلَّةٌ ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ : جُعِلْتُ فِدَاكَ ، أَمَا وَاللَّهِ لَوْ سَبَقَتْ حَاتِمًا بِيَوْمٍ . . لَمَا ذَكَرْتَهُ الْعَرَبُ .

وَكَمَ مِنْ كَرِيمٍ يَنْحَرُ الْبُدْنَ النَّصَارَ لِمَنْ اسْتَجَدَّاهُ ، غَيْرَ أَنَّ الْوُجْدَ يُعْدي عَلَى الْجُودِ ، وَكَانَ حَاتِمٌ يُعْطِي الْمَجْهُودَ ، وَقَدْ قَالَ جَلَّ شَأْنُهُ : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ [التوبة : ٧٩] . وَفِي الْحَدِيثِ : « دِرْهَمٌ سَبَقَ أَلْفَ دِرْهَمٍ »^(١) .

وَمَا يَرُوى عَنِ أَبِي ذَرٍّ مَرْفُوعًا : « إِنَّ أَفْضَلَ الصَّدَقَةِ جُهْدٌ مِنْ مُقْلٍ ، يَمْشِي بِهِ إِلَى فَقِيرٍ »^(٢) .

[صُورٌ مِنْ أَخْبَارِ الْكِرْمَاءِ]

وَوَقَفَ أَعْرَابِيٌّ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ مَعْمَرٍ ، وَكَانَ سَخِيًّا ، فَسَأَلَهُ ، فَتَزَعَّ لَهُ خَاتَمَهُ ، وَقَالَ : لَا تُخَدِّعْ عَن فُصِّهِ ؛ فَقَدْ قَامَ بِمَنَّةٍ دِينَارٍ ، فَقَلَعَهُ وَقَالَ : دُونَكَ ، فَإِنَّ الْفِضَّةَ تَكْفِينِي لِحَاجَتِي ، فَقَالَ ابْنُ مَعْمَرٍ : هَذَا أَكْرَمُ مِنِّي .

رُسِّلَ حَاتِمٌ وَقِيلَ لَهُ : هَلْ غَلَبَكَ أَحَدٌ فِي الْكِرْمِ ؟ قَالَ : لَا ، إِلَّا غُلَامٌ يَتِيمٌ نَزَلْتُ بِفَنَائِهِ ، فَذَبَحَ لِي رَأْسَ غَنَمٍ ، وَكَانَ لَا يَمْلِكُ إِلَّا عَشْرَةَ ، فَلَمَّا رَأَى اسْتَطْبِئْتُ دِمَاغَهُ . . ذَبَحَهَا بِأَسْرِهَا ، وَقَدَّمَ إِلَيَّ أَدْمِغَتَهَا ، وَلَمَّا عَاتَبْتُهُ . . قَالَ :

(١) أخرج نحوه عن أبي هريرة رضي الله عنه النسائي (٥٩/٥) في الزكاة ، وابن خزيمة (٢٤٤٣) ، وابن حبان في « صحيحه » (٣٣٤٧) بلفظ : « سبق درهم مئة ألف درهم . . . » بإسناد صحيح من طريقين .

(٢) أخرجه بنحوه الإمام أحمد في « مسنده » (١٧٨/٥) وفيه : « جهد من مقل أو سر إلى فقير » وإسنادهما ضعيف .

سبحان الله! تستطيب شيئاً أقدرُ عليه فأبخلُ به ، إنَّ ذلكَ لسببٌ . قيلَ لهُ : فما الذي عوّضتَهُ ؟ قالَ : ثلاثٌ مئةَ ناقَةٍ ، وخمسةَ مئةَ رأسٍ مِنَ الغنمِ ، فقيلَ لهُ : أنتَ أكرمُ منه إذاً ، قالَ : هيهات! جادَ بكلِّ ما يملكُ ، ولم أجُدْ إلاّ بقليلٍ من كثيرٍ . غيرَ أَنَّهُ لا يُسلمُ الكرمُ للغلامِ إلاّ إن فعلَ ذلكَ معَ عَدَمِ المعرفةِ بحاتمِ ، وإلاّ كانَ فعلُهُ متاجرةً .

[مِن الطويل]

وقال الناظمُ [في «العُكْبَرِيّ» ٤/٢٨٤] :

وَلِلنَّفْسِ أَخْلَاقٌ تَدُلُّ عَلَى الْفَتَى
أَكَانَ سَخَاءً مَا أَتَى أُمَّ تَسَاخِيَا

[حبيبي!! فات الأوان]

ويروى [كما في «الأغاني» ٢/١٦٠] : أَنَّ الحُطَيْئَةَ انحدرَ على عتيبةَ بنِ النهَّاسِ العجليِّ - وكان مُثْرِيّاً من وجوه بكرِ بنِ وائلٍ - فدخلَ عليه الحُطَيْئَةُ في عِباءةٍ ، وقالَ : أعطني ، فاعتذرَ بكثرةِ الحقوقِ ، ولم يعرفهُ ، ولمَّا خرجَ . . قالَ لهُ بعضُ أصحابِهِ : لقد عرّضتُنَا للشَّرِّ بِجَفَائِكَ لِلحُطَيْئَةِ ، فقالَ : أهو هُوَ ؟ قالوا : نعم ، فردّه واعتذرَ إليه ، وقالَ لهُ : ليسَ عندنا إلاّ ما يسرُّكَ ، فأنتَ أشعرُ العربِ ، قالَ : كلاً ، ولكنَّ أشعرهم الذي يقولُ :

[مِن الطويل]

وَمَنْ يَجْعَلِ المَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عِرْضِهِ
يَفِرُّهُ وَمَنْ لا يَتَّقِ الشَّتْمَ يُشْتَمَ

فقالَ عتيبةُ : أمّا إنَّها لأوّلُ أفاعيك^(١) ، ثمَّ أكرمهُ ، وقالَ لهُ : اشترِ ما شئتَ وعليّ ثمنهُ ، وبعثَ معه خادمهُ ، فاشترى ما أرادَ مِنَ الشُّوقِ ثمَّ قالَ :

[مِن الطويل]

سُئِلْتُ فَلَمْ تَبْخُلْ وَلَمْ تُعْطِ نَائِلاً
وَأَنْتَ أَمْرُؤٌ مَا الْجُودُ مِنْكَ سَجِيَّةٌ
فَسَيِّانٍ ، لا ذَمٌّ عَلَيْكَ وَلا حَمْدُ
وَلَكِنَّهُ يُعْدي عَلَى النَّائِلِ الوُجْدُ

[مِن البسيط]

فأخذه أبو بكرِ الخوارزميُّ وقالَ في الصحاحِ بنِ عبّادٍ [في «ديوانهِ» ٤٠٩-٤١٠] :

لا تَحْسَبَنَّ أبْنَ عَبّادٍ وَإِنْ هَطَلْتَ
فإنَّها خَطَرَاتٌ مِنْ وَسَاوِسِهِ
كَفَّاهُ بِالْجُودِ سَخاً يُشْبِهُ الدَّيْمَا
يُعْطِي وَيَمْنَعُ لا بُخْلاً وَلا كَرَمَا

[مِن الطويل]

فأمهلهُ الصحابُ حتّى مات . . فقالَ [في «ديوانهِ» ٢٨٥] :

أَقولُ لِرِكَبٍ مِنْ خُرَاسانَ مُقْبِلِ
فَقُلْتُ : أَكْتُبُوا بِالْجِصِّ مِنْ فَوْقِ قَبْرِهِ
أَمَاتَ خَوَارِزْمِيُّكُمْ ؟ قِيلَ لي : نَعَمْ
أَلَا لَعَنَ الرَّحْمَنُ مَنْ يَكْفُرُ النِّعَمَ

وكانَ ابنُ العميدِ وَصَلَ الناظمَ عندما وردَ عليه بثلاثةِ آلافِ دينارٍ ، وثلاثةِ أفراسٍ مُسَرَّجَةٍ محلّاةٍ ، وثيابٍ فاخرةٍ ، ودَسَّ مَنْ يسألهُ عَنْهُ وَعَن سِيفِ الدَّوْلَةِ ، فقالَ : هَذَا أَجْرُ عَطَاءٍ إِلاّ أَنَّهُ مُتَكَلِّفٌ ، وَسِيفُ الدَّوْلَةِ يُعْطِي طَبْعاً ، فَاحْتَقَدَهَا عَلَيْهِ ، وَسَعَى فِي قَتْلِهِ .

وبعدَ هَذَا كُلِّهِ فَلا إِسْرَافَ فِي مَضْرِبِ المِثْلِ بِجُودِ حاتمِ .

[بعض عجائب حاتم]

وقد قيلَ لَمَاوِيَّةَ [كما في «الأغاني» ١٧/٣٩٠] : حَدَّثِينَا بِبَعْضِ عَجَائِبِ حاتمِ ، فَقَالَتْ : أَعْجَبُ ما رَأَيْتُ مِنْهُ أَنَّها أَصَابَتْ

(١) أي : حيلك .

النَّاسَ سَنَّةً ، أَذْهَبَتِ الحُفَّتَ والحَافِرَ ، وَأَحْذَنِي وَإِيَّاهُ الجوعُ ، وَعَلَّلْنَا العِيَالَ حَتَّى نَامُوا عَلَيَّ مَا بِهِمْ ، فَبَيَّنَّا نَحْنُ كَذَلِكَ . . إِذَا بِامْرَأَةٍ تَقُولُ : يَا أَبَا عَدِيِّ . . جِئْتُكَ عَن صِيبَةٍ يَتَعَاوَنُ مِثْلَ الكَلَابِ جوعاً ، فَقَالَ لَهَا : أَحْضِرِيهِمْ ، فَرَفَعْتُ إِلَيْهِ رَأْسِي ، وَقُلْتُ لَهُ : مِنْ أَيْنَ لَكَ إِشْبَاعُهُمْ ، وَمَا نَامَ أَوْلَادُكَ إِلَّا بِالتَّعْلِيلِ ؟! فَلَمَّا جَاءَتِ المْرَأَةُ بِأَوْلَادِهَا . . عَمَدًا إِلَى فَرْسِهِ فذَبَحَهَا ، ثُمَّ نَبَّهَ أَوْلَادَهُ ، وَسَارَ فِي الحَيِّ بَيْتًا بَيْتًا يَدْعُوهُمْ ، وَتَقَنَّعَ بِكِسَائِهِ ، وَجَلَسَ نَاحِيَةً ، فَوَالَهُ مَا أَصْبَحُوا وَعَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ غَيْرِ العِظَامِ ، وَلَا وَاللَّهِ مَا ذَاقَ شَيْئًا مِنْهَا ، وَإِنَّهُ لِأَشَدُّهُمْ جوعاً .

[الشهامة والجود العربي]

ونظيرُ هذه القصةِ : ما أخبرني به السيّد عبدُ الله بنُ عبدِ الرَّحْمَنِ بنِ طاهرٍ : أَنَّ إِسْمَاعِيلَ باشا - خَدِيوِيَّ (مِصرَ) - سَمِعَ بِفَرْسٍ مَعَ بَعْضِ العَرَبِ بِ(نَجْدِ) ، وَكَانَ مَحِبًّا لِلخَيْلِ ، فَأَرْسَلَ وَفَدَا لِشِرَائِهَا بِمَا بَلَغَتْ ، فَنَزَلَ وَفَدَّهُ عَلَى ضِيافَةِ العَرَبِيِّ صَاحِبِ الفَرْسِ ، وَرَأَوْا مِنَ اللَّبَاقَةِ أَنَّ لَا يَفَاتِحُوهُ بِشَأْنِهَا إِلَّا بَعْدَ الاسْتِئْذَانِ ، فَأَمْهَلُوهُ حَتَّى اللَّيْلِ ، فَسَأَلُوهُ عَنْهَا ؟ وَأَخْبِرُوهُ بِأَنَّ مَجِيئَهُمْ مِنْ أَجْلِهَا ، وَمَنَوَهُ فِيهَا مَا شَاءَ ، فَقَالَ لَهُمْ : إِنَّهَا غَيْرُ مَوْجُودَةٍ ، فَقَالُوا : لَقَدْ سَأَلْنَا عَنْهَا بَعْضَ عِبِيدِكُمْ سَاعَةً مَا وَصَلْنَا ، فَأَرَوْنَا إِيَّاهَا ، فَلَا تُخَفِّئْنَا ، وَسَلِّ مَا تُرِيدُ ، فَلَمَّا أَلْحُوا عَلَيْهِ . . أَخْبَرَهُمْ بِأَنَّهُ لَمْ يَجِدْ مَا يَذْبَحُهُ لَهُمْ غَيْرَهَا ، وَأَنَّهُ ذَبَحَهَا لَهُمْ ، فَدَفَعُوا لَهُ كَمِيَّةً وَافِرَةً مِنَ الدَّنَانِيرِ ، وَأَكْبَرُوا صَنِيعَهُ وَعَرُوبِيَّتَهُ ، ثُمَّ عَادُوا أَدْرَاجَهُمْ ، فَصَادَفُوا الخَدِيوِيَّ قَدْ خَرَجَ لِاسْتِقْبَالِهِمْ إِلَى (الإسْكَندَرِيَّةِ) ، مِنْ حَرَصِهِ عَلَى الفَرْسِ ، وَلَمَّا بَقَرُوا لَهُ الحَدِيثَ . . ارْتَاحَ مِنْ جِهَةٍ ، بِقَدْرِ مَا اسْتَاءَ مِنَ الأُخْرَى ، وَاسْتَقَلَّ مَا دَفَعُوا لَهُ ، وَأَضَعَفَهُ لَهُ .

[هل يذبح الحطيئة ابنه للضيفان ؟!]

وما رأيتُ في الجودِ أحسنَ ممَّا نظَّمهُ الحُطَيْئَةُ فِي قَوْلِهِ [كما في «ديوانه» ٢٧١-٢٧٢] :

وَطَاوِي ثَلَاثِ عَاصِبِ الأَبْطَنِ مُزْمِلِ	بِيئِدَاءَ لَمْ يَعْرِفْ بِهَا نَاطِرٌ رَسْمًا ^(١)
وَأَفْرَدَ فِي شِعْبِ عَجُوزًا حِيَالَهَا	ثَلَاثَةُ أَفْرَاحٍ تَخَالَهُمْ بِهِمَا ^(٢)
حُفَاةَ عُرَاةٍ مَا أَغْتَذُوا خُبْزَ مَلَّةِ	وَلَا عَرَفُوا لِلْبُرِّ مُذْ خُلِقُوا طَعْمًا ^(٣)
رَأَى شَبَحًا وَسَطَ الظَّلَامِ فَهَالَهُ	فَلَمَّا بَدَا ضَيْفًا تَشَمَّرَ وَأَهْتَمَّ مَا
وَقَالَ : هِيَ رَبَاهُ ضَيْفٌ وَلَا قِرَى	بِحَقِّكَ لَا تَحْرِمُهُ تَالَلَيْلَةَ اللَّحْمَا
فَقَالَ ابْنُهُ لَمَّا رَأَهُ بِحَيْرَةٍ :	أَيَا أَبْتِ أَذْبَحْنِي وَيَسِّرْ لَهُمْ طَعْمًا
وَلَا تَعْتَذِرْ بِالْعُذْمِ عِلَّ الَّذِي طَرَا	يَظُنُّ لَنَا مَالًا فَيُوسِعُنَا شَتْمًا ^(٤)
فَرَوَى قَلِيلًا نُمَّ أَحْجَمَ بُرْهَةً	وَإِنْ هُوَ لَمْ يَذْبَحْ فَتَاهُ فَقَدْ هَمَّا
فَبَيَّنَّا هُمَا عَنَّتْ عَلَى الأُبْعَدِ عَانَةً	قَدِ انْتِظَمَتْ مِنْ خَلْفِ مِسْحَلِهَا نَظْمًا ^(٥)
عِطَاشًا تُرِيدُ الأَمَاءَ فَانْسَابَ نَحْوَهَا	عَلَى أَنَّهُ مِنْهَا إِلَى دَمِهَا أَظْمَا

(١) الطاوي : الجائع . عاصبُ البطن : يشدُ العصابَ على بطنه تسكيناً للجوع . مرملٌ : الذي نفذ زاده .

(٢) البُهْم : جمعُ بهيمة ، وهو ولدُ الضأنِ .

(٣) المَلَّةُ : الرماذُ الحارُّ والجمرُ .

(٤) طرا : جاء طارئاً .

(٥) العانةُ : قطعُ الأُتُنِ . المِسْحَلُ : حمارُ الوحشِ .

فَلَبَّثَ حَتَّى يَرْتَوِينَ عِطَاشَهَا
فَخَرَّتْ نُحُوصٌ ذَاتُ جُحْشٍ سَمِينَةٌ
فَيَا بَشْرَهُ إِذْ قَدْ جَرَى نَحْوَ قَوْمِهِ
فَبَاتُوا كِرَاماً قَدْ قَضَوْا حَقَّ ضَيْفِهِمْ
وَبَاتَ أَبُوهُمْ مِنْ بَشَاشَتِهِ أَبَا
وَفَوْقَ فِيهَا مِنْ كِنَانَتِهِ سَهْمَا^(١)
قَدْ اِكْتَنَزَتْ لَحْمًا وَقَدْ طَبَّقَتْ شَحْمَا^(٢)
وَيَا بَشْرَهُمْ لَمَّا رَأَوْا كَلْمَهَا يَدْمَى
وَمَا غَرَمُوا غُرْمًا وَقَدْ غَنِمُوا غُنْمًا
لِضَيْفِهِمْ وَالْأُمُّ مِنْ بَشْرِهَا أُمَّا

[أيهم أشد كراماً عبد الله بن جعفر ، أم قيس بن سعد بن عبادة ، أم عرابة الأوسي ؟]

ويُحكى [في «المستطرف» ١/٣٦٦] : أَنَّهُ تَمَارَى ثَلَاثَةَ نَفَرٍ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ ، وَقَيْسِ بْنِ سَعْدِ بْنِ عَبَادَةَ ، وَعَرَابَةَ الْأَوْسِيِّ ، ثُمَّ قَضَوْا لِعَرَابَةَ بَعْدَ التَّجْرِبَةِ ؛ وَذَلِكَ أَنَّ صَاحِبَهُ وَجَدَهُ خَرَجَ مِنْ مَنْزِلِهِ يَرِيدُ الصَّلَاةَ ، وَمَعَهُ عَبْدَانِ ، فَقَالَ : ابْنُ سَبِيلٍ مُنْقَطِعٌ بِهِ ، فَصَفَّقَ بِيَدَيْهِ ، وَقَالَ : أَوَاهُ أَوَاهُ ، مَا أَصْبَحَ وَلَا أَمْسَى اللَّيْلَةَ عِنْدَ عَرَابَةَ شَيْءٌ ، وَلَمْ تَتْرُكْ لَهُ الْحَقُوقَ غَيْرَ هَذَيْنِ الْعَبْدَيْنِ ، فَخَذَهُمَا ، فَقَالَ الرَّجُلُ : وَاللَّهِ مَا كُنْتُ بِالَّذِي يَقْضُكَ جَنَاحِيكَ ، فَقَالَ : إِنْ أَخَذْتَهُمَا . . . وَإِلَّا فَهُمَا حُرَّانِ لَوَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَخُذْ إِنْ شِئْتَ ، أَوْ أَعْتَقْ ، فَأَخَذَهُمَا - كَمَا هُوَ فِي حِفْظِي مِنْ قَدِيمٍ عَنْ «مَجْمَعِ الْأَحْبَابِ»^(٣) - وَالصَّحِيحُ أَنَّ عَرَابَةَ لَا يُدَانِي عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَعْفَرٍ ، وَلَا يَسْعَى بِقَدَمِهِ ، وَلَا يَمْتَحُ بِغُرْبِهِ^(٤) ، : وَمَا شَهْرَةٌ إِلَّا قَوْلُ الشَّمَاخِ فِيهِ [كَمَا فِي «دِيْوَانِهِ» ٣٣٥-٣٣٦] :

[مِنَ الْوَأْفَا]

رَأَيْتُ عَرَابَةَ الْأَوْسِيِّ يَسْمُو
إِذَا مَا رَأَيْتُ رُفَعْتَ لِمَجْدٍ
إِلَى الْخَيْرَاتِ مُنْقَطِعَ الْقَرِينِ
تَلَقَّاهَا عَرَابَةَ بِالْيَمِينِ

وِغَايَةُ مَا أَثَابَهُ عَلَى ذَلِكَ وَسَقَّ بَعِيرٍ تَمْرًا ، فِي عَامٍ شَدِيدٍ ، فَصَارَ هَذَا الشَّعْرُ مَثَلًا سَائِرًا ، وَأَثَرًا بَاقِيًا ، لَا تَبْلَى جِدَّتُهُ ، وَلَا تَتَغَيَّرُ مَحَاسِنُهُ ، وَقَدَحَ فِي مَرْوَةِ الشَّمَاخِ ، وَحَطَّ فِي قَدْرِهِ ؛ لِسُقُوطِ هِمَّتِهِ عَنْ دَرَجَةِ مِثْلِهِ ، وَتَبَدُّلِهِ مَعَ صَاحِبِهِ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، حَتَّى قَالَ ابْنُ دُأَبٍ [كَمَا فِي «الْأَغَانِي» ٩/١٩٦] : عَجِبًا لِلشَّمَاخِ يَمْدُحُ عَرَابَةَ بِهَذَا الشَّعْرِ ، وَبِقَوْلِهِ فِي الْقَصِيدَةِ الْآخِرَى [كَمَا فِي «دِيْوَانِهِ» ٢٥٦-٢٥٧] :

[مِنَ الْبَسِيطِ]

أَشْكُو إِلَيْكَ عَرَابُ الْيَوْمِ خَلَّتْنَا
أَنْتَ الْأَمِيرُ الَّذِي تَخْنُو الرُّؤُوسُ لَهُ
يَا ذَا الْعَلَاءِ وَيَا ذَا السُّؤْدَدِ الْبَاقِي^(٥)
قَمَاقِمُ الْقَوْمِ مِنْ بَرٍّ وَأَفَاقِ^(٦)
سَبَّاقُ غَايَاتِ مَجْدٍ وَابْنُ سَبَّاقِ
ضَخْمُ الدَّسِيعَةِ مِثْلَافٌ أَخُو ثِقَةِ^(٧)
جَزُلُ الْمَوَاهِبِ ذُو قَيْلٍ وَمِصْدَاقِ^(٧)

(١) لَبَّثَ : انْتَظَر ، وَالرَّوَايَةُ فِي «الدِّيْوَانِ» : (فَأَمْهَلَهَا) بِدَلْ : (فَلَبَّثَ) .

(٢) النُّحُوصُ : الْأَتَانُ السَّمِينَةُ الْفَتِيَّةُ . طَبَّقَتْ : امْتَلَأَتْ .

(٣) «مَجْمَعُ الْأَحْبَابِ وَتَذَكْرَةُ أَوْلِي الْأَبَابِ» لِلشَّرِيفِ السَّيِّدِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ الْوَأْسَطِيِّ (٧٧٦هـ) : هُوَ كِتَابٌ اخْتَصَرَ فِيهِ مَصْنُفَ «حَلِيَةِ الْأَوْلِيَاءِ» ، وَسَلَكَ فِي اخْتِصَارِهِ مَسْلَكًا وَسَطًا ، مَعَ زِيَادَةِ تَرَاجِمِ أُمَّةٍ مِنْ «صَفْوَةِ الصَّفْوَةِ» ، وَكَذَلِكَ تَرَاجِمِ رِجَالِ زَاهِدِينَ ، وَكَذَلِكَ أَرَّخَ وَتَرَجَمَ لِلدُّوَلَتَيْنِ (النُّوْرِيَّةِ وَالصَّلَاحِيَّةِ) . وَهُوَ مِنْ مَنَشُورَاتِ دَارِ الْمَنَهَاجِ .

(٤) يَمْتَحُ بِغُرْبِهِ : يَنْزِعُ بِدَلْوِهِ الْكَبِيرَةِ ، وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ رُؤْيَاهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَمْرٍ : «ثُمَّ اسْتَحَالَتْ فِي يَدِهِ غُرْبًا ، فَلَمْ أَرْ عَبْقَرِيًّا يَقْرِي فَرِيَّهُ» .

(٥) الْخَلَّةُ : الْحَاجَةُ وَالْفَقْرُ .

(٦) الْقَمَاقِمُ : هُوَ السَّيِّدُ الْكَثِيرُ الْخَيْرِ الْوَأَسَعُ الْفَضِيلِ .

(٧) ضَخْمُ الدَّسِيعَةِ : أَيُّ عَظِيمُ الْعَطِيَّةِ . الْقَيْلُ : الْوَعْدُ بِالْخَيْرِ .

ويقول لعبد الله بن جعفر [في «الأغاني» ١٩٦/٩] :

إِنَّكَ يَا ابْنَ جَعْفَرٍ نِعْمَ الْفَتَى وَنِعْمَ مَا أُوِي طَارِقٍ إِذَا أَتَى
وَجَارُ ضَيْفٍ طَرَقَ الْحَيَّ سُرَى صَادَفَ زَادًا وَحَدِيثًا مَا اشْتَهَى

إِنَّ الْحَدِيثَ طَرَفٌ مِنَ الْقَرَى

لعبد الله بن جعفر كان أحقَّ بذلك الشعرِ الجزلِ من عرابةٍ ، ثم ذكرتُ أن قد أسلفتُ بعضَ هذا في المجلسِ الثالثِ عندَ الكلامِ على قولهِ [«العُكْبَرِيُّ» ٣١٠/١] :

قَدْ أَجْمَعْتَ هَذِهِ الْخَلِيقَةَ لِي أَنْتَ يَا ابْنَ النَّبِيِّ أَوْحَدَهَا
وَأَنْتَ سِعَادُ بَعْضِهِ قَبِيلِ الْخَاتِمَةِ ، فَلَا مَوْأَخَذَةَ .

[أجواد العرب في الإسلام عشرة]

وقال ابن عبد البرِّ في «الاستيعاب» [٢٦٧/٢] : يقولون : إِنَّ أَجْوَادَ الْعَرَبِ فِي الْإِسْلَامِ عَشْرَةٌ :

فأجوادُ أهلِ (الحجازِ) : عبدُ اللهِ بنُ جعفرٍ ، وعبيدُ اللهِ بنُ عباسٍ ، وسعيدُ بنُ العاصِ .

وأجوادُ أهلِ (الكوفةِ) : عتَّابُ بنُ وَرْقَاءِ الرِّياحِيِّ ، وأسماءُ بنُ خَارِجَةَ بنِ حِصْنِ الْفَزَارِيِّ ، وعكرمةُ بنُ رِبعِيِّ الْفِيَّاضِ أَحَدُ بَنِي تَيْمِ اللهِ بنِ ثَعْلَبَةَ .

وأجوادُ أهلِ (البصرةِ) : عمرو بنُ عُبَيْدِ اللهِ بنِ مَعْمَرٍ ، وطلحةُ بنُ عبدِ اللهِ ابنِ خَلْفِ الْخَزَاعِيِّ - الْمُلقَّبُ بِطَلْحَةَ الطَّلْحَاتِ - وعبيدُ اللهِ ابنُ أَبِي بَكْرَةَ .

وأجوادُ أهلِ (الشامِ) : خالدُ بنُ عُبَيْدِ اللهِ بنِ خَالِدِ بنِ أَسَدِ ابنِ أَبِي الْعَاصِ بنِ أُمَيَّةَ بنِ عَبْدِ شَمْسٍ ، ولَيْسَ فِي هُنُوْلَاءِ كُلِّهِمْ أَجْوَادٌ مِنْ عَبْدِ اللهِ بنِ جَعْفَرٍ ، وَلَمْ يَكُنْ مُسْلِمٌ يَبْلُغُ مَبْلَغُهُ فِي الْجُودِ . انتهى كلامُ «الاستيعاب» بمعناه وأكثرَ لفظه . فترى أَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ عَرَابَةَ بَجَانِبِهِ أَصْلًا ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَقَاسِمَهُ بِهِ ، أَوْ يَفْضِلَهُ عَلَيْهِ .

ولولا أَنِّي أَحْفَظُ الْقِصَّةَ الَّتِي ذَكَرْتُهَا قَبْلُ ، مِنْ سَابِقِ قِرَاءَتِي عَلَى وَالِدِي يَرْحِمُهُ اللهُ فِي «مَجْمَعِ الْأَحْبَابِ» .. لَمَا التَفْتُ إِلَيْهَا ، وَلَا أَلْقَيْتُ بِالْأَلْهَا .

[لكل دولة كرامؤها]

وقال أبو العيناء [كما في «المستطرف» ٣٥٤/١] : تَذَاكُرُوا السَّخَاءَ ، فَاتَّفَقُوا عَلَى آلِ الْمَهَلْبِ فِي الدَّوْلَةِ الْمَرْوَانِيَّةِ ، وَعَلَى الْبِرَامِكَةِ فِي الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ ، ثُمَّ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ أَحْمَدَ بنَ أَبِي دُوَادٍ أَسْخَى مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ .

وفي الأوَّلِينَ يَقُولُ الشَّاعِرُ [كما في «المثل السائر» ١٦٦/٢] :

نَزَلْتُ عَلَى آلِ الْمَهَلْبِ شَاتِيَا غَرِيبًا عَنِ الْأَوْطَانِ فِي زَمَنِ الْمَحَلِ
فَمَا زَالَ بِي إِكْرَامُهُمْ وَافْتِقَادُهُمْ وَإِنْعَامُهُمْ حَتَّى حَسِبْتُهُمْ أَهْلِي

وفي يحيى بن خالدٍ يَقُولُ الشَّاعِرُ [كما في «المستطرف» ٣٥٤/١] :

سَأَلْتُ النَّدَى هَلْ أَنْتَ حُرٌّ؟ فَقَالَ : لَا وَلَكِنِّي عَبْدٌ لِيَحْيَى بنِ خَالِدِ
فَقُلْتُ : شِرَاءٌ؟ قَالَ : لَا بَلْ وَرِائَةٌ تَوَارَثْنِي مِنْ وَالِدِ بَعْدِ وَالِدِ

وقال ابنُ مناذِرٍ فيه وفي بنيهِ - وأجادَ ولا سيِّما في الأخيرِ - [كما في «الأغاني» ٢٠٨/١٨] :

أَتَانَا بَنُو الْأَمْلَاكِ مِنْ أَرْضِ بَرَمَكِ فَيَا طَيْبَ أَخْبَارِ وَيَا حُسْنَ مَنْظَرِ
لَهُمْ رِحْلَةٌ فِي كُلِّ عَامٍ إِلَى الْعِدَا وَأُخْرَى إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ الْمُعْطَرِ
إِذَا نَزَلُوا بَطْحَاءَ مَكَّةَ أَشْرَقَتْ بِيحْيَى وَبِالْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى وَجَعْفَرِ
فَتُظْلِمُ بَغْدَادٌ وَتَجْلُو لَنَا الدُّجَى بِمَكَّةَ مَا حَجُّوا ثَلَاثَةَ أَفْمَرِ
فَمَا خَلَقْتَ إِلَّا لِجُودِ أَكْفُهُمْ وَأَقْدَامُهُمْ إِلَّا لِأَعْوَادِ مَنَبَرِ

ولا يُحصى ما تجدُ للفريقين من أنواعِ الثناءِ في هذهِ المجموعةِ وفاءً بحقِّ الأمانةِ ، واعترافاً بالفضلِ لأهلهِ ، وقال بعضهم في ابنِ أبي دُوَادٍ [أبو تمامٍ في «ديوانه»] :

لَقَدْ أَنْسَتْ مَسَاوِيءَ كُلِّ دَهْرٍ مَحَاسِنُ أَحْمَدَ ابْنِ أَبِي دُوَادٍ

[بماذا يكون فخر العرب ؟]

وصدقَ اللهُ لِسَانَ الدِّينِ ابْنِ الْخَطِيبِ فِي قَوْلِهِ [في «نفع الطيب» ٤٠٢/٦] : لَمْ تَفْتَخِرِ الْعَرَبُ قَطُّ بِذَهَبٍ يُجْمَعُ ، وَلَا ذُخْرٍ يُرْفَعُ ، وَلَا قَصْرِ يُبْنَى ، وَلَا غَرْسٍ يُجْنَى ، إِنَّمَا فخرُهَا . . عَدُوٌّ يُغْلَبُ ، وَثَنَاءٌ يُجْلَبُ ، وَجَزْرٌ تُنْحَرُ ، وَحَدِيثٌ يُذَكَّرُ ، وَجُودٌ فِي الْفَاقَةِ ، وَسَمَاحٌ فَوْقَ الطَّاقَةِ ، وَلَقَدْ ذَهَبَ الذَّهَبُ ، وَفَنِيَ النَّسَبُ ، وَتَمَزَّقَتِ الثِّيَابُ ، وَهَلَكَتِ الْخَيْلُ الْعِرَابُ ، وَكُلُّ الَّذِي فَوْقَ التَّرَابِ ، وَبَقِيَتِ الْمَحَاسِنُ تُرَوَّى وَتَنْقَلُ ، وَالْأَعْرَاضُ تُجْلَى وَتُصْقَلُ ، وَالْأَخْبَارُ فِي مَكَارِمِهِمْ تَطُولُ .

[صور رائعة من الجود الحضرمي]

ومن أجوادٍ متأخري الحضارمةِ سيِّدنا الإمامُ حسنُ بنُ صالحِ البحرِ ، بلغَ من سماحِهِ وإيثارهِ ، أَنَّهُ أَعَدَّ ضِيافَةَ لَجْدِي الْمُحَسِّنِ لَيْلَةَ بِنَائِهِ بِنْتِهِ ، وَلَمَّا أَطَّلَ مِنَ النَّافِذَةِ . . رَأَى زُمَرَ الْمَكْدِينِ مُحِيطِينَ بِالْدَارِ ، فَقَالَ : افْتَحُوا لَهُمْ ، وَقَدِّمُوا لَهُمُ الطَّعَامَ ، فَلَمْ يَسْعُهُمْ إِلَّا امْتِثَالُ أَمْرِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ غَيْرَ بَعِيدٍ حَتَّى أَقْبَلَ جَدِّي فِي مَوْكِبِهِ ، فَاسْتَأْنَفُوا لَهُمْ ضِيافَةَ أُخْرَى تَلِيقٌ بِحَشْمَتِهِمْ وَكَثْرَتِهِمْ ، وَكَمَ لَهُ مِنْ مِثْلِ هَذَا النُّوعِ .

وسارَ مرَّةً إِلَى (تَرِيمِ) ، وَاتَّبَعَهُ مَنْ عَلِمَ بِهِ مِنْ مُحِبِّيهِ ، وَمَا أَصْحَابُهُ إِلَّا أَتْبَاعُ الْأَنْبِيَاءِ ، مِنْ ضِعْفَاءِ الْخَلْقِ وَفُقَرَاءِهِمْ ، فَأَضَافَهُ السَّيِّدُ حَسِينُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سَهْلِ غَدَاءً ، وَاسْتَدْعَى سَادَةَ (تَرِيمِ) وَأَعْيَانَهَا لِحُضُورِ مَجْلِسِهِ ، فَاسْتَأْتَرُوا بِالْمَنْزِلِ الَّذِي كَانَ فِيهِ الْحَبِيبُ حَسَنٌ ، وَلَمْ يَتَّسِعْ لِأَحَدٍ مِنْ أَتْبَاعِهِ ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا عَلَى عَمُودَيْنِ ، وَكَانَ فِي بَصْرِهِ شَيْءٌ ، فَكَانَ كُلُّ سَاعَةٍ يَضَعُ يَدَيْهِ عَلَى حَاجِبِيهِ يَتَأَمَّلُ فِي وَجْهِهِ النَّاسِ ، لِيَرَى أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَشَعَرَ بِذَلِكَ صَاحِبُ الْمَنْزِلِ - وَكَانَ الْعِشَاءُ عِنْدَهُ أَيْضًا - فَلَمَّا انْتَهَوْا مِنَ الْغَدَاءِ . . قَالَ لِلْحَبِيبِ : أَرَى أَنْ تَقِيلُوا فِي بَيْتِ السَّيِّدِ أَحْمَدَ الْجَنِيدِ ، ثُمَّ تَرْجِعُوا مِنَ الْعِشِيِّ ، فَقَالَ لَهُ : نَعَمْ ، ثُمَّ لَمْ يَكُنْ مِنْ صَاحِبِ الْمَنْزِلِ وَهُوَ السَّيِّدُ حَسِينُ بْنُ سَهْلِ إِلَّا أَنْ اسْتَدْعَى الْعُمَّالَ ، وَرَفَعَ حَاجِزًا كَانَ بَيْنَ الْمَنْزِلِ الَّذِي تَغْدَى فِيهِ الْحَبِيبُ وَمَنْزِلِ آخَرَ مِثْلِهِ فِي السَّعَةِ ، وَلَمْ يَمْسِإِ إِلَّا وَهُمَا مَنْزِلٌ وَاحِدٌ ، يَسَعُ سِتَّةَ أَعْمَدَةٍ ، فَتَعَشَّى وَهُوَ قَرِيرُ الْعَيْنِ بِرُؤْيَةِ أَتْبَاعِهِ الْمَسَاكِينِ ، مَعَ حِظَّةِ أَعْيَانِ (تَرِيمِ) بِمُؤَاكَلَتِهِ وَمَجَالَسَتِهِ ، فَاسْتَحَقَّ ذَلِكَ الصَّنِيعُ إِعْجَابَ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ .

وقرأ مرةً قوله تعالى : ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : ٩٢] فقال : لا أَحِبُّ في الدنيا إلاّ ولدي وحصاني ، ولا سبيل إلى بيع الولد ، ولكن بيعوا الحصان ، وتصدّق بثمانه في الحال .

وكان من عادته أن لا يبيت عنده دينارٌ ولا درهمٌ ، بل كلُّ ما كان يدخل عليه من الفُتوح على اتساع جاهه ، ينفقه على أهله ، وفي الأكباد الجائعة ، والأجسام العارية ، وتحمل المغارم ، وبذل المكارم ، فهو الأحقُّ بقول زياد الأعجم - أوزين بنت الطريّة ترثي به أباها يزيد - أو أبي تمام ، فقد وجد في شعر كلِّ منهم - وهو [في «ديوان أبي تمام» ١٥/٢] :
[من الطويل]

وَلَوْلَمْ تَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ رُوْحِهِ لَجَادَ بِهَا فَلَيْتَى اللَّهِ سَائِلُهُ

وقد أغار عليه صاحبنا ؛ إذ كان كما قلنا : يتلقف كلَّ ما صنع المُجيدون من أهل الشعر ، ولكنه لم يأت إلاّ بيت ملزق ، هو قوله [في «العكبري» ١/٢٣٢] :

لَا خَلَقَ أَكْرَمُ مِنْكَ إِلَّا عَارِفٌ بِكَ رَأَى نَفْسَكَ لَمْ يَقُلْ لَكَ هَاتِيهَا
وقارب في قوله [في «العكبري» ٥٥/٢] :

مَا سَمِعْنَا بِمَنْ أَحَبَّ الْعَطَايَا فَاشْتَهَى أَنْ يَكُونَ فِيهَا فُوَادُهُ

وكان - أعني سيّدنا البحر - صادق التوكّل على الله والاعتماد عليه ، حتّى إنّه بما في خزائن ربّه أوثق منه بما في يده ، وكلّما حزبه أمرٌ . فرز إلى الصلاة ، مقتفياً هديّه صلى الله عليه وآله وسلّم في ذلك^(١) ، حتّى إذا لم يجد الضيف شيئاً عنده . ذهب بعد تأهيله يصلي ، فيفتح له بواقر الكرامة .

ولقد أراد بعض السادة آل الحبشي امتحانه ، فقالوا لوكيله : متى علمت فراغ جيبه ، ونفاد ما في بيته . فأخبرنا ، فظنّ بهم أنهم لم يقولوا ذلك إلاّ ليتشرّفوا بإعانتته على فعل المعروف ، فأخبرهم ، فجاؤوا بقضيمهم وقضيمهم ، وخيلهم ورجلهم^(٢) ، عندما وجبت صلاة المغرب ، ذلك الوقت الذي لا يتفرغ فيه لغير مولاة ، فقابلهم بما جيل عليه من البشاشة ، وبعقب الصلاة استأذنتهم وفرز إلى ورده ، يستفتح به أبواب القرى من فائض الجود ، فما كان بأسرع من أن جاء خادمه يقول له : أهدى إليك آل فلان كبشاً ، فقال له : أصلحوه ، ثمّ جاءه واحد من جيرانه وقال : إنّ عندي أصعاً من البرّ ، إن كانت لك في شرائها حاجة . وإلاّ بعثها لغيرك ، فقال : وأيّ الحاجة؟! هاتها ، وفرّقوها على أبيات من أهل قريتنا يوافونا بها مخبوزة مع العشاء ، وما كاد يفرغ من حزبه . حتّى حلت العشاء ، فصلّى بهم ، ثمّ أخذ في مؤانستهم إلى أن حصر ذلك الطعام ، فتولّى بنفسه قسمة اللحم بينهم - كما هي العادة عندنا - فبارك الله فيه حتّى كفاهم أجمعين .

وعشاق الخرافات يكذبون في رواية هذه القصّة ، ويدّعون أنّه أخرج الطعام بعد صلاة العشاء من مخدعه ، وأنّه جاء

(١) لما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند مسلم (٢٧٣٠) : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا حزبه أمرٌ . قال : « لا إله إلاّ الله رب العرش الكريم » . حزبه أمرٌ : نزل به أمر مهم أو أصابه غم .

وأورده عن حذيفة ، الهندي في «كنز العمال» (٨٠٠١) بلفظه المراد وهو : (كان صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمرٌ . صلى) وعزاه إلى أحمد وأبي داود .

(٢) رجّلهم : مشاتهم .

به من مطبخ الإمام الجيلاني (بغداد) ، والواقع إنما هو ما ذكرناه ، وإذ قد ذكرنا ابن سهل فهو من أجواد الحضارمة المتأخرين - أيضاً - والمجلس أضيئ من أن يتسع لذكر مكارمه ؛ فإنها البحر الذي لا يدرك مفره ، ولا يبلغ عبره .

ولقد كان العلامة الجليل الوالد علوي بن عبد الرحمن المشهور يخفط طرباً كلما ذكره ، ويتفتح عن ثج بحر^(١) مضطرب الأمواج من أخبار جوده ، وإذ كانت العبارة أضيئ من الإحاطة به . . فلا بد من واحدة يعرف بها جنى تلك الشجرة ، أخبرنا شيخنا أبو بكر ابن عبد الرحمن بن شهاب الدين : أن والده كان مديناً للسيّد حسين ، ثم عزم على تزويج ابنتين له ، ولم يكن عنده شيء مما يجهزهما به ، فاضطر مع خجله من السيّد حسين أن يأتي إليه بنفائس كتبه ليرهنها ، أو يبيعها منه ، حتى يخصم الذي له ، ويستعين هو بالفاضل على أمر البنيتين ، وما كاد يصل عنده حتى تلقاه بالرحب والسعة ، فأخبره بحاجته ، فقال له : مقضية ، فطب نفساً ، وقر عيناً ، على شرط أن نتخذ هذا اليوم عيداً ، وندعو من تأنس بهم ممن تعاد مطارحتهم الأشعار ، فأجاب إلى ذلك ، وقصوا سحابة اليوم في أنعم بال ، وأسعد حال ، ولما عزم على الانصراف . . قال له : أمّا كتبك : فأنت أحوج إليها مني ، وأمّا الذي عندك : فقد أبرأتك منه ، وهذه مئة ريال تبلغ بها لبعض ما تريد ، فأثنى عليه خيراً ، وانصرف مجبوراً الخاطر ، يستحث خطأ أتانه ليفضي إلى أهله بالبخارة ، وما كاد يصل داره إلا وزجه يضيء وجهها من الفرح ، ويتهلل جبينها من السرور ، تفديه بالنفس والأهل ، وتقول له : جزاك الله خيراً على ما أرسلت من الخيرات ، التي ما كنت أظن أن يتيسر لك بعضها ، فضلاً عن كلها ، إلا بسفرة طويلة إلى شيء من أقاصي البلاد ، قال : وما الذي أرسلته؟! قالت : كل ما نحتاجه في جهاز البنيتين من ذهب وفضة في أحسن صياغة ، ومن ثياب حريرية وقطنية في أجمل تطريز وخطاطة ، ومن أثاث ورياش أكثر من الحاجة ، ومن أغنام وطعام فوق الكفاية ، حتى ما لا بد منه من الخزف كنت قد تفتنت له ، فاندھش في عقله ، واضطرب في أمره ، وكاد يشك في نفسه ، وجرى على قلبه كثير مما ذكرناه في شرح قوله [في «المكبري» ٣٢/٤] :

كَبَّرَ الْعِيَانَ عَلَيَّ حَتَّى إِنَّهُ صَارَ الْعِيَانَ مِنَ الْيَقِينِ تَوْهُمًا^(٢)

ولا حاجة للتنبية إلى أن السيّد حسيناً هو الذي بعث بجميع ذلك إلى بيت السيّد عبد الرحمن بدون علمه ، وقال لأهله : إنه مُرسل من السيّد عبد الرحمن ، وإنما قلنا : لا حاجة للتنبية على ذلك ؛ لأنه معلوم من المقام ، والله ذو الناظم في قوله [في «المكبري» ٣/١٣٤] :

ذِي الْمَعَالِي فَلْيَعْلُونَ مَنْ تَعَالَى هَكَذَا هَكَذَا وَإِلَّا فَالَآلاً

وقول الآخر [وهو أمية ابن أبي الصلت كما في «طبقات فحول الشعراء» ١/٢٦٢] :

هَلْذِي الْمَكَارِمِ لَا قَبَّانٍ مِنْ لَبَنِ شِيَا بِمَاءٍ فَعَادَا بَعْدُ أَبْوَالَا
هَلْذِي الْمَكَارِمِ لَا ثَوْبَانَ مِنْ عَدَنِ خَيْطَا فَمَيْصَا فَعَادَا بَعْدُ أَسْمَالَا

(١) الثج : علو وسط البحر إذا تلات أمواجه .

(٢) في «المكبري» : (صَارَ الْيَقِينُ مِنَ الْعِيَانِ تَوْهُمًا) ولعله الصواب .

وَلَكُمْ فِي الْخَلْفِ مِنْ نُسَخَةٍ لِّلْسَلْفِ ، وَفِي الزَّوَايَا مِنْ خَبَايَا ، وَفِي الْخَزَائِنِ مِنْ ضَنَائِنَ ، غَيْرَ أَنَّ الْأَسْفَ كُلَّ الْأَسْفِ ،
أَنَّ كُلَّ مَنْ نَظَّمَ أَوْ خَطَبَ ، أَوْ تَكَلَّمَ أَوْ كَتَبَ ، لَمْ يَنْصَحْ لِلْحَقِيقَةِ ، وَإِنَّمَا يَقُولُ تَنْقُحًا ، وَيَكْتُبُ تَمَلُّقًا ، يَبْتَغِي مَرْضَاةَ
الْحَسَادِ بِمَا يَبِيعُ مِنْ ذَمَّةٍ ، وَيُرْضِي عُبَادَ الْخِرَافَاتِ بِمَا يَمُكِّثُ بِهِ الْفَسَادُ فِي الْأُمَّةِ ، وَمَا أَفْحَشَ ذَنْبَ مَنْ يَتَقَاضَى نِزْرًا
حَقِيرًا ، ثُمَّ يَتْرُكُ وِرَاءَهُ وَزْرًا كَبِيرًا ، وَإِنَّمَا انْتَشَرَتِ الْخِرَافَاتُ ، وَخَفِيَتِ الْفَضَائِلُ ؛ لِأَنَّهُ لَا يُحَسِّدُ أَرْبَابَ الْأَوْلَى ، بَلْ
تَوَفَّرَ الدَّوَاعِي عَلَى التَّوَشُّعِ بِهَا بَيْنَ عَشَاقِ الْأَغْرَابِ مِنْ صِغَارِ النَّهْيِ وَسُفْهَاءِ الْأَحْلَامِ ، بِخِلَافِ الْمَجْدِ الْحَقِّ ، وَالْفَضْلِ
الصَّحِيحِ ؛ فَإِنَّهُ يُقْذِي الْعَيُونَ ، وَيَحْزُ فِي الْأَكْبَادِ ، فَتَوَفَّرَ الدَّوَاعِي لَهُضْمِهِ ، وَيَسْتَجِيشُ الْحَسَادُ لِكْتَمِهِ ، وَلِهَذَا كَانَتْ
الْفَضِيلَةُ الصَّادِقَةُ أَحْفَى مَا تَكُونُ عِنْدَ الْحَضَارِمَةِ [في «ديوان المؤلف» ق ٨] : [مِنَ الْبَسِيطِ]

وَلَيْتَ شِعْرِي أَقَوْمِي بِالْخُصُوصِ هَوُوا إِلَى الْخَضِضِ كَذَا ، أَمْ كُلُّهَا الْعَرَبُ !؟

[الشهامة أن تشهد لعدوك بما هو فيه]

لَقَدْ زَمِنَتِ الْمَرْوَةَ ، وَقَلَّ الْحَيَاءُ ، وَفَاضَ الْكِذْبُ ، وَغَاضَ الصِّدْقُ ، وَانْقَلَبَ الْمَعْرُوفُ مَنكَرًا ، وَالْمَنكَرُ مَعْرُوفًا ،
وَتَوَكَّنَتْ فِي هَشِيمِ الصُّدُورِ غِرَابَانِ الْإِحْسَادِ ، بَلَا وَازِعَ مِنَ الدِّينِ ، وَلَا رَادِعَ مِنَ الْمَرْوَةِ ، وَلَا نَنكَرُ مَا عَلَيْهِ الْعَرَبُ
مِنَ التَّحَاسُدِ ، لَكِنْ مَعَ شَهَامَةٍ وَفَضْلِ ، وَإِنْصَافٍ وَعَدْلٍ ، أَعَانَ عَلَى ظَهُورِ الْحَقَائِقِ نَاصِعَةً ، وَاتِّصَالَ الْأَخْبَارِ
صَافِيَةً ، أَلَا تَرَى صَدَقَ أَبِي سَفِيَانَ فِي صِفَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَعَ كَوْنِهِ أَعْدَى عَدُوِّهِ (١) !؟

[صور من ذلك]

وَجَاءَ مُحَفَنُ ابْنِ أَبِي مُحَفَنٍ إِلَى مَعَاوِيَةَ لِيَتَمَلَّقَهُ ، فَقَالَ لَهُ [في «شرح النهج» ٢٢/١] : مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ ؟ قَالَ : مِنْ عِنْدِ
أَجْبِنِ النَّاسِ ، وَأَفْهَمِ النَّاسِ ، وَأَبْخَلِ النَّاسِ ، قَالَ : مَنْ تَعْنِي ؟ قَالَ : عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ، فَقَالَ لَهُ : اسْكُتْ ،
فَضَّ اللَّهُ فَاكًا ، أَمَّا قَوْلُكَ : إِنَّهُ أَجْبِنُ النَّاسِ ، فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَعُدُّ مَنْ مَاتَنَّهُ سَاعَةً ثُمَّ انْهَزَمَ أَشْجَعَ النَّاسِ ، وَأَمَّا قَوْلُكَ : إِنَّهُ
أَفْهَمُ النَّاسِ ، فَوَاللَّهِ مَا سَنَّ الْفَصَاحَةَ لِقَرِيشٍ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ غَيْرُهُ ، وَأَمَّا قَوْلُكَ : إِنَّهُ أَبْخَلُ
النَّاسِ ، فَوَاللَّهِ لَوْ كَانَ لَهُ بَيْتٌ مِنْ تَيْبِنٍ ، وَبَيْتٌ مِنْ تَيْبَرٍ . لَنَفَدَ بَيْتُ تَيْبَرِهِ قَبْلَ أَنْ يَنْفَدَ بَيْتُ تَيْبِنِهِ .

وَيُرْوَى : أَنَّ النُّعْمَانَ بْنَ الْمَنْذَرِ سَأَلَ حَاتِمًا عَنْ نَفْسِهِ وَعَنِ الزَّبْرَقَانِ بْنِ بَدْرِ فَقَالَ : أَمَّا وَاللَّهِ إِنَّ آلَ حَاتِمٍ لَا يَبْلُغُونَ أَصْغَرَ
وَلِدِ الزَّبْرَقَانِ ، ثُمَّ سَأَلَ الزَّبْرَقَانَ عَنْ حَاتِمٍ وَعَنِ نَفْسِهِ ؟ فَقَالَ : أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ كُنْتُ وَمَالِي وَآلِي لِحَاتِمٍ . . لَغَرِقْنَا فِي غَدَاةٍ
وَاحِدَةٍ فِي وَجْهِ الْمَعْرُوفِ ، أَوْ مَا يَقْرُبُ مِنْ هَذَا السِّيَاقِ .

وَقَدْ أَخَذَهُ الْكَمِيْتُ فِي قَوْلِهِ لِحَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيِّ [في «الأغاني» ٣٧/١٧] :

[مِنَ الْمَنْسْرَحِ]

لَوْ أَنَّ كَعْبًا وَحَاتِمًا نَشِرَا كَانَا جَمِيعًا مِنْ بَعْضِ مَا تَهَبُّ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

ثُمَّ أَلَمَّ بِهِ الْبَحْتَرِيُّ فِي قَوْلِهِ :

وَمَنْ لَوْ تَرَى فِي مَلِكِهِ كُنْتَ نَائِلًا لِأَوَّلِ عَافٍ مِنْ مُرَجِّهِ مُقْتَرُ

وَرَبَّمَا يَكُونُ مَوْضِعَ الزَّبْرَقَانِ أَوْسُ بْنُ حَارِثَةَ بْنِ لَامٍ أَوْ غَيْرُهُ مِنَ الْعَرَبِ .

(١) وذلك في الحديث الذي رواه البخاري (٢٩٤٠) و(٢٩٤١) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما .

ويشبه ذلك قولُ أوسِ المذكورِ ، وقد انتدبَ هوَ وحاتمٌ وزيدُ الخيلِ لخطبةِ ماويةَ ، حينَ اشتطتْ واشترطتْ أن لا تزوجَ إلاَّ كريماً ، وآلت على نفسها أن تجدَعَ أنفَ مَنْ خطبها غيرَ كريمٍ ، فتحامها الحطابُ ، حتَّى انتدبَ لها هؤلاءُ ، فقالتْ لهم - في حديثٍ طويلٍ أشرنا مرَّةً إليه - : لِيَصِفْ كُلُّ واحدٍ مِنْكُمْ نفسهُ في شعرِهِ ، فكانَ في جملةِ ما قاله أوسُ بنُ حارثةَ - وهوَ موضعُ الشاهدِ - :

فإن تنكحي زيدا ففارس قومِهِ
وإن تنكحي ماويةَ الخيرِ حاتِماً
فنى لا يزالُ الدهرَ أكبرَ همِّهِ
وإن تنكحيني تنكحي غيرَ فاجرٍ
إذا الحزبُ يوماً أقدتْ كلَّ قائمٍ
فما مثلهُ فينا ولا في الأعاجِمِ
فكأك أسيرٍ أو معونةُ غارِمِ
ولا نهنه عندَ الأمورِ العظائمِ

وذكرَ في مجلسِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قولُ قيسِ بنِ الخطيمِ [في «ديوانه» ٤٢] :

أجالدهم يومَ الحديقةِ حاسراً
كأنَّ يدي بالسيفِ مخراقُ لأعبِ^(١)

ولم يكنْ ثمَّ غيرُ خزرجيٍّ ، وهم ألدُّ خصومِهِ ، فقالَ لهم رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « أَكذِلكَ هوَ ؟ » فقالَ ثابتُ بنُ قيسِ بنِ شماسٍ : والذي بعثك بالحقِّ يا رسولَ اللهِ ، لقد خرجَ إلينا سبعُ عُرْسِهِ عليه غلالةٌ وملحفَةٌ مورَّسةٌ ، فجالدنا حتَّى قتلنا سبعةً ، أو ما يقربُ من هذا ، فارتاح رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وتهلَّلَ وجهُهُ .

ومرَّ عليَّ - كرَّم اللهُ وجهَهُ - بطلحةَ قتيلاً يومَ الجملِ ، فتمثَّلَ بقولِهِ [كما في «ديوان» النابغة الجعديِّ] :

فتى كان يُذنيه الغنى من صديقِهِ
إذا ما هو استغنى وبيعه الفقرُ

أو سمعَ إنساناً ينشدُ هذا البيتَ ، فقالَ : ذاك طلحةُ بنُ عبيدِ اللهِ^(٢) .

وقد سبقَ في غيرِ هذا المجلسِ قولُ القطاميِّ [في «ديوانه» ٨٤] :

إنِّي وإن كان قومي ليسَ بينهمُ
مُثْنٌ عليكِ بما استبقيتِ معرفتي
وبينَ قومِكَ إلاَّ ضربتُ الهادي^(٣)
وقد تعرَّضَ منِّي مقتلُ بادي

وقالَ عمرو بنُ معدِ يكربَ الزبيديُّ ، يصفُ بني سُلَيْمٍ ، وكانتْ بينهمُ إحنٌ^(٤) في الجاهليَّةِ [في «أدب الكاتب» ٤٣٤/١] :
للهِ بنو سُلَيْمٍ ما أشدَّ لقاءها ، وأكرمَ عطاءها ،
وأثبتَ بناءها ، ولقد قاتلناكم يا بني سُلَيْمٍ فما أجبناكمُ ،
وهاجيناكمُ فما أفتحناكمُ ، واسترَفَدناكمُ فما أبخلناكمُ .

وقلَّ من رثى عمرو بنَ عبدِ ودٍّ إلاَّ تعرَّضَ للشئاءِ على قاتلِهِ ، الإمامِ الغالبِ عليِّ ابنِ أبي طالبٍ - كرَّم اللهُ وجهَهُ - حتَّى

(١) الحديقةُ : قريةٌ من أعراسِ (المدينةِ) في طريقِ (مكةَ) ، كانت بها وقعةٌ بين الأوسِ والخزرجِ قبلَ الإسلامِ ، وإياها أرادَ قيسُ في قوله . المخراقُ : ما تلعبُ به الصبيانُ من الخرقِ المفتولةِ .

(٢) «الأغاني» (٣٣١/١٨) .

(٣) الهادي : العنقُ ؛ لأنها تقدم على البدنِ ، وهادي السهمِ : نصلُهُ .

(٤) إحنٌ : جمعُ أحنةٍ ، وهي الحقدُ والغضبُ .

[من البسيط]

فَأَلَّتْ أُخْتُ عَمْرٍو [كما في « ثمار القلوب » (٤٩٦/١) ، ولكن فيه أن القائل ابنته] :

لَوْ كَانَ قَاتِلُ عَمْرٍو غَيْرَ قَاتِلِهِ مَا زِلْتُ أَبْكِي عَلَيْهِ دَائِمَ الْأَبْدِ
لَكِنَّ قَاتِلَهُ مَنْ لَا يُعَابُ بِهِ مَنْ كَانَ يُدْعَى أَبُوهُ بِيَضَّةِ الْبَلَدِ

وقد سبق ما قاله عبدُ الملِكِ بنُ مروانَ ، مِنْ بَالِغِ الثَّنَاءِ عَلَى المَصْعَبِ بْنِ الزَّبِيرِ ، وَبَيْنَهُمَا مَا لَا تَبْرُكُ عَلَيْهِ الإِبِلُ مِنَ الأَشْيَاءِ المَمْرُوقَةِ ، وَالأَرْحَامِ المَقْطُوعَةِ .

ولقد كَانَ الجَوْ أَسَدًا ظُلْمَةً مِنْ ذَلِكَ بَيْنَ يَزِيدَ بْنِ المَهَلَّبِ وَيَزِيدَ بْنِ عَبْدِ المَلِكِ ، وَلَمَّا حُمِلَ رَأْسُ الأَوَّلِ إِلَى الثَّانِي . . نَالَ مِنْهُ بَعْضُ جَلِيسَاتِهِ ، فَقَالَ لَهُ : مَهْ ، إِنْ يَزِيدُ طَلَبَ جَسِيمًا ، وَرَكِبَ عَظِيمًا ، وَمَاتَ كَرِيمًا ، وَصَدَقَ ابْنُ دُرَيْدٍ فِي قَوْلِهِ بِعَيْنِهِ [في « وفيات الأعيان » ٣٠٥/٦] :

وَقَدْ سَمَا قَبْلِي يَزِيدُ طَالِبًا شَأْوُ العُلَا فَمَا وَهَى وَلَا وَنَى
وَمَرَّ مِثْلُهُ فِيهِ عَنِ الشَّرِيفِ الرُّضِيِّ أَوَائِلَ المَجْلِسِ قَبْلَ هَذَا .

وَلَمَّا وَرَدَ كَعْبُ الأَشْقَرِيِّ عَلَى الحَجَّاجِ مَوْفِدًا مِنْ قِبَلِ المَهَلَّبِ ابْنِ أَبِي صَفْرَةَ ، وَسَأَلَهُ عَنِ قِتَالِ الخَوَارِجِ . . أَشَدَّ فَصِيدَتُهُ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

كُنَّا نَهُوُّنُ قَبْلَ اليَوْمِ شَأْنَهُمْ حَتَّى تَفَاقَمَ أَمْرٌ كَانَ يُحْتَقَرُ
لَمَّا وَهَنَّا وَقَدْ حَلَّوْا بِسَاحَتِنَا وَاسْتَنْفَرَ النَّاسُ مَرَاتٍ فَمَا نَفَرُوا
نَادَى امْرُؤٌ لَا يُمَارَى فِي عَشِيرَتِهِ فِيهِ وَلَيْسَ بِهَا عَن مِثْلِهِ قِصْرُ
بَاتَتْ كِتَابَتُنَا تُرْدَى مُسَوِّمَةً حَوْلَ المَهَلَّبِ حَتَّى نَوَّرَ القَمَرُ
هُنَاكَ وَلَوْ خَزَايَا بَعْدَمَا هَزَمُوا وَحَالَ دُونَهُمُ الأَنْهَارُ وَالجُدُرُ
تَأَبَّى عَلَيْنَا حَرَارَاتُ التُّفُوسِ فَمَا نُبْقِي عَلَيْهِمْ وَلَا يُبْقُونَ إِنْ قَدِرُوا^(١)

[من الطويل]

ويدخل فيه كلُّ ما يأتي في شرح قوله [في « المعرِّي » ٢٣٩/٢] :

وَلَا ثُوبٌ مَجْدٍ غَيْرَ ثُوبِ ابْنِ أَحْمَدٍ عَلَى أَحَدٍ إِلاَّ بِلُؤْمٍ مُرَقَّعٍ

وَيُذَكِّرُ : أَنَّ تَيَمُورلَنْكَ أَبْصَرَ السَّيِّدَ الجِرْجَانِيَّ عَلَى فَرَسٍ لَهُ عَتِيقٍ ، يَمْرُحُ خِيَلًا وَكِبْرًا ، فَقَالَ لِلسَّعْدِ : أَلَا تَرَى إِلَى مَا عَلَيْهِ السَّيِّدُ وَحِصَانُهُ مِنَ الزَّهْوِ؟! فَقَالَ لَهُ : لَا عَجَبَ ، حَتَّى لَوْ أَنَّهُ طَارَ إِلَى السَّمَاءِ . . لَكَانَ مُحَقَّقًا لِذَلِكَ الشَّرَفِ ، ثُمَّ دَنَا مِنَ السَّيِّدِ وَقَالَ لَهُ : أَلَا تَرَى إِلَى مَا عَلَيْهِ السَّعْدُ وَبِغْلُهُ مِنَ الضَّعْفِ وَالقَطَافِ^(٢) ؟ فَقَالَ السَّيِّدُ : وَكَيْفَ لَا؟! وَعَلَيْهِ جَبَلٌ مِنَ جِبَالِ العِلْمِ ، فَحَرِيٌّ أَنْ تَتَفَسَّخَ بِبِغْلِهِ القَوَائِمُ ، وَكَأَنَّمَا أَحْذَهُ مِنْ قَوْلِ المَعْرِيِّ [في « سقط الزند » ٢١٤] :

[من الطويل]

إِذَا حَمَلْتِكَ العَيْسُ أَوْدَى بِأَيْدِيهَا جَلَالِكَ حَتَّى مَا تَكَادُ بِهِ تَخْطُو^(٣)

(١) « الأغاني » (٢٧٦/١٤) .

(٢) القَطَافُ : ضَيْقُ مَشْيِ الدَّابَّةِ .

(٣) أَوْدَى : هَلَكَ . الأَيْدُ : القُوَّةُ . الجَلالُ : العُظْمُ .

هذا على ما بين الرجلين مِنَ التَّبَاعِدِ ، ثمَّ لا ننكرُ أَنَّ ما يتكلَّمُ به الأعداءُ من الشَّاءِ على خصومِهِم بعدَ انتصارِهِم عليهم لا يصلحُ أَنْ يكونَ شاهداً لِمَا نقرُّهُ مِن تناصُفِ العربِ في أقوالِهِم .

أَمَّا أَوَّلًا : فلأنَّ مَنْ شفى غيظَهُ مِن خصومِهِ ، واستفرغَ حَزَاةَ نَفْسِهِ بما انتقمَ مِنْهُم ، لا يبقى في صدرِهِ ما يمنعه من ذكرِهِم بالخيرِ في الأغلبِ ، إلاَّ عِنْدَ مَنْ اشتدَّ حُبُّهُ ، ونفلَ قلبُهُ .

وأما ثانياً : فلأنَّ المرادَ مِن مثلِ ذلكِ إنما هوَ التوصلُ إلى تعظيمِ النفسِ ؛ لأنَّ الانتصارَ على الحقيِرِ لا يعدُّ شيئاً مذكوراً ، إنما يُمتدحُ بالانتصارِ على العظيمِ ، كما سيأتي أثناءَ المجلسِ السادسِ عشرِ ، غيرَ أنَّ شيئاً من ذلكِ لا يعيِّرُ في وجهِ ما ذكرناه ، إذ كثيرٌ منه كانَ مِن غيرِ انتصارِ ، وكانَ في أيامِ الحياةِ والمساماةِ ، وهوَ بينَ العربِ الطريقُ المهيِّعُ^(١) ، والغالبُ المطرُدُ ، ثمَّ إنَّا لا نريدُ مِنَ الشَّاءِ إلاَّ ما يكونُ حقاً مطابقاً للواقعِ ، بلا إفراطٍ ولا تفريطٍ ، وإلاَّ . . . كانَ مِنَ المذمومِ الممقوتِ ، الداخِلِ تحتِ قولِ القائلِ :

ذَهَبَ الَّذِينَ يَعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَالْمُنْكَرُونَ لِكُلِّ أَمْرٍ مُنْكَرٍ
وَبَقِيَتْ فِي خَلْفٍ يُزَكِّي بَعْضُهُمْ بَعْضاً لِيَذْفَعَ مُعْوَرٌ عَن مُعْوَرٍ

وهذا لونٌ آخرٌ مِنَ الحديثِ ، لا بُدَّ وَأَنْ نوفيَّهُ حَقَّهُ في محلِّهِ ، إن شاءَ اللهُ تعالى .

* * *

[مِنَ المنسرجِ]

[قال أبو الطَّيِّبِ المُنَبِّيُّ في « العُكْبَرِيِّ » ١٧٣ / ٣ :

هَدِيَّةٌ مَا رَأَيْتُ مُهْدِيهَا إِلَّا رَأَيْتُ أَلْعِبَادَ فِي رَجُلٍ

[هل يجمع رجل واحد جميع محاسن الناس !؟]

(هَدِيَّةٌ) : خبرٌ مبتدأٌ محذوفٍ ، تقديرُهُ : هَدَيْتَكَ هَدِيَّةٌ مَا رَأَيْتُ الَّذِي أَهداها . . . إلاَّ رَأَيْتُ النَّاسَ كُلَّهُم في شخصِهِ ؛ لأنَّ فِيهِ جميعُ ما في النَّاسِ مِن معاني الفضلِ والسُّودِّدِ والكرَمِ ، لا يُقالُ : إنَّ في النَّاسِ الأَحْسَاءَ ، فإذا رَأَى فِيهِ ما فِيهِمْ . . . كانَ عَيْنَ الذَّمِّ ؛ لأنَّهُ لم يُردْ بالعبادِ إلاَّ الكرامَ مِنْهُم ، فَ(أَل) فِيهِ للعهدِ الذهنيِّ ، والمعنى متكرِّرٌ في ديوانِهِ ، مِنْهُ قولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣٦٦ / ١ :

أَحْلُمًا نَرَى أَمْ زَمَانًا جَدِيدًا أَمْ الْخَلْقُ فِي شَخْصٍ حَيٍّ أُعِيدًا
وقولُهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٣٤٠ / ١ :

أَنْى يَكُونُ أَبَا الْبَرِيَّةِ آدَمَ وَأَبُوكَ - وَالثَّقَلانِ أَنْتَ - مُحَمَّدٌ ؟
ومعناه : كيفَ يكونُ آدمُ أبا الوريِّ ، وأبوكَ مُحَمَّدٌ ، وَأنتَ الثَّقَلانِ ، قد جمعَ اللهُ فِيكَ ما فرَّقَهُ فِيهِم من أنواعِ الفضلِ

(١) المَهْيَعُ : الواسعُ الواضحُ .

والكمال!؟ وهو من قصيدة له فائقة^(١)، غير أن هذا البيت مذمومٌ منها، ومعيبٌ عند أهل البيان بالتشويش^(٢).

ومن المعنى - أيضاً - قوله «في العُكْبَرِيَّ» ٢٠٥/٤ :

[من الكامل]

إِنِّي أَرَاكَ مِنَ الْمَكَارِمِ عَسْكَرًا
فِي عَسْكَرٍ وَمِنَ الْمَعَالِي مَعْدِنَا

[من الكامل]

وقوله «في العُكْبَرِيَّ» ٦٤/٣ :

الْجَيْشُ جَيْشُكَ غَيْرَ أَنَّكَ جَيْشُهُ
فِي قَلْبِهِ وَيَمِينِهِ وَشِمَالِهِ

[من الكامل]

وقوله «في العُكْبَرِيَّ» ١٩٩/٢ :

لَمَّا سَمِعْتُ بِهِ سَمِعْتُ بِوَاحِدٍ
وَرَأَيْتُهُ فَرَأَيْتُ مِنْهُ خَمِيسًا

[من الطويل]

وقوله «في العُكْبَرِيَّ» ١٠٤/٣ :

فَلَمَّا رَأَوْهُ وَخَدَهُ قَبْلَ جَيْشِهِ
دَرَوْا أَنَّ كُلَّ الْعَالَمِينَ فُضُولُ

[من الكامل]

وقوله «في العُكْبَرِيَّ» ١٧١/٢ :

نُسِقُوا لَنَا نَسَقَ الْحِسَابِ مُقَدَّمًا
وَأَتَى فَذَلِكَ إِذْ أَتَيْتَ مُؤَخَّرًا^(٣)

[من الوافر]

وقوله «في العُكْبَرِيَّ» ٧٦/٤ :

إِذَا عُدَّ الْكِرَامُ فَتِلْكَ عَجَلٌ
كَمَا الْأَنْوَاءُ حِينَ تُعَدُّ عَامٌ^(٤)

[من البسيط]

وقوله «في العُكْبَرِيَّ» ٨٧/١ :

غَدَرْتَ يَا مُوتُ كَمْ أَفْنَيْتَ مِنْ عَدَدٍ
بِمَنْ أَصَبْتَ وَكَمْ أَسَكَّتَ مِنْ لَجَبٍ^(٥)

[من البسيط]

وقوله «في العُكْبَرِيَّ» ٣٥٠/١ :

لَمَّا وَرَنْتُ بِكَ الدُّنْيَا وَرَنْتَ بِهَا
وَبِالْوَرَى قَلَّ عِنْدِي كَثْرَةُ الْعَدَدِ^(٦)

وقد أساء الأدب في هذا ؛ لأنه انتزعه مما جرى له صلى الله عليه وآله وسلم ليلة الإسراء ، من أن الملائكة وزنته فرجع بألفٍ من أمته^(٧).

(١) قصيدة مدح بها شجاع بن محمد الطائي المنبجي ومطلعها :

الْيَوْمَ عَهْدُكُمْ فَأَيْنَ الْمَوْعِدُ
هَيْهَاتَ لَيْسَ لِيَوْمٍ عَهْدِكُمْ غَدُ

وهي من أربعين بيتاً .

(٢) وذلك لأنه فصل في هذا البيت بين المبتدأ والخبر بجملة من مبتدأ وخبر وهذا تعسف .

(٣) المعنى : قال الواحدي : جُمع لنا الفضلاء في الزمان ، ومضوا متتابعين ، متقدمين عليك في الوجود ، فلما أتيت بعدهم . . . كان فيك من الفضل ما كان فيهم ، مثل الحساب يذكر تفاصيله أولاً ، ثم تجمع تلك التفاصيل ، فيكتب في آخر الحساب ، كذلك أنت . . . جمع فيك ما تفرق فيهم من الفضائل والعلم والحكمة .

(٤) الأنواء : جمع نوء ، وهو سقوط نجم من منازل القمر في المغرب مع الفجر ، وطلوع رقبه من المشرق يقابله .

(٥) اللجَب : الصوت والجلبة ، وجيش لجب : عرمرم .

(٦) في «العكبري» : (رَجَحْتَ) بدل : (وَرَنْتَ) .

(٧) ليس ذلك في الإسراء والمعراج ، فقد روى الدارمي في «سننه» (١٤) عن أبي ذرٍّ - رضي الله عنه - قال : قلت : يا رسول الله . . . كيف علمت أنك نبي حين =

وَمِنَ الْمَعْنَى - أَيْضاً - قَوْلُهُ فِي « الْعُكْبَرِيِّ » ٢/ ٣٥٠ :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

لَكَ الْخَيْرُ ، غَيْرِي رَامَ مِنْ غَيْرِكَ الْغِنَى
وَعَيْرِي بِغَيْرِ اللَّادِقِيَّةِ لَاحِقُ
هِيَ الْغَرَضُ الْأَقْصَى ، وَرَوْيَتِكَ الْمُنَى
مَنْزِلِكَ الدُّنْيَا ، وَأَنْتَ الْخَلَائِقُ

وهذا عندي أبدعها وأفخمها ، وأملؤها للضم ، ولقد أخطأ مَنْ فَضَّلَ عَلَيْهِ قَوْلَ السَّلَامِيِّ [كما في « قرى الضيف»

[مِنَ الطَّوِيلِ]

: [١٦٣/١]

فَبَشَّرْتُ آمَالِي بِمَلِكٍ هُوَ الْوَرَى
وَدَارِ هِيَ الدُّنْيَا وَيَوْمٌ هُوَ الدَّهْرُ

ولئن كان في بيت المتنبي ضميرٌ يتعلّق بما قبله ، وهذا قائمٌ بذاته ، وفيه زيادةٌ وصفِ اليوم ؛ فإنّ فيه جزالةٌ وفخامةٌ ، وحلاوةٌ وطلاوةٌ ، لا يوازيها شيءٌ ممّا جاء في بيتِ السَّلَامِيِّ ، ولئن كان السَّلَامِيُّ هُوَ السَّابِقُ . فأصلُ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

المعنى قولُ عبدةِ يرثي قيسَ بنَ عاصمِ المنقرِيّ [كما في « المستطرف » ١/ ١٤٠] :

وَمَا كَانَ قَيْسٌ هُلْكُهُ هُلْكُ وَاحِدٍ
وَلَكِنَّهُ بَيْنَانٌ قَوْمٍ تَهَدَّمَا

[مِنَ الْوَافِرِ]

وقولُ ابنِ المقفَعِ [في « البيان والتبيين » ١/ ٣٨٧] :

أَتَقْتَلُنِي فَتَقْتُلَ بِي كَرِيمَا
يَمُوتُ بِمَوْتِهِ بَشَرٌ كَثِيرُ

ويروى [في « المثل السائر » ٢/ ٣٦٤] : أَنَّ أَبَا تَمَّامٍ جَاءَ إِلَى أَحْمَدَ بْنِ أَبِي دَوَادٍ يَعْتَذِرُ إِلَيْهِ ، وَيَقُولُ لَهُ : أَنْتَ جَمِيعُ النَّاسِ ، وَلَا طَاقَةَ لِي بِغَضَبِ جَمِيعِ النَّاسِ ، فَقَالَ لَهُ : مَا أَحْسَنَ هَذَا الْمَعْنَى ! فَمِنْ أَيْنَ أَخَذْتَهُ ؟! قَالَ مِنْ قَوْلِ أَبِي نُوَّاسٍ [في « ديوانه » ٢٠٢] :

[مِنَ الشَّرِيعِ]

لَيْسَ عَلَيَّ اللهُ بِمُسْتَنْكَرٍ
أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ

[مِنَ الرَّجْزِ]

وقال ابنُ دُرَيْدٍ [في « المستطرف » ١/ ٤٦٦] :

وَالنَّاسُ أَلْفٌ مِنْهُمْ كَوَاحِدٍ
وَوَاحِدٌ كَالْأَلْفِ إِنْ أَمَرَ عَرَا

[مِنَ الْبَسِيطِ]

وقال ابنُ الرومِيِّ :

فَرْدٌ وَحِيدٌ يَرَاهُ النَّاسُ كُلَّهُمْ
كَأَنَّهُ النَّاسُ طُرّاً وَهُوَ إِنْسَانٌ

[مِنَ الْبَسِيطِ]

وقال أبو تَمَّامٍ [في « ديوانه » ١/ ١٠٠] :

لَوْ لَمْ يَقْدُ جَحْفَلًا يَوْمَ الْوَعَى لَغَدَا
مِنْ نَفْسِهِ وَحَدَهَا فِي جَحْفَلٍ لَجِبِ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقال [في « البيان والتبيين » ١/ ٥١٢] :

لَعَمْرُكَ مَا كَانُوا ثَلَاثَةَ إِخْوَةٍ
وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا ثَلَاثَ قَبَائِلِ

= اسْتَبْتِ؟ فَقَالَ: « يَا أَبَا ذَرٍّ . أَنَا بِيضٌ بَطْحَاءٌ (مَكَّةُ) ، فَوَقَعَ أَحَدُهُمَا عَلَى الْأَرْضِ ، وَكَانَ الْآخَرُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : أَهْوَهُ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَرَنَّهُ بِرَجُلٍ ، فَوَزَنَتْ بِهِ فَوَزَنَتْهُ ، ثُمَّ قَالَ : زَنَهُ بِعَشْرَةٍ ، فَوَزَنَتْ بِهِمْ فَرَجَحَتْهُمْ ، ثُمَّ قَالَ : زَنَهُ بِمِئَةِ ، فَوَزَنَتْ بِهِمْ فَرَجَحَتْهُمْ ، ثُمَّ قَالَ : زَنَهُ بِالْفِ ، فَوَزَنَتْ بِهِمْ فَرَجَحَتْهُمْ ، كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَنْتَرُونَ عَلَيَّ مِنْ حِقَّةِ الْمِيزَانِ ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : لَوْ وَزَنَتْهُ بِأُمَّتِهِ لَرَجَحَتْهَا . »

ونظر إليه أبو عبادة في قوله [في «ديوانه» ١٠٣٢/٢] :

[مِنَ الْكَامِلِ]

رَبُّ الْمُنُونِ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْبِرِ

كَانُوا ثَلَاثَةَ أَبْحُرٍ أَفْضَى بِهَا

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقال في أصل المعنى [في «ديوانه» ١/٦٢٥] :

لَدَى الْمَجْدِ حَتَّى عُدَّ أَلْفٌ بِوَاحِدِ

وَلَمْ أَرْ أَمْثَالَ الرَّجَالِ تَفَاوَتَتْ

[مِنَ الْوَافِرِ]

وقال قبل ذلك جريراً [في «ديوانه» ٢/٦٤٩] :

رَأَيْتَ النَّاسَ كُلَّهُمْ غَضَابًا

إِذَا غَضِبْتَ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمِ

[مِنَ الْبَسِيطِ]

فَكَانَ أَحَقَّ بِهِ مِنَ الْجَمِيعِ ، وَذَلِكَ حَيْثُ يَقُولُ :

وأخذ البوصيرى المعنى لمدحه صلى الله عليه وآله وسلم ، فكان أحقَّ به من الجميع ، وذلك حيث يقول : [مِنَ الْبَسِيطِ]

كَأَنَّهُ وَهُوَ فَرْدٌ مِنْ جَلَالَتِهِ فِي عَسْكَرٍ حِينَ تَلَقَّاهُ وَفِي حَشَمِ

كَأَنَّهُ وَهُوَ فَرْدٌ مِنْ جَلَالَتِهِ فِي عَسْكَرٍ حِينَ تَلَقَّاهُ وَفِي حَشَمِ

ومصداقه ما يروى عن قبلة بنت مخرمة : أنها جاءت تطلبه ، فألفته في مسجده قد توسد ذراعه ، وعليه الجلال الإلهي ، والوقار السماوي ، والعظمة الربانية ، فأكبرته ، وأخذتها رعدة من الفرق ، فقال لها صلى الله عليه وسلم : « هُونِي عَلَيْكَ السَّكِينَةَ ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ وَلَا جَبَّارٍ ، وَلَكِنِّي ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ ، كَأَنْتِ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ بِمَكَّةَ » (١) .

فما أشرف هذا التواضع الكريم على ذلك المقدار العظيم!

[مِنَ الْكَامِلِ]

ولله در الناظم في قوله - الذي قد ذكرناه مرّة - [في «العكبري» ٤/١٧٩] :

مُتَوَاضِعِينَ عَلَى عُلُوِّ الشَّانِ

مُتَصَعِّلِينَ عَلَى ضَخَامَةِ مُلْكِهِمْ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

بل ما أحلى قول سبط ابن الفارض [في «ديوان ابن الفارض» ٢١٣] :

نَبِيَّكَ وَهُوَ السَّيِّدُ الْمُتَوَاضِعُ

فَيَا رَبُّ بِالْخِلِّ الْحَبِيبِ مُحَمَّدٍ

إِلَيْهَا قُلُوبُ الْأَوْلِيَاءِ تُسَارِعُ

أَنْلِنَا مَعَ الْأَجْبَابِ رُؤْيَاكَ الَّتِي

وَجُودُكَ مَوْجُودٌ وَعَفْوُكَ وَاسِعُ

فَبَابِكَ مَقْصُودٌ وَفَضْلُكَ زَائِدُ

ومرض أبو الفرج الدارمي صاحب «الاستذكار» فزاره أبو حامد الإسفراييني ، فقال [في «طبقات ابن السبكي» ٤/٦٥] :

[مِنَ السَّرِيعِ]

فَعَادَنِي الْعَالَمُ فِي وَاحِدِ

مَرِيضَتٍ فَاحْتَجْتُ إِلَى عَائِدِ

أَحْمَدُ ذُو الْفَضْلِ أَبُو حَامِدِ

ذَلِكَ الْإِمَامُ ابْنُ أَبِي طَاهِرِ

[مِنَ الْبَسِيطِ]

وأبو حامد هذا : هو ممدوح المعري بقصيدته التي مستهلها هذا [في «سقط الزند» ١٦٥] :

فَكَيْفَ شَاهَدْتَ إِمْضَائِي وَإِزْمَاعِي؟ (٢)

لَا وَضِعَ لِلرَّحْلِ إِلَّا بَعْدَ إِبْضَاعِ

(١) رواه ابن ماجه (٣٣١٢) وقال في «الزوائد» : إسناده صحيح ورجاله ثقات ، بلفظ : « هون عليك فإنني لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد » .

(٢) لا وضع : كناية عن النزول . الإبضاع : وضع البعير في السير .

وكانوا يصلُّونَ الظهَرَ بعدَ الجمعةِ في مسجدِ (المسيلةِ) ، فقالَ لهمَ بدويٌّ : لِمَاذَا؟ قالوا : لأنَّ الجمعةَ لا تصِحُّ إلاَّ بأربعينَ ، والعددُ ناقصٌ عندنا ؛ فلهذا نصلِّي الظهَرَ احتياطاً ، قالَ لهمَ : أوليسَ الحبيبُ طاهرٌ^(١) وحدَهُ يعدلُ بأربعينَ ؟ ولا يبعدُ أن يكونَ منه قولُهُ جلَّ ذكرُهُ : ﴿ إِنَّ إِيْرَاهِيْمَ كَانَتْ أُمَّةً ﴾ [النحل : ١٢٠] .

وقالَ الأَرَجانيُّ [في « وفيات الأعيان » ٤/٤٠٧] :

لَوْ زُرْتَهُ لَرَأَيْتَ النَّاسَ فِي رَجُلٍ وَالذَّهْرَ فِي سَاعَةٍ ، وَالْأَرْضَ فِي دَارٍ

* * *

وقالَ يمدحُ عبيدَ اللهِ بنَ خراسانَ الطرابُلسيَّ [في « العُكبريِّ » ٢/١٨٥] :

أَظْيِيَّةَ الْوَحْشِ لَوْلَا ظَيِّيَّةُ الْإِنْسِ لَمَّا غَدَوْتُ بِحَدِّ فِي الْهَوَى تَعْسِ

[شرح المطلاع]

(الإنسُ) : جماعةُ النَّاسِ ، و(الجُدُّ) : الحظُّ والبَحْتُ ، و(التَّعْسُ) : العثورُ ضدَّ الانتعاشِ :
ومنه الحديثُ : « تَعَسَ وَانْتَكَسَ وَإِذَا شَيْكَ فَلَا انْتَقَشَ »^(٢) .

وكانتِ العربُ إذا عثرتُ . . دعتُ بالتعسِ لِمَنْ تَكَرَّهُ .

ومِنه قولُ أُمِّ مِسْطَحٍ في حديثِ الإفكِ الطويلِ : (تعسَ مِسْطَحٌ)^(٣) .

[قد يَألفُ الإنسانُ الوحوشَ ويخافُ من الناسِ]

والحاصلُ : أَنَّهُ يَخاطِبُ الظبيَّةَ الوحشيَّةَ ، ولمَ يَخاطِبها إِلَّا لِإِلْفِهِ إِياها ، وسكونها إِلَيْهِ ؛ مِنْ كَثْرَةِ ما يَسْلُكُ مِنْ البوادي لتَطَلُّبِ الأُنسِ ، ومناجاةِ النفسِ ، على حَدِّ قولِ المَجنونِ [في « ديوانه » ٢٩٤] :

[مِن الطَّويلِ]

وَأَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ البَيْتِ لَعَلَّنِي أَحَدْتُ عَنْكَ النَّفْسَ فِي السَّرِّ خَالِيَا

[مِن الطَّويلِ]

وقولِ ذِي الرُّمَّةِ :

أَخْطُ وَأَمْحُو الْخَطَّ ثُمَّ أَعِيدُهُ بِكَفِّي وَالْغَزْلَانُ حَوْلِي رَتَعُ
عَشِيَّةَ مَالِي جِلَّةٌ غَيْرَ أَنْنِي بَلَقَطِ الْحَصَى وَالْخَطُّ فِي الْأَرْضِ مُوَلَعُ

[مِن الطَّويلِ]

وقولِ الآخرِ :

عَوَى الذُّبُّ فَاسْتَأْنَسْتُ بِالذُّبِّ إِذْ عَوَى وَصَوَّتَ إِنْسَانٌ فَكِدْتُ أَطِيرُ

(١) يعني الإمامَ المَجاهدَ ، طاهرَ بنَ حسينَ بنَ طاهرِ العلويِّ الحسينيِّ ، ولدَ سنة : (١١٨٤هـ) وتوفي سنة : (١٢٤١هـ) ، أحدُ الأئمةِ الأعيانِ ، صاحبُ الشخصيةِ القويةِ ، الشجاعِ ، الغيورِ ، صاحبِ المؤلفاتِ النافعةِ ، ومنها « إتحافُ النبيلِ ببعضِ معاني حديثِ جبريلِ » .

(٢) طرفُ حديثٍ أخرجه عن أبي هريرة رضي اللهُ عنه البخاري (٢٨٨٧) في الجهادِ ، وابنُ ماجه (٤١٣٦) في الزهدِ وأوله : « تعسَ عبدُ الدينارِ وعبدُ الدرهمِ وعبدُ الخميصةِ ، إن أعطيَ رضي ، وإن لم يعطِ سخطُ » .

(٣) أخرجه عن عائشة رضي اللهُ عنها البخاري في حديثِ الإفكِ (٤٧٥٠) في التفسيرِ .

وَلِي بَعْدَ أَوْطَانِي سُكُونٌ إِلَى الْفَلَاحِ
وَبِالْوَحْشِ أُنْسِي إِذْ مِنْ الْإِنْسِ وَحْشِي (١)

[أحببت من أجلكم من كان يشبهكم]

يقول للظبية: لولا شبيهتك من الإنس . . . لما غدوت تاعسَ الجدِّ ، منكودَ الحظِّ ، مُبلِّبَ البالِ ، هائماً على وجهي من الهوى ، وليسَ في البيتِ ما توضعُ عليه اليدُ ، أو ينشرحُ له الصدرُ ، أو يفتحُ له السمعُ ، بل أنكروا عليه قوله: (نيس) وقالوا: إنَّما صوابه تاعسَ كما عبرنا ، والعربُ كثيراً ما تشبَّه الغيدَ الحسانَ بروائعِ الغزلانِ ، والوجهُ حسنُ الأبيادِ (٢) .

ويروي [في «الأغاني» ٧٥/٢]: أنَّ المجنونَ اشترى ظبيةً بناقةً ، وأخذَ يمسحُ عنها الترابَ ويقبلُها ، ويقولُ [في «ديوانه»
[من الطويل]:

أَيَا شِبْهَ لَيْلَى لَا تَرَاعِي فَإِنِّي
فَعَيْنَاكِ عَيْنَاهَا وَجِيدُكِ جِيدُهَا
لَكَ الْيَوْمَ مِنْ وَحْشِيَّةٍ لَصْدِيْقُ
وَلَكِنَّ عَظْمَ السَّاقِ مِنْكَ دَقِيْقُ

ومرّةً أخرى برجلينِ اصطادا ظبيةً وربطاهما ، فعزَمَ عليهما أن يُطلقاهما ، فأبىا عليه ، فاشتراها بكبشٍ من غنمه ، وأطلقها ، وفي ذلك يقولُ [في «ديوانه» ١١١]:

[من الطويل]

شَرِيْتُ بِكَبْشٍ شِبْهَ لَيْلَى وَلَوْ أَبَوْا
وَلَوْ كُنْتُمْ حُرَّيْنِ مَا بَعْتُمَا فَتَى
لَأَعْطَيْتُ مَالِي مِنْ طَرِيفٍ وَتَالِدِ
شِبْهًا لِلَيْلَى بِحَبْلِ نَمٍّ غَلَاهَا
وَلَمْ تَرْغَبَا فِي نَاقِصٍ غَيْرِ زَائِدِ
وَأَعْتَقْتُمَاهَا رَغْبَةً فِي ثَوَابِهَا

[من البسيط]

وقيل: إنَّ الرجلينِ أخوهُ وابنُ عمِّه ، وإنَّه أنشدَهُما [في «ديوانه» ٢٨٥]:

يَا صَاحِبَيَّ اللَّذَيْنِ الْيَوْمَ قَدْ رَبَطَا
إِنِّي أَرَى الْيَوْمَ فِي أَعْطَافِ شَاتِكُمَا
شِبْهًا لِلَيْلَى بِحَبْلِ نَمٍّ غَلَاهَا
مَشَابَهًا أَشْبَهَتْ لَيْلَى فُحْلَاهَا

ولمَّا أبىا . . . تهددُهُما بالقتلِ ، وكانَ أجلدَ مِنْهُمَا قَبْلَ أَنْ يَشْتَدَّ بِهِ الْهُوَى ، فَأَطْلَقَاهَا .

[من الطويل]

ويحكى عن الأصمعي: أَنَّهُ رَأَى أَعْرَابِيًّا صَنَعَ مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ ، وَأَنْشَدَ - وَمِنْ شِعْرِهِ تُعْرَفُ قِصَّتُهُ - :

وَذَكَرَنِي مَنْ لَا أَبُوحُ بِحُبِّهِ
فَقُلْتُ وَأَسْرَابُ الدُّمُوعِ سَوَافِحُ
مَحَاجِرَ ظَبِّي فِي حُبَالَةِ قَانِصِ
وَعَيْنِي إِلَى عَيْنِيهِ نَظْرَةٌ شَاخِصِ
فَأَنَا فَدَيْنَاهُ بِسَبْعِ قَلَائِصِ
حَبِيبِي وَقَدْ أَرَعَدَتْ مِنْهُ فَرَائِصِي
خَفِ اللَّهُ لَا تَجِسُّهُ إِنَّ شِبْهَهُ
أَلَا أَيُّهَا الْقَانِصُ الظَّبِّي خَلِّهِ

أو ما يقربُ من هذا .

(١) سكون: استئناس . أنسي: نقيض وحشي . الإنس: الناسُ .

(٢) الأبياد: الأعناق .

ومن أكاذيب أبي حيّة النميري - وهو ممن يروي عن الفرزدق - : أَنَّهُ قَالَ [كما في « البيان والتبيين » ١/ ٣٢٧] : رميت يوماً
ظبيةً ، فلمّا خرج السهم .. ذكرتُ بالظبية حبيبةً لي ، فشدتُ خلفَ السهمِ حتّى أدركتهُ قبل أن يصيبها ، وأخذتُ
بقذذه ، وما تركتهُ يمسّها .

ومع حسنة هذه الأكذوبة ، وسقوط قدرها ، فقد نظر إليها الناظم بعين الاستحسان ، وشن الغارة عليها ، حتّى
أخذها في قوله [في « العكبري » ١/ ٣٧٨] :

يَكَادُ يُصِيبُ الشَّيْءَ مِنْ قَبْلِ رَمِيهِ وَيُمْكِنُهُ فِي سَهْمِهِ الْمُرْسَلِ الرَّدُّ

وليس هذا بأقبح من قوله [في « العكبري » ٢/ ٢٥٣] :

أَحْبَبُّكَ أَوْ يَقُولُوا : جَرَّ نَمْلٌ ثَبِيرًا ، وَإِنْ إِنْ رَاهِمَ رَنَعًا^(١)

فما أخذ هذا المعنى إلا من أكذوبة كذبها أبو العنيس الصيمري عن لسان رجلٍ من العرب ، زعم أَنَّهُ قَالَ : رأيتُ
رجلاً ناماً ، وفي يده عمُرٌ ، فجرّه النملُ ثلاثة فراسخ ، فأعجب بها أبو الطيّب ، ورأى أن لا يخلي ديوانه عن مثلها ،
ولم يكفه حتّى جعل موضع الرجلِ جبلاً ، ولئن أشار إلى استحالته .. فقد أعاده في قصيدةٍ أخرى يقول [في « العكبري »
٣/ ٢٦٢] :

أَمَاتِكُمْ مِنْ قَبْلِ مَوْتِكُمْ الْجَهْلُ وَجَرَّكُمْ مِنْ خِيفَةِ بِكُمْ النَّمْلُ

فما كان أثقلَ روحه ، وأقلَّ فتوحه ، في أمثال هذا الكلام البارد السخيف ، ﴿ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ
رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران : ٨] .

وعلى ذكر إرسالِ الطباء ، لا بدّ من أن نشير إلى ما قاله فقهاؤنا : من حرمة إطلاقِ الصيد ؛ لأنّه يشبه سوائب
الجاهلية ، قال ابن حجر : نعم ، إن قال عند إرسالها : أبحثه لمن يأخذه .. أبيع لأخذه أكله فقط . اهـ .
وظاهره : أن ذلك القول لا يبيح الإرسال ، ونظر الرملّي في الجواز حينئذ .

* * *

[قال أبو الطيب المتنبّي في « العكبري » ٢/ ١٨٦] :

[من البسيط]

وَلَا سَقَيْتُ الثَّرَى وَالْمُزْنَ مُخْلِفُهُ دَمْعًا يُشَفِّهُ مِنْ لَوْعَةِ نَفْسِي

[شرح المطلع]

يقول للظبية - أيضاً - : لولا شبيهتك .. لما سقيت الثرى عند أخلاف المزن دمعاً ، تتبعه حرارة الأنفاس
فتشّفه .

(١) الثبير : جبل معروف به (الحجاز) ، قيل فيه : أشرق ثبير كما نغير .

- [مِنَ البسيطِ] : واللهِ دُرُّ ابنِ الفارضِ في قولِهِ « في » ديوانِهِ « ١٤٤ » :
- وَأَدْمَعُ هَمَلْتُ لَوْلَا التَّنْفُسُ مِنْ نَارِ الْهَوَى لَمْ أَكْذُ أَنْجُو مِنَ اللَّجَجِ^(١)
- فِي الْبَيْتِ نَوْعٌ مِنَ الطَّبَاقِ فِي الْجَمْعِ بَيْنَ الْمَاءِ وَالنَّارِ .
- [مِنَ البسيطِ] : وقد قالَ ابنُ الروميِّ :
- لَا تَعْجَبَا أَنْ دَمَعًا فَاضَ مِنْ حُرْقِ مَاءٍ أَفَاضَتْهُ نَارٌ مِنْ مَرَاجِلِهِ
- [مِنَ الطَّويلِ] وَمِمَّا جَاءَ فِي احْتِرَاقِ الْقَلْبِ ، وَشِدَّةِ النَّفْسِ ، قَوْلُ أَبِي الطَّمْحَانِ [في « ديوان الحماسة » ٨٤/٢] :
- هَلِ الْوَجْدُ إِلَّا أَنْ قَلْبِي لَوْ دَنَا مِنَ الْجَمْرِ قِيدَ الرُّمَحِ لاحتَرَقَ الْجَمْرُ ؟
- [مِنَ البسيطِ] : وقولُ ابنِ الأحنفِ [في « ديوانه » ١٥٨] :
- يَا قَابِسَ النَّارِ قَدْ أَعَيْتَ قَوَادِحُهُ إقبِسْ إِذَا شِئْتَ مِنْ قَلْبِي بِمِقْبَاسِ
- [مِنَ الكاملِ] : وقالَ الناظمُ [في « المُكَبَّرِيَّ » ٣٣٣/٢] :
- جَرَبْتُ مِنْ حَرِّ الْهَوَى مَا تَنْطَفِي نَارُ الْغَضَى وَتَكِلُّ عَمَّا تُحْرِقُ
- [مِنَ الطَّويلِ] : وقالَ الخابز أَرْزِي :
- بِقَلْبِي جَمْرٌ مِنْ هَوَاهُ فَإِنْ أَكُنْ شَكَوْتُ فَهَذَا الْوَجْدُ مِنْ ذَلِكَ الْجَمْرِ
- [مِنَ الطَّويلِ] : وقالَ :
- وَحَقَّ الْهَوَى إِنِّي أَحْسُّ مِنَ الْهَوَى عَلَى كَبِيدِي جَمْرًا وَفِي أَعْظَمِي رَضًا
- [مِنَ البسيطِ] : وقالَ ذو الرُّمَّةِ - وهوَ مما سبقَ لنا ذِكرُهُ - [في « ديوانه » ٣٨١/١] :
- تَعْتَادُنِي زَفَرَاتٌ حِينَ أَذْكَرُهَا تَكَادُ تَنْقَدُ مِنْهُنَّ الْحَيَازِيمُ
- [مِنَ الكاملِ] : وقالَ مسلمُ بنُ الوليدِ :
- وَإِذَا بَعَثَتْ إِلَيَّ الْهَوَى بَعَثَ الْهَوَى نَفْسًا يَكُونُ عَلَى الضَّمِيرِ دَلِيلًا
- [مِنَ الطَّويلِ] : وقالَ غيرُهُ [وهو الصِّمَّةُ بن عبد الله في « الأغاني » ٦/٦] :
- وَرَدَنَ وَلَمْ يُوجَدْ لَهُنَّ طَرِيقُ إِذَا زَفَرَاتُ الْحُبِّ صَعَدْنَ فِي الْحَشَا
- [مِنَ الكاملِ] : وقالَ أبو تَمَّامٍ [في « ديوانه » ٢١٩/١] :
- بِالدَّمْعِ أَنْ تَزْدَادَ طُولَ وَقُودِ أَجْدِرُ بِجَمْرَةٍ لَوْعَةٍ إِطْفَأُهَا

(١) هملت : انصبت . اللجج : الواحدة لجة ، معظم الماء .

وهو مخالفٌ لبعض ما سبق ، وأواخر المجلس السادس ، قبيل قول الناظم [في «المكبري» ٣٤/٤] : [من الطويل]

فَثِبَ وَاثْقًا بِاللهِ وَثُبَّةَ مَا جَدِ بِرَى الْمَوْتَ فِي الْهَيْجَا جَنَى النَّحْلِ فِي الْفَمِ

وقال بعضهم : [من الكامل]

فَبَدَتْ تُثِيبُ بِدَمْعِهَا نَارَ الْهَوَى مَنْ ذَا رَأَى نَارًا تُثِيبُ بِمَاءِ

وقال الناظم [في «المكبري» ٣٥٠/١] : [من البسيط]

وَكُلَّمَا فَاضَ دَمْعِي غَاضَ مُضْطَبِرِي كَأَنَّ مَا فَاضَ مِنْ جَفَنِي مِنْ جَلَدِي

وقال [في «المكبري» ٢٧٤/٢] : [من الكامل]

وَإِذَا حَصَلْتَ مِنَ السَّلَاحِ عَلَى الْبُكَاءِ فَحَشَاكَ رُغْتَ بِهِ وَقَلْبِكَ تُفْرِغُ

[سكينة بنت الحسين تسأل عروة بن أذينة]

ويحكي [بنحوه في «المستطرف» ٣٢١/٢] : أَنَّ سُكَيْنَةَ ابْنَةَ الْحُسَيْنِ وَقَفَتْ عَلَى عُرْوَةَ بْنِ أَذِينَةَ ، وَكَانَ ثِقَةً فِي الْحَدِيثِ ،

أَخْرَجَ لَهُ مَالِكُ ابْنُ أَنَسٍ ، فَقَالَتْ لَهُ : أَنْتَ الَّذِي يُقَالُ فِيكَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ ، أَلَسْتَ الْقَائِلَ [في «ديوانه» ٢٩] : [من البسيط]

إِذَا وَجَدْتُ أَوَارَ الْحُبِّ فِي كَبِدِي ذَهَبْتُ نَحْوَ سِقَاءِ الْمَاءِ أَبْتَرِدُ

هَبْنِي بَرَدْتُ بِمَسِّ الْمَاءِ ظَاهِرُهُ فَمَنْ لِنَارٍ عَلَى الْأَحْشَاءِ تَتَقَدُّ !؟

قال لها : بلى ، فأشارت إلى جواربها ، وقالت : هُنَّ حَرَائِرُ إِنْ خَرَجَ هَذَا مِنْ قَلْبِ سَلِيمٍ .

[الرشيد وعقد الجارية]

ويروي [بنحوه في «المستطرف» ٣٣١/٢] : أَنَّ هَاشِمَ بْنَ سَلِيمَانَ مَوْلَى بَنِي أُمَيَّةَ ، غَنَّى لِلرَّشِيدِ مَرَّةً بِمَا سَبَقَ مِنْ قَوْلِ جَمِيلٍ

[في «ديوانه» ١٧٦-١٧٧] : [من الطويل]

إِذَا مَا تَرَا جَعْنَا الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا جَرَى الدَّمْعُ مِنْ عَيْنِي بُيْنَةَ بِالْكُحْلِ

فِيَا وَيْحَ نَفْسِي حَسَبَ نَفْسِي الَّذِي بِهَا وَيَا وَيْحَ عَقْلِي مَا أَصِيبُ بِهِ أَهْلِي

خَلِيلِي فِيمَا عَشْتُمَا هَلْ رَأَيْتُمَا قَتِيلًا بَكَى مِنْ حُبِّ قَاتِلِهِ مِثْلِي ؟

فطرب الرشيد ، وقلد هاشمًا عقدًا نفيساً ، فاغرورقت عيناه بالدموع ، فقال له الرشيد : ما يبكيك ؟ فتدلجج حتى

ألح عليه ، فقال : إِنَّ لِهَذَا الْعَقْدِ قِصَّةً ، قَالَ : مَا هِيَ ؟ قَالَ : أَحْضَرَنِي الْوَلِيدُ يَوْمًا ، غَنَّتْهُ فِيهِ إِحْدَى حَظَايَاهُ

فَأَصْلَحْتُ غَنَاءَهَا ، فَدَفَعْتُ لِي هَذَا الْعَقْدَ ، وَظَلْنَا بِأَسْعَدِ يَوْمٍ وَأَهْنَاهُ ، وَلَمَّا قَدَمُوا السَّفِينَةَ فِي الْعَشِيِّ لِيَرْكَبُوا عَلَيْهَا .

سقطت الجارية ، وَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهَا ، فَاشْتَدَّ جَزَعُ الْوَلِيدِ ، وَاسْتَرَدَّ الْعَقْدَ مِنِّي ؛ لِيَتَذَكَّرَهَا بِهِ ، وَيَشْمَمَهَا فِيهِ ، وَدَفَعَ لِي

ثَلَاثِينَ أَلْفًا عَوْضًا عَنْهُ ، فَقَالَ لَهُ الرَّشِيدُ : لَا تَعْجَبْ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ كَمَا وَرَّثَنَا مُلْكَهُمْ ، وَرَّثَنَا أَمْوَالَهُمْ ، فَسَبْحَانَ مَنْ

لا يزول ملكه!

وَلَذِكْرُ [بِنَحْوِهِ فِي «الْمُسْتَرْفِ» ٢/٣٣١] : أَنَّ إِسْحَاقَ الْمَوْصِلِيَّ غَنَى الْوَالِدَ بْنَ الْمُعْتَصِمِ بِهَذِهِ الْأَبْيَاتِ : [مِنَ الْبَسِيطِ]

مَا كُنْتُ أَعْلَمُ مَا فِي الْبَيْنِ مِنْ شَجَنِ
فَأَمْتُ تُوَدُّعُنِي وَالِدَمْعُ يَغْلِبُهَا
مَالَتْ إِلَيَّ وَضَمَّتْنِي لِتَرْشَفْنِي
وَأَعْرَضَتْ ثُمَّ قَالَتْ وَهِيَ بَاكِئَةٌ
حَتَّى تَنَادَوْا بِأَنْ قَدْ جِيءَ بِالشُّفْنِ
فَهَمَّهَمَّتْ بَعْضَ مَا قَالَتْ وَلَمْ تُبِنِ
كَمَا يَمِيلُ نَسِيمُ الرِّيحِ بِالْغُصْنِ
يَا لَيْتَ مَعْرِفَتِي إِيَّاكَ لَمْ تَكُنْ

نَكَادَ الْوَالِدُ أَنْ يَطِيرَ مِنَ الطَّرْبِ وَالْإِرْتِيَاكِ ، ثُمَّ غَنَى إِسْحَاقُ بِالْأَبْيَاتِ الْآتِيَةِ : [مِنَ الطُّوِيلِ]

[قَفِي وَدَعِينَا يَا سَعَادُ]

قَفِي وَدَعِينَا يَا سَعَادُ بِنظَرَةٍ
فَيَا جَنَّةَ الدُّنْيَا وَيَا غَايَةَ الْمُنَى
وَكُنْتُ إِذَا مَا جِئْتُ جِئْتُ لِعَلَّةِ
فَمَا كُلُّ يَوْمٍ لِي بِأَرْضِكَ حَاجَةٌ
فَقَدْ حَانَ مِنَّا يَا سَعَادُ رَحِيلُ
وَيَا سُؤْلَ نَفْسِي هَلْ إِلَيْكَ سَبِيلُ
فَأَفْنَيْتِ عِلَاتِي فَكَيْفَ أَقُولُ ؟
وَلَا كُلُّ يَوْمٍ لِي إِلَيْكَ وَصُولُ
فَمَا تَرَكَ الْوَالِدُ دَمْعَةً إِلَّا ذَرَاهَا ، وَلَا عَبْرَةً إِلَّا أَجْرَاهَا .

[هَلْ تَعَارَ الْعَيْنَ لِلْبُكَاءِ !؟]

وَرَبَّمَا تَقَلُّ مَنَاسِبَةُ الْبَيْتِ لِلْحِكَايَتَيْنِ ، غَيْرَ أَنَّهُ يَكْفِي اجْتِمَاعُهُمَا فِي إِرْسَالِ الْعَبْرَاتِ الَّتِي مِنْ لَازِمِهَا تَصَاعُدُ الزَّفَرَاتِ ،
وَلِلَّهِ دُرُّ الْعَبَّاسِ بْنِ الْأَحْنَفِ فِي قَوْلِهِ [فِي «دِيوانِهِ» ١١٦] :

[مِنَ الْكَامِلِ]

نَزَفَ الْبُكَاءُ دُمُوعَ عَيْنِكَ فَاسْتَعْرَزَ
مَنْ ذَا يُعِيرُكَ عَيْنُهُ تَبْكِي بِهَا
عَيْنًا لِغَيْرِكَ دَمْعُهَا مِذْرَارُ
أَرَأَيْتَ عَيْنًا لِلْبُكَاءِ تُعَارُ !؟

[مِنَ الطُّوِيلِ]

وَقَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ مَطِيرٍ [فِي «دِيوانِهِ» ٨١] :

وَلِي كَبِدٌ مَقْرُوحَةٌ مَنْ يَبِيعُنِي
أَبَى النَّاسُ وَبَبَ النَّاسُ لَا يَشْتَرُونَهَا
بِهَا كَبِدًا لَيْسَتْ بِذَاتِ قُرُوحِ
وَمَنْ يَشْتَرِي ذَا عِلَّةٍ بِصَحِيحٍ ؟^(١)

[مِنَ الطُّوِيلِ]

وَقَالَ آخَرُ :

فَهَلْ مِنْ مُعِيرٍ طَرَفَ عَيْنِ خَلِيَّةِ
فَأِنْسَانَ عَيْنِ الْعَامِرِيِّ كَلِيمِ ؟

* * *

(١) وَبَبَ : أَيِ وَبَّأَ .

وَلَا وَقَفْتُ بِجِسْمِ مُسَيِّ ثَالِثَةٍ ذِي أَرْسَمِ دُرُسٍ فِي الْأَرْبَعِ الدُّرُسِ

[شرح المطلع]

(المُسَيِّ) : المساء ، كالصبح والصبح ، و(الأَرْسَمُ) : جمع رَسَمٍ ، وهو أثر الديار ، و(الدُّرُسُ) : جمع دارس ، وهو الذي انمحي ، يقول : لولا هذه الظبية .. لما وقفت برسوم دارها مساء الليلة الثالثة من ظعنها ؛ أي : لما وقفت برنيعها مع قرب العهد بلقائها ، وكان وقوفي على رسومها بجسم دارس ناحلي ، قد أبلاه الحزن ، وأنحلته حتى عاد مثل تلك الرسوم ، إلا أنه قد يشكل انمحاء الآثار مع قرب الوقت ، فهلاً قال مثل ما قال النابغة [الذياني في ديوانه « ٤٣ »] :

[من الطويل]

تَوَهَّمْتُ آيَاتِ لَهَا فَعَرَفْتُهَا لِسِنَّةِ أَعْوَامٍ وَذَا الْعَامِ سَابِعُ

[من الطويل]

أو [مثل] ما قال زهير في « ديوانه » ٩-١٠ :

وَدَارُ لَهَا بِالرَّقَمَتَيْنِ كَأَنَّهَا مَرَّاجِعُ وَشَمٍ فِي نَوَاشِرِ مِعْصَمِ
وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ عِشْرِينَ حِجَّةً فَلَأَيًّا عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُمِ

[الاشتياق قبل الفراق]

أما فرط الاشتياق مع قرب مدة الفراق : فإنه ليس يبدع ؛ إذ قال الأعرابي في « جمهرة الأمثال » ٣٦٤/٢ : [من الطويل]

أَشَوْقًا وَلَمَّا تَمَضِ لِي غَيْرُ لَيْلَةٍ فَكَيْفَ إِذَا جَدَّ الْمَطِيَّ بِنَا عَشْرًا ؟

وقال أحد بني العنبر :

[من الطويل]

أَهْلَذَا وَلَمَّا تَمَضِ لِلْبَيْنِ لَيْلَةٌ فَكَيْفَ إِذَا مَرَّتْ عَلَيْكَ شُهُورٌ ؟

[من البسيط]

وفي عكسه : يقول شاعر المعرفة في « نفع الطيب » ٩٣/٦ :

أَبْعَدَ حَوْلِ تَنَاجِيِ الشُّوقِ نَاجِيَةٌ هَلَّا وَنَحْنُ عَلَى عَشْرِ مِنْ الْعَشْرِ ؟

إنما البدع انمحاء الآثار بعقب وقت الارتحال ، إلا أن يقال : إن بيوتهم كانت من شعر ، يُعْفَى أثرها أول ربح تهب ، وكيفما كان الأمر . فالأولى في المعنى ما قاله الواحدي : إنه وقف عليها ثلاثة أيام يناجي الديار ، ويتشمم الآثار ، على حد قول أبي نواس ، الذي بالغ الجاحظ في الثناء عليه في « المثل السائر » ١١٤/٢ : [من الطويل]

وَدَارِ نَدَامَى عَطَّلُوهَا وَأَذَلُّجُوا بِهَا أَثَرٌ مِنْهُمْ جَدِيدٌ وَدَارِسُ^(١)
مَسَاحِبُ مِنْ جَرِّ الزَّقَاقِ عَلَى الشَّرَى وَأَصْعَاثُ رِيحَانٍ جَبِيٍّ وَيَابِسُ^(٢)

(١) أدلجوا : ساروا من أول الليل .

(٢) الزقاق : أوعية الخمر . أصعاث ريحان : جمع ضغث ، والضغث : القبضة منه .

وَقَفْنَا بِهَا يَوْمًا وَيَوْمًا وَثَالِثًا
تَدَارُ عَلَيْنَا الرَّاحُ فِي عَسَجِدِيَّةِ
قَرَارَتُهَا كِسْرَى وَفِي جَنَابَتِهَا
فَلِلرَّاحِ مَا زَرَّتْ عَلَيْهِ جُيُوبُهَا
وَيَوْمًا لَهُ يَوْمُ التَّرْحُلِ خَامِسُ
حَبْنَهَا بِأَنْوَاعِ التَّصَاوِيرِ فَارِسُ^(١)
مَهًا تَدْرِيبًا بِالْقِسِيِّ الْفَوَارِسُ^(٢)
وَلِلْمَاءِ مَا دَارَتْ عَلَيْهِ الْقَلَانِسُ

وقد اختلف في مدة الإقامة المرادة من البيت الثالث ، فقيل : سبعة أيام ؛ لأن اليوم الذي يكون له يوم الترحل خامساً هو الرابع ، وقيل : خمسة ، والمراد يوم الترحل خامس الأيام ، وقد نسب إلى الرابع لالتصاقه به ، وستكلم على هذه الأبيات فيما بعد .

[التعلل بآثار الحبيب لإطفاء ما في القلب من اللهب .. سنة العرب]

أما الآن : فسنبداً بما يناسب البيت من التعلل بالآثار ، وزيارة الأطلال ، فما زالت تلك سنة العرب ، والحكمة فيها أنهم مع سلامة الفطرة ، ورقه الطبع ، وغلبة الحب ، وصدق الهوى ، وتمكن الألفة . . كانوا رحالة في الأغلب ، يتجمعون كل حين غيثاً ، ويرتادون كل وقت شعباً ، فإذا جاء أحبابهم وقد تحمّلوا . . عكفوا على آثارهم ، وتعلّلوا بما يتسمون من روائجهم في آثارهم ، ويجدون في ذلك نوعاً من الوصال ، ولهذا أكثروا في أشعارهم من ذكر الأطلال والديار ، قال امرؤ القيس [في « ديوانه » ١٤٣] :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل^(٣)
وقال [في « ديوانه » ١٧٢] :

صم صدها وعفا رسمها
وقال حميد بن ثور [في « ديوانه » ٧] :

سل الربع أتى يمم أم سلم
وقال أعشى وإبل [في « ديوانه » ٢٨٣] :

ما بكاء الكبير بالأطلال
وقال النابغة [الذبياني في « ديوانه » ٢٣٣] :

واستعجمت دار نعيم ما تكلمنا
وقال بعض العرب :

يقر لعيني أن أرى من مكانها
وأن أرد الماء الذي شربت به
وألصق أحشائي ببرد ترابه
ذرى عقداً الأبرق المتقاود
سليمى إذا مل الشرى كل واحد
وإن كان ممزوجاً بسم الأسود

(١) عسجدية : ذهبية .

(٢) تدريها : تختلها لتصطادها من دون أن تشعر .

(٣) سقط اللوى : اسم موضع ، وكذلك الدخول وحومل .

وقال الصَّمَّةُ بنُ عبدِ اللهِ القُشَيْرِيُّ [في «ديوانه» ٧٣] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَلَمَّا نَزَلْنَا شِيحَةَ الرَّمْلِ أَعْرَضَتْ
شَرِينَا بِمَاءِ الشُّوقِ حَتَّى كَانَمَا
وَوَظَلَّ بَعَيْنَيْكَ اللَّجُوجَيْنِ وَآكِفٌ
عَلَامٌ تَقُولُ الْهَجْرُ يَشْفِي مِنَ الْجَوَى !؟

وَلَمَّا نَزَلْنَا شِيحَةَ الرَّمْلِ أَعْرَضَتْ
شَرِينَا بِمَاءِ الشُّوقِ حَتَّى كَانَمَا
وَوَظَلَّ بَعَيْنَيْكَ اللَّجُوجَيْنِ وَآكِفٌ
عَلَامٌ تَقُولُ الْهَجْرُ يَشْفِي مِنَ الْجَوَى !؟

وقال بعضُ أهلِ الجاهليَّةِ [في «طبقات ابن السبكي» ٣/٣١٨] :

[مِنَ الوَافِرِ]

أَقْبَلُ ذَا الْجِدَارِ وَذَا الْجِدَارَا
وَلَكِنْ حُبٌّ مَنْ سَكَنَ الدِّيَارَا

أَمْرٌ عَلَى الدِّيَارِ دِيَارٍ لِيَلِي
وَمَا حُبُّ الدِّيَارِ شَغَفَنَ قَلْبِي

وقال أبو حَيَّةَ [في «ديوانه» ١٠٠-١٠١] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

لَبْسَنَ الْبَلَى مِمَّا لَبَسَنَ اللَّيَالِيَا
تَقَاضَاهُ شَيْءٌ لَا يَمَلُّ التَّقَاضِيَا

أَلَا حَيٌّ مِنْ أَجْلِ الْحَبِيبِ الْمَغَانِيَا
إِذَا مَا تَقَاضَى الْمَرْءُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ

وقال آخَرُ مِنَ الْعَرَبِ [في «ديوان الحماسة» ٢/١١٨] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

لَهَا حَجَجٌ يَنْدَى بِمِسْكِ تَرَابِهَا

أَرَى كُلَّ أَرْضٍ أَوْطَتْهَا وَإِنْ خَلَتْ

وخيرُ ما في البابِ على الإِطْلَاقِ قولُ كَثِيرِ عَزَّةَ [في «ديوانه» ٩٥] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

قَلُوصَيْكُمَا ثُمَّ اخْلَلَا حَيْثُ حَلَّتِ
وَبَيْتَا وَظَلَّ حَيْثُ بَاتَتْ وَظَلَّتِ
إِذَا أَنْتَمَا صَلَّيْتُمَا حَيْثُ صَلَّتِ

خَلِيلِي هَذَا رُبْعُ عَزَّةَ فَاغْقَلَا
وَمُسَا تَرَاباً طَالَمَا مَسَّ جَلْدَهَا
وَلَا تِيَّاسَا أَنْ يَقْبَلَ اللهُ مِنْكُمَا

وما سبق أوائلَ المجلسِ التاسعِ من قولِ بعضهم [وهو البحرِي كما في «المثل السائر» ٢/٢٩١] :

[مِنَ الْخَفِيفِ]

أَوْ مُعِينَا أَوْ عَاذِرَا أَوْ عَاذُولَا

قِفْ مَشُوقاً أَوْ مُسْعِداً أَوْ حَزِينَا

[مِنَ الْبَسِيطِ]

بِالْجَزَعِ أَنْدُبُ فِي أَنْضَاءِ أَطْلَالِ

خَلَفْتِنِي نِضْوُ أَحْزَانِ أَعَالِجِهَا

وقال ذو الرُّمَّةِ [في «ديوانه» ٣/١٤٥١-١٤٥٣] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

رُسُوماً كَأَخْلَاقِ الرِّدَاءِ الْمُسَلَّسِ
لِعِرْفَانِ رُبْعِ أَوْ لِعِرْفَانِ مَنْزِلِ^(١)
بِأَجْرَعِ مِقْفَارِ مُرَبِّ مُحَلَّلِ^(٢)

قِفِ الْعَيْسِ فِي أَطْلَالِ مَيَّةَ وَاسْأَلِ
وَمَا يَوْمٌ حُزْوِي إِنْ بَكَيْتُ صَبَابَةً
بِأَوَّلِ مَا هَاجَتْ لَكَ الشُّوقُ دِمْنَةً

(١) حُزْوِي : موضعٌ بالبادية .

(٢) الدِّمْنَةُ : آثارُ النَّاسِ وَأَطْلَالُهُمْ . الأَجْرَعُ : الكَثِيبُ اللَّيْنُ . المِقْفَارُ : الخَالِي مِنَ الأَمَكْنَةِ . مُرَبِّ مُحَلَّلٍ : يَرْتُبُ النَّاسَ وَيَجْمَعُهُمْ .

وقال [في «ديوانه» ١٧١١/٣] :

[من الطويل]

وَمَا اسْتَحَلَبْتَ عَيْنِيكَ إِلَّا مَحَلَّةً
بِجْمُهُورِ حُزْوَى أَوْ بِجِرْعَاءِ مَالِكِ

وقال [في «ديوانه» ٨٢١/٢] :

[من الطويل]

وَقَفْتُ عَلَى رَبْعٍ لِمِيَّةٍ نَاقَتِي
وَأَسْقِيهِ حَتَّى كَادَ مِمَّا أَبْتُهُ
فَمَا زِلْتُ أَبْكِي عِنْدَهُ وَأَخَاطِبُهُ
تُكَلِّمُنِي أَحْجَارُهُ وَمَلَاعِبُهُ

[من الكامل]

ويروي [في «الأغاني» ٦١/١] : أَنَّ الْوَلِيدَ اسْتَقَدَّمَ مَعْبَدًا عَلَيَّ الْبَرِيدَ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَغْنِيَهُ بِهَذِهِ الْأَبْيَاتِ :

يَا رَبْعُ مَا لَكَ لَا تَجِيبُ مُتِيْمًا ؟
جَادَتِكَ كُلُّ سَحَابَةٍ هَطَّالَةٍ
قَدْ عَاجَ نَحْوُكَ زَائِرًا وَمُسَلِّمًا
لَوْ كُنْتَ تَدْرِي مَنْ دَعَاكَ أَجَبْتَهُ
حَتَّى تُرَى عَنْ زَهْرَةٍ مُتَبَسِّمًا
وَبَكَيْتَ مِنْ حُرْقٍ عَلَيْهِ إِذَا دَمَا

فغناه ، ووصله بعشرة آلاف دينار^(١) ، وردّه إلى (المدينة) من وقته .

[من الكامل]

وقال أبو تمام [في «ديوانه» ٣٢١/١] :

لَا أَنْتَ أَنْتَ وَلَا الدِّيَارُ دِيَارُ
خَفَّ النَّوَى وَتَقَضَّتِ الْأَوْطَارُ

[من الطويل]

وقال [في «ديوانه» ٢٧١/٢] :

قَفُّوا جَدِّدُوا مِنْ عَهْدِكُمْ بِالْمَعَاهِدِ
وَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَسْمَعُ لِنَشْدَانِ نَاشِدِ^(٢)

[من الوافر]

وقال [في «ديوانه» ٨١/٢] :

أَظُنُّ الدَّمْعَ فِي خَدِّي سَيِّئِي
رُسُومًا مِنْ بُكَائِي فِي الرُّسُومِ

[من الطويل]

وقال البُحْتَرِيُّ [في «ديوانه» ٢٠٠٩/٣] :

أَعَنْ سَفَهَ يَوْمَ الْأَبْيَرِ أَمْ حِلْمِ
وُقُوفٍ بِرَبْعٍ أَوْ بُكَاءٍ عَلَى رَسْمِ^(٣) ؟

[من الكامل]

وقال [في «ديوانه» ٢٤٦/١] :

تَأْبَى الْمَنَازِلُ أَنْ تُجِيبَ وَمِنْ جَوَى
يَوْمَ الْفِرَاقِ دَعَوْتُ غَيْرَ مُجِيبِ

[من الطويل]

وقال [في «ديوانه» ١٩٢٣-١٩٢٤/٣] :

إِذَا شِئْتُ أَجْرِي أَدْمِعِي مِنْ سُؤْونِهَا
وَقَفْتُ بِهَا وَالرَّكْبُ شَتَّى سَبِيلُهُمْ
رُبُوعٌ لَهَا بِالْأَبْرَقَيْنِ وَأَرْسُمٌ
هِيَ الدَّارُ إِلَّا أَنَّهَُا لَا تَكَلِّمُ
يُفِيضُونَ ، مِنْهُمْ : عَازِرُونَ وَلُومٌ
عَفَا مَعْلَمٌ مِنْهَا وَأَقْفَرٌ مَعْلَمٌ^(٤)

(١) وفي «الأغاني» (٦١/١) خمسة عشر ألفاً .

(٢) المعاهد : المنازل يُرْجَعُ إليها بعد فراقها .

(٣) الأبيرقُ : موضعٌ .

(٤) المَعْلَمُ : ما يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى الطَّرِيقِ . عَفَا : انمَحَى وَذَهَبَ . أَقْفَرٌ : خَلَا .

تَقِيضُ لِي - مِنْ حَيْثُ لَا أَعْلَمُ - النَّوَى وَيَسْرِي إِلَيَّ الشَّوْقُ مِنْ حَيْثُ أَعْلَمُ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقال أبو هنان [في «خزانة الأدب» ٣٩١/٢] :

وَلَوْ لَمْ تُصَافِحْ رِجْلَهَا صَفْحَةَ الشَّرِي لَمَا كُنْتُ أَدْرِي عِلَّةَ لِلتِّيْمِ

وقد أغار على هذا شيخنا أبو بكر ابن شهاب في رثائه لسيدنا الحسين .

وأول من بكى على الآثار رجلٌ من العرب ، يقال له : ابن حِذام ، بشهادة قول امرئ القيس [في «ديوانه» ٢٠٠] :

[مِنَ الكَامِلِ]

عُوجًا عَلَى الطَّلَلِ الْمُحِيلِ لَعَنَّا نَبِيَّكَ الدِّيَارَ كَمَا بَكَى ابْنُ حِذَامٍ^(١)

وقد تكرر في «ديوان الناظم» ذكرها ، والبكاء عليها ، والاستشفاء بها ، والوقوف عندها ، فقال [في «العكبري»]

[مِنَ الطَّوِيلِ]

: [٣٢٨/٣]

بَلِيْتُ بَلَى الْأَطْلَالِ إِنْ لَمْ أَقِفْ بِهَا وَوَقُوفَ شَحِيحِ ضَاعَ فِي التُّرْبِ خَاتَمُهُ

[مِنَ البَسِيطِ]

وقال [في «العكبري» ٣٧٧/٢] :

بَكَيتُ يَا رَبِّعُ حَتَّى كَذْتُ أَبْيَكَا فِعْمٌ صَبَاحًا فَقَدْ هَيَّجَتْ لِي شَجْنَا وَجُدْتُ بِي وَبِدْمَعِي فِي مَعَانِيكَ^(٢) وَارْدُدْ تَحِيَّتَنَا إِنَّا مُحِيثُوكَا

[مِنَ الخَفِيفِ]

وقال [في «العكبري» ١٩٢/٣] :

قِفْ عَلَى الدَّمْتَيْنِ بِالذَّوِّ مِنْ رِيٍّ كَخَالٍ فِي وَجَنَةِ جَنْبِ خَالٍ بِطُلُوعٍ كَأَنَّهُنَّ نُجُومٌ فِي عِرَاصٍ كَأَنَّهُنَّ لِيَالِي

[مِنَ الكَامِلِ]

وقال [في «العكبري» ٧-٦/٤] :

ذَكَرُ الصَّبَا وَمَرَابِعِ الْأَرَامِ جَلَبْتُ حِمَامِي قَبْلَ وَقْتِ حِمَامِي دَمَنْ تَكَائِرَتِ الْهُمُومُ عَلَيَّ فِي عَرَصَاتِهَا كَتَكَائِرِ اللَّوَامِ وَكَأَنَّ كُلَّ سَحَابَةٍ وَكَفَتْ بِهَا تَبِكِي بَعَيْنِي عُزُوةَ بِنِ حِرَامٍ^(٣)

[مِنَ الكَامِلِ]

وقال [في «العكبري» ٣٠٠-٢٩٩/٣] :

أَثَلْتُ فَإِنَّا أَثَلْنَا الطَّلَلُ لَوْ كُنْتُ تَنْطِقُ قُلْتُ مُعْتَذِرًا نَبِيَّكَ وَتُرْزَمُ تَحْتَنَا الْإِبِلُ^(٤) بِي غَيْرُ مَا بِكَ أَثَلْنَا الرَّجُلُ

(١) قيل لأبي عبيدة : هل قال أحد الشعر قبل امرئ القيس ؟ قال : نعم ، قدم علينا رجال من بادية بني جعفر بن كلاب فكنا نأتيهم فنكتب عنهم ، فقالوا : ممن ابن خدام ؟ قلنا : ما سمعنا به ! قالوا : بلئى قد سمعنا به ورجونا أن يكون عندهم منه علم ؛ لأنكم أهل أمصار ، ولقد بكى في الرمل قبل امرئ القيس ، وقد ذكره في شعره حيث يقول : وأنشدوا بيته . وابن حِذام وخِذام وخذام واحد .

(٢) المغاني : جمع معنى ، وهو المنزل الذي كان به أهله .

(٣) عروة بن حزام : هو صاحب عفرأ ، وهو أحد العشاق المشهورين ؛ والمعنى : أن كثرة الأمطار التي أشبهت دموع هذا العاشق أذهبت آثار الديار .

(٤) الإرزام : حنين الإبل .

وقال [في «العُكْبَرِيِّ» ٢/ ٢٥٠]

[مِنَ الْوَافِرِ] :

أَسْأَلُهَا عَنِ الْمُتَدَيِّرِيهَا فَمَا تَذْرِي وَلَا تُذْرِي دُمُوعَا

وقال [في «العُكْبَرِيِّ» ١/ ٢٦٩] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

مَرَرْتُ عَلَى دَارِ الْحَبِيبِ فَحَمَحَمْتُ جَوَادِي وَهَلْ تُشْجِي الْجِيَادَ الْمَعَاهِدُ^(١) ؟

وقال [في «العُكْبَرِيِّ» ٤/ ١١١] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَدُسْنَا بِأَخْفَافِ الْمَطِيِّ تُرَابَهَا فَمَا زِلْتُ أَسْتَشْفِي بِلَثْمِ الْمَنَاسِمِ^(٢)

[مِنَ الْخَفِيفِ]

وهذا شبيهة بقوله مِنَ الْأُخْرَى [في «العُكْبَرِيِّ» ٣/ ١٩٧] :

فَخُذَا مَاءَ رِجْلِهِ وَأَنْضَحَا فِي الْمُدْنِ تَأْمَنُ بِوَائِقِ الزَّلْزَالِ
وَأَمْسَحَا ثُوبَهُ الْبَقِيرَ عَلَى دَا نِكْمَا تُشْفِيَا مِنَ الْأَعْلَالِ^(٣)

وقال [في «العُكْبَرِيِّ» ١/ ٥٦-٥٧] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَكَيْفَ عَرَفْنَا رَسْمَ مَنْ لَمْ يَدْعَ لَنَا وَنَزَلْنَا عَنِ الْأَكْوَارِ نَمْشِي كَرَامَةً
فُوَادًا لِعِرْفَانِ الرُّسُومِ وَلَا لُبًّا ؟ لِمَنْ بَانَ عَنْهُ أَنْ نَلِمَ بِهِ رَكْبًا^(٤)
وَنَعْرِضُ عَنْهَا كُلَّمَا طَلَعَتْ عَتَبًا نَذُمُ السَّحَابَ الْغُرَّ فِي فِعْلِهَا بِهِ

وقوله : (نَزَلْنَا عَنِ الْأَكْوَارِ . . . إِلَى آخِرِهِ) : مأخوذٌ من صنيع إمام دار الهجرة ، فقد روي أَنَّ الإمامَ الشافعيَّ كانَ عندهُ ، فرأى على بابِهِ خَيْلاً وكراعاً أَهْدَيْتَ لَهُ ، فجعلَ يحدُّ النظرَ إليها ، ويكثرُ التأملَ ؛ استحساناً لها ، واعتباطاً بها ، ولَمَّا عرفَ الإمامُ مالِكُ امتدادَ عينِهِ إليها . قالَ لَهُ : هِيَ كُلُّهَا لَكَ ، قالَ لَهُ : لو أَبْقَيْتَ لِنَفْسِكَ مِنْهَا دَابَّةً ، قالَ : أَسْتَحْيِي أَنْ أَطَأَ تَرَبَةً سارَ فِيها سيِّدُ البَشْرِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِحافِرِ دابَّةٍ .

[مِنَ الْكَامِلِ]

وتعلَّقَ بِهِ السريُّ الرِّفَاءُ فأحسنَ الاتِّباعَ ، وذلكَ حيثُ يقولُ [في «ديوانِهِ» ٣٤٨] :

حَيَّيْتُ مِنْ طَلَلِ أَجَابَ دُنُورُهُ يَوْمَ الْعَقِيْقِ سُوْأَلَ دَمْعِ سَائِلِ
نَخْفَى وَنَنْزَلُ وَهُوَ أَعْظَمُ حُرْمَةً مِنْ أَنْ يُذَالَ بِرَاكِبٍ أَوْ نَاعِلِ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وللهِ دُرٌّ شَيْخِنَا ابْنِ شَهَابٍ إِذْ يَقُولُ عَنِ مَدِينَةِ (تَرِيمِ) :

إِذَا نَحْنُ رُزْنَاها وَجَدْنَا تُرَابَهَا يَفُوحُ لَنَا عَنِ عَنَبِرٍ مُتَنَفِّسِ
نَرَى أَنْتَا نَمْشِي بِوَادٍ مُقَدَّسِ نَرَاهَا تَأْدُبًا

(١) الْحَمَمَةُ : دون الصهيل . الجوادُ : الفرسُ الذكرُ والأنثى .

(٢) الْمَنَسِمُ : الخُفُّ .

(٣) الْبَقِيرُ : ثوبٌ لا كَمُّ لَهُ ، وهو الذي يلبسه الصبيانُ ، ويُلبَسُ للامواتِ عندَ التكفينِ .

(٤) الْأَكْوَارُ : جمعُ كُورٍ ، وهو رحلُ الناقةِ .

ومرَّ بعضٌ ما يتَّصلُ به أو آخرَ المجلسِ الثاني في الكلامِ على قولِهِ [في «العُكْبَرِيُّ» ١/٣٠١] :

لَا نَاقَتِي تَقْبَلُ الرَّدِيفَ وَلَا
بِالسَّوْطِ يَوْمَ الرَّهَانِ أَجْهَدُهَا

وقالَ المعريُّ [في «سقطِ الزند» ٦٣] :

أَمْرٌ بِرَبْعٍ كُنْتَ فِيهِ كَأَمَّا
أَمْرٌ مِنَ الْإِكْرَامِ بِالْحَجْرِ وَالرُّكْنِ

وقالَ الإمامُ الشُّبْلِيُّ [في «نفعِ الطَّيِّبِ» ١/٤١-٤٢] :

قُلْتُ لِلْقَلْبِ مُذْ تَرَاءَى لِعَيْنِي
هَلْزِهِ دَارُهُمْ وَأَنْتَ مُجِيبٌ
فَالْمَغَانِي لِلصَّبِّ فِيهَا مَعَانِي
حُلَّ عَقْدِ الدُّمُوعِ وَاحْلُلْ رُبَاهَا
رَسْمٌ أَنَارِهِمْ فَهَاجَ اشْتِيَاقِي
مَا بَقَاءَ الدُّمُوعِ فِي الْأَمَاقِ
وَهِيَ تُدْعَى مَصَارِعَ الْعُشَّاقِ
وَأَتْرُكُ الصَّبْرَ وَأَفْضِ حَقَّ الْفِرَاقِ

وقالَ بعضُ شعراءِ الأندلسِ [وهو محمد بن سفر كما في «نفعِ الطَّيِّبِ» ٣/٢١١] :

وَجَاءَتْ كَمَا يَمْشِي سَنَا الصُّبْحِ فِي الدَّجَى
فَتَابَعْتُ بِالتَّقْيِيلِ أَنَارَ مَشِيهَا
وَطَوَّرًا كَمَا يَمْشِي النَّسِيمُ عَلَى النَّهْرِ
كَمَا يَتَقَصَّى كَاتِبٌ أَحْرَفَ السَّطْرِ

وما أحسنَ قولَ بعضِ المتأخِّرينَ ! :

بَكَى النَّاسُ أَطْلَالَ الدِّيَارِ وَلَيْتَنِي
وَجَدْتُ دِيَارًا لِلدُّمُوعِ السَّوَاقِبِ

وهو من قولِ عبدِ المحسنِ الصوريِّ :

رَهِينَةٌ أَحْجَارِ بَيْدَاءِ دَكْدُوكِ
وَقَدْ كُنْتُ أَبْكَى إِنْ تَشَكَّتْ وَإِنَّمَا
تَوَلَّتْ فَحَلَّتْ عُزُورَةَ الْمُتَهَتِّكِ^(١)
أَنَا الْيَوْمَ أَبْكَى أَنَّهَا لَيْسَ تَشْتَكِي

وقد لاذَ فيه بقولِ الناظمِ [في «العُكْبَرِيُّ» ١/١٤] :

وَشَكِّيَّيْ فَقَدْ السَّقَامُ لِأَنَّهُ
قَدْ كَانَ لَمَّا كَانَ لِي أَعْضَاءُ

[شدة احترامِ السلطانِ عبد الحميدِ لِأَنَارِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]

ويعجبني ما أخبرني به السيّدُ الثَّقَةُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ طَاهِرٍ ، عَنِ السُّلْطَانِ عَبْدِ الْحَمِيدِ : أَنَّهُ كَانَ عِنْدَهُ فَرْدٌ نَعِلٌ مِنْ نِعَالِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، فَذُكِرَتْ لَهُ أُحْتُمَا عِنْدَ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ (الْمَغْرِبِ) ، فَتَأَمَّنَهُ بِهَا حَتَّى اسْتَفْرَّ الثَّمَنُ ، وَتَمَّ الْكَلَامُ عَلَيَّ مَا يَتَمَنَّاهُ الْبَائِعُ ، فَأَرْسَلَ لَهُ عِدَّةَ مَرَاكِبَ ، وَلَمَّا جَاءَ . . اسْتَقْبَلَهُ فِي مَوْكِبِهِ الضَّخْمِ الْفَخْمِ الشَّائِقِ ، حَافِي الْقَدَمِ ، حَاسِرَ الرَّأْسِ ، وَقَدْ فَرَشَ الطَّرِيقَ بِالسَّجَادِ ، فَقِيلَ لَهُ : إِنَّكَ لَمْ تَتَحَقَّقْ صِحَّةَ النَّسَبِ بَعْدُ ، فَقَالَ : قَدْ قِيلَ : إِنَّهَا نَعْلُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، وَحَاشَى أَنْ أَسْتَقْبَلَ مَا نُسِبَ إِلَيْهِ إِلَّا عَلَى أْبْلَغٍ مَا يَكُونُ مِنْ شَارَاتِ الْإِجْلَالِ وَالتَّعْظِيمِ .

(١) الدكدك : الرملُ المتلبّدُ .

لم لا أدري ، هل كانت حدو التي عنده فتمّ البيع ، أم لا .

وحسبك أنّ جلد المصحف يحرم مشه مع الحديث ، ويبقى له شرفه حتى بعد الانفصال ، على خلاف ليس هذا موضع ذكره ، وقد وفينا مبحث الآثار والتبرك بها حقه في كتابنا : « بلابل التّغريد » .

[كيفية شرب الخمر وجلساتها]

أما قول أبي نواس السابق : (قرارتها كسرى . . . إلى آخر البيتين) . . . فمعناه : أنّ في قرارة الكأس صورة كسرى ، وأنّ في جوانبها صور بقر وحشيّة من جهة ، وصور فرسان تصوّب قسيها إلى تلك البقر في الجهة الأخرى ، وأنّ صرف الراح يبلغ إلى جيوب الفرسان ، وأنّ الماء الذي يراذ للمزج بمقدار ما يوارى رؤوسهم ، وقد سبق إلى بعض ذلك الملك الضليل [امرؤ القيس] في قوله [في « ديوانه »] :

فَلَمَّا اسْتَطَابُوا صُبَّ فِي الْكَأْسِ نِصْفُهُ وَجَاؤُوا بِمَاءٍ لَا يَطْرُقُ وَلَا كَدِرُ
وَلَنَا أَنْ نَسَاءَلَ : أَيُّ الشَّيْخِينَ أَكْبَرُ حَالاً ، وَأَبْعَدُ هَمَّةً ؟ أَبُو مَدِينٍ فِي قَوْلِهِ :

أَدْرَهَا لَنَا صِرْفاً وَدَغَ مَزَجَهَا عَنَّا فَإِنَّا أَنَاسٌ لَا نَرَى الْمَزْجَ مُذْ كُنَّا
أَمْ سُلْطَانُ الْعَاشِقِينَ فِي قَوْلِهِ [في « ديوانه » ١٤٣] :

أَدْرَهَا لَنَا صِرْفاً وَإِنْ شِئْتَ مَزَجَهَا فَعَدْلُكَ عَن ظَلَمِ الْحَبِيبِ هُوَ الظُّلْمُ
فَلِلْإِحْتِمَالِ مَجَالٍ ، وَلِكُلِّ مَقَامِ رَجَالٍ ، فَلتَنْقِفُ عِنْدَ الْحَدِّ ، وَتُنزِعُ عَلَى الصُّلْعِ ، وَتُنْتَأَخِرُ حَيْثُ أَخْرَنَا الْقَدْرُ ، أَمَا الْبَارِي جَلَّ شَأْنُهُ : فَقَدْ أَخْبَرَ بَأَنَّ الْمُقْرَبِينَ يَشْرَبُونَ سِلَافَهَا صِرْفاً ، وَأَنَّ الْأَبْرَارَ يَتَنَاوَلُونَهَا مَزِجَةً ، فَقَالَ تَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ :

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴾ [الإنسان : ٦٥] .

وقال : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الْأَرْيَافِ يُنظَرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْحُومٍ * خِتَمَهُمْ مِسْكَ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ * وَمِزَاجُهُمْ مِنْ تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقْرَبُونَ ﴾ [المطففين : ٢٢-٢٨] .

ومن المطرب - فيما يتعلّق بأبيات أبي نواس - قول بعض شعراء الأندلس [وهو غالب بن رباح كما في « نفع الطيب » ٤٠٥/٣] :

وَكَأْسٍ يُرَى كِسْرَى بِهَا فِي قَرَارَةٍ وَكَأْسٍ يُرَى كِسْرَى بِهَا فِي قَرَارَةٍ
وَمَا صَوَّرَتْهُ الْفُرْسُ عَنْ عَبَثٍ بِهَا وَكَيْفَ لِمَعْنَى فِيهِ أَخْفَى مِنَ السُّحْرِ
أَرَادُوا لَهُ مَا اعْتَادَهُ فِي حَيَاتِهِ فَنُومِي إِلَيْهِ بِالسُّجُودِ وَلَا نَذْرِي
وقال أبو نواس [في « ديوانه » ٥٢٤] :

بَيْنَمَا عَلَى كِسْرَى سَمَاءٌ مُدَامَةً مَكَلَّلَةٌ حَافَاتُهَا بِنُجُومٍ^(١)
فَلَوْ رَدَّ فِي كِسْرَى بِنِ سَاسَانَ رُوحَهُ إِذَا لَاضَطَّفَانِي دُونَ كُلِّ نَدِيمٍ

(١) المراد بالنجوم : الفقايع التي تملأ الكأس .

وَحَمْرَاءَ قَبْلَ الْمَزْجِ صَفْرَاءَ بَعْدَهُ أَتَتْ بَيْنَ ثَوْبَيْ نَرْجِسٍ وَشَقَائِقِ
حَكَتْ وَجَنَةَ الْمَعْشُوقِ صِرْفًا فَسَلَطُوا عَلَيْهَا مِزَاجًا فَكَتَسَتْ لَوْنَ عَاشِقِ

والأكثرُ يعزونها إلى ابنِ دريدٍ ، ولبعضهم فيها منامٌ طويلٌ ، حاصلُهُ [ينحوه في «وفيات الأعيان» ٤/٣٢٧] : أَنَّ بعضَهم انتقدَ فيه عليَّ قائلها التشويش^(١) ؛ إذ قدَّمَ الحمرةَ على الصفرةِ أولاً ، ثمَّ قدَّمَ الصفرةَ على الحمرةِ في ذكرِ النرجسِ قبلَ الشقائقِ ، وأنَّ قائلها قالَ للمعترضِ : إلى هذا الحدِّ تحاسبني يا بغيضُ ؟

وَمَوْسُومَةٍ كَاسَاتِهَا بِفَوَارِسِ مِنْ الْفُرْسِ تَطْفُو فِي الْمُدَامِ وَتَعْرُقُ
أَقْبَلُ مِنْهُ كُلَّ شَاكٍ سِلَاحَهُ وَفِي يَدِهِ سَهْمٌ إِلَيَّ مُفَوَّقُ

[وصف المؤلف لمجالس شرب الشاي]

وقد سبقَ في المجلسِ التاسعِ بعضُ ما يتعلَّقُ بالراحِ ، ولأهلِ بلادنا ولعُ شديدُ بشربِ الشايِ ، وتأنقُ كثيرٌ في طبخه وإدارتهِ ، وأنا وإن كنتُ لا أحبُّه . . فإنني أُجاريهم في استعمالهِ ، وأنبسطُ كثيراً بمجلسهِ ، ولي فيه عدةٌ مقاطيعُ ؛ إذ قلَّ ما يُفترَحُ عليَّ في وصفهِ إلاَّ بادرْتُ بما يفتحُ اللهُ بهِ ، فمن ذلكَ قولِي في صفةِ يومِ غامتِ شمسُهُ ، وذهبَ نحسُهُ ، وطابَ لنا علىِ طبخهِ أنسُهُ [في «ديوان المؤلف» ٣٦] :

وَيَوْمَ كَانَهُامُ الْحَبَارِيُّ مِنَ الْأَنْسِ قَصَبْتُ بِهِ فِي الطَّيِّبِ مَا تَشْتَهِي نَفْسِي^(٢)
عَلَى قَهْوَةٍ تَنْفِي الْهُمُومَ وَتَجْلِبُ الشُّرُورَ وَلَا تَجْنِي عَلَى الْعَقْلِ وَالْحَسِّ
لَهَا صَبْغَةٌ مِنْ عِنْدِمْ قَبْلَ مَزْجِهَا بِمَاءٍ وَبَعْدَ الْمَزْجِ صَفْرَاءَ كَالْوَرْسِ^(٣)
رُجَاجَاتُهَا كَالْمَاءِ صَفُوعًا وَرَقَّةً وَلُطْفًا أَتَتْ مِنْ صَنْعَةِ الرُّومِ وَالْفُرْسِ
تَشُقُّ عَجَاجَ الْمُوجَعَاتِ بِأَذْهِمِ وَوَرْدٍ يُطَارِدُنَ الْكُرُوبَ فَلَا تُمْسِي
وَمِنْ لَبَنِ حِينًا يَكُونُ مِزَاجُهَا لَهُ رَغْوَةٌ مِثْلَ النَّدِيفِ مِنَ الْبُرْسِ^(٤)
عَلَى الْيُمْنِ وَالْإِقْبَالِ فِي ظِلِّ رَوْضَةٍ وَعَيْنِي مِنَ النَّدْمَانِ فِيهَا إِلَى خَمْسِ
كِتَابٍ وَبُسْتَانٍ وَكَأْسٍ وَقَيْنَةٍ وَسَيِّدَةٍ مِنْ دُونِهَا طَلَعَةُ الشَّمْسِ

فِي مَرَاكِحِ الصَّبَا وَمَرَعَى الْأَمَانِي وَابْتِسَامِ الْهَوَى وَطَيْبِ الزَّمَانِ
هَاتِهَا تَطْرُدُ الْهُمُومَ وَتَسْتَدُ عِي الْمَسَرَّاتِ وَرَدَّةَ كَالذَّهَانِ

(١) التَّشْوِيشُ : التَّخْلِيطُ ، لكن قالَ في «القاموس» : والتَّشْوِيشُ والمشْوِشُ والتَّشْوِيشُ كُلُّهَا لِحْنٌ وَوَهْمٌ ، الجوهريُّ : والصَّوَابُ التَّهْوِيشُ . اهـ . ولذا قالَ في «المعجم الوسيط» : التَّشْوِيشُ : التَّخْلِيطُ ، وقيلَ : التَّشْوِيشُ مِنْ كَلَامِ الْمُؤَلَّدِينَ . .

(٢) إِبْهَامُ الْحَبَارِيِّ : كِنَايَةٌ عَنِ قِصْرِ الْوَقْتِ .

(٣) العِنْدَمُ : الدَّمُ . الْوَرْسُ : نَبْتُ أَصْفَرٍ يَكُونُ فِي (الْيَمَنِ) ، تُتَّخَذُ مِنْهُ طَلَاءٌ لِلْوَجْهِ .

(٤) الْبُرْسُ : الْقَطْرُ .

فِي رِيَاضٍ مِّنَ النَّخِيلِ تَلَاقَى السَّمَاءُ فِيهَا مِنَ السَّمَاءِ وَالسَّوَانِي (١)
 بِاسْمَاتٍ تُغَوَّرُهَا تَبَّارِي فِي حَفِيفٍ مُّعْبَّرٍ عَنِ تَهَانِي
 تَمَلُّوا الْعَيْنَ قُرَّةً بِاجْتِلَاهَا فِي جَنَاهَا كَحَالِيَاتِ الْغَوَانِي (٢)
 يُشْبِهُ الْأَصْفَرَ الْمُنَاصِفُ مِنْهَا مَنْظَرَ الشَّايِ فِي انْتِصَافِ الدَّنَانِ
 وَنُهُودُ الدُّمَى الْمُذْنَبُ يَحْكِيهَا فَكَمْ مِنْ تَنَاسُبٍ وَافْتِنَانِ
 وَتَكَادُ الْقُلُوبُ تَنْشَقُّ مِمَّا فِي تَدَلِّي قِنُونِهَا مِنْ حَنَانِ
 هَكَذَا الْأُمَّهَاتُ يَفْعَلْنَ بِالْأَبْنَاءِ فَالسَّرُّ غَيْرُ خَافِي الْمَعَانِي
 كُلَّمَا حَرَكَ النَّسِيمُ غُضُونًا زَادَ طَيِّبًا أَرِيحُ تِلْكَ الْمَعَانِي
 وَإِذَا حَاكَتِ الْمِيَاهُ نَسِيجًا يَتَلَاشَى التَّنَاقُ الْخُسْرُوَانِي
 طِبْنَ مَرَأَى وَمَسْمَعًا وَمَذَاقًا وَخِيَالًا بِذِكْرِيَاتِ حِسَانِ
 مَلْعَبُ اللَّهْوِ مَسْقَطُ الرَّأْسِ مَجْنَى ثَمَرَاتِ النَّهْيِ الشَّهِيِّ الْمَجَانِي
 مَهْبَطُ النُّورِ مَرْبَعُ الْحُورِ مَأْوَى السَّعْدِ مِنْ هَاشِمِ سِبَاطِ الْبِنَانِ
 سَادَةٌ يَمَلُّوا الزَّمَانَ سَنَاهُمْ بِهَجَّةٍ مِنْ فُلَانَةٍ وَفُلَانِ
 فَاسْقِيئِهَا بِغَيْرِ إِثْمٍ شُمُولًا تَطْلُقُ الْعَقْلَ فِي رَقِيقِ الْأَوَانِي
 بَيْنَ سِحْرِ مِنَ الْحَدِيثِ حَلَالِ وَأَغَارِيدِ بُلْبُلٍ وَأَغَانِي
 صِرْفَةٌ أَوْلَى وَلَا بَأْسَ بِالْمَزُجِ وَلَا سِيمًا لِتَعْجِيلِ ثَانِي
 هَاتِهَا مِنْ شَقَائِقِي ثُمَّ إِنَّ مَا لَتَ بِرَأْسِي فَمِنْ خُدُودِ الْقِيَانِ
 إِنَّمَا الْعَيْشُ رَوْضَةٌ وَمُدَامُ وَكَلَامٌ عَلَيَّ بِسَاطِ الْأَمَانِ
 وَشِوَاءٌ بِجَنْبِهِ رُطْبٌ غَضُّ لَذِيذُ مَنْوَعِ الْأَلْوَانِ
 وَإِذَا زَادَ بَعْدَ ذَلِكَ شَيْئًا فَدَلَالُ الدُّمَى وَشَجْوُ الْمَثَانِي
 فِي صُعودٍ مِنَ الشُّعُودِ اخْتَلَسْنَا لَذَّةَ الْيَوْمِ مِنْ نَعِيمِ الْجِنَانِ

ومنه أيضاً في صفة يوم آخر [في «ديوان المؤلف» ق ٣٧] :

مَا كَادَ يَلْتَفُّ فِي ذَيْلِ الدُّجَى الْقَبَسُ إِلَّا وَصَحْبِي إِلَى حَيِّ الدُّمَى لِبَسُوا
 إِلَى رِيَاضٍ قَدِ التَّقَّتْ حَمَائِلُهَا يَكَادُ فِيهَا خَرِيقُ الرِّيحِ يَحْتَبِسُ
 يُسَافِرُ الطَّرْفُ فِي أَقْطَارِهَا عَلَى نَاشِبٍ فَهَنَّاكَ الضُّوْءُ وَالْغَلَسُ (٣)
 شَجَرَاءَ رَقَّتْ حَوَاشِيهَا وَرَزِينَهَا زَهْرُ الرِّبْعِ وَعَذْبُ الْمَاءِ يَنْبَجِسُ

[من البسيط]

- (١) السواني : جمع سانية ، وهي آلة تستعمل لرفع الماء من منخفض بواسطة دابة تديرها ، وهي موجودة إلى الآن بريف (مصر) .
 (٢) الحاليات : لابسات الحلي .
 (٣) النَّاشِبُ : التجمُّع .

فَلِلْجَدَاوِلِ فِي حَافَاتِهَا زَجَلٌ وَلِلْفَوَاخِتِ فِي أَفْنَانِهَا جَرَسٌ^(١)
يَبْكِي الْحَمَامُ وَيَرْفُضُ الْغَمَامُ وَتَسْجُلِي الْمُدَامُ وَلَا وَاشٍ وَلَا حَرَسٌ
عَلَى الْأَعَانِي وَشَيْءٍ مِنْ خَصَائِصِهِ جَلْبُ الشُّرُورِ وَتَبْيِيهِ الْهَوَى جَلَسُوا
كَمَا يُذَابُ النَّضَارُ الصَّرْفُ رَوْنَقُهُ وَلَا صُدَاعٌ وَلَا إِثْمٌ وَلَا هَوَسٌ
يُذَكِّي الْجَوَى بِلَهَيْبٍ فِي الزُّجَاجِ لَهُ أَشِعَّةٌ فِي وُجُوهِ الْقَوْمِ تَنَعَكِسُ
ظَلُّوا عَلَيْهِ نَشَاوَى وَالْكَوَاعِبُ يَسْجُلِي حَبْنِ الدُّيُولِ وَلَمْ يَغْلُقْ بِهِمْ دَنْسٌ^(٢)
تَجَلَى الْكُؤُوسُ وَتَهْتَزُ النَّفُوسُ وَإِنْ نَالَ الشُّرُورُ وَقَاراً بَيْنَهُمْ حَمَسُوا
مَيْلٌ إِلَى كُلِّ لَهْوٍ فِيهِ فَائِدَةٌ يَنْبِي الْعِدَا وَبِهِمْ مِنْ جَلِّهِ خَرَسٌ
فِي غَفْلَةٍ مِنْ زَمَانِ الْمِحْنَةِ اخْتَلَسُوا سَحَابَةَ الْيَوْمِ وَاللَّذَاتُ تُخْتَلَسُ
فِي مَرْبَعِ النَّوْرِ مَثْوَى الْحُورِ يَشْمَلُهُمْ مَعَ الْجَمَالِ الَّذِي يَنْسَبِي النَّهَى الْقُدُسُ

وإنما أطلت ببعض ما لي في الموضوع ؛ لأنني لم أر فيه ما توضع عليه اليد سواها ، وما تركت منه أكثر وأكثر ، ولولا خشية الإملال والانتقال . . . لذكرت أزوجرة كان اقترحها عليّ والدي - رحمه الله عليه - سنة : (١٣١٩ هـ) في صفة يوم طاب له فيه الأنس ؛ ليمتحن شاعريتي ، فكنت عند ظنّه ، وقرّة عينه ، وإنما وددت ذكرها ، وإن لم تكن هناك ، بل كما شاءت الحدائث والبديهة ؛ لما تبعث لي من الذكريات ؛ ولما استوجبت بها من صالح الدعوات ، التي أكبر ظني بها أن تكون قد لا مست سماء القبول .

[نفنن أهل اليمن في استعمال الشاي]

وبعد : فقد أفضى بأهل بلادنا الافتنان في استعمال الشاي ، والتأثقي فيه ، إلى الاختلاف في كيفية صبّه ، فاختر بعضهم أن يكون إلى نصف الكأس ، وأن يبقى أعلاه فارغاً ، وفي ذلك يقول شاعرهم :

وَأَمْتِلَاءُ الْكُؤُوسِ قَالُوا مَعِيْبٌ وَرَأَوْا أَنَّهُ عَلَى النَّصْفِ زَاهِي
وَبمجرد ما سمعتُ هذا البيت ، نقضتُه على صاحبه من طرف اللسان بقولي :

قَالَ رَبُّ الْأَنَامِ كَأْساً دِهَاقاً وَهُوَ رَدٌّ لِقَوْلِ أَهْلِ الْمَلَاهِي
ثُمَّ رَأَيْتُ أَنَّ الشُّعْرَاءَ اخْتَلَفُوا مِنْ قَبْلِنَا فِي نَظِيرِ ذَلِكَ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ فِي مَوَافِقَتِي :

وَكَأَنَّمَا الْأَقْدَاحُ مُتْرَعَةً الْحَشَا بَيْنَ الشُّرُوبِ كَوَاكِبُ الْجُوزَاءِ
وقال الآخر في ما يشبه قول الأول [وهو السري الرفاء في « قرى الضيف » ١٩٩/٢] :

يُعَاطِيكَ كَأْساً غَيْرَ مَلَأَى كَأَنَّمَا إِذَا مُرَجَّتْ أَحْدَاقُ دِرْعِ مُزَرَّدِ
كَأَنَّ أَعَالِيهَا بَيَاضُ سَوَالِفِ يَلُوحُ عَلَى تَوْرِيدِ خَدِّ مُوَرَّدِ

(١) الفواخيت : نوع من الحمام المطوق . الجرس : صوت مناقير الطير ، وأجرس الطائر إذا سمع صوت جرسه مرة ، والجرس معروف ، والمراد أنغامه .
(٢) نشاوى : جمع نشوان ، وهو السكران .

غير أن هذا التشبيه ، لا ينطبق إلا على امرأة قائمة على رأسها ؛ لأن السوائف التي هي صفحات العنق لا تكون فوق الخدود ، وإنما تكون تحتها ، وقد يمكن التمثل في التأويل ، بأن المراد مجرد التشبيه بالحمرة والبياض ، ومهما يكن من الأمر . . فقد ذكرت قول ناصح الدين الأرجاني [في « ديوانه » ٢ / ٣٧٧] :

هَذَا الزَّمَانُ عَلَى مَا فِيهِ مِنْ كَدَرٍ حَكَى انْقِلَابَ لَيَالِيهِ بِأَهْلِيهِ
غَدِيرُ مَاءٍ تَرَاءَى فِي آسَافِلِهِ خَيَالُ قَوْمٍ تَمَشَّوْا فِي نَوَاجِيهِ
فَالرُّأْسُ يُنْظَرُ مَنْكُوساً آسَافِلُهُ وَالرُّجُلُ يُنْظَرُ مَرْفُوعاً أَعَالِيهِ
وللإمام السيوطي في إعراب البيت الأخير كلام طويل .

* * *

ومنها في المديح [قول أبي الطيب المتنبي في « العكبري » ٢ / ١٨٩] :

مِنْ كُلِّ أَيْضٍ وَضَاحٍ عِمَامَتُهُ كَأَنَّمَا اشْتَمَلَتْ نُوراً عَلَى قَبَسٍ

[شرح المطلع]

(الأيضُ) : النقيض الوضيءُ ، و(الوضاحُ) : المشرقُ ، و(القَبَسُ) : الشعلة من النارِ ، و(عِمَامَتُهُ) : مبتدأ ، خبرُهُ : الجملة بعدهُ .

قال الشارحُ : والمعنى أنه يقولُ : كلُّ كريمٍ لنورِ وجهِهِ ، وإشراقِ جبينِهِ . . كأنَّ عمامتَهُ على شعلةِ نارٍ ، فشبهَهُ وجهَهُ لنورِ جبينِهِ بالقَبَسِ ، وهو منقولٌ من قولِ قيسِ الرقياتِ [في « ديوانه » ٤٤] :

إِنَّمَا مُضَعَبٌ شَهَابٌ مِنَ اللَّوْهِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الْعَمَاءُ

انتهى باختصارٍ .

وعندي : أنه ناقصٌ ؛ لأنَّ النورَ بناءً عليه يذهبُ ضياعاً ، والذي أراه أنه شبهَ العمامةَ بالنورِ لبياضِها ؛ ولما انعكسَ فيها من إشراقِ الوجهِ عليها ، وشبهَ الوجهَ بضياءِ النارِ للمعانهِ وتبليجِهِ ، أو أنه شبهَ الجبينَ بالنورِ ، والخذَّ بالقَبَسِ ، قريباً من قولِ ابنِ عَنقَاءَ [في « الإيضاح في علوم البلاغة » ١ / ٣٢٤] :

كَأَنَّ الثُّرَيَّا عُلِّقَتْ فِي جَبِينِهِ وَفِي خَدِّهِ الشُّعْرَى وَفِي نَحْرِهِ الْقَمَرُ

أمَّا قولهُ : إنه منقولٌ من قولِ قيسِ الرقياتِ . . فلا ننكرُ احتمالَ نظره إليه ، غيرَ أنَّ الأكثرَ بهِ شبهاً قولُ أبي عبادةَ [في « ديوانه »] :

إِذَا صَدَعْنَا الدُّجَى عَنَّا بِغُرَّتِهِ خِلْنَا بِهَا قَبْساً نَجْلُوهُ أَوْ ضَرَمَا

وقد سبقَ كثيرٌ ممَّا يتعلَّقُ بمعنى البيتِ عندَ الكلامِ على قولهِ [في « العكبري » ٣ / ١٦٧] :

يُلُوحُ بَدْرُ الدُّجَى فِي صَحْنِ غُرَّتِهِ وَيَحْمِلُ الْمَوْتَ فِي الْهَيْجَاءِ إِنْ حَمَلَا

ونزیدُ هنا قولَ أبي نُؤاسٍ [في « المستطرف » ٤٢/٢] :

[مِنَ المتقاربِ]

نَظَرْتُ إِلَى وَجْهِهِ مَرَّةً فَأَبْصَرْتُ وَجْهِي فِي وَجْهِهِ

[مِنَ البسيطِ]

وقولُ ابنِ الروميِّ :

كَأَنَّهُ الشَّمْسُ إِذْ وَافَى المُنِيفَ بِهَا عَلَى البَرِّيَّةِ لَا نَارًا عَلَى عَلمٍ^(١)

[مِنَ الطَّويلِ]

وللناظِمِ ما لَا يُحصَى كَثْرَةُ فِي المَعْنَى ، مِنْهُ قَوْلُهُ [في « المُكَبَّرِي » ٣٩٨/٣] :

فَلَيْسَ لِشَمْسٍ مُذْ أَنْزَتْ إِنَارَةً وَلَيْسَ لِبَدْرٍ مُذْ تَمَمَّتْ تَمَامٌ

[مِنَ الطَّويلِ]

وقولُهُ [في « المُكَبَّرِي » ٢٩٨/٣] :

عَفِيفٌ تَرُوقُ الشَّمْسُ صُورَةً وَجْهَهُ وَلَوْ نَزَلَتْ شَوْقًا لِحَادِ إِلَى الظِّلِّ

وفي صِفَتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : (كَأَنَّ الشَّمْسَ تَجْرِي فِي وَجْهِهِ)^(٢) .

يَقُولُ وَاصِفُهُ : (لَمْ أَرِ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ مِثْلَهُ)^(٣) .

[إشراق وجه مصعب بن الزبير]

[جاء في « المستطرف » (٢٩/٢) أنه] : كَانَ مصعبُ بنُ الزبيرِ مشهوراً بالجمالِ ، فبينما هو بفناء دارِهِ ليلَةً بالبصرة . . إذ جاءتهُ امرأةٌ أقامتْ مَلِيًّا تنظرُ إليه ، فقالَ : ما شأنُكِ يرحمُك اللهُ؟ قالتْ : انطفأ مصباحنا ، فجنثُ أستصبحُ على وجهك . وهي شبيهةٌ بما سبقَ مِنْ قِصَّةِ زَيْنِ العابدِينِ .

ويذكرُ بعضهم قريباً منها للمتوكلِ العباسيِّ^(٤) .

[وروى ابن قيم الجوزية في « روضة المحيين » ٢٠١ أنه] كَانَ مصعبُ معَ فرطِ جمالِهِ يَحْسُدُ الناسَ على الجمالِ ، فبينما هو يخطُبُ يوماً . . إذ دخلَ ابنُ جودانَ مِنْ ناحيةِ الأزْدِ - وكانَ جميلاً - فأعرضَ بوجهِهِ عَن تلكَ الجَهَّةِ ، فجاءَ ابنُ حُمرانَ - وكانَ جميلاً أيضاً - مِنَ النَّاحِيَةِ التي أَقبلَ عَلَيْها ، فرمى ببصرِهِ إلى مؤخَّرِ المسجدِ ، فدخلَ الحسنُ البصريُّ - وكانَ مِنْ أَجْمَلِ الناسِ - فنزلَ مصعبُ عَنِ المنبَرِ .

وكانَ لَهُ ابنٌ يدعى : زَيْنُ المواقِبِ ، كانَ ابنُ أبي ربيعةٍ مفتوناً بالنظرِ إلى جمالِهِ .

وكانتْ عائِشَةُ بنتُ طلحةٍ مِنْ أَجْمَلِ أَهلِ زمانِها ، أو أَجْمَلَهُمْ ، فقالَ لَهَا أَنسُ بنُ مالِكٍ^(٥) [كما في « الأغاني » ١١/١٩٧] : واللهِ ما رأيتُ أَحْسَنَ مِنْكَ ، إِلَّا معاويةَ على منبرِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، فقالتْ : واللهِ لَأنا أَحْسَنُ مِنَ النَّارِ فِي عَيْنِ المَقْرورِ ، فِي اللَّيْلَةِ الباردةِ .

(١) المنيّفُ والمَلَمُ : الجبلُ الطويلُ .

(٢) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه ابن سعد في « الطبقات » (٤١٥/١) ، وأحمد (٣٨٠/٢) ، والترمذي (٣٦٤٨) وفي « الشماثل » (١٢٤) ، وابن حبان في « صحيحه » (٦٣٠٩) بإسناد صحيح .

(٣) وردت هذه الجملة في حديث علي رضي الله عنه عند الترمذي في « الشماثل » (٥) ، وفي « السنن » (٣٦٣٧) ، وأحمد (٩٦/١) ، وابن حبان في « صحيحه » (٦٣١١) بإسناد صحيح .

(٤) أيضاً في « المستطرف » (٢٩/٢) .

(٥) وفي « الأغاني » (١٩٧/١١) أبو هريرة بدلاً من أنس بن مالك رضي الله عنهما .

[إشراق وجه لبابة بنت عبيد الله]

وكانت لبابة بنت عبيد الله بن العباس عند الوليد بن عتبة ابن أبي سفيان ، فكانت تقول : ما نظرت وجهي مع وجه إنسان في مرآة إلا أرحمته ؛ لافتضاحه بحسن وجهي ، ما عدا الوليد ، فكنت إذا نظرت إليه مع وجهي . . تصاغرت إلي نفسي ؛ من فرط جماله^(١) .

[الأصمعي وصاحبة البرقع]

وقال الأصمعي [في « روضة المحبين » ٢٠٣] : بينا أنا على بعض مياه العرب . . إذ سمعت الناس يقولون : جاءت ، جاءت ، فإذا امرأة لم أر مثلها في حسن الوجه ، وتمام الخلق ، فلما رأته كثرة التشوق إليها . . أرسلت برقعها ، فكأنما هو غمامة سترت شمساً ، فقلت : لو متعتينا بالنظر إلى وجهك . . فقالت : [من الطويل]

وَإِنَّكَ إِنْ أَرْسَلْتَ طَرْفَكَ رَائِدًا لِقَلْبِكَ يَوْمًا أَتَعْبَتِكَ الْمَنَاطِرُ
رَأَيْتَ الَّذِي لَا كُلُّهُ أَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ وَلَا عَنْ بَعْضِهِ أَنْتَ صَابِرٌ

فقال أعرابي : أنا والله ممن قل صبره ، وأنشأ يقول :

أَوْحِشِيَّةَ الْعَيْنَيْنِ أَيْنَ لَكَ الْأَهْلُ أَبِالْحَزَنِ حَلُّوا أَمْ مَحَلُّهُمُ السَّهْلُ ؟
وَأَيَّةُ أَرْضٍ أَخْرَجَتْكَ ؟ فَإِنِّي أَرَاكَ مِنَ الْفِرْدَوْسِ إِنْ فَتَشَ الْأَصْلُ
فَقِي خَبْرِنَا مَا طَعِمْتَ وَمَا الَّذِي شَرِبْتَ وَمِنْ أَيْنَ اسْتَقَلَّ بِكَ الرَّحْلُ
نَآهَيْتِ حُسْنًا فِي النِّسَاءِ فَإِنْ يَكُنْ لِبَدْرِ الدُّجَى نَسْلٌ فَأَنْتِ لَهُ نَسْلُ

ويعجبي قول الأعرابي ، وهو الذي أحلت عليه مرة فيما سلف [في « ديوانه » ١٣٠] :

فَتَى لَوْ يُنَادِي الشَّمْسَ أَلْقَتْ فِنَاعَهَا أَوْ الْقَمَرَ السَّارِيَ لِأَلْقَى الْقَلَائِدَا

ومعنى (يُنَادِي) : يفاخر ، والمراد من (فِنَاعِ الشَّمْسِ) : حسنها .

ومن قطعة لإبراهيم بن المهدي فيها غناء :

نَوْرٌ تَوَلَّدَ مِنْ شَمْسٍ وَمِنْ قَمَرٍ حَتَّى تَكَاسَلَ فِيهِ الرُّوحُ وَالْبَدَنُ

وقال الكسائي يمدح الأمين والمأمون [كما في « المستطرف » ٢٢/٢] :

أَرَى قَمَرِي أَفْقٍ وَفَرْعِي بِشَامَةٍ يَزِينُهُمَا عِرْقُ كَرِيمٍ وَمَخْتِدُ^(٢)
سَلِيلِي أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَحَائِزِي مَوَارِيثَ مَا أَبْقَى النَّبِيُّ مُحَمَّدُ

[الحجر الذي لا يعجبك . . يشجك]

وبهذين ، ذكرت أن بعض العرب تقدم إلى الرشيد أبيات استكثرها عليه ؛ لثرائه هيبته ، فقال له [في « تاريخ الطبري » ٢٥/٥] : إن كان الشعر لك كما تقول . . فقل : في هذين ، فقال : يا أمير المؤمنين ، وحشة الغربة ، وروعة

(١) « المستطرف » (٢٩/٢) .

(٢) البشامة : شجر طيب الرائحة يستاك به . المختد : الخالص الأصل والأرومة من كل شيء .

المفاجأة ، وبهرُ الدرَجَةِ ، وجلالَةُ المقام ، وصعوبَةُ البديهة ، تحولُ بينَ المرءِ وبينَ لسانِهِ ، فليمهلني أميرُ المؤمنينَ ريثما يعودُ النافرُ ، فقالَ لَهُ الرشيدُ : ما أحسنَ جوابك! وقد جعلنا فيه عذركَ ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ، لقد نَفَسْتُ الخِناقَ ، وسَهَلتُ ميدانَ السباقِ ، وأنشأ يقولُ :

[مِن الطُّولِ]

بَنَيْتَ بَعْبُدِ اللَّهِ بَعْدَ مُحَمَّـدٍ ذُرِّي قَبَّةِ الْإِسْلَامِ فَاخْضَرَ عُوْدَهَا
هَمَّا طَبَّأَهَا بَارَكَ اللَّهُ فِيهِمَا وَأَنْتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَمُوْدَهَا^(١)

فقالَ لَهُ الرشيدُ : وَأَنْتَ بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ ، سَلِ حاجتَكَ ، ولتكنْ عليَّ قدرِ إحسانِكَ .

[أيجوز للرجال أن يتزوجوا على النساء ؟!]

ولنعُدُّ إلى ما يتعلَّقُ بحسنِ الصورةِ ، قالَ عبدُ الله بنُ شوذبٍ : دخلتِ امرأةٌ جميلةً على الحسنِ البصريِّ ، فقالتَ لي « روضة المحبين » [٢٠٣] : يا أبا سعيدٍ ، أيجلُّ للرجالِ أن يتزوجوا على النساءِ ؟ قالَ : نعم ، قالتَ : وعلى مثلي ؟ ثمَّ أسفرتَ عن وجهِ استجهرتنا بجمالِهِ ، وقالتَ : يا أبا سعيدٍ ، لا تفتوا الرجالَ بهذا ، ثمَّ ولَّتْ ، فقالَ الحسنُ : ما على رجلٍ كانتَ هذه في زاويةِ بيتهِ ما فاتهُ مِنَ الدُّنيا .

[الصورة الحسنة والشعراء]

وللهِ درُّ بعضهم في قوله [كما في « المستطرف » ٢/٢٩] :

[مِن الطُّولِ]

وَلَوْ أَنَّهَا فِي عَهْدِ يُوسُفَ قَطَعَتْ قُلُوبَ رِجَالٍ لَا أَكْفَ نِسَاءِ

وقالَ الآخرُ [في « روضة المحبين » ٢٠٤] :

[مِن الطُّولِ]

أَيِّرِي مَكَانَ البَدْرِ إِنْ أَفَلَ البَدْرُ وَقَوْمِي مَقَامَ الشَّمْسِ مَا اسْتَأْخَرَ الفَجْرُ
فَفِيكَ مِنَ الشَّمْسِ المُنِيرَةِ ضَوْؤُهَا وَلَيْسَ لَهَا مِنْكَ التَّبَسُّمُ وَالتَّغَرُّ

وما أحسنَ قولَ شوقي [في « ديوانه » ٢/١٥٩] :

[مِن البسيطِ]

صُونِي جَمَالِكَ عَنَّا إِنَّا بَشَرٌ مِنْ التَّرَابِ وَهَذَا الحُسْنُ رُوحَانِي

وهو وإن كانَ قد أَلَمَّ في بعضِهِ بقولِ الناظمِ [في « العُكْبَرِيَّ » ٢/٣٤٩] :

[مِن الطُّولِ]

خَفِ اللهُ وَاسْتُرْ ذَا الجَمَالِ بِرُقُوعِ فَإِنْ لُحِتْ ذَابَتْ فِي الخُدُورِ العَوَاتِقُ

وفي البعضِ الآخرِ بقولِ خالدِ الكاتبِ :

[مِن البسيطِ]

لَوْ كَانَ مِنْ بَشَرٍ لَمْ يَفْتِنِ البَشَرَا وَلَمْ يَفُتْ فِي الضِّيَاءِ الشَّمْسِ وَالقَمَرَا
نُورٌ تَجَسَّمُ مُنْخَلًا وَمُنْعَقِدًا سَلِكٌ تَضَمَّنَ فِي تَنسيقِهِ دُرَرَا

.. فقد أحسنَ متنهُ ، وأجادَ سبكهُ ، وأبدعَ معناه ، وأحكمَ لفظهُ ، واستنزلهُ من سماءِ قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف : ٣١] .

(١) الطنْبُ : جبلُ الخبَاءِ والخيمةِ والفسطاطِ .

ثم إن جمال الظاهر بالأغلب ، مقرون بجمال الباطن ، وما بعث الله من نبي إلا حسن الصورة ؛ ولأن الله تعالى - بلطف حكيمته ، وبديع صنعته - لم يخلق الصورة مختارة الصفات ، سليمة من الآفات ، إلا عن فضل الإبداع ، ولن تكون على ذلك ، إلا إذا كانت على ما يلائم حسناتها ، من أحسن الطباع ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « اطلبوا الخير عند صباح الوجوه »^(١) .

وكان عليه السلام : يستحب أن يكون الرسول - الذي يرسل إليه - حسن الوجه ، حسن الاسم ، كما أخرجه البراء وغيره^(٢) .

وكان يرشد من رأى جمال صورته إلى إصلاح باطنه ، فقد أخرج الديلمي ، عن جرير بن عبد الله - الذي كان يسميه ابن الخطاب [في « روضة المحبين » ١٩٩] : (يوسف هذه الأمة)^(٣) - أنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أنت امرؤ قد أحسن الله خلقك ، فأحسن خلقك »^(٤) .

وقال جلهمة بن عرفطة - وقد بصر بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم في طفوليته ، يستسقي به أبو طالب - : كأنه قمر دجنة ، تجلت عنه سحابة قماء .

[الشعراء والجمال]

وقال قيس بن الخطيم [في « ديوانه » ١٧] :

فَرَأَيْتُ مِثْلَ الشَّمْسِ عِنْدَ طُلُوعِهَا فِي الْحُسْنِ أَوْ كَدُنُوهَا لِعُرُوبِ

[من الطويل] وقال غيره :

وَقَدْ حَجَلْتُ شَمْسُ الضُّحَى مِنْكَ غُدْوَةً فَكَادَتْ كَمَا جَاءَتْ إِلَى الشَّرْقِ تَزْجَعُ

[من الكامل] وقال علي بن الجهم [في « ديوانه » ١٤٨] :

يَا بَدْرُ كَيْفَ صَنَعْتَ بِالْبَدْرِ وَفَضَّخْتَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَذْرِي ؟
الدَّهْرُ أَنْتَ بِأَسْرِهِ قَمَرٌ وَلِذَلِكَ لَيْلَتُهُ مِنَ الشَّهْرِ

[من الطويل] وقال بعضهم [وهو جميل بيينة كما في « ديوان الحماسة » ١٧٢/٢] :

لَهَا النَّظْرَةُ الْأُولَى عَلَيْهِمْ وَبَسْطَةٌ وَإِنْ كَرَّتِ الْأَبْصَارُ كَانَتْ لَهَا الْعُقْبَى

(١) أورده السخاوي في « المقاصد الحسنة » (١٦١) بلفظ : « التمسوا الخير عند حسان الوجوه » ، وقال : رواه الطبراني من حديث يزيد بن خصيفة عن أبيه عن جده مرفوعاً ، وكذا عند أبي يعلى وهو مشهور ، له طريق عن أنس وجابر وعائشة وابن عباس وابن عمر ويزيد القسملبي وأبي بكره وأبي هريرة ولفظ أكثرهم : « اطلبوا الخير . . . » وأطال فيه .

(٢) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول » (٨٥ / ١) بلفظ : « إِذَا بَعَثْتُمْ إِلَيَّ رَسُولًا . . . فَاجْعَلُوهُ حَسَنَ الْوَجْهِ حَسَنَ الْاسْمِ » ، وانظر « كنز العمال » (١٤٧٧٥) .

(٣) أورد الخبير ابن الأثير في « أسد الغابة » (٧٣٠) ، وابن حجر في « الإصابة » (١١٣٦) .

(٤) رواه الخرائطي في « اعتلال القلوب » (٣٣٦ / ١) .

وهو مثل ما أظنتني قد ذكرته في غير هذا المجلس ، من قول أبي نواس [في «ديوانه» ٣٠٩] :

يَزِيدُكَ وَجْهَهُ حُسْنًا إِذَا مَا زِدْتَهُ نَظْرًا

وقوله [في «ديوانه» ٦٠٤] :

لِلْحُسْنِ فِي وَجَنَاتِهِ بِدَعٍ مَا أَنْ يَمَلَّ الدَّرْسَ قَارِيهَا

وقول ابن المعتز :

مَنْظَرُهُ قَيْدُ عُيُونِ الْوَرَى فَلَيْسَ خَلْقٌ يَتَعَدَّاهُ

وقال أبو فراس :

فَإِذَا بَدَا اقْتَادَاتِ مَحَاسِنِهِ فَسَرَّ إِلَى أَيْتِهِ أَعْنَةَ الْحَدَقِ

وقال محمد بن وهيب [في «الأغاني» ٩٢/١٩] :

مَا لِمَنْ تَمَّتْ مَحَاسِنُهُ أَنْ يُعَادِي طَرْفَ مَنْ رَمَقَا

لَكَ أَنْ تُبَدِي لَنَا حَسَنًا وَلَنَا أَنْ نُعْمَلَ الْحَدَقَا

وكان بعض الحكماء يقول [في «روضة المحبين» ٢٠٠] : يَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يَنْظُرَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى الْمَرْأَةِ ، فَإِنْ رَأَى حُسْنًا . . . لَمْ يَشْنُهُ بِفِعْلِ قَبِيحٍ ، وَإِنْ رَأَى قَبِيحًا . . . لَمْ يَجْمَعْ بَيْنَ قَبِيحَيْنِ .

وقال بعضهم [كما في «روضة المحبين» ١٩٩] :

يَا حَسَنَ الْوَجْهِ تَوَقَّ الْخَنَا لَا تُبَدِلَنَّ الزَّيْنَ بِالشَّيْنِ

وَيَا قَبِيحَ الْوَجْهِ كُنْ مُحْسِنًا لَا تَجْمَعَنَّ بَيْنَ قَبِيحَيْنِ

وقام رجلٌ وسيمٌ ينظرُ وجهه في المرأة ، فقال : اللَّهُمَّ كَمَا حَسَّنْتَ خُلُقِي ، فَحَسِّنْ خُلُقِي ، وقام في أثره رجلٌ دميمٌ ، وكأنه كان غافلاً ، فأسقط في يده ؛ لأنه إن قال : مثل الأول . . . تضاحكوا عليه ، وإن سكت . . . كان اعترافاً بالعي والنقيصة ، فلم يكن منه ، إلا أن تخلص من ذلك المأزق الحرج بأحسن ما يتخلص به الأريب^(١) ، فقال : [من الطويل]

لِئِنْ لَمْ تَكِ الْمَرْأَةُ أَبَدَتْ وَسَامَةً فَقَدْ أَبَدَتْ الْمَرْأَةُ جَبْهَةَ ضَيْغَمِ

[قد يتخلف جمال الباطن عن جمال الظاهر وبالعكس]

وقد يتخلف جمال الباطن عن جمال الظاهر ، وعكسه ، فمن الأول قول الناظم [في «المكبري» ٢٢٢/٢] :

لَيْسَ الْجَمَالُ لِوَجْهِ صَحَّ مَارِنُهُ أَنْفُ الْعَزِيزِ يَقْطَعُ الْعِزَّ يُجْتَدَعُ

وقوله [في «المكبري» ٣٢٠/٢] :

وَمَا الْحُسْنُ فِي وَجْهِ الْفَتَى شَرَفًا لَهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي فِعْلِهِ وَالْخَلَائِقِ

(١) الأريب : العاقل .

وَمَا كُلُّ وَجْهِ أَبِيضٍ بِمُبَارَكٍ وَلَا كُلُّ جَفْنٍ ضَيِّقٍ بِبَنَجِيبٍ

وقول غيره [كما في «قري الضيف» ٤٥٧/٢] :

وَهَلْ يَنْفَعُ الْفِتْيَانَ حُسْنَ وُجُوهِهِمْ إِذَا كَانَتْ الْأَعْرَاضُ غَيْرَ حَسَانٍ ؟

ومن الثاني : أَنَّ الْحَجَّاجَ بَعَثَ بِرَأْسِ ابْنِ الْأَشْعَثِ ، مَعَ رَجُلٍ دَمِيمٍ ، حَامِضِ الْوَجْهِ ، فَاسْتَخَفَّ بِهِ عَبْدُ الْمَلِكِ بَادِيًا ، وَلَكِنَّهُ لَمَّا اسْتَنْطَقَهُ . . تَنَفَّى وَكَفَى ، وَحَدَّثَهُ عَنِ الْوَاقِعَةِ كَأَنَّهُ يَرَاهَا ، فَأَنْشَدَ عَبْدُ الْمَلِكِ مِثْمَلًا [بِشِعْرِ عَمْرُو بْنِ شَأْسٍ فِي

«ديوانه» ١٠٢] :

أَرَادَتْ عِرَارًا بِالْهَوَانِ وَمَنْ يُرِدْ عِرَارًا لِعَمْرِي بِالْهَوَانِ فَقَدْ ظَلَمَ

فَضْحَكَ الرَّجُلُ ، حَتَّى كَادَ يَجِدُ مِنْهُ عَبْدُ الْمَلِكِ ، وَقَالَ لَهُ : مِمَّ تَضْحَكُ ؟ قَالَ : تَعْرِفُ عِرَارًا هَذَا ؟ قَالَ : لَا ، وَإِنَّمَا بَلَغَنِي الشَّعْرُ فَمِثَّمْتُ بِهِ ، قَالَ : أَنَا هُوَ ، وَقَائِلُهُ أَبِي : عَمْرُو بْنُ شَأْسٍ ، وَكَانَتْ زَوْجُهُ تَبِغْضُنِي ، وَجَهْدَ أَنْ بُصَلِحَ بَيْنَنَا ، فَلَمْ يَقْدِرْ ، فَقَالَ الْبَيْتَ ، وَبَعْدَهُ :

فَإِنْ كُنْتَ مِنِّي أَوْ تَرِيدِينَ صُحْبَتِي فَكُونِي لَهُ كَالشَّمْسِ رَبَّتْ بِهِ الْأَدَمُ^(١)
وَالْأَفْسِيرِي سَيْرَ رَاكِبِ نَاقَةٍ تَيْمَمَ غَيْثًا لَيْسَ فِي سَيْرِهِ أَمَمٌ^(٢)
وَإِنَّ عِرَارًا إِنْ يَكُنْ غَيْرَ وَاضِحٍ فَإِنِّي أَحِبُّ الْجُونَ ذَا الْمُنْكَبِ الْعَمَمِ^(٣)

وطلَّعها بعد ذلك ، وندم على فراقها ، فأخذ عبد الملك ، يكرِّر البيت الأخير . وقال ابن خلكان [في «وفيات الأعيان» ٤١٨/٤] : إِنَّهُ كَانَ مَرْسَلًا مِنْ قَبْلِ الْمَهَلِّبِ إِلَى عِنْدِ الْحَجَّاجِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَيُّ ذَلِكَ الْأَصْحُ .

وذكر القاضي [في «وفيات الأعيان» ٤١٧/٤] : قَصَّتَيْنِ تَشْبِهُهَا ، لَا حَاجَةَ بِنَا إِلَيْهَا .

[الفرزدق وخفة دمه]

وقال خالد بن صفوان للفرزدق : مَا أَنْتَ بِالذِّي أَكْبَرَنَهُ لَمَّا رَأَيْتَهُ ، وَقَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ !! فَقَالَ الْفَرَزْدَقُ : وَلَا أَنْتَ بِالذِّي قَالَتِ الْفَتَاةُ لِأَبِيهَا : ﴿ اسْتَجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾ [القصص : ٢٦] .

وكان الفرزدق قبيحاً من آثار الجدري بوجهه ، حتَّى لَقِدَ قَالَ لَهُ بَعْضُهُمْ [كما في «وفيات الأعيان» ٩٩/٦] : كَأَنَّ وَجْهَكَ أَحْرَاحُ مَجْتَمَعَةٍ ، قَالَ : تَأَمَّلْ هَلْ تَجِدُ فِيهَا حَرًّا أُمَّكَ .

وقال نضلة السلمي [في «مجمع الأمثال» ٤١٤/١] :

رَأَوْهُ فَازْدَرَوْهُ وَهُوَ خَرَقٌ وَيَنْفَعُ أَهْلَهُ الرَّجُلُ الْقَبِيحُ^(٤)

(١) الأدم : جمع أدمة ، وهي شربة من سواد في وجه الرجل .

(٢) الأمم : الاعوجاج .

(٣) الجون : الأسود . العمم : التام .

(٤) الخرق : الدميم الأسود .

فَلَمْ يَخْشَوْا مَصَالَتَهُ عَلَيْهِمْ وَتَحْتَ الرَّغْوَةِ اللَّبْنُ الصَّرِيحُ^(١)

ودخل بعضهم على المأمون فأكرمه ، وأخذ يعممه بنفسه ، وكانت بقره جارية تبسم ، وكان الرجل دميماً ، فقال لها المأمون « كما في « المستطرف » ٢٥٩/١ : مِمَّ تضحكين ؟ قال الرجل : أنا أخبرك يا أمير المؤمنين ، تضحك من دماستي ، وإكرامك .

[من أخبار الظرفاء والقبحاء]

ودخل بعضهم في شملة ، مع قبح منظرة فيه ، على معاوية ، فازدراه ، واقتحمته عينه ، ففطن الرجل ، وقال [بنحوه في « جمهرة خطب العرب » ٢٥١/٣ : إِنَّ الشَّمْلَةَ لَا تَكَلِّمُكَ ، وَإِنَّمَا يَكَلِّمُكَ مَنْ فِيهَا ، وَالْمَرْءُ بِأَصْغَرِيهِ ، فَاسْتَسْنَاهُ عِنْدَ ذَلِكَ ، ثُمَّ أَحْمَدَ مَخْبِرَتَهُ .

وقال ابن مكرم لأبي العيناء : يا قِرْدُ ، فقال أبو العيناء : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَسَيَّ خَلْقَهُ ﴾ [يس : ٧٨] .

وقال حمادُ يهجو بشاراً [كما في « الأغاني » ٣٢١/١٤ :

شَيْبُهُ الْوَجْهَ بِالْقِرْدِ إِذَا مَا عَمِيَ الْقِرْدُ

فبكى ، وقال : ما كفاه أن جعلني قرداً ، حتى أعماه ، ويلني منه ، يراني فيشبهني ، ولا أراه ، فكيف أشبهه !؟

وكان الجاحظُ أقبح خلق الله ، حتى إن امرأة قادته إلى رَسَامٍ ، وقالت له [بنحوه في « نفع الطيب » ٢٩٧/٤ : مثل هذا ، فقال للرسام : ماذا تعني ؟ قال : لا تسأل ، قال : لا بد ، قال : إنها طلبت مني صورة الشيطان ، فقلت : لا أفدر حتى أرى المثال ، فجاءت بك الآن ، وقالت : ما سمعته .

وكان يقال : إنَّه لم يوجد للمُعَيْدِيّ نظيرٌ في القبح ، حتى كان الجاحظُ ، ثم لم يكن له شبيهٌ ، حتى جاء الحريريُّ ، فتناسى الناسُ الماضي من أبي عثمان ، ولهجوا بالحاضر من قبح الحريريِّ .

والناسُ كثيراً ما يتوسعون في خبث الحاضر وقبحه ، ويرمونه بأكثر مما فيه ، بمقدار ما يضيّقون من خيره ، ويقلّلونه ، فهم إزاء مساويء معاصريهم عاملون بقول الناظم [في « العكبري » ٨١/٣ :

خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئاً سَمِعْتَ بِهِ [في طلعة الشمس ما يُغْنِيكَ عَنْ زُحُلِ]

وأما إزاء محاسنهم . . فأخذون بقول الحماسيِّ [فَعَنِبَ بِنَ أُمِّ صَاحِبٍ فِي « شرح حماسة أبي تمام » ١٨٧/٢ :

إِنْ سَمِعُوا رِيْبَةً طَارُوا بِهَا فَرِحاً

صُمَّ إِذَا سَمِعُوا خَيْراً ذَكَرْتُ بِهِ

وَأِنْ ذَكَرْتُ بِسُوءٍ عِنْدَهُمْ أَذْنُوا^(٢)

وَأِنْ ذَكَرْتُ بِسُوءٍ عِنْدَهُمْ أَذْنُوا^(٣)

وقول غيره :

مُسْتَنْجِدٌ بِجَمِيلِ الصَّبْرِ مُكْتَتِبٌ عَلَيَّ يَتِي زَمَنِ أَفَعَالُهُمْ عَجَبٌ

(١) المصالة : ما سال من الأقط إذا طُبِخَ ثم عصر ، رديء الكيموس ، صار بالمعدة ، وهو مصل اللبن .
(٢) طاروا بها : أي أسرعوا إلى الناس ببعثونها وينشرونها .
(٣) أذنوا : استمعوا .

إِنْ يَعْلمُوا خَيْرًا اخْفَوْهُ وَإِنْ عَلِمُوا شَرًّا أذَاعُوا وَإِنْ لَمْ يَعْلمُوا كَذَبُوا

ومن محاسن الحريري: أن طالباً قدم عليه، فازدراه، فعرف ما في نفسه، فأشده [كما في «وفيات الأعيان» ٤/٦٦]:

[مِنَ البسيطِ]

مَا أَنْتَ أَوْلَ سَارٍ غَرَّهُ قَمَرُ وَرَائِدٍ أَعْجَبْتُهُ خُضْرَةَ الدَّمَنِ
فَاخْتَرْتُ لِنَفْسِكَ غَيْرِي إِنْ نِي رَجُلٌ أَنَا الْمُعَيْدِيُّ فَاسْمَعْ بِي وَلَا تَرْنِي

فيروي: أن الطالب ارعوى حينئذ، وأنشد متمثلاً بقول محمد بن هانيء الأندلسي، على ما صوبه ابن خلكان [في

ديوان ابن هانيء] «٣/٣٦١-٣٦٢»:

[مِنَ البسيطِ]

كَأَنْتَ مُسَاءَلَةُ الرُّكْبَانِ تُخْبِرُنِي عَنْ جَعْفَرِ بْنِ فَلَاحٍ أَطْيَبَ الْخَبْرِ
حَتَّى التَّقِينَا فَلَا وَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ أُذُنِي بِأَكْبَرَ مِمَّا قَدْ رَأَى بَصْرِي

وعلى ذكر هذين البيتين، يحكى [كما في «وفيات الأعيان» ٦/٤٦]: أن الزمخشري لما قدم (بغداد) للحج. . مضى

لزيارته ابن الشجري، فتمثل له بهذين البيتين، ويقول الناظم أيضاً [كما في «العكبري» ٢/١٥٥]: [مِنَ الطَّويلِ]

وَأَسْتَغْظِمُ الْأَخْبَارَ قَبْلَ لِقَائِهِ فَلَمَّا التَّقِينَا صَغَّرَ الْخَبَرَ الْخُبْرُ^(١)

ونمثل الزمخشري للشريف بقوله صلى الله عليه وآله وسلم لزيد الخيل: «مَا وُصِفَ لِي أَحَدٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَرَأَيْتُهُ فِي الْإِسْلَامِ.. إِلَّا رَأَيْتُهُ دُونَ مَا وُصِفَ لِي، غَيْرِكَ»^(٢) فتعجب الناس من الشريف يتمثل بالشعر، ومن الزمخشري - وهو أعجمي - يستشهد بالحديث!

وقد سبق أول المجلس الثالث، ذكر بيت قيس الرقيات، الذي ذكره الشارح مع اختصار قصة فيه، ولا بأس بالاستطراد هنا لحديث قيس:

فإنه لما أحيط بابن الزبير. . دعاه وقال له [بحوه في «الأغاني» ٥/٨٧]: خُذْ مِنْ هَذَا الْمَالِ مَا أَطَقْتَ، وَاَنْجُ بِنَفْسِكَ، فَقَالَ: مَا كُنْتُ لِأَسْأَلَ عَنْكَ الرُّكْبَانَ أَبَدًا، وَبِقِي يِقَاتِلُ مَعَ الْمُصْعَبِ، حَتَّى قُتِلَ، فَهَرَبَ هُوَ إِلَى (الْكُوفَةِ)، وَوَقَفَ عَلَى بَابِ عَلَيْهِ امْرَأَةٌ، عَرَفَتْ أَنَّهُ خَائِفٌ، فَقَالَتْ لَهُ: ادْخُلْ، فَأَقَامَ عِنْدَهَا أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، فِي أَرْغَدِ عَيْشٍ، لَا يَتَسَاءَلَانِ، وَكَانَ عَبْدُ الْمَلِكِ قَدْ أَهْدَرَ دَمَهُ، وَجَعَلَ فِيهِ دَيْتَهُ، وَهِيَ تَسْمَعُ الْجَعِيلَةَ فِيهِ، كُلَّ مَمْسَى وَمَصْبَحٍ، فَلَمَّا طَالَ الشَّوَاءُ.. قَالَ لَهَا: يَا هَذِهِ، إِنِّي قَدْ طَرَبْتُ إِلَى أَهْلِي، قَالَتْ: فَلَا تَعْجَلْ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ.. قَالَتْ لَهُ: إِذَا شِئْتَ.. فَانزِلْ، فَإِذَا رَاحِلَتَانِ، إِحْدَاهُمَا الزَّامِلَةُ، وَعَلَى الْأُخْرَى الرَّحْلُ، وَمَعَهُمَا عَبْدَانِ يَدْلَانِهِ الطَّرِيقَ، وَيَقُومَانِ بِمَا عَنَاهُ، عِنْدَ ذَلِكَ قَالَ لَهَا: مَنْ أَنْتِ؟ فَوَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ أَكْرَمَ مِنْكَ، قَالَتْ: أَوْلَا تَعْرِفُنِي؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ، قَالَتْ: أَنَا الَّتِي قُلْتَ فِيهَا [في «ديوانه» ٧٠]:

[مِنَ المنسرحِ]

عَادَ لَهُ مِنْ كَثِيرَةِ الطَّرَبِ فَعَيْنُهُ بِالدُّمُوعِ تَسْكِبُ

(١) أورد الأبيات ياقوت الحموي في «معجم الأدياء» (١٩/١٢٨)، و«المستفاد من تاريخ بغداد» (ص ٢٢٨).

(٢) أورد ابن سعد في «الطبقات» (١/٣٢١) بلفظ: «ما ذكر لي رجل من العرب إلا رأته دون ما ذكر لي إلا ما كان من زيد»، وبلغه ذكره الحافظ في

«الإصابة» (١/٥٧٣) في ترجمة زيد الخيل (٢٩٤١).

وهي : أمُّ عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، ثم مضى ، وأتى أهله طروقاً بـ (المدينة) ، فبكوا ، وقالوا : ما خرج الطلُب من عندنا إلا بالأمس ، فأنج بنفسك ، فنزل على عبد الله بن جعفر ، وقال له : جئتكَ مستجيراً ، فركب إلى عبد الملك بن مروان ، وقال : حاجة يا أمير المؤمنين ، فقال : كلُّ حاجة لك مقضية ، ما لم تكن عبد الله ابن قيس ، قال : ما كنتُ أراك تحجز عليَّ شيئاً ، قال : فكلُّ حاجة لك مطلقة ، قال : هي عبيد الله بن قيس ، تهب لي ذنوبه ، ثم غدا عليه ، فأنشده القصيدة المستهله بذلك البيت ، ومن مديحها [في « ديوانه » ٧٣] : [من المنسرح]

يَعْتَدِلُ التَّاجُ فَوْقَ مَفْرِقِهِ عَلَى جَيْنٍ كَأَنَّهُ الذَّهَبُ

فقال تمدحني بما يمدح به الأعاجم ، وتقول في مصعب : [من الخفيف]

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شَهَابٌ مِنَ اللَّيْلِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلَمَاءُ

ثم أمر بعساس من الخلنج ، تملأ بالبان البخت ، يحمل العس جماعة ، يحلتي فيه ، فوضعت بين يدي عبيد الله ، وقال له عبد الملك : أين هذه من عساس المصعب ؟ التي تقول فيها [في « ديوانه » ٢٢٩] : [من الخفيف]

يَلْبَسُ الْجَيْشَ بِالْجِيُوشِ وَيَسْقِي لَبَنَ الْبُخْتِ فِي عَسَاسِ الْخَلْنَجِ^(١)

قال : بون يا أمير المؤمنين ، قال : ولم ؟ قال : لو طرحت عساسك هذه كلها في عس من عساس المصعب . لتقلقت فيه ، قال له عبد الملك : أبيت إلا كرمأ ، قاتلك الله ، اخرج لا خير لك عندي أبداً ، فخرج من عنده ، ولحق بعبيد الله بن جعفر ، فأخبره ، فقال : عمّر نفسك ، فعمّر نفسه أربعين سنة ، فأعطاه ما يكفيه لتلك المدة ، فقال في ذلك [في « ديوانه » ١١٩] : [من الطويل]

تَقَدَّتْ بِي الشَّهْبَاءُ نَحْوَ ابْنِ جَعْفَرٍ سَوَاءً عَلَيْهَا لَيْلُهَا وَنَهَارُهَا^(٢)

وفي القصة أشياء :

أحدها : ما سبق من التشبيب في القصيدة بأم عبد الصمد بن علي ، فإنه لا يتفق مع تقدم قصتها معه ، وتأخر مدحه بها لعبد الملك ، إلا أن يقال : لا مانع من تفارط المدح عن النسب .

ثانيها : أن الأليق بالمعهود ، أن لا يكون امتداحه لعبد الملك إلا بحضوره عبد الله بن جعفر ؛ إذ كيف يتجشم السفر من أجله إلى (الشام) ، ثم يدعه يدخل وحده على عبد الملك ، بعد قبول شفاعته فيه ، وهما حاضرا بـ (دمشق) معاً ؟ أمّا جرأة ابن الرقيات على عبد الملك : فلا تستنكر ، مع ما سبق من إثارة الموت في الوفاء للمصعب ، على الاستئثار بالأموال .

[بحث فقهي حول العمامة]

وفي البيت الذي نتكلم عليه إشارة إلى فضل العمام البيض ، يؤخذ من استعارته لها النور كما قررناه ، وهو ما عليه فقهاؤنا ، قال ابن حجر في « تحفته » : والأفضل في لونها البياض ، وصحة لبسه صلى الله عليه وآله وسلم لعمامة

(١) الخلنج : شجرٌ تُخذ من خشبه الأواني .

(٢) تقدت : سارت سيراً ليس بعجل ولا مبطيء .

سوداء ، ونزول أكثر الملايكة يوم بدر بعمائم صفر ، وقائع محتملة ، فلا تنافي عموم الخبر الصحيح ، الأمر بلبس
البياض^(١) ، وأنه خير الألوان ، في الموت والحياء . كذا قال الشيخ .

ولباحث أن يقلب عليه الموضوع ، فيقول : إن الأمر بلبس البياض عام ، ولبس العمامة السوداء ، والعمائم الصفر ،
مخصص لذلك العموم ، ويؤيده ما ذكره الشيخ نفسه في باب القضاء ، حيث قال : ويدخل القاضي ، وعليه عمامة
سوداء ، كما فعل صلى الله عليه وآله وسلم ، لما دخل (مكة) يوم الفتح^(٢) .

ثم العمامة سنة للصلاة ، وللتجمل خارجها ، قال ابن حجر : للأحاديث الكثيرة فيها ، واشتداد ضعف كثير منها
يجبره كثرة الطرُق ، وتحصل السنة بكونها على الرأس ، أو نحو قلنسوة تحتها ، وفي حديث ما يدُلُّ على أفضليته
كبرها ، لكنه لا يحتج به ، حتى في فضائل الأعمال ؛ لشدة ضعفه .

وينبغي ضبط طولها وعرضها ، بما يليق بلايسها عادة في زمانه ومكانه ، فإن زاد فيها على ذلك . . كره ، ومن هديه
صلى الله عليه وآله وسلم أنه كان يلبسها ، ويلبس قلنسوة تحتها ، ويلبس القلنسوة بغير عمامة ، ويلبس العمامة
بغير قلنسوة ، ولم يتحرز شيء في طول عمامته وعرضها ، فالحق ما ذكره الشيخ من الرجوع إلى ما يليق بالزمان
والمكان .

وهل تكفي القلنسوة عن العمامة في أصل السنة ؟

الجواب ما ذكره ابن حجر - أيضاً - من قوله : ولا بأس بلبس القلنسوة اللأظفة بالرأس ، والمرتفعة تحت العمامة ،
وبلا عمامة ؛ لأن كل ذلك جاء عنه صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد يتأيد به ما اعتاده بعض أهل النواحي ، من ترك
العمامة ، وتمييز علمائهم بطيلسان على قلنسوة بيضاء لاصقة بالرأس ، لكن بتسليم ذلك . . فإن الأفضل لبس العمامة
بعذبتها ، وما وقع لصاحب « القاموس » ، من أنه صلى الله عليه وآله وسلم ، لم يفارق العذبة . . مردود ،
والصواب : أنه كان يتركها أحياناً . انتهى باختصار ، ولفظه من « التحفة » ، ولكنه يقول في « فتاويه » : حد العمامة
- التي تحصل بها الفضيلة ، المشار إليها بحديث : « صلاة بعمامة ، خير من سبعين صلاة بلا عمامة »^(٣) - العرف ،
فاسمها العرف عمامة ، قل أو أكثر . . حصلت به الفضيلة ، وما لا . . فلا .

ونحو القلنسوة لا يحصل فضيلة العمامة المذكورة ؛ لأنها لا تسمى عمامة . انتهى .

وفي « دَرِّ الْعَمَامَةِ » له ، ما يوافق ما سبق عن « التحفة » ، ونصه بعد نحو ما سبق عنها : (ويؤخذ من ذلك : أن
لبس القلنسوة البيضاء يُغني عن العمامة ، وبه يتأيد ما اعتاده بعض مدن (اليمن) من ترك العمامة من أصلها) .
اه .

(١) لحديث ابن عباس رضي الله عنهما : « البسوا البياض فإنها خير ثيابكم » ، أخرجه أبو داود (٣٨٧٨) في الطب ، والترمذي (٩٩٤) وقال : حسن
صحيح ، وابن ماجه (١٤٧٢) في الجنائز .

(٢) قال العلامة السيد محمد جعفر الكتاني في كتابه « الدعاة لمعرفة أحكام الإمامة » (ص / ٨٦) : فصل : ولبس عليه الصلاة والسلام العمامة السوداء في عدة
مواطن كما ورد التصريح بذلك في عدة أحاديث ، أخرج أحمد ومسلم والأربعة والترمذي في « الشامل » وابن سعد وابن أبي شيبة ، والحرث ابن
أبي أسامة وأبو القاسم البغوي وابن عدي وغيرهم عن جابر بن عبد الله الأنصاري ، وابن أبي شيبة عن ابن عمر ، وأبو بكر بن أبي الحرث عن أنس أن
رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل مكة ، وفي رواية : دخل يوم فتح مكة وعليه عمامة سوداء .

(٣) أخرج الحافظ في « لسان الميزان » (٢٤٤ / ٣) عن ابن عمر رضي الله عنهما : « صلاة بعمامة تعدل خمسا وعشرين صلاة بلا عمامة . . » .

وكانت الكبراءُ تمتازُ بعمائمها ، وما سَمِيَ الزُّبْرَقَانُ إلا لامتيازِهِ بصفرةِ العمامةِ .

وكان سعيدُ بنُ العاصِ ، المكتني بأبي أحيحةَ ، إذا اعتَمَّ بـ (مكةَ) . . لم يعتَمَّ أحدٌ بلونِ عمامتِهِ ؛ إعظاماً لَهُ ، وفيه يقولُ أبو قيسِ بنِ الأسَلْتِ [في «ديوانهِ» ٨٨-٨٩] :

[من الوافر]

وَكَانَ أَبُو أَحِيحَةَ قَدْ عَلِمْتُمْ بِمَكَّةَ غَيْرَ مُهْتَضَمٍ دَمِيمٍ
إِذَا شَدَّ الْعِصَابَةَ ذَاتَ يَوْمٍ وَقَامَ إِلَى الْمَجَالِسِ وَالْحُصُومِ
فَقَدْ حَرَمْتَ عَلَيَّ مَنْ كَانَ يَمْشِي بِمَكَّةَ غَيْرَ مُدْخَلٍ سَقِيمٍ^(١)

وكانتِ الفرسانُ تتقنُ ، ما عدا أبي تميمِ بنِ طريفٍ ، فإنه لا يبالي أن يُعرفَ .

وكانَ التقنُ من شيمِ الأشرافِ ، يقصدونَ بذلكَ مباينةَ العامةِ ، ويقولونَ : إنَّ من وطئتهُ الأعينُ . . وطئتهُ الأرجلُ .
والأصحُّ عندنا : عدمُ ندبِ التحنيكِ في العمامةِ .

وذكرتِ العمامةُ لأبي الأسودِ ، فقال [في «البيان والتبيين» ١/٤٣٦] : هي جنةٌ في الحربِ ، ومكنةٌ في الحرِّ ، ومدفأةٌ في القَرِّ ، ووقارٌ في الندى ، وزيادةٌ في القامةِ ، وتعظيمٌ للهامةِ .

وكانتِ عمائمُ الأكثرينَ من مشايخنا ، إلى الكبرِ أقربُ منها إلى الصغرِ ، ولا معابةٌ في شيءٍ من ذلكَ ؛ لأنَّ العادةَ قد اضطربتُ ، والأحوالُ قد اختلفتُ ، فما بشيءٍ من الحالينِ إزراءٌ ، ولا خروجٌ عن العادةِ ، وإنني واللهِ قلما أذكرُ غررهم الباهرةَ ، وعمائمهم الزاهرةَ . . إلا خطرَ بذهني ما همُّ الأحقُّ بهِ ، من قولِ الشاعرِ [في «المستطرف» ١/٤٩٦] :

[من الوافر]

إِذَا لَبَسُوا عَمَائِمَهُمْ طَوَّوْهَا عَلَيَّ كَرِمٍ وَإِنْ سَفَرُوا أَنْارُوا

أمَّا اليومُ : فتكبيرُ العمامةِ يكادُ يعدُّ من الإزراءِ المكروهِ ، أو المحرِّمِ ، على ما في ذلكَ من التفصيلِ المذكورِ في أبوابِ الشهاداتِ من الفقهِ ، وما رأيتُ عيني أحسنَ لفاً لها ، من أهلِ (تريم) حرسها اللهُ تعالى .

وأنكرَ بعضهم لفظَ (العِمَّةِ) بمعنى العمامةِ ، وقالَ : إنما هو اسمٌ للهيئةِ فقط ، وإنِّي لأتعبُّبُ من ذلكَ ، مع شهرةِ استعمالهِ بينَ العلماءِ ، ومنهم الجاحظُ ، والظنُّ بهم أن لا يتواتروا على الغلطِ ، بل كثيراً ما طرَّقَ سَمْعِي ، لفظَ (العِمَّةِ) بمعنى العمامةِ في شيءٍ من أشعارِ القدماءِ ، لا يحضرُني منها الآنُ إلا قولُ دريدٍ [في «ديوانهِ» ١١٠] :

[من البسيط]

عَارِي الْأَشَاجِعِ مَعْصُوبٌ بِعِمَّتِهِ أَمْرُ الزَّعَامَةِ ، فِي عُرْنِيهِ شَمَمٌ

على أنَّي لستُ متأكِّداً من كونهِ بهذا اللفظِ ؛ لأنَّ الحفظَ يخونُ .

[من الرجز]

وقال الفرزدقُ يهجو :

قُبِّحَتِ الْعَيْنَانِ تَحْتَ الْعِمَّةِ

[من الرجز]

فقال المهجوُ :

بَلْ قُبِّحَ الْهَاجِي وَنَاكَ أُمَّه

* * *

(١) «البيان والتبيين» (١/٤٣٥) ، المدخلُ : الدعوى الذي يدخلُ في القومِ .

أَكَارِمٌ حَسَدَ الْأَرْضِ السَّمَاءِ بِهِمْ وَقَصَّرَتْ كُلُّ مِصْرٍ عَن طَرَابُلُسٍ

[شرح المطلع]

(أَكَارِمٌ) : جَمْعُ أَكْرَمٍ ، كَأَفْضَلِ جَمْعِ الْأَفْضَلِ ، يَقُولُ : بِوَجُودِهِمْ فِي الْأَرْضِ حَسَدَتْهَا السَّمَاءُ ، وَلَوْ أَنَّهُ قَالَ : (حَسَدَتْ) بِالتَّأْنِيثِ ، وَ(قَصَّرَتْ) بِالتَّذْكِيرِ . . لَكَانَ أَوْلَى ؛ لِأَنَّ التَّأْنِيثَ فِي السَّمَاءِ أَكْثَرُ فِيهَا مِنَ التَّذْكِيرِ ، وَفِي «شَمْسِ الْعُلُومِ» لِلْقَاضِي نَشْوَانَ بْنِ سَعِيدٍ : كُلُّ مَوْثِقٍ بِلا عِلْمَةٍ تَأْنِيثٌ ، يَجُوزُ تَذْكِيرُهُ ، كَالسَّمَاءِ ، وَالْأَرْضِ ، وَالشَّمْسِ ، وَالنَّارِ ، وَالْقَوْسِ ، وَهِيَ فَائِدَةٌ جَلِيلَةٌ . قَالَ شَارِحُ «الْقَامُوسِ» : وَرَدَّ عَلَيْهِ شَيْخُنَا ، وَقَالَ : هَذَا كَلَامٌ غَيْرُ مَعْوَلٍ عَلَيْهِ ، عِنْدَ أَرْبَابِ التَّحْقِيقِ ، وَلِيَرْجِعَ النَّاطِرُ إِلَى مَادَّةِ (سَمَا) مِنْهُ ؛ لِيَحِيطَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْبَحْثِ .

[أيهما أفضل الأرض أم السماء ؟]

وَقَدْ اخْتَلَفَ فِي الْمَفَاضِلَةِ بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، فَفَضَّلَ الْأَوْلَى قَوْمٌ ؛ لِأَنَّهَا مُسْتَقَرُّ الْأَنْبِيَاءِ ، وَمَدْفُنُهُمْ ، وَفَضَّلَ الثَّانِيَةَ الْكَثِيرُونَ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُعْصِ اللَّهُ فِيهَا ، وَمَعْصِيَةُ إِبْلِيسَ نَادِرَةٌ ، أَوْ لَمْ تُكُنْ فِيهَا ، مَعَ الْإِتِّفَاقِ عَلَى أفضَلِيَةِ الْبَقْعَةِ الَّتِي ضَمَّتْ جَسَدَ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، بَلِ ادَّعَى ابْنُ حَجَرٍ : الْإِجْمَاعَ عَلَى أفضَلِيَّتِهَا عَلَى الْعَرْشِ وَالْكَرْسِيِّ .

وَالْحَقُّ : أَنَّهُ قَوْلٌ مَوْلَدٌ ، فَادَّعَاءُ الْإِجْمَاعِ عَلَيْهِ ، مِنْ أَظْهَرِ الْأَعْلَاطِ ، كَمَا نَبَّهَ عَلَيْهِ الْكَرْدِيُّ ، وَقَرَّرْتُهُ فِي كِتَابِي : «الْفَوَائِدُ الْجَنِّيَّةُ» ، وَأُلْحِقَ بِمَدْفَنِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَائِرُ مَدَافِنِ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ، كَمَا قَرَّرَهُ بَعْضُهُمْ ، وَأَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ يَفْضَلُونَ (مَكَّةَ) عَلَى (الْمَدِينَةِ) ، خِلا تِلْكَ الْبَقْعَةِ الشَّرِيفَةِ ، وَخَالَفَهُمْ إِمَامُ دَارِ الْهَجْرَةِ ، فَجَزَمَ بِتَفْضِيلِ (الْمَدِينَةِ) ^(١) . وَبَيْتُ النَّاطِمِ نَاطِرٌ إِلَى بَعْضِ ذَلِكَ ، وَإِلَى قَوْلِ زَهِيرٍ :

[من البسيط]

تَنَافَسُ الْأَرْضُ مَوْتَاهُمْ إِذَا دُفِنُوا كَمَا تَنَافَسَ عِنْدَ الْبَاعَةِ الْوَرَقُ
كَأَنَّ أَحْرَهُمْ فِي الْجُودِ أَوْلُهُمْ إِنَّ الشَّمَائِلَ فِي الْأَخْلَاقِ تَتَقَبَّقُ

[تفاخر الأماكن والأعضاء على بعضها]

وَقَدْ تَكَرَّرَ نَظِيرُهُ عِنْدَ النَّاطِمِ ، فَمِنْهُ قَوْلُهُ فِي «الْعُكْبَرِيِّ» ٢٠٦ / ٢ :

[من المتقارب]

وَإِنَّ الْفِتَاءَ الَّتِي حَوْلَهُ لَتَحْسُدُ أَرْجُلَهَا الْأَرْؤُسُ ^(٢)

[من الخفيف]

وقوله [في «العكبري» ٩٩ / ٤] :

خَيْرُ أَعْضَانِنَا الرُّؤُوسُ وَلَكِنْ فَضَلَتْهَا بِقَصْدِكَ الْأَقْدَامُ

(١) أي : مالكٌ مستدلاً بقوله صلى الله عليه وسلم : « المدينة خير البقاع » و « المدينة خير من مكة » رواه عن رافع بن خديج الطبراني والدارقطني في « الأفراد » كما في « الجامع الصغير » (٩١٨٥) .

(٢) الفتام : الجماعات .

وقوله [في «المكبري» ٤٨/٢] :

[من الخفيف]

كُلُّ أَيَّامٍ عَامِهِ حُسَّادُهُ

عَظَمْتُهُ مَمَالِكُ الْفُرْسِ حَتَّى

وقوله [في «المكبري» ٣٣٤/١] :

[من الكامل]

لَوْ كَانَ مِثْلَكَ فِي سِوَاهَا يُوجَدُ

أَرْضٌ لَهَا شَرَفٌ سِوَاهَا مِثْلَهَا

وقوله [في «المكبري» ٧٥/١] :

[من الوافر]

عَلَيْهِ تَحْسُدُ الْجِدَقُ الْقُلُوبُ

فَإِنِّي قَدْ وَصَلْتُ إِلَى مَكَانٍ

وقوله [في «المكبري» ١١٥/١] :

[من البسيط]

وَالْخَيْلُ تَحْسُدُ مِنْهَا أَيُّهَا رَكِبَا

وَتَقْبِطُ الْأَرْضُ مِنْهَا حَيْثُ حَلَّ بِهِ

وقوله [في «المكبري» ١٤٦/١] :

[من البسيط]

مُقَابِلَانِ وَلَكِنْ أَحْسَنَّا الْأَدْبَا
وَإِنْ صَعِدْتَ إِلَى ذَا . . مَالِ ذَا رَغْبَا
إِنِّي لَا بُصِيرُ مِنْ شَأْنَيْكُمَا عَجَبَا

الْمَجْلِسَانِ عَلَى التَّمْيِيزِ بَيْنَهُمَا
إِذَا صَعِدْتَ إِلَى ذَا . . مَالِ ذَا رَهْبَا
فَلِمَ يَهَابُكَ مَا لَا حِسَّ يَرُدُّعُهُ ؟!

وقوله [في «المكبري» ٢٤٦/٣] :

[من الوافر]

مَعَ الْأَوْلَى بِجِسْمِكَ فِي قِتَالٍ^(١)

لَقَدْ ظَلَلْتُ أَوَاخِرَهَا الْعَوَالِي

وقوله [في «المكبري» ٣٨٢/٢] :

[من الطويل]

نُفُوسٌ لَسَارَ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ نَحْوَكَا

تَحَاسَدَتِ الْبُلْدَانُ حَتَّى لَوْ أَنَّهَُا

وقوله [في «المكبري» ٢٦٨/٤] :

[من البسيط]

جَعَلَتْ فِيهِ عَلَى مَا قَبْلَهُ تِيهًا^(٢)

إِذَا حَلَلْتَ مَكَانًا بَعْدَ صَاحِبِهِ

وَلَا يَبْعُدُ عَنْهُ أَيْضًا قَوْلُهُ [في «المكبري» ٢٨٦/١] :

[من الطويل]

وَحَتَّى يَكُونَ الْيَوْمَ لِلْيَوْمِ سَيِّدَا

هُوَ الْحَظُّ حَتَّى تَفْضَلَ الْعَيْنُ أُخْتَهَا

وَقَالَ حَبِيبُ بْنُ أَوْسٍ [وهو أبو تَمَامٍ فِي «ديوانه» ٩٩/٢] :

[من الكامل]

تُثْرِي كَمَا تُثْرِي الرَّجَالَ وَتُعْدِمُ

وَإِذَا تَأَمَّلْتَ الدِّيَارَ رَأَيْتَهَا

وقال [في «ديوانه» ٣٦٢/١] :

[من المنسرح]

وَيُكْثِرُ الْوَجْدَ نَحْوَهُ الْأَمْسُ

يَشْتَاقُهُ مِنْ كَمَالِهِ غَدُهُ

(١) المعنى : أقامت أعالي ثيابك التي تظهر للناس تحسدا الأقرب من جسدك وهي التي تباشر جسدك ، فيبينها قتالاً لذلك .

(٢) التيه : التكبر والفخر .

وقال البُحرِيُّ لَمَّا جَاءَ وَفَدَّ الرُّومَ إِلَى عِنْدِ المَتَوَكِّلِ [في «ديوانه» ١٥٩٨/٣] : [مِنَ الكَامِلِ]

وَيَوَدُّ قَوْمَهُمُ الأَلَى بَعَثُوا بِهِم
قَدْ نَافَسَ الغَيْبَ الحُضُورُ عَلَى الَّذِي
لَوْ ضَمَّهُم بِالأَمْسِ ذَاكَ المَخْفَلُ
شَهِدُوا ، وَقَدْ حَسَدَ الرَّسُولَ المُرْسِلُ

وقال ابن الرومي : [مِنَ البَسيطِ]

تَنَافَسَ النَّاسُ فِي أَيَّامِ دَوْلَتِهِ
فَمَا يَبِيعُونَ سَاعَاتِ بِأَعْوَامِ

وقال آخرُ : [مِنَ الطَّويلِ]

تَنَافَسَتِ الأَيَّامُ فِيَّ وَلَمْ تَزَلْ
عَلَى حَسَدٍ مِنْ أَجْلِ ذَاكَ وَأَحْقَادِ

وقال المعريُّ [في «سقط الزند» ٢٢١] :

يُنَافِسُ يَوْمِي فِيَّ أَمْسِي تَشْرِفًا
وَتَحْسُدُ أَبْكَارِي عَلَيَّ الأَصَائِلُ^(١)

وقال ابن الفارض [في «ديوانه» ١٤٩] :

يَا سَائِرًا بِالقَلْبِ غَدْرًا كَيْفَ لَمْ
بَعْضِي يَغَارَ عَلَيْكَ مِنْ بَعْضِي وَيَحْ
تُبِعُهُ مَا غَادَرْتَهُ مِنْ سَائِرِي ؟
سُدُّ بَاطِنِي إِذْ أَنْتَ فِيهِ ظَاهِرِي

وقلتُ في رثاءِ العَلامَةِ الجليلِ ، السَيِّدِ أَحْمَدَ بنِ حَسَنِ العَطَّاسِ ، ما هُوَ الغَايَةُ في المَوْضُوعِ ، وَهُوَ [كما في «ديوان المؤلف» ٧٦ ق] :

وَأُدْرِجَ فِي ثُوبِ مِنَ القُطْنِ أَضْمَرْت
لَهُ حَسَدًا فِي نَفْسِهَا الحُلُلُ الخُضْرُ

على أَنَّهُ فَوْقَ ذَلكَ ، مِثَالٌ مِنْ أمثلةِ الاتِّسَاعِ البَدِيعِيِّ ؛ إِذْ يَحْتَمِلُ أَنْ يُرَادَ بِـ (الحُلُلُ الخُضْرُ) الَّتِي كَانَتْ يَلْبَسُهَا فِي الدُّنْيَا ، أَوِ الَّذِي تَنْتَظِرُهُ فِي الجَنَّةِ ، أَوِ القِسْمَانِ ؛ إِذْ لا مَانِعَ مِنْ حَمَلِ المِشْتَرِكِ عَلَيَّ مَعْنِيهِ .

[ذكاء الفضل بن الربيع وهو صغير]

ويُحْكِي : أَنَّ الرَّشِيدَ قالَ لِلْفَضْلِ بنِ الرَّبِيعِ - وَهُوَ صَغِيرٌ - : دارُنَا أَحْسَنُ أَمْ دارُكُمْ ؟ فقالَ لَهُ : إِذا كُنْتَ فِي دارِنَا . . . فدارُنَا أَحْسَنُ ، وَإِذا كُنْتَ فِي دارِكَ . . . فَهِيَ أَحْسَنُ ، وَكانَ فِي يَدِهِ خاتَمٌ ، فقالَ لَهُ : أَرَأَيْتَ أَحْسَنَ مِنْ هَذا ؟ قالَ : الأَصْبَعُ الَّذِي هُوَ فِيهِ .

ويروى نظيره للفتح بن خاقان .

وقال بعضهم : [مِنَ الطَّويلِ]

فَمَا أَحْسَنَ الدُّنْيَا وَفِي الدَّارِ خَالِدُ
وَأَقْبَحَهَا لَمَّا تَجَهَّزَ خَالِدُ

وقال العلويُّ : [مِنَ الخَفِيفِ]

إِنَّمَا الدَّارُ بِالحُلُولِ فَإِنْ هُمْ
فَارَقُوهَا فَحَيْثُ حَلُّوا الدِّيَارَا

(١) الأصائل : جمع أصيل ، وهو آخرُ النهارِ .

وقال سليمانُ الحاربيُّ :

[مِن الطَّوِيلِ]

إِذَا لَمْ تَكُنْ لَيْلَىٰ بِنَجْدٍ تَغَيَّرَتْ مَحَاسِنُ دُنْيَا أَهْلِ نَجْدٍ وَطَيْبُهَا

[مِن : الخفيفِ]

وَأَلَمَ صَاحِبُنَا بِبَعْضِ ذَلِكَ فَقَالَ [فِي « الْعُكْبَرِيِّ » ١ / ٣٤]

نَزَلَتْ إِذْ نَزَلَتْهَا الدَّارُ فِي أَحْسَنَ مِنْهَا مِنَ السَّنَا وَالسَّنَاءِ^(١)

* * *

(١) السنا : الضياءُ والنورُ . السناءُ : العلوُّ والرفعةُ .

المجلس الثاني عشر

قال أبو الطيب المتنبي في « العكبري » ٢ / ٣٣٢ :

[مِنَ الكَامِلِ]

أَرْقُ عَلَيَّ أَرْقٍ وَمِثْلِي يَأْرُقُ
وَجَوَى بَزِيدُ وَعَبْرَةٌ تَتَرَقَّرُقُ

[شرح المطلع]

(الأرق) : امتناع النوم ، و(الجوى) : الحزن الذي يستبطن الإنسان ، فيكون في حشاه ، و(العبرة) : تردّد الدمع في العين .

يقول : لي شهادٌ بعدَ سهادٍ ، ومن كان مثلي . . فلا بدّ له من السهادِ ، إلاّ أنّه قصرَ هنا ، بما يفهمه سياقُ كلامه من انحصارِ سهادِهِ على الهوى ، ولو أنّه جعله له وللمجد . . لكان أشرفَ وأجملَ .

[السهر والأرق من أجل الهوى ومن أجل المجد]

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقد قال حافظٌ :

لِحَاظِكَ وَالْأَيَّامُ جَيْشٌ أَعَالِيهِ
فَهَلْذِي مَوَاضِيهِ وَهَلْذِي كِتَابِيهِ
وَهَمَّيْنِ ضَاقَ الْقَلْبُ وَالصَّدْرُ عَنْهُمَا
غَرَامٌ أَعَانِيهِ وَعَيْشٌ أَعَالِيهِ

غير أنّه لو أبدلَ لفظةَ (العيش) ، بلفظةَ الدهرِ . . لكانَ أفخرَ وأكبرَ ؛ لما تجلّبهُ الأولى مِنَ الضَّعَةِ ، والمعنى مأخوذٌ من قولِ سهلِ بنِ هارونَ :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

تَقَاسَمَنِي هَمَّانٌ قَدْ كَسَفَا بَالِي
فِرَاقُ خَلِيلٍ مِثْلُهُ يَنْعَثُ الْأَسَى
وَقَدْ تَرَكَ قَلْبِي مَحَلَّةً بَلْبَالٍ^(١)
وَحَاجَةٌ حِلٌّ لَا يَقُومُ بِهَا مَالِي

ولي في مثله الكثيرُ الطيبُ ، غير أنّي لا أثقلُ به .

[منشأ الهموم وترادف الغموم من كبر الهمّة]

وقد تكررَ في « ديوانِ الناظمِ » ما يشيرُ إلى نشأةِ الهمومِ ، وترادفِ الغمومِ ، عن كُبرِ الهمّةِ ، وطموحِ النفسِ في طلبِ العُلا ، كقوله [في « العكبري » ١ / ١٨٠] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

لَحَا اللَّهُ ذِي الدُّنْيَا مُنَاخَا لِرَاكِبٍ
فَكُلُّ بَعِيدِ الْهَمِّ فِيهَا مُعَذَّبٌ^(٢)

(١) البلبالُ : الهمُّ الذي يَنكَلجُ الصَّدْرَ .

(٢) لحا الله : قَبِحَ ولعنَ ، وأصله من لَحَوْتُ العودَ إذا قَشَرْتَهُ .

وقوله [في « العُكْبَرِيُّ » ٣/ ٣٤٥] :

[مِنَ الْخَفِيفِ]

وَإِذَا كَانَتِ النَّفْسُ كِبَارًا تَعَبَتْ فِي مُرَادِهَا الْأَجْسَامَ

وقوله [في « العُكْبَرِيُّ » ٢/ ٢٢] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَأَتَعَبُ خَلَقَ اللهُ مَنْ زَادَ هُمُهُ وَقَصَّرَ عَمَّا تَشْتَهِي النَّفْسُ وَجُدُهُ^(١)

إِلَّا أَنَّهُ خَضَعَ فِي هَذَا لِبَعْضِ الْقَوْلِ ؛ إِذْ صَرَّحَ بِأَنَّهُ لَمْ يَتَعَبْ مِنْ كِبَرِ الْهَمَّةِ إِلَّا لِقَلَّةِ الْمَالِ ، وَقَضِيَّتُهُ أَنْ لَا مَطْمَحَ لَهُ وَرَاءَ حَاصِلِهِ ، فَهُوَ نَقِيضُ قَوْلِهِ [في « العُكْبَرِيُّ » ٢/ ٣٠] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَمَا رَغَبْتِي فِي عَسَجِدِ اسْتَفِيدُهُ وَلَكِنَّهَا فِي مَفْخَرِ اسْتَجِدُّهُ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقوله [في « العُكْبَرِيُّ » ١/ ٢٠٠] :

إِذَا نِلْتُ مِنْكَ الْوُدَّ فَالْكَلُّ هَيِّنٌ وَكُلُّ الَّذِي فَوقَ الثَّرَابِ تُرَابٌ

[مِنَ البِسيطِ]

وقوله [في « العُكْبَرِيُّ » ١/ ١٧٤] :

تَهْوِي بِمُنْجَرِدٍ لَيْسَتْ مَذاهِبُهُ لِلْبُئْسِ ثَوْبٍ وَمَأْكُولٍ وَمَشْرُوبٍ

وما أَكْثَرَ ما يَتَنَاقَضُ قَوْلُهُ ، كما ذَكَرنا غيرَ مرَّةٍ ، وكَلِّمًا ادَّعى غيرَ ما في نَفْسِهِ . . ظَهَرَ على فِلَتَاتِ لِسَانِهِ ، وَقَدْ صَرَّحَ الْمُخَضَّ^(٢) عَنِ الزَّيْدِ ، فِي مِثْلِ قَوْلِهِ [في « العُكْبَرِيُّ » ١/ ١٨٢] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

إِذَا لَمْ تَنْطُ بِبِي ضَيْعَةً أَوْ وِلايَةً فَجُودُكَ يَكْسُونِي وَفَضْلُكَ يَسْلُبُ^(٣)

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقوله [في « العُكْبَرِيُّ » ٢/ ١١٤] :

هُمَا خَلَّتَانِ : ثَرْوَةٌ أَوْ مَنِيَّةٌ لَعَلَّكَ أَنْ تَبْقِيَ بِوَاحِدَةٍ ذِكْرًا^(٤)

[مِنَ الْخَفِيفِ]

وقوله [في « العُكْبَرِيُّ » ١/ ٣٢٠] :

ضَاقَ صَدْرِي وَطَالَ فِي طَلَبِ الرِّزِّ قِيَامِي وَقَلَّ عَنْهُ قُعُودِي

[اضحك على الحريص !!]

فَتَجَلَّى فِي غيرِ شَبْهَةٍ ، أَنَّهُ لَا يَرِيدُ مِنَ الْإِمَارَةِ غيرَ الْمَالِ ، وَبِهِ يَتَأَكَّدُ ما أَثَّرَ عَنْهُ مِنَ شِدَّةِ الْحَرِصِ ، إِلَى حَدِّ أَنْ بَعْضُ الْأَمْرَاءِ أَجَازَهُ بِمَالٍ كَثِيرٍ ، فَنَشِبَ مِنْهُ دَانِقٌ فِي الْحَصِيرِ ، فَمَا زَالَ يَعْالِجُهُ ، وَيَتَمَثَّلُ بِقَوْلِ قَيْسِ بْنِ الْخَطِيمِ [في « ديوانه » ٣٥] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

تَبَدَّتْ لَنَا كَالشَّمْسِ تَحْتَ غَمَامَةٍ بَدَأَ جَانِبٌ مِنْهَا وَضَنَّتْ بِجَانِبِ

وَلَمْ يَنْفَكْ حَتَّى دَمِيَتْ أَظْفَرُهُ .

(١) الْوُجُدُ : السَّعَةُ .

(٢) الْمُخَضَّ : تَحْرِيكُ اللَّيْنِ فِي الْمُخَضَّةِ . وَهِيَ وَعَاءٌ يَوْضَعُ فِيهِ اللَّيْنُ وَيَحْرَكُ كَيْ يَسْتَخْرَجَ زُبْدًا .

(٣) تَنْطُ : تَعَلَّقَ . الضَّيْعَةُ : الْبَلَدَةُ أَوْ الْقَرْيَةُ ، وَالْمَعْنَى : إِذَا لَمْ تَقْطَعْني ضَيْعَةً . . فَجُودُكَ يَكْسُونِي ، وَشَغْلُكَ عَنِّي يُذْهِبُ عَنِّي تِلْكَ الْكِسْوَةَ .

(٤) الْمَعْنَى : هُمَا خَصْلَتَانِ : إِمَّا الْغِنَى أَوْ الْمَوْتُ ، فَانْهَضْ إِمَّا لَتَكْسِبَ الْمَالَ أَوْ لَتَقْتَلَ الْأَعْدَاءَ .

ورأيتُ في بعضِ الكتبِ : أَنَّ كسرىَ أكرمَ بعضَ رعيّتهِ بمالٍ طائلٍ ، ولمّا احتملَهُ ، وما كادَ إلّا بجهدٍ . . سقطَ منه درهمٌ ، فتكلّفَ أخذهُ مِنَ الأرضِ بعناءٍ ومشقةٍ ، فعاتبهُ الملكُ ، وقالَ لَهُ : ألمَ يغنكَ الذي معكَ ؟ فهلّا تركتهُ ينتفعُ بهِ أحدُ الخدمِ ، وتسلمُ منَ تعبِ القعودِ والقيامِ ، معَ الحِمْلِ الثقيلِ ؟ قالَ : يا مولاي ، ما بي حرصٌ على شيءٍ معَ فئانك ، ولكن لم تطب نفسي بامتهانِهِ على الأرضِ ساعةً ما ، وعليه اسمُ الملكِ ، فاستحسنها وأضعفَ الجائزةَ ، وأمرَ من يحملها معه .

[تعليل المتنبّي لسبب حرصه]

ويذكرُ عَنِ الناظمِ : أَنَّهُ كَانَ يعللُ حرصَهُ بقصّةٍ ، حاصلها : أَنَّهُ وردَ (الكوفةَ) في صباهُ ، ومعهُ خمسةُ دراهمٍ في مندبلٍ ، فرأى باكورةً بطيخٍ ينادى عليها ، فدفعَ فيها الخمسةَ الدراهمِ ، فلم يرضها البائعُ ، حتّى مرَّ أحدُ الوجهاءِ ذاهباً إلى دارِهِ ، فوثبَ إليه صاحبُ البطيخِ ، وقالَ : يا مولاي ، باكورةٌ بطيخٍ ، أحمله بإجازتك إلى دارِكَ ، قالَ : بكم ؟ قالَ : بخمسةِ دراهمٍ ، فقالَ الوجيهُ : بل بثلاثةٍ ، فباعَ عليه ، وحملها إلى دارِهِ ، ودعا له ، وانقلبَ مسروراً من نفسه بما فعلَ ، قالَ المتنبّي : فقلتُ لَهُ : يا هذا ، ما رأيتُ أحقّ منك ، أعطيتكَ فيه خمسةَ دراهمٍ ، ثمّ تبعهُ بثلاثةٍ ، وتحمله فوقَ ذلكِ إلى منزلِ المشتري ، فقالَ : اسكتْ ، أما تدرى أَنَّهُ يملكُ مئةَ ألفِ دينارٍ ؟! فلا أزالُ على ما نرونَ من الحرصِ ، حتّى يسمعَ الناسُ بأنَّ عندي مئةَ ألفٍ ، هذا ما يذكرونَ عنه ، وهو لا يشرفُهُ ، ولا يبرزُ عمله ، وإنّما يدُلُّ على أَنَّهُ صاحبُ زهوٍ وبأوٍ ، يحاولُ أن يتحصّلَ على المنزلةِ الجوفاءِ من قلوبِ السقاطِ والغوغاءِ ، وإنّما يظهرُ بعدُ الهمةَ ، وشرفُ النفسِ ، من مثلِ قولِ امرئِ القيسِ [في « ديوانه » ١٦٧] :

وَلَوْ أَنَّمَا أَسَعَى لِأَدْنَى مَعِيشَةٍ كَفَانِي - وَلَمْ أَطْلُبْ - قَلِيلٌ مِنَ الْمَالِ
وَلَكِنَّمَا أَسَعَى لِمَجْدٍ مُؤَثَّلٍ وَقَدْ يُذْرِكُ الْمَجْدَ الْمُؤَثَّلَ أَمْثَالِي

[مِن الطَّوِيلِ] وقولِ جرثومةَ بنِ مالكٍ :

فَتَى إِنْ تَجِدُهُ مُعْوِزاً مِنْ تِلَادِهِ فَلَيْسَ مِنَ الرَّأْيِ الْأَصِيلِ بِمُعْوِزٍ

والناظمُ كثيراً ما يرضى غيرَ ماشيتهِ ، ويحطُّ في حبلِ غيرهِ ، ويتظاهرُ بعدِ الهمةِ ، والاستهانةِ بالمالِ ، فيقولُ [في « المُكَبَّرِي » ٢٧٨/٣] :

وَمَا شَكَرْتُ لِأَنَّ الْمَالَ فَرَحَنِي سِيَّانٍ عِنْدِي إِكْثَارٌ وَإِقْلَالٌ^(١)

[مِن الطَّوِيلِ] لكنَّ الطبعَ أغلبُ ، والعادةُ أملكُ ، وهو القائلُ [في « المُكَبَّرِي » ١٩/٢] :

وَأَسْرَعُ مَفْعُولٍ فَعَلْتَ تَغْيِراً تَكَلَّفُ شَيْءٍ فِي طِبَاعِكَ ضِدَّهُ

فهو متكلّفٌ في دعواه طلبَ المجدِ الصحيحِ ، والشرفِ الصريحِ ، صادقٌ إذا أشارَ إلى أنَّ معقدَ العزِّ ، ومطمحَ المجدِ عندهُ ، حيازةُ مئةِ ألفٍ ، وتلك سبيلٌ ليسَ فيها بأوحدٍ ، كما بيّناه في المجلسينِ السادسِ والثالثِ عشرِ ، ومنه قولهُ [في « المُكَبَّرِي » ٢٣/٢] :

فَلَا مَجْدَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ وَلَا مَالَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَجْدُهُ

(١) السيان : المثلاث .

وقولُ هرمِ بنِ عميرِ التغلبيِّ [في «البيان والتبيين» ٤٢/١] :

[مِنَ البسيطِ]

وَاجْتَا حَ مَا بَيَّتِ الأَيَّامُ مِنْ خَطَرِي
كَالقَوْسِ عَطَلَهَا الرَّامِي مِنْ الوَتَرِ

إِنِّي امْرُؤٌ هَدَمَ الإِقْتَارُ مَاثِرَتِي
أَرْوَمَةٌ عَطَلْتَنِي مِنْ مَكَارِمِهَا

وقولُ الأحنفِ [في «البيان والتبيين» ٣٥٧/١] :

[مِنَ المتقاربِ]

لِمَنْ لَمْ يَكُنْ مَالُهُ فَاضِلاً

وَإِنَّ المُرُوَّةَ لَا تُسْتَطَاعُ

[مِنَ الطويلِ]

أَرَى صَالِحَ الأَخْلَاقِ لَا أَسْتَطِيعُهَا
وَذِي رَحِمٍ مَا كُنْتُ مِمَّنْ يُضِيعُهَا

إِلَى اللهِ أَشْكُو لَا إِلَى النَّاسِ أَنَّنِي
أَرَى خَلَّةً فِي إِخْوَةٍ وَقَرَابَةٍ

وقولُ غيره :

وفي هذينِ شَبَّهَ من ناحيةٍ بما سبقَ عن سهلِ بنِ هارون^(١) .

[للأرق سبب آخر وهو : الخوف]

ثُمَّ إِنَّ الأَرَقَ تَارَةً يَكُونُ عَن مَجْرَدِ الهَوَى ، كما في البيتِ الذي نتكلَّمُ عليه ، وكما مرَّ الإطنابُ فيه من المجلسِ الأوَّلِ .

[مِنَ المنسرحِ]

وإمَّا أَنْ يَكُونَ من الخوفِ ، كما سبقَ في شرحِ قولِهِ [في «العُكْبَرِيُّ» ٣٠٨/١] :

أَصْبَحَ حُسَّادُهُ وَأَنْفُسُهُمْ
يُحْدِرُهَا خَوْفُهُ وَيُضِعُّهَا

[أو المجد]

وإمَّا أَنْ يَكُونَ في سبيلِ المجدِ ، كما ذكرنا بعضُهُ أو آخرَ المجلسِ السابعِ .

[أو غير ذلك]

[مِنَ الطويلِ]

وإمَّا لغيرِ ذلكِ ، فالأسبابُ كثيرةٌ ، ويدخلُ في القسمِ الأوَّلِ قولُ ابنِ الأحنفِ [في «ديوانهِ» ٢٨٣] :

عَنِ النَّوْمِ إِنَّ الهَجَرَ عَنْهُ نَهَانِي
صِفَا النَّوْمِ لِي إِنْ كُنْتُمْ تَصِفَانِ
وَلَا عَهْدَ لِي بِالنَّوْمِ مُنْذُ زَمَانِ

قَفَا خَبْرَانِي أَيُّهَا الرَّجُلَانِ
وَكَيفَ يَكُونُ النَّوْمُ ، أَمْ كَيْفَ طَعْمُهُ ؟
وَإِنِّي لَمُشْتَأِقٌ إِلَى النَّوْمِ فَاعْلَمَا

وقولُهُ [في «ديوانهِ» ١٣٣] :

[مِنَ الخفيفِ]

أَوْ صِفُوهُ فَقَدْ نَسِيتُ النَّهَارَا

حَدَّثُونِي عَنِ النَّهَارِ حَدِيثَا

[مِنَ الوافرِ]

وَلَيْلِي مَا يَقَرُّ مِنَ الشَّهَادِ
وَلَوْ أَسْتَطِيعُ كُنْتُ لَهُنَّ حَادِي^(٢)

وقيلَ لأُمِّ الهيثمِ ابنةِ الأسودِ : ما حالكِ ؟ فقالتَ :

تَجَافَى مَضْجَعِي وَنَبَا رُقَادِي
أُرَاقِبُ فِي السَّمَاءِ بَنَاتِ نَعَشِ

(١) في بداية هذا المجلس .

(٢) بناتُ نعشٍ : سبعةُ كواكبٍ ، أربعةٌ منها نعشٌ ، وثلاثُ بناتُ .

وقال ابن دريد [في «ديوانه» ٧٤] :

[من الطويل]

لَقَدْ أَلْفَتُ دُهُمُ النُّجُومِ رِعَايَتِي فَإِنْ غَبْتُ عَنْهَا فَهِيَ عَنِّي تُسَائِلُ
يُقَابِلُ بِالتَّسْلِيمِ مِنْهُنَّ طَالِعُ وَيُومِيءُ بِالتَّوَدِيعِ مِنْهُنَّ أَفْلُ

ولي في الموضوع الجم المبارك، الذي لا بأس أن أذكر منه مطلع قصيدة نبوية، وهو [في «ديوان المؤلف» ١٥٨] : [من الكامل]

طَفِقْتُ تَعْيِيرُ أَذْهَمِي بِحِرَانِهِ وَهِيَ الَّتِي أَمَرْتُ بِغَضِّ عِنَانِهِ^(١)
أَنْسَى يَشِيبُ غُرَابُ لَيْلِ مُتَيْمٍ ظَلَعْتُ جِيَادُ الشُّهْبِ فِي مَيْدَانِهِ^(٢)

ويدخل في الثالث كل ما جاء في فضيلة قيام الليل، ومنه قوله تعالى : ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ [الذاريات : ١٧] .

وقوله : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ [الإسراء : ٧٩] .

وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَرْءُ * فِرَّ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [المزمل : ٢-١] .

وقوله : ﴿ نَتَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ [السجدة : ١٦] .

[من الطويل]

وقول ابن رواحة [في «ديوانه» ٩٦] :

وَفِينَا رَسُولُ اللَّهِ يَتْلُو كِتَابَهُ إِذَا انشَقَّ مَعْرُوفٌ مِنَ الْفَجْرِ سَاطِعُ
يَبِيتُ يُجَافِي جَنْبَهُ عَن فِرَاشِهِ إِذَا اسْتَقَلَّتْ بِالْمُشْرِكِينَ الْمَضَاجِعُ

[من الخفيف]

وقال ابن المعتز [في «ديوانه» ١٠٤/١] :

أَنَا مَنْ تَعَلَّمُونَ أَشْهَرُ لِلْمَجْدِ إِذَا غَطَّ فِي الْفِرَاشِ اللَّيْمُ

[من الهزج]

وقال كشافم [في «ديوانه» ٤٨٦] :

تَرَكْتُ النَّوْمَ لِلنُّوَا مِ إِشْفَاقًا عَلَى عُمَرِي

[من الطويل]

وقال غيره [ابن نباتة في «قرى الضيف» ٤٥٨/٢] :

وَمَنْ سَهَرَتْ فِي الْمَكْرُمَاتِ جُفُونُهُ رَعَى طَرْفُهُ فِي جَوْفِهَا أَنْجَمَ الْعَلَا

[هجاء المتقاعسين عن المجد والسمو]

[من الطويل]

ولا يتجافى عن المبحث الذي نخوض فيه، قول أبي دلف :

وَلَيْسَ فَرَاعُ الْقَلْبِ مَجْدًا وَرَفَعَةً وَلَكِنَّ شُغْلَ الْقَلْبِ لِلْمَرْءِ رَافِعُ
وَذُو الْمَجْدِ مَحْمُولٌ عَلَى كُلِّ آلَةٍ وَكُلُّ قَصِيرِ الْهَمِّ فِي الْحَيِّ وَادِعُ^(٣)

(١) الغضُّ : التقيصُ . والعنانُ : حبلٌ يثبت في اللجام .

(٢) طلعُ : عرج في مشيه . الشهبُ : النجومُ . والمعنى : لا أمل في انقضاء الليل إذا كانت نجومه لا تتحرك إلا ببطء كأنها لا تريد السير ، أو كأن جياهما عرجت في الميدان فلا تستطيع السبق .

(٣) وادعُ : لم يكلف نفسه أدنى مشقة .

وقولُ الصاحبِ [في «ديوانه» ٢٨٠] :

[مِنَ الْمُتَقَارِبِ]

وَأَمْرُكَ مُنْتَشِلٌ فِي الْأُمَمِ ؟
فَإِنَّ الْهُمُومَ بِقَدْرِ الْهِمَمِ

وَقَائِلَةٌ : لِمَ عَرَّتَكَ الْهُمُومُ
فَقُلْتُ : اتْرُكِينِي عَلَى حَالَتِي

وقال آخرُ :

[مِنَ الْكَامِلِ]

وَتَظَلُّ مُعْتَكِفًا عَلَى الْأَفْدَاحِ
خُلِقُوا لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ وَكَفَّاحِ

لَيْسَ الْمُرُوءَةُ أَنْ تَبِيَّتَ مُنْعَمًا
مَا لِلرَّجَالِ وَلِلتَّنْعَمِ إِنَّمَا

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وسمعَ بعضهم أعرابيةً ، تحتُ ابنها على الدعة والإقامة ، فقال :

وَمَطَعَمَهُ فَالْخَيْرُ مِنْهُ بَعِيدُ

إِذَا مَا الْفَتَى لَمْ يَبْغِ إِلَّا لِبَاسَهُ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقال حاتمٌ [في «ديوانه» ٨٣] :

مِنَ الْعَيْشِ أَنْ يَلْقَى لُبُوسًا وَمَطَعَمًا

لَحَا اللَّهُ صُغْلُوكًا مُنَاهُ وَهَمُّهُ

[مِنَ الْبَسِيطِ]

ولمَّا قالَ الحطيئةُ في الزبرقانِ بنِ بدرٍ [في «ديوانه» ٥٠] :

وَأَقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرْحَلْ لِبُعْيَيْهَا

.. شكاهُ إلى عمرَ بنِ الخطابِ ، فقالَ [في «الأغاني» ١٧٨/٢] : ما أرى بذلكَ بأسًا ، فقالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ، إنَّه جحدني ما ابتنيتهُ من المفاخرِ ، فسألَ حسنًا - لا عن قلةِ معرفةٍ بمغزى الكلامِ ، ولكنهُ يحاولُ أن يدرأَ العقابَ للشبهةِ - فقالَ لهُ حسنًا : ما هجأه ، ولكنهُ سلحَ عليه^(١) ، فاعتقلهُ بعقبِ ذلكَ ، كما هو مشهورٌ .

[مِنَ الْوَافِرِ]

وقالَ أبو تمامٍ في الهجاءِ [في «ديوانه» ١٤٦/٢] :

بُؤِ الْهِمَمِ الْهَوَامِدِ وَالنَّفُوسِ الْخَوَامِدِ وَالْمُرُوءَاتِ النَّيَامِ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقالَ الناظمُ [في «المكبري» ٢٣/٢] :

وَمَرْكُوبُهُ رِجْلَاهُ وَالشُّوبُ جِلْدُهُ

وَفِي النَّاسِ مَنْ يَرْضَى بِمَيْسُورِ عَيْشِهِ

[مِنَ الْوَافِرِ]

وقالَ [في «المكبري» ٣٥٥/١] :

وَكَمْ هَذَا التَّمَادِي فِي التَّمَادِي
بِيَيْعِ الشُّعْرِ فِي سُوقِ الْكَسَادِ^(٢)

إِلَى كَمْ ذَا التَّخْلُفُ وَالتَّوَانِي
وَشُغْلُ النَّفْسِ عَنِ طَلَبِ الْمَعَالِي

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقالَ ابنُ حيَّوسٍ [في «ديوانه» ٣٥] :

فَظَلَّ عَلَى أَحْدَائِهِ يَتَعَتَّبُ^(٣)
صَلَاحًا كَمَا يَلْتَدُّ بِالْحَكِّ أَجْرَبُ

وَلَسْتُ كَمَنْ أَخْنَى عَلَيْهِ زَمَانُهُ
تَلَدُّ لَهُ الشُّكُورَى وَإِنْ لَمْ يُفَدِّ بِهَا

(١) سلحَ عليه : تنجَّى عليه وتعوَّطَ .

(٢) بيعُ الكسادِ : هو أن يعرضَ البائعُ السلعةَ لمشتريِّ كارِهٍ لها ، فلا يبدلُ فيها ثمنَ مثلها .

(٣) أخنى عليه الزمان : إذا مالَ عليه وأهلكه .

وَلَكِنِّي أَحْمِي ذِمَارِي بِعَزْمَةٍ

تَنُوبُ مَنَابَ السَّيْفِ وَالسَّيْفُ مِقْضَبٌ^(١)

وقال عروة بن الورد [في «ديوانه» ٧٠-٧٣] :

لَحَا اللَّهُ صُغْلُوكَا إِذَا جَنَّ لَيْلُهُ
يَعْدُ الْغِنَى مِنْ نَفْسِهِ ، كُلَّ لَيْلَةٍ
يَنَامُ عِشَاءً ثُمَّ يُصْبِحُ نَاعِسًا
وَلَكِنَّ صُغْلُوكَا صَفِيحَةً وَجْهَهُ
مُطْلَأٌ عَلَى أَعْدَائِهِ يَزْجُرُونَهُ
وَإِنْ قَعَدُوا لَا يَأْمُنُونَ اقْتِرَابَهُ
فَذَلِكَ إِنْ يَلْقَى الْمَنِيَّةَ يَلْقَهَا

مَشَى عَارِي الْمَتْنَيْنِ فِي كُلِّ مَجْزِرٍ^(٢)
أَصَابَ قِرَاهَا مِنْ صَدِيقِي مُيَسِّرٍ^(٣)
يَحُثُّ الْحَصَى عَنْ جَنْبِهِ الْمُتَعَفِّرِ
كَضَوْءِ شَهَابِ الْقَابِسِ الْمُتَنَوِّرِ^(٤)
بِسَاحَتِهِمْ زَجَرَ السَّنِيحِ الْمُشَهَّرِ^(٥)
تَشَوْفُ أَهْلَ الْغَائِبِ الْمُتَنْظِرِ
حَمِيداً وَإِنْ يَسْتَغْنِي يَوْمًا فَأَجْدِرِ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

[العاقل نعب والجاهل مستريح]

وما زالت رجالات العز مقسمة الأفكار ، مبلبله الخواطر ، منغصة العيش ، من حيث استراح صغار النفوس ، وتنسم العيش سفلة الخلق ، وقد قلت من قصيدة [في «ديوان المؤلف» ٣٢] :

[مِنَ البسيط]

وَهَكَذَا كُلُّ صِنْدِيدٍ تُعَاكِسُهُ
فَاضْرِبْ بِطَرْفِكَ أَنِّي شِئْتُ تَلْقَى أُولِي
تَلْقَى اللَّتَامَ اللَّيَالِي وَهِيَ بِاسِمَةٍ
وَأَنْظُرْ إِلَى حَالِ خَيْرِ الْمُرْسَلِينَ وَمَا
وَإِثْرُهُ بِنْتُهُ مَاتَتْ بَغْضَتِهَا
وَالْمُرْتَضَى بَعْدَهُ مَا زَالَ فِي مَحْنٍ

أَيَامُهُ وَيَفُورُ الْفَسْلُ بِالطَّيْبِ^(٦)
وَالْأَكْرَمِينَ بِتَغْيِيسٍ وَتَقْطِيبِ
لِقَائِهِ فِي اللَّهِ مِنْ حَرْبٍ وَتَكْذِيبِ
سُحَّتْ عَلَيْهَا الْأَذْيَابُ بِالشَّائِبِ^(٧)
وَمُوجَعَاتٍ وَأَيَّامٍ غَرَائِبِ^(٨)

[أشد الناس بلاء من هم ؟]

وقد سبق في غير هذا المجلس كثير من أنينه ، كرم الله وجهه ، وعته على زمانه وأهله ، وما كانت الشهادة التي فاز بها من يد أشقى الآخرين . . . إلا نعمة له من الله وكرامة ، وخلصاً من المحنة ، وعافية من البلاء ، فالزمان عادتُه امتحان الأحرار ؛ لما في ذلك من صالحهم ، وعلو درجاتهم ، ومن ثم كان : « أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الأمثل

(١) ذمار الرجل : كل شيء يلزمه الدفع عنه ، وإن ضيعه . . لزمه الذم ؛ أي : اللوم . مقضب : قاطع .

(٢) المجزر : الموضع الذي تجزر فيه الإبل ، فهو الدهر في موضع مأكول .

(٣) الميسر : الذي أقبل خير شائه . والمعنى : إذا ملأ بطنه عدو غنى ولم يبال ما وراءه من عياله وقرابته .

(٤) وجه مضمخ : سهل حسن .

(٥) السنيح : طير كانت تنشأ من العرب منه .

(٦) الفسل : الرديء الرذيل .

(٧) سح الماء : اشتد انصبابه . الشؤبوب : الدفعة القوية من المطر .

(٨) المرتضى : سيدنا علي كرم الله وجهه . الغرابيب : جمع غريب ، وهو شديد السواد .

فَالْأَمْتَلُ»^(١) ، وَ اللَّهِ دَرُّ الْبُوصِيرِيِّ فِي قَوْلِهِ [فِي هَمَزَيْتِهِ وَفِي « دِيَوَانِهِ » ٨] :

لَا تَخَلْ جَانِبَ النَّبِيِّ مُضَامًا حِينَ مَسَّتَهُ مِنْهُمْ الْأَهْوَاءُ
كُلُّ أَمْرٍ نَابَ النَّبِيَّ فَاَلشُّدَّةُ فِيهِ مَحْمُودَةٌ وَالرَّخَاءُ
لَوْ يَمَسُّ النَّضَارَ هُونٌ مِنَ النَّارِ رَلَمَا اخْتِيرَ لِلنُّضَارِ الصَّلَاةُ^(٢)

وَقَدْ : (كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يُوَعِّكُ كَمَا يُوَعِّكُ الرَّجُلَانِ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ)^(٣) ، وَفِي « الصَّحِيحِ » : « إِنَّ
الْمُؤْمِنَ مِثْلَ الْحَامَةِ مِنَ الرَّزَعِ ، تُفِيئُهَا الرِّيحُ يَمِينًا وَشِمَالًا ، وَإِنَّ الْمُنَافِقَ مِثْلَ الْأُرْزَةِ ، لَا يَبْضُرُهَا شَيْءٌ حَتَّى تَنْجِعَفَ
مَرَّةً »^(٤) .

وَجَاءَ : أَنَّهُ خَطَبَ امْرَأَةً مِنْ (حَضْرَمُوتَ) ، كَانَتْ مَشْهُورَةً بِالْجَمَالِ ، فَقَالَ لَهُ أَبُوهَا : وَأَزِيدُكَ أَنَّهَا لَمْ تَتَوَجَّعْ فِي
عَمْرِهَا أَبَدًا ، قَالَ : « لَا حَاجَةَ لِي بِهَا »^(٥) ، وَأَرَادَ عَامِلُ أَبِي بَكْرٍ بِ(حَضْرَمُوتَ) أَنْ يَتَزَوَّجَهَا ، فَهَاهُ عَنِ ذَلِكَ .

وَأَخْرَجَ الْحَاكِمُ [فِي « الْمُسْتَدْرَكِ » ١/٤٨٨] عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ ، وَصَحَّحَهُ ، وَوَافَقَهُ الذَّهَبِيُّ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ : أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِأَعْرَابِيٍّ : « هَلْ أَخَذْتِكَ أُمَّ مِلْدَمٍ ؟ »^(٦) ، قَالَ : مَا وَجَدْتُ حَرَّهَا قَطُّ ، قَالَ : « فَهَلْ أَخَذَكَ
الصَّدَاعُ ؟ » ، قَالَ : مَا وَجَدْتُهُ قَطُّ ، فَلَمَّا وَلَّى . . . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى
رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ . . . فَلْيَنْظُرْ هَذَا » .

وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « لَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ ، فِي نَفْسِهِ ، وَمَالِهِ ، وَوَلَدِهِ ، حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَمَا عَلَيْهِ
خَطِيئَةٌ »^(٧) .

وَقَالَ أَبُو تَمَّامٍ [فِي « دِيَوَانِهِ » ٢/١٤٧] :

فَإِنْ يَكُنْ وَصَبٌ قَاسَيْتُ سَوْرَتَهُ فَالْوَرْدُ حِلْفٌ لِلَيْثِ الْغَابَةِ الْأَضْمِ^(٨)

وَقَالَ [الْبُحْتَرِيُّ فِي « دِيَوَانِهِ »] :

وَمَا الْكَلْبُ مَحْمُومًا وَإِنْ طَالَ عُمُرُهُ وَلَكِنَّمَا الْحُمَى عَلَى الْأَسَدِ الْوَرْدِ

(١) أَخْرَجَ نَحْوَهُ عَنْ سَعْدِ رَضِيِّ اللَّهِ عَنْهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٤٠٠) فِي الزَّهْدِ ، وَابْنُ مَاجَةَ (٤٠٢٣) فِي الْفِتَنِ وَفِيهِ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً ؟ قَالَ :

« الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ . . . » قَالَ التِّرْمِذِيُّ : هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ . وَفِي الْبَابِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَخْتِ حَدِيْفَةَ وَفَاطِمَةَ .

(٢) الصَّلَاةُ : الْوَضْعُ عَلَى النَّارِ . النَّضَارُ : الْخَالِصُ مِنْ جَوْهَرِ التَّيْرِ وَالْخَشْبِ .

(٣) أَخْرَجَهُ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْبُخَارِيُّ (٥٦٤٨) فِي الْمَرْضِيِّ ، وَمُسْلِمٌ (٢٥٧١) فِي الْبِرِّ وَالصَّلَةِ وَفِيهِ : « أَجَلٌ ، إِنْ أُوعِكَ كَمَا يُوَعِّكُ رَجُلَانِ
مِنْكُمْ . . . » .

(٤) تَنْجِعَفُ : تَنْقَلِعُ . وَأَخْرَجَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُسْلِمٌ (٢٨٠٩) ، وَعَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ (٢٨١٠) فِي صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ بِالْفَافِظِ مُتَقَابِرَةٍ .

(٥) وَجَاءَ فِي « السِّيَرَةِ » : أَنَّ الْقَائِلَ لَهُ ذَلِكَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَبَدَلَ عَلَيْهِ : حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَ ابْنِ حِبَانَ فِي « صَحِيحِهِ » (٢٩٠٧) : « مَنْ
يُرِدُ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُصَبِّ مِنْهُ » بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ وَقَوْلُهُ عَنْهُ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ (٥٦٤١) فِي الْمَرْضِيِّ : « لَا يَصِيبُ الْمَرْءَ الْمُؤْمِنَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنَ وَلَا أَدْنَى
حَتَّى الشُّوْكَةَ يَشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ عَنْهَا بِهَا خَطِيئَاتِهَا » .

(٦) أُمَّ مِلْدَمٍ : الْحُمَى ، وَهُوَ أَيْضًا فِي « كَنْزِ الْعَمَالِ » (٦٧١٤) وَ(٨٦٤٢) عِنْدَ ابْنِ جُرَيْرٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(٧) أَخْرَجَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْحَاكِمُ فِي « الْمُسْتَدْرَكِ » (١/٤٩٧) ، وَذَكَرَهُ فِي « كَنْزِ الْعَمَالِ » (٦٨٤٦) ، وَزَادَ نَسْبَهُ لِأَحْمَدَ وَهَنَّادَ وَابْنَ حِبَانَ
وَالْبَيْهَقِيَّ .

(٨) الْوَصْبُ : الْمَرْضُ . سَوْرَتُهُ : حِدَّتُهُ . الْوَرْدُ : الْحُمَى . الْأَضْمُ : الْغَضْبَانُ .

[لمن يتسم الزمان ؟]

إنما يتسم الزمان لصغار الهمم ، وباعة الذمم ، وزمناء المروءة ، وخبيثاء النفوس .

ولله درُّ بعضهم في قوله :

[مِن السَّرِيعِ]
مَنْ يَرْجُ بِالْفَضْلِ نَجَاحاً يُمُتْ جُوعاً وَلَوْ كَانَ بَدِيعَ الزَّمَانِ^(١)
وَمَنْ يَقْدُ أَوْ يَتَمَسَّخَرُ يَعِشْ عَيْشاً رَخِيئاً فِي ظِلَالِ الْأَمَانِ

وقال الناظم فيما يشبهه من ناحية ، وهو يتعلّق بما سبق ، من اقتران التعب بعلوّ الهمة [في «المكبري» ٢/ ٢٦٩] : [مِن الكَامِلِ]

تَصْفُو الْحَيَاةَ لِجَاهِلٍ أَوْ غَافِلٍ عَمَّا مَضَى مِنْهَا وَمَا يُتَوَقَّعُ
وَلِمَنْ يُعَالِطُ فِي الْحَقَائِقِ نَفْسَهُ وَيَسُومُهَا طَلَبَ الْمُحَالِ فَتَطْمَعُ

هذا ، والميدان واسع ، والشوط بطين ، ويكفي من العقد ما أحاط بالجميل ، والمناسبات لأمثاله كثير ، فلندع لكل موضع ما يناسبه ، ممّا يفتح الله به علينا فيه .

[زيادة الحب !!]

أنا قوله : (وَجَوَى يَزِيدُ) . . فيكاد أن يكون عكس قوله الماضي [في «المكبري» ١/ ٣٢٥] :

[مِن الكَامِلِ]
أَقْصِرْ فَلَسْتَ بِزَائِدِي وُدّاً بَلَغَ الْمَدَى وَتَجَاوَزَ الْحَدّاً

إذ الودُّ والجوى من باب واحد يدخلان ، وإلى متعلّق واحد يرجعان ، ولكنه مثل قوله [في «المكبري» ٢/ ٤] : [مِن الطَّوِيلِ]

وَلَكِنَّ حُبّاً خَامَرَ الْقَلْبَ فِي الصَّبَا يَزِيدُ عَلَيَّ مَرَّ الزَّمَانِ وَيَشْتَدُّ

وقوله [في «المكبري» ٢/ ٧٢] :

[مِن المنسرحِ]
زَيْدِي أَدَى مُهَجَّتِي أَرَدَكَ هَوَى فَأَجْهَلُ النَّاسِ عَاشِقٌ حَاقِدٌ

وقال في مدح أبي العشائر وهو ممّا يقرب ممّا نحن فيه [في «المكبري» ٤/ ٢٦٥] :

[مِن المنسرحِ]
إِنْ كَانَ فِيمَا نَرَاهُ مِنْ كَرَمٍ فِيكَ مَزِيدٌ فَزَادَكَ اللَّهُ

وقوله عن سيف الدولة [في «المكبري» ٣/ ٣٤٨] :

[مِن الخفيفِ]
كُلَّمَا قِيلَ قَدْ تَنَاهَى أَرَانَا كَرَمًا مَا اهْتَدَى إِلَيْهِ الْكِرَامُ

وهو من قول البحتري [في «ديوانه» ٢/ ٦٧٢] :

[مِن الطَّوِيلِ]
طُوبُ لَأَقْصَى غَايَةٍ بَعْدَ غَايَةٍ إِذَا قِيلَ يَوْمًا قَدْ تَنَاهَى تَزِيدَا

وقول أبي تمام [في «ديوانه» ٢/ ١٣١] :

[مِن الكَامِلِ]
خَدَمَ الْعُلَا فَخَدَمْنَهُ وَهِيَ الَّتِي لَا تَخْدُمُ الْأَقْوَامَ مَا لَمْ تُخْدَمِ

(١) بديع الزمان : هو أحمد بن الحسين الهمداني ، أبو الفضل ، أحد الأئمة الكتاب ، وهو صاحب «المقامات» توفي سنة : (٣٩٨ هـ) .

فَإِذَا ارْتَقَى فِي قَلْبِهِ مِنْ سُؤْدِدٍ قَالَتْ لَهُ الْأُخْرَى : بَلَغْتَ تَقَدَّمَ^(١)

وهو من قوله جل ذكره : ﴿فَإِذَا فَرَعْتَ فَأُنْصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ [الانشراح : ٧-٨] .

[حتى الجود يزداد]

وأفضل عبيدُ الله بنُ عباسٍ على بعض العربِ من حيث لا يعرفهُ ، فقالَ له : إن لم تكنِ ابنَ العباسِ . . فإنَّكَ خيرٌ منه ، وإن كنته . . فأنتَ اليومَ خيرٌ منك أَمْسٍ .

[من الوافر]

وللهِ درُّ أعشى همدانَ في قوله لبعضِ بني أميَّة [كما في «الأغاني» ١٨/١٤٠] :

وَجَدْتُكَ أَمْسٍ خَيْرَ بَنِي مَعَدٍّ وَأَنْتَ الْيَوْمَ خَيْرٌ مِنْكَ أَمْسٍ
وَأَنْتَ غَدًا تَزِيدُ الْخَيْرَ ضِعْفًا كَذَلِكَ تَزِيدُ سَادَةَ عِبْدِ شَمْسٍ

[من المتقارب]

غيرَ أنَّ الناظِمَ عكسَ هذا المعنى في قوله البارِدِ [في «العُكْبَرِيِّ» ١/٣٦٨] :

وَيُقَدِّمُ إِلَّا عَلَيَّ أَنْ يَفِرَّ وَيَقْصِرُ إِلَّا عَلَيَّ أَنْ يَزِيدَا

* * *

[من الكامل]

[قال أبو الطَّيِّبِ المُنَبِّيُّ في «العُكْبَرِيِّ» ٢/٣٣٢] :

مَا لَاحَ بَرَقٌ أَوْ تَرَنَّمَ طَائِرٌ إِلَّا ائْتَيْتُ وَلِيَّ فُوَادٍ شَيْئٌ

[تذكر الأحياء عند كل ما تقع عليه العين فيعجبها . . من عادة العرب]

(الشَّيْئُ) : المشتاقُ ، يقولُ : إنَّهُ يزيدُ شوقُهُ لِلْمَعَانِ البرقِ ، وتغريدِ الطائرِ ، وتلكَ عادةُ العربِ ، وقلَّما تقعُ عينُ الإنسانِ على ما يعجبه ، أو على ما يشنؤه . . إلاَّ تذكرَ من يحبُّه ؛ ولهذا كانَ صَلَّى اللهُ عليه وآلهِ وسلَّمَ يقولُ : «اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ»^(٢) كَلَّمَا رَأَى مَا يَعْجَبُهُ ، أو يسوؤُهُ ، فقد قالها في أسرِّ أحواله يومَ عرفةَ ، في حَبَّةِ الوداعِ ، حينما رأى كثرةَ المسلمينَ ، واجتماعهم على التوحيدِ ، وقالها يومَ الخندقِ ، وقد رأى شدةَ ما بهم من الجَهْدِ والجوعِ .

[من الطويل]

وللهِ درُّ القائلِ [أبو شغب السعدي في «البيان والتبيين» ١/٥٣٩] :

يُذَكِّرُنِيهِمْ كُلُّ خَيْرٍ رَأَيْتُهُ وَشَرٌّ فَمَا أَنْفَكَ مِنْهُمْ عَلَيَّ ذُكْرٍ

[أحب شيء للعرب الغيث . . فلذا يتذكرون به الأحياء]

وأحبُّ ما يكونُ إلى العربِ الغيثُ ؛ فلهذا يتذكرون به الأحياءَ ، ويحِبُّونَ عندهُ إلى الأوطانِ ، ويتمنَّونه حتَّى لِرَمَمِهِمْ وأمواتِهِمْ ، وإن كانَ لا يُسْمِنُهُمْ ولا يُغْنِيهِمْ من جوعٍ ، غيرَ أَنَّهُمْ يحِبُّونَ لَهُمْ ما يحبونَ لأنفسِهِمْ ، وذلكَ بهم

(١) القلَّةُ : رأسُ كُلِّ شيءٍ . السؤددُ : المجدُّ والسيادةُ .

(٢) أخرجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه مسلم (١٨٠٥) ، وعن سهل بن سعد رضي الله عنه عند مسلم (١٨٠٤) في (الجهاد) .

منتهى الأمانى ، وقد قالَ شاعرُهُم [في «ديوان الشريف الرضي» ١/ ٢٩١] :

وَمَا السُّقْيَا لِتَبْلُغَهُ وَلَكِنْ أَحْسَنُ لَهَا بَرَاداً فِي فُؤَادِي

فَأَمَّا أَهْلُ الْحَاضِرَةِ إِذَا وَصَفُوا الرُّعُودَ وَالبُرُوقَ ، وَذَكَرُوا الأَغْوَارَ وَالنُّجُودَ . فَإِنَّمَا هُوَ التَّكَلُّفُ وَالاِجْتِلَابُ ، وَلَعَلَّ أَحَدَهُمْ لَا يَحْفَلُ بِالمَطَرِ ، وَلَا يَبَالِي بِالغَيْثِ ، وَلَا يَسْأَلُ عَنِ الأَنْوَاءِ ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَى السَّحَابِ ، وَلَا يَعْرِفُ رُكُوبَ الجَمَلِ .

[ومن عادتهم التذکر عند لمح البرق]

ومن أحسن ما في التذکر بالبرق قولُ نصيبٍ [في «الأغاني» ١/ ٢٢٦] :

وَدِدْتُ - وَلَمْ أُخْلَقْ مِنَ الطَّيْرِ - كُلَّمَا بَدَا بَارِقٌ نَحْوَ الحِجَازِ أَطِيرُ

وقالَ أحدُ بني كلابٍ :

هَوَى نَاقَتِي حَلْفِي وَقَدَامِي الهَوَى هَوَى حِجَازِي وَتَنَنِي زَمَامَهَا تَحَنُّنٌ فَبُئِدِي مَا بِهَا مِنْ صَبَابَةٍ

وقالَ أعرابيٌّ آخرُ :

رَمَى قَلْبَهُ البَرْقُ اليَمَانِي رَمِيَةً فَهَلْ مِنْ مُعِيرٍ طَرْفَ عَيْنِ خَلِيَّةٍ ؟

وقد سبقَ ذكرُ البيتِ الثانيِ منهما ، في غيرِ هذا المجلسِ .

وقالَ آخرُ [في «البيان والتبيين» ١/ ٣٧٥] :

سَرَى البَرْقُ مِنْ أَرْضِ الحِجَازِ فَشَاقِنِي فَوَاكِبِي مِمَّا أَلَقِي مِنَ الهَوَى

وقالَ الأَحْوَصُ [في «ديوانه» ١٢٤-١٢٧] :

أَقُولُ بِعَمَّانَ وَهَلْ طَرَبِي بِهِ وَلِلْعَيْنِ أَسْرَابٌ تَفِيضُ كَأَنَّمَا أَصَاحُ أَلَمْ تُحْزِنِكَ رِيحُ مَرِيضَةٍ فَإِنَّ الغَرِيبَ الدَّارِ مِمَّا يَشُوقُهُ

(١) طربي : اهتزازي شوقاً . سلعٌ : جبلٌ بـ (المدينة) . تشوّفتُ : تناولتُ ناظراً إلى البعيدِ . والمعنى : أسألُ نفسي وأنا في (عمّان) هل ينعني مدُّ نظري نحوَ جبلِ سلعٍ ، مهترأً من الشوقِ إلى أهلهِ !؟ .

(٢) تُعَلُّ : يقدّم لها الشرابُ ثانيةً . تنهلُ : يقدّم لها للمرة الأولى . الصابُ : عصارةُ شجرٍ مرٍّ .

(٣) العقيقانُ : موضعانِ بـ (المدينة) ، العقيقُ الأكبرُ فيه بئرٌ عروءة ، والعقيقُ الأصغرُ فيه بئرٌ رومة التي اشتراها عثمانُ بنُ عفّان رضي الله عنه وأوقفها على المسلمين .

لَعَمْرُ ابْنَةِ الزَّيْدِيِّ إِنَّ ادَّكَارَهَا
وَقَدْ كُنْتُ أَبْكِي - وَالنَّوَى مُطْمَئِنَّةٌ

وقال آخر [وهو مجنون ليلى في «ديوانه» ٣٠٣] :

عَلَى كُلِّ حَالٍ لِلْفُؤَادِ لَرَائِعُ
بِنَا وَيَكُم - مِنْ عِلْمِ مَا الْبَيْنُ صَانِعُ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

لَبْرِقِ يَمَانٍ فَاقْعُدَا عَلَّانِيَا
سَقِيمِينَ لَمْ أَفْعَلْ كَفَعَلِكُمَا بِيَا

خَلِيلِيَّ إِنِّي قَدْ أَرَقْتُ وَنَمْتُمَا
خَلِيلِيَّ لَوْ كُنْتُ الصَّحِيحَ وَكُنْتُمَا

وقال يعلى بن مسلم الأزدي ، وقد طال مكثه بـ (مكة) عند أميرها ، نافع بن علقمة الكناني [في «الأغاني» ١٥٢/٢٢ -

[مِنَ الطَّوِيلِ]

: [١٥٣]

لَدَى نَافِعِ قُضِيْنَ مُنْذُ زَمَانٍ
وَلَكِنَّ بَرْقًا بِالْحِجَازِ دَعَانِي
وَنَضْوَايَ مِنْ شَوْقِي بِهَا أَرْقَانِ^(١)
مُبَرَّدَةً بَاتَتْ عَلَيَّ طَهْيَانِ^(٢)

أَلَا لَيْتَ حَاجَاتِي اللَّوَاتِي حَبَسْتَنِي
وَمَا بِي بَغْضٌ لِلْأَمِيرِ وَلَا قَلِي
فَبْتُ لَدَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ أَشِيمُهُ
فَلَيْتَ لَنَا مِنْ مَاءِ حَمَّانٍ شَرْبَةً

[مِنَ الْوَافِرِ]

وقال ابنُ دريدٍ [في «ديوانه» ٩٠] :

سِوَاكَ عَلَيَّ الصَّبَابَةَ مِنْ مُعِينِ
وَمَا يَخْلُو الْمُتَيْمُ مِنْ حَيْنِ

أَيَا بَرْقِ الْعَقِيْقِ أَقِمْ فَمَا لِي
أَحْنٌ إِلَيَّ الْعَقِيْقِ وَسَاكِينِهِ

[مِنَ الْوَافِرِ]

وقال جريزٌ [في «ديوانه» ٨١٣/٢] :

هَوَى مَا تَسْتَطِيعُ لَهُ طِلَابَا

وَهَاجَ الْبَرْقُ لَيْلَةً أَذْرَعَاتِ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقال أبو عبادة [في «ديوانه» ٨٤٣/٢] :

جَرَى مُسْتَهْلٌ لَا بَكِيٌّ وَلَا نَزْرُ^(٣)

مَتَى لَاحَ بَرْقٌ أَوْ بَدَا طَلَلٌ قَفْرُ

[مِنَ الْبَسِطِ]

والمعنى متكررٌ عند الناظم ، منه قوله [في «العكبري» ٢٢٢/٤] :

وَلِلْمُحِبِّ مِنَ التَّذْكَارِ نَيْرَانَا^(٤)

تُهْدِي الْبَوَارِقُ أَخْلَافَ الْمِيَاهِ لَكُمْ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقال المعريُّ [في «سقط الزند» ٢٨٢] :

بِيَعْدَادَ وَهْنًا مَا لَهْنٌ وَمَالِي؟^(٥)

طَرِبْنِ لِضَوْءِ الْبَارِقِ الْمُتَعَالِي

(١) أشيمه : أنظره ، وأصل الشيم : النظر إلى البرق .

(٢) الحممان : عنب طانفي صغير الحب وأرض مخمئة كثيرة . الطهيان : قلة الجبل ، أي : رأسه .

(٣) المستهل : الدمع الفياض . البكي : القليل الماء .

(٤) الأخلاف : الضروع ، واستعار لها أخلاقاً ؛ لأنها تغذي النبات كما تغذي الأم بالإرضاع ولدها .

(٥) الوهن : مقدار ثلث الليل الأول . مالهن ومالي : استفهام غرضه التوجع .

وقال [في «سقط الزند» ١٠٣] :

[مِن الوافر]

سَرَى بَرْقُ الْمَعْرَةِ بَعْدَ وَهْنِ
شَجَا رَكْبًا وَأَفْرَاسًا وَإِنْلَا
فَبَاتَ بِرَامَةٍ يَصِفُ الْكَلَالًا^(١)
وَزَادَ فَكَادَ أَنْ يَشْجُو الرَّحَالَ

وقال [في «سقط الزند» ١٠٦] :

[مِن البسيط]

يَا سَاهِرَ الْبَرْقِ أَتَقِظُ رَاقِدَ السَّمْرِ
لَعَلَّ بِالْجِرْعِ أَعْوَانًا عَلَى السَّهْرِ^(٢)

[البكاء لسجع الحمام]

[مِن الوافر]

وَأَمَّا الْبُكَاءُ لِسَجِّ الْحَمَامِ . . فَلَاتُهَا كَمَا قِيلَ : تَنْدُبُ جَدًّا لِمَا هَلَكَ فِي غَابِرِ الزَّمَانِ ، قَالَ النَّابِغَةُ :
بُكَاءَ حَمَامَةٍ تَدْعُو هَدِيلاً
مُفَجَّعَةً عَلَى فَنَنِ تُغْنِي

وقال المعري [في «سقط الزند» ٥٢] :

[مِن الخفيف]

إِيهِ لِهِّ لِهِّ دَرُكُنَّ فَاتَتْهُنَّ اللَّوَاتِي تَصُنَّ عَهْدَ الْوِدَادِ^(٣)
مَا نَسِيْتُنَّ هَالِكًا فِي الْأَوَانِ الْخَالِ أَوْدَى مِنْ قَبْلِ هُلُكِ إِيَادِ

ومن المعلوم أَنَّ الشَّجَا يَبْعَثُ الشَّجَا ، وَأَنَّ كُلَّ حَزِينٍ يَنْتَسِبُ إِلَى الْحَزِينِ ، وَقَدْ قَالَ مَتَّمُّ بْنُ نُورَةَ [في «ديوان الحماسة»

[مِن الطويل]

[٣٣١/١]

لَقَدْ لَامَنِي عِنْدَ الْقُبُورِ عَلَى الْبُكَاءِ
وَقَالُوا : أَتَبْكِي كُلَّ قَبْرِ رَأَيْتَهُ
فَقُلْتُ لَهُمْ : إِنَّ الْأَسَى يَبْعَثُ الْأَسَى
رَفِيقِي لِنَدْرِافِ الدُّمُوعِ السَّوَابِكِ
لِقَبْرِ نَوَى بَيْنَ اللَّوَى وَالذَّكَادِكِ
دَعُونِي فَهَذَا كُلُّهُ قَبْرُ مَالِكِ

وقال حميد بن ثور [في «ديوانه» ٢٤-٢٧] :

[مِن الطويل]

وَمَا هَاجَ هَذَا الشُّوقُ إِلَّا حَمَامَةٌ
بَكَتْ شَجْوًا تَكَلَّى قَدْ أُصِيبَ حَمِيمُهَا
عَجِبْتُ لَهَا أَنَّى يَكُونُ غَنَاؤُهَا
وَلَمْ أَرَ مِثْلِي شَاقَهُ صَوْتُ مِثْلِهَا
دَعَتْ سَاقَ حُرِّ تَرْحَةً وَتَنْدَمًا^(٤)
مَخَافَةَ بَيْنِ يَتْرُكُ الْجَبَلَ أَجْذَمًا^(٥)
فَصِيحًا وَلَمْ تَغْرُبْ بِمَنْطِقِهَا فَمَا
وَلَا عَرِيًّا شَاقَهُ صَوْتُ أَعْجَمًا

وقال أبو تمام [في «ديوانه» ٤٦٣] :

[مِن الوافر]

وَلَمْ أَفْهَمْ مَعَانِيَهَا وَلَكِنْ
شَجَّتْ قَلْبِي فَلَمْ أَجْهَلْ شَجَاهَا

(١) المعرّة: معرّة النعمان وهي بلدة أبي العلاء . رامة: اسم موضع . الكلال: التعب والضعف .

(٢) البرق الساهر: البرق الذي يسهو عليه ، وهذا من باب المجاز . الجرع: موضع .

(٣) إيه: اسم فعل للاستزادة من حديث أو فعل . يقول: إن بنات الهديل - التي أشار إليهن بقوله: أنتنّ؛ أي: الحمام - معروف بالوداد؛ لقول الرواة: بأن فرخ حمام هلك على عهد نوح ، فالحمام تبكي عليه إلى اليوم ، بل إلى يوم القيامة .

(٤) ساق الحر: صوت الحمامة ، أو هو ذكرها .

(٥) الأجدم: المقطوع .

فَكُنْتُ كَأَنْتِي أَعْمَى مُعْنَى

يُحِبُّ الْغَائِيَاتِ وَلَا يَرَاهَا

وقال غيره [في «المدشر» ٢٥٨/٢٥٧] :

[مِنَ الرَّمْلِ]

وَلَقَدْ تَشْكُو فَمَا أَفْهَمَهَا
غَيْرَ أَنِّي بِالْجَوَى أَعْرِفَهَا

وَلَقَدْ أَشْكُو فَمَا تَفْهَمُنِي
وَهِيَ أَيْضاً بِالْجَوَى تَعْرِفُنِي

وقال الشَّمَاخُ يصفُ ناقته [في «ديوانه» ٢٥٦] :

[مِنَ الْبَسِطِ]

تَخْدِي يَدَاهَا وَرِجْلَاهَا عَلَى شَرِكِ
كَادَتْ تُسَاقِطُنِي وَالرَّحْلَ إِذْ نَطَقَتْ

سَحَّ النَّجَاءِ بِهِ مِنْ بَارِقِ بَاقٍ^(١)
حَمَامَةٌ فَدَعَتْ سَاقاً عَلَى سَاقٍ^(٢)

ومكث عوف بن مُحَلِّمٍ ثلاثين سنة عند عبد الله بن طاهر ، لا يُؤذَنُ لَهُ فِي الْعُودِ إِلَى أَهْلِهِ ، فبينما هُوَ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ . . إِذْ سَمِعَ حَمَامَةً ، فَقَالَ [القصة بنحوها في «وفيات الأعيان» ٨٦/٣] :

[مِنَ الطُّوَيْلِ]

وَأَرَقْنِي بِالرِّيِّ صَوْتُ حَمَامَةٍ
عَلَى أَنَّهَا نَاحَتْ وَلَمْ تَذُرْ دَمْعَةً
وَنَاحَتْ وَفَرَّخَاهَا بِحَيْثُ تَرَاهُمَا

فَنُحْتُ وَذُو الشُّوقِ الْقَدِيمِ يُنُوحُ
وَنُحْتُ وَأَسْرَابُ الدُّمُوعِ سُفُوحُ
وَمِنْ دُونِ أَفْرَاحِي مَهَامِهِ فَيُحُ

فَرَّقَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ ، وَقَالَ لَهُ : وَاللَّهِ لَا أَعْمَلْتُ خَفَاءً ، وَلَا حَافِراً ، إِلَّا رَاجِعاً إِلَى أَهْلِكَ ، وَزَوْدَهُ بِثَلَاثِينَ أَلْفاً ، غَيْرَ أَنَّهُ مَاتَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى مَنْزِلِهِ .

[مِنَ الْوَافِرِ]

وممَّا يروى لعروة بن حزام [في «ديوانه» ٣٣] :

أَحَقَّأَ يَا حَمَامَةَ بَطْنِ وَجٍ
عَلَيْتُكَ بِالْبُكَاءِ لِأَنَّ لَيْلِي
وَإِنِّي إِنْ بَكَيْتُ بِكَيْتُ حَقًّا
فَلَسْتُ - وَإِنْ بَكَيْتِ - أَشَدَّ شَوْقاً
فَنُوحِي يَا حَمَامَةَ بَطْنِ وَجٍ

بِهَذَا النَّوْحِ أَنَّكَ تَصُدُقِينَا
أَوْاصِلُهُ وَأَنَّكَ تَهْجَعِينَا
وَإِنَّكَ فِي بَكَائِكَ تَكْذِيبِنَا
وَلَكِنِّي أَسْرُؤُ وَتُعْلِينِنَا
فَقَدْ هَيَّجَتْ مُشْتاقاً حَزِينَا

[مِنَ الطُّوَيْلِ]

وقال قيس بن الملوِّح [في «ديوانه» ٢٣٨] :

كَذَبْتُ - وَبَيْتِ اللَّهِ - لَوْ كُنْتُ صَادِقاً

لَمَا سَبَقْتَنِي بِالْبُكَاءِ الْحَمَائِمُ

[مِنَ الطُّوَيْلِ]

وهو من قول الأَوَّلِ^(٣) [في «شرح مقامات الحريري» ٣٤/١] :

فَلَوْ قَبْلَ مَبْكَاهَا بِكَيْتُ صَبَابَةً
وَلَكِنْ بَكَتْ قَبْلِي فَهَيَّجَ لِي الْبُكَاءُ

يُسْعِدُنِي شَفَيْتُ النَّفْسَ قَبْلَ التَّنَدُّمِ
بُكَاهَا فَقُلْتُ : الْفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ

(١) تخدي : تسرع . سحَّ النجاء : سريعة كأنها تصبُّ الجري صبا ، على التشبيه بالمطر في شدته وسرعة انصبابه .

(٢) الساق الأولى : ذكر الحمام . الساق الثانية : ساق الشجرة .

(٣) قال الشريفي في «شرح مقامات الحريري» (٣٤/١) : البيتان لعدي بن الرقاع ، انظر «الكامل» للمبرِّد (١٢٥/٣) . ولكن قال أبو الحسن الأخفش : الصحيح أن الشعر لنصيب .

وقال ابن الدمينية [في « ديوانه » ١٨] :

[من الطويل]

أَلَا يَا حَمَامَاتِ اللُّوَى عُذْنَ عَوْدَةً
فَعُذْنَ فَلَمَّا عُذْنَ كِذْنَ يُمْتَنِّي
فَلَمْ تَرَ عَيْنِي مِثْلَهُنَّ بَوَاكِيَا
فَأَيُّنِي إِلَى أَصْوَاتِكُنَّ حَزِينُ
وَكِدْتُ بِأَشْجَانِي لَهُنَّ أُبِينُ
بَكَيْنَ وَلَمْ تَذْرِفْ لَهُنَّ عُيُونُ

وقال أيضاً [في « ديوانه » ٢٨-٢٩] :

[من الطويل]

أَلَا يَا صَبَا نَجِدِ مَتَى هَجَتِ مِنْ نَجِدِ
أَأَنْ هَتَفَتْ وَرَفَاءُ فِي رَوْنِقِ الضُّحَى
بَكَيْتُ كَمَا يَبْكِي الْوَلِيدُ وَلَمْ أَكُنْ
وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ الْمُحِبَّ إِذَا دَنَا
بِكُلِّ تَدَاوَيْنَا فَلَمْ يُشَفَّ مَا بَنَا
لَقَدْ زَادَنِي مَسْرَاكِ وَجِدَا عَلَى وَجِدِ
عَلَى فَنَنْ غَضُّ النَّبَاتِ مِنَ الرَّئِدِ^(١)
جَلِيدَا وَأَبْدَيْتُ الَّذِي لَمْ أَكُنْ أَبْدِي
يَمَلُّ وَأَنَّ النَّأْيَ يَشْفِي مِنَ الْوَجِدِ
عَلَى أَنَّ قُرْبَ الدَّارِ خَيْرٌ مِنَ الْبُعْدِ

ولهذه الأبيات قصّة ، حاصلها [كما في « الأغاني » ١٧/١٠٩] : أَنَّهُ كَانَ بَيْنَ إِسْحَاقَ الْمُوصِلِيِّ ، وَالْعَبَّاسِ بْنِ الْأَحْنَفِ ، وَدُوْخَاءَ ، فَكَلَّمَا سَمِعَ أَحَدُهُمَا بَعْجِيْبٍ . . أَتَحَفَ بِهِ الْآخَرَ ، فَجَاءَ الْعَبَّاسُ يَوْمًا ، وَأَنشَدَ الْأَبْيَاتَ هَذِهِ بَيْنَ النَّاسِ ، ثُمَّ تَرَنَحَ تَرَنَحَ النَّشْوَانِ ، وَقَالَ : أَنطَحُ الْعَمُودَ بِرَأْسِي ، فَقَالُوا لَهُ : ارْفُقْ بِنَفْسِكَ .

[صد الدلال من الكمال]

[من الكامل]

وقد تعلق بأذياله في قوله [من شعر العباس بن الأحنف في « ديوانه » ٣٦] :

لَوْ كُنْتُ عَاتِبَةً لَسَكَّنَ خَاطِرِي
لَكِنْ صَدَدَتْ فَلَمْ تَكُنْ لِي حِيلَةً
أَمَلِي رِضَاكِ وَزُرْتُ غَيْرَ مُرَاقِبِ
صَدُّ الْمَلُولِ خِلَافُ صَدِّ الْعَاتِبِ

[من الطويل]

وقال أبو تمام :

وَخَلَصَنِي مِنْ غَمْرَةِ الْمَوْتِ أَنَّهُ
صُدُودُ دَلَالٍ لَا صُدُودَ مَلَالٍ

[مرض الحب لا دواء له]

[من الطويل]

وقال بعض الأعراب ، فيما يشبه قول ابن الدمينية : (بِكُلِّ تَدَاوَيْنَا . .) إِلَى آخِرِ الْبَيْتِ :

خَلِيلِي هَلْ يَشْفِي مِنَ الشُّوقِ وَالْجَوَى
وَيَزْدَادُ فِي قُرْبِ إِلَيْهَا صَبَابَةٌ
دُنُوْ مِنْ الْأَوْطَانِ ؟ لَا بَلْ يَشُوقُهَا
وَيَبْعُدُ مِنْ فَرْطِ اسْتِيَاقِ طَرِيقُهَا

[العاشق تعب على كل حال]

[من الوافر]

وهو مثل قول الآخر [في « خزنة الأدب » ١/٥١] :

وَأَبْرَحَ مَا يَكُونُ الشُّوقُ يَوْمًا
إِذَا دَنَتِ الدِّيَارُ مِنَ الدِّيَارِ

(١) الرند : نبات طيب الرائحة من شجر البادية .

ومنه : أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : « كَانَ إِذَا أَبْصَرَ دَرَجَاتِ الْمَدِينَةِ . . حَرَكَ دَابَّتَهُ ؛ مِنْ حُبِّهَا » (١) .

وقال كثير :

[مِن الطَّوِيلِ]

وَلَيْسَ عَلَيَّ شَحْطِ النَّوَى أَكْثَرُ الْبُكَاءِ لَقَدْ كُنْتُ أَبْكِي وَالْمَزَارُ قَرِيبُ

[مِن الطَّوِيلِ]

وقال النظَّارُ الفقعسيُّ [في « المستطرف » ٣٩١/٢] :

يَقُولُونَ : هَلْذِي أُمُّ عَمْرٍو قَرِيبَةٌ دَنَتْ بِكَ أَرْضٌ نَحْوَهَا وَسَمَاءُ
أَلَّا إِنَّمَا بُعِدَ الْحَيْبِ وَقُرْبُهُ إِذَا هُوَ لَمْ يُوصَلْ إِلَيْهِ سَوَاءُ

[مِن المتقاربِ]

وقال أبو عبادَةَ [في « ديوانه » ٦٥٦/٢] :

لَعَمْرِي لَقَدْ كَانَ هِجْرَانُهُ عَلَى الصَّبِّ أَيْسَرَ مِنْ فَقْدِهِ
وَقَدْ كُنْتُ أَظْمَأُ إِلَى وَصْلِهِ فَقَدْ صِرْتُ أَظْمَأُ إِلَى صَدِّهِ

[مِن الوافرِ]

وقال [في « ديوانه » ٧٢٥/٢] :

وَهَجَرُ الْقُرْبِ مِنْهَا كَانَ أَشْهَى إِلَى الْمُشْتَقِ مِنْ وَصْلِ الْبَعَادِ

[مِن البسيطِ]

وقال وأجادَ [في « ديوانه » ٢٠٤٣/٣] :

مَتَى جَرَى الدَّمْعُ عَنْ بَيْنِ تَقَدَّمَهُ الْهِجْرَانُ كَانَ خَلِيقاً أَنْ يَكُونَ دَمًا

[مِن الكاملِ]

وقال ابنُ عَنِينٍ [في « نفع الطب » ٨٦٣/٢] :

عِبَاءُ الصُّدُودِ أَحْفُ مِنْ عِبَاءِ النَّوَى لَوْ كَانَ لِي فِي الْحُبِّ أَنْ أَتَحَيَّرَا

[مِن الكاملِ]

وقال ابنُ الْخَيْطِ [في « ديوانه » ٢٥٥] :

يَا عَمْرُؤُ أَيُّ خَطِيرِ خَطْبٍ لَمْ يَكُنْ خَطْبُ الْفِرَاقِ أَشَدَّ مِنْهُ وَأَوْبَقَا
كَلْنِي إِلَى كَلْفِ الصُّدُودِ فَرُبَّمَا كَانَ الصُّدُودُ مِنَ النَّوَى بِي أَزْفَقَا

[مِن الطَّوِيلِ]

وقال الناظِمُ في عكسِهِ [في « المُكَبَّرِي » ٨١/٤] :

نَرَى عِظْمًا بِالْبَيْنِ وَالصَّدُّ أَعْظَمُ وَنَتَهَمُ الْوَأَشِينِ وَالِدَمْعُ مِنْهُمْ

[مِن الطَّوِيلِ]

وقال في قَرِيبٍ مِنْ موافقَتِهِ [في « المُكَبَّرِي » ١٩٨/١] :

أَرَى لِي بِقُرْبِي مِنْكَ عَيْنًا قَرِيرَةً وَإِنْ كَانَ قُرْبًا بِالْبَعَادِ يُشَابُ
وَهَلْ نَافِعِي أَنْ تُرْفَعَ الْحُجُبُ بَيْنَنَا وَدُونَ الَّذِي أَمَلْتُ مِنْكَ حِجَابُ

[مِن الكاملِ]

وقال [في « المُكَبَّرِي » ٢٤٥/١] :

قَرِبَ الْمَزَارُ وَلَا مَزَارَ وَإِنَّمَا يَغْدُو الْجَنَانُ فَنَلْتَقِي وَيَرُوحُ

(١) أخرجه عن أنس رضي الله عنه بنحوه البخاري (١٨٠٢) في (العمرة) .

أما ابن الخياط . . فإنه يقول :

[مِن الطَّوِيلِ]

غَرَامٌ عَلَى يَأْسِ الْهَوَىٰ وَرَجَائِهِ وَحُبٌّ عَلَى قُرْبِ الْمَزَارِ وَبُعْدِهِ

[مِن الطَّوِيلِ]

وقال نيس :

وَإِنَّ مَقِيمَاتِ بِمُنْعَرَجِ اللَّوَىٰ لِأَقْرَبُ مِنْ لُبْنَىٰ وَهَاتِيكَ دَارُهَا

[عودة إلى بكاء الحمام]

ولنعد إلى ما نحن بسبيله ، مما يتعلق ببكاء الحمام ، قال الصمّة بن عبيد الله القشيري [في «ديوانه» ١١٥] : [مِن الطَّوِيلِ]

أَنَّ سَجَعْتَ فِي بَطْنِ وَاذِ حَمَامَةٍ تَجَاوَبُ أُخْرَىٰ مَاءَ عَيْنَيْكَ دَافِقُ^(١)
كَأَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ بِكَاءِ حَمَامَةٍ بَلَىٰ فَاْفِقُ مِنْ ذِكْرِ لَيْلَىٰ فَإِنَّمَا
بَلَيْلٌ وَلَمْ يَحْزُنْكَ إِذَا فُتُّ مَفَارِقُ
أَخُو الصَّبْرِ مَنْ كَفَّ الْهَوَىٰ وَهُوَ تَائِقُ^(٢)

[مِن الْكَامِلِ]

وقال آخر :

أَبْكَيْتَ مِنْ حُزْنِ لِنُوحِ حَمَائِمِ دَعَتِ الْهَدِيلَ وَظَلَّ غَيْرَ مُجِيبِهَا
نُحْنَا وَنَاحَتْ غَيْرَ أَنَّ بُكَاءَنَا بَعُيُونَنَا وَبُكَاءَهَا بِقُلُوبِهَا

[مِن الطَّوِيلِ]

وقال النظارُ الفقعسي :

أَلَا يَا لِقَوْمِي بَرَحَتْ بِي حَمَامَةٌ مُفَجَّعَةٌ قَدْ غَابَ عَنْهَا قَرِينُهَا
تُعْنِي بِصَوْتِ أَعْجَمِيٍّ فَهَيَّجَتْ شَأْيَيْبَ عَيْنِ مُسْتَهْلٍ مَعِينُهَا
وَجَدَّدَ قَرْحَ الْقَلْبِ فِيهِ انْدِمَالُهُ تَرْتُّمُ الْأَحَانِ بِهِ لَا تَبِينُهَا

[مِن الطَّوِيلِ]

وقال أبو جعفر المهلب :

لَقَدْ هَيَّجَ الشُّوقَ الْقَدِيمَ حَمَامَةٌ مُطَوَّقَةٌ وَرَقَاءُ بَانَ قَرِينُهَا^(٣)
تَغْنَّتْ بِصَوْتِ أَعْجَمِيٍّ فَهَيَّجَتْ وَسَاوِسَ نَفْسٍ مَا تَقَضَّتْ شُجُونُهَا

[مِن الْكَامِلِ]

وقال محمد بن جهم :

أَبْكَيْتَ إِنْ غَنَّتْ حَمَامَةٌ أَيْكَةَ مَأْلُوفَةَ الْأَحَانِ مِطْرَابِ الضُّحَىٰ
عَجِبًا لِمَبْكَىٰ عَيْنِهَا وَجُمُودِهَا مَا تَسْتَفِيقُ مِنَ الْبُكَاءِ وَنُوحِهَا
وَرَقَاءُ تَهْتَفُ فِي الْغُصُونِ وَتَسْجَعُ تَبْكِي بِشَجْوٍ دَائِمٍ وَتَوَجَّعُ
يَجْوِي الْحَزِينَ وَعَيْنُهَا لَا تَدْمَعُ وَلِعَوْلَةٌ فِي قَلْبِهَا مَا تَقْلَعُ

(١) سجع الحمام : موالاة صوته على طريق واحد .

(٢) تائق : مشتاق ، وناقى النفس إلى الشيء : نزعت واشتاق .

(٣) الوُزْزَقَةُ : سواد في غبرة كلون الرماد .

وقال أحد بني الصّيداء [في « بغية الطلب في تاريخ حلب » ٩٧٣/٢] :

[من الطويل]

دَعَتْ فَوْقَ أَغْصَانٍ مِنَ الْأَيْكِ غَدْوَةٌ
فَهَاجَتْ عَقَابِيلَ الْجَوَى إِذْ تَرْتَمَتْ
بَكَتْ بِجُفُونٍ دَمَعَهَا غَيْرُ ذَارِفٍ
وَلِلْأَيَّاتِ قِصَّةٌ ، لَا يَتَّسَعُ لَهَا الْوَقْتُ (٢) .

مُطَوَّقَةٌ وَرَقَاءُ فِي إِثْرِ آلِ فِ
وَشَبَّتْ ضِرَامَ الشُّوقِ بَيْنَ الشَّرَاسِفِ (١)
فَأَعْرَتْ جُفُونِي بِالذُّمُوعِ الذَّوَارِفِ

وقال الطغرائي [في « ديوانه » ٣٨٩] :

[من البسيط]

أَيْكِيَّةٌ صَدَحَتْ شَجْوًا عَلَى فَنَنِ
نَاحَتْ وَمَا فَقَدَتْ إِلْفًا وَلَا فُجِعَتْ
طَلِيْقَةٌ مِنْ إِسَارِ الْهَمِّ نَاعِمَةٌ
مَا فِي حَشَاهَا وَلَا فِي جَفْنِهَا أَثَرٌ
وهي بالمكان الأعلى من إثارة الأشجان ، لولا التغيرات بين قوله : (شجوا) وقوله : (طليقة وما بعده) .

فَأَشْعَلَتْ مَا خَبَا مِنْ نَارِ أَشْجَانِي (٣)
فَذَكَّرْتَنِي أَوْطَارِي وَأَوْطَانِي
أَصْحَتْ تُجَدِّدُ وَجَدَ الْمُوثِقِ الْعَانِي
مِنْ نَارِ قَلْبِي وَلَا مِنْ مَاءِ أَجْفَانِي

ومما ينسب لبدر الدين يوسف بن لؤلؤ :

[من الكامل]

أَحْمَامَةَ الْوَادِي بِشَرْقِيِّ الْحِمَى
فَلَقَدْ تَقَاسَمْنَا الْعُضَا فَعُضُونُهُ
إِنْ كُنْتُ مُسْعِدَةَ الْحَزِينِ . . . فَارْجِعِي
فِي رَاحَتَيْكَ وَجَمْرُهُ فِي أَضْلُعِي

[من الكامل]

وَتَبَهَّهَتْ ذَاتُ الْجَنَاحِ بِسُحْرَةِ
بِالْوَادِيَيْنِ فَهَيَّجَتْ أَشْوَاقِي

وله [في « خزانة الأدب » ٨٨/٢] :

(١) الشرسوف : غضروف معلق بكل ضلع ، مثل غضروف الكتف .

(٢) روى الأصمعي عن مُتَّعِ بْنِ نِهَانَ الصيداوي قال : أخبرني رجل من بني الصّيداء من أهل الصّريم قال : كنت أهوى جارية من باهلة ، وكان أهلها قد أخافوني ، وأخذوا عليّ المسالك ، فخرجت ذات يوم ، فإذا حمامات يسجن على أفنان أيكات ، متناوحت في سرارة واد ، فاستفرتني الشوق ، فركبت وأنا أقول : دَعَتْ فَوْقَ أَغْصَانٍ . . . الأبيات ، لكنني سرّت ، فأواني الليل إلى حيّ ، فلما رنقت في عيني سنّة . . . إذا بقائل يقول :

تَمَّتْ مِنْ شِيمِمْ عِرَارِ نَجْدِ
فَمَا بَعْدَ الْعَشِيَّةِ مِنْ عِرَارِ
فَتَشَاءَتْ مِنْهَا ، ثُمَّ غَلَبَتْنِي عَيْنَايَ ، إِذَا أَخْرُقُ يَقُولُ :

لَنْ يَلْبَسَ الْقَرْنَاءُ أَنْ يَتَمَرَّقُوا
فَقُمْتُ ، وَعَبَّرْتُ ، وَرَكِبْتُ مَتَكِبًا عَنِ الطَّرِيقِ ، إِذَا رَاعَ مَعَ الشُّرُوقِ وَقَدْ سَرَحَ غَمَامُهُ وَهُوَ يَتَمَثَّلُ :

كَفَى بِاللَّيَالِي الْمُخْلِقَاتِ لِحِدَّةِ
وَبِالنَّمُوتِ قَطَاعًا جِبَالِ الْقَرَارِينِ
فَأَطْلَمْتُ عَلَيَّ - وَاللَّهِ - الْأَرْضُ ، فَتَأَمَّلْتُ فَعَرَفْتُهُ ، قُلْتُ : فَلَانَ ؟ قَالَ : فَلَانُ .

قُلْتُ : مَا وَرَاءَكَ ؟ قَالَ : مَاتَتْ - وَاللَّهِ - رَمَلَةٌ ، فَمَا تَمَالَكْتُ أَنْ سَقَطْتُ عَنْ بَعِيرِي ، فَمَا أَبْقَظَنِي إِلَّا حَرُّ الشَّمْسِ ، فَقُمْتُ وَقَدْ عَقَلَ الْغُلَامُ نَاقَتِي وَمَضَى ، فَرَكِبْتُ إِلَى أَهْلِي وَقُلْتُ :

بَا رَاعِي الضَّانِ قَدْ أَبْقَيْتَ لِي كَمَدًا
نَعَيْتَ نَفْسِي إِلَى جِسْمِي فَكَيْفَ إِذَا
لَوْ كُنْتُ تَعْلَمُ مَا أَسْأَزْتُ فِي كَيْدِي
يَبْقَى وَيُتْلَفُنِي يَا رَاعِي الضَّانِ
أَهْقَى وَنَفْسِي فِي أَنْتَاءِ أَكْفَانِ
بَكَيْتَ مِمَّا تَرَاهُ الْيَوْمَ أَبْكَانِي

(٣) الأيكة : الشجر الكثير الملتف . والأبيكة : التي من شأنها وعادتها سكنى الأيكة ، وهي الحمامة .

وَرَقَاءُ قَدْ أَحَدَتْ فُنُونَ الْحُزْنِ عَنْ
أَنْسَى تَبَارِينِي أَسَى وَصَبَابَةَ
وَأَنَا الَّذِي أُمْلِي الْهَوَى مِنْ خَاطِرِي

وكان ابن أبي طاهر ، يستحسن هذه الأبيات :

وَقَبْلِي أَبْكِي كُلَّ مَنْ كَانَ ذَا هَوَى
وَمَرَّ عَلَى الْأَطْلَالِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ
مُزْبِرَجَةَ الْأَعْنَاقِ نَمْرُ بَطُونِهَا
تَرَى طَرَرًا بَيْنَ الْخَوَافِي كَأَنَّهَا
وَمِنْ قَطْعِ الْيَاقُوتِ صِبْغَتْ عُيُونُهَا

وقال آخرُ :

يَا وَيْحَ قُمْرِيَّةَ غَنَّتْ لَنَا هَزَجًا
قَدْ كُنْتَ وَاقِعَةً دَهْرًا عَلَيَّ فَنَنْ
فَحَبَّرِينَا وَمَا أَلْفَاكِ مُخْبِرَةٌ
وَفِي فُؤَادِي هُمُومٌ لَسْتُ أَظْهَرُهَا

وقال البُحْتَرِيُّ [في «ديوانه» ٣/١٩٦٦] :

وَوُزْقٍ تَدَاعَى بِالْبُكَاءِ فَهَجَنَ لِي
وَصَلْتُ بِدَمْعِي نَوْحَهُنَّ وَإِنَّمَا

وقال المعرِّيُّ [في «سقط الزند» ٢٦٧] :

وَوَغَّتْ لَنَا فِي دَارِ سَابُورٍ قَيْنَةٌ
فَقُلْتُ : تَغْنِي كَيْفَ شِئْتَ فَإِنَّمَا

وقال المنازبي - وأهل الأندلس يزعمون أنهما لحمدة الأندلسية - :

لَقَدْ عَرَضَ الْحَمَامُ لَنَا بِسَلْعٍ
شَجَا قَلْبَ الْخَلِيِّ فَقَالَ : غَنِّي

يَغْفُوبَ وَالْأَلْحَانَ عَنْ إِسْحَاقِ
وَكَابَةَ وَجَوَى وَفَيْضَ مَاقِي !؟
وَهِيَ الَّتِي تُمْلِي مِنَ الْأُوزَاقِ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

هُتُوفُ الْبَوَاكِي وَالذَّبَارُ الْبَلَاغُ
نَوَائِحُ مَا تَخْضَلُ مِنْهَا الْمَدَامِعُ^(١)
مُخَطَّمَةٌ بِالذُّرِّ خُضْرُ رَوَائِعُ^(٢)
حَوَاشِي بُرُودٍ أَحْكَمَتْهَا الْوَشَائِعُ^(٣)
خَوَاضِبُ بِالْحِنَاءِ مِنْهَا الْأَصَابِعُ

[مِنَ الْبَسِيطِ]

مِمَّا تَغْنِي بِنَظْمٍ جَدُّ مُتَّزِنٍ
فَصِرْتَ فِي جَوْفِ مَنْحُوتٍ مِنَ الْقِنَنِ^(٤)
أَتَسْجَعِينَ لِلْهُوِّ مِنْكَ أَمْ شَجِنِ؟
خَوْفَ الْوُشَاةِ وَإِشْفَاقًا مِنَ الزَّمَنِ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

كَمِينَ أَسَى بَيْنَ الْحَشَا وَالْحَيَازِمِ
بَكَيْتُ لِشَجْوِي لِأَسْجُوِ الْحَمَائِمِ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

مِنَ الْوُزْقِ مِطْرَابُ الْأَصَائِلِ مِيهَالُ^(٥)
غِنَاؤُكَ عِنْدِي - يَاحَمَامَةَ - إِعْوَالُ^(٦)

[مِنَ الْوَافِرِ]

إِذَا عَنَى لَهُ رَكْبُ الْأَحَا
وَبَرَّحَ بِالشَّجِيِّ فَقَالَ : نَاحَا

(١) تخضلُ : تبتلُ . المدامعُ : العيونُ .

(٢) الزَّبْرَجُ : الزينةُ من وشي أو جوهري أو غيره . طائرٌ أنمرٌ : منقطٌ بالأسود .

(٣) الوشائعُ : جمع وشيعة ، وهي الطريقةُ في البردِ .

(٤) القِنُنُ : جمع قِنَّة ، وهي قُوَّةٌ من قُوَى حبلِ اللَّيْفِ .

(٥) دار سابور : دارُ العلمِ بِبَغْدَادَ . القَيْنَةُ : المغنِيَةُ . الْوُزْقُ : الحمامُ . المِيهَالُ : من الْوَهْلِ ، أي الْفَرْعُ ، أو النَّازِلَةُ بَيْنَ أَهْلِهَا .

(٦) الإعوَالُ : العوِيلُ وهو رَفْعُ الصَّوْتِ بِالْبُكَاءِ . يقولُ : إن صوت هذه الحمامة عندي ليس غناءً يبعثُ على اللهُوِّ والطَّرَبِ ، وإنما هو عوِيلٌ يثيرُ الشَّجَا وَالكَرْبَ .

[كل إناء بما فيه ينضح]

ونعم والله ، فكلُّ يقفُ عندَ حدِّه ، وينتهي لمقدارِ مدِّه ، وكثيراً ما تشبهُ النوائحُ والأغاني ، وتتفقُ الصورُ لا المعاني .

وللهِ درُّ الناظمِ في قوله [في « العُكْبَرِيَّ » ٤/٢٥٥] :

وَقَدْ يَتَقَارَبُ الْوَصْفَانِ جِدًّا وَمَوْصُوفَاهُمَا مُتَبَاعِدَانِ
ويُطربني قولُ الآخرِ ، وقد تمثَّلتُ بهِ مرَّةً ، وعِندي صديقي الجليلُ السيِّدُ شيخُ بنِ مُحَمَّدِ الحبشيِّ ، فصعقَ حتَّى كادَ يُغشى عليه ، وهو :

يَنْدُبُونَ اللَّوَا وَأَنْدُبُ سَلْعَا كُلُّ عَيْنٍ تَبْكِي عَلَيَّ مَا شَجَاهَا
وحدَّثوا [في « بغية الطلب » ٧/٣٢١١] : أنَّ خالداً بنَ يزيدَ الكاتبِ ، كانَ يهوى جاريةً لبعضِ أعيانِ (بغداد) ، فلم يقدرْ عليها ، ثمَّ إنَّ مُحَمَّدَ بنَ عبدِ الملكِ ولأه عملاً بالغورِ ، فشخصَ ، فسمعَ في طريقه منشداً يقولُ : [مِن البسيطِ]
مَنْ كَانَ ذَا شَجَنِ بِالشَّامِ يَطْلُبُهُ فَفِي سِوَى الشَّامِ أَضْحَى الْأَهْلُ وَالشَّجَنُ
فبكى حتَّى سقطَ على وجهِهِ ، ثمَّ أفاقَ ، ولم يفارقه الوسواسُ حتَّى مات .
ولا غرابته ؛ فَإِنَّ مَنْ وَعَى سَمْعُهُ ، وَكُرِّمَ طَبْعُهُ ، وَعَذَّبَ مَشْرَبُهُ . . لا صادحةً إِلَّا تُطْرِبُهُ .

ولقد أسهبَ والدي - رحمه الله - في الموضوع بلسانِ القومِ ، وذكرَ حديثَ الثلاثةِ الذينَ سَمِعوا المناديَّ على السَّعْتَرِ البرِّيِّ^(١) ، وحديثَ سامعِ المنادي على الخيَّارِ عَشْرَةَ بدرهمٍ . . وما كانَ مِن تغيُّره وقوله : إِذَا كَانَ الْخِيَّارُ عَشْرَةَ بِدْرِهِمْ . . فما بالُ الأشرارِ !؟

وذكرَ الأستاذُ الأبرَّ سيِّدنا الإمامَ عيروسَ بنَ عمرَ : سَمِعَ الناعورةَ يوماً . . فهاجَّ واشتاقَ ، وفاضتْ حكمتُهُ ، وتفجَّرتْ ينباعُ معانيه ، ودرَّتْ شأيبُ معارفِهِ ، فقلتُ لوالدي : إِنَّ عِنْدِي فِي ذَلِكَ لَحَدِيثًا يَناسِبُ بعضَ ما ذكرتُم قالَ : هاتِ ، قلتُ : ذكرَ بعضُ أهلِ الأدبِ ، أنَّ أعرابياً نزلَ بالفتحِ بنِ خاقانَ ، وزيرِ المتوكِّلِ العبَّاسيِّ ، وباتَ في سطحٍ يشرفُ على بستانِ لهُ ، فلمَّا أسحرَ ، وسمعَ أصواتَ النواعيرِ . . حَنَّ وَأَنَّ ، وجاشتْ بلابلُهُ ، وهاجَّتْ خواطِرُهُ ، وقالَ [في « الأغاني » ٥/٣٨١] :

بَكَرَتْ تَحِنُّ وَمَا بِهَا وَجْدِي وَأَحِنُّ مِنْ شَوْقِي إِلَيَّ نَجْدِي
وَدُمُوعُهَا تَحِي الرِّيَاضُ بِهَا وَدُمُوعُ عَيْنِي أَخْرَقَتْ خَدِّي
فأصابتُ مِن أبي محزاً ، وصادفتُ لهُ مهزاً ، فهاجَّ حزناً ، وأرسلَ دموعهُ فُرادى ومثنى ، ووَدَّ أَنْ لَوْ كَانَ الْأَسْتَاذُ حَيًّا . . فَاتَحَفَهُ بِالْفِصَّةِ وَالْبَيْتِينَ ، ودعا لي حينئذٍ بما أرجو ذخره وبركته .

(١) الحاصل منها : أن كلَّ سامع يسرع فهمه إلى ما يشغل فكره ، فأحدهم سمعه يبيع زعتر الطعام والثاني سمعه يقول : اسعُ تَرِبْرِي ، والثالث سمع : الساعة تری بري ، فانهض وبادر قبل فوات الأوان .

وقال نصيبٌ أو غيرهُ :

[مِن الطَّوِيلِ]

هَتُوفِ الضُّحَى مَحْزُونَةً بِالتَّرْنَمِ
وَوَجْدِي بِسَعْدَى شَجْوَهُ غَيْرُ مُنْجَمِ

وَقَدْ كِدْتُ يَوْمَ الْحُزْنِ لَمَّا تَرَنْمَتْ
أُمُوتٌ لِمَبْكَاهَا أَسَى إِنَّ لَوْعَتِي

[مِن الطَّوِيلِ]

وقال :

هَتُوفِ الضُّحَى بِالنُّوحِ ظَلَّتْ تَفَجَّعُ
هَدِيلاً وَقَدْ أُوْدَى وَمَا كَانَ تُبْعُ^(١)
بِعَوْلَتِهَا غَيْرَ الْبُكَاءِ كَيْفَ تَصْنَعُ
وَتَحْفَظُ مَا تَبْكِي لَهُ وَأُضْيَعُ

وَيَوْمَ اللَّوَى أَبْكَاكِ نَوْحِ حَمَامَةٍ
فَقُلْتُ : أَتَبْكِي ذَاتُ طَوْقٍ تَذَكَّرَتْ
وَأَدْرِي وَلَا أَبْكِي وَتَبْكِي وَمَا دَرَتْ
وَلَمْ تَرَ مَا تَبْكِي وَأَتْرُكُ مَا أَرَى

وقد سبق في غير هذا المجلس ، ما قاله أبو فراسٍ في مناجاةِ الحمامةِ .

[مِن الطَّوِيلِ]

وقال ابنُ الفارضِ [في «ديوانه» ٣٩] :

فُوَادِي فَابْكَيْتِ إِذْ شَدَّتْ وُزُقُ أَيَكَةِ^(٢)
عَلَى الْعُودِ إِذْ غَنَّتْ عَنِ الْعُودِ أَغْنَتْ^(٣)

وَلَوْلَاكَ مَا اسْتَهْدَيْتُ بَرَقاً ، وَلَا شَجَتْ
فَذَاكَ هُدَى أَهْدِي إِلَيَّ وَهَلْذِهِ

[مِن البسيطِ]

إِلَّا مَا أُرَانِي لَمْ أُسَبِّحْ إِلَيْهِ مِنْ قَوْلِي :
وَبِتُّ أَرْعَى نُجُومَ اللَّيْلِ مِنْ أَرْقِ
نَاحَتْ بِأَكْبَادِهَا الْحَرَى عَلَى الْوَرَقِ

ولي في الموضوعِ الكثيرُ الطيبُ ، غيرَ أَنِّي لا أَمِلُ بشيءٍ منه ،
جَفَّتْ دُمُوعِي لِفَرْطِ الْوَجْدِ وَالْحُرْقِ
كَذَلِكَ الْوُزُقُ لَا تَذْرِي الدُّمُوعَ إِذَا

[العرب تحفظ المستجير ولو كان حيواناً]

ويتصلُ بالموضوع [أن أبا الفرج روى في «الأغاني» ٣٧٥/١٥] : أَنَّ زِياداً الْأَعْجَمَ ، قَدِمَ عَلَى الْمَهَلَّبِ ابْنِ أَبِي صَفْرَةَ ، فَبَيْنَا
هُوَ يَشْرَبُ يَوْمًا مَعَ ابْنِهِ حَبِيبٍ . . إِذْ اقْتَرَبَتْ مِنْهُمَا حَمَامَةٌ تَغْنِي ، فَقَالَ زِيادٌ [في «ديوانه» ١٢٠-١٢١] : [من الوافر]

وَذَمَّةِ وَالِدِي أَنْ لَا تَطَّارِي
ذَكَرْتُ أَحَبِّي وَذَكَرْتُ دَارِي
لَهُ نَبَأٌ لِأَنَّكَ فِي جَوَارِي

تَغْنِي أَنْتِ فِي ذِمَمِي وَعَهْدِي
إِذَا غَنَّيْتِنِي وَشَرِبْتُ كَأَسَا
فَأِمَّا يَفْتُلُوكِ طَلَبْتُ نَارًا

فَمَا كَانَ بِأَسْرَعٍ مِنْ أَنْ شَكَ فُوَادَهَا بِالسَّهْمِ حَبِيبٌ ، فَغَضِبَ زِيادٌ ، وَذَهَبَ يَشْكُو إِلَى الْمَهَلَّبِ ، فَقَالَ حَبِيبٌ : إِنَّمَا
كُنْتُ مَازِحًا ، فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ جَارَةَ أَبِي أُمَامَةَ لَا تُرْوَعُ ؟ وَقَضَى فِيهَا بِأَلْفِ دِينَارٍ دِيَةَ الْمُسْلِمِ ، فَقَبَضَهَا
زِيادٌ ، وَقَالَ [في «ديوانه» ٦٧] :

[مِن الطَّوِيلِ]

قَضَى لِي بِهَا شَيْخُ الْعِرَاقِ الْمُهَلَّبُ

فَلِلَّهِ عَيْنًا مَنْ رَأَى كَقَضِيَّةِ

- (١) تَبَّعَ : هُوَ تَبَعَ بِنِ حَسَانِ بْنِ بَنانَ ، وَيُقَالُ : اسْمُهُ مَرْتَدٌ ، وَهُوَ تَبَعَ الْأَصْغَرَ آخِرَ التَّبَاعَةِ مِنْ مَلُوكِ حَمِيرٍ فِي الْيَمَنِ .
- (٢) اسْتَهْدَاهُ : طَلَبَ مِنْهُ أَنْ يَهْدِيَهُ . شَجَتْ : أَحْزَنْتِ . شَدَّتْ : غَنَّتْ . الْأَيْكَةُ : الشَّجَرَةُ الْمَلْتَقَةُ .
- (٣) فَذَاكَ : أَيِ الْبَرَقِ . وَهَلْذِهِ : أَيِ الْحَمَائِمِ . الْعُودُ الْأَوَّلُ : الْغَنَصُ . الْعُودُ الثَّانِي : آلَةُ الطَّرَبِ .

رَمَاهَا حَيْبُ بْنُ الْمُهَلَّبِ رَمِيَةً فَأَقْصَدَهَا وَالسَّهْمُ يُخْطِي وَيَغْرُبُ^(١)
فَأَلْزَمَهُ عَقْلَ الْقَتِيلِ ابْنُ حُرَّةٍ وَقَالَ حَيْبُ : إِنَّمَا كُنْتُ أَلْعَبُ
فَقَالَ : زِيَادٌ لَا يُرَوِّعُ جَارُهُ وَجَارَةُ جَارِيٍ مِثْلُ جَارِيٍ وَأَقْرَبُ

[من الأماكن التي تحن فيها العرب . . عند حنين الإبل]

وكما تحنُّ العربُ لنوحِ الحمامِ ، وتبوحُ بروقِ الغمامِ . . كذلك عندَ حنينِ الإبلِ ، يضطرمُّ أوارؤها ، ويهتاجُ تذكارتها .

قالت امرأةٌ من بني عقيلٍ - تزوجت في بني كلابٍ - :

خَلِيلِي قَدْ هَاجَتْ عَلَيَّ صَبَابَةٌ قَلُوصُ الْعِبَادِيِّنَ لَيْلَةٌ حَنَّتِ
بَرَزْتُ لَهَا وَاللَّيْلُ مُلِقِي رُؤُوقَهُ فَجَاوَبْتُهَا حَتَّى مَلَلْتُ وَمَلَّتِ

وتزوجت أخرى ، فقلوها عن أهلها على بكر^(٢) ، فجعلت تبكي على ألافها ، ويحنُّ البكرُ إلى عطنه^(٣) ، فقالت [في

« معجم البلدان » ١/ ٦٣] :

[من الطويل]

أَلَا أَيُّهَا الْبَكْرُ الْأَبَانِيُّ إِنِّي وَإِيَّاكَ فِي كَلْبٍ لَمُغْتَرِبَانِ
تَحَنُّنٌ وَأَبْكِي إِنَّ ذَا لَيْلِيَّةٌ وَإِنَّا عَلَى الْبَلْوَى لَمُصْطَحِبَانِ
وَإِنَّ زَمَانًا أَيُّهَا الْبَكْرُ ضَمَّنِي وَإِيَّاكَ فِي وَادٍ لَشَرُّ زَمَانِ

وقال آخرُ [في « وفيات الأعيان » ٦/ ٣٧٢] :

[من الطويل]

وَحَنَّتْ قَلُوصِي آخِرَ اللَّيْلِ حَنَّةً فَيَا رَوْعَةً مَا رَاعَ قَلْبِي حَيْنُهَا
تَحَنُّنٌ إِلَى أَهْلِ الْحِجَازِ صَبَابَةٌ وَقَدْ بَثُّ مِنْ أَهْلِ الْحِجَازِ قَرِينُهَا

ويحكى [بنحوها في « معجم البلدان » ١/ ١٣٥] : أن بعضَ أمراءِ (المدينة) ، استدعى أعرابياً من أولي ودّه ؛ ليكتبَ له في الديوانِ ما يكفيهِ عن انتجاعِ البوادي ، فتحمّلَ بأهلهِ وماله ، حتّى إذا كانَ على مَقْرَبَةٍ مِنَ (المدينة) . . سقى إبلَهُ ، ولَمَّا ضُرِبَتْ بِالْعَطَنِ . . انفلتتْ واحدةٌ مِنْهُنَّ ، وحنّت إلى وطنِها ، فنفرتِ البواقي ، وأمعنّت في آثارها ، فاهتاجت امرأتَهُ - وكانت من غطفانٍ - وقالت : أتكونُ الإبلُ أعقلَ مِنَّا وأرقَّ عواطفَ ؟! واللهِ لا تبعثكُ إلى (المدينة) ، وقالت :

[من الطويل]

إِذَا حَنَّتِ الشَّقْرَاءُ هَاجَتْ لِي الْهُوَى وَذَكَرَنِي أَهْلَ الْأَرَكَ حَيْنُهَا

ولا مؤاخذه إن كانتِ القصةُ بغيرِ هذا اللونِ .

وقال المعريُّ يصفُ إبلَهُ [في « سقط الزند » ٢٨٤] :

[من الطويل]

تَلَوْنَ زُبُوراً فِي الْحَيْنِ مُنْزَلاً عَلَيْنَهُنَّ فِيهِ الصَّبْرُ غَيْرُ حَلَالِ
وَأَنْشَدَنَ مِنْ شِعْرِ الْمَطَايَا قَصِيدَةً وَأَوْدَعْنَهَا فِي الشُّوقِ كُلَّ مَقَالِ

(١) يغربُ السهمُ : يأتي من حيث لا يدري ، وهو من قولهم : سهمٌ غربٌ .

(٢) البكرُ من الإبلِ : غيرُ البالغِ .

(٣) العطنُ للإبلِ : كالوطنِ للناسِ .

وإنما كثر حنينُ العربِ لشيمِ البروقِ ، ولِبكاءِ الحمائمِ ، وحنينِ الإبلِ ؛ لكثرة ما يمارسونَ من ذلك ، وإلّا . . . فإنَّهم بركة طابعهم لا ينسونَ أحبابهم ، وكثيراً ما يهتاجُ لهمُ الجوى لأدنىِ حادثٍ ، ممَّا سوى تلك :

[قد يهيجُ شوقُ العربي غيرُ الذي ذكر]

كهبوبِ الرياحِ : ومرَّ ذرؤُ منه أثناءَ الكلامِ ، وقالَ عبدُ الله بنُ أميةَ [في «ديوان الحماسة» ١١٩/٢] : [مِن الطَّويلِ]

إِذَا هَبَّ عُلُوِّي الرِّيحِ وَجَدْتَنِي كَأَنِّي لِعُلُوِّي الرِّيحِ نَسِيبُ

وكظهورِ النارِ : قالَ بعضهمُ [في «الأغاني» ١٢٧/١٥] : [مِن البسيطِ]

يَا مُوقِدَ النَّارِ أَوْقِذْهَا فَإِنْ بِهَا سَنَأُ يَهِيحُ فُوَادَ الْعَاشِقِ السَّديمِ^(١)

وقالَ ابنُ الخطَّابِ لمتَّم بنِ نويِّرةَ [في «وفيات الأعيان» ١٩/٦] : ما بلغَ من حزنِكَ على أخيك ؟ قالَ : لقد مكثتُ سنةً لا أنامُ بلبيلٍ حتَّى أصبحَ ، ولا رأيتُ ناراً بلبيلٍ . . . إلَّا ظننتُ نفسي تخرجُ ، أذكرُ بها نارَ أخي للضيِّفانِ .

وكاختلاجِ الرُّجلِ أو العينِ : قالَ ابنُ أبي ربيعةَ : [مِن الطَّويلِ]

إِذَا مَدَلَّتْ رِجْلِي دَعَوْتُكَ أَشْتَمِي بِذِكْرِكَ مِنْ مَدَلِّ بِهَا فَيَهُونُ^(٢)

وقالَ العباسُ بنُ الأحنفِ : [مِن البسيطِ]

ظَلَلْتُ تَبَشَّرُنِي عَيْنِي إِذِ اخْتَلَجَتْ
فَقُلْتُ لِلْعَيْنِ : إِمَّا كُنْتِ صَادِقَةً
فَمَا جَزَاؤُكَ عِنْدِي لَسْتُ أَعْرِفُهُ
وَأَحْجُبُ الْمُقَلَّةَ الْأُخْرَى وَأَمْنَعُهَا
بِأَنْ أَرَاكَ وَمَا زَالَتْ عَلَيَّ خَطَرِ
إِنِّي بِبُشْرَاكِ لِي مِنْ أَسْعَدِ الْبَشَرِ
بَلَى جَزَاؤُكَ أَنْ تَخْلَيْنَ بِالنَّظَرِ
وَجَهَ الْحَيِّبِ كَمَا لَمْ تَأْتِ بِالْخَبَرِ

ومنه قولِي من قصيدةِ نبويَّةِ : [مِن الطَّويلِ]

وَمَا لِي إِلاَّ حُبُّهُ مِنْ وَسِيلَةٍ أَصَلِّي عَلَيْهِ كُلَّمَا الْعَيْنُ تَخَلَّجُ

* * *

[مِن الكاملِ] قالَ أبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في «العُكبريِّ» ٣٣٣/٢ :

وَعَدَلْتُ أَهْلَ الْعِشْقِ حَتَّى دُفِنْتُ فَعَجِبْتُ كَيْفَ يَمُوتُ مَنْ لَا يَعْشَقُ

[كيف يكون الموت بلا عشق !؟]

يُعْظَمُ أمرُ العشقِ ، ويقولُ : كيفَ يكونُ الموتُ من غيرِ عشقٍ ؟ إذ لا ينبغي أن يموتَ من لم يعشق ؛ لأنَّه لم يُقاسِ

(١) السِّدْمُ : الندمُ ، السادمُ : النادمُ .

(٢) مَدَلَّتْ : لم تستقرَّ في مكانها .

ما يوجب الموت من المشاق ، وألم الفراق ، وإنما يعالج ذلك العاشق ، فتسرع إليه بالهلاك ، فهو قريب من قوله [في «العكبري» ١٦٣/٣] :

لَوْلَا مُفَارَقَةُ الْأَحْبَابِ مَا وَجَدَتْ لَهَا الْمَنَايَا إِلَى أَرْوَاحِنَا سُبُلًا

[العشق من طبائع النفوس الكريمة]

والعشق من طبائع النفوس ، لا يخلو عنها شيء من المواليد الثلاثة ، فضلاً عن الإنسان ، الذي هو سرُّها ومتخيِّرها ، غير أنه لا يورث في زنده ، إلا عند كرم النحيظة^(١) ، وصفاء السريرة ، ورقة الطبع ، وسلامة خاطر ؛ ولهذا سُئِلَ أحد بني عُذرة - كما سلفت الإشارة إلى مثله - عن تبيخ العشق بهم^(٢) ؟ فقال [بنحوه في «مصارع العشاق» ١٨٦/٢] : إن لنا أخلاقاً شريفةً ، وأنفساً عفيفةً .

وإذا كان العشق يهذب الطباع ، ويشجع الجبان ، ويطلق يد البخيل . فأحرى أن لا تكون نشأته إلا عمّا يناسبه من شرائف تلك الطباع .

وقد قال ابن أبي مليكة [في «الأغاني» ١٣٩/١] :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْشَقْ وَلَمْ تَعْرِفِ الْهَوَى فَكُنْ حَجْرًا مِنْ يَابِسِ الصَّخْرِ جَلْمَدًا

وقال ابن أبي رزين [في «الأغاني» ١٦٨/١٩] :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْشَقْ وَلَمْ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَكُنْ صَخْرَةً بِالْحِجْرِ مِنْ حَجَرٍ أَصَمِّ

والثاني عينُ الأوّل في المعنى ، وأكثر اللفظ ، وما أدري أيهما الأوّل ؟ وما زالت الخواطر تتوارد ، والشعراء تتناهب ، والأدباء تتخالس ، والقضاء للسابق ، وهو ابن أبي مليكة فيما أظن .

[المحب يرى بعين غير عيون الناس]

وبيت الناظم ناظرٌ إلى قوله في الأخرى [في «العكبري» ٦/١] :

لَا تَعْدِلِ الْمُشْتَقَ فِي أَشْوَاقِهِ حَتَّى تَكُونَ حَشَاكَ فِي أَحْسَائِهِ

وهو قريب من قول عزة : وقد قال لها عبد الملك بن مروان بعد ما خلا منها الشباب [كما في «المستطرف» ٣٥٠/٢] : أنت التي أنفق فيك شعره وعمره كثيرٌ !؟ قالت له : إنه كان يراني بعينين ليستا في رأسك ، وصدق ابن أبي ربيعة في قوله :

حَسَنٌ فِي كُلِّ عَيْنٍ مَنْ تَوَدَّ

وأخرج ابن عساكر وغيره : أن جميلاً قدم (مصر) على عبد العزيز بن مروان يمدحُه ، فراه رجلٌ ، فقال : ما رأيت في بُيئة حتى تيمت بها ؟ فوالله لقد رأيتها ولو ذبح بعرقوبها طائرٌ لاندبح ، فقال له جميل : إنك لم ترها بعيني ، ولو نظرت إليها بعيني . . لأحببت أن لا تلقى الله تعالى إلا وأنت زان .

ثم إنه مرض ، فدخل عليه العباس بن سهل الساعدي ، فذكر له [كما في «روضة المحبين» ٢٩٩] من عفة نفسه

(١) النحيظة : الأصل والطبيعة .

(٢) تبيخ : اشتد على الإنسان ولم يقدر دفعه ، والمقصود هنا : الفتك .

ما افتصّناه في الكلام على قوله [في «المكبري» ١٦٢/٣] :

أَحْيَا وَأَيْسَرُ مَا قَاسَيْتُ مَا قَتَلَا وَالْبَيْنُ جَارَ عَلَيَّ ضَعْفِي وَمَا عَدَلَا

ويشبه قول عزة وجميل ، ما ذكره المبرّد : أَنَّ يَزِيدَ ابْنَ أَبِي مُسْلِمٍ ، وَزَيْرَ الْحَجَّاجِ - وَكَانَ دَمِيمًا - دَخَلَ عَلَيَّ نَلِيمَانَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَقَالَ لَهُ سَلِيمَانُ : قَبِّحَ اللَّهُ رَجُلًا أَجْرَكَ رَسَنَهُ ، وَأَشْرَكَكَ فِي أَمَانَتِهِ ، فَقَالَ : لَا تَقُلْ هَذَا ، قَالَ : وَلِمَ ؟ قَالَ : لِأَنَّكَ رَأَيْتَنِي وَالْأَمْرُ عَنِّي مَدْبَرٌ ، وَلَوْ رَأَيْتَنِي وَهُوَ مَقْبَلٌ . . . لاسْتَحَسَنْتَ مِنِّي مَا اسْتَقْبَحْتَ ، وَاسْتَعْظَمْتَ مَا اسْتَصْغَرْتَ ، فَقَالَ لَهُ سَلِيمَانُ : وَيْحَكَ ، أَوْقَدِ اسْتَقْرَّ الْحَجَّاجُ فِي قَعْرِ جَهَنَّمَ ، أَمْ لَا ؟ قَالَ : لَا تَقُلْ ذَلِكَ ؛ فَإِنَّ الْحَجَّاجَ وَطَأَ لَكُمْ الْمَنَابِرَ ، وَأَذَلَّ لَكُمْ الْجَبَابِرَةَ ، وَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَن يَمِينِ أَبِيكَ ، وَيَسَارِ أَخِيكَ ، فَحَيْثُمَا كَانَا . . . كَانَ .

ولا يبعد عنه أيضاً ما ذكر بعضهم : أَنَّ رَجُلًا نَشَدَ طِفْلاً كَالدَيْنَارِ^(١) ، فَقَالَ لَهُ النَّاسُ : مَا رَأَيْنَاهُ ، ثُمَّ أَقْبَلَ بَعْدَ زَمَانٍ بِحَمْلِهِ ، وَمَرَّ عَلَيَّ مَنْ نَشَدَهُمْ ، فَقَالُوا : مَا هَذَا مِنْكَ ؟ قَالَ : ابْنِي الَّذِي كُنْتُ أَنْشُدُهُ ، فَقَالُوا لَهُ : لَمْ نَزَلْ مُذِ الْيَوْمِ نَرَاهُ جَائِئًا رَائِحًا ، وَلَوْ قُلْتَ كَالْجُعَلِ^(٢) . . . لَدَلَلْنَاكَ عَلَيْهِ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ ، وَلَكِنَّكَ لَمَّا قُلْتَ كَالدَيْنَارِ . . . ذَهَبَ وَهَمُنَا إِلَى أَنَّ الْمَنشُودَ سِوَاهُ ، فَقَالَ لَهُمْ : رَأَيْتُمُوهُ بَعِينٍ ، وَرَأَيْتُهُ أَنَا بِأُخْرَى .

ولقد أنصف كثير في قوله [في «ديوانه» ٤٤٢] :

لَوْ يَسْمَعُونَ كَمَا سَمِعْتُ كَلَامَهَا خَرُّوا لِعَزَّةٍ رُكْعًا وَسُجُودًا

وقال علي بن عبد الله بن جعفر :

وَلَا تُبْهِمُ لَأَمْ فِيهِ هَيَّيْغِي بِذَلِكَ شَيْئِي فَقُلْتُ إِذْ صَدَّدَ عَنْهُ هَلَّا نَظَرْتُ بِعَيْنِي

[إذا رأيت عاشقاً . . فارحمه]

ولعد لذكر ما يناسب البيت ، فمنه قول البُحْتَرِيِّ [في «ديوانه» ١٦١٩/٣] :

وَيَأْمُرُنِي بِالصَّبْرِ مَنْ لَيْسَ وَجْدُهُ كَوَجْدِي وَلَا إِعْلَانُ حَالِي كَحَالِهِ

وقوله [في «ديوانه» ١٥٠٥/٣] :

إِذَا شِئْتَ أَنْ لَا تَعْدَلَ الدَّهْرَ عَاشِقًا عَلَيَّ كَمَدٍ مِنْ لَوْعَةِ الْبَيْنِ فَاغْشَقِي

وقوله [في «ديوانه» ١٥٣٠/٣] :

بِوَدِّي لَوْ يَهْوَى الْعَدُولُ وَيَعْشَقُ لِيَعْلَمَ أَسْبَابَ الْهَوَى كَيْفَ تَعْلَقُ

وقال البرعي :

عَدَلْتُهُ حِينَ لَمْ تَنْظُرْ بِنَاطِرِهِ وَلَا عَلِمْتَ الَّذِي فِي الْحُبِّ يَعْلَمُهُ

(١) طفل كالدينار : أي وجهه مشرق متألبي .

(٢) الجعل : دابة من هوام الأرض .

وأصل المعنى : أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِأَمْرَأَةٍ تَبْكِي عَلَى قَبْرِ ، فَقَالَ : « أَضْبِرِي وَاخْتَسِي » ، فَقَالَتْ لَهُ : إِلَيْكَ عَنِّي ، فَإِنَّكَ لَمْ تَصَبْ بِمُصِيبَتِي ، فَسَارَ عَنْهَا ، فَقَالَ لَهَا رَجُلٌ مَرَّ بِهَا بَعْدَهُ : مَا قَالَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ؟ قَالَتْ : أَوَذَاكَ رَسُولُ اللَّهِ ؟ وَأَخَذَهَا الْمُقِيمُ الْمُقْعِدُ مِنْ رَدِّهَا عَلَيْهِ ، وَانْطَلَقَتْ إِلَيْهِ لِتَعْتَدِرَ ، قَالَتْ : فَلَمْ أَجِدْ بُوَابًا وَلَا حَجَابًا ، فَقَالَ لَهَا : « إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى »^(١) . وموضع المناسبة قولها : إِنَّكَ لَمْ تَصَبْ بِمُصِيبَتِي .

[المتنبي يعترف على نفسه بالجمود]

ثُمَّ إِنَّا نَرَى النَّاطِمَ يَعْتَرِفُ عَلَى نَفْسِهِ تَارَةً بِالْجُمُودِ فَيَقُولُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/٤٠] :

[مِنَ الْبَسِيطِ]

لَمْ يَشْرِكِ الدَّهْرُ مِنْ قَلْبِي وَلَا كَيْدِي شَيْئًا تَتِيَّمُهُ عَيْنٌ وَلَا جِيدُ
أَصْحْرَةٌ أَنَا ؟ مَالِي لَا تُحَرِّكُنِي هَذَا الْمُدَامُ وَلَا هَذَا الْأَعَارِيدُ ؟

[مِنَ الطُّوَيْلِ]

ويقول [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/٢٩٠] :

عَدِمْتُ فُوَادًا لَمْ تَبْتَ فِيهِ فَضْلَةٌ لَغَيْرِ النَّايَا الْغُرِّ وَالْحِدَقِ النَّجْلِ^(٢)

[مِنَ الطُّوَيْلِ]

ويقول [في « العُكْبَرِيِّ » ١/١٩٢-١٩٣] :

وَلِلْخُودِ مِنِّي سَاعَةٌ ثُمَّ يَتَنَنَا فَلَاةٌ إِلَى غَيْرِ اللَّقَاءِ تُجَابُ^(٣)
وَمَا الْعِشْقُ إِلَّا غِرَّةٌ وَطَمَاعَةٌ يُعَرِّضُ قَلْبَ نَفْسِهِ فَتُصَابُ
وَعَيْرُ فُوَادِي لِلْغَوَانِي رَمِيَّةٌ وَعَيْرُ بَنَانِي لِلزُّجَاجِ رِكَابُ^(٤)
تَرَكْنَا لِأَطْرَافِ الْقَنَا كُلِّ شَهْوَةٍ فَلَيْسَ لَنَا إِلَّا بِهِنَّ لِعَابُ^(٥)

[هذه هي الشجاعة يا أبا الطيب]

[مِنَ الْكَامِلِ]

وَأَيْنَ هَذَا مِنْ قَوْلِ أَخِي عُسِّ :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالرَّمَا حُ نَوَاهِلُ مِنِّي وَبِيضُ الْهِنْدِ تَقْطُرُ مِنْ دَمِي
فَوَدِدْتُ تَقْبِيلَ الشُّيُوفِ لِأَنَّهَا لَمَعَتْ كَبَارِقِ نَعْرِكَ الْمُتَبَسِّمِ

[مِنَ الطُّوَيْلِ]

وقول الآخر [في « البيان والتبيين » ١/٥٨٨] :

أَسَجْنَا وَقَيْدًا وَاشْتِيَاقًا وَغُرْبَةً وَنَأْيَ حَيْبٍ إِنَّ ذَا لَعَظِيمُ
وَإِنَّ أَمْرًا دَامَتْ مَوَائِقُ عَهْدِهِ عَلَى مِثْلِ مَا فَاسَيْتُهُ لَكْرِيمُ

(١) أخرجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه البخاري (١٢٨٣) في (الجنائز) .

(٢) الغُرُّ : البيضُ . النَجْلُ : الواسعةُ .

(٣) تُجَابُ : تقطعُ .

(٤) الغواني : جمع غانية ، وهي التي استغنت بجمالها عن الحلي . رميةٌ : طريدةُ .

(٥) اللعابُ : من اللعبِ .

وقول بعض الصوفيّة :

[مِنَ الكَامِلِ]

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ - وَالَّذِي أَنَا عَبْدُهُ -
وَالسَّيْفُ عِنْدَ ذَوَائِبِي مَسْلُورٌ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقول الآخر [وهو صفيّ الدين الحلبيّ في « ديوانه » ٤٨٤] :

ذَكَرْتُكَ وَالْخَطِيئِي يَخْطُرُ بَيْنَنَا
فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي وَإِنِّي لَصَادِقٌ
وَقَدْ نَهَلْتُ مِنِّي الْمُتَقَفَّةُ الشُّمْرُ
بِنَا فَتَكَتْ تِلْكَ الرَّمَاحُ أَمِ السَّحْرُ

[مِنَ الكَامِلِ]

وقال الشريف البيضاوي :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ فِي السَّفِينَةِ وَالرَّدَى
وَالجَرُّ يَهْطُلُ وَالرِّيَّاحُ عَوَاصِفٌ
وَعَلَّتْ لِأَصْحَابِ السَّفِينَةِ ضَجَّةٌ
مَتَّوِّعٌ بِتَلَاطِمِ الْأَمْوَاجِ
وَاللَّيْلُ مُسْوَدُّ الدَّوَائِبِ دَاجِي^(١)
وَأَنَا وَذِكْرُكَ فِي أَلْدُ تَنَاجِي

[مِنَ الكَامِلِ]

وقال غيره :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالسُّيُوفُ لَوَامِعٌ
وَالْمَوْتُ يَلْمَعُ بِالتُّفُوسِ وَخَاطِرِي
وَالْمَوْتُ يُرْقَبُ تَحْتَ حِصْنِ الْمُزَقَّبِ
يَلْهُو بِطَيِّبِ ذِكْرِكَ الْمُسْتَعَذِبِ

[مِنَ الكَامِلِ]

وقول الصفيّ الحلبيّ [في « ديوانه » ٣٤٤] :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالْعَجَاجُ كَأَنَّهُ
فَطَنَنْتُ أَنِّي فِي صَبَاحِ مُسْفِرٍ
وَتَعَطَّرَتْ أَرْضُ الْكِفَاحِ كَأَنَّمَا
مَطْلُ الْغَنِيِّ وَسُوءُ عَيْشِ الْمُعْسِرِ^(٢)
بِضِيَاءِ وَجْهِكَ أَوْ مَسَاءِ مُقْمِرٍ
فُنِقَّتْ لَنَا أَرْضُ الْجِلَادِ بِعَنْبِرٍ

[مِنَ الخَفِيفِ]

ومرّ ما يناسبه عن الطغرائيّ ، في شرح قوله [في « العُكْبَرِيّ » ٣١٧/١] :

هَذِهِ مُهَجَّتِي لَدَيْكَ لِحَيْنِي
فَأَنْقِصِي مِنِ عَذَابِهَا أَوْ فَرِيدِي^(٣)

[المتنبي صاحب أحوال متقلبة]

[مِنَ الطَّوِيلِ]

ويقول الناظم أيضاً فيما نحن فيه [في « العُكْبَرِيّ » ٣٧٥/١] :

بِقَلْبِي - وَإِنْ لَمْ أَرَوْ مِنْهَا - مَلَاكَةٌ
وَبِي عَن غَوَائِبِهَا وَإِنْ وَصَلْتُ صَدُّ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

ويقول [في « العُكْبَرِيّ » ٣٥٠/٣] :

أَطَعْتُ الْغَوَائِبِي قَبْلَ مَطْمَحِ نَاطِرِي
إِلَى مَنْظَرٍ يَصْغُرُنَ عَنْهُ وَيَعْظُمُ^(٤)

وما ذلك المنظر الذي يطمح إليه ناظره ، غير المال ، الذي شغف بذكره ، وغطى هواه على بصره ، وأطال قيامه

(١) الجرّ : السيل ، وهو هنا مجاز عن شدّة المطر .

(٢) العجاج : الغبار . والمراد : أرض المعركة .

(٣) الحين : الهلاك والموت .

(٤) طمح : إذا أبعَد النظر ببصره .

وسعيه من أجله ، كما قال [في «العكبري» ١/ ٣٢٠] :

[من الخفيف]

صَاقَ صَدْرِي وَطَالَ فِي طَلَبِ الرَّزِّ قِيَامِي وَقَلَّ عَنْهُ قُعُودِي

وقال [في «العكبري» ١/ ١٢٤] :

[من الكامل]

أظمتني الدنيا فلما جئتها مُسْتَسْقِيًا مَطَرَتْ عَلَيَّ مَصَائِبًا

وقال [في «العكبري» ١/ ١٢٠] :

[من البسيط]

فَجِئْتُ نَحْوَكَ لَا أَلْوِي عَلَيَّ أَحَدٍ أَحْتُ رَاحِلَتَيَّ الْفَقْرَ وَالْأَدْبَا

وقال [في «العكبري» ٤/ ١١١] :

[من الطويل]

فَمَا لِي وَلِلدُّنْيَا طِلَابِي نُجُومَهَا وَمَسَعَايَ مِنْهَا فِي شُدُوقِ الْأَرَاقِمِ^(١)

فأين ذلك المنظر الذي عظم من شأنه ، وقصر بمجامع أهواء القلوب من أجله ، من قول لسان الدين ابن الخطيب :

[من الطويل]

جَزَى اللَّهُ عَنِّي زَاجِرَ الشَّيْبِ خَيْرَ مَا جَزَى نَاصِحًا فَازَتْ يَدَاهُ بِخَيْرِهِ

سَلَكْتُ طَرِيقَ الْحُبِّ حَتَّى إِذَا انْتَهَى تَعَوَّضْتُ حُبَّ اللَّهِ عَن حُبِّ غَيْرِهِ

أما لقد أخطأ الناظم من جهات ، نعد منها ولا نعددها :

منها : تشبيهه نفسه بالحجر ، كما سمعت من بعض أبياته التي سقناها ، بجامع البراءة من العشق في زعمه ، وذلك عين الغلط ؛ لأن لسائر المنطقات أحجاراً ، تجذبها إليها المشاكلة بينهما في بعض الأجزاء ، وإنما اشتهر المغناطيس والحديد ؛ لأنه في الحجر كعروة بن حزام في البشر .

ومنها : توهمه براءة قلبه من العشق ، وهو غلط أيضاً ؛ إذ لا يتصور خلو قلب أبداً من الهوى ، وإنما انصرف هواه إلى ما لا طائل تحته ، ولا خير فيه ، وهو مجرد المال ، كما قررنا ، فهو إذن من العشاق ، الذين أكثر في مذمتهم ،

وبالغ في نعي حالتهم ، بمثل قوله [في «العكبري» ٤/ ٢٣٤] :

[من البسيط]

مِمَّا أَضَرَ بِأَهْلِ الْعِشْقِ أَنَّهُمْ هَوَوْا وَمَا عَرَفُوا الدُّنْيَا وَلَا فِطَنُوا

تَفَنَّى عُيُونُهُمْ دَمْعًا وَأَنْفُسُهُمْ فِي إِثْرِ كُلِّ قَيْحٍ وَجْهَهُ حَسَنٌ

بل لقد أقر بأن الشغف بالمال ارتفع به عن حد العشق إلى حد الهيمان ، كما سبق في قوله [في «العكبري» ١/ ١٢٤] :

أظمتني الدنيا . . . إلى آخره .

وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم : « تَعَسَّ عِبْدُ الدِّينَارِ ، تَعَسَّ عِبْدُ الْخَمِيصَةِ ، تَعَسَّ وَانْتَكَسَ ، وَإِذَا شَيْكَ . . فَلَا

انْتَقَسَ »^(٢) .

فأخشى أن يكون شرُّ هذه الدعوة ممَّا أصاب الناظم ، أو ألمَّ به ، نسأل الله العافية والسلامة .

(١) الأرقام : نوع من الحيات .

(٢) سلف أنه أخرجه البخاري وابن ماجه .

وما أحسن قول يحيى بن معاذ الرازي : حبّ الدينار رأس كل خطيئة! ؛ فلقد جمع علماً كثيراً ، وأدباً غزيراً ، حتّى لقد قال بعض علماء (اليمن) : أحسنّت بمرض من نفسي ، فحرضت على علاجه ، وأيقنت أن لا يمكن ذلك إلاّ بعد تشريحه ، فلم أزل أفتش عن أصوله ، حتّى وجدتها في كلمة يحيى ، ثمّ لم أنفك في البحث عن الدواء ، حتّى وجدته في قوله صلى الله عليه وآله وسلّم : « أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِ هَازِمِ اللَّذَاتِ . . . »^(١) الحديث .

وبعد : فالناظم يناقض نفسه ذات المرّات ، فيما ادّعاه أنفأ من الجمود والتنصل من الهوى ، فيقول [في « العكبري » :
[٤٨/١ :

وَإِنِّي لَمَمْنُوعُ الْمَقَاتِلِ فِي الْوَعَى وَإِنْ كُنْتُ مَبْذُولَ الْمَقَاتِلِ فِي الْحُبِّ

ويقول [في « العكبري » ٣/٣٢٧ :

وَمَا أَنَا إِلَّا عَاشِقٌ ، كُلُّ عَاشِقٍ أَعَقَّ خَلِيلِيهِ الصَّفِيَيْنِ لِأَيْمِهِ

ويقول [في « العكبري » ٣/١٩٣ :

لَا تَلْمُنِي فَإِنِّي أَعَشَقُ الْعُشَّاقَ فِيهَا يَا أَعْذَلَ الْعُذَّالِ

ويقول [في « العكبري » ٣/٢٣٤ :

حَدَقَ الْحِسَانَ مِنَ الْغَوَانِي هَجَنَ لِي يَوْمَ الْفِرَاقِ صَبَابَةً وَغَلِيلًا^(٢)

فيما لا يحصى من تلك المثل في « ديوانه » ، غير أنّه يظهر عليه أثر التكلف في هذا ، بخلافه في الأوّل ، مصداق ما قيل في ترجمته : إِنَّهُ عَزَاهَا^(٣) .

ونراه طوراً يصف نفسه بالقسوة ؛ للإغراق في وصف الحبيبة بالحسن ، وهو بين بين ، كما في قوله [في « العكبري » :
[٣٠٤/٢ :

وَمَا كُنْتُ مِمَّنْ يَدْخُلُ الْعِشْقُ قَلْبَهُ وَلَكِنَّ مَنْ يُنْصِرُ جُفُونَكَ يَعْشَقُ

والم في هذا بقول مسلم بن الوليد :

وَقَدْ كَانَ لَا يَضْبُو وَلَكِنَّ عَيْنَهُ رَأَتْ مَنْظَرًا يُضْنِي الْقُلُوبَ فَرَاقَهَا

[لا تنافر بين الشجاعة والمحبة]

وهل هنا بحث ؛ إذ توهم بعض من لا رويّة عنده التنافر بين الشجاعة والمحبة ، والحال أنّ المحبة ليست إلاّ من أوثق أسباب الشجاعة ، وما زالت الرؤساء تطالب أبناءها بعشق سرات البيوت^(٤) ؛ لأنّه وسيلة الانتباه من الخمول ،

(١) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه الترمذي (٢٣٠٧) ، وابن ماجه (٤٢٥٨) في الزهد ، والنسائي في « الكبرى » (٦٠٠/١) ، وفي « المجتبى »

(٤/٤) ، وابن حبان في « صحيحه » (٢٩٩٢) في الجنائز بإسناد حسن ، وله شواهد .

(٢) الصبابة : رقة الشوق . الغليل والغلة : حرارة العطش . وفي المخطوط : وعويلا .

(٣) العزاهة : هو الرجل الذي لا يكلم النساء ولا يريدهن ولا يلهو .

(٤) سرات البيوت : اللاتي يسكنن البيوت ولا يخرجن إلى الطريق .

والارتفاع عَنِ التَّزْوِيلِ ، كما في حديثِ ذِي الرَّئِاسَتَيْنِ^(١) المشهورِ ، وغيرِهِ .

[مِنَ الكَامِلِ]

وقد سبقَ قولُ الأَحْوَصِ أو غيرِهِ :

الْحُبُّ شَجَّعَ قَلْبَ كُلِّ فَرُوقَةٍ وَالْحُبُّ حَمَلَ عَاجِزاً فَطَاقَا

[الحب يصنع المعجزات ويقوي الجبان]

ويروى : أَنَّ تَوْبَةَ بِنِ حُمَيْرٍ مَرَّ بِجَمِيلٍ ، فَأَنْزَلَهُ وَأَحْسَنَ خِدْمَتَهُ ، وَأَسْبَغَ قِرَاءَهُ ، ثُمَّ تَدَاعَا الصَّرَاعَ ، وَكَانَا فِي مَوْقِفٍ تُشْرِفُ مِنْهُ عَلَيْهِمَا بُيُوتُهُ ، فَمَا كَانَ مِنْ جَمِيلٍ ، إِلَّا أَنْ صَرَخَ تَوْبَةُ عَلَى شِدَّةِ أَسْرِهِ ، ثُمَّ نَضَلَهُ^(٢) ، ثُمَّ قَهَرَهُ عَلَى ظَهْرِ الْفَرَسِ ، وَلَمْ يَكُنْ جَمِيلٌ كُفُؤاً لِتَوْبَةَ شِجَاعَةً وَشِدَّةَ بَأْسٍ ، فَقَالَ لَهُ تَوْبَةُ : كَأَنَّكَ تَحْسَبُ ذَلِكَ مِنْكَ ، وَلَمْ تَدْرِ أَنَّهُ يَبْرِيحُ تِلْكَ الْمَشْرِفَةَ عَلَيْنَا ، وَأَشَارَ إِلَى بُيُوتِهِ ، ثُمَّ دَعَا إِلَى وَادٍ يَخْفَى عَنْهَا ، وَتَصَارَعَا فِيهِ ، فَصَرَعَهُ تَوْبَةُ مِرَاراً ، وَلَمْ يَكُنْ شَيْئاً عِنْدَهُ ، ثُمَّ مَضَى ، وَقَالَ هُوَ ، أَوْ غَيْرُهُ [في «ديوان» المجنون ٢٣٠] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

إِذَا مَا انْتَضَلْنَا فِي الْخَلَاءِ نَضَلْتُهُ وَإِنْ يَرُمُ رَشَقاً عِنْدَهَا فَهُوَ نَاضِلِي

وَلَوْلَا الْهُوَى . . لَمَا جَادَتِ الْبِخَالُ بِالْأَلُوفِ ، وَلَا تَكَرَّمَتِ الْأَبْطَالُ بِالنَّحُورِ لِلسُّيُوفِ ، وَلَكِنَّهُمْ يَقْتَحِمُونَ الْمَهَالِكَ ، وَيَنْغَمِسُونَ فِي الْمَعَارِكِ ؛ لِتُحْمَدَ شِمَائِلُهُمْ عِنْدَ رِيَّاتِ الْحِجَالِ ، وَتَتَعَنَّى بِأَمَادِيحِهِمْ أُوْلَاتُ الْغَنَجِ وَالذَّلَالِ ، قَالَ الْأَحْوَصُ :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَيَزِنَا حُ لِّلْمَعْرُوفِ فِي طَلَبِ الْعُلَا لِتُحْمَدَ يَوْمًا عِنْدَ لَيْلَى شَمَائِلُهُ

ثُمَّ انظُرْ إِلَى نِسَاءِ الْعَرَبِ ، كَيْفَ تَتَدَقَّقُ عَلَى الْمَازِقِ ، وَتَتَرَنَّمُ بِأَهَازِيحِهَا فِي أَشَدِّ الْمَضَاقِ ، فَتَسْنُ الْفَاتِرَ^(٣) ، وَتَرُدُّ الشَّارِدَ ، وَتَهَيِّجُ الْبَطْلَ الْمُشِيحَ ، وَتَثِيرُ الْحَفَائِظَ ، وَتَغْنِي مَا لَا تَغْنِيهِ الْمَوْسِيقَا الْحَرْبِيَّةُ الْيَوْمَ .
وَمَا ذُكِرَ عَنْ بَعْضِ الْقُرَشِيِّينَ مِنْ تَوْهِينِ أَمْرِ الْعَشَقِ . . فَإِنَّمَا يَعْنِي بِهِ مَا يَنْتَهِي إِلَى الْخَبْلِ ، وَيُقْضَى إِلَى الْجَنُونِ ، وَإِلَّا . . فَهُمْ رُؤُوسُ هَذَا الشَّانِ ، وَقَدْ مَرَّ وَيَأْتِي فِي تَضَاعِيفِ الْكَلَامِ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ .

[أحوال سيد الوجود صلى الله عليه وسلم مع النساء]

وَحَسْبُكَ بَسِيْدُ أَهْلِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَالشَّافِعِ وَالْمَشْفَعِ يَوْمَ الْعَرْضِ ، وَمَا ذَاقَهُ مِنَ الْحُزَنِ عَلَى خَدِيجَةَ حَتَّى قَالَتْ عَائِشَةُ : (مَا غَرْتُ عَلَى امْرَأَةٍ قَطُّ مَا غَرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ مِنْ كَثْرَةِ مَا يَذْكُرُهَا)^(٤) . وَإِنْ كَانَ لِيَذْبِحُ الشَّاةَ فَيَبِيعُ بِهَا فِي خَلَاتِلِهَا ، وَتَأْتِي الْعَجُوزُ فَيَتَفَتَّحُ لَهَا ، وَيُنْعِمُ الْإِقْبَالَ عَلَيْهَا ، وَيَسْأَلُهَا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِهَا ، وَيَقُولُ : « إِنَّهَا كَأَنَّ تَأْتِينَا آيَاتَ خَدِيجَةَ ؛ وَإِنْ حُسِنَ الْعَهْدُ مِنَ الْإِيمَانِ »^(٥) .

(١) ذُو الرَّيَاسَتَيْنِ : هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ بَنَانٍ ، أَبُو الْفَضْلِ الْأَنْبَارِيُّ الْمِصْرِيُّ الْفَاضِلُ الْأَثِيرُ الْكَاتِبُ . وَوُلِدَ بِالْقَاهِرَةِ سَنَةَ : (٥٠٧ هـ) . قَدِمَ بَغْدَادَ رِسُولاً مِنْ صَاحِبِ الْيَمَنِ سَيْفِ الْإِسْلَامِ طَغْتَكِينَ فَحَدَّثَ بِالسِّيَرَةِ عَنِ وَالِدِهِ عَنِ الْحِجَالِ ، وَبَعْدَ أَنْ تَوَجَّهَ إِلَى الْيَمَنِ فَوَزَرَ بِهَا ، ثُمَّ إِلَى بَغْدَادَ وَتَرَسَلَ بِعَظْمِ وَبِجَلِّ ، ثُمَّ صَارَ إِلَى مِصْرَ وَكَانَ ضَنْكُ شَدِيدٍ بِهَا ، وَتَوَفَّى فِيهَا سَنَةَ : (٥٩٦ هـ) .

(٢) نَضَلَهُ : غَلَبَهُ فِي رَمِي السَّهَامِ .

(٣) تَسْنُ الْفَاتِرَ : تَقَوْمٌ وَتَشْجَعُ الَّذِي انْهَزَمَ وَضَعَفَ .

(٤) أَخْرَجَهُ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مُسْلِمٌ (٢٤٣٥) فِي الْفَضَائِلِ وَفِيهِ يَقُولُ أَيْضاً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِنِّي قَدْ رَزَقْتُ جِهَا » .

(٥) أَخْرَجَهُ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الْحَاكِمُ فِي « الْمُسْتَدْرَكِ » (٦٢ / ١) ، وَأَوْرَدَهُ الْهِنْدِيُّ فِي « كَنْزِ الْعَمَالِ » (٣٤٣٤٤) وَنَسَبَهُ إِلَيْهِ .

وكان هديته مع أزواجه موافقة لهواهن ما لم يكن إثمًا ، وكان يتعمد موضع شرب عائشة من الإناء^(١) ، ويحملها لتنظر إلى اللعيب^(٢) ، ويسابقها ، ولما سبقها بالآخرة . . قال لها : « هَذِهِ بَيْتُكَ »^(٣) ، مُذَكِّرًا لَهَا بِمَا سَلَفَ مِنْ سَبِقِهَا لَهُ ، كيلا ينكسر خاطرهما ، وكان يدافعها لدى الباب ، وكان أزواجه يهجرنه إلى الليل ، وقد ذكرنا في غير هذا المجلس صنيع حفصة وعائشة بالجونية ، وتمثلنا بقول الشاعر :

وَيَقْبُحُ مِنْ سِوَاكَ الْفِعْلُ عِنْدِي فَتَفَعَّلَهُ فَيَحْضُنُ مِنْكَ ذَاكَ

وإن عائشة رضي الله عنها كانت تكتب في إمصاتها : من حبيبة رسول الله ، المبرأة في كتاب الله ، عائشة بنت أبي بكر .

فباله من إمصاء تهتز له النفوس ، وتقِفُ^(٤) الشعور ، وتتندى الخدود ، ويكاد يذوب منه الجلود .

[الحب في ساحة الوغى]

وقال خالد بن يزيد - وقد بنى برملة ابنة الزبير ، والسيوف تسيل دما ، والأسنة تقاطر مهجأ كما في « الأغاني » [٣٤٠/١٧] - :

أَحِبُّ بَيْتِي الْعَوَامَ طَرًّا لِحُبِّهَا وَمِنْ أَجْلِهَا أَحْبَبْتُ أَخْوَالَهَا كَلْبًا
تَجُولُ خَلَاجِيلَ النِّسَاءِ وَلَا أَرَى لِرَمْلَةٍ خَلْخَالَ يَجُولُ وَلَا قُلْبًا

[من الخفيف]

وقال علي بن محمد العلوي أو غيره :

نَحْنُ قَوْمٌ تُذَيَّبُ الْأَعْيُنُ النَّجْمُ لُ عَلَى أَنَّا نُذِيبُ الْحَدِيدًا
وَتَرَانَا لَدَى الْكَرِيهَةِ أَحْرًا رَأَى فِي السَّلْمِ لِلْغَوَانِي عَيْدًا

[من مجزوء الوافر]

وهو مثل قول العطوي :

أَخَافُ الرَّيْمَ أَرْمُقُهُ وَأَضْرِبُ هَامَةَ الْأَسَدِ
وَيَجْرَحُنِي بِمُقْلَتِهِ وَيَنْبُؤُ السَّيْفُ عَن جَسَدِي

[من الكامل]

وقال محمد بن صالح بن عبد الله بن موسى الجون العلوي ، وهو في السجن :

وَبَدَا لَهُ مِنْ بَعْدِ مَا انْدَمَلَ الْهَوَى بَرَقَ تَأَلَّقَ مَوْهِنًا لَمَعَانُهُ
يَنْدُو كَحَاشِيَةِ الرِّدَاءِ وَدُونَهُ صَعْبُ الذُّرَى مُتَمَنِّعًا أَرْكَانُهُ
فَمَضَى لِيَنْظُرَ أَيْنَ لَاحَ فَلَمْ يُطِقْ نَظْرًا إِلَيْهِ وَصَدَّهُ سَجَّانُهُ
فَالنَّارُ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ ضُلُوعُهُ وَالْمَاءُ مَا سَمَحَتْ بِهِ أَجْفَانُهُ

(١) أخرجه عن عائشة المبرأة رضي الله عنها ابن ماجه (٦٤٣) في الطهارة وفيه : (فيضع فمه حيث كان فمي وأنا حاض) .

(٢) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها البخاري (٥٢٣٦) في النكاح ، ومسلم (٨٩٢) ، والنسائي (١٩٥/٣) وغيرهم .

(٣) أورده عن عائشة رضي الله عنها في « كنز العمال » (٤٠٦١٤) ونسبه إلى أحمد وأبي داود .

(٤) يقف : قام من الفزع .

وكان من حديث الأبيات : أَنَّهُ خَرَجَ عَلَى الْمُتَوَكِّلِ وَأَخَذَ قَافِلَةَ الْحَجِيجِ ، قَالَ : فَبَيْنَا أَصْحَابِي يَجْمَعُونَ الْأَمْوَالَ ، وَأَنَا عَلَى كُرْسِيِّ . . . إِذَا بِامْرَأَةٍ رَفَعَتْ سِجَافَ هَوْدَجٍ ، فَأَضَاءَ مِنْهَا الْمَكَانَ ، وَلَا إِضَاءَتُهُ بِالشَّمْسِ ، فَقَالَتْ : أَيْنَ الشَّرِيفُ صَاحِبُ الْكُتَيْبَةِ ؟ فَإِنَّ لِي إِلَيْهِ حَاجَةٌ ، قُلْتُ : هُوَ يَسْمَعُ كَلَامِكَ ، قَالَتْ : أَنَا حَمْدُونِيَّةُ بِنْتُ عَيْسَى بْنِ مُوسَى ، تَعْلَمُ مَكَانَنَا عِنْدَ الْخَلِيفَةِ ، وَأَنَا أَسْأَلُكَ أَنْ تَأْخُذَ مِنِّي ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ ، مَعَ مَا قَدْ قَبَضْتُمُوهُ ، وَأَسْأَلُكَ بِفَضْلِكَ أَنْ لَا يَكْشِفَ لِي أَحَدٌ سِتْرًا ، فَنَادَيْتُ أَصْحَابِي ، وَلَمَّا اجْتَمَعُوا . . . قُلْتُ : مَنْ أَخَذَ مِنْ هَذِهِ الْقَافِلَةِ عِقَالًا . . . آذَنَتْهُ بِحَرْبٍ ، فَرَدُّوا حَتَّى الْأَطْعَمَةِ ، وَخَفَرْتُهُمْ إِلَى الْمَأْمَنِ ، فَلَمَّا ظَفَرَ بِي الْمُتَوَكِّلُ ، وَحَبَسَنِي بِـ (سَرٍّ مِّنْ رَأْيٍ) . . . دَخَلَ عَلَيَّ السَّجَانُ يَوْمًا ، فَقَالَ لِي : إِنَّ بِالْبَابِ امْرَأَتَيْنِ مِّنْ أَهْلِكَ ، تَرِيدَانِ الدَّخُولَ عَلَيْكَ ، وَكَانَ الْخَلِيفَةُ قَدْ مَنَعَ مِنَ الدُّخُولِ عَلَيَّ ، وَلَكِنَّهُمَا أَعْطَتْهُ دُمْلَجًا مِّنَ الذَّهَبِ ، فَأَدْخَلَهُمَا ، فَإِذَا أَنَا بِهَا مَعَ امْرَأَةٍ أُخْرَى ، وَجَارِيَةٍ تَحْمِلُ شَيْئًا ، فَلَمَّا بَصُرْتُ بِي . . . قَالَتْ : إِي وَاللَّهِ إِنَّهُ لَهُو ، وَبَكَتْ لِمَا أَنَا فِيهِ ، ثُمَّ قَبَّلَتْ قَدَمِي ، وَقَالَتْ : لَوْ اسْتَطَعْتُ لَفَدَيْتُكَ بِنَفْسِي ، وَلَكِنِّي لَا أَقْصِرُ فِي خِلَاصِكَ ، وَدُونَكَ هَذِهِ النِّفْقَةُ ، وَرَسُولِي يَأْتِيكَ فِي كُلِّ يَوْمٍ بِمَا تَرِيدُ ، حَتَّى يَفْرُجَ اللَّهُ عَنْكَ ، وَدَفَعَتْ إِلَيَّ خَمْسَ مِئَةِ دِينَارٍ ، وَثِيَابًا ، وَطِيبًا ، وَطَعَامًا ، وَانصرفت ، وَقَدْ أَضْرَمْتُ بِقَلْبِي نَارًا ، أَوْرَثَتْهَا النَّظْرَةَ الْأُولَى ، فَقُلْتُ : الْأَبْيَاتُ . . . أَعْنِي السَّابِقَةَ ، وَلَمْ يَزَلْ رَسُولُهَا يَعَاوِدُنِي بِالْإِحْسَانِ ، وَمَلَاطِفَةِ السَّجَانِ ، إِلَى أَنْ خَرَجْتُ ، وَعَظُمَ شَأْنِي عِنْدَ الْخَلِيفَةِ ، فَخَطَبَتْهَا ، فَامْتَنَعَ أَبُوهَا ، فَكَانَ لِي سَجْنٌ هَوَاهَا أَعْظَمَ مِنَ السَّجْنِ السَّابِقِ ، فَلَمْ أَرَ إِلَّا أَنْ أَتَيْتُ إِبْرَاهِيمَ بْنَ الْمُقْتَدِرِ ، فَأَخْبَرْتُهُ بِذَلِكَ ، وَكَانَ أَبُوهَا صَنِيعَتَهُ ، فَكَرِبَ إِلَيْهِ ، وَلَمْ يَفَارِقُهُ حَتَّى عَقَدَ لِي بِهَا ، وَابْنَ صَالِحٍ فِيهَا عِدَّةٌ قَصَائِدَ ، وَفِي ابْنِ الْمُقْتَدِرِ عِدَّةٌ مَدَائِحَ ، وَلِهَذِهِ الْأَبْيَاتِ قِصَّةٌ أُخْرَى ، كَمَا لَبَّيْتَنِي عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ حَدِيثٌ مَمْتَعٌ ، غَيْرَ أَنَّا لَا نُطِيلُ بِهِمَا ، وَرَبَّمَا تَأْتِي لُهُمَا فُرْصَةٌ أُخْرَى ، وَمَا كَانَ أَحَقَّ ابْنَ الْجَوْنِ بِقَوْلِ أَبِي فِرَاسٍ [فِي « دِيوانه » : [١٤٤]

وَيَا رَبَّ دَارٍ لَمْ تُخْفِنِي مَنِيْعَةً
وَسَاجِبَةَ الْأَذْيَالِ نَحْوِي لَقِيْتُهَا
وَهَبْتُ لَهَا مَا حَازَهُ الْجَيْشُ كُلُّهُ
طَلَعْتُ عَلَيْهَا بِالرَّدَى أَنَا وَالْفَجْرُ
فَلَمْ يَلْقَهَا جَافِي الْجَنَابِ وَلَا وَعْرُ
وَرُحْتُ وَلَمْ يُكْشِفْ لِأَبْيَاتِهَا سِتْرُ

بل ما أرى الحمداني إلا ناظرًا إلى هذه القصة .

* * *

[مِنَ الْكَامِلِ]

[قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّي فِي « الْعُكْبَرِيِّ » ٢/ ٣٣٣ :

وَعَذَرْتُهُمْ وَعَرَفْتُ ذَنْبِي أَنْتِي عَيَّرْتُهُمْ فَلَقِيْتُ فِيهِ مَا لَقُوا

[مِنَ عَيْبٍ . . . ابْتَلِي]

يقول : إِنَّهُ عَذَرَ الْعُشَّاقَ لَمَّا ذَاقَ مَا ذَاقُوهُ مِنَ الْأُمْتِحَانِ ، وَجَهْدِ الْبَلَاءِ ، وَعَرَفَ أَنَّ ذَنْبَهُ الَّذِي أَوْقَعَهُ فِي الْعَشَقِ هُوَ

نعيبره إياهم ، فكان جزاء ذلك أن ابتلاه الله بما ابتلاهم ، وقد أخرج الترمذي وحسنه : « لَا تُظْهِرِ السَّمَاتَةَ بِأَخِيكَ ، فَيَرْحَمَهُ اللَّهُ وَيَبْتَلِيكَ » (١) .

وأخرج السيوطي في « جامعِهِ » مرفوعاً : « الْبَلَاءُ مُوَكَّلٌ بِالْمَنْطِقِ » (٢) ، « فَلَوْ أَنَّ رَجُلًا عَيَّرَ رَجُلًا بِرِضَاعِ كَلْبَةٍ . . لَرَضَعَهَا » (٣) .

ويؤثر عن ابن الخطّاب أنّه كان يقول : لو عيّرت امرأة بالحبَل . . لخشيت أن أحبل .

ويمكن أن يدخل تحت قوله جلّ ذكره : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾ [الحجرات : ١١] .

وقوله تقدّست أسماؤه : ﴿ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الأنعام : ١٠] .

وقوله تبارك ثناؤه : ﴿ قَالِيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * هَلْ تُؤِيبُ الْكَفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المطففين : ٣٤-٣٦] .

وقال ابن مطير [في « ديوانه » ٥٣] :

أحِبُّكَ حُبًّا لَنْ أَعْنِفَ بَعْدَهُ
مُحِبِّبًا وَلَكِنِّي إِذَا لَيْمَ عَاذِرُهُ

[مِنَ الطَّوِيلِ] وقال عليُّ بنُ الجهم :

وَقَدْ كُنْتُ بِالْعُشَّاقِ أَهْرَأُ مَرَّةً
فَهَا أَنَا لِلْعُشَّاقِ أَصْبَحْتُ بَايَا

[مِنَ الطَّوِيلِ] وقال أبو الشيص :

وَكُنْتُ إِذَا رَأَيْتُ فَتَى يُبْكَئِي
عَلَى شَجَنِ هَزَاتُ إِذَا خَلَوْتُ
وَأَحْسِبُنِي أَذَالَ اللَّهُ مِنِّْي
فَصِرْتُ إِذَا بَصُرْتُ بِهِ بِكَيْتُ (٤)

[مِنَ الطَّوِيلِ] وقال الأضبط بنُ قريع :

لَا تَهِينِ الْفَقِيرَ عَلَّكَ أَنْ تَر
كَعَ يَوْمًا وَالِدَهُرُ قَدْ رَفَعَهُ

[مِنَ الخَفِيفِ] وقال عليُّ بنُ عبدِ الله بنِ جعفرِ بنِ إبراهيمِ بنِ محمّدِ بنِ عليِّ بنِ عبدِ الله بنِ جعفرِ ابنِ أبي طالبٍ ، رضوانُ الله عليهم
[في « صبح الأعشى » ٣٣٠/٢] :

وَلَمَّا بَدَا لِي أَنَّهُ لَا تُجِنِّي
تَمَنِّيْتُ أَنْ تَهْوَى سِوَايَ لَعَلَّهَا
فَمَا كَانَ إِلَّا عَن قَلِيلٍ وَأَشْغَفْتُ
وَعَذَّبَهَا حَتَّىٰ أَذَابَ فُؤَادَهَا
وَأَنَّ هَوَاهَا لَيْسَ عَنِّي بِمُنْجَلِي
تَذُوقُ صَبَابَاتِ الْهَوَى فَرَقُّ لِي
بِحَبِّ غَزَالٍ أَدْعَجِ الطَّرْفِ أَكْحَلِ
وَجَرَّعَهَا مُرَّ الْهَوَى وَالْتَدَلُّ

(١) أخرجه عن واثلة رضي الله عنه الترمذي (٢٥٠٨) وقال : حسن غريب .

(٢) أخرج عن حذيفة رضي الله عنه شطره القضاعي كما في « كنز العمال » (٧٨٤٥) ، وذكره العجلوني عن جماعة في « كشف الخفاء » (٩٢٦) مع جميع شواهد ، فأفاد وأجاد .

(٣) أخرجه عن ابن مسعود رضي الله عنه بتمامه الخطيب في « تاريخ بغداد » كما في « كنز العمال » (٧٨٦٧) .

(٤) أدال : قَلْبَ عَلِيٍّ الزَّمَانُ .

فَقُلْتُ لَهَا : هَذَا بِذَاكَ فَاطْرَقَتْ حَيَاءً وَقَالَتْ : كُلُّ مَنْ عَايَبَ ابْنَتِي

[يجب أن تكون غيوراً]

وفي الأبيات من التديُّثِ والسخافةِ ، وقلةِ الغيرةِ ، وهتكِ الستْرِ ، ما لا غايةَ بعدهُ ، فهو أقبحُ من قولِ جميلٍ [في
« البيان والتبيين » ١/٥٦٣] :

أَهْيَمُ بَدْعِدِ مَا حَيْثُ وَإِنْ أُمْتُ يَا لَيْتَ شِعْرِي مَنْ يَهِيْمُ بِهَا بَعْدِي

[من الطويل]

وقول الفرزدقٍ [في « ديوانه » ١/٢١١-٢١٢] :

هُمَا دَلَّتَانِي مِنْ ثَمَانِينَ قَامَةً فَلَمَّا اسْتَوَتْ رِجْلَايَ فِي الْأَرْضِ قَالَتَا :
فَقُلْتُ : ازْفَعُوا الْأَسْبَابَ لَا يَشْعُرُوا بِنَا مَخَافَةَ بَوَائِبِنَ أَنْ يَشْعُرَا بِنَا
وَأَحْمَرَ مِنْ سَاجٍ تُصَرُّ مَسَامِرُهُ^(١) وَكَمَا انْقَضَ بَارِزُ الْأَكْثَمِ الرَّيْشِ كَاسِرُهُ
أَحْيَى فَيُزَجَى أَمْ قَتِيلٌ نَحَاذِرُهُ ؟
وَأَسْرَعَتْ فِي أَطْرَافِ لَيْلٍ أَبَادِرُهُ

[من الطويل]

وقول عبد المحسنِ الصوريِّ [في « فرى الضيف » ١/٣٦٦] :

تَعَلَّقْتُهُ سَكْرَانَ مِنْ خَمْرَةِ الصَّبَا وَشَارَكْنِي فِي حُبِّهِ كُلُّ مَا جِدَ
فَلَا تَلْزِمُونِي غَيْرَةَ مَا أَلْفَتْهَا وَإِنْ غَفَلْتُ عَنْ لَوْعَتِي وَنَحِيْبِي
يُشَارِكُنِي فِي مُهَجَّتِي بِنَصِيْبٍ فَإِنْ حَبِيْبِي مِنْ أَحَبِّ حَبِيْبِي

[من الطويل]

وقول الناظم [في « العكبري » ٤/٥٥] :

أَذَاقَ الْغَوَانِي حُسْنَهُ مَا أَذَقْنِي وَعَفَّ فَجَازَاهُنَّ عَنِّي عَلَى الصَّرْمِ^(٢)

فإنه كالصريح ، في أن حبايبه لولا عفاف الممدوح . . لهتك الأعراض ، وكأنه استحسَنَ كلامَ عليٍّ ، فأحبَّ أن لا يخلو
ديوانه عن مثله ، وقد بالغ ابنُ الجعبريِّ في الردِّ على عليٍّ بنِ عبدِ الله إذ قال [في « المثل السائر » ٢/٣٥٩] :

وَلَقَدْ سَرَّنِي صُدُودُكَ عَنِّي وَإِذَا مَا خَلَوْتَ كُنْتَ التَّمَنِّي
فِي طَلَابِيكِ وَامْتِنَاعِكِ مِنِّي وَحَذِرًا أَنْ أَكُونَ مِفْتَاحَ غَيْرِي

[من الوافر]

وقال ابنُ مطروحٍ [في « المستطرف » ٢/٤٠١] :

فَلَوْ أَضْحَى عَلَيَّ تَلْفِي مُصِرًّا لَقُلْتُ : مُعَذِّبِي بِاللَّهِ زِدْنِي
وَلَا تَسْمَخْ بِوَصْلِكَ لِي فَإِنِّي أَعَارُ عَلَيْكَ مِنْكَ فَكَيْفَ مِنِّي !؟

[من الكامل]

وهو من قولِ البُحترِيِّ :

إِنِّي لِأَحْسُدُ نَاطِرِي عَلَيْكَ وَرَأَاكَ تَخْطُرُ فِي شَمَائِلِكَ الَّتِي
حَتَّى أَغْضَّ إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْكَ هِيَ فِتْنَتِي فَأَعَارُ مِنْكَ عَلَيْكَ

(١) أحمر من ساج : أي باب من خشب الساج .

(٢) الصَّرمُ : الانقطاع .

وَلَوْ اسْتَطَعْتُ مَنَعْتُ لَفُظَكَ غَيْرَةً
خَلَصَ الْهَوَى لَكَ وَاصْطَفْتِكَ مَوَدَّتِي
كَئِنِّي لَا أَرَاهُ مُقَبِّلاً شَفَيْتِكَ
حَتَّى أَغَارُ عَلَيْكَ مِنْ مَلَكَتِكَ

[مِنَ الْوَافِرِ]

وفيه غلوٌ لا يقبل ، إنما المقبول ما كان من مثل قول كُشاجم [في «ديوانه» ٦٨] :

وَعَذَّبْتَنِي قَضِيبٌ فِي كَثِيبٍ
أَغَارُ إِذَا دَنَنْتَ مِنْ فِيهِ كَأَسُ
تَشَارَكَ فِيهِ لَيْنٌ وَأَنْدِمَاجُ
عَلَى دُرٍّ يُقَبِّلُهُ زُجَاجُ

وقد استحسنته الناظم فنقله إلى غير موضعه ، ولم يقع إلا في سوء الأدب ، إذ جاء في ممدوحه بما لا يحتمل إلا في ربكات الخدور ، حيث قال [في «المكبري» ١٩٣/٤] :

[مِنَ الْوَافِرِ]

أَغَارُ مِنَ الزُّجَاجَةِ حِينَ تَجْرِي
عَلَى شَفَةِ الْأَمِيرِ أَبِي حُسَيْنِ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وما أحسن قول كثير [في «ديوانه» ١٠١-١٠٢] :

أَسِيبِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَا مَلُومَةً
وَإِنِّي وَإِنْ صَدَّتْ لَمُنِينَ وَصَادِقُ
وَمَا أَنَا بِالذَّاعِي لِعِزَّةِ بِالْجَوَى
لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِيَّةٌ إِنْ تَقَلَّتِ
عَلَيْهَا بِمَا كَانَتْ إِلَيْنَا أَرَلَّتِ^(١)
وَلَا شَامِتٌ إِنْ نَعَلُ عَزَّةَ زَلَّتِ

[مِنَ الْبَسِيطِ]

وقول ديك الجن ، وقد ذكرناه في غير هذا المجلس [في «ديوانه» ١٨٨] :

كَيْفَ الدُّعَاءُ عَلَى مَنْ جَارَ أَوْ ظَلَمَا
لَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ أَهْوَى بِجَفْوَتِهِ
وَمَالِكِي ظَالِمٌ فِي كُلِّ مَا حَكَمَا ؟
عَنِّي وَلَا اقْتَصَرَ لِي مِنْهُ وَلَا انْتَقَمَا

[ذو النون المصري والفتيات الطائفات]

يروي عن ذي النون المصري أنه قال : رأيت فتاة على غاية من الجمال ، متعلقة بأستار البيت ، تقول^(٢) :

أَمَا لِفَتَاةٍ بَاعَدَ الْهَجْرُ بَيْنَهَا
حَجَجْتُ وَلَمْ أَحْجُجْ لِسُوءِ عَمَلْتُهُ
ذَهَبْتُ بِعَقْلِي فِي هَوَاهُ صَغِيرَةً
وإِلَّا فَسَاوِ الْحُبِّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ
وَبَيْنَ الَّذِي تَهَوَّاهُ يَا رَبِّ مِنْ وَضَلِ
وَلَكِنْ لَتُعْدِنِي عَلَى قَاطِعِ الْحَبْلِ
فَرُدُّ بِطَيْبِ الْوَضَلِ مَا ضَاعَ مِنْ عَقْلِي
فَإِنَّكَ يَا مَوْلَايَ تُوصَفُ بِالْعَدْلِ

قال : فصحتُ بها ، فقالت : إليك عني ، فلو علمت ما بي ، وبيننا أنا أراجعها الكلام ، وأرميها بالملام . . . إذ جاءت أخرى ، وقالت : لسانِي أغربُ ، وقولي أعجبُ ، وأنشأت تقول :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

صَبَرْتُ وَكَانَ الصَّبْرُ خَيْرَ مَعْبَةٍ
جِبَالُ شَرُّورِي أَوْشَكَتْ تَصَدَعُ^(٣)
وَهَلْ جَزَعٌ يُجِدِي عَلَيَّ فَأَجْزَعُ ؟
صَبَرْتُ عَلَى مَا لَوْ تَحَمَّلُ بَعْضُهُ

(١) أزلت إليه نعمة : أسدتها .

(٢) الأبيات من الطويل ، وهي للمجنون في «ديوانه» (٢٣٢) .

(٣) شُرُورِي : واد بالشام ، محاط بسلسلة جبلية ، وقال ياقوت الحموي في «معجم البلدان» (٣٣٩/٣) : هو جبل مطل على تبوك في شرقها .

[اعتراض المؤلف على نفسه]

وبعد : فللأديب أن يعترض قولي : إن أبيات علي بن عبد الله ، أقبح من أبيات عبد المحسن الصوري ، ولا سبيل غير الاعتراف ؛ لأن الأول لم يرض بالاشتراك إلا بعد بأسه ، ونفض يده من محبوبه ، بخلاف الثاني ، فهو في التدبُّث أظهر ، وفي الخساسة أدخل .

[الغيرة والأنفة العربية]

ولله درُّ أبي ذؤيب في قوله [في «الأغاني» ٢٨٨/٦] :

تُرِيدِينَ كَيْمَا تَجْمَعِينِي وَخَالِدًا وَهَلْ يُجْمَعُ السَّيْفَانِ وَيَحْكُ فِي غَمْدِ؟!

وقال امرؤ القيس [في «ديوانه» ١٦٩] :

إِنِّي بِحَبْلِكَ وَاصِلٌ حَبْلِي وَيَبْرِيشُ نَبْلِكَ رَائِشُ نَبْلِي^(١)
مَا لَمْ أَجِدْكَ عَلَى هُدَى أَثْرِ يَقْرُو مَقْصَّكَ قَائِفٌ قَبْلِي^(٢)

[أبيات جميلة في الحب]

وذكرت هنا أبياتاً لعروة بن أذينة ، لا تتصل بالموضوع إلا من حيث الاشتراك في الحب الذي تمتته المرأة في حديث ذي النون ، ولا بأس بإيرادها ؛ لرفقتها وعدوبتها ، وهي [في «ديوانه» ٧٠] :

إِنَّ الَّتِي زَعَمْتَ فُوَادَكَ مَلَّهَا خُلِقْتَ هَوَاكَ كَمَا خُلِقْتَ هَوَى لَهَا
فَبِكَ الَّذِي زَعَمْتَ بِهَا فِكْلَاكَمَا أَبْدَى لِصَاحِبِهِ الصَّبَابَةَ كُلَّهَا
حَتَّامَ تَكْتُمُ فِي الْحَشَا مِنْ حُبِّهَا وَجَدًا لَوْ أَصْبَحَ فَوْقَهَا لِأَظْلَمَهَا
وَيَبِيْتُ تَحْتَ جَوَانِحِي حُبُّ لَهَا لَوْ كَانَ فَوْقَ فِرَاشِهَا لِأَقْلَمَهَا^(٣)
وَإِذَا وَجَدْتُ لَهَا وَسَاوِسَ سَلْوَةَ شَفَعَ الضَّمِيرُ إِلَى الْفُوَادِ فَسَلَّهَا
بِئْضَاءِ بَاكَرِهَا النَّعِيمِ فَصَاغَهَا بِلَبَاقَةِ فَأَدَقَّهَا وَأَجَلَّهَا
لَمَّا عَرَضْتُ مُسَلِّمًا فِي حَاجَةِ أَخْشَى صُعُوبَتَهَا وَأَرْجُو ذُلَّهَا
مَنَعْتُ تَحِيَّتَهَا فَقُلْتُ لِصَاحِبِي مَا كَانَ أَكْثَرَهَا لَنَا وَأَقْلَمَهَا
فَدَنَا وَقَالَ : لَعَلَّهَا مَعْدُورَةٌ مِنْ بَعْضِ رِقَبَتِهَا فَقُلْتُ : لَعَلَّهَا^(٤)

[أبو السائب المخزومي يطلب العلم]

وقد أنشدها لعبيد الله بن عروة بن الزبير في منزله بـ (العقيق) ، قال عروة بن عبيد الله [في «الأغاني» ٣٤٠/١٨] :
جاءني أبو السائب المخزومي يوماً ، وقال : لي إليك حاجة ، قلت : ماهي ؟ قال : أبيات ابن أذينة ، فأمرت بطعام فأحضرت ، فقال : لا والله حتى أروي الأبيات ، فما زلت أرددها عليه حتى حفظها ، ثم وثب ، فقلت له : كما أنت

(١) رشُّ النبل : ما يوضع في جانبي السهم من الريش ، وهو هنا كناية عن مجاراتها فيما لا يمسُّ الكرامة .

(٢) يقرو مقصك : يستفري أثرك . قائفٌ : الذي يقصُّ الأثر ويتبعه . قبلي : أي أنه يريد لها لنفسه دون غيره ، وأنه يرجو ألا تكون قد نال حبها أحد قبلك .

(٣) الجوانحُ : أوائل الضلوع تحت التراب مِمَّا يلي الصدر ، كالضلوع ممَّا يلي الظهر سميت بذلك ؛ لجنوحها على القلب . أقلها : هزها .

(٤) الرقبةُ : الحذر والخوف .

حَتَّى تَأْكُلَ ، قَالَ : وَاللَّهِ لَا أَخْلِطُ بِرَوَاتِبِهَا شَيْئاً غَيْرَهَا ، وَقَالَ : هَذَا وَاللَّهُ الْوَدُّ الصَّادِقُ ، وَالْعَهْدُ الدَّائِمُ ، لَا مَا كَانَ مِنَ الْهُدَلِيِّ فِي قَوْلِهِ :

إِنْ كَانَ أَهْلُكَ يَمْنَعُونَكَ رَغْبَةً عَنِّي فَأَهْلِي بِي أَضَنْ وَأَرْغَبُ

إِنِّي لَأَرْجُو مِنَ اللَّهِ أَنْ يَغْفِرَ لَابْنِ أُذَيْنَةَ بِتَطَلُّبِهِ لِحَبِيبَتِهِ الْمَعَادِيرَ ، ثُمَّ انصَرَفَ وَلَمْ يَتَنَاوَلَ شَيْئاً .

وحرصُ أبي السائبِ عليها إلى هذا الحدِّ ، ممَّا يمهِّدُ العذرَ لنا في سوقِها ، معَ ضعفِ المناسِبةِ ، ومرَّ أوائلُ المجلسِ التاسعِ ما يشبهُ قولَ ابنِ أُذَيْنَةَ : (لَأَظَلُّهَا) ، وقولُهُ : (لَأَقْلَهُهَا) ، فيما جرى بينَ نصرِ بنِ حجاجٍ ، وزوجِ مجاشعِ بنِ مسعودٍ .

وكانَ أبو السائبِ هذا من كبارِ الصالحينَ ، إلَّا أَنَّهُ كَانَ فَكِيهاً ، خفيفَ الظلِّ ، كما هوَ الأغلبُ على أهلِ الحجازِ ، ولَهُ ما لا يُحصَى مِنَ النُّوادرِ .

فيمَّا يتصلُّ منها ببعضِ ما تقدَّم أَنَّهُ كَانَ يسايرُ الحسنَ بنَ زيدِ أميرِ (المدينة) ، فمرَّ وإيَّاهُ بنساءً ، فسَلَّمَ عليهنَّ أبو السائبِ ، فنهاهُ الحسنُ ، فلم ينته ، فتمثَّلَ الأميرُ لتغازلِ أبي السائبِ بقولِهِ [في « ديوانِ المجنون » ٢٧٠] : [مِن البسيطِ]

أَرَى الْإِزَارَ عَلَيَّ لَيْلَى فَأَحْسُدُهُ إِنَّ الْإِزَارَ عَلَيَّ مَا ضَمَّ مَحْسُودُ

فقالَ لَهُ : لِمَنْ هذا ، بأبي أنتَ وأُمِّي ؟ قالَ : يقولُهُ قيسٌ ، فتخلَّفَ عن مسائرتِهِ ، ثمَّ عادَ وهوَ حاسِرُ الرأسِ ، فقالَ لَهُ : أينَ عمامتُكَ ؟ قالَ : تصدَّقْتُ بها على الشيطانِ الذي ألقى بهذا البيتِ على لسانيه .

وقد أعارَ منصورُ النميريُّ على البيتِ الأخيرِ من أبياتِ عروةَ بنِ أُذَيْنَةَ ، فقالَ [في « ديوانِ صريحِ الغواني » ٣٤٠] : [مِن الطُّويلِ]

لَعَلَّ لَهَا عُذْرًا وَأَنْتَ تَلُومُ وَرُبَّ امْرِئٍ قَدْ لَامَ وَهُوَ مَلِيمٌ

* * *

المجلس الثالث عشر

[من الكامل]

[قال أبو الطيّب المتنبي في « المعكبري » ٢ / ٣٣٤ :

أَبِي أَيْبِنَا نَحْنُ أَهْلُ مَنَازِلِ أَبْدَأُ غُرَابُ الْبَيْنِ فِيهَا يَنْعِقُ
نَبْكِي عَلَى الدُّنْيَا وَمَا مِنْ مَعْشَرٍ جَمَعَتْهُمْ الدُّنْيَا فَلَمْ يَتَفَرَّقُوا

[مسكين المتنبي لا يعرف السعادة]

(أَبِي أَيْبِنَا) : نداءٌ لجميع الناس ؛ لأنَّ أباهم آدمُ ، ويجوزُ أن يريدَ بهِ قوماً مخصوصينَ ، يقولُ : نحنُ نازلونَ في ديارٍ يتفرَّقُ أهلها بالموتِ ، وإنَّما ذكَّرَ الغرابَ كنايةً عنه ؛ لأنَّ العربَ لا تتشاءمُ بشيءٍ تشاؤمها بالغربانِ .

[كثير عزة الغراب الناعق]

حكى [في « الأغانى » ٩ / ٤٤] : أن كثيراً تعشَّق امرأةٌ من خزاعةٍ يقال لها : أمُّ الحويرثِ ، فشَبَّ بها ، فكرِهتُ أن يفضَحها كما فضَحَ عَزَّةُ ، فقالتَ لهُ : إنَّكَ فقيرٌ ، فابتغَ لك مالا ، ثمَّ ارجعْ واخطُبني ، وأعطتهُ عهدَها أن لا تتزوَّجَ حتَّى يرجعَ ، فمدَحَ عبدَ الرحمنِ الأزديُّ ، وأصابَ منه ما يريدُ ، ويعقبُ انصرافه من عنده سنحتَ لهُ الطبَّاءُ ، ورأى غراباً يفضحُ الترابَ بوجهه فتطيرَ من ذلك ، واستفتى بعضَ اللُّهبيِّينَ فأجابهُ بما لا يسرُه ، فقال [في « ديوانه » ٥٩ - ٦٠] : [من الطويل]

تَمَمْتُ لِهَيْبَا أَبْتَغِي الْعِلْمَ عِنْدَهُمْ وَقَدْ رُدَّ عِلْمُ الْعَائِفِينَ إِلَى لِهَيْبِ^(١)
فَقُلْتُ لَهُمْ : مَاذَا تَرَوْا فِي سَوَانِحِ وَصَوْتِ غُرَابٍ يَفْحَصُ الْوَجْهَ بِالْثُرْبِ؟^(٢)
فَقَالُوا : جَرَى الظُّبْيُ السَّنِيحُ بَيْنَهَا وَنَادَى غُرَابٌ بِالْفِرَاقِ وَيَسْلُبِ^(٣)
فِيلاً تَكُنْ مَاتَتْ فَقَدْ حَالَ دُونَهَا خِبَاءُ خَلِيلِ بَاطِنٍ مِنْ بَيْنِي كَعْبِ^(٤)

فألفاها - كما قالوا - تزوجتِ بَابِنِ عَمِّ لَهَا ، فأخذَه الهَلَّاسُ ، فكَوِي من أجْلِهَا جَنبَاهُ .

[ليس كل غراب يُتَشَاءَم منه]

وخرَجَ لِهَيْبِي فِي حَاجَتِهِ [كما في « صبح الأعشى » ١ / ٤٥٦] ومعه سقاءٌ ، فلمَّا عطشَ . . أناخَ راحلتهُ ليشربَ ، فإذا غرابٌ ينعَبُ ، فأثارَ راحلتهُ ومضى ، فلمَّا جهدهُ العطشُ . . أناخَ راحلتهُ ليشربَ ، فنعبَ الغرابُ وتمرَّغَ في الترابِ ، فضرَبَ الرجلُ سقائه بسيفه ، فإذا فيه أسودُ سالخ^(٥) ، فقتلهُ ، ثمَّ سارَ فإذا غرابٌ واقعٌ على سدرَةٍ ، فصاحَ بهِ ، فوقعَ على

(١) العائفُ : الذي يزرعُ الطيرَ ، فيتشاءمُ إن طارت يساراً ، ويتفاءل إن طارت يميناً من اليمينِ . بنو لهيبِ : هم قبيلةٌ مشهورةٌ بالعبافةِ والزجرِ .

(٢) فحَصَ الترابَ : حفَرَه باحثاً فيه .

(٣) السوانحُ : جمعُ سانحٍ ، وهو الطيرُ الذي يمرُّ عن يسارِ المسافرِ .

(٤) الخليلُ الباطنُ : الصديقُ الخفيُّ .

(٥) أسودُ سالخٍ : اسمُ الأسودِ من الحيَّاتِ .

سَلَّةٌ ، فصاحَ به ، فوقعَ على صخرةٍ ، فانتَهَى إليها ، فأثارَ كنزاً ، فاحتملَهُ إلى أهلهِ ، ولَمَّا أُخبرَ أباهُ . . وَجَدَ عندهُ مِنَ العِلْمِ مثلَ الذي عَمِلَ بِهِ .

ومنهُ تَعَرَّفَ أَنَّ التَشَاوُمَ بالغرَابِ لَيْسَ عَلَى إِطْلَاقِهِ ، بل فِيهِ تَفْصِيلٌ يَطْوُلُ بَيَانُهُ ، وَأَظُنُّ أَنَّ قَدِ اسْتَوْفَاهُ أَبُو عِثْمَانَ الجَاحِظُ فِي كِتَابِهِ « الحَيَوَانُ » ، وَقَدْ زَجَرَتْ الغُرَبَانَ لِلتِيَامُنِ فِي عِدَّةِ قِصَائِدٍ ، فَكَانَ الأَمْرُ كَمَا تَفَاءَلْتُ مِنَ الخَيْرِ ، وَمَرَّ بَعْضُ مَا يَتَعَلَّقُ بِالفَأْلِ فِي المَجْلِسِ العَاشِرِ .

[العيب على المتنبي]

وقد عابوا على الناظم انتقاله من الغزل إلى الوعظ ، ثم توثبه من الوعظ إلى المديح ، وقالوا : إِنَّمَا يَحْسُنُ مِثْلُهُ فِي الرَّائِي ، كَمَا انْتَقَدُوا عَلَى أَبِي تَمَّامٍ فِي قَوْلِهِ [في « ديوانه » ١ / ١٣٤] :

[مِنَ الخَفِيفِ]

عَرَبْتُهُ العُلَا عَلَى كَثْرَةِ الأَهْلِ فَأُضْحَى فِي الأَقْرَبِينَ جَنِيبًا^(١)
فَلْيُطَلِّ عُمْرُهُ فَلَوْ مَاتَ فِي طُو سٍ مُقِيمًا لَمَاتَ فِيهَا غَرِيبًا

وقالوا : لَمْ يَوْقَعُهُ فِي ذِكْرِ المَوْتِ إِلاَّ عَثْرَةُ اللِّسَانِ ، الَّتِي أَضَفْتُ بِهِ إِلَى التَّنْكِيدِ وَالتَّنْغِيسِ .

[الحلم على الجاهل]

وَإِنِّي لِأَتَعَجَّبُ مِنْ حِلْمِ مَعَاوِيَةَ وَسَعَةِ صَدْرِهِ ، وَتَغَايِبِهِ عَنِ سَيِّئَاتِ قَاصِدِيهِ ، فَقَدْ ذُكِرَ أَنَّ الأَخْطَلَ قَدِمَ عَلَيْهِ مَادِحًا ، فَقَالَ لَهُ : إِنْ كُنْتَ شَبَّهْتَنِي بِالحَيَّةِ أَوْ الأَسَدِ . . فلا حَاجَةَ لِي فِي ذَلكَ ، وَإِنْ كُنْتَ قُلْتَ كَمَا قَالَتِ الخُنْسَاءُ [في « ديوانها » ١١٤] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَمَا بَلَغْتَ كَفِّ امْرِئٍ مُتَنَاوَلًا مِنْ المَجْدِ إِلاَّ وَالَّذِي نَلْتَ أَطْوَلُ
وَلَا بَلَغَ المُهْدُونَ فِي القَوْلِ مِدْحَةً وَإِنْ صَدَقُوا إِلاَّ الَّذِي فِيكَ أَفْضَلُ

.. فَهَاتِ ، فَقَالَ : لَقَدْ قُلْتَ بَيْتَيْنِ هَا هُمَا ، بَدُونَ مَا قَالَتْ ، قَالَ : أَنشُدْ ، فَقَالَ :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

إِذَا مِتَّ مَاتَ العُرْفُ وَانْقَطَعَ النَّدَى وَلَمْ يَبْقَ إِلاَّ مِنْ قَلِيلٍ مُصَرَّدِ
وَرَدَّتْ أَكْفُ الرَّاغِبِينَ وَأَمْسَكُوا عَنِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا بِخُلْفِ مُجَرَّدِ

فوصله وأحسن إليه ، مع أنه لم يترك شيئاً من القحة والنغاصة إلا وأخذ بنواحيه ، فهما شرٌّ مما سبق عن أبي تمام ؛ لزيادتهما عليه بالإنذار ، بانقطاع الأثر ، فحقت صاحبهما أن يضرب في القذال^(٢) ، أو يسجن مع الأندال ، إلا أنه لا يستنكر من معاوية - إن كان صاحب القصة - مثل ذلك ، فقد كان مضرب المثل فيه ، وإن كان مروان . . فما غض جفته عما فيهما من الخذلان غير تعصبه للأخطل ، فقد كان معروفاً بذلك .

[التشاؤم والطيرة]

وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الحَسَنِ بْنِ الحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ يَسَائِرُ السَّفَاحَ ، وَبَيْنَا هُمَا يَنْظُرَانِ إِلَى بِنَاءِ فَرَعٍ مِنْهُ السَّفَاحُ . . قَالَ

(١) الجنب : الغريب ، يقول : جَعَلَتِ المَكَارِمُ وَالْعُلَا هَذَا المَمْدُوحَ غَرِيباً فِي النَّاسِ ، فَلَا يَوجِدُ لَهُ نَظِيرًا فِيهِمْ .

(٢) القذال : مُؤَخَّرُ الرَّاسِ .

لعبد الله : هاتِ ما عندك ، فقال :

[مِنَ الْوَارِثِ]

أَلَمْ تَرَ مَالِكاً لَمَّا تَبَتَّى بِنَاءً نَفَعَهُ لِبَنِي بَقِيلَةَ
بِرُجْحَانٍ يُعَمَّرُ عُمَرَ نُوحٍ وَأَمْرُ اللَّهِ يَخْذُ كُلَّ لَيْلَةٍ

فأبدى السَّفَاحُ نَوَاجِذَهُ لغيرِ تَبَسُّمٍ ، فقالَ عبدُ اللهِ : عفواً يا أميرَ المؤمنينَ ؛ فَإِنَّهَا غَفْلَةٌ الشُّيُوخِ ، وبوادرُ الخواطرِ ، قالَ : صدقتَ ، فخذُ في غيره .

وَأَنشَدَ بعضُهُم لأبي مسلمٍ الخراسانيِّ ، في يومِ قتلِهِ [كما في « سير أعلام النبلاء » ٦ / ٧١] :

سَيَأْتِيكَ مَا أَفْنَى الْقُرُونِ الَّتِي مَضَتْ وَمَا حَلَّ فِي أَكْنَافِ عَادٍ وَجُرْهُمِ
وَمَنْ كَانَ أَدْنَى مِنْكَ عِزًّا وَمَفْخَرًا وَأَنْهَضَ بِالْجَيْشِ اللَّهَامِ الْعَرْمَرَمِ
فقالَ أبو مُسلمٍ : هَذَا معَ الأمانِ الذي مَعِيَ ؟ فقالَ ذلكَ المنشدُ : كلُّ عبدٍ لي حرٌّ إنْ كانَ هذا الشيءُ مِنْ أَمْرِكَ ، وَإِنَّمَا هُوَ خَاطِرٌ جَرِيٌّ عَلَيَّ لِسَانِي ، فقالَ : بئسَ واللهِ الخاطرُ ، فما غابَتْ شمسُهُ حتَّى تحكَّمَ في رأسِهِ الحُسامُ ، والأشبهُ أَنْ يكونَ صاحِبَ القِصَّةِ هُوَ ابنُ هيبِرةَ ؛ إذْ هُوَ الذي يَحْمِلُ الأمانَ الضَّحَمَ .
وكثيراً ما جرتِ نظائرُ هذهِ الأفاصيصِ للنَّاسِ في الطَّيِّرَةِ .

مِنَ ذَلِكَ حَدِيثُ مروانَ بنِ مُحَمَّدِ الجعديِّ ، وحديثُ الأَمِينِ معَ قِيتِهِ .

[التذكير بالموت وقت اللذات]

وقالَ بعضُ الملوكِ : ما لهؤلاءِ الشعراءِ - قاتلَهُم اللهُ - رِيماً ذَكَرْنَا شيئاً نَحْنُ أَكْثَرُ لَهُ ذِكْراً مِنْهُمْ ، فينغصونَ عَلَيْنَا ، وما يعني إِلاَّ الموتَ .

وخرجَ النعمانُ بنُ المنذرِ مرَّةً يَتَنَزَّهُ ومعهُ عدِيٌّ بنُ زَيدِ العباديِّ ، فلَمَّا اطمأنَّ بِهِم المَجْلِسُ في ظلِّ شجرةٍ . . قالَ عدِيٌّ [بنحوه في « بغية الطلب » ١٠ / ٤٥٠٣] : أَتَدْرِي ما تقولُ هذهِ الشجرةُ ؟ قالَ : لا ، قالَ : فَإِنَّهَا تقولُ :

رُبَّ نَاسٍ قَدْ أَنَاخُوا قَبْلَنَا يَشْرَبُونَ الخَمْرَ بِالمَاءِ الزُّلَّالِ
عَصَفَ الدَّهْرُ بِهِمُ فَأَنْقَلَبُوا وَكَذَلِكَ الدَّهْرُ حَالاً بَعْدَ حَالٍ

فانقبضَ الملكُ ، وانكسفَ بالهُ ، وتغنَّصَ عيشُهُ ، وعادَ من فورِهِ إِلى منزلِهِ .

وخرجَ مرَّةً أُخرى للصيْدِ ومعهُ عدِيٌّ ، فمرُّوا بِأَرَامٍ - وهي القبورُ - فقالَ عدِيٌّ [بنحوه في « بغية الطلب » ١٠ / ٤٥٠٣] : أبيتُ اللعنَ ، تَدْرِي ما تقولُ هذهِ الأَرَامُ ؟ قالَ : لا ، قالَ : إِنَّهَا تقولُ :

أَيُّهَا الرِّكَابُ المُخْبِئُ نَ عَلَيَّ الأَرْضِ تَمُورُونَ
فَكَمَّا كُنْتُمْ فَكُنَّا وَكَمَّا كُنَّا تَكُونُونَ

قالَ : أَعَدُّهُ ، فَأَعادَهُ ، فانكسرَ لَهُ ، وتركَ صيدَهُ .

وقد أثنى ابنُ جنِّي على الناظِمِ في هذا الاقتضابِ ، وقالَ : إِنَّهُ مِن حَسَنِ التصرُّفِ ، ولم يظْهَر لي وجهُ ذلكَ ، وكانَ عليه أَنْ يبيِّنَهُ ، إِلاَّ أَنْ يُقالَ في مناسبةِ الوعظِ للغزَلِ : إِنَّ الجمالَ زهرةٌ ربيعٍ ، سرعاناً ما يلحقُها الذبولُ ، وفي

مناسبتِهِ لِلْمَدِيحِ : إِنَّ الدُّنْيَا خَبْرٌ ، وَلَا يَبْقَى إِلَّا الْأَثَرُ ، وَالْعَيْشُ حَقِيرٌ ، وَالْعَمْرُ قَصِيرٌ ، وَلَكِنَّ مَنْ يَذْخِرُ الْمَكْرُمَاتِ . .
 يعيشُ بِالذِّكْرِ الْجَمِيلِ وَإِنْ فَاتَتْ ، وَهَذَا مَا لَا أَظُنُّهُ يَخْطُرُ بِبَالِ النَّاطِمِ ، حَتَّى يُوَجَّهَ بِهِ لِكَلَامِهِ ، ثُمَّ إِنَّ الدُّنْيَا قَدْ دَلَّتْ
 عَلَى عَيْبِهَا بِنَفْسِهَا ، قَالَ مُسْلِمٌ بْنُ الْوَلِيدِ [صَرِيحُ الْغَوَانِي فِي « دِيْوَانِهِ » ١٢٢] :

دَلَّتْ عَلَى عَيْبِهَا الدُّنْيَا وَصَدَقَهَا مَا اسْتَرْجَعَ الدَّهْرُ مِمَّا كَانَ أَعْطَانِي

[حِقَارَةُ الدُّنْيَا وَالْكَلَامُ عَلَى الْمَوْتِ وَذَكَرَ قِصَصَ فِي ذَلِكَ]

وَقَالَ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ - كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ - [فِي « نَهْجِ الْبَلَاغَةِ » ٧٣] : مَا أَصِفُ مِنْ دَارٍ!! أَوْلُهَا عِنَاءٌ ، وَآخِرُهَا فَنَاءٌ ، حَلَالُهَا
 حِسَابٌ ، وَحِرَامُهَا عِقَابٌ ، مِنْ أَمِنْ فِيهَا . . سَقِمَ ، وَمَنْ مَرَضَ فِيهَا . . نَدِمَ ، وَمَنْ اسْتَعْنَى فِيهَا . . فُتِنَ ، وَمَنْ افْتَقَرَ
 فِيهَا . . حَزِنَ .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : انصرفتُ مِنْ مَجْلِسِ حَمَادِ الرَّاوِيَةِ^(١) ، فَقِيلَ لِي : مَا حَدَّثْتُمْ؟ قُلْتُ : حَدَّثْنَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « لَوْ لَمْ يَكْسِبِ ابْنُ آدَمَ إِلَّا الصَّحَّةَ وَالسَّلَامَةَ . . لَكَفَى بِهِمَا دَاءٌ »^(٢) ، فَقِيلَ : قَاتَلَ اللَّهُ حَمِيداً حَيْثُ قَالَ
 [فِي « دِيْوَانِهِ » ٧] :

أَرَى بَصْرِي قَدْ رَأَيْتِي بَعْدَ صِحَّةٍ وَحَسْبُكَ دَاءٌ أَنْ تَصِحَّ وَتَسَلَّمَ

وَقَالَ [فِي « دِيْوَانِ عَمْرُو بْنِ قَمْتَةَ » ٧٧]

وَدَعَوْتُ رَبِّي بِالسَّلَامَةِ جَاهِداً لِيُصِحَّنِي فَإِذَا السَّلَامَةُ دَاءٌ

وَقَالَ [فِي « دِيْوَانِهِ » ١٣٤] :

لَوْ لَمْ يُوَكَّلْ بِالْفَتَى وَتَدَاوَلَاهُ لِأَوْشَكَا
 إِلَّا السَّلَامَةَ وَالنَّعْمَ أَنْ يُسَلِّمَاهُ إِلَى الْهَرَمِ

وَنظَرَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى الْهَلَالِ فَقَالَ : مَا لِي وَلَهُ؟ مُحِلُّ دِينٍ ، وَمَقْرَبُ حَيْنٍ .
 وَقَالَ عَبْدُهُ :

إِذَا مَا سَلَخْتُ الشَّهْرَ أَهَلَّلْتُ مِثْلَهُ كَفَى قَاتِلاً سَلَخِي الشُّهُورَ وَإِهْلَالِي

وَقَالَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ [فِي « دِيْوَانِهِ » ٦٢٨] :

تَظَلُّ تَفْرَحُ بِالْأَيَّامِ تَقْطَعُهَا وَكُلُّ يَوْمٍ مَضَى يُدْنِي مِنَ الْأَجَلِ

وَقَالَ النَّاطِمُ [فِي « الْمُكْبَرِيِّ » ٣/١٣٠-١٣١] :

أَبَدًا تَسْتَرِدُّ مَا تَهَبُ الدُّنْيَا فَيَا لَيْتَ جُودَهَا كَانَ بُخْلًا

(١) حماد الراوية : هو حماد بن سابور بن مبارك الشيباني العلامة الإخباري ، المكين النديم للوليد بن عبد الملك مات في دولة المهدي سنة : (١٦٠) هـ
 وسُمِّي الراوية لأنه قال للخليفة : إني لأروي لكل شاعر تعرفه أو لا تعرفه ، وأنشدك على كل حرف من حروف المعجم مئة قصيدة للجاهلية ، ثم سرد
 (٢٩٠٠) قصيدة فأعطاه مئة ألف درهم .

(٢) ذكره عن ابن عباس رضي الله عنهما المتقي الهندي في « كنز العمال » (٦٧٢٢) وعزاه إلى ابن عساکر ، ولفظه : « لو لم يكن لابن آدم إلا الصحة والسلامة
 لكفاه بهما داء قاتلاً » .

وَهِيَ مَعْشُوقَةٌ عَلَى الْغَدْرِ لَا تَحُدُّ
شَيْمُ الْغَائِنَاتِ فِيهَا فَلَا أَدُّ

وقال [في «العكبري» ٤٩/١] :

فَظْ عَهْدًا وَلَا تَتَّمُّمْ وَضَلَا
رِي لِيَذَا أَنْتَ اسْمَهَا النَّاسُ أَمْ لَا

[مِنَ الطَّوِيلِ]

لَقَدْ فَارَقَ النَّاسُ الْأَحْبَةَ قَبْلَنَا

وقال [في «العكبري» ١٨٩٨/٣] :

وَأَعْيَى دَوَاءَ الْمَوْتِ كُلَّ طَيِّبٍ

[مِنَ الْوَافِرِ]

نُعِيدُ الْمَشْرِفَةَ وَالْعَوَالِي
وَنَرْتَبِطُ السَّوَابِقَ مُقَرَّبَاتٍ
وَمَنْ لَمْ يَعْشَقِ الدُّنْيَا قَدِيمًا
نَصِيْبُكَ فِي حَيَاتِكَ مِنْ حَبِيْبٍ
يُدْفَنُ بَعْضَنَا بَعْضًا وَتَمَشِي

وقد لاذ في الأخير بقول أبي نواس [في «ديوانه» ٤٢٥] :

وَتَقْتُلُنَا الْمُنُونُ بِبِلَا قَتَالٍ (١)
وَمَا يُنْجِينُ مِنْ حَبَبِ اللَّيَالِي (٢)
وَلَكِنْ لَا سَبِيلَ إِلَى الْوَصَالِ
نَصِيْبُكَ فِي مَنَامِكَ مِنْ خَيَالِ
أَوْ أَخْرُنَا عَلَى هَامِ الْأَوَالِي

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَمَا النَّاسُ إِلَّا هَالِكٌ وَابْنُ هَالِكِ

وقوله أيضاً :

وَذُو نَسَبٍ فِي الْهَالِكِينَ عَرِيْقُ

[مِنَ الْوَافِرِ]

أَلَا يَا ابْنَ الْذِينَ فَنُوا وَبَادُوا

أَمَا وَاللَّهِ مَا بَادُوا لِيَبْقَى

[مِنَ مَخْلَعِ الْبَسِطِ]

وقول أبي العتاهية [في «ديوانه» ٦٠١] :

كَيْفَ بَقَاءُ الْفُرُوعِ يَوْمًا

وَقَدْ ذَرَتْ قَبْلَهَا الْأُصُولُ ؟!

[مِنَ الْكَامِلِ]

وقد قال متمم بن نويرة :

وَعَدَدْتُ أَبَائِي إِلَى عِرْقِ الثَّرَى
وَلَقَدْ عَلِمْتُ وَلَا مَحَالَةَ أَنَّي

فَدَعَوْتُهُمْ وَعَلِمْتُ أَنْ لَمْ يَسْمَعُوا
لِلْحَادِثَاتِ فَهَلْ تَرَانِي أَجْرَعُ ؟

وقد سبق إليه الإمام الغالب في قوله [في «شرح النهج» ٩١/٩] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

(وقد مضت أصول نحن فروعها وما بقاء الفرع بعد ذهاب أصله) وقد قال الأول [في «ديوان ليبي» ٢٥٥] :

فَإِنَّ أَنْتَ لَمْ تَصُدُقْكَ نَفْسُكَ فَانْتَسَبَ
فَإِنَّ لَمْ تَجِدْ مِنْ دُونِ عَدْنَانَ وَالِدًا

لَعَلَّكَ تَهْدِيكَ الْقُرُونُ الْأَوَائِلُ
وَدُونَ مَعَدِّ فَلْتَرُغِكَ الْغَوَائِلُ

[مِنَ الْكَامِلِ]

وقال أبو عبادة [في «ديوانه» ١٥٧٦/٣] :

وَمَتَى وَجَدْتَ النَّاسَ إِلَّا تَارِكًا

لِحَمِيمِهِ فِي الثَّرْبِ أَوْ مَثْرُوكًا

(١) المشرقية: السيوف. العوالي: الرماح.

(٢) المقربا من الخيل: الكرام التي تربط لكرامتها على أصحابها، أو لفرط الحاجة إليها.

سَارُ بِنَا قَصْدَ الْمُنُونِ وَإِنَّا
عَجَالاً مِنَ الدُّنْيَا بِأَسْرَعِ سَيْرِنَا
لَشُغْفُ أَحْيَانَا بِطَيِّ الْمَرَا حِلِ
تَأْمَلْتِ أَمْثَالَ لَهَا فِي الْأَوَائِلِ
أَوَاخِرُ مِنْ عَيْشٍ إِذَا مَا أَمْتَحَتَتْهَا

وقال الأصمعي : قَدِمَ عَلَيْنَا أَعْرَابِيٌّ ، فَأَقَامَ عِنْدَنَا أَيَّاماً ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الْبَادِيَةِ ، فَسَأَلَ عَنِ إِخْوَانِهِ وَأَتْرَابِهِ ، فَقِيلَ لَهُ :

مَاتُوا ، فَاسْتَرْجَعَ وَبَكَى ، وَأَنْشَأَ يَقُولُ [في «ديوان أبي العتاهية» ٣٣] :

أَلَا يَا مَوْتَ لَمْ أَرِ مِنْكَ بُدَاً
كَأَنَّكَ قَدْ هَجَمْتَ عَلَيَّ مَشِيبي
أَبَيْتَ فَمَا تَحِيدُ وَلَا تَحَابِي
كَمَا هَجَمَ الْمَشِيبُ عَلَيَّ شَبَابِي

وقال آخر [في «المدمش» ٤٨١] :

إِذَا مَا الْمَنَايَا أَخْطَأْتِكَ وَصَادَفْتَ
حَبِيبَكَ فَاعْلَمْ أَنَّهَا سَتَعُودُ

وقال لبيد [في «ديوانه» ٣٠٨] :

صَادَفْنِ مِنْهَا غِرَّةً فَأَصْبَنَهَا
إِنَّ الْمَنَايَا لَا تَطِيشُ سَهَامَهَا

ولمَّا دَخَلَ عَلَيَّ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ - كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ - مَدَائِنَ كَسْرَى .. نَظَرَ إِلَى الْإِيوَانِ ، فَأَنْشَدَهُ بَعْضُ مَنْ حَضَرَ قَوْلَ

الْأَسْوَدِ بْنِ يَعْفَرَ [في «الأغاني» ٢١/١٣] :

مَاذَا أُوْمَلُّ بَعْدَ آلِ مُحَرَّرِ
أَهْلِ الْخُوزَنْقِ وَالسَّيْدِ وَبَارِقِ
تَرَكَوْا مَنَازِلَهُمْ وَبَعْدَ إِيَادِ
فَكَأَنَّمَا كَانُوا عَلَيَّ مِعَادِ
يَوْمًا يَصِيرُ إِلَيَّ بِلَى وَتَفَادِ
فَأَرَى النَّعِيمَ وَكُلَّ مَا يُلْهَى بِهِ

فَقَالَ عَلِيٌّ [في «الأغاني» ٢١/١٣] : أبلغ من ذلك قوله عز وجل : ﴿ كَمْ تَرَكَوْا مِنْ جَنَّتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَابِرِ كَرِيمٍ * وَنَعْمَؤُ

كَانُوا فِيهَا فَكَاهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾ [الدخان : ٢٩-٢٥] .

وقال بعضهم في رثاء الزهراء بـ (الأندلس) [في «نوح الطيب» ٥٢٧/١] :

وَقَفْتُ بِالزَّهْرَاءِ مُسْتَعْبِرًا
فَقُلْتُ : يَا زَهْرَا أَلَا فَارِجِعِي
مُعْتَبِرًا أَنْدُبُ أَشْتَاتَا
قَالَتْ : وَهَلْ يَرْجِعُ مَنْ مَاتَا ؟!
هَيْهَاتَ يُغْنِي الدَّمْعُ هَيْهَاتَا
فَلَمْ أَزَلْ أَبْكِي وَأَبْكِي بِهَا
نَوَائِحُ يَنْدُبُنْ أَمْوَاتَا
كَأَنَّمَا آثَارُ مَنْ قَدْ مَضَى

وقال الناظم [في «العكبري» ٢٧٠/٢] :

مَا حَالُهُ مَا يَوْمُهُ مَا الْمَضْرَعُ؟^(١) أَيْنَ الَّذِي الْهَرَمَانَ مِنْ بُيَانِهِ

(١) الْهَرَمَانَ : بِنَاءٌ عَظِيمٌ بِأَرْضِ (مِصْرَ) ، وَخَالَفَتْ بِهِمَا اخْتِلَافًا كَثِيرًا ، ارْتِفَاعُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَرْبَعُ مِثَّةِ ذِرَاعٍ ، وَهُمَا نَابِتَانِ ، وَلَا يُعْرَفُ الْبَانِي لِهَمَا ، وَقَالَ الْوَاحِدِيُّ : أَحَدُهُمَا : قَبْرُ شَدَّادِ بْنِ عَادٍ ، وَالْآخَرُ : قَبْرُ إِرْمِ ذَاتِ الْعِمَادِ .

تَخَلَّفَ الْآثَارُ عَنْ أَصْحَابِهَا حِيناً وَيُذْرِكُهَا الْفَنَاءُ فَتَبَعُ

[مِنَ الْخَفِيفِ]

وقال سلمة بن زيد الفهمي يصف حال قومه :

دَرَجَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ عَلَيَّ فَهَمَّ بِنِ عَمْرٍو فَأَصْبَحُوا كَالرَّمِيمِ
وَحَلَّتْ دَارُهُمْ فَأَصَحَّتْ يَبَاباً بَعْدَ عِزٍّ وَتَسْرُوةٍ وَنَعِيمِ
وَكَذَلِكَ الزَّمَانُ يَذْهَبُ بِالنَّاسِ وَتَبَقَّى دِيَارُهُمْ كَالرُّسُومِ

[مِنَ الْوَافِرِ]

وقال آخر [وهو أبو العتاهية في «ديوانه» ٢٩٧] :

هَبِ الدُّنْيَا تُسَاقُ إِلَيْكَ عَفْوَاً أَلَيْسَ مَصِيرُ ذَلِكَ لِلزَّوَالِ
فَمَا تَرْجُو بِشَيْءٍ لَيْسَ يَنْقَى وَشَيْكاً مَا تُغَيِّرُهُ اللَّيَالِي

[مِنَ الطَّوِيلِ]

ولقد أجاد طرفة بن العبد في قوله [في «ديوانه» ٣٦-٣٧-١٥٠-١٥١] :

أَرَى الْعُمَرَ كَنْزاً نَاقِصاً كُلَّ لَيْلَةٍ لَكَاطُوَلِ الْمُرْخِي وَثِنْيَاهُ فِي الْيَدِ^(١)
إِذَا شَاءَ يَوْمًا قَادَهُ بِزَمَامِهِ وَمَنْ كَانَ فِي حَبْلِ الْمَيِّتَةِ يَنْقَدِ
أَرَى الْمَوْتَ لَا يَزَعِي عَلَيَّ ذِي جَلَالَةٍ وَإِنْ كَانَ فِي الدُّنْيَا عَزِيزاً بِمَقْعَدِ
لَعْمُرِكَ مَا أَذْرِي وَإِنِّي لَوَاجِلٌ أَفِي الْيَوْمِ إِقْدَامِ الْمَيِّتَةِ أَوْ غَدِ
لَعْمُرِكَ مَا الْأَيَّامُ إِلَّا مُعَارَةٌ فَمَا اسْطَعْتَ مِنْ مَعْرُوفِهَا فَتَزَوَّدِ

[مِنَ الْخَفِيفِ]

وقال أعشى وائل :

ذَاكَ عَيْشٌ شَهِدْتُهُ ثُمَّ وَلَّيْتُ كُلُّ عَيْشٍ مَصِيرُهُ لِلزَّوَالِ

وخرج الإمام - كرم الله وجهه - مرّة إلى الجبّانة ، ووقف على المقابر ، ثمّ قال [في «المستطرف» ٢/٦١٠] : يا أهل الثرى ، يا أهل الكرى ، يا أهل الغرى ، أمّا الأزواج . . فقد نكحت ، وأمّا الأموال . . فقد قُسمت ، وأمّا الدور . . فقد سُكنت ، هذا خبر ما عندنا ، فما خبر ما عندكم ؟ ثمّ قال : أمّا لو أذن لهم في المقال . . لقالوا : إن خير الزاد التقوى .

ويروى : أنّ المتوكّل العباسي بلغه عن الهادي الدعاء إلى نفسه ، وأنّه يكاتب في ذلك ، فأمر بكبس داره وإشخاصه على حاله ، فألفوه يتهجد ، فجاؤوا به ، وعرفوه براءته ، فلاطفه وقضى حاجته ، والتمس منه أن يروي له شعراً ،

[مِنَ الْبَسِيطِ]

فاعتذر بقلّة روايته فألح عليه ، فقال [الآبيات في «المستطرف» ٢/٦٠٥] :

بَاتُوا عَلَيَّ قَلِيلِ الْأَجْبَالِ تَحْرُسُهُمْ غُلِبَ الرَّجَالِ فَمَا أَغْتَهُمُ الْقَلِيلُ
وَاسْتُنْزَلُوا بَعْدَ عِزٍّ عَن مَعَاقِلِهِمْ وَاسْتُودِعُوا حُفْرًا يَا بئْسَ مَا نَزَلُوا
نَادَاهُمْ صَارِحٌ مِنْ بَعْدِ مَا قُبُرُوا : أَيْنَ الْأَسِرَّةُ وَالتَّيْجَانُ وَالْحُلُلُ ؟

(١) الطول : الحبل . ثنياه : ما اتشنى منه .

أَيْنَ الْوُجُوهِ الَّتِي كَانَتْ مُنْعَمَةً
فَأَفْصَحَ الْقَبْرِ بِالْمَعْنَى وَقَالَ لَهُ :
يَا طَالَمَا أَكَلُوا دَهْرًا وَمَا شَرِبُوا

وقال القطبُ الحدَّادُ [في ديوانه « ٥٠٦ »] :

مِنْ دُونِهَا تَضَرَّبُ الْأَسْتَارُ وَالْكُلُّ ؟
تِلْكَ الْوُجُوهُ عَلَيْهَا الدُّودُ يَفْتِيلُ
فَأَصْبَحُوا بَعْدَ ذَلِكَ الْأَكْلِ قَدْ أَكَلُوا

[مِنَ الْبَسِيطِ]

يَصِيحُ فِيهَا غُرَابُ الْبَيْنِ بِالْوَهْنِ
فِي ظِلْمَةِ اللَّيْلِ لَمْ تَلْتَدْ بِالْوَسَنِ

تِلْكَ الْقُصُورُ وَتِلْكَ الدُّورُ خَاوِيَةٌ
فَلَوْ مَرَزْتَ بِهَا وَالْبُومُ يَنْدُبُهَا

وقال من أخرى [في ديوانه « ٤٤٦ »] :

[مِنَ الْبَسِيطِ]

عَلَى الْخُدُودِ حَكَاهُ الْعَارِضُ الْهَطْلُ
إِذَا أَلَمَ بِهَا التَّذْكَارُ تَشْتَعِلُ
إِلَى الْمَقَابِرِ وَالْأَلْحَادِ وَانْتَقَلُوا
وَالدَّارُ أَهْلَةٌ وَالْحَبْلُ مُتَّصِلُ
فَلَمْ يَرِيْمُوا وَعَنْ أَحْبَابِهِمْ شَغَلُوا
طَالَ الْمَدَى غَرَّهُ الْإِمْهَالُ وَالْأَمَلُ
إِنَّكَ لِنَفْسِكَ إِنَّ الْأَمْرَ مُقْتَبِلُ

يَا صَاحِبِي إِنَّ دَمْعِي الْيَوْمَ يَنْهَمِلُ
وَفِي الْفُؤَادِ وَفِي الْأَخْشَاءِ نَارُ أَسَى
عَلَى الْأَجْبَةِ وَالْإِخْوَانِ إِذْ رَحَلُوا
كُنَّا وَكَانُوا وَكَانَ الشَّمْلُ مُجْتَمِعًا
حَدَا بِهِمْ هَازِمُ اللَّذَاتِ فِي عَجَلٍ
وَعَافِلٍ لَيْسَ بِالْمَغْفُولِ عَنْهُ وَإِنْ
قُلْ لِلْحَزِينِ الَّذِي يَبْكِي أَحَبَّهُ

ومات لبعض الخلفاء ولد ، كان ألدَّ له من المني ، وأعجب إليه من العافية ، وأعذب لديه من صوب الغمام ، فتنكر حاله ، وامتنع عن الشراب والطعام ، حتى دخل عليه بعضهم ، فقال له [بنحوها في « البيان والتبيين » ١/ ٦٠٥] : إنَّ القرآنَ عليكم نزل ، فأنتم أعرف بتأويله ، وإنَّ النبيَّ منكم ابتعث ، فأنتم أعرف بسنته ، وإنَّا لا نعلمك شيئاً [نراك] جهلته ، وإنما ندكرُك بما لعلَّ المصيبةُ أُنسِتْكَ إِيَّاهُ ، وهذه الأبياتُ قالها بعضُ من أصابه مثلُ ما أصابك ، وأنشد : [مِنَ الطَّوِيلِ]

وَيَوْمٌ إِلَى يَوْمٍ وَشَهْرٌ إِلَى شَهْرٍ
تَسِيرُ بِنَا فِي غَيْرِ بَحْرِ وَلَا بَرٍ
وَيُذْنِبْنَ أَشْلَاءَ الْكِرَامِ إِلَى الْقَبْرِ
وَيَقْسِمْنَ مَا بَقِيَ الشَّجِيحِ مِنَ الْوَفْرِ^(١)
مَعَ الدَّهْرِ أَوْ سَاقِ الْحِمَامِ إِلَى الْقَبْرِ
وَلَوْ كُنْتَ تُمْرِيهِنَّ مِنْ تَبَجِ الْبَحْرِ
عَلَى أَحَدٍ فَاجْهَدْ بِكَأكَ عَلَى عَمْرٍو
عَلَيَّ وَعَبَّاسُ وَالْأَبِي بَكْرٍ^(٢)

هَلِ الدَّهْرُ إِلَّا لَيْلَةٌ وَنَهَارُهَا
سَرِينًا وَأَدْجَنًا فَكَانَتْ رِكَابًا
مَنَابًا يُقَرِّئَنَّ الْبَعِيدَ إِلَى الْبَلَى
وَيَتْرُكَنَّ أَزْوَاجَ الْغُيُورِ لِغَيْرِهِ
لَعَمْرِي لَئِنْ أَتَبَعْتَ عَيْنِيكَ مَا مَضَى
لَتَسْتَنْفِذَنَّ مَاءَ الشُّؤُونِ بِأَسْرِهَا
تَبِينُ فَإِنْ كَانَ الْبُكَاءُ رَدًّا هَالِكًا
وَلَا تَبْكِي مَيْتًا بَعْدَ مَيْتٍ أَجَنَّهُ

(١) الوفير من المال والمتاع : الكثير الواسع .

(٢) الأبيات الأربعة الأولى لأبي العتاهية في « ديوانه » (٥٥٢-٥٥٣) ، وكذا في « أمالي الزجاجي » (ص/ ١٠١) ، وآخر بيتين للخطبة في « ديوانه » (١٦٣) ، بل قال محقق « أمالي الزجاجي » (ص/ ٩٨) عبد السلام هارون : هو عبد الله بن أراكة الثقفي وعزاه لـ : « أمالي المرتضى » و « حماسه » ابن الشجري ، وقال في « العقد » (٣/ ٣٠٦) لأراكة الثقفي ويبدو أنه الصواب .

وأظنُّ الأبيات تداخلت على الزجاج ؛ فإنِّي أحفظُها من « أماليهِ » ، مع أني رأيتها بعد ذلك متفرقةً لغير واحد ، ثم قال للخليفة وهذا بيت واحد أعزيتك به وهو :

[مِن الطويل]

وَهَوْنٌ بَعْضَ الْوَجْدِ عَنِّي أَنِّي أَجَاوِرُهُ فِي دَارِهِ الْيَوْمَ أَوْ غَدًا^(١)

وقد سبق لنا في المجلس السابع أن ذكرنا هذا البيت ، مع ما يناسبه في الكلام على قوله [في « العكبري » ٣ / ١٦٣] :

[مِن البسيط]

لَوْلَا مُفَارَقَةُ الْأَحْبَابِ مَا وَجَدْتُ لَهَا الْمَنَايَا إِلَى أَرْوَاحِنَا سُبُلًا

ويروى : أن الفضل بن سهل أصيب بابن يقال له العباس ، فاشتدَّ جزعه عليه ، فدخل عليه إبراهيم بن موسى بن

[مِن الكامل]

جعفر العلوي يعزيته ، وأشده :

أَصْبِرْ نَكُنْ بِكَ صَابِرِينَ فَإِنَّمَا خَيْرٌ مِنَ الْعَبَّاسِ رِثْكَ بَعْدَهُ
صَبْرُ الرَّعِيَّةِ بَعْدَ صَبْرِ الرَّاسِ وَاللَّهُ خَيْرٌ مِنْكَ لِلْعَبَّاسِ

[مِن الطويل]

وما أحسن ما قاله إبراهيم بن مهدي ، وهو :

وَإِنِّي وَإِنْ قُدِّمَتْ قَبْلِي لَعَالِمٌ وَإِنَّ صَبَاحًا نَلْتَقِي فِي مَسَائِهِ
بِأَنِّي وَإِنْ أَبْطَأْتُ عَنْكَ قَرِيبٌ صَبَاحٌ إِلَى قَلْبِي الْغَدَاةَ حَيْبٌ

[مِن الطويل]

وقال سلمة بن يزيد في رثائه لمسلمة بن مغراء ، وكان أخاه من أمه :

وَكُنْتُ إِذَا يَنَأَى بِهِ يَبْنُ لَيْلَةٍ فَهَذَا لِيَيْنِ قَدْ عَلِمْنَا إِيَابَهُ
يَبِيْتُ عَلَى الْأَحْشَاءِ مِنْ بَيْنِهِ جَمْرٌ وَهَوْنٌ وَجِدِي أَنِّي سَوْفَ أَعْتَدِي
فَكَيْفَ لِيَيْنِ كَانَ مَوْعِدُهُ الْحَشْرُ؟ عَلَى إِثْرِهِ يَوْمًا وَإِنْ نَفْسَ الْعُمُرِ

ومما جاء في مجرّد التفتيح ، المنادي بحقارة الدنيا ، وسرعة فراقها ، ما حكاها الأصمعي قال : رأيت امرأة بالبادية

[مِن الكامل]

تطوف على راحلتها بقبر ، وهي تبكي وتنشد :

يَا قَبْرَ سَيِّدِنَا الْمَجَنِّ سَمَاحَةَ مَا ضَرَّ لِحْدًا أَنْتَ سَاكِنُهُ
صَلَّى الْإِلَهِ عَلَيْكَ يَا قَبْرُ أَنْ لَا يَمُرَّ بِأَرْضِهِ الْقَطْرُ
فَلْيُبْعَنَّ سَمَاحُ جُودِكَ فِي الثَّرَى وَإِذَا غَضِبْتَ تَصَدَّعَتْ فَرْقَا
مِنْكَ الْجِبَالُ وَخَافَكَ الدُّعْرُ^(٢) وَإِذَا رَقَدْتَ فَأَنْتَ مُتَّبَعُهُ
وَإِذَا رَقَدْتَ فَأَنْتَ مُتَّبَعُهُ

= وزادها بيتاً وهو ثالثها فصارت خمسة :

فقلبت لعبد الله إذ حنَّ بأكياً تعزُّ ، وماء العين منهنمُرُّ يجري

(١) جاء في « البيان والتبيين » (٩٧ / ٤) أن منشد الشعر يحيى بن منصور ، ولم يصرح بنسبته إليه .

(٢) الدعْرُ : الفزعُ .

قال: فأعجبني شعرها ، ودنوتُ لأسألها ، فسقطت ميتة ، وقد طرق سَمعي بعضُ هذه الأبياتِ أو كلها باللفظِ أو بالمعنى ، في رثاءِ الإمامِ الغالبِ سيِّدنا عليِّ ابنِ أبي طالبٍ .

ويروى : عَنِ الْأَصْمَعِيِّ - أَيْضاً - أَوْ عَنْ غَيْرِهِ : أَنَّ امْرَأَةً وَقَفَتْ عَلَى قَبْرِ ، فَبَكَتْ وَأَبَكَتْ ، ثُمَّ أَنْشَأَتْ تَقُولُ : [مِنَ الْكَامِلِ]

مَا حَالُ مَنْ سَكَنَ الثَّرَى مَا حَالُهُ مَا حَالُهُ انْقَطَعَتْ هُنَاكَ حِبَالُهُ ؟
 أَمْسَى وَلَا رَوْحُ الْحَيَاةِ يُصِيئُهُ يَوْمًا وَلَا لُطْفُ الْحَبِيبِ يَنَالُهُ
 أَمْسَى قَدْ امْتَحَشَتْ مَحَاسِنُ وَجْهِهِ وَتَقَطَّعَتْ فِي لَحْدِهِ أَوْصَالُهُ
 أَمْسَى غَرِيبًا مُفْرَدًا فِي حُفْرَةٍ وَتَشْتَتَّ بَعْدَ النُّظَامِ عِيَالُهُ
 وَتَبَدَّلَتْ مِنْهُ الْمَجَالِسُ غَيْرَةً وَتَقَسَّمَتْ مِنْ بَعْدِهِ أَمْوَالُهُ

ويروى : أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ ، نَظَرَتْ إِلَى جَنَازَةِ الْحَسَنِ بْنِ الْحُسَيْنِ ، فَأَغْشَى عَلَيْهَا ، وَلَمَّا أَفَاقَتْ . . .
 قَالَتْ : [مِنَ الطَّوِيلِ]

وَكَانُوا رَجَاءً ثُمَّ عَادُوا رَزِيَّةً لَقَدْ عَظُمَتْ تِلْكَ الرَّزَايَا وَجَلَّتْ^(١)

ثُمَّ ضَرَبَتْ عَلَى قَبْرِهِ فِسْطَاطًا ، أَقَامَتْ فِيهِ سَنَةً ، ثُمَّ انصرفت ، فيقال : إِنَّهَا سَمِعَتْ هَاتِفًا يَقُولُ : هل وجدوا ما طلبوا ؟ فقال له آخرُ : بل أيسوا فانقلبوا .

وَحَجَّتْ امْرَأَةٌ مِنَ الْعَرَبِ ، مَعَهَا ابْنٌ لَهَا أُصِيبَتْ بِهِ ، وَلَمَّا دَفَنُوهُ . . . قَامَتْ عَلَى قَبْرِهِ وَهِيَ مَوْجِعَةٌ تَقُولُ [فِي جَمْعَةِ خُطْبِ الْعَرَبِ ، ٢٧٣/٣] : يَا بُنَيَّ ، وَاللَّهِ لَقَدْ غَذَوْتُكَ رَضِيعًا ، وَفَقَدْتُكَ سَرِيعًا ، وَكَأَنَّ لَمْ تَكُنْ بَيْنَ الْحَالَتَيْنِ مَدَّةً أَلْتَدُّ فِيهَا بَعِيشِكَ ، وَأَتَمَّتْ فِيهَا بِالنَّظَرِ إِلَيْكَ ، وَمَا بَقِيَ مِنْ عَمْرِي أَدُوبٌ فِيهِ كَمَدًا عَلَيْكَ ، ثُمَّ قَالَتْ :

اللَّهُمَّ : مِنْكَ الْعَدْلُ ، وَمِنْ خَلْقِكَ الْجَوْرُ ، وَهَبْتَهُ قُرَّةَ عَيْنٍ لِي ، فَلَمْ تَمْتَعْنِي بِهِ كَثِيرًا ، بَلْ سَلَبْتَنِيهِ وَشِيكَأ ، ثُمَّ أَمَرْتَنِي بِالصَّبْرِ ، وَوَعَدْتَنِي عَلَيْهِ بِالْأَجْرِ ، فَصَدَّقْتُ وَعْدَكَ ، وَرَضِيْتُ قَضَاءَكَ ، فَارْحَمِ اللَّهُمَّ غَرِيبَتَهُ ، وَاسْتُرْ عَوْرَتَهُ يَوْمَ تَنْكَشِفُ الْعَوْرَاتُ ، وَتُظْهِرُ السُّوَأَاتُ ، وَرَحِمِ اللَّهُ مَنْ تَرَحَّمَ عَلَيَّ مِنْ اسْتَوْدَعْتَهُ الرِّدْمَ ، وَوَسَدَّتْهُ الثَّرَى ، ثُمَّ قَالَتْ :

أَيُّ بُنَيَّ ، لَقَدْ تَزَوَدْتُ مِنَ الدُّنْيَا لِسَفْرِي ، فَلَيْتَ شِعْرِي ! مَا زَادَكَ لِسَفْرِكَ وَيَوْمَ مَعَادِكَ ؟

(١) الرَّزَايَا : الْمَصَائِبُ . وَالْمَعْنَى : أَنَّ بَنِي هَاشِمٍ كَانُوا مَلْجَأً لِلنَّاسِ فِي حَوَائِجِهِمْ ، وَغَوَاثِلَهُمْ فِي شِدَائِهِمْ ، فَلَمَّا اسْتَشْهِدُوا . . . صَارُوا مَصِيبَةً عَلَيْهِمْ ، فَمَا أَشَدَّ تِلْكَ الْمَصِيبَةَ وَأَعْظَمَهَا .

وهذا البيت أحد أبياتِ لسليمان بن قنفة قاله في الحسين - رضي الله عنه - وفي أصحابه حين استشهدوا ، ومن الأبياتِ كما في «ديوان الحماسة» : (٣٩٩/١)

مَرَزَتْ عَلَيَّ أَيْبَاتِ آلِ مُحَمَّدٍ فَلَمَّ أَرْهَاهَا أَمْسَالَهَا يَزُومُ حُلَّتِ
 فَلَا يُبْعِدُ اللَّهُ الدَّيَارَ وَأَهْلَهَا وَإِنْ أَضْحَحْتَ مِنْهُمْ بِرَغْمِي تَخَلَّتِ
 أَلَا إِنَّ قَتْلَى الطُّفِّ مِنْ آلِ هَاشِمٍ أَزَلَّتْ رِقَابَ الْمُسْلِمِينَ فَذَلَّتِ

ويروى البيت أيضاً بلفظ :

وَكَانُوا غِيَاثًا ثُمَّ أَضْحَوْا رَزِيَّةً أَلَا عَظُمَتْ تِلْكَ الرَّزَايَا وَجَلَّتِ .

اللَّهُمَّ : إني أسألك الرضا عنه برضاي عنه ، ثم قالت :

استودعتك الله الذي استودعنيك جيناً في الأحشاء ، وأذاقني عليك غصة الشكلى ، واثكل الأمهات ، وحرارة قلوبهن ، وأطول سهرهن وكثرة عناهن .

وذكر غير واحد : أنه لما هلك حنظلة بن نهد بن زيد . . لم يدفن ثلاثة أيام ، حتى أتاه من كل حي وجوههم ، فقامت الخُطباءُ بالتعزية ، وقيلت فيه الأشعار ، حتى عد ذلك اليوم من أكبر مواسم العرب ، فلما ووري في حفرته . . قام جديلة بن أسد بن ربيعة فقال :

أيها الناس ، هذا حنظلة بن نهد ، فكأك الأسير ، وطارد العسير ، فهل منكم اليوم مجازٍ بفعليه ، أو حاملٍ عنه من ثقله ؟ كلاً ، وأجل ، إن مع كل جرعة لكم شرقة ، وفي كل أكلة لكم عُصصاً ، لا تنالون نعمة إلا بفراقٍ أخرى ، ولا يستقبل معمرٌ يوماً من عمره إلا بهدمٍ آخر من أجله ، ولا يجد زيادةً في أكله إلا بنفاد ما قبله من رزقه ، ولا يحيا له أثرٌ إلا مات أثرٌ ، إن في هذا لعبراً ومزدجراً لمن نظر ، لو أصاب أحدٌ سلماً إلى البقاء ، ووجد سبيلاً عن الفناء . . لكان ابن داود المقرون له بالنبوة ، ملك الإنس والجن^(١) ، ثم ذكر شعراً طويلاً لا حاجة بنا إليه .

وقام بعده ابن كثير بن عذرة بن سعد بن تميم فقال :

أيها الناس ، هذا حنظلة بن نهد معدن الحكماء ، وعز الضعفاء ، معطي اليانغ ، ومطعم الجائع ، فهل منكم له مانع ، أو لِمَا حلَّ به دافع ؟!

أيها الناس ، إنما البقاء بعد الفناء ، وقد خُلِقنا ولم نك شيئاً ، وسنعود إلى ذلك ، إن العواري اليوم ، والهباء غداً ، ورثنا من قبلنا ، ولنا وارثون ، ولا بُدَّ من رحيلٍ عن محلٍ نازل ، وقد أصبحتم في منزلٍ لا يستتب فيه سرورٌ بيسرٍ . . إلا تبعه حصيرٌ بعسر ، ولا تطول فيه حياةٌ مرجوة . . إلا اخترمها موتٌ مخيفٌ ، ولا يوثق فيه بخلقٍ باقٍ . . إلا وسيتبعه سابقٌ ماضٍ ، فأنتم أعوانٌ للحتوفِ على أنفسكم ، لها بكل سببٍ^(٢) منكم صريعٌ مجتزأ ، معازبٌ^(٣) منتظرٌ ، هذه أنفسكم تسوقكم إلى العناء ، فلم تطلبون البقاء ؟ اطلبوا الخير وموليّه ، واحذروا الشر ومُبديه ، واعلموا أن خيراً من الخير معطيه ، وشرّاً من الشرِّ فاعله ، ثم أنشأ يقول شعراً لا نُكثِرُ به^(٤) .

وكتب القاضي الفاضل لأحد أبناء صلاح الدين الأيوبي ، حينما مات بطاقةً يقول فيها [في السير « ٢١ / ٢٩٠ »] : كتبتُ إلى مولانا الظاهر ، أحسن الله عزاءه ، وجبر مصابه ، وجعل فيه الخلف في الساعة التي زلزل المسلمون فيها زلزالاً شديداً ، وقد حفرت الدموعُ المحاجر ، وبلغت القلوب الحناجر ، وقد ودعت أباك ومخدومي وداعاً لا لقاء بعده ، وأسلمته إلى الله ، مغلوب الحيلة ، ضعيف القوة ، راضياً عن الله تعالى ، وبالباب من الجنود المجتدة ، والأسلحة المعقدة ، ما لا يدفعُ بلاءً ، ولا يرُدُّ قضاءً ، وتدمع العين ، ويخشع القلب ، ولا نقول إلا ما يرضي الرب : وأنا

(١) أي : سليمان بن داود عليهما السلام .

(٢) السبب : المفازة .

(٣) المعازب : البعيد .

(٤) ذكر الشيخ أبو نعيم في « الحلية » (٣١ / ٤) وابن كثير في « البداية والنهاية » (٢٨٢ / ٩) : هذا الكلام الذي تقدّم كُله الذي عزاه الشيخ لابن جديلة ، والذي عزاه إلى ابن كثير على أنه موعظةٌ لوهب بن منبه اه .

عليك يا يوسف لمحزونون ، وأما ما يحتاج إليه من الوصايا . . فقد شغلني عنه المصائب ، ولائح الأمر إنه إن وقع اتفاق . . فما عدتم إلا شخصه الكريم ، وإن كان غير ذلك . . فالمصائب المستقبل أهونها موته ، وهو الهول العظيم .

وبعض هذا - مع ما سبق - ناظرٌ إلى ما صنع عمرو بن العاص ، فقد روي : أنه لما حضره الموت . . استدعى عساكره ، وأمرهم بأن يستلثموا ، وأمر بالفرسان فركبوا ، ولما اجتمعوا على بكرة أبيهم . . قال : لقد نزل بي من الأمر ما ترون ، فهل تملكون لي نفعاً ، أو تغنون عني دعماً ؟ وهو يعرف أنهم لا يقدرُونَ على شيء ، ولكنه أراد استخراج العبرة منهم ، وأن يريهم حقارة الدنيا ، وأن ما حُسر له من جنود (مصر) الفيحاء لا يُغني فتيلاً ولا نقيراً من أمر الله ، فسبحان من لا يدوم إلا ملكه .

وَأَلَمَّ بِهِ النَّاطِمُ فِي قَوْلِهِ [فِي «الْعُكْبَرِيِّ» ٢/٢٧٣-٢٧٤] :

[مِنَ الْكَامِلِ]

مَا زِلْتَ تَدْفَعُ كُلَّ أَمْرٍ فَادِحٍ حَتَّى أَتَى الْأَمْرُ الَّذِي لَا يُدْفَعُ
فَظَلَلْتَ تَنْظُرُ لَا رِمَاحَكَ شُرْعٌ فِيمَا عَرَكَ وَلَا سِيُوفَكَ قُطْعُ
بِأَبِي الْوَحِيدُ وَجَيْشُهُ مُتَكَائِرٌ بَيْنَكِي وَمِنْ شَرِّ السَّلَاحِ الْأَدْمَعُ

ومن كلام قاله الإمام ، وهو يجهزُ رسول الله صلى الله عليه وسلم [في « نهج البلاغة » ٢٧٢] : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لقد انقطع بموتك ما لا ينقطع بموت غيرك من النبوة والأنباء وأخبار السماء ، وخصصت حتى صرت مسلماً عمّن سواك ، وعممت حتى صار الناسُ فيك سواءً ، ولولا أنك أمرت بالصبر ، ونهيت عن الجزع . . لأنفذنا عليك ماء الشؤن ، وكان الداء ماطلاً ، والكمد محالفاً ، وقلاً لك ، ولكنه ما لا يملك رده ، ولا يُستطاع دفعه ، بأبي أنت وأمي ، اذكرنا عند ربك ، واجعلنا من بالِكَ .

وَلَمَّا دُفِنَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . قَامَ عَلَى قَبْرِهِ فَقَالَ [فِي «نَهْجِ الْبَلَاغَةِ»] : إِنَّ الصَّبْرَ لَجَمِيلٌ إِلَّا عَنْكَ ، وَإِنَّ الْجَزَعَ لَقَبِيحٌ إِلَّا عَلَيْكَ ، وَإِنَّ الْمُصَابَ بِكَ لَجَلِيلٌ ، وَإِنَّهُ بَعْدَكَ لَقَلِيلٌ .

وَأَنَّهُ وَابِعٌ مِنَ اللَّهِ لَمَنْ أَفْصَحَ الْكَلَامِ ، أَمَا قَوْلُهُ : إِنَّ الصَّبْرَ لَجَمِيلٌ إِلَّا عَنْكَ : فَقَدْ تَلَقَّفَهُ الشَّعْرَاءُ مِنْهُ ، قَالَ أَبُو تَمَّامٍ [فِي «دِيوانِهِ» ٢/٣٣٩] :

[مِنَ الطُّوَيْلِ]

وَقَدْ كَانَ يُدْعَى لِابْنِ الصَّبْرِ حَازِمًا فَقَدْ صَارَ يُدْعَى حَازِمًا حِينَ يَجْزَعُ

[مِنَ الْكَامِلِ]

وقال [في «ديوانه» ٢/٣١] :

الصَّبْرُ أَجْمَلُ غَيْرَ أَنْ تَلْدُذَا فِي الْحُبِّ أَوْلَى أَنْ يَكُونَ جَمِيلاً

[مِنَ الْكَامِلِ]

وقال الناظم [في «العكبري» ٣/٢٣٣] :

أَجْدُ الْجَفَاءِ عَلَى سِوَاكِ مُرْوَةٌ وَالصَّبْرَ إِلَّا فِي نَوَاكِ جَمِيلاً^(١)

(١) الجفاء : الامتناع . النوى : البعد .

وقال غيره [- وهو السري الرفاء - في « المستطرف » ٣٩٨/٢] :

[من الكامل]

وَالصَّبْرُ يُحْمَدُ فِي الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا
إِلَّا عَلَيْكَ فَإِنَّهُ مَذْمُومٌ

[من الوافر]

وقالت الخنساء قبل ذلك [في « ديوانها » ١٢٥] :

أَلَا يَا صَخْرُ إِنَّ أَبْكَيْتَ عَيْنِي
بِكَيْتِكَ فِي نِسَاءِ مُعْوَلَاتٍ
دَفَعْتُ بِكَ الْجَلِيلَ وَأَنْتَ حَيٌّ
إِذَا قُبِحَ الْبُكَاءُ عَلَى قَتِيلٍ
فَقَدْ أَضْحَكْتَنِي دَهْرًا طَوِيلًا
وَكُنْتُ أَحَقُّ مِنْ أُنْدَى الْعَوِيلَا
فَمَنْ ذَا يَدْفَعُ الْخَطْبَ الْجَلِيلَا ؟
رَأَيْتُ بُكَاءَكَ الْحَسَنَ الْجَمِيلَا

[من البسيط]

وأما قوله^(١) : وإنه بعدك لقليل . . فقد سبق ما يناسبه عند شرح قوله [في « المُكَبَّرِي » ١٦٣/٣] :

بِمَا بَجَفْنَيْكَ مِنْ سِحْرِ صِلِي دِنْفَا
يَهْوَى الْحَيَاةَ وَأَمَّا إِنْ صَدَدْتَ فَلَا

[من الطويل]

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ زِيَادٍ فِي رِثَاءِ حَبِيبِ بْنِ الْمَهَلَّبِ :

سَأَبْكِيكَ مَا فَاضَتْ دُمُوعِي فَإِنْ تَعَضُّ
كَأَنَّ لَمْ يَمُتْ حَيٌّ سِوَاكَ وَلَمْ تَقُمْ
لَكِنْ حَسُنْتَ فِيكَ الْمَرَائِي وَصَوَّغُهَا
فَمَا أَنَا مِنْ رُزْءٍ وَإِنْ جَلَّ جَارِعُ
فَحَسْبُكَ مِنِّي مَا تَجُرُّ الْجَوَانِحُ
عَلَى أَحَدٍ إِلَّا عَلَيْكَ النَّوَانِحُ
لَقَدْ حَسُنْتَ مِنْ قَبْلِ فِيكَ الْمَدَائِحُ
وَلَا بِسُرُورٍ بَعْدَ مَوْتِكَ فَارِحُ^(٢)

وقوله : (سأبكيك ما فاضت دموعي . . إلى آخر البيت) مناسب لما سبق عند شرح قوله [في « المُكَبَّرِي » ٣١٨/١] :

[من الخفيف]

شَيْبُ رَأْسِي وَذِلَّتِي وَنُحُولِي
وَدُمُوعِي عَلَى هَوَاكَ شُهُودِي

[من الطويل]

وقام بعضهم عند قبر ، فبكى واستبكى ، ثم قال :

لِمَنْ جَدْتُ أَبْصَرْتُهُ فَشَجَانِي
وَقَفْتُ بِهِ حَيْرَانَ وَقَفَّةَ هَائِمِ
وَمَا بِي مَنْ فِي الْقَبْرِ لَكِنْ رَأَيْتُهُ
وَأَرْسَلَ فِي شَأْوِ الْهُمُومِ عِنَانِي
أُعَالِجُ قَلْبًا دَائِمَ الْخَفَقَانِ
عَلَى كَمَدٍ لَا بُدَّ فِيهِ أَرَانِي

[من الرمل]

وقد لهج أبو الفضل ابن العميد ، قبل نكته التي قتل فيها ، بهذين البيتين :

سَكَنَ الدُّنْيَا أَنْاسٌ قَبْلَنَا
وَنَزَلْنَاهَا كَمَا قَدْ نَزَلُوا
رَحَلُوا عَنْهَا وَخَلَّوْهَا لَنَا
وَنُخَلِّيَهَا لِقَوْمٍ بَعْدَنَا

(١) أي : الإمام في رثائه صلى الله عليه وسلم .

(٢) الأبيات لأشجع السلمي في « ديوان الحماسة » (٣٥٥/١) .

وهي شبيهة بما سبق أوائل المجلس ، عن عدي بن زيد بلسان الآرام . ولي في الموضوع الكثير الطيب ، منه قولي
[من الطويل] : [ديوان المؤلف ، ق ١١٦] :

لَقَدْ أَبْلَغْتَ دُنْيَاكُمْ فِي عِظَانِهَا
فَكَمْ قَلَبَتْ ظَهَرَ الْمَجَنِّ لِأُمَّةٍ ؟
وَسَبَعُ الثَّرِيَّا آيَلَاتٍ إِلَى النَّوَى
وَإِنْ طَالَتِ الْأَيَّامُ وَهِيَ جَمِيعُ
إِلَيْكُمْ فَهَلَّا يَسْتَجِيبُ سَمِيعُ
وَيَا رَبَّ شَمَلٍ عَادَ وَهُوَ صَدِيعُ

والكلام في ذم الدنيا ، وسرعة فنائها ، وكثرة عنائها ، والتواء أمورها ، وتراؤف شرورها ، وشيك انحلالها ،
وتقارب زوالها . ما تتط منه بطون الأسفار^(١) ، ويتذكر لأقله أولوا الأبصار ، ومن كونه موضع اتفاق بين الأمم .
لم يكف الاقتصار عليه في الخطب الجمعية ، كما هو مذكور في المتون ، وربما يكون بعض ما سقناه في الكلام على
بيت المطلع أليق بما يلي ، غير أن الأبيات آخذة برقاب بعضها بعضاً ، فلا بدع أن كان الكلام عليها من نوع واحد .

* * *

[قال أبو الطيب المتنبي في « العكبري » ٣٣٤ / ٢] :

أَيْنَ الْأَكَّاسِرَةِ الْجَبَابِرَةُ الْأَلَى
كَنَزُوا الْكُنُوزَ فَمَا بَقِينَ وَلَا بَقُوا

[سبحان الدائم الباقي]

توضيح لسابقه وتفريع عليه ، وفي وهمي أن قد أشرت مرة إلى حديث ابن الخطاب ، وما تمثل به من الأبيات ،
ولا بأس بإعادته ؛ إذ لم أكن على يقين من ذكره ، فضلاً عن استيفائه ، وحاصله : أنه حج . فلما كان
بد (ضجنان)^(٢) قال : لا إله إلا الله العلي العظيم ، المعطي ما يشاء لمن يشاء ، لقد كنت أرى للخطاب بهذا
الوادي مع أختي لي ، في مدارع الصوف ، وكان فظاً ، يُتبعنا إذا عملنا ، ويضربنا إذا قصرنا ، وقد أمسيت اليوم
وما بيني وبين الله أخذ ، ثم أنشد متمثلاً [الأبيات في « الأغاني » ١٢١ / ٣ وهي لورقة بن نوفل] :

[من البسيط]

لَا شَيْءَ مِمَّا تَرَى تَبْقَى بِشَاشْتُهُ
لَمْ تَغْنِ عَن هُرْمَزٍ يَوْمًا خَزَائِنُهُ
وَلَا سُلَيْمَانَ إِذْ تَجْرِي الرِّيَّاحُ لَهُ
أَيْنَ الْمُلُوكِ الَّتِي كَانَتْ مَنَازِلُهَا
حَوْضٌ هُنَالِكَ مَوْزُودٌ بِلَا كَذِبٍ
يَبْقَى الْإِلَهِ وَيُودَى الْمَالُ وَالْوَلَدُ
وَالْخُلْدُ قَدْ حَاوَلْتَ عَادَ فَمَا خَلَدُوا
وَالْإِنْسُ وَالْجِنُّ فِيمَا بَيْنَهُمَا بَرْدُ^(٣)
مِنْ كُلِّ أَرْبٍ إِلَيْهَا رَاكِبٌ يَفْدُ ؟
لَا بُدَّ مِنْ وَرْدِهِ يَوْمًا كَمَا وَرَدُوا

(١) الأطيب : صوت الرِّحَالِ إِذَا ثَقُلَ عَلَيْهَا الرُّكْبَانُ ، وَهِيَ هُنَا كِنَايَةٌ عَنِ وَفَرَةِ الْكَلَامِ فِي ذَمِّ الدُّنْيَا فِي كِتَابِ الْأَقْدَمِينَ .

(٢) جِلُّ بِنَاحِيَةِ (تَهَامَةَ) .

(٣) الْبَيْتُ فِي « الْأَغَانِي » :

ولا سليمان إذ دان الشعوب له والجن والإنس تجري بينها البرد

وقال ابن أبي طالب [في « نهج البلاغة » ٢٦٦] : واعلموا أنكم على سبيل من مضى قبلكم ، ممن كان أطول أعماراً ، وأعمَرَ دياراً ، وأبعد آثاراً ، أصبحت أصواتهم هامدة ، ورياحهم راکدة ، وديارهم خالية ، وأجسامهم بالية ، قد استبدلوا القصور بالقبور ، والنمارق بالصخور ، وكان قد صرتم إلى ما صاروا إليه ، فارتهنكم ذلك المضجع ، وضمكم ذلك المستودع ، فكيف لو تناهت الأمور ، وبُعِثَتِ القبور ، وزُودوا إلى الله مولاهم الحق ، وصل عنهم ما كانوا يفترون .

والله جل شأنه يقول : ﴿ أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مسكنهم أن في ذلك لآية لآلئاً يسمعون ﴾ [السجدة : ٢٦] .

ويقول : ﴿ وكم أهلكنا قبلهم من قرن هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً ﴾ [مريم : ٩٨] .

ويقول : ﴿ فكلاً أخذنا بذنبيه فينهم من أرسلنا علىه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ [العنكبوت : ٤٠] .

ويقول : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكنتهم في الأرض ما لم تكن لكر وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحته فأهلكهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴾ [الأنعام : ٦] .

ويقول : ﴿ وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فلناك مسكنهم لم يشك من بعدهم إلا قليلاً وكنا نحن الوارثين ﴾ [الفصص : ٥٨] .

ويقول : ﴿ ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون ﴾ [يس : ٣١] .

والآيات في الاعتبار بالقرون الماضية أكثر من أن تحصر .

[من الخفيف]

وقال الشريف الرضي [في « ديوانه » ٢ / ٨٧٧-٨٨٠] :

مَا أَقَلَّ اعْتِيَارَنَا بِالزَّمَانِ	وَأَشَدَّ اغْتِرَارَنَا بِالْأَمَانِي
وَقَفَاتٌ عَلَى غُرُورٍ وَأَقْدَا	مُ عَلَى مَزَلَقٍ مِنَ الْحَدَثَانِ
كُلُّ يَوْمٍ رَزِيَّةٌ بِفُلَانٍ	وَوُقُوعٌ مِنَ الرَّدَى بِفُلَانٍ
قَدْ مَرَرْنَا عَلَى الدِّيَارِ حُشُوعاً	وَرَأَيْنَا النَّافِئِينَ الْبَازِي ؟
أَيْنَ رَبِّ السَّيْرِ فَالْحَيْرَةِ الْبَيْنِ	ضَاءٍ أَمْ أَيْنَ صَاحِبِ الْإِيوَانِ ؟!
وَالسُّيُوفُ الْجِدَادُ مِنْ آلِ بَدْرِ	وَالقَنَا الصُّمُّ مِنْ يَتِي الرِّيَّانِ
وَالْمَوَاضِي مِنْ آلِ جَفَنَةَ أَرْسَى	طُبناً مُلْكُهُمْ عَلَى الْجَوْلَانِ ^(١)
تَرَاءَاهُمْ الْوُفُودُ بَعِيداً	ضَارِبِينَ الصُّدُورَ بِالْأَذْقَانِ
فِي رِيَاضٍ مِنَ السَّمَاحِ غَوَانِ	وَجِبَالٍ مِنَ الْحُلُومِ رِزَانِ

(١) الطنبُ : جبل الخباء . الجولان : جبل بالشام معروف يقع جنوب غرب سورية .

وَهُمُ الْمَاءُ لَذًّا لِلنَّاهِلِ الظَّمْـ_____آنِ بَرْدًا وَالنَّارُ لِلْحَيْرَانِ
مَا ثَبَّتْ عَنْهُمْ الْمُنُونُ يَدَا شَوْ
عَطَفَ الدَّهْرُ فَرَعَهُمْ فَرَاةً
وَشَتَّتَهُمْ بَعْدَ الْجَمَاحِ الْمَنَائِبَا
لَيْسَ يَبْقَى عَلَى الزَّمَانِ جَرِيءٌ

وقال (في ديوانه ٢٠ / ٣٨١-٣٨٢) :

[من الكامل]

أَوْ مَا رَأَيْتَ وَقَائِعَ الدَّهْرِ
بَيْنَا الْفَتَى كَالطُّودِ تَكْنُفُهُ
يَأْبَى الدِّيَّةَ فِي عَشِيرَتِهِ
زَلَّ الزَّمَانُ بِوِطْءِ أَحْمَصِهِ
ثُمَّ انْتَبَهَتْ كَفُّ الْمُنُونِ بِهِ
جَمَعَ الْجُنُودَ وَرَاءَهُ وَكَأَنَّمَا
وَبَى الْحُصُونِ تَمْتَعًا فَكَأَنَّمَا

أَفَلَا تُسِيءُ الظَّنَّ بِالْعُمْرِ
هَضَبَاتُهُ وَالْعَضْبُ ذُو الْأَثْرِ
وَيُجَادِبُ الْأَيْدِي عَلَى الْفَخْرِ
وَمَوَاطِيءُ الْأَقْدَامِ لِلْعُنْثْرِ
كَالضُّغْتِ بَيْنَ النَّابِ وَالظُّفْرِ^(٢)
لَا قِتْنَهُ وَهُوَ مُضَيَّعُ الظَّهِرِ
أَمْسَى بِمُضَيَّعَةٍ وَلَا يَذْرِي

ويروى عن أبي الدرداء [بنحوه في «حلية الأولياء» ١/ ٢١٣] : أنه قام على درج المسجد ، فقال : يا أهل (دمشق) ، ألا تسمعون من أخ ناصح لكم ؟ إن من كان قبلكم جمعوا كثيراً ، وبنو مشيداً ، وأملوا بعيداً ، فأصبح جمعهم بوراً ، وبنائهم قبوراً ، وأملهم غروراً ، وملكهم هباءً منثوراً ، هذه عاد قد ملأت البلاد أهلاً ومالاً ، وخيلاً ورجالاً ، فمن يشتري تركاتهم اليوم بدرهمين !؟

[لا بدوم إلا الحي القيوم]

وكم رأينا في تصاريح الأيام من والٍ عزلت ، وعالٍ أنزلت ، وحكيم زلزلت ، ولو أردنا أن نفيض فيمن سقاها الدهر كأسه ، وجرعهم بأسه ، وضرب عليهم جرانه ، وأنزل بهم حدثانه . . لأخوج ما رأيناه بعيوننا ، وسمعناه من قريب زماننا ، إلى تأليف مخصوص .

ومرّ في أواخر المجلس الثاني ما يتصل بالموضوع ، مع الإحالة على ما هنا .

[تقلّب أحوال الدنيا في الناس]

وقد فتح (الأندلس) موسى بن نصير ، فكانت الغنائم تحمّل إليه ، فيرمي بالذهب رمية الحجارة ، ولا يلتقط إلا ما كان من خالص الجوهر ، ثم لم تطل الأيام . . حتى مات يسأل الناس بمنى ، على ما في بعض الروايات .
ولمّا زرت (قيدون) في سنة : (١٣٢٩ هـ) دخل عليّ جماعة من آل العموديّ ، لا يقلون عن خمسين ، في غرير مليحة ، ووجوه صبيحة ، وقامات مديدة ، وأجسام شديدة ، وأفكار بعيدة ، ولمّا سألتهم عن حالهم . . ذكروا

(١) المران : الرماح الصلبة .

(٢) الضغت : قبضة حشيش مختلطة الرطب باليابس .

ما كان لهم من بسطة وصوله الملك في سائر بلاد (دوعن) ، ثم ما ضرب على أيديهم الدهر ، واستردت ما أعطتهم الأيام ، وما زالوا يشرحون لي الحال ، ويكثرون من التآلم ، ويلتمسون مني الدعاء . . حتى اغرورقت عيني ، وتدنيتي خدي ، ولما رأني أحدهم بتلك الرقة . . قال : لا تحزن ، فقد كنا والله أهلاً لِمَا نزل بنا ، وما أصابنا إنما هو بما كسبته أيدينا ، فقد ولانا الله ولاية لم نحسن سياستها ، بل أبدلنا العدل جوراً ، والحلم جهلاً ، ولم نشكر النعمة ، فسلبت عنا .

وما أخذها إلا من قول يحيى البرمكي ، وقد سأله الفضل في محبسه عن أسباب نكبتهم ، فإنه قال [بحوه في السير] ٦١/٩ : ليست إلا دعوة مظلوم سرت بليل ونحن نائمون .

وقد اتفق أن تقوض على يد فحل (حضر موت) - السلطان عوض بن عمر القعيطي - عدة دول في عهد قريب : منها : دولة آل العمودي المذكورين ، ودولة آل بريك ، ودولة النقيب الكسادي ، ودولة آل عمر باعمر ، ودولة العولقي ، ودولة بن مساعد ، ودولة منصور بن عمر الكثيري ، وغيرهم .

[الدنيا دولاب يدور]

وما أحسن قول بعضهم وقد مرّ بديار قوم كرام ، كانوا . . فبانوا [كما في «المستطرف» ٦٠٧/٢] : [من البسيط]

هَلْ ذِي مَنَازِلُ أَقْوَامٍ عَهْدَتْهُمْ يُوفُونَ بِالْعَهْدِ مُذْ كَانُوا وَبِالذَّمِّ
تَبْكِي عَلَيْهِمْ دِيَارٌ كَانَ يُطْرِبُهَا تَرْتُمُ الْمَجْدَ بَيْنَ الْجُودِ وَالْكَرَمِ

وقال أحد بني أمية ، وهو الأبيوردئي [في «ديوانه» ٥٨٦-٥٨٧] : [من الطويل]

مَلَكْنَا أَقَالِيمَ الْبِلَادِ فَأَذَعَنْتُ لَنَا رَغْبَةً أَوْ رَهْبَةً عَظْمَاؤُهَا
فَلَمَّا انْتَهَتْ أَيَّامُنَا عَلِقَتْ بِنَا شَدَائِدُ أَيَّامٍ قَلِيلٍ رَخَاؤُهَا
وَكَانَ لِنَا فِي الشُّرُورِ ابْتِسَامُهَا فَصَارَ عَلَيْنَا فِي الْهُمُومِ بُكَاءُهَا
وَصِرْنَا نُلَاقِي النَّائِبَاتِ بِأَوْجِهِ رِقَاقِ الْحَوَاشِي كَادَ يَقْطُرُ مَآؤُهَا
إِذَا مَا هَمَمْنَا أَنْ نَبُوحَ بِمَا جَنَتْ عَلَيْنَا اللَّيَالِي لَمْ يَدْعَنَا حَيَاؤُهَا

وأشهد بالله إنه لمن صريح القول ، ونادر الشعر ، ومنقح الكلام .

ويحكي : أنه لما فرغ فخر الدولة بن بويه من القلعة التي استحدثها على جبل طبرك . . نزل بها مرتاحاً ، فاشتبه طرائح لحم البقر ، فنجرت واحدة منها بين يديه ، وطفق أصحابه يطبخون له من أطايبها ، وهو ينال منها ، ويأكل من عناقيد الكرم ، ويشرب من الكؤوس ، فلم يلبث أن لوى عليه جوفه ، واتصل على الأكم صوته ، إلى أن جنم عليه موته ، فقال أبو الفرج الساوي [في «قرى الضيف» ٤٥٨/٣] : [من الوافر]

هِيَ الدُّنْيَا تَقُولُ بِمِلاءِ فِيهَا حَذَارِ حَذَارِ مِنْ بَطْشِي وَفَتْكِي
وَلَا يَغْرُزُكُمْ حُسْنُ ابْتِسَامِي فَقَوْلِي مُضْحِكٌ ، وَالْفِعْلُ مُبْكِي
بِفَخْرِ الدَّوْلَةِ اغْتَبَرُوا فَإِنِّي أَخَذْتُ الْمُلْكَ مِنْهُ بِسَيْفِ هُنْكَ
فَأَمْسَى بَعْدَ مَا قَرَعَ الْبَرَائِيَا أَسِيرَ الْقَبْرِ فِي ضَيْقِي وَضَنْكَ

أَقْدَرُ أَنَّهُ لَوْ عَادَ يَوْمًا
دَعِيَ يَا نَفْسُ فِكْرَكَ فِي مَلُوكِ
هِيَ الدُّنْيَا كَمَثَلِ الطُّفْلِ بَيْنَا
أَلَا يَا قَوْمَنَا انْتَبَهُوا فَإِنَّا
إِلَى الدُّنْيَا تَسْرِبَلْ ثَوْبَ نُسُكِ
مَضَوْا وَعَلَى الَّذِي قَدَّمْتَ فَايْكِي
يُفَهِّقُهُ إِذْ بَكَى مِنْ بَعْدِ ضُحْكِ
نَحَاسَبُ فِي الْقِيَامَةِ دُونَ شَكِّ

أَلَا أَيْنَ أَرَبَابُ الْحَصُونِ ، وَالْمَالِ الْمَصُونِ ؟

أَيْنَ مَنْ مَلَّوُوا الْخَزَائِنَ ، وَشَيَّدُوا الْمَدَائِنَ ، وَرَاضُوا الصُّعَابَ ، وَأَخْضَعُوا الرِّقَابَ ؟

لَقَدْ أَسْرَهُمْ هَازِمُ اللَّذَاتِ ، وَمَفْرُقُ الْجَمَاعَاتِ ، فَأَيَّمُوا^(١) النِّسْوَانَ ، وَأَيَّمُوا الْوُلْدَانَ ، وَدَخَلُوا فِي خَيْرِ كَانٍ [قيل] :

[مِنَ الْبَسِيطِ]

أَمَّا سَمِعْتَ بِأَمْلَاكِ مَضَوْا أَمَّا
إِنْ دُوْفِعُوا دَفَعُوا أَوْ زُوْحِمُوا زَحَمُوا
جَاءَتْهُمْ وَجُنُودُ اللَّهِ غَالِبَةٌ
شُمُّ الْأَنْوْفِ بِرَوْضِ الْمَلِكِ قَدْ عَرَشُوا
أَوْ غُولِبُوا غَلِبُوا أَوْ بُوطِشُوا بَطِشُوا
كَتَائِبُ لِلْمَنَايَا مَا بِهَا دَهْشُ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وما أحسنَ قولَ كثيرٍ أو غيرِهِ [كما في «البيان والتبيين» ١/٤٧٧] :

وَنُحِدْتُ رَوْعَاتٍ لَدَى كُلِّ فَرْعَةٍ
كَأَنَّا - وَلَا كُفْرَانَ لِلَّهِ رَبِّنَا -
وَنُسْرِعُ نِسْيَانًا وَمَا جَاءَنَا أَمْنٌ
لَكَالْبُدْنِ ، لَا تَدْرِي مَتَى يَوْمُهَا الْبُدْنُ

[مِنَ الْكَامِلِ]

وقالَ أبو عبادةَ [في «ديوانه» ٣/١٥٧٤] :

نَلْقَى الْمُنُونَ حَقَائِقًا وَكَأَنَّا
مِنْ غِرَّةٍ نَلْقَى بِهِنَّ شُكُوكًا^(٢)

وفي سياقٍ لِلِسَانِ الدِّينِ بْنِ الْخَطِيبِ - ما معناه إنَّ أخطأتُ لفظه - [في «نفع الطيب» ٦/٣٢٤] : يا مشتغلاً بدارِهِ ، ورَمَّ جدارِهِ عَن إِسْرَاعِهِ إِلَى النِّجَاةِ وَبِدَارِهِ ، يا مَنْ أَنْذَرَهُ شَيْبُ عِدَارِهِ ، وَأَثَقَلَهُ حَمْلُ أَوْزَارِهِ ، يا مُعْتَلِفًا يَنْتَظِرُ هِجُومَ جَزَارِهِ ، يا مُخْتَلِسًا يَهَابُ تَفْتِيشَ ما تَحْتَ إِزَارِهِ ، كَأَنِّي بِكَ قَدْ أوثَقَكَ الشَّدُّ ، وَجَزَرَ مِنْكَ المَدُّ ، وَالْيَمِينُ تَنْقَبِضُ ، وَالْأُخْرَى تَمُدُّ ، وَاللِّسَانُ يَقُولُ : يا لَيْتَنَا نَرُدُّ .

[مِنَ الْكَامِلِ]

وقالَ أبو العالِيَةِ :

أَيْنَ الْأَوْلَى كَنَزُوا الدَّخَائِرَ وَابْتَنَنُوا
دَرَجُوا فَأَصْبَحَتِ الْمَنَازِلُ مِنْهُمْ
تِلْكَ الْمَصَانِعَ وَالْقُصُورَ الْعَالِيَةَ ؟
عُطْلًا وَأَصْبَحَتِ الْمَسَاكِينُ خَالِيَةَ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقالَ بعضُهُمْ :

مَضَى قَبْلَنَا قَوْمٌ رَجَوْا أَنْ يَقُومُوا
بِلا تَعَبٍ عَيْشًا فَلَمْ يَتَقَوْمُوا

(١) الأيِّمُ مِنَ النِّسَاءِ : مَنْ لَا زَوْجَ لَهَا ، بَكَرًا كَانَتْ أَمْ نَيْبًا .

(٢) الْغِرَّةُ : الْغَفْلَةُ .

وقال آخرُ :

[مِنَ السَّرِيعِ]

عِشْ مُوسِرًا فِي النَّاسِ أَوْ مُعْسِرًا لَا بُدَّ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْغَمِّ
وَكُلَّمَا زَادَكَ مِنْ نِعْمَةٍ زَادَ اللَّذِي زَادَكَ فِي الْهَمِّ

وقال آخرُ :

[مِنَ السَّرِيعِ]

أَفْ مِنْ الدُّنْيَا وَأَسْبَابِهَا فَإِنَّهَا لِلْهَمِّ مَخْلُوقَةٌ
هُمُومَهَا مَا تَنْقُضِي سَاعَةً عَنْ مَلِكٍ فِيهَا وَلَا سُوقَةً

ويعجبني في الموضوع رثاء أبي البقاء لـ (الأندلس) ، وابن اللبابة لبني عبّاد ، وأصله شعرُ عديّ بن زيد العبادي ، الذي يقول فيه يونس بن حبيب النحويّ [في «طبقات فحول الشعراء» ١/١٤١] : لو تمنيت أن أقول الشعر . . لما تمنيت أن أقول إلا مثل قول عديّ بن زيد العبادي :

[مِنَ الْخَفِيفِ]

أَيُّهَا الشَّامِثُ الْمُعَيَّرُ بِالذَّهْرِ أَأَنْتَ الْمُبَرَّرُ الْمَوْفُورُ ؟
أَمْ لَدَيْكَ الْعَهْدُ الْقَدِيمُ مِنَ الْأَيَّامِ بَلْ أَنْتَ جَاهِلٌ مَغْرُورُ
مَنْ رَأَيْتَ الْمُنُونَ جَازَتْهُ أُمٌّ مِنْ ذَا عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يُضَامَ خَفِيرٌ^(١) ؟
أَيْنَ كِسْرَى كِسْرَى الْمُلُوكِ أَنْوَشِرُ وَإِنْ بَلْ أَيْنَ قَبْلَهُ سَابُورُ ؟
وَبَنُو الْأَصْفَرِ الْكِرَامِ مُلُوكِ السُّرُومِ لَمْ يَنْتَقِ مِنْهُمْ مَذْكُورُ
وَأَخُو الْحَضَرِ إِذْ بَنَاهُ وَإِذْ دَجَّالَهُ تَجَبَّى إِلَيْهِ وَالْخَابُورُ
شَادَهُ مَزْمَرًا وَجَلَّلَهُ كِلْسًا فَلِلطَّنِيرِ فِي ذُرَاهُ وَكُورُ^(٢)
لَمْ يَهَبْهُ رَبُّ الزَّمَانِ فَبَادَ الْمُنْكَ عَنْهُ فَبَابُهُ مَهْجُورُ
وَتَذَكَّرَ رَبَّ الْخَوْرَنْقِ إِذْ أَشْرَفَ يَوْمًا وَلِلْهُدَى تَذَكِيرُ^(٣)
سَرَّهُ مُلْكُهُ وَكَثْرَةَ مَا يَمْلِكُ وَالْبَحْرُ مُعْرِضًا وَالسَّيْدِيرُ^(٤)
فَارْعَوَى قَلْبَهُ فَقَالَ وَمَا غَبِيْرُ طَةً حَيٍّ إِلَى الْمَمَاتِ يَصِيرُ
ثُمَّ بَعْدَ الْقِلَاعِ وَالْمُلْكِ وَالْإِمَّةِ وَارْتَهُمُ هُنَاكَ الْقُبُورُ^(٥)
ثُمَّ صَارُوا كَأَنَّهُمْ وَرَقٌ جَفَّ فَالْوَتُّ بِهِ الصَّبَا وَالِدَبُورُ^(٦)

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقال الشعبيُّ : ما أرى لنا وللدنيا مثلاً . . إلا قول كثيرٍ [في «ديوانه» ٦٩] :

أَسِيْرِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَا مَلُومَةٌ لَدُنْيَا وَلَا مَقْلِيَّةٌ إِنْ تَقَلَّتْ

(١) الخفيرُ : المجيرُ .

(٢) المرمرُ : الرُّخَامُ .

(٣) الخورنقُ : اسمُ قصرٍ في (العراق) ، فارسيٌّ مُعَرَّبٌ ، بناءُ التُّعْمَانِ الْأَكْبَرِ الَّذِي يُقَالُ لَهُ : الْأَعُورُ ، وَهُوَ الَّذِي لَبَسَ الْمَسُوحَ ، فَسَاحَ فِي الْأَرْضِ .

(٤) البحرُ : يرادُ به هنا الفراتُ . السَّيْدِيرُ : نهرٌ بـ (الحيرة) .

(٥) الإئمةُ : الحالةُ .

(٦) الوتُّ به : ذهبُ به . الصَّبَا : ريحٌ ومهبُّها المستوي أن تهبَّ من مطلعِ الشمسِ إذا استوى الليلُ والنهارُ . الدَّبُورُ : هي الرِّيحُ التي تقابلُ الصَّبَا .

وقال أبو العتاهية [في «ديوانه» ٣٧٣] :

[مِنَ الْخَفِيفِ]

كُنْنَا يُكْثِرُ الْمَذْمَةَ لِلدُّنْيَا وَكُلُّ بِحْبِهَا مَفْتُونٌ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقال أبو نواس [وهو لسليمان بن يزيد العدوي من قصيدة له شائعة ، كما في « روضة العقلاء » ٢٧٩] :

يَذْمُونَ دُنْيَا لَا يُرِيحُونَ دَرَّهَا وَلَمْ أَرَ كَالدُّنْيَا تُذَمُّ وَتُحَلَبُ

[مِنَ الْبَسِيطِ]

وقال سابق البربري [في « فصل المقال في شرح كتاب الأمثال » ٣٢٣/١] :

النَّفْسُ تَكَلَّفُ بِالدُّنْيَا وَقَدْ عَلِمَتْ أَنَّ السَّلَامَةَ مِنْهَا تَرُكُ مَا فِيهَا

[مِنَ الْخَفِيفِ]

وقد سبق في شرح البيت الذي قبل ما نحن فيه قول الناظم [في « العكبري »] :

وَهِيَ مَعْشُوقَةٌ عَلَى الْعَذْرِ لَا تَخْفِظُ عَهْدًا وَلَا تُتَمِّمُ وَضَلًا

[مِنَ الْمُتْقَارِبِ]

وقال [في « العكبري » ٣٤/٣] :

تَفَانِي الرَّجَالِ عَلَى حُبِّهَا وَمَا يَخْضُلُونَ عَلَى طَائِلِ

[مِنَ الْوَافِرِ]

وقال [في « العكبري » ٨/٣] :

وَمَنْ لَمْ يَعَشِقِ الدُّنْيَا قَدِيمًا ؟ وَلَكِنْ لَا سَيْلَ إِلَى الْوِصَالِ

[تجمع الدنيا بإرادتك وتركها رغم أنفك]

أما قول الناظم : (كَنَزُوا الْكُنُوزَ فَمَا بَقِينَ) .. فمعناه : أنها لم تبق لهم ، ولم تنفعهم ، وإلا .. فلا يزال كثير من دفاين السابقين مطمورا تحت التراب ، باقيا على حاله حتى اليوم ، ولا سيما في البلاد التي لم تطأها أقدام الأجانب ، كالأكثر من ذخائر ملوك حمير في (مأرب) و (الهجر) و (شبوة)^(١) ؛ بدليل ما يظهر من نماذجها كلما جرفت السيول ، وقد قلت في سيني ، أخاطب الديار ، لما كثرت ما رأيت من اختلاف رواة الأخبار [في « ديوان المؤلف » ٢٣٢] :

[مِنَ الْخَفِيفِ]

حَدَّثِينَا عَنِ النَّبَاعِ إِذْ كُنَّا عَلَى عَهْدِهِمْ بِحُلَّةِ عُرْسٍ^(٢)
وَلَمَنْ تُحَيِّنَنَّ مَا ادَّخَرُوهُ مِنْ كُنُوزِ مُغَطَّاتِ بَكْبَسٍ^(٣) ؟
وَصِفِي كِنْدَةَ الْمُلُوكِ قِيَارُ بَّ كَرِيمٍ فِيهِمْ وَيَا رَبَّ جَبَسٍ^(٤)
قَادَةَ الْحَرْبِ وَالْكَلامِ وَلَكِنْ لَا يُيَالُونَ فِي الْمَلَامِ بِغَمْسٍ^(٥)

[مسألة أصولية حول الدنيا]

وبعد : فما هنا مسألة من أمهات المسائل ، لولا ضيق الوقت ، وضعف المناسبة للأبحاث الأصولية .. لكان الواجب

(١) (مأرب) و (هجر) و (شبوة) : أسماء أماكن في (اليمن) .

(٢) النباع : ملوك (اليمن) - واحدهم تبع - وسما كذلك لأنهم كان يتبع بعضهم بعضاً .

(٣) بكبس : بتراب .

(٤) الجبس : اللثيم .

(٥) بغمس : أي بغمس أنفسهم فيما يلام عليهم .

أن تتوسّع فيها كثيراً ، ولكننا نطلق من العنان بقدر ما تحصلُ به الفائدةُ ، وينحلُّ منه الإشكالُ الذي أشرنا إليه أوائلَ المجلسِ السادسِ ، وذلكَ أنَّه ما من نبيٍّ ، ولا حكيمٍ ، ولا شاعرٍ ، ولا خطيبٍ . . إلا ذمَّ الدنيا ، واشتكى من توالي آفاتِها ، وترادفِ حسراتِها ، وتتابعِ موجعاتِها ؛ إذ لا لذةَ فيها إلا مصحوبةً بالَمِّ ، ولا راحةً إلا ممزوجةً بنكدٍ ، لم تصفُ لِسَقِيٍّ ولا تقيٍّ ، ولا مأمورٍ ولا أميرٍ ، ولا غنيٍّ ولا فقيرٍ ، ومعَ هذا فدهمَاءُ النَّاسِ^(١) مصفقونَ على حُبِّها^(٢) ، والتكالبِ عليها ، ومن ذلكَ نشأَ التخاصُّمُ والتقاطعُ ، فزادَ النكدُ ، وكثُرَ التعبُ ، وتشوَّستِ الحياءُ ، وتكدَّرَ العيشُ ، وتضاعفتِ الشُّرورُ والآلامُ ، والقليلُ مِنَ الصُّوفِيَّةِ والفلاسفةِ اطَّرحوها جملةً ، وأعرضوا عنها رأساً ، وليسَ هذا في شيءٍ مِنَ الصَّوابِ ؛ إذ لو تأثَّرَهُمُ النَّاسُ . . لأفضى إلى الخرابِ ، وانتهى إلى الانقراضِ ، ولكنَّ الذكْرَ الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه . . قامَ بحلِّ هذهِ العقدةِ ، وكشفَ هذا الإشكالَ ، فبيَّنَ في أكثرِ الآياتِ مذاقَ الدنيا وحقارتِها ، وقلَّةَ خطرِها ؛ كبحاً لِجَمَاحِ الشهوةِ المذمومِ ، وغضاً لعنانِ الجِرْصِ الممقوتِ ، ونبَّةَ على أن لا بُدَّ منها ، بل أَلزَمَ القيامَ بعمارَتِها ، وأوجَبَ مراعاةَ أسبابِها في مثلِ قوله : ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾ [القصص : ٧٧] . والأصلُ في الأمرِ الجازِمِ الوجوبُ .

وقوله : ﴿ فَأَنْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ [الجمعة : ١٠] .

وإنما أطنبَ في الأولِ ، واكتفى بالإيجازِ في الثاني ؛ وكوِّلاً إلى الطبعِ ، وإحالةً على الداعيةِ ، كما رتبَ الحدَّ على شربِ الخمرِ ، ولم يرتبهُ على شربِ البولِ ، وهذا كلُّهُ من بدائعِ القرآنِ ، الذي لا تفتنى عجائبُهُ ، ولا تطفأُ مصابيحُهُ ، ولا يخمدُ برهائُهُ ، ولا تهدمُ أركانُهُ ، وقد نصَّوا في المتونِ على أنَّ الحِرْفَ والصنائِعَ ، وكلَّ ما يتمُّ به المعاشُ . . معدودٌ من فروضِ الكفاياتِ ، والذي اعتمدهُ ابنُ حجرٍ الهيثميُّ ، تبعاً لإمامِ الحرمينِ ، تفضيلُ فرضِ الكفايةِ على فرضِ العينِ ، إلا أنَّ في « التحفةِ » ما نصَّه : (تنبيهٌ : لا يحتاجُ في هذهِ - والضميرُ عائِدٌ إلى الحِرْفِ والصنائِعِ وما يتمُّ به أمرُ المعاشِ - لأمرِ الناسِ بِها ؛ لأنَّ فِطْرَهُمُ مجبولةٌ عَلَيْها ، ولكنَّ لو تمالؤوا على تركِ واحدةٍ منها . . أمموا ، وقوتلوا كما هو قياسُ بقيةِ فروضِ الكفايةِ) . انتهى .

* * *

[من الكامل]

قال أبو الطَّيِّبِ المُنَبِّيُّ في « العُكْبَرِيِّ » ٢ / ٣٣٥ :

مِنْ كُلِّ مَنْ ضَاقَ الْفَضَاءَ بِجَنِيهِهِ حَتَّى قَضَى ، فَحَوَاهُ لَخْدٌ ضَيِّقٌ

[شرح المطلع]

[من الطويل]

معناه ظاهرٌ ، وهو من قولِ أشجعَ [في « ديوانه » ١٩٩] :

وَأَصْبَحَ فِي لَخْدٍ مِنَ الْأَرْضِ ضَيِّقٍ وَكَانَتْ بِهِ حَيًّا تَضِيقُ الصَّحَاصِحُ^(٣)

(١) دُهمَاءُ النَّاسِ : الجماعةُ منهم .

(٢) مصفقونَ : مجتمعونَ .

(٣) الصَّحَاصِحُ : الأراضي المستويةُ .

وعمّا قليل يأتي مع ما يناسبه في شرح قوله [في «المكبري» ٢/٢٤٧] :

[مِن الطويل]

وَأَنْتَ فِي ثَوْبٍ وَصَدْرِكَ فِيكُمْمَا [عَلَى أَنَّهُ مِنْ سَاحَةِ الْأَرْضِ أَوْسَعُ]

وَيُصَلُّ بِهِ مَا سَبَقَ أَوَائِلَ الْمَجْلِسِ عَنِ ابْنِ الْعَاصِ ، وَعَنِ الْقَاضِي الْفَاضِلِ ، وَغَيْرُ ذَلِكَ .

[مِن الطويل]

وللقاضي أبي يعلى في رثاءِ مخلصِ الدولة ما نصّه [كما في «وفيات الأعيان» ٥/٢٧٢] :

قَضَى اللَّهُ أَنْ يَزْدَى الْأَمِيرُ وَهَازِهِ صَوَافِنُهُ مَوْقُورَةٌ وَصَوَاهِلُهُ
وَكُلُّ فَتَى كَالْبَرْقِ إِنْ رِيْقُ غَمْدِهِ إِذَا شَامَهُ أَوْ كَالدَّبَالَةِ ذَابِلُهُ
فَلَيْتَ ظَبَاهُ صَلَّتِ الْيَوْمَ خَلْفَهُ فَظَلَّتْ عَلَيَّ غَيْرِ الصِّيَامِ صَوَاهِلُهُ

وهي من قصيدة شاعرة ، استوفاهما ابنُ خَلْكَانَ [في «وفيات الأعيان» ٥/٢٧٠-٢٧٢] في ترجمة مخلصِ الدولة ، واسمه مقلدُ بنِ نصرِ بنِ منقذ .

[مَلِكُ الْمَوْتِ وَسَيِّدُنَا دَاوُدُ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ]

ويروي [في «المستطرف» ٢/٥٧٤] : أَنَّ مَلِكَ الْمَوْتِ دَخَلَ عَلَى دَاوُدَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَقَالَ لَهُ : مَنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : أَنَا الَّذِي لَا يَهَابُ الْمُلُوكَ ، وَلَا تَمْنَعُ مِنْهُ الْقُصُورُ ، وَلَا يَقْبَلُ الرَّشَاءَ . قَالَ : إِذَنْ أَنْتَ مَلِكُ الْمَوْتِ ، وَلَكِنِّي لَمْ أَسْتَعِدَّ بَعْدُ ، فَقَالَ لَهُ : يَا دَاوُدُ ، أَيْنَ جَارُكَ فَلَانٌ ؟ أَيْنَ قَرِيبُكَ فَلَانٌ ؟ قَالَ : مَاذَا ، قَالَ : أَمَا كَانَ لَكَ فِيهِمْ عِبْرَةٌ ؟ ثُمَّ فَبَضَهُ .

وفيه : أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَا يُقْبَضُونَ مَا لَمْ يُخَيَّرُوا ، فففيه إشكالٌ ، وقد وضّحنا ما كان من نوعه في صكّة موسى عليه السلام لمَلِكِ الْمَوْتِ ، من كتابنا «بلايل التّعريد» .

[الْمَلِكُ وَالْمَلَكُ الْمَوْتِ]

وذكر الغزالي : أَنَّ بَعْضَ الْمُلُوكِ خَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زَيْتِيهِ ، وَرَكِبَ مَعَهُ عَسَاكِرُهُ ، فَفَنَحَ الشَّيْطَانُ فِي أَنْفِهِ ، حَتَّى كَادَ أَنْ يَطِيرَ كِبْرًا وَتَعَاظَمًا ، وَبَيْنَا هُوَ فِي مَوْجِبِهِ . . إِذْ أَخَذَ بِلِجَامِهِ رَجُلٌ عَلَيْهِ آثَارُ الْفَقْرِ وَالضَّعْفِ ، فَاسْتَشَاطَ غَضَبًا ، وَقَالَ : خَلَّ اللَّجَامُ ، فَقَالَ لَهُ : لَا بَدَّ مِنْ مَسَارَتِكَ ، فَانزَعَجَ وَانكَسَرَ ، وَلَمَّا عَلِمَ أَنَّهُ مَلِكُ الْمَوْتِ . . اسْتَخَذِي ، وَخَارَتِ قَوَاهُ ، وَاسْتَمَهَلَهُ فَلَمْ يَمِهَلُهُ ، بَلْ أَخَذَهُ عَلَى هَيْئَتِهِ .

[لَا تَدْرِي أَيْنَ تَكُونُ الْمَنِيَّةُ]

ويروي [في «المستطرف» ٢/٥٧٤] : أَنَّهُ كَانَ لِحَسَّانِ ابْنِ ، يَطْعُمُهُ الزُّبْدَ بِالْعَسَلِ ، فَشَرِقَ وَمَاتَ ، فَقَالَ : [مِن البسيط]

إِعْمَلْ وَأَنْتَ صَحِيحٌ مُطْلَقٌ فَرِحْ مَا دُمْتَ وَيَحَكَ يَا مَغْرُورٌ فِي مَهَلٍ
يَرْجُو الْحَيَاةَ صَحِيحٌ رُبَّمَا كَمَنْتَ لَهُ الْمَنِيَّةُ بَيْنَ الزُّبْدِ وَالْعَسَلِ

[أبو دلف يتزود لموته]

ويروي [في «المستطرف» ٢/٥٧٣] : أَنَّ أَبَا دَلْفِ الْعَجَلِيِّ - الَّذِي سَبَقَ ذِكْرُهُ غَيْرَ مَرَّةٍ - قَدِمَ عَلَيْهِ فِي عِلَّتِهِ عَشْرَةَ مِنْ آلِ عَلِيٍّ ، فَحُجِبُوا مَدَّةً ، حَتَّى رَأَى رُؤْيَا فَأَذِنَ لَهُمْ ، فَقَالَ لَهُ أَحَدُهُمْ : نَحْنُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ ، وَقَدْ حَطَمْتَنَا الْمَصَائِبُ ، وَأَجْحَفَتْ بِنَا النُّوَائِبُ ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَجْبُرَ كَسِيرًا ، وَتَغْنِيَ فَقِيرًا . . فافْعَلْ ، فَقَالَ لِحَادِمِهِ : أَجْلِسْنِي ،

وأقبل يلاطفهم ، ويعتذرُ إليهم ، وقال : لِيَكْتُبَ كُلُّ مِْنِكُمْ بِيَدِهِ أَنَّهُ قَبَضَ مِنِّي أَلْفَ دِينَارٍ ، ثُمَّ أَعْطَاهُمْ ذَلِكَ ، وَحَمَلَهُمْ ، وَكَسَاهُمْ ، وَزَوَّدَهُمْ ، وَدَفَعَ لِكُلِّ وَاحِدٍ أَلْفَ دِرْهَمٍ^(١) ؛ حَتَّى يَصِلُوا بِالْأَلْفِ كَامِلَةً إِلَى أَهْلِيهِمْ ، ثُمَّ قَالَ لِخَادِمِهِ : إِذَا أَنَا مِثٌ . . فَاجْعَلْ هَذِهِ الرَّقَاعَ فِي كَفَنِي ؛ لِأَلْقَى بِهَا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَمَعَ هَذَا فَقَدْ رُوِيَ فِي دَارِ ضَيْقَةٍ مَوْحِشَةٍ ، فَقِيلَ لَهُ : مَا حَالُكَ ؟ فَأُنشِدَ [الآيات في « نفع الطيب » ٦/٣٢٦] : [مِنَ الْوَافِرِ]

وَلَوْ أَنَّا إِذَا مِثْنَا تَرَكْنَا لَكَانَ الْمَوْتُ رَاحَةً كُلَّ حَيٍّ
وَلَكِنَّا إِذَا مِثْنَا بُعِثْنَا وَنُسْأَلُ بَعْدَهَا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ

[تموت ولا ينفعك إلا عملك]

ويذكرُ : أَنَّهُ قَدِمَ (الْكُوفَةَ) أَمِيرٌ ، لَمْ يَبْقَ صَغِيرٌ وَلَا كَبِيرٌ إِلَّا خَرَجَ لِمُقَابَلَتِهِ ، وَمَشَاهِدَةٌ مَوْكِبِهِ يَوْمَ دُخُولِهِ ، فَطُعِنَ بَعْدَ أَيَّامٍ ، وَمَعَ دَفْنِهِ أَقْبَلَ ثَلَاثَةَ نَفَرٍ لَا رَابِعَ لَهُمْ ، يَحْمِلُونَ جَنَازَةَ فَقِيرٍ ، دَفَنُوهَا عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْهُ ، فَمَا هِيَ إِلَّا أَيَّامٌ قَلِيلَةٌ . . حَتَّى لَمْ يَبْعُدْ أَحَدٌ يَمِيْرٌ مَا بَيْنَ الْقَبْرَيْنِ .

وَزَهَدَ بَعْضُ أَبْنَاءِ الْمُلُوكِ فِيمَا عَلَيْهِ وَالِدُهُ ، وَلَزِمَ الْمَقَابِرَ ، وَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ : إِنْ لِي زَمَنًا أُرِيدُ أَنْ أُفْرَقَ بَيْنَ عِظَامِ الْفُقَرَاءِ وَالْمُلُوكِ فَلَمْ أَقْدِرْ .

وَفِي « النَّهْجِ » [٣٥٨] : وَمَا أَصْنَعُ بِفَدَاكَ^(٢) وَغَيْرِ فَدَاكَ ، وَالنَّفْسُ مِظَانُهَا فِي غَدِ جَدَثٍ ، تَنْقَطِعُ فِي ظَلْمَتِهِ آثَارُهَا ، وَتَغِيْبُ أَخْبَارُهَا ، وَحِفْرَةٌ لَوْ زِيدَ فِي فَسْحَتِهَا ، وَأَوْسَعَتْ يَدًا حَافِرُهَا . . لِأَضْغَطَهَا الْحَجَرُ وَالْمَدْرُ ، وَسَدَّ فُرْجَهَا التُّرَابُ الْمَتْرَاكُمُ ، وَإِنَّمَا هِيَ نَفْسِي أُرْوِضُهَا بِالتَّقْوَى ؛ حَتَّى تَأْتِيَ آمَنَةً يَوْمَ الْفَرَجِ الْأَكْبَرِ ، أَوْ مَا يَقْرُبُ مِنْ هَذَا .

* * *

[قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ الْمُنْتَبِي فِي « الْعُكْبَرِيِّ » ٢/٣٣٥] : [مِنَ الْكَامِلِ]

خُرْسٌ إِذَا نُودُوا كَأَنَّ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْكَلَامَ لَهُمْ حَالًا مُطْلَقًا

[الميت يسمع . . ولكنه لا يستطيع الكلام]

مَعْنَاهُ ظَاهِرٌ ، وَالْغَالِبُ أَنَّ الْأَخْرَسَ لَا يَكُونُ إِلَّا أَصَمًّا ، وَلَكِنَّ الْمَيْتَ بِخِلَافِ ذَلِكَ ، فَفِي « الصَّحِيحِ » : أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَامَ عَلَى قَتْلِ قَرِيْشٍ فِي الْقَلْبِ يَنَادِيهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : مَا تَخَاطَبُ مِنْ أَقْوَامٍ قَدْ جَيَّئُوا ، قَالَ : « وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْجَوَابَ »^(٣) .

(١) إضافة إلى الألف دينار .

(٢) فداك : اسم مكان قريب من خير ، تركه صلى الله عليه وسلم ولم يقسمه أبو بكر بين ورثته ، وأبلغهم قوله صلى الله عليه وسلم : « لا نورث ما تركناه صدقة » و نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » رواه بألفاظ متعددة عدد من الصحابة . انظر البخاري (٤٠٣٣) و (٥٦٥٨) و (٦٧٢٨) و الإحسان (٦٦٠٧) و (٦٦٠٨) و (٦٦٠٩) و إلى (٦٦١٢) .

(٣) أخرجه عن أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنه البخاري (٣٩٧٦) في المغازي ، ومسلم (٢٨٧٥) في الجنة . وعن أنس رضي الله عنه عند مسلم (٢٨٧٣) و (٢٨٧٤) .

وقال ابن عبد البر: ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: « ما من مسلم يمُرُّ على قبر أخيه ، كان يعرفه في الدنيا ، فيسلم عليه . . . وإلا ردَّ الله عليه روحه حتى يردَّ عليه السلام »^(١) .
 وثبت عنه: أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين إذا انصرفوا عنه^(٢) .
 وقال: « ما من رجل يزور قبر أخيه ، ويجلس عنده . . . إلا استأنس به حتى يقوم »^(٣) .

وفي المسألة الأولى من كتاب « الروح » للعلامة ابن القيم . . ما لا يحصى من ذلك ، وشيء من ذلك لا يعارض أمثال قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الْقُلُوبَ ﴾ [النمل: ٨٠] ؛ لأن المراد من الآية أن أموات القلوب لا يسمعون سماع الاهتداء ، ولا ينتفعون بالتذكير .

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه لما دفن ولده إبراهيم . . وقف على قبره وقال: « يا بُنَيَّ ، القلبُ يعزُّنُ ، والعينُ تدمعُ ، ولا نقولُ ما يُسخطُ الرَّبَّ ، وإنا لله وإنا إليه راجعون ، يا بُنَيَّ : قل : اللهُ رَبِّي ، والإسلامُ ديني ، ورسولُ اللهِ أبي »^(٤) ، فبكت الصحابةُ ، وبكى عمرُ بنُ الخطابِ بكاءً ارتفع له صوتهُ ، فالتفت إليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: « ما يبكيك يا عمرُ ؟ » فقال: يا رسولَ اللهِ ، هذا ولدكُ ، وما بلغ الحُلُمَ ، ولا جرى عليه القلمُ ، فما حالُ من ماتَ وليسَ له مَلَقْنٌ مثلكَ يلقنُهُ التوحيدَ ؟ فنزلَ على إثر ذلك قولُه تعالى: ﴿ يَثِيَّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧] .

وفيه دليلٌ على سؤالِ الصبيانِ ، وهو أحدُ قولين ، اختارَ النووي في « الروضة » و « شرح المهذب » الثاني .
 وعبارة « النحلة » لابن حجر: ويستحبُّ تلقينُ بالغِ عاقلٍ ، أو مجنونٍ سبقَ له تكليفٌ ، ولو شهيداً ، كما اقتضاهُ إطلاقُهم بعدَ تمامِ الدفنِ ؛ لخبرٍ فيه ، وضعُّهُ اعتضدَ بشواهدٍ على أنه من الفضائل^(٥) ، فاندفع قولُ ابنِ عبدِ السلامِ :
 إنه بدعةٌ . انتهى .

[قبر المعتمد بن عباد قبلة لبعض الشعراء]

وذكر ابن خلكان [وفيات الأعيان ٣٧/٥] وغيره: أنه اجتمع نفرٌ عند قبر المعتمد بن عباد ، من الشعراء الذين كانوا يقصدونه بالمدائح ، فيجزلُ لهم المنائح ، فرثوه بقصائد أشدوها عند قبره ، من أحسنها قولُ بعضهم [وهو أبو بحر عبد الصمد]:

مَلِكِ الْمُلُوكِ أَسَامِعُ فَنَادِي أَمْ قَدْ عَدَّتْكَ عَنِ السَّمَاعِ عَوَادِي ؟

(١) أخرجه عن ابن عباس رضي الله عنهما في « التمهيد » ، والشوكاني في « نيل الأوطار » (٢/٣) ، ونحوه في « كنز العمال » عن أبي هريرة رضي الله عنه (٤٢٦٠١) و (٤٢٦٠٢) وعزه إلى أبي الشيخ والديلمي وتمام والخطيب وابن عساكر وابن النجار .

(٢) وذلك في الحديث الذي أخرجه عن أنس رضي الله عنه البخاري (١٢٧٣) في الجنائز ، ونحوه: مسلم (٢٨٧٠) في الجنة قال: « العبد إذا وُضع في قبره وتولَّى وذهب أصحابه ، حتى إنه ليسمع قرع نعالهم . . أتاه ملكان فأعداه ، فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقال: أنظر إلى مقعدك من النار أبذلك الله به مقعداً من الجنة » .

(٣) أوردته عن عائشة رضي الله عنها العراقي في « تخريج أحاديث الإحياء » (٤٧٥/٤) : أخرجه ابن أبي الدنيا في « القبور » وقال: فيه عبد الله بن سمعان لم أقف على حاله .

(٤) أخرجه عن أنس رضي الله عنه نحوه البخاري (١٣٠٣) .

(٥) أخرجه عن أبي أمامة رضي الله عنه الطبراني في « الدعاء » (١٢١٤) وفي « الكبير » (٢٩٨/٨) وذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٤٥/٣) وقال: فيه إسناده جماعة لم أعرفهم ، وقال ابن القيم: لا يصح رفعه ، وقال النواوي في « الأذكار » (ص/٢٧٤) : ليس بالقائم إسناده ، ثم قال: ولكن اعتضد بشواهد ويعمل أهل الشام به قديماً .

لَمَّا نُفِلْتَ عَنِ الْقُصُورِ وَلَمْ تَكُنْ فِيهَا كَمَا قَدْ كُنْتَ فِي الْأَعْيَادِ
أَقْبَلْتُ نَحْوَكَ فِي الشَّرَى لَكَ خَاضِعاً وَجَعَلْتُ قَبْرَكَ قِبْلَةَ الْإِنْسَادِ

ولمَّا فرغ من إنشادها.. قبل الثرى ، ومرغ جسمه ، وعفر خده ، وبكى وأبكى من حضر ، والشاهد في قوله :
(أَسَامِعُ فَأُنَادِي) .

[مسألة فقهية حول البرزخ]

وَأَمَّا قَوْلُ النَّازِمِ : (مُطْلَقٌ) . . . فَقَالَ قَوْمٌ إِنَّهُ حَسُوٌّ لَا حَاجَةَ إِلَيْهِ إِلَّا اجْتِلَابُ الْقَافِيَةِ ، عَلَى أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ تَتَأَوَّلَ لَهُ بِمَا
لَيْسَ فِي حِسَابِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْكَلَامَ بَعْدَ الْمَوْتِ لَوْ قَدَرُوا عَلَيْهِ . . . لَكَانَ حَلَالاً مطلقاً ؛ لارتفاع التكليف ، فلا حرمة فيه
إِذْ قَطُّ ، بخلافه أَيَّامَ الْحَيَاةِ . . . فَإِنَّ مِنْهُ الْحَلَالَ ، وَمِنْهُ الْحَرَامُ ، وَهَذَا إِنَّمَا يَتِمُّ عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ لَا تَكْلِيفَ فِي
الْبَرْزَخِ ، وَهُوَ مَا يَشْمَلُهُ إِطْلَاقُهُمْ .

وزعم العلامة ابن القيم أَنَّ الْبَرْزَخَ دَارُ تَكْلِيفٍ ، وَأَنَّهُ لَا يَتَرَفَعُ بِالْمَوْتِ ، وَلَوْ ارْتَفَعَ . . . لَمْ يَكُنْ لِلسُّؤَالِ حَاجَةٌ ، وَقَدْ
يَجَابُ عَنْهُ : بِأَنَّ حِكْمَةَ السُّؤَالِ أَنْ يَظْهَرَ بَعْدَ الْمَوْتِ عُنْوَانُ مَا كَانَ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ فِي أَيَّامِ الْحَيَاةِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ جَلَّ شَأْنُهُ
أَجْرَى أَمْرَ الْعِبَادِ عَلَى الْمُتَعَارَفِ بَيْنَهُمْ فِي دَارِ الدُّنْيَا ، وَإِلَّا . . . فَأَيُّ حَاجَةٍ إِلَى الْمُحَاسَبَةِ وَالْمِرَاقَبَةِ ، وَوَزْنِ الْأَعْمَالِ
وَالصَّحَائِفِ ؟ مَعَ أَنَّهُ أَعْلَمُ بِكُلِّ شَيْءٍ : ﴿ لَا يَخْفَى عَلَيَّ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ * هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ
يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿ آل عمران : ٥-٦] .

وَيُمْكِنُ الْجَوَابُ - أَيْضاً - عَمَّا وَرَدَ مِنْ عِبَادَةِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَصَلَاةِ الْأَنْبِيَاءِ فِي قُبُورِهِمْ ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ . . . بِأَنَّهُ لَا يَلْزَمُ
مِنْهُ التَّكْلِيفُ ؛ لِظُهُورِ أَنَّهُ مَجْرَدُ تَعْبُدٍ ، أَوْ خَالِصٌ تَلَذُّذٌ ؛ بِدَلِيلِ مَا أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ [في (الجنة وصفة نعيمها) (٢٨٣٥)] :
أَنَّهُمْ « يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا تُلْهَمُونَ النَّفْسَ » وَقَوْلِ الْفُقَهَاءِ : أَنَّ سَجُودَ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ . . . كَانَ بَطْهَارَةً غَسَلَ الْمَوْتِ . . . لَا يَلْزَمُهُ الْقَوْلُ بِالتَّكْلِيفِ ؛ لِأَنَّنا إِنَّمَا نَمْنَعُ مِنْهُ مَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ الْعِقَابُ .

وَالْأَسْلَمُ : تَفْوِيضُ الْعِلْمِ إِلَى اللَّهِ جَلَّ شَأْنُهُ ، مَا لَمْ يَرِدِ النَّصُّ الصَّرِيحُ ، وَقَدْ اسْتَشْكَلَ ابْنُ الْفَاكَهَانِيِّ الْمَالِكِيُّ حَدِيثَ
الْتَرْمِذِيِّ : « مَا مِنْ أَحَدٍ سَلَّمَ عَلَيَّ . . . إِلَّا رَدَّ اللَّهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّى أُرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ » ^(١) ، مَعَ اسْتِحَالَةِ خُلُوقِ الْوُجُودِ مِنْ
مُسْلِمٍ عَلَيْهِ فِي لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ ، وَعَدَمِ السَّامَةِ مَعَ دِيمُومَةِ حَيَاتِهِ . ثُمَّ أَجَابَ : بِأَنَّ الرُّوحَ مَجَازٌ عَنِ النُّطْقِ ، وَاسْتَبَعْدَهُ
الإِمَامُ السِّيُوطِيُّ ، وَقَالَ : إِنَّهُ مَدْفُوعٌ بِالنُّقْلِ وَالْعَقْلِ .

أَمَّا النُّقْلُ : فَالْأَخْبَارُ الْوَارِدَةُ عَنْ أَحْوَالِ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْبَرْزَخِ مَصْرُوحَةً بِأَنَّهُمْ يَنْطِقُونَ ، كَيْفَ شَاءُوا ، بَلِ وَالشَّهَادَةُ وَسَائِرُ
الْمُؤْمِنِينَ كَذَلِكَ ، إِلَّا مَنْ مَاتَ مِنْ غَيْرِ وَصِيَّةٍ ، فَقَدْ أَخْرَجَ أَبُو الشَّيْخِ فِي كِتَابِ (الْوَصَايَا) : « مَنْ لَمْ يُوصِ . . . لَمْ
يُؤَدَّنْ لَهُ فِي الْكَلَامِ مَعَ الْمَوْتِ » ، قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَهَلْ تَتَكَلَّمُ الْمَوْتَى ؟ قَالَ : « نَعَمْ ، وَيَتَرَاوَرُونَ » ^(٢) .

وَأَمَّا الْعَقْلُ : فَلِأَنَّ الْحَبْسَ عَنِ النُّطْقِ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ نَوْعُ حَصْرِ وَتَعْذِيبٍ ، وَلِهَذَا عُدَّ بِه تَارِكُ الْوَصِيَّةِ ، وَالنَّبِيُّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ ، وَلَا يَلْحَقُهُ حَصْرٌ بَعْدَ وَفَاتِهِ أَصْلاً بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ ، وَأَجَابَ عَنِ الْحَدِيثِ بِأَجْوَدِ

(١) بل أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه أبو داود (٢٠٤١) ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (٢٤٥/٥) قال عنه النووي في « المجموع » (٢٠٠/٨) :
رواه أبو داود بإسناد صحيح .

(٢) أورده عن قيس بن ابصه رضي الله عنه الهندي في « كنز العمال » (٤٦٠٨٠) و(٤٦٠٨٦) وعزاه إلى أبي الشيخ في « الوصايا » .

بكثرة ، أقواها عنده : أَنَّ المعنى ما مِنْ أَحَدٍ سَلَّمَ عَلَيَّ . . . إِلَّا قَد رَدَّ اللهُ عَلَيَّ رُوحِي قَبْلَ ذَلِكَ فَأَرَدَ عَلَيْهِ ، وَإِنَّمَا جَاءَ
الإشكالُ مِنْ ظَنٍّ أَنَّ جَمَلَةَ (رَدَّ اللهُ عَلَيَّ) بِمعنى الحالِ أَوْ الاستقبالِ ، وَظَنُّ أَنَّ (حَتَّى) تَعْلِيلِيَّةٌ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ ،
وبهذا يندفعُ مِنْ أَصْلِهِ الإِشْكَالُ ، وَيَتَأَكَّدُ هَذَا بِرُودِ الْحَدِيثِ عِنْدَ الْبِيهَقِيِّ فِي كِتَابِ « حَيَاةِ الْأَنْبِيَاءِ » [ص/ ١٣] بِلَفْظِ :
«إِلَّا وَقَد رَدَّ اللهُ عَلَيَّ رُوحِي»^(١) فَصَرَّحَ فِيهِ بِلَفْظِ : « وَقَد » ، فَحَمَدْتُ اللهُ كَثِيرًا . انْتَهَى كَلَامُهُ بِلَفْظِ وَاخْتِصَارٍ .

[الموت . . آه من الموت كم فعل الأعاجيب]

وبعدُ : فَطالَمَا أَخْرَسَتْ الْمَنَايَا مِنْ فَصِيحِ لِسَانِ ، وَأَمِيرِ بَيَانِ ، وَغَزِيرِ بَدَائِعِ ، وَكثِيرِ رَوَائِعِ : [مِنْ الْبَسِيطِ]

وَذِي بَيَانٍ إِذَا مَا قَالَ أَوْ خَطَبَا
يَأْتِي بِسَهْلٍ مِنَ الْأَلْفَاظِ مُمْتَنِعِ
يَأْتِي بِسِحْرِ بَزِينِ الْقَوْلِ وَالْأَدْبَا
رَمَتْهُ هَلْذِي الْمَنَايَا وَهِيَ صَائِبَةٌ
جَزَلٍ يُصِيبُ الْمَعَانِي آيَةً عَجَبَا
فَأَخْرَسَتْهُ فَمَا يُبْدِي بِضَاحِكَةٍ
سَهْمًا فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَمَتْ فَكَبَا
وَلَا يَرُدُّ جَوَابًا هَانَ أَوْ صَعْبَا

فالموتُ أمرٌ عَظِيمٌ ، وَخَطْبٌ جَسِيمٌ ، وَشَيْءٌ مَهُولٌ ، لَوْلَا كَثْرَةُ الْأَعْرَاضِ وَالذُّهُولُ ، وَلِئِنْ سَكَتَ الْمَيْتُ بِجَوَارِحِهِ . .
فقد نطقَ حالُهُ بعَظِيمِ جَوَائِحِهِ ، فَقَد جَاءَ عَنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُ قَالَ بَعْدَمَا طُعِنَ [كما في « نهج البلاغة » ١٦٨-١٦٩] : « إِنَّمَا
كُنْتُ لَكُمْ جَارًا ، جَاوَرَكُم بَدَنِي أَيَّامًا ، وَسَتُعَقِبُونَ مِنِّي جَنَّةً خَلَاءَ ، سَاكِنَةً بَعْدَ حِرَاكٍ ، صَامِتَةً بَعْدَ نَطْوِقٍ ، فَلْيَعْظَمْكُمْ
هُدُوءِي ، وَسَكُونُ أَطْرَافِي ، وَخَفَوْتُ إِطْرَاقِي ؛ فَإِنَّهُ أَوْعَظُ لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنَ الْمُنْطَقِ الْبَلِيغِ ، وَالْقَوْلِ الْمَسْمُوعِ ، وَدَاعِي
لَكُمْ وَدَاعٍ أَمْرِيءِ مُرْصِدٍ لِلتَّلَاقِي ، غَدًا تَرُونَ أَيَّامِي ، وَيَكْشِفُ لَكُمْ عَنْ سِرَائِرِي ، وَتَعْرِفُونِي إِذَا خَلَا مَكَانِي ، وَقَامَ
غَيْرِي مَقَامِي .

وقال أبو العتاهية ، فيما يناسبُ شِقَّ كَلَامِ الْإِمَامِ الْأَوَّلِ ، يَرِثِي عَلِيَّ بْنَ ثَابِتٍ [في « ديوانه » ٤٤٢] :

بَكَيْتُكَ يَا أَحْيَى بِدَمْعِ عَيْنِي
طَوْتُكَ خُطُوبُ دَهْرِكَ بَعْدَ نَشْرِ
فَلَمْ يُغْنِ الْبُكَاءَ عَلَيْكَ شَيْئًا
وَلَوْ نَشَرْتُ قُؤَاكَ لِي الْمَنَايَا
كَذَلِكَ خُطُوبُهُ نَشْرًا وَطِيًا
وَأَنْتَ الْيَوْمَ أَوْعَظُ مِنْكَ حَيًّا
شَكَّوْتُ إِلَيْكَ مَا صَنَعْتُ إِلَيَّا
وَكَانَتْ فِي حَيَاتِكَ لِي عِظَاتٌ

(١) قال محققه محمد بن محمد الخانجي البوسني : حديث أبي هريرة أخرجه أحمد وأبو داود والمصنف في كتابه « شعب الإيمان » وكتابه « الدعوات
الكبير » وفي الحديث إشكال : وهو أن ظاهره مفارقة روح النبي صلى الله عليه وسلم لبدنه الشريف في بعض الأوقات وهو مخالف للأحاديث الدالة على
حياة الأنبياء ، وقد أجاب العلماء عن هذا بأجوبة كثيرة فأجاب السيوطي في كتابه « إنباء الأذكياء » بخمسة عشر جواباً يرجعها من شاء . ومال البيهقي إلى
أن قوله صلى الله عليه وسلم « رَدَّ اللهُ إِلَيَّ رُوحِي » جملة حالية يقدَّرُ فيها قد وقاعدة العربية : أن جملة الحال إذا وقعت فعلاً ماضياً قدرت فيها قد كقوله
تعالى : « جَاءَكُمْ حَصْرَتٌ صُدُّوهُمْ » أي : وقد حصرت ، ويبقى الإشكال في حتى لأن الظاهر أنها للتعليل ، فأجاب السيوطي أنها لمجرد العطف فصار
تقدير الحديث : ما من أحد يسلم علي إلا قد رَدَّ اللهُ علي رُوحِي قَبْلَ ذَلِكَ ، وأرد عليه ، وأجاب الشهاب الخفاجي بأن الأنبياء والشهداء أحياء ، وحياة
الأنبياء أقوى ، وإذا لم يسلط عليهم الأرض فهم كالتامين ، والتام لا يسمع ولا ينطق حتى يتنبه ؛ لحديث : أنه صلى الله عليه وسلم إذا صلى عليه يستيقظ
من النوم ، فالمراد برد الروح الإرسال الذي في قوله تعالى : « وَرُسُلُ الْأَنْبِيَاءِ » الآية ، لأن روحه صلى الله عليه وسلم تقبض قبض الممات ثم تنفخ وتعاد
كموت الدنيا وحياتها . اهـ .

ولي في المعنى [في «ديوان المؤلف» ١١٦] :

[من الطويل]

أَغْرَكَ مِنْ هَذِي الْقُبُورِ صُمُوتُهَا وَأَبْلَغُ وَعَظٍ لَوْ عَلِمْتَ سُكُوتُهَا
تَقُوتُكَ هَذِي الْأَرْضُ مِنْ فَضْلِ قُوتِهَا لِأَنَّكَ مَهْمَا طَالَ عُمُرُكَ قُوتُهَا

وتعلّق بأخر كلام الإمام ، أبو تمام في قوله [في «ديوانه» ٢٨٤/٢] :

[من السريع]

رَاحَتْ وَفُودُ الْأَرْضِ عَنْ قَبْرِهِ فَارِغَةَ الْأَيْدِي مِلاءَ الْقُلُوبِ
قَدْ عَلِمْتَ مَا رَزَيْتَ إِنَّمَا يُعْرِفُ قَدْرُ الشَّمْسِ بَعْدَ الْغُرُوبِ

والناظم في قوله [في «المكبري» ٢٢/١] :

[من الكامل]

وَنَذْمُهُمْ وَبِهِمْ عَرَفْنَا فَضْلَهُمْ وَبِضِدِّهَا تَمَيَّزَ الْأَشْيَاءُ

[من الطويل]

وأبو فراس في قوله [في «ديوانه» ١٤٥] :

سَيَفْقِدُنِي قَوْمِي إِذَا جَدَّ جِدُّهُمْ وَفِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاءِ يُفْتَقِدُ الْبَذْرُ

[من السريع]

والمعري في قوله [في «سقط الزند» ٧١] :

وَالشَّيْءُ لَا يُعْرِفُ مِقْدَارَهُ إِلَّا إِذَا قَيْسَ إِلَى ضِدِّهِ

[من الكامل]

ويعجبي في سكوت الأموات ، وانقطاع أخبارهم . . قول التهامي [في «ديوانه» ٤٦٨] :

وَالشَّرْقُ نَحْوَ الْغَرْبِ أَقْرَبُ شَقَّةً مِنْ بَعْدِ هَذِي الْخَمْسَةِ الْأَشْبَارِ^(١)

[من الطويل]

وقول المعري [في «سقط الزند» ٦٠] :

إِذَا غُيِّبَ الْمَرْءُ اسْتَسَرَّ حَدِيثُهُ وَلَمْ تُخْبِرِ الْأَفْكَارُ عَنْهُ بِمَا يُغْنِي
تَضَلَّ الْعُقُولُ الْهَبْزَرِيَّاتُ رُشْدَهَا وَلَمْ يَسْلَمْ الرَّأْيُ السَّيِّدُ مِنَ الْأَفْنِ^(٢)

[من الطويل]

وهو ممّا قد ذكرناه عن قيس ، أو عن المجنون ، في قوله :

دَنَتْ بِأَنَاسٍ عَنْ تَنَاءٍ زِيَارَةٌ وَشَطَّ بِلَيْلِي عَنْ دُنُوٍّ مَزَارُهَا
وَإِنَّ مُقِيمَاتٍ بِمَنْقَطِعِ اللُّوئِي لِأَقْرَبِ مِنْ لَيْلِي وَهَاتِيكَ دَارُهَا

[من الكامل]

وقلت في بعض المراثي [في «ديوان المؤلف» ق ٧٠] :

سَفَرٌ عَلَى قُرْبِ الْمَسَافَةِ مَا لَهُ خَبَرٌ وَلَكِنَّ السُّكُوتَ كَلَامٌ

ويؤثر عن ابن الخطّاب - أو عن عمر بن عبد العزيز - كلام طويل عمّا يقوله الميت بعد أيام من دفنه ، يُطيشُ العقولَ ، ويزعجُ القلوبَ .

(١) الشُّقَّةُ - بالضمّ والفتح - : الناحية بقصدّها المسافرُ .

(٢) الهَبْزَرِيَّاتُ : العقولُ القويّةُ المحكّمةُ ، جمعُ هَبْرِيٍّ ، وهو : الرجلُ القويُّ . الْأَفْنُ : ضعفُ الرأْيِ ، والمافونُ الذي لا عقلَ له .

وما أحسن قولَ صلّةِ بنِ أشيمَ لأخيه وقد دفنهُ [كما في «جمهرة خطب العرب» ٤٩٩/٢] :

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمه
وإلا فإني لا إخالك ناجياً

[وقول الآخر [كما في «نفع الطيب» ٢٥٩/٤] :

كم أناس في نعيم عمروا
سكت الدهر زماناً عنهم
في ذرى ملك تعالى وسبى
ثم أنكاهم دماً حين نطق

* * *

[قال أبو الطيب المتنبي في «العكبري» ٣٣٦/٢] :

وَلَقَدْ بَكَيْتُ عَلَى الشَّبَابِ وَلِمَتِّي
مُسْوَدَّةٌ وَلِمَاءٍ وَجْهِي رُونُكُ

[شرح المطلع والكلام على المتنبي]

يقول : إنه يبكي على شبابه في حين وجوده ؛ خشية ما يتوقعه من فراقه ، وقد تكرر في «ديوانه» الأسف على الشباب ، مع زعمه أنه كان يتمناه ، بشهادة قوله [في «العكبري» ١٨٨/١-١٩٠] :

مُنَى كُنَّ لِي أَنَّ الْبِيَّاضَ خِضَابُ
لِيَالِي عِنْدَ الْبِيضِ فَوْدَايَ فِتْنَةٌ
فَكَيْفَ أَذْمُ الْيَوْمَ مَا كُنْتُ أَشْتَهِي
جَلَا اللَّوْنُ عَن لَوْنِ هَدْيِ كُلِّ مَسْلُوكِ
فِيخْفَى بِتَبْيِضِ الْقُرُونِ شَبَابُ
وَفَخْرٌ وَذَاكَ الْفَخْرُ عِنْدِي عَابُ^(١)
وَأَدْعُو بِمَا أَشْكُوهُ حِينَ أَجَابُ !؟
كَمَا انْجَابَ عَن لَوْنِ النَّهَارِ ضَبَابُ^(٢)

غير أنه لا ينكر مع ما نقره كل حين من تناقضه ، وتقلب أطواره ، فهو تارة يغازي الناس بمثل ما سمعت من هذه الأبيات ، وأخرى يوافقهم فيقول [في «العكبري» ٣٤٤-٣٥] :

ضَيْفٌ أَلَمَ بِرَأْسِي غَيْرَ مُخْتَشِمِ
[إِنْعَدَّ بَعْدَتْ بِيَّاضاً لَا بِيَّاضَ لَهُ]
وَالنَّيْفُ أَحْسَنُ فِعْلاً مِنْهُ بِاللَّمَمِ
لَأَنْتَ أَسْوَدُ فِي عَيْنِي مِنَ الظُّلَمِ

[وقول [في «العكبري» ١٣٠/٣] :

أَلَّةُ الْعَيْشِ صِحَّةٌ وَشَبَابُ
فَإِذَا وَلَّىا عَنِ الْمَرْءِ وَلَّى

[وقول [في «العكبري» ٧٧/٣] :

وَقَدْ أَرَانِي شَبَابِي الرُّوحَ فِي بَدَنِي
وَقَدْ أَرَانِي مَشِيبي الرُّوحَ فِي بَدَلِي

(١) الفردان : جانب الرأس يميناً وشمالاً .

(٢) انجاب : انكشف .

ويقول «في» العكبري « ١ / ١٧٠ » :

[مِنَ البسيط]

لَيْتَ الْحَوَادِثَ أَعْطَيْتَنِي الَّذِي أَخَذْتُ
مَنِّي بِحِلْمِي الَّذِي أَعْطَيْتَ وَتَجْرِيِي

ويقول «في» العكبري « ١ / ٣٥٦ » :

[مِنَ الوافر]

مَتَى لَحَظْتُ بَيَاضَ الشَّيْبِ مِنِّي
فَقَدْ وَجَدْتَهُ مِنْهَا فِي السَّوَادِ

[الكلام على الشيب]

[مِنَ البسيط]

والأخير من قول أبي دُلف العجلي «في» الأغاني « ٨ / ٢٥٧ » :

فِي كُلِّ يَوْمٍ أَرَى بَيضاءَ قَدْ طَلَعَتْ
كَأَنَّمَا طَلَعَتْ فِي نَاطِرِ الْبَصْرِ

[مِنَ الطويل]

ونظر إليه البُحترِّي في قوله «في» ديوانه « ٣ / ١٥٠٥ » :

وَدَدْتُ بَيَاضَ السَّيْفِ يَوْمَ لَقِينَنِي
مَكَانَ بَيَاضِ الشَّيْبِ لَاحَ بِمَفْرِقِي

[مِنَ الخفيف]

وقال أبو تَمَّام :

إِنَّ قُبْحَ الْبَيَاضِ فِي شَعْرِ الرَّأِ
سِ كَقُبْحِ الْبَيَاضِ فِي الْأَحْدَاقِ

[مِنَ البسيط]

فأخذه التهامي وقال «في» ديوانه « ١٧٨ » :

سَوَادُ رَأْسِكَ عِنْدَ الْهَائِمَاتِ بِهِ
مَعَادِلُ لِسَوَادِ الْقَلْبِ وَالْبَصْرِ

[مِنَ البسيط]

وقال أيضاً «في» ديوانه « ٣٣٣-٣٣٤ » :

عَبَسْنَا مِنْ شَعْرِ فِي الرَّأْسِ مُرْتَسِمٍ
ظَنَنْتُ شَيْبَتَهُ تَبْقَى وَمَا عَلِمْتُ
وَكُلَّمَا اغْتَاضَ رَأْسِي غَيْرَ صِنْعَتِهِ
مَا حَانَ عَزْمِي وَلَا حَزْمِي وَلَا خُلْفِي
لَا يُنْفِرُ الْبَيْضَ مِثْلُ الْبَيْضِ فِي اللَّمَمِ^(١)
أَنَّ الشَّيْبَةَ مَرْقَاةٌ إِلَى الْهَرَمِ^(٢)
فَالشَّيْبُ فِي الرَّأْسِ دُونَ الشَّيْبِ فِي الشِّمِّ
وَلَا وَفَائِي وَلَا دِينِي وَلَا كَرْمِي

[مِنَ الطويل]

والأخيران ينظران إلى قول الناظم «في» العكبري « ١ / ١٩٠ » :

وَفِي الْجِسْمِ نَفْسٌ لَا تَشِيْبُ بِشَيْبِهِ
لَهَا ظَفَرٌ إِنْ كَلَّ ظَفَرٌ أُعِدُّهُ
يُعَيِّرُ مِنِّي الدَّهْرُ مَا شَاءَ غَيْرَهَا
وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْوَجْهِ مِنْهُ حِرَابُ
وَنَابُ إِذَا لَمْ يَبْتَقَ فِي الْفَمِ نَابُ
وَأُبْلَغُ أَفْصَى الْعُمُرِ وَهِيَ كَعَابُ

[مِنَ الكامل]

والأصل قول غيلان بن سلمة الثقفي - رضي الله عنه - [كما في «الأغاني» ٥ / ٤١٧] :

لَمْ يَنْتَقِصْ مِنِّي الْمَشِيْبُ قُلَامَةً
وَالشَّيْبُ إِنْ يَخْلُلُ فَإِنَّ وَرَاءَهُ
الآن حينَ بدأ أَلْبُ وَأَكْيَسُ
عُمْرًا يَكُونُ خِلَالَهُ مُتَنَقِّسُ

(١) عيسن : انقبضت وجوههن .

(٢) المرقاة : الثلم .

وقول الحارث بن السليك الأزديّ [في «مجمع الأمثال» ١/١٢٣] :

[من البسيط]

وَعَيَّرَتْ أَنْ رَأَتْني لِأَسَا كِبَرًا
فَإِنْ بَقِيَتْ رَأَيْتِ الشَّيْبَ رَاغِمَةً
وَإِنْ يَكُنْ قَدْ عَلَا رَأْسِي وَغَيْرُهُ
فَقَدْ أَرْوَحُ لِلذَّاتِ الْفَتَى جَدِلًا
وَعَايَةُ النَّفْسِ بَيْنَ الْمَوْتِ وَالْكِبَرِ
وَفِي التَّفَرُّقِ مَا يَقْضِي مِنَ الْغَيْرِ
صَرَفُ الزَّمَانِ وَتَغْيِيرُ مِنَ الشَّعْرِ
وَهَمَّتِي لَمْ تَشِبْ فَاسْتَخْبِرِي أَثْرِي

ولهذه الآيات حديثٌ ظريفٌ ، يغلبُ على ظنيّ أنّه في (نكلتك أمك ، قد تجوع الحرّة ولا تأكل بثدييها)^(١) من «أمثال الميدانيّ» [١/١٢٣] .

قال ابن المعتزّ : [من مخلع البسيط]

قَالَتْ وَقَدْ رَاعَهَا مَشِيبي :
وَاسْتَهَزَأَتْ بي فَقُلْتُ أَيْضًا :
كُفِّي وَلَا تُكْثِرِي مَلَامِي
مَنْ شَابَ أَبْصَرَنَهُ الْغَوَانِي
لَوْ قِيلَ لي : اخْتَرِ عَمِي وَشَيْبًا
كُنْتُ ابْنَ عَمٍّ فَصِرْتَ عَمًّا
قَدْ كُنْتُ بِنْتًا فَصِرْتَ أُمًّا
وَلَا تَزِيدِي الْعَلِيلَ سُقْمًا
بِعَيْنِ مَنْ قَدْ عَمِي وَصَمًّا
أَيُّهُمَا شِئْتَ لَقُلْتُ : أَعْمَى

سأل الله العافية ؛ فلقد أسرف على نفسه بما لن يسلم من سوء مغيبه ، كما لم ينبج العبد الصالح عليه السلام من نتيجة قوله : ﴿ قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ ﴾ [يوسف : ٣٣] .

وقد ذكرناه في غير هذا المجلس ، ولئن سلم هذا الشاعر . فلا لكرامة على الله ؛ ولكنّه الاستدراج ، والتأجيل إلى اليوم الذي يشتد فيه الجزاء على من أساء الأدب ، وأول أبياتِه ناظرٌ إلى قول الأخطل [في «ديوانه» ٣٨٦] : [من الكامل]

وَإِذَا دَعَوْنَاكَ عَمَّهُنَّ فَإِنَّهُ
وَإِذَا دَعَوْنَاكَ يَا أَخِي فَإِنَّهُ
نَسَبٌ يَزِيدُكَ عِنْدَهُنَّ حَبَالًا
أَذْنَى وَأَقْرَبُ خُلَّةً وَوَصَالًا

وهو من قول النمر بن تولب - رحمه الله عليه - [في «ديوانه» ٨٨] :

دَعَانِي الْغَوَانِي عَمَّهُنَّ وَخِلْتَنِي
لِي اسْمٌ فَمَا أَدْعَى بِهِ وَهُوَ أَوْلُ

[من البسيط]

وقال ابن زهر الأندلسيّ [في «نفع الطيب» ٢/٧٢٩] :

كَانَتْ سُلَيْمَى تُنَادِي يَا أَخِي وَقَدْ
أَضَحَّتْ سُلَيْمَى تُنَادِي الْيَوْمَ يَا أَبَا

[من الطويل]

وقد غابرت في ذلك أم الضحّاك حيث تقول :

فَيَا رَبِّ لَا تَجْعَلْ حَيَاتِي وَبَهْجَتِي
فَبُنْتُ أَنَّ الشَّيْخَ يَغْدِلُ أَهْلَهُ
لَشَيْخٍ يُعْنِينِي وَلَا لِعِلَامٍ
وَفِي شِرَّةٍ حَالِ الْفَتَى وَعُغْرَامٍ^(٢)

(١) القصة قد ذكرناها فيما مضى تعليقا .

(٢) العُرام : الشديّد القويّ الشرس .

وَلَكِنْ صُمَّلٌ قَدْ عَلَا الشَّيْبُ رَأْسَهُ فَرُوجٌ لِأَخْرَاحِ النَّسَاءِ هُمَامٌ^(١)

وجارها ، وأحسن ما شاء أبو الأسود حيث يقول [في «ديوانه» ١١٣] : [مِنَ الطَّوِيلِ]

أَبَى الْقَلْبُ إِلَّا أُمُّ عَمْرٍو وَحُبَّهَا كَبُرِدِ الْيَمَانِي قَدْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ
عَجُوزاً وَمَنْ يَعْشَقُ عَجُوزاً يُفْنِدُ وَرَقَعْتُهُ مَا شِئْتَ فِي الْعَيْنِ وَالْيَدِ

[البكاء على الشباب]

أَمَّا البكاء على الشباب .. فَمِنْ أَحْسَنِ مَا فِيهِ قَوْلُ مَنْصُورِ النَّمِيرِيِّ [في «الأغاني» ١٦٣/١٣] : [مِنَ الْبَسِيطِ]

مَا تَنْقِضِي حَسْرَةَ مِنِّي وَلَا جَزَعُ إِذَا ذَكَرْتُ شَبَاباً لَيْسَ يُرْتَجَعُ
بَانَ الشَّبَابُ وَقَاتَنِي بِشِرَّتِهِ صُرُوفُ دَهْرٍ وَأَيَّامٌ لَهَا خِدَعُ
مَا كِدْتُ أُوْفِي شَبَابِي كُنْهَ غُرَّتِهِ حَتَّى انْقَضَى فَإِذَا الدُّنْيَا لَهُ تَبَعُ
مَا كَانَ أَقْصَرَ أَيَّامِ الشَّبَابِ وَمَا أَبْقَى حَلَاوَةَ ذِكْرَاهُ الَّتِي يَدَعُ

فلقد بكى الرشيدُ من هذه الأبيات ، وقال [في «الأغاني» ١٦٣/١٣] : صدقت يا نُميري ، لا خير في دنيا لا يُسْتَمَعُ فيها بحلاوة الشباب وأيامه .

[المعتصم يعجب بقصيدة للنميري]

وهذا البيت من قصيدة له جزلة مختارة ، حتَّى لَقِدَ اجْتَمَعَ الشعراءُ بِبابِ المَعْتَصِمِ ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ [كما في «الأغاني» ٨١/١٩] : مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَحْسُنُ أَنْ يَقُولَ مِثْلَ قَوْلِ مَنْصُورِ النَّمِيرِيِّ فِي الرَّشِيدِ : [مِنَ الْبَسِيطِ]

إِنَّ الْمَكَارِمَ وَالْمَعْرُوفَ أَوْدِيَةً أَحَلَّكَ اللَّهُ مِنْهَا حَيْثُ تَجَمَّعُ
أَيُّ أَمْرٍ بَاتَ مِنْ هَارُونَ فِي سَخَطٍ ؟ فَلَيْسَ بِالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَنْتَفِعُ
إِنْ أَخْلَفَ الْغَيْثُ لَمْ تُخْلِفْ أَنَامِلُهُ أَوْ ضَاقَ أَمْرٌ ذَكَرْنَاهُ فَيَنْسَعُ

.. فليدخل ، فيقال [كما في «الأغاني» ٨١/١٩] : إِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ وَهَبٍ دَخَلَ يَوْمَئِذٍ ، وَأَنشَدَ المَعْتَصِمَ قَصِيدَتَهُ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

ثَلَاثَةٌ تُشْرِقُ الدُّنْيَا بِيَهْجَتِهِمْ شَمْسُ الضُّحَى وَأَبُو إِسْحَاقَ وَالْقَمَرُ

فاهتز لها ، وأحسنَ جائزته . وما هو بالحكم الرضوي حكومته في المساواة بين القصيدتين ؛ فإنَّ بينهما بُعدَ المشرقين .

وقد أغار الناظم على قول منصور : (فإذا الدنيا له تبع) فيما سبق من قوله : (فإذا وليا عن المرء ولي) ، وأغار أيضاً على قوله : (أو ضاق أمرٌ ذكرناه فينسع) حيث قال [في «العكبري» ٣٠٣/٣] : [مِنَ الْكَامِلِ]

مَلِكٌ إِذَا مَا الرُّمْحُ أَدْرَكَهُ طَنَبٌ ذَكَرْنَاهُ فَيَعْتَدِلُ

(١) الصَّمْلُ : الشديد الخلق العظيم . فروجٌ : صيغة مبالغة من فارح ، والمعنى : أنها تدعو الله عز وجل أن يرزقها زوجاً يكفيها مؤنة النكاح ، ولا يقصرني حقها فيه .

ولاذ به المعريُّ في قوله [في « سقط الزند » ١٢١] :

[من الوافر]

وَلَوْ كَتَبَ اسْمَهُ مَلِكٌ هَزِيمٌ عَلَى رَايَاتِهِ وَالْيَ الْفُتُوْحَا

[دواء عجب لتسهيل الولادة . . اقرأه ولا تطيقه]

ولبيت النيمريِّ قصَّةٌ ، حاصلها [كما في « الأغاني » ١٣/١٦٧] : أَنَّهُ جَاءَ إِلَى صَدِيقٍ لَهُ وَهُوَ قَلِقُ الْخَاطِرِ ، مَنْزِعِجُ الْفِكْرِ ، مُبْتَلِ الْبَالِ ، فَسَأَلَهُ صَاحِبُهُ عَنْ مَوْجِبِ ذَلِكَ ، فَقَالَ لَهُ : تَرَكْتُ زَوْجَتِي فِي الْمَخَاضِ ، وَقَدْ عَسَرَ عَلَيْهَا الْوِلَادُ ، وَهِيَ بَدِي وَرِجْلِي ، وَرُوحِي وَرَاحَتِي ، قَالَ لَهُ : أَلَسْتَ الْقَائِلَ : (أَوْ ضَاقَ أَمْرٌ ذَكَرْنَاهُ فَيَتَّسَعُ) ؟ قَالَ : بَلَى ، قَالَ : فَاهْبِ ، فَارْتَبِ عَلَى فَرْجِهَا : هَارُونَ الرَّشِيدُ ؛ حَتَّى يَحْصَلَ الْفَرْجُ ، وَيَتَّسِعَ الْمَضِيقُ ، فَبَلَغَتْ الرَّشِيدَ ، وَاخْتَلَفَتْ الرَّوَايَةُ ، فَمِنْ قَائِلٍ : إِنَّهُ اسْتَطَرَفَهَا ، وَمِنْ قَائِلٍ : إِنَّهُ عَاقَبَ الرَّجُلَ ، وَقِيلَ [في « الأغاني » ١٣/١٦٧] : إِنَّ الرَّجُلَ نَمَّ عَلَى النِّمِرِيِّ عِنْدَ الرَّشِيدِ بِمِيلِهِ إِلَى الْعُلُوِّيِّ ، وَأَنَّهُ لَا يَرِيدُ بِهَارُونَ إِلَّا عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ، مِنْ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « أَنْتَ بِنِي بَمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى » (١) ، وَأَشْدَلُهُ :

[من البسيط]

أَلِ الرَّسُولِ خِيَارِ النَّاسِ كُلِّهِمْ وَخَيْرُ آلِ رَسُولِ اللَّهِ هَارُونُ

وَأَنَّ الرَّشِيدَ أَرْسَلَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى النِّمِرِيِّ مِنْ يَبْعَجِ بَطْنُهُ ، فَأَلْفَاهُ مَنْصَرَفَ النَّاسِ مِنْ جَنَازَتِهِ ، وَكَانَ النِّمِرِيُّ مَتَمَكِّنًا عِنْدَ الرَّشِيدِ بِنِفَاقِهِ ، الَّذِي مِنْ أَظْهَرِ آيَاتِهِ قَوْلُهُ :

[من الوافر]

بَيْي حَسَنٍ وَقُلْ لِبَيْي حُسَيْنٍ
أَمِيطُوا عَنْكُمْ كَذِبَ الْأَمَانِي
عَلَيْكُمْ بِالسَّوَاءِ مِنَ الْأُمُورِ
وَأَحْلَامًا يُعْذَنَ عِدَاتِ زُورِ
إِنَّ النَّبِيَّ أَبَا وَيَّابِي
مِنَ الْأَحْزَابِ سَطُرٌ فِي سَطُورِ (٢)

يَرِيدُ قَوْلَهُ : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾ [الأحزاب : ٤٠] ، حَتَّى لِيُقَالَ : إِنَّ الرَّشِيدَ حَكَمَهُ فِي بَيْتٍ بِمَا أَرْضَى لِهَوَاهُ فِي هَذَا الشَّعْرِ .

[من المشيب والشباب والبكاء عليهما]

[من الكامل]

ومن بدائع الفرزدقِ قوله يبكي الشباب [في « ديوانه » ١/٣٧٢] :

قَالَتْ : وَكَيْفَ يَمِيلُ مِثْلَكَ لِلصَّبَا
وَالشَّيْبُ يَنْهَضُ فِي السَّوَادِ كَأَنَّهُ
وَعَلَيْكَ مِنْ سِمَةِ الْحَلِيمِ وَقَارُ ؟
لَيْلٌ يَصِيحُ بِجَانِبَيْهِ نَهَارُ

[من الوافر]

وقال العربيُّ [أبو العتاهية في « ديوانه » ٣٢] :

أَلَا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْمًا
فَأَخْبِرُهُ بِمَا فَعَلَ الْمَشِيبُ

(١) أخرجه عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه مسلم (٢٤٠٤) في (فضائل الصحابة) وفيه : « أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى » .

(٢) البيهقي مكسور عروضياً ولعل صوابه كما في « زهر الآداب » (٦١/٢) :

تَسْتَوُونَ النَّبِيَّ أَبَا ، وَيَّابِي

مِنَ الْأَحْزَابِ سَطُرٌ فِي سَطُورِ

وقال دِعْبِلٌ [في «ديوانه» ٢٠٣]

[مِنَ الْكَامِلِ]

أَيْنَ الشَّبَابُ ؟ وَأَيُّهُ سَلَكَ ؟
لَا تَعَجِّبِي يَا سَلْمُ مِنْ رَجُلٍ
لَا ، أَيْنَ يُطَلَبُ ؟ ضَلَّ ، بَلْ هَلَكَا
ضَحِكَ الْمَشِيبُ بِرَأْسِهِ فَبَكَى

[مِنَ السَّرِيعِ]

وقد أخذ أصل المعنى من قول مسلم بن الوليد [صريع الغواني في «ديوانه» ٣٠٦] :

مُسْتَعْبِرٌ يَبْكِي عَلَى دِمْنَةٍ
وَرَأْسُهُ يَضْحَكُ فِيهِ الْمَشِيبُ

[مِنَ الْخَفِيفِ]

أو من قول ابن مطير [في «ديوانه» ٢٧] :

كُلُّ يَوْمٍ بِأَفْعْوَانٍ جَدِيدٍ
تَضْحَكُ الْأَرْضُ مِنْ بُكَاءِ السَّمَاءِ

[مِنَ الْوَافِرِ]

ومن أبكى ما يكون على الشباب . . قول أبي العُصْنِ الْأَسَدِيِّ :

أَتَأْمَلُ رَجْعَةَ الدُّنْيَا سَفَاهَا
فَلَيْتَ الْبَاكِيَاتِ بِكُلِّ أَرْضٍ
وَقَدْ صَارَ الشَّبَابُ إِلَى الذَّهَابِ
جُمِعْنَا لَنَا فَنُحْنُ عَلَى الشَّبَابِ

[مِنَ الْبَسِيطِ]

وقال محمد بن أبي حازم [في «ديوانه» ٨٧] :

لَا حِينَ صَبْرٍ فَخَلَّ الدَّمْعَ يَنْهَمِلُ
لَا تَكْذِبَنَّ فَمَا الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا
فَقَدْ الشَّبَابُ بِيَوْمِ الْمَرْءِ مُتَّصِلُ
مِنَ الشَّبَابِ بِيَوْمٍ وَاحِدٍ بَدَلُ
وَبِالشَّبَابِ شَفِيعاً أُيُّهَا الرَّجُلُ
كَفَاكَ بِالشَّيْبِ ذَنْباً عِنْدَ غَانِيَةٍ

[مِنَ الْكَامِلِ]

وقال عبد الله بن الحسن بن الحسن السبط - رضوان الله عليهم - :

لَوْ أَنَّ أَسْرَابَ الدُّمُوعِ ثَنَتْ
لَبَكَيْتُهُ دَهْرِي بِأَرْبَعَةٍ
شَرَحَ الشَّبَابِ عَلَى امْرِئٍ قَبْلِي (١)
فَسَفَحْتُهَا سَجَلاً عَلَى سَجَلٍ

[مِنَ الْكَامِلِ]

وقال ابن الرومي [في «ديوانه» ٦/٢٣٤٤-٢٣٤٣] :

لَا تَلَحْ مَنْ يَبْكِي شَبِيبَتَهُ
لَسْنَا نَرَاهَا حَقَّ رُؤْيَتِهَا
وَلَرُبَّ شَيْءٍ لَا يُبِينُهُ
كَالشَّمْسِ لَا تَبْدُو فَضِيلَتُهَا
إِلَّا إِذَا لَمَّ يَبْكِيهَا بِدَمٍ (٢)
إِلَّا زَمَانَ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ
وَجَدَانُهُ إِلَّا مَعَ الْعَدَمِ
حَتَّى تَغْشَى الْأَرْضُ بِالظُّلَمِ

[مِنَ الْكَامِلِ]

وقال آخر [وهو أبو العتاهية في «ديوانه» ٣٥٣] :

الشَّيْبُ إِحْدَى الْمِيتِينَ تَقَدَّمَتْ
إِحْدَاهُمَا وَتَأَخَّرَتْ إِحْدَاهُمَا

(١) شرح الشباب : أوله وقوته ونضارته .

(٢) لاح : اشفق وبكى .

وقال أبو تمام [في «ديوانه» ١/١٣٣] :

[من الخفيف]

لَوْ رَأَى اللهُ أَنَّ فِي الشَّيْبِ فَضْلاً
جَاوَرَتْهُ الْأَبْرَارُ فِي الْخُلْدِ شَيْبَا

وقال [في «ديوانه» ٢/١١٧] :

[من الخفيف]

شُغْلَةٌ فِي الْمَفَارِقِ اسْتَوْدَعْتَنِي
تَسْتَيْرُ الْهُمُومَ مَا اكْتَنَّ مِنْهَا
دِقَّةٌ فِي الْحَيَاةِ تُدْعَى جَلَالاً
حَلَمْتَنِي زَعَمْتُمْ وَأَرَانِي
فِي صَمِيمِ الْفُؤَادِ تُكَلِّمُ صَمِيمًا^(١)
صُعْدًا وَهِيَ تَسْتَيْرُ الْهُمُومًا^(٢)
مِثْلَ مَا سَمِّيَ اللَّدِيغُ سَلِيمًا
قَبْلَ هَذَا التَّخْلِيمِ أُدْعَى حَلِيمًا^(٣)

وقال [في «ديوانه» ١/٣٩٨-٣٩٩] :

[من الطويل]

غَدَا الشَّيْبُ مُحْتَطًّا بِفُؤَدِي خِطَّةً
هُوَ الزُّورُ يُجْفَى ، وَالْمَعَاشِرُ يُجْتَوَى
لَهُ مَنْظَرٌ فِي الْعَيْنِ أَبْيَضُ نَاصِعٌ
وَنَحْنُ نُزَجِّيه عَلَى الْكُرْهِ وَالرُّضَا
سَبِيلُ الْفَتَى فِيهَا إِلَى الْمَوْتِ مَهْيَعٌ^(٤)
وَذُو الْإِلْفِ يُقْلَى ، وَالْجَدِيدُ يُرْقَعُ^(٥)
وَلَكِنَّهُ فِي الْقَلْبِ أَسْوَدُ أَسْفَعُ^(٦)
وَأَنْفُ الْفَتَى مِنْ وَجْهِهِ وَهُوَ أَجْدَعُ^(٧)

وقال [في «ديوانه» ١/١١٥-١١٦] :

[من البسيط]

سِتٌّ وَعِشْرُونَ تَدْعُونِي فَأَتْبَعُهَا
يَوْمِي مِنَ الدَّهْرِ مِثْلُ الدَّهْرِ تَجْرِبَةٌ
وَأَصْغِرِي أَنَّ شَيْبًا لَاحَ بِي حَدَثًا
وَلَا يُؤَوِّدُكَ إِيمَاضُ الْفَتِيرِ بِهِ
إِلَى الْمَشِيبِ وَلَمْ تَظْلِمِ وَلَمْ تَحْبِ^(٨)
حَزْمًا وَعَزْمًا وَسَاعِي مِنْهُ كَالْحَقْبِ^(٩)
وَأَكْبِرِي أَنِّي فِي الْمَهْدِ لَمْ أَشِبِ^(١٠)
فَإِنَّ ذَاكَ ابْتِسَامُ الرَّأْيِ وَالْأَدَبِ^(١١)

وقال أبو عبادة [في «ديوانه» ٢/١١٩٨] :

[من الكامل]

تَرَكَ السَّوَادَ لِلْأَبْسِيهِ وَبَيَّضَا

(١) الصمِيمُ : الخالصُ .

(٢) تستيرُ : تحركُ ، والضميرُ يعودُ إلى الثَّلَّةِ مِنَ الشَّيْبِ . اكنَّ : استترَ . صُعْدًا : ارتفاعاً .

(٣) حلمتني : صيرتني حليماً .

(٤) الفؤدُ : جانبُ الرأسِ . الخِطَّةُ : الطريقةُ . المهْيَعُ : الطريقُ الواسعُ .

(٥) الزُّورُ : الزائرُ . يُجْفَى : يُهَجَّرُ . يُجْتَوَى : يكرهُ . يُقْلَى : يبيغضُ .

(٦) أسْفَعُ : خالصُ السوادِ .

(٧) نزجيه : نسوقه . أجْدَعُ : مقطوعُ الأنفِ .

(٨) لم تحبِ : لم تأثمِ .

(٩) الساعُ : مفردها الساعةُ . الحَقْبُ : مفرده حَقْبَةٌ ، وهي المدةُ الطويلةُ مِنَ الوَقْتِ .

(١٠) أصغري وأكبري : فعلاً أمرٌ معناهما ليصغرُ وليكبرُ .

(١١) إيماضُ : لمعانُ . الفتيرُ : الشيبُ .

وقال [في «ديوانه» ١٢٠٧/٢ : [١٢٠٩-١٢٠٧]

[من الخفيف]

لَابِسٌ مِنْ شَيْبَةٍ أَمْ نَاضِي ؟
فَهَلِ الْحَادِثَاتُ يَابْنَ عَوْيِفِ

وَمُلِيحٌ مِنْ شَيْبَةٍ أَمْ رَاضِي ؟^(١)
تَارِكَاتِي وَلُبْسَ هَذَا الْبِيَاضِ ؟

وقال [في «ديوانه» ١/٥٥٦ :

[من البسيط]

وَجِدَّةُ الشَّعْرَاتِ السُّودِ يُرْجِعُهَا
لَوْ كَانَ فِي الْحِلْمِ مِنْ جَهْلٍ مَضَى عَوْضٌ

بِيضاً تَتَابَعُ مَرَّ الْبِيضِ وَالسُّودِ^(٢)
لَمْ أَذْمِ الشَّيْبَ فِي قَوْلِي وَمَعْقُودِي

وقال [في «ديوانه» ١/٥٥٦ :

[من الطويل]

إِذَا مَا لَقِينَاهُنَّ وَالشَّيْبُ شَفَعَنَا

تَغَابَيْنَ أَوْ كَلَّمْنَا بِالسَّوَالِفِ^(٣)

وقال [في «ديوانه» ١/٩٩ :

[من الوافر]

أَقُولُ لِلْمَتِيِّ إِذْ أَسْرَعَتْ بِي

إِلَى الشَّيْبِ : اخْسَرِي فِيهِ وَخِيِي !

وقال [في «ديوانه» ٣/١٣٩٥ :

[من الطويل]

ثَنَّتْ طَرْفَهَا دُونَ الْمَشِيبِ ، وَمَنْ يَشِبْ

فَكُلُّ الْغَوَانِي عَنْهُ مُثَيَّبَةٌ الطَّرْفِ

وقال [في «ديوانه» ١/٥٠٩ :

[من الخفيف]

غَلَسَ الشَّيْبُ أَوْ تَعَجَّلَ وَرُدَّهُ
لَا تَلْمِني عَلَى الضَّنَا بَعْدَ مَا صَـ

وَاسْتَعَارَ الشَّبَابَ مَنْ لَا يَرُدُّهُ^(٤)
وَوَحَّ رَوْضُ الصَّبَا وَأَنْهَجَ بُرْدُهُ^(٥)

وقال [في «ديوانه» ١/١١٩ :

[من البسيط]

وَالشَّيْبُ مَهْرَبٌ مَنْ جَارَى مَيْبَتَهُ

وَلَا نَجَاءَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ الْهَرَبِ

وقال [في «ديوانه» ٢/٩٥٣-٩٥٤ :

[من البسيط]

فِي الشَّيْبِ زَجْرٌ لَهُ لَوْ كَانَ يَنْزَجِرُ
إِبْيَضٌ مَا اسْوَدَّ مِنْ فَوْدِي وَأَرْتَجَعْتُ
وَلِلْفَتَى مُهْلَةٌ فِي الْحُبِّ وَاسِعَةٌ

وَبَالِغٌ مِنْهُ لَوْلَا أَنَّهُ حَجَرٌ
جَلِيَّةُ الصُّبْحِ مَا قَدْ أَغْفَلَ السَّحَرُ
مَا لَمْ يَمُتْ فِي نَوَاحِي رَأْسِهِ الشَّعْرُ

وقال المعري [في «سقط الزند» ٢٤٦ :

[من البسيط]

وَقَدْ تَعَوَّضْتُ عَنْ كُلِّ بِمُشْبِهِ

فَمَا وَجَدْتُ لِأَيَّامِ الصَّبَا عَوْضًا

(١) المُلِيحُ : المشفقُ الخائفُ الحذرُ .

(٢) الجِدَّةُ : كونُ الشيءِ جديداً .

(٣) الشَّيْبُ شَفَعَنَا : أي ثابتنا . السوَالِفُ : جمع سالفَةٍ ، وهي العنق . والمقصودُ : أنهم يُعرضنَ عنه .

(٤) الْغَلَسُ : ظلمةُ آخرِ الليلِ .

(٥) أَنْهَجَ التَّوْبَ : بلي .

وقال [البحرئى في «ديوانه» ٣/ ١٤٨١] :

[من الخفيف]

هَـا هُوَ الشَّيْبُ لِأَيِّمًا فَأَفِيْقِي !
وَأَتْرُكِيهِ إِذْ كَانَ غَيْرَ مُفِيْقِي

وقال [المعري في «سقط الزند» ١١٢] :

[من الوافر]

وَعِيْشَتِي الشَّبَابُ وَلَيْسَ مِنْهَا
صَبَّايِ وَلَا ذَوَائِيَّيْهِ الْهَجَانُ^(١)

[وقيل] :

[من الوافر]

وَكَالنَّارِ الْحَيَاةُ فَمِنْ دُخَانِ
أَوَائِلِهَا وَآخِرِهَا رَمَادُ

وقال صردر :

[من الكامل]

لَمْ أَبْكُ أَنْ رَحَلَ الشَّبَابُ وَإِنَّمَا
شَعْرُ الْفَتَى أَوْرَاقُهُ فَإِذَا ذَوَى
أَبْكِي لِأَنَّ يَتَقَارَبَ الْمِيعَادُ
جَفَّتْ عَلَيَّ آثَارِهِ الْأَعْوَادُ

[الشيب قبل الأوان مؤلم]

وفي بعض ما سبق - خصوصاً عن أبي تمام - شكاية من نزول الشيب قبل أوانه ، وأصله قول أبي نواس [في

[من الكامل]

[ديوانه] ٣٣٠] :

وَإِذَا عَدَدْتُ سِنِّي عُمْرِي لَمْ أَجِدْ
لِلشَّيْبِ عُذْرًا فِي النُّزُولِ بِرَاسِي

[من الوافر]

وقال كُشاجم [في «ديوانه» ٤٩٨] :

إِذَا فَكَّرْتُ فِي شَيْبِي وَسِنِّي
كَأَنَّ الشَّيْبَ غَارَ عَلَيَّ الْغَوَانِي
عَبَّتْ عَلَيْهِ فِيمَا نَالَ مِنِّي
فَعَرَّضَهُنَّ لِلْإِعْرَاضِ عَنِّي

[من الكامل]

وقال الناظم [في «العكبري» ٤/ ١٢٣ - ١٢٤] :

لَوْ كَانَ يُمَكِّنِي سَفَرْتُ عَنِ الصَّبَا
وَلَقَدْ رَأَيْتُ الْحَادِثَاتِ فَلَا أَرَى
فَالشَّيْبُ مِنْ قَبْلِ الْأَوَانِ تَلْتُمُ^(٢)
شَيْبًا يُمِيتُ وَلَا سَوَادًا يَعْصِمُ

[من الطويل]

وقال آخر :

وَهَلْ أَنَا إِلَّا ابْنُ الثَّلَاثِينَ لَمْ تَشِبْ
لِدَاتِي وَلَكِنَّ الخُطُوبَ تَضِيْمُ

[من الخفيف]

وقال آخر :

قَدْ رَأَيْتَاهُ بِالعَشِيِّ غَلامًا
فَعَدُونَا نَعْدُهُ فِي الكُهُولِ

[من السريع]

وقال الموسوي [وهو الشريف الرضي في «ديوانه» ٦٨٨] :

عَجَّلْتَ يَا شَيْبُ عَلَيَّ مَفْرِقِي
وَأَيُّ عُذْرٍ لَكَ أَنْ تَعَجَّلَا

(١) الذوائب الهجان : البيض .

(٢) سفرت : أظهرت وكشفت ، وسفر وجه زيد : أشرق . التلثم : ستر الوجه .

وَكَيْفَ أَقْدَمْتَ عَلَيَّ عَارِضِي
يَا زَائِرًا مَا جَاءَ حَتَّى مَضَى
وَمَا رَأَى الرَّأُوُونَ مِنْ قَبْلِهَا

وقال أبو فراس الحمداني [في «ديوانه» ١٥١] :

وَمَا أَزْبَتَ عَلَيَّ الْعِشْرِينَ سَنِي

وقال ابنُ دريدٍ [في «ديوانه» ٤٥] :

ثَوْبُ الشَّبَابِ عَلَيَّ الْيَوْمَ بِهِجْتُهُ
أَنَا ابْنُ عِشْرِينَ مَا زَادَتْ وَلَا نَقَصَتْ

مَا اسْتَعْرَقَ النَّبْتُ وَلَا اسْتَكَمَلَا ؟
وَعَارِضًا مَا غَامَ حَتَّى انْجَلَى
زَرْعًا ذَوِي مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْلَا

[مِنَ الْوَارِثِ]

فَمَا عُذِرُ الْمَشِيبِ إِلَيَّ عِذَارِي !؟

[مِنَ الْبَسِيطِ]

وَسَوْفَ تَنْزِعُهُ عَنِّي يَدُ الْكِبَرِ
إِنَّ ابْنَ عِشْرِينَ مِنْ شَيْبٍ عَلَيَّ خَطِرٍ

[ما عذر المشيب في المجيء قبل أوانه]

وقد سبق - ولا سيما فيما سقناه عن أبي عبادة - عذر المشيب إذا جاء في وقته ، ومنه قول ابن الرومي [في «ديوانه»] :

[مِنَ الْكَامِلِ]

رَكُضُ السِّنِينَ الرَّائِضَاتِ أَمَامِي

أَذْرَى غُرَابِ الشَّيْبِ فَوْقَ مَفَارِقِي

وإلا . . فلونه غير مناسب للشيب ، وقوله أيضاً ، وهو

[مِنَ السَّرِيعِ]

كَانَتْ أَمَامِي ثُمَّ خَلَفَتْهَا
تَذْكَرِي أَنِّي تَنَصَّفْتُهَا

ولعله أراد الغراب الأبقع ، أو من حيث إنذاره بالرحيل ، ما يُعْجِبُنِي ؛ لموافقته لسني [وهو في «ديوانه» ٣٦٠/١-٣٦١] :

فَكَّرْتُ فِي خَمْسِينَ عَامًا مَضَتْ
لَوْ أَنَّ عُمْرِي مِئَةٌ هَدَّنِي

وقول أبي عبادة أيضاً [في «ديوانه» ١٣٦/١] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

إِلَى الشَّيْبِ مَا وَلَّى عَنِ الشَّيْبِ يَهْرُبُ

وَقَدْ رَدَّتِ الْخَمْسُونَ رَدًّا صَرِيمَةً

[مِنَ الْكَامِلِ]

وقوله :

فَلَقَدْ أَخَذْتُ مِنَ الشَّبَابِ نَصِيبي

إِنْ كَانَ قَدْ عَبَثَ الْمَشِيبُ بِلَمَّتِي

[مِنَ الْمُتْقَارِبِ]

وقوله [في «ديوانه» ١٥٠/١] :

وَمَنْ يَطَّلِعْ شَرْفَ الْأَرْبَعِيْنَ يُحْيِي مِنَ الشَّيْبِ زَوْراً غريباً

[مِنَ الْبَسِيطِ]

وقول آخر [وهو أبو الأسود الدؤلي في «الأغاني» ٣٧٣/١٢] :

مَرُّ الْجَدِيدَيْنِ مِنْ آتٍ وَمُنْطَلِقِ
شَيْئاً أَخَافُ عَلَيْهِ لَذَعَةَ الْحِدَقِ

أَفْنَى الشَّبَابِ الَّذِي حَاوَلْتُ جِدَّتَهُ
لَمْ يُبْقِيَ لِي مِنْ طُولِ اخْتِلَافِهِمَا

[مِنَ الْكَامِلِ]

وقال المعري [في «سقط الزند» ٢٦١] :

غَيْرِي وَلَكِنْ لِلْحَزِينِ تَذْكَرُ

وَلَقَدْ سَلَوْتُ عَنِ الشَّبَابِ كَمَا سَلَا

وكتب الحجاجُ إلى قتيبة بن مسلم [في «الأغاني» ٦٤/٢٠] :

أما بعدُ : فإنِّي نظرتُ في سني ، فإذا أنا قد بلغتُ الخمسين ، وأنتَ نحوُّ منِّي في السنِّ ، وإنَّ امرأً قد سارَ خمسينَ حِجَّةً إلى منهلٍ . . لقمينُ أن يردَّه .

فأخذَهُ بعضهم فقالَ [أبو العتاهية في «ديوانه» ٢١] :

[مِن الطَّويلِ]

وإنَّ امرأً قد سارَ خمسينَ حِجَّةً إلى منهلٍ مِن وزده لقریبُ
فإنَّ كانتِ السُّتونُ سنَّكَ لم يكنُ لدائكِ إلاَّ أن تموتَ طيبُ

وقالَ ابنُ المعتزِّ :

[مِن البسيطِ]

إحدى وخمسونَ لو مرَّت على حجرٍ لكانَ مِن حُكمها أن يفلقَ الحجرُ

أما المشيبُ : فإنه مكروهٌ لقاؤه ، محبوبٌ بقاؤه ، وأنشدَ ابنُ دريدٍ [في «ديوانه» ٢٩] :

[مِن الطَّويلِ]

ولي صاحبٌ ما كنتُ أهوى لِقائه فلمَّا التقينا كانَ أكرمَ صاحبٍ
عزيرٌ علينا أن يفارقَ بعدَ ما تمَّنتُ دهرًا أن يكونَ مجانيبي

وقالَ مسلمُ بنُ الوليدِ [في «ذيلِ ديوانه» ٣١١] :

[مِن البسيطِ]

الشَّيبُ كُزَّةٌ وكُزَّةٌ أن يفارقني فاعجبَ لشيءٍ على البغضاءِ مؤدودٍ
يَمْضِي الشَّبَابُ وَيأتي بَعْدَهُ خَلْفٌ والشَّيبُ يَذْهَبُ مَفْقُودٌ بِمَفْقُودِ

وقيلَ لأبي العيناءِ : كيفَ أنتَ ؟ قالَ : في الداءِ الذي يتمنى الناسُ بقاءَهُ .

وقيلَ لأعرابيٍّ ضعيفٍ مِنَ الكِبَرِ : لقد أذنبَ إليك الدهرُ ، فقالَ : أطالَ اللهُ بقاءَ ذنبِهِ إليَّ .

وقالَ البحرِيُّ [في «ديوانه» ٩٩/١] :

[مِن الوافرِ]

يَعيبُ الغانياتُ عليَّ شيبِي وَمَن لي أن أمتَّعَ بالمعيبِ

[بغض النساء للشيب]

أما كرهُ النساءِ للشيبِ : فلم يخرجْ منهنَّ إلاَّ ما سبقَ عن أمِّ الضحَّاكِ ؛ ولهذا صانَ اللهُ نبيَّهُ صلى اللهُ عليه وسلمَ عن كثريه ، وماتَ وما في لحيتهِ ورأسِهِ منه عشرونَ شعرةً^(١) ، على اختلافٍ في الرواياتِ ، قرَّرنَاهُ معَ ما يتعلَّقُ به ، وما اختلفَ فيه مِن أسبابِهِ في «حاشيتنا على الشمائلِ» .

ويحكى [في «المستطرف» ٦٩/٢] : أَنَّهُ مرَّ أشمَطُ^(٢) بامرأةٍ بديعةٍ الجمالِ ، فقالَ : يا هلذِهِ ، إنَّ كانَ لكِ زوجٌ . . فبارَكَ اللهُ لكِ فيه ، وإلاَّ . . فأخبرنا ، قالتَ : كأنَّكَ تخطبُني ، قالَ : نعم ، قالتَ : إنَّ فيَّ عيباً ما أراكَ ترضاهُ ،

(١) أخرجه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما الترمذي في «الشمائل» (٤٠) ، وابن ماجه (٣٦٣٠) قال عنه في «الزوائد» : هذا إسناد صحيح ، رجاله ثقات . وفيه : (إنما كان شيب رسول الله صلى الله عليه وسلم نحواً من عشرين شعرة بيضاء) .

(٢) الشَّمَطُ : بياضُ شعرِ الرأسِ واختلاطُهُ بسوادهِ .

قال: وما هو؟ قالت: شيب غلب على سواد رأسي، ففنى عنان فرسه، فقالت: على رسلك، وكشفت له عن الفاحم الأتيت، وقالت له: أشيباً ترى؟ قال: لا والله، قالت: وأزيدك على ذلك أني لم أبلغ العشرين، ولكن أحببت إعلامك على أني أكره منك ما تكره مني.

[مِن الطَّوِيلِ]

فتنوع الشعراء في معناه، قال ابن الرومي [في «ديوانه» ٣/١٠٨٣]:

أَعْرَ طَرْفَكَ الْمِرْآةَ وَانظُرْ فَإِنْ نَبَا
بِعَيْنِكَ عَنْهُ الشَّيْبُ فَالْيَبِضُ أَعْذَرُ
إِذَا سَنَيْتَ عَيْنَ الْفَتَى عَيْبَ نَفْسِهِ
فَعَيْنٌ سِوَاهُ بِالشَّنَاءِ أَعْذَرُ

[مِن الْوَافِرِ]

وقال ابن المعتز [في «ديوانه» ٢/٣٥٨]:

لَقَدْ أَبْغَضْتُ نَفْسِي فِي مَشِيبِي
فَكَيْفَ تُحِثِّي الْبَيْضُ الْكِعَابُ؟

[مِن الْوَافِرِ]

وقال الناظم:

أَرَى شَيْبَ الرَّجَالِ مِنَ الْعَوَانِي
بِمَوْقِعِ شَيْبِهِنَّ مِنَ الرَّجَالِ

[مِن الْخَفِيفِ]

وَمِنَ الْمُغَالَطَاتِ فِي الْمَوْضِعِ . . . قَوْلُ أَبِي الْعَلَاءِ الْمَعْرِيِّ [فِي «سِفْتِ الزَّنْدِ» ٢٩٦]:

خَبَّرَنِي مَاذَا كَرِهْتَ مِنَ الشَّيْبِ فَلَا عَلِمَ لِي بِذَنْبِ الْمَشِيبِ
أَضِيَاءُ النَّهَارِ أَمْ وَضَحُ اللَّوْءِ لَوْ أَمْ كَوْنُهُ كَثَغْرِ الْحَيْبِ
وَأَذْكَرِي لِي فَضْلَ الشَّبَابِ وَمَا يَجْمَعُ مِنْ مَنْظَرِ يَرُوقُ وَطَيْبِ
غَدْرُهُ بِالْخَلِيلِ أَمْ حُبُّهُ لِلْغَيِّ أَمْ أَنَّهُ كَدَهْرِ الْأَرِيبِ

[مِن الْبَسِيطِ]

وقال آخر [في «المستطرف» ٢/٦٩]:

قَالَتْ: أَرَى مِسْكَةَ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ وَفَتْ
فَقُلْتُ: طَيْبٌ بِطَيْبٍ وَالتَّبْدُلُ فِي
قَالَتْ: صَدَقْتَ وَلَكِنْ لَا سِوَاءَ فَلِ
كَأْفُورَةَ أَخْلَقْتَهَا رَاحَةَ الزَّمَنِ
رَوَائِحِ الطَّيْبِ أَمْرٌ غَيْرُ مُمْتَهَنٍ
نَّ الْمِسْكَ لِلْعُرْسِ وَالْكَأْفُورَ لِلْكَفَنِ

[مِن الْبَسِيطِ]

وبهذا ذكرت قول الآخر [في «المستطرف» ٢/٦٩]:

سَأَلْتُهَا قُبْلَةَ يَوْمًا وَقَدْ نَظَرْتُ
فَأَعْرَضَتْ وَتَوَلَّتْ وَهِيَ قَائِلَةٌ
مَا كَانَ لِي فِي بَيَاضِ الشَّيْبِ مِنْ أَرْبٍ
لَا وَالَّذِي أَوْجَدَ الْأَشْيَاءَ مِنْ عَدَمٍ
أَفِي حَيَاتِي يَكُونُ الْقُطْنُ حَشَوَ فَمِي

وَمِنَ الْمُغَالَطَاتِ فِيهِ، مَا سَبَقَ عَنِ أَبِي تَمَّامٍ مِنْ قَوْلِهِ [فِي «ديوانه» ١/١١٦]: [مِن الْبَسِيطِ]

وَلَا يُورِّقُكَ إِيمَاضُ الْقَتِيرِ بِهِ
فَإِنَّ ذَاكَ ابْتِسَامُ الرَّأْيِ وَالْأَدَبِ

[مِن الْخَفِيفِ]

وقد قال أبو الحسن علي بن طاهر بن منصور:

أَعْرَضَتْ حِينَ أَبْصَرْتُ شَعْرَاتِ
فِي عِذَارِي كَأَنَّهِنَّ الثَّغَامُ^(١)

(١) الثغام: نبت على شكل الحلبي، يكون في الجبل أخضر ثم يبيض إذا يبس.

قُلْتُ : هَذَا تَبَسُّمُ الدَّهْرِ ، قَالَتْ :

ويعجبني بمناسبة الشيب قولُ ابنِ الفارضِ [في «ديوانه» ٤٠] :

وَأَبْعَدَنِي عَنْ أَرْبَعِي بُعْدُ أَرْبَعٍ شَبَابِي وَعَقْلِي وَارْتِيحِي وَصِحَّتِي
فَلِي بَعْدَ أَوْطَانِي سُكُونٌ إِلَى الْفَلَاءِ وَبِالْوَحْشِ أَنْسِي إِذْ مِنْ الْإِنْسِ وَخَشْتِي
وَزَهْدَ فِي وَصْلِي الْغَوَانِي إِذْ بَدَا تَبْلُجُ صُبْحِ الشَّيْبِ فِي جُنْحِ لَمَّتِي
فَرِحْنِ بِحُزْنِ جَارِعَاتِ بُعِيدَ مَا فَرِحْنَ بِحُزْنِ الْجَزَعِ بِي لِشَيْبِي

وقد سبق - في غير هذا المجلس - بعض هذه ، غير أن كلام الشيخ لا يملُ ، وقوله : (وَبِالْوَحْشِ أَنْسِي) هو من قول تَابَطُ شَرًّا ، وقد مرَّ أيضاً :

عَوَى الذُّئْبُ فَاسْتَأْنَسْتُ بِالذُّئْبِ إِذْ عَوَى وَصَوَّتَ إِنْسَانٌ فَكِدْتُ أَطِيرُ
وكان الربيعُ كثيراً ما ينشدُ :

لَيْتَ الْكِلَابَ لَنَا كَانَتْ مُجَاوِرَةً وَإِنَّا لَا نَرَى مِمَّنْ نَرَى أَحَدًا
إِنَّ الْكِلَابَ لَتَهْدَا فِي مَرَابِضِهَا وَالنَّاسُ لَيْسَ بِهِادٍ شَرُّهُمْ أَبَدًا

[وقال آخر في «قري الضيف» ٤ / ٣٨٣] :

شَرُّ السَّبَاعِ الصَّوَارِي دُونَهُ وَرَزُّ وَالنَّاسُ أَشْرَارُهُمْ مَا دُونَهَا وَرَزُّ
كَمْ مَعْشَرٍ سَلِمُوا لَمْ يُؤْذِهِمْ سَبْعُ وَمَا نَرَى بَشَرًا لَمْ يُؤْذِهِ بَشْرُ

[قصائد للمؤلف في الموضوع]

ولي فيما يتعلّق بالمشيب ما لا ينحطُّ إلى التقصير ، إن لم يرتفع إلى الإجادة ، منه [في «ديوان المؤلف» ٣٥٤-٣٥٣] :

لَا تَنْكِرِي أَنْ رَيْتِ فَوْدِي أَشِييَا أَوْلَيْسَ أَوْقَرَ فِي النَّفُوسِ وَأَهْيَا
مَا سَبِتُ مِنْ كِبَرٍ وَلَكِنْ هِمَّةٌ مِنْ شَأْنِ حَامِلٍ مِثْلَهَا أَنْ يَتَعَبَا
وَسَلِي الزَّمَانَ يُفِدْكَ عَنْ صَبْرِي لَهُ وَسَتَعْذِرِينِي إِنْ سَأَلْتِ عَنِ النَّبَا
مَا زِلْتُ أَعْرِكُ أُذُنَهُ وَغَنِمْتُ إِذْ أَخَذَ الْغُرَابَ عَلَيَّ بَارِزِ أَشْهَبَا
يَجْلُو دُجَى شَعْرِي صَبَاحُ تَجَارِيبي وَكَذَلِكَ ضَوْءُ الصُّبْحِ يَجْلُو الْغَيْهَبَا
مَا فَلَّ مِنْ عَزْمِي الْمَشِيبُ وَلَمْ يَكُنْ لِيَزِيدَنِي إِلَّا مَضَاءً فِي إِيَا
فَلْأَجْرِيَنَّ الْعَزْمَ مَلَأَ عِنَانِهِ حَتَّى يُبَلِّغَنِي سُورَاهُ الْمَطْلَبَا
وَلَأَنْفُضَنَّ الْعَجْزَ فِي نَصْرِ الْهُدَى عَنِّي فَإِنَّ السَّنِيلَ قَدْ بَلَغَ الزُّبَى^(١)

(١) لهذا مثل أورده الميداني في «مجمع الأمثال» (٤٣٦) ويضرب لما جاوز الحد .

ومن أخرى تقدمت بها يوم لاقيت الإمام^(١) - حفظه الله تعالى - :

[من الطويل]

وَكَا بَدْتُ فِي سَيْرِي إِلَيْكَ مَصَاعِبًا بِهَا قَبْلَ وَقْتِ الشَّيْبِ مِنِّي وَهَى الْعَظْمِ
وَإِنْ قُمْتُ فِي وَجْهِ الْوَذِيلَةِ لَأَحَ لِي بِيَاضٍ بِهِ اغْتَاصَتْ غَدَائِرِي الشُّحْمِ^(٢)

ولمّا بلغت مطيبي ذروة العقد الخامس ، ورأيت ما رأيت من عوارض المشيب ، جاشت الجائشة ، فقلت في

[من الطويل]

معارضة الشريف الرضي [في ديوان المؤلف « ٢٠٧-٢١٢ »] :

عَذِيرِي مِنَ الْخَمْسِينَ حَلَّتْ بِعَقْوَتِي وَمِنْ مُوجَعَاتِ الدَّهْرِ تَقْفُضُ قَوَّتِي^(٣)
وَيَبِضُ بِمَرَأَى الْعَيْنِ سُودٌ لَدَى النَّهْيِ تَحْكَمْنَ فِي رَأْسِي وَوَجْهِي بِسَطْوَةٍ
وَفَضْلٍ أَدِيمٍ لَأَحَ لِي مِنْ وَذِيلَةٍ ضَحَى فَاسْتَحَالَتْ ظُلْمَةٌ مِنْهُ ضَحْوَتِي
فُضُولٌ بِلَا فَضْلٍ وَنُورٌ بِلَا بَهَا وَرَكَضٌ عَلَيَّ شَهْبَاءَ تَجْرِي لِهَوَّةِ
عَلَى أَنْبِي لَمْ أُعْطِ فَضْلَ مَقَادَتِي لِيُضْعِفَ وَلَمْ تَقْصُرْ عَنِ الْمَجْدِ خَطْوَتِي
فَلَا يَسْمَتِ الْأَعْدَاءُ فَالضَّرْعُ حَافِلٌ وَمَا فَاتَ مِمَّا فِي الْإِنَا غَيْرُ رَغْوَةٍ
لَقَدْ طَارَ عَن فَوْدِي الْغُرَابُ وَإِنَّمَا أَلْ عِرَابُ تَرَائِي وَإِيَاءُ كُلِّ صَهْوَةٍ^(٤)
فَمَا خَانَنِي صُنْعُ الْمَشِيبِ بِلَمَّتِي وَلَا فَلَ مِنْ عَزْمِي وَلَا مِنْ فُتْوَتِي
وَلَا غَضَّ حَتَّى مِنْ عِنَانِ صَبَابَتِي وَلَا رَيْتُ مَنْ بِيضِ الدَّمَى نَوْعَ جَفْوَةٍ^(٥)
وَلَا ذَلَّلْتُ هُوجَ الْخُطُوبِ مَطَامِحِي وَلَا قَرَعَتْ سُودُ الْمَصَائِبِ مَرْوَتِي^(٦)
حُسَامٌ يَمَانِيٌّ يَزِيدُ مَضَاوُهُ إِذَا رَقَّ جِسْمًا عَادَ مَأْمُونٌ نَبْوَةٍ
قُبُونٌ امْتِحَانِ زَنْ مَرَأَى فِرْنَدِهِ وَأَعْدَدْنَهُ لِلْفَتْكِ فِي كُلِّ هَبْوَةٍ^(٧)
تَقَلَّبْتُ فِي خِصْبِ الزَّمَانِ وَبُؤْسِهِ فَمَا عَلِقْتُ مِنِّي اللَّيَالِي بِهَفْوَةٍ
قَرِيبٌ لَدَى السَّرَاءِ لَيْنُ جَانِبِ وَفِي حَالَةِ الضَّرَاءِ تَشْتَدُّ نَحْوَتِي
فَلَمْ يَنْتَقِضْنِي الْفَقْدُ حَبَّةَ خَرْدَلٍ وَلَا زَادَ فِيَّ الْوَجْدُ آثَارَ نَشْوَةٍ
وَرَا جَعْتُ أَعْمَالِي فَلَمْ أَرْ نُقْطَةً تَمَسُّ بِتَارِيخِي النَّقْيِ لِصَبْوَةٍ
وَلَكِنَّهَا فَضْلٌ وَنُبْلٌ وَعِقَّةٌ صَعِدْتُ بِهَا فِي الْمَجْدِ أَمْنَعُ ذِرْوَةٍ
وَقُورٌ إِذَا خَفَّ الْحَلِيمُ وَرَابِطٌ لَدَى الْهَوْلِ لَا تَنْحَلُّ لِلْخَطْبِ حَبْوَتِي
وَإِنْ نَالَتْ الْأَيَّامُ مِنِّي بِحَرْبِهَا

(١) لعله الإمام : يحيى حميد الدين إمام اليمن . . حيث كانت له صلة ومواصلة بالمؤلف .

(٢) الوديلة : المرأة .

(٣) عذيري من الخمسين : هات للخمسين سنة عذراً فيما فعلت بي . حلت بعقوتي : نزلت بساوتي .

(٤) طار عن فودي الغراب : ذهب عن رأسي الشعر الأسود . العراب : الخيل التي ليس فيها عرق هجين .

(٥) الدمى : يريد بها النساء .

(٦) هوج الخطوب : الأحداث الشديدة . مروتي : صخرتي ، وأصل المرو الصخر الأملس .

(٧) قبون : جمع قبين ، وهو الحداد . الهبوة : الغبار ، يريد الحرب .

وَأَوْلَادِهِ فِي سَاعَةِ الْكَرْبِ سَلَوْتِي
وَلَا تَلْتَقِي الْأَبْطَالُ إِلَّا بِعُنُوءِ
لَقُوا مِنْ بَلَايَا كُلِّ مُنْسٍ وَغُدُوءِ
وَلَا أَصْبَحَ الْإِسْلَامُ رَوْضًا بِرَبُوءِ
وَأَجْسَادُهَا بَعْدَ احْتِجَاجٍ وَدَعْوَةٍ (١)
فَمَا نَمَّ إِلَّا الْهَامُ فِي كُلِّ لَهْوَةٍ (٢)
تَشَقُّ الدُّجَا ، فِيهَا ضِيَاءُ النُّبُوءِ (٣)
وَفَخْرِي وَذُخْرِي وَاعْتَصَامِي وَقُدُورِي
لِي الْأَمْنُ فِي الدَّارَيْنِ مِنْ كُلِّ شَقُوءِ
رُبَانَا بِأَزْكَى مِنْ أَرِيحِ الْأَلُوءِ (٤)
وَإِنْ صَدَّنِي شُعْبِي وَقَوْمِي وَإِخْوَتِي
طَرِيقَتَهُمْ ظُلْمًا لِحَقِّ الْأُبُوءِ
أَعَانُوا ، وَلَكِنْ فِي رِضَا كُلِّ شَهْوَةٍ
وَلَا فَتَحُوا لِلشَّرِّ أَشَامَ كُوءِ
وَلَكِنَّمَا الْأَعْمَالُ ضِدُّ النُّبُوءِ (٥)
وَيَفْرُونَنِي إِنْ كُنْتُ عَنْهُمْ بِنَجْوَةٍ
يَقُولُونَ : نَعْسًا لَا لَعَا عِنْدَ كِبُورَتِي (٦)
وَكَمْ رَوَّجُوا مِينًا لِكَيْدِي بِرِشْوَةٍ
وَلَا هِمَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ بِرِخْوَةٍ (٧)
وَهَابُوا كِفَاحِي فِي الْجِدَالِ بِجَلْوَةٍ
فَقَدْ لَبَسُوا الْإِسْلَامَ مَقْلُوبَ فَرْوَةٍ
مِنْ اللَّهِ لِي مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ وَقُوَةٍ
غَدَا نَجَزَهَا مِنِّي عَلَى قَابِ غَلْوَةٍ (٨)

وَفِيمَا جَرَى لِلْمُرْتَضَى وَلِرُؤُوجِهِ
فَلَا تَضْحَكُ الْأَيَّامُ إِلَّا لِسَفَلَةٍ
فَكَمْ كَابَدُوا فِي الْحَقِّ مِنْ مِخْنَةٍ وَكَمْ
وَلَوْلَاهُمْ لِلدَّيْنِ مَا قَامَ قَائِمٌ
وَلَكِنْ جَهَادٌ فِيهِ تَسْتَبِقُ الطُّلَا
حُرُوبٌ إِذَا عَضَّتْ رَحَاهَا ثِفَالَهَا
أَذَالُوا لَهَا تَحْتَ الْقَسَاطِلِ أَوْجَهَا
أَوْلَيْكَ آبَائِي وَعِزِّي وَسُؤْدُدِي
جَرَى فِي عُرُوقِي حُبُّهُمْ وَبِجَاهِهِمْ
إِذَا زَارْنَا مِنْهُمْ خِيَالٌ تَضَوَّعَتْ
سَامُضِي عَلَى آثَارِهِمْ جُهْدَ طَاقَتِي
فَقِينَا خُلُوفٌ مِنْ بَيْنِهِمْ تَنَكَّبُوا
مَذَامِيمٌ لَا بَغِيًّا أَهَانُوا ، وَلَا هُدًى
وَيَا لَيْتَهُمْ كَانُوا كَفَافًا وَلَا اعْتَدُوا
مَنَاسِبُ عَنْ مَرْقَاتِهَا الطَّعْنُ يَزْتَمِي
يَعْدُونَ إِعْلَانِي الصَّوَابَ جَرِيمَةً
تَغَرَّبْتُ عُقْرَ الدَّارِ فِيهِمْ فَجَلُّهُمْ
وَكَمْ فَتَلُّوا لِي فِي الْعَوَارِبِ وَالذَّرَى
فَلَمْ يَجِدُوا بِالْعَجْمِ فِي الْعُودِ مَغْمَزًا
وَكَمْ قَدْ تَحَدَّثْتُ الْمُرَائِبِينَ فَاثْنَوَا
وَكَمْ بِدَعَاةٍ أَحْيَوْا وَكَمْ سُنَّةٍ مَحْوَا
وَمَا لِي سِوَى حُسْنِ انْتِظَارِي عِنَايَةً
وَوَعْدٍ مِنَ الْمَوْلَى الْإِمَامِ بِنَجْدَةٍ

(١) الطُّلَا : الأعناق .

(٢) ثِفَالُهَا : جمعُ ثِفَالٍ ككتاب ، وهو جلدٌ يوضعُ تحت الرِجْلِ يَمُّ عليه الدقيقُ ، وهو مثلٌ لشدةِ الحربِ ، وفي حديثِ عليٍّ رضي اللهُ عنه : « تدفُّهمُ الفتنُ دقَّ الرِجْلِ بِثِفَالِهَا » ، أي : تدفُّهمُ دقَّ الرِجْلِ للحبِّ إذا كانت مثقَّلةً ، ولا تنفلُ إلا عندَ الطحنِ . اللهوَةُ : ما يُلْقَى في فمِ الرِجْلِ من الجيوبِ للطحنِ .

(٣) أذالوا : أماتوا واسترخصوا في سبيلها . القساطلُ : غبارُ الحربِ .

(٤) تَضَوَّعَتْ : فاحت . أَرِيحُ : رائحة . الْأَلُوءُ : العودُ الذي يتبخَّرُ به .

(٥) الْمَنَاسِبُ : أنسابهم شريفةٌ عاليةٌ ، ولكنَّ أعمالهم سيئةٌ ضدَّ ما يتسبون إليه .

(٦) لَعَا : لا انتعاشَ لك من كِبُورَتِكَ ، يقولُ العربُ في الدعاءِ عليه : نَعْسًا لَا لَعَا لَهُ .

(٧) الْعَجْمُ فِي الْعُودِ : يقالُ : عجمُ العودِ ، إذا لآكه للاختبارِ .

(٨) الْغَلْوَةُ : قدرُ رميةِ السهمِ .

وَبِالْخُمْسَةِ الْأَزْوَاحِ اسْتَجْلِبُ الْمُنَى وَأَسْتَدْفِعُ الْبُلْوَى فَهَمَّ خَيْرُ عُرْوَةِ

ولمَّا تقاطرتِ الفصولُ ، واتسقتِ المواضعُ ، وأخذَ الكلامُ بـرِقَابِ بَعْضِهِ . . لم يُمكنَّا قطعهُ ، مع رَقَّةِ الانسجامِ ، وخفَّةِ النسيمِ ، وجمالِ الديباجةِ ، وقَلَّةِ الفصولِ ، وعدمِ الحشوِ ، وكنتُ أكرهُ أنْ أثقلَ بمثلها من شعري ، ثم رأيتُ أَنَّ المنصفَ لَنْ يزيدَ بها إلا ارتياحاً ، وأمَّا البغيضُ . . فكلُّ ما أقولُ ثَقِيلٌ عليه ، ولو من بعيدٍ ، فأجرزتها رسنَ القلمِ ، لتزيدَ المقيتَ غيظاً ، وتفيضَ الإحسانَ فيضاً ، وممَّا لي أيضاً في الموضوعِ قولِي [في «ديوانِ المؤلفِ» ٢٩٤] :

[مِن البسيطِ]

رُدُّوا عَلَيَّ لِمَتِّي الْجِبْرَ الَّذِي نَصَلَا حَتَّى أَطَالِعَ مَا فِي عَهْدِهِ حَصَلَا^(١)
فَإِنَّهَا ذِكْرِيَّاتٌ كُلَّمَا ابْتَسَمَتْ لِلْقَلْبِ أَنْسَ مِنْهَا نَشْوَةٌ فَسَلَا
مَرْسُومَةٌ فِي ضَمِيرِي وَهِيَ جَالِيَةٌ مِنَ الْمَحَاسِنِ يَكْشُوهَا الْهَوَى حُلَلَا
مَرَّ الزَّمَانُ بِهَا عَجَلَى وَعَوَّضَنِي عَنْهَا حُلُومًا فَلَمْ أَقْنَعْ بِهَا بَدَلَا
كَأَنَّ قَادِمَتِّي نَسِرٌ تَعَلَّقَا فِيهَا فَوَلَّتْ سِرَاعًا بَيْنَ لَا وَبَلَى^(٢)
الْفَيْتُ كُلُّ مُصَابٍ جَلَّ مَوْقِعُهُ فِي جَنْبِ مَا فَاتَنِي مِنْ صَفْوِهَا جَلَلَا
فِيهَا أَرَى الْبَالَ رِخْوًا ، وَالزَّمَانَ رِضًا وَالْعَيْشَ غَضًا ، وَأَسْبَابَ الْمُنَى ذُلَلَا
وَالْجَوْ طَلْقًا ، وَشَمَلَ الْأَنْسِ مُجْتَمِعًا وَالْحَظَّ يَنْسُطُ فِي إِقْبَالِهِ الْأَمَلَا

وهي من نوع السابقة ، على أنها أشدُّ متناً ، وأكثرُ حسناً ، وأجملُ شارةً ، وأحلى إشارةً .

[من فوائد الشيب أنه يردع عن الغي]

والكلامُ يطولُ في فوائدِ الشيبِ ، ومنها : ردُّهُ عَنِ الْغَيِّ .

قالَ مسلمَةُ بنُ عبدِ الملكِ : ما وعظني شعراً ما وعظني قولُ عمرانَ بنِ حِطَّانَ [في «ديوانِ دريدِ بنِ الصمةِ» ٥٠] : [مِن الطويلِ]

صَبَا مَا صَبَا حَتَّى عَلَا الشَّيْبُ رَأْسَهُ فَلَمَّا عَلَاهُ قَالَ لِلْبَاطِلِ : ائْبَدِ

[مِن الكاملِ]

وقالَ دِغْبِلُ [في «ديوانِهِ» ١٠٢-١٠٣] :

أَهْلًا وَسَهْلًا بِالْمَشِيبِ فَإِنَّهُ سِمَةُ الْعَفِيفِ وَحِلْيَةُ الْمُتَحَرِّجِ
ضَيْفٌ أَلَمَ بِمَفْرِقِي فَقَرِيئُهُ رَفُضَ الْغَوَايِبِ وَأَقْتَصَادَ الْمَنْهَجِ

[مِن البسيطِ]

وقالَ البيغا :

لَا عُذْرَ بَعْدَ عِذَارِ شَابٍ أَكْثَرُهُ فَالشَّيْبُ أَوْعَظُ إِعْذَارٍ وَإِنْذَارِ

[مِن الطويلِ]

وقالَ ابنُ أبي طاهرٍ :

رَكِبْتُ الصَّبَا حَتَّى إِذَا مَا وَنَى الصَّبَا نَزَلْتُ مِنَ التَّقْوَى بِأَكْرَمِ مَنْزِلِ
وَدِينُ الْفَتَى بَيْنَ التَّشُّكِّ وَالنُّهَى وَدُنْيَا الْفَتَى بَيْنَ الصَّبَا وَالتَّغْزُلِ

(١) اللَّئِمَةُ : الشَّعْرُ المجاورُ شحمةِ الأذنِ . الحبرُ : المقصودُ به هنا سوادُ الشَّعْرِ الذي ذهبَ وحلَّ مكانَهُ الشَّيْبُ .

(٢) قَادِمَتِّي نَسِرٌ : ريشاتُ في مقدِّمِ جناحِهِ .

وما أحسن قول الإمام ابن دقيق العيد [في «شذرات الذهب» ٦/٣] :

[مِن الطَّوِيلِ]

تَمَنَيْتُ أَنَّ الشَّيْبَ عَاجَلَ لِمَتِّي وَقَرَّبَ مِنِّي فِي صَبَائِي مَزَارَهُ
لَأَخْذَ مِنْ عَصْرِ الشَّبَابِ نَشَاطَهُ وَأَخْذَ مِنْ عَصْرِ الْمَشَيْبِ وَقَارَهُ

ونظر إياس بن معاوية إلى شعرة بيضاء لاحت في لحيته . . فقال : والله لا أراني سميراً بعدها لحاجات بني تميم ، فلزم بيته ، ولم يدخل بعد ذلك على السلطان .

وكان الواحد من السلف الطيب إذا بلغ الأربعين . . حمل عصا السفر ، وطوى فراش النوم ، وأقبل على عمل الآخرة ، ومن لم يردعه الشيب عن الغواية ، ولم يأخذ بعنانه إلى طرق الهداية . . فقد تودع منه ، ومن هؤلاء أبو نواس ؛ بشهادة قوله [في «ديوانه» ٢٨٤] :

[مِن الطَّوِيلِ]

يَقُولُونَ فِي الشَّيْبِ الْوَقَارُ بِأَهْلِهِ وَشَيْبِي بِحَمْدِ اللَّهِ غَيْرُ وَقَارٍ^(١)
وفي «صحيح مسلم» : «إِنْ أَبْغَضَ الْخَلْقَ إِلَى اللَّهِ . . شَيْخُ زَانٍ»^(٢) .

[مِن الطَّوِيلِ]

وقال بعض المتهورين :

لَعَمْرِي لَيْسَ حَلَّ الْمَشَيْبِ بِلِمَّتِي لَقَدْ كَانَ مَا أَحَلَّتْ بِالشَّيْبِ أَعْظَمًا
سَلِ الشَّيْبَ عَنِّي هَلْ عَرَفْتُ وَقَارَهُ وَهَلْ عَفْتُ حَوْبًا أَوْ تَجَنَّبْتُ مَأْتَمًا ؟

[مِن الْكَامِلِ]

وقال آخر :

إِنْ يَكْتَهِلُ مِنِّي الْقَذَالُ فَإِنِّي فِي الْغَايَاتِ وَحُبْهِنَّ غَلَامٌ

[مِن الْكَامِلِ]

ومنهم من يرتدع نوعاً ، ومن هؤلاء بشار في قوله [في «ديوانه» ١٨٩-١٩٠] :

إِنَّ الْمَشَيْبَ وَمَا تَرَى بِمَفَارِقِي صَرَفَ الْغَوَايَةَ فَاَنْصَرَفْتُ كَرِيمًا
وَصَحَوْتُ إِلَّا مِنْ لِقَاءِ مُحَدِّثِ حَسَنِ الْحَدِيثِ يَزِيدُنِي تَعْلِيمًا

[مِن الْكَامِلِ]

والبُحْتَرِيُّ فِي قَوْلِهِ [فِي «دِيَوَانِهِ» ١٠٧١/٢] :

إِنِّي وَإِنْ جَانَبْتُ بَعْضَ بَطَالَتِي وَتَوَهَّمَ الْوَأَشُونَ أَنِّي مُقْصِرٌ
لَيْشُوقُنِي سِحْرُ الْعَيْونِ الْمُجْتَلَى وَيَرُوقُنِي وَرْدُ الْخُدُودِ الْأَحْمَرِ

(١) قالوا : إن الرشيد لما سمع هذه القصيدة . . أنكر هذا البيت ، وقال للفضل : قل لهذا الماجن : أتقول : إن الشيب غير وقار وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يشيب المؤمن في الإسلام إلا كان ذلك حجاً له من النار ؟ ! » فلما أحضر وسئل . . قال : لا أنكر الوقار في الشيب ، ولا ما جاء الخبر به ، ولكني قلت : وشيبي أنا غير وقار ؛ لما أجاوز به من تعجيل الذنوب وتأخير التوبة ، والبيت الذي بعده يشهد لي ، فلما أخبر الرشيد بقوله . . ضحك ، وقال : هو أعلم بسريره وقبح عمله .
والبيت الذي بعده :

إِذَا كُنْتُ لَا أَنْفَكَ عَن طَاعَةِ الْهُوَى . . فَإِنَّ الْهُوَى يَزِمُنِي الْفَتَى بِيَوَارِ

(٢) طرف حديث أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه مسلم (١٠٧) في الإيمان وهو قوله : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر » .

وَلَوْلَا مَا عُرِفَ مِنْ حَالِ بَشَارٍ ، وَتَهْتِكِهِ . . لَمَا كَانَتْ بَيْتَاهُ إِلَّا دَلِيلًا كَافِيًا عَلَى صِحَّةِ تَوْبَتِهِ ، وَصَدَقَ أَوْبَتِهِ ، وَلَكِنَّا تَوَسَّطْنَا فِي الْحُكْمِ عَلَيْهِ ؛ إِذْ جَعَلْنَاهُ مِنَ الْمُذْبَذِبِينَ .

ومع ما أكثر الناس من البكاء على الشباب ، والتأسف على أيامه ، حتى قال بعضهم [في «قرى الضيف» ٤/ ٨٤] : [من الكامل]

شَيْبَانٍ لَوْ بَكَتِ الدَّمَاءُ عَلَيْهِمَا عَيْنَاكَ حَتَّى يُؤْذِنَا بِذَهَابِ
لَمْ يَبْلُغَا الْمِعْشَارَ مِنْ حَقِّيهِمَا فَقَدْ الشَّبَابِ وَفُرْقَةُ الْأَحْبَابِ

[من لطف الله بالعباد أنهم لا يحسون للشيب ألماً]

. . فَإِنَّ مِنْ لُطْفِ اللَّهِ بَعْبَادِهِ أَنَّهُمْ لَا يُحْسُونَ لَهُ أَلْمًا ؛ لِأَنَّهُ لَا يَجِيءُ إِلَّا تَدْرِيجًا ؛ وَلِهَذَا قَالُوا [وَمِنْهُمْ الشَّعْبِيُّ فِي «الْمُسْتَرْف» ٢/ ٦٩] : إِنَّ الشَّيْبَ عَلَّةٌ لَا يَعَادُ مِنْهَا ، وَمَصِيبَةٌ لَا يَعَزَّى عَلَيْهَا .

قال محمودُ الورَّاقُ [في «البيان والتبيين» ١/ ٤٨٤] :

[من المتقارب]

أَلَيْسَ عَجِيبًا بِأَنَّ الْفَتَى يُصَابُ بِبَعْضِ الَّذِي فِي يَدَيْهِ
فَمِنْ بَيْنِ بَاكِ لَهُ مُوجِع وَيَتَّيَّنُ مُعَنَّيٌّ مُعَزٌّ إِلَيْهِ
وَيَسْلُبُهُ الدَّهْرُ سَلَخَ الشَّبَا بَ وَلَيْسَ يُعَزِّيزُهُ خَلْقٌ عَلَيْهِ

[من الطويل]

وقال محمدُ بنُ الحسنِ :

أَرَى الشَّيْبَ مُذْ جَاوَزَتْ خَمْسِينَ حِجَّةً يَدِبُّ دَيْبَ الصُّبْحِ فِي غَسَقِ الظُّلَمِ
هُوَ السُّقْمُ إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ مُؤْلَمٍ وَلَمْ أَرْ مِثْلَ الشَّيْبِ سُقْمًا بِلَا أَلَمِ

[البكاء خوفًا من الشيء قبل وقوعه]

أَمَّا بكَاءُ النَّاظِمِ لِشَبِيهِ فِي أَيَّامِ شَبَابِهِ . . فَعَلَى حَدِّ قَوْلِهِ [في «العُكْبَرِيُّ» ٣/ ٢٢٤] :

[من الوافر]

أَشَدُّ الْغَمِّ عِنْدِي فِي سُرُورٍ تَيَقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُهُ انْتِقَالًا

[من الكامل]

وقد تكررَ في «ديوانه» ، فمنهُ قَوْلُهُ [في «العُكْبَرِيُّ» ٢/ ١٦٢] :

قَدْ كُنْتُ أَحْذَرُ بَيْنَهُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَوْ كَانَ يَنْفَعُ حَائِنًا أَنْ يَحْذَرَا

[من الوافر]

وقَوْلُهُ [في «العُكْبَرِيُّ» ٢/ ٣٨٩] :

أَرَى أَسْفِي وَمَا سِرْنَا بَعِيدًا فَكَيْفَ إِذَا غَدَا السَّيْرُ اثِّرَاكَا ؟

[من الطويل]

وقَوْلُهُ :

وَمَنْ كَانَ فِي السَّرَّاءِ فِي حَالٍ مُعْجَبٍ فَمَخْصُوعُهُ مِنْهَا عَلَى حَالٍ نَادِمٍ

[من الطويل]

وبعضُهُ مِنْ قَوْلِ سُحَيْمٍ [في «ديوانه» ٥٦] :

أَشَوْقًا وَلَمَّا يَمْضِ لِي غَيْرُ لَيْلَةٍ ؟ فَكَيْفَ إِذَا جَدَّ الْمَطِيُّ بِنَا عَشْرًا ! ؟

وقال أشجعُ [في «ديوانه» ٢٢٦] :

فَهَا أَنْتَ تَبْكِي وَهُمْ جِيرَةٌ

وقال آخرُ :

لَقَدْ كُنْتُ أَبْكِي خِيفَةً لِفِرَاقِهِ

وقال قيسُ [ابن ذريح في «الأغاني» ٢٥٠/٩] :

وَقَدْ كُنْتُ أَبْكِي وَالنَّوَى لَا أَظُنُّهُ

وقال أبو المطاعِ ذو القرنينِ بنُ حمدانَ :

لَقَدْ كَانَ شَكِّي فِي الْفِرَاقِ يَرُوعُنِي

وقال قيسُ أيضاً [المجنونُ في «ديوانه» ٢٧٥] :

وَإِنِّي لِأَبْكِي الْيَوْمَ مِنْ حَذْرِي غَدًا

وقال الأحوصُ [في «ديوانه» ١٢٧] :

وَقَدْ كُنْتُ أَبْكِي وَالنَّوَى مُطْمَئِنَّةً

وقال كثيرُ بنُ عبد الرحمنِ :

وَلَيْسَ عَلَيَّ شَحْطِ النَّوَى كَثْرَ الْبُكَاءِ

وأشدُّ ثعلبُ للعباسِ بنِ الأحنفِ [في «ديوانه» ٢٣] :

قَدْ كُنْتُ أَبْكِي وَأَنْتِ رَاضِيَةٌ

وقال الحماسيُّ [في «ديوان الحماسة» ١٢٤/٢] :

فَيَبْكِي إِنْ نَأَوْا شَوْقًا إِلَيْهِمْ

ولا يبعدُ عمَّا نحنُ فيه قولُ عروةَ بنِ أذينةَ [في «ديوانه» ١٣] :

كَأَنَّ خُزَامِي طَلَّةً صَاغَهَا النَّدَى

إِذَا اقْتَرَبَتْ سَعْدِي لَهَجَتْ بِحُبِّهَا

وَكِدَّتْ لِذِكْرَاهَا تَطِيرُ صَبَابَةً

فَفِي أَيِّ هَذَا رَاحَةٌ لَكَ عِنْدَهَا !؟

[مِنَ الْمُتَقَارِبِ]

فَكَيْفَ تَكُونُ إِذَا وَدَّعُوا !؟

[مِنَ الطَّوِيلِ]

فَكَيْفَ إِذَا بَانَ الْحَبِيبُ وَوَدَّعَا

[مِنَ الطَّوِيلِ]

بِنَا وَبِكُمْ لَمْ نَدْرِ مَا هُوَ صَانِعٌ^(١)

[مِنَ الطَّوِيلِ]

فَكَيْفَ يَكُونُ الْيَوْمَ وَهُوَ يَقِينُ ؟

[مِنَ الطَّوِيلِ]

فِرَاقِكَ وَالْحَيَّانِ مُجْتَمِعَانِ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

بِنَا وَبِكُمْ ؛ مِنْ خَوْفِ مَا الْبَيْنُ صَانِعٌ^(٢)

[مِنَ الطَّوِيلِ]

لَقَدْ كُنْتُ أَبْكِي وَالْمَزَارُ قَرِيبُ

[مِنَ الْمُنْسَرَحِ]

حِذَارَ هَذَا الصُّدُودِ وَالْغَضَبِ

[مِنَ الْوَافِرِ]

وَيَبْكِي إِنْ دَنَوْا خَوْفَ الْفِرَاقِ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَفَارَةٌ مِسْكٍ ضَمَّتْهَا ثِيَابُهَا^(٣)

وَإِنْ تَغْتَرِبَ يَوْمًا يَرُوعَكَ اغْتِرَابُهَا

وَعَالِبَتْ نَفْسًا زَادَ شَوْقًا غِلَابُهَا

سِوَاءَ لَعْمَرِي نَأْيُهَا وَاقْتِرَابُهَا

(١) النَّوَى هنا : البُعدُ .

(٢) النَّوَى هنا : الدارُ .

(٣) الْخُرَامِي : نباتٌ طيبٌ الرائحة ، من فصيلة الزنبقيات . طَلَّةٌ : المطرُ الخفيفُ الضعيفُ . فَارَةٌ الْمِسْكِ : وعاءُ الْمِسْكِ .

وقد مرَّ بعضٌ ما يشبهُ هذا في المجلسِ الثاني ، قبيل قولِ الناظمِ [في «العُكْبَرِيِّ» ٢٩٧/١] :

بَانُوا بِخُرْعُوبَةٍ لَهَا كَفَلٌ يَكَادُ عِنْدَ الْقِيَامِ يُفْعِدُهَا^(١)

وفي المجلسِ الثاني عشرَ في الكلامِ على قولِهِ [في «العُكْبَرِيِّ» ٣٣٢/٢] :

مَا لَاحَ بَزَقُ أَوْ تَرَنَّمَ طَائِرٌ إِلَّا اثْنَيْتُ وَلِي فُوَادٌ شَيْقُ

[الله در الأمل ما أعظمه]

هذا ، والشوْطُ بطيْنٌ ، والدنيا تَعَبٌ ، والافتراقُ نَكْدٌ ، والعيشُ ضَيْقٌ ، والراحةُ مُحَالٌ ، ولكن ما أحسنَ قولَ

الطغرائيِّ [في «ديوانِهِ» ٣٠٦] :

أَعْلَلُ النَّفْسَ بِالْأَمَالِ أَرْقُبَهَا مَا أَضَيَّقَ الْعَيْشَ لَوْلَا فَسْحَةُ الْأَمَلِ

وكان ابنُ الخطَّابِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - يستحسنُ قولَ عبدةِ بنِ الطَّيِّبِ [في «ديوانِهِ» ٧٥٠] :

وَالْمَرْءُ سَاعٍ لِأَمْرٍ لَيْسَ يُذْرِكُهُ وَالْعَيْشُ شُحٌّ وَإِسْفَاقٌ وَتَأْمِيلٌ^(٢)

وقد مرَّ - في غيرِ هذا المجلسِ - بعضُ ما يتعلَّقُ بالأمانِي ، ونزيدُ هنا أَنَّ العمادَ الكاتبَ أَعَارَ على بيتِ الطغرائيِّ

فقالَ :

وَمَا هَلِ هَذِهِ الْأَيَّامُ إِلَّا صَحَائِفٌ نُورِخُ فِيهَا ثُمَّ نُمَحِّى وَنُمَحِّقُ
وَلَمْ أَرْ عَيْشًا مِثْلَ دَائِرَةِ الْمُنَى تُوسِعُهَا الْأَمَالُ وَالْعَيْشُ ضَيْقُ

وقالَ آخرُ [أبو الفتح البُستي كما في «النجوم الزاهرة» ٢٢٩/٤] :

أَعْلَلُ بِالْمُنَى قَلْبِي لِأَنِّي أُفَرِّجُ بِالْأَمَانِي الْهَمَّ عَنِّي
وَأَعْلَمُ أَنَّ وَصْلَكَ لَا يُرَجِّى وَلَكِنْ لَا أَقَلُّ مِنَ التَّمْنَى

وقالَ أبو الحسينِ الجَزَّارُ :

لَيْتَ شِعْرِي مَا الْعُذْرُ لَوْلَا قَضَاءُ اللَّهِ فِي رِزْقِهِ وَفِي حِرْمَانِي وَلَقَدْ كَذْتُ أَنَّ أَهِيَمَ بِحَمَلِ السَّهْمِ لَوْلَا تَعَلُّلِي بِالْأَمَانِي

وقالَ أبو عبادةَ :

لَوْلَا الرَّجَاءُ لِمِثُّ مِنَ أَلَمِ النَّوَى لَكِنَّ قَلْبِي بِالرَّجَاءِ مُوَكَّلُ

[تأمل الدنيا ولا تركنن إليها]

ومنَ اعتقدَ حالَ الدنيا ، وأنها تغرُّ ثمَّ تمرُّ . . يفرحُ بحلوها ، ولم يجزعَ لمرِّها ، قالَ أبو عمرو ابنُ العلاءِ [في «وفيات

الاعيان» ٣١٨/٣] : كنتُ أدورُ في ضيعةٍ لي ، مع شدَّةِ الحرِّ ، فسمعتُ هاتفاً يقولُ :

وَإِنَّ أَمْرًا دُنِيَاهُ أَكْبَرُ هَمِّهِ لَمُسْتَمْسِكُ مِنْهَا بِجَبَلٍ غُرُورِ

(١) الخرعوبيَّة : المرأةُ الشابةُ الطويلةُ الطرئةُ ، وقالَ الجوهريُّ : الدقيقَةُ العظامُ الناعمةُ .

(٢) «البيان والتبيين» ، (١٣٣/١) .

[فَالنَّفْتُ فَلَمْ أَرِ أَحَدًا فَجَعَلْتُهُ نَقْشَ خَاتَمِي].

وقال الأصمعي : وجدت لسعيد بن وهيب بيتين كأنهما أخذهما من قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً ﴾
[الأنعام : ٤٤] ، وهما قوله [بل الأبيات لأبي العتاهية في « ديوانه » ٥٣٦] :

وَلَمْ تَخَفْ غِبِّ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدْرُ أَحْسَنْتَ ظَنِّكَ بِالْأَيَّامِ إِذْ حَسَنْتَ
وَعِنْدَ صَفْوِ اللَّيَالِي يَحْصُلُ الْكَدْرُ وَسَأَلَمْتُكَ اللَّيَالِي فَاعْتَرَزْتَ بِهَا

وما أحسن قول البحتري [بل القائل أبو علي المسبخي كما في « قرى الضيف » ١٦٨/٤] :

هَلِ الدَّهْرُ إِلَّا سَاعَةٌ تَنْقُضِي بَمَا كَانَ فِيهَا مِنْ بَلَاءٍ وَمِنْ خَفْضِ !؟
فَهَوْنُكَ لَا تَحْفَلُ إِسَاءَةَ عَارِضِ وَلَا فَرَحًا تَأْتِي فِكَلْتَاهُمَا تَمْضِي

وقال آخر : [مِنَ الطَّوِيلِ]

فَمَا اكْتَابَتْ نَفْسٌ فَدَامَ اكْتِبَابُهَا وَلَا ابْتَهَجَتْ نَفْسٌ فَدَامَ ابْتِهَاجُهَا

وقال آخر [البحرئى في « ديوانه » ٥٤/١] :

وَمَنْ عَرَفَ الْأَيَّامَ لَمْ يَرَ خَفْضَهَا نَعِيمًا ، وَلَمْ يَعُدُّ تَصَرُّفَهَا بَلْوَى

وقال الرضي أو المرتضى [المرتضى في « ديوانه » ٤٩٤/٣] :

وَكَيْفَ آنَسُ بِالدُّنْيَا وَلَسْتُ أَرَى إِلَّا امْرَأً قَدْ تَعَرَّى مِنْ عَوَارِيهَا ؟
نَضَبُوا إِلَيْهَا بِأَمَالٍ مُخَيَّبَةٍ كَأَنَّا مَا نَرَى عُقْبَى أَمَانِيهَا
فِي وَحْشَةِ الدَّارِ مِمَّنْ كَانَ يَسْكُنُهَا كُلُّ اغْتِيَارٍ لِمَنْ قَدْ ظَلَّ يَأْوِيهَا
لَا تَكْذِبَنَّ فَمَا قَلْبِي لَهَا وَطَنٌ وَقَدْ رَأَيْتُ طُلُولًا مِنْ مَعَانِيهَا

وقال أبو عبادة [في « ديوانه » ٢٣١-٢٣٢/١] :

مَتَى تَسْتَزِدُّ فَضْلًا مِنَ الْعُمْرِ تَعْتَرِفْ بِسَجْلِيكَ مِنْ شَهْدِ الْخُطُوبِ وَصَابِيهَا^(١)
تَشْدُبْنَا الدُّنْيَا بِأَخْفَاضِ سَعِيهَا وَغَوْلِ الْأَفَاعِي لِمَّةٍ مِنْ لَعَابِيهَا^(٢)
يُسَرُّ بِعُمْرَانِ الدِّيَارِ مُضَلَّلٌ وَعُمْرَانُهَا مُسْتَأْنَفٌ مِنْ خَرَابِيهَا
وَلَمْ أَرْتَضِ الدُّنْيَا أَوْ أَنْ مَجِيئُهَا فَكَيْفَ ارْتَضَائِيهَا أَوْ أَنْ ذَهَابُهَا !؟
أَقُولُ لِمَكْذُوبٍ مِنَ الدَّهْرِ زَاغٌ عَن تَخْيِيرِ آرَاءِ الْحِجَا وَانْتِخَابِيهَا
سَيْرُ دِيكَ أَوْ يُثْوِيكَ أَنَّكَ مُحْلِسٌ إِلَيَّ شُقَّةٌ يُبْكِيكَ بُعْدُ مَا بِيهَا^(٣)
وَهَلْ أَنْتَ فِي مَرْمُوسَةٍ طَالَ أَخْذُهَا مِنْ النَّاسِ إِلَّا حَفْنَةٌ مِنْ تَرَابِيهَا^(٤)

(١) السجل : الدلو العظيمة . الصاب : العلقم .

(٢) شذب الشجر : أسقط ما عليه من الأغصان .

(٣) محلس : متخذ حلساً ، وهو ما يوضع فوق الرجل ، والمعنى : أنك متهم للرجل .

(٤) المرموسة : مشتقة من رمس ، غطى ودفن .

ومنها والضميرُ فيه عائِدٌ إلى الحبيبة [البحرئِي في ديوانه] ٢٣١/١ : [مِن الطَّويل]

يُفَاوِثُ مِنْ تَأْلِيْفِ شَعْبِي وَشَعْبِهَا تَنَاهِي شَبَابِي وَابْتِدَاءُ شَبَابِهَا

ثُمَّ إِنَّ قَوْلَهُ : (إِلَّا حَفَنَةً مِنْ تَرَابِهَا) شَبِيهُ بِقَوْلِي مِنْ قِطْعَةٍ مَرَّ بَعْضُهَا [في ديوان المؤلف] ق : [١١٧] : [مِن الطَّويل]

وَمَا النَّاسُ إِلَّا الطَّيْنُ وَالْعَكْسُ صَالِحٌ فَلِلَّهِ ذَاتٌ عَدَدَتْهَا نُعُوتُهَا

ويشهدُ اللهُ والرقيبُ الأدنى عليّ ، أَنِّي لَمْ أَكُنْ وَقَفْتُ عَلَيَّ مَا قَالَهُ الْبُحْرِيُّ إِلَّا بَعْدَ مَدَّةٍ مِنْ إِنْشَائِي لِتِلْكَ الْقِطْعَةِ ، الَّتِي

مِنْ جَمَلَتِهَا الْبَيْتُ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ ؛ إِذْ دَلَّتِ الْمَوَارِدَةُ عَلَيَّ إِصَابَةَ الْمَرْمَى ، وَتَطْبِيقَ الْمَحْزُ ؛ فَقَدْ حَكَيْ [في الإيضاح في

علوم البلاغة] ٣٨٠/١ : أَنَّ ابْنَ مِيَادَةَ أَنْشَدَ لِنَفْسِهِ : [مِن الطَّويل]

مُفِيدٌ وَمِثْلَافٌ إِذَا مَا أَتَيْتُهُ تَهَلَّلَ وَاهْتَزَّ اهْتِزَّازَ الْمُهَنَّادِ

فَقَالُوا لَهُ : أَيْنَ يُذْهَبُ بِكَ ؟ هَذَا الْبَيْتُ مَوْجُودٌ فِي « دِيْوَانِ الْحُطَيْبَةِ » [٥١] ، فَقَالَ : الْآنَ عَلِمْتُ أَنِّي شَاعِرٌ ؛ إِذْ

وَافَقْتُهُ عَلَيَّ قَوْلِهِ وَلَمْ أَسْمَعُهُ .

* * *

المجلس الرابع عشر

[قال أبو الطيب المتنبي في « المعكبري » ٢/ ٣٣٧] :

[من الكامل]

وَعَجِبْتُ مِنْ أَرْضٍ سَحَابُ أَكْفِهِمْ مِنْ فَوْقِهَا وَصُخُورُهَا لَا تُورِقُ

[الجود الذي تورق منه الصخور]

بقول : إِنَّهُ يَتَعَجَّبُ مِنْ صَخُورِ أَرْضِهِمْ ، كَيْفَ لَا تُورِقُ ، وَقَدْ شَمَلَهَا جُودُهُمْ ، وَأَنْعَشَهَا وَجُودُهُمْ ، وَهُوَ مِنْ قَوْلِ الْعَرَبِيِّ :

[من البسيط]

لَوْ أَنَّ رَاحَتَهُ مَرَّتْ عَلَى حَجَرٍ صَلْدٍ.. لِأُورِقَ فِيهَا ذَلِكَ الْحَجَرُ

وقال أبو صخر الهذلي ، أو قيس ، على اختلاف في الرواية [بل قيس في « ديوانه » ١٣٠] :

[من الطويل]

تَكَادُ يَدِي تَنْدِي إِذَا مَا لَمَسْتُهَا وَتَنْبُتُ فِي أَطْرَافِهَا الْوَرِقُ الْخَضِرُ

وقال مسلم بن الوليد :

[من الكامل]

لَوْ أَنَّ كَفًّا أَغَشَبَتْ لِسَمَاحَةَ لَبَدَا بِرَاحَتِهِ النَّبَاتُ الْأَخْضَرُ

وقال أبو الشَّمَمَقِ - وكان مع طاهر بن الحسين في حَرَّاقَةَ بـ (دجلة) - [في « البداية والنهاية » ١٠/ ٣٦٠] :

[من المتقارب]

عَجِبْتُ لِحَرَّاقَةَ ابْنِ الْحُسَيْنِ كَيْفَ تَعُومُ وَلَا تَغْرُقُ ؟
وَبَحْرَانَ مِنْ فَوْقِهَا وَاحِدٌ وَأَخْرُ مِنْ تَحْتِهَا مُطْبِقُ
وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ عِيدَانُهَا وَقَدْ مَسَّهَا كَيْفَ لَا تُورِقُ ؟

وقال أبو عبادة [في « ديوانه » ٣/ ١٥٣١] :

[من الطويل]

- وَأَظُنُّنِي قَدْ سَقَتُهُ فِي الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ : (يُعْطِي فَلَا مَطْلَهُ يُكَدِّرُهَا...) - :

مَوَاهِبُ أَعْدَادُ الْأَمَانِي وَخَلْفُهَا عِدَاتُ يَكَادُ الْعُودُ مِنْهُنَّ يُورِقُ

وقال [في « ديوانه » ٣/ ١٣٧] :

[من الطويل]

لَهُ هِزَّةٌ مِنْ أَرْيَحِيَّةِ جُودِهِ تَكَادُ لَهَا الْأَرْضُ الْجَدِيدِيَّةُ تَغْشِبُ

ومرَّ أيضاً عن الأصمعي قول الأعرابي :

[من الكامل]

فَلْيَنْبَعَنَّ سَمَاحُ جُودِكَ فِي الثَّرَى وَلْيُورِقَنَّ بِقُرْبِكَ الصَّخْرُ

وقال بعضهم يمدحُ أبا دلفٍ العجليّ :

[مِنَ البسيط]

وَلَوْ يَجُوزُ لَقَالَ النَّاسُ كُلَّهُمْ
قَرْمٌ إِذَا مَا حَوَى فِي كَفِّهِ حَجْرًا
لَوْلَا أَبُو دَلْفٍ لَمْ يُورِقِ الشَّجَرُ
يَفِيضُ فِي كَفِّهِ مِنْ جُودِهِ الْحَجَرُ

[مِنَ الكامل]

وقال شاعرُ (المعرّة) [في « سقط الزند » ٢٦٠] :

مِنْ كُلِّ مَنْ لَوْلَا تَسَعَّرُ بِأَسِهِ
لَاخْضَرَ فِي يُمْنِي يَدِيهِ الْأَسْمَرُ^(١)

[مِنَ الطّويل]

وقد سبق ذكرُ البيتِ المختلَفِ في نسبته وهو [في « ديوان أبي تمام » ١٥/٢] :

وَلَوْلَمْ تَكُنْ فِي كَفِّهِ غَيْرُ رُوحِهِ
لَجَادَ بِهَا فَلَيَّتِ اللهُ سَائِلُهُ

وقبله - وهو موضعُ الشاهد - :

يَمُرُّ عَلَى الْوَادِي فَتَبْكِي رِمَالُهُ
عَلَيْهِ وَبِالنَّادِي فَتَبْكِي أَرَامِلُهُ

ولن تبكي الرمالُ . . إلا وقد استعيرت لها الحياة التي تنمو بجود الممدوح .

[مِنَ الطّويل]

وقال ابنُ حَيُّوسٍ يمدحُ الصاحبَ بنَ عَبَّادٍ [في « وفيات الأعيان » ٤٤١/٤] :

مِنَ النَّفْرِ الْعَالِينَ فِي السَّلْمِ وَالْوَعَى
إِذَا نَزَلُوا اخْضَرَ الشَّرَى مِنْ نَزُولِهِمْ
وَأَهْلِ الْمَعَالِي وَالْعَوَالِي وَالْهَا
وَإِنْ نَازَلُوا أَحْمَرَ الْقَنَا مِنْ نَزَالِهَا

قال ابنُ خَلِّكَانَ [في « وفيات الأعيان » ٤٤١/٤] : هذا والله الشعرُ الخالصُ ، الذي لا يشوبُهُ شيءٌ مِنَ الحشو .

وإنِّي لأتعجبُ مِنَ القاضي في مبالغتهِ بمدحِ ذَيْنِ البيتينِ إلى هذا الحدِّ ، معَ أَنَّهُ الناقِدُ البصيرُ ، غيرُ مدافعٍ ، والحالُ أَنَّ عليهما ملاحظتين :

الأولى : في قافيةِ البيتِ الأوَّلِ ؛ فَإِنَّهُ لا داعيَ لها بعدَ سبقِ الأهلِ غيرِ الاجتلابِ .

والثانيةُ : في تأنيثِ الضميرِ مِنَ ضربِ البيتِ الثاني معَ تذكيره في عروضِهِ ، وكلُّ ذلكَ ممَّا يتنزّه عنه أهلُ الإحسانِ .

[مسألة بلاغية في الغلو]

وفي بعضِ الأبياتِ التي سقناها غلوٌ لا يُقبلُ ، ولو جرى أبو الطيّبِ على عادتهِ مِنَ الإغراقِ . . لا دَعَى إِيراقَ الشَّجَرِ ،
وَمِنَ المَقَرَّرِ أَنَّهُ لا يُقبلُ مِنَ المبالغةِ إِلَّا :

١- ما أمكنَ وجودُهُ عقلاً وعادةً ، كقولِهِ صلى اللهُ عليه وسلم : « لَخَلُوفٌ فَمِ الصَّائِمِ . . أَطِيبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ
الْمِسْكِ »^(٢) ؛ فَإِنَّهُ ممكنٌ عادةً وعقلاً .

[مِنَ الطّويل]

وكقولِ امرئِ القيسِ [في « ديوانه » ١٥٦] :

فَعَادَى عِدَاءً بَيْنَ نَوْرٍ وَنَعَجَةٍ
دِرَاكاً وَلَمْ يَنْصَحْ بِمَاءٍ فَيُغَسَّلِ^(٣)

(١) التسعُّرُ : الالتهابُ . الأسمُرُ : الرُّمَحُ .

(٢) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه البخاري (١٩٠٤) ، ومسلم (١١٥١) في الصوم .

(٣) عادى : والى الجري حتى جمع بين الثورِ والبقرِ ، على تباعدِ ما كان بينهما .

وَأَصْرَعُ أَيُّ الْوَحْشِ قَفَيْتُهُ بِهِ وَأَنْزِلُ عَنْهُ مِثْلَهُ حِينَ أَزْكَبُ^(١)
وهو ما يسمونه : (التَّبْلِيغُ) .

٢- أو ما أمكن عقلاً لا عادةً ، ومثلوا له بقول عمرو بن الأهتم [بل القائل عمير بن كريم التغلبي كما في «خزانة الأدب» ٨/٢] :

وَنُكْرِمُ جَارِنَا مَا دَامَ فِينَا وَتُبْعُهُ الْكِرَامَةَ حَيْثُ مَالًا
وفيه نظرٌ ؛ لإمكان أن المعنى تزويده بما يكون معه في كلِّ جهة ينتحي إليها ، وهذا موجودٌ بكثرة في أحوال الكرام ،
وأرباب المروءات ، فلا يستحيل عادةً كما زعموا ، وذلك ما يسمونه : (الإغراق) .

٣- أو ما لا يمكن عقلاً ولا عادةً ، كقول أبي نؤاس [في «ديوانه» ٤١٣] :
وَأَخْفَتَ أَهْلَ الشُّرْكِ حَتَّى إِنَّهُ لَتَخَافُكَ النُّطْفُ الَّتِي لَمْ تُخْلَقِ

وكلُّ ما سبق في المجلس الأول ، من مثل قول الناظم [في «العكبري» ٤/ ١٨٦] :
كَفَى بِجِسْمِي نُحُولًا أَنَّنِي رَجُلٌ لَوْلَا مُخَاطَبَتِي إِيَّاكَ لَمْ تَرْنِي
وهو ما يسمونه : (الغلوة) وهو مردودٌ ما لم يقترن به ما يخرجُه عن الامتناع ، كقوله جلُّ شأنه في النور المبين ،
والجبل المتين : ﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ﴾ [البقرة : ٢٠] .

وقوله : ﴿ إِذَا أُخْرَجَ يَكْدُمُ لَمْ يَكْدِرْهَا ﴾ [النور : ٤٠] .

وقوله : ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴾ [مريم : ٩٠] .

وقوله : ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ [النور : ٣٥] .

وكما يروى عنه صلى الله عليه وسلم : « كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ وَإِنْ كَانَ الْمَاءَ الْقَرَّاحَ »^(٢) .

فإسكار الماء الخالص مستحيلٌ ، وإنما كسأه القبول اقترانه بـ (إن) الموجودة ؛ لفرض المحال وقوعه .

ومثلوا له أيضاً بقول المعري [في «سقط الزند» ١٠٣] :

شَجَا رَجْبًا وَأَفْرَاسًا وَإِنَّمَا
وَزَادَ فَكَادَ أَنْ يَشْجُو الرَّحَالَ

وقول حمديس [في «ديوانه» ٣٢٩] :

وَيَكَادُ يَخْرُجُ سُرْعَةً عَن ظِلِّهِ
لَوْ كَانَ يَرْغَبُ فِي فِرَاقِ رَفِيقِي

(١) قَفَيْتُهُ : تَبَعْتُهُ .

(٢) الْقَرَّاحُ : الْخَالِصُ . والحديثُ أخرجه الديلمي في «الفردوس بمأثور الخطاب» (٣/ ٢٥٠) ، والجملة الأولى منه ثابتة في «الصححين» وغيرهما عن أبي موسى ، بل وثابتة عن جماعة من الصحابة عند غيرهما من أصحاب السنن والمسانيد . انظر صحيح الجامع الصغير رقم (٤٥٥٠) .

وعندي أنه ليس من المقبول ، وإنما المقبول ما قاله المعري في معناه ، وهو [في « سقط الزند » ١٠٠] : [من الوافر]
وَلَمَّا لَمْ يُسَابِقْهُنَّ شَيْءٌ مِّنَ الْحَيَوَانِ سَابَقْنَ الظَّلَالَ

[البخل الذي تجف منه البحار]

وفي عكس ما يمدح به الناظم من سماحة الكف . . يقول جرير [الآبيات في « روضة العقلاء » (١ / ٢٤١) غير معزوة لقائل] :

[من البسيط]

كَأَنَّمَا خُلِقَتْ كَفَّاهُ مِنْ حَجَرٍ فَلَيْسَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَالنَّدَى عَمَلٌ
بِرَى تَيْمَمَهُ بِالشَّطِّ نَافِلَةٌ مَخَافَةَ أَنْ يُرَى فِي كَفِّهِ بَلَلٌ

[من الكامل]

ويقول الأخطل [في « ديوانه » ٢٤٩] :

كَفُّ الْيَدَيْنِ مِنَ الْعَطِيَّةِ مُسِيكٌ مَا إِنْ تَبَضَّرَ صِفَاتُهُ بِبَلَالِ

[من البسيط]

وقال ابن عبد ربّه [في « ديوانه » ١١٠] :

يَرَاعَةُ غَرَنِي مِنْهَا وَمِيضُ سَنَا حَتَّى مَدَدْتُ إِلَيْهِ الْكَفَّ مُقْتَبَسًا^(١)
فَصَادَفَتْ حَجْرًا لَوْ كُنْتَ تَضْرِبُهُ مِنْ لُؤْمِهِ بَعْصًا مُوسَى لَمَا انْبَجَسَا!
كَأَنَّمَا صِيغَ مِنْ لُؤْمٍ وَمِنْ كَذِبٍ فَكَانَ ذَلِكَ لَهُ رُوحًا وَذَا نَفْسَا

[عود على بدء في الكرم]

[من الطويل]

وفيما يوافقهُ يقولُ حَجَبَةُ بنُ المَضْرِبِ :

أُنَاسٌ إِذَا مَا الدَّهْرُ أَظْلَمَ وَجْهَهُ فَأَيْدِيهِمْ بِيضٌ وَأَوْجُهُمْ غُرٌّ
يَصُونُونَ أَحْسَابًا وَمَجْدًا مُؤْتَلًّا بِبَذْلِ أَكْفٍ دُونَهَا الْمُزْنُ وَالْبَحْرُ
فَلَوْ لَأَمَسَ الصَّخْرُ الْأَصَمُّ أَكْفَهُمْ أَفَاضَ يَنَابِيعَ النَّدَى ذَلِكَ الصَّخْرُ

[من الطويل]

ويقولُ أبو تَمَّامٍ [في « ديوانه » ١٤ / ٢] :

تَعَوَّدَ بَسْطَ الْكَفِّ حَتَّى لَوِائُهُ نَهَاها لِقَبْضِ لَمْ تُطِعْهُ أَنْامِلُهُ

[من الطويل]

ويقولُ ابنُ الرُّومِيِّ [في « ديوانه » ٢٠٩٨ / ٥] :

مُقَبَّلُ ظَهْرِ الْكَفِّ وَهَابُ بَطْنِهَا لَهُ رَاحَةٌ فِيهَا الْحَطِيمُ وَرَمَزُ

ولقد أخطأ ابن الرُّومِي ، إذ توهم أن المقبل الحطيم ، وإنما يقبل الركن الأسود ، وليس به .

[من الكامل]

ويقولُ الناظمُ [في « المُكَبَّرِي » ٢٣١ / ١] :

عَجِبَ لَهُ حِفْظُ الْعِنَانِ بِأَنْمُلٍ مَا حِفْظُهَا الْأَشْيَاءِ مِنْ عَادَاتِهَا

وفي العجيز ما لا يخفى من سوء الأدب .

(١) البراعة : حشرة صغيرة يكون منها شبيه الضوء بالليل .

وَتَفُوحٌ مِنْ طَيْبِ النَّاءِ رَوَائِحُ لَهُمْ بِكُلِّ مَكَانَةٍ تُسْتَشْتَقُّ

[شرح المطلع]

بقول: إِنَّ النَّاءَ عَلَيْهِمْ موجودٌ في كلِّ مكانٍ ، ومنهُ تفوحُ الرّوائِحُ الطَّيِّبَةُ ، واللهُ درُّ القائلِ :
وَلَيْسَ أَرِيحُ الْمِسْكَ مَا تَجِدُونَهُ وَلَكِنَّهُ ذَاكَ النَّاءُ الْمُخْلَفُ

[الطيب الفائح من المحبوب لا يمكن أن يخفى]

وهو معنى شائعٌ ذائعٌ ، يتصلُّ به كثيرٌ ممَّا سبق في شرح قوله [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ١٦٤] :

[مِنَ البَسيطِ]

يُجَنُّ شَوْقاً فَلَوْلَا أَنَّ رَائِحَةَ تَزُورُهُ مِنْ رِيَّاحِ الشَّرْقِ مَا عَقَلَا

[مِنَ الخَفيِّ]

وقد أحلنا على ما هنا قبيل قوله [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ٣١٧] :

هَذِهِ مُهَجَّتِي لَدَيْكَ لِحَيْنِي فَانْقُصِي مِنْ عَذَابِهَا أَوْ فَزَيْدِي

[مِنَ الطَّويلِ]

وقال المجنون ، أو مسلمٌ بنُ الوليدِ [بل مسلمٌ في « ديوانه » ٢٠/ ٣٢٠] :

أَرَادُوا لِيُخْفُوا قَبْرَهَا عَنْ مُحِبِّهَا وَلَكِنَّ طَيْبَ الْقَبْرِ دَلَّ عَلَى الْقَبْرِ

[مِنَ السَّريعِ]

وقال ابنُ الروميِّ [في « ديوانه » ٤/ ١٧١٤] :

إِنْ جَاءَ مَنْ يَبْغِي لَنَا مَنْزِلاً قُولُوا لَهُ يَمْشِي وَيَسْتَشْتَقُّ

[مِنَ الكَامِلِ]

وقال [في « ديوانه » ٤/ ١٤٩٠] :

أَعْبَقْتَهُ مِنْ رِيحِ طَيْبِكَ عِبْقَةً كَادَتْ تَكُونُ نِئَاءَكَ الْمَسْمُوعَا

[مِنَ الطَّويلِ]

وقال ابنُ عِمَارَةَ السَّلْمِيّ [في « الأغانِي » ١/ ٢٨٠] :

يَبِينُ ظِلَامَ اللَّيْلِ مِنْ حُسْنِ وَجْهِهَا وَتَهْدِي بِطَيْبِ الرِّيحِ مَنْ جَاءَ مِنْ نَجْدِ

[مِنَ الطَّويلِ]

وقال أبو عُبَادَةَ [في « ديوانه » ٢/ ١٢٦٣] :

وَحَاوَلْنَ كِتْمَانَ التَّرْحُلِ فِي الدُّجَى فَمَّ بِهِنَّ الْمِسْكَ لَمَّا تَضَوَّعَا

[مِنَ الطَّويلِ]

وقال آخَرُ :

وَأَخْفَوْا عَلَى تِلْكَ الْمَطَايَا مَسِيرَهُمْ فَمَّ عَلَيْهِمْ فِي الظَّلَامِ التَّنْشُمُ

[مِنَ الطَّويلِ]

وقال آخَرُ [وهو عبدُ اللهِ بنُ محمدِ بنِ البَوَّابِ كما في « الأغانِي » ٢٣/ ٤٢] :

وَلَوْ أَنَّ رَكْباً يَمُوكَ لَقَادَهُمْ أَرِيحُكَ حَتَّى يَسْتَدِلَّ بِكَ الرَّكْبُ

وقال الطغرائيُّ [في «ديوانه» ٣٠٤] :

فَسِرْنَا فِي ذِمَامِ اللَّيْلِ مُعْتَسِفًا فَنَفَحَةُ الطَّيْبِ تَهْدِينَا إِلَى الْحُلَلِ^(١)

[مِنَ الْبَسِيطِ]

وقال بعضهم يمدحُ أهلَ البيتِ :

لَوْ كَانَ يُوجَدُ رِيحٌ مَجْدٍ فَائِحًا لَوَجَدْتَهُ مِنْهُمْ عَلَى أَمْيَالِ
نُورُ النُّبُوَّةِ وَالْمَكَارِمِ فِيهِمْ مُتَوَقِّدٌ فِي الشَّيْبِ وَالْأَطْفَالِ

وقد تمثَّلَ بهما مسلمُ بنُ بلالٍ لجعفرِ بنِ سليمانَ حينما خطبَ خطبةً لم يعرفِ الناسُ أهيَ أحسنُ أم وجههُ ؟

والمعنى متكرِّرٌ عندَ الناظم ، منه قولُهُ [في «العُكْبَرِيِّ» ٢/٢٩٧] :

[مِنَ الْوَاغِرِ]

أَدَلَّتْهَا رِيحُ الْمِسْكِ مِنْهُ إِذَا فَتَحْتَ مَنَاخِرَهَا انْتِشَاقًا

[مِنَ الْوَاغِرِ]

وقولُهُ [في «العُكْبَرِيِّ» ٢/٣٩٣] :

وَذَاكَ النَّشْرُ عَرِضُكَ كَانَ مِسْكَا وَهَذَا الشُّعْرُ فَهْرِي وَالْمَدَاكَ^(٢)

[مِنَ الْكَامِلِ]

وقولُهُ [في «العُكْبَرِيِّ» ٤/٢٠٢] :

أَرَجَ الطَّرِيقُ فَمَا مَرَزْتَ بِمَوْضِعِ إِلَّا أَقَامَ بِهِ الشَّدَا مُسْتَوْطِنًا^(٣)

[مِنَ الْوَاغِرِ]

وقولُهُ [في «العُكْبَرِيِّ» ١/٤٥] :

تَنَفَّسُ وَالْعَوَاصِمُ مِنْكَ عَشْرُ فَتَعْرِفُ طِيبَ ذَلِكَ فِي الْهَوَاءِ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقولُهُ [في «العُكْبَرِيِّ» ٢/٢٠] :

إِذَا سَارَتِ الْأَحْدَاجُ فَوْقَ نَبَاتِهِ تَفَاحَ مِسْكَ الْغَانِيَاتِ وَرَنَدُهُ^(٤)

وقولُهُ : (أَقَامَ بِهِ الشَّدَا مُسْتَوْطِنًا) مأخوذٌ ممَّا جاءَ في صفتهِ صلى الله عليه وسلم . . . أَنَّهُ إِذَا مَرَّ فِي مَكَانٍ . . . عُرِفَ مِنْ طِيبِهِ مَرُورُهُ بِهِ ، وَإِذَا جَلَسَ بِمَوْضِعٍ . . . بَقِيَ عَرْفُهُ^(٥) فِيهِ أَيَّامًا بَعْدَهُ ، وَإِذَا صَافَحَهُ إِنْسَانٌ ، أَوْ وَضَعَ يَدَهُ عَلَى رَأْسِ صَبِيٍّ . . . عُرِفَ ذَلِكَ ؛ لَطِيبَ رِيَاءُهُ .

وإنَّمَا سُمِّيَتْ دَارُهُ (طَيْبَةً) ؛ لِكثْرَةِ مَا يَفُوحُ بِهَا مِنْ رَوَائِحِ الطَّيْبِ .

[أَكْذَبَ الشُّعْرَ]

[مِنَ الْوَاغِرِ]

وقولُهُ : (تَنَفَّسُ وَالْعَوَاصِمُ مِنْكَ عَشْرُ) . . . إِلَى آخِرِهِ أَلَمْ فِيهِ بِقَوْلِ مَهْلَهْلِ [في «الأغاني» ٥/٥٨] :

فَلَوْلَا الرِّيحُ أُسْمِعَ مَنْ بِحِجْرِ صَلِيلَ الْبَيْضِ تَقَرَّعُ بِالذُّكُورِ

(١) العسْفُ : ركوبُ المفازةِ وقطْعُها بغيرِ قصدٍ ولا هدايةٍ ولا تَوْخِيٍّ طريقٍ مسلوِكٍ .

(٢) الشُّرُ : الرائحةُ الطيبةُ . الفَهْرُ : الحجرُ الذي يسحقُ بهِ الطيبُ . المَدَاكُ : الصلاةُ التي يداكُ عليها ، والدوكُ : الدقُّ والطحنُ .

(٣) أَرَجَ الطيبُ : فَاحَ . الشَّدَا : حُدَّةُ الرائحةِ .

(٤) الْأَحْدَاجُ : مراكبُ النساءِ . تَفَاحَ : تفاعلٌ من فَاحَ يَفُوحُ . الرنْدُ : نبتٌ طيبٌ الرائحةِ .

(٥) العَرَفُ : الرائحةُ الطيبةُ . قال الشيخُ عبد الله سراجُ الدين في كتاب «محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم» (ص/٣٠) : رواه أبو يعلى والبراز بإسناد صحيح .

فبينَ (حجر) وبينَ موضع الواقعةِ عَشْرَةَ أَيَّامٍ ، وأكثرُ ما يسمعُ الصوتُ في العادةِ معَ سكونِ الهواءِ من مقدارِ ميلٍ ؛ ولهذا قالَ بعضهم : إنَّ هذا أكذبُ بيتِ قائلتهُ العربُ ، ومعَ ذلكَ فقد نظرَ إليه صاحبنا بعينِ الاستحسانِ ؛ لأنَّه يتصيّدُ الإغرابَ من حيثُما كانَ ، فنقلَ المسموعَ إلى المسمومِ ، غيرَ أنَّ الحازميَّ ذكرَ عَنِ العَبَّاسِ بْنِ عبدِ المطلبِ [كما في «وفيات الأعيان» ٣/ ٢٧٧] : أَنَّهُ كَانَ يَقِفُ عَلَى (سَلْع) - وَهُوَ جَبَلٌ عِنْدَ (المدينةِ) - فينادي غلمانَهُ وَهُمُ بِالغَابَةِ ، وذلكَ من آخرِ الليلِ ، وبينَ الغابَةِ و(سَلْع) . . ثمانيةُ أميالٍ .

وذكرَ المبرِّدُ : أَنَّ غَارَةَ جَاءَتْ وَقْتَ الصُّبْحِ . . فصاحَ العَبَّاسُ بأعلىِ صوتهِ : واصباحاهُ ، فلم تسمعهُ حامِلٌ في الحيِّ إلاَّ وضعتُ .

[طيب الثناء تابع لطيب الذات]

ولئن قيلَ : إنَّ أكثرَ الشواهدِ التي سقنا ليستَ في طيبِ الثناءِ ، وإنَّما هي في طيبِ الذاتِ ، وبينهُما بونٌ ، فالجوابُ : أن لا مشاحةَ ؛ لأنَّ طيبَ الذاتِ متبوعٌ بطيبِ الثناءِ لا محالةً ، والجامعُ مجردُ الطيبِ .

ويعجبني قولُ ذي الرُّمَّةِ [في «ديوانه» ٢/ ١٠٤٥] :

يَطِيبُ تُرَابُ الْأَرْضِ إِنْ نَزَلُوا بِهَا وَيَخْتَالُ أَنْ تَعْلُو عَلَيْهَا الْمَنَابِرُ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وممَّا يتعلَّقُ بطيبِ الثناءِ قولُ أَبِي تَمَّامٍ :

عَذَبْتُ مَمَادِحَهُ بِأَفْوَاهِ الْوَرَى فَنَنَاؤُهُ يَنْتَابُ كُلَّ مَكَانٍ

[مِنَ الْكَامِلِ]

بل ربِّما كانَ أصلاً لبيتِ الناظِمِ الذي نتكلَّمُ فيه .

وقالَ الناظِمُ [في «العُكْبَرِيِّ» ٤/ ٨٦] :

أَلَدٌ مِنَ الصَّهْبَاءِ بِالْمَاءِ ذِكْرُهُ وَأَحْسَنُ مِنْ يُسْرِ تَلَقَّاهُ مُعْدِمٌ^(١)

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقد سبقَ - في غيرِ هذا المجلسِ - قولُ الحماسيِّ [خلف بن خليفة كما في «ديوان الحماسة» ٢/ ٣٦٢] :

عَذَابٌ عَلَى الْأَكْبَادِ مَا لَمْ يَذُقْهُمْ عَدُوٌّ وَفِي الْأَفْوَاهِ أَسْمَاؤُهُمْ تَحْلُو

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقالَ آخرُ [وهو شرف الدين القيرواني كما في «خزانة الأدب» ٢/ ٣٨٨] :

جَاوَزَ عَلَيَّ وَلَا تَحْفَلُ بِحَادِثَةٍ إِذَا ادَّرَعْتَ فَلَا تَسْأَلُ عَنِ الْأَسْلِ مِلءَ الْمَسَامِعِ وَالْأَفْوَاهِ وَالْمَقْلِ سَلَّ عَنْهُ وَاسْمَعْ بِهِ وَانظُرْ إِلَيْهِ تَجِدُ

[مِنَ الْبَسِيطِ]

وأهدى الصاحبُ بنُ عبَّادٍ قارورةَ عطرٍ لبعضِ القضاةِ ، وكتبَ عليها [في «ديوانه» ٢٥٣] :

يَا أَيُّهَا الْقَاضِي الَّذِي نَفْسِي لَهُ مَعَ قُرْبِ عَهْدِ لِقَائِهِ أَشْتَاقُهُ أَهْدِيهِ عِطْرًا مِثْلَ طِيبِ ثَنَائِهِ فَكَأَنَّمَا أَهْدِي لَهُ أَخْلَاقَهُ

[مِنَ الْكَامِلِ]

(١) الصهباء : من أسماء الخمر .

وقال ابن هانيء الأندلسي [في «ديوانه» ٥١] :

[من الكامل]

قَدْ طَيَّبَ الْأَفْوَاهَ طَيْبُ ثَنَائِهِ مِنْ أَجْلِ ذَا تَجِدُ الثُّغُورَ عِذَابًا

وقال يزيد بن الطَّرِيحِ [في «ديوانه» ٤٩] :

[من الطويل]

وَإِنِّي وَإِنْ أَحَمَّوْا عَلَيَّ كَلَامَهَا وَحَالَتْ أَعَادِ دُونَنَا وَحُرُوبُ
لَمْ تُنِ عَلَى لَيْلِي ثَنَاءَ تَزِينُهُ قَوَافٍ بِأَفْوَاهِ الرَّجَالِ يَطِيبُ

[الذكر الجميل والثناء الحسن . . جدير بأن يطلب من الله]

ولا شكَّ أَنَّ الذِّكْرَ الْجَمِيلَ . . يَهْزُ الرُّؤُوسَ ، وَيَخْلُبُ النُّفُوسَ ؛ وَلِهَذَا سَأَلَهُ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَقَالَ : ﴿وَأَجْعَلْ لِي

لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء : ٨٤] ، وَمِمَّا يَتَّصِلُ بِذَلِكَ قَوْلُ ذِي الرُّمَّةِ [في «ديوانه» ٢/١٢١٥] :

[من الطويل]

إِذَا مَاتَ فَوْقَ الرَّحْلِ أَحْيَيْتُ رُوحَهُ بِذِكْرِكَ ، وَالْعَيْسُ الْمَرَّاسِيلُ جُنْحُ

يقولُ : إِنَّ طَيْبَ ذِكْرِهِ يوقظُ النَّائِمَ ، وَيُنْعِشُ السَّاكِنَ ، وَيَحْرِّكُ الْجَامِدَ ، وَهُوَ مِنْ كَلِمَةٍ لَهُ جَزَلَةٌ ، مَنْقَحَةٌ الْمَعْنَى

[من الطويل]

واللَّفْظُ ، يَقُولُ فِيهَا [في «ديوانه» ٢/١١٩٢-١٢١٥] :

عَلَى حِينٍ رَاهَقْتُ الثَّلَاثِينَ وَارْعَوْتُ لِدَاتِي وَكَادَ الْجِلْمُ بِالْجَهْلِ يَرْجَحُ
إِذَا حَظَرْتُ مِنْ حُبِّ مَيَّةَ حَظَرَةٌ عَلَى الْقَلْبِ كَادَتْ فِي فُؤَادِي تَجْرَحُ
تَصَرَّفُ أَهْوَاءُ الْقُلُوبِ وَلَا أَرَى نَصِييَكَ مِنْ قَلْبِي لِغَيْرِكَ يُمْنَحُ
إِذَا غَيَّرَ النَّأْيُ الْمُحْيِينَ لَمْ يَكْذُ رَسِيْسُ الْهُوَى مِنْ حُبِّ مَيَّةَ يَنْسَحُ
أَنْيُنُ وَشَكْوَى بِالنَّهَارِ طَوِيلَةٌ عَلَيَّ وَمَا يَأْتِي بِهِ اللَّيْلُ أَبْرَحُ
ذَكَرْتُكَ إِذْ مَرَّتْ بِنَا أُمُّ شَادِنِ أَمَامَ الْمَطَايَا تَشْرُتُّبُ وَتَسْنَحُ^(١)

منها :

هَجَانُ الثَّنَايَا مُغْرِبًا لَوْ تَبَسَّمْتُ لِأَخْرَسَ عَنْهُ كَادَ بِالْقَوْلِ يُفْصَحُ
لَيْنُ كَانَتِ الدُّنْيَا عَلَيَّ كَمَا أَرَى تَبَارِيحَ مِنْ مَيِّ فَلَلَمَّوْتُ أَرْوَحُ^(٢)

هذا والله الشعرُ الخالصُ ، والكلامُ المنقحُ ، والقولُ المختارُ ، وقد كانت عندنا نونيَّةُ ابنِ زيدونَ . في الاعتبارِ الأولِ . . حتَّى وجدناها عالَّةً على هذه في كثيرٍ من معانيها المختارة .

[مسألة نحوية حول «كاد»]

وهل هنا نكتة ، وهي : قيل : إن نفي كاد للإثبات مطلقاً :

ماضياً كان : بشهادة قوله : ﴿ وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [البقرة : ٧١] . وقد فعلوا فدبحوها .

أو مضارعاً : فقد روي عن عنبسة أنه قال [في «الأغاني» ٣٩/١٨] : قدم ذو الرُّمَّةِ الكوفةَ فاعترضَ عليه ابنُ شبرمةَ قوله : (لَمْ يَكْذُ رَسِيْسُ الْهُوَى) ، وقال : إِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى زَوَالِ رَسِيْسِ الْهُوَى ، فلم ينفصل ذو الرُّمَّةِ بل اعترف بالغلطِ ،

(١) أم شادين : طيبةٌ معها ولدها حين شدن وقوي ومشى . تشرتُّبُ : تشرف . تسنحُ : تعرضُ .

(٢) تباريحُ : عذابٌ ومشقةٌ .

وغيره بقوله : (لَمْ أَجِدْ رَسِيسَ الْهَوَى) ، ولكن قال عنبسة : حَدَّثْتُ أَبِي بِذَلِكَ . . . فَقَالَ أَخْطَأَ ابْنُ شَبْرَمَةَ فِي إِنْكَارِهِ عَلَى ذِي الرُّمَّةِ ، وَأَخْطَأَ ذُو الرُّمَّةِ فِي اعْتِرَافِهِ وَتَغْيِيرِهِ ، إِنَّمَا هُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَوْ يَكْدِرُهَا ﴾ [النور : ٤٠] ، والمعنى : أنه لم يرها ؛ ولهذا قال ابن الحاجب : إِذَا دَخَلَ النَّفْسُ عَلَى كَادٍ . . . كَانَ كَالنَّفْسِ الدَّاخِلِ عَلَى سَائِرِ الْأَفْعَالِ ، وَفِي الْبَحْثِ طَوَّلٌ يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنَ الْفَقْهِ قَوْلُ ابْنِ حَجَرٍ فِي « تَحْفَتِهِ » :

قَالَ الْبَغَوِيُّ : وَلَوْ قَالَ : مَا كَدْتُ أَنْ أُطْلَقَ . . . كَانَ إِقْرَارًا بِالطَّلَاقِ ، وَسَكَتَ عَلَيْهِ ، وَإِنَّمَا يَتَأْتَى عَلَى مَا سَبَقَ مِنَ الْفِيلِ ، وَقَدْ اعْتَمَدَ الرَّمْلِيُّ فِي « النَّهَايَةِ » : أَنَّ لَا يَكُونُ إِقْرَارًا ؛ لِأَنَّ كَادَ كَغَيْرِهَا ، وَهُوَ الْجَارِي كَمَا سَبَقَ عَنِ ابْنِ الْحَاجِبِ ، وَعَلَيْهِ الْأَكْثَرُونَ فِي الْاعْتِمَادِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

[ثناء المؤلف على المتنبي]

وبما أن العلم أمانة ، والإنصاف واجب . . . فلا بد من الاعتراف للنأظم بحسن الاتباع ، فيما تعلق به من بيت ذي الرُّمَّةِ الأوَّلِ ، وذلك حيث يقول [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٣٤٥-٣٤٦-٣٤٩] :

شَدُّوا بِابْنِ إِسْحَاقَ الْحُسَيْنِ فَصَافَحَتْ
بِمَنْ تَقْشَعِرُّ الْأَرْضُ خَوْفًا إِذَا مَشَى
فَتَى كَالسَّحَابِ الْجَوْنِ يُخْشَى وَيُنْتَقَى
خَفِ اللَّهُ وَاسْتُرْ ذَا الْجَمَالِ بِرُفْعِ
ذَفَارِيهَا كِيرَانِهَا وَالنَّمَارِقُ^(١)
عَلَيْهَا وَتَرْتَجُّ الْجِبَالَ الشَّوَاهِقُ
يُرْجَى الْحَيَا مِنْهَا ، وَتُخْشَى الصَّوَاعِقُ
فَإِنْ لُحِتْ ذَابَتْ فِي الْخُدُورِ الْعَوَاتِقُ^(٢)

أَمَا إِنَّهُ لَشِعْرٌ تَقَفُّ لَهُ الشُّعُورُ ، وَتَنْشِرُحُ الصُّدُورُ ، ﴿ وَمَنْ لَرَجَعَلِ اللَّهِ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ [النور : ٤٠] .

والأوَّلُ : هُوَ الَّذِي تَعَلَّقَ فِيهِ بِأَذْيَالِ ذِي الرُّمَّةِ ، وَقَدْ أَجَادَ ، وَلَيْتُنْ أَجَادَ فِيهِ . . . فَلَقَدْ أَرَبِي عَلَى الْإِجَادَةِ فِي نَظْمِهِ ، إِذْ يَقُولُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ١٢٤] :

نَضَحْتُ بِذِكْرَاكُمْ حَرَارَةَ قَلْبِهَا
فَسَارَتْ وَطُولُ الْأَرْضِ فِي عَيْنِهَا شِبْرًا^(٣)

هَذَا مَا لَا يَقْدَرُ أَحَدٌ أَنْ يَقُولَ مِثْلَهُ ، فَهُوَ مِنْ مَوَاضِعِ السُّجُودِ فِي الشُّعْرِ ، وَفِي بَعْضِ مَعْنَاهُ وَلَفْظِهِ قَوْلُهُ السَّابِقُ فِي الْمَجْلِسِ الثَّامِنِ :

وَمَنْ كَانَ عَزْمِي بَيْنَ جَنْبَيْهِ حَتَّى
وَخَيْلَ طُولِ الْأَرْضِ فِي عَيْنِهِ شِبْرًا

والثَّانِي : نَاطِرٌ إِلَى قَوْلِ الْكَنْدِيِّ يَمْدَحُ عَمْرَو بْنَ هَنْدٍ :

تَكَادُ تَمِيدُ الْأَرْضُ بِالنَّاسِ إِنْ رَأَوْا
لِعَمْرٍو بْنِ هَنْدٍ غَضَبَةً وَهُوَ عَاتِبُ

وَأَمَّا الثَّلَاثُ : فَمَا أَخَذَهُ إِلَّا مِنْ قَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ [الرعد : ١٢] ،

(١) شَدُّوا : غَنَوْنَا . الذَّفَرِيُّ : الْمَوْضِعُ الَّذِي يَعْرِقُ مِنَ الْبَعِيرِ خَلْفَ الْأَذْيَانِ . النَّمَارِقُ : جَمْعُ نَمْرُقَةٍ ، وَهِيَ الْوَسَادَةُ تَكُونُ تَحْتَ الرَّكِيْبِ ، وَالَّذِي أَرَادَهُ أَبُو الطَّيِّبِ هُنَا : هِيَ الَّتِي تَكُونُ قَدَامَ الرَّحْلِ ، يَجْعَلُ الرَّكِيْبُ عَلَيْهَا سَاقَةً لِلِاسْتِرَاحَةِ إِذَا أَخْرَجَهَا مِنَ الْغَرَزِ . وَكِبْرَانُهَا : جَمْعُ كَوْرٍ ، وَهُوَ الرَّحْلُ .

(٢) الْبَرْقُ : نِقَابٌ لِلْعَرَبِ ، يَغْطِي بِهِ الْجَبِينَ وَالْوَجْهَ ، وَلَا يَكُونُ فِيهِ إِلَّا ثِقْبَانٌ لِلْعَيْنَيْنِ تَنْظُرَانِ مِنْهُمَا . الْعَوَاتِقُ : جَمْعُ عَاتِقٍ ، وَهِيَ الْجَارِيَةُ الْمُقَارِبَةُ لِلْحَتْلَامِ . الْخُدُورُ : جَمْعُ خُدْرٍ ، وَهُوَ الْكِنُّ وَالْبَيْتُ الَّذِي يَسْتُرُ فِيهِ الْعَوَاتِقُ .

(٣) الْمَعْنَى : أُرِيدُ بِذِكْرَاكُمْ ، وَبِشُعْرِي الَّذِي فِيكُمْ . . . حَرَارَةَ قَلْبِي هَذِهِ النَّاقَةِ ، فَتَسْرَعُ وَيَقْرَبُ عَنْهَا الْبَعْدُ ؛ لِنَشَاطِهَا بِذِكْرَاكُمْ وَمَدْحِكُمْ .

ولئن سبقه إليه البحتري بقوله [في «ديوانه» ٣/١٩٩٧] :

[من الطويل]

سَمَاحاً وَبَاساً كَالصَّوَاعِقِ وَالْحَيَا إِذَا اجْتَمَعَا فِي الْعَارِضِ الْمُتَرَكِمِ^(١)

.. فبين البيتين شأؤ بعيد ، وفرق كبير ، والذوق حاكم ، والصنعة شاهد ، وقد اتفق لي أن أخذت بنصبي من هذا المعنى ، فقلت من قصيدة [في «ديوان المؤلف» ٤٠١] :

[من البسيط]

قُدُومُكُمْ كَالْحَيَا لَكِنْ صَوَاعِقُهُ عِنْدَ الْعِدَا ، وَالنَّدَى يَغْشَى الْمَسَاكِينَا^(٢)

ولا أنكر أن بيت المتنبي أجزل وأفخم ، غير أن في هذا توازي العدا والندى ، والإفصاح بغشيانه المساكين ، وهم الذين يراقبون الأنواء ، ويستمطرون الغمام ، بخلاف غيرهم من المترفين ، وقد سبق بعض أبيات ذي الرمة وأبيات الناظم في غير هذا المجلس ، فلا مؤاخذه .

* * *

[قال أبو الطيب المتنبي في «العكبري» ٢/٣٣٩] :

[من الكامل]

لَمْ يَخْلُقِ الرَّحْمَنُ مِثْلَ مُحَمَّدٍ أَبَدًا وَظَنِّي أَنَّهُ لَا يَخْلُقُ

[المديح والمغلاة فيه والقصص في ذلك]

معناه ظاهر : وفيه من الغلو والمجازفة ما لا غاية وراءه ، والأمر في مثله إلى النية ، فإن أراد حقيقة العموم ، والترجيح على حضرات الأنبياء .. فقد وقع في صريح الكفر ، وإلا .. فلا ، ألا ترى لقول بعضهم في مدح خالد بن عبد الله القسري [في «ديوان الحماسة» ١/٣٨٤] :

[من الطويل]

أَلَا إِنَّ خَيْرَ النَّاسِ حَيًّا وَمَيِّتًا أَسِيرٌ ثَقِيفٍ عِنْدَهُمْ فِي السَّلَاسِلِ

.. فإنه لا يقل عن بيت الناظم في العموم ، ولم يكفروه مع ذلك ، ولم يقولوا : إنه فضل ممدوحه على سيد البشر صلى الله عليه وسلم ؛ لأن كل من ذكر الناس لا يريدهم بجملتهم ، وإنما يريد قوماً مخصوصين بالعهد ، أو القرينة ، ومع هذا .. فإنها إساءة أدب ، ومجازفة حد ، وقلة مبالاة ، وقحة وجه .

[أبو الأسد وموسى الهادي]

وما أحسن ما فعل موسى الهادي مع أبي الأسد وقد مدحه بقوله [كما في «تاريخ الخلفاء» ١/٢٨٢] :

[من البسيط]

يَا خَيْرَ مَنْ عَقَدَتْ كَفَاهُ حُجْرَتَهُ وَخَيْرَ مَنْ قَلَدَتْهُ أَمْرَهَا مُضْرُ

[من البسيط]

فإنه قال له : إلا من ، يا بائس ، فقال قبل أن يبلع ريقه :

إِلَّا النَّبِيَّ رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لَهُ فَخْرًا وَأَنْتَ بِذَلِكَ الْفَخْرِ تَفْتَخِرُ

(١) الحيا : المطر . العارض : السحاب .

(٢) صواعقه عند العدا تصيهم بمرماها .

فعرف أنه ارتجله ، وفتش صحيفته فلم يجد فيه ، فأسنى جائزته ، وأكرم وفادته .

[سلم الخاسر والمهدي]

[من الطويل]

ودخل سلم الخاسر على المهدي فقال :

أليس أحمق الناس أن يُدرك الغنى مُرَجِّي أمير المؤمنين وسائله
لقد بسط المهدي عدلاً ونائلاً كأنهما عدل النبي ونائله

فقال المهدي : أمّا ما ذكرت من الجود . . فوالله إن الدنيا لا تعدل عندي هذا الخاتم ، وأمّا العدل . . فإنه لا يقاسُ برسول الله صلى الله عليه وسلم أحدٌ ، وإني لأتحراه جهدي ، ثم أمر له بعشرة آلاف دينار ، وعشرة أثواب ، وقدم عليه في السنة الثانية فقال :

[من الكامل]

إن الخِلافةَ لم تكن بخِلافةِ حتّى استقرت في بني العباس
شدت مناكب ملوكهم بخليفة كالدهر يخلط لينة بشماس

[من الكامل]

فأمر له بعشرين ألف دينار ، ولما كان العام الثالث . . قدم عليه وقال :

أفنى سؤال السائلين بجوده ملك مواهبه تروح وتغتدي
هذا الخليفة جوده ونواله نقد السؤال وجوده لم ينفد

فأمر له بثلاثين ألفاً ، وثلاثين ثوباً .

وأقول : إن المهدي أنصف في اعترافه بمرجوحته في العدل ، وأخطأ في مسألة الجود . ومن ذا الذي يُباري البحار الباردة العذب ، أمسى زاحراً؟! وهل يستطيع أحد في العالم أن يقول : « من ترك مالا . . فلورثته ، ومن ترك ديناً أو ضياعاً . . فعلىنا »^(١) غير سيّد الأنام ، وخير من يشرب صوب الغمام ؟ وكان الأولى بالمهدي . . أن يؤدّب سلماً على ما تهضم من محاسن الخلفاء الراشدين في القطعة الثانية ، أو ينبّهه ، أو يستفصله ، على الأقل .

أما الرشيد . . فقد سبق أوائل المجلس الخامس أنه سكت على قول علي بن الخليل [في « زهرة الآداب » ١/٢ : ٨٤١] :

[من الكامل]

خير البرية أنت كلهم في يومك الغادي وفي أمس

[من المديد]

وأما المأمون . . فلم يغضب على ابن جبلة لقوله في أبي دلف [في « ديوانه » ٦٨] :

كل من في الأرض من عرب بين بآديه إلى حصره
مستعير منك مكرمة يكتسيها يوماً مفتخره

وإنما حقد عليه بديع مدائحِه ، كما سيأتي أوائل المجلس السادس عشر ، وإلا . . فقد قال في الاعتذار عنه : أنتم

(١) أخرجه عن جابر مسلم (٨٦٧) في الجمعة . وعن أبي هريرة رضي الله عنه البخاري (٢٣٩٨) في الاستقراض ، ومسلم (١٦١٩) ، وأبو داود (٢٩٥٥) .

أهل بيت لا يقاسُ بِكُمْ ؛ لأنَّ الله اختصَّكُمْ على عباده ، وإِنَّمَا ذهبتُ إلى أقرانِ القاسمِ وأشكالِهِ مِنَ النَّاسِ (١) .

[الفرزدق وعبد الملك بن مروان وشهامة نفس الفرزدق]

ويروى [بنحوه في «الأغاني» ٣٥١/١٠] : أنَّ عبدَ الملكِ بنَ مروانَ أكرمَ الفرزدقَ حتَّى أرضاهُ على مدحةٍ مدحهَ بها ، ولَمَّا انصرفَ الفرزدقُ . . أخذَ يتغنَّى ويقولُ [في «ديوانه» ٢١٤] :

لَم تَحْتَمِلْ نَاقَةَ مِنْ مَعْشَرِ رَجُلًا مِثْلِي ، إِذَا الرِّيحُ أَلْقَتْنِي عَلَى الكُورِ
وكانَ عليه عينٌ أسرعَ بها إلى عبدِ الملكِ ، فاستردَّه وقالَ لهُ : لئنَ لَم تخرُجَ مِنها . . لآتينَ عليكَ ، فأنشدَ من فورِهِ [في «ديوانه» ٢١٥] :

إِلَّا قُرَيْشًا فَإِنَّ اللهَ فَضَّلَهُمْ مَعَ النُّبُوَّةِ بِالإِسْلَامِ وَالنُّورِ
تَرَى وُجُوهَ بَنِي مَرْوَانَ مُشْرِقَةً يَوْمَ النَّدى كَمَشُوفَاتِ الدَّنَائِرِ

فقالَ عبدُ الملكِ : أُولَى لَكَ .

والظاهرُ من حالِ عبدِ الملكِ أَنَّهُ لَم يكنَ في ذلكَ مدفوعاً من جهةِ الدينِ ، وإلَّا . . فكيفَ يقنعُ بمدحِ بني مروانَ ، معَ أولويَّةِ بني هاشمِ بذلكَ النورِ والنبوةِ ؟

وكيفَ يقرُّ الحجاجَ - كما روي - على قولِهِ أَنَّ الخلفاءَ أفضلُ مِنَ الرُّسُلِ !؟

و [روي الأصفهاني بنحوه في «الأغاني» ٧١/٨ أنه] : قدِمَ عليه جريراً ، وكانَ ساخطاً عليه ؛ لانقطاعِهِ إلى الحجاجِ ، حتَّى همَّ أن يُركِبَ الأخطلَ - وهو نصرانيٌّ - على ظهرِهِ (٢) ، لولا مراجعَةُ جلسائِهِ لَهُ في ذلكَ ، ولكِنَّهُ لَمَّا امتدحهَ بقصيدتِهِ التي يقولُ فيها [في «ديوانه» ٨٩/١] :

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايَا وَأَنْدى العَالَمِينَ بَطُونَ رَاحِ ؟

. . تطلَّقَ لَهُ ، ورضيَ عنه ، وأعطاهُ مئةً مِنَ الإبلِ ، وصحفةً مِنَ الفضةِ - أو مِنَ الذهبِ فكلُّ ذلكَ روي - فتعيَّنَ أنَّ الذي دعاهُ إلى الإنكارِ على الفرزدقِ . . إِنَّمَا هوَ الموجدَةُ عليه ، لحاجةٍ في نفسهِ :

[مِن البسيط] : [في «العكبري» ٢٣٦/٤] :

وَيَغْضَبُونَ عَلَيَّ مَنْ نَالَ رِفْدَهُمْ حتَّى يُكْدِرُهُ التَّغْيِصُ وَالْمِنُّ (٣)

وإِذَا لأنَّ الفرزدقَ كانَ شريفَ الهمةِ ، قويِّ النفسِ ، والمستبدُّونَ لا يميلونَ إلَّا إلى المتصاغرينَ المتملِّقينَ الأخصياءِ ، كذلكَ الذي قالَ لَهُ : جَبَّ (٤) ، ليركِبَ الأخطلَ على ظهرِهِ ، فجبِّي ، وهو جريراً كما سبقَ ، بخلافِ الفرزدقِ ، فقد بلغَ من تعاضمِهِ أَنَّهُ لا ينشدُ قائماً ، وقد مرَّ قولُ خالدِ القسريِّ فيه [بل القائل ابن هبيرة كما في «طبقات فحول الشعراء» ٣٤٦/٢] : ما رأيتُ أشرفَ من الفرزدقِ ، هجاني ملكاً ، ومدحني سوقةً .

(١) بل هذان البيتان هما اللذان أغضبا المأمون وأحفظاهُ على علي بن جبلة حتَّى سلَّ لسانه من قفاه . انظر «الأغاني» (٢٦٣/٨) .

(٢) أي : كاذب أن يركب الأخطل على ظهر جريير .

(٣) في «العكبري» البيت بلفظ المخاطب : (تغضبون) (رفدكم) .

(٤) الناقة الجباء : هي التي لا سنام لها ، ومعنى جبَّ هنا كأنه مأخوذ منها ؛ أي أقعد القرفصاء ، كالناقة التي لا سنام لها .

وَلَمَّا قَالَ لَهُ سَلِيمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ [في «الأغاني» ١/٢٢٣] : أَنَشِدْنِي . . أَنَشِدُهُ قَوْلَهُ [في «ديوانه» ١/٢٩] : [مِنَ الطَّوِيلِ]

وَرَكِبْتُ كَأَنَّ الرِّيحَ تَطْلُبُ عِنْدَهُمْ لَهَا تِرَةً مِنْ جَذِبِهَا بِالعَصَائِبِ^(١)
سَرَوْا يَخِيطُونَ اللَّيْلَ وَهِيَ تَلْفُهُمْ إِلَى شُعْبِ الأَكْوَارِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ^(٢)
إِذَا أَبْصَرُوا نَارًا يَقُولُونَ : لَيْتَهَا - وَقَدْ حَصِرَتْ أَيْدِيَهُمْ - نَارُ غَالِبِ^(٣)

وكان يظنُّ أنَّه ينشدهُ مدحاً فيه ، فلمَّا لم يَجِءْ إلاَّ بذلكَ الفخرِ . . اسودَّ وجهُهُ ، ولجأَ إلى شعرِ قاله نصيبٌ ، لا يوزنُ بشيءٍ ممَّا قاله الفرزدقُ ، ولا توضعُ اليدُ على شيءٍ منه ، عدا قوله : [مِنَ الطَّوِيلِ]

فَعَا جُوا فَأَثْنُوا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ وَلَوْ سَكْتُوا أَثْنْتُ عَلَيْكَ الحَقَائِبُ

وليسَ هذا ببدع ، إذ كلُّ مَنْ كانَ كبيرَ القدرِ ، جليلَ الخطرِ . . تحومُ عليه غريانُ الأحسادِ ، وتُفَوِّقُ إليه نبلانُ الأحقادِ ، كما سبقَ تقريرُهُ في موضعيهِ ، وكما قالَ عليُّ بنُ محمَّدِ الأَفْوَهِ : [مِنَ البسيطِ]

مُحَسَّدُونَ وَمَنْ يَغْلِقُ بِحَبْلِهِمْ مِنَ البَرِيَّةِ يُصْبِحُ وَهُوَ مَحْسُودٌ

وما أرى حادثةَ الخوارزميِّ مع بديع الزمانِ إلاَّ من هذا النوعِ ، فقد كانَ الأوَّلُ فريدَ دهرِهِ ، منقطعَ النظرِ في عصرِهِ ، ولم يأتِ البديعُ إلاَّ والخاصَّةُ كلُّهمُ أعداؤُهُ ، فصعَّروا من أمرِهِ ما عظمَ ، وكبَّروا من أمرِ البديعِ ما صغُرَ ، حتَّى كانَ ما كانَ ، ممَّا لم يأتِ إلاَّ بروايةِ البديعِ وحدهُ ، ولأقلِّ من تلكَ التهمةِ . . يعلُّ بل يردُّ الحديثُ .

وقد اتفقَ لي من هذا النوعِ أن وردَ (حضر موت) رجلٌ من (اليمنِ) ، منذَ خمسةِ شهورٍ ، أخذَ يتفنَّجُ ويتحدَّى ، حتَّى أكبرُهُ بعضُ الناسِ ، وفي الليلةِ الأولى من محرَّمِ هذهِ السنةِ اجتمعنا بهِ ، في ليفٍ من أهلِ الوجاهةِ والأدبِ ، فاقترحوا علينا المباراةَ في الشعرِ ، مع تعيينِ الموضوعِ والقافيةِ والبحرِ ، فانتبذتُ عنهم قليلاً في المجلسِ ، ولمْ نمضِ ساعةً وربعاً . . حتَّى جهَّزتُ قصيدةً لا تقلُّ عن أربعينَ بيتاً ، وجاءَ هوَ في نفسِ المدةِ بنحوِ من أربعةِ وعشرينَ بيتاً ، لا ترتفعُ إلى الإجادةِ ، ولا تنحطُّ إلى التقصيرِ ، غيرَ أنَّها انعقدتْ بعدَ ذلكَ عدَّةَ مجالسٍ ، يُقترَحُ علينا فيها النضالُ ، فنقولُ ويُفحِّمُ ، كما سبقَ لنا ذكرُ ذلكَ في المجلسِ الثاني عندَ شرحِ قوله [في «المكبريِّ» ١/٢٩٧] : [مِنَ المنسرحِ]

بَانُوا بِخُرْعُوْبَةٍ لَهَا كَفْلٌ يَكَادُ عِنْدَ القِيَامِ يُعْعِدُهَا

ولولا انفراجُ الأمرِ عمَّا لا يقبلُ الأوهامَ والشكوكَ . . لمثلُّوا ما جرى على الخوارزميِّ من البديعِ ، فما أشدَّ حرصَهُم على انهزامنا وانتصارِهِ ، ولو وجدوا أدنى منفذٍ إلى التمويهِ والتشويهِ . . لفتلوا في كلِّ غاربٍ ، وذروهُ ؛ لغمطِ فضلنا وترجيحِهِ ، غيرَ أنَّه بفضلِهِ تعالى أبى أن يردَّهُم إلاَّ بغيظِهِم ، لهذا معَ أن الشعرَ لا يتيسَّرُ لي في كلِّ وقتٍ ، بل قد يكونُ الشروعُ فيه أحياناً أصعبَ عليَّ من قلعِ الأسنانِ ، وأنا أُحيلُ كلَّ ما يحصلُ لي من الانتصارِ بالحجَّةِ على الخصومِ - معَ قلَّةِ البضاعةِ ، وتوفُّرِ الدواعي لاضطهادي - على بركةِ دُعَاءِ المشايخِ ، الذي لا يُحجَّبُ عن سماءِ الإجابةِ ،

(١) الترةُ : النَّارُ . العصائبُ : العمائمُ .

(٢) شعْبُ الأَكْوَارِ : نواحيها . والكورُ : رحلُ البعيرِ .

(٣) حصرت : بردت . غالب : أي أيبه .

وذكرت عند هذا قول الأمير تميم بن المعز [في «ديوانه» ٢٠٤] :

[من السريع]

أَرَىٰ أَنَسًا سَاءَ نَبِي ظَنُّهُمْ فِي كُلِّ مَا قُلْتُ مِنَ الشُّعْرِ
فَنَاطِرُونِي فِيهِ أَوْ فَاشْرَحُوا شِعْرِي إِنْ أَنْكَرْتُمْ أَمْرِي
أَوْ لَا ، فَقُولُوا : حَسَدٌ قَاتِلٌ مُسْتَمَكِّنٌ فِي الْقَلْبِ وَالصَّدْرِ

وقوله أيضاً [في «ديوانه» ١٨٧] :

[من الخفيف]

نَحْنُ أَهْلُ الثَّقَىٰ وَأَهْلُ الْمُوَسَا وَأَهْلُ النَّوَالِ وَالْإِيثَارِ
فَدَعُوا خُطَّةَ الْعُلَا لِذَوِيهَا مِنْ بَنِي بَيْتِ أَحْمَدِ الْأَنْرَارِ
أَوْ فَلُومُوا الْإِلَهَ فِي أَنْ بَرَانَا فَوْقَكُمْ وَاغْضَبُوا عَلَيَّ الْمِقْدَارِ

[هل يجوز التسمي بـ : ملك الملوك وما شابهه ؟]

هذا : وقد اختلف العلماء في التسمي بملك الملوك [في «طبقات ابن السبكي» ٢٧١/٥] : فأجازه كثيرٌ ، منهم : القاضي أبو الطيب الطبري .

ومنعه آخرون ، منهم : الماوردي ، وهو الذي اعتمده ابن حجر في «تحفته» ؛ لأنه الأسعدُ بالدليل ؛ إذ جاء في «الصحیح» : «أَخْنَعُ الْأَسْمَاءِ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسْمَىٰ بِمَلِكِ الْأَمْلَاكِ»^(١) .

وأول من تسمي بذلك - فيما أظن - عضد الدولة ، وكان صديق الماوردي ، فعزم الله له بالثبات ، وجزم بالحرمة ، وأمَّا بقية العلماء . . فصانعوا ، وأفتوا بالجواز ، بناءً على ما سبق من التأويل بإرادة التخصيص ، فلم يكن من الأمير إلا أن زاد في احترام الماوردي ؛ لتصلبه في الدين ، وقال : لو حابى أحداً . . لحاباني ، وأخذ في أطراح المقارين له ، وهان قدرهم عليه ، قال ابن السبكي [في «طبقاته» ٢٧٢/٥] : ولم تطل مدة العضد بعد ذلك .

والظنُّ بالعضد أنه هو الذي امتدحه الناظم بقصيدته التي يقول فيها [في «العكبري» ٢٧٤/٤ - ٢٧٥] :

[من المنسرح]

وَقَدْ رَأَيْتُ الْمُلُوكَ قَاطِبَةً وَسِرْتُ حَتَّىٰ رَأَيْتُ مَوْلَاهَا
وَمَنْ مَنَائِيهِمْ بِرَاحَتِهِ يَأْمُرُهَا فِيهِمْ وَيَنْهَاهَا
أَبَا شُجَاعٍ بِفَارِسِ عَضَدِ الدَّو لَةِ فَتَأْخُسِرَ وَشَهْنَشَاهَا^(٢)

[من الوافر]

وله فيه القصيدة المستهله بقوله [في «العكبري» ٣٨٥/٢] :

فِدَىٰ لَكَ مَنْ يُقْصَرُ عَنْ مَدَاكَ فَلَا مَلِكُ إِذَا إِلَّا فَدَاكَ

[من الرمل]

ومما ينسب لعضد الدولة - كما ذكره أبو منصور الثعالبي ، وغيره - قوله [في «قرى الضيف» ٢٥٩/٢] :

لَيْسَ شَرِبُ الرِّاحِ إِلَّا فِي الْمَطَرِ وَغِنَاءٌ مِنْ جَوَارِ فِي السَّحَرِ

(١) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه البخاري (٦٢٠٥) ، ومسلم (٢١٤٣) في الآداب . أخنع : أوضع وأذل وأرذل .

(٢) أبا شجاع : بدل من قوله : مولاها . قال في «العكبري» : قال أبو الفتح : هذا البيت على أنه قصير الوزن ، قد جمع فيه كنية الممدوح ، وبلده ، واسمه ، ولغته ، وسماء ملك الملوك ، وهو من أحسن الجمع والمدح . فتأخسر : اسم من أسماء الأسد ، وهو اسم عضد الدولة .

غَائِيَاتِ سَالِبَاتٍ لِلنَّهْيِ نَاغِمَاتٍ فِي تَضَاعِيفِ الْوَتْرِ
مُبْرِرَاتِ الْكَأْسِ مِنْ مَطْلَعِهَا سَاقِيَاتِ الرَّاحِ مَنْ فِاقَ الْبَشْرِ
عَضْدَ الدَّوْلَةِ وَإِنَّ رُكْنَهَا مَلِكَ الْأَمْلَاكِ غَلَّابَ الْقَدْرِ

نعوذ بالله من التعرض لغضب الله ومقته ، ومنازعته في أسمائه وجبروته ، ثم أشكل علي الأمر : بأن وفاة عضد الدولة كانت سنة : (٣٧٢هـ) ، ووفادة الناظم عليه ، كانت سنة : (٣٥٤هـ) ، وابن السبكي يقول : إن أول من نسئ (بشهناشاه) من آل بويه كان في سنة : (٤٢٩هـ) ، وأنى تكون الأوليّة في الاسم وقد أطلقها المنبى على العضد قبل هذا التاريخ بزمان ؟ فليأمل .

ويستحيل أن يكون الماوردي هو صاحب عضد الدولة ؛ إذ كانت وفاة الماوردي سنة : (٤٥٠هـ) عن ستّة وثمانين عاماً ، فسنة يوم وفاة العضد لا يتجاوز التسع .

ودون التسمي بملك الأملاك التسمي بحاكم الحكام ؛ فإنه فطيع ، ولكنه ليس بحرام ؛ لأنه ليس بصريح بل محتمل ، أمّا قاضي القضاة . . فقد أطبق العلماء على استعماله ، ثم لا يبعد أن يكون الناظم أراد التورية في البيت الذي نتكلم عليه بسيد البشر صلى الله عليه وسلم ، لا بمدوحه محمد بن أوس ، وبذلك يكون من الصادقين : [من الطويل]
فَمَا حَمَلَتْ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ كُورِهَا أَبْرَ وَأَوْفَى ذِمَّةً مِنْ مُحَمَّدٍ^(١)

وقد سبق عن منصور النميري نظيره في الكناية بهارون عن علي كرم الله وجهه ، وقد مرّ بعض ما يتصل بهذا الكلام في شرح قوله : [في « العكبري » ٣ / ١٦١] :

[أَمِطْ عَنْكَ تَشْبِيهِ بِمَا وَكَأَنَّهُ] فَمَا أَحَدٌ فَوْقِي وَلَا أَحَدٌ مِثْلِي

[الغلو في المديح]

وقال أبو العلاء المعري [في « سقط الزند » ١٧٧] :

لَوْلَا انْقِطَاعُ الْوَحْيِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ قُلْنَا مُحَمَّدٌ مِنْ أَبِيهِ بَدِيلُ
هُوَ مِثْلُهُ فِي الْفَضْلِ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَأْتِهِ بِرِسَالَةِ جَبْرِيلُ

قال القاضي عياض : فصدر البيت الثاني شديد ؛ لتشبيه غير النبي بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وأمّا العجز . . فمحتمل لوجهين :

أحدهما : أن هذه الفضيلة نقصت الممدوح .

والآخر : استغناؤه عنها ، وهذه أشد . انتهى .

ولا شك أن الاحتمال الثاني زيادة في الكفر ، وهو غير مستنكر من المعري مع تهجمه على الأنبياء ، وقلة احترامهم لهم ، كما في قوله :

كُنْتُ مُوسَى وَافْتُهُ بِنْتُ شُعَيْبٍ غَيْرَ أَنْ لَيْسَ فَيْكَمَا مِنْ فَيْقِرٍ

(١) قاله سارية الديلي في « المستطرف » ١ / ٤٩١ وهو الذي ناداه سيّدنا عمر رضي الله عنه بقوله : يا سارية ؛ الجبل الجبل .

فإن الاستدراك في الشطر الثاني لا يحتمل غير التحقير والازدراء بالأنبياء صلوات الله وسلامته عليهم أجمعين .

وقال الناظم في مديح طاهر بن الحسين العلوي [في «العكبري» ١/١٥٤-١٥٨] :

[من الطويل]

وَأَبْهَرُ آيَاتِ التَّهَامِيِّ أَنَّهُ أَبُوكُمْ وَأَجْدَى مَا لَكُمْ مِنْ مَنَاقِبِ^(١)
هُوَ ابْنُ رَسُولِ اللَّهِ وَابْنُ وَصِيِّهِ وَشِبْهَهُمَا شَبَّهْتُ بَعْدَ التَّجَارِبِ

غير أن البلاغة شيء ، والدين شيء آخر ، وهؤلاء الشعراء - بالأغلب - لا وازع لهم من الدين ، بل يمرّون مع خواطريهم ، وينفثون بكل ما توحى لهم ضمائرهم ، ومن ثمّ ضعف شعر بعض الصحابة ، بما عقد من ألسنتهم الحق ، بقدر ما أطلق من ألسنة من سواهم الباطل ؛ ولهذا قالوا : أظرف الناس الزنادقة ؛ إذ لا يتقيّدون بشيء من حرمة الدين ، بل يضحكون بما يحلّ وما لا يحلّ ، وقد قيل [القاتل أبو نواس كما في «مجمع الأمثال» (٦٢٧)] : تيه مَعْنُ ، وظرف زنديق^(٢) .

ومن محاسن الحجّاج قوله : وددت لو أنّي أدركت أربعة فقتلتهم شرّ القتل ، أحدهم عبيد الله بن زياد بن ظبيان ، قال له ابن مسمع : كثّر الله في العشيرة مثلك ، فقال : لقد سألت ربك شططا^(٣) .

ثم إن بيت الناظم الذي نتكلّم فيه . . متداول المعنى بين الشعراء ، قال أبو الشيص الخزاعي :

[من الكامل]

مَا كَانَ مِثْلَكَ فِي الْوَرَى فِيمَنْ مَضَى أَحَدٌ وَظَنِّي أَنَّهُ لَا يُخْلَقُ

وقال أيضاً :

[من البسيط]

لَوْ تَبَنَيْ مِثْلَهُمْ فِي النَّاسِ كُلِّهِمْ طَلَبْتَ مَا لَيْسَ فِي الدُّنْيَا بِمَوْجُودِ

وقال أبو تمام [في «ديوانه» ٢/٣١٤] :

[من الكامل]

هِيَ هَاتِ أَنْ يَأْتِيَ الزَّمَانَ بِمِثْلِهِ إِنَّ الزَّمَانَ بِمِثْلِهِ لَبِخِيلُ

فأخذه الناظم وقال [في «العكبري» ٣/٢٣٦] :

[من الكامل]

أَعْدَى الزَّمَانَ سَخَاؤُهُ فَسَخَا بِهِ وَلَقَدْ يَكُونُ بِهِ الزَّمَانَ بِخِيلاً

وفي هذا البيت دورٌ يفسده ، لأنه كيف يعدي الزمان بسخائه قبل وجوده ؟ وكيف يجود به الزمان قبل العدوى ، وهو بخيل ؟ إلا أن يجاب : بأن العدوى كانت في الأزّل ، وهو حينئذٍ شبيه بما نقرّره من أنّ خلق النفس الناطقة . . يكون

(١) قال الواحدي في شرح ديوان المتنبي ص ٣٣١ : قال أبو الفضل العروضي فيما أملاه عليّ : هذا بيت حسن المعنى مستقيم اللفظ حتى لو قلت : إنه أمدح بيت في شعره لم أبعد عن الصواب ولا ذنب له [أي المتنبي] إذا جهل الناس غرضه واشبهه عليهم ؛ أما معناه :

إن قريشاً وأعداء النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون : إن محمداً صنوبرٌ - أي مفرد أبت لا عقب له فإذا مات استرحنا منه فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ أي العدد الكثير ولست بالأبتر الذي قالوا : ﴿ إِنَّكَ شَايِئُكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ ؛ فقال المتنبي : أنتم من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم وآيات لتصديقه وتحقيق قول الله تعالى . . وذلك أجدي ما لكم من مناقب .

(٢) وأراد بقوله : (ظرف زنديق) : مطيع بن إياس ، ولقبه بشار بن برد ، وكان إذا وصف إنساناً بالظرف قال : أظرف من الزنديق ؛ لأن من ترندق كان له ظرف يبين به الناس .

(٣) «مجمع الأمثال» (٤٥٨٠) .

فَبَلَّ اسْتِعْدَادِ النُّطْفَةِ لِقَبُولِهَا بِزَمَانٍ بَعِيدٍ ، وَهُوَ الْحَقُّ ، خِلَافاً لِلغَزَالِيِّ ، وَابْنِ سِينَا ، وَالْحَكِيمِ السُّهْرَوَرْدِيِّ الْمَقْتُولِ .

[مِنَ الْكَامِلِ]

وَقَالَ الْبُحْتَرِيُّ :

وَلَيْسَ طَلَبْتُ شَيْهَهُ إِنِّي إِذْ
لَمْ كَلِّفْتُ طَلَبَ الْمَحَالِ رِكَابِي

[مِنَ الْكَامِلِ]

وَقَالَ ابْنُ دِيوَانِهِ « ١٦٥٩/٣ » :

لَا تَطْلُبَنَّ لَهُ الشَّيْبَةَ فَإِنَّهُ
قَمَرُ التَّأْمَلِ مُزْنَةُ التَّأْمِيلِ

[مِنَ الْبَسِيطِ]

وَقَالَ ابْنُ دِيوَانِهِ « ٢٠٤٤/٣ » :

إِلَى مُقِلِّ مِنَ الْأَكْفَاءِ لَوْ طَلَبُوا
مَكَانَ مُشْبِهِ فِي الْأَرْضِ مَا عَلِمَا

[مِنَ الْكَامِلِ]

وَقَالَ ابْنُ دِيوَانِهِ « ٢٤٠٦/٤ » :

فَتَى كَانَ يَأْبَى قَدْرُهُ أَنْ يُرَى لَهُ
نَظِيرٌ مُسَاوٍ أَوْ شَبِيهٌ مُشَاكِلٌ

[مِنَ الْكَامِلِ]

وَقَالَ ابْنُ دِيوَانِهِ « ٢٤٠٦/٤ » :

مَا زَالَ مُنْقَطِعَ الْقَرِينِ وَقَدْ أَرَى
أَنْ يُوجَدَ الْأَمْثَالَ وَالْأَشْبَاهُ
مَنْ لَا يَزَالُ مُشَاكِلٌ يَلْقَاهُ

[مِنَ الْكَامِلِ]

وَقَالَ ابْنُ دِيوَانِهِ « ٢٤٨-٢٤٩/١ » :

دَانَ عَلَى أَيْدِي الْعُقَاةِ وَشَاسِعٌ
كَالْبَدْرِ أَفْرَطَ فِي الْعُلُوِّ وَضَوْؤُهُ
عَنْ كُلِّ نِدٍّ فِي النَّدَى وَضَرِيبٍ^(١)
لِلْعُضْبَةِ السَّارِينِ جِدُّ قَرِيبٍ

[مِنَ الْمُتْقَارِبِ]

وَقَالَ ابْنُ الرَّومِيِّ ابْنُ دِيوَانِهِ « ١٦٨٨/٤ » :

فَهَلْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى مِثْلِهِ ؟
أَبَى اللَّهُ ذَاكَ عَلَى مَنْ خَلَقَ

[مِنَ السَّرِيعِ]

وَقَالَ :

لَيْسَ لَهُ عَيْبٌ سِوَى أَنَّهُ
لَا تَقَعُ الْعَيْنُ عَلَى مِثْلِهِ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَمَا زَالَ النَّاطِمُ يَحُومُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى . . . حَتَّى انْقَضَ عَلَيْهِ فِي قَوْلِهِ [فِي « الْعُكْبَرِيِّ » ١٨٩/٣] :

وَمَا عَزَّ فِيهَا مُرَادُ أَرَادَةٍ
وَإِنْ عَزَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلٌ

[مِنَ الْخَفِيفِ]

وَقَالَ الْحَصْنِيُّ :

لَمْ يَكُنْ فِي خَلِيقَةِ اللَّهِ نِدٌّ
لَكَ فِيمَا مَضَى وَلَيْسَ يَكُونُ

[مِنَ الْكَامِلِ]

وَقَالَ آخَرٌ - وَغَالِبُ ظَنِّي أَنَّهُ عُمَارَةُ الْيَمِينِيُّ يَمْدَحُ شَاوِرًا - [ظَنَّ الشَّيْخُ الْمُؤَلِّفُ صَاحِبَ كَمَا فِي « السِّرِّ » ٢١١/١٥] :

صَجَرَ الْحَدِيدِ مِنَ الْحَدِيدِ وَشَاوِرٌ
مِنْ نَصْرِ دِينَ مُحَمَّدٍ لَمْ يَضْجِرْ

(١) العفأة : كلُّ طالبٍ فضليٍّ أو رزقيٍّ . الشاسعُ : البعيدُ .

حَلَفَ الزَّمَانُ لِيَأْتِيَنَّ بِمِثْلِهِ حَيْثُ يَمِينُكَ يَا زَمَانُ فَكَفَّرَ

ويروى [في «وفيات الأعيان» ٣/ ٢٨٩] : أَنَّهُ لَمَّا مَاتَ إِلْكِيَا الْهَرَّاسِيُّ . . حَضَرَهُ قَاضِي الْقَضَاةِ ابْنُ الدَّامَغَانِيِّ ، وَأَبُو طَالِبِ الزَّيْنَبِيِّ ، وَقَدْ انْتَهَتْ إِلَيْهِمَا رِئَاسَةُ الْحَنْفِيَّةِ ، وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمَا تَنَافُسٌ وَتَنَافُرٌ فِي أَيَّامِ الْحَيَاةِ ، فَوَقَفَ أَحَدُهُمَا [ومر الدامغاني] عِنْدَ رَأْسِهِ ، وَتَمَثَّلَ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ :

وَمَا تَغْنِي النَّوَادِبُ وَالْبَوَاكِي وَقَدْ أَصْبَحْتَ مِثْلَ حَدِيثِ أُمِّسِ

فَأَنشَدَ الثَّانِي مَتَمَثِّلاً بِمَا يَنَاسِبُ الْمَقَامَ ، وَهُوَ قَوْلُ الْآخِرِ :

عَقِمَ النَّسَاءُ فَلَا يَلِدُنَّ شَبِيهَهُ إِنَّ النَّسَاءَ بِمِثْلِهِ عُقْمُ

وَأَكْثَرُ أَوْلَادِكَ الشُّعْرَاءِ مُغَالٍ فِي مَا قَالَ ، وَمَنْ ذَا الَّذِي يُوَقِّظُ مَرُوءَتَهُ ، وَيُنِيمُ هَوَاهُ ، وَيَزِنُ كَلَامَهُ ، وَيَنْظُرُ بِعَيْنِ الْإِنصَافِ وَالْمَعْدَلَةِ فِي مَا يَقُولُ ، وَيَتَرَسَّمُ قَانُونَ الْمَعْرِيِّ فِي قَوْلِهِ [في «سقط الزند» ١٥٧] :

وَرَتَّبِ النَّظْمَ تَرْتِيبَ الْخُلِيِّ عَلَى الشَّخْصِ الْجَلِيِّ بِلَا مَيْنٍ وَلَا خَرَقٍ^(١)

فَالْحِجْلُ لِلرَّجُلِ وَالتَّاجُ الْمُئِنْفُ لِمَا فَوْقَ الْحِجَاجِ وَعَقْدُ الدُّرِّ لِلْعُنُقِ^(٢)

وما علمتُ أحداً وضعَ هذا المعنى في موضعه سوى ابنِ عَبَّاسٍ ؛ إذ يَقُولُ [في «جمهرة خطب العرب» ١/ ٣٤٧] : عَقَمَتِ النَّسَاءُ أَنْ تَأْتِيَ بِمِثْلِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ؛ لِعَهْدِي بِهِ فِي (صَفِينِ) عَلَيْهِ عِمَامَةٌ بِيضَاءُ ، يَقْفُ عَلَى النَّاسِ شَرْدَمَةً شَرْدَمَةً حَتَّى انْتَهَى إِلَيَّ ، وَأَنَا فِي كَنَفِ مَنْ النَّاسِ ، حَوْلِي غَلَمَةٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ تَجَلَّبُوا السَّكِينَةَ ، وَكَمَّلُوا اللَّأَمَةَ ، وَأَقْلِقُوا السِّيُوفَ ، وَكَافِحُوا بِالطُّبَا ، وَصَلُوا السِّيُوفَ بِالْحُطَا ، فَإِنَّكُمْ بِعَيْنِ اللَّهِ ، وَمَعَ ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . وَذَكَرَ خُطْبَةً جَزَلَةً طَوِيلَةً .

[وصل السيوف بالخطا عند العرب]

وقوله : صَلُّوا السِّيُوفَ بِالْحُطَا مَوْجُودٌ بِكَثْرَةِ عِنْدَ الْعَرَبِ ، مِنْهُ قَوْلُ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ [في «ديوانه» ١٩٤] :

نِصْلُ السِّيُوفِ إِذَا قَصُرْنَ بِحُطُونَا قَدُمَا وَنُلْحِقَهَا إِذَا لَمْ تَلْحَقِ

وقولُ وَذَلِكَ بِنِ ثَمِيلٍ [في «ديوان الحماسة» ١/ ٣٣] :

مَقَادِيمُ وَصَّالُونَ فِي الرَّوْعِ خَطْوَهُمْ بِكُلِّ رَقِيقِ الشَّفَرَتَيْنِ يَمَانِي

إِذَا اسْتُنْجِدُوا لَمْ يَسْأَلُوا مَنْ دَعَاهُمْ لِأَيَّةِ حَرْبٍ أَمْ بِأَيِّ مَكَانٍ

وقال آخرُ [وهو الأحنسُ بنُ شهابٍ كما في «المثل السائر» ٢/ ٣٦٢] :

إِذَا قَصُرَتْ أَسْيَافُنَا كَانَ وَصْلُهَا حُطَانَا إِلَى أَعْدَائِنَا فَنُضَارِبُ

وقال نَابِعَةُ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ كَعْبٍ :

إِنْ تَسْأَلِي عَنَّا سَمَيَّ فَإِنَّهُ يَسْمُو إِلَيَّ فَحُمِ الْعُلَا نَارَانَا

(١) الْجَلِيُّ : الْعُرُوسُ . يَقُولُ : إِنَّ الشُّعْرَ أَشْبَهَ بِالْحُلِيِّ ، وَكُلُّ نَوْعٍ مِنْهُ يَلِيقُ بِعَضْوٍ مِنْ أَعْضَاءِ الْبَدَنِ ، وَكُلُّ نَوْعٍ مِنَ الشُّعْرِ يَلِيقُ بِوَاحِدٍ مِنَ الْمَمْدُوحِينَ .

(٢) الْحِجْلُ : هُوَ الْخَلْخَالُ .

وَتَبَيْتُ جَارَتَنَا حَصَاناً عِفَّةً
وَنَقُومُ إِنْ طَرَقَ الْمُنُونُ بِسُخْرَةٍ
أَنْ لَا نَفِرَّ عَنِ الْكُتَيْبَةِ أَقْبَلْتُ
وَتَعَيْشُ فِي أَحْلَامِنَا أَشْيَاعُنَا
وَإِذَا السُّيُوفُ قَصُرْنَ طَوْلَهَا لَنَا

وقال حميد بن ثور [في «ديوانه» ٨٨-٨٩] :

إِلَى أَنْ نَزَلْنَا بِالْفَضَاءِ وَمَالْنَا
وَوَضِلَّ الْخُطَا بِالسَّيْفِ وَالسَّيْفِ بِالْخُطَا

وقال أبو سعيد المخزومي :

وَإِذَا مَا الْحُسَامُ كَانَ قَصِيراً

وقال السموءل :

وَإِنْ قَصُرَتْ أَسْيَافُنَا كَانَ وَضْلُهَا

وقال بشامة بن حزين [في «البيان والتبيين» ١/٤٠٣] :

إِذَا الْكُمَاةُ تَنَحَّوْا أَنْ يَنَالَهُمْ

وقال غيره [في «البيان والتبيين» ١/٤٠٤] :

وَصَلْنَا الرَّقَاقَ الْمُزْهَفَاتِ بِخَطُونَا

تَرْضَى وَيَأْخُذُ حَقَّهُ مَوْلَانَا
لِوَصَاةِ وَالِدِنَا الَّذِي أَوْصَانَا
حَتَّى تَدُورَ رَحَاهُمْ وَرَحَانَا
مُرْزداً وَمَا وَصَلَ الْوُجُوهَ لِحَانَا
حَتَّى نَنَالَ مِنَ الْكُمَاةِ خُطَانَا

[مِنَ الطَّوِيلِ]

بِهِ مَعْقِلٌ إِلَّا الرِّمَاحُ الشَّوَاجِرُ^(١)
إِذَا ظَنَّ أَنَّ الْمَرْءَ ذَا السَّيْفِ قَاصِرٌ

[مِنَ الْخَفِيفِ]

طَوَّلَتْهُ إِلَى الْعَدُوِّ بَنَانِي

[مِنَ الطَّوِيلِ]

خُطَانَا إِلَى أَعْدَائِنَا فَتَطُولُ

[مِنَ الْبَسِيطِ]

حَدُّ السُّيُوفِ وَصَلْنَاهَا بِأَيْدِينَا

[مِنَ الطَّوِيلِ]

عَلَى الْهَوْلِ حَتَّى أَمْكَنْتَنَا الْمَضَارِبُ

[شر الشعراء من يناقض نفسه بنفسه]

فلنا : إن في كثيرٍ ممَّا سبق غُلوًّا ، وقد علمت ممَّا مرَّ أَنَّ الغلوَّ لَا يُقْبَلُ ، وشرٌّ مِنَ الغلوِّ أَنْ يقعَ فِيهِ الشاعِرُ وهو يعتقِدُ
خلافه ، وفي مقدِّمة هؤلَءِ . . . الناظِمُ ؛ بشهادة قولِهِ [في «المكبري» ٤/٢٩٥] :

وَلَوْلَا فَضُولُ النَّاسِ جِئْتُكَ مَادِحاً

وقوله [في «المكبري» ٤/٢١٣] :

مَدَحْتُ قَوْمًا وَإِنْ عَشْنَا نَظَّمْتُ لَهُمْ

في كثيرٍ مِنَ تلكَ الأمثالِ .

وقال من قبله الكميث [في «فصل المقال في شرح كتاب الأمثال» ١/١٩١] :

وَقَرَّظْتُكُمْ لَوْ أَنَّ تَقْرِيظَ مَادِحٍ
يُوَارِي عُورًا مِنْ أَدِيمِكُمْ النَّغْلِ^(٢)

(١) المعقِلُ : الملقبُ . الرماحُ الشواجرُ : المختلفةُ المتداخلةُ .

(٢) قالُ المُكَبَّرِيُّ : المعنى : مدحتُ قوماً لم يستحقوا المدحَ ؛ لبخلهم وجهلهم ، ولكن إن عشتُ . . . غزوتهم بخيلٍ إناثٍ وذكورٍ ، وجعل الخيلَ كالقصيدِ
المؤلفة التي مدحهم بها .

(٣) النَّغْلُ : فسادُ الجلدِ في دباغِهِ . وأديمكم النغلُ : جلدكم الفاسدُ .

إِنِّي مَدَحْتُكَ كَاذِبًا فَأَثَبْتَنِي لَمَّا مَدَحْتُكَ مَا يُثَابُ الْكَاذِبُ

وقال سلم الخاسرُ :

فَإِنْ تُعْطِنِي جِرْمٌ لِأَنِّي امْتَدَحْتُهَا فَمَا عَلِمْتَ جِرْمٌ لَهَا مَادِحًا قَبْلِي

وفي جرم - هؤلأء - يقول الآخرُ [وهو زيادُ الأعجم كما في «طبقات فحول الشعراء» ٦٩٨/٢] :

إِنِّي لَأُكْرِمُ نَفْسِي أَنْ أُكَلِّفَهَا هِجَاءَ جِرْمٍ وَمَا يَهْجُوهُمْ أَحَدٌ
مَاذَا يَقُولُ لَهُمْ مَنْ كَانَ هَاجِيَهُمْ لَا يَبْلُغُ النَّاسُ مَا فِيهِمْ وَإِنْ جَاهِدُوا

وعكس المعنى على سلم الخاسر أبو تمام في قوله [في «ديوانه» ٢٩١/١] :

كَرِيمٌ مَتَى أَمَدَحَهُ أَمَدَحُهُ وَالْوَرَى مَعِي وَإِذَا مَا لُمْتُهُ لُمْتُهُ وَخَدِي

وقال أبو نواس [بنحوه في «المستطرف» ٤/٢] : ما رأيتُ أكرمَ من جعفرِ بنِ يحيى ، لقد قلتُ فيه [في «ديوانه» ١٠٢] :

وَلَسْتُ وَإِنْ أَطْنَبْتُ فِي مَدْحِ جَعْفَرٍ بِأَوَّلِ إِنْسَانٍ خَرَى فِي ثِيَابِهِ

فأمر لي بعشرة آلاف درهم ، وقال : اغسل بهذا الخرا من ثيابك .

ولكنَّ أبا نواسٍ لم يتحدثْ بهذا . . إلا بعد أن مضى على البرامكة زمانٌ طويلٌ ، وإلا . . فقد كان جاحداً لفضلهم .

وقد سبقَ معنُ بنُ زائدةٍ إلى مثلِ هذهِ الفضيلةِ ، فقد استوجِرَ أعرابيٌّ على إغضابه ، فتلقاهُ بقصيدةٍ أقدَحَ له فيها ، حتَّى

قال :

أَتَذْكُرُ إِذْ قَمِيصُكَ جِلْدُ شَاةٍ وَإِذْ نَعْلَاكَ مِنْ جِلْدِ الْبَعِيرِ^(١)

فقال له : نعم ، أذكرُ ذلكَ ولا أنساهُ يا أبا العربِ ، والحمدُ لله على ما تفضَّلَ وأجملَ ، فقال له :

فَعَجَّلْ يَا ابْنَ نَاقِصَةِ بِمَالٍ فَلِئَنِّي قَدْ عَزَمْتُ عَلَى الْمَسِيرِ

فلم يثرْ له غضبٌ ، ولا تحرَّكَ له عرقٌ ، بل أمرَ له بمالٍ ، فقال :

قَلِيلٌ مَا أَمَرْتَ بِهِ وَإِنِّي لِأَطْمَعُ مِنْكَ فِي الشَّيْءِ الْكَثِيرِ

فأضعفه له حتَّى أَرْضاهُ ، فتخلَّصَ إلى مدحِهِ ، كذا رأيتُ القصَّةَ من زمانٍ طويلٍ في «أعلام النَّاسِ» ، وما رأيتها في

غيرِهِ ، واللهُ أعلمُ بصحَّتِها^(٢) .

(١) البيت في «جمهرة الأمثال» (٣٩/٢) بإبدال (جلد شاة) بـ : (جلد نيس) .

(٢) روى القصة صاحبُ «المنتظم حتَّى سنة [٢٥٧ هـ]» (٢٨٠/٦) عن الأصمعيِّ قصةَ تشبهها حيثُ قال : كانَ أعرابيانِ متواخيين ، غيرَ أنَّ أحدهما استوطنَ الرِّيفَ والآخرَ اختلَفَ إلى الحجَّاجِ فاستعملهُ على (أصفهان) ، فسمعَ به أخوه الذي بالباديةِ ، فغضبَ إليه ، فأقامَ ببابِهِ حيناً لا يصلُ إليه ، ثمَّ أذنَ له بالدُّخولِ ، وأخذهُ الحاجبُ ، فمضى به وهو يقولُ : سلامٌ على الأميرِ ، فلم يَلتفتْ إلى قولِهِ ، ثمَّ قالَ :

فَلَسْتُ مُسَلِّمًا مَا دُمْتُ حَيًّا عَلَيَّ زَيْنِدُ بِتَسْلِيمِ الْأَمِيرِ

فقالَ زيدٌ : لا أبالي . فقالَ الأعرابيُّ :

وقال ابن الرومي فيما نحن بسبيله [في «ديوانه» ١٤٢٢/٤] :

[من الوافر]

أَتَيْتُكَ مَادِحاً فَهَجَوْتُ شِعْرِي فَكَانَتْ هَفْوَةً مِنِّي وَغَلَطَهُ

وقال البُحترِيُّ [في «ديوانه» ١٨٦٥/٣] :

[من الطويل]

هُمُ سَرَقُوا طِرْفِي وَقَدْ جِئْتُ مَادِحاً لَهُمْ ، إِنَّ بَعْضَ الْمَدْحِ إِثْمٌ وَبَاطِلٌ^(١)

[ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً]

ومن هذا الباب [بنحوه في «المستطرف» ١٨/٢] : أَنَّ الْأَحْنَفَ بْنَ قَيْسٍ كَانَ عِنْدَ مَعَاوِيَةَ بِالْمَوْسِمِ ، بَعْدَ عَقْدِهِ الْبَيْعَةَ لِيَزِيدَ ، وَقَدْ نُصِبَ لَهُ قَبَّةٌ ، وَلِيَزِيدَ أُخْرَى ، فَكَانَ النَّاسُ يَسْلُمُونَ عَلَيْهِ ، وَيُثْنُونَ إِلَى يَزِيدَ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ أَحَدُ الْعَرَبِ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى يَزِيدَ ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مَعَاوِيَةَ ، وَقَالَ : أَشْهَدُ بِاللَّهِ أَنَّكَ لَوْ لَمْ تَوَلَّ هَذَا عَهْدَ الْمُسْلِمِينَ . . . لَكُنْتَ أَضَعْتَهُمْ ، فَارْتَاخَ لَهَا مَعَاوِيَةُ ، وَقَالَ لِلْأَحْنَفِ : مَا تَقُولُ يَا أَبَا بَخْرٍ ؟ قَالَ : نَخَافُ اللَّهَ إِنْ كَذَبْنَا ، وَنَخَافُكُمْ إِنْ صَدَقْنَا ، قَالَ : بِكُفْيَا مِنْكَ السُّكُوتُ ، ثُمَّ خَرَجَ الْأَحْنَفُ وَوَلَّى الرَّجُلَ ، فَقَالَ لَهُ : أَرَأَيْتَ مَا قُلْتَهُ لِمَعَاوِيَةَ أَنْفَاءً أَعَنَ صِحَّةَ اعْتِقَادٍ ؟ قَالَ : لَا وَاللَّهِ ، وَلَكِنَّهُمْ أَخَذُوا أَمْوَالَ اللَّهِ ، وَجَعَلُوا عَلَيْهَا أَقْفَالَ الْحَدِيدِ ، فَلَسْنَا نَسْتَخْرِجُهَا مِنْهُمْ إِلَّا بِمِثْلِ مَا سَمِعْتَ مِنَ الْكَلَامِ ، فَقَالَ لَهُ : وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « أَخْلِقْ بِذِي الْوَجْهَيْنِ أَنْ لَا يَكُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً »^(٢) .

[الدنيا مصالِح !! رحم الله أباك كان وكان . . . ولم يكن]

وكان العباس بن سهل بن سعد الأنصاري عامل ابن الزبير على (المدينة) ، ثم وُلِّيَ عَلَيْهَا عَثْمَانُ بْنُ حِيَّانَ بْنِ مَعْبِدِ الْمُرِّيِّ ، وَآلِي لَيْقَتَلَنَ الْعَبَّاسَ ، فَتَغَيَّبَ حَتَّى أَضْرَبَ بِهِ التَّغْيِيبُ ، وَرَغِبَ إِلَى أَصْحَابِ الْأَمِيرِ أَنْ يَشْفَعُوا لَهُ ، فَقَالُوا : لَا نَقْدِرُ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَذْكُرُ إِلَّا تَغَيَّبَ حَتَّى كَادَ يَتَفْسَخُ جِلْدُهُ ، غَيْرَ أَنَّهُ يَتَبَسَّطُ سَاعَةَ الطَّعَامِ ، وَيَرْتَاخُ عِنْدَهُ لِلْحَدِيثِ ، قَالَ الْعَبَّاسُ : فَتَنَكَّرْتُ ، وَحَضَرْتُ عَلَى طَعَامِهِ ، وَجِيءَ بِجَفْنَةٍ عَلَيْهَا اللَّحْمُ وَالشَّرِيدُ ، فَقُلْتُ :

وَاللَّهِ لَكَأَنِّي أَنْظَرُ إِلَى جَفْنَةِ حِيَّانَ بْنِ مَعْبِدٍ يَتَكَوَّسُ النَّاسُ عَلَيْهَا ، وَهُوَ يَطُوفُ فِي أَرْدِيَةِ الْخَزْ ، يَتَفَقَّدُ مِصَالِحَهُمْ ، حَتَّى إِنَّ الْحَسَكَ لِيَتَعَلَّقُ بِهِ فَلَا يُمِيطُهُ ؛ مِنْ شِدَّةِ اهْتِمَامِهِ بِضَيْفِهِ ، وَلَا يَكُلُ ذَلِكَ إِلَى حَاشِيَتِهِ ، بَلْ يِرَاقِبُهُمْ بِنَفْسِهِ ، ثُمَّ يُوْتِي بِجَفْنَةٍ يَحْمِلُهَا أَرْبَعَةٌ مَا يَسْتَقْلُونَ بِحَمَلِهَا إِلَّا بِمَشَقَّةٍ وَعَنَاءٍ ، وَهَذَا بَعْدَ مَا يَفْرَعُ النَّاسُ مِنَ الطَّعَامِ ، يَجْلِسُ عَلَيْهَا هَوَّ الطَّارِيءُ مِنْ أَشْرَافِ قَوْمِهِ ، وَمَا بَأَكْثَرِهِمْ مِنْ حَاجَةِ إِلَى الْأَكْلِ ، وَلَكِنْ يَحْتَبُونَ الْفَخْرَ بِالْدَنُوِّ مِنَ طَعَامِهِ ، وَمِشَارَكَةِ يَدِهِ .

= أَتَذْكُرُ إِذْ لِحَافِكَ جِلْدُ شَاةٍ وَإِذْ تَعْلَاكَ مِنْ جِلْدِ الْبَيْعْرِ
فَقَالَ : نَعَمْ . فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ :

فَبَيَّحَانَ الَّذِي أَغَطَاكَ مُلْكَا وَعَلَّمَكَ الْجُلُوسَ عَلَى السَّرِيرِ
(١) الطُّرْفُ : الْكَرِيمُ مِنَ الْخَيْلِ .

(٢) أَخْرَجَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مُسْلِمٌ (٢٥٢٦) فِي الْفَضَائِلِ : « وَتَجِدُونَ مِنْ شَرَارِ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هَلْوَاءَ بُوْجِهٍ وَهَلْوَاءَ بُوْجِهٍ » (و (٢٦٠٤ م) وَفِيهِ : « إِنْ شَرَّ النَّاسِ ذُو الْوَجْهَيْنِ » . وَفِي الْبَابِ : عَنْ عِمَارٍ عِنْدَ الدَّارِمِيِّ (٢٦٦٢) : « مَنْ كَانَ ذَا وَجْهَيْنِ فِي الدُّنْيَا كَانَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِسَانَانِ مِنْ نَارٍ » .

قَالَ : هِيَ ، أَنْتَ رَأَيْتَهُ كَذَلِكَ ، قُلْتُ : إِي وَرَبِّ الْكَعْبَةِ ، قَالَ : وَمَنْ أَنْتَ ؟ قُلْتُ : وَأَنَا آمِرٌ ، قَالَ : نَعَمْ ، قُلْتُ : أَنَا الْعَبَّاسُ بْنُ سَهْلِ بْنِ سَعِيدٍ ، قَالَ : لَا تَثْرِبَ عَلَيْكَ ، وَأَهْلًا بِكَ ، وَلَقَدْ أَبْطَأَتْ عَلَيْنَا ، وَإِنَّا إِلَىٰ مِثْلِكَ لَمُحْتَاجُونَ .

قَالَ : فَلَقَدْ رَأَيْتُنِي وَمَا بِلَا الْمَدِينَةِ (أَثْرٌ وَلَا أَوْجَهُ عِنْدَهُ مِنِّي .

قَالُوا لَهُ : وَأَنْتَ رَأَيْتَ حَيَّانَ كَذَلِكَ ؟ قَالَ : لَا وَاللَّهِ ، لَقَدْ نَزَلْنَا مَرَّةً عَلَىٰ بَعْضِ الْمِيَاهِ ، فغَشِينَا وَعَلَيْهِ عِبَاءَةٌ بِالْيَةِ ، فَجَعَلْنَا نَدْوُدُهُ عَنْ رِحَالِنَا ؛ مَخَافَةَ أَنْ يَسْرِقَهَا ، وَأَعْطَيْنَاهُ تَمْرًا أَكْثَرُهُ حَشْفٌ ، فَفَرِحَ بِهِ ، وَكَانَ قَدِ مَسَّ عِثْمَانَ هَذَا - أَوِ الْوَالِدَةَ حَيَّانَ - أَسْرًا ، وَلِهَذَا رَدَّهُ عَقِيلُ بْنُ عُلْفَةَ لَمَّا خَطَبَ إِلَيْهِ ابْنَتُهُ ، وَقَالَ لَهُ [فِي «الْأَعْيَانِ» ١٢/٢٩٨] : تَرِيدُ نَاقَتِي ؟ فَظَنَّ عِثْمَانُ أَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ ، فَفَرَعَ صَوْتَهُ وَقَالَ : زَوَّجْنِي بِنَتِكَ ، فَقَالَ : أَنَا قَتِي أَصْلَحَكَ اللَّهُ ؟ فَجَفَاهُ ، وَأَمَرَ بِإِخْرَاجِهِ ، وَكَانَ ابْنُ عَمِّ لَهُ ، فَقَالَ :

وَكُنَّا بَيْنِي غَيْظٌ رَجَالًا فَاصْبَحْتُ بَنُو مَالِكٍ غَيْظًا وَصِرْنَا لِمَالِكِ
لَحَى اللَّهُ دَهْرًا دَغْدَعَ الْمَالَ كُلَّهُ وَسَوَّدَ أَبْنَاءَ الْإِمَاءِ الْعَوَارِكِ^(١)

[وهل أنا إلامهرة عربية]

وَذَاكَ شَبِيهٌ بِمَا قَالَتْهُ ابْنَةُ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ لَزَوْجِهَا رُوحِ بْنِ زُبَاعٍ [فِي «وَفِيَاتِ الْأَعْيَانِ» ٣/٩٥] ، وَكَانَ سَيِّدَ (الْيَمَنِ) وَخَطِيْبَهُمْ ، وَقَانَدَهُمْ بِ(الشَّامِ) ، غَيْرَ أَنَّهُ قَدِ مَسَّهُ الْأَسْرُ يَوْمَ الرَّجِّ ، فَلَمْ تَزَلْ تَعْيِرُهُ بِذَلِكَ ، حَتَّى قَالَتْ : [مِنَ الطُّوِيلِ]

وَهَلْ أَنَا إِلَّا مُهْرَةٌ عَرَبِيَّةٌ سَلِيلَةُ أَفْرَاسٍ تَجَلَّلَهَا بَغْلٌ
فَإِنْ تَنَجَّجْتُ مَهْرًا كَرِيمًا فَبِالْحَرِيِّ وَإِنْ يَكُ أَقْرَافٌ فَمَا أَنْجَبَ الْفُحْلُ

وَبَعْضُهُمْ يَنْسِبُ هَٰذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ لَهْنِدِ زَوْجِ الْحَجَّاجِ ، وَهُوَ خَطَأٌ ، وَإِنَّمَا تَمَثَّلَتْ بِهِمَا ؛ لِمُنَاسَبَتِهِمَا لِحَالِهَا ، فِي حَدِيثٍ لَهَا مَعَ الْحَجَّاجِ طَرِيفٌ ، غَيْرَ أَنَّا لَا نَطِيلُ بِهِ^(٢) .

[وجعل من الجبان بطلاً من أجل المصلحة]

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ : حَضَرْتُ مَجْلِسَ زِيَادٍ ، فَجَاءَ رَجُلٌ وَقَالَ : إِنَّ لِي حَرَمَةً أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، أَفَأَذْكُرُهَا ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : رَأَيْتَكَ بِالطَّائِفِ وَأَنْتَ غَلِيمٌ ذُو ذَوَابِيَةِ ، وَقَدْ أَحَاطَتْ بِكَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعِلْمَانِ ، وَأَنْتَ تَرْكُضُ هَذَا ، وَتَنْطَحُ هَذَا ، وَتَكْدِمُ هَذَا ، وَهُمْ يَنْثَالُونَ عَلَيْكَ مَرَّةً ، وَيَنْدُونَ عَنْكَ أُخْرَى ، وَأَنْتَ تَتَّبِعُهُمْ ، حَتَّى كَاثُرُوكَ ، فَحَجَزْتُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ ، وَأَنْتَ سَلِيمٌ ، وَكُلُّهُمْ جَرِيحٌ ، قَالَ : صَدَقْتَ ، أَنْتَ ذَلِكَ الرَّجُلُ ؟ قَالَ : أَنَا ذَاكَ ، قَالَ : حَاجَتُكَ ؟ قَالَ : الْغَنَى عَنِ الطَّلَبِ ، فَقَالَ : يَا غَلَامُ ، أَعْطَاهُ كُلَّ صَفْرَاءٍ وَبَيْضَاءٍ عِنْدَكَ ، فَلَمْ يَنْصَرِفْ إِلَّا بِأَرْبَعَةٍ وَخَمْسِينَ أَلْفَ دَرَاهِمٍ ، فَقِيلَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ : أَنْتَ رَأَيْتَ زِيَادًا وَهُوَ غَلَامٌ عَلَىٰ تِلْكَ الْحَالِ ؟ قَالَ : لَا وَاللَّهِ ، وَلَكِنْ رَأَيْتُهُ وَقَدْ اكَتَنَفَهُ صَبِيَّانِ صَغِيرَانِ ، كَأَنَّهُمَا مِنْ سِخَالِ الْمَغْزِ ، فَلَوْلَا أَنِّي أَدْرَكْتُهُ . . لِأَتِيَا عَلَيْهِ .

(١) ذَعْدَعُ : فَرَّقَ وَبَدَّدَ .

(٢) وَالْقِصَّةُ رَوَاهَا الْأَبْشَيْهِيُّ فِي «الْمُسْتَرْفِ» (١٢٣/١) .

ولمَّا استلحق معاويةً زياداً . قَالَ الجاحِظُ : مرَّ وهوَ والي (البصرةِ) بأبي العريانِ العدويِّ ، وكان شيخاً مكفوفاً ، ذا لسانٍ وعارضةً شديدةً ، فقالَ أبو العريانِ : ما هذهِ الجَلْبَةُ ؟ قالوا : زيادُ ابنُ أبي سفيانَ في موكبهِ ، قالَ : واللهِ ما تركَ أبو سفيانَ إلاَّ يزيدَ ، ومعاويةَ ، وعتبةَ ، وعنبسةَ ، وحنظلةَ ، ومحمّداً ، فمن أين جاءَ زيادٌ ؟ فبلغَ الكلامُ زياداً ، وقالَ لهُ قائلٌ : لو سدَدتَ عنكَ فَمَ هذا الكلبِ ؟ فأرسلَ إليهِ بمئتي دينارٍ . فقالَ لهُ رسولُ زيادٍ : إنَّ الأميرَ زياداً ابنَ عمِّكَ قد بعثَ إليكَ بمئتي دينارٍ ؛ لتستعينَ بها على نفقتِكَ ، قالَ : وصلَّتهُ رحِمَ ، أي واللهِ ابنُ عمي حقاً ، ثمَّ مرَّ بهُ زيادٌ من الغدِ في موكبهِ ، فوقفَ عليهِ ، وسلَّم ، فبكى أبو العريانِ ، فقيلَ لهُ : ما يبكيكَ ؟ قالَ : حنٌّ في أذني صوتِ أبي سفيانَ من لسانِ زيادٍ ؟ فبلغَ ذلكَ معاويةَ ، فكتبَ إلى أبي العريانِ [في ديوانه ، ١٢٢] : [من البسيطِ]

مَا أَلْبَيْتُكَ الدَّنَائِرُ الَّتِي بُعِثَتْ أَنْ لَوَّتَكَ أبا العُرْيَانِ أَلْوَانَا
أَمْسَى إِلَيْكَ زِيَادٌ فِي أُرُومَتِهِ نُكْرًا فَأَصْبَحَ مَا أَنْكَرْتَ عِرْفَانَا
للهِ دَرُّ زِيَادٍ لَوْ تَعَجَّلَهَا كَانَتْ لَهُ دُونَ مَا يَخْشَاهُ قَرْبَانَا!

فلمَّا قرأ كتابُ معاويةَ على أبي العريانِ . . قالَ : اكتب في جوابه يا غلامُ :

أَحَدِثْ لَنَا صِلَةَ تُخَيِّ التُّفُوسَ بِهَا قَدْ كَذتَ يَا ابْنَ أَبِي سُفْيَانَ تَسَانَا
أَمَا زِيَادٌ فَقَدْ صَحَّحَتْ مَنَاسِبُهُ عِنْدِي فَلَا أَبْتَغِي فِي الْحَقِّ بُهْتَانَا
مَنْ يُسَدِّ خَيْرًا يُصِبُهُ حِينَ يَفْعَلُهُ أَوْ يُسَدِّ شَرًّا يُصِبُهُ حَيْثُمَا كَانَا

[يغيّر رأيه في الرجل . . بمجرد هدية]

ولمَّا ولي الحسنُ بنُ عمارَةَ المظالمِ . . قالَ الشعبيُّ : ظالمٌ ابنُ ظالمٍ يتولَّى المظالمَ ، فاتصلتُ بالحسنِ ، وثقلَ عليه أن يحطَّ من قدره عالمُ المصيرِ ، فأهدى إليه رزمةً من الثيابِ ، فيها صرةٌ من الذهبِ ، ودرسَ من يُجري ذكرهُ بمجلسه ، فقالَ : أَمَا واللهِ لقد زانَ الوظيفةَ ، ولم تزنه ، فقالوا لهُ : بالأمسِ تقولُ كذا ، واليومَ هذا قولك ؟! فقالَ : إنَّه أهدى إلينا ، وقد جُبلتِ القلوبُ على حُبِّ من أحسنَ إليها ، فقالوا : الهديةُ مشتركةٌ ، قالَ : ذاكَ حيثُ كانتِ الهدايا اللَّبنَ والجبنَ والأقطَ . ذكرها الغزاليُّ في « الإحياء » وغيره .

[النفاق والمداهنة ليس أمرًا حديثًا]

وما زالتِ الدنيا مملوءةً نفاقاً ، إلاَّ أن يخفَّ وطأةُ بما يداخله من التَّظَرُّفِ ، كما في أحاديثِ هؤلاءِ ، بخلافِ المتصنعين الذين يخادعون اللهَ وعبادَهُ ، بل يخادعونَ حتَّى أنفسهم ، وقد صانَ اللهُ قريشاً فيما سلفَ عن النفاقِ ، فلا نجدُ عندهم إلاَّ كفراً صريحاً ، أو إيماناً صحيحاً ، أمَّا اليومُ . . فلا تجدُ الكذبَ والغدرَ ، وسوءَ المعاملةِ ، وإظهارَ الصداقةِ ، وإضمارَ العداوةِ . . أكثرَ ما يكونُ إلاَّ عندهم ، ومعاذَ اللهِ أن أقولَ ما ليس لي به علمٌ ، فأعمَّ سائرهم في مشارقِ الأرضِ ومغاربِها ، وإنَّما أخصُّ بحكمي من جرَّبتهُ من أهلِ بلادنا ، ولا أقولُ هذا إلاَّ مع احتراقِ الضميرِ ، وحسرةِ القلبِ ، ولكنَّ الحقيقةَ فوقَ كلِّ شيءٍ ، وهبني واربتُ ، فلن أستفيدَ إلاَّ التكذيبَ بعد انكشافِ الأمرِ واتضح الحالِ .

وَمِنَ النُّوَادِرِ عِنْدَنَا ، أَنَّهُمْ وَقَتَّمَا كَانُوا يَعْمُرُونَ الرِّبَاطَ بِ(تَرِيمَ) ، كَانَ السَّيِّدُ عَبْدُ الْقَادِرِ بْنِ أَحْمَدَ الْحَدَّادُ مِنْ جَمَلَةِ الْقَائِمِينَ فِيهِ ، وَكَانَ السَّيِّدُ عَلِيُّ بْنُ حَسَنِ الْحَدَّادُ - صَاحِبُ الْمَقَامِ لَذَلِكَ الْعَهْدِ - مِنَ الْمُنْكَرِينَ ، قَالَ : لِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ فِعْلِ السَّلْفِ ، وَلِأَنَّهُ مِمَّا لَا تَخْلُصُ النِّيَّةُ فِيهِ لَطَلْبِ الْعِلْمِ ، فَوَرَدَ السَّيِّدُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحْسِنِ بْنِ جَعْفَرِ الْحَبَشِيِّ إِلَى (تَرِيمَ) ، وَبَاتَ عِنْدَ السَّيِّدِ عَبْدِ الْقَادِرِ ، فَقَالَ لَهُ : لَقَدْ رَأَيْتُ الْفَقِيهَ الْمَقْدَمَ ، وَالسَّقَافَ ، وَالْمَحْضَارَ ، وَالْعِيدَرُوسَ ، كُلُّ وَاحِدٍ حَامِلٌ لَبَنَةً يَضَعُهَا عَلَى رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ الرِّبَاطِ ، ثُمَّ عَاجَ^(١) إِلَى عِنْدِ السَّيِّدِ عَلِيِّ بْنِ حَسَنِ ، وَقَالَ لَهُ : لَقَدْ رَأَيْتُ الْبَارِحَةَ أَرْبَعَةَ مِنْ الشَّيَاطِينِ ، كُلُّ وَاحِدٍ يَبُولُ إِلَى زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَا الرِّبَاطِ .

[عودة إلى المديح]

ولنعد إلى ما يتعلّق بالبيت ، فنقول : لَقَدْ قَصَرَ حَسَانٌ فِي مَدْحِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ يَقُولُ [في «ديوانه» ١/٤٤١] :

[مِنَ الْوَافِرِ]

وَأَحْسَنَ مِنْكَ لَمْ تَرَ قَطُّ عَيْنِي وَأَجْمَلَ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ النِّسَاءَ
خُلِقْتَ مُبَرَّأً مِنْ كُلِّ عَيْبٍ كَأَنَّكَ قَدْ خُلِقْتَ كَمَا تَشَاءُ

ولكنّه جهدُ المقلِّ ، إذ كلُّ مدحٍ تقصيرٌ فيه ، غيرَ أنّ ما لا يستطيعُ كلُّه . . لا يتركُ كلُّه ، وما أسوأَ أدبِ أبي تمامٍ في نقلِهِ معنى البيتِ الأخيرِ إلى مَنْ لا يستحقُّ ، حيثُ قال [في «ديوانه» ١/٤٠٦] :

[مِنَ الْوَافِرِ]

فَلَوْ صَوَّرْتَ نَفْسَكَ لَمْ تَزِدْهَا عَلَى مَا فِيكَ مِنْ كَرَمِ الطَّبَّاعِ

ولئن وقعتُ في قريبٍ منه ، إذ رثيتُ ولدي بصريّ . . فعذري في أنّه من تلك النبعة ؛ وأنّه لم يبلغِ الحلمَ ، مع شهادةِ العيانِ والحسنِ بما قلتُ فيه من الطهارةِ .

[مِنَ الْوَافِرِ]

وقال بعضهم : يمدحُ أوسَ بنَ حارثةَ بنِ لأمٍ [في «ثمار القلوب» ١/١١٩] :

إِلَى أَوْسِ بْنِ حَارِثَةَ بْنِ لَأَمٍ لِيَقْضِيَ حَاجَتِي فِيمَنْ قَضَاهَا
فَمَا وَطِئَ الْخَصِيَّ مِثْلَ ابْنِ سَعْدِي وَلَا لَبَسَ النَّعَالَ وَلَا اخْتَذَاهَا

[مِنَ الطُّوِيلِ]

وكانَ قد ظفرَ به بعدَ هجاءِ له منه ، فأطلقَهُ بإشارةِ أمِّه ؛ إذ قال [كما في «المثل السائر» ٢/١١١] :

فَهَبْ لِي حَيَاتِي وَالْحَيَاةَ لِقَائِمٍ يَسْرُكُ فِيهَا حِينَ مَا أَنْتَ وَاهِبُ
سَأْمُحُو بِمَدْحِ فِيكَ إِذْ أَنَا صَادِقُ كِتَابَ هِجَاءِ سَارٍ إِذْ أَنَا كَاذِبُ

وما أدري بصاحبِ الشعرِ ، أهو الحطيئةُ ، أم بشرُ بنُ أبي خازمٍ ؟ فقد جرى له مع كلِّ نحوٍ ممَّا ذكرناه .

وقلّمَا تقدّمَ الناظمُ لأحدٍ بمدحِهِ . . إلّا أقطعَهُ جانبَ التفرّدِ ، كما سبقَت الإشارةُ إلى بعضِ شعرِهِ في مثلهِ عندَ الكلامِ على قولِهِ [في «العكبريّ» ١/٣١٠] :

[مِنَ الْمُنْسَرَجِ]

قَدْ أَجْمَعَتْ هَذِهِ الْخَلِيقَةَ لِي أَنْتَ يَا ابْنَ النَّبِيِّ أَوْحَدَهَا

(١) عَاجَ : عَطَفَ وَمَالَ إِلَيْهِ .

[مِنَ الْكَامِلِ]

مِنَ الْمَجْلِسِ الثَّالِثِ ، وَأَفْطَحُ مَا فِيهِ قَوْلُهُ [فِي « الْعُكْبَرِيِّ » ١١ / ٤] :

إِنْ كَانَ مِثْلَكَ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنْ فَبَرِئْتُ حِينَئِذٍ مِنَ الْإِسْلَامِ
وَأُنِي لِأَعْجَبُ مِنْ سَكُوتِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ عَلَى مِثْلِ هَذَا ، وَلَكِنْ قَدْ عَرَفْنَاكَ أَحْوَالَ الْمُلُوكِ .

[مَوْقِفَ رَجُولِي لِلْمَأْمُونِ]

وَقَدْ انْفَقَ لِلْمَأْمُونِ الْعَبَّاسِيِّ [كَمَا فِي « الْأَغَانِي » ٣٤١ / ١١] أَنْ عَزَلَ قَاضِي (دِمَشْقَ) [وَهُوَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ الْخَلْنَجِيِّ] لَمَّا غَنَاهُ
عَلْوِيَهُ بِقَوْلِهِ [أَيُّ الْخَلْنَجِيِّ] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

بَرِئْتُ مِنَ الْإِسْلَامِ إِنْ كَانَ ذَا الَّذِي أَتَاكَ بِهِ الْوَأَشُونَ عَنِّي كَمَا قَالُوا
وَلَكِنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْكَ سَرِيعَةً إِلَيَّ تَوَاصَوْا بِالنَّمِيمَةِ وَاحْتَالُوا

فَحَلَفَ الْقَاضِي أَنَّهُ [قَالَ مَذْكَانٌ حَدَّثَنَا وَانْه] مِنْذُ ثَلَاثِينَ^(١) سَنَةً لَمْ يَنْظَمْ إِلَّا فِي الزَّهْدِ ، قَالَ الْمَأْمُونُ : مَهْمَا يَكُنْ مِنْ
الْأَمْرِ . . . فَلَنْ أَجْعَلَ عَلَى رِقَابِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ يَبْدَأُ فِي هَزْلِهِ بِالْبِرَاءَةِ مِنَ الْإِسْلَامِ .

وَلَعَلَّهُ لَمْ يَتَّقِ مِنْ حَسَنِ نَيْبِهِ ، وَإِلَّا . . . فَالتَّوْبَةُ الصَّادِقَةُ تَغْسِلُ مَا قَبْلَهَا ، وَلَا سَيِّمًا بَعْدَ انْقِضَاءِ مَدَّةِ الْاسْتِبْرَاءِ ، أَوْ جَرَى
عَلَى عَادَةِ الْمُلُوكِ مِنَ التَّجَنُّبِ عَلَى عِظْمَاءِ الرِّجَالِ ، وَافْتِجَارِ الْعِيُوبِ لَهُمْ ، لِتَشْفِي ضَبَابَ حَقْدِهَا عَلَيْهِمْ ، بِمَا يَقُولُونَ
مِنَ الْحَقِّ ، مِنْ حَيْثُ تَنْظُرُ أَنَّ النَّاسَ لَا يَطَّلِعُونَ عَلَى سُوءِ نَوَايَاهُمْ ، وَخَبِثِ غَوَائِلِهِمْ ، وَلَا يَعْدَمُونَ مِنْ عِلْمَاءِ السُّوءِ
مَنْ يَزِينُ لَهُمْ ذَلِكَ ، وَيَسَاعِدُهُمْ عَلَيْهِ .

[شَرُّ الْعِلْمَاءِ . . . عِلْمَاءُ الْمُلُوكِ]

وَكَانَ يُقَالُ [كَمَا فِي « الْمُسْتَرْفِ » ٥٠ / ١] مِنْ قَوْلِ الْفَضِيلِ بْنِ عِيَاضٍ : شَرُّ الْعِلْمَاءِ عِلْمَاءُ الْمُلُوكِ .

وَقَلَّمَا ذَهَبَ عَظِيمٌ مَعَ شَفَرَاتِ سَيُوفِهِمْ إِلَّا مَظْلُومًا ، يَجِبُ أَنْ نَتَحَرَّى فِي كَلَامِ الْمُرَّخِينِ عَنْهُ ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَكْتُبُونَ إِلَّا
تَحْتَ الرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ ، أَوْ مَقْلُدُونَ لِمَنْ يَكْتُبُ تَحْتَ ذَلِكَ التَّأثيرِ ، وَهُوَ مِمَّا تُعَلَّلُ بِهِ رَوَايَاتُ الثَّقَاتِ ، فَضْلًا عَمَّنْ لَمْ
يَرِحْ رَائِحَةَ الْعَدَالَةِ .

* * *

[مِنَ الْكَامِلِ]

[قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّيُّ فِي « الْعُكْبَرِيِّ » ٣٣٩ / ٢] :

يَا ذَا الَّذِي يَهَبُ الْجَزِيلَ وَعِنْدَهُ أَنِّي عَلَيْهِ بِأَخْذِهِ أَتَصَدَّقُ

[شَرْحُ الْمَطْلَعِ]

بِقَوْلِهِ : إِنَّ مَمْدُوحَهُ يُعْطِي الْعَطَاءَ الْجَزِيلَ ، وَيُرَى الْمَنَّةَ لِلْأَخْذِ ، وَقَالُوا [فِي « الْعُكْبَرِيِّ » ٣٣٩ / ٢] : إِنَّ أَسْلَهُ قَوْلُ زُهَيْرِ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

[فِي « دِيوانِهِ » ٥٧] :

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلاً كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلُهُ

(١) فِي « الْأَغَانِي » : (مِنْذُ عَشْرِينَ سَنَةً) .

والفرق واضح ، فبيت الناظم أبلغ مدحاً ، وأشرف معنى ، وأراهم يطنبون في الثناء على بيت زهير ، ويدّعي بعضهم أنه أمدح بيت قائلته العرب ، وعندى أنه ليس هناك ؛ لأنّ الفرح بالأخذ ليس في شيء من الشرف ، ففي ذكره حط من المقام ، وتقصير بالممدوح ، فالبيت بالذم أشبه منه بالمدح ، ويقرب منه قول الناظم [في «العكبري» ٣/ ٨١] : [من البسيط]

تُمسِي الأمانِي صَرَعى دُونَ مَبْلَغِهِ فَمَا يَقُولُ لِشَيْءٍ : لَيْتَ ذَلِكَ لِي

أما قول الناظم : (وَعِنْدَهُ أَنِّي عَلَيْهِ بِأَخْذِهِ أَتَصَدَّقُ) . . . فَمِنْ أبلغ المدح ؛ إذ يشهد بانطباع الممدوح على الجود ، فكأنه لما يجد من عظيم لذة الإحسان . . . يرى المنّة للأخذ ؛ إذ لولاه لما حصلت له تلك اللذة ، وفي الموضوع أبيات لأبي ذؤيب العجلي ، تأتي إن شاء الله أول المجلس الخامس عشر عند قول الناظم [في «العكبري» ٢/ ٣٣٩] : [من الكامل]

أَمْطِرْ عَلَيَّ سَحَابَ جُودِكَ ثَرَّةً وَأَنْظِرْ إِلَيَّ بِرَحْمَةٍ لَا أَعْرِقُ

ومنه قوله عن سيف الدولة [في «العكبري» ١/ ٩٩] :

[إِذَا حَارَ مَالاً فَقَدْ حَارَهُ] فَتَى لَا يُسَرُّ بِمَا لَا يَهَبُ

ولو أن زهيراً قال عن ممدوحه : إِنَّهُ يَفْرَحُ بِالْبَدْلِ ، كَمَا يَفْرَحُ الْمَحْتَاJُ بِالأَخْذِ . . . لِأَصَابِ ، وقد قال أبو تمام [في «ديوانه» ١/ ٢٧٠] :

أَسْأَلُ نَصْرٍ لَا تَلْمُهُ فَإِنَّهُ أَحْسَنُ إِلَى الإِزْفَادِ مِنْكَ إِلَى الرَّفْدِ^(١)

وقال أبو نوفل عمرو بن محمد الثقفي :

وَلَيْنَ فَرِحْتَ بِمَا يُنِيلُكَ إِنَّهُ لَبِمَا يُنِيلُكَ مِنْ نَدَاهُ أَفْرَحُ
مَا زَالَ يُعْطِي نَاطِقاً أَوْ صَامِئاً حَتَّى ظَنَنْتُ أَبَا عَقِيلٍ يَمْزَحُ

[صور رائعة من الجود والإيثار على النفس]

وذكر [في «وفيات الأعيان» ٤/ ٣٤٩] : أَنَّ الواقديّ المفسّر كَانَ لَهُ صديقَانِ ، أَحدهما هاشميّ ، فجاءَ عيدٌ ولم يكن عنده إلاّ خمسُ مئةِ درهمٍ ، فبينما هو يتأمّرُ وامرأتهُ فيما يأخذون بها للعيد . . . جاءه كتابٌ من صديقه الهاشميّ يستسلفه ، ويخبره بحاجته ، فقال لامرأته : إِنْ أُعْطِينَاهُ إِيَّاهَا . . . بقينا بلا شيءٍ ، وَإِنْ قَسَمْنَاها . . . لم تنفعنا ولم تنفعه ، قالت : بل أعطه إِيَّاهَا ، ويكفينا التلذذُ بالإيثار ، فدفعها لخادمه ، وما كان بأسرعٍ من أن رجعت له الصرةُ بختمها ، وذلك أنه بعد ما بعث بها للهاشميّ ، كتب لصديقه الآخر يستميحه ويستعينه ، فكتب ذاك للهاشميّ ، فبلغت القصةُ إلى المأمون ، فأعظم مروءتهم ، وبعث إليهم بسبعةِ آلافِ دينارٍ ، للمرأةِ ألفٌ ، ولكلِّ ألفانٍ ، وعندى أنه قصرَ في حقِّ المرأةِ التي هي أصلُ تلك الأكرامةِ ، وموضعُ المناسبةِ في قولها : تكفينا لذةُ الإيثارِ .

وهذه لا تبعُدُ عمّا يروى عن حذيفةِ العدويّ [في «المستطرف» ١/ ٣٤٣] : فَإِنَّهُ انطلقَ يومَ اليرموكِ يطلبُ ابنَ عمِّ له في القتلى ، ومعه شيءٌ من الماءِ ، وقال : إِنْ كَانَ بِهِ رَمَقٌ . . . سقيتهُ ، فأدركه بينَ الشهداءِ ، فلمّا أرادَ سقيهُ . . . إذا برجلٍ يئسُّ ، فأشارَ إليه ابنُ عمِّه أن يؤثّره بالماءِ ، فانطلقَ إليه فإذا هو الحارثُ بنُ هشامٍ ، فقالَ له : أسقيك ، فأشارَ عليه أن

(١) الإرفادُ : الإعطاءُ . الرفدُ : العطاءُ .

يؤثر به عكرمة بن أبي جهل وكان يتشخط في دمه ، فجاء إلى عكرمة فوجده قد مات ، فرجع إلى الحارث بن هشام فإذا هو قد فاض ، وعاد إلى ابن عمه فإذا هو بارد .

ومن هذا القبيل كانت أكرمة كعب بن مامة ، التي كتبها له الشرف على جهة الزمان بحروف من النور^(١) .

وقال الأصمعي : قصدت يوماً رجلاً كنت أغشاه لكرمه ، فألفيته قد احتجب وانقطع ؛ لرقه حاله ، ويوسه عيشه ، فكتب إليه رقعة أقول فيها :

[من الوافر]

إِذَا كَانَ الْكَرِيمُ لَهُ حِجَابٌ فَمَا فَضَلَ الْكَرِيمَ عَلَى اللَّئِيمِ

[من الوافر]

فَعَادَ بِهَا الْحَاجِبُ ، وَقَدْ وَقَعَ عَلَيْهَا :

إِذَا كَانَ الْكَرِيمُ قَلِيلَ مَالٍ تَسْتَرِ بِالْحِجَابِ عَنِ الْغَرِيمِ

ومعه صرة فيها خمس مئة دينار ، فقلت : والله لأتحفن بهذا الحديث المأمون ، فما مر به مثله ، فلما رأيته . . قال : من أين أقبلت ؟ قلت : من عند أكرم الأحياء بعد أمير المؤمنين ، وشرحت له الحديث ، ولما أطلعت على الصرة . . اربد وجهه ، وقال : خاتم بيت مالي ، ولا بد لي من الرجل الذي دفعها إليك ، فقلت : على شريطة أن لا يروغ ، فلما حضر بين يديه . . عرفه ، وقال له : أأنت الذي تعرّضت لي بالأمس ، وشكوت رقّة حالك ، فدفعت إليك هذه الصرة لتصلح بها شأنك ، فقصدك الأصمعي بيت من الشعر فدفعها إليه؟! فقال : والله يا أمير المؤمنين ، ما كذبت فيما شكوت من رقّة الحال ، وصعوبة الزمان ، ولكن استحييت أن أعيّد قاصدي إلا بما جبل عليه طبعي ، فقال له المأمون : لله أبوك ، ما ولدت العرب مثلك ، وأمر له بألف دينار ، قال الأصمعي : فقلت له : ألحقتني به يا أمير المؤمنين ، فتبسّم وأمر بأن يكمل لي الألف ، ولعل هذا الحديث كان قبل قصة الواقدي ، وإلا . . ضاع قول الأصمعي : فما مر به مثله .

[حكم الفقهاء في الإيثار]

وإذ قد انتهى بنا الكلام إلى هنا . . فلندكر كلام الفقهاء في الإيثار ، فإن لهم عبارتين :

الأولى قولهم : يجوز للمضطرّ إيثار مضطراً آخر مسلم .

والثانية قولهم : يحرم على عطشان إيثار عطشان آخر .

قال ابن حجر : والأولى محمولة على من يصبر على الإضاعة . والثانية محمولة على من لا يصبر عليها ، وأما ما يحتاجه الإنسان لنفقة من تلزمه نفقته ، أو لدين لا يرجو له وفاء . . فإنه لا يجوز التصدق به ، ولمن خرج من السلف عن جميع ماله في سبيل الله محاملاً ، لا حاجة لأن نطيل فيها ، وأحسنها عندي الثقة بقرّب الخلف ، وقد وثقت البحث حقه في « حاشيتي على الشمائل » حينما تكلمت في الأنصاري الذي آثر ضيف رسول الله على عياله^(٢) ، ونزل فيه : ﴿ وَيُؤْتِرُونَكَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : ٩] .

(١) والمأثرة : هي أنه كان يسير في الصحراء مع رفيق له ، وكان معه سقاء فيه ماء لا يفضل عنه ، وله رفيق ، فسقاه ، ومات عطشاً . انظر « صحاح الأعرابي » (٣٩٠/١) .

(٢) أخرجه عن أبي هريرة البخاري (٣٧٩٨) في مناقب الأنصار . وأورد السيوطي في « أسباب النزول » (ص/٢٣٠) أنه أخرجه مسند في « مسنده » وابن =

وممّا يتعلّق بالجود المطبوع قولُ الفقيهِ عُمارةَ اليمينيِّ :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

لَهُ رَاحَةٌ يَنْهَلُ جُوداً بَنَانَهَا
يَرَى الْحَقَّ لِلضُّيْفَانِ حَتَّى كَأَنَّهُ
وَوَجْهُهُ إِذَا قَابَلْتَهُ يَتَهَلَّلُ
عَلَيْهِمْ - وَحَاشَا قَدْرُهُ - يَتَطَفَّلُ

[مِنَ الْكَامِلِ]

وقال عليُّ بنُ جبلةَ [في «ديوانه» ٩٩] :

أَعْطَيْتَ حَتَّى لَمْ تَدَعْ لَكَ سَائِلاً
وَبَدَأْتَ إِذْ قَطَعَ الْعُفَاةَ سُؤَالَهَا^(١)

[مِنَ الْخَفِيفِ]

فسرقه أبو عبادةَ سرقةً مكشوفةً على ضوءِ الشمسِ . . . حيثُ يقولُ [في «ديوانه» ١٥/١] :

جَادَ حَتَّى أَفْنَى السُّؤَالَ وَلَمَّا
بَادَ مِنَّا السُّؤَالَ أَعْطَى ابْتِدَاءً

[مِنَ الْبَسِيطِ]

ولقد أحسنَ ابنُ نباتةَ السعديُّ في قوله لِسيفِ الدولةِ [في «ديوانه» ٤١١] :

لَمْ يُبْقِ جُودَكَ لِي شَيْئاً أَوْمَلُهُ
تَرَكْتَنِي أَصْحَبُ الدُّنْيَا بِلَا أَمَلِ

[مِنَ الْبَسِيطِ]

وقال ابنُ بابكٍ في الصاحبِ بنِ عبَّادٍ :

فَحُسْنُ ظَنِّكَ بِي اسْتَوْفَى مَدَى أَمَلِي
وَحُسْنُ رَأْيِكَ بِي لَمْ يُبْقِ لِي أَمَلاً

[مِنَ الْكَامِلِ]

وقال أبو تمامٍ [في «ديوانه» ٢٦٧/١] :

لَوْ يَعْلَمُ الْعَافُونَ مَا لَكَ فِي النَّدَى
مِنْ لَذَّةٍ وَقَرِيحَةٍ لَمْ تُحْمَدِ

[مِنَ الْخَفِيفِ]

وهو من قولِ بشارٍ [في «ديوانه» ١١١/١] :

لَيْسَ يُعْطِيكَ لِلرَّجَاءِ وَلِلْخَوْ
فِ وَلَكِنْ يَلَذُّ طَعْمَ الْعَطَاءِ

[مِنَ الْكَامِلِ]

وقال أشجعُ السلميُّ يمدحُ الفضلَ بنَ الربيعِ [في «ديوانه» ٢٠٢] :

أَوْصَلْتَنِي وَرَفَدْتَنِي وَكَلَاهُمَا
شَرَفٌ فَقَأْتُ بِهِ عُيُونَ الْحُسَدِ
وَكَفَيْتَنِي مِنْ رَجَالِ بَنَائِلِ
أَغْنَى يَدِي عَنْ أَنْ تُمَدَّ إِلَيَّ يَدِ

[نعمته فلاة في عنقي لا ينزعها إلا غاسلي . . رجل وفي]

وبالبيتِ الأخيرِ ذكرتُ أَنَّ المنصورَ العباسيَّ وجَّهَ إلى شيخٍ كانَ مِن بطانةِ هشامِ بنِ عبدِ الملكِ ، فسأله عن تديبه ؟ فوصفَ حاله ، وأكثرَ مِنَ الترحُّمِ عليه ، كلِّما جرى اسمُه ، فقالَ لَهُ المنصورُ [في «المستطرف» ٤٣٩/١] : قُمْ عَلَيْكَ لعنةُ اللهِ ، تطأُ بساطي وتترحمُ على عدويِّ ، قالَ الشيخُ : إِنَّ نعمته فلاةٌ في عنقي ، لا ينزعها إلا غاسلي ، فقالَ لَهُ المنصورُ : ارجعْ ، أشهدُ أَنَّكَ لنهيضِ حرةٍ ، وغراسُ شريفٍ ، عُذِّ إلى حدِيثِكَ ، فعادَ إلى ما كانَ استطعمه من سيرةِ

= المنذر عن أبي المتوكل الناجي أن الذي أضاف هو ثابت بن قيس . وفي «الفتح» (١١٩/٧) عن ابن التين كذلك ، وابن بشكوال مرسلًا كما أنه ذكر أنه عبد الله بن رواحة من غير مستند ، وجزم الخطيب أنه أبو طلحة ، وليس هو لرواية مسلم له ولكنه قال : أظنه غير أبي طلحة زيد بن سهل ؛ لأنه كان من أكثر الصحابة مالاً ، والله أعلم .

(١) العُفَاةُ : المحتاجون المِعْوَرُونَ .

هشام ، حَتَّى إِذَا فَرَّغَ . . دَعَا لَهُ بِمَالٍ ، فَقَالَ : وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا بِي حَاجَةٌ إِلَيْهِ ، وَلَقَدْ مَاتَ عَنِّي مَنْ كُنْتُ فِي ذِكْرِهِ ، وَمَا أَحْوجُنِي إِلَى أَحَدٍ بَعْدَهُ ، وَلَوْلَا جَلَالَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ . . مَا لَبَسْتُ لِأَحَدٍ بَعْدَهُ نَعْمَةً ، فَقَدْ أَغْنَى يَدَيَّ عَنِ أَنْ تُمَدَّ إِلَيَّ يَدٌ ، فَقَالَ الْمَنْصُورُ : مُتَ إِذَا شِئْتَ ، فَلِلَّهِ أَنْتَ ، لَوْ لَمْ يَكُنْ لِقَوْمِكَ غَيْرُكَ . . لَكُنْتَ قَدْ أَبْقَيْتَ لَهُمْ مَجْدًا مَثَلًا مَخْلَدًا .

[المرثية الثانية لابن الأنباري . . قمة في الوفاء]

وَيَصِلُ بِهِذِهِ الْحِكَايَةَ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ عَسَاكَرٍ فِي « تَارِيخِ دِمَشْقَ » [وابن عماد الحنبلي في « شذرات الذهب » ٢/٦٣-٦٤] : أَنَّ ابْنَ الْأَنْبَارِيِّ لَمَّا صَنَعَ الْمَرثِيَّةَ التَّائِيَةَ^(١) فِي الْوَزِيرِ ابْنِ بَقِيَّةٍ . . رَمَاهَا بِشَوَارِعِ (بَغدَادَ) ، فَتَدَاوَلَتْهَا الْأَيْدِي ، حَتَّى وَصَلَتْ إِلَى عَضُدِ الدَّوَلَةِ ، فَلَمَّا أُشْدَّتْ بَيْنَ يَدَيْهِ . . تَمَنَّى أَنْ يَكُونَ هُوَ الْمَصْلُوبَ دُونَهُ ، وَقَالَ : عَلَيَّ بِهِذَا الرَّجُلِ ، فَطَلَبُوهُ سَنَةً كَامِلَةً ، حَتَّى رَسَمَ لَهُ الصَّاحِبُ بَنُ عَبَّادٍ بِالْأَمَانِ ، فَلَمَّا سَمِعَ بِذِكْرِ الْأَمَانِ . . قَصَدَ حَضْرَةَ الصَّاحِبِ ، فَقَالَ لَهُ : أَنْتَ قَائِلُ الْقَصِيدَةِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ لَهُ : أَنْشُدْنِيهَا مِنْ فَيْكِ ، فَلَمَّا بَلَغَ قَوْلَهُ مِنْهَا :

وَلَمْ أَرَ قَبْلَ جِذْعِكَ قَطُّ جِذْعًا تَمَكَّنَ مِنْ عِنَاقِ الْمَكْرُمَاتِ

. . فَمَإِ لِيهِ الصَّاحِبُ وَعَانَقَهُ ، وَقَبَّلَ فَاهُ ، وَأَنْفَذَهُ إِلَى عَضُدِ الدَّوَلَةِ ، فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ . . قَالَ لَهُ : مَا الَّذِي حَمَلَكَ عَلَى مَرثِيَّةِ عَدُوِّي ؟ فَقَالَ : حَقُوقٌ سَلَفَتْ ، وَأَيَادٍ مَضَّتْ ، فَجَاشَ الْحُزْنَ فِي قَلْبِي ، فَرَثِيئَةُ ، وَاسْتَنْشَدُهُ فِيهِ غَيْرَهَا فَأَنْشَدَهُ ، فَخَلَعَ عَلَيْهِ ، وَأَكْرَمَهُ ، وَرَضِيَ عَنْهُ .

وَقَدْ سَبَقَ حَدِيثُ ابْنِ الرِّقِيَّاتِ مَعَ الْمَصْعَبِ ، وَيَأْتِي عَمَّا قَرِيبَ مَا لَا يَقُولُ عَنْ هَذَا فِي أَخْبَارِ الْبِرَامِكَةِ ، وَأَرَى كَثِيرًا يُطْبُونُ فِي بَيْتِ ابْنِ الْأَنْبَارِيِّ السَّابِقِ ، وَلَوْ أَنَّ ابْنَ بَقِيَّةٍ كَانَ أَوَّلَ مَصْلُوبٍ فِي الْإِسْلَامِ . . لَاعْتَرَضَهُ مَا صَحَّ مِنْ ضَمِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلجِذْعِ حِينَ حَنَّ لِفِرَاقِهِ^(٢) ، فَذَلِكَ الْجِذْعُ بِالْحَقِيقَةِ هُوَ الَّذِي تَمَكَّنَ مِنْ عِنَاقِ الْمَكْرُمَاتِ غَيْرِ مَدَافِعٍ ، فَكَيْفَ ؟ وَقَدْ قَالَ فِي نَفْسِ الْقَصِيدَةِ :

رَكِبْتَ مَطِيَّةً مِنْ قَبْلِ زَيْدٍ عَالَاهَا فِي السَّنِينَ الْمَاضِيَّاتِ

أَفَرَى جِذْعَ زَيْدٍ لَمَّا يَتَمَكَّنُ مِنْ عِنَاقِ الْمَكْرُمَاتِ ؟ ! كَلَّا ، غَيْرَ أَنَّهُ عَلَى الْجَوَادِ ، وَالْبَدِيعُ فِيهِ لِأَبِي تَمَّامٍ [في « ديوانه » [٣٤٠/١] :

رَمَقُوا أَعَالِي جِذْعِهِ فَكَأَنَّمَا رَمَقُوا الْهَيْلَالَ عَشِيَّةَ الْإِفْطَارِ

[الحر لا يكذب ولو قُتِلَ]

وَلَمَّا قُتِلَ يَزِيدُ بَنُ الْمَهْلَبِ . . جَمَعَ الشُّعْرَاءَ مُسَلِّمَةً بَنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ؛ لِيَقُولُوا فِيهِ ، فَلَمْ يَأْلُوا أَنْ يَذْكُرُوهُ بِأَقْبَحِ مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ ، مَا خَلَا رَجُلًا مِنْ (دَارِمِ) ، فَإِنَّهُ قَالَ : لَا أَذُمَّ مَنْ لَا أَمْلِكُ رَيْعًا وَلَا أَنَاثًا إِلَّا مِنْهُ ، وَلَوْ قَطَعْتُمُونِي إِزْبًا فِإِزْبًا ،

[من الوافر]

(١) وهي القصيدة التي مطلعها :

عَلُوٌّ فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْمَمَاتِ لَحَقَّ بِكَ إِخْدَى الْمُعْجِزَاتِ

(٢) أورد حديث حنين الجذع العلامة جعفر الكتاني في « نظم المتناثر » عن نحو عشرين صحابياً . فهو من الأحاديث المتواترة .

ولقد رثيته بما يليق به ، وأنشد أبياتاً جزلةً ، أعجبَ بها مسلمةً ، فأنعمَ عليه وقالَ : مَنْ أَرَادَ أَنْ يَصْطَنِعَ . . فليصْطَنِعْ
مِثْلَ هَذَا .

ويأتي ما يقربُ منه عن عُمارةَ اليمينيِّ قبيلَ شرح قولِ الناظمِ [في «العُكْبَرِيِّ» ٢/٢٤٣] :

إِذَا عَرَضْتَ حَاجٌ إِلَيْهِ فَنَفْسُهُ إِلَى نَفْسِهِ فِيهَا شَفِيعٌ مُشَفَّعٌ

[الذروة في الشجاعة والوفاء]

ومنَ الغايةِ في الوفاءِ ، والذروةِ في الشجاعةِ ، ما كانَ مِن أخي مسلمِ بنِ الوليدِ في رثائه لجعفرِ بنِ يحيى ، وقولُهُ [في
«الأغاني» ١٦/٢٦٥] :

أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ لَا خَوْفٌ وَاشٍ وَعَيْنٌ لِلْخَلِيفَةِ لَا تَنَامُ
لَطَفْنَا حَوْلَ قَبْرِكَ وَاسْتَلَمْنَا كَمَا لِلنَّاسِ بِالْحَجَرِ اسْتِلامُ

[السائل عن الإمام أحمد وقت محتته]

وخيرٌ مِن هذا كلُّهُ : أَنَّ بَقِيَّ بنَ مَخْلَدٍ قدم في طلبِ الحديثِ مِن (الأندلسِ) إلى (العراقِ) ، فوافقَ الامتحانَ بأبي
عبدِ اللهِ^(١) ، وكانَ لا يذكرُهُ ذاكَرٌ إِلَّا تناولتُهُ الأيدي ، ونزلَ بِهِ العقابُ ، فلم يكنْ مِن بَقِيٍّ إِلَّا أَنْ وَقَفَ بحلقةِ يحيى بنِ
معينٍ ، وهو يكشفُ الرجالَ ، يوثقُ هذا ، ويوهنُ الآخرَ ، فقالَ لَهُ : أَسَأَلُكَ عَن أَحْمَدَ ابنِ حنبلٍ ؟ فَأَرَمَ القومُ ،
وضربَ يحيى صدرَهُ بِدَقِّهِ ، يترَوَّى بينَ أَنْ يُوَثِّرَ الحياةَ الدنيا باتِّباعِ مرضاةِ السلطانِ ، وبينَ أَنْ يُوَثِّرَ الأخرى ويصبرَ
على الأذى في جنبِ اللهِ ، فأيدَهُ اللهُ بعزمٍ مِن عنده ، فرفعَ رأسَهُ وَقَالَ لَهُ : ذاكِ سيِّدُ المسلميْنَ ، وإمامُ أهلِ العلمِ
اليومِ ، أو ما يقربُ مِن هذا ، رضوانُ اللهِ عليهم أجمعينَ .

[البحثري شديد الوفاء للمتوكل]

وممَّا يكتبُ على جرائدِ الوفا ، بمدادِ الشرفِ ، ما كانَ مِنَ البُحْثَرِيِّ وكثرةِ رثائه للمتوكلِ ، وقد قتلهُ ابنُهُ المنتصرُ ،
وقولُهُ [في «ديوانهِ» ٢/١٠٤٩-١٠٤٨] :

حَرَامٌ عَلَيَّ الرَّاحُ بَعْدَكَ أَوْ أَرَى دَمًا بِدَمٍ يَجْرِي عَلَى الْأَرْضِ مَائِرُهُ
وَهَلْ يُرْتَجَى أَنْ يَطْلُبَ الدَّمَ طَالِبٌ مَدَى الدَّهْرِ وَالْمَوْتُورُ بِالدَّمِ وَاتِّرُهُ؟^(٢)
فَلَا مُلِّيَ الْبَاقِي تَرَاثَ الَّذِي مَضَى وَلَا حَمَلَتْ ذَاكَ الدُّعَاءَ مَنَابِرُهُ^(٣)

[أبلغ ما يكون من الجود أن تكون كلك من أيادي معطيك]

ولنعدِ لِمَا كُنَّا فِيهِ ، فنقولُ : قالَ أبو تَمَّامٍ :

لَمْ يَدْعُنِي وَفِي يَمِينِي فَضْلٌ لِنَدَى غَيْرِهِ وَلَا فِي شِمَالِي

[مِن الخفيف]

(١) يعني : أحمد ابن حنبل رحمه الله تعالى .

(٢) الوائرُ : الظالمُ ، الموتورُ : من قتلَ له قتيلاً فلم يدركْ دمَهُ .

(٣) مُلِّيَ : مُنِعَ .

وقال [في «ديوانه» ٤٧/٢] :

[من الطويل]

وَمَا يَلْحَظُ الْعَافِي جَدَاكَ مُؤَمَّلًا
سَوَى لَحْظَةٍ حَتَّى يَؤُوبَ مُؤَمَّلًا^(١)

وقال :

[من الكامل]

أَلْبَسْتَنِي حُلَّ النَّاسِ فَلَبِسْتُهَا
وَجَعَلْتَ آمَالِي لَهْنًا ذُيُولًا

[من البسيط]

وقال أبو عبادة [في «ديوانه» ٩٥٦/٢] :

لَا يُنْعِبُ النَّائِلُ الْمَبْذُولُ هِمَّتَهُ
وَكَيْفَ يُنْعِبُ عَيْنَ النَّاطِرِ النَّظْرُ؟!

[من الطويل]

وقال [في «ديوانه» ١٢٠٣/٢] :

ثَنَى أَمَلِي فَاحْتَازَهُ عَن مَعَاشِرِ
بَيِّثُونَ وَالْأَمَالَ فِيهِمْ مَطَامِعُ^(٢)

[من المنسرح]

وقال الناطم في معنى ما سبق عن بشارٍ وعن غير بشارٍ [في «المكبري» ٢٧٩/٤] :

لَوْ كَفَرَ الْعَالَمُونَ نِعْمَتَهُ
لَمَاعَدَتْ نَفْسُهُ سَجَايَاهَا

[من الكامل]

وقال الخزاعي [في «ديوانه» ٣٣٤] :

شَفَعْتَ مَكَارِمُهُمْ لَهُمْ فَكَفَفْتَهُمْ
جَهْدَ السُّؤَالِ وَلُطْفَ قَوْلِ الْمَادِحِ

[المدح لا يكون إلا عن رغبة]

وفيه إشارة إلى أن المدح لا يكون إلا عن رغبة ، ومنه قول أمية [ابن أبي الصلت في «ديوان الحماسة» ٣٧٣/٢] : [من الوافر]

إِذَا أَتَيْتَ عَلَيْكَ الْمَرْءُ يَوْمًا
كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ النَّشَاءُ

[الحر تكفيه الإشارة]

وإذا كان كذلك . . فلن تكون الإطالة فيه إلا لضعف أريحيته الممدوح ، أمّا الحر . . فتكفيه الإشارة ، وأمّا الجواد . .

[من الكامل]

فتحرّكه الغمزة ، وقد سبق قول بعضهم [في «روضة العقلاء» ٢٥١] :

وَإِذَا طَلَبْتَ إِلَى كَرِيمٍ حَاجَةً
فَلِقَاؤُهُ يَكْفِيكَ وَالتَّسْلِيمُ

[من الكامل]

ووضح المعنى ابن الرومي في قوله [في «ديوانه» ١١١/١] :

وَإِذَا امْرُؤٌ مَدَحَ امْرَأً لِنَوَالِهِ
لَوْ لَمْ يُقَدَّرْ فِيهِ بَعْدَ الْمُسْتَقَى

وَأَطَالَ فِيهِ فَقَدْ أَرَادَ هِجَاءَهُ
عِنْدَ الْوُرُودِ لَمَّا أَطَالَ رِشَاءَهُ

[متى ينفع الجود وأين محله]

وما زلت في إشكالٍ من حالٍ أغنياؤنا ؛ إذ تفيضُ أكتفهم فيما لا ينفعُ ، ويضنون بالتأفهِ اليسيرِ لدى حسنِ الموقعِ ، حتّى انحلَّ الإشكالُ بما سبقَ عن الخوارزميِّ في غيرِ هذا المكانِ ، وجلَّهم لا يبذلُّ إلا رغبةً ، أو رهبةً ، أو

(١) جدالك : عطاك .

(٢) احتازة : أدخله في حوزته .

استصلاحاً ، أو إرضاءً شهوةً ، وذلك غير مجزئٍ حتَّى في فريضة الزكاة - على رأي بعضهم - وإن رجَّح ابن حجر [في
« تحفته »] الجواز متى كان المدفوع إليه بصفة الاستحقاق ، وما أحسن قول الناظم [في « المُكَبَّرِي » ٢٨٤/٤] : [مِن الطَّوِيلِ]

وَلِلنَّفْسِ أَخْلَاقٌ تَدُلُّ عَلَى الْفَتَى أَكَّانَ سَخَاءً مَا أَتَى أُمَّ تَسَاخِيَا
[مِن الطَّوِيلِ] وَقَوْلَ الْآخِرِ [وهو ابن عبد ربه الأندلسي في « قرى الضيف » ٨٧/٢] :

وَمَا الْجُودُ مَنْ يُعْطِي إِذَا مَا سَأَلْتَهُ وَلَكِنَّ مَنْ يُعْطِي بغيرِ سُؤَالِ
[مِن الكَامِلِ] وَقَوْلَ الْمُقْنَعِ الْكَنْدِيِّ [في « ديوان الحماسة » ٣٤٣/٢] :

لَيْسَ الْعَطَاءُ مِنَ الْفُضُولِ سَمَاحَةً حَتَّى تَجُودَ وَمَا لَدَيْكَ قَلِيلُ
[مِن البَسِيطِ] وَقَوْلُ زَهِيرٍ [في « ديوانه » ٢٢٨] :

[إِنْسٌ إِذَا أَمِنُوا ، جِنَّ إِذَا فَرَعُوا] مُرَرَّوُونَ بِهَالِيلٍ إِذَا جَهَدُوا
[مِن البَسِيطِ] وَقَوْلُ بِشَامَةَ بْنِ حَزْنٍ :

فَرَضَ عَلَى مُكْثِرِينَا بَدْلٌ نَبْلِهِمْ وَالْجُودُ وَالْبَدْلُ فِي طَبْعِ الْمُقْلِينَا
وقد سبق أكثره في غير هذا المجلس ، وكان السلف الطيب - رضوان الله عليهم - يحاملون ، ويستقون ،
ويتصدقون ، وقد قيل [القائل محمد بن يسير كما في « الأغاني » ٣٥/١٤] :

جُهْدُ الْمُقْلِ إِذَا أَعْطَاكَ نَائِلُهُ وَمُكْثِرٌ مِنْ غِنَى سَيَانِ فِي الْجُودِ

[الحلم على الجاهلين]

وأكل بعض العرب على مائدة معاوية ، ولما أراد أن يتلع لقمته . . قَالَ لَهُ معاوية [كما في « المستطرف » ٣٨٩/١] : على
رسلك ، فإن فيها شعرة ، قَالَ : أوترأقني مراقبة من يرى الشعرة في لقمتي ؟! والله لا أكل لك زاداً بعدها ما حييت .
وما كان معاوية هناك ، ولا ينبغي لابن عبد مناف أن يشتمل على شيء من اللؤم ، لكنها حانت التفاتة ، فحملها
العربي على أسوأ ما يُظنُّ ، وذهب بها إلى قول قيس بن عاصم :

وَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ زِيَارَةِ بَاخِلٍ يُلَاحِظُ أَطْرَافَ الْأَكِيلِ عَلَى عَمْدٍ

ويحكي [كما في « المستطرف » ٣٨٩/١] : أَنَّ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ كَانَ عَلَى طَعَامِ معاوية ، فَقَدِّمَتْ دجاجَةً ، أَمَعَنَ الْحَسَنُ فِي
الْأَكْلِ مِنْهَا ، فَقَالَ لَهُ معاوية : هل بينك وبينها عداوة ؟ فقال الحسن : وهل بينك وبينها قرابة ؟ قَالَ الْجَاحِظُ :
وما أنكَّرَ معاوية على الحسن إلا تقصيره في توقيف الخلافة بإظهار النهم مع المؤاكله ، وأشار إلى مثل ذلك صاحب
« المستطرف » وهو من أفحش الغلط ، فما كان التصنع لهم بعادة ، وسنة العرب معروفة في أطراحه ، وقد عرف
الناس لمعاوية احتمالُه ما لا تبرك الإبل عليه من الجفاء ؛ لِمَنْ لا يوزنُ بنعل الحسن ، فضلاً عنه .

إنما جنح إلى المداعبة ، وعمد إلى المطايبة ؛ ليتسحب الحسن على ملكه ، ويتسب على سلطانه ، ويزول تحفظه ،
وتذهب حشمتُه ، ويفضي بحوائجه ، وقد قال عليه السلام : « إِنَّ لِلدَّاخِلِ حِشْمَةً ، فَأَبْسِطُوهُ بِأَنْسٍ » (١) .

(١) لم أجده .

فإن قيل : إن معاوية إنما يتعرض لجفاء من لا يؤبه له ؛ ليشتهر بالحلم إذا سكت عن جوابه ، وعقابه ، ولا يطيب نفساً بملاينة أمثال الحسن على الملأ ؛ لأنها تسمه بالعجز ، وتدخل عليه الوهن ، والإنسان قد يحتمل للحقير والأجنبي ، ما لا يحتمله للقريب والعظيم . . قلت : لا يُنكر اندماج النفوس على مثله ، غير أنه لا يكون إلا عند أهل الأخلاق المنحطة ، والطباع السافلة ، أما قريش . . فما زالت حتى في جاهليتها معروفة بحسن التناصف ، وكثيراً ما ترى الواحد منهم يحترم الآخر ، ويقول : إنه سيد الوادي ، وإن كان في جوفه ما يكاد يقتله سلاً من الحسد له ، وهذا مسكين الدارمي - أو أبو الجهم العدوي - يقول في معاوية نفسه [كما في « البيان والتبيين » ١/ ٥٠٠] : [من الوافر]

نُقِّلْبُهُ لِنَجْبُرَ حَالَتَيْهِ فَتَجْبُرُ مِنْهُمَا كَرَمًا وَلِينًا
نَمِيلُ عَلَى جَوَانِبِهِ كَأَنَّا نَمِيلُ إِذَا نَمِيلُ عَلَى آيِنَا

وأنا ذاكرٌ ما أخرجهُ المدائني ، وغيره [كما في « جمهرة خطب العرب » ٢/ ١٢٨] : من قدوم عبد الله بن جعفر عليه ، ومجلسه غاص بأصحابه ، فقال ابن العاص من علي جهراً ، فحسر عبد الله عن ذراعيه ، وقال لمعاوية : حَتَّامَ تَجْرَعُ غَيْطُكَ ، ونصبرُ على مكروه قولك ، وسَيِّءَ أَدْبِكَ ، وذميم أخلاقك ؟ أما يزرُك ذمامُ المجالسة عن الإقذاع لجليسك ، إذ لم تكن لك حرمة تنهاك من دينك ؟ أما والله ، لو عطفنك أو اصرُّ الأرحام ، أو حاميت على سهمك من الإسلام . . لما أرعيت بني الإماء المُنك^(١) أعراض قومك ، وما يجعل موضع الصفة إلا أهل الجفوة ، فلا يدعونك استقامة خطئك إلى التمادي في الغي ، فقد طال عمهك عن الرشيد ، وخبطك في ظلمة الجهل ، فإن آبيت إلا أن تبقى على سوء اختيارك . . فاعفنا عن سوء القالة فينا إذا ضمنا وإياك الندبي ، وشأنك وما تريد إذا خلوت بنفسك ، والله حسيك ، فوالله لولا مالنا عندك . . ما جئناك ، فقال معاوية : نغزُّ الخطأ يا أبا جعفر ، وأقسم عليك لتجلسن ، لعن الله من أخرج صب صدرك من وجاره ، محمول لك ما قلت ، ولك عندنا ما أملت ، وأقسم عليك لما ذكرت حاجة إلا قضيتها لك ، كائنة ما كانت ، ولو ذهبَت بجميع ما أملك ، فقال عبد الله : أمَّا في هذا المجلس . . فلا ، ثم انصرف ، فأتبعه بصره ، وقال : لكأنه رسول الله في مشيه ، وخلقه ، وخلقه ، وإنه لمن مشكاته ، لوددت أنه أخي بنفس ما أملك ، ثم قال لابن العاص : ما منعه من خطابك ؟ قال : ما تعرف ، قال : لا والله ، ولكنهُ استحقرك وازدراك .

هذا ما بقي بحفظي منه ، ولا معابة إن أخطأت اللفظ ، مع إصابة الأكثر من المعنى .

[التودد والتقرب من المساكين]

أمَّا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقربه من الناس ، وتودُّده إلى المساكين ، فحدِّث عنه ولا حرج ، وهو القائل - كما سبق في غير هذا المجلس - لِمَنْ هَابَتْهُ : « هَوْنِي عَلَيْكَ ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ وَلَا جَبَّارٍ ، وَإِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ ، كَأَنَّ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ بِمَكَّةَ »^(٢) .

وأما أخوه وصهره ووصيُّه : فهو القائل من أثناء كلام له [في « نهج البلاغة »] : لا تكلموني بما تُكلم به الجابرة ،

(١) يقال في السب : يا ابن المتكأ ؛ أي : عظيمة المتك وهو عرق البظر من المرأة ، ومن الرجل العرق الذي في باطن الذكر عند أسفل حقه .

(٢) سلف في مجلس سابق .

ولا تتحفظوا مني بما يتحفظ به عند أهل البادية ، ولا تخالطوني بالمصانعة ، ولا تظنوا بي استثقلاً في حق قيل لي ، ولا التماس إعظام لنفسي ، فلا تكفوا عن مقالة بحق ، أو مشورة بعدل ، فإنني لست في نفسي بفوق أن أخطيء ، ولا آمن ذلك من فعلي ، إلا أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به مني ، وإنما أنا وأنتم عبيد مملوكون لرب لا رب غيره .

وقال ابن أبي الحديد في « شرحه » : أحسن ما سمعته - في سلطان لا تخاف الرعية بادرته ، ولا يتلجج المتحاكون عنده ، مع سطوته وقوته ؛ لإيثاره العدل - قول أبي تمام في محمد بن عبد الملك [في ديوانه « ١٦٣/١ »] : [من البسطا

وَزَيْرُ حَقِّ وَوَالِي شُرْطَةِ وَرَحَى	دِيَوَانَ مُلْكٍ وَشِيعِيٍّ وَمُخْتَسِبُ
كَالْأَرْحَبِيِّ الْمَذْكُوبِ سَيْرُهُ الْمَرْطَى	وَالْوَخْدُ وَالْمَلْعُ وَالتَّقْرِبُ وَالْخَبُّ ^(١)
عَوْدٌ نَسَاجِلُهُ أَيَّامُهُ فَبَهَا	مِنْ مَسِّهِ وَبِهِ مِنْ مَسِّهَا جَلْبُ ^(٢)
ثَبْتُ الْخِطَابِ إِذَا اضْطَكَّتْ بِمَظْلَمَةٍ	فِي رَحْلِهِ أَلْسُنُ الْأَقْوَامِ وَالرُّكْبُ
لَا الْمَنْطِقُ اللَّغْوُ يُذَكِّرُ فِي مَقَاوِمِهِ	يَوْمًا وَلَا حُجَّةُ الْمَلْهُوفِ تُسْتَلَبُ
كَأَنَّمَا هُوَ فِي نَادِي قَبِيلَتِهِ	لَا الْقَلْبُ يَهْفُو وَلَا الْأَحْشَاءُ تَضْطَرِبُ

ويعجبني فيما يتعلق بذلك : أن المأمون ناظر محمد بن القاسم النوشنجاني في مسألة كلامية ، فجعل النوشنجاني يخضع في الكلام ، فقال له : يا محمد ، أراك تنقاد إلى ما أقوله قبل وجوب الحجّة ، وقد ساءني ذلك منك ، ولو شئت أن أفسر الأمور بعزّة الخلافة ، وهيبة الرئاسة . . لصدقت وإن كنت كاذباً ، وعدلت وإن كنت جائراً وصوتت وإن كنت مخطئاً ، ولكني لا أقنع إلا بإقامة الحجّة ، وإزالة الشبهة ، وإن أنقص الملوك عقلاً ، وأسخفهم رأياً ، من رضي بقولهم : صدق الأمير . ذكره ابن أبي الحديد أيضاً في شرح ما سقناه آنفاً من كلام الإمام [في « شرح نهج البلاغة »] .

ولنعد من الاستطراد إلى حيث خرجنا ، فنقول : قد سبق ذرو من حديث ابن الطيّار أوائل المجلس الحادي عشر في الكلام على قوله [في « العكبري » ١٧٢/٣] :

تَمَثَّلُوا حَاتِمًا وَلَوْ عَقَلُوا لَكُنْتُمْ فِي الْجُودِ غَايَةَ الْمَثَلِ

وفي غيره .

[إذا أعطيت هذا الرجل . . فقد أعطيت جميع أهل المدينة]

ونزيد هنا ما ذكره ابن أبي الحديد [في « شرح نهج البلاغة »] وغيره - [في « المستطرف » ٣٤٨/١] : مع تمهيد العذر للزيادة والنقص ببعيد العهد - أن عبد الله بن جعفر قدم على يزيد بن معاوية ، فأنزله بحيث كان ينزله أبوه ، من عليّ القدر ، ورعاية الجانب ، ولما اعتزم الانصراف . . قال له : كم كان يعطيك أبي ؟ قال : كان يعطيني ألف ألف - رحمه الله -

(١) الأرحم : النجيب من الإبل . المذكي : الذي تمت سته وذكاؤه . المرطى وما بعله من الأسماء : ضروب من السير . أراد هنا أن ممدوحه يجمع ضروب إصلاح الملك كما يجمع هذا الأرحم جميع ضروب السير .

(٢) العود : المسن من الإبل ، وأراد به هنا الرجل المجرب . تَسَاجِلُهُ : تناظره . جَلْبُ : جمع جلبة ، وهي الأثر في ظهر البعير وغيره من مس حمل ونحوه .

فقال يزيد : قد زدناك ألف ألف أخرى لترحمك عليه ، فقال عبد الله : فداك أبي وأمي ، قال : وهذه لها ألف ألف ، فقال عبد الله : والله لا أقولها لأحدٍ بعدك ، قال يزيد : ولهذا أيضاً ألف ألف ، فقيل ليزيد : أعطيت هذا القدر كله لرجلٍ واحدٍ من بيت المال ، قال : والله ما أعطيته إلا لجميع أهل (المدينة) ، ووكل به عيناً يطالعُه بخبره ، فلم يزل يفرقها في أنواع المعروف . . حتى احتاج بعد شهرين إلى الاستدانة ، فهو الأحق من عبد الواحد بن سليمان بقول القطاميّ [في « ديوانه » ٢٩] :

أهلُ المدينة لا يَحزنُكَ حالُهُمْ إِذَا تَخَطَّأَ عَبْدَ الْوَاحِدِ الْأَجَلُ

[العذل في الجود]

وعذّل عبد الله عليّ كثرة الإنفاقِ فقال [في « المستطرف » ٣٤٨/١] : إِنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَوَدَنِي أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيَّ ، وَعَوَدْتُهُ أَنْ أَنْفَضَلَ عَلَيَّ عِبَادِهِ ، فَأَخَافُ أَنْ أَقْطَعَ الْعَادَةَ ، فَيَقْطَعَ [عني] الْمَادَّةَ .

[جود المأمون]

وذكرت بهذا أنّ الواقديّ - السالف الذكر - كتب إلى المأمون في دين ارتكبه ، فكتب له المأمون [كما في « وفيات الاعيان » ٣٤٩/٤] : إِنَّ فِيكَ لِكْرَمًا أَطْلَقَ مَا فِي يَدِكَ ، وَحَيَاءَ مَنَعَكَ أَنْ تَذَكَرَ كُلَّ حَاجَتِكَ ، غَيْرَ أَنَّكَ حَدَّثْتَنِي وَأَنْتَ عَلَيَّ قَضَاءُ الرَّشِيدِ : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِلزَّبِيرِ : « يَا زُبَيْرُ ، إِنَّ مَفَاتِيحَ الرَّزْقِ فِي خِرَانَةِ بِإِزَاءِ الْعَرْشِ ، فَمَنْ كَثُرَ . . كَثُرَ لَهُ ، وَمَنْ قَلَّ . . قَلَّ لَهُ »^(١) . قال الواقديّ : فلأنا بمراجعة المأمون الحديث لي أفرح مني بالصلة ، أو ما يقرب من هذا المعنى .

[جود الفرزدق]

ويينا طلحة بن عبد الله بن عوفٍ بالسوق . . وافق الفرزدق ، فقال له [في « المستطرف » ٣٥٩/١] : اختر عشرًا من الإبل ، ففعل ، فقال له الفرزدق : ضمَّ إليها مثلها ، ففعل ، ولم يزل يقول له : ضمَّ إليها مثلها . . حتى صارت مئة ، فأثنى عليه بأبيات ، منها قوله :

إِنَّ النَّدَى أَلْقَى إِلَيْكَ رِحَالَهُ فَبَحَيْثُ بَيْتٍ مِنَ الْمَنَازِلِ بَاتَا

[من الكامل] فأخذ أبو الشيص الخزاعي حيث يقول [في « أشعاره » ٩٢] :

وَقَفَّ الْهُوَى بِي حَيْثُ أَنْتَ فَلَيْسَ لِي مُتَأَخَّرٌ عَنْهُ وَلَا مُتَقَدِّمٌ

[من الطويل] وتعدى عليه أبو نواسٍ مجاهرةً فقال [في « ديوانه » ٢٩٩] :

فَمَا جَازَهُ جُودٌ وَلَا حَلَّ دُونَهُ وَلَكِنْ يَسِيرُ الْجُودُ حَيْثُ يَسِيرُ

[من البسيط] ثم اعتورته الأيدي ومنه قول البحتريّ [في « ديوانه » ٥٧٤/١] :

تَحَيَّرَ الْجُودُ وَالْإِحْسَانُ بَيْنَهُمْ فَمَا يَجُوزُهُمْ جُودٌ إِلَّا أَحَدٌ

(١) أخرجه عن الزبير رضي الله عنه بنحوه الديلمي في « الفردوس بمأثور الخطاب » (٤٠٢/٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » كما في « كنز العمال » (٦٢٨) بلفظ : « يا زبير إن الرزق مفتوح من لدن العرش إلى قرار بطن الأرض ، يرزق الله كل عبد على قدر همة ونهمة » .

وذكرت بعد هذا عن بعض الأوائل ما معناه - إن أخطأت لفظه - [قول البُحترِّي في «ديوانه» ٣/ ١٨٤٥] : [من الكامل]

إِنَّ السَّمَّاحَ الْعِدَّ أَلْقَى رَحْلَهُ فِي آلِ طَلْحَةَ ثُمَّ لَمْ يَتَحَوَّلِ^(١)

ولا ندحة عن ذكرٍ مثاليين من جود البرامكة تتصل بما ذكرناه سابقاً ولاحقاً :

[صور من جود البرامكة]

أحدهما : أن محمداً بن عبد الله كان متصلاً بهم ، وله نعمة واسعة ، وضياع كثيرة ، صودرت فيما كان للبرامكة وأتباعهم ، فرفع فيها قصة إلى المأمون ، يمث فيها بحرمة ، فدفعها المأمون إلى أحمد ابن أبي خالد ، وأمره أن يضم الرجل إلى نفسه ، ويحسن إليه ، فصلحت حاله ، وتماسكت أمره ، واتخذته ابن أبي خالد نديماً ، لا يبصر عنه ، فانقطع يوماً لمولود وهبه ، ولم يأت بعد استدعائه مراراً ، فغضب عليه ، وسجنه ، وقيدته ، وزعم للمأمون أنه كثير المصارف والتهيه والافتخار بالبرامكة ، فأمر بإحضاره على قيده ، وأقبل عليه مسقهاً لرأيه ، وأخذ يطعن على البرامكة ، ويضع منهم ، ويطنب في ذلك .

فعارضه وقال : كانوا شفاء دهرهم ، وغيث عصرهم ، وإن أذن لي أمير المؤمنين . . حدثتني عن أخبارهم ، قال : هات ، قال : محدث ومقيّد؟! فأمر بإطلاقه ، فقال : اقترح الفضل عليّ مرة أن أدعوه وأباه وأخاه ، قلت : داري وحالي يصغر عن ذلك ، قال : لا حشمة ولا كلفة ، فأقعدنا على أثاث بيتك ، وأطعمنا من طيبخ أهلك ، فلما رأيت إلحاحه . . استمهلتني سنة ؛ لأستعد ، فقال : وهل معناه أمان من الموت إلى سنة ، إنك لطويل الأمل ، فأصلح بيننا جعفر على شهرين ، أصلحت فيها داري ، وبذلت ما بلغت يدي من تزيينه ، وتأثيئه ، وترتيبه ، وفعلت ما قدرت عليه من الطعام ، وجاء هو وأبوه وجعفر وأولادهم وفتيانهم ، فقال : إن أول ما أبدأ به النظر إلى جليل نعمتك وصغيرها ، فدار على سائر المنازل ، وقال : من جيرانك ؟ قلت : فلان وفلان ، وفي جانب داري بالملاصقة قصر ضخم مشيد ، قال : لمن هذا ؟ قلت : لا أعرفه ، قال : ما كان ينبغي لأحد أن يستطيل عليك ، فهل بنجار يفتح لنا باباً إلى تلك الدار من ناحيتك المتصلة به ، فناشدته أن لا يفعل ، فصمّ وفتح الباب ، فإذا برج إسطبل دوابه خير من داري بسبعين مرة ، وقال : هذا الدار بما فيه لك ، فكذت أجن من ذلك ، ولم أدر أنا في يقظة أو منام ، ولما سمع أخوه وأبوه بما جرى . . رأيت الانمغاض بادياً على وجه جعفر ، وأقبل على أبيه يشكو من تفرّد الفضل بهذه المكرمة ، فقال الفضل : يا أخي ، بقي لك القطب منها ، قال : وما هو ؟ قال : إنه لا يتهيأ ضبط هذه الدار بما فيها . . إلا بدخل جليل ، قال : فرجعت عني يا أخي ، وكتب لي بصكاك عقار ، صرت به من أيسر أهل زمان ، قال المأمون : صدق والله ، ذهب القوم بالمكارم ، وردّ عليه ضياعه ، وأحسن معاملته .

ثانيهما [عند الأبيهي في «المستطرف» ١/ ٤٣٦] : حديث المغيرة بن المنذر فقد كان يسحر كل ليلة إلى دور البرامكة وآثارهم ، ويندبهم بشعر منه :

وَلَمَّا رَأَيْتُ السَّيْفَ جَلَلِ جَعْفَرًا وَنَادَى مُنَادٍ لِلْخَلِيفَةِ : يَا يَحْيَى

(١) البيت في «الديوان» :

أَوَمَا رَأَيْتَ الْمَجْدَ أَلْقَى رَحْلَهُ

بَكَيْتُ عَلَى الدُّنْيَا وَزَادَ تَأْسُفِي عَلَيْهِمْ ، وَقُلْتُ : الْآنَ لَا تَنْفَعُ الدُّنْيَا

فِرْصَهُ المَأْمُونُ حَتَّى أَمْسَكَهُ ، وَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدِهِ مَتَحَنِّطًا مَتَكْفِنًا مُسْتَعِدًّا لِلْقَتْلِ . . أَخَذَ المَأْمُونُ بِتَوْبِيخِهِ ، فَقَالَ : إِنَّ
لِلْقَوْمِ عِنْدِي لِأَيَادِي لَا تَزَالُ خَضِرَاءَ ، إِنَّ شَيْئًا . . حَدِثْتُكَ عَنْهَا ، قَالَ : قُلْ ، فَقَالَ : أَنَا مِنْ أَوْلَادِ المُلُوكِ ، فَزَالَتْ
نِعْمَتِي ، وَبَعَثَ مَا عَلَى رَأْسِي ، وَرُوُوسِ أَوْلَادِي وَأَهْلِي ، وَمَا بَقِيَ لَنَا شَيْءٌ يَوْهَبُ وَلَا يَبَاعُ ، حَتَّى دَخَلْنَا
(بَغدَادَ) ، وَنَزَلْنَا فِي بَعْضِ المَسَاجِدِ ، فَذَهَبْتُ أَسْأَلُ عَنِ البِرَامِكَةِ - وَتَرَكْتُهُمْ جِياعًا - وَأَخَذْتُ أَنْتَصِبُّ مِنَ العَرَقِ ؛
لأنَّهَا لَمْ تَكُنْ صِنَاعَتِي ، فَإِذَا جَمَاعَةٌ جُلُوسٌ فِي مَسْجِدٍ ، يَنْتَظِرُونَ دَاعِيًا لِحُضُورِ إِمْلَاكِ فِي دَارِ يَحْيَى ، وَلَمَّا دَخَلُوا . .
دَخَلْتُ مَعَهُمْ ، وَمَا مَعِيَ مِنَ الرَّمَقِ إِلَّا مَا يَحْمِلُ رِجْلِي مِنَ الاستِحْيَاءِ ، وَفَرَّقَ الخَدَمُ صَوَانِي الفِضَّةِ ، فِي كُلِّ صِنِيَّةٍ
أَلْفُ دِينَارٍ ، فَلَمْ أَجْسِرْ عَلَى أَخِذِ التِّي هِيَ لِي . . حَتَّى غَمَزَنِي الخَادِمُ فَأَخَذْتُهَا ، وَقَمْتُ أَنْتَلِفْتُ مَخَافَةَ الرَّدِّ ، فَلَحَظَنِي
يَحْيَى ، وَاسْتَدْعَانِي ، وَقَالَ : مِمَّ تَتَلَفَّتُ؟ فَبَدَرْتَنِي عَيْنِي ، ثُمَّ شَرَحْتُ لَهُ قِصَّتِي ، فَأَمَرَ وَلَدَهُ مُوسَى بِضَمِّي إِلَيْهِ ،
وَإِكْرَامِي ، وَلَمْ يَزَلْ يَتَبَادَلُنِي القَوْمُ عَشْرَةَ أَيَّامٍ ، وَأَنَا لَا أُدْرِي بِخَبْرِ عِيَالِي وَأَهْلِي ، غَيْرَ أَنِّي آمِنٌ مِنْ ضِيَاعِهِمْ بَعْدَ أَنْ
عَلِمَ يَحْيَى بِحَالِهِمْ ، وَلَمْ أُدْرِ أَيْنَ تَرَكْتُ الصِنِيَّةَ بِمَا فِيهَا ، وَلَمَّا كَانَ اليَوْمُ الحَادِي عَشَرَ . . قَالُوا لِي : قُمْ إِلَى عِيَالِكَ ،
فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : وَأَوِيلاهُ ، وَقَدْ فَقدْتُ الصِنِيَّةَ بِمَا فِيهَا مِنَ الدنانيرِ ، فَقَمْتُ إِلَى دَارِ لَمْ أَرْ مِثْلَهَا أَيَّامَ نِعْمَتِي ، وَإِذَا
بِصِيَانِي وَأَهْلِي يَتَقَلَّبُونَ فِي الحَرِيرِ وَالدِيْبَاجِ ، وَحَمَلُوا إِلَيَّ مِثَّةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، وَعَشْرَةَ أَلْفِ دِينَارٍ^(١) ، وَمَنْشُورًا
بِضِعَتَيْنِ ، وَتِلْكَ الصِنِيَّةَ بِمَا فِيهَا ، وَأَقَمْتُ غَدِيَّ نِعْمَتِهِمْ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً ، فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ البَلِيَّةُ . . أَخَذْتُ أَمْوَالِي
فِيمَا أَخَذَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ، فَقَالَ المَأْمُونُ : رُدُّوْا عَلَيْهِ جَمِيعَ مَا أَخَذَ مِنْهُ ، فَعَلَّا نَحْيِيهِ عِنْدَ ذَلِكَ ، فَقَالَ المَأْمُونُ : كَيْفَ
نَبْكِي وَقَدْ أَحْسَنَّا إِلَيْكَ؟ قَالَ : وَهَذَا أَيْضًا مِنْ صَنِيعِ البِرَامِكَةِ ، فَلَوْ لَمْ آتِ آثَارُهُمْ ، وَأَنْدَبَهُمْ . . مَا اتَّصَلَ بِكَ
خَبْرِي .

قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مَيْمُونٍ : فَرَأَيْتُ المَأْمُونَ تَذَرَفُ عَيْنَاهُ ، وَيَقُولُ : إِنَّ هَذَا لَعَمْرِي مِنْ صَنِيعِ البِرَامِكَةِ ، فَعَلَيْهِمْ فَاثِكٌ ،
وَإِيَابُهُمْ فَاشِكْرُ ، وَلَهُمْ فَاؤْفُ ، وَلا إِحْسَانَهُمْ فَاذْكُرْ ، وَصَدَقَ وَاللَّهِ ، فَهُمُ القَوْمُ الَّذِينَ يَفِيضُ جُودُهُمْ ، وَيَهْتَرُ عَوْدُهُمْ ،
وَتَتَزَيَّنُ المَجَالِسُ بِذِكْرِهِمْ ، وَتَتَعَطَّرُ الأَنَافُ بِنَشْرِهِمْ .

لَمَّا نَزَلَتْ المَحَنَّةُ بِابْنِ الزِّيَّاتِ . . قَالَ لَهُ خَادِمُهُ : صرْتَ إِلَى مَا صرْتَ إِلَيْهِ ، وَمَالَكَ حَامِدٌ فِي النَّاسِ؟! قَالَ : وَكَمْ
لِلبِرَامِكَةِ مِنْ صَنِيعٍ ، فَهَلْ نَفَعَهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ؟ قَالَ لَهُ : نَعَمْ ، لَوْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ إِلَّا ذِكْرُكَ لَهُمْ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ ،
قَالَ : صَدَقْتَ .

وَأَنْبِئْتُ مَرَّةً عَلَى الأَمِيرِ مَنْصُورِ بْنِ عَمْرِو الكَثِيرِيِّ صَاحِبِ (شِبَامَ) ، وَكَانَ عَرْضَةَ ذَلِكَ ، فَحَوْلَةَ وَبَطُولَةَ ، وَزَعَامَةَ
وَشَهَامَةَ ، وَشِدَّةَ بَأْسٍ فِي لَيْنِ جَانِبٍ ، فَقَالَ لِي أَحَدُ الرُّؤَسَاءِ : إِنَّ شِجَاعَتَهُ انْتَهَتْ بِهِ إِلَى القَتْلِ ، فَقُلْتُ لَهُ : وَلكِنَّ مَنْ
خَلَّفَ ذَلِكَ الثَّنَاءَ العَاطِرَ لَمْ يَمُتْ ، وَأَمَّا المَوْتُ . . فَإِنَّهُ لَا يَدُّ مِنْهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ : [مِنَ الطَّوِيلِ]

وَمَنْ لَمْ يَمُتْ بِالسَّيْفِ مَاتَ بِغَيْرِهِ تَعَدَّدَتِ الأَسْبَابُ وَالمَوْتُ وَاحِدٌ

(١) فِي «المستطرف» : (ألف ألف درهم وعشرة آلاف دينار) .

أَمَّا الْيَوْمُ . . . فَقَدْ مَاتَ الْجُودُ ، وَشَمَلَ الْجَمُودُ ، وَإِنَّكَ لَتَرَى الْمَتَّسِمَ بِسَمِيَّتِهِ ، وَالْمَدْعَى أَنَّهُ مِنْ أُمَّتِهِ . . . لَجَدِيرٍ يَقُولُ
جرير [في «ديوانه» ٥٢/٢] :

وَالْتَعْلِبِي إِذَا تَنَخَّنَحَ لِلْقَرَى حَاكَ اسْتَهُ وَتَمَثَّلَ الْأَمَثَالَ

والبيت الذي نتكلم عليه متكرر المعنى في «ديوانه» ، منه قوله [في «العكبري» ٢٥٤/٢] :

قَبُولُكَ مِنْهُ مَنْ عَالِيهِ وَإِلَّا يَنْتَدِي يَرَهُ فَظِيْعَا

[يقضي دين صديقه وبكي]

وذكرت بشطريه الأخير [ما ذكره الأبشهي في «المستطرف» (٣٤٦/١) وهو] : أَنَّ بَعْضَهُمْ شَكَا إِلَى صَدِيقٍ لَهُ دِينًا ، فَقَضَاهُ
عَنْهُ ، ثُمَّ عَادَ بَاكِيًا ، فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ : هَلَّا تَعَلَّلْتَ إِذْ عَلِمْتَ أَنَّ الْإِجَابَةَ تَشُقُّ عَلَيْكَ ، قَالَ لَهَا : مَا بِي ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا
أَبْكِي ؛ لِأَنِّي لَمْ أَنْفَقْ حَالَهُ قَبْلَ سُؤَالِهِ . وَالْقِصَّةُ فِي «الْإِحْيَاءِ» لِلْإِمَامِ الْغَزَالِيِّ ، وَفِي غَيْرِهَا مِنْ كِتَابِ الْأَخْبَارِ .

[التلذذ بالجمود والإعطاء]

وفي مثله يقول الناظم [في «العكبري» ١٩٦/٣] :

وَالْجِرَاحَاتُ عِنْدَهُ نَعَمَاتٌ سَبَقَتْ قَبْلَ سَيِّئِهِ بِسُؤَالٍ^(١)

وهو ناظر إلى قول أبي تمام [في «ديوانه» ٤٠٥/١] :

وَنَعْمَةٌ مُعْتَفٍ يَرْجُوهُ أَحَلَى عَلَى أُذُنَيْهِ مِنْ نَعَمِ السَّمَاعِ^(٢)

وأخذه الناظم غير أنه أفرغه في قالب آخر ، فقال [في «العكبري» ١٧٢/١] :

كَأَنَّ كُلَّ سُؤَالٍ فِي مَسَامِعِهِ قَمِيصٌ يُوسِفُ فِي أَجْفَانٍ يَعْقُوبِ

وقد ألم به البحتري من قبله ، فقال [في «ديوانه» ٦٢٩/١] :

نَشْوَانٌ يَطْرَبُ لِلْسُّؤَالِ كَأَنَّمَا غَنَاءُ (مَالِكُ طَيِّءٍ) أَوْ (مَعْبُدُ)^(٣)

وقال الجزازي :

وَيَهْتَرُ لِلْجَدْوَى إِذَا [مَا] مَدَحَتْهُ كَمَا اهْتَرَّ - حَاشَا وَصَفَهُ - شَارِبُ الْخَمْرِ

وقد ذكرنا مرة قول عكرشة بن أريد [في «قرى الضيف» ٢٩٦/٢] :

وَتَأْخُذُهُ عِنْدَ الْمَكَارِمِ نَشْوَةٌ كَمَا اهْتَرَّتْ تَحْتَ الْبَارِحِ الْغُصْنُ الرَّطْبُ

(١) السيب : العطاء .

(٢) المعتفي : السائل .

(٣) مالك طيء : هو أبو الوليد مالك بن أبي السمح جابر بن ثعلبة الطائي ، كان من معني العصريين : الأموي والعباسي ، أخذ صناعة الغناء عن معبد توفي نحو سنة (١٤٠ هـ) .

معبد : هو معبد بن وهب ، أصله من الموالي نشأ في (المدينة) يرعى الغنم لمواليه وربما اشتغل بالتجارة ولما ظهر نبوغه في الغناء . . . أقبل عليه كبراه (المدينة) ؛ ثم رحل إلى (الشام) فاتصل بأمرائها وعلا شأنه .

وما أحسن قول ابن الرومي [في «ديوانه» ٦/٢٤٣٩] :

[من الكامل]

ذَهَبَ الَّذِينَ تَهَزُّهُمْ مُدَّاحُهُمْ هَزَّ الْكُمَاةَ عَوَالِي الْمُرَّانِ
كَانُوا إِذَا مُدِّحُوا رَأَوْا مَا فِيهِمْ فَالْأَزِيحِيَّةُ مِنْهُمْ بِمَكَانِ

[من أجواد الحضارمة]

وكان للحضارمة النصيب الأوفى من السماح ، ومن متأخريهم : البحر الطافح ، الإمام الهمام ، الحسن بن صالح ،
وخير كل فتى وكهل ، المنهل العذب ، الحسين بن سهل ، وقد مرت نسمته من عرفهم الشميم ، وقطرة من مكارم
جودهم الصميم ، ولا يخلو (اليمن) عن كرام ، تجد سعة في مناقبهم الأقلام ، منهم أخي وصديقي محمد سيف
الإسلام ، وهو القائل لما عدلوه في كثرة الإنفاق :

[من الطويل]

يَقُولُونَ : إِنِّي مُسْرِفٌ إِذْ يَرُونَنِي أَطَوَّقُ أَغْنَاكَ الرَّجَالِ بِإِحْسَانِي
فَقُلْتُ لَهُمْ : مُوتُوا لِثَامًا بِغَيْظِكُمْ فَإِنِّي شَرِيْتُ الْمَجْدَ بِالثَّاقَةِ الدَّانِي
إِذَا جِئْتُمْ يَوْمَ الْحِسَابِ بِكَنْزِكُمْ أَجِيءُ بِعَفْوٍ مِنَ إِلَهِي وَعُفْرَانِ

[يلومون الراضي العباسي على الجود]

ويُسبِّحُهَا : أَنَّ الرَّاضِيَ الْعَبَّاسِيَّ وَصَلَ الشُّعْرَاءَ بِصَلَاتٍ جَزَلَةٍ ، لَامَهُ فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، وَنَسَبُوهُ إِلَى الْإِسْرَافِ ، فَقَالَ
[في «البدية والنهاية» ١١/١٩٧] :

[من الكامل]

لَا تَعْزِلُوا كَرَمِي عَلَى الْإِسْرَافِ رَبِيحُ الْمَحَامِدِ مَتَجَرُّ الْأَشْرَافِ
إِنِّي مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ أَكْفُهُمْ مُعْتَادَةُ الْإِنْسَافِ وَالْإِخْلَافِ

إِلَّا أَنْ هَذَا قَاصِرُ النَّظَرِ عَلَى مَا فِي الدُّنْيَا ، وَذَلِكَ طَامِحُهُ إِلَى مَا فِي الْآخِرَةِ ، فَهَنِيئًا لَهُمَا ، كُلُّ امْرَأَةٍ يَأْخُذُ زَادَهُ :
﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا
سَعْيًا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء : ١٨-١٩] .

[نعم المال الصالح للرجل الصالح]

وَسَأَلَ سَائِلٌ عَنِ الْفَرْقِ مَا بَيْنَ أَمْوَالِ السَّابِقِينَ مِنَ الْحَضَارِمَةِ ، حَيْثُ أُقِيمَتْ بِهَا الدُّوَلُ ، وَبَنِيَتِ الْمَسَاجِدُ ، وَعُمِّرَتِ
الْمَدَارِسُ ، وَأُصْلِحَتِ الْمَسَاقِي ، وَأُكْرِمَتِ الضُّيُوفُ ، وَتَوَزَّعَتْ فِي طَرِيقِ الْمَعْرُوفِ ، وَبَيْنَ أَمْوَالِ الْمُتَأَخِّرِينَ ، لَمْ
تُظْهَرْ إِلَّا فِي إِثَارَةِ الشُّرُورِ ، وَعِمَارَةِ الْقُصُورِ ، وَتَحْلِيَةِ النُّحُورِ ، فَأَجِيبْ : بِأَنَّ الثَّرْوَةَ السَّابِقَةَ لَمْ تَكُنْ إِلَّا فِي أَيْدِي
أَهْلِهَا ، وَأَكْثَرُهَا هَدَايَا مِنْ مَلُوكِ الْهِنْدِ لِأَعَاظِمِ الرِّجَالِ ، بِخِلَافِ أَمْوَالِ الْمُتَأَخِّرِينَ ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ خَيْرًا . . . جَعَلَ
أَغْنِيَاءَهُمْ خِيَارَهُمْ ، وَالْعَكْسُ بِالْعَكْسِ ، وَاللَّهُ دَرُّ النَّاطِمِ فِي قَوْلِهِ [في «المكبري» ٢/٣٧٠] :

[من الخفيف]

وَالْغِنَى فِي يَدِ اللَّئِيمِ قَبِيحٌ قَدَرٌ قُبْحِ الْكَرِيمِ فِي الْإِمْلَاقِ

[من الوافر]

أَمَّا الْمَوْجُودُونَ . . . فَكَمَا وَصَفْنَاهُمْ قَبْلُ ، وَكَمَا قَالَ جِحْظَةُ [في «ديوانه» ٦٤] :

تَسَاوَى النَّاسُ فِي فِعْلِ الْمَسَاوِي فَمَا يَسْتَحْسِنُونَ سِوَى الْقَبِيحِ

وَصَارَ الْجُودُ عِنْدَهُمْ جُنُونًا فَمَا يَسْتَعْقِلُونَ سِوَى الشَّحِيحِ
وَكَانُوا يَهْرُبُونَ مِنَ الْأَهَاجِي فَصَارُوا يَهْرُبُونَ مِنَ الْمَدِيحِ

ومعلومٌ أنَّ مَنْ يهربُ مِنَ المديحِ خشيةً المكافأةِ عليه . . . خيرٌ ألفَ مرَّةٍ ممَّن يتمنأه مجاناً ، ويطلبه بلا ثمنٍ ، وقال غيره - وأحسن ما شاء - :
[مِن البسيط]

كَانَ الْكِرَامُ وَأَبْنَاءُ الْكِرَامِ إِذَا تَسَامَعُوا بِكَرِيمٍ مَسَّهُ عَدَمٌ
تَسَابَقُوا فَيُؤَاسِيهِ أَخُو كَرَمٍ مِنْهُمْ وَيَرْجِعُ بَاقِيَهُمْ وَقَدْ نَدِمُوا
وَالْيَوْمَ مَا بَيْنَهُمْ صَارَ النَّدَى سَفَهًا فَيُنْكِرُونَ عَلَى الْمُعْطِي إِذَا عَلِمُوا

وقال أبو العتاهية [في « ديوانه » ٣١٣] :
[مِن مجزوء الكامل]

إِضْرِبْ بِطَرْفِكَ حَيْثُ شِئْتَ فَلَنْ تَرَى إِلَّا بَخِيلاً

فقل له [كما في « الأغاني » ٨١/٤] : لقد بخلت الناس أجمعين ، قال : كذبوني ولو بواحد .

وهذا جورٌ منه ، وقلةٌ حياءٍ ، وإلا . . . فمن أين له الأموال الطائلة التي جمعها ؟ ولكنه كان شحيحاً خبيثاً ، وكان يتخنث في أول أمره ، ولذا صنع معه ابن معن ما ذكرناه أول المجلس الرابع^(١) ، وإنما ينطبق بيته على أهل بلادنا ، أمَّا العصر الذي تزين بالبرامكة . . . فلا يجوز أن يقال فيه مثل هذا ، ولكنه من أعدائهم ، وجاحدي فضائلهم .
ويروى : أن له يداً في نكبتهم ، قاتله الله ، وأرضاهم .

* * *

(١) وهو أنه أمر عبيده أن يلوطوا به أمام عينيه .

المجلس الخامس عشر

[قال أبو الطيّب المتنبّي في «العُكْبَرِيّ» ٢/ ٣٣٩]:

[مِنَ الكَامِلِ]

أَمْطِرْ عَلَيَّ سَحَابَ جُودِكَ نَرَّةً وَأَنْظِرْ إِلَيَّ بِرَحْمَةٍ لَا أَعْرِقُ

[متى ينفع الغيث؟!]

يقول: أمطر سحاب جودك عليّ مطراً غزيراً، ثمّ ارفق بي؛ لا أعرق من كثرتها، وفيه تناقض؛ إذ كيف يطلب الغزير، ثمّ يسأل السلامة من الغرق؟ ولو أنّه لم يطلب إلاّ القليل بادئاً. لما احتاج إلى الاحتراس، فهو كطرفه بن العبد في قوله [في «ديوانه» ٩٧]:

[مِنَ الكَامِلِ]

فَسَقَى دِيَارَكَ غَيْرَ مُفْسِدِهَا صَوَّبُ الرِّبْعِ وَدِيمَةَ نَهْمِي

إذ لا تناسب بين قوله: (غَيْرَ مُفْسِدِهَا) وقوله: (نَهْمِي)، وقد وقع جريز في شرّ من ذلك؛ إذ فاته الاحتراسُ جملةً في قوله [في «ديوانه» ٩١١/٢]:

[مِنَ الكَامِلِ]

فَسَقَاكَ حَيْثُ حَلَلْتَ غَيْرَ فَقِيدَةٍ هَزَجُ الرِّوَاكِ وَدِيمَةَ لَا تَقْلَعُ^(١)

إذ لو دام ما يتمناه على أهرام مصر. . لما صارت إلاّ أثراً بعد عين، ومثله قول الناظم [في «العُكْبَرِيّ» ٨٦/٢]: [مِنَ الكَامِلِ]

وَإِذَا ارْتَحَلْتَ فَشَيَّعَتْكَ سَلَامَةٌ حَيْثُ اتَّجَهْتَ وَدِيمَةَ مِذْرَازِ^(٢)

وقد علم أنّ المسافر لا يكره شيئاً كرهه للمطر، وهو القائل [في «العُكْبَرِيّ» ١٣٣/٤]:

[مِنَ الوَافِرِ]

وَلَكِنَّ العُيُوثَ إِذَا تَوَالَتْ بِأَرْضِ مُسَافِرٍ كَرِهَ العَمَامَا

وأقبح منه قول مهيار الديلمي - في مطلع قصيدة [في «ديوانه» ١٨٣/٤]:

[مِنَ الطَّوِيلِ]

سَقَى دَارَهَا بِالرَّقْمَتَيْنِ وَحَيَّاهَا مِلْتُ يُعِيدُ الثَّرْبَ فِي الدَّارِ أَمْوَاهَا^(٣)

أما قول ذي الرُّمَّة [في «ديوانه» ٥٥٩/١]:

[مِنَ الطَّوِيلِ]

أَلَا يَا اسْلَمِي يَا دَارَ مَيِّ عَلَى البَلَى وَلَا زَالَ مِنْهَا بِجَزَعَائِكَ القَطْرُ

.. فلا يخرج عن بيت طرفه، وبيت الناظم الذي نتكلم فيه، إلاّ أن يجاب بأنه دعا للدار بالسلامة، وللجرعاء حولها

(١) هزج الرواح: يريد غيماً برعد فيكثر ماؤه. وفي المخطوط: (الرّياح) بدل (الرواح).

(٢) الديمة: المطر الذي ليس فيه رعد ولا برق.

(٣) الملت: المطر يدوم أياماً ولم يقلع.

لَا لَهَا بَتَوَالِي الْغِيُوثِ ، فَيَكُونُ مِنْ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « اَللّٰهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلَا عَلَيْنَا » (١) .

وسمعَ أعرابيٌّ خطيباً يقولُ : اَللّٰهُمَّ اسْقِنَا غَيْثاً مَغِيثاً ، مَجَلِّلاً ، سَحّاً ، طَبَقاً ، عَامّاً ، دَائِماً (٢) ، فقالَ لَهُ : رويدَكَ ؛ حتّى آوِيَ إلى جَبَلٍ يعصمُنِي مِنَ المَاءِ ، فَإِنَّكَ لَا تَطْلُبُ إِلَّا طُوفَانَ نُوحٍ .

[للجود . . حدود وكل ما زاد على حده . . انقلب إلى ضده على رأي !!]

وقال أبو نواس [في «ديوانه» ٣٩١] : [مِنَ الكامِلِ]

أَنْتَ امْرُؤٌ جَلَلْتَنِي نِعَمًا أَوْهَتْ قُوَى شُكْرِي فَقَدْ ضَعُفَا

وقال دِعْبِلُ [في «ديوانه» ٤٢٥] : [مِنَ الكامِلِ]

أَصْلَحْتَنِي بِالْبِرِّ بَلْ أَفْسَدْتَنِي وَتَرَكْتَنِي أَتَسَخَّطُ الْإِحْسَانَ (٣)

ولمّا انتهى مروانُ ابنُ أبي الجنوبِ في مدحِهِ للمتوكِّلِ إلى قولِهِ : [مِنَ الكامِلِ]

فَأَمْسِكَ نَدَى كَفَيْكَ عَنِّي وَلَا تَزِدْ فَقَدْ خِفْتُ أَنْ أَطْغَى وَأَنْ أَتَجَبَّرَا

. . قالَ [في «الأغاني» ٩٩/١٢] : لَا وَاللّٰهِ حَتَّى أَغْرَقَكَ بَجُودِي ، وَلَا تَبْرَحَ حَتَّى تَسْأَلَ حَاجَةً ، فَسَأَلَهُ ضَيْعَةً ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهَا .

وقال أبو عبادة [في «ديوانه» ٢١/١-٢٢] : [مِنَ الكامِلِ]

أَخْجَلْتَنِي بِنَدَى يَدَيْكَ فَسَوَدَتْ مَا بَيْنَنَا تِلْكَ الْيَدُ الْبَيْضَاءُ
صِلَةٌ غَدَتْ فِي النَّاسِ وَهِيَ قَطِيعَةٌ عَجَبٌ وَبِرٌّ عَادَ وَهُوَ جَفَاءُ

وكثيراً ما نقولُ : إِنَّ النَّاظِمَ لَا يَدْعُ شَادَّةً وَلَا فَاذَةً ، وَمِمَّا يُوَكِّدُ ذَلِكَ أَنَّهُ أَغَارَ عَلَى هَذَا المَعْنَى ، فلم يحسنِ الاتِّبَاعَ ، بل سقطَ على أُمِّ رَأْسِهِ ، وذلكَ حيثُ يقولُ [في «المكبري» ٢٩/١] : [مِنَ الكامِلِ]

وَلَجُدْتُ حَتَّى كِدْتُ تَبْخُلُ حَائِلًا لِلْمُتْتَهَى ، وَمِنَ الشُّرُورِ بَكَاءُ

إذ لَا يُتَصَوَّرُ أَنْ ينتهيَ الجودُ إلى ضدهِ مِنَ البخلِ إِلَّا بالمعسرةِ ، ولا يمكنُ إرادةُ ذلكَ ، إِنَّمَا يُتَصَوَّرُ مثلاً ما أجادهُ المَعْرِيُّ في قولِهِ [في «سقط الزند» ١٠٦] : [مِنَ البسيطِ]

لَوْ اخْتَصَرْتُمْ مِنَ الْإِحْسَانِ زُرْتُكُمْ وَالْعَذْبُ يُهْجَرُ لِلْإِفْرَاطِ فِي الْخَصْرِ (٤)

[من المبالغة في الإحسان قصة هرم بن سنان وزهير]

وَمِنَ المَبَالِغَةِ فِي الْإِحْسَانِ ، مَا كَانَ مِنْ هَرَمِ بْنِ سَنَانٍ إِلَى زُهَيْرٍ ، فَلَقْدَ آلَى عَلَى نَفْسِهِ أَنْ لَا يَسَلِّمَ عَلَيْهِ إِلَّا أَعْطَاهُ غُرَّةً

(١) طرف حديث أخرجه عن أنس رضي الله عنه البخاري (١٠١٤) ، ومسلم (٨٩٧) ، وأبو داود (١١٧٤) و(١١٧٥) ، والنسائي (١٥١٥) في الاستسقاء .

(٢) بعض حديث أخرجه عن ابن عمر رضي الله عنهما الشافعي في «الأم» (٢٢٢/١) وعنه البيهقي في «معرفة السنن» (٢٠١٥) و«السنن الكبرى» (٣/٣٥٥ و٣٥٦) في الصلاة .

(٣) أَتَسَخَّطُ : أَتَسَقَّلُ .

(٤) العذبُ : الماءُ الباردُ . الإفراطُ : الإسرافُ . الخَصْرُ : البرودةُ .

بن ماله ، فكان زهيرٌ بعدَ ذلكَ يمرُّ بالقومِ فيهمِ هَرَمٌ ، فيقولُ [في « وفيات الأعيان » ٦/٢٦٤] : عموا صباحاً خلا هَرَمًا ، وخيركم تركت .

[أبو دلف وعلي بن جبلة]

ويروي [في « الأغانى » ٨/٢٦٥] : أن أبا دلف العجليّ أحجل علي بن جبلة بتوالي العطايا ، وإفاضة الندى ، فانقطع عنه ، فأرسل إليه يستزيه ، فكتب إليه :

هَجَرْتِكَ لَمْ أَهْجُرْكَ مِنْ كُفْرِ نِعْمَةٍ وَهَلْ يُرْتَجَى نَيْلُ الزِّيَادَةِ بِالْكَفْرِ ؟
وَلَكِنِّي لَمَّا أَتَيْتُكَ زَائِرًا فَأَقْرَطْتَ فِي بَرِّي عَجَزْتُ عَنِ الشُّكْرِ
فَمِ الْآنَ لَا آتِيكَ إِلَّا مُسَلِّمًا أَزُورُكَ فِي الشَّهْرَيْنِ يَوْمًا أَوْ الشَّهْرِ
فَإِنْ زِدْتَنِي بَرًّا تَزَايَدْتُ جَفْوَةً وَلَمْ تَلْقِنِي طُولَ الْحَيَاةِ إِلَى الْحَشْرِ

فأعجب بها أبو دلف ، وكان حاضرَ الجواب ، شديدَ العارضة ، فأجابهُ من ساعتِهِ بقوله :

أَلَا رَبُّ ضَيْفٍ طَارِقٍ قَدْ بَسَطْتُهُ وَأَنْشُئُهُ قَبْلَ الضِّيَافَةِ بِالْبِشْرِ
أَتَانِي يُرْجِيْنِي فَمَا حَالَ دُونَهُ وَدُونَ الْقِرَى وَالْعُرْفِ مِنْ نَائِلِي سَتْرِي
وَجَدْتُ لَهُ فَضْلًا عَلَيَّ بِقُضْدِهِ إِلَيَّ وَبَرًّا زَادَ فِيهِ عَلَيَّ بِرِّي
فَزَوَّدْتُهُ مَا لَا يَدُومُ بِقَاوُهُ وَزَوَّدَنِي مَدْحًا يَدُومُ عَلَيَّ الدَّهْرِ

هؤلاءِ واللهِ طوالُ الباع ، وبمثل أخبارهم تشنّف الأسماع ، ولا غرو ؛ فالمأمونُ مع سعةِ حلمِهِ قد اغتاطَ من أمادِحِ ابنِ جبلةَ لأبي دلف [كما في « الأغانى » ٢٠/٢١] وما زالَ يتحينُّ له الفرصَ ، حتّى استلَّ لسانهُ من قفاهُ ؛ حسداً على ما خلفهُ لأبي دلفٍ من صادقِ المدحِ الذي لا يبلى ، وقد سبقَ قبيلَ المجلسِ الحادي عشرَ ما يتصلُّ بهذا الكلامِ .

[لا إسراف في الخير]

ومنَ المعلومِ أنّ البسطةَ محمودةٌ في كلِّ حالٍ ، وقد قالَ جلّ ذكرُهُ : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ [الإسراء : ٢٩] ، وقالَ عزّ ثناؤُهُ : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٧] .

وقالَ بعضهم [في « خزنة الأدب » ١/٣٥٥] : لا خيرَ في السرفِ ، فقالَ آخرُ : لا إسرافَ في الخيرِ . وفي العكسِ نظرٌ . وقد سبقَ - في المجلسينِ السادسِ والثالثِ عشرَ - بعضُ ما جاءَ في المفاضلةِ بينَ الفقرِ والغنى ، معَ الاتفاقِ على مدحِ الكفافِ ، لأنَّ اللهَ - جلّ شأنهُ ، كما في سورةِ الفجرِ - سمّى كِلَا الأمرينِ بلاءً .

وتكلّمَ الناسُ في مجلسِ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ عَنِ الأنعَمِ عيناً ، الأرغدِ عيشاً ، فأفاضوا في القولِ ، وذهبوا المذاهبَ ، وسلّكوا الوهادَ واليفاعَ ، حتّى سكتوا ، فقالَ عبدُ الملكِ : أسعدُ الناسِ حالاً ، وأنعمُهم بالاً ، من له دارٌ نؤيه ، وزوجٌ ترضيه ، ومالٌ يكفيه ، ولا يأتينا ، ولا نأتيه .

بعثَ زيادُ ابنُ سميةَ ليلةَ بـ (البصرة) - بعدَ هدأةٍ مِنَ الليلِ - إلى جماعةٍ من أهلِ العلمِ ، فيهمِ الأحنفُ بنُ قيسٍ ، فقالَ : حدّثوني عنَ جهدِ العربِ ؛ حتّى أشكرَ اللهَ على ما أنعمَ ، فقد كانَ عندي جماعةٌ من الفرسِ يتواصفونَ ما كانتِ الأكاسرةُ فيه منَ النعيمِ ، حتّى كدّتُ أستصغِرُ ما منَّ اللهُ بهِ علينا .

قَالَ أَحَدُهُمْ : حَدَّثَنِي ابْنُ عَمِّ لِي صَدُوقٌ ، قَالَ : خَرَجْتُ فِي عَامِ أَصَابَ الْعَرَبَ فِيهِ قَحْطٌ شَدِيدٌ ، حَتَّى أَكَلُوا الْعِظَامَ ، فَطَفَقْتُ ثَلَاثًا لَا أَطْعَمُ إِلَّا مِنْ جَنْسِ مَا يَأْكُلُهُ بَعِيرِي مِنْ حَشْرَاتِ الْأَرْضِ ، حَتَّى دَفَعْتُ إِلَيَّ حَيٍّ ، فَقَالُوا : مَنْ ؟ قُلْتُ : ضَيْفٌ ، قَالَتْ امْرَأَةٌ مِنْهُمْ : وَاللَّهِ مَا تَرَكَ لَنَا الدَّهْرُ مِنْ قَرِيٍّ ، وَلَكِنْ أَذْهَبَ إِلَيَّ تِلْكَ الْقَبَّةُ ، فَتَيْمَّمْتُهَا ، فَنَادَى رَئِيسُهَا غَلَامَهُ : هَلْ تَجِدُ رَسَلًا^(١) ؟ قَالَ : لَا ، إِلَّا قَدَرَ مَا يَمْسِكُ رَمَقَكَ فِي فَلَانَةَ - لِنَاقَةٍ سَمَّاهَا - قَالَ : هَاتِي لَضَيْفِنَا ، فَأَخَذَ يَحْلُبُ ، قَالَ ابْنُ عَمِّي : فَوَاللَّهِ لَقَدْ سَمِعْتُ الْأَغَانِي ، وَالْمَثَانِي ، وَأَحَادِيثَ الْأَحْبَابِ فِي التَّلَاقِي عَلَى طَوْلِ الْبِعَادِ ، فَمَا كَانَ شَيْءٌ أَلَذَّ فِي سَمْعِي . . . مِنْ صَوْتِ الشَّخْبِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ ، فَلَمَّا هَوَيْتُ لِأَخِذِ الصَّحْفَةِ . . . سَقَطَتْ مِنْ يَدِي ، وَذَهَبَ مَا فِيهَا ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ ذُقْتُ فَقْدَ الْأَهْلِ ، وَمِرَاةَ التُّكْلِ ، وَخَسَارَةَ الْمَالِ ، فَلَمْ أَرَ مَصِيبَةً أَعْظَمَ مِنْ انْكَفَاءِ تِلْكَ الْعَلْبَةِ عَلَى مِثْلِ حَالَتِي ، فَلَمَّا عَرَفَ صَاحِبُ الْقَبَّةِ جَهْدَ مَا بِي . . . عَمَدَ إِلَيَّ نَاقَةً ، فَكَشَفَ عَنِّي عِرْقِيهَا ، وَقَالَ : دُونَكَ السَّنَامُ ، فَلَمَّا امْتَلَأَتْ بَطْنِي مِنَ الشَّوَاءِ ، وَشَرِبْتُ عَلَيْهِ مِنْ مَاءٍ فِي شَنْ . . . خَرَزْتُ مَغْشِيًا عَلَيَّ ، وَمَا أَبْقَظَنِي إِلَّا بَرْدَ السَّحْرِ ، فَقَالَ زِيَادٌ : قَطْنِي^(٢) ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي مَنَّ عَلَيْنَا بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَهَدَانَا إِلَى الْإِسْلَامِ ، فَمَنْ صَاحِبُ الْقَبَّةِ ؟ قُلْتُ : عَامِرُ بْنُ الطَّفِيلِ ، فَقَالَ : كَانَ وَاللَّهِ أَهْلًا لَهَا أَبُو عَلِيٍّ ، فَلَا أَشْكُ أَنَّهُ الْأَحْسَنُ بِقَوْلِهِ [في « ديوان ذي الرُّمَّة » ١٥٦/١] :

إِذَا اغْتَدَرْتَ بِالْمَحَلِّ عَن ذِي ضُرُوعِهَا إِلَى الضَّيْفِ يَجْرُخُ فِي عَرَاقِيهَا نَضْلِي^(٣)

[من ليس له حظ . . . لا يتعب ولا يشقى]

وَذَكَرْتُ بِهَا : أَنَّ يَحْيَى بْنَ خَالِدِ الْبَرْمَكِيِّ اشْتَهَى اللَّحْمَ فِي مَحْبَسِهِ ، فَبَعَدَ جَهْدٍ قَدَرَ الْفَضْلُ عَلَيَّ أَنْ يَشْتَرِيَ لَهُ بِدَرَاهِمٍ ، وَطَبَخَهُ عَلَيَّ ضَوْءَ السَّرَاجِ ، يَمْسِكُهُ تَارَةً بِيَمِينِهِ ، وَيَسْرَاهُ أُخْرَى ، حَتَّى إِذَا انْتَهَى وَتَنَاوَلَهُ وَالذُّهُ . . . انْكَفَأَ عَلَيْهِ ، فَكَادَتْ تَتْبَعُهُ نَفْسُهُ .

[ألا موت يباع فأشتريه]

[وروى ابن خلكان في « وفيات الأعيان » ١٢٤/٢ أنه] كَانَ الْوَزِيرُ الْمَهْلَبِيُّ عَلِيًّا غَايَةَ مِنَ الضَّيْقِ ، حَتَّى كَانَ فِي سَفَرٍ مَعَ صَاحِبٍ لَهُ^(٤) ، فَاشْتَهَى اللَّحْمَ ، وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ إِلَّا دَرَاهِمٌ ، فَاشْتَرَاهُ ، وَبَعَدَ أَنْ نَضَجَ . . . انْكَفَأَ عَلَيْهِمْ ، فَتَبَرَّمَ الْمَهْلَبِيُّ بِالْحَيَاةِ ، وَقَالَ :

أَلَا مَوْتُ يُبَاعُ فَأَشْتَرِيهِ فَهَذَا الْعَيْشُ مَا لَا خَيْرَ فِيهِ
إِذَا أَبْصَرْتُ قَبْرًا مِنْ بَعِيدٍ وَدِدْتُ لَوْ أَنَّ نِيَّيَ فِيمَا يَلِيهِ
أَلَا رَحِمَ الْمُهَيِّمِ مِنْ رُوحِ عَبْدٍ تَصَدَّقَ بِالْوَفَاةِ عَلَيَّ أَخِيهِ

(١) الرُّسُلُ : اللَّبَنُ .

(٢) قَطْنِي : أَيِّ حَسْبِي .

(٣) أَيُّ : وَإِنْ تَعْتَدِرُ إِبْلِي بِالْمَحَلِّ فَلَمْ يَكُنْ فِي ضُرُوعِهَا لَبَنٌ . . . نَحَرْتُهَا لِلضَّيْفِ . عَن ذِي ضُرُوعِهَا : أَيُّ اللَّبَنِ .

(٤) وَهُوَ أَبُو الْحَسَنِ الْعَسْقَلَانِيُّ .

ثم افترقا ، وضرب الدهر ضرباته ، وترقت حال المهلب إلى أعظم درجة من الوزاره ، فرضي عن الأيام ، وقال :

[من الكامل]

رَقَّ الزَّمَانُ لِفَاقَتِي وَرَثَى لَطْوِلَ تَحَرُّقِي
وَأَنَّ النَّيَّ مَا أَشْتَهِي وَأَقَالَ نِيَّيَ مَا أَتَّقِي
فَلَا غَفْرَانَ لَهُ الْكَثِيرَ مِنَ الذُّنُوبِ الشُّبَّاقِي
حَتَّى جَنَائِتَهُ لِمَا فَعَلَّ الْمَشِيبُ بِمَفْرِقِي

وفي رفيقه من الدهر في بؤس ، وطالع منحوس ، وحال موجع ، وفقير مدقع ، حتى سمع بما انتهى إليه صاحبه ،

[من الوافر]

فقصده وأنهى إليه :

أَلَا قُلْ لِلزَّوْزِيرِ فَدَتَهُ نَفْسِي مَقَالَةَ مُذْكَرٍ مَا قَدْ نَسِيهِ
أَتَذْكَرُ إِذْ تَقُولُ لِضَيْقِ عَيْشِ أَلَا مَوْتُ يُبَاعُ فَأَشْتَرِيهِ

فأمر له في عاجل الحال بسبع مئة درهم ، وكتب في رقعه : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْتَ سَبْعَ سَبَائِلَ فِي كُلِّ سَبِيلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [البقرة: ٢٦١] ، ثم دعاه ، وخلع عليه ، وقلده عملاً يرتزق منه .

ويشبه ذلك : أَنَّ بَعْضَ أُمَرَاءِ (مِصْرَ) كَانَ مَعَ تَاجِرٍ جَلْبُهُ إِلَيْهَا ، فَارْتَقَتْ بِهِ الْأَحْوَالُ ، وَانْحَطَّتْ بِذَلِكَ التَّاجِرِ ، حَتَّى

[من البسيط]

انفقر ، فكتب إليه رقعة ، فيها [الآيات في « الإيضاح في علوم البلاغة » ٣٨٥] :

كُنَّا جَمِيعِينَ فِي كَدِّ نُكَابِدُهُ وَالْقَلْبُ وَالطَّرْفُ مِنَّا فِي أَدَى وَقَدَى
وَالآنَ أَقْبَلْتَ الدُّنْيَا عَلَيْكَ بِمَا تَهْوَى فَلَا تَنْسِنِي إِنْ الْكِرَامِ إِذَا

[من البسيط]

وقوله : (إِنْ الْكِرَامِ إِذَا) هُوَ أَوَّلُ بَيْتٍ لِأَبِي تَمَّامٍ ، أَوْلَعَ الشُّعْرَاءُ بِتَضْمِينِهِ ، وَهُوَ « فِي دِيوانِهِ » :

إِنَّ الْكِرَامَ إِذَا مَا أَيْسَرُوا ذَكَرُوا مَنْ كَانَ يَأْلَفُهُمْ فِي الْمَنْزِلِ الْخَشِنِ

[من البسيط]

ثم رأيت معزواً عند ابن خلكان [في « وفيات الأعيان » ٤٦/١] لإبراهيم بن العباس الصولي ، وقبله :

أَوْلَى الْبَرِيَّةِ طَرّاً أَنْ تُوَاسِيَهُ عِنْدَ الشُّرُورِ الَّذِي وَاسَاكَ فِي الْحَزَنِ

[استطرد على المنبي]

ولو أَنَّ النَّاطِمَ كَانَ مِنْ رِجَالِ التَّقْوَى وَالصَّلَاحِ . . لَمَا فَسَّرْنَا قَوْلَهُ : (لَا أَعْرِقُ) إِلَّا بِإِثَارِ الْكِفَافِ ؛ لِأَنَّ مِنْ تَدَسَّسَ فِي الشَّهَوَاتِ وَانْغَمَسَ فِي الشُّبُهَاتِ . . لَمْ يَكُدْ يَتَخَلَّصُ عَنِ الْآفَاتِ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ رِجَالَ الْأَعْمَالِ ، وَكِبَارَ الْأَمَالِ ، لَا يَكُونُ قُصَارَاهُمْ^(١) الْمَالُ ، وَقَدْ عَرَفْتَ حَالَ النَّاطِمِ مِمَّا أَطْنَبْنَا فِيهِ غَيْرَ مَرَّةٍ ، وَيَعْجِبُنِي قَوْلُ لِسَانِ الدِّينِ بْنِ الْخَطِيبِ :

[من الكامل]

مَنْ مُبْلِغٌ قَوْمِي عَلَى بُعْدِ الْمَدَى وَالْبَيْنُ بَيْنَهُمْ وَمِثِّي حَالاً

(١) قصاراهم : غائبهم وطلبهم .

إِنِّي قَطَعْتُ الْبَحْرَ لِلْبَحْرِ الَّذِي أَغْنَى وَأَقْنَى وَاجْتَبَى وَأَنَالَ
فَإِذَا نَفَضْتُ جَوَانِحِي عَنْ مَطْمَعِ لَمْ أَلْفِ لِلطَّمَعِ الْمُخِلَّ مَجَالًا
إِلَّا رِضَا اللَّهِ الَّذِي هُوَ غَايَةٌ لأُولِي النَّهْيِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
وَزِيَارَةُ اللَّحْدِ الَّذِي أَنْوَارُهُ أَبَدًا بِمِشْكَاةِ الْهُدَى تَلَالَا

وهو مناسب لما سبق في غير هذا المجلس من تدرُّج الأرواح العالِيَّة ، في معارج الشوقِ ، حتَّى تصلَ إلى الغايَةِ ، واستأنسنا له بما كان من حالِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ ، ودلَّنا عليه بقولِ أَفْضَلِ البَشَرِ : « اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الْأَعْلَى » (١) وقرَّنا إليه حالَ العبدِ الصالحِ في قوله : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالْعَاصِلِينَ ﴾ [يوسف : ١٠١] .

وللهِ دَرُّ لسانِ الدينِ بنِ الخطيبِ أيضاً في قوله :

كَمْ مَرْكَبٍ أَنْضَيْتُ فِي طَلَبِ الْهَوَى وَظَلَامٍ مَسَعَى تَهَتْ فِيهِ ضَلَالًا
وَقَفْتُ بِهِ قَدَمِي عَلَى نَدَمِي أَسَى مَنْ رَامَ غَيْرَ اللَّهِ رَامَ مُحَالًا

* * *

[قال أبو الطَّيِّبِ المَتَنِيُّ في « العُكْبَرِيُّ » ٢ / ٣٤٠] :

كَذَبَ ابْنُ فَاعِلَةٍ يَقُولُ بِجَهْلِهِ مَاتَ الْكِرَامُ وَأَنْتَ حَيٌّ تُرْزَقُ

[شرح المطلع وفيه مباحث]

كَتَبْتُ بِالْفَاعِلَةِ عَنِ الزَانِيَةِ ، يَقُولُ : مَنْ قَالَ : إِنَّ الْكِرَامَ مَاتُوا ، وَأَنْتَ حَيٌّ . . . فَهُوَ كَاذِبٌ ، وَأُمَّهُ زَانِيَةٌ ، وَيُرْوَى (تُرْزَقُ) بِالْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ ، وَفِيهِ مَبَاحِثُ :

[المبحث الأول على المطلع : هل يصح القول بموت الكرام مع وجود بعضهم ؟]

الأولُ : أَنَّهُ لَا اعْتِرَاضَ عَلَيَّ مَنْ يَقُولُ : مَاتَ الْكِرَامُ ، مَعَ وَجُودِ الْأَفْرَادِ مِنْهُمْ ؛ لِأَنَّ الْحُكْمَ عَلَى الْغَالِبِ ، وَإِلَّا . . . فَالزَّمانُ لَا يَخْلُو - وَإِنْ فَسَدَ - عَنِ الْخَيْرِ ، كَمَا لَا يَسْلَمُ - وَإِنْ صَلُحَ - عَنِ الشَّرِّ ، وَلَوْ اخْتَلَّ ذَلِكَ . . . لَفَسَدَ النِّظامُ ، وَسَقَطَ الْامْتِحَانُ ، وَخَرَجَتِ الدُّنْيَا عَنِ طَبِيعَتِهَا ، وَصَارَتْ إِمَّا خَيْرًا مُحَضًّا كَالجَنَّةِ ، أَوْ شَرًّا مُحَضًّا كَالنَّارِ ، وَمَا عَمَدَ أَبُو الطَّيِّبِ إِلَّا إِلَى مَا اعْتَادَهُ مِنَ الْغَلْوِ ، وَإِلَّا . . . فَالنَّاسُ تُشْكُو قَلَّةَ الْكِرَامِ مِنْ لَدُنْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَكُلُّ يَدْمٍ زَمَانُهُ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَصْفُو إِلَّا لِسْفَلَةِ النَّاسِ ، وَلِثَامِ الْخَلْقِ ، فَهَمَّ الَّذِينَ يَسْتَرِيحُونَ ، مِنْ حَيْثُ يَتَعَبُ الْكِرَامُ ، وَلِئِنْ قَالَ أَبُو نَوَاسٍ - مَا مَعْنَاهُ إِنَّ أَخْطَأْتُ لَفْظَهُ (٢) - :

(١) مر الحديث وتخريجه في غير هذا المجلس .

(٢) البيت في « الديوان » من قصيدته التي مطلعها :

[من البسيط]

دَعَّ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءُ وَدَاوِنِي بِالتَّيِّبِ كَأَنْتَ هِيَ الدَّاءُ

صَفَتْ لَهُمُ الْأَيَّامُ مِنْ مُوجِعَاتِهَا فَمَا تَتَلَقَّاهُمْ بِغَيْرِ الَّذِي شَاؤُوا

.. فَإِنَّمَا يَصِفُ سَقَاطًا مِثْلَهُ ، أَوْ هُوَ مِنَ الشَّاذِّ الَّذِي لَا يَعْلَقُ عَلَيْهِ الْحُكْمُ ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ مَا يَقْرُبُ مِنْ ذَلِكَ فِي صِفَاتِ الْأَبْدَالِ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَصْحُحُ ، وَلَا تَنْهَضُ بِهِ حُجَّةٌ ، وَلَوْ ذَهَبْنَا مَعَ النَّازِمِ إِلَى الْمَشَاحَةِ . . لَرَمِينَاهُ بِحَجْرِهِ ؛ إِذْ هُوَ أَكْثَرُ النَّاسِ قَوْلًا بِمَوْتِ الْكِرَامِ ، وَتَغْيِيرِ الْأَيَّامِ ، أَلَيْسَ هُوَ الْقَائِلُ [فِي « الْعُكْبَرِيِّ » ٢٠٩/٤] :

وَإِنَّمَا نَحْنُ فِي جِيلِ سَوَاسِيَةٍ شَرٌّ عَلَى الْخُرِّ مِنْ سُقْمِ عَلَى الْبَدَنِ^(١)
وقوله : (سَوَاسِيَةٍ) أَي : مُتَسَاوِينَ فِي اللَّوْمِ وَالْخَسَةِ ؛ إِذْ لَا يُقَالُ : سَوَاسِيَةٌ فِي الْخَيْرِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : مَا عَنِ اللَّهِ إِلَّا أَهْلُ زَمَانِنَا بِقَوْلِهِ : ﴿ مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ ﴾ [الملك : ٣] . فَإِنَّهُمْ سَوَاسِيَةٌ فِي الدَّنَاءَةِ وَالْإِنْحِطَاطِ .

وهو القائل أيضاً [في « العكبري » ٧٣/٤] :

بِأَرْضِ مَا اشْتَهَيْتُ رَأَيْتُ فِيهَا فَلَيْسَ يَفُوتُهَا إِلَّا الْكِرَامُ
وقال [في « العكبري » ١٥١/٤] :

أَمَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا كَرِيمٌ تَزُولُ بِهِ عَنِ الْقَلْبِ الْعُغُومُ
وقال [في « العكبري » ٢٦/٤] :

لَا تَطْلُبَنَّ كَرِيمًا بَعْدَ رُؤْيَيْهِ إِنَّ الْكِرَامَ بِأَسْخَاهُمْ يَدَأُ خْتُمُوا
وقال [في « العكبري » ٢٨١-٢٨٢/٤] :

كَفَى بِكَ دَاءٌ أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيًا وَحَسْبُ الْمَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيَا
صَدِيقًا فَأَعْيَا ، أَوْ عَدُوًّا مُدَاجِيَا^(٢)

وقال [في « العكبري » ٩/٤] :

وَتَعَدُّرُ الْأَحْرَارِ صَيَّرَ ظَهْرَهَا إِلَّا إِلَيْكَ عَلَيَّ فَرَجَ حَرَامِ^(٣)

فبعض هذا يقتضي أن يكون كاذباً ، وأتمه فاعلةً ، إِلَّا أَنْ يَجَابَ : بِأَنَّ الْبَيْتَ الَّذِي نَتَكَلَّمُ فِيهِ كَانَ فِي صَبَاهُ ، وَلَعَلَّ الْكِرَامَ إِذْ ذَاكَ كَثِيرٌ ، ثُمَّ تَفَانُوا بَعْدَهُ ، كَمَا جَرَى عَلَى عَهْدِنَا نَظِيرُهُ ، حَسْبَمَا يَعْرِفُ مِنْ أَمَادِيحِنَا لِلْأَشْيَاحِ الْكِرَامِ ، ثُمَّ اسْوَدَّ ظُنُّنَا ؛ إِذْ أَجْلَنَاهُ فِي هَذَا السَّوَادِ الْمَظْلَمِ ، بَعْدَ انْتِشَارِ عَقُودِهِمْ ، رِضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى وَرِحْمَاتُهُ عَلَيْهِمْ .

وما أحسن قول المعري [في « سقط الزند » ١٣٣] :

كَمْ أَرَدْنَا ذَاكَ الزَّمَانَ بِمَدْحٍ فَشُغِلْنَا بِذَمِّ هَذَا الزَّمَانِ

= والبيت هو :

دَارَتْ عَلَيَّ فِيئِيَّةُ دَانَ الزَّمَانِ لَهُمْ فَمَا يُصِيهُهُمْ إِلَّا بِمَا شَاؤُوا

(١) الجيل : الجماعة من الناس .

(٢) أعيا : صعب وعز . المداجي : الساتر للعداوة ، وهو من الدجى ، وهي الظلمة .

(٣) أي : تعذر وجود الأحرار وقتلتهم صير ظهر هذه الناقية علي في ركوبها إلى قصد سواك حراماً ، كركوب الفرج الحرام ، يريد الزنا .

الثاني : لا تغاير بين قول القطب الحداد :

[من الطويل]

مَضَى الصَّدْقُ وَاهْلُ الصَّدْقِ يَا سَعْدُ قَدْ مَضَوْا
فَلَا تَطْلُبَنَّ الصَّدَقَ فِي أَهْلِ ذَا الزَّمَنِ

[من البسيط]

وقول أبي مدين :

وَاعْلَمْ بِأَنَّ طَرِيقَ الْقَوْمِ دَارِسَةٌ
وَحَالٌ مَن يَدْعِيهَا الْيَوْمَ كَيْفَ تَرَى

[من الرجز]

وبين قول سيدنا عبد الرحمن بن عبد الله بلفقيه :

يَقُولُ قَوْمٌ عَنْ هُدَاهُمْ ضَلُّوا
فَقُلْ لَهُمْ كَلًّا وَلَكِنْ جَلُّوا
عَنْ أَنْ تَرَاهُمْ أَعْيُنُ الْجُهَّالِ
قَدْ عُدِمُوا فِي عَضْرِنَا أَوْ قَلُّوا

لأنَّ الأوَّلَ هو الأغلبُ الأكثرُ الذي يناطُ به الحكمُ ، والله في حكم العمومِ خصوصاً ، كما أجاب به بعضُ القضاةِ ، وقد قيل : جميعُ قضاةِ المسلمين لصوصٌ ، في شعرِ ذكره ابنُ السبكيِّ في « طبقاته » [١٤٣ / ٣] ونسيته^(١) .

وأما الثاني .. فإنه نظرٌ خاصٌّ إلى المعنى ، لا إلى الصورةِ ، فأهلُ الحقِّ في الصورةِ قليلٌ ، لكنهم في المعنى كثيرٌ ، قال أبو تمام [في ديوانه] ١ / ٣٣٠ :

[من البسيط]

إِنَّ الْكِرَامَ كَثِيرٌ فِي الْبِلَادِ وَإِنْ
قَلُّوا كَمَا غَيْرُهُمْ قُلٌّ وَإِنْ كَثُرُوا^(٢)

فَلَا تَخَالَفَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ ، هذا من جهةٍ ، والأخرى أنَّ أهلَ الجهلِ والفسادِ مولعونَ بإنكارِ فضائلِ العلماءِ والصلحاءِ ، وغمطِ فضائلهم ، وكتُم مناقبهم ، فهم الذين اعتمدتهم الثاني بتوبيخه وتقريعه ، بدليل ما سمعهم به من الجهالةِ ، وهؤلاء هم الذين إذا قال أحدُهم : هلك الناسُ .. فهو أشدُّهم هلاكاً^(٣) ، أمَّا أهلُ الفضلِ والعلمِ .. فلا معابةَ عليهم في تشكيِّ الزمانِ ، وتنقصِ أهله ؛ لأنَّهم لا يقولون إلاَّ الحقَّ في ذلك .

وأيضاً : فالحكمُ بالشيءِ فرعُ تصوُّره ، ومن أين للجاهلِ أن يحكمَ على أحدٍ بالفسادِ أو الصلاحِ ، وهو لا يعرفُ حدَّهُ ، ولا ماهيتهَ !؟ وقد صرَّحوا في بابِ التزكيةِ مِنَ الفقهِ ، وبابِ الجرحِ والتعديلِ مِنَ الحديثِ ، أن لا بدَّ للمزكِّيِّ والجارحِ من معرفةِ الأسبابِ ، والخبرةِ بها ، وإلاَّ .. كان مِنَ التَّقْوِيلِ على الله ، والقولِ في دينه بغيرِ علمٍ ، بخلافِ العالمِ ، فإنه لا يتكلَّمُ إلاَّ عن برهانٍ ، ولا ينطقُ إلاَّ عن حجَّةٍ ، فاعلم هذا كله ، وإلاَّ .. ارتدَّ على العلماءِ ما ملؤوا

(١) قدّم أبو جعفرُ البَحثُ على الصَّاحِبِ بنِ عبَّادٍ ، فارتضى تصرُّفه في العلمِ ، وفتنَّه في أنواعِ الفضلِ ، وعرضَ عليه القضاءَ ، على شرطِ انتحالِ مذهبه - يعني الاعتزالَ - فامتنعَ وقال : لا أبيعُ الدِّينَ بالدُّنيا ، فتمتَّلَ الصَّاحِبُ بقولِ القائلِ :

فَلَا تَجْعَلْنِي لِلْقَضَاءِ قَرِيْبَةً
مَجَالِسُهُمْ فِينَا مَجَالِسُ شُرْطِيَّةٍ
فَإِنَّ قُضَاةَ الْعَالَمِيْنَ لُصُوصٌ
وَإِيْدِيهِمْ دُونَ الشُّصُوصِ شُصُوصٌ

فأجازَهُ البَحثُ بديهةً بقوله :

سَوَى عَضْبَةٍ مِنْهُمْ تُخْصُصُ بِعَقْبَةٍ
خُصُوصُهُمْ زَانَ الْبِلَادِ وَإِنَّمَا
وَللهِ فِي حُكْمِ الْعُمُومِ خُصُوصٌ
يَزِينُ خَوَاتِيمَ الْمُلُوكِ قُصُوصٌ

(٢) أي : إنَّ الكرامَ وإن قلَّ عددهم .. فإنَّ فعلهم كبيرٌ كما أن غيرهم من اللثام وإن كانوا كثيري العدد .. لا وجود لهم .

(٣) لما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه « إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكهم » . وعزاه في « الفتح الكبير » (١٣٣ / ١) إلى أحمد ومسلم وأبي داود .

بِوَكْبَتِهِمْ مِنَ الْحَطِّ عَلَى أبنَاءِ زَمَانِهِمْ ، والتشهيرِ بِهِمْ ، وفي طليعتِهِم الإمامُ الغزاليُّ ؛ فَإِنَّهُ مِنْ أَكْثَرِهِمْ زَرَايَةَ عَلَى أَهْلِ زَمَانِهِ .

[المبحث الثالث على المطلع : المتنبى لا يزن كرم الناس ولؤمهم إلا بمعاملتهم له]

والثالثُ : أَنَّ النَّاظِمَ لا يزنُ كرمَ الناسِ ولؤمَهُمُ إِلَّا بمعاملتِهِمُ لَهُ ، ولا يقايِسُ أحوالَهُمُ إِلَّا بما يصنعونَ إليه ، فَمَنْ عَرَفَ لَهُ حَقَّهُ . . فهو الكَريمُ عِنْدَهُ ، وَمَنْ لا . . فلا ، كما قال [في «العُكْبَرِيُّ» ٣/ ٢٦٨] : [مِنَ المنسرحِ]

أَنَا الَّذِي بَيْنَ الْإِلَهِ بِهِ أَلْدَقْدَارَ وَالْمَرْءُ حَيْثُمَا جَعَلَهُ
جَوْهَرَةً يَفْرَحُ الْكِرَامُ بِهَا وَغُصَّةً لَا تُسِيغُهَا السَّفَلَةُ

وقد أخذهُ ولم يحسنِ الاتباعَ مِنْ قولِ أَبِي عُبَادَةَ [في «ديوانهِ» ١/ ٦٢٥] : [مِنَ الطَّوِيلِ]

وَإِنَّ مَقَامِي حَيْثُ خَيْمْتُ مِخْنَةً تَدُلُّ عَلَى فَهْمِ الْكِرَامِ الْأَجَاوِدِ

وَصَدَقَ مِنْ جِهَةٍ ؛ فَإِنَّ الْفَضْلَ إِنَّمَا يَعْرِفُهُ ذُوهُ ، وقد قيلَ : إِنَّ الْفَاضِلَ لا يَحْسُنُ حَالَهُ إِلَّا بَيْنَ الْفَضْلَاءِ ، أو أَشْبَاهِ الْفَضْلَاءِ .

وقال أبو هلالٍ العسكريُّ [في «ديوانهِ» ١٥٣-١٥٤] : [مِنَ الطَّوِيلِ]

وَمَا ضَاعَ مِثْلِي حَيْثُ حَلَّتْ رِكَابُهُ بَلَى حَيْثُ ضَاعَ الْمَجْدُ مِثْلِي ضَائِعٌ
وَمِثْلِي مَخْضُوعٌ لَهُ غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا كَانَ مَجْهُولَ الْفَضَائِلِ خَاضِعٌ
وَمِثْلِي مَتَّبِعٌ عَلَى كُلِّ حَالَةٍ فَإِنْ يَنْقَلِبُ وَجْهَ الزَّمَانِ فَتَابِعٌ

ولو أَنَّهُ كَانَ كَبِيرَ النَّفْسِ . . لَكَانَ لَهُ مَنْدُوحَةٌ عَمَّا ذَكَرَهُ فِي الْبَيْتَيْنِ الْأَخِيرَيْنِ ، إِمَّا بِالانْجِمَاعِ عَنِ النَّاسِ ، وَإِمَّا بِالارتِحَالِ عَنِ الْمَقَرِّ ، واللهُ جَلَّ شَأْنُهُ يَقُولُ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتَهُمُ آَلَمَتِكُمْ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ [النساء : ٩٧] .

وقد اختلفَ في الغِنَى ، وحقَّةِ الرُوحِ ، أَيُّهُمَا أَرْفَقُ بِالْإِنْسَانِ . ؟ فقال قومٌ : بالأوَّلِ ؛ لِأَنَّ الْغِنَىَّ محبوبٌ كَيْفَمَا كَانَ ، وقال آخرونَ : بالثاني ؛ لِأَنَّ الْخَفِيفَ الظِّلِّ مسلَّطٌ ، بخلافِ الثَّقِيلِ ، فَإِنَّهُ مَبْغُوضٌ حَتَّى عِنْدَ أَهْلِهِ ، فماذا يفيدُهُ الْغِنَى ، مع الْبِغَاضَةِ ؟

والحقُّ : أَنَّهُ لا بَدَّ مِنَ التَّفْصِيلِ ، فَإِنْ كَانَ فِي وَسْطِ فَاضِلٍ . . فقد يصحُّ قولُ الْآخِرِينَ ، وإِلَّا . . فلا معدِلَ عَنِ الْأَوَّلِ ، وَإِذَا نَحْنُ أَمَعْنَا النَّظَرَ فِي حَالِ النَّظِمِ ، واستقرُّنا أشعارَهُ . . لم نَنكِرْ دَعْوَاهُ ، ولم نَقْدِرْ عَلَى دَفْعِهِ عَنِ الْكِرَمِ ، أَوْ لا تَرَى إِلَى شِدَّةِ إِيَابِهِ ، وتعاطيهِ على الرُّؤْسَاءِ ، وترقُّعِهِ عَنِ الْأَذْنَابِ وَالسَّقَاطِ ، فهو القائلُ لابنِ كنداجٍ - وقد أهدى إِلَيْهِ هَدِيَّةً هُوَ إِلَيْهَا محتاجٌ إِذْ كَانَ معتقلاً بسجنِ (حمص) - [في «العُكْبَرِيُّ» ٢/ ٢٨١] : [مِنَ المنسرحِ]

غَيْرَ اخْتِيَارٍ قَبِلْتُ بِرَكَ بِي وَالْجُوعُ يُرْضِي الْأَسْوَدَ بِالْجَيْفِ

فترأهُ مع شِدَّةِ الضيقِ ، وقلَّةِ الريقِ ، يتظاهرُ بنباتِ الجأشِ ، وذهابِ الإيحاشِ ، لم يشنِ السجنُ مِنْ شَأُوهِ ، ولم يَغُضَّ الامتحانُ مِنْ بَأُوهِ ، ولم يكذِّ يقبلُ تلكَ الصَّلَةَ إِلَّا على التكرُّهِ والاشمئزازِ ، وليسَ بالقليلِ ما أصابَهُ مِنَ الوزيرِ

المهلبّي ؛ فقد أغرئى به شعراء (العراق) يزدرونه ، ويتهضمونه ، ويمزقون عرضه ، وحرش عليه من قدر من العلماء - كصاحب « الأغاني » - ينتقصونه ، ويشهرون به ، وليس بالهين ما لاقاه من الصاحب بن عباد ؛ إذ حدا حدوه سابقه ، فأغرئى به كل من قدر عليه من طلاب معروفه - وهم كثير - وألف كتاباً في الكشف عن معاييه ، مع كثرة ما يُغير في العلانية على بدائع معانيه ، وما ذلك إلا نتيجة ترفعه عن مدحهما ، وضنه بكلامه عنهما ، وشيء من هذا لا يخالف ما سبق لنا ذكره وأواخر المجلس الثاني ، في الكلام على قوله [في « العكبري » ٣٠١/١] : [من المنسرح]

لَا نَأْقَتِي تَقَبُّلُ الرَّدِيفِ وَلَا بِالسَّوْطِ يَوْمَ الرَّهَانِ أُجْهِدُهَا^(١)

على فرق ما بين حاله في بدء أمره ؛ إذ يبيع المديح بالشيء التافه ، وبين آخر أمره ؛ وقد أنف وامتلاً شمساً وكرماً ، لا يقال إنّه يدور حيثما دارت الزجاجه ، إن أُعطي . . رضي ، وإن لم يُعط . . سخط ؛ لأنه لو كان كذلك . . لما توقّف عن هجاء سيف الدولة بكل ما تصل إليه بلاغته ، فإن قيل : إنّه إنما أمسك عنه احتفاظاً بخط الرجعة . . قلنا : محال ، ولا سيما عند سورة الغضب ، وكبره في نفسه ، وتشبّعه بالأمال ، وإنما يكون له وجه من الاحتمال لو كان بعد فسله ، وخيبة رجائه من كل ناحية ، على أنه لا يصدّه ذلك وهو القائل [في « العكبري » ٢١٢/٣] : [من المنسرح]

فِي سَعَةِ الْخَافِقِينَ مُضْطَرَبٌ وَفِي بِلَادٍ مِنْ أُخْتَيْهَا بَدَلٌ^(٢)

ويقول [في « العكبري » ١٩١/١] :

غَنِيٌّ عَنِ الْأَوْطَانِ لَا يَسْتَفْرِزُنِي إِلَى بَلَدٍ سَافَرْتُ عَنْهُ إِيَابٌ^(٣)

وأشد الأصمعي لبعض الأعراب [دعبل في « ديوانه » ١٩٥] :

أَحْسِبْتُ أَرْضَ اللَّهِ ضَيْقَةً مَا أَطْوَلَ الدُّنْيَا وَأَعْرَضَهَا عَنِّي وَأَرْضُ اللَّهِ لَمْ تَضِقْ وَأَدَّلَنِي بِمَسَالِكِ الطُّرُقِ

وكان منصور بن باذان - أو بكر بن النطاح - امتدح القاسم العجلي المعروف بأبي دلف ، فلم يحصل له منه ما في نفسه ، فانفصل عنه وهو يقول [القائل منصور بن باذان كما في « وفيات الأعيان » ٧٦/٤] :

دَعَيْنِي أَجُوبُ الْأَرْضِ فِي فَلَواتِهَا فَمَا الْكَرَجُ الدُّنْيَا وَلَا النَّاسُ قَاسِمٌ^(٤)

وقال السمعاني [في كتاب « الذيل » كما في « وفيات الأعيان » ٧٦/٤] : أنشدني القاضي علي بن محمد البلخي - متمثلاً - للأمير أبي الحسن علي بن المنتخب :

فَإِنْ رَجَعْتُمْ إِلَى الْإِحْسَانِ فَهُوَ لَكُمْ عَبْدٌ كَمَا كَانَ مَطْوَاعٌ وَمِذْعَانٌ وَإِنْ أَبَيْتُمْ فَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ لَا النَّاسُ أَنْتُمْ وَلَا الدُّنْيَا خِرَاسَانٌ

ولم نسمع الناظم يتكلم في سيف الدولة بهجاء ممض ، وكلام جارح قط ، وغاية ما يكون منه التبرم بنفثات لا يصل

(١) الرديف : هو ما يرتد خلف الراكب . الرهان : السباق . والناقه هنا : نعله .

(٢) الخافقان : الشرق والغرب لأنّ الريح تخفق فيهما . المضطرب : موضع الاضطراب ، وهو الذهاب والمجيء .

(٣) يستفزي : يستخفي ويحرجني .

(٤) الكرج : بلد أبي دلف .

بها إلى التصريح ، ولا يخرجُ فيها إلى الطعنِ القبيحِ ، كقوله [في «العُكْبَرِيِّ» ٢٣٦/٤] :

رَأَيْتُكُمْ لَا يَصُونُ الْعِرْضَ جَارُكُمْ وَلَا يَدِرُّ عَلَيَّ مَرْعَاكُمْ اللَّبَنُ
جَزَاءُ كُلِّ قَرِيبٍ مِنْكُمْ مَلَلٌ وَحَظُّ كُلِّ مُجِبِّ مِنْكُمْ ضَغْنٌ
وَتَغْضِبُونَ عَلَيَّ مَنْ نَالَ رِفْدَكُمْ حَتَّى يُعَاقِبَهُ التَّنْغِيسُ وَالْمِنَنُ

وهو في ذلك غيرُ ملومٍ ، فما الذي ناله في تلكِ الحضرةِ بالقليلِ ، ومع ذلك . . فإنه يقولُ في نفسِ القصيدةِ [في «العُكْبَرِيِّ» ٢٣٧/٤] :

سَهَرْتُ بَعْدَ رَحِيلِي وَخَشَّةَ لَكُمْ ثُمَّ اسْتَمَرَّ مَرِيرِي وَارْعَوَى الْوَسْنَ^(١)

ويقولُ له أيضاً [في «العُكْبَرِيِّ» ٢٩٣/١] :

فَارَقْتُكُمْ فَإِذَا مَا كَانَ عِنْدَكُمْ قَبْلَ الْفِرَاقِ أَدَى بَعْدَ الْفِرَاقِ يَدُ
إِذَا تَذَكَّرْتُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ أَعَانَ قَلْبِي عَلَى الشُّوقِ الَّذِي أَجِدُ

فلم يزل يعتلجُ في صدره الأمرانِ ، وإن لقيه منه الأمرانِ .

وقال أبو الفتح ابنُ جنِّي : قرأتُ على المتنبي «ديوانه» . . حتى انتهيتُ إلى قوله [في «العُكْبَرِيِّ» ١٨١/١] :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَقُولُ قَصِيدَةً فَلَا أَشْتَكِي فِيهَا وَلَا أَنْتَعِبُ
وَبِي مَا يَذُودُ الشُّعْرَ عَنِّي أَقْلُهُ وَلَكِنَّ قَلْبِي يَا ابْنَةَ الْقَوْمِ قُلْبُ

فلتُ له : يعزُّ عليَّ أن يكونَ هذا الشعرُ في غيرِ سيفِ الدولةِ ، فقال : ألم ترني حذرتهُ ، وأندرتُهُ ، في قولِي له [في «العُكْبَرِيِّ» ١١٧/٣] :

أَخَا الْجُودِ أَعْطِ النَّاسَ مَا أَنْتَ مَالِكٌ وَلَا تُعْطِينَ النَّاسَ مَا أَنَا قَائِلٌ

فهو الذي فرطَ فيه بسوءِ تدبيره ، وقد سبقَ في المجلسِ السابعِ على قوله : [في «العُكْبَرِيِّ» ١٦٣/٣] :

وَالْوَجْدُ يَقْوَى كَمَا تَقْوَى النَّوَى أَبَدًا وَالصَّبْرُ يَنْحَلُ فِي جَنِي كَمَا نَحَلًا

بيتٌ للأميرِ تميمِ بنِ المعزِّ ، يشبهُ قولَ الناظمِ [في «العكبري» ١٨١/١] :

وَبِي مَا يَذُودُ الشُّعْرَ عَنِّي أَقْلُهُ وَلَكِنَّ قَلْبِي يَا ابْنَةَ الْقَوْمِ قُلْبُ

وقد أدركَ الأميرُ تميمٌ نحواً من ثمانية عشرَ عاماً من عصرِ المتنبي ، فالأقربُ أنَ الناظمَ هو السابقُ إلى المعنى .

وقد ذكرنا مرّةً قضاءَ الناظمِ لسيفِ الدولةِ على ابنِ العميدِ بالانطباعِ على الكرمِ .

ثمَّ ما أكثرَ ما يتألَّمُ من فراقِهِ ، فتراه يقولُ - ودمُ جرحِهِ يسيلُ ، لم يجفَّ بعدُ - [في «العُكْبَرِيِّ» ١٣٤/٤] :

فِرَاقٌ وَمَنْ فَارَقْتُ غَيْرُ مُذَمَّمٍ وَأَمٌّ وَمَنْ يَمَّمْتُ خَيْرُ مِيَمٍ^(٢)

(١) استمرَّ : استقامَ . المريرُ : القوَّةُ من الحبلِ . ارعوى : انزعجَ . الوسنُ : النعاسُ .

(٢) الأمُّ : القصدُ .

ويقول :

[مِن الطَّوِيلِ]

وَفَارَقْتُ خَيْرَ النَّاسِ قَاصِدَ شَرِّهِمْ وَأَكْرَمَهُمْ طُرّاً لَأَنْذِلَهُمْ طُرّاً

[مِن الطَّوِيلِ]

ويلوم قلبه في الحنين إليه ، فيقول [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ٢٨٣] :

حَبَبْتُكَ قَلْبِي ، قَبْلَ حُبِّكَ مَنْ نَأَى وَأَعْلَمُ أَنَّ الْبَيْنَ يُشْكِيكَ بَعْدَهُ
وَقَدْ كَانَ غَدَّاراً فَكُنْ لِي وَافِيَا فَلَسْتُ فُؤَادِي إِنْ رَأَيْتُكَ بَاكِيًا
فَإِنَّ دُمُوعَ الْعَيْنِ غُدْرٌ بِرَبِّهَا إِذَا كُنَّ إِثْرَ الْغَادِرِينَ جَوَارِيَا

[مِن الطَّوِيلِ]

ويقول [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ١٧٨] :

عَشِيَّةَ أَحْفَى النَّاسِ بِي مَنْ جَفَوْتُهُ وَأَهْدَى الطَّرِيقَيْنِ الَّتِي أَتَجَنَّبُ^(١)

أما ذكره الغدر ، وما أشبه ذلك عن سيف الدولة . . فما هو إلا لقوة نفسه ، لا يرى للملوك فمن دونهم فضلاً عليه ، وإنما يخاطبهم مخاطبة اللدات والأقران^(٢) ، في الكثير الأغلب ، ولا بد من مثل ذلك للعتاب ، فهو مضطرٌ إليه ، بدافع الشهامة والموجدة ، ومن نظر إلى قصيدته المستهله بقوله [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٣٦٢] :

[مِن البسيطِ]

وَإِذَا حَرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شَبِيهُ وَمَنْ بَجِسِمِي وَحَالِي عِنْدَهُ سَقَمُ^(٣)

.. ألفاها تندفق بلاغة ، وجزالة ، وشهامة ، وفخراً ، ونخوة ، تُسجّلُ له في صفحات التاريخ ما لا تسجله كبار الفتح لأرباب الدول ، فحصيلته البحث : الاعتراف له بالكرم وحفظ العهد ، وإني لأرجو أن يغفر الله له كل خطيئة زلفها بقوله [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/ ٢٨٤] :

[مِن الطَّوِيلِ]

خُلِقْتُ أَلُوفاً لَوْ رُدِدْتُ إِلَى الصُّبَا لَفَارَقْتُ شَيْبِي مُوجِعَ الْقَلْبِ بَاكِيًا

ولئن قيل : إنه لم يبق متعلقاً بمحاسن سيف الدولة إلا سياسة في حفظ الهيبة والمروءة ؛ لأنه لا يأمن السقوط من عين كافور إذا تعالَم الناس بأنه مطرود . . فالجواب عنه أن ذلك لا يكون :
أما أولاً : فلائنه لم يتكتم بشيء مما صار بينه وبين سيف الدولة .

وأما ثانياً : فلائنه لم يخرج مطروداً ، وإنما خرج مغاضباً ؛ لأنه يرى أن قد قصروا في بعض حقه ، مع حرصهم على بقائه ، والاستئثار به ، ألا تسمع إلى قوله [في « العُكْبَرِيِّ » ٣/ ٣٧٢] :

[مِن البسيطِ]

لِئِنْ تَرَكَنْ ضَمِيرًا عَنْ مَيَامِينَا لِيَحْدُثَنَّ لِمَنْ وَدَعَتْهُمْ نَدَمُ^(٤)

وأما ثالثاً : فلأن مثل ذلك لا يحصل إلا في الأوساط السافلة ، والأمم المنحطة ، فهي التي تبني إهانتها أو إكرامها على مجرد التقليد ، بخلاف الحيّة ، فإنها لا تضع الرجال إلا بحيث وضعهم الله من الفضيلة ، بل كلما استحكمت

(١) أحفى : أبلغ الناس مسألة عني ، من الحفاوة وهي : المبالغة في السؤال عن الرجل والعناية في أمره .

(٢) اللدات : الأقران الذين ولدوا معه ، أو من هم في سنه .

(٣) الشيم : البارء ، والشيم : البرء .

(٤) ضمير : جبل على يمين طالب (مصر) من (الشام) وهو قريب من (دمشق) .

النفرة بينَ فاضلٍ وأحدِ الملوكِ . . اشتدَّ حرصُ الآخرينَ على الاستئثارِ بهِ ، أمَّا سُقَاطُ الحُسَادِ . . فَإِنَّهُ لَا يُبَالِي بِهِمْ ،
وإن توجَّهتَ أنظارَهُم إلى مثلِ ذلكِ بشاهدِ قولِهِ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٩] :

فَلَا زِلْتُ أَلْقَى الْحَاسِدِينَ بِمِثْلِهَا وَفِي يَدِهِمْ غَيْظٌ وَفِي يَدَيِ الرَّفْدِ^(١)
وَعِنْدِي قَبَاطِي الْأَمِيرِ وَمَالُهُ وَعِنْدَهُمْ مِمَّا ظَفِرْتُ بِهِ الْجَحْدِ^(٢)

وَأَمَّا رَابِعاً : فَإِنَّهُ لَوْ نَظَرَ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ . . لَمَّا تَظَاهَرَ بِمَعَادَاةِ الْمَلُوكِ ، وَلَمَّا حَشَا « دِيوَانَهُ » بِهَجَاءِ كَافُورٍ وَغَيْرِهِ ،
وَلَمَّا اسْتَعْلَنَ بِبَهْرِهِ مِنْ عِنْدِهِ .

وَأَمَّا خَامِساً : فَلِأَنَّهُ لَا يَرَى لِلْمَلُوكِ فَضْلاً عَلَيْهِ كَمَا قَدَّمْنَا ، وَمَا كَانَ يَنْشُدُهُمْ إِلَّا قَاعِداً ، مِثْلَ الْفِرْزَدَقِ ، وَلَقَدْ أُرِيدَ مَرَّةً
عَلَى الْإِنْشَادِ قَائِماً ، فَقَالَ : أَوْلَسْتُ الْقَائِلَ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٢٨١] :

لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا [وَعَادَاتُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الطَّعْنُ فِي الْعِدَا]

وَأَمَّا سَادِساً : فَلِأَنَّهُ لَمْ يَتَحَفَّظْ بِالمودَّةِ مَعَ الاسْتِيَاءِ . . إِلَّا لِمَنْ زَادَ اخْتِصَاصُهُ بِهِ ، كَسَيْفِ الدَّوْلَةِ ، وَأَبِي الْعِشَائِرِ ،
وَالْأَ . . فَمَا أَكْثَرَ تَشْكِيهِ مِنْ هِضَائِمِ الْمَلُوكِ وَجُورِهِمْ .

[المبحث الرابع على المطلع : أصل هذا المطلع من قصة جرت لأبي تمام]

وَالرَّابِعُ مِنَ الْمَبَاحِثِ الَّتِي فِي الْبَيْتِ : أَنَّهُ نَظَرَ فِيهِ إِلَى قِصَّةِ جَرَّتْ لِأَبِي تَمَّامٍ مَعَ أَمِيرٍ ، طَفِقَ يَتَأَلَّمُ لِفَسَادِ الزَّمَانِ ، وَقَلَّةِ
الْكَرَامِ ، فَقَالَ لَهُ أَبُو تَمَّامٍ : لَا ذَنْبَ لِلزَّمَانِ مَعَ وَجُودِكَ ، وَلَا قَلَّةَ فِي الْكَرَامِ مَعَ جُودِكَ ، وَإِنَّكَ لَكَأَبُو جُورِيَّةَ
الْعَبْدِيِّ :

طَوِيلُ نِجَادِ السَّيْفِ حَتَّى كَأَنَّهُ بِأَعْلَى سَنَامِي فَالِحٌ يَتَطَوَّحُ
إِذَا اعْتَمَّ بِالْبُرْدِ الْيَمَانِي خِلْتَهُ هِلَالاً بَدَا مِنْ جَانِبِ الْأَفْقِ يُلْمَحُ
يَزِيدُ عَلَيَّ فَضْلَ الرَّجَالِ فَضِيلَةً وَيَقْصُرُ عَنْهُ مَدْحٌ مَنْ يَتَمَدَّحُ
وَيُدَلِّجُ فِي حَاجَاتِ مَنْ هُوَ نَائِمٌ وَيُورِي كَرِيمَاتِ النَّدَى حِينَ يَقْدَحُ

فَاهْتَزَّ الْأَمِيرُ ارْتِياحاً ، وَامْتَلَأَ أَنْفُهُ أَرِيحِيَّةً ، وَصَدْرُهُ انْشَرَحَ ، وَقَالَ لِأَبِي تَمَّامٍ : بوركَ فِيهِ شَاعِراً ، وَرَاوِيَةً ، فَأَكْثَرَ
أَبُو تَمَّامٍ بَعْدُ فِي « دِيوَانِهِ » مِنَ الْمَعْنَى ، فَقَالَ فِي أَحْمَدَ ابْنِ أَبِي دُوَادٍ [في « دِيوَانِهِ » ١/ ٢١٤] :

لَقَدْ أَنْسَتُ مَسَاوِيءَ كُلِّ دَهْرٍ مَحَاسِنُ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي دُوَادٍ

وَمِنْهُ أَخَذَ النَّازِمُ قَوْلَهُ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ١٥٩] :

أَزَالَتْ بِكَ الْأَيَّامُ عَتْبِي كَأَنَّمَا بُوَهَا لَهَا ذَنْبٌ وَأَنْتَ لَهَا عُذْرُ

وَقَدْ سَبَقَ بَعْضُ هَذَا ، مَعَ مَا يَنَاسِبُهُ مِنْ كَلَامِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ - كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ - فِي أَوَاخِرِ الْمَجْلِسِ السَّابِعِ .

(١) الرَّفْدُ : العطاء .

(٢) الْقَبَاطِيُّ : جَمْعُ قَبْطِيَّةٍ ، وَهِيَ ثِيَابٌ بِيضٌ تُصْنَعُ فِي (مِصْرَ) .

[المبحث الخامس على المطلع : ادعى بعضهم أن في البيت حشواً لا داعي لذكره]

والخامسُ : قَالَ بعضهم : فِي قَوْلِهِ مِنَ الْقَافِيَةِ (تَرْزُقُ) إِنَّهُ مِنَ الْحَشْوِ الْقَبِيحِ ، الْوَاقِعِ مِثْلُهُ فِي قَوْلِ بَعْضِهِمْ [وهو أبو العيال الهذلي في « الأغاني » ٢٤ / ١٦٠] :

[ذَكَرْتُ أَخِي] فَعَاوَدَنِي صُدَاعُ الرَّأْسِ وَالْوَصَبُ

وَالْحَقُّ أَنَّهُ لَيْسَ كَذَلِكَ ، وَلَكِنَّهُ نَاطِرٌ إِلَى قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل : ٢٦] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ [الأنعام : ٣٨] ، وَقَوْلِهِ : ﴿ فَأَتَاهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦] ، بَل رِيْمًا أَرَادَ التَّلْمِيحَ فِيهِ إِلَى قَوْلِهِ جَلَّ شَأْنُهُ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩] .

وإن كان الفرق ظاهرًا ، باحتياج الحياة البرزخية إلى التأكيد بذكر الرزق ، ما لا تحتاجه الحياة الدنيا .

وبما جاء في الحشو . . ذكرتُ أن بعضهم أنشأ قصيدةً ، عَرَضَهَا عَلَى سَبْعِينَ شَاعِرًا ، كُلُّهُمْ يُثْنِي عَلَيْهَا ، وَبَيْتُ الْمَطْلَعِ مِنْهَا هَذَا :

دَعَهَا وَلَا تَحْبِسْ زِمَامَ الْمُقَوِّدِ تَطْوِي بِأَيْدِيهَا بِسَاطَ الْفَدْفَدِ

ثُمَّ عَرَضَهَا بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى مَنْ لَا يُؤْبَهُ لَهُ ، فَقَالَ لَهُ : هَذَا الْمَطْلَعُ كَاسِفٌ ، قَالَ : وَلِمَ ؟ قَالَ : أَرَأَيْتَ لَوْ أَطْلَعَ عَلَيْهَا الْمَمْدُوحُ ، وَبِمَجْرَدِ مَا رَأَى ، أَوْ سَمِعَ ، قَوْلَكَ : دَعَهَا . . رَمَاهَا ، وَأَحَالَ عَلَيْكَ فِي الذَّنْبِ ، وَقَالَ : إِنَّمَا أَخَذْنَا بِقَوْلِكَ فِي تَرْكِهَا .

وَأَقُولُ : إِنَّ فِيهَا نَقْدًا آخَرَ لَمْ يَذْكُرْهُ رَاوِي الْقِصَّةِ ، وَهُوَ أَنَّ لَا حَاجَةَ لَذِكْرِ الْمُقَوِّدِ مَعَ الزِمَامِ ؛ لِأَنَّ الزِمَامَ لَا يَكُونُ إِلَّا فِيهِ ، وَلَيْسَ الْمَقَامُ مَقَامَ إِطْنَابٍ ، أَوْ تَقْرِيرٍ ، حَتَّى يَغْتَفِرَ فِيهِ أَوْ يَقْبَلَ .

* * *

[قال أبو الطيب المتنبي في « العكبري » ٢ / ٢٣٥] :

حَشَاشَةُ نَفْسٍ وَدَعَتْ يَوْمَ وَدَّعُوا فَلَمْ أَذْرِ أَيَّ الظَّاعِنِينَ أَشْبَعُ

[شرح المطلع]

يَقُولُ : لِي بَقِيَّةُ نَفْسٍ فَارَقْتَنِي يَوْمَ وَدَّعَنِي الْأَحْبَابُ ، فَبَقِيْتُ حَائِرًا ، لَا أَدْرِي ، أَوَدَّعُ الْحَشَاشَةَ ، أَمْ أَوَدَّعُ الْأَحْبَابَ ؟ (وَالظَّاعِنِينَ) يَرَوِي بِالتَّشْبِيهِ وَيَرَوِي بِالْجَمْعِ ، وَكِلَاهُمَا صَالِحٌ ، كَمَا لَا يَخْفَى ، وَقَالُوا : إِنَّهُ مَأْخُودٌ مِنْ قَوْلِ بَشَّارِ (ن) « دِيوانه » ٤ / ١٠١] :

حَدَى بَعْضُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَبَعْضُهُمْ شِمَالًا وَقَلْبِي بَيْنَهُمْ مُتَوَرِّعٌ

وَشَتَّانَ مَا بَيْنَهُمَا ، فَبَيْتُ بَشَّارٍ مُتَوَقِّدُ الرُّجَاجَةِ ، نَاصِعُ الدِّيَابِجَةِ ، أَمَّا بَيْتُ النَّاطِمِ . . فَيُؤْخَذُ عَلَيْهِ فِيهِ أَنَّ الْحَشَاشَةَ

ذَهَبَتْ مَعَ الْأَحْبَابِ لَجْهَةً وَاحِدَةً ، فَالتَّوَدُّعُ لِأَحَدِهِمَا تَوَدُّعٌ لِلآخَرِ ، فَلَا مَجَالَ لِلتَّرَدُّدِ ، وَلَا مَوْضِعَ لِلحَيْرَةِ ، فَإِنْ قِيلَ : إِنَّهُ تَحَيَّرَ مِنْ حَيْثُ الكَيْفِيَّةِ ، لَا مِنْ حَيْثُ الْأَيْنِيَّةِ . . قلنا : فِيهِ بَعْدُ كَثِيرٌ ، ثُمَّ إِنَّهُ يَتَوَجَّهُ إِلَيْهِ - أَيْضاً - مَا انْتَقَدَتْهُ سَيِّدَتُنَا سَكِينَةُ عَلَى قَوْلِهِ [فِي « دِيوَانِ جَمِيلٍ » ١٧٦] :

فَلَوْ تَرَكَتْ عَقْلِي مَعِي مَا طَلَبْتُهَا وَلَكِنْ طَلَبْتُهَا لِمَا فَاتَ مِنْ عَقْلِي

[مِنَ الطَّوِيلِ] وَلَوْ كَانَ صَادِقَ المَحَبَّةِ ، صَحِيحَ الهَوَى . . لَمَا قَالَ إِلَّا مَثَلَ قَوْلِ العَبَّاسِ بْنِ الْأَحْنَفِ :

أَبْكِي وَقَدْ ذَهَبَ الفُؤَادُ وَإِنَّمَا أَبْكِي لِفَقْدِكَ لَا لِفَقْدِ الذَّاهِبِ

فَالتَّكَلُّفُ إِذْنٌ ظَاهِرٌ مِنْ كَلَامِهِ ، وَالتَّشْبِيحُ بِمَا لَمْ يُعْطَ مِنَ المَحَبَّةِ مَعْرُوفٌ مِنْ حَالِهِ ، وَمَعَ ذَلِكَ . . فَهُوَ القَائِلُ [فِي « العُكْبَرِيِّ » ٣/٣٢٧] :

وَقَدْ يَتَزَيَّا بِالهَوَى غَيْرُ أَهْلِهِ وَيَسْتَضْحِبُ الْإِنْسَانَ مَنْ لَا يُلَائِمُهُ^(١)

[مِنَ الطَّوِيلِ] وَقَالَ [فِي « العُكْبَرِيِّ » ٢/٣٢١] :

وَجَائِزَةٌ دَعَاؤِ المَحَبَّةِ وَالهَوَى وَإِنْ كَانَ لَا يَخْفَى كَلَامُ المُنَافِقِ

[مِنَ الطَّوِيلِ] وَقَالَ [فِي « العُكْبَرِيِّ » ٣/٢٩٥] :

وَمَا أَنَا مِمَّنْ يَدَّعِي الحُبَّ قَلْبُهُ وَيَخْتَجُّ فِي تَرْكِ الزِّيَارَةِ بِالشُّغْلِ

وَلَوْ أَحْفَيْنَاهُ المَسْأَلَةَ ، وَنَاقَشْنَاهُ الحِسَابَ . . لِأَلْزَمْنَاهُ مَا يَرْجُمُ بِهِ سِوَاهُ ، بِمَا يَظْهَرُ عَلَى شِعْرِهِ مِنْ فَلَاتٍ لِسَانِهِ حَسَبَمَا رَأَيْتُ .

[القلب والروح مع الأحباب أينما ذهبوا وأينما ارتحلوا]

وَالبَيْتُ الَّذِي نَتَكَلَّمُ فِيهِ مَتَكَرِّرٌ المَعْنَى فِي « دِيوَانِهِ » ، مِنْهُ قَوْلُهُ [فِي « العُكْبَرِيِّ » ٢/٣٤١] :

هُوَ الْبَيْنُ حَتَّى مَا تَأْتِي الحَزَائِقُ وَيَا قَلْبُ حَتَّى أَنْتَ مِمَّنْ أَفَارِقُ !!^(٢)

[مِنَ الطَّوِيلِ] وَقَوْلُهُ [فِي « العُكْبَرِيِّ » ٢/٦٩] :

فَجُدْ لِي بِقَلْبٍ إِنْ رَحَلْتُ فَإِنِّي مُخَلَّفٌ قَلْبِي عِنْدَ مَنْ فَضَلَهُ عِنْدِي

[مِنَ الرَّافِعِ] وَقَوْلُهُ [فِي « العُكْبَرِيِّ » ١/٣٦٥] :

وَإِنِّي عَنْكَ بَعْدَ غَدٍ لَعَادٍ وَقَلْبِي مِنْ فِنَائِكَ غَيْرُ غَادِي^(٣)

[مِنَ الرَّمَلِ] وَقَالَ ابْنُ هَانِيءِ الأَنْدَلِسِيُّ [فِي « دِيوَانِهِ » ١١٤] :

إِمْسَحُوا عَن نَاطِرِي كُحْلَ الشُّهَادِ وَانْفُضُوا عَن مَضْجَعِي شَوْكَ القِتَادِ

(١) تَزَيَّا : تَكَلَّفَ الزِّيَّ . يُلَائِمُهُ : يُوَافِقُهُ .

(٢) تَأْتِي : تَهَيَّلَ وَتَرَفَّقَ . الحَزَائِقُ : الجَمَاعَاتُ . وَالمَعْنَى : يَقُولُ مُخَاطَباً قَلْبَهُ : كُلُّ أَحَدٍ يَفَارِقُنِي حَتَّى أَنْتَ ؛ لِأَنَّ الأَحْبَةَ فَارِقُونِي ، فَذَهَبَتْ مَعَهُمْ .

(٣) الفِنَاءُ : المِتْرَلُ .

أَوْ خُذُوا مِنِّي مَا أَبْقَيْتُمْ

لَا أُرِيدُ الْجِسْمَ مَسْلُوبَ الْفُؤَادِ

وقال البخارزي :

[مِنَ الْكَامِلِ]

قَالَتْ - وَقَدْ فَتَشْتُ عَنْهَا كُلَّ مَنْ
أَنَا فِي فُؤَادِكَ فَارِمٌ لِحَظِّكَ نَحْوَهُ

لَأَقِيَّتُهُ مِنْ حَاضِرٍ أَوْ بَادِي - :
تَرَنِي فَقُلْتُ لَهَا : وَأَيْنَ فُؤَادِي ؟

إِلَّا أَنْ فِيهِ مَوْأخِذَةٌ ؛ إِذْ كَيْفَ يَرَا جُعْهَا وَهُوَ لَا يَعْرِفُ مَكَانَهَا ؟ وَكَيْفَ يَخَاطِبُهَا خَطَابَ الْحَاضِرِ ، وَإِنَّمَا هِيَ فِي قَلْبِهِ
الْغَائِبِ ؟ وَلَكِنَّ الْمَطْرِبَ قَوْلُ الْآخِرِ :

[مِنَ الْخَفِيفِ]

يَا مُقِيمًا فِي خَاطِرِي وَجَنَانِي
أَنْتَ رُوحِي إِنْ كُنْتُ لَسْتُ أَرَاهَا

وَبَعِيدًا عَنِّي نَاطِرِي وَعَيْنَانِي
فَهِيَ أَدْنَى إِلَيَّ مِنْ كُلِّ دَانِي

[مِنَ الْكَامِلِ]

وقال بعض المتأخرين :

لِي فِي الْجِجَارِ وَدَيْعَةٌ خَلَفَتْهَا
وَأَطْنَتْهَا - لَا بَلْ يَقِينِي - أَنَّهَا

أُودَعَتْهَا يَوْمَ الْوَدَاعِ مُوَدَّعِي
قَلْبِي فَإِنِّي لَمْ أَجِدْ قَلْبِي مَعِي

[مِنَ الرَّمْلِ]

وتلاعب به الشرف ابن الفارض ، فقال [في «ديوانه» ٢٤] :

كَانَ لِي قَلْبٌ بِجَرَعَاءِ الْحِمَى

ضَاعَ مِنِّي ، هَلْ لَهُ رَدٌّ عَلَيَّ^(١)

[مِنَ الْكَامِلِ]

وقال [في «ديوانه» ١٢٦] :

وَاسْأَلْ غَزَالَ كِنَاسِهِ : هَلْ عِنْدَهُ

عِلْمٌ بِقَلْبِي فِي هَوَاهُ وَحَالِهِ^(٢)

[مِنَ الْكَامِلِ]

وقال [في «ديوانه» ١٤٩] :

يَا سَائِرًا بِالْقَلْبِ غَدْرًا كَيْفَ لَمْ

تُتْبِعَهُ مَا غَادَرْتَهُ مِنْ سَائِرِي ؟

[مِنَ الطُّوِيلِ]

وقال [في «ديوانه» ٣٦] :

أَخَذْتُمْ فُؤَادِي وَهُوَ بَعْضِي فَمَا الَّذِي

يَضُرُّكُمْ أَنْ تُتْبِعُوهُ بِجُمْلَتِي

[مِنَ الطُّوِيلِ]

وقال [في «ديوانه» ١٣٥] :

أَخَذْتُمْ فُؤَادِي وَهُوَ بَعْضِي فَمَا الَّذِي

يَضُرُّكُمْ لَوْ كَانَ عِنْدَكُمْ الْكُلُّ

[مِنَ الْكَامِلِ]

وقال الخابزارزي :

أَنَا غَائِبٌ وَالْقَلْبُ عِنْدَكَ حَاضِرٌ

سَافَرْتُ عَنْكَ وَمَا الْفُؤَادُ مُسَافِرٌ

(١) الجرعاء : الأرض الطيبة .

(٢) الكِنَاسُ : بيت الغزال . والضمير فيه يعود إلى العقيق في البيت قبله ، وهو :

يَا صَاحِبِي هَذَا الْعَقِيقُ قَفِيفٌ بِهِ مُؤَالِهًا إِنْ كُنْتُ لَسْتُ بِمُؤَالِهِ .

وقال آخرُ :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَإِنْ يَزْتَجِلْ جِسْمِي مَعَ الرَّكْبِ مُكْرَهًا
يُقِمُّ عِنْدَهُ قَلْبِي وَأَمْضِي بِلَا قَلْبٍ

وقال الروذباري :

[مِنَ السِّبْطِ]

وَلَوْ مَضَى الْكُلُّ مِنِّي لَمْ يَكُنْ عَجَبًا
قَبْلَ الْفِرَاقِ فَهَذَا آخِرُ الرَّمْتِ
أَدْرِكُ بَقِيَّةَ نَفْسٍ فِيكَ قَدْ تَلَفْتُ

وقال مهبازُ [في «ديوانه» ٣/ ٣٢٨] :

[مِنَ الرَّمْلِ]

وَبَجَزَعَاءِ الْحَمَى قَلْبِي فَعَجَّ
وَتَرَجَّجَلٍ فَتَحَدَّثَ عَجَبًا :
قُلْ لِحَيْرَانِ الْغَضَا : آهَاءَ عَلَيَّ
حَمَلُوا رِيحَ الصَّبَا مِنْ نَشْرِكُمْ
وَابْعَثُوا أَشْبَاحَكُمْ لِي فِي الْكَرَى

ويعجبي قولُ أبي عُبَادَةَ [في «ديوانه» ٢/ ٨٩٥] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

فَإِنْ بِنْتُ عَنْكُمْ مُصْبِحًا حَضَرَ الْهَوَى
سَأَشْكُرُ لَا أَنِّي أَجَازِيكَ نِعْمَةً
وَأَذْكُرُ أَيَّامِي لَدَيْكَ وَحُسْنَهَا
وَإِنْ غَبْتُ عَنْكُمْ سَائِرًا شَهِدَ الشَّعْرُ
بِأُخْرَى ، وَلَكِنْ كَيْ يُقَالَ لَهُ شُكْرُ
وَآخِرُ مَا يَبْقَى مِنَ الذَّاهِبِ الذُّكْرُ

وقوله [في «ديوانه» ٤/ ٢٢٣٨] :

[مِنَ الْكَامِلِ]

وَتَعَلَّمِي أَنْ اعْتِلَاقِي حُبَّكُمْ
إِمَّا أَقَمْتُ فَإِنَّ لُبِّي طَاعِنٌ

وقال جميلُ بنُ مَعْمَرٍ [في «ديوانه» ١١٨] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

لَيْسَ يَكُ جُثْمَانِي بِأَرْضٍ سِوَاكُمْ
فَإِنَّ فُؤَادِي عِنْدَكَ الدَّهْرَ أَجْمَعُ

وقال بعضُ العربِ [في «لسان العرب» ١/ ٥٠٢] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَجِسْمِي بِنِعْدَادِ الْعِرَاقِ مُشَاعِبٌ^(١)
وَسِرْتُ وَفِي نَجْرَانَ قَلْبِي مُخَلَّفٌ

وقال آخرُ [هو جعفرُ بنُ عُلْبَةَ الحارثي في «ديوان الحماسة» ١/ ١١] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

فُؤَادِي مَعَ الرَّكْبِ الْيَمَانِينَ مُصْعِدٌ
جَنِيْبٌ وَجُثْمَانِي بِمَكَّةَ مُوْتِقٌ^(٢)

(١) المشاعِبُ : الذي يباعِدُ صاحِبَهُ .

(٢) الركبُ : رُكْبَانُ الإِبِلِ خَاصَّةً . المصْعِدُ : المِعْدُ . جنيبٌ : مُسْتَجِبٌ . الجُثْمَانُ : البدنُ . المُوْتِقُ : المَقِيدُ . يقول : هو مع رُكْبَانِ الإِبِلِ القاصِدِينَ نحو (اليمن) مقودٌ ، وبدنه مَقِيدٌ مأسورٌ (بـ) مكة .

وقال عمرُ ابنُ أبي ربيعةَ [في «ديوانه» ٢٣٧/١] :

[من الخفيف]

قَدْ قَضَى مِنْ تَهَامَةَ الْأَوْطَارَا^(١)
فَقُوَادِي بِالْخَيْفِ أَصْحَى مُعَارَا

أَيْهَهَا الرَّائِحُ الْمُجِدُّ ابْتِكَارَا
مَنْ يَكُنْ قَلْبُهُ سَلِيمًا مُقِيمًا

وممَّا يروى لصقيرِ قريشٍ - وهو عبدُ الرحمنِ بنُ معاويةَ بنِ هشامِ بنِ عبدِ الملِكِ - [في «نفع الطيب» ٤١/٣] : [من الخفيف]

أَقْرَبَ مِنْ بَعْضِي السَّلَامَ لِبَعْضِي
وَفُوَادِي وَمَالِكِيهِ بِأَرْضِ

أَيْهَهَا الرَّكِبُ الْمِيمُّمُ أَرْضِي
إِنَّ جِسْمِي كَمَا رَأَيْتَ بِأَرْضِ

[من الطويل]

وقال كثيرٌ [في «ديوان الحماسة» ٩٦/٢] :

إِلَيَّ وَأَوْطَانِي بِأَرْضِ سِوَاهُمَا^(٢)
بِهَذَا ، فَطَابَ الْوَادِيَانِ كِلَاهُمَا
وَعَزَّةٌ لَوْ يَدْرِي الطَّيِّبُ قَدَاهُمَا

وَأَنْتِ اللَّيْ حَبَّيْتِ شَغْبًا إِلَى بَدَا
حَلَلْتِ بِهَذَا حَلَّةً ثُمَّ حَلَّةً
إِذَا ذَرَفَتْ عَيْنَايَ أَعْتَلُّ بِالْقَدَى

[من الوافر]

والأخيرُ من قولِ الحطيئةِ [في «ديوانه» ٩١] :

أَقُولُ : بِهَذَا قَدَى وَهُوَ الْبُكَاءُ

إِذَا مَا الْعَيْنُ فَاضَ الدَّمْعُ مِنْهَا

[من الطويل]

وقال الفرزدقُ :

وَبِالشَّامِ أُخْرَى كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ !؟

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو بِالْمَدِينَةِ حَاجَةً

[من الطويل]

وقال [جريرٌ في «ديوانه» ٨٥٠/٢] :

أَغَارَ الْهَوَى يَا عَبْدَ قَيْسٍ وَأَنْجَدَا

أَحِبُّ ثَرَى نَجْدٍ وَبِالْغُورِ حَاجَةً

[من الطويل]

وقال أبو العتاهيةُ :

فَلَلَهُ أَدْرَى أَيَّ قَوْمِي أَنْبَعُ
وَرَأَيْتِي فَمَا أَدْرِي بِهَا كَيْفَ أَصْنَعُ

تَفَرَّقَ أَهْلَانَا مُقِيمًا وَظَاعِنَا
يُنَازِعُنِي شَوْقِي أَمَامِي وَحَاجَتِي

[من البسيط]

وقال آخرُ [وهو أبو تمامٍ في «ديوانه» ١٦١/٢] :

بِالرَّقَمَتَيْنِ ، وَبِالْفُسْطَاطِ إِخْوَانِي
حَتَّى تَبْلُغْنِي أَقْصَى خُرَاسَانَ

فِي الشَّامِ أَهْلِي ، وَبَعْدَادُ الْهَوَى ، وَأَنَا
وَمَا أَظُنُّ النَّوَى تَرْضَى بِمَا صَنَعْتُ

وقال أبو العباسِ المبرِّدُ [في «مصارع العشاق» ٢٢/١] : اجتزتُ بديرِ هرقلَ ، فقلتُ لأصحابي : اصعدوا بنا إليه ، فرأينا منظرًا حسنًا ، وإذا كهلٌ مشدودٌ ، عليه آثارُ النعمةِ ، قال : ما أقدمكم هذا البلدَ ، الثقيلَ ماؤهَ ، الغليظَ هواؤهَ ،

(١) الرائحُ : الذاهبُ ليلاً . المجدُّ ابتكاراً : المبالغُ في تكبيره . الأوطارُ : الغاياتُ والمآربُ .

(٢) شغبٌ : منهلٌ ماءً . بدا : موضعٌ .

الجفَاءَ أَهْلُهُ؟ قُلْنَا : طَلَبُ الْحَدِيثِ وَالْأَدَبِ ، قَالَ حَبْدًا تُشِدُونِي أَوْ أُشِدُّكُمْ ، فَقُلْنَا : بَلِ أَنْتَ ، قَالَ : [مِنَ الْكَامِلِ]

اللَّهُ يُعَلِّمُ أَنْبِيَّ كَمِئْدُ
رُوحَانِ لِي : رُوحٌ تَضَمَّنَهَا
وَإِذَا الْمُقِيمَةُ لَيْسَ يَنْفَعُهَا
وَأَظُنُّ غَائِبِي كَشَاهِدِي
لَا أَسْتَطِيعُ أُبُثُّ مَا أَجِدُ
بَلَدٌ وَأُخْرَى حَاذَهَا بَلَدٌ
صَبْرٌ وَلَيْسَ يَضُرُّهَا جَلْدٌ
بِمَكَانِهَا تَجِدُ الَّذِي أَجِدُ

نَمْ أَغْمِي عَلَيْهِ ، فَتَرَكْنَاهُ وَانصَرَفْنَا ، فَأَفَاقَ ، وَقَالَ : بَأبِي مَا أَسْرَعَ ذَهَابِكَمَا ، أَعِيرَانِي سَمْعَكَمَا ، فَعَدْنَا إِلَيْهِ فَأَنْشَدَ :

[مِنَ الْبَسِيطِ]

لَمَّا أَنَاخُوا فُبَيْلَ الصُّبْحِ عَيْسَهُمْ
وَقَلْبَتْ مِنْ خِلَالِ السَّجْفِ نَاطِرَهَا
فَوَدَّعَتْ بَيْنَانِ عِقْدُهَا عَنْهُمْ
وَيَلِي مِنَ الْبَيْنِ مَاذَا حَلَّ بِي وَبِهَا
وَرَحَلُوهَا وَسَارَتْ بِالْهَوَى الْإِبِلُ
تَرْتَنُو إِلَيَّ وَدَمَعُ الْعَيْنِ مُنْهَمِلُ^(١)
. . نَادَيْتُ لَا حَمَلَتْ رَجُلًاكَ يَا جَمَلُ^(٢)
يَا نَازِحَ الدَّارِ حَلَّ الْبَيْنُ وَارْتَحَلُوا
فَلَيْتَ شِعْرِي وَطَالَ الْعَهْدُ مَا فَعَلُوا
إِنِّي عَلَى الْعَهْدِ لَمْ أَنْقُضْ مَوَدَّتَهُمْ

فَقَالَ لَهُ بَغِيضٌ مَنَّا : مَاتُوا ، فَقَالَ : وَأَنَا أَيْضًا أَمُوتُ ، فَلَمْ يَزَلْ يَتَجَدَّبُ مِنْ قِيْدِهِ حَتَّى فَارَقَ الْحَيَاةَ :

وَالشَّعْرُ الْأَوَّلُ لِخَالِدِ الْكَاتِبِ ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ صَاحِبَ الْقِصَّةِ ؛ لِأَنَّ خَالِدًا لَمْ يَحْبَسْ ، وَإِنَّمَا وَسُوسَ وَهَامَ عَلَيَّ
وَجْهِهِ ، وَقَالَ ابْنُ دَقِيقِ الْعِيدِ ، وَأَجَادَ [فِي « نَفْحِ الطَّيْبِ » ٦٨/١] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

إِذَا كُنْتُ فِي نَجْدٍ وَطَيْبٍ نَعِيمِهَا
وَإِنْ كُنْتُ فِي أَهْلِ عَرْتَنِي صَبَابَةٌ
فَمَا زَالَ لِي بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ وَقَفَةٌ
تَذَكَّرْتُ أَهْلِي بِاللُّوَا وَمُحَجَّرِ
إِلَى سَاكِنِي نَجْدٍ وَعَيْلَ تَصْبُرِي
فَمَنْ لِي بِنَجْدٍ بَيْنَ أَهْلِي وَمَعْشُرِي

وَقَالَ آخَرُ [فِي « نَفْحِ الطَّيْبِ » ٦٧/١] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَلِي بِالْحِمَى أَهْلٌ وَبِالْبَانِ جِيرَةٌ
تَقَسَّمُ ذَا الْقَلْبِ الْمُتَيَّمُ بَيْنَهُمْ
وَفِي حَاجِرِ خِلٍّ وَفِي الْمُنْحَنَى صَحْبُ
أَسْأَلُكُمْ بِاللَّهِ هَلْ يُقَسِّمُ الْقَلْبُ ؟

[مِنَ الْوَافِرِ]

وَقَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَلِيُّ بْنُ حَزْمٍ الظَّاهِرِيُّ [فِي « شَذَرَاتِ الذَّهَبِ » ٣٠٠/٢] :

لَيْسَ أَصْبَحْتُ مُرْتَحِلًا بِجِسْمِي
وَلَكِنْ لِلْعِيَانِ لَطِيفٌ مَعْنَى
فَرُوحِي عِنْدَكُمْ أَبَدًا مُقِيمٌ
لَهُ سَأَلَ الْمُعَايِنَةَ الْكَلِيمُ

[مِنَ الْوَافِرِ]

وَقَالَ [فِي « وَفِيَاتِ الْأَعْيَانِ » ٣٢٧/٣] :

يَقُولُ أَخِي : شَجَاكَ رَحِيلُ جِسْمِ
وَرُوحِكَ مَا لَهُ عَنَّا رَحِيلُ

(١) السَّجْفُ : السَّتْرُ .

(٢) الْعَتَمُ : أَرَادَ بِهِ الْبِنَانَ الْمَخْضُوبَ ؛ لِأَنَّهُ يُشَبَّهُ بِالْعَنَمِ وَهُوَ نَيْبٌ أَحْمَرٌ .

فَقُلْتُ لَهُ : الْمُعَايِنُ مُطْمَئِنٌّ لِيَذَا طَلَبَ الْمُعَايِنَةَ الْخَلِيلُ

[مِنَ الْكَامِلِ] وَقَالَ صَدْرُ الدِّينِ بَنُ الْمَرْحَلِ [فِي « طَبَقَاتِ ابْنِ السِّبْكِ » ٢٦٠/٩] :

يَا رَبِّ فِي الْأَطْعَانِ سَارَ فُؤَادُهُ وَيُودُهُ لَوْ كَانَ سَارَ جَمِيعُهُ

[مِنَ الْمُنْرَحِ] وَقَالَ ابْنُ خَلِّكَانَ [فِي « وَفَيَاتِ الْأَعْيَانِ » ٢٧٥/٤] : كَانَ الشَّهْرَسْتَانِيُّ يَرُوي بِإِسْنَادِهِ الْمُتَّصِلَ لِلدِّرِيدِيِّ أَنَّهُ قَالَ :

وَدَّعْتُهُ حِينَ لَا تُودَّعُهُ رُوحِي وَلَكِنَّهَا تَسِيرُ مَعَهُ
ثُمَّ أَتَرَقْنَا وَفِي الْقُلُوبِ لَنَا ضِيقٌ مَكَانٍ وَفِي الدُّمُوعِ سَعَةٌ

[مِنَ الْكَامِلِ] وَيَطْرُبُنِي - فِيمَا يَقْرُبُ مِنَ الْمَوْضُوعِ - قَوْلُ الْإِمَامِ الشُّبْلِيِّ ، نَسَأَلُ اللَّهَ أَنْ يَنْفَعَنَا بِهِ [كَمَا فِي « قُرَى الضَّيْفِ » ٢٤٠/٤] :

مَضَّتِ الشَّيْبَةُ وَالْحَبِيبَةُ فَاَنْبَرِي مَضَّتِ الشَّيْبَةُ وَالْحَبِيبَةُ فَاَنْبَرِي
مَا أَنْصَفْتَنِي الْحَادِثَاتُ رَمَيْنَنِي بِمُودَّعَيْنِ وَلَيْسَ لِي قَلْبَانِ

* * *

[مِنَ الطَّوِيلِ] قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ الْمَنْبِيِّ فِي « الْمُكْبَرِيِّ » ٢٣٥/٢ :

أَشَارُوا بِتَسْلِيمٍ فَجُذْنَا بِأَنْفُسٍ تَسِيلُ مِنَ الْأَمَاقِ وَالسَّمُّ أَدْمَعُ

[شرح المطلع]

يقول : أشاروا علينا بالسلام . . فجذنا لهم بالأرواح تسيل من الآماق ، يحسبها الناس دموعاً ، و (السَّمُّ) لغة في الاسم ، واستعمالها ليس بجيد ؛ لأنها مهجورة .

[الروح الراحلة وليس هم !! فينبغي التفريق]

[مِنَ الْكَامِلِ] والمعنى متكرر في شعره ، منه قوله [فِي « الْمُكْبَرِيِّ » ٢٤٩/٢] :

رَحَلَ الْعِزَاءُ بِرِخْلَتِي فَكَأَنِّي أَتْبَعْتُهُ الْأَنْفَاسَ لِلتَّشْيِيعِ

[مِنَ الْكَامِلِ] وقوله [فِي « الْمُكْبَرِيِّ » ٨/٤] :

لَيْسَ الْقَبَابُ عَلَى الرِّكَابِ وَإِنَّمَا هُنَّ الْحَيَاةُ تَرَحَّلَتْ بِسَلَامٍ^(١)
أَرْوَأْحَنَا أَنْهَمَلْتُ وَعِشْنَا بَعْدَهَا مِنْ بَعْدِ مَا قَطَرَتْ عَلَى الْأَقْدَامِ

[مِنَ الْوَاوِرِ] وقوله [فِي « الْمُكْبَرِيِّ » ٢٢١/٣] :

بَقَائِي شَاءَ لَيْسَ هُمْ ارْتَحَالًا وَحُسْنُ الصَّبْرِ زَمُّوا لَا الْجَمَالَ^(٢)

(١) الْقَبَابُ : الْهُوَادِجُ . الرِّكَابُ : الْإِبِلُ .

(٢) زَمُّوا الْجَمَالَ : خَطَمُوا بِالْأَرْمَةِ ، وَزَمٌّ : تَقَدَّمَ فِي السَّبْرِ ، وَأَصْلُهُ مِنْ زَمُّوا : إِذَا قَادُوا بِالْأَرْمَةِ لِلسَّبْرِ .

وقال غيره :

[مِن الطَّوِيلِ]

هِيَ الرُّوحُ مِنْ عَيْنِي تَسِيلُ عَلَيَّ خَدِّي

خَلِيلِي مَا دَمَعاً بَكَيْتُ وَإِنَّمَا

[مِن الطَّوِيلِ]

وقال بشارٌ [في «ديوانه» ٤٩/٤] :

وَلَكِنَّهَا رُوحِي تَذُوبُ فَتَقْطُرُ

وَلَيْسَ الَّذِي يَجْرِي مِنَ الْعَيْنِ مَاؤَهَا

[مِن الخَفِيفِ]

وقال ديكُ الجنِّ [في «ديوانه» ٢١١] :

هِيَ نَفْسِي تُذِيبُهَا أَنْفَاسِي

لَيْسَ ذَا الدَّمْعِ دَمْعَ عَيْنِي وَلَكِنْ

[مِن الكَامِلِ]

وقال ابنُ دريدٍ [في «ديوانه» ٤٥] :

نَفْسِي جَرَتْ فِي دَمْعِي الْمُتَحَدِّرِ

لَا تَحْسَبُوا دَمْعِي تَحَدَّرَ إِنَّهَا

[مِن الكَامِلِ]

وقال [في «ديوانه» ٥٦] :

فَجَرَى وَصَارَ مَعَ الدُّمُوعِ دُمُوعَا

قَلْبُ تَقَطَّعَ فَاسْتَحَالَ نَجِيعَا

وكلُّهُ مِنَ المَبَالِغَةِ المَقْبُولَةِ ؛ إِذ يُتَصَوَّرُ عَقْلاً وَعَادَةً ، وَلِئِنْ خَرَجَ عَنْهَا . . فَلَنْ يَجَاوِزَ الإِغْرَاقَ ، وَهُوَ مَقْبُولٌ أَيْضاً .

[مِن الكَامِلِ]

والافتراقُ لَهُ احتراقٌ ، يفضي بكثيرٍ مِنَ القلوبِ إِلَى الانفطارِ والانشقاقِ ، قَالَ النَّمِيرِيُّ :

أَوْ تَوَأْمَانٍ تَرَاضَعَا بِلَبَانٍ
وَالتُّكُلُ أَجْمَعَ فُرْقَةَ الإِخْوَانِ

إِنَّ المَنِيَّةَ وَالفِرَاقَ لَوَاحِدٌ
فِي فُرْقَةِ الأَخْبَابِ شُغْلٌ شَاغِلٌ

[مِن الكَامِلِ]

وقال آخرُ [في «المستطرف» ٨٧/٢] :

مَهَجُ النُّفُوسِ لَهُ عَنِ الأَجْسَادِ
لَمْ يَدْرِ كَيْفَ تَفُتَّتِ الأَكْبَادِ

جَاءَ الرَّحِيلُ فَحِينَ جَدَّ تَرَحَّلَتْ
مَنْ لَمْ يَيْتِ وَالبَيْنُ يَضِدُّ قَلْبَهُ

[مِن الطَّوِيلِ]

وقال ابنُ دراجِ القسطلِيُّ [في «ديوانه» ٧٥] :

وَلَكِنْ قُلُوبٌ فَارَقَتْهُنَّ أَبْدَانُ

وَمَا كَانَ هَذَا البَيْنُ بَيْنَ أَحِبَّةٍ

[مِن البَسِيطِ]

وَأَشَدُّ المَاجِشُونَ للمَهْدِيِّ [كما في «المستطرف» ٨٦/٢] : مَا قَالَهُ يَوْمَ فَارَقَ أَحِبَابَهُ حَتَّى أَبْكَاهُ ، وَهُوَ :

قَدْ كُنْتُ أَحْذَرُ هَذَا قَبْلَ أَنْ يَقَعَا
حَتَّى يُجَرَّعَنِي مِنْ بَعْدِهِمْ جُرْعَا
فَدَبَّ بِالبَيْنِ فِيمَا بَيْنَنَا وَسَعَى
فَلَا زِيَادَةَ شَيْءٍ بَعْدَ مَا صَنَعَا

لِللَّهِ بِأَكِّ عَلَيَّ أَحْبَابِهِ جَزَعَا
مَا كَانَ وَاللَّهِ شَوْمُ الدَّهْرِ يَتْرُكُنِي
إِنَّ الزَّمَانَ رَأَى إِلْفَ الشُّرُورِ لَنَا
فَلْيُصْنَعِ الدَّهْرُ بِي مَا شَاءَ مُجْتَهِدَا

[مِن الطَّوِيلِ]

وَأَبْكَاهُ أَيْضاً آخِرُ بِمَا أَشَدَّهُ مِنْ قَوْلِهِ :

وَصَاحَ فَصِيحٌ بِالرَّحِيلِ فَاسْمَعَا
فَأُضْبِخْتُ مَسْلُوبَ الفُؤَادِ مُفْجَعَا

رَمَى الحُبُّ مِنْ قَلْبِي السَّوَادَ فَأَوْجَعَا
وَعَرَّدَ حَادِي البَيْنِ فَانْشَقَّتِ العَصَا

كَفَى حَزْناً مِنْ حَادِثِ الدَّهْرِ أَنِّي أَرَى الْبَيْنَ لَا أَسْطِيعُ لِلْبَيْنِ مَدْفَعَا
وَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ الْيَوْمِ بِالْيَوْمِ جَاهِلاً فَيَا لَكَ بَيْناً مَا أَمَرَ وَأَوْجَعَا

ومثل هذا كثير في هذه الأمالي ، فلا نحيل على مجلس بعينه ؛ لأن في كثير منها ما يشبهه ويتعلق به ، ولا سيما الثاني .

* * *

[قال أبو الطيب المتنبي في « العكبري » ٢ / ٢٣٥] : [من الطويل]

حَسَائِي عَلَى جَمْرِ ذِكِّي مِنَ الْهَوَى وَعَيْنَايَ فِي رَوْضِ مِنَ الْحُسْنِ تَرْتَعُ

[شرح المطلع]

(الحشا) : ما داخل الجوف ، وأكثر ما يراؤه القلب .

[القلب في النار والعيون في الجنان]

يقول : قلبي من فراقهم يوم الوداع على جمر يتوقد ، وعيناي ترتعان من وجه الحبيب في روض من الحسن ، وإنما قال : (ترتع) ؛ لأن العينين في حكم الواحد ، إذ هما حاسة واحدة ، وهو من قول أبي تمام [في « ديوانه » ٢ / ٤٣٠] :

[من الطويل]

أَفِي الْحَقِّ أَنْ يَضْحَى بِقَلْبِي مَاتَمٌ مِنْ الشَّوْقِ وَالْبَلْوَى وَعَيْنَايَ فِي عُرْسِ
وَأَبُو تَمَّامٍ أَخَذَهُ عَمَّنْ قَبْلَهُ ، فَقَدْ قَالَ ابْنُ الدَّمِينَةِ :

[من الطويل]

عَدَّتْ مُقْلَتِي فِي جَنَّةٍ مِنْ جَمَالِهَا وَقَلْبِي غَدَاً مِنْ هَجْرِهَا فِي جَهَنَّمَ
ونقله التهامي إلى ما ترى ، فأحسن ، حيث قال [في « ديوانه » ٤٧٢] :

[من الكامل]

إِنِّي لِأَرْحَمُ حَاسِدِي لِحَرِّ مَا ضَمَّتْ صُدُورُهُمْ مِنَ الْأَوْغَارِ^(١)
نَظَرُوا صَنِيعَ اللَّهِ بِي فَعُيُونُهُمْ فِي جَنَّةٍ وَقُلُوبُهُمْ فِي نَارِ

[من المجتث]

وقال خالد الكاتب :

قَالُوا نَرَاكَ سَقِيمَا ؟ فَقُلْتُ : مِنْ وَجْتَيْهِ
فِي النَّارِ قَلْبِي ، وَعَيْنِي فِي الرَّوْضِ مِنْ مُقْلَتَيْهِ

[من الطويل]

وهذا أشبهه ببيت الناظم مما تقدم ، بل هو بعينه ، لا اختلاف إلا في بعض الألفاظ .

وقال الحسين بن الضحاک الخليل :

لَقَدْ مَلَأَتْ عَيْنِي بَغْرًا مَحَاسِنِ مَلَأْنَ فُؤَادِي لَوْعَةً وَهَمُومًا

(١) الأوغار : الأحقاد .

وللناظم فيما لا يخرج من معناه قوله [في «العكبري» ٧٢/٤] :

[من الوافر]

وَمَنْ خَبَرَ الْغَوَانِي فَالْغَوَانِي ضِيَاءٌ فِي بَوَاطِنِهِ ظَلَامٌ

وهو ناظرٌ إلى قوله تعالى : ﴿ فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ يَسُورًا لِمُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ [الحديد : ١٣] .

[من الخفيف]

ولا يخرج عنه قول شاعر المعرة [في «سقط الزند» ١١٨] :

حَلَبٌ لِلْوَلِيِّ جَنَّةٌ عَدْنٌ وَهِيَ لِلْغَادِرِينَ نَارُ الْجَحِيمِ

[من البسيط]

وهو من قول صديقه عبد الوهاب المالكي ، الذي سبق لنا ذكره [في «وفيات الأعيان» ٢٢١/٣] :

بَعْدَادُ دَارٌ لِأَهْلِ الْمَالِ طَيِّبَةٌ وَلِلْمَفَالِيسِ دَارُ الضَّنْكِ وَالضُّبِقِ
ظَلَلْتُ حَيْرَانَ أَمْشِي فِي أَرْقَتِهَا كَأَنَّي مُصْحَفٌ فِي بَيْتِ زَنْدِيقِ

* * *

[من الطويل]

[قال أبو الطيب المتنبي في «العكبري» ٢٣٦/٢] :

وَلَوْ حُمِّلْتُ صُمُّ الْجِبَالِ الَّذِي بِنَا غَدَاةً افْتَرَقْنَا أَوْشَكَتُ تَتَصَدَّعُ

[ألم البعاد يهد الجبال]

[من الوافر]

وهو من قول البحتري [في «ديوانه» ٢٥٧/١] :

وَلَوْ أَنَّ الْجِبَالَ فَفَذَنْ إِلْفَا لِأَوْشَكَ جَامِدٌ مِنْهَا يَذُوبُ

[من الطويل]

وقوله :

وَأَكْتُمُ مَا بِي مِنْ هَوَاكِ وَلَوْ يُرَى عَلَيَّ جَبَلٍ صَلْدٍ إِذَا لَتَصَدَّعَا

[من الطويل]

وقد سبق - فيما روي عن ذي النون المصري - قول المرأة :

صَبْرْتُ عَلَيَّ مَا لَوْ تَحَمَّلُ بَعْضُهُ جِبَالُ شَرُّورِي أَوْشَكَتُ تَتَصَدَّعُ

[من الطويل]

وقال ذو الرمة [بل الصمة بن عبد الله في «الأغاني» ١١/٦] :

أَمَّا وَجَلَالِ اللَّهِ لَوْ تَذَكَّرِيَنِّي كَذِكْرِكَ مَا نَهْنَهْتُ لِلْعَيْنِ مَدْمَعَا
فَقَالَتْ : بَلَى وَاللَّهِ ذِكْرًا لَوْ أَنَّهُ تَضَمَّنَهُ صُمُّ الصَّفَا لَتَصَدَّعَا

[من الطويل]

وقال آخر [وهو مجنون ليلى في «ديوانه» ٥٤] :

فَلَوْ أَنَّ مَا بِي بِالْحَصَى فَلَقَّ الْحَصَا وَبِالرَّيْحِ لَمْ يُسْمَعْ لَهُنَّ هُبُوبُ

وكله ناظرٌ إلى قوله تعالى ، تبارك اسمه : ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَفْطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشُقُّ الْأَرْضَ وَنَحَرُّ الْجِبَالَ هَدًّا ﴾ [مریم : ٩٠] ، وقوله

جل ثناؤه : ﴿ لَوْ أَرْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَشِيعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشِيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ [الحشر : ٢١] .

وقال أبو دهبيل الجمحي ، يصف لوعة الفراق : [من الطويل]

وَيَوْمٌ وَقَفْنَا لِلوَدَاعِ وَكُنْنَا
فَصِرْتُ بِقَلْبٍ لَا يُعْنَفُ فِي الْهَوَى
يَعْدُ مُطِيعَ الشَّوْقِ مَنْ كَانَ أَحْزَمًا
وَعَيْنٍ مَتَى اسْتَمَطَرْتُهَا مَطَرَتْ دَمًا

وقال الأمير تميم بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي [في «ديوانه» ٤٦٢] : [من الطويل]

وَمَا أُمُّ خِشْفٍ طُولَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ
تَهِيمٌ وَلَا تَذْرِي إِلَيَّ أَيْنَ تَنْتَهِي
أَضْرَبُ بِهَا حَرَّ الْهَجِيرِ فَلَمْ تَجِدْ
إِذَا بَعُدْتَ عَنْ خِشْفِهَا انْعَطَفَتْ لَهُ
بِأَوْجَعِ مَنِّي يَوْمَ شَدُّوا حُمُولَهُمْ
وَنَادَى مُنَادِي الْبَيْنِ أَنْ لَا تَلَاقِيَا
بِبَلْقَعَةٍ بَيِّدَاءَ ظَمَّانَ صَادِيَا
مَوْلَاهُ خَيْرِي تَجُوبُ الْفَيَافِيَا
لِغَلَّتْهَا مِنْ بَارِدِ الْمَاءِ شَافِيَا
فَأَلْفَتْهُ مَلْهُوفَ الْجَوَانِحِ طَاوِيَا

وبعض المعنى مأخوذ من قول عمرو بن كلثوم [في «ديوانه» ٨١] : [من الوافر]

فَمَا وَجِدْتُ كَوْجِدِي أُمُّ سَقْبٍ
وَلَا شَمَطَاءَ لَمْ يَتْرُكْ شَقَاهَا
أَضَلَّتْهُ فَارْجَعَتْ الْخَيْنَا^(١)
لَهَا مِنْ تِسْعَةٍ إِلَّا جَيْنَا^(٢)

وفي المجلس الأول ما يشبهه ، من كلام متمم بن نويرة ، ومثله قول الأبيوردی : [من الطويل]

وَمَا أُمُّ سَاجِي الطَّرْفِ مَالٍ بِهِ الْكَرَى
تُرَاعِي بِإِحْدَى مُقَلَّتَيْهَا كِنَاسَهَا
رَأَتْ مَرْتَعًا مِنْ جَانِبِ الرَّمْلِ فَانْتَهَتْ
فَلَمَّا قَضَتْ مِنْهُ اللَّبَانَةَ رَاجَعَتْ
أُتِيحَ لَهُ عَارِي السَّوَاعِدِ لَمْ يَزَلْ
فَوَلَّتْ عَلَيَّ ذُعْرٌ وَبِالنَّفْسِ مَا بِهَا
بِأَوْجَدِ مَنِّي يَوْمَ عَجَّتْ رِكَابُهَا
عَلَى عَذَبَاتِ الْجِرْعِ تَخَسِبُهُ قَلْبًا
وَتَرْمِي بِأُخْرَى نَحْوَهُ نَظْرًا غَرَبًا
إِلَيْهِ وَذُو الْأَطْمَاعِ لَا يُحْمَدُ الْعُقْبَى
خِيَابَهَا فَالْفَتْ خِشْفَهَا قَدْ قَضَى نَحْبًا
يُخُوضُ إِلَيَّ أَوْطَارِهِ مَطْلَبًا صَعْبًا
مِنَ الْكَرْبِ لَا لَقِيَتْ فِي حَادِثِ كَرْبًا
لَيْسَ فَلَمْ تَتْرُكْ لِيذِي صَبْوَةَ لُبًّا

وهي أبيات رائعة ، وإن أخطأ المثل محلله منها ؛ إذ لم تزد على النجاة بنفسها من عاري السواعد ، ولو أنها بقيت رابضة . . . لبدأ بها ، ثم ثنى بطلاها ، فالعاقبة عندها محمودة ، لا مذمومة ، ولو قدر له أن يتسنم الدروة من الروعة . . . لأشار إلى أنه افترس طلاها بمرأى منها ، فإن ذلك أوجع وأفجع .

[صلاح الدين يُعزِّي في والده]

وذكرت به كتاباً سيره صلاح الدين الأيوبي ، تعزیه في والده لبعض قرابته ، من إنشاء القاضي الفاضل^(٣) [في «الروضين

(١) السقب : ولد الناقة . الترجيع : ترديد الصوت .

(٢) الشمطاء : العجوز المسنة ، وهو أشد لحزنها . الجنين : الولد ما دام في بطن أمه ، والميت ؛ لأن القبر يجنه ؛ أي : يستره وهو المراد هنا .

(٣) قال القاضي ابن شداد : لما عاد صلاح الدين من بعض غزواته . . . بلغه - قبل وصوله إلى (مصر) - وفاة أبيه نجم الدين ، فسق ذلك عليه ؛ حيث لم يحضر وفاته ، فبعث إلى أقاربه بالكتاب المذكور أعلاه .

في أخبار الدولتين « ٢ / ٢٥٠ » : لقد عظمت اللوعة ، واشتدت الروعة ، وتضاعفت لغيبتنا عنه الحسرة ، واستنجدنا بالصبر فأبى ، وأجابت العبرة ، فيا له فقيداً فقدنا به العزاء ، وهانت بعده الأرزاء :

وَتَخَطَّفَتْهُ يَدُ الرَّدَى فِي غَيْبِي هَيْبِي حَضْرَتُ لَدَيْهِ ، مَاذَا أَصْنَعُ ؟

[آه . . من الفراق]

وقال أبو تمام [في « ديوانه » ٢ / ٨٤] :

لَمَّا اسْتَحَرَّ الْوَدَاعَ الْمَحْضُ وَأَنْصَرَمَتْ
رَأَيْتُ أَحْسَنَ مَرُؤِي وَأَقْبَحَهُ
أَوَاحِرُ الصَّبْرِ وَلَّى كَاظِمًا وَجِمًا^(١)
مُسْتَجْمِعِينَ لِي التَّوْدِيْعَ وَالْعَنَمَا^(٢)

وأهل المعاني يتقدون عليه عطف العنم على التوديع ؛ إذ لا مناسبة بينهما ، كما يتقدون عليه مثل ذلك في قوله [في « ديوانه » ٢ / ١٥٢] :

[من الكامل]

لَا وَالَّذِي هُوَ عَالِمٌ أَنَّ النَّوَى
غَيْرَ أَنَّ التَّأْوِيلَ لِلأَوَّلِ أَقْرَبُ مِنْهُ لِلثَّانِي .

[من الكامل]

وقال أبو تمام أيضاً [في « ديوانه » ٢ / ٣١] :

قَالُوا الرَّحِيلُ فَمَا شَكَّكْتُ بِأَنَّهَا
نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا تُرِيدُ رَحِيلاً

[من البسيط]

وقال [في « ديوانه » ٢ / ٦] :

تَكَادُ تَنْتَقِلُ الأَزْوَاحُ لَوْ تَرَكْتُ
مِنَ الْجُسُومِ إِلَيْهَا حِينَ تَنْتَقِلُ

[من الخفيف]

وقال [في « ديوانه » ٢ / ٤٢٨] :

إِنَّ يَوْمَ الْفِرَاقِ يَوْمٌ عَبَّوسٌ
أَيُّ سَيْلٍ تَسِيلُ فِيهِ النَّفُوسُ

[من البسيط]

وقد أخذ البغدادِيُّ بأطرافِ المحاسنِ في قوله [في « المستطرف » ٢ / ٨٩] :

قَالَتْ وَقَدْ نَالَهَا لِلْبَيْنِ أَوْجَعُهُ
اجْعَلْ يَدَيْكَ عَلَى قَلْبِي فَقَدْ ضَعُفْتُ
وَأَعْطَفَ عَلَيَّ الْمَطَايَا سَاعَةً فَعَسَى
كَأَنَّي يَوْمَ بِنَا حَسْرَةَ وَأَسَى
وَالْبَيْنُ صَعْبٌ عَلَى الأَحْبَابِ مَوْقِعُهُ
قَوَاهُ عَنْ حَمَلٍ مَا فِيهِ وَأَضْلَعُهُ
مَنْ شَتَّ شَمَلَ الْهَوَى بِالْبَيْنِ يَجْمَعُهُ
غَرِيقُ بَحْرِ يَرَى الشَّاطِي فَيُمنَعُهُ

[من الطويل]

وقال آخر [وهو ابن البديري في « المستطرف » ٢ / ٨٩] :

وَلَمْ أَسْتَطِعْ يَوْمَ النَّوَى رَدَّ عِبْرَةَ
وَقَلْبِي أَسَى مِنْ حَرِّهَا يَنْقَطِعُ

(١) استحَرَ : اشتدَّ . المحضُ : الخالصُ . الكاظمُ : الكاتمُ الغيظِ . الوجمُ : الساكُ حزنًا .

(٢) العنمُ : أرادَ بهِ البنانُ المخضوبُ ، لأنَّه يشبهُ بالعنمِ وهو نبتٌ أحمرٌ .

أي : حينَ أُرِفَ الوداعُ ونفدَ الصبرُ فسكتَ العاشقُ حزنًا . . حصلتُ على أقبحِ شيءٍ وهو التوديعُ ، وعلى أجملِ شيءٍ وهو إشارةُ الأناملِ الحمرِ بالفراقِ .

فَقَالَ خَلِيلِي إِذْ رَأَى الدَّمْعَ دَائِمًا يَفِيضُ دَمًا مِنْ مُقْلَتِي لَيْسَ يُدْفَعُ
لِئِنْ كَانَ هَذَا الدَّمْعُ يَجْرِي صَبَابَةً عَلَيَّ غَيْرَ لَيْلَى فَهُوَ دَمْعٌ مُضَيِّعٌ

[الأذواق في الفراق]

ثم إن الأذواق مختلفة في شأن التوديع ، كما سبقت الإشارة إليه في المجلس الثاني .

[القسم الأول يحبه لأنه يُخرج مكنون الحب]

فمنهم : من يؤثره ؛ لما فيه من قرب البعيد ، وانكشاف مكنون الحب ، فقد كتب مصعبُ بنُ الزبيرِ من ميدانِ الحربِ
[كما في « المنتظم حتى (٢٥٧ هـ) » ١١٤/٦] : لسكينة بنت الحسين ، بعد ليالٍ من فراقها بهذه الأبيات : [من الطويل]

وَكَانَ عَزِيزًا أَنْ أَيْتَ وَيَتَنَا حِجَابٌ فَقَدْ أَصْبَحْتَ مِنِّي عَلَى عَشْرِ
وَأَبْكَاهُمَا وَاللَّهِ لِلْعَيْنِ فَاعْلَمِي إِذَا ازدَدتِ مِثْلَيْهَا فَصِرْتَ عَلَى شَهْرٍ
وَأَنْكَى لِقَلْبِي مِنْهُمَا الْيَوْمَ أَنْبِي أَخَافُ بِأَنْ لَا نَلْتَقِيَ آخِرَ الدَّهْرِ

ثم أشخصها إليه ، فشهدت معه الحرب ، ودخل عليها يوم قتل ، وقد نزع ثيابه ، ثم لبس غلالة ، وتوشح بثوب وهو
محتضن سيفه ، فعلمت أنه غير راجع ، فصاحت : وا حزناه عليك يا مصعب ، فالتفت إليها ، وقال : أوكل هذا
لي في قلبك ؟ قالت : وما أخفي عنك أكثر ، قال : لو كنت أعلم أن لي عندك هذا كله . . . لكان لي ولك شأن ، ثم
خرج ولم يرجع ، وقد سبق خبره في غير هذا المجلس .

وقال جريرٌ [في « ديوانه » ٩٤٠/٢] :

لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ آخِرَ عَهْدِكُمْ بِالرَّفَقَمَتَيْنِ فَعَلْتُ مَا لَمْ أَفْعَلِ

فقيل لحفيده [كما في « المستطرف » ٨٦/٢] : ما كان جدك صانعاً لو علم أنه آخر العهد؟ قال : كان يقلع عينه حتى لا يرى
مظعن أحبابه ، فهو حينئذ أليق بحال من يكره الوداع ، لا بما نحن فيه ممن يؤثره ، ومنه قول بعضهم : [من السريع]

وَسَهَّلَ التَّوْدِيْعَ يَوْمَ النَّوَى مَا كَانَ قَدْ وَعَّرَهُ الْهَجْرُ

وقال :

لَيْسَ عِنْدِي خَطْبُ النَّوَى بِعَظِيمٍ فِيهِ رَوْحٌ وَفِيهِ كَشْفُ غُمُومٍ
إِنَّ فِيهِ اعْتِنَاقَةَ لِوَدَاعٍ وَانْتِظَارَ اعْتِنَاقَةَ لِقُدُومٍ

وقول أبي عبادَةَ المارِثُ بعضُهُ آخِرَ المَجْلِسِ الخَامِسِ [في « ديوانه » ١٥٣١/٣] :

وَلَوْ عَرَفَ النَّاسُ التَّلَاقِي وَحُسْنَهُ لَحَبَّبَ مِنْ أَجْلِ التَّلَاقِي التَّهَرُّقُ
فَيَا حُسْنَهُ وَالِدَمْعُ بِالدَّمْعِ وَاشِجٌ يُمَارِجُهُ وَالْخَدُّ بِالْخَدِّ مُلْصَقٌ^(١)
وَقَدْ ضَمْنَا وَشَكُّ التَّلَاقِي وَلَفْنَا عِنَاقٌ عَلَى أَعْنَاقِنَا نَمَّ ضِيْقُ
فَلَمْ تَرَ إِلَّا مُخْبِرًا عَنِ صَبَابَةِ بِشَكْوَى ، وَإِلَّا عَبْرَةَ تَهَرَّقُ

(١) واشجٌ : مشتبك .

وَمِنْ قَبْلِ قَبْلِ التَّلَاقِي وَبَعْدَهُ نَكَادُ بِهَا مِنْ شِدَّةِ اللَّثْمِ نَشْرُقُ

[مِنْ الْكَامِلِ] وقد أراد ابنُ درّاج - شاعرُ الأندلس - أن يتعلّق بهذه الأذيالِ في قوله [في «ديوانه» ٩٠] :

قَالَتْ وَقَدْ مَزَجَ الْفِرَاقُ مَدَامِعَا بِمَدَامِعٍ وَتَرَائِبًا بِتَرَائِبِ
أَنْفَرُوقُ حَتَّى بِمَنْزِلِ غُرْبَةٍ ؟ كَمْ نَحْنُ لِلْأَيَّامِ نُهْبَةٌ نَاهِبِ !
وَلَيْنَ جَنَيْتُ عَلَيْكَ تَرْحَةً رَاحِلِ فَأَنَا الزَّعِيمُ لَهَا بِفَرْحَةِ آيِبِ
هَلْ أَبْصَرْتَ عَيْنَاكَ بَدْرًا طَالِعَا فِي الْأَفْقِ إِلَّا مِنْ هِلَالٍ عَازِبِ ^(١)

وأخرج ابنُ السبكيّ [في «طبقاته» ٤/٢٣٣] : بسنده إلى أبي إسحاق الشيرازيّ ، قال : أنشد المطرزُ لنفسه : [مِنْ الطَّوِيلِ]

وَلَمَّا وَقَفْنَا بِالصَّرَاةِ عَشِيَّةً حَيَارَى لِتَوُدِّيعِ وَرَدِّ سَلَامِ ^(٢)
وَقَفْنَا عَلَى رَغَمِ الْحُسُودِ وَكُلْنَا نَفْضٌ عَنِ الْأَشْوَاقِ كُلِّ خِتَامِ
وَسَوَّغَنِي عِنْدَ الْوَدَاعِ عِنَاقُهُ وَلَمَّا رَأَى وَجْدِي بِهِ وَغَرَامِي
. . تَلَثَّمُ مُرْتَابًا بِفَضْلِ رِدَائِهِ فَقُلْتُ : هِلَالٌ بَعْدَ بَدْرِ تَمَامِ ؟
وَقَبَلْتُهُ فَوْقَ اللَّثَامِ فَقَالَ لِي : هِيَ الْخَمْرُ إِلَّا أَنَّهَُا بِفِدَامِ ^(٣)

ومرضَ عبيدُ الله بنُ عبدِ الله بنِ طاهرِ بنِ الحسينِ ، فعادَهُ الأميرُ ، فلمَّا انصرف . . كتبَ إليه [كما في «وفيات الأعيان»

١٢٢/٣] : ما أعرفُ أحداً جزى العلةَ خيراً غيري ، فقد شكرتُ نعمتها ؛ إذ أفاضت بي إلى رؤيتك ، فأنا كالأعرابيِّ

الذي جزى البينَ خيراً حيثُ قال :

جَزَى اللَّهُ يَوْمَ الْبَيْنِ خَيْرًا فَإِنَّهُ أَرَانَا عَلَى عِلَاتِهِ أُمَّ نَابِتِ
أَرَانَا رَبِيبَاتِ الْخُدُورِ وَلَمْ نَكُنْ نَرَاهُنَّ إِلَّا بِانْتِعَاتِ النَّوَاعِتِ ^(٤)

وقال الناظمُ [في «العُكْبَرِيّ» ٢/٦٠] :

وَمَنْ لِي يَوْمٍ مِثْلِ يَوْمِ كَرِهْتُهُ قَرُبْتُ بِهِ عِنْدَ الْوَدَاعِ مِنَ الْبُعْدِ

وقال [في «العُكْبَرِيّ» ٢/٢٤٩-٢٤٨] :

مَا زِلْتُ أَحْذَرُ مِنْ وَدَاعِكَ جَاهِدَا حَتَّى اغْتَدَيْتُ أَسْفِي عَلَى التَّوْدِيعِ
رَحَلَ الْعَزَاءُ بِرِحْلَتِي فَكَأَنَّمَا أَنْبَعْتُهُ الْأَنْفَاسَ لِلتَّشْيِيعِ
أَوْ مَا رَأَيْتُمْ فِي الصَّرَاةِ مُلُوحَةً مِمَّا أُرْفِرُقُ فِي الْفُرَاتِ دُمُوعِي

والبيتُ الأوسطُ قد سبقَ عمّا قريبٍ ، وقال [في «العُكْبَرِيّ» ١/٢٤٦-٢٤٧] :

وَجَلَا الْوَدَاعُ مِنَ الْحَبِيبِ مَحَاسِنَا حُسْنُ الْعَزَاءِ وَقَدْ جُلِينَا قِيحُ

(١) العازبُ : البعيدُ .

(٢) الصَّرَاةُ : نهرٌ يأخذ من الفراتِ ، فيسكبُ في دجلةَ ، بينه وبين (بغداد) مسيرة يوم .

(٣) الفِدَامُ : شيءٌ تشدُّهُ الأعاجِمُ على أفواهِها عند السَّقْيِ ، يكونُ كالمصفاةِ للشَّرَابِ .

(٤) أي : لم تكن نرى تلك الفتيات الجميلات إلا بوصف الواصفات .

فَيْدُ مُسَلَّمَةٌ وَطَرْفُ شَاخِصٍ
يَجِدُ الْحَمَامَ وَلَوْ كَوَجْدِي لِأَنْبَرِي

وَحَشَى تَذُوبٌ وَمَذْمَعٌ مَسْفُوحٌ
شَجَرُ الْأَرَاكِ مَعَ الْحَمَامِ يُنُوحُ

وقال بشَّارٌ :

[مِنَ البسيطِ]

إِنَّ الْوَدَاعَ مِنَ الْأَحْبَابِ نَافِلَةٌ
وَأَسْتُ أَذْرِي إِذَا شَطَّ الْمَزَارُ بِهِمْ

لِلظَّاعِنِينَ إِذَا مَا يَمُّوا بَلَدًا
هَلْ تَجَمَّعَ الدَّارُ أَمْ لَا نَلْتَقِي أَبَدًا ؟

وقال آخرُ :

[مِنَ الوافرِ]

تَمَتَّعَ مِنْ حَبِييبِكَ بِالْوَدَاعِ
فَلَمْ أَرِ فِي الْوَدَاعِ شَيْئًا

فَمَا بَعْدَ الْفِرَاقِ مِنْ اجْتِمَاعِ
أَمْرٍ مِنَ الْفِرَاقِ بِسَلَا وَدَاعِ

[القسم الثاني يكرهه ويقول درء المفساد مقدم على جلب المصالح]

ومنهم مَنْ يكرهه ؛ لِمَا يَقْدَحُ مِنَ الزَّنَادِ ، وَيَفْتَتُّ مِنَ الْأَكْبَادِ ، قَالَ أَبُو عُبَادَةَ « فِي « دِيوانِهِ » ٣ / ١٤٩٥-١٤٩٦] :

[مِنَ مجزوءِ الكاملِ]

لَا تَعْدُ لِي فِي مَسِيرِي يَوْمَ سِرْتِ وَلَمْ أَلِيقْ
فَلَقَدْ خَشِيتُ مَوَاقِفًا
وَذَكَرْتُ مَا يَجِدُ الْمُودُ
فَقَرَرْتُ ذَلِكَ تَعْمُدًا
لِلْبَيْنِ تَسْفَحُ غَرْبَ مَاقِيقِ^(١)
عُ عِنْدَ ضَمِّكَ وَاعْتِنَاقِكَ
وَخَرَجْتُ أَهْرَبُ مِنْ فِرَاقِكَ

وقال آخرُ [في « قرى الضيف » ٣ / ٣٤٤] :

[مِنَ مجزوءِ الكاملِ]

لَا تَرُكْنَ إِلَى الْوَدَاعِ
فَالشَّمْسُ عِنْدَ غُرُوبِهَا
وَإِنْ سَكَنْتَ إِلَى الْعِنَاقِ
تَصْفَرُّ مِنْ خَوْفِ الْفِرَاقِ

وهذا هو الأحرى بالقبول ، والأسعدُ بالدليل ؛ إذ له أصلٌ يتمشى عليه من قواعد العلمِ عندنا ، وهو : أنْ دَرءَ المفسادِ أولى من جلبِ المصالحِ ، فتعيّنَ دفعُ الأرجحِ من مفسادِ الاضطرابِ والاحتراقِ ، على ما لا يبيلُ لوعةً ، ولا يشفي غليلاً ، من آثارِ اللثمِ والعناقِ ، ولهذا كلُّهُ عندَ الرِّضا ، أمّا مَنْ لَمْ يَقْرُبْ مِنَ البعدِ ، إلّا عِنْدَ الوداعِ . فأولى به أنْ يحرصَ عليه ، ومنه يتبيّنُ أنّ ما سقناه من كلامِ الشعراءِ لم يتواردَ أكثرُهُ على نقطةٍ واحدةٍ .

[ما جاء في الوداع]

[مِنَ الطويلِ]

ومما جاء في مطلقِ الوداعِ ، قوله - أعني الناظم - [في « العكبري » ٢ / ٣٠٨٣٠٧] :

وَلَمْ أَرِ كَالْأَلْحَاطِ يَوْمَ رَحِيلِهِمْ
أَدْرُنَ عُيُونًا حَائِرَاتٍ كَأَنَّهَا
عَشِيَّةٌ يَعْدُونَا عَنِ النَّظَرِ الْبُكَاءِ
وَعَنْ لَذَّةِ التَّوَدِيْعِ خَوْفُ التَّفْرِيقِ
بَعَثْنَ بِكُلِّ الْقَتْلِ مِنْ كُلِّ مُشْفِقِ
مُرَجَّبَةٌ أَحْدَافُهَا فَوْقَ زَيْبِقِ

(١) العَرَبُ : الدَّمْعُ . المَاقُ : مجرى الدمعِ من العينِ أي من طرفها مما يلي الأنفِ .

وغالبُ ظني أن قد ذكرتُ في غيرِ هذا المجلسِ ، أنَّ الأخيرَ من قولِ النُميريِّ [كما في «ديوان الحماسة» ٢/ ١٤٢] : [مِن الطَّويلِ]

نَظَرْتُ كَأَنِّي مِنْ وَرَاءِ زُجَاجَةٍ
إِلَى الرَّبْعِ مِنْ فَرْطِ الصَّبَابَةِ أَنْظُرُ

[مِن الوافرِ]

وقال الناظمُ أيضاً [في «العُكبريِّ» ٢/ ٢٩٥] :

نَظَرْتُ إِلَيْهِمْ وَالْعَيْنُ شَكَرَى
وَقَدْ أَخَذَ التَّمَامَ الْبَذْرُ فِيهِمْ
وَبَيْنَ الْفَرْعِ وَالْقَدَمَيْنِ نُورٌ
فَصَارَتْ كُلُّهَا لِلدَّمْعِ مَاقَا^(١)
وَأَعْطَانِي مِنَ السَّقَمِ الْمَحَاقَا
يُقُودُ بِلَا أَرْمَتَهَا النَّيَاقَا

[مِن الطَّويلِ]

وقال [في «العُكبريِّ» ٢/ ٣٤٢] :

وَقَفْنَا وَمِمَّا زَادَ بِنَاءً وَقُوفْنَا
وَقَدْ صَارَتْ الْأَجْفَانُ قَرْحَى مِنْ الْبُكََا
فَرِيقِي هَوَى : مِمَّا مَشُوقٌ وَشَائِقُ^(٢)
وَصَارَ بَهَاراً فِي الْخُدُودِ الشَّقَائِقُ

[مِن البسيطِ]

وقال بعضهم :

غَدَا أَوْدُعُ قَوْمًا أَوْدَعُوا كَبِدِي
أُبْدِي التَّجَلُّدَ أَحْيَانًا فَيَنْهَزُنِي
لَا أَنْسَ يَوْمَ تَنَارَعْنَا حَدِيثَ نَوَى
فَدَمَعُهَا بَرْدٌ فَوْقَ الْعَقِيقِ جَرَى
كُنَّا إِلَى الْوَصْلِ قَدْ مِلْنَا فَنَغَّصَهُ
نَارًا وَعَهْدِي بِهِمْ بَرْدًا عَلَى الْكَبِدِ
رِيقٌ يَجِفُّ وَخَدٌّ بِالذُّمُوعِ نَدِي
وَقَوْلُهَا وَهِيَ تَبْكِي : خَانِنِي جَلْدِي
وَرِيقُهَا ضَرْبٌ قَدْ شِيبَ بِالْبَرْدِ^(٣)
هَذَا الرَّحِيلُ الَّذِي مَا دَارَ فِي خَلْدِي

[مِن الكاملِ]

وقال آخرُ [في «المستطرف» ٢/ ٤٦] :

لَمَّا التَّقِينَا لِلْوَدَاعِ وَأَعْرَبَتْ
فَرَقْنَا بَيْنَ مَحَاجِرٍ وَمَعَاجِرِ
عَبَّرَاتِنَا عَنَّا بِدَمْعِ نَاطِقِ
وَجَمَعْنَا بَيْنَ بِنَفْسِجٍ وَشَقَائِقِ

[مِن مَخْلَعِ البسيطِ]

وقال أبو بكرِ الزبيديُّ الإشبيليُّ [في «نوح الطيب» ٤/ ٧] :

لَمْ يَخْلُقِ اللَّهُ مِنْ عَذَابٍ
مَا بَيْنَهَا وَالْحِمَامِ فَزُقُ
أَشَدَّ مِنْ وَقْفَةِ الْوَدَاعِ
لَوْلَا الْمُنَاحَاةُ وَالنَّوَاعِي
مِنْ بَعْدِ مَا كَانَ ذَا اجْتِمَاعِ
وَكُلُّ شَعْبٍ إِلَى انْصِدَاعِ
إِنْ يَفْتَرِقُ شَمْلُنَا وَشِيكَا
فَكُلُّ شَمْلٍ إِلَى فِرَاقِ

[قصائد للمؤلف في الوداع]

[مِن الكاملِ]

ولي في الوداع ما تُسَنَّفُ بِهِ الْأَسْمَاعُ ، منه قولِي :

وَدَّعْتُهُمْ وَكَتَمْتُهُمْ خَبَرَ النَّوَى
وَالْحَالُ أَنِّي بِالتَّكْثُمِ وَائْتِقُ

(١) العينُ الشكرى : الممتلئة بالدمع .

(٢) البهارة : زهرٌ أصفرٌ . الشقائق : جمعُ شقيقة ، وهي زهرٌ أحمرٌ ينسبُ إلى النعمان .

(٣) الضَّرْبُ : العسل الأبيض .

لَكِنْ ضَعُفْتُ عَنِ الْهَوَى فِتْبَادَرْتُ
قَالُوا : تَفَارِقْنَا وَأَنْتَ حَيَاتُنَا
فَعَيِّتُ عَنْ رَدِّ الْجَوَابِ لِأَنَّهُ
وَأَرَابُهُمْ وَجَلِي وَلَكِنِّي وَإِنْ
فَعَصَرْتُ عَيْنِي مُوهِمًا فِيهَا قَدَى

وقولي [كما في « ديوان المؤلف » ق ٣٩-٤٠] :

مِنْ مَخْجَرِي عَلَى الْخُدُودِ سَوَابِقُ ؟
مَاذَا يَكُونُ الْحَالُ حِينَ تَفَارِقُ
قَدْ كَادَ يَفْضَحُنِي نَشِيحُ خَانِقُ
خَارَتْ قُوَى جَلْدِي بِقِيَّتِ أُسَارِقُ
وَأَرَيْتُهُمْ أَنِّي بِرِيقِي شَارِقُ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

فَقُوا رَيْمًا تَزَوَى الْمَطَايَا عَلَى مَهَلٍ
وَمَا غَرَضِي نَفْعُ الرِّكَابِ وَإِنَّمَا
فَلَمْ تُجِدْنِي نَفْعًا وَمَا بَرَزْتُ نَسْمَةً
وَأُمُّ رِئَالٍ سَبَّحَتْ بِدُمُوعِهَا
وَلَمَّا رَأَوْا مَا قَدْ عَرَاهَا تَحَدَّرَتْ
وَلَا دَمَعَةٌ إِلَّا لَهَا بِفُؤَادِهَا
يُذِيبُ الْجَوَى أَحْشَاءَهَا فَتَكَادُ مِنْ
وَمَا عِنْدَهَا مِنْ حَسْرَةٍ وَصَبَابَةٍ
أودَّعُهُمْ وَالْعَيْنُ شُكْرِي وَرَيْمًا
عَدَانِي الْبُكَاءُ تِلْكَ الْغَدَاةُ عَنِ الْحَيَا
صَلِيبُ حَصَاةٍ فِي الْخُطُوبِ وَإِنَّمَا
فَمَا أَنَسَ مِ الْأَشْيَاءِ لَمْ أَنَسَ سَاعَةً
تَنَاسَبَتْ الْأَضْدَادُ حَتَّى تَمَازَجَتْ
تُرَاجِعُنِي عَذْبَ الْكَلَامِ بِلَهْجَةٍ
لَهَا غَايَةٌ مِنِّي تُرِيدُ بُلُوغَهَا
وَمِنْ بَعْدِ جُهْدٍ غِيضَتْ عَبْرَاتُهَا
تَقُولُ : وَقَدْتَنِي أَتَتْرُكُنَا كَذَا
فَقُلْتُ : نِقْسِي بِاللَّهِ فَهُوَ حَسِينَا
قَطَعْنَا مِنَ النَّاسِ الرَّجَا فَتَاكَدَتْ
وَلَا شَيْءَ كَالْإِيْمَانِ بِاللَّهِ وَحُدَّهُ

وَتَرْتَاخُ فِي الْأَعْطَانِ مِنْ ذَلِكَ السَّهْلِ
لَأُطْفِئَ مِنْ بَيْتِي بِرَائِحَةِ الْأَهْلِ
عَلَى كَبِدِ حَرِيٍّ مَرَاجِلُهَا تَعْلِي
وَلَا قَطْرَةٌ إِلَّا تَصُوبُ عَلَى طِفْلِ^(١)
مَدَامِعُهُمْ مِنْ لَوْعَةِ الْبَيْنِ كَالْوَبْلِ
عَلَى مَا بِهَا وَخَزُّ الْأَسِنَّةِ وَالنَّبْلِ
لَوَاعِجِهَا تَجْرِي عَلَى الدَّمْعِ فِي الْكُخْلِ
كَمَثَلِ الَّذِي بِي حَدْوِكَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ
تَنَدَّى بِهَارِ الْخَدِّ مِنِّي عَلَى الْبُخْلِ
وَكَانَ عَلَى رَأْيِي حَرَامًا عَلَى مِثْلِي
رَأَيْتُ مَذَاقَ الْبَيْنِ أَشْوَى مِنَ الْقَتْلِ
عَرَفْنَا الْهَوَى فِيهَا عَلَى غُصَّةِ الثُّكْلِ
مَرَارَةٌ ذَاكَ الثُّكْلِ فِي لَذَّةِ الْوُضْلِ
يَمِيلُ بِهَا فِيهَا النَّشِيحُ إِلَى الْمَطْلِ
فَيَقْطَعُهَا عَنْهَا إِذَا شَرَعْتَ تُمْلِي
وَمَا فَعَلْتُ إِلَّا وَقَدْ سَلَبْتُ عَقْلِي
فِرَادِي لَدَى الْأَعْدَاءِ فِي الْبَلَدِ الْمَحْلِ
وَحَافِظُنَا سُبْحَانَهُ الْجَامِعُ الشَّمْلِ
رَوَابِطُنَا بِالْفَائِضِ الْجُودِ وَالْفَضْلِ
يُعْزِي لَدَى سُودِ النَّوَائِبِ بَلْ يُسْلِي

وهي طويلة ، وكلها من هذا النوع ، وفي هذا القدر منها الكفاية .

* * *

(١) رئال : جمع الرأل ، وهو فرخ النعام حتى يأتي عليه حول . الطفل : الرخص الناعم الرقيق ، وطفلت الشمس : مالت للغروب .

أنت زائراً ما خامر الطيب ثوبها وكالمسك من أزدانها يتصوِّغ

[رائحة الحبيب أجمل من الطيب ويشهد بذا البعيد والقريب]

بصف خيالها الساري إليه ؛ بدليل البيت الذي لم نذكره قبله ، ويقول : إنه جاء ، فم به العطر ، وتأرجح به المكان ، مع أنها لم تتعطر ، ولو أنه كان يصف زيارتها بنفسها . لصح أن يقول : ما خامر الطيب ثوبها ، فأما والحال أنه لا يصف إلا خيالها ، فلا وجه لذكر الثوب ، لكنه اختلط عليه العمل ، واستنوق لديه الجمّل ، وامتزجت اليقظة بالمنام ، واشتبهت الحقائق بالأحلام ، وأصل المعنى . . قول امرئ القيس [في « المستطرف » ١/ ١٢٧] : [من الطويل]

ألم ترّ ياني كلّما جئت زائراً وجدت بها طيباً وإن لم تطيب

وخرج كثيرٌ - عليه مطرفٌ خز^(١) - من عند عبد الملك ، فاعترضته عجوزٌ ، معها نارٌ في روثه ، فتأفقت منها ، فقالت له ألسن القائل [كما في « ديوانه » ١٤٧] :

فما روضةً بالحزن دبّجها الحيّا يمّجُ الندى جثجائها وعراؤها^(٢)
بأطيب من أزدان عزة موهناً إذا أوقدت بالمندل الرطب نارها^(٣)

فقال لها : نعم ، فقالت : لو وضعت المندل على ميمونة الزنجية ، أو هذه الروثة . . لظهر لها عرف طيب ، هلاً قلت : كما قال امرؤ القيس : - تعني بيته السابق - فانكسر ، وأعطاها المطرف^(٤) .

ويروي [في « الأغاني » ١٥/ ٢٧٥] : أنه انصرف وهو يقول :

الحقُّ أبلجٌ لا يخيل سبيلهُ والحقُّ يعرفهُ أولوا الأحلام

وقال بعض العقلاء في قوله : (إذا أوقدت بالمندل الرطب) : إنما هو من تمام وصف الروضة ، وقد حصل بين القسمين التقديم والتأخير ؛ لضيق الوزن ، وهو تأويلٌ بغض ، لا يقوله ولا يقبله إلا من ختم الله على بصره وبصيرته ، ولئن عيب عليه في هذا . . فقد قال :

وما نطفة كانت سلالةً بارق نمت عن طريق الناس ثم استقلت
بأطيب من أنياب عزة بعد ما حدا الليل أعقاب النجوم فولت

(١) المطرف : رداء من خز .

(٢) الحزن : الأرض الغليظة . يمّج : يرمي . الجثجات : ريحانة طيبة الريح برية . العراؤ : البهار البري ، طيب الرائحة .

(٣) الأزدان : أطراف الأكمام ، كانت تضع العرب فيها الدراهم . موهناً : الطرف الأخير من الليل . المندل : العود الطيب الرائحة .

والمعنى : فما روضةً بالأرض الغليظة الصخرية ، طيبة الزرع ، يفوح ندى ريحانها البري ، وطيب رائحة بهارها ، بأطيب وأزكى من رائحة أطراف أكمام عزة في آخر الليل وقد أشعلت نارها بأعواد المندل الطيب الرائحة .

(٤) « الأغاني » (١٥/ ٢٧٥) .

[الروائع المسكية تفضح صاحبها ولو تخبأ]

ومعنى البيت الذي نحن فيه متكررٌ عند الناظم ، منه قوله [في « المُكَبَّرِي » ١٣/١] :

قَلْتُ الْمَلِيحَةَ وَهِيَ مِسْكٌ هَتُكُهَا وَمَسِيرُهَا بِاللَّيْلِ وَهِيَ ذُكَاءٌ^(١)

وقال النَمِيرِيُّ [الماكي في « ديوانه » ٥٨] :

وَمَا مُزْنَةٌ جَاءَتْ فَأَسْبَلَ وَذُقُهَا عَلَى رَوْضَةٍ رِيحَانُهَا قَدْ تَخَضَّدَا
كَأَنَّ تِجَارَ الْهِنْدِ حَلُّوا رِحَالَهُمْ عَلَيْهَا طَرُوقًا ثُمَّ حَلُّوا بِهَا الْغَدَا
بِأَطْيَبِ مَنْ ثَوْبَيْنِ تَأْوِي إِلَيْهِمَا سَعَادُ إِذَا نَجْمُ السَّمَائِكَيْنِ غَرَدَا^(٢)

وقال آخرُ :

دُرَّةٌ كَيْفَ مَا أُدِيرَتْ أَضَاءَتْ وَمَشَمُّ مِنْ حَيْثُ مَا شَمَّ فَاحَا

وقال بشارٌ :

وَتَوَقَّ الطَّيِّبَ لَيْلَتَنَا إِنَّهُ وَاشٍ إِذَا سَطَعَا

وقال أبو عُبَادَةَ [في « ديوانه » ١٥٠/١] :

وَكَانَ الْعَيْرُ بِهَا وَاشِيًا وَجَرَسُ الْحَلِيِّ عَلَيْهَا رَقِيبَا

وقد سبق في المجلس الأول بعض قولِ عليِّ بنِ جبلةَ [في « ديوانه » ٧٦] :

بِأَبِي مَنْ زَارَنِي مُكْتَتِمًا حَذِرًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فَزَعَا
طَارِقٌ نَمَّ عَلَيْهِ نُورُهُ كَيْفَ يُخْفِي اللَّيْلُ بَدْرًا طَلَعَا؟!
رَصَدَ الْخُلُوءَ حَتَّى أَمَكَنْتُ وَرَعَى السَّاهِرَ حَتَّى هَجَعَا
كَابِدَ الْأَهْوَالِ فِي زُورَتِهِ ثُمَّ مَا سَلَّمَ حَتَّى وَدَّعَا

ولئن لم تتصل هذه بيتِ البحثِ . . فإنها متصلةٌ ببيتِه الذي سقناه شاهدًا له ، وقد كان سالمُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عمرِ بنِ

الخطَّابِ - رضي اللهُ عنهم - يطربُ كثيرًا كلِّما غنَّاهُ أشعْبُ بهلدينِ [كما في « البداية والنهاية » ١١٢/١٠] :

أَلَمْتُ بِنَا وَاللَّيْلُ دَاجٌ كَأَنَّهُ جَنَاحُ غُرَابٍ عَنْهُ قَدْ نَفَضَ الْقَطْرَا
فَقُلْتُ : أَعْطَارٌ ثَوِي فِي رِحَالِنَا؟ وَمَا احْتَمَلْتُ لَيْلِي سِوَى عَرْفِهَا عِطْرَا

وقالت إحدى صواحبِ أمِّ زرعٍ [كما في « البخاري » (٥١٨٩)] :

أَلَمْسُ مَسُّ أَرْزَنِيبِ وَالرَّيْحُ رِيحُ زَرْزَنِيبِ

وقال أبو المطاعِ ابنُ ناصرِ الدولةِ [في « نفع الطيب » ٤١٥/٣] :

ثَلَاثَةٌ مَنَعَتْهَا مِنْ زِيَارَتِهَا وَقَدْ دَجَى اللَّيْلُ خَوْفَ الْكَاشِحِ الْحَنِيقِ

(١) ذُكَاءٌ : اسمٌ من أسماءِ الشمسِ .

(٢) السماكان : نجمانِ نيرانِ . غَرَدَ النَجْمُ : إذا ارتفع .

ضَوْءُ الْجَبِينِ وَوَسْوَاسُ الْحُلِيِّ وَمَا
هَبَهَا الْجَبِينُ بِفَضْلِ الْكُفْمِ تَشْتُرُهُ
يُفُوحُ مِنْ عَرَقٍ كَالْعَنْبَرِ الْعَبِقِ
وَالْحُلِيِّ تَنْزِعُهُ مَا الشَّأْنُ فِي الْعَرَقِ ؟

[مِنَ الْكَامِلِ]

وقلتُ - أنا - في مطلع قصيدة نبوية [كما في «ديوان المؤلف» ٦٩] :

زَارَتْ وَقَدْ جَنَحَ الظَّلَامُ بِلاَ حَدَا
عُطْلاً مُنْقَبَةً فَنَمَّ بِهَا الشَّدَا^(١)

فتراني استوفيتُ ما في الثلاثة الأبياتِ ، وزدتُ عليها ، في بيتٍ واحدٍ ، بلا إعناتٍ فكيرٍ ، ولا إرهاقٍ رويّةٍ ، مع صعوبةِ القافيةِ ، ورقةِ الانسجامِ .

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقلتُ في مطلع قصيدة إمامية [كما في «ديوان المؤلف» ٤٩٣] :

تَرَكْنَ الْحُلِيَّ وَاجْتَزَنَ وَاللَّيْلُ جَانِحُ
نَوَاعِمُ لَوْلَا الْخُمْرُ لَأَنْكَشَفَ الدُّجَى
فَمَمْتُ بِمَا تَحْتَ الشُّتُورِ الرَّوَائِحُ
مَرَزْنَ حَوَالَيْنَا وَهَنَّ سَوَانِحُ
بِحَسْرَتِهِ مِنْهُنَّ غَادٍ وَرَائِحُ
بِهِ مُلِئْتُ مِنْ قَبْلِهِنَّ الْجَوَانِحُ
وَمَا صَانَنَا عَنْ سِحْرِهِنَّ سِوَى هَوَى

[طيب النكهة يدخل في الموضوع]

[مِنَ الْكَامِلِ]

ومما يتعلّق بطيبِ النكهة قولُ جرير [في «ديوانه» ٩٩٠] :

تُجْرِي السُّوَاكُ عَلَى أَغْرٍ كَأَنَّهُ
بَرْدٌ تَحَدَّرَ مِنْ مُثُونِ غَمَامٍ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقولُ ابنِ الرُّومِيّ وقد ادَّعى أَنَّ محبوبه رَوْضُ الْحُسْنِ ، وهو منقطع النّظير [في «ديوانه» ٩٠٧] :

كَذَلِكَ أَنْفَاسُ الرِّيَاضِ بِسَحْرَةٍ
تَطِيبُ وَأَنْفَاسُ الْوَرَى تَتَغَيَّرُ

[مِنَ الْبَسِيطِ]

وقال التّهاميُّ :

لَوْ لَمْ يَكُنْ أَقْحَوَانًا نَغْرُ مَبْسَمِهَا
مَا كَانَ يَزْدَادُ طِيبًا سَاعَةَ السَّحَرِ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقال المعريُّ :

وَقَدْ بَلَغَتْ سِنَّ الْكَعَابِ وَقَابَلَتْ
بِنَكْهَةِ مَعْقُودِ السَّخَايِنِ مُرْضَعُ

[من يدق الباب .. يسمع الجواب]

ويذكرُ عن بعضِ بني أُمَيَّةَ : أَنَّهُ عَابَ عَلَى الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ شَيْبَ شَارِيهِ ، وَقَالَ إِنَّهُ دَلِيلُ النَّزْقِ^(٢) ، فَقَالَ لَهُ الْحَسَنُ :
كَلًّا ، وَلَكِنَّ النِّسَاءَ تَتَعَلَّلُ بِأَنْفَاسِنَا ، فَيَسْرَعُ إِلَى شَوَارِبِنَا الشَّيْبُ ، وَتَنْصَرِفُ نَسَاؤُكُمْ بِأَنْوَفِهَا إِلَى أَصْدَاغِكُمْ ؛
لِبَحْرِكُمْ ، فَيَكُونُ شَيْبِكُمْ هُنَاكَ .

(١) جَنَحَ الظَّلَامُ : أَقْبَلَ . بِلاَ حَدَا : حَافِيَةٌ حَتَّى لَا يَفْطَنَ إِلَيْهَا أَحَدٌ . الْمُطَّلُ مِنَ النِّسَاءِ : الْخَالِيَةُ مِنَ الْحُلِيِّ ، إِذَا لَأَنَّهَا اسْتَعْنَتْ بِجَمَالِهَا عَنِ الْحُلِيِّ ، وَإِنَّمَا لِلْخَوْفِ
مِنْ أَنْ يُسْمَعَ صَوْتُ الْحُلِيِّ . مُنْقَبَةٌ : ذَاتُ نِقَابٍ . نَمَّ : أَعْلَنَ وَبَاحَ . الشَّدَا : ذِكَاؤُ الرَّاغِبَةِ الطَّيْبَةِ .

(٢) النَّزْقُ : الْحَفَّةُ وَالطَّيْشُ .

[عبد الملك بن مروان كان أبخر يسقط الذباب عن فمه]

وكان عبد الملك أبخر ، يسقط الذباب عن فمه ؛ ولهذا يُسمّى [كما في « ثمار القلوب » ٧٥] : أبا الذَّبَّانِ .
وكانت عنده لبابة بنت عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب ، فأكل من تفاحة ، ورمى بها إليها ، فأخرجت مكان فيه
بالسكين ، وأكلت الباقي ، فقال : ما شأنك ؟ قالت : ألقى عنها الأذى ، فطلقها ، وتزوجت بعده بعلي بن
عبد الله بن العباس ، وكان أصلح ، فبعث عبد الملك امرأة تكشف رأسه بحضرتها ، ففعلت ، فعرفت لبابة الحبة ،
فقالَت للمرأة : قولي له : أصلح من بني عمي . . خَيْرٌ من أبخر من بني أمية ، فما زال يتطلب العثرات لعلي حتى
جلده ، وطاف به على جملي ، ورأسه مما يلي الذنب .

[البخر وما يتعلق به]

وبينا عمر بن الخطاب يعسُّ ليلة . . إذ سمع امرأة تقول : [من الطويل]
وَمِنْهُنَّ مَنْ تُسْقَى بِعَذْبِ مُبَرِّدٍ فَنَاحٍ فَتَلُكُمُ عِنْدَ ذَلِكَ قَرَّتِ (١)
وَمِنْهُنَّ مَنْ تُسْقَى بِأَخْضَرِ آجِنٍ أَجَاجٍ فَلَوْلَا خَشْيَةُ اللَّهِ قَرَّتِ
فاستدعى زوجها ، فإذا هو أبخر ، فخلعها منه .

وقال ابن المعتز :

وإن امرأ يقوى على لثم ثغره على الصغط والتعذيب في قبره يقوى
وقالت أخرى [كما في « ديوان الحماسة » ٢٢٩/٢] : [من الطويل]
فَمَا جِيفَةُ الْخِنْزِيرِ عِنْدَ ابْنِ مُقْرِبٍ فَتَادَةَ إِلَّا رِيحُ مِسْكِ وَعَالِيَهُ

[ليس كل ما يلمع ذهباً]

وذكر ابن خلكان [في « وفيات الأعيان » ٣٨٠/٥] : أنه كان بـ (أصبهان) رجل حسن النعمة ، واسع النفس ، كامل
المروءة ، يقال له : سماك بن النعمان ، وكان يهوى مغنية من أهل (أصبهان) ، لها قدر ، تعرف بأمر عمرو ،
فلا فراط صبايته بها ، وحبها لها . . وهبها عدة من ضياعه ، وكتب على نفسه كتاباً بذلك ، حملها إليها على بغل ،
فشاع الخبر ، وتحذث به الناس ، وكبروا الخبر ، وكان بـ (أصبهان) رجل متجلف بين الركابة ، يهوى مغنية
أخرى ، فلما اتصل به ذلك . . ظنَّ بجهله وقلته عقله أن سماكاً إنما أهدى لأمر عمرو جلوداً بيضاء ، لا كتابه فيها ،
وأن هذا من الهدايا التي تستحسن ويجلُّ موقعها عند من تهدي إليه ، فابتاع جلوداً كثيرة ، وحملها إلى عشيقته على
بغلين ، فلما وصلتها ووقفت على جليّة الأمر . . تغيظت عليه ، وكتبت إليه رقعة تشتمه ، وتحلف أنها لا تكلمه ،
وسألت بعض الشعراء أن يعمل لها أبياتاً في المعنى ، ففعل ، وهذه هي الأبيات : [من مجزوء الكامل]

لَا عَادَ طَوْعُكَ مَنْ عَصَاكَ وَحُرْمَتُ مَنْ وَصَلِي مُنَاكَ
فَلَقَدْ فَضَّخْتَ الْعَاشِقِينَ بِقُبْحِ مَا فَعَلْتَ يَدَاكَ

(١) النُّقَاحُ : الماء البارد العذب الصافي الخالص ، الذي يكاد ينفخ الفؤاد ويكسرهُ بيرده .

أَرَأَيْتَ مَنْ يُهْدِي الْجُلُودَ دِإِلَىٰ عَشِيقَتِهِ سِوَاكَ
وَأَظُنُّ أَنَّكَ رُمْتَ أَنْ تَحْكِي بِفِعْلِكَ ذَا سِمَاكَ
ذَاكَ الَّذِي أَهْدَى الضِّيَا عَ لِأُمِّ عَمْرٍو وَالصِّكَاكَ
فَبَعَثْتَ مُتَبَعَةً كَأَنَّ نَكَ قَدْ مَسَّخَتْ بِهِنَّ فَاكَ
مَنْ لِي بِقُرْبِكَ يَا رَقِيعُ وَلَسْتُ أَهْوَى أَنْ أَرَاكَ
لِكِنْ لَعَلِّي أَنْ أَقْطَعَ مَا بَعَثْتَ عَلَيَّ فَفَاكَ

وأشد الجوهري لامرأة من العرب :

[من البسيط]

إِنِّي بُلَيْتُ بِعَذِيوُطٍ لَهُ بَخْرٌ يَكَادُ يَقْتُلُ مَنْ نَاجَاهُ إِنْ كَشَرَا^(١)

وقال آخر [كما في «لسان العرب» ٣/١٢٨] :

[من البسيط]

نَكِهْتُ مُجَالِدًا فَشَمَمْتُ مِنْهُ كَرِيحِ الْكَلْبِ مَاتَ قَرِيبَ عَهْدِ^(٢)
فَقُلْتُ لَهُ : مَتَى اسْتَحْدَثْتَ هَذَا ؟ فَقَالَ : أَصَابَيْ فِي جَوْفِ مَهْدِي

[من البسيط]

وقدم كثير مما يتصل بموضوع النكهة والطيب ، عند الكلام على قوله [في «العكبري» ٣/١٦٤] :

يُجِنُّ شَوْقًا فَلَوْلَا أَنَّ رَائِحَةَ تَزُورُهُ مِنْ رِيَّاحِ الشَّرْقِ مَا عَقَلَا

وقوله [في «العكبري» ٢/٣٣٨] :

وَتَفُوحُ مِنْ طِيبِ النَّشَاءِ رَوَائِحُ لَهُمْ بِكُلِّ مَكَانَةٍ تُسْتَنْشَقُ

* * *

(١) العذيوط : الذي إذا أتى أهله أبدى ، أي : سلخ أو أكل .

(٢) نكهته : أي تشممت ربحه .

المجلس السادس عشر

[مِنَ الطَّوِيلِ]

قال أبو الطَّيِّبِ المَتَنِّيُّ في « المُكَبَّرِيِّ » ٢ / ٢٣٨ :

فَمَا جَلَسْتُ حَتَّى انْتَشْتُ نُوسِعُ الخُطَا كَفَاطِمَةَ عَنْ دَرَّهَا قَبْلَ تَرْضِعُ

[السرعة في التوديع]

المعنى ظاهر^(١) ، وقد سبق ما يتعلَّق به في المجلس الأوَّل ، عند قوله [في « المُكَبَّرِيِّ » ٢ / ٢٧٩] : [مِنَ الخَفِيفِ]

فَافْتَرَقْنَا حَوْلًا وَلَمَّا التَّقَيْنَا كَانَتْ تَسْلِيمُهُ عَلَيَّ وَدَاعَا

[الطباع البشرية غريبة]

ونقول هنا : إِنَّ الزَّائِرَ رَبِّمَا يَتَعَمَّدُ تَرَكَ الإِطَالَةَ ؛ لِإِفْضَائِهَا إِلَى المَلَالَةِ ، وقد قال الخوارزمي [في « ديوانه » ٣٨٢] :

[مِنَ الوَافِرِ]

وَمَا بِي فِيكَ مِنْ زُهْدٍ وَلَكِنْ أُخْفَفْتُ عَنْكَ أَعْبَاءَ المَلَالِ

وقال ابن المقفع - ما معناه - : إذا أقبل عليك إنسان ، فسرك أن لا يدبر عنك يوماً ما . . فلا تُنعم الإقبال عليه ، والتفتُّح له ، فإنَّ الناسَ قد اندمجوا على طبائع لؤم ، يفرُّونَ عَمَّنْ قَرَّبَ مِنْهُمْ ، ويلصقونَ بِمَنْ هَرَبَ عَنْهُمْ .

[كثرة إلف الإنسان للشيء . . تذهب هيئته من قلبه]

وكان ابنُ الخطَّابِ يضربُ الناسَ على الإقامَةِ بعدَ الحجِّ ، ويقولُ : أخافُ أنْ يأنَسَ الناسُ بهذا البيتِ ، فتسقطُ هيئته من قلوبهم .

وما اتخذتِ الملوكة الحجاب . . إلا حفظاً للهيبة ؛ فإنَّ أجرأَ الناسِ على السباعِ الرعاةُ ؛ لكثرة ما يرونها .

وكان ابنُ عمرَ يطوي السهوبَ ، ويقطعُ العُقَابَ^(٢) إلى (المدينة) ثم ينيخُ راحلته نضواً ببابِ المسجدِ ، ويحييه ، ثمَّ يقومُ تجاةَ القبرِ الأَعرَبِ ، ويقولُ [بنحوه في « الطبقات الكبرى » ٤ / ١٥٦] : السلامُ عليك يا رسولَ الله ، السلامُ عليك يا أبا بكرٍ ، السلامُ عليك يا أبتِ ، ثمَّ ينصرفُ ، ويركبُ من فورِهِ .

[من نوادر الأعمش]

ومرضَ الأعمشُ فجاءهُ أبو حنيفةَ يعودُهُ ، ثمَّ قالَ له : نخشى أنْ نكونَ ثقلنا عليك ، قالَ له : واللهِ لأنتَ ثَقِيلٌ عَلَيَّ وَأَنْتَ فِي دَارِكَ ، وما بِأحدِ الإمامينَ بغضةٌ ولا ثقلٌ ظِلٌّ ، وَلَكِنَّ الأَعمشَ ذهبَ إلى التندرِ والتظرفِ ، والإشارةُ إلى

(١) أي هي في سرعة توديعها كمن فطمت ولدها قبل أن ترضعه .

(٢) العُقَابُ : المرفق في عرضِ الجبل .

نفرّد أبي حنيفة بالفضلِ تفرّداً يثقلُ على أقرانه - وهو منهم - احتمالُهُ .

ويذكرُ : أَنَّهُ حَلَفَ بِطَلَاقِ امْرَأَتِهِ إِنْ أَخْبَرْتُهُ بِنَفَادِ الدَّقِيقِ ، أَوْ كَتَبْتَ إِلَيْهِ ، أَوْ بَعَثْتَ الخَادِمَ يَخْبِرُهُ ، فَاسْتَفْتَيْتَ أَبَا حَنِيفَةَ ؟ فَقَالَ لَهَا : إِذَا نَامَ . . فَارْبِطِي بِذِيْلِهِ كَيْسَ الدَّقِيقِ ؛ حَتَّى يَعْرِفَ أَنَّهُ فَرَعٌ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ تَطْلُقِي ، ففَعَلْتَ ، فَعَرَفَ أَنَّهَا مِنْ كَيْسِ أَبِي حَنِيفَةَ ، فَقَالَ : قَاتَلَهُ اللهُ ، لَقَدْ فَضَحْنَا حَتَّى عِنْدَ أَزْوَاجِنَا .

[من نوادر الشعبي]

وقد ذكرنا في غير هذا المجلسِ عَنِ الشَّعْبِيِّ : أَنَّهُ مَرَّ بِرَجُلٍ فِي إِبِلٍ لَهُ جَرَبَاءٌ ، فَقَالَ لَهُ : أَلَا تَعَالِجُهَا ؟ قَالَ : لَا ، وَإِنَّمَا لَنَا عَجُوزٌ نَتَكَلَّمُ عَلَى دَعَائِهَا ، فَقَالَ : اجْعَلْ مَعَ دَعَائِهَا شَيْئاً مِنَ القَطِرَانِ .

ومرّ بقصّارٍ يقولُ [في « المستطرف » ١/٢٢٣] : (فُتِنَ الشَّعْبِيُّ لَمَّا) وَيَقْفُ ، فَجَاءَ إِلَيْهِ ، وَمَا زَالَ يَكْرُرُ عَلَيْهِ الأَبْيَاتَ حَتَّى حَفِظَهَا .

ومن نوادرِهِ : أَنَّهُ مَرِضٌ ، فَأَبْرَمَهُ العَوَادُ بِالسُّؤَالِ عَنِ مَرَضِهِ وَسَبَبِهِ ، فَلَمْ يَكُنْ مِنْهُ إِلاَّ أَنْ كَتَبَ رَقْعَةً ، شَرَحَ فِيهَا القِصَّةَ ، وَعَلَّقَهَا فَوْقَ رَأْسِهِ ، فَإِذَا سُئِلَ بَعْدَ ذَلِكَ . . قَالَ لِلسَّائِلِ : اقْرَأْ مَا فِي الوَرَقَةِ .

[زيارة المريض]

ويروى : أَنَّ سَلْمَةَ بِنَ عَاصِمِ دَخَلَ عَلَى الفَرَّاءِ يَعُودُهُ ، فَأَبْرَمَهُ ، وَأَلْحَفَ فِي السُّؤَالِ ، فَأَنْشَدَ الفَرَّاءُ [الآبيات في « المستطرف » ٢/٥٧١] :

[من البسيط]

حَقُّ العِيَادَةِ يَوْمٌ بَيْنَ يَوْمَيْنِ وَخِلْسَةٌ مِثْلُ لِحْظِ الطَّرْفِ بِالعَيْنِ
لَا تُبْرِمَنَّ مَرِيضاً فِي مُسَاءَلَةٍ يَكْفِيكَ مِنْ ذَلِكَ تَسْأَلُ بِحَرْفَيْنِ

[الكُفْلَةُ تُذْهِبُ الأَلْفَةَ]

ومن أمثاله تعرفُ اطْرَاحَ السلفِ للحشمةِ ، وبراءتهمِ مِنَ التكلُّفِ والتتُّعِ ، وسيرهمُ بسوقِ الطبيعةِ ، وإنَّ أحدهم لخلِيقٌ بقولِ الناظِمِ [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/٢٨٧] :

[من الطويل]

تَفَكَّرُهُ عِلْمٌ وَسَيْرَتُهُ هُدًى وَبَاطِنُهُ دِينٌ وَظَاهِرُهُ ظَرْفٌ^(١)

[من الوافر]

وقوله [في « العُكْبَرِيِّ » ٤/٧٥] :

يَرُوعُ رَكَانَةٌ وَيَذُوبُ ظَرْفًا فَمَا تَذْرِي : أَشَيْخٌ أَمْ غَلَامٌ ؟^(٢)

وترى المترسمين من أبناءِ زماننا يتوقَّرونَ في مجالسِهِمْ ، ويتنزَّهونَ عَن كثيرٍ ممَّا يفعله السلفُ الطَّيِّبُ ، وقلوبُهُمْ أَفَاحِيصُ الأَحْقَادِ ، وَأَوْكَانُ الأَحْسَادِ^(٣) .

وسُئِلَ النَّخَعِيُّ [بنحوه في « المستطرف » ٢/٥٠٢] : أَكَانَ أَصْحَابُ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمزحونَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ،

(١) يفتح الظاء الكياسة قال في « تاج العروس » : وبعض المتشدقين يسمون الظاء فرقا بينه وبين الطرف للوعاء ، وهو غلط محض لا قاتل به .

(٢) يروعُ : يفرغُ ، الركانةُ : الوقارُ .

(٣) المنفحصُ : هو مجثمُ القطاةِ ؛ لأنها تفحصه . والوكنُ : عشُ الطائرِ .

والإيمان في قلوبهم مثل الجبال الرواسي ، وكانوا يتمازحون^(١) ، فإذا خاضوا في الدين . . انقلبت حماليقهم .
وقال بعضهم : لنا في الدعاية مذهب جميل ، يخرج بنا من العبوس ، ويلحقنا بأحرار الناس ، الذين ارتفقوا عن
لبسة الرياء ، وأنفوا من التشوف بالتصنع .

ولله درُّ الناظم في قوله [في «العكبري» ٢٢٠/٣] :

أَفْضَلُ مَا يُطَلَّبُ النَّجَاحُ بِهِ الطَّبْـُـرُوعُ وَعِنْدَ التَّعَمُّقِ الزَّلْـُـلُ^(٢)

وقال محمد بن كناسه [في «البيان والتبيين» ٥٤٦/١] :

فِي انْقِبَاضٍ وَحِشْمَةٍ فَإِذَا لَقِيتُ أَهْلَ الْوَفَاءِ وَالكَرَمِ
أَرْسَلْتُ نَفْسِي عَلَى سَجِيَّتِهَا وَقُلْتُ مَا قُلْتُ غَيْرَ مُحْتَشِمِ

وهما بيتان يغبطه عليهما إسحاق بن إبراهيم الموصلي ، والغبطة من حيث المعنى لا من حيث اللفظ ؛ فإنهما ليسا
منه في الدرورة .

[زرغباً . . تزدد حباً]

ويتصل بالموضوع قوله صلى الله عليه وسلم : « زُرْ غِبًّا . . تَزِدَّ حُبًّا »^(٣) .

وقيل [في «مجمع الأمثال» ٣٢٢/١] : إنَّ أَوَّلَ مَنْ قَالَهُ مَعَاذُ بْنُ صَرَمِ الْخَزَاعِي ، وكانت أمُّه من عك ، وكان فارس خزاعة ،
وكان يكثر زيارة أخواله ، فاستعار منهم فرساً سابق عليه جحيش بن سودة على المخاطرة ، فسبقه وأخذ فرسه ، ولما
أخذه . . أراد أن يزيد في إغاطة جحيش - وكان له عدواً - فنحره ، فقال له جحيش : قتلت - لا أم لك - فرساً خيراً منك
ومن أهلك ، فقتله ، ولحق بأخواله ، فركب في طلبه أخو جحيش وابن عمه ، فقتلتهما ، وقال : [من الطويل]

قَتَلْتُ جُحَيْشًا بَعْدَ قَتْلِ جَوَادِهِ وَكُنْتُ قَدِيمًا فِي الْحَوَادِثِ ذَا فَتْكَ
وَجَدْتُ لِعَمْرٍو بَعْدَ بَدْرِ بَضْرَبَةٍ فَخَرًّا كَمَا خَرَّ الْعَقِيرُ مِنَ النَّسْكِ^(٤)

وأقام في أخواله زماناً ، ثم اختصم مع بعضهم في صيد اصطادوه ، فقال له ابن خاله : لو كان فيك خير . . لما تركك
قومك ، فقال معاذ : زُرْ غِبًّا . . تَزِدَّ وِدًّا ، ثم أتى قومه ، فأراد أهل القتل أن يأخذوا منه بثأرهم ، فقال لهم
قومهم : لا تقتلوا فارسكم وإن ظلم ، فقبلوا منه الديار .

وقد قيل [في «مجمع الأمثال» ٢٢٣/١] :

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَقْلَى فَرُزُّ مُتَوَاتِرًا وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَزْدَادَ حُبًّا فَرُزُّ غِبًّا

(١) والمعروف : أنهم كانوا يتباحون ؛ أي : يترامون . والرواية عن بكر بن عبد الله : « يتمازحون ويتباحون بالبطيخ ، فإذا جاءت الحقائق كانوا هم
الرجال » اهـ النهاية ابن الأثير .

(٢) المعنى : إذا فعل الإنسان الشيء بعبادته وجد النجاح فيه ، وإذا بالغ وتعمق . . أخطأ وزل .

(٣) أخرجه عن حبيب بن مسلمة الفهري الحاكم في «المستدرک» (٣٩٠/٣) وفي الباب :

عن أبي هريرة رضي الله عنه عند البزار والطبراني في «الأوسط» والبيهقي في «الشعب» ، وعن ابن عمرو عند الطبراني في «الكبير» و«الأوسط» وعن
عائشة عند الخطيب في «التاريخ» .

(٤) العقيـرُ : المعقور ، وهو المذبوح من النعم التي تُهدى في مناسك الحج .

وقال آخرُ [في «مجمع الأمثال» ١/٢٢٣] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

عَلَيْكَ بِإِغْبَابِ الزِّيَارَةِ إِنَّهَا
أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْغَيْثَ يُسَامُ دَائِمًا
إِذَا كَثُرَتْ كَانَتْ إِلَى الْهَجْرِ مَسَلَكًا
وَيُسْأَلُ بِالْأَيْدِي إِذَا هُوَ أَمْسَكَ

وقال أبو تمامٍ [في «ديوانه» ١/٢٤٨] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَطُولُ مَقَامِ الْمَرْءِ فِي الْحَيِّ مُخْلِقٌ
فَإِنِّي رَأَيْتُ الشَّمْسَ زِيدَتْ مَحَبَّةً
لِدِيَابِجَتِيهِ فَاغْتَرِبَ تَجَدَّدٌ
إِلَى النَّاسِ أَنْ لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ بِسَرْمَدٍ

[المحبون أقسام]

ثمَّ المحبون على أقسام :

[١- قسم ساقط]

أما أهلُ الدعاوي الساقطة ، والأغراضِ السافلة ، والشهواتِ البهيمية : فلا يحصلُ منهمُ الميلُ إلاَّ قبلَ النيلِ ، ثمَّ يحدثُ عندهمُ المللُ لأدنى عارضٍ يخالفُ الهوى ، وقد قال أسماءُ بنُ خارجةَ الفزاريةَ - وتمثَّلَ به القاضي شريحٌ ، وأخطأَ من ينسبُهُما للشافعيِّ - [في «جمهرة خطب العرب» ٢/٥٠٧] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

خُذِي الْعَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِيمِي مَوَدَّتِي
فَإِنِّي رَأَيْتُ الْحُبَّ فِي الْقَلْبِ وَالْأَذَى
وَلَا تَنْطِقِي فِي سَوْرَتِي حِينَ أَغْضَبُ
إِذَا اجْتَمَعَا لَا يَلْبَثُ الْحُبُّ يَذْهَبُ

[٢- قسم متوسط]

وأما أهلُ السُّطَّةِ في المحبة^(١) : فكما قال ابنُ المرحَّلِ الأندلسيُّ :

[مِنَ الرَّمْلِ]

لَوْ يَكُونُ الْحُبُّ وَضَلًا كُلُّهُ
أَوْ يَكُونُ الْحُبُّ هَجْرًا كُلُّهُ
لَمْ تَكُنْ غَايَتُهُ إِلَّا الْمَلَلُ
لَمْ تَكُنْ غَايَتُهُ إِلَّا الْكَلَلُ
إِنَّمَا الْوَصْلُ كَمَثَلِ الْمَاءِ لَا
يُسْتَطَابُ الْمَاءُ إِلَّا بِالْعَلَلِ^(٢)

[٣- قسم صادق]

وأما أهلُ المحبةِ الصادقةِ : فإنَّهم كما قال الأحوصُّ :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

إِذَا قُلْتُ : إِنِّي مُشْتَفٍ بِلِقَائِهَا
فَمِمَّ التَّلَاقِي زَادَ مَا بَيْنَنَا وَجَدًا !؟

[المحب دائماً جائع لا يشبع من محبوبه ولا من وصله]

وقال عروةُ بنُ أذينةَ [في «ديوانه» ١/١٢٣] :

[مِنَ الْبَسِيطِ]

لَا بُعْدُ سَعْدَى مُرِيحِي مِنْ جَوَى سَقَمٍ
يَوْمًا وَلَا قُرْبُهَا إِنْ حُمَّ يَشْفِينِي

(١) السُّطَّةُ : التوسط .

(٢) العَلَلُ : محرقة الشربة الثانية ، أو الشرب بعد الشرب تبعاً .

ووضَّحَهُ ابْنُ الرُّومِيِّ فِي قَوْلِهِ [فِي « دِيوانِهِ » ٦/٢٤٧٥] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

أَعَانِقُهُ وَالنَّفْسُ بَعْدَ مَشُوقَةٍ
وَأَلْتَمُّ فَأُهُ كَيْ تَزُولَ حَرَارَتِي
كَأَنَّ فُؤَادِي لَيْسَ يَشْفِيهِ غَلِيلُهُ
إِلَيْهِ وَهَلْ بَعْدَ الْعِنَاقِ تَدَانِي ؟
فَيْشْتَدُّ مَا أَلْقَى مِنَ الْهَيْمَانِ
سِوَى أَنْ تَرَى الرُّوحَانَ يَمْتَزِجَانِ

وقال آخرُ :

[مِنَ البسيطِ]

وَكِدْتُ وَهُوَ ضَجِيعِي أَنْ أَقُولَ لَهُ
مِنْ شِدَّةِ الْحُبِّ : قَدْ أَبْعَدْتَ فَاقْتَرَبِ

[مِنَ الوافرِ]

وقال قاضي القضاة ابن جماعة [فِي « طبقات ابن السبكي » ٩/١٤٢] :

أَحِنُّ إِلَى زِيَارَةِ حَيِّ لَيْلِي
وَكُنْتُ أَظُنُّ قُرْبَ الْعَهْدِ يُطْفِي
وَعَهْدِي مِنْ زِيَارَتِهَا قَرِيبُ
لَهَيْبِ الشُّوقِ فَازْدَادَ اللَّهَيْبُ

[مِنَ الوافرِ]

ويقربُ مِنْ هَذَا قَلِيلاً قَوْلُ النَّاظِمِ [فِي « المُكَبَّرِيِّ » ١/١٣٦] :

سَأَمْضِي وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ مِنِّي
مَغِيْبِي لَيْلَتِي وَغَدَاً إِيَابِي

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقال بشارٌ يصفُ شِدَّةَ العِنَاقِ [فِي « دِيوانِهِ » ٤/٧٨] :

خَلَوْتُ بِهَا لَا يَخْلُصُ الْمَاءُ بَيْنَنَا
إِلَى الصُّبْحِ دُونِي حَاجِبٌ وَسُتُورُ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

فأخذه ابنُ الجهمِ فقالَ [فِي « دِيوانِهِ » ٩٥] :

أَلَا رُبَّ لَيْلٍ ضَمَّنَا بَعْدَ هَجَعَةٍ
وَبَيْنَنَا جَمِيعاً لَوْ تَرَأَى زُجَاجَةٌ
وَأَذْنَى فُؤَاداً مِنْ فُؤَادِ مُعَذِّبِ
مِنَ الرَّاحِ فِيمَا بَيْنَنَا لَمْ تَسْرَبِ

[مِنَ البسيطِ]

وقال آخرُ :

لَا وَالْمَنَازِلِ مِنْ نَجْدٍ وَلَيْلَتِنَا
نَوْمًا فَمَا انْفَكَ لَا خَدُّ وَلَا عَضْدُ
بِالْغُورِ إِذْ جَسَدَانَا بَيْنَنَا جَسَدُ

[لا توص حريصاً في تخفيف الزيارة]

ويحكى : أَنَّ يَحْيَى بْنَ مَعَاذِ الرَّازِيِّ كَتَبَ إِلَى أَبِي يَزِيدَ البِسطاميِّ يَقُولُ لَهُ : سَكَرْتُ مِنْ كَثْرَةِ مَا شَرِبْتُ مِنْ كَأْسِ
مُحِبَّتِهِ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ أَبُو يَزِيدَ : قَدْ شَرِبَ غَيْرُكَ البَحَارَ مِنْهَا ، فَلَمْ يَزَوْ ، وَلَمْ يَزَلْ لِسَانُهُ مَنْدَلَعاً ، يَقُولُ : هَلْ مِنْ مَزِيدِ ؟

[مِنَ الوافرِ]

وأنشدوا :

عَجِبْتُ لِمَنْ يَقُولُ : ذَكَرْتُ إِنْفِي
أَمُوتُ إِذَا ذَكَرْتُكَ ثُمَّ أَحْيَا
وَهَلْ أَنْسَى فَأَذْكَرُ مَا نَسَيْتُ ؟
فَكَمْ أَحْيَا عَلَيْكَ وَكَمْ أَمُوتُ
فَمَا نَهَدَ الشَّرَابُ وَلَا رَوَيْتُ
شَرِبْتُ الْحُبَّ كَأْساً بَعْدَ كَأْسِ

وقوله (أَمُوتُ إِذَا ذَكَرْتُكَ . . . إِلَى آخِرِ الْبَيْتِ) قَدْ يَشْبَهُ قَوْلَ أَمْرِئِ الْقَيْسِ [في «ديوانه» ١١٧] :

فَلَوْ أَنَّهُمَا نَفْسٌ تَمُوتُ سَوِيَّةً وَلَكِنَّهَا نَفْسٌ تَسَاقَطُ أَنْفَسَا

لكنَّ الفرقَ كبيرٌ ، والبونَ بعيدٌ ، وقد علمَ كُلُّ أناسٍ مشربهم ، وما قرَّزناه مِن انقسامِ الأحبابِ إلى ثلاثةِ أقسامٍ هو ما جاءَ في قولِ بعضهم [في «لسان العرب» ٣٤٧/١٠] :

ثَلَاثَةٌ أَحْبَابٍ : فَحُبُّ عَلاَقَةٍ وَحُبُّ تِمْلَاقٍ وَحُبُّ هُوَ الْقَتْلِ

ويحكى : أنَّ شيخاً وقفَ ببابِ المهديِّ ، فقالَ لحاجبهِ : انظرْ مِن يَالبابِ ، وما حاجتُه ؟ قالَ : لا أذكُرُ حاجتي إلا بين يدي أميرِ المؤمنينَ ، فطالعهُ بقولهِ ، فقالَ : أدخِلهُ ، ومُرهُ فليخفِّفْ ، فدخَلَ ، وسلَّم ، ثمَّ قالَ : [مِن الطَّويلِ]

إِذَا شِئْتَ خَفَفْنَا فَكُنَّا كَرِيشَةٍ مَتَى تَلْقِهَا الْأَنْفَاسُ فِي الْجَوِّ تَذْهَبُ
وَإِنْ شِئْتَ سَلَّمْنَا فَكُنَّا كَرَائِبٍ مَتَى يَقْضِ حَقًّا مِنْ سَلَامِكَ يَعْزُبُ^(١)
وَإِنْ شِئْتَ ثَقَلْنَا فَكُنَّا كَصَخْرَةٍ مَتَى تَلْقِهَا فِي حَوْمَةِ الْبَحْرِ تَرْسُبُ

فضحك المهديُّ ، وقالَ لهُ : بل تكرمُ وتقضى حاجتكُ ، ووصلهُ بعشرةِ آلافِ درهمٍ .

وقد ألمَّ به الناظمُ في قوله [في «العكبري» ١٩٨/١] :

أَخِفْتُ سَلَامِي حُبًّا مَا خَفَّ عِنْدَكُمْ وَأَسْكُتُ كَيْمًا لَا يَكُونُ جَوَابُ
وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتٌ وَفِيكَ فَطَانَةٌ سُكُوتِي يَبَّانُ عِنْدَهَا وَخِطَابُ

[أبو عبيدة النحوي والفضل بن الربيع]

وقدم أبو عبيدة النحويُّ على الفضلِ بنِ الربيعِ ، فقالَ لهُ [في «وفيات الأعيان» ٢٤٠/٥] : مَنْ أشعرُ الناسِ ؟ قالَ : الراعي . قالَ : وكيفَ فضَّلتهُ على غيرهِ ؟ قالَ : لأنَّه وردَ على سعيدي بنِ عبدِ الرحمنِ الأمويِّ ، فوصلهُ في يومِهِ ، وصرفهُ فيهُ ، فقالَ يصفُ حالهُ معهُ [في «ديوانه» ٨١] :

وَأَنْضَاءٌ تَحْرُنُّ إِلَى سَعِيدٍ طَرُوقًا ثُمَّ عَجَّلْنَ ابْتِكَارًا
حِمْدَنْ مَنَاخَهُ وَأَصْبَنَ مِنْهُ عَطَاءً لَا قَلِيلَ وَلَا ضِمَارًا^(٢)

فقالَ لهُ الفضلُ : ما أحسنَ ما اقتضيتنا ، ثمَّ استخرجَ لهُ صلَّةً مِنَ الرشيدِ ، وشيئاً من مالِهِ ، وصرفهُ من يومِهِ .

[أهنا البر عاجله]

وهي شبيهةٌ بما فعلَ مروانُ بنُ أبي حفصَةَ [في «وفيات الأعيان» ١٨٩/٥] فقد وردَ على المهديِّ بقصيدةٍ يقولُ لهُ فيها - ما قد ذكرناه في غيرِ هذا المجلسِ وهو - [في «ديوانه» ٩٤] :

إِلَيْكَ قَصَرْنَا النُّصْفَ مِنْ صَلَوَاتِنَا مَسِيرَةَ شَهْرٍ بَعْدَ شَهْرٍ نَوَاصِلُهُ
وَمَا نَحْنُ نَخْشَى أَنْ يَخِيبَ مَسِيرُنَا إِلَيْكَ وَلَكِنْ أَهْنَا الْبِرَّ عَاجِلُهُ

(١) يعزُبُ : يبعُدُ .

(٢) الضمائرُ : ما يرجى من الدين والوعدِ وكلُّ ما لا تكونُ منه على ثقةٍ .

فضحك المهدي ، وأمر لكل بيتٍ بألف درهم ، فبلغت سبعين .

[مِنَ الكَامِلِ]

وقال أبو عبادَةَ :

عَجَلْتِ رِفْدَهُمْ وَأَفْضَلُ نَائِلِ حُيِّ الْوُفُودُ بِهِ الْهَنْيَ الْمُعْجَلُ

[عبد الله بن علي العولقي وأحد الشيوخ]

وقدم أحدُ مشايخ القبائلِ على الأميرِ عبدِ اللهِ بنِ عليِّ العولقيِّ في مجلسِ حفلهِ ، فقالَ لهُ : ما شأنُكَ ؟ قالَ : شيبَةٌ ، قصدَ شيبَةَ ، بغى شيبَةَ ، قالَ لهُ : قد أمرتُ لك بثلاثَةِ ، أحدها : طلبُكَ ، والثاني : هديتُكَ ، والثالثُ : نفقةُ الطريقِ ، وصرَفَهُ مِن يَوْمِهِ ، و(الشيبَةُ) في عرفهم هو الألفُ .

[لا تتدلل على أحبابك فتخسر يا ملك الزمان]

ويروى [بنحوه في « الأغاني » ٢٥٢/٥] : أن الرشيدَ غاضبٌ إحدى حظاياهُ ، وهي ماردةٌ ، واتسعت شقَّةُ الخلافِ ، وأعيانُ التداركُ ، حتَّى جاءَ يحيى بنُ خالدٍ إلى العباسِ بنِ الأحنفِ ، وبقِرَ لهُ الحديثُ ، وقالَ لهُ : إنَّ الأمرَ أعياني مِن قبَلهما ، هذا يعتزُّ بالملكِ ، وتلك تشبَّتْ بدلالِ الجمالِ ، والرشيدُ أولى بأن تستخفَّهُ الصبابةُ ، فقل ما تسهلُ به طريقَ الصلحِ ، فقالَ [في « ديوانه » ٢٨] :

[مِنَ الكَامِلِ]

صَدَّتْ مُغَاضِبَةً وَصَدَّ مُغَاضِبًا فَكِلَاهُمَا مِمَّا تَجَنَّبُ مُغْضَبُ
إِنَّ التَّجَنُّبَ إِنْ تَطَاوَلَ مِنْكُمْ مَا دَبَّ الشُّلُوكُ لَهُ فَعَزَّ الْمَطْلَبُ
رَاجِعَ أَحِبَّتِكَ الَّذِينَ هَجَرْتَهُمْ إِنَّ الْمُتَيِّمَ قَلَمًا يَتَجَنَّبُ

فألقاها يحيى إلى الرشيدِ ، فقالَ : ما رأيتُ شعراً أشبهَ منه بحالنا ، ولكأنِّي مقصودٌ بهِ ، قالَ يحيى : نعم ، قالها العباسُ بنُ الأحنفِ : في شأنِكَ ، فقالَ الرشيدُ : هاتِ نعلي يا غلامُ ، واستخفَّهُ الأمرُ أن يأمرَ بشيءٍ للعباسِ ، ولما دخلَ على ماردةٍ . سألتُهُ عن سببِ رضاهُ ، فأخبرها ، فقالت : بماذا كوفيءَ العباسُ ؟ قالَ : ما فعلتُ شيئاً ، قالتُ : والله لا جلستُ حتَّى تعجلَ لهُ جائزتهُ ، فأمرَ لهُ بمالٍ جزيلٍ ، تأثَّلَ بهِ عقاراً ، في حديثٍ طويلٍ ، وموضعُ الشاهدِ مِنَ البيتِ الثاني ، مع تعجيلِ الجائزةِ .

[لا تشبث بالملك]

وذكرتُ بهذا ما لا يتعلَّقُ بالموضوعِ ، ولكن لا بأسَ بذكرِهِ ؛ تمهيداً للبيتِ الآتي ، وهو أن امرأةَ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ غضبتُ عليه ، فبتعتها نفسُهُ ، ولم ينتفعِ بأمرِهِ ، وأعياءُ رضاها ، وأخذتهُ العزَّةُ أن يخضعَ لها ، فقالَ لهُ أحدُ العربِ : أتأذنُ لي أن أكلِّمها ؟ فقالَ : نعم ، فاستأذنَ عليها وهو يبكي ، قالتَ لهُ : ما شأنُكَ ؟ قالَ : إنَّ لي ابنتينِ ، عدا أحدهما على الآخرِ فقتلتهُ ، فزعمَ الخليفةُ أنه قاتلُ القاتِلِ ، فقلتُ : أنا وليُّ الدِّمِ ، وقد عفوتُ ، فلم يجبِ إليَّ شيءٌ ممَّا قلتُ لهُ ، وما بقيتُ لي حيلةٌ سواكَ ، ثم أخذَ في النحيبِ حتَّى رقتُ لهُ ، وبكت من بكائه ، وقالتُ : إنِّي لا أكلِّمُهُ منذُ أيَّامٍ ، فقالَ لها : ولكنَّها نفوسٌ سئخينها ، والله يقولُ : ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة : ٣٢] ، فتهيَّأتُ ، ولم يشعرُ إلا والخُصُّ يؤذنهُ بدخولها ، فكانَ ما كانَ . ومنهُ تعرفُ حالةُ القومِ ، وتستطلعُ عوائدهم ، وتستقرئُ طباعهم .

* * *

تَذَلَّلَ لِمَنْ تَهَوَّى عَلَى الْقُرْبِ وَالنَّوَى
فَمَا عَاشِقٌ مَن لَّا يَذِلُّ وَيَخْضَعُ

[التذلل للحبيب هو العز والسعادة]

سَنَةُ العُشَاقِ الخَضُوعُ ، وإِرسَالُ الدَمُوعِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ النَابِغَةُ الجَعْدِيُّ - أَوْ زَفَرُ بْنُ الحَارِثِ ، عَلَى اخْتِلَافِ الرِوَايَةِ -
[النابغة الجعدي في « ديوانه » ٨٧] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَكَانَ رِدَائِي نَحْوَةً وَتَجَبُّرًا
تَرَدَّيْتُ ثُوبَ الدُّلِّ يَوْمَ لَقَيْتَهَا

[مِنَ المَدِيدِ]

وقال أبو نُوَاسٍ [في « ديوانه » ٥٨٠] :

فَلِذَا أَحْبَبْتِ فَاسْتَكِينِ
سُنَّةُ العُشَاقِ وَإِحْدَةٌ

[مِنَ المَنسَرِحِ]

وقال ابنُ الأَحنَفِ [في « ديوانه » ٢٥١] :

تَكُونُ بَيْنَ الوَضَلِ وَالصَّرمِ
لَا بُدَّ لِلعَاشِقِ مِن وَقفَةٍ
رَاجِعَ مَن يَهَوَّى عَلَى رُغمِ
حَتَّى إِذَا الهَمُّ تَمَادَى بِهِ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقال [في « ديوانه » ٢٤٣] :

وإِنْ كُنْتَ مَظْلُومًا . . فَقُلْ : أَنَا ظَالِمٌ!
يُفَارِقُكَ مَن تَهَوَّى وَأَنْفُكَ رَغمِ!
تَحَمَّلَ عَظِيمَ الذَّنْبِ مِمَّنْ تَحِبُّهُ
فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَحْمِلِ الذَّنْبَ فِي الهَوَى

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقال عروَةُ بْنُ حِزَامٍ فِي « ديوانه » ٢٧ :

فَعَوْدُهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَتَعَوَّدُ
وَكَمُ مِن كَرِيمٍ قَدْ أَضَرَّ بِهِ الهَوَى

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقال مسعودُ بْنُ الحَسَنِ البِيضِيُّ :

وَأَلْقَى إِلَيَّ أَيْدِيكَمَا بَعَنَانِي
أَلَانَ الهَوَى صَغْبِي وَذَلَّلَ جَانِبِي

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقد سبق مرَّةً قولُ ابنِ الدَمِينَةِ [في « ديوانه » ١٦١٥] :

رِضًا لَكَ أَوْ مُذِنًا لَنَا مِن وَصَالِكَ
هُدَى مِنكَ لِي أَوْ ضَلَالِكَ
لَقَدَّمْتُ رِجْلِي نَحْوَهَا وَوَطِئْتُهَا
فَلَوْ قُلْتِ : طَأ فِي النَّارِ أَعْلَمُ أَنَّهُ

[مِنَ الخَفِيفِ]

وقال البَحْرِيُّ [في « ديوانه » ٣ / ١٦٥٢] :

وَقَلِيلٌ مِّن عَاشِقٍ أَنْ يَذِلَّ
وَتَذَلَّلْتُ خَاضِعًا لِمَلِيكِي

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقال المَرْتَضِيُّ [في « ديوانه » ٣ / ٢١٧] :

شَنَّ عَلَيهِ الوَجْدَ حَتَّى تَيَّمَا
وَكَمُ مِن جَلِيدٍ لَا يُخَامِرُهُ الهَوَى

أَهَانَ لَهُنَّ النَّفْسَ وَهِيَ كَرِيمَةٌ

وَأَلْقَى إِلَيْهِنَّ الْحَدِيثَ الْمُكْتَمًا

وقال أخوه الرضي [في «ديوانه» ٤٩٧/١] :

[مِنَ الْكَامِلِ]

لَوْ حَيْثُ يُسْتَمَعُ السَّرَارُ وَقَفْتُمَا

لَعَجِبْتُمَا مِنْ عِزِّهِ وَخُضُوعِي

وقال أبو فراس الحمداني [في «ديوانه» ١٤٣] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

فَإِنْ شِئْتَ أَنْ لَا عِزَّ بَعْدِي لِعَاشِقٍ

وَأَنْ يَدِي مِمَّا عَلِقْتُ بِهِ صِفْرُ

وقال آخر [وهو أحمد بن محمد الطوسي كما في «وفيات الأعيان» ٩٨/١] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَهَانَ عَلَيَّ اللَّوْمُ فِي جَنْبِ حُبِّهَا

وَقَوْلُ الْأَعَادِي : إِنَّهُ لَخَلِيعُ

أَصَمُّ إِذَا نُودِيَتْ بِاسْمِي وَإِنِّي

إِذَا قِيلَ لِي : يَا عَبْدَهَا لَسَمِيعُ

وقال الواواءُ الدمشقي [في «ديوانه» ٢٦٦-٢٦٧] :

[مِنَ الْبَسِيطِ]

قَالَتْ لَطِيفِ خَيَالِ زَارَنِي وَمَضَى :

بِاللَّهِ صِفُهُ وَلَا تَتَّقِصْنِ وَلَا تَزِدِ

فَقَالَ : خَلَفْتُهُ لَوْ مَاتَ مِنْ ظَمَأٍ

وَقُلْتِ : قِفْ عَن رُودِ الْمَاءِ لَمْ يَرِدِ

قَالَتْ : صَدَقْتَ الْوَقَا فِي الْحُبِّ شِمَمْتُهُ

يَا بَرَزْدَ ذَاكَ الَّذِي قَالَتْ عَلَيَّ كِبِدِي

وقد ذكرنا هذه الأبيات أو بعضها في غير هذا المكان .

[قد ينصعق من يرى الحبيب]

ومتى وصل المحب من الانقياد لأوامر المحبوب إلى هذه الغاية . . امتلأت نفسه بهيبته ، وأخذته البهت ، والروعة من مفاجأة طلوعته ، ومنه قول بعضهم [وهو أبو الفرج بن هند كما في «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» ٤٣٢/١] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

تَمَنِّيْتُهِ حَتَّى إِذَا مَا رَأَيْتُهُ

بُهْتُ فَلَمْ أَعْمَلْ لِسَانًا وَلَا طَرْفًا

وَأَطْرَقْتُ إِجْلَالَ لَهُ وَمَهَابَةً

وَحَاوَلْتُ أَنْ يَخْفَى الَّذِي بِي فَلَمْ يَخْفَى^(١)

وهما ناظران إلى قول المجنون [في «ديوانه» ٥٩] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ أَرَاهَا فُجَاءَةً

فَأَبْهَتُ حَتَّى مَا أَكَادُ أُجِيبُ

وَأُصْرَفُ عَن رَأْيِي الَّذِي كُنْتُ أَرْتَبِي

وَأَنْسَى الَّذِي أَعْدَدْتُ حِينَ تَغِيبُ

وقوله [في «ديوان جميل» ٢٢٥] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَإِنِّي لِيُنْسِينِي لِقَاؤُكَ كُلَّمَا

لَقَيْتُكَ يَوْمًا أَنْ أَبْتُكَ مَا بِيَا

وقوله [أي : المجنون في «ديوانه» ١٦٣] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَدَاعٍ دَعَا إِذْ نَحْنُ بِالْخَيْفِ مِنْ مَنِي

فَهَيَّجَ أَشْجَانَ الْفُؤَادِ وَمَا يَدْرِي

(١) وبعد هذين البيتين :

وَقَدْ كَانَ فِي قَلْبِي دَفَائِرُ عَنِّي فَلَمَّا التَّقِينَا مَا وَجَدْتُ وَلَا حَرْفًا

دَعَا بِاسْمِ لَيْلَىٰ غَيْرَهَا فَكَأَنَّمَا

وقول أبي صخر الهذليّ [في «ديوان الحماسة» ٦٧/٢]:

أَطَارَ بِلَيْلَىٰ طَائِرًا كَانَ فِي صَدْرِي

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ أَرَاهَا فَجَاءَهُ

وقال عتيّ بن مالك العقيليّ [في «لسان العرب» ٢٣٧/١٤]:

فَأُبْهَتْ لَا عُرْفٌ لَدَيَّ وَلَا نُكْرٌ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

أَتَيْتُ مَعَ الْحُدَاثِ لَيْلَىٰ فَلَمْ أَبْنُ

وقال يزيد بن الطثريّة [في «ديوانه» ٩٤]:

فَأَخْلَيْتُ فَاسْتَعَجَمْتُ عِنْدَ خَلَائِيَا

[مِنَ الطَّوِيلِ]

بِنَفْسِي مَنْ لَوْ مَرَّ بَرْدٌ بَنَانِهِ

وَمَنْ هَابَتِي فِي كُلِّ شَيْءٍ وَهَبْتُهُ

عَلَىٰ كَيْدِي كَانَتْ شِفَاءً أَنَامِلُهُ

فَلَا هُوَ مُعْطِنِي وَلَا أَنَا سَائِلُهُ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقال ابن أبي ربيعة [بل المجنون في «ديوانه» ٧١]:

أَهَابُكَ إِجْلَالًا وَمَا بِكَ قُدْرَةٌ

عَلَيَّ وَلَكِنْ مِلءُ عَيْنٍ حَبِيْبُهَا

[مِنَ البَسيطِ]

وقال بشرّ [في «ديوانه» ٣١٩/٢]:

تَلَقَىٰ بِتَسْبِيْحَةٍ مِنْ حُسْنٍ مَا خُلِقَتْ

وَتَسْتَفِزُّ حَشَا الرَّائِي بِإِرْعَادِ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقال آخر [كما في «مصارع العشاق» ٢٩٢/١]:

فَمَا هِيَ إِلَّا لَحْظَةٌ بِتَبَسُّمِ

وَتَضْطَكُ رِجْلَاهُ وَيَسْقُطُ لِلْجَنْبِ

[المبرد والجارية المغنية النحوية]

وفي هذا قصّةٌ لا بأسَ بذكرها ؛ لطلوّتها ، وهي [كما في «وفيات الأعيان» ٣١٧/٤]: أنّ بعضهم صنعَ وليمةً ، دعا إليها الأعيانَ ، ثمّ أمرَ جاريتَهُ فغَنَّتْ :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وَقَالُوا لَهَا : هَذَا حَبِيْبِكَ مُعْرِضٌ

فَقَالَتْ : أَلَا إِعْرَاضُهُ أَيْسَرُ الْخُطْبِ

فَمَا هِيَ إِلَّا لَحْظَةٌ بِتَبَسُّمِ

وَتَضْطَكُ رِجْلَاهُ وَيَسْقُطُ لِلْجَنْبِ

فاهتزّ القومُ ارتياحاً وطرباً ، ما خلا أبي العباس المبرّد - وكانَ حاضرًا - فانكسرَ صاحبُ المنزلِ ، وقالَ لَهُ : أولم يعجبكَ الغناء؟ قالتِ الجاريةُ : بلى ، وإنّما أرادَ مني أن أقولَ هكذا :

(وقالوا لها : هذا حبيبك مُعْرِضاً) ، ولم يدرِ أنّ ابنَ مسعودٍ قرأ : (وهذا بعليّ شينخ) فطربَ حينئذِ أبو العباسِ ، حتّى شقَّ ثوبَهُ .

[ما السبب في اندهاش المحب عند رؤية المحبوب ؟]

وقد اختلفَ في سبيلِ ما يعرضُ للمحبِّ مِنَ الهَيْبَةِ ، وما يحدثُ لَهُ عِنْدَ المفاجأةِ مِنَ الروعةِ ؛ فقليلٌ : لأنَّ القلبَ ينفرجُ مِنَ الشوقِ إِلَى اللقاءِ ، فيهربُ الدُمُّ ، وقد يبرُدُ ويضطربُ ، فتحدثُ الرعدةُ ، وربّما كانَ الموتُ .

[سلطان المحب على قلب المحبوب أقوى من سلطنة السلطان على الرعية]

وقيل : إِنَّ لِلْمُحِبِّ سُلْطَانًا عَلَى قُلُوبِ الْمُحِبِّينَ ، أَعْظَمَ مِنْ سُلْطَنَةِ الْمَلُوكِ عَلَى الرِّعِيَّةِ ، فَإِذَا رَأَوْهُ - وَلَا سِيَّامَا مَعَ الْمَفْجَأَةِ - ارْتَاعُوا كَمَا يَرْتَاعُ نَاطِرُ الْمَلِكِ الْكَبِيرِ ، وَلِلَّهِ دُرٌّ الَّذِي يَقُولُ :

[مِنَ الْمُجْتَمَعِ]

الْمُلُوكُ لَكُمْ اللهُ وَخُدَدُهُ
وَاللِّخْلَيْفَةُ بَعْدَهُ
وَالْمُحِبُّ إِذَا مَآ
حَبِيْبُهُ بَاتَ عِنْدَهُ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقال سلطان العاشقين [في «ديوانه» ١٦٥] :

وَبِتْنَا كَمَا شَاءَ افْتِرَاحِي عَلَى الْهَوَى
أَرَى الْمُلْكَ مُلْكِي وَالزَّمَانَ غَلَامِي^(١)

[مِنَ الْوَافِرِ]

وقد سبق في غير هذا المجلس قول المهدي للخيزران :

أَمَّا يَكْفِيكَ أَنْتِ تَمْلِكِينِي
وَأَنْتِ لَوْ قَطَعْتَ يَدِي وَرَجْلِي
وَأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِيْدِي
لَقُلْتُ مِنَ الرِّضَا : أَحْسَنْتِ زَيْدِي

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقال المأمون :

أَيَا رَبَّةَ الْحُسْنِ الَّتِي هَتَكَتْ نُسْكَي
فَأَمَّا بَدَلٌ وَهُوَ أَلْيَقُ بِالْهَوَى
عَلَى كُلِّ حَالٍ أَنْتِ لَا بُدَّ لِي مِنْكَ
وَأَمَّا بَعِزٌّ وَهُوَ أَلْيَقُ بِالْمُلْكَ

[مِنَ الْكَامِلِ]

وقول الرشيد [في «ديوانه» ٤٨] :

مَلِكِ الثَّلَاثِ الْإِنْسَاتِ عِنَانِي
مَا لِي تَطَاوَعْنِي الْبَرِيَّةُ كُلُّهَا
وَحَلَلْنَ مِنْ قَلْبِي بِكُلِّ مَكَانٍ
وَأَطِيعُهُنَّ وَهَنَّ فِي عَضِيَانِي
- وَبِهِ قَوِيْن - أَشَدُّ مِنْ سُلْطَانِي
مَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّ سُلْطَانَ الْهَوَى

وللثلاث المشار إليهن في الأبيات حديث طريف ، لا يتسع لإيرادِهِ الوقت .

وقال بعض ملوك المغرب من بني مروان ، وما أدري أهو أخذ عن الرشيد أم الرشيد هو الذي أخذ عنه [وهو المستعين

[مِنَ الْكَامِلِ]

بالله ، الذي أخذ عن الرشيد كما في «نفع الطيب» ٢/٢٢٧] :

وَتَمَلَّكَتْ نَفْسِي ثَلَاثٌ كَالدُّمَى
كَكْوَاكِبِ الظُّلْمَاءِ لُحْنٌ لِنَاطِرِي
زُهْرُ الْوُجُوهِ نَوَاعِمُ الْأُبْدَانِ
مِنْ فَوْقِ أَغْصَانِ عَلَى الْكُتُبَانِ
حُسْنًا وَهَلْذِي أَخْتُ غُضْنَ الْبَانَ
سُلْطَانَهَا السَّامِي عَلَى سُلْطَانِي
وَبَنُو الزَّمَانِ وَهَنَّ مِنْ عُبْدَانِي
كَفَأَ بِهِنَّ فَلَسْتُ مِنْ مَرْوَانَ
هَلْذِي الْهَلَالُ وَتَلْكَ بِنْتُ الْمُشْتَرِي
حَاكَمْتُ فِيهِنَّ الْهَوَى فَقَضَى لَهَا
مَا ضَرَّ أَنْي عَبْدُهُنَّ صَبَابَةً
إِنْ لَمْ أُطْعَ فِيهِنَّ سُلْطَانَ الْهَوَى

(١) اقتراحي : مطلي .

وقال آخرُ :

[مِن الطَّوِيلِ]

يَلْدُ لَهُ ذُلُّ الْهَوَىٰ وَخُضُوعُهُ وَلَوْلَا الْهَوَىٰ مَا لَدَّ لِلْعَاقِلِ الذُّلُّ

وقال آخرُ :

[مِن الطَّوِيلِ]

إِذَا كُنْتَ تَهْوَىٰ مِنْ نُحْبٍ وَلَمْ تَكُنْ تَذَلُّ لِمَنْ تَهْوَىٰ لِتَكْسِبَ عِزَّةً
ذَلِيلًا لَهُ فَافَرَ السَّلَامَ عَلَى الْوَصْلِ فَكَمْ عِزَّةٌ قَدْ نَالَهَا الْمَرْءُ بِالذُّلِّ

وفي « ديوان الشرف ابن الفارض » ما لا يوجد مثله عند غيره ، منه « في ديوانه » ١٥٣ :

[مِن الْكَامِلِ]

مِنِّي لَهُ ذُلُّ الْخُضُوعِ وَمِنْهُ لِي عِزُّ الْمُنُوعِ وَقُوَّةُ الْمُسْتَضْعِفِ^(١)
لَوْ قَالَ : تَيْهًا قِفْ عَلَى جَمْرِ الْغَضَى لَوَقَفْتُ مُمْتَثِلًا وَلَمْ أَتَوَقَّفِ
أَوْ كَانَ مَنْ يَرْضَى بِخَدِّي مَوْطِئًا لَوَضَعْتُهُ أَرْضًا وَلَمْ أَسْتُنْكِفِ

ثم ما لبث أن امثل ما أشار به ابن أبي عتيق على ابن أبي ربيعة كما سلف ، وكما قد زعم ابن المعتز من قبل ، ففرش خده ، وقال [ابن الفارض في « ديوانه » ١٦٥ :

[مِن الطَّوِيلِ]

وَلَمَّا تَوَافَيْنَا عِشَاءً وَضَمْنَا سَوَاءً سَبِيلِي دَارَهَا وَخِيَامِي
وَمِلْنَا كَذَا عَنْ سَاحَةِ الْحَيِّ حَيْثُ لَا رَقِيبَ وَلَا وَاشٍ بِزُورِ كَلَامِ
فَرَشْتُ لَهَا خَدِّي غِطَاءً عَلَى الثَّرَى فَقَالَتْ : لَكَ الْبُشْرَى بِلثَمٍ لِثَامِي

وقال [في « ديوانه » ١٥٦ :

[مِن الْخَفِيفِ]

وَكَفَانِي عِزًّا بِحُبِّكَ ذَلِّي وَخُضُوعِي وَلَسْتُ مِنْ أَكْفَاكَ

وقال [في « ديوانه » ١٧٣ :

[مِن الطَّوِيلِ]

وَلَمْ يَبْقَ مِنِّي مَا يُنَاجِي تَوْهُمِي سِوَى عِزِّ ذَلِّي فِي مَهَانَةِ إِجْلَالِي

وقال [في « ديوانه » ١٣٦-١٣٧ :

[مِن الطَّوِيلِ]

وَقَالَ نِسَاءُ الْحَيِّ عَنَّا بِذِكْرِ مَنْ جَفَانَا : وَبَعْدَ الْعِزِّ لَدُّهُ الذُّلُّ
فَحَالِي وَإِنْ سَاءَتْ فَقَدْ حَسُنَتْ بِهَا وَمَا حَطَّ قَدْرِي فِي هَوَاهَا بِهِ أَعْلُو
وَلِي هِمَّةٌ تَعْلُو إِذَا مَا ذَكَرْتُهَا وَرُوحٌ بِذِكْرَاهَا إِذَا رُخِصَتْ تَعْلُو

وقال [في « ديوانه » ٥٨ :

[مِن الطَّوِيلِ]

ذَلَلْتُ بِهَا فِي الْحَيِّ حَتَّى وَجَدْتَنِي وَأَذْنَى مَنَالٍ عِنْدَهُمْ فَوْقَ هِمَّتِي
وَمِنْ دَرَجَاتِ الْعِزِّ أَمْسَيْتُ مُخْلَدًا إِلَى دَرَكَاتِ الذُّلِّ مِنْ بَعْدِ نَخْوَتِي
فَلَا بَابَ لِي يُغْشَى وَلَا جَاهَ يُرْتَجَى وَلَا جَارَ لِي يُحْمَى لِفَقْدِ حَمِيَّتِي

(١) المَنُوعُ : الشَّدِيدُ الْمَنَعِ . الْمُسْتَضْعِفُ : الَّذِي يَرَانِي ضَعِيفًا أَمَامَهُ .

وقال [في «ديوانه» ٥٣] :

وَحُسْنٌ بِهِ تُسَبَّى النُّهَى دَلَّنِي عَلَى هَوَى حَسَنَتْ فِيهِ لِعِزِّكَ ذَلَّتِي

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقال سبطه [في «ديوان ابن الفارض» ٢٠٩] :

تَوَاضَعْتُ ذُلًّا وَانْخَفَاضاً لِعِزِّهَا فَشَرَّفَ قَدْرِي فِي هَوَاهَا التَّوَاضُعُ
لَيْتَن صِرْتُ مَخْفُوضَ الْجَنَابِ فَحُبُّهَا لِقَدْرِ مَقَامِي فِي الْمَحَبَّةِ رَافِعُ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقال ابن الجعبري : زرت مع والدي قبر ابن الفارض ، فوجدنا عنده تراباً كثيراً ، فصرخ الشيخ وقال :
مَسَاكِينُ أَهْلِ الْعِشْقِ حَتَّى قُبُورِهِمْ عَلَيْهَا تُرَابٌ الذُّلُّ بَيْنَ الْمَقَابِرِ

ثم حمل الشيخ التراب في ثوبه ، وحملناه معه إلى أن كنسنا القبر وما حوله .

[حال النبي صلى الله عليه وسلم وتواضعه مع أهله]

وأكبر مما ذكرناه كله . . حاله صلى الله عليه وسلم مع أزواجه ، فقد كان - كما ذكرنا لونا منه في المجلس الثاني عشر
عند قوله [في «العكبري» ٢/٣٣٣] :

[مِنَ الْكَامِلِ]

وَعَذَلْتُ أَهْلَ الْعِشْقِ حَتَّى ذُقْتُهُ فَعَجِبْتُ كَيْفَ يَمُوتُ مَنْ لَا يَعْشَقُ ؟!

- حسن العشرة لهن ، وكُنَّ يهجرنه إلى الليل ، وكان يقول : « خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي » (١) .

وكان (إذا صلى العصر . . دار عليهن كلهن ، ودنا منهن من غير مسيس ، وكان يسرب إلى عائشة بنات الأنصار
يلعبن معها ، ويمكثها من اللعب ، ويحملها لتنظر إلى الحبشة وهم يلعبون في مسجده وهي متكئة على منكبيه ،
وكان إذا هويت شيئاً لا محذور فيه . . تابعها عليه ، وكان إذا شربت من الإناء . . أخذها فوضع فمه على موضع فمها
وشرب ، وإذا تعرقت عرقاً - وهو العظم الذي عليه لحم - أخذها واعتمد موضع فمها) (٢) .

ولما نزلت براءتها . . قالت لها أمها : قومي إليه ، فقالت : والله لا أقوم إليه ، ولا أحمد إلا الله ، وهي التي تواطأت
مع حفصة على غش الجونية حتى فرقتا بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما قد ذكرنا في غير هذا
المجلس ، فلم يترب (٣) .

[مِنَ الْوَافِرِ]

ولله درُّ القائل :

وَيَقْبُحُ مِنْ سِوَاكَ الْفِعْلُ عِنْدِي فَتَفَعَّلُهُ فَيَحْسُنُ مِنْكَ ذَاكَ

[مِنَ الْوَافِرِ]

وقال الناظم [في «العكبري» ٤/٢٥٥] :

وَقَدْ يَتَقَارَبُ الْوَصْفَانِ جِدًّا وَمَوْصُوفَاهُمَا مُتَبَاعِدَانِ

(١) أخرجه عن ابن عباس رضي الله عنهما ابن حبان في «صحيحه» (٤١٩٤) ، وهو في «كشف الأستار» (١٤٨٣) .

(٢) تقدمت هذه الأحاديث مع تخريجها في غير هذا المجلس .

(٣) التريب : التعير والاستقصاء في اللوم ، وترب عليه : قبَّح عليه فعله .

وَيَخْتَلِفُ الرَّزْقَانِ وَالْفِعْلُ وَاحِدٌ إِلَى أَنْ يُرَى إِحْسَانٌ هَذَا لَذَا ذَنْبًا

[الحكمة في ميل الرجل للمرأة]

وبعد : فمعاذَ الله أن يكونَ جميعُ ذلكِ إلا لحكمةٍ عاليةٍ ، لم أرَ من نَبَّهَ عليها ، وكأنَّها - والعلمُ له جَلٌّ شأنُه - راجعةٌ إلى صفةِ العدلِ .

وتوضيحتها : أنَّ الكونَ - كما قلنا غيرَ مرَّةٍ - لم يتَّسقَ نظامُه إلا بناموسِ الجاذبيَّةِ ، وهو المحبَّةُ الصادقةُ ليسَ غيرُ ، والإنسانُ سرُّ هذا الكونِ ، وبالحرِّيِّ أن لا يستقيمَ شأنُه إلاَّ بها ، فهي المقصودُ الأكبرُ من الحياةِ الزوجيَّةِ ، بشهادةِ قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴾ [الروم : ٢١] ، فذلكَ السكونُ والرحمةُ والمودةُ هي التي بها تتطعمُ الحياةُ ، ويُستعجلُ النعيمُ ، وتتناسى الآلامُ ؛ إذ كلُّ لذَّةٍ في الدنيا دفعُ ألمٍ ، سوى ما كانَ من أمثالها ، فهي التي بها يسهُلُ احتمالُ مشاقِّ الكونِ المظلمةِ ، وقطعُ عقباتِه الكأداءِ ، والصبرُ على موجعاتِه الكبرى ، ويتبعُ ذلكَ استبقاءُ النسلِ ؛ ضرورةَ بقاءِ العالمِ إلى أمدِه المحدودِ له .

فمن أطافِه - جلَّ شأنُه - تركيبُ الشهوةِ التي تستبي الغيورَ ، وتستنزِلُ الوقورَ ، ولا يخفى ما في طريقِ إرضائها الذي لا بدَّ منه من الذلِّ الفاحشِ ، الواقعِ على المرأةِ ، فعوضتَ عنه برجحانِ الكفةِ لدى ميزانِ الهوى ، وإعلاءِ الدرجةِ عندَ سلطانِ الحبِّ ، ورفعِ المنزلةِ في دولةِ الجمالِ ، فهو إذن سرُّ لطيفٌ محسوسٌ من أسرارِ العدلِ الإلهيِّ ، الذي قامتِ الأرضُ والسماءُ عليه .

ولئن قيلَ : إنَّه لا يظهرُ أثرُه إلاَّ عندَ أهلِ الكرمِ ، وقليلٌ ما هم . . قلنا : همُ المقصودونَ وإن قلُّوا ، ولا عبرةَ بمن سواهم وإن جَلُّوا ؛ إذ همُ بالعجماواتِ أشبهُ ، لا يعرفونَ العزَّ ولا الهونَ ، ولا العاليَ ولا الدونَ ، وقد أسلفنا مرَّةً قولَ حبيبٍ [أبي تمامٍ في «ديوانه» ١/ ٣٣٠] :

[مِنَ البسيطِ]

إِنَّ الْكِرَامَ كَثِيرٌ فِي الْبِلَادِ وَإِنْ قَلُّوا كَمَا غَيْرُهُمْ قُلٌّ وَإِنْ كَثُرُوا^(١)

[مِنَ الكاملِ]

وقد يُشبهُه قولُ أبي عبادَةَ [في «ديوانه» ٢/ ٩٧٦] :

قَلَّ الْكِرَامُ فَصَارَ يَكْثُرُ فَذُهُمْ وَلَقَدْ يَقِلُّ الشَّيْءُ حَتَّى يَكْثُرَا^(٢)

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقولُ الناظمِ [في «العُكْبَرِيِّ» ٢/ ١٥٥] :

فَجَاءَتْ بِهِ صَلَّتِ الْجَبِينِ مُعْظَمًا تَرَى النَّاسَ قُلًّا حَوْلَهُ وَهُمْ كُثْرًا^(٣)

فيتلخَّصُ منه : أنَّ المحبَّةَ سرُّ الأسرارِ ، وأنَّ أفضلَ مظاهرها الحياةُ الزوجيَّةُ ، وأنَّ ما يلحقُ المرأةَ من المهانةِ

(١) يعني : أن للكرامِ شأنًا عظيمًا يكثرُ بهم الخيرُ وإن قلَّ عددهم ، كذلك غيرُ الكرامِ كثيرو العددِ قليلو الشأنِ .

(٢) القُدُّ : الفردُ .

(٣) الصلَّتُ : الجبينُ الواضحةُ .

بالصورة فيما يتولد من بعض دواعي الحب لبقاء التنازل . . . تعرّض عنه في شرع الهوى ، بأن تكون مالكة لا مملوكة ، وحاكمة لا محكومة ، وغالبة لا مغلوبة ، والكرام في ذلك مساقون بسوق الطبيعة ، وموكلون فيه إلى الداعية ، ومن سواهم وإن كانوا دهماء الناس ، والسواد الأعظم . . . فإنهم لا عبرة بهم ، وفي الأحكام الشرعية ما يكفي للتناصف بينهم ، وتوفية المرأة ما امتازت به من حقوق الخدمة ، والمؤنة ، والنفقة ، والكفالة ، وغير ذلك .

ثم إذا كان هذا الخضوع للجمال الحاد . . . فما بالك به لمظهر كل جمال أقدس ، وكمال أنفس ، وكثيراً ما تكون المحبة البشرية وسيلة للحب الإلهي ، والله در لسان الدين بن الخطيب في قوله - الذي قلما أذكره إلا وخفني الشيع ، وتبادرت من محجري القطرات - وهو [في « نفع الطيب » ٦ / ٢٨٢] :

جَزَى اللهُ عَنِّي زَاجَرَ الشَّيْبِ خَيْرَ مَا جَزَى نَاصِحاً فَازَتْ يَدَاهُ بِخَيْرِهِ
سَلَكْتُ طَرِيقَ الْحُبِّ حَتَّى إِذَا انْتَهَى تَعَوَّضْتُ حُبَّ اللهِ عَنِ حُبِّ غَيْرِهِ

[تواضعه صلى الله عليه وسلم]

ومن هنا كان صلى الله عليه وسلم سيّد المتواضعين ، يعلفُ بغيره ، ويقمُ بيته ، ويخصفُ نعله^(١) ، ويرقعُ ثوبه ، ويحلبُ شاته ، ويطحنُ مع خادمه ، ويأكلُ معه ، ويحملُ بضاعته من السوق بيده ، ويصافحُ الفقير ، ويتركُ له يده حتى يكون هو الذي يلقبها ، ولا يحتقرُ ما دُعِيَ إليه ، ولو إلى حشفِ التمر .

وحاله معروفٌ مع أهل الصفة ، وآخر ما نزل عليه في شأنهم قوله تعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَنَى يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ [الكهف : ٢٨] ، فكان بعد ذلك لا يقوم عنهم حتى يكونوا هم البادئين بالقيام ، غير أنهم لم يكونوا بلداء ، ولا ثقلاء كأهل زماننا ، ولكنهم كما قال ابن أبي ربيعة [في « ديوانه » ١٦٣] : [من الطويل]

فَلَمَّا اقْتَصَرْنَا دُونَهُنَّ حَدِيثَنَا وَهُنَّ خَبِيرَاتٌ بِحَاجَاتِ ذِي التَّبَلِ^(٢)
عَرَفْنَا الَّذِي نَهَوَى فِقْلَنَا : ائْذِنِي لَنَا نَطْفُ سَاعَةٍ بَيْنَ النَّسَاتِينَ وَالنَّخْلِ

فكانوا إذا عرفوا أنه يريد القيام . . . انصرفوا عنه ، وقد جوذت الكلام فيه بما أظنني لم أسبق إليه في « حاشيتي على الشمائل » فتواضعه عليه السلام أثمر صدق محبته ، واتساع معرفته .

[تواضع سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام]

ولقد كان سليمان - على اتساع ملكه - يتفقّد الحلق في المسجد الأقصى ، ثم لا يجلس إلا مع المساكين ، وكان لا يتغدى حتى يترحل النهار ؛ ليدوق طعم الجوع ؛ حتى لا ينسأهم .

ومن شريف تواضعه ما قص الله علينا من خبره مع الهدد ؛ إذ قال له ﴿ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [النمل : ٢٧] ، فإنه كان يفتح القلوب الغلف ، والآذان الصم ؛ إذ لا تجد أرق ولا أبدع ولا أبلغ من الإفصاح بنسبة الصدق إليه ، حتى كأنه الصادق وحده في عسكره ، ولما كان الكذب . . . لم يجز فيه على مقتضى السياق من الخطاب ، بل

(١) قال الحافظ العراقي : رواه أحمد في « المسند » من حديث عائشة . يخصف : يخز به يده ليصلحه .

(٢) المعنى : حين آتسنا متاً تكثماً وقصراً للحديث . . . شعرنا بحاجة المحبين للخلوة ، وهنَّ بذلك عارفات خبيرات .

التفت وقال ﴿ أَمْ كُنْتُمْ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴾ [النمل : ٢٧] ولم يقل أم كذبت ؛ رفقا به ، وحنوا عليه ؛ كي لا ينفطر قلبه ، وتنشق مرارته من هول نسبة الكذب إليه ، ولكنه قال له ما معناه : إن صدقت . . فهي فضيلة ، كأنك المنفرد بها ، وإن كذبت . . فكثير مثلك ، وهذا والله ما يهزُّ النفوس ، وقيمُ الشعور ، وينفدُ في القلوب ، ويستهوِي الخواطر ، ويذيبُ الحجارة ، وإنه لمن المعجز الذي تزلُّ الفصحاء عن مرقاته ، ولا بدع ؛ فالالتفات هو المقام الذي تتفاوت به الطبقات ، وقد ذكرنا منه في تفسير الفاتحة من كتابنا « بلايلُ التغريد » ما تشرح به صدور المؤمنين إن شاء الله تعالى .

[ينبغي التفريق بين العز والكبر والتواضع والملق]

ومن الجهلاء من يلتبس عليه العزُّ بالكبر ، والتواضعُ بالملق ، فتجدُ صاحبَ العزة يكلمُ الفقير ، ويلاطفُ الصغير ، ويجالسُ المساكين ، ويخضعُ للحق ، ويستكينُ حتى إذا جالسَ الأمراء . . فهو أميرٌ ، وإذا حضرَ الكبراء . . فهو كبيرٌ . وقد قال ابنُ الخطَّابِ : أريدُ رجلاً إذا كان أميرَ القوم . . كان كبعضهم ، وإن لم يكن أميرهم . . فكأنه أميرهم .

وقال أبو تمام [في « ديوانه » ١٠١/٢] :

مَبْدَلٌ فِي الْقَوْمِ وَهُوَ مُبَجَّلٌ مُتَوَاضِعٌ فِي الْحَيِّ وَهُوَ مُعْظَمٌ^(١)

وقال الآخرُ :

مُتَوَاضِعٌ وَالْتِبَالُ يَحْرُسُ قَدْرَهُ وَأَخُو التَّوَاضِعِ بِالنَّبَاهَةِ يَنْبُلُ

لا يترددُ على الأبواب ، ولا يُدهنُ ، ولا يهابُ ، ولا يجري خلفَ الآمالِ ، ولا يتبعُ مرضيَ أهلِ المالِ ، وآيته أن تجده مبغوضاً لدى أهلِ النخوةِ والشرفِ ، محبوباً عندَ أهلِ الضعفِ والعقلِ .

[الكلام على المتكبر]

وأما صاحبُ الكبرِ : فتجدهُ غامطاً للحقوقِ ، غارقاً في العقوقِ ، لا يقابلُ الناسَ إلا بالأنفةِ ، ولا يكلمهم إلا من أطرافِ الشفةِ ، لا يعرفُ لأحدٍ قدره ، ولا يقبلُ من مسيءِ عذره ، لكنه يتواضعُ لمن فوقه بمقدارِ ذلك ووزنه ، فإذا مثلُ أمامَ الكبراءِ ، أو حضرَ عندَ الأمراءِ . . نزلَ عن سماءِ تلك الرفعةِ ، وانحدرَ عن قلَّةِ تلك العظمةِ ، وذلك دليلٌ على أنه من الأممِ الناسِ نفساً ، وأسقطهم همّةً ، وأزمنهم ذمّةً .

ومنهم من يكونُ الكبرُ معجوناً في طينتهِ ، لا يظهرُ أثره فيه إلا لمن ساعده الطمعُ على الترفعِ عليه ، حتى إذا ما ضحك له الزمانُ . . ورى ذلك الزندُ ، وانفجرَ ذلك الجرحُ ، وقد قال سفيانُ - رحمه الله - : إنَّ اللثامَ إذا تمولوا . . استطالوا ، وإذا افتقروا . . تواضعوا ، وإذا افتقروا . . استطالوا .

ومتى رسخَ الكبرُ في نفسِ الإنسانِ . . استخدمَ من قدرَ عليه من الخلقِ في قضاءِ شهوتهِ ، وتنفيذِ إرادتهِ ، ورأى أنَّ الصوابَ ما تمثَّلَ له نفسهُ ، وأنَّ العقولَ لم ترجحِ إلا لموافقةِ مشربه ، وهذه حالُ سائرِ المستبدِّين ، ومن علامتهم أن نجدَ أهلَ العلمِ أبغضَ ما يكونُ إليهم :

(١) المبدلُ : تاركُ النصونِ والاحتشامِ . مبجلٌ : معظَّمُ .

[أسباب بغض المستبدين لأهل العلم]

أَمَّا أَوْلَى : فَلَأَنَّ الْعِلْمَ يَهْدُ مِنْ بِنَائِهِمْ ، وَيَحِطُّ مِنْ كِبْرِيائِهِمْ ، وَيَغْضُ مِنْ عِنَانِهِمْ ، وَيَعْرِفُ بَطْغِيَانِهِمْ .
وَأَمَّا ثَانِيًا : فَإِنَّهُمْ يَبْغُضُونَهُمْ بِالطَّبَعِ لِدَاتِهِ ؛ حَيْثُ إِنَّ لَهُ سُلْطَانًا أَقْوَى مِنْ كُلِّ سُلْطَانٍ ، وَلَا بَدَّ لِلْمُسْتَبَدِّ أَنْ يَسْتَحْفِرَ
نَفْسَهُ وَلَوْ فِي سِرِّهِ كَلَّمَا وَقَعَتْ عَيْنُهُ عَلَى مَنْ هُوَ أَرْفَعُ سُلْطَانًا مِنْهُ ، فَتَرَاهُ لَا يَحِبُّ أَنْ يَرَى وَجَهَ عَالِمٍ شَرِيفٍ حَرَّ قَطُّ ،
بَلْ يَسْعَى جَهْدَهُ فِي إِسْقَاطِ قَدْرِهِ ، وَالتَّقْوِيلِ عَلَيْهِ ، وَإِلْصَاقِ الْمَعَايِبِ بِهِ ، وَابْتِغَاءِ الْعَثَرَاتِ فِي طَرِيقِهِ ، فَإِنْ اضْطُرَّ إِلَى
الْعِلْمِ أحيانًا . . اخْتَارَ الْمُتَصَاغِرَ الْمُتَحَذِلِقَ الدُّنْيَاءَ :

لَأَنَّهُ أَوْلَى : يَعْرِفُ نَقْصَهُ وَانْحِطَّاطَهُ ، فَلَا يَجِدُ فِيهِ مِنْ طَلَائِعِ الْمَجْدِ مَا يَنْغْصُ عَلَيْهِ ، وَلَا مَا يَثِيرُ حَسَدَهُ .
وَلَأَنَّهُ ثَانِيًا : يَمَلَأُ رِضَاهُ ، وَيَسَارِعُ فِي هَوَاهُ ، بِخِلَافِ الْأَوَّلِ .

وَلَأَنَّهُ ثَالِثًا : يَتَّخِذُ مِنْهُ مِثَالًا لِتَحْقِيرِ الْعُلَمَاءِ إِذَا تَظَاهَرَ بَعْدَ الْمَبَالَاةِ بِهِ ، وَالْحَقَّةَ بِحَاشِيَتِهِ ، وَأَدْخَلَهُ فِي غَمْرَةِ أَتْبَاعِهِ ،
وَأَمْثَالُ هَؤُلَاءِ الْمُسْتَبَدِّينَ وَالمُتَكَبِّرِينَ وَاجِبٌ عَلَى أَهْلِ الْإِيمَانِ احْتِقَارُهُمْ وَهَجْرُهُمْ ، وَالتَّكْبِيرُ عَلَيْهِمْ ؛ فَقَدْ سُئِلَ
الْحَسَنُ عَنِ التَّوَاضُعِ ^(١) ؟ فَقَالَ : هُوَ التَّكْبِيرُ عَلَى الْأَغْنِيَاءِ .

[الكلام في الكبر والعز]

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذِ الرَّازِيِّ : التَّكْبِيرُ عَلَى مَنْ تَكَبَّرَ عَلَيْكَ بِمَالِهِ تَوَاضُعٌ . وَمُصَدِّقُهُ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ
تَوَاضَعَ لِعَنِيٍّ . . ذَهَبَ ثُلُثَا دِينِهِ » ^(٢) .

وَلَمَّا سَأَلَهُ مُسَلِّمَةُ الْكُذَّابُ الْمَلِكَ بَعْدَهُ . . قَالَ لَهُ : « وَاللَّهِ لَوْ سَأَلْتَنِي هَذَا الْعُودَ - لِعُودٍ فِي يَدِهِ - لَمْ أُعْطِكَهُ » ^(٣) .
وَلَمَّا جَاءَهُ نَصَارِيُّ (نَجْرَان) ، وَعَلَيْهِمُ الْحُلُّ ، وَأَزْرَارُ الذَّهَبِ . . أَوْفَقَهُمْ طَائِفَةٌ مِنَ النَّهَارِ فِي الشَّمْسِ .

وَأَنشَدَ السَّرْحَسِيُّ [في « نفع الطب » ١١٠/٣] :

لَمْ أَلْقَ مُسْتَكْبِرًا إِلَّا تَحَوَّلَ لِي عِنْدَ اللَّقَاءِ لَهُ الْكِبْرُ الَّذِي فِيهِ
وَلَا حَلَا لِي مِنَ الدُّنْيَا وَلَدَّتْهَا إِلَّا مُقَابَلَتِي لِلتِّيهِ بِالتِّيهِ

وَقَالَ بَعْضُ عِظَمَاءِ الدُّنْيَا لِلْحَسَنِ : مَا أَعْظَمَكَ فِي نَفْسِكَ ! فَقَالَ : لَسْتُ بِعَظِيمٍ فِي نَفْسِي ، وَلَكِنِّي عَزِيزٌ . مِنْ قَوْلِهِ
جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَاللَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ ، وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : ٨] .

وَمَرَّ فِي الْمَجْلِسِ الْحَادِي عَشَرَ مَا يَشْبَهُهُ عَنِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ :

وَمَا أَنَا مَزْهُوٌّ وَلَكِنِّي فَتَى أَبَتْ لِي نَفْسٌ عَزَّةٌ لَنْ أُزِيلَهَا

(١) في « صفة الصفوة » (٤/١٣٩) : ابن المبارك بدل (الحسن) .

(٢) أخرجه نحوه عن وهب البيهقي في « الشعب » (١٠٠٤٣) ، وأورد نحوه عن أبي هريرة رضي الله عنه الديلمي كما في « كنز العمال » (٦٢٨٩) بلفظ :
« من تضرع لصاحب دنيا وضع بذلك نصف دينه » وعن أنس عند الديلمي كما في « الكنز » (٦٢٩٠) « من تضرع لذي سلطان إرادة دنياه أعرض الله عنه
بوجهه في الدنيا والآخرة » .

(٣) أخرجه عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة البخاري (٤٣٧٨) ، في (المغازي) بلفظ : « لَوْ سَأَلْتَنِي هَذَا الْقَضِيبَ مَا أُعْطَيْتَكَهُ » .

وقال عدئي بن أرتاة - وهو على الإمارة - لو كعب بن أبي الأسود : سو علي ثيابي ، قال : في حفي ضيق ، فليترعه الأмир ؛ حتى أتفرغ لمساواة ثيابه عليه ، فقال عدئي : إن الجلوس لي من جلسه أكثر مما قلت لك ، قال : يا عدئي إذا عزلت عتاً . فكلفنا أكثر من هذا ، وأما وأنت ترى لك علينا بسطة بالإمارة . . فلا .

وأني سليمان بن عبد الملك إلى طاووس فلم يكلمه ، فقيل له في ذلك ، فقال : أردت أن يعلم أن في عباد الله من يستصغر ما يستعظمه من نفسه .

وفي « الإحياء » جملة صالحه من هذا النوع .

وكان الأغنياء - كما في « الحلية » ٦/٣٦٥ - يتمنون أن لو كانوا فقراء في مجلس سفيان الثوري .

[ما من يوم إلا والذي يليه شر منه]

وكذلك كانوا في مجالس آبائنا ومشايخنا ، فما بالعهد من قدم ، ولم يعظم في بلادنا الفرق ، ويتسع الخرق إلا عمًا قريب ؛ إذ تصدئ للزعامة من أغنيهم بمثل قولي - من قصيدة كان إنشاؤها في أيام الحداثة - [في « ديوان المؤلف » ق ١٧٣ :

وَنَشَأَةُ هَذَا الشَّرِّ مِنْ صُنْعِ قَادَةٍ
لَقَدْ آثَرُوا الدُّنْيَا فُكُلُ أَحْيٍ غِنَى
فَأَصْبَحَ حَالُ الْعِلْمِ مِنْ سُؤْمٍ فِعْلِهِمْ
نَكَرَتْ عَلَيْهِمْ فِعْلُهُمْ فَوَقَعَتْ فِي
إِلَيْهِمْ أَكُفُّ الْأَغْيَاءِ تُشِيرُ
لَدَيْهِمْ وَلَوْ جَمَّ الذُّنُوبِ أَثِيرُ
كَحَالِ غَرِيبٍ خَانَ فِيهِ خَفِيرُ
مَعَامِعَ ، فِيهِنَّ الْمَكْرُ عَسِيرُ

وما بنا أن نذكر تواضع الصدر الأول للحق ؛ لأنه البحر الذي لا يدرك قعره ، ولا يُبصرُ عبره ، وقد رأينا بعيون رؤوسنا ممن أشرنا إليهم ما يُغني عن الحبر [قال البديع الهمداني في « قرى الضيف » ٤/٣٤٤ :

أَحَادِيثُ يَرْوِيهَا الْعِيَانُ كَمَا تَرَى
وَإِنْ نَحْنُ حَدَّثْنَا بِهَا دَفَعَ الْعَقْلُ

وإلا . . فلو لم نر شيئاً من ذلك . . لاختلط علينا الأمر ، وتشككتنا فيما يروى من تلك الأخلاق الفاضلة عن السلف الطيب ، ولكن العيان قطع كل شك ، وأزال كل تردد ، فلنا بحق أن نتمثل وقتما كنا نشاهد مشايخنا بقول الناظم [في « العكبري » ٤/٢٢٧ :

مَا شَيْدَ اللَّهِ مِنْ مَجْدٍ لِسَالِفِهِمْ
إِلَّا وَنَحْنُ نَرَاهُ فِيهِمْ الْآنَا

[لا شيء يرفع سوى الانكسار بين يدي الله]

ومما يروى عن أبي يزيد البسطامي أنه قال : رأيت كأن القيامة قد قامت ، وتجلَّى الحكم العدل لفصل القضاء بين عباده ، وأخذ الملائكة يأتون الناس واحداً واحداً ، ينتفضون من الفرق^(١) ، حتى حضرت نوبتي ، فجنيت بي ترعد فرائصي ، فقال لي الجبار : ماذا جئت به ؟ قلت : الثقة بك ، قال : وهل من شك حتى تمن بالثقة بي ؟ قلت : جئتك بالزهد ، قال : وهل للدنيا من قدر حتى تمن بالزهد فيها ؟ قلت : انقطعت حجتي يا رب ، فألهمني رُسدي ، قال : قل : جئت بالانكسار بين يديك ، أو ما يقرب من هذا المعنى .

(١) الفرق : الخوف .

ولئن كانت مناماً . . فمصدقاً قولهُ عزَّ وجلَّ في الحديثِ القدسيِّ : « أَنَا عِنْدَ الْمُكْسِرَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ أَجْلِي » (١) .
وفي « الصحيح » : « أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ » (٢) .

[مِنَ الطُّوِيلِ]

وفي لزومياتي :

يَذِلُّ لِرَبَّاتِ الْحِجَالِ أَخُو الْهَوَىٰ وَإِنْ كَانَتِ الدُّنْيَا إِذَا سَارَ تَهْتَرُ
وَمَا عَفَّرَ الْإِنْسَانَ فِي الثَّرْبِ وَجْهَهُ لِمَوْلَاهُ إِلَّا كَانَ فِي ذَلِكَ الْعِزُّ

* * *

[مِنَ الطُّوِيلِ]

قال أبو الطَّيِّبِ المُنَبِّي في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٢٣٩ :

وَلَا ثَوْبَ مَجْدٍ غَيْرَ ثَوْبِ ابْنِ أَحْمَدٍ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا بِلُؤْمٍ مُرَقَّعٍ

[شرح المطع والعيوب التي فيه]

يقولُ : إِنَّهُ لم يَسْلَمْ المَجْدُ لِأَحَدٍ خَالِصاً غَيْرَ مَشُوبٍ بِشَيْءٍ مِنَ اللُّؤْمِ . . إِلَّا لِلْمَدُوحِ ، وَقَدْ انْتَقَلَ مِنَ النِّسَبِ إِلَى المَدِيحِ مِنْ غَيْرِ مَنَاسِبَةٍ ، وَذَلِكَ مَا يَسْمُونَهُ : الوَثْبَ ، وَالقَطْعَ ، وَالِاقْتِضَابَ ، كُلُّ ذَلِكَ يَطْلُقُونَهُ عَلَيْهِ ، وَهُوَ الْأَكْثَرُ فِي الجَاهِلِيَّةِ ، وَاشْتَهَرَ بِهِ مِنَ المَتَأَخِّرِينَ البُحْتَرِيُّ ، وَأَبُو نُوَّاسٍ ، حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ :

[مِنَ مَجْزُوءِ الكَامِلِ]

وَبِأَكْثَرِ الوَثْبِ البُحْتَرِيُّ مِنَ النِّسَبِ إِلَى المَدِيحِ

[المخالص الفائقة للمنتبي]

وللناظمِ مِنَ المَخَالِصِ الفَائِقَةِ مَا لَا يَسْتَهَانُ بِقَدْرِهِ ، وَلَا يُجْهَلُ مَكَانُهُ ، كَقَوْلِهِ [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٢٧١] :

[مِنَ الطُّوِيلِ]

فَلَا تَعْجَبَا إِنَّ الشُّيُوفَ كَثِيرَةٌ وَلَكِنَّ سَيْفَ الدَّوْلَةِ الْيَوْمَ وَاحِدٌ

[مِنَ الطُّوِيلِ]

وقوله [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ١٥٣] :

وَعَيْثُ ظَنَّنَا تَحْتَهُ أَنَّ عَامِراً عَلَا لَمْ يَمُتْ أَوْ فِي السَّحَابِ لَهُ قَبْرٌ

[مِنَ الكَامِلِ]

وقوله [في « العُكْبَرِيِّ » ١/ ٢٢٨] :

أَقْبَلْتُهَا غَرَّرَ الْجِيَادِ كَأَنَّمَا أَيْدِي بَيْبِي عِمْرَانَ فِي جَبْهَاتِهَا (٣)

[مِنَ الطُّوِيلِ]

وقوله [في « العُكْبَرِيِّ » ٢/ ٣٠٨] :

نَوَدَّعُهُمْ وَالْبَيْنُ فِينَا كَأَنَّهُ قَنَا ابْنَ أَبِي الْهَيْجَاءِ فِي قَلْبِ فَيْلَقِ (٤)

(١) ذكره المناوي في « فيض القدير » (١/ ٥١٩) ، والمجلوني في « كشف الخفاء » (٦١٤) عن القاري فقال : لا أصل له .

(٢) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه مسلم (٤٨٢) في (الصلاة) .

(٣) المعنى : جعلت قبلة خيالي المناقب والمحامد منكم ، كما لو كانت نعمكم على جبهاتها .

(٤) أبو الهجاء : والد سيف الدولة . القنا : الرماح . الفيلق : الجيش .

وَتَمَنَيْتُ مِثْلَهُ فَكَأَنِّي
طَالِبٌ لَابِنِ صَالِحٍ مَنْ يُوَازِي^(١)

أَحْبَبْتُ أَوْ يَقُولُوا : جَرَّ نَمْلٌ
ثَبِيرًا وَابْنُ إِبْرَاهِيمَ رَيْعًا^(٢)

.. فلا يستحسنه إلا من ختم الله على بصيرته ، كما أسلفناه ، وإن خفي ذلك على الشارح ، والعلم شاهد ؛ إذ لا مناسبة في العطف بين الجملتين ، ومثله مردود عند أهل المعاني .

[الشعراء والمخالصة]

أَمْطَلَعَ الشَّمْسِ تَبْغِي أَنْ تَوْمَّ بِنَا
فَقُلْتُ : كَلَّا وَلَكِنْ مَطَّلَعَ الْكَرَمِ

أَجِدْكَ هَلْ تَذَرِينَ يَا رَبَّ لَيْلَةٍ
كَأَنَّ دُجَاهَا مِنْ قَرُونِكَ يُنْشَرُ^(٣)
لَهَوْتُ بِهَا حَتَّى تَجَلَّتْ بَغْرَةٌ
كَغْرَةٍ يَحْيَى حِينَ يُمْدَحُ جَعْفَرُ

دَعِينِي أَكْثَرَ حَاسِدِيكَ بِرِحْلَةٍ
إِلَى بَلَدٍ فِيهَا الْخَصِيبُ أَمِيرُ

وَإِذَا أَرَدْتَ مَدِيحَ قَوْمٍ لَمْ تَمَنْ
فِي مَدْحِهِمْ فَاْمْدَحْ بِنِي الْعَبَّاسِ^(٤)

إِذَا آنَسُوا نَارًا يَقُولُونَ : لَيْتَهَا
وَقَدْ خَصِرَتْ أَيْدِيهِمْ نَارُ غَالِبِ

رِيَاضٌ تَرَدَّتْ بِالنَّبَاتِ مَجُودَةٌ
بِكُلِّ جَدِيدِ الْمَاءِ عَذْبِ الْمَوَارِدِ^(٥)
إِذَا رَاوَحَتْهَا مُزْنَةٌ بَكَّرَتْ لَهَا
شَايِبُ مُجْتَازِ عَلَيْهَا وَقَاصِدِ^(٦)
كَأَنَّ يَدَ الْفَتْحِ بِنِ خَاقَانَ أَقْبَلَتْ
عَلَيْهَا بَتْلِكَ السَّائِرَاتِ الرَّوَاعِدِ

(١) يوازي : يعادل ويمائل . ابن صالح : هو الممدوح . وهذا البيت من أحسن المخالصة التي للمتنبي وقد أحسن فيه ، وله في المخالصة اليد الطولى .

(٢) الثبير : جبل عظيم معروف بالحجاز .

(٣) أجدك : كلمة منصوبة على المصدرية ، وهي كلمة تستعمل بمعنى قولك : أجد منك . قرونك : خصال شعرك .

(٤) لم تمن : لم تكذب .

(٥) مجودة : أصابها الجود ، وهو المطر الغزير .

(٦) شايب : جمع شوبوب ، وهو الدفعة من المطر .

وقال البهاء زهيرٌ [في «ديوانه» ٢٢٢] :

[من الكامل]

أَهْوَى التَّدَلُّلَ فِي الْغَرَامِ وَإِنَّمَا يَأْبَى صَلاَحَ الدِّينِ أَنْ أَتَدَلَّلَا
مَهَّدْتُ بِالْغَزْلِ الرَّشِيقِ لِمَدْحِهِ أَرَدْتُ قَبْلَ الْفَرَضِ أَنْ أَتَنَفَّلَا

[بعض الشعراء يدعي النقص في الناس ليرفع ممدوحه]

ثمَّ إِنَّ دَعْوَى النِّقْصِ فِي الْخَلْقِ تَمْهِيدٌ لِتَفْضِيلِ الْمَمْدُوحِ عَلَيْهِمْ لَا يَخْلُو عَنْهُ شَعْرٌ قَطُّ ، حَتَّى كَادَ أَنْ يَقَعَ بِهِ الشَّيْخُ عَبْدُ الرَّحِيمِ الْبُرْعِيُّ فِي إِسَاءَةِ الْأَدَبِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ، وَلَا سِيَّمَا فِي قَصِيدَتِهِ الَّتِي اسْتَهَلَّهَا بِقَوْلِهِ :

[من الوافر]

سَمِعْتُ سُؤْيِجَعَ الْأَثَلَاتِ غَنَى عَلَى مَطْلُوَلَةِ الْعَذَبَاتِ رَنًا^(١)

أَمَّا الْغَضُّ مِنْ قَوْمٍ مَعْتَبَرِينَ ، لِتَفْضِيلِ الْمَمْدُوحِ عَلَيْهِمْ . . فَلَيْسَ بِالْحَقِيقَةِ إِلَّا تَقْصِيرًا بِهِ ؛ إِذْ لَا كَبِيرَ فَائِدَةٍ فِي الْفَضْلِ عَلَى السُّقَاطِ ، وَالْارْتِفَاعِ عَلَى السَّفَلَةِ [قال الخليل بن أحمد القاضي السجزي في «قرى الضيف» ٢٩٩/٥] :

[من الطويل]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ السَّيْفَ يَنْقُصُ قَدْرَهُ إِذَا قِيلَ : هَذَا السَّيْفُ خَيْرٌ مِنَ الْعَصَا

[من الكامل]

وقد وقع فيه البُحْتَرِيُّ إِذْ يَقُولُ [في «ديوانه» ٢٠٠/١] :

شَهَدْتُ لَقَدْ أَنْصَفْتَهُ حِينَ تَبَّرِي لَهُ مُصْلِتًا عَضْبًا مِنَ الْبَيْضِ مِقْضَبًا^(٢)
فَلَمْ أَرْ ضِرْغَامَيْنِ أَصْدَقَ مِنْكُمَا عِرَاكًا إِذَا الْهَيَّابَةُ النُّكْسُ كَذَبًا!^(٣)

[من الطويل]

والحماسيُّ [إياس بن الأرت] في قوله [في «ديوان الحماسة» ٢٥١/٢] :

وَإِنِّي لِمَمَّنْ أَبْسُطُ الْكُفَّ بِالنَّدَى إِذَا شَنِجَتْ كَفُّ الْبُخَيْلِ وَسَاعِدُهُ^(٤)

[أبلغ ما يكون المديح أن ترفع شأن عدو ممدوحك ثم تفضله عليه ؛ لأنه لا فخر بالتقدم على رعاك الناس]

[من البسيط]

وإنما صادق المدح مثل قول مسلم بن الوليد [في «ديوانه» ١٦٤] :

يَجُودُ بِالنَّفْسِ إِذْ ضَنَّ الْجَوَادُ بِهَا وَالْجُودُ بِالنَّفْسِ أَقْصَى غَايَةِ الْجُودِ

[من الطويل]

وما سبق في المجلس السادس من قول أبي تمام وما يناسبه [في «ديوانه» ٣١١/٢] :

فَتَى كُلَّمَا ارْتَادَ الشُّجَاعُ مِنَ الرَّدَى مَفْرَأً غَدَاةَ الْمَازِقِ ارْتَادَ مَصْرَعًا^(٥)

وقد اتَّفَقَ أَنَّ شَاعِرَيْنِ تَقَدَّمَا فِي تَهْنِئَةٍ بَفَتْحٍ ، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا : فَعَمِدَ إِلَى تَحْقِيرِ أَمْرِ الْعَدُوِّ ، وَتَوْهِينِ شَأْنِهِ ، وَأَمَّا الْآخَرُ : فَعَظَّمَ مِنْ قَدْرِهِ ، وَكَبَّرَ مِنْ أَمْرِهِ ، فَاسْتَحَقَّ الْجَائِزَةَ الضَّخْمَةَ ؛ إِذْ ذَهَبَ بِالْمَمْدُوحِ إِلَى أَعْدِ شَأْوٍ فِي الْمَدِيحِ .

(١) الأثل : شجر من الطرفاء واحده أثلة ، والجمع أثلات . والتائل : أصل مال .

(٢) العضبُ : السيفُ القاطعُ .

(٣) الضرغامُ : من أسماء الأسد . النُّكْسُ : الرجلُ الضعيفُ والمقصرُ عن غاية النجدة .

(٤) شَنِجَتْ : بيست .

(٥) ارتادَ : طلب . المازقُ : المضيئُ . المصرعُ : مكانُ الصرع ، الموتُ .

والمعنى : أن هذا القائد يُقدِّم حين يعجز الشجعان ، وكلما اشتدَّ القتالُ ثبت في موقعه ليكسبَ حسنَ الشاءِ .

روقع لي : أَنْ اعترضَ غيبيُّ على كلام لي ، فنقضتُ قوله في رسالته سَمَّيْتُهَا « تَأْدِيبَ الْمُجْتَرِي وَتَكْذِيبَ الْمُفْتَرِي »
وانعقدَ مجلسٌ لذلك ، ولَمَّا انقطع ، وأعياءُ الانفصال . . قلتُ في آخرها : عند ذلك انكشفتِ العجاجةُ ، ولا فخرَ ؛
فالرِمةُ دجاجةٌ ، وأعطاني الناظمُ شاهداً ذكرتهُ وهو [في « المُكَبَّرِي » ٣/ ٣٧٣] :

وَشَرُّ مَا قَنَصْتَهُ رَاحَتِي قَنَصٌ شَهْبُ الْبُرَاةِ سَوَاءٌ فِيهِ وَالرَّحْمُ

[مِنَ الْوَافِرِ] وفيما يتصلُّ بما نحنُ فيه قولُ مهلهلِ ابنِ ربيعةَ [في « ديوانه » ٤٢] :

كَأَنَّا غَدَوَةٌ وَبَنِي أَيْبِنَا بِجَنْبِ عُنَيْزَةٍ رَحِيحًا مُدِيرٍ^(١)

[مِنَ الْوَافِرِ] وقالَ عمرو بنُ كلثومٍ [في « ديوانه » ٨٦] :

كَأَنَّ ثِيَابَنَا مِنَّا وَمِنْهُمْ خُضِبْنَ بِأَرْجُوَانٍ أَوْ طَلِينَا^(٢)
كَأَنَّ سُيُوفَنَا فِينَا وَفِيهِمْ مَخَارِيقٌ بِأَيْدِي لَأَعِينَا^(٣)

[مِنَ الطَّوِيلِ] وقالَ عمرو بنُ العاصِ في صِفِّينَ :

كَأَنَّ التَّمَاعَ الْبَيْضَ فِينَا وَفِيهِمْ تَبَّوْجُ بَرْقٍ فِي تَهَامَةٍ ثَاقِبٍ

[مِنَ الطَّوِيلِ] وقالَ أيضاً فيها :

أَجِئْتُمْ إِلَيْنَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَنَا وَمَا رُمْتُمْ وَعَرُّ مِنَ الْأَمْرِ أَعْسَرُ
لَعَمْرِي لِمَا فِيهِ يَكُونُ احْتِجَاجُنَا إِلَى اللَّهِ أَذْهَى لَوْ عَقَلْتُمْ وَأَنْكَرُ
تَعَاوَزْتُمْ ضَرْباً بِكُلِّ مُهَنَّدٍ إِذَا شَدَّ وَرَدَانٌ تَقَدَّمَ قُنْبَرُ
كَتَائِبِكُمْ طَوَّاراً تَشُدُّ وَتَارَةً كَتَائِبُنَا فِيهَا الْقَنَا وَالسَّنُورُ^(٤)
إِذَا مَا التَّقَوُّوا يَوْمًا تَدَارَكَ بَيْنَهُمْ طِعَانٌ وَمَوْتُ فِي الْمَعَارِكِ أَحْمَرُ

[مِنَ الطَّوِيلِ] وقالَ العباسُ بنُ مرداسٍ [في « ديوانه » ٩٢-٩٣] :

وَلَمْ أَرْ مِثْلَ الْحَيِّ حَيًّا مُصَبَّحًا وَلَا مِثْلَنَا يَوْمَ التَّقِينَا فَوَارِسًا^(٥)
أَكْرَ وَأَحْمَى لِلْحَقِيقَةِ مِنْهُمْ وَأَضْرَبَ مِنَّا بِالسُّيُوفِ الْقَوَانِسَا^(٦)
إِذَا مَا شَدَدْنَا شِدَّةً نَصَبُوا لَنَا صُدُورَ الْمَذَاكِي وَالرَّمَاحَ الْمَدَاعِسَا^(٧)

(١) عنيزة : موضعُ عينه ، به جرى اليومُ الثالثُ بين تغلبَ وبكرٍ . رَحِيحًا : مثلُ رحي ، وهي الأداة التي يطحنُ بها ، ذكرهما الشاعرُ ليدلَّ على توازنِ تغلبَ وبكرٍ في هذا اليوم ، أي : كانا سواءً .

(٢) الأرجوانُ : صبغٌ أحمرُّ اللونِ .

(٣) المخاريقُ : جمعُ مخراقٍ ، وهو ثوبٌ يُلْفُ وتَضْرِبُ به الصبيانُ بعضهم بعضاً .

(٤) السَّنُورُ : بقيةُ السلاح ، وقيل : الدروعُ خاصةً .

(٥) المصْبُحُ : الذي يوتئُ صباحاً للغارةِ .

(٦) أَكْرَ : أكثرُ كراً . الحقيقةُ : ما يحقُّ على المرءِ أن يحميه . القوانسُ : جمعُ قونسي ، وهو أعلى بيضة الرأسِ .

(٧) المذاكي : جمعُ مذكٍ ، وهو ما جاوزَ القروحَ بسنةً ، وقد قرحَ الفرسُ إذا دخلَ في السادسةِ . المدعسُ من الرماحِ : الغليظُ الشديدُ الذي لا يشي ، ودعسه بالرمحِ طعنه .

إِذَا الْخَيْلُ جَالَتْ عَنْ صَرِيحِ نِكْرُهَا عَلَيْهِمْ فَمَا يَرْجِعْنَ إِلَّا عَوَابِسًا^(١)

[مِنَ الْوَابِرِ]

وقال عبد الشارق بن عبد العزى الجهني [في «ديوان الحماسة» ١/١٦٩]:

أَلَا حَيَّيْتِ عَنَّا يَا رُدَيْنَا رُدَيْنَةً لَوْ رَأَيْتِ غَدَاةَ جِئْنَا
فَأَرْسَلْنَا أَبَا عَمْرٍو رِيئَا وَدَشُّوا فَارِسًا مِنْهُمْ عِشَاءَ
فَجَاؤُوا عَارِضًا بَرَدًا وَجِئْنَا تَنَادَوْا يَا بَهْهَةَ إِذْ رَأَوْنَا
سَمِعْنَا دَعْوَةَ عَن ظَهْرٍ غَيْبٍ فَلَمَّا أَنْ تَوَاقَفْنَا قَلِيلًا
فَلَمَّا لَمْ نَدْعُ قَوْسًا وَسَهْمًا شَدَدْنَا شَدَّةً فَتَقَلَّتْ مِنْهُمْ
وَشَدُّوا شَدَّةً أُخْرَى فَجَرُّوا وَكَانَ أَحْيَى جُؤَيْنٌ ذَا حِفَاطٍ
فَأَبُوا بِالرَّمَاحِ مُكَسَّرَاتٍ وَبَاتُوا بِالصَّعِيدِ لَهُمْ أَحَاحُ
نُحِيَّهَا وَإِنْ كَرُمْتِ عَلَيْنَا عَلَى أَحْقَادِنَا وَقَدْ اخْتَوَيْنَا^(٢)
فَقَالَ : أَلَا أَنْعَمُوا بِالْقَوْمِ عَيْنَا^(٣) فَلَمْ نَعْدُرْ بِفَارِسِهِمْ لَدَيْنَا
كَمِثْلِ السَّيْفِ نَرْكَبُ وَازِعَيْنَا^(٤) فَقُلْنَا : صَوِّبِي رَمِيًّا جُهَيْنَا^(٥)
فَجَلْنَا جَوْلَةً ثُمَّ ارْعَوَيْنَا أَنْخَنَا لِلْكَلاَكِلِ وَارْتَمَيْنَا
مَشِينَا نَحْوَهُمْ وَمَشُوا إِلَيْنَا ثَلَاثَةَ فَيْتَةٍ وَقَتَلْتُ قَيْنَا
بِأَرْجُلِ مِثْلِهِمْ وَرَمَوْا جُؤَيْنَا وَكَانَ الْقَتْلُ لِلْفَيْتِيَانِ زَيْنَا
وَأَبْنَا بِالسُّيُوفِ قَدْ انْحَنَيْنَا وَلَوْ حَقَّتْ لَنَا الْكَلْمَى سَرَيْنَا^(٦)

[مِنَ الْوَابِرِ]

وقال بعض العرب ينصف خصومه [في «ديوان العباس بن مرداس» ١١٨]:

وَلَيْسَ الْجُبْنُ عَادَتُهُمْ وَلَكِنْ رَمَيْنَاهُمْ بِثَالِثَةِ الْأَثَافِي

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقال النابغة الجعدي ، أو زفر بن الحارث [في «ديوان النابغة» ٨٨]:

فَلَمَّا قَرَعْنَا النَّبْعَ بِالنَّبْعِ بَعْضُهُ سَقَيْنَاهُمْ كَأْسًا سَقَوْنَا بِمِثْلِهَا
بِيعُضِ أَبَتْ عِيدَانُهُ أَنْ تَكْسَرَا^(٧) وَلَكِنَّا كُنَّا عَلَى الْمَوْتِ أَصْبَرَا

وقال معاوية لدغفل [في «جمهرة خطب العرب» ٢/٣٦٧]: أخبرني عن قومك بكر بن وائل ، قال : كانوا أهل عز قاهر ،

= يقول : إذا حملنا عليهم ثبتوا في وجوهنا ونصبوا صدور الخيل القرح والرماح المعدة لذلك .

(١) يقول : إذا الخيل دارت عن مصروع منا . . . كررنا عليهم ؛ لنصرع مثل ما صرعوا منا ، وإن كرهت الخيل الكر لشدة البأس فلم ترجع إلا عوابس .

(٢) وقد اختوينا : أي لم نطعم شيئاً ، وكانوا يكرهون الطعام عند الحرب ؛ مخافة أن يطعن أحدهم في بطنه فيخرج منه الطعام ، فيكون ذلك عاراً .

وجواب (لو) محذوف ؛ لأن الأبيات مقصورة على بيان القصة ، والتقدير : لو رأيت غداة جئنا على أحقادنا ، لم نطعم شيئاً . . . لرأيت أمراً عظيماً .

(٣) الربيثة : العين الذي يطلع على أخبار العدو .

(٤) العارض : السحاب المعترض في الأفق . الوازع : الذي يرتب الجيش ويقدم ويؤخر ، ومعنى نركب وازعينا : لا نتقأ لمن يريد ضبطنا من الجيشين .

(٥) تنادوا بالبهته : أي دعوا بهته ، وبهته وجهته : بطن من العرب .

(٦) الأحاح : العطش والغيط ، وشدة الغم .

(٧) النبع : شجر أخضر العود صلب الخشب ، إذا تقادم . . . احمر لونه . يستخدم في صناعة القسي والسهام ، والنبع كناية عن كرم الأصل وشرف النسب .

وشرفٍ ظاهرٍ ، قَالَ : فَأَخْبَرَنِي عَنْ إِخْوَانِهِمْ تَغْلِبَ ، قَالَ : كَانُوا أَسْوَدًا تَرَهَّبُ ، وَسَمَامًا لَا تَقْرَبُ ، قَالَ : فَكَمْ أُدْبِلُوا عَلَيْكُمْ ؟ قَالَ : أَرْبَعِينَ سَنَةً ، لَا نَنْتَصِفُ مِنْهُمْ فِي مَوْطِنٍ نَلْقَاهُمْ فِيهِ . . . حَتَّى كَانَ يَوْمَ تَحْلَاقِ اللَّمَمِ ، وَقَدْ غَضِبَ الْحَارِثُ بْنُ عَبْدِ لِقْتَلِ ابْنِهِ بِشُّنْعِ نَعْلِ كَلْبٍ ، فَحَمِي ، وَقَالَ : [مِنَ الْخَفِيفِ]

قَرَّبَا مَرْبُطَ النَّعَامَةِ مِنِّي لَقَعَتْ حَرْبٌ وَائِلٍ عَنِ حِيَالِ
قَرَّبَا مَرْبُطَ النَّعَامَةِ مِنِّي إِنَّ بَيْعَ الْكِرَامِ بِالشُّنْعِ غَالِي
لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا عَلِمَ اللَّهُ وَإِنِّي بِحَرِّهَا الْيَوْمَ صَالِي

وقال أبو عبادة [في «ديوانه» ١/٧٥] :

ضَرَبَ الْجِبَالَ بِمِثْلِهَا مِنْ عَزْمِهِ غَضَبَانِ يَطْعَنُ فِي الْحِمَامِ وَيَضْرِبُ

وقال [في «ديوانه» ١/٢٢١] :

وَلَمْ أَرَ كَالْمَلْعُونِ أَثْرِي ذَخِيرَةَ إِذَا قُلْتُ : بِيضُ الْمَشْرِفِيَّةِ أَهَمَدَتْ
يَبْتُ الْمَنَايَا وَالْمَنَايَا يَحْزَنُهُ إِذَا ازْدَادَ شَغْبًا كَانَ وَالِي قِرَاعِهِ
كَمَا اللَّيْلُ إِنْ تَزَدَدَ لِعَيْنَيْكَ ظُلْمَةً وَأَبْقَى دَمًا وَالْحَادِثَاتُ تَجَانِبُهُ
حُشَّاشَتَهُ . . . كَرَّتْ تَثُوبٌ ثَوَائِبُهُ^(١) وَيَكْمُنُ مِنْهُ الْحَخْفُ وَالْحَخْفُ كَارِبُهُ
مَلِيًّا لَهُ بِالْفَضْلِ حِينَ يُشَاغِبُهُ^(٢) حَنَادِسُهُ تَزْدَادُ ضَوْءًا كَوَائِبُهُ

وقال من قصيدته التي يصفُ بها ملاقةَ الفتحِ بنِ خاقانَ للأسدِ [في «ديوانه» ١/٢٠١] :

هَزَبْرٌ مَشَى بَيْنِي هَزَبْرًا وَأَغْلَبُ مِنْ الْقَوْمِ يَعْشَى بِاسِلَ الْوَجْهِ أَغْلَبًا^(٣)
أَدَلَّ بِشَغْبٍ ثُمَّ هَالَتْهُ صَوْلَةٌ رَأَى لَهَا أَمْضَى جَنَانًا وَأَشْغَبًا^(٤)
فَأَحْجَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ فِيكَ مَطْمَعًا وَأَقْدَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ عَنْكَ مَهْرَبًا
فَلَمْ يُغْنِهِ أَنْ كَرَّ نَحْوَكَ مُقْبِلًا وَلَمْ يُنْجِهِ أَنْ حَادَ عَنْكَ مُنْكَبًا
حَمَلَتْ عَلَيْهِ السَّيْفَ لَا عَزْمَكَ أَنْتَنِي وَلَا يَدُكَ ارْتَدَّتْ وَلَا حَدُّهُ نَبَا

والأخيرُ من عيونِ الشعرِ ، وفرائدِهِ ، ومختارِهِ ، وخالصِهِ ، وإن قالَ المرتضَى في «أمالِيهِ» : إِنَّهُ مِنْ شَعْرِ لِبَعْضِ الْجَاهِلِيِّينَ ، ذَكَرَهُ وَنَسِيْتُهُ .

وقال الناظمُ [في «العُكْبَرِيِّ» ١/١٨٥] :

وَمَا عَدِمَ اللَّاقُوكَ بِأَسَا وَشِدَّةَ وَلَكِنَّ مَنْ لَاقُوا أَشَدُّ وَأَنْجَبُ

(١) أهدمت : سكنت . الثوابُ : الريحُ الشديدةُ التي تكونُ في أوَّلِ المطرِ .

(٢) الشغْبُ : كثرةُ الجلبةِ المؤديةِ إلى الشرِّ . القراعُ : التناحُرُ .

(٣) الهزيرُ : من أسماءِ الأسدِ . الأغلِبُ : الأسدُ الغليظُ الرقيقُ وهو من صفاتِ المدحِ .

(٤) أدلَّ : اجترأ .

وقال [في «المكبري» ١٠/٨٤-٨٣] :

[من الوافر]

وَلَوْ غَيْرُ الْأَمِيرِ غَزَا كِلَابًا
وَلَأَقَى دُونَ نَابِهِمْ طِعَانًا
وَحَيْلًا تَعْتَذِي رِيحَ الْمَوَامِي
وَلَكِنْ رَبُّهُمْ أَسْرَى إِلَيْهِمْ
نَنَاهُ مِنْ شُمُوسِهِمْ ضَبَابٌ^(١)
يُلاقِي عِنْدَهُ الذُّئْبَ الْغُرَابُ^(٢)
وَيَكْفِيهَا عَنِ الْمَاءِ السَّرَابُ^(٣)
فَمَا نَفَعَ الْوُقُوفَ وَلَا الذَّهَابُ^(٤)

وقال [في «المكبري» ٣/١٣٩] :

[من الخفيف]

وَهُمُ الْبَحْرُ ذُو الْغَوَارِبِ إِلَّا
أَنَّهُ صَارَ عِنْدَ بَحْرِكَ آلا^(٥)

وقال [في «المكبري» ١/٣٦٢] :

[من الوافر]

لَقُوكَ بِأَكْبَدِ الْإِبِلِ الْأَبَايَا
فَسَقْتَهُمْ وَحَدُّ السَّيْفِ حَادٍ

وقال [في «المكبري» ٢/١٠٠] :

[من الوافر]

وَمَا انْقَادَتْ لِغَيْرِكَ فِي زَمَانٍ
فَتَعْرِفَ مَا الْمَقَادَةُ وَالصَّغَارُ

وقال [في «المكبري» ٣/١٣٥] :

[من الخفيف]

حَالُ أَعْدَائِنَا عَظِيمٌ وَسَيْفُ الدِّ
وَلَةِ ابْنِ الشُّيُوفِ أَعْظَمُ حَالًا

وقال [في «المكبري» ٣/٧] :

[من الوافر]

يَحِيدُ الرُّمْحُ عَنْكَ وَفِيهِ قَصْدٌ
وَيَقْضُرُ أَنْ يَنَالَ وَفِيهِ طَوْلٌ^(٦)

ولما انقضت دولة بني رزيك على يد أبي شجاع شاور بن مجير . . . جلس ذات يوم وحوله جماعة من صنائع بني رزيك ، فوقعوا فيهم ؛ تملقاً لأبي شجاع ، ومقاربة له ، فقال عمارة اليمني :

[من البسيط]

زَالَتْ لِيَالِي بَنِي رُزَيْكٍ وَأَنْصَرَمَتْ
كُنَّا نَظْرُنُّ وَبِعَضِّ الظَّنِّ مَأْتَمَةٌ
وَلَمْ يَكُونُوا عَدُوًّا ذَلَّ جَانِبُهُ
وَمَا قَصَدْتُ بِتَعْظِيمِي عِدَاكَ سِوَى
وَالْمَدْحُ وَالذَّمُّ فِيهَا غَيْرُ مُنْصَرِمٍ
بِأَنَّ ذَلِكَ جَمْعٌ غَيْرُ مُنْهَزِمٍ
لَكِنَّهُمْ غَرِقُوا فِي سَيْلِكَ الْهَمِيمِ
تَعْظِيمِ شَأْنِكَ فَاغْذُرْنِي وَلَا تَلِمِ
لِعَهْدِهَا لَمْ يَكُنْ بِالْعَهْدِ مِنْ قِدَمٍ
لَعَهْدِهَا لَمْ يَكُنْ بِالْعَهْدِ مِنْ قِدَمٍ

(١) الضبابُ : جمع ضبابية ، وهي سحابة تغشى الأرض كالدخان ، يقال منه : أصبَّ نهارنا .

(٢) الناي : جمع نايية ، وهي الحجارة التي تجعل حول البيت ، يأوي إليها الراعي ليلاً ، وهي مبارك الإبل ومرابض الغنم .

(٣) الموامي : جمع موماة ، وهي المفازة .

(٤) ربهم : هو الله تعالى ، ولا يقال لغيره إلا بالإضافة . أسرى : سار ليلاً .

والمعنى : لم تنفعهم الحرب ؛ لأنهم أدرکوا ، ولا الوقوف لو وقفوا في ديارهم للدفاع والمحاماة ؛ لأنهم لو وقفوا قتلوا .

(٥) الغواربُ : أعالي الموج . الآلُ : السرابُ .

(٦) يحدُّ : يرجع . القصدُ : الاستقامة ، يريدُ : أن الرمح مستقيم غير معوج .

وَلَوْ فَتَحْتُ فَمِي يَوْمًا بِذَمِّهِمْ لَمْ يَرْضَ فَضْلُكَ إِلَّا أَنْ يَسُدَّ فَمِي
فشكره شاور وأولاده على الوفاء ، وحفظ العهد^(١) .

[مِنَ الْكَامِلِ] : وقد سبق نظائره في الكلام على قوله [في « العُكْبَرِيَّ » ٢/٣٣٩] :

يَا ذَا الَّذِي يَهَبُ الْجَزِيلَ وَعِنْدَهُ أَنِّي عَلَيْهِ بِأَخْذِهِ أَتَصَدَّقُ

[دعوى براءة الحبيب من العيب . . لا تليق إلا . .]

أما دعواه لمدوحه براءة الحبيب من العيب . . فأولى الناس بذلك سيّد الوجود ، وأفضل مولود ، فقد أخذ ابنُ
الفارض في خلوته يردّد قول الحريري [في « وفيات الأعيان » ٣/٢٥٥] :

مَنْ ذَا الَّذِي مَآ سَاءَ قَطُّ وَمَنْ لَهُ الْحُسْنَى فَقَطُّ

حتى سمع هاتفا يقول : [مِنَ مَجْزُوءِ الرَّجَزِ]

مُحَمَّدُ الْهَادِي الَّذِي عَلَيْهِ جِبْرِيلُ هَبَطُ

[الكلام حول عصمة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين]

وللعلماء في عصمة الأنبياء كلامٌ ، حاصله الذي ذهب إليه الأشعري : عصمتهم من الكبائر وصغائر الخسّة فقط .
وقالت الرافضة ، وطائفة من متأخري الشافعية : بعصمتهم من الكبائر والصغائر مطلقاً ، قبل النبوة وبعدها ، وتلزم
عليه إشكالات طويلة ، يلزم لها تأويل طائفة من القرآن .

[لا تجد إنساناً كاملاً ولكن العبرة بالأغلب]

[مِنَ الطَّوِيلِ] : وما أحسن قول النابغة [الذياني في « ديوانه » ٧٨] :

وَلَسْتُ بِمُسْتَبْتِي أَحْلاً لَا تَلْمُهُ عَلَى شَعْبٍ ، أَيُّ الرَّجَالِ الْمُهَذَّبُ ؟

[مِنَ الطَّوِيلِ] : وقال بشار [البيت غير منسوب في « قرى الضيف » ١/١٨١] :

وَمَنْ ذَا الَّذِي تُرْضَى سَجَايَاهُ كُلُّهَا كَفَى الْمَرْءَ نُبْلاً أَنْ تُعَدَّ مَعَائِيَهُ

وصدق فإنما العبرة بالأكثر الغالب من أحوال الإنسان ، فمن غلب عليه الخير والفضل . . عدّ من الأخيار الفضلاء ،
وتوسيت مساويه في جنب محاسنه ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [هود : ١١٤] .

وقد ذكرنا في كتابنا « بلابل التغريد » : حديث معاوية مع ابن جعفر ، وزيدته : أَنَّ إِحْدَى أَرْوَاجِهِ أَنْبَهُتُهُ لِيَسْمَعَ مَا عِنْدَ
ابن جعفر من الأغاني ؛ لتحط من قدره عنده بذلك ، فلمّا كان من آخر الليل . . أنبهاها ؛ لتسمع ما كان من تهجد ابن
جعفر وتلاوته ، وقال : هذا مكان ما أسمعني .

[مِنَ الْكَامِلِ] : والله قول بعضهم [البيت في « نفع الطب » ٦/٢٥ غير منسوب لقائل] :

وَإِذَا الْحَيِّبُ أَتَى بِذَنْبٍ وَاحِدٍ جَاءَتْ مَحَاسِنُهُ بِأَلْفِ شَفِيعٍ

(١) « وفيات الأعيان » (٢/٤٤٢) .

وقول الناظم [في «العكبري» ٢/ ٢٩٢] :

[من الطويل]

فَإِنْ يَكُنِ الْفِعْلُ الَّذِي سَاءَ وَاحِدًا فَأَفْعَالُهُ اللَّاتِي سَرَزْنَ أُلُوفُ

وكثيراً ما تمثّلنا بهذين البيتين ، ولا ملامّة ؛ فالمناسبات كثيرة .

وَأَمَّا مَنْ غَلَبَتْ سَيِّئَاتُهُ ، وَكَثُرَتْ سَقَطَاتُهُ ، وَرَجَحَتْ تَبَعَاتُهُ . . . فَلَا شَكَّ أَنَّهُ مِنَ السَّاقِطِينَ ، وَاللَّهُ دَرُّ الْقَائِلِ : [من الكامل]

وَأَنْ تَسْرُكَ مِنْ تَمِيمٍ خَلَّةٌ فَلَمَّا يَسُوؤُكَ مِنْ تَمِيمٍ أَكْثَرُ

وما يقرّره الفقهاء في باب الشهادة من حدّ العدالة لا يخرج عمّا ذكرناه ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « وَأَمَّا أَبُو جَهْمٍ : فَلَا يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ »^(١) اعتباراً بالأكثر من غلبة الأسفار عليه ، وإلا . . . فهو يضعها في كثير من أحواله .

وتجد كثيراً ممن يكتب في التراجم يجاوز الحدود ، ويتقول على الله ، ومثل أولئك لا يكون ما يكتبون إلا حجة على سقوطهم وأطراحهم ، واندفاع سائر مروياتهم عن القبول ، ومن هنا أخطأ كثير في تقديس السلف الصالح ، والذهاب بهم إلى عصمة الملائكة ، أو إلى ما يقرب منها ، ونشأ عن ذلك فساد كبير في الدين ، يزول إن شاء الله بما أشبعنا القول في تحقيقه من « بلابل التغيريد » .

* * *

[قال أبو الطيّب المتنبي في «العكبري» ٢/ ٢٤٣] :

[من الطويل]

إِذَا عَرَضْتَ حَاجٌ إِلَيْهِ فَنَفْسُهُ إِلَى نَفْسِهِ فِيهَا شَفِيعٌ مُشَفِّعٌ

[الجدول ليس وراثه عن الجدود . . ولكنه حساسية في الجدود]

معناه ظاهر ، وهو ممّا تداوله الشعراء طارفاً وتليداً ، قال الحطيئة [في «ديوانه» ٣١٠] :

[من الطويل]

وَذَاكَ أَمْرٌ إِنْ تَأْتِهِ فِي نَفْسِهِ إِلَى مَالِهِ لَا تَأْتِهِ بِشَفِيعٍ

وقال الفرزدق :

[من الطويل]

لِكُلِّ أَمْرٍ نَفْسَانِ : نَفْسٌ كَرِيمَةٌ وَأُخْرَى يُعَاصِبُهَا الْفَتَى وَيُطِيعُهَا
وَنَفْسٌ مِنْ نَفْسِكَ تَشْفَعُ لِلنَّدَى إِذَا قَلَّ مِنْ أَحْرَارِهَا شَفِيعُهَا

وقال أبو العتاهية :

[من الطويل]

أَيَا جُودَ مُوسَى نَادِ مُوسَى لِحَاجَتِي فَلَيْسَ إِلَيَّ مُوسَى سِوَاهُ شَفِيعٍ^(٢)

(١) أخرجه عن فاطمة بنت قيس مسلم (١٤٨٠) في (الطلاق) ، وأحمد (٤١٢/٦) ، وأبو داود (٢٢٨٥) وما بعده ، والترمذي (١١٨٠) ، والنسائي (٧٤/٦) في الطلاق .

(٢) البيت غير منسوب في «المستطرف» (٣٥١/١) ، وفيه :

أَيَا جُودَ مَعْنَى نَادٍ مَعْنَى لِحَاجَتِي فَلَيْسَ إِلَيَّ مَعْنَى سِوَاكَ شَفِيعٌ

وقال ابن الرومي [في «ديوانه» ١٤٦٨/٤] :

[من الطويل]

أَبَا الصَّقْرِ مَنْ يَشْفَعُ إِلَيْكَ بِشَافِعِ
فَمَا لِي سِوَى شِعْرِي وَجُودِكَ شَافِعُ

وقال الخزيمي [في «ديوانه» ٢١] :

[من الكامل]

شَفَعْتُ مَكَارِمَهُمْ لَهُمْ فَكَفَّتَهُمْ
جُهْدَ السُّؤَالِ وَلُطْفَ قَوْلِ الْمَادِحِ

[من البسيط]

وقال أبو العباس المبرّد [في «المستطرف» ٢٨١/١] : أتاني رجلٌ يستشفعُ بي في حاجةٍ ، وأنشدني لنفسه :

إِنِّي قَصَدْتُكَ لَا أَذْلِي بِمَعْرِفَةٍ
فِيكَ حَيْرَانَ مَكْرُوباً يُورِّقُنِي
وَلَوْ هَمَمْتَ بِغَيْرِ الْعُرْفِ مَا عَلَقْتَ
مَا زِلْتُ أَنْكَبُ حَتَّى زُلْزِلْتُ قَدَمِي
وَلَا بِقُرْبِي وَلَكِنْ قَدْ فَشَتْ نِعْمُكَ
ذُلُّ الْغَرِيبِ وَيُغْشِيَنِي الْكَرَى كَرْمُكَ
بِهِ يَدَاكَ وَلَا أَنْقَادَتْ لَهُ شِيمُكَ
فَاحْتَلَّ لِتَشِيَّتِهَا لَا زُلْزِلْتُ قَدَمُكَ

قال : فشفعتُ له ، وقمتُ بأمره ، حتّى بلغتُ له ما أحبّ .

وقال أيضاً : قلتُ لعبدِ الله بنِ يحيى بنِ خاقانَ : أنا أشفعُ إليك - أصلحك الله - في أمرِ فلانٍ ، فقالَ لي : قد سمعتُ ، وأطعتُ ، وسأعطيه كذا ، فما كانَ منَ نقصٍ .. فعليّ ، وما كانَ منَ زيادةٍ .. فلهُ ، فقلتُ له : أنتَ -

[من الوافر]

أطالَ اللهُ بقاءَكَ - كما قالَ زهيرٌ [في «ديوانه» ١٤٠] :

وَجَارٍ سَارَ مُعْتَمِداً عَلَيْنَا
ضَمِنَا مَالَهُ فَعَدَا سَلِيمًا
أَجَاءَتْهُ الْمَخَافَةُ وَالرَّجَاءُ
عَلَيْنَا نَقْصُهُ وَلَهُ النَّمَاءُ

[الشفاعة في الحب]

وقال المجنون [في «ديوانه» ١٩٢] :

[من الطويل]

مَضَى زَمَنٌ وَالنَّاسُ يَسْتَشْفِعُونَ بِي
فَهَلْ لِي إِلَيَّ لَيْلَى الْغَدَاةَ شَفِيعُ؟

وفي البيتِ رائحةٌ تديثُ وقيادَةَ ، لولا ما يمهدُ له بهِ العذرُ منَ أَنَّهُ لا يرادُ ظاهرُهُ .

[من الطويل]

وقال الصولي [بل المجنون في «ديوانه» ١٩٥] :

وَبُنْتُ لَيْلَى أَرْسَلْتُ بِشَفَاعَةٍ
أَكْرَمُ مِنْ لَيْلَى عَلَيَّ فَتَبَغِي
إِلَيَّ فَهَلَّا نَفْسُ لَيْلَى شَفِيعَهَا
بِهِ الْجَاءُ أَمْ كُنْتُ أَمْرًا لَا أُطِيعَهَا

[الشفاعة عند الناس من الجود]

وقال بعضهم [وهو أبو بكر ابن هارون المهلب في «خزانة الأدب» ٣٧٦/٢] : كنّا في حلقةٍ دعبل الخزاعي ، فذكرَ أبو تمام ، فقالَ دعبلُ : إِنَّهُ يَتَّبِعُ معانِيَّ فَيأخذُها ، فقالَ له رجلٌ : هاتِ صورةَ ذلكَ ، قالَ : قلتُ [في «ديوانه» ١٩٣] : [من الطويل]

وَإِنَّ أَمْرًا أَسْدَى إِلَيَّ بِشَافِعِ
إِلَيْهِ ، وَيَرْجُو الشُّكْرَ مِنِّي لِأَحْمَقُ

وَإِذَا امْرُؤٌ أَسَدَىٰ إِلَيْكَ صَنِيعَةً
مِنْ جَاهِهِ فَكَأَنَّهَا مِنْ مَالِهِ

فَقَالَ الرَّجُلُ : لَقَدْ أَحْسَنَ أَبُو تَمَّامَ ، فَإِنَّ كَانَ سَبَقَكَ . . . فَقَدْ قَصَّرْتَ ، وَإِنْ كُنْتَ سَبَقْتَهُ . . . فَقَدْ أَحْسَنَ الْاِتِّبَاعَ ، وَصَارَ أَحَقَّ بِالْمَعْنَىٰ مِنْكَ ، فَغَضِبَ دَعْبِلُ وَقَامَ .

ثُمَّ إِنَّ مَا قَالَهُ أَبُو تَمَّامَ عَيْنُ الصَّوَابِ ؛ لِأَنَّهُ أَرَدَمَ بِشُكْرِ الشَّافِعِ ، وَلَمْ يَبْخَسِ الْمَعْطَىٰ حَقَّهُ مِنَ الصَّنِيعِ ، بِخِلَافِ دَعْبِلِ ؛ فَإِنَّهُ اهْتَضَمَ حَقَّ الْمَشْفُوعِ إِلَيْهِ جَمَلَةً ، كَمَا فِي قَوْلِهِ [في «ديوانه» ١٩٣] :

شَفِيعَكَ فَاشْكُرْ فِي الْحَوَائِجِ إِنَّهُ
يُصُونُكَ عَنِ مَكْرُوهِهَا وَهُوَ يَخْلُقُ

بِشَهَادَةِ فَعَلِيَّةِ الْخَبْرِ ، وَتَقْدِيمِ الْمَسْنَدِ إِلَيْهِ ، وَمِثْلُ ذَلِكَ لَا يَجُوزُ .

وَهَذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « اذْفَعُوا إِلَيَّ حَوَائِجَ النَّاسِ ، وَاشْفَعُوا . . . تُؤَجَّرُوا ، وَيَقْضَىٰ اللَّهُ عَلَيَّ لِسَانَ نَبِيِّهِ مَا شَاءَ » (١) .

وَقَدْ وَقَعَ الْبُحْتَرِيُّ فِي قَرِيبٍ مِمَّا وَقَعَ فِيهِ دَعْبِلُ ، وَذَلِكَ حَيْثُ يَقُولُ [في «ديوانه» ٣٨/١] :

وَعَطَّاءُ غَيْرُكَ إِنْ بَدَّلْتَ عِنَايَةَ فِيهِ عَطَاؤُكَ

غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَصْرَحْ بِاهْتِضَامِ الْمَشْفُوعِ إِلَيْهِ ، وَإِنَّمَا قَدْ يُؤْخَذُ مِنْ فَحْوَىٰ كَلَامِهِ ، مَعَ اِحْتِمَالِهِ لِغَيْرِ ذَلِكَ ، فَهُوَ مِثْلُ قَوْلِ الْآخِرِ :

وَإِذَا امْرُؤٌ أَسَدَىٰ إِلَيْكَ بِشَافِعِ
خَيْرًا فَذَاكَ الْخَيْرُ خَيْرُ الشَّافِعِ

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ قَرِيشٍ الْجَرَجَانِيُّ [في «صبح الأعشى» ١٧٠/٩] :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْطِفْكَ إِلَّا شَفَاعَةً
فَلَا خَيْرَ فِي وَدِّ يَكُونُ بِشَافِعِ

وَمَا أَحْسَنَ فِي دَفْعِ الْمَذْمَةِ عَمَّنْ أَعْطَىٰ بِالشَّفَاعَةِ مِنْ قَوْلِ ابْنِ الرَّومِيِّ [في «ديوانه» ٢٠٦٨/٥] :

لَنْ يَعْيبَ السَّحَابَ أَنْ تَتَوَلَّىٰ
مِنْهُ أَيْدِي الرِّيحِ حَلَّ الْعَزَالِي

وَقَالَ الْبُحْتَرِيُّ [في «ديوانه» ١٠٠٧/٢] :

وَلِي حَاجَةٌ لَمْ أَلْ فِيهَا وَسِيلَةً
شَفَعْتُ إِلَيْهِ بِالْإِمَامِ وَإِنَّمَا
فَلَمْ أَرْ مَشْفُوعًا إِلَيْهِ وَشَافِعًا
فَعَالَ كَرِيمِ الْفِعْلِ مُطْلَبِ الْجَدَا
إِلَى الْقَمَرِ الْوَضَّاحِ وَالسَّيِّدِ الْغَمْرِ (٢)
تَشَفَّعْتُ بِالشَّمْسِ انْتِصَارًا إِلَى الْبَدْرِ
يُدَانِيهِمَا فِي مُنْتَهَى الْجُودِ وَالْفَخْرِ
وَقَوْلُ مُطَاعِ الْقَوْلِ مُتَّبِعُ الْأَمْرِ

(١) أخرجه عن أبي موسى رضي الله عنه أحمد (٤١٣/٤) ، والبخاري (١٤٣٢) ، ومسلم (٢٦٢٧) ، وأبو داود (٥١٣١) ، والترمذي (٢٦٧٤) ، والنسائي (٧٨/٥) .

(٢) الغمرُ : الكريمُ الواسعُ الخُلُقِ . لم أَلْ : لم أقصُر ولم أبطئ .

[إذا تعذرت الأمور من أعاليها . . أتيناها من أسافلها]

وكان لعبد الله بن الزبير حاجة إلى معاوية لواءه فيها ، فاستعان عليه ببعض نسائه ، ففوض حاجته ، فعير ابن الزبير بذلك ، فقال : إذا تعذرت الأمور من أعاليها . . طلبناها من أسافلها ، فأخذة البحتري وقال [في « ديوانه » ٣/ ١٩٠٠] : [من الطويل]
إِذَا مَا أَعَالِي الْأَمْرِ لَمْ تُعْطِكَ الْمُنَى فَلَا بَأْسَ فِي اسْتِنْجَاحِهَا بِالْأَسَافِلِ

[ما يصلح الرجل بالنهار . . تفسده المرأة بالليل]

وأنفق لابن الزبير بعد ذلك مثله^(١) ، فقد اختصم إليه الفرزدق وعرسه النوار ، ونزل الفرزدق على ابنه حمزة ، ونزلت النوار على زوجها ، فكان ما يصلح حمزة من أمر الفرزدق نهاراً ، تفسده المرأة ليلاً ، حتى أيقن الفرزدق بالفشل ، فقال :

[من البسيط]

أَمَّا بَنُوهُ فَلَمْ تُقْبَلْ شَفَاعَتُهُمْ وَشَفَعْتَ بِنْتُ مَنْظُورِ بْنِ زَبَانَا
لَيْسَ الشَّفِيعُ الَّذِي يَأْتِيكَ مُتَزَرًّا مِثْلَ الشَّفِيعِ الَّذِي يَأْتِيكَ عُرْيَانَا
ولا حاجة لاستيفاء القصة ؛ لأنها طويلة ، ولها أذنان .

[من الوافر]

وقال صائغ الدين الموصلي [في « وفيات الأعيان » ٥/ ٢٧٩] :

إِذَا أَحْتَاجَ النَّوَالُ إِلَى شَفِيعٍ فَلَا تَقْبَلْهُ تَضْحِ قَرِيرَ عَيْنِ
إِذَا عَيْفَ السُّوَالُ لِفَرْدٍ مَنَّ فَأَوْلَى أَنْ يُعَافَ لِمُنْتَيْنِ

[كتاب عروة بن الزبير في الشفاعة إلى الوليد بن عبد الملك]

ومن أبداع ما رأيت في الشفاعات : ما كتبه عروة بن الزبير إلى الوليد بن عبد الملك مع كعب العبيسي ، يسكنه من غضبة غضبها عليه في جرم كان منه .

ونصه : لو لم يكن لكعب من قديم حرمة ما يغفر له عظيم جريرته . . لوجب أن لا تحرمه التفيؤ بظل عفوك ، الذي تأمله القلوب ، ولا تعلق به الذنوب ، وقد استشفع بي إليك ، فوثقت له منك بعفو لا يخلطه سخط ، فحقق أمله في ، وصدق نقتي بك ، مغتنماً للشكر ، مبتدئاً بالنعمة .

فكتب إليه الوليد : قد شكرت رغبته إليك وعفوت عنه ؛ لمعوله عليك ، وله عندي الذي تحب ، إن لم تقطع كتبك عني في أمثاله وفي سائر أمورك .

[المنصور يطلب من محمد بن جعفر أن يخفف من كتب شفاعاته]

وذكرت بها [ما روى الأبشهي في « المستطرف » ١/ ٢٨٠] : أن المنصور كان معجباً بمحادثة محمد بن جعفر بن عبيد الله بن العباس ، وكان الناس يفزعون إليه في الشفاعات ، حتى أثقل على المنصور ، فحبسه مدة ، ثم اشتاق إليه ، وقال للربيع : إنه لا صبر لي عنه ، ولكني استثقلت شفاعاته ، فشرط عليه الربيع أن لا يعود إليها ، فمكث أياماً لا يشفع لأحد ، ثم وقف له قوم من قريش وغيرهم براق مدخله عند المنصور ، فسألوه أن يأخذها منهم ، فقص عليهم خبره

(١) انظر : « وفيات الأعيان » (٦/ ٩٩) .

فَصَرِعُوا إِلَيْهِ ، فَقَالَ : أَمَا إِذَا أَبِيْتُمْ قَبُولَ الْعَذْرِ . . فَإِنِّي لَا أَقْبِضُهَا عَنْكُمْ ، وَلَكِنْ اجْعَلُوهَا فِي كُمِّي ، فَقَذَفُوهَا فِي كُمِّهِ ،
 ودخلَ على المنصورِ ، وهو في الخضراءِ المشْرِفَةِ على (مدينةِ السلامِ) وما حولها مِنَ الضياعِ ، فقالَ لَهُ : أَمَا ترى إلى
 حَسِنِهَا ؟! قَالَ : بلى يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فبارَكَ اللهُ فيما آتَاكَ ، وهنَّأَكَ بِإِتِمَامِ نِعْمَتِهِ عَلَيْكَ فيما أعطَاكَ ، فلمَ تبنِ العَرَبُ في
 الإسلامِ ، ولا العَجَمُ في سالفِ الأَيَّامِ ، مثلَ مدينتِكَ هذِهِ ، إلاَّ أَنَّهُ يُسَمِّجُهَا في نظري أَن لا ضِيعَةَ لي فيها ، فضحكَ ،
 وقالَ : نَزِيدُهَا حَسَنًا في عَيْنِكَ بثلاثِ ضياعِ ، قد أَقَطَعْتُكَهَا ، فدعا لَهُ ، وبيْنَا هو يكلُمُهُ . . بدرتِ الرِّقَاعُ من كُمِّهِ ،
 وانتشرت على الأَرْضِ ، فقالَ لَهُ المنصورُ : ما هذِهِ ؟ فسكتَ ، فقالَ : بحَقِّي إلاَّ أَخبرتني ، فشرحَ لَهُ الأَمْرَ ، فضحكَ ،
 وقالَ : أبيتَ يا ابنَ معلِّمِ الخَيْرِ إلاَّ كرمًا وجودًا ، ثمَّ أَخَذَهَا ، وتصفحَ ما فيها ، ووَقَّعَ عَلَيْهَا كُلَّهَا بما طَلَبَ أصحابُهَا .
 ومنهُ تَعَرَّفَ الفرقُ ما بينَ بني أُمَيَّةَ وبني العَبَّاسِ ، فالأَوَّلُ : يستزيدُ عروَةَ في الشفَاعَاتِ ، والثاني : يستقصِرُ ابنَ عمِّهِ
 عنها ، إلاَّ أَن يُقالَ : إِنَّ هَذَا قد أَبْرَمَ وَأَضَجَرَ ، بخلافِ الأَوَّلِ .

[جعفر بن يحيى يزوج بنت الرشيد من غير علمه . . فيجيزه]

أَمَا شَفَاعَةُ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى إِلَى الرَّشِيدِ فِي عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ صَالِحٍ . . فَشِيءٌ يَدْفَعُهُ الْعَقْلُ ، لولا ما تواتَرَ مِنَ النُّقْلِ (١) .

[إذلال النفس في حاجات الناس هو العز في الدنيا والآخرة]

وقيلَ لشُعْبَةَ : أفنيتَ مالَكَ ، وأخلقتَ جاهَكَ في حوائِجِ الناسِ ، فقالَ : أصونُهُما ليومِ فاقَتِي .

[من الكامل]

وقالَ الخابِرُ أَرْزُيُّ :

خَرِقَ يَجُودُ بِمَالِهِ وَيَجَاهِهِ وَالْجُودُ كُلُّ الْجُودِ بَذْلُ الْجَاهِ

ويروى : « إِنَّ الْعَبْدَ يُسْأَلُ عَنْ جَاهِهِ ، كَمَا يُسْأَلُ عَنْ عُمُرِهِ فَيَقُولُ اللهُ لَهُ : جَعَلْتَ لَكَ جَاهًا ، فَهَلْ نَصَرْتَ بِهِ مَظْلُومًا ،
 أَوْ قَمَعْتَ بِهِ ظَالِمًا ، أَوْ أَعْنَتَ بِهِ مَكْرُوبًا ؟ » (٢) واللهُ جَلَّ شَأْنُهُ يَقُولُ : « مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ
 يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا » [النساء : ٨٥] .

[اللهم ؛ لا تذلل عزيزاً]

ودخلَ ابنُ السَّمَاكِ - الزاهدُ المشهورُ - على بعضِ الرؤساءِ يشفعُ إليه في رجلٍ ، فقالَ لَهُ : أتيتُكَ في حاجَةٍ ، الطالبُ
 والمطلوبُ فيها شريفانِ إن قضيتَ ، ذليلانِ إن لم تقضِ ، فاخترتَ لنفسِكَ عزَّ البذلِ على ذلِّ المنعِ ، واخترتَ لي عزَّ
 النُّجْحِ على ذلِّ الرَّدِّ ، فقضى حاجتَهُ ، وشفَّعَهُ فيما أرادَ .

[الرجل يزور كتاباً على لسان ابن الفرات فيصح له ويمضيه عليه]

وذكرَ ابنُ خَلِّكَانَ [في « وفيات الأعيان » ٤٢٨/٣] : أَنَّ رجلاً اتصَلتْ عطلتُهُ ، فزَوَّرَ كتابَ شَفَاعَةِ مَنِ أَبِي الحَسَنِ الفَراتِ
 إلى عاملِ (مصرَ) أَبِي زَنبُورِ الماردانيِّ ، فارتابَ في أمرِهِ ، لخروجِ الخطَّابِ عَنِ المَعهودِ ، فعَلَّلَهُ بِعُلَّالَةٍ (٣) ،
 واحتبسَهُ على ضيَاءِ وعِدِّ ، ريثما كتبَ إلى ابنِ الفَراتِ ، وأنفَذَ إليه بعينِ الكتابِ المَزوَّرِ ، فشاوَرَ أصحابَهُ ، فكانَ

(١) القِصَّةُ باختصارٍ في « المستطرف » (٣٣٢/٢) .

(٢) أخرجه بنحوه عن ابن عمر رضي الله عنه الطبراني في « الصغير » (١٨) ولفظه : « إذا كان يوم القيامة دعا الله عبداً من عبده ، فيوقف بين يديه فيسأله عن
 جاهه كما يسأله عن ماله » .

(٣) أي : أعطاه الشيء القليل الذي يتعلل به .

أَجْمَلُهُمْ مُحَضَّرًا مِّنْ أَشَارَ بِكَشْفِ خَبْرِهِ ؛ لِيُفْضِيَ إِلَى حَرَمَانِهِ ، فَلَمْ يَكُنْ مِنَ ابْنِ الْفِرَاتِ إِلَّا أَنْ أَخَذَ الْقَلَمَ ، وَأَيْدَى الْكِتَابَ ، وَأَكَّدَ الشَّفَاعَةَ ، فَبَعْدَ أُمَّةٍ مِّنَ الزَّمَانِ دَخَلَ عَلَى ابْنِ الْفِرَاتِ رَجُلٌ ذُو هَيْئَةٍ مَّقْبُولَةٍ ، وَبَزَّةٍ فَاخِرَةٍ ، وَأَقْبَلَ بِدَعْوَى ، وَيَبْكِي ، وَيَقْبَلُ الْأَرْضَ ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ الْفِرَاتِ : مَنْ أَنْتَ بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ ؟ - وَكَانَتْ هَذِهِ كَلِمَتَهُ - فَقَالَ : صَاحِبُ الْكِتَابِ الْمَزُورِ إِلَى أَبِي زَنْبُورٍ ، الَّذِي صَحَّحَهُ كَرَمُ الْوَزِيرِ ، وَشَمَلَهُ حِلْمُهُ ، فَضَحِكَ ابْنُ الْفِرَاتِ ، وَقَالَ : كَمْ وَصَلَ إِلَيْكَ مِنْهُ ؟ فَقَالَ : وَصَلَ إِلَيَّ مِنْ مَالِهِ وَمِمَّا قَسَطَهُ عَلَى عَمَّالِهِ وَأَصْحَابِهِ عَشْرُونَ أَلْفَ دِينَارٍ ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ الْفِرَاتِ : وَلَا تَغِبْ عَنَّا ، فَإِنَّا نَعْرِضُكَ لِمَا يَزِدَادُ بِهِ صِلَاحُ حَالِكَ ، ثُمَّ اسْتَخْدَمَهُ ، وَأَكْسَبَهُ مَالًا جَزِيلًا .

[وكذلك يمضي يحيى البرمكي]

ومثلها ما ذكره البيهقي في « المعاسن » من أن رجلاً ضاقت به الحال ، وتعدرت عليه المطالب ، فافتعل كتاباً من يحيى بن خالد البرمكي ، وشخص به إلى (أذربيجان) لعبد الله بن مالك الخزاعي ، ولم يعلم ما بين الأمرين من فوط التعادي والتحاسد ، فقال له عبد الله : إن كتابك هذا مفتعل ، سأزيل علتك ، وأحبسك حتى أستطلع الأمر ، وأتعرّف بخبر الكتاب ، فبعث إلى وكيله بـ (العراق) ليستفهم عن القصة ، فجاء الوكيل إلى يحيى ، وأنهى إليه الخبر ، فكتب بخطه : فلان من أخص من يليني ، وأوجبهم حقاً علي ، وقد أخبرني صاحبك بتشككك في أمره ، فليزل عنك الشك فديتك ، وليعد معجلاً بما يشبهك ، فلما خرج الوكيل . . قال يحيى لأصحابه : ما تقولون في رجل افتعل علي كتاب شفاعته إلى عبد الله بن مالك ، وصل به إلى (أذربيجان) ؟ فقالوا جميعاً : نرى أن تفضحه ، وتعلن أمره ؛ ليرتدع به غيره ، فقال : قبح الله هذا من رأي ، ما أنذله ، هذا رجل ضاق به الرزق ، فوثق بي ، وشخص إلى (أذربيجان) مع بعد شقتها ، وصعوبة طريقها ، أفنشرون علي أن أقطع أمله ؟ وأخيّب رجاءه ؟ وقد عرفتم قدر عبد الله ومكانته من قلب أمير المؤمنين ، وما بيني وبينه من العداوة التي سعى في إزالتها هذا الرجل ، أفتريدون أن أزد الأمر بيني وبينه بعد هذا التقارب ، إلى ما كان عليه من البعد ؟ إنه لنكد الأبد .

ثم أخبرهم بما كتبت به إلى عبد الله ، فتعجبوا من كرمه ، وسعة احتماله ، ولما ورد الكتاب بخطه على عبد الله . . استحضر الرجل ، وقد سقط في يده ؛ لاعتراض سوء الظن بقلبه ، فقال : قد ورد علي كتاب أخي بصحة أمرك ، وسألني تعجيل صرفك ، ودعا له بمئتي ألف درهم ، وبما يليق بها من الدواب والخلع والآلة ، فلما حضر باب يحيى . . أدخل ذلك برمته إليه ، فأمر له يحيى بمثله ، وأثبتته في خاصته .

[نماذج من كتب الشفاعات]

وكتب عبد الحميد بالوصاية في رجل إلى بعض الرؤساء [كما في « وفيات الأعيان » ٣/ ٢٢٩] : حق مؤصل هذا عليك كحقه علي ؛ إذ رأك موضعاً لأمله ، كما رأني أهلاً لحاجته ، وقد أنجزت حاجته ، فحقق أمله ، والسلام .

وكتب رجل إلى يحيى بن خالد رقعة يقول له فيها :

شَفِيعِي إِلَيْكَ اللَّهُ لَا شَيْءَ غَيْرُهُ وَلَيْسَ إِلَيَّ رَدُّ الشَّفِيعِ سَبِيلُ

فأمره بلزوم البيت ، وكان يعطيه عند الصباح كل يوم ألف درهم ، فلما استوفى ثلاثين ألفاً . . ذهب الرجل ، فقال خالد : أمّا والله لقد عزمْتُ على إجرائها له إلى آخر العمر^(١) .

(١) « المستطرف » (١/ ٢٨١) .

وقال رجلٌ لجعفر بن يحيى : أمثُ إليك بذيمام الأمل ، وحسن الظن ، وقرابة العلم ، قال : إنَّ ما ذكرتَ ليوجبُ الحقَّ ، ويعقدُ الفرضَ ، ورحمُ العلمِ أمسُّ قرابةً ، وألطفُ ضؤرةً^(١) .

واستأذن بعضهم على الفضل بن يحيى ، وزعم أنَّ له مائة إلى الأمير ، ولما سأله عن حاجته . . قال : قد أمرتَ عنها رثاءة الهية ، وضعفُ الطاقة ، قال الفضلُ : فما الذي تمثُّ به ؟ قال : ولادةُ تقربُ من ولادتك ، وجوارٌ يدنو من جوارك ، واسمٌ مشتقٌ من اسمك ، قال : أمَّا الجوارُ . . فقد يكونُ ، والأسماءُ تتفقُ ، فما علمك بالولادة ؟ قال : أخبرتني أمِّي : بأنَّها لَمَّا وضعتني . . قالوا : ولدَ ليحيى غلامٌ سمَّوهُ الفضلَ ، فصغرتني ؛ إعظاماً لاسمك ، وسمَّتي فُصيلاً ، قال : كم أتى عليك ؟ قال : خمسٌ وثلاثون سنةً ، قال : صدقتَ ، وأعطاهُ لكلِّ سنةٍ ألفاً^(٢) .

[الشعراء والشفاعات]

وقال بعضهم يمدحُ معنأ : [مِن الطويل]

وَمِنْ هَوَاكَ شَفِيعٌ لِي يُغْفِلْنِي وَإِنْ نَأَيْتُ وَإِنْ قَلَّتْ بِي الذُّكْرُ

وقال مروان بن أبي حفصة يمدحُ المهديَّ [في «ديوانه» ٦٦] : [مِن الطويل]

وَمَا لِي إِلَى الْمَهْدِيِّ لَوْ كُنْتُ مُذْنِباً سِوَى حِلْمِهِ الضَّافِي عَلَى النَّاسِ شَافِعُ

وهو من قصيدة له شاعرة يقول فيها [في «ديوانه» ٦٦] :

وَلَا هُوَ عِنْدَ الشُّخْطِ مِنْهُ وَلَا الرِّضَا بغيرِ الَّذِي يَرْضَى بِهِ اللهُ قَانِعُ
تَغُضُّ لَهُ النَّاسُ الْعُيُونَ وَطَرْفُهُ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ خَاشِعُ

وقد أغار على الثاني ابنُ أيوبَ التميمي ، فقال يمدحُ الفضلَ بن سهلٍ [في «وفيات الأعيان» ٤/٤٣] : [مِن الطويل]

تَرَى عُظَمَاءَ النَّاسِ لِلْفَضْلِ خُشْعاً إِذَا مَا بَدَأَ وَالْفَضْلُ اللهُ خَاشِعُ
تَوَاضَعَ لَمَّا زَادَهُ اللهُ رِفْعَةً وَكُلُّ جَلِيلٍ عِنْدَهُ مُتَوَاضِعُ

ومعنى البيت المشروح متكرِّرٌ عند الناظم منه قوله [في «العكبري» ٤/١٤٢] : [مِن الطويل]

وَمِثْلِكَ مَنْ كَانَ الْوَسِيطَ فَوَادُهُ فَكَلَّمَهُ عَنِّي وَلَمْ أَتَكَلَّمِ

وقال جحظة [في «ديوانه» ١٤٥] : [مِن الطويل]

وَمَا لِي حَقٌّ وَاجِبٌ غَيْرَ أَنْبِي إِلَيْكُمْ بِكُمْ فِي حَاجَتِي أَنْوَسَلُ

وقال آخر [في «صبح الأعشى» ٩/١٤٠] : [مِن الطويل]

وَلَوْ أَنَّ لِي فِي حَاجَتِي أَلْفَ شَافِعٍ لَمَا كَانَ فِيهِمْ مِثْلُ جُودِكَ شَافِعُ

وقال أبو الحسن الشلامي : [مِن الطويل]

إِذَا زُرْتَهُ لَمْ تَلَقَ مِنْ دُونِ بَابِهِ حِجَاباً وَلَمْ تَدْخُلْ عَلَيْهِ بِشَافِعٍ

(١) الضؤرة : الرجل الصغير الشأن الحقيق الذليل الفقير .

(٢) من الدراهم ، انظر «وفيات الأعيان» (٣٢/٤) .

كَمَاءِ الْفُرَاتِ الْجَمِّ أَعْرَضَ وَرِزْدُهُ لِكُلِّ أَنْاسٍ فَهَوَ سَهْلُ الشَّرَائِعِ
تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلاً تَهَلَّلَ أَبْكَارِ الْغَيْوِثِ الْهَوَامِعِ

* * *

[مِنَ الطُّوِيلِ]

قال أبو الطَّيِّبِ المَتَنَبِّيُّ في « العُكْبَرِيُّ » ٢ / ٢٤٥ :

فَصِيحٌ مَتَى يَنْطِقُ تَجِدُ كُلَّ لَفْظَةٍ أَصُولَ الْبَرَاعَاتِ الَّتِي تَتَفَرَّغُ

[مبحث بلاغي حول الفصاحة]

بصف قلم ممدوحه ، ويقول : إِنَّ كُلَّ لَفْظَةٍ مِنَ الْفَاطِظِ أَصْلٌ مِنَ أَصُولِ الْبَرَاعَةِ ، والبراعة هِيَ كَمَالُ الْفَصَاحَةِ .
وفصاحة المفرد : سلامته مِنَ التَّنَافُرِ ، والغرابية ، والكراهة ، والخروج عن القياس .
وفصاحة المركب - بعد سلامة مفردِه مِمَّا ذُكِرَ - : أَنْ لَا يَكُونَ مَكْرَرًا ، وَلَا مَعْقَدًا ، وَلَا مَتَنَافِرًا ، وَلَا ضَعِيفَ
التَّأْلِيفِ ، وَلَا مَتَابِعَ الْإِضَافَاتِ ، كما هُوَ مَقْرَّرٌ فِي عِلْمِ الْمَعَانِي .

[الافتخار بالقلم وحسن البيان]

وحسب القلم شرفاً أَنَّ اللَّهَ نَوَّهَ بِذِكْرِهِ ، وَامْتَنَّ بِتَعْلِيمِهِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿ [العلق : ٤-٣] ،
وَأَقْسَمَ بِهِ فَقَالَ : ﴿ تَوَّالِقَ الْفَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم : ١] ، وَهَذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا رَأَيْنَاهُ يَفْتَخِرُ بِعِلْمِ قَطْ
سَوَى حَسَنِ الْبَيَانِ ، فَقَالَ : « أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ »^(١) . وَقَالَ : « أَنَا أَفْصَحُ الْعَرَبِ ، بِيَدِ أَنِّي مِنْ قَرِيشِ ،
وَاسْتَرْضَعْتُ فِي بَيْتِي سَعْدٌ »^(٢) .

وقد سبق في غير هذا المجلس أَنَّ (بِيَدَ) هُنَا بِمَعْنَى مِنْ أَجْلِ ؛ لِأَنَّ الْاسْتِدْرَاكَ لَا يَحْلُو مَا لَمْ يَشْتَمَلْ عَلَى رَوْنِقِ
وَحَسَنِ ، وَلِأَنَّ الْأَصْلَ فِي الْاسْتِثْنَاءِ الْإِضْمَارُ ، فَإِذَا لَمْ يَلِ أَدَاتُهُ إِلَّا صَفَةً مَدْحٍ . . تَحَوَّلَ إِلَى الْإِنْقِطَاعِ ، فَكَأَنَّهُ لَمْ يَجِدْ
صَفَةً تَنَاسَبُ الْاسْتِثْنَاءَ ، فَاضْطُرَّ إِلَى مَا لَا يَنَاسِبُهُ ، وَاسْتِشْهَادُ بَعْضِ أَهْلِ الْمَعَانِي لِاسْتِحْسَانِ مَا كَانَ مِنْ قَبِيلِ ذَلِكَ
بِقَوْلِ النَّابِغَةِ الْجَعْدِيِّ [في « ديوانه » ١٨٨] :

[مِنَ الطُّوِيلِ]

فَتَى كَمَلْتَ أَخْلَاقَهُ غَيْرَ أَنَّهُ جَوَادٌ فَمَا يُبْقِي مِنَ الْمَالِ بَاقِيَا

إِنَّمَا يَتَمُّ لَوْ سَكَتَ عَلَى قَوْلِهِ : (جَوَادٌ) أَمَّا وَقَدْ عَقَبَهُ بِقَوْلِهِ : (فَمَا يُبْقِي مِنَ الْمَالِ بَاقِيَا) . . فَقَدْ خَرَجَ الْاسْتِثْنَاءُ فِيهِ
عَنِ الْإِنْقِطَاعِ ، وَبَقِيَ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِضْمَارِ ؛ لِأَنَّ إِتْلَافَ الْمَالِ بِأَسْرِهِ فِي الْجُودِ مِمَّا يَحْتَمِلُ الدَّمَ ، وَهَذَا شَيْءٌ
وَاضِحٌ لَا غِبَارَ عَلَيْهِ ، فَفِي تَمَثُّكِ الْكَثِيرِ بِهِ مِنَ الْعُلَمَاءِ مَوْضِعٌ فَسِيحٌ لِلْعَجَبِ .

[مِنَ مَجْزُوءِ الْكَامِلِ]

وقد قال كُشَاجِمُ [في « ديوانه » ٢٤٦] :

مَا فِيهِمْ عَيْبٌ سِوَى الْإِفْرَاطِ فِي الْجُودِ فَقَطْ

(١) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه البخاري (٦٩٩٨) بلفظ : « بعثت بجوامع الكلم » ، ومسلم (٥٢٣) في المساجد ، والترمذي (١٥٥٣) ، والنسائي (٤٣/٦) .

(٢) أورده في « كشف الخفاء » (٦٠٩) وقال عنه السيوطي في « اللآلئ » « معناه صحيح ، ولكن لا أصل له ، وأطال فيه الكلام وأجاد .

وقال أبو هفان :

[من المنسرح]

عَيْبُ بَنِي مَخْلَدٍ سَمَّاحَتُهُمْ وَأَنْتَهُمْ يُتْلَفُونَ مَا وَجَدُوا

[الشعراء وتقديم القلم على السيف]

[من الطويل]

ومما أجمع على تقديمه أهل العلم في مدح القلم قول أبي تمام [في «ديوانه» ٥٧/٢] :

لَكَ الْقَلَمُ الْأَعْلَى الَّذِي بِشَبَاتِهِ
لَهُ الْخَلَوَاتُ السَّلَاءُ لَوْلَا نَجِيَّتُهَا
لُعَابُ الْأَفَاعِي الْقَاتِلَاتِ لُعَابُهُ
لَهُ رِيقَةٌ طَلٌّ وَلَكِنَّ وَقَعَهَا
فَصِيحٌ إِذَا اسْتَنْطَفَتْهُ وَهُوَ رَاكِبٌ
وَأَعْجَمٌ إِنْ خَاطَبْتَهُ وَهُوَ رَاجِلٌ^(١)
تُصَابُ مِنَ الْأَمْرِ الْكُلِيِّ وَالْمَفَاصِلِ^(٢)
لَمَّا اخْتَفَلَتْ لِلْمَلِكِ تِلْكَ الْمَحَافِلِ^(٣)
وَأَرَى الْجَنَى اشْتَارَتْهُ أَيْدِ عَوَاسِلِ^(٤)
بِأَثَارِهِ فِي الشَّرْقِ وَالغَرْبِ وَابِلِ^(٥)

وبيت الناظم ناظرٌ إلى القسيم الأول من الأخير .

[من البسيط]

وقال ابن الرومي [في «ديوانه» ٥٠٨/٢] :

فِي كَفِّهِ قَلَمٌ نَاهِيكَ مِنْ قَلَمٍ
يَمْحُو وَيَكْتُبُ أَرْزَاقَ الْعِبَادِ بِهِ
نُبْلًا ، وَنَاهِيكَ مِنْ كَفِّ بِهِ اتَّسَحَا
فَمَا الْمَقَادِيرُ إِلَّا مَا مَحَا وَوَحَى

[من البسيط]

وقال [في «ديوانه» ٢٢٩٤/٦] :

إِنْ يَخْدُمُ الْقَلَمَ السَّيْفُ الَّذِي خَضَعَتْ
فَالْمَوْتُ - وَهُوَ الَّذِي لَا شَيْءَ يَعْدِلُهُ -
فَقَدْ قَضَى اللَّهُ لِلْأَقْلَامِ مُذْ بَرِيَتْ
لَهُ الرَّقَابُ وَدَانَتْ خَوْفَهُ الْأَمَمُ
مَا زَالَ يَتَّبِعُ مَا يَجْرِي بِهِ الْقَلَمُ
أَنَّ السُّيُوفَ لَهَا مَذْ أُرْهِفَتْ خَدَمُ

[من المتقارب]

وقال [في «ديوانه» ١٧٣-١٧٤/١] :

لَعَمْرُكَ مَا السَّيْفُ سَيْفُ الْكَمِيِّ
لَهُ شَاهِدٌ إِنْ تَأَمَّلْتَهُ
أَدَاةُ الْمَنِيَّةِ فِي جَانِبَيْهِ
أَلَمْ تَرَ فِي صَدْرِهِ كَالسَّنَانِ
بِأَخْوَفٍ مِنْ قَلَمِ الْكَاتِبِ
ظَهَرَتْ عَلَيَّ سِرُّهُ الْعَائِبِ
فَمِنْ مِثْلِهِ رَهْبَةُ الرَّاهِبِ
وَفِي الرَّذْفِ كَالْمُرْهَفِ الْقَاضِبِ ؟

(١) شبائته : حذو ، أي رأس القلم ، شبه حذو قلمه بحد السيف وجعله يفتك بالأمر المعضل فيقتله ويدلُّ صعبته وينال منه ما لا ينال الحسام .

(٢) نجيتها : حديثها السري . احتضت : أحسنت القيام بالأمور . المحافل : المجالس . يقول : لولا سرُّ هذه الأقلام لما انتظم الملك .

(٣) لعابُ الأفاعي : سمها . لعابُه : ريقه ؛ أي : مداده . الأري : العسل . الجنى : كل ما يجتنى ويقطف . اشتارته : جنته . عواسل : التي تجني العسل .

يقول : إن مداد قلمه في تهديد الأعداء قاتل كسم الأفاعي ، وفي التلطف للإخوان كالعسل .

(٤) الطل : الندى أو المطر الخفيف . يقول : إن ما يجري من ريق هذا القلم على القرطاس نافع يحكي الندى في قلته ولكنه يشبه المطر الغزير بقوة إذا نظرت

إلى خيره ووقع آثاره في الشرق والغرب .

(٥) راكب : أي راكب على أصابع الكاتب . الأعجم : ضد الفصح .

وقال :

[مِنَ البسيطِ]

جَرَى شُجَاعٌ يَمْجُ السُّمَّ وَالْعَسَلَا^(١)
رَوْضُ الرِّيبِ إِذَا مَا طَلَّ أَوْ وَبَلَا

إِذَا جَرَى الْأَرْقَشُ النَّضْنَاضُ فِي يَدِهِ
حَطُّ إِذَا قَابَلْتَهُ الْعَيْنُ قَابَلَهَا

وقال ابنُ الدهانِ [في «ديوانه» ٥١-٥٢] :

[مِنَ الكاملِ]

لَمْ تَذِرْ أَنْفَذَ أَسْطُرًا أَمْ عَسْكَرًا
إِلَّا لِأَنَّ الْجَيْشَ يَعْقِدُ عَيْشَرًا^(٢)

تُرْدِي الْكَتَائِبَ كُتْبُهُ فَإِذَا انْبَرَتْ
لَمْ يَخْسِنِ الْأَتْرَابُ فَوْقَ سَطُورِهَا

والأولُ ناظِرٌ إلى قولِ أبي تَمَّامٍ [في «ديوانه» ٤٨/٢] :

[مِنَ الطَّويلِ]

إِلَى نَاكِثٍ أَنْ لَا يُجَهِّزَ جَحْفَلًا^(٣)

فَمَا إِنْ تُبَالِي إِذْ يُجَهِّزُ رَأْيَهُ

والثاني من قولِ الطغرائيِّ [في «ديوانه» ٩٣-٩٤] :

[مِنَ الطَّويلِ]

بِأَيْدِيهِمْ جَمْرٌ إِلَى الْهِنْدِ مَنْسُوبٌ
صَحَائِفُ يَغْشَاهَا مِنَ النَّقْعِ تَتْرِبُ

إِذَا مَا دَجَا لَيْلُ الْعَجَاةِ لَمْ يَزَلْ
عَلَيْهَا سَطُورُ الضَّرْبِ يُعْجِمُهَا الْقَنَا

وقال آخرُ [الآياتِ للبستي وهي في «طبقات ابن السبكي» ٢٦٥/٨] :

[مِنَ البسيطِ]

ثُمَّ اسْتَمَدُوا بِهَا مَاءَ الْمَنِيَّاتِ
مَا لَمْ يَنَالُوا بِحَدِّ الْمَشْرِفِيَّاتِ^(٤)

قَوْمٌ إِذَا أَخَذُوا الْأَقْلَامَ مِنْ قَصَبٍ
نَالُوا بِهَا مِنْ أَعَادِيهِمْ وَإِنْ بَعُدُوا

ورأيتُ ابنَ السبكيِّ^(٥) عزا هذين البيتين للناظم ، وما رأيتها في «ديوانه» .

[مِنَ الكاملِ]

وقال المعريُّ [في «سقط الزند» ١٦٤] :

أَيْمَ الْغَضَى لَوْلَا سَوَادُ لَعَابِهِ^(٦)
لَغَطَ الْقَطَا فَأَبَانَ عَنِ أَنْسَابِهِ^(٧)
رَدَّ الْمُسِنَّةَ إِلَى اقْتِبَالِ شَبَابِهِ

يَا مَنْ لَهُ قَلَمٌ حَكَى فِي فِعْلِهِ
عُرِفَتْ جُدُودُكَ إِذْ نَطَقْتَ وَرُبَّمَا
وَهَزَّتْ أَعْطَافَ الْمُلُوكِ بِمَنْطِقِي

وقال البُستيُّ [في «قرى الضيف» ٤/٣٥٤] :

[مِنَ البسيطِ]

أَنْسَاكَ كُلَّ كَمِيٍّ هَزَّ عَامِلُهُ
أَقْرَبَ بِالرَّقِّ كُتَابُ الْأَنْامِ لَهُ

إِنْ هَزَّ أَقْلَامُهُ يَوْمًا لِيُعْلِمَهَا
وَإِنْ أَقْرَبَ عَلَيَّ رَقٌّ أَنْامِلُهُ

(١) يقال حية نضاضة : لا تستقر في مكان ، أو إذا نهشت قتلت من ساعتها ، أو التي أخرجت لسانها تضبضهُ أي تحركه .

(٢) العَيْشَرُ : الغبارُ .

(٣) الناكثُ : ناقضُ العهدِ ، أي إنَّ رأيَ الخليفةِ يغني عن تجهيزِ الجيوشِ لحسنِ سياسته .

(٤) وجاء أيضاً برواية : لا ينالُ .

(٥) طبقات السبكي (٢٦٥ / ٨) .

(٦) الأيْمُ : الحِيَّةُ .

(٧) اللَّغَطُ : الصوتُ والجلبةُ ، وقيل : من كثر لفظه كثر غلظه .

وقال المؤيد الألوسي [في « وفيات الأعيان » ٣٤٧/٥] :

[من الكامل]

وَمُتَّقَفٍ يُغْنِي وَيُقْنِي دَائِمًا فِي حَالِي الْمِعَادِ وَالْإِعَادِ
قَلَمٌ يَفْلُ الْجَيْشَ وَهُوَ عَرْمَرَمٌ وَالْبَيْضُ مَا سَلَّتْ مِنَ الْأَعْمَادِ
وَهَبَتْ لَهُ الْأَجَامُ حِينَ نَشَابَهَا كَرَمَ السُّيُولِ وَهَيْبَةَ الْأَسَادِ

وهو معنى بديع ، قال ابن خلكان [في « وفيات الأعيان » ٣٤٧/٥] : إِنَّهُ لَمْ يُقَلَّ أَحْسَنُ مِنْهُ فِي الْقَلَمِ .

[ومن الشعراء من يفضل السيف على القلم]

وفي عكس ذلك من تفضيل السيف على القلم ، يقول أبو مسلم متمثلاً وقد جاءه كتاب مروان بن محمد : [من الطويل]

مَحَا السَّيْفُ أَسْطَارَ الْبَلَاغَةِ وَالتَّحَى عَلَيْكَ لُيُوثُ الْغَابِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

[من البسيط]

وقال البحتري [في « ديوانه » ٢٠٤٤/٣] :

تَعْنُو لَهُ وَزَرَاءُ الْمُلْكِ رَاغِبَةٌ وَعَادَةُ السَّيْفِ أَنْ يَسْتَحْدِمَ الْقَلَمًا^(١)

[من الطويل]

وقال [في « ديوانه » ٤٦٧/١] :

فَلَا غَرَّرَنِي مِنْ بَعْدِهِ عِزُّ كَاتِبٍ إِذَا هُوَ لَمْ يَأْخُذْ بِحُجْزَةِ رَامِحٍ^(٢)

[من البسيط]

وقال الناظم [في « المكبري » ١٥٩/٤] :

حَتَّى رَجَعْتُ وَأَقْلَامِي قَوَائِلُ لِي : الْمَجْدُ لِلسَّيْفِ لَيْسَ الْمَجْدُ لِلْقَلَمِ

[من الوافر]

وقال [في « المكبري » ٣٠٢/٢] :

وَهَلْ تُغْنِي الرَّسَائِلُ فِي عَدُوٍّ إِذَا مَا لَمْ يَكُنْ ظُبًّا رِقَاقًا ؟

[من الطويل]

وقال [في « المكبري » ٣٥٢/٣] :

وَلَا كُتِبَ إِلَّا الْمَشْرِفِيَّةُ عِنْدَهُ وَلَا رُسُلٌ إِلَّا الْخَمِيسُ الْعَرْمَرَمُ

[من البسيط]

وقال [في « المكبري » ٣٦٦/٣] :

تَتَلُّوْا أَسِنَّةَ الْكُتُبِ الَّتِي نَفَذَتْ وَيَجْعَلُ الْخَيْلَ أَبْدَالَ مِنْ الرُّسُلِ

ويحكي [في « وفيات الأعيان » ٧/٧] : أَنَّ مَلِكَ الْإِفْرَنْجِ كَتَبَ إِلَى الْأَمِيرِ يَعْقُوبَ بْنِ يَوْسَفَ بْنِ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ صَاحِبِ

(المغرب) يتهدده ، فكتب يعقوب إليه مع رسوله : ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون ، الجواب ما ترى لا ما تسمع ، ثم تجهز وعبر (الأندلس) ودخل بلاد الإفرنج فأتحن فيهم ، حتى كاد يستأصلهم ، ولم يسمع أهل (الأندلس) بكسرة فيهم مثلها ، وكان ذلك سنة (٥٩٥ هـ) (٣) .

(١) تمنو : تخضع وتذل .

(٢) الحُجْزَةُ : معقذ الإزار . الرامح : صاحب الرمح .

(٣) ولكن في « وفيات الأعيان » (٧/٧) كان ذلك سنة : (٥٩٢ هـ) .

وقال المعريّ [في «سقط الزند» ١١٠] :

[من البسيط]

دَعِ الْبِرَاعَ لِقَوْمٍ يَفْخَرُونَ بِهِ وَيَالِطَوَالِ الرُّدَيْنِيَّاتِ فَافْتَخِرِ
فَهِنَّ أَقْلَامُكَ اللَّاتِي إِذَا كَتَبْتَ سَطْرًا أَتَتْ بِمَدَادٍ مِنْ دَمِ هَدْرٍ

وقال الناظمُ فيما يشبهه الطرفَ الأوَّلَ [في «المكبري» ١٦٦/٢] :

[من الكامل]

يَا مَنْ إِذَا وَرَدَ الْبِلَادَ كِتَابُهُ قَبَلَ الْجِيُوشِ نَسَى الْجِيُوشَ تَحْيِيرًا

[من الكامل]

وقال [في «المكبري» ١٦٦/٢] :

بِتَكْسُّبِ الْقَصْبِ الضَّعِيفُ بِخَطِّهِ شَرَفًا عَلَى صُمِّ الرَّمَاحِ وَمَفْخَرًا

[من الكامل]

وقال [في «المكبري» ٢٥٦/٣] :

كَلِمَاتُهُ قُضِبٌ وَهِنَّ فَوَاصِلٌ كُتِلَ الضَّرَائِبِ تَحْتَهُنَّ مَفَاصِلُ

والمفاخرَةُ بينَ السيفِ والقلمِ تطولُ ، وقد ألفتُ لها الرسائلُ الضافيةَ الذبولِ .

[الصواب التفصيل في المسألة فالسيف في محله أفضل من القلم وكذلك العكس]

والصوابُ التفصيلُ : فعندَ القوَّةِ والنفوذِ . فالسيوفُ هي الخدمُ ، وأمَّا عندَ الضعفِ والعجزِ . فلا خُفَّ للأقلامِ ولا قَدَمٌ ، وفي قريبٍ من ذلك يقولُ الناظمُ [في «المكبري» ٩٨/٤] :

[من الخفيف]

وَكَفَّتَكَ الصَّفَائِحُ النَّاسَ حَتَّى قَدْ كَفَّتَكَ الصَّفَائِحُ الْأَقْلَامُ^(١)

[من الطويل]

وقال في المدحِ بالمفخرتينِ [في «المكبري» ٣١٠/٢] :

ضَرُوبٌ بِأَطْرَافِ الشُّيُوفِ بَنَانُهُ لَعُوبٌ بِأَطْرَافِ الْكَلَامِ الْمُشَقَّقِ^(٢)

[من الطويل]

وقال [في «المكبري» ١١٢/٤] :

إِذَا صُلْتُ لَمْ أَتْرُكْ مَصَالًا لِصَائِلٍ وَإِنْ قُلْتُ لَمْ أَتْرُكْ مَقَالًا لِعَالِمٍ

[من البسيط]

وقال [في «المكبري» ٣٦٩/٣] :

الْخَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِي وَالضَّرْبُ وَالطَّعْنُ وَالْفِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ^(٣)

وتعالَموا بعدَ الحربِ العظمى بحديثِ أعجَبني ، وإن لَمْ أَكُنْ عَلَى يَقِينٍ مِنْ صِحَّتِهِ ، وهو : أَنَّ أَحَدَ قَوَادِ الْإِنْكَلِيزِ زَارَ بَعْضَ مَدَارِسِ الْمُسْتَعْمَرَاتِ ، فَالْقَى الْأَسْئَلَةَ عَلَى التَّلَامِيذِ عَنِ شَأْنِ الْقَلَمِ وَالسِّيفِ ، فَأَجَابُوهُ بِمَا هُوَ مَعْرُوفٌ وَمَشْهُورٌ .

فقالَ أحدهمُ : أَمَّا لَوْ سَأَلَنِي الْقَائِدُ . . لَسَمِعَ مِنِّي غَيْرَ مَا قَالُوا ، قالَ : وما هو ؟

(١) الصَّفَائِحُ : السيوفُ .

(٢) الكَلَامُ الْمُشَقَّقُ : العويصُ الغامضُ الذي شُقَّ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ .

(٣) الفِرْطَاسُ : الكتابُ فِيهِ الْكُتَابَةُ . وقد وردَ اللَّيْلُ بِلَفْظِ : وَالسِّيفُ وَالرَّمْحُ وَالْقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ ، واللهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ .

قَالَ : أَمَّا سَعْدُ زَغَلُولٍ : فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ غَيْرُ الْقَلَمِ . . شَرَدَتْ مُوهُ كُلَّ مُشَرِّدٍ ، وَطَرَدَتْ مُوهُ كُلَّ مُطَرِّدٍ ، وَأَمَّا مُصْطَفَى كَمَا لُ : فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ عِنْدَهُ السِّيفُ . . عَمَدَ إِلَى الْمِعَاهِدَةِ الَّتِي أَبْرَمَتْهَا دَوْلَتُكُمْ مَعَ خَمْسِ وَعِشْرِينَ دَوْلَةً سِوَاهَا ، فَدَاسَهَا بِنِعَالِهِ ، وَلَمْ يَنْتَطِحْ فِي ذَلِكَ عِزَّانٍ ، فَأَمَرَ بِإِخْرَاجِهِ مِنَ الْمَدْرَسَةِ ، وَقَالَ : إِنَّهُ مِسْعَرٌ حَرْبٍ .

وَكُلُّ مَا سَبَقَ مِنَ الْمَفَاضِلَةِ بَيْنَ الْأَدَاتَيْنِ إِنَّمَا هُوَ بِالنِّسْبَةِ لِمَجْرَدِ النِّفُوزِ وَالتَّشْرِيفِ ، فَأَمَّا إِذَا نَظَرْنَا إِلَى مَا يَتَّبِعُ الْقَلَمَ مِنَ مَوَادِّ الْعِلْمِ . . انْقَطَعَتِ النِّسْبَةُ ، وَاتَّضَحَ الْفَرْقُ .

وَيَعِجْبُنِي قَوْلُ التَّهَامِيِّ [فِي « قَرَى الضَّيْفُ » ٥٣/٥] :

وَمَنْ فَاتَهُ نَيْلُ الْعُلَا بِعُلُومِهِ وَأَقْلَامِهِ فَلْيَبْغِهَا بِحُسَامِهِ
فَمَوْتُ الْفَتَى فِي الْعِزِّ مِثْلُ حَيَاتِهِ وَعِيشَتُهُ فِي الذُّلِّ مِثْلُ حِمَامِهِ

[الإنسان مخبوء خلف لسانه]

وَحَدُّ الْبَلَاغَةِ كَمَا قَالَ الْإِمَامُ الرَّازِيُّ [فِي « الْمُسْتَرْفُ » ٩٥/١] : أَنْ يَبْلُغَ الرَّجُلُ كُنْهَ مَا فِي خَاطِرِهِ بِأَفْصَحِ عِبَارَةٍ .
وَقَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ [فِي « الْمُسْتَرْفُ » ٩٦/١] : مَا رَأَيْتُ رَجُلًا إِلَّا هَبَّتْهُ حَتَّى يَتَكَلَّمَ ، فَإِنْ كَانَ فَصِيحًا . . عَظُمَ فِي صُدْرِي ، وَإِلَّا . . سَقَطَ مِنْ عَيْنِي .

[المدح بالبلاغة]

وَلَا يَزَالُ النَّاطِمُ يَمْدَحُ بِالْبَلَاغَةِ ، وَيُثْنِي بِالْفَصَاحَةِ وَاللِّسَنِ ، كَمَا فِي قَوْلِهِ [فِي « الْعُكْبَرِيُّ » ٤/١٠٠] :

قُلْ فَكَمْ مِنْ جَوَاهِرٍ بِنِظَامٍ وَدَهَاهَا أَنْهَاهَا بِفِيكَ كَلَامٍ

وَقَوْلِهِ [فِي « الْعُكْبَرِيُّ » ٤/٢٢٨-٢٢٧] :

مَا شَيْدَ اللَّهِ مِنْ مَجْدٍ لِسَالِفِهِمْ إِلَّا وَنَحْنُ نَرَاهُ فِيهِمْ الْآتَا
إِنْ كُوتِبُوا أَوْ لُقُوا أَوْ حُورِبُوا وَجَدُوا فِي الْخَطِّ وَاللَّفْظِ وَالْهَيْجَاءِ فُرْسَانًا^(١)
كَأَنَّ أَلْسِنَهُمْ فِي التَّنْطِقِ قَدْ جُعِلَتْ عَلَيَّ رِمَاحِهِمْ فِي الطَّعْنِ خُرْصَانًا^(٢)

وَقَوْلِهِ [فِي « الْعُكْبَرِيُّ » ٢/٥٥] :

خَلَقَ اللَّهُ أَفْصَحَ النَّاسِ طُرًّا فِي مَكَانٍ أَعْرَابُهُ أَكْرَادُهُ

وَقَوْلِهِ [فِي « الْعُكْبَرِيُّ » ٣/١٢٣] :

وَبِالْفَاظِكَ اقْتَدَى فَإِذَا عَزَّ اكَ قَالَ الَّذِي لَهُ قُلْتُ قَبْلًا

وَقَوْلِهِ [فِي « الْعُكْبَرِيُّ » ٣/٢٣٥] :

نَطِقْ إِذَا حَظَّ الْكَلَامُ لِثَامَهُ أَعْطَى بِمَنْطِقِهِ الْقُلُوبَ عُقُولًا^(٣)

(١) فِي الْبَيْتِ لَفٌّ وَنَشْرٌ مَرْتَبٌ .

(٢) الْخُرْصَانُ : الْأَسْتَةُ .

(٣) النَّطِقُ : جَبَّذَ الْقَوْلَ وَالنَّطِقَ . اللَّثَامُ : مَا يَجْعَلُ عَلَى الْوَجْهِ مِنَ الْعِمَامَةِ ، كَانَتْ الْعَرَبُ تَفْعَلُهُ لِأَجْلِ حَرِّ الشَّمْسِ ، وَإِذَا أَرَادُوا أَنْ يَتَكَلَّمُوا كَشَفُوا اللَّثَامَ .

وقوله وقد أساء فيه الأدب [في «العكبري» ٣/ ٢٤٤] :

لَوْ كَانَ لَفُظُكَ فِيهِمْ مَا أَنْزَلَ الْقُرْآنَ وَالْثَوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ

[مِنَ الْكَامِلِ]

وقوله [في «العكبري» ١/ ٦٢] :

عَلِيمٌ بِأَسْرَارِ الدِّيَانَاتِ وَاللُّغَى لَهُ خَطَرَاتٌ تَفْضَحُ النَّاسَ وَالْكِتَابَ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقوله [في «العكبري» ٢/ ١٨٠-١٨٣] :

بَلَّغْتُهُ الْبَلَاغَةَ الْجُهْدَ بِالْعَفْوِ وَنَالَ الْإِسْهَابَ بِالْإِجَارِ
مَلِكٌ مُشِيدٌ الْقَرِيضِ لَدَيْهِ يَصْنَعُ الثُّوبَ فِي يَدَيَّ بَرَّازِ

[مِنَ الْخَفِيفِ]

وقوله [في «العكبري» ١/ ١٨٢] :

فَتَى يَمَلَأُ الْأَفْعَالَ رَأْيًا وَحِكْمَةً وَبَادِرَةً أَحْيَانَ يَرْضَى وَيَغْضَبُ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقوله [في «العكبري» ١] :

إِذَا مَا صَافَحَ الْأَبْصَارَ يَوْمًا تَبَسَّمتِ الضَّمَائِرُ وَالْقُلُوبُ

[مِنَ الْوَافِرِ]

وقوله [في «العكبري» ٢/ ١٦٥] :

بِأَبِي وَأُمِّي نَاطِقٌ فِي لَفْظِهِ ثَمَنٌ تَبَاعُ بِهِ الْقُلُوبُ وَتُشْتَرَى

[مِنَ الْكَامِلِ]

وما أكثر ما أصاب الناظم الهدف في إكباره الفصاحة ؛ لأنَّ حدَّ الإنسان - بعدَ الحيوانية - الناطقية ، وبمقدار ما تتفاوتُ الناسُ في الحدِّ . تتفاوتُ في المحدود .

وما أحسن قول الخنساء :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

كَأَنَّ كَلَامَ النَّاسِ جُمِعَ حَوْلَهُ فَأُطْلِقَ فِي إِخْسَانِهِ يَتَخَيَّرُ

وكان يقال في الصدر الأول : إنَّ الفصاحة انتهت إلى أربعة : علي ، وابن عباس ، وعائشة ، ومعاوية .

وقال بعض العلويين : سئل الشعبي - وأنا حاضر - عن أفصح الناس ؟ فقال : معاوية وابنه ، وسعيد ابن العاص وابنه ، فتغير وجهي ، وقلت له : أينك من علي ؟ قال : إنَّ هذا يسأل عن فصحاء البشر ، ولم يسأل عن فصحاء الملائكة .

وشبيه بهذا قول الواقدي : سئل المهلب عن الشجعان ؟ فقال : ابن الكلبية - يعني مصعب بن الزبير - وعمر بن عبيد الله بن معمر ، وعباد بن الحصين الحبطي ، قيل له : فأين أنت من عبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن حازم ؟ فقال : إنَّما كنتا في ذكر الإنس ، ولم تكن في ذكر الجن .

وقال الشعبي : ما سمعتُ أحداً يتكلم إلا ودِدْتُ أَنَّهُ سَكَتَ وَإِنْ أَحْسَنَ ، إِلَّا زِيَادًا . . فَإِنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ قَطُّ مِنْ حَسَنِ إِلَّا إِلَى أَحْسَنَ مِنْهُ .

وجاء أعرابي إلى حلقة الحسن وسمعه يتكلم ، فقال : هو فصيح إذا لفظ ، نصيح إذا وعظ :

[مِنَ الْبَسِيطِ]

مُلَقَّنٌ مِنْهُمْ فِيمَا يُحَاوِلُهُ جَمٌّ خَوَاطِرُهُ جَوَابُ أَفَاقِ

وقال أبو تمام [في ديوانه « ٧٣ / ٢ »]:

مِنَ السَّحْرِ الحَلَالِ لِمُجْتَنِيهِ وَلَمْ أَرِ قَبْلَهُ سِحْرًا حَلَالًا

وهو من قوله صلى الله عليه وسلم: « إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا »^(١).

[من الكامل]

وقال الرضي [في ديوانه « ٤٨١ »]:

إِلَّا تَكُنْ فِي الجَمْعِ أَمْضَى طَعْنَةً فَلَأَنْتَ أَمْضَى خُطْبَةً فِي المَجْمَعِ

وإني لأحس بانكسار عظيم في نفسي كلما نظرت في كتب الجاحظ، أو ابن المقفع، أو رسائل القدماء ومراجعاتهم، أو ترسل لسان الدين بن الخطيب، أو عبارات السعد، أو الغزالي.

كما لا أخلو عن شيء من النخوة وقت ما كنت أدرس في « مفاتيح الغيب » للإمام الرازي؛ إذ كنت أعلق المعنى بذهني ثم ألقيه في عبارة، يشهد العارف بمقادير الكلام أنها على البديهة خير من عبارته التي يتروى فيها، فله الحمد والمنة، ولأبي ولسائر مشايخي الرضوان والرحمة.

* * *

[من الطويل]

قال أبو الطيب المتنبّي في « العكبري » « ٢٤٦ / ٢ »:

أَلَا أَيُّهَا القَيْلُ المُقِيمُ بِمَنْبِجٍ وَهَمَّتُهُ فَوْقَ السَّمَائِينَ تُوضِعُ

[شرح المطلع]

(القَيْلُ) في الأصل: ملك حمير، وقد سبق في غير هذا المجلس كلام يتعلّق به. (و مَنْبِجُ) : بلد بـ (الشام)، (و السماكان) : نجمان، هما: السماك الراح، والسماك الأعزل. (و الإيضاعُ) : الإسراع.

[المديح بكبر النفس وعلو الهمة]

وما أكثر ما يثني الناظم على من يمدح بكبر النفس، وعلو الهمة؛ لما يجد في صدره من ذلك، فمنه قوله: [من الطويل]

لَهُ هِمَمٌ لَا مُنْتَهَى لِكِبَارِهَا وَهَمَّتُهُ الصُّغْرَى أَجَلٌ مِنَ الدَّهْرِ^(٢)

[من البسيط]

وقوله [في « العكبري » « ١٧١ / ١ »]:

حَتَّى أَصَابَ مِنَ الدُّنْيَا نَهَائِتَهَا وَهَمَّتُهُ فِي ابْتِدَاءَاتِ وَتَشْيِيبِ

[من الطويل]

وقوله [في « العكبري » « ٢٧٥ / ١ »]:

فَتَى يَشْتَهِي طُولَ البِلَادِ وَوَقْتَهُ تَضِيقُ بِهِ أَوْقَاتُهُ وَالمَقَاصِدُ

(١) سلف وأخرجه عن ابن عمر رضي الله عنهما البخاري (٥١٤٦) في (النكاح).

(٢) البيت لبكر بن النطّاح في « ديوانه ».

وقوله [في «العكبري» ٤/ ٢٧٧] :

[من المنسرح]

تَجَمَّعَتْ فِي فُؤَادِهِ هَمَمٌ مِلءُ فُؤَادِ الزَّمَانِ إِحْدَاهَا

وقوله [في «العكبري» ٣/ ٣٧٨] :

[من الطويل]

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ

وقوله [في «العكبري» ١/ ١٨٢] :

[من الطويل]

وَهَبْتَ عَلَى مِقْدَارِ كَفِّي زَمَانَنَا وَنَفْسِي عَلَى مِقْدَارِ كَفِّكَ تَطْلُبُ

[من المنسرح]

وقال العطوي فيما يشبه بيت القصيد من طرف خفي :

إِنْ كُنْتُ أَصْبَحْتُ لِأَسَاءِ خَلْقًا فَهَمَّتِي فَوْقَ هَامَةِ الْمَلِكِ

[من الرجز]

وقال التنوخي :

وَأَنْفُسٍ مَسْكَنُهَا بَيْنَنَا وَهَمَّهَا فَوْقَ السَّمَاءِ وَالشَّهَا

[من المتقارب]

وقال النعيمي الفقيه [في «طبقات الشافعية» ٥/ ٢٣٨] :

إِذَا أَعْطَشَتْكَ أَكُفُّ اللَّئَامِ كَفَّتْكَ الْقَنَاعَةُ شِبَعًا وَرِيًّا
فَكُنْ رَجُلًا رِجْلُهُ فِي الثَّرَى وَهَامَةٌ هَمَّتِهِ فِي الثَّرِيَّا

[من مُخَلَعِ البسيط]

وقال بعض الصوفيّة :

يَا رَبِّ شَخْصٍ تَرَى قَرِيبًا وَرُوحَهُ فِي الْعُلَا تَجُولُ

[أقسام الصوفية عند انبعاث الأنوار]

وما زال أولئك الفريق ، وسالكوا تلك الطريق ، متعلقوا الأرواح بالجمال الأقدس ، والملا العلي الأنفس ، إلا أنهم يتفاوتون عند انبعاث الأنوار^(١) ، وانكشاف الأسرار .

فمنهم : مَنْ يَغْتَرُّ بِمَجْرَدِ مَا يَشْمُ نَفْحَهُ ، وَيَشِيمُ لَمَحَهُ ، وَيَسْكُرُ مِنْ زَيْبِهِ ، وَيَتَوَهَّمُ الْخَادِمَ حَبِيبَهُ ، فَيَسْفَلُ بِهِ الْغَرَضُ ، وَيَتَكَسَّرُ عَلَيْهِ الْمَرَضُ ، وَيَنْقَلِبُ وَرَا ، وَيَفْتَتِنُ بِمَا يَرَى : ﴿ وَأَقْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا ﴾ [الأعراف : ١٧٥] .

ومنهم : مَنْ تَنَكَّرُ زَجَاجَتُهُ إِذَا انْكَشَفَتْ عَجَاجَتُهُ ، وَيَبُوحُ بِسَرِّهِ ، وَيَضْطَرُّ فِي أَمْرِهِ ، وَيَعْتَرِيهِ خَبْلٌ ، وَرَبَّمَا اخْتَلَّ عَلَيْهِ الْعَقْلُ :

[من الطويل]

سَقَوْنِي وَقَالُوا : لَا تُغْنِي وَلَوْ سَقَوْنَا جِبَالَ حُنَيْنٍ مَا سَقَوْنِي لَعْنَتِ

ومنهم : مَنْ يَأْخُذُ الْهَيْأَمَ ، وَيَغْلِبُهُ الْإِصْطِلَامُ^(٢) ، فَتَرَاهُ حَاضِرًا وَهُوَ غَائِبٌ ، وَجَامِدًا وَهُوَ ذَائِبٌ ، ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدًا وَهِيَ نَمْرٌ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ [النمل : ٨٨] ، وَهَذَا سِرٌّ غَيْرُ مَطْوِيٍّ ، وَلَهُ فِيهَا يُتَعَارَفُ شَاهِدٌ مَرْوِيٌّ ، هُوَ [فيما رواه الأصفهاني

(١) الانبعاث : أن يبين عليك الشيء فجأة وأنت لا تشعر . وانبعاث المزن : انبعاث بالمطر وفي الكلام : اندفع .

(٢) الاصطلام : الاستئصال . والمراد غياب الحس والفكر ..

في «الأغاني» ٢/٦٥] أَنَّ المَجْنُونِ جَاءَهُ بَعْضُ قَرَابَتِهِ يَلُومُهُ ، وَيَعْذَلُهُ ، وَيَسْتَكْفُهُ ، وَيَسْلِيهِ ، وَهُوَ مَصْغٌ لِكَلَامِهِ ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَرِدْ عَلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ : مَا عِنْدَكَ ؟ قَالَ لَهُ : وَمَا قُلْتَ ؟! فَإِنِّي لَمْ أَفْقَهُ خَطَابَكَ ، وَإِنِّي لَمَنْهُوبُ الْفِكْرِ ، مَذْهُوبُ الْعَقْلِ ، مُبْتَلَبُ الْبَالِ ، وَأَنْشَأَ يَقُولُ [في «ديوانه» ٢٣٤] :

وَأُدِيمُ لِحَظِّ مُحَمَّدِي حَتَّى يَرَى
وَشُغِلْتُ عَنْ فَهْمِ الْحَدِيثِ سِوَى

وَاللهِ دَرُّ الَّذِي يَقُولُ [في «المدح» ٢٥٠] :

وَاللهِ لَوْ حَلَفَ الْعُشَّاقُ أَنَّهُمْ

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ رَابِعَةَ الْعَدْوِيَّةِ [في «ديوانها» ٧٩٧٨] :

إِنِّي جَعَلْتُكَ فِي الْفُؤَادِ مُحَمَّدِي
فَالْجِسْمُ مِنِّي لِلْجَلِيسِ مُؤَانِسٌ

وَمِنْهُمْ : الزَاكِي نَبَاتُهُ ، الرَّاسِخُ ثَبَاتُهُ ، الْكَامِلَةُ صِفَاتُهُ ، أَوْلَئِكَ هُمْ حَجَجُ اللهِ وَبَيِّنَاتُهُ : ﴿ يَثْبُتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] .

* * *

[قال أبو الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّي فِي «الْعُكْبَرِيِّ» ٢/٢٤٧] :

أَلَيْسَ عَجِيباً أَنَّ وَضْفَكَ مُعْجِزٌ
وَأَنَّ ظُنُونِي فِي مَعَالِيكَ ظُلْعٌ

[كل ما يقال وكل ما يكتب دون قدر الممدوح]

هُوَ شَبِيهٌ بِقَوْلِهِ [في «العُكْبَرِيِّ» ٢/٢٦٦] :

أَكَلْتُ مَفَاخِرَكَ الْمَفَاخِرَ وَانْتَنَتُ
عَنْ شَأْوِهِنَّ مُطِيٌّ وَصَفِيٌّ ظُلْعًا^(١)

وَقَوْلِهِ [في «العُكْبَرِيِّ» ١/٣٤٠] :

يَفْنَى الْكَلَامُ وَلَا يُحِيطُ بِوَصْفِكَمْ
أَيُّحِيطُ مَا يَفْنَى بِمَا لَا يَنْفَدُ؟!

وَقَوْلِهِ [في «العُكْبَرِيِّ» ١/١١٩] :

مَحَامِدُ نَزَفَتْ شِعْرِي لِيَمْلَأَهَا
فَالَ مَا امْتَلَأَتْ مِنْهُ وَلَا نَضَبَا

وَقَوْلِهِ [في «العُكْبَرِيِّ» ٢/٢٨٧-٢٨٩] :

وَمَا حَارَتِ الْأَفْهَامُ فِي عَظْمِ شَأْنِهِ
بِأَكْثَرِ مِمَّا حَارَ فِي حُسْنِهِ الطَّرْفُ

(١) شَأْوَهُنَّ : سَقْفَهُنَّ . ظُلْعٌ : جَمْعُ ظَالِعٍ ، وَهُوَ الْغَاظُ مِنْ يَدٍ أَوْ رِجْلِ ، أَي : الْأَعْرَجُ .

فَوَاعَجَبَا مِنِّي أَحَاوِلُ نَعْتَهُ

وَقَدْ فَيَّيْتُ فِيهِ الْقَرَّاطِيْسُ وَالصُّخْفُ

وقوله [في «العُكْبَرِيّ» ١/ ١٩٤] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

تَجَاوَزَ قَدْرَ الْمَدْحِ حَتَّى كَانَهُ

بِأَبْلَغِ مَا يُنْتَى عَلَيْهِ يُعَابُ

والأخيرُ من قولِ البُحْتَرِيِّ ، وقد مرَّ في غيرِ هذا المكانِ [في «ديوانه» ١/ ١٥] :

[مِنَ الْخَفِيفِ]

جَلَّ عَن مَذْهَبِ الْمَدِيحِ فَقَدْ كَا

دَ يَكُونُ الْمَدِيحُ فِيهِ هِجَاءٌ

وقالِ النَّاظِمُ أَيضاً [في «العُكْبَرِيّ» ٣/ ٨١] :

[مِنَ الْبَسِيطِ]

وَقَدْ وَجَدْتُ مَكَانَ الْقَوْلِ ذَا سَعَةٍ

فَإِنْ وَجَدْتَ لِسَانًا قَائِلًا فَقُلِ

وقالِ أَشْجَعُ [في «ديوانه» ٢٤٨] :

[مِنَ الْوَافِرِ]

مَدَحْنَاهُمْ فَلَمْ نُذْرِكْ بِمَدْحِ

مَآثِرِهِمْ وَلَمْ نَتْرِكْ مَقَالًا

وقالِ ابْنُ الْحَجَّاجِ :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

هُوَ الْبَخْرُ إِنْ حَدَّثْتَ عَن مُعْجَزَاتِهِ

ضَعُفَتْ عَن اسْتِغْرَاقِ تِلْكَ الْعَجَائِبِ

وَإِنْ رَامَ شِعْرِي أَنْ يُحِيطَ بِوَصْفِهِ

أَحَاطَ بِشِعْرِي الْعَجْزُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

وقالِ الماكِيّ [بلِ النامي في «قرى الضيف» ١/ ٢٨٤] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

جَهَدْتُ وَلَمْ أَبْلُغْ مَدَاكَ بِمَدْحَةٍ

وَلَيْسَ مَعَ التَّقْصِيرِ عِنْدِي سِوَى الْعُذْرِ^(١)

وقالِ الرشيدُ لبعضِ الشعراءِ : هلِ أَدَّيْتُ فِينَا شَيْئاً ؟ قالَ : يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، المَدِيحُ كُلُّهُ دُونَ قَدْرِكَ ، والشعرُ فَيْكَ فَوْقَ قَدْرِي ، وَلَكِنِّي اسْتَحْسِنُ قَوْلَ الْعَتَابِيِّ :

[مِنَ الْبَسِيطِ]

مَاذَا عَسَى مَادِحٌ يُنْيِي عَلَيْكَ وَقَدْ

نَادَاكَ فِي الْوَحْيِ تَقْدِيسٌ وَتَطْهِيرٌ

فُتَّ الْمَمَادِحِ إِلَّا أَنْ أَلْسُنَنَا

مُسْتَنْطَقَاتٌ بِمَا تَخْفِي الضَّمَايِرُ

وقد أخذهُ البوصيرِيُّ ، أو غيرهُ في مدحِ سيِّدِ الوجودِ فقالَ :

[مِنَ الْبَسِيطِ]

مَاذَا عَسَى الشُّعْرَاءُ الْيَوْمَ قَائِلَةٌ

مِنْ بَعْدِ مَا مَدَحَتْ حَمَّ تَنْزِيلُ

وقالِ ابنُ هانِيءِ الأندلسيِّ - وقد أساءَ الأَدبَ على اللهِ ؛ إذ قالَ هذا في مخلوقٍ - [في «ديوانه» ٩١] :

[مِنَ الْبَسِيطِ]

أَتَبُّتُهُ فِكْرِي حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ

غَايَاتِهَا بَيْنَ تَصْوِيبِ وَتَضْعِيدِ

أَبْصَرْتُ مَوْضِعَ بُرْهَانِ يَلُوحُ وَمَا

أَبْصَرْتُ مَوْضِعَ تَكْيِيفِ وَتَحْدِيدِ

وقالِ الشريفُ الرضيُّ فيما يمكنُ أَنْ يعدَّ مِنْ هذا القبيلِ [في «ديوانه» ٧٩٥] :

[مِنَ الْمُنْسَرِحِ]

يَا مُخْرَسَ الدَّهْرِ عَن مَقَالَتِهِ

كُلُّ زَمَانٍ عَلَيْكَ مُتَّهَمٌ

(١) في «قرى الضيف» : (سوى جهدي) بدل : (سوى العذر) .

شَخْصُكَ فِي وَجْهِ كُلِّ دَاجِيَةٍ ضَحَىٰ وَفِي كُلِّ مَجْهَلٍ عَلْمٌ

وقد مرَّ بعضُ ما هنا في الكلامِ على قولِهِ [في «العُكْبَرِيِّ» ٢٩/٤] :

[مِنَ الكَامِلِ]

كَصِفَاتِ مَوْلَانَا أَبِي الْفَضْلِ النَّبِيِّ فَأَنْطَقَ وَاصِفِيهِ وَأَفْحَمَا

مِنَ المَجْلِسِ الخَامِسِ .

* * *

[مِنَ الطَّوِيلِ]

: قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ المَتَنَبِيُّ فِي «العُكْبَرِيِّ» ٢٤٧/٢ :

وَأَنَّكَ فِي ثُوبٍ وَصَدْرِكَ فِيكُمَا عَلَى أَنَّهُ مِنْ سَاحَةِ الْأَرْضِ أَوْسَعُ

[شرح المطلع والانتقاد عليه]

يقولُ : أليسَ عَجيباً أَنَّ صَدْرَكَ هُوَ أَوْسَعُ مِنَ الْأَرْضِ ؟! قد اشتمَلَ عليه ثوبٌ ، وتألَّفُ البيتِ فيه ضِعْفٌ ، وقولُهُ :
(وصدركَ فيكما) مِنَ الكلامِ الغثِ البَارِدِ ، وهو مثلُ قولِهِ [في «العُكْبَرِيِّ» ١٢٠/٢] :

[مِنَ البَسيطِ]

تَضِيقُ عَن جَيْشِهِ الدُّنْيَا وَلَوْ رَحِبَتْ كَصَدْرِهِ لَمْ تَبْنِ فِيهَا عَسَاكِرُهُ

وقولِهِ [في «العُكْبَرِيِّ» ٦٦-٦٧/٣] :

[مِنَ المِيقَاتِ]

أَيُّقَدَحُ فِي الخَيْمَةِ العُدْلُ وَتَشْمَلُ مَنْ دَهَرَهَا يَشْمَلُ
تَضِيقُ بِشَخْصِكَ أَرْجَاؤُهَا وَيَرْكُضُ فِي الوَاحِدِ الجَحْفَلُ

[مِنَ الطَّوِيلِ]

وقولِهِ [في «العُكْبَرِيِّ» ١٥٤/٢] :

فَتَى لَا يَضُمُّ القَلْبُ هِمَّاتِ قَلْبِهِ وَلَوْ ضَمَّهَا قَلْبٌ لَمَا ضَمَّهُ صَدْرُ

[مِنَ البَسيطِ]

وقولِهِ [في «العُكْبَرِيِّ» ٧٩/٣] :

ضَاقَ الزَّمَانُ وَوَجَّهُ الْأَرْضِ عَن مَلِكِ مِلءِ الزَّمَانِ وَمِلءِ السَّهْلِ وَالجَبَلِ

[مِنَ المِيقَاتِ]

وقولِهِ [في «العُكْبَرِيِّ» ١٥٤/٤] :

وَمَنْ ضَاقَتِ الْأَرْضُ عَن نَفْسِهِ حَرَىٰ أَنْ يَضِيقَ بِهَا جِسْمُهُ^(١)

[مِنَ المُنسَرَجِ]

وقولِهِ [في «العُكْبَرِيِّ» ٢٧٧-٢٧٨/٤] :

تَجَمَّعَتْ فِي فُؤَادِهِ هَمٌّ مِثْلُ فُؤَادِ الزَّمَانِ إِحْدَاهَا
فَإِنْ أَتَى حَظُّهَا بِأَزْمِنَةٍ أَوْسَعَ مِنْ ذَا الزَّمَانِ أَبْدَاهَا

(١) حَرَى : خَلِيقٌ وَحَقِيقٌ .

لَمْ يُرْضِ قَلْبَ أَبِي شَجَاعٍ مَبْلَغُ قَبْلَ الْمَمَاتِ وَلَمْ يَسْغُهُ مَوْضِعُ

[تعظيم شأن الممدوح وأن ما في صدره أكبر من الدنيا]

وقال ابن مطير ، أو مروان بن أبي حفصة ، في رثاء معن [ابن مطير في «ديوانه» ٦٣] :

وَيَا قَبْرَ مَعْنٍ كَيْفَ وَارَيْتَ جُودَهُ وَقَدْ كَانَ مِنْهُ الْبِرُّ وَالْبَحْرُ مُتْرَعًا؟^(١)
بَلَى قَدْ وَسِعَتِ الْجُودَ وَالْجُودُ مَيَّتٌ وَلَوْ كَانَ حَيًّا ضِيقَتْ حَتَّى تَصَدَّعَا

وقال أشجع السلمي في رثاء عمر بن سعيد بن سلم بن قتيبة بن مسلم [في «ديوان الحماسة» ١/ ٣٥٥] :

وَأَصْبَحَ فِي لَحْدٍ مِنَ الْأَرْضِ ضَيْقٌ وَكَانَتْ بِهِ حَيًّا تَضِيقُ الصَّحَاصِحُ^(٢)

في مرثية جزلة ، تعدد من محاسن المرثي ، وهي في «ديوان الحماسة» [١/ ٣٥٥] ، مرر بعضها في غير هذا

المجلس ، وقد ذكرنا البيت في شرح قوله [في «العكبري» ٢/ ٣٣٥] :

مِنْ كُلِّ مَنْ ضَاقَ الْفَضَاءُ بِجَيْشِهِ حَتَّى قَضَى . . فَحَوَاهُ لَحْدٌ ضَيْقُ

وقال آخر [وهو عبد الله بن أيوب التيمي في «ديوان الحماسة» ١/ ٣٩٦] :

عَجِبًا لِأَرْبَعِ أَذْرُعٍ فِي خَمْسَةِ فِي جَوْفِهِ جَبَلٌ أَشْمٌ كَبِيرٌ

وقال أبو تمام [في «ديوانه» ٢٤٣] :

وَرَحْبُ صَدْرٍ لَوْ أَنَّ الْأَرْضَ وَسِعَتْهُ كَوْسَعِهِ لَمْ يَضِقْ عَنْ أَهْلِهِ بَلَدٌ

وقال أبو عبادة [في «ديوانه» ١/ ١٠٥] :

كَرِيمٌ إِذَا ضَاقَ الزَّمَانُ فَإِنَّهُ يَضِلُّ الْفَضَاءَ الرَّحْبُ فِي صَدْرِهِ الرَّحْبِ

وقال [في «ديوانه» ٢/ ١٣١٩-١٣٢٠] :

فَلَنْ تَكْبُرَ الدُّنْيَا عَلَيْهِ بِأَسْرَهَا وَقَدْ وَسَعَتْهَا سَاحَةٌ مِنْ رَبَاعِهِ
تَضِيعُ صُرُوفُ الدَّهْرِ فِي بُعْدِ هَمِّهِ وَتَتَوَى الرَّزَايَا فِي اتِّسَاعِ ذِرَاعِهِ^(٣)

وقال [في «ديوانه» ١/ ٧٤] :

يَحْمِلُنْ كُلُّ مُفَرَّقٍ فِي هِمَّةٍ فَضْلِي يَضِيقُ بِهَا الْفَضَاءُ السَّبَسْبُ^(٤)

وقال السري الرفاء يرثي مصلوباً [في «ديوانه» ٣٥٦] :

يَعِزُّ عَلَى الْعَلِيَاءِ أَنْ حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ظُبَا أَسْيَافِهِ وَالْعَوَامِلِ

(١) مترع : مملوء .

(٢) الصحاصح : جمع صحح ، وهو الأرض الجرداء المستوية .

(٣) تتوى : تهلك .

(٤) السبسب : المفازة . الفضل : الثوب الواحد يقسر عليه الرجل والمرأة وتبدله للأعمال .

وَلَيْسَ بِعَارِ مَا عَرَكَ وَإِنَّمَا
أَحَلَّكَ مِنْ أَعْلَى الْهَوَاءِ مَحَلَّةً
حَمَاكَ اتَّسَاعُ الصَّدْرِ ضَيْقَ الْمَنَازِلِ
نَأَتْ بِكَ عَنْ ضَيْقِ الثَّرَى وَالْجَنَادِلِ

[مِنَ الْكَامِلِ]

وقال [في «ديوانه» ٣١٤] :

رَحِبُ الْمَنَازِلِ مَا أَقَامَ فَإِنْ سَرَى
فِي جَحْفَلٍ تَرَكَ الْفَضَاءَ مَضِيحًا

وقال أبو الحسن ابن الأنباري في قصيدته ، التي أجاد فيها ، وسبق لنا ذكرها [في «قرى الضيف» ٤٣٩/٢] : [مِنَ الْوَافِرِ]

وَلَمَّا ضَاقَ بَطْنُ الْأَرْضِ عَنْ أَنْ
أَصَارُوا الْجَوْ قَبْرَكَ وَاسْتَنَابُوا
تَضُمَّ عُلَاكَ مِنْ بَعْدِ الْمَمَاتِ
عَنِ الْأَكْفَانِ ثُوبَ السَّافِيَاتِ

[سعة الصدر من آيات السؤدد]

ولا يخفى أَنَّ سَعَةَ الصَّدْرِ آيَةُ السُّؤدِدِ ، وَسُلْمُ الشَّرْفِ ، وَاللَّهُ جَلَّ شَأْنُهُ يَقُولُ : ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ
لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام : ١٢٥] .

وانتهت بموسى عليه السلام الأمانى عند قوله : ﴿رَبِّ أَسْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَأَحْلِلْ عُقْدَةَ مِنِّ لِسَانِي﴾ [طه :
٢٧-٢٥] .

وما طلبه موسى أعطيه نبينا صلوات الله عليهم من غير سؤال ، فقد قال له ربه : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح : ١] .
وجعله مع ذلك أفصح الناس .

[أمثلة من سعة صدر معاوية وحلمه]

وذكر ابن أبي الحديد [في «شرح النهج»] أمثلة من سعة صدر معاوية :

أَحَدُهَا : أَنَّهُ وَفَدَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْكُوفَةِ حِينَما خَطَبَ لابنه يزيد بولاية العهد من بعده ، وفي أهل (الكوفة) هاني بن عروة
المرادي ، وكان سيِّداً شريفاً ، فقال - والناسُ حوله في مسجد (دمشق) - : عجباً لمعاوية يوطئ الأمر لائنه ،
وحالُه معلومٌ ، يريد أن يقسرنَا عليه ، وما ذلك بكائنٍ والله .

فأسرع بها غلامٌ من قريشٍ إلى معاوية ، فقال : ارجع إليهِ ، وانصحه إذا خفت عنه الناسُ ، وقُل ما شئتَ ، فقال له : قد
وصلت كلمتك إلى معاوية ، وما لك والمجاهرة بهذا ، وأنت في أيديهم ، وهم بنو أمية لا يخافون إلا ، ولا يرقبون
ذمةً ، وما دعاني لهذا غير النصح لك ، والإشفاق عليك ، فقال هاني : يا ابن أخي ، والله ما خرج هذا إلا من صدر
معاوية ، فقال الفتى : وما أنا ؟ ومعاوية لا يعرفني ولا أعرفه ، فقال له : وما عليك ، إذا لقيته . . فقل له : يقول لك
هاني : والله ما إلى ذلك من سبيلٍ ، فدخل الفتى على معاوية ، فأخبره ، فقال : نستعينُ عليه بالله ، ثم قال بعد أيامٍ
للفرد : ارفعوا حوائجكم - وهاني فيهم - فرفعوا إليه حوائجهم ، ففضاها ، ولما رفع إليه هاني حاجته . . رماها إليه ،
وقال : كنت أرى لك شأنًا ، ثم تسأل هذا النزر الحقيق ، فاطلب على قدر هممك ، فزاد في الرقة ما زاد ، فرماها إليه
ثانيةً ، ولم يزل يردها عليه ، ويستزيده ، حتى انقطعت به الأمانى ، واستعبده الإحسان ، فقال : لا والله ما بقي في
نفسى إلا حاجةٌ واحدةٌ ، قال : ما هي ؟ قال : أن توليني الأخذ بالبيعة ليزيد من أهل (العراق) ، قال : دونك ذلك .
فأحكَم أمرها ، ووثق عهدَها ، بمعونة من المغيرة بن شعبة ، وكان إذ ذاك والي (العراق) .

والثاني : مرّت قافلةً مِنَ اليمَنِ لمعاويةَ بـ (المدينة) ، فوثبَ عَلَيْهَا الحسينُ بنُ عليٍّ فأخذَهَا ، وكتبَ إِلَى معاويةَ :
أَمَا بَعْدُ : فَإِنَّ عَيْرًا مَرَّتْ بِنَا مِنَ (اليمَنِ) ، تَحْمِلُ مَالًا ، وَحُلَلًا ، وَعَنْبَرًا ، وَإِنِّي احْتَجْتُ إِلَيْهَا ، فَأَخَذْتُهَا ،
والسلامُ .

فكتبَ إِلَيْهِ معاويةُ كتاباً يقولُ فِيهِ : وإيْمُ اللَّهِ ، لو تركتَ ذلكَ حتَّى يصيرَ إلينا ، ثمَّ طلبتَهُ . . لمْ نمنعُهُ دونكَ ،
وَإِنِّي لَأَرَى فِي رَأْسِكَ يَا بَنَ أَخِي نزوَةً ، وبيوْدِي أَن أَكُونَ صَاحِبَهَا ؛ لِأَغْفِرَهَا لَكَ وَكُتِبَ أَسْفَلَ الكِتَابِ [في
ديوانه ١٠٠] :

يَا حُسَيْنُ بِنَ عَلِيٍّ لَيْسَ مَا جِئْتَ بِالسَّائِغِ يَوْمًا فِي الْعِلَلِ
أَخَذَكَ الْمَالَ وَلَمْ تُؤْمَرْ بِهِ إِنَّ هَذَا مِنْ حُسَيْنٍ لَعَجَلِ
قَدْ أَجَزْنَاهَا وَلَمْ نَغْضَبْ لَهَا وَاحْتَمَلْنَا مِنْ حُسَيْنٍ مَا فَعَلِ

والثالثُ : أَنَّهُ كَانَ لَهُ بستانٌ بـ (الطائفِ) ، إِلَى جانبِهِ بستانٌ آخَرُ لابنِ الزبيرِ ، فطفِقَ غلمانُهُ يعيشونَ فِي بستانِ ابنِ
الزبيرِ ، فكتبَ إِلَيْهِ يستكفُهُم ، ويقولُ : إنْ دَفَعْتَهُمْ عَنِّي . . وَإِلَّا كَانَ لِي وَلَكَ شَأْنٌ ، فاستشارَ أَصحابَهُ فِي الجوابِ ،
فقالَ لَهُ أَحدهم - وأظنُّهُ ابنُهُ يزيدُ - : أَرَى أَن تَبْعَثَ لَهُ بِجيشٍ ، أَوَّلُهُ عِنْدَهُ ، وَآخِرُهُ عِنْدَكَ ، حتَّى يَعْرِفَ مَكَانَهُ ، فقالَ : أَوْخَيْرُ
مِنَ ذلكَ ، فكتبَ إِلَيْهِ يَعْتَرِفُ بِفَضْلِهِ ، وَفَضْلِ أَبِيهِ ، وَسَابِقَتِهِ ، وَأَضَافَ بستانَهُ وَغلمانَهُ إِلَى بستانِ ابنِ الزبيرِ وَغلمانِهِ .

[لا يفيد الكرم والعمو إلا مع أهله]

ثُمَّ إِنَّهُ لَا يَفِيدُ الْكِرْمَ وَالْعَفْوُ إِلَّا مَعَ أَهْلِهِ ، مِمَّنْ يَقودُهُمُ الْإِحْسَانُ بِخِزَامِهِ ، وَيَقْتُلُهُمُ الْعَفْوُ بِحِسامِهِ ، قالَ النَّاظِمُ [في
المُعَبَّرِي ٢٨٨/١] :

وَمَا قَتَلَ الْأَحْرَارَ كَالْعَفْوِ عَنْهُمْ وَمَنْ لَكَ بِالْحُرِّ الَّذِي يَخْفِظُ الْيَدَا

وقالَ [في « الْمُعَبَّرِي » ١٣٦/٤] :

وَأَحْلُمُ عَنْ خِلِّي وَأَعْلَمُ أَنَّهُ مَتَى أَجْزِهِ حِلْمًا عَلَى الْجَهْلِ يَنْدَمِ

[كل نكبات التاريخ أصلها اصطناع المعروف إلى غير أهله]

أَمَّا إِذَا كَانَ مَعَ غَيْرِ أَهْلِهِ . . فَإِنَّهُ لَا يَعُودُ إِلَّا بِسُوءِ الْمَغْبَةِ ، وَقَدْ فَكَّرْتُ مرَّةً فِي اصطناعِ المَعْرُوفِ إِلَى اللِثَامِ ، فلمْ أَرَ
نَكْبَةً لَهَا فِي التَّارِيخِ ذِكْرٌ إِلَّا كَانَ أَصْلُهَا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ ، حتَّى لَقَدْ ذَكَرْتُ فِي مَقَالٍ نَافِعٍ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِينَ واقِعَةً ، كُلُّهَا
يَصْلُحُ شَاهِدًا لِمَا أَقُولُ ، مِنْهَا : قَوْلُهُ جَلَّ شَأْنُهُ : ﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسِيَّ أَرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا
قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ [القصص : ١٩] ؛ إِذْ لَمْ يَغِشْ عَلَى مُوسَى إِلَّا
الإِسْرَائِيلِيُّ الَّذِي نَصَرَهُ بِالْأَمْسِ ، وَقَدْ جَرَّبْتُ ذلكَ فِي نَفْسِي ، وَقانا اللَّهُ شَرًّا مِنْ أَحْسَنًا إِلَيْهِ .

وَصَدَّقَ سَفِيانُ [الثوريُّ] فِي قَوْلِهِ [في « حلية الأولياء » ٣٩٠/٦] : ما وَجَدنا أَصْلَ كُلِّ عداوَةٍ . . سِوَى اصطناعِ المَعْرُوفِ إِلَى
غَيْرِ أَهْلِهِ .

وقد قالَ زهيرٌ [في « ديوانه » ٢٦] :

وَمَنْ يَفْعَلِ المَعْرُوفَ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ يَعُدُّ حَمْدَهُ ذَمًّا عَلَيْهِ وَيَنْدَمِ

وقال بعض الأعراب [في «مجمع الأمثال» ١٤٤/٢] :

[من الطويل]

وَمَنْ يَفْعَلِ الْمَعْرُوفَ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ
بَرَّاهَا وَرَبَّاهَا فَلَمَّا تَمَكَّنَتْ
يُجَازِي كَمَا جُوزِي مُجِيرٌ أَمْ عَامِرٌ^(١)
فَرْتُهُ بِأَنْيَابِ لَهَا وَأَظْفِرِ

[وروى الميداني في «مجمع الأمثال» ٢٣٧١ أنه] رَبِّي أَحَدُهُمْ جَرَوْ ذَنْبَ يَرْضَعُهُ مِنْ شَاتِهِ ، فَلَمَّا قَوِيَ . . افترسها ، فقال :

[من الوافر]

بَقَرْتَ سُؤْيَهَتِي وَفَجَعْتَ أَهْلِي
إِذَا كَانَ الطَّبَّاعُ طِبَّاعَ سُوءِ
فَمَنْ أَنْبَاكَ أَنَّ أَبَاكَ ذِيبٌ
فَلَا لَبَنٌ يُفِيدُ وَلَا حَلِيبٌ

[من البسيط]

لَمَّا اعْتَمَدْتُمْ أَنْسَاءَ لَا حُلُومَ لَهُمْ
وَلَوْ جَعَلْتُمْ عَلَى الْأَحْرَارِ نِعْمَتَكُمْ
ضِعْتُمْ وَضَبِعْتُمْ مَنْ كَانَ يَعْتَقِدُ
حَمَتَكُمْ السَّادَةَ الْمَذْكُورَةَ الْحُشْدُ
قَوْمٌ هُمْ الْجَذْمُ وَالْأَنْسَابُ تَجْمَعُهُمْ^(٢)
بِغَيْرِ قَحْطَانٍ لَمْ يَبْرَحْ بِهِ أَوْدُ
إِذَا قُرَيْشٌ أَرَادُوا شَدَّ مُلْكِهِمْ

وقال الناظم [في «المكبري» ١٨٧/٣] :

[من الطويل]

إِذَا قِيلَ : رَفَقًا قَالَ : لِلْحِلْمِ مَوْضِعٌ
وَلَوْلَا تَوَلَّى نَفْسِهِ حَمَلَ حِلْمِهِ
وَحِلْمُ الْفَتَى فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ جَهْلٌ
عَنِ الْأَرْضِ لَانْهَدَّتْ وَنَاءَ بِهَا الْحِمْلُ

[من الطويل]

مِنْ الْحِلْمِ أَنْ تَسْتَعْمِلَ الْجَهْلَ دُونَهُ
إِذَا اتَّسَعَتْ بِالْحِلْمِ طُرُقُ الْمَظَالِمِ

وقال [في «المكبري» ١١٢/٤] :

[من الطويل]

وَفِي اللَّيْنِ ضَعْفٌ وَالشَّرَاسَةِ هَيْبَةٌ
وَمَنْ لَا يُهَبُّ يُحْمَلُ عَلَى مَرْكَبٍ وَغَيْرِ

وقال سعد بن ناشب [في «جمهرة الأمثال» ٢٧٣/١] :

[من الطويل]

إِذَا الْمَرْءُ أَوْلَاكَ الْهَوَانَ فَأَوْلِهِ
هَوَانًا وَإِنْ كَانَتْ قَرِيبًا أَوَّاصِرُهُ^(٣)

وقال أوس بن حبناء [كما في «البيان والتبيين» ٣٨٩/١] :

(١) مجير أم عامر : وهي الضُّبُّ ، مثل عربي قصته هي : طرد قوم ضبعا حتى ألجؤوها إلى خيمة أعرابي ، فأجارها ، فقالوا له : صيدنا وطريدتنا ، فقال : كلا ، والذي نفسي بيده ؛ لا تصلون إليها ما بنت قائم سفي بيدي ، فتركوه ، فقرَّب إليها لبناً ، فأقبلت تلغ فيه . . حتى شبعت ، وبينما هو نائم في جوف بيته . . إذ وثبت عليه ، فبقرت بطنه ، وذهبت ، فأخذ ابن عم له قوسه وكناته ، فلم يزل في طلبها حتى قتلها ، وأنشأ يقول :

ومن يصنع المعروف في غير أهله يلاق المذي لاقى مجير ام عامر

في أربعة أبيات انظر في «المستقصى في أمثال العرب» (٢٣٣/٢) .

(٢) الجذم - بالكسر - : الأصل ، وبالفتح : القطع .

(٣) وتتمه الأبيات :

فإن أنت لم تقدر على أن تهيئه فذره إلى اليوم الذي أنت قادرة

وقد ارتاح النبي صلى الله عليه وسلم من قول النابغة الجعديّ [في «ديوانه» ٨٥] :

وَلَا خَيْرَ فِي حِلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ بَوَادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكَدِّرَا

وقال قيس بن زهير - [في «مجمع الأمثال» ١١٦/٢] يرثي حمل بن بدر ، وهو ممّا تمثّل به عبد الله بن جعفر [في «جمهرة
خطب العرب» ١٢٧/٢] :-

أَظُنُّ الْحِلْمَ دَلَّ عَلَيَّ قَوْمِي وَقَدْ يُسْتَجْهَلُ الرَّجُلُ الْحَلِيمُ

ومن مرثي قيس في حمل بن بدر وأخيه عيينة - وكان هو الذي قتلها يوم جفر الهباءة - قوله [في «ديوان الحماسة»
٦٤/١] :

شَفَيْتُ النَّفْسَ مِنْ حَمَلٍ بِنِ بَدْرِ وَسَيِّئِي مِنْ عُيْنَةَ قَدْ شَفَانِي
وَإِنْ أَكُ قَدْ شَفَيْتُ غَلِيلَ صَدْرِي فَلَمْ أَقْطَعْ بِهِمْ إِلَّا بَنَانِي

وقال الحصين بن الحمام في مثله [في «الأغاني» ١٦٢/١٣] :

نُفِّقُوا هَاماً مِنْ رِجَالِ أَعَزَّةٍ عَلَيْنَا وَهُمْ كَانُوا أَعَوَّ وَأَظْلَمَا

وقال العديل بن الفرخ [في «ديوان الحماسة» ٢٠٨/١] :

وَإِنِّي وَإِنْ عَادَيْتُهُمْ أَوْ جَفَوْتُهُمْ لَتَأْلَمُ مِمَّا عَلَّ أَكْبَادُهُمْ كَبْدِي

وقال منصور النميري للرشيد ، حينما شدّ وطأته على العلويين [في «الأغاني» ١٦٢/١٣] :

وَإِنَّكَ حِينَ تَبْلُغُهُمْ أَذَاهُمْ وَإِنْ ظَلَمُوا لَمْخَتِرِ الضَّمِيرِ

من قطعة سبق بعضها أواخر المجلس الثالث عشر ، وغاية الغايات في الموضوع . . قول أبي عبادة [في «ديوانه»
١٢٩٩/٢] :

إِذَا اخْتَرَبْتَ يَوْمًا فَفَاضَتْ دِمَاؤُهَا تَذَكَّرْتَ الْقُرْبَى فَفَاضَتْ دُمُوعُهَا

ولم ينس لحظة الناظم منه ، فقال [في «المكبري» ٧٩/١] :

وَكَيفَ يَتِمُّ بِأَسْكَ فِي أَنْاسٍ تُصِيهِهُمْ فَيُؤْلِمُكَ الْمُصَابُ ؟!

وقال [في «المكبري» ١١١-١١٢/٢] :

بُنُو كَعْبٍ وَمَا أَنْزَتْ فِيهِمْ يَدٌ لَمْ يُذْمَهَا إِلَّا السَّوَارُ
بِهَا مِنْ قَطْعِهِ أَلَمٌ وَنَقْصٌ وَفِيهَا مِنْ جَلَالَتِهِ افْتِخَارُ
لَهُمْ حَقٌّ بِشْرِكَ فِي نِزَارٍ وَأَذْنَى الشُّرْكَ فِي أَصْلِ جَوَارٍ
لَعَلَّ بَيْنَهُمْ لِبَيْنِكَ جُنْدٌ فَأَوْلُ قُرْحِ الْخَيْلِ الْمِهَارُ^(١)

= وَتَارِبٌ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَكَ قُدْرَةٌ وَصَمٌّ إِذَا أَيْقَنْتَ أَنَّكَ عَاقِرَةٌ
(١) القُرْحُ : الخيل إذا استوت وصار لها خمس سنين . المِهَارُ : جمع مهر ، وهو الصغير من الخيل .

وَأَنْتَ أَبْرُّ مَنْ لَوْ عُوَّ أَفْنَى وَأَعْفَى مَنْ عُقُوبَتُهُ الْبَوَارُ
وَأَقْدَرُ مَنْ يُهَيِّجُهُ انْتِصَارُ وَأَحْلَمُ مَنْ يُحَلِّمُهُ اقْتِدَارُ

وقد سبق أواخر المجلس الثاني بعض ما يتعلق بالعمو ، وحكمة انتقامه صلى الله عليه وسلم من اليهود ، ومنه على قريش .

* * *

[قال أبو الطيب المتنبى في «العكبري» ٢/٢٤٨] : [من الطويل]

أَلَا كُلُّ سَمْحٍ غَيْرِكَ الْيَوْمَ بَاطِلٌ وَكُلُّ مَدِيحٍ فِي سِوَاكَ مُضَيِّعٌ

[كل مدح في غير الممدوح .. ضياع]

معناه من قول ابن الرومي [في «ديوانه» ٤/١٤٢٥] : [من الطويل]

فَكُلُّ مَدِيحٍ لَمْ يَكُنْ فِي ابْنِ صَاعِدٍ وَلَا فِي أَبِيهِ صَاعِدٍ فَهَوَّ هَابِطٌ

[مروان بن أبي حفصة وغضب المهدي عليه]

ويروى [في «تاريخ بغداد» ١٣/١٤٤] : أن مروان ابن أبي حفصة دخل على المهدي بعد موت معن بن زائدة في جماعة من الشعراء ، فيهم سلم الخاسر وغيره ، فأنشده مديحاً فيه ، فقال : من هذا ؟ قال : شاعرُ مروان ابن أبي حفصة ، فقال له المهدي : أولست القائل ؟ [في «ديوانه» ٨٣] : [من الوافر]

أَقَمْنَا بِالْيَمَامَةِ إِذْ يَسُنَا مُقَاماً لَا نُرِيدُ بِهِ زِيَالاً
وَقُلْنَا : أَيَّنَ نَرَحَلُ بَعْدَ مَعْنٍ ؟ وَقَدْ ذَهَبَ النَّوَالُ فَلَا نَوَالاً !

فكيف جئت تطلب نوالنا ، وقد ذهب النوال في زعمك؟! لا شيء لك عندنا ، جروا برجله ، فجزوا برجله حتى أخرجوه .

فلما كان العام المقبل .. تلطف حتى دخل مع الشعراء ، وإنما كانت الشعراء تدخل على الخلفاء في يوم واحد من كل عام ، وأنشده قصيدته التي استهلها بقوله : [من الكامل]

(طَرَقَتْكَ زَائِرَةٌ فَحَيَّ خِيَالَهَا)

يقول فيها [في «ديوانه» ٩٧/٩٩] : [من الكامل]

مَلِكٌ تَفَرَّعَ نَبْعُهُ مِنْ هَاشِمٍ مَدَّ الْإِلَّهَ عَلَى الْأَنَامِ ظِلَالَهَا
جَبَلٌ لِأَمْتِهِ تَلُوذُ بِرُكْنِهِ رَادَى جِبَالِ عِدَاتِهِ فَأَزَالَهَا
هَلْ تَعْلَمُونَ خَلِيفَةً مِنْ قَبْلِهِ أَجْرَى لِنَايَتِهِ الَّتِي أَجْرَى لَهَا ؟
أَفْطَمُسُونَ مِنَ السَّمَاءِ نُجُومَهَا بِأَكْفُكُمْ أَمْ تَسْتُرُونَ هِلَالَهَا ؟
أَمْ تَجْحَدُونَ مَقَالَهَ مِنْ رَبِّكُمْ جَبْرِيلُ بَلَّغَهَا النَّبِيَّ فَقَالَهَا

[رضاه عنه وجلوسه بين يديه لسمع مديح نفسه]

فأنصت لها المهدي ، ولم يزل يزحفُ شيئاً فشيئاً ، كلما سمع شيئاً منها . . حتى صارَ على البساطِ ؛ إعجاباً بها ، وارتياحاً منها ، ثم قال له : كم بيتٌ هي ؟ قال : مئة بيت ، فأمر له بمئة ألف درهم ، وهي أولُ مئة ألفٍ أُعطيها شاعرٌ في خلافة بني العباس [كما في « تاريخ بغداد » ١٣ / ١٤٥] .

[الخلفاء تطلب من مروان بن أبي حفصة سماع مرثيته لمعن]

ويروى : أن مروان ابن أبي حفصة دخلَ على جعفرِ البرمكي ، فقال له : أشدني مرثيتك في معن ، فأنشده ، حتى فرغ من القصيدة ، ودموعُ جعفرٍ تتحادرُ على خديه ، فلما فرغ . . قال له جعفرٌ : هل أثابك عليها أحدٌ من ولده ؟ قال : لا ، قال له : فلو كان معن حياً . . كم كان يشبكُ عليها ؟ قال : أربع مئة دينار ، قال له : قد أضعفناها لك عنه ، وزدناك مثل ذلك ، فاقبض من الخازن ألفاً وست مئة دينار قبل أن تنصرف إلى رحلك ، فامتدح جعفرأ بآيات ، وتسلم المال .

ويقال [في « الأغاني » ٢٠ / ٥٦] : إنه دخل على الرشيد - أيضاً - فاستنشده المرثية المذكورة ، وبين يدي الرشيد سُكْرُجَةٌ ، فملأها من دموعه^(١) ، وهي عرضة ذلك ، ولولا خشية الإملال . . لذكرتها ، ولكنها موجودة في كتب التواريخ ؛ لأنها ومرثية الحسين بن مطير^(٢) أحسن ما قيل في رثاء معن ، ولقلما ذكرت قصيدة مروان السابقة . . إلا نمتلئ بقول أبي تمام :

[من الطويل]

فإن أنا لم يمدحك عنِّي صاعراً عدوك فاعلم أنني غيرُ شاعرٍ

[من الكامل]

وقول أبي عبادة [في « ديوانه » ١١٦٩] :

ليواصلنك ركبُ شعري دائماً يزويه فيك لحسنه الأعداء

[من الطويل]

وقول الناظم [في « العكبري » ٤ / ٥٣] :

وأسمع من ألفاظه اللغة التي يلدُ بها سمعي وإن ضمنت شتمي

[من البسيط]

وقول ابن نباتة السعدي [في « المثل السائر » ٢ / ٣٢٩] :

خذها إذا أنشدت في الحي من طرب صدورها عرفت منها قوافيها

ينسى لها الراكب العجلان حاجته ويصبح الحاسد الظمان يزويها

فإنني بها جدٌ معجبٌ ، على مخالفتها لمذهبي ومشربي .

[رثاء أبي دلالة لأبي العباس السفاح وغضب المنصور عليه ثم رضاه عنه]

ولما مات أبو العباس السفاح . . دخل أبو دلالة على المنصور ، والناس يعزونه ، فأنشده [في « ديوانه » ٦٨] : [من الكامل]

أمسيت بالأنبار يا بن محمد لم تستطع عن غيرها تحويلاً

(١) قال في « الأغاني » ٢٠ / ٥٦ : فلما انتهى من إنشادها . . بكى هارون الرشيد ، ولو كان بين يديه سُكْرُجَةٌ لملأها من دموعه .

(٢) التي يقول فيها :

فيا قبرٍ مغمٍ كيف وارتيت جودة وقد كان منه البرُّ والبحرُ مُرَعَا

فَلْتَبْكِينَ لَكَ النَّسَاءَ بِعَبْرَةٍ وَلْتَبْكِينَ لَكَ الرَّجَالَ عَوِيلاً
مَاتَ النَّدَى إِذْ مَتَّ يَا بْنَ مُحَمَّدٍ فَجَعَلْتَهُ لَكَ فِي الثَّرَابِ عَدِيلاً
إِنِّي سَأَلْتُ النَّاسَ بَعْدَكَ كُلَّهُمْ فَوَجَدْتُ أَسْمَحَ مَنْ سَأَلْتُ بِخِيلاً
الْشِفَوَاتِي أُحْزْتُ بَعْدَكَ لِلَّتِي تَدْعُ الْعَزِيزَ مِنَ الرَّجَالِ ذَلِيلاً
فَلَا حَلْفَنَ يَمِينَ حَقُّ بَرَّةٍ تَأَلَّهُ مَا أُعْطِيتُ بَعْدَكَ سُولاً

فأبكى الناسَ ، وأغضبَ المنصورَ ، حتَّى قالَ لَهُ : لئن سمعتكَ تنشدها مرَّةً أخرى . . لأقطعنَّ لسانك ، فقال أبو دلامةَ : إنَّهُ كانَ لي مكرماً ، وقد جاءني مِنَ البدوِ كما جاءَ اللهُ بإخوةِ يوسفَ إليه ، فقلَّ أنتَ كما قالَ يوسفُ : لا تثریبَ عليك ، فسرتيَ عَنِ المنصورِ ، وقالَ : قد أقلناكَ يا أبا دلامةَ ، فسل حاجتك ، فقالَ : قد أمرَ لي أبو العباسِ بعشرةِ آلافِ درهمٍ ، وخمسينَ ثوباً ، وهو مريضٌ ، فلمَ أقبضها ، فقالَ المنصورُ : مَنْ يعلمُ ذلكَ ؟ فشهدَ لَهُ سليمانُ بنُ مجالدٍ ، وأبو الجهمِ ، فقالَ المنصورُ : ادفعها إليه ، وسيِّرهُ إلى هذا الطاغيةِ - يعني عمَّهُ عبدَ اللهِ بنَ عليٍّ ، وكانَ قد أظهرَ الخلافَ ، وخرجَ بناحيةِ (الشام) - فوثبَ أبو دلامةَ ، وقالَ : أعيذكُ باللهِ أنْ أخرجَ معهم ، فإنِّي واللهِ لمشوؤمٌ ، فقالَ لَهُ المنصورُ : امضِ فإنَّ يُمننَّا يغلبُ شوْمك ، فقالَ : ما أحبُّ لك أنْ تجربَ منِّي ذلكَ على هذا العسكرِ ؛ فإنِّي لا أدري أيُّهُما يغلبُ ، يُمنكُ أو شوْمي ، غيرَ أنَّي بنفسِي أدري وأعرفُ وأطولُ تجربةً ، فقالَ المنصورُ : دعني من هذا ، فما لكُ بئذٍ مِنَ الخروجِ ، قالَ : فإنِّي أصدُقكُ الآنَ ، شهدتُ واللهِ تسعةَ عشرَ عسكراً ، هُزمتْ كُلُّها ، وكنْتُ أنا سببَ هزيمتها ، فإن شئتُ الآنَ على بصيرةٍ أنْ يكونَ عسكركُ تمامَ العشرينِ . . فافعل ، فاستفرغَ المنصورُ ضحكاً ، وأذنَ لَهُ أنْ يتخلَّفَ .

[الحر تكفيه الإشارة]

وما زالَ الشُّعْرُ وأهلُهُ في الاعتبارِ الأوَّلِ عندَ الأمويِّينَ والعباسيِّينَ يتأثرونَ بأقوالِهِم ، ويقبلونَ شفاعتِهِم ، ويُغضونَ عَن هفواتِهِم ، ويتنافسونَ في اصطناعِهِم ، ويتحاسدونَ على بناتِ أفكارِهِم ، وما ذلكُ إلا لكرمِ طباعِهِم ؛ فالكريمُ هو الذي يتأثرُ بالكلامِ ، ويهربُ مِنَ الملامِ ، وقد قالَ جلُّ شأنهُ : ﴿ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ نَفْعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات : ٥٥] .

وذلكَ أنَّ المؤمنَ لا يكونُ إلا كريماً ، والكريمُ يفعلُ بالكلامِ ، ولا سيِّما إذا كانَ بليغاً ، ولهذا استحَبُّوا البلاغةَ في الخطابةِ ، وحسبُكَ أنَّ كثيراً مِنَ ظلمتِهِم وجباريهِم يحقنُ الدماءَ الغزيرةَ لِكَلِمَةٍ تملأُ سمعَهُ مِنَ الشاعرِ ، فأما الآنَ . .

فقد ذهبَت العروبيَّةُ ، بل انمسخَتِ الإنسانيَّةُ ، قالَ ابنُ الروميِّ [في «ديوانهِ» ٢/٦٨٩] :

أَرَى النَّاسَ مَخْسُوفاً بِهِمْ غَيْرَ أَنَّهُمْ عَلَى الْأَرْضِ لَمْ يُقَلِّبْ عَلَيْهِمْ صَعِيدَهَا

[أمثلة على تأثير الشعر ونفوذه عند أصحاب النفوس الأبية]

وَمِنَ الأدلَّةِ على تأثيرِ الشُّعْرِ ونفوذهِ [كما في «الكامل في أسماء الرجال» ١/٤٣٠] : ما فعلهُ الحارثُ ابنُ أبي شميرِ الغسانيِّ ، فلقد أسرَ شاسَ بنَ عبدةَ في تسعينَ من بني تميمٍ وغيرِهِم مِنَ العَرَبِ ، فقدمَ عليه علقمةُ الفحلُّ واستعطفهُ بقصيدتهِ لَهُ التي يقولُ منها [في «ديوانهِ» ٣٩-٤٨٤٠] :

إِلَى الْحَارِثِ الْوَهَّابِ أَعْمَلْتُ نَاقَتِي لِكَلِّكَلِهَا وَالْقَصْرَيْنِ وَجِيْبُ^(١)

(١) القصرين : ضلعانِ قصيرانِ تليانِ الخاصرتينِ . الوجيبُ : الرعدةُ والاضطرابُ من شدَّةِ السيرِ .

هَدَانِي إِلَيْكَ الْفَرَقْدَانِ وَلَا حِبُّ
لَهُ فَوْقَ إِعْلَامِ الْمَتَانِ عُلُوبٌ^(١)
فَلَا تَحْرِمْتَنِي نَائِلًا عَنْ جِنَابَةِ
فَإِنِّي امْرُؤٌ وَسَطُ الْقَبَابِ غَرِيبٌ^(٢)
وَفِي كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَبَطْتَ بِنِعْمَةٍ
فَحَقُّ لِسَاسٍ مِنْ نَدَاكَ ذُنُوبٌ^(٣)

فَقَالَ الْحَارِثُ لَهُ : نَعَمْ ، وَنِعْمَةٌ عَيْنٍ ، وَأَطْلَقَ لَهُ أَحَاهُ شَأْسًا ، وَأَسْرَى تَمِيمَ بِأَسْرِهِمْ ، وَمَنْ سَأَلَهُ فِيهِمْ مِنْ غَيْرِهِمْ .

وَشَفَعَ الْفَرَزْدَقُ إِلَى تَمِيمِ بْنِ مَرْ^(٤) بِقَوْلِهِ [فِي «الْأَغَانِي» ٣٥٥/١٠] :

[مِنَ الطَّوِيلِ]

تَمِيمُ بْنُ مَرْ لَا تَكُونَنَّ حَاجَتِي
بِظَهْرِ فَلَا يَعْصِي عَلَيَّ جَوَابُهَا
فَهَبْ لِي خُنَيْسًا وَاحْتَسِبْ فِيهِ مَنَّةً
لِعَبْرَةِ أُمَّ مَا يَسُوعُ شَرَابُهَا
أَتَتْنِي فَعَادَتْ يَا تَمِيمُ بِغَالِبٍ
وَبِالْحُفْرَةِ السَّافِي عَلَيْهَا تَرَابُهَا
وَقَدْ عَلِمَ الْأَقْوَامُ أَنَّكَ مَاجِدٌ
وَلَيْتُ إِذَا مَا الْحَرْبُ شَبَّ شَهَابُهَا

فَأَطْلَقَ لَهُ مَنْ فِي الْجَيْشِ مِنْ خُنَيْسٍ وَحَبِيشٍ ؛ لِاشْتِبَاهِ الْأَسْمِ عَلَيْهِ ، فَأَخَذَ بِالِاحْتِيَاظِ .

وَشَفَعَ أَبُو تَمَامٍ إِلَى الْمُعْتَصِمِ فِي عَقْدِ الْبَيْعَةِ لِلوَائِقِ بَوْلَايَةِ الْعَهْدِ ، فَأَطْلَبُهُ ، وَذَلِكَ حَيْثُ يَقُولُ [فِي «دِيوانه»

[مِنَ الْكَامِلِ]

٣٤٤/١-٣٤٥] :

فَاشْدُدْ بِهَارُونَ الْخِلَافَةَ إِنَّهُ
سَكَنَ لِوَحْشَتِهَا وَدَارًا قَرَارِ
بِفَتَى بَنِي الْعَبَّاسِ وَالْقَمَرِ الَّذِي
حَقَّقَهُ أَنْجُمٌ يَغْرُبُ وَنَزَارِ^(٥)
هُوَ نَوْءٌ يُمْنٌ مِنْكُمْ وَسَعَادَةٌ
وَسِرَاجٌ لَيْلٍ عِنْدَكُمْ وَنَهَارِ^(٦)
فَاقْمَعْ شَيَاطِينَ النِّفَاقِ بِمُهْتَدٍ
تَرْضَى الْبَرِيَّةَ هَدِيَّةً وَالْبَارِي^(٧)
لِيَسِيرَ فِي الْأَفَاقِ سِيرَةَ رَأْفَةٍ
وَيَسُوسَهَا بِسَكِينَةٍ وَوَقَارِ

(١) هَدَانِي إِلَيْكَ الْفَرَقْدَانِ : يَعْنِي أَنَّهُ سَرَى بِاللَّيْلِ فِي سِيرِهِ إِلَيْهِ فَاهْتَدَى بِالنَّجُومِ . اللَّاحِبُ : الطَّرِيقُ الْوَاضِحُ . الْمَتَانُ : جَمْعُ مَتْنٍ ، وَهُوَ الْمَكَانُ الصَّلْبُ الْمَسْتَوِي . الْعُلُوبُ : جَمْعُ عَلَبٍ ، وَهُوَ الْأَثَرُ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَصِفَ هَذَا الطَّرِيقَ بِأَنَّهُ مُتَّصِلٌ بِالْوَعُورِ وَالْأَمَاكِنِ الْغَلِظَةِ ، وَإِنَّمَا تَجَسَّمَتْ رُكُوبُهُ إِلَيْهِ . لِمَا يَرْجُو مِنْ مَعْرُوفِهِ وَفَضْلِهِ .

(٢) الْجِنَابَةُ : الْعُرْبَةُ .

(٣) قَدْ خَبَطْتَ بِنِعْمَةٍ : أَي أَنْعَمْتَ وَتَفَضَّلْتَ . الذَّنُوبُ : الدَّلُوعُ الْعَظِيمَةُ ، وَضَرَبَهَا مَثَلًا لِلْحَظِّ وَالنَّصِيبِ .

(٤) فِي «الْأَغَانِي» : تَمِيمُ بْنُ زَيْدٍ ، وَلِلْأَبْيَاتِ قِصَّةٌ حَاصِلُهَا :

أَنَّ تَمِيمَ بْنَ زَيْدٍ غَزَا (الْهِنْدَ) فِي جَيْشٍ ، فَجَمَّرَهُمْ ، وَفِي جَيْشِهِ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ : حُبَيْشٌ ، فَلَمَّا طَالَتْ غَيْبَتُهُ عَلَى أُمَّهِ . . . اسْتَأْنَفَتْهُ ، فَسَأَلَتْ عَنْهُ يَكْتُمُ لَهَا تَمِيمَ بْنَ زَيْدٍ أَنْ يُقِيلَ ابْنَهَا ، فَقِيلَ لَهَا : عَلَيْكَ بِالْفَرَزْدَقِ فَاسْتَجِيرِي بِقَبْرِ أَبِيهِ . وَكَانَ قَبْرُ أَبِيهِ مَعَاذًا لِلنَّاسِ . فَاتَتْ قَبْرَ غَالِبٍ بِكَاطِمَةٍ ، حَتَّى عَلِمَ الْفَرَزْدَقُ مَكَانَهَا .

ثُمَّ أَتَتْهُ وَطَلَبَتْ إِلَيْهِ حَاجَتَهَا ؛ فَكَتَبَ إِلَى تَمِيمِ بْنِ زَيْدٍ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ . وَتَمَامُ الْقِصَّةِ مَذْكُورَةٌ فَوْقَ .

(٥) يَغْرُبُ : أَبُو الْيَمَانِيَةِ الْفُحْطَانِيَّةِ . نَزَارٌ : أَبُو النَّزَارِيَّةِ الْعَدْنَانِيَّةِ . وَالوَائِقُ قُحْطَانِيٌّ مِنْ جِهَةِ أَحْوَالِهِ ، وَنَزَارِيٌّ مِنْ جِهَةِ آبَائِهِ ؛ لِأَنَّ هَاشِمَ بْنَ عَبْدِ مَنَافٍ أَبَا الْعَبَّاسِيْنَ الْأَعْلَى تَزَوَّجَ سَلْمَى بِنْتَ يَزِيدَ مِنْ بَنِي النَّجَارِ ، ثُمَّ مِنَ الْخَزْرَجِ قَبِيلَةَ يَمَانِيَّةٍ كَانَتْ فِي يَثْرِبَ ، وَهِيَ وَالْأَسْرُ أَنْصَارُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْإِسْلَامِ .

(٦) النَّوْءُ : طُلُوعُ نَجْمٍ بَعْدَ غُرُوبِ آخَرَ . سِرَاجُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ : الْقَمَرُ وَالشَّمْسُ .

(٧) اقْمَعْ : اقْمَعْ . شَيَاطِينَ النِّفَاقِ : لَعَلَّةٌ أَرَادَ بِهِمُ الَّذِينَ أَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ ثُمَّ ثَارُوا عَلَيْهِ ، أَوْ لَعَلَّةٌ يُشِيرُ إِلَى الْمَكِيدَةِ الَّتِي دَبَّرَهَا فِي أَثْنَاءِ الزَّحْفِ عَلَى (عُمُورِيَّة) بَعْضُ الْفَرَادِ الْمُسْلِمِينَ لِإِغْيَالِ الْمُعْتَصِمِ وَمُبَايَعَةِ الْعَبَّاسِ بْنِ الْمَأْمُونِ ، فَأَخْفَقَ تَدْبِيرُهُمْ ، وَانْتَقَمَ الْمُعْتَصِمُ مِنْهُمْ ، وَحَبَسَ الْعَبَّاسُ بْنُ الْمَأْمُونِ .

وتشفّع بنو تغلب بأبي تَمَامٍ إِلَىٰ مَالِكِ بْنِ طَوْقٍ ، وَكَانُوا قَدْ أَفْسَدُوا ، وَعَاثُوا ، فَتَقَدَّمَ بِقَصِيدَةٍ يَقُولُ فِيهَا [في «ديوانه»

[١٠٧-١٠٦/١] :

وَرَأَيْتَ قَوْمَكَ وَالْإِسَاءَةَ مِنْهُمْ
هُم صَيَّرُوا تِلْكَ الْبُرُوقَ صَوَاعِقَاءَ
فَأَقْلَ أَسَامَةَ جُزْمَهَا وَاصْفَحَ لَهَا
فَهُمْ بَعَيْنِ أَبَاغٍ رَاشُوا لِلْوَعَى
فَمَضَّتْ كُهُولُهُمْ وَدَبَّرَ أَمْرَهُمْ
لَا رِقَّةَ الْحَضَرِ اللَّطِيفِ غَذَتْهُمْ
فَإِذَا عَجَمْتُهُمْ وَجَدْتَ لَدَيْهِمْ
لَكَ فِي رَسُولِ اللَّهِ أَعْظَمُ أَسْوَةَ
أَعْطَى الْمُؤَلَّفَةَ الْقُلُوبِ رِضَاهُمْ

فوقعت من مالك أحسن موقع ، فأجزل ثوابه ، وقيل شفاعته ، وردّ القوم إلى منازلهم ، بعد اليأس المستحکم ، والعداوة الهائلة .

[من الكامل]

وقال أبو عبادة [في «ديوانه» ٣٦٥/١] :

إِنْ أَبَقَ أَوْ أَهْلِكَ فَقَدْ نِلْتُ التِّي
وَعَدَوْتُ نَدْمَانَ الْخَلَائِفِ نَابِهَا
وَشَفَعْتُ فِي الْأَمْرِ الْجَلِيلِ إِلَيْهِمْ
وَصَنَعْتُ فِي الْعَرَبِ الصَّنَائِعَ عِنْدَهُمْ
مَلَأْتُ صُدُورَ أَقْرَابِي وَعِدَائِي
ذَكَرْتِي وَنَاعِمَةً بِهِمْ نَشَوَاتِي
بَعْدَ الْجَلِيلِ فَأَنْجَحُوا طَلَبَاتِي
مَنْ رَفَدَ طُلَّابٍ وَفَكَ عُنَاةً

[قل للمليحة في الخمار الأسود]

والأمر في ذلك أكثر من أن يتناولهُ الضبط ، أو يحصيهُ القلم ، ومن الغاية فيه ما ذكره ابن خَلْكَانَ [في «فيات الأعيان» ١٦١/٤] وغيره : أَنَّ أَحَدَ التَّجَارِ قَدِمَ (المدينة) الْمَشْرِفَةَ بِحَمَلٍ مِنَ الْخُمْرِ السُّودِ ، فَكَسَدَتْ ، فَضَاقَ صَدْرُهُ ، وَأَتَى مَسْكِينَ الدَّارِمِيَّ ، فَفَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَّةَ ، فَقَالَ : كَيْفَ أَعْمَلُ وَأَنَا قَدْ تَرَكْتُ الشُّعْرَ ؟ - وَكَانَ تَزَهَّدًا ، وَانْقَطَعَ فِي الْمَسْجِدِ الشَّرِيفِ - فَقَالَ التَّاجِرُ : أَنَا غَرِيبٌ ، وَمَا لِي بِضَاعَةٌ سِوَى هَذَا الْحِمْلِ ، وَقَدْ دَلَّنِي النَّاسُ عَلَيْكَ ، وَقَالُوا : مَا يُنْفِقُهَا لِي غَيْرُكَ ، وَلَمْ يَزَلْ يَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ . . . حَتَّى خَرَجَ مِنَ الْمَسْجِدِ ، وَقَالَ :

[من الكامل]

قُلْ لِلْمَلِيحَةِ فِي الْخَمَارِ الْأَسْوَدِ
مَاذَا أَرَدْتِ بِنَاسِكَ مُتَعَبِّدِ

(١) عين أباغ : وإد على طريق الشام إلى الفرات . راشوا : ألقوا عليها الريش . وقوله : راشوا سهميك : أراد أعانوك ؛ لأنَّ السهم لا يُتَفَعُّ به حتى يُرَاشَ . الحارث الحزب : وصف لكل ملك يقال له الحارث ، وقد جاء الحارث بن أبي شمر الغساني إلى (عين أباغ) لمحاربة النعمان بن المنذر الذي ناصرهُ بنو تغلب فانصروا على الحارث وهزمهُ .

(٢) عجمتهم : عركتهم لتخبرهم .

(٣) المؤلفة القلوب : قوم دخلوا في الإسلام رغبة في الغنائم والعتاء ، وكان منهم جماعة من قريش ، وجماعة من غيرهم . الأخايذ : ما يؤخذ من العذر في الحرب . الأحزاب : كل من تحزب على الإسلام من مشركين ويهود .

قَدْ كَانَ شَمَّرَ لِلصَّلَاةِ تِيَابَهُ حَتَّى قَعَدَتْ لَهُ بِيَابِ الْمَسْجِدِ
فشاع بين الناس ، وتغالت النساء في الحُمرِ السودِ ولم تبقْ بـ (المدينة) ظريفةً إلاّ طلبتْ خماراً أسود ، فباعها
بأضعافِ أثمانِها ، ورجع مسكينٌ إلى ما كان انقطعَ إليه من التعبدِ .

[المديح لا يليق إلا بك]

والبيت الذي نتكلم فيه يشبه قول علي بن عبد العزيز :

وَأَرَى الْمَدِيحَ إِذَا عَدَاكَ نَقِيصَةً وَأَعَافُهُ وَلَوْ أَنَّهُ فِي حَاتِمِ
فَإِذَا امْتَدَحْتُ سِوَاكَ قَالَ الشُّعْرُ لِي لَمْ تَزَعْ حَقِّي إِذْ أَبَحْتَ مَحَارِمِي

وقال الناظم [في « العكبري » ٢٥٥/١] :

إِنَّ الْقَرِيضَ شَجَّ بِعُظْفِي عَائِذٌ أَنْ لَا يَكُونَ سِوَاكَ الْمَمْدُوحُ

وقال [في « العكبري » ٣٦٥/١] :

وَوَظَّنُونِي مَدَحْتَهُمْ قَدِيمًا وَأَنْتَ بِمَا مَدَحْتَهُمْ مُرَادِي

وقال [في « العكبري » ٣٧٨/٢] :

أَخْيَيْتَ لِلشُّعْرَاءِ الشُّعْرَ فَاْمْتَدَحُوا جَمِيعَ مَنْ مَدَحُوهُ بِالَّذِي فِيكَ

وقال كثيرٌ [في « ديوانه » ٣٠٢] :

مَتَى مَا أَقْلُ فِي آخِرِ الدَّهْرِ مِدْحَةً فَمَا هِيَ إِلَّا لِابْنِ لَيْلَى الْمُكْرَمِ

وقال أبو نواسٍ [في « ديوانه » ٥٨١] :

وَإِنْ جَرَّتِ الْأَلْفَاظُ مِنَّا بِمِدْحَةٍ لِغَيْرِكَ إِنْسَانًا فَأَنْتَ الَّذِي نَعْنِي

[من كباثر الذنوب وضع المديح في غير محله]

ثم إنَّ وضعَ المدحِ في غيرِ محلِّهِ من كباثرِ الذنوبِ ، وقبايحِ العيوبِ ، جنابةٌ على العلمِ ، وإهانةٌ للأدبِ ، وانغماسٌ
في المهانةِ ، وتدسُّسٌ في النذالةِ ، وتعلُّقٌ بالكذبِ ، وأخذٌ بمجامعِ النفاقِ .

وقد قال زهيرٌ :

وَإِنَّ أَصْدَقَ بَيْتٍ أَنْتَ قَائِلُهُ بَيْتٌ يُقَالُ إِذَا أَنْشَدْتَهُ : صَدَقًا^(١)

ومن قضاءِ ابنِ الخطَّابِ في تفضيلِ زهيرٍ [في « طبقات فحول الشعراء » ٦٣/١] : أَنَّهُ لَا يَمْدَحُ أَحَدًا إِلَّا بِمَا فِيهِ ، كَمَا سَبَقَ فِي

كثيرٍ ممَّا يتعلَّقُ بِهِ فِي الْمَجْلِسِ الثَّالِثِ ، عِنْدَ قَوْلِهِ [في « العكبري » ٣١٠/١] :

قَدْ أَجْمَعْتَ هَذِهِ الْخَلِيقَةَ لِي أَنْكَ يَا بْنَ النَّبِيِّ أَوْحَدَهَا

وقد قال أبو تمامٍ [في « ديوانه » ٢٦٢/٢] :

عَيَّاشُ إِنَّكَ لِلَّيْمِ وَإِنِّي إِذْ صِرْتَ مَوْضِعَ مَطْلَبِي لِلَّيْمِ

(١) نسب صاحب « العقد الفريد » (٣٢٦/٥) البيت لزهير ، وليس في « ديوانه » ، وإنما هو في « ديوانِ حسان بن ثابت » (٤٣٠) .

وقال الناظم [في «المكبري» ١٤٩/٢] :

إِذَا الْفَضْلُ لَمْ يَرْفَعَكَ عَنْ شُكْرِ نَاقِصٍ عَلَى هِبَةٍ فَالْفَضْلُ فِيمَنْ لَهُ الشُّكْرُ

ومعناه: إذا لم يرفعك الأدب عن شكر الناقص . . فذلك الناقص هو أفضل منك .

[من الطويل]

ولله دَرُّ أَبِي عُبَادَةَ فِي قَوْلِهِ [في «ديوانه» ٢٩/١] :

خَطَبَ الْمَدِيحَ فَقُلْتُ : خَلَّ طَرِيقَهُ لِيَجُوزَ عَنْكَ فَلَسْتَ مِنْ أَكْفَائِهِ

[من الطويل]

وقال غيره :

مَدَّخْتُهُمْ فَاسْتُجِبَ الْمَدْحُ فِيهِمْ وَيَا رَبَّ جِيدٍ لَا يَلِيْقُ بِهِ الْعِقْدُ

[من الطويل]

فعلى الحر أن يحترم نفسه ، ويربأ بها عن الخسة ؛ فقد قال حاتم [في «شرح ديوانه» ٨١] :

وَنَفْسِكَ أَكْرَمَهَا فَإِنَّكَ إِنْ تَهَنَّ عَلَيْنِكَ فَلَنْ تَلْقَى لَهَا الدَّهْرَ مُكْرِمًا

[من الطويل]

وقال الحسين بن مطير [في «ديوانه» ٥٨] :

وَنَفْسِكَ أَكْرَمَ عَنْ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ فَمَا لَكَ نَفْسٌ بَعْدَهَا تَشْتَعِيرُهَا

[من الطويل]

وقال آخر [وهو منقر بن فروة المنقري في «البيان والتبيين» ٤٩٨/١] :

وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا حَيْثُ يَجْعَلُ نَفْسَهُ فِي صَالِحِ الْأَخْلَاقِ نَفْسَكَ فَاجْعَلِ

[من الوافر]

وقال الحماسي :

نَحِبُ الشَّيْءَ ثُمَّ نَصُدُّ عَنْهُ مَخَافَةَ أَنْ يُقَالَ لَنَا فَتَنْخَزِي وَنَعْرِفُ مَا تُسَبُّ بِهِ الرَّجَالُ مَخَافَةَ أَنْ يَكُونَ بِهِ مَقَالُ

[من الوافر]

وقد انحط مقدارُ الشَّمَاحِ ، وهو من أصحابِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم بقوله لعرابة [في «ديوانه» ٣٣٦] :

إِذَا مَا رَايَةَ رُفَعْتَ لِمَجْدٍ تَلَقَّاهَا عَرَابَةَ بِالْيَمِينِ

[من الوافر]

وقوله^(١) :

إِذَا مَا رَايَةَ رُفَعْتَ لِمَجْدٍ وَقَصَّرَ مُبْتَغُوهَا عَنْ مَدَاهَا وَضَاقَتْ أذْرُعُ الْمُثْرِينَ عَنْهَا سَمَا أَوْسٌ إِلَيْهَا فَاحْتَوَاهَا

وقد مرَّ في المجلسين الثالث ، والحادي عشر شي من حديثِ الشَّمَاحِ .

[الشعر عند العرب غالي القيمة لا يوضع إلا عند من يستحقه]

ولقد كان الشعرُ غالي القيمة عند العرب ، لا تضعه إلا عند من يستحقه ، ولا تجود بالمدح منه إلا عن دافع قوي ، كأن لا تجد ما يقوم بالمكافأة سواء على جلائل الصنائع ، فقد أحسن المعلق إلى امرئ القيس حينما أجاره من المنذر بن ماء السماء ؛ إذ طلبه ليثأر منه بأخويه الذين قتلها بـ (دير مرينا) ، فلم يجد لمجازاته أكبر من أن يمدح

(١) البيت من شواهد «الإيضاح في علوم البلاغة» ١٩٩ لبشر بن حازم .

أَقْرَّ حَشَا امْرِئِ الْقَيْسِ بْنِ حَجْرٍ بَنُو تَيْمٍ مَصَايِحُ الظَّلَامِ

وَمِنْ نَفوذِ الشَّعْرِ إِلَى الْقُلُوبِ ، وَسُلْطَانِهِ عَلَى النُّفُوسِ ، وَسَيُورِثُهُ فِي الْبِلَادِ ، صَارَ ذَلِكَ الْوَصْفُ لِقَبَا رَاسِخًا لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ .

وَقَالَ أَيْضًا لِسَعْدِ بْنِ الضَّبَابِ [فِي «شرح ديوانه» ١٠٩] :

سَأَجْزِيكَ الَّذِي دَافَعْتَ عَنِّي وَمَا يَجْزِيكَ عَنِّي غَيْرُ سُكْرِي

فَأَفَادَ أَنَّ شُكْرَهُ الْنَهَائِيَّةَ فِي الْمَجَازَةِ ، وَالْغَايَةُ الَّتِي لَا فَوْقَهَا لِلْمَكَافَأَةِ ، وَكَثِيرًا مَا نَجَدُ الشَّاعِرَ يَشْتَكِي تَقْصِيرَ مَمْدُوحِهِ بِهِ ، وَفِي طَبَقِ ذَلِكَ الْإِعْتِرَافُ بِدِنَاءَةِ الْهَمَّةِ ، وَزِمَانَةِ الْمَرْوَةِ ، وَالْأ. . . فَلَوْ كَانَ حَرًّا. . . لِأَكْرَمَ نَفْسَهُ وَأَدْبَهُ عَنِ امْتِدَاحِ مَنْ لَا يَعْرِفُ مَقَادِيرَ الْكَلَامِ . إِذَنْ ، فَلَمْ يَفْعَلْ بِهِ الْمَمْدُوحُ إِلَّا مَا هُوَ أَهْلٌ لَهُ مِنَ الْإِحْتِقَارِ ، وَالْإِطْرَاحِ .

[وَصِيَّةُ الْحَطِيئَةِ عِنْدَ وَفَاتِهِ]

وَفِي خَبَرِ الْحَطِيئَةِ الْمَشْهُورِ : أَنَّهُ قَالَ وَهُوَ يَجُودُ بِنَفْسِهِ^(١) [كَمَا فِي «الْأَغَانِي» ١٨٩/٢] : لَا أَجْزِعُ عَلَى شَيْءٍ ، جَزَعِي عَلَى جَيْدِ الْمَدِيحِ يَوْضَعُ فَيَمْنُ لَيْسَ لَهُ بِأَهْلٍ .

(١) لَمَّا حَضَرَتِ الْحَطِيئَةُ الْوَفَاةَ . . . اجْتَمَعَ إِلَيْهِ قَوْمُهُ ، فَقَالُوا : يَا أَبَا مُلَيْكَةَ ؛ أَوْصِ .

قَالَ : وَيَلِّ الشُّعْرَ مِنَ الرُّوَاةِ الشُّوْرِ . قَالُوا : أَوْصِ بِرَحْمَتِكَ اللَّهُ .

قَالَ : مِنَ الَّذِي يَقُولُ :

إِذَا أَنْبَضَ الرَّائِمُونَ عَنْهَا تَرَنَّتْ نَرْتُمْ تَكَلَّمِي أَوْجَعْتَهَا الْجَنَائِزُ
قَالُوا : الشَّمَاخُ . قَالَ : أَبْلَغُوا غُفْفَانَ أَنَّهُ أَشْعَرُ الْعَرَبِ .

قَالُوا : وَيَحْكُ أَهْلَهُ وَصِيَّةٌ ؟

قَالَ : أَبْلَغُوا أَهْلَ ضَابِيَةَ أَنَّهُ شَاعِرٌ حَيْثُ يَقُولُ :

لِكُلِّ جَدِيدٍ لَذَّةٌ غَيْرَ أَنْبِي وَجَدْتُ جَدِيدَ الْمَوْتِ غَيْرَ لَذِيذِ
قَالُوا : اتَّقِ اللَّهَ ، وَدَعْ عَنكَ هَذَا . قَالَ :

الشُّعْرُ صَنْعٌ وَطَوِيلٌ سَلَّمْتُهُ إِذَا ارْتَقَيْتِي فِيهِ الَّذِي لَا يَنْلَمْتُهُ
زَلَّتْ بِهِ إِلَيَّ الْخُضْيُضُ قَدَّمْتُهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْرِبَهُ فَيُعْجِمْتُهُ

قِيلَ : يَا أَبَا مُلَيْكَةَ . . . أَلَيْكَ حَاجَةٌ ؟ قَالَ : لَا وَاللَّهِ ، وَلَكِنْ أَجْزِعُ عَلَى الْمَدِيحِ الْجَدِيدِ يَمْدُوحُ بِهِ مَنْ لَيْسَ لَهُ أَهْلٌ .

قَالُوا : فَمَنْ أَشْعَرُ النَّاسِ ؟ فَأَوْمَأَ إِلَى فِيهِ ، وَقَالَ : هَذَا الْجُحَيْرُ إِذَا طَمَعُ .

قَالُوا : قُلْ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ . فَقَالَ :

قَالَتْ وَفِيهَا جِيدَةٌ وَدُغْرُ عَوُذُ بِرَبِّي مِنْكُمْ وَحَجْرُ
قِيلَ لَهُ : فَمَا تَقُولُ فِي عَيْدِكَ ؟ قَالَ : هُمْ عَيْدُ قَوْمٍ مَا عَاقَبَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ .

قِيلَ : فَأَوْصِ لِلْفُقَرَاءِ بِشَيْءٍ . قَالَ : أَوْصِيهِمْ بِالْإِلْحَافِ فِي الْمَسْأَلَةِ ؛ فَإِنَّهَا تَجَارَةٌ لَا تَبُورُ ، وَاسْتُ الْمَسْؤُولِ أَضْيَقُ .

وَتَعَاقَبَ الْقَوْلُ مَعَ الْحَطِيئَةِ إِلَى أَنْ قَالُوا : فَهَلْ لَكَ شَيْءٌ تَعَاهَدُ فِيهِ غَيْرَ هَذَا ؟ قَالَ : تَحْمَلُونِي عَلَى أَنْتَانِ ، وَتَتْرَكُونِي رَاكِبًا حَتَّى أَمُوتَ ؛ فَإِنَّ الْكَرِيمَ لَا يَمُوتُ عَلَى فَرَاشِهِ ، وَالْأَنْتَانُ مَرْكَبٌ لَمْ يَمُتْ عَلَيْهِ كَرِيمٌ قَطُّ .

فَحَمَلُوهُ عَلَى أَنْتَانِ ، وَجَعَلُوا يَذْهَبُونَ بِهِ وَيَجِيئُونَ . . . حَتَّى مَاتَ وَهُوَ يَقُولُ :

لَا أَحْسَدُ أَلَامَ مِنْ حُطَيئَتِي هَجَا بِيهِ وَهَجَا الْمُرْتَبَتِي
مِنْ لُؤْمِهِ مَاتَ عَلَيَّ فُرْتَبَتِي

انظر «فصل المقال في شرح كتاب الأمثال» (١/٣٢٣) .

[ذم الكذب]

وفي غير موضع من هذه المجموعة أفضنا في مذمة الدناءة ، ومعابة التصنع ، ومقت الرياء ، وتقبيح التلؤن ، وقد قال جل ثناؤه : ﴿ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسِعَعِلُّ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٢٤-٢٢٧] .

[من البسيط]

وقال بعض الشعراء [في « المستطرف » ١٧/٢] :

لَا يَكْذِبُ الْمَرْءُ إِلَّا مِنْ مَهَانَتِهِ أَوْ عَادَةِ الشُّؤءِ أَوْ مِنْ قَلَّةِ الْوَرَعِ

ولمَّا انتهى قارىء « الديوان » علينا إلى هنا . أخذهُ الحِران^(١) ، واشتغل بالقران^(٢) ، وعسى أن يعود عسى ، وقديماً قيل : ذُبِحَ الْعِلْمُ عَلَى أَفْحَادِ النِّسَاءِ^(٣) ، فساق الله الخير إليه ، وبارك له ، وبارك عليه ، وجمع له التَّهَانِي ، وبلغه غايات الأمانِي ، وإيَّانَا ، وأولادَنَا ، آمينَ ، وصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ .

* * *

(١) الحِران : يستعمل في الأصل للدواب إذا صعب انقيادها ، والمراد هنا : التقصير عن مسابقة غيره .

(٢) القرانُ : التزويج ، كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أتى يوم الجمعة . . قال للسيدة عائشة : « اليوم يوم تبعلُ وقران » أي : تزويج .

(٣) قال العجلوني في « كشف الخفاء » (١٣٣٢) ليس بحديث ، وفي معناه : ضاع العلم وهو من نحو كلام بشر الحافي .

خاتمة المجالس

[مبحث هام حول الشعر والشعراء والكلام في نقد الشعر]

كثيراً ما يجولُ البحثُ في المفاضلةِ بينَ الشعرِ والشعراءِ ، فيذهبُ بي العجبُ أقصاهُ من إدلاءِ كلِّ برأيه ، ورجيمه بظنه ، وتعصبه لهواه ، دونَ قبسٍ من هدى ، ولا بصيرةٍ من علم ، كأنَّهم أولُ من يتكلمُ في الفنِّ ، وكأنَّ لم تولَّفِ فيه الكتبُ ، وتقرَّرَ المباحثُ ، ويغترُّ بعضهم بمن يتلقَى علمه عن الصحفِ ، ويستوردهُ من أطرافِ المجالاتِ ، ويجعلُ ذوقهم ميزاناً ، وأقوالهم برهاناً ، والحالُ : أن لا اجتهادَ مع وجودِ النصِّ ، وقلماً نجدُ بيتاً إلا لنظرِ العلمِ فيه مجالٌ من سائرِ نواحيه ، فليزنه بقواعدِ الفنِّ التي تطيئها مثاقيلُ الذرِّ من يلثمُ به ، وإلا . . . فليقف عند حدِّه ، وليربحْ على ظلمه ، وليتأخَّرْ حيثُ أخَّرهُ القدرُ ، ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء : 36] .

ومن أكبرِ المحنةِ في هذا العلمِ ادعاءُ الرقيعِ شأنَ الرفيعِ ، وانتحالُ الضالِّعِ شأوَ الضليعِ ، وإلا . . . فما قرَّره علماءُ المعاني والبيانِ والبديعِ لا يصحُّ أن يُرجعَ إلا إليه ، وأن لا يعولَ إلا عليه .

وكانت هذه العلومُ تسمَّى صنعةَ الشعرِ ، وتسمَّى نقدَ الشعرِ ، ونقدَ الكلامِ ، كلُّ ذلكِ يقالُ ، ثمَّ طرأت لها تلكَ الأسماءُ ، كما أشارَ إليه ابنُ الأنباريِّ ، والسكريُّ .

ثمَّ تميَّزَ الكلامُ ، ووزنه ، ومعرفةُ سمينه من غثه ، لا تكونُ إلا بالتمرنِ على تلكَ القواعدِ ، وإدمانِ النظرِ إليها ، حتَّى إذا وُضِعَ للنقدِ . . . عرضه الباحثُ على نوايسها ، وما لا تصله يصارُ فيه إلى الذوقِ .

وأهلُ الذوقِ همُ أهلُ الطباعِ السليمةِ ، والأفكارِ المستقيمةِ ، والقرائحِ النقيَّةِ ، والأفهامِ الذكيَّةِ ، ممَّن راضٍ نفسه على تلكَ العلومِ ، ومارسَ الخطابةَ ، وداومَ الكتابةَ ، وأكثرَ السهرَ ، وركبَ الضجرَ ، وجنَّى على القلبِ والبصرِ ، في مزاولَةِ الكلامِ ، ومجاوِلَةِ الأقلامِ ، ومحاوِرَةِ الأعلامِ ، ومعالِجَةِ النثرِ والنظامِ ، فأولئك صيارفتهُ ونقَّادُه ، وأمرأؤه وأسيادُه ، فهو إذن مثلُ الجمالِ :

منه : ما له قانونٌ خاصُّ تشمله العبارةُ ، ويأتي عليه الضبطُ .

ومنه : ما لا يُعرفُ إلا بالذوقِ كالملاحَةِ ، فقد تتقاربُ الجاريتانِ وصفاً وجمالاً ، ثمَّ تقومُ هذه بألفِ ، وتلكَ بألفينِ ، ولو سئلَ الناقدُ البصيرُ عن سببِ ذلك . . . لم يقدرْ على الإفصاحِ عنه ؛ لأنَّ المعاني أكثرُ من الألفاظِ ، غيرَ أنَّه لا يُقبلُ ذلكَ إلا ممَّن أحاطَ بسائرِ صفاتِ الجمالِ المحدودةِ ، وتلكَ الملكةُ التي تحصلُ لمن مارسَ الفنونَ شبيهةٌ بالاستحسانِ ، وهو انقداحُ الدليلِ في نفسِ المجتهدِ من دونِ أن يجدَ عبارةً تستوفي كنهه ما في خاطره منه .

ومع الاتفاقِ على أنَّه لا يكونُ إلا لمن بلغَ درجةَ الاجتهادِ ، فهم فيه على اختلافِ ، تمنعهُ الشافعيَّةُ ، وتقولُ به الحنفيَّةُ .

وكيفما كان الأمرُ ، فنقدُ الشعرِ درجةٌ عاليةٌ ، ومركبٌ ليس بالذلولِ ، ثمَّ نجدُ كلَّ غيبيٍّ يضربُ فيه بسهمٍ ، ويتهمهم

عليه بلا فهم ، وذلك من غير الحضارمة أعجب ، أمّا هم . . فليس منهم بغريب ؛ لأنه ليس بأكبر من تسوّرهم على الطب ؛ إذ قلما يمرض بينهم إنسان إلا وصف له كل من يعودُه دواء ، وكلّفه أخذُه ، حتّى يقتلوه شاء أم أبى .
وقد سمعتم ما قلناه في ردّ كلام الغبي الذي استهان بقدر اللفظ ، وزعم أن لا معول إلا على المعاني ، من أن الكلام مفروغ منه ، وأن أول مسألة في الفن هي أن الفصاحة خاصّة بالألفاظ ، وأن البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع الفصاحة ، هذه هي أول قدم يضعها الطالب في طريق هذا العلم ، وكيف يخوض في غوامضه من لم يعرف مبادئه بعد ؟! إن هذا شيء عجاب!

وجلّ معول أهل هذا الشأن على اللفظ ، أكثر منه على المعنى ، ألا ترى أنك تسمع من حين إلى آخر قول العامة : فلان وكيل آدم على عياله ، فلا تجد لها روعة ، ولا تلقي لها بالاً؟ ولما قال علي بن جبلة [في «ديوانه» ٩٢] : [من الوافر]
تَكَفَّلَ سَاكِنَ الدُّنْيَا حُمَيْدٌ فَقَدْ أَضَحَّتْ لَهُ الدُّنْيَا عِيَالًا
كَأَنَّ أَبَاهُ آدَمَ كَانَ أَوْصَى إِلَيْهِ أَنْ يُعْوِلَهُمْ فَعَالًا
. . طنطن له أهل الأدب ، وقالوا إنّه المعنى الذي كانت الشعراء تحوم حوله ، ولم تقلد عليه ، على أن يزيد بن مفرغ قد قال قبله يمدح مروان [في «ديوانه» ١٨٢] :

وَأَقَمْتُمْ سُوقَ الثَّنَاءِ وَلَمْ تَكُنْ سُوقَ الثَّنَاءِ تُقَامُ فِي الْأَسْوَاقِ
فَكَأَنَّمَا جَعَلَ الْإِلَهَ إِلَيْكُمْ قَبْضَ الثُّفُوسِ وَقِسْمَةَ الْأَرْزَاقِ

وقال بعض العرب [في «ديوان الحماسة» ١/٨٨] :

كَأَنَّ أَبِي أَوْصَى بِكُمْ أَنْ أَضْمَكُمْ إِلَيَّ وَأَوْجِي عَنْكُمْ كُلَّ ظَالِمٍ^(١)

وما في شيء من هذا زائد على ما تقوله العامة ، سوى روعة اللفظ ، وحسن الشارة ، وجمال الديباجة ، وفصاحة التركيب ، ولئن قيل : إنها لم تتداوله العامة إلا بعد أن حصله لهم ابن جبلة ، وألقاه إلى الساحل . . قلنا مستحيل ؛ لأنهم لا يعرفون ابن جبلة ، ولا من لقه ، ولا يسمعون ممن يعرفهم ، وإنما ألقته إليهم الطبيعة التي ألقته عليه .
وقد قال شاعر المعرّة :

ضَرِبْتُكَ فِي بَيْتِي الدُّنْيَا كَثِيرُ وَعَزَّ اللَّهُ رَبُّكَ مِنْ ضَرِيبِ
وَمَا الْعُلَمَاءُ وَالْجُهَلَاءُ إِلَّا قَرِيبٌ مِنْ قَرِيبٍ مِنْ قَرِيبِ

ومع ذلك فهناك أمثلة أخرى ، منها : أن قول شوقي :

نَظْرَةٌ فَابْتِسَامَةٌ فَسَلَامٌ فَكَلَامٌ فَمَوْعِدٌ فَلِقَاءُ

معدود من محاسنه ، وما فيه زائد على ما فعله زنجي وكل بحراسة بستان ، فسلم عليه إنسان ، فلم يرد ، فشكاه إلى مولاه ، فعاتبه ، فقال له : إن السلام يُفْضَى إلى الكلام ، والكلام يُفْضَى إلى الملام ، واللام يُفْضَى إلى بطيخة ، فإن شئت أن أقسم لك بطايخ بستانك . . ردّدت على من سلم علي ، وإلا . . فلا .

(١) أي ادفع وانحي .

وَسَمِعْتُ مَرَّةً عَجُوزاً تَصِفُ بَضَاضَةَ فِتَاةٍ ، وَتَقُولُ : لَوْ أَصَابَتْهَا نَارٌ . . . لَانْطَفَأَتْ مِنْ مَاءٍ وَجْهَهَا . بَيْنَمَا أَهْلُ الْمَغْرِبِ يَرْقُصُونَ طَرِباً ، وَيَحْجِلُونَ عَجَباً ، مِنْ قَوْلِ شَاعِرِهِمْ [ابن حمديس في « المثل السائر » ١/٣٢١] :

أَضْرَمْتُ قَلْبِي فَارْتَمَى بِشَرَارَةٍ وَقَعَتْ بِحَدِّكَ فَاَنْطَفَتْ مِنْ مَائِهِ

وهو مع ذلك من قول أبي عبادة [في « ديوانه » ١/٢٤] :

وَضِيَاءٌ وَجْهِ لَوْ تَأَمَّلَهُ امْرُؤٌ صَادِي الْجَوَانِحِ لَارْتَوَى مِنْ مَائِهِ

فهل تجد في شيءٍ مِنْهُمَا زائداً على كلام العجوز؟ لولا شدة المتن ، وقوة الأسر ، وجمال التأليف ، وروعة التصيف ، والشواهد على مثله كثيرة .

وقد ذكرنا مرّةً : أَنَّ أَبَا تَمَّامٍ لَمْ يَأْخُذِ الْقِسْمَ الْأَخِيرَ مِنْ ثَانِي الْبَيْتَيْنِ الْآتِيَيْنِ ، عَلَى مَا سَبَقَ فِيهِ أَوَائِلَ الْمَجْلِسِ الْخَامِسِ . . . إِلَّا عَنِ لِسَانِ سَائِلٍ ، وَهُمَا [في « ديوانه » ١/١٤٨-١٤٩] :

يَرَى أَفْبَحَ الْأَشْيَاءِ أَوْبَةَ أَمَلٍ كَسْتُهُ يَدُ الْمَأْمُولِ حُلَّةَ خَائِبٍ
وَأَحْسَنُ مِنْ نَوْرِ يُفْتَحُهُ الصَّبَا بِيَاضِ الْعَطَايَا فِي سَوَادِ الْمَوَاهِبِ

وإن تعجبت . . فاعجب ممن سؤل له الهوى ، واستخفه الجهل ، وذهب به التعصب الناشئ عن مجرد التقليد إلى غاية مطوَّحة من الغرور ، بالقصيدة المستهله بهذا :

حَفَّ كَأَسْهَاءِ الْحَبَبِ فَهَيَّ فِضَّةٌ ذَهَبُ

وقد قلنا : إِنَّهُ بَيْتٌ تَافَهُ ، طَلَعَتْ بِهِ الْقَصِيدَةُ كَاسْفَةً ، وَحَسْبُكَ مِنَ الْإِتْقَادِ عَلَيْهِ مَخَالَفَتُهُ لِلْقَوَاعِدِ الْعَرَبِيَّةِ ؛ إِذْ لَا يَجُوزُ نَرْكُ الْعَطْفِ فِي الْخَبَرِ إِذَا تَعَدَّدَ صَاحِبُهُ ، وَلَوْ حُكْمًا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَمَّا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ ﴾ [الحديد : ٢٠] ، بِخِلَافِ مَا تَعَدَّدَ لَفْظًا فَقَطْ ، بَأَنَّ كَانَ لَا يَصِحُّ الْاِقْتِصَارُ عَلَى بَعْضِهِ ، فَإِنَّ الْعَطْفَ يَمْتَنِعُ فِيهِ ، ك (الرمان حلوا حامض) وهذا البيت إنما هو من الأوَّل .

ثمَّ إِنَّهُ مَعْنَى مَرْمِيٍّ فِي مَدَارِجِ الطَّرِيقِ ، مَمْتَهَنٌ عَلَى أَلْسِنَةِ الشُّعْرَاءِ إِلَى حَدِّ الْاِبْتِدَالِ ، وَقَلَّ مَنْ وَصَفَ الرَّاحَ إِلَّا جَاءَ فِي تَشْبِيهِ الْفَقَاقِعِ بِمَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ ، قَالَ الْمُتَمَلِّسُ [في « ديوانه » ٨٠] :

عَقَارٌ عَتَقْتُ فِي الدَّنِّ حَتَّى كَأَنَّ حَبَابَهَا حَدَقُ الْجَرَادِ^(١)

وقال أبو نؤاس [في « ديوانه » ٥٢٤] :

بَيْنَمَا عَلَى كِسْرِي سَمَاءٌ مُدَامَةٌ مُكَلَّلَةٌ حَافَاتُهَا بِنُجُومٍ^(٢)

وقال [في « ديوانه » ٥٧] :

كَأَنَّ صُغْرِي وَكُبْرِي مِنْ فَوَاقِعِهَا حَضْبَاءٌ دُرٌّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ

(١) العُقَارُ : الخمرُ .

(٢) مُكَلَّلَةٌ : محفوفة ومحاطة . النجومُ : المراد بها الحبُّ ، أي الفقايعُ التي تعلق الكأسُ .

وقال ابن الرومي [في «ديوانه» ٤/١٦٥٥] :

لَهَا صَرِيحٌ كَأَنَّهُ ذَهَبٌ

وقال الأول :

إِذَا سَحَّهَا السَّاقِي حَسِبْتَ حُبَابَهَا

وقال ابن المعتز [في «ديوانه» ٢/١٨٩] :

خَلِيلِي قَدْ طَابَ الشَّرَابُ الْمُبْرَدُ

فَهَاتِ عَقَاراً مِنْ قَمِيصِ زُجَاجَةٍ

يَصُوغُ عَلَيْهَا الْمَاءُ شَبَاكَ فِضَّةٍ

وقال [في «ديوانه» ٢/١٨٧] :

وَنَارٌ قَدْ خَنَاهَا سِرَاعاً بِسُخْرَةٍ

يَجُولُ حُبَابُ الْمَاءِ فِي جَنَابَتِهَا

وقال [آخر في «المستطرف» ٢/٤١٥] :

كَأَنَّ فِي كَاسِهَا وَالْمَاءُ يَقْرَعُهَا

وقال ابن وكيع [في «المستطرف» ٢/٤١٠] :

وَحَمْرَاءَ مِنْ مَاءِ الْكُرُومِ كَأَنَّهَا

كَأَنَّ الْحُبَابَ الْمُسْتَدِيرَ بِطَوْقِهَا

وقال الآخر :

وَإِكْتَسَتْ مِنْ فِضَّةٍ دُرّاً

كَكُمَيْتِ اللَّوْنِ قَلْدَهَا

وقال أبو عبادة [في «ديوانه» ١/٧] :

وَفَوَاقِعُ مِثْلِ الدُّمُوعِ تَرَدَّدَتْ

وَإِنَّهُ لَمِنْ أَكْبَرِ الْعَارِ أَنْ يَكُونَ مِثْلُ هَذَا الْبَيْتِ حَصِيلَةَ اسْتِقْرَاءِ الْأَشْعَارِ الشَّمِينَةِ ، وَالتَّشْبِيهِاتِ السَّمِينَةِ ، فَمَا لِلْجُهَلَاءِ

وَالْتَمِيْزِ بَيْنَ طَبَقَاتِ الشُّعْرَاءِ ، وَتَرْتِيبِ دَرَجَاتِهِمْ ، وَتَعْرِيفِ طَبَقَاتِهِمْ ، هِيَاتٍ . . لَقَدْ حَنَّ قَدْحٌ لَيْسَ مِنْهَا .

ولله درُّ المعري في قوله [في «سقط الزند» ٢٢٥] :

وَمُذْ قَالَ إِنَّ ابْنَ اللَّيْمَةِ شَاعِرٌ

أَلَمْ يَعْرِفُوا أَنَّ الْحُكْمَ بِالشَّيْءِ فَرَعُ تَصَوُّرِهِ ؟ فَهَلْ حَقَّقُوا تِلْكَ الْمَعَارِفَ ، وَتَفَيَّسُوا ظِلَالَهَا الْوَارِفَ ؟ أَمْ يَجْرُونَ كَمَا يَجْرِي

(١) الثُّبِي : الْجَرَادُ .

في الديمةاس السيلُ ، وَيَخْبِطُونَ كَمَا تَخْبِطُ الْعِشْوَاءُ بِاللَّيْلِ ، وقد قالوا : إِنَّ الشَّعْرَ كَالْبَحْرِ ، أَهْوَنُ مَا يَكُونُ عَلَى الْجَاهِلِ ، أَهْوَلُ مَا يَكُونُ عَلَى الْعَالِمِ .

وقيل للمفضل الضبيّ [في «صبح الأعشى» ٣٤٥/٢] : لِمَ لَا تَقُولُ الشَّعْرَ ، وَأَنْتَ أَعْلَمُ النَّاسِ بِهِ ؟ قَالَ : عِلْمِي بِهِ هُوَ الَّذِي يَمْنَعُنِي مِنْ قَوْلِهِ .

ثُمَّ إِنَّ لِكُلِّ لَفْظَةٍ خَاصَّةً تُعْرَفُ بِهَا حَسَنًا وَقَبْحًا ، ثَقَلًا وَقَبُولًا ، وَمَنْ ذَا الَّذِي لَا يَفْرُقُ بَيْنَ الْإِسْفَنْطِ^(١) وَالْمُدَامِ ، وَالخَنْشَلِيلِ^(٢) وَالسَّيْفِ ؟ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ - وَكُلُّهُ مِنَ الْأَوْلِيَّاتِ الَّتِي لَمْ يَحْوِجْ إِلَى التَّنْبِيهِ إِلَيْهَا إِلَّا جَهْلُ الْمُتَأَخِّرِينَ الْمُرَكَّبِ .

ومرعاة البلاغة التي تزل عنها الفصحاء ، وَقَذَفَاتِهِ الَّتِي تَخْتَلِجُ دُونَهَا الْبُلْغَاءُ هِيَ وَضَعُ كُلِّ كَلِمَةٍ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي يَلِيْقُ بِهَا ، حَتَّى تَجِيءَ خَفِيْفَةً عَلَى اللِّسَانِ ، مِثَالُهُ قَوْلُهُ جَلَّ شَأْنُهُ : ﴿ فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ ﴾ [الأعراف : ١٣٣] .

فَقِي لَفْظَتِي : (الضَّفَادِعُ) وَ (الْقُمَّلُ) مَا لَا يَنْكَرُ مِنَ الْاسْتِثْقَالِ ، لَكِنَّهُمَا لَمَّا تَوَسَّطْنَا الْأَلْفَاظَ السَّهْلَةَ الْمَقْبُولَةَ . حَسَنَ مَوْقِعُهُمَا ، وَأَشْرَقَ عَلَيْهِمَا ضَوْءُ الْجَمَالِ ، وَإِلَّا . . . فَقَدْ كَرِهُوا قَوْلَ الْفَرَزْدَقِ [في «صبح الأعشى» ٢٨٤/٢] : [مِنَ الْكَامِلِ]

مِنْ عِزِّهِ اخْتَجَرَتْ كُلِّبٌ عِنْدَهُ زُمْرًا كَأَنَّهُمْ لَدَيْهِ الْقُمَّلُ

وَالْقِرَانَ مِنْ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ مِثَالُ تَمَكُّنِ الْأَلْفَاظِ مِنْ مَوَاقِعِهَا ، لَا يَمَكِّنُ فِيهِ تَحْوِيرٌ قَطُّ ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى تَمَثُّلٍ ، وَهُوَ كُلُّهُ مِنْ هَذَا النَّمَطِ ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ يَتَجَلَّى أَثَرُ ذَلِكَ فِي بَعْضِ نَقَطٍ ، وَهُوَ الْأَمْرُ يُتَنَطَّنُ نَيْلُهُ ، فَلَا يَدْرُكُ ذَيْلُهُ : [مِنَ الطُّوِيلِ]

تَرَاهُ عِيُونَ النَّاطِرِينَ إِذَا بَدَا قَرِيبًا ، وَلَا يَسْتَطِيعُهُ مَنْ يَرُوقُهُ

وَقَالَ النَّازِمُ [في «المكبري» ١١١/١] :

كَأَنَّ الشَّمْسَ يُعْيِي كَفَّ قَابِضِهِ شُعَائَهَا وَيَرَاهُ الطَّرْفُ مُقْتَرِبًا

وَمِمَّا يَدُلُّ لَصَحَّةَ مَا نَقُولُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ * أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَبْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعَبْنَا وَقَضًّا * وَزَيَّنَّاهَا وَمَخَلَّا * وَحَدَّيْنِ عَلْبًا * وَفَكَهَهُ وَأَبًّا * مَنَعَا لَكُرًّا وَلَا تَمِيمَكُرًّا ﴾ [عبس : ٢٤-٣٢] .

وقوله جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِبْرَاهِيمَ كُلًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام : ٨٤-٨٦] .

فَلَمْ يَخْرُجِ الْأَسْلُوبُ فِيهَا عَنِ التَّعَلِّيِّ وَالتَّدَلِّيِّ . . . إِلَّا لِيَسْأَقَ عَلَى أَعْدَبِ مَا يَكُونُ ، وَأَخْفَهُ عَلَى الْأَلْسِنَةِ .

وقوله تَبَارَكَ اسْمُهُ : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعُمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخْتِ

(١) الإسفنت : المطيب من عصير العنب ، أو ضرب من الأشربة ، أو أعلى الخمر ؛ لأن الدنان تسفنتها أي تشربت أكثرها .

(٢) الخنشليل : الجيد الضرب بالسيف .

وَأَمَّهُتِكُمْ الَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتِكُمْ مِنَ الرِّضَاعَةِ ﴿النساء : ٢٣﴾ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَلْتَفِتْ عَنِ الْخَطَابِ فِي بَنَاتِ الْأَخِ وَالْأُخْتِ ، وَلَمْ يَخَالَفْ بَيْنَ إِسْنَادِ الرِّضَاعِ لِلْأُمَّهَاتِ وَالْأَخَوَاتِ . . . إِلَّا لِذَلِكَ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِحِكْمَتِهِ ، إِلَّا أَنَّ هَذَا هُوَ الَّذِي يَنْقَدِحُ بِخَاطِرِهِ هَذَا الْمُنْتَظَلِ .

وَيَتَّصِلُ بِهِذَا . . . اخْتِيَارُ الْأَلْفَاظِ ، وَوَضْعُ كُلِّ شَيْءٍ فِي مَا لَا يَتَجَاوَى عَنْهُ ، أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ شَأْنُهُ أَبَدَلَ الْعَسَلِ مِنْ قَوْلِهِ : ﴿ وَأَنْتُمْ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾ [محمد : ١٥] بِالشَّهْدِ لِانْتِقَاصِ الْعَذُوبَةِ الْحَاصِلَةِ مِنْ تَحْرِيكِ الْوَسْطِ فِي الْعَسَلِ ؟ وَتَدَبَّرْ قَوْلَهُ : ﴿ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ [الأعراف : ٤٠] .

وقوله : ﴿ وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ [يوسف : ٧٢] ، فَإِنَّ كَلَامًا مِنَ الْجَمَلِ فِي الْأُولَى ، وَالْبَعِيرِ فِي الثَّانِيَةِ ، وَاقَعَ فِي مَوْضِعِهِ الَّذِي يَطْلُبُهُ ، وَلَا يَصْلُحُ عَلَى سِوَاهُ ، وَكَمْ رَأْيَانُهُ يَتَجَاوَزُ مَا يَسْتَقْبَلُ مِنَ اللَّفْظِ إِلَى الْكِنَايَةِ عَنْهُ كَقَوْلِهِ : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق : ١٢] .

وما ذاك - والعلمُ له جَلٌّ شَأْنُهُ - إِلَّا لِكِرَاهَةِ اسْتِعْمَالِ الْأَرْضِ مَجْمُوعَةً .

ولا يبعدُ أن يكونَ منه قَوْلُهُ : ﴿ فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [العنكبوت : ١٤] .

وقوله : ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [الكهف : ٧٩] ، أَمَّا الْأُولَى : فَوَاضِحٌ ، وَأَمَّا الثَّانِيَةُ : فَلِمَا فِي هَمْزَةِ الْقَطْعِ فِي لَفْظَةِ الْأَمَامِ لَوْ جَعَلَهَا مَكَانَهَا مِنَ الْاسْتِقْقَالِ .

فَأَفْضَلُ أَنْوَاعِ الْإِعْجَازِ فِي مَا أَرَى خَفَّةَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ عَلَى أَسَلَةٍ^(١) اللِّسَانِ ، بِحَيْثُ يَتِمَكَّنُ الْقَارِئُ أَنْ يَتَلَوَّ مِنْهُ مَا لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَقْرَأَ مِنْ غَيْرِهِ فِي الزَّمَنِ الْوَاحِدِ ، بِاعْتِبَارِ الْحُرُوفِ ، وَهَذَا أَمْرٌ لَمْ أُجْرِبُهُ ، وَلَمْ أَرِ مَنْ نَبَّهَ عَلَيْهِ ، غَيْرَ أَنِّي أَعْتَقَدُهُ اعْتِقَادًا جَازِمًا يَسْمَعُنِي أَنْ أَسْتَشْهَدَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَقَدْ بَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ [القمر : ١٧] ، وَلِئِنْ تَوَهَّمَتْ تَوْهَمٌ أَنَّهُ لَيْسَ إِلَّا نَتِيجَةُ صِقَالِ الْأَلْسِنِ ، وَكَثْرَةِ التَّلَاوَةِ . . . فَلْيَجْرِبْ فِيهِ وَفِي مَا يَمُرُّ فِيهِ مِنْ غَيْرِهِ مَرُورَ السَّهْمِ مِنَ الْمَحْفُوظَاتِ ، فَسَيَصِحُّ لَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَا نَقُولُ ، وَالْكَلَامُ فِي أَمْثَالِهِ يَطُولُ ، وَكُلُّهُ مَفْرُوعٌ مِنْهُ ، مَقَرَّرٌ فِي مَوَاضِعِهِ ، لَمْ نَجِءْ بِشَيْءٍ مِنْهُ ، غَيْرَ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ عِنْدِنَا ، وَلَمْ نَخْتَرْهُ مِنْ قَبْلِ أَنْفُسِنَا ، وَلَكِنَّهُ طَرِيقٌ وَاضِحٌ ، وَمُهَيِّعٌ وَاسِعٌ ، لَمْ نَحْتِجْ لِلإِشَارَةِ إِلَيْهِ إِلَّا لِلْكَفِّ مِنْ جَمَاحِ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ فِي الْعَلَالِي ، وَلَمْ يَدْخُلُوا بَعْدُ فِي الدَّهْلِيَةِ .

وَأَقُولُ لَكَ وَاحِدَةً يَصِحُّ أَنْ تَعْمَلَ بِهَا فِي نَفْسِكَ دُونَ أَنْ تَقَاسِمَ بِهَا سِوَاكَ ، وَهِيَ : أَنَّهُ إِذَا هَزَّ الْكَلَامُ شَعُورَكَ ، وَنَفَخَ دِمَاغَكَ ، وَهَيَّجَ خَوَاطِرَكَ ، وَحَرَّكَ سَاكِنَكَ ، وَأَظْهَرَ كَامِنَكَ ، وَدَخَلْتَ لِسْمَاعِهِ بِلُونٍ ، وَخَرَجْتَ بِلُونٍ آخَرَ مِنْ الْإِنْفِعَالِ مِنْهُ ، وَالتَّأَثُّرِ بِهِ . . . فَاعْرِفْ أَنَّهُ كَلَامٌ جَزَلٌ ، وَجِدُّ لَيْسَ بِالْهَزْلِ ، وَلَا بَأْسَ أَنْ تَقْتَنِعَ بِالطَّلِّ مِنْ هَذَا إِنْ أَعُوزَكَ الْوَابِلُ ، مِنْ غَيْرِ أَنْ تَتَّخِذَهُ حِكْمًا ، أَوْ تَقَطِّعَ بِهِ جِزْمًا ، فَدُونَ ذَلِكَ خَرَطُ الْقِتَادِ مِنْ سَلَامَةِ الْفِطْرَةِ ، وَثِقُوبِ الْفَهْمِ ، وَصِفَاءِ الطَّبَعِ ، وَأَصَالَةِ السَّلِيقَةِ ، أَوْ مَا ذَكَرْنَا مِنْ اسْتِكْمَالِ الْأَدْوَاتِ بِكَثْرَةِ الْمَجَالِ ، وَالْأَخْذِ عَنِ الرِّجَالِ ، وَمِمَارَسَةِ الصَّنَاعَةِ ، وَمُحَاوَرَةِ الْجَمَاعَةِ ، ثُمَّ لَا بَدَّ مَعَ تِلْكَ الْمَتَاعِبِ أَنْ يَتَّحَ لَكَ رَفِيقٌ يَقَالُ لَهُ التَّوْفِيقُ ، وَإِلَّا . . . ضَلَلْتَ عَنْ سِوَاءِ الطَّرِيقِ ، كَمَا أَشَارَ إِلَى مِثْلِهِ بِدِيْعِ الزَّمَانِ [في «مقاماته»] فِي مَقَالٍ لَهُ أَعْلَى مِنْ عَقْدِ الْجَمَانِ .

* * *

(١) أَسَلَةُ اللِّسَانِ : طَرَفُهُ .

تنبيهات

[المعاني الظاهرة مشاع بين الناس ولا يقضى فيها لأحد بالسبق]

أحدُها : كثيراً ما نقولُ في هذه المجالسِ : هذا مأخوذٌ من هذا ، وهذا ناظرٌ إلى هذا ، وبعضُهُ لا يمكنُ إطلاقَ السرقةِ عليه ؛ لأنَّ المعانيَ الظاهرةَ تعورها الأفهامُ ، وتتواردُ عليها الخواطرُ ، فهي مشاعةٌ بينَ الناسِ ، كالتشبيهِ بالبحرِ ، والقمرِ ، والأسدِ ، وما في حكمِها ، من المخترعةِ في البدءِ ، المنتشرةِ فيما بعدُ ، كقولِ قيسِ بنِ الأسَلَتِ أو ابنِ الخطيمِ [في «ديوانِ ابنِ الخطيمِ» ١٦] :

مَا تَمْنَعِي يَقْظَى فَقَدْ تُوْتِنَهُ فِي النَّوْمِ غَيْرَ مُصَرِّدٍ مَحْسُوبٍ
وقولِ المعريِّ :

تُسِيءُ بِنَا يَقْظَى فَأَمَّا إِذَا سَرَتْ رُقَاداً فَإِحْسَانُ إِلَيْنَا وَإِجْمَالُ
وقولِ مهيارٍ [في «ديوانه» ٤/١٨٤] :

وَهَبْكُمْ مَنَعْتُمْ أَنْ أَرَاهَا بِنَاظِرِي فَهَلْ تَمْنَعُونَ الْقَلْبَ أَنْ يَتَمَنَّاها
وقولِ عبدةِ بنِ الطَّيِّبِ في رثاءِ قيسِ بنِ عاصمٍ [في «ديوانه» ١٠] :

وَمَا كَانَ قَيْسٌ هُلْكُهُ هُلْكُ وَاحِدٍ وَلَكِنَّهُ بَيْتَانُ قَوْمٍ تَهْدَمَا
وقولِ ابنِ المقفِّعِ [في «ديوان الحماسة» ١/٣٥٧] :

فَقَدْ جَرَّ نَفْعاً فَقَدْ نَالَكَ أَنْتَا أَمَّا عَلَى كُلِّ الرَّزَايَا مِنَ الْجَزَعِ
وما جرى هذا المجري مما تجاذبته الأيدي ، وتعاورته الأفكارُ .

[المتنبي بحق . . يشبه عصا سيدنا موسى . . يلقف كل ما يأتي به الشعراء فيجيد أحياناً وسيء أخرى]

ثانيها : أشرنا غير مرةٍ إلى أنَّ الناظمَ لا يدعُ لأحدٍ شاذةً ولا فاذةً إلاَّ اطردها ، وكثيراً ما يستسنمُ الورمَ ، كما مثلنا بقوله : [في «العكبري» ١/٣٧٨]

[يَكَادُ يُصِيبُ الشَّيْءَ مِنْ قَبْلِ رَمِيهِ] وَيُمْكِنُهُ فِي سَهْمِهِ الْمُرْسَلِ الرَّدُّ
ويستحسنُ القبيحَ كما في قوله [في «العكبري» ٢/٢٥٣] :

أَجْبُكَ أَوْ يَقُولُوا جَرَّ نَمْلٍ ثِيْرًا وَإِبْنُ إِبْرَاهِيمَ رِيْعَا
ولم نجازف في شيءٍ من ذلك ، فكذلك كان الرجلُ ، غير أنَّه - والحقُّ يقالُ - كثيراً ما يعمدُ إلى ما رخصَ فيُعْلِيهِ ، وإلى ما امتنَّه فيُعْلِيهِ ، ويعيدُ له جدتهُ ، وينشرُ له رفاتهُ ، ويبعثُهُ في خلقٍ جديدٍ ، أبهى من سابقهِ ، ألا ترى إلى

المعنى الآتي ؟ فأوّل من وقع عليه فيما أظنّ الأفوه الأوديّ ، حيث قال [في « ديوانه » ٧٧] :

وَتَرَى الطَّيْرَ عَلَى آثَارِنَا ثِقَةً مِنْ غَزُونَا أَنْ سَتَمَارُ^(١)

وقال نابغة ذبيان [في « ديوانه » ٥٧] :

إِذَا مَا غَزَا بِالْجَيْشِ حَلَقَ فَوْقَهُ عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ
جَوَانِحَ قَدْ أَيَقَنَنَّ أَنَّ قَبِيلَهُ إِذَا مَا التَّقَى الْجَمْعَانَ أَوْلُ غَالِبِ^(٢)

وقال مسلم بن الوليد [في « ديوانه » ١٢] :

قَدْ عَوَدَ الطَّيْرَ عَادَاتٍ وَثِقَنَ بِهَا فَهَنْ يَتَّبَعُهُ فِي كُلِّ مُرْتَحَلِ

وقال أبو نواس [في « ديوانه » ٢٨٣] :

تَتَأَيَّأُ الطَّيْرُ غَزَوَتَهُ ثِقَةً بِاللَّخْمِ مِنْ جُزْرِهِ

وقال أبو تمام [في « ديوانه » ٤٠/٢] :

وَقَدْ ظَلَلْتُ عِقْبَانَ رَايَاتِهِ ضَحَى أَقَامَتْ مَعَ الرَّايَاتِ حَتَّى كَانَتْهَا
بِعِقْبَانِ طَيْرٍ بِالدَّمَاءِ نَوَاهِلِ مِنَ الْجَيْشِ إِلَّا أَنَّهَا لَمْ تُقَاتِلِ

ولم يبق من شاعر إلا أفرغته في قالب ، وأدرجه في مثال ، حتى أذالوه ، فلما انتهى إلى صاحبنا . . أطلع يوحه^(٣) ،

وردّ روحه ، وأذكى رياه ، وأظهر محياه ، فقال [في « العكبري » ٣٧٩-٣٨٠] :

يُنْفِدِي أَتَمُّ الطَّيْرِ عُمراً سِلَاحَهُ وَمَا ضَرَّهَا خَلَقٌ بغيرِ مَخَالِبِ
نُسُورُ الْمَلَأَ أَحْدَانَهَا وَالْقَشَاعِمُ^(٤) وَقَدْ خَلَقَتْ أَسْيَافُهُ وَالْقَوَائِمُ

وقال [في « العكبري » ٣٣٨/٣] :

سَحَابٌ مِنَ الْعِقْبَانِ يَزْحَفُ تَحْتَهَا سَحَابٌ إِذَا اسْتَسَقَتْ سَقْتَهَا صَوَارِمُهُ

وقال [في « العكبري » ١١٣/٤] :

وَذِي لَجَبٍ لَا ذُو الْجَنَاحِ أَمَامَهُ تَمُرُّ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَهِيَ ضَعِيفَةٌ
بِنَاجٍ وَلَا الْوَحْشُ الْمُنَارُ بِسَالِمٍ تَطَالِعُهُ مِنْ بَيْنِ رِيَشِ الْقَشَاعِمِ
إِذَا ضَوْءُهَا لَاقَى مِنَ الطَّيْرِ فُرْجَةً تَدَوَّرَ فَوْقَ الْبَيْضِ مِثْلَ الدَّرَاهِمِ

وما كان لأبي الطيب أن يموت بحسرة على الإمارة وقد فتح هندي القلاع ، ووفق لهذا الإبداع ، وإنّي لكثيراً ما أمرُّ

(١) سَتَمَارُ : أي ستأتيها الميرة وهو الغذاء والطعام . .

(٢) جوانح : مائلة في أحد شقيها للوقوع ، ومنه قولهم : جنح الليل ، إذا مال .

(٣) يوح : اسم من أسماء الشمس .

(٤) القشاعم : النسور الطويلات العمر ، ومنه سميت المنيّة (أم قشعم) لطول عمرها . الملا : وجه الأرض . الأحداث : الشابة ، والمعنى : يقدي أطول

الطير عمراً سلاح سيف الدولة ، وإنما يفديه لوجود الجثث في وقائعه ، والاستبشار بكثرة ملاحمه .

بهذه القصيدة فيحدث لي عند كل مرة من روعة حسنها ، ورونق جمالها ، ما لم أجده من قبل ، فسبحان المانح ، هذا والله السحر الحلال ، والعذب الزلال ، والحديث الذي لا تزيده الإعادة إلا جدّة ، ولا التكرار إلا لذة .

[اعتذار المؤلف إلى المتنبّي إن كان قسا عليه واعترافه بالفضل له وذكر أمثلة من بدائعه]

ثالثها : ربّما انتقدنا عليه بعض قوله بحدّة ، وحكّمتنا عليه أحيانا بشدّة ، فلا يذهب وهمك أنّا نبخسه حقّه ، ونهضم عليه فضله ، وإنّما هي حالة من الحالات ، وجائشة من الجوائش ، يضطرّنا إليها غروره بنفسه ، وإعجابُه بشعره ، وإعراضُه - كما يروى [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٣٨١] - عن كلّ نقدٍ يوردُ عليه ، إلّا ما أشارَ به عليه سيفُ الدولة من إبدال (الجيفِ) بـ (الجثثِ) من قوله [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٣٨١] :

وَكَانَ بِهَا مِثْلُ الْجُنُونِ فَأَصْبَحَتْ وَمِنْ جَيْفِ الْقَتْلَى عَلَيْهَا تَمَائِمُ

وقد جاء بأشياء ظاهرة النكارة والقبح ، مثل قوله [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ١٨٣] :

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ تَجَوَّزَ إِلَيْهِمْ شُعْرَاءُ كَأَنَّهَا الْخَازِبَازِ^(١)

وقوله [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ٣٤٠] :

أَنْنَى يُكُونُ أَبَا الْبَرِيَّةِ آدَمُ وَأَبُوكَ - وَالثَّقْلَانِ أَنْتَ - مُحَمَّدُ!

وقوله [في « العُكْبَرِيّ » ٤/ ٢٠٧] :

خَلَّتِ الْبِلَادُ مِنَ الْغَزَالَةِ لَيْلَهَا فَأَعَاضَهَا اللَّهُ كَيْ لَا تَحْزَنَا^(٢)

وقوله [في « العُكْبَرِيّ » ٢/ ٣٢٥] :

وَمَلْمُومَةٌ سَيْفِيَّةٌ رَبْعِيَّةٌ يَصِيحُ الْحَصَى فِيهَا صِيَاخَ اللَّقَالِقِ^(٣)

وقوله [في « العُكْبَرِيّ » ٤/ ٨٥] :

فَلَا يُبْرَمُ الْأَمْرُ الَّذِي هُوَ حَالِلٌ وَلَا يُخَلَّلُ الْأَمْرُ الَّذِي هُوَ مُبْرَمٌ

وقوله [في « العُكْبَرِيّ » ٣/ ٢٥٨] :

جَحَفَتْ وَهُمْ لَا يَجْحَفُونَ بِهَا بِهِمْ شِيمٌ عَلَى الْحَسَبِ الْأَعْرُ دَلَائِلُ^(٤)

وقوله [في « العُكْبَرِيّ » ٤/ ٢٢٤] :

لَوْ اسْتَطَعْتُ رَكِبْتُ النَّاسَ كُلَّهُمْ إِلَى سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بُعْرَانَا^(٥)

فهذا - والله - كما قال هو نفسه : القولُ الهراء ، والشعرُ الذي لا يتقدّم إلا إلى الوراء ، ثم إنّها قلما تتساوى

(١) الخازيباز : حكاية صوت الذباب .

(٢) الغزالة : الشمس .

(٣) الملمومة : الكتيبة المجتمعة . سيفية : منسوبة إلى سيف الدولة . ربعية : منسوبة إلى ربيعة ، وهي قبيلة سيف الدولة .

(٤) الجحف : الفخر . وفي البيت تقديم وتأخير ، إذ الأصل : جحفت بهم شيم وفخرت ، وهم لا يفخرون بها . وهو من شواهد علم البلاغة .

(٥) البعران : جمع بعير .

أَغْرَاضُهُ ، وَتَتَقَاطَرُ فَصُولُهُ ، وَيَطْرُدُ نِظَامَهُ ، إِلَّا فِيمَا كَانَ مِنْ وَصْفِ الْحُرُوبِ ، وَبَعْضِ قِصَائِدِ كَالْتِي أَوَّلُهَا [فِي
« الْمُكْبَرِيِّ » ١/٧٥] :

بَغَيْرِكَ رَاعِيًا عَبَثَ الذَّنَابُ وَغَيْرِكَ صَارِمًا ثَلَمَ الضَّرَابُ^(١)

وَالْتِي أَوَّلُهَا [فِي « الْمُكْبَرِيِّ » ٢/١٠٠] :

طَوَالَ قَنَاءً ، تَطَاعِنُهَا قِصَارُ وَقَطْرُكَ فِي نَدَى وَوَعَى بِحَارُ

وَالْأ. . فَإِنَّهُ بِالْأغْلَبِ لَا يَكُونُ إِلَّا مَشْتَتَ السِّيَاقِ ، مَبْعَثَرَ الْكَلَامِ ، مَفْرَقَ الْأَغْرَاضِ ، قَلِيلَ التَّشَابُهِ ؛ وَلِذَا تَجَدُّ فِي
السِّيَةِ لَهُ تَمَثُّلٌ بِهِ وَحَدُهُ رَوَاءَ وَرَوْنِقًا ، لَا تَجِدُهُ فِيهِ عِنْدَمَا تَنْشُدُهُ بَيْنَ إِخْوَانِهِ ، وَلَقَلَّمَا سَنَحَ بَدِهْنِي أَحَدُ أَبِيَاتِهِ السَّائِرَةِ
فِي مَنَاسِبَةٍ أَصَارَتْ إِلَيْهِ. . إِلَّا نَزَلَ الرَّجُلُ بِأَقْصَى مَنَزَلَةٍ مِنَ الْإِعْظَامِ فِي نَفْسِي ، حَتَّى إِذَا حَمَلَنِي الْإِكْبَارُ لَهُ عَلَى
التَّرْتِيدِ ، وَرَجَعْتُ إِلَى « الدِّيَوَانِ » . . انْحَطَّ مِنْ عَيْنِي - بِالْأغْلَبِ - انْحِطَاطًا يَتَبَيَّنُ بِهِ الْبُونُ الْبَعِيدُ ، وَالْفَرْقُ الْكَبِيرُ ،
وَلَا أَرَاكَ إِلَّا تَوَافِقُنِي عَلَى هَذَا ، فَإِنَّهُ مَلْمُوسٌ بِالْيَدِ ، وَهُوَ مِنْ أَسْرَارِ قَوْلِهِ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا
فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] ، ثُمَّ إِنْ كَانَ رَدِيئُهُ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ الْإِتِّضَاعِ . . فَإِنَّ جَيْدَهُ فِي الْأَوْجِ الْأَعْلَى مِنَ
الْإِرْتِفَاعِ ، وَهَلْ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَقُولَ مِثْلَ قَوْلِهِ [فِي « الْمُكْبَرِيِّ » ١/٧٨] :

إِذَا مَا سِرْتَ فِي آثَارِ قَوْمٍ تَخَاذَلْتَ الْجَمَاجِمُ وَالرَّقَابُ

وقوله [فِي « الْمُكْبَرِيِّ » ٢/١٠٤] :

مَضَوْا مُتَسَابِقِي الْأَعْضَاءِ فِيهِ لِأَرْؤُسِهِمْ بِأَرْجُلِهِمْ عِثَارُ

وقوله [فِي « الْمُكْبَرِيِّ » ٤/٢٣-٢٤] :

صَدَمْتُهُمْ بِخَمِيْسٍ أَنْتَ غُرَّتُهُ وَسَمَّهَرِيَّتُهُ فِي وَجْهِهِ غَمَمُ
فَكَانَ أَثْبَتَ مَا فِيهِمْ جُسُومُهُمْ يَسْقُطْنَ حَوْلَكَ وَالْأَرْوَاحُ تَنْهَزِمُ

وقد ذَكَرَ الشَّارِحُ جَمَلَةً صَالِحَةً مِنْ بَدَائِعِ شِعْرِهِ الَّذِي بَدَأَ بِهِ الشُّعْرَاءُ ، وَتَرَكَ الطَّوَائِفَ مِنْ مَعَاصِرِهِ ، وَمَنْ بَعْدَهُمْ ،
وَمَنْ قَبْلَهُمْ مَبْنُودِينَ بِالْعِرَاءِ ، وَذَلِكَ عِنْدَ شَرْحِ قَوْلِهِ [فِي « الْمُكْبَرِيِّ » ١/١٦١] :

أَزُورُهُمْ وَسَوَادُ اللَّيْلِ يَشْفَعُ لِي وَأَنْتَنِي وَيَبَاضُ الصُّبْحُ يُغْرِي بِي

فَتُعْنِينَا الْإِحَالَةَ عَنِ الْإِطَالَةِ^(٢) ، وَظَنِّي أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَوْفِقْهُ لَذَلِكَ الْإِبْدَاعِ ، الَّذِي شَاءَ بِهِ النَّاسَ

(١) المعنى : إِذَا كُنْتَ الْحَافِظَ لِلرَّعِيَّةِ لَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِمْ أَحَدٌ بِضَرْفٍ ؛ لِحُوفِهِمْ مِنْكَ ، وَبِغَيْرِكَ يَعْثُ الذَّنَابُ فِي حَالِ رِعْيِهِ وَسِيَاسَتِهِ ، وَيَثَلُمُ الضَّرَابُ غَيْرَكَ فِي حَالِ
قَطْعِهِ ، وَإِذَا كُنْتَ أَنْتَ الرَّاعِي لَمْ يَعْثُ الذَّنَابُ بِسَوَامِكَ ، وَإِذَا كُنْتَ أَنْتَ الضَّرَابَ لَمْ يَثَلُمَكَ الضَّرْبُ .

(٢) وَإِتِمَامًا لِلْفَائِدَةِ نَذَكُرُ الْأَبْيَاتَ الَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا الشَّيْخُ الْمُؤَلِّفُ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - وَهِيَ قَوْلُ الشَّارِحِ :

قَدْ أَجْمَعَ الْحَدَاقُ بِمَعْرِفَةِ الشُّعْرِ وَالنَّقَادُ أَنَّ لِأَبِي الطَّيِّبِ نَوَادِرَ لَمْ تَأْتِ فِي شِعْرِ غَيْرِهِ ، وَهِيَ مِمَّا تَخْرُقُ الْعُقُولَ ، مِنْهَا فِي كَافُورِ :

فَجَاءَتْ بِنَاءِ إِنْسَانٍ عَيْنِ زَمَانِهِ وَخَلَّتْ بَيَاضًا خَلْفَهَا وَمَآقِيًا

وَمَا مُدِحَ أَسْوَدُ بِأَحْسَنَ مِنْ هَذَا .

ومنها :

وَأَخْدَعُ مِنْ كَيْفَةِ الْحَابِلِ

فَمَا لِيُجْرِحَ إِذَا أَرْضَاكُمْ أَلَمُ

يَا مَنْ إِذَا وَهَبَ الدُّنْيَا فَقَدْ بَخِلَا

عَنِ الْجَمِيلِ فَكَيْفَ الْخِصْيَةِ السُّودُ

تَخَادَلَتِ الْجَمَاجِمُ وَالرَّقَابُ

فَقَدْ غَزَنَتْهُ بِجَيْشِ غَيْرِ مَغْلُوبِ

قَمِيصُ يُوسُفَ فِي أَجْفَانِ يَغْقُوبِ

وَحَلَّ بِغَيْرِ جَارِمِهِ الْعَذَابُ

إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي فِعْلِهِ وَالْخَلَابِي

وَإِنَّ كَثِيرَ الْحُبِّ بِالْجَهْلِ قَائِدُ

فَلَا تَطُنُّنَ أَنَّ اللَّيْثَ يَنْتَسِمُ

إِذَا اسْتَوَتْ عِنْدَهُ الْأَنْوَارُ وَالظُّلَمُ

فِي ظَلَعَةِ الشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنِ زُحَلِ

فَرُبَّمَا صَحَّتِ الْأَجْسَامُ بِالْعَلَلِ

فَإِذَا وَلَّى عَنِ الْمَرْوِ وَلَّى

فَنَدِي الدَّارُ أَخْوَنُ مِنْ مُومِسِ

إِنْ كَانَ سَرَّكُمْ مَا قَالَ حَاسِدُنَا

أَرْجُو نَدَاكَ وَلَا أَخْشَى الْمِطَالَ بِهِ

وَدَاكَ أَنَّ الْفُحُولَ الْبِيضَ عَاجِزَةَ

إِذَا مَا سِزَتْ فِي آثَارِ قَوْمِ

إِذَا غَزَنَتْهُ أَعَادِيهِ بِمَسْأَلَةِ

كَأَنَّ كُلَّ سُؤَالٍ فِي مَمَامِعِهِ

وَجُزْمِ جِرَّةِ سُفْهَاءِ قَوْمِ

وَمَا الْحُسْنُ فِي وَجْهِ الْفَتَى شَرَفًا لَهُ

وَإِنَّ قَلِيلَ الْحُبِّ بِالْعَقْلِ صَالِحُ

إِذَا رَأَيْتَ نُيُوبَ اللَّيْثِ بَارِزَةَ

وَمَا انْتِفَاعُ أَخِ الدُّنْيَا بِنَاطِرِهِ

حُذِّ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئاً سَمِعْتَ بِهِ

لَعَلَّ عَيْبَكَ مَخْمُودٌ عَوَاقِبُهُ

آلَةُ الْعَيْشِ صِحَّةٌ وَمَبَابُ

ومنها :

ومنها :

وهذا من أبلغ الوصف بالجود .

ومنها :

هكذا أشد ما هجى به أسود .

ومنها :

قال ابن نباتة : نحسن أن نقول ، ولكن مثل هذا لا نقول .

ومنها :

وبعد .

ومنها :

ومنها :

ومنها :

ومنها :

ومنها :

ومنها :

ومنها :

ومنها :

= وفيها :

أَبَدًا تَمْتَرِدُ مَا تَهَبُ الدُّنْيَا فَيَا لَيْتَ جُودَهَا كَانَ بُخْلًا

ومنها :

وَمَا الدَّهْرُ أَهْلٌ أَنْ تُؤْمَلَ عِنْدَهُ حَيَاةٌ وَأَنْ يُنْتَبَقَ فِيهِ إِلَى النَّسْلِ

ومنها :

إِذَا مَا النَّاسُ جَرَّهْتُمْ لِيَبِّبَ فَإِنِّي قَدْ أَكَلْتُهُمْ وَذَاقَا

ومنها :

أَبَى خُلُقِ الدُّنْيَا حَيِيًّا تُدِيمُهُ فَمَا طَلَبِي مِنْهَا حَيِيًّا تَرُدُّهُ

ومنها :

وَأَسْرَعُ مَفْعُولٍ فَعَلَيْتَ تَعْيُورًا تَكْلُفُ شَيْءٍ فِي طِبَاعِكَ ضِدُّهُ

ومنها :

مَا كُفُّ مَا يَتَمَنَّى الْمَرْءُ يُذْرِكُهُ تَجْرِي الرِّيحُ بِمَا لَا تَشْتَهِي الثُّمُنُ

ومنها :

وَمُرَادُ الثُّمُونِ أَصْفَرٌ مِنْ أَنْ تَعَادَى فِيهِ وَأَنْ تَقَاتَلَى

وفيها :

غَيْرَ أَنْ الْفَتَى يُبْلِقِي الْمَنَابِيَا كَالِحَاتٍ وَلَا يُبْلِقِي الْهَرَاتَا

وفيها :

وَلَوْ أَنَّ الْحَيَاةَ تَبَقَى لِحَيِّي لَعَدَدْنَا أَصْلَانَا الشُّجَعَانَا

وفيها :

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَوْتِ بُدٌّ فَمِنَ الْعَارِ أَنْ تَمُوتَ جَبَانَا

ومنها :

وَصِرْتُ أَشْرَكَ فِيْمَنْ أَضْطَرَّ بِهِ لِعَلِمِي أَنَّهُ بَعِضُ الْأَنْبَامِ

وفيها :

وَإِنْفُ مِنْ أَحْيِي لِأَيِّي وَأُتِي إِذَا مَا لَمْ أَجِدْهُ مِنْ الْكِرَامِ

وفيها :

وَلَمْ أَرْ فِي عُرُوبِ النَّاسِ شَيْئًا كَتَقْصِ الْقَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ

ومنها :

لَوْلَا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسُ كُلَّهُمْ الْجُودُ يُفْقِرُ وَالْإِنْسَادُ قَتَالُ

وفيها :

إِنَّا لَفِي زَمَنِ تَرَكْنَا الْقِيحَ بِهِ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ إِحْسَانًا وَإِفْضَالَ

ومنها :

إِنِّي لِأَجْبُنُ مِنْ فِرَاقِ أَحْيِي وَتُحِسُّ نَفْسِي بِالْحِمَامِ فَاشْجَعُ

= إلى قوله :

تَصْنُفُو الْحَيَاةَ لِجَاهِلٍ أَوْ غَافِلٍ
وَلَمَنْ يُغَالِطْ فِي الْحَقِيقَةِ نَفْسَهُ

ومنها :

تَوَهَّمِ النَّاسُ أَنَّ الْعَجَزَ قَرَّبَنَا

وفيها :

وَلَمْ تَزَلْ فِلَّةُ الْإِنْصَافِ قَاطِئَةً

وفيها :

هَوْنٌ عَلَيَّ بَصِيرَ مَا شَقَّ مَنَظَرُهُ

وفيها :

وَكُنْ عَلَيَّ حَذِرٌ لِلنَّاسِ تَشْتُرُهُ

وفيها :

غَاضَ الْوَفَاءُ فَمَا تَلَقَّاهُ فِي عِدَّةِ

ومنها :

تُرِيدِينَ لَقِيَانِ الْمَعَالِي رَحِيصَةً

ومنها :

نَخْنُ بُؤُ الْمَوْتَى فَمَا بَالُنَا

إلى قوله :

يُمُوتُ رَاعِي الضَّأْنِ فِي جَهْلِهِ

ومنها :

وَإِنَّ الْمَاءَ يَخْرُجُ مِنْ جَمَادٍ

ومنها :

تَغَيَّرَ حَالِي وَاللَّيَالِي بِحَالِهَا

ومنها :

فُوَادٌ مَا تُسْلِيهِ الْمُدَامُ

وفيها :

وَدَهَرُ نَاسُهُ نَاسٌ صِغَارُ

وفيها :

وَمَا أَنَا مِنْهُمْ بِالْعَيْشِ فِيهِمْ

وفيها :

خَلِيلُكَ أَنْسَتْ لَأَمَنْ قُلْتَ خِلِّي

وَإِنْ كُنَّا رَ التَّجْمُلُ وَالْكَلامُ

= وفيها :

وَمِنْهُ الشُّبُهَاءُ مُنْجَذِبٌ إِلَيْهِ وَأَشْبَهُهَا بِدُنْيَانَا الطَّغَامُ

وفيها :

وَمَنْ خَبَرَ الْغَوَانِي فَالْغَوَانِي ضِيَاءٌ فِي بَوَاطِنِهِ ظَلَامٌ

وفيها :

وَمَا كُـلٌّ بِمَعْنَى دَوْرٍ يُخْلِلُ وَلَا كُـلٌّ عَلَيَّ يُخْلِلُ يُسْلِمُ

وفيها :

بِأَرْضٍ مَا اشْتَهَيْتَ رَأَيْتَ فِيهَا فَلَيْسَ يُقْوَتُهُهَا إِلَّا الْكِرَامُ

وفيها :

فَهَلَّا كَانَ تَقْصُ الْأَفْئِلِ فِيهَا وَكَانَ لِأَهْلِهَا مِنْهَا التَّمَامُ

ومنها :

وَاحْتِمَالُ الْأَذَى وَرُؤُوسُهُ جَانِبُهُ غِذَاءٌ تَفْزَوِي بِهِ الْأَجْسَامُ

وفيها :

ذَلَّ مَنْ يَغْبِطُ اللَّيْسَ بِعَيْنَيْهِ رَبُّ عَيْنَيْهِ أَخْفَى مِنْهُ الْحِمَامُ

وفيها :

مَنْ يَهْنُ يَهْنُ يَنْهَلُ الْهَرَانَ عَلَيْهِ مَا لِجُوزِحِ بَعِيَّتِ إِسْلَامُ

ومنها :

أَفْضِلِ النَّاسِ أَغْرَاضَ لَذَا الزَّمَنِ يَخْلُو مِنَ الْهَمِّ أَخْلَاهُمْ مِنَ الْفِطَنِ

وفيها :

فَقَرُّ الْجَهْلُولِ بِسَلَا عَقْلِي إِلَى آدَبِ فَقَرُّ الْحِمَارِ بِسَلَا رَأْسِي إِلَى رَسَنِ

وفيها :

لَا يُعْجِبُنَّ مُضِيماً حُسْنَ بِزُرْتِهِ وَهَلْ يَرُوقُ دَفِيناً جَزُودَةَ الْكَفَنِ

ومنها :

عَرَفْتُ اللَّيَالِي قَبْلَ مَا صَنَعْتَ بِنَا فَلَمَّا دَهَنْتَنِي لَمْ تَزِدْنِي بِهَا عِلْماً

وفيها :

وَإِنِّي لِمِنْ قَوْمٍ كَانَ تَقْوَسْنَا بِهَا أَنْفُ أَنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ وَالْعِظْمَا

وفيها :

فَلَا عَبَّرْتَ بِي سَاعَةً لَا تُعْزِنِي وَلَا صَحْبَتِي مُهْجَةً تَقْبَلُ الظُّلْمَا

ومنها :

وَأَنَا الَّذِي اجْتَلَبَ الْمَيِّتَةَ طَرْفُهُ فَمِنْ الْمُطَالَبِ وَالْقَتِيلِ الْقَاتِلُ

وفيها :

وَإِذَا أَتَيْتَكَ مَذْمَتِي مِنْ نَقِصِ فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي كَامِلُ

=

= ومنها :

وَلَا تَحْبَبَنَّ الْمَجْدَ زَقَاً وَقَيْنَةً

وَمَا الْمَجْدُ إِلَّا السَّيْفُ وَالْفَتَكَةُ الْبُكْرُ

وفيها :

وَمَنْ يُنْفِقِ السَّاعَاتِ فِي جَمْعِ مَالِهِ

مَخَافَةَ فَقْرٍ فَأَلْذِي فَعَلَ الْفَقْرُ

ومنها :

فَمَا فِي سَجَايَاكُمْ مُنَازَعَةُ الْعُلَا

وَلَا فِي طِبَاعِ الثَّرِيَّةِ الْمِسْكُ وَالنَّدُ

ومنها :

إِذَا غَامَزَتْ فِي شَرْفِ مَرُومِ

فَلَا تَقْنَعِ بِمَا دُونَ النُّجُومِ

وفيها :

فَطَعْمُ الْمَمُوتِ فِي أَمْرِ حَقِيرِ

كَطَعْمِ الْمَمُوتِ فِي أَمْرِ عَظِيمِ

وفيها :

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلًا صَحِيحًا

وَأَقْبَلُهُ مِنْ الْفَهْمِ النَّقِيمِ

ومنها :

وَالظُّلْمُ مِنْ شَيْءِ النَّفُوسِ فَإِنْ تَجَدَّدَ

ذَا عَفَا فَعِلَّةٌ لَعَلَّهَا لَا يَطْلُمُ

وفيها :

وَالذُّلُّ يُظْهِرُ فِي الذَّلِيلِ مَوَدَّةَ

وَأَوْدُ مِنْهُ لِمَنْ يَرُدُّ الْأَرْقَمُ

وفيها :

وَمَنْ الْبَلِيَّةِ عَاذِلٌ مِنْ لَا يَزْعَوِي

عَنْ غِيِّهِ وَحَطَّابٌ مَنْ لَا يَنْهَهُمُ

ومنها :

يُذَفُّنُ بَعْضَنَا بَعْضًا وَيَمْشِي

أَوْاجِرُنَا عَلَى هَامِ الْأَوَالِي

ومنها :

وَمَا الْمَمُوتُ إِلَّا سَارِقٌ دَقَّ شَخْصُهُ

بِضُولٍ بِلَا كَفِّ وَتَسَعَى بِبِلَا رَجَلِ

ومنها :

أَرَى كُلَّنَا يَبْغِي الْحَيَاةَ لِنَفْسِهِ

حَرِيصًا عَلَيْهَا مُسْتَهَامًا بِهَا صَبِيًا

وفيها :

وَيَخْتَلِفُ الرُّزْقَانِ وَالْفِعْلُ وَاجِدٌ

إِلَى أَنْ يُرَى إِحْسَانٌ هَذَا لِسَدَا ذَنْبَا

ومنها :

رُبَّ أَمْرِ أَتَاكَ لَا تَحْمَدُ الْفَقْرَ

عَمَّا لَيْسَ فِيهِ وَتَحْمَدُ الْأَعْمَالَ

وفيها :

وَإِذَا مَا خَلَا الْجَبَانَ بِأَرْضِ

طَلَبَ الطُّغْنَانَ وَخُدَّةَ وَالنُّزَالَ

وفيها :

مَنْ أَطَاعَ التَّمَّاسَ شَيْءٌ غِلَابِيًا

وَغَضِبَ ابْنًا لَمْ يَلْتَمِسْهُ سُؤَالَ

في الأولى . . . إلا وهو يريد أن يتجاوزَ عن سَيِّئَاتِهِ في الأخرى ، وهو عندَ ظنِّ عبده به .

[العمل كان في الكتاب على مبدأ الانتقال من زهرة إلى زهرة دون تعمد ترتيب]

رابعها : أننا نجري في هذه المجموعة - كما كررنا القول - بسوقِ الخاطرِ ، وسيرِ البديهةِ ، ونسقطُ تداعي الأفكارِ ، ونذكرُ في كلِّ موضعٍ ما تنتهي بنا إليه الذاكرةُ ، وقد اشتملتُ من الأشعارِ على طرائفَ ، ومن النواذِرِ على ظرائفَ ، لو وُفِّقَ أديبٌ لترتيبها ، وإلحاقِ كلِّ فرعٍ بأصله ، وكلِّ ضالٍّ بأهله . . . لجاؤا كتاباً موفوراً الفائدةِ ، مذكوراً العائدةِ ، معدومِ النظرِ . وكأني بلائمٌ يلومُ على ما أشرتُ إليه من تشتيتِ المواضيعِ ، وتفريقِ الشواهدِ ، وجوابه - فوق ما عرفَ مما سلفَ - : اعتمادُ أن ينالَ كلُّ مجلسٍ نصيبه من الجدِّ ، والهزلِ ، والوقشِ ، والجزلِ ؛ حتَّى يقومَ بذاته ، ويستقلَّ بنفسه ، ويُمتعَ على حدته ، وذلك من أفضلِ فنونِ البلاغةِ ، وهي طريقةُ الذكرِ الحكيمِ ، إذ ترى آياتِ الطلاقِ والبيعِ مقرونةً بالوعظِ المبكي ، والوعدِ المسكيِّ ، والوعيدِ المُنكي ، ولو كانت كما تقرأها في داووينِ الفقه . . . كما أعوزَ الملحدَ لها جحوداً ، ولما خضعَ لها المصاقعُ سجوداً .

ثمَّ إنَّ أمهاتِ كتبِ الأدبِ - كـ «البيانِ والتبيين» للجاحظِ - لا تخلو عن الأغلطِ ، والتحريفِ ، والتكريرِ ، والتصريفِ ، فكثيراً ما أرى الأبياتِ فيها مختلفة العزو ، مع تقاربِ المواضيعِ ، وذلك أنصعُ لوجهِ عذرنا ، فيما يكونُ من مثله عندنا أنزُرُ منه عندهم ، إن شاء الله تعالى .

[خواطر الانتهاء من الكتاب]

خامسها : لَمَّا أَلْقَيْتُ الْقَلَمَ عِشَاءَ مَسَاءِ اللَّيْلَةِ ١٧ مِنْ جُمَادَى الْأُولَى سَنَةَ : (١٣٥٢ هـ) كَمَا هِيَ الْعَادَةُ ، تَكُونُ الْقِرَاءَةُ وَالْكَلَامُ عَلَيْهَا بِمَا يَحْضُرُ عَشِيَّةً ، ثُمَّ أَخْلُو بِنَفْسِي سَاعَةً مِنَ الْمَسَاءِ ، أُفِيدُ فِيهَا مَا يَكُونُ ، وَحِينَئِذٍ وَقَدْ قَرَأْتُ وَرَدِي ، وَأَخَذْتُ مُضْجَعِي ، وَوَقَعَ نَظْرِي عَلَى السَّمَاءِ ، وَزِينَتِهَا بِالنَّجْمِ الزَّاهِرَةِ ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَةِ . . . اسْتَعْرَقَ فِكْرِي ، وَاسْتَجْمَعَ ذِكْرِي ، وَانْطَلَقْتُ لِسَانِي بَيْتَ مَرَّةٍ ذَكَرُهُ فِي الْمَجْلِسِ الْعَاشِرِ ، لَتَقِيَّ الدِّينَ بْنِ تَيْمِيَّةَ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : [مِنَ الْبَسِيطِ]

وَالْفَقْرُ لِي وَصَفُ ذَاتٍ لَا زِمَّ أَبَدًا كَمَا الْغِنَى لَكَ وَصَفُ لَا زِمَّ ذَاتِي

وأحسستُ من الوقتِ بطيبٍ ، ومن الإلهامِ بخطيبٍ ، فاستكانَ القلبُ ، وانشرحَ الصدرُ ، ووقفَ الشعرُ ، واهتزَّ البدنُ ، وانبسَطَتِ الرُّوحُ ، وقرَّتِ العينُ ، وعظمتِ الأريحةُ^(١) ، واغتنمتُ الفرصةَ بالمناجاةِ والدعاءِ ، وجاشتُ في الخاطرِ أبياتٌ ضمَّنتها ذلكَ البيتَ ، توجَّدُ في موضعها من «الديوان» ، غيرَ أنها حالةٌ جاءت فمرَّت ، واحلَّولت ساعةً ثمَّ أمرت^(٢) ، واللهُ المحمودُ أولاً وآخرأً ، ونبِيُّه المصلَّى عليه وعلى آله وأصحابه ، والمسلمُ عليهم سلاماً عاطرأً .

* * *

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكْتَهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّيْمَ تَمَرَّدَا
وَوَضِعَ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السِّيفِ بِالْعَلَا مُضِرُّ كَوْضِعِ السِّيفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

فهذا الذي لم يأت شاعر بمثله . وإنما ذكرناه مجملاً ليسهل أخذه وحفظه ، ولو تصفحت دواوين المجيدين المولدين والمحدثين . . . لم نجد لأحد منهم بعض هذا نادراً ، ولكن الفضل بيد الله يؤتية من يشاء ، ويؤتي الحكمة من يشاء .

(١) هكذا في الأصل ، ولعلها الرويحة وهي : وجدانك السرور الحادث من اليقين ، والله أعلم .

(٢) أمرت : صارت مرَّةً .

محتوى الكتاب

٤٠	وقفقة مع «الأمالى» و«المجالس»	٩	تقديم فضيلة الشيخ الدكتور عائض القرنى
٤٣	وصف النسخة الخطية	١٢	بين يدي الكتاب بقلم فضيلة الدكتور محمد شميلة الأهدل
٤٤	منهج العمل فى الكتاب	١٧	مقدمة التحقيق
٤٥	خاتمة	١٧	تمهيد
٤٧	كلمة شكر	٢١	الأدب - مفهومه وتاريخه
٤٩	صورة المخطوطة المستعان بها	٢٦	ترجمة أبى الطيب الممتبى
٥٥	مقدمة المؤلف	٣١	ترجمة السيد عبد الرحمن السقاف

المجلس الأول

وَقَضَى اللهُ بَعْدَ ذَلِكَ اجْتِمَاعًا
كَانَ تَسْلِيمُهُ عَلَيَّ وَدَاعَا

٦٣	تولية الرشيد لجعفر بن يحيى وعزله
٦٤	توليته ﷺ لسعد وعزله يوم الفتح
٦٤	ما القول الفصل فى هذه المسألة
٦٤	معاني القصيرة والمقصورة
٦٤	قصر الخطو
٦٤	قصر الخطو مذموم فى الرجال
٦٥	قصر النظر
٦٥	لزام الخدور
٦٥	أشدونا بيتاً خفراً
٦٦	العتبى والنساء الأعرابيات
٦٦	نفي المحكوم عليه بانتفاء صفته
٦٦	مثاله من القرآن
٦٦	مثاله من السنة
٦٦	مثاله من الشعر
٦٦	قول ابن الأثير فى هذه المسألة
٦٧	رد المؤلف عليه
٦٧	تشبيه ليلة القرب وليل الصد وكثرته عند الشعراء
٦٨	تمثل السيدة عائشة بشعر متمم بن نويرة
٦٩	كن صياد فرص
٦٩	تنوع المتأخرين فى هذا الموضوع
٧١	تفنن الممتبى فى هذا الموضوع وكثرته عنده
٧٢	المعتمد وإحدى حظاياه

بِأَبِي مَنْ وَدِدْتُهِ فَأَفْتَرَفْنَا
فَأَفْتَرَفْنَا حَوْلًا وَلَسَّمَا التَّقِينَا

٥٧	حلاوة اللقاء كمر النسيم
٥٧	دفع العتاب عن الممتبى
٥٧	جواز التفدية
٥٧	رد دليل منع التفدية
٥٨	وقوع العتاب على الممتبى
٥٨	كراهة التكرار
٥٨	متى يكون العطف قبيحاً
٥٨	روعة التكرار فى مكانه
٥٨	كثرة التفدية عند الممتبى
٦٠	التفدية عند البحرى
٦٠	فداء كثير لعبد العزيز بن مروان
٦٠	فداء قس بن ساعدة لأخويه
٦١	فداء متمم لأخيه
٦١	التفدية عند الصوفية
٦١	فداء آدم لداوود
٦١	فداء زيد بن الدثنة للنبي ﷺ
٦١	نماذج من فداء الصحابة له
٦٢	الأيام الحلوة تمر مسرعة عند الممتبى
٦٢	وكذلك عند الشعراء كل شيء يهون من أجل الحبيب
٦٣	سيدنا إبراهيم الخليل الإمام فى ذلك
٦٣	أيهما الأسعد نظام الملك أم البستانى؟!
٦٣	ابن حجاج وسرعة عزله عن عمله

وَفَرَّقَ الْمَجْرُبَيْنَ الْجَفْنَ وَالْوَسْنَ

٧٣	الهجرتبى النوم من العيون
٧٤	تكرار هذا المعنى عند الممتبى
٧٤	المحب لا يعرف الراحة
٧٤	هلا السلامة

أَبْلَى الْهَوَىٰ أَسْفَا يَوْمَ النَّوَىٰ بَدَنِ

٧٢	الهورى المتلف
٧٣	حقيقة العشق
٧٣	العشق أوله لعب وآخره عطب
٧٣	كمون الحب فى الحشا

رُوحٌ تَرَدَّدُ فِي مِثْلِ الْخِلَالِ إِذَا

كَفَى بِجِسْمِي نُحُولاً أَنْبِي رَجُلٌ

- في البيت سؤالان ٧٥
الأول: ما هو المصدر المؤول؟ ٧٥
الثاني: الاسم الظاهر بمثابة الغائب فكيف الضمير ٧٥
الشواهد عليه ٧٥
قصة الصمة وريا ٧٥
رد المؤلف على الشارح ٧٦
أصل بيت المتنبي ٧٦
ذوبان النفس في العشق ليس حكراً على أحد ٧٧
ما هذه الخفة؟! ٧٧
القذى الذي لا يؤذي ٧٧
تأييد المؤلف للشارح في بعض ورده لبعض ٧٨
أعذب الشعر أكذبه ٧٨
السابق في المعنى أبو تمام ٧٨
سلطان العاشقين وإبداعه في هذه المسألة ٧٨
المقبول من الغلو هو الذي يصدره الصوفية ٧٩
سماع الصوفية ٧٩
ومن العشق ما قتل ٨٠
حكم ابن الأثير على بيت ٨٠
لماذا لم يصعق الصحابة من السماع؟ ٨١
بل صعق بعضهم عند سماع سورة الإنسان ٨١
قوا أنفسكم ناراً ٨١
الأول يتلو والثاني يموت ٨١
باح للنبي ﷺ ومات ٨١
وأكثرهم راسخون كالجبال ٨١
رفقاً بالقوارير ٨١
الرجل أقوى ٨٢

أَطَارَتِ الرِّيحُ عَنْهُ الثُّوبَ لَمْ يَبِينِ

لَوْلَا مُخَاطَبَتِي إِيَّاكَ لَمْ تَرَنِّي

- همام والإمام عليه السلام ٨٢
السبب في الموت عشقاً ٨٢
الأكوع: والبادي أظلم ٨٢
موت ابن وهب ٨٢
موت النوري ٨٢
عبد الله بن طاهر والجارية الشاعرة ٨٣
الجاحظ وغريقا العشق ٨٣
لا خير في عشق بلا موت ٨٣
لا تستعجل ما هو لك ٨٤
كتاب سليمان بن عبد الملك إلى أخيه ٨٥
إذ لا تشرب تظماً ٨٥
صعقة أمير المؤمنين عمر لسماح القرآن ٨٦
المحسن بن علوي ورقة قلبه ٨٦
مواراة عبد الله بن عمر ٨٦
عبيد الله بن محسن ٨٦
الحداد وقوله: ولي الزمان ٨٦
حديث الشوق في الآخرين ٨٨
يا قررة العين ٨٨
أبرح الشوق ٨٨
الشيخ حسين زايد وصنّاعة القهوة ٨٨
ربما قتل الشيخ ابن زامل في هذا الطريق ٨٩
عاشقة ابن عمها كيف تموت ٨٩
يخرج روحه من نفسه ليعطيها لصديقه ٩٠
هل أنت تذبح ابنك لتشفي خراج الملك!! ٩٠
أرى جسداً عليلاً وعينين صحيحتين ٩٠
المتنبي والرمادي ٩١

المجلس الثاني

أَهْلًا بِدَارِ سَبَاكَ أَغْيَدُهَا

- عادة الشعراء البكاء على الأطلال ٩٢
اقتداء المتنبي بهم ٩٢
مخالفته لهم ٩٢
شرح المطلع ٩٣
صيانة المرأة عند العرب ٩٣
قريب المرأى بعيد المنال ٩٣
تكرار هذا المعنى عند الشعراء ٩٣
لقاءً وعتاب ٩٤
ما أصعب الفطام بعد الرضاع ٩٥

أَبَدَمَا بَانَ عَنْكَ خُرْدُهُمَا

- الباذلات المانعات ٩٥
الكانزات الباخلات ٩٦
عمر بن أبي ربيعة وعبد الملك بن مروان ٩٦
الكاسيات العاريات ٩٦
الكلام الحق ٩٧
إذا كنت ريحاً فقد واجهت إعصاراً ٩٧
أبو نواس يأكل الفتاة بعينه ووقوعه في شر أعماله ٩٧
قصة ذي الرمة ومي ٩٨
واثل بن قاسط ووادي السباع ٩٩

- وجوب التحفُّظ والحِيطَة على النساء ٩٩
- زوج الشهداء عاتكة بنت زيد ٩٩
- كما تدين تدان ١٠٠
- ظَلَّتْ بِهَا تَنْطَوِي عَلَيَّ كَبِيدٍ
- شرح المطلع ١٠١
- رأي المؤلف ١٠١
- اصطلام النار في الأكبَاد ١٠٢
- تكرار هذا المعنى عند المتنبّي ١٠٢
- بيت للمؤلف في الموضوع ١٠٣
- يَا حَادِيَنِي عَيْسِيَهَا وَأَحْسَبُنِي
- فَفَاقِلِي لِأَبِيهَا عَلَيَّ فَمَا
- شرح المطلع ١٠٣
- لِمَ العجلة؟ ١٠٤
- الشعراء والموت من الفراق ١٠٤
- استيقاف العيس عند الشعراء ١٠٤
- أول من قال لفظة (السلف) ١٠٥
- تفسير السلف ١٠٥
- طلبٌ وجيه ١٠٥
- نرجو من الله تعالى ١٠٥
- ما سبب التفات المسافر العربي؟ ١٠٦
- من بدائع الاتفاق ١٠٦
- أنت مسكين يا صمّة ١٠٦
- الألم ساعة الوداع عند الشعراء ١٠٧
- بَانُوا بِخُرْمُوِيَةٍ لَهَا كَفَلٌ
- المرأة ممدوحة بكبر العجيزة ١١٦
- جزء من حديث أم زرع ١١٦
- حلم معاوية رضي الله عنه ١١٦
- الأحنف يقطع يد رجل بحلمه وذكائه ١١٧
- السبب في كون كبر العجيزة ممدوحاً ١١٧
- الشريا وانتفاج عجزها ١١٧
- أخت الحجاج تنذر أن تعتمر ماشية ١١٧
- ومنهن نائلة الكلبية ١١٨
- يَا عَاذِلَ الْعَاشِقِيْنَ دَعِ فِئَةً
- بِئْسَ اللَّيَالِي سَهَدَتْ مِنْ طَرَبٍ
- نصيحة لمن يعذل العاشقين ١٢٢
- شرح البيت الأول من المطلع ١٢٣
- «من عشق ففح» ومدى الاحتجاج به ١٢٣
- شرح البيت الثاني من المطلع ١٢٤
- العفة حتى في النوم ١٠٠
- الشعراء في هذا الموضوع ١٠٠
- الضيف الأعمى ١٠١
- نَضِيحَةٌ فَوَقَّ خَلْبَهَا يَدَهَا
- اختلاف الإشارات في التعبير ١٠٣
- الملك المتواضع ١٠٣
- لا حياء في تعلم أمور الدين ١٠٣
- النساء واختلاف التعبير عند الفزع ١٠٣
- أُوَجِّدُ مَيْتًا قُبَيْلَ أَفْقِدُهَا
- أَقْلَمُ مِنْ نَظْرَةِ أَرْوَدُهَا
- توديع ابن اللبانة للمعتمد بن عباد ١١٠
- ابن درّاج وزوجته ١١٠
- لله درك يا بن زريق ١١١
- قصيدة للمؤلف في الموضوع ١١١
- الخلاص في شأن التوديع ١١٢
- ١- عصفور باليد أفضل من عشر على الشجر ١١٢
- ٢- درء المفاسد مقدم على جلب المصالح ١١٢
- المحب شقي على كل الأحوال ١١٢
- الافتتاح باليسير من المحبوب عند الشعراء ١١٣
- وأجمله: عند سلطان العاشقين ١١٤
- الروذباري والشاب الطريح ١١٤
- امرأة في الطواف ١١٥
- يَكَادُ عِنْدَ الْقِيَامِ يُقْعِدُهَا
- الشعراء في هذا الموضوع ١١٨
- مساجلة المؤلف مع رجل من (اليمن) ١١٩
- سؤال عبد الملك بن مروان للأخطل عن تمنيه قول قصيدة لأحد الشعراء ١٢٠
- تعليق المؤلف على القصة ١٢١
- رواية أخرى للقصة ١٢١
- رواية أخرى في القصيدة المتمناة ١٢٢
- أَضَلَّهَا اللَّهُ كَيْفَ تُرْشِدُهَا
- شَوْقًا إِلَى مَنْ يَبِيْتُ يَرْقُدُهَا
- حذف المخصوص بالذم ١٢٤
- الرد على الشارح ١٢٤
- البلوى المحببة ١٢٥
- الكلام عن ديوان ابن الفارض ١٢٥

١٢٨	رد علي بشار بن برد	١٢٦	التناقض عند المتنبي
١٢٨	أعينوني على الليل	١٢٧	امرؤ القيس كان مفركاً
	الأصل اجتماع الهموم على العشاق بالليل ومذاهب الشعراء في ذلك	١٢٧	التناقض العجيب
١٢٩	أبلغ من قال في طول الليل	١٢٧	عمر بن أبي ربيعة وعائشة بنت طلحة
١٣٠		١٢٧	حال العاشق والمعشوق عند الشعراء

بِالسَّوْطِ يَوْمَ الرَّهَانِ أَجْهَدُهَا وَلَا نَاقَتِي تَقْبَلُ الرَّدِيفَ وَلَا

١٤٢	الأصمعي وبراذين الخلفاء	١٣١	شرح المطلع
١٤٢	الضرورات تبيح المحظورات	١٣١	خصائص النعال وأصل معنى بيت المتنبي
١٤٢	ابن الرومي يطلب حاجة لا يتوقع قضاءها	١٣١	ابن المطرز والشريف الرضي والجواب المفحم
١٤٢	ابتسام الأيام بعد عبوسها	١٣٢	كاد المتعل أن يكون ركباً
١٤٢	رجل خفيف الحمل	١٣٢	وفود أبي الشمقمق على يزيد بن المزيدي
١٤٣	اللهم مثلنا أو مثلهم	١٣٣	من أي الظهر ركوبك
١٤٣	لم يذهب إلا الفضول	١٣٣	وجهة نظر المؤلف في بعض أبيات النبهاني
١٤٣	فخر الدولة ابن المعتمد يتعلم الصياغة	١٣٣	أمره ﷺ بمخالفة اليهود بالصلاة بالنعال
١٤٣	تغير أحوال أم جعفر البرمكي	١٣٣	استحباب قلع النعل لدخول (مكة)
١٤٣	قصة عجيبة على تغير الأحوال	١٣٤	تلون المتنبي وتغيره في أشعاره
١٤٤	النعمان بن بشير يخطب الرقة ابنة النعمان بن المنذر	١٣٥	لا مجد إلا بمال
١٤٤	موسى بن نصير وتغير حاله	١٣٥	تعريض الحمداني بالمتنبي ثم نفي المؤلف الذم عنه
١٤٤	زوجة ملك تطلب الصدقة	١٣٦	عودة على تناقض المتنبي
١٤٤	القصر الحرب	١٣٦	امرؤ القيس وخالد السدوسي والإبل المسروقة
١٤٥	الصاحب ودار ابن العميد	١٣٦	نفي العذر عن المتنبي في تناقضه
١٤٥	اعجب لصرّف الدهر	١٣٧	اختلاف الأحوال والواردات على العارفين
١٤٥	قصر ابن سبكتكين	١٣٨	دفع الإشكال بما ظاهره التناقض في القرآن الكريم
١٤٦	أمير (كابل)	١٣٩	المتنبي جزوع منوع
١٤٦	محمد علي باشا وأمان الله	١٣٩	كرم نفس أبي فراس الحمداني
١٤٦	ركب النميري	١٤٠	عند الامتحان يكرم المرء أو يهان
١٤٦	الجيش الكبير	١٤٠	إلحاحه ﷺ على ربه يوم العريش
١٤٧	ابن الحجام	١٤٠	ثباته جأشه في الغار
١٤٧	ابن الفوال	١٤٠	والله يا عم لو وضعوا الشمس
١٤٧	القيران المتشامان	١٤٠	تواضعه ﷺ عند فتح (مكة)
١٤٧	الكلام على النعل	١٤٠	سؤال عن عفوّه وعن شدته
١٤٧	من الممداح رقة النعال	١٤١	اعتراض المؤلف على ابن المعتز
١٤٨	ومنها لبس السّبية	١٤١	الصفح عند الشعراء
١٤٨	رقة النعل كناية عن سلامتها	١٤٢	عود علي بدء

المجلس الثالث

لَهُ أَيَادِيَّ سَابِقَةَ أَعْدُ مِنْهَا وَلَا أَعَدُّهَا

١٤٩	أن تكون واحدة من حسنات ممدوحك عند الشعراء	١٤٩	شرح المطلع
١٥٠	مصعب بن الزبير وجوده على بعض من حاربه	١٤٩	الروايات في المطلع
١٥٠	إجارة معن بن زائدة على الخليفة المهدي	١٤٩	تلاعب المتنبي في معنى الجود

- إبراهيم بن سليمان يستجير عند رجل قد قتل أباه ١٥٠
وفاء الحارث بن عباد للمهلhel بعد قدرته عليه ١٥١
المهلب يعفو عن من يريد قتله ١٥١
لا أبرح حتى أعرف حديثك مع المأمون ١٥١

بِهَآ وَلَا مَئْنُهُ يُنَكِّدْهَا

- من رواع ابن الرومي في الموضوع ١٦٣
الشعراء في هذا الميدان ١٦٣
العبد الموقف هو الذي يعمل ما يرضي سيده ١٦٤
فتوى في الحب ١٦٤
شر الآفات البخل ١٦٥
لا شيء أفضل من الصراحة ١٦٥
وصف لبخيل ١٦٥
أول من أخلف المواعيد ١٦٥
دواء ينفع مع اللثيم الحريص ١٦٥
الوعد في الحب ١٦٥
الكثون والمواعيد ١٦٦
التكيد والمن في العطاء في أصدق الكلام ١٦٦
التكيد والمن في العطاء عند الشعراء ١٦٦
لا تنس حاجتي أيها الأمير ١٦٧
تكرار هذا المعنى عند المتنبى ١٦٧
أم جعفر البرمكي تصف أولادها ١٦٧
أصبحت بيوتنا كالأسواق ١٦٨
مديح البرامكة ١٦٨
قصائد للمؤلف في مدح العلويين ١٦٨
أبلغ ما روي في تعاضم السائل وسماحة المسؤول ١٦٩
مديح المتنبى لظاهر بن الحسين وجلوس الممدوح بين يدي الشاعر ١٦٩
العفة في السؤال وحفظ ماء الوجه ١٦٩
جابر عثرات الكرام ١٧٠
الخلف أقيح من البخل ١٧٠
كيف كانت البطيخة؟؟ ١٧١
أبو الهذيل والدجاجة المهداة ١٧١

يُخَدِّرْهَا خَوْفُهُ وَيُضْعِدْهَا

- جبن الأخطل وقصته مع الجحاف ١٧٤
إلى أين أبا ليلى؟ ١٧٥
الجبن حتى في النوم ١٧٦
المتنبى وهذا المعنى ١٧٦
المعري في الموضوع ١٧٦

يُنْفِطِي فَلَا مَطْلُهُ يُكَدِّرْهَا

- شرح المطلع ١٥٣
نفي الشيء بنفي صفته والشواهد عليه ١٥٣
السبب في تكثير الأمثلة على هذه المسألة ١٥٥
الخلاص في الوعد ١٥٥
صنف أحبه قبل العطية ١٥٥
من أصحاب هذا المذهب يحيى بن خالد ١٥٥
ومنهم أبو مسلم الخولاني ١٥٥
ومنهم المهدي ١٥٥
شاهده من القرآن الكريم ١٥٦
ومنهم الحارثي ١٥٦
وكذلك ابن رشيق ١٥٦
الصنف الثاني عكسهم واستدلواهم على ذلك ١٥٦
أصحاب هذا المذهب كثر ١٥٦
تكرار هذا المعنى بكثرة عند المتنبى ١٥٦
الشعراء وهذا المعنى ١٥٧
كلمة رشيق للخازن أرزي ١٥٨
ملاحظة المؤلف عليها من حيث المعنى ١٥٨
ملاحظته عليها من حيث اللفظ ١٥٨
وفاء سيدنا أبي بكر عداته رضي الله عنه ١٥٩
وفاء عدات سعيد بن العاص ١٥٩
قصيدة شاعرة لبعض شعراء الحماسة ١٥٩
ابن الزبير يمدح بني عبد مناف ١٦٠
الخطبة يمدح آل شماس ١٦٠
الشعراء والوجود ١٦٠
أبو العتاهية وعمر بن العلاء ١٦١
دعبل وبعض الأمراء ١٦٢
الضيف يخبر أهله ١٦٢
من رواع البحري في الاستهزاء والهزاء ١٦٢

أَصْبَحَ حُسَّادُهُ وَأَنْفُسُهُمْ

- صفات الخائف ١٧١
ماذا يعمل الخوف ١٧٢
صور من شجاعة الإمام علي عليه السلام ١٧٢
خوف المحارب من الاسم عند الفرزدق ١٧٢
تكرار هذا المعنى عند المتنبى ١٧٣

- أبو الهيثام ورتاؤه لأخيه ١٧٦
 ابن أبي ربيعة ورتاؤه لعثمان بن عفان رضي الله عنه ١٧٧
 عبد الملك بن مروان ينهى ولده عن البكاء ١٧٧
 هيبة سيدنا ابن عباس من سيدنا عمر رضي الله عنهم ١٧٧
 من هيبة سيدنا عمر رضي الله عنه تضع المرأة حملها ١٧٧
 نهيه النساء عن رفع الصوت ١٧٧

أَنْتَ يَا ابْنَ النَّبِيِّ أَوْحَدُهَا
 شَيْخَ مَعَدٍّ وَأَنْتَ أَمْرُدُهَا

- اقتباس البيت ١٨٩
 سيادة الصغير العمر عند المتنبّي ١٨٩
 بلوغ الغلمان عند يحيى بن زيد ١٩٠
 تربية الأسياد أولادهم ١٩٠
 أصحاب مشورة سيدنا عمر رضي الله عنه ١٩٠
 تقديم الأسن عند الاستواء في الفضل ١٩٠
 سرعة بديهة يحيى بن أكثم ١٩٠
 المرء بأصغريه ١٩١
 سيادة أبي جهل ١٩١
 سيادة عمرو بن كلثوم ١٩١
 سيادة أخ الخنساء ١٩١
 سيادة طرفة بن العبد ١٩١
 محمد بن القاسم بييد الأكراد وعمره سبع عشرة سنة ١٩١
 الشعراء والسيادة في الصغر ١٩٢
 إمام المتنبّي بقول البحثري ١٩٣
 تألم المؤلف على ما آل إليه حال العلويين ونصحهم لهم ١٩٤
 متى يبلغ البيان التمام؟! ١٩٤
 قصيدة للمؤلف في العلويين ١٩٥
 هل صحيح أن الإنسان الذي يبلغ التمام في أمر يُنفذ هذا الأمر من ذريته؟ ١٩٥
 الكمال بين الناقصين ذنب ١٩٦
 قصيدة أخرى للمؤلف في نعي أسلافه وحث إخوانه ١٩٦

قَدْ أَجْمَعَتْ هَذِهِ الْخَلِيقَةُ لِي
 وَأَنْتَ بِالْأَمْسِ كُنْتَ مُخْتَلِمًا

- ادعاء التفرد للممدوح عند المتنبّي ١٨٠
 شدة انتقاد المؤلف على المتنبّي: إسرافه في المدح ١٨١
 ثناء سيدنا عمر رضي الله عنه على ابن أبي سلمى ١٨١
 إن من البيان لسحرا ١٨٢
 المؤلف وهذا الزمان ١٨٢
 إعجابه بأشراف النفوس ١٨٢
 شرف الفرزدق ١٨٢
 تلون المتنبّي ١٨٢
 أبو تمام يمدح ابن الزيات فيرد مديحه عليه ١٨٢
 مديح الشماخ لعبد الله بن جعفر ١٨٣
 المبالغة في المديح ترفع الممدوح وتضع المادح ١٨٣
 صغر نفس المتنبّي ١٨٤
 التفرد بالكمال مقرون بالحرمان ١٨٤
 ترقب زوال الشيء إذا ما قيل: تم ١٨٤
 أول من أتى من داء الكمال في الإسلام سيدنا علي وصور من ذلك ١٨٤
 صور من امتحان النبي ﷺ بالمنافقين ١٨٥
 الشعراء والتمام ١٨٦
 الكمال مقرون بعلو الهمة ولكن الأيام لا تساعد ١٨٧
 صفات بني حمدان ١٨٨
 أوحد بني حمدان ١٨٨
 بدء الشعر بملك وختم بملك ١٨٨
 عود على شرح البيت من المطلع ١٨٨

المجلس الرابع

بَرِيًّا مِنَ الْجَرَحَى سَلِيمًا مِنَ الْقَتْلِ

- السيوف الممدوحة ٢٠٠
 هل عيب السيوف الفلول؟ ٢٠٠
 معرفة عروة بن الزبير سيف أخيه ٢٠٠
 لا ينبغي لني لئس لامة أن ينزعها حتى يقاتل ٢٠٠
 الشعراء وتلبية المنادي ٢٠٠
 يزيد بن المهلب والإمارة ٢٠١
 مكان الأمور الجسيمة ٢٠١

مُحِبِّي قِيَامِي مَا لِدَالِكُمُ النَّصْلِ

- نكوص أصحاب المتنبّي عنه وتكليفهم إياه شيئا ليس من شيمته ١٩٨
 تألم الإمام من نكوص الأصحاب ١٩٨
 البطء عن الضيف والسرعة إلى الطعام تستوجب الهجاء ١٩٩
 كثرة كغناء السيل ١٩٩
 البرق الخليلي ١٩٩
 أبو العتاهية يهجو عبد الله بن معن بن زائدة ١٩٩
 عبد الله يأمر غلامه بارتكاب الفاحشة من أبي العتاهية ٢٠٠

- ٢٠٤ أبو تمام والشجاعة ٢٠١ لا بد دون الشهد من إير النحل
 ٢٠٥ تسهيل الصعب بم يكون؟ ٢٠١ طعم الموت لا يتغير
 ٢٠٦ المتنبى والشجاعة ٢٠٢ شجاعة زيد بن علي
 ٢٠٦ ابن المقرب والشجاعة ٢٠٢ شجاعة داوود بن علي وابنه موسى
 ٢٠٦ سرقة الشعراء من بعضهم ٢٠٢ عبد الله بن الزبير وأمه
 ٢٠٧ أجمل ما قيل في التحريض على الإياء ٢٠٣ المفضل الضبي وإبراهيم بن عبد الله بن الحسن

فَمَا أَحَدٌ فَوْقِي وَلَا أَحَدٌ مِثْلِي

- ٢١٨ تكذيب المؤلف لهذه الأشعار
 ٢١٨ تفسير: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ عند الجاحظ
 ٢١٨ تفسير: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾
 ٢١٩ تفسير الغزالي ل: إن الله خلق آدم على صورته

نَكُنْ وَاحِدًا نَلْقَ الْوَرَى وَأَنْظُرَنَّ فِعْلِي

- ٢٢٣ وصف ابن المعتز للخيل
 ٢٢٣ وصف المتنبى للخيل
 ٢٢٤ قضاء زوجة امرئ القيس لعلقمة
 ٢٢٤ وصف المعري للخيل
 ٢٢٤ الشعراء والخيل
 ٢٢٤ المحمود من الخيل
 ٢٢٥ توجيه قول للبحراني
 ٢٢٦ هل معقول أن سرعة الخيل الأعوجية تعادل سرعة القطا؟!
 ٢٢٦ أول من ركب الخيل

أَمِطْ عَنْكَ تَشْبِيهِي بِمَا وَكَأَنَّهُ

- ٢١٦ الفخر والاعتداد بالنفس عند المتنبى
 ٢١٦ تعظيم أبي جهل
 ٢١٦ مقالة كتبها المؤلف يوم تأمير شوقي
 ٢١٦ الفخر متكرر عند المتنبى
 ٢١٨ الفخر عند الشعراء

وَدَرْنِي وَإِيَّاهُ وَطَرَفِي وَذَابِلِي

- ٢٢٠ ادعاء المتنبى الشجاعة
 ٢٢٠ من أين أخذ المتنبى بيته
 ٢٢٠ شجاعة الإمام
 ٢٢٠ تعليق المؤلف على المتنبى
 ٢٢١ الفارس والفرس والسلاح قطعة واحدة عند الشعراء
 ٢٢١ أول من جعل الحصان قيلاً للأوابد
 ٢٢١ الشعراء وجعلهم الحصان قيلاً للوحوش
 ٢٢٢ وصف البحراني للخيل
 ٢٢٣ وصف أبي تمام للخيل

المجلس الخامس

شَمْسُ النَّهَارِ تُقِلُّ لَيْلًا مُظْلِمًا

- ٢٣١ التوغل والاستغراق في المديح عند المتنبى
 ٢٣١ التوغل والاستغراق في المديح عند الشعراء
 المؤلف ومفاضلته بين بيت لبوصيري وبيت لابن الفارض في أحد
 المجالس
 ٢٣٢ إتمامه ﷺ بيتاً لبوصيرير في المنام
 ٢٣٢ المعاني موجودة حتى عند العامة ولكن الفضل في نظمها
 ٢٣٣ اعتراض بعض الحاضرين على المؤلف ورد المؤلف عليه

إِلَّا لِتَجْمَعَلَنِي لِغُرْمِي مَغْنَمًا

- ٢٣٤ سعة الفم ومدوحة في الرجال لا النساء
 ٢٣٥ الجمال يكون بسواد أربعة
 ٢٣٥ وبياض أربعة
 ٢٣٥ وحمرة أربعة
 ٢٣٥ وكبر أربعة

غُضُنْ عَلَيَّ نَقَوًا فَالَةَ نَابِتُ

- ٢٢٧ وصف المتنبى لحيبته
 ٢٢٧ تشبيه المآكم بكتبان الرمل عند الشعراء
 ٢٢٧ كثرة استعمال التشبيه تبليه إلا إن خرج عن بابه مع نظريف
 ٢٢٩ الرشيد وعلي بن الخليل
 ٢٢٩ المتنبى وإغرابه في التشبيه
 ٢٣٠ وصف السيدة فاطمة الزهراء
 ٢٣٠ وصف سيد الأنام ﷺ

لَمْ تَجْمَعِ الْأَضْدَادَ فِي مُتَشَابِهٍ

- ٢٣٣ تشبيه المتنبى ما يلزم من العشق بالدين
 ٢٣٣ شرح البيت
 ٢٣٤ معنى التشابه
 ٢٣٤ تناسب الأعضاء إلى بعضها هو معيار الحسن
 ٢٣٤ ذكّرني فوها حماري أهلي

٢٣٦	الجمال عند العرب	٢٣٥	وصغر أربعة
٢٣٦	الحُسن عند علي بن عبيد	٢٣٥	وسعة أربعة
	أروع وصف لامرأة هو ما تصف به عصام امرأة من كندة للحارث بن عمرو	٢٣٥	وضيق أربعة
٢٣٧	عزّة الميلاء تخطب وتصف	٢٣٥	المراد من حمرة الشفة
٢٣٧	تشكك المؤلف في القصة	٢٣٥	الملاحة والخلاف فيها
٢٣٨		٢٣٦	الفرق بين المليح والجميل والخلاف فيه
		٢٣٦	مواضع الحُسن

بَهَّرَتْ فَأَنْطَقَ وَاصِفِيهِ وَأَفْحَمَا

٢٤٣	القول في التسييد
٢٤٤	شهادة شاعر
٢٤٤	خضوع البعض لممدوحه
	الممدوح التي توجد في الممدوح هي التي تنظم نفسها شعراً عند المتنبي
٢٤٤	المتنبي
٢٤٥	وكذلك عند الشعراء
٢٤٧	تعجز لغة الكلام عن التعبير في كثير من الأحيان
٢٤٧	إفحام أبي نواس للشعراء
٢٤٧	شدة القرب حجاب
٢٤٨	ارتفاع بعض الممدوحين فوق مرتبة المديح

صَارَ الْعِيَانُ مِنَ الْيَقِينِ تَوْهُمًا

٢٥٠	الحديث عن كتاب الشكوك
٢٥٠	ما يجده المؤمن من الوسوسة في صدره ليس من هذا القبيل

كَصِفَاتِ مَوْلَانَا أَبِي الْفَضْلِ الَّتِي

٢٣٩	جمع الأضداد في الصفات يستهوي المتنبي
٢٤٠	الشعراء وجمع الأضداد
٢٤١	أبو تمام يتكلف تأليف بيت من الشعر
٢٤١	استهزاء المؤلف به
٢٤١	عودة إلى جمع الأضداد عند الشعراء
٢٤١	وصف الشريف الرضي للإمام
٢٤٢	مديح أب لابنه
٢٤٢	هجاء أب لابنه
٢٤٢	أنت ومالك لأبيك
٢٤٣	بطلان قصة الحديث
٢٤٣	هل يجوز قول الرجل لغيره: يا مولاي؟

كَبُرَ الْعِيَانُ عَلَيَّ حَتَّى إِنَّهُ

٢٤٨	عندما يرى الإنسان شيئاً يكذب عينه والمتنبي أول من أوضح هذا المعنى
٢٤٩	قول الشعراء في هذا المعنى

المجلس السادس

وَحَتَّى مَتَى فِي شِقْوَةٍ وَإِلَى كَمِ؟

٢٥٣	الإمام يحب المساكين
٢٥٣	إكرام العلماء عند أهل (اليمن)
٢٥٣	الكلام في الغنى والفقير
٢٥٣	وصف الإمام للنبي ﷺ
٢٥٤	تواضعه ﷺ
٢٥٤	تفضيل أهل الحديث الغنى على الفقر
٢٥٤	من خصائص النبي ﷺ
٢٥٤	أفضل الأحوال الكفاف
٢٥٤	استشكال حديث: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً»
٢٥٥	خير الغنى
٢٥٥	الشعراء والغنى والفقير
٢٥٦	القناعة هي الحياة الطيبة
٢٥٦	كيف تصبح ملكاً؟

إِلَى أَيِّ حِينٍ أَنْتَ فِي زِيٍّ مُحْرِمٍ؟

٢٥١	متى يتسم الدهر؟
٢٥١	استعادته ﷺ من الدّين والفقير
٢٥١	أصول النعم
٢٥١	في أيدينا لا في قلوبنا
٢٥١	ارحموا ثلاثة
٢٥٢	جهد البلاء
٢٥٢	الفقر مجمع العيوب
٢٥٢	الصفة الواحدة للغني مدح وللفقير ذم
٢٥٢	كم لك من الأصدقاء؟
٢٥٢	الناس مع صاحب الدنيا
٢٥٢	ما أكثر الإخوان حين تعدهم
٢٥٣	هبة ذي المال
٢٥٣	خسة العالم الذي يتواضع لغني

- ٢٥٧ الطمع هو الفقر والقناعة هي الغنى
 ٢٥٨ علم ابن ميادة أن عنده ناقة حلوباً فاستغنى عن الملوك
 ٢٥٩ البخيل يبخل بالمال فابخل بماء وجهك
 ٢٥٩ الإخلاص في التوكل
 ٢٥٩ صدق رسول الله ﷺ إن من الشعر لحكمة

نَمُتْ وَتُقَاسِي الذَّلَّ غَيْرَ مُكْرَمٍ

- ٢٦٤ قول ماوية لزيد الخيل عندما أراد خطبتها
 ٢٦٥ قصيدة للطرماح يتمنى فيها أن يموت أفضل ميتة
 ٢٦٥ لم يتحقق حلمه ومات على عكس ما أراد
 ٢٦٥ الشعراء والشجاعة
 ٢٦٧ الشهداء أحياء
 ٢٦٧ أمنية الشهيد
 ٢٦٧ شجاعة الإمام
 ٢٦٧ تقديم النبي ﷺ آل بيته في القتال عند إحجام الشجعان
 ٢٦٧ بكاء زين العابدين
 ٢٦٨ ربما يكون البكاء دواء عند الشعراء
 ٢٦٨ الأنفة والإباء عند المتنبني
 ٢٦٩ لا عز في طريق النار ولا ذل في طريق الجنة

يَسْرَى الْمَوْتَ فِي الْهَيْجَا جَنَى النَّخْلِ فِي الْفَمِ

- ٢٧٥ نجدة القرآن وشهامته
 ٢٧٦ وجوه فضل حلف الفضول
 ٢٧٦ السرعة في إجابة المنادي دون أي سؤال
 ٢٧٧ سرعة النبي ﷺ إلى إجابة الصوت
 ٢٧٧ السبب في شجاعة الصحابة رضوان الله عليهم أنها جبلّة ودين وملة
 ٢٧٨ الصحابة الكرام أحق بجميع الأشعار المادحة والثناء البالغ
 ٢٧٩ أجمع الآيات في النجدة
 ٢٧٩ تمهيد المؤلف العذر لنفسه في هذا الاستطراد
 ٢٨٠ كل شيء من الحبيب حبيب
 ٢٨٠ سلطان العاشقين يستعذب العذاب
 ٢٨٢ ذم وهجاء من يبطن في إجابة الصوت
 ٢٨٣ السبب في حرب البسوس
 ٢٨٣ ذم القرآن الكريم للمنافقين
 ٢٨٣ أصعب السهام التي تأتيك من أخيك وأشد الألام النزيف الداخلي
 ٢٨٤ الجدار القصير تقفز عليه الكلاب
 ٢٨٤ واحسرتا على من ليس له أحد
 ٢٨٤ ثاني اثنين في التنور

- ٢٥٦ القليل الكافي خير من الكثير الملهي
 ٢٥٦ الغنى غنى القلب
 ٢٥٦ عودة إلى الشعراء
 ٢٥٧ وجهة نظر الخليل الفراهيدي إلى الغنى والفقر
 ٢٥٧ خير الرزق ما كان مياومة

وَالَا تَمُتْ تَحْتَ الشُّيُوفِ مُكْرَمًا

- ٢٦٠ حث المتنبني على الإقدام
 ٢٦٠ الشعراء تشجع الجبان وتحث على الإقدام
 ٢٦٠ لي عندك يديا أمير المؤمنين
 ٢٦١ ثلاثة من الفرسان جزعوا ثم صبروا
 ٢٦١ وثلاثة لم يجزعوا أصلاً
 ٢٦٢ الرجال لا تفر من القتال
 ٢٦٢ مكتوب على ذي الفقار
 ٢٦٢ قصة الحصين بن الحمام وبنو جوشن
 ٢٦٣ الموت آت على كل حال
 ٢٦٣ المدح بالقتل
 ٢٦٣ لا يموت السيد في فراشه
 ٢٦٣ نعي المصعب بن الزبير إلى أخيه عبد الله
 ٢٦٤ آل الزبير أغرق الناس في القتل

فَسِبْ وَائْتِقَابِ اللَّهِ وَثَبَّةَ مَاجِدٍ

- ٢٧٠ تحريض المتنبني على القتال
 ٢٧٠ شجاعة الإمام عليه السلام
 ٢٧٠ تمييزه بين العسل الطائفي وغيره في أحلك الظروف
 ٢٧١ معرفة أبي العلاء ماء وطنه وقد مزج بماء الفرات وهو بالعراق
 ٢٧١ الإمام أنس بالموت من الطفل بثدي أمه وتفصيل هذا الكلام
 ٢٧٢ استعداد الموت في طلب العز عند الشعراء
 ٢٧٢ شدة ثبات جأش عبد الله بن الزبير
 ٢٧٢ تشبيه الموت بالعسل اليماني
 ٢٧٢ الأحق بهذه الأشعار هو ابن الزبير
 ٢٧٣ الجمال لا ينافي الشجاعة
 ٢٧٣ يستمهل السجان كي يتم لعبة الشطرنج
 ٢٧٣ شجاعة أبي نعامة
 ٢٧٣ شجاعة ابن محكان
 ٢٧٤ عبد بن يغوث ينوح على نفسه قبل قتله بقصيدة شعرية رائعة
 ٢٧٤ شجاعة طرفة بن العبد
 ٢٧٤ عبيد بن الأبرص يخاف الموت
 ٢٧٥ تميم بن جميل يتكلم خطبة حال قتله يعجز عنها من هو في الدعة
 ٢٧٥ علي بن الجهم يصلب وهو حي عرياناً

المجلس السابع

أخيّا! وأبسر ما قاسيت ما قتلاً	العجب من الحياة مع قسوة وعسر معاناة أسبابها	٢٨٥	٢٨٥
والبين جاز على ضعفني وما عدلاً	الفراق مر المذاق	٢٨٥	٢٨٥
استثناس المجنون بواحد يروي أشعاره	الشاب العاشق	٢٨٥	٢٨٥
موت المجنون	العشق عذاب	٢٨٦	٢٨٦
ابن عجلان في نهر غسان واستبأ هند عقله ولبه	قصيدة للمؤلف في الموضوع	٢٨٦	٢٨٦
موته وموت هند متعانقين	جميل وبثينة	٢٨٦	٢٨٦
عشق ابن عجلان يضرب به الأمثال	مصعب بن الزبير يقلد جميلاً	٢٨٦	٢٨٦
عروة بن حزام وعفراء	جميل يبكي من حب قاتلته	٢٨٦	٢٨٦
موت عروة وعفراء	عفة جميل وقصة موته وموت بثينة	٢٨٧	٢٨٧
الشجرتان المتعانقتان	الخلاف في اسم المجنون	٢٨٧	٢٨٧
رواية للأصفهاني عن عروة	قصة حبه لليلى	٢٨٨	٢٨٨
المرقش والخلاف في اسمه وشجاعته	سبب جنونه	٢٨٨	٢٨٨
عشقه لأسماء بنت عوف	لحوقه بالوحوش	٢٨٨	٢٨٨
هناك مرقش آخر هو عم طرفة بن العبد	وألوجد يقوى كما تقوى النوى أبداً	٢٨٨	٢٨٨
إحالة الحديث عن ابن ذريح إلى مكان آخر	من دلائل صدق الهوى ذوبان الجسم في الحب	٢٩٤	٢٩٤
والصبر ينحل في جسمي كما نحلاً	أيزيد أم ينقص الحب؟	٢٩٤	٢٩٤
قصائد للمؤلف في رثاء ولده بصري والبكاء عليه	الحب النامي	٢٩٤	٢٩٤
التداوي بإرسال الدموع	الحب الصادق لا يبلى مدى الدهر	٢٩٥	٢٩٥
الحرص على التكتّم بالبكاء	القلب العاشق لا يعرف الملل	٢٩٥	٢٩٥
الفناء عن الناس عند السادة الصوفية	قصائد للمؤلف في رثاء ولده	٢٩٦	٢٩٦
الفرزدق يرثي ولده وأم ولده	بيت من الشعر يخرج الأحوص من السجن	٢٩٧	٢٩٧
القلب هو قبر الحبيب	ومن العجيب أن البيت نفسه يكون سبباً في حرمانه العفو	٢٩٧	٢٩٧
البكاء هو الدواء	تعليق المؤلف على القصة	٢٩٨	٢٩٨
الفوادح تجفف الدموع	متى يجوز العفو عن التعزير؟	٢٩٨	٢٩٨
حياة عزيزة وموت مشرف	شكوى الفراق وحفظ العهد	٢٩٨	٢٩٨
قصيدتان لتهديج العواطف	البين يفتت الأكباد	٢٩٨	٢٩٨
ابن زيدون بصراً أمه	كثير وقبر عزة	٢٩٨	٢٩٨
إشارة إلى مرثي الشيخ محمد عبده	القلب الخافق	٢٩٩	٢٩٩
الخطوب تعقد الألسنة	لا ينفع الوطن بلا سكن	٢٩٩	٢٩٩
الوحدة صعبة	خمرة العاشق ريق الحبيب	٢٩٩	٢٩٩
المفاضلة بين الشيخ أبي بكر ابن شهاب وحافظ إبراهيم	شدة وفاء النبي ﷺ للسيدة خديجة	٣٠٠	٣٠٠
استهزاء المؤلف ببعض الثقلاء	رثاء المؤلف لزوجته الأولى	٣٠٠	٣٠٠
من محاسن البحري	ألم بيت قالته العرب	٣٠٠	٣٠٠
الناس في الفراق:	اقتداء المتنبي به	٣٠١	٣٠١
١- قسم ينسى مع الزمن	تكفيره عن نفسه	٣٠١	٣٠١
٢- قسم لا ينسى	الحكمة عند أمية بن أبي الصلت	٣٠١	٣٠١
٣- قسم متردد	من لزوميات المؤلف	٣٠١	٣٠١
لا يحل هجر فوق ثلاث	دموع الأسف في ديوان السيد الحداد	٣٠٢	٣٠٢
شعراء من القسم الثاني			

لَوْلَا مُفَارَقَةُ الْأَحْبَابِ مَا وَجَدْتِ

لَهَا الْمَنَابِيَا إِلَى أَرْوَاحِنَا سُبُلًا

- شرح بيت الناظم والأقوال فيه ٣٠٩
 الفراق هو الطريق إلى الموت والدليل عليه ٣٠٩
 ما هي صورة الفراق لو تجسّم؟! ٣١٠
 قصة الصمة بن عبد الله وصاحبته ريا ٣١٠
 موته وموتها من العشق ٣١١
 مشابهته للمجنون ٣١١
 وفاة العباس بن الأحنف عشقاً ٣١٢
 رواية أخرى في تاريخ وفاته ٣١٢
 الدنو يفضح الأحباب ٣١٢

بِمَا بَجَفْنَاكَ مِنْ سِحْرِ صِلِي دِنْفَا

بِهَوَى الْحَيَاةِ، وَأَمَا إِنْ صَدَدْتِ فَلَا

- الحياة من أجل الأحباب ٣١٨
 من شاء بعدك فليمت ٣١٩
 حكمة من أعرابية ٣١٩
 ذهب الغالي.. لا أسف على الرخيص ٣١٩

إِلَّا يَشِبُّ فَلَقَدْ شَابَتْ لَهُ كَبِدٌ

شَيْبًا إِذَا خَضَّبَتْهُ سَلْوَةٌ نَصَلًا

- حرقه الكبد وحرارة الفؤاد سبيل الهرم ٣٢٣
 الشعراء والشيب وأسبابه عندهم ٣٢٤
 مسألة الدور عند الشعراء ٣٢٤

يُجَنُّ سُوقًا فَلَوْلَا أَنَّ رَائِحَةَ

تَرْوُزُهُ فِي رِيَّاحِ الشَّرْقِ مَا عَقَلَا

- رائحة الأحباب تطفىء نار العذاب ٣٢٦
 المجنون يخرج في طلب الميرة ٣٢٧
 ابن الجوزي الواعظ وزوجته نسيم ٣٢٧
 الشعراء ورياح الأحباب ٣٢٧
 القول الحق هو قوله تعالى ٣٢٩
 أمية بن الأشكر يطالب الفاروق برد ولده كلاب ٣٢٩
 أمية يشم رائحة ولده ٣٢٩
 حسان بن ثابت يشتم رائحة آل جفنة وقصة جبلة بن الأيهم ٣٢٩
 القبر يدل على المقبور ٣٣٠

عَلَّ الْأَمِيرَ يَرَى ضَعْفِي فَيَشْفَعُ لِي

إِلَى الَّتِي تَرَكَتْنِي فِي الْهَوَى مَثَلًا

- الذل في الهوى والشفاعة فيه ٣٣٤
 تعصب الفضل بن يحيى على أبي نواس ٣٣٤
 ليست الشفاعة من باب القيادة ٣٣٥
 شفاعته ﷺ لمغيث عند بريرة ٣٣٥
 ابن أبي عتيق يسعى في طلاق لبني لتعود إلى قيس ٣٣٥
 قصة ابن ذريح ولبنى ٣٣٥
 لا عيب في الحبيب في نظر العاشق ٣٣٧
 زواج لبني ٣٣٧



٣٤١	ذكر الأم في الشعر القبيح	٣٣٩	ثواب من جمع بين اثنين
٣٤١	رد المؤلف على ابن الأثير وميزان المسألة عنده	٣٣٩	شفاعة زبيدة لعاشقين في حجها وافتخارها بذلك
٣٤٢	الحزن يخرس الألسنة	٣٣٩	من أفضل الشفاعات
٣٤٢	الثناء على جرير	٣٣٩	لكل مقام مقال
٣٤٢	المراد من هذا البحث نفي مذمة الشفاعة عند العاشقين	٣٣٩	الخطأ في التقدير قد لا يحرم الثواب
٣٤٣	السجال بين ابن حجر والإمام العيني	٣٤٠	أمسك أيمن من يومه
٣٤٣	ليس الإفراط من الدين	٣٤٠	قفاك خير من وجهه
٣٤٣	إمام المتنبى بالموضوع	٣٤٠	الشعراء وهذا المعنى
٣٤٤	من غرائب المتنبى	٣٤٠	ابن الأثير ينتقد أبا نواس

لَمَّا بَصُرْتُ بِهِ بِالرُّمُحِ مَعْتَقِلًا

٣٤٧	القتيل القاتل !!
٣٤٨	٣- قسم يطالب ثم يعفو
٣٤٨	٤- قسم يستعذب العذاب
٣٤٨	أحوال سلطان العاشقين
٣٤٨	ذو النون المصري يقدم العراق ليأخذ بثأر أحد تلاميذه
٣٤٨	الحب طريق مسلوك
٣٤٨	المالك الظالم
٣٤٩	الحسنات يذهبن السيئات

فِي الْأَفْقِ يَسْأَلُ عَمَّنْ غَيْرُهُ سَأَلًا

٣٥٣	ومن البلية أن تحب ومن تحب يحب غيرك
٣٥٤	السعي في حاجات النيام والشعراء
٣٥٥	المتنبى والإسراع في حاجات النيام
٣٥٥	مدح العرب للساري في حاجات النيام
٣٥٦	سيدنا الفاروق والعجوز
٣٥٦	إسراؤه في الرعية
٣٥٦	من المقتدين به
٣٥٦	أنا أعرف بك منك!
٣٥٦	متى تكون سياسة بث الأرصاد والعيون ناجحة؟
٣٥٦	المهلب ابن أبي صفرة والحجاج
٣٥٧	من هو الفتى؟
٣٥٧	المتنبى الشجاع
٣٥٧	مدح الكرام وذم اللثام
٣٥٧	العيش والموت السواء

المجلس الثامن

وَيَحْمِلُ الْمَوْتَ فِي الْهَيْجَاءِ إِنْ حَمَلًا

٣٦٢	أجمل ما في الموضوع
٣٦٢	إشراقه وجهه الشريف ﷺ
٣٦٢	وصف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لرسول الله ﷺ
٣٦٣	تأبط شرا وزوج أمه

أَيَقَنْتُ أَنْ سَعِيدًا طَالِبٌ بِدَمِي

٣٤٤	إن سفكت الحبيبة دم العاشق أخذ له بثأره
٣٤٥	قتيلنا لا يودى
٣٤٥	قتيل الهوى هدّر
٣٤٥	ما هي دية قتيل العشق عند الشعراء!؟
٣٤٦	عذاب الحب للعشاق عذب
٣٤٧	أقسام الناس في الثأر
٣٤٧	١- قسم يطلبون
٣٤٧	٢- قسم رضي بالمقام الذي هو فيه

قِيلَ بِمَنْبِجٍ مَنُوءَاهُ، وَنَائِلُهُ

٣٤٩	الجود يسأل عن طلابه ممن يطلبون من غير صاحبه
٣٤٩	متى يقال: (ملك) ومتى يقال: (سلطان)؟
٣٥٠	المتنبى وسريان جود الممدوح إلى محتاجه
٣٥٠	أصل بيت المتنبى
٣٥٠	سريان الجود والشعراء
٣٥٠	الإمام الهمام والجود الساري
٣٥١	عودة إلى الشعراء
٣٥٢	المسارعة في قضاء الحاجة
٣٥٢	تقسيم المعطين في العطاء
٣٥٢	١- قسم سبق ذكرهم
٣٥٢	٢- قسم يكتبون بالسلام عن السؤال
٣٥٣	٣- قسم يحتاج إلى إعادة السؤال
٣٥٣	٤- وشهرهم من لا يستفتح إلا بالإلحاح
٣٥٣	ما يلحق بالقسم الثاني

يَلُوحُ بَدْرُ الدُّجَى فِي صَحْنِ غُرَّتِهِ

٣٥٩	الممدوح الجميل الشجاع
٣٥٩	كثرة التشبيه بالشمس والقمر
٣٦٠	الافتنان في المديح
٣٦٠	إضاءة الوجوه والشعراء

- ابن الزبير يُطَلِّقُ أمه من زوجها ٣٦٣
- مكاتبة عمرو بن مسعدة لأحد الملوك وقد تزوجت أمه ٣٦٣
- الإمام زين العابدين ونور وجهه ٣٦٤
- هشام بن عبد الملك والإمام زين العابدين في الطواف ٣٦٤
- هل إثبات العقل للجماجم ومعرفة للمدوح جائز؟! ٣٦٤
- اشتياق البقاع إلى أحبابها ٣٦٥
- افتتان المتنبي في الموضوع ٣٦٥
- من أكبر مفاخر قریش.. معرفة البطاح ٣٦٥
- علي الرضا ودخوله خراسان ٣٦٦
- كَمْ مَهْمَةٍ قُذِفَ قَلْبُ الدَّلِيلِ بِهِ
شجاعة المتنبي وثبات جأشه ٣٧٠
- عَقَدْتُ بِالنَّجْمِ طَرْفِي فِي مَفَاوِزِهِ
لماذا سميت الصحراء مفازة؟ ٣٧١
- من الممادح كثرة ركوب الليل، واجتياز الصحراء، وحرق الوجه من
حر الشمس ٣٧١
- الشجاع لا يثني عزمه عن الخروج النساء الجميلات ٣٧٤
- مناشدة عاتكة لعبد الملك في عدم الخروج لمصعب ٣٧٥
- مَنْ يُزَيِّنُ مَنْ؟! ٣٧٥
- الرباب بنت مصعب بن الزبير تفضح اللؤلؤ بجمالها ٣٧٥
- من الثناء بالضرب في الأرض: إيلاف قریش ٣٧٥
- أَنْكَحْتُ صُومَ حَصَاهَا خُفَّ بِعَمَلَةٍ
شرح المطلع ٣٨٠
- من عادة العرب ذكر ما يلاقون في أسفارهم لممدوحيههم ٣٨١
- ورود ابن نباتة على ابن العميد ٣٨١
- تأخر الصلة عن ابن نباتة وتبيينه لوجوب حقه على ابن العميد ... ٣٨٢
- قدوم بشار على خالد بن برمك ٣٨٢
- إكرام خالد لبشار ٣٨٣
- ابن زريق البغدادي يقصد بعض الملوك طالباً معروفه ٣٨٣
- خيبة أمه وموته كمدأ ٣٨٣
- سكينة بنت الحسين تفاضل بين الشعراء ٣٨٣
- قبول النبي ﷺ الشعر والأئمة الأعلام ٣٨٤
- الفاروق يمنع الحطيئة من قول الشعر ٣٨٤
- عمر بن عبد العزيز والأحوص ٣٨٤
- سبب اتصال مروان بن أبي حفصة بالعباسيين ٣٨٥
- امتداح المؤمل للمهدي وإجازة المهدي له ٣٨٦
- استكثار المنصور للإجازة وتنقيصه منها ٣٨٦
- الجود يعدي ٣٨٦
- وكذلك الحلم ٣٨٧
- أصل المعنى ٣٨٧
- ابن معايا يمدح الخليفة الأندلسي ٣٦٦
- حرق الخليفة للأستار وبروزه للشاعر ٣٦٧
- ورود كلمة (أذنين) في اللغة ٣٦٧
- تلثم الجميل يدرأ من إتلاف المهج ٣٦٧
- الابتسام في ساحات القتال والشعراء ٣٦٧
- المتنبي وعدم المبالاة بملاقاة الأعداء ٣٦٩
- حياء وشجاعة النبي ﷺ ٣٦٩
- الشجاعة والحياء ٣٦٩
- احذر من تبسم الليث ٣٧٠
- قَلْبُ الْمُحِبِّ، قَضَائِي بَعْدَ مَا مَطَّلَا
وَحُرَّ وَجْهِي بِحَرِّ الشَّمْسِ إِذْ أَقْلَا
المتنبي وكثرة مدحه في الضرب في الأرض ٣٧٦
- المفاضلة بين بيت للمتنبي وبيت للطغرائي ٣٧٨
- أفضل مراكب العرب الإبل وسبب ذلك ٣٧٩
- وصف ابنة الحُصْنِ للإبل ٣٧٩
- من عجائب الإبل ٣٧٩
- عجبية أخرى في هدايتها الطريق ٣٧٩
- ذكرها في القرآن الكريم وعند العرب ٣٨٠
- تعرض النبي ﷺ للشمس يوم عرفة ٣٨٠
- تَفَسَّمَرْتُ بِنِي إِبْنِكَ السَّهْلَ وَالْجَبَلَا
فطانة شاعر مع المهدي ٣٨٧
- الأثبت أن القصة لأبي بكر الهذلي مع المنصور ٣٨٧
- جود معن بن زائدة ٣٨٧
- لا نعلم مركوباً غير هذا ٣٨٨
- وكذلك لا نعلم لباساً غير هذا ٣٨٨
- احطط رحالك وقوِّ آمالك ٣٨٨
- الحذاقة في كلام بني تيم ٣٨٨
- رجل يقصد أبان بن الوليد ٣٨٨
- العود أحمد ٣٨٩
- ابن نباتة يضمن لأحد الشعراء لأنه غشه بقول له في فخر الدولة ٣٨٩
- يا يزيد بن مزيد ٣٨٩
- الثقة بالعطاء من الممدوح عند الشعراء ٣٨٩
- المجاعة في عهد هشام بن عبد الملك ٣٩١
- فطانة درواس بن حبيب في الطلب ٣٩١
- عطاء هشام ٣٩١
- رحم الله من تصدق ٣٩١
- ما الذي يناله ابن آدم من الدنيا ٣٩١
- العرب تصف أحوالها ولكنها تميل إلى المبالغة ٣٩٢

٣٩٥	خالد بن صفوان	٣٩٢	تلميذ المؤلف يهديه قصيدة فيردها عليه
٣٩٥	أبو الأسود الدؤلي	٣٩٣	بعض قصص الخائبين
٣٩٥	هل لك علم بكلبنا نفاع؟! ..	٣٩٣	حسن الظن بالبخيل يقع بخذلان الله، والطمع فيه بسوء التوكل عليه
٣٩٦	العجب من بخل أبي الأسود	٣٩٣	يحب أن يُحمد بما لم يفعل
٣٩٦	مثل البخيل والمنفق من الحديث النبوي	٣٩٣	أعطوه بدرة يدخلها
٣٩٦	مثل المنفق	٣٩٣	لقد أسمعت لو ناديت حياً
٣٩٦	مثل البخيل	٣٩٤	أفلاطون والرجل البخيل
٣٩٦	وجوب إكرام الوافد	٣٩٤	ارفق يا حبيبي بتيسك
٣٩٧	جوده ﷺ	٣٩٤	لعن الله ناقة حملتني إليك
٣٩٧	تأثير الأخفاف والحوافر في الحصى عند الشعراء	٣٩٤	اضربوا أهل الصفة
٣٩٨	تأثيرها عند المتنبي	٣٩٤	بخلاء العرب أربعة:
٣٩٩	القول في تأثير أقدامه ﷺ في الصخر	٣٩٥	الخطيئة
٣٩٩	أثر قدمي إبراهيم عليه الصلاة والسلام في الحجر	٣٩٥	حميد الأرقط

وَضَاقَتِ الْأَرْضُ حَتَّىٰ إِنَّ هَارِيَهُمْ إِذَا رَأَىٰ غَيْرَ شَيْءٍ ظَنَّهُ رَجُلًا

٤٠١	ليس لي غير رأسي	٣٩٩	الدفاع عن المتنبي
٤٠٢	روح بن عدي يأمر أبا دلامة للخروج في القتال	٤٠٠	الخوف يقطع الجوف
٤٠٢	إياك أن تفرط بالعالي	٤٠٠	قصة المنزوف ضرطاً
٤٠٢	ليس الإقدام شجاعة في كل حين	٤٠٠	رواية أخرى للقصة
٤٠٢	من بلاغة العرب تحسينهم كل شيء حتى الفرار	٤٠١	القتال في النوم
٤٠٣	صور عن الذين فروا	٤٠١	أسرع من الغزال في الفرار
٤٠٣	عوانة بن زيد يراود جارية عن نفسها، ولكنها تربطه بوتر قوسه	٤٠١	العطب مقرون بالشجاعة
٤٠٣	حين امرأة إلى زوجها الأول ورجولته	٤٠١	قتلة واحدة خير
٤٠٤	ماءٌ ولا كصداء، ومرعى ولا كالسعدان	٤٠١	الغضب في الحياة خير من الرضا في الممات

المجلس التاسع

بَبَيَاضِ الطَّلَىٰ وَحُمْرِ الخُدُودِ كَمْ قَتِيلٍ - كَمَا قُتِلْتُ - شَهِيدٍ

٤٠٨	فيم بقاء المعشوق بعد العاشق	٤٠٥	الميت عشقاً شهيد
٤٠٩	هل من سبيل إلى خمرة؟ والفاروق ونصر بن الحجاج	٤٠٥	الاختلاف في قتل العشق عند الفقهاء
٤٠٩	تعلق امرأة مجاشع بن مسعود بنصر بن الحجاج وتعلقه بها	٤٠٥	لا ينافي الکتّم ما ينفث به الشاعر من شكوى الصدود
٤٠٩	بعض أهل الأدب والإمام مالك	٤٠٦	القتلى الشهداء عند الشعراء
٤١٠	حكم الإحلال من الغيبة قبل العلم بتفصيلها	٤٠٦	أصل بيت المتنبي من قول جميل
٤١٠	الفضيل بن عياض يتمنى الدعاء للعشاق	٤٠٦	المتنبي وقتلى العشق
٤١٠	الدعاء للعشاق أفضل من عمرة	٤٠٦	الكلام على ديوان ابن الفارض
٤١١	تفسير: ﴿ وَلَا تُحْمِلُنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾	٤٠٧	من فوائد الحب
٤١١	تفسير: ﴿ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَويْفًا ﴾	٤٠٧	العشق محمود
٤١١	حكم النظر إلى الأجنبية	٤٠٧	درء المفاسد مقدم على جلب المصالح
٤١١	الجمع بين العاشقين	٤٠٧	سلوا المفتي المكي
٤١٢	العفة تنجي	٤٠٧	إحياء عبد من الناس واجب
٤١٢	بشر الأسدي وهند الجهنية وموتهما	٤٠٨	هل في وصلهن حرام
٤١٢	في النساء صباحة وفي الفتيان عفة	٤٠٨	سؤال ابن نباتة لأبي الفتح السبكي

٤١٤ الخلوّة والعفة	٤١٢ مرضى ليس لهم داء إلا الحب
٤١٤ هذا مهري فاخطبني	٤١٢ لو رأيتم النواظر الدعج
٤١٤ شهادة عمر ابن أبي ربيعة على نفسه عند وفاته	٤١٣ عفة الرشيد
٤١٥ العفة في العشق	٤١٣ المتنبّي والعفاف
٤١٥ الأحوص يشيب بأمر جعفر وهو لا يعرفها	٤١٣ المرأة المتعرضة لطاووس
٤١٥ العاشقون في الطواف والعاشق المأجور	٤١٣ لا يرانا إلا الكواكب
٤١٥ اللهم لا تعذب هذه الوجوه المليحة بالنار	٤١٤ يجب أن تكون عالماً بالمساحة
		٤١٤ تساوي النساء في البضاعة

هُنَّ فِيهِ أَخْلَى مِنَ التَّوْحِيدِ

٤٢٠ إشكال وحله في بيت المطلع
٤٢١ استعذاب ريق المحبوب عند الشعراء
٤٢٢ المجنون وزوج ليلي
٤٢٢ عودة إلى الشعراء
٤٢٤ أقوال الفقهاء في الريق وحكمه
٤٢٤ لا تعذليني يا أختي
٤٢٤ رقية النبي ﷺ
٤٢٥ كيفية النفث الوارد في الحديث
٤٢٥ ما هو النفث المراد بالحديث؟
٤٢٥ الحكمة الطيبة من النفث والريق

فَأَنْقُصِنِي مِنْ عَذَابِهَا أَوْ فَزَيْدِنِي

٤٣٠ طلب سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام السجن
٤٣١ طلب سيدنا أيوب عليه الصلاة والسلام البلاء
٤٣١ مدة ابتلائه
٤٣١ حوار بين فرعون وامرأته
٤٣١ دعاء سيدنا أبي بن كعب على نفسه
٤٣١ هدي النبي محمد ﷺ
٤٣٢ حسن العشرة مع الأهل من هدي النبي ﷺ
٤٣٢ تمنع ودلال عائشة بنت طلحة على ابن الزبير
٤٣٢ المعلم الجاهل

شُرْبُهُ مَا خَلَا دَمَ الْعُنُقُودِ

٤٣٦ رواية أخرى في نزول آية تحريم الخمر
٤٣٦ سؤال عن الخمر وحكمها والإجابة على ذلك من القرآن والحديث
٤٣٧ لا ينبغي الانكسار في الحق
٤٣٧ غناء تصغي له الوحوش
٤٣٧ كيفية تداوي شارب الخمر
٤٣٧ قياس في الخمر
٤٣٧ الإمام النعمان يقطع كلام ابن أبي ليلي
٤٣٨ جواب لإياس بن معاوية عن الخمر
٤٣٨ من الذين شربوا الخمر قدامة ، ورد ابن عباس عليه

تَرَشَّفْنَا مِنْ مَنْ فَمِي رَشَفَاتٍ

٤١٦ الأقوال والتأويلات في شرح المطلع
٤١٦ ليس التسييح مشابهاً لحالك
٤١٧ لا يجوز الاستهتار بالدين
٤١٧ العفو عن حديث النفس
٤١٧ صور من تناقض المتنبّي
٤١٧ لا يكون التعارض إلا باتحاد الزمان والمكان
٤١٨ الإنكار على جميل
٤١٨ تذلل لمن تهوى
٤١٨ القائلة المتجبرة
٤١٨ انتقاد كثير على عمر ابن أبي ربيعة
٤١٩ المرأة الأدبية عاشقة ابن أبي ربيعة التي ترسل جاريتها في طلبه

هَذِهِ مُهْجَتِي لَدَيْكَ لِجِنِّي

٤٢٥ شرح المطلع
٤٢٦ ملاحظات على البيت
٤٢٦ الاستسلام للحبيب الأعظم
٤٢٦ الاستسلام للمحبوب سجية الكرام
٤٢٦ إعجاب المؤلف بأبيات لأبي نواس
٤٢٦ أعاصير الحب وبراكينه وامتحاناته
٤٢٩ الطفرائي يهوى غلاماً فيقتله ذلك الغلام
٤٣٠ الصدق في الرضا عند الصوفية
٤٣٠ فليتك تحلو والحياة مريرة

كُلُّ شَيْءٍ مِنْ الدَّمَاءِ حَرَامٌ

٤٣٣ شرح المطلع
٤٣٣ ملاحظات على المطلع
٤٣٣ حكم الخمر
٤٣٤ حكم الخمر عند أبي نواس
٤٣٤ عيينة بن حصن وعمرو بن معد يكرب وماندمتهما
٤٣٥ تعليق المؤلف على الخمر
٤٣٥ نقل السيوطي عن عثمان بن مظعون وعمرو بن معد يكرب
٤٣٥ تعليق المؤلف على السيوطي
٤٣٦ مراحل تحريم الخمر

- ٤٤١ الصدق في الترك أن يكون لله ٤٣٨ وجود بعض الدماء الحلال
- ٤٤٢ قوة الإيمان حتى عند الفساق ٤٣٨ أيهما أشد حرمة الخمر أم الدم؟
- ٤٤٣ دع عنك لومي ٤٣٨ النعيان من الذين شربوها
- ٤٤٣ رد المؤلف على من يطنب في وصف أبيات لابن الرومي ٤٣٨ ومنهم: أبو محجن الثقفي
- ٤٤٣ أجمل ما قيل في رقة الخمر ورقة كؤوسها ٤٣٩ توبته عن شربها
- ٤٤٤ ولع يزيد بقتيته وتخلفه عن الجمعة بسبب حبهما ٤٣٩ إذا مت فادفوني إلى جنب كرمة
- ٤٤٤ إنكار ابن خلدون ما ينسب إلى الرشيد من معاقرة العقار ٤٣٩ ومن الذين حُدوا فيها الوليد بن عقبة
- ٤٤٤ المأمون من المشهورين بها وأخباره فيها ٤٤٠ ومنهم: عبيد الله بن عمر بن الخطاب
- ٤٤٥ الخلاف في يحيى بن أكثم ٤٤٠ ومنهم: عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب
- ٤٤٥ قول يحيى عن نفسه ٤٤٠ ومنهم: عاصم بن عمر بن الخطاب
- ٤٤٥ تحريم بعض أهل الجاهلية الخمر على أنفسهم ٤٤٠ ومنهم: العباس بن عبد الله بن عباس
- ٤٤٥ التقرب إلى السلطان بالعقل ٤٤٠ ومنهم: عبد الله بن عروة بن الزبير
- ٤٤٥ الوليد والحجاج ٤٤٠ ومنهم: عبيد الله بن عروة بن معاوية
- ٤٤٥ أيشرب نساؤكم هذا؟! ٤٤٠ تهديد الحسن بن زيد لابن هرمة إن شرب الخمر
- ٤٤٦ اعتراف المتنبي على نفسه بشربها ٤٤١ قدوم ابن هرمة على المهدي
- ٤٤٧ أبو نواس والخمر ٤٤١ طلبه من المهدي أن يكتب له كتاباً إلى الحسن
- ٤٤٧ تحريم العرب الخمر على أنفسها حتى تأخذ بثأرها ٤٤١ عتاب لزياد في حارثة بن بدر الغداني
- ٤٤٧ تحريم إدارة القهوة على نحو ما تدار الخمر ٤٤١ جفاء ابن زياد لحارثة وطلبه منه ترك الخمر

وَدُمُوعِي عَلَى هَوَاكَ شُهُودِي؟!

شَيْبُ رَأْسِي وَذَلَّتِي وَنَحْوَلِي

- ٤٥٠ قلة الدمع.. من شدة الوله وجور الصباية ٤٤٨ شهود الحب كثر
- ٤٥١ الإشارات والكناية في الحب ٤٤٨ هل تقبل شهادة الدموع؟
- ٤٥١ أجمل ما قيل في الدموع ٤٤٨ التعنت في الحب
- ٤٥٢ أجود بدمي والدموع على الخد ٤٤٩ ارحم شبابك من عدو.. ترحم
- ٤٥٣ البكاء من خشية الله مطلوب ٤٤٩ تعليق المؤلف على الحديث
- ٤٥٤ أسباب الشيب كثيرة ٤٤٩ تعليقه على المتنبي
- ٤٥٤ أكثر العرب على أن الشيب من الوقائع ٤٤٩ دموع الحب

لَمْ تَرُعْنِي ثَلَاثَةَ بِضُدُودِي؟!

أَيَّ يَوْمٍ سَرَرْتَنِي بِوِصَالِ

- ٤٦٠ كم صفا من أيام المأمون؟! ٤٥٤ مسكين المتنبي يتغني الريح من الحبيب!! إن هذا لشيء عجاب
- ٤٦٠ توجيه السؤال إلى عبد الرحمن الناصر ٤٥٤ لم تكن راحة القلب يوماً بدون القناعة باليسير من المحبوب ..
- ٤٦٠ المتنبي القنوع الراضي!! ٤٥٦ الرضا والسخط والكلام على ذلك
- ٤٦٠ عودة إلى الشعراء والرضا والتسليم ٤٥٧ التوكل والتواكل والفرق بينهما
- ٤٦١ توجع ابن التعاويذي على ذهاب بصره ٤٥٨ قصة للغزالي في الرضا
- ٤٦٢ رد قول المتنبي بقوله ٤٥٨ حكمة للجنيدي في الرضا
- ٤٦٢ التماس العذر للمتنبي ٤٥٨ الشعر والرضا
- ٤٦٢ الذكاء منه في بيته ٤٥٩ أبو العتاهية في السجن

المجلس العاشر

كَمُقَامِ الْمَسِيحِ بَيْنَ الْيَهُودِ

مَا مُقَامِي بِأَرْضِ نَخْلَةَ إِلَّا

- ٤٦٥ الأئمة والعلماء والافتراء عليهم ٤٦٤ هل تنبأ أبو الطيب حقيقة؟
- ٤٦٦ أول ذنب عُصِي به الله تعالى هو الحسد ٤٦٤ الكلام داء الحسد

- ٤٦٩ ضياع العالم بين الجاهلين
 ٤٦٩ أصل العداوة اصطناع المعروف إلى غير أهله
 ٤٦٩ الحكم الشرعي في التشبيه الذي في بيت المطلع
سَنَ قَمِيصِي مَسْرُودَةً مِنْ حَدِيدٍ
 ٤٧٣ الشعراء ومدح الخيل
 ٤٧٦ قول الجاحظ في الكتاب
 ٤٧٦ قول المؤلف في الكتاب
بَيْنَ طَمَنِ الْقَنَا وَخَفَقِ الْبُنُودِ
 ٤٨٠ هذبة بن خشرم يستمهل السجنان ليتم لعبته
 ٤٨٢ جحدر بن مالك وأسد الحجاج ورباطة جأشه
 ٤٨٣ متى يكون الإقدام نافعاً؟
لَ وَكَو كَانٍ فِي جَنَانِ الْخُلُودِ
 ٤٩٠ تواضع السلطان سليم العثماني
 ٤٩٠ تواضع السلطان عبد الحميد
 ٤٩٠ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وشهاب بن حمزة!!
 ٤٩٠ التفاوض بالاسم القبيح
 ٤٩١ التفاوض بالاسم الحسن
وَيَنْفَسِي فَخَرْتُ لَا بِجُدُودِي
 ٤٩٧ الفخر بالآباء
 ٤٩٩ صلاح الآباء يسري إلى الأبناء
 ٥٠٠ وقبل كل شيء السعادة الأزلية
 ٥٠٠ قد تخلف الوردة شوكاً
 ٥٠١ أبو دلامة وبنته
 ٥٠١ خسة الأم تودي بالأبناء إلى الحضيض
 ٥٠٢ اختيار الأم من الدين
 ٥٠٣ أخت لقمان تأتي بولد منه
 ٥٠٣ حاتم الطائي يخطب امرأة فترده
 ٥٠٤ قد يستفرغ الآباء الشرف والمجد ولا يقون لأعقابهم شيئاً
 ٥٠٤ متى ينفع الحسب والنسب الابن
 ٥٠٦ الفخار والمجد الذي لا يبید
 ٥٠٨ لا يجوز الافتخار بأهل الشرك
بَلَغَ الْمَدَى وَتَجَاوَزَ الْحَدَّ
 ٥١٠ هل يقف الحب عند حد معين؟!
 ٥١١ فوائد الهدية تثبيت وتقوية المحبة
فَرَدَدْتُهَا مَمْلُوءَةً حَمْدًا
 ٥١٣ الثناء يبقى وتذهب الهدية

- ٤٦٦ الجدار المنخفض تقفز عليه الكلاب
 ٤٦٧ الذي أُلِفَ الذل والهوان مذموم، ذمه في الشرع
 ٤٦٧ ذمه في العقل وعزة الشعراء
 ٤٦٨ لا يجلس تحت المحمل إلا الجمّل
مَفْرَشِي صَهْوَةَ الْحِصَانِ وَلَكِ
 ٤٧٠ حكم المدح بما يشبه الذم عند المؤلف
 ٤٧١ أصل بيت المتنبي
 ٤٧١ الخيل والمدح فيها
عِشْ عَزِيزًا أَوْ مُتًّا وَأَنْتَ كَرِيمٌ
 ٤٧٧ الحياة السعيدة أو الموت العزيز
 ٤٧٨ بالهاشميين الأبطال تشجع أنفسها
 ٤٧٨ صور من شجاعة الشجعان على مر الزمان
فَاطْلُبِ الْعِزَّ فِي لَطْفِي وَدَعْ الذُّ
 ٤٨٤ شرح المطلع
 ٤٨٤ لا يجوز تحقير ما عظم الله
 ٤٨٥ المجد الممؤء المزعوم
 ٤٨٥ لم ولن ولا يكون العز إلا في الإسلام والشواهد على ذلك
 ٤٨٧ الرشيد بين يدي الفضيل بن عياض
 ٤٨٩ الإمام زين العابدين في الطواف
لَا بِقَوْمِي شَرُّنْتُ بَلْ شَرُّنُوا بِي
 ٤٩١ فخر الإنسان بقومه، ولن يكون غير ذلك وإن أباي
 ٤٩٢ تفضيل الفرع على الأصل عند المتنبي
 ٤٩٣ لم تذق حلاوة الآباء
 ٤٩٣ مَنْ بَيْتُهُ مِنْ زَجَاجٍ.. لا يرمي الناس بالحجار
 ٤٩٤ أتكون باهلياً خليفة؟!
 ٤٩٤ لا يعبا الله بالباهلي أبداً!!!
 ٤٩٥ ما كانت إهانة الله لك .. إلا ليعوضك يوم القيامة
 ٤٩٥ السبب في اتضاع باهلة
 ٤٩٥ أعصامي أم عظامي؟!
 ٤٩٥ من هو العصامي؟ ومن هو العظامي؟
 ٤٩٦ الفخر بالنفس
 ٤٩٦ الفخر بالنفس والآباء
 ٤٩٧ الإعطاء عند القلة.. أمدح ما يكون بالجود
أَقْصِرْ فَلَسْتَ بِرَائِدِي وَدًّا
 ٥١٠ شرح المطلع
 ٥١٠ ما زاد على حده.. انقلب إلى ضده
أَزَسَلْتَهَا مَمْلُوءَةً كَرَمًا
 ٥١٢ أصل معنى بيت المطلع وشرحه

٥١٨	ثم هجى بيتين ولا أمضَ منهما	٥١٤	كفران النعم يستوجب الوعيد
٥١٩	ابن الرومي يُمطل بعد مديحه فما الرد؟! ..	٥١٤	لم يشكر الله.. من لم يشكر الناس
٥١٩	هن بناتي أزوجهن من أريد ..	٥١٤	كفران النعم من اللؤم ..
٥١٩	صور من الهجاء لمن لم يشكر النعم ..	٥١٤	شكران النعم من الكرم ..
٥٢١	عبث ربيعة الرقي بالعباس بن محمد في حضرة الرشيد ..	٥١٦	اشكر لمن أنعم عليك، وأنعم على من شكرك ..
٥٢١	من أخبار العباس مع الرشيد ..	٥١٦	سيد الشاكرين ﷺ ..
٥٢٢	حبس أمير المؤمنين ابن الخطاب للحطيئة ..	٥١٦	إذا صنعت معروفًا.. فليكن إلى مثل هؤلاء ..
٥٢٢	ذهاب الحطيئة إلى علقمة بعد خروجه من السجن ..	٥١٧	المتنبي والشكر ..
٥٢٢	جود الأبناء ..	٥١٧	الشعراء والشكر ..
٥٢٣	هذا الشبل من ذاك الأسد ..	٥١٨	يباح ذم المقصر.. كما يجب شكر المنعم ..
٥٢٣	كرم سيف الدولة ..	٥١٨	المتوكل يريد أن يختص أبا العيناء للمنادمة ..
		٥١٨	مدح سعيد بن سلم بيتين ولا أجمل منهما ..

المجلس الحادي عشر

	لَكُنْتُ فِي الْجُودِ غَايَةَ الْمَثَلِ		تَمَثَّلُوا حَاتِمًا وَلَوْعَةً لُؤَا
٥٢٨	أيهم أشد كرمًا عبد الله، أم قيس، أم عرابة؟ ..	٥٢٥	شرح المطلع ..
٥٢٩	أجواد العرب في الإسلام عشرة ..	٥٢٥	لو سبقت حاتمًا بيوم لما ذكره الناس!! ..
٥٢٩	لكل دولة كراماؤها ..	٥٢٥	صوّر من أخبار الكرماء ..
٥٣٠	بماذا يكون فخر العرب؟ ..	٥٢٦	حبيبي!! فات الأوان ..
٥٣٠	صور رائعة من الجود الحضرمي ..	٥٢٦	بعض عجائب حاتم ..
٥٣٣	الشهامة أن تشهد لعدوك بما هو فيه ..	٥٢٧	الشهامة والجود العربي ..
٥٣٣	صور من ذلك ..	٥٢٧	هل يذبح الحطيئة ابنه للضيفان؟! ..
	إِلَّا رَأَيْتُ الْعِبَادَ فِي رَجُلٍ		هَدِيَّةٌ مَا رَأَيْتُ مُهْدِيَهَا
	لَمَّا غَدَوْتُ بِجِدْفِي فِي الْهَوَى تَعِسِ		هَلْ يَجْمَعُ رَجُلٌ وَاحِدٌ جَمِيعَ مَحَاسِنِ النَّاسِ؟! ..
٥٤١	أحببت من أجلكم من كان يشبهكم ..	٥٤٠	أظبية الوحش لولا ظبية الإنس ..
	دَمْعًا يُنَشِّفُهُ مِنْ لَوْعَةِ نَفْسِي		وَلَا سَقَيْتُ الثَّرَى وَالْمُزْنَ مُخْلِفُهُ
٥٤٤	الرشيد وعقد الجارية ..	٥٤٢	شرح المطلع ..
٥٤٥	قفي ودعينا يا سعاد ..	٥٤٣	إطفاء الدمع بنار الفؤاد ..
٥٤٥	هل تعار العين للبكاء؟! ..	٥٤٤	سكينة بنت الحسين تسأل عروة بن أذينة ..
	ذِي أَرْسَمِ دُرْسٍ فِي الْأَرْبَعِ الدُّرْسِ		وَلَا وَقَفْتُ بِجَنِّمْ مُسَيِّ ثَالِثَةَ
٥٥٣	كيفية شرب الخمر وجلساتها ..	٥٤٦	شرح المطلع ..
٥٥٤	وصف المؤلف لمجالس شرب الشاي ..	٥٤٦	الاشتياق قبل الفراق ..
٥٥٦	تفنن أهل اليمن في استعمال الشاي ..	٥٤٧	التعلل بأثار الحبيب لإطفاء ما في القلب من اللهب.. سنة العرب ..
		٥٥٢	شدة احترام السلطان عبد الحميد لآثار النبي ﷺ ..

مِنْ كُلِّ أَبِيضٍ وَضَّاحٍ عِمَامَتُهُ

كَأَنَّمَا اشْتَمَلَتْ نُورًا عَلَى قَبْسِ

- شرح المطلع ٥٥٧
إشراق وجه مصعب بن الزبير ٥٥٨
إشراق وجه لبابة بنت عبيد الله ٥٥٩
الأصمعي وصاحبة البرقع ٥٥٩
الحجر الذي لا يعجبك.. يشجك ٥٥٩
أيجوز للرجال أن يتزوجوا على النساء؟! ٥٦٠
الصورة الحسنة والشعراء ٥٦٠
- جمال الظاهر عنوان جمال الباطن ٥٦١
الشعراء والجمال ٥٦١
قد يتخلف جمال الباطن عن جمال الظاهر وبالعكس ٥٦٢
الفرزدق وخفة دمه ٥٦٣
من أخبار الظرفاء والقبحاء ٥٦٤
بحث فقهي حول العمامة ٥٦٦

أَكَارِمُ حَسَدَ الْأَرْضِ السَّمَاءِ بِهِمْ

وَقَصَّرَتْ كُلُّ مِضْرٍ عَنْ طَرَائِبِ

- شرح المطلع ٥٦٩
أيهما أفضل الأرض أم السماء؟ ٥٦٩
- تفاخر الأماكن والأعضاء على بعضها ٥٦٩
ذكاء الفضل بن الربيع وهو صغير ٥٧١

المجلس الثاني عشر

أَرْقُ عَلَى أَرْقٍ وَمِثْلِي يَأْرُقُ

وَجَاوَى يَزِيدُ وَذَمْعَةٌ تَتَرَقَّرُقُ

- شرح المطلع ٥٧٣
السهر والأرق من أجل الهوى ومن أجل المجد ٥٧٣
منشأ الهموم وترادف الغوم من كبر الهمة ٥٧٣
اضحك على الحريص!! ٥٧٤
تعليل المتنبى لسبب حرصه ٥٧٥
للأرق سبب آخر وهو: الخوف ٥٧٦
أو المجد ٥٧٦
- أو غير ذلك ٥٧٦
هجاء المتقاعسين عن المجد والسمو ٥٧٧
العاقل تعب والجاهل مستريح ٥٧٩
أشد الناس بلاءً من هم؟ ٥٧٩
لمن يتسم الزمان؟ ٥٨١
زيادة الحب!! ٥٨١
حتى الجود يزداد ٥٨٢

مَا لَاحَ بَازِقُ أَوْ تَرَّتَمَ طَائِرٌ

إِلَّا أَنْشَنَيْتُ وَلِيَّيَ فُوَادُ شَيْقُ

- تذكر الأحباب عند كل ما تقع عليه العين فيعجبها.. من عادة العرب ٥٨٢
أحب شيء للعرب الغيث.. فلذا يتذكرون به الأحباب ٥٨٢
ومن عادتهم التذكر عند لمح البرق ٥٨٣
البكاء لسجع الحمام ٥٨٥
صد الدلال من الكمال ٥٨٧
مرض الحب لا دواء له ٥٨٧
- العاشق تعب على كل حال ٥٨٧
عودة إلى بكاء الحمام ٥٨٩
كل إناء بما فيه ينضح ٥٩٢
العرب تحفظ المستجير ولو كان حيواناً ٥٩٣
من الأماكن التي تحن فيها العرب.. عند حنين الإبل ٥٩٤
قد يهيج شوق العربي غير الذي ذكر ٥٩٥

وَعَذَلْتُ أَهْلَ الْعِشْقِ حَتَّى ذُقْتُهُ

فَعَجِبْتُ كَيْفَ يَمُوتُ مَنْ لَا يَعْشَقُ

- كيف يكون الموت بلا عشق؟! ٥٩٥
العشق من طبائع النفوس الكريمة ٥٩٦
المحب يرى بعين غير عيون الناس ٥٩٦
إذا رأيت عاشقاً.. فارحمه ٥٩٧
المتنبى يعترف على نفسه بالجمود ٥٩٨
هذه هي الشجاعة يا أبا الطيب ٥٩٨
- المتنبى صاحب أحوال متقلبة ٥٩٩
لا تنافر بين الشجاعة والمحبة ٦٠١
الحب يصنع المعجزات ويقوي الجبان ٦٠٢
أحوال سيد الوجود ﷺ مع النساء ٦٠٢
الحب في ساحة الوغى ٦٠٣
حمدونية بنت عيسى تلجأ إلى محمد بن صالح العلوي ٦٠٤

عَيَّرْتُهُمْ فَلَقَيْتُ فِيهِ مَا لَقُوا	وَعَدَرْتُهُمْ وَعَرَفْتُ ذَنْبِي أَنِّي
٦٠٨ الغيرة والأنفة العربية	٦٠٤ من عيب.. ابتلي
٦٠٨ أبيات جميلة في الحب	٦٠٦ يجب أن تكون غيوراً
٦٠٨ أبو السائب المخزومي يطلب العلم	٦٠٧ ذو النون المصري والفتيات الطائفات
	٦٠٨ اعتراض المؤلف على نفسه

المجلس الثالث عشر

أَبْدَأُ غَرَابَ الْبَيْنِ فِيهَا يَنْمَعُ	أَبْنِي أَبِيْنَا نَحْنُ أَهْلُ مَنَازِلِ
٦١١ الحلم على الجاهل	٦١٠ مسكين المتنبلي لا يعرف السعادة!!
٦١١ التشاؤم والطيرة	٦١٠ كثير عزة الغراب الناعق
٦١٢ التذكير بالموت وقت اللذات	٦١٠ ليس كل غراب يُتَشَاءَمُ منه
٦١٣ حقارة الدنيا والكلام على الموت وذكر قصص في ذلك	٦١١ العيب على المتنبلي
جَمَعْتُهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يَتَفَرَّقُوا	نَبِيَّ عَلَى الدُّنْيَا وَمَا مِنْ مَعْشَرِ
٦٢٦ الدنيا دولاب يدور	٦٢٣ سبحان الدائم الباقي
٦٢٩ تجمع الدنيا بإرادتك وتركها رغم أنفك	٦٢٤ يا بن آدم.. إنك سائر إلى قبرك فتنبه
٦٢٩ مسألة أصولية حول الدنيا	٦٢٥ لا يدوم إلا الحي القيوم
	٦٢٥ تقلب أحوال الدنيا في الناس
كَتَرُوا الكُنُوزَ فَمَا بَقِينَا وَلَا بَقُوا	أَيَّنَ الأَكْاسِرَةَ الجَبَابِرَةَ الأَلْسَى
٦٣١ لا تدري أين تكون المنية	٦٣٠ شرح المطلع
٦٣١ أبو دلف يتزود لموته	٦٣١ ملك الموت وسيدنا داود عليهما الصلاة والسلام
٦٣٢ تموت ولا ينفعك إلا عملك	٦٣١ الملكُ وملك الموت
حَتَّى قَضَى، فَحَوَاهُ لَحْدُ ضَيْقُ	مِنْ كُلِّ مَنْ ضَاقَ الفَضَاءُ بِجَيْشِهِ
٦٣٤ مسألة فقهية حول البرزخ	٦٣٢ الميت يسمع.. ولكنه لا يستطيع الكلام
٦٣٥ الموت.. آه من الموت كم فعل الأعاجيب	٦٣٣ قبر المعتمد بن عباد قبلة لبعض الشعراء
مُسْوَدَّةٌ وَلِمْاءٍ وَجْهِي رَوْنَقُ	وَلَقَدْ بَكَيتُ عَلَى الشَّبَابِ وَلِمْتِي
٦٤٧ من سار على الدرب.. وصل	٦٣٧ شرح المطلع والكلام على المتنبلي
٦٤٧ بغض النساء الشيب	٦٣٨ الكلام على الشيب
٦٤٩ قصائد للمؤلف في الموضوع	٦٤٠ البكاء على الشباب
٦٥٢ من فوائد الشيب أنه يردع عن الغي	٦٤٠ المعتصم يعجب بقصيدة للنميري
٦٥٤ من لطف الله بالعباد أنهم لا يحسون للشيب ألماً	٦٤١ دواء عجيب لتسهيل الولادة.. اقرأه ولا تطبقه!!!
٦٥٤ البكاء خوفاً من الشيء قبل وقوعه	٦٤١ من المشيب والشباب والبكاء عليهما
٦٥٦ لله در الأمل ما أعظمه	٦٤٥ الشيب قبل الأوان مؤلم
٦٥٦ تأمل الدنيا ولا تركزن إليها	٦٤٦ ما عذر المشيب في المعجى قبل أوانه؟

المجلس الرابع عشر

- وَعَجِبْتُ مِنْ أَرْضِ سَحَابٍ أَكْفِهِمْ ٦٥٩ الجود الذي تورق منه الصخور
- مِنْ فَوْقِهَا وَصُخُورُهَا لَا تُورِقُ ٦٦٢ البخل الذي تجف منه البحار
- مَسْأَلَةٌ بِلَاغِيَّةٍ فِي الْغُلُوِّ ٦٦٠ مسألة بلاغية في الغلو
- وَتَفْؤُوحٍ مِنْ طَيْبِ الثَّنَاءِ رَوَائِحُ ٦٦٣ شرح المطلع
- الذِّكْرُ الْجَمِيلُ وَالثَّنَاءُ الْحَسَنُ.. جَدِيرٌ بِأَنْ يَطْلُبَ مِنَ اللَّهِ ٦٦٦ الذكر الجميل والثناء الحسن.. جدير بأن يطلب من الله
- الطَّيِّبُ الْفَائِحُ مِنَ الْمَحْبُوبِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَخْفَى ٦٦٣ الطيب الفائح من المحبوب لا يمكن أن يخفى
- أَكْذَبُ الشُّعْرٍ ٦٦٤ أكذب الشعر
- طَيْبُ الثَّنَاءِ تَابِعٌ لَطَيْبِ الذَّاتِ ٦٦٥ طيب الثناء تابع لطيب الذات
- لَمْ يَخْلُقِ الرَّحْمَنُ مِثْلَ مُحَمَّدٍ ٦٦٨ المديح والمغالاة فيه والقصص في ذلك
- أَبُو الْأَسَدِ وَمَوْسَى الْهَادِي ٦٦٨ أبو الأسد وموسى الهادي
- سَلْمُ الْخَاسِرِ وَالْمَهْدِيِّ ٦٦٩ سلم الخاسر والمهدي
- الْفَرَزْدَقُ وَعَبْدُ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ وَشَهَامَةُ نَفْسِ الْفَرَزْدَقِ ٦٧٠ الفرزدق وعبد الملك بن مروان وشهامة نفس الفرزدق
- هَلْ يَجُوزُ التَّسْمِيَةُ بِ: مَلِكِ الْمَلُوكِ وَمَا شَابِهَهُ؟ ٦٧٢ هل يجوز التسمية ب: ملك الملوك وما شابهه؟
- الْغُلُوُّ فِي الْمَدِيحِ ٦٧٣ الغلو في المديح
- وَصَلَ السُّيُوفُ بِالْخَطَا عِنْدَ الْعَرَبِ ٦٧٦ وصل السيوف بالخطا عند العرب
- شَرُّ الشُّعْرَاءِ مَنْ يَنْقُضُ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ ٦٧٧ شر الشعراء من يناقض نفسه بنفسه
- ذُو الْوَجْهَيْنِ لَا يَكُونُ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ٦٧٩ ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً
- يَا ذَا اللَّذِي يَهَبُ الْجَزَائِلَ وَعِنْدَهُ ٦٨٣ شرح المطلع
- مَتَى يَنْفَعُ الْجُودُ وَأَيْنَ مَحَلُّهُ؟ ٦٨٩ متى ينفع الجود وأين محله؟
- صُورٌ رَائِعَةٌ مِنَ الْجُودِ وَالْإِيثَارِ عَلَى النَّفْسِ ٦٨٤ صور رائعة من الجود والإيثار على النفس
- حُكْمُ الْفُقَهَاءِ فِي الْإِيثَارِ ٦٨٥ حكم الفقهاء في الإيثار
- الْجُودُ الْمَطْبُوعُ فِي النَّفْسِ ٦٨٦ الجود المطبوع في النفس
- نَعْمَتُهُ قِلَادَةٌ فِي عُنُقِي لَا يَنْزِعُهَا إِلَّا غَاسِلِي.. رَجُلٌ وَفِي ٦٨٦ نعمته قلادة في عنقي لا ينزعها إلا غاسلي.. رجل وفي
- الْمَرْتَبَةُ الثَّانِيَةُ لِابْنِ الْأَنْبَارِيِّ.. قِمَّةٌ فِي الْوَفَاءِ ٦٨٧ المرتبة الثانية لابن الأنباري.. قمة في الوفاء
- الْحَرُّ لَا يَكْذِبُ وَلَوْ قُتِلَ ٦٨٧ الحر لا يكذب ولو قتل
- الذَّرْوَةُ فِي الشُّجَاعَةِ وَالْوَفَاءِ ٦٨٨ الذروة في الشجاعة والوفاء
- السَّائِلُ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَقَتِ مَحْتَتِهِ ٦٨٨ السائل عن الإمام أحمد وقت محتته
- الْبَحْتَرِيُّ شَدِيدُ الْوَفَاءِ لِلْمَتَوَكَّلِ ٦٨٨ البحتري شديد الوفاء للمتوكل
- أَبْلَغُ مَا يَكُونُ مِنَ الْجُودِ أَنْ تَكُونَ كَلِّكَ مِنْ أَيْدِي مَعْطِيكَ ٦٨٨ أبلغ ما يكون من الجود أن تكون كلك من أيادي معطيك
- الْمَدِيحُ لَا يَكُونُ إِلَّا عَنِ رَغْبَةٍ ٦٨٩ المديح لا يكون إلا عن رغبة
- الْحَرُّ تَكْفِيهِ الْإِشَارَةَ ٦٨٩ الحر تكفيه الإشارة
- أَبْدَأُ وَظَنِّي أَنَّهُ لَا يَخْلُقُ ٦٧٩ الدنيا مصالح!! رحم الله أباك كان وكان... ولم يكن
- وَهَلْ أَنَا إِلَّا مَهْرَةٌ عَرَبِيَّةٌ ٦٨٠ وهل أنا إلا مهرة عربية
- جَعَلَ مِنَ الْجَبَانَ بَطْلَانًا مِنْ أَجْلِ الْمَصْلُحَةِ ٦٨٠ جعل من الجبان بطلاً من أجل المصلحة
- بَشَسَ الرِّجَالَ مِنْ يُشْتَرَى بِالْمَالِ ٦٨١ بشس الرجال من يشتري بالمال
- يَغْتَبِرُ رَأْيَهُ فِي الرَّجُلِ.. بِمَجْرَدِ هَدِيَّةٍ ٦٨١ يغير رأيه في الرجل.. بمجرد هدية
- النِّفَاقُ وَالْمَدَاهِنَةُ لَيْسَ أَمْرًا حَدِيثًا ٦٨١ النفاق والمداينة ليس أمراً حديثاً
- عُودَةٌ إِلَى الْمَدِيحِ ٦٨٢ عودة إلى المديح
- مَوْقِفٌ رَجُولِي لِلْمَأْمُونِ ٦٨٣ موقف رجولي للمأمون
- شَرُّ الْعُلَمَاءِ.. عُلَمَاءُ الْمَلُوكِ ٦٨٣ شر العلماء.. علماء الملوك
- أَنْبِيَّ عَلَيْنِهِ بِأَخْذِهِ أَتَصَدَّقُ ٦٨٩ متى ينفع الجود وأين محله؟
- الْحَلْمُ عَلَى الْجَاهِلِينَ ٦٩٠ الحلم على الجاهلين
- التُّودُّ وَالتَّقَرُّبُ مِنَ الْمَسَاكِينِ ٦٩١ التودد والتقرب من المساكين
- إِذَا أُعْطِيَ هَذَا الرَّجُلُ.. فَقَدْ أُعْطِيَ جَمِيعَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ٦٩٢ إذا أعطيت هذا الرجل.. فقد أعطيت جميع أهل المدينة
- العِذْلُ فِي الْجُودِ ٦٩٣ العذل في الجود
- جُودُ الْمَأْمُونِ ٦٩٣ جود المأمون
- جُودُ الْفَرَزْدَقِ ٦٩٣ جود الفرزدق
- صُورٌ مِنْ جُودِ الْبِرَامِكَةِ ٦٩٤ صور من جود البرامكة
- يَقْضِي دِينَ صَدِيقِهِ وَيَبْكِي ٦٩٦ يقضي دين صديقه ويبكي
- التَّلَذُّذُ بِالْجُودِ وَالْإِعْطَاءِ ٦٩٦ التلذذ بالجود والإعطاء
- مِنْ أَجْوَادِ الْحَضْرَامَةِ ٦٩٧ من أجواد الحضارمة
- يَلُومُونَ الرَّاضِيَ الْعَبَّاسِيَّ عَلَى الْجُودِ ٦٩٧ يلومون الراضي العباسي على الجود
- نَعْمَ الْمَالِ الصَّالِحِ.. لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ ٦٩٧ نعم المال الصالح.. للرجل الصالح

المجلس الخامس عشر

أَمْ طَرَعَا لِي سَحَابَ جُودِكَ ثَرَّةً	متى ينفع الغيث؟! .. ٦٩٩
وَأَنْظُرُ إِلَيْي بِرَحْمَةٍ لَا أُغْرَقُ	للجود.. حدود وكل ما زاد على حده.. انقلب إلى ضده على رأي!! ٧٠٠
٧٠٢ الجود العربي في سنة القحط	من المبالغة في الإحسان قصة هرم بن سنان وزهير .. ٧٠٠
٧٠٢ من ليس له حظ.. لا يتعب ولا يشقى	أبو دلف وعلي بن جبلة .. ٧٠١
٧٠٢ ألا موت يباع فأشتره	لا إسراف في الخير .. ٧٠١
٧٠٣ الدهر دولاب والحر لا ينسى الأصحاب	
٧٠٣ استطراد على المتنبى	
مَاتَ الْكِرَامُ وَأَنْتَ حَيٌّ تُرْزَقُ	كَذَبَ ابْنُ فَاعِلَةٍ يَقُولُ بِجَهْلِهِ
٧٠٧ المبحث الثالث على المطلع	شرح المطلع وفيه مباحث .. ٧٠٤
٧١١ المبحث الرابع على المطلع	المبحث الأول على المطلع .. ٧٠٤
٧١٢ المبحث الخامس على المطلع	المبحث الثاني على المطلع .. ٧٠٦
فَلَمْ أَذِرْ أَيَّ الظَّاعِنِينَ أَشِيْعُ	حُشَاةُ نَفْسٍ وَدَعَتْ يَوْمَ وَدَعُوا
٧١٣ القلب والروح مع الأحباب أينما ذهبوا وأينما ارتحلوا	شرح المطلع .. ٧١٢
تَسِيْلُ مِنَ الْأَمَاقِ وَالسُّمُّ أَدْمُعُ	أَشَارُوا بِتَسْلِيمٍ فَجُدْنَا بِأَنْفُسٍ
٧١٨ الروح الراحلة وليس هم!! فينبغي التفريق	شرح المطلع .. ٧١٨
وَعَيْنَايَ فِي رَوْضٍ مِنَ الْحُسْنِ تَزْنَعُ	حَنَائِي عَلَى جَمْرِ ذِكِّي مِنَ الْهَوَى
٧٢٠ القلب في النار والعيون في الجنان	شرح المطلع .. ٧٢٠
غَدَاةَ أَفْتَرَقْنَا أَوْشَكْتَ تَتَصَدَّعُ	وَلَوْ حُمَّلْتُ صُمَّ الْجِبَالِ الَّذِي بِنَا
٧٢٤ القسم الأول يحبه لأنه يُخرج مكنون الحب	ألم البعاد يهد الجبال .. ٧٢١
٧٢٦ القسم الثاني يكرهه ويقول درء المفساد مقدم على جلب المصالح	لوعة الفراق تذيب الأماق .. ٧٢٢
٧٢٦ ما جاء في الوداع	صلاح الدين يُعزِّي في والده .. ٧٢٢
٧٢٧ قصائد للمؤلف في الوداع	آه.. من الفراق .. ٧٢٣
	الأذواق في الفراق .. ٧٢٤
وَكَا لِمِنْكَ مِنْ أُرْدَانِهَا يَتَضَوُّعُ	أَنْتَ زَائِرٌ مَا خَامَرَ الطَّيْبُ نَوْبَهَا
٧٣٢ عبد الملك بن مروان كان أبحر يسقط الذباب عن فمه	رائحة الحبيب أجمل من الطيب ويشهد بذا البعيد والقريب ... ٧٢٩
٧٣٢ البَحْرُ وما يتعلق به	الروائح المسكية تفضح صاحبها ولو تحبباً .. ٧٣٠
٧٣٢ ليس كل ما يلمع ذهباً	طيب النكهة يدخل في الموضوع .. ٧٣١
	من يدق الباب.. يسمع الجواب .. ٧٣١

المجلس السادس عشر

كَفَاطِمَةٍ عَنِ دَرِّهَا قَبْلَ تَرْضِيعُ	فَمَا جَلَسَتْ حَتَّى أَنْتَنَتْ تُوسِعُ الخُطَا
٧٣٥ من نوادر الشعبي	السرعة في التوديع .. ٧٣٤
٧٣٥ زيارة المريض	الطباع البشرية غريبة .. ٧٣٤
٧٣٥ الكُلْفَةُ تُذهب الألفة	كثرة إلف الإنسان للشيء.. تذهب هيئته من قلبه .. ٧٣٤
٧٣٦ زرغباً.. تزدد حباً	من نوادر الأعمش .. ٧٣٤

٧٣٩	أبو عبيدة النحوي والفضل بن الربيع	٧٣٧	المحبون أقسام:
٧٣٩	أهناً البر عاجله	٧٣٧	قسم ساقط
٧٤٠	عبد الله بن علي العولقي وأحد الشيوخ	٧٣٧	قسم متوسط
٧٤٠	لا تتدلل على أحبابك فتخسر يا ملك الزمان	٧٣٧	قسم صادق
٧٤٠	لا تشبث بالملك	٧٣٧	المحب دائماً جائع لا يشبع من محبوبه ولا من وصله
		٧٣٨	لا توص حريصاً في تخفيف الزيارة

فَمَا عَاشِقٌ مَّنْ لَا يَذِلُّ وَيَخْضَعُ

٧٤٨	تواضعه ﷺ
٧٤٨	تواضع سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام
٧٤٩	ينبغي التفريق بين العز والكبر والتواضع والملق
٧٤٩	الكلام على المتكبر
٧٥٠	أسباب بغض المستبدين لأهل العلم
٧٥٠	الكلام في الكبر والعز
٧٥١	ما من يوم إلا والذي يليه شر منه
٧٥١	لا شيء ينفع سوى الانكسار بين يدي الله

عَلَى أَحَدٍ إِلَّا بِلُؤْمٍ مُرَقَّعٍ

٧٥٤	لا فخر بالتقدم على رعاك الناس
٧٥٩	دعوى براءة الحبيب من العيب.. لا تليق إلا
٧٥٩	الكلام حول عصمة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين
٧٥٩	لا تجد إنساناً كاملاً ولكن العبرة بالأغلب

إِلَى نَفْسِهِ فِيهَا شَفِيعٌ مُشَفَّعٌ

٧٦٤	جعفر بن يحيى يزوج بنت الرشيد من غير علمه.. فيجيزه
٧٦٤	إذلال النفس في حاجات الناس هو العز في الدنيا والآخرة
٧٦٤	اللهم.. لا تذلل عزيزاً
٧٦٤	الرجل يزور كتاباً على لسان ابن الفرات
٧٦٥	وكذلك يمضي يحيى البرمكي
٧٦٥	نماذج من كتب الشفاعات
٧٦٦	الشعراء والشفاعات

أُصُولُ الْبَرَاعَاتِ الَّتِي تَتَفَرَّعُ

٧٧١	فالسيف في محله أفضل من القلم وكذلك العكس
٧٧٢	الإنسان مخبوء خلف لسانه
٧٧٢	المديح بالبلاغة

وَهَمَّتْهُ فَوْقَ السَّمَائِينَ تُوضَعُ

٧٧٥	أقسام الصوفية عند انبعاث الأنوار
-----	--

تَذَلَّلَ لِمَنْ تَهْوَى عَلَى الْقُرْبِ وَالنَّوَى

٧٤١	التذلل للحبيب هو العز والسعادة
٧٤٢	قد ينصعق من يرى الحبيب
٧٤٣	المبرد والجارية المغنية النحوية
٧٤٣	ما السبب في اندهاش المحب عند رؤية المحبوب؟
	سلطان المحب على قلب المحبوب أقوى من سلطنة السلطان على
٧٤٤	الرعية
٧٤٦	حال النبي ﷺ وتواضعه مع أهله
٧٤٧	الحكمة في ميل الرجل للمرأة

وَلَا تَوْبَ مَجْدٍ غَيْرَ تَوْبِ ابْنِ أَحْمَدٍ

٧٥٢	شرح المطلع والعيوب التي فيه
٧٥٢	المخالص الفاتحة للمتني
٧٥٣	الشعراء والمخالص
٧٥٤	بعض الشعراء يدعي النقص في الناس ليرفع ممدوحه
	أبلغ ما يكون المديح أن ترفع شأن عدو ممدوحك ثم تفضله عليه؛ لأنه

إِذَا عَرَضَتْ حَاجٌ إِلَيْهِ فَنَفْسُهُ

٧٦٠	الجود ليس وراثته عن الجدود.. ولكنه حساسية في الجلود
٧٦١	الشفاعة في الحب
٧٦١	الشفاعة عند الناس من الجود
٧٦٣	إذا تعذرت الأمور من أعاليها.. أتيناها من أسافلها
٧٦٣	ما يصلح الرجل بالنهار.. تفسده المرأة بالليل
٧٦٣	كتاب عروة بن الزبير في الشفاعة إلى الوليد بن عبد الملك
٧٦٣	المنصور يطلب من محمد بن جعفر أن يخفف من كتب شفاعاته

فَصِيحٌ مَتَى يَنْطِقُ تَجِدُ كُلَّ لَفْظَةٍ

٧٦٧	مبحث بلاغي حول الفصاحة
٧٦٧	الافتخار بالقلم وحسن البيان
٧٦٨	الشعراء وتقديم القلم على السيف
٧٧٠	ومن الشعراء من يفضل السيف على القلم

أَلَا أَيُّهَا الْقَيْلُ الْمُقِيمُ بِمَنْبِجٍ

٧٧٤	شرح المطلع
٧٧٤	المديح بكبر النفس وعلو الهمة

وَأَنَّ ظُنُونِي فِي مَعَالِيكَ ظَلُّعٌ

- ٧٨٠ أمثلة من سعة صدر معاوية وحلمه
- ٧٨١ لا يفيد الكرم والعفو إلا مع أهله
- ٧٨١ كل نكبات التاريخ أصلها اصطناع المعروف إلى غير أهله
- وَكُلُّ مَدِيحٍ فِي سِوَاكَ مُضَيِّعٌ
- ٧٩١ وصية الحطيئة عند وفاته
- ٧٩٢ ذم الكذب
- ٧٩٣ خاتمة المجالس
- ٧٩٣ مبحث هام حول الشعر والشعراء والكلام في نقد الشعر
- ٧٩٩ تنبيهات
- ٧٩٩ المعاني الظاهرة مشاع بين الناس
- ٧٩٩ المتنبّي بحق... يشبه عصا سيدنا موسى
- ٨٠١ اعتذار المؤلف إلى المتنبّي
- ٨٠٨ العمل كان في الكتاب على مبدأ الانتقال من زهرة إلى زهرة
- ٨٠٨ خواطر الانتهاء من الكتاب
- ٨٠٩ محتوى الكتاب

أَلَيْسَ عَجِيباً أَنْ وَضَفَكَ مُعْجِزٌ

- كل ما يقال وكل ما يكتب دون قدر الممدوح ٧٧٦
- وَأَنَّكَ فِي ثُوبٍ وَصَدْرِكَ فِيكَمَا
- ٧٧٨ شرح المطلع والانتقاد عليه
- ٧٧٩ تعظيم شأن الممدوح وأن ما في صدره أكبر من الدنيا
- ٧٨٠ سعة الصدر من آيات السؤدد
- أَلَا كُلُّ سَمِيحٍ غَيْرِكَ الْيَوْمَ بَاطِلٌ
- ٧٨٤ كل مديح في غير الممدوح.. ضياع
- ٧٨٤ مروان بن أبي حفصة وغضب المهدي عليه
- ٧٨٥ رضاه عنه وجلوسه بين يديه لسمع مديح نفسه
- ٧٨٥ الخلفاء تطلب من مروان بن أبي حفصة سماع مرثيته لمعن
- ٧٨٥ رثاء أبي دلامة لأبي العباس السفاح وغضب المنصور عليه
- ٧٨٦ الحر تكفيه الإشارة
- ٧٨٦ أمثلة على تأثير الشعر ونفوذه عند أصحاب النفوس الأبية
- ٧٨٨ قل للمليحة في الخمار الأسود
- ٧٨٩ المديح لا يليق إلا بك
- ٧٨٩ من كبائر الذنوب وضع المديح في غير محله
- ٧٩٠ الشعر عند العرب غالي القيمة لا يوضع إلا عند من يستحقه

العُودُ الهِنْدِيُّ

عَنْ أَمَالِي فِي دِيْوَانِ الْكِنْدِيِّ

عشتُ معَ السَّقَافِ فِي «عُودِ الْهِنْدِيِّ» فَنَسِيتُ كُلَّ
كِتَابِ أَدْبِيٍّ أَوْ دِيْوَانِ شِعْرِيٍّ قَرَأْتُهُ، مَعَ الْعِلْمِ أَنَّنِي مِنَ
الصَّبَا وَأَنَا أَبَدِي وَأَعِيدُ فِي الْمَوْسُوعَاتِ الْأَدْبِيَّةِ، حَتَّى
صِرْتُ بِمَعَالِمِهَا أَهْدَى مِنْ سِرْبِ الْقَطَا إِلَى عَشِيهِ، فَلَمَّا
طَالَعْتُ «الْعُودَ الْهِنْدِيَّ».. صَحْتُ :

مَحَا حُبُّهَا حُبَّ الْأَلَى كُنَّ قَبْلَهَا

وَحَلَّتْ مَحَلًّا لَمْ يَكُنْ حُلٌّ مِنْ قَبْلُ

إِنَّنِي أُرَشِّحُ كِتَابَ «الْعُودِ الْهِنْدِيِّ» لِلْسَّقَافِ مِنْهَجًا
دِرَاسِيًّا فِي الْأَدَبِ، وَمُورِدًا عَذْبًا فِي التَّوَادِي وَالْجَامِعَاتِ
وَالْمَدَارِسِ، وَنَهْرًا صَافِيًّا لِرَوَادِ الْبَيَانِ وَرَمُوزِ الْفِصَاحَةِ
وَصَنَاعِ الْحَرْفِ الْجَمِيلِ، ﴿عَيْنَا يَتَرَبُّ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا
تَفْجِيرًا﴾ .

وَسَوْفَ أَجْعَلُ كِتَابَ «الْعُودِ الْهِنْدِيِّ» بِمَشِيئَةِ اللَّهِ مَادَتِي
فِي دُرُوسِ الْأَدَبِ وَالشَّعْرِ؛ لِأَنَّي وَجَدْتُ فِيهِ ضَالَّتِي بَعْدَ
ثَلَاثِينَ سَنَةً مِنَ التَّرْحَالِ فِي شِعَابِ الْأَدَبِ وَأُودِيَةِ الشَّعْرِ،
﴿فَإِذَا وَجِجَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُّوا مِنْهَا﴾ .

ISBN: 978 - 9953 - 498 - 48 - 5



9 789953 498485